الموسوعة الشاملة

في تاريخ الحروب الصليبية

المجلد الثاني



تأليف وتحقيق وترجمة

د. سهيل زكار

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الزوايات الاوروبية الاغريقية واللاتينية «الحملة الاولى»

١ - الالكسياد - للاميرة اناكومينا
٢ - يوميات صاحب اعمال الفرنجة - لمؤلف مجهول
٣ - تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس - لريمون دي جيل
٤ - تاريخ الحملة الى القدس - لفولتشراوف تشارترز

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الجزء السادس

الروايات الاوربية الاغريقية واللاتينة (الحملة الاولى

١ ـ الالكسياد ـ للاميرة اناكومينا
٢ ـ يوميات صاحب اعمال الفرنجة ـ لمؤلف مجهول
٣ ـ تاريخ الفـرنجة الذين اسـتولوا على القـدس ـ لريمون دي جيل
٤ ـ تـاريخ الحملة الى القـدس ـ لفـولتشر اوف تشارترز

دمشق ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

من حسن حظ المهتمين بتاريخ الحروب الصليبية ان لديهم اربعة نصوص وثائقية حول بداية هذه الحروب وماعرف باسم الحملة الاولى ، وثلاثة من هذه النصوص كتب باللاتينية من قبل افراد شاركوا بالحملة وكانوا ضمن العاملين بها ، لكن كل واحد منهم ارتبط بواحد من قادة الفرنجة وبذلك عبر عن موقفه ، فضلا عن ان كتابات كل واحد من هؤلاء تأثرت بثقافته واختصاصه وخلفياته ، وهي على العموم ليس كتابات تاريخية رفيعة المستوى لكنها مع ذلك هامة لانها وثائقية .

واما النص الرابع فقد كتب بالاغريقية من قبل الاميرة (حنة)انا كومينا ، ابنة الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين ، وكان على عرش القسطنطينية اثناء الحملة وشغل في احداثها دوراً كبيراً ، وولدت انا لابيها في كانون اول سنة ١٠٨٣ م في « الغرفة الارجوانية » في القصر الامبراطوري ، ولقيت منه عناية كبيرة حتى غدت ثقافتها ممثلة لمعارف عصرها ، وللنزعات التي كانت تسود الفكر البيزنطي في القرن الحادي عشر وبدايات الثاني عشر .

كتبت الاميرة انا كتابا حمل اسم « الالكسياد » وهذا الاسم مقتبس من اسم والدها اوقفته للتأريخ لحياة ابيها

ولما شهده عهده من وقـائع جليلة ، ورسـمت انا في كتـابها صورة رائعة لحياة ابيها منذ ولادته وشرحتها شرحـا وافيا يفيد الباحث التاريخي من كافة الجـوانب ، لكن يلاحـظ ان الاميرة انا كومينا قد كتبت تـاريخها بلغـة صـعبة جـدا ، واسلوب جاء في غاية التعقيد ، وذلك نتيجة مباشرة للثقـافة الكلاسـيكية التـي تلقتهـا في القصر الامبـراطوري في القسطنطينية ، وهي لاشك ثقافة كان فيها شـعر وتـاريخ وفلسفة اغريقية ، ولطبيعة اسلوب الاميرة انا كومينا وجدت صعوبات جمة في عملية النقـل الى العـربية ، وفي الحقيقـة واجهت الصـعوبات لدى تـرجمة كل نص مـن نصـوص موسوعتنا ، فلكل كاتب بالاصل اسلوبه وعقليتـه وطـرائق عرضه لاخباره ، ولهذا من المحال الاتيان باسلوب واحـد ، او بالحري فرض اسلوب محدد لنصوصنا كلها ، ويسوغ هذا طبيعة العمل وعنوانه الموسوعي .

ويعد كتاب الالكسياد مصدرا متفـردا بـالنسبة للتـاريخ البيزنطي ، وخاصة بما يخص الفترة التي يغطيها ، زد على هذا كما سلف بي القول انه مصدر اساسي لتاريخ الحـروب الصليبية يرقى الى الدرجة الوثائقية ، فمـن هـذا الكتـاب نستقي معلومات عن محاولة بيزنطة اعادة امجـادها ، وعن اجتماع المسيحية الشرقية والغربية على تنفيذ هدف واحـد ، وهو الحملة الصليبية والقضاء على الاسلام والمسلمين بـكل وسيلة ممـكنة ، ويلاحـظ القـارىء ان الاميرة انا كومينا استولت عليها عواطفها وميولها ولهـذا بـالغت في وصـفها لبعض الاحداث وتعمدت طمس بعض الاخطاء ، وهي كسيدة عالية الثقافة شديدة الملاحظة بارعة في الوصف ، عميقة الاحاسيس ، وهذه المزايا مع المعلومـات التـي اسـتطاعت

الوقوف عليها بحكم مركزها الرفيع والتي ضمتها كتابها ، قد جعلت هذا الكتاب فريداً من نوعه ، متميزا في بابه ، ونموذجا رفيعا للكتابات التاريخية البيزنطية .

وانا لم اترجم كتاب الالكسياد بمجمله بل ترجمت منه فقط ماتعلق باحداث الحروب الصليبية ، وسيجد القارىء متعة وفائدة عظيمة في مقارنة مواد الاميرة انا كومينا عن وقائع الحملة الاولى بمواد المصادر اللاتينية الثلاثة التي اشرت اليها اعلاه ، واول هذه المصادر واهمها مجهول المؤلف ، اختلف المؤرخون حول تحديد شخصيته ، وكان برفقه الامير النورمندي بوهيموند ، وقد كتب يوميات « عن اعمال الفرنجة » ويرجح انه كان انسانا عاديا ، مشى في ركاب الامير بوهيموند واعجب به لهذا نراه يطريه في كل موضع ومناسبة ، ويهتم بأخباره اكثر من اخبار غيره من قادة الفرنجة ،وقد روى أخباره بكل بساطة ودونما تصنع وذلك تناسب مع ثقافته ووضعه كجندي عادي .

ونعرف ان بوهيموند استحوذ على انطاكية بعد الاستيلاء عليها وجعل منها مقرا لامارة خاصة به ، وانه بسبب ذلك خاض صراعات مع عدد من امراء الحملة الاخرين خاصة مع ريموند صنجيل .

ولهذا عندما زحفت الحملة نحو القدس بعدما مغادرتها لمعرة النعمان ، ذهب صاحب اليوميات مع الامير تانكرد الى القدس ودون اخباره حتى سنة ١٠٩٩ ، ولاندري سبب توقفه مع هذا التاريخ ولامصيره الشخصي ، وانتشر كتابه في القدس سنة ١١٠٠ م ، وقد حمله بوهيموند معه الى اوربا

وسعى الى نشره والترويج له ، ربما لاعتقـاده انه يتضـمن الاطراء له .

ولئن اوقف صاحب اليوميات جل مـوادة على بـوهيموند وتانكرد ، فانه كان برفقه ريموند صنجيل من كتب اخباره ، وهوَ الكاهن الخاص به واسمه ريمون دي جيل (اوريمـوند اوف اغويلرز) وماكتبه رجل الدين هـذا يختلف بـالاسلوب والرؤى والاهتمامات عما كتبه صاحب اليوميات ، وهو لهذا يكمل كل منهما الاخر ، ولاشك ان القـارىء الكريم سـيقدر كتاب ريمون كثيرا بعد قراءته لما جاء في الكتاب الرابـع مـن مـوسوعتنا حـول الاوضــاع الدينية الاوربية اثناء الحملة الاولى وبعدها .

وكان ريمون دي جيل قد بدأ مشروع كتابه بالتعاون مـع فـارس مغمور اسمه بـونز بـالازون و كان مـن فـرسان صنجيل ، و قد لاقى في حتفه أثناء حصار عرقـه لذلك تـولى ريمـون اكمـال المشروع لوحـده ، ولم يكن ريمـون عالي الثقافة ، لكنه كان رجل دين متعصب جداً يؤمن بالغيبيات ، وهو بالوقت نفسه بارع في اداء الطقوس الكنسية ، ومتشرب بعقيدة النصر النهائي للنصرانية ، ولايعرف التسامح ولهـذا سوغ ابشع الاعمال التي اقتـرفها الفـرنجة مثـل الابـادة الجماعية للمسلمين واكل لحوم الموتى منهم .

ولم أثقل متن كتاب دي جيل بالحواشي تجنبـا للتـكرار ، وحافظت قدر الامكان على اسـلوبه على غرابتـه لابـل على ركاكته ، فهمي منحصر هنا بالمعلومات وليس بالسمو الادبي .

ومر بنا من قبل انه بالاضافة الى بوهيموند وصنجيل كان

غودفري واخوه بلدوين بين ابرز قادة الحملة الاولى ، ولقد رأينا بلدوين يمضي مع قوة خاصة به شرقا قبل حصار انطاكية ، إلى الرها حيث اسس دويلة صليبية فيها ، وبعدما احتل الفرنجة القدس اختاروا غودفري ليتولى الحكم فيها ، واثر وفاة غودفري جاء اخوه بلدوين من الرها وتسلم الحكم في القدس ، وقد عده المؤرخون اول ملوك المملكة اللاتينية في القدس ، لأنه ارسى قواعد هذه المملكة ، بل لأن لقب غودفري كان « حامي القبر المقدس».

ولم يكن بلدوين اقل حظا من بوهيموند وصنجيل حيث اهتم به فولتشر اوف تشارترز ، وهو فرنسي ولد في تشارترز سنة ١٠٥٨ او ١٠٥٩ م ، وشارك في الحملة الاولى وادرك الاهمية الخاصة لهذه الحملة فاهتم بامر تدوين اخبارها مما شاهده اوسمع به ، وحين توجه بلدوين الى الرها عام ١٠٩٨ م رافق اليها وبقي معه عامين اي الى ان جاء القدس وتسلم عرشها ، وكان فولتشر كاهن بلدوين الخاث ، ولهذا رافقه في حروبه واسفاره ، ولعله عمل ايضا كمستشار له.

وجاء تاريخ فولتشر زاخرا بالمعلومات ، لأن وضع صاحبه مكنه من الاطلاع عن كثب على دخائل الامور وكثير من التفاصيل مما لم يره غيره ولم يسجله ، ووقع هذا التاريخ في ثلاثة اقسام ، او كتب ، بدأ اولها بأخبار البابا اوربان الثاني ومجمع كلير مونت وانتهى بموت غودفري في القدس ، وغطى الثاني اخبار حكم بلدوين الاول حتى وفاته في العريش ، اما الثالث فتضمن اخبار بلدوين الثاني حتى

سنة ١١٢٧ م حيث من المرجح وفاة المؤلف في هذه السنة ، او عجزه عن متابعة الكتابة.

مما تقدم تتضح اهمية النصوص الاربعة التي نقدم لها الآن ، هذه النصوص التي لم يسبق لكتاب عربي جمعها ، لكن لابد من التذكير انها لاتحتوي على جميع المواد الاخبارية عن الحملة الاولى في التراث الاوربي ، ففي تاريخ وليم الصوري ـ الذي كنت قد ترجمته ونشرته في بيروت ـ المزيد من التفاصيل المفيدة ، فضلا عن انه لدى العرب والسريان الكثير مما يقال ويروي ويصور الأحداث ، وهذا ما سنلحظه في ثنايا كتابنا بمجمله.

وايضا لم اثقل فولتشر بالحواشي تجنبا التكرار ، واملي كبير في ان اكون قد وفقت في عملي والله المعين والمرشد الى السداد ، له الحمد والشكر والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله واصحابه اجمعين.

دمشق ١٠ شوال ١٤١٣

سهيل زكار

٢ نيسان ١٩٩٣

من كتاب الألكسياد للأميرة آنا كومنينا

الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٤ - ١٠٩٩م)

وسمع (الأمبراطور الكسيوس) قبل أن يتمكن من نيل قسط كاف من الراحة ، اقاويل تتحدث عن قرب وصول عدد كبير من جيوش الفرنجة لاعد لها ولاحصر ، وقد خشي من وصولهم ، على اساس معرفته بطباعهم واخلاقهم التي لايمكن ضبطها ، وبولعهم في الفوضى وحبهم لعدم الاستقرار ، هذا اذا ماأغفلنا الحديث عن بقية طباع الفرنجة وصفاتهم السيئة ، وماكان ينجم عن ذلك من مشاكل ، فجشعهم - مثلا - للمال ، غالبا ماقادهم الى نقض اتفاقاتهم دون أي مسوغ مهما كانت درجته ، وكان الامبراطور قد سمع هذا عنهم بشكل متواتر ، وقد تأكد جميعه لديه فيما بعد ، ومع هذا حافظ الامبراطور على رباطة جاشه ، واقدم على اتخاذ كافة الاجراءات ، واستعد لخوض الحرب اذا مادعت الضرورة لذلك ، وكان ماحدث بالفعل ، اكبر بكثير مما اوحت به مضامين الاشاعات والأقاويل ، انه لأمر رهيب حقا ، فالغرب كله مع جميع شعوب البرابرة التي عاشت فيما بين شواطىء البحر الادرياتيكي ومضيق جبل طارق انطلقت مهاجرة في كتلة واحدة نحو أسيا ، وقد زحفت عبر أوربا ، بلدا بلدا ، تحمل معها جميع ماكانت تمتلكه وتقتنيه ، ويمكن التعرف الى سبب هذا الجيشان العام في أخبار الأحداث التالية :

فقد قام بين الفرنجة رجل يدعى بطرس ، ويشتهر باسم كوكو بطرس (١) ، وكان قد سافر للتعبد في جوار القبر المقدس ، وبعدما عاني كثيرا من سوء المعاملة على ايدي التركمان والمشارقة الذين كانوا يجوبون البلاد ناهبين لها ولجميع اراضي آسية ، عاد الى موطنه بعد صعوبات جمة ، ولم يسلم بالهزيمة ، لذلك استهدف القيام برحلة ثانية على الطريق نفسه ، لكنه لاحظ انه من الحماقة

بمكان ان يسافر وحيدا – ذلك ان نوازل كبيرة كان يمكن ان تحل به – لجأ الى ابداع خطة بارعة.

فقد قرر أن يبشر في جميع البلدان اللاتينية ، ويعلن بأن هاتفا سماويا جاءه يأمره ان يعلن الى جميع امراء فرنسا ، أن عليهم مغادرة أوطانهم ، والسفر للتعبد في كنيسة القيامة ، وان يبذلوا نفوسهم وجميع طاقاتهم في سبيل تحرير القدس من ابناء هاجر ، وانه لمن المدهش أن نرى درجات النجاح التي لاقاها ، حتى لكأن قلوب الجميع قد دخلت اليها القناعة عن طريق وحي رباني ، وعلى هذا تجمع الفرنجة جميعا من جميع الأطراف ، واحدا تلو الآخر ، ومعهم أسلحتهم وخيولهم ، وبقية معدات الحرب ، وتقاطرت الحشود على الطرقات ، واندفعت بكل حماس واصرار ، وانضم اليها عدد كبير من اهالي المدن ، حتى فاقت أعدادهم رمال شواطىء البحار ، ونجوم السماء ، ورفعوا جميعا سعف النخيل وحملوا الصلبان على عواتقهم .

وكان هناك ايضا عدد كبير من النسوة والأطفال تركوا هم ايضا ديارهم ، وتدفق الجميع من كافة الجهات تدفق السيول والروافد على النهر العظيم الذي اتجه نحونا بكامل زخمه وقواه عبر بلاد داشيا ، وكان قد حدث قبيل وصول هذه الحشود ان تعرضت الأراضي التي مروا بها الى اجتياح الجراد لها ، وعف هذا الجراد عن القمح وأتلف الكروم ، وقد أول المفسرون في ايامنا هذه الظاهرة، على أنها تشير الى أن جيوش الفرنجة ستتمنع عن التدخل في شؤون المسيحيين ، لكنها ستحل سفك الدماء ، وإنزال الأذى بكل شدة بأبناء اسماعيل البربريين ، الذين هم عبيد لمعاقرة الخمور ، ولعبادة الشيطان ، وهم منغمسون في جميع أنواع الرذائل الجسدية ، وهم وان ختنوا في اجسادهم ، لم يختنوا ابدا لا في طباعهم ولا في أخلاقهم ، واذا ماأردت معرفة الحقيقة فاعلم ان أبناء اسماعيل هم عبيد – لابل عبيد ثلاث مرات – لجميع شرور افروديت واثامها ، حيث أنهم يعبدون معها عشتار

وعشتروت ، ويقدسون في بلادهم تمثال القمر ، ووثن نجم شـوبار الذهبي (٢) ، الذي يحظى بمكانة سامية جدا .

ولما كان القمح يتمتع بمكانة عالية ، ويحظى بأهمية خاصة ، ونظرا لكونه في الوقت نفسه أكثر الأطعمة تغذية وفوائد ، فقد اعتبر رمزا يدل على المسيحية ، وفي ضوء هذا ، فسر العلماء الأتقياء الاشارة الى الخمر والقمح .

هذا مايتعلق بهذه النبوءات ، أما مايتعلق بقضية البرابرة ، فقد تابعوا زحفهم حسبما بينت ، لكن كان هناك شيء غريب في هذا الموضوع ، يمكن للعقلاء من الناس ادراكه ، وهو ان الحشود لم تصل جميعا في الموعد نفسه ، كما انها لم تتخذ جميعا الطريق نفسه ، اذ كيف يمكن لها أن تعبر البحر الأدرياتيكي دفعة واحدة ، ذلك ان كل فئة منها وجماعة انطلقت من بلد دون الآخر في أعداد هائلة ؟! ولهذا قامت هذه الحشود برحلتها على شكل مجموعات متفرقة ، مجموعة في البداية تليها مجموعة ثانية ، وهكذا بقية المجموعات ، حتى تمكن الجميع من الوصول ، ثم شرعوا في زحفهم عبر ابيروس (٣) .

وكما سلف بي القول ، فان كل واحد من الجيوش سبقه قطيع من الجراد ، الى حد ان كل من شاهد هذه الظاهرة في عدة اماكن ، صار يلاحظ ان قطعان الجراد ، ماهي في زحفها الا علامة على مسير الفرنجة على آثارها ، ولدى عبور الفرنجة لمضايق لومبارديا في مجموعات صغيرة ، استدعى الامبراطور عددا من قادة القوات البيزنطية ، وبعث بهم على رأس عساكرهم الى المنطقة الكائنة حول دير اخيوم وافلونا ، وزودهم بتعليمات تقضي باستقبال الرحالة الفرنجة بكل لطف ، وأن يجلبوا اليهم ـ من جميع المناطق ـ كميات كبيرة من المؤن ، وذلك طوال سفرهم ، وأن يعمدوا الى مراقبتهم بشكل دقيق ومسايرتهم حيثما توجهوا ، حتى اذا ماراوهم يحاولون الافلات للنهب في المناطق المجاورة منعوهم من

تنفيذ أغراضهم عن طريق المناوشات الخفيفة ، وجرى ارفاق هؤلاء القادة بعدد من المترجمين الذين يفقهون اللغة اللاتينية ، وكان واجبهم الحيلولة دون حدوث مصادمات او مشاكل بين الفرنجة وسكان المناطق المحليين . هذا وبودي ان اقدم هنا رواية أكثر تفصيلا حول هذه المسألة :

وانتشرت أخبار أعمال بطرس التبشيرية ، وعمت كل مكان ، وكان غودفري (٤) على رأس الذين باعوا اراضيهم ، وأخذ الطريق نحو القدس ، وكان رجلا غنيا جدا ، وفخورا بأصالته وعراقة نسبه ، وبشجاعة وأمجاد أسرته ـ ذلك أن كل فرنجي تتملكه الرغبة الدائمة في التفوق على أتباعه ـ وكانت الفوضى التي ثارت ، وتبعت زحف الرجال والنساء لامثيل لها ولانظير في ذاكرة الأحياء من الناس . ويلاحظ هنا أن الفقراء والمساكين من الحشود كانوا صادقي النية ، دافعهم الرغبة في التعبد عند ضريح ربنا ، ولزيارة الأماكن المقدسة ، لكن ذوي الصفات الشريرة ـ خاصة بوهيموند وأمثاله ـ كانت لهم غايات أخرى ومقاصد مغايرة ، ذلك أنهم أملوا أنهم سيتمكنون ، اثناء رحلتهم ، من الاستيلاء على العاصمة نفسها ، وكانوا يرون ان الاستيلاء عليها سيكون نتيجة طبيعية لحملتهم ، وكان بوهيموند قد أفسد نوايا العديد من الأمراء ، ذلك انه كان مايزال يحمل ضغائنه وأحقاده القديمة ضد الامبراطور .

وكان بطرس الناسك اول من عبر مضايق لومبارديا ، وذلك بعدما أتم التبشير بحملته ، وجاء عبوره مع ثمانين الفا من الرجالة ، ومائة الف من الفرسان ، ووصل الى العاصمة عبر هنغاريا (٥) ، ومعروف ان الفرنجة هم في جميع الاحوال قوم شديدو الاندفاع وعاطفيون ، ولديهم قدرة كبيرة على التحمل ، لكن سرعان مايمكن افسادهم واثارتهم واذا ماأثيروا يغدون وقتها ممن لايمكن مقاومته .

وعرف الامبراطور ماعاناه بطرس من التركمان من

قبل ، ونصحه ان ينتظر وصول بقية الامراء ، لكنه لم يتقبل النصح ، واغتر بأعداد اتباعه ، وعبر بحر مرمرة ، وأقام معسكره على مقربة من مكان صغير اسمه هيلينوبولس ، وقد انضم اليه فيما بعد بعض النورماندييين ، وكان تعدادهم عشرة الاف ، لكنهم مالبثوا أن تميزوا عن بقية الجيش ، وانفصلوا عنه ، وشرعوا بنهب المنطقة المحيطة بنيقية ، وأنزلوا بالأهالي جميعا صنوفا من الفظائع مرعبة ، فقد قاموا بتقطيع بعض الأطفال الى قطع ، ووضعوا بعضهم الآخر على قضبان خشبية ، وقاموا بشيهم فوق النار ، وجرى اخضاع الشيوخ لجميع انواع العذاب .

ولدى الوقوف على اخبار ماكان يحدث ، فتحوا في الحال ابواب المدينة ، وحملوا عليهم ، وثار اثر ذلك قتال ملحمي ، قاتل فيه النورمان بحماس واندفاع شديدين ، مما حمل اهالي نيقية على التراجع الى داخل حصنهم ، وهكذا عاد النورمان الى هيلينوبولس يحملون جميع الغنائم ، وهناك ثار جدال بينهم وبين البقية ـ الذين لم يشاركوا في الاغارة ـ وتطور هذا الجدال المعتاد في مثل هذه الأحوال ، والذي سببه حسد البقية وغيرتهم من الذين قاموا بالاغارة ، تطور الى شجار صاخب ، وقام اثر ذلك الأبالسة النورمان بالانفصال ثانية للاغارة على اكزرغوردوس التي استولوا عليها ، وكانت ردة فعل السلطان تجاه ماحدث ان بعث بواحد من نوابه على رأس قوة كبيرة ليتولى حسم دائهم ووضع حد لأذاهم ، ووصل هذا القائد الى اكزرغوردوس واستولى عليها ، وكان مصير النورمان ان جعل بعضهم طعمه للسيف ، وأخذ بعضهم الآخر اسرى ، ثم قام بوضع خطة مناسبة لتوجيه ضربة قاصمة لظهور البقية الذين كانوا مايزالون برفقة بطرس ، ونصب عددا من الكمائن في أماكن مناسبة ، على أمل أن العدو سيمر بها وهو في طريقه الى نيقية ، وانه سيقع في الشراك المنصوبة له دونما ادراك ، وحينذاك سيتم تدميره وافناء رجاله ، وحيث انه كان على بينة من حب الفرنجة للمال ، اختار اثنين من رجاله من ذوي المهارة والبراعة ، وبعث بهما الى معسكر

بطرس ، وأمرهما أن يعلنا هناك بأن النورمان قد استولوا على نيقية ، وأنهم يقومون بتوزيع غنائم المدينة فيما بينهم ، وكان لهذه الحكاية فعل السحر على رجال بطرس ، الذين ما أن سمعوا عبارتي « توزيع » و « مال » حتى هاجوا وماجوا وتسارعوا لتوهم مندفعين دون توقف باتجاه طريق نيقية ، وهم في حالة فوضى كاملة ، ودونما أدنى مراعاة لمسائل النظام العسكري ، وشروط التعبئة الصحيحة التي ينبغي أن يتسم بها الرجال الزاحفين إلى الحرب ، لكن كما قلت من قبل : إن الجنس اللاتيني جشع للثروة في جميع الأحوال ، فهم حين يخططون لغزو بلد ما ، لا يمكن ضبطهم لا بالعقل ولا بالقوة ، تراهم ينطلقون في فوضى شاملة ، لا يلتفت صاحب على صاحبه ولا يلوي رفيق على رفيقه ، ووقعوا على مقربة من موقع اسمه دراكون في كمين التركمان ، فذبحوا بكل تعاسة وشقاء ، وكان عدد الحشود الفرنجيةوالنورماندية التي أفنتها سيوف أبناء اسماعيل كبيرا جدا ، إلى حد أنهم لما جمعوا بقايا الذين قتلوا ، في مكان واحد ، شكلوا ما يماثل مرتفعا كبيرا جدا ، أنا في الحقيقة لا يمكنني أن أقول إنه مثل قطعة عظيمة من جبل أو أنه تل أو قمة ، لكن أقول إنه جبل بارتفاع كبير وعميق وعريض وعظيم جدا ، إلى حد أن بعض الرجال — من الجنس نفسه — عندما تمكنوا فيما بعد من قتل البرابرة ، وجدوا أنفسهم وهم يقومون ببناء أسوار دفاعية [حول معسكرهم] تشبه أسوار المدينة ، يقدمون على استخدام عظام الموتى باعتبارها موادا لسد الشقوق ، وهكذا صار من الممكن القول أن المدينة غدت قبرا لهم ، وما زالت هذه المدينة قائمة حتى يومنا هذا وهي محاطة بأسوار مشيدة من مزيج من الحجارة والعظام .

ولدى انتهاء عملية القتل تمكن بطرس وحفنة من الرجال فقط من الفرار والعودة إلى هيلينوبولس ، ورغب التركمان في التمكن من أسره ، فأقاموا لهذه الغاية الكمائن ، ونصبوا الشراك ، لكن الامبراطور الذي سمع أخبار ما حدث ، وخاصة أخبار المذبحة الرهيبة ، رأى أن الأمر سيكون عظيم الوقع إذا ما وقع بطرس

بالاسر ، لذلك بادر إلى ارسال قسطنطين يورفوربينوس ، كاتا كالون (الذي غالبا ما ورد ذكره في هذا التاريخ) مع جيش قوي ، ركب ظهر عدد من السفن الحربية ، وذلك عبر المضائق ، لتقديم المساعدة له ، والعمل على انقاذه ، ولدى وصوله فر التركمان ، وبادر كاتا كالون دونما تأخير الى التقاط بطرس وأصحابه (فلقد كان هناك قلة فقط) وجلبهم سالمين إلى ألكسيوس ، الذي ذكر بطرس بحماقاته منذ البداية ، وأخبره أن النوازل التي حلت به ، ما كانت إلا بسبب عدم اصغائه لنصائحه ، وأعلن بطرس بعجرفة لاتينية ورعونة معتادة ، عدم مسؤوليته عما حدث ، ولام رجاله على ذلك ، لأنهم ـ كما قال ـ كانوا غير مطواعين ، وتبعوا رغبات نفوسهم ، وقد دعاهم باسم عصابات ولصوص أوغاد ، وعلى هذا كانوا غير لائقين بالانتساب إلى المخلص ، وغير جديرين بعبادته عند القبر المقدس .

وكان بعض الفرنجة على شاكلة بوهيموند وعصاباته قد وجدوا في دعوة بطرس فرصة مناسبة ، فأحدثوا فوضى عظيمة عن طريق خداع الأناس السذج ، ذلك أن الشهوة إلى تملك الأراضي البيزنطية ، والرغبة في الاستيلاء عليها قد استولت على نفوسهم منذ زمن بعيد ، ولهذا أقدم هؤلاء القوم على بيع أراضيهم ، بدعوى أنهم مغادرون البلاد لحرب التركمان ، ولتحرير القبر المقدس .

وقام احدهم واسمه هيوج (٦) ، وكان اخا لملك فرنسا ، كما انه كان شديد الفخار بمكانته ونبالة اصله ، وثروته وقوته ، قام وهو عازم على مغادرة بلاده ـ بالظاهر بدعوى الحج الى القبر المقدس ـ بارسال رسالة غامضة إلى الامبراطور ، بأنه من المتوجب أن يقدم له ـ أي لهيوج ـ استقبالا رائعا ، قائلا : « اعلم ايها الامبراطور ، بأني أنا ملك الملوك ، وأعظم كل من هو تحت قبة السماء ، وإنها ارادتي وأوامري ، بأن تقوم بلقائي لدى وصولي ، وباستقبالي بكل مظاهر الأبهة والحفاوة التي تليق بمقامي النبيل » .

وحدث أثناء وصول هذه الرسالة إلى الكسيوس أن كان جون بن اسحق المشرف العام للامبراطورية ، هو دوق دراخيوم ، ونيقولا مافروكان كاتاكالون قائدا للاسطول ، وكان قد ألقى مراسي سفنه مرة حول ميناء كان هناك ، وقام من هذه القاعدة بعدة رحلات استطلاعية ، لمنع سفن القرصان من الابحار مفلتة من المراقبة ، وبعث الامبراطور إلى هذين الرجلين بتعليمات مستعجلة ، كان فيها على الدوق أن يرقب وصول هيوج برا وبحرا ، وأن يخبر الامبراطور الكسيوس ساعة وصوله ، وكان عليه أن يستقبله بحفاوة كبيرة ، وكان على أميرال الاسطول أن يديم اليقظة بلا انقطاع ، ودون أن تكون هناك أية راحة أو اهمال مهما كان نوعه .

ووصل هيوج إلى لومبارديا سالما ، وبعث من هناك برسله إلى دوق دراخيوم ، وكان تعدادهم أربعة وعشرين رجلا ، وكانوا مسلحين بالدروع المحلاة بالذهب ، وكان بصحبتهم كونت وليم النجار(٧) والياس (الذي تخلى عن الامبراطور في سالونيك) ، وتوجه الرسل بالخطاب إلى الكونت على النحو التالي : « ليكن بمعلومك أيها الكونت بأن سيدنا هيوج سيكون هنا بعد وقت قصير ، جالبا معه من روما راية القديس بطرس الذهبية (٨) ، واعرف أيضا أنه هو القائد الأعلى لجيوش الفرنجة ، قم بإعداد استقبال لائق بمكانته ، واستعد أنت نفسك للقاء به » ، وبينما كان الرسل يسلمون هذه الرسالة ، قدم هيوج من روما إلى لومبارديا ــ كما سبق وقلت ــ وأبحر من باري باتجاه ايليريكيوم ، لكن واجهته أثناء عبوره عاصفة شديدة ، ففقد معظم سفنه بما في ذلك المجنفون والبحارة ، ونجت سفينته فقط حيث رميت على الشاطىء في مكان بين دراخيوم وبقعة اسمها بيلز ، وكانت آنئذ نصف محطمة ، وقد عثر عليه اثنان من حرس الشواطىء ممن كان ينتظر وصوله ، وقد أنقذاه بمعجزة وخاطباه بقولهما : « إن الدوق ينتظر وصولكم بفارغ الصبر ، وهو تواق إلى رؤيتكم » ، وحالما سمع هذا ، طلب لنفسه حصانا ، فترجل واحد من الخفيرين وقدم له حصانه بكل سرور ، وعندما رآه الدوق ، وعرف الطريقة التي أنقذ بها ، حياه ورحب به ، ثم سأله عن

رحلته ، وعما سمعه حول العاصفة التي أغرقت السفن ، وحاول التخفيف عنه وبعث الشجاعة في نفسه ، واحتفى به بمائدة فخمة ، وبعد الاحتفاء به ، ترك الدوق هيوج ليرتاح ، لكنه أبقاه تحت المراقبة ولم يمكنه من حريته الكاملة ، ثم بادر إلى اعلام جون بأخبار المغامر الفرنجي ، وانتظر تعليماته الجديدة ، وقام الامبراطور الكسيوس حال تسلمه الأخبار ببعث تومتز إلى إبيدامنوس (التي دعوناها في مناسبات عدة باسم دراخيوم) لمرافقة هيوج ، لكن ليس عبر طريق مباشر ، وإنما عبر الطريق المغاير المار بفيليبوبولس إلى العاصمة ، ذلك انه كان خائفا من حشود الفرنجة المسلحين القادمين بعده ، واستقبل هيوج في العاصمة استقبالا لائقا من قبل الامبراطور ، الذي استطاع بسرعة اقناعه عن طريق التوسع بالعطاء ، واظهار كل معاني الصداقة ، أن يصبح واحدا من أتباعه بوساطة حلف اليمين المعتاد لدى اللاتين .

وكانت هذه الوقائع مجرد مقدمة ، فبعد مرور خمسة عشر يوما فقط عبر بوهيموند شواطىء كابليون (٩) ، وجاء إثره مباشرة الكونت رتشارد صاحب برنسبيت(١٠) ، وطلب هو أيضا لدى وصوله إلى شواطىء لومبارديا ، الجواز إلى إيليركيوم ، وتم هناك استئجار سفينة قرصان ذات ثلاثة أشرعة وحمولة كبيرة ، بمبلغ ستة الاف قطعة ذهبية ، وكانت هذه السفينة تحمل مائتين من المجدفين ، وتجر وراءها ثلاثة قوارب شحن ، ولم يمض ريتشارد إلى افلونا كما فعلت بقية الجيوش اللاتينية ، لكنه بعدما توقف توقفا قصيرا ، غير اتجاهه قليلا ، وأبحر في ريح طيبة مباشرة إلى خيمارا [ذلك انه كان خائفا من الاسطول الروماني « البيزنطي »] إنما كان حاله كالفار من الدخان ليقع في النار ، فهو تجنب السفن التي كانت راسية في مختلف النقاط في مضائق لومبارديا ، لكنه اجتاز ممر القائد العام للاسطول الروماني كله ، وهو نيقولا مافرو كاتاكالون نفسه ، وكان هذا الأخير ، قد سمع منذ زمن عن سفينة القرصان هذه ، فأرسل عددا من سفن الاستطلاع السريعة ، والسفن ذوات صفين من المجاذيف ، وذوات الثلاثة صفوف ، وذلك من بين القوات

الرئيسية ، وتحرك من قاعدته في أسـون إلى كابليون حيث تمـركز هناك ، وأرسل القائد صاحب الترتيب الثـاني بغليونه(١١)لمواجهـة البحارة العاديين) ليقوم بإضاءة مشعل عندما يرى المجـدفين قـد اسدلوا حبل الجر من سفينة العدو ورموه في البحر ، ونفذت الأوامر دونما تأخير ، وما إن رأى نيقولا الاشارة حتى أقلع ببعض سفنه ، بينما جرت سفن أخرى بواسطة التجديف ـ وبـدو وكأنهـم كألف واحد ـ ضد رتشارد ، الذي كان الآن وسط البحر ، وقد لحقوا بـه قبل أن يقطع مسافة ثلاث عقد ، وكان ذلك كله حرصا على الوصـول إلى الشاطىء المقابل لأبيدامنوس ، وكان معه على ظهـر السـفينة ألف وخمسمائة من العساكر ، مضافا إليهم ثمانمائة حصـان عادت في ملكيتها إلى نبلائه ، وعندمـا رأى القبـطان نيقـولا ، أخبـر الفرنجة ، وخاطبهم بقوله « الاسطول السوري حولنا ، ونحن الآن معرضون لخطر القتل طعنا أو تقطيعا » ، وحالما سمع الكونت هـذا أمر عسكره بحمل السـلاح والاسـتعداد للقتـال ، و كان الوقــت منتصف الشـتاء ـ اليوم المقـدس المكرس لذكرى نيقـولا الحبـر الأعظم (١٢)وكان هناك سكون مميت ، والقمر بدر ، وقد أشرق مشعا أكثر مما يفعل عادة في فصل الربيع ، ونظرا لتوقف حركة الريح ، لم يعد بإمكان سفينة القرصان التقدم بـواسطة الأشرعة ، لذا وقفـت هادئة بلا حراك وسط البحر ، وعند هذه النقطة من تاريخي أرى أنه لا بد لي من وقفة لأقدم الشكر والعرفان لما قام به مـاريانوس مـن انجازات ، فقد سأل أبـاه الدوق قـائد الاسطول أن يعـطيه بعض القوارب الخفيفة ، ثم اتجه مباشرة نحو سـفينة رتشـارد ، وهناك ألقى بنفسه فوق مقدمة هـذه السـفينة ، وحـاول أن يصـعد إلى ظهرها ، وعندما رآه البحارة اندفعوا على الفور نحـوه ، ذلك أنهـم رأوه مسلحا وجاهزا للدخول في المعـركة ، لكن مـاريانوس ، الذي أحسن التكلم بلغتهم ، خاطب هؤلاء اللاتين وأخبرهم أنهم ينبغي ألا يخشوا أمرا ، وحضهم على عدم القتال ضد اخـوانهم المسـيحين ، ومع ذلك فقد أخذ واحد منهم قوسه وفوقه ورمـاه بنشـابة أصـابت خوذته(١٣) ، ونفذت خارقة أعلاها ، انما دون أن تمس شعرة مـن رأسه ـ أي عبرتها بسلام ـ ودونما تمهل اطلقت نشابة ثانية نحو

الكونت فأصابت ذراعه ، وخرقت ترسه ، ونفذت من خلال درعه ، وخدشت طرفه ، وصدف أن كان هناك راهب لاتيني واقفا في مؤخرة السفينة مع اثني عشر من المقاتلين ، وقد رأى ما حدث ، فأقدم على الرماية بقوسه عدة مرات باتجاه ماريانوس ، ورفض ماريانوس حتى هذه الساعة التسليم ، وقاتل بشجاعة ، قاتل بنفسه وشجع رجاله ليحذو حذوه ، ولهذا وجد رفاق هذا الراهب أنفسهم ، ثلاث مرات على التوالي ، يتراجعون بسبب الجراح والتعب ، أما الراهب نفسه فإنه على الرغم من أنه ضرب مرة تلو الأخرى ، وغطي بالدماء المتدفقة من جراحه ، فانه تابع القتال دونما مبالاة (١٤) ، وبعد قتال مرير استمر منذ المساء وحتى منتصف اليوم التالي ، تراجع اللاتين امام عزيمة ماريانوس ، وطلبوا منه الرحمة ، ومع هذا فإن الراهب اللاتيني المحارب لم يتوقف عن القتال على الرغم من اعداد ترتيبات الهدنة ، فبعد أن افرغ جعبته من السهام ، التقط بعض الحجارة ، وقذفها باتجاه ماريانوس ، الذي وقى رأسه بترسه ، لكن الترس تحطم إلى أربع قطع ، وانشطرت خوذته ، وأصابته الضربة ، فسقط إلى الأرض فاقدا وعيه ، وظل فترة من الوقت صامتا لا يتكلم كما حدث لهكتور الشهير ، عندما اصيب بحجر اجاكس ، وبصعوبة بالغة تمكن من استرداد وعيه ، واستعاد قوته ، فأطلق عددا من الأسهم ضد عدوه ، فأصابه بثلاث جراحات ، ووجد هذا المقدم [ذلك انه كان أعلى من أن يكون مجرد واحد من الرهبان] نفسه انه لم ينته من القتال ، على الرغم من انه استنفد الأسهم والحجارة وكل ما كان لديه ، فبات محتارا : ماذا يفعل ، و كيف يدافع عن نفسه ضد عدوه ؟و ازداد اضطرابا و غضبا ، فأعد نفسه للانقضاض مثل حيوان متوحش هائج ، و صار على استعداد لأن يستخدم كل ما تصل إليه يداه ، حتى أنه عندما صدف سلة مملوءة بالكعك المصنوع من الشعير ، أخذ يقذف بالكعكات كما لو كن من الحجارة ، و كان يتناولهن و يرمي بهن كما لو أنه كان في حفل ، أو أثناء تأديته للقداس ، محولا الحرب إلى نوع من الطقوس المقدسة ، و التقط احدى الكعكات و رماها ، بكل ما أوتي من قوة ، نحو وجه ماريانوس فأصاب وجنته ، ودون اضافة لمزيد من

التفاصيل حول هـذا الراهـب ، نخلص الى القـول ان السـفينة وبحارتها وكذلك الكونت رتشارد نفسه سلموا انفسـهم جميعـا الى ماريانوس ، وتبعوه بـكل رضى ، وعندمـا وصـلوا الى اليابسـة ، ونزلوا اليها ، استمر الراهب المذكور يبحث عن ماريانوس ، ذلك انه لم يعرف اسمه لكنه عرف صفته ، وقد نعتـه للون ثيابـه ، وعندمـا وجده أخيرا ، القى بسلاحه جانبا ، وضمه اليه وقال متبجحـا:« لو قابلني على اليابسة للاقى عدد كبير منكم حتفه على يدي» وتناول من وسط ثيابه كأسا كبيرا من الفضة يساوي مبلغ مائة وثلاثين قـطعة ذهبية ، وناوله لماريانوس ، وهـو يتفوه بعباراته ، ثم سقط ميتا.

وعبر في تلك الأثناء الكونت غودفري ومعـه عدد مـن الكونتـات بصحبة جيش قوامه عشرة آلاف فـارس وسـبعين الفـا مـن الرجـالة ، ولدى وصـوله الى العـاصمة ضرب معسـكره في بربوتنس ، ما بين الجسر القريب من الكوسميدسيون (دير القدس كوسماس) وكنيسة القديس فوقاس ، لكن عندما حضه الامبراطور على التوجه حتى النهاية القصوى لبـروبوتنس ، تقـاعس وأجـل التنفيذ من يوم الى آخر ، وأخر عملية العبور بسلسلة مـن الأعذار المختلفة ، وفي الواقع كان غودفري ينتظر وصـول بـوهيموند وبقية الأمراء ، ومعروف أن بطرس الناسك كان قد قام في البداية بـرحلته الكبيرة للقتال عند القبر المقدس ، لكن الزعماء الآخرين ـ وخاصة بوهيموند ـ عاشوا على دغدغة أحـلام جشـعهم القـديمة ضـد الكسيوس ، وانتظروا الفرصة المناسبة للانتقام للنصر الرائع الذي ناله الامبراطور في لاريسا ، لقد عاشوا جميعا على أمـل واحـد في بلورة أحلامهم بالسيطرة على القسطنطينية ، ولهذا تبنوا سـياسة عامة واحدة ، فأنا غالبا ما أشرت الى هذا وأوضحت بـأنهم كانوا يتظاهرون بأنهم على نية الحج ، ولكنهم في الحقيقة كانوا قد خططوا لخلع الكسيوس والاستيلاء على العاصمة ، و لكن لسوء حظهم كان الامبراطور يعرف خساسة طباعهم ومـا جبلوا عليه ، وذلك نتيجـة لطول التجربة ، ولهذا أصدر أوامره بتحريك القوات الاحتياطية كتلة

واحدة من اثيرا الى فيليا (فيليا موقع على شاطىء البحر الأسود)
وكان عليها التربص حتى وصول رسل غودفري وهم في طريقهم الى
بوهيموند وبقية الأمراء وحدث في نفس ذلك الوقت الحادث التـالي:
وجـه الامبـراطور الدعوة الى بعض الأمـراء الذين كانوا بـرفقة
غودفري لمقابلته ، وابتغى من وراء ذلك أن ينصحهم بأن يحـرضوا
غودفري على تقـديم يمين الولاء للامبـراطور ، وأضـاع الأمراء
اللاتين ـ كما جرت عادتهـم ـ الوقـت كله بـكلماتهم الجوفاء
المعتادة ، وبولعهم بالقاء الخطابات الطويلة ، ولذلك انتشرت اشاعة
كاذبة وراجت حتى وصـلت الى الفـرنجة ، و كان فحـواها بـأن
الامراء قد اعتقلهم الكسيوس ، لذلك ما لبثـوا أن ثـاروا واخـذوا
يزحفون في صفوف متتالية نحو القسطنطينية ، مبتـدئين بـالهجوم
على القصور القريبة من البحيرة الفضية (١٥) ، فـدمروها تـدميرا
كاملا ، ثم هاجموا أسـوارها لكن ليس بـالمنجنيقات ـ ذلك انه لم
يكن لديهم هذا السلاح ـ إنما بكتلهم اعتقادا منهم انهم بـأعدادهم
الكبيرة يمكنهم اشعال النيران في البوابة التي دون القصر (١٦) على
مقربة من مشهد القديس نيقولا (١٧) ولم يكن سواد العامة في بيزنطة
وحدهم الذين تولاهم الهلع ، نظـرا لعـدم معـرفتهم بفـن
الحرب ، ولهذا ضربوا صـدورهم وانتحبـوا عندمـا راوا صـفوف
اللاتين ، بل استولى الرعب حتـى على الجمـاعات المقـربة مـن
الامبراطور والشديدة الاخلاص له ، متـذكرين يو م الخميس الذي
سبق وتم الاستيلاء به على المدينة (١٨)وكانوا يخشون أن يحل بهم في
هذا اليوم الانتقام (١٩)(بسبب ما حدث لهم يومـذاك) وتسارع جميع
الجنود المدربين نحو القصر في فوضى ، لكن الامبراطور بقي هـادئا:
فلم يحاول التسلح ، أو حتى وضع درع على جسمه ، أو حمل ترس
أو رمح بيده ، أو اشهار سيفه ، بل جلس بكل هـدوء وثبـات على
العرش الامبراطوري ، ينظـر اليهـم بـوجه مشرق ، مشـجعا
اياهم ، وبـاثا الروح العـالية والطمـأنينة في قلوبهـم ، وكان
الامبراطور في تلك الساعة مجتمعا مع اقربائه وكبار القادة للبحـث
والتشاور حول خـطط المسـتقبل ، وقـد أصر ـ بـالدرجة
الأولى ـ على انه ينبغي الا يغادر شرفات الأسـوار لقتـال اللاتين

مهما كان السبب ، بسبب سمة قداسة ذلك اليوم (كان يوم الخميس من الاسبوع المقدس ، أعظم الاسابيع قداسة في السنة حيث ذاق الرب فيه آلام الموت في سبيل خلاص العالم أجمع) وبالدرجة الثانية لأنه رغب في تجنب سفك الدماء بين المسيحيين ، وقام عدة مرات بارسال المبعوثين الى اللاتين ناصحا إياهم بالامتناع عن مثل هذه الأعمال قائلا لهم : « ابذلوا الاحترام لهذا اليوم ، فالرب ضحى بنفسه من أجلنا مزدريا كل من الصليب والمسامير والحربة كوسائل لعقاب مرتكبي الآثام ، لانقاذنا ، وإذا كان لا بد لكم من الحرب ، فنحن سنكون بدورنا جاهزين ، لكن بعد مرور يوم قيامة الرب » ، لكنهم كانوا أبعد من أن يصغوا لكلماته ، وبدلا من ذلك زادوا من تقوية صفوفهم ، وكانت رشقات سهامهم كثيفة الى حد أن واحدا من حاشية الامبراطور أصيب بصدره ، وعندما رأى بقية رجال الحاشية ذلك ، تحلقوا حول الامبراطور من جميع الجهات ، لكنه بقي جالسا غير مضطرب ، مهدئا لهم وموجها النقد اليهم بطريقة لطيفة ، ثم قام وسط دهشة الجميع ، عندما رأى المهاجمين اللاتين يقتربون من الاسوار ، ويرفضون النصائح المفيدة ، قام باتخاذ أول اجراء ــ للمرة الأولى ــ فاستدعى صهره نقفور (قيصري) وأمره أن ينتخب أفضل المحاربين من الرماة المجربين ، ويمركزهم على شرفات السور ، وأن يقوموا جميعا برشقة جماعية من الأسهم نحو اللاتين ، إنما دون تسديد ، بل في الفراغ بغية اخافة الأعداء ، لكن مع تجنب القتل بأي ثمن ، ذلك أنه ــ كما سبق لي أن بينت ــ كان يخشى تدنيس ذلك اليوم ، ويرغب في منع الاقتتال الأخوي ، وأمر مجموعة من الرجال المنتخبين ، كان بعضهم يحمل القسي ، وبعضهم الآخر رماحا طويلة ، أمرهم بفتح بوابة القديس رومانوس ، وأن يندفعوا ببطء ، يتصف بالقوة والعزيمة والعنف ضد الأعداء ، وكان مع كل رماح ترسين ليتمكن من وقاية نفسه وحمايتها من على الجانبين ، وكان بامكانهم ، وهم في هذه التشكيلة ، أن يزحفوا بخطى تامة ، وأرسل الامبراطور أمام هؤلاء عددا من الرماة المهرة ، ليتولوا الرماية نحو العدو من مسافة

بعيدة ، وأن ينتقلوا يمنة ويسرة حسب ما يقتضيه الحال عندما تضيق المسافة في جانب من الجوانب ، بين الجيشين ، وكان بعد هذا على القادة أن يشيروا الى الرماة الذين كانوا برفقتهم ليقوموا برمايات كثيفة نحو الخيول وليس نحو الخيالة ، ثم الاندفاع بسرعة تامة ضد العدو ، وكانت الغاية من جهة واحدة تمزيق تجمع قوى الهجوم الفرنجي بعقر مطاياهم (حيث إنهم لن يجدوا من السهولة الركوب في تلك الحالة) ومن جانب آخر (وهذا اكثر اهمية) تجنب قتل المسيحين ، وروعيت تعليمات الامبراطور وطبقت بكل سرور: فتحت الابواب على مصراعيها ، واعدت الخيول ، وقيدت نحو العدو ، وتم قتل العديد من الفرنجة ، وقلة فقط من الروم هم الذين اصيبوا ـ ذلك اليوم ـ بجراح.

ولندع الآن هؤلاء ، ونعود الى سيدي القيصر ، حيث تركناه يقود رماته المجربين ، ويمركزهم على الأبراج ، حيث وجهوا من هناك رماياتهم ضد البرابرة ، وكان مع كل واحد منهم قوس صحيح بعيد المدى ، وكانوا جميعا من الشباب ، البارعين براعة تيسر Teucer بالرماية عند هومر « لم يشد وتر قوسه حتى يلامس صدره ، ليجر بعدها السهم ، حتى يكون رأسه المعدني قرب القوس (٢٠) ذلك انه لم يكن يقوم بعرض للبراعة في الرمي حسب طرائق الصيادين ، بل قام ـ وكأنه هرقل جديد ـ برمي اسهم مميتة ـ من قوس غير ميت ، واصاب اهدافه حسبما أراد ، وكان في أوقات سابقة ، عندما شارك في مباراة للرماية ، أو في معركة ، لم يخطىء له سهم هدفه قط ، مهما كان الجزء ـ من جسم الانسان ـ المسدد نحوه ، فقد كان لا مندوحة من اصابته هناك ، وكان يقوم بشد وتر قوسه والرماية به بسرعة مذهلة ، الى حد أن تيسر والأجكسان ، لم يكونا معادلين له في الرماية ، ومع هذا كله ، وعلى الرغم من براعته بالرماية ، فإنه راعى ـ في تلك المناسبة ـ حرمة ذلك اليوم ، وتمسك بعسرى تعاليم الامبراطور ، لذلك عندما كان يرى واحدا من الفرنجة ، يقترب من الأسوار بحماقة واضطراب ، حاميا نفسه بدرع وخوذة ، كان يفوق

سهمه ويشد وتر قوسه ، ويرمي نحوه ، لكن لا ليصيب الهدف ، بل لتأتي النبلة أمامه او خلفه ، فمن أجل قداسة ذلك اليوم تمنع عن الرمي بشكل مباشر نحو اللاتين ، ومع ذلك فعندما كان واحدا من هؤلاء يصر في تعنته وحماقته ، ليس عن طريق الرماية على المدافعين الواقفين خلف الشرافات ، بل حتى بصب كميات كبيرة من الشتائم والسباب بلغته ، عندها قام القيصر بشد وتر قوسه « ولم يدع السهم يطير عبثا من بين يديه » بل ليخرق ، الدرع الطويل الذي حمله الفرنجي ، وليمر خارقا سابغته ، وبذلك كان يصيب سلاحه ويجرح جنبه ، وهكذا يجعله « يسقط بلا حراك » ـ كما يقول الشاعر (٢١) فتصعد اصوات الروم الى عنان السماء تحية وتشجيعا لقيصرهم ، ومثله يعلو عويل اللاتين باكين محاربهم المقتول ، وهكذا تجدد القتال بشدة ، وتحارب فرسانهم ورجالنا ـ على مقربة من الاسوار ـ بكل شجاعة ، وكان القتال ضاريا ومريرا على كلا الطرفين ، لكن عندما قذف الامبراطور بحرسه الى قلب المعركة ، انعطفت صفوف الفرنجة ، ولاذوا بالفرار ، وعليه قام هيوج في اليوم التالي بتوجيه النصيحة الى غودفري كيما ينصاع الى رغبات الامبراطور ، هذا إذا لم يكن يرغب أن يتعلم للمرة الثانية عن مدى خبرة الكسيوس وبراعته باعتباره قائدا حربيا ، لكن غودفري انتقده بشدة قائلا : « لقد تركت بلادك وأنت ملك تمتلك الثروات ، وجيشا قويا ، وانحدرت الآن بنفسك من السمو الى درجة العبيد ، ثم تأتي الي بعد هذا وكأنك قد لاقيت نجاحا عظيما لتطلب مني أن افعل الشيء نفسه ، لقد كان علينا إذا أن نبقى في بلادنا ، ونحفظ أيدينا ونرفعها عن بقية الناس » وأجابه هيوج « لكن أما وقد أتينا في بلادنا كل هذه المسافة ، نحن نحتاج الى حماية الامبراطور ، ولن نحصل على أية منافع ما لم نطع أوامره » ولم يجد هذا نفعا ، وطرد هيوج دون أن يحصل على شيء ، ولم تثمر جهوده ، ولهذا السبب ولحصول الامبراطور على معلومات مؤكدة ، فيها أن جميع الأمراء الفرنجة يتقدمهم غودفري قد اقتربوا من اسوار المدينة ، قام الكسيوس بارسال بعضا من خيرة ضباطه ، وبصحبة كل منهم قواته ، لتوجيه

النصائح اليهم مرة ثانية ، أو حتى للعمل على اجبارهم على عبور المضائق.

وما ان اصبح على مراى من اللاتين ، حتى نهضوا من غير تردد ولو للحظة واحدة ، وحتى من غير التوقف لسؤالهم: ماذا يريدون ، وقاموا بالهجوم عليهم ، وشرعوا بقتالهم ، وسقط في القتال عدد كبير من القتلى بين الجانبين ، وفقدوا حياتهم في هذا الالتحام المرير ، واصيب جميع رجال الامبراطور ـ الذين قاتلوا بشجاعة ـ بالجراح ، ونظرا لشجاعة الروم ، وارتفاع معنوياتهم ، تراجع اللاتين ، وقرر غودفري تقديم الطاعة من غير تأخير ، فجاء الى حضرة الامبراطور ، واقسم يمينا املي عليه ، فيه أنه ما من بلد ، أو موقع أو حصن ، سيكون في المستقبل من الممكن الاستيلاء عليه ، و كان من قبل يعود في ملكيته للامبراطورية الرومية ، سيقوم بالتخلي عنه ، وتسليمه الى الضابط المنتدب من قبل الامبراطور خصيصا لهذه الغاية ، وتسلم غودفري ـ بعد اقسامه لليمين ـ هدايا سخية ، ودعي الى مجالسة الامبراطور ، حيث جرى الاحتفاء به في مأدبة رائعة ، ثم جاز عقب هذا الى بليكانوم ، واقام معسكره ، واصدر الامبراطور ، إثر ذلك تعليماته بتوفير كميات كبيرة من المؤن له ولرجاله.

ووصل في آثار غودفري الكونت راؤول ، (٢٢) وبرفقته خمسة عشر ألف من الخيالة والرجالة ، وعسكر مع الأمراء الذين كانوا برفقته في بربوتنس على مقربة من دير البطريرك (٢٣) ، بينما عسكر البقية على امتداد الساحل حتى سوزنيون ، وقد حذا حذو غودفري ، حيث توقف ينتظر وصول هؤلاء الذين كانوا قادمين بعده ، واستخدم الامبراطور ، الذي كان يخشى هذا (متوقعا ما يمكن أن يحدث) كل وسيلة مادية ونفسية ليجعلهم يسرعون الى عبور المضائق ، من ذلك على سبيل المثال ، أنه استدعى اوبوس ـ الذي كان رجلا له اخلاق رفيعة ، وما من احد يفوقه في معلوماته العسكرية ـ ولما مثل في حضرة الامبراطور ، بعثه مع عدد

من الرجال الشجعان الى راؤول ، وكانت التعليمات الصادرة اليه واليهم ، العمل على اجبار الفرنجة على المغادرة الى الجانب الآسيوي ، وعندما وضح له أن راؤول ليست لديه النية في الذهاب ، بل اتخذ موقفا معاديا كله رعونة تجاه الامبراطور ، حمل سلاحه ، وصف رجاله وعبأهم للمعركة ، ربما لاخافة البرابرة ، ظنا منه بهذه الوسيلة يمكنه أن يقنعهم بالابحار ، لكن ردة فعل الفرنجي جاءت بالحال ، حيث تقبل ، مع رجالته المتوفرين ، التحدي « مثل الأسد الذي يبتهج عندما يجد صيدا كبيرا » واندلعت نيران معركة حامية الوطيس ، ووصل في تلك الساعة بيجاسيوس ، بواسطة البحر ، لنقل الفرنجة الى الطرف الآخر ، ولدى رؤيته القتال على الأرض ، وأن الفرنجة يرمون بأنفسهم دون مبالاة على صفوف الرومان ، نزل الى اليابسة ، واشترك في القتال ، فهاجم الأعداء من الخلف.

وسقط في هذا المعترك عدد كبير من القتلى ، لكن عدد الجرحى كان اكبر ، وسأل الناجون من الفرنجة ، وهم في الوضع الجديد ــ أن يتم نقلهم عبر المضائق ، ظانين انهم إذا ما التحقوا بغودفري وأخبروه بتفاصيل ما حل من كوارث ، لربما يثيره ذلك ، لاتخاذ اجراء ما ضد الروم.

واستجاب الامبراطور ــ بكل تعقل لطلبهم ــ ووضعهم ــ بكل سرور ــ على ظهر السفن ، ونقلهم الى الطريق نحو قبر المخلص ، سيما انهم هم أنفسهم كانوا يريدون ذلك ، وأرسلت بعد ذلك رسائل ودية كلها أمان ووعود جميلة الى الأمراء الذين كانوا ما يزالون ينتظرون ، ونتيجة لذلك ، فإنهم عندما وصلوا الى القسطنطينية نفذوا بكل رضى تعليمات الامبراطور.

هذا ما كان من أمر الكونت راؤول ، فقد وصلت من بعده فرقة كبيرة جدا ، فيها حشود من الناس تفوق العد والحصر ، تجمعوا جميعا من جميع أراضي الفرنجة ، ومعهم قادتهم (من ملوك

وسوقات وكونتات وحتى أساقفة) ، وأرسل الامبراطور رسلا من لدنه للترحيب بهم ، واتبعهم برسائل لطيفة ، وكان من عادة الكسيوس عدم اللجوء الى الطرق الماكرة ، وكان يعرف كيف يتمسك بنقاط التفوق أمام خصمه ، وجرى تعيين عدد من الضباط للقيام بمهام تلقي الحشود ، وأمروا بإعداد الميرة اللازمة للرحلة ، ذلك أنه من المتوجب الا يجد الحجاج سببا للشكوى ، مهما كان ، وتابع الحجاج في الوقت نفسه اندفاعهم بكل حماس ورغبة نحو العاصمة ، ويمكن للمرء أن يقارن تعدادهم بنجوم السماء أو بذرات الرمال على الشواطىء وكان عددهم في الحقيقة وهم مندفعون نحو القسطنطينية مثل « أوراق الربيع وزهوره » (٢٤) [كما قال هومر]

ومع رغبتي الشديدة في الاقدام على تسمية قادتهم ، فإني افضل عدم فعل ذلك ، لأن الكلمات تخونني بسبب عدم مقدرتي على التفوه بالأسماء البربرية ـ ذلك انها غير موائمة لنا ـ ثم إنني أجد نفسي ارتجف أمام أعدادهم الكبيرة ، وعلى كل حال لا أجد سببا مسوغا يفرض علي تسجيل أسماء عدد هائل من الحشود ، لا سيما وأن معاصريهم أصبحوا الآن ينظرون إليهم بلا مبالاة .

وعندما وصل هؤلاء الأمراء أخيرا إلى العاصمة ، صفوا عساكرهم ـ قرب دير القديس كوسماس والقديس دامين وامتدوا حتى الهيرون ، واحتاج ضبطهم إلى تسعة من المنادين ـ حسب العادة الاغريقية القديمة عن طريق النداء ، وقد رافقهم عدد مناسب من الجنود الذين اقنعوهم باطاعة أوامر الامبراطور ، مع فكرة فرض القسم نفسه الذي اقسمه غودفري ، ودعا الامبراطور الأمراء إلى زيارته فرادى وتحدث معهم على انفراد ، حول رغبته ، واستخدم كل الوسائل المعقولة لاقناع المترددين ، وعندما رفضوا نصائحه ـ لأنهم كانوا ينتظرون بقلق عظيم قدوم بوهيموند ـ وابتدعوا طرائق غبية للتملص بتقديم المزيد من المطالب ، رفض بدوره اعتراضاتهم من غير اية صعوبات ، وضغط

عليهم بمائة وسيلة حتى أجبرهم على تأدية القسم ، وتمت دعوة غودفري نفسه للعبور من بيلكانوم ليشهد الاحتفال ، وعندما حضر الجميع ، بما فيهم غودفري ، وبعد أن اخذ اليمين على كل واحد من الامراء ، تجرأ واحد من النبلاء [اللاتين] بالاقدام على الجلوس على عرش الامبراطور ، وتحمل الكسيوس هذا دون أن يتفوه ببنت شفة ، عارفا الطبع الرديء لجماعة اللاتين ، لكن كونت بلدوين توجه نحو الرجل وامسكه من يده وجعله يقوم ، ثم وجه إليه توبيخا شديدا ، وقرعه بقوله : « كان عليك الا تفعل شيئا من هذا القبيل أبدا ، خاصة بعدما اقسمت وتعهدت بأن تكون واحدا من اتباع الامبراطور ، إن الأباطرة الروم لايدعون رعاياهم يجلسون معهم ، وهذه هي العادات هنا ، وعلى الرجل الذي اقسم يمين التبعية لصاحب الجلالة الامبراطورية أن يراعي عادات البلاد » ، ولم يجب الرجل بلدوين بأي شيء لكنه نظر شزرا نحو الكسيوس ، وتمتم في نفسه ببعض الكلمات في لغته الخاصة قائلا : « أي فلاح هذا ، يجلس وحيدا ، بينما يقف قادة كبار مثل هؤلاء إلى جانبه » ، ورأى الكسيوس شفتاه تتحركان فاستدعى واحدا من المترجمين الذين يفهمون لغته ، وسأله عما قال ، وبعدما أخبره بمقولته لم يوجه أي تعليق للرجل في تلك اللحظة ، إنما ابقى التعليق في نفسه ، لكن عندما كانوا يقومون بتوديعه بعث خلف ذاك الرجل الأرعن المتعجرف ، وسأله من يكون ، ومن أين جاء ، وما هو نسبه ؟ فأجابه : « انا فرنجي نقي ، وصاحب أصل نبيل ، وأعرف شيئا واحدا : هناك عند مفترق الطرق في البلاد التي ولدت بها ، معبد قديم (٢٥) يأتي اليه كل من يرغب بالدخول في مبارزة فردية ، فيستعد للقتال ، ويدعو الله ان يسعده ، ويمكث هناك ينتظر الرجل الذي يجرؤ أن يرد على تحديه ، عند مفترق الطرق هذا ، أمضيت وقتا طويلا انتظر بكل شوق الرجل الذي سيقدم للمبارزة ، لكن لم يأت أحد قط ، ولم يوجد من تجرأ على ذلك » ، ولدى سماع الامبراطور ذلك قال له : « إذا لم تحصل على من تقاتله أنذاك ، بعد انتظار طويل ، فالآن لديك فرص ممتازة لاكثر من مبارزة ، لكنني أوصيك بكل شدة الا تتمركز في مؤخرة الجيش ، ولا في المقدمة ، ولكن اتخذ موقفك في قلب الجيش مع

المراتب الادنى ، إنني عارف بطرائق الاعداء ، ولي تجارب طويلة مع التركمان ، ولم يوجه الامبـراطور النصـيحة له وحـده ، لكنه أنذر الجميع لدى مغادرتهم إياه وحذرهم من المخـاطر الكثيرة والمعقـدة التي يمكن أن تواجههم أثناء الرحلة ، وأوصاهم بعدم مطاردة العدو بعيدا إذا ما منحوا النصر عليه ، خشية الوقـوع في الكمـائن التـي ينصبها القادة التركمان ، فيكون نصيبهم القتل .

هذا ما كان بالنسبة لغودفري وراؤول ومن جاء معهما ، ووصل بعد هذا بوهيموند إلى ابروس مع بقية الأمراء ، عارفا نفسه أنه لم يكن من أصل نبيل ، ومن غير قوات عسكرية خاصة به من الأتباع ، لقلة موارده ، وكان يرغب في كسب رضى الامبراطور ، لكنه كان في الوقت نفسه يخفي مشاعره العـدوانية ونواياه الخبيثـة ضـده ، وأسرع بوهيموند ، على رأس عشرة من الفرنجة بغية الوصول إلى العاصمة قبل وصول الآخرين ، وادرك الكسيوس خططه ، ذلك أنه خبـر منذ زمن مـديد دسـائس بـوهيموند ، وطبيعتـه الخيانية ، ولذلك رغب بالحديث معه قبل وصول اتباعه ، لقد كان يريد أن يسمع ما يمكن أن يقوله بوهيموند دون أن يملك الفرصة لافسـاد البقية ـ ذلك أنهـم لم يكونوا على مسافة بعيدة ـ وأمل في اقناعه بالعبور إلى آسيا .

وعندما مثل بوهيموند في حضرة الامبراطور ، باداه بمنحه ابتسامة وسأله عن رحلته ، وأين ترك بقية الأمراء ؟ و أجابه بوهيموند على اسئلته بكل صراحة ، وقدم له أحسن ما كان لديه مـن معلومـات ، وذكره الامبراطور بكل لطف بـأعماله الجـريئة ضـده في لاريسـا ودراخيوم ، وبنشـاطاته العـدوانية السـابقة ، فـأجابه بوهيموند : « لقد كنت أنذاك عدوا ، لكنني قدمت الآن بمطلق حريتي وارادتي لأكون صديقا لك يا صاحب الجلالة »، ثم تحدث الكسيوس معه أحاديث طويلة ، وبشكل جانبي لعله يكتشف مشـاعر الرجـل الحقيقية ، ولدى استخلاصه بأن بوهيموند على استعداد لأداء يمين الولاء قال له : « إنك الآن متعب من الرحلة ، اذهب واسـترح ، وفي الغد يمكن أن نتباحث في القضايا ذات الاهتمـام المشـترك ، ومضى

بوهيموند إلى قصر كوسمديون حيث أعد له جناحا خاصا ، وهيئت لأجله مائدة عليها جميع أنواع الأطعمة اللذيذة ، وجاء الطباخون ، بعد وقت قصير ، بكمية من لحوم الحيوانات والطيور غير مطبوخة وخاطبوه بقولهم : « كما ترى لقد اعددنا الطعام حسب طرائقنا المعتادة ، و إن كان ذلك لايناسبك ، ها هنا لحم نيء يمكن أن يطهى تبعا للطريقة التي ترغب بها » ، وحين قال الطباخون ما قالوه وفعلوا ما فعلوه إنما كانوا ينفذون تعليمات الامبراطور ، فلقد كان الكسيوس ذكيا ، لديه قدرة الحكم على صفات أي رجل ، وكان يقرأ بعمق التفكير الداخلي له ، وكل ما كان يدور في خلده ، ولمعرفته بالجبلة الخبيثة لبوهيموند ، فقد كان محقا حين قدر ما يمكن أن يحدث ، وحتى لا يرتاب ، أمر بجلب اللحم النيء إليه ووضعه أمامه ، وكان هذا التصرف حركة بارعة جدا من قبله ، ذلك أن الفرنجي الماكر لم يكتف برفض تذوق أي جزء من الطعام ، واقدم على توزيعها بين خدمه ، دون أي اشارة إلى شكوكه الخفية ، بل بدا وكأنه يحسن إليهم ويصنع معهم معروفا ، لكن ذلك كان رياء أكثر منه حقيقة ، فإذا ما تفحص المرء هذه القضية بدقة ، يجده في الحقيقة قد قدم لهم كأس المنون ، ولم يكن هناك اية محاولة لتغطية عمله الخياني هذا ، فهو اعتاد على معاملة خدمه باللامبالاة التامة ، ومهما يكن الحال ، فقد اخبر طباخه الخاص أن يقوم باعداد اللحم غير المطهو حسب الطريقة الفرنجية المعتادة ، وسأل في اليوم التالي ، خدمه عن أحوالهم ، فأجابوه أنهم بخير ، وأضافوا أنهم لم يشعروا بأي ضرر من تناول ذلك الطعام ، ولدى سماعه هذه الكلمات ، أباح عن مكنون تخوفاته بقوله : « بالنسبة لي ، إنني عندما تذكرت الحروب التي خضتها ضد الامبراطور ، بغض النظر عن المعركة المشهورة التي حاربته بها ، كنت أخشى أن يعمل على قتلي بدس السم في طعامي ».

هذه هي أعمال بوهيموند ، ولا بد لي من القول : إنني لم أر في حياتي رجلا شريرا مثله ، حاد في جميع أعماله واقواله عن جادة الصواب ، تماما دون توسط أو اعتدال .

واستدعى الامبراطور بعد هذا بوهيموند ، وطلب منه ، كما طلب من الآخرين ، أن يقسم يمين الولاء اللاتيني المعتاد ، وادراكا من بوهيموند لحقيقة وضعه الخاص استجاب بكل سرور ، ذلك انه لم يكن رجلا نبيل المحتد ، كما انه لم يكن عظيم الثراء ، فقواته لم تكن كبيرة العدد ، بل حوت عددا ضئيلا من الفرنجة ، ومهما يكن الحال ، فإن بوهيموند كان في طبيعته مخادعا كذابا ، وكان الامبراطور الكسيوس قد أمر بعد انتهاء الاحتفال ، بغرفة من غرف القصر ، محددة الأطراف ، ففرشت بجميع أنواع الأشياء الثمينة والذخائر من : ملابس ، وذهب ، وفضة ، ونقود ، وأشياء أخرى كلها ذات قيمة كبيرة ، وقد بعثرت هذه الأشياء في الغرفة ، فملأت المكان وغطته تماما ، إلى حد انه كان من المحال على اي انسان أن يمشي بها ، وأمر الامبراطور رجلا أنابه عنه أن يري بوهيموند هذه الذخائر ، وطلب منه أن يفتح أبواب الغرفة بصورة مفاجئة ، ولقد تولت بوهيموند الدهشة ، وصعق لدى رؤيته لهذا المشهد ، فقال على الفور : « لو أنني امتلكت مثل هذه الثروات لتمكنت من أن أغدو سيدا لكثير من البلدان » ، فأجابه الرجل : « كل هذا هو اليوم لك ، وهو هدية مقدمة من الامبراطور ، وطار بوهيموند فرحا لدى سماعه ذلك ، وقام بعدما أبدى تقبله لهديته ، وتقديمه شكره بمغادرة المكان والذهاب إلى مأواه لينال قسطا من الراحة ، ومع هذا فإنه عندما حملت هذه الأشياء إليه ، ورغم ما سبق له وأبداه من اعجاب ، تظاهر بتغيير رأيه ، فخاطب الخادم الذي حمل إليه الأشياء بقوله : « لم اكن اظن انه ستوجه إلي إهانة مثل هذه من قبل الامبراطور ، خذهم بعيدا وأعدهم إلى مرسلهم » ، وكان الكسيوس معتادا على تصرفات اللاتين ، عارفا بأخلاقهم لهذا ردد القول الدارج : « يكدح هو يكدح على رأسه » ، وسمع بوهيموند هذا القول ، ولهذا عندما شاهد الخدم يعدون ويشرعون بجمع الهدايا بكل عناية لاعادتهم ، غير رأيه مجددا ، وعوضا عن أن يرسلهم وهو مغضب ، ابتسم لهم ، وتصرف كالحرباء التي تغير لونها كل لحظة ، وفي الحقيقة كان بوهيموند منافقا سريع التراجع حسب الظروف ، وقد فاق جميع اللاتين الذين مروا بالقسطنطينية في ذلك الحين خداعا

وشجاعة ووقاحة ، وكان في الوقت نفسه والحال أقلهم ثروة ، وأضعفهم مواردا ، ومع ذلك كان أعظمهم في صنع المساوىء والشرور ، وبالنسبة لسرعة التغير ، فقد فعل ذلك بشكل آلي ، وهذه عادة جميع اللاتين ، لذلك لم يكن امرا غريبا أو مدهشا أنه سر سرورا بالغا بأخذه الأموال التي سبق له أن رفض تسلمها ، فهو عندما غادر بلاده كان رجلا مفلسا ليس لديه أية أملاك مطلقا ، وقد تظاهر آنذاك بأنه ذاهب للتعبد عند القبر المقدس ، لكنه كان في الحقيقة يبتغي أن ينال السلطة لنفسه ــ أو بالحري الاستيلاء على الامبراطورية الرومية ، إذا كان ذلك ممكنا ــ كما أراد أبوه واستهدف من قبل ، فهو ــ كما يقال ــ كان على استعداد لأن يفعل أي شيء ، لكن ذلك احتاج منه أموالا كثيرة ، وكان الامبراطور يعرف طباعه ونفسيته التي لا تعرف الرضى ولا الاستقرار ، ويعرف مكره ، ولهذا عمل ببراعة على ابعاده عن كل شيء يمكن أن يساعده على تنفيذ مآربه ، ولهذه الأسباب حدث أنه عندما طلب بوهيموند أن تتم تسميته لمنصب « دمستق الشرق » لم يكتف الامبراطور برفض طلبه هذا ، بل لم يبد حتى استعداده لسماع ذلك ، ذلك أن الكسيوس كان يخشى أنه ما أن يملك بوهيموند السلطة حتى يقدم على استخدامها لاخضاع بقية الأمراء لسلطانه ، وجعلهم يتبعون السياسة التي يختارها ، وفي الوقت نفسه ، وحتى لا يظن بوهيموند بأن خططه مكشوفة ، وعده الامبراطور ومناه بأمان فارغة قائلا : « لم يحن الوقت بعد لمثل هذا ، لكن مع نشاطك واخلاصك لن تنتظر طويلا حتى تنال الشرف » .

وبعدما تحدث الامبراطور طويلا مع قادة الفرنجة ، مبديا لهم مشاعر الود والصداقة ، عن طريق الهدايا والخلع ، جلس في اليوم التالي على عرشه الامبراطوري ، وبعث فاستدعى بوهموند وبقية الأمراء ، وحذرهم من الأشياء التي يمكن أن تواجههم أثناء رحلتهم ، وقدم لهم نصائح جمة ، وأعطاهم تعليمات حول الطرائق التي جرت عادات التركمان على استخدامها أثناء القتال ، وعلمهم كيف يصفون صفوفهم ويعبؤونها للمعركة ، وكيف ينصبون

الكمائن ، ونصحهم بعدم مطاردة الأعداء بعيدا عندما يفرون ، وقد استطاع الامبراطور باعتماده لهذه الوسائل من مال ونصائح أن يلين من حدة طباعهم ، ثم اقترح عليهم أن يقوموا بعبور المضائق .

وابدى الامبراطور المزيد من الاهتمام والعاطفة تجاه واحد من قائد الفرنجة ، وهو ريموند كونت سان جيل (٢٦) (صنجيل) وذلك لعدة اسباب ، منها انه كان عالي الثقافة ، وله سمعة ممتازة ، وحياة نقية ، ثم لمعرفة الامبراطور الواضحة للمدى الواسع الذي قد ريموند به الصدق ، فقد كان في جميع الظروف والأحوال يحترم الصدق ، ويقدره فوق كل شيء أخر ، وفي الحقيقة بز صنجيل جميع اللاتين ، وفاقهم بجميع الصفات ، وكان بالنسبة لهم كالشمس بالنسبة للنجوم ، ولهذا احتفظ به الكسيوس بعض الوقت ، وهكذا كان بعدما ودعه الآخرون ، وشرعوا برحلتهم بعبور المضايق إلى دا ماليون (٢٧) وعندما وجد نفسه وقد تحررت من مضايقات وجودهم بعث يستدعيه في عدة مناسبات وأوضح له بشكل اكثر تفصيلا لون المخاطر التي على الفرنجة توقعها أثناء زحفهم ، وبين له بكل وضوح شكوكه حول خططهم ، وفتح أثناء هذه المحادثات ، حول هذا الموضوع ، قلبه للكونت ، وأطلعه على خبيئة نفسه ، وحذره دائما وأبدا من بوهيموند ، وطلب منه أن يبقى يقظا تجاه أضاليله حتى إذا ما حاول أن يخرق المعاهدة يمكنه تعويقه وتعطيل خططه ، واوضح صنجيل بدوره أن بوهيموند قد ورث المكر والخداع عن ابائه ــ وذلك كله نوع من الوراثة ــ وقال : « إنه سيكون نمطا من المعجزات إذا احتفظ بوهيموند بأيمانه ، اما بالنسبة لي فإنني سأبذل جهدي وافعل كل ما يمكنني فعله لمراعاة أوامرك »، ، وقام بعد هذا بتوديع الامبراطور ، وذهب بغية الالتحاق ببقية جيوش الفرنجة (٢٨) .

وكان الكسيوس يرغب بدوره في المشاركة ايضا في الحملة ضد البرابرة ، لكنه خشي من الأعداد الهائلة للفرنجة ، ورأى انه من الحكمة أن ينتقل إلى بيليكانيوم ، ليقيم مركز قيادته الدائم على مقربة من نيقية (٢٩) حيث يمكنه الحصول على معلومات متواترة بلا

انقطاع حول مسيرة زحف الفرنجة وفي الوقت نفسه حــول نشــاط التركمان خارج هــذه المدينة [نيقية] و حــول أوضــاع الســكان و أحوالهم في داخلها ، و رأى انه من العار بالنسبة له إذا لم ينل — في هذه الظروف — بعض النجاحات العسـكرية ، و ذلك عندمــا تحين الفرصة ، و خطط للاستيلاء على نيقية بنفسه ، وكان يفضل أن يتم ذلك بتسلمها من الفــرنجة(تبعا لشروط الأتفــاقية التــي أبــرمت معهم) ، و قد احتفظ الامبــراطور بهــذه النية لنفســه ، و كان ذلك معروفا من قبله فقط في جميع الأحــوال و الأوضــاع و مهمــا كانت الاسباب ، كل هذا على الرغم مــن انه عهــد بهــذه المهمــة الى بوتومايتز (موضع ثقته الوحيد) وقــد أوعز إلى بــوتومايتز بــأن يعمل على استمالة البرابرة في نيقية إليه ، بمختلف الوعود والمواثيق بتامينهم على انفسهم ، وبإعلامهــم أنه ليس أمــامهم ســوى هــذا المخرج ، أو التعرض للتشتت أو حتى للهلاك والقتل ـ إذا ما تسلم الفرنجة المدينة ـ وكان الامبراطور واثقــا تمــام الثقــة بــاخلاص بوتومايتز ، وكان يعرف أنه في مثــل هــذه الحــالات ســيبذل جميع جهوده .

إن تاريخ الوقائع التالية سيتم عرضه بشكل متسلسل منذ البداية .

والتقى بوهموند ببقية الأمراء وتجمعوا في مكان واحد عزموا على الابحار منه ألى كيبوتوز ، وانتظروا جميعا ومعهم غودفري وصول صنجيل ، الذي كان قادما بصحبة الامبراطور ، وتقرر الآن ، وقد اتحدت قواهم جميعا ، أخذ الطريق نحو نيقية ، وكانت أعدادهــم كبيرة جدا ، لذلك تعذر الانتظار مــدة أطــول لنقص المؤن ، ولهــذا وزعوا جيوشهم الى قسمين : قسم زحف عبــر بيثينيا ونيقــوميديا نحو نيقية ، وعبر القسم الآخر المضيق الى كيبوتوز ، وتجمعــوا في تلك البقعة فيمــا بعــد ، ولما وصــلوا الى نيقية على هــذا الشكل ، انقسموا الى مجموعات ، عهــد الى كل منهــا بــالزحف والدخول بالقتال ، وقامت الفكرة على أساس الهجوم على الأسوار حسب هــذه المجمــوعات بــالتناوب ، ذلك أن التنافس بين الفــرق

المختلفة سيكون كبيرا ، وسيباشر الحصار بشدة أكبر ونشاط اعظم ، وتركت البقعة التي جعلت من نصيب صنجيل خاوية حتى ساعة وصوله .

ووصل في تلك الاثناء الامبراطور الى بيليكاتوم ، وعينه على نيقية (كما سبق لي واوضحت) وبعث البرابرة — في الوقت نفسه — من داخل المدينة بالرسائل المتوالية الى السلطان (٣٠) يسألونه النجدة ، لكنه ظل حيث هو يضيع الوقت ، ومضى الحصار ، واستمر لأيام عديدة ، وامتد من شروق الشمس حتى مغيبها ، وصارت احوال (التركمان) قاسية جدا ، وتوقفوا عن القتال ، وقرروا انه خيرا لهم الاتفاق مع الامبراطور من الوقوع بيد الفرنجة ، وفي ضوء هذه الأوضاع ، استدعوا اليهم بوتومايتز ، الذي وعدهم ، عبر سيل غير منقطع من الرسائل بأن هذا الشرط او ذاك الأمان المرغوب به ، سيمنحهم اياه الامبراطور اذا ما وافقوا على التسليم له دون سواه ، كما افصح لهم الآن بتفاصيل اكبر عن نوايا الامبراطور الطيبة تجاههم ، وقدم لهم عهدا مكتوبا ، ولهذا استقبل اثر هذا من قبل التركمان استقبالا طيبا ، ذلك انهم كانوا في حالة قنوط في وقفتهم ضد قوة عدوهم الطاغية ، ورأوا من الحكمة ان يتنازلوا طواعية للامبراطور اليكسيوس ، وينالوا منحه وهداياه بمعاملة مشرفة ، من ان يصبحوا ضحايا للحرب من غير هدف ، ولم يمض يومان على وجود بوتومايتز في ذلك المكان ، حتى وصل صنجيل عازما على الهجوم على الأسوار من غير تأخير ، وكان لديه معدات للحصار جاهزة لانجاز المهمة ، وانتشرت في الوقت نفسه العزيمة والشجاعة والأمل في نفوس التركمان ثانية ، فأقدموا في الحال على طرد بوتومايتز .

أما مايتعلق بالسلطان فانه بعث بقسم من قواته لتراقب هجوم الفرنجة مع أوامر بقتالهم عند التقائهم بهم ، وجرت مشاهدتهم عن بعد من قبل رجال صنجيل ، وحدث اشتباك لكنه جاء سيئ النتائج بالنسبة للتركمان ، وذلك ان بقية الأمراء مع بوهموند قام كل منهم

لدى سماعه بخبر الاشتباك باختيار مائتين مـن رجـاله ، وبعثهـم للانجاد ، وقد شكل هؤلاء جيشا معتبرا ، وفـاجأ هؤلاء البـرابرة وطاردوهم حتى حلول الظلام ، وكان السلطان بعيدا عن مسرح هذه الانتكاسة ، ومع هذا فعندما جاء صباح اليوم التالي كان على تعبئة كاملة هو وجميع اتبـاعه في المنبســط الكائن خــارج أســوار نيقية ، وسمع الفرنجة بهـذا ، فحملوا أسـلحتهم وانقضـوا على اعدائهم مثل الأسود ، وحدث قتال عنيف ومرير ، ومع أن القتال لم يكن حاسما بالنسبة لأحد الطرفين ، الا ان التركمان لانوا بـالفرار مع غياب الشمس ، وبهذا انهى حلول الظلام القتال وسقط العـديد من القتلى بين الطرفين ، واصيب معظم المقاتلين بالجراح ، وهكذا ربح الفرنجة نصرا رائعا ، وحمل الفـرنجة عددا كبيرا مـن رؤوس التركمان على أسنة رماحهم ، وعادوا بها وكأنهـا رايات محمـولة فوق رؤوسهم ، حتى يراها البرابرة عن بعد ، بعـد مـا شـاهدوا ماحدث ، وبذلك يحل الهلع في قلوبهم ، وتقـل رغبتهـم في متـابعة القتال .

هذا ماكان بالنسبة لأفكار الفـرنجة وأعمـالهم ، ولقـد لاحـظ السلطان مدى عدد الفرنجة الكبير ، وأدرك بعد هذا الاشتباك مـدى ثقتهم بأنفسهم وشجاعتهم ، لذلك أخبر التركمان داخل نيقية وقـال لهم : « اعملوا منذ الآن وصاعدا ماترونه مناسبا » ، وكان يعـرف مسبقا بأنهم كانوا يفضلون تسـليم المدينة الى ألكسـيوس مـن أن يقعوا أسرى في قبضة الفرنجة .

وفي هذه الأثناء كان صنجيل يقوم بالعمل على انجاز المهمة التـي عهدت اليه ، فشرع ببناء برج خشبي مستدير الشـكل مغـطى مـن داخله وخـارجه بجلود الأبقـار ، ومملوء في وســطه بــالمرات المتعرجة ، وعندما انتهى من تشـــييده قـــربه مـــن بـــرج غونتاز (٣١) ، وملأ برجه المتحرك هذا بـالعساكر الذين كان عليهـم فتح ثلمة في السور ، ووضع فيه ايضا عددا من الاختصاصيين بفتح الأنفاق ، وكان معهم ادوات فولاذية للعمـل على لغـم السـور مـن

-٢٤٥٨-
الأسفل ، ففي الوقت الذي كان يشتبك فيه الجند الذين في الطبقة العليا من البرج الخشبي مع المدافعين على شرفات السور ، كان الذين في أسفل البرج الخشبي يعملون على اقتلاع حجارة السور ، وكانوا كلما اقتلعوا حجرة وضعوا مكانها عارضة من الخشب ، وجرت العادة ان يستمروا في عملهم هذا حتى اذا شعروا بأنهم خرقوا السور ، وذلك بمشاهدة شعاع من النور من الجانب الآخر ، فهنا كانوا يلقون النار بين الأخشاب المحشوة ويحرقونها ، والذي حدث أنهم بعدما أحرقوا الأخشاب بقي برج غونتاز أكثر تماسكا من ذي قبل ، محافظا بصموده هذا على شرف بانيه وسمعته اكثر من ذي قبل .

وكانت بقية أجزاء السور انذاك محاطة بطوق من كباش الخرق والدبابات ففي مثل لمح البرق ـ كما يقال ـ كان الخندق الخارجي مردوما ، وقد ملىء بالتراب وصار مستويا على الطرفين ، وبذلك تمكنوا من متابعة الحصار على خير مايرام .

وحكم الامبراطور الذي اتيح له تفحص نيقية فحصا دقيقا في مناسبات عدة ، حكم بأنه من غير الممكن الاستيلاء عليها من قبل اللاتين ، مهما كانت اعدادهم كبيرة وقواهم طاغية ، وقام من جانبه ببناء عدد من الآلات الواقية بأشكال عدة ، غير معروفة أو معتادة ، قام هو بتصميمها ، مما أدهش كل انسان ، وبعث بهذه الآلات الواقية الى امراء الفرنجة ، فهو كما سلفت الاشارة كان قد اجتاز المضايق مع قواته المتوفرة ، وكان معسكرا في بيليكانون على مقربة من ميسامبيلوي ، حيث بني في الأيام الخوالي معبد كرس على اسم « جورج » الشهيد الكبير .

وكان لدى الكسيوس الرغبة في الذهاب برفقة الحملة ضد التركمان الكفار ، لكنه أقلع عن المشروع بعدما ناقش الموضوع وتمعن به ، ووازن بين الفوائد والمضار : فقد لاحظ ان الجيش الروماني لاحول له ولاطول ، صغير العدد بالمقارنة مع التعداد

الهائل لحشود الفرنجة ، وكان يعرف من طول التجربة كيف أنه لايمكن الوثوق بالفرنجة ، لانهم كانوا جميعا رجالا لايعرفون الاستقرار ، الخيانة طبع لهم وتتقاذفهم هنا وهناك مثل تيار يوربيوس (٣٢) من غاية الى غاية أخرى ، ولحبهم للمال وجشعهم كانوا دائما على استعداد لبيع زوجاتهم واطفالهم حتى أخرهم .

ان هذه النوعية من الاسباب هي التي منعته من المشاركة في الحملة ، ومع هذا وعلى الرغم من انه وجد أن حضوره ليس مناسبا ، فانه قدم كل مايمكن من المساعدات للفرنجة ، كما لو انه كان معهم فعلا ، وجعلت متانة أسوار نيقية الامبراطور يتأكد ان المدينة لايمكن قهرها ، وان اللاتين لايمكنهم الاستيلاء عليها ، ولدى سماعه بتقارير فيها ان السلطان كان يقوم بادخال قوات كبيرة الى المدينة ، مع امدادات الأطعمة عبر البحيرة (٣٣) ، من غير أية صعوبات ، وأن حركة الذهاب والاياب الى المدينة مستمرة ، قرر السيطرة على البحيرة والتحكم بها ، فأمر ببناء قوارب خفيفة قادرة على العوم فوق مائها ، وحملت هذه القوارب على ناقلات ، ثم القيت في اليم من جانب كيوس ، وشحنت بالجند بكامل اسلحتهم تحت إمرة مانويل بوتومايتز ، واعطاهم عددا من الرايات اكبر من المعتاد كي يبدوا من بعد وكأنهم اكثر عددا مما هم عليه حقيقة ، وهذا مافعله ايضا بالنسبة لأعداد الأبواق والطبول .

ثم صرف بعد هذا اهتمامه نحو البر فبعث بكل من تاسيوس وزخاس (٣٤) مع قوة مقدارها الفان من الرماة ، ووجههم نحو نيقية ، وكانت الأوامر الصادرة اليهما جمع كل مالديهما من نشاب وحمله على ظهور البغال ليقوموا بالاستيلاء على حصن القديس جورج ، وكان على العساكر ان يترجلوا من على خيولهم على مسافة مناسبة من أسوار نيقية ، ثم الزحف على أقدامهم نحو برج غولتاز ليتخذوا مواقعهم هناك ، و ينضموا بعد ذلك الى صفوف اللاتين و العمل تحت أوامرهم في الهجوم على الأسوار .

ونفذ تاسيتوس الأوامر ، واخبر الفرنجة بوصوله مع جيشه ، حيث لبس كل واحد منهم درعه ، وهجموا وأصواتهم مرتفعة تردد شعارات القتال ، وأطلق رجال تاسيتوس رشقات غزيرة من النشاب نحو الأسوار ، بينما تابع الفرنجة العمل لفتح ثلمة في الأسوار ، واستمروا في قذفها بالحجارة من مناجيقهم .

واصيب العدو بالهلع لدى رؤيته الاعلام الامبراطورية والأبواق ، التي كانت مع بوتومايتز الذي اختار تلك اللحظة لاخبار التركمان بوعود الامبراطور ، وضاق الحال بالبرابرة الى حد أنهم لم يعودوا يتجرؤون على النظر الخاطف من أعالي نيقية ، وفقدوا جميع الأمال بوصول السلطان ، لذلك قرروا أنه من الأفضل تسليم المدينة ، والشروع بالمفاوضات من أجل ذلك مع بوتومايتز وقام بوتومايتز ، بعد تقديم التحيات المعتادة ، باطلاعهم على صك الأمان الذي حمله اياه الكسيوس حيث لم يمنحوا فيه بوعد الأمان على أرواحهم والعفو عنهم فحسب ، بل بجوائز مجزية وأعطيات سخية من المال ، وبمعاملة مشرفة لكل من اخت السلطان وزوجته (٣٥) ، وكانت هذه الوعود والاعطيات ستمنح الى جميع البرابرة في نيقية من غير استثناء.

وبناء على وثوق أهل المدينة بوعود الامبراطور ، سمحوا لبوتومايتز بالدخول اليها ، وما ان فعل ذلك حتى بعث برسالة الى تاسيتوس يقول فيها : « الفريسة هي الآن بأيدينا ، ينبغي الاعداد لتسلق الأسوار ، ويجب اشراك الفرنجة بهذه المهمة ايضا ، لكن لاتدع لهم شيئا سوى القتال حول الشرافات ، طوق المدينة من جميع الجهات حسب الضرورة ، وابدأ عملك مع شروق الشمس » .

وكان هذا في الحقيقة نوعا من التمويه والخداع ، لجعل الفرنجة يعتقدون بأن المدينة قد سقطت الى بوتومايتز من خلال أعمال القتال ، وكانت عملية الخداع المثيرة هذه ، التي خطط لها الكسيوس بكل عناية ، تحتاج الى تغطية وستر ، وكانت رغباته

تقضي بألا يعلم الفرنجة بـأمر المبـاحاثات التـي كان يجـريها

بوتومايتز ، ومع اشراقة شمس صـباح اليوم التـالي ، دوى نفير المعركة من الجانبين من خارج المدينة حيث الفرنجة الذين اندفعـوا بشدة في عملية الحصار ، ومـن داخـل المدينة حيث الفـرنجة الذين اندفعوا بشـدة في عملية الحصـار، ومـن داخـل المدينة حيث بوتومايتز ، وقد ارتقى أعالي السور ، ووضـع هناك الصـولجان والعلم الامبـراطوريين ، وأعلن سـقوط المدينة بـواسطة البـوق والنفير ، ودخلت القوات الرومانية ـ بهذه الوسيلة ـ جميعها الى نيقية ، ومع هذا ، وبناء على المعـرفة التـامة بقـوة الفـرنجة الكبيرة ، وبطباعهم القاسية وسرعة اثارتهم وتقلبهـم ، فقـد قـدر بوتومايتز أنه قد يتيسر لهم الاستيلاء على الحصن اذا ماحصلوا في داخل المدينة ، يضاف الى هذا ان رجال الحامية التـركمانية كانوا قادرين ـ اذا مـارغبوا ـ على تقييد رجـال قـواته بـالسلاسل وقتلهم ، ذلك ان اعدادهم ، بالمقارنة مـع أعداد الرومـان ، كانت اكبر بكثير ، لهذا سـارع فـاستحوذ على مفـاتيح بـاب المدينة الوحيد ، فقد وجد أنذاك بـاب واحـد مفتـوح لدخـول الناس وخروجهم ، وكانت بقية الأبواب مغلقة خشية مـن الفـرنجة الذين كانوا وراء الأسوار ، والآن وقـد تملك مقـاليد هـذا البـاب الوحيد ، قرر على الفور انقاص تعداد قادة الحامية التركمانية ، في سبيل تجنب وقوع كارثة كبـرى ، لذلك اسـتدعاهم اليه ، واشـار عليهم بزيارة الامبراطور ، وذلك اذا كانوا يرغبـون بتسـلم كميات كبيرة من المال منه ، وأن يخلع عليهم ، وأن تسـجل اسـماؤهم في قائمة الأعطيات السنوية .

واقتنع التركمان بهذا ، وفتحت البوابة في الليل ، واندفعوا منها جماعات جماعات مابين كل جماعة وأخرى بعض الوقت ، ليأخـذوا عبر البحيرة المجاورة الى رودمير (البلغاري ـ ابن خـالي) والى قوة موناستراس ـ النصف بيزنطـي ـ التـي كانت متمـركزة في حصن القديس جورج ، وقضت أوامر بوتومايتز بـأن يتـم تـوجيه

القادة التركمان مباشرة نحو الامبراطور ، فور وصــولهم و دون أي تأخير خشية أن يجتمع تركمان مجموعة مــامع تــركمان مجمــوعة اخرى ثم سواها ممن جــاء بعــدها ، فيتآمــــروا لالحـــاق ضرر بالروم ، ولاشك ان هذا التدبير الحكيم ، يعــود الى طــول خبــرة الرجل ، فما دام القادمون الجدد يرسلون فورا الى الكسـيوس كان الروم في امان ، وليسوا معرضين لأي خطر مهمــا كان نوعه ، لكن عندما تغاضي رودمير ، وتقاعس موناستراس ، وتغافلا تعرض كل منهما للمخاطر من البرابرة الذين ابقوهم لديهم ، فلدى ازدياد تعداد التركمان خططوا للقيام بأحد عملين: إما مهاجمة الروم وقتلهم ، أو اخذهم أسرى ، وحملهم الى الســلطان ، وهــذا مــا اتفقــوا عليه بصورة جماعية ، وأن هذه هي الفكرة الأكثر صوابا ، فهــاجموهم ليلا ، وأخذوهم اسرى ، واتجهوا بهم نحو قمة تل يدعى تــل أزالا (٣٦) على بعد ثلاثمائة ذراع من أســوار نيقية ، وعندمــا وجــدوا انفسهم قد وصلوا الى هناك ، ترجلوا لاراحــة خيولهــم ، ولما كان موناستراس نصف بيزنطــي ، ويفهــم لغــة التــركمان ، وكذلك رودمير ، فقد سبق له أن وقــع أســيرا بيد التــركمان منذ زمـــن طويل ، لذلك لم يكن غريبا على اللغة التركية ، وقد حاولا بــكل مــا اوتيا من قوة أن يقنعا آسريهم بــالمحاجة قــائلين: لماذا تــريدون ســـقينا كأس الحمـــام ، دون أن تنالوا مـــن ذلك اية فـــائدة لأنفسكم ، وذلك في الوقت الذي يتمتع فيه الآخرون جميعا مــن غير تمييز ، بالجوائز العظيمة من الامبراطور ، وسجلت أســماؤهم في قائمة الأعطيات السنوية ، انتم ستحرمون أنفسكم من جميع هــذه الفوائد والمزايا ، فكروا الآن بالأمر ولا تكونوا حمقى ، خاصة وانه بإمكانكم أن تعيشوا بأمان مــن غير أن يتــدخل احـــد بشـــؤون حياتكم ، وأن تعودوا الى أوطانكم مثقلين بالثروات ، كما يمــكنكم استحواذ أراضي جديدة ، لاتلقوا بأنفسكم بمثل هذه المخاطر المؤكدة فلربما ستواجهون الروم في مكامنهم هناك ــ مشيرين الى الجداول الهابطة من الجبال ، ومنطقة المستنقعات ــ وإذا كنتــم تــودون أن تقتلوا أنفسكم ، وتفقدوا حياتكم مقــابل لا شيء ، فهناك الاف مـــن

الرجال ينتظرونكم ، ليس من الفرنجة والبرابرة فحسب ، بل من حشود الروم .

والآن إذا وددتم سماع نصيحتنا ، أديروا رؤوس خيولكم ، وتعالوا معنا الى الامبراطور ، ونحن نقسم بالله ، والله على ما نقول شهيد ، ستنالون جوائز لا عد لها ولا حصر من بين يديه ، ثم عندما تريدون مغادرته ، يمكنكم ذلك في أي وقت ، دون أن يعيقكم عائق ، فأنتم رجال أحرار ، واقنعت هذه الحجج التركمان ، وتم تبادل الايمان والعهود بين الطرفين ، حيث انطلقا نحو الكسيوس ولدى وصولهم الى بيليكانوم ، استقبلوا جميعا بابتسامة مشرقة (مع أنه كان ــ في الحقيقة غاضبا على رودمير ومونا ستراس) ، وأرسلا ساعتئذ للراحة ، وفي اليوم التالي ، تسلم جميع التركمان ــ الذين رغبوا في العمل في خدمته ــ أعطيات كثيرة ، وأما الذين رغبوا بالالتحاق بأوطانهم ، فقد تركوا ورغباتهم ، وهم أيضا لم يسافروا بجوائز قليلة ، وانتقد فيما بعد الكسيوس بشكل حاد كل من رودمير وموناستراس لغفلتها ، لكنه عندما لاحظ مقدار خجلهما ، غير موقفه نحوهما ، وأظهر عفوه ببعض كلمات الارضاء والمصالحة.

ولنعد الآن الى بوتومايتز ، فقد رقاه الامبراطور وعينه دوقا على نيقية ، وبعدما فعل ذلك ، سأله الفرنجة أن يأذن لهم بالدخول الى المدينة ، ذلك أنهم رغبوا بزيارة الكنائس المقدسة هناك ، والتعبد بها ، وكان بوتومايتز ــ كما أشرت من قبل ــ يلم تمام الالمام بأحوال الفرنجة ، ويدرك أوضاعهم ، لذلك رفض السماح لهم بالزيارة جميعا دفعة واحدة ،و اكتفى بفتح الباب والسماح بالزيارة لجماعات يتألف كل منها من عشرة.

وكان الامبراطور ما يزال في أحواز بيليكانيوم ، كما كان يود أن يقوم الأمراء الذين لم يؤدوا قسم الولاء له بعد ، بتأدية ذلك شخصيا ، وكتب تعليماته حول ذلك و بعث بها الى بوتومايتز لينصح

الأمراء بعدم السفر نحو أنطاكية قبل تقديم الولاء للامبراطور ، وأن ذلك سيكون فرصة لتلقي هدايا أعظم ، ولدى السماع باسم المال والهدايا كان بوهيموند أول من أطاع نصائح بوتومايتز ، وتشاور في الحال معهم من أجل الرجوع ، فهو - أي بوهيموند - كان فيه جشع كبير للمال وشره بلا حدود.

واستقبلهم الامبراطور بحفاوة كبيرة وابهة ، وكان واسع النشاط في شرح ما ينفعهم ، ودعاهم - أخيرا - اليه ، وخاطبهم بقوله: « تذكروا اليمين الذي اقسمتموه لي ، واذا كنتم فعلا لا ترغبون الحنث به ولا تنوون ، انصحوا كل واحد ممن تعرفونه ، لم يأخذ على نفسه القسم بعد ، أن يعجل بالقيام بذلك ، واستجابوا له ، فأرسلوا بالحال وراء هؤلاء الرجال ، الذين استجابوا جميعا وأدوا يمين الولاء فيما عدا تانكرد ، ابن أخت بوهيموند - فقد كان رجلا له روح استقلالية ، يتفاخر بأن في عنقه ولاء رجل واحد ، هوبوهيموند ، وهو يأمل بالاحتفاظ بهذا الولاء حتى يوم موته ، وتعرض تانكرد لضغط الآخرين ، بما فيهم أقرباء الامبراطور ، لكن من غير فائدة ، فقد ركز نظره على السرادق الذي جلس فيه الامبراطور لاكرام الأمراء (وهو سرادق لم ير أحد واحدا باتساعه) وقال: « لو ملأتم هذا السرادق مالا وأعطيتموه لي مع جميع المبالغ التي أعطيت الى بقية الأمراء ، عندها فقط يمكن أن أقسم يمين الولاء و هنا قام باليلوغوس و قد ضاق ذرعا بما تعرض له الامبراطور ولم يتحمل عربدته وتبجحاته ، فقام بدفعه بحنق ، وانقض تانكرد عليه مغضبا ، مما حمل الكسيوس على النهوض من على عرشه ، وسبب تدخل بوهيموند ، حيث قام بتهدئة تانكرد مخبرا اياه بأنه كان من الخطأ أن يتصرف هكذا في حضرة الامبراطور من غير مراعاة له ، وخجل تانكرد من فعلته ، وبدا كأنه رجل مخمور افقده السكر وعيه وتوازنه أمام باليلوغوس ، وسبب هذا ، مع مناقشات الآخرين اقناعه ، وحمله على أخذ يمين الولاء للامبراطور.

-٢٤٦٥-

وعندما انصرف الجميع من حضرة الامبراطور ، أمر الكسيوس تاتيشوس (وكان آنذاك قائدا عالي المرتبة) وأوعز الى القوات التي كانت تحت قيادته ، بالالتحاق بالفرنجة ، وكانت مهمة تـاتيشوس مساعدتهم وحمايتهم في كل مناسبة ، وأن يتسلم منهـم كل مـدينة يستولوا عليها ، إذا ما يسر الرب لهم ذلك.

واستأنف الفرنجة زحفهـم ثـانية ، في اليوم التـالي بـاتجاه انطاكية ، ورأى الكسيوس أنه ليس من الضرورة أن يذهـب جميع الفرنجة برفقة الأمراء ، ولهـذا أشـار على بـوتومايتز أن يقـوم باستئجار جميع المتخلفين ، ليستخدمهم في حماية نيقية ، ووصـل تاتيشوس ومعه قواته وجميع الأمراء وبصحبتهم حشودهم التـي لا تحصى الى ليوكاي في مدة يومين ، وهنا أصـبح بـوهيموند ـ بناء على طلبه ـ مسؤولا عن قيادة طلائع القوات ، بينما زحف البقية في رتل واحد ببطء ، وعندما رأى التركمان بوهيموند يزحف بشيء مـن السرعة فوق سهل دوريليوم (٣٧) خيل اليهم أن الفرصة قـد تهيأت لهم لضرب جيش الفرنجة ، وانقضوا عليه فورا غيرعابئين به.

ونسي لاتينوس ، ذلك الاحمق البليد ، الذي تجـرأ على الجلوس على العرش الامبراطوري ، نسي نصائح الامبراطور ، وركب بـكل تهور وحماقة أمـام البقية (كان على طـرف صـفوف قـوات بوهيموند) ، وقد قتل أربعون من أتباعه ، وأصيب هو نفسه بجرح بليغ ، وقد فر من المعركة ، وعاد مسرعا الى وسط الجيش ، وكان عمله هذا شهادة ملموسة على حكمه الكسيوس وصحة أرائه ، لكنه لم يعترف بذلك بكلماته ، وعندمـا رأى بـوهيموند شـدة هجـوم التركمان ، أرسـل يطلب النجـدة ، ووصـلت اليه النجـدات بسرعة ، وغدت الملحمة منذ تلك الساعة قتالا محموما مريرا ، وقـد انتهى ذلك القتال العنيف بنصر الروم والفرنجة.

وجرى بعد هذا متابعة الزحف ، إنمـا روعي الآن أن تـكون كل فرقة على اتصال بالفرقة الأخرى ، وقد التقوا عند هرقلية بالسلطان

« تنيسمان وحسن (٣٨) » وكان يقود بمفرده ثمانين الفا من الرجالة كل منهم شاكي السلاح ، ووقع قتال شديد بين التركمان والفرنجة ، ليس بسبب الأعداد الكبيرة التي تورطت بالقتال فحسب ، بل لثبات كلا الطرفين وصبرهما ، وكان التركمان يقاتلون باندفاع شديد ، وفي المقابل كان بوهيموند يقود ميمنة الفرنجة ، ولما لاحظ هذا الوضع ، انفصل عن بقية الجيش ، واندفع منقضا على قلج ارسلان « مثل أسد كان يجرب قوته كلها » ـ حسب قول الشاعر (٣٩) ـ ، وكان لهذا تأثير مريع على الأعداء ، فلاذوا بالفرار ، وتنكر الفرنجة وصايا الامبراطور ، فلم يقوموا بمطاردة الاعداء بعيدا ، بل احتلوا خندق التركمان واستراحوا هناك لوقت قصير ، ثم اصطدموا ثانية بالتركمان على مقربة من اغوستوبولس ، واشتبكوا معهم ، وهزموهم مجددا بشكل ساحق ، واختفى إثر هذا البرابرة ، و تفرق الناجون منهم من القتال في جميع الاتجاهات ،و يلاحظ بالنسبة للمستقبل أنه لم يعد لديهم المقدرة حتى على النظر الى وجوه اللاتين.

وتساءل عما حدث بعد هذا ، الذي حدث أن اللاتين مع الرومان وصلوا الى انطاكية عبر ما يدعى « الطريق السريع » وقد تجاهلوا المنطقة على الجانبين واهملوها ، وقاموا بحفر حفرة كبيرة ، على مقربة من أسوار المدينة ، وأودعوا فيها أوعيتهم وحاجياتهم ، ثم بدأ حصار انطاكية ، واستمر هذ الحصار لمدة ثلاثة اشهر قمرية (٤٠) ، وضاق التركمان بالأحوال الصعبة التي وجدوا أنفسهم فيها . وبعثوا برسالة الى سلطان خراسان يطلبون منه انجادهم بما يلزم من الرجال لمساعدتهم في الدفاع عن اهل انطاكية ، وطرد المهاجمين اللاتين المتولين لحصارهم ، وحدث أن كان واحد من الأرمن (٤١) مسؤولا عن واحد من أبراج المدينة ويتولى شؤون الدفاع عن جزء من السور كان قد عهد الى بوهيموند بمهاجمته ، واعتاد هذا الرجل على الانحناء من فوق السور ، وتمكن بوهيموند عن طريق لطيف العبارات والاطراء والوعود الخلابة والضمانات ، أن يقنعه بتسليم البلد اليه ، ووعده

الأرمني بقوله : « متى وددت ، أعطني من الخارج اشارة سرية ، وأنا سأتخلى لك حالا عن هذا البرج الصغير ، وما عليك الا التأكد من استعدادك ، وكذلك جميع الرجال الذين في خدمتك ، وهيء السلالم واجعلها جاهزة للاستخدام ولا تكن وحدك مستعدا ، بل جميع رجالك وهم في السلاح الكامل ، حتى عندما يراكم التركمان على سطح البرج ، وانتم تصرخون صرخات حربكم ، فإنهم سيفرون هلعين ».

واحتفظ بوهيموند بخبر هذه الاعدادات لنفسه ،ووصل والأحوال على ماهي عليه رجل يحمل أخبارا فيها بأن قوات كبيرة من المسلمين ، حان وقت وصولها قادمة من خراسان ، وانها ستحارب الفرنجة ، واسم قائدها كربوقا (امير الموصل) .

وعلم بوهموند بهذا ، ولما كان لايرغب بتسليم انطاكية الى تاتيشوس (كما كان يفترض عليه أن يعمل لو اراد الا يحنث بأيمانه للامبراطور) ويريدها لنفسه ، فقد أبدع خطة شيطانية لابعاد تاتيشوس طواعية من قبل نفسه ، فقد دنا منه وقال :« بودي أن أبوح لك بسر ، لانني أجد نفسي مسؤولا عن سلامتك ، لقد وصل تقرير مزعج جدا الى مسامع الأمراء ، بأن السلطان بعث بهؤلاء الرجال من خراسان ضدنا ، بناء على طلب من الامبراطور ، ويعتقد الأمراء بصحة هذه الرواية ، وهم لهذا يتآمرون لقتلك ، والآن لقد قمت بما هو متوجب علي لتحذيرك ، إن الخطر وشيك ، والبقية عليك ، فاختر ماتراه مفيدا لك ، وفكر بأمر حياتك وحياة رجالك » .

وكان تاتيشوس يواجه مصاعب أخرى غير هذه ، فقد كانت هنالك مجاعة كبيرة (بيع راس الثور بثلاث قطع ذهبية) وكان يائسا من الاستيلاء على انطاكية ، لذلك غادر المنطقة ، وركب هو

ورجاله الرومان السفن الراسية في مرفأ السويدية ، وأبحر الى قبرص.

و بعد مغادرته ، ظل بوهيموند محتفظا بسر وعد انطاكية له ، و كان يخفي بنفسه أمالا كبيرة ، بالاحتفاظ بحكم انطاكية لنفسه ، لذلك توجه الى الأمراء بقوله :« انكم ترون كم من الوقت امضينا بين هذه الرزايا ، وحتى الآن لم ننل نجاحا ما ، والمتبقي هو الأسوأ ، فقد نصبح عما قليل ضحايا للمجاعة ، مالم نعمل شيئا مفيدا يضمن سلامتنا » وعندما سألوه : ماذا تقترح ؟ تابع كلامه قائلا :« لم يهب الله الانتصارات جميعها عن طريق السيف ، ولم يتم الوصول الى مثل هذه النتائج دائما من خلال المعركة ، فالذي لم يتم الحصول عليه من خلال الكفاح ، غالبا ماتم الحصول عليه بيسر من خلال المباحثات ، فغالبا ماأعطت التحركات الدبلوماسية مرابح افضل ، وعندي انه لمن الخطأ اضاعة الوقت من غير هدف ، علينا الاسراع للعمل على ايجاد طريقة معقولة و شجاعة ننقذ بها انفسنا قبل وصول كربوقا ، وانا اقترح أن يبذل كل منا المستطاع من مجهوده كيما يكسب او يستميل اليه واحدا من البرابرة القائمين على الحراسة ، وليجرب ذلك كل واحد منا في قطاعه ، واذا وافقتم على هذا ، فلتكن جائزة أول رجل ينجح في هذا السبيل ، أن يصبح حاكما للمدينة – أعني حتى وصول الرجل الذي سيعينه الامبراطور ليتسلمها منا ، وبالطبع من الممكن ان كل هذا لن يفيدنا في شيء » .

ذلك أن بوهموند الذي تعشق السلطان ، واحب السلطة ، أحب ذلك لنفسه فقط ولصنع الأمجاد لها ، وليس لصالح اللاتين ومنفعتهم العامة ، ولم تخفق خططه ومؤامراته وأعمال خداعه ، ونشر اخبار قصة ماحدث يوضح ذلك :

فقد وافق الأمراء بالاجماع على خطته وانطلقوا نحو العمل ، ومع انبلاج نور الصباح مضى بوهيموند في الحال نحو ذلك البرج (٤٢) ، وقام الارمني بتنفيذ الاتفاق ففتح الأبواب ، ومكن منه

بوهموند ، فقفز الأخير بشكل سرعة ونشاط يتبعه اصحابه ، وصعدوا الى قمة البرج بما أمكن من سرعة ، ورأى المهاجمون الفرنجة والمحاصرون التركمان كل من جانبه بوهيموند واقفا هناك على شرفة البرج ، وهو يأمر النفار بضرب نفير المعركة .

لقد كان مشهدا خارقا للعادة ، فقد أصاب الهلع التركمان فتوقفوا عن القتال ، وفروا عبر الأبواب يذشدون السلامة خارج المدينة ، محاولين النجاة بحشاشة انفسهم ، وبقي هناك فقط حفنة من الرجال الشجعان في حراسة القلعة والدفاع عنها .

واقتفى الفرنجة خارج المدينة خطا بوهموند فتسلقوا الأسوار بواسطة السلالم ، وتمكنوا بسرعة متناهية من الاستيلاء على المدينة ، وفي الوقت نفسه ، لم يضع تانكرد فرصته فقام على رأس فرقة كبيرة من الفرنجة بمطاردة الفارين من التركمان ، حيث قتل وجرح أعدادا كبيرة منهم ، وهكذا عندما وصل كربوغا على رأس الوفه المؤلفة من العساكر ، وجد الموقع قد سقط لتوه للأعداء ، فقام بحفر خندق أودع فيه معداته ، واقام معسكره ، واستعد لحصار المدينة ، إنما قبل ان يبدأ الحصار ، قام الفرنجة بعدة اغارات ووقعت عدة معارك شديدة انتصر فيها التركمان ، فاضطر الفرنجة إثرها الى البقاء وراء أبواب المدينة معرضين للمخاطر من جهتين : من المدافعين عن القلعة (فالبرابرة ظلوا مسيطرين عليها) ومن التركمان من وراء الأسوار .

ومن جديد توجه بوهيموند ، الذي كان رجلا بارعا

يرغب أولا وقبل كل شيء في تأمين حكم انطاكية لنفسه ، توجه بالخطاب الى الأمراء قائلا: « لايصح أن يقاتل جميع الرجال على جبهتين ، اي يقاتلوا هم أنفسهم ضد الأعداء في الخارج وفي الداخل في الوقت نفسه ، ينبغي علينا أن نقسم قواتنا الى قسمين غير متساويين ، لكن متعادلين مع الأعداء الذين يوجهونا ، ومن ثم

نشرع بالقتال ضدهم ، ستكون وظيفتي القتال ضد المدافعين عن القلعة ، هذا اذا وافقتم على ذلك ، وستكون مهام البقية التكفل بالتصدي للعدو من الخارج ، ومهاجمته بشكل عنيف.

ووافق الجميع على فكرة بوهيموند ، وقام هو على الفور ببناء سور مقابل للقلعة ، وبذلك عزلها تماما عن بقية أنطاكية ، وعندما اكتمل بناؤه ، تحول هذا السور إلى خط حربي فعال ، وآنذاك غدا بوهيموند أشبه بالمتحكم بها ، وراقبها بشكل مستمر من غير راحة ، واستمر يضغط بشدة على المدافعين عنها مستخدما كل وسيلة ممكنة ، وقد حارب بكل شجاعة ، واهتم كل واحد من بقية الأمراء اهتماما شديدا بالقطاع الذي عهد به إليه ، فدافعوا عن المدينة من جميع الجهات وتفحصوا الدفاعات وشرافات الأسوار للتأكد من أن البرابرة في الخارج لن يتمكنوا من تسلق الأسوار بوساطة السلالم ، وبالتالي لن يستطيعوا الاستيلاء على المدينة ، كما أنهم بعملهم هذا حالوا بين أي إنسان وبين الصعود إلى الأسوار من الداخل للاتصال بالأعداء ، والاعداد لعمل خياني .

وبينما كانت هذه الأمور جارية في انطاكية ، اهتم الامبراطور شخصيا بتأمين المساعدات للفرنجة ، لكن النهب التام الذي لحق بالمدن الساحلية والمناطق المجاورة لها اعاقه على الرغم من تلهفه الشديد ، فزاخاس كان قد استولى على سميرنا (٤٣) ، وجعلها كما لو كانت من أملاكه الخاصة ، واحتجز تنجري بيرمس (٤٤) مدينة أفسوس (٤٥) القريبة من البحر ، والتي بني فيها فيما مضى كنيسة كرست على اسم الرسول يوحنا عليه السلام ، واستولى الأمراء التركمان واحدا تلو الآخر على المراكز الحصينة ، وعاملوا المسيحيين معاملة العبيد ، ونهبوا كل شيء حتى إنهم استولوا على جزيرتي خيوس ورودس (في الحقيقة على بقية الجزر ايضا) وبنوا هناك عددا من سفن القرصنة ، ونتيجة لهذا رأى الامبراطور ضرورة الاهتمام أولا بالجانب البحري ، والتعجيل بمعالجة مسألة زاخاس ، وعليه قرر أن يمركز قوة مناسبة على اليابسة مع اسطول

قوي ، وعهد إلى هذه القوى بمهمة ضد البرابرة ، ومنعهم من شن الغارات ، وكان ــ في الوقت نفسه ــ سيقوم هو بنفسه بقيادة بقية قواته نحو انطاكية ، حيث سيقاتل التركمان على الطريق كلما تهيأ له ذلك ، وقام باستدعاء جون دوقاس ــ أخي زوجته ــ وعهد إليه بقيادة القوات التي حشرت من مختلف المناطق ، مع مايكفي من السفن ، ليقوم بحصار المدن الساحلية ، وأعطاه زاخاس التي كانت قد وقعت بين الأسرى الذين وجدوا في ذلك الحين في نيقية ، وكانت الأوامر المعطاة إلى جون تقضي بأن يعلن على الملأ ، خبر الاستيلاء على نيقية ، وإذا لم يتم تصديقه ، يقوم بعرض السيدة التركمانية أمام أمراء التركمان والبرابرة الذين كانوا يعيشون في المناطق الساحلية ، وقد رجا من وراء عمله هذا ، أن يصدق الأمراء الذين كانوا مسيطرين على المناطق المذكورة ، عندما يرونها بأن المدينة قد سقطت فعلا ، وسيقومون بالتسليم من غير قتال ، بل من باب اليأس وانقطاع الأمل ، وهكذا توجه جون مزودا بشكل جيد بجميع أنواع المؤن ، هذا وسأبين فيما يلي عدد انتصاراته التي حازها في حروبه ضد زاخاس ، وسأقص أخباره وكيف تمكن من طرده من سميرنا .

وقام جون بوداع الامبراطور ، وغادر العاصمة ، وعبر عند ابيدوس ، وكان كاسباس قد جرى تعيينه قائدا للأسطول ، وعهد إليه بالشؤون البحرية العائدة للحملة ، وقد وعده جون بأنه إذا ماقاتل بشكل جيد ، سيقوم بتعيينه واليا على سميرنا نفسها (عندما يتم استردادها) مع جميع المناطق المجاورة لها ، وبينما ابحر كاسباس على راس قواته البحرية ، بقي جون على اليابسة ، وقام بمماشاته عن قرب ، وقد شهد اهالي سميرنا وصول كاسباس وجون معا ، وقام جون بضرب معسكره على مقربة من الأسوار ، بينما قام كاسباس بإرساء سفنه في الميناء ، وكان الناس في سميرنا يعرفون خبر سقوط نيقية ، ولم تكن لديهم رغبة في القتال ، وقد فضلوا الشروع بالمفاوضات في سبيل الصلح ، ووعدوا بالتخلي عن المدينة ، وبتسليمها إلى جون بدون حرب وسفك دماء ، إذا ما أقسم

لهم بأنه سيدعهم يعودون إلى مواطنهم امنين دون أن يتعرضوا لأذى ، ووافق دوقاس واعطى وعده بأن مطالب زاخاس ستنفذ كلها حرفيا ، وهكذا ادلى العدو سلما تسلقه كاسباس وبذلك غدا الحاكم الاعلى على سميرنا . ووقع في تلك الساعة حادث ، سأقوم الآن بروايته

عندما ترك كاسباس جون دوقاس ، جاء إليه واحد من أهالي سميرنا ، وتقدم إليه بشكوى ادعى فيها بأن واحدا من المسلمين السوريين قد سرق منه خمسمائة قطعة ذهبية ، وقرر كاسباس النظر في القضية ، وأمر أن يمثل الفريقان امامه للمحاكمة ، وتم جر السوري جرا ، وجلب قسرا ، وبالقوة ، ولهذا خيل إليه انه مأخوذ للاعدام ، فقام وهو يائس من الحياة باستلال خنجره وغرسه في بطن كاسباس ، ثم انعطف فطعن أخا الوالي في خاصرته ، وتبع هذا فوضى كبيرة ، وفر الرجل المسلم ، وهنا دخل بحارة الأسطول جميعا ، بما فيهم المجنفين ، المدينة بشكل فوضوي ، فذبحوا كل من وجدوه فيها من غير شفقة ، وإنه لمنظر مؤسف ، ففي غمضة عين ، تم قتل عشرة الاف .

وقد حزن جون دوقاس لمقتل كاسباس ، وقام مرة ثانية بصرف عنايته كلها ، لبعض الوقت ، لحل مشاكل سميرنا ، فدخل المدينة ، وتفحص دفاعاتها بشكل دقيق ، وتلقى معلومات دقيقة عن مشاعر اهاليها واحاسيسهم ، واقتضت الحال ترشيح رجل شجاع للولاية ، ووقع اختيار جون على هيلاس ، الذي كان جنديا شجاعا ، ومرشحا مناسبا للوظيفة ،فعينه واليا جديدا .

وخلف جون جميع الاسطول في سميرنا لحمايتها ، وقام هو بالزحف نحو أفسوس ومعه الجيش ، وكانت افسوس انذاك بيد تنجري بيرمس ومرقس ، وقد عرف العدو خبر اقترابه ، فقام بإعداد قواته ، وعبأها بالسلاح الشاكي ، وصفها للمعركة في منبسط خارج المدينة ، ولم يضع جون لحظة واحدة ، بل ركب

ورجاله ، وحمل عليهم بصفوف منتظمة ، وتبع ذلك قتالا شديدا استمر سحابة النهار ، والتحم الطرفان بنزال لم تعرف نتيجته ، لكن عندما انعطف التركمان ، فرو بكل سرعة ممكنة ، فقتل كثير منهم هناك ، وتم أسر عدد كبير ليس من بين الجنود العاديين ، لكن من بين القادة ، وقد وصل العدد حتى الالفين .

ولدى سماع الأمبراطور بخبر هذا النصر ، أعطى أوامره بتوزيعهم بين الجزر ، ومضى الناجون من التركمان عبر نهر مناندر نحو بوليبوتوس(٤٦) ، و اتخذوا موقف المترقب ، مخيلا لهم أنهم، بعدوا عن أثار جون دوقاس ، لكن الأمر لم يجسر كذلك ، فقد ترك جون « بتزاس » في ولاية المدينة واخذ معه جميع الرجالة ، وانطلق في عملية المطاردة ، وزحفت قواته بنظام جيد ، ولم يكن هناك اية فوضى ، وفي الحقيقة اتبع جون تعليمات الأمبراطور وتحكم بالزحف بسلوك وانضباط لايتمتع به إلا القادة المجربون ، وكما سلف القول شق التركمان طريقهم عبر نهر منادر من خلال البلدان المجاورة حتى وصلوا إلى بوليبوتوس ، ولم يسلك جون الطريق نفسه ، بل سار عبر طريق اقصر حيث استولى على ساردس وفيلادلفيا (٤٧) على حين غرة ، وعهد فيما بعد إلى ميخائيل كومينوس بالدفاع عنهما ، وعندما وصل جون إلى لوديقيا خرج جميع السكان في الحال لاستقباله ، فعاملهم بمثابة الفارين من وجه العدو ، والمهاجرين له وشجعهم ، وسمح لهم بالسكنى في اراضيهم من غير تدخل بشؤونهم حتى إنه لم يعين واليا عليهم ، ومضى من هناك ، وشق طريقه من خلال خوما ، واستولى على لامب حيث عين بوستاثيوس كامينوس قائدا عسكريا ، وعندما وصل أخيرا إلى بوليبوتوس وجد هناك جماعة كبيرة من التركمان ، فقام بمهاجمتها فور تنزيلها لأحمالها ، وحدث قتال سريع ، اعطى نصرا حاسما ، حيث قتل فريق كبير من التركمان ، وتم الاستيلاء على كميات من الغنائم تتناسب مع اعدادهم .

ولم يكن جون قد عاد بعد ، حيث كان مايزال يكافح ضد

التركمان ، وذلك عندما اصبح الامبراطور جاهزا للزحف لتقديم العون إلى الفرنجة في منطقة أنطاكية ، وبعدما أزاح كثيرا من البرابرة من طريقه ، وصل الامبراطور إلى فيلوملبون (٤٨) مع جميع عساكره ، وقد جرى نهب عدد كبير من المدن التي كانت في السابق بيد التركمان ، وهناك التحق به غليوم دي غرانتسنيل ، وايتين كونت فرنسا وبيبردي البس (٤٩) قادمين من انطاكية ، فقد تدلوا من أسوارها بواسطة حبل ، وجاؤوا إلى طرسوس ، وقد علم منهم بأن الفرنجة اصبحوا في حالة ميئوس منها ، وأكدوا له بالأيمان بأن الانهيار كان كاملا ، ولهذا تلهف الامبراطور أكثر من ذي قبل للاسراع نحوهم بغية تقديم العون لهم ، كل ذلك على الرغم من المعارضة العامة لمثل هذه المغامرة .

وانتشرت آنذاك اقاويل واسعة تحدثت عن هجوم مرتقب لحشود لاتحصى من البرابرة ، ذلك أن سلطان خراسان قام ، بناء على ماسمعه من أخبار توجه الامبراطور الكسيوس نحو الفرنجة بغية إمدادهم والتفريج عنهم ، قام بإرسال ابنه اسماعيل وبصحبته قوات ضخمة ، وكانت الأوامر المعطاه إلى اسماعيل تقضي بأن يعترض طريق الامبراطور قبل وصوله إلى أنطاكية ، ودفعت الاخبار التي حملها الفرنجة من انطاكية ، مع أخبار قرب وصول اسماعيل دفعت الامبراطور إلى إعادة النظر بالخطط المرسومة من اجل إنقاذ الفرنجة .

لقد كان الامبراطور كله رغبة وشوق إلى سحق هجوم التركمان ، وطبعا وضع نهاية لقائدهم كربوقا ، ونظر إلى المستقبل متوقعا : أن إنقاذ المدينة التي استولى عليها الفرنجة حديثا ، لكن أمورها لم تستقر بعد ، وهي محاصرة من المسلمين ، هو امر ممكن ، لكن الفرنجة قد فقدوا كل أمل في إنقاذ انفسهم ، وكانوا يخططون للتخلي عن دفاعاتهم وتسليمها إلى أعدائهم ، مركزين اهتمامهم على الاحتفاظ بحياتهم عن طريق الهرب ، .

في الحقيقة ، إن الفرنجة جنس متميز ، ولهم من الصفات : روح

فردية مستقلة متهورة ، ترفض رفضا قاطعا الانصياع إلى أنظمة فنون الحرب ، فعندما توشك الحرب على الاشتعال ويوشك القتال على الوقوع ، تراهم مندفعين بحماس لايقاوم (وهذا أمر واضح ليس بين جميع المراتب فقط بل حتى بين صفوف القادة أيضا) ، تراهم يندفعون نحو قلب صفوف الأعداء بشكل شديد الهول ، بحيث تزول أمامهم كل مقاومة ، لكن إذا حدث وأقام لهم أعداؤهم كمائن فيها عساكر بارعين ، يستطيعون القتال بشكل نظامي ، فإن شجاعتهم ستتلاشى كلها ، وبشكل عام نجد أن الفرنجة ليس لهم من يوازيهم في قتال الفرسان ، لكن على الرغم من هذا ، فإنه بسبب وزن أسلحتهم ، وما اتسموا به من تهور وعدم انتظام ، نجد أنه من السهل انزال ضربة بهم .

ولم يكن لدى الامبراطور ما يكفي من القوات للتصدي لأعدادهم الكبيرة ، أو لتغيير طباعهم ، أو دفعهم لتبني سياسة حكيمة عن طريق النصيحة والمنطق ، لهذا كله رأى الامبراطور أنه من غير المفيد متابعة سيره ، فهو قد يفقد القسطنطينية وانطاكية معا ، بسبب شدة رغبته في الحفاظ عليهما ، وكان يخشى حشود التركمان الكبيرة إذا ما نزلت عليه الآن ، فإن الناس الذين يعيشون في فيلوميلون سيكونون طعمة لسيوف البرابرة .

وقرر تحت معطيات هذه الظروف ، أن يعلن للجميع خبر زحف المسلمين ، وتم الاعلان في الحال بأن على كل رجل وامرأة مغادرة المكان قبل وصولهم ، وبذلك ينقذون حياتهم وانفسهم وما أمكن حمله من مقتنياتهم ، وقد اختار جميع السكان نساء ورجالا ، اللحاق بالامبراطور دونما تأخير (٥٠) ...

فهذه إذن الاجراءات التي اتخذها ألكسيوس تجاه الأسرى ، ثم قام بفرز قطعة من الجيش ، قسمها إلى مجموعات صغيرة ، أرسل كل منها في اتجاه مختلف من الاتجاهات للقتال ضد المسلمين حيثما وجدوهم يقومون بأعمال السلب والنهب ، وكان عليهم إيقاف التركمان ومنعهم بالقوة ، واعد الكسيوس بنفسه العدة للعودة إلى

القسطنطينية ومعه جميع أسرى البرابرة والمسيحيين الذين انضموا إليه ، ووصلت أخبار نية الامبراطور المغادرة وقصده العاصمة ، إلى مسامع الامير إسماعيل ، وسمع ايضا اخبار المذبحة الكبرى التي وقعت إثر ذلك مع اخبار التدمير الكامل للعديد من المدن اثناء الزحف كما علم بأن الكسيوس على وشك العودة ومعه كميات كبيرة من الغنائم والأسرى ، وبهذا تحرج وضع اسماعيل حيث لم يترك له شيئا يفعله ، فقد فقد صيده الثمين ، لهذا غير منحى مسيرته ، وقرر محاصرة بيبرت ، التي جرى احتلالها منذ وقت وجيز من قبل القائد الشهير ثيودور غابراس ، وتوقفت قوات التركمان جميعها عند النهر الذي يجري قريبا من ذلك الموقع ، ولم يعرف غابراس هذه القوات ، وكان قد قرر ان يكبسها ليلا ، ويهاجمها على حين غرة ، إن خاتمة اعمال غابراس مع اصله ، وصفاته ، هي موضوعات ستم الحديث عنها في مكان مناسب من هذا التاريخ ، فالذي علينا القيام به الآن هو استئناف قص روايتنا.

وكان الحصار قد اشتد على الفلنجة ، وفتكت بهم المجاعة ، وهنا انعطفوا نحو بطرس الناسك ، الذي كان قد هزم في السابق قرب هيلينبوس (كما سبق وأوضحنا) وسألوه تقديم المشورة وبذل النصيحة ، فأجابهم بقوله : « لقد وعدتم بأن تبقوا نفوسكم نقية حتى ساعة وصولكم إلى القدس ، لكنكم حنثتم بوعودكم وأظن أنه لهذا السبب توقف الرب عن مساعدتنا كما فعل من قبل ، عليكم بالعودة ثانية إلي الرب ، وتضرعوا إليه بالبكاء وطلب غفران الذنوب ، وانتم ترتدون الأطمار وتذرون على رؤوسكم الرماد ، وبرهنوا على توبتكم بذرف الدموع ، وبإمضاء الليالي بالتضرع ، وطلب المغفرة ، وعندها سأنضم أنا بدوري إليكم ، واستمطر لكم رضى السماء ، وأتوجه بالدعاء من أجلكم » .

وأصغوا جميعا إلى نصيحة راهبهم الكبير ، وبعد مرور عدة أيام جاء هاتف إلى بطرس فحركه إلى حد انه استدعى كبار الأمراء ، وأمرهم بأن يحفروا على يمين المذبح (٥١) ، فهناك

سيجدون ــ كما أخبرهم ــ المسامير المقدسة (٥٢) ، ونفذوا ماطلبه منهم ، لكنهم لم يجدوا شيئا ، لذلك عادوا اليه حانقين يائسين ، فقام اثر ذلك يصلي بحرارة اشد من ذي قبل ، ثم امرهم بالتفتيش ثانية بشكل دقيق ، والتمحيص بكل عناية ، ومرة ثانية نفذوا اوامره بحذافيرها ، ووجدوا في هذه المرة ماكانوا يبحثون عنه ، وسارعوا الى اعطائه الى بطرس (٥٣) وهم في غاية السرور والغبطة والجيشان العاطفي الديني ، وعهد بعد هذا بالمسامير المقدسة ، الى صنجيل ، ليحملها اثناء المعركة ، لانه كان اكثر نقاوة من البقية .

وخرج الفرنجة في التالي مغيرين على التركمان من احد الابواب السرية للمدينة ، وكانت هذه هي المناسبة التي سأل فيها كونت اوف فلاندرز (٥٤) بقية الامراء ان يمنحوه مطلبا واحدا وذلك بالسماح له بأن يركب امام الجميع ، ويحمل على العدو ومعه ثلاثة رفاق ، وقد منح مطلبه هذا ، وعندما اصطف الجيشان المتعاديان أمام بعضهما بعضا ، استعدادا للمعركة ، ترجل وركع على الارض ، وصلى للرب ثلاث مرات ، وتوجه اليه بالدعاء طالبا منه العون ، وعندما صرخ الجميع بصوت واحد « الرب معنا » ، حمل بما امكنه من السرعة ، وتوجه نحو كربرقا الذي كان واقفا على رأس تل هناك ، وتمكن اثناء حملته من صرع كل من اعترض سبيله ، والقى هذا الرعب في قلوب التركمان ، فشرعوا بالفرار ، حتى قبل ان يبدأ القتال و انه من الواضح ان قوة سماوية كانت تساعد المسيحيين ، زد على هذا انه اثناء الفوضى ، التي نجمت عن فرار البرابرة ، جرف تيار النهر معظمهم فغرقوا ، وتراكمت جثث الموتى الى درجة انها كونت جسرا للذين جاؤوا بعدهم ، وبعد ما قام الفرنجة بمطاردة التركمان الى مسافة مناسبة ، عادوا نحو خندقهم حيث وجدوا جميع امتعتهم وغنائمهم التي جلبوها معهم ، وصحيح ان الفرنجة ملكوا الرغبة في الاستيلاء على ذلك ونقله فورا ، لكن نظرا لضخامة حجم الغنائم ، فهم ملكوا ــ بكل صعوبة ــ القدرة على نقلها الى دا ل انطاكية خلال ثلاثين يوما ، ومكثوا هناك بعضا من الوقت للاستجمام والراحة من

عناء الحرب ، و البحث في الوقت نفسه في أمر أنطاكية و مستقبلها فقد وجدت حاجة لتعيين حاكم جديد لها ، و قد وقع اختيارهم على بوهيموند الذي كان طلب هذا المنصب قبل سقوط المدينة ، وتم منحه سلطات كاملة ، وانطلق بعد ذلك الاخرون شاقين طريقهم نحو القدس ، وجرى الاستيلاء على عدد من المواقع الساحلية الحصينة الواقعة على الطريق ، لكن الاماكن ذات الحصانة الشديدة ، والتي تحتاج الى وقت اطول لحصارها ، جرى تجاهلها الان ، من قبلهم ذلك انهم كانوا مسرعين ، ولديهم رغبة شديدة بالوصول الى القدس
ولدى وصولهم اليها حاصروها ، وبعد عدة هجمات ، وحصار استمر شهرا قمريا سقطت المدينة (٥٥) وجرى هناك ذبح كثير من المسلمين والعبرانيين الذين كانوا فيها ، وعندما انتهى امر الاستيلاء عليها ، وقضي على جميع اعمال المعارضة ، جرى تتويج غودفري ملكا عليها ، ومنح صلاحيات كاملة .

وتم اخبار أمير المؤمنين المتربع على عرش بابليون (القاهرة) بغزو الفرنجة ، كما سمع بان القدس قد جرى الاستيلاء عليها من قبلهم ، وان انطاكية ذاتها قد احتلت مع عدد كبير اخر من مدن المنطقة ، وبناءعليه حشد جيشا من الارمن والعرب والمسلمين والتركمان ، وارسلت هذه القوة لحرب الفرنجة ، وقام غودفري باستنفار بني قومه ، وتوجه على رأسهم نحو يافا منتظرا الهجوم ، ثم تحول فيما بعد الى الرملة ، وهي المدينة التي استشهد فيها جورج العظيم ، وقاتل الفرنجة هناك ضد جيش امير المؤمنين ، ونالوا نصرا سريعا ، لكن في اليوم التالي ، لحقت طلائع الجيش المصري بمؤخرة الفرنجة ، فانزلت بها ضربة قاسية ، واجبرت افرادها على الفرار بانفسهم نحو الرملة ، ولم يكن الكونت بلدوين بين الحضور ، فهو قد نجا ، ليس جبنا وفرارا ، بل كان قد ذهب للبحث عن وسائل اكثر جدوى لتأمين سلامته وسلامة الجيش ضد المصريين ، وقام المصريون بحصار الرملة ، ومالبث ان استولوا عليها ، وقد قتل كثير من الفرنجة انذاك ، لكن الذين اسروا وارسلوا الى مصر كانوا اكثر عددا ، وتوجهت القوات المعادية جميعها من الرملة وكرت منحرفة

لحصار يافا ، وهذه طريقة حربية من طرائق البرابرة الغادية المتبعة وقام بلدوين بزيارة جميع المدن التي استولى عليها الفرنجة ، وجمع عددا ليس بالكبير من الفرسان والرجالة ، المهم في الامر انه اصبح لديه قوة يمكن الاعتماد عليها ، وقام بالزحف ضد المصريين وهزمهم بشكل حاد .

و سببت اخبار الكارثة التي نزلت باللاتين في الرملة هزة حزن عميقة للامبراطور ، ولم يستطع تحمل اخبار الامراء الذين وقعوا بالاسر (٥٦) . فبالنسبة له بدا هؤلاء الرجال ، وهم في ريعان الشباب ، في ذروة نشاطهم وقوتهم وكل منهم من اصل نبيل ، يعادلون ابطال السلف الاوائل ، لذلك راى انه ينبغي عدم بقائهم مدة اخرى اطول في الاسر في بلاد غريبة ، ولهذا قام باستدعاء برداس ، واعطاه كمية كبيرة من المال لفاداتهم ، وقبل ان يبعث به ليسافر الى القاهرة ، زوده برسالة موجهة الى امير المؤمنين تتعلق بموضوع الكونتات الأسرى ، و قرأ أمير المؤمنين الرسالة ، وقام باطلاق سراح الاسرى بلا مقابل ، ومنحهم حرياتهم بكل سرور ، فيما عدا غودفري الذي كأن اخوه بلدوين قد اشترى حريته ، (وعاد برداس بهم) وجرى استقبال للكونتات لائق بمكانتهم ، وتم الترحيب بهم من قبل الامبراطور في القسطنطينية ، وقد منحهم كمية كبيرة من المال ، وبعدما نالوا قسطا من الراحة واستجموا بعث بهم الى ديارهم ، وهم في غاية السرور ، للمعاملة التي لقوها منه ، اما بالنسبة لغودفري فقد اعيد ملكا على القدس ، وقام بارسال بلدوين الى الرها ، واصدر الامبراطور في هذه الأونة تعليماته الى صنجيل بالتنازل عن « اللاذقية » وتسليمها الى ادرونيكوس وتسليم مناطق مرقية وبانياس الى عمال يوماثيوس ، الذي كان انذاك حاكما لقبرص ، وكان على صنجيل ان يتابع زحفه بعد ذلك ، ويقاتل جهد طاقته بغية الاستيلاء على مناطق اخرى حصينة ، ونفذت هذه الاوامر حرفيا ، وقام بعد تسليم الاماكن المذكورة انفا بالتوجه الى انطرطوس ، فاستولى عليها دون سفك للدماء .

ودفعت هذه الاخبار اتابك دمشق للزحف ضده ، ولم يكن بامكان صنجيل التصدي لقوات دمشق التي كانت قوية وكبيرة العدد ، فقـام بابداع خطة تدل على نكائه ، لكن ليس على شـجاعته ، فقـد وثـق باهالي انطرطوس ، واخبرهم انه سيختبيء في زاوية من زوايا احد الابراج الكبيرة ، وقال لهم : « عليكم عندما يصل اتابك الا تخبـروه الصدق ، بل قولوا انني خفت وفررت بعيدا » ، ولدى وصـول اتـابك سالهم عن صنجيل ، فاقنعوه انه قد فر حقيقة ، وكان اتـابك متعبـا بعد زحفه الطويل ، فقام بنصب خيمة قرب الاسوار ، واظهر له اهل البلدة كل علائم الصداقة ، وقام التركمان الذين لم يرتابوا بـالامر ، بترك خيولهم وتسريحها لترعى في السـهل ، وفي منتصـف النهـار ، عندما كانت الشمس تبعث باشعتها من قبة السماء ، قام صـنجيل ، وهو بكامل سلاحه ، ومعه رجاله ، وكان عددهم حوالي الاربعمائة ، قام بالاندفاع فجأة مـن خـلال احـدى البـوابات ، وانقـض على المعسكر ، وحاول بعض الرجال الشجعان التصدي له والقتـال غير هيابين ولاابهين بسلامتهم ، بينما حاول البقية الفرار بحياتهم ، لكن اتساع مساحة السهل ، وانعدام وجود اية اجمة او مرتفع او شعاب جبلية للاختباء بها ، جعلت الجميع يقعون بين ايدي اللاتين ، فكانوا جميعا طعمة للسيف ، فيما عدا حفنة منهم وقعـوا بـالاسر ، وقـام صنجيل الذي بز خصومه وفاقهم بمسلكه هذا ، قام بـالمضي بـاتجاه طرابلس ، وماان وصل هناك حتى تسلق احد التلال ، واستولى على ذروته ، التي قامت بمواجهة المدينة ، والتي كانت جـزءا مـن جبـل لبنان ، ويمكن استخدامها بمثابة حصن ، ويمـكن منهـا قـطع الماء الذي يجري من جبل لبنان الى داخل طرابلس ، من فوق سفوح التل وقام صنجيل باخبار الامبراطور بكل مـاعمله ، واعلمـه بضرورة بناء حصن كبير هناك ، قبل ان تاتي قوة كبيرة من خراسان يمكنها ايقاد نار الحرب ، واستجاب الكسيوس ، واوعز الى حاكم قبـرص بأن يتولى مهام البناء في اي نقطة حصينة يقع اختيار الفرنجة عليها (٥٧) ، وبينما كانت الامور تسير حسبما وصفنا ، تـابع صـنجيل مرابطته خارج طرابلس ، باذلا كل جهد ممكن للاستيلاء عليها ..

ودعونا الان نعود الى بوهيموند ، فهو عندما علم بنبأ وصول زينتزبلوكس الى اللاذقية ، اظهر ما ابطنه طويلا ، من صنوف الكراهية التي حملها ضد الامبراطور ، فأرسل ابن اخته تانكرد مع قوة كافية من العساكر للقيام بحصار المدينة ، ووصلت هذه الاخبار في الحال الى مسامع صنجيل ايضا ، فخف دون ان يضيع دقيقة واحدة من وقته ، وجاء الى اللاذقية ، ودخل في نقاش حاد مع تانكرد وحاججه طويلاً ليجعله يقلع عن مهمته ، وبعد عدة مقابلات لم يقنع تانكرد ، وكانت حال صنجيل مثل الذي يغني للطرشان ، لذلك عاد الى طرابلس ، وقام تانكرد من غير تقاعس ، بتشديد الحصار ، وبادر زينتزبلوكس ، الذي ساء وضعه الان ، والذي ضغط عليه بشدة واصرار من قبل اعدائه ، بطلب النجدة والعون من قبرص ، وكانت الاستجابة بطيئة جدا ، مما جعله في وضع اليأس لابسبب الحصار فحسب ، ولكن ـ اكثر من ذلك ـ بسبب المجاعة ، لهذا قرر تسليم اللاذقية .

وبينما كانت هذه الحوادث تجري ، بات من المقرر ضرورة اختيار خليفة لغودفري ، يحل محله في الملك (ذلك انه كان قد مات) (٥٨) وإثر موته ، بعث اللاتين في القدس وراء صنجيل لجلبه من طرابلس راغبين في وضعه على العرش ، لكنه رفض ان يقوم بالرحلة الى القدس في ذلك الوقت ، وقد سافر فيما بعد الى العاصمة ، لكن عندما ادرك اهالي القدس استمرار رفضه يتصلب ، بعثوا وراء بلدوين (٥٩) واختاروه ملكا (٦٠).

وقصد صنجيل القسطنطينية حيث استقبل بالترحاب من قبل الامبراطور لكن عندما عرف الكسيوس خبر اعتلاء بلدوين للعرش ، احتفظ به في القسطنطينية ، ووصل في هذه الأثناء الجيش ألنورماندي (٦١) تحت امرة كونت بيندريت واخيه ، وقد وجه الامبراطور النصح مرارا اليهما بضرورة اتباع الطريق الذي سلكه سلفهم (اي عبر المنطقة الساحلية) لكنهما لم يصغيا اليه ، ذلك

انهما لم يرغبا بالانضمام الى الفرنجة(٦٢)، بل قد ارادا السفر عبر طريق اخر يقود الى الشرق ، ماضين مباشرة نحو خراسان ، التـي قررا احتلالها ، ولقد عرف الامبراطور بـأن خـطتهما كانت خـطة ماسوية تماما ، وحيث انه لم تكن لديه الرغبة في ان يرى جيشا بهذا الحجم يعاني من الابادة (فقد كان هناك خمسون الفا من الفرسان ومائة الف من الرجالة) ولما لم يكن من الممكن اقناعهما ، فقد حاول ايجاد مايمكن اقناعهما ، فقد حاول ايجاد مـايمكن وصـفه طـريقا جديدا ، واستدعى صنجيل وزيتاس ليذهبا معهمـا ، وكان عليهمـا تقديم النصح المناسب ، ويحولا قدر امكانهما بينهما وبين المغامرات الجنونية ، وعلى هذا عبر المضائق الى كيبـوتوس ، واسرع الجميع خطاهم نحو بلد ارمينية فاستولوا على انقـرة على حين غرة (٦٣) ، ثم عبروا نحـو هـاليس ، ووصـلوا الى بلدة صـغيرة كانت بيد البيزنطيين ، وقد اطمأن اهلها للنورمان ووثقوا بهـم على اسـاس انهم مسيحيون ، فخـرج رجـال الدين في مسـوحهم وهـم يحملون الأناجيل واقتربوا منهم لكن الذي حدث ان الغزاة لم يكتفـوا بقتـل الرهبان بطريقة وحشية وغير انسانية ، بل اقـدموا على ذبـح بقية المسيحيين وازالوهم من الوجود ، ثـم تـابعوا زحفهـم بـاتجاه اماسيا ، وقـام التـركمان الذين كانوا بـارعين بفنون القتـال ، ومحتلين لجميع القـــرى على طـــريقهم ، قاموا باحراق جميع المؤن والاطعمة قبـل وصـولهم ، ثـم قـاموا بالهجوم عليهم مسرعين ، وفي يوم الاثنين تمكن التركمان من قهرهم ، ففي ذلك اليوم عسكروا في احد الاماكن في منطقة امـاسيا ومعهـم اثقالهم ، وقد خزنوها في داخل المعسـكر ، لكن تـم في يوم الثـلاثاء استئناف القتال وطوق التـركمان العسـاكر النورمـاندية ، لهـذا حرموهم من فرصة التزود بالمؤن ، كما انهم لم يتمـكنوا مـن اخـذ خيولهم وحيوانات الظهر لورود ، ورأى الفـرنجة بـأم اعينهـم ان الفناء بانتظارهم ، وقاموا في اليوم التـالي (الاربعـاء) بـالخروج بكامل اسلحتهم ، غير عابئين بسلامة انفسهم ، وانخـرطوا في لجـة معركة قاسية مع البرابرة ، وصاروا الان في قبضة التركمان ، لهـذا لم يستخدموا ــ في هذه الساعة ــ الرماح والنشاب ضـدهم ، بـل

امتشقوا سيوفهم ، والتحموا بهم عن قـرب ، وهـرب النورمـان في الحال ، وارتدوا نحو معسكرهم ، وانتظروا من يقدم اليهم النصح ، وتذكروا النصائح الخالصة التي قدمها لهم الامبـراطور ، وفتشـوا عنها ، فلم يجدوها معهم ، ولم يبق امامهم الا سؤال كل من صنجيل وزيتاس عن رأيهما ، وبحثوا في نفس الوقت واستفسروا فيمـا اذا كان في تلك الجوار اي منطقة هي تحت حـكم الامبـراطور ، علهـم يجدون مأوى لهم ، وتخلوا في النهاية عن مقتنياتهـم وخيمهـم مـع جميع المشاة ، وامتطوا خيولهم وشقوا طريقهم (٦٤) مارين بـاقصى سرعة ممكنة باتجاه المنطقة الساحلية لبند ارمينيا وبوريا (٦٥) وقـام التركمان بهجوم جماعي على المعسكر ، واستولوا على كل شيء فيه ، وشرعوا بعد ذلك بمطاردة الرجالة ، واصطدموا بهـم فـأبادوهم عن بكرة ابيهم ، اللهم الا حفنة من الرجال حملوهم اسرى الى خراسان ليجري عرضهم هناك .

هذا مايتعلق بنجاحات التركمان في معركتهم ضد النورمان ، اما ما يختص بصنجيل وزيتاس ، فانهما اخـذا طـريقهما عائدين الى القسطنطينية مـع عدد قليل مـن الناجين مـن بين الفـرسان ، واستقبلهم الامبراطور هناك ، وبعدما قدم لهم بعض الهدايا السخية من المال وسمح لهم بـالراحة ، سـألهم الى اين يودون الذهـاب ، فاختاروا القدس ، فاستجاب لمطلبهم تمام الاستجابة ، فـاعد لهـم سفينة وبعث بهم بعدما ارفقهم باعطيات كثيرة .

وبقي صنجيل في القسطنطينية ، والتحـق مـن هناك بجيشـه في طرابلس ، حيث بحث بجد واندفاع عن الوسائل التـي تمـكنه مـن الاستيلاء على المدينة ، ونزل به فيما بعد مرض قاتل ، فقـام وهـو يلفظ انفـاسه الاخيرة بـاستدعاء حفيده وليم(٦٦) ، فمنحـه جميع ميراثه مع جميع المواقع الحصينة التي استولى عليها .

وعينه قائدا عاما لقواته ، وعندمـا وصـلت انبـاء وفـاته الى الكسيوس كتب الى حاكم قبرص يامره بارسال نيكيتاس خالنتازس مع مبلغ كبير من المال ليعطيه الى وليم ، وان يعمل في سبيل كسـبه

الى جانبه ، واقناعه بان يقسم قسما صحيحا بالولاء للامبراطور ، وهو ولاء حافظ عليه خاله صنجيل المتوفى ، حـافظ عليه بـاخلاص حتى آخر حياته .

ووصلت الاخبار الى الامبراطور باحتلال تانكرد لمدينة اللاذقية ، فارسل رسالة الى بوهيموند قال فيها : « لاشك انك عارف بالمواثيق والعهود التي صنعتها للامبراطور البيزنطي ، ليس من قبلك وحدك ، وانما من قبل بقية الامراء ، وانت الان اول من يحنث بوعده ، لقـد استوليت على انطاكية ، وقمت بالاستحواذ بـطرائق خفية على عدد اخر من الاماكن الحصينة بما في ذلك اللاذقية نفسها ، انني اطـالبك انت بالذات بالجلاء عن مدينة انطاكية والاماكن الاخـرى ، فبـذلك تكون قد قمت بصنع ما هو صحيح ، ولا تحـاولن اثـارة العـدوان والحرب مجددا ضد نفسك .

وقرأ بوهيموند هذه الرسالة على انفراد ، لانه لم يكن من الممـكن الاستمرار بالدفاع عن نفسه بخداعه المعتاد ، فاعماله حملت شهادة واضحة على الحقيقة ، ولهذا أقر ـ نظريا ـ بان الرسالة محقـة ، لكنه وجه اللوم الى الامبراطور في دفعه على الاقـدام على اقتـراف اعماله الشريرة ، وكتب اليه يقول : « انا لست مسـؤولا عن هـذه الاشياء ، لكنك انت المسؤول ، فانت الذي وعدت بان تلحـق بنا على راس قوة كبيرة ، لكنك لم تكن راغبا في دعم وعونك بالاعمال ، امـا بالنسبة لنا : اننا عانينا بعـد وصـولنا الى انطـاكية ـ لمدة ثـلاثة اشهر ـ صراعا رهيبا ، مع مجاعة لايمكن نسيانها ، وكانت شديدة الى حد اجبرت فيه معظمنا على اكل اللحوم المحرمة بالشريعة ، ومع هذا قاومنا وصمدنا احسن ما يمكن ، وبينما كنا نفعل ذلك ، فقد قام تاتشوس ، خادمكم المخلص ياصـاحب الجـلالة ، الذي عينتمـوه لتقديم العون لنا ، قام بالتخلي عنا في محنتنا ومضى بعيدا ، وخـلافا لكل ما كان متوقعا تمـكنا مـن الاسـتيلاء على المـدينة ، والحقنا الهزيمة الماحقة بالقوات التي قدمت من خراسان لمساعدة رجـالات

انطاكية ، والان اخبرني كيف يمكن لنا التخلي هكذا بكل سهولة عما نلناه بعرقنا وتعبنا »؟ .

ولدى عودة سفراء الامبراطور اليه ، وقراءته لجواب بوهيموند ، لاحظ ان بوهيموند الحالي هو نفس بوهيموند القديم ، الفاسد ولا امل بصلاحه ابدا ، ووضح على هذا ان حدود الامبراطورية الرومانية ينبغي ان تصان بشكل حازم ، كما ان مطامح بوهيموند غير الملجومة ينبغي ضبطها ، ولهذه الاسباب جرى ارسال بوتومايتز على راس عساكر دسره الى كيليكية ، وشكل هؤلاء الجند الذين صحبوه نخبة عناصر الجيش ، وكانوا من خيرة المقاتلين ، وكان كل منهم حامي الحمى ، وكان برفقته برداس وميخائيل كبير الخدم « سقاة الشراب في القصر الامبراطوري » وكان كلاهما من الفتيان ، وقد ظهر شعر لحيتهما للتو ، فعندما كان هذان الرجلان طفلين صغيرين وضعهما الامبراطور تحت رعايته ، وثقفهما ثقافة عسكرية جيدة ، وحيث انه اعتمد على اخلاصهما اكثر من سواهما ، بعث بهما للخدمة تحت امرة بوتومايتز مع الف اخرين من خيرة الجند من كل من البيزنطيين والفرنجة ، وكان عليهما مرافقة بوتومايتز واطاعته في كل شيء ، لكن الامبراطور اعتمد عليهما ـ في الوقت نفسه ـ باخباره برسائل سرية حول الاشياء العادية التي تقع من وقت الى وقت ، فقد كان همه وشغله الشاغل ضمان جميع جوانب كيليكية حيث سيكون انذاك من السهل الاعداد للعمليات ضد انطاكية ، وانطلق ـ على هذا الاساس ـ بوتومايتز ومعه جميع قواته ، ووصل الى انطاكية ، حيث اكتشف هناك بان برداس وميخائيل كانا لايطيعان اوامره ، وحتى يحول دون حدوث عصحيان بين قواته ـ العمل الذي كان من الممكن ان يعطل حماسه وشدة اندفاعه ، ويجبره على اخلاء كليكية دون انجاز اي شيء ـ قام على الفور باخبار الكسيوس بأعمالهما ، ورجا اعفائه من صحبتهما ، وبادر الامبراطور ، الذي كان عليما بمدى الضرر الذي يمكن ان يسببه مثل هذا الصنف من الرجال ، فأمر بتحويلهما مع جميع

المتهمين الي اداء مهام اخرى ، واخبرهما كتابة بأمره بالالتحاق من غير تـــأخير بقســـطنطين (٦٧) بقســـطنطين يوفـــر بيذوس في قبرص ،واطاعة كل ما يصدره اليهما من أوامر.

وقرأ الشابان التعليمات الصادرة إليهما ، وتلقياها بـكل سرور ، وابحرا بما أمكن من سرعة إلى قبرص ، وأمضيا هناك فترة وجيزة مع قسطنطين قبل أن أخذا يتصرفان برعونتهما المعهـودة أيضـــا ، ومن الطبيعي أنه نظر إليهما بارتياب ، لأنهما كتبا أيضا الرســـائل إلى الامبراطور ، وشحناها بالتهم ضده ، وتذكرا رعاية الامبراطور لهما ، وعواطفه نحوهما ، لذلك أشارا دائمـــا إلى القســـطنطينية ، وخشي الكسيوس من رسائلهما ، فقد وجد معهما في قبرص عددا من النبلاء المشكوك باخلاصهم ، والذين ابقاهم منفيين هناك ، وبما انه صار من الممكن أن يصـــاب هؤلاء الرجـــال بعــــدوى مشـــاعرهم الفاسدة ، فقد أمر حالا كانتا كوزينوس أن يصطحب الشابين معه ، فجاء إلى كيرينا واستدعاهما ، وأخذهما بعيدا .

هذا ما كان من قصة برداس وميخائيل كبير الخدم « سقاة الشراب في القصر الامبراطوري ، أما بالنسبة لبوتومايتز فقد وصـــل إلى كيليكية مع موناستراس وبقية القادة الذين تركوا معه ، وعندما وجد أن الأرمن كانوا على وفاق واتفاق مع تانكرد ، مر بهم ، واســـتولى على مرعش مع المدن المجاورة والأماكن الصغيرة ، وترك قوة قادرة على حراسة جميع المنطقة تحـت أمـرة القـــائدنصف البــــربري موناستراس ، وعاد بوتومايتز ــ نفسه ــ إلى العاصمة (٦٨) .
و عندما انطلق الفرنجة نحو القدس ، و هم على نية الاســـتيلاء على مدن سورية ، قدموا وعودا سخية الى اســـقف بيزا (٦٩) ، فيمـــا لو ساعدهم على تحقيق أهدافهم ، وقد قنع بأقوالهم وأشـار اثنين مـــن زملائه كانا يعيشان على البحر لتبني المنهج نفسه ، وقام ــ من غير تأخير ــ بتجهيز بعض السفن ذوات الصفين من المجانيف ، وذوات الثلاثة صفوف والسفن الكبيرة والسريعـــة حتـــى بلغ التعـــداد إلى تسعمائة ، وأقلع نحو سورية ، وفي الطريق ارسلت قطعة مـــن هـــذا

الأسطول تحوي عددا مناسبا من السفن لنهب مدن : كورفو ، كيوكاس ، كيفالونيا ، وزاسبيناتوس ، وبناء على هذا أمر الامبراطور جميع مقاطعات الامبراطورية البيزنطية القيام ببناء السفن كما جرى اعداد بعضها ، وتجهيزها في القسطنطينية نفسها ، واستعمل الامبراطور من وقت إلى آخر سفنا من ذوات الصف الواحد من المجاذيف ، وكان يقوم بنفسه بتقديم النصائح إلى صناع السفن حول طريقة بناء المراكب ، فقد كان يعرف أن أهل بيزا هم سادة الحروب البحرية ، وكان يخشى جانبهم ، ويتخوف الدخول في معركة بحرية معهم ، وتبعا لذلك أمر أن يثبت على مقدمة كل سفينة راس أسد أو راس واحد من الحيوانات البرية الأخرى وصنعت هذه الرؤوس من البرونز أو من الحديد المطلي بالذهب ، وكانت أفواهها مفتوحة ، وجعلت قشرة الذهب التي طلوا بها منظرهم مخيفا ، وكان من المفترض قذف النار الأغريقيةمن خلال انابيب تنتهي في أفواه تماثيل رؤوس الحيوانات هذه بطريقة ، بدوا فيها وكأنهم يقذفون اللهب من أجوافهم .

وعندما أصبح كل شيء جاهزا ، استدعى الكسيوس تاتيشوس ، الذي كان قد قدم لتوه من انطاكية وعهد إليه بأمر هذا الأسطول ، ومنحه لقب امير امراء الماء ، لكنه عهد في الوقت نفسه الى لاندولف (٧٠) بالمسؤولية عن عمليات جميع الاسطول ، وتم ترفيعه الى مرتبة الدوق الأعظم ، لأنه كان أكبر الخبراء بفن حرب البحر ، وغادر الاسطول العاصمة في النصف الثاني من نيسان(١٠٩٩)م ووصل الى جزيرة ساموس ، ورست السفن قرب الشاطىء ، ونزلوا منها ، ثم سحبت جميع السفن الى الشاطىء الرملي وطليت هناك بالقار بشكل جيد ودقيق ، وجعلت جاهزة للعمل البحري ، وعندما سمع « البيزنطيون » بمسيرة البيازنة أقلعوا واخذوا بمطاردتهم حتى جزيرة كيوس ، ووصل البيازنة إلى هذه الجزيرة في الصباح ، في حين وصلها البيزنطيون في المساء ، حيث لم يجدوا هناك أحدا من البيازنة ، لأنهم أبحروا نحو بعض البيازنة وقد تخلفوا (بينما الصيد الكبير كان قد نجا

منهم) وسألوهم عن الجهة التي قصدها أسطول البيازنة ، فقالوا : « اتجه نحو رودس واقلع البيزنطيون بالحال ثانية ، وما برحوا أن راوهم ما بين باتر ورودس ، ورصدوا أوضاع البيازنة وراقبوهم ، فوجدوهم قد أعدوا انفسهم للمعركة بسيوف حادة وقلوب مستعدة للبراز ، واقترب الأسطول البيزنطي منهم ، وقام أمير بيلوبونيزي يدعى بيرش تاس ، وكان مختصا بالكمائن البحرية ، قام لدى رؤيته للعدو ، بالتجديف نحوه بأقصى سرعة ممكنة ، وشق طريقه إلى وسط الأسطول البيزي كالصاعقة ، ثم كر راجعا نحو البيزنطيين ، الذين ـ لسوء الحظ ، لم يدخلوا المعركة بشكل نظامي ، لقد قاموا بانقضاض حاد ، لكن بقتال فوضوي ، وكان لاندولف ذاته هو أول من التحم بالعدو ، لكن نيرانه أخطأت الهدف ، وكان جل ما صنعه هو أنه بدد وقوده ، وقام الكونت المدعو باسم ايلي مون بهجوم جريء على قارب كبير من جهة المؤخرة ، فأصاب المرساة ، إنما وجد من المتعذر تمزيقها ، وكاد نفسه أن يقع في قبضة العدو ، لولا أنه ـ بالساعة المناسبة ـ هيأ الوقود ، وأعد انابيبه ، ووجه ضربة مباشرة بالنار الاغريقية نحوها ، ثم ناور بسفينته ببراعة في مختلف الاتجاهات ، وتمكن بالحال من احراق ثلاث سفن بيزية كبيرة جدا ، وثارت في تلك الساعة عاصفة هوجاء من الريح ، انقضت على السفن بكل عنف وضربتها ، فانحرفت السفن جميعا ومالت ، وأصبحت مهددة بالغرق ، وصدمتها الأمواج » . فدمرت ساحات القتال ، وتمزقت الأشرعة (٧١) ، وخاف البرابرة ، وحل بهم الهلع بسبب النيران التي وجهت اليهم وصبت عليهم(ذلك انهم لم يكونوا معتادين على مثل هذه المعدات ، وارتفع لهيب النيران ، ووجهت في اي اتجاه اراده البيزنطيون ، وغالبا ما اطلقت نحو اسفل السفن وجوانبها لخرقها او لتدمير اطرافها) كما فقدوا عقولهم بسبب وقوعهم بالفوضى الناجمة عن البحر الهائج ، ولهذا قرروا الفرار.

هذا ما كان بالنسبة اليهم ، أما بالنسبة للأسطول البيزنطي ، فإنه وقف على شاطيء جزيرةشبه اسمها عبارة « سيتلوس » وعندما

جاء الصباح ، أبحر نحو رودس ، والقى البيزنطيون مراسيهم هناك ، وقادوا أسراهم ، بما فيهم حفيد لبوهموند ، وحاولوا اخافتهم عن طريق التهديد بالقتل أو البيع بمثابة رقيق ، ولكن عندما رأوا أن القتل لا يخيفهم ، وأن الرق ليس له تأثير عليهم ، لم يضيعوا وقتهم وقتلوهم صبرا جميعا .

أما الناجون من الحملة البيزية فقد انعطفوا نحو الجزر الواقعة على طريقهم حتى قبرص يريدون نهبها ، وحدث أن كان يوماثيوس فيلوكاس في قبرص ساعة وصولهم إليها ، فقام بمحاربتهم ، وهنا حل الهلع بقلوب بحارتهم ، فأقلعوا مبحرين من غير أي اعتبار لوجود رفاقهم الذين نزلوا الى الشاطىء للنهب وتخلوا عن معظمهم وتركوهم على ظهر الجزيرة وساروا مسرعين في حالة من الخوف الشديد نحو اللاذقية على نية الالتحاق ببوهموند ، وتمكنوا بالفعل من الوصول الى اللاذقية ثم ذهبوا اليه معلنين عن رغبتهم بصداقته: وحيث كان بوهموند هو ذاته ، فقد سر بوصولهم ، واحسن استقبالهم ، وهذا بالنسبة لهؤلاء ، اما ما حدث للذين هجروا على اليابسة ، فانهم عادوا لجمع ما نهبوه ورأوا اسطولهم قد اقلع بعيدا القوا بأنفسهم بالبحر وماتوا غرقا جميعا.

ووصل بعد هذا امير الماء البيزنطي وبصحبته لاندولف ، وبعد وصولهما عقدا اجتماعا تباحثا فيه حول ابرام اتفاق للسلم مع بوهيموند ، وعندما اقر الجميع بان مثل هذا الامر مرغوب فيه ، جرى اختيار بوتومايتز ليكون مبعوثهم الى بوهموند وصار اليه ، فاحتفظ به لمدة خمسة عشر يوما ، وكانت اللاذقية تعاني أنذاك من المجاعة ، وكان بوهموند هو نفسه بوهموند القديم مرة ثانية من غير تغيير ابدا رجلا لم يتعلم ما يعنيه الحفاظ على السلم ، وقد بعث الى بوتومايتز : « انك لم تقدم لاجل الصداقة ، وليس وجودك هنا للبحث عن السلام ، ولكن لتحرق سفني ، اذهب بعيدا ، واعتبر نفسك سعيد الحظ ، لانني سمحت لك بالذهاب سليما من الاذى » وعلى هذا مضى بوتومايتز منصرفا ليجد نفسه فيما بعد في ميناء قبرص ،

وغدت نوايا بوهموند الشريرة الان اكثر وضوحا ، بعد كل ما ابداه ووضح الان ان ابرام معاهدة بينه وبين الامبراطور امر بعيد المنال ، لذلك رفع البيزنطيون مراسيهم ، واقلعوا جميعا يريدون العاصمة « فوق طريق من الماء » (٧٢) وبعدما بعدوا عن سايك (٧٣) ثار بهم اعصار شديد ضرب الامواج بغضب شديد مما سبب جنوح جميع السفن فيما عدا السفينة التي كانت تحت امرة تاتشوس ، فانها كادت ان تتحطم وكانت هذه هي نتائج الحرب البحرية ضد البيازنة .

وفي الوقت نفسه ، فان بوهموند الذي كان في جبلته مساكرا مخادعا ، خشي من نوايا الامبراطور ، لانه كان من الممكن له ان يسارع ويسبق الامور فيستولي على مدينة كوريكوس (٧٤) ويمركز هناك اسطولا بيزنطيا ، وبذلك يحمي قبرص ، ويمنع وصول حلفاء من المؤمل قدومهم من لومبارديا عبر سواحل الاناضول ، وبالفعل قرر الامبراطور – في ظل هذه الظروف – اعادة بناء كوريكوس ، واحتلال مرساها ، وقد كانت هذه البلدة في الماضي مدينة قوية جدا ، لكنها تحولت فيما بعد الى ركام ، والآن وقد رأى الامبراطور ابعاد استراتيجية بوهموند وتطلعاته اتخذ احتياطاته ، فأمر بترفيع الخصي يوستاثيوس من وظيفة الدوادار الى مرتبة كبيرقباطنة الاسطول ، وكلفه بمهمة الاستيلاء على كوريكوس ، وبعثة للقيام بها من غير تأخير ، وكان عليه ان يسارع الى اعادة بناء ذلك الموقع مع حصن سلوقية الواقع على مسافة ست مراحل منه ، وقضت الاوامر الصادرة اليه بوضع حاميه قوية في كل واحد من الموقعين ، وتعيين القائد سترابو في منصب الولاية وسترابو هذا كان صغير الحجم ، الا انه كان في فن الحرب رجلا عظيم الاهمية ، زد على هذا كان من المتوجب مرابطة اسطول قوته كافية في الميناء ، ويتم الاعلان الى البحارة ليكونوا دائمي اليقظة منتظرين وصول النجدات الى بوهموند من لومبارديا ، وان يقدموا العون المحتاج الى قبرص .

وابحرت الحملة فاعاقت خطط بوهموند ، واعادت كوريكوس الى

حالتها السالفة واعيد بناء سلوقية في الحال ، ومتنت دفاعاتها بخندق أحاط بالمدينة ، وكان لدى سترابو مايكفي من الرجال للتصدي لأية طوارىء في كل من سلوقية وكوريكوس مع عدد كاف من السفن راسية في الميناء ، وعاد بعد هذا يوستاثيوس إلى العاصمة ليطرى اطراء كبيرا من قبل الامبراطور وينال أكبر الجوائز منه ٠

هذا ما كان بالنسبة للاعمال التي تمت في كوريكوس وعلم (٣٥) الامبراطور باخبار حملة جنوية على نية الابحار لمساعدة الفرنجة ، وقد راى بان الجنّويين مثلهم مثل الاخرين سيسببون مشاكل كبيرة للامبراطورية البيزنطية ، وتبعا لهذا تم ارسال كانتاكوزينوس على رأس جيش معتبر ، وابحر في الوقت نفسه لاندولف مع اسطول بحري جرى اعداده على جناح من السرعة وكانت مهمة لاندولف الابحار بما امكن من سرعة نحو الشواطىء الجنوبية (٣٦) فقد توجب محاربة الجنوية لدى عبورهم كيليكة .

ومضى الرجلان كل واحد منهما لتنفيذ المهمة المعهودة اليه لكن عاصفة هوجاء سببت تدمير عدد كبير من السفن ، وقد سحبت السفن الى الشاطىء وجرى تقييدها بكل عناية ، وعلم كانتاكوزينوس في هذه الاثناء بان الاسطول الجنوي قريب في الجوار ، فاقترح ان يأخذ لاندولف ثماني عشرة سفينة (لانه كما صدف كانت هذه السفن الوحيدة الصالحة للابحار في ذلك الوقت ، والباقي على اليابسة) ويبحر نحو رأس ماليوس حيث يستطيع ان يلقي مراسيه هناك (حسب نصيحة الامبراطور) وعندما يمر العدو بقربه ، اذا شعر بان لديه القدرة على دخول الصراع ، هاجم بالحال ، واذا رأى انه لايستطيع ، تدبر امر سلامة نفسه وسلامة سفنه وجنف على مقربة من الشاطىء حتى كورون ومضى لما أمر به ، وعندما رأى حجم الاسطول الجنوي الكبير قرر عدم القتال وعوضا عن ذلك أبحر بسرعة نحو كورون ، وقام كونتاكوزينو بأخذ جميع القوى البحرية البيزنطية (لانه كان من الضروري ان يفعل ذلك) وحمل ما يمكنه حمله من العساكر معه وشرع بمطاردة الاعداء

باقصى سرعة ممكنة ، وقد اخفـق بـاللحاق بهـم ، لكنه وصـل الى اللاذقية ، وكانت لديه الرغبة في الدخـول في امتحـان للقـوة مــع بوهيموند ، حيث قام باحتلال الميناء ، وهـاجم ـ بلا توقف ـ اسوار المدينة ليلا ونهارا ، لكنه لم يحقق اي تقدم يذكر ، فمئات الهجمـات تمت على سور المدينة ومئات منهن ردىن واحبطت محاولاته لكسـب الفرنجة الى جانبه ، وهكذا اخفقت معركته ضدهم ، لهذا عمـد الى تشييد سور مستدير من الصـخور الجـافة بين الرمـال وسـور اللاذقية ، واستغرق هذا العمل ثلاثة ايام بلياليهـا ، وعندمـا كملت عمارته ، استخدمه بمثابة غطاء واق ، بينما جرى بناء سور آخر من الداخل بشكل محكم جاء بمثابة قاعدة للعمليات القتالية ضد دفاعات المدينة ، زيادة على هذا شيد برجان على طرفي مدخل المرسى ، ومـد سلسلة معدنية بينهما ، وبهذا حال دون وصول المساعدات من جهـة البحر ، واستولى في الوقت نفسه على عدد من الحصون على طـول الساحل مثل : عرقة ، والمرقب ، وجبلة ، ومواقع اخرى حتى حدود طرابلس ، منها ما كان يدفع في السابق الجزية للمسلمين ، لكن اعيد الان ضمه الى اراضي الامبراطورية البيزنطية وتوحيده معهـا وذلك بعد بذل الكثير من الجهد والعـرق ، وادرك الكسـيوس انه ينبغـي حصار اللاذقية من جهة البر ايضا ، فلقد كان صاحب تجربة طـويلة بحيل بوهموند وطرائق قتاله (ذلك أنه كان عبقريا في سرعة التعرف على أخلاق الرجال والحكم عليهم) ويعرف جيدا الطبيعـة الخيانية لهذا الامير واعمال تمرده ، لهذا بعث موناستراس على رأس فـرقة قوية ليحاصر اللاذقية من جهة البر ، بينمـا قـام كانتـاكوزينوس بحصارها من جهة البحر ، لكن قبل وصول موناستراس كان زميله قد تمكن من احتلال كل من الميناء والمدينة ، وبقيت القلعـة (يشـار اليها في ايامنا هذه بـاسم القلة) في ايدي خمسـمائة مـن مشـاة الفرنجة ومائة من فرسانهم .

وسمع بوهموند بكل هذا كما وصله خبر مـن الكونت المسـؤول عن الدفاع عن القلعة ، بانعدام المؤن لديه ، فقام بجمع قواته مع قـوات تانكرد وصنجيل ، وحمل جميع انواع الاطعمـة والمؤن على ظهـور

البغال ، وانطلق يريد اللاذقية ، وعندما وصلها لم يحتج الى طويل وقت حتى أوصل المؤن إلى القلعة ، وقابل بوهموند كونتاكوزينوس ، وسأله :ما هي الغاية المرجوة من وراء تشييد هذا البناء ؟ فأجابه : لاشك انك على بينة بانك انت والامراء من اتباعك قد اقسمتم على الدخول في خدمة الامبراطور ، ووافقتم عن طريق القسم على تسليمه اية واحدة من المدن استوليتم عليها ، ولقد حنثت بقسمك والقيت جانبا بمعاهدات السلم ، فبعد ان استوليت على هذه المدينة وسلمتنا اياها ، تراجعت وبدلت رأيك واحتفظت بها ، لهذا عندما قدمت الى هنا لتسلم المدن التي استوليت عليها ، جاءت زيارتي بدون ثمرات ، وهنا سأله فأجابه :هل جئت الى هنا على أمل أخذها منا بالمال أم بالقوة؟فأجابه:لقد تسلم حلفاؤنا المال لشجاعتهم في الحرب ، فامتلأ بوهيموند غضبا ، و قال له:تيقن مما سأقوله : من غير المال لن تستطيع الاستيلاء على مركز للحراسة ، قال هذا وامر جنده بالاستعداد وحرضهم على الهجوم على ابواب المدينة لكن عندما اقترب الفرنجة من الاسوار ردوا على اعقابهم من قبل رجال كانتاكوزينوس الذين كانوا يحرسون الشرافات بحيث اطلقوا عليهم رشقات كثيفة من النشاب ، تشبه زخات الثلج ، واعاد بوهموند جمع قواته ، ودخل واياهم الى القلعة ، وحيث انه كان يرتاب باخلاص الكونت الذي كان يدافع عن اللاذقية ، ولا يثق برجاله ، فانه قام بتسريحه وتسريحهم ، وعين قائدا جديدا ، ثم قام في الوقت نفسه بتدمير الكروم القريبة من الاسوار حتى يتمكن فرسان الفرنجة من التحرك بحرية ، وبعدما قام بهذه الاجراءات غادر اللاذقية وعاد الى انطاكية .

اما بالنسبة لكانتاكوزينوس ، فانه تابع اعمال الحصار بكل الوسائل المتوفرة لديه ،وجرب مئات الطرق ، فقام بالانقاض المفاجيء ، وعمل على التضييق على الفرنجة في القلعة ، وفي الوقت نفسه كان موناستراس مشغولا أيضا ، حيث زحف عبر اليابسة على رأس فرسانه فاحتل لونغينياس (٧٧) وطرسوس واذنة والمصيصة ، لا بل جميع كيليكية .

واصاب بوهموند الهلع خوفا من تهـديدا ت الامبـراطور ، لانه لم يملك وسائل الدفاع (حيث لم يكن لديه جيش في البر ولا اسـطول في البحر وقد احاقت به الاخطار من الجانبين) فلجأ الى ابداع خطة لم تكن مشرقة ابدا ، لكنها كانت بارعة الى حد مدهش ، فقد قـام اولا بايداع مدينة انطاكية في يدي ابن اخته تانكرد بن المركيز اودو ، ثـم نشر اشاعة وروج لها في كل مكان ، وقد دار تحول نفسه ، بانه قـد ما ت ، وهكذا اقنع العالم اجمع بموته ، وبمبـارحته لهـذ ه الدار ، وهو ما يزال على قيد الحياة ، وانتشر ت هذ ه الاشاعة كانتشار النار في الهشيم ، وعمت جميع الارجاء .

وعندما تصور بأن القصة انتشرت بما فيه الكفاية اعد تابوتا من الخشب وسفينة ذات صفين من المجـذفين ، ووضـع التـابوت على ظهرها ، بينما ظل هو في داخله جسدا ميتا ، لكنه يتنفس الهـواء ، وابحر ت السفينة من السويدية ــ ميناء انطاكية ــ نحو روما ، ونقل على ظهرها بمثابة جسد ميت ، وظهر للجميع (من النعش وسـلوك مرافقيه) ان بداخله جسدا ميتا ففي كل محطة قام البرابرة بتمزيق شعورهم ، واظهروا مناحتهم عليه ، بينما تمدد بوهموند على طـوله داخل نعشه ، وكان هذا هو مظهر المو ت الوحيد البادي منه ، ففـي بقية المجالات كان حيا .

هذا ما كان يقوم به في كل مكان ساحلي ، لكن عندما كان المركب في عرض البحر ، تقاسم اتباعه طعامهم معه ، وقاموا على خدمته واولوه عنايتهم ، حتى محطة جديدة حيث تتجدد التظاهرة والمنا حـة ثانية مع المو ت المزيف ، وحتى لايبدو الجسد في حالة شاذة مـن عدم التفسخ وظهور النتن قاموا بخنق ــ او قطع عنق ــ احـد الطيور ، ووضعوه معه في التابو ت ، فمع حلول اليوم الرابع او الخـامس على الاكثر كان نتن الجيفة والروائح الكريهة واضح لكل انسان يستطيع الشم (٧٨) ، و ظن هؤلاء الذين خـدعوا بـالمشهد الخـارجي ، ان الرائحة المجوجة صادرة عن جسد بوهموند ، لكن بوهموند نفسـه

استمد مزيدا من الغبطة اكثر من اي انسان ممن ساءهم ما اصابه — كما تصوروا — من سوء الحظ .

وبالنسبة لي انني لتعتريني الدهشة ويتولاني العجب ، كيف تحمل بوهيموند مثل هذا الحصار والتضييق على تنفسه ، وكيف ظل بين الاحياء ، مع انه حمل الى جانبه رفيقه الميت ، لكن هذا علمني كيف يمكن ان تكتشف جميع البرابرة ، فهم ما ان يقررون صنع امر من الامور ، لايوجد شيء مهما بلغت درجة تعويقه لايمكنهم تحمله ، فهم عندما يصرون على قضية من القضايا يقدمون على تنفيذها مهما كان نوع المعاناة .

لم يكن هذا المخلوق بوهيموند ميتا بعد — كان ميتا فقط بالتظاهر — ومع هذا لم يتردد في العيش مع جسد ميت ، ان وحشية بوهيموند لاسابق لها في عصرنا ولانظير ، وكان باعثها فقط اسقاط الامبراطورية البيزنطية ، فما من بربري او اغريقي اخترع من قبل مثل هذه الخطة ضد اعدائه ولاحتى بالخيال ، ولايمكن لاي انسان في ايامنا ان يرى ذلك ممكنا ثانية ، وعندما وصل الى كورفو شعر كأنه لجأ الى قمة جبل مانع ، او ان الجزيرة هي ملجأ له حصين ، وانه تحرر الان من كل خطر ، فقام من موته المزعوم ، وغادر النعش حيث كان جسده ممددا ، فتمتع بنور الشمس تماما ، وتنشق الهواء النظيف ، وتمشى حول مدينة كورفو ، وعندما رآه اهل المدينة يرتدي ثيابا بربرية غريبة ، سألوه عن نسبه وعن وضعه واسمه ، ومن اين جاء والى اين هو ذاهب ؟ وعاملهم بوهيموند بترفع ، وطلب مقابلة والي المدينة ، وكان رجلا اسمه الكسيوس ، جاء بالاصل من بند ارمينية ، وعندما التقى وجها لوجه مع بوهموند بدا الاخير متعجرفا في مسلكه ومظهره ، وتحدث برعونة بلهجة بربرية صرفة ، وامره ان يرسل الرسالة التالية الى الامبراطور حيث قال : « اليك ، انا بوهيموند ، الابن الشهير لروبرت ، ابعث بهذه الرسالة : لقد علمك الماضي وعلم امبراطوريتك كم هي مخيفة شجاعتي وعداوتي ، فعندما يرجع السعد الي ، فان الرب على ما اقول شهيد : انني لن

اتوقف عن الانتقام لكل الشرور التي لحقت بـي في الماضي ، فمنذ ان استـوليت على انطـاكية ، اثناء زحفـــي في الاراضي البيزنطية ، استعبدت سورية كلها برمحي ، لكن جميع مـا لحقني مـن شرور ، ونزل بي من نوازل كان بفعلك وفعل جيشك ، امـالي كلهـا تبـدد ت واحدة تلو الاخرى ، لقـد خضـت غمـار الاف الانتـكاسات والاف الحرو ب القاسية ، لكن الوضع اختلف الان ، اريدك ان تعـرف انه مع اني كنت ميتا قد عد ت الى الحياة ثانية ، ونجوت من قبضتك على شكل رجل ميت ، ونجوت من كل عين وكل يد وكل خـطة ، وانا الان حي ، انني اتحرك وأتنفس الهواء ، ومن جزيرة كورفو ابعـث اليك ياصاحب الجلالة اخبار عدوانية ومكروهة ، لن يسرك قراءتها ، لقد سلمت مدينة انطاكية الى ابن اختي تاذكرد ، وتركته هناك عدوا كفئا للرد على قادة عساكرك امـا انا نفسي فسـأذهب الى بـلادي فـأنا بـــــــــــــــــــــــــــالنسبة لك

ولاصدقائك بين الأموا ت أما بالنسبة لي ولأصدقائي فـواضح انني رجل حي اتآمر لوضع نهـاية شريرة لك ، وحتـى أثير الفـوضى في العالم البيزنطي الذي أنت حاكمه ، فأنا الذي كنت حيا غدوت ميتا ، والآن الذي مت ، أنا حـي ، واذا مـا وصـلت الى ايطـاليا والقيت ناظري على اللومبارديين ، وجميع اللاتين والجرمان وفـرنجيتنا ، وهم جميعا رجال حرب اشاوس ، عندئذ سأقوم بالعديد من المذابـح في مدنك ، وسـأجعل الدم يسـيل في بلدانك حتـى أركز رمحـــي في القسطنطينية ذاتها».

مثل هذا ، هو الغلو الذي تفاخر به البرابرة .

يوميات صاحب اعمال الفرنجة

التبشير بالحملة الصليبية الاولى

« اعمـــال البـــابا التبشـــيرية ـ الحملة الجمـاهيرية ـ الصـليبيون في القســطنطينية ـ جيش بوهيموند وقوات النورمان الايطاليين ـ الوصول الى نهـر الوردار » .

١ ـ جاء الى الوجود هذا اليوم ، ما كان المسـيح يقـوله دومـا لاتباعه ، ومصداقا لما جاء في الكتاب المقـدس : « إن اراد احـد ان ياتي ورائي ، فلينكر نفسه ويحمـل صـليبه ويتبعني » (١) ، ممـا احدث هياجا عظيما شمل بلاد غالية (فرنسا) ولم يتوان ، كل ذي قلب طاهر وروح سليمة ، صادق النية في إيمانه بـالرب ، عن حمـل الصليب والمبادرة لأخذ الطريق نحو القبر المقدس .

وسرعان ما اكتسب اوربان الحبـر الرسـولي لكرسي رومـا الى جانبه اهالي البلدان القائمة فيمـا وراء الجبـل (٢) ، مـن جميع المطارنة والاساقفة والشمامسة والرهبان ، وقام يخـطب في القـوم ويعظهم بمواعظ ثمينة مـوضحا انه لايجـوز لكل رجـل يسـعى في خلاص روحه ان يتوانى عن سلوك طريق الرب بـكل خشـوع ، وان احتاج الى المال فالعناية الربـانية سـتسعفه ، واضـاف الحبـر الرسولي في بيانه قائلا : « ايها الاخوان ، عليكم ان تتحملوا الكثير من المشقة والفقر والعذاب ، من اجل اسم المسيح ، وتعانوا العـري والاضطهاد والذلة والمرض والجوع والعطش ، وما شاكل هذا مـن صنوف الشرور ، كما قال الرب لحوارييه : « سأريكم كم ينبغي ان تتألموا من اجل اسمي » (٣) وقوله : « اني انا اعطيكم فما وحـكمة لايقدر جميع معانديكم ان يقاوموها او يناقضوها (٤) » او كما قـال ايضا : « انكم ستأخذون ميراثا عظيما (٥) » .

ولم تلبث هذه الدعوة ان انتشرت رويدا رويدا في جميع بلاد غالية واعمالها ، وما ان سمع الفرنجة عظته هذه حتى بادروا بكل سرعة الى وضع علامة الصليب كل منهم على كتفه الايمن ، مرددين جميعا رغبتهم في السير على خطى المسيح وفي اقتفاء اثاره ، وكلهم امل ان تمكنهم تلك الخطى من استعادة السلطة من البرابرة (المسلمين).

وسرعان ما غادرت حشود الفرنجة بيوتهم وديارهم وانقسموا الى ثلاثة فرق ، حيث دخل فريق منهم فيه بطرس الناسك والكونت بلدوين دي موذس ، وسار هؤلاء الفرسان الشجعان وغيرهم كثير – ممن لااعرفه – على الطريق الذي سلكه من قبل شارلمان – ملك غالية الكبير – الى القسطنطينية (٦) .

٢ – وكان بطرس الناسك اول المتوجهين نحو القسطنطينية ، وقد وصل اليها « يوم ٣٠ تموز لسنة ١٠٩٦ م » وبرفقته الجزء الاعظم من جماعة الالمان ، وقد انضم اليه هناك اللمبارديون ، وكثير ممن سواهم وقام الامبراطور بتزويدهم بما امكن من المؤن ، وقال لهم : « لاتعبروا البسفور قبل ان تلحق بكم بقية العساكر المسيحية ، لانكم لستم من القوة والتعداد مما يمكنكم من محاربة التركمان» .

وسلك المسيحيون اثناء اقامتهم سلوكا شائنا ، حيث هدموا القصور ، واشعلوا فيها النيران ، واقتلعوا الرصاص من اسقفة الكنائس وباعوه للاغريق ، مما اغضب الامبراطور شديد الغضب ، فامر وهو في حاله هذا ، بابعادهم وعبورهم البوسفور .

ولم يتوقف الفرنجة – بعد كل ما اقترفوه – عن ارتكاب كافة صنوف الجرائم مثل اضرام النيران في البيوت والكنائس وتخريبهم اياها ، ووصلوا اخيرا الى نيقوميديا ، حيث تميز اللمبارديون والالمان عن الفرنجة وابتعدوا عنهم ، وفعل الالمان كذلك ، ولجوا الى بلاد اسية الصغرى ، وزحفوا لمدة اربعة ايام يريدون نيقية ،

وعبروا بجانب قلعة خاوية اسمها اكزرغوردوس ، فاستولوا عليها ، وقد عثروا في داخلها على كميات كبيرة من المؤن كالقمــح والخمــور واللحوم وشتى اصناف الاطعمة .

ولما عرف التركمان بخبر استيلاء المســيحيين على هــذه القلعــة هبوا لاستردادها ، وكان امامها بئر ، وعند اقدامها نبع ماء جــار ، فنصب رينالد الى جانبه شركا للتــركمان ، ووصــل التــركمان يوم القديس ميخائيل (٧) حيث وجــدوا ريتالد واصــحابه ، فــانقضوا عليهم وابادوا قتلا واسرا عددا كبيرا منهم ، ولاذ البــاقون بــالفرار الى داخل القلعة واعتصموا بهــا ، وشرع التــركمان في حصــارهم فيها ، ومنعوا عنها الماء ، فاشتد العطش برجالنا شدة دفعتهــم الى فصد عروق جيادهم وحميرهم وشرب دمــائها ، والقــى الاخــرون الخرق معلقة بالشصوص في الكنف ، وعصروها في افواههم ، وكان احدهم يبول في يد رفيقه ، ثم يشرب الاثنان ، وحفــر البعض منهــم حفرا في الارض الرطبة واضطجعوا فيهــا ، وهــالوا التــراب على صدورهم ، وهكذا وصلت شدة عطشهم الى هذا الحد ، وقــد عمــل الاساقفة والكهنة على شد عزائم رجالنا ، واخذوا يحضــونهم على الصبر .

واستمرت هذه المحنة ثمانية ايام متوالية ، ثم عقد مقــدم الالمان مع التركمان اتفاقا وعدهم فيه تسليم اصحابه ، ثم تظاهر بالخروج الى القتال ، وهرب اليهم ، وحذا حذوه الكثيرون فلحقوا به ، وواجه حتفه كل من رفض التنكر للرب ، اما الذين استمروا على قيد الحياة فقد وقعوا في الاسر وتقاسمهم الاعداء كاقتسام الســائمة ، واتخــذ التركمان من بعضهم هدفا سددوا نحوه سهامهم ، ثم عادوا يتهادون بعضهم ، ويبيعون بعضهم الاخر بيع الدواب ، وســاق فــريق مــن الاعداء الغنيمة الى مســـاكنهم ، واخـــذ فـــريق حصـــته الى خراسان (٨) وانطاكية وحلب ، وذهب كل بها الى حيث كان يقيم .

لقد كان هذا هو نيل الشهادة الكريمة التي حــظي بهــا الرجــال الاوائل على طريق تمجيد اسم الرب يسوع .

ولما علم التركمان بعد هذا بوجود بطرس الناسك ، وجوتيه سانز افوار (٩) ومن برفقتهما في هرسك فيما وراء نيقية زحفوا ضـدهم ، وكلهم حماس وامل في القضاء عليهم ، كما قضوا على رفـاقهم مـن قبل ، والتقوا اثناء زحفهم بجوتيه ومعه جماعته ، فانقضوا عليهـم وابادوهم (١٠) ، اما بطرس الناسك فقد عاد الى القسـطنطينية (١١) ، بعدما عجز عن تنظيم اتباعه مـن العسـاكر الذين تـولاهم الياس فاضحوا عازفين عنه ، منصرفين عن خطه ، وقـد انعـطف عليهـم التركمان فابادوا منهم عددا كبيرا ، ذلك انهم صادفوا بعضا منهـم مستغرقا في نومه ، وبعضـهم الاخـر اعزلا مجـردا مـن كل شيء فابادوهم جميعا ، وكان هناك كاهن يقـوم بمـراسيم الوعظ فقتلوه فنال الشهادة وهو على المذبح ، وقد هرب الذين كتب لهم النجاة الى

هرسك ، كما القى بعضهم انفسهم في البحـر والتجـا سـواهم الى الاحراج في الجبال وتخفوا فيهـا ، وانطلق التـركمان في اثـارهم ، وجمعوا الحطب لاحراقهم هم والمدينة معا ، لكن المسـيحيين الذين استولوا على المدينة القوا النار على الحـطب ، واشـتعلت النيران واتجه اللهب نحو التركمان فاحرق بعضا منهم ، وحفظ الرب رجالنا فلم تمتد اليهم تلك النيران ، لكن على الرغم من ذلك تمكن التـركمان اخيرا من اسرهم احياء وتقاسموهم فيما بينهم كما سـبق لهـم ان فعلوا مع سلفهم ، وشنقوهم في كل ناحية ، وسـاقوا بعضـهم الى خراسان ، ومضوا ببعضهم الاخر الى ايران .

لقد جرت كل الاحداث في شهر تشرين اول ، ولم يكتم الامبراطور (الكسيوس) فرحته الكبرى ، حين وصله خبر تمـزيق التـركمان لصفوف رجالنا ، واصدر تعليماته بعبورهم البوسفور بعدما جردهم من كل الاسلحة التي كانوا يحملونها .

٣ ـ ودخل الفريق الثاني اراضي الصرب والكروات مـع كل مـن ريموند الصنجيلي واسقف بوي (١٢) ، وسار الفـريق الثـالث عبـر الطريق القديم الذي كان يقـود الى رومـا ، وكان في صـفوف هـذا

الفريق بوهموند (ابن روبرت جسكارد) ورتشارد البسالرني (١٣) ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت النورماندي (١٤) وهيوج الكبير (١٥) ، وايفراردي بواسيه ، واكاددي مونتمريل وايزور موزون ، وغيرهم كثير ، وقد مضى بعض منهم الى ميناء برنديزي ، وبعضهم الآخر الى ميناء باري ، وغيرهم الى اوترانتو.

وابحر هيوج الكبير ووليم بن المركيز (اخو تانكرد) من باري ، والقيا مراسيهما في احواز دورازو ، التي ما كاد عاملها يعلم بخبر ارسائهما حتى حاك في نفسه خطة دنيئة ضدهما ، حيث القى القبض عليهما وقام بترحيلهما الى القسطنطينية (١٦) ، ليمثلا امام الامبراطور ، وليقسما له يمين الولاء .

ووصل اخيرا الكونت غودفري الى القسطنطينية ، وقد كان مقدما على جميع الامراء ، ويقود جيشا كبيرا ، ووصل اليها قبل موعد ميلاد الرب بيومين ، واقام معسكرا في خارج المدينة ، حتى سمح له الامبراطور المتجبر في الاقامة في احدى الضواحي ، واعتاد الكونت على الاقامة حيث حدد له ، وكان يبعث برجاله كل يوم — في هدوء — لجلب الاعلاف وكل ما تحتاجه الخيول ، وخيل لرجاله انه بامكانهم الذهاب آمنين متى ارادوا وانى شاءوا ، لكن الامبراطور الكسيوس الغدار امر من كان لديه من العساكر والمرتزقة بمهاجمتهم والايقاع بهم انى صادفوهم (١٧) ، ولما علم بلدوين — اخو غودفري — بهذا كمن لعساكر الامبراطور ، وانزل بهم ضربة قاسية ، وهم في طريقهم للقضاء على رجاله ، واستبسل في قتله لهم ، ومنحه الرب التأييد ، فانتصر عليهم واسر منهم ستين رجلا ، غير من قتلهم ، وجاء بهؤلاء الى اخيه غودفري .

واستطار الامبراطور غضبا حينما وصل اليه نبأ هذه الاحداث ، ولما رآه غودفري ساخطا متجهما نحوه ، ترك تلك الضاحية ومعه اتباعه ، وعسكر خارج المدينة ، ومع حلول الظلام اصدر الامبراطور الشقي اوامره الى قواته بالقيام بهجوم على غودفري والمسيحيين

الذين معه ، لكن غودفري تصدى لهم على راس عساكر المسيح ، وانتصر عليهم ، وقتل منهم سبعة رجال وطارد الباقين حتى بوابة المدينة ، ثم عاد الى معسكره ولزمه مدة خمسة ايام استجم بها ، ثم عقد صلحا مع الامبراطور ، الذي حثه على عبور ذراع القديس جورج (البوسفور) وسمح له بالتزود بالعتاد حسب المستطاع ، كما اعطاه بعض المال لينفقه صدقة على الفقراء .

٤ ـ اما بوهموند المنصور ، فقد كان منشغلا انذاك بحصار جسر سكافارد في امالفي ، ولدى معرفته بوصول جماعة مسيحية كبيرة تفوق العد والحصر ، وعازمة على المضي نحو القبر المقدس ، وانها تعهدت بشن الحرب ضد الكفرة ، اهتم بوهموند بالامر ، وأستفسر عن اسلحة هذه الجماعة وعن شعارها المسيحي الذي تحمله في الطريق ، وعن هتافها في المعركة ، فقيل له : انهم يستخدمون اسلحة مناسبة للحرب ، ويحملون شارة صليب المسيح على احد الكتفين ، او على الظهر ، وانهم يرددون بصوت واحدا شعارا نصه :« انها ارادة الرب ـ انها ارادة الرب ـ انها ارادة الرب » ، وامتلا بوهموند ـ في الحال ـ بالروح القدس ، وامر بتقطيع رداءه الثمين الذي كان يرتديه الى قطع صغيرة يصنع منها صلبانا (١٨) .

وانطلق الجزء الاكبر من الفرسان الذين كانوا يحاصرون المدينة ، نحو بوهموند وانضموا اليه ، حتى ان الامير « روجار » كاد ان يبقى وحيدا ، لهذا اقلع عن متابعة الحصار ، وعاد الى صقلية مغتما وشاكيا لضياع جيشه .

وعندما رجع الامير بوهموند الى ممتلكاته (١٩) ، استعد غاية الامكان لاخذ الطريق نحو القبر المقدس ، وبعد لأي ركب البحر بصحبه جيشه وكل من تانكرد بن المركيز ، والامير رتشارد ، واخوه رينول ، وروبرت انز ، وهرمان دي كاني ، وروبرت سورديفال ، وروبرت بن توستاني ، وهنفري بن رودولف ، ورتشارد بن الكونت

رينوف ، وكونت رسبولو ، واخوته : بويل دي شارتر ، واوبريه دي نيانو ، وهنفـري دي مـونت سـكيابوزا ، وركب الجميع البحـر ، وعبروه على حساب بوهموند ، والقـوا مـراسيهم في بلغـاريا حيث وجدوا كميات وافرة من الحبوب والخمور وجميع انواع المؤن .

وساروا حتى نزلوا في وادي ادرنة ، واقاموا ينتظرون وصول بقية الجيش ، واخذ بوهموند في تلك الاثناء في التشاور مع جيشه واثارة همم رجاله وحضهم على السـلوك الحسـن والتـواضع والكف عن النهب وايذاء سكان البلاد المسيحيين وامرهم الا ياخذوا من الاشياء مايزيد على حاجتهم المعاشية .

وحل موعد الرحيل ، فانطلقنا (٢٠) نسير من منطقـة الى منطقـة ومن مدينة الى مدينة ، ومن قلعـة الى قلعـة ، حتـى وصـلنا الى كاستوريا حيث احتفلنا احتفالا بهيجا بميلاد السيد المسيح ، ومكثنا بها عدة ايام نبحث عما نتزود به من مؤن ، لكن سكان المدينة رفضوا تزويدنا بما طلبناه لشدة خـوفهم منا ، فهـم لم يعتبـرونا بمثـابة حجاج ، بل نظروا الينا على اننا جماعة طامعة في تخريب اراضـيهم والفتك بهم ، ولقد استولينا على الخيول والثيران والحمير ، لابـل على كل ماصدفناه او عثرنا عليه في طريقنا ، ولما غادرنا كاسـتروريا دخلنا الى اقليم بيلاغوني حيث صـدفنا بلدة مـن بلدان الهـراطقة فهاجمناها من جميع اطرافها وسرعان مااستولينا عليها ، فاضرمنا النيران واحرقناها بمن فيها من السكان ودمرناها تدميرا .

ثم وصلنا الى نهر الوردار ، وتابع من هناك الأمير بوهموند سـيره مع فئة من عساكره ، وذلك لتميز الكونت روسـتولو عنه ، واقـامته هناك مع اخوته ، لكن الجيش الامبراطوري جاء فهاجم هذا الكونت كما حارب اخوته وجميع من كانوا برفقتهم ، وعندما سمع تـانكرد بهذا ارتد على اعقابه ، وعبر النهر سباحة و انضم الى اخـوته ، و لحق به الفان من العساكر ، و حذو حذوه في عبورهم النهـر ، حيث وجدوا العساكر الامبراطورية والمرتزقة يحـاربون ضـد رجـالنا ،

-٢٥٠٤-

فباغتوهم ، واستبسلوا في هجومهم عليهم حتى هزموهم ، ثم اسروا عددا منهم واقتادوهم مشدودي الوثاق الى حضرة الامير بوهموند فسألهم قائلا : ماالذي دفعكم ايها التعساء على قتل جندي الذين هم جند المسيح ، مع انني لم اناجز امبراطوريتكم العداء قط ؟ (٢١) فاجابوه : الحق نقول ، لقد جرى استئجارنا لحساب الامبراطور ، وكان علينا ان ننفذ كل ماامرنا به ، فسمح بوهيموند لهم بالانصراف دون ان يقتص من واحد منهم وقد جرت هذه الواقعة في اليوم الرابع من اسبوع صوم الاربعين . (٢٢) .
مبارك هو الرب دائما . أمين .

الكتاب الثاني

من واقعة نهر الوردار الى الاستيلاء على نيقية

مسيرة النورمان الايطاليين ـ ذهاب بوهموند الى القسطنطينية ـ الامراء الصليبيون في القسطنطينية ـ قسم الولاء ـ زحفهم نحو نيقية ـ حصار نيقية والاستيلاء عليها.

٥ ـ وبعث الامبراطور في الوقت نفسه واحدا من رجاله المقربين الى مبعوثينا ، وكان هذا ممن يحتل مكانة سامية لديه ، ممن يدعونهم مواليه ، بعثه ليتولى ارشادنا الى السبل الامنة في جميع بلاده وحتى نصل الى القسطنطينية وكان يأمر ـ اثناء جوازنا ببلدانه ـ السكان بحمل الاقوات كما فعل الذين تحدثنا عنهم قبل ، وكان هؤلاء السكان قد استولى عليهم الخوف ، وكانوا يخشون من عساكر الامير بوهموند الاشاوس ، حتى انهم لم يأذنوا لواحد منا باجتياز اسوار مدنهم ، وحدث ذات مرة ، ان اراد واحدا من رجالنا مهاجمة احد الامكنة الحصينة والاستيلاء عليه ، راغبا في حيازة ماكان فيه من ذخائر كثيرة ، ورفض بوهموند الحكيم طلبه وانكر عليه محاولة مغادرة مكانه الا بموافقته وذلك تمسكا بوعده الذي قطعه للامبراطور ، وقد غضب غضبا شديدا من تانكرد ، واشتد غضبه ايضا على بقية الآخرين [٢٣] ، وقد جرت هذه الواقعة ليلا ، وفي صباح اليوم التالي خرج سكان المدينة يطوفون بارجائها ، وهم يحملون الصلبان في ايديهم ، ومثلوا امام بوهموند الذي رحب بهم ، وهش لهم ، ثم صرفهم بعدما طمأنهم على انفسهم وعلى بلدهم.

ووصلنا بعد ذلك الى بلدة تدعى سيرا [٢٤] حيث اقمنا معسكرنا ولقد وجدنا بها كمية وافرة من المؤن المناسبة لهذا الموسم ، وعقد بوهموند هناك اتفاقية مع اثنين من كبار عمال الامبراطورية ، وقد دفعته رغبته في الحفاظ على سلامة الارض ومحبته لهما على اصداره الاوامر الى رجالنا للقيام باعادة جميع السائمة التي

انتهبوها ، وانتهى بنا المسير بعدئذ الى مدينة روسا (٣٥) ، فخرج اهلها من الاغريق جميعا فرحبوا بنا ، ونصبنا بها خيامنا في يوم الاربعاء ـ المقدس ـ السابق لعشاء الرب السري الاخير (٣٦) ، وترك بوهموند جميع قواته هناك ، واصطحب معه شرذمة صغيرة من الفرسان ، وعهد الى تانكرد بقيادة جند المسيح ، وعندما وجد تانكرد الحجاج يقدمون على شراء الاطعمة ، تعهد بالابتعاد عن الطريق العام ، وقيادة الشعب الى مكان يستطيع ان يجد فيه المؤن بوفرة ، وعلى هذا توغل في واد فيه كل شيء ضروري للعيش ، وقد احتفلنا فيه احتفالا بهيجا بعيد القيامة .

٦ ـ وعندما عرف الامبراطور بان بوهموند العظيم المبجل في طريقه اليه ، امر باستقباله بكل حفاوة ، وانزله في منزل فاخر واقع خارج المدينة (٣٧) ، ولما نفض عنه غبار السفر واستجم قليلا ، بعث الامبراطور اليه يسأله القدوم عليه للتفاوض معه على انفراد ، ولقد اشترك في الاجتماع كل من غودفري واخيه (بلدوين)وكان كونت صنجيل قد اقترب انذاك من المدينة ، وقلق الامبراطور من ذلك وغضب غضبا شديدا ، واخذ يحيك مؤامرة تمكنه من تسخير عساكر المسيح لصالحه ، سواء أكان عن طريق المكيدة أم الخداع ، لكن العناية الربانية صرفت عنهم كل مكيدة ولم تمكنه لاهو ولارجاله من ايقاع ادنى أذى بهم ، وفي هذا الوقت الذي كان فيه بوهيموند وغودفري مجتمعين بالامبراطور ، اجتمع في مكان آخر جميع مقدمي البطارقة (النبلاء) الذين كانوا في القسطنطينية ، وخافوا أن يفقدوا مدينتهم ، فقاموا بتدبير بعض الخطط الخرقاء ، حيث خيل اليهم ان زعماء جيشنا والأمراء سيقدمون على أداء قسم الولاء للامبراطور ، لكن رجالاتنا رفضوا مطلب الامبراطور وعروضه وقالوا : ان هذه أمور مزرية بنا ، ولايجوز لنا أن نقسم يمين الولاء فلربما غرر بنا زعماؤنا ، وآنذاك من الذي يمكنه حسم هذه المسألة فقد يقولون عند ذاك : ان الضرورة الملحة قد حملتنا على الخضوع والانصياع لمشيئة الامبراطور .

ووعد الامبراطور الأمير بوهموند الشجاع ، والذي كان يخشاه حيث انه فر من أمامه أكثر من مرة ، وعده أن يقطعه أرضا وراء انطاكية ، تمتد مسيرة خمسة عشر يوما طولا وثمانية أيام عرضا ، مقابل تقديم بوهموند يمين الولاء له ، من غير تردد ، ووعده الامبراطور أنه لن يتخلى عن عهوده اليه ، مادام متمسكا بولائه (٢٨) ، وغريب حقا كيف تصرف هؤلاء الفرسان الشجعان الأشاوس هذا التصرف ؟ لا شك ان الحاجة الملحة ارغمتهم على القبول بتقديم قسم الولاء.

وتعهد الامبراطور من جهته لرجالنا بالوفاء بعهوده ، وانه سيضمن سلامتهم ، لابل قد أقسم أنه سيرافقنا شخصيا ومعه جيشه واسطوله ، وانه سيؤمن جميع المؤن التي سنحتاجها برا وبحرا ، من غير تباطؤ ، وسيسعى الى تعويض جميع خسائرنا ، وتدارك كل ماسنحتاج اليه ، حتى لايشعر أحد من الحجاج ، وهم في طريقهم نحو القبر بشيء من الخوف أو الملل ،

وكان الكونت صنجيل مقيما في هذا الوقت في احدى المقاطعات ، وبقي جيشه معسكرا في الخلف ، وبعث اليه الامبراطور يطلب منه أن يقسم يمين الولاء له كما فعل غيره من الأمراء ، ورفض صنجيل وشرع يخطط ساعتئذ للانتقام من الجيش الامبراطوري لكن الأمير غودفري وروبرت كونت فلاندر مع بقية البارونات عذلوه وأخبروه انه ليس من العدل أن يشهر سيفه في وجه الامبراطور ولمحاربة المسيحيين ، وزاد بوهموند العاقل على ذلك انه اذا أقدم (كونت تولوز) على ارتكاب أي عدوان ضد الامبراطور ، وخالف ماتعهد به بقية الأمراء ، فانه – اي بوهموند – سيقف بنفسه ضده والى جانب الامبراطور ولدى سماع صنجيل هذا مضى للتشاور مع رجاله ، ثم عاد فأقسم يمين الولاء والتبعية للامبراطور ، وتعهد بالحفاظ على حياة الامبراطور واحترام ارادته ، وتشريف مكانته ، وعدم تعريضه للاساءة أو المهانة من قبله أو من قبل واحد من رجاله ، ومع هذا يلاحظ انه عندما وجهت الدعوة اليه لحضور الحفل العام الذي أقامه

الامبراطور احتفاء بما تعهد به الأمـراء ، رفض الدعوة وأصر على رفضه وأعلن أنه لن يستجيب حتى لو قاده رفضـه الى مـوته وتلف نفسه ، وفي الوقت الذي كان هذا كله يحـدث في العـاصمة اقتـرب جيش بوهموند منها .

٧ ـ وحتى يتجنب كل من تانكرد وردشارد السالرني أداء قسم الولاء للامبراطور تسللا هاربين وعبرا البوسفور خفية ، واصطحبا معهما الجزء الأكبر من عساكر بوهموند ، ولم يلبـث جيش الكونت صنجيل أن وصل الى القسطنطينية ، حيث أقام هو ورجـاله بعض الوقت ، وبقي بوهموند في صحبة الامبراطور للتشـاور معـه حـول الوسائل المجدية التي ينبغي اتخاذها لتسهيل عبور القوات الموجودة وراء نيقية ، بينما مضى الأمير غودفـري الى نيقـوميديا وبـرفقته تانكرد وبقية الأمراء ، ولبث الجميع هناك ثلاثة أيام .

ولما وجد الأمير (غودفري) أنه ليس هناك طريق يمكن المسير عليه وقيادة هذه الأعداد نحو نيقية ، فالطريق الذي سبق أن عبره الصليبيون الأوائل لايتحمل حشودا كثيفية مثل هذه الحشود ، أقول لما وجد غودفري الحال على هذه الصورة ، قدم أمـامه سرية فيهـا ثلاثة آلاف رجل وسلحها بالفؤوس والسيوف ، وأمـرها أن تتقـدم أمام الجيوش وأن تقوم بتمهيد الطريق وتوسيعه ليتمكن حجاجنا من عبوره الى نيقية ، وبالفعل تمكن هؤلاء الرجـال مـن شـق طـريق مناسب عبر شعاب احد الجبال العالية ، وقاموا أثناء عملهم بصنع كمية من الصلبان من الخشب والحديد ، ونصبوها على شكل صوى لتكون وسيلة ارشاد لحجاجنا ، وهكذا وصـلنا الى أحـواز مـدينة نيقية حاضرة بلاد آسية كلها ، وكان يوم وصولنا هو السادس مـن أيار، و هنا أقمنا معسكرنا .

ومضينا قبل وصول الأمير بوهموند نلتمس الخبز ، فلم نجـد الا القليل منه ، حتى أن الرغيف الواحد كان يبـاع بعشرين أو ثـلاثين ديناري ، ولما وصل بوهموند الحكيم جلب معه عن طريق البحر مؤنا

كثيرة ، وتوالى بعد هذا وصـــول الامـــدادات عبـــر اليابســـة والماء ، فعمت الفرحة العظمى بين صفوف عساكر المسيح .

٨ ــ وشرعنا يوم صعود الرب (٢٩) في مهاجمة المدينة مـن جميع أطرافها ، وقمنا بصنع عدد من الأبـراج الخشـبية زودنا بعضـها بأكباش أردنا أن نهدم بهـا أبـراج الأسـوار ، وبعـد مضي يومين استطعنا أن نقترب من أسوار المدينة بكل شجاعة واندفاع ، فهدمنا أسوارها ودككنا أبراجها ، وقـام التـركمان المدافعـون عن المدينة بإرسال رسالة استغاثة ، وعندما وصـلت النجـدات بعثـوا اليهـا يقولون : اقبلوا غير هيابين ، واقتربوا غير وجلين ، وادخلوا مـن الباب الجنوبي لانكم لن تجدوا في هذه الناحية من يعترض سـبيلكم او يقف في طريقكم .

وفي اليوم نفسه ــ اي يوم السبت التالي ليوم صعود الرب تمكن الكونت صنجيل وأسقف بـوي مـن احتـلال تلك الجهـة الجنوبية ، وخرج هـذا الكونت ، الذي جـاء مـن بـلاد غير بلادنا ، خرج ترعاه العناية الربـانية ، وهـو يزهـو بـأسلحته الدنيوية ، فـانقض بجيشـه على التـركمان الذين كانوا يزحفـون نحونا ، وحيث أنه كان مسـلحا بشـارة الصـليب مـن جميع الجوانب ، فقد استبسل في هجـومه عليهـم وقـاتلهم بشـدة متناهية ، فالحق بهم الهزيمة وانتصر عليهم ، فلاذوا بالفرار بعدما خلفوا وراءهم أعدادا كبيرة من القتلى ، وكانت جماعة أخرى مـن التركمان قد أقبلت تريد نجدة من سبقها ، أقبلت ونفـوس رجـالها تفيض سرورا وأملا بـالنصر المحقـق ، وأحضروا معهـم الحبـال ليربطوا بها رجالنا ، ويأخـذوهم معهـم مصـفدين بـالأغلال الى خراسان ، وكانوا في حالة من النشوة والطرب ، وأخذوا ينحـدرون فئة تلو أخرى من قمة مـرتفع ، وكانوا كلمـا وصـلوا الى السـهل ليستقروا هناك ضربت أعناقهـم بـأيدي رجـالنا ، الذين أخـذوا يضعون رؤوس هؤلاء القتلى في العرادات ويقذفون بهـا الى داخـل المدينة بغية نشر الرعب بين صفوف سكانها التركمان .

وتبادل بعد هذا كونت صنجيل واسقف بوي الرأي و اتفقا حـول الوسائل التي تمكنهما من هدم أحد الابـراج ، وكان قـائما أمـام معسكريهما ، وقد عمدا الى ارسال عدد من الرجال لحفر نفق تحته بغية تعليقه ، ومضى هؤلاء بحماية جمـاعة مـن حـاملي الاقـواس والنشاب ، وجرت عملية الحفر بنجـاح ، وتـم وضـع كمية مـن الأخشاب تحت أساسات البرج ، ثم أضرمت فيهـا النيران ، ومـع حلول الظلام إنهار البـرج ، غير أن القتـال تـوقف بسـبب الظلام ، فانتهز التركمان الفرصة وخرجوا في الليل الدامس فرمموا ماتشعث من الأسوار حتى عادت أقوى مما كانت عليه ، وفي الصباح رأى رجالنا ذلك وأدركوا انه بات من المحال انزال الأذى بالعدو مـن تلك الجهة .

وتلاحق وصـول العسـاكر ، فـوصل روبـرت (كونت هيوز) النورمندي ، والكونت ايتين (٣٠)، وغيرهمـا كثير ، ثـم وصل روجر دي بانفيل ، وقام بوهموند بمهمة حصـار المدينة مـن الجهة الأمامية ، ووقف الى جانبه تانكرد ، ثـم التحـق بـه الأمير غودفري وكونت فلاندر يعـاونه روبـرت دوق نورمندي ثـم الكونت صنجلي ومعه أسقف بوي ، واشتد الحصـار الذي ضرب على نيقية من جهة البر شدة كبيرة ، ولم يعد بامكان احد ما الخروج من المدينة أو الدخول اليها ، ووقف الجميع في هـذه السـاعة وقفـة رجـل واحد ، لكن من الذي يمكنه احصاء تعداد جيش المسيح ؟!

ويخيل لي أنه لم يتأت لأحد ، ولن يتأتى لانسان أن يشاهد مثـل هذا العدد الهائل مـن الفـرسان ، وهـم في غاية التـأهب والاستعداد (٣١) .

لكن كانت هناك بحيرة كبيرة واقعة في الجهة المقابلة لنيقية ، فيها قوارب للتركمان ، الذين ملكوا حرية الخـروج مـن مـدينتهم لجلب الأعلاف والأخشاب وغير ذلك من أنواع العتاد ، وتشـاور قـادتنا حول هذا الأمر ، وقر قـرارهم على ارسـال مبعـوثين عنهـم الى

القسطنطينية يطلبون من الامبـراطور انقـاذ عدد مـن السـفن الى شفتوت حيث وجد فيها ميناء ، كما طلبـوا منهـم أن يوعز بجمـع مـاأمكن جمعه من الثيران ، وسوقها عبر الجبـال والأحـراش الى أحواز البحيرة ، وسرعان ماتم تنفيذ ذلك ، وبعـث الامبـراطور في الوقت نفسه مرتزقته ، وجلبت القوارب ، ولم ير القوم انزالهـا الى الماء في وضح النهار ، لكن عندمـا حـل الظـلام انزلوهـا الى البحيرة ، واعتلاها المرتزقة وهم في كل اسـلحتهم ، ومـع بـزوغ الفجر شوهدت القوارب الصغيرة وهـي تجـدف وسـط البحيرة في احسن نظام ، ميممة شطر المدينة ، ومـاكاد التـركمان يرون هـذا المشهد ، حتـى تملكتهـم الدهشـة واحتـاروا في امرهم ، وتساءلوا : أتـراها لقـومهم أم أنهـا لعسـاكر الامبراطور ؟ وسرعان مـاعرفوا أنهـا نجـدة مـن الامبراطور ، فاستولى عليهم الرعب ، وهلعوا ، واجهشوا في البكاء والنحيب بينما كان الفرنجة يطيرون فرحا ، ويمجدون الرب .

ولما ايقن التركمان في النهاية ، انهم لن يستطيعوا تلقي اية نجدة من جيوشهم ، ارسلوا سفارة الى الامبراطور ، تخبره باستعدادهم لتسليم البلد له ، اذا سمح لهم بالخروج مـع نسـائهم و اطفـالهم و جميع ما يملكون ، و سر الامبراطور و ابتهج ، و دفعته سوء طـويته الى القبول و الايعاز باخراجهم آمنين ، و ارسالهم سالمين مطمئنين الى القسطنطينية للمثول امام جلالته ، و عاملهـم بـاللطف و اللين ليكونوا على استعداد للتعاون مع و نصب كمائن للفرنجة ، و اقـامة العقبات في طريقهم (٣٢) .

واستمر حصار نيقية سبعة اسابيع وثلاثة ايام ، واسـتشهد فيه العديد من رجالنا ، وعرجت ارواحهم الطـاهرة الى الرب مغتبـطة جذلى ، ومات كثير من الفقراء جوعا في سـبيل تمجيد اسـم الرب ، وصعدت نفـوسهم منتصرة الى السـماء مجللة بـاثواب الشـهادة البيضاء ، وهي تهتف جميعا بصوت واحد:« حتى متى ايها السـيد

- ٢٥١٢ -

القدوس الحق لاتقضي وتنتقم لدمائنا مـــن الســـاكنين على الارض ، انت يامن تستحق مدائحنا جيلا بعد جيل ، لك المجد ، آمين» (٣٣) .

زحف الصليبين نحو آسية الصغرى

معركة دوريليوم(٣٤)(اول شهر تموز ١٠٩٧)

٩ ـ وسار التركمان ، بعد سقوط نيقية ، الى القسطنطينية القاء الامبراطور ، الذي ازداد سرورا بكل ما حدث ، فأقدم على توزيع الكثير من الهبات على فقرائنا.

ووصلنا في اليوم التالي لمغادرتنا نيقية الى جسر (٣٥) ، خيمنا للاستراحة على مقربة منه لمدة يومين ، واستيقظ رجالنا مع بزوغ فجر اليوم الثالث ، وكان سكون الليل ما زال مخيما ، ولما لم يستطيعوا ركوب الطريق نفسه معا ، انقسموا إلى فريقين ، سار كل منهما على طريق ، وكانت المسافة بينهما حوالي اليومين ، وسافر مع الفريق الأول كل من بوهموند ، وروبرت دوق نورمنديا وتانكرد العاقل وسواهم كثير .

وانقض التركمان في اليوم الثالث انقضاضا عنيفا على بوهموند وصحبه ، وشرع الأعداء يصرون على اسنانهم ، ويصرخون صرخات عالية مدوية ، وهم يرددون بالسنتهم عبارة شيطانية لا اعرفها (٣٦) ، ولما رأى بوهموند العاقل هذا العدد الهائل من التركمان مندفعين بكل شدة وهم يزمجرون بصوت مرتفع كمن به مس من الشيطان ، امر بعض الفرسان بالترجل من على مطاياهم ، والإسراع في نصب خيمته ، وقبل أن يتم نصبها أعاد قوله : على جميع الفرسان ، عليكم أيها المبجلون يا فرسان المسيح الشجعان ، التميز عن الرجالة في الذهاب قدما نحو اليمين ، وليبادر الرجالة إلى إقامة المعسكر وليكن رائدهم العقل ، فنحن نواجه يوما عصيبا والعدو محدق بنا من كل الأطراف .

وما أن انجز هذا كله حتى احاط بنا التركمان من كل جانب ، واخذوا في محاربتنا برمينا بالحراب ورشقنا بالنشاب من مسافة

بعيدة وبشكل مدهش ، فأجمعنا على الخروج بغية صدهم على الرغم من عجزنا عن مقاومتهم وعدم قدرتنا على احتمال وطأة هجوم هـذا الحشد الكبير من الأعداء ، وقدم النسوة لنا في ذلك اليوم مساعدات كبرى مشكورة ، إذ قمن بحمل الماء إلى رجالنا ليطفئوا بها ظمأهم ، ولم يتوقفن عن تحميسهن وحثهن على مثـابرة القتـال والمدافعـة ، وسارع بوهموند الحكيم إلى إعلام الآخـرين ، وأعني بهـم الأمير غودفري ، والكونت صنجيل وهيوج الكبير ، واسـقف بـوي وبقية فرسان المسيح ، وطلب منهم المبادرة دون توقف للسير نحو المعـركة مخاطبا إياهم بقوله : « من أراد منكم أن يسـهم اليوم بنصـيب في الحرب فليقدم شاهرا سـيفه غير متـردد » ، واسـتجابوا لندائه ، وكان غودفري المعروف بشدة اقدامه وشجاعته ، وهيوج الكبير أول الواصلين على راس قواتهما ، ولم يلبث أن وصل أسقف بوي ومعه عساكره ثم تلاه كونت صنجيل في جيش كثيف التعداد .

واستبدت الدهشة برجالنا وراحوا يتساءلون: عجبا من اين يمكن لمثل هذا العدد الهائل من التركمان والعرب والمشارقة وسواهم أن جاء ، ذلك أن هذا الجنس الآثم ، والمحروم من رحمة الرب قد غطى بحشوده الكثيفة وجه الأرض في الجبال والتلال والسهول والوديان ، في داخل المدينة وخارجها ، وجرت بين صفوفنا مشاورات عاطفية ، قلنا فيها بعد حمد الرب وتبادل الرأي : « اعملوا كل ما في وسعكم ، وابذلوا كل جهد ، واعتمدوا كل وسيلة للاتحاد في سـبيل نصرة دين المسيح ، والدفاع عن الصليب المقدس ، ذلك أنكم إذا أرضـيتم الرب هذا اليوم انقلبتم أغنياء موفوري الثراء » .

ولم يلبث شمل رجالنا أن التـأم ، وعبـئت الصـفوف ، وكان على المجنبة اليسرى كل من بـوهموند الحـكيم ، وروبـرت النورمندي ، وتانكرد الفطن ، وروبرت دي انزا ، ورتشارد السالرني ، وزحـف اسقف بوي من وراء مرتفع لتطويق التركمان الكفرة ، وكان معهـم على المجنبة اليسرى ريموند كونت صنجيل ، وهـو الفـارس الذائع الصيت ، وكان الأمير غودفري على المجنبة اليمنى ، ومعه الفـارس

المقدام كونت فلاندر ، وهيوج العظيم ، وأخرون كثير ممـن لا أعرف اسماءهم .

ولدى اقتراب فرساننا بادر التركمان والعرب والمشارقة والغلمـان وجميع شعوب البرابرة ، إلى الفرار لا يلوون على شيء مـن منافـذ الجبال ومسالك السهول ، وكان عدد التـركمان والفـرس والرعاع والمشارقة والغلمان وسواهم من الوثنيين يبلغ ستين الفا وثـلاثمائة الف مقاتل ، هذا عدا عن العرب الذين لا يعـرف عددهـم غير الله ، وهربوا نحو خيامهم بكل سرعة ، بيد أنهم لم يتمكنوا من المكوث بها طويلا ، واضطروا إلى متابعة الفرار ونحـن نلاحقهـم ونجـري في اثارهم نقتل فيهم سـحابة يوم كامـل ، وقـد اسـتولينا على غنائم عظيمة من الذهب والفضـة والخيول والجمـال والحمير والسـائمة والأبقار ، وأشياء لا تحصى غير هذه مما لااعرفها ، وما كان لواحد من رجالنا أن ينجو في هذا اليوم لولا وجـود الرب معنا على سـاح المعركة ، ولولا أنه تـداركنا بإرسـال الجيش الآخـر بـالسرعة القصوى ، وقد استمر القتال دونما توقف من الساعة الثالثة حتـى التاسعة ، ولم يرض الرب المتعالي الرحيم أن يهلك فرسانه ، أو أن يقعوا في قبضة الاعداء ، فلعـث لنا بهـذه النجـدة (٣٧) على جناح السرعة ، وقد قتل في هذا اليوم اثنان من فـرساننا النبـلاء وهمـا: غودفري دي مونت سكابوزر ووليم ابن المركيز اخو تـانكرد ، كمـا لقي غيرهـم من الفرسان والرجالة الذين لاا عرفهم مصرعهم ايضا.

من هو الرجل البصير العـاقل الذي يجـرؤ على وصـف بـراعة التركمان ومواهبهم الحربية ومقدار شجاعتهم ؟ كان قد خيل إليهم أنهم سيدخلون الرعب إلى قلوب أمة الفرنجة عن طـريق تهـديدهم إياهم بنشابهم كما سـبق وفعلوا بـالعرب والمشـارقة والأرمـن والسوريين والأغريق ، لكن إذا قضي الرب الا يتغلبوا على رجـالاتنا فإنهم لن يجدوا إلى ذلك سبيلا ، ولقد كان حقـا مـا قيل مـن انه لا يجوز لأحـد أن يدعي الفـروسية إذا لم يكن مـن بين الفـرنجة أو التركمان ، وسأقول أنا بـدوري الحقيقـة ، ولن يسـتطيع احـد

- ٢٥١٦ -
مناقضتي : لو أن التركمان امنوا إيمانا مطلقا بالمسيح واتبعوا دين المسيحية المقدسة ، وتأتى لهم أن يعترفوا بإله واحد في ثلاثة اقانيم ، هي : ابن الله المولود من العذراء ، الذي عاني ثم قام من بين الأموات ، وصعد إلى السماء أمام أعين حوارييه ، وأرسل التعزية الكاملة بالروح القدس ، وقيض إليهم أن يؤمنوا ايضا إيمانا صافيا حقيقيا بأن له الحكم في السماء والأرض ، لما وجدنا انسانا يمكن أن يعادلهم في القوة والشجاعة والبراعة في القتال (٣٨) .

لقد شاءت إرادة الرب أن يواجهوا الهزيمة على أيدي رجالنا ، وكانت هذه المعركة يوم أول تموز .

الكتاب الرابع

الزحف الصليبي نحو انطاكية

عبور الصليبيين آسية الصغرى ـ ذهـاب كل مـن بلدوين وتانكرد الى طرسوس

جواز أرمينية الصغرى واقليم كبـدوكية ـ وصـولهم الى ابواب أنطاكية

١ـ بعد ايقاع الهزيمة الساحقة بالتركمان أعداء الرب والمسيحية المقدسة ، وفرارهم لمدة أربعة أيام واربع ليال متوالية سويا ، وصل الخبر بأن زعيمهم سليمان بن سليمان الكبير قد انهزم نحـو نيقية ، حيث صادفه عشرة آلاف عربي فقالوا له : « أيها التعس ، يا أشقى الناس طرا ، مـا الذي حملك على الفـرار » ؟ فـأجابهم سـليمان بقوله : عندما انهزم الفرنجة من قبل ، كنت احسب انني سأخـذهم أسرى مقرونين بالأصفاد ولما اردت ربـطهم جمـاعة تلو أخـرى ، ابصرت من ورائهم حشود كثيفة لا تعد ولا تحصى ، ولو اتيح لكم أو لغيركم الحضور لشهدتم حشودهم تغـطي وجـه الأرض والجبـال والسهول والتلال والوديان ، فنحن لم نكد أن نراهم حتى إسـتولى علينا الفزع ، واستبد بنا الهلع ، ولم نعد ندري ما نفعل ، فقد سرنا حتى كدنا أن نقع في أيديهم ، والآن إذا كنتـم تثقـون بمـا أقـول ، ارحلوا من هنا لتوكم ، إذ لو عرفوا خبـر قـدومكم ، لما نجـا أحـد منكم ، فلما سمعوا مقالته هذه ولوا الأدبار ، وتفرقوا أيدي سـبأ ، وانسابوا في جنبات آسيا الصغرى .

أما نحن فلم نتوقف من جانبنا عن ملاحقة أولئك التركمان الطغاة ، الذين كانوا يلوذون بالفرار من أمامنا يوميا ، وكانوا كلما مروا ببلد أو موقع حصين كذبوا على أهله وخدعوهم قائلين : « لقـد هـزمنا المسيحيين جميعا وكان نصرنا عليهم مؤزرا ، إلى حد انه لن يجـرؤ بعد اليوم أحد منهم على الوقـوف أمـامنا ، لهـــذا دعونا ندخـــل

عليكم » ، لكنهم كانوا ما يكادون يدخلون البلد حتى يعملوا يد السلب والنهب في جميع البيوت والكنائس وفي كل ما اعترض سبيلهم ، وكانوا يستولون على الخيول والحمير والبغال وجميع الذهب والفضة وعلى كل ما وصلت إليه أيديهم ، ثم كانوا ينطلقون ومعهم أبناء النصارى ، لكن بعد أعمالهم الحرق والتهديم في كل ما عجزوا عن حمله والانتفاع منه ، كانوا يفعلون هذا كله وهم يفرون من أمامنا ويخشون لقاءنا ، ولقد طاردناهم عبر الصحارى والفيافي الخالية من الماء والحياة ، فأحاق بنا الخطر ، وكدنا ألا نخرج أحياء ، وعانينا من الجوع وشدة الظمأ ، ولم نجد ما نسد به الرمق غير الشوك الذي كنا نقتلعه ونسحقه بأكفنا ، فهذا هو الطعام الذي عشنا عليه ونحن في أشد حالات السغب ، وقد نفقت معظم خيولنا ، واضطر كثير من فرساننا إلى الترجل ، ولقد ألجأنا النقص في المطايا إلى استخدام الثيران بدلا من خيول القتال ، واستعملنا ونحن في وسط العوز الماعز والخراف وحتى الكلاب لحمل أمتعتنا .

ووصلنا بعد ذلك إلى منطقة شديدة الخصب ، تفيض بالمأكولات والأطايب ، وتزخر بشتى أنواع الحياة ، واقتربنا من مدينة قونية ، حيث نصحنا أهلها أن نحمل معنا كميات زائدة من المياه ، لأننا سنفتقده طوال يوم كامل من مسيرتنا ، ووصلنا بعد ذلك إلى نهر أقمنا إلى جواره مدة يومين ، واستمر أعداؤنا في التقدم أمامنا حتى أفضى بهم المسير إلى مدينة هرقلية ، حيث وجد هناك فريق كبير من التركمان يعد العدة للتصدي لجند المسيح ويبحث عن أجدى الوسائل التي تؤذيه ، وما كاد جند الرب يرون هؤلاء التركمان حتى انقضوا كالأسود عليهم ، وحملوا عليهم حملات شديدة ، فأسرع أعداؤنا إلى تولية الأدبار ومضوا فارين كسهم شديد انطلق من قوسه ، وسرعان ما اقتحم رجالنا المدينة ، حيث لبثنا فيها مدة أربعة أيام .

وهناك تميز تانكرد بن المركيز عن الآخرين وانفصل عنهم ، وحذا حذوه الكونت بلدوين أخو الأمير غودفري ، ودخلا معا وادي بوثرنلوت ، ولم يلبث تانكرد أن مضى وحده وانطلق على رأس

فرسانه حتى وصل إلى طرسوس ، فخرج التركمان في جماعة واحدة ، واصطفوا لقتال المسيحيين ودفعهم ، إنما عندما دنا رجالنا منهم لحربهم ، لاذوا بالهرب ، وانصرفوا نحو المدينة مسرعين ، فثنى تانكرد فارس المسيح عنانه ، وضرب مخيمه أمام باب المدينة .
ووصل بعد قليل ، من جانب آخر الكونت بلدوين مع جيشه وسأل تانكرد أن يقاسمه المدينة ، فأجابه : إنني أرفض كل شراكة معك ، ولما حل الظلام فر جميع التركمان مذعورين ، وعندئذ تسربل سكان المدينة وخرجوا يهتفون : « اقبلوا أيها الفرنجة المنتصرون ، اقبلوا فإن التركمان ارتعشوا خوفا وفروا جميعا في آن واحد » .

ومع اشراقة الصباح جاء أعيان المدينة إلى معسكر الفرنجة وسلموا المدينة عن طواعيه وخاطبوا المتنازعين حول تملكها بقولهم : أقصروا أيها السادة ، فنحن نرغب إليكم ونرجوكم تولية هذا [تانكرد] علينا ، فهو الذي استبسل بالأمس في قتال التركمان ، لكن الكونت بلدوين المحبوب اعترض وحاجج تانكردبقوله : « لندخل المدينة معا ، ولنتول نهبها ، وليتول أمرها بعد ذلك من يصب منا النصيب الأوفى ، وليحتلها من يستطيع حربها » فعاود تانكرد الشجاع الرد بقوله :«ما أمقت هذا المسلك إلى نفسي، وما أبعدني عنه ، إنني لا اريد أن أسلب المسيحيين ، ولقد اختارني أعيان هذه المدينة أميرا عليهم وهم لا يريدون سواي أميرا » لكن هذا الأمير الشجاع لم يجد في نفسه الرغبة في متابعة الخصام مع الكونت بلدوين الذي كان يقود جيشا كبيرا ، وتخلى عن المدينة طواعية أو مرغما ، وانسحب بكل شجاعة ، وسرعان ما استسلمت له مدينتان هما : أذنة والمصيصة ، كما دان له العديد من الحصون .

١١ ـ ومع هذا كله ، فقد تابع الجيش العظيم تقدمه ، وفيه ريموند الصنجيلي ، وبوهموند البارع ، والأمير غودفري ، وسواهم كثير ، ودخلوا بلاد الأرمن وبهم ظمأ شديد إلى دماء التركمان ، وعطش إلى الارتواء منها ، وقادهم زحفهم إلى حصن شديد المناعة ، وقفوا

امامه عاجزين ، وكان يقيم فيه رجل اسمه سيمون من اهل البلد (٣٩) ، فسألهم ان يعهدوا اليه بامور الدفاع عن تلك البقعة من الارض ضد محاولات اعدائه من التركمان ، فمنحه الفرنجة اياها فاقام بها مع ابناء جنسه.

ثم غادرنا تلك المنطقة ، ووصلنا ونحن في انعم بال إلى قيصرية من اعمال كبدوكية ، ثم توجهنا إلى مدينة فخمة رائعة الجمال ، كثيرة الثروات (٤٠) ، كان التركمان قد اقاموا على حصارها ثلاثة اسابيع قبل قدومنا ، غير انهم عجزوا عن اخذها ، في حين انه ماكدنا نصل حتى القت بأيديها الينا عن طواعية وبكل سرور ، وتقدم واحد من الفرسان واسمه بطرس دي البيوس (٤١) ، وسأل جميع المقدمين اقطاعه اياها ليدافع عنها بكل ما أوتيه من طاقة في سبيل الرب والقبر المقدس ، والسادة النبلاء والامبراطور ، فأجمعوا على اجابة مطلبه ، ورضوا باقطاعه اياها.

وعلم بوهموند في الليلة التالية أن التركمان الذين كانوا يحاصرون هذه المدينة ، قد انتشروا في جوانب المنطقة ، فسارع على رأس فرسانه وحدهم دون غيرهم لمطاردتهم حيث كانوا ، لكن لم يتهيأ له اللقاء بهم .

ووصلنا بعد هذا إلى مدينة اسمها كوكسون ، وكانت المؤن التي نحن بأمس الحاجة إليها ، متوفرة فيها بكميات وافية ، وسرعان ما استسلم لنا مسيحيوها وادخلونا إليها ، فمكثنا فيها ثلاثة ايام في أرغد عيش ، فاستجم رجالنا واستردوا عافيتهم تماما .

ونما إلى مسمع الكونت ريموند [الصنجيلي] بأن التركمان المتولين لشؤون الدفاع عن انطاكية قد غادروها ، فاطبق تدبيره هو ومشاوروه على المسارعة في إرسال بعض فرسانه للاستيلاء عليها قبل فوات الوقت ، واقدم على اختيار كل من الفيكونت بطرس القشتالي ووليم دي مونبليه ، وبطرس دي روبيه ، وبطرس ريموند دوتيول ، وعهد إليهم بتنفيذ هذه المهمة ،و انفذ برفقتهم خمسمائة

- ٢٥٢١ -

فارس ، فساروا جميعا في واد يقع في أحواز انطاكية ، حتى بلغـوا من حصون البوبليكان ، وهناك علمـوا بـأن المدينة لا زالت بـأيدي التركمان ، وأن هؤلاء على استعداد للدفاع عنها بكل اصرار ، وتميز بطرس دي روبيه بمن معه ، حتى كان مساء اليوم التالي ، تجـاوز انطاكية ودخل منطقة منخفض الروج ، فصـادف بـه فـريقا مـن التركمان والمسلمين فناجزهم القتال ، واوقع بفئة كبيرة منهم ، ثـم تعقب الباقين بعنف ، وما كاد الأرمن النازلون في هذه المنطقـة يرون عظم الهزيمة التي الحقها بطرس بالعدو حتـى أذعنوا له ، ودانت له الروج ، كما استسلم له العديد من الحصون الأخرى .

اما نحن الذين بقينا في كوكسون فقد غادرناها ، وتوغلنا في داخـل جبل مرعب ، تلامس نراه قبة السماء ، هذا إلى ضيق مسالكه ضيقا شديدا ،وسرنا في الطريق المجاور له ، ولم يتمكن واحد منا مـزاحمة آخر في التقدم ، وكانت الخيول تسـقط في الأودية ، وكان كل فـرس حموله يجر فرسا اخر مقطورا وراءه .

وظهرت آثار الحزن واليأس على وجوه الفرسان جميعا ، وأخـذوا يلطمون وجوههم ويضربون كفا بـكف حـزنا ورعبـا ، وراحـوا يتساءلون : ماذا يمكنهم أن يصنعوا بأنفسهم وأسلحتهم ، فمضـوا يبيعون خيولهم وترستهم وخونهم لقاء مبلغ تراوح بين ثلاث وخمس دينارى ، أو بأثمان زهيدة جدا ، والذين عجزوا عن بيعهـا قـاموا بطرحها عن كواهلهم بلا مقابل ، وتابعوا طريقهم .

ولما خرجنا من هذا الجبل الملعـون ، وصـلنا إلى البلدة المعـروفة باسم مرعش ، فخف اهلوها إلى اسـتقبالنا وهـم في غاية الفـرح والترحيب ، وحملوا إلينا المؤن والأعلاف بشكل كبير ، فغدونا بأرغد عيش ، واقمنا بها ننتظر وصول الأمير بوهموند .

ووصل فرساننا اخيرا إلى الوادي الذي تقـوم فيه أنطـاكية المدينة الملكية ، عاصمة بلاد الشام قاطبة ، التي منحها الرب عيسى المسيح

- ٢٥٢٢ -١

إلى بطرس سيد الحواريين ، ليعيدها إلى عبـادة الدين المقـدس ، وهو الذي ذهب ، وحكم مع الله الأب في عالم روح القدس . له المجد السرمدي . آمين .

الكتاب الخامس

الشروع بحصار انطاكية

(٢٠ تشرين أول إلى كانون أول)

بدء الحصار ــ الاستيلاء على حصن حارم ــ المجاعة في المعسكر الصليبي

١٢ ــ لدى اقترابنا من جسر الحديد ، صادف رجال طلائعنا ــ الذين اعتادوا على التقدم امامنا ــ في طريقهم فئة كبيرة من التركمان متوجهين بسرعة نحو أنطاكية لنجدتها ، فما كان منهم إلا أن انقضوا عليهم ، وكلهم قلب واحد ويد ضاربة واحدة ، فهزموا أولئك التركمان ، وكتبت لهم الغلبة عليهم ، بعدما قذفوا الرعب في قلوب أولئك البرابرة ، الذين فروا مخلفين وراءهم عددا كبيرا من القتلى (٤٢) ، ولما كان لواء النصر معقودا على مفرق رجالنا ، فقد اصابوا بفضل رعاية الرب لهم ــ غنائم كبيرة من الخيول والجمال والبغال والحمير المحملين بالأطعمة والأشربة .

ووصل رجالنا أخيرا إلى شاطىء النهر (٤٣) ، وعسكروا على مقربة منه ، وبادر على الفور بوهيموند الحكيم على رأس اربعة آلاف فارس ، وعسكر أمام واحد من أبواب المدينة ، حتى يحول بين الدخول إليها أو الخروج منها سرا تحت جنح الظلام ، ووصل بقية الجيش إلى انطاكية في اليوم التالي ، وهو ظهر اليوم الرابع من يوم الراحة الذي هو الثاني عشر قبل أول تشرين الثاني (٤٤) وتمكنا من حصار ثلاثة أبواب من أبواب المدينة حصارا حقيقيا ، ولم يتيسر لنا ضرب الحصار من الناحية المتبقية ، إذ كان يحيط بها جبل عالي القمة لم يترك لنا سوى عقبة بالغة الضيق .

واستولى الجزع على أعدائنا من التركمان الذين كانوا داخل المدينة إلى حد أنهم بقوا خمسة عشر يوما تستبد بهم الدهشة ،

لايستطيعون تحريك ساكن ، ولم يجرؤ واحد منهم على محاربة واحد من جماعتنا ، هذا وماكدنا نقيم معسكراتنا حول انطاكية حتى لاحظنا أن هذه الناحية وافرة الخيرات فيها أعناب ناضجة بكميات كبيرة ، ومخازن مملوءة بالقمح ، واشجار مثقلة بالفواكه ، كما عثرنا على مختلف أنواع الأطعمة الصالحة للأكل .

وداب الأرمن والسريان الذين كانوا داخل انطاكية على مغادرتها كل يوم متظاهرين بالهرب ، وعليه وجدوا بين صفوفنا كل يوم ، بينما بقيت عيالاتهم داخل المدينة ، وجرت عادتهم على تقصي اخبار احوالنا ومواقفنا ، ثم كانوا يحملون هذه الأخبار إلى المحاصرين الذين أغلقت عليهم منافذ المدينة ومسالكها ، ولما عرف التركمان تمام المعرفة بجميع مايتعلق بنا ، ووقفوا على مجمل أخبارنا شرعوا يخرجون من المدينة شرذمة بعد شرذمة ، ومضوا يحدقون بحجاجنا ، واخذوا يتربصون بنا من كل ناحية ، وبتنا نجدهم يقيمون الكمائن لنا في جميع الجهات ، فكنا أونة نراهم في طريقنا إلى البحر ، وأونة أخرى في طريقنا إلى الجبل .

وعلى مقربة من هذه المنطقة قام حصن اسمه حصن حارم ، وقد كمن فيه عدد كبير من اكثر التركمان شجاعة ، وهم من الذين أقضوا مضاجع رجالنا ، ولما عرف قادتنا هذا ، اشتد جزعهم ، وأرسلوا عددا كبيرا من الفرسان ليقوموا بأعمال الاستطلاع بغية كشف مواقع التركمان ، حتى إذا تهيأ لهم ذلك ، كبسوهم على راس قواتهم ، وبالفعل تقهقر رجالنا أمامهم ، واستدرجوهم حتى البقع التي كمن فيها بوهيموند وجنده ، ولقي إثنان من رجالنا حتفهما اثناء هذا الاستدراج ، وما إن عرف بوهموند خبر اقترابهم حتى بادر فانقض على رأس رجاله ، فكان حقا بطل المسيح الشجاع ، وشدد البرابرة هجومهم على رجالنا الذين كانوا أدنى منهم عددا ، واحتدم القتال بين الطرفين ، وهلك العديد من أعدائنا ، ووقع غيرهم في الاسر ثم سيقوا إلى حيث ضربت اعناقهم امام ابواب المدينة ، مبالغة في زيادة الام الذين بها في الداخل ونكالا بهم .

وغادر الأخرون المدينة ، وتسلقوا شرفات السور ، وأخذوا يرموننا بنشابهم الذي تساقط تساقط المطر على معسكر بوهموند ، و اصيبت لنا امراة برمية قوس أودت بها .

١٣ ـ واجتمع زعماؤنا ، وعقدوا مجلسا للتشاور فيما بينهم ، فقالوا : لنقم ببناء قلعة على قمة جبل مرقب كيما نامن على أنفسنا مخاطر التركمان ، وتطمئن قلوبنا فلا نعود نخشاهم ، وما أن انجز بناء القلعة حتى اخذ زعماؤنا في التناوب بالدفاع عنها واحدا تلو الآخر .

وحدث قبل حلول عيد الميلاد أن شح القمح ، وتناقصت الأقوات ، وغدونا لانكاد نجرؤ على مغادرة معسكرنا ، ولم نعد نجد في مناطق المسيحيين شيئاً يمكن أن نسد به جوعنا ، زد على هذا انه لم يتجرأ واحد منا على الدخول إلى أراضي المسلمين ما لم يكن في الجمع الكبير والحشد العظيم ، وعند ذلك عقد زعماؤنا اجتماعا تشاوروا فيه حول إيجاد السبل المجدية لضبط حشد كبير مثل شعبهم ، فاتفقوا بعد المداولات على أن ينهض فريق من رجالنا بالحال ، ليعمل مافي وسعه ، ويبذل غاية الجهد لجمع الاقوات ، ولضمان حماية الجيش من بيات أوغارة من الخلف ، واتفقوا على أن يظل الباقون داخل المعسكر بغية حمايته ، وقال بوهموند مخاطبا المجتمعون : « ايها السادة ، ايها الفرسان العقلاء دعوني أمضي مع كونت فلاندرز إذا شئتم ورايتم ذلك مفيدا » .

وبعدما احتفلوا احتفالا بهيا بعيد الميلاد ، خرجوا يوم الاثنين ــ تالي يوم الراحة ــ في أكثر من عشرين الف فارس وراجل ، ودخلوا سالمين لم يصبهم أذى ، إلى مناطق المسلمين التي كانت تعج بالتركمان والعرب والمشارقة الذين قدموا من القدس ومن دمشق وحلب وغيرها من المدن لنجدة حامية أنطاكية ، ولما جاءتهم أخبار زحف الجيش المسيحي على بلادهم ، تأهبوا لحرب المسيحيين ، وما كاد الظلام ينقشع أمام بزوغ الفجر حتى كانوا قد

أشرفوا على الناحية التي تجمعت فيها قواتنا ، وانشطر هؤلاء البرابرة إلى شطرين ، شطر تلقانا من الأمام وشطر حاول الالتفاف حولنا قصد تطويق قواتنا من جميع الجهات ، لكن كونت فلاندرز الشجاع ، والمسلح بإيمانه وبشارة الصليب ، الذي كان يحمله بإخلاصه له على مصاحبته وحمله اينما كان ، كر عليهم في ذات الوقت الذي هاجمهم به بوهموند ، وهكذا حمل رجالنا حملة رجل واحد على العدو ، الذي سرعان ما ولى هاربا لايولي على شيء ، تاركا وراءه عددا كبيرا من القتلى ، وقد استولى رجالنا على خيولهم وسواها من الغنائم ، اما أولئك الذين نجوا من القتل ، فقد استمروا في فرارهم ، وحق عليهم « الهلاك الأبدي » اما نحن فقد رجعنا ظافرين مسرورين نسبح ونمجد للرب الذي هو في الوقت نفسه ثالوث واحد ، والذي له الملك الآن وإلى الأبد .

امين

الكتاب السادس

حصار انطاكية

(كانون أول ١٠٩٧ ــ شباط ١٠٩٨)

هجوم التركمان على الصليبيين وحملة التموين ــ فرار بطرس الناسك ووليم النجار

رحيل تاتيشوس ــ انتصار بوهموند على التركمان قرب بحيرة أنطاكية

١٤ ــ وحين تـرامى الخبـر إلى التـركمان ــ أعداء الرب والمسيحية المقدسة ــ الذين كانوا داخل انطاكية للدفاع عنها ، بتغيب الأمير بوهموند وكونت فلاندرزعن الحصار ، خرجوا منها ، وهاجمونا واشتبكوا معنا في قتال شديد ، وكانوا يؤثرون مهاجمة المناطق الضعيفة ، ولما كانوا على بينة من غياب هـذين الفارسين البارعين ، وبعدهما عنا ، فقد عقدوا العزم على مهاجمتنا والقضاء علينا في يوم الثلاثاء (٤٥) .

وسار هؤلاء البرابرة المرعبون في ظلام الليل ، وانقضوا علينا بشدة متناهية فقتلوا عددا كبيرا من فرساننا ورجالتنا الذين أهملوا أمور الدفاع عن أنفسهم ، وخسر أسقف بـوي ــ في يوم البؤس هذا ــ وكيله الذي كان يقود إحدى الكتائب بنفسه ويحمل رايتـه ، ولو لم يكن النهر يفصل بيننا وبينهم لتكررت غاراتهم علينا ولأصابوا منا إصابات جسيمة .

وكان بوهموند العاقل أنذاك يقوم بمغادرة منطقة المشارقةومعه جيشه ، ميمما وجهه شطر جبل تانكرد على أمل أن يصادف هناك مايمكن نهبه ويستحق بذل الجهد في سبيل الاستيلاء عليه ، ذلك أن المنطقة كانت قد نهبت جميعها ، ولهذا وجد بعض عساكره القليل من الأشياء ، وعاد بعضهم الآخر صفر اليدين ، فوبخهم بوهموند الحكيم بقوله : « أيتها الجماعة التعيسة الشقية ، يا أحط

المسيحيين قاطبة ، ما الذي حملكم على الاسراع بالخروج ، فلقد كان عليكم الصبر والتريث حتى يلتئم شملنا ثانية ، والا تكونوا هكذا كالقطيع بلا راع ، فلو صادف أن لاقاكم أعداؤنا هائمين مشردين لانقضوا عليكم وفتكوا بكم اي فتك ، لأنهم يترصدونكم ليلا نهارا ، على أمل رؤيتكم بلا قائد يدبر أموركم فيهاجمونكم فرادى أو مجتمعين ، ويعملون على اخذكم أسرى » ، وما إن فرغ من كلامه هذا حتى انكفأ هو ورجاله إلى معسكرهم وقد يئسوا من الحصول على الغنائم .

وعندما رأى الارمن والسريان رجالنا وقد عادوا بلا شيء يستحق الذكر معهم ، خالين الوفاض ، قرروا التجول في الجبال وفي أطراف الناحية المذكورة والبحث بشكل دقيق عن القمح والأطعمة كيما يشترونها ويبعثوا بها إلى المعسكر الذي انتشرت المجاعة الشديدة فيه ، وغلت الأسعار ، وكانت حمولة الحمار بثماني بوبرات أي مايساوي مائة وعشرين ديناري ، وقد لقي العديد من رجالنا حتفهم خاصة من الذين عجزوا عن دفع هذه الأثمان الباهظة .

١٥ ـ ودفعت هذه الشدة الكائنة ، والضيق البالغ القسوة إلى تسلل كل من وليم النجار وبطرس الناسك وفرارهما سرا ، وقد مضى تانكرد في اثارهما ، وأعادهما وهما في غاية الخزي ، فقطعا على نفسيهما العهد بالالتزام بالطاعة ، واقسما له الأيمان المغلظة بأنهما سوف يعودان طواعية إلى المعسكر ، وأنهما سيعتذران للأمراء .

وبات وليم ليلته كلها مقيدا مربوطا بالأرض في خيمة بوهموند ، وهو في حالة كان فيها أذل من الذل ، ومثل في صباح اليوم التالي أمام بوهموند ، وقد احمر وجهه خجلا ، فخاطبه بوهموند موبخا بقوله : « أيها التعس ، ياخزي فرنسا ، ويا عار أهل غاليا وأكثرهم أثاما ، ويا أتعس من على وجه الأرض ، لماذا فررت على هذه الصورة المشينة ؟ ترى هل كنت تنوي خيانة هؤلاء الفرسان والغدر بهم بتسليم جيش المسيح إلى الكفرة ، كما صنعت بسواهم

من قبل في اسبانيا ؟ ولزم وليم الصـمت المطبـق ، ولم ينبس ببنت شفه ، واجتمع الغاليون كلهم تقريبا وتضرعوا إلى الأمير بـوهموند الا يقسوا عليه اكثر والا يزيد في آلامه ، فأجاب سـؤالهم ، وقـال : « إن محبتي لكم تحملني على الاستجابة لمطلبكم عن طيب خـاطر ، اللهم إذا أقسم قسما نابعا مـن قلبـه وروحـه ألا يحيد عن طـريق القدس سواء في الفرج أم الشـدة ، وإذا مـا رضي تـانكرد ورجـاله بالعفو عنه » ، ولما سمع تانكرد هذه المقـالة أبـدى رضـاه ، وكان سرعان ماخلى بوهموند سبيله ، لكن ماحدث فيما بعد أن اسـتولى الخزي على وليم النجار ، فما لبث أن اختفى بعد هربه .

واشتدت الفاقة وعظم البؤس اللذان ادخرهما الرب لنا جـزاء خطايانا ، حتى لم يعد في الجيش كله من الفرسان اصـحاب الجياد السليمة غير الف فارس .

١٦ ــ وتناهت الأخبار إلى عدونا تاتيشوس بـأن جيوشـا مـن التركمان زاحفة نحونا ، فاستبد به الخوف الشديد ، وخيل إليه أنه قد فتك بنا مـن قبـل عدونا ، او اننا سـقطنا جميعـا أسرى في يديه ،فراح يدعي مختلف الدعاوى وينتحل مختلف الأعذار الواهية ، فقال : « انظروا أيها السادة ، أيها الرجال العقلاء مانحن فيه مـن الضنك ، لقد عدمنا النجدة ، وضاقت بنا السبل ، فدعوني أعود إلى القسطنطينية ، وكونوا على ثقة بأنني سأعود إليكم ببحر قد غطتـه السفن المحملة بالقمح والشعير والنبيذ واللحـوم والطحين والجبـن لابـل كل مـاتحتاجونه ، وسـأبعث إليكم بجياد الخيل للشراء ، وستصلكم المؤن عبر الاراضي التـي تـدين بـالطاعة للامبـراطور ، واقسم لكم على صدق هذا كله ، وإن أهل بيتي وسرادقي بـاقون في المعسكر ، لهـذا كونوا على ثقـة مـن رجـوعي إليكم على جناح السرعة

ولما انهى هذا العدو خطابه مضى مخلفا كل مايملكه في المعسـكر ، مضى وهو حانث بيمينه وسـيظل حـانثا بـه ، وكنا انذاك في أشـد

ساعات الحاجة ، حيث ضيق التركمان علينا الخناق من جميع الجهات ضيقا لم نجرؤ حياله على مغادرة خيمنا ، فكابدنا من مجاعة هددتنا بالفناء ، ولقد عدمنا كل عون وكل نجدة ، وفر صغار القوم والفقراء إلى قبرص وإلى الأراضي الرومانية ، كما هرب بعضهم إلى الجبال ، وكانت خشيتنا من التركمان المفسدين قد جردتنا من الجرأة على الذهاب إلى البحر ، وبذلك سدت أمامنا جميع منافذ النجاة .

١٧ ـ ولما تنامت الأخبار إلى بوهموند بأن حشدا كثيفا من التركمان ، يفوق العد والحصر زاحف نحونا ، اقتضاه ما جبل عليه من حكمة وغيرة على مصالح الآخرين أن خاطب الأمراء بقوله:«أيها السادة ، أيها الفرسان العقلاء ، ترى ما نحن صانعون ؟إننا لسنا من الكثرة بما يمكننا من المحاربة على جبهتين ، لكن هل تعرفون ما نحن فاعلون؟أرى أن ننقسم إلى قسمين ، حيث يمكث الرجالة في المعسكر لحماية الخيام و لاشك أنهم سيتمكنون بفاعلية من الدفاع عن انفسهم ضد شحنة المدينة ، أما الفرسان فيظلون معنا بغية التصدي لأعدائنا الذين اقاموا معسكرهم على مقربة منا عند حصن حارم و جسر الحديد ».

ومع حلول الظلام خرج بوهموند الفطن من معسكره ومعه بقية الفرسان العقلاء ، وامضى الليل فيما بين النهر والبحيرة ، ومع تباشير الفجر ارسل طلائعه لتبحث له عن مواضع التركمان وعدد كتائبهم ، وانطلق رجال الطلائع لتوهم ، واخذوا يفتشون عن التركمان ويستطلعون اخبار تحركاتهم ، وما كان إلا ان شاهدوا الكثير من التركمان قادمين من جهة النهر ، وهم منقسمون إلى فرقتين ، وكانت الفرقة الكبيرة في الخلف ، وسرعان ما عادت الطلائع وهي تنادي :« انظروا هاهم أولاء ، لقد جاءوا على اهبة الاستعداد ، فهم على وشك الاقتراب منكم».

والتفت بوهموند الحكيم نحو الفرسان وخاطبهم بقوله :« ايها

السادة ايها الفرسان الذين لايقهرون عبئوا صفوكم للقتال » ، فردوا عليه بقولهم « انك رجل عاقل ، وانك فطن كما انك عظيم مبجل ، انت ايها المقاتل الشجاع ، ياليث المعامع ، ويا بطل المعارك ، ايها المتحكم بضمائر الحروب ، افعل ما تراه مناسبا ، فقد اوكلنا امورنا اليك ، لتعمل كل ما تراه نافعا لنا ولك » .

وامر بوهموند آنذاك كل مقدم ان يعبىء فريقه تعبئة تامة ، فنفذوا تعليماته ، والتزموا بأوامره ، وكونواست فرق ، تقرر ان تقوم خمس منها بمهاجمة الاعداء ، وتراجع بوهموند بفرقته على مهل نحو الخلف ، واستبشر رجالنا ، فاشتبكوا مع الاعداء ، وتراجع ، والتحمت كل فئة بفئة وتعالت الصيحات الى عنان السماء ، وتحاربوا جميعا ، وحجب نور الشمس وابلا من النشاب هطل من كل مكان .

ولما وصل عسكر الفريق الاكبر من جيشهم الذي كان مقيما بالخلف ، هجموا بكل شدة وعنف على رجالنا ، فأخذوا يتقهقرون رويدا رويدا ، ولما رأى بوهموند العاقل هذا المشهد تألم ودعا اليه حامل رايته روبرت بن جيرارد ، وقال له : « امض بما اوتيت من سرعة فانت اشجع الرجال واندفع بكل حماس في نجدة دين الرب والقبر المقدس ، واعلم ان هذه الحرب ليست حربا مادية بل حربا روحية وكن اشجع شجعان المسيح ، صحبتك السلامة ورعاك الرب حيثما كنت » وما ان لف نفسه بشارة الصليب حتى اندفع كالليث الذي حبس عن الطعام ثلاثة ايام او اربعة ، وخرج من غيله يزمجر فيه ظمأ شديد لسفك دماء القطعان ، وانقض لساعته والقى بنفسه وسط ميدان الوغى معملا سيفه وسط قطيع من النعاج ، راحت تفر من امامه هنا وهناك ، ثم صار في وسط صفوف التركمان ، واشتد في حملاته ومطارداته حتى ان شعاع رايته كان يرى بريقه من فوق رؤوسهم .

وسرعان ما اوقف المقاتلون الاخرون تقهقرهم ، حينما رأوا راية

بوهموند تخفق عالية امام رايات الاخرين ، وكر جميع رجـالنا كرة رجل واحد ، وحملوا على التركمان الذين فشـلوا واسـتبدت بهـم الدهشة ، فلاذوا باذيال الفـرار ، فـأخذ رجـالنا في مـطاردتهم ، وراحوا يعملون القتل فيهم حتى بلغوا جسر العاصي ، وسرعان مـا انقلب التركمان الى معسكرهم فحملوا كل ما امـكنهم حمله ، ثـم القوا النيران فيما بقي من اشياء ، وولوا هـاربين ، ولما علم الارمن والسريان خبر فرار التركمان في هذه الموقعة خرجوا من قـرا هـم ، وتربصوا في المكامن التي نصبوهـا لهم في الممـرات والمسـالك وقتلوا العديد منهم واسروا .

وهـكذا قضـت مشـيئة الرب ان تـدور الدائرة على اعدائنا في ذلك اليوم ، ونجح رجالنا في استرداد الخيول وغير ذلك من الاعتدة التي افادوا منها فوائد كبيرة ، وحملوا مائة رأس مـن رؤوس القتلى الى امام باب المدينة حيث نصبت خيام رسل صاحب مصر الوافدين على مقدمينا (٤٦) .

اما المحاربون من الرجالة الذين مكثوا في المعسكر فقد شغلوا طـوال يومهم بقتال شحنة انطاكية امام ثلاثة ابواب مـن ابـواب المدينة ، وجرت هذه الموقعة يوم الثلاثاء (٤٧) السابق لبدء الصـوم الكبير ، وكل ذلك برعاية ربنا يسـوع المسـيح الذي مضى ليحـكم مـع الاب والروح القدس ، الرب له الحكم السرمدي . آمين

الكتاب السابع

حصار انطاكية

الحملة على السويدية ـ اقامة حصن المحمرة

١٨ ـ ورجع رجالنا بفضل رعاية الرب منصورين مستبشرين بنصرهم الذي حباهم به في ذلك اليوم ، أما أعداؤنا المغلوبون على أمرهم فقد هزموا هزيمة ساحقة ، ومضوا في فرارهم وهاموا على وجوههم شاردين هنا وهناك ، فمضى بعضهم الى خراسان وانطلق بعضهم الآخر الى بقية الأراضي المسلمة ، ولما رأى قادتنا أن شحنة المدينة ازدادت هجماتها علينا مع الاقتراب منا ، سهروا ليلهم ونهارهم بحثا عن الناحية التي يمكن لتلك الشحنة مباغتتنا منها ، وبناء على ذلك عقدوا مجلسا للتشاور في المسألة وقالوا : « يجب علينا قبل أن نقدم على حرب تودي برجالنا أن نشيد حصنا على المحمرة الواقعة أمام باب المدينة حيث يوجد الجسر ، ومن هنا ربما تمكنا بدورنا من تضييق الحصار على عدونا »

ووافق الجميع على هذا الرأي ، واستصوبوا المشروع استصوابا عاما ، وكان كونت صنجيل أول من تكلم فقال: « أمدوني بالعون اللازم لاعادة بناء هذا الحصن ، وسأحصنه وأتولى حمايته » ، وانبرى في الحال بوهموند قائلا: و أنا سأذهب معك اذا رضي الآخرون ،الى باب سمعان لجمع الرجال القادرين على القيام بمثل هذا العمل (٤٨) ، اما الذين سيبقون هنا فسوف يعملون على تحصين بقية الجهات للدفع عن انفسهم » وهكذا كان ما اتفقوا عليه.٠

عند ذلك رحل الكونت (صنجيل) وبوهموند الى السويدية ، أما نحن فقد انضم بعضنا الى بعض وصرنا جماعة واحدة ، وشرعنا في بناء الحصن ، وإذا بالتركمان قد أعدوا أنفسهم ، وخرجوا للهجوم علينا ، وبالفعل انقضوا انقضاضا

شديدا دفع رجالنا الى الهرب وأدى الى هلاك العديد منهم مما سبب لنا رعبا شديدا.

ولما لاحظ التركمان في اليوم التالي (٤٩) تغيب قادتنا ، وعرفوا انهم قد خرجوا في الأمس قاصدين الميناء ، جمعوا شملهم ومضوا لاعتراض الذين كانوا قادمين من ناحية الميناء ، ولما رأوا الكونت بوهموند على رأس العساكر زمجروا وهللوا واندفعوا بكل شدة ، وأحدقوا برجالنا من كل جانب يمطرونهم برشقات النشاب ، فأوقعوا فيهم القتل والجرح ، ثم انقضوا عليهم بهجوم شديد ، فاضطروهم الى الفرار الى الجبل الشاهق والى كل جهة حسبوا انها تعصمهم منهم ، ولم تقيض الحياة الا الى أولئك الذين تمكنوا من الاختفاء بالهرب السريع ، أما الذين عجزوا عن الفرار فقد لاقوا حتفهم ، واستشهد في هذا اليوم أكثر من ألف من فرساننا ورجالتنا ، وفي يقيننا انهم عرجوا الى السماء حيث ارتدوا ثياب الشهادة البيضاء.

ولم يزحف بوهموند عبر نفس طريق البقية ، بل سرعان ما انقلب عائدا برفقة فرقة من الفرسان ، ووصل الى حيث كنا مجتمعين ، ولما كان الغضب قد اشتد بنا لمصرع رجالنا ، فقد أعدنا ضم صفوفنا وانضممنا اليهم ، وهتفنا معا باسم المسيح ، وكنا كلنا ثقة بالنصر وببلوغ القبر المقدس ، وقر قرارنا على مناجزة العدو القتال ، وأن نكون جميعا يدا واحدة في الهجوم عليه ، وأبدى أعداء الرب ورجالنا ما أذهل وأرعب ، فقد كان التركمان موقنين من النصر علينا ، وأنهم سيقضون علينا كما سبق على عساكر الكونت (صنجيل) وبوهموند ، لكن الرب المتعالي لم يمكنهم من ذلك ، فقد انقض عليهم فرسان الرب الحق ، المسلحون بشارة الصليب ، انقضاضا شديدا ، أسلموهم به الى الفرار عبر الجسر الضيق ، واستمروا في فرارهم حتى مداخل المدينة ، لكن الذين لم يتمكنوا من الفرار وعبور الجسر ، والنجاة بنفوسهم ، لضيق المنفذ ، وشدة الازدحام ، فقد لاقوا في هذا المكان الموت

السرمدي ، وذهبوا الى نار جهنم الابدية المعدة لابليس وملائكته (٥٠)ولما تم النصر على التركمان ، شددنا عليهم الحصار ، ودفعناهم نحو النهر ، ورميناهم بـــه ، فـــاصطبغت مياهـــه المتـــدفقة بدمائهم ، وكان الواحد منهم إذا حاول تســلق أعمــدة الجسر ، أو أراد السباحة حتى اليابسة ، تولى أمره نشاب رجــالنا الذين كانوا يغطون شاطىء النهر ، وامتلأ المكان بصراخهم وعويلهم وصــيحات رجالنا ، حتى شقت الأصوات عنان السماء ، وســقط وابــل مــن النبال والنشاب حجب نور الشمس من أن يلمحــه أحــد ، ووقفــت نساء المدينة المسيحيات على شرفات الأسوار يرقبن هزيمة التركمان وهن يخفين سرورهن.

واستجاب الارمــن والسريان ــ طــوعا أم كرهــا ــ لأوامـــر التركمان واخذوا ينضحوننا بالنشاب ، وهلك في هذه الواقعــة اثنا عشر أميرا من أمراء التركمان ، كما قتل كثيرون سواهم مــن خيرة المحاربين وأشجع المقاتلين ، الذين كانوا يعدون بين خيرة المدافعين عن المدينة ، حتى بلغ عددهم الف وخمسمائة رجل ، أما الذين كتبت لهم النجاة والبقاء فلم يعودوا يملكون الجرأة على الصراخ والتهليل سواء في الليل أم النهار ، كما جرت عادتهم ، ولم يحل بيننا وبينهم غير حلول الليل ، فالظلام هو الذي أوقــف الفــريقين عن المحــاربة واستعمال السيوف والرماح والنشاب ، وبهذا استطعنا بقدرة الرب والقبر المقدس ، أن نهزم الاعداء ، الذين فقدوا ما ملكوه من مقدرة على الصراخ والكفاح.

وأصبنا في هذا اليوم كميات كبيرة من الغنائم فيهــا الكثير مــن الحاجيات الضرورية لاسيما الخيول •

ومع صباح اليوم التالي (٥١) خرج من المدينة جماعة جــديدة مــن التركمان تولت جمع ما وجدته على طرف النهر من جثث قتلاهــم ثــم اخذت هذه الجثث وقامت بدفنها في (المحمرة) الواقعــة خلف الجسر امام باب المدينة ، ودفنوا مــع هــذه الجثــث جببــا (٥٢) وبيزنتيات

وقطعا من الذهب وقسيا وسهاما وغير ذلك مـن الحـاجيات التـي لاأعرف لها اسما ،ولما تنامى الى رجـالنا ان التـركمان قـد دفنوا موتاهـم حملوا عدتهم واقبلوا مسرعين نحو تلك المقبـرة الشـيطانية فدمروا جميع الاضرحة ونبشوها وطرحوا ما كان فيهـا مـن جثـث بعيدا ثم جمعوها والقوها في خندق حفروه لها ، كما قـطعوا رؤوس القتلى وحملوها الى المعسكر(٥٣) ليعرف القوم عدد القتلى هذا عدا عن كمية من الرؤوس حملوها على اربعة مـن الخيول العـائدة الى رسل صاحب مصر ، وبعثوا بها ناحية البحر ، ولما رأى التـركمان هذا المشهد ، استولى عليهم الجزع وصاروا يبكون قتلاهم.

وفي اليوم الثالث (٥٤) ، انضممنا جميعا والتأم شملنا ، ونحن في غاية السرور ، وبغية العمـل على بناء الحصـن المشـار اليه آنفـا بالأحجار التي انتزعناها من مقابر التركمان ، وما كاد ينجـز بناؤه حتى أخذنا في التضـييق على اعدائنا مـن كل جـانب ، وزال زهـو الأعداء اما نحن فقد بتنا نذهب مطمئنين تمـاما انى أردنا ، سـواء الى الجبل او المرسى ، نسـبح بحمـد الرب ، الذي له المجـد والعلو السرمدي ، آمين.

الكتاب الثامن

نهاية حصار انطاكية والاستيلاء عليها

(من ٨ آذار الى ٣ حزيران ١٠٩٨ م)

تانكرد يحتل حصنا على فم نهر المدينة ويسد جميع المنافذ على المحاصرين.

المفاوضات بين بوهموند وفيروز الأرمني. الاستيلاء على أنطاكية.

١٩ ــ سددنا جميع المنافذ أمام التركمان وأغلقناها دونهم الا من جهة النهر ، التي كان بها حصن واحد مع دير منفرد ، ولو كان هذا الحصن تحت حكم رجالنا لما جرؤ واحد منهم على الخروج من واحد من أبواب المدينة ، ولأغلقت جميعا في وجوههم ، لذلك التأم شمل رجالنا للتشاور فيما بينهم ، وانعقد رأيهم على قولهم: « لنختر واحدا منا بغية الاستيلاء عن طريق القوة على هذا الحصن ، وليحل بين أعدائنا وبين الوصول الى السهل ، أو الدنو من الجبل ، وكذلك لاغلاق جميع منافذ المدينة ومخارجها ، وكان تانكرد أول من استجاب وقدم نفسه قائلا: « لو أنني أعرف الفائدة التي سأجنيها من الاستيلاء على الحصن ، فانني سأحتله مع رجالي وحدهم ، وسأمنع العدو منعا باتا عن طرق السبيل الذي كثيرا ما جرت عادتهم على مداهمتنا منه ».

وبادر تانكرد على الفور ، وانطلق (٥٥) مع فرسانه وجنوده الاشاوس ، وسرعان ما أخذ جميع الممرات على التركمان وسدها بشكل محكم ، الى حد انهم ــ وقد استبد بهم الفزع ــ لم يتجرؤوا على فتح واحد من الأبواب لجمع الاعلاف والحطب ، أو أي نوع من الحاجيات الاخرى الضروية لهم ، ومكث تانكرد هناك مع عساكره ، وإشرع في محاصرة المدينة من جميع الجهات.

واقبـــل في ذلك اليوم الى المدينة فـــريق كبير مـــن الأرمـــن والسريان ، وهم في غاية الاطمـــئنان ، وكانوا يحملون معهـــم المؤن والاقوات للتركمان وأهـــل المدينة ، فنهض تـــانكرد للتصـــدي لهـــم واخذهم ، وبالفعل استولى على جميع ما كان معهم مـــن الأقـــوات من: قمح ونبيذ وشعير وزيت وما شابه ذلك ، وكان تانكرد قد أظهـــر غاية القوة ، وجاء بالأمور المدهشات ، حيث تمـــكن قبـــل ســـقوط انطاكية من سد جميع المنافذ أمام التركمان واستولى عليها .

وإنه لمن المحال بـــالنسبة لي قص جميع مـــا قمنا قبـــل احتـــلالنا للمدينة كما لا يمكن لأي كان ممـــن وجـــد في تلك النواحـــي. مـــن الاكليروس أو العلمانيين أن يكتـــب أو يروي بـــالتمام كيف جـــرت الأمور ، ومع ذلك فسأروي الشيء القليل منها.

٢٠ ـ وكان هناك قائد تركماني الأصل اسمه « فيروز » (٥٦) قد تاثلت الصـــداقة بينه وبين بـــوهـموند ، وكان بـــوهموند يلوح له في الرسائل المتبادلة بينهما بمودته ويمنيه بها ، ووعده بمكانة ســـامية إن هو اعتنق المسيحية ، وراح يمنيه بـــالشرف العـــظيم ، والثـــراء الكبير ، فوثق فيروز بتلك الوعود ، وركن الى تلك الأقوال ، وأخبره بقوله : « إنني أتولى حراسة ثلاثة أبـــراج ، وانني اعده بـــالتنازل عنها ، وبتسليمها عن طيب خاطر يوم يشاء ، وسأكون دائمـــا على استعداد للترحيب به فيها ».

وعندما تيقن بـــوهموند مـــن امكانية دخـــوله المدينة ، انشرح صدره ، واطمأن قلبه ثم توجه نحـــو بقية الأمـــراء وهـــو ثـــابت الجنان ، واثق ، وخـــاطبهم وكله بشر بقـــوله : « أيهـــا الفـــرسان العقلاء عليكم أن تتفحصوا حـــالة الشـــقاء والمرارة التـــي نحياهـــا صغارا وكبارا ، فنحن لا ندري من أين ستأتينا النجـــدات ، وعليه فلعله يرضيكم ويشرفكم أن يتطوع أحدنا فيرشح نفســـه ويتقـــدمنا جميعا ، فإن مكنته احدى الوسائل أو براعته مـــن الاســـتيلاء على المدينة ، أو مهاجمتها بمفرده أو بمعونة الآخرين أجمعنا الراي على

ان نملكه اياها » ولم يقبل الأمراء بعرضه واعترضوا عليه بقولهم: « إننا لا نرضى أبدا أن ينفرد واحد منا وحده دون سواه بتملك هذه المدينة ، بل سوف نتقاسمها جميعاً فيما بيننا بالتساوي ، وحيث أننا جميعا قد اسهمنا في هذا العمل واشتركنا فيه ، ينبغي أن نقتسم شرف الاستيلاء عليها» .

وعند سماع بوهموند هذا الرد ، ابتسم ابتسامة خفيفة ، فيما بينه وبين نفسه ، وتركهم لكن حتى حين ، ولم يلبث غير قليل حتى جاءتنا الأخبار تحمل الينا نبأ اقتراب أعدائنا التركمان والعوام وغير الارثوذكس وسواهم من الشعوب ، ولسرعان ما اجتمع مقدمونا للتداول في الأمر ، وقالوا : « إذا قدر لبوهموند الاستيلاء على المدينة وحده ، أو بمعونة الآخرين علينا أن نسلمها له عن طيب خاطر ، مشترطين عليه الوفاء بعهودنا مع الإمبراطور ، في المساعدة على رد المدينة اليه اذا قدم لنجدتنا بنفسه ، والتزم بالاتفاق الذي ابرمه معنا وأقسم على التمسك به ، وإن لم يفعل ذلك تركناها في عهدة بوهموند ».

و عند ذلك بادر بوهموند الى ملاحقة صديقه (فيروز) يوميا ، وسعى الى اغرائه بجميع ضروب الوعود والربح الكبير ، وخاطبه بقوله: « لقد دنت الساعة المناسبة التي يمكنك فيها انجاز ما اتفقنا عليه في سبيل صلاح أمورنا ، وذلك بأن تقدم لي ياصديقي فيروز المساعدة التي وعدتني بها » وتجاوب فيروز وأبدى سروره ، واستعداده لتقديم المساعدة حسب الطريقة التي يراها مناسبة.

ولما كانت الليلة التالية(٥٧) بعث فيروز ابنه سرا الى بوهموند ليبقى عنده بمثابة رهينة ، وذلك تأكيدا منه على انه سوف يدخله البلد ، ويمكنه منها ، وأنفذ معه الرسالة التالية: « ينبغي عليك أن تقوم غدا باستدعاء جميع جيوش الفرنجة ، وتتظاهر بالذهاب الى المنطقة التي يقطنها المسلمون بغية تخريبها ، ثم تلوي عنانك على

عجل عبر الجبـل القـائم على اليمين ، وسـأقوم انا في ذلك الحين بملاحظة هذه القوات ، وسأنتظر وصولها لأستقبلها في الأبراج التي هي في حوزتي وتحت اشرافي ».

وقام بوهموند على الفور باستدعاء واحد من رجالته واسمه ميل كورون ، وناوله تعليماته التـي قضـت بـاستدعاء جيش الفـرنجة العظيم للتاهب للزحـف على أراضي المسـلمين ، ونفـذت تعليمـاته هذه ، وعهد بوهموند في الوقت نفسه الى الأمير غودفـري ، وكونت فلاندرز وكذلك ، كونت صنجيل واسقف بوي بـالاشراف على تنفيذ الخطة ، وقـال « سـتسلم لنا انطـاكية هـذه الليلة بعناية الرب ورعايته » .

وجرى تنفيذ كل شيء حسب الصورة التالية: تجمّـع الفـرسان في السهل ، واقام على الجبل جمـاعة الرجـالة ودأبـوا على الزحـف والحركة طوال الليل بعضهم في إثر بعض حتى اقتراب الفجر ، ثـم اقتربوا من الابراج التي ظل شحنتها سـهران بهـا ، وسرعان مـا ترجل بوهموند ، وأصدر أوامره الى الذين كانوا معه ، وقال لهـم: « تقدموا ، وامضوا قدما مطمئنين متحدين ، وتسلقوا السلالم الى انطاكية ، التي ستقع الآن في ايدينا بمشيئة الرب »

وسار هؤلاء حتى وصلوا الى السلم المثبـت على اسـوار المدينة تثبيتا شديداً ، فصعد عليه زهـاء ستين رجلا من رجالنا ، وتفـرقوا على الابراج التـي كانت تحـت اشراف فيروز ، ودب الرعب في قلب فيروز ، وخشي على نفسه وعلى رجالنا من الوقوع في ايدي التركمان وذلك حين شاهد المتسلقين على السلم لايعدون شرذمـة ضـئيلة العدد ، وصاح بهم : « ماأقل عددكم ايها الفرنجة ، اين بـوهموند الشجاع ، اين هذا الفارس الذي لايقهر .

ونزل في هذه السـاعة جندي لومبـاردي (٥٨) ، واندفـع نحـو بوهموند مخاطبا اياه بقوله : ترى ماهو معنى توقفك هنا ايها الرجل

الحكيم ، انسيت ماجئت من اجله ، اما ترانا قد استولينا على ثلاثة ابراج !؟ ، واثارت هذه العبارات بوهموند ، فسارع بـالانضمام الى الاخرين ، واندفع الجميع نحو السلم بحماس شديد ، ومـاكاد الذين فوق يلمحون هذا المشهد حتى تعالى هتـافهم وهـم في سرور ونشوة مرددين « انها ارادة الرب » ورددنا نحن الهتـاف نفسـه ، وعندئذ بدأ الارتقاء المدهش ، حيث تسـلقوا الاسـوار ، حتـى اذا بلغوا الشرفات انطلقوا مسرعين نحو الابراج وهـم يقتلون كل مـن يصادفوه او يعترض سبيلهم ، حتـى انه كان مـن بين القتلى اخـو فيروز نفسه .

لكن السلم الذي ارتقينا عليه تحطم ، ممـا احـزن قلوبنا واوقعنا في كرب شديد ، وعلى الرغم من تحطمه ، فقد كان يوجد الى اليسـار منا باب مغلق ، لايدري احد عنه شيئا ، وكان الظلام مايزال مخيماء واخذنا نتحسس الطريق نحو هذا الباب ، وافضى بنا البحـث عنه الى العثور عليه ، فتسابقنا اليه ، وحطمناه ودخلنا منه الى المدينة .

ودوت في هذه الساعة صيحة مجلجلة في ارجاء المدينة جميعـا ، ولم يضع بوهموند الوقت ، بل بادر الى الامر برفع رايتـه المجيدة على رابية مواجهة للقلعة .

وعندما اشرقت شمس الصباح ، ترامت الاخبار المخيفة التي هـزت المدينة الى (الفرنجة) الذين كانوا لايزالون مقيمين في معسكراتهم ، فخرجوا مسرعين ، فشـهدوا راية بـوهموند تخفـق على احـد المرتفعات ، وسرعان ماأقبلوا مسرعين فهجموا المدينة ودخلوها من ابوابها ، وقتلوا كل من صـادفوه في طـريقهم مـن التـركمان والمسلمين ، ولم ينج من الموت الا الذين تهيأ لهم الفـرار الى قلعـة المدينة ، وخرجت جماعة اخرى من التركمان من الابـواب ، ورأت سلامتها في الفرار .

اما اميرهم يغي سغان (٥٩) فقد نجا هو الاخر ضمن كثيرين ممـن

فر معه ، واخذهم فرارهم الى بقعة عسكر بها تـانكرد ، ولم تـكن بعيدة عن المدينة ،و نظرا لتعب خيولهم فقـد انعـطفوا نحـو احـد الدساكر ، واعتصموا ببيت كان هناك ، وبعد هنيهة عرف السـكان من الارمن والسريان خبرهم ، فهجموا عليهم ، وقبضوا على يغـي سغان ، فقتلوه وقطعوا رأسه وحملوه الى بوهموند لينالوا الجـائزة، وبيع جهازه وسلاحه بستين قطعة ذهبية .

وجرت هذه الحوادث في اليوم الثالث من شهر حـزيران اي خـامس يوم بعد يوم الراحة ، وامتـلات شـعاب المدينة وطـرقاتها بجثـث القتلى ، حتى غدا من المستحيل السير فيها للرائحة النتنة المتصاعدة منها ، ولم يتمكن واحد منا من السـير في الطـرقات الا على جثـث القتلى .

الكتاب التاسع

حصار التركمان انطاكية

(من ٥ حزيران حتى ٢٨ حزيران ١٠٩٨ م)

وصول أم كربوقا الى أنطاكية ـ رسالة الى الخليفة عن الجيش الصليبي ـ موقف أم كربوقا وميلها الى المسيحيين ـ هجوم كربوقا على أنطاكية ـ قصة الرؤيا ـ يمين زعماء الصليبيين ـ رؤيا بطرس ـ حريق أنطاكية والمجاعة فيها ـ هرب كونت شارتر الى الامبراطور ـ الحربة المقدسة ـ سفارة بطرس وهرلوان الى المعسكر الاسلامي ـ انتصار الصليبيين .

كان كربوقا ـ مقدم عساكر ملك فارس ـ (٦٠) موجودا في خرسان حينما وصله من يغي سغان ـ صاحب أنطاكية ـ عدة رسائل الخ عليه فيها بالمبادرة الى انجاده ، لأن حصار الفرنجة الاقوياء له في أنطاكية قد أضر به ضررا عظيما ، ولو استجاب له كربوقا على الفور وبعث اليه بالعساكر لنجدته لسلمه يغي سغان انطاكية ، أو لقابله بجائزة كبيرة ، وكان كربوقا قد أعد للأمر عدته ، وماكاد يحصل على اذن الخليفة ـ إمامه الروحي ـ بالتوجه للقتال ضد المسيحيين ، حتى بادر الى جمع جيش كبير من التركمان زحف على رأسه في الطريق الطويل الى انطاكية .

وجاء والي القدس الى نجدته ، كما قدم أمير دمشق هو الآخر على رأس جند كثيف ، وجمع كربوقا حشودا كبيرة جدا من الغز والتركمان والعرب والمسلمين والعامة وغير الارثوذكس والاكراد والفرس والغلمان وسواهم من الأقوام الأخرى التي لاحصر لها ولاعد ، وكان عدد الغلمان ثلاثمائة ألف رجل شاكي السلاح من القسي والرماح مسربلين بالحديد هم وخيولهم ، كل هذا مع ماعتادوا عليه من الاقتصار على حمل السيوف في الحروب دون

سواها من بقية الأسلحة ، لقد قدم هؤلاء جميعا لفك الحصار عن انطاكية وصد الفرنجة وتمزيق صفوفهم .

ولما اقتربوا من انطاكية صادفهم شمس الدولة بن يغي سفان امير انطاكية فاسرع نحو كربوقا متوسلا اليه باكيا ، مخاطبا اياه بقوله :« أيها الأمير الذي لايغلب ، أتوسل اليك أن تهب لنجدتي لان الفرنجة يحاصرونني ـ وأنا مازلت في قلعة انطاكية ـ من جميع الجهات ، وقد وقعت المدينة في أيديهم ، وهم يبتغون اقتلاعنا من أراضي سلاجقة الروم ، ومن الشام ، بل حتى من خراسان ذاتها ، وقد أمضوا ماأرادوا فقتلوا ابي ، ولاهم لهم الآن الا القضاء علي وعليك وعلى جميع ابناء جنسنا ، وانني أتوقع منك العون تبذله لي ، والمساعدة في تخليصي من هذا الضيق » ، فأجابه كربوقا بقوله :« اذا أردت عوني ونجدتي بصدق ، وأن أبذل قصارى جهدي في سبيل دفع هذا الخطر عنك ، فسلمني هذه القلعة ، وانذاك سترى اية خدمة يمكن ان أؤديها اليك ، فأنا سأجعلها في عهدة رجالي ».

فرد عليه شمس الدولة قائلا :« لئن تمكنت من القضاء على الفرنجة جميعا وأسلمتني رؤوسهم فسأتخلى لك عن القلعة وأصبح واحدا من رجالك ، والقلعة من أملاكك » . فأجابه كربوقا :« لالن يكون الأمر كما تقول ، بل إن كل شيء مرهون بتسليمك القلعة ». فأذعن شمس الدولة وتنازل له عن القلعة راضيا أو كارها .

ووصلت طلائعهم الى اسوار انطاكية في اليوم الثالث (٦١) بعد دخولنا المدينة ، وعسكر جيشهم عند جسر العاصي ، وانقضوا على احد الابراج (٦٢) ، فقتلوا كل من صادفوه فيه ، ولم ينج منهم غير مقدمهم عثرنا عليه مقيدا بالسلاسل لديهم اثر المعركة الكبرى (٦٣) .

وتحرك جيش الكفار في اليوم التالي (٦٤) ، واقترب من اسوار

المدينة ، وأقام معسكره بين النهرين ولبث هناك مـدى يومين ، ولما تسلم كربوقا القلعة دعا اليه واحدا من قادته (٦٥) ، وقال له:« اريدك ان تكون وفيا لي مخلصا في ولاية القلعة ، وأنا أعلم منذ زمن طـويل وفاءك واخلاصك ، وانني عاهد بأمر الدفاع عنها والمحافظة عليهـا اليك » فأجابه هذا القائد « بودي لو أعفيتني من هذا الأمر ، ومـع هذا فانني أقبل به على شرط واحد ، وهو أن أقوم بتسـليم القلعـة الى الفرنجة ان هم أوقعوا بك وهزموك » فرد عليه كربوقا بـالقبول وقال له :« امض لما أمرت به فأنا أقدر فيك صدقك وعقلك ، وأرتضي بكل ماتراه وترضي به من خير ».

ورجع كربوقا الى جيشه وأراد التـركمان أن يقللوا مـن شـأن الفرنجة ، فأتوه بسـيف رخيص قـد علاه الصـدأ ، وبقـوس مسود ، وبحربة غير صالحة للاستخدام كانوا قد أخذوها من جماعة من فقراء الحجاج ، وقالوا :« انظر هذه هي الأسلحة التي يحملهـا الفرنجة في حربهم لنا » فافتر فـاهه عن ابتسـامة فيهـا سـخرية وقال :« أهذه حقا الأسلحة الجيدة الحادة التي ينشـد المسـيحيون قهرنا بها في آسية ، والتي يظنون أنـهم قادرون بها على طردنا الى ماوراء خـراسان وإزالتنا مـن تلك الديار حتـى أنهـار الأمازونيين (٦٦) ، هؤلاء المسيحيون الذين اجلوا اخواننا من آسية الصغرى ، ومن أنطاكية ، المدينة الفاخرة وحاضرة بـلاد الشـام جميعا ».

ثم بادر الى استدعاء كاتبه وقال له :« اكتب الآن جميع المناشير التي ستقرأ في خـراسان وقـل فيهـا : الى خليفتنا الجليل ، والى مولانا السلطان المعظم والفـارس الشـجاع ، والى جميع امـراء خراسان العقلاء ، السلام عليكم ، والتوقير والاحترام لكم ، وبعد : فليتهيأ للمقام العالي من السعادة والتوفيق الكريم مـايتيح لهـم النعمة والشـكر في جميع البلدان ، والانصراف نحـو الذود عنهـم ومنعتهم ، وانجاب الذرية الكثيرة العـدد لتتمـكن مـن جهـاد المسيحيين بكل شجاعة ، ونحن أخذنا الجيوش الثلاثة واسـتطعنا

بها قهر فريق من الفرنجة ، ولقد عرفنا صفة السلاح الذي يستخدمه الفرنجة في حربنا ، وليعرف الجميع انني اخذت الفرنجة الذين في انطاكية ، واستوليت على القلعة وصارت في يدي ، ولسوف يساق الفرنجة الى الموت او الأسر في خراسان ، فهم الذين يتوعدونا بالطرد على يد جيوشهم وبالجلاء عن بلادنا ، كما فعلوا حين اجلوا ابناء قومنا من آسية الصغرى والشام ، واني لأقسم لكم بمحمد وبجميع اربابنا (٦٧) لن اقف بباكم وامثل امام جنابكم قبل ان اجاهد بحد سيفي القوي مدينة انطاكية الفاخرة وجميع بلاد الشام وآسية الصغرى وبلغاريا حتى ولاية ابوليا تمجيدا لآلهتنا ، ولكم ولجميع معاشر التركمان».

على هذه الصورة اذا كانت خاتمة الرسالة .

٢٢ــ وكانت والدة كربوقا في حلب ، وقد قدمت لرؤية ولدها ، ولدى مقابلتها له اجهشت في البكاء وقالت سائلة إياه :« أحقا ما سمعته ؟ فسألها : وماذا سمعت : فأجابته ؟ سمعت انك متوجه لحرب جيوش الفرنجة ، فقال : لقد سمعت حقا ، فتوجهت إليه بقولها : أسألك ياولدي بحق جميع الارباب ، وبحق سجاياك الكريمة وعفوك ، ان تتراجع عن قتال الفرنجة ، أنت أيها الفارس الذي لايعرف الهزيمة ، ولم يرك أحد قط فارا أمام أحد من الغزاة ، فلقد طبقت شهرتك وشجاعتك الآفاق ، حتى أن أشجع الفرسان ليرتجفون حين سماع اسمك أنى كانوا ومهما كانوا ، ونحن نعرف يابني أنك اخو غمرات ورجل غارات ، عركتك الأيام وعركتها ، ولن يستطيع اي شعب ــ وثنيا كان أم مسيحيا ــ أن يزهو أمامك ويتفاخر بقوته ، بل يهرب الجميع من أمامك لدى السماع باسمك كما تهرب النعاج من زئير الأسد ، لهذا كله اتوسل اليك ياولدي الحبيب أن تسمع قولي وتصغي الي نصائحي ، فلا تحاول مطلقا التفكير في قتال الشعوب المسيحية أو منازلتها ».

وعندما فرغت من مقالتها هذه أجابها مـرعوبا :« مـاهذا الذي تتفوهين به ياأماه ، اتراك جننت ، أم نزلت بك نازلة؟ ان بصحبتي عددا كبيرا من الأمراء الذين ليس لدى المسيحيين من يناظـرهم بين الكبـار والصـغار » فـأجابته : « أنني أعرف يابني مصـداق ماتقول ، وأن المسـيحيين لايمـكنهم الوقـوف في وجهـك في الحرب ، واعلم انهم عاجزون عن النهوض الى حربنا ، لكن ربهـم يحارب دوما بين صفوفهم ، وهو يدافع عنهم ويحميهم ليلا ونهـارا كما يحمي الراعي قطيعه ، ولايقبل أن تمسهم اية أمة بأدنى شر أو سوء ، وأن ربهم سيؤذي كل من يتطلع الى مقـاومتهـم مصـداقالما جاء على لسـان النبـي داود « نشـتت الشـعوب الذين يسرون القتال(٦٨) » وقوله« افض رجزك على الامم الذين لايعـرفونك وعلى الممالك التي لم تدع باسمك (٦٩) » ، وانك لترى كيف ان ربهم القوي الذي لايقهر قـد قضى ـ قبـل ان يصـطفوا للحـرب ـ على جميع اعدائهم بوساطة مـلائكته ، اعرف الحقيقـة ياولدي الحبيب ، وان هؤلاء النصارى يسمون ابناء المسيح ، وقد جاء على لسان الرسل:« انهم اولاد الموعد (٧٠)» وقول الرسول ايضـا:« انهـم ورثـة الله في ووارثون مع المسيح (٧١) » ، وهم الذين حباهم الرب بـالميراث الذي وعدهم اياه ،، لأنه القائل على لسـان الرسـل :« مـن المشرق الى المغرب تكون قوتهم في وجههم» (٧٢) فمن الذي يمكنه التصدي لهـذه الاقوال ومناهضتها ؟ والحق اقـول :انك اذا أقـدمت على حـربهم عدت بالخسارة الكبيرة والعار المقيم ، وستفقد العديد من فـرسانك المخلصين ، وتترك وراءك ذخـائرك غنيمـة وتفـر يلاحقـك الرعب الشديد ، أجل انك لن تقتل في هذه المعركة ، بل ستموت في بحر هذه السنة ، فالرب في غضبه يمهل ولايهمل من أساء اليه ، يترك حسابه الى الساعة التي يقررها بـذاته ، وعندهـا سـينتقم منك أبشـع انتقام ، ولهذا أخشى أن يراك الرب تستحق العذاب الشديد ، وانني أقول لك : انك ستخسر كل ماتمتلكه الآن يداك .

وكان وقع هذا الكلام على كربوقا شديدا ، فـالتفت نحـو أمـه والأسى ظاهر عليه قائلا :« انني اتـوسل اليك ياأمـي العـزيزة أن

تخبريني وتبيني لي من الذي أخبرك بكل هذا عن الشعب المسيحي ، من الذي أعلمك أن ربه يحبه الى هذه الدرجة حتى انه ليمده بمثل هذا العون اثناء القتال ، ومن الذي انبأك أن الغلبة ستكون لهؤلاء المسيحيين علينا أمام انطاكية ، وأنهم سيغنمون نخائرنا وأنهم سيسيرون خلفنا اثر نصرهم المؤزر علينا ، ثم من الذي أخبرك ان المنية ستخترمني فجأة في عامي هذا »؟

فأجابته امه و الالم يعتصر قلبها اعتصارا :« ياولدي العزيز ، لقد وضح لبعضهم منذ أكثر من مائة عام أنه جاء في كتابنا وفي كتب الوثنيين أن الامم النصرانية ستقوم بالهجوم علينا وسيكتب لها النصر علينا في كل جهة ، وأنها ستسود على الكفار ، وأن شعبنا سيخضع لها ، وانا لااعرف يقينا فيما اذا كان مقدرا لهذه الأمور جميعا أن تقع الآن ، أم أنه لم يحن وقتها بعد ؟ فلقد لحقت بك ـ والأسى يحز نفسي ـ من حلب ـ المدينة العظيمة التي تمكنت فيها بعد البحث والتدقيق ، ومن خلال سؤال النجوم واستطلاع البروج الاثني عشر والنبوءات الكثيرة ، ولقد أخبرتني هذه الظواهر جميعا أن الشعب المسيحي سيتغلب علينا أنى كنا ، وإني لأرتعد خوفا واسى خشية أن افتقدك ».

فأجابها كربوقا :« أخبريني ـ ياامي الغالية ـ بكل مالا تتقبله نفسي ولاتؤمن به » ، فأجابته :« لايابني ماكان لي أن أستجيب لمطليك هذا طواعية ، هذا لو كنت على بينة من الأمور الخافية عليك ».

فقال لها :« إن بوهموند وتانكرد ليسا من أرباب الفرنجة ، ولا يخلصانهما من أعدائهم لانهما ياكلان في المرة الواحدة : الفي بقرة وأربعة الاف خنزير (٧٣) »، فأجابته أمه بقولها : « اعلم ياولدي العزيز أن الموت سيطال بوهموند وتانكرد كما سيطول بقية البشر ، لكن ربهما فضلهما على سواهما ومنحهما قدرة يحاربان بها الجميع ، لأن ربهم القدير ـ تقدس اسمه ـ يقول :(انه صنع

السماء والأرض والبحر وكل ما فيها) (٧٤) وإن عرشه موجود في السماء منذ الأزل وبأسه مرهوب في كل مكان» ، فانبرى ابنها يرد عليها بقوله:« لن امتنع عن قتالهم حتى لو كان الأمر كما تزعمين» ، تيقنت أنه لن يستجيب لنقدها الشديد له تركته وقلبها يعتصر حزنا ، وتوجهت عائدة الى حلب ، حاملة معها ماأمكنها حمله من الذخائر .

٢٣ ـ ووضع كربوقا ـ في اليوم الثالث (٧٥) ـ سلاحه ولبس لامته ، وحمل حتى اقترب من المدينة ، ومعه فئة كبيرة من التركمان ،، وجاء هجومه من جهة القلعة ، وحيث اننا كنا قد خيل الينا ان في امكاننا دفعه ، فقد نظمنا صفوفنا واعددناها للحرب ، ولكنهم أبلوا بلاء شديدا عجزنا حياله عن مقاومتهم ، وتراجعنا بصعوبة بالغة نحو المدينة التي كان بابها شديد الضيق ، لهذا مات عدد كبير منا خنقا تحت أقدام رفاقهم .

وفي خامس أيام الاسبوع كان بعض منا يحارب خارج المدينة وبعضنا الآخر من داخلها ، وظل الحال هكذا حتى حلول الظلام ، وفي تلك الأثناء استولى الهلع على نفوس وليم دي غراندميل وأخيه أوبرى وغي تروسو ، ولامبرت الفقير (كونت كلير مونت) وذلك نتيجة لقتال الأمس الذي استمر حتى المساء ، لهذا تسربلوا الظلام وانسلوا مترجلين في ظلمة الليل ومروا هاربين بجانب السور المقابل لشاطىء البحر ، وعانوا كثيرا ودميت أيديهم وأقدامهم ولم يبق فيهم سوى العظام ، وقد رافقهم في فرارهم هذا كثيرون ممن لاأعرفه .

وعندما وصلوا الى السفن في ميناء السويدية ، قالوا لبحارة هذه السفن :« ماذا تفعلون هنا أيها الأشقياء ؟ لقد هلك رجالنا جميعا ولم يبق منهم احد ، ولم ننج نحن الا بعد عذاب شديد ، حيث ان جيش التركمان كان يحاصر المدينة من جميع الجهات عندما كنا فيها » ، فلما سمعوا هذه المقالة منهم دهشوا وجزعوا فانطلقوا

نحو مراكبهم مبحرين ، وتسارع التركمان نحوهم وفي آثارهم فقتلوا كل من صدفوه منهم ، واضرموا النيران في المراكب الراسية في مجرى النهر واستولوا على ماخلفوه من أسلاب .

أما بالنسبة الينا نحن الذين بقينا (محاصرين في المدينة) فلم نعد نستطيع احتمال وطأة أسلحتهم لهذا أقمنا بينهم وبيننا سورا تناوبنا على حراسته ليلا ونهارا ، واشتد الحصار علينا وضاق بنا الحال حتى اضطررنا الى أكل خيولنا وحميرنا.

٢٤ــ وفي أحد الأيام ، وبينما كان مقدمونا مجتمعين في أعلى المدينة مقابل القلعة يتشاورون والحزن ظاهر عليهم واليأس قد استبد بهم اذا بواحد من الرهبان (واسمه ستيفن فالنتان) يمثل أمامهم ويخاطبهم بقوله :« أيها السادة ، هل لكم أن تصغوا الى ماسأقصه عليكم ، لقد رأيت البارحة حينما كنت نائما في كنيسة القديسة مريم ــ والدة الرب يسوع المسيح ــ رؤيا هاكم وصفها : لقد ظهر لي مخلص العالم وبرفقته أمه وبطرس الطوباوي سيد الحواريين ، وناداني قائلا : أوتعرفني ، فأجبته بلا ، وعند ذاك رأيت فوق رأسه صليبا كاملا ، فسألني الرب ثانية : « أوعرفتني الآن » ؟ فأجبته : « ماكان لي أن أعرفك لولا انني رأيت فوق رأسك صليبا يماثل صليب مخلصنا » فقال لي :« إنني هو بعينه »، فانكببت في الحال على قدميه متذللا متوسلا اليه كي ينقذنا مما نحن فيه من المآسي ، فأجابني الرب : « لقد ساعدتكم فيما مضى ، وإنني ماض في مد يد العون لكم ، كما ساعدتكم في الاستيلاء على نيقية ، وكما رعيتكم حتى أوصلتكم الى هنا ، ولقد أحزنني ماكابدتموه من مشقة أثناء حصار انطاكية ، ولكنكم استطعتم بفضل مساعدتي لكم أن تدخلوا المدينة سالمين غانمين ، بيد انكم فسقتم مع نساء فاسدات من المسيحيات والكفار ، فتصاعد النتن حتى بلغ السماء ».

وحينذاك ركعت البتول وبطرس الطوباوي على قدميهما متوسلين

اليه راجين ان يعطف على شعبه فيعينه في محنتـه وينجـيه ممـا ألم به ، وتوجه اليه بطرس المبارك بقوله :« أيها الرب ، لقد طال أمـد استيلاء الشعب الوثني على بيتي الذي لحق به من جراء هذا الأمـر مساوىء يعجز اللسـان عن نعتهـا ، فلنطـرد الآن الأعداء ايهـا الرب ، ولتفرح الملائكة في السماء ».

فالتفت الي الرب قـائلا :« امض الى شـعبي وأخبـره وليعـد الي ، فسأعود أنا اليه ، وأمامه أيام خمسة سأبعث بعـدها بعـون عظيم ، ومره فليرتل كل يوم بهذه الترتيلة مع بقية المقاطع :« هو ذا الملوك اجتمعوا» (٧٦) .

والان أيها السادة إذا ساوركم شـك في صـحة مـاقلت ومـارويت فاسمحوا لي أن أصعد الى رأس البرج ، وأن أطرح نفسي من أعلاه الى أسفله ، فأن سلمت فصدقوا بمـا قلت ، وأن اصـابني سـوء فاقتلوني أو اجعلوني طعمة للنار .

وعند ذلك أمر أسقف بوي باحضـار الأناجيل والصليب ليقسم هذا الراهب على صحة ماقاله ، واتفق في تلك الساعة مقـدمونا على أن يقسموا بسر القربان المقدس ألا يحاول أحدهم ـ مـادام حيا ـ أن يفر أو يحاول النجاة من الموت أو يسعى لانقـاذ حياتـه ، ويذكر أن بوهموند كان أول من اقسم ثـم تـلاه كونت صـنجيل ، فـروبرت النورماندي ، فالأمير غودفري ، فكونت فلاندر ، أمـا تـانكرد فلم يقتصر في يمينه على أنه لن يتخلى أبدا عن متابعة هذه الحرب ، بـل زاد أنه لن يتخلى مطلقا عن الزحف نحو القبر المقدس حتـى ولو لم يبق معه سوى أربعين فارسا .

ولما تناهت أخبار هذا القسم الى الجيش المسيحي دبت الفـرحة بين صفوف رجاله جميعا .

٢٥ ـ وكان هناك حـاج مـن جيشـنا اسـمه بطرس(٧٧) (بارثليمو) تراءى له القـديس اندراوس الرسـول قبـل

دخولنا الى المدينة وقال له :« مـــاذا تفعـــل هنا أيهـــا البـــطل الصنديد ؟ فأجابه : وأنت ،ثم من انت فقـــال له الرســـول : « انني الحـــواري أندراوس ، اســـمع يابني عزج ـ حين دخـــولك الى المدينة ـ على كنيسة القديس بطرس ـ القسيان ـ وســـتجد بهـــا حربة مخلصنا يسوع المسيح التي طعن بها حين رفـــع على خشـــبة الصليب » ، ثم اختفى الرسول بعد مافاه بهذه العبارة .

وخاف هذا الرجل من الجهر بمـــا أشـــار بـــه الحـــواري عليه ، فأمسك عن اخبار حجاجنا بفحـــوى تلك الرؤيا ، وخيل اليه أن ماراه كان مجرد أضغاث احلام ، لهذا ردد في نفسه : ترى مـــن يستطيع تصديق هذا ؟ وماكاد يفرغ من ذلك حتـــى أخـــذه القـــديس أندراوس وسار به شطر تلك الناحية حيث كانت الحـــربة مـــطمورة تحت الأرض .

وفي الساعة التي كنا موجودين فيهـا في ذلك الوقـــت الشـــديد الذي وصفته آنفا (٧٨) عاد القديس اندراوس الى بطرس وقال له: لماذا لم تخرج الحربة من باطن الأرض كمـــا أشرت عليك ، أولا تعلم أنه لم يغلب قوم قط حملوا هذه الحربة معهـــم في الحـــرب ؟! ، وهنا أفضى بطرس بالحال الى حجاجنا بالخبر وكشف السر الذي استودعه إياه القديس الحواري ، فلم يصدقه القوم بل أنكروا مـــاقال ، وســـألوه : كيف نؤمن بصحة هذا القول ؟.

وكان الهلع مستوليا على نفوسهم ، وكانوا يتـــوقعون الموت بين ساعة وأخرى ، فذهب بطرس اليهم وأقسم لهـــم أنه صـــادق في كل ماقاله ، وأن القديس أندراوس تراءى له مرتين وقـــال له : انهض وامض الى الشعب وأخبره ألا يخشى شيئا ،بل عليه أن يؤمن إيمـــانا صادقا من كل قلبه بإله الرب واحد حقيقـــي ، وأنه ســـينتصر في كل مكان ، وأن الرب سوف يبعث اليه في الأيام الخمسة المقبلة بـــرسالة تملؤكم فرحا وحبورا واذا أراد الشعب القتال فليخرج بأجمعه متحدا الى الحرب ، فسينتصر على جميع أعدائه نصرا مبينا ،. لن تقوم له بعده قائمة أبدا .

ولما سمع الحجاج بأن القضاء الشامل على أعدائهم سينجز على أيديهم ، استعادوا رباطة جأشهم وأخذ بعضهم يشجع بعضا قائلين : انهضوا وكونوا رجالا شجعانا عقلاء لأن الرب سيبادر في الحال الى عوننا و سيكون في ذلك عزاء لشعبه الذي يرى الآن ماهو فيه من شدة .

٢٦- وراح التركمان الذين كانوا في الاجزاء العليا من القلعة يزحفون نحونا حتى صاروا على مقربة منا ، ونجحوا ذات مرة في محاصرة ثلاثة من فرساننا في برج كان واقعا قبالة قلعتهم ، وفي الحقيقة وجد الكفار منفذا انقضوا منه عليهم بشدة وعنف الى حد انهم لم يستطيعوا الصبر على مجالدتهم ، وخرج من البرج اثنان من الفرسان قد أصيبا بالجراح ، أما الثالث فقد صمد في الدفاع عن نفسه ، ودافع التركمان لمدة يوم كامل ، وقتل منهم اثنان امام السور ، بعدما تكسرت في يديه ثلاث حراب ، وواجه الفارسان حتفهما ثم لحق بهما الثالث وكان اسمه هيج الثائر ، وكان من أصحاب غودفري دي مونت سكابيوزو (٧٩) .

ولما وجد بوهموند المبجل أنه من المحال ايجاد رجال يقومون بمهاجمة القلعة ، لبقاء الجميع في بيوتهم بسبب المجاعة وخوفا من التركمان ، لما وجد هذا الحال اشتد به الغضب وأمر بالقاء النار في المدينة في الناحية التي قام بها قصر يغي سغان ، و لما تراءى منظر النيران للجماعات التي كانت داخل البيوت غادرت مساكنها ، وخلفت كل ماكانت تملكه ناجية بحشاشة نفوسها ، فانطلق فريق باتجاه القلعة ، وفريق آخر الى باب كونت صنجيل ، وفريق ثالث نحو باب غودفري ، أي أن كل فريق توجه هاربا نحو الجماعة التي انتسب اليها .

وثارت في تلك الساعة فجأة ريح شديدة ، لم يستطع أحد أن ينتصب حيالها واقفا ، مما بعث الأسى في نفس بوهموند العاقل ، فقد خشي أن يمتد الحريق الى كنيستي القديس بطرس

ـ ٢٥٥٤ ـ

والقديسة مريم وسواهما من الكنائس . واستمرت هذه المحنة مـن الساعة الثالثة حتى منتصف الليل ، واتـت النيران على الفـي بيت وكنيسة ، ثم خمدت جذوتها حين أوشك الليل على الانتصاف .

ولم يتوقف التركمان الذين كانوا في داخل المدينة عن حربنا ليلا ونهارا ، ولم يعد يمنعنا منهم سوى دروعنا ، ولما راى رجالنا انهم لم يعودوا يحتملون هذه المتاعب لانه لم يعد بالامكان اكل الخبـز لمن كان معه خبز ، وشرب الماء لمن كان معه ماء ، ولهذا شيدوا بينهـم وبين التركمان سورا من الجير والكلس ، واقاموا حصنا وضـعوا فيه مختلف الاعتدة اللازمة لضمان سلامتنا ، وأقام في الوقت نفسه فريق من التركمان في القلعة في حين عسكر الفريق الآخر في واد قريب من القلعة .

ومع حلول الظلام لاحـت في الســماء نار مقبلة مـــن جهـــة الغرب ، وأخذت في الاقتراب حتى سقطت وسـط معسـكر الجيش التركماني ، فـاستولت الدهشـة على رجـالنا وعلى التـركمان سواء ، ومع اشراقة الصباح فر الخائفون جزعا ورهبـة مـن رؤية هذه الظاهرة السماوية حتى اذا بلغـوا بـاب بـوهموند عسـكروا عنده .

وداب رجال شحنة القلعـة على مناوشـة رجـالنا القتـال ليلا ونهارا ، فجعلوهـم مابين جريح وقتيل بفعـل نشـابهم ، أمـا بقية التركمان فقد أخـذوا في تشـديد الحصـار على المدينة مـن جميع النواحي الى حد انه لم يعد يجرؤ احـد منا على الخروج منهـا او الدخول اليها الا ليلا او بالخفاء ، وبذلك صرنا نعاني ونكابد من هذا الحصار الضـيق الشـديد والعـذاب على ايدي هـؤلاء الاعداء الذين كانوا في الأعداد الدثرة.

وشرع أعداء الرب الدنسون هؤلاء في تشديد الحصار علينا ونحن في داخل انطاكية حتى مات العديد منا جوعا ، وغلت الأسعار حتـى كان الرغيف يبـاع ببيزنتية ، ولاحـاجة بـي الى ذكر النبيذ

لانعدامه ، وأكل الفرنجة لحوم الخيول والحمير وابتاعوها ، وبيعت الدجاجة بخمس وعشرين « سوسية » والبيضة « بسوستين » والجوزة بدينار ،و على هذا كان كل شيء يباع بأثمان خيالية ، ولهذا عمت المجاعة واشتدت نكايتها ، حتى أخذ بعضهم يقيم المطابخ التي يقدم فيها للناس أوراق التين والعنب والعظام ، وطهى آخرون في مطابخهم جلود الخيول والجمال والابقار والجواميس اليابسة ، ولقد عانينا كل هذه الآلام والشدائد وسواها مما يستحيل وصفه في اسم المسيح ، ولكي نمهد الطريق حرا الى القبر المقدس .

وهكذا مر بنا ستة وعشرون يوما ونحن فرائس لهذه الشدائد والمصاعب وأمثالها .

٢٧ـ كما وقام كونت شارتر (٨٠) الذي مال عن منهج السداد ـ وكان سبق لقدمينا أن انتخبوه رئيسا أعظم ـ فتظاهر بالمرض وذلك قبل الاستيلاء على أنطاكية ، وارتد بكل خزي والعار يجلله الى بلدة أخرى حصينة اسمها الاسكندرونة ، ورحنا ننتظر قدومه الى نجدتنا كل يوم ، ونحن على مانحن عليه داخل المدينة ، دون مساعدة تخلصنا مما كنا فيه .

فهو ماكاد يعرف بأن جيش التركمان محدق بنا ومحاصر لنا حتى تسلل سرا وصعد رأس جبل (٨١) قريب من انطاكية ، فشاهد الخيم التي لايحصيها عد ، واذ ذاك استبد به الهلع ، فارتد بجنده بكل سرعة ، حتى اذا وصل الى معسكره قوض خيامه ورحل ومعه رجاله موليا الأدبار (٨٢) .

ولما دخل على الامبراطور في بلدة فيلوميلون (٨٣) سأله الاجتماع به على انفراد حيث قال له:« اعلم انه قد تم استيلاء التركمان على ماحول انطاكية ، أما المدينة فلم تسقط في أيديهم بعد ، وتركت رجالنا وهم يعانون من شدة الحصار ، ومن المرجح انهم ماتوا الآن

جميعا على أيدي التركمان ، وعليك ان ترجع بأسرع مايمكنك حتى لاتقع انت وجندك فريسة في أيديهم » .

واستبد الخوف بالامبراطور وجزع جزعا شديدا ، فاستدعى اليه غي اخا بوهيموند (٨٤) وجماعة اخرى وخاطبهم بقوله:« ايها السادة ترى ما نحن فاعلون؟ هاهم التركمان قد ضيقوا الخناق على جميع اخواننا ، وربما يكونون الآن قد فتكوا بهم وابادوهم او اخذوهم اسرى ، كما يذكر لنا هذا الكونت الذي فر« بخزي» وارى بات علينا أن نبادر بالتراجع قبل ان يلحق بنا مالحق إخواننا من الفناء المروع ».

ولما سمع غي ـ الفارس الشجاع ـ هذه الأكاذيب اجهش في البكاء هو ومن معه ، وانتحب نحيبا طويلا وصاح وصاحوا : أيها الرب المتعال ، أيها الثالوث الواحد ، لماذا ارتضيت بحدوث هذه الأمور جميعا ، لما ارتضيت لشعبك المؤمن بك أن يقع في أيدي أعدائه ، لماذا سارعت فتخليت عن هؤلاء الذين يسعون الى تمهيد الطريق نحو هيكلك وجعله حرا طليقا آمنا ، يارب لو صح ماسمعناه وتحقق ماقاله هؤلاء الأشقياء ، فاننا سنهجرك نحن والمسيحيون الآخرون ، ولن تعود تخطر ببالنا ، ولن يجرؤ واحد منا بعد ذلك على الدعاء باسمك أبدا .

وسرت هذه الأخبار المشؤومة بين صفوف الجيش اجمعها ، حتى انه انقضت عدة أيام لم يهتف فيها واحد من الأساقفة أو الشمامسة أو رجال الاكليروس أو العلمانيين باسم المسيح او اتى على ذكره .

وفي الحقيقة لم يستطع احد أن يقدم العزاء او المواساة إلى غي الذي مانفك يبكي وينتحب ويضرب على صدره ويلوي اصابعه وهو يقول : وااسفاه ياسيدي بوهموند ياشرف الدنيا وزينة العالم ، يامن كانت الدنيا تخافه وتحبه ، واشقوتاه ، اي قاصمة نزلت بي واي داهية ، أما كنت استحق في مصيبتي بك ان

ارى طلعتك البهية ، لقد كان هذا غاية سؤالي ومطلبي ، من ذا الذي يمكنني من ان افديك بنفسي ، ياسيدي ، ياصديقي الغالي ، لماذا لم أواجه منيتي يوم ولدتني امـي ، ولماذا كتـب علي ان اعيش حتـى اشهد يومك المشؤوم ، لماذا لم أغرق ، لماذا لم يكب بي فرسي فيندق عنقي ؟ كم كنت اتمنى أن أكون معـك فـأنال الشـهادة الكريمـة وأشهدك وانت تواجه منيتك بشرف وشجاعة .

ولما جاء الجميع لتقديم العزاء له ومحـاولة مـواساته ، اسـترد صوابه وافاق ثم قال : ترى ماذا ترون بهذا الفارس العجـوز الذي فقد صوابه ، هل سمعتم قط أنه أنجـز عمـلا مـن أعمـال الفروسية ؟ لا ، لقد اختفى وهرب متسربلا بالعار ، وتستر خـائفا كما يتستر الشقي الأثيم ، الا فليكن معلومـا لديكم جميعـا أن كل ماتفوه به هذا الشقي هو افك وباطل محض .

وارسل الامبراطور في تلك الأثناء أوامره وتعليمـاته الى رجـاله قائلا لهم : « انهضوا وقودوا جميع رجـال هـذه المنطقـة نحـو بلغاريا ، وقبل ذلك جوسوا خـلال الديار ، فخـربوا جميع البقـاع حتى اذا قدم التركمان لم يجدوا شيئا ».

وارتد رجالنا ـ طوعا وكرها ـ وهم في غاية الحزن واليأس وقد دب الخور في نفوس كثير من حجاجنا وغدوا عاجـزين عن اللحـاق بالجيش ، فتوقفوا عن السير ، وهلك بعضهم أثناء الطريق ، امـا الباقون فعادوا الى القسطنطينية .

ـولدى سماعنا لاقوال (بطرس بـارثلميو) الذي نقـل الينا ماأوحاه المسيح على لسان الرسول ، اندفعنا بكل سرعة ممكنة نحو كنيسة القديس بطرس التي ذكرها ، وعمل ثلاثة عشر رجـلا منا في الحفر من الصباح حتى المساء ، وآنذاك عثر الرجل على الحـربة في الموضع الذي أشار اليه ، فتلقفهـا القـوم بفـرح عظيم وبـرهبة شديدة ، وعمت المدينة بهجة شاملة (٨٥) .

وعقدنا في تلك الساعة مجلسا حربيا للتشاور فيما بيننا عما علينا صنعه ، وعند ذلك انعقد اجماع قادتنا على المبادرة بانفاذ رسول الى التركمان - أعداء المسيح - ليسألهم - بوساطة أحد المترجمين - السؤال التالي :« ماالذي دعاهم الى دخول أرض المسيحيين وهم في حنق شديد ، وماالذي دفعهم لاقامة معسكرهم هناك ، وفتكهم بعبيد المسيح وقتلهم اياهم »، ولما انتهت أعمال المشاورة استدعوا بعض الرجال ومنهم بطرس الناسك وهرلوان وزودوهم بالتعليمات التالية قائلين لهم :« امضوا فابحثوا عن جيش التركمان الملعون ، وقصوا عليه هذا كله في دقة ، واسألوهم لماذا دعاهم غرورهم وبطشهم الى اقتحام ارض المسيحيين التي هي أرضنا نحن ايضا ».

ولدى سماع الرسل لمضمون رسائلهم انطلقوا لساعتهم ، وقدموا مقر قيادة الكفرة وافضوا الى كربوقا ورجاله برسالتهم التي كان مضمونها :« لقد دهش قادتنا ومقدمونا أشد الدهشة كيف دفعكم التهور والطيش الى دخول ارض المسيحيين ، التي هي أرضهم ايضا ، هل لنا ان نفترض انكم قدمتم هاهنا بغير اعتناق المسيحية ، أم ترى ان الدافع للقدوم هو انزال شتى ضروب المساوىء بالنصارى وبمختلف الطرق ؟ ان قادتنا يطلبون منكم الارتداد عن أرض الرب والمسيحيين ، التي هداها بطرس الطوباوي بمواعظه من قبل ، وقادها الى الايمان بعقيدة المسيح ، وان قادتنا يسمحون لكم باصطحاب كل ما لديكم من الخيول والبغال والحمير والابل والماشية والثيران وكل ما تملكون ، ونقل كله معكم الى حيث شئتم».

وغضب كربوقا - قائد جيش ملك فارس - غضبا شديدا ، وأخذته ومن معه العزة بالاثم فأجابوهم بغلظة :« إنا لانبالي بكم ولابربكم ونصرانيتكم ، ولانرتضيها وإياكم ، وسنسحقكم معها سحقا تاما في آن واحد ، والذي حملنا على القدوم الى هاهنا هو دهشتنا كيف يدعي المقدمون والقادة

الذين ذكرتموهم ملكية أرض نحن أخذناها من الأمم الدالة ، والآن هل تريدون سماع ردنا عليكم ؟ ارجعوا مسرعين الى مقدميكم وأخبروهم أنهم اذا كانوا يريدون ان تتركوا ، وتهجروا ، ربكم الذي تسجدون له ، وتنبذوا شرائعكم التي أنتم مقيمون عليها الآن ، فاننا نعطيهم هذه الأرض ، بل ماهو أكثر منها ، ونهبهم البلدان والحصون ، وآنذاك لن يبقى واحد منكم راجلا ، بل ستكونوا جميعا فرسانا مثلنا ، وستوثق بيننا وبينكم صداقة راسخة ، ومودة مكينة ، وان لم يقبلوا بهذا ويفعلونه فعليهم أن يعرفوا انهم سوف يلاقون حتفهم ، أو سنسوقهم مكبلين بالقيود الى خراسان حيث سيبقون في أسرنا الى مالا نهاية ، وسيكونون عبيدا لنا ولأبنائنا على مدى الأيام والعصور ».

وسرعان ماعاد الينا رجالنا وأخبرونا بكل ماسمعوه من هذه الطغمة الفظة المتوحشة ، ويذكر أن هرلوان الذي كان يعرف اللسانين (اللاتيني والتركي) كان يقوم بالترجمة لبطرس الناسك ، ونزلت في هذه الآونة بجيشنا نازلتان لم ندر كيف نتصرف حيالهما : الأولى المجاعة الرهيبة التي أعدمتنا قوانا ، والثانية الرعب الشديد الذي استبد بنا من التركمان .

٢٩ـ بعد أن انتهى الجميع من صيامهم الذي دام ثلاثة أيام ، وفرغوا مما تلاه من الاحتفالات التي أقاموها في مختلف الكنائس ، وشرعوا بطقوس الاعتراف بخطاياهم ، وبعدما انجزوا هذا كله تناولوا القربان المقدس الذي هو جسد المسيح ودمه ، ثم وزعوا الصدقات وأقاموا القداسات .

بعد هذا التأمت صفوف ست فرق من المقاتلين الذين كانوا داخل المدينة ، وكان في الفرقة الأولى التي تقدمت سواها : هيوج الكبير ومعه الفرنسيون و دوق فلاندرز ، و كان في الثانية غودفري و رجاله ، و في الثالثة روبرت النورمندي و معه فرسانه ، و قاد أسقف لي بوي الفرقة الرابعة وحمل معه حربة المخلص (٨٦) وكان معه

رجاله ورجال ريموند الصنجيلي الذي تخلف في المدينة امام الحصن خوفا من هجوم التركمان منه وللحيلولة بينهم وبين النزول الى المدينة ، وكان تانكرد ــ بن المركيز ــ في الفرقة الخامسة ومعه رجاله ، وفي السادسة بوهموند العاقل ومعه فرسانه .

وماأن تدثرا ساقفتنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا بحللهم المقدسة حتى خرجوا برفقتنا حاملين الصلبان ، ممجدين الرب ومبتهلين اليه أن ينقذنا ويحمينا من كل سوء ، كما اعتلى بعضهم فوق الباب رافعين الصليب المقدس في أيديهم ورسموا فوقنا علامة الصليب وباركونا ، ولما اكتمل جهازنا تدرعنا بالصليب وخرجنا من الباب المقابل للمحمرة .

ولما رأى كربوقا ماكانت عليه فرق المسيحيين من النظام المدهش ، وهي خارجة واحدة اثر أخرى قال :« اتركوهم يخرجوا فلن يكونوا حينذاك خيرا مما لو كانوا في أيدينا » لكنه ماأن رأى جيوش الفرنجة الدثرة تغادر الابواب حتى استولى عليه الخوف ، وسرعان ماأمر قائده الموكل بالحراسة العامة ان يأمر بالتراجع ، اذ شاهد النار تتأجج في طلائع الجيش ، وبهذا حاقت الهزيمة بالتركمان (٨٧) .

وشرع كربوقا ــ دونما توقف ــ في التراجع على مهل نحو الجبل ، ورجالنا في اثره بالخطى نفسها ، ثم انقسم التركمان الى قسمين ، اتجه أحدهما باتجاه البحر ، بينما توقف رجال الفريق الثاني في مواقفهم مؤملين في تطويقنا ، ولما شعر قادتنا بما يحيكه العدو لهم فعلوا مثل فعلته فسيروا فرقة سابعة فيها من رجال الدوق غودفري وكونت نورمندي ، وعهدوا بقيادتها الى رينالد وبعثوا بها لاعتراض التركمان القادمين من ناحية البحر ، واشتبك التركمان برجالنا وقتلوا العديد منهم بنشابهم ، وفي الوقت نفسه جرى تشكيل فرق اخرى انتشرت من النهر حتى الجبل وغطت مساحة ميلين .
وشرعت تلك الفرق في الزحف نحونا من الجهتين ، وأحدقت

برجالنا ، وأخذت تنضحهم بنشابها وترميهم بحرابها ، وشوهد في هذه الساعة عن بعد عساكر لايحصيها العد قادمة من جهة الجبل ممتطية خيولا بيضاء ورافعة رايات بيضاء ايضا ، ولما رأى رجالنا هذا الجيش لم يعرفوا هويته ولا لمن هو عائد ، لكنهم ما لبثوا ان عرفوا أنه نجدة المسيح بقيادة القديسين جرجس ومرغوريوس وديمتري ، وينبغي تصديق هذه الرواية ، لأن العديد من رجالنا راوا هذه الآية الباهرة .

ولما ادرك التركمان المتمركزون على مقربة من البحر أنه لم تعد لديهم المقدرة على مدافعة العدو ، أشعلوا النيران في الأعشاب هناك حتى يراها القاعدون في الخيم ، فيلوذوا بالفرار ، ولما رأوا هذه الاشارة حملوا معهم كل شيء له قيمة وانطلقوا فارين ، وتقدم رجالنا على مهل لمحاربة الفريق الأعظم من عساكرهم ، وتوجهوا نحو معسكرهم ، وسارع غودفري وهيوج الكبير وكونت فلاندر بالانطلاق نحو طرف النهر ، فصادفوا هناك العديد من جحافلهم فتسلحوا بشارة الصليب وانقضوا عليهم وهاجموهم هجمة رجل واحد ، ولما رأى بقية رجالنا ذلك طاردوهم هم بدورهم ايضا ، وتعالى صراخ التركمان والفرس ، أما نحن فقد سبحنا باسم الرب الحي الصادق ، وصدقناهم الحرب باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس ، واشتبكنا معهم في القتال ، وانتصرنا عليهم بعون الرب .

واستبد الرعب بالتركمان فمضوا فارين ، ولاحقهم رجالنا وساروا في آثارهم حتى خيامهم ، وآثر فرساننا فرسان المسيح أن يتابعوا مطاردتهم ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم من الانشغال بالاستيلاء على الغنائم ، واستمروا في تعقبهم حتى جسر العاصي فقطعه تانكرد ، وخلف الأعداء وراءهم خيمهم وذهبهم وفضتهم مع كثير من الأمتعة والماشية والثيران والماعز والبغال والابل والحمير والقمح والطحين والنبيذ ، وغير ذلك كثير مما كنا بحاجة اليه ، ولما وصل خبر نصرنا على التركمان الى مسامع الارمن والسريان

القاطنين في تلك المنطقة طاروا نحو الجبل بغية سد الطريق في وجه التركمان ، وهكذا فتكوا بهم وقتلوا كل من تمكنوا من امساكه .

وعدنا الى المدينة في نشوة عظيمة ، واخذنا نحمد الرب ونمجده على أن وهب جماعته النصر ، واستبد الرعب بشحنة القلعة حين شهد كربوقا وعساكره يفرون من ساحة القتال أمام جيوش الفرنجة ، وسرعان مابادر الى طلب الرايات الفرنجية فأمر كونت صنجيل – الذي كان مرابطا أمام القلعة – برفع رايته دون سواه ، فأخذها منه وسارع الى ركزها على البرج ، لكن لما شاهدها اللومبارديون الذين كانوا هناك قالوا :« هذه ليست راية بوهموند » ، فسألهم (أحمد بن مروان): فراية من اذا ؟ فأجابوه :« انها راية كونت صنجيل ، وعند ذلك تقدم (أحمد ابن مروان) واقتلع الراية ، وردها الى صاحبها وقدم في تلك الساعة بوهموند المبجل ، وناول رايته الى (القائد) التركماني ، الذي تلقفها بسرور ، وعقد اتفاقية مع الأمير بوهموند ، يأذن (بوهموند) بموجبها للكفرة الذين يرغبون في اعتناق المسيحية بالبقاء معه ، ويسمح لمن رغب عنها بالانصراف سالمين آمنين دون أن ينزل بهم أدنى ضرر أو أذى .

ووافق (بوهموند) على جميع مطالب الشحنة ، وسرعان ماأنزل سر جنديته في القلعة ، ولم تمض سوى أيام قلائل حتى جرى تعميد الشحنة المسلم وجميع الذين آثروا الايمان بالمسيح ، أما الذين فضلوا البقاء على دينهم أرسلهم الأمير بوهموند الى بلاد المسلمين .

وجرت هذه الواقعة في اليوم الرابع قبل مستهل تموز ، ليلة عيد الحواريين بطرس وبولص ، في حكم الرب يسوع المسيح ، الذي له الشرف والمجد السرمدي على مر الدهور . آمين .

الكتاب العاشر

من انقاذ انطاكية الى معركة عسقلان

(٢٩ حزيران ١٠٩٨ ـ ١٢ آب ١٠٩٩)

الزحف نحو القدس ـ حملة ريموند بيليه ـ موت ادهمر ـ حملة الصنجيلي على البارة ـ خلاف القادة حول انطاكية ـ استيلاء ريموند وبوهموند على المعرة ـ زحفهما نحو القدس ـ الوصول الى عرقة ـ اتحاد الأمراء عدا بوهموند ـ حصار عرقة ـ رفع الحصار عنها ـ والوصول الى القدس وضرب الحصار حولها ـ الاستيلاء عليها ـ اختيار غودفري ومعركة عسقلان .

٣ـ هزم أعداؤنا هزيمة ساحقة ، وحمدنا الرب الثالوث الأوحد على نعمه كما يستحق ، وشرع التركمان في الفرار من جميع الجهات ، وكان بعضهم أشبه بالأحياء وبعضهم قد أثقلته جراحه ، لهذا راحوا يتساقطون موتى في الوديان والغابات والحقول والمسالك .

أما الشعب المسيحي ، وهم الحجاج المظفرون ، فقد رجعوا الى المدينة بعد انتصارهم على الأعداء وهم في غاية النشوة بعد ظفرهم بالعدو .

وبادر زعماؤنا إثر هذا وهم : غودفري ، وكونت ريموند صنجيل ، وبوهموند ، والأمير روبرت كونت نورمندي ، وروبرت كونت فلاندرز ، وكثيرون غيرهم ، بادروا الى ارسال هيوج الكبير الى امبراطور القسطنطينية لعله يقدم لتسلم المدينة ، وينفذ الاتفاقات التي عقدها معهم ، ومضى هيوج لكنه لم يعد بعد ذلك أبدا .

وبعد أن فرغ قادتنا من ذلك اجتمعوا ثانية ، وعقدوا مؤتمرا

وتباحثوا حول ايجاد افضل الوسائل لاعادة النظام للشعب حتى يمكن قيادته ثانية كيما يتم رحلته الى القبر المقدس الذي احتملوا في سبيله كل هذه المخاطر ، واتفقوا في هذا الاجتماع على انه لم يعد في مقدورهم الدخول الى ارض الكفار ، لما هي عليه في أيام الصيف من شدة الجفاف وانعدام المياه ، ومن ثم اقروا تأجيل ذلك الدخول الى نهاية شهر تشرين الثاني ، وتفرق الأمراء ، ورحل كل منهم الى ناحيته حتى يحين الوقت المتفق عليه ، وأعلن الأمراء في جميع ارجاء المدينة بأن كل من نفسه في ضيق ويحتاج للدرهم والدينار يستطيع أن يلتحق بأي منهم حسب رغبته ، وحسب اتفاق يبرم بين الطرفين ، وأنهم سيتلقونهم على الرحب والسعة .

وكان هناك فارس من اتباع الكونت اسمه ريموند بيليه ، قام باستئجار مجموعة مناسبة من الفرسان والرجالة ، ثم زحف على راسهم الى داخل الأراضي الاسلامية وهو غير هياب ولاوجل وبعد ان اجتاز مدينتين وصل الى قلعة اسمها « تل منس » ، فبادر أهلها من السريان الى الاستسلام له ، من قبل انفسهم ، فأقام بينهم ثمانية أيام ، الى أن وصلته الرسل حاملة الأخبار بوجود حصن للمسلمين على مقربة منه ، وتقوم على الدفاع عنه شحنة كبيرة ، وأحاطوا به من كل جانب ، وسرعان ما استطاعوا أخذه على هذا الحصن ، والقوا القبض ، اذ ذاك ، على جميع الفلاحين في تلك المنطقة ، وقتلوا كل من رفض اعتناق المسيحية ، أما أولئك الذين آثروا الايمان بالمسيح ، فقد أخلوا سبيلهم ، وأبقوهم أحياء .

وبعد أن تم ذلك ، رجع رجالاتنا تغمرهم النشوة الى القلعة الأولى (٨٩) ، ثم بارحوها في اليوم الثالث ، وتوجهوا الى معرة النعمان القريبة منهم ، ففيها كان تجمع اعداد كبيرة من التركمان والمسلمين الذين قدموا من حلب ومن جميع البلدان الأخرى ومن الحصون التي كانت في تلك النواحي ، وخرج البرابرة لمهاجمة رجالنا الذين عقدوا العزم على مناجزتهم القتال وارغموهم على

الفرار ، ولكنهم مالبثوا أن عادوا ، وهكذا ظلوا طوال يومهم يعاودون الكر علينا ومحاربتنا مرة بعد أخرى ، واستمر هذا القتال حتى المساء ، وكان الحر شديدا الى حد ان رجالنا لم يعودوا يطيقون احتمال الظمأ ، لانهم لم يجدوا قطرة من الماء يطفؤون بها ظمأهم ، ولهذا رغبوا بالتراجع سالمين في انفسهم الى حصنهم(٩٠).

لكن السريان والرجالة استولى عليهم الرعب ، ودفعتهم خطاياهم الى الفرار ، فلما رآهم التركمان وهم يولون الادبار ، اندفعوا في آثارهم ، وزودهم النصر بالبأس الشديد ، فأسلم العديد من رجالنا نفوسهم للرب ، الذي دفعهم حبهم له للتجمع هناك .

وكانت هذه الملحمة في اليوم الخامس من شهر تموز ، وعاد الفرنجة الذين نجوا من القتل الى قلعتهم ، حيث بقي ريموند (بيليه) هناك مع رجاله فترة من الزمن .

وعاش بقية الفرنجة في أنطاكية في سرور ونشوة كبيرة ، حتى فاجأهم اشتداد المرض بالمشرف على أمورهم وراعيهم اسقف لي بوي ، وذلك تبعا لمشيئة الرب ، التي هجر بمقتضاها وحدها هذا العالم ، ورقد بهدوء ، ومضى ليرقد عند الرب يوم العيد المسمى بعيد القديس بطرس في القيود ، ونجم عن ذلك حزن عميق ، وغم شديد ، وعم الأسى وانتشر بين صفوف جيش المسيح قاطبة ، ذلك انه كان عضدا للفقراء ، ومشيرا للأغنياء ، فكان يأمر الكهنة بذلك ويكرز فيهم وغالبا ماقال للفرسان في عظاته :« لن يتمكن واحد منكم من انقاذ نفسه ان لم يكرم الفقراء وان لم يواسهم ، وهيهات أن تتهيأ النجاة لكم عن طريق سواهم ، مثلما أنهم لايستطيعون العيش بدونكم ، ومن ثم فان صلواتهم اليومية ودعاءهم الى الرب الذي طالما تذنبون اليه ، فيغفر للخاطئين منكم خطاياهم ، وانني اناشدكم أن تحبوهم حبكم للرب وأن تساعدوهم قدر المستطاع ».

٣١ـ وسافر بعد ذلك بوقت قصير الكونت المحترم ريموند الصنجلي(٩١) ، توغل في الأراضي الاسلامية حتى بلغ بلدة يدعونها البارة ، فهاجمها رجاله وسرعان مادانت له ، فقتل جميع من وجده بها من المسلمين والمسلمات ولم يفرق بين صغير وكبير ، وبعد استيلائه عليها ، اعادها الى دين المسيح ، وعقد اجتماعا ضم ذوي الرأي من جماعته ، تقرر فيه ان يعهد بالمدينة الى اسقف يرعاها ويرجعها الى دين الرب الحي القيوم ، وأقام المذابح على شرف القديسين ، وسرعان ماوقع اختيارهم على رجل عاقل شريف ، بعثوا به الى انطاكية ليسام (أسقفا) لها ، وهكذا ترجموا الاختيار الى واقع منفذ (٩٢) .

وشملت الفرحة الذين مكثوا في أنطاكية وعمتهم البهجة ، ولما حل الموعد المحدد ـ أعني عيد جميع القديسين ـ عاد جميع مقدمونا الى انطاكية ، واخذوا يعدون العدة لاستئناف الرحلة نحو القبر المقدس مرددين :« لما كانت ساعة الرحيل المحددة قد اقترب حلولها ، فانه لم يعد ثمة وقت أطول للنقاش ».

واستمر بوهموند يعمل جاهدا طوال الوقت ، لحمل القادة على الاعتراف بالوعد الذي قطعوه ، بتمليكه انطاكية ، بيد ان كونت صنجيل لم يعتبر نفسه مرتبطا باي اتفاق مع بوهيموند خشية ان يعني ذلك نكثا لقسم الولاء للامبراطور ، وكثرت الاجتماعات التي عقدوها في كنيسة القديس بطرس لفض الخلاف وايجاد مخرج ، وقرأ أثناء ذلك بوهموند نص الاتفاق ، وأطلعهم على اتفاقية (الامبراطور) معه ، وفعل كونت صنجيل مثلما فعل حيث أوضح شروط اليمين التي قطعها للامبراطور ، وبين أن ذلك كان بناء على نصيحة من بوهموند.

وغادر حينذاك مكان الاجتماع الأساقفة ومعهم غودفري وكونت فلاندرز وكونت نورمندي وبقية الزعماء ، وتوجهوا جميعا نحو

كرسي القديس بطرس ليقفوا على نص حكم يقضون به بين الاثنين ، وبفعتهم خشيتهم من عرقلة استئناف الزحف الى القبر المقدس ، الى كتمان ما أجمعوا الرأي عليه ، واتفقوا عليه فيما بينهم ، وبعد طول انتظار خاطبهم كونت صنجيل بصوت مرتفع بقوله: « اسمعوا ما أقوله: حتى لا نتخلى عن طريق القبر المقدس ، إنني راض بكل ما اتفق عليه الدوق غودفري وكونت فلاندرز ، و روبرت النورمندي ، و غيرهم من السادة ، إذا قبل بوهموند أن يرافقنا ، و انني قابل بكل ما قضوا به ، لا إذا تعارض بالتزامي بعهدي للامبراطور » .

واستصوب بوهموند ما قاله كل الاستصواب ، وجاء الاثنان فاقسما بين أيدي الأساقفة أنه لن يحاول واحد منهما عرقلة الزحف الى القبر المقدس ، بأية وسيلة من الوسائل ، وأخذ بوهموند ــ إذ ذاك ــ في التشاور مع رجاله لتأمين المؤن للقلعة القائمة على الجبل المرتفع وشحنها بالرجال والعتاد ، وصنع كونت صنجيل الشيء نفسه ، فبادر هو الآخر الى الاتفاق مع اتباعه من أجل تزويد قصر الأمير يغي سيغان مع البرج المرتفع القائم عند مدخل الجسر مقابل ميناء السويدية بالمؤن والعتاد والرجال ما يكفي لمدة طويلة .

٣٢ ــ مدينة إنطاكية مدينة جميلة رائعة ، تحتوي داخل أسوارها على أربعة جبال عظيمة شامخة الذرا ، ويقوم على أعلاها حصن حصين منيع قوي البنيان ، وتمتد على السفح المدينة الرائعة المحبوبة ، وقد ازدانت بكل ضروب الفتنة ، لما تحويه من الكنائس الكثيرة ، التي قد يصل عددها الى ثلاثمائة كنيسة ، كما يوجد فيها ستون ديرا ، ويرأس بطريركها مائة وخمسين أسقفا.

ويحيط بمدينة انطاكية سوران ، أكبرهما عظيم الارتفاع ، رائع البنيان ، شيد بشكل غريب ، وفي هذا السور أربعمائة وخمسون برجا ، وأينما نظر المرء في جهات المدينة أدهشته روعة المدينة وجمالها.

ويحيط بها من جهة الشرق جبال أربعة كبيرة ، ويتدفق فيهـا في الناحية الغربية نهر يسمى نهر فرفر (أي العـاصي) حيث يجـري على مقربة من أسوارها.

ولهذه المدينة شهرة واسعة ، فقد تولى أمرها في البداية خمسـة وسبعون ملكا ، أولهم انتيخوس الذي نالت اسمها من أسمه ، وقد أمضى الفرنجة في حصارها ثمانية أشهر ويوما واحد ، ثم حاصرها التركمان وسواهم من الكفار مدة ثـلاثة أسـابيع ، لكن النصر كان بالنهاية للمسيحيين بفضل معونة الرب المقدس ، ثـم أقمنا بـأمان واطمئنان مدة خمسة أشهر وثمانية أيام.

٣٣ ـ اتخذت جميع التدابير الدقيقة (لاسـتئناف الزحـف) في شهر تشرين الثاني ، وكان ريموند الصنجيلي أول من غادر أنطاكية على رأس جيشه ، ووصل أولا الى بلدة اسمها « الروج » ، ثم الى أخرى تدعى « البارة » ولحق قبل شهر تشرين الثاني بـأربعة أيام بمدينة معرة النعمان ، وكان قد احتشد بها جمع كثيف من المسلمين من عرب وتركمان وسواهم من الكفار ، وهـاجمها الكونت في اليوم التالي لوصوله.

وسار بعد فترة وجيزة بـوهموند ومعـه جيشـه ، في آثـار الأمراء ، ولحق بهم في يوم الأحد [٩٣] ، وحمـل الجميع يوم الاثنين حملة شديدة ، وهاجموا المدينة مـن جميع جهـاتها ، وا ستبسلوا وصبروا صبرا شديدا ، حتى تمكنوا من اسناد السلالم ، لكن قـوة الكفار كانت لعظم لهذا لم يستطع رجالنا اصابتهم بأدنى ضرر.

ولما أدرك أنه لا فائدة ترجى من مثل هذا العمل ، وأنهم لا يجنون منه الثمار ، بادر ريموند الصنجيلي الى تشييد بـرج خشـبي عظيم الارتفاع ، يسير على أربعـة دواليب ، وجهـزه بمـا كان يحتـاج اليه ، وكان في الطابق العلوي مجموعة من الفرسان بقيادة « إفرار الصياد » الذي كان أقـدر الناس في قـرع الطبـول ، وكان تحتهـم جماعة من الفرسان المدرعين كان عليهـم دفـع البـرج الى قـرب

الأسوار ليدمر بوساطته أحد الابراج ، ولما شاهد الكفار هـذه الآلة شرعوا في الحال في نصب آلة أخـذت تقـذف البـرج (الخشـبي) بالحجارة الكبيرة حتى كادوا ان يقتلوا جميع فرساننا ، كما أخذوا يقذفونه بالنيران الملتهبة على امل احراقه وتدميره (٩٤) ، لكن الرب المتعال رفض أن يحترق البرج هـذه المرة ، ذلك أنه كان أعلى مـن جميع أسوار المدينة.

ومضى فرساننا الذين كانوا بالطابق العلوي ، وفيهم وليم مـونت بيليه وغير كثير ، مضوا يقذفون المدافعين عن الأسـوار بـالحجارة الكبيرة ، وشرعوا يوجهون ضرباتهم على ترستهم ، فكان الرجـل وفرسه يسقطان في داخل المدينة ، بعد اصابته بضربة قاتلة ، وبينما كانوا يتحاربون كان هناك آخرون استعملوا الرماح الطويلة المعقود عليها الرايات ، و قد تمكنوا بوساطة هذه الرماح مـع اسـتخدامهم للكلاليب المعدنية من تصعيد الأعداء ،و اسـتمر القتـال على هـذه الصورة حتى حلول المساء.

ووقف وراء البرج مجموعة من رجـال الاكليروس في مسـوحهم المقدسة ، وهم يتوجهون بالدعاء الى الرب والابتهال اليه أن يرفـع المعرة عن شعبه ، و أن يعلي كلمة المسيحيين ويدمر الوثنية ، ووقف في الجانب الآخر فرساننا واشـتبكوا في حـرب متـواصلة مـع الأعداء ، وكانوا يعملون على نصـب السـلالم على اسـوار المدينة ، بيد أن مقاومة الكفار كانت من الشدة بمكان بحيث أعاقـت تقدم رجالنا ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان جوفييه دي لاستور أول من تمكن من ارتقاء السور بوساطة سلم ، سرعان ما تحطم تحـت ثقل وزن رفاقه الكثيرين الذين اندفعوا وراءه ، ومع هـذا كان قـد تمكن من الوصول الى أعلى السور مع عدد من اصحابه ، وفي الوقت نفسه وجد فريق آخر سلما ، سرعان ما أثبتوه على السور ، فصعد عليه عدد من الفرسان والرجالة وتمكنوا من ارتقاء الشرفات ، لكن المسلمين هاجموهم هجوما عنيفا مـن فـوق الأسـوار ومـن على الأرض ، وأشرعوا نحوهم اسنة رماحهم ، وأخذوا يطعنونهـم عن

قرب ، فاستولى الذعر على العديد من رجالنا ، فرموا بنفوسهم من فوق السور.

وفي تلك الوقت الذي كان فيه أولئك الرجال الأشاوس صامدين في أعلى السور يكابدون أهوال الهجوم ، كان الآخرون في أسفل البرج يحاولون نقب السور ، ولما رأى المسلمون أن رجالنا قد تمكنوا من فتح ثغرة في الأسوار ، استولى عليهم الرعب ، وانطلقوا هاربين الى قلب المدينة ، ووقع هذا كله يوم السبت ١١ كانون الأول ، عند الزوال ، ساعة صلاة الستار ، وأمر عندئذ بوهموند زعماء المسلمين ـ على لسان مترجمه ـ بالالتجاء هم ونساؤهم وأطفالهم وامتعتهم الى قصر واقع جنوب باب الجسر ، وقطع على نفسه عهدا أمنهم به على انفسهم.

ودخل إثر هذا رجالنا الى المدينة ، واستحوذ كل منهم على كل ثمين مما وجدوه من الذخائر في البيوت والمخابيء وبعدما أشرقت شمس الصباح شرعوا يقتلون كل من صادفوه أو عثروا عليه من أعدائهم رجلا كان أم امرأة ، وامتلأت جنبات المدينة بجثث المسلمين ، وندر أن يجوب المرء طرق المدينة دون أن يدوس تلك الجثث ، وقبض بوهموند على الذين طلب منهم الالتجاء الى القصر الذي عينه لهم ، وسلبهم كل ما كان بحوزتهم من الذهب والفضة والمجوهرات والحلي ، ثم قتل بعضا منهم وساق بعضهم الآخر الى انطاكية ليباعوا فيها.

ومكث الفرنجة في هذا البلدة مدة شهر وأربعة أيام ، ومات في تلك الاثناء (وليم) أسقف أورنج ، ووجد بين رجالنا جماعة لم تجد بالبلدة ما كانت تحتاجه ، وذلك لطول مدة المكوث ولتعذر الحصول على المؤن ، حيث لم يعد في خارج المدينة ما يمكن الاستيلا عليه ، وعند ذلك أخذ رجال هذه الجماعة يبقرون بطون القتلى بحثا عن النقود ، لما علموه من أن بعضهم ابتلع كمية منها ، وقام غيرهم بقطع قطع من لحومهم حيث قاموا بطهيها واقتاتوا بها.

٣٤ ــ وأخفق بوهموند في الوصول الى اتفاق مع الكونت صنجيل على ما طلبه(٩٥) ، فقام وهو في ثورة من الغضب وقفل عائدا الى انطاكية ، ومع هذا لم يتوقف الكونت ريموند عن ارسال الرسل الى الامير غودفري ، وكونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورمندي وبوهموند يطلب منهم القدوم الى الروج للتباحث معه ، وقدم جميع الأمراء وتباحثوا حول ايجاد خطة تحفظ لهم شرف الزحف الى القبر المقدس ، الذي قاموا من أجله بحربهم المقدسة ، وقدموا في سبيله حتى بلغوا هذه المنطقة.

وأخفقوا في حمل بوهموند على الاتفاق مع كونت ريموند ، فقد رفض ذلك الا اذا تنازل له عما كان بيده في انطاكية (٩٦) ، ولم يستجب الكونت لهذا المطلب لتمسكه بالعهد الذي كان قد قطعه على نفسه للامبراطور ، وقفل في النهاية الأمراء وغودفري الى انطاكية بصحبة بوهيموند ، وتوجه الكونت ريموند عائدا الى المعرة حيث كان الحجاج موجودين ، واوعز الى فرسانه بتجهيز القصر الذي كان موجودا في اعلى باب الجسر.

ولما ادرك ريموند أنه ليس بين الأمراء من يود استئناف السير نحو القبر المقدس بسببه ، خرج حافيا من المعرة في يوم ١٣ كانون الثاني ، وقصد كفرطاب ، وبقي فيها ثلاثة أيام ، انضم اليه خلالها كونت نورمندي ، وبعث صاحب شيزر رسله الى الكونت ــ وهو بالمعرة وكفر طاب ــ يطلب الموادعة ، وأن يقبل أن يشاطره الكونت بعض أملاكه ، وانه سيبذل جهده في تأمين راحة الحجاج ، وأقسم له بدينه وتعهد بالوفاء ، وانه لن يتعرض للحجاج بأدنى أذى داخل حدود أراضيه ، كما أنه سيمده ــ عن طيب خاطر ــ بما يلزمه من الخيول والمؤن والعتاد.

وسار بعد ذلك رجالنا ، حتى إذا دنوا من شيزر الواقعة على نهر العاصي ، اقاموا معسكرهم هناك ، فضاق لذلك صاحب شيزر ، وخاف حين رأى الفرنجة وقد ضربوا خيامهم قرب

البلدة ، وأمر بايقاف امدادهم بالمؤن إن لم يبتعدوا من أحواز البلد.

وانفذ في اليوم التالي بصحبتهم دليلين من التركمان ليرشدانهم على مخاضة يعبرون عندها النهر ، وليمضيا بهم الى حيث يجدون ما يكفي من الغنائم ، فوصلوا الى واد تشرف عليه احدى القلاع ، واستولوا هناك على ما يزيد عن خمسة آلاف رأس من الغنم وكمية لا بأس بها من القمح وغير ذلك من الحاجيات التي يمكن أن تفيد جميع العساكر المسيحية ، واستسلمت شحنة القلعة للكونت واعطته بعض الخيول والذهب ، ثم أقسمت به بدينها الا تتعرض للحجاج بأدنى ضرر.

وا قمنا هناك مدة خمسة ايام (٩٧) ، ثم رحلنا – يعمنا السرور – على مقربة من حصن للعرب – خرج الينا صاحبه ، وعقد اتفاقا مع الكونت ، ووصلنا بعد مغادرتنا هذه المنطقة الى بلدة كبيرة زاخرة بالمؤن وواقعة في أحد الأودية واسمها « رفنية » ، وما كاد خبر وصول الفرنجة يترامى الى مسامع سكانها حتى غادروها وتخلوا عما بها من البساتين المملئة بالخضراوات ، وتركوا بيوتهم المشحونة بمواد الغذاء ، وهاموا على وجوههم ، أما نحن فقد غادرنا هذه البلدة بعد ثلاثة أيام من دخولنا لها ، وعبرنا جبلا هائلا شامخا ، فلما جاوزناه دخلنا وادي البقيعة حيث كانت توجد ذخائر كثيرة ، وقد بقينا هناك خمسة عشر يوما (٩٨) .

وكان على مقربة منا قلعة (٩٩) تحصين بها حشد كبير من الكفار ، وهجمنا على هذه القلعة ، وكان نصرنا أمرا مفروغا منه لو لم يخرج المسلمون من بابها قطيعا كبيرا من الحيوانات ، لذلك انصرف رجالنا الى خيمهم يحملون مختلف أنواع المغانم ، وطوى في الصباح الباكر رجالنا خيمهم ، وبادروا بغية محاصرتها ، واقامة معسكرهم بها ، ولاذ جميع الكفرة بالفرار ، وخلفوا القلعة وراءهم

ليس بها أحدا ، فأقتحمها رجالنا ، وعثروا فيها على كميات كبيرة من القمح والطحين والنبيذ والزبيب وكل ما كانوا بحاجة اليه.

واحتفلنا فيها بعيد دخول القديسة مريم الى الهيكل ، واستقبلنا رسلا بعث بهم صاحب حمص (١٠٠) الى الكونت ومعهم الخيول والاموال وعقدوا مع الكونت معاهدة جرى الاتفاق فيها على الايمس المسيحيون بأدنى اذى ، وعلى احترمهم والمحافظة عليهم ، كما بعث امير طرابلس (١٠١) رسالة من طرفه الى الكونت[ريموند] يسأله الموادعة والاتفاق والارتباط معه برباط الصداقة اذا شاء ، وانفذ اليه عشرة رؤوس من الخيل واربعة من البغال مع بعض المال ، ورفض الكونت واعلن انه لن يهادن امير طرابلس مالم يعتنق المسيحية.

وبعد مغادرتنا لهذا الوادي الجميل وصلنا الى مكان حصين اسمه « عرقة » وذلك يوم الاثنين منتصف شباط ، ونصبنا فيه خيامنا ، وكان الوادي يعج بحشد هائل من الكفرة ، نشطوا بهمة عالية ، وعملوا على تحصين هذا المكان والاستبسال في الدفاع عنه ، وخرج أربعة عشر رجل من فرساننا للهجوم على طرابلس الواقعة على مقربة منا ، فصادف هؤلاء الأربعة عشر فارسا قفلا للتركمان فيه ستون رجلا أو أكثر من ذلك ، وكانوا يسوقون أمامهم الناس و الحيوانات ، حتى أن عددهم قارب الألف و الخمسمائة أو زاد ، و تسلح رجالنا بشارة الصليب ، وانقضوا عليهم ، فقتلوا منهم ستة رجال واستولوا على ست أفراس.

وتميز عن جيش الكونت ريموند كل من ريموند بيليه ، وريموند فيكونت تورين وانفصلا عنه ، ووصلا إلى مدينة طرطوس التي هب للدفاع عنها جمع غفير من الكفار ، فقاتلاها قتالا ضاريا ، ولما حل المساء تراجعا إلى إحدى الجهات ، ونصبا خيامهما عندها ، وأوقدا نارا كبيرة ، كما لو كان الجيش معسكرا هناك ، فاستولى الرعب على الكفرة ، واستغلوا حلول الظلام فانسلوا هاربين خفية ، وخلفوا البلدة وراءهم ، وتركوا بها متاعهم الكثير .

وكان للمدينة مرسى جميل على شاطىء البحر ، وأعد رجالنا العـدة لمهاجمته في الصباح ، لكنهم وجدوا المدينة خاوية ، فدخلوها ، وظلوا معسكرين بها حتى ساعة حصارهم لعرقة ، وكان على مقربة منهـا بلدة أخرى اسمها « مرقية » ، عقد صاحبها مهـادنة مـع رجـالنا وادخلهم إياها حاملين لراياتهم .

٣٥ ـ وقدم الأمير غودفري وبوهيموند وكونت فلاندر ، لكن ما إن اقتربوا من بلدة اللاذقية ، حتـى انفصـل عنهـم بـوهموند عائدا والخشية تملأ قلبه ، إلى أنطـاكية ، وتـابع البـاقون ، زحفهـم ، وحاصروا بلدة اسمها « جبلة » وسمع الكونت ريموند الصـنجيلي أن هناك حشدا كثيفا من الوثنيين زاحف نحونا لمحاربتنا ، وسرعان ما عقد اجتماعا مع أعوانه ، تم الاتفـاق فيه على مـطالبة الأمـراء القائمين بحصار جبلة ، بالمبادرة إلى نجدتهم ، ولما تناهـى الخبـر إلى مسامعهم ، عقدوا هـدنة مـع صـاحبها وأخـذوا منه الخيول والمال ، ثم غادروا البلدة ، وتوجهوا إلى مساعدتنا ، غير أن الكفرة تقـاعسوا عن الاقـدام على حـربنا ، وإذ ذاك ضرب الأمـراء معسكراتهم خلف النهر ، وأسهموا بنصيبهم في حصار ذلك الموقع .

ولم يمض وقت طويل حتى زحف رجالنا على طرابلس ، وصـادفوا خارجها جماعة من التركمان والعرب المسـلمين ، فـانقض عليهـم رجالنا وأجبـروهم على الهـرب ، وقتلوا فـئة كبيرة مـن أعيان المدينة ، واستمر القتل بالكفرة ، وسالت الدماء حتى صـبغت المياه التي تغذي المدينة والآبار باللون الأحمر القاني ، واسـتولى عليهـم الحزن والخوف ، واشتد الذعر والأسى بـالباقين حتـى إنه لم يملك أحدهم الجرأة على تجاوز أبواب المدينة .

وأغار رجالنا في يوم آخر ، حتى إذا كانوا في أحواز وادي البقيعة ، صادفوا كميات من الثيران والحمير والماشية والجمال ، فـاستولوا عليها ، وكانت عدة ما غنموه من الحيوانات ثلاثة آلاف رأس .

ودام حصارنا لهذا المكان(١٠٢) الآنف الذكر مدة ثلاثة أشهر ما عدا يوما واحدا ، واحتفلنا هناك بعيد قيامة المسيح الرب أربعة أيام ، قبل منتصف شهر نيسان(١٠٣) وكانت سفننا قد اقتربت إذ ذاك منا ، حيث وصلت إلى أحد الموانيء ، ورست فيه طوال مدة هذا الحصار ، وحملت إلينا كميات وافية من القمح والنبيذ واللحم والجبن والشعير والزيت ، وقد توفر لنا هذا طوال أيام الحصار ، وسعد أثناء هذا الحصار عدد من رجالنا كبير بنيل الشهادة ، وكان من بينهم أنسلم دي ريبومونت ، ووليم بيكاردي وغيرهم كثير ممن لا أعرفه :

وتتابع وصول الرسل من [ابن عمار] أمير طرابلس على الأمراء يطلب منهم مبارحة المكان ومهادنته ، ولما علم رجالنا بخبر المحاصيل الجديدة ، ورأوها (لأننا كنا في منتصف آذار نأكل البقول الجديدة وفي منتصف نيسان حصدنا القمح) وعليه عندما علم رجالنا بهذا عقد الأمير غودفري ، وكونت ريموند الصنجيلي ، وروبرت كونت نورمندي ، وكونت فلاندرز مؤتمرا تباحثوا فيه ، وقرروا أنه من الأنسب لهم استئناف الرحلة إلى القدس وحصد المحاصيل الجديدة .

٣٦ ـ عندما بارحنا هذا الموقع ، ووصلنا إلى مدينة طرابلس في يوم الجمعة ١٣ آيار ، وقضينا بجوارها ثلاثة أيام ، أعطانا خلالها [أميرها] أكثر من ثلاثمائة حاج كانوا أسرى لديه ، وقدم لنا خمس عشرة ألف قطعة ذهبية ، وخمس عشرة هدية رفيعة الثمن ، وزودنا بأعتدة كثيرة من الخيول والحمير مع أنواع المؤن التي سدت حاجة جند المسيح جميعا ، واتفق مع مقدمنا على أن يدخل بدين النصرانية ، ويتسلم أرضه منهم إن هم تمكنوا من هزيمة خليفة مصر في الحرب التي استعد لها ضدهم ، وإذا استطاعوا أخذ القدس .

وبعدما جرى الاتفاق على هذا غادرنا طرابلس في يوم الاثنين [السادس عشر] من شهر أيار ، ووصلنا إلى

قلعة « البترون » حيث أوصلنا زحفنا إلى بلدة مجاورة للبحر اسمها « جبيل » وعانينا من شدة الظمأ ، وبلغ منا الوهن أشده حتى أدركنا نهرا اسمه نهر ابراهيم .

وبعدما زحفنا ليلة صعود الرب ونهارها عبر طريق وعر ضيق ، وصلنا إلى جبل كان يخيل لنا أننا سنجد العدوعندهيترصدنا وكامن لنا ، لكن رعاية الرب وعنايته بنا أفقدته الجرأة على الدنو منا ، فتقدمنا فرساننا ومهدوا الطريق أمامنا ، ووصلنا بعد ذلك مدينة تطل على البحر اسمها « بيروت » وتوجهنا منها إلى مدينة أخرى اسمها صيدا ، ثم إلى غيرها واسمها صور ، ووصلنا من صور إلى عكا ، وأفضى بنا الطريق إلى بلدة حصينة اسمها يافا ، ونصبنا خيمنا قرب بلدة قيسارية ، حيث احتفلنا بعيد العنصرة وذلك يوم ٢٩ أيار .

وعدنا منها إلى مدينة الرملة ، التي نزح عنها المسلمون خوفا من الفرنجة ، وكان على مقربة منها كنيسة كبيرة مقدسة ، ثوى في ثراها جثمان القديس جورج الطاهر ، ذلك أنه كان قد نال الشهادة المباركة في هذه البقعة على أيدي الكفرة الوثنيين في سبيل اسم المسيح ، وعقد مقدمونا اجتماعا قرروا فيه اختيار أسقف (١٠٤) لرعاية هذه الكنيسة وادارتها ، ووهبوه الأعشار ، وأعطوه الذهب والفضة والخيول وغيرها من السائمة والانعام حتى يتمكن من العيش والبقاء هو ورجاله بشكل مشرف ، فأقام راضيا.

٣٧ ـ وعم السرور بين صفوفنا ، وتابعنا زحفنا حتى وصلنا إلى مدينة القدس ، وذلك في يوم الثلاثاء السادس من] حزيران ، في الساعة الثامنة ، وحاصرناها حصارا شديدا مدهشا ، وضيق روبرت النورمندي الخناق عليها من جهة الشمال ، قرب كنيسة القديس أصطفان ـ أول الشهداء ـ من الجهة التي قتل بها رجما في سبيل اسم المسيح ، وحاصرها من الجهة الغربية الأمير غودفري وتانكرد ، أما الكونت صنجيل فقد عسكر في الناحية الجنوبية على

جبل صهيون أمام كنيسة القديسة العذراء مريم أم الرب ، في المكان الذي احتفل فيه الرب وحوارييه بالعشاء السري .

ودفعت الرغبة في الاغارة كل من ريموند بيليه وريموند دي تورين ، فانفصلا عن الجيش في اليوم الثالث ، فصادف فارسا المسيح مائتي عربي فقاتلاهم ، وأمدهما الرب بعونه ، فكانت لهما الغلبة عليهم ، وقتلا العديد منهم وغنما ثلاثين فرسا .

وهاجمنا المدينة يوم الاثنين (١٠٥) هجوما عنيفا ، وضغطنا ضغطا شديدا ، وسطونا عليها إلى حد أنه لو كانت السلالم معدة واسندت إلى الأسوار لسقطت القدس في أيدينا ، ومع هذا فقد دمرنا السور المنخفض ، وأسندنا السلالم إلى السور الرئيسي المرتفع ، وارتقاها فرساننا ، وضربوا عن قرب جماعة المسلمين والمدافعين عن المدينة بالسيوف وطعنوهم بالرماح ، وكانت قتلاهم أكبر عددا من قتلانا .
ومكثنا أثناء الحصار مدة عشرة أيام لانجد فيها الخبز لنشتريه ، واستمرت هذه الضائقة حتى وصلتنا نجدة من سفننا ، ووقعنا فرائس للعطش المحرق ، وكابدنا أشد المصاعب حتى لقد كنا نمشي ستة أميال لارواء خيولنا وبقية الحيوانات ، غير أننا وجدنا الماء عند عين سلوان الواقعة عند سفح جبل صهيون ، لكنه كان يباع بيننا بسعر مرتفع جدا .

وبعدما وصل إلينا الرسل من السفن المذكورة ، اجتمع قادتنا للتشاور ، وقرروا ارسال مجموعة من الفرسان تتولى حماية الرجال والمراكب الراسية في مرسى يافا ، ومع اشراقة الصباح توجه مائة فارس انفصلوا عن جيوش ريموند بيله ، وأكاردي مونتمول ووليم السبراني ، توجهوا ثابتي الجنان نحو الميناء المذكور .

وتميز ثلاثون فارسا عن المائة ، وساروا وحدهم ، فصادفوا في طريقهم سبعمائة رجل من العرب والتركمان والمسلمين من عساكر خليفة مصر ، فشد فرسان المسيح في الحملة عليهم ، لكن تفوق العدو العددي مكنه من تطويق رجالنا تطويقا كاملا ، وقتل أكاردي

مونتمول وغيره وخاصة من المشاة الفقراء ، وبينمـا كان فـرساننا مطوقين ، يواجهون الموت ، وصل رسـول إلى ريمـوند بيليه وقـال له : « ماذا تفعل أنت وهؤلاء الفرسان ، إن رجالنا بين أيدي العرب والتركمان والمسلمين ، ومن المحتمل أنهـم قتلوا جميعـا عن بـكرة أبيهم ، انهض وبادر إلى انقاذهم » ، ولما انتشر الخبر بين رجالنا ، سارعوا بالرحيل ، وأغذوا السير ، وأدركوهم والقتال على أشده ، ولما رأى الشعب الوثني فرسان المسيح ، انقسم إلى فرقتين ، فهتف رجالنا باسم المسيح وانقضوا على أولئك الكفرة انقضاضا شديدا ، والتحم كل فارس بخصمه ، ولما أدرك الأعداء أن لا قبل لهم بمداومة القتال والتصدي لبطش الفرنجة ، فشلوا وولوا ظهورهم لعـدوهم ، وقبضوا بعضهم احياء ، ليدلوهم على الطريق ، وغنموا مائة وثلاثة من الخيول .

وعانينا أثناء حصارنا للقدس من شدة العـطش ، حتـى كنا نخيط جلود الثيران والجواميس لنحمل فيها الماء من مسافة سـتة أميال ، فالماء الذي سبق لنا أن حملناه معنا في الأواني قد أسـن وتغير لونه وطعمه ، واقتصر طعامنا على خبز الشـعير ، ممـا أثـار الأسى في نفوسنا وبعث فيها الحزن ، وفي الحقيقة عمل المسلمون من جهتهـم على نشر الأمراض بين رجـالنا عن طـريق افسـادهم لمياه الآبـار والينابيع ، كما أنهم قاموا بجمع كل مـا وجـدوه لديهـم وأخفـوه وأخفوا أنعامهم في الكهوف والمغائر .

٣٨ ــ وتباحث قادتنا حول أفضل الأسلحة التي يمكن أن يهاجموا المدينة بها ، وخاصة الكباش ، حتـى يتمـكنوا مـن دخـولها وأداء فروض الصلوات عند قبر مخلصنا ، فشيدوا برجين مـن الخشـب وصنعوا بعض الآلات المفيدة ، وصنع الأمير غودفري برجا زوده بما يلزم من الأدوات ، وصنع الكونت ريمـوند مثـل صـنيعه ، وكانوا يجلبون الأخشاب من مناطق بعيدة جـدا ، ولما رأى المسـلمون مـا أقامه رجالنا من تلك الأدوات ، زادوا بتحصين المدينة بشكل يبعـث

- ٢٥٧٩ -
على الدهشة ، وشددوا الحراسة على الأبراج والدفاع عنها أثناء الليل .

وعندما تعرف رجالنا على أضعف جوانب سور المدينة ـ وهي في الجهة الشرقية من المدينة ـ شرعوا في ليلة السبت [الثالث من تموز] في نقل المعدات مع برج من الخشب ، وقاموا في الصباح بنصب الكباش ، واستعدوا للحرب ، وأمضوا أيام الأحد والاثنين والثلاثاء في أعمال تجهيز البرج .

وأخذ الكونت ريموند في الناحية الجنوبية بتجهيز آلاته واعدادها بها ، هذا وكنا في تلك الساعة بالذات نصارع العطش المميت ، حتى أن الرجل منا كان يعجز عن ايجاد شربة ماء تروي غليله ولو بدينار .

وحملنا في يومي الأربعاء والخميس حملة شديدة على المدينة ، وصدقناها القتال من جميع الجهات ، وقام الأساقفة والكهنة ، قبل استيلائنا على المدينة ، بإلقاء الخطب والمواعظ ، وأمرونا أن نسير بتطواف طقوسي حول أسوار القدس تمجيدا للرب ، وأن يصحب هذا التطواف أداء للصلوات وبذل للصدقات وقيام بالصيام.

وقمنا في الصباح الباكر ليوم الجمعة بهجوم شامل ضد المدينة ، لكن لم نستطع الاستيلاء عليها فاستولى علينا الذهول والفشل ، وعندما دنت الساعة التي تحمل فيها ربنا يسوع المسيح الآلام من أجلنا برفعه الصليب ، أخذ فرساننا الذين كانوا على البرج الخشبي ، يقاتلون بكل عنف ، وكان بينهم الأمير غودفري وأخوه الكونت استاش .

وقاد الكونت ريموند ـ الذي كان مرابطا في الوسط ـ جيشه ، ودفع ببرجه الخشبي حتى اقترب من السور ، وكان هناك خندق بين السور والبرج الخشبي ، وبغية ردمه أعلن انه سيمنح دينارا لكل من يلقي بثلاثة أحجار فيه ، واستغرق ردمه ثلاثة أيام وثلاث ليال

سويا ، ولما جرت تسويته بالأرض سحبوا الكبش ، ودفعوه بـاتجاه السور لينطحه .

وحمي وطيس القتال داخل المدينة بين المدافعين عنها وبين رجالنا ، وأخذوا يرمونها بـالنيران المحـرقة والحجـارة ، ولما عرف الكونت (صنجيل) بأن الفرنجة أصـبحوا داخـل المدينة خـاطب رجـاله بقوله : « ماذا تنتظرون ، وقـد دخـل الغـاليون بـأجمعهم إلى المدينة » ؟ واستسلم القائد ، الذي كان يتولى حراسة بـرج داود ، للكونت ، وفتح له الباب الذي اعتـاد الحجـاج على تـأدية الجـزية عنده ، ولما دخل حجاجنا المدينة جدوا في قتل المسـلمين وطـاردوهم حتى قبة [المسجد] العمـري حيث تجمعـوا هناك واسـتسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أبشع القتل وأفظعه طوال اليوم بأكمله ، حتى فاض المعبد كله بدمائهم ، وبعـدما تـم لرجـالنا النصرة على الكفار ، عثروا في المعبد على جماعة كبيرة من الرجـال والنسـاء ، ففتكوا ببعضهم وأبقوا على بعضهم ممن أحسنوا الظن بهم ، وكان قد التجأ إلى الجانب العلوي من « هيكل سليمان » فريق كثيف من الكفار من الرجال والنساء رافعين أعلام تانكرد وكاسـتون بيرن ، وانطلق الصليبيون في جميع أرجـاء المدينة يسـتولون على الذهـب والفضة والخيول والبغال ، كمـا بـاشروا نهـب البيوت الزاخـرة بالثروات .

وازداد سرور رجالنا حتى أنهم بكوا من شدة فرحتهم ، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع ، وأدوا واجباتهم الدينية وقضوهـا ازاءه ، وتسلق رجالنا في صباح اليوم التـالي سـطح الهيكل وهجمـوا على المسلمين رجالا ونساء ، وامتشقوا سيوفهم ، وراحوا يعملون فيهم الذبح ، حتى رمى بعضهم بنفسـه مـن أعلى المعبـد ، واسـتشاط تانكرد غضبا عندما شهد هذا المنظر .

٣٩ ــ وعقد رجالنا بعد ذلك اجتماعا اتفقوا فيه على قيام كل واحد منهم بتأدية الصلوات وتوزيع الصدقات ، كي يختار الرب واحدا من

بينهم ، تكون له السلطة على الآخرين وعلى المدينة ، وصدرت الأوامر أيضا برمي جيف كافة موتى المسلمين وطرحها خارج المدينة ، لشدة روائح النتن المتصاعدة منها ، ذلك أن المدينة كانت مملوءة بجثثهم ، وقام المسلمون الذين كتب لهم البقاء بجر القتلى خارج القدس ، ورميهم أمام الأبواب ، وارتفعت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا ، ولم يسبق قط أن سمع أو رأى أحد مذبحة مثل هذه المذبحة التي ألمت بالشعب المسلم ، وجمعت أكوام من الحطب كأنها الجبال ، واحرقوا عليها ، ولا يعلم غير الرب عدد الذين احرقوا .

واخذ الكونت ريموند (جناح الدولة) ورفاقه حتى عسقلان ، حيث أبلغهم مأمنهم سالمين .

ووقع الاختيار ، في اليوم الثامن لاستيلائنا على المدينة ، على الأمير غودفري ، وانتخب ليكون حاميا للمدينة ، قصد محاربة الكفرة والدفاع عن المسيحيين ، وعندما حل يوم عيد القديس بطرس في القيود ، (١٠٦) اختار القوم « أرنول » بطريركا للمدينة ، وكان رجلا شريفا مدبرا ، وكان قد تم لمسيحي الرب الاستيلاء على هذه المدينة يوم الجمعة الخامس عشر من تموز .

ووفد في هذه الأثناء موفد على تانكرد والكونت أستاش (أخي غودفري) دعاهما للنهوض والذهاب معه لتسلم مدينة نابلس ، فتوجها على رأس جماعة كبيرة من الفرسان والرجالة ، حتى إذا بلغا المدينة استسلمت ودان سكانها بالطاعة .

وطلب إليهم الأمير (غودفري) ، اثر ذلك ، أن يسرعوا بالزحف لصد الهجوم الذي يقوم به (الأفضل) وزير مصر على عسقلان ، فسارعوا باقتحام الجبل باحثين عن المسلمين بغية الاشتباك معهم ، وبلغوا قيسارية ، ثم ساروا محاذين لشاطىء البحر حتى وصلوا إلى الرملة ، فعثروا بها على عدد كبير من العرب قدموا لتشعيث المكان ، فاندفعوا في آثارهم ، وأسروا العديد منهم ، وحملوهم على

الافضاء بمعلومات تتعلق بأحوالهم وعددهم والمناطق التي يعتزمون حرب المسيحيين فيها ، ولما وقف تانكرد على هذه المعلومات ، بعث رسولا إلى الأمير غودفري ، وإلى البطريرك (أرنول) وإلى بقية الأمراء (في القدس) يقول لهم : « ليكن معلوما لديكم أن القوم في عسقلان يعدون العدة للهجوم علينا ، فبادروهم بجميع القوات التي يمكنهم حشدها » .

وأمر الأمير غودفري باستنفار جميع العساكر ، وأمر بتجهيزهم بالسرعة الممكنة وإرسالهم نحو عسقلان بغية صد العدو وقتاله ، و خرج هو نفسه مع البطريرك و روبرت كونت فلاندرز من المدينة يوم الثلاثاء (١٠٧)، و صحبهم الأسقف «مارتيرانوا» ، لكن كونت صنجيل وروبرت النورمندي أعلنا أنهما لن يشرعا بالزحف مالم يتأكدا من صحة خبر الهجوم ، وبعثا ببعض فرسانهما ليستطلعوا صحة خبر الهجوم (المصري) وليعودوا على جناح السرعة مع الأخبار ، حيث كانا مستعدين للزحف فورا ، ومضى هؤلاء الفرسان ، واتضح لهم صحة خبر زحف العدو ، وبادروا عائدين حيث أخبروا أنهم شاهدوا ذلك بأنفسهم ، وهنا اختار الأمير غودفري الأسقف مارتيرانو ، وبعث به إلى القدس ليستنفر الفرسان الذين كانوا فيها ، ويجعلهم يمضون للزحف لقتال العدو ، ولما كان يوم الأربعاء سار الأمراء وتوجهوا نحو أرض المعركة ، ورجع الأسقف مارتيرانو إلى البطريرك والأمير غودفري ، ونهض المسلمون لقطع الطريق عليه ،.وقبضوا عليه وساقوه أسيرا وعادوا به .

وبقي بطرس الناسك في القدس للقيام بما تتطلبه الحال من تدابير واستعدادات ، ولتحريض الأغريق واللاتين والكهنة على تمجيد الرب والدعاء وإقامة الصلوات ، وإخراج الصدقات ، حتى يمنح الرب شعبه ما وعده به من النصر ، ولما فرغ الكهنة والرهبان من ارتداء مسوحهم المقدسة ساروا على راس الموكب نحو هيكل الرب ، وأخذوا في ترتيل القداس والدعاء عسى أن يقي الرب شعبه .

واجتمع أخيرا البطريرك والأساقفة وبقية الأمراء عند ضفة نهر في أحواز عسقلان ، وتمكنوا وهم هناك من الاستيلاء على عدد كبير من الماشية والثيران والجمال ومختلف أنواع السلب ، من العرب ، وكانوا يناهزون ثلاثمائة رجل ، وانقض عليهم رجالنا ،وأسروا منهم اثنين ، وطاردوا البقية حتى بلغوا معسكر جيشهم ، وعند حلول المساء نادى البطريرك بين صفوف رجال الجيش بوجوب التأهب في الصباح الباكر للحرب ، وأصدر قرارا بحرمان كل رجل يفكر في الاستيلاء على شيء من الغنائم قبل انتهاء المعركة ، فإذا تم لهم النصر عادوا مسرورين للاستيلاء على كل ما هيأه الرب لهم .

ودخلوا في الصباح الباكر واديا خصبا قريبا من شاطىء البحر وأقاموا فيه معسكراتهم ، ثم عمد الأمير غودفري إلى قواته فرتبها للقتال ، وفعل مثله كل من كونت نورمندي ، وكونت صنجيل ، و كونت فلاندرز ثم تانكرد وكاستون ، ثم بعثوا بجماعة من الرجالة ورماه النشاب أمام الفرسان ، ولما تم لهم ذلك شرعوا بالحرب واستفتحوا القتال باسم الرب يسوع المسيح .

وكان الأمير غودفري في الميسرة ومعه قواته ، وكونت صنجيل في الميمنة وقد انتشرت قواته بمحاذاة الساحل ، ووقف في القلب كل من كونت فلاندرز و كونت نورمندي و تانكرد و بقية القادة ، و تقدم رجالنا حسب هذه التشكيلة.

وكان الوثنيون بدورهم متأهبين للقتال ، وقد علق كل منهم ركوته (وعاء الشرب) إلى عنقه كيما يسهل عليهم شرب الماء ورشفه ، حتى وهم مجدون في مطاردتنا ، لكن مشيئة الرب لم تتح لهم الوقت الكافي لتحقيق ماكانوا يبتغون ، ولما ابصر كونت نورمندي راية الأمير محلاة بكرة من الذهب ومرفوعة على اسطوانة من فضة ، أقبل مندفعا غير هياب ، وانقض على حاملها ونفحه بضربة أودت بحياته ، كما قام تانكرد بهجوم على معسكر العدو الوثني ، الذي ما كانت عساكره تراه حتى ولت الأدبار فرارا ، وكان قدر الجند كثيرا

لايحصيهم عد ولا يعرف كم هم سوى الرب ، واشتد القتال ، لكن قدرة ربانية قدمت العون لنا ، وكان ذلك من الضخامة والشدة إلى درجة جعلت النصر من نصيبنا في أسرع وقت .

وغشى الرب أبصار أعدائه وأدهشهم ، فعلى الرغم من شدة إبصارهم وتحديق عيونهم ، كانوا يحدقون في فرسان المسيح ولايرون شيئا ما أمامهم ، ولم يعودوا يملكون الجرأة على التحديق بالمسيحيين ، لأن القدرة الربانية أدخلت الرعب إلى نفوسهم ، حتى حملهم خوفهم على تسلق الأشجار والاختباء وراءها ، بيد أن رجالنا اصطادوهم رميا وطعنا وضربا بالنشاب والرماح والسيوف ، وتخفى بعضهم الآخر بالاستلقاء على الأرض دونما حراك وكأنهم أموات ، لكن رجالنا تولوا ذبحهم ذبح الأغنام في السوق ، كما أن كونت صنجيل قتل جماعة كبيرة منهم على مقربة من شاطىء البحر ، وكان بعضهم قد رمى بنفسه فيه ، وهام آخرون على وجوههم هنا وهناك .

أما الأمير (الأفضل) فإنه بعدما وصل أمام المدينة حزينا قانطا ، وقف يبكي ويندب حظه ويقول : « ياأرواح الأرباب ، إن العين لم تر مثل الذي جرى ، والأذن لم تسمع بمثل الذي حدث ، أيتها الأرواح ، يامن لاتضارعك قوة ، ولا يماثلك جبروت ، ولا تضاهيك شجاعة ، يامن لم تعرفي الهزيمة قط أمام أية أمة من الأمم ، أراك غلبت الآن من قبل هذه الشرذمة المسيحية ، ما أعظم الحزن ، وأشد الأسى ، ماذا أقول ، وماذا أريد ، أتراني أهزم الآن على أيدي شعب منبوذ جبان ، وجماعة من الصعاليك لايملكون من الدنيا سوى المزود والعصاة ، هؤلاء الذين طاردوا المصريين ، الذين طالما وزعوا عليهم الصدقات من قبل ، حين كانوا يجوبون بلادنا ملتمسين الصدقات ؟! لقد حشدت هنا مائتي الف فارس ، لكنني شهدتهم يثنون أعنة خيولهم ويوجهونها شطر مصر فرارا ، وهربوا لايلوون على شيء ، ولم يفكروا بالوقوف أمام أمة الفرنجة ، وإنني لأقسم بمحمد وبقوة جميع أربابنا أنني لن أقود ثانية أية جماعة من

الفرسان ، مادمت قد طردت على يد مثل هذا الشعب الغريب ، لقد أحضرت جميع أنواع الأسلحة ، والمعدات لالقاء الحصار على الفرنجة في القدس ، لكن الفرنجة قدموا وهاجموني وطاردوني طوال يومين ، وا أسفاه ، ماذا أقول أكثر من هذا ، لقد ضاعت هيبتي إلى الأبد في مصر[٢] (١٠٨) ! .

واستولى رجالنا على راية (الأفضل) فاشتراها كونت نورمندي بعشرين قطعة فضية ، ثم وهبها للبطريرك تمجيدا للرب وللقبر المقدس ، وتقدم غيره فاشترى سيف (الأفضل) بستين قطعة ذهبية .

وهكذا تمت هزيمة أعدائنا جميعا كما شاءت إرادة الرب ، وكانت جميع سفن البلدان الوثنية راسية هناك (في عسقلان) ولما رأى من كان بها فرار الأمير وجيشه بادروا إلى ركوب سفنهم والاقلاع بها بأقصى سرعة .

ولما عاد مقاتلونا إلى معسكر العدو ، جمعوا منه غنائم هائلة من الذهب والفضة واستولوا على كميات كبيرة من الأموال ، وعلى أنواع شتى من الحيوانات والأسلحة ، فحملوا معهم كل ما أحبوا امتلاكه ، وأحرقوا ما بقي ، وهكذا عاد رجالنا إلى القدس حاملين معهم كل ما كانوا بحاجة إليه .

ولقد جرت هذه المعركة يوم الجمعة (١٠٩) حسب مشيئة ربنا يسوع المسيح ، الذي له المجد والشرف السرمدي وعلى مر الدهور . آمين .

تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس

صنفه ريمون دي جيل ـ راهب نوتردام لى بوي

(خطبة الكتاب)

يلتمس بونز اوف بلازون ، وريمون راهب لي بــوي منكم ياصاحب النيافة اسقف فيفية ، ومــن جميع اتبــاع العقيدة المستقيمة المباركة والمشاركة في الامنا ، ونريد اذ نحن نضع هذا الكتاب ان نخبركم ونخبر معكم الشــعب كله فيمــا وراء الالب بأخبار جميع الاعمال الرائعة التي نفــذها الرب مــن خلالنا بكرمة المعتاد على الدوام ، وبسبب ظروف الحرب وما دأب عليه الأبقون من نشر للاكاذيب وبعد عن الحقيقة ، فان المهمة التي تولينا القيام بها ستمكن قــراء الايام المقبلة مــن تجنب معاشرة مثل هؤلاء المرتدين والاستماع الى ارائهــم ، لان اعمالهم ستكون مــكشوفة ، وجــدير بــالذكر ان جيش الرب ، مع انه عانى من سوط الرب بســبب خــطاياه ، قــد انتصر على جميع الوثنيين لان الرب عطــــوف وبود ولعله سيكون من الصــعوبة بمــكان ان نكتــب عن كل رحلة مــن الرحلات ، لان بعض الحجاج اجتازو دلماشيا (سلافونيكا) وعبر اخرون بلاد المجرولومبارديا ، او سافروا بحرا ، لهذا ركزنا اهتماما بالكتابة عن كونت صنجيل واسقف لى بوي ، وجيشهما ، دون الاهتمام بالاخرين .

الفصل الاول

السفر خلال دلما شيا وخيانة الاغريق

بعد الرحيل ، دخل الجيش الى بلاد دلماشـيا ، وعانى هناك مـن كثير من المصاعب خلال فصل الشتاء ، والحق اقول بـلاد دلماشـيا ارض جبلية مهجورة من الصعب الوصـول اليهـا ، فهناك لم تقـع اعيننا على حيوانات برية او طيور ، اما سـكانها مـن الهمـج فلم يتاجروا معنا ، ولم يزودونا بالأدلاء ، بل انهـم فـروا مـن قـراهم وحصونهم ، وكأنما نزل بهم اذى شديدا من رجالنا المشردين واهني القوى ، وهكذا ازهقوا ارواح هؤلاء المساكين المنهكين من النسـاء والشيوخ والفقراء والمرضى ، وذبحوهم كما لو انهم مواشي للذبـح ، ولمعرفة السلاف بهذه الارياف واعتيادهم عليها ، كان من الصـعب على فرساننا ثقيلي التسليح مطاردة هؤلاء اللصوص وان كانوا غير مسلحين ، وتعقبهم في مسـالك الجبـال الوعرة وداخـل الغـابات الكثيفة ، وصبرت قواتنا وصابرت قطاع الطرق هؤلاء ، حيث لم يكن بامكان جنودنا القتـال في الجبـال ، كمـا لم يكن بـامكانهم تجنب الاشتباك بهم ومناوشتهم .

ونتوقف عن سرد روايتنا عند هذه النقـطة ، لنروي قصـة قتـال مجيد خاضه الكونت ريموند في احد الايام ، عندما وجد نفسـه مـع فرقته محاطين بـالسلاف ، الذين أسروا سـتة منهـم ، وهنا ادرك ريموند وقد ضغط عليه بشدة ان عليه اقتحام صفوف السلاف حتـى يصل الى رفاقه ، فـأمر بسـمل اعين بعض اسراه ، وبتـر اقـدام بعضهم الاخر ، وجدع انوف وايدي الباقين ثـم اخـلاء سـبيلهم ، وبذلك سلم هو ورفاقه ، وتملك الاعداء رعب شديد بسـبب المشـهد المريع الذي وجدوا عليه رفاقهم المشوهين ، فأقعدهم الحزن ، وبهذه

الطريقة نجا الكونت من خطر الموت ، ومن هذا المكان المخيف ، وكان ذلك بفضل الرب واحسانه .

وفي الحقيقة انه لمن الصعب ان نفي بالوصف ماأظهره ريموند من شجاعة وحكمة في دلماشيا ، فلقد سرنا هناك قرابة اربعين يوما ، كنا خلالها نواجه سحب الضباب فنكاد نلمس ابخرتها وندفعها بأجسادنا الى الامام ، وكان الكونت وسط هذه المخاطر يحمي دوما اتباعه بالقتال في ساحة الجيش ، وبالمكوث والانتظار حتى يكون اخر من يصل الى حيث مركزه في الركب ، فقد كان بعضهم يعود الى المعسكر وسط النهار او عند الغروب باستثناء ريموند الذي كان يعود دوما الى خيمته بعد منتصف الليل او عند صياح الديكه .

وبفضل رحمة الرب واعمال الكونت ونصائح ادهمر عبرنا دلماشيا بدون خسائر تذكر بسبب الجوع او الصراع المكشوف ، ويدلل هذا العبور الموفق لهذه البلاد الهمجية ويرشدنا لنؤمن بأن الرب اراد لجيشه من المحاربين ان يعبر دلماشيا حتى يتخلص الهمجيون والوثنيون في وقت من الاوقات من همجيتهم ، او ليساقوا مثل المذنبين غير المغفور لهم الى عذاب الرب .

ولدى وصولنا الى سكوتاري ، بعد رحلتنا الصعبة عبر دلماشيا ، اكد الكونت مبدأ الاخوة ، ووهب ملك السلاف الكثير من الهدايا حتى يتمكن الحجاج من شراء حاجياتهم بسلام ، وليبحثوا عن ضروريات الحياة ، بيد ان هذا كان سرابا ، لاننا ندمنا بمرارة على اعتمادنا على السلام الوهمي ، فقد انتهز السلاف فرصة هذه المناسبة ، وقاتلوا بكل وحشية ، وذبحوا قومنا ، واختطفوا من امكنهم اختطافه من العزل ، ولعلكم تصدقون اننا كنا وقتها نصلي للحصول على ملاذ وليس من اجل الانتقام ، ولكن لماذا نتابع سرد قصة دلماشيا الكئيبة هذه ؟

ولدى اقامة المعسكر على مقربة من دورازو ، كنا على قناعة اننا

بتنا في بلادنا ذلك اننا وثقنا بالكسيوس وصدقناه مع اتباعه واعتقدنا انهم اخواننا المسيحيين وحلفاء لنا ، غير انهم انقضوا علينا بوحشية كالاسود ، وهجموا على رجالنا المسالمين الذين كانوا غارين وغافلين عما يحتاجونه للدفاع عن الذات ، وقام قطاع الطرق هؤلاء ليلا بذبح اهلينا بالحدائق ، وفي الاماكن النائية عن المعسكر وسلبوا منهم مااستطاعوا سلبه ، وعندما كان الاغريق يتصرفون هكذا بدون رادع ، وعد قائدهم حنا كومينوس بالسلام ، غير انهم قتلوا في ظل هذا العهد بونتيوس رينو ، وأصابوا أخيه بطرس بجراح مميتة ، وكان هذان أميران نبيلان ساميان ، ومع انه توفرت لنا الفرصة للثأر فقد استأنفنا رحلتنا واثرنا السكوت على الظلم الذي حاق بنا ، وفي خلال الطريق تلقينا رسائل ارسلها الامبراطور تحدثت عن السلم والاخوة ، او بالحري تحدثت عن بنوتنا للامبراطور ، لكنها كانت كلمات جوفاء ، لانه كان عن يميننا وعن شمالنا وفي امامنا وعند مؤخرتنا الترك والغز والكومان والبشناق والبلغار وسواهم من الشعوب كلهم متربص بنا .

الفصل الثاني

الرحلة عبـــــر الاراضي الاغريقية والعـــــلاقات بين الكسيوس وريموند صنجيل

كان مما زاد في متاعبنا اننا كنا في احد الايام في وادي بيلاغونيا ، عندما اسر البشناق اسقف لي بوي ، فقد كان قد ابتعد عن المعسكر قليلا بحثا عن مكان مريح ليقيم فيه ، فرجلوه من على بغلته وجردوه من ملابسه وضربوه بشدة على راسه ، غير ان واحدا من البلشــناق انقذه من براثن رفاقه من قطاع الطرق فقد طمــع بــذهب ادهمــر ، وبهذه الوسيلة بقي لنا هذا الاســقف العـظيم الذي لاغنى للعــدالة الربــانية عنه ، ولصـــالح الجنس البشري وكل ذلك بــرحمة الرب فعندما سمعت الجلبة في المعسكر ، اندفع الحجاج فانقذوا الاســقف من البشناق الذين لم يسرعوا بالاجهاز عليه .

وعندما وصلنا الى قلعة بوسينات ، وجند الامبــراطور الخــونة يحيطــون بنا ، ســمع الكونت ان البشـــناق قــد اعدوا لنا كمينا في الممرات الضيقة لجبل قريب ، فأحبط تدبيرهم بان اعد لهم كمينا ثم باغتهم مع فرسانه ، فأنزل بأولئك المرتزقة الخونة ضربة شــديدة ، فقتل العديد منهم وجعل الباقين يلوذون بــالفرار ، وفي تلك الاثناء ، وهذه الاحداث قائمة وصلت رسائل تطمين من الكسيوس ، ومع هذا احاط بنا العدو ، وواجهنا خداع الامبراطور من كل جانب .

وبعد ذلك ببرهة قصيرة وصلنا الى روســا ، وهـــي مــدينة قــابلنا سكانها بكل ازدراء و تحقير سافر ، فكان ان فقــدنا صــبرنا الذي تحلينا به وعرفناه ، فحملنا السلاح ، واستولينا على المدينة بعــدما استسلمت لنا هدمنا اســوارها الخــارجية وغنمنا غنائم كثيرة ثــم غادرنا هــذه المدينة بعــدما رفعنا اعلامنا وهتفنا« طــولوز» شــعار الكونت الخاص لجمع اتباعه ، وبعد ذلك زحفنا نحــو رودوســتو ،

وهناك هاجمتنا قوات المرتزقة التابعة لالكسيوس ، فقد كانت متلهفة للانتقام لهزيمة روسا ، بيد اننا ذبحنا اولئك المرتزقة وفـزنا ببعض الغنائم.

وفي رودوستو رجع الينا مبعثونا الذين كنا قد ارسلناهم الى بلاط الكسيوس ، وحملوا الينا تقـارير مفـرحة عن وعود اغريقية ، كان السبب الرئيس وراءها رشوة الامبراطور لهم ، ولذلك ان الاحـداث التالية لاتحتاج الى تعليق اكثر من ذلك ،وحث مبعوثون اغريق ومن شعبنا ريموند على التخلي عن جيشه والمبادرة مع عدد ضـئيل مـن اتباعه للتوجه بدون سـلاح الى بـلاط الامبـراطور ، وابلغـوه ان بوهيموند ودوق اللورين وكونت فلاندرز وامراء اخرين يتوسلون الى ريموند ليعقد صلحا مـع الكسـيوس بشـأن حملة الحجـاج ، فالكسيوس قد يحمل الصليب ويصبح قائدا لجيش الرب واضافوا : ان الكسيوس كان على استعداد لتسـوية جميع الامـور التـي تفيد الرحلة مع الكونت ، وذلك فيما يختص به وبالاخرين ، واوضحوا ان غياب مشورة رجل عظيم عشية القتال ، سيكون امرا رديئا ، ولهـذا الحوا على ريموند ان يخف الى القسـطنطينية على رأس جـريدة ، حتى اذا اكتملت الترتيبات مع الكسـيوس ، يبـدأ الزحـف بـدون تأخير ، واستجاب ريموند لهذه النصيحة وعمل بها دونما تـأخير ، وغادر المعسكر ، وبعدما رتب امـوره ، وتقـدم الجيش لاداء هـذه المهمة ، وذهب وحده بدون سلاح الى القسطنطينية.

والى هاهنا كان تدوين اخبار هذه الاعمال التي اتسمت بالسرور والنجاح ، مهمة يسعد الكاتب بـالقيام بهـا ، غير ان القصـة غدت مشحونة بالشدة والحزن ، حتى انه ليؤلمني انني قـد شرعت فيمـا تعهدت باكماله ، وبصراحة انني لااعرف كيف سأدون هذه الأحداث على اهميتها: هل سأكتب ان ابشـع خيانة حملتهـا الينا مشـورة الامبراطور ، ام سأحكي عن هروب جيشنا بشـكل مشـين ، وعن عجزه الذي لايمكن لاحد ان يتصوره ، او ساشرع برواية خبر موت

بعض الامراء الكبار ، فأودعكم ذكرى حزن دائم ، ومهما يك من امر من اراد المعرفة فليستفسر من غيرنا .

ومع هذا انني سأروى هاهنا خبر حدث له اهمية قصوى فبينما كان قومنا جميعا يحلمون بمغادرة المخيم والفرار متخلين عن رفاقهم ، وتاركين كل ماحملوه من البلاد النائية ، اعادت اليهم بركة التكفير والصيام المنقذة قوتهم الراسخة الى درجة انهم انفسهم دهشوا لرغبتهم بالفرار ، ويأسهم السالف ، ويكفي هذا فنحن لن نتوقف عند هذه القصة اكثر مما فعلناه .

وفي الاستقبال البالغ الحفاوة الذي اعده الكسيوس وامراؤه لريموند ، طلب الامبراطور من الكونت ان يحلف له يمين الولاء الذي اقسمه له الامراء الاخرون ، ورد ريموند انه لم يحمل الصليب ليدين بالولاء لسيد اخر ، او ليكون في خدمة اي كائن اخر غير الرب الذي من اجله هجر وطنه وممتلكات ابائه ، ومع ذلك فإنه سيأتمن الامبراطور على نفسه وعلى اتباعه وامتعته اذا ماسافر مع الجيش الى بيت المقدس ، غير ان الكسيوس اعتذر له عن الزحف وعلل ذلك بخوفه من ان يقوم الالمان والمجريون والكومان وغيرهم من الشعوب الهمجية بنهب امبراطوريته ، اذا ماتغيب عنها وشارك بالزحف مع الحجاج .

وفي هذه الاثناء علم الكونت بخبر هزيمة رجاله وموتهم ، فادرك انه قد ضلل ، وقام بوساطة بعض قادتنا باستدعاء الامبراطور الى المحاكمة متهما اياه بخيانة الحجاج ، لكن الكسيوس رد بأنه هو نفسه يعرف بأن قواتنا نهبت مملكته لكنه لم يعلم ان شعبه قد اقترف كثيرا من الاخطاء ، ولهذا فإنه لايرى ادنى اساس قانوني لتحقيق الكونت ، ولعل ماحدث هو ان جيش ريموند قد لاذ افراده بالفرار لدى رؤية جيش الامبراطور الذي جاء ليمنعهم من تدمير المدن المحصنة والقرى ، ومع هذا فقد وعد بتقديم ترضية للكونت ، واعطاه

بوهيموند رهينة للوفــاء بعهــده وأخيرا تــوصلا الى اتفــاق وارغم الكونت (ظلما) على اطلاق سراح رهينته.

وفي تلك الاثناء وصل جيشنا الى القسطنطينية ، ثم تلاه وصــول الاسقف مع اخيه الذي كان قد خلفه مــريضا في دورازو ، وارســل الكسيوس مرارا وتــكرارا يعــد انه ســيمنح الكونت المكافآت بــكل سخاء اذا ماقسم له يمين الولاء مثلمــا فعــل بقية الامــراء ، ولكن ريموند كان دائم التفكير في المعاملة الظالمة التي لقيها هو ورجـــاله ، وسعى الى محو عار هذه الفضيحة ، ومــع هــذا فقــد تــأسف دوق اللورين وكونت فلاندرز وامراء اخرون لمثل هذه الافكار قــائلين انه من الطيش الكبير ان يحارب المسيحيون المسيحيين بينما الترك على مقربة ، وفي الحقيقة كان بوهيموند قد تعهد لالكسيوس بتقديم الدعم له في حال اتخاذ ريموند اجراء ضده ، او اذا تأخر الكونت اكثــر في اعتذاره عن اداء يمين الولاء .

وعند هذه النقطة ، اقدم الكونت ، بعد ماتشاور مع البروفنسايين على القسم والتعهد انه لن يعرض هو نفسه او بــوساطة اخــرين ، حياة الامبراطور و ممتلكاته للخطر و لدى تذكيره بالولاء ، رد بــأنه لن يقسم يمين الولاء بسبب ما تعرضت له حقوقه من مخاطر ، و هنا يمكن أن نستدرك أن ألكسيوس أعطاه بسبب ذلك القليل من المتــاع الدنيوي ، و مرد ذلك تشدده و عناده

الفصل الثالث

حصار نيقية وعبور الاناضول

وبعد جواز البحر خففنا الخطى نحو نيقية التي كانت محاصرة من قبل غودفري وبوهيموند وقادة اخرون من الذين كانوا في الطليعة ، وتتمتع نيقيه بحماية طبيعية ودفاعات قوية ، وكانت تحصيناتها الطبيعية تتكون من بحيرة كبيرة تمتد الى اسوارها ، مع خندق مليء بالماء المتدفق من الجداول القريبة ، وهو يسد المدخل من جهات ثلاث ،واحاط رجال بارعون نيقية باسوار شاهقة ، الى حد ان المدينة لم تكن تخشى هجوم الاعداء ولاقوة اي آلة ، وكانت عرادات الابراج القريبة موضوعة بشكل متناوب ، حتى ان احدالم يكن ليستطيع التحرك بالقرب منها دون ان يتعرض الى الخطر ، واذا ماأراد احد الزحف نحو الامام لم يكن بامكانه الحاق اي ضرر بها لانه سيكون من السهل جداً ضربه من اعلى البرج .

ومهما يكن من امر ، لقد حاصرها بوهيموند ـ كما قلنا ـ من الشمال ، بينما حاصرها الدوق والالمان من الشرق ، والكونت واسقف لي بوي من الجنوب ، وللذكرى ينبغي ان ندون ان كونت نورماندي لم يكن حاضرا ، ولهذا ينبغي ان نذكر الواقعة التالية :بينما كان كونت طولوز يرغب في اقامة معسكره هناك زحف الاتراك هابطين من الجبال في تشكيلين ، وانقضوا على جيشنا ، ولاشك انهم قد وضعوا خططهم على امل ان تقاتل احدى فرقتيهم غودفري والالمان المعسكرين في الشرق ، بينما تدخل فرقة الاتراك

الاخرى الى نيقية من الباب الجنوبي لتخرج من بـــاب اخـــر فتنقض على قواتنا الفارة فتبيدها بكل يسر وسهولة ، لكن الرب ذي النقمـــة المعتادة على مخططي السوء ، احبط خططهم ، وبدا الحال وكانه قد دبر للمعركة بحيث تؤدي المحصلة التالية : فقد جعل الرب الكونت ، الذي كان على وشك ضرب معسكره هناك مع رجاله يهاجم الفـــرقة التركية التي كانت على وشك دخـــول نيقية في ذلك الوقـــت ، وابـــاد ريموند في الهجوم الاول العديد منهم وقتل الكثيرين ثـــم ارغم البقية على الفرار وطاردهم الى جبل قريب ، بينما اجبر في الوقت نفسه ـــ الترك الذين كانوا يخططون للقضـــاء على الالمان على الفـــرار وابيد اكثرهم .

ونصبنا بعد هذا النجاح المجانيق وقصفنا الاسوار ، انما بـــدون محصلة ، فقد كانت الاسوار منيعة لاتخترق ، وكان الدفاع الشجاع بالنشاب والالات يبعـــث على الاحبـــاط ، واخيرا حـــدث بعـــد مضي خمسة اسابيع من الحصار غير المجدي ، ان اندفعت بمشـــيئة الرب بعض القوات من حاشية ادهمر واتباع ريموند الى الامام وتمـــكنت بعد مخاطرة كبيرة من الوصول الى اسفل احد الابراج ، وامكن لهذه القوات تحت حماية دبابة ان تـــدك البـــرج دكا وتقـــوض اســـاساته وتسويه بالارض ، لكن حال حلول الظلام دون الاستيلاء على نيقية ، وفي صباح اليوم التالي ثبت ان جهـــودنا كانت بـــلا طـــائل ، ذلك ان المدافعين عن المدينة رمموا الاسوار واصلحوها تحت جنح الظلام ، ومع هذا استولى الخوف على نيقية ، فـــاستسلمت ، وكان الســـبب الاكبر الذي دفع الى اســـتسلامها هـــو ان الســـفن الاغريقية التـــي ســـحبت على الارض كانت تـــطفوا الان على ســـطح مياه البحيرة ، ونتيجة لهذا فان التـــرك الذين انعـــزلوا الان عن اصـــدقائهم انحنوا لألكسيوس ، حيث لم يعد لديهم امل بوصول النجدات اليهم ، بينمـــا كانوا يشهدون الجيش الفرنجي يزداد يوما بعد يوم ، وزاد مـــن ذلك وصول كونت نورماندي .

وتعهد ألكسيوس للامراء ولشعب الفـــرنجة بتســـليمهم كل مـــا في

نيقية من ذهب وفضة وخيول وامتعة ، وزاد على ذلك بـأن قـال انه سيؤسس فيها ديرا للاتين مع ملجأ للمعوزين من الفرنجة ، كما وعد ان يعطي بسخاء كل فرد وجندي في الجيش يتمنى ان يخـدمه مـدى الحياة ، ووثق الفرنجة بهذه الكلمات المخلصة ، واغتبطوا لاسترداد نيقية ، ولكن ما أن اصبحت نيقية بحوزة ألكسـيوس حتـى تصرف بجحود مع الجيش ، لذلك فإن الناس سيسبونه ويسمونه بـالخيانة مادام حيا .

وفي تلك الاثناء عرفنا انه عندما وصل بطرس الناسك مع حشـود المزارعين التي كانت بصحبته الى القسطنطينية ، قبل شـهور مـن وصول قوات الحجاج الرئيسة ، خانه الكسيوس في ان ارغمه مـع اتباعه ـ الذين لم يكونوا على دراية بمواقع الحـرب ولافنونهـا ـ على عبور المضايق ، وليس معهم مايدافعون به ضد الترك ، وبـذلك عندما ادرك ترك نيقية انهم وقعوا على فـريسة سـهلة ، قتلوا بـكل سرعة ويسر ستين الفا من المزارعين ، ولم يفلت من هؤلاء الا الذين فروا والتجأوا الى احدى القلاع .

وتجرأ المنتصرون وركبهم الغرور بسبب نجـاحاتهم ، فـأرسلوا الاسلحة التي استولوا عليها والحجاج الذين اسروهم الى ساداتهم والى القادة المسلمين في الاماكن النائية ونشروا في بـلادهم كتـابات تفيد ان الفرنجة لم يكونوا اهل حرب .

واثر هذه الاحداث غادرنا نيقية واتجهنا نحـو الاناضـول ، وفي اثناء الزحف تصرف بوهيموند وبعض الامراء الاخرين تصرفـا غير لائق او حكيم ، بأن انفصـلوا عن الكونت والاسـقف والدوق ، وفي اليوم الثالث من زحف بوهيموند منفصلا وفيما هو يفكر أن يعسـكر رأى جنوده مائة وخمسين الف رجل يزحفـون نحـوهم في تشـكيل معركة ، وبينما كان يقوم بتنظيم صفوف قواته للقتـال كمـا تقتضي الظروف ، ويستعد للاشتباك فقد العديد مـن رجـاله الذين تـأخروا خلفه وضلوا الطريق ، وعندما احتدم القتـال اسـتدعى بـوهيموند

الكونت والدوق لمساعدته ، حيث كانا على مسافة ميلين منه ، ومالبثت طلبات النجدات ان وصلتهم ، فارتدى الحجاج دروعهم وامتطوا صهوات خيولهم ، وبادروا مسرعين لقتال العدو ، فور وصول رسول بوهيموند بالاخبار اليهم .

واحبطت امال قلج ارسلان القائد المهاجم ، وخاب فأله لدى رؤية الفرسان المندفعين ، فاسرع بالفرار ، ويبدو لنا ان عدالة السماء هي التي جعلت قلج ارسلان الذي اسر الاسرى ، واستولى على الكثير من خيام بوهيموند يتخلى الان عن أمتعته وكان ذلك بفضل الرب ، ومع اننا لم نر ماسنحكيه ، فان بعضهم قد وصف لنا معجزة كبيرة رأوا خلالها فارسين وسيمين في درعين لهما بريق ، رأوهما وهما يركبان امام جنودنا ، ولايبدو أن طعنات رماح الترك تؤثر فيهما ، وقد القيا الرعب في قلوب الاعداء حتى انهم لم يستطيعوا القتال ، ومع اننا علمنا بهذا من اتراك تحولوا عن عقيدتهم وهم الان يعملون في صفوفنا ، يمكننا ان نؤكد ذلك بدليل اننا كنا نرى ليومين اثناء زحفنا فرسانا موتى وخيولا ميتة .

وبعد هزيمة الترك وصدهم ، مررنا بسرعة وسلام من خلال الاناضول ، مع ان الزحف تأخر قليلا بسبب مرض الم بريموند ، وعلى الرغم ان ماسنحكيه الآن قد يذفر اذوا ق الساخرين المتهكمين ، فانه ينبغي لنا ان نسجله ونرويه علنا ، لأنه وصف لمعجزة من تدبير السماء ، فقد كان دوق ساكسوني يزعم أن مبعوثا من لدن القديس جيلز (صنجيل) قد تلقى مرتين امرا بان يطلب الى الكونت : « اهدأ وقرعينا ، فلن تموت من هذا المرض ، لانني ضمنت لك راحة من عند الرب ، وساكون دائما على مقربة منك » ومع ان الكونت كان سريع التصديق ، فقد اضعفه المرض ، حتى انه عندما نقل من على سريره ووضع على الارض لم يكد يتردد في صدره نفس من انفاس الحياة ، ولهذا تلا اسقف اورانج الصلوات كما لو كان ريموند ميتا ، غير ان السماء التي جعلت منه قائدا للجيش بعثته حالا من الموت واعادته سليما معافى .

الفصل الرابع

سد المنافذ والطرق وبداية حصار انطاكية

وبينما كنا بعد هذا نقترب من انطاكية ، اقترح العديد من الامراء ان نؤجل القاء الحصار عليهـا ، خـاصة وان الشـتاء بـات على الابواب ، وتوزيع الجيش في الاماكن الحصينة بعدما ارهقه حر الصيف ، كما وقـالوا : ينبغـي على الجيش انتـظار القـوات الامبراطورية والتعزيزات التي اتت اخبار عنها تفيد انها في الطريق من فرنسا ، وقد نصحونا بالدخول الى بعض المواقـع والبقـاء طيلة الشتاء حتى يأتي الربيع ، وقدم ريموند مع بعض الامراء الاخـرين رايا مضادا لقولهم : لقد وصلنا بـارشاد الرب وعطفـه ومحبتـه ، وفزنا بمدينة نيقية ، وبعونه ورحمتـه ننتصر ونعيش في امـن مـن الترك ، وفي سلام وانسجام في جيشنا ، لهذا ينبغي أن نعهـد اليه بـامورنا ، ولاينبغـي ان نخشى الملوك اوقـادة الملوك ، والانرهـب الاماكن والايام ، بما ان الرب قد نجانا من مخاطر كثيرة ، وانتصر هذا الراي ، ووصلنا الى انطاكية ، وعسكرنا على مقربة منهـا الى درجة ان المدافعين عن المدينة قذفوا علينا النار من اعالي ابـراجهم فاصابوا رجالنا في خيامهم كما اصابوا خيولنا .

ونغتنم هذه المناسبة لنتولى وصف انطاكية مع تضاريسها ، حتى يمكن لقرائنا الذين لم يروها ان يتابعوا المعارك والهجمـات ، ففـي احضان جبال لبنان يقع سهل عرضه مسيرة يوم وطوله مسـيرة يوم ونصف اليوم ، ويحد السهل مسـتنقع ، والى الشرق يجـري نهـر يدساب حول جزء من هذا السهل ثـم يعود الى حافة الجبال الواقعة في هذا الاقليم باتجاه الجنوب بحيث لايمكن العبور من الجبـال الى النهر ، ومن هناك ينعطف ليصل الى البحر المتوسط القـريب منه ،

وعلى هذا تقع انطاكية في هذه المضايق التي يكونها النهر الذي يشق طريقه في الجبال المذكورة ، بحيث ان تدفق النهر غربا عبر السور الادنى يجعل الارض بينه وبين المدينة تاخذ شكل السهم ، وفي حقيقة الامر ان المدينة التي تقع الى الشرق قليلا ، ترتفع في هذا الاتجاه وتحتضن في داخلها قمم ثلاثة تلال ، وتنفصل الجبل الواقع في الشمال عن الجبلين الآخرين هضبة ضخمة بحيث لايمكن الا بصعوبة بالغة الانتقال من احدهما الى الاخر .

ويزهو التل الشمالي بوجود قلعة عليه ، والاوسط بوجود اخرى تسمى بالاغريقية القسيان(كولاكس) ، اما التل الثالث فليس به الا ابراج ، فضلا عن ذلك فان المدينة تمتد ميلين طولا وتحميها الابراج والاسوار والدفاعات وهي قوية الى درجة انها لاتخشى هجوم الآلات عليها ولا الانسان حتى وإن اجتمع على حصارها جميع بني البشر.

وباختصار قنع الجيش الفرنجي الذي كان يتالف من مائة الف من الرجال المسلحين ، والذي كان معسكرا على طول خط شمالي انطاكية الذي وصفناه ، قنع بالبقاء حيث هو دون ان يشن هجوما على المدينة ، وذلك على الرغم من ان المدينة لم يكن بها الا الفان من الفرسان الممتازين واربعة الاف او خمسة من الفرسان العاديين ، وقرابة عشرة الاف او اكثر من الرجالة ، وكانت انطاكية في مأمن من السقوط مادامت ابوابها مغلقة والحراسة عليها قائمة ، لان واديا وسياج كانت تحمي الاسوار العالية ، وعند وصولنا اتخذنا مواقع لنا بشكل عشوائي ، ولم نعين حراسا ، وتصرفنا بغباء كبير ، ولاشك ان الاعداء لو عرفوا ذلك لكان بامكانهم اجتياح اي قطاع ارادوه من مخيمنا .

وسقطت في تلك الاثناء عدة قلاع في الاحواز بايدينا مع بعض المدن القريبة وذلك بسبب الرعب منا مع الرغبة بالتخلص من نير الترك ، وترك بعض فرساننا انطاكية وتجاهلوا المصلحة العامة ،

وجروا وراء مصالحهم الخاصة وانانياتهم في كسب بعض المنافع المادية ، وحتى الذين بقوا في المخيم كانوا يستمتعون بحياة كلها ترف الى درجة انهم كانوا لايأكلون الا احسن قطع اللحم كالفخذ والاكتاف ،.ويحتقرون لحم الصدر ، ولايفكرون بالمرة في القمح والنبيذ ، ولم يكن هناك في تلك الايام الطيبة من يذكرنا باعدائنا المختبئين داخل انطاكية سوى رجال الحرس والمراقبة على طول الاسوار ، غير ان الاتراك سرعان ما اكتشفوا ان المسيحيين كانوا يعيثون في القرى والحقول المجاورة علانية ويخرجون اليها بدون سلاح ، وعلى الرغم من ان معلوماتي قليلة عن تحركات الاتراك ، فان اعداءنا سرعان ما قدموا من حلب الواقعة على مسيرة يومين او خرجوا من انطاكية وقتلوا جنودنا المكلفين بجمع المؤن والذين كانوا متناثرين بدون دفاع ، وقد عكرت هذه الاعمال الانتقامية حياتنا الرغدة ، كما ان توفر الفرص الجديدة للقتل والنهب شجعت المسلمين على شن اغاراتهم بشكل متتابع .

وحرضت هذه الوقائع الحجاج ودفعتهم لان يطلبوا من ريموند القيام بهجوم انتقامي مضاد ، ومع ان بوهيموند لم يستطع ان يجمع سوى مائة وخمسين فارسا ، فانه انطلق اخيرا برفقة كونت فلاندرز ، وكونت نورماندي ، ويدفعه الحياء من ان يوسم بالتهرب من الاقدام ، وفي الحقيقة كان السبب الاساسي لخروجه امر الرب ، ولقد امكنهم تحديد مواقع الاعداء فهاجموهم وساقوهم الى حتفهم في نهر العاصي ، ثم عاد المسيحيون الى المعسكر فرحين بالغنائم ، وفي الوقت نفسه رست بعض السفن الجنوية في ميناء السويدية القريب والواقع على بعد نحو عشرة اميال ، وفي تلك الاثناء كان الاعداء يتسللون تدريجيا من انطاكية فيقتلون السادة والمزارعين منا الذين كانوا يرعون خيولهم ومواشيهم ، ويعودون عبر النهر بما نهبوه الى داخل المدينة .

ونتوقف الان عن متابعة سرد روايتنا بغية وصف الاطار الذي وقعت فيه الاحداث حتى نوضحها ونبين كيفية وقوعها ، فقد كانت

خيامنا مضروبة على طرف النهر مباشرة ، وكان يقطع هـذا النهـر جسر عائم مصنوع من الزوارق التي كانت مـوجودة هناك ، ووجـد ايضا لانطاكية جسر اخر وقع عند الركن الغربي الاسفل ، ووجد تل في مواجهتنا قام عليه مسجدان وكنيسة صغيرة بها قبور .

ونعود الان لنستانف روايتنا حيث نلحظ ان قواتنا التي كثيرا ما كان العدو يتفوق عليها عدديا ، كانت تتجرأ وتشتبك مـع المقـاومة الطامعة ، غير ان التـرك كانوا يفـرون ويتشـتتون ويكرون كثيرا فيعاودون القتال ، ومرد ذلك الى انهـم اولاً كانوا يحملون اسـلحة خفيفة هي القسي ، ثم كانوا يتميزون بخفـة الحـركة على الخيول ، وكانوا من جهة اخرى يمكنهم الاسراع بالعودة عبر جسرهـم الذي ذكرناه ، كما انهم كانوا يحبون ان يمـطرونا بنشـابهم مـن اعلى جبلهـم ، واذكركم ان جسرهـم كان يبعـد ميلا عن جسرنا ، وعلى المنبسط الممتدبين الجسرين كانت تدور يوميا بعض الاشـتباكات ، وبسبب ان ريموند وادهمر كانا معسـكران بـالقرب مـن ضـفاف النهر ، فانهما كانا يتحملان ثقل الغارات ، وكلفت هـذه الغـارات التي اعتمدت على الكر والفر هذين القائدين جميع خيولهمـا ، ولأن الترك لم يكونوا يتقنون استخدام الرماح والسيوف ، كانوا يقاتلون عن بعد ، ولهذا كانوا يشكلون خطورة في المطاردة او اثناء الفرار .

وفي الشهر الثالث من الحصار ، عندما تغيب كونت نور مـاندي ، ومرض غودفري ، وارتفعت الاسعار ارتفـاعا هـائلا ، تـم اختيار بـوهيموند وكونت فـلاندرز لقيادة حملة للبحـث عن المؤن قـرب البهسنا ، وتولى وقتها ريموند وادهمر حماية المخيم ، ولدى معـرفة المحاصرين باخبار هذه التطورات اسـتأنفوا غاراتهـم المعتـادة ، وتحرك ريموند بدوره لمواجهتهم بطرائقه المعتادة ، ووضع رجالته في تشكيل المعركة ثم اندفع يطارد الترك بصحبة عدد مـن الفـرسان ، وفي الاشتباك الذي تلا ذلك ، اسر اثنين من المهاجمين وقتلهمـا على جانب التل ، وطرد الآخرين عبر جسرهم الى انطاكية ، وكان المشهد اعظم مما يستطيع الرجالة تحمل رؤيتـه ، فـاضطربت صـفوفهم ،

والقوا راياتهم ، واندفعوا يجرون نحو الجسر في فوضى شاملة ، وفي امنهم الزائف راحوا يلقون الصخور والمقذوفات الاخرى على المدافعين عن الجسر ، وتجمع الترك من جديد وشنوا هجوما مضادا عن طريق الجسر وعبر مخاضة قريبة .

وفي تلك الساعة اندفع فرساننا نحو الجسر لمطاردة حصان شارد ، جعلوه يجري بدون فارس ، وتوهم الرجالة حين رأوا ذلك ان الفرسان يفرون فاسرعوا بالهروب امام الهجوم التركي ، وفي اثناء الاشتباك ذبح الاتراك الهاربين بلا شفقة ، وتوقف فرسان الفرنجة عن القتال ، ووجدوا انفسهم وسط الحشود الهاربة التي اخذت تتلاقفهم وتخطف منهم اسلحتهم ، وتشد خيولهم من ذيولها وتجذبهم ارضا من على صهوات خيولهم ، وتبعهم فرسان اخرون اثناء الاندفاع يحدوهم الشعور بالرحمة والحرص على سلامة قومهم ، لكن الترك شددوا في مطاردة الاحياء بلا هوادة ، وسلبوا الموتى مقتنياتهم ، ولم يكف رجالنا عار القاء اسلحتهم والفرار دون الشعور بالخجل ، بل انهم قفزوا في النهر ليرتطموا بالصخور او ليصابوا بالسهام او ليغرقوا ، ولم يعبر النهر ويصل الى بر الامان الا السباحون والاقوياء.

وفي القتال الذي دار بين جسر الاتراك وجسرنا قتل الترك نحواً من خمسة عشر فارسا من فرساننا وحوالي العشرين من رجالتنا ، ولقي حامل راية اسقف لي بوي واحد النبلاء واسمه برنارد اوف بيزييه مصرعهما هناك ، واستولى الترك على راية ادهمر ، واننا نامل الاتكون روايتنا عن عدم خجل جيشنا ، سببا في لوم عباد الرب لنا وغضبهم علينا ، لان الرب جعل الحجاج الزناة الناهبين يتوبون اليه اولا ، ولانه من جانب اخر جعل جيشنا يطيب نفسا في بلاد المسلمين .

وانتشر الكلام من معسكرنا عن حالة الرفاه التي كانت تعيشها قوات ريموند وعن انتصاره الكبير ، ووصل بوهيموند وارتفعت نتيجة لذلك الروح المعنوية بين رجاله ، وفي اثناء احدى الغارات على

واحدة من القرى سمع بوهيموند صوت بعض فلاحية وهــم يفــرون ويطلبون النجدة ، فارسل قوة تستطلع الامر ، فوجدت جمعــا مــن الاتراك والعرب يطــاردونهم مــطاردة محمــومة ، وكان بين القــوة الناجدة كونت فلاندرز وبعض البروفانسيين ، وهو اسم يطلق عادة على كل من هو برغندي واوفراني ، وغاسكوني وغوتــي – والفــت الانتباه الى ان كل ما سوى ذلك من قوات جيشنا يطلق عليهم اســم الفرنجة ، ولكن العدو لايميز ، ويستخدم كلمة فرنجة للاشــارة الى الجميع ، والان ينبغي ان اعود الى حكايتنا : اندفع كونت فــلاندرز بتهور شديد وهو على ظهر حصانه ، اندفع ليواجه الاتــراك هــكذا حتى لايناله عار الانسحاب فيما لو أراد الابلاغ عن اقتراب الاعداء ، وبما ان الاتراك لم يألفوا القتال بالسيف ، فقد لاذوا بالفرار ، ومع هذا لم يضع كونت فلاندرز سيفه حتى قتل مائة مــن أعدائه . و لدى عودة كونت فلاندرز منتصرا الى بوهيموند اكتشف وجود اثني عشر الفا من الاتراك يقتربون من ساقة قــواته ، وراى الى يســاره عددا كبيرا من الرجالة يقفــون على تــل غير بعيد ، وبعــد مشــــاورات ومداولات مع بقية جيشه عاد ومعــه بعض التعــزيزات وبــادر الى الهجوم ، بينما تبعه بوهيموند مع الحجاج الاخرين عن بعد ، فحمى بذلك خطوط ساقته ، وكان اسلوب الاتراك المعتاد في القتال – حتى عندما يفوقهم عدوهم عددا – محاولة الاحاطة باعدائهم ، وهذا مــا صنعوه في تلك المواجهة ، ولكن ثاقب نظــر بــوهيموند جعله يتــوقع حيلتهم .

وفر الترك والعرب الذين هــاجموا كونت فــلاندرز ، وتخلوا عن القتال عندما ادركوا ان المعركة سيكون القتال فيهــا وجهــا لوجــه بالسيوف ، وليس عن بعد بالتراشق بالنشاب ثم ان كونت فــلاندرز طارد العدو وتعقب فلوله مســافة ميلين ، وكان الاحياء يرون القتلى مطروحين على طول الطريق وكانما هم حزم القمح داخل الحقل ايام الحصاد ، واثناء ذلك القتال وجه بوهيموند ضرباته الى القوات التي كمنت له فقضى على الكمين وعليها غير انه لم يســتطع منع الشراذم

سالفة الذكر من رجالة العدو من التسلل من خلال اماكن لايمكن عبورها على ظهور الخيل.

ولولا التواضع لعددت هذه المعركة اعظم من الحرب المكابية ،لان مكابيوس قضى بثلاثة الاف على ثمانية واربعين الفا من اعدائه ، في حين دحر فرسانا الاربعمائة ستين الفا من الوثنيين ، ومع هذا نحن لانقلل من مكانة شجاعة مكابيوس ، ولانفخر ببسالة فرساننا ، ومهما يكن من امر اننا نقول ان الرب الذي كان عظيما مع مكابيوس كان اكثر عظمة مع قواتنا .

وفي الحقيقة جاء ردنا على فرار المهاجمين فيه تناقص بالشجاعة ، الى حد ان الحجاج اخفقوا في تتبع الفارين ، وبالتالي عاد جيشنا المنتصر الى المخيم بدون مؤن ، وكان من شان المجاعة التي اعقبت ذلك ان ارتفعت الاسعار حتى ان اثنين من الصولدي لم تكد تكون لهما قوة شرائية تعادل نصيب الرجل الواحد من الخبز في اليوم ، كما ارتفعت اسعار الحاجيات الاخرى بالدرجة نفسها ، فما كان من الفقراء والاغنياء الذين ارادوا انقاذ مقتنياتهم الا ان تركوا الحصار ، واما من بقي لقوة روحية فيه ، فقد توجب عليه تحمل رؤية خيوله وهي تموت من الجوع ، وكان التبن قليلا جدا ، ولم تكن سبعة او ثمانية صولديات تكفي لشراء كمية من الحبوب كافية لاطعام حصان واحد لليلة واحدة .

ومما زاد في كربنا ، ان بوهيموند ، الذي شهر بما اداه لنا من خدمات في ديار المسلمين ، هدد بالرحيل ، قائلا ان الشرف هو الذي جعله يتخذ هذا القرار ، لانه راى رجاله وخيوله تموت من الجوع ، زد على هذا ، لقد اوضح انه رجل امكاناته محدودة وثروته الشخصية لاتكفي لحصار طويل ، وعلمنا فيما بعد انه اعلن تلك التصريحات لانه كان يطمع في تملك انطاكية واتخاذها لنفسه .

ووقعت في تلك الاثناء هزة ارضية في اليوم الاول من كانون

الثاني (١٠٩٧ م) كما راينا شارات اعجازية في السماء ، ففي الهزيع الاول من الليل ، كانت السماء حمراء في الشمال بحيث بدا كما لو ان الشمس اشرقت في يوم جديد ، ومع ان ذلك كان توبيخا من الرب لجيشنا ، حتى نتحول الى النور الذي لاح في الظلام ، فان

عقول بعضنا كانت غلفا وكانوا عنيدين الى درجة انهم لم يكفوا عن حياة الصخب والنهب ، ثم ان ادهمر حث الناس ليصوموا ثلاثة ايام ، وان يصلوا ويتصدقوا ، ويقيموا موكبا ، كما وامر الكهنة باقامة القداسات ، ورجال الدين بترديد المزامير وهكذا اظهر الرب العظيم عطفه ومحبته فاخر عقاب ابنائه حتى لايزداد تفاخر الوثنيين .

واتحول الان الى الحديث عن شخص كدت ان انساه ، لانه القي به في طي النسيان ، وهو تاتيكوس ، الذي صحب جيشنا عوضا عن الكسيوس ، فقد كان له انف مشوه ، كما كان يفتقر الى اية صفات تعوضه عن ذلك ، كان تاتيكوس يحذر الامراء كل يوم وينصحهم بهدوء ليتراجعوا الى القلاع القريبة ، وليطردوا المحاصرين بهجمات متنوعة وكمائن متعددة ، لكن عندما علم الكونت بهذا كله ، وكان وقتها مريضا من يوم هروبه الاضطراري بالقرب من الجسر ، جمع امراءه وا سقف لي بوي ، وفي نهاية الاجتماع وزع ريموند خمسمائة مارك على الجماعة ، شريطة انه اذا فقد اي واحد من الفرسان حصانه يعوض بواحد اخر يشتري من الخمسمائة مارك ومن مبالغ اخرى منحت للاخوانيات .

وكانت اتفاقية الاخوانية هذه مفيدة جدا في ذلك الوقت ، ذلك ان فقراء الناس في الجيش ممن كانوا يرغبون بالانتقال الى الجانب الاخر من النهر للبحث عن المؤن كانوا يخافون من هجوم الاتراك ، وكان القليل منهم فقط هم الذين يرغبون في قتالهم ، ذلك ان خيول البروفانسيين ، التي لم تتجاوز المائة فرس ، كانت هزيلة ضعيفة ،

وابادر القول ان الموقف ذاته كان سائدا في معسكر بوهيموند والقادة الاخرين .

وبعد التدبير الاخواتي ، هاجم فرساننا العدو بكل جراة ، لان الذين كان معهم خيول لاقيمة لها ومنهكة القوى ، كانوا يدركون تمام الادراك انه يمكنهم استبدال خيولهم المفقودة بخيول افضل ، اه ، يمكنني بالفعل ان استدرك امرا اخر فاضيف ان الامراء عرضوا ـ باستثناء الكونت ـ انطاكية على بوهيموند في حال الاستيلاء عليها ، وبناء على هذا الاتفاق اقسم بوهيموند وبقية الامراء على ان لايرفعوا الحصار عن انطاكية لمدة سبع سنوات الا اذا سقطت قبل ذلك .

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الامور في المخيم ، انتشرت اقاويل حكت ان جيش الامبراطور كان يقترب ، وهو جيش قيل انه كان يتالف من عدة اجناس . من السلاف والبشناق والكومان والتر كوبلية ، وقد اطلق هذا الاسم على التركوبلية لانهم اما كانوا من قد تربوا مع الاتراك ، او كانوا ابناء امهات مسيحيات وابناء اتراك ، وكانوا يخشون الارتباط بنا لسوء معاملتهم لنا طوال الرحلة . والواقع ان تاتيكوس ، ذلك المشوه ، الذي كان يتلهف لايجاد عذر يهرب بموجبه ، لم يكتف بتلفيق هذه الاكذوبة فحسب ، بل اضاف الى اثامه الحنث باليمين ، وخيانة اصدقائه ، فاسرع هاربا بعد ما تنازل لبوهيموند عن مدينتين او ثلاث هي : طرسوس ، والمصيصة ، واذنة ، وهكذا غادر تاتيكوس المعسكر بحجة الانضمام الى جيش الكسيوس ، وتخلى عن اتباعه ، ومضى ترافقه لعنة الرب ، وجلب بهذا العمل الدنيء العار الابدي على نفسه وعلى رجاله .

الفصل الخامس

المرحلة التالية من حصار انطاكية وتشديد الحصار

وصلت الآن أخبار تفيد أن قائد جيش الخليفة يتقدم على راس جيش كبير من خراسان ، وهو قادم لنجدة أنطاكية ، وبعد انعقاد مجلس الحرب في خيمة ادهمر صدرت الأوامر للرجالة بالدفاع عن المعسكر وللفرسان بالخروج للتصدي للقوة الجديدة ، وكان السبب في صدور هذا القرار أن الجبناء وغير اللائقين بين صفوف الرجالة ، ربما أظهروا جبنا أكثر مما يبدون من شجاعة ، واذا ماراوا قوة كبيرة من الأتراك ، ورحلت الجماعة التي ستقوم بالحملة تحت جنح الظلام ، واختبأت في بعض التلال على بعد فرسخين من المعسكر ، ولم يستطع المدافعون عن أنطاكية أن يعلموا برحيلهم ، وأود الآن أن يصغي الى مايلي الذين حاولوا أن يحطوا من شأن جيشنا في الماضي ، وليسمعوا فعلاً عساهم اذا فهموا المثل الذي يضربه الرب على رحمته نيابة عنا ، أن يسارعوا الى ارضاء الرب بدموع الندم .

لقد زاد الرب حجم وحدات الفرسان الست من دون السبعمائة رجل الى أكثر من الفين ، وبكل تاكيد إنه ليشق علي الحديث عن شجاعة الجيش ، الذي كان فرسانه يغنون أغاني الحرب ، وينشدون بكل ابتهاج ، حتى بدا وكأنهم ينظرون الى المعركة المقبلة كما لو كانت من الألعاب الرياضية ، ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن موضع القتال المقبل كان بالقرب من مكان يتدفق النهر عنده على بعد ميل واحد من المستنقع ، وبذلك حالوا دون استخدام الأتراك لحركات الالتفاف المعتادة ، والتي كانت تعتمد على ذشر قواتهم ، وفضلا عن ذلك فإن الرب الذي قدم لنا المنح

السالفة الذكر ، قد أمدنا بستة أودية متاخمة يمكن لقواتنا أن تتحرك فيها الى المعركة ، وهكذا كنا خلال ساعة قد زحفنا واحتللنا الميدان ، وماأن سطعت الشمس على أسلحتنا ودروعنا حتى بدأت المعركة وأخذ رجالنا يندفعون الى الأمام ، بينما كان الاتراك يكرون ويفرون ويطلقون سهامهم ثم يتراجعون ببطء .

وقد نزلت بقواتنا خسائر فادحة الى أن تمكنت من دفع الصفوف الأولى من الأتراك الى المؤخرة ، وقد أخبرنا الذين تخلوا عن مواقعهم فيما بعد انه كان هناك مالايقل عن ثمانية وعشرين ألف من الفرسان الاتراك في هذا المعترك ، واخيرا عندما تدخلت صفوف الأعداء صلى الفرنجة الى الرب ، واندفعوا الى الأمام ، وفي الحال فإن الرب الحاضر أبدا « القوي القدير في المعارك ، حمى أبناءه واذل الوثنيين ، وبعد ذلك طاردهم الفرنجة لقرابة عشرة أميال من مكان المعركة الى قلعتهم شديدة التحصين ، ولدى رؤية هذا السيل الجارف قام الذين كانوا بالقلعة باحراقها ولاذوا بالفرار ، وأحدثت هذه النتيجة ابتهاجا وغبطة في المعسكر لأننا اعتبرنا أن احراق القلعة نصرا أخر .

وفي الوقت نفسه شب القتال بشكل اعتباطي في كل مكان باتجاه انطاكية ، لأن أعداءنا كانوا يخططون للقيام بالهجوم على محورين ، اولهما من المحاصرين (من داخل المدينة) والثاني من قوات النجدة التي لم تكن متوقعة ، ولم يحب الرب طرفا على الأخر ، فقد حارب مع الرجالة وهو يبتسم للفرسان ، ذلك ان النصر الذي أحرزه الرجالة لم يكن اقل قدرا من صد الفرسان للنجدات ، وبعدما كسبنا المعركة وفزنا بالغنائم ، حملنا رؤوس القتلى الى المعسكر ، وعلقناها على اعمدة كمذكر بائس لحالة حلفائهم الاتراك ، ومايننتظر المحاصرين من مصائب ، وحين نتأمل الآن ماحدث نستنتج ان ذلك كان أمر الرب ، لأن الاتراك كانوا قد الحقوا بنا العار من قبل ، حينما غرسوا رأس راية مريم المباركة ، التي استولوا عليها بالأرض ، وهكذا قدر الرب أن رؤية

رؤوس الأصدقاء التي لا حياة فيها ، و المحمولة على القصب ستمتع المدافعين عن انطاكية عن تعبيرنا بعد ذلك .

وكان رسل ملك مصر موجودين لدينا في تلك الأثناء ، وعندما شهدوا ماحدث وراوا المعجزات التي حققها الرب من خلال عبيده ، أثنوا على يسوع بن مريم العذراء ، الذي داس تحت قدمه من خلال الشحانين التعساء ، أعتى الطغاة ، يضاف الى هذا لقد وعدوا بصداقتهم ومعاملتهم الطيبة ، وتحدثوا عن الأعمال الممتازة الذي يقوم بها ملكهم للمسيحيين المصريين ولحجاجنا ، وبناء عليه بعثنا برسلنا معهم وكلفناهم بالدخول في صلح ودي معهم .

وتزامنت هذه الاحداث مع قرار امرائنا بتحصين منطقة على التل تشرف على معسكر بوهيموند ، بحيث يمكن فيها احباط أي هجمات معادية محتملة على مخيماتنا ، ولدى اكتمال هذا العمل تمتنت دفاعاتنا حتى اصبحنا مدينة مغلقة من كافة النواحي جاءت محصلة للعمل الجاد وتضاريس الطبيعة ، وهكذا باتت هذه القلعة الجديدة الواقعة الى الشرق منا ، مضاف اليها اسوار انطاكية والمستنقع القريب تحرس معسكرنا ، وتحد من هجمات المحاصرين على المناطق القريبة من الأبواب ، بالاضافة الى ذلك ، كان هنالك نهر يتدفق الى الغرب ، كما كان هناك سور قديم يلتوي عند سفح الجبل حتى النهر ، زد على هذا ان خطة تقوية موقع اخر على الجبل الصغير الواقع عند أعلى الجسر التركي قد لاقت قبولا عاما ، غير ان آلات الحصار التي صنعت في المعسكر ثبت انها غير مجدية .

وفي الشهر الخامس ، وبينما كانت سفننا التي تحمل المؤن راسية في الميناء ، بدأ المحاصرون يسدون الطريق الى البحر ويفتكون بقوافل التموين ، وفي أول الأمر كان الاتراك يهددوننا دائما ، وكان السبب الاكبر في ذلك هو عدم رغبة قادتنا بالرد عليهم بأعمال انتقامية ، فجراهم هذا ، ولمواجهة هذه المخاطر ، قررنا أخيرا تحصين المعسكر بالقرب من الجسر ، ونظرا لغياب جزء كبير

من قواتنا في الميناء ، فقد تم اختيار بوهيموند والكونت لتأمين عودة المتغيبين ، وأيضا لنقل الفؤوس والمساحي والأدوات الأخرى اللازمة لبناء القلعة الجديدة ، وعندما علم المحاصرون بمهمة ريموند وبوهيموند ، بدأوا هجماتهم المعتادة ، فاندفعت نحوهم قواتنا إنما بتهور وبدون نظام ، فكان أن تبعثرت وانهزمت بشكل مشين .

وفي اليوم الرابع ، وعندما كان الكونت وبوهيموند عائدين مع حشد كبير من الميناء ، وهم يخيل اليهم أنهم في أمان من المخاطر ، كان الأتراك يتجسسون عليهم ، ولكن لماذا نسهب في سرد هذه الحكاية ؟ لقد جرى قتال وهربت قواتنا ، وخسرنا حوالي الثلاثمائة رجل ، ولاأحد يعرف كم خسرنا من الاسلاب والأسلحة ، وفيما هم يقتلوننا كالمواشي في الجبال والوعار ، تحركت النجدة القادمة من المخيم لملاقاة الأتراك الذين توقفوا عن قتل الفارين ، ياالهي ، يارب لماذا هذه المحن ؟ ان قواتنا داخل المخيم وخارجه التي تتمتع بخدمات أعظم قائدين في جيشك : ريموند وبوهيموند انتصر عليها الأعداء وانهزمت ، هل نفر الى المخيم ، أم يفر حراس المخيم الينا ؟» قم أيها الرب وساعدنا تمجيدا لاسمك » ، ولو أن اخبار هزيمة الأمراء وصلت الى المعسكر ، او لو اننا علمنا بهزيمة كتائب الجيش لهربنا هروبا جماعيا ، وفي اللحظة المناسبة ساعدنا الرب ، وبث الشجاعة في قلوب الذين روعهم من قبل ، فجعلهم يتقدمون الى أول صفوف القتال .

وعندما شاهد يغي سيان ، حاكم انطاكية ، امتعتنا المسلوبة وانتصاره فضلا عن اندفاع قلة من المسيحيين ، بعث بفرسانه ورجالته من المدينة ، ولما كان واثقا من نجاحهم ، أمر بإغلاق ابواب انطاكية خلفهم ، فكأنه كان يطلب من جنوده ان ينتصروا في القتال او يهلكوا ، وفي الوقت نفسه تحرك الحجاج ، وفقا للأوامر الصادرة اليهم ، الى الأمام تدريجيا ، غير ان الأتراك كانوا يجرون هنا وهناك ويطلقون النشاب ، ويهاجمون رجالنا بكل جرأة ، ولم

توقف هذه الأعمال التركية رجالنا ، ومع انهم عانوا من تلك التحركات ، فانهم انتظروا الوقت المناسب لشن هجوم كبير
وكانت الدموع المنهمرة والصلوات الصاعدة تجعل المرء يعتقد ان رحمة الرب قريبة .

ولدى حضور ساعة المواجهة ركع فارس بروفانسي ، عالي المحتد ، هو ايزوارد أوف جانجيز ، يصحبه مائة وخمسون من المشاة ، ونشد العون من الرب ، وشجع رفاقه على الاندفاع قائلا :« اهجموا ياجنود المسيح » والقى بنفسه على الاتراك
ومع اندفاع قواتنا الى الهجوم تحطمت غطرسة العدو ، وكان الباب مغلقا ، والجسر ضيقا ، والنهر واسعا ، ثم ماذا بعد ؟ لقد سحق الأتراك الخائفون سحقا ، أو قتلوا ، أو حطمتهم الأحجار في النهر ، فلم يكن هناك مهرب ، وكان يمكن لليوم ان يمر بسلام على أنطاكية ، لولا ان يغي سيان فتح الباب على مصراعيه ، ولقد سمعت بنفسي من العديد ممن شارك في هذا اليوم ، أنهم أوقعوا عشرين شخصا أو أكثر من الأتراك في النهر على محاذاة سور الجسر ، وبرز هناك غودفري بشكل كبير ، حيث سد الطريق على الأتراك المتزاحمين للدخول من الباب ، وأرغمهم على الانشطار الى صفين وهم يتسلقون المرتفعات .

وبعد قداس ديني ، سار المنتصرون السعداء الى المخيم ومعهم أسلاب كبيرة وخيول كثيرة ، اه أيها الأخوة النصارى ، يامن تبعتمونا للوفاء بنذركم ، كم كنا نود لو انكم شهدتم هذا الحدث الجدير بالتنويه ، فلقد أسرع فارس ، وهو خائف من الموت ، بالقاء نفسه في أعماق النهر ، فتلقفه رفاقه الاتراك ، لكن القي به من على ظهر حصانه وهكذا غرق في النهر مع الطغمة التي تعلقت به ، لقد كان في رؤيتنا للحشود العائدة مكافأة على أهوال ذلك اللقاء ، فراح بعضهم يجرون هنا وهناك بين الخيام على خيول عربية وهم يعرضون على اصدقائهم كنوزهم الجديدة ، وأخذ بعضهم وهم في رداء أو رداءين او ثلاث من الحرير ، يثنون على الرب ، الذي انعم

عليهم بالنصر والعطايا ، بينما راح آخرون ، وقد تسربلوا بثلاث سابغات أو أربعة ، يعرضون تلك الأسلاب شواهد على انتصارهم ، وفي الوقت الذي كان بامكانهم اقناعنا بهذه العلامات وغيرها من الأسلاب الأخرى ، بتفوق قدراتهم القتالية ، لم يكن بوسعهم تزويدنا بأي معلومات دقيقة عن عدد القتلى ، لأن ابادة الاتراك تمت ليلا ، وبناء عليه لم تجلب رؤوس قتلى الأعداء الى المعسكر .

ومع ذلك اكتشفت في اليوم التالي جثث بعض أعدائنا في خندق قريب من أحد المرتفعات استخدمه المسلمون كمقبرة ، وجرى ذلك اثناء محاولتنا اقامة تحصينات امام جسرهم ، وأثارت رؤية غنائم الاتراك ، رجالنا الفقراء ، فانتهكوا حرمة المقابر ، فنبشوا القبور واخرجوا جثث الأتراك وهنا تجلى حجم الانتصار ، فلقد كان عدد الموتى قرابة الف وخمسمائة ، وقد اغفلت ذكر الذين دفنوا بالمدينة ، والذين جرفتهم مياه النهر ، والقيت الجثث بعد هذا في نهر العاصي حتى لاتعيق الروائح الصادرة عنها والتي لاتطاق العمل في بناء القلعة .

وكان البحارة الذين انهزموا وأصيبوا أثناء هروب الكونت مع بوهيموند ، مابرحوا يعيشون في رعب ويتوجسون حول النتيجة ، غير انهم مابرحوا يمجدون الرب ، كما لو أن رؤية العدد الكبير من الموتى قد بث فيهم القوة ، فالرب دوما يؤدب ابناءه ويشجعهم ، وهكذا شاء الرب أن صار الاتراك الذين قتلوا حاملي الطعام على طول الساحل وضفاف النهر ، وتركوهم طعمة للوحوش والجوارح ، صاروا هم انفسهم بدورهم طعاما في ذلك المكان للوحوش نفسها وللجوارح ذاتها .

وبعد تكريس الانتصار وماصحبه من احتفالات ، واثر اكتمال العمل في القلعة ، حوصرت انطاكية من الشمال ومن الجنوب ، ثم ثار الجدل حول اختيار أمير يتولى حراسة القلعة الجديدة ، ذلك ان

المسائل الخاصة بالجماعة كانت دوما موضع استخفاف ، لتواكل الجميع واعتقادهم أن اخرين سيقومون بذلك العمل ، وفي الوقت الذي طلب فيه بعض الأمراء الراغبين بالمال أصوات نبلائهم للحصول على الوظيفة ، انتزع الكونت - خلافا لهوى حاشيته - زمام الامور ، وكان دافعه لذلك من جانب تبرئة ساحته من تهمة التراخي والبخل ، ومن جهة أخرى ليبين منهج الحكمة والقوة للخاملين .

وفي خلال الصيف التالي ، كان ريموند قد اقعده المرض الخطير والطويل ، وبلغ العجز به خلال الشتاء حدا دفع الى القول انه لايميل الى القتال او العطاء ، ومع انه أدى خدمات جليلة ، فقد عد شخصا لااهمية له ، لأن الناس كانوا يعتقدون انه قادر على بذل المزيد من الجهد ، ولقد تحمل عداوة مردها التشكك ، في قوة تمسكه بالمسيحية حتى كاد الحال يقود الى افتراقه عن البرفانسيين ، وفي هذه الاثناء لم يعر الكونت هذه الاهانات ادنى اهتمام ، ثقة منه في ان الانطاكيين المحاصرين ، وقد انهزم معظمهم سيلوذون بالفرار ، بيد انه حدث عكس ماتوقع حيث احاط به الأعداء ذات صباح عند بزوغ الفجر .

وهنا تجلت معجزة كبرى تدل على حماية الرب ، وذلك عندما تمكن ستون من رجالنا من صد هجمة قام بها سبعة الاف من المسلمين ، وأروع من ذلك ان سيلا من الأمطار غمر في اليوم السالف الخندق المحيط بالقلعة وملأه بالماء ، وهكذا لم تكن هنالك عقبة تعيق حركة الأعداء الا ارادة الرب وقوته ، ومع ذلك انني ارى ان ذلك لايعني تجاهل الشجاعة العظيمة لكثير من الفرسان الذين كانوا يتولون حراسة الجسر ، فقد انعزلوا ووجدوا انفسهم عاجزين عن الهرب ، حيث كانت المسافة بينهم وبين قلعتهم مقدار رمية سهم ، فاندفع هؤلاء الفرسان نحو الأمام في مواجهة المسلمين في تشكيل دائري نحو طرف بيت قريب ، وهناك واجهوا بكل شجاعة و

اصرار ، الهجوم المحيط بهم و الذي جاء على شكل سحاب منهمر من النشاب و سيل هائل من الصخور.

وجذبت في الوقت نفسه جلبة القتال قواتنا ، وهكذا انقذت القلعة من الذين هاجموها ، وتوقف الاتراك عن اندفاعهم عندما رأوا اقتراب النجدات ، وتم القضاء على الذين كانوا في المؤخرة ، مع انهم كانوا على مقربة من جسرهم ، وتم اصلاح خندق القلعة واسوارها مرة أخرى ، بحيث يمكن لحاملي الطعام ان يعودوا بأمان من الميناء ، وهكذا انطفأ الغضب الذي كان قد حاق بالكونت ، وانعكس الى درجة انهم نادوه باسم « ابو جيشنا والمدافع عنه » وذاع في أعقاب هذه الوقائع صيت ريموند لأنه تصدى لهجمات العدو وحيدا ، وبعد سد طريق الجسر وباب الجسر ، صار الاتراك يطلعون من باب آخر يقع في الجنوب بالقرب من النهر ، ومن هناك قادوا خيولهم الى زاوية بين الجبال والنهر كانت مرعى رائعا .

وبعد الاستطلاعات وتحديد الوقت ، دار فريق من رجالنا حول المدينة بعبور جبل وعر ، بينما خاض اخرون في النهر ، وقاد هذا الفريق الفي حصان بعيدا عن المرعى ، ولم يدخل في هذا العدد البغال واناث البغال التي استردت ، فجدير بالذكر ان الكثير من اناث البغال كانت قد تعرضت للسرقة في وقت سالف من على الطريق من البحر الى انطاكية ، وذلك على يد الاتراك ، وبعد استرداد هذه الحيوانات اعيدت الآن الى أصحابها بعد التعرف عليها .

وحصن بعد ذلك مباشرة تانكرد ديرا كان يقع على الطريق الآخر من النهر ، ونظرا لاهميته في سد طريق المدينة ، اعطى كونت طولوز الى تانكرد مائة مارك فضي ، كما أسهم الأمراء الآخرون كل حسب امكاناته ، وهكذا يسعدني ان اذكر أننا على الرغم من كوننا أقل عددا من عدونا ، فان نعمة الرب جعلتنا اقوى منه كثيرا ، وفي تلك الأونة كان حملة الأخبار الذين يصلون الينا يبلغون عن تحرك

نجدات للعدو ، وفي الواقع لم تنتشر هذه الأقاويل مـن عند الأرمـن والاغريق فقط ، بل ايضا من المقيمين في انطاكية ، والفت نظـركم الى ان الأتراك قد احتلوا انطاكية قبل اربع عشرة سنة، ولعدم وجود خدم فانهم استخدموا الأرمن والاغريق لذلك الغـرض ، وزوجـوهم من نسائهم ، ومع هذا كان هؤلاء يميلون الى الفرار الينا بالخيول والأسلحة بمجرد أن يتاح لهم الهرب ، وهرب كثير من الصـليبيين الجبناء مع التجار الأرمن عندما انتشرت هذه الشائعات ، ولكن من ناحية أخرى عاد الفرسان الاقوياء مـن عدة قـلاع وجلبـوا معهـم اسلحتهم بعدما اصلحوها وعدلوا من شأنها ، وعندما اختفى الجبن والتخاذل بدرجة كافية ، او بالحري عادت الجرأة ، التـي كانت في كل وقت وزمان كفيلة لمواجهة كل الاخـطار مـع الاخـوة ومـن اجلهم ، فان احد (الأرمن) من رجـال الاتـراك المحـاصرين وثـق بأمرائنا الى حد انه كان سيسلمنا انطاكية .

الفصل السادس

الاستيلاء على أنطاكية

أرسل الأمراء بـوهيمـوند و غودفـري ومعهـم ايضـا كونت فلاندرز ، عقب اجتماع مشترك للتحقق مـن هـذه العـرض ، وعند وصولهم الى احدى تلال انطاكية في منتصف الليل ، وصل رسـول من (الأرمني) رجل الأتراك الخائن ، وامـرهم بقـوله له : « لا تتحركوا حتى يمر أمامكم مصباح ».

وكان من المعتاد أن يمر ثلاثة رجال أو أربعـة بحـذاء شرافـات الأسوار وهم يحملون المصـابيح وذلك بهـدف ايقـاظ الحـرس وتنبيههم ، وعندما مرت المصابيح ، وضـع رجـالنا الرابضـون في ظلال الأسوار سلما وبدأوا يتسلقون ، واعتلى السور فرنجي يدعى فولغير ، وهو بلا ريب أخو بود يللوس أوف تشارترز ، اعتلاه بـلا خوف وتبعه عن كثب كونت فلاندرز الذي أمر بـوهيموند والدوق أن يتبعاه ، وعلى أية حـال ، انقـطع السـلم اثناء تـداركهم في الصعود ، إلا أن الذين تمكنوا حقا من الوصـول الى أعلى السـور نزلوا الى داخل المدينة ، وفتحوا أحد الأبواب بالقوة ، ودخـل حملة الصليب بهذه الوسـيلة ، وقتلوا كل مـن صـدفوه ، وعند الفجـر صاحوا صيحات مرعبة جدا ، حتى أن المدينة اضطربت كلها وبـكى الأطفال والنساء.

وراح بعض المسيحيون في قلعة ريموند القريبة ، وقـد أيقـظتهم الجلبة ، يرددون: لقد وصـلت نجـدات الى العـدو،ورد عليهـم أخرون :«إن أصوات الألم ليست كأصوات الفرح » .

ومع بزوغ الفجر رفـــرفت أعلامنا فـــوق التـــل الجنوبـــي لانطاكية ، واصاب الهلع أهل انطاكية لرؤيتهـم قـواتنا على التـل المشرف على المدينة ، وجعـــل الرب الفـــوضى تـــدب بين صفوفهم ، فاندفع بعضهم من الأبـــواب ، وقفـز آخـــرون مـــن الأسوار ، ولم يصمد أحد منهم ، ولم يقاتل أيا منهم ، وبعد أشـــهر عديدة من الحصار المضني تـكشف أمـــامنا المشـــهد الســـعيد التالي ، إنه مشهد المدافعين عن انطاكية الذين لم يستطيعوا منذ أمد الفرار من المدينة ، ولا أن يتجنبوا الآن الموت إذا مـــا تجـرأوا على الفرار.

ووقع لنا هناك حـــادث ممتـــع رائع ، وهـــو أن بعض الأتـــراك كانوا ، يحاولون الفرار دون أن يراهم أحد من خلال الفتحات التي تتخلل التلال في الشمال ، وبينما هم يفعلون ذلك لقيتهم مجموعة من حملة الصليب ، وهنا اضطر الأتـراك وقـد حبـطت خـططهم الى التراجع.فهمزوا خيولهم بسرعة كبيرة ، الأمر الذي جعلهم يسقطون جميعا من فوق الهضاب الصخرية ، ولقد كان سقوط الأتراك القاتل هذا مشهدا سعدنا برؤيته حقا ، بيد اننا حزنا لضـياع اكثـر مـــن ثلاثمائة حصان لاقت حتفها هناك.

ولن نقف عند وصف كميات الأســـلاب ، فلكم أن تتصـــوروا أي شيء يمكن أن يتبادر الى ذهنكم وتحسبوا اكثـر منه ، وفي الحقيقـــة من غير الممكن لنا تقدير عدد القتلى من الأتراك والمســـلمين ، ومـــن العبث حكاية القصة بالتفصيل ووصف طـرق الموت المختلفـــة ، وفي الوقت نفسه كان بعض المدافعين يراقبون مـــن مـــوقعهم فـــوق تـــل متوسط مقتل رفاقهم وينتظرون توقف القتال ، وعلى كل حال لقـــد اختاروا أن يدافعوا عن قلعتهم ، غير أن يغي سـيان ، وقـــع أثناء هروبه من أحد الأبواب ، في يد بعض الفلاحين الأرمن فقطعوا رأسه و قدموه لنا بعد ذلك هدية ، و أعتقد أن يغي سيان الذي كان قد قطع رؤوس العديد من الأرمن ، قد قدر له بارادة الرب التي لا توصف أن يقطع رأسه على أيدي فلاحيهم.

لقد سقطت أنطاكية في اليوم الثالث من شهر حزيران ، وكانت هدفا للهجوم منذ حوالي الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول من العام المنصرم ، وأحجمت قواتنا عن مهاجمة القلعة ، بينما راح رجالنا يفحصون الغنائم ويدونون لها سجلا ، وأمعنوا في نسيان الرب مانح جميع هذه النعم ، فأفرطوا بالأكل بنهم شديد وبذخ واهتموا بالراقصات.

وبعد ذلك بثلاثة أيام ، أي في اليوم الخامس من حزيران نفسه ، حاصر المسلمون حملة الصليب ، وهكذا فإن حملة الصليب الذين كانوا قد حاصروا أنطاكية التركية برحمة من الرب وجدوا انفسهم و قد أحاط بهم الأتراك وفقا لمشيئته ، ومما زاد من خوفنا أن الحصن الكبير ، الذي كان بكل المعايير قلعة حقيقية ، كان بحوزتهم ، وقد وحد صفوفنا الرعب وحاصرنا القلعة ، لكن كربوغا ، مقدم الأتراك ، عسكر بعد وصوله بوقت قصير على بعد قرابة ميلين من أنطاكية ، وذلك اعتقادا منه أن المعركة ستكون خارج المدينة ، ثم تقدم بصفوف منتظمة نحو جسر المدينة ، وفي اليوم الأول دعم رجالنا دفاعات قلعة الكونت ، خشية أن يستولي الذين في القلعة ــ من الأتراك ــ على أنطاكية لو خرج المسيحيون الى القتال ، وشعروا من جانب آخر أنهم إذا ما تخلوا عن قلعة الجسر ، سيستولي العدو عليها وسيسد طريق الخروج الى القتال ، لأنه كان مسيطرا على مخارج المدينة.

وكان روجر أوف بارنيفيل ، وهو فارس مشهور ومحبوب ، في أحد الأيام يتابع تقهقر الأتراك ، فوقع في أيديهم وقطعوا رأسه ، فاستولى الحزن أنذاك والرعب على رجالنا مما دفع بالكثيرين منهم الى اليأس من القتال ، غير أنه نزلت بأعدائنا نكستان بالمعارك التي جرت بعد ذلك ، وعلى الرغم من ذلك هاجموا في اليوم الثالث القلعة بشدة وعنف الى حد أنه بدا أن قدرة الرب هي التي كانت تحميها وتوقف الأعداء ، لأن الأتراك ، أصيبوا لسبب غير معروف ــ بالهلع الشديد أثناء عبورهم الخندق المليء بالماء

والمحيط بالقلعة ولم يتمكنوا من هدم الاسوار ، وبادروا بالفرار ، وبعدما انسحبوا الى مسافة قصيرة ، رأوا أنه ليس هناك من سبب للفرار غير خوفهم ، ولذلك عاودوا الهجوم ، وشددوا هجماتهم بعنف كما لو كانوا يريدون محو أثر تراجعهم المشين ، غير أن الرب بث الرعب في قلوبهم مرة أخرى ، وبناء عليه عاد رجال كربوغا الى معسكرهم باليوم نفسه.

واحرق حملة الصليب القلعة ، وانسحبوا الى داخل انطاكية ، وذلك بعدما عاد أعداؤهم في اليوم التالي ومعهم معدات ثقيلة ، وزاد رعب الفرنجة وقلقهم ، في حين ارتفعت ثقة الأعداء بأنفسهم حتى عنان السماء ، لأنه لم يعد لدينا أمل خارج المدينة ، في وقت احتفظ فيه أعداؤنا بالقلعة الرئيسية داخل انطاكية ، ودفعت هذه العوامل المشجعة الأتراك الى التقدم نحونا عن طريق القلعة ، غير أن المسيحيين ثقة منهم بمواقعهم الاستراتيجية ، وأراضيهم المرتفعة زحفوا ضد الأعداء وهزموهم من اول هجوم ، بيد انهم غفلوا عن هجوم مضاد وقع عليهم ، وشغلوا أنفسهم بغنائم المعركة ، فنزلت بهم هزيمة مشينة ، وعند واحد من مداخل أنطاكية لاقى أكثر من مائة من المسيحيين حتفهم ومات معهم عدد كبير من الخيول ، ونتيجة لذلك بات الأتراك يحلمون أنهم عند دخولهم الحصن سيقومون بمهاجمة المدينة السفلى.

كان هناك واد صغير يتميز بسهل صغير وعين ماء ، وقد وقع بين جبلنا وقلعتهم ، ولذلك بذل الأتراك كل جهودهم لاكتساحنا وطردنا من طريقهم ، لأن النزول الى أنطاكية لم يكن ممكنا إلا عن طريق جبلنا ، واستمر القتال عنيفا وشديدا طوال النهار من الصباح الى المساء بشكل لم يسمع بمثله من قبل ، وفي غمار وابل النشاب والصخور التي انهالت ، وتحت قعقعة السلاح التي لم تتوقف ، وبعد مقتل أعداد كبيرة من المحاربين ذهبت قواتنا في

سبات نوم عميق ، وكانت هذه بدون شـك محنة رهيبـة وغير عادية بالنسبة لنا ، وإذا أردت أن تعرف السبب ، لقد توقف القتال ليلا.

وعند صلاة العتمة ، وقت الثقـة بـرحمة الرب ، فقـد الكثيرون الأمل ، وربطوا أنفسهم بحبال ودلوها مـن أعالي الأسـوار ، وفي المدينة نشر الجنود العائدون من القتال أشاعة فيها إن قتلا جمـاعيا ينتظر المدافعين ، ومما زاد الرعب أنهم لانوا بالفرار هم أيضا على الرغم من حث بعضهم المترددين على الصمود ، ومع ذلك فإن رحمة الرب – كما قلنا – كانت حـاضرة ، حتـى والمسـيحيين في محنة ويأس ، فكان جـزاء الرب للداعين له مـن أبنائه مـواساة لهـم في المصائب.

الفصل السابع

حصار كربوغا لأنطاكية والعثور على الحربة المقدسة

هنا يبدأ الـعثور على الحربة المقدسة :

اظهر الرب قـــدرته واحســـانه في أعقـــاب الاســـتيلاء على انطاكية ، بأن اختار فلاحا بــروفانسيا ليقــوم بتعــزيتنا ويسـلم الرسالة التالية الى كل من ريموند وأدهمر:

« لقد انذرني القديس اندروز ، مبعـوث الرب وسـيدنا يســوع المسيح منذ زمن في اربع مناسبات ، وامرني ان ابلغـكم ، وأن أعيد اليكم ــ عند سقوط أنطـاكية ــ الحـربة التـي اختــرقت جنب مخلصنا ، وعندما انطلقت اليوم مع اخرين للقتـال خـارج أسـوار المدينة ، وقعت في يد اثنين مـن الفـرسان ، وكدت أسـحق في اثناء انسحابي ، فدفعت الى صخرة فاتر الهمة مغتما ، وعندئذ تجلى لي القديس أندروز ورفيق له ، وحذراني ــ وأنا مـذنب تعس مـاأزال أترنح من العذاب والمخاوف ــ من مزيد من الهمـوم إذا لم أسـارع الى تسليمكم الحربة .

وعندما طالبه الكونت والأسقف بتفاصيل عن طبيعة ما تكشف له وعن تعليمات القديس أندروز رد البروفانسي بقوله: «أثناء الحصـار الفرنجي لأنطـاكية أيام الهـزة الأرضـية الأولى ، اسـتبدبي الخوف ، ولم أعد أتفوه إلا بقولي : « انقذني يارب » وكنت وحـدي مستلقيا على الفراش في كوخي ، دون أصدقاء يبثون الطمـأنينة في قلبي ، وكان الظلام مخيما ، وكما قلت استمرت الصدمات لوقـت طويل مما زاد في قلقي ، وفي تلك اللحظة ظهر لي رجلان في مـلابس

زاهية ، كان لأكبرهما شعر أحمر يتخلله البياض ، ولحية بيضاء كثة عريضة ، وعينان سوداوتان ، ومظهر لطيف ، وكان متوسط القامة ، وكان رفيقه أطول منه ، وأبهى هيئة من أبناء البشر » وسألني الرجل الأكبر : « ماذا تفعل »؟ وكنت وحيدا ، وقد شعرت بالرعب ، فقلت بصوت مرتعش : « من أنت »؟ فقال : « قم ولا تخف واستمع الي ، إنني اندروز الرسول ، بادر الى تأمين لقاء مع اسقف لي بوي وكونت صنجيل وبطرس ريموند من هوت بول ، وأسألهم:لماذا لا يعظ ادهمر بالكلمة ، ويحث الناس ويباركهم بالصليب الذي يحمله كل يوم ، فهذا سيكون فيه بركة عظيمة لهم بكل تأكيد » ثم أمرني قائلا: « اتبعني وسأكشف لك عن مكان حربة مخلصنا التي يجب أن تعطيها للكونت ، لأن الرب قد جعلها له عند مولده » .

فغادرت فراشي وانا في رداء نومي فقط ، وتبعته الى داخل انطاكية حيث كنيسة الرسول بطرس المبارك عن طريق الباب الشمالي ، والذي كان المسلمون قد بنوا أمامه مسجدا ، وكان هناك مصباحان يضيئان مدخل الكنيسة كما لوكنا في رابعة النهار ، ثم إن اندروز أمرني بقوله: « ابق هنا » ثم أمرني أن اقف بجوار العمود الذي كان قريبا من الدرجات الجنوبية المؤدية الى الهيكل ، وبينما بقي رفيقه على مسافة خطوات من درجات الهيكل ، مد القديس اندروز يده الى جوف الأرض وسحب الحربة ووضعها بين يدي ثم توجه القديس اندروز بحديثه الي قائلا: « انظر الى الحربة التي اخترقت جنب المسيح ، الذي كان السبب في خلاص العالم » وفي الوقت الذي جرت فيه دموع الفرح على وجنتي ، امسكت بالحربة ، و خاطبت القديس اندروز و انا أجهش بالبكاء :إذا كنت تود ذلك ، فأنني سآخذها من الكنيسة و سأضعها بين يدي الكونت.

واجابني القديس اندروز: انتظر حتى ما بعد الاستيلاء على انطاكية ، ثم عد وبرفقتك اثني عشر رجلا ، وابحث عن الحربة في المكان عينه الذي كشفت لك عنها فيه ، فسأخفيها الآن « ثم دفنها في

الموضع ذاته ، وقادني بعد هذه التجليات من فوق أسوار المدينة إلى كوخي ، ثم اختفى بعد ذلك ،

و بكلمة موجزة إنني بعدما تأملت في حالتي الرثة و عظمتك لم اجرؤ على القدوم اليك ، و بعد ذلك رحلت إلى قلعة قريبة من الرها بحثا عن الطعام و بعد هذا أتاني القديس أندروز في الهيئة نفسها ومعه رفيقه نفسه ، وكان ذلك في فجر اليوم الأول من الصوم الكبير عند صياح الديكة ، وسألني ، وكان قد غمر البيت نور عظيم: هل أنت نائم؟ ونبهتني كلماته فأجبته : « لا ياسيدي ومولاي أنا مستيقظ » ثم سألني: « هل أبلغت رسالتي الأخيرة »؟ فأجبته : « سيدي ـ الم اتوسل اليك أن ترسل شخصا أكثر جدارة مني اليهم ، لانني خشيت من حالتي الرثة ، فم اجرؤ على المثول بين أيديهم »

فسألني مرة أخرى: « ألا تعرف السبب الذي من أجله قادك الرب الى هذا المكان ودوافع حبه العظيم لك ، واهتمامه الخاص باختيارك؟ لقد طلبك هنا لكي يسوغ اعتباره لمن يختارهم ، إن حبه لك كبير جدا الى درجة أن القديسين يرقدون الآن بسلام ، وهم مدركون لنعمة الرغبة الربانية ، ويودون لو عادوا لحما ودما ، وقاتلوا الى جانبك ، لقد اختارك الرب من بين جميع الناس ، كما تجمع حبوب القمح من بين الشوفان ، لأنك تقف فوق كل من جاءوا من قبلك ، أو من سيأتون بعدك ، بجدارتك وبركتك ، مثلما يفوق ثمن الذهب ثمن الفضة».

« وبعد رحيلهما وقعت فريسة لمرض هدد بصري ، حتى انني بدأت اتخلص من مواردي المحدودة ، عندما استنتجت فجأة أن هذه الأمراض داهمتني لعصياني اوامر الرسول ، وهكذا عادت الطمأنينة الي ، فعدت الى الحصار ، وفكرت مرة أخرى بحالتي الرثة ، فلم أقل شيئا لانني خشيت أني إذا ما ابلغتكم أن تصرخوا أني رجل يتضور جوعا جئتكم بهذه الأقصوصة من أجل ان احصل

على الطعام ، وبعد أمد قصير كنت أستريح مع مولاي وليم بـطرس في خيمة في ميناء السويدية عشية أحـد السـعف ، عندمـا تجلى لي أندوروز المبارك في هيئته السالفة نفسـها و معـه رفيقـه السـالف الذكر ، و قال لي :لماذا لم تسلم رسـالتي الى ريمـوند وادهمـر؟ فأجبته قائلا: يا سيدي ألم اتـوسل اليك أن تبعـث بـديلا انبـه مني ، يولونه اعتبارهم ، كما يجب أن تعرف أن الأتراك يقتلون كل شخص يسلك الطريق الى انطاكية.

وهنا رد القديس أندروز: لا تخف ، فلن يؤذيك الأتـراك ، ولكن ابلغ الكونت ألا يغطس في نهـر الأردن عند وصـوله ، بـل عليه أن يجدف عبر النهر أولا في قـارب ، وعندمـا يصـل الى الطـرف الآخر ، يرش على جسده الماء وهـو مـرتد قميصـا وسراويل مـن الكتان ، وبعد ذلك عليه أن يحفظ مـلابسه المجففـة مـع الحـربة المقدسة ، ويمكن لمولاي وليم بـطرس أن يشـهد على صـحة هـذا الحديث مع أنه لم ير القديس أندروز.

فاطمأنت نفسي،وعدت الى القوات المحاصرة لأنطـاكية ، لكني لم استطع أن اجمعكم حسبما رغبـت ، وهـكذا ذهبـت إلى مرسى المصيصة ، وبينما أنا هناك أنتظر ـ وقد نفد صبري ـ لأبحـر الى قبرص طلبا للمؤونة ، وأجهني القديس أندروز بتهديدات شديدة إذا انا لم أعد الى انطاكية ، وأملى عليك تعليماته ، وأنذاك بـدأت وأنا أفكر بطريق السفر الذي سيستغرق ثـلاثة أيام مـن المصـيصة الى معسكر الحجـاج ، بـدات أبـكي بشـكل مجنون ، لأنني أدركت استحالة ذلك ، وفي النهـاية ، وبناء على الحـاح مـولاي ورفـاقي ابحرنا وجدفنا طيلة يوم واحد والريح تساعدنا حتى غروب الشمس عندها هبت فجأة عاصفة وأعادتنا خـلال سـاعة أو سـاعتين الى المصيصة ، وبعـد هـذا حيل بيننا وبين المضي الى قبـرص ثـلاث مرات ، ولهـذا عدنا الى ميناء السـويدية وهناك مـرضت مـرضا شديدا ، إنما بعد الاستيلاء على انطاكية قـدمت اليكم ، وهـاأنذا أقدم اليكم الآن شهادتي لتقبلوها .

وعد الاسقف هذه الحكاية مختترعة ، غير أن الكونت صدقها بالحال ، ووضع بطرس بارثلميو في عهدة راهبه ريمون (مؤرخنا).

وفي الليلة الثانية تجلى مولانا يسوع المسيح الى كاهن اسمه ستيفن ، كان يبكي وهو ينتظر الموت لنفسه ولرفاقة ، وقد تملكه رعب شديد عندما أبلغه بعض الفارين من القتال عند القلعة بنزول الاتراك من الجبل و فرار الحجاج وانسحابهم بغير نظام ، و قبل دنو موته ، دخل ستيفن كنيسة مريم المباركة ، وذلك رغبة منه أن يشهد الرب عليه ، وهناك اعترف ونال الغفران لذنوبه ، وشرع يرتل التراتيل مع أصدقائه ، وظل طوال الليل يصلي بينما نام الآخرون ، ويردد: « يا مولاي من سيعيش في بيتك ، من سيجد الراحة على جبلك المقدس؟» وفي هذه الساعة ظهر له رجل وسيم ليس كهيئة البشر ، وتوجه بالسؤال الى ستيفن قائلا: من دخل انطاكية؟ فرد ستيفن: المسيحيون ، فسأله الرجل: بم يؤمن هؤلاء المسيحيون؟ وأجابه الكاهن: إنهم يؤمنون أن المسيح قد ولد من العذراء مريم ، وتحمل الآلام على الصليب ، ومات ودفن ، ثم قام من القبر في اليوم الثالث ، وصعد الى السماء ، فسأله الرجل: إذا كانوا مسيحيين ، لماذا يخافون من جموع الوثنيين؟ ثم تابع يقول:ألا تعرفني ؟

فأجابه الكاهن ستيفن : أنا لا أعرفك ،غير أنك تبدو لي بالغ الجلالة ،و هنا قال له الرجل:« انتبه إلي وحدق بي جيدا » وعندما راقبه ستيفن وتمعن به عن كثب ، رأى فوق رأسه هالة تظهر تدريجيا على شكل صليب يخطف نوره الأبصار اكثر من نور الشمس ، وهنا أجاب الكاهن الرجل الذي كان يسأله : مولاي ، إننا نسمي الصور التي تشبهك في مظهرها صور يسوع المسيح ، ورد عليه السيد قائلا : لقد نطقت بعين الصواب ، فأنا يسوع المسيح ، أليس مكتوبا انني السيد القوي القادر في المعارك ، هل لي أن أسألك : من هو مقدمك ؟ وأجابه ستيفن : مولاي : ليس لدينا مقدم واحد ، ولكننا نثق بأدهمر اكثر مما نثق بالآخرين :

وأمرني المسيح بقوله : أبلغ الاسقف إن هؤلاء الناس قد ابعدوني عنهم بسبب أعمالهم الشريرة ، ولهذا ينبغي ان يقودهم ـ ابتعدوا عن الخطيئة فسأعود إليكم ـ وفيما بعد عندما سيذهبون إلى القتال ليقولوا : لقد تجمع أعداؤنا وتباهوا بقوتهم ، فدمر يارب قوتهم ، واهزمهم حتى يعرفوك ، ياربنا حارب معنا وحدنا ، وزاد هذه التعليمات : ستكون رحمتي معكم لو اتبعتم أوامري لمدة خمسة أيام .

وفيما هو يتكلم اقتربت امراة ـ هي مريم أم يسوع المسيح ـ وقد أحاطت بوجهها هالة باهرة ، ونظرت نحو السيد وسألته : ماالذي تقوله لهذا الرجل ؟ ورد المسيح على مريم : لقد سألته عن الناس الذين هم في انطاكية ، فقالت السيدة : أه يامولاي ، إنهم مسيحيون حقا ، هم دوما في صلواتي إليك .

وعندما أيقظ الكاهن رفيقه النائم على مقربة منه ليشهد الرؤيا ، اختفى المسيح ومريم من أمامه ، وفي الصباح التالي : صعد ستيفن التل المواجه للبرج التركي ، حيث كان امراؤنا ينتظرون ، باستثناء غودفري ، الذي كان يحرس حصن الجبل الشمالي ، وأبلغهم ستيفن في اجتماع عقدوه بفحوى رؤياه الموصوفة ، وأقسم بالصليب على صحتها ، ثم أعرب أخيرا عن استعداده لاختراق النار ، أو القاء نفسه من فوق برج إذا اقتضى الأمر ، لاقناع الذين يرتابون بصدقه .

وازاء هذه الوقائع اعتقدت الحشود أن الأمراء كان بودهم الآن الفرار إلى الميناء ، وأنه فقط قلة من ذوي الايمان الراسخ ، لم تكن تفكر بالفرار أثناء الليلة المنصرمة ، واقسم الأمراء أنهم لن يفروا ، ولن يتخلوا عن أنطاكية إلا بناء على قرار جماعي مشترك ، وهكذا اطمأن الكثيرون ، وحتى تلك الحين إن إغلاق أبواب انطاكية بناء على أوامر بوهيموند وأدهمر ، حالت دون الجلاء الكامل عن المدينة ، وعلى الرغم من جميع الاحتياطات هرب وليم أوف غراند

مسنيل مـع أخيه وعدد كبير مـن رجـال الدين والعـوام ، غير ان الكثيرين ممن هربوا من المدينة معرضين انفسهم لمخاطر شـديدة ، واجهوا مخاطر اعظم هددتهم بـالموت ، وهـو مـاصدر عن رجـال كربوغا .

وانتشرت قصص التجليات والرؤى التي كانت تـظهر لرفـاقنا ، ورأينا نحن إحدى العجائب في السماء ، فقد رأينا نجما كبيرا معلقا وقف فوق انطاكية لبرهة من الوقت ، ثم مالبث أن تفتـت إلى ثـلاثة أجزاء وسقط داخل المعسكر التركي ، وتشجع الحجاج بعض الشيء وترقبوا بلهفة حلول اليوم الخامس الذي أعلن عنه الكاهن ، وفي ذلك اليوم حمل إثنا عشر رجلا ومعهم بطرس بارثلميو الأدوات اللازمة ، وبدأوا يحفرون في كنيسة بطرس المبـارك ، بعـد أن ابعـدوا جميع المسيحيين الآخـرين ، وكان مـن بين الاثني عشر أسـقف أورانج وريمون دي جيل كاتب هذه السطور ، وريمـوند صـنجيل ، وبـونز اوف بالازون وفارالد اوف ثوارز.

وظللنا نحفر حتى المساء ، ويئس بعضنا من إخراج الحربة مـن باطن الأرض ، وفي تلك الأثناء ، وبعدما ذهـب الكونت إلى حـراسة القلعة ، اقنعنا عمالا جددا بأن يحلوا محل الحفارين الذين تعبـوا ، وحفروا بكل جد وشدة ، غير أن بطرس بارثلميو الممتلىء شبابا ، تجرد عندما رأى الاجهاد وقد أخذ من رجـالنا كل مـأخذ ، ووضـع جانبا ثيابه الخارجية ، ونزل إلى الحفرة حافي القـدمين وليس عليه إلا قميص ، ثـم تـوسل إلينا أن نصـلي للرب ليعيد حـربته إلى الحجاج ، ليجلب لشعبه القـوة والنصر ، وأخيرا ،اظهـر الرب لنا برحمته المباركة حربته ، وقبلت انا ريمون مؤلف هذا الكتـاب سـن الحربة عندما برز من الأرض ، ومن غير الممكن لي وصف السـعادة والابتهاج اللذان غمرا انطاكية ، لكن يمكن لي أن أؤكد أن الحربة قد اكتشفت في اليوم الثامن عشر قبل اليوم الأول من تموز .

ووقف في الليلة التالية اندروز المبارك امام الشاب الذي كشف عن

الحربة وقال له : انتبه قد أعطى الرب الحربة للكونت ، وحقا اقول : إنه قد حفظها له وحده عبر العصور ، كمــا وجعله قــائدا للحجــاج شريطة أن يكرس نفسه للرب ، وعندما طلب بطرس بارثلميو الرحمة للمسيحيين أجابه أندروز المبارك : حقــا إن الرب ســيكون رحيمــا بشعبه .

ومرة أخرى سأل بطرس زائره الليلي عن اسم رفيقه : مــن كان الشخص الذي رأيته يصاحبك بشــكل متــكرر ؟ فــرد عليه أندروز المبارك بقوله : اقترب وقبل قدمه ، فاقترب البروفانسي ، فرأى مابدا له جرح حديث ودم في قدمه ، فتراجع بسبب ذلك المنظــر الدمــوي ، وهنا أمره أندروز المبارك قائلا : انظــر إلى الرب الذي ســمر على الصليب من أجلنا ، وتحمل منذ ذلك الوقت هذا الجرح ، فضــلاً عن ذلك إن الرب يأمرك بالاحتفال بتاريخ اكتشاف حربته ، في ثامن أيام العيد من الأسبوع المقبل ، لأن استخراج الحربة وقت صلاة العتمــة يمنع الاحتفال في ذلك اليوم ، وبعد هــذا إنك ســتحتفل كل عام بيوم اكتشاف الحربة ، ثم أبلغ المسيحيين أن يكبحــوا جمــاح أنفســهم حسبما تعلمهم رسالة أخــي بــطرس (كانت تلك الرســالة تعلم : تواضعوا تحت يد الرب القوية) كمــا أن الكهنة ســيرتلون كل يوم بالترتيلة التالية :

وعندما يصلون إلى قولهم :

عليهم أن يجثوا على ركبهم وينحنون مختتمين الترتيلة .

وفيما بعد عندما استفسرت أنا وأسقف أورانج من بارثلميو عما إذا كان يعرف خدمة القــداس الكنائسي ، فإنه إحســاسا منه بأن الاجابة بالايجاب لن تقابل بالتصديق أجاب : أنا لاأعرف ، ومع أنه

- ٢٦٢٩ -

كان يعرف بعض الطقوس كان حينئذ مرتبكا جدا إلى درجـة انه لم يتذكر القداس الكنائسي أو يذكر بالمرة ماتعلمه منه باستثناء :

ونسي كل ماسوى ذلك ، ولم يتـذكر فيمـا بعـد إلا عدة كلمـات بصعوبة .

الفصل الثامن

هزيمة كربوغا

في تلك الأيام عز الطعام وأصبح نادرا جدا ، حتى بيع رأس الحصان بدون لسان بإثنين أو ثلاثة صولدي ، وأمعاء الماعز بخمسة صولدي ، والدجاجة بثمانية صولدي أو تسعة ، وما الذي يمكن أن أقوله عن الخبز عندما يأكل المرء ماقيمته خمسة صولدي ويستمر جائعا ، أما الأغنياء الذين يملكون الذهب والفضة والملابس ، فلم يكن غريبا عليهم ، أو حتى مرهقا لهم دفع التكاليف الباهظة ، وهكذا ارتفعت الأسعار وزادت لأن ضمائر الفرسان الشريرة كانت تفتقر إلى الشجاعة المسيحية ، لقد كانوا يجمعون التين الفج ويطهونه ثم يبيعونه ويسلقون جلود الماشية والخيول والنفايات الصالحة للأكل ويبيعونها بأسعار مرتفعة جدا ، حتى أن أي إنسان كان يمكنه أن يأكل أي كمية تكلفه صولدين ، بيد أن أغلب الفرسان ، الذين يرجون رحمة الرب ، رفضوا أن يذبحوا خيولهم ، وتحملوا بدمائهم ،

وفي الوقت الذي كانت فيه هذه البلايا وغيرها مما لايستطاع ذكره لما فيه من بؤس ، تقض مضاجع المسيحيين ، لجأ بعض رجالنا إلى الخيانة ، فأبلغوا الأتراك بحالة البؤس التي تعيش فيها إنطاكية ، فزادوا بذلك من همومنا وضاعفوها ، وشجعت هذه الأخبار الأتراك ودفعتهم إلى القيام بأعمال جريئة جعلتنا عرضة لتهديداتهم ، ووقع أحدها في ظهيرة أحد الأيام ، عندما اعتلى ثلاثون منهم أحد أبراجنا ، وأوجدوا لبعض الوقت حالة شديدة من الذعر ، غير أن قواتنا التي تعرضت للمخاطر ، قاتلت بتأييد من الرب ، فقتل رجالنا بعض الأعداء ، ودفعوا بالآخرين بعيدا عن الشرافات ، ووعد في ذلك

الوقت جميع حملة الصليب باتباع أوامر بوهيموند لمدة خمسة عشر يوما بعد القتال ، بحيث يمكنه أن يتدبر أمر حماية أنطاكية ، ويضع خطط القتال ، وكان سبب هذا القرار هو التهديد التركي ، ومرض الكونت ريموند وأدهمر ، وفرار ستيفن أوف بلوا ، وأنكركم : إن ستيفن قد فر على الرغم من اختياره قائدا مسيحيا قبل سقوط انطاكية ـ نتيجة للأقاويل بقرب وقوع المعركة ، وكما حكينا ، جاءت معونة السماء الى مسيحيينا المرعوبين والمثقلين بالهموم والأحزان ، عن طريق بطرس بارثلميو ، الذي اكتشف الحربة ، وكان يسدي إلينا بالنصح حول الذي علينا فعله قبل المعركة وفي أثنائها ، فلقد أخبرنا أن المبارك أندروز قد قال : إن الجميع قد حاق بهم غضب الرب كثيرا ، فوقع عليهم العذاب ، أما أنت فقد صليت إلى الرب واستمع الرب إليك ، والآن فليهجر كل منهم الآثام وليتوجه إلى الرب ، وليقدم خمس صدقات ، بسبب جروح الرب الخمسة ، واذا عجز عن ذلك فليردد ابانا Pater Noster خمس مرات ، وبعد اكتمال تنفيذ هذه الأوامر ، ابدأوا المعركة باسم الرب ، ولتبدأ نهارا أو ليلا ، وفقا لخطط القتال التي وضعها الامراء ، لان يد الرب ستكون معكم ، و مع هذا اذا ما ارتاب واحد في نتيجة المعركة ،فلتفتحوا الأبواب و تدعوها تجري إلى الأتراك حيث سيحميهم «الله» ، و أكثر من هذا ، ليكن اي متخاذل لا يقدم على القتال مع يهوذا خائن يسوع المسيح ، الذي تخلى عن الرسل و باع المسيح للهيود ، و بالصدق أجعلهم يتقدمون الى المعركة ، بايمان بطرس المبارك ، متمسكين بوعد المسيح له عند قيامه وظهوره في اليوم الثالث ، دعهم يتقدمون الى القتال ، لأن هذه الأرض ليست أرضا وثنية ، بل تدخل في اختصاص القديس بطرس ، و ليكن شعار التجمع بينكم « ساعدنا أيها الرب » و لسوف يساعدكم الرب فعلا ، و سيقاتل معكم كل رفاق رحلتكم الذين ماتوا بقوة الرب ،تحت قيادته ضد تسعة أعشار الأعداء ، بينما تقاتلون أنتم العشر الباقي ، بادروا الى القتال حتى لا يقود الرب عددا مساويا من الاتراك ضدكم ،

ويحاصر أنطاكية حتي ياكل بعضكم بعضا ، كونوا على اطمئنان ان الايام التي تنبأ بها المسيح لمريم ولرسله قد جاءت ، انها الايام التي سيطيح بها بمملكة الوثنيين وسيسحقها تحت قدميه ، ويرفع فيها الامارة المسيحية ، انما عليكم الاتنصرفوا الى خيام العدو طلبا للذهب والفضة .

ثم تجلت يد القدرة الربانية ، فالذي امرنا بالاوامر السالفة اعلنها لنا عن طريق القديس اندروز ، مما شجع القلوب وشحنها بالايمان والامال ، الى حد ان كل مسيحي شعر انه قد احرز نصرا ، فعادت الى الجميع حماستهم الى القتال عندما راحوا يشجعون بعضهم بعضا ، واصبحت الجموع ، التي كان الخوف والفقر قد اصاباها بالشلل منذ عدة ايام فقط ، تسأل عن اسباب تأخير المعركة وتتهجم على الامراء ، وبناء عليه حدد الزعماء تاريخ المعركة ، ثم ارسلوا بطرس الناسك الى كربوغا حاكم الموصل ، ومعه اوامر بان يتخلى عن حصار انطاكية ، لانها كانت تدخل في نطاق مسؤولية القديس بطرس والمسيحيين ، غير ان كربوغا المتغطرس اجاب انه سواء اكان على حق ام على باطل ، يرغب في ان يصبح سيدا على المدينة وعلى المسيحيين الفرنجة ، وارغم بطرس الناسك على الركوع امامه.

وفي تلك الاثناء برزت مسألة اختيار بعض القوات لحراسة انطاكية من هجمات القوات التي في القلعة ، في حين تخرج قوات اخرى الى ميدان القتال ، ولهذا تمت اقامة سور حجري وتحصينات فوق تل يواجه العدو ، وقويت هذه التحصينات بالصخور وجعلوا عليها حامية بها ريموند كونت طولوز ، وكان مصابا بمرض خطير ، وترك معه مائتين من الرجال ، وجاء اليوم المحدد للمعركة ، وتناول الجميع القربان الرباني في ذلك الصباح ، وخضعوا لارادة الرب ، وحتى للموت اذا اراد ذلك ، ولشرف الكنيسة الرومانية ولجنس الفرنجة .

وتم تنظيم المعركة على اساس رتلين مزدوجين من البروفانسيين من قوات ريموند وادهمر مع رجالة في المقدمة ، يهاجمون او يتوقفون وفقا لاوامر قائدهم ، ثم يليهم في الساقة الفرسان ، وسارت قوات بوهيموند بهذا الاسلوب القتالي نفسه ، وكذلك قوات تانكرد وكونت نورماندي ، والفرنجة والدوق والبرغنديين ، واندفع المنادون في انطاكية يحثون كل رجل على القتال مع قائده ، وكان نظام الزحف حسبما يلي : هيو العظيم ، كونت فلاندرز ، وكونت نورماندي اولا ، ثم الدوق والاسقف ، واخيراً بوهيموند ، وبهذه الطريقة وقفوا في صفوفهم دون المدينة وامام باب الجسر .

اه كم هي مباركة هذه الامة التي يكون سيدها هو الرب ، والشعب الذي اختاره لميراثه ، ولكم تغير مظهر هذا الجيش ، من حالة الكسل والتراخي الى النشاط والمعركة ، فقبل ايام عدة كان القادة والنبلاء يسيرون في شوارع انطاكية يسألون الرب العون ، وكان العامة يسيرون في المدينة حفاة ، وهم يصرخون ويضربون صدورهم ويلطمونها ، وكان قد بلغ من بؤس المسيحيين وشقائهم ان الاب وابنه والاخ واخاه ، لم يكونوا يتبادلون التحية والنظرات ، وهم يمرون في الشوارع ، ومع التبدل المفاجىء في الروح ، صار المرء يرى المسيحيين يخرجون كخيول نشطة ، ويقعقعون بأسلحتهم ، ويلوحون برماحهم ، ويحتفلون بكل صخب بالكلام والسلوك ، ولكن لماذا نؤخر اكمال حكاية هذه القصة ؟ يكفي القول : ان الرغبة في القتال باتت الان امرا مفروغا منه ، وكانت خطط القادة تنفذ.

وفي الوقت نفسه ، وبينما كان كربوغا يلعب الشطرنج في خيمته تواتر وصول الاخبار اليه بأن الفرنجة كانوا خارجين الى القتال ، فاضطربت نفسه لهذا التحرك غير المتوقع ، فاستدعى مجير الدين وهو لاجىء تركي من انطاكية ، وشجاع مقدم معروف ، وسأله : مالذي يحدث ، الم تخبرني ان المسيحيين الاقل عددا منا لن يقاتلوا ابدا ، لان عدد الفرنجة كان ضئيلا ؟! ورد مجير الدين على سؤاله هذا قائلا : لا ياسيدي اني لم ابلغك بشيء من هذا القبيل ، لكن تعال

معي فلسوف اراقبهم ، ومن ثـم انصـح لك وابين كيف يمـكنك ان تتغلب عليهم بيسر وسهولة .

وعندما تقدم الصف الثالث من حجـاجنا ، اسـتطلع مجير الدين صفوفنا ثم ابلغ كربوغا : ان المسيحيين سيموتون قبل ان يفـروا ، وسأله كربوغا بدوره : الا يمكن دفـع بعض المسـيحيين الى الوراء قليلا ؟ ورد مجير الدين : لو اندفع العالم كله ضدهم ما تزحزحوا قيد انملة .

وعلى الرغم من خوف كربوغا فانه صف جيشه الكبير ووضعه في وضع قتالي ، واذن لحملة الصليب بـالخروج مـن انطـاكية دونمـا مضـايقات ، مع انه كان يستطيع سد الطريق بوجههم ، ونقلت قواتنا على الفور خطوطها القتالية نحو الجبال التي كانت على بعـد ميلين كاملين من الجسر ، وذلك خشية منها ان تتعرض لحركة التفاف من الخلف ، ثم تقدمنا في موكب يشبه تمـامـا رجـال الدين ، ولاغرو انه كان موكب حقا : سار الكهنة والكثير من الرهبـان وهـم يرتـدون القمصان البيضاء امام صفوف فرساننا ، وهـم يرتلون وينشـدون العون من الرب مع حماية القديسين ، وعلى الرغم من ذلك هـاجمنا الاتراك واطلقوا علينا نشابهم ، واقترح كربوغا الذي لم يعد بامكانه تجاهل الزحف المسيحي اقترح على قادتنا ان يقاتل خمسة او عشرة من الاتراك العدد نفسه من الفرنجة ، مقابل ان يغـادر الجيش الذي انهزم ممثلوه من الفرسان ميدان المعركة بسلام ، واجاب رجـالنا : لقد رفضت ذلك عندما اردناه ، والان بما اننا على اسـتعداد للقتـال فليقاتل كل انسان في سبيل حقوقه .

وكما ذكرنا من قبل ، كنا مصطفين على السهل عندمـا هـاجمت كتيبة من الاتراك ، كانت قد جاءت من خلفنا ، فرقة من الرجـالة ، انعطفت وقابلت الهجوم بكل شجاعة ، وعندما عجزت قوات الاعداء عن القضاء على الرجالة اشعلوا نارا حولهم حتى تحصد النيران من

لايخشى السيف ، ولان الاعشاب كانت جـافة تمـاما فقـد جـــرى انسحاب اجباري .

ووقف مع جيشنا خارج انطاكية الكهنة حفـاة يرتـدون الملابس الكهنوتية ، وقفوا فوق الاسوار يبتهلون الى الرب ان يحمي شـعبه وان ينصر الفرنجة نصرا ياتي دليلا على العهد الذي عمـده بـدمه ، ولدى زحفنا من الجسر الى الجبل قاتلنا قتالا شديدا لاحاطة الاتراك بنا ، وفي تلك الاثناء ، اندفـع الاعداء مهـاجمين الذين كانوا منا في صفوف ادهمر ، وعلى الرغم من تفوقهم العددي فإنهم عجـزوا عن جرح اي واحد من رجالنا لانهم لم يتمـكنوا مـن تسـديد نشـابهم نحونا ، ولاشك ان مرد ذلك الى الحمـاية المقـدسة لنا ، فقـد كنت شاهدا على هذه الحوادث ، كما كنت حاملا للحربة المقدسة ، واكثر من ذلك لئن كانت الاشاعة قد ترددت ان هرقل حامل راية الاسـقف قد اصيب اثناء القتال ، ليكن معروفا انه اعطى رايتـه الى شـخص اخر ، ووقف بعيدا عن صفوفنا .

ولما اصبح جميع رجالنا خارج انطاكية ، شكل قادتنا ، كما سلف بنا الذكر ، ثمانية صفوف ، لكن مالبث ان ظهرت بين صـفوفنا خمسـة اخرى ، فصار عدد الصفوف بذلك ثـلاثة عشر صـفا ، ثـم انني لن افوت الحديث على الحدث التالي ، ولانه جدير بالتنويه لن امـر بـه مرور الكرام : لقد انزل الرب على المسيحيين الزاحفين نحو القتـال مطرا خفيفا ، فابتهجوا لسقوطه ، وكانت قطرات هـذا المطـر تجلب لمن تمسهم قوة وخفة ورشاقة حتى انهم صاروا يحتقرون العـدو ، ولقد هاجموه كما لو كانوا قد دربوا على الطـريقة الملكية وتـربوا ، وكان لهذا الرزاز من المطر تأثيرا على خيولنا لايقل اعجازا ، ودليل ذلك انني اسأل : اي حصان انهار قبل القتال ، على الرغم مـن انه لم يكن قد اكل غير لحاء الشـجر واوراقـه لمدة ثمـانية ايام ؟! ولأن الرب قد اضاف جنودا الى جيشنا فقد تفوقنا عدديا على الاتـراك ، مع اننا كنا قبل ذلك نبدو اقل عددا .

وعند اكتمال تقدمنا وانتظام تشكيلنا القتالي ، هرب العدو دون ان يعطينا الفرصة للقتال ، فكان ان طـاردتهم خيولنا حتـى غروب الشمس ، وجاء صنيع الرب مع الرجال والخيول مـدهشا ، حيث لم يعق الجوع والجشع الرجال ، واذا بالخيول التي لم تأكل منذ فترة ، والتي قادها اصحابها بعيداً عن العلف القليل الى ميدان المعركة ، اذا بها تطارد اسرع الخيول التركية ، وصـنع لنا الرب حـدثا سـعيدا اخر ، وهو ان المدافعين عن القلعة عندمـا شـاهدوا فـرار رجـال كربوغا تولاهم اليأس فاستسلموا ، واستسلم بعضهم بعد ضـمان حياتهم ، بينما لاذ اخرون بالفرار على وجـه السرعة ، وعلى الرغم من شدة هذه المعركة وفظاعتها ، فان قلة من الفرسان الاتـراك قـد هلكت ، هذا من جانب ، ومن جانب اخر لم ينج بحياتـه احـد مـن الرجالة ، وفضلا عن ذلك كانت الغنائم تتضمن كل خيام الاتراك مع الكثير من الذهب والفضة ، وكميات لاتقدر مـن الحبـوب ، واعدادا لاتحصى من الماشـية ، والجمـال ، فـذكرتنا بفـرار السريان في السامرة ، عندما كان صاع الدقيق والشـعير بشـيكل وقـد وقعـت هذه الاحـداث في ليلة عيد القـديسين بـطرس وبـولص(٢٦ رجب ٤٩١ هـ / ٢٨ تموز ١٠٩٨ م). وكان موائما ، لانه من خلال هذين الشفيعين المقدسين جلب الرب يسوع المسيح هـذا النصر الى كنيسة الحجاج الفرنجة ، حقا كان ربنا الرحيم هو الذي يعيش مـع عبيده ويسكن معهم الى ابد الآبدين.

الفصل التاسع

وفاة أدهمر والابلاغ عن رؤى

استولى في أعقاب الانتصار : بوهيموند ،والكونت والدوق وكونت فلاندرز على القلعة من جديد ، غير أن بوهيموند أضمر شرا دفعه إلى اقتراف الاثم ، فقد استولى على الأبراج الشاهقة ، وطرد بالقوة اتباع غودفري وكونت فلاندرز وكونت صنجيل من القلعة مسوغا عمله بأنه كان قد تعهد (للأرمني) رجل الاتراك الذي سلمهم انطاكية أنه هو فقط الذي سيمتلكها ، وتشجع بوهيموند بهذا العمل الذي مر بدون عقاب ، فجاء يطالب بالقلعة وبأبواب انطاكية التي يحميها ريموند وأدهمر وغودفري منذ أيام حصار كربوغا ، واستسلم الجميع باستثناء الكونت ، فعلى الرغم من حالة المرض والضعف التي كان يعاني منها ، لم يرغب ريموند بالتنازل عن باب الجسر ، ولم تثنه عن عزمه الصلوات والوعود والتهديدات .

وقلق قادتنا بسبب الصراع الداخلي الذي قوض أسس العلاقات الودية بحيث أن قلة فقط هي التي كانت تتجنب النزاعات مع الرفاق أو الخدم على السرقة أو العنف ، وفي عدم وجود قاض يمكنه أن يناقش القضايا ، أصبح كل شخص قانونا في حد ذاته ، وفي ظل هذه الظروف لم يكن الكونت المريض ولا الأسقف يوفران حماية كبيرة لأتباعهما ، لكن لم نشغل انفسنا بمثل هذه الترهات الصغيرة، المهم أن الحجاج الذين باتوا الآن يرفلون في الثراء والخمول ، أجلوا الرحلة ـ خلافا لأوامر الرب ـ حتى أول تشرين الثاني ، ونحن نعتقد أن الفرنجة لو تقدموا مامن مدينة بين أنطاكية والقدس كانت ستلقي عليهم حجرا واحدا ، فقد كانت مدن المسلمين تعيش وقتئذ في رعب وضعف شديدين بعد هزيمة كربوغا .

وانتقل في هذه الاثناء الى الرب بسلام الورد ادهمر ، وذلك في الأيام الأولى من شهر آب ،وأدهمر هو أسقف لي بوي المحبوب من الرب والناس اجمعين ، والذي رآه الجميع منزها عن الخطأ ، وحزن عليه المسيحيون جميعا حزنا عظيما عندما مات ، ومع أننا كنا شهود عيان له ، لم نستطع وصف ردود الأفعال عندما شرعنا في تسجيل عظمة الأحداث ، ولقد اثبت حادث تشتت القادة في أعقاب موت ادهمر ، و عودة بوهيموند الى كليكيا ، وسفر غودفري إلى الرها ، كم كان ادهمر مفيدا لجند المسيح ولقادتهم .

وفي الليلة التالية لدفن الأسقف في كنيسة بطرس المبارك في انطاكية ، تجلى الرب يسوع وأندروز المبارك وأدهمر في كنيسة ريموند لبطرس بارثلميو ، وهو الرجل الذي كان قد حدد موقع الحربة في أنطاكية ، ثم قال ادهمر لبطرس : الشكر للرب ولبوهيموند ولكل أخوتي الذين خلصوني من الجحيم ، فبعد اكتشاف الحربة ، أمعنت في اقتراف الآثام والقي بي لذلك في الجحيم ، وجلدت بقسوة ، وكما يمكنك أن ترى لقد احترق رأسي ووجهي وبقيت روحي في الجحيم منذ الساعة التي غادرت فيها جسدي ، حتى أعيد جسدي التمس إلى التراب ، وإن الثوب الذي تراه الآن علي هو ثوب أعاده الرب إلي وأنا في لهيب جهنم لانني اثناء ترسيمي أسقفا كنت قد اعطيته إلى أحد الفقراء ، شكرا،فعلى الرغم من أن جهنم كانت تغلي ، وكلاب جهنم تزمجر في وجهي ، إنها لم تصب مني أي شيء تحت الثوب ، ولم ينفعني من كل الأشياء التي حملتها من وطني شيء مثلما افادتني شمعة وهبها أصدقائي تقدمة لي ، مع الدنانير الثلاثة التي تصدقت بها للحربة ، فقد احيتني هذه الصدقات عندما خرجت من الجحيم ، وقل لمولاي بوهيموند قد قال إنه سيحمل جسدي إلى بيت المقدس ، ومن أجل خاطره إنه لن ينقل جثماني من مقره لأن بعض دم الرب الذي اصبحت به الآن مرتبطا مازال هاهنا .

غير أنه إذا كان يشك في أقوالي فليفتح قبري ، وعندها سيرى

رأسي ووجهي المحترقين ، ولقد عهـدت بـأتباعي واوصـيت مولاي الكونت ، فليعاملهم ريموند بعطف حتى يكون الرب به رحيما ويفي بوعوده ، كما ولا ينبغي لأخوتي أن يحزنوا لموتي لأني ساكون أكثر نفعا لهم وانا ميت مما كنته حيا ، وإذا رغبوا في المحـافظة على قـوانين الرب ، فسـأعيش انا وجميع أخـوتي الراحلين معـي ، ولسوف أظهر واقدم نصحا افضل مما كنت أقدم وانا بين الأحياء ، فأعيروا يا اخوتي اهتمامكم لآلام الجحيم الثقيلة المخيفة ، واعبدوا الرب ، مخلص الانسان من هذه الآلام وسواها ، فالسعيد حقا مـن ينجو مـن عقـوبات الجحيم ، وسـيستطيع المخلص منح عفـوه لمن حافظوا على وصاياه ، وعليكم الحفاظ على هذه النقاط المتسـاقطة من هذه الشمعة والمتبقية عند الفجر ، بمـا أنني قـدمت فلينتخـب الكونت ورجاله الأخيار أسقفا بديلا لي ذلك انه لايليق أن يبقى كرسي أسقفية تابع لمريم المباركة شاغراً بدون أسقف ، واعطوا واحدا من أرديتي إلى كنيسة القديس أندروز .

ثم شدم أندروز المبارك تحياته واحتراماته واقترب وقال موصيا : « اهتموا بكلمات الرب التي أنطق بها ، وتذكر ياريموند الهدية التي عهد بها الرب إليك ، وليكن كل ماتفعله باسمه حتى يرشدك الرب في كلامك وافعالك ، ويقبل صلواتك ، كانت نيقية اول مدينة منحها الرب إليك ، هو الذي حولها إليك ، لقد منحك الرب مدينته ، وانتزعها من أعدائك ، حتى تتذكر له بعد ذلك في هذا المكان ؟ أم لأن أعمـال الرب لم تكن معروفة هناك ، وإذا طلب أحد معـونة الرب كان يعـاقب ؟! وعلى الرغم مـن ذلك إن الرب بـكرمه وإحسـانه لايريد أن يتخلى عنكم ، وسيمنحكم ماتطلبون ، بل وأكثر مما تجـرأتم على طلبـه ، فهو قد سلمكم الحربة التي اخترقت جسده الذي سال منه دم الفداء لنا ، وتذكروا أن الرب لم يمنحكم هذه المدينة لتدنسوها كمافعلتم في الأخرى ، ويمكنكم بكل تاكيد أن تتيقنوا أن الرب لم يمنحكم إياهـا لمزايا فيكم .

إن الرب يأمر يا ريموند أن تعرف من الذي يطمح أكثر من سواه

في حكم أنطاكية ، وتستفسر عن دور الرب في حكمه ، لذلك إذا وجدت أنت وإخوانك ، وأنتم الآن الحراس الأوصياء على أنطـاكية ، مـن يمكنه القيام بإخلاص على عدالة الرب ، فسلموا له المدينة واعطـوه إياها ، لكن إذا كان يخطط للاحتفاظ بأنطاكية بالقوة ، مزدريا بذلك العدالة وحكمها ، فاطلب أنت وإخوانك المشورة من الرب ، ولسوف يقدمها لك ، ولن يخذلك الأتقياء والذين يعبدون الرب حقا ، أما غير الأتقياء فيمكنهم أن يعودوا إلى من هو عدو للعدالة ، وسترون كيف سيعذبهم الرب ، ستنزل بهم حقا اللعنة نفسها التـي انزلهـا الرب وامه بابليس الذي هوى ، فاذا كنتـم متفقين ، اطلبـوا النصـح في الصـــلاة

وسيقدمه الرب لكم وإذا كنتم متفقين ، فاعقدوا مجمعـا مـن أجـل اختيار بطريرك لنامـوسكم ، وإياكم أن تمنحـوا الغفـران للأسرى الراغبين بالتمسك بوصاياكم ، ولاتبقوا على الذين اتبعـوا القـرآن ويتولون عبادة « الله » الذي يعبده الأتراك ، انظروا إليهم كأتراك ، وابعثوا باثنين أو ثلاثة إلى السجن وسـيرشدونكم إلى الآخـرين ، وبعد الانتهاء من هذه المهمة اطلبوا مشورة الرب بشأن رحلة الحج ، وسيمحضكم الرب النصح ، إنما إذا لم تنفذوا هذا الأمر ، لن تصلوا إلى القدس ولو بعد عشر سنوات مـع أنهـا لاتبعـد عنكم إلا عشرة ايام ، وسأقود الكفار إلى بلادهم من جديد ، وسينتصر مائة منهـم عليكم ، أضف إلى هذا عليكم ياعبيد الرب ، أن تستعطفوا الرب كما فعل الرسل ، فكما استجاب لصلواتهم سيستجيب إلى صلواتكم .

أما أنتما ياريموند وبوهيموند فاذهبا إلى كنيسة أندروز المبـارك فسيعطيكما افضل نصيحة من الرب ، واتبعـا مـا يضـعه الرب في قلوبكما ، وبعد هذه الرؤيا المباركة لأندروز المبارك تـذللا أمـامه ، ليس أنتما فقط ، بل إجعـلا جميع إخـوانكما يفعلون ذلك أيضـا ، واجعلا بكل وسيلة السلام وحـب الرب يسـود بينكمـا ياريمـوند وبوهيموند ، لأنكما إذا اتفقتما ، لن تسـتطع قـوة أن تحـطمكما ، وجدير بكما أن تعلنا عن العدالة التي مـن المتـوجب أن تقيمـانها : إجعلا جميع الرجال الموجودين يعلنون على الملأ بوساطة أسقف كل

منهم مبلغ ثرواتهم وقيمتهـا ، وأن يسـاعدوا الفقـراء كل حسـب مقدرته ، وحسب الحاجة إلى هذه المساعدة ، وتصرفوا وفقا لاتفاق عام ، وإذا لم يريدوا مراعاة هذه القـاعدة وغيرهـا مـن القـواعد العادلة ، اكبحوا جماحهم ، وإذا مارغب اي واحد منهم في امتـلاك اية مدينة ، منحها الرب من أجل المسيحيين فليسـلك المسـلك الذي يتفق مع الوصايا المذكورة ، وإذا لم يفعل فليعاقبه الكونت مـع أبناء الرب ».

وفي البداية لاقت وصايا وتنبيهات القديس أندروز التصديق ، بيد انه سرعان ماغدا نصيبها التجاهل ، فقد قال بعض الحجاج : فلترد انطاكية إلى الكسيوس ، غير ان آخرين اعتـرضوا ولواثناء حصـار عرقة فيما بعد ، بينما كان بطرس بارثلميو يرقد على فراش الموت ، استدعى الكونت وأوصاه بقوله : عند وصـولك إلى القـدس وجـه أوامرك إلى الجيش للصلاة إلى الرب حتى يطيل عمـرك ، ولسـوف يضاعف الرب حياتك ، ولدى عودتك ضع الحربة على بعـد خمسـة فراسخ من كنيسة القديس تروفيموس ، ومـر ببناء كنيسـة هناك ، وأوقف – بيمين – مالا كثيرا عليها .

و اياك أن تسمح باقتراف اي إثـم في هـذا المكان ، و أطلق على هذا المكان اسم جبل البهجة ،و لعل هذه الأشياء تنفذ في بـروفانس لان بطرس المبارك وعد حـواريه تـروفيموس أن يسـلمه الحـربة المقدسة

واهملت مصالح المعدمين « الطافور » بسبب الصراع والشقاق ، ولم يحدث شيء بخصوص الوصية التي تلقاها القادة مـن القـديس اندروز ، وفي تلك الاثناء حاصر اتراك حلب قلعة تسمى عزاز ، وقلق الاتراك المحاصرون داخلها واشتد عليهم الامر فطلبوا من غودفـري الذي كان في منطقة قريبة منهم ان يسلموه قلعتهم ، لانهم يفضـلون سيدا فرنجيا ، وبناء عليه استدعى الدوق لدى عودتـه الى انطـاكية ريموند الذي كان قد تعافى من مرضه ، واسـتدعى هـو معـه جميع

فرسانه ورجالته الذين كان الكونت قد قادهم الى اراضي المسلمين لنهب الارياف لصالح المعدمين ، كما والح في طلبه من ريموند الاسراع من اجل الرب ، ومن اجل شرف جيش الفرنجة في التوجه الى مساعدة الاتراك المرتدين ، الذين كانوا انذاك يستصرخون الرب ، واوضح ايضا ان الاتراك المحاصرين رسموا علامة الصليب في مواجهة الاف القوات المحاصرة لهم ، وسار الكونت نتيجة لهذه المطالب ومعه غودفري ، وتخلى الاتراك عن حصار عزاز لدى سماعهم بهذه الانباء ، وبناء عليه عند وصول جيشنا اليها ، اخذ الدوق رهائن من القلعة لضمان ولاء عزاز له في المستقبل ، وعاد ريموند الى انطاكية بعد ما تكبد جيشه نفقات كبيرة ، وهنا استدعى فرسانه لكي يقود الناس المعدمين الى اراضي المسلمين بعدما تدنت معنوياتهم بسبب الجوع والتعب .

وفي الوقت نفسه تجلى القديس اندروز لبطرس بارثلميو في خيمة في قلعة الروج التي كان يحتلها اسقف ابت وريمون دي جيل كاهن الكونت ، وكان اسم الاسقف سيمون ، وعندما سمع سيمون الحديث بين القديس اندروز وبطرس ستر راسه ، وكما قال فيما بعد : انه سمع كثيرا مما دار ، ولكنه لم يتذكر الا : سيدي ، انني اقول ....

ومع ذلك ، اضاف اسقف ابت : انني لست على يقين فيما اذا كان مارايته حلما ام لا ، لكنني رايت رجلا متقدما بالسن يرتدي عباءة بيضاء ويمسك بين يديه حربة الرب المقدسة ، وقد سالني : هل تؤمن بان هذه الحربة هي حربة يسوع المسيح ؟ فاجبته بقولي : نعم انني اومن بذلك ياسيدي ، ولدى تكراره السؤال مرة ثانية وثالثة اجبت قائلا : حقا انني مؤمن بان هذه هي الحربة التي اسالت الدم من جنب يسوع المسيح ، وهو الدم الذي افتدى به الجميع .

ثم حركني — ريمون دي جيل — اسقف ابت ، وكنت نائما على

مقربة منه ، وعندما افقت لاحظت الضوء غير العادي ، وشعرت كما لو ان النعمة الالهية قد حلت في روحي ، واستفسرت من اصدقائي الحضور عما اذا كانوا يشعرون كما انهم بين مجموعة تحركها عاطفة هائلة ، فاجابوني جميعا : لا ، حقا ، وبينما كنت اردد ماسبق ، اجاب بطرس متلقي الوحي السماوي : انك رايت فعلا نورا مبهجا ، لان الرب صاحب النعم جميعا ، كان يقف في هذه البقعة لمدة طويلة .

وعندما طلبنا منه ـ بطرس ـ أن يسرد علينا كلمات زواره السماويين ذكر لنا وللكونت مايلي : جاء الى هنا في هذه الليلة الرب مع اندروز المبارك بشكلهما المعتاد ، وبصحبتهما رفيق صغير ، له لحية طويلة ، وكان يرتدي ثوبا من الكتان ، ثم ان اندروز المبارك زجرني بقسوة فقد اسخطه انني تخليت عن رفات جسده الموجود في الكنيسة في انطاكية ، وقد تهددني بعنف واستطرد يقول : بعدما القاني الكفار من فوق الجبال بدون خشية او احترام ، انكسر لي اصبعان ، وبعد موتي حفظهما هذا الرجل ، وبعد ذلك نقلهما الى انطاكية ، غير انك لم تهتم كثيرا بـأثاري بعدما عثرت عليها ، فسمحت بسرقة احدهما ، ورميت بالاخر بشكل مشين ، ثم اراني يده التي كان ينقصها اصبعان .

ثم استطرد بطرس يقول : ايها الكونت ، لقد انتقدك القديس اندروز بكل شدة ، لانك لاتخشى من اقتراف الاثام الخطيرة والشريرة ، وذلك على الرغم من انك تلقيت الهدية التي لاتوصف والتي حفظها لك الرب وحدك ، وهذا هو السبب في ان الرب قد اعطاك العلامة التالية التي هي على وجه التحديد : قدمت منذ خمسة ايام في عيد القديس فيديس (٦ ـ تشرين اول) تقدمة كانت عبارة عن شمعة كبيرة تستغرق ثلاثة ايام وثلاث ليال لتحترق ، ولكنها سرعان ماذابت وهوت الى الارض ، وحدث العكس هذه الليلة فقد قدمت شمعة صغيرة لاتكاد تكفي للاحتراق حتى قبيل صياح الديكة تماما ،

وهي الان تشع بضوئها ولم يذب ثلثها حتى الساعة مـع ان ضـوء النهار قد اشرق الان .

وبناء عليه يطلب منك الرب الاشـياء التـالية : عليك قبـل كل شيء التكفير عن ذنوبك ، ولاتفعل شيئا قبل ذلك واذا لم تلتـزم حبـطت مشاريعك واعمالك ستكون مثل شـمعة ذائبة تهـوي الى الارض ، وسيجعل الرب اعمالك كلها تامة وناجحة باسم الرب اذا مالتزمت ، وسيضاعف الرب جهودك الصغيرة كما جعل هذه الشمعة الصـغيرة التي تراها تبقى وقتا مديدا .

وعلى الرغم من ان ريموند انكر جسامة اثامه ، فانه اعترف وكفـر عنها بعدما واجهه بطرس بارثلميو بـذنوبه ، واسـتمر بـطرس في توجية خطابه الى الكونت قائلا : ايهـا الكونت ان اندروز المبـارك يعترض على مستشاريك ، لانهم قدموا نصيحة سوء لغـرض مـا ، ولذلك انه يأمـرك ان تتجـاهل مشـورتهم الا اذا اقسـموا على الا يعطوك نصحية غير طيبة وهم يعلمون ذلك .

اصغ الي جيدا يا ريموند : ان الرب يأمرك الا تضيع الوقـت ، لانه سيسأعدك فقط بعد الاستيلاء على القدس ، ولاتجعل واحـدا مـن الحجاج يقترب اكثر من فرسخين عندما تـدنو مـن القـدس ، واذا نفذت هذه التعليمات فان الرب سيسلمك المدينة .

وبعد هذه الاوامر شـكرني القـديس اندروز كثيرا لانني حققـت تكريس الكنيسة التي شيدت باسمه في انطاكية ، ولم يتكلم حول هذه الامور فقط بل تناول بالحديث امورا اخرى لاتعنينا الان وبعـد ذلك صعد هو ورفيقاه الى عليين.

- ٢٦٤٥ -

الفصل العاشر

الاستيلاء على البارة ومعرة النعمان

تقدم بعد هذا بأمد قصير ريموند وبصحبته الحجاج الفقراء (الطافور) وحفنة من الفرسان ، وتغلغلوا في أرض الشام ، حيث تم لهم الاستيلاء على البارة بكل شجاعة ، وكانت البارة أول مدينة اسلامية على طريقه وهنا قتل الآلاف واستعبد الافا غيرهم ارسلهم ليباعوا كرقيق في انطاكية ، وأطلق سراح الجبناء الذين استسلموا قبل سقوط البارة ، وعمل ريموند إثر هذا برأي أمرائه وكهنته فاختار بطريقة تستحق الثناء كاهنا ليكون أسقفا للبارة ، فبعد اجتماع عام تسلق واحد من كهنة الكونت الأسوار ، ثم سأل هذا الكاهن عما إذا كان هناك رجل دين يمكن أن يتلقى ولاء المؤمنين ، ويساعد الكونت واخوته بالتصدي للوثنيين بقدر ما يستطيع.

ووسط الصمت الذي أعقب ذلك ، استدعينا بطرس ، وهو بالأصل من أهل نربونة ، وأوضحنا له على الملا عبء الأسقفية ، وشجعناه على تولي المنصب إذا كان عازما على الاحتفاظ بالبارة إلى أن يموت ، وعندما وعد أنه سيقوم بذلك ، وافق الناس عليه بالاجماع ، وحمدوا الرب كثيرا لأنهم كانوا يريدون أسقفا رومانيا في الكنيسة الشرقية ، ومنح ريموند بطرس النربوني نصف البارة والمناطق المحيطة بها.

وكانت البارة على مسيرة يومين من أنطاكية ، ومع اقتراب أول أيام تشرين الثاني ، وهو الموعد المحدد لتجمع الحجاج من جديد لمواصلة زحفهم ، ترك ريموند جيشه في البارة وعاد الى أنطاكية مع أسقفه الجديد بطرس وعدد كبير من الأسرى وغنائم كثيرة ، وفي

انطاكية اجتمع الأمراء جميعـا فيمـا عدا بـلدوين أخـو غودفري ، الذي سبق له أن اتجه ، بعدما انفصل عن جيش الحجاج الرئيس ، نحـو الفـرات ، وكان ذلك قبـل الاسـتيلاء على انطاكية ، وهناك استولى على مدينة الرها ذات الشـهرة الواسـعة والغنى ، وخاض بنجاح عدة معارك ضد الأتراك.

وقبل أن انتقل للحديث عن أحداث أخرى لا بد مـن أن أروي لكم القصة التالية: عندما كان غودفري في طريقه الى انطـاكية مـع أثني عشر فارسا ، قابل مائة وخمسـين مـن الأتـراك ، فلم يتـردد مطلقا ، ولم يجبن بل أعد أسلحته وشجع فرسانه ، وهاجم العـدو بكل شـجاعة ، غير أن المسـلمين آثـروا ــ مـرغمين ــ الاختيار الأحمق للموت بدلا من النجاة بالفرار ، فترجل بعضهم لكي يطمـئن الأتراك الخيالة الى أن رفـاقهم الرجـالة لن يتخلوا عنهـم ويلوذوا بالفرار ، ونشب قتال عنيف هـاجم خلاله فرسان غودفـري العـدو بكل شجاعة ، وكان عدد هؤلاء الفرسان يساوي عدد الرسل الأثني عشر ، كمـا كانوا يؤمنون بـكل يقين أن الدوق هـو كاهـن الرب ، ووهـب الرب الدوق نصرا مبينا ، حتـى أنه قتـل حـوالي الثلاثين من المسلمين ، وأسر مثل هذا العدو وطارد الهاربين ، فقتل عددا كبيرا منهم أو سبب غرقهم في المستنقع والنهر القريبين ، وعاد غودفري الى أنطاكية ظافرا في نصر بهيج ، وقد حمـل الأسرى مـن الأعداء رؤوس رفاقهم القتلى.

وعقد الأمراء اجتماعا في كنيسة بطرس المبـارك ، حيث أخـذوا يخططون لاستئناف الزحف نحو القدس ، وسـأل بعض مـن كانوا يحتفظون بقلاع أو أملاك مؤجرة في المناطق المحيطة بأنطاكية: مـاذا سيتم بشأن أنطاكية ، من الذي سيحرسها ، ذلك أن الكسيوس لن يأتي ، وتذكروا أنه هرب عندما سمع أن كربوغا قد حاصرنا ، لأنه لم يكن لديه ثقة بقوته أو بجيشه الكبير ، هل سننتظره أكثـر ممـا انتظرناه؟ من المؤكد أن من أجبر أخواننا ومـن جـاء الى مسـاعدة الرب على التراجع لن يقدم لمساعدتنا ، ومن جانب آخر: إننا إذا ما

تخلينا عن انطاكية واستردها الأتراك ، فإن النتيجة ستكون أشد ضررا وخطورة من الاحتلال الأخير ، لنعطها لبوهيموند ، فهو رجل عاقل وحكيم يخشى المسلمون جانبه ، وهو رجل سيحميها جيدا.

ولكن الكونت ومعه آخرين اعترضوا على ذلك قائلين: لقد أقسمنا على صليب الرب ، وأكليل الشوك ، وآثار مقدسة كثيرة ، أننا لن نحتفظ بدون موافقة الامبراطور ، بأي مدينة أو قلعة في مناطق نفوذه.

ولهذا انقسم الأمراء وتنافروا بسبب هذه الاختلافات ، وتكلموا بعنف شديد حتى كادوا يلجأون الى السلاح ، وفي الحقيقة لم يهتم غودفري وروبرت كونت فلاندرز كثيرا بمسألة انطاكية ، وكانا يؤيدان سرا تملك بوهيموند لها ، ولكنهما خوفا من عار الحنث باليمين لم يتجرأ أي منهما على التوصية له بها ، ونتيجة لذلك تأجلت الرحلة ، وكل ما يتعلق بها من مسائل ، وكذلك الاهتمام بالفقراء (الطافور).

وبدأ الناس بعدما راقبوا عن كثب هذه الضجة بين الأمراء يصرحون أولا بشكل سري ثم جاهروا بعد ذلك قائلين: من الواضح أن قادتنا غير راغبين في قيادتنا الى القدس ، إما بسبب الجبن أو بسبب اليمين الذي أقسموه لألكسيوس ، لماذا لا نقدم نحن على اختيار فارس شجاع يمكن أن نعتمد عليه ونأمنه على أنفسنا ونحن في خدمته ، وبذلك سنصل بمشيئة الرب الى القبر المقدس معه وهو قائد لنا ، يا الهي ، لقد مضى عامان علينا في أرض المسلمين ، وفقدنا مائتي ألف جندي ، ألا يكفي هذا؟ لنترك الذين يطمعون بذهب الامبراطور ، أو ريع انطاكية ، يحصلون على ما يودون ، أما نحن الذين هجرنا أوطاننا في سبيل المسيح ، لنستأنف زحفنا معه قائدا لنا ، وليمت الطامعون بانطاكية في تعاسة وشقاء مثلما مات سكانها منذ أمد قصير واذا ما استمر النزاع حول انطاكية فلنهدم الأسوار ، عندها فقط سيعود زمن حسن النوايا بين الأمراء

كما كان عليه الحال قبل الاستيلاء على المدينة ، ولايمكن ذلك الا مع تدميرها ، والا فإن علينا ان نعود الى بلادنا قبل ان ينهكنا الجوع ويهدنا التعب.

واثرت هذ الآراء وغيرها بريموند مع بوهيموند ، فعملا على تسوية الخلافات بينهما ، وفي تاريخ محدد صدرت الأوامر الى الناس بالاستعداد لاستئناف رحلة الحج ، وعند اكتمال كافة التفاصيل المتعلقة بالاستعداد للزحف ، تقدم كونت صنجيل مع كونت فلاندرز ومعهما الناس للدخول الى ارض الشام في اليوم المحدد ، وحاصروا اولا معرة النعمان الغنية وذات التعداد الكبير من السكان ، وتقع المعرة على ثمانية أميال من البارة ، وبسبب قتال سالف جرى معنا وتكبدنا فيه خسائر فادحة ، فقد عير أهل المدينة المتعجرفون قادتنا ، وشتموا رجالنا ، وبنسوا صلباننا أثبتت على أسوار المدينة ليثيروا غضبنا ، وفي اليوم التالي لوصولنا عظم غضبنا وأشتد على أهل المعرة ، حتى أننا اندفعنا نحو الاسوار بشكل علني وكنا بلا شك ، سنستولي على معرة النعمان فقط لو اننا امتلكنا أربعة سلالم بالاضافة الى السلمين القصيرين اللذان كانا بحوزتنا ، ومع هذا صعد رجالنا سلمينا بخوف ، وقرر الأمراء بناء الآلات ، وبث الحسك ، واقامة حواجز ترابية يمكن منها أن نصل الى السور ، فنهدمه ونسويه بالأرض ، وبينما كان هذا يحدث ، وصل بوهيموند وحاصر قطاعا من معرة النعمان ، وكما ذكرنا من قبل ، لم تكن استعداداتنا كافية ، غير أنه بعد وصول الوافد الجديد تشجعنا لأن نفكر بشن هجوم جديد بواسطة ردم الخندق المليء بالماء والمحيط بالسور ، غير أن هجومنا الجديد ، كان أكثر تعاسة من الأول ولم يكن مجديا.

وإنه لما يحز بنفسي أن أذكر أن المجاعة التي تلت ذلك جعلت أكثر من عشرة آلاف رجل يتبعثرون كالماشية في الحقول ، ينبشون ويبحثون عن حبوب القمح أو الشعير او الفول أوأي خضراوات ، وعلى الرغم من استمرار العمل في اعداد الات

الهجوم ، فإن بعض رجالنا بلغ من تأثرهم بــالبؤس الذي ألم بهــم وبجرأة المسلمين ، أن فقدوا الأمل في رحمة الرب وولوا الأدبار.

غير أن الرب المحامي عن عباده ، أشفق الآن على شعبه ، عندما رآه في حمأة اليأس والقنوط ، وهكذا استخدم الرسولين المباركين: بطرس وأندروز ليبلغنا بمشيئته وبسبل تلطيف أمره القاسي ، ففــي منتصف الليل دخلا الكنيسة الخاصة بــالكونت ، وأيقــظا بــطرس بارثلميو ، وهو الرجل الذي كانا قــد أظهــرا له الحــربة ، غير أن بطرس بارثلميو الذي استيقظ فجأة ، اعتقد عندما رأى شــخصين قبيحين في ملابس قذرة يقفان الى جــوار الاناء الثمين الذي يضم الآثار المقدسة ، اعتقد بالطبع أنهما من الصعاليك اللصوص ، وكان القديس أندروز يرتدي قباء كهنوتيا قديما ممزقا عند الأكتاف ، فقد كان على الكتف الأيسر رقعة من القماش ، بينما كان الكتف الأيمن عاريا ، وكان يحتذي حذاءا رخيصا ، وكان بطرس يرتدي قميصــا خشنا من الكتان يصل الى عقبيه ، وسألهما بطرس بارثلميو: مــن انتما ياسيدي وماذا تريدان؟

وأجابه بطرس المبارك: اننا رســولا الرب ، أنا بــطرس وهــذا أندروز ، وقد اخترنا هذا الملبس حتى ترى المكاسب العظيمة التــي ينالها من يخدم الرب باخلاص ، لقد قدمنا على هــذه الحــالة ، وفي هذه الهيئة الرثة ، بالضبط كما ترانا أنت ، الى الرب و الآن انظــر الينا ، وبعد هذ الكلمات أصبح بطرس وأندروز أكثر تــالقا وأبهــى مما يمكن أن تعبر عنه الكلمات ، وخرّ بطرس بــارثلميو الى الأرض كما لو كان ميتا ، وقد اســتبد بــه الرعب للوميض المفــاجيء مــن النور ، ومن شدة خوفه تصبب منه العرق حتى بلل الحصيرة التــي وقع عليها ، فساعده القديس بطرس على الوقــوف وقــال له: لقــد وقعت بسهولة.

ورد بطرس بارثلميو: نعم يا سيدي ، ثم شرح القــديس بــطرس الأمر بقوله: هكذا سيقع كل الكفار والمعتدين على أمــر الرب ، غير

ان الرب سيرفعهم مثلما رفعتك بعد سقوطك ، إذا ندموا على اعمالهم الشريرة واستغاثوا بالرب ، زد على هذا انه لطالما عرقك على الحصيرة ، الرب سيرفع من يستغيثون به ويمحو ذنوبهم ، لكن أخبرني: كيف يتدبر الجيش اموره؟

وأجابه بطرس بارثلميو: بالتاكيد لقد اثارت المجاعة قلق أفراد الجيش ، وهم في تعاسة بالغة ، وهنا اندفع بطرس قائلا: إن الذين تركوا الرب وراء ظهورهم لابد من أن يخافوا ، لانهم نسوا المخاطر التي انقذهم الرب منها ، ولم يقدموا له الحمد والشكر ، إنك ناديت الرب عندما كنت راكعا ، وناديته عند أنطاكية ، حتى اننا سمعناك في السماء ، نعم لقد سمعك الرب وقدم لك دليلا على انتصاره لك ، وهكذا منحك نصرا رائعا ومجدا عظيما على الذين كانوا يحاصرونكم وعلى كربوغا. لقد أنيت الرب كثيرا ، الآن أي رب تؤمن به أنت بالذات حتى تأمن على نفسك؟ هل تستطيع الجبال الشاهقة ، أو المغائر الخفية أن تحميك؟ إنك لن تكون في مأمن حتى في أشد المرتفعات منعة ولو كان معك كل ما تحتاج اليه من ضروريات ، لان مائة الف خصم سيهددون كل واحد منكم ، إن في صفوفكم القتل والنهب والسرقة ، فضلا عن انعدام العدالة كما أن هناك زنا ، مع أنه مما يسعد الرب أن تتزوجوا ، وفيما يختص بالعدالة إن الرب يأمر أن تكون جميع السلع الموجودة لدى الشخص الظالم المستبد بالفقراء ملكية عامة ، وأن تؤدوا عشوركم ، واعلموا أن الرب على استعداد لان يعطيكم كل ما تحتاجون اليه ، إنه سيعطيكم معرة النعمان بسبب رحمته لا بسبب أعمالكم ، حاصروها الآن في أي وقت ترغبون ، افعلوا ذلك لانكم ستأخذونها بدون ريب.

وفي الصباح التالي سمع الكونت بخبر هذ التجليات ، وبناء عليه قام ومعه أسقفا البارة وأورانج باستدعاء الناس جميعا الى اجتماع عام ، وتصدق المؤمنون تحدوهم الآمال الكبيرة بالاستيلاء على المدينة ، تصدقوا بسخاء ، وقدموا الصلوات الى الرب

القدير ، ليحرر شعبه المسكين من أجل اسمه فقط ، وبعد استكمال هذه الاستعدادات الروحية ، صنعت السلالم بسرعة وأقيم برج خشبي ، وأقيمت السواتر ، وبدأ الهجوم عند نهاية اليوم ، وأطلق المحاصرون من داخل معرة النعمان الأحجار من المجانيق والنبال والنيران ، وخلايا النحل ، والجير على رجالنا الذين تمكنوا من تدمير اسوارهم ، وبفضل قدرة الرب ورحمته ، لم يصب أحد ، هذا من جانب ومن جانب آخر هاجم حملة الصليب الاسوار بكل جرأة ، واستخدموا الصخوروالسلالم في هجوم استمر من طلوع الشمس حتى غروبها ، حقا لقد كان قتالا مخيفا لم يسترح فيه أحد ، ولم يشك أحد في نتائجه الظافرة ، وأخيرا ابتهل الجميع الى الرب أن يكون رحيما بشعبه وأن ينفذ وعود رسله.

وأعطانا الرب الموجود دوما المدينة حسبما وعد رسله ، وكان أول من تسلق الأسوار جوفييه أوف لاستورز ثم أعقبه مسيحيون آخرون هاجموا الأبراج والدفاعات ، غير أن الليل أوقف القتال وما زالت بعض أبراج المدينة وأجزاء من المدينة نفسها في أيدي المسلمين ، وتوقع الفرسان وقفة مقاومة أخيرة في الصباح المقبل ، فارتعدوا وحرسوا الاسوار الخارجية للقضاء على أي شخص يحاول الهرب ، غير أن بعض حملة الصليب ممن لم يعبأ بحياته ، لأن الجوع جعلهم يحتقرون الحياة استمروا في مقاتلة أهل المعرة تحت جنح الظلام ، وهكذا حصل الفقراء (الطافور) على حصة الأسد من الغنائم والبيوت في معرة النعمان ، ولم يجد الفرسان الذين انتظروا حتى الصباح ليدخلوا سوى بقايا ليس لها قيمة ، وفي هذه الأثناء كان المسلمون يختبئون في مغائر تحت الأرض ، وبالفعل لم يظهر منهم أحد في الشوارع ، واستولى المسيحيون على جميع السلع التي كانت فوق الأرض ، ودفعتهم الآمال للحصول على ثروات المسلمين المخبأة تحت الأرض ، فأطلقوا الدخان والنيران والأبخرة الكبريتية على الأعداء لاخراجهم من مغائرهم ، وخيب نهبهم للمغائر امالهم ، وعندها

عنيوا كل واحد من المسلمين وصلت أيديهم اليه ، حتى الموت ، وجرب بعض رجالنا اقتياد المسلمين في الشوارع على أمل معرفة أماكن الثروات والذخائر الدفينة ، وكان المعريون يقودون أسريهم الى

الآبار ، ثم يلقون أنفسهم فجأة ليلقوا منيتهم ، مؤثرين بذلك الموت على كشف النقاب عن أماكن الامتعة والذخائر العائدة لهم أو لسواهم ، وهكذا لاقوا بسبب عنادهم الموت جميعا ، وقد رميت جثث المعريين في السباخ والاماكن الواقعة خلف الاسوار ، وعلى العموم ، ولما تقدم من أسباب لم تمنحنا المعرة الكثير من المنهوبات .

ومع ان فرسان بوهيموند لم يكونوا على درجة عالية من النشاط أثناء الحصار ، فقد نالوا عددا اكبر من الأبراج والخيول والأسرى ، وسبب هذا قيام شعور بالاستياء بين البروفنا سيليين والنورمان ، وقضت ارادة الرب آنذاك أن ترينا أمرا معجزا .

وحسبما سلف بي الذكر ، وعلى الرغم من أننا شرحنا للناس قبل الاستحواذ على معرة النعمان الاوامر والتوجيهات الرسولية لكل من بطرس وأندروز ، لكن بوهيموند وأصحابه سخروا منا ، وفي الحقيقة شكل بوهيموند واتباعه النورمان عقبة ولم يكونوا عونا ، ولهذا كان من الطبيعي أن حاشية ريموند كانت غاضبة وغير راضية لان النورمان استحوذوا على الشطر الاعظم من الاسلاب ، وفي الختام اختلف المقدمون ، فقد عزم ريموند على اعطاء المعرة الى اسقف البارة ، غير ان بوهيموند تشبث بعدد من الابراج التي استولى عليها واطلق تحذيرا قال فيه : « إنني لن اتفق مع ريموند حول أي مسالة ما لم يتنازل لي عن ابراج انطاكية المحتفظ بها » وفي لجة هذه الفوضى والشحناء مضى الفرسان وعامة الناس يتساءلون متى سيتفضل السادة البارونات في استئناف الزحف ، لانه على الرغم من أن الزحف العام قد بدأ منذ أمد بعيد ، غير أن كل يوم بدا كما لو انه بداية حملة صليبية جديدة ، ذلك أن الهدف المنشود لم يتحقق بعد ، واوضح بوهيموند انه لن يستأنف الرحلة

قبل عيد الفصح ، فقد حل الان عيد ميلاد مولانا المسيح ، وهكذا فقد عدد كبير الامل ، وتحولوا راجعين وذلك بسبب هذه المواقف وقلة الخيول ولغياب غودفري وهجرته مع عدد كبير من الفرسان الى بلدوين صاحب الرها .

وبعد لأي اجتمع اسقف البارة مع عدد من النبلاء وجمهور من المعدمين ، وطلبوا من الكونت ريموند تقديم العون ، فبعد ما فرغ الاسقف من عظته انحنى أمام الكونت الذي تسلم الحربة المقدسة ، والتمسوا منه — والدموع تنهمر من عيونهم — أن يجعل نفسه قائدا للجيش ومقدما له ، وذلك لما تضفيه عليه حيازته للحربة المقدسة من مزايا ، ولكونه محط فضائل الرب ونعمائه ، فانه لن يخاف من الاستمرار في قيادة الرحلة بامان مع حشود الفرنجة ، واذا ماتوانى تلكأ الكونت ريموند في تحمل اعباء ذلك يتوجب عليه تسليم الحربة لجمهور الحجاج ، فعندها سيستانف هؤلاء زحفهم نحو الاراضي المقدسة تحت قيادة الرب ، ولاطفهم الكونت ريموند ، ولم يحدد موعدا لاستئناف الرحيل ، خشية منه الا يتبعه البارونات المسافرين ، لانهم كانوا ينظرون اليه بعين الحسد والغيرة .

ولنعمل على انهاء هذه الحكاية المحزنة ، فقد كانت الغلبة لدموع المعدمين ، واضطر ريموند الى تحديد يوم الخامس عشر موعدا لاستئناف الرحيل ، واثار هذا غضب بوهيموند ، فاعلن في جميع ارجاء المدينة ان تاريخ الرحيل سيكون اليوم الخامس او السادس ، ثم مالبث ان عاد الى انطاكية مباشرة ، وهنا انبرى ريموند مع اسقف البارة نحو الاهتمام بتجهيز الحملة ، واختارا الاشخاص وحددا عددهم ، وطلب الكونت ريموند ، في الوقت نفسه من غودفري والذين كانوا معه خارج معرة النعمان ، التجمع في مكان محدد واحد ومن ثم القيام باجراء الاستعدادات اللازمة لاستئناف الزحف .

ثم اجتمع البارونات وعقدوا مؤتمرا في قلعة الروج الواقعة في

منتصف الطريق بين انطاكية ومعرة النعمان ، بيد ان مـؤتمرهم لم يسفر عن اتفاق ، لان المقدمين وعدد كبير ممن سواهم لاسيما مـن اتباعهم عرضوا العديد من المعانير التي تعوق استئناف الزحـف ، ونتيجة لذلك دفع الكونت ريمـوند الى كل مـن غودفـري وروبـرت النورماندي مبلغ عشرة الاف صولدي لكل واحد منهما ، ومبلغ ستة الاف لروبرت كونت فـلاندرز ، وخمسـة الاف لتـانكرد ، ومبـالغ مناسبة لاخرين فاشترى موافقتهم .

وفي تلك الآوانة راجت انباء بين المعدمين افادت ان ريمـوند قـد خطط لمركزة شحنة عسكرية في معرة النعمان تضم عددا من فرسان الجيش ورجالته ، وهنا سخط المعدمون ودارت الاحاديث فيما بينهم وقالوا : انن هذا سر الامور ، خـلافات ومشـاحنات في انطـاكية ، ومثل ذلك في معرة النعمان ، فهـل ياتـرى سـتنفجر النزاعات بين البارونات ، ومن ثم تتـدمر جيوش الرب في كل مـكان يمنحنا الرب اياه ؟ لنضع اذا احدا للصراع هنا ، وحتى يعم السـلام بين القـادة وتنعدم الشحناء ، ولتهدأ خـواطر ريمـوند ويزول قلقـه ، وكيمـا لايضيع الجيش ويتبدد ، هيا بنا لنقوض اسوار المعرة ونهدمها .

وهكذا هـب الجميع حتـى المرضى والضـعفاء ، واقبلوا بعـدما نهضوا من فراشهم واندفعوا نحـو الاسـوار وهـم متـكئين على عصيهم ، وشرعوا في تقويضها ، وكنت ترى الرجل الاعجف النحيف منهم يدفع نحو الامام ونحو الخلف الحجارة الضخمة ، ويلقـي الى خارج الاسوار بحجارة لايكاد ثلاثة ثيران أو أربعة يزحـزحونها في الاحوال العادية ، وتجول اسقف البارة ورجالات ريموند في المدينة ، وهم يحذرونهم ويطلبون منهم التوقف عن اعمـال التخـريب ، لكن الفقراء كانوا يهرولون مبتعدين عن الاسوار ويتخفون عند اقتـراب الاسقف والجند ، انمـا سرعان مـاكانوا يعـودون ويسـتأنفون اعمالهم ، عندما يبتعد هؤلاء عنهم ، اما الذين كانوا يخشون العمل جهارة وكانت تشغلهم مشاغل اخرى ، فـكانوا يعملون اثناء الليل ،

وهكذا كان الجميع يعلمــون ولم يحــل المرض او الضــعف بين اي انسان وبين المساهمة في تدمير الاسوار .

ومالبث ان اصبح شح الطعام حادا الى درجة ان المســيحيين كانوا يأكلون بكل متعة وتلذذ جثث المسلمين الجائفة التي كانوا قد رمــوها في السباخ قبل اسبوعين أو ثلاثة ، وأثار هذا المشهد الاشــمئزاز في نفوس العديد من الحجاج والغرباء ، ومع تزايد الشح بالمؤن ولتردي الاوضاع فقد الكثيرون الامل في وصــول تعــزيزات فــرنجية فقفلوا عائدين ، وكانت ردات فعــل المســلمين والاتــراك وتعليقــاتهم على ماشاهدوه قولهم : ان هذا العرق العنيد الذي لايعرف الرحمة ، ولم يزحزحه الجوع او السيف او شــتى المخــاطر لمدة عام عن اســوار انطاكية ، ويتلذذ بأكل اللحم البشري ، لايمكن ان يقاوم او يقهــر ، من الذي يستطيع ان يفعل ذلك ؟!

وروج المسلمون الكثير من القصص عن هذه الافعال وسواها من الاعمال الخالية من الانسانية ، مما اقترفه الصــليبيون ، ولم ندرك وقتها وقع ذلك وأثره وان الرب قد جعل منا سببا من اسباب الرعب

وبعد ماعاد ريموند الى معرة النعمــان اســتبدبه انذاك الغضــب وسخط اشد الســخط على اتبــاعه ، ومــع هـــذا أثنى على الرب وشكره ، ثم أمر بتقويض أسس الأســوار ، وذلك بعــدما اقتنع ان تهديدات أسقف البارة والبارونات الاخرين وقوتهم لن تثني المعدمين عن عزيمتهم ، وفي الوقــت نفســه كان نقص المؤن وشــح الاطعمــة يتفاقم يوما تلو الاخر ، وصدرت الينا الآوامر بتــوزيع الصــدقات ، والصلاة من اجــل اســتئنافـ الزحــف ، ذلك ان اليوم المحــدد كان يقتــرب ، وفي هــذه الأثناء ازداد قلق كونت طــولوز بســـبب تغيب البارونات الكبار ، ولتفاقم اثر المجاعة في اضعاف الرجــال ، ولقــد أصدر أوامــرهالى المســيحيين بــالبحث عن الاطعمـــة في الاراضي الاسلامية ، ووعد ريموند انه سيسير مع فرسانه في الطليعــة ، غير

ان بعض اتباعه الغاضبين تشكوا اليه قائلين : ان كل مالدينا لايتجاوز ثلاثمائة فارس وحفنة من الرجالة ، فكيف يمكننا تقسيم القوات بحيث يمضي بعضنا الى داخل الاراضي الاسلامية ، ويبقى بعض اخر بين انقاض معرة النعمان بلا قدرة على الدفاع ، ثم اسهبوا في الحديث حول اضطراب الكونت ريموند وعدم استقراره التام .

ومع ذلك سار الكونت في النهاية نيابة عن الفقراء نحو اراضي المسلمين ، وتمكن من الاستيلاء على بعض الحصون واسر بعض الاسرى ، كما قام بالكثير من اعمال السلب والنهب ، ولدى عودته مبتهجا بظفره بعدما قتل عددا كبيرا من المسلمين ، تمكن المسلمون من قتل ستة او سبعة من رجالنا ، ومن المثير للدهشة البالغة ان تلك الجثث كان مرسوما عليها صلبان على الكتف الأيمن ، ولقد شعر المشاهدون ومعهم الكونت ريموند براحة عظمى لدى رؤيتهم لهذا المنظر ، وقدموا الشكر والصلوات الى الرب القادر على كل شيء ، لتذكره الفقراء من عبيده ، ولتوليه اقناع المتشككين الذين مكثوا في القرب من معرة النعمان مع الامتعة عندما حملوا معهم واحدا من الجرحى الذي كان قد اصيب اصابات مميتة ، لكنه ظل يتنفس ، ولقد رأينا معجزة باهرة في هذا الجريح البائس ، فقد كان جسمه قد مزق ، حتى انه لم تعد توجد فيه بقعة تخفي روحه ، ومع هذا عاش هذا الرجل سبعة ايام او ثمانية لم يذق خلالها الطعام ، وجاء هذا شاهدا في تلك الاونة على ان يسوع الماضي الحكم والارادة بكل تأكيد ، كان هو الرب الذي خلق الصليب الذي حمله على كتفه .

الفصل الحادي عشر

استئناف الرحلة والشروع بحصار عرقة

شجع حسن الطالع مع شارات الصليب الطيبة الباحثين عن الطعام ، فخلفوا غنائمهم عند كفر طاب على مسافة أربعة فراسخ من معرة النعمان ، وعاد ريموند وبرفقته الاصدقاء والاتباع الى معرة النعمان ، وفي اليوم المعين رحل الكونت وكهنته واسقف البارة ، وسار الجميع حفاة الأقدام يطلبون رحمة الرب وحماية الصديقين ، بينما راح اللهب الذي أشعله المسيحيون يعلو أنقاض المعرة ، وسار تانكرد في المؤخرة مع أربعين من الفرسان وأعداد كبيرة من الرجالة ، ولدى سماع حكام المناطق المجاورة أنباء استئناف الحملة ، أرسل سادة العرب الى ريموند يلتمسون المهادنة ويعرضون العروض الكثيرة والوعود الجمة بالاستسلام في المستقبل ، يضاف الى هذا السلع االتي يمكن ابتياعها او الحصول عليها بالمجان .

وتابعنا الزحف بأمان معتمدين على وعودهم ، وكانوا قد سلمونارهائنهم كضمان ، ومع هذا نعتقد ان الادلاء الذين بعث بهم الينا حاكم شيزر اساءوا ارشادنا في اليوم الأول ، وكنا وقتها بحاجة الى كل شيء باستثناء الماء الذي توفر عند موقع المعسكر ، غير ان هؤلاء الأدلاء أنفسهم قادونا في اليوم التالي الى واد حشرت فيه ماشية الحاكم والمناطق المجاورة جميعا ، ولعل ذلك كان بسبب ماأشعرناهم به من خوف ، ومع ذلك لوأمر الأقليم بأكمله بإيقاف زحفنا لما استطاع ذلك لأننا امتلكنا ايضا مانحتاج اليه من معلومات ، ففي ذلك اليوم قام ريموند أوف ايل ورفيق له بأسر مبعوث الحاكم ومعه رسائل تحرض جميع السكان على

الجفلة ، ولدى سماع الحاكم خبر اعتقال مبعوثه ، قال : يارجالي تقدموا الى الفرنجة ، عوضا عن الفرار بسرعة من امامهم حسبما امرت من قبل ، لأنه طالما ان الرب قد اختار هذا الجنس فلن اقف معترضا في طريق رغباته ، ثم حمد هـذا الحـاكم الرب الذي يرزق الذين يخشونه ويلبي حاجاتهم .

وكان مشهد هـذا القـسطيع الكبير ـ غير المتـوقع ـ مـن الماشية ، ثم الاستيلاء عليه سببا دفع فرساننا وميسوري الحال منا الى الذهاب الى شـيزر وحمص بـأموالهم لشراء الخيول العـربية قائلين : مادام الرب قد تكفل أمر اطعامنا فلنتكفل نحن بدورنا شأن الفقراء والجيش ، وهكذا حصلنا على نحو الف مـن افضـل الجياد للحرب ، ويوما تلو الآخر استرد الفقراء عـافيتهم ، وغدا الفرسان اشد قوة ، وبدا الحال وكأن الجيش يزداد عددا ، وبتنا كلما تقدمنا بزحفنا كلمـا زادت نعـم الرب علينا ، وعلى الرغم مـن تـوفر المؤن ، فقد جرب بعض الأمراء اقناع ريموند بالتوقف عن الزحـف بعض الوقت بهدف الاسـتيلاء على جبلة المدينة السـاحلية ، بيد أن تانكرد يعاونه بعض الرجـال الشـجعان الطيبين حـالوا دون ذلك معترضين بقولهم : لقد زارنا الرب وزار الفقراء ، فلمـاذا يتـوجب علينا التحول عن متابعة الرحلة ؟ ألم تكفنا المصاعب السالفة التي اعترضتنا اثناء معركة انطاكية مع البرد والجوع والذي عانيناه مـن البؤس والشقاء الانساني ، هـل علينا وحـدنا محـاربة العـالم كله ، ولماذا ؟ فكروا قليلا وتمعنوا فمن بين مائة الف فارس لم يكد يبقى سوى اقل من الف ، ومـن بين مـائتي الف مـن الرجـالة المسلحين ، لم يتبق للقتال غير اقل من خمسة آلاف ، هـل سـنظل نتلكأ حتى تتم تصفيتنا جميعا ؟ هل سيقدم المسيحيون من الغـرب اذا سمعوا عن احتـلال انطـاكية وجبلة وسـواهما مـن المدن الاسلامية ؟ كلا بالطبع علينا الزحف نحو القدس المدينة التي جـئنا نسعى نحوها ، ومن المؤكد ان الـرب سيمنحنا اياها ، ووقتها فقط سيجلوا سكان المدن الأخرى ، الواقعـة على طـريقنا مثـل جبلة

و طرابلس و صور و عكا ، عنها خوفا من موجة الحجاج الجديدة المقبلة من العالم المسيحي.

وفي الوقت نفسه استمر العرب والاتراك في مهاجمة الساقة يقتلون الضعفاء من الفقراء ويستولون على أمتعتهم ، وبعد واقعتين من هذا القبيل نصب الكونت كمينا وقف فيه اثناء مرور الحجاج ، وهنا عندما اندفع المسلمون الذين لم يرتدعوا ـ وممن كان يحدوه الأمل بالأسلاب ـ خلف جيشنا حسب عادتهم من قبل ، مروا الآن أمام كمين الكونت ، فانقض ريموند وفرسانه عليهم ، فأوقعوا الفوضى بين صفوفهم وقتلوهم ثم عادوا سعداء نحو بقية الجيش ومعهم خيولهم ، وسار ريموند وعدد كبير من الفرسان بعد هذه الواقعة خلف الساقة لحراستها ، وبهذه الواسطة توقف العدو عن محاولاته في اصطياد الفقراء ، ومع هذا الاجراء الاحتياطي سار فرسان مسلحون أخرون مع كونت نورماندي ، وتانكرد وأسقف البارة أمام المقدمة حتى لايستطيع العدو النيل منا من الأمام أو الخلف .

ومما هو جدير بالذكر ان اسقف البارة كان قد خلف في البارة حامية قوامها سبعة فرسان وثلاثين من الرجالة تحت امرة وليم بن بطرس اوف كونيليا كوم ، غير انه بناء على نصيحة الكونت انضم الى الجيش لأن الكونت استهدف زيادة عدد الفرسان الذين كانوا سيزحفون من المعرة الى القدس ، وفي وقت قصير تمكن وليم ـ وهو رجل مؤمن عظيم الاخلاص ـ بمعونة الرب ان ينجح رغبات الأسقف فوق تصوراته ، فبدلا من ثلاثين من الرجالة اصبح لديه سبعون مع ستين او اكثر من الفرسان .

واثناء اجتماع لنا وافقنا على تجنب مدينة دمشق والزحف نحو ساحل البحر ، لأنه كان بإمكاننا الاتجار مع قبرص والجزر الاخرى اذا ماانضمت الينا سفننا من انطاكية ، وبعد ان ركبنا هذا الطريق وجدنا ان سكان البلاد قد جفلوا من مدنهم وهجروا تحصينا تهم

ومزارعهم ذات المخـازن المليئة ، ثـم وصـلنا الى واد خصـب جدا (وادي النضارة) بعـدما قمنا بـالدوران حـول جبـال عالية ، وواجهنا هنا بعض الفلاحين متفاخرين بأعدادهم وبقلعتهم المنيعة (حصن الأكراد) ولهذا لم يظهروا نحونا ادنى نوايا طيبة و لم يعطونا اية اشارة الى أنهم سـيتخلون عن قلعتهـم - بـل على العكس من ذلك انقضوا علينا من أعلى جبلهم وقتلوا بعض الاتبـاع المسلحين والرجالة الذين كانوا يبحثون عن الكلأ هنا وهناك وسط الحقول ، وحملوا الأسـلاب الى قلعتهـم ، وزحـف رجـالنا الذين اغضبهم ماجرى نحو سفح الجبل الذي قامت عليه القلعـة ، غير ان السكان لم ينزلوا للاقاتنا ، وعقدنا مجلسا للحرب ، تشكل بعـده فرساننا ورجالتنا في صفوف تسلقت الجبل من ثلاثة جوانب وهزموا الفلاحين ، و كان تعدادهم ثلاثين الفا مـن المسـلمين الذين كانوا يشغلون القلعة ، ومكن الموقع هؤلاء من التراجع واعطاهم الفرصة للاعتصام بـالقلعة او في اعلى المنحـدرات وهـكذا اعاقـونا لبعض الوقت .

انما عندما صرخنا بصيحة حربنا :« ساعدنا يارب ، سـاعدنا يارب » مات حوالي المائة من المسـلمين لانه دب في قلوبهـم الرعب وخافوا خوفا شديدا ، أو لأنهم خنقوا في الازدحـام لدى الاندفـاع للدخول الى القلعة ، وطبعا جرى خـارج الاسـوار _ كمـا هـي العادة _ نهب كبير للمواشي والخيول والاغنام ، وحدث هـذا حيث كنا نحارب ، وهنا حدث انه بينما كان الكونت وفرسانه يجـدون في القتال ، طمع المعدمون منا بـالغنائم ، وبـدا الفقـراء الواحـد تلو الاخر ، ثم الرجالة الفقراء وأخيرا الفرسان الفقراء ، بالتخلي عن ميدان القتال ومن ثم العودة الى خيامهم التي كانت على بعد نحو من عشرة أميال .

وفي الوقت نفسه ، أمر ريموند فرسانه ورجـالته بـالتحصن في مواقعهم ، غير ان المسلمين وقد راوا صفوف الفرنجة بـدات تخلوا من المقاتلين ، شرعوا بالنزول من الجبـل مـع الذين كانوا داخـل

القلعة ، واخذوا في رص صفوفهم وتقويتها ، ولم يتنبه ريموند الى ماحصل ، وكاد ان يفقد الاتصال بفرسانه عبر ممر مقفر شديد الانحدار ، فهناك سارت الخيول في رتل افرادي ، وفي مواجهة هذا الخطر تظاهر ريموند بالتقدم مع رجاله وكأنه على نية الهجوم على المنحدرين من أعلى الجبل مما جعل المسلمين يترددون ، وفي هذه الساعة انعطف الفرنجة وتحولوا نحو منطقة خيل اليهم انها آمنة في الوادي ، وعندها لاحظت كتيبتا الأعداء هذه المناورة ، وكانت احداها على الجبل والأخرى في القلعة ، ولدى مشاهدتهم قواتنا تهبط منحدرة من الجبل ضموا قواتهم واندفعوا يهاجمون رجال الكونت ، وتحت وطأة الهجوم سقط بعض رجالنا من على خيولهم ، بينما اندفع أخرون عبر أماكن شديدة الانحدار فسقطوا وهكذا افلتوا من الموت بأعجوبة ، غير ان بعضهم مات ميتة بطولية .

ومن المؤكد ان ريموند لم يتعرض قط لمثل هذا الخطر الذي كاد ان يفقده حياته ، ولهذا حنق في نفسه حنقا شديدا ، وغضب على قواته اشد الغضب حتى انه لدى عودته الى الجيش وجه التهمة الى فرسانه علنا داخل المجلس بالتخلي عن القتال بدون اذن منه وبتعريض حياته للخطر ، وهنا اقسم الجميع وتعاهدوا على متابعة الحصار الى ان يجعلوا القلعة ببركة الرب دكا دكا . لكن الرب مرشد المسيحيين وحاميهم من كل الكوارث لم يحجهم الى هذا ، فقد القى الرعب في قلوب المدافعين الى حد انهم في تعجلهم بالفرار ، تخلوا عن موتاهم فلم يدفنوهم ، وفي الصباح لم نجد في انتظارنا سوى غنائم الحرب ، وقلعة يسكنها الأشباح :

وتأثر رسل امير حمص وحاكم طرابلس ، الذين كانوا في معسكرنا اثناء هذه الوقائع ، بمنظر شجاعتنا وبقوتنا ، فتوسلوا الى ريموند ان يأذن لهم بالانصراف مع وعد بالعودة سريعا ، وبالفعل رحلوا مع مبعوثنا وبعد امد قصير عادوا محملين بالهدايا الفخمة ومعهم خيول كثيرة ، وكان سبب هذا كله الخوف

الذي استبد بالمنطقة بأسرها بعد أخذنا للقلعة التي لم يكن بـامكان احد نيلها من قبل ، زد على هذا ، بعث سكان المنطقة بـرسالة الى ريموند ، والتمسوا منه ارسال راياته واختامة حتى يتسلم مـدنهم وقلاعهم ، وانكر ان العادة جرت في جيشنا وقضت باحترام راية اي فرنجي وعدم مهاجمة الموقع المرفـوعة عليه ، وهـكذا رفـع حـاكم طرابلس رايات الكونت على قلاعه .

ونتيجة لهذا التحول وضح ان شهرة كونت طولوز لاتفوقها شهرة ومكانـة لاتعلوها مكانة قائد فرنجي اخر ، وتـوجه بعض فـرساننا كمبعوثين الى طرابلس ، وهناك بهرهم الثراء الملكي الذي شـهدوه وراعتهـم الممتلكات الغنية و المـدينة المزدحمـة بـالسكان ، ولذلك اقنعوا ريموند بأن حاكم طرابلس سوف يمنحه خلال أربعـة ايام او خمسة كميات من الذهب والفضة كبيرة تقر عينه بهـا اذا مـاحاصر عرقة ، وعرقة موقع حصـين جـدا ، لايمـكن لقـوة بشرية التغلب عليه ، ومع هذا حاصرنا عرقة بناء على رغبـاتهم ، وهـكذا جعلنا رجالا شجعانا منا يعانون متـاعب لم يعـرفها أحـد ، ويؤسـفني القول : اننا تحملنا خسائر هائلة كان منها العـديد مـن الفـرسان المميزين ، وقد مات واحد من هؤلاء الفـرسان واسـمه بـونز أوف بالازون نتيجة اصـابته بحجـرة اطلقـت عليه مـن عرادة ، وكانت توسلاته هي التي جعلتني أواصل هذا العمـل الذي تجشـمت عناء كتابته من أجل جميع اصحاب العقيدة المسـتقيمة ، لاسـيما الذين يعيشون وراء جبال الالب ، ومـن أجلك انت ، ياصـاحب النيافـة أسقف فيفييه .

وساحرص عظيم الحرص بالهام من الرب الصانع الحقيقي لهذه الأحداث ، على اكمال روايتي بالحب نفسـه الذي بـدأت بـه داعيا وراجيا أن يثق كل من سيسمع بهذه الأشياء بحقيقتهـا ، وليثقلني الرب بأهوال الجحيم ، وليمحـوا اسـمي مـن سـجل الأحياء اذا اضفت ـ بدافع الحماس لأي شـخص أو الكراهية ـ اي شيء الى هذا الكتاب غير ماصدقته أو رايته ، وعلى الرغم من جهلي لأشياء

كثيرة انني اعرف ان من واجبي ـ منذ ان تقدمت الى الكهنوت على صليب الرب ـ ان اطيع الرب ، وان احكي الحق ، والا الفق الاكاذيب ، وبودي الاستمرار بالود نفسه والمحبة ذاتها في سرد اخبار تاريخي ، حسبما حث بولس على ذلك عندما قال : « ان المحبة لاتسقط ابدا وليساعدني الرب » (الرسالة الأولى الى أهل كورنثوس : ٨/١٣)

وفي أثناء الحصار المطول كانت سفننا القادمة من انطاكية واللاذقية مع السفن الاغريقية وسفن البنادقة ترسو و بها الحبوب والنبيذ والشعير ولحم الخنزير وسلع اخرى يمكن بيعها ، ومع هذا سرعان ماابحر البحارة عائدون الى موانيء اللاذقية وطرطوس لأن عرقة وقعت على مسافة ميل من البحر ، ولم تجد السفن مكانا ترسو فيه ، وكان المسلمون قد جفلوا من طرطوس قبل حصار عرقة وطرطوس مدينة جيدة التحصين لها أسوار داخلية وخارجية ، كما كان بها كميات كبيرة من المؤن ، وقد هجرها سكانها بسبب الرعب الذي بثه الرب في قلوب المسلمين والعرب في هذه المنطقة ، وهو رعب جعلهم يوقنون اننا كنا نمتلك قوى كبيرة ، وننوي تدمير بلادهم بلا شفقة .

ومع ذلك امطرنا الرب بمختلف انواع المصائب وذلك انه لم يشأ مساعدتنا في حصار قمنا به في سبيل مصالح ظالمة وليس في سبيله ومن المثير للدهشة ان المسيحيين بعدما كانوا متشوقين للمعارك ويستعدون لها باتوا الآن لايميلون الى القتال ولايتمتعون بالحيوية ، ومع هذا سار جند المسيح الملهمين اما جرحى او مرهقين بعد ماحاولوا عمل كل شيء ، لكن وجدوا ان لاطائل من وراء جهودهم .

و في أثناء حصار عرقة مات انسلم أوف ريبمونت ميتة مجيدة فقد افاق صباح ذات يوم فاستدعى كاهنة اليه واعترف بزلاته واثامه وطلب الرحمة من الرب ، وتحدث انه على وشك الموت ، ووقف الذين

سمعوه مندهشين لان ماقاله صدمهم ولان انسلم بداسليما معـــاق ، وهنا هتف بهم قائلا : لاتندهشـوا واصـغوا الي : رايت في الليلة المنصرمة اللورد انجلراند من سان بول ، وكان قد مات في المعـرة ، وسالته وانا في كامل وعيي : ماالذي يجـري هنا ، انت مـت واراك الان هنا حيا ؟ فرد علي لورد انجلراند : ان الذين يقتلون في خـدمة المسيح لايموتون ابدا ، فسالته مجددا عن مصـدر بهـائه المنقـطع النظير فاجابني قائلا : ليس في هـذا مـا يدهش لانني اعيش في دار رائعة ، وفي الحال آراني بيتا في عليين رائعا ومريحا لم أر ما يضاهيه ، و بينما وقفت مذهولا امام المشـهد قـال لورد انجلراند هناك بيتا اجمل منه كثيرا معد لك غدا ، وبعد ذلك صعد .

وبعدما انتشرت هذه الحكاية انتشارا واسعا ، تقـدم انسـلم في اليوم نفسه الى قتال بعض المسلمين الذين تسللوا الى خارج قلعتهم على امل الاستيلاء على شيء او اصابة شخص ما ، وفي القتال الذي اعقب ذلك قاتل انسلم بـكل شـجاعة ، غير انه اصـيب في راسـه بصخرة من حجارة المنجنيق فتـرك هـذا العـالم ليعيش في بيتـه السماوي الذي اعده له الرب .

وقدم بعد ذلك الى عرقه رسول من عند ملك بابليون (مصر) مع رسلنا الذين سرحهم بعدما حبسهم عنده لمدة سنة ، وكان هـذا الملك مترددا بين اختيارنا او اختيار الاتراك ، وقد عرضـنا على رسـوله الشروط التالية : ان هو ساعدنا في القدس او اعاد هذه المدينة الينا مع ما يتبعها فاننا سنعيد اليه مدنه السالفة التي كان الاتـراك قـد انتزعوها منه وذلك في حالة استيلائنا عليهـا ، وبـالاضافة الى ذلك سنقتسم معه جميع المدن التركية الاخـرى التـي لاتقـع في نطـاق ممتلكاته ولكن ياتي الاستيلاء عليها بمساعدة منه .

وترددت اقاويل بان الاتراك قد وعدوه انه اذا ما تحالف – ملك مصر – معهم ضدنا فانهم سيقدسون عليا قريب محمد(صـلى الله

عليه وسلم) الذي كان يقدسه ، وسيتعاملون بنقوده ويدفعون له الجزية وسيوافقون ايضا على تنازلات اخرى لم نتعرف اليها .

ومن رسائل عثرنا عليها في خيام ملك مصر بعد معركة عسقلان كان قد بعث بها اليه الكسيوس لابد انه قد عرف ان جيشنا كان صغيرا وان الامبراطور كان يتآمر على تدميرنا ، ولهذا السبب وغيره احتبس رسلنا عنده في مصر لمدة سنة ، اما الان فعندما وصلته تقارير عن دخولنا الى اراضيه وما رافق ذلك من تدمير لقراه وحقوله واشياء اخرى ابلغنا انه يمكن لمائتين او ثلاثمائة منا ان يمضوا كل مرة الى القدس انما بدون سلاح ، ثم يعودوا بعد عبادة الرب ، لكن ثقة منا برحمة الرب رفضنا عرضه وابلغنا انه ما لم يعد الينا القدس بدون تحفظات فسنزحف على مصر .

وانكركم ان الامير الذي كان يحتل القدس انذاك تمكن من ذلك بعد ما وصلته اخبار الكارثة التركية في انطاكية ، فقد حاصر القدس ، وهو يعرف ان الاتراك الذين كانوا وقتها عرضة للهزائم والابادة لن يقاوموه ، وتسلم القدس بعدما اعطى الى المدا فعين عنها هدايا ثمينة ، وقدم قرابين من البخور والشموع عند القبر فوق جبل الجلجلة .

ولنعد الان الى اخبار حصار عرقة ، وفي وسط انشغال جيشنا هناك ، اتتنا كما قلنا اخبار تفيد ان بابا الاتراك (الخليفة العباسي) تتبعه قبائل كثيرة ، لانه كان من سلالة محمد (صلى الله عليه وسلم)كان في طريقه الى قتالنا ، فوضع الجيش في حالة تاهب للقتال ، وتم ارسال اسقف البارة الى غود فري وكونت فلاندرز ، وكانا في جبلة ، وهي حصن يطل على البحر قائم في منتصف الطريق بين عرقة وانطاكية ، وعلى مسيرة يومين تقريبا من كل منهما ، بيد أننا عرفنا انذاك ان الامر مجرد اقاويل زائفة اشاعها المسلمون وروجوا لها ليرهبونا فينالوا بعض الراحة اثناء الحصار ، وبعد تجمع الجيوش ، راح رجال حاشية الكونت يتباهون بخيولهم

العربية وبثرواتهم التي منحهم الرب اياها في اراضي المسلمين ، لانهم واجهوا الموت في سبيله ، ومع هذا كان هناك اعداد كبيرة ممن زعموا انهم مازالوا في فقر مدقع .

وبسبب وجود الاعداد الكبيرة من الفقراء والضعفاء توفر تحريض للفقراء على تقديم عشر غنيمة الحرب ، وكان التقسيم الذي سمح به حسبما يلي : ربع للكهنة الذين يقيمون القداسات ، وربع للاسقف ، والنصف المتبقي الى بطرس الناسك الذي كان الحارس المرخص له بحماية الفقراء ورجال الدين وعامة الناس واعطى بطرس بدوره بعضا من هذا المبلغ الى رجال الدين والعامة ، ونتيجة لهذا ضاعف الرب عدد الخيول والجمال ولوازم الجيش الاخرى ، حتى اخذ العجب والدهشة من الصليبيين كل ماخذ ، غير ان هذا الرخاء المفاجيء كان سببا في النزاع بين القادة وفي رعونتهم وعجرفتهم ايضا ، الى درجة ان اشد المسيحيين اخلاصا للرب ، تاقوا الى الفقر ، والى ان تهددنا مخاطر القتال الرهيب .

وعرض علينا حاكم طرابلس خمسة عشر الف قطعة من الذهب من نقود المسلمين ، فضلا عن الخيول والبغال والثياب الكثيرة ، بل والمزيد من هذه الهدايا في السنوات المقبلة ، وحتى نقدر قيمة هذا العرض ينبغي ان نعرف ان قطعة ذهبية واحدة كانت تساوي ما بين ثمانية الى تسعة صولديات ، وكانت العملات المتداولة بيننا تشمل البيكتا فاني (بواتو) والكارتنيس (شارتر) والمانسيس (مانز) واللوكنيسيس (اوكويس) والفالانزاني (فالنس) والميلجو ريزنسيس (ملجويل) والبوجيزي (بوي) وكان الاسمان الاخيران يستخدمان بدلا من الاسماء الاخرى ، يضاف الى ذلك ارسل حاكم جبلة الذي خشي من حصار اخر - الى قادتنا جزية قدرها خمسة الاف قطعة ذهبية مع خيول وبغال وكميات كبيرة من النبيذ .

وتوفرت لدينا المؤن لان الهـدايا كانت تـرسل الينا مـن القـلاع والمدن الاخرى غير الجبلية ، زد على هذا قام بعض المسلمين بدافع الخوف او الحماس لطريقتنا في الحياة بـالتنصر (كذا ؟) ونتيجـة لهذا الثراء الجديد ، بعث كل واحد من امرائنا بـالرسل والرسـائل الى المدن الاسلامية يبلغها أنه هو السيد بين الفرنجة ، و على هـذه الصورة كان سوء سلوك امرائنا في ذلك الوقت وكان تانكرد من اكبر مثيري الشغب والفتنة ، ولعلكم تذكرون ان تـانكرد كان قـد تلقـى خمسة الاف صولدي وحصانين عربيين اصـيلين وفـاخرين ، مـن ريموند ، مقابل خـدماته اثناء الرحلة الى القـدس غير انه كان الآن يريد الانضمام الى قوات غودفـري ، وهـكذا دب النزاع بينه وبين ريموند ، واخيرا تخلى تانكرد بكل خسة عن الكونت.

الفصل الثاني عشر

رؤى ومحنة الحربةالمقدسة

اعلنت في هذه الأونة رؤى كثيرة بعث الرب بها الينا ، وسـأحكي انا مصنف هذا الكتاب خبر الرؤيا التـالية على عهـدة الشـخص الذي رآها حيث قال : «في اليوم الخامس من نيسان لعام ١٠٩٩ لتجسيد مولانا ، وبينما كنت أنا بطرس بارثلميو أسـتريح في بيعـة الكونت اثناء حصار عرقة ، تفكرت في الكاهن الذي تجلى له الرب بـالصليب في ايام حصار كربوغا ، ولما تساءلت لماذا لم يتجل لي على الصليب ، وفيمـــا انا في هـــذا الحـــال رأيت فجـــأة الرب والرسولين : بطرس وأندروز مع شخص غريب ضخم الجثة ، قاتم البشرة واسع العينين أصلع تقريبا ، يدخلون البيعة ، وما لبـث أن سألني الرب : ماذا تفعل ؟فـأجبت : أنا واقـف هنا ، فـاستأنف الرب كلامه قائلا : لقد قهرتك الآثام الى حد كبير ، مثل الأخـرين ولكن ما هي افكارك الآن ؟فأجبته : يارب ، يا أيهـا الأب ، كنت اتفكر في الكاهن وبظهورك على الصـليب له ، فقـال الرب : انني أعرف ذلك ، وتابع يقول : آمن أنني أنا الرب الذي مضيت في سبيله تحمل الصليب ، وانني تحملت الآلام على الصليب في القدس ، مـن أجل خطاياكم ، واذا آمنت بذلك فلسوف ترى .

ثم رأيت صليبا مصنوعا من قطعتين من الخشب الأسود المسـتدير المصقول ، مركبا بشكل سيء ، باستثناء الوصـلات المسـننة التـي تدعمه عند المنتصف ، وأمرني الرب قائلا : حـدق بـالصليب الذي تفتش عنه ، وعلى الصليب كان هناك الرب ممددا ومصلوبا ، تماما مثلما هو في الآلام ، وكان بطرس يسنده مـن يمينه وأندروز يمسـك بكتفيه من على شماله ، والغريب يسنده بيديه من خلفه .

وتابع الرب في اصدار توجيهاته قائلا : ابلغ شعبي بهذه الرؤيا
هل ترى جراحي الخمسة ؟ مثل هذه الجراح،ليقف الحجاج في خمسة صفوف ، وعلى الذين يقفون في الصف الأول الا يخشوا الرماح ولا السيوف ولا من اي نوع من المحن ، ان الذين مضوا الى القدس دون خشية من السيوف والرماح والفؤوس والعصي يشبهونني ، انهم بحملهم للصليب يموتون من أجلي كما مت من أجلهم ، ونحن معا نسكن روحيا الواحد منا الآخر ، وعند موتهم سيجلسون على يمين الرب في المكان الذي جلست فيه بعد قيامي وصعودي ، اما الذين يقفون في الصف الثاني فهم مساعدون للذين في الصف الأول ، وهم قوة المؤخرة وهم ضمان ووقاية في حالة الفرار
ويمكنني القول ان هذا الصف يشبه الرسل الذين تبعوني وشاركوني الطعام اما الذين في الصف فينكرونني - انيعملون بالامداد فيمدون الذين يقاتلون بمختلف الاشياء مثل الحجارة والرماح - بالذين راحوا يضربون صدورهم ويصرخون في مواجهة الظلم عندما كنت معلقا على الصليب أعاني من الالام ، اما الذين في الصف الرابع ، الذين أغلقوا على انفسهم بيوتهم وانصرفوا للاهتمام بشؤونهم فقط لدى نشوب الحرب ، لاعتقادهم أن النصر لا يكمن في قوتي انا بل في الحكمة البشرية ، هؤلاء يشبهون الذين صلبوني قائلين : انه يستحق الموت ، خذوه الى الصليب لأنه يزعم انه ملك وانه ابن الله ، وعندما سمع الذين يقفون بالصف الخامس جلبة المعركة نظروا اليها من بعد ، وفتشوا عن أسبابها ، فأظهروا الجبن بدلا من الشجاعة ، ولم يقوموا بأدنى مخاطرة في سبيلي ، أو في سبيل اخوانهم ، وفي الحقيقة انهم تحت قناع الحذر يدعون الذين يرغبون في خوض المعركة أو على الأقل في تقديم السلاح ، أن يجلسوا فقط على الخيول ، انهم والحق أقول اشبه بالخونة : يهوذا والقاضي بونطيوس بيلاط .

وكان الرب معلقا على الصليب عاريا الا من خرقة مدلاة من خاصرته الى ركبتيه وهي ذات ظل أسود وأحمر تحفه شرائط بيضاء وحمراء وخضراء ، واختفى بعد ذلك الصليب وبقي الرب بملابسه

السالفة ، فقلت له مـولاي الرب ، انني اذا مـا ابلغتهـم بـذلك فلن يصدقوني ، ورد الرب قائلا : هل تريد معرفة المتشككين ، فـأردفت قائلا نعم انني بالفعل أريد ذلك ، وهنا أمرني المسيح قـائلا : اطلب من الكونت أن يجمع القادة والعامة معا ، ودعهم يصطفون كمـا لو كانوا في قتال أو حصار ، واطلب في الوقـت المناسـب مـن افضـل المنادين أن يطلق صيحة الحرب : «عاونا يارب» ثلاث مرات ، واطلب منهم أن يسعوا لاكمال التعبئة للقتال ، وعندهـا سترى كمـا قلت لك الصفوف وستتعرف على المؤمنين والمتشككين .

ثم سألته : ما الذي علينا أن نفعله بالمتشككين ؟ فأجاب الرب : لا تظهروا لهم أدنى رحمة ، اقتلوهم انهم من الذين خـانوني ، انهـم اخوة يهوذا الأسخر يوطي ، ووزعوا ممتلكاتهم الدنيوية على الصف الأول وفقا لاحتياجاتهم ، وستجدون بهذا الصنيع الطـريق القـديم الذي كنتم حتى الآن تدورون حوله ، ومثلما تحققت نبوءات التجليات الأولى ستتحقق هذه،وبهذه المناسبة هل تعـرف الجنس الذي أنظـر اليه نظرة خاصة ؟ واجبتـه قـائلا : الجنس اليهـودي،فقـال الرب : انني أحمـل لهـم عظيم الكراهية بصـفتهم مـن الكفار ، واصنفهم مع أحط الأجناس ، لهـذا تـأكدوا انكم لسـتم كفارا ، والا ستكونوا مع اليهود ولسوف أختار شعبا أخر واحقـق لهم وعودي التي وعدتكم بها .

ثم أمرني الرب أن اتلو على مسامع الحجاج قوله : «لماذا تخشـون من اقرار العدالة ، دعوني اسألكم ما الذي يفوق العدالة ؟ لذلك أريد منكم أن تقوموا بما يلي : عينوا قضاة بين الأسر والاقـارب ، واذا اقترف انسان جرما في حق أخر ، فليسأله القاضي : أيهـا الأخ هـل تحب أن تعامل مثل هـذه المعـاملة ؟ واذا ركب رأسـه واسـتمر في عدوانه فليحكم القاضي عليه وفقا لما يقضيه القانون ، وبناء على ذلك ليشعر القـاضي بحـريته في أن يسـتولي على جميع ممتلكات المدعى عليه، فيعطي نصفها للمدعي ، ونصفها الآخر للسلطات ، واذا مـا قال القاضي كلاما يحتمـل وجهين وذلك لأي سـبب مـن

..سباب ، امض اليه واخبـره أنه اذا لم يصـلح ذلك الأمـر ، فلن
. . منه حتي يوم القيامة ، الا اذا حللته أنت ، هل تعرف كم هـو
.. ..مان عبء ثقيل ؟ لقد امرت آدم الا يلمس شجرة المعرفة – أي الخير والشر – فخالف امري ، وهكذا مـكث هـو وذريتـه في قيود التعاسة ، حتي قدمت علي شكل انسـان فـان ، ففـديتهم بصـلبي
واقول لكم ان بعضكم ينبغي ان يأخذ من العشور لانهـم أعطـوا حسبما امروا ، وسأكافئهم واعطيهم واجعلهم من المتفوقين .

وبعد كلام الرب طلبت منه أن يتعـطف بقلبـه فيعيد الي معـرفة الصلوات التي اخـذت مني حـديثا في انطـاكية ، وسـألني الرب .. . الا تكفي معرفتك حتي تحـكيها ؟ ومـع هـذا أرى أنك تـريد معرفة المزيد ، واصـبحت فجـأة أشـق بحـكمتي ولم أطلب المزيد ، فأجبت يكفيني مـا أعرف ، ثـم اسـتأنف الرب كلامـه قائلا ، ما الذي اخبرتك به ؟ اجبني ، ووجدتني الآن لا احير جوابا
وعندما الح علي حتى أردد كلمـاته اعتـرفت يا رب أنا لا أعرف شيئا ، ورد علي الرب امض واحك ما تعرفه وسيكون ذلك كافيا .

وعندما القيت على مسامع الاخـوان هـذه الاشـياء ، قـال بعضهم انهم لن يصدقوا أبدا أن الرب أجرى حوارا مـع انسـان كهذا ، متغاضيا عن الأمراء والأساقفة ، و متجليا بنفسه لفلاح امي جلف ، لا بل أكثر من هذا لقد تمـادوا بعيدا حتـى أخـذوا يرمـونه بالشكوك حول الحـربة المقـدسة ، و بناء عليه جمعنا الذين ظهـرت الحربة من قبل امامهم ، ثم استدعينا أرنولف كاهن كونت نورماندي الخاص و زعيم المتشـككين بصـحة الرؤيا ، مـع انه كان يتمتـع باحترام كبير بسبب علمه ، ثم سألناه عن شكوكه

فأجاب انه يتشكك لان الاسقف ادهمر كان نفسه قد تشكك حول حقيقة الحربة وأصالتها ، وهنا انبرى له الكاهن بطرس ديزيديريوس بقوله : رأيت ادهمر بعد موته هو والمبارك نيقولاس ، وقال لي بعـد كلام : انني أقيم في الضيافة العلوية للقديس نيقـولاس ، وكنت قـد

اخذت الى الجحيم ، فأحرق شعر النصف الايمن من راسي مع نصف لحيتي ، وذلك لأنني قد ترددت بالايمان بـالحربة ، في حين كان علي ان اقبلها انا بالذات مـن دون الناس ، والآن على الرغم مـن انني لست عرضة للعقاب ، انني لا أستطيع ان ارى الرب بوضوح حتـى يحصل النمو الكامل لشعري ولحيتي من جديد .

وتقدم كاهن اسمه ايبرار وقال : كنت قد ذهبت الى طرابلس قبـل الاستيلاء على انطاكية بـوقت قصـير وهناك كنت أعيش حيا ارزق عندما سمعت بحصار كربوغا للحجاج ، وعندما سمعت بهذه الأخبار عرفت أن دخول انطاكية والخروج منها بات امرا مسـتحيلا ، كمـا انني سمعت الكثير عن المصائب الحقيقية والوهمية التـي روجتهـا اقاويل المسلمين ، لهذا التجـأت الى كنيسـة خـوفا مـن الردى وارتميت أمام تمثال مريم العذراء ، وطلبت لعدة أيام بـالصلوات والدموع رحمة الرب متوسلا بشفاعتها ، وكنت صائما وواظبت على التوسل بقولي : أيتها السيدة الفـاضلة ان هؤلاء حجـاج هجـروا اطفالهم وزوجاتهم وتخلوا عن ممتلكاتهم الدنيوية باسم المسيح ومن اجلك ، وها هم الآن وقد ارتحلوا مـن امـاكن نائية في سـبيل ابنك فـاشفقي عليهـم يا مـولاتي ، وفـكري في راي ابنك ورايك وفي اراضيهم اذا اسلمتيهم الى الاتراك .

ورحت أتمتم بهذه الكلمات وأتأوه المرة تلو الاخرى ، عندمـا جـاء مسيحي سوري وقال لي : توقف عن البكاء وابتهج ،ثم تابع يقول : منذ أمد قصير وقفت أمام أبواب كنيسة مريم المباركة أم المسـيح واذا انا بكاهن بملابس بيضـاء يتجلى لي ، وعندمـا سـألته عن اسمه وعن وطنه أجاب انني مرقس ، المبشر الانجيلي ، جئت للتو من الاسكندرية ، وقد عرجت على هذا المكان بسبب كنيسـة مـريم المباركة .

ثم سـألته عن وجهتـه فـأجابني : ان المسـيح مقيم الآن في انطاكية ، وقد امر حوارييه بالانضمام اليه حتى يقدما يد المعونة في

الحرب التي لا بد أن يخوضها الفرنجة ضد الأتراك ، ثم ما لبث أن

وعندما بقيت على حزني وشكي ودموعي طمأنني السوري نفسه بقوله : لا بد أن تفهم أنه مدون في انجيل بطرس المبارك أن الحشد المسيحي المقدر له الاستيلاء على القدس ، سيحاصر أولا في انطاكية ، ولن يخرج من الحصار الا بعد أن يجد الحربة المقدسة ، ثم أيد ايبرار كلامه قائلا: اذا كان أحد متشكك في هذا أشعلوا نارا للامتحان ، ولسوف أعبرها باسم الرب دليلا على ذلك .
وتقدم كاهن آخر هوستفن من فالنس ، وهو رجل محترم وطيب فأضاف الى هذه الشهادة قوله : لقد تحدث المسيح إلي في محنة من أشد المحن وبحضور أمه مريم العذراء المباركة ووعد أنه في اليوم الخامس من هذا الحديث سيكون رحيما وينهي آلام المسيحيين ، اذا عدوا اليه بكل قلوبهم ، واعتقد أن الرب كان صادقا في كلمته ، لأن الحرب المقدسة اكتشفت في اليوم الخامس ، والآن اذا كنتم لا تصدقونني فانني أقول انني بعد هذه الرؤيا مباشرة عرضت على ادهمر مباشرة كبرهان على صحة ذلك أن أخوض محنة النار امام الجمهور أو أن أقفز اذا شاء من أعلى برج من الأبراج ، وأن أعرض عليكم الآن الشيء نفسه .

وزاد أسقف ابت قائمة شهودنا المتنامية ، فتقدم وشهد أن الرب فقط يعرف ما اذا كنت قد رأيت ذلك في المنام أم لا ، لأني لا أعرف بكل تأكيد ، ومهما يكن من أمر لقد وقف أمامي رجل بثياب بيضاء وهو ممسك بيده بحربة الرب ، أقول هذه الحربة ، و سألني هل تعتقد أن هذه حربة الرب ؟ وأجبته : بالتأكيد يا مولاي ، غير انه لما بدا علي عدم الاقتناع طلب مني بخشونة اجابتين اخريين فكررت : انني أؤمن أن هذه هي حربة الرب ، يسوع المسيح واختفى بالحال .

ثم أضفت أنا – مؤلف هذا الكتاب – امام الأخوة والأسقف الى

هذه الشهادة : لقد كنت في كنيسة القديس بطرس عندمــا اخــرجت الحربة من تحت الارض ، وهناك عدد كبير اخر من الشهود على ذلك في الجيش ، ثم تابعت أقول ' هناك كاهن هو برتراند اوف لي بــوي وكان عضو في أسرة أدهمر أثناء حياتــه ، وقــد اصـيب بمــرض عضال في انطاكية ، وفي تلك الاثناء ظهر لبرتراند ادهمــر ، وهــرقل حامل رايته الذي اصيب بوجهه بسهم وقتل ، بعدما هاجم الاتــراك بشجاعة في أشرس معركة دارت في انطاكية .

وهنا سأل أدهمر : مــــاذا تفعـــل يا بـــــرتراند ؟ فــــأجاب هرقل : ياسيدي انه مريض ، فأجاب الأســقف : انه مــريض لأنه متشكك ، وهنا تمتم برتراند ' انني يا سيدي لا أؤمن بحربة الرب مثلما أؤمن بآلام الرب ، فحــذره أدهمــر بقـــوله ' ان هـــذا لا يكفي ، ينبغي أن تؤمن بأكثر من ذلك ، ومع أن الذي تلا ذلك خــارج عن موضوعنا ، إنني سأدونه لأهميته ولدفعه الذين يستحقون .

عندما اضطر برتراند المريض المدنف إلى الجلوس امــام ادهمــر ومولاه هرقل رأى عندما جلس هناك جرح السهم المحزز الذي انهى هموم ادهمر الدنيوية ،و هنا سأله برتراند لقد ظننا يا ســيدي أن جرحك التأم ، ولكن ما هذا ؟ فرد عليه هرقل هــذا ســؤال جيد ، إنني عندما جئت إلى الرب يســوع المســيح تــوسلت إليه أن يتــرك جرحي مفتوحا دون التئام ، ولم يكتف أدهمر وهرقل بابلاغ برتراند هذا فقط بل اضافا اشياء أخرى لاتتعلق بهذه الرواية

وسلم أرنولف وامن بالحربة ، واعترف بعدما ســمع بهــذه الرؤيا وغيرها ، لا بل زاد على هذا بأن وعد أسقف البارة .انه سيكفر عن تشككه تكفيرا علنيا ، غير أنه عندما جاء في أحد الأيام إلى اجتمــاع أعلن انه يؤمن كل الايمان بالحربة ، ومع هذا قال كلامــا فيه بعض التورية وذلك عندما قال : إنه سيكفر فقط بعدما يتشاور مع ســيده الكونت .

وأثار موقف أرنولف سخط بطرس بارثلميو ، وكان على حــق لانه

كان رجل صدق وصراحة لهذا اندفع قائلا : إنني لا أتمنى فقط بل اتوسل إليك أن تشعل نارا ، وسأخوض محنة النار وفي يدي الحربة المقدسة ، فإذا كانت هي حربة الرب حقا فإنني سأخرج منها دون أن اكوى بالنار ، لكنها إذا كانت حربة زائفة فستهلكني النار ، وأنا حين أعرض تولي فعل ذلك لأني أرى انه ما من أحد يصدق الرؤى أو الشهود .

وارضى هذا الجمهور ، وحددنا موعد محنة النار في يوم آلام الرب على الصليب من أجل خلاصنا ، وأمرنا بطرس بارتلميو بالصوم ، وبعد اربعة أيام ومع بزوغ فجر الجمعة الحزينة (٨ نيسان ١٠٩٩) شرع باعداد كومة الأخشاب ، واكتملت بعد منتصف النهار ، واحتشد نحو من ستين الفا من النبلاء والعوام مع رجال الكنيسة وهم حفاة الأقدام يرتدون الثياب الكهنوتية ، ورصت اغصان الزيتون الجافة في كومتين ارتفاعهما اربعة أقدام ، يفصل بينهما نحو قدم واحد ، ويبلغ طولهما ثلاثة عشر قدما .

وبعد اشعال النار ، وارتفاع لهيبها في الهواء أعلنت أنا ريمون دي جيل بحضور الحشد بأكمله : إذا كان الرب القادر على كل شيء قد تحدث إلى هذا الرجل شخصيا ، وإذا كان القديس أندروز قد كشف له الحربة المقدسة في صلاة العتمة ، فليمش وسط النار دون أن يمسسه أذى ، ولكن إذا كانت هذه أكذوبة فلتلتهم النار بطرس بارتلميو والحربة ، وركعت الحشود قائلة : آمين ، وارتفعت الحرارة اللافحة ثلاثين ذراعا في الهواء ، ولم يستطع أحد الاقتراب منها .

ثم ركع بطرس بارتلميو على ركبتيه وهو يرتدي ثوبا كهنوتيا بسيطا بدون اكمام ، ركع أمام أسقف البارة ، واشهد الرب على أنه قد رأى المسيح شخصيا على الصليب ، وتلقى منه التعليمات المذكورة أنفا ، وتلقى أيضا تعليمات وأوامر من القديس بطرس

والقديس أندروز ، وأن الأوامر التي بلغها باسم القديس بطرس . أو القديس أندروز أو المسيح لم تكن من تأليفه ، وأضاف قائلا إنه إذا كان قد كذب فلن يخرج حيا من الكومة المشتعلة ، ودعا أن يغفر الرب له على تطاوله على الرب وعلى جيرانه ، وأيضا على الأسقف والمشاهدين لهذه المحنة ، وسلمه بعد ذلك الأسقف الحربة ، وركع بطرس ورسم شارة الصليب ، ومشى داخل الكومة المشتعلة بكل شجاعة ، ودون أن يخيفه شيء ، لقد سار في وسطها بتمهل ، وخرج اخيرا ببركة الرب من وسط اللهب .

ويزعم حتى يومنا هذا بعض الشهود أنهم راوا الآية التالية : طار طائر فوق رأس بطرس قبل أن يخرج من وسط النيران ، ودار ونزل في النيران ، وشهد بذلك كل من ايبرار الذي ذكرناه من قبل ، والذي اقام في القدس من أجل الرب ، ووليم بونوفيليوس ، وهو فارس محترم ممتاز من أرليس ، وذكر وليم مالوس بوير ، وهو فارس محترم من بيزييه أن رجلا يرتدي الزي الكهنوتي مع ثوب القداس فوق رأسه ، دخل اللهب قبل أن يدخل بطرس ، وذكر وليم أنه بدأ يصرخ عندما لم يستطع أن يرى الرجل يخرج من النار لأنه أخطأ ، وظنه بطرس بارثلميو ، واعتقد أن بطرس قد التهمته النيران .

وفي وسط الزحام الشديد كانت هناك اشياء كثيرة لم تشاهد جميعها ، إنما كانت هناك تجليات وأحداث كثيرة نحن نعرفها بكل تأكيد ، إنما لن نحكيها خوفا من اصابة القارىء بالملل ، فضلا عن ذلك إن توفر ثلاثة من الشهود الواعين يعد كافيا للبت في جميع الأحكام ، ومع هذا لن نهمل رواية ما يلي : بعدما عبر بطرس النار ، راح الجمهور الذي أصيب بالخوف يتخطف الأغصان المحترقة والفحم المتوهج حتى أنه لم يبق بعد وقت قصير إلا الأرض التي اسودت من النيران ، و صنع الرب فيما بعد من خلال هذه الآثار التي آمن بها الناس ، الكثير من الأعمال الجليلة .

لقد سار بطرس وسط النيران ولم يحترق ثوبه الكهنوتي ولا الحربة

المقدسة التي كانت ملفوفة بأغلى أنواع الأقمشة ، ولدى خروجه لوح للحشود ورفع الحربة وهتف قائلا : يا رب ساعدنا ، وهنا أمسكت به الحشود ، أقول أمسكت به الحشود وجذبته نحو الأرض ، وأخذ كل فرد ـ تقريبا ـ من الرعاع يدفع ويتدافع ظانا أن بطرس على مقربة منه ويأمل في أن يلمسه أو يختطف قطعة من ثيابه ، وجرحه الرعاع ثلاثة جروح أو أربعة في ساقيه أثناء التزاحم ، كما كسروا عموده الفقري ، واعتقد أن بطرس كان سيلقي حتفه هناك لولا أن ريموند بيليه ، وهو فارس مشهور وشجاع ، قام بمساعدة رفاق له كثيرون بمهاجمة الرعاع المتدافعين ، وجازف بحياته حتى انتزعه منهم ، غير أنه لا يمكننا كتابة المزيد بسبب حزننا وأسانا .

وبعد التئام جراح بطرس بقي حيث حمله ريموند بيليه ، وسألنا عن السبب الذي جعله يقف في النار ، فأجاب : لقد قابلني الرب في وسط اللهب ، وأمسك بيدي ، وقال لي : إنه بسبب شكوكك حول اكتشاف الحربة المقدسة أيام تجليات القديس أندروز ، إنك لن تعبر دون جروح ، إنما لن ترى الجحيم ، واختفى الرب بعد هذه الكلمات ، واستأنف بطرس كلامه قائلا : هل تودون رؤية حروقي ، وكانت جراحه شديدة ، لكن الحروق التي على ساقيه فكانت تافهة .

ثم جمعنا المتشككين ليفحصوا وجهه ورأسه وشعره وأجزاء أخرى من جسده حتى يتأكدوا من صدق رؤياه ـ بطرس ـ التي تحمل من أجلها محنة النار ، وبعد رؤية وجهه وجسده مجد العديد الرب بهذه الكلمات : إن الرب الذي خلص هذا الرجل من هذه النيران الحامية ، النيران التي بلغ من حرارتها أننا اعتقدنا أن سهما لا يمكنه أن يمر منها دون أن يحترق تماما ، يمكنه بكل تأكيد أن يكون حاميا لنا وسط سيوف المسلمين.

وبعد ذلك دعا بطرس ريمون دي جيل كاهن الكونت وسأله: لماذا أردتني أن أخوض محنة النار لأثبت رؤياي للحربة المقدسة وأوامر الرب ؟ لاشك أنني أعرف أفكارك المشوشة ، وعندما أنكر ريمون

هذه الظنون ، أفحمه بطرس بقـوله · إنك لا تسـتطيع انكار الدليل التالي ، لأنه دامغ ، فقد عرفت الحقيقة ذات ليلة من مـريم العـذراء وادهمر ، لقد تملكتني الدهشة عندما عرفت أنك على الرغم مـن أنه لم يكن لديك ادنى شك في كلمات الرب وكلمات رسـله ، لقـد تمنيت موتي وانا أحاول اقامة الدليل على صحة هذه الرؤى نفسها .

وبعدما كشف بطرس أكاذيب ريمون وذنبه امام الرب ، بكى ريمون دي جيل بحـرقة والم ، لكن بـطرس واسـاه بقـوله : لا أريدك أن تحزن ، لأن مريم العذراء المباركة واندروز المبـارك سـيحصلان لك على الغفران ،امام الرب ، إذا أنت صليت ودعوة لهما بحرارة .

الفصل الثالث عشر

رفع الحصار عن عرقة واستئناف الرحلة إلى القدس

مزقت النزاعات في هذه الآونة صفوف الجيش ، لكن الرب ، ربنا ومرشدنا رتق هذه النزاعات حتى لاتضيع نعمه ، وعندما عرف حاكم طرابلس ، وهي مدينة قريبة من مخيمنا ، بأمر النزاعات ، استخف بنا حين طلب مبعوثونا الجزية منه ، وقال : من هم الفـرنجة حتـى اخشاهم وماقيمة فرسانهم وماهي مدى قوتهم ، فكروا بالأمر ، لقد حاصر جيش الفرنجة عرقة ثلاثة أشهر ، ومع أنني لاأبعد عنهم أكثر من أربعة فراسخ ، لم يقع منهم هجوم واحد علي ، ولم اشهد رجـلا مسلحا منهم ، أيها الفرنجة ازحفـوا إلى طـرابلس ودعونا نراكم ونختبر فرسانكم ، لماذا علي دفع الجزية إلى وجـوه لم أرهـا وإلى قوة لم أعرفها .

وأثار هذا الجواب الشكوى العامة وتسـاءل الجميع : انظـروا ماذا جنينا من النزاعات والمشاحنات ، لقد احتجـب الرب عنا مـن جديد ، وبتنا موضع ازدراء ، ووحدت هذه المشاعر الأمراء فـأمروا أسقف البارة مع قسم من الجيش القيام بحـراسة المخيم ، في حين يقوم الفرسان والرجالة يتقدمهم الأمراء ، بالزحف وهم على تعبـئة ضد تحصينات طرابلس ومهاجمتها ، وعندما زحف جيشنا بتشكيلته القتالية المحددة خرج في الوقت نفسه أهل طـرابلس وهـم على ثقـة بحشودهم الصاخبة ، خرجوا على تعبئة للتصـدي لنا ، وكان هناك سور قوي ومرتفع جدا ومجرى مائي يمضي إلى طرابلس ، وقد شكل طريقا ضيقا بين المدينة والبحر الذي يحيط بـطرابلس مـن جهـات ثلاث .

وحصن المسلمون هذا السور حول المجرى المائي ، حتى صار بإمكانهم التراجع إلى الوراء في حال الاخفاق أو أن يمضوا إلى الأمام كما لو كانوا يمرون من حصن إلى حصن ، وعندما رأى الحجاج منظر أهالي طرابلس ، وهم واثقون بموقعهم القتالي وبأسلحتهم ، ابتهلوا جميعا فرسانا ورجالة إلى الرب ، ولوحوا برماحهم واحتشدوا جميعا وجاء زحفهم نحو صفوف العدو أشبه بموكب ، بحيث لو أنك شهدت ذلك الزحف لخيل إليك أنهم كانوا يتقدمون بمثابة أصدقاء لاأعداء ، وألقى الرب الرعب في صفوف قوات طرابلس ، وهربت هذه القوات من أول ضربة وامتلأت الأرض بدم المسلمين وسدت جثثهم مجرى الماء ، وكان مشهدا بهيجا رؤية المياه المتدفقة بالمجرى وهي تقذف بجثث السادة والعوام إلى طرابلس وقد فقدت رؤوسها ، ولقد فقدنا رجلا أو رجلين بينما يقال قتل سبعمائة من الأتراك .

وبعد هذا النصر عاد قادتنا إلى عرقة وصرحوا : لقد رأنا حاكم طرابلس اليوم ، ورأينا نحن بدورنا الطرق إلى طرابلس ، ودرسنا سبل الهجوم ، وإذا وافقتم الآن دعونا نجعل صاحب طرابلس يتعرف غدا إلى معدن رجالنا حقا ، وهكذا لم يتجرأ شخص واحد على الخروج من طرابلس عند عودتنا إليها في اليوم التالي ، و إثر ذلك عرض صاحب طرابلس على أمرائنا أن يدفع لهم خمسة عشر ألف قطعة ذهبية ، مع كميات من المؤن والملابس والخيول والبغال ووعد بتأمين سوق عامة مفتوحة ، وأن يعيد إلينا جميع الأسرى المسيحيين إذا ما تخلينا عن حصار عرقة .

ووصل آنذاك رسل من الامبراطور الكسيوس إلى المخيم يحملون احتجاجا على استيلاء بوهيموند على انطاكية خلافا للعهود التي قطعت للأمبراطور ، وسأوقف روايتي هنا لأذكر أن بوهيموند بات الآن يحتل أنطاكية لوحده لأنه تولى طرد أتباع ريموند بكل عنف من الابراج التي كانوا يتولون حراستها ، وفعل ذلك عندما علم أن الكونت قد غادر معرة النعمان إلى داخل سورية ، هذا وذكر المبعوث

البيزنطي أن الكسيوس سيقدم لنا مبالغ كبيرة من الذهب والفضة ، وأن على الفرنجة انتظاره حتى يوم عيد القديس يوحنا (أواخر حزيران) حتى يتمكن من السير معهم إلى القدس ، ومما هو جدير بالذكر أن عيد الفصح كان يقترب في ذلك الوقت .

وارتأى كثيرون كان منهم كونت صنجيل تأجيل الزحف ، وقالوا : لنؤجل زحفنا حتى يصل الكسيوس ، فنحصل على منحه ، ثم إن وجوده سيوفر التجارة برا وبحرا ، ويمكننا أن نتوحد تحت قيادته ، وآنذاك ستلقى المدن جميعا أسلحتها وسيتملكها الكسيوس أو يخربها حسبما يشاء ، وهناك أيضا احتمال كبير أن الحجاج ، الذين أجهدتهم الخلافات الطويلة والمستمرة سيؤثرون ، إذا وصلوا إلى القدس ، العودة إلى ديارهم فور رؤية أسوارها ، لذلك فكروا بكل عناية في عدد المخاطر الكامنة في مواجهة الذين يتوقون إلى الوفاء بنذرهم ، ولنشدد الحصار على عرقة حتى تستسلم حاميتها في خلال شهر ، أو يتم أخذها بالقوة ، ولنتذكر أننا إذا ما قررنا عدم جدوى الحصار ، وانتشرت بعيدا أخبار تخلينا عن متابعته ، سنصبح ونحن الجيش الذي عرف بتنفيذه لمشروعاته بنجاح ، موضع سخرية واستهزاء .

وحاجج آخرون ضد هذه الآراء وقالوا : لقد ألحق الأمبراطور الضرر بنا دوما ، وتآمر علينا ولما أدرك أنه ضعيف ، وأننا أقوياء بفضل الرب ، سعى إلى إبعادنا عن القبر المقدس ، خشية أن يؤدي الحديث عن نجاحنا إلى أن يحذو آخرون حذونا ، وليحذر الذين أساء الأمبراطور إليهم بالقول أو بالفعل من أن يثقوا به ، فمثل هذه الثقة لاطائل تحتها ، وماعلينا الآن إلا أن نستأنف زحفنا نحو القدس ، ولنضع ثقتنا بقائدنا المسيح الذي نجانا من المخاطر التي أشعرتنا باليأس ، وحمانا من أعمال الكسيوس وخداعه ، وسنحقق عندها أحلامنا بكل سهولة بوعد الرب ، ولدى سماعه بأخبار استيلائنا على القدس ، وتوفر التجارة المفتوحة ، سيرد على ذلك بأعمال مجدية وهدايا بدلا من الكلمات البراقة .

ووافقت الاكثرية من بين الحجاج على الرأي الأخير هـذا ، غير أن رغباتهم تعارضت مع رغبات مجلس الأمراء وتوفرت لهـذا بعض المصاعب ، وثارت المصاعب وتفجرت بسبب حاشية الكونت ريمـوند حيث كانت ضخمة ثم لأنه كان قد واجه الموت بكل شـجاعة دون أن يكون معه القادة الآخرون ، ولهذا أيضا حقق الكثير مـن المكاسـب الخاصة به .

وبشأن هذه المحنة أعلنا للناس ضرورة الصوم والصـدقات على أمل أن يتعطف الرب القادر على كل شيء ، والذي أخذ بأيدينا عبـر بلاد كثيرة ، فيبلغنا الآن مشيئته ، وهكذا اقنعت صـلوات المؤمنين الرب ، فقد تجلى الأسقف أدهمر إلى سـتيفن أوف فـالنس ، الذي ذكرناه من قبل لدى الحديث عن رؤياه للرب على الصليب ، وضربـه أدهمر بقضيب عندمـا كان عائدا يمشي في طـريقه إلى البيت ، وكان هذا ذات ليلة من الليالي وقد ناداه : يا ستيفن ، فرد عليه سـتيفن : مولاي ، وعندما انعطف تعرف على أدهمر ، فسـأله أدهمـر : لماذا تجاهلت عدة مرات أوامري المتعلقة بصليب الرب ، مـع أوامـر أمنا مريم العذراء ، إنني أتحـدث عن الصـليب الذي كان في الصـفوف الأمامية لقواتي ، ليحمل هذا الصليب في الجيش ، والآن أخبرني أي أثر ديني هو أفضل من الصليب ، ألم يرشـدكم هـذا الصـليب إلى الحربة المقدسة وينفعكم بما فيه الكفاية ، إن سيدتنا مريم العـذراء تقول لكم الآن : إنه بدون هذا الصليب لن تكون لديكم رحمة .

وهنا صاح ستيفن : آه يا أعظـم الاسـياد ، أين هي مـريم المباركة ؟ وكشف أدهمر بالحال عن مريم رائعة الشـكل والملبس ، وهي واقفة على نحو تسـعة أذرع أو عشرة مـع أجـاثا المبـاركة ، وعذراء ممسكة بشمعتين ، وهنا تكلم ستيفن مع أدهمر ، الذي كان يقف إلى جوار مـريم وقـال : ياسـيدي إن الاشـاعات في الجيش كثيرة ، ومن بينها أن شعرك ولحيتك قد احتـرقا في الجحيم ، وغير ذلك من القصص التي من الصعب تصديقها ، يضاف إلى هـذا إنني

أتضرع إليك وأتوسل أن تعطيني واحدة من الشموع لأحملها دليلا على أوامرك وأعطيها إلى الكونت .

فأجابه أدهمر : حدق بوجهي ، ألا تراه محترقا ، ثم خطا الأسقف نحو مريم العذراء وبعدما عرف قرارها عاد إلى ستيفن وقال له : لايمكن تلبية رغبتك ، لكن الخاتم الذي في إصبعك لافائدة لك منه ، فلا تلبسه ، واذهب إلى ريموند وقدمه إليه وأخبره أن العذراء المقدسة كثيرا ، تبعث إليك بهذا الخاتم ، وفي ساعة كل إخفاق تذكر في ذهنك السيدة مانحة هذا الخاتم ، وتوسل إليها وسيساعدك الرب .

واستفسر ستيفن مجددا عن الأوامر المتعلقة بأخيه ، وأجابه أدهمر : دعه يقنع الأسقف المنتخب ليقيم ثلاثة قداسات للرب ولأرواح آلنا ، وتأمر أمنا مريم ألا تظهر الحربة المقدسة بعد ذلك إلا ويحملها كاهن يرتدي الملابس المقدسة ، وأن يتقدمها الصليب على النحو التالي : وأمسك أدهمر الصليب معلقا على رمح ، وتبعه رجل يرتدي الثياب الكهنوتية والحربة المقدسة بيده ، وكان الأسقف يردد ساعتئذ : « أيتها العذراء مريم أبيدي الهراطقة بذاتك و أزيليهم»
واشتركت مئات الألوف من الأصوات لابل مالا حصر له في جوقة المرتلين السماوية ، ثم اختفت جماعة القديسين .

وفي الصباح التالي كان أول ماسأل عنه ستيفن هو عما إذا كانت الحربة ماتزال لدينا ، وعندما رآها انفجر باكيا ، وشرع يحكي الرؤيا السالفة و ما رآه وسمعه ، وتأثر الكونت بذلك ، فأرسل وليم هيو أوف مونتيل أخو أسقف لي بوي إلى اللاذقية حيث كان قد ترك صليب أدهمر وقلنسوته .

وفي تلك الآونة استدعى بطرس بارثلميو — الذي كان قد أقعده المرض الناجم عن الكلمات والجروح التي لحقت به — إليه الكونت مع القادة الآخرين وقال لهم : لقد دنا الموت مني ، وأنا على يقين

تام أنني سأحاسب في حضرة الرب على كل أعمالي ، أو كلماتي أو أفكاري الشريرة ، وأشهد الرب بحضوركم أنني لم أخترع أي شيء بخصوص جميع الأشياء التي أبلغتكم عنها على أنها من عند الرب والرسل ، ولاأرتاب مطلقا أنكم سترون تحقق كلماتي إذا ساخدمتم الرب بصدق ، وإثر هذا مات بطرس في الساعة التي حددها الرب ، مات بسلام ودفن في البقعة التي عبر فيها النار وهو يحمل الحربة المقدسة .

وفي تلك الأثناء سأل ريموند وكذلك فعل أمراء الجيش الآخرون – أهالي المنطقة عن أفضل الطرق إلى القدس وأقلها وعورة ، ولهذا قدم إلينا بعض السوريين ، وسأستغل قدومهم لأحكي أنه مابرح قرابة الستين ألفا من المسيحيين يمتلكون جبال لبنان والأحواز المحيطة به لسنوات عديدة ويطلق على هؤلاء المسيحيين اسم الصوريين لمجاورتهم لمدينة صور ، لكن بعدما زادت قوة المسلمين والأتراك ، وكان ذلك بإرادة الرب ، أرغموا العديد من الصوريين الواقعين منذ أربعمائة سنة أو أكثر تحت نيرهم على التخلي عن بلادهم وعقيدتهم المسيحية .

بيد أنه إذا كان بعضهم قد تحدى المسلمين بفضل الرب وعونه ، فقد أرغموا على تسليم أطفالهم حتى يتم ختانهم وتعليمهم القرآن ، وتجاوز الأمر هذا الحد حيث كان الآباء يتعرضون للقتل وتلقى الأمهات معاملة مشينة بانتزاع أطفالهن من أحضانهن ، ولقد دفعت النوازع الشريرة الملتهبة هذا الجنس من البشر إلى هدم كنائس الرب والقديسين ، وتحطيم الأيقونات ، وثقب أعين الصور التي لايمكن تحطيمها ، واستخدام التماثيل هدفا لنبالهم ، وقلبوا الهياكل وحولوا الكنائس الكبيرة إلى مساجد ، وكان إذا مارغب مسيحي ما في اقتناء صورة للرب أو لقديس في بيته ، فقد ترتب دفع ثمن لذلك شهرا بعد شهر وعاما بعدعام ، وإلا كان سيرى هذه الصورة وقد ألقيت بالوحل وحطمت ، وما أسارويه الآن غير مفرح بالبته ، فقد

وضعوا شبابهم بالمواخير ، والزموا فتياتهم بتقديم الخمور من أجل المزيد من الفسق .

وكانت الأمهات يخشين البكاء من ذلك أو غيره من الآلام علنا ، لكن لماذا أبدد هذا الوقت كله على الصوريين ، فمن المؤكد أن هذا الجنس قد تآمر على قدس الأقداس وعلى تراثه ، ولولا أن الرب قد لجم بأمره ومبادرته الحيوانات المتوحشة عن شرور مماثلة ، مثلما فعل مرة مع جنودنا ، لقدر للفرنجة أن يلاقوا مصائب الصوريين ، ويكفي هذا لتغطية الموضوع .

وفي اجتماع مع ريموند صنجيل سئل الصوريون الذين أشرت إليهم من قبل عن الطريق ، فأجابوا : إن طريق دمشق ممهد وفيه مايكفي من المؤن ، لكن لاماء به لمدة يومين ، والطريق من خلال جبال لبنان مأمون وتتوفر به الضروريات ، لكنه وعر جدا بالنسبة للجمال ولدواب الحمولة ، ومع ذلك هناك طريق آخر محاذ للبحر ، غير أن به بعض المنافذ الضيقة جدا ، إلى حد أن خمسين أو مائة من المسلمين يمكنهم صد هذا الحشد البشري كله ، ومع هذا إنه مدون في إنجيلنا لبطرس المبارك إنه إذا كنتم أنتم الذين قدر لهم الاستيلاء على القدس ، فإنكم ستسيرون بحذاء ساحل البحر ، على الرغم من أن مخاطره تجعله يبدو مستحيلا ، وهذا الانجيل الذي كتب بيننا لايتضمن اختياركم للطرق فقط ، بل الكثير من أعمالكم المتقدمة ومسار الأحداث المقبلة .

وفي أثناء تبادل الآراء هذه عاد وليم هيو أوف مونتيل بالصليب السالف الذكر ، وأثارت رؤية الصليب مشاعر حاشية الكونت بخصوص الرحلة حتى أنه خلافا لرأي ريموند وأمراء آخرين أحرق هؤلاء ملاجئهم وكانوا أول من غادر عرقة

وانفجر ريموند باكيا ، وأخذ يزدري نفسه والآخرين ، لكن الرب أغفل مشاعره مراعاة لارادة جمهور الحجاج ، هذا وراح من جانب

آخر غودفري ــ الذي كان توالقا الى استئناف الزحف يحرض الناس ، وهكذا وصلنا ــ بعدما تخلينا عن هذا الحصار الكريه والمقوت لعرقة ــ الى طرابلس حيث حاول ريموند ــ على الرغم من مواجهته للمعارضة الجماعية للقادة ــ أن يغريهم بمختلف السبل بالتوسلات والمكافآت بحصار طرابلس .

وهنا تجلى القديس أندروز الى بطرس ديزيد يريوس ــ وهو رجل كنا قد ذكرناه من قبل ــ وأمره بقوله : إذهب وأبلغ الكونت وقل له : توقف عن ازعاج نفسك وازعاج الآخرين لأنك لا يمكن لك توقع أي مساعدة من الرب حتى يتم الاستيلاء على القدس أولا ، ولا تنزعج لعدم اكتمال حصار عرقة ، ولا تحمل هما اذا لم تسقط هي ومدن أخرى على الطريق ، وفي الحقيقة هناك معركة وشيكة سيتم اثرها الاستيلاء على هذه المدينة ومدن أخرى ، لهذا اقلع عن ارباك نفسك مع أتباعك ، وجد باسم الرب وأعط بسخاء من عطاياه لك ، وكن أيضا رفيقا وصديقا مخلصا لرجالك وسيعطيك الرب القدس والاسكندرية والقاهرة اذا فعلت ذلك ، ولكنك اذا لم تفعل هذا فانك لن تحصل على الجوائز التي وعد الرب بها ، ولن يكون لك ثروة حتى تكون في عوز لا مفر منه .

وخضع الكونت لهذه الكلمات التي تفوه بها الكاهن لكنه كان خضوعا باللسان فقط ، ذلك أنه تجاهلها بأعماله وأنكرها بتقتيره بالكنوز الهائلة التي استحوذ عليها من صاحب طرابلس ، زد على هذا فقد أثار غضب أتباعه بالشتم والتعنيف ، وقد حكى بطرس ديزيد يريوس ذلك مع مسائل أخرى كثيرة ، نأتي على ذكر بعضها في هذا الكتاب .

فقد قدم الي بطرس ديزيد يريوس أناريمون دي جيل ، قبل ذلك بوقت طويل ، عندما كنا نفكر بمغادرة أنطاكية ، وأخبرني أنه رأى رؤيا اتى فيها شخص وأمره بقوله : اذهب الى كنيسة ليونتيوس المبارك حيث ستجد آثار أربعة قديسين ، فخذها واحملها الى

القدس ، ومضى الشخص معه وأراه الآثار ومكانها ، وأخبره بأسماء القديسين ، ومع ذلك تشكك بطرس بالرؤيا بعد أن استيقظ وصلى وتوسل الى الرب أن يؤكد له مرة ثانية أن ذلك كان وحيا منه ، وهكذا ظهر القديس نفسه مرة أخرى ، وتهدده لاهماله أوامر الرب ، وقال : إنه اذا لم يتم نقل البقايا قبل اليوم الخامس من الاسبوع ، فستلحق به مضار كبيرة هو وسيده ايزوارد كونت أوف داي ، وهو رجل مخلص للرب بنوره وحكمته وببركته التي نفعتنا .

وقد رددت هذه القصة على مسامع أسقف أورانج وريموند صنجيل وآخرين بعدما حكاها لي بطرس ، وتوجهنا بعد ذلك مباشرة الى كنيسة ليونتيوس ونحن نحمل الشموع ، التي قدمناها مع النذر للرب وللقديسين في الكنيسة نفسها ، وسألنا الرب الذي جعل هذه الآثار مقدسة ، أن يحددها لنا لتكون رفيقا لنا وعونا ، وسيكون هؤلاء القديسون مرتبطين بنا بدلا من ازدراء زمالة الحجاج ، ومن نفاهم الرب ، وسيكون ارتباطهم هذا بدافع من الحب المسيحي ، وهكذا يربطوننا بالرب ، واتينا في الصباح التالي بصحبة بطرس بيزيد بريوس الى مكان آثار القديسين ، وحسبما روي من قبل تماما وجدنا بقايا القديس كيبريان والقديس أوميخيوس ، والقديس ليونتيوس والقديس يوحنا الذهبي الفم ، كما وجدنا هناك أيضا خزانة بها آثار لم يتعرف عليها الكاهن ، وعندما سألنا السكان المحليين اختلفوا في تعريفها ، فقال بعضهم إنها للقديس مركوريوس ، بينما ذكر آخرون أسماء قديسين آخرين ، وبغض النظر عن غموض أمرها ، لقد أراد بيزيد بريوس جمعها ووضعها مع الآثار الاخرى .

فقلت أناريمون دي جيل بكل قوة وأمام الجميع : إنه اذا رغب هذا القديس في الذهاب معنا الى القدس فليعلن اسمه وليبين رغبته وإلا فسيبقى في هذا الصندوق ، ليس علينا أن نزيد من أعبائنا بحمل هذه العظام المجهولة ، ونتيجة لموقفي هذا تركنا العظام التي لم يتعرف عليها أحد في ذلك الوقت .

وفي الليلة التالية لجمع الكاهن للبقايا الاخرى ولفها بالاقمشة وتغطيتها ، وقف أمامه شاب وسيم في حوالي الخامسة عشرة من عمره ، أثناء صلاة العتمة وسأله : لماذا لم تحمل رفاتي مع الآخرين هذا اليوم ؟ وهنا سأله الكاهن : ومن أنت ؟ فرد عليه الشاب متسائلا : ألا تعرف اسم حامل راية هذا الجيش ؟ واعترف بطرس بجهله قائلا : لا يا سيدي ، وعندما كرر بطرس الاجابة نفسها عنفه الشاب بقوله : أخبرني بالحقيقة ، وهنا اجابه بطرس : يقال يا سيدي إن القديس جرجس هو حامل راية هذا الجيش ، وهنا قال الشاب : صحيح الذي تقوله ، إنني انا القديس جرجس وانا آمرك أن تجمع رفاتي وتضعها مع آثار الآخرين

ومع هذا لم ينفذ الكاهن الامر ، ومرت الأيام فعاد القديس جرجس اليه وطلب منه بغلظة : لا تدع الصباح يمر دون أن تجمع رفاتي وخذ أيضا زجاجة من دم مريم العذراء والشهيدة تقلا ، وستجدها بالقرب ، ورتل القداس ، ووجد بطرس ديزيد يريوس هذه المرة هذه الأشياء جميعا ونفذ أوامر القديس جرجس .

وقبل أن أتابع رواية قصتنا مفيد أن أذكر خبر الرجال الذين تجرأوا وأبحروا على سطح البحر المتوسط الشاسع الغريب ، وعبروا المحيط حبا بالقيام برحلة الحج تحت راية الصليب ، فعندما سمع هؤلاء الانكليز بأخبار الحملات تحت راية الصليب التي تشن باسم انتقام الرب من الذين دنسوا الأرض التي ولد فيها المسيح ورسله أبحروا في البحر الانكليزي ، وداروا حول سواحل اسبانيا ، وبعد جهود جبارة وصلوا الى ساحل أنطاكية واللاذقية قبل وصول جيشنا ، وقد أمن الانكليز لنا مع الجنوية سبل التجارة مع قبرص و الجزر الأخرى ، فأثبتوا بذلك فائدتهم و معونتهم ، و كانت هذه السفن تبحر يوميا وتمخر عباب البحر ذهابا وإيابا فتبث الرعب في قلوب المسلمين وتجعل ابحار السفن الاغريقية أمرا ميسورا ، فضلا عن هذا عندما رآنا الانكليز ننطلق نحو القدس ، ورأوا خشب السرو المصنعة منه سفنهم يتآكل ويتعفن لطول عهده حتى لم يبق من

الثلاثين سفينة غير تسع سفن ، عندمـا رأوا هـذا هجـر بعضـهم السفن ونزلوا الى الشـاطىء ، في حين أحـرق آخـرون قـواربهم وبادروا بالانضمام الى الزحف ضد القدس .

وتمهل أمراؤنا أمام طرابلس حتى غرس الرب في قلوبهم الرغبـة في مواصلة الرحلة بحيث زالت كل معارضة ، وتحـركنا على خـلاف عاداتنا وأوامر الأمراء ليلا ، وسرنا طوال الليل فوصلنا الى بيروت في اليوم التالي ، وبعد أن اسـتولت طليعتنا فجـأة على « مـرتقى صور » وصلنا الى عكا دون أن يعترض سبيلنا معترض وأنجـز ذلك خلال أيام قليلة ، وخاف حاكم عكا من الحصـار ، وانتـظر بفـارغ الصبر رحيلنا واقسم لريموند على أنه سوف يسلم نفسه وعكا لحملة الصليب اذا ما اسـتولينا على القـدس ، أو بقينا في فلسـطين لمدة عشرين يوما دون أن نضطر الى الاشـتباك مـع ملك مصر ، أو اذا هـزمنا هـذا الملك ، ووعد حـاكم عكا أنه لسـيقدم في تلك الأثناء صداقته ، ورحلنا بعد ذلك من عكا ، وكان ذلك في مساء أحـد الأيام وعسكرنا على مقربة من المستنقعات المجاورة .

قصة الطـائر الذي حمـل رسـائل بقتـل حملة الصليب :

وحسبما جرت العـادة في تلك الأثناء ، راح بعضـنا يجـري هنا وهناك بحثـا عن بعض الضروريات وبعضـنا كان يبحـث عن خيام أصدقائه ، وفيما نحن كذلك القى صقر طار فـوق المعسـكر بـطائر مصاب بجرح قاتل في المعسـكر الذي كان يعيش سـاعتئذ في لغـط وضوضاء ، وعندما التقط أسقف ابت الطائر وجده يحمـل رسـالة تقول : « التحيات من صاحب عكا الى أمير قيسارية ، لقد اجتـاح بلادي جيل من الكلاب ، من جنس أحمق فوضوي عنيد ، فـاذا كنت حريصا على سلامتك فيمكنك أنت والمسلمين الآخرين الحـاق الأذى بهم ، وطالما يمكنك فعل ما تريد بيسر ، انقل هذه الرسالة الى المدن

والحصون الأخرى » ، وفي الصباح عندما انتظم الجيش وكان في حالة استرخاء نشرت محتويات الرسالة ، وبذلك تجلى لنا عطف الرب ، وهو عطف منع الطيور الطائرة من الحاق الأضرار بنا وكشف لنا أسرار عدونا .

فحمدنا الرب القادر ومجدناه على كل شيء ، ثم رحلنا بلا وجل بكل خفة و نشاط ، و كنا نسير في أرتال امتدت من الأمام الى الخلف ، و عندما سمع سكان الرملة المسلمون أنباء عبورنا لنهر قريب ، تخلوا عن قلاعهم و أسلحتهم مع كثير من الحبوب في الحقول و محاصيل محصودة ، و هكذا عندما وصلنا في اليوم التالي كنا على يقين أن الرب كان يحارب من أجلنا ، و نذرنا هنا النذور للقديس جرجس قائدنا المعترف به ، و قرر قادتنا و الجمهور اختيار أسقف (لمدينتي اللد و الرملة) كما وشعرنا أن القديس جرجس سيكون شفيعنا عند الرب ، وسيكون قائدنا المخلص من خلال موطن اقامته .

وبما أن الرملة تبعد قرابة خمسة عشر ميلا عن القدس ، فقد عقدنا مؤتمرا هناك ، وفيه قال بعضهم : أجلوا الزحف الآن ، وتحولوا نحو مصر ، فاذا استطعنا بفضل الرب الاستيلاء على مملكة مصر فاننا لن نربح القدس فحسب بل القاهرة والاسكندرية أيضا مع ممالك أخرى كثيرة ، ومن جانب آخر اذا ما زحفنا على القدس ثم تخلينا عن الحصار لشح المياه فاننا لن ننجح أبدا .

وقال بعضهم الآخر : على الرغم من أن قواتنا تكاد لا تبلغ ألفا وخمسمائة من الفرسان مع عدد ضئيل من الرجالة المسلمين ، فإن هناك من يفضل القيام بحملة الى أرض غريبة ونائية تعزلنا عن مساعدة بني جلدتنا ، وبناء عليه إن الفرص هنا قليلة في الاحتفاظ بأي مدينة يتم الاستيلاء عليها ، أو استحواذ طريق للفرار عند الحاجة ، وبما أنه ليس في هذا أي فائدة علينا التمسك بطريقنا وليتول الرب شؤون الحصار والعطش والجوع والأمور الأخرى .

الفصل الرابع عشر

حصار مدينة القدس والاستيلاء عليها

ووضعنا اثقالنا على ظهور جمالنا وثيراننا ودواب الحمولة الاخرى ثم اندفعنا نؤم القدس ، بعد ما حصلنا على الأذن من الأسقف الذي تركنا معه حامية ، وفي اندفاعنا الجنوني بسبب الطمع بالاستيلاء على القلاع والبيوت ذات الحدائق ، لم نتذكر ولم نعبأ بوصايا بارثلميو واوامره بالاذقترب من القدس ، عندما نكون منها على مسافة فرسخين ، الا ونحن حفاة الاقدام ، وكان من التقاليد المتبعة عدم الاستيلاء من قبل اي منا على اية قلعة او مدينة ترفع واحدا من اعلامنا ، أو بعد ما يكون واحد منا وضع يده عليها ، وهكذا دفع الطموح العديد منا الى الخروج ليلا من فراشهم في منتصف الليل دون ان يصحبهم رفاقهم للاستيلاء على القلاع الجبلية والمنازل التي تحيط بها الحدائق في سهل الاردن ، ومع هذا فان قلة حافظت على امر الرب والتزمت به فسارت حفاة الاقدام ، وكان هؤلاء يعبرون عن الأسى والأسف بتنهدات عميقة الى الرب ، بسبب الخروج على ارادته ، ولم يتذكروا صديقا ولا رفيقا واحدا ممن سار في طريق الباطل : ولدى الاقتراب من القدس بزحفنا العام الارعن ضرب اهل المدينة طلائعنا ، واصابوا خيولنا بجراح شديدة ، كما اصابوا عددا كبيرا من رجالنا وقتلوا ثلاثة او اربعة من بين صفوفنا .

واذا ما تحولنا نحو الحديث عن الحصار يلاحظ ان غودفري وكونت فلاندرز وكونت نورماندي عسكروا الى الشمال ، وضربوا الحصار حول القدس من كنيسة القديس ستيفن التي تقع في الوسط الى البرج الذي يقع في الزاوية مجاورا لبرج داود . وعسكر ريموند مع جيشه في الغرب ، وحاصر المدينة شروعا من خط الدوق حتى سفح

جبل صهيون ، ومع ذلك قام واد عميق بين معسكره والاسوار ، حال دون سهولة الاقتراب من المدينة ، وكان سببا في ان يرغب بتغيير معسكره وموقعه ، وفيما يقوم ريموند بحصار القدس ، توقف لزيارة كنيسة جبل صهيون ، حيث سمع عن معجزات الرب هناك ، وقد تأثر كثيرا ، الى حد انه خاطب الأمراء والحضور بقوله : ما الذي سيحدث لنا لو اننا تخلينا عن هذه المنح المقدسة ، واستولى عليها المسلمون ، لربما كانوا دنسوها او حطموها لكراهيتهم للصليبيين ؟ ومن يدري اوليس من الممكن ان تكون هذه المنح من الرب اختبارا لمعرفة مدى حبنا له ؟ انني اعرف ان الاخفاق في حراسة كنيسة جبل صهيون بحماس سيجعل الرب يقوم بحرماننا من مثل هذه البقاع في القدس .

وبناء على ذلك وخلافا لرغبات الامراء ، امر كونت طولوز بنقل معسكره الى جبل صهيون ، وسببت هذه الحركة استياء رجاله الذين لم يكونوا يرغبون في تغيير مكان المعسكر ، والاستمرار في المراقبة ليلا ، وهكذا بقي الاكثرية في المعسكر الاصلي وقلة هم الذين ذهبوا الى جبل صهيون ، وظل الكونت يحمي موقعه يوميا بدفع مبالغ طائلة من المال الى فرسانه ورجالته .

وسأستطرد الآن لأتولى ذكر بعض المواقع المقدسة : هناك قبر داود وقبر سليمان ، وقبر الشهيد الاكبر ستيفن ، وهناك ماتت مريم المباركة ، وهنا اكل المسيح وظهر بعد قيامه لحوارييه ولتوماس ، وفي هذا المكان بالذات اوقظ الرسل بمجيء الروح القدس .

وبعد الشروع بحصار القدس اخبر ناسك في احد الايام عددا من الأمراء على جبل الزيتون : ان الرب سيعطيكم القدس ، اذا هاجمتموها غدا حتى الساعة التاسعة ، واجابه المسيحيون ، ليس لدينا اية آلة من آلات الحصار ، فقال الناسك : ان الرب قادر على كل شيء الى حد انه اذا اراد فانكم ستستطيعون تسلق السور بسلم واحد ، لأنه مع الذين يعملون من اجل الحق ، وبناء عليه هاجموا

القدس في صباح اليوم التالي وظلوا حتى الساعة الثالثة يقاتلونها باسلحة الحصار التي استطاعوا تامينها اثناء الليل ، فدمروا السور الخارجي واجبروا المسلمين على التراجع نحو السور الداخلي ، وتسلق عدد ضئيل من المسيحيين الدفاعات الداخلية ، وفي اللحظة التي بات فيها سقوط المدينة وشيكا ، توقف الهجوم بسبب الوهن والخوف .

وبعد هذا التخاذل راح المسيحيون يبحثون عن الطعام في المناطق المجاورة واهملوا الاعداد لهجوم جديد ، وآثر كل واحد منهم اشباع فمه وبطنه ، والانكى من هذا كله انهم لم يصلوا للرب ليخلصهم من الشرور الكبيرة والكثيرة التي باتت تهدد حياتهم بالذات ، فقد صدرت مخاطر جديدة عن المسلمين الذين سدوا افواه الابار ، ودمروا صهاريج المياه ، ومنعوا تدفق العيون ، وكل هذا يذكرنا بالرب الذي «يحول الانهار الى برية وعيون الماء الى ارض جافة لمن يعيشون فيها » وهكذا اصبح الماء شحيحا جدا لما بينت من اسباب

وتتدفق مياه بركة سلوان - وهي نبع كبير عند سفح جبل صهيون - مرة كل ثلاثة ايام غير انها كانت حسب قول السكان المحليين ، تتدفق يوم السبت فقط ، وتصبح مستنقعا في بقية الايام ، ومن المؤكد انه ليس لدينا تفسير لهذه الظاهرة ، باستثناء انها ارادة الرب ، وتذكر الروايات انها عندما كانت تتدفق في اليوم الثالث ، كان التدافع المجنون لشرب الماء يجعل الكثيرين يلقون بانفسهم بالبركة ، ويتسبب هذا في غمار التزاحم الشديد بهلاك كثير من دواب الحمل والماشية ، فقد كان الاقوياء يتدافعون باستماتة ويخوضون في البركة الغاصة بالحيوانات الميتة والبشر المتصارعين حتى المصب الصخري الذي يتدفق منه الماء ، في حين كان الضعفاء يضطرون الى الاكتفاء بالماء الملوث .

وكان الضعفاء يزحفون على الارض بجوار النبع بافواه فاغرة ، وقد أخرسهم جفاف السنتهم ، يزحفون وقد امتدت ايديهم التماسا

للماء من الذين هم أكثر حظا ، وفي الحقول كانت تقف الخيول والبغال والمواشي والاغنام مع حيوانات أخرى كثيرة لم تعد تقوى على ان تخطو خطوة واحدة ، وكانت هذه الحيوانات تنوي وتموت عطشا وتتفسخ في أماكنها وتملأ الجو بروائح الجيف النتنة ، واضطر المسيحيون ، والحال كما وصفت ، الى حمل الماء بجهد ومشقة من عين تبعد فرسخين او ثلاثة ، والذهاب لسقاية مواشيهم هناك ، لكن عندما عرف المسلمون ان رجالنا يروحون جيئة وذهابا في طرق وعرة وهم بدون سلاح كمنوا لعدد كبير منهم ، فقتلوا العديد واسروا الكثير ، واستولوا على مواشيهم ، وكان مبلغ خمسة او ستة نوميسما (صولدي) لايكفي لشراء مياه نقية تكفي شخصا واحدا لمدة يوم واحد .

اما الخمرة فلم يرد ذكرها الا فيما ندر ، ومما زاد من شدة العطش ، الحر اللافح والتراب الخانق ، والرياح الشديدة ، لكن لماذا ابدد الوقت في ذكر هذه الامور الفانية ؟ المهم انه لم يكن سوى قلة منا يفكرون في الرب أو في ضروريات الحصار ، ولم يصل حملة الصليب طلبا لرحمة الرب ، وهكذا كنا نتجاهل الرب في شدائدنا ، وهو بدوره لم يهتم بالجاحدين .

وتواترت الأنباء في ذلك الحين برسوست من سفننا في يافا ، وجاءت معها ايضا مطالبة البحارة بارسال حامية تتولى حماية ابراج يافا وسفنهم في الميناء ، وكانت يافا تبعد مسيرة يوم عن القدس ، وهي ميناء هذه المدينة ، ولم يكن قد بقي من يافا غير القليل فالموقع قد دمر باستثناء برج واحد بقي سليما في قلعة دمرت تدميرا شديدا ، وفرح الحجاج وبعثوا الكونت جيلديمار كاربينيل ومعه عشرين فارسا وحوالي الخمسين من الرجالة ، ثم اردفوه بريموند بيليه مع خمسين من الفرسان ، واخيرا بوليم سابران ورجاله ، وعندما وصل جيلديمار الى سهل على مقربة من الرملة كان هناك اربعمائة من قوات العرب الاقوياء مع مائتين من الاتراك يسدون الطريق .

واعاد جيلديمار فرسانه ورماته ، الذين كانوا في الصفوف الامامية ، الى الخلف بسبب قلة عدد رجاله ، ثم مالبث أن زحف ضد الأعداء وهو واثق بعون الرب له ، واندفع الأعداء الى الأمام وهم على ثقة أنهم سيتمكنون من ابادة المسيحيين ، وأطلقوا النشاب ، وأحاطوا بهم ، وقتلوا أربعة فرسان وذلك بالاضافة الى اشارد أوف مونتميريل وكان فارسا شابا نبيلا يتمتع بشهرة كبيرة ، فضلا عن هذا فتكوا تماما بكل رماتنا وجرحوا آخرين من قوات جيلديمار ، ومع هذا لم يخل الأمر من تكبيدهم بعض الخسائر الفادحة .

وعلى الرغم من هذه الخسائر لم يضعف الهجوم الاسلامي ، وايضا لم يدب الوهن الى صفوف فرسائنا ، ذلك أنهم كانوا فعلا عساكر المسيح ، ولذلك حملتهم الجراح ، لابل الموت نفسه ، على شن الهجوم بقوة أكبر ، وكانوا يفعلون ذلك كلما اشتد الضغط عليهم ، واخيرا وبعد ان أرهقهم التعب وليس الخوف ، لاحظ قادة الفرقة الصغيرة سحابة كبيرة من الغبار في الأفق ، وجاء ذلك عندما كانت الفرقة على وشك التراجع ، وصدر هذا الغبار عن ريموند بيليه ورجاله الذين غمزوا جيادهم واندفعوا فأثاروا بهجومهم الجنوني كثيرا من الغبار مما أوهم العدو باقتراب فرقة كبيرة .

وهكذا أبيد الأعداء بفضل الرب وأرغموا على الفرار بعدما قتل قرابة المائتين منهم ، وتم الاستيلاء على غنائم كثيرة ، ومرد كثرة الغنائم الى عادة متبعة بين المسلمين هي أنهم اذا لاذوا بالفرار ، وطاردهم عدوهم مطاردة شديدة يرمون بأسلحتهم ثم بألبستهم وأخيرا يرمي كل منهم بمزاده ، وهكذا قتل هذا العدد الصغير من فرساننا الأعداء المنهزمين وظلوا يفعلون ذلك حتى نال منهم التعب كل منال ، وبعدما اخذوا أسلاب الذين لاذوا بالفرار .

وبعد هذا القتال جمعت الغنائم وجرى تقسيمها ، ثم توجه

فرساننا نحو يافا حيث استقبلهم البحارة بفرح كبير بالخبز والنبيذ والسمك ، ولم يكترثوا بالمخاطر فاهملوا سفنهم ولم يعينوا مراقبين للحراسة من جهة البحر في منصة المراقبة لكل سفينة ، وسرعان ماوجد البحارة المنتشون وغير المبالين انفسهم محاطين من جهة البحر بالأعداء ، وكان السبب الرئيسي هو اهمالهم تعيين خفراء يتولون الحراسة والمراقبة ، وعند الفجر وجدوا أنه ليس امامهم فرصة لقتال القوة المتفوقة عليهم ، لذلك تخلوا عن سفنهم ، ولم يحملوا معهم سوى الغنائم ، وبذلك عادت قواتنا الى القدس وهي بشكل مامنتصرة ومهزومة في أن واحد ، ونجت احدى السفائن ، لأنها كانت متغيبة تقوم بأعمال النهب ، وعندما عادت الى يافا محملة بالمغانم رأت الأسطول المسيحي أسيرا قد أحاطت به قوة أكبر منه ، فغيرت على الفور اتجاهها وعادت بالتجديف والقلوع الى اللاذقية ، ونقلت الى رفاقنا والأصدقاء صورة الحالة الحقيقية لأوضاع القدس .

ولقد عرفنا اننا نستحق ماأصابنا ، لاننا لم نؤمن برسائل الرب ، ولهذا فقد حملة الصليب الأمل برحمة الرب ، وبناء عليه ساروا الى سهل الأردن ، وهناك جمعوا السعف وتعمدوا في نهر الأردن ، وبما أنهم شاهدوا القدس ، فقد خططوا الآن للتخلي عن حصارها والتوجه الى يافا ، ومن ثم العودة بأي شكل ممكن الى بلادهم ، غير ان الرب لم يهتم بأمر سفن من لم يؤمنوا به .

وتمت الدعوة الى عقد اجتماع عام لينظر بالخلافات العامة بين القادة ، ولاسيما بعدما اقدم تانكرد على الاستيلاء على بيت لحم حيث رفع رايته على كنيسة بيت لحم ، كما لو كان يرفعها على ممتلكات علمانية ، وطرح في الاجتماع ايضا قضية اختيار واحد من الأمراء يكون حاميا للقدس اذا مامنحنا الرب اياها ، وقيل وقتها ان النصر سيكون جهدا مشتركا ، ولكن اذا ضاعت القدس فان ذلك سيكون اهمالا مشتركا لأن احدا لم يتول حمايتها .

واعترض الأساقفة ورجال الدين قائلين : من الخطأ اختيار ملك وتعيينه في المكان الذي تألم فيه الرب وتوج بتاج من شوك ، افترضوا ان الشخص المختار قال في قلبه : انني جالس على عرش داود ممتلك لممتلكاته ، وافترضوا انه أصبح داودا وهو منحط العقيدة والأخلاق ، لاشك أن الرب سيطيح به ويحل غضبه بالناس والمكان ، زد على هذا ان الرسول قد أعلن انه « عندما سيكون قدس الأقداس قد جاء فسيتوقف المسح » لأنه اتضح للناس جميعا انه قد جاء و « علينا اختيار وكيل يتولى حراسة القدس ويقوم بقسمة الأموال والدخول بين حماة المدينة ، ولهذا السبب ولأسباب اخرى لم يتم الانتخاب الا بعد ثمانية أيام من سقوط القدس ، ولم يتولد عن هذا النزاع خير ، ولم تتضاعف الا متاعب الناس وأحزانهم يوما تلو الآخر .

واخيرا ابلغنا الرب الرحيم الطيب حتى نحترمه وحتى يمنع المسلمين من السخرية بقوانينه اذا سألوا : أين هو ربهم ، لقد ابلغنا بوساطة رسالة من ادهمر أسقف لي بوي ، وعرفنا كيف نسأله وكيف نكسب رحمته ، غير اننا اذعنا أوامر الرب علنا دون ان نربط بينها وبين اسمه وذلك خوفا من أن يعصيها الناس ، فيكون عقابهم أشد بسبب ذنوبهم ، وقد بعث الرب الينا برسل عديدين ، لكن لكونهم من اخواننا بقيت براهينهم بدون اعتبار .

وأعطى ادهمر في ذلك الوقت أوامره الى بطرس ديزيديريوس بقوله : على الأمراء والعامة وحملة الصليب الذين قدموا من بلاد بعيدة ، والذين هم الآن هنا لعبادة الرب رب كل الحشود ، أن يحرروا أنفسهم من عالم الدناسة ، وليدر كل واحد منهم ظهره للخطيئة ، وقل لهم : اخلعوا بعد هذا احذيتكم وسيروا حفاة باقدام عارية حول القدس ، ولاتنسوا أن تصوموا ، فاذا امتثلتم لهذه الأوامر ستسقط المدينة في خاتمة الأيام التسعة بعد هجوم

عنيف ، وحـــذرهم انهـــم ان لم يفعلوا ذلك فـــان الرب ســـيزيدهم بمصائب اكثر من الماضي .

وبعدما أبلغ بطرس ديزيديريوس سيده الكونت ايزوارد مع اخـــي ادهمر ووليم هيو وبعض الكهنة بذلك ، دعا هؤلاء الســادة المبجلين الى اجتماع عام وخاطبهم بما يلي :

ايها السادة ايها الرجال إنكم تعرفون أسباب الرحلة مع اسباب تعبنا الشديد ، وتعلمون أيضا اننا تأخرنا كثيرا وأهملنا بلا مبـــالاة اقامة مايلزم من معدات لحصار القدس ، واكثـــر مـــن هـــذا اننا لم نكتف بعدم اكتراثنا في أن يكون الرب ودودا معنا ، بل اثرنا غضـــبه بكل شكل يمكن ان يتخيله عقل الانسان وفي كل امر من الامور ، ثم اننا نبعده عنا وننبذه ونجعله غريبا بسبب دنس أعمالنا ، والآن اذا كنتم تـــرضون فلندع الماضي جـــانبا ، ولتعـــم بين الأخـــوة روح المغفرة ، وبعد ذلك لنتخل عن كبريائنا امـــام الرب ، فنســـير حـــول المدينة المقدسة حفاة الأقدام ، ومن ثم نبتهل لتنزل علينا رحمة الرب بوساطة شفاعة القديسين .

لنصل قـــائلين ان الرب القـــادر الذي تخلى عن عرش ملكوتـــه في السماء فأصبح بشرا من أجلنا ، وصـــار منا نحـــن عبيده ، الرب الذي دخل القدس متواضعا يركب على أتان وسار في موكب تحيط به الحشود و تلوح له وتقدم أيات التكريم ، لكي يعـــاني بعـــد ذلك مـــن الآلام على الصليب تضحية منه في سبيلنا ، لنصـــل لهـــذا الرب عله يفتح لنا أبواب القدس ويسلمها لنا تمجيدا لاسمه وتكريما ، وهـــو يصدر أحكامه على أعدائه الذين استولوا عليها بدون حق ، ودنسوا مكان الامه ودفنه ، والذين يبذلون الآن كل جهد ممكن لحرماننا مـــن المكاسب العظيمة الموجودة في حرم نزوله الرباني وخلاصنا .

ولاقت هذه الأوامر قبولا عاما ، وصدرت التعليمات بأن يتـــولى رجال الدين قيادة موكب يتبعه الفرسان والرجـــال الاقـــوياء ، وأن

يكون ذلك في اليوم السادس من الاسبوع على أن يحملوا الصلبان واثار القديسين ، وينفخوا بالأبواق ، ويلوحوا بالأسلحة ، وليسيروا حفاة الاقدام ، وبكل سعادة نفذنا أوامر الرب والأمراء ، وعندما سرنا الى جبل الزيتون وعظنا الناس في موضع صعود المسيح بعد القيامة ، وحرضناهم في هذه المرة قائلين : لقد سرنا وراء الرب الى مكان الصعود ، وبما أننا لن نستطيع فعل المزيد ، فلنقم الآن بالصفح عن الذين اساءوا الينا حتى يكون الرب القدير بنا رحيما .

لاارى من حاجة لقول المزيد عن هذا الموضوع ، فلقد غمرت الجيش روح من التسامح كبيرة ، وقدمنا التبرعات السخية ، وتضرعنا في تلك الأثناء الى الرب سائلين اياه الرحمة ، وألححنا بالسؤال أن لايتخلى عن شعبه في اللحظة الأخيرة ، بعدما جلبهم بهذه الطريقة المجيدة والمعجزة من المسافات النائية فأوصلهم الى مسعاهم من أجل القبر المقدس ، وكان الرب هذه المرة الى جانبنا فانقلب سوء حظنا الى طالع طيب وبات كل شيء على مايرام .

ومع أنني ازحت جانبا الحديث عن احداث كثيرة ليس بإمكاني إغفال ذكر الحادثة التالية : اثناء الزحف الصاخب حول مدينة القدس راح المسلمون والاتراك يسيرون على طول أعلى أسوارهم وهم يسخرون منا ويدنسون بالضربات والأعمال البذيئة صلبانا وضعت على أذرعة من خشب بطول الأسوار ، غير أننا اندفعنا – من جهتنا – الى الأمام قدما ولم نأبه بهم واثقين باقتراب رحمة الرب بسبب هذه الاساءات ، وثابرنا على العمل ليلا ونهارا للاعداد للهجوم النهائي .

وقام غودفري ومعه كل من كونت نورماندي وكونت فلاندرز بتعيين غاستون بيارن للاشراف على العمال الذين كانوا يبنون

الحواجز والسواتر ومعدات الحصـار ، وجـاء تعيين هـذا النبيل بالنظر لكفاءته وأمانته ، وقد ثبت أن ذلك كان اختيارا حكيما ، لأن

غاستون وضع نظاما لتقسيم العمل ، وسارع بتنفيذ المهمـة في حين اهتم الأمراء بجلب المواد الخشبية ، كما وكلف الكونت ريموند وليم ريكو بعمليات مماثلة في جبل صهيون ، وكلف اسقف البارة بوظيفة الاشراف على المسلمين وسواهم من العمـال الذين كانوا يجلبـون الأخشاب ، فقد أرغم رجال ريموند مسـلمي القـلاع التـي جـرى الاستيلاء عليها على العمل كعبيد ، فكنت تـرى خمسـين أوسـتين رجلا منهم يحملون على اكتافهم دعامة بناء لايقوى على جرها أربعة أزواج من الثيران ، والآن لن أزيد مـن ارهـاقكم بـالمزيد مـن التفاصيل .

لقد عملنا جميعا بكل جـد ونشـاط وتعـاون ، ولم يعـق عملنا التراخي أو عدم الرغبة ، وكان فقط الصناع ـ الذين كانت تجمـع لهم الأموال مع رجال ريموند الذين كانوا يحصلون على اجورهم من خزانته ـ هم وحدهم ممن عمل مقابل المال ، ومن المؤكد أن يد الرب كانت معنا ، فسرعان ماالكتملت الاستعدادات ، وبعد عقد اجتمـاع عام قرر القادة ان يكون اليوم الخامس هو ساعة الصفر ، وقـالوا للناس عليكم في هـذه الأثناء ان تـوقفوا انفسـكم على الدعاء والصلوات الليلية ، وقدموا دواب العمل التـي لديكم والخـدم الذين يعملون لديكم الى الصناع والنجارين الذين يعملون في جر الأخشاب والأعمدة مع القـوائم والفـروع الضرورية لاقـامة سـواتر الحصار ، ايها الفرسان انه سيكون نصيب كل اثنين منكم في أعمال البناء اقامة ساتر دائري واحد أو سـلم واحـد ، اعملوا جميعـا في سبيل الرب بكل جد ، فقد شارفت مهمتنا على الانتهاء ، ونشـط الجميع في العمل بسعادة ، وحددت مواقع الهجـوم الخـاصة بـكل واحد من الأمراء كما وعينت مواضع آلات الحصار .

وشاهد المسلمون من الداخل أسلحة الحصار المكتملة ، فقـاموا

بتدعيم النقاط الضعيفة ، بحيث بدا من المستحيل القيام بشن هجوم ناجح ، ولاحظ غودفري ومعه كونت فلاندرز وكونت نورماندي عمليات التدعيم التي يقوم بها المسلمون ، وردا على نلك قاموا في الليلة التي تقدمت على اليوم المحدد للهجوم بنقل مواقع أسلحة الحصار من سواتر و حواجز و ابراج الى موقع بين كنيسة ستيفن المبارك ووادي يهوشافاط ، صدقوني ان فك هذه الآلات ونقلها الى مسافة تزيد على الميل ، ومن ثم اقامتها من جديد لم يكن بالأمر الهين ، وصعق المسلمون في صباح اليوم التالي عندما رأوا مواقع الاتنا وخيامنا ، وابادر الى القول : اننا ايضا دهشنا نحن المؤمنين الذين رأوا يد الرب في كل نلك .

ولكي ابين لكم سبب حقيقة التحرك الى الشمال ينبغي ان أوضح أن عاملين اثنين كانا وراء تغيير مواقع الات الحصار ، ففي الشمال هيأ استواء سطح الأرض اقتراب أفضل لمعدات الحصار من الأسوار ، كما أن بعد المكان الشمالي جعله ضعيفا وهذا ماجعل المسلمين يتركونه بدون تحصين ، ولم يكن مجهود كونت طولوز أدنى من نلك أو اقل عند جبل صهيون جنوبا ، وقد تلقى مساعدة من وليم امبرياكو وبحارته الجنوية الذين فقدوا سفنهم ـ كما نكرت من قبل ـ في يافا ، لكنهم كانوا قد انقذوا الحبال والمطارق والمسامير والفؤوس والمعاول والبلط ، وهذه جميعا ادوات لاغنى عنها ، وسأتخلى الأن عن تعداد هذه التفاصيل وأعود لمواصلة قصة الهجوم على القدس :

و بزغ فجر يوم القتال وبدأ الهجوم ، فطبقا لأحسن التقديرات التي قمنا بها مع تقديرات الأخرين كان هناك قرابة الستين الفا من المقاتلين في القدس فضلا عما لايمكن تعداده من النساء والأطفال ولم يكن لدينا من جانبنا أكثر من اثني عشر ألف رجلا من الأقوياء القادرين مع كثير من المقعدين والفقراء ، ومالايزيد ـ كما أعتقد ـ عن الف ومائتين أو ألف وثلاثمائة من الفرسان ، ونحن اذ نورد هذه الأرقام و المقارنات هدفنا أن نبين لكم أن جميع الأمور

عظيمة كانت أم صغيرة اذا مـا أخـذناها على عاتقنا بـاسم الرب فسوف تنجح ، و هذا ما ستثبته الصفحات التالية من كتابي :

وبدأنا أولا بدفع أبراجنا باتجاه اسوارهم ، ثم انفتحت أبـواب جحيم المعركة بأجمعها فانهمرت الأحجار من العرادات ، وطـارت المقذوفات بالهواء وتساقطت الأسهم كوابل مـن المطـر ، لكن عبيد الرب المتمسكين بايمانهم بـكل عزم تحملوا هـذا الهجـوم بـكل صبر ، وثابروا دون ان يعبـأوا بـالموت او الانتقـام الفـوري للمسلمين ، ولم يحسم القتال عند هذه النقـطة ، وعندمـا اقتـربت المعدات من الأسوار أمطرها المسلمون وأمطروا المسيحيين معهـا بالحجارة والسهام والخشب والقش المشتعل ، والمطـارق المغـطاة بالقار المشتعل والشمع والكبريت والكتان وقـطع الاقمشـة ، لقـد قذفوا هذا كله على الآلات ، وأحب ان أضيف موضحا ان المطـارق كان قد اثبت عليها مسامير بحيث أمكنها الالتصاق بأي جزء تصيبه ثم تشتعل ، واشعلت هذه المقـذوفات المصـنوعة مـن الخشـب والقش ـ التي القاها المدافعون ـ النيران التي حالت دون تقـدم الذين لم تعق تقدمهم السـيوف ولا الأسـوار الشـاهقة أو الخنادق العميقة .

وكانت الاعمال التي انجزناها طوال ذلك اليوم رائعـة ومـدهشة الى حد اننا نشك في أن يكون التـاريخ قـد عرف مـاهو أعظـم منها ، ومن جديد ، توجهنا بـالدعاء ـ ونحـن على ثقـة بـرحمة الرب ـ الى قائدنا ومرشدنا الذي هـو على كل شيء قـدير ، ومـع حلول الظلام استولى الخوف على الطرفين ، ومع تحـطيم السـور الخـارجي ، وردم الخندق ، بـات الوصـول بسرعة الى السـور الداخلي أمرا سهلا ، وأصبح المسلمون يخشون من سقوط القـدس في تلك الليلة او في اليوم التـالي ، وبـالمقابل كان حملة الصـليب يخشون بدورهم من أن يدعم المسلمون مواقفهم ، بـابداع طـرائق لحرق الالات القريبة ، وسيطر الرعب والتعب والتيقـظ والأرق على الطرفين المتصارعين ، فقـد عم في معسـكرنا شـعور الأمـل

الواثق ، وسيطر على معسكرهم الفزع المؤلم ، فقد كان المسيحيون يحاصرون المدينة طوعا واختيارا من أجل الرب ، وكان المسلمون يقاومون على مضض من أجل شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

واستمر النشاط غير المعتاد بين صفوف الطرفين أثناء الليل ، وعند بزوغ الفجر بادر رجالنا بكل اندفاع وسرعة الى دفع الات الحصار وجرها الى مواقعها ليبفتوا المسلمين الذين حاصرونا بألاتهم التي كانت تتفوق على الاتنا بنسبة تسعة أو عشرة الى واحد ، ولن اقف طويلا عند هذا التفصيل الصغير ، لأننا كنا في اليوم التاسع ، وهو اليوم الذي تنبأ الكاهن بأنه سيكون يوم سقوط القدس بكل تحديد ، وعلى الرغم من تفكك معدات حصارنا بفعل الأحجار المتساقطة كوابل من المطر والروح المعنوية المتخاذلة لقواتنا ، التي كان التعب قد أخذ منها كل مأخذ ، فان رحمة الرب المسيطرة والتي لاتقهر كانت حاضرة دائما في جهدنا ، ومع ذلك لايمكنني ان امر بالحادثة الطريفة التالية مرور الكرام ، فعندما حاولت امرأتان وضع سحر على احدى الصخور ، انطلقت احدى الأحجار من الآلة نفسها تزمجر في السماء لتقضي بعدها على حياة الساحرتين ، وايضا على حياة ثلاث فتيات كن بالقرب منهما ، وهكذا دمر السحر .

وعند انتصاف النهار كنا في حالة ارتباك وارهاق ويأس نجمت عن المقاومة العنيدة لكثير ممن تبقى من المدافعين ، ولوجود الأسوار العالية التي لايكاد يمكن اختراقها ، وللمهارة الدفاعية الهائلة للمسلمين ، وفي الوقت الذي بدأنا فيه بالترنح وأخذ المسلمون يتشجعون ، وصلت الينا رحمة الرب الحاضرة دائما شفاء لنا ، فبدلت تعاستنا سعادة ، ففي اللحظة التي كان فيها مجلس قادتنا يناقش حكمة سحب معداتنا حيث احترق الكثير منها وتحطم بعضها بشكل سيء ، في تلك اللحظة أشار فارس لاأعرف اسمه بترسه من فوق جبل الزيتون الى الكونت والى الآخرين بأن يتقدموا

وكان لهذا تأثير فعال على قواتنا المرهقة ، و استأنف بعض حملة الصليب الذين دبت فيهم الحياة من جديد ، هجومهم على الأسوار ، في حين بدأ آخرون بتسلق السلالم والحبال ، وفي الوقت نفسه اطلق شاب سهما مشتعلة بلبادة قطنية على تحصينات المسلمين التي كانت تتولى الدفاع في مواجهة برج غودفري والكونتين ، وسرعان ماابعدت النيران المدافين عن التحصينات وسرعان ماتمكن غودفري من سحب الجسر الذي كان يدافع عن البرج ، وبينما كان البرج يتأرجح من منتصف البرج سد الهوة بين البرج وبين السور ، وهكذا تدفق حملة الصليب بدون خوف لابل بكل شجاعة واقدام الى داخل المدينة المتداعية .

وسفك تانكرد وغودفري في المقدمة كميات لاتصدق من الدماء وأنزل رفاقهما الذين ساروا خلفهما آلاما هائلة بالمسلمين ، وينبغي ان أقص عليكم نبأ حادث مدهش ومثير ، فقد توقفت المقاومة في واحدة من مناطق المدينة بشكل عملي ، ولكن المسلمون في المنطقة المجاورة لجبل صهيون قاتلوا ريموند بكل شراسة كما لو انهم لم ينهزموا ، وبعد سقوط القدس وأبراجها بات بامكان المرء رؤية أفاعيل مثيرة ، فقد قطعت رؤوس بعض المسلمين بلا رحمة ، في حين اخترقت الأسهم الموجهة من الأبراج آخرين ، وفي الوقت نفسه عذب آخرون بشدة لوقت طويل وأحرقوا حتى الموت في النار المتأججة وتكدست في الطرقات والبيوت الجثث والرؤوس والأيدي والأقدام، وبالفعل كان الفرسان والرجالة يروحون ويجيئون ذهابا وايابا فوق الجثث .

دعوني أخبركم أن هذه الوقائع كانت حتى الآن ذات تفاصيل قليلة وتافهة ، وانني لأجد قصة أخرى هامة عندما نأتي الى معبد سليمان المكان المعتاد للتراتيل والصلوات والعبادات ، هل سأحكي الذي جرى هناك ؟ لو انني اخبرتكم لما صدقتم ذلك وقبلتوه مني ، ولعله يكفي أن احكي لكم أنه في معبد سليمان ، وفي الأروقة خاض حملة الصليب بخيولهم في الدم الذي وصل الى ركبهم و سروج خيولهم

وفي يقيني إن في هذا عدالة ربانية تتمثل في ان يتلقى معبد سـليمان دم المسلمين الذين شتموا الرب هناك لسنين طـويلة ، وسـلموه الى ريموند مقابل عهد بالأمان ، ومع سقوط المدينة كان تعـويضنا رؤية الحجاج عند القبر المقدس ، وتصفيق الأيدي والابتهاج وانشاد نشيد واحد جديد للرب ، فقد قدمت أرواحهم للرب المنتصر الظافر صلوات الشكر والمديح التي لم يستطيعوا شرحها بالكلمات .

لقد كان يوما جديرا بالتقدير ، وسعادة ما فوقها سـعادة ،وسرورا سرمديا ، ومحصلة لكدنا وتحقيقا لحبنا أوجد كلمات وأناشيد جديدة للجميع ، وبدل هذا اليوم ـ الذي أؤكد انه سيخلد على مدى العصور و الدهور ، أحزاننا وصراعاتنا الى سعادة وابتهاج ، ثـم ان هـذا اليوم قد أزال جميع أشكال الوثنية ، وثبـت المسـيحية و اعاد الينا ايماننا ، ان هـذا هـو « اليوم الذي صـنعه الرب سـنبتهج فيه ونسـعد » ، وهـذا صـحيح لأن الرب أشرق علينا في ذلك اليوم و باركنا .

ورأى العديد اللورد أدهمر ، أسقف لي بوي في القـدس ، في هـذا اليوم ، واكد الكثيرون انه كان يمهد الطريق فوق الأسـوار ويحـث الفرسان على اللحاق به ، وجدير بالتذكير أيضـا أنه في مثـل هـذا اليوم أخرج الرسل من القدس وتفرقوا في جميع انحاء العـالم ، وفي هذا اليوم خلص ابناء الرسـل المدينة مـن أجـل الرب و الآبـاء ، وسيخلد هذا اليوم وهو الخامس عشر من تمـوز لذكرى مـدح الرب وتمجيد اسمه ، الذي استجاب لصـلوات كنيسـته و أعاد القـدس بالايمان والبركات الى ابنائه ، و أعاد أيضا أراضيها التي وعد بها الآباء ، ورتلنا في ذلك الحين صلاة القيامة ، حيث أنه قام هوبقدرته في ذلك اليوم من بين الأموات ، و خلصنا برحمته.

الفصل الخامس عشر

الوقائع التي أعقبت سقوط القدس و معركة عسقلان

سأتحول الآن للاهتمام بأمور أخرى حيث ان في الوصف المتقدم كفاية ، فبعد مرور ستة أيام أو سبعة انصرف الامراء ـ طبقا لعادتهم ـ نحو انتخاب ملك يدير المملكة ، ويجمع ضرائب المنطقة ، ويحمي الريف من المزيد من الدمار ويعمل كمستشار للناس ، و في اثناء المداولات تجمع بعض من رجال الدين وعبروا للامراء عن آرائهم وقالوا : اننا نشيد بتحرككم ، ولكن بما أن المسائل الروحية تتقدم على المسائل الدنيوية ، فإن السلوك القويم الصحيح يتطلب أن تنتخبوا أولا قائدا روحيا ، ثم تعمدون بعد ذلك إلى انتخاب حاكم علماني ، وإنكم اذا لم تفعلوا ذلك فلن نعترف باختياركم ، ولم ينجم عن هذا غير اغضاب الأمراء والاسراع بالانتخاب .

و لا بد من أن أوضح أن الضعف انتاب صفوف رجال الدين في ذلك الوقت ، أولا بسبب موت اللورد ادهمر أسقف لي بوي ، الذي كان يكبح جماح الجيش ويهدئه بأعمال تثير الاعجاب ومواعظ مؤثرة مثلما فعل موسى ، ثم بعد ذلك موت وليم أوف أورانج ، وهو رجل مبجل وأسقف كرس نفسه لحمايتنا ، وكان قد مات في معرة النعمان ، و هكذا لم يقف بعد موت هذين الرجلين الطيبين في وجه الأمراء سوى أسقف البارة مع عدد صغير من الكهنة ، اما أسقف مارتوانا ، الذي كان يسلك سلوكا منحرفا عندما نال بطريق الغش والخداع كنيسة بيت لحم ، فقد وقع في أسر المسلمين بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، ولم يظهر بعد ذلك أبدا .

استخف الأمراء بنصيحتنا واحتجاجنا وشجعوا ريموند صنجيل

على قبول الملكية ، لكنه اعترف أنه يرتجف لدى سماعه اســم ملك في القدس ، ومع ذلك أعلن أنه لن يعتــرض ســبيل أي شــخص آخــر يقبلها ، وهكذا وقـــع اختيارهـــم على غود فـــري ، وأعطـــوه لقب « حامي القبر المقدس» ، وما لبث غود فري أن طلب من ريموند تسليمه برج داود ، واعترض الكونت بقوله : إنه كان يخطط للبقاء في المنطقة حتى عيد الفصح ، وطلب أن يعامل هو و رجاله حتــى ذلك الحين المعاملة اللائقة ، ورد الدوق أنه سيكون آخر مـــن ســـيتخلى عن البرج ، وهكذا تـــطور الخـــلاف بينهمـــا ، وكان كل مـــن كونت فلاندرز و كونت نورماندي يؤيدان غودفــري وذلك فضـــلا عن جميع رجال ريموند ، الذين اعتقدوا أن الكونت ســـيعود إلى لانجـــويدوك بمجرد فقدانه لبرج داود ، ولم تكن هذه هي المعارضة الوحيدة التـــي صادفها من أتبـــاعه البـــروفانسيين ، لأنهـــم كانوا ــ في وقـــت متقدم ــ قد نشروا أكاذيب قصدوا أن يحـــولوا بهـــا دون انتخـــابه ملكا .

وعندما تخلى الرفاق و الأصدقاء عن ريموند تم تســـليم البـــرج إلى أسقف البارة و عهد به إليه إلى أن يتم الفصل في هذه القضية ، لكن ما لبث ريموند أن وجد الأسقف يقـــوم بـــدوره بتســـليم البـــرج إلى غودفري دون أن ينتظر قرارا حوله ، وعندما أتهم الأسقف بـــأنه لم يكن أمينا ، أجاب أنه فعل ذلك مرغما ، وأنه عومل معـــاملة فـــظة ، ولقد علمت أن أسلحة كثيرة قد حملت إلى منطقة الأسقف ، أي بيت البطريرك الذي كان يقع على مقربة مـــن كنيســـة القبـــر المقـــدس ، وتحدث الأسقف عن استخدام القوة الجسدية ضده ووجـــه اللوم إلى رجال ريموند سرا .

وبعد خسارة البرج استشاط الكونت غضبا ، واستاء مـــن أتبـــاعه وقال : إنه قد اعتدي على كرامته ، وأنه لهـــذا ســـيغادر البـــلاد ، وهكذا توجهنا من القدس إلى أريحا ، وجمعنا هناك السعف وأتينا إلى نهر الأردن ، و عملا بتوجيهات بارثلميو صنعنا طوفا من الفروع الصغيرة ، وضعنا ريموند عليه ، وجدفنا عبر النهر ، ثم طلبنا مـــن

الحشد المجتمع هناك أن يصلي مــن أجــل حياة الكونت والأمــراء الآخرين ، و اغتسلنا في النهــر المقــدس ، وكان الكونت ريمــوند لا يرتدي سوى قميصا وسروالا جديدا ، لكن لماذا أصــدر رجــل الرب بطرس بارثلميو مثل هذا الأمر ؟ لم يتكون لدي أدنى فــكرة حــوله حتى الوقت الحالي .

وعند رجوعنا إلى القدس بعد أداء هذه المهمــة ، اختــار بعضــهم أرنولف كاهن كونت نورماندي بطريركا ، وذلك خلافا لرغبة رجــال الدين الطيبين ، الذين اعتــرضوا لأنه لم يكن بعــد بمــرتبة معــاون شماس ، وكان من أصل رهباني ، والأهــم مــن ذلك كله أنه أتهــم بمعاشرة النســاء في أثناء الرحلة حتــى أنه كان مــوضوعا لقصص فاحشة ، ولا حاجة بي إلى القول إن أرنولف الطموح قــد تجــاهل قرارات الكنيسة ، وقد حط بمولده المشين وانعدام ضميره من شأن رجال الدين الطيبين ، ولقــد رفــع نفســه إلى الكرسي البــطريركي بمصاحبة التراتيل و الأناشيد والتصــفيق الكبير مــن الناس ، ولم يخش ارنولف أن يحل به العقاب الرباني الذي حل بأسقف ماتورانا الذي حرص على انتخاب أرنولف ووجهه ، فقــد ظــل يأخــذ دخــل الكنائس من رجال الدين الذين كانت لهم بيع عند قبر الرب ، أو من الذين تلقوا الرسوم مقابل العناية به .

وما أن استقر أرنولف بالسلطة حتى راح يسعى بمساعدة السكان المحليين للتعرف إلى مكان الصليب الذي كان يعبده الحجــاج قبــل استيلاء الأتراك على القدس ، ولم يوضح هؤلاء الســكان مــوقعه ، ومضوا في اللجاج إلى حد أنهم أقسموا أنهم لا يعرفون شــيئا عنه ، غير أنهم في النهاية أرغموا على أن يقولوا : إن الوحي يقــول أنكم شعب الله المختار ، و أنكم تخلصتم من المحن و أعطيت لكم القــدس مع مدن ،اخرى كثيرة ، و لم يكن ذلك بفضل قوتكم الكبيرة بل ارادة من رب غاضب أعمى أهل الكفر ، وقد منحكم الرب قــائدكم أبــواب المدن التي لا يمكن اختراقها ، و كسب لكم معارك رهيبة ، و ما دام الرب إلى جانبكم ، فلماذا نصر على أن نخفــي آثــاره عنكم ؟ ثــم

قادوا حملة الصليب إلى قاعة في الكنيسة ، وهناك نقبوا عن الصليب و سلموه لهم ، وهكذا سعدنا ومجدنا الرب القدير ، و شكرناه حيث أنه لم يعد إلينا مدينة آلامه فقط بل منحنا رموز صلبه و انتصاره ، حتى نتمسك به أكثر ، ونحتضن الايمان ونكون أكثر يقينا لأننا رأينا الآن آثار خلاصنا .

وكما ذكرنا قبل ذلك كان في هذه الأثناء غودفري يحتفظ بالقدس بموافقة الجميع باستثناء ريموند الذي أثار حنقه الحزن والظلم بسبب ضياع برج داود ، والذي بلا شك هو مفتاح مملكة يهوذا ، وبناء عليه وضع الخطط ليعود بجزء كبير من البروفانسيين ، ومهما يكن من أمر جاءت الأخبار أن ملك مصر قد وصل إلى عسقلان مع قوة كبيرة من المسلمين ، بهدف مهاجمة القدس ، وقتل الفرنجة ممن هم في سن العشرين و ما فوقها ، و أسر الباقين مع الفرنجيات برجال من بلاده ، وتحدثت الاقاويل أنه سيزوج شباب الفرنجة بنساء من جنسه ، والنساء الفرنجيات برجال من بلاده ، وبذلك يربي جيلا من المحاربين من الأصل الفرنجي .

وجعلته خططه العملاقة يتبجح أنه سيعامل انطاكية و بوهيموند المعاملة نفسها ، وفضلا عن هذا كله إنه سيتوج نفسه في دمشق و المدن الأخرى ، زد على هذا رأى بعد دراسة لحجم جيوشه القوية من الرجالة والفرسان ،أن الأتراك لم يكونوا شيئا ، و الفرنجة الذين هزموا الأتراك أيضا ليسوا شيئاو لم يكتف بهذا بل جدف بحق الرب بقوله : إنه سيدمر مسقط رأس الرب و المزود الذي رقد فيه ، و مكان الآلام و الجلجلة ، و بالذات البقعة التي تفجر فيها دم الرب المصلوب ، والقبر الذي دفن فيه الرب وجميع البقاع المقدسة الأخرى في مدينة القدس والمناطق المحيطة بها ، وازداد تبجحا فقال : أنه سيخرج الآثار المقدسة من تحت الأرض و يحطمها و يسحقها و ينثر ترابها فوق البحر ، حتى لا يبحث الفرنجة بعد ذلك خارج بلادهم عن بقايا الرب التي تكون قد ضاعت وابتلعها البحر .

و إثر سماع هذه الاقاويل و الأخبار الاخرى حول الحشود الضخمة التي جمعها هذا الطاغية عند عسقلان ، و هي مدينة تبعد عنا مسيرة يوم و نصف اليوم ، اجتمع امراؤنا مع رجال الدين ، ثم سار حملة الصليب المحتشدون حفاة الأقدام أمام القبر المقدس ، وطلبوا الرحمة و الدموع تملأ عيونهم ، طلبوها من الرب ، وسألوه أن يخلص شعبه الذي نصره في الماضي ، كما توسلوا إليه ألا يسمح بأي تدنيس لمكان صلبه الذي تم تطهيره توا من أجل اسمه ، ثم اتينا إلى معبد الرب حفاة الأقدام نلتمس عونه بالأغاني والتراتيل و النخائر المقدسة ، و هناك انبعثت صلواتنا من أعماق كياننا و تدفقت أمام الرب و تضرعنا إليه أن يتذكر تدفق بركته في المكان نفسه « إذا كان شعبك قد أخطأ في حقك ، و كان التغيير بمثابة تكفير ، و اتوك مصلين في هذا المكان فاستمع اليهم من السماء يا رب و خلصهم من أيدي أعدائهم » (انظر سفر الملوك ٨)

و بعد مباركة الاسقف وضع القادة خطط المعركة ، ووسائل حماية القدس ، ثم رحل غودفري و فرسانه للتحقق من صدق الأقاويل المتعلقة بالملك ، و بعدما وصلوا إلى سهول الرملة بعثوا بأسقف مارتورانا ليطلع الكونتات في القدس على حقيقة الحال ، و عندما تأكد القادة من وقوع المعركة أصدروا نداءا إلى جميع الرجال الأقوياء ، و صلوا للرب ، و انطلقوا خارجين من القدس يحملون كامل أسلحتهم وتتقدمهم الحربة المقدسة ، و في اليوم نفسه وصلوا إلى السهول ، و تحركت في اليوم التالي جيوشنا و زحفت إلى الأمام في تشكيلات يحيط بها الحراس من كل جانب .

ومع الغروب اقتربنا من نهر يقع على الطريق من القدس إلى عسقلان ، و شاهدنا عربا يرعون قطعانا من الماشية من الأغنام والجمال الكثيرة ، فأرسلنا مائتا فارس للاستطلاع ، لأن العدد الكبير من العرب و المواشي جعلنا نعتقد أن قتالا سينشب ، و كما قلنا من قبل سرنا في تلك الأثناء في تسعة صفوف ، ثلاثة في الساقة ، و ثلاثة في المقدمة و ثلاثة في القلب ، كي نواجه اي هجوم علينا بثلاثة

صفوف ، حيث يكون القلب على استعداد دائم لمساندة المؤخرة و المقدمة ، و هرب الرعاة العرب لدى مشاهدتهم لفرساننا ، و لو أن الرب اعانهم كما اعاننا كانوا سيدافعون عن مواشيهم ، ذلك أن عددهم وصل في الواقع إلى ثلاثة الاف ، بينما كان جيشنا يضم الفا و مائتين من الفرسان ، و لم يكن لدينا اكثر من تسعة ألاف من الرجالة ، و بعد فرارهم حصلنا على كميات هائلة من الغنائم ، و اسرنا و قتلنا عددا ضئيلا من العرب ، و لما كان النهار على وشك الانتهاء ، ضربنا الخيام ، و ارغمنا الأسرى على الكشف عن خططهم ، و عن مدى استعدادهم ، و عن اعدادهم و قواتهم ، و اعترف الأسرى ان العرب يريدون حصار القدس ، و من ثم أن يطردوا و يأسروا او يقتلوا الفرنج جميعا ، و اضافوا ان اميرهم الذي ضرب مخيمة على مسافة خمسة فراسخ منا ، سيزحف نحونا في اليوم التالي ، و لم يتجرا الرعاة على تقدير حجم جيشهم تقديرا قاطعا ، لانه كان يتزايد يوما بعد يوم ، أما عن دورهم ، فقد اوضحوا أنهم كانوا مجرد رعاة شرعوا في بيع مواشيهم إلى الجيش المصري

و استعدادا للصدام المقبل أحل حملة الصليب كل واحد منهم الآخر من ذنوبه التي اقترفها بحقه أو لم يقترفها ، وباتوا في هياج كبير إلى درجة أنهم لم يأبهوا بالتقارير المتعلقة باستعدادات العدو ، و في غمرة الثقة اعتقدوا أن العرب سيكونون اكثر جبنا من الغزلان و اكثر وداعة من الحملان ، و تولدت هذه الثقة من إيماننا أن الرب كان إلى جانبنا في الدروب الأخرى ، و أنه بسبب كفر الوثنيين ، سوف يبدأ وحده بمعاقبتهم حتى و إن كانت قضيتنا واهية ، و هكذا أثرنا أن نعد الرب مدافعا عنا و أننا معاونوه ، و صدرت الأوامر أنذاك إلى الجيش لأن يكون الجميع على أتم استعداد للمعركة وقت الفجر ، و أن ينضم كل فرد إلى قوات قائده ، و الا يلمس أي منا الغنائم حتى ينتهي القتال و إلا صدر بحقه قرار بالحرمان ، و قضينا ليلة بائسة بدون خيام و مع قليل من الخبز ، و بدون نبيذ ، و

بكمية ضئيلة من الطحين و الملح ، إنما كانت امداداتنا من اللحم ـ على الأقل ـ في وفرة الرمال ، و هكذا اكلنا اللحم ، و استخدمنا لحم الضأن بدلا من الخبز .

و عند حلول الفجر قرعت الطبول و صدحت الأبواق مستدعية الجيش و موقظة له ، و هكذا تحركنا عند اشراق شمس النهار ، و الحرس مرتبون على الجوانب كلها حسبما أوضحنا من قبل ، و تحركنا قدما نحو معسكر المسلمين ، و كان المسلمون غارون في معسكرهم اعتقادا منهم أن الفرنجة سيبقون قرب أسوارهم عند سماعهم بقدومهم ، و بعدما وصلتهم أخبار فرار الرعاة و قتلهم دعاهم ذلك الى الظن في قرارة انفسهم أن الفرنجة قدموا من أجل الأسلاب ، و بعد حصولهم عليها سيعودون الآن أدراجهم.

وفي الحقيقة كانت تصلهم تقارير يومية عن حالات الفرار من القدس وعن ضآلة حجم جيشنا ، وعن الوهن الذي أصاب رجالنا وجيادنا ، وكانوا متأكدين ـ وقد وضعوا ثقتهم في حجم قواتهم وقدراتهم ـ أنه بامكانهم اغراقنا ومعسكرنا ببصاقهم ، وسمعنا أن منجموهم قد نصحوهم بعدم التحرك أو القتال قبل اليوم السابع من الاسبوع ، وحذروهم أن التحرك قبل ذلك الموعد لن يكون مفيدا .

وحسبما أوضحنا من قبل تحركنا في تسعة صفوف ، وضاعف الرب حجم جيشه الى حد بدونا فيه أننا نبلغ حجم القوات العربية ، وحدثت هذه المعجزة حين شكلت المواشي التي حررناها قطعانا ، وسارت خلفنا دون أن يوجهها أحد ، حيث كانت تقف حين نتوقف عن السير ، وتجري حين نسرع الخطا ، وتسير إلى الامام إذا فعلنا ذلك ، ولم يعد في مقدورنا احصاء البضائع ولاتقدير كميات الاسلحة والخيام التي استولينا عليها ، وعندما شاهد العرب ذبح العديد من رفاقهم ، ونهب الفرنجة لمعسكرهم بكل شغف وأمان ، توقفوا عن القتال وقرروا : أنه طالما من المحتم علينا الفرار ففيم الانتظار ؟

واذا كان المسيحيون الذين اجهدهم الزحف وهدهم التعب والجوع والعطش ، قد سحقوا قواتنا بهجوم واحد وهم على هذه الحالة ، فما الذي سيفعلوه بنا اذا مانالوا قسطا من الراحة واستردوا بأسهم ؟ لقد حققوا النصر علينا وهم نصف احياء ومستضعفين وأوقعوا في قلوبنا الرعب ٠

ونتيجة لهذا ، عاد العرب وقد أسقط في ايديهم - ماعدا بعض الاستثناءات إلى عسقلان التي تبعد عن معسكرنا مقدار ميل واحد

وقرر ريموند أن يبعث بوهيموند ، وهو رجل تركي، الى الأمير يحمل مشروع سلام ، وليذكره أنه حين رفض تسليمنا القدس اضطر الى قتالنا وكان على بوهموند ان يقرر في الوقت نفسه الموقف ، وأن يرى ماإذا كان الأمير يخطط للفرار أم للقتال ، وليتبين كيف كان رد فعله ازاء الهزيمة ، وكان بوهموند ، مع أنه تركي الأصل ، يتكلم بعدة لغات ، وماهرا واريبا ، ومخلصا لنا أيضا ، وقد سمي بوهيموند بسبب أن بوهموند الكبير كان قد تلقاه عند جرن المعمودية حين ارتد عن الاسلام وجاء إلينا برفقة سلاحه وزوجته ٠

وهاهنا ينتهي بسعادة كتاب ريمون دي جيل

تاريخ الحملة إلى القدس

تأليف فولتشر أوف تشارترز

مقدمة فولتشر

إنه لمبهج للأحياء ونافع للأموات ، القراءة في الصحف المرقـومة اخبار أعمال شجعان الرجـال ، خـاصة الذين يقـاتلون في سـبيل الرب ، أو أن تتناقلها ألسنة المؤمنين بكل خشوع ، لأنها محفوظة في حافظتهم ، كيف استجاب هؤلاء لأوامر الأنجيل ، وتخلو عن متـاع الدنيا وهجروا آبائهم وازواجهم وأموالهم وإن عظمت ، يدفعهم ذلك الى اتبـاع الرب وتـكريس أنفسـهم له (متـى : ١٢ ـ ٢٩ ، ١٦ ـ ٢٤ . مـرقس : ١٠ ٢ ، ٨ / ٣٤ .لوقـا : ١٨ ـ ٢٩ ، ٩ ٢٣) . وأمـا الأمـوات الذين مـاتو في سـبيل الرب ، فإن جليل الفائدة تعود عليهم لدى تـذكر الأحياء مـن المؤمنين سـير سـلفهم وأعمالهم الصـالحة الورعة ، فـذلك يدفعهـم إلى الدعاء لموتـاهم والترحم على أرواحهم ، ووهب الصدقات المصحوبة بـالصلوات في سبيلهم ومحبة بهم سواء أعرفوهم أم لم يعرفوهم .

لذلك قمت بدافع طلب شديد الالحاح من بعض الأصدقاء ، فدونت بكل عناية وترتيب أخبار أعمال الفرنجة الرائعة ، حين اسـتجابوا لأوامر الرب العلوية ، وانطلقوا مسلحين للقيام بالحج إلى القدس ، لعبادة المخلص ، ولقد حكيت بـأسلوب بسـيط متسـم بـالصدق ، مارأيت انه جدير بالذكر ، ودونت بقدر مـاتمكنت مـاشاهدته بنفسي أثناء تلك الرحلة .

ومع أنني لا أمتلك الجرأة على مقارنة أعمال الفـرنجة السـالفة الذكر بالأعمال العظيمة والانجازات الهـامة للاسرائيليين والمكابيين وكثير من شعوب الله المختـارة ، التـي منحهـا معجـزات كثيرة وخارقة ، أنا لاأظن أن أعمال الفـرنجة تقـل شـأنا عنهـا ، لأن المعجزات العجائبية الربانية تحققت مـرارا بين صـفوفهم ، وهـذا

ماسعى جاهدا لبعث ذكراه بالتدوين ، وكيف يتميز الاسرائيليون أو المكابيون عن الفرنجة ، فالحق أقول إننا شهدنا هؤلاء الفرنجة في الأرض عينها والبلاد ذاتها ، وهم في الغالب على مقربة منا ، أو سمعنا عنهم في أماكن نائية عنا ، وهم يقاسون من الضرب والصلب وتمزيق الأعضاء والموت بالنشاب أو بتقطيع الأوصال أو بأية واسطة أخرى توصلهم إلى الشهادة ، وذلك كله في سبيل المسيح وحبا به ، لم توقفهم التهديدات ولم تقعدهم الاغراءات ، بل لو كان سيف الجزار على مقربهم منا لما تحاشاه معظمنا لنيل الشهادة حبا في المسيح .

هناك الاف مؤلفة ممن لاقى حتفه ونال الشهادة المباركة في هذه الرحلة ، من الذي عندما سيسمع بأفعال الرب هذه ـ مهما اشتدت قساوة قلبه ـ لن تجيش أعمق مشاعر الورع في نفسه ، ولايشرع بحمد الرب وتمجيده ؟ ليس هناك من لن يأخذه العجب عندما يرى كيف تمكنا ـ ونحن قلة ـ في قلب بلاد أعدائنا لا أن نقاوم فقط بل أن نعيش أيضا ؟ من الذي سمع قط بمثل هذا ، فلقد كان إلى جوارنا مصر والحبشة من جانب ، وبلاد العرب وسورية والجزيرة والعراق وفارس من جانب آخر ، إن هاهنا بحر عظيم فصلنا عن بلاد المسيحيين ، لقد وضعنا الرب بإرادته بين أيدي الجزارين غير أن ذراعه الجبارة قد حمتنا ودفعت عنا « طوبى للأمة التي الرب إلهها » (مزامير : ٣٣/ ١٢) سوف احكي فيما يلي تاريخ بداية هذا الفعيل ، وسأروي كيف كرست جميع شعوب الغرب أنفسها وسواعدها بلا حدود في سبيل انجاح هذه الحملة .
تنتهي هنا مقدمة فولتشر

الكتاب الأول

يبدأ هنا هذا الكتاب الأول من أعمال الفرنجة حجاج القدس

المجمع الذي عقد في كليرمونت

في السنة خمس وتسعين بعد الألف من تجسيد مولانا يسوع المسيح ، عندما كان هنري ـ المدعو بالامبراطور ـ يحكم في المانيا ، والملك فيليب في فرنسا ، تعاظمت الشرور في مختلف انحاء اوروبا نتيجة لضعف الايمان ، وكان اوربان الثاني قد حكم في هذه الآونة في روما ، وكان رجلا رائعا في الذات والسمات ، مناضلا بجلد وحكمة في سبيل إعلاء مكانة الكنيسة المقدسة .

وكان قد راى الناس جميعا من كهنة وعلمانيين قد داسوا الديانة المسيحية باقدامهم ، واهملوا السلام ايما إهمال ، وتنازع أمراء البلاد أحدهم مع الآخر في حروب لم تعرف التوقف ، وشهد الناس يسلبون متاع الدنيا بعضهم من بعض ، وراى كثيرا من السجناء يحتجزون بدون حق ، ويلقى بهم بكل وحشية في غياهب السجون ، حتى تدفع فديتهم العالية جدا ، أو يعانون من عذاب مثلث الشرور : الجوع والعطش والبرد إلى أن يلقوا حتفهم سرا ، ثم ابصر الأماكن المقدسة وقد دنست حرماتها والبيع والكنائس قد التهمتها النيران ، ولم يسلم احد من البشر من الأذى ، وباتت الشؤون البشرية والربانية موضع سخرية واستخفاف .

وبعيد سماع اوربان أن الاتراك قد اجتاحوا المناطق الداخلية من الاراضي البيزنطية ، وأن المسيحيين قد وقعوا تحت نير شعب متوحش فتاك ، حركته مشاعر التقوى والورع ، فاجتاز ـ مدفوعا بمحبة الرب ـ الجبال ، وهبط إلى اراضي فرنسا ، ودعا إلى عقد مجمع مقدس في اوفيران في مدينة كليرمونت ، وتكون هذا

المجمـع ـ الذي كان قـد بعـث الدعاة للتحضـير له في جميع النواحي ـ من ثلاثمائة وعشرة أعضاء من الأساقفة والشمامسة .
والتأم الجمع في اليوم المحدد حول البابا أوربان ، فـألقى فيهـم خطابا بليغا مؤثرا تناول فيه الهـدف الذي دعا مـن أجله ، وأخبـر المجتمعين بصوت مفعم بالحزن والأسى عن معاناة الكنيسة ، وألقى موعظة مؤثرة حول العواصف الهوجاء التـي تجتـاح العـالم الذي انحطت فيه الديانة إلى الدرك الذي وصفناه من قبل .

وبكل خشوع حث الجميع على العمل في سـبيل استـرجاع قـوة إيمانهم ، وان يبعثوا في أنفسـهم العـزم على التخلي عن إغواءات الشيطان وأن يجهدوا في سبيل استرداد الكنيسة المقـدسة لمركزهـا ومجدها التليد ، بعدما حط من شأنها الأشرار .

خطبة أوربان في المجمع

أيها الأخوة الأحبة ، ياعبيد الرب في هذه البلاد ، لقد قدمت إليكم أنا أوربان المتوج بمشيئة الرب بتاج التثليث ، الحبر الأعظم للعـالم أجمع ، قدمت في هذه الظروف الصعبة والحـرجة بمثـابة نذير مـن العناية الربانية و « إنني لآمل أن يكون وكلاء سرائر الرب صالحين مؤمنين لايشوبهم رياء » (كورنثيوس : ٤ / ١ـ ٢)

لئن كان أحدكم مخادعا أو منحرفا بعيدا عن التعقـل والاعتـدال والعدل محاربا لكلمـة الرب على الأرض فسـأسعى ـ بعـون مـن الرب ـ إلى تقويم اعوجاجه ، فالرب قـد أقـامكم وكلاء على بيتـه حتى إذا ماحان الوقت زودتموه بما تيسر مـن القـوت ، وسـتنزل عليكم البركة المؤكدة إذا مـاوجدكم رب الوكالة مـؤمنين (متـى : ٢٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦)

إنكم تسـمون رعاه ، فـلا تتصرفـوا كالأجـراء ، كونوا رعاة

حقيقيين ، واحملوا عصيكم بأيديكم ولاتغفلوا ، واحرسوا القطيع الذي عهد به إليكم من جميع الجوانب (يوحنا : ١٠ / ١٢ ـ ١٣) أما إذا خطف الذئب خروفا نتيجة لاهمالكم وتقصيركم ، فإنكم لم تخسروا ما أعده الرب لكم فقط بل سيلقى بكم في جحيم الذين حقت عليهم اللعنات ، بعدما تقرعكم عصا الجلاد . وكما جاء في الكتاب المقدس « انتم ملح الأرض » (متى : ٥ / ١٣) ولكن إذا أخفقتم فكيف يتم التمليح ؟ اه كم من الرجال ينبغي ان يملحوا ؟ (متى : ٥ /١٣ . مرقس : ٩ . لوقا : ١٤ / ٣٤) من المتوجب عليكم أن تملحوا بملح حكمتكم المزيلة للفساد ، الجهلة الذين يتنافسون على ملذات هذا العالم ، وإلا فإنهم سيتحولون إلى حجارة نتيجة لطغيانهم ، وسيجدهم الرب عندما يخاطبهم مفتقرين إلى ملح الحكمة .

لانه إن وجد فيكم دودا ـ اي اثام ـ بسبب قعودكم عن القيام بواجباتكم ، فسيأمر بالحال بطرحكم مرذولين في قعر الجحيم (مرقس : ٩ /٤٨) وحيث انكم لن تستطيعوا تعويض هذه الخسارة له ، إنه سيحكم عليكم باللعنة وسيبعدكم بالحال من حضرته ويحرمكم من رعايته . غير ان الذي يملح يجب أن يكون حكيما بعيد النظر متواضعا ، عالما محبا للسلام ، يفتش عن الحقيقة ، تقيا طاهرا ومنصفا عادلا ، إذ كيف يجعل الجاهل غيره عالما ، او المتفاخر غيره متواضعا ، والمدنس غيره نقيا ؟ إذا كان المرء يمقت السلام فكيف يمكنه إحقاق السلام ؟ وإذا ماتلوثت يد إنسان فكيف يمكنه تطهير ماتلوث بدنس أخر ؟ ولقد ورد في الكتاب « إن كان اعمى يقود أعمى يسقطان معا في هوة » (لوقا : ٦ /٣٩)

وبناء عليه أصلحوا ذواتكم أولا حتى لاتستحقوا الملامة ، وإذا ما اصلحتم من هم تحت رعايتكم ، وإذا وددتم حقا أن تكونوا احباء الرب ، فاعملوا متطوعين مايرضيه .

اتمنى عليكم بشكل خاص رعاية شؤون الكنيسة والمحافظة على نواميسها حتى لاتضرب هرطقات المتاجره بالدين جذورها بينكم ، وكونوا على يقين أن الباعة والشارين سيلحقهم سوط الرب (متى : ٢١ / ١٢ مرقس : ١١ / ١٥ . لوقا : ١٩ / ٤٥ ، يوحنا : ٢ / ١٥) ولسوف يجرون بكل تعاسة عبر بوابات ضيقة إلى الهلاك الكلي (لوقا : ١٣ / ٢٤ . متى : ٧ / ١٣) عليكم صيانة حرية الكنيسة بجميع مراتبها وحمايتها من القوى الدنيوية ، وسددوا العشور من خيرات الأرض جميعا إلى الرب بكل أمانة دون أن تباع أو تحتجز .

ولتنزل اللعنة على كل من يختطف اسقفا ، ولتحق اللعنة على كل من يختطف كاهنا أو راهبا أو راهبة ، أو احدا من خدامهم أو من الحجاج أو التجار ، أو يمسهم بالأذى ، وليلحق الطرد والحرمان من الكنيسة كل اللصوص وحارقي البيوت والذين يمدون إليهم يد العون .

ولقد قال غريغوري : « علينا أن نقوم بكل خصوصيه مدى شدة العقوبة التي سنعاقب فيها من يسرق الآخرين ، وإذا ماحقت عليه اللعنة في الجحيم فلأنه كان سخيا بما لم تملك يداه » وهذا ما حصل للرجل الغني الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس (لوقا : ١٦ / ١٩ ـ ٣٠) فهو لم يعذب بسبب سرقته لأموال الآخرين فقط بل لأنه أساء أيضا استعمال الثروة بعدما حصل عليها .

لابد أنكم يا أخوتي الأحباء قد شهدتم عالمكم وقد انتشر فيه الشر وعاث به فسادا منذ أمد بعيد ، ولاسيما في بعض نواحي مقاطعتكم فهذا الذي قيل لكم وقيل لنا ، ولعل من اسباب تقصيركم في إحقاق الحق وإزالة الظلم أنه لايكاد أحد منكم يملك الجرأة على السفر في الطرقات مؤملا السلامة خوفا من السلب على يد قطاع الطرق في النهار ، أو اللصوص في الليل ، فهو يعرض للسلب والمخاطر سواء أكان داخل العمران أو خارجه .

لهذا كله يتوجب عليكم تجديد الهدنة المعروفة باسم « هدنة الرب» التي اقرها الآباء المقدسون منذ زمن بعيد ، وإنني ارغب إليكم بكل إخلاص ان تراعوا الأخذ بها في كل ابرشية من الأبرشيات ، لابل اقول إذا ماخرق انسان ـ لكبر في نفسه أو لطمع ـ شروط هذه الهدنة عامدا متعمدا فليحق عليه الحرمان بقوة السلطة المخولة لي من الرب ، وبإرادة هذا المجمع .

ماحرض به البابا بشأن الحج إلى القدس :

وبعدما جرى الوفاق على هذه الأمور جميعا ، نهض جميع الحضور من اكليروس وعلمانيين وقدموا بلا تكلف الشكر للرب على ماتفوه به البابا أوربان ، وعاهدوه مخلصين بالتقيد بكل مايرسمه ، بيد ان البابا ، بادر إلى الاستطراد قائلا : إن محنة لاتقل عن الذي ذكرت بل تزيد ، ذلك انها بالحري اشد المحن واقساها على الاطلاق ، هي التي نزلت بالمسيحية في طرف اخر من العالم .

وتابع يقول : بما أنكم ياابناء الرب قد وعدتموه بحفظ السلام فيما بينكم ، وان تكونوا أعظم اخلاصا مما مضى في الحفاظ على حقوق الكنيسة ، يتوجب عليكم ، وقد قوم الرب اعوجاجكم ، القيام بواجب ملح لكم وللرب ، يمكنكم خلال ادائه اظهار مدى صدق طويتكم عليكم وبكل سرعة ان تاخذوا المساعدات الى إخوانكم في المشرق ، التي طالما وعدتموهم بها ، انهم بحاجة ملحة لها : ان العرب والتركمان قد حاربوهم ، وتوغلوا في الأراضي الرومانية (البيزنطية) عميقا حتى البوسفور ، وهم يتوغلون الآن أعمق من ذي قبل في اراضي هؤلاء المسيحيين ، لقد ابادوهم سبع مرات في المعركة ، فقتلوا منهم من قتلوا ، واخذوا عددا كبيرا من الأسرى ودمروا الكنائس ، واجتاحوا اراضي المملكة ، واذا لم تتصدوا لهم الآن ، فانهم سيمدون سلطانهم اعمق وسيذشرونه فوق العبيد المخلصين للرب .

لهذا السبب اتوجه اليكم بـالرجاء والتحـريض ، وانه ليس انا الذي اتـوجه اليكم ويحـرضكم ، بـل الرب على لسـاني انا نائب المسيح ، اتوجه الى الفقير منكم والغني ، واسالكم ان تتسـارعوا نحو طرد أبناء الشر هؤلاء من المناطـق المقـطونة مـن قبـل اخواننا ، وأن تقدموا المساعدة في وقتها الى عبـاد المسـيح ، انني اخـاطب جميع هؤلاء الحضـور ، وأعلن الشيء نفسـه الى جميع الغياب ، ولكن اعلموا أن المسـيح هـو الذي يخـاطبكم ويصـدر الأوامر : ان جميع الذين يذهبون الى هناك ويفقدون حياتهم في البر أو البحر أثناء الرحلة أو خلال المعركة ضد الكفـار سـيتم غفـران ذنوبهم بالحال ، وانني أمنح هذا من خلال السلطة المضفاة علي من قبل الرب .

يا للخزي ويا للعار اذا ماانتصر علينا هذا الجنس المتسم بمثـل هذه الدناءة والحقارة ، اذا ما انتصر هـذا الجنس الذي تستعبده الشياطين والعفاريت على شعب أنعـم الرب القـدير عليه وتبـاهى باسم المسيح ، اه كم من المعائب ستوسمون بها ـ حتى مـن الرب نفسه ـ اذا لم تقوموا بتقديم العون الى الذين يعدون مثلكم في الدين المسيحي .

وتابع البابا يقول : أنه يتـوجب على الذين اعتـادوا ـ حتـى الآن ـ على الاقتتال مقتـرفين للاثـم ، منغمسـين في صراع ضـد المؤمنين ، أن يتوجهوا للكفاح ضد الكفـار ، وأن يحققـوا النصر عليهم في حرب كان من المتوجب مبـاشرتها منذ أمـد طـويل ، على الذين طـال انشـغالهم بـاللصوصية أن يتحـولوا ليكونوا جندا للمسيح ، وليقم الذين حاربوا في الماضي ضد آلهم واخوانهم بالحرب الآن ضد البرابرة ، دع الذين كانوا يكتـرون لقـاء دريهمـات مـن الفضة (متى : ٣٠٢٧) يحصلون الآن على ثواب سرمـدي ، ودع الذين كانوا ينهكون انفسهم ويدمرون أجسادهم وأرواحهم يكافحون الآن لنيل ثواب وأجر فيه تعويض مضاعف ، وبعد مـاذا يمـكن أن اقول أكثر من هذا ؟ سـيقف الفقـراء والتعسـاء أولا على طـرف

وسيقف الأغنياء حقـا على طـرف أخـر ، هناك وقـف أعداء الرب ، وهنا وقف اعوانه .

لاتدعوا حائلا يحول دون الذين يريدون الذهاب ، دعوهم يعدون أمورهم ويجمعون أموالهم ، وعندما ينقشع الشتاء ويحل فصـل الربيع ، عليهم أن ينطلقـوا بقلوب عامـرة بـالايمان ، وليأخـذوا الطريق تحت أشراف الرب وقيادته .

اسقف لى بوي والوقائع التي تلت

بعدما تفوه البابا بهـذه الكلمـات ، ثـارت حمية الحضـور جميعا ، ووعد العديد منهم بأن يذهبوا على الفور ، وأن يحثوا مـن لم يشهد الاجتماع أن يفعل الشيء نفسه ، وكان ذلك اعتقادا منهـم أن لاشيء يفوق هذه المسألة أهمية ، وكان بين الحضور أسـقف لى بوي واسمه أدهمر ، وهو الذي غدا فيما بعد القـائد الروحـي الذي قاد بحكمته وحسن تدبيره الجيش برمته وألهمه بكل حزم كيف يؤدي مهمته .

وبعدما أقر المجمع هذه الأمور التي وصـفنا ، وتمـت الموافقـة عليها بـالاجماع ، منحـت تبـريكات الغفـران ، وارفض الاجتماع ، ومان عاد الجميع الى مساكنهم حتى أخبـروا الذين لم يعلموا بكل ماجرى ، وإثر انتشار قرارات المجمع في جميع أطـراف المقاطعات ، وافـق الجميع واعطـوا مـواثيقهم بـالحفاظ على السلام ، والتقيد بشروط « هدنة الرب ».

وفي الحقيقة ماأن سمع كثير من الناس من مختلف المراتب بمـا حدث وبغفران الذنوب حتى بادروا الى اعطاء مـواثيقهم والاقسـام على أن ينطلقوا بأرواح طـاهرة سـواء أمـروا بـالذهاب ام لم يؤمروا .

اواه كم اسعد نفوسنا واثلج صدورنا رؤية الصلبان المصنعة من الحرير أو من السندس المذهب ، أو قماش فاخر أخر ، وقد خاطها الحجاج من الفرسان والعامة على اكتاف أرديتهم ، فلقد فعلوا هذا كله طاعة لأوامر البابا أوربان ساعة أدائهم القسم بالذهاب ، ولقد كان جديرا أن يتولى شعار الرب ورمز انتصاره حماية جنده وتثبيت هوية الذين كانوا يعدون العدة في سبيل الدفاع عن مجده ، وبما أنهم حلوا نفوسهم بشعار دينهم هذا ، فانهم نالوا في النهاية من الرمز ذاته الحقيقة بحد ذاتها ، لقد حملوا الشارة الخارجية حتى يدركوا في النهاية الحقيقة الداخلية .

ومن الجلي أن النوايا الطيبة تقود الى انجاز الأعمال الطيبة ، وأن العمل الطيب يؤدي الى خلاص الروح ، وبناء عليه ان افضل مايقوم به المرء هو أن يدخر ذخيرة له من الأعمال الحسنة ، حتى يتأمن له من خلالها غذاء للروح ، فليتوكل امرىء أن يعمل صالحا حتى يحقق عملا أصلح ، وفي النهاية سيحصل ـ اذا كان جديرا ـ على افضل مايكون ، وهذا مالا تنقص قيمته الى الأبد .

شعر

وبهذه الوساطة شرع اوربان الرجل العاقل المبجل

بعد التأمل ، بعمل أشرقت منه الدنيا .

لقد أعاد احلال السلام ، ووطد من جديد حقوق الكنيسة كسالف عهدها ، كما وبذل جهودا مضنية لطرد الكفار من بلاد المسيحيين ، وبما أنه ناضل بلا هوادة في سبيل تمجيد كل شيء مصدره الرب ، فقد دان له الجميع بالطاعة وقبلوا سلطته الأبوية .

النزاع بين البابا أوربان وجيلبرت :

اقام الشيطان ، الذي يسعى دوما وبلا انقطاع لتدمير الانسان ، ويطوف في الأرض كالسبع المفترس الباحث عن فريسة يلتهمها (بطرس : ١ـ٥ ٨) اقام ليشيع الفوضى بين الناس ، منافسا للبابا أوربان اسمه جيلبرت ، وقد بدأ هذا الرجل ، مدفوعا بالرعونة ، ومدعوما بصفاقة امبراطور بافاريا سالف الذكر ، باغتصاب الكرسي البابوي ، وبينما تمسك غريغوري المعروف باسم هيلديبراند ، وهو البابا الذي تقدم على أوربان بمنصبه البابوي في الكنيسة ، منعه جيلبرت نفسه من الاقتراب من كنيسة القديس بطرس .

وبعد ما تمادى جيلبرت في تعنته ، ارتأى اتقياء الناس عدم الاعتراف به ، وبعد وفاة هيلدبراند جرى انتخاب أوربان بصورة شرعية ، وتم ترسيمه من قبل الكرادلة ، وقد مال القسط الأكبر من الناس وأكثرهم ورعا الى طاعته .

وافلح جيلبرت ، بدعم من الامبراطور السالف الذكر وحماس جل أهل روما ، في ابعاد أوربان عن كنيسة القديس بطرس لمدة طويلة ، وطاف أوربان خلال الفترة التي ابعد فيها عن كنيسته في انحاء البلاد ساعيا الى تقريب القلوب من الرب وتصحيح اعوجاج ذوي الغواية .

وبحكم احتلاله للمركز الرئيس في الكنيسة ، ازدادت غطرسة جيلبرت ، بيد انه ابدى تهاونا تجاه أهل الخطيئة ، ومارس ومعه جماعته ظلما وظائف منصب البابوية ، ولم يعبأ بأعمال أوربان وسعى الى ابطال فعاليتها .

غير أن أوربان قد تمكن في السنة نفسها التي مر بها الفرنجة في

روما في طريقهم الى القدس ، من الاستيلاء على السلطة الكنسية بفضل عون تلقاه من سيدة فاضلة اسمها ماتيلدا ، كانت في تلك الآونة واسعة النفوذ في منطقة روما التي انحدرت منها ، وكانت جيلبرت وقتذاك في المانيا ، وهكذا صار لروما بابوان،الأمر الذي ادى الى حيرة الناس بشأن من يطيعون منهما ، والى من يعودون ومن يمنح الغفران الى مرضاهم ، وفضل بعضهم هذا واثر أخرون ذاك .

وكان جليا لذوي العقول من الرجال أن أوربان كان هو الأفضل ، وفي الحقيقة أن الأفضل هو الذي يضبط نفسه ويتحكم بعواطفه ويضبطها كما لو كانت عدوة له .

وكان جيلبرت بحكم كونه أسقفا لمدينة رافينا ثريا جدا ، وكان يختال في مظاهر البذخ والترف ، ومن المثير للدهشة أن هذه الثروات لم تشف غليله ، وبناء عليه هل يعقل أن يعد نموذجا للحياة المثلى الذي يعشق المظاهر ويتطاول بكل قحة على اغتصاب عرش سلطة الرب ، وان هذا المنصب لايجوز حيازته بالقوة بل ينبغي تقبله بكل تواضع وخشوع .

وليس من المدهش ان أصيب العالم بأسره بالقلق والحيرة ، فعندما تضطرب أمور كنيسة روما ، التي هي مصدر التقويم لجميع المسيحيين ، سيصيب المرض المعدي الساري في أوصالها الرئيسية جميع الأعضاء التابعين لها ، وسيزداد ضعفهم بسبب معاناتهم من أجلها .

أجل الحق يقال ان هذه الكنيسة هي أمنا ، التي تربينا في احضانها ونشأنا على مثلها واعتدنا ، واشتد عودنا بمشورتها ، أجل هذه هي الكنيسة نفسها قد ضربت بكل قحة من قبل جيلبرت الأرعن المتكبر ، ومعروف أنه عندما يصاب الرأس تتداعى بقية الأعضاء في الحال .

شعر :

عندما يصاب الراس
يصيب الأذى بقية الاعضاء .

وعندما مرض الراس على هذه الصورة ، ازداد الضعف في الأطراف نتيجة الالام التي انتشرت في جميع ارجاء اوربا ، حيث داس الناس ، سواء أكانوا اقوياء ام ضعفاء ، وسيان اكانوا داخل الكنيسة أم خارجها ، بأقدامهم على الفضيلة والسلام والدين ، وبات من المتوجب وضع حد لهذه الشرور جميعا ، وتدبرت الخطة التي احكمها البابا اوربان ان يتحول الصراع والقتال ـ الذي دار حتى الآن بين المسيحيين ـ فيوجه ضد الكفار .

والآن سأوجه قلمي نحو تدوين التاريخ بغية اخبار الذين لم يعلموا بما حدث لرحلة القاصدين الى القدس ، وماجرى لهم من وقائع وسأبين كيف توجت خططهم واعمالهم بالنجاح بعون الرب ، فلقد جمعت أنا فولتشر أوف تشارترز ، الذي سافرت مع الحجاج ، بكل دقة وعناية فائقة ، ذلك كله في ذاكرتي ، من اجل الأجيال المقبلة ، ودونته تماما كما شهدته بنفسي .

اوقات انطلاق المسيحيين واسماء قادة الحجاج

شرع في شهر اذار من عام ١٠٩٦ بعيد عقد المجمع الذي دعا اليه البابا أوربان الثاني في تشرين الثاني حسبما ذكرنا في اوفيرن كليرمونت ، بعض الذين بادروا الى تجهيز أنفسهم واكملوا اعداداتهم ، شرعوا في الرحلة المباركة ، وسار اثرهم آخرون في نيسان او ايار ، وفي حزيران او تموز أو حتى في آب وايلول وتشرين

أول كل حسب مقـدرته على تـوفير الموارد الكافية لسـداد نفقـات التكاليف .

ومن نعم الرب أن الحبوب والنبيذ وجدت في تلك العـام بـكميات وافرة جدا في جميع البلدان ، وبذلك توفر الخبز خـلال الرحلة للذين حملوا صلبانهم واختاروا اتباع طريق الرب .

ولما كان من المفيد الاتيان على ذكر أسماء الحجاج في تلك الرحلة فانني اذكر : هيوج الكبير أخو فيليب ملك فرنسا ، فهـو كان أول الأبطال الذين عبروا البحـر ، فقـد نزل هيوج مـع رجـاله في ديرازو ، وهي مدينة بلغارية ، غير أنه اندفع بكل طيش على رأس قوة صغيرة ، فـاعتقله سـكان المنطقـة وحملوه الى امبـراطور القسطنطينية حيث بقي فترة من الزمن محروما من حريته .

وبعده بوهيموند أبوليا بن روبـرت غويسـكارد ، مـن شـعب النورمان ، الذي سار بجيشه على الطريق نفسه .

وبعده غودفري ، دوق اللورين ، الذي سافر عبـر هنغـاريا على رأس قوة أكبر .

وبعده ريموند كونت بروفانسال ومعه القـوط والكاسـكون ثـم أدهمر أسقف لي بوي ، وزحف هؤلاء عبر دلماشيا .

وكان أول من عبر هنغاريا المدعو بطرس الناسك ، وبعدما جمـع حوله حشدا كبيرا مـن الرجـالة ، وعددا ضـئيلا مـن الفرسان ، وأصـبح بعـد ذلك وولتـر المعـدم ، وكان جنديا قديرا ، قائدا لهذه المجموعة ، وقد لاقى وولتر هذا منيتـه مـع عدد كبير من أعوانه بين نيقوميديا ونيقية على أيدي التركمان .

وبدأ في شهر تشرين الأول روبرت كونت نورماندي ، ابـن وليم

الفاتح ، ملك انكلترا ، رحلته بعدما حشد جيشا كبيرا من النورمان والانكليز والبريطانيين ، وقد مضى معه ستيفن كونت بلوا الذي كان زوج اخته ، وروبرت كونت الأراضي المنخفضة ، ومعه حشد من النبلاء .

وهكذا تقاطرت هذه الحشود العملاقة من جميع البلدان الغربية ، وتعاظم حجم الجيش يوما اثر يوم ، وتضخم أثناء زحفه من شرائم صغيرة قليلة العدد الى مجموعة من الجيوش ، وحوى أعدادا لاتحصى من بلاد متعددة تنطق بلغات شتى ، انما لم تجتمع في جيش واحد الا مقابل مدينة نيقية .

ثم ما الذي أزيد فأقوله ؟ لقد زحفت الجزر في البحار والممالك في الأرض حتى أيقن الانسان أن نبوءة داود قد تحققت بقوله : « كل الأمم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون أمامك يارب » (مزامير : ٨٥ ٩) وحسبما قال الذين أتوا بعد ذلك بحق :« لنسجد عند موطىء قدميه » (مزامير : ٦/١٣) ولقد قرأنا كثيرا عن هذه الرحلة في كلام الانبياء ، ولن نكرر ذلك هنا ثانية حتى لانسبب الملل .

كم أصابهم من أسى ، وكم أجهشوا في البكاء وندبوا وانتحبوا ، عندما فارقوا رفاقهم وأزواجهم الأعزة عليهم وأولادهم وممتلكاتهم مهما كثرت ، وآباءهم وأمهاتهم واخوانهم وذويهم وآلهم الآخرين .

ومهما تدفقت دموع مودعيهم أمامهم ، فان احدا منهم لم يتقاعس عن الذهاب ، لأنهم تركوا ، في سبيل محبة الرب ، مايملكون ، وكلهم ثقة وقناعة سينالون مائة ضعف مما وعد الرب لمحبيه .

(متى : ١٩ ٢٩ .مرقس : ١٠ ٢٩ ـ ٣٠ .لوقا : ٢٩/١ ـ ٣٠) .

ولقد أخبر الزوج زوجته عن موعد عودته ، مؤكدا لهـا ، أنه اذا ماكتب الرب له السلامة فسيعود اليها ، ثم طلب من الرب أن يعتني بها ، وقبلها مطولا ، ووعدها من خلال دموعه أنه سيعود ولكنها لخوفها من أنه لن تقع عيناها عليه ثانية ، اغمي عليها ، وهي تترحم على من تحب ، وتندب فقدانه كما لو أنه فارق الحياة فعلا ، ثم انه غادر ، كمن ليس في قلبه شفقة ـ مع أنه كان شفوقا ـ وكمن لم يتحرك لدموع زوجته ولحزن محبيه ـ مع أن قلبه قد امتلأ حزنا ـ لقد غادر بكل عزم وحزم . ثم ماذا نستطيع أن نقول أكثر مما قلناه ؟ بقدر من الرب كان هذا ، وهو عجيب في أعيننا (متى : ٤٢/٢) .

رحلة كونت النورمان والذي جرى في روما خلال وجودهم هناك :

ثم عبرنا نحن الفرنجة الغربيين غاليا ، وسافرنا عبر ايطاليا الى مدينة لوكا الشهيرة ، وعلى مقربة منها التقينا بالبابا أوربان الثاني ، وقد تحادث معه روبرت كونت نورماندي وستيفن كونت بلوا وكذلك فعل آخرون منا من الذين رغبوا في محادثته ، وبعد أن منحنا بركاته سرنا الى روما بحبور وغبطة .

وعندما دخلنا البازيليكا في كنيسة القديس بطرس ، وجدنا رجال جيلبرت ، ذلك البابا الاحمق يقفون أمام المذبح ، وقد تخاطفوا باجرام ـ وسيوفهم مشرعة ـ الهبات المقدمة على المذبح ، وسعى بعضهم وركض في ردهات الكنيسة واخذوا يرموننا بالحجارة ونحن راكعون في الصلاة ، ذلك انهم لم يروا أحدا مخلصا لأوربان إلا وأزمعوا على قتله في الحال.

وكان رجال البابا أوربان يحرسونه في واحد من ابراج البازيليكا ، بكل عزيمة واصرار على مقاومة اعدائه ، وقد أصابنا

الأسى عندما رأينا الآثام التي تقترف هناك ، ومع هذا تمنينا في قرارة نفوسنا ألا يقع حادث إلا انتقاما للرب ، وخلال هذا رجع العديد من الذين حضروا معنا الى بيوتهم وقد أضعفهم الخوف والجبن.

أما نحن فقد واصلنا سفرنا عبر أواسط كمبانيا ووصلنا الى باري ، وهي مدينة وافرة الثراء على شاطيء البحر ، وصلينا هناك في كنيسة القديس نيقولا للرب بكل حرارة ، ثم توجهنا الى المرسى على أمل الجواز في الحال ، غير أن البحارة اعترضوا لاقتراب فصل الشتاء مما قد يعرضنا للمخاطر ، فاضطر روبرت كونت نورماندي الى الانسحاب الى كالبريا حيث أمضى الشتاء ، أما روبرت كونت الأراضي المنخفضة فقد عبر في الحال.

ووجد في تلك الآونة عدد كبير من العامة انفسهم بلا معين ، وخافوا من الحاجة في المستقبل ، فباعوا سلاحهم وخلعوا ثياب الحج ، ورجعوا بخسة ونذالة الى ديارهم ، لذلك لحقهم ازدراء الرب ، وحل بهم الخزي والعار .

غرق الحجاج وظهور المعجزة الربانية:

ومع عودة ربيع عام ١٠٩٧ ، عاد في آذار كونت نورماندي وكونت ستيفن بلوا مع أتباعهما نحو شاطيء البحر ، ذلك أن ستيفن كان أيضا ينتظر الوقت الموائم للابحار ، وعندما تم تجهيز الاسطول في مطلع نيسان الذي وافق يوم الصعود (٥ ـ نيسان) ركبوا البحر في ميناء برنديزي.

«يا لعمق غنى الرب وحكمته وعلمه ، ما أبعد احكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء» (رومية: ١١/ ٣٣) إذ أننا شهدنا واحدة من السفن الكثيرة القريبة من الشاطيء وقد انشطرت من وسطها

الى نصفين دون سبب واضح وابتلعها اليم ، فهلك بذلك أربعمائة شخص من الجنسين ، وصعدت أرواحهم الى عليين مصحوبة بصلوات الغفران الى الرب.

وبعدما جمع المحيطون بهم ما استطاعوا من جثث الغرقى ، وجدوا أن الصلبان قد حفرت فعليا في جلد بعضهم فيما بين الكتفين ، ولكم هو رائع أن شعار الفداء هذا الذي وضعوه فوق ملابسهم وهم أحياء ، سيظل بإرادة الرب رمزا لايمان هؤلاء الذين ضحوا بنفوسهم في سبيله ، زد على هذا كم كان موائما أن أظهرت هذ المعجزة لكل من شاهدها أن الأموات قد حصلوا برحمة من الرب ـ على الأمن والسلام في الحياة السرمدية ، وهكذا تحققت نبوءة الكتاب المقدس بدون أدنى لبس و « العادلون وإن ماتوا قبل أوانهم سيكونون بأمان ».

وكان قد نجا عدد ضئيل من الركاب بعدما صارعوا الموت ، وابتلعت الأمواج خيولهم وبغالهم وتم فقدان الكثير من الأموال ، وقد روعنا مشهد هذه الكارثة الى درجة أن بعض ضعاف النفوس ممن لم يكونوا قد صعدوا الى السفن بعد ، انتكسوا على أعقابهم ، وتخلوا عن الحج قائلين إنهم لن يثقوا بهذا البحر الغادر ويؤمنوه على أرواحهم أبدا.

أما نحن فقد اقلعنا في البحر ـ وكلنا ثقة واعتماد على الرب القدير ـ تدفع بأشرعتنا ريح طيبة ، وتزعق من حولنا ابواق عديدة ، ومع حلول اليوم الرابع وصلنا الى البر قرب مدينة ديرازو ، أي على بعد عشرة أميال كما يخيل الي ، ودخل اسطولنا في مرسيين ، ونزلنا الى اليابسة والغبطة تملأ نفوسنا ، وعبرنا من أمام المدينة المذكورة ثم سرنا عبر أراضي البلغار وسط جبال شاهقة وجروف مهجورة حتى وصلنا الى نهر يتدفق بسرعة يدعوه سكان المنطقة باسم نهر الشيطان ، وكانت تسمية محقة إذ شاهدنا العديد من العامة يغرقون في هذا النهر بعدما أملوا في أن يخوضوه خطوة

خطوة ، غير أن التيار جرفهم بقوة هائلة ، ولم يستطع أحد من الشهود انقاذ أيا منهم ، ولقد ذرفنا عليهم دموع الشفقة الوافرة ، ولولا أن الفرسان قدموا العون للرجالة فأجازوهم على ظهور خيولهم المدربة لهلك العدد الأكبر منهم ، ثم عسكر نا على مقربة من الشاطىء ، وامضينا ليلتنا هناك تحيط بنا جبال شاهقة خالية من السكان.

مع اشراقة الصباح صدحت الأبواق ، فشرعنا نتسلق جبل باجولاتس (باجورا) وبعدما تسلقناه مررنا بمدن: لوكريسا وموناستير ولوفيانت (اديسا) وستيللالا ، ثم وصلنا الى نهر داريوس (فاردار) ومع أن هذا النهر يقطع عادة بالقوارب غير اننا خضناه بعون الرب وجزناه بدون قوارب ، وعسكرنا في اليوم التالي امام مدينة سالونيك ، وهي مدينة تزخر بالسلع من كل جنس.

وبعدما توقفنا لمدة اربعة أيام عبرنا بلاد مقدونية عبر وادي فيلبة ثم عبرنا نكريسوبولس و كريستوبولسن ،بريتوريا ،و تيسنوبوالس ،و ماكرا ،و ترايانوبولس ، و نيبابولس ، و بانا دوكس ،و رودوستو ،و هرقلية ، و سلامبريا ، و ناتورا وصولا الى القططنطينية ، التي عسكرنا امامها و استرحنا لمدة أربعة عشر يوما .

ولم نحاول الدخول الى االمدينة ، لعدم موافقة الامبراطور (لأنه كان يخشى أن نتآمر عليه ونسبب له االأضرار) لذلك توجب علينا شراء حاجياتنا اليومية من خارج الأسوار ، وقد أحضر الأهلون هذه السلع بأمر من الامبراطور ، ولم يسمح لنا بدخول المدينة إلا بمعدل خمسة أشخاص أو ستة في كل ساعة ، وهكذا في الوقت الذي كان بعضنا يغادر المدينة كان آخرون يدخلونها للصلاة في كنائسها.

من القسطنطينية الى نيقية:

كم هي جميلة مدينة القسطنطينية لا بل كم هي رائعة ، كم فيها من كنيسة ودار بنيت من قبل أمهر الصناع ، إن ما يراه الانسان في شوارعها العريضة لا بل في أزقتها الضيقة ، من أعاجيب شيء لا يحصى ، ومن المضني أن يحصي الانسان الثروات التي فيها من الذهب والفضة ، والثياب بجميع اصنافها والآثار المقدسة ، فالتجار يجلبون اليها من اسفارهم العديدة ، كل ما يحتاج إليه بني البشر ، وبتقديري أن مالا يقل عن عشرين الف خصي يعيشون فيها على الدوام.

وبعدما استجمينا بما فيه الكفاية ، عقد قادتنا ـ بعد التداول ـ اتفاقية مع الامبراطور ، وأعطوا أيمانهم عليها ، وكان غودفري وبوهيموند اللذان تقدمانا الى هنا ، قد وافقا عليها ، غير أن الكونت ريموند رفض المصادقة عليها ، مع أن كونت الأراضي المنخفضة صادق مثلما فعل الآخرون.

وكان من المحتم علينا إقامة علاقات ودية مع الامبراطور ، ذلك انه بدون مساعدته ومشورته لم نكن قادرين على القيام بهذه الرحلة ، مثلنا في ذلك مثل الذين سيقدمون بعدنا عبر هذا الطريق ، وقد منح الامبراطور الى الأمراء هبات كثيرة ، وخلع عليهم أردية الحرير حتى أرضاهم وأعطاهم الخيول والأموال التي احتاجوا اليها لأداء هذه الرحلة.

وعبرنا بعد ذلك بحر البوسفور ، وخففنا الخطى نحو مدينة نيقية ، حيث كان كل من الأمير بوهيموند ، والدوق غودفري ، والكونت ريموند ، وكونت الأراضي المنخفضة قد شرعوا بحصارها منذ شهر أيار ، وكانت آنذاك تحت حكم الأتراك ، وهم شعب شجاع ، جاء من الشرق ، ماهر في استخدام القوس

والنشاب ، وكان هذا الشعب قد عبر الفرات قبل خمسين سنة من بلاد فارس ، واستولى على الأراضي البيزنطية حتى نيقوميديا.

وا أسفاه كم من رأس مقطوعة رأيناها وكم هي كثيرة عظام الهالكين التي وجدناها مطروحة في البراري قرب البحر حول نيقوميديا ، فقد كان الاتراك في ذلك العام (١٠٩٦) قد أبادوا قومنا الذين لم يعرفوا القوس ولم يختبروا كيفية استخدامه ، وقد هز هذا المشهد مشاعرنا ، فذرفنا الدموع الغزيرة.

حصار نيقية وسقوطها:

عندما سمع الذين كانوا يتولون حصار نيقية نبأ وصول قائدنا كونت نورماندي ، وستيفن بلوا ، قدموا مسرورين لمقابلتنا ، ورافقونا الى موقع في جنوبي المدينة حيث اقمنا معسكرنا.

وكان التركمان قد حشدوا فيما مضى قواتهم ، وزحفوا على امل بصد المهاجمين واستدراجهم بعيدا عن المدينة ، او ان يدافعوا عنها بجندهم بفاعلية أعظم ، غير أن رجالنا ردوهم على اعقابهم وهزموهم بكل ضراوة ، وقتلوا اكثر من مائتين منهم ، وعندما رأى هؤلاء أن الفرنجة أشداء متمرسون في فنون القتال تراجعوا مهرولين الى داخل الأناضول يتحينون الفرصة للانقضاض ثانية.

لقد كنا اخر من وصل للمشاركة في الحصار في الاسبوع الأول من تموز (٣ ـ تموز ١٠٩٧) وكونت في ذلك الوقت الجيوش العديدة التي احتشدت هناك جيشا واحدا ، قدر تعداده العارفون بأنه حوى ستمائة ألف رجل قادر على القتال ، كان من بينهم مائة الف دارع يحملون أيضا الترسة ويضعون على رؤوسهم الخوذ ، وذلك بالاضافة الى الذين كانوا غير مسلحين أي رجال الدين والنساء والأطفال.

ثم ماذا بعد هذا؟لو أن جميع الذين غادروا ديارهم للمشاركة في هذه الحملة المقدسة احتشدوا في ذلك المكان لجاوز تعدادهم ستة ملايين محارب ، وهذا ما لاشك فيه ، غير أن بعضهم رجع من روما ، وبعضهم الأخر من ابوليا ، ثم من هنغاريا ودلماشيا ، لأنهم لم يتحملوا المشاق ، وقتل في أماكن عديدة أعداد كبيرة قدرت بالآلاف ، كما مات عدد كبير من المرضى الذين قدموا معنا ، هكذا امتلأت الطرقات والحقول بقبور الحجاج الذين دفنوا علنا.

ويتوجب علينا ان نبين انه طيلة حصارنا لمدينة نيقية كانت المؤن والأغذية تصل الينا بوساطة السفن وبرضى من الامبراطور ، ثم أمر قادتنا بصنع الآلات الحربية من أكباش وابراج خشبية ومجانيق ، واطلقت السهام من الأقواس ، والحجارة من المجانيق ، وتحارب رجالنا ورجال العدو كرا وفرا بكل ما أوتوا من قوة ، ولقد هاجمنا المدينة بمعداتنا الحربية مرارا وتكرارا لكن مناعة الأسوار وحصانتها أحبطت جهودنا ، وسقط خلال ذلك عدد كبير من الأتراك ومن رجالنا بعد اصابتهم بالسهام او بالحجارة.

الحق اقول إن الحزن كان سيملأ قلبك ، والدموع ستنهمر من عينيك لو أنك شاهدت الأتراك وهم يقتلون أي واحد منا لدى اقترابه من الأسوار ، إذ انهم كانوا يرمون الخطافات الحديدية ، وينتشلون الجثة كي ينهبوها ، ولم يجرؤ أحد من رجالنا ـ أو استطاع ـ انقاذ الجثة من أيديهم ، وكان الأتراك يرمون بتلك الجثث خارج الأسوار بعد سلبها وتعريتها .

وسحبنا عبر اليابسة عدة قوارب صغيرة بوساطة الثيران والحبال ، وكنا قد جلبنا هذه القوارب من بحيرة سفيتوت وأوصلناها حتى بحيرة نيقية حيث ألقيناها فيها واستخدمناها لحراسة مداخل المدينة بغية منع وصول المؤن والمعونات اليها.

وبعدما مضى على حصارنا للمدينة خمسة اسابيع ، القينا خلالها

الرعب في قلوب الأتراك بهجماتنا ، عقد هؤلاء مؤتمرا أرسلوا على إثره الوسطاء الى الامبراطور وسلموا اليه المدينة سرا ، بعدما كنا قد ضيقنا عليها الحصار بقوانا وببراعتنا.

ثم ادخل الأتراك الى المدينة مجموعة من التوركبلي ، بعث بهم الامبراطور الى هناك ، وتسلم هؤلاء المدينة بكل ما كان فيها من ثروات باسم الامبراطور تماما حسبما أمرهم ، وبعد مصادرة ما كان فيها من أموال أمر الامبراطور باعطاء الهدايا والهبات لقادتنا ، وكانت الهدايا من الذهب والفضة والثياب ، كما وامر بتوزيع قطع النحاس التي يسمونها « ترنرون » على الرجالة.

وفي اليوم الذي سقطت فيه نيقية او استسلمت بهذه الطريقة كان قد انقضى عشرون يوما من شهر حزيران.

المعركة المدمرة بين المسيحيين والأتراك:

بعدما حصل أمراؤنا على الاذن بالرحيل من الأمبراطور ، شرعنا في اليوم الثالث قبل مطلع شهرتموز متجهين الى داخل بلاد الاناضول ، وبعدما سرنا لمدة يومين وصلتنا اخبار تفيد أن الأتراك قد نصبوا لنا كمينا في سهل خيل اليهم اننا لا بد مجتازوه ، لهذا توقعوا ان يحاربونا هناك.

وعندما علمنا بهذا لم نجبن ولم تتخل عنا شجاعتنا ، ولما اكتشفت طلائعنا في تلك الأمسية كثيرا من الاتراك على بعد منا اعلمونا بذلك على الفور ، فشددنا الحراسة طوال الليل لحماية المعسكر من جميع الجهات ، وفي الصباح التالي الذي وافق أول تموز ، حملنا اسلحتنا وعلى صوت الأبواق عبأنا الجيش ووضعناه

في ترتيب المعركة ، وسار الأمراء والقادة على راس الكتائب والسرايا ، وبأعلام خفاقة بدانا الزحف بكل انتظام.

وفي الساعة الثانية من النهار اقتربت طلائعهم من مقدمتنا ، وحين عرفنا ذلك ، عسكرنا على مقربة من مستنقع هناك ، وانزلنا حمولة دوابنا ومن ثم هيأنا انفسنا للقتال.

وإثر ذلك واقعنا الأتراك ، اولئك الفرس الكفرة ، الذين كان أميرهم قلج أرسلان بن سليمان يملك نيقية واراضي الأناضول تحت سلطانه ، وكان الاتراك قد استجابوا لأوامر سليمان فقدموا لنجدته من مسيرة ثلاثين يوما ، وكان بصحبته العديد من الأمراء مثل كرادجيم (قراجة؟) وامير ياتسوش (اقسوش - اتسز؟) وسواهما ، وبلغ تعدادهم ثلاثمائة وستين الف مقاتل ، كلهم من حملة القوس والنشاب ، فقد كان من عادتهم التسلح هكذا ، وكانوا جميعا يمتطون الخيول ، اما نحن فكان بيننا رجاله وكان ايضا لدينا حملة قوس ونشاب.

وكان الدوق غودفري والكونت ريموند وهيوج العظيم قد تغيبوا عنا انذاك لمدة يومين ، فقد انفصلوا عنا لسبب أجهله ، مع مجموعة كبيرة من الرجال عند مفترق احد الطرقات ، ولهذا تحملنا اثناء القتال خسائر لا تعوض ، فهلك عدد كبير من رجالنا يوازي عدد الاتراك الذين نجوا من الموت والأسر فيما بعد ، ولأن جماعتنا الذين انفصلوا عنا تأخروا في استلام رسائلنا ، فقد تأخروا في القدوم لنجدتنا.

وكان الاتراك في تلك الأثناء يزمجرون ويصرخون كالذئاب المفترسة ، ويرموننا بكل ضراوة بوابل كثير من السهام فوجا إثر اخر ، ولهذا اصبنا بصدمة ، وبما اننا ذ احه الموت ، وحيث أن عددا كبيرا من رجالنا اصيبوا بالجراح ، فقد ركنا الى

الفرار ، وليس هذا بمدهش ، ذلك أن أساليب القتال هذه لم تكن معروفة لدينا.

وفي الجانب الآخر من المستنقع شقت قوة كبيرة من الأعداء طريقها بكل ضراوة حتى اقتربت من معسكرنا ، ودخل الأتراك الى خيامنا وتخاطفوا امتعتنا وقتلوا بعض رجالناوحدث هذا عندما اخذت مقدمة جيش هيوج العظيم والكونت ريموند والدوق غودفري تصل إلى أرض الكارثة إلى حيث المؤخرة ، ولهذا عندما تراجع رجالنا إلى الخيام خيل إلى العدو والذين كانوا ينهبون هناك اننا كررنا لمهاجمتهم لذلك لاذوا بالفرار ، لكن اه لو علموا الحقيقة فما خيل إليهم أنه شجاعة وإقدام لم يتعد الخوف والرعب الشديدين !

ثم ماذا اقول بعد هذا ؟ كنا قد تجمعنا مع بعضنا كما تتجمع الاغنام ، ترتعد فرائصنا ويهدنا الرعب ، ويحيط بنا العدو من جميع الجوانب إلى حد اننا لم نقدر على التحرك بأي اتجاه ، ووضح لنا انذاك ان مانزل بنا كان نتيجة آثامنا ، إذ افسد الترف بعضنا ، في حين افسد الجشع مع رذائل أخرى البقية ، وصدرت أصوات شديدة وانبعثت إلى السماء لامن رجالنا واطفالنا ونسائنا فحسب بل من عند الكفار المهاجمين لنا ، وانذاك فقدنا كل أمل لنا بالبقاء ، واعترفنا ساعتئذ بآثامنا امام مجلس العدالة ، واستمطرنا بكل تواضع رحمة الرب ، وكان في أوساطنا أسقف لي بوي مرشدنا ، ومعه أربعة أساقفة آخرين وكثير من الكهنة ، تدثروا جميعا بالأردية البيضاء وتوسلوا بكل خشوع إلى الرب أن يهزم عدونا ، وأن يمدنا بعونه ، ورتلوا باكين ، وبكوا مرتلين ، وهرول كثير من الناس نحو رجال الدين موقنين أن نهايتهم قد دنت وقصدهم الاعتراف بخطاياهم .

وقاوم قادتنا : الكونت روبرت النورماندي ، وستيفن كونت بلوا ، وروبرت كونت الأراضي المنخفضة وبوهيموند الأتراك بكل

- ٢٧٣٩ -

ما أوتوه من قوة و حاولوا مرارا مهاجمتهم غير أنهم صدوا وردهم الأتراك بكل قسوة .

هرب الأتراك وانتصار المسيحيين :

وفي الحقيقة لايمنح الرب النصر لمجد النبلاء ، ولالبراعة المقاتلين ، لكنه يمنحه لمحبته للذين صفت نفوسهم ، وينزله على الذين تحصنوا بالقوة الربانية وقت حاجتهم إليه ، ولذلك يبدو أنه استجاب لدعواتنا ، فبدأ يعيد إلينا قوتنا رويدا رويدا ، ويضعف قوة الأتراك ، فما أن رأينا رفاقنا في المؤخرة قادمين لنجدتنا حتى مجدنا الرب ، واستعدنا شجاعتنا وأعدنا تنظيم صفوفنا وفيالقنا واستبسلنا في التصدي للعدو ومقاومته .

واحسرتاه كم قتل الأتراك في ذلك اليوم من رجالنا الذين تأخروا وراءنا على الطرقات ، وحلت الكوارث بين صفوفنا من الساعة الأولى للنهار حتى الساعة السادسة ، غير أننا استرددنا شجاعتنا شيئا فشيئا إثر وصول رفاقنا ودعمهم لنا ، وما أن حلت النعمة الربانية علينا وظهرت المعجزة العلوية بين صفوفنا حتى لوى الأتراك أعنتهم فجأة وولوا الأدبار .

و طاردناهم و نحن نصرخ بكل شراسة فوق الجبال و عبر الوديان ، و لم نتوقف حتى بعدما وصل بعض رجالناإلى خيامهم ، بعض رجالنا كثيرا من جمال وخيول الأتراك بحمولاتهم واستحوذوا حتى على خيامهم التي هجروها لرعبهم ، ولاحق آخرون فلول العدو حتى حلول الظلام ، وبما أن خيولنا جاعت وتعبت فقد أتيح لنا الاحتفاظ ببعض خيولهم .

ومن أيات الرب الكبرى ومعجزاته أنه خلال اليومين التاليين أو

الثلاثة لم يتوقف الترك عن الفـرار ، مـع ان احـدا - بـاستثناء الرب ـ لم يطاردهم أنذاك ، ثم استأنفنا سفرنا بكل حيطـة ، وقـد اصابنا عطش شديد بعض الأيام عصـف بنا إلى حـد أن عددا مـن الرجال والنساء هلكوا عطشا ، وتابع الأتراك فرارهم بلا انتـظام ، وبحثوا لأنفسهم عن ملاجيء يختبئون فيها في الأناضول .

ضيق حال المسيحيين :

بعدما وصلنا إلى انطاكية الصغرى في مقاطعة بيسيديا ، توجهنا إلى قونية ، وكنا في تلك الأماكن دوما بحاجة إلى الخبز والطعـام ، فقد وجدنا بلاد الأناضول مع أن أراضـيها ممتـازة تـدر الخيرات وتعطي المنتجات من كل نوع ، وجدناها مقفرة لأن الأتراك دمـروها وعاثوا فيها وهجرها أهلها .

ومع هذا كثيرا ما كنت ترى الناس في بحبو حة من العيش لوفرة المحاصيل التي جنيناها من المزارع المنتشرة في انحاء البلاد ، وقد تم ذلك بمعونة الرب الذي اشبع بخمسة ارغفة وسمكتين خمسـة آلاف نسـمة (متـى : ١٧/ ٢١ . مـرقس : ٦/ ٣٨ ـ ٤٤ . لوقـا : ٩/ ١٦ . يوحنا : ٦ / ٩ ـ ١٠) وبذلك قنعنا جميعا ، واقررنا بكل غبطة أن جميع هذه المنح كانت بركة وهبة من الرب .

ولربما كنت ستضحك او حتى تبـكي رثـاء لو انك شـهدت عددا كبيرا من هؤلاء الناس ، ممن لم تتأمن لهم دواب التحميل التي هلك كثير منها ، وقد حملوا حاجياتهم من ثياب واطعمـة وغير ذلك ممـا يحتاجه الحجاج على كبش أو جدي أو خنزير أو كلب ، وقد قصـمت هذه الأثقال ظهور هذه البهائم الهزيلة وحطمتها ، وفي بعض الأحيان اضطر الفرسان المسلحون إلى ركوب ظهور الثيران .

ترى من الذي سمع خليطا مـن اللغـات في جيش واحـد كهـــذا

الجيش ؟ لأنه اجتمع فيه الفرنجة والفلمنكيون ، والفريسيون ، والفاليون ، واللوبرغيون واللوثارنجيون والبافاريون والالمان والانكليز والسكوتلنديون والأوتانيون والطليان والداشيون والأبوليون والاسبان ، والبريتانيون والاغريق والأرمن ، ولو أراد بريتاني أو الماني أن يخاطبني لما أمكنني إجابته أو فهم سؤاله ، ومع هذا إنه على الرغم من اختلاف السنتنا ، كنا أخوة في محبة الرب ، وكنا على وفاق ووئام في الرأي ، وكان إذا مافقد واحد منا بعض حاجياته حفظها له من وجدها لعدة أيام وهو يسأل عن فاقدها حتى يجده فيعيد إليه حاجته ، وفي الحقيقة كان هذا لائقا بالذين اشتركوا في هذه الرحلة المقدسة .

أعمال الكونت بلدوين أخو غودفري وبطولاته والاستيلاء على مدينة إديسا المعروفة باسم الرها :

لدى وصولنا إلى مدينة هرقلية رأينا مذنبا في السماء ظهر بلون ناصع البياض على شكل سيف يشير نحو المشرق ، ولم نعرف ماذا ينبىء هذا من حوادث المستقبل فلقد أودعنا الحاضر والمستقبل بيد الرب .

وبعد هذا وصلنا إلى مدينة مزدهرة اسمها مرعش ، استجمينا فيها بهدوء لمدة ثلاثة أيام ، وبعدما ابتعدنا عن مرعش مسيرة يوم ، وأصبحنا على مسيرة ثلاثة أيام من انطاكية سورية ، انسحبت أنا فولتشر من الجيش وتوجهت يسارا مع الكونت بلدوين اخو الدوق غوفري، وكان بلدوين فارسا عظيم المقدرة ، وكان قد ترك الجيش مع أتباعه وتوجه إلى طرطوس كليكيا واحتلها بإقدام وشجاعة فائقة ، وانتزعها من تانكرد الذي كان قد ادخل رجاله إليها بموافقة الأتراك ، وبعدما ترك بلدوين حراسه هناك عاد إلى الجيش الرئيس .

وهكذا جمع بلدوين ـ بعدما وضع ثقته بالرب وبقوته الشخصية ـ عددا صغيرا من الفرسان وانطلق في رحلته باتجاه الفرات ، واستولى هناك على عدة مدن عنوة او بالحيلة كان اهمها مدينة تل باشر ، فقد سلمها له بسلام الأرمن الذين كانوا يقطنون فيها ، ثم دانت له مدن أخرى بالطاعة .

وإثر انتشار هذه الأخبار في أرجاء البلاد ارسل امير مدينة الرها وفدا إلى بلدوين ، والرها مدينة ذائعة الشهرة تقع في منطقة من اخصب المناطق ، وهي في الناحية السورية من بلاد الجزيرة ، وتبعد نحو عشرين ميلاً عن نهر الفرات ، وقرابة المائة قبل مدينة انطاكية .

وطلب الأمير من بلدوين القدوم إليه كي يصبحا صديقين مثل أب وابنه ماداما أحياء ، وإذا ماحدث ومات أمير الرها يحق لبلدوين تملك المقاطعة برمتها مباشرة ميراثا مستمرا له وكأنه الابن الشرعي للأمير ، ولما لم يكن لهذا الأمير ولد ولابنت ، ولم يكن باستطاعته حماية ولايته من الأتراك ، فإنه آثر ـ كاغريقي ـ أن يدافع بلدوين عنه وعن ولايته ، ذلك أنه سمع أن بلدوين وفرسانه كانوا من أشد المحاربين وأعظمهم بسالة . وما أن سمع بلدوين بهذا العرض وتأكد من صحته من الرسل القادمين إليه من الرها الذين أقسموا أمامه على صحة مانقلوه إليه ، حتى انطلق على راس جيشه الصغير المكون من ثمانين فارسا ، وعبر نهر الفرات ، وبعد هذا العبور أسرعنا في سفرنا ولم نتوقف طوال الليل وكان الخوف يملا صدورنا ، لمرورنا بين مختلف البلدان الشرقية المنتشرة هنا وهناك ، وعندما سمع الأتراك القاطنون في مدينة سميساط الحصينة بقدومنا ، نصبوا لنا الكمائن على الطرقات التي خيل إليهم أننا سنركبها ، غير أن أرمنيا هناك حمانا في قلعته في الليلة التالية ونبهنا لكي نحذر من كمائن الأعداء ، ولهذا السبب اختبأنا هناك ليلتين ، وفي اليوم الثالث هجم الأتراك الذين ضايقهم تأخرنا ، فتخلوا عن كما ئنهم ورفعوا راياتهم ووقفوا أمام القلعة التي اعتصمنا فيها ، واستولوا على المواشي التي كانت ترعى في الحقول

وخرجنا لقتالهم ، لكن لقلة أعدادنا لم نستطع منازلتهم ، ولقد رمونا بالسهام ، غير انهم لم يصيبوا احدا منا بجراح ، وخلفوا على أرض المعركة واحدا من رجالهم وقد صرعه رمح ، وقد أمسك الرجل الذي قتله بحصانه ، ثم انصرف الأتراك وبقينا نحن في مكاننا .

واستأنفنا في اليوم التالي رحلتنا ، ولو كنت معنا لأدهشك رؤية الأرمن كيف كانوا يخرجون بخضوع للترحيب بنا عند مرورنا أمام مدنهم وقد حملوا الصلبان والاعلام ، وقاموا بتقبيل اقدامنا وثيابنا محبة بالرب ، لأنهم سمعوا اننا سنحميهم من الأتراك الذين رزحوا تحت نير ظلمهم من قبل .

ووصلنا اخيرا إلى الرها حيث استقبلنا الأمير المذكور ومعه زوجته وجميع أهالي المدينة بكل ترحاب وحفاوة ونفذوا وعودهم كلها لبلدوين على الفور .

وبعد إقامتنا هناك مدة خمسة عشر يوما ، تآمر أهل المدينة بخبث لقتل أميرهم ، وذلك لأنهم كانوا يبغضونه ، واستهدفوا رفع بلدوين الى القصر ليحكم بدلا منه البلاد ، و قدم هذا الاقتراح لبلدوين و تم تنفيذه ، و في الحقيقة أصاب الحزن بلدوين و كذلك رجاله لأنهم لم يقدروا أن يحصلوا له على الرحمة . وما أن قبل بلدوين من أهالي المدينة مركز الامارة الذي شغر الآن بمقتل الأمير بهذه الطريقة الفظيعة حتى شن حربا على الأتراك الذين كانوا في بلاده ، وقد هزمهم مرات عديدة أو قتلهم ، وفي الوقت نفسه لاقى العديد من رجالنا حتفهم ايضا على أيدي الأتراك .

ولقد كنت أنا فولتشر أوف تشارترز كاهن بلدوين هذا ، وأرغب الآن في العودة إلى سرد بقية الحكاية التي نأيت عنها ، وأعني حكاية جيش الرب .

وصول الفرنجة إلى أنطاكية ومآسي الحصار :

وصل الفرنجة إلى انطاكية سورية في شهر تشرين الأول ، وهي مدينة كان قد بناها سلوقوس بن أنطيخوس واتخذها عاصمة له ، وكان اسمها فيماسلف ربلاطا ، وهي تقع على الضفة الأخرى من النهر المسمى العاصي ، وصدرت الأوامر بالعسكرة أمام المدينة بينها وبين أول حجارة المعالم ، وهناك دارت معارك كثيرة فيما بعد ، ألحقت خسائر فادحة بالطرفين ، فعندما تدفق الأتراك من المدينة قتلوا عددا كبيرا من رجالنا ، إنما بعدما دارت عليهم الدوائر ودحرناهم أصيبوا بالفواجع .

وانطاكية مدينة كبيرة جدا ، وهي شديدة الحصانة منيعة الموقع ، لايمكن لعدو الاستيلاء عليها من الخارج إذا ماتوفرت فيها الأغذية والامدادات ، وإذا عقد سكانها العزم على الدفاع عنها ، وفيها كنيسة ذائعة الشهرة كرست تمجيدا لذكرى بطرس الرسول الذي صار اسقفا فيها بعدما تسلم من السيد المسيح صدارة الكنيسة ومفاتيح مملكة السموات ، وهناك كنيسة أخرى مستديرة الشكل ، مكرسة على مجد مريم المباركة ، وهي معمرة بطريقة تتناسب مع مقامها ، وكانت هذه الكنائس جميعها تحت سلطان الأتراك منذ أمد طويل ، لكن الرب ، العالم بكل شيء صانها لنا خالصة لم تشبها شائبة حتى نتشرف بعبادته داخلها في يوم من الأيام .

ويبعد العاصي عن أنطاكية قرابة ثلاثة عشر ميلا ، وبما أن نهر العاصي يصب في تلك البقعة ، فإن المراكب المحملة بالسلع المجلوبة من مختلف الأصقاع يؤتى بها إلى أنطاكية نفسها بوساطة قناة مخصصة ، وهكذا تتزود المدينة بالسلع من البر ومن البحر فتمتلىء بالخيرات من كل صنف .

وتعاهد أمراؤنا واقسموا بعضهم لبعض بعدما رأوا مناعة المدينة وصعوبة اقتحامها ، عدم الزحزحة حتى يتاح لهم الاستيلاء عليها بالقوة أو بالخديعة .

ولقد وجدوا في النهر المذكور عدة قوارب فاستولوا عليها، واتخذوا منها جسرا عائما عبروا فوقه لتنفيذ خططهم ، ولم يكونوا قبل ذلك قادرين على اجتياز النهر .

ولما رأى الأتراك هذه الحشود الهائلة من المسيحيين تحيط بهم اصابهم الهلع ، وايقنوا انهم لن يفلتوا منهم ، وبعد أن تشاوروا فيما بينهم أرسل يغي سغان صاحب انطاكية ابنة شمس الدولة الى السلطان ــ أي امبراطور الفرس ــ ينشد منه تقديم العون والاسعاف بأسرع مايمكن ، ذلك انه لم يكن لديه أمل الابعون محمد (صلى الله عليه وسلم) حاميهم ، وبادر شمس الدولة لأداء المهمة الموكلة اليه .

ودافع الذين مكثوا في المدينة عنها ، وفيما هم ينتظرون وصول النجدات التي طلبوها أخذوا يحيكون المؤامرات الخطيرة ضد الفرنجة ، ومع هذا أحبط هؤلاء حيلهم بقدر ماأوتوا من قوة ، وفي احد الأيام قتل الفرنجة سبعمائة من الأتراك ، وهكذا فان الذين نصبوا شراكا للفرنجة وقعوا فيه ، وهنا كانت قوة الرب واضحة جلية ، ورجع جميع رجالنا سالمين باستثناء رجل واحد أصيب بجراح .

ولقد قتل الأتراك في فورة غضبهم اعدادا كبيرة من المسيحيين من اغريق وسريان وارمن ، والقوا بما لايحصى عده من الرؤوس من فوق الأسوار ، وقد رموها بالمجانيق على مرأى من الفرنجة ، الأمر الذي سبب لنفوس رجالنا كثيرا من الأسى ، فقد كان هؤلاء الأتراك يمقتون هؤلاء المسيحيين لأنهم خافوا من أن يساعدوا الفرنجة بطريقة ماعلى صد هجوم تركي .

وبعدما حاصر الفرنجة المدينة لفترة طويلة من الزمــن ، وبعــدما عدموا الخبز مع انهم تجولوا في الاراضي المجاورة بحثا عن الطعــام فلم يجدوا مماينهبوه أو يشتروه ، بعد هذا كله شرع الكثيرون منهــم يخططون سرا للتخلي عن الحصار والفرار اما عن طـريق البــر أو البحر .

نعم لم يكن لديهم مايعتاشون به ، وقد اضطروا الى البحث عمــا يقتاتونه في أماكن قصية ، وفعلوا ذلك والخــوف يلازمهــم ، لأنهــم ابتعدوا اربعين أو خمســين ميلا عن مــوقع الحصــار ، وهناك في المناطق الجبلية قتل الاتراك كثيرا منهم في كمائن نصبوها لهم .

وشعرنا ان ماتزل من مصائب بالمسيحيين الفــرنجة كان بسـبب آثامهم ، وانهم لهذا السبب اخفقوا في الاســتيلاء على المدينة بعــد انقضاء كل هذه المدة ، ذلك أن الجشع والترف والعجرفة والسطو قد افسدت نفوسهم ، وتداول الفرنجة فيما بينهــم حــول ذلك ، وبعــد مشاورات قرروا طرد النساء من المعسكر ســواء أكن متــزوجات أم لا ، اعتقادا منهم ان دنسهم في عبث الحياة الصاخبة قد أثار غضب الرب ، وفتش هؤلاء النســوة عن ملجــأ لأنفســـهن في القـــرى المجاورة .

واصاب الشقاء والبؤس الغني مثلمــا لحــق بــالفقير ، بســبب الجــوع والمذابــح اليومية ولو لم يحفـــظ الرب ــ وهـــو الراعي الصالح ــ قطيعه متجمعا لهرب الجميع مــن هناك بــلا اســتثناء ، وبدون جدال ، وذلك على الرغم مــن العهــود التــي قــطعوها على انفسهم من اجل الاستيلاء على المدينة ، وكان هذا محصــلة للشــح الشديد بالاغذية ، ولهذا انطلق العديد نحو القرى المجاورة بحثا عن الطعام ، ولم يعودوا بعــد ذلك إلى المعســكر وتخلوا عن الحصــار نهائيا .

ورأينا في تلك الآونة في السماء شعاعا أحمر ، كما شــعرنا بــرجفة

كبيرة في الارض ، ممـــا دب الهلع في قلوبنا ، وقـــد رأى الكثيرون علامات معينة على شكل صليب ، بيضـــاء اللون ، تسـير في طـريق مستقيم نحو الشرق .

فاقة المسيحيين واملاقهم وفرار كونت بلوا

بعدما خلت الاراضي حول انطـاكية في عام ١٠٩٨ مـن الجمـوع الفقيرة من شعبنا ، ازداد البؤس والشعور بالأسى في نفوس الصغار والكبار وذلك بسـبب الجـوع الشـديد ، واكل الناس مختلف أنواع النباتات التي بقيت قائمة في الحقول مع جميع انواع الاعشـاب غير المستحبة وحتى الاشواك التي لم يستطيعوا اجادة طهيهـا لانعـدام الاحطاب لاشعال النيران ، لذا أدمت السنة اكليها ، واضطر الناس ايضا إلى اكل الخيول والحمير والجمال والكلاب وحتى القوارض ، لا بل اكثر من هذا أكل الفقراء منا جلود الحيوانات وبذور الحبـوب التي وجدوها في روث المواشي .

وفضلا عن الجوع تحمل الناس البرد والحـر و وابـل الامـطار في سبيل محبة الرب ، وقـد تمـزقت خيامهـم وبليت وتعفنت بسـبب استمرار هطول الأمطار ، ولهذا لم يجد العديد من الناس لأنفسـهم غطاء إلا السماء .

وكما يمتحن الذهـب ثـلاث مـرات في النار ، ويمحص سـبع مرات (مزامير ١٢/٧) ،ايضا اعتقد أن الرب امتحـن الخلص ، فطهرهم بعد عذاب شديد من ذنوبهم ، ومع ان خنجر الحشـيشية لم يخفـق في عمله المميت ، تحمـل كثير مـن الناس عذاب الاحتضـار الطويل ، وتقبلوا بسرور أسمى درجات الشهادة ، ولعلهم استلهموا السلوان من مثل أيوب المبارك الذي طهر روحه ونقاها بعذاب جسده وهو دوما يذكر الرب (أيوب : ١/٢) فهم عندما كانوا يحـاربون الكفار كانوا يجاهدون في سبيل الرب واسمه .

الرب الذي خلق كل شيء هو الذي يأمر من خلق ويرعى ويدعم كل ما يأمر به ، يحكم الرب بأمره فيصلح ما يشاء ويدمر ما يشاء ، ويخيل لي أن الكفار سيجري تدميرهم حتى يدفعوا ثمن العذاب الذي أراده الرب للمسيحيين ، فهم الذين طالما داسوا بأقدامهم الملوثة كل ما يخص الرب مع أن ذلك حصل بمشيئته وفق ما يستحقه الناس ، الحق أنه سمح بذبح المسيحيين حتى يعظم خلاصهم ، وسمح أيضا بذبح الأتراك لاحقاق اللعنة على أرواحهم ، أما الأتراك الذين كتب لهم الخلاص فإنه أرضى الرب تعميدهم من قبل كهنتنا ، « لأن الذين كتب لهم ناداهم وعظمهم» (رومية : ٨ / ٣٠) .

ثم ماذا بعد ؟ لقد تخلى بعض رجالنا ـ كما سمعتم ـ عن حصار عظيم الشدة ، بعضهم فعل ذلك بسبب الفاقة وبعضهم نتيجة الجبن ، وآخرون انسحبوا خشية الموت ، وكان الفقراء قد انسحبوا أولا ثم تبعهم الأثرياء .

ثم كان أن تخلى ستيفن كونت بلوا عن متابعة الحصار ، وأبحر عائدا في دياره فرنسا ، ولقد ألم بنا الأسى جميعا لذلك ، لأنه كان رجلا أصيلا ونبيلا شجاعا شديد البأس ، وفي اليوم التالي لسفره سقطت مدينة انطاكية للفرنجة ، ولو أنه صبر وبقي لسر سرورا عظيما مع الآخرين ، ذلك أن فعلته جلبت إليه العار والازدراء ، ومقرر أن البداية الحسنة لا تجدي المرء إذا لم تكن الخاتمة حسنة ، أما ما يتعلق بشؤون الرب فسألتزم بالاختصار لئلا أنحرف عن الطريق القويم ، ففي هذا المجال علي الالتزام بالحذر حتى لا أضل فأبتعد عن الحقيقة .

لقد بدأ حصار انطاكية كما نوهنا من قبل في شهر تشرين الأول ، واستمر طوال الشتاء والربيع حتى شهر تموز ، وتبادل الأتراك والفرنجة خلال ذلك الهجمات والهجمات المضادة فانتصروا وهزموا ، أما نحن فقد انتصرنا أكثر منهم ، وحدث في احدى

المناسبات أن وقع العديد من الأتراك ـ أثناء فـرارهم ـ في نهـر العاصي وغرقوا بشقاء ، وعلى شاطىء هذا النهر تـواقع الشـعبان مرات ومرات .

وكان رجالنا قد شيدوا أمام المدينة عدة قلاع ، استخدموها للقيام بهجمات متعددة استطاع رجالنا أثناءهـا أن يصـدوا بـكل بسـالة الأتراك ، وبذلك تمكنوا في كثير من الأحيان أن يدفعوا مواشيهم عن الوصـول إلى المراعي ، ولم نحضر شـيئا مـن الأرض في المناطـق المجاورة ومع هذا كثيرا ما عملوا لالحـاق الضرر بنا في مناسـبات مختلفة .

سقوط مدينة أنطاكية

ومهما يك من أمر ، عندما رضي الرب علينا ، باستجابته ـ بـدون ريب ـ لدعوات شعبه في أن يضع حدا لشـقائهم ، فبعـدما ابتهلوا إليه بلا توقف وصلوا يوميا استجاب فوهبهم بمحبته استلام المدينة سرا من خلال (ارمني) من رجال الأتراك ، وهكذا رجعت المدينة إلى حكم المسيحيين ، واليك إذا تفـاصيل أخبـار الخيانة فـاصغي إليها وإن لم تكن حقا خيانة .

لقد تجلى الرب (لأرمني) من رجال الأتراك ، كانت قد كتبـت له بركة الرب ، وقال له : «قم أيها النائم ، فأنا أمـرك بـاعادة المدينة إلى المسيحيين » ودهش الرجل غير أنه احتفظ بـالرؤيا سرا ، ثـم تجلى له الرب ثانية وقال له : «أعد هذه المدينة إلى المسيحيين ، فأنا يسوع المسيح الذي أمرك بذلك «وارتبك الرجل واحتار فيمـا يفعـل وذهب إلى مولاه صاحب أنطاكية وأعلمه بأمر الرؤيا فرد هـذا عليه قائلا : «أوتريد أيها الغبي أن تطيع شبحا من الأشـباح ؟ «فـرجع الرجل والتزم بالصمت .

ومجددا تجلى له الرب وقال له : « لم لم تنفذ ماأمرتك بـه ؟لاتتـردد لانني انا الذي امرك بهذا ، أنا رب الجميع » ، ولما اختفى الشك من نفسه بدأ هذا الرجل يخطط سرا مع رجالنا ويرسم مؤامرة تمـكنهم من الاستيلاء على المدينة .

وبعدما تم الاتفاق سـلم الرجـل ابنه إلى الأمير بـوهيموند ليكون رهينة لديه ، لأن بوهيموند كان أول من سمع بهذه الخطة وأول مـن اقتنع بها ، وفي الليلة المتفق عليها مكن الرجل عشرين من رجالنا من تسلق السور بواسطة حبال دلاها لهم ، وبـادر هؤلاء على الفـور ، وبدون اي تقاعس إلى فتح الباب وفي تلك الأثناء تبعهم أربعون رجلا آخرون من جنودنا بواسطة تسلق الأسوار أيضا بـالحبال ، وقتلوا ستين من الأتراك الذين صدفوهم يحرسون الأبراج ، وإثر ذلك صاح الفرنجة جميعا صيحة رجل واحد : « إنهـا ارادة الرب » ، وكانت تلك الصيحة الشعار الذي كنا نطلقه حين نوشك على انجاز أي عمل مجيد .

وإثر سماع الأتراك لهذه الصـيحة دب رعب هـائل في نفـوسهم ، وبادر الفرنجة إلى الهجوم على المدينة بدون تقاعس حيث أن ظلمـة الليل اخذت مع الفجر بالتلاشي ، وعندما رأى الأتراك راية بوهيموند ترفرف في الأعالي ، والفوضى تنتشر في كل مكان وتعـم ، وسـمعوا ابواق بوهيموند تصـدح مـن أعالي الأسـوار ، ورأوا الفـرنجة يقتحمون الشوارع بسيوف مشرعة ويقتلون الناس بوحشية ، عندما شهدوا هذا كله أصـابهم الرعب ، فـأمعنوا بـالفرار لا يلوون على شيء ، وتمكن بعض الهاربين من الأتراك من الوصـول إلى القلعـة القائمة على سفح الجبل .

وشرع العامة من رجالنا بالاستيلاء على كل ما وقعت عليه أيديهـم في الطرقات والبيوت ، اما الفرسان الذين تخصصوا بفنون القتال ، فقد تابعوا مطاردة الأتراك وذبحهم ، اما يغي سغان أمير انطـاكية

فقد هرب منها ، وصدفه بعض الفلاحين الأرمن ، فقطعوا راسه واحضروه بالحال إلى الفرنجة .

العثور على الحربة المقدسة

عثر رجل بعد سقوط انطاكية على حربة في حفرة من الارض في كنيسة القديس بطرس ، وادعى هذا الرجل بعد اكتشافه للحربة انها الحربة ذاتها التي اطلقها لونجيذس ـ كما ورد في الانجيل ـ فطعنت الجنب الأيمن من يسوع المسيح ـ « ولكن واحدا من العسكر طعن جنبيه بحربة وللوقت خرج دم وماء » ـ (يوحنا : ١٩ / ٣٤) ، وادعى الرجل ان الرسول أندروز هو الذي أوحى له بذلك ، وبعد اكتشاف الحربة ، روى الرجل القصة لأسقف لى بوي ، وللكونت ريموند ، ولم يصدق الأسقف هذه الحكاية ، لكن الكونت أمل أن تكون صحيحة .

وإثر سماع الناس بهذا الخبر ابتهجوا كثيرا ومجدوا الرب وحمدوه ، وظلت الحربة لمدة مائة يوم موضع اجلال وتقديس ، وحملها الكونت ريموند بكل فخار وتولى حمايتها ، ثم ساورت الشكوك عدد كبير من الكهنة والعلمانيين ، وارتابوا في أن تكون هذه حقا حربة الرب المقدسة ، وأنها مجرد حربة أخرى عثر عليها ذلك الرجل الدجال المخادع .

وفي الشهر الثامن بعد الاستيلاء على مدينة أنطاكية ، وبعد ثلاثة أيام من الصيام والصلوات التي أسهم فيها الجميع أشعلوا كومة كبيرة من الحطب في وسط حقل أمام مدينة عرقة ، وقام الأساقفة بتقديم الصلوات الخاصة بأعمال المحنة فوق النار ، ومر الرجل الذي عثر على الحربة -بناء على طلبه ـ مسرعا يركض خلال الجمر الملتهب وذلك بغية اثبات أمانته ، وبعدما مر الرجل من خلال النار ، أيقنوا أنه كان مذنبا لأن جلده احترق ، وعلما أنه أصيب اصابة

قاتلة ، وبالفعل ظهرت نتيجة ذلك فيما بعد ، فقد توفي الرجل بعد اثني عشر يوما مكتويا بعذاب الضمير .

ولما كان كل انسان قد قدس هذه الحربة محبة واجلالا للرب ، فقد اصيب كل هؤلاء الذين امنوا بها بحزن عميق وتخلوا عن ايمانهم بها ، ومع ذلك فإن الكونت ريموند قد احتفظ بها بعد ذلك لفترة طويلة .

محاصرة الأتراك للمسيحيين داخل أنطاكية :

وصل في اليوم التالي لاحتلالنا أنطاكية حسبما وصفنا ، حشد كبير جدا لا يعد ولا يحصى من الأتراك ، وضربوا حصارا حول المدينة ، ذلك أنه ما إن علم السلطان ملك بلاد الفرس ، بحصار الفرنجة لانطاكية حتى حشد على الفور جيشا عرمرما من الرجال ، وارسله ضد الفرنجة ، وكان اسم قائد هذا الجيش كربوغا ، واعيقت مسيرة هذا الجيش مقدار ثلاثة اسابيع امام مدينة الرها التي كان يملكها انذاك بلدوين ، وبعدما أخفق في الاستيلاء عليها ، سارع بزحفه نحو انطاكية لانجاد الأمير يغي سغان .

وعندما راى الفرنجة هذه المستجدات وهنت عزائمهم ، وزاد على هذا ان عقوبتهم أيضا قد تضاعفت بسبب خطاياهم الأخرى واثامهم ، ذلك أن العديد منهم ما إن دخلوا المدينة حتى عاشروا النساء منتهكين بذلك ناموس الشريعة .

وتمكن نحو من ستين الفا من الأتراك من دخول المدينة عن طريق القلعة من جانب الجرف الشاهق ، وضايقوا رجالنا بحملات عنيفة متكررة عليهم ، بيد أنهم لم يمكثوا هناك طويلا فقد دب الرعب بين صفوفهم فغادروا المدينة ليحاصروها من الخارج ، وهكذا بقي

الفرنجة محاصرين خلف الأسوار في وضع قلق وحرج شديد من الصعب تصوره .

الرؤى التي ظهرت داخل المدينة

ولم ينس الرب في تلك الأثناء عباده ، فتجلى لكثير من الناس ، وقد تواتر ذكر هذه الحقيقة وأنه طمأنهم ووعدهم بالسرور بنصر كبير ، ثم تجلى الرب لرجل دين كان قد فر لخوفه من الموت ، وقال له : إلى أين ماض يا أخانا ؟ فأجابه : إنني هارب ، خشية أن ينالني سوء الطالع فأهلك .

شعر :

وهكذا هرب الكثيرون حتى لا يذوقوا طعم الموت الزؤام .
فأجاب الرب رجل الدين بقوله : « لا تهرب بل ارجع ، وقل للآخرين إنني ساكون معهم في المعركة فقد طمأنت نفسي صلوات أمي ، ولسوف أكون رحيما مع الفرنجة ، وهم قد أوشكوا على الهلاك بسبب آثامهم ، ليكن يقينهم وأملهم ثابتا ، فلسوف أكتب لهم النصر على الأتراك ، دعهم يتوبون أولا ، ولسوف ينجون لأنني أنا الذي أكلمك ، أنا الرب » ، وعاد رجل الدين على أدراجه في الحال ، وذكر للفرنجة ما سمعه .

وسعى في هذه الأثناء عدد كبير من الفرنجة إلى الهبوط ليلا من الأسوار بواسطة الحبال ليهربوا ، فقد كانوا خائفين من الموت جوعا أو بحد السيف ، وقد ظهر أمام واحد من النازلين أخوه وكان قد مات منذ أمد وقال له : إلى أين أنت هارب يا أخي ؟ امكث ولا تخف ، فالرب سيكون معكم في حربكم ، وإن رفاقكم في هذه الرحلة ،

الذين تقدموكم إلى الموت ، سيقاتلون معكم ضد الأتراك ، واستبدت الدهشة بالرجل لدى سماعه كلام من مات ، وتوقف عن الفرار واخبر البقية بما حدث .

وساء وضع الفرنجة ولم يعودوا يطيقون تحمل العذاب أكثر مما فعلوا ، حيث لم يبق لديهم ما يأكلونه مما أوهنهم وأنهك خيولهم ، وعندما طاب للرب انهاء شقاء عباده ، أوحى لهم فاتفقوا على الصيام ثلاثة ايام مع تقديم الصدقات والصلوات علهم بهذه الكفارات والادعية ينالون عطف الرب •

الفرنجة يقومون بالهجوم على الأتراك

وبعد بعض المداولات ، أخبر الفرنجة الأتراك عن طريق بطرس الناسك أنهم إن لم يغادروا البلدان التي كان يمتلكها المسيحيون في الماضي بسلام ، فإنهم – أي الفرنجة – سيشنون عليهم هجوما في اليوم التالي ، واذا ما رأى الأتراك اللجوء إلى المبارزة بأن تقوم بين خمسة أو عشرة أو عشرين أو حتى مائة فارس يختارون من بين الطرفين ، حتى لا تراق دماء كثيرة اذا ما نشب القتال بين جميع المحاربين ، وفي تلك الحال سيتسلم الطرف المنتصر رجاله على الطرف الآخر ، المدينة بسلام ويحكمها بدون نزاع بعد ذلك .

كان هذا ما طلبه الفرنجة ، لكن الأتراك رفضوا الاستجابة لهم ، لأنه كانت عندهم ثقة كبيرة بأعدادهم الهائلة وقوتهم ، واعتقدوا انهم سيتغلبون علينا وسيكون بامكانهم ابادتنا ، فقد كان عددهم يقدر بثلاثمائة الف من فرسان ومشاة ، وكانوا يعلمون أن فرساننا قد أصابهم الوهن فغدوا ضعفاء مثلهم مثل المشاة .

ثم عاد رسولنا بطرس ، وأعطى جوابهم ، وعندما سمع الفرنجة

هذا استعدوا وقرروا تحضير أنفسهم لخوض المعركة بـــدون تـــردد واضعين كل أمالهم في الرب ، وكان عدد قادة الترك كبير ، كل واحد منهم يدعى أمير ، وكان منهم : كربـــوغا ، والملك رضـــوان والأمير سليمان مع عدد كبير أخر يفوق الحصر .

الاعداد للمعركة :

وكان أمراء الفـــرنجة هـــم : هيوج العـــظيم ، وروبـــــرت كونت نورماندي ، وروبرت كونت الأراضي المنخفضة ، والدوق غودفـــري ، والكونت ريموند ، والأمير بوهيموند ، ونبلاء أخـــرون أقـــل منهـــم شأنا ، ورحمة الرب لروح أدهمر أسقف لي بـــوي ، الذي كان هـــو نفسه حواريا ، دائم العطف على الناس ، يخفف من ألامهم ، ويمتن قوة إيمانهم بالرب .

أه ما أروع التقوى التي تقود الى اليقـــظة ، ففـــي الليلة الســـالفة أصدر أدهمر نفسه أمرا ســـمع بصـــوت المنادي : على كل فـــارس اطعام فرسه بنصـــيب أكبـــرمن العلف ، مهمـــا كان عزيزا ، كي لا يسقط الفرس في اليوم المقبل أثناء القتال منهكا من الجـــوع ، نعـــم صدر هذا الأمر وتم تنفيذه ومع بوارق فجر اليوم الرابع قبل نهـــاية شهر تموز خرجوا جميعا من المدينة جاهزين للمعركة ، وتمت تعبئة الرجالة والفرسان في كتائب وسرايا تتقدمها الرايات ، وكان معهـــم الكهنة يرتدون أكسية بيضاء يبكون أمام جميع الناس مـــن أجلهـــم ويرتلون الأناشيد للرب ، ويصدرون الأدعية مـــن أعمـــاق نفـــوسهم المؤمنة .

ورأهم عند ذلك رجـــل تـــركي يدعى مجير الدين ، وكان فـــارسا مقداما ، فتولته دهشة عظيمة لمراهـــم يتقـــدمون وراياتهـــم خفـــاقة

مرفوعة ، وأيقن حين رأى رايات قادتنا التي كان يعرفها وهي تتقدم واحدة تلو الأخرى بنظام أن المعركة وشيكة الحدوث ، وكان يعــرف انطاكية وقد نال خبرة بالفرنجة ، لذلك أسرع نحو كربوغا يخبره بما رأى ، وقال له : مابالك تلعــب الشــطرنج ، انظـــر إن الفـــرنجة قادمون ، فسأله كربوغا : أهــم قــادمون للقتــال ؟ فـأجابه مجير الدين : لست متيقنا من ذلك حتى الآن ، ولكن امهلني قليلا ، وعندما رأى مجير الدين رايات قادتنا مرفوعة في الجانب الآخر تتقدم بشكل حربي وتزحف خلفها الأرتال بصفوف متراصة بنظــام عســكري ، سارع بالعودة وقال لكربوغا : أعتقد أن المعركة واقعة ، ولكن تريث قليلا ، فأنا لا أميز بين الرايات التــي أراهــا ، وبعـــد التـــدقيق والتمحيص شاهد راية أسقف لي بوي تتقدم في الفيلق الثالث .

شعر :

وبلا ابطاء قال لكربوغا :

خذ حذرك لقد حضر الفرنجة ، فاهرب الآن أو حــارب بشــجاعة لأنني أرى علم البابا يتقدم .

انتفض الآن حتــى لايهــزمك هؤلاء الذين اعتقــدت انك تبيدهــم وتزيلهم عن وجه الأرض .

فقال كربوغا : سأبعث رسولا للفرنجة يخبرهم انني ســأمنحهم اليوم كل ماطلبوه مني بالأمس ، فقال مجير الدين : لقد فات الاوان على هذا الكلام ، ومع هذا بعث كربوغا بطلبه ، غير انه لم يحظ بما ابتغى ، أما مجير الدين فسرعان ماانسحب من حضرة سيده ولكز فرسه ، وفكر بالانسحاب ، غير انه حرض رفاقه على أن يحــاربوا ببسالة وأن يطلقوا سهامهم .

المعركة ـ انتصار المسيحيين وفرار الأتراك :

كان هيوج العظيم وروبرت كونت نورماندي ، وروبرت كونت الأراضي المنخفضة يقودون الصف الأول في الهجوم ، وتبعهم غودفري في الصف الثاني ومعه الألمان واللوثارنجيون ، وأتى بعدهم ادهمر أسقف لي بوي مع رجال الكونت ريموند والتاسكونيين ، والبروفساسيين ، فقد تخلف الكونت نفسه في المدينة لحمايتها ، ثم حشد بوهيموند الجموع المتبقية بكل مهارة في الساقة .

وعندما رأى الأتراك صفوفهم وقد اخترقها هجوم جيش الفرنجة برمته ، أخذوا يتدافعون إلى الأمام فرادى ليطلقوا النشاب حسب عادتهم ، غير أن الرعب المميت النازل من السماء ألقي في قلوبهم ، فأمعنوا جميعا بالفرار كما لو أن العالم كله قد سقط عليهم ، وهنا طارد الفرنجة الهاربين وتعقبوهم بأسرع مااستطاعوا .

ولكن لما كانت خيول الفرنجة قليلة العدد وهزيلة أنهكها الجوع ، فإنهم لم يتمكنوا من أسر سوى عدد صغير من الكفار ، بيد أن خيام الأتراك ظلت منصوبة على حالها في معسكرهم ، وقد وجد فيها الفرنجة ذخائر وحاجيات من مختلف الأنواع كالذهب والفضة والأردية والثياب المتنوعة والأوعية وأشياء أخرى كثيرة خلفها الأتراك أو ألقوها فزعا أثناء فرارهم المضطرب ، وكان هناك على سبيل المثال : خيول وبغال وحمير وعمائم فاخرة وقسي وسهام و جعب .

ومر كربوغا فارا برشاقة كالغزال ، وهو الذي طالما ذبح الفرنجة وقتلهم بالكلام والوعيد والتهديد ، ولكن لماذا فر ذلك الذي ملك جيشا عظيما ، وكان معه كل هؤلاء الفرسان المدججون ؟ لأنه تجرأ على تحدي الرب ، الرب الذي شاهد من بعد رعونة كربوغا وتبجحه فدمر قوته تدميرا وسحقها سحقا .

وهرب من الاتــراك الذين امتلكوا خيولا سريعــة وقــوية ، أمــا ماسواهم فقد تركوا للفرنجة ، وقد أسر كثير من هؤلاء ولاسيما من الرجالة الشرقيين ، ومن جانب أخر أصــيب عدد قليل مــن رجــالنا بجراح ، أما النساء اللواتي وجدن في خيام العــدو فإن الفــرنجة لم يمسوهن بأذى ، واكتفوا بأن بقروا بطونهن بالحراب .

وبصوت مفعم بــالبهجة أنشــد الجميع لعــظمة الرب ،فبرحمته الأبوية ، انقذنا من أشد الأعداء قسوة نحن الذين وضعنا ثقتنا بــه عندما كنا في أشد محنة ، وفي أمس الحاجة ، فببطشه بعثر الأتــراك وهزمهم بعد أن كادوا يهزمون المسيحيين ، وعاد رجالنا إلى المدينة مسرورين وقد أغنتهم الغنائم التي سلبوها من الأعداء .

شعر :

عندما سقطت مدينة انطاكية القديمة ،
كان التاريخ يقل سنتين عن الألف والمائة

بعد تجسيد مولانا الذي ولدته العذراء في شارة الجوزاء
عندما أشرقت الشمس ضعف التسعة

وفي أوائل أب توفي أدهمـــر ، لتحـــل روحـــه في ســــلام سرمدي ــ أمين . ثم عاد هيوج العظيم إلى القســطنطينية ، (١) ومنها ذهب إلى فرنسا .

وأرسلت هذه العصبة الكريمة من القادة الرسالة التالية إلى بابا روما بخصوص ماحدث : إلى فائق التبجيل مولانا البابا أوربان ،

من بوهيموند ، وريمــوند صــنجيل ، وغودفــري دوق اللورين ، وروبرت كونت نورماندي ، وروبرت كونت فلاندرز ، ويوستاس دي بولين .

تحية وبعد :

عبودية مخلصة وخضوعا صادقا للمسيح حسبما يتوجب على الأبناء لأبيهم الروحي . إننا نرغب ونتمنى أن نحيطكم علما أننا برحمة وافرة من الرب ، وبمعونته الجلية ، استولينا على مدينة أنطاكية ، وقد انهزم الأتراك الذين لطخوا بالكراهية سيدنا يسوع وقتلوا ، وإننا كحجاج ليسوع المسيح إلى القدس قد انتقمنا لجراح الرب القدير ، وإننا بعدما حاصرنا الأتراك ، وقعنا تحت حصار أتراك آخرين قدموا من خراسان والقدس ودمشق ، وأمكنة كثيرة أخرى ، وقد تم خلاصنا برحمة يسوع المسيح .

وكان بعد الاستيلاء على نيقية أن تغلبنا ـ كما سمعت ـ على حشود هائلة من الأتراك نازلناها في تموز عند دور يليوم ، وهزمنا سليمان الجبار وانتزعنا منه كل أراضيه وأملاكه ، وبعد امتلاكنا لكل رومانيا(الأناضول) وإخضاعها لنا تقدمنا إلى حصار انطاكية ، ولقد تحملنا أثناء الحصار الكثير من المصاعب خاصة بسبب هجمات الأتراك المجاورين والكفار التي كانوا يشنونها علينا مرارا وتكرارا بأعداد غفيرة ، حتى صدق القول : إننا كنا محاصرين من قبل الذين كنا نحاصرهم في انطاكية .

وبعد الانتصار في جميع المعارك ، وبعدما حاز الدين المسيحي المجد بهذه الانجازات ، توصلت أنا بوهيموند إلى اتفاق مع (أرمني) من رجال الأتراك سلم إلي المدينة ، وقبل مطلع فجر الثالث من حزيران وضعت السلالم على سور المدينة التي كانت تقاوم المسيح ، ونبحنا يغي سغان طاغية المدينة مع عدد كبير من جنده ، واحتفظنا بزوجاتهم وأولادهم وأسرهم وذهبهم وفضتهم وكل مقتنياتهم وأملاكهم .

غير أننا لم نستطع احتلال قلعة المدينة التي كان الاتراك قد حصنوها ، وعندما أتممنا استعداداتنا لاقتحامها في اليوم التالي

شاهدنا أعدادا لاتحصى من الأتراك تتحرك في جميع أرجاء المنطقة ، وكنا لأيام خلت نتوقع حضورهم ونحن مـانزال خـارج المدينة ، وفي اليوم الثالث لامتلاكنا المدينة ضربوا الحصار حولنا ، ودخل أكثر من مائة الف منهم من القلعة السالفة الذكر أملين أن يندفعوا من أبوابها إلى قسم من المدينة تحتها ، كان بعضه معنا وبعضه الآخر معهم .

غير أننا تمكنا من موقع لنا على مرتفع اخر مقابل للقلعـة ، مـن حماية الممر بين الجيشين ، وهو المؤدي إلى المدينة حتى أن الأتراك بأعدادهم الهائلة لم يستطيعوا اقتحـام المـر ، وحـاربنا داخـل الأسوار وخارجها ليلا ونهارا ، وأخيرا ارغمنا العدو على التقهقـر إلى معسكره عبر بوابة القلعة المفضية إلى المدينة .

وبعدما تبين لهم أنهم لن يستطيعوا الحاق الأضرار بنا مـن ذلك الجانب ، أحاطوا بنا من جميع النواحي ، إلى حد أن أحدا لم يعـد بإمكانه الخروج أو الدخول إلى المدينة ، وقد ثبـط ذلك مـن عزائمنا وبث الكآبة في نفوسنا ، حتى أن العديد منا ، وقد أهلكنا الجوع مـع المحن الأخرى ، ذبحوا خيولهم وحميرهـم التـي كانت تمـوت مـن الجوع والتهموها .

وفي تلك الأثناء ، وبإطلالة رفق ورحمة من الرب القدير ، وبعـون منه ، عثرنا على الحربة المقدسة التـي طعـن بهـا لونجنيوس جنب مخلصنا ، وقد تجلى القديس أندروز ثلاث مـرات لواحـد مـن عبيد الرب وأراه المكان الذي رقدت فيه الحربة المقدسة ، في كنيسة المبارك بطرس ، أمير الرسل ، وقد استمددنا الطمأنينة والقـوة مـن هـذا الاكتشاف ومن غيره من الايحاءات ، فبعد أن استولت علينا الكآبـة واستبد بنا الوجل ، أصبح الواحد منا يحـث زميله بـكل شـجاعة وتحفز على القتال .

وبعدما تحملنا الحصار لمدة ثلاثة أسابيع وأربعة أيام ، اعتـرفنا

بذنوبنا وأوكلنا نفوسنا للرب ثم انطلقنا من أبواب المدينة في ليلة عيد القديسين بطرس وبولص (٢٨ حزيران ١٠٩٨) في تشكيل قتالي ، وكان عددنا قليلا جدا إلى حد أن العدو لم يظن ابدا أننا سنحاربه بل سنهرب .

وعندما تمت جميع هذه الاستعدادات ، واصطف رجالتنا وفرساننا في تشكيلة المعركة بكل نظام ، تقدمنا بكل بسالة نحو قلب قوة الأعداء وأجبرناهم على الفرار من مواقعهم المتقدمة ، غير انهم كعادتهم تشتتوا في جميع الاتجاهات ، وارادواتطويقنا باحتلالهم التلال والمنافذ حسب طاقتهم ، وأملوا بذبحنا بهذه الطريقة ، ولكن وكنا قد خبرنا حيلهم والاعيبهم هذه في معارك سالفة ، استطعنا ونحن الأقل عددا أن نحبط خططهم ، وذلك بفضل الرب ورحمته ، وارغمناهم على التجمع ، وبيد الرب اليمنى تقاتل معنا ، اجبرنا الاتراك بعد تجمعهم على الفرار ومن ثم التخلي عن معسكراتهم وكل ماكانت تحويه .

وطاردنا الأتراك ، بعدما هزمناهم ، طوال اليوم وقتلنا الافا مؤلفة منهم ، ثم عدنا إلى المدينة سعداء مسرورين ، وإثر هذا سلم ابن مروان القلعة السالفة الذكر إلى بوهيموند ومعها الف رجل ، وقد تنازل عن هؤلاء الرجال إلى بوهيموند راضيا ، فاعتنقوا الديانة المسيحية ، وهكذا خلص مولانا يسوع المسيح أنطاكية وسلمها إلى ديانة روما .

وبما أن الأحزان غالبا ما ترافق الأفراح ، فقد توفي أسقف لي بوي ، الذي كنتم قد بعثتم به إلينا وكيلا ، وحدثت وفاته في أول آب ، وجاء ذلك بعد المعركة التي شغل فيها دورا مبرزا وبعدما خضعت المدينة لنا .

ولهذا نسألك الآن ونحن أولادك الذين فجعوا بفقدان أبيهم الذي أوكلت بنا إليه ، ولما كنت وأنت والدنا الروحي ، قد افتتحت بنفسك

هذا الحج ، وجعلتنا بعظاتك نترك بلادنا وكل مافيها ، وبما انك قد حرضتنا على السير على طريق المسيح بحمل الصليب و حثثتنا دوما على تمجيد اسم المسيح حسبما كنت تبشر ، فإننا نتوسل إليك أن تقدم إلينا ، وأن تحرض كل من يستطيع ان يقدم معكم إلينا ، فهنا منشأ المسيحيين (أعمال الرسل : ١١/ ٢٦) وبعدما جلس بطرس المقدس على العرش في الكنيسة التي نرى اليوم ، أصبح الذين كانوا يدعون في الماضي (أعمال الرسل : - ١١/ ٢ - ٧) جليلين يدعون الآن النصارى ، فهل في هذه الدنيا ما هو انسب من ان تقدم أنت ، وأنت الأب لهذه الكنيسة و الراس ، إلى هذه المدينة الرئيسة ، حاضرة الاسم المسيحي ، و تختم هذه الحرب التي هي مشروعك بنفسك .

لقد أخضعنا الاتراك و الكفار ، و أما الهراطقة من الأغريق و الارمن و السريان و اليعاقبة ، فلم نتمكن من اخضاعهم ، لهذا نعاود السؤال في أن تقدم انت يا ابانا العزيز كأب و راس الى موطن اسلافك ، و أن تجلس أنت ، و أنت خليفة القديس بطرس ، على عرشه ، و أن تستخدمنا كأبنائك المطيعين في أداء المهام التي تراها ،و أن تمحق بسلطانك و تدمر بقوتنا جميع الهرطقات بكافة انواعها ، و هكذا تكمل معنا حجة يسوع المسيح التي أخذناها على عاتقنا بعد أن ناديت بها ، و تفتح لنا أبواب القدس ،و القدس الأخرى ، و تحرر كنيسة قيامة الرب ، و تمجد اسم المسيحيين فوق جميع الأسماء ، لأنك إن حضرت معنا و اتممنا الحجج الذي افتتحت فإن العالم بأسره سيدين لك بالطاعة .

لعل الرب الأزلي الوجود ، الذي سيحكم في الديمومة يلهمك أن تفعل ذلك : امين

- ٢٧٦٣ -

الحملة على مدن اخرى - حصار عرقة - رحلة الفرنجة إلى القدس ووصولهم إليها :

بعدما هد تعب الأيام الطوال رجالنا و خيولنا ، استجموا و استراحوا اربعة أشهر في أحواز انطاكية حتى استردوا عافيتهم ، و بعد شيء من المداولات زحف جزء من الجيش إلى داخل بلاد سورية و ذلك بقصد تأجيل الزحف على القدس ، و قاد هذا الجزء بوهيموند و الكونت ريموند ، و بقي بقية الأمراء على مقربة من انطاكية.

وا ستولى هذان القائدان مع رجالهما على مدينتي البارة ومعرة النعمان بعدما اظهروا شجاعة هائلة في القتال ، وقد استولوا على المدينة الأولى بسرعة فائقة ، و ابادوا سكانها عن بكرة أبيهم ، و استولوا على كل ما وجدوه فيها ، ثم اندفعوا نحو المدينة الثانية ، و حاصروها لمدة عشرين يوما عانى اثناءها رجالنا من الجوع الشديد ، و يقشعر بدني و انا اذكر أن عددا كبيرا من رجالنا ، و قد هدهم الجوع و عذبهم إلى حد الجنون ، قطعوا لحم العجز من جثث المسلمين المطروحة و طبخوه وأكلوه ، لا بل التهموا اللحم بوحشية قبل ان يتم طهيه ، وهكذا فإن الضرر اصاب الذين قاموا بأعمال الحصار اكثر من المحاصرين .

و في تلك الأثناء أتم الفرنجة صنع الآلات الحربية على حسب الاستطاعة ، و دفعوها إلى محاذاة الاسوار ، وببركة من الرب و معونة عبروا فوق هذه الآلات في هجوم بالغ الجراة ، و في اليوم التالي ابادوا قتلا جميع المسلمين من أعلاهم الى ادناهم و استولوا على ممتلكاتهم أجمع.

وبعدما دمرت المعرة على هذه الصورة رجع بنوهيموند إلى انطاكية ، حيث طرد منها رجال الكونت ريموند الذين كان قد خلفهم فيها لحماية قطاعه منها ، وامتلك إثر هذا بوهيموند انطاكية ومجمل

المنطقة المحيطة بها ، بحجة أن المدينة تم الاستيلاء عليها بفضل مفاوضاته وحيلته ، ونتيجة لذلك ضم الكونت ريموند إليه الكونت تانكرد واستأنفا الرحلة نحو القدس ، وإثر هذا انضم روبرت كونت نورماندي إلى هذه القوات ، وذلك في اليوم الذي أعقب رحيلهم من معرة النعمان

وفي عام ١٠٩٩ لتجسيد مولانا المسيح زحفت هذه القوات متقدمة نحو مدينة عرقة المنيعة والواقعة على سفح جبل لبنان ، وقد قرأنا أن مؤسسها كان أراكيوس بن كنعان وحفيد نوح ، وبما أن الاستيلاء عليها كان صعبا جدا ، فقد ألقينا عليها الحصار لمدة خمسة أسابيع دون أن ننجز شيئا ملحوظا .

وسار الدوق غودفري وروبرت كونت الأراضي المنخفضة خلف جيشنا ولم يكونا بعيدا جدا عنه ، فقد حاصرا مدينة جبلة الحصينة ، وآنذاك تسلما رسالة من الجيش بطلب العون في حصار عرقة ، فتخليا عن جبلة فورا ، وخفا لنجدة الجيش ، غير أنه بعدما حوصرت عرقة لم تقع معركة كبيرة كما كان متوقعا .

وأخذ الفرنجة بعد هذا في التداول فيما بينهم ، فارتأوا أن ضررا كبيرا لايرتق سيحيق بهم جميعا إن هم أطالوا فترة مكوثهم حيث هم وأخفقوا في الاستيلاء على عرقة ، وأخيرا استقر رأيهم على رفع الحصار عن عرقة ومتابعة الزحف ، ومع أن طريقهم كانت خالية من حركة المرور التجارية الا أنه كان مايزال هناك متسع من الوقت لوصولهم إلى القدس أيام الحصاد ، ولو أنهم شرعوا الآن بالزحف ولم يتماهلوا سيكون بامكانهم ان يقتاتوا على الحصاد في كل مكان ، وعلى الاغذية التي يزودهم الرب بها ، فبقيادته يمكنهم الوصول إلى غايتهم المنشودة ، وتبني هذا الراي واتخذ قرارا بذلك

وبعدما قوضوا المعسكر شرعوا بالرحيل ، فمروا أولا بمدينة

طرابلس ، ثم واصلوا زحفهم حتى جبيل ، فكانوا أمـام قلعتهـا في شهر نيسان ، وبدأوا يقتاتون على الحصاد ، وقد تـابعوا زحفهـم فمروا على مقربة من مدينة بيروت ، حتى وصلوا إلى مدينة اسـمها بلغتنا صيدا ، وهي في أرض الفينيقيين ، كان قد بناها صيدون بـن كنعان الذي جاء من سلالته الصيداويون ، ومن صيدا هبط رجـالنا إلى الصرفند ثم إلى صور ، وهي مدينة رائعـة حقـا ، ومنهـا إلى اوبليا التي قرانا عنها وعن هاتين المدينتين قال المبشر « في نواحـي صور وصيدا » (متى ١٥ / ١٢) ويدعو سكان المنطقـة هـذه احداها باسم ساجيتا والثانية صور وفي العبرانية سور .

ثم وصـلوا إلى قلعـة تـدعى الزيف (الزيب ١٤ كم شـمالي عكا) تبعد ستة أميال عن بطولومي (عكا) ثم مـروا مـن أمـام بطولومي التي تعرف باسم عكا (عكو) من قبل ويخطيء بعضـهم فيسميها عكرون ، ولكن هذه مـدينة فلسـطينية على مقـربة مـن عسقلان بين يبنا وأشدود ، وفي حقيقة الأمر يحـد عكا مـن الجنوب جبل الكرمل ، وبعد تجاوزهم مر رجالنا ببلدة اسمها حيفـا وقعـت إلى يمينهم ، ثم اقتربوا من دورا ، وبعدها من قيسـارية فلسـطين التي كانت تدعى من قبل باسم « برج ستراتون » ففيها مات هيرود أغريبا ـ حفيد هيرود الذي ولد المسيح في أيامه ـ ميتة بائسة حيث أكلته الديدان (أعمال الرسل : ١٢ ـ ٢) .

وزحف الفرنجة بعد هذا والبحر ومـدينة أرسـوف إلى يمينهـم ، ودخلوا إلى مدينة الرملة وكان سكانها من المسلمين قد هـجروها قبل ذلك بيوم ، وعثر فيها الفرنجة على كميات من القمـح حملوهـا على ظهور دوابهم ونقلوها إلى القدس .

وبعد توقف لمدة أربعة أيام اختاروا خلالها أسقفا لكنيسة القـديس جرجس ، وعينوا حامية للدفاع عن البلدة استانف الفرنجة زحفهم نحو القدس ، ووصلوا في ذلك اليوم إلى عمواس قرب مودين مـدينة المكابيين

وفي اليوم التالي امتطى مائة من أفضل الفرسان خيولهم ، ومروا قبيل الفجر على مقربة من القدس ، ثم ساروا مسرعين إلى بيت لحم ، وكان بينهم تانكرد وبلدوين ، وعندما اكتشف النصارى من ابناء المنطقة من الأغريق والسريان أن الفرنجة قد وصلوا شعروا بالسعادة والسرور مع أنهم في بادىء الأمر لم يعرفوا من كان هؤلاء فقد خيل إليهم أولا أنهم ترك أو عرب ، لكن عندما راوهم عن قرب ، وتيقنوا أنهم فرنجة طاروا فرحا ، وحملوا على الفور صلبانهم وخرجوا للترحيب بهم وهم يبكون وينشدون بخشوع ، بكوا خشية لأن عددا بهذه القلة من الناس يمكن بسهولة القضاء عليه على أيدي الجموع الغفيرة من الكفار الذين كانوا قد عرفوا بوجودهم في المنطقة ، وأنشدوا لأنهم رحبوا بقدوم الذين لطالما تطلعوا إلى حضورهم لأنهم شعروا أنهم سيعيدون إلى الديانة المسيحية الاعتبار التي هي جديرة به بعدما طال انتهاك الكفار لها .

وبعدما ابتهلوا بخشوع للرب في كنيسة مريم المباركة وزاروا مهد تجسيد المسيح ، وأعطوا قبلة السلام للسريان،سارعوا عائدين نحو القدس ، المدينة المقدسة ، .

انظر لقد ظهرت بقية الجيش وهي تقترب من المدينة ، وكانوا قد مروا بالجيب (جبعون) وهي على يسارهم ، وهي تبعد خمسين استادا (١٠ كم) عن القدس ، وفي الجيب أعطى يشوع أوامره للشمس والقمر (يشوع : ١٢/١٠ ـ ١٣) وعندما رفع رجال الطليعة اعلامهم وراياتهم هاجمهم سكان المدينة بالحال بيد أن هؤلاء الذين أسرعوا بالخروج من المدينة ردوا على أعقابهم إليها بسرعة أكبر .

شعر :

كان حزيران مشعا بحرارة الشمس السابعة عندما القى الفرنجة الحصار على القدس .

موقع القدس :

تقوم القدس في منطقة جبلية جرداء خالية من الأشجار والينابيع والجداول باستثناء عين سلوان ، التي تبعد مقدار غلوة عن المدينة والتي يتوفر فيها الماء حينا ويشح حينا آخر بسبب قلة المجاري ، وتنبع هذه العين في الوادي على سفح جبل صهيون من تيار جدول قدرون

ويطفو هذا الجدول بالعادة ويفيض في الشتاء من قلب وادي يهوشافاط .

وتحتوي الأحواض والصهاريج الكثيرة داخل المدينة على كميات كافية من المياه ، ذلك انها تمتلأ عادة بأمطار الشتاء ، كما وكان هناك أحواض أخرى خارج المدينة لسقاية الناس والحيوانات

ومن المسلم به أن القدس مدينة منبسطة انبساطا متوائما ، وهي ليست بالصغيرة أو الكبيرة ، عرضها من السور إلى السور مقدار اربع غلوات سهم ، ويقع في غربيها برج داود الذي تحفه الأسوار من الجانبين ، وفي الجنوب منها يقع جبل صهيون وذلك على بعد أقل من غلوة سهم ، ويقع في شرقيها جبل الزيتون وذلك على قرابة ألف خطوة خارج المدينة ، ولقد بني برج داود هذا من حجر صلد ، وفي نصفه العلوي قوالب ضخمة مربعة مختومة بالرصاص المصهور ، ويمكن لخمسة عشر أو عشرين من الرجال الدفاع عن هذا البرج ضد هجمات أي عدو إذا ما توفر لهم ما يكفي من غذاء .

ويقع في وسط المدينة نفسها هيكل الرب ، وهو مستدير الشكل ، وقد أقيم حيث شيد سليمان في قديم الزمان هيكله الرائع ، ومع أنه لا تصح مقارنة الهيكل الحالي بالقديم ، غير أن منظره بهي رائع يدل على مقدرة مذهلة بالاعمار .

وكنيسة القيامة أيضا مستديرة الشكل ، تـركت ذروتهـا مفتـوحة لتسمح للضوء بالدخول من كوة دائمة أجاد في بنائهـا بناء مـاهر ، وليس لدي المقدرة ، كما لا أجرؤ ، ولا أعرف كيف أعدد ما فيها من ذخائر فضلا عما حوته في الماضي ، أقول هذا حتى لا أخدع أو أضلل الذين يقرأون أو يسمعون عن هذه المسألة .

وبعدما دخلنا الهيكل ، ولمدة خمسة عشر عامـا إثـر ذاك ، قـامت هناك صخرة في وسطه ، قيل إن تابوت العهد ومعه السكينة وصحف موسى قد حفظت في داخلها ، وأن يوشع ملك يهوذا قد أمر بـوضعها هناك قائلا « لن تتمكن من نقلها مـن هـذا المكان » ، ذلك أنه تنبـأ بحادثة السبي المستقبلية .

غير أن هذا يتعارض مع ما نقرأه من وصف في كتاب المكابيين الثاني أنه قد أخفاها في بلاد عربه بنفسه قائلا : إنها لن تـكتشف حتـى يجتمع خلق كثير ، وكان أرميا معاصرا ليوشع غير أن الملك يوشـع مات قبل أرميا .

وروي أن ملاك الرب وقـف أمـام الصـخرة المذكورة (صـموئيل الثـاني : ٢٤ / ٨ ـ ٢٥) وأهلك الناس بسـبب ذنب داود في احصـائهم ممـا أغضـب الرب (صـموئيل الثاني : ١٢٤ / ٢ ، ١٥ ـ ١٧) ولما كانت هـذه الصـخرة قـد شوهت الهيكل فقد تمت تغطيتها بتبليطها بالرخام ، وقد وضـع الآن فوقها مذبح ، وعليه أوقف الكهنة جـوقة المرتلين ، وكان المسـلمون يكنون فائق الاحترام لمعبد الله هذا ، وقد فضلوا أداء صـلواتهم فيه على أي مكان آخر ، مع أن صلاتهم ذهبت سدى لأنها قـدمت لوثـن نصب اسمه محمد (صلى الله عليه وسلم) ولم يسمحوا للنصارى بدخول الهيكل .

وهناك معبـد آخـر (المسـجد الأقصى) رائع البنيان ، وفخـم الشـكل ، يدعى هيكل سـليمان مـع أنه ليس الهيكل الذي شـيده

سليمان ، ولم نستطع بسبب ضيق ذات اليد ، أن نحافظ عليه في الحالة ذاتها التي وجدناه عليها ، ولذلك تلف جزء كبير منه .

وكان هناك مجار في شوارع المدينة يغسل فيها ماء المطر كل الأوساخ ويجرفها ، وكان الامبراطور اليوس هادريان قد زين هذه المدينة وزادها روعة وبهاء ، وجمل شوارعها وميادينها بالأرصفة ، وقد سميت القدس نسبة إليه « ايليا » ، ولهذا السبب ولأسباب أخرى كثيرة عظم شأن القدس واشتهر صيتها .

حصار مدينة القدس :

بعدما رأى الفرنجة القدس ، أدركوا صعوبة احتلالها ، لذلك أمر قادتنا بصنع ابراج خشبية عالية ، وقد أملوا أن يدخلوا إلى القدس ـ بعون الرب ـ بنقل هذه الأبراج إلى محاذاة الأسوار ونصبها هناك والتسلق عليها إلى أعالي السور بهمة ونشاط وتم بناء الأبراج ، وأصدر الأمراء الأوامر بالهجوم في اليوم السابع لتاريخ وصولهم ، وبعدما صدحت الأبواق في الصباح هاجم رجالنا المدينة من جميع الجوانب بعزيمة جبارة ، وبعدما ثابروا على الهجوم حتى الساعة السادسة من النهار ، ولم يتمكنوا من دخول المدينة · اسطة الأبراج لقلتها توقفوا عن متابعة القتال وعادوا على مضض

وبعد التداول حول الأمر أمر القادة المهندسين ببناء الات أخرى للقتال ، أملين أن تحقق لهم ـ بعون الرب ـ مبتغاهم اذا ما تم الصاقها بالأسوار ، وقد تم تنفيذ ذلك .

ولم يعان رجالنا من نقص الخبز واللحوم ، وانما شقوا وعانوا هم ودوابهم من جفاف المنطقة وخلوها من الجداول وشح المياه فيها ،

لذلك نقلوا المياه بكل مشقة من المناطق المجاورة على مسافة أربعة أميال أو خمسة حسبما تيسرت الأمور .

وبعدما تم اعداد الآلات من مجانيق وأكباش وابراج ، بدأ رجالنا بالاستعداد للهجوم على المدينة مرة ثانية ، وكان من جملة ما أبدعوه لخدمة أغراضهم ، برجا من أخشاب قصيرة حيث لم تتوفر لهم اخشاب طويلة في تلك الاحواز ، ونقلوا اجزاء البرج إثر اصدار الاوامر ليلا ، ثم ركبوه في مواجهة المدينة في الصباح التالي ، ووضعوا معه الأكباش والمجانيق التي أعدوها ، وبعدما حضروه وغطوه من الخارج بجلود الحيوانات لحمايته من النيران ، دفعوه رويدا رويدا إلى محاذاة الأسوار ، وباشارة صدحت بها الأبواق ، تسلق عدد صغير من خيرة المقاتلين وأشدهم شكيمة البرج ، غير أن المسلمين كانوا قد اقاموا وسائل للدفاع ضدهم ، واطلقوا من المجانيق بقذائف ملتهبة مغموسة بالزيت والشحوم ، ووقعت هذه القذائف على البرج وعلى من فيه ، ولهذا هلك العديد من الطرفين في القتال .

وشن ريموند ورجاله من موقعهم على جبل صهيون هجوما عنيفا مستخدمين الاتهم الحربية ، ومن الطرف الآخر شن رجال الدوق غودفري وروبرت كونت نورماني ، وروبت كونت الأراضي المنخفضة أعنف هجوم على السور وأقساه ، لكن انقضى اليوم دون المزيد من المحصلات .

وتابعوا في اليوم التالي القتال على زعيق الأبواق المهمة ذاتها بعزيمة اقوى وهمة أشد ، ولذلك فتحوا ثغرة في السور في مكان واحد بعد دكة بالاكباش ، وكان المسلمون قد نصبوا عمودين من الخشب أمام فتحة وجدت في أعلى السور ، وقد ربطوهما بالحبال لتكون بمثابة ستارة تحميهم من الحجارة التي كان يقذفها الهاجمون ، ولم يخيل إليهم ابدا أن ما اقاموه لخدمة أغراضهم سينقلب ضررا فيما بعد وذلك باذن من القدرة الربانية ، حيث انه عندما دفع الفرنجة

البرج المذكور إلى ملاصقة السور ، استخدموا سيوفهم القصيرة لقطع الحبال التي علق بها العمودان ، وجعلوا من هذين العمودين جسرا مدوه ببراعة من البرج إلى أعلى السور .

وفي تلك الاثناء ، كان رجالنا يقذفون بالمقذوفات المشتعلة على السور ، فتعلقت النيران في أحد ،ابراج السور الحجرية والتهمت كميات من الحطب والأخشاب كانت حول البرج ، وتصاعد الدخان واشتدت الحرائق فلم يستطع أحد من الحراس الذين كانوا هناك البقاء أمام النيران طويلا .

وسرعان ما دخل الفرنجة المدينة بكل روعة في ظهر ذلك اليوم الجليل الذي فدى فيه يسوع المسيح العالم بأسره وخلصه على الصليب ، وخلال زعيق الأبواق والضجيج والجلبة الشديدة ، شددوا هجومهم واندفعوا ببسالة وهم يصرخون « ساعدنا يا رب » ، وبادروا إلى رفع راية لهم على ذروة الأسوار ، فدب الرعب القاتل في قلوب الكفار ، واستبدلوا شجاعتهم السالفة بالخوف والفرار في ازقة المدينة وطرقاتها الضيقة ، وكانوا كلما أمعنوا بالفرار كلما اشتدت اعمال مطاردتهم ومحقهم .

وللوهلة الأولى لم يعرف الكونت ريموند ورجاله ، الذين كانوا يضيقون الحصار ويشددون الهجوم من ناحية أخرى من المدينة ، كنه ما يجري ، غير أنهم عندما شهدوا المسلمين وهم يقفزون من اسوار المدينة ، وعندما أدركوا ذلك اندفعوا وهم في ذروة الابتهاج فدخلوا إلى المدينة بأسرع ما أمكنهم ، وانضموا إلى رفاقهم يطاردون الأعداء الأشرار ويذبحونهم بدون توقف . وفر بعض العرب والسودان إلى برج داود ، وانحشر آخرون في هيكل سليمان ومعبد الرب ، وفي فناء هذا البنيان شن رجالنا هجوما عنيفا على المسلمين ، الذين لم يكن لهم من سيوفنا مفر .

أما المسلمون الذين صعدوا إلى سقف وقبة هيكل

سليمان (المسجد الأقصى) فقد أطلق عليهم النشاب ، فخروا صرعى وتساقطوا على رؤوسهم ، وقد قطعت رؤوس ما يقرب من عشرة آلاف شخص في هذا الهيكل ، ولو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى ، ثم ماذا أقول ؟ أقول : لم يبق منهم أحد ، ولم يرحموا طفلا ولا امرأة .

الأسلاب التي حصل عليها النصارى

كم كانت دهشتك عظيمة لو أنك شاهدت رجالنا من الرجالة وحملة الدرق ، يبقرون بطون من ذبحوا من المسلمين ــ بعدما اكتشفوا ألاعيبهم ــ ليستخرجوا من بطونهم الدنانير الذهبية التي كانوا ابتلعوها وهم ما يزالون على قيد الحياة ، وللغاية نفسها ، جمع رجالنا بعد بضعة أيام كومة عظيمة من الجثث وأحرقوها حتى صارت رمادا حتى يسهل عليهم الحصول على الذهب .

ثم اندفع تانكرد نحو هيكل الرب فجرده من كثير من الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي كانت فيه ، غير أنه أعادها أو وضع ما يساويها في ذلك المكان المقدس ، ثم إن العبادات لم تعد تعقد هناك منذ ذلك الحين ، وكان المسلمون قد مارسوا فيه عباداتهم الوثنية بشعائر خداعة ، وكانوا أيضا لا يسمحون للنصارى بالدخول إليه .

شعر :

وبسيوف مشهورة سعى رجالنا في المدينة
لا يبقون على أحد حتى الذين يستجدون الرحمة
وتساقط الجميع مثلما يتساقط التفاح المتعفن
من الأغصان المهزوزة أو جوز البلوط من الشجر المتمايل

- ٢٧٧٣ -

مكوث النصارى في القدس :

وبعد هذه المذبحة الهائلة ، دخلوا إلى بيوت الأهلين فتملكوا كل ما وجدوه فيها ، وتفاهموا على ترتيب خاص أن أول من يدخل إلى واحد من البيوت سواء أكان بيت موسر أو بيت فقير فلن يعترض عليه أحد من الفرنجة ، ويحق له سكنى ذلك البيت وتملكه حتى وإن كان قصرا ، والاستحواذ على كل ما فيه والتصرف به كما لو كان بيته حقا ، وهكذا اتخذوا قرارات التملك ، وبهذه الواسطة غدا العديد من الفقراء أثرياء .

ثم توجه رجال الدين والعامة نحو كنيسة القيامة كذلك قصدوا هيكل الرب المجيد ، وساروا في موكب وانشدوا ترتيلة جديدة بصوت مفعم بالبهجة ، وقدموا الصدقات والابتهالات الخاشعة تملأ صدورهم ، ثم زاروا الأماكن المقدسة والغبطة تهزهم كما لو أنهم كانوا يودون لو فعلوا هذا منذ زمن بعيد .

ياله من يوم لطالما تحرقنا شوقا إليه : يا وقتا هو أحرى الأوقات بالذكرى ، ويا انجازا فوق كل انجاز ، لقد تمنينا هذا اليوم ، فقد كانت تعتمل الرغبة الجامحة في نفوس جميع المؤمنين بالديانة الكاثوليكية ، بأن يعاد هذا المكان إلى جلاله السرمدي ، لأنه المكان الذي اختاره خالق المخلوقات جميعا ، الرب الذي تجسد انسانا رحمة من رحماته للانسان ، و أضفى بتسجيده و موته و صعوده عليه منحة الخلاص ، أن يعاد هذا المكان على أيدي الذين آمنوا به ووثقوا ، فلقد تمنوا تطهير هذا المكان من الوباء بعدما دنسه سكانه بخرافات الوثنيين.

حقا إنه زمان جدير بالذكرى ، وذلك لأنه بالفعل تستعاد في هذا المكان ذكرى كل ما أنجز أو علم على الأرض ربنا الاله يسوع المسيح وهو كرجل بين الرجال ، وتتجدد في مخيلة المؤمنين الصادقين

جميعا ، وسيخلد هذا الانجاز الذي اختـار الرب إتمـامه على أيدي شعبه وأولاده وأسرته الأحباء ، الذين انتقاهم لأداء هـذه المهمـة ، وستجري ذكراه على السنة جميع الامم إلى أبد الأبدين .

تنصيب ملك في المدينة واختيار بـطريرك واكتشـاف صـليب الصلبوت:

في السنة الف ومائة ينقصها واحد.
من المولد العذري للرب المجيد
بعدما أشرقت شمس تموز خمس عشرة مرة
استولى الفرنجة بعزيمتهم على مدينة القدس
وسرعان ما اتخذوا غودفري أميرا على بلدان آبائهم

واجمع رجال جيش الرب في المدينة المقدسة على انتخاب غودفري اميرا للدولة ليحميهم ويحكمهم وقد انتخبوه لأخلاقه النبيلة ومهارته الحربية وجلده ثم علاوة على ذلك لطلعته البهية ووسامته.

ثـم أودعوا القـوانين في كنيسـة القيامـة وفي هيكل الرب لخدمته ، وقـرروا في ذلك الوقـت أن لا يعينوا بـطريركا وحتـى يستمزجوا رأي البـابا في رومـا عمن يرغب في تعيينه في مركز البطريركية.

والتمس في تلك الأثناء بعض الأتراك والعرب وحوالي خمسـمائة من السودان الذين كانوا قد اعتصموا في بـرج داود ، مـن الكونت ريموند الذي استقر على مقربة من البـرج ، أن يأذن لهم بـالنجاة بأرواحهم، إذا ما تخلوا عن أموالهم وتـركوها هناك ، فـأذن لهم فانسحبوا الى عسقلان.

وبرضى من الرب تم في تلك الأونة العثور على قطعة صـغيرة مـن

صليب الصلبوت وكان قد اخفاها من زمن قديم بعض الرجال الصالحين في مكان سري ، واكتشفها الآن بارادة الرب رجل سرياني كان قد اخفا ها وحفظها بمعرفة من والده ، وحمل الجميع هذه القطعة ، وكانت على شكل صليب غطي جزء منه بالذهب والفضة ، الى كنيسة القيامة و منها الى الهيكل ، مرددين أناشيد النصر ، ومقدمين الحمد للرب الذي حفظ هذا الاثر الثمين عبر العصور لنا وله.

وصول الكفار وفرارهم:

بعدما سمع ملك باب اليون (القاهرة) وأمير قواته الأفضل بدخول الفرنجة الى البلاد للسيطرة على أراضي المملكة المصرية ، أصدر أوامره بحشد جموع العرب والعرب والسودان ، وبادر بالزحف للتصدي لهم وقتالهم ، وإثر وصول الأخبار الى الأفضل ، بوساطة الرسل ، التي تحدثت عن سقوط القدس بتلك الوحشية غضب كثيرا ، وسارع بالسير لقتال الفرنجة و حصارهم داخل القدس.

لما بلغت هذه الأخبار الى الفرنجة اعتمدوا خطة على درجة عالية من الجرأة ، بأن زحفوا بقواتهم نحو عسقلان لحرب هؤلاء الطغاة ، وحملوا معه خشبة صليب الصلبوت ، وفيما كان الفرنجة في أحد الأيام يستطلعون المنطقة حول عسقلان قبيل القتال ، عثروا على مغانم لا عد لها ولا حصر من الثيران والماشية والماعز ، وبعدما جمع رجالنا هذه الحيوانات قرب خيمنا أخر النهار ، أصدر قادتنا أمرا ملزما في أن لا يقود أحد رجالنا الغنائم معه في اليوم المقبل ، حتى لا تعيق حركة الجيش وتحد من حريته في القتال.

وفي اليوم التالي عرف الفرنجة من رجال استطلاعهم أن الكفار

قد أخذوا بالزحف فقاموا ، بضبط جوانبهم ونظموا صفوفهم وارتالهم على الوجه الأفضل للمعركة ، ثم زحفوا نحو العدو بكل شجاعة واعلامهم مرفوعة ، ولو كنت حاضرا لشهدت الحيوانات التي سلف ذكرها وهي تسير على يمين ويسار الحشد كما لو انها كانت تطيع الأوامر ، مع أنه لم يكن يقودها احد ، وعندما رأى الكفار كثافة حشدنا عن بعد ظنوه جيش الفرنجة الهائل ، ومع هذا تقدم الكفار واقتربوا من حشدنا بجموع لا تعد ولا تحصى ، وكانوا أشبه بوعل مندفع ليطعن بقرونه ، وبعثوا بكتيبتين من العرب لحصار ساقتنا ، مما دفع الدوق غودفري الى العودة الى الوراء برفقة كوكبه من الفرسان الدارعين ، فأنقذ الساقة ، وإثر هذا تقدم القادة الآخرون وكان بعضهم با لصف الأول وبعضهم الآخر بالصف الثاني.

وعندما دنا الجمعان من بعضهما بحيث لم يبق بينهما سوى قرابة رمية حجر او اقل ، شرع رجالنا برمي النشاب على الأعداء الذين امتدت صفوفهم ، ثم ما لبثوا أن استبدلوا النشاب بالحراب ، وذلك عندما اندفع فرساننا ــ كما لو كانوا على اتفاق مسبق ــ وشنوا هجوما مدمرا ، وانقلبت أثناء القتال خيول الأعداء البطيئة على فرسانهم وطرحتهم أرضا ، وفي ساعة أو اقل فارقت أجساد كثيرة الحياة وتغيرت ألوانها وعلاها الشحوب.

وأمعن الأعداء بالفرار ، وفي تلك الأثناء تسلق بعضهم أعالي بعض الأشجار ، غير أنهم تلقوا وابلا من النشاب فسقطوا الى لقاء حتفهم بتعاسة ، وهلك المسلمون اثناء القتال العنيف في كل مكان ، أما الذين تمكنوا من النجاة ففروا عبر معسكرهم الى عسقلان ، المدينة التي تبعد قرابة سبعمائة وعشرين استادا عن القدس.

وولى الأفضل الأدبار وقرر الفرار بعد لقائه الأول مع الفرنجة ، علما أنه كان في ذلك الحين يشعر نحوهم

بالازدراء ، وهكذا تخلي عن خيمته مرغما ، وكانت مكدسة بالأموال وانواع النفائس ، وقصدها الفرنجة تملأهم نشوة الظفر ، ثم اجتمعوا وقدموا الشكر للرب وحمدوه ، ثم ولجوا الى خيام الأعداء فوجدوا ما اذهلهم من الثروات الملكية من الذهب والفضة والملابس والمجوهرات والاحجار الكريمة بمختلف أنواعها ، فيها اثني عشر صنفا هي : اليشب – والياقوت الأزرق – والعقيق والزمرد ، والجزع العقيقي والبقراني ، والزبرجد والياقوت الزعفراني ، والياقوت الحجري ، كما أنهم وجدوا أوعية كثيرة ، وأشياء أخرى مثل القلانس المرصعة بالذهب ، والخواتم الرائعة والسيوف المحلاة ، والقمح ومختلف الحبوب.

وأمضى رجالنا الليلة هناك واحتاطوا حيطة شديدة بما لحراسة وتيقظوا اعتقادا منهم أن المسلمين سيجددون القتال في اليوم التالي ، لكن الذي حدث هو أن هؤلاء تملكهم الرعب ففروا في الليلة ذاتها ولم يبق منهم أحدا ، وبعدما تحقق رجال استطلاعنا من هذا الأمر في اليوم التالي ، تعالت الأصوات فرحا بالشكر والمديح ، وهللوا للرب وأثنوا عليه لأنه جعل الآلاف المؤلفة من الأعداء يتبعثرون على يد جيش صغير من جند المسيح ، « ومبارك هو الرب الذي لم يسلمنا فريسة لأسنانهم» (المزامير: ١٢٤ / ٦)» وطوبى للأمة التي الرب الهها»(المزامير: ٣٣ / ١٢).

الم يتبجح هؤلاء المصريون ويتعهدوا بألسنتهم قائلين: « لنذهب الى القدس فنحتلها والفرنجة في داخلها ، وبعد أن نذبحهم جميعا ، لنهدم كنيسة القيامة التي يجلونها وبذلك نزيل أثرها ونمحو ذكرها الى أبد الآبدين » ، وهكذا لم تذهب رحمة الرب سدى ، بل حمل الفرنجة الابل والخيول بثروات المسلمين ، وعندما تعذر عليهم حمل الخيام والرماح والقسي والسهام الى المدينة أضرموها بالنيران ورجعوا مبتهجين الى القدس.

- ٢٧٧٨ -

عودة بعض الأمراء الى ديارهم:

بعدما تم تحقيق هذه الانجازات ، رغب بعض الناس في العودة الى ديارهم ، وذلك بعد ما استحموا وتعمدوا بمياه نهر الأردن وجمعوا سعف النخل قرب اريحا ، في مكان عرف باسم حدائق ابراهيم ، وبعد هذا رحل روبرت كونت نورماندي وروبرت كونت الأراضي المنخفضة بالسفينة الى القسطنطينية ، ومنها الى فرنسا ومن ثم الى ممتلكاتهما، أما ريموند فعاد الى اللاذقية في سورية وترك زوجته فيها ، ثم أكمل سفره الى القسطنطينية وهو على نية العودة ، وحكم غودفري في القدس بموافقة الجميع ، وهي المدينة التي تعهد بحمايتها والحفاظ عليها ، وبقي معه تانكرد وآخرون.

حج بوهيموند وبلدوين

في تلك الآونة كان بوهيموند ــ وهو رجل عاقل مدبر مقدام ــ يحكم في أنطاكية ، وفي الوقت نفسه حكم بلدوين اخو غودفري في الرها والبلاد المجاورة في الضفة الأخرى من نهر الفرات ، ولدى سماعهما بأخبار الاستيلاء على القدس على أيدي رفاقهما الذين تقدموهما ، علاهما السرور والبهجة ، وحمدا الرب وشكراه وصليا له ، وبما أن الذين تابعوا الرحلة الى القدس أصابوا النجاح وعمت عليهم الفوائد ، فقد توجب على هذين القائدين ورفاقهما مضاهاة الآخرين على الأقل بشجاعتهم وان تخلفوا عنهم سنة.

وقضت الضرورات تدبر حماية المدن والأراضي التي انتزعت من الترك بكل صعوبة ، وتوجب أن تكون هذه الحماية عالية العناية والحرص ، ذلك أنه كان بمقدور الأتراك ، بعدما اندحروا الى بلاد الفرس ، استعادة الأراضي بهجوم مباغت ، إذا ما تركت بدون

حماية ، ولو وقع هذااللحق الفـرنجة ضررا عظيمـا اثناء ركوبهـم الطريق الى القدس ومنها ، ولعل العناية الربانية هي التي قضت أن يتخلف بوهيموند وبلدوين ، ذلك انها ارتأت أنهما سـيكونان أكثـر نفعا فيما سيحدث من مشاركتهما فيما حدث.

والمرات التي افرغ فيها بلدوين الجهد في قتاله ضـد الأتـراك في الجزيرة كثيرة ، وكثيرة أيضا رؤوس الترك التـي قـطعها ، فمـن المحال تقدير عددها ، وغالبا ما حارب بلدوين بقلة من رجاله جموعا حاشدة من الأعداء ، ولكن حالفه النصر بعون من الرب.

وعندما بعث بـوهيموند الى بلدوين يقتـرح عليه أن يقـوما مـع رجالهما بمتابعة الرحلة الى القدس لأنهما لم يكملاها ، أخذ بلدوين بعض الوقت في تدبير أموره و التحضير للسفر ، و فيما بلدوين على نية السفر سمع أن الاتراك اجتاحوا شطرا من بلاده ، فأجل سفره وأخذ طريقه فورا مع حفنة من رجاله ، وزحف ضد الأتراك مـع أنه لم يكن قد جمع جيشه كله للرحلة الى القدس ، وفي احد الأيام شاهد الاتراك راية بلدوين تقترب منهم ، وكانوا يظنون انه قد بدأ رحلتـه الى القدس ، لذلك جلسوا مطمئنين في خيامهم ، وفوجئوا الآن فدب الرعب في قلوبهم ولاذوا فورا بـالفرار ، وبعـدما طـاردهم بلدوين مسافة قصيرة رجع رجاله القـلائل وتـابع تنفيذ المشروع الذي عزم على القيام به.

وبدأ بلدوين رحلته بالمرور عن يمين انطـاكية حتـى وصـل الى اللاذقية ، حيث اشترى مالزمه مـن مـؤونة للرحلة ، وأعاد تعبـئة احمال دوابه ، ثم شرع بالرحيل في تشرين الثاني ، وبعدما مـررنا بجبلة التقينا ببوهيموند في بانياس حيث كان قد ضرب خيامه.

وكان معه أسقف من بيزا يدعى ديمبرت ، وكان هذا الأسقف قد ركب البحـر الى مـرسى اللاذقية مـع بعض التـوسكانيين والطليان ، وقد انتظروا هناك ليسيروا معنا ، وكان هناك اسـقف

من أبوليا وأسقف ثالث برفقة اللورد بلدوين ، وقد قدرنا تعداد هذا الحشد من الناس الذين ربطتهم أواصر المودة بخمسة وعشرين ألفا من الرجال والنساء فرسانا ورجالا".

وبعدما دخلنا الى بلاد المسلمين ، لم نستطع الحصول من السكان المعادين على الخبز أو أي غذاء آخر نقتات به ، وعانى الكثيرون من شدة الجوع ، وازدادت معاناة الخيول والبهائم من قلة الاعلاف ، وهكذا ساروا دون أن يتمكنوا من الحصول على الغذاء.

وعثرنا في الحقول المزروعة التي اجتزناها على نبات طازج تدعوه العامة باسم « قصب العسل » وهو شديد الشبه بقصب البوص ، واسمه مركب من العسل والقصب وعنه صدرت عبارة « عسل الخشب » كما أظن ، لأن هذا العسل يستخرج بمهارة من هذا القصب ، وقد مضغنا هذا القصب طوال الوقت بسبب مذاق العسل فيه ، لكن ذلك لم يخفف من جوعنا كثيرا .

وفي الحقيقة تحملنا ـ محبة بالرب ـ هذا العذاب وكثيرا من المشقات مثل الجوع والبرد والأمطار الشديدة ، وأكل كثير من الرجال لشدة الجوع ، الخيل والحمير والجمال ، وقاسينا كثيرا وبشكل متواصل من البرد القارس والأمطار العاصفة ، حتى أن ثيابنا المبتلة كانت ما تكاد تجف في حرارة الشمس حتى ينغص عيشنا وابل جديد من المطر لأربعة أيام أو خمسة.

ولقد رأيت كثيرا من الناس ممن فقدوا خيامهم يموتون من شدة البرد بسبب الأمطار ، كما شهدت أنا فولتشر أوف تشارترز بنفسي في أحد الأيام كثيرا من الناس من الجنسين يلاقون حتفهم بسبب الصقيع وكذلك الكثير من الدواب ، ويطول الوصف ويمل السامع لوذكرنا جميع الآلام والمآسي التي عانى منها شعب الرب.

ولاقى عدد كبير من الفرنجة حتفهم على أيدي المسلمين الذين كمنوا لهم على الممرات الضيقة في الطريق ، وتم اختطاف بعضهم الآخر أثناء بحثهم عن الطعام ، ولقد كنت ترى فرسانا من أصل رفيع وقد غدوا رجالة لفقدانهم خيولهم ، كما كنت ترى الماعز والخراف التي انتزعت من المسلمين ، وقد هدها حمل الأمتعة وتشققت ظهورها وتحطمت من حمل الأثقال ، لأنه لم يبق من البهائم لحمل الأمتعة غيرها.

وحصلنا على الخبز مرتين لا ثالث لهما ، بعدما دفعنا ثمنا باهظا ، وكانت المرة الأولى في طرابلس والثانية في قيسارية ، ويتضح من هذا كله أن الانسان لا يصل الى الانجاز العظيم إلا بالبذل العظيم ، وكان وصولنا الى القدس حقا امرا جد عظيم.

وانتهت بهذه الزيارة الى القدس مهمتنا التي طال مداها ، وعندما ابصرت عيوننا قدس الأقداس ، التي طال شوقنا اليها ، امتلأت نفوسنا بشعور بالغبطة العارمة ، ومرات كثيرة هي التي تذكرنا فيها نبوءة داود إذ قال: « لنسجد عند موطىء قدميه » (مزامير: ١٣٢ / ٧) ، حقا شهدنا هذه النبوءة تتحقق فينا مع أنها كانت تتعلق بغيرنا ، وصعدنا حيث صعدت الأسباط ، أسباط الرب شهادة(مزامير ١٢٢ ٤)الى هذا المكان المقدس.

وبدأت الشمس يوم وصولنا الى القدس تنقلب بعد اكمال هبوطها الشتوي ، وشرعت بالصعود ، وبعد ما قضينا زيارتنا الى كنيسة القيامة والى هيكل الرب المجيد والى الأماكن المقدسة الأخرى ، ذهبنا في اليوم الرابع الى بيت لحم من أجل الاحتفال بميلاد الرب المسيح ، وأردنا أن نسعف أنفسنا بالصلوات تلك الليلة في المهد حيث وضعت الأم مريم المجيدة ابنها يسوع ، ثم رجعنا الى

القدس في الساعة الثالثة من ذلك اليوم ، بعدما فرغنا من الابتهالات المناسبة في الليلة المتقدمة.

ولقد سدت أنوفنا الروائح الكريهة المنتشرة حول أسوار المدينة من الداخل ومن الخارج ، والتي انبعثت من جثث المسلمين المتفسخة ، وهم الذين أبادهم رفاقنا عند احتلالهم للمدينة وكانت ما تزال مطروحة حيث تم الفتك بها.

وبعدما استجمينا نحن ودوابنا ، ونلنا قسطا من الراحة التي كنا في أشد الحاجة اليها ، وبعدما وقع اختيار الدوق والمقدمين الآخرين على ديمبرت السالف الذكر ليغدو بطريركا في كنيسة القيامة ، تزودنا بالمؤن ووضعنا اثقالنا على دوابنا وهبطنا نريد وادي نهر الأردن ، ولقد أثر بعض الجنود ، خاصة الذين تأخروا بالوصول الى القدس ، البقاء في المدينة ، و اختار الآخرون الذين كانوا قد وصلوا من قبل الذهاب معنا ، واستمر الدوق غودفري يحكم منطقة القدس بيد فولانية كما فعل من قبل.

شعر :

وحدث في اليوم الثالث لما قبل منتصف أب ، وكان يوما مشؤوما ، أن مات أوربان المبجل ، بابا روما.

عودة كل من بوهيموند وبلدوين الى بلديهما:

في العام الف ومائة لتجسيد مولانا المسيح ، وفي اليوم الأول من ذلك العام ، حملنا جميعا سعف النخيل ، بعدما قطعناها في أريحا ، حسبما جرت العادة ، وبدانا رحلة العودة في اليوم التالي •

قد احب امراؤنا العبـــور بمـــدينة طبـــرية ، الواقعـــة على بحرها ، وطول هذا البحر الذي يتكون من مياه عذبة ـ ثمانية عشر ميلا و عرضه خمسة أميال ، ومن طبرية ارتحلنا الى قيسارية فيليب التي تدعى باللسان السوري بانياس ، وهي تقع على ســفح جبــل لبنان ، حيث ينبع جدولان يشكلان نهر الأردن ، ويجري هذا النهر عبر بحر طبرية الى البحر الميت.

ويذكر يوسفيوس ان عرض بحر طبرية اربعين ســتادا وطــولها مائة ، وكانت تعرف باسم جنساريت ويمر النهر من خــلالها ، ثــم يصـــب في البحـــر الذي يدعى البحـــر الميت ، لأنه (تـــكوين ١٩ / ٢٤ - ٢٩)لا يحتوي على اي شيء حي ، و يعرف ايضــا باسم بحيرة اسفلت ، و يعتقد انه ليس لها قــاع ؛ لأن مــدنا مثــل سدوم وعمورة قد انغمرت في جوفها

وكنت قد قـــرات في كتـــاب القـــديس جيروم عن النبـــي عاموس ، وقمــت بعناية فــائقة بتخمينات بشــأن الينابيع التـــي ذكرها ، واستخلصت أن دان كانت ضمن حدود بلاد يهوذا حيث تقع بانياس الآن ، ولأن قبيلة دان شيدت مدينة هناك ، دعوهــا بــاسم دان تيمنا بأسماء ابائهم ، ولهذا السبب أعتقد أن احد هذه الينابيع كان اسمه دان وكان اسم الآخر الواقع على مقربة منه « جوز ».

ثم وصلنا الى مدينة حصينة اسمها بعالات (تدمر) ، وكان قــد شيدها سليمان ، وعمر حولها اسوارا عالية جــدا ، وأطلق عليهــا اسم تدمر ، وتقــع هــذه المدينة على مســيرة يومين مـــن أعالي سورية ، وستة أيام من باب اليون الكبرى (القاهرة) ومسيرة يوم من الفرات ، وقد سماها الاغريق بالميرا ، و تكثر حولها الينابيع والآبار لكن المياه لا توجد في البادية.

وواجهنا هناك نحو أربعمائة من المقاتلين الترك كانوا قد جــاءوا من دمشق ، وقد ظنوا أننا مجهدون من التعب ومنهــكون ، ولهــذا

خيل اليهم أنه بسهولة يمكنهم الحاق المضار بنا ، وفعــلا كادوا أن يفعلوا ذلك لولا أن شاء القدر أن يحمــي اللورد بلدوين مــؤخرتنا في ذلك اليوم بكل عناية وحذر ، ولولا هــذا لقتــل مــن رجــالنا عدد كبير ، وقد انعدمت فعالية قسيهم بسبب الامــطار ، لأن عادة أهــل تلك البلاد أن يستخدموا الغراء في صــنع هــذه الأســلحة ، وفي تلك الأثناء قاد بوهيموند المقدمة ، وهــكذا لم ينل العــدو منا ـ بعــون الرب ـ أي مغنم.

ثم اقمنا مخيمنا أمام البلدة المذكورة ، وفي اليوم التالي اقتــربنا اكثر من البحر ، ومررنا أمــام مــدينتي طــرطوس واللاذقية ، وفي اللاذقية وجدنا ريموند الذي كنا قد خلفناه هناك ، ولندرة الأغذية لم نجد ما نشتريه من المؤن لنقتات به ، و مع هذا تــابعنا ســفرنا غير اننا سارعنا ولم نتوقف حتى وصلنا الى الرها.

اسر الأمير بوهيموند:

وصل بوهيموند الى أنطاكية أولا ، حيث رحــب بــه أصــدقاؤه وتلقوه بكل سرور وفرحة ، وقد مكث يحكم لمدة ستة أشهر كما فعــل من قبل ، غير أنه عندما وصل في شهر تموز مع حفنة من رجاله الى مشارف مدينة اسمها ملطية ، التي كان قد عقد اتفاقا مع صــاحبها الذي اسمه جبريل أن يسلمه اياهــا ، اقتــرب منه أمير اســـمه الدانشمند ، وكان على رأس قوة كبيرة من الترك ، وسعى الى قطع الطريق عليه ، ولم يكن بوهيموند عارفا بوجوده.

وعلى مقـــــــربة مــــــن ملطية انقض هؤلاء الأشرار على بوهيموند ، وخـــرجوا عليه مـــن كمين كانوا قـــد نصـــبوه له ، وطرحوه ، ولم يتجرأ رجالنا على القتــال لقلة عددهــم وفــروا وتفرقوا بالحال ، لكن بعدما قتل الأتراك عددا كبيرا منهم واستولوا

على اموالهم ، ولم يكتف الاتراك بهذا بل إنهم قبضوا على بوهيموند وقادوه أسيرا،وعندما علم جماعتنا بأنباء هــذه الكارثــة مــن الذين فروا ، أصابهم حزن كبير ، وقام بلدوين كونت الرها فحشد كل من وجده من فرنجة الرها وانطاكية ، ثم انطلق بلا تأخر لملاحقة العــدو حيث سمع بوجوده ، وكان بوهيموند قبل وقوعه بــالأسر قــد قص خصلة من شعره ، وبعث بهــا الى بلدوين حســب اتفــاق متقـــدم بينهما و رجاه محبة بالرب ان يقدم الى نجدته على الفــور ، وكان الدانشمند يحاصر مدينة ملطية لكنه عندما سمع بتحرك بلدوين خشي مغبة ذلك ، فأوقف الحصـــار ، وانســـحب خشـــية مـــن مواجهتنا ، وتمكن بذلك من العودة الى بلاده ، وأصابتنا خيبة أمل شديدة لذلك ، فقد طاردنا الأتراك لمدة ثلاثة أيام بدون جدوى ، وكنا نتوق للاشتباك معهــم بــالمعركة ، ثــم عدنا الى ملطية ، فســلمها جبريل إلينا بعدما وطد أواصر الصداقة مع بلدوين ، و دخــل بلدوين إلى ملطية وخلف بعض رجاله فيها ثم عاد الى مدينة الرها ، واثــر هذا عاد رجال انطاكية الى مدينتهم بعدما فقدوا قائدهم.

موت الملك غودفري:

ولم يستمتع بلدوين برغد العيش طويلا حتى وصل اليه رسول من القدس يحمل اليه خبر موت الملك قبل بداية شــهر أب بخمســة عشر يوما.

شعر:

وفي مطلع السنة بعدما سقطت المدينة
أعطاك الرب أيها الدوق غودفري الحكم كتاج من التقــدير لكن لم يدم طويلا.

تمتعك به لأن الطبيعة قضت بهلاكك.
وعندما دخلت الشمس الصاعدة في برج الأسد
صعدت أنت الى عليين مسرورا يحملك الملاك ميكائيل.

الكتاب الثاني

اعمال الملك بلدوين الأول

كيف قدم بلدوين ليحكم القدس :

أصاب بلدوين شيئا من الحزن لوفاة أخيه ، ولكنه عندما علم أن اهل القدس جميعا يتوقعون أن يتولى حكم المملكة بصفته الوريث الشرعي لها ، فرح أكثر لميراثه ، وبعدما عقد بعض الاستشارات اعطى البلاد التي له الى ابن عمه ، ثم جمع جيشه الصغير الذي لم يتجاوز تعداده مائتي فارس وسبعمائة راجل ، وركب الطريق وانطلق يوم القدس في الثاني من تشرين الأول .

وقد أدهش الكثيرين بشجاعته واقدامه على عبور كل تلك البلدان المعادية مع عدد ضئيل من الرجال ، كما ضرب الهلع وتملك الخوف قلوب الكثيرين ممن صاحبونا فانسحبوا وتخلوا عن مرافقتنا خلسة ودون علم منا ، وعندما اكتشف الأتراك والعرب أننا عازمون على القيام بهذه الرحلة حشدوا ما استطاعوا من رجالهم ، وزحفوا ضدنا مهاجمين ليوقعوا بنا اكبر خسارة ممكنة ، ومررنا بأنطاكية ثم عبرنا اللاذقية ، ثم جبلة ومرقية وطرطوس وعرقة الى أن وصلنا الى طرابلس .

وبعث أمير طرابلس في تلك الآونة الى خيمة بلدوين بالخبز والنبيذ والعسل المصفى ، وخرفان الضأن المشوية ، وأخبر بلدوين أن دقاق صاحب دمشق وجناح الدولة أمير حلب ، كانا في انتظاره مع جمع من الاتراك والمسلمين والعرب على الطريق الذي اعتقدوا أنه سيمر

بها ، ومع أننا لم نصدقه وقتها تماما ، تبرهن لنا فيما بعد أن زعمه كان صادقا .

الكمين الذي نصبه الأتراك ـ مهارة بلدوين الفائقة بالأمور العسكرية :

يقع على مقربة من بيروت ـ على مسافة خمسة أميال منها ، ممر شديد الضيق قائم على الطريق المماشي لساحل البحر ، ولم يكن بمقدورنا أو بمقدور أي انسان كان المرور به وعبوره ، اذا ماأراد عدو مزود بالمؤن أن يحول دون عبوره ، ولو أراد مائة ألف جندي أن يعبروه لما استطاعوا اذا ماتصدى لهم مائة رجل أو حتى ستون مقاتلا عزموا على الوقوف هناك .

وعندما دنت طلائع جندنا من هذا الممر الضيق رأى رجالنا أتراكا انفصلوا عن أخرين وشرعوا يتقدمون نحونا ويتفحصون أوضاعنا ، ولما رأتهم طلائع قوتنا اعتقدوا بوجود أعداد كبيرة خلفهم مختبئة في كمين ، وعندما شهدوا هذا راسلوا اللورد بلدوين بدون تقاعس ووصفوا له الأوضاع ، واستجاب بلدوين لهذه الأخبار بأن أمر رجاله بالاصطفاف للقتال ، وتعبأنا ، ثم زحفنا نحو العدو بتؤده نسير خطوة خطوة ، وأعلامنا مرفوعة ، وعندما تيقنا من اقتراب نشوب القتال جثينا للصلاة بقلوب طاهرة خاشعة ، وطلبنا المدد من السماء ، وقابلت طليعتنا قوات الأعداء فردا فردا ، وقتل عدد منهم بالحال ، ولم نفقد غير أربعة من رجالنا .

وبعدما توقف القتال تشاورنا حول الأمر ، فصدرت الأوامر بنقل معسكرنا الى أقرب موقع من العدو ، ولم نرغب في أن نبدو خائفين ان نحن تخلينا عن الموقع وكأننا في وضع فرار ، لهذا تظاهرنا بشيء ، بينما اتجهت أفكارنا نحو شيء أخر ، وتصنعنا الشجاعة مع

اننا خشينا من الموت ، وصعب علينا التراجع لكن التقدم كان أشـد صعوبة ، فقد حاصرنا العدو من كل جانب ، وكان هناك من طـرف أول جماعات اتت في القوارب وخرجت من البحـر ، ومـن الجـانب الآخر كان الآخرون ينقضون مهاجمين بدون تـوقف مـن الجـروف الجبلية والشعاب ، وهكذا مر بنا يوم شديد البؤس حقا ، والصدق اقـول : إنني تمنيت مـن كل قلبـي لو كنت في تشـارترز أو في أورلنز ، وكذلك تمنى البقية ، وقضـينا تلك الليلة دون نوم خـارج خيامنا وقد فترت عزيمتنا .

وفي الفجر عندما شرعت الشمس تجلو الظلمـة عن وجـه الأرض وبعدما تداولنا في أن نتـراجع أو نمـوت ، قـررنا جمـع خيامنا ، والنكوص على أعقابنا والعودة من حيث أتينا ، وهنا حمل بعض رجـالنا الموكلين بـالأمتعة مـاوجد معنا على ظهـور الدواب ليتقدمونا بالمسير ، وفي الوقـت نفسـه تخلف فـرساننا لمقـاومة المسلمين المهاجمين .

ومع نور الصـباح ، عندمـا تبين للأتـراك ـ حلت بهـم اللعنة ـ اننا اخذنا بالتراجع هبـطوا على الفـور مـن المرتفعـات وشرعوا يطاردوننا ونحن لاندري كيف نفعل ، فقـادونا الى داخـل الممر الضيق ، كما تقاد قطعان الماشية ، وكما سبق ووصفت جـاء بعضهم في القوارب من البحر ، وانقض بعضهم الآخـر مـن خلفنا على الطريق ، كما كان هناك بعضا اخر جاءوا من التلال والجبال حولنا فرسانا ورجالة ، وارادوا أن يفصلوننا عن موقع منبسط عند مخرج الممر ، حيث اشتد ضيقه بين البحـر والجـرف واسـتهدفوا ايقافنا وقتلنا ولكن الأمور لم تسر حسبما رغبوا ، فقد صمد رجالنا حيث كان يقول ،أحدهم للآخر : اذا ما تمكنا من ايقـاف مـطارديننا عند ذلك الموقع المنبسط ، فلعلنا ـ بعون الرب ـ نسـتطيع الحملة عليهم ، فاذا ماقاتلنا وقتها بضراوة يمكننا الانفصال عنهـم والمضي في سبيلنا .

الاستبسال بالقتال ضد الأتراك :

وكان الاتراك في تلك الأونة يقفزون من القوارب حيث قتلوا الذين سولت لهم انفسهم الاقتراب من البحر ، ثم اندفعوا نحونا في الموقع المنبسط المشار اليه ، وأخذوا يرموننا بالنشاب ويقذفوننا بالسباب مــن كل جــانب ، وكانوا يصرخــون وينبحــون كالكلاب أو كالذئاب ، ويتقدمون نحونا وسيوفهم مشرعة .

« فلا استطاع سـليمان الحـكيم ولاشـمشون الجبـار أن ينتصرا » . ولكن عندما أطل رب القوة والرحمة الواسعة من سمائه على الأرض ورأى خضوعنا ، وشهد المحنة الكبرى التـي المت بنا بسبب محبته وفي سـبيل طـاعته ، عند ذلك تحـركت رحمتـه السرمدية ، التي ينجد بها قومه دوما بكل حق ، فمنح رجالنا أرفـع درجات الشجاعة فانعطفوا نحو أعدائهم ، وهـزموهم وارغمـوهم على الفرار في طريق ذي شعب ثلاث ، ولم يتـوقف هؤلاء ابـدا ولم يفكروا بالدفاع عن أنفسهم – ولقد فر بعضهم الى الشعاب الجبلية الوعرة وبعضهم الآخر الى ملاجيء يأمنون فيها – في حين طـاردنا بعضهم ونبحناهم بحد السيف ، ولقد كنت ترى بعضهم وقد اندفعوا مهرولين باتجاه قواربهم ، ليركبوا مراكبهم وكأننا كنا على وشـك ان نتخطفهم بأيدينا ، وهرب أخرون لايلون على شيء وذلك بتسلقهم الشعاب والتلال .

ثم عدنا الى رجـالنا الذين كانوا يحـرسون دواب الحمـولة على الطريق ، ونحن نشعر بنشوة الظفر ، وبـالغبطة لنيل هـذا النصر المبين ، وقدمنا سـاعتئذ عظيم شـكرنا للرب ، الذي منحنا تـأييده العظيم في تلك المحنة الوافدة المليئة بالمخاطر .

ما اعجب تدابير الرب ، كم هي رائعة وجديرة بالتذكر ، فبعـدما

كنا منهزمين عدونا منتصرين ، وفي الحقيقة لم نكن نحن من انتصر بنفوسنا ، و كيف لنا أن ننتصر؟أن الذي انتصر هــو الرب وحــده ، خالق الكل ، شامل المقــدرة ، الذي امــد مخلوقــاته بعــونه ورحمته ومعنا ماقاله الرب لبني اسرائيل بوساطة الانبياء : « اذا سلكتم في فرائضي وحفظتم وصاياي وعملتم بها يطـرد خمسـة منكم مائة ، ومائة منكم يطـردون ربـوة ، ويسـقط أعداؤكم امـامكم بالسيف ، والتفـت اليكم واثمـركم واكثـركم ، وافي بميثـاقي معـكم » (لاويون: ٢/٢٦، ٩/٨) ،وحيث اننا تحملنا الكثير مـن العذاب في خدمته ليلا ونهـارا ، كسرنا بـاعجوبة الأعداء ،ولاننا تعبدناه في محنتنا بقلوب خاشعة نظر بعين الرضا لتذللنا .

ثم صدرت الأوامر بنصب الخيام ، وعرض أمـام اللورد بلدوين سادة الأتـراك الذين اسروا وعرضـت معهـم اسـلحة القتلى ، واستولينا على خيول بسروج مـذهبة ، وفي صـباح اليوم التالي ، تدبرنا امورنا كما لو كنا نطبق خطة مدبرة ، فسرنا مقـدار اربعـة اميال على الطـريق ، وبعـدما وزع الأمـراء الغنائم هناك استرحنا تلك الليلة في ظل أشجار الزيتون داخل أجمـة قـرب قلعـة مهجورة .

واصطحب بلدوين في صباح اليوم التالي بعض الفرسان ، وتوجه بشجاعته المألوفة نحو الممر الضيق الذي اتينا على ذكره واسـتهدف معرفة فيما اذا كان المسلمون الذين اغلقوا طريقنا فيما مضى قد ظلوا هناك ، وعندما لم يجد منهم احدا ، ذلك أنهم لاذوا بـالفرار بعـدما سمعوا بما حدث من الهـزيمة والتمـزيق ، جثـا شـاكرا للرب وحامدا ، ثم امر باشعال نار عظيمة على رأس الجبل ، وكانت تلك شارة لمن تخلف من اهل معسـكرنا بغية المبـادرة للحـاق بمـن تقدمهم ، ولما رأينا النار ، شـكرنا الرب ، وبـادرنا الى اللحـاق. ووجدنا الطريق سالكة مفتـوحة لنا ، فـاكملنا الرحلة حسـبما ارتضينا .

واقمنا معسكرنا قرب بيروت لتمضية الليلة ، وعندما عرف صاحب تلك المدينة بأمر وجودنا ، أرسل بقوارب مليئة بالأطعمة الى اللورد بلدوين يوميا ، وكانت هذه البادرة لاتدل على حسن النية ، ولكن كان مصدرها الخوف ، ولم يكن أبدا المحبة ، وفعل الشيء نفسه حكام المدن الاخرى التي مررنا بها مثل صور وصيدا وعكا ، فلقد تظاهروا بالمودة غير أن قلوبهم كانت خلوة منها .

وكان تانكرد يحكم مدينة حيفا التي استولى عليها رجالنا وهم في طريقهم الى القدس ، عند بداية هذا العام ، بيد أننا لم ندخل اليها لأن تانكرد كان معاديا لبلدوين ، ولم يكن تانكرد في حيفا غير أن اتباعه من سكان المدينة باعونا الخبز والنبيذ خارج المدينة ، ذلك أنهم رأوا فينا أصدقاء لهم رغبوا في مقابلتهم .

ومررنا بقيسارية فلسطين وبقلعة أرسوف الحصينة ، التي ظننا لجهلنا أنها اسدود غير أن اسدود كانت واحدة من خمس مدن فلسطينية (صموئيل : ١٧/٦) ، وهي تقع بين يافا وعسقلان ، وقد تدهورت أحوالها الآن واضمحلت فهي اشبه بقرية .

وبعدما مررنا بأرسوف وصلنا اخيرا الى مدينة يافا البحرية ، وهي في منطقة دان ، وفي تلك الأثناء رحب الفرنجة ببلدوين هناك واستقبلوه ملكا لهم ، ولم نتأخر هناك بل خففنا الخطى الى القدس ، وعندما شارفنا الوصول الى المدينة جاء السكان جميعا للترحيب ببلدوين ، وحضر رجال الأكليروس والأغريق والسريان بصلبانهم وشموعهم ، وصاحبوا موكبه الى كنيسة القيامة بكل اكبار وفرحة ، يرددون تراتيل الحمد للرب بأصوات شجية رنانة .

وتخلف عن الحضور والمشاركة البطريرك ديمبرت ، لانه كان

موضع ريبة من قبل رجـال بلدوين ، الأمـر الذي قـاد الى سـوء العلاقات بينهما ، وقـد شـعر غالبية رجـال الاكليروس بمشـاعر البغض لديمبرت ، لذلك اقام في جبل صهيون ، محروما من ممارسة وظائفه وظل هناك حتى كفر عن خطايا الجسد الذي امتلكه .

وبعدما استرحنا عدة أيام وتخلصنا من متاعبنا ونلنا نصيبنا من الاستجمام مدة ستة أيام في القدس وهـذا مـاكنا بـأمس الحـاجة اليه ، وبعدما صرف الملك بعض شؤونه أجرينا الاعدادات للتوجه في حملة جـديدة ، واسـمحوا لي الآن أن اذكر شـيئا عن طبـائع بني البشر ، فعندي إنه يتحتم على كل من لديه أعداء أن يضـيق الخناق عليهم من جميع الجوانب وأن يتشدد معهم بلا هوادة أو توقف حتى يقهرهم إما بـاضعافهم بـالقتال أو يجبـرهم بـالقوة على طلب السلام .

حملة بلدوين على منطقة عربة :

ولهذا بادر بلدوين بـالرحيل نحـو عسـقلان ، وكان على رأس رجاله عندما اجتاز اسـدود القـائمة على الطـريق بين يافـا وعسـقلان ، وهـي احـدى المدن الفلسـطينية الخمس ، وكانت الجامنية على يميننا على مقربة من يبنا الواقعة على البحر ، وعندما اقتربنا من عسقلان خرج بعض اهلها الى قتالنا فصـددناهم بـكل شدة وريددناهم الى خلف الأسوار ، وعندما وجدنا أن لافائدة لنا من متـابعة التقـدم هنا رجعنا الى معسـكرنا ، ونزلنا في خيمنا التـي نصبت فيه .

ثم استأنفنا زحفنا في اليوم التالي داخل تلك الديار حيث عثـرنا على الاطعمة الكافية لنا ولدوابنا وكانت مناطـق مـزدهرة ، ولقـد دمرنا بلاد الأعداء ، وتابعنا تقدمنا فوجدنا الكثير من القـرى وقـد

هجرها أهلها من المسلمين واصطحبوا معهم دوابهم و مقتنياتهم ، ولجأوا الى الكهوف خوفا منا ، وعندما تعذر علينا اخراجهم منها أشعلنا النيران امام مداخل الكهوف ، وسرعان ماخرجوا منها بسبب الدخان المنبعث من النيران الواحد إثر الآخر .

وكان بينهم لصوص اعتادوا على الكمين بين الرملة والقدس وقتل المسيحيين ، وعندما أخبرنا بعض المسيحيين السريان الذين وجدناهم معهم عن هؤلاء الأشقياء ، قطعنا رؤوسهم فور خروجهم من المغائر ، وحافظنا على حياة هؤلاء السريان وزوجاتهم ، وفي الواقع قتلنا مائة من المسلمين .

وبعدما اكلنا كل ماوجدناه هناك من قمح ومواشي والتهمناه ، ثم بعدما لم نجد مانتنفع به وأكلنا اكثر اجتمعنا مع بعض السكان المحليين الذين كانوا مسلمين من قبل ، غير انهم اعتنقوا الآن المسيحية ، واستوضحنا منهم مايعرفونه عن الأراضي الخصبة والصحراء في الأحواز القريبة والبعيدة ، ثم قررنا الذهاب الى بلاد وادي عربة ، فاجتزنا المنطقة الهضبية قرب مدافن الانبياء ابراهيم واسحق ويعقوب ، ثم سارة ورفقة ، حيث رقدت اجداثهم بكل جلال ، ثم وصلنا الى واد يبعد قرابة أربعة عشر ميلا من مدينة القدس ، فهاهنا دمرت بحكم الرب مدينتنا سدوم وعمورة الخبيثتان (تكوين : ١٩/ ٢٤ــ ٢٥) .

البحر الميت :

وهناك بحيرة كبرى ، تعرف باسم البحر الميت لأنها لاتحتوي على أي شيء حي ، وهي تمتد خمسمائة وثمانين استادا طولا ومائة وخمسين عرضا ، وهي شديدة الملوحة حتى انه لايستطيع حيوان

ولاطير من أي نوع أن يشرب منها ، وقد عرفت انا فولتشر هذا من التجربة ، وعندما ترجلت عن ظهر بغلي ، وتناولت غرفة من الماء بيدي لأجربه بالمذاق ، فوجدته اشد مرارة من الصبر الأسود ، وتتلقى هذه البحيرة الماء من نهر الأردن في الشمال ، وليس لها مخرج في الجنوب ، ولاينبع فيها اي نهر ، وهناك على مقربة منها جبل عظيم وشاهق من الملح ، يشبه صخرة طبيعية من الملح ، مع أنه يشبه الجليد في بعض اجزائه ، وفضلا عن ذلك ان الانسان لايستطيع الغوص في ماء هذه البحيرة حتى لو حاول ذلك ، واحسب أن شدة ملوحة هذه البحيرة مردها الى سببين : فهي أولا مستودع ملح الجبل تغسله أمواج الشاطىء بلا انقطاع ، وثانيها لأنها تتلقى مياه الأمطار النازلة من هذا الجبل ، أو لعل قعر البحيرة سحيق الى درجة ان البحر العظيم — وهو مالح — يجري تحت الأرض الى هذه البحيرة بشكل غير منظور .

وسرنا على طول الطرف الجنوبي حول البحيرة ، فوجدنا قرية (سيفور) طيبة الموقع ، غنية بثمار النخيل ، التي يدعونها الرطب ، وقد أكلنا منها طوال النهار ، واستمتعنا بطعمها اللذيذ ، ولم نجد هناك شيئا آخر ، وكان سكان المنطقة من المسلمين قد هربوا لدى سماعهم الأقاويل عن قرب وصولنا ، ولم يبق الا الذين فاقوا الهباب سوادا ، فتركناهم هناك ، وعاملناهم بازدراء كما لو كانوا من عشب البحر .

وقد رأيت بعض الأشجار التي تحمل ثمرا (تفاح البحر الميت) وجمعت بعضها بهدف معرفة ماهيتها ، وبعدما انتزعت قشرتها ، رأيت مسحوقا اسود بداخلها ، وقد تصاعد منها دخان .

ثم دخلنا الى جبال بلاد عربة ، وامضينا الليلة في كهوف

هناك ، وعندما تسلقنا الجبال في صباح اليوم التالي ، وجـدنا على الفور عدة قرى ، غير انها كانت خاوية على عروشها ، ليس فيهـا مايفيد أو ينفع لأن اهلهـا كانوا قـد هجـروها لدى سـماعهم بقدومنا ، واختبأوا مـع مقتنياتهـم في مغـائر في جـوف الأرض هناك ، ولهذا لم نحصل هنا على أي فوائد ترجى .

وتابعنا سفرنا بدون تأخر نحو مناطق أخرى وسـارت طـلائعنا أمامنا على الدوام ، ثم وقفنا على واد غني بثمـرات الأرض ، انه الوادي نفسه الذي ضرب فيه النبـي مـوسى ، بـايحاء مـن الرب ، الصخرة مـرتين ، ففـاض منهـا مـاء الحياة (العدد : ١١/٢٠) ويتدفق هذا النبع بغزارة لاتقـل الآن عن ذلك الزمان حتى أن أصحاب الارحية في تلك البلاد يسـتعينون بتيار ماء النبع للطحن ، ولقد سقيت دوابي من هذا النبع .

ثم وجدنا على راس الجبل مقام النبي هارون ، حيث كلم مـوسى وهارون الله (العـدد : ٢٠/ ٧ ـ ١٢،٨ / ٢٦/٢٣) وقـد اثلج صدورنا وافرحنا كثيرا مشاهدة مكان على هذه الدرجة من القداسة لم يكن معروف لدينا ، ولم نرغب في التقدم اكثر في مسيرتنا لأن تلك الأراضي كان صحراء جرداء .

وامضينا ثلاثة ايام في ذلك الوادي الغني بكل شيء ، امضيناها في متعة وراحة وغذينا دوابنا بالأطعمة ، وبعدما حملناها بما يلزمنا من مؤن ، صدحت أبواق الملك في الساعة الثانية من اليوم الرابع ايذانا ببداية رحلة العودة .

وسرنا في طريق العـودة مثلمـا اتينا على مقـربة مـن بحيرة اسفلت ، ومررنا بقبور الأنبياء الذين اتينا على ذكرهم ، ثم مـررنا ببيت لحم والمكان الذي ترقد فيه راحيل ، ووصلنا الى القدس بسلام في يوم الانقلاب الشتوي ، عندما كان قد تـم اعداد صـولجان يليق

بتتويج الملك ، وتم التصالح بين ديمبرت واللورد بلدوين وساد الوئام بينهما وبين عدة من رجال الاكليروس في كنيســة القيامــة ، ذلك ان رجالا من أصحاب الحكمة سعوا في ســبيل المصــالحة وبــذلك زالت اسباب الخصام وانتهى .

تتويج الملك بلدوين وصغر حجم مملكته :

في العام ١١٠١ لتجسيد الرب ، وفي يوم الاحتفال بميلاده جــرى تتويج بلدوين ورســمه ملكا ، وذلك مــن قبــل البــطريرك المذكور وبحضور الأســاقفة ورجــال الاكليروس،والناس في كنيســة مــريم المباركة في بيت لحم ، ولم يجر هذا لأخيه الذي تقدمه ، لأن غودفري لم يرغب بذلك ، وكثير من الناس لم يحبذوا ذلك ،لكن بعد التبصر في الأمر والامعان وتقليب الآراء تمت الموافقة على ضرورة ذلك .

لقد قالوا : ماهو وجه الاعتراض ، أولم يعامل مــولانا المســيح بالاساءة والمهانة مثل اي مجرم ثم تــوج بتــاج مــــن الشـــوك في القدس ، وأعطى روحه طوعا للموت في ســبيلنا ، غير ان تــاجه لم يكن في أعين اليهود رمــزا للعــــزة الملكية والشرف بــــل للخــــزي والعار ، بيد أن مافعله هؤلاء القتلة كإهانة له تحول ببركة الرب الى خلاص لنا ومجد . ثم ان الملك لايصبح ملكا بغير ارادة الرب ، واذا ماجرى اختياره بالطرق الصحيحة ، ووفق ارادة الرب فانه يقــدس ويرسم بالبركة والشرعية ، وكل من يحظى بالسلطة الملكية والتــاج الذهبي ، يأخذ على عاتقـــه انئذ الواجــب المقـــدس بـــاقامة العدل ، ويندرج عليه وعلى الأسقف في رعيته القول التالي : « على من يطلب الحكم أن يرغب في أداء العمل الصالح ، لأنه اذا لم يحــكم بالعدل لن يكون ملكا حقيقيا »

وملك بلدوين في بــداية عهــده بضــعة بلدان وقليل مـــن الناس

فقط ، وقد دافع خلال تلك الشتاء عن مملكته ضد الأعداء من كل صوب بكل بسالة ، وبعدما تيقنوا من مهارته الفائقة في القتال ، على الرغم من قلة تعداد رجاله ، لم يقدموا على مهاجمته ، ولو تيسر له عدد اكبر من المقاتلين لواجه الأعداء بكل سرور .

وفي تلك الأثناء كانت الطريق البرية مغلقة في وجه حجاجنا ، ولم يكن قد تيسر فتحها بعد ، وقدم الحجاج في تلك الآونة من فرنسا وانكلترا وايطاليا والبندقية عبر البحر الى يافا ، التي لم نمتلك مرسى غيرها ، وجاء هؤلاء الحجاج بكل وجل ورهبة ، على ظهر سفن وصلت فرادى أو في مجموعات تألفت من ثلاث سفن أو أربعة ، كانت تشق طريقها وسط عدد كثيف من القراصنة المعادين في جميع الموانىء الاسلامية ، وكان الرب يرشدهم ويدلهم على الطريق .

وعندما رأيناهم قد وصلوا من بلداننا في الغرب ، استقبلناهم على الفور بكل ترحاب كما لو انهم من القديسين وسألهم كل واحد منا عن بلاده وآله وأحبائه ، ولكم سررنا لسماع الأخبار الطيبة وحزنا لسماع أخبار المصائب،ثم قدموا الى القدس ، وزاروا قدس الأقداس ، وكان هذا مرادهم .

وبعد ذلك بقي بعضهم في الأراضي المقدسة ، بينما عاد الآخرون الى ديارهم ، ولهذا بقيت الأراضي المقدسة خلوة من السكان ، ولم يوجد فيها مايكفي من الناس للدفاع عنها لو أن المسلمين اقدموا على مهاجمتنا .

ويتساءل المرء لماذا لم يقدموا ، لماذا خشيت جميع هذه الأمم وهذه الممالك من مهاجمة مملكة صغيرة وشعب قليل العدد ، ثم لماذا لم يحشدوا من مصر ومن فارس والجزيرة والعراق وسورية مائة

ضعف ، أي مائة الف مقاتل ليزحفوا علينا بشـجاعة مـادمنانحن اعداؤهم لماذا لم يدمرونا ويلتهمونا مثل جراد يفـوق الحصر هجـم على حقل صغير ، وبذلك يمحون ذكرنا من على وجـه هـذه الأرض التي كانت ملكنا منذ الأزل ؟ ذلك اننا لم نمتلك في ذلك الوقت اكثر من ثلاثمائة فارس ومثلهم من الرجالة للدفاع عن القدس ويافـا والرملة ومدينة حيفا الحصينة ، ولم نكن انذاك نجرؤ على جمـع فـرساننا جميعا إذا مارغبنا بحملة ضد عدونا ، خشية مـن أن يهجـم في تلك الأثناء على بعض قلاعنا المهجورة .

إنها حقا لمعجزة عجائبية واضحة لكل من يبصر فلقد عشنا وسط الاف مؤلفة من الأعداء وقهرناهم وجعلنا بعضهم اتباعا لنا ودمـرنا غيرهم نهبا واسرا ، فمن اين جاءت هذه المزية ، ومن اين صـدرت هذه القوة ؟ حقا إنها من عند الرب الواسع المقـدرة ، الذي التفـت نحو قومه الذين جاهدوا مـن اجـل اسـمه ، واعان بـرحمته الذين اتكلوا عليه اثناء محنتهم ، وقد وعد الرب ان يجزي بالمجد السرمدي في الحياة الآتية من يسعدهم بالقليل من متاع الدنيا .

ما اجدر ذلك الوقت بالذكرى ، لقد استبدت بنا الأحزان مـرارا ، عندما لم نستطع الحصول على العون من أصدقائنا عبـر البحـار ، وكنا نخشى أن يعرف العدو بقلة عددنا فينقض علينا دفعة واحدة من جميع الجهات بهجوم مفاجيء ، ذلك أنه لم يكن هناك من يمـد لنا يد العون غير الرب ، ولم نكن بحاجة إلى شيء إذا مـاتوفر لنا الرجـال والخيل ، ولم يتمكن الرجـال الذين قـدموا إلى القـدس بحـرا أن يصطحبوا خيولهم ، ولم يأت احد عن طريق البر ، ولم يتمكن اهـل انطاكية من مد يد العون لنا ، كما لم نستطع انفسنا أن نفعـل الشيء نفسه إليهم

- ٢٨٠٠ -

استدعاء تانكرد إلى انطاكية

وفي شهر اذار سلم تانكرد إلى الملك بلدوين حيفا وطبرية التي كان قد تملكها ، وتوجه إلى انطاكية ، فقد كان أهل أنطاكية قد ارسلوا الرسل إليه يقولون : « لاتتأخر بل تعال إلينا حالا ، لتتولى الحكم علينا ، ولتتملك مدينة انطاكية والبلاد التابعة لها حتى يعود بوهيموند مولانا ومولاك من الأسر ، فأنت من اله ، وانت أيضا بصير بعواقب الأمور خبير بالحروب ، وانت أقوى منا واقدر على الدفاع عن هذه البلاد ، وإذا ماعاد الأمير بوهيموند فسنفعل ما يلزم » ، وعندما قدموا هذا المطلب إليه ، استجاب لهم .

حصار قلعة أرسوف والاستيلاء عليها :

أمضى أسطول من السفن الايطالية والجنوية فصل الشتاء ذاك في ميناء اللاذقية ، ومع اطلالة الربيع واعتدال الطقس وغدوه موائما للابحار اقلع رجال هذا الاسطول نحو يافا تدفعهم ريح طيبة ، وفي ميناء يافا استقبلهم الملك بكل حفاوة ،و لاقتراب عيد الفصح ولاعتياد كل من استطاع الاحتفال بهذه المناسبة ، ارسوا سفنهم وتوجهوا الى القدس بصحبة الملك .

وعندما لم تظهر النار المقدسة في كنيسة القيامة اثناء الاحتفال بسبت النور ، اصيب الجميع بحزن كبير ، ثم تقرر انه مادام اهل جنوى يقيمون في الأراضي المقدسة حبا بالرب ، إذا مااستولوا بمساعدة الملك وموافقته ـ على أي مدينة شرقية ، فلهم ثلث ما يتم الحصول عليه من الأعداء من المال خالصا لهم ، وللملك الثلثين الأخرين ، كما ويحق لأهل جنوى ان يتملكوا إلى الأبد ، وبشكل شرعي وموروث حيا في أي مدينة يتم الاستيلاء عليها بهذه الطريقة و بعدما اقسم الجميع على ذلك و اتفقوا عليه ، شرعوا على الفور في

- ٢٨٠١ -

محاصرة المدينة التي تدعى ارسوف ، بحرا وبرا ، وعندما أدرك السكان من المسلمين عجزهم عن الدفاع عن انفسهم ضد المسيحيين تفاوضوا بحنكة مع الملك واستسلموا له في اليوم الثالث ، ثم غادروا المدينة مصطحبين معهم كامل أموالهم ، وأعطى الملك الأذن بالسفر بأمان للذين غادروا إلى عسقلان مكسوري الخاطر .

ثم قدمنا الشكر للرب بحبور ، لاننا تمكنا من الاستيلاء على هذا الموقع الحصين بدون خسائر بالأرواح ، فقد كانت مصدر خطر عظيم علينا ، وكانت هذه الأماكن المنيعة التي شيدها النبي سليمان مصدر خوف شديد بالنسبة لنا ، حيث أن اللورد غودفري كان قد حاصرها قبل سنة ، ولم يستطع الاستيلاء عليها ، وقد قتل أهلوها عددا كبيرا من قومنا ، وسببوا لنا المزيد من التعاسة والآلام .

واشتبك الفرنجة أثناء الحصار مع المدافعين عن المدينة بالأيدي ، وتمكنوا من الاستيلاء على عدد من الشرافات في اعلى السور ، ومدوا جسرا خشبيا على برج من الخارج إليها ، لكن سوء الطالع شاء أن ينهار البرج والجسر ، ويتحطما بسبب الاعداد الكبيرة من الرجال الذين تسلقوهما ، ونتيجة لهذا أصيب نحو من مائة من الفرنجة بجراح شديدة واحتفظ المسلمون بعدد من الفرنجة أسرى لديهم هناك ، وصلبوهم على مشهد من الجميع ورموهم بالنشاب ، كذلك قتلوا آخرين منهم لكنهم احتفظوا ببعضهم أحياء في أسر تعيس .

وصف الاستيلاء على قيسارية :

بعدما وضع الملك حامية مناسبة في ارسوف حسبما اقتضت الحاجة ، زحف ضد قيسارية فلسطين والقى الحصار عليها ، غير انه عجز عن الاستيلاء عليها فورا لمناعة اسوارها ، فأمر بصنع

بعض المجانيق مع برج مرتفع جدا ، شيد من صواري السفن ومجاديفها ، ويخيل إلي أن البرج كان ارتفاعه يزيد على عشرين ذراعا فوق السور ، وذلك بعدما فرغ النجارون من بنائه ، وكان الهدف من ذلك تمكين جنودنا من قذف العدو بالحجارة والسهام ، طبعا بعد الصاقه بالأسوار ، وانذاك إذا ما استطاع رجالنا اقصاء المسلمين عن السور بهذه الوسيلة ، فلسوف يتمكنون من الدخول إلى المدينة والاستيلاء عليها .

وشدد الفرنجة الحصار على قيسارية وداوموا الهجوم عليها لمدة خمسة عشر يوما ، تمكنوا خلالها من تدمير بعض مواقع الدفاع العالية من السور ، وذلك بفضل مجانيقهم ، وهنا غلب عليهم الحماس الديني ، ولم يملكوا الصبر للانتظار أكثر مما انتظروا ، وفي يوم الجمعة استطاعوا اقتحام المدينة بدروعهم ورماحهم ، ولم يحتاجوا إلى استخدام البرج الخشبي الذي شيدوه .

وقاتل المسلمون دفاعا عن أنفسهم بكل ما أوتوا من شجاعة ومقدرة ، وشجعوا بعضهم بعضا على المقاتلة والصبر ، غير أن الفرنجة وربهم يسوع ، بادروا إلى نصب السلالم التي أعدوها لهذا الغرض وتسلقوا إلى أعالي السور ، ثم أعملوا سيوفهم قتلا في كل من صدفوه في طريقهم ، وعندما شهد المسلمون شجاعة رجالنا وإقدامهم ، وبعدما أيقنوا أن مدينتهم قد سقطت ، هربوا باتجاه الأماكن التي خيل إليهم أن حياتهم ستطول بها أكثر ولو قليلا ، ولكن عبثا فعلوا فقد أتلفناهم وسقيناهم كأس المنون الجديرة بهم .

ولم نستبق إلا على عدد ضئيل من الذكور ، لكننا احتفظنا بكثير من النساء ، حيث من الممكن الافادة منهن ، على الأقل في تحريك الطواحين ، وجرى بيع الأسرى من النساء بين الفرنجة الجميلات منهن والقبيحات ، وكذلك فعل بالذكور أيضا .

وحافظ الملك على حياة حـاكم المدينة وحياة اسـقفها الذي دعاه المسلمون باسم القاضي ، وقد قام بـذلك رغبـة منه بـالحصول على الفدية ، وليس بدافع الشفقة او المحبة ، وانا عاجز عن وصف كمية الذخائر من مختلف الأنواع والمقتنيات التـي وجـدناها في المدينة ، ولعله يكفي للبيان أن عددا كبيرا مـن رجـالنا صـاروا اغنياء بعـد الفقر .

وشهدت عددا كبيرا من جثث المسـلمين الذين قتلوا هناك ، وقـد جمعن في كومة كبيرة واضرمت فيها النيران ، وقـد ضـايقتنا كثيرا روائح الجثث المهترئة ، وتم حرق هذه الجثث التعيسة للحصول على الدنانير التي ابتلعها اصحابها او خبأها بعضهم في افواههم تحـت لثثهم حتى لايستولي الفرنجة على ماهو حق لهم ، وقد حدث مرة أنه عندما كان واحد من رجالنا يضرب بقبضـته أعناق بعض المسـلمين سقط من افـواههم مـابين العشرة دنانير إلى السـتة عشر دينارا ذهبيا ، واخفـي بعض النسـوة الدنانير الذهبية دون حياء داخـل احشائهن بطريقة بشعة يمنعني الحياء من ذكرها .

في عام الف ومائة وواحد
استولينا على قيسارية بتسلق السلالم
استولينا على برج ستراتون حسبما عرفت المدينة .

انتخاب اسقف لقيسارية :

بعدما فعلنا نحن واهل جنوى كل ماراق لنفـوسنا في قيسـارية ، واستولينا على كل ماوجدناه فيها ، رسمنا فيهـا اسـقفا اختـرناه معا ، ثم خلفنا حامية صـغيرة مـن عدة رجـال لحـراسة المدينة ، وبادرنا بالعودة إلى الرملة ، وعلى مقربة من اللد تـوقفنا لمدة أربـع وعشرين ساعة توقعنا خلالها أن يهاجمنا رجـال عسـقلان وبـاب اليون القاهرة الذين كانوا قد احتشدوا لهذه الغاية ، ولم نتجرأ

على قتالهم لقلة عددنا ، وخشينا إن نحن قـاتلناهم في عسـقلان أن يستدرجونا للدخول بين أسوارها وقلاعها ، حتى إذا مـا فعلنا ذلك أبادونا ، ونظرا لأننا كنا على بينة من مكرهم ، تفحصـنا أسـاليب قتالهم حتى وقفنا على خديعتهم ، لكن ما لبثت معنوياتهم أن هبطت خوفا ، ويئسوا من الهجوم علينا ، وفقـد أكثـرهم صـبره لطـول الانتظار ، ولنقص المؤن ، فكان أن فروا مـن المعسـكر ، ولما علمنا بذلك ، عدنا إلى يافا شاكرين للرب على نجاتنا من هجومهم .

قتال شـديد بين الأتـراك والمسـيحيين ـ انتصـار المسيحيين :

وبعد انتظار طال سبعين يوماً كنا خلالها نرقب حـركات العـدو ونستمع إلى أخباره ، بلغـت الأخبـار إلى الملك أن الأعداء بـدأوا بالتحرك نحونا بنوايا شريرة ، وأنهم أعدوا العدة للهجوم ، ومـا أن سمع الملك بهذا حتى جمع قواته فورا من القدس وطبرية وقيسـارية وحيفا ، ولحاجتنا الماسة إلى الفرسان أمر الملك كل من استطاع من حملة الترسة أن يكونوا فرسانا ، وهكذا بات عدد فـرساننا قـرابة المائتين وستين فارسا ، ورجالتنا نحو تسعمائة ، علما بأنه تـوجب علينا منازلة أحد عشر ألف فارس ، ونحوا من واحد وعشرين ألفـا من الرجالة ، ولقد كنا على بينة مـن هـذا كله ، ولكن لأننا أمنا أن الرب كان معنا ، لم نخف من الزحـف ضـدهم ، فنحـن لم نثـق بأسلحتنا ولابأعدادنا بل وضعنا ثقتنا كلها في مولانا وربنا ، وهـكذا كانت شجاعتنا هائلة ، غير أنها لم تكن أقدام طـائش بـل إيمـان ومحبة ، وقمنا بكل همة وشجاعة بالاستعداد لنموت في سـبيل الرب الذي رضي أن يموت من أجلنا .

شعر :

واندفعنا بكل شجاعة مستعدين للقتال او الموت

وحمل الملك خشبة صليب الصلبوت ، مما أوقع الطمأنينة في نفوسنا ، وتركنا يافا في أحد الأيام ، وفي اليوم التالي حاربنا الأعداء ، وعندما زحفنا نحوهم كانوا بدورهم قد اقتربوا منا دون أن ندرك ذلك ، ولدى مشاهدتنا لطلائعهم وقد اقتربت من مواقفنا ادركنا أن بقيتهم لاحقة بهم ، وهنا تقدم الملك وحوله بعض رجاله إلى الأمام ، فشاهد عن بعد معسكرهم العملاق يشع في السهل ، فلكز فرسه وعاد إلينا إلى الخلف ليخبرنا بصورة ماراه .

وعندما عرفنا أن القتال لابد واقع ، بدأنا نهلل فرحا فقد كنا نتلهف للمعركة ، وعزمنا أن نهجم على العدو إن هو لم يتقدم نحونا ، فقد كان من المناسب لنا القتال في المنبسط ، ثم إن أعداءنا إذا ماهزموا ــ بعون الرب ــ فسيطول فرارهم ، ولسوف تلحق بهم خسائر اشد فداحة مما لو قاتلناهم قرب اسوارهم ، وأمرنا الملك بإعداد اسلحتنا ، ثم اصطففنا بالشكل الموائم للمعركة ، وتوكلنا على الرب ثم سقنا خيولنا نريد العدو ، وكان الملك قد اختار واحدا من رعاة اديرة الرهبان لحمل خشبة صليب الصلبوت على مشهد من الجميع .

وهنا خاطب الملك جنوده بجلال وخشوع قائلا : هيا ياجنود المسيح ، افرحوا ولاتخشوا شيئا ، تصرفوا بكل رجولة ، وكونوا شجعانا بالمعركة ، إنني احثكم على أن تقاتلوا في سبيل خلاص نفوسكم ، وان تمجدوا حيثما كنتم اسم المسيح الذي دنسه دوما وحقره هؤلاء القوم الفاسدون ، فهم لايؤمنون بتجسيده ولابصعوده ، وإذا ماواجهتم حتفكم هنا فيقينا ستكونوا من المباركين ، فقد فتحت ابواب مملكة السموات لكم ، وإن أنتم بقيتم

احياء وانتصرتم فلسوف يتألق اسمكم بالمجد والرفعة بين المسيحيين جميعا ، وإذا ما رغبتم بالفرار فتذكروا أن فرنسا تبعد مسافة نائية جدا عن هذا المكان .

وبعدما أصغى الجميع إليه وافقوه على جميع ماقال .

شعر :

واندفعوا إلى القتال إذ لم يطيقوا الصبر والانتظار

وكان كل منهم يفتش عمن يضربه بالسيف أو يطرحه أرضا واغار علينا هؤلاء القوم أهل الخسة من اليمين ومن اليسار ، ومع أن رجالنا كان تعدادهم قليل ، فقد انقسموا في المعركة إلى ستة صفوف وانقضوا على فيالق الأعداء وحشوده المتدفقة كما ينقض الصيادون على تجمعات الطيور ، وهم يصرخون « عونك يا رب » ولم يعد بمقدور انسان تمييز أحد من رفاقه أو معرفته لكثرة تعداد العدو ، ولأن رجاله عاجوا فورا بيننا وماجوا من حولنا .

ولما رأى الملك أن الأعداء قد صدوا أول صفين من صفوفنا وقهروهما ، استدعى على عجل بعض النجدات من المؤخرة ، ثم إنه عندما رأى تدفق قوات العدو وكثرتها وتفوقها انطلق على ظهر حصانه بأقصى سرعة ممكنة ومعه سريته ، وتصدى لهجوم الكفار بكل شجاعة ، وزحف قدما يقاتل قوات العدو المتفوقة ويدفعها ، ورايته البيضاء ترفرف فوق عربته ، وقد أطلقها مرة فاخترقت عربيا كان مقابلا له ، وظلت الراية في بطن العربي ، بعدما طرح أرضا من على ظهر حصانه ، ولقد رأيت بلدوين بنفسي وهو يقتلع حربته ويحملها ليفتك بالآخرين .

وقاتل الطرفان في المواجهة بكل شجاعة ، فبعد مضي ساعة على بدء القتال كنت ترى كثيرا من الخيول وقد فقدت فرسانها من بين الطرفين المتواجهين ، ونظرنا إلى الأرض فإذا هي تدثرت بغطاء كثيف من الدروع والترسة والخناجر والجعب والقسي والنشاب وبالمسلمين والسودان وقد فارقوا الحياة ، أو أصيبوا بجراح مميتة ، وبالفرنجة لكن بأقل عددا .

وكان صليب المخلص المقدس معنا ، جبارا ضد أعداء المسيح ، لم تنجح ضده ببركة الرب كل عنجهية الكفار ، فقد صدع هذا الصليب قلوبهم ، لهذا لم يكتفوا بالتوقف عن الهجوم علينا ، بل بادروا بالهرب وقد لحق بهم الخزي والعار ، وفقط نجا منهم من امتطى فرسا سريعا.

ومن المضني تعداد الترسة والمقذوفات والقسي والسهام التي القى بها الهاربون أثناء فرارهم ، ويستحيل على المرء تعداد جثث القتلى المطروحة هناك حتى لو أراد ذلك ، ويحكى أن خمسة الاف من فرسانهم ورجالتهم لاقوا حتفهم هناك ، حتى ليقال إن قائد الجيش المصري الذي قاد القتال قد قتل مع الأخرين ، وفقدنا نحن ثمانين فارسا وأكثر من ذلك من الرجالة ، وقد تصرف الملك في ذلك اليوم بمنتهى البسالة ، وكان أعظم مصدر بعث الطمأنينة في نفوسنا ، واتضح مصير المعركة بسرعة ، ولاذ الأعداء فورا بالفرار ، وطاردناهم بدون توقف .

كيف هلك المسيحيون هناك:

ايتها الحرب ما ابغضك بالنسبة للأبرياء وكم انت مرعبة للمشاهدين ، الحرب قبيحة حتى وإن وصفها بعض الشعراء بالجمال ، لقد شهدت القتال ، وكدت أن أصاب بالدوار ، وخشيت

أن أصاب بضربة ، واندفع الجميع إلى القتال كما لو انهم لم يخافوا الموت ، وتقع الكوارث المنيعة حيث تنعدم المحبة ، وتعالى الضجيج يصم الآذان من تبادل الضربات والطعنات : سدد رجل ضرباته فخر عدوه ميتا ، ولم يعرف اي انسان شفقة ، ولم يطلب عدوه شيئا منها ، فقد امرؤ يدا ، وفقد عدوه عينا ، ويصاب الفكر البشري بالشلل لدى رؤية هذه التعاسة ، ومع هذا يبعث السرور في نفسي أن أذكر أن جيشنا قد انتصر في المقدمة ، لكنه عاني من الهزيمة في المؤخرة ، فهناك سقط المسيحيون صرعى ، غير انهم قهروا المسلمين في المقدمة ، وطاردناهم حتى ابواب عكا ، بينما ساق بعضهم إلى يافا حيث قتلوا بعض رجالنا ، وهكذا لم يعرف أحد مصير المعركة في ذلك اليوم .

وبعدما خلا ساح المعركة من المسلمين بالقتل والمطاردة أصدر الملك أوامره بأن نقضي ليلتنا في الخيام التي تخلى عنها الهاربون ، فأطعنا أوامره .

في اليوم السابع من أيلول
قاتلنا في هذه المعركة الجديرة بالذكر
حيث أعانت القدرة الربانية الفرنجة

تقلب المصائر في هذه المعركة :

اجتمعنا في اليوم التالي في فسطاط الملك ، وسمعنا قداس ميلاد السيدة مريم البتول ، الذي وافق ذلك اليوم المبارك ، ثم أثقلنا دوابنا بما غنمناه من أعدائنا ، مثل الخبز والقمح والطحين ، وذلك بالاضافة إلى خيامهم ، وبعد ذلك صدحت الأبواق الملكية معطية اشارة العودة إلى يافا .

وعندما عدنا ادراجنا ، اجتزنا بمدينة اسدود ، خامسة مدن

الفلسطينيين وهي الآن مهجورة وتدعى يبنا (كذا)و هناك شاهدنا قرابة خمسمائة عربي قادمين نحونا في طريق عودتهم من يافا ، وكان هؤلاء قد شقوا طريقهم نحوها في يوم المعركة ولقد استولوا على كل ما وجدوه خارج المدينة ، ذلك أنهم أمعنوا قتلا برجالتنا في ساقة جيشنا ، وأبادوا نهائيا واحداً من صفوف ميمنتنا ، و خيل إليهم أن مقدمتنا قد قضي عليها كالساقة ، وانتزعوا الدروع والرماح والخوذ اللامعة من القتلى وزينوا أنفسهم بها بكل غطرسة ، وساقوا بسرعة إلى يافا بغية عرض أسلحتنا على رجال المدينة قائلين : إن الملك ورجاله قد أبيدوا عن بكرة أبيهم في المعركة .

ولدى سماع الذين تخلفوا بيافا للحراسة هذه الأنباء ارتبكوا وعظم خوفهم ، وصدقوا كلام العرب الذي حمل دلالات الصدق ، وخيل للعرب أن أهل المدينة المرعوبين سوف يسلمون المدينة إليهم بالحال ، لكن خططهم أخفقت ، وعندما رأوا أنهم لم ينجزوا شيئا شرعوا بالانسحاب نحو عسقلان .

وعندما رآنا العرب متوجهين نحو يافا ، خيل إليهم أننا بعضا من جماعتهم الذين رغبوا بعدما أبادونا في القتال ، في تعقب بقية المسيحيين القاطنين في يافا ، وقد تحيرنا كيف أنهم أقبلوا نحونا على هذا الشكل ، دون أن يدركوا أننا فرنجة ، وظل الحال هكذا حتى فاجأهم فرساننا فانقضوا عليهم بهجوم صاعق ، وحبذا لو رأيت أعداءنا فجأة يفرون ويتبعثرون في كل اتجاه لايلوي الواحد منهم على الآخر ، ومن لم يملك منهم فرسا سريعا قطعت رأسه في الحال ، غير أن الفرنجة لم يطاردوا العرب لأنهم كانوا منهكين ، هدهم التعب وأصيب العديد منهم بجراح أثناء القتال ، وهكذا هرب هؤلاء ، في حين تابعنا سيرنا نحو يافا مسرورين .

- ٢٨١٠ -

رسالة أهل يافا إلى تانكرد أمير أنطاكية :

لك ان تتصور التهاليل وصلوات الشكر التي انبعثت مـن الذين كنا قد خلفنا في يافا ، ساعة رؤيتهم لنا ، من فـوق الأسـوار ، ونحـن عائدون وراياتنا خفـاقة ، يقينا إن الحـديث عن ذلك ليس بـالأمر الهين ، فقد كان اثنان من نقلة الأقاويل غير الصحيحة قـد وصـلا سريعا إلى يافا الواحد تلو الآخر ، وخدعا أهل المدينة باخبارهم أن الملك ورجاله قد ابيدوا عن بكرة ابيهم ، فصدق هؤلاء ذلك ، وبادروا ببعث رسالة موجزة إلى تانكرد الذي كان يحكم في أنطـاكية آنذاك ، وجاء ذلك بأمر من زوجة بلدوين ، وحمـل الرسـاة بحـار كان على وشك الاقلاع في سفينته .

ونصت الرسالة على التحيات والكلمات التالية :

« تانكرد أيها الرجل اللامع ، والجندي الباسل ، إليك هذه الرسالة الموجزة من أهل يافا ، اي من الملكة وسكان المدينة ، يرسلونها إليك على عجل بواسطتي انا ، كمندوب رسمي لهم ، أرجـو أن تقـراها بتمعن حتى يمكن أن تصدق ما فيها ومن ثم لتصدق أقوالي : يالهول الكارثة ، أصيب ملك القدس الذي اشـتبك بـالقتال ضـد المصريين واهل عسقلان بهزيمة ساحقة ، ولعله قتل مع رجاله برمتهم في لجـة المعركة ، وذلك أن الذين نجوا بشق الأنفس من شـؤم تلك النكبـة ، وفروا إلى يافا قد اخبرونا بذلك وبتفاصيل ما جرى .

وإنني أذ أرسل بمندوب إليك وأنت الرجل الحكيم طـالبة العـون ، أتوسل إليك أن تدع كل شيء جانبا ، وأن تبـادر بـدون تمهـل لمد يد المساعدة إلى شعب الرب المتذللين في محنتهم العظمى ، فهم الآن كما أرى قد شارفوا على نهاية حياتهم » .

كان هذا نص الرسالة ، وقد لاذ تانكرد بالصمت للوهلة الأولى لدى

سماعه بما جاء بها ، وما لبث أن امن بصدق ما نقلتـه إليه ، لهـذا اجهش بالبكاء بكل حرقة ، وشاركه بذلك كل من كان معـه لحـزنهم ولشعورهم بالكارثة ، وما لبث ان اعطـى تـانكرد جـوابه لحـامل الرسالة وشرع بالامر باعداد العدة في كل دياره لتقديم المساعدة ومد يد العون لأهل القدس .

وعندما بات تانكرد على أهبة الانطلاق نحو القـدس ، وصـل إليه رسول آخر ينقل إليه بشكل مفاجيء رسـالة يختلف محتـواها عن الرسالة المتقدمة ، وأوصل إليه الرسالة ، ففي حين تحدثت الرسالة الأولى عن الكارثة ، تحدثت الثانية عن حسن الحظ وعن السعادة ، وذكرت أن الملك قد عاد سالما معافى إلى يافا ، وان المسلمين لحقـت بهم هزيمة مروعة بكل تأكيد ، فسر الذين حـزنوا مـن قبـل سرورا عظيما .

إننا لم نهزم الاعداء بـكثرة عدد رجـالنا ، بـل بثقتنا بـالمقدرة الربانية ، فيا لروعة رحمة الرب ، وهكذا عدنا إلى القـدس بعـدما نجينا من عدونا ، عدنا و نحـن نطلق الشـكر والحمـد للرب ، ثـم استرحنا مدة ثمانية أشهر بدون حرب حتى حلول فصل الصيف .

حشد جيش مصر ضد الفرنجة :

في منتصف شهر ايار من السنة التالية ١١٠٢ م احتشد أهل بـاب اليون (القاهرة) حول عسقلان بهدف ابادتنا نحن المسـيحيين ، فقد انحشد هناك نحو عشرين الف فارس وعشرة آلاف راجـل غدا الجمالة الذين تسلحوا بالعصي والحراب ، يضاف إليهم جميعا كثيرا من الدواب والحمير المحملة بالمؤن ، ووصل المصريون في أحد الأيام إلى الرملة ، وأقاموا معسكرهم أمـامها ، وقـد وافقهـم خمسـون فارسا كان بلدوين قد تـركهم في بـرج محصـن في المدينة بهـدف

حراستها ، وكان يسكن في ربض البرج بعض الفـلاحين السريان ، وقد تحـرش المسـلمون بهؤلاء السريان المسـيحيين ، وتعمـدوا مضايقتهم بهدف القضاء عليهم ومن ثم تدمير البرج ، ذلك أنهـم لم يتمكنوا من التجول بحرية في السهول هناك بسبب الرجال المدافعين داخل البرج ، وحاولوا مرة أسر أسـقف المدينة الذي كان مقيمـا في كنيسة القديس جرجس مع اتباعه ، وقد طـوقوا الكنيسـة في أحـد الأيام بنية سيئة ، غير انهم رجعـوا إلى الرملة بعـدما تيقنوا مـن مناعة الموقع .

وعندما راى الأسقف الدخان واللهب يتصاعدان من حقـول القمـح خاف أن يعود المسلمون ويحـاصروه مـن جـديد ، ولكي يدرأ عنه المخاطر المستقبلية بعث على الفور رسالة إلى الملك في يافا يطلب منه امداده بالعون بدون تأخير ، ذلك أن المصريين كانوا قد عسكروا على مقربة من الرملة ، وبعثوا من هناك بسرية من الجند لتطويق الكنيسة ومهاجمتها .

وما أن سمع الملك بذلك حتي بادر إلى حمل سلاحه وامتطاء فرسه ، ولحق به فرسانه بعدما أعطاهم أوامره وزعقـت الأبـواق ، وكان في يافا عدد كبير من الفرسان اختـاروا عبـور البحـر والعـودة إلى فرنسا ، وكانوا ينتظرون وقتها الريح المواتية للابحـار ، ذلك أنه لم يكن لديهم خيول ، فقد كانوا قد فقدوا خيولهم في السـنة المنصرمـة أثناء عبـورهم للأراضي البيزنطية وهـم في طـريقهم إلى القـدس ، يضاف إلى هذا انهم كانوا قد فقـدوا كل مـا كانوا يملكون ، هـذا ويخيل لي أن ذكر هذا الكلام هنا لا يخرج بنا عن اطار الموضوع.

الحج الحزين الثاني للفرنجة ووفاة هيوج العظيم:

كنا قد ذكرنا من قبل أنه عندما زحف جيش الفرنجة العـظيم نحـو

القدس كان بين الحشد وليم كونت بواتو وستيفن كونت بلوا ، وكان ستيفن قد هجر جيشنا في انطاكية ، لكنه أراد الآن ان يعـوض مـا فاته ، فرجع وجاء معه ومع وليم هيوج العظيم الذي كان قد عاد إلى غاليا بعد احتلال انطاكية ، كما كان معهم ريموند كونت بـروفانس الذي بقي في القسنطينية بعض الوقت بعد عودته من القـدس ، كمـا ورافقهم النبيل ستيفن كونت برغندي وأعداد لا تحصى من الفـرسان والرجالة ، وحين ساروا انقسموا إلى مجموعتين .

وقاوم سليمان التركي الفـرنجة في اسـية الصـغرى ، وكانوا قـد انتزعوا منه مدينة نيقية من قبل ، وزحف سليمان الآن ، وقد تـذكر هزيمته الماضيه ، على راس حشود عملاقة من الأتـراك ، وشـتتوا الفرنجة واربكوهم حتى كادوا ان يبيدوا الجيش الفرنجي برمته .

وكان الفرنجة بتوفيق من العناية الربانية يسيرون في فرق مـوزعة على عدة طرق ، لهذا لم يتمكن سـليمان مـن محـاربتهم جميعـا وإبادتهم عن بكرة أبيهم ، لكنهم وقد ادرك جهلهم بـاستخدام القسي بالحرب ثابر على مهاجمتهم ورميهـم بـالنشاب ، خـاصة بعـدما اضناهم التعب وهدهم الجوع والعطش ، ولذلك قتل منهم أكثر مـن مائة الف فارس وراجل .

زد على هذا لقد ذبح النساء وحمل بعضهن معـه ، وهلكت اعداد كبيرة من الفرنجة الذين هاموا فارين مـن الجبـال مـن الجـوع والعطش ، واستولى الاتراك على خيولهم وبغالهم ودوابهـم وعلى مختلف انواع الامتعة التي كانت بحوزتهم .

وفقد كونت بواتو امواله وحاشيته وكل ماكان بحوزته ، وبعد جهد طويل وصل الى انطاكية راجلا حـزينا منقبض النفس ، واسـتقبله تانكرد استقبالا حسنا وعطف عليه واشفق في محنتـه فـزوده مـن

ممتلكاته الخاصة ، وهكذا تأديبا ادبني الرب ، والى الموت لم يسلمني » (المزامير : ١١٨ / ١٧).

وبدا لنا ان مانزل به وبغيره كان بالفعل نتيجة لخطاياهم وغطرستهم ، هذا ولم يتقاعس الذين نجوا عن الذهاب الى القدس ، باستثناء هيوج العظيم الذي وافته المنية بطرسوس في كليكية وفيها دفن ، وكانوا عندما وصلوا الى انطاكية تابع بعضهم رحلته الى القدس برا وبعضهم الاخر بحرا ، وكان الذين حصلوا على خيول قد اثروا السفر برا .

الاستيلاء على مدينة طرطوس :

وعندما وصل الفرنجة الى طرطوس ، التي كانت بحوزة المسلمين ، لم يترددوا في الهجوم عليها برا وبحرا ، ويكفيني اخباركم انهم استولوا عليها وقتلوا المسلمين وصادروا اموالهم ، ثم تابعوا زحفهم بدون توقف ، وخابت امال الجميع وساء ظنهم بسبب بقاء الكونت ريموند في طرطوس فقد رغبوا في ان يرافقهم الى القدس ، ولهذا صب الجميع اللعنات عليه لانه رفض الزحف معهم وأثر البقاء في طرطوس محتفظا بها لنفسه .

وتابع هؤلاء زحفهم فمروا بعكار ثم بمدينتي طرابلس وجبيل حتى وصلوا الى الممر الضيق كثيرا قرب مدينة بيروت ، وكان الملك في انتظارهم هناك منذ ثمانية عشر يوما ، امضاها في حراسة هذا الممر حتى لايحتله المسلمون ويحولوا دون عبور الحجاج ، وكان قبل ذلك قد استقبل وفدا من جيش الحجاج طلب منه المساعدة لدى اقترابه من ذلك الممر ، وعندما وجد الحجاج الملك في استقبالهم هناك قدموا له الشكر بكل حرارة ، وبعدما تبادلوا التحيات والعناق شدوا الرحال الى يافا حيث نزل الذين سافروا بحرا إلى اليابسة .

- ٢٨١٥ -

معركة مشؤومة بين الفرنجة والمسلمين ، قتل فيها الفرنجة وانتصر المسلمون :

ومع اقتراب عيد الفصح توجه الحجاج نحو القُدس حيث كانوا حيث يتوقون لزيارتها ، وبعد اداء الطقوس المعتادة عادوا الى يافا ، ومن هنالك ركب كونت بواتو السفينة وابحر مع قلة من أتباعه ، وقد دفعه الى ذلك ضيق حاله وشدة حاجته ، ورغب ايضا ستيفن كونت بلوا وعدد كبير غيره في ركوب البحر عائدين ، غير انهم واجهوا ريحا غير مواتية ، فلم يجدوا بدا من العودة راجعين على اعقابهم ، ولهذا السبب كان ستيفن في يافا كما سلف وذكرنا ، وذلك عندما امتطى الملك جواده وقصد العدو الذي عسكر امام الرملة .

وكان هناك ايضا غودفري كونت فاندوم ، وستيفن كونت بيرغندي وهيودي لوسنان اخو الكونت ريموند ، وقد استعاروا جميعا خيولا من اصدقائهم ومعارفهم وامتطوها ولحقوا بالملك .

وارتكب الملك عملا متهورا حقا ، وذلك انه اغفل الحذر فاندفع دون ان ينتظر رجاله وزحف الى القتال بشكل اعتباطي ، مع انه توجب عليه ان يكون أعقل من ذلك ، لقد سارع الى ملاقاة العدو دون ان يصطحب رجالته ، لابل انه ماكاد ينتظر وصول فرسانه حتى القى بنفسه بطيش بين جموع العرب المحتشدين ، وكان يخيل اليه ان عدد الاعداء لايتجاوز الالف والسبعمائة ، لكن ساء تخمينه ومع هذا سارع الى ملاقاتهم حتى لايتمكنوا من الفرار .

غير انه عندما شاهد قوات العدو ، صاح مندهشا ، وشعر بالخوف ، لكنه مالبث ان استرد توازنه فالتفت نحو رجاله وخاطبهم بجلال : ياجنود المسيح ، ايها الرفاق ، لاتتوانوا عن القتال هنا ، بل حاربوا بشجاعة مسلحين بقوة الرب من اجل انفسكم ، فان عشنا

او متنا فللرب نحن ، (روميه : ١٤/ ٨) ولئن حدثت احدكم نفسه بالفرار فليس امامه امل بالنجاة ، وعليه ان قاتلتم انتصرتم وان فررتم هلكتم .

وانقض الفرنجة على العرب بكل شجاعة وقاموا بهجوم عنيف ، ذلك ان المكان كان المكان المناسب والمناسبة هي المناسبة لاظهار الشجاعة ، ولم يتجاوز عدد فرساننا المائتين ، وقد احاط بهم عشرون الفا ، وازداد ضغط المسلمين على رجالنا حتى ان معظمهم قد هلك في اقل من ساعة ، ولاذ البقية بالفرار بعدما عجزوا عن تحمل متابعة القتال الشديد .

ومع ان شرا مستطيرا نال رجالنا - لكن لم يحدث ذلك الا بعدما ثأروا لانفسهم تماما من اعدائهم ، فقد قتلوا عددا كبيرا منهم وشردوهم من معسكرهم ، ثم حاقت الهزيمة برجالنا ، فتلك ارادة الرب - على ايدي الذين كانوا قد هزموا ، وبتوفيق من الرب تمكن الملك مع حفنة من ابرز رجاله من النجاة ، فقد لاذوا بالفرار ، واسرعوا الى داخل الرملة حيث اعتصموا فيها ذلك انهم لم يتمكنوا من المضي ابعد من ذلك .

فرار الملك بلدوين :

ولم يرغب الملك ان يقع في اسر احد او يبقى هناك ، لذلك اثر ان يلاقي حتفه في مكان اخر على ان يؤخذ بكل مذلة في ذلك المكان ، وبعد مشاورات حاول الفرار مخاطرا بحياته ، واصطحب معه خمسة مرافقين فقط ، لكنهم لم يمكثوا معه طويلا ، فقد اوقفهم العدو ، اما هو فقد بادر بالفرار نحو الجبال على متن فرس خفيفة الحركة رشيقة ، وهكذا انتشله الرب من ايدي اعدائه الذين فاقوه قوة ،

وكان العدو قد قطع طريق ارسوف عليه ، فلم يتمكن من الذهاب اليها مباشرة مع انه رغب بذلك .

ولم يستطع الذين خلفوا بالرملة مغادرة ابوابها ، فقد حاصرهم الكفار من جميع الجوانب ، ثم اسروهم ، فقتلوا بعضهم وابقوا بعضهم الآخر احياء .

وعندما سمع اسقف كنيسة القديس جرجس بحلول هذه الكارثة انسحب خفية الى يافا . واحسرتاه كم خسرنا من نبلاء وفرسان شجعان في تلك الكارثة ! خسرناهم في الاشتباكات الاولية ، ثم اثر ذلك في البرج السالف الذكر ، فقد قتل ستيفن كونت بلوا ، الرجل النبيل الشجاع وكذلك ستيفن كونت برغندي .

وتمكن ثلاثة من الفرسان من النجاة بانفسهم من هناك ، وامتطوا خيولهم جادين الى القدس في الليلة التالية ، وكانوا قد اصيبوا بجراحات وضربات عديدة ، ولما وصلوا الى القدس اخبروا اهليها بالكارثة التي وقعت ، وانهم لم يعرفوا مصير الملك فيما اذا كان قد مات ام مازال على قيد الحياة ، وقد سببت هذه الاخبار الاسى والحزن الشديد للجميع .

كيف وصل الملك الى ارسوف هاربا :

اختبأ الملك في الليلة التالية في وسط الجبال وذلك خوفا من العرب وظهر في اليوم الثالث مع فارس واحد ومرافقه ، وهو يتجول دون ان يعرفه احد ، كما لو كان اي انسان عادي كان يعاني من الجوع والعطش في مجاهل الصحراء ، حتى دخل اخيرا الى مدينة ارسوف

وجاءت نجاة بلدوين بسبب الظرف التالي : كان هناك خمسمائة

من جنود الاعداء يتجولون حول اسوار المدينة بمهمة استطلاعية ، وصدف ان انسحبوا قبيل وصوله بقليل ، ولو رآه احدهم لما كان بمستطاعه النجاة منهم .

واستقبل الرجال ملكهم بفرح عظيم عند دخوله الى ارسوف ، وهناك اكل وشرب،ونام بكل امان فقد تطلب ذلك الجانب البشري من طبيعته .

كيف بادر هيو صاحب طبرية وبطريرك القدس الى نجدة الملك،ثم كيف دار القتال بتدبير الصليب المقدس وعونه وسلطانه :

تبصر : حضر في ذلك اليوم هيو صاحب طبريه الذي كان من اعظم نبلاء الملك الى ارسوف ، فقد كان قد سمع بالشدة التي حاقت بالملك ورغب في ان يجلب بعض العون والمواساة للذين بقوا على قيد الحياة ، وسر الملك برؤياه سرورا عظيما ، وذلك ان هيو كان قد جلب معه ثمانين من الفرسان كان الملك في امس الحاجة اليهم ، واستجابة لرسالة استغاثة وصلته من القدس اندفع الملك نحو يافا للتفريج عن اهلها .

ولم يقدم الملك على نقل رجاله برا خوفا من كمائن العدو وتمويهاته ، ولهذا ركب مركبا سريعا وابحر الى يافا ، ولدى وصوله الى المرسى تلقي بترحاب بالغ ، لانه كما ورد في الانجيل «.لان ابني هذا كان ميتا فعاش وكان ضالا فوجد » (لوقا : ١٥ / ٢٤) فقد رأى اهل يافا من انتحبوا لموته من قبل الان سالما وهو قيد الحياة .

وسارع هيو ـ وقد تملكه الخوف ـ في اليوم التالي الى التوجه

الى يافا ، فغادر ارسوف ، وقد تلقاه الملك على الطريق لانه خشي من تعرضه الى هجوم من قبل الاعداء ، وبعدما وصل الملك الى يافا لم يطل المشاورات والمداولات فقد قضت الضرورات باستدعاء الذين في القدس والخليل للحضور الى يافا ، لانه عزم على محاربة العرب الذين عسكروا على مقربة منها وفي خطتهم الاستيلاء عليها .

وفيما هو يبحث عن رسول يبعثه بهذه المهمة ، رأى رجلا سريانيا بسيطا رث الثياب ، فحرضه وشجعه على القيام بهذه المهمة ، ذلك انه لم يجد من هو قادر على القيام بهذه المهمة او يتجرأ على الاقدام والسفر في تلك الطرق بسبب الكمائن التي نصبها الاعداء ، ولم يتردد ذلك الرجل ، وقبل بأداء المهمة والقيام بالرحلة بعدما استمد الشجاعة من الرب ، وقد سلك مسالك غير مألوفة وشاقة وسار في جوف الليل حتى لايكشف العدو امره حتى وصل الى القدس في اليوم الثالث ، وقد هده التعب وانهكت قواه ، وعندما اعلم هذا الرسول الناس هناك بالانباء السارة حول سلامة الملك وانه مازال على قيد الحياة ، قدم الجميع الشكر للرب ، وشرعوا بالاستعداد ، وبعدما اطلعوا على محتويات الرسالة التي حملها السرياني بادروا على الفور الى تجهيز العدد الاكبر من الفرسان ممن وجد بالقدس ، واذكر انه توفر وقتها في القدس تسعون من الفرسان الذين استطاعوا الحصول على الخيول ، ثم ساروا عل الفور ، وتجنبوا اثناء زحفهم كمائن العدو ، وركبوا الطرق الفرعية حتى اشرفوا على ارسوف من طريق جانبيه .

و فيما هم يسيرون على عجل على محاذاة الشاطىء انقض عليهم الاعداء على امل عزلهم وتطويقهم والقضاء عليهم ، وهناك اثر بعض الفرسان الغوص بين الامواج والسباحة والتخلي عن خيولهم حيث لم يكن امامهم خيار اخر ، ودافع فريق من الفرسان ممن ملك خيولا سريعة عن انفسهم حتى وصلوا الى يافا ولم ينج الجميع الا بعد مشاق شديدة وابتهج الملك كثيرا لحضورهم واسترد شجاعته ولم

يرغب في التاخر اكثر ، فنظم في اليوم التالي فرسانه ورجالته وانطلق الى حرب الاعداء ، ولم يكن موقع هؤلاء الاعداء في الحقيقة بعيدا عن يافا سوى ثلاثة اميال ، ، وكانوا قد شرعوا في اعداد الالات لضرب الحصار على يافا والاستيلاء عليها بدون تقاعس ، وعندما راوا رجالنا يتقدمون نحوهم للقتال تناولوا اسلحتهم على الفور ، وتصدوا لنا بكل شجاعة وطوقونا من جميع الجهات لكثرة اعدادهم بشكل واضح .

وعندما أحكم الطوق على رجالنا بهذه الصورة لم يبق لهم سوى العناية الربانية ولهذا لم يترددوا ووضعوا ثقتهم بمقدرة الرب العلية ، وتقدموا يضربون الاعداء بشدة مذهلة ، حيثما شاهدوا تكتلاته مهما كانت كثيفة او شديدة ، وكان رجالنا كلما اخترقوا بالقتال العنيف صفوف الاعداء اضطروا الى الرجوع والتحول الى موقع اخر ، ذلك ان الاعداء كانوا كلما راوا رجالتنا بدون حماية الفرسان ، كانوا يقتحمون ذلك الموقع ويقتلون الذين كانوا في الساقة ولم يكن رجالتنا جبناء ، فقد اطلقوا وابلا من الحراب على مهاجميهم حتى كنت ترى كثيرا من الحراب وقد التصقت بوجوه الاعداء اودروعهم ، وهكذا حدث بعون الرب ، بعدما صدت العدو حراب رجالتنا ، واصابته بجراح رماح فرساننا وبعد ماخسر المسلمون خيامهم انعطفوا على اعقابهم وولوا الادبار فرارا ، ولكن لم يلاحقهم احد منا لفترة طويلة ذلك ان عدد الملاحقين كان صغيرا .

لقد تخلى الاعداء عن خيامهم في السهل وعن جميع امتعتهم للفرنجة ، واخذوا معهم معظم خيولهم باستثناء ماعقرمنها وماهلك عطشا ونفق اثناء الفرار وحصلنا على عدد وافر من الجمال والحمير ونفقت اعداد كبيرة من الدواب اثناء الفرار اما من لعقرها او لشدة العطش .

لاريب انه كان من العدل والصواب خروج الذين حمتهم خشية

صليب الرب منتصرين على اعداء ذلك الصليب ، وفي الحقيقة لوكان الملك قد حمل الصليب المقدس معه في المعركة السالفة الذكر من غير الممكن الشك وقتها ان الرب كان قد عطف على قومه غير ان هناك بعض الناس الذين يثقون بافراط بقوتهم اكثر من اعتمادهم على الرب ، ويعتمدون اكثر من اللازم على مايرونه صوابا بعقولهم ولاينصتون الى مشورة العقلاء ، ولهذا يخيل اليهم ان بامكانهم اداء مهامهم على عجل وبدون روية ، وبناء عليه ان ضررا لايمكن رتقه قد يحصل لايصيبهم وحدهم بل يعم كثيرا بين الذين يشاركون في المهمة ذاتها ولذلك اعتاد مثل هؤلاء القوم القاء الملامة على الرب بدلا من ان يتبينوا حماقة انفسهم .

ان الذي يشرع في امر ما بحماقة لايفكر بالعواقب«الفرس معد ليوم الحرب اما النصر فمن عند الرب» (امثال : ٢١ / ٣١) واذا لم يصغ الرب دوما الى صلاة الصالحين ، اليس الاحرى الا يستمع لصلاة الاشرار ، بل كيف يمكن للمرء توجيه اللوم الى الرب اذا لم تتحقق امنيته على الفور ، ولم ينبغي الاصغاء لمن لاقيمة له ، اولا يعلم الرب ما ينبغي عمله في جميع الحالات ؟ ويقول بوتيوس بهذا الصدد : «مع انك ترى امسالك تقصر عن الانجازات غير ان هناك نظاما عادلا للامور ، والنظام الفاسد هو نتيجة تشوش في عقلك ، والرجل الاحمق يتوقع تحولا بالحظ بدلا ان يتوقع ما يستحقه » ، وغالبا مايرى المرء شرا في امر قد يعود عليه بالنفع فيما بعد ، ومن جانب اخر ان مايبدو انه سيسبب نجاحا للمرء قد يعود فيما بعد ويسبب له احباطا كبيرا . وبعدما انتهى القتال ، و انتصر الملك كما سلف بذا الذكر ، حمل خيامه وعاد الى يافا ، واثر ذلك ساد السلام في الارض طوال الخريف والشتاء التاليين .

الملك يحاصر مدينة عكا :

بعدما احتفلنا بعيد الفصح في القدس حسب العادة في ربيع ١١٠٣ ، زحف الملك على راس جيشه الصغير وحاصر مدينة عكا التي تعرف ايضا باسم بطلومياس ، غير انه لم يتمكن من الاستيلاء عليها في تلك المناسبة لمناعة اسوارها وحصانة مواقعها المتقدمة لاسيما وان المسلمين في داخلها قد دافعوا عن انفسهم بشجاعة فائقة فانسحب الملك عائدا بعدما دمر حصادهم وبساتينهم وحدائقهم ، وقد رجع الى يافا •

اطلاق سراح الأمير بوهيموند من الأسر :

راجت في تلك الاونة اقاويل رحب بها ، تحدثت عن اطلاق الاتراك لسراح الامير بوهيموند من الاسر ، وذلك ببركة الرب ، وقد بعث الينا برسول نقل عنه كيف فك رهنه من الاسر وكيف استقبل سكان انطاكية اميرهم السالف بكل غبطة ، فقد عاد الان واستلم سلطة تلك البلاد ، وبعد هذا تسلم مدينة اللاذقية التي كان تانكرد قد احتلها وانتزعها من رجال امبراطور القسطنطينية ، وعوض تانكرد عن ذلك بتعويض موائم وطيب خاطرة بلباقة •

الجراح التي كادت ان تودي بحياة الملك :

وفي تلك الاونة ، بينما كان الملك بلدوين يقاتل ضد المسلمين حسبما جرت عادته ، صدف ان شن في احد الايام هجوما على جماعة منهم ، وفيما هو مبتهج ومتوقع لدمار المسلمين المؤكد ، اذا بسوداني يتسلل ويتربص خلف صخرة يريد قتلة ، وقد دفع بشدة نحوه بحربة اصابتة بجراح بالغة في الظهر قرب قلبه ، غير ان الملك

للماثل للشفاء فيما بعد من جـرحه المميت لانه وفـر لنفســه العناية والعلاج ·

الاستيلاء على مدينة عكا :

بعد انقضاء موسم الشتاء وحلول فصل الربيع احتفلنا بعيد الفصـح في القدس عام ١١٠٤ ، واثر هذا حشـد الملك رجـاله ، وانطلق يريد عكا لمعاودة حصارها ، ووصل انذاك اهل جنوى الى هناك في سبعين سفينة متقاربة (شواني) وبعـد مضي عشرين يومـا على حصــار المسيحيين لهذه المدينة بالاتهم وبعد قيامهم بعدة هجمات عليهـا دب الرعب في قلوب المسلمين وسلموها الى الملك لكن على مضض ، وكنا بامس الحاجة الى هذه المدينة لان فيها مرسى واسع جـدا يمـكن ان ترسو بين ابراجه الامنة اعداد كبيرة من السفن .

طلعت الشمس تسع مرات في برج الجوزاء
عندما سقطت عكا التي تدعى بطلومياس
في سنة الف ومائة واربع
وهذه ليست مدينة اكرون التي يدعوها بعضهم عكا

وعندما استولى الفرنجة على هذه الكدينة على هذه الصـورة ، قتلوا كثيرا من المسلمين لكنهم ابقوا على حياة بعضـهم بعـدما انتـزعوا منهم جميع مايملكون .

- ٢٨٢٤ -

بوهيموند يعبر البحر الى ابوليا :

بعد انقضاء فصل الصيف عبر بوهيموند البحر مع عدة سفن الى ابوليا ، وذلك بعدما كثرت متاعبه واشتد به الضيق ، ورافقه في الرحلة ديمبرت بطريرك القدس السالف الذكر وكان رجلا حكيما سديد الرأي ، وقد رحل بوهيموند بهدف العودة فيما بعد على رأس قوة من الرجال من بلاد ماوراء البحار ، اما ديمبرت فقد سافر بغية اطلاع البابا في روما على شكواه وعلى مانزل به من مظالم ولحقه من اذى من قبل الملك ' لقد ذهب وحصل على ماأراده واخذ طريق العودة ، غير انه لم يصل لانه لاقى حتفه وهو على الطريق مسافرا .

اسر رجال أنطاكية ومصرع بعضهم في الحرب ضد الفرثيين

تشجع في تلك الاونة جيراننا من الفرثيين والميديين والكلدانيين وجميع اهالي بلاد الرافدين على مهاجمتنا نحن المسيحيين والحاق الاذى بنا بكل وسيلة ، وعندما عرفنا بهذه الاخبار اعد قادتنا جميعا العدة للتصدي للاعداء في ساحات الوغى .

اعد العدة كل من الامير بوهيموند وتانكرد ، وبلدوين كونت الرها وجوسلين ، وكذلك فعل ديمبرت بطريرك القدس ، واسقف الرها المدعو بندكت ، وسرعان ماباتوا جاهزين على رأس حشد من الفرسان والعامة ، وزحفوا الى ماوراء نهر الفرات ، الى مدينة تدعى حران قرب نهر الخابور ، والتقوا بسرايا اعدائهم هناك ، واشتبكوا بالقتال قرب الرقة بدون تأخر ، لكن بسبب عظك اثامنا ، مزقت صفوف المسيحيين وبددت قواهم ، وكانت هذه المعركة كارثة

هي اشد مما اصابنا في جميع المعارك السالفة ، فهـذا مـادلت عليه النتائج .

وقع اللورد بلدوين ، كونت الرها ، والذي سيغدو فيمـا بعـد ثـاني ملوك القدس ، هناك بالاسر ، واسر معه جوسلين قريبه ، كما اسر معهما الاسقف السالف الذكر ، وغرق عدد كبير من الرجال وفقـدوا في النهر المذكور ، وضاعت هناك ثروات كثيرة وخيول وبغال .

وتمكن اللورد تانكرد والامير بوهيموند من الفرار ، فقد عبرا طـرقا ومسالك غير مألوفة ، وتجنبا حتى بخيار افضل الطرق والممـرات ، وفازا اخيرا بالسلامة وهما تتملكهما الدهشة والحيرة .

ومات كثير من الرجال بفعل رشقات النشـاب وطعنات الخناجـر ، وهكذا نجد ان اللذين كان بمستطاعهم الاسـتيلاء على حـران دون صعوبة لو حاصروها في البدء ، لم يتمكنوا بعـد ذلك مـن الاسـتيلاء عليها سواء لدى توجههم اليها او اثناء عودتهم ، وكما ينجم الضرر عن استعمال الخديعة تحت ذريعة الامن في بعض الاحيان كذلك يعود الخوف مع الحيطة بالدفع على الخـدر والجبـان ، فقـد قيل قـديما التقاعس خطر على من استعد للعمل .

يقينا ان عدوين هما الحسد والخصام ، قد سـببا الحـاق المضـار بشعبنا اثناء هذه المهمة ، بل الكارثة ، فقد اعتاد هذان العدوان على انزال الرجال من على ظهر الثروات التـي جمعـوها الى حضـيض الاملاق ، ولقد شهدنا ذلك مرارا ، وخبرناه بالتجربة ، ولن انخـدع او يضللني معسول الكلام ، حتى استغرق بـالتفكير في سـفاسف الامور .

لقد عادى الفرنجة في هذه الحملة الخطيرة بعضهم بعضـا الى حـد انهم تمنوا قبـل ان تنزل بهـم النازلة ان يأخـذ كل طـريقة ويحلوا

الاحلاف التي عقدوها ، وحقا ان من يقترف الشر ويتوقع الخير لجاهل ، ذلك ان الرب لايتقبل شيئا قام على الخصام وبلامحبة ، وبناء عليه ان من العار والجبن ان اهجر صحبة من توجبت علي صحبته (الرب) وعبادته حتى اقضي اجلي .

وما لبث الرب ان مد يد العون الى اسقف الرها ، الذي كان مكبلا بالاغلال آنذاك فقد حمله الاتراك كثيرا من الاثقال من ادوات واوعية كما لو كان دابة من دواب حمل المتاع ، وتم اختطافه من بين ايدي الاتراك بعون الرب ومشيئته بعملية اتسمت بالجسارة البالغة وذلك بمساعدة فارس شجاع خاطر بحياته بكل اخلاص حيث لم يعد ذلك الفارس حياته اثمن من الاسقف .

لقد اضطرمت اثناء حملة الحج الحماسة في قلوب عدد كبير من الرجال ، وكانت حماستهم للرب ، فقد رغبوا بالتضحية بهذه الحياة ، وسعوا لان يموتوا ميتة الكرام حتى ينعموا بالسكينة مع المسيح ، واذكر على سبيل المثال قصة رجل رآه قومنا وسمعوه عندما كنا حول انطاكية ، وقد سمع واحدا من الكفار بجدف على اسم الرب بازدراء شديد ، فهاجت في نفسه الغيرة واشتعلت حماسته ليتصدى له بالقول والعمل فحرك فرسه على الفور ، وسأل الواقفين من حوله بتلهف : من اراد منكم ان يتناول عشاءه في الجنة فليأت الآن ويأكل معي ، فانا على وشك الذهاب الى هناك ، ثم لوح برمحه بكل قوة وعزم ، واندفع وسط لجة من آلاف الاعداء يقتل ويهزم كل من واجهه ، حتى هلك بالحال وقتل وهو يقتل غيره ، وواجه منيته بكل سرور يحدوه الايمان والامل وتدعمه المحبة ، فمن الذي سمع بمثل هذا ؟ لقد مجدته عليين وهو ما يزال ممددا على الارض .

انه من اجل مثل هذا تغتبط السموات ومن فيها ولقد كان ذلك بالفعل مصدر سرور وحمد بالنسبة لنا ، لان الملائكة قد ابتهجت باضافة

مثل هذا الرفيق اليها ، فقد كان الرب قريبا ، وسمع منه وأجـزل له الجزاء بالعطية التي اعدهـا له ، منزلا ابـديا (يوحنا : ١٤ / ٢) « في بيت ابي منـازل كثيرة ، وانني كنت قد قلت لكم : انا امضي لأعد لكم مكانا » .

اطلاق سراح الكونت بلدوين والقتال بينه وبين تانكرد :

بعدما مكث اللورد بلدوين مكبلا بالسلاسل لمدة خمس سنوات ، وبعد تبادل الرهائن المنتقاة تعهد بلدوين بـاقسام الايمـان المشـددة ان يستردهم ، وقد قتل الرهـائن بالخدعة حراسهم فيما بعد ، وتخلص بلدوين من سجنه ، وقد ساعده على ذلك جوسلين بكل اخلاص ، ولما عاد بلدوين بعد هذا الى مدينة الرها ، لم يتمكن من دخـولها ، لان تانكرد واعوانه منعوه من الدخول .

وبعد طول انتظار ، وتمـاشيا مـع مصـلحة كل مـن بلدوين وجوسلين ، واستنادا الى الاتفاقية التي كان بوهيموند قد عقدها في الماضي وتعهد بها بان تعاد بلاد بلدوين له من دون جدال فور اطـلاق سراحه من الاسر ، وكيفمـا كان الحـال ، لقـد تحـالف بلدوين وجوسلين وخاضا الحرب ضد شريكهما الثالث تانكرد .

ولم تفلح جهود تانكرد في تطبيب خواطرهما ومناشـدته السـلام وحشد جوسلين سـبعة آلاف تـركي وتحـدى تـانكرد الذي لم يكن مستعدا للحرب ، وقتل الاتراك خمسمائة من اتباع تانكرد ، ومع ان تانكرد اوشك في البداية على الهزيمة ، لكن الرب الذي يطل بـوجهه على العدالة دوما قضى ان يبقى على ارض المعركة منتصرا بشرف ، ولما رأى رؤساء البلاد مدى الاضرار التي لحقتهم عقـدوا المداولات فيما بينهم ، ثم توصلوا الى عقد اتفاقية بين الاطراف المتنازعة .

- ٢٨٢٨ -

بوهيموند يذهب الى غاليا

كنا قد ذكرنا من قبل ان بوهيموند قد وهنت عزائمه لعدة اسـباب ، ولذلك توجه الى بلاد غاليا ، وكان من جملة ما فعله هناك انه تـزوج من ابنة الملك فيليب الذي تعـرف بـاسم كونسـتانس واخـذها الى أبوليا ، وقد انجبت له صبيين ، مات اولهما ، وعاش الثـاني التـي حمل اسما مثل اسم ابيه وصار وريثه .

انتصار تانكرد في حربه ضد الاتراك :

في اليوم الثاني من شهر آذار لعام ١١٠٥ م توفي الفـارس المبـرز الكونت ريموند في موقعه المنيع امام مدينة طرابلس ، وقد خلفه ابـن اخيه وليم جوردان .

ولم يتخل المسلمون والاتراك في تلك الآونة عن عنتهـم المعهـود ، فقد حشد رضوان ملك حلب في شـهر نيسـان جيشـا لايسـتهان بتعداده ، جمعه مما حوله مـن البـلاد وشـمخ بـرأسه بإسراف في العنجهية ليخوض الحرب ضد تانكرد امير انطاكية .

والقى تانكرد ثقل آمـاله في الرب وليس في حشـود الرجـال ، وهيأ صفوفه ونظمها بشكل جيد للقتال ، وامتطى جواده وتقدم نحو العدو بلا تردد ، ومختصر القول : اندفع تانكرد نحو الاعداء امام ارتـاح بكل بسالة ، فدب الرعب في قلوب الاتـراك ، وكان ذلك بعـون مـن الرب ، ولا ذوا بالفرار ، لقد هربوا و طاردهم فمات منهم كل من لم يقدر على الفرار ؛ لقد مات منهم ما لا يمكن عده واسـتولى تـانكرد على كثير من خيولهم كما واستولى على راية الملك ، بعـد مـا فـر مهزوما وقد فقد عزته وكرامته ، وبذلك تمجد الرب ، الذي يهب الى عون المؤمنين دوما .

وبعد ما فرغنا من ذكر هذه الامور عن اهل انطـاكية نعـود الآن لنتفحص احوال اهل القدس .

ملك مصر يبعث بجيوشه ضـد الملك بلدوين الذي اعد نفسـه ضده :

علي ان اذكر انه في ذلك العـام بـالذات حشـد ملك مصر كثيرا مـن الرجال وبعث بهم تحت امرة صاحب عسقلان ليشـن الحـرب على المسيحيين ، لقد نوى ان يطردنا من الارض المقدسة جميعـا ، وخيل اليه انه يسـتطيع ذلك ، ذلك انه عرف اننا كنا قلة في العـدد بـدون مساعدة الحجاج المعهودة ، ولهـذا الغـرض احتشـد في عسـقلان فرسان العرب ورجالة السودان ، وكان معهم اكثر مـن الف تـركي قدموا من دمشق ، وكانوا من رماة النشاب من الطراز الاول .

وبعد ما عرف الملك بهذه الاخبار حشد رجـاله جميعـا ، ووقـف يترقب العدو قرب يافا ، وبحكم الضرورة توجه الى القتال كل الذين عاشوا بالمدن وكانوا قادرين على حمل السـلاح ، بـاستثناء الذين حـرسوا الاسـوار في الليل ، ثـم دب في قلوبنا الخـوف ، وتملكنا الرعب ، خشية ان يستولي الاعداء على احدى مدننا الخـالية مـن الرجال ، او ان يقتلوا الملك واصحابه في المعركة ، ووقع هذا في شهر آب ، وبمهارة ودهاء تجنب الجـانبان القتـال ، فلم يهـاجمونا ولم نهاجمهم .

وبعد طول انتظار ، حدث كما ارى بتقدير رباني ، ان تقـدم ذلك الجنس الشرير من عسقلان ، وشرع بـالاقتراب منا ، ولما اتضـح ذلك للملك ترك يافا ، واخذ الطريق الى الرملة ، وبما ان « التقـرب من الرب خير لنا ، فقد جعلنا مولانا الرب ملجـأ لنا » (المزامير : ٧٣ / ٢٨) فقد بعث الملك ، بالهام رباني ، مبعـوثا في البحـر الى

البطريرك ورجال الاكليروس وعامة الناس في القدس ، يرجوهم ان يقيموا الصلوات حسب طاقتهم ، وان يسألوا الرب القدير عله يتمنن فيقدم العون من عليائه للمسيحيين في شدتهم وعسرتهم .

وعلى الرغم من الالحاح الشديد ، رفض هذا الرسول قبول اي اجرة ، فقد خشي ان يخفق في اداء هذه المهمة او ان لايبقى على قيد الحياة حتى يقبض المكافأة ، لقد وضع ثقته في الرب الذي سيكافئة بشكل ما على عمله الصالح ، وهكذا بادر مسرعا بالسفر الى القدس ، ووضع روحه وجسده بين يدي خالقه ، وبهداية من الرب وصل الى هناك وحال دخوله الى المدينة اعلن عن فحوى مهمته .

وما ان اعلنت هذه الاخبار حتى امر البطريرك بقرع الناقوس الكبير ، وان يجتمع الناس جميعا امامه حيث خاطبهم بقوله : « أيها الاخوان أيها الاصدقاء ، ياعبيد الرب ، ان المعركة التي سمعتم عنها لابد بحق واقعة ، وكما اعلن المبعوث انها محيقة بنا بكل تأكيد ، وبما اننا لانستطيع مقاومة هذه الحشود الهائلة بدون العناية الربانية ، عليكم ان تطلبوا الغفران من الرب ، وتتوسلوا اليه كي يتمنن برحمته فيعين بلدوين ملكنا وجميع رجاله في قتالهم المرتقب ، ولقد اخبرنا المبعوث ان الملك قد اخر القتال الى الغد ، الذي سيصادف يوم الرب ، اليوم الذي قام فيه المسيح من الموت ، عله – اي الملك – يقاتل مؤملا اكثر بالتوفيق ، وهو يتوسل اليكم ان ترفعوا صلواتكم الى الرب وتقدموا صدقاتكم على امل ان يستمد القوة ليحارب بعزيمة اكبر ، وبناء علية امضوا امسية العيد هذه وفقا لتعاليم الرسل ، كونوا راسخين متمسكين بايمانكم ، واجعلوا كل اعمالكم في سبيل البر والاحسان وفي الغد سيروا حفاة في الاماكن المقدسة من هذه المدينة مذلين نفوسكم وكابحين لاهوائكم ، واطلبوا من الرب بكل خشوع ان ينجينا من براثن اعدائه .

اما انا فسوف اتوجه الآن نحو الملك ، انني سوف اتحرك نحوه

في الحال ، واتمنى على كل من بقي منكم هنا وهو قادر على حمل السلاح ان يتحرك معي على الفور ، فالملك بحاجة الى الرجال ودون ان اطيل عليكم الكلام اقول : لقد امتطوا جيادهم ، وكان قد بلغ تعدادهم مائة وخمسين رجلا من بين فارس وراجل ، ومع حلول الظلام شرعوا في مسيرهم فكان أن وصلوا الى الرملة عند بزوغ الفجر .

وانقطع الذين بقيوا في القدس الى الصلوات بكل حماسة وبكوا وتصدقوا وداوموا على زيارة الكنائس حتى الظهيرة ، وكانوا يرتلون ويبكون ، ويبكون ويرتلون مثلما فعل الرهبان في الموكب ، فلقد صليت أنا شخصيا حافي القدمين مع البقية ، وصام الرجال المتقدمون بالسن حتى الساعة التاسعة من النهار ، ولم يرضع الأطفال من أثداء أمهاتهم حتى ارتفع عويلهم من شدة الجوع ، وقدمت بالفعل صدقات جزيلة الى الفقراء ، فمثل هذه الأعمال تفرح الرب وترغبه في أن ينقذنا « لعله يرجع ويندم فيبقى وراءه بركة تقدمه » (يوئيل : ٢/١٤) .

القتال بين الأتراك وأهل القدس ـــ النصر نحرزه بفضل صليب الصلبوت :

ماأن وصل البطريرك الى الرملة ، وبزغ نور الفجر ليزيل بريق النجوم ، ابتهج الجميع لوصوله وحرضهم ذلك على الاسراع نحو قساوستهم للاعتراف بخطاياهم تجاه الرب والناس ، كذلك بادر الرؤساء بالتوجه نحو البطريرك لسماع كلمات نافعة منه وليتحللوا من خطاياهم .

وبعد ما تم هذا كله ارتدى البطريرك الثوب الاكليروسي الفخم ، وحمل بين يديه صليب الصلبوت المجيد الذي يحمل عادة في

مثل هذه المناسبات ، ولدى الفـراغ مـن تنظيم صـفوف كتـائب الفرسان والرجالة تقدم الجميع نحو الجيش المعادي .

وكان تعداد فرسانتنا خمسمائة باستثناء الذين لايعدون فـرسانا وأن امتطوا الخيول ، ولم يتعد عدد رجـالتنا الالفين ، وفضـلا عن هذا قدر عدد الكفار بخمسة عشر ألفا من بين فارس وراجل ، وقـد عسكروا تلك الليلة في مكان لايبعد أكثر من أربعة أميال عن الرملة .

وفي الصباح عندما رأوا الملك متقدما نحوهم استعدوا للقتال على عجل ، وبذلك أحبطت خططهم ، فقد كانوا قد خططوا لارسال جـزء صغير من جيشهم ضد الرملة لخداع جيشنا ، لأنهم قرروا ارسـال الجزء الأكبر ضد يافا لمهاجمتها واحتلالها دون علم منا ، غير أنهم عندما رأوا الملك راكبا نحوهم بهذه الطريقة جمعوا قواهم على الفور انما بعدما أحبطت خططهم .

وبدون تقاعس أو تردد انقض كل فريق على الآخر ، ثـم ارتفـع دوي القتال وصليل السيوف ، وفي أثناء القتال صرخ كل واحد مـن رجالنا في وجه الأعداء « المسيح يقهر ، المسـيح يملك ، المسـيح يحكم » وذلك تنفيذا للأوامر التي صدرت اليهم ، وأحاط بنا الأعداء على أمل أن يشيعوا الفوضى بين صفوفنا ويحـطموننا كلية ، وأطلق رماة السهام من الأتراك وابلا من السهام علينا ، وفعلوا ذلك وهـم كعادتهم يدورون حولنا ، وبعـد أن أتمـوا مهمتهـم كرمـاة سهام ، امتشقوا سيوفهم من أغمادها وانقضـوا علينا واشـتبكوا معنا في قتال التحـامي قـريب ، وعندمـا رأى الملك ذلك ، ازدادت شجاعته فاختطف رايته البيضاء من يد أحد فـرسانه واندفـع هناك على رأس قلة من رجاله وأسعف الذين تعرضوا للهجـوم ، فشـتت بعون الرب بهجومه وقتاله الأتراك على الفـور ، ثـم عاد ليهـاجم الحشد الأعظم من المسلمين والعرب والسودان .

وليس بـــودي اطـــالة الكلام عن هجـــوم الطـــرفين وانقضـــاضاتهم ، فـــأنا ارغب في اختصـــار الرواية الى الحـــد الكافي ، ذلك أن الرب الكلي القدرة ، الذي لاينسى ابـدا عبيده ، لم يشأ أن يدمر هؤلاء الكفار مسيحييه ، الذين قدموا الى القدس مـن البلاد النائية محبة به ، وتمجيدا لاسمه ، فقد أزمـع هؤلاء الكفـار بشكل مفاجيء على الفرار عائدين الى عسقلان ، آه لو وقع اميرهم وقائد جيشهم سناء الملك بالأسر ، كم من الأموال كانت دفعت للملك بلدوين لفكاكة ؟! غير أن جمال الملك ، صاحب عسقلان ، والوافر الثروة ، لم ينج ، فقد قتل وأحدث موته كثيرا من الحزن بين صفوف أولئك القوم ، وقد أسر امير آخر ، اصله من عكا ، أسر وهـو على قيد الحياة ، وقد أطلق الملك سراحه بعدما دفع فدية مقدارها عشرين الف قطعة نقدا فضلا عن الخيول وأشياء أخرى .

ثم ابيد السودان في سـاحة الوغى ذلك أنهـم لم يتمـكنوا مـــن الفرار ، وقيل أن أربعة الاف من فرسان العدو ومشـــاته قـد قتلوا مقابل ستين من رجالنا وخلف الأعداء لنا وراءهم خيامهم مـع كثير من الدواب والجمال والحمير .

ثم حمـدنا الرب ومجـدناه ، لانه أمـدنا بـالقوة وجلب لأعدائنا الدمار ، آه ماأروع هذا المقضي بالحكم الرباني ، فقد نظـر الرب في أمر الذين قالوا :« سوف نجيء ونقتل كل هؤلاء المسـيحين ونمتلك لانفسنا مساكن الرب »(مزامير : ١٢/٨) لكن الأمور أيها الكفار لم تحصـل هـكذا (مـــزامير : ٤/١) « لأن الرب جعلكم مثـــل الجل ، مثل القش أمام الريح »(مزامير : ١٣/٨) « لكي يرجفهم بغيظه »(مزامير : ٥/٢) فقد حلفوا حسب نامـوسهم أن لايفـروا مطلقا أمام الفـرنجة ، غير أنهـم وجـدوا أخيرا السـلامة في الفرار ، لذلك آثروا أن يحنثوا بأيمانهم على أن يمـوتوا ميتـه غير مجدية .

وفي الختام عاد الملك مبتهجا الى يافا ، حيث وزع على فـرسانه

ورجالته الغنائم التي كسبوها ، وفعل ذلك بموجب حسابات دقيقة .

اسطول أهل مصر :

كان للمصريين أسطول أمام يافا واقفا حتى ذلك الوقت ، فقد كان المصريون ينتظرون هناك منذ أمد على أمل أن يجدوا الفرصة والوسيلة لابادتنا كليا بالبر وفي البحر ، وليدمروا معنا مدننا البحرية ، غير أنه بعدما أمر الملك بلدوين بحارته بالقاء رأس الأمير جمال الملك ، التي قطعت في المعركة ، على سطح احدى سفن العدو ، أصاب هذا العدو هلع شديد وارتجف لدى اكتشافه ، لهذا لم يشأ اطالة البقاء هناك ، وهكذا تراجع الأعداء بعدما علموا بالمصيبة التى حلت بقومهم ، وتم التراجع الى مينائي صيدا وصور ، حيث حملت سفنهم الى هناك ريح جنوبية طيبة .

ولدى عودة هذا الأسطول الى مصر فيما – بعد – حلت علينا بركات الرب ، اذ ان العواصف شتتت سفن الأعداء ، ورمت بها مقلوبة الى مراسينا ، وقد استولينا على خمس وعشرين سفينة مشحونة بالمسلمين ، وأبحرت السفن الأخرى ، لكنها لم تنج الا بشق الأنفس ، ولقد كان الرب معينا لنا ورؤوفا بنا في محنتنا ، وكشف لنا عن قدراته الكلية .

شعر :

وبناء عليه بودي أن أعلن عن تاريخ المعركة .
فقد أشرقت الشمس مرات عشر في برج العذراء

وعندما أطل القمر على الأرض
في سادس يوم من مطلع ايلول

- ٢٨٣٥ -

منح الكلي القدرة النصر للفرنجة ، ليبتهجوا
عندما ركن العرب ثم الأتراك والسودان الى الفرار .
فر بعضهم الى الجبال ، بينما سقط الباقون صرعى في ساحة المعمعة .

الزلزال :

قد يطوي النسيان هذه الأعمال ان لم تسجل وتدون ، وذلك أما بسبب الاهمال أو لنقص في مهارة المصنفين ، أو ربما لقلة عدد المصنفين وانشغالهم بمشاكلهم الأخرى ، ولهذا آثرت أنا فولتشر - مع افتقاري الى المهارة وعجزي وعدم مقدرتي - أن اشتهر بالحماقة والطيش على أن أسمح في أن لاتعرف هذه الانجازات ، فكان أن دونتها كما شهدتها بنفسي ، أو علمتها - بعد التقصي الشديد - من المصادر المعتمدة .

وفضلا عن هذا ، إنني استميح عذرا من قارىء هذه السطور في أن يغضي بلطف عن نقصي في المهارة ويصحح إن شاء اسلوبي ، اذا لم يقم بهذا التصحيح كاتب بليغ ، لكن عليه الا يعبث في ترتيب تاريخي هذا ، من أجل اسلوب طنان مزركش ، وأن لايموه بالخداع حقيقة الأحداث .

وشعر بعد هذه الوقائع التي تقدم ذكرها ، كل من كان منا بالقدس في أواخر العام بزلزال هائل أصابنا برعب شديد ، وكان ذلك ليلة عيد ميلاد الرب .

العلامات التي ظهرت في السماء :

في عام ١١٠٦ ، ظهرت في السماء مذنب ، فأصابنا

الخوف لاننا ارتبنا في شأنه ، وقد سار باتجاه غروب الشمس في فصل الشتاء ، واطلق شعاعا ابيض براقا ، وكأنه مد من خيط من كتان منهل في الطول ، وبدات هذه العلامة المذهلة بالاحتمالات بالاحمرار في شهر شباط يوم اخلال القمر ، ولقد سلمنا للرب ماتنطوي عليه من اسرار ، حيث لاندعي القدرة على التنبؤ ، ولمدة خمسين يوما او اكثر ظهر ذلك المذنب كل مساء في جميع ارجاء الدنيا ، ومن المثير للعجب ان هذا المذنب نفسه بدأ مع ضوئه الأبيض يخبوان منذ يوم ظهوره وذلك كل يوم شيئا فشيئا الى ان انعدم نوره في ايامه الأخيرة واختفى بالكلية هو ذاته.

وفي العشرين من الشهر نفسه سرعان ماشهدنا بعد ظهور القمر من الساعة الثالثة وحتى الظهيرة شمسين في السماء واحدة الى يمين الشمس الحقيقة والأخرى الى يسارها ، بيد أنهما لم تشعا بنور مثل نور الشمس الحقيقة ، بل توهجتا بنور خافت وبشكل باهت ، وزد على هذا تجلت حول هاتين الشمسين هالة بيضاء امتدت مثل المدينة(القدس السماوية) وتألقت داخل هذه الهالة نصف دائرة شبيهة بقوس قزح ، وكان لها اربعة الوان مختلفة ، وقد عانقت الشمس من الطرف العلوي من منحاها الى حد انها لامست الشمسين الأخريين اللتين اتينا على ذكرهما من قبل ، ثم شوهد في الشهر التالي ، في منتصف الليل ، وبل من الشهب من السماء.

- ٢٨٣٧ -

هجوم المسيحيين على أهل دمشق :

شن هيو صاحب طبرية في الصيف التالي هجوما على جند دمشق ، وبعدما هزموه مرتين على أرض المعركة ، قدر له الرب أن ينتصر في الهجوم الثالث ، فقتل منهم مائتين واحتفظ بخيولهم ، وهرب بقية الأعداء ، وكم هو ممتع أن يحكي المرء هذه القصة ، فقد مزق مائة وعشرون رجلا منا صفوف أربعمائة منهم ، واثر ذلك أصيب هيو بسهم أودى بحياته ، وكان في حملة مع الملك بلدوين في المنطقة ذاتها .

عبور البطريرك البحر الى روما والحرب مابين رجال يافا ورجال عسقلان :

عبر في عام ١١٠٧ م البطريرك المدعو أبرمار البحر الى روما ليستفسر من الكرسي الرسولي عما اذا كان سيحتفظ بمركزه كبطريرك أم لا ، اذ أن ديمبرت كما سلف بنا الذكر ، كان قد استرد منصب البطريركية ، لكنه توفي وهو مسافر على طريق العودة .

وفي شهر تشرين الثاني من السنة ذاتها ثارت وحشية رجال عسقلان المعهودة ، فنصبوا الكمائن على سفوح الجبال بين الرملة والقدس ، وكانوا يهدفون الى الانقضاض على مجموعة من قومنا وأسرهم بعدما علموا بأنهم على وشك التوجه من يافا الى القدس .

وعندما عرف رجال يافا بذلك ، امتطوا ظهور خيولهم بدون تأخير ، وانطلقوا الى مواقع الكمين ، حيث قادهم اليه الذي ابلغهم الخبر ، وكان رجالنا يشكون في صدق الأخبار ، لكنهم عندما شاهدوا الحقيقة لم يصدقوه فقط ، بل دب في قلوبهم الرعب ، واشتد خوفهم لدى رؤيتهم للعدو ، فقد كان عدد رجال

عسقلان نحوا من خمسمائة فارس وألف راجل ، بينما لم يتجاوز عدد رجالنا الخمسة والستين .

ولم يتهيأ لهؤلاء الرجال الوقت الكافي لتدبر أمورهم ، ووجدوا أن لانجاة لهم في الفرار ، والموت لابد مدركهم ان هم حاربوا ، ومع هذا آثروا أن يموتوا بشرف اذا اقتضى الحال على ان يلحقهم عار الهزيمة فيما بعد ، وهكذا انقضوا بشكل مباغث على الأعداء ، واخترقوا صفوفهم بشكل مذهل ، وطرحوهم أرضا وذبحوهم ، ولما أدرك المسلمون فداحة الخسائر التي لحقت بهم ، تخلت عنهم شجاعتهم ، وتوقفوا – بمشيئة من الرب – عن القتال .

وعندما تبين لجنودنا هذا الحال ، شددوا ضغطهم على المسلمين ، فأرغموهم على الهرب ، بعدما كان قد خيل اليهم أنهم سيجبرون رجالنا على الفرار ، وقتل رجالنا عددا كبيرا من المسلمين ، واستولوا على كثير من خيولهم ، ولم نخسر غير ثلاثة من رجالنا ، لكن حواشي معسكر العدو سرقوا بعض الدواب المحملة ، غير أن رجالنا انتزعوا ضريبة مضاعفة منهم .

بوهيموند يجمع جيشا ويعيث في أراضي الامبراطور :

بعدما رجع بوهيموند في ذلك العام نفسه ، من بلاد الغال ، حشد أكبر عدد ممكن من الرجال ، وجهز اسطولا في ميناء برنديزي في ابوليا ، وقد اعتلى الرجال متن السفن بعد انتظارهم للريح المواتية للجواز ، وكان ذلك في اليوم السابع قبل منتصف شهر تشرين الأول ، وابحروا الى بلغاريا ، ونزلوا على اليابسة في ميناء أفلونا .

وإثر الاستيلاء على ميناء أفلونا بكل سرعة ، قصدوا مدينة

دورازو وحاصروها في اليوم الثالث قبل منتصف تشرين الأول نفسه
و لما كانت هـــذه المدينة مـــزودة جيدا بـــالمؤن ومشـــحونة بالرجال ، فقد صمدت أمام المحاصرين مدة طـويلة ، مـع أنه كان بصحبة الأمير بوهيموند خمسة آلاف فـارس وسـتون الف راجـل
علما بأنه لم يسمح وقتها للنساء بـالجواز معـه حتـى لايربـكن تحركات الجيش ويشكلن عبئا عليه .

وكان امبراطور القسطنطينية المدعو الكسوس ، قد بـات في تلك الأونة يعد عدوا لقـومنا أعاق حجـاجنا وأرعبهـم بـالخديعة حينا وبالعنف السافر أحيانا ، وذلك أثناء ركوبهم الطريق الى القدس برا أو بحرا ، وكان هذا هو المحرض لبوهيموند لغزو بـلاده ومحـاولته الاستيلاء على مدنه وقلاعه .

معـاهدة سـلام بين الامبـراطور وبـوهيموند ـ حلف الأيمان لحفظها :

في سنة ١١٠٨ لتجسيد مولانا المسيح ، وبعد حصار استمر طيلة عام كامل أخفق بـوهيموند في انجـاز أي شيء ملمـوس ، مـع أنه استخدم حيلا حربية كثيرة ضد الامبراطور ، مثلما عمل الامبراطور ضده ، وتوسط الأصدقاء بينهما وأمكن أخيرا الوصول الى معاهدة سلام عقدت بينهما ، وكان ذلك بعدما اقترب الامبـراطور على رأس جيشه من بوهيموند وبعدما التقيا للحوار عدة مرات .

وتعهد الامبراطور ـ بعـدما اقسـم على الآثـار المقـدسة الغالية ـ أن يؤمن منذ ذلك اليوم فصاعدا سلامة الحجـاج ، الذين تردد ذكرهم كثيرا أثناء المباحثات ، وأن يمنع عنهـم الأذى في البـر والبحر في جميع البلدان التي وقعت تحت سلطانه ، وأن لايحتجز أي واحد منهم أو تساء معاملته وأقسم بوهيموند بدوره على أن حافظ

على السلام مع الامبـراطور وأن يمنحه الولاء في جميع الأمور .
ثم رجع بوهيموند بعد هذا الى أبوليا ، وذلك عندمـا سـنحت له الفرصة بذلك وصحب معه عددا ضـئيلا مـن جنده ، في حين سـار القسم الاعظم من الجيش الى القدس ، لكن عبر البحر وذلك تنفيذا لما سلف وتعهدوا به .

وفي هذه السنة توفي فيليب ملك فرنسا .

حصار مدينة طرابلس :

بعد الاستيلاء على مـدينة القـدس بـأحد عشر عامـا أي في العام ١١٠٩ قدم برترام بن الكونت ريموند الى طرابلس ، وكان قد احضر معه أهل جنوى واسطولهم المكون من حوالي السبعين سفينة من ذوات المناقير ، وهبطوا الى اليابسة هناك ، واستهدف برترام حصار هذه المدينة و الاستيلاء عليهـا وتملكهـا بحـق الوراثـة عن أبيه .

وقد نشب نزاع بين برترام ووليم جوردان فور القاء الحصار على المدينة ، ذلك أن وليم كان يهاجم المدينة طيلة المدة التي انقضـت منذ وفاة ريموند ، الذي كان يسكن في قلعة قرب طرابلس عرفت بـاسم تلة الحجاج ، وحاجج برترام بأن المدينة له بحـق الوراثـة الشرعي عن والده الذي كان البادئ أصلا بمهاجمة طـرابلس ، وقـد شـيد القلعة الحصينة هذه المعـروفة بتلة الحجـاج لغـرض حصـار المدينة ، وقال أوصى لي والدي أثناء حياتـه بمـدينة طـرابلس كي اتملكها بعد وفاته .

ورد عليه جوردان قـائلا : الحـق أن تـكون المدينة لي ، لأنني قمعت سكان البلاد المعادين ، وتصديت لهم منذ وفاة الكونت ريموند

بقواتي الخاصة ، وبذلت جهودي وناضلت في سبيل ضم الأراضي المجاورة للمدينة .

ولما كانت العظمة تضمحل وقت النزاع ، وتنمو التفاهة أثناء انعدام الوئام ، فان وليم تخلى عن متابعة الحصار غضبا وكراهية ، وقام برترام مع رجاله بتشديد الحصار ، فهو لم يرغب في أن يصيب وليم النجاح ، وبالمقابل رغب وليم في أن لايبقى برترام بين الأحياء .

لقد تصارعا من أجل مسائل مشكوك بها ، وارتابا في أمور لاشك فيها ، لقد ناضلا في سبيل متاع الدنيا لافي سبيل القيم الخالدة ، ومن يركض تسرعا قد لايجني شيئا ، لذلك تظل المغانم مشكوك فيها فالأمر « ليس لمن يشأ ولا لمن يسعى بل للرب الذي يرحم » (رسالة بولص الى أهل رومية : ١٦/٩) فقد بدء بالتناحر على ما أملا بالاستيلاء عليه ، وتتصرف الأوقات بأذن من الرب « والرب يعرف أن أفكار الانسان باطلة » (مزامير : ١١/٩)

احتلال مدينة طرابلس :

وبعد ذلك بأمد وجيز وصل الملك بلدوين أثناء الحصار ، وقد سأل أهل جنوى تقديم العون له في الاستيلاء على عسقلان وبيروت ، وكذلك على صيدا خلال ذلك العام .

وحدث انه ما ان شرع بلدوين في اصلاح ذات البين بين الكونتين السالفي الذكر ، حتى جاء سهم غرب الى وليم جوردان وقتله في حادث لا افهم كنهه ، وحدث ذلك لدى تعرضه لكمين وهو راكب في بعض الليالي ، وتساءل الجميع عمن قام بهذا العمل ، ولكن أحدا

لم يتمكن من اكتشاف الفاعل ، ونتيجة لذلك شعر بعضهم بـالحزن عليه لكن بعضا آخر ابتهج ولم تـظهر عليه آثـار الفجيعـة ، وندب بعضهم وفاة صديق ، وفرح آخرون لموت عدو ، وفي جميع الأحـوال بقي برترام تابعا وفيا للملك بلدوين .

ثم شدد الحصار على طرابلس من جميع الجوانب ، وقد بذل من كان خارجها الجهد العظيم لاحتلالها ، واشتد الضيق على مـن كان في داخلها ، ولما ضاق بالحصار سكان المدينة من المسلمين ، وفقدوا الأمل بالنجاة تم التوصل الى اتفاق أقسم عليه بالأيمان ، وصـدق عليه الملك ، وقضى الاتفاق باعطاء الأمـان للمسـلمين وعدم قتلهـم والسماح لهم بالذهاب حيث أرادوا وبلا ممـانعة ، وبمـوجب هـذا الاتفاق سمح للملك ورجاله بـاحتلال جـزء مـن المدينة والدخـول اليه ، وفي أثناء حـدوث ذلك ، تفجـرت فتنة واندلع الشـغب بين صفوف العامة مـن أهـل جنوى ، وذلك لأمـر غير معـروف السبب ، فتسلق الجنويون الأسوار بالحبال والسلالم ، ودخلوا الى المدينة وقتلوا كل مسلم صدفوه ، بيد أن الحماية قـدمت للذين كانوا بجوار الملك ، وذلك بموجب الاتفاقية التي عقدها .

شعر :

سطعت الشمس في برج السرطان لثلاثين يوما ينقصها ثلاثة .
عندما استولى رجالنا الأشداء بقوة وبأس على مدينة طرابلس .

الاستيلاء على مدينة بيروت :

في الوقت الذي أقعد فيه شهر شباط لعام ١١١٠ البلاد وأقـامها بأمطار الشتاء ، ركب الملك بلدوين الطريق وزحف نحو مدينة بيروت وضرب حولها الحصار ، وقدم الى عونه برترام كونت طرابلس حيث

عسكر عند أول حدود المدينة ، وبعـــنما حـــاصروا المدينة مـــن جميع الجوانب لمدة أقدرها بخمسة وسبعين يوما ، وبعدما حاصرت سفننا في داخل المرسى المراكب التـي احتشــدت هناك لتقـــديم العـــون للأعداء ، قرب الفرنجة الأبراج الخشـبية ، التــي شـيدوها ، الى السور ، وقفزوا منها بشجاعة فائقة الى أعالي الســور وســيوفهم مشرعة ، ثم انحدروا الى داخل المدينة ، وفي تلك الأثناء دخـل عدد كبير من رجالنا من الأبواب ، وهكذا طاردوا العـدو المشـتت بـكل حماسة ، وأخيرا اعتقلوا الذين وجدوهم منعـزلين مقـطوعين هنا وهناك وانتزعوا منهم أموالهم .

شعر

في سنة الف ومائة وخمس وستين
قهرت شجاعتنا مدينة بيروت الجبارة .
وقد صعدت الشمس ضعف العشرة في برج الثور .
وثلاث وأربع مرات أكثر عندما وقعت هذه الحادثة .

شروع الملك بلدوين والأمير تانكرد بالزحف ضد الأتـراك الذين حاصروا الرها :

بعدما انجزت هذه الامور عاد الملك الى القدس ليقوم بحمـد الرب وشكره فهو الذي منحة النصر ، ثم بدأ يتجهز للزحف ضد الأتــراك الذين كانوا يحاصرون الرها ، وهي مدينة في بلاد الجزيرة .

وشاهدنا في تلك الأيام مذنبا امتد نحو الجنوب .

وحشد تانكرد أكبر عدد ممكن من الرجال في انطاكية ، ثم انتظر وصول الملك لعدة أيام وأخيرا اجتمعت قواتهما المتعاونة قـرب نهـر الفرات .

وفور جوازهم للفرات اصطدموا بالاتراك الذين كانوا يبحثون عنهم ، فقد سبق للأتراك ارسال العصابات تطوف في البلاد وتتحسس أخبار وصول الملك ، ولم يتجرا الاتراك على مباشرة القتال والاشتباك مع قواتنا لمعرفتهم ببراعة فرساننا في القتال ومقدرتهم على الفتك بالرماح ، فركنوا بكل شطارة الى التراجع ، فلاهم أقدموا على القتال ولم يبدوا الرغبة في العودة الى ديارهم.

لقد سعى الأتراك ، لعدم رغبتهم بالقتال ، الى أنهاك رجالنا ، وذلك طوال عدة أيام بواسطة خداعهم المضني ، وبعد تفحص الأوضاع والبحث عن أفضل ما يمكن القيام به أرسل الملك الامدادات اللازمة الى مدينة الرها ، وزودها بالمؤن التي احتاج سكانها اليها بعدما كان الاتراك قد دمروا الأحواز ، وسلبوا القرى والفلاحين الذين كانوا يزودون المدينة المذكورة بالاغذية.

ولم يطل الفرنجة المكوث بعد هذا ، بل عادوا نحو النهر السالف الذكر ، وبعدما شرعوا في عبوره تدريجيا على طوافات خشبية صغيرة وقليلة العدد انقض عليهم الأتراك المخادعون هناك ، وأسروا عددا كبيرا من الرجالة من قومنا وحملوهم الى بلاد الفرس ، وكذلك فعلوا بالأرمن الذين كانوا بلا حول ولا طول ، والذين كانوا قد نهبوهم بكل خسة من قبل ، ونظرا لصعوبة معاودة عبور النهر في ذلك الحين ، تابع الفرنجة سيرهم على طريقهم المرسومة تكلأ قلوبهم الفجيعة ، وقد مضى تانكرد الى انطاكية في حين ذهب الملك الى القدس.

الملك بلدوين مع النروجيين يحاصرون مدينة صيدا ويستولون عليها:

وصل في تلك الآونة الى المنطقة قرب يافا جماعة من النروجيين ، بعدما الهمهم الرب بالقيام بالحج من البحر الغربي الى القدس ، وكان اسطولهم يحتوي على خمس وسبعين سفينة ، ويقودهم شاب عظيم الوسامة يمت بصلة القرابة الى ملك تلك البلاد.

وعندما عاد الملك الى القدس امتلأ قلبه سرورا لمقدم هؤلاء القوم ، فتبادل بود معهم أطراف الحديث ، وحثهم ـ لا بل توسل اليهم ـ أن يبقوا محبة بالرب في الأراضي المقدسة لبعض الوقت حتى يقدموا العون في سبيل نشر اسم المسيحية وتعظيمها ، وإذا ما أحرزوا انجازا بارزا للمسيح ، كان بوسعهم العودة بعد ذلك الى بلادهم ، وقد قدموا عظيم الشكر للرب وأصغوا الى هذا المطلب بعين الرضى ، وأجابوا أنهم لم يحضروا الى القدس الا لمثل هذا الغرض ، وأعلنوا انهم سيبحرون بكل سرور الى أي مكان أراده الملك ورغب بالتوجه اليه مع رجاله شريطة أن يزودهم بما يلزم لعيشهم ، وتمت الموافقة على هذا الشرط وصدق الطرفان على الاتفاق.

كا ن هناك ميل للزحف ضد عسقلان أولا ، غير أنهم تم تبنوا أخيرا مشروعا أعظم مجدا ، في أن يزحفوا ضد صيدا ويحاصروها ، وقاد الملك جيشه من عكا ، وتحرك النروجيون من يافا على ظهر سفنهم.

وكان اسطول أمير مصر في تلك الآونة يكمن مختبئا في ميناء صور ، فمن صور شن المسلمون الغارات القرصانية مرارا على

حجاجنا المسيحيين ، وبذلك قدموا الحماية والتشجيع الى المدن البحرية التي كانت ما تزال تابعة لسلطان ملك مصر ، لكن بعدما سمع المسلمون بأخبار النروجيين لم يتجاسروا على الخروج من مرفأ صور والدخول في معركة معهم.

ولما وصل الفرنجة الى صيدا حاصرها الملك من البر وحاصرها اسطول النروج من البحر ، وبعدما اكتمل اعداد آلات الحصار ، دب الرعب في قلوب الأعداء من وراء الأسوار ، الى حد أن قوات المرتزقة التي كانت تتولى حمايتها توسلت الى الملك بلدوين أن يأذن لها بالذهاب بأمان ، وإذا رغب فله أن يستبقي في المدينة الفلاحين للافادة في زراعة الأرض.

كان هذا ما طلبوه ، وذلك ما نالوه ، فغادر الجند من المرتزقة بدون ثرواتهم ، ومكث الفلاحون بأمان في ظل الشروط المبينة أعلاه.

شعر:

اشرقت الشمس تسع عشرة مرة في برج القوس
عندما استولوا على مدينة صيدا في كانون الأول.

الأتراك يثيرون المتاعب ، وحملة الملك بلدوين وتانكرد ضدهم:

انطلقت في سنة ١١١١ حشود هائلة من الأتراك من بلاد فارس و اجتازوا بلاد الجزيرة وعبروا نهر الفرات ، ثم حاصروا قلعة تل باشر ، وأقاموا حولها مدة شهر ، وعندما عجزوا عن احتلالها لمتانة اسوارها ومناعة موقعها ، ضاقت صدورهم بسبب

التأخر ، ورفعوا الحصار وانسحبوا الى احواز حلب ، لأنهم خططوا بدهاء الى اثارة تانكرد واستدراجه ليخرج الى قتالهم ، لأنه لوفعل ذلك كان بامكانهم - لكثرة أعدادهم - أن يوقفوه بعيدا عن انطاكية ويدمروه كليا.

لكن تانكرد تصدى للدهاء بالدهاء حيث لم يدر بمخيلته تعريض سمعته للشبهات باقتراف افعال هوجاء ، فبعث برسول الى الملك بلدوين يتوسل اليه بكل تواضع أن يسارع لمد يد العون الى القضية المسيحية ، ولما سمع الملك بذلك وعد بتقديم العون المطلوب ، فاستخلف من ينوب عنه في ادارة البلاد ، وزحف نحو الحرب واصطحب برترام كونت طرابلس ، وعندما وصلوا الى البلدة التي تعرف باسم الروج قرب المعرة كان تانكرد هناك ، فقد وصل منذ خمسة أيام و أقام ينتظر وصول الملك ، و قد استقبله بكل سرور و غبطة ، فأنزلوا أثقالهم ، و أقاموا معسكرهم قرب نهر العاصي ، وشارك رجال القدس رجال انطاكية في معسكرهم ، ولم يمكثوا هناك طويلا ، بل زحفوا نحو مدينة أفامية ، وكانت تحت سلطان تانكرد الذي سبق له أن استولى عليها بطريقة مثيرة للاعجاب لما فيها من اقدام.

ثم زحف الفرنجة ثم الاتراك الذين كانوا قد عسكروا أمام المدينة التي يدعونها « سيارا » وفي الحقيقة لا أعرف كيف ألفظها بلغة سليمة ، ولكن سكان البلاد كانوا يسمونها « شيزر » وهي تبعد نحو من ستة أميال من افاميا ، وعندما سمع الاتراك أن الفرنجة كانوا يتقدمون نحوهم ، تخفوا خلف تحصينات شيزر وبين بعض الشجيرات التي كانت هناك ، وذلك بهدف احكام الدفاع عن أنفسهم إذا ما أحاط الفرنجة بهم أو انقضوا عليهم وعلى الرغم من ذلك فقد انبعث الاتراك من بين تحصيناتهم الموصوفة عندما رأوا جنودنا يقتربون منهم ، وأروا أنفسهم لرجالنا ، ومع هذا لم يتجرأوا على الحرب ولم يرغبوا أيضا بالفرار.

واصطف جنودنا في فصائل ، وعندمـــا رأوا الأعداء يتـراكضون هنا وهناك دون تعبئة للقتال ، أحجموا عن مهاجمتهم غير راضـــين بالمغامرة ، وهكذا تحت تأثير الخوف ولدهاء الطرفين بقي الأتـــراك حيث هم وعاد رجالنا من حيث أتوا.

وعندما شحت الأغذية وانعدمت العلوفات لم يعد بامكان الفرنجة البقاء مدة أطول فرجع الملك الى القدس ، ومضى تـــانكرد عائدا الى انطاكية.

الملك يحاصر صور دون أن ينجز شيئا :

وبادر الملك بعد ذلك بكل سرعة باعداد العدة والتجهز للزحف ضد صور ، التي تـــدعى بـــالعبرانية « ســـور » وضرب عليهـــــا الحصار ، وبعدما ضيق الخناق عليها بشدة لنيف وأربعة أشهر هده ورجاله التعب ونالهم الاعياء ، فانسحب بعد تردد ، فقـــد كان أمـــر ببناء برجين خشبيين يكونان أعلى الســـور ، ودفعهمـــا الى جـــوار الأسوار أملا بذلك في أن يستولي على المدينة ، ولكن المسلمين وقـــد أدركوا أن في ذلك حتفهم هزموا البراعة بالبراعة ، وعارضوا الدهاء بالدهاء وتصدوا للشجاعة بالشجاعة.

وكاذوا عندما رأوا أن ارتفاع البرجين اعلى مـــن فـــوق الاســـوار بكثير ، ابتكروا العلاج على عجل فشيدوا برجين فـــوق أســـوارهم أثناء الليل ، وقد مكن ارتفاع هذين البرجين الشاهقين المسلمين من الدفاع عن أنفسهم بنجاح حيث أشعلوا النيران من الأعلى وقذفوها على برجينا القصيرين ، وبهذه الوســـيلة هـــزم رجـــالنا وغمـــرهم اليأس ، وعندما انقطعت أخر حبال الأمل رجع الملك الى عكا.

يقول المثل المتداول بـــكل صـــدق « كم مـــن غصـــــة بين الكأس

والشفقة » فقبل تلك الأونة كان قومنا يتوازعون الغنائم التي توقعوا نيلها ، وقبل ذلك الوقت شك بعضهم بسواهم وارتابوا حول حصصهم ، وقبل ذلك الحين قدروا أن احتلال المدينة أمر واقع لا ريب فيه ، وقد قال سليمان: « الفرس معد ليوم الحرب أما النصر فمن عند الرب » (الأمثال: ٢١ / ٣١) ففي تلك الاثناء وضع الناس ثقتهم بقوتهم ولم يتذكروا ما مادانوا به للرب ، وكانوا كثيرا ما يناشدونه بألسنتهم ويبتعدون عن صالح الأعمال ، ويتفاخرون بفضائلهم في انتصاراتهم أكثر من تمجيدهم لمنح الرب ورحمته.

موت الأمير تانكرد:

سدد في عام ١١١٢ تانكرد الذي حكم امارة انطاكية ــ دينة للموت ، وقد رأت الشمس شارة البرج ثلاث عشره مرة مضاعفة عندما خدع تانكرد لمن لايرحم ، وتحقق ماكتب عليه وكان ، وخلفه قريبة روجر ، وقد سلمنا من الحلول كلية في تلك السنة .

العلامات التي ظهرت:

في عام ١١١٣ لتجسيد الرب ، وفي اليوم الثاني والعشرين لبزوغ قمر شهر اذار ، رأينا الشمس منذ الصباح الباكر حتى الساعة الاولى ، وفضلا عن هذه رأيناها تبهت ويخبو نورها في واحد من اجزائها ، ثم مالبث أن هبط ذلك الجزء الذي بدأ بالخبو من أوجهها الى قعرها على هيئة مدورة ، وفي اعتقادي لم تفقد الشمس سطوعها و لم يتضاءل نورها الا في واحد من أرباعها الذيُ ظهر على شكل هلال صغير.

- ٥٨٥٠هـ -

شعر:

كان ذلك كسوفا جعل الشمس تخذلنا

المعركة ضد الاتراك التي هزم فيها الملك مـــع المســيحيين ونجم عنها شر مستطير:

وما لبث الاتراك أن حشدوا قواتهم في ذلك الصيف وعبـــروا نهـــر الفرات على نية الزحف نحو القدس وبلادها ليدمرونا حســبما خيل اليهم ، وزحفـــوا جنوبـــا مخلفين منطقـــة انطـــاكية عن يمينهم ، واجتازوا سورية المجوفة بين صور وقيسارية فيليب التـــي تعرف باسم بانياس وقصدوا مناطق فينيقية ، واستهدفوا مهـاجمة الملك بلدوين ، الذي ما أن سمع بقـدومهم حتـى زحـف على رأس قواته من عكا للتصدي لهم.

وبعدما تزود الأعداء بما رأوه نافعا لهم ، وبينما كنا في جهل تام لما يقصدون داروا حول بحيرة طبرية عابرين لمنطقتـي « نافتـالي » (افيق) وزبيلم (الصنبرة) نحـو الجهـة الجنوبية مـن البحيرة المذكورة ، وهناك وجـدوا أنفسـهم بين جـدولين يدعيان جـــور ودان(؟)

وكان هناك جزيرة وقعت بين جسرين (جسر الصـنبرة) في ذلك المكان ، وقد كانت حصينة جدا ، بحيث لا يقدر أحد أن يهاجم مـن يتحصن فيها لضيق مـداخل الجسرين ، وعندمـا أقـام الاتـــراك معسكرهم ، بادروا فورا بارسال الفين من رجالهم عبروا واحدا من هذين الجسرين ليعدوا كمينا لرجالنا ، فقد كانوا على ثقـة مـن أن الفرنجة سيندفعون نحو ذلك الموقع بدون تردد.

وعندما جاء الملك ليعسكر قرب الجسر المذكور والمفضي الى طبرية ، رأى نحو خمسمائة من الاتراك يندفعون من مكمنهم ويحملون على رجالنا ، فما كان من بعض هؤلاء الا أن هاجموا الاتراك وحملوا عليهم ولم يترددوا وهم يقتلونهم في مطاردة أعدائهم الى موقع الكمين ، وهنا انبعث الفان من رجال العدو من مكامنهم ، وصدوا رجالنا بهجوم شديد جدا ، وشتتوهم بعدما صرعوا منهم نحو ثلاثة اضعاف ما خسروا هم أنفسهم.

يالهول الفاجعة ، لقد جلبت اثامنا خزيا عظيما علينا في ذلك اليوم ، فقد هرب الملك بعدما فقد رايته وخيمته الفاخرة وكثيرا من المفروشات والأوعية الفضية ، كما هرب البطريرك أيضا ، فقد كان هناك ، وفقدنا قرابة ثلاثين من خيرة فرساننا وحوالي الف ومائتين من رجالتنا.

« طلعت الشمس في برج السرطان ثلاثة أضعاف الأربعة عندما شتت هذا الجنس الذي لادين له الفرنجة المتهورين ».

غير أن قوات الملك لم تكن قد وصلت جميعها بعد الى ذلك المكان ، وعلى الأخص لم يكن هناك روجر بن رتشارد أمير انطاكية ، وكان قد استدعي باسم محبة الرب والملك ، فقدم من انطاكية على عجل ، وكان بعض رجال انطاكية قد انضموا قبل الآن الى الجيش الملكي ، واصيب الجميع بالأسى واليأس العظيم وشجبوا بحزن عميق طيش الملك في اندفاعه نحو العدو بحماقة و رعونة دون التأني للمشاورة و العون .

ولما لم يعد في مقدور رجالنا ايقاع أي ضرر بين صفوف الاتراك عسكروا غير بعيد عنهم ، وراقب كل فريق الفريق الآخر طيلة ذلك اليوم.

وكان قائد الأعداء يحمل اسم مودود ، وكان معه طغتكين ملك دمشق وحليفه ، وقاد مودود قوة عملاقة وحشد طغتكين حشودا لا تحصى من أطراف سورية الواقعة تحت سلطانه.

وكان الاتراك معسكرين في الأراضي المنخفضة بينما وقف الفرنجة فوق المرتفعات ، ولم يتجرأ الاتراك على الخروج من جزيرتهم ، ولم يستطع الفرنجة مهاجمتهم ، فلقد خطط لذلك أحد الطرفين ، وخاف الطرف الآخر ،الحقيقة كان أحد الطرفين ماكرا بينما كان الطرف الآخر مهدودا من التعب

« وقد اثقلت حرارة الصيف الوطأة على الطرفين
غير انهما لم يستطيعا وضع حد لذلك العذاب »

وتساءل الفرنجة الغائبون عن سبب طول تأخر الذين كانوا هناك ، وتخلى السراسنة (الكاسيليا ـ الفلاحون) التابعون لنا عنا وهجرونا ، وحاصرونا كأعداء لنا ، حاصرونا من كل جانب ، زد على هذا خرجت زمر من الأتراك من جيشهم لتدمر بلادنا ولتبعث بالمؤن والغنائم الى جيشهم بوساطة السراسنة ولم يكتف الأتراك بالاستيلاء على مدينة نابلس بل دمروها بمساعدة السراسنة الذين كانوا تحت سلطاننا في الجبال.

فضلا عن هذا تقدم أهل عسقلان وهم عرب وسراسنة ، على الرغم من قلة عددهم ، نحو القدس ، حتى وصلوا في أحد الأيام الى سور المدينة الخارجي ، وأشعلوا النيران في المحاصيل المجمعة هناك ، وأصابوا بنشابهم بعض رجالنا الذين كانوا وراء دفاعاتهم فوق الاسوار وجرحوهم ، غير أن عددا كبيرا من رجالهم أصيبوا بجراح مميتة ، هذا ولم يكن جنودنا في المدينة لأنهم كانوا قد خرجوا للتصدي للعدو ، وتراجع أهالي عسقلان في اليوم التالي مما جلب

ارتياحا كبيرا لرجالنا الذي ارتجفت قلوبهم من الحصار على يد هؤلاء القوم.

الرعب الشديد الذي دب في قلوب الجميع:

لقد بات من المحال في تلك الآونة ـ بسبب كمائن العدو ومصائده ـ أن يغامر أي رسول نبعثه الى الملك ، أو أن يصل أي رسول منه الى أي مدينة من مدننا ، لذلك لم تعرف البلدان ما الذي كان يفعله الملك ، و لم يتمكنوا بدورهم من اعلام الملك بالذي كانوا يفعلوه.

« في كثير من الحقول نبل الحصاد الناضج
ولم يذهب أحد الى الحقول ليجمعه» (متى ٩/٣٧)

على هذا لم يجرؤ أحد على فعل ذلك ، وكان الحصاد في تلك السنة وفيرا ، لكن ماالفائدة ، فعندما يثور البحر يخشى الرجال أن يصطادوا ، فقد أصاب الشك كل شخص حول كل أمر ، وانتظر الجميع ليروا إلى من سيعطي الرب النصر ، وتوقف مسيحيونا عن متابعة أعمالهم وأشغالهم باستثناء إصلاح الأضرار التي لحقت بالمدن وبأسوارها .

الزلزال وزواج الملك من كونتسية صقلية :

شعرنا في تلك الآونة بالزلزلة مرتين وبالتحديد في اليوم الخامس عشر قبل مطلع شهر آب ، ثم في اليوم الخامس قبل منتصف الشهر نفسه ، وحدثت الهزة في المرة الأولى عند منتصف الليل وجاءت الثانية عند الساعة الثالثة .

وانتظر الاتراك في تلك الاثناء مدة شهرين بكل مكر لحلول الوقت الموائم لتمزيق صفوفنا وتمزيقنا والحاق الهزيمة بنا ، لكن عبثا فعلوا وجاء مكوثهم بلا جدوى ، لأن الحجاج كانوا يصلون في ذلك الموسم حسب عادتهم عبر البحار ، وبذلك تضاعف عدد جيشنا يوما إثر يوم ، علاوة على ذلك لم يتخل عنا رجال أنطاكية ومكثوا معنا ، وانسحب أخيرا الأتراك نحو مدينة دمشق .

وتراجع الملك ورجاله نحو عكا ، وهناك وجد كونتسية صقلية ، وكانت من قبل زوجة للكونت روجر أخو روبرت غويسكارد ، وقد قدر لها الآن أن تصبح زوجة للملك بلدوين .

وبعد هذه الحادثة بوقت قليل اغتيل مودود على يد أحد « السراسنة » وكان هذا قد أخفى مدية تحت ردائه فطعن بها ضحيته في معدته ، وهكذا اقترف جريمة مزدوجة إذ انه قتل وقتل في الحال على أيدي الحضور ، وإن النصر الذي يؤدي إلى هزيمة المنتصر لسوء الطالع ، فهذا ماحدث ، حسبما جاء في أقوال الفلاسفة : « السعد من زجاج ما أن يتألق حتى ينكسر » .

وكان مودود وافر الثروة ، عظيم السطوة ، ذائع الصيت بين الأتراك ، وكان عظيم الهمة حازما في أعماله ، غير أنه لم يستطع مقاومة إرادة الله ، فقد شاء الله فأذن له أن يكون وباء علينا لبعض الوقت ، غير أنه شاء بعد ذلك أن يموت ميتة شنيعة على يد رجل نكرة .

الزلزلة التي شعر بها في أماكن عديدة :

زحفت في سنة ١١١٤ م أسراب لاتحصى من الجراد من بعض

اجزاء شبه جزيرة العرب ، وطارت إلى ديار القدس ، وقد أصابت في شهري نيسان وأيار محاصيلنا والحقت بها اضرارا بالغة .

وحصلت فيما بعد في عيد القـديس لورنس (١٠ ـ اب) زلزلة ، وجاءت هزة ثانية بعد ذلك في منتصف تشرين الثاني فدمرت شـطرا من مدينة المصيصة ، وهزت زلزلة اخرى عظمى ـ وكانت أشد مـا سمعنا عنه على الأطلاق ـ منطقة انطاكية ودمـرت جـزئيا أو كليا عددا من البلدان بما في ذلك البيوت والاسوار ، وقد هلك بعض عامة الناس وماتوا خنقا تحـت الردم ، ونكر أن تلك الزلزلة قـد دمـرت مدينة مرعش التي اظنها تبعد حوالي الستين ميلا إلى الشمال مـن انطاكية فهناك دمرت البيوت والأسوار برمتها ، اما السـكان الذين عاشوا هناك فقد هلكوا ـ والاسقاه ـ وابيدوا عن بكرة ابيهم ، كما ودمرت مدينة أخرى تدعى بالس (تريالثر) على مقـربة مـن نهـر الفرات .

حشد الجيش التركي وحصار يافا على يد أهل عسـقلان والقاهرة :

استأنف الاتراك في عام ١١١٥ م عنفهـم وجـراتهم المعهـودة ، وتسللوا عابرين نهـر الفـرات في حـزيران ، ودخلوا إلى سـورية وعسكروا فيما بين انطاكية ودمشق ، وبالتحديد أمام مدينة شيزر ، وكانوا اتخذوا لأنفسهم هنا موقعا مماثلا منذ أربع سنوات خلت كما سلف بنا الذكر .

واكتشف طغتكين ذلك ، وعرف انه لن يكون أقل مدعاة للاحتقـار والريبة في نظر هؤلاء الاتراك عما هو في نظرنا نحن المسيحيين ، لأنه كان مطلعا غدرا وخيانة على مؤامرة اغتيال مودود التي اشرنا إليها في العام الماضي ، ونكرنا أن مودود هذا كان قـائد الجيش الأعلى ،

ولهذا أحل طغتكين السلام بينه وبين كل من الملك بلدوين والأمير روجر صاحب انطاكية ، وهكذا أضيف جيش ثالث إلى جيش الملك والأمير ، وأقيم ـ إذا جاز التعبير ـ رباط ثلاثي ، لم يستطع الاتراك فصم عراه بعد ذلك بسهولة ، فلقد خشي طغتكين أنه لو بقي منفردا أن يتم تدمير مملكته كليا .

وحضر الملك بلدوين إلى المنطقة للمشاركة في المعركة التي خيل إليه أنها لابد واقعة ، وجاء بناء على مشورة تلقاها من بعثة من انطاكية ، وعندما سمع الأتراك بقدومه وأنه بات على مقربة منهم خيل إليهم أن ذلك ما هو إلا مقدمة لجيوش انطاكية ودمشق ، فهذا ما كانوا يتوقعونه منذ ثلاثة أشهر ، وانسحب الاتراك وتراجعوا خائفين بهدوء ، فقد خافوا على أرواحهم إذا ما قاتلوا ضد جيش بهذا الحجم ، مع أنهم فاقوه كثيرا بالعدد ، ودخلوا إلى المغائر التي تبعد كثيرا عنا ، وعندما فعلوا ذلك خيل للملك ولحلفائه أن الاتراك قد غادروا منطقتنا بالكلية ، ولذلك توجه الملك إلى طرابلس .

و في خلال هذه المجريات ، اندفع نحونا رجال عسقلان لمعرفتهم ان بلاد القدس خالية من جنودها ، وحاصروا يافا برا وبحرا ، فقد كان هناك أسطول مصر المكون من حوالي السبعين قطعة بحرية بعضها ثلاثية المجاذيف وبعضها الآخر من السفن المعقوفة ، وقسم منها كان يحمل المؤن المعدة لهذه الحملة ، ووصل رجال عسقلان بعضهم برا وبعضهم الآخر بحرا ، واقتربوا من أسوار المدينة وكانوا مجهزين للهجوم عليها ، وعندما بذلوا غاية جهدهم لتسلق الأسوار بوساطة السلالم التي أحضروها معهم ، صدهم سكان المدينة ودفعوهم بشدة مع أنهم كانوا قلة في العدد ، قد أضعفهم المرض .

ولما رأى أهل عسقلان انهم لم ينجزوا شيئا حسبما خططوا ، سوى طرح النار في أبواب المدينة خافوا أن يبعث أهل القدس الذين سمعوا بالأخبار العون إلى أهل يافا لذلك انسحبوا ، ورجع الذين

قدموا برا إلى عسقلان أما الذين قدموا بحرا فقد عادوا إلى مدينة صور .

وبعد عشرة أيام عاد أهل عسقلان إلى يافا ظنا منهم أنهم إذا كانوا على أتم استعداد فسيتمكنون من تدمير عدوهم بهجوم صاعق لاسيما إذا كان على غير استعداد ، ولكن الرب الكلي القدرة ، حمانا وأنقذنا مثلما فعل في الماضي ، وقتل الفرنجة أثناء الدفاع عن أنفسهم بعض الأعداء ، واستولوا على خيولهم وبدأ اهالي عسقلان حصارهم ليافا بضربها بالمجانيق ثم حاولوا اقتحامها كما جربوا من قبل ، بتسلق السلالم التي جلبوها معهم على ظهر القوارب الصغيرة ، وخلال ست ساعات من القتال أنهكت قواهم فانسحبوا أسفين يحملون معهم موتاهم .

معركة بين الأتراك و رجال أنطاكية حاز فيها الفرنجة نصرا مؤزرا:

وعندما اكتشف الأتراك السالفي الذكر أن جيشنا قد عاد إلى بلاده ، رجعوا إلى مواقعهم التي ذكرناها من قبل ، وعاثوا فسادا في أراضي سورية المجوفة ، فاستولوا على ما أمكنهم من القلاع ، ونهبوا القرى ودمروا الدساكر وأخذوا النساء والرجال أسرى .

وعلم رجال انطاكية بذلك بعد انسحابهم ، فارتدوا كارين على عجل ، وزحفوا ضد الأتراك عبر الطريق التي غادروا منها ، وعندما اقتربوا من الأتراك وجدوا أن معسكرهم كان اقرب مما خيل إليهم فوضعوا إنفسهم في تعبئة المعركة ، وانحدروا على الفور نحو منطقة المعسكر وكانت خيولهم تعدو بهم مسرعة نحو العدو وراياتهم مشرعة ، ونشب القتال قرب بلدة سرمين .

وحين راى الاتراك الفرنجة ، ابدى فيلق رماة السهام منهم مقاومة شديدة في الحال ، غير أن روح الحماسة والشجاعة الفائقة ازدادت تأججا في صدور الفرنجة ، فآثروا هزيمة أعدائهم ـ بعون الرب ـ او أن يموتوا ـ بإذن الرب ـ على أن يتحملوا تحرشات الاتراك هذه كل عام ، لقد انقضوا على الأعداء بضراوة مذهلة وشددوا عليهم حيث راوا تجمعاتهم على اكثفها .

وفي البداية قاوم الأتراك لبعض الوقت ، ثم هربوا فجأة من أمام الذين فتكوا بهم وأهلكوهم ، وقد قدر عدد القتلى من الاتراك بثلاثة الاف كما وقع بالأسر عدد كبير منهم ، أما الذين نجوا من الموت والأسر فقد لاذوا بالفرار ، ففقدوا خيامهم التي احتوت على كثير من الأموال والذخائر ، وقد قدرت الأموال بثلاثمائة الف قطعة ذهبية ، وخلف الأتراك في معسكرهم الأناس الذين كانوا قد أسروهم من شعبنا من الفرنجة والسريان ، كما خلفوا زوجاتهم وخدمهم من الجواري مع كثير من الجمال والدواب التي أحصي بينها آلاف البغال والخيول .

لاشك أن الرب رائع في جميع معجزاته ، فعندما كان رجال القدس ومعهم رجال انطاكية ودمشق مستعدين لخوض المعركة لم ينجزوا شيئا ابدا ، لأنه متى كان نصر المحاربين يعتمد على عدد الرجال ؟ تذكر المكابيين (المكابيون : ١ / ١١ ٠ يهوذا : ٦ / ٨) وكثير غيرهم من الذين وضعوا ثقتهم بقوة الرب لابقوتهم فانتصروا على الآلاف المؤلفة .

وبالوصف التالي ستعرف الأجيال المقبلة هذه الحوادث :

« ومرت ليال ثلاث قبل أن ينقضي برج العذراء عندما تخلى الحظ العاثر عن الأتراك بقسوة فمن الجلي إذن : إن على الجميع أن يحسبوا أنه قبل نهاية أي مسالة ينبغي ألا يعتبر اي أمر مؤكدا » .

ودمرت في تلك السنة مدينة المصيصة بفعل الزلازل ، وقد تضررت أماكن أخرى في منطقة أنطاكية بمثل ذلك .

ووصل في تلك السنة أسقف أورانج مبعوثا إلى القدس من قبل كرسي البابوية ، فعزل البطريرك أرنولف من منصبه ، ولهذا السبب توجه أرنولف إلى روما واسترد بطريركيته فيما بعد .

القلعة التي جرى تشييدها في وادي عربة :

قصد الملك بلدوين في ذلك العام وادي عربة وشيد هناك قلعة منيعة على قمة جبل صغير ، وهي لاتبعد كثيرا عن البحر الميت ، مجرد مسيرة ثلاثة أيام ، وتبعد عن القدس حوالي أربعة أيام ، وقد أبقى فيها حامية لتتسلط على المنطقة حماية لصالح المسيحيين ، وقرر أن يسمي تلك القلعة مونتريال (الشوبك) وذلك تمجيدا لنفسه لأنه بناها في فترة قصيرة ، بعدد قليل من الرجال وكثير من الشجاعة .

حملة الملك إلى وادي عربة وما شاهده هناك :

عندما ذهب الملك مع قرابة المائتي فارس لزيارة قلعته ثانية في وادي عربة وذلك في عام ١١١٦ ، تقدم حتى طرف البحر الأحمر ليرى ما لم يشاهد من قبل على أمل أن يجد شيئا في طريقه قد يرغب في اجتيازه ، ووجد في ذلك الوقت مدينة أيلة على شاطىء ذلك البحر حيث قرأنا أن بني اسرائيل قد عسكروا هناك بعدما عبروا البحر ، ولدى سماع العرب المقيمون هناك بأخبار قدوم الملك هربوا وركبوا البحر في قواربهم الصغيرة بعدما أصابهم هلع شديد ، وبعدما تفقد الملك ورجاله الموقع كما طاب لهم ، عادوا إلى القلعة في مونتريال (الشوبك) ومنها توجهوا عائدين إلى القدس .

وعندما حدثونا عن مشاهداتهم ، سررنا لسماع رواياتهم ولرؤية الاصداف البحرية وبعض الاحجار الكريمة التي أحضروها معهم ، وقد استفسرت انا منهم شخصيا عن ماهية هذا البحر ، ذلك أنني كنت قد تساءلت في تلك الأثناء عما إذا كان مالحا أو عذبا ، وهل كانت مياهه راكدة أم هي مثل مياه البحيرة ، وهل كانت له مداخل ومخارج مثل بحر الجليل (طبرية) وعما إذا كان محدد الارجاء كالبحر الميت الذي يصب فيه نهر الأردن ، ولايخرج منه شيء ، ذلك أن البحر الميت تحده من الجنوب زغر مدينة لوط (سفر التكوين : ١٣ / ١٠ ، ١٩ / ٢٢ ـ ٢٤)

البحر الاحمر :

اطلق على هذا البحر اسم الاحمر لان الرمل والحجارة في قاعة حمراء ، فهو لهذا يبدو للناظر كأنه احمر ، لكن مياهه رائقة صافية اذا وضعت في وعاء ، مثلها مثل مياه اي بحر اخر ، ويقولون : ينبع هذا البحر من المحيط في الجنوب ، ويمتد كلسان شمالا الى أيلة التي اشرنا اليها، حيث ينتهي على مقربة من جبل طور سيناء الذي يبعد عنه مسيرة يوم واحد للراكب على الحصان .

ويقدرون ان الرحلة من البحر الاحمر ، او بالحري من أيلة الى البحر الكبير ، الذي نبحر فيه من يافا وعسقلان الى دمياط ، تستغرق حوالي اربعة ايام او خمسة على ظهور الخيل ، وتضم هذه المنطقة فيما بين هذين البحرين كل من نوميديا ومصر والسودان التي يحيط بها نهر جيحون ، وهو نهر الجنة الذي هو نهر النيل كما قرانا (التكوين : ٢ / ١٣).

نهر جيحون :

كنا قد قرأنا كيف يخرج نهر جيحون (النيل) من الجنة مــع انهــار ثلاثة إخرى ،وهذا يدهشني ، ولااقدر على تفسير : كيف ، وبــأي طريقة ، وجد مصدرا اخر يصب فيه ؟ ذلك ان البحــر الاحمــر مــن ناحيته الشرقية ،وبحرنا من ناحيته الغــربية ، فبينه وبين الشرق يقوم البحر الاحمر ، ومع هذا نقــرا ان الجنة قــائمة في الشرق ، ولذلك انني استغرب كثيرا كيف يتابع مجــراه في هــذه الناحية مــن البحر الاحمر ، وكيف يقطع البحر ، او فيما اذا كان فعــلا يقــطع البحر .

الفرات :

ويقال الامر نفسه عن نهر الفرات ، الذي له مصدر اخر في ارمينية ، فيقطع بلاد الجزيرة على بعد حوالي اربعة وعشرين ميلا من الرهــا على ماأظن .

دع من اراد ان يتساءل عن هذا السبب ، واترك مــن يسـتطيع ان يعرف السبب ، فقد جربت مرارا ان اعرفه بسؤال عدة اشخاص ، غير انني لم اجد ابدا من استطاع ان يفسره لي ، وانني ادع هــذا التفسير للذي يرفع الماء الى السـحب بقــدرته المعجــزة ، ويرفــع الجداول الى الجبال والتــلال ، ويجعــل مياه الوديان تنســاب بين صدوع الاخاديد الخفية ، الى ان تجد البحر في نهاية المطاف وتبتلع في احشائه .

وعندما قاربت هذه السنة على الانتهاء ، اصــيب الملك بمــرض ازداد تعــاظما حتــى خشي مــن الموت ، لذلك صرف ايلدا زوجتــه

الجديدة - كونتسية صقلية من قبل،التي تقدم ذكرها ، والتـــي كان قد تزوجها خلافا للناموس - ذلك ان التي كان قد تزوجها قـــانونيا قبلها كانت ماتزال على قيد الحياة في مدينة الرها .

جائحة الجراد الكبيرة :

غادرت الملكة المذكورة ميناء عكا في عام ١١١٧ لتجسيد مـــولانا المسيح ، وذلك في اليوم الذي انشدوا لها فيه الصلوات المؤلفـــة مـــن جملة من الابتهالات حسب طقوس الكنيسة ، وقد سافرت بحرا الى صقلية وبرفقتها سبع سفن .

وعجت اراضي القدس في شهرايار بأسراب لاتعـــد ولاتحصى مـــن الجراد التي التهمت اكثر مما هو معتاد الكرمة ومحاصيل الحقـــول والاشجار على مختلف انواعها ، وكنت تشهد هذه الاسراب تزحف مثل جيش منتظم من الرجال كما لو انهم عقدوا المشـــورة ونظمـــوا زحفهم حسب اتفاق ، وبعدما كانوا يقضـــون رحلة يومهـــم زاحفين وبعضهم طائرين كانوا يختارون بالاتفاق مرقدا مريحا لأنفســـهم ، وهكذا عندما التهموا كل ماهو اخضر وقضموا حتى لحاء الشجر ، غادرت اسرابهم بعضها مجنح وبعضها الاخر زحاف بلا اجنحة .

سحقا لحماقة الرجال الذين يمعنون في ضلالهم المؤذي ، فكثيرا ومرارا مـــايلامسنا الخـــالق بتحـــذيره ويرعبنا بنذره ، ويحـــركنا بوعيده ، ويرشدنا بعبره ، ويكبحنا بعقابه، غير اننا نمعـــن في غينا ولانصغي الى نصحه ونخرق تعاليمه بازدراء .

ما وجه الغرابة والحال هكذا اذا ما انتزع السراسنة - او اناس اشرار سواهم - منا بلادنا ، بينما نمد نحن انفسنا يد اللصوصية الى حقول جيراننا ، فنحن نحتال بالفعل بثلم المحراث ، او بسبلهم

خفية بأعمال جشعة منكرة ، وهكذا نزيد ثرواتنا اثما بوضع ايدينا على ممتلكاتهم .

فما وجه الغرابة ، اذا ماأذن الرب ، وقضمت الفئران محـاصيلنا من جذورها في الارض وهي في حـالة البـرعمة ، او اذا مـاالتهمها الجراد بعد نضجها ، او اذا ماأصابها العطب في المخـازن بسـبب التعفن ، او التهمتها الديدان من كل نوع ، بينما نبيع نحن ضـلالا اعشار الرب ، او نحتفظ بها كلية مدنسين المقدسات .

شارات القمر :

في الشهر التالي الذي صادف شهر حزيران ، بدا القمر لمن كان منا ينظر الى السماء بعـد وقـت صـياح الديك ، ولونه احمـر كليا في البداية ، غير ان الاحمرار مالبث ان تغير الى سواد ، حتى ان القمر فقد قوته الضوئية مدة ساعتين تقريبا ، ووقع هذا في اليوم الثـالث عشر من الشهر ، ولو وقع في اليوم الرابع عشر لكنا ظنناه خسـوفا بدون شك .

لذلك عددنا ذلك نذيرا ، وخيل الى بعضهم انه بسبب الاحمرار سيسفك الدم في القتال ، و بسبب السواد ظن آخـرون أن المجـاعة قادمة ، غير أننا سلمنا الأمور للعناية الربانية ،فـالرب قـد أخبـر رسله أنه ستكون هناك علامـات في الشمـس و القمـر (لوقـا ٢١ / ٢٥ و تكون علامات في الشمس والقمر و النجوم) .

فالرب اذا شاء يجعل الأرض تهتز ثم تسكن ، و قد تتابع وقـوع ذلك في الشهر نفسـه في ليلة سـاد فيهـا السـكون ، و ذلك في اليوم السادس قبل بداية شهر حزيران.

- ٢٨٦٤ -

القلعة التي بنيت قرب صور :

ثم بنى الملك امام مدينة صور قلعة تبعد عنها مسافة خمسة اميال ، وقد سماها سكاندليون وتفسير هذا الاسم « اسد الحقل » وقد رمم صدوعها ، وترك فيها حامية لتتولى كبح جماح سكان صور .

العلامة المدهشة التي ظهرت على الشمس :

في الليلة الخامسة من شهر كانون الاول من السنة نفسها بعد خسوف القمر الذي حصل في الثالث عشر من ذلك الشهر ، راينا جميعا في بداية الليل ، السماء الشمالية وقد خطها شعاع من لون فاقع من النار و الدم، وقد تولتنا الدهشة كثيرا اذ حسبنا أن هذه الظاهرة حبلى بالنذر المريبة ، وشاهدنا في وسط هذا اللاحمرار ، الذي اخذ يتزايد شيئا فشيئا اشعة بيضاء كبيرة اخذت تتعالى من القعر نحو القمة مرة في المقدمة ومرة في المؤخرة ثم في المنتصف وبدت السماء في الجزء المنخفض فاقعة اللون ، مثل لونها عند طلوع الفجر حين توشك على الاضاءة قبيل شروق الشمس ، وشاهدنا امام هذه الظاهرة من الناحية الشرقية بياضا كأنه القمر وقد اوشك على الطلوع هناك،ولهذا تألقت الارض وجميع الجهات في هذا المشهد ، ولو ان ذلك وقع في الصباح لقلنا جميعا : ان النهار كان ساطعا ، لذلك خمنا انه اما سيسفك دم كثير في الحرب اوستقع واقعة لاتقل عن ذلك ، فهذه نذرها ، ولقد سلمنا كل شيء بتواضع الى الرب المتعال الذي لم يغفل عنا في قضاء اموره .

وتنبأ بعض الناس واعلنوا ان ذلك كله كان نذيرا بموت اشخاص سيلاقون حتفهم في السنة المقبلة ، وبالفعل توفي هؤلاء الاشخاص فيما بعد وكان منهم : البابا باسكال في شهر كانون الثاني ،

وبلدوين ملك سكان القدس في نيسان وايضا زوجته في صقلية التــي كان قد ابعدها ، والكسيوس إمبــراطور القســطنطينية وعدد كبير اخر من عظماء الرجال في العالم .

موت الملك بلدوين :

هاجم الملك بلدوين في اواخر شــهر اذار مــن عام ١١١٨ لتســجيد المسيح مدينة الفرما ونهبها ، ثم ذهــب مــاشيا في احــد الايام على شاطىء النهــر الذي يدعوه الاغريق بــاسم النيل ، ويدعوه اليهــود باسم جيحون ، ولقد سار مع بعض اصدقائه على مقربة من المدينة ممتعا نفسه ، واستخدم بعض الفرسان رمــاحهم وحــرابهم هناك بمهارة فائقة في اصطياد الاسماك وحملوها الى المعسكر المقام قرب المدينة واكلوها، ومالبث الملك ان شعر في احشائه بالام جــرح قــديم تجددت بشكل شديد ، لذلك اصيب بضعف عظيم . وعلى الفور اعلنت الاخبار وعممت على رجاله ، ولما سمع هؤلاء بذلك شعروا مخلصين بتعاطف وجداني معه ، ونزل بهم الاسى واصابهم الحــزن الشــديد وقرروا لهذا العودة نحو القدس ، وبما ان الملك لم يســتطع الركوب فقد اعدوا له محفة صنعوها من عشرة اعمدة ومــددوه عليهــا ، ثــم صدرت الاوامر بالعودة الى القدس بصوت بوق المنادي .

وعند وصولهم الى بلدة تسمى العــريش مــات بلدوين اخيرا بعــدما اصاب الهزال جسمه وهده المرض ، فانتزعوا احشــاؤه وملحــوها وطرحوها في التابوت ثم خفوا الخطا نحو القدس .

وفي اليوم الذي جرت فيه العادة بحمل سعف النخيل ، واجه مــوكب الجنازة بمشيئة من الرب وهو يحمــل حمله الحــزين الموكب الديني وهو ينحدر من جبــل الزيتــون الى وادي يهــوشافاط ، وكانت تلك بالفعل صدفة نادرة الوقوع،ومــا ان شــاهد الحضــور ذلك حتــى

اجهشوا بالبكاء ، واخذوا بالندب بدلا من الانشـــاد وكأنمـــا بلدوين قريبهم ، وشعروا بهول الفاجعة بـدلامن السرور وبـكى الفـرنجة وحزن عليه السريان وحتى السراسنة الذين شهدوا ذلك فعلوا الشيء نفسه ، وجميع الذين بكوا هنا بخشـوع لم يتمـكنوا مـن تمـــالك انفسهم ، وبناء عليه قام رجـال الاكليروس وعامـة الناس بـاداء واجباتهم حسب العرف والعادة في مثل هذه المناسـبات الحـزينة ، فعلوا ذلك وهم في طريقهم الى المدينة ، ثـم دفنوا بلدوين في الجلجلة الى جانب اخيه الدوق غودفري ٠

مرثية في الملك بلدوين

عندما مات الملك بكاه شعب الفرنجة الورع
ذلك أنه كان درعهم و مصدر قوتهم و معينهم
كان ساعد شعبه الأيمن و كان الرعب لأعدائه و الخصم
و كان القائد الجبار للبلاد مثلما كان اليشع
و قد انتزع من أعدائه غير الأتقياء عكا و قيسارية و بيروت و صيدا
و اخضع بعد ذلك إلى حكمه وادي عربة أو على الأقل ما جاور البحر الأحمر من بلاد.

واستولى على طرابلس وبعزيمة لاتقل عن ذلك احتل ارسوف
وكذلك قام باعمال مجيدة اخرى عديدة
وبقي على العرش ثمانية عشر عاما
ثم مضى الى مصيره الاخير حسْبما قدرله
ورأت الشمس برج القوس ست عشرة مرة
عندما مات الملك بلدوين العظيم ٠

الكتاب الثالث

أعمال بلدوين الثاني

ترسيم الملك بلدوين في عيد الفصح :

إثر وفاة الملك بلدوين ، وحتى لا يظن بهم ضعف لافتقارهم إلى ملك ، عقد أهل القدس مؤتمرا ، اختاروا فيه ملكا عليهم هو بلدوين كونت الرها ، وهو قريب للملك الراحل ، وتصادف ذلك مع عبوره لنهر الفرات وحضوره إلى القدس بهدف التشاور مع سلفه الملك الراحل ، وجرى اختيار بلدوين بالاجماع ثم تم ترسيمه يوم عيد الفصح .

حشد جيش مصر :

مع حلول الصيف من السنة نفسها حشد المصريون جموعا كثيرة في جيش قدر تعداده بخمسة عشر ألف فارس وعشرين ألف راجل ، وكان الهدف تدمير مسيحيي القدس في الحرب ، ولدى وصول هذه الحشود إلى عسقلان ، قصدهم طغتكين صاحب دمشق مع رجاله ليقدم لهم العون وذلك بعد عبوره لنهر الأردن ، فضلا عن هذا ابحر أسطول معتبر لا يستهان بطاقاته نحو عسقلان ، غير أن هذا الأسطول الذي تألف من سفن حربية وسفن مؤونة ما لبث أن ابحر نحو صور ، ومع هذا فإن الجيش الذي جاء برا بقي في عسقلان توقعا للحرب .

وبالمقابل سارع الملك بلدوين بالاستعداد للقتال ضد جيش العدو ، وكان قد استدعى إليه رجال انطاكية وطرابلس لمشاركته ، وزحف

الملك نحو العدو ، ولدى مروره على مقـربة مـن اسـدود ، مـدينة الفلسطينيين القديمة ، أمر بانزال الاثقال من على ظهـور الدواب ، وضرب معسكره ليس بعيدا عن المصريين حتى يتمكن الجيشان مـن مراقبة بعضهما بعضا كل يوم .

وبما أن كل فريق منهما خاف كثيرا من محاربة الطرف المعادي ، ولانهم آثروا الحياة على الممات ، فقد وفـق الجـانبان إلى تـأجيل القتال قرابة ثلاثة أشهر لمثل هذه المسوغات ، ثم اقلع المسلمون عن القتال بعدما فقدوا صبرهم من طول الانتظار ، وعاد رجال أنطـاكية إلى ديارهم غير أنهم خلفوا كتيبة مؤلفة مـن ثـلاثمائة مقـاتل مـع بلدوين لتعزز قوات الملك وقـت الحـاجة ، وذلك في حـالة معـاودة المصريين التفكير باستئناف القتال .

الأتراك يحاربون أهل أنطاكية ويذبحونهم :

في عام ١١١٩ لتجسيد الرب مات البـابا غالسـيوس ، خليفـة باسكال ، وكان ذلك في اليوم الرابع قبل مطلع شهر شـباط ، ووري جسده في كلوني ، وجري اختيار كالكستوس خلفـا له ، وكان قبـل ذلك أسقفا لمدينة فيين .

ليس بودنا الاثقال على قارىء هذا التاريخ باحصاء جميع الحوادث المشؤومة التي حدثت في تلك السنة خاصة في منطقة أنطاكية ، عندما خرج روجر ، أمير تلك المدينة مع قادته ورجاله ليحـارب الأتـراك ، فقتل في أحواز بلدة أرتاح ، وقتل معـه سـبعة آلاف مـن رجـال أنطاكية ، ولم يقتل من الأتراك سوى عشرين رجلا .

ينبغي الا يدهش أحد كيف أذن الرب بهزيمة روجر ورجاله . ذلك انهم أغرقوا أنفسـهم في الملذات ، وتمتعـوا بـالثروات مـن كل

صنف ــ ولم يظهروا في آثامهم أي اعتبار لاحترام الرب والانسان .

فهو نفسه اقترف الفحشاء بدون حياء مع كثيرات ، مــع أنه كان مـايزال يعيش مع زوجته ، ثم إنه كان قد حرم ابن بوهيموند ، وهــو سيده ومولاه ، من ميراثه ، وكان ابن بوهيموند هذا يعيش آنذاك مع امه في ابوليا ، لقد اثم روجر مع قــادته ورجــاله ، فقــد عاشـــوا في بذخ ورفاه عظيم ، واقترفوا كثيرا من الآثام ، فانطبق عليهم مــا قال داود : « جحظت عيونهم مــن الشــحم ، جـاوزوا تصــورات القلب » (المزامير : ٧/٧٣) وقلما ساد الاعتدال في خضــم المتــع الوافرة .

الملك بلدوين يسرع إلى مد العون إلى أهل أنطاكية وهو يحمل صليب الصلبوت :

نال أهل القدس بفضل الرب نصرا مبينا بإعجوبة بعد المذبحة التــي لحقت أهل أنطاكية ، ذلك أنه كان روجر المذكور عندما عرف بــزحف الترك ضده أخبر ملك القدس بذلك بـوساطة مــراسليه ، وطلب منه الاسراع لنجدته ، لأن الأتراك كانوا يزحفون ضده بجيش جــرار ، وأوقف الملك جميع أشغاله ، وكان قد خرج آنذاك للقتال ضــد أهــل دمشق على مقربة من نهر الأردن ، وقد اصــطحب معــه البـطريرك وحمل صليب الصلبوت ، وبعدما طارد الأعداء بكل نشــاط ونفــاهم عن الحقول في مناطقه ، بادر مسرعا بدون تلكؤ لمد يد العون إلى أهل أنطاكية ، وأخذ معه أيضا أسقف قيسارية ، وهو الذي حمــل فيمــا بعد على الأعداء بكل شجاعة وهو يرفع صليب الصلبوت ، يضـــاف إلى هؤلاء أحضر الملك معه كونت طرابلس ، وبذلك اجتمــع معهمــا مائتان وخمسون فارسا .

ولدى وصول الملك إلى أنطاكية بعث بوفد إلى أهل الرها يأمــرهم

بشكل ملزم بالاسراع بالزحف للانضمام إلى الحملة المزمع شنها ضد الأتراك . وبعدما التحق بالملك جنود انطاكية الذين كانوا قد فروا من المعركة السالفة الذكر ، أو بالحري نجوا من براثن الموت ، وقع القتال واحتدمت المعركة في أحواز بلدة اسمها زردنا ، وهي على مسافة أربعة وعشرين ميلا من انطاكية ، وكان وقتها عدد فرساننا سبعمائة ، وعدد الترك عشرين ألفا ، واسم قائدهم غازي (ايلغازي) ويخيل لي أن علي عدم اغفال ذكر ما قاله واحد من الأتراك عندما لاحظ أن واحدا من فرساننا ينطق باللغة الفارسية ، فقد توجه إليه بالخطاب قائلا: « اسمع أيها الافرنجي ، الحمق أنت لتجهد نفسك عبثا ، لن يكون لكم فوز علينا أبدا ، لأنكم قلة ونحن كثرة ، والحق أقوله لك إن ربكم قد تخلى عنكم لعلمه أنكم لا تطبقون نواميسه حسبما أوجبه عليكم ، ولا تحفظون الأيمان والصدق فيما بينكم ، وعليه من المؤكد أننا سنغلبكم في الغد ونهزمكم » ، واأسفاه ما أعظم خزي المسيحيين وأشد عارهم إذ يعيرنا من لا دين له في ديننا ، ومن أجل هذا يتوجب علينا أن نغرق في الخجل ، وأن نبكي بحسرة ونتوب ، ونزيل آثامنا .

القتال والنصر الذي حزناه بفضل صليب الصلبوت واستقبال الصليب في أنطاكية :

ونشب قتال عنيف في اليوم التالي ، ولم يحسم لصالح أي طرف من الطرفين ، وطال العراك حتى أرغم الرب القدير الأتراك على الفرار ، بعدما شحن المسيحيين بالحماس وزودهم ضدهم ، وذلك على الرغم من أن الأتراك كانوا عندما هاجموا المسيحيين في البداية قد مزقوا صفوفهم وبعثروهم إلى زمر صغيرة طاردوها حتى أبواب انطاكية ، ومع أن المسيحيين لم يتمكنوا من لم شتاتهم والاحتشاد ثانية ، فقد شتت الرب الأتراك وهزمهم ، فالتجأ بعضهم إلى داخل

مدينة حلب طلبا للأمان ، وتابع آخرون فرارهم إلى ديارهم في بلاد الفرس .

فضلا عن هذا كله ، اظهر ملك القدس وكونت طرابلس ومعهما رجالهما انهم اتباع مخلصون لصليب الصلبوت العالي المجد ، فقد حملوه معهم إلى المعركة كعبيد للرب ، ودافعوا عنه بشجاعة وثبات ولم يتخلوا عنه ، لقد صمدوا بكل رجولة ، ودافعوا عن مواقعهم في ساحة الوغى ، وبقدرة هذا الصليب الغالي والعظيم القدسية ، اختطف الرب عبيده ، من قبضة الجنس التركي المقيت ، وصان شعبه وادخره لمهمة مقبلة في خدمته .

وبعدما رابط الملك في أرض المعركة لمدة يومين ، وعندما لم يجد أن أحدا من الأتراك قد عاد إلى القتال ، حمل صليب الرب ، وتوجه يريد أنطاكية .

فخرج بطريرك أنطاكية ليتلقى الصليب العظيم القدسية والملك ورجال الاكليروس الذين حملوه ، وقدم الجميع الشكر للرب ، وسكبوا عذب الثناء على الرب الكلي القدرة الذي منح النصر للمسيحيين ، بقوة الصليب العظيم القدسية ، وأعاد الصليب إلى بلاد المسيحيين سليما ، لم يمسسه أحد بأذى ، فبكى الجميع خشوعا ، وأنشدوا فرحا ، وجثوا مرارا متعبدين أمام الصليب الجدير بالاحترام والتبجيل ، ثم نهضوا مجددا رافعين وجوههم لتقديم الشكر .

شعر :

ظهرت الشمس مرتين في برج العذراء
عندما التهبت هذه المعركة التي هزم فيها الفرثيون
وفي تلك الأونة كان الهلال قد أضاء عشر ليال .

استقبال صليب الصلبوت في القدس :

بعدما استجم الفرنجة في انطاكية لفترة وجيزة ، قرروا العودة إلى القدس ومعهم صليب الرب المبارك ، وحسب الأصول بعث الملك بالصليب إلى القدس بعدما كلف بهذه المهمة العدد اللازم من الجنود ، وقد دخل هؤلاء به إلى المدينة المقدسة مسرورين ، وكان ذلك في اليوم الذي احتفلوا فيه بعيد تقديسه ، مثلما فعل الامبراطور هرقل من قبل ، عندما استرده من بلاد الفرس ، ولقد استقبل أهل القدس جميعا الصليب بكل غبطة وسرور يفوق الوصف .

الملك يحصل على إمارة أنطاكية :

واقتضت الضرورة وقتها أن يبقى الملك في أنطاكية بهدف منح أراضي الذين توفوا من النبلاء إلى الأحياء وفقا لأصول الناموس ، ولكي يجمع بين الارامل — فقد وجد منهم الكثيرات — وبين أزواج يكنون لهن المودة ويقدمن لهم الطاعة ، وبغية اعادة تنظيم الكثير من الشؤون واعادة وضع الامور في نصابها ، ذلك ان بلدوين كان حتى ذلك الحين ملكا للقدس فقط ، لكن وفاة روجر أمير انطاكية جعلت منه ملكا لأهل أنطاكية أيضا ، وسيدا لهذه المملكة الثانية .

لهذا إنني احث الملك ، واتوسل إليه ، أن يحب الرب بكل جوارحه وعقله وقوته ، وأن يكرس نفسه كلية عبدا مطيعا للرب ، ويحمده على ما أعطاه ، وأن يعترف — وقد وجد في الرب صديقا حميما — أنه عبد الرب بلدوين مثلما رفعه هو' لقد جعل الرب الآخرين ملوكا لملكة واحدة ، في حين ملك الوضيع ، فمن الذي رفعه الرب من أسلاف بلدوين مملكتين ، وقد استحوذ عليهما بدون خداع أو سفك دماء وبدون معاناة التقاضي ، بل بسلام وبإرادة الرب .

لقد أعطاه الرب البلاد الشاسعة الممتدة من مصر إلى بلاد الجزيرة ، ومد الرب يده نحوه بسخاء ، فعليه أن يحذر وألا يمد يدا حاقدة نحو الرب الذي يعطي كثيرا ، ولا يهتم بسفاسف الأمور ، وإذا أراد بلدوين أن يكون ملكا ، فعليه أن يبذل جهده في سبيل الحكم بالعدل .

وعاد الملك من انطاكية إلى القدس ، وذلك بعد قيامه بعدد من الانجازات ، وقد تم تتويجه مع زوجته بالتاج الملكي يوم عيد الميلاد في مدينة بيت لحم .

اعفاءات من الضرائب :

في عام ١١٢٠ لتجسيد الرب ، أعفى الملك بلدوين الثاني من جميع الضرائب كل من رغب في احضار الحنطة والشعير والبقول إلى مدينة القدس ، وأصبح للسراسنة كما للمسيحيين الحرية في الدخول إليها والخروج منها وشراء ما أرادوه ممن أرادوا ، ثم إنه ألغى الضريبة المعتادة على الموازين والمكاييل .

الأتراك يحتشدون والملك يحمل عليهم :

بعدما أمضينا ستة أشهر من تلك السنة في القدس ، وصلت رسل أنطاكية تعلن للملك ولجميع الحضور منا ، أن الأتراك قد عبروا نهر الفرات ، ودخلوا إلى أراضي سورية مثلما فعلوا من قبل .

وعقد الملك بعض المداولات حسبما أملته الضرورة ، ثم توسل إلى البطريرك بكل تواضع وإلى رجال الاكليروس أيضا أن يعهد إليه بحمل صليب الرب الظافر ، وقال : إنه ينبغي أن يتقوى به مع

رجاله أثناء التحضير للمعركة ، فهو قد اعتقد أنه لن يكون بالامكان طرد الأتراك وابعادهم عن البلاد التي بدأوا بالفعل بتدميرها ، بدون معركة ضارية ، وبما أنه لم يثق بقوته ولا بكثرة الرجال الذين هم في صحبته ، فقد آثر أن يستحوذ على ذلك الصليب ومعه عون الرب ورعايته ، وفضله على عدة آلاف من الرجال .

ولهذا السبب نشب خلاف حاد بالرأي بين الذاهبين إلى المعركة وبين الذين سيبقون في القدس ، حول وجود الصليب في هذه الأزمة التي واجهتها المسيحية ، وفيما إذا كان من الأفضل حمل الصليب إلى انطاكية ، وحرمان كنيسة القدس من هذا الأثر الثمين وقلنا والاسفاه مالنا نفعل لو سمح الرب أن نفقد الصليب أثناء القتال مثلما فقد الاسرائيليون مرة تابوت الرب ، (صموئيل الأول : ١٠/٤ ــ ١١) .

ولماذا نكتب المزيد ، لقد أرغمتنا الضرورة ، وعلمنا العقل ، ففعلنا ما لم نرغب وقررنا أن نفعل ما لم نبتغ ، وبعدما ذرفت الدموع الغزيرة عبادة للصليب ، وأنشدت التراتيل تمجيدا له ، والملك والبطريرك والناس جميعا وقوفا حفاة الأقدام ، رافقوه إلى خارج المدينة ، وغادر الملك به وهو يذرف الدموع ، وعاد الناس إلى المدينة المقدسة خسارى ، ووقع هذا في شهر حزيران .

وقصد الملك انطاكية ، التي كان الأتراك يتحرشون بها آنذاك ، عن قرب الى حد أن سكانها كانوا لايتجرأون على الابتعاد عنها مسافة أكثر من ميل ، وعندما سمع الاتراك باقتراب الملك ، تخلوا عن المنطقة فورا وغادروها الى مدينة حلب ، حيث اعتقدوا أنها أسلم لهم ، وهناك انضم اليهم ثلاثة آلاف جندي من أهل دمشق.

غير انه بعدما زحف الملك ضدهم بكل جسارة واقترب منهم لكي يشتبك بهم وينشب القتال معهم ، وبعدما قتل وجرح العديد من

الطرفين بالنشاب ، رفض الأتراك اعطاء المعركة والدخول باشتباك عام ، وهكذا عاد رجالنا ادراجهم بعد ثلاثة أيام من المناوشات غير الحاسمة ، عادوا إلى انطاكية ، كما وعاد معظم الأتراك إلى بلادهم في فارس .

وبعد أمد أعاد الملك الصليب المقدس إلى القدس بإجلال مسوائم ، لأنه بقي هو هناك في انطاكية لكي يحمي البلاد ، ولقد استقبلنا صليب الرب العالي المجد بكل سرور وغبطة ، وكانت عودته إلى القدس في اليوم الثالث عشر قبل مطلع شهر تشرين الثاني .

الملك يحمل على أهل دمشق ويدمر قلعتهم :

في سنة ١١٢١ لتجسيد الرب ، في اليوم الثالث قبل السابع من تموز حشد الملك رجاله من البلاد مما بين صيدا ويافا ، وعبر نهر الأردن ، ثم زحف ضد ملك دمشق الذي كان يحدث الدمار ــ مع حلفائه العرب ــ في بلادنا المجاورة لطبرية دون أن يلقى مقاومة أحد ، وعندما عرف صاحب دمشق أن ملكنا كان يقترب منه ومعه جيشه ، قوض على الفور خيامه ، وتجنب القتال وانسحب ملتجئا الى دياره .

وبعدما طارد ملكنا العدو لمدة يومين اثنين ، دون أن يجسر العدو على القتال ، تراجع ملكنا وتحول نحو قلعة حصينة كان طغتكين صاحب دمشق قد أمر ببنائها في السنة المنصرمة وذلك بقصد ايذائنا ، وقد قدرنا أنها تبعد ستة عشر ميلا عن نهر الأردن ، وألقى الملك الحصار عليها ، وهاجمها بالآلات واستولى عليها بالقوة ، وسمح بعد استسلامها لحاميتها المكونة من أربعين تركيا بالمغادرة وفقا لشروط اتفق عليها ، ثم دمرها حتى سواها بالأرض .

وقد دعا سكان تلك المناطق هذه القلعة باسم جرش ، وكانت تقع داخل مدينة شيدت في غابر الزمان ببهاء وروعة ، وفي موقع حصين ، وقد بنيت من حجارة مربعة كبيرة ، وبعد ماقدر الملك مدى المشاق التي واجهها في احتلال ذلك الموقع ، ومدى صعوبة تزويد القلعة بالرجال والمؤن اللازمة امر بتدميرها ، ومن ثم بعودة رجاله الى ديارهم .

وتدعى هذه المدينة غيراسا (جرش) ، وقد شهرت فيما مضى في بلاد العرب ، وهي واقعة على مقربة من جبل جلعاد في بلاد قبيلة ماناسيس .

شعر :

« تصرمت هذه السنة بالسعادة من جميع النواحي
وبأمان وازدهار ووفرة بالثمار من كل صنف » .

حملة الملك على كونت طرابلس ثم على الأتراك

في سنة ١١٢٢ لتجسيد الرب ، تم تعيين اسقف صور واسمه أودو أسقفا لمدينة القدس ، فكان أول شخص من العرق اللاتيني يتولى ذلك المنصب .

ثم توجه الملك الى عكا حيث حشد هناك رجاله من الفرسان والرجالة ، وزحف أولا نحو طرابلس ، على رأس جيشه كله حاملا صليب الصلبوت معه ، وقد أراد أن ينتقم للأذى والاهانة اللذين الحقهما به بونز كونت تلك المنطقة ، وذلك برفضه الخضوع اليه مثلما كان برترام والده قد فعل من قبل .

وبعدما أمكن التوفيق بينهما ، ظهر هناك أسقف بعث بـه أهـل انطاكية ، وقد حـث هـذا الملك على التـوجه بسرعة الى انطـاكية ليغيثها من الأتراك ، وكان هؤلاء يعيثون دمارا في المنطقـة دون أن يوقفهم أي قائد مسيحي .

وتحرك الملك فور سماعه بذلك ، واصطحب ثلاثمائة من فـرسانه المنتخبين واربعمائة من خيرة مشـاته الذين جلبهـم مـن مـكان اخر ، وعاد بقية رجاله الى القدس أو الى ديارهـم ، ووصـل الملك الى حيث سمع أن الأتراك قد تجمعوا وألقـوا الحصـار على قلعـة اسمها زردنا ، لكن هؤلاء تخلوا على الحصار وانسـحبوا فهـم لم يرغبوا في مواجهة الملك ، ولما سـمع الملك بـذلك قصـد مـدينة انطاكية ، لكن مالبث الاتـراك أن رجعـوا مجـددا ، واسـتأنفوا مشروعهم ، ولما سمع الملك بأخبار هذا الحال ، زحف ضدهم بدون تريث ، ولكن هؤلاء القوم لكونهم فرثيين حقيقيين في القتال والمعتاد والمناورة ، ولتميزهم بعدم الاقـامة الطـويلة في أي مـوقع (فهـم يديرون بأسرع مما يمكن تصوره وجوههم مرة وأعقابهم مرة أخرى لمن يقابلهم ، فيفرون بغتة متـظاهرين بـاليأس ثـم يكرون فجـأة ويعيدون الهجوم) لأنهم لم يدربـوا أنفسـهم على القتـال وهـم منحصرون في مكان محدد ، كانوا يتجنبون المواجهـة كليا ويفـرون كما لو أنهم أصيبوا بالهزيمة .

فلتحل البركة على راية الصـليب العـظيم القـدسية ، ذلك المدد الموجود في كل مـكان لجميع الراشـدين ، فهـو الذي يدعم المؤمنين ويمنحهم حمايته وسلوانه ، فقد أذن بعودة مسـيحينا الى ديارهـم دون أن يلحقهم أذى ، وقد قدر تعـداد الاعداء بحـوالي عشرة الاف جندي ، في حين كان عددنا ألفا ومائتين باستثناء الرجالة .

وبعدما عاد الملك الى طرابلس بصحبة صليب الصـلبوت ، طـرأ مالدى الى عودته مع بعض رجـاله الى انطـاكية ، لكن الصـليب

- ٢٨٧٨ -

المقدس حمل الى القدس بغبطة فائقة ، وهكذ أعيد الى مقره باجلال عظيم ، وكان ذلك في اليوم الثـاني عشر قبـل مـطلع شـهر تشرين الأول .

شعر :

- كان ذلك الوقـت الذي يحمـل فيه بـرج الميزان السـاعات المتكافئة .
المتكافئة بالعدد مثلما هي متشابهة بالطول ».

اسر كونت الرها :

وفي تلك الأونة وقع جـوسلين كونت الرهـا بـالأسر وكان معـه غاليران قريبه ، وقد قتل مالايقل عن مائة من رجال جوسلين ، فقد داهمهم كمين لبلك الذي كان أحد الأمراء.

وانقضت هذه السنة مثل السنة المنصرمة بوفرة بالانتاج مـن كل الأصناف ، ممـا جني في الحقـل ، وبيع مـكيال القمـح بدرهم ، والأربعين بقـطعة ذهـب ، ولم تشـن في تلك الأونة بلدان المشرق ولامصر أية حروب .

توطيد السلام بين البابا والامبراطور :

في عام ١١٢٣ لتجسيد الرب ، في الخمس عشرية ، الأولى رجع الوئام بين هنري ملك المانيا والبـابا كالكسـتوس ، فـالحمد للرب ، حيث توحد ثانية العرش والكنيسة في المحبة .

- ٢٨٧٩ -

استعدادت أهل البندقية للقدوم بسرعة الى القدس :

الهم اهل البندقية في تلك الآونة بالابحار باسطول عظيم الى سورية بغية ـ بعون الرب ـ تعزيز القدس والمناطق المجاورة ، وذلك كله لمنفعة المسيحية وتمجيدها ، وكانوا قد غادروا بلادهم في السنة الفائتة ، وامضوا الشتاء في جزيرة كورفو ، مترقبين موسما موائما لعبور البحر .

وكان قوام اسطولهم مائة وعشرين سفينة ، عدا القوارب والزوارق الصغيرة ، وكانت بعض السفن من ذوات المناقير (شواني) وبعضها الآخر مراكب تجارية ، كما وكان بعضها الآخر له ثلاثة صفوف من المجانيف شيدت وفق هذه الأنماط ، وحملت السفن خشبة كبيرة يمكن للنجارين الافادة منها ببراعة في صنع آلات الحصار ، التي يمكن بوساطتها تسلق الأسوار المرتفعة للمدن والاستيلاء عليها .

موعد ابحارهم :

وما ان حل الربيع ، وانفتح طريق البحر امام السفن حتى بادر البنادقة في تنفيذ العهود التي التزموا بها برسوخ أمام الرب ، فبعدما تزودوا بما لزمهم من مؤن وفيرة لأغراض الرحلة، أضرموا النيران في الأخصاص التي أمضوا فيها الشتاء والتمسوا عون الرب ، ثم صدحت أبواقهم بابتهاج ورفعوا أشرعتهم .

وقد أوقع مشهد السفن السرور في نفوس الذين رأوها عن

كثب ، ذلك انها طليت بألوان مختلفة ، وكان على ظهورها خمسة عشر ألف مقاتل من البنادقة والحجاج الذين ألحقوهم بهم ، وفضلا عن هذا كله حملوا معهم ثلاثمائة حصان .

ومان هبت ريح شمالية لطيفة حتى انفصلوا عن معابرهم الخشبية بكل مهارة وتوجهوا نحو ميثون ومن ثم الى رودس .

واقتضت الضرورات أن يسافروا مجتمعين لامتفرقين ، وتعين عليهم — بسبب تقلب الرياح — ممارسة بعد النظر وتغيير خط مجراهم حتى لايتفرقوا فجأة ويبتعد بعضهم عن بعض ، ولهذه الأسباب ابحروا لمسافات قصيرة وخلال النهار فقط لافي الليل ، وكانوا يتوقفون وينزلون الى اليابسة في مراسٍ عديدة لقضاء حاجاتهم اليومية وتأمين المياه العذبة لهم ولخيولهم حتى لايعانوا من العطش .

بلدوين يقع في الأسر واستبداله برجل يدعى يوستاس :

وحدث في تلك الآونة أن وقع بلدوين ملك القدس في الأسر ، وكان الذي اسره هو الأمير بلك الذي سلف له واسر جوسلين وغاليران ، من قبل ، ولم يكن بلدوين يتوقع ذلك ، ولم يكن مستعدا له ، ومامن أمر أفرح الكفار اكثر من هذا وأرهب المسيحيين وافزعهم .

وبعدما وصلتنا الاخبار الى القدس تقاطر الجميع الى مؤتمر عقد في مدينة عكا للتداول فيما ينبغي عمله والتشاور ، فكان أن وقع اختيارهم على رجل اسمه يوستاس ، وكان شجاعا وامينا ومستقيم الخلق ويتملك انذاك قيسارية وصيدا ، فنصبوه حاميا

للبلاد وقائدا للمملكة ، وكان الذي توصل الى هذا القرار بطريرك القدس ومعه أعيان رجالات البلاد ، وأمر أن يسري مفعول هذا الاجراء حتى يتيقنوا بشكل قاطع من مصير ملكهم المتوج .

كانت هذه صورة الأوضاع في منتصف أيار عندما سمعنا بغتة أن المصريين قد وصلوا عسقلان بقوتين حشدوا احداهمابحرا و الثانية قادوها برا ، فقررنا تحضير سفينة صغيرة عالية السرعة لارسال الرسل الى اسطول البنادقة لمناشدتهم الاسراع في الابحار وإغاثتنا والتفريج عنا في المخاطر التي احاقت بنا .

حصار يافا ثانية من قبل المصريين والحاق الأضرار الشديدة بأهلها :

ثم اندفع المصريون نحو مدينة يافا ، وانطلقوا من سفنهم في موكب كبير وأبهة رائعة تعزف امامهم الأبواق النحاسية ، ثم أحاطوا بالمدينة وحاصروها ، وشرعوا بدون تأخير في نصب آلات دك الأسوار وغيرها من المعدات التي كانوا قد أحضروها معهم على ظهور سفنهم الكبرى ، وهاجموا المدينة من جميع النواحي وضيقوا الخناق عليها ، وقذفوها بحجارة من احجام لم يسبق لها مثيل ، ذلك أنهم امتلكوا مجانيق عظيمة القوة ، قذفوا منها حجارة

الى مسافة أبعد من مدى النشاب ، وشن رجالة العرب او السودان الذين أحضروهم معهم و برفقتهم حشد من الفرسان ، هجوما شديدا على أهل يافا ، و من كلا الجانبين رمى بعضهم بالحراب و بعضهم بالحجارة ، و رمى آخرون بالنشاب و تمكن الذين كانوا يدافعون عن المدينة بكل رجولة من الداخل من قتل بعض المهاجمين في الخارج بالطعنات المتوالية .

وحمل السودان في أيديهم دروعا بها غطوا أنفسهم

واحتموا ، ودابت نساء يافا على تقديم العون المتـواصل لسـكانها الذين كانوا يقاتلون بكل شجاعة ، فقـد قـام بعضـهن بتـزويدهم بالحجارة وبعضهن الآخر تولى جلب الماء للشرب .

وبعد قتال استمر خمسة أيام الحق المسلمون القليل من الأضرار بالأسوار ، مع انهم دمروا الكثير من الشرافـات في أعلى الأسـوار بعد قذفها بالحجارة ، ثـم كان أن بلغهـم نبـأ اقتـراب قدومنا ، فأوقفوا القتال وعزفوا بالأبواق اشارة لذلك وفـككوا الات الحصار ثم نقلوها الى السفن .

ولو أنهم ملكوا الجرأة على إطالة القتال ولم ينسحبوا لإسـتولوا على المدينة بكل تأكيد ، وذلك لقلة عدد المدافعين عنها ، ثـم لانهـم كانوا بالفعل قد حفـروا حـول السـور انفـاقا هنا وهناك املين في اقتحامه بكل سرعة ، علما أنه كان بصحبتهم اسـطول مـكون مـن ثمانين سفينة .

معركة ضد الأتراك ــ المسيحيون ينالون النصر بفضل صليب الصلبوت :

بعدما تاكد قومنا من صـحة الأخبـار التـي حملهـا نقلة الأقاويل ، وايقنوا من اقتراب المخاطر احتشدوا من جميع الأمـاكن ووقف جيشهم أمام إحدى القلاع واسمها قاقون ، فقد قـدموا مـن طبرية وعكا وقيسارية والقدس ، وبعدما جلبوا صليب الصلبوت الى مكان الحشد بادر قومنا الى قتال العدو قرب مدينة الرملة القريبة من اللد .

اما نحن الذين بقينا في القدس مـن لاتين وإغريق وسريان ، فلم

نتوقف عن الدعاء لأخواننا الذين واجهوا المحنة ، وقدمنا الصدقات للمحتاجين ، وقمنا ايضا بزيارة جميع كنائس المدينة المقدسة حيث سرنا في موكب خاشعين ونحن حفاة الأقدام .

واستيقظ قادتنا مع انبلاج الفجر ، فأمروا رجالهم الذين اصطفوا أمامهم بانتظام في كتائبهم ، بالزحف نحو مدينة الرملة ، وبعدما منح البطريرك بركاته وغفرانه نشب القتال قرب اسدود ، وكانت هذه من قبل إحدى المدن الفلسطينية الخمسة ، وتدعى الآن (ايبنيوم) وقد تضاءل الآن شأنها وباتت قرية صغيرة .

ولم يطل القتال في هذه المعركة ، إذ ما أن رأى الأعداء رجالنا المسلمين يزحفون نحوهم بثبات ونظام رائع ، حتى شرع فرسانهم بالفرار ، ولم يتوقفوا كأنما أصابهم مس من جنون ، فقد دب فيهم الهلع بدلا من التحكم في عقولهم ، وجرى نبح مشاتهم ، وخلفوا على أرض المعركة جميع خيامهم ومقتنياتهم من كل صنف ولون ، ولقد انتزعنا منهم ثلاث رايات وعدد كبير من العربات المحملة بالمتاع ، وذلك بالاضافة الى أربعمائة جمل وخمسمائة حمار .

ومن بين الستة عشر الف من الأعداء الذين قدموا الى القتال وشاركوا في المعركة قتل ستة الاف ، وبالمقابل قتل عدد ضئيل من رجالنا ، وكان عدد رجالنا هؤلاء حسب بعض التقديرات ثمانية الاف ، غير أنهم كانوا شجعانا ، على درجة عالية من البراعة في القتال ، ملهمين واثقين بالرب وبمحبته ومعتمدين كليا على هذه الثقة .

شعر :

ظهرت الشمس اثني عشرة مرة في برج الجوزاء
عندما هلك القوم المتوحشون بقدرة من الرب
وطرحت جثثهم على سهول ارض فلسطين
وغدت طعاما للذئاب والضباع .

استقبال أهل القدس لصليب الصلبوت :

بعدما حاز المسيحيون على النصر في المعركة ، بقوة الرب وتعظيما لاسمه وتمجيدا للمسيحية ، رجع البطريرك الى القدس ومعه صليب الصلبوت ، وقد استقبل بموكب حافل ، وتلقي خارج باب برج داود ، ونقل بأعلى درجات التبجيل الى داخل البازيليكا في قلب كنيسة قيامة الرب ، وقدمنا الشكر للرب القدير على بركاته وكنا ننشد « الشكر للرب » .

وصول البنادقة ومعركتهم البحرية مع المسلمين :

وصلتنا في اليوم التالي لهذا النصر المبين اخبار اخرى اثلجت صدورنا ، فقد سمعنا أن أسطول البنادقة قد دخل الى عدد من المراسيء الفلسطينية ، وكانت الشائعات قد توقعت وصوله منذ فترة مديدة ، وحال وصول الدوج (دومنفوميشيل) قائد أهل البندقية وأمر اسطولهم الى عكا ، أعلم على الفور بالذي حدث في يافا في البحر والبر ، واخبروه كيف أن المصريين أوقعوا بعض الدمار بقدر ما استطاعوا ثم غادروا عائدين بعدما نفذوا مهمتهم ، واذا رغب الدوج في مطاردتهم فبإمكانه إدراكهم بعون الرب.

و على الفور تداول الأمر مع بحارته و تشاور ، فقسم اسطوله الى أقسام ، وتولى هو شخصيا امرة عمارة بحرية منه ، وأبحر نحو يافا ، ثم بعث القطع الأخرى الى عرض البحر ، وكان هذا دهاء منه وخداعا بغية جعل المسلمين يظنون أنها توجهت الى قبرص لجلب الحجاج من هناك .

وعندما رأى المسلمون ثماني عشرة سفينة من اسطول البنادقة تقترب منهم ، شرعوا بالتهليل ، وكأن المغانم وقعت فعلا بأيديهم ، واستعدوا للابحار نحوها لمنازلتها وقتالها بشجاعة في المعركة .

وتظاهر رجالنا بالخوف من القتال ، وكانوا بالفعل يخدعون الأعداء وينتظرون بدهاء وصول العمارة البحرية الأخرى التي كانت تفوق الأولى عددا ، ومكثوا يترقبون التحاقها بمؤخرة الاسطول ولهذا لم يجنحوا الى الفرار ولم يقدموا على القتال حتى شاهد المسلمون السفن تلتحق بمؤخرتنا واشرعتها منشورة ، ومجاذيفها مشدودة .

وعندما حدث ذلك ارتفعت معنويات البنادقة فانقضوا بضراوة على عدوهم وكانت شجاعتهم تجل عن الوصف ، ولقد حاصروا سفن الأعداء من كل جانب ، حتى لم يعد أمام أي منها مخرج ، وفي الحقيقة لقد تم حصر المسلمين بطريقة مذهلة حتى أنه لم يتح لا للسفن ولا للبحارة النجاة من أي اتجاه ، في حين ركب أهل البندقية ظهور سفنهم وأمعنوا في بتر أوصال رجالهم .

من المحال تصديق هذه الحقيقة ، لأن ما من أحد سمع بمثلها من قبل ، فقد تلطخت أقدام المهاجمين بالسفن بالدماء ، وبذلك أمكن الاستيلاء على هذه السفن المحملة بالثروات الهائلة ، وبعدما القيت

جثث القتلى خارج السفن كنت ترى البحـر وقـد صـبغت مياهـــه بالاحمر الى مسافة أربعة أميال .

ثم حدث أنه بعدما أبحر رجالنا حتى ما بعـد عسـقلان يبحثـون ويستطلعون الأوضاع اكتشفوا وجـود عشر سـفن أخـرى محملة بالمؤن من مختلف الأصناف ، وكانت قادمة نحـوهم ، وكانت هـذه السفن تحمل قطعا خشبية عظيمة الطول ومستقيمة مناسبة لصـنع الآلات الحربية ، فاستولوا على هذه السفن واسـتحوذوا على مـا حملته من معدات حربية وذهب ونقود فضية وتوابل وأصـناف عديدة من العطور .

ثم أحرقوا على رمال اليابسة بعض السـفن التـي جنحـت الى الشـاطىء ، غير أنهـم أحضروا أكثـرها الى عكا دون أن تمس بأذى ، وهكذا كافأ الرب عبيده بـأضعاف مضـاعفة مـن العـطايا الوفيرة .

لم يتخاذل أهل القدس مع أن ملكهم كان أسيرا :

طوبى لقوم الرب دوما معينهم ، طوبى للأمة التـي الرب الههـا (المزامير : ٢٣ / ١٢) فقد قـال الوثنيون : « لنخـرج الآن ونبيد الأمة المسيحية ابـادة كاملة ونمحـو ذكرهـا عن وجـه البسيطة ، فالمسيحيون الآن بلا ملك ، وهم أشبه بأعضاء الجسـد الذي بلا رأس » حقا قالوا هذا غير أنهم نسوا أن الرب مليكنا .
لقد كنا قد فقـدنا بلدوين ، لكننا اتخـذنا الرب ملكا لنا جميعـا وتضرعنا اليه وقت حاجتنا ، فبه انتصرنا بـاعجاز ، فلعـل الذي فقدناه عرضا لم يكن ملكا ، فالذي أحرز النصر لنا مؤخرا ليس هو ملك القدس فحسب بل ملك الدنيا بأسرها ، وعلينا أن نعترف بحـق انه كان لدينا في المعركة فعلا ملك ، وهـو لدينا الآن ولسـوف يكون

دومـا لدينا ، ذلك أننا سـنؤثره في جميع مسـاعينا على جميع الآخرين ، « فـالرب قـريب مـن كل الذين يدعونه ، الذين يدعونه بحق » (مزامير : ١٤٥ / ١٨) .

لقد تجلى علينا فرأنا في محنتنا نعاني من سوء العذاب ، فغمرنا برافته وترفق بنا لخضوعنا وأطلق سراحنا ، « فمبـارك الرب الذي لم يسلمنا فريسة لاسنانهم » (مـزامير : ١٢٤ / ٦) لقـد قـاتل معنا ضد أعدائنا ، وسماته أن يغلب دوما ويقهر أبدا ، فهـو يقهـر ولا يقهر ، وهـو لا يخـدع ، إنه الملك بحـق ، ذلك أنه يحـكم بالعدل ، وكيف حقا يكون ملكا من تتغلب عليه عيوبه دومـا ، وكيف يمكن لانسان أن يدعي الملك إذا ما دأب على تجاوز القـانون دائمـا وأبدا ؟ ذلك أن الذي لا يراعي ناموس الرب ولا يحافظ عليه ليس له أن يطاع ، لأن الذي لا يخاف الرب سوف يخاف الانسان الذي هـو عدوه ، أما من كان زانيا وحانثا بقسمه وفـاسقا فقـد خسر لقـب الملك ، وهل يصح أن نثق بمحتال مخادع ، فإن رضي به من لم يتسم بالتقوى فكيف يصـغي اليه الرب ويسـتمع ؟ فمـن كان سـالبا للكنائس ، ظالما للفقراء ، لا يحكم بـل يمـارس الطغيان ، فلنتعلق بالملك في عليين ، ولنضع ثقتنا فيه وأملنا ، فهو لن يخيب مسعانا في الأخرة .

وفاة يوستاس وخلافة وليم له :

مات في هذه الفترة الصعبة يوستاس الذي كان قد اختير وصـيا على البلاد ، وحدث ذلك في اليوم السـابع عشر قبـل بـداية شـهر تموز ، ثم استقر القرار على اسـتخلاف وليم بـوريس ، الذي كان يمتلك طبرية في ذلك الحين .

- ٢٨٨٨ -

اطلاق سراح الملك بلدوين من الأسر :

برحمة من العناية الربانية ، نجا في منتصف شــهر أب ، بلدوين ملك القدس من أغلال بلك وسجونه ، فقد كان قـد اعتقله في احـدى القلاع الكبيرة (خرتبرت) ، وكان مـوقع هـذه القلعـة حصـينا منيعا يصعب الاسـتيلاء عليه لعلوه الكبير وارتفـاعه ، وكان مـع بلدوين في الأسر جوسلين كونت الرها والآخرون سواه ، والحـديث عن هذه القضية قد يطول لكنه مغلف بـالتبريكات الربـانية والعناية العلوية وموشح بالمعجزات .

فبعدما أصابهم الوهن وتعبوا كثيرا في أسرهم في تلك القلعة لأمد طويل دون تلقي أية مساعدة مـن أصـدقائهم ، بعـد هـذا شرعوا يتدارسون فيما بينهم جميع صنوف الحيل والمخارج وتأمين الخطط التي تساعد على خلاصهم من هناك ، ولذلك دأبوا على طلب العـون من أصدقائهم أينما وجـدوا وراسـلوهم بـوساطة مبعـوثين مؤتمنين ، وبذلوا قصارى جهدهم للتآمر مـع الأرمـن الذين كانوا يقطنون من حولهم في سبيل تحقيق هذه الغاية ووعدوا أنهـم إذا مـا تمكنوا من الحصول على العون من أصدقائهم في الخارج ، فسـوف يظل الأرمن أعوانهم المخلصين وسوف يحافظون على ذلك .

وبعدما تم الاتفـاق على ذلك ، وبعـد تبـادل الهـدايا ومختلف الوعود ، وتبادل حلف الايمان ، جرى بعث خمسين رجلا من مدينة الرها ، وتحرك هؤلاء نحو القلعة بكل دهاء وبـراعة ، حيث قـدموا متنكرين بـزي رعايا يتنقلون ويبيعون السـلع ، وعندمـا سـنحت الفرصة تحركوا حتى وصلوا الى أبواب القلعة الداخلية .

وبينما كان شحنة القلعة جالسا يلعب الشطرنج بـدون احتـراز قرب البوابة مع واحد من الرجال المخلصين لنا ، اقترب منه عملاؤنا

بكل حذر وبمنتهى المكر وكأنهم يودون تقديم شكاية له من مظلمة احاقت بهم ، لكن مالبثوا ان تخلوا عن حذرهم ووثبوا بدون خوف وقد اشهروا خناجرهم فقتلوا الشحنة فورا ، واستولوا على الحراب التي وجدوها هناك وفتكوا بالحرس وذبحوهم بكل رجولة وبلا تردد .

ودب الهرج والمرج هناك وسادت الفوضى وانتشرت في الداخل والخارج ، وكل من بادر الى مشهد الأحداث سرعان ما عوجل فلقي مصرعه ، والحق كان هناك قرابة مائة من الاتراك ، ومع هذا تم اطلاق سراح الملك بالحال ، وكان بعض الأسرى ما يزالون بالاصفاد عندما تسلقوا السلالم الى قلة القلعة ، وهكذا كشفت الحقيقة ، فقد كان في القلعة نفسها زوجة بلك مع عدد كبير آخر من الرجال المقربين اليه كثيرا وذوي المكانة لديه ، ولهذا ما لبث الأتراك ان احاطوا بالقلعة وطوقوها من جميع الجوانب ومنعوا من كان في داخلها من الخروج منها ومن كان خارجها من الدخول اليها ، ونفذوا ذلك بكل صرامة وشدة ، وأوصدت الأبواب وأحكم اغلاقها بالمسامير .

كونت الرها ينجو من الأسر

ما أظن أن علي الالتزام بالصمت حيال مصيبة تراءت لبلك وكانت أشبه بطيف خيال ، فقد تراءى له (حسبما روى هو نفسه ذلك فيما بعد) أن جوسلين سوف يقدم على قلع مقلتيه ، فأخبر مفسري الاحلام بذلك على الفور ، ورغب أن يعلم منهم تفسير هذا الحلم ، فقالوا له : « حقا سوف يحل ذلك بك ، أو ما لا يقل عنه سوءا إذا ما وقعت بين يديه » وما أن سمع ذلك حتى بادر بلك بارسال عدد من رجاله لقتل جوسلين ، و كان هذا قد نجا بحمد الرب ، وتخلص من الأسر بالطريقة التي سوف نصفها ونحكيها الآن :

عقد بلدوين مشاورات جادة مع جميع رجاله ، وبحث عن الوسيلة المجدية التي يمكن أن تنقذهم مـن الأسر ، وعندمـا خيل اليهـم أن الوقت الموائم قد جاء ، وضع اللورد جـوسلين حياتـه على حـافة الموت ، وأودع ذاته بين يدي خالق الاكوان وتسلل من القلعة يتبعـه ثلاثة من الخدم ، ومر جوسلين بين صفوف حشد الأعداء في ضـوء القمر ، وكان يتملكه الخوف مثلما تدفعه الجرأة ، وما لبث أن ارجع واحدا من الخدم الى الملك وحمله خاتمه ليظهر له أنه شق طريقه عبر المحاصرين وفقا للاتفاق المعقود بينه وبين بلدوين .

وبعد فرار واختباء ومسير في الليل أكثـر منه في النهـار وصـل أخيرا الى نهر الفرات ، وقد اهترات نعلاه وأوشك أن يكون حـافي القدمين ، وبسبب عدم امتـلاكه لقـارب يركبـه ، ومـع أنه لم يكن يحسن العوم ، قام بنفخ قـربتين مـن الجلد كان قـد حملهمـا معه ، ووضع نفسه فوقهما ، ورمى بذاته في النهر ، وقد بذل رفيقاه كل جهد للحفاظ عليه ، وتمكنوا بعون الرب من احضاره سـالما الى الشاطيء .

وكان التعب قد هده بعـد هـذه الرحلة الفـريدة ، وأضـناه الجوع ، وعطاش عطشا شديدا ، واستولى عليه الضـيق ، ولم يكن احد حوله ليقدم له يد العون ، وبعدما شعر بالتعب الشديد والانهاك أثقله النعاس ، فسمح لنفسه بالنوم تحـت شـجرة جـوز وجـدها هناك ، والتحف ببعض الأغصان المقطوعة والعليق حتى لا يتعـرف عليه من يراه ، وأمر واحدا مـن خدمه أن يبحـث عن الأهـالي ويتوسل اليهم ليعطوه أويبيعوه خبزا بأي ثمن ، ذلك أنه كان يتضور جوعا .

وفي حقل مجاور وجد الخادم ريفيا ارمنيا يحمل بعض التمر وعدد من عناقيد العنب ، وبعدما بادره بالكلام بكل حذر جلبه معه لمقـابلة

سيده ، ذلك أن جوسلين كان بوده ـ لشدة جوعه ـ الحصــول ولو على مثل هذا الزاد .

وما أن اقترب الفلاح من جوسلين حتى عرفه ، فوقع عند قــدميه وحياه قائلا : تحياتي اليك يا جوسلين ، فارتاع هذا لما بسمعه فهــو لم يرغب قط بسماع ذلك ، فأجابه«انا لست من تمنيت بمخــاطبتك ، أعان الرب جوسلين حيث كان»فأجابه الريفــي : «أتضرع اليك أن لا تنكر هويتك ، فأنا أعرفك تمام المعرفة ، ولكن أعلمني مــا الذي جرى لك في هذه الديار ، وأرجوك ألا تخشى مني أو تتوجس شرا ».

فأجابه الكونت إرث لحالي أيهــا الفــريب وأشــفق علي ، إنني اتوسل اليك ألا تخبر أعدائي بالذي أصابني ، وخــذني الى مــكان أمن ، فتستحق أجرا على ذلك هذه القــطعة مــن النقــود ،ذلك انني هارب بمعونة الرب ، بعدما نجوت من أسر بلك و قيوده ، من داخــل القلعة التي تدعى خرتبرت ، و الواقعة في الجزيرة في ذلك الجانب من الفرات

ولسوف تحسن صنعا لو أنك قمت بمساعدتي في وقــت حــاجتي للمساعدة حتى لا اقــع مجــددا بين أيدي بلك وأواجــه الهــلاك المحتوم ، وإذا ما رضيت وقدمت معي الى قلعتي في تل باشر فلسوف تتحسن أحوالك وتعيش عيشا رغدا الى اخــر ايام حياتــك ، وبناء عليه أخبرني ما الذي تملكه في هذه المنطقة حتى اعوضه عليك وأزيدك عن طيب خاطر في مقاطعتي إذا ما رغبت .

فرد عليه الفلاح : انا لا اريد منك شيئا سوى أن اقــودك بــأمان الى حيث تشاء ، فــأنا اذكر كيف تعــاطفت معــي في أحــــد الأيام وشــاركتني في تناول الطعــام ، ولذلك إنني مســــتعد لرد الجميل اليك ، ولدي يا مولاي اللورد زوجة وطفلة صــغيرة وحمــار صــغير واختي وثوران ، وهــاانذا أضـــع نفسي كلية تحــت تصرفــك وبامرتك ، فأنت رجل عاقل مدبر ، ولسوف أمضي معك بكل ما أملك

الآن ، يضاف الى هذا لدي أيضا خنزير صغير سوف أطهـوه الآن وأحضره لك .

فأجابه جوسلين : لا ياصاحبي ، إنه ليس من عادتـك أن تـأكل خنزيرا كاملا في وجبة واحدة ، فلاتثر شكوك الجيران بك .

وجمع الأرمني كل مـا كان لديه ثـم غادر معـه حسـبما اتفقا ، وركب الكونت على ظهر الحمار الصغير ، مع أنه كان ممـن اعتاد على امتطاء أفخر البغال ، ووضع أمامه طفلة الفلاح الصغير وهكذا فإن الذي لم يكن والدها حقا حملها كما لو كان والدها ، وقد فعل ذلك ، مع أنه لم يكن له ابنة من صلبه ، حتـى يجعـل الذين لا يعرفون يخيل اليهم انه راغب حقا في أن تكون له ذرية .

غير أنه عندما بدأت الطفلة بالصراخ والبكاء قلق جوسلين ، ذلك انه لم يتمكن من اسكاتها بأي وسيلة ، ولم تكن هناك مرضعة تتولى ارضاعها أو تغني لها ، ففكر في أن يتخلى عن هذه الرفقة حتـى لا يتعرض للخطر ، وأن يتابع سيره وحيدا بأمان ، لكنه عندمـا أدرك أن ذلك قد يزعج الفلاح ، آثر عدم ازعاجه وثابر في تنفيذ المهمة التي أخذها على عاتقه .

ولدى وصوله الى تل باشر جرى إستقباله مع ضيوفه بـكل فـرح وسرور ، فابتهجت زوجته ، وهلل أهل بيته ، ولا يمكننا أن نشـك بحجم البهجة التي شعر بها الجميع ولنا أن نتصور كم مـن دمـوع الفرح قد ذرفت آنذاك ، وكم كان حجم التنهدات هناك أيضا ، أمـا الفلاح فقد أعطي بدون تقاعس ـ مكافأة طيبة ، ومنح بدل زوج من الثيران زوجين .

ولأن الكونت جوسلين لم يتمكن من البقاء طـويلا بين أصـحابه وآله فقد توجه فورا الى انطـاكية ، وسـافر منهـا مبـاشرة الى

القدس ، وهناك قدم الشكر للرب الذي تفضل عليه برحمته ، ووهب القيدين اللذين حملهما معه ليعلقا عطيه منه بكل تبجيل على الجبل الذي صلب فيه المسيح ، وذلك تذكارا لاسره وتمجيدا لخلاصه ، وكان أحدهما من الحديد والآخر من الفضة .

وبعد ثلاثة أيام غادر القدس باتجاه طرابلس للحاق بموكب صليب الصلبوت الذي سبق وأرسل الى هناك ، ذلك أن جيش الرب كان في طريقه مع الصليب الى خرتبرت قلعة بلك ، حيث كان الملك وعدد من رفاقه محبوسين لكن غير مقيدين بالسلاسل ، لانهم كانوا امنين داخل الحصن .

مبارك هو الرب الذي يبسط ارادته وسلطته على العالمين ، فهو حين يشاء يطرح الجبار من العلياء ويرفع الوضيع من الرغام ، ففي الصباح كان بلدوين ملكا يحكم ، وفي المساء أصبح عبدا يخدم ، والذي حدث لجوسلين لا يقل عن هذا ، ومن الواضح انه ليس في هذا العالم شيء مؤكد أو شيء ثابت ، فلا شيء مرغوب فيه يدوم طويلا ولهذا ليس من الخير أن يتلهف الانسان على متاع الدينا ، بل من الأفضل أن يتجه بقلبه نحو ربه ، ودعونا لا نركن الى متاع الدنيا حتى لا نخسر الحياة الأبدية في الآخرة .

شعر :

حسب تقديري اتممت انا الآن سنتي الخامسة والستين
غير انني لم أرقط ملكا مثل هذا طريح السجن
ولست أعلم فيما إذا كان ذلك يعني شيئا ولكن الرب يعلم .

حملة أهل القدس واعتقال الملك بلدوين ثانية :

وبينما كان رجال القدس يزحفون نحو مكان متفق عليه ، انضم اليهم رجال طرابلس ثم رجال انطاكية في انطاكية ، غير انهم عندما وصلوا جميعا الى تل باشر ، علموا أن الملك الذي كان محاصرا في قلعته خرتبرت قد وقع بالأسر ثانية ، وعندما عرفوا ذلك غيروا خططهم ، وصدرت الأوامر بالعودة فورا ، ورغبة منهم في اكتساب شيء ما لأنفسهم ، صدحت الأبواق مؤذنة بالتحرك ، لكن نحو مدينة حلب ، وقد دمروا وأتلفوا كل ما وجدوا خارج أسوارها بعدما أرغموا بعنف الذين خرجوا الى قتالهم على التقهقر الى داخلها ، وبعد أن مكثوا هناك اربعة ايام لم ينجزوا خلالها شيئا ، استقر قرارهم على العودة الى بلادهم لأنهم بدأوا يعانون من شح المؤن ، ومع هذا فقد بقي جوسلين في منطقة انطاكية .

وبعدما رجع رجال القدس ووصلوا الى عكا ، وقبل أن يثيروا انتباه المسلمين في الجوار ، عبروا نهر الأردن فجأة ، وبعد أن تجولوا على عجل في المنطقة التي يحدها جبل جلعاد ووادي عربة ، أسروا عددا كبيرا من المسلمين من الجنسين ، واستولوا على كثير من الدواب والماشية ، ثم عادوا بعد ذلك واتجهوا نحو منطقة طبرية القريبة منهم ، واصطحبوا معهم قافلة عظيمة من الجمال والماشية وكذلك الأطفال والبالغين ، وبعدما وزعوا الغنائم فيما بينهم حسب الأعراف والعادات ، احتشدوا في القدس من جميع الأنحاء ، ثم أودعوا صليب الصلبوت ، الذي كانوا قد حملوه معهم ، في مكانه .

ولزاما علي أن أعود الآن الى صلب الموضوع الذي ابتعدت عنه لبعض الوقت .

- ٢٨٩٥ -

كيف حاصر بلك الملك واعتقله ثانية :

ما أن سمع بلك بما جرى في خرتبرت ، وعلم بخبر نجـاة الكونت جوسلين من الأسر ، حتى بادر بـالذهاب الى هناك بـأقصى سرعة أمكنته ، وخاطب الملك بمعسول الكلام وطلب منه أن يسلمه القلعة ، مقابل أن يسمح له ـ بعد تقديم رهائن مختارة ـ بالمغادرة بأمان ، ثم يؤمن سفره الى الرهـا أو انطـاكية ، وتهـدد بلدوين أنه اذا لم يستجب فلسوف يلحق الشر بأحدهما أو بهما معا .

ورفض الملك فـاستشاط بلك غضـبا ، وهـدد بـاعتقال الملك والاستيلاء على القلعة بالقوة ، والانتقام من أعدائه بشكل محتوم ، وبوضع دعائم الخشب داخل الفجوات التي أحدثت تحـت الأسـوار لكي تسند المذشئات التي فوقها ، ثم أمر بجلب الأخشاب ورمي النار فيها ، وعندما احترقت الدعائم هبطت الأسوار وانهار البرج القريب من النار محدثا ضجيجا هائلا .

وتصاعد الدخان وامتزج بالغبار ، لأن الانقاض غطت الحـريق ، لكن بعدما التهمت النيران ما تحت الأنقاض وظهرت ألسـنة اللهـب للجميع ، أصيب الملك بالذهول ، وتولته الدهشة ، فهذه الأحـداث لم تدر بخلده ولم تكن بالحسبان ، وخابت أماله وهبـطت عزيمتـه الى الحضيض ، فقد شل هذا الدمار حركته وأصابه مـا حـدث بـرعب شديد ، وهكذا فقد شجاعته مع رجاله ولم يعد مسيطراً على نفسـه فاستسلم مع رجاله الى بلك ، ولم يأمل برحمة بلك بل بـالعقاب على ما جنت يداه وأيديهم معه .

وصفح بلك عن بلدوين وأبقاه على قيد الحياة وفعل الشيء نفسـه مع واحد من أبناء أخي الملك وكذلك مع غاليران ، أما الأرمـن الذين قدموا العون الى الملك فقد شنق بلك بعضهم ، وضرب بعضـهم حتـى

- ٢٨٩٦ -
الموت وشطر بعضهم الأخر بالسيف الى نصفين ، ثم نقل الملك مـع ثلاثة من رجاله من القلعة واخذهم الى مدينة حران .

لقد صعب علي التيقن من حقيقـة مـا حصـل هناك ، لأن هـذه الأحداث وقعت بعيدا عني ، ومع هذا فقد دونت هنا ـ بكل ما أوتيت من دقة ـ الذي أخبرني به أخرون .

شعر :

انتهت هذه السنة بشح في الأمطار ، منذرة بالقحط
وسبب ذلك كثيرا من الآلام الى أهل القدس
وقد مضى علينا حتى الآن أربع وعشرين سنة
منذ قيام حملة الحجاج الشهيرة التي قـدمت مـن جميع البلدان .

التحضير لحصار صور :

في سنة ١١٢٤ لتجسيد مولانا المسـيح احتفلنا بميلاد المخلص في بيت لحم وفي القدس حسب الأصول ، وقد شـارك دوج البندقية مـع رجاله في هذه المراسم واحتفلوا بخشوع ، وتم بعـد هـذا الاتفـاق طوعا ، وبرضى من الطرفين ، وتوكيد ذلك بالايمان على حصار امـا مدينة صور أو عسقلان بعد عيد الغطاس (٦ كانون الثاني) .

وكنا نفتقر الى الأموال ، وهذا ما أقعدنا عن العمل ، ومـع ذلك جمعنا في تلك الآونة مبلغا كبيرا من المال اقترضناه من الناس فـردا فردا بهدف الدفع للفرسان و الرجالة المأجورين ، حيث لم يكن من

- ٢٨٩٧ -

الممكن تنفيذ هذا الحصار المقترح بدون دفع الأموال الى الرجال ، كما اضطررنا الى رهن أنفس زخارف كنيسة القدس حتى نحصل على القروض من المسلفين.

وحسب الاتفاق اجتمع الجميع من كل حدب وصوب في المكان المحدد.

شعر:

عندما انتعش برج الدلو بحرارة الشمس للمرة الثالثة.
غادر الناس جميعا القدس لمقابلة العدو
وحصل ذلك يوم الأحد ، غرة الشهر القمري.

حصار صور على يدي البطريرك والبنادقة :

بعدما وصلوا الى عكا ، أعدوا مع أهل البندقية ما لزم من ترتيبات للزحف نحو صور والقيام بحصارها، وفي اليوم الخامس عشر قبل بداية شهر آذار طوق البطريرك وبصحبته جميع أتباعه والدوج ومعه بحارته وسفنه مدينة صور .

شعر :

عندما دخلت الشمس في برج الحوت.

ولدى سماع رجال عسقلان ، الذين لم يستطيعوا كبح جماح صفاقتهم بذلك ، لم يترددوا في أن يلحقوا بنا أعظم ما استطاعوا من

الأذى ، وقسموا جيشهم في أحد الايام الى ثلاثة أقسام ، وقادوا القسم الأكبر من كتائبهم نحو القدس ، وقتلوا ساعة وصولهم بوحشية ثمانية رجال وجدوهم يشربون النبيذ خارج المدينة.

وما أن اكتشف أمر قدومهم حتى صدحت الأبواق من فوق برج داود لاعلامنا بذلك ، وخرج فرنجتنا والسريان للقائهم والتصدي لهم ، وقاوموهم بكل بسالة ، وبعدما أنهك كل طرف نفسه في مواجهة الطرف الآخر في قتال استمر ثلاث ساعات ، انسحب أهل عسقلان ، وقد اعترتهم الكآبة ذلك أنهم حملوا معهم عددا كبيرا من الجرحى.

وطاردهم رجالنا الى مسافة قصيرة ، لكنهم لم يتجرأوا على ملاحقتهم الى مدى بعيد لافتقارهم الى الفرسان ولخشيتهم من وجود كمين ، ومع ذلك أحضروا معهم في النهاية سبعة عشر رأسا من رؤوس الأعداء وعددا مماثلا من الخيول ، ويقينا إنه لو كان لدينا فرسان لما نجا من الأعداء إلا قلة ، لكن فرساننا كانوا مع الجيش ، ثم قدمنا الحمد للرب حق الحمد على الدوام.

صور وشهرتها :

في تلك الأثناء كان أهل صور محصورين مطوقين داخل مدينتهم ، ولم يكونوا يطلبون السلام ولا هم خضعوا وسلموا ، بل اعتادوا لوفرة ثرواتهم ، وللدعم والعون الذي كان يأتيهم عن طريق البحر على الغطرسة.

وهذه المدينة هي أوسع مدن أرض الميعاد ثراء وأعظمها صيتا باستثناء حاصور التي ملكها جابين ملك الكنعانيين ، وكان ذلك في قديم الزمان ، وهي التي دمرها يشوع فيما بعد ودمر معها مدنا

اخرى كثيرة (يشوع : ١١ / ٤١,) ومن جانب أخر ذكر يوسفيوس انه كان فيها ثلاثة الاف مركبة حديدية وثلاثمائة الف رجل مسلح ، وعشرة الاف فارس ، وقاد جيشها سيسرا .

وأقام الفنيقيون هاتين المدينتين : صور وحاصور على اليابسة ، واشتهرت صور بتجارة المفرق وأكثر بتجارة الجملة الكبيرة (أشعيا : ٢٣ / ٨) واشتهرت الثانية بكثرة سكانها ، وفي الوقت الذي وقعت فيه صور على طرف البحر وقعت حاصور على المرتفعات .

وشيد الفنيقيون صور زمن هرقل عندما حكم جدعون في اسرائيل (يهودا : ١٦ / ١١ / ٤٠ ، ٧ / ٨) ذلك أن هذه المدينة في بلاد الفنيقيين ، وهي المدينة التي ذكرها أشعيا وأنبها على غرورها (أشعيا : ٣٣) وفيها صباغ الأرجوان الممتاز ، والى ذلك يرجع قولهم : « صباغ أرجواني صوري » وتعني كلمة صور الممر الضيق ، وهي تدعى « سور » بالعبرية .

واستولى شلمنصر ـ ملك الآشوريين ـ على صور خلال حروبه التي شنها على سورية وفينيقية وذلك في الفترة التي حكم فيها اليوليوس هناك ولأن أهل صور رفضوا الخضوع لملك آشور فقد حاصرهم مدة خمس سنوات ، وعن هذا كتب مناندر وأسهب أيضا يوسفيوس في الكتابة عن هذا الموضوع نفسه .

وعبر الصوريون البحر في تلك الأونة تحت امرة اليسانيدو ابنة بيلوس واسسوا مدينة قرطاج في افريقية ، ويذكر المؤرخ أورسيوس أن موقعها قد أحيط بسور امتد ثلاثين ميلا ، وكان بلا مداخل ، ويكاد البحر أن يطوقها من جميع الجهات ، وكان عرض مرساها ثلاثة أميال ، وشيد سور قرطاج من الحجارة المربعة ، وكان عرضه ثلاثين قدما وعلوه أربعين ذراعا .

وقد شغلت قلعتهـا مسـاحة تـزيد على الميلين ، وكانت تـدعى برسه ، لقد أنشأت اليسا قرطاج قبـل تـأسيس رومـا بسـبعين سنة ، وفي السنة السبعمائة بعد انشائها دمـرت ، حيث دمـر أولا سورهـا الحجري برمته ، وجاء قدرهـا المحتـوم على يدي بـابلوس سكيبو الذي عمل قنصلا لروما لمدة سنة ، وظلت تحترق بعد تـدميره لها ببؤس لمدة سبعة عشر يوما كاملا .

من استولى على صور أو حاصرها في الماضي:

ووهن امر صور السالف ذكرها ، وبقيت غير اهلة بالسكان لمدة سـبعين سـنة ، حسـبما ورد في سـفر اشعيا (أشـعيا : ٣٣ / ١٥،١٧) ، وكان عندمـا تمـرد أهـل قبرص على صور قهرهم الملك اليوليوس ، كذلك هـاجم شـلمنصر ملك آشور صور ثـانية ، ثـم انسـحب ، وذلك في الوقـت الذي استسلمت له فيه مدينتا صـيدا وعرقـة ـ التـي تـدعى أكتيبس ـ وكذلك صور القديمة ومدن أخرى كثيرة .

ولما لم تخضع له صور ، زحف ضدها بوساطة اسطول تألف من ستين سفينة وتسـعمائة مجـذاف ، كان قـد زوده بهـم الفنيقيون ، فتصـدى لهـم الصـوريون بـاثنتي عشرة سفينة ، ومزقوهم وبددوا شمل سفنهم ، وأسروا منهم خمسـمائة رجل ، ولهذا طارت سمعة صور وعظم صيتها .

وعاد ملك آشور واقام مراكز حراسة على نهـر المدينة وقنواتهـا ليحول بين الصوريين وبين جر المياه وشربها ، وصبر الصـوريون على هذه المحنة مع أنها طـالت مـدة خمس سـنوات ، حيث كانوا يشربون المياه من آبار حفروها ، وكل هذا جاء مدونا حول شلمنصر ملك آشور في وثائق صور .

وهذا الملك هو الذي حاصر السامرة واستولى عليها في السنة السادسة لحكم الملك حزقيال ، وهو الذي حمل اسرائيل الى السبي في آشور(الملوك الثاني: ١٧ ; ٣ -١٨٦ ; ٩ - ١١)وكان الذي حكم قبل شلمنصر فول ملك الآشوريين (الملوك الثاني: ١٥ ; ١٩) وبعده تغلاث فلاسر ملك آشور الذي استولى على قادش وحاصور في نفتالي قرب بانياس ، وجلعاد ، والجليل بأسره ، وسبى أهلها الى آشور (الملوك الثاني: ١٥ / ٢٩) ثم جاء سرجون ملك آشور ، وهو الذي بعث ترتان ليحارب أشدود وقد استولى عليها ترتان (أشعيا : ٢٠ / ١ - في سنة قدوم ترتان الى أشدود حين بعثه سرجون ملك آشور ، فحارب أشدود اخذها) وهكذا دمرت أرض الميعاد بسبب خطايا أهلها ، وتعرضت للسبي على يد الآشوريين أولا ثم على يد الكلدانيين .

وحاصر نبوخذ نصر ملك كلدان وبابل مدينة القدس ، واستولى عليها ، ولهذا لجأ الملك صدقيا الى الفرار ، غير انه وقع بالأسر على مقربة من أريحا ، ثم حمل الى ملك بابل الى البلدة التي تدعى ربلة في بلاد حماة ، ويذكر جيروم أن حماة الكبرى في انطاكية ، وحماة الصغرى في أبيفانيا ، وهناك أمر نبوخذ نصر بقلع عيني صدقيا وبقتل بنيه في حضرته ، ثم حضر نبوزرادان قائد شرطة الملك ، واحرق بيت الرب وبيت الملك ، وهدم جميع أسوار القدس المحيطة بها .

وبعد أمد من الزمن جاء الملك الاسكندر فحاصر صور واستولى عليها ، كذلك أخضع صيدا وقبل ذلك دمشق ، كما احتل غزة بعد حصار دام شهرين ، لكنه كان قد حاصر صور لمدة سبعة أشهر ، ثم توجه الاسكندر بسرعة نحو مدينة القدس حيث استقبل بكل حفاوة وتكريم ، ولذلك خلع على الكاهن الأعظم ، واسمه جيدوه أسمى درجات الشرف ، ودخل الاسكندر منفردا ، فقدم التبجيلات اللائقة لجيدوة ، الذي وضع على رأسه قلنسوة وارتدى ثوبا ارجوانيا

مذهبا ، وحمل صفحة ذهبية خط عليها اسم الرب ، وبعـدما تـدبر الاسكندر أمور القدس قاد جيوشه ضد المدن الأخرى .

وبعد سنين طوال ، وبسبب آثـام اليهـود تحـدى أنطيخـوس أبيفانس ناموسهم ، وقمع جمـاح المكابيين بشـدة ، وجـاء بعـده بومبي فأطاح بأهل القدس بشكل محزن ويبعث على الأسى ، وأخيرا جاء فسباسيان وابنه تيتوس ، وقد دمـر تيتـوس القـدس دمـارا شاملا ، وهكذا نجد أن القدس والمناطق المحيطة بها والتـابعة لهـا عانت كثيرا وتألمت في تعاقب الأحداث القديمة وحتى يومنا هذا .

وجل أراضي فلسطين مع جزء من فينيقية ، التي نالت اسمها من فونكس أخو قدموس ، هي جـرداء قـاحلة ، ثـم هناك السـامرة وأراضي الجليل ، وتقسم بلاد الجليل الى قسـمين : الجليل الأعلى والجليل الأدنى ، ويحدهما من الجانبين فينيقية وسورية .

ويمتد الجزء الواقع فيما وراء الأردن طولا من مقاورير الى فحل وعرضا من عمان الى الأردن ، وتحـده شـمالا فحـل وغربـا الأردن ، وجنوبا بلاد موآب وشرقا العربية وعمان وجرش ، وتقـع السامرة مابين يهودا والجليل ، وتمتد يهودا عرضـا مـابين الأردن ويافا ، وتقع مدينة القدس في وسطها وهي سرة البلاد .

ويمتد الجليل الأدنى من طبرية الى زيلون فعكا والكرمل وجبـال صور ، ويضم : الناصرة ، وصفورية ، وهي بلدة منيعة ، وطـابور وقانا ، ومدنا أخرى كثيرة ، ويحده لبنان ومنابع نهر الأردن التـي تدعى الآن بانياس أودان ، أو قيسـارية فيليب وتقـع حـوله بـلاد الطـراخونيين وبـلاد الأنبـاط ، والى الجنوب منه السـامرة وسيزيوبولس التي تعرف باسم بيسان

وتحد يهودا مدينة بير السبع ، وتضـم يهـودا تمنة واللد ويافـا ويبنا ، وتكوه والخليل واشتول ، وزورا وكثيرا غيرها .

وبعدما سلكت سبلا متشعبة أعود الآن الى صلب الموضوع بعدما ابتعدت عنه فترة طويلة .

انتصار أهل انطاكية على الترك ومقتل بلك :

في الوقت الذي كنا فيه نعمل بكل نشاط خارج صور ونجهز آلات الحصار بالعناية اللازمة ، لم يتوقف بلك عن قيادة جيشه وأحلافه ضدنا لقتالنا ، فوصل الى مدينة منبج ، قادما اليها من مدينة حلب وكان ذلك في أوائل شهر أيار ، وكان برفقته خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف راجل ، وعندما رفض صاحب منبج تسليمها له دعاه بلك الى الاجتماع به خارج المدينة ، وهناك غدر به وقطع رأسه .

ثم حاصر بلك المدينة دون تمهل ، ووصل الخبر الى جوسلين ، وكان آنذاك في انطاكية ، فاندفع نحو منبج ومعه رجال انطاكية ، ومع أن جيش المسيحيين كان قليل العدد ، غير أن جوسلين لم يخش من الزحف ضد حشود الكفار ، ولم يمض وقت طويل حتى نشبت معركة حامية الوطيس .

وبعون الرب هزم الترك ثلاث مرات ، غير انهم ظلوا يقاتلون بكل جسارة بعد هذه المرات الثلاث ، وقاد بلك ـ الذي اصيب بجرح مميت ـ القتال وهو يعاني من سكرات الموت ، وعندما اكتشف رجاله ذلك فر منهم من استطاع الفرار ، وتهيأت أمامه السبل ، والحق أن عددا كبيرا ممن تمكن من الفرار لم يتمكن من النجاة ، ولقد روي أن ثلاثة آلاف فارس منهم لاقوا حتفهم ـ غير أن عدد الرجالة لم يعرف بالضبط ـ وقد سقط من فرساننا ثلاثون قتيلا ، وكذلك ستون من رجالتنا الذين كانوا يسوقون الدواب .

وأراد جوسلين أن يتأكد من وفاة بلك ومن عدم نجاته ، فتفقد رجاله جثث القتلى وبحثوا بينها حتى عثروا على جثة بلك ، وقد

تحققوا منه بالشارات المألوفة على درعه لمن كان يعـرفها ، وقـطع رجل رأس بلك ، وحمله الى جـوسلين مهنئا ، فتسـلم منه أربعين قطعة نقدية ، وفاء بوعد كان قد قطعه له .

وأمر جوسلين بالحال بحمل رأس بلك الى انطاكية ، مؤشرا على نصره ، ثم بعثه الينا ، وكان الرجل الذي حمل راس بلك الى صور والقدس داخل جراب ، قد روي لنا جميعا الرواية ووصف مـاحدث لانه كان ممن شهد هذه المعركة الجديرة بالذكرى .

وفي الحقيقة كان هذا الرسول تابعا لجوسلين ، وبمـا أنه حمـل هذا النبأ المفرح الى جيشنا المعسكر امـام صـور ، فقـد خلع عليه سلاح فارس ، فترقى من مرتبة تابع الى مرتبة فارس ، وكان الذي منحه المرتبة كونت طرابلس .

وحمدنا جميعا الرب وشكرناه لأن بلك ذلك التنين المخيف المرعب والهائج الذي ظلم المسيحية وداس عليهـا ، قـد أخمـدت أنفـاسه أخيرا .

شعر :

اشرقت الشمس تسع عشرة مرة في برج الثـور عندمـا خـربلك صريعا ، بعدما خانه الحظ .

انظر وتمعـن كيف تحقـق تفسـير الحلم الذي ذكرناه مـن قبل ، الحلم الذي روى وصفه بلك وهو يتنبأ بموته وكان ذلك بعـدما نجا جوسلين من الموت بأعجوبة ، وفي الحقيقة لقد حطمه جـوسلين تحطيما كاملاً وهشمه إذ جرده من الراس والأعضاء .

شعر :

لاراى بلك ولاسمع ولاتكلم ولامشى ولم يبق له مـوضع في الأرض ولافي السماء ولا في البحار .

الذي جرى أثناء حصار صور

عندما اخلد الذين القوا الحصار على صور الى الراحـة في احـد الايام ، اغتنم الصوريون الفـرصة واجتمعـوا مـن تـرك ومسلمين ، وفتحوا أبواب البلد على مصاريعها وانقضوا بسـيوف مصلتة على اشد الاتنا قوة ومناعة ، وقبل أن يتمكن رجـالنا الذين كانوا يحرسونها من حمل سلاحهم ، داهمهم الأعداء وأبعـد وهـم عنها بعدما اثخنوهم بالجراح ، ثم اشعلوا النار في الآلات ، وكانت هذه الآلات تستخدم لتدمير الاسوار وابراج المدينة برميها بالحجارة واحداث ثغرات في وسائل دفاعها .

وقد خسرنا في هذا الانقضاض ثلاثين من رجـالنا ، لكن العـدو خسر ضعف ذلك العدد ، كما واصاب اهـل المدينة رجـالنا بجـراح كثيرة والحقوا بهم خسائر جمة من خلال الرشقات المتوالية بـالنبال والحراب والحجارة من أعالي السور .

وابحر في اثناء هذا كله جماعة من البنادقـة لم يتجـاوز عددهـم الخمسة في مركب صـغير ، فـواتاهم ـ كالعـادة ـ الحـظ السعيد ، وسطوا على دار صـغيرة على مقـربة مـن السـور ونهبوها ، وقطعوا راسي رجلين وجدوهما هناك ، وعادوا أدراجهم على الفور فرحين مسرورين بغنيمتهـم المتـواضعة ، ووقـع هـذا الحادث في اليوم الحادي عشر قبل بداية شهر حزيران .

لكن ذلك لم يكن كبير النفع ، فقد تمكن بعض الصوريون قبل ذلك بوقت قصير من سرقة قارب في احدى الليالي ، وسحبوه الى مرسى المدينة ، ذلك أن مثل هذه الامور تحدث كثيرا في مثل هذه المناوشات .

شعر :

يخفق انسان وينجح اخر ، ويفرح انسان ويبكي اخر .

اغارة اهالي عسقلان المدمرة

لم يتوقف أهالي عسقلان عن التحرش بنا ، ولمعرفتهم بقلة عددنا ظنوا أنهم قادرون على اضعافنا وانزال الدمار الشديد بنا ، وبالفعل دمروا قرية صغيرة في أحواز القدس تدعى البيرة واحرقوها ، وحملوا معهم ماوجدوا من أسلاب هناك وذلك مع قتلاهم وعدد كبير من الجرحى ، وكانت النساء قد لجأن مع الأطفال الى برج شيد هناك في ايامنا ، فضمنوا بذلك النجاة بأرواحهم ، ثم طاف العسقلانيون وجاذوا خلال الديار ينهبون ويقتلون ويأسرون ويسرقون ويحدثون مااستطاعوا من دمار ، ولم يجدوا من يصدهم ، فقد كنا جميعا منهمكين بحصار صور ، ننتظر العون من السماء لانجاز مهمتنا بعون الرب وتدبيره ، وكان الوضع صعبا ولم يكن بمقدورنا الاستمرار في تحمل عناء الليل وجهد النهار .

وبينما كنا ننتظر باذان مشنفة سماع اي همسة من أخبار مفرحة ، اذا نحن بثلاثة رسل يصلون من لدن البطريرك حملوا منه رسائل مستعجلة تعلن سقوط صور لنا ، ولدى سماع هذه الأنباء ارتفعت الأصوات مجلجلة وقامت ضجة عالية تدل على الفرح الزائد

والغبطة المتناهية ، واخذ الجميع بالحال ينشدون « الحمد للرب » وقرعت النواقيس ، ومشى موكب نحو معبد الرب ، ورفعت الاعلام على الأسوار والابراج ، وعرضت الزينات الملونة في جميع الطرقات . ورفعت ايات الشكر ، واجزلت العطايا للرسل ، وتبادل الوضيع والرفيع التهاني ، وابتهجت الفتيات ورفعن أصواتهن بالغناء .

لقد حق للقدس أن تفرح مثل الوالد وتسر بابنتها صور ، وقد جلست الآن عن يمينها متوجة حسبما يليق بمن هو في منزلتها ، بينما ذبت مصر وبكت فقدان هيبتها ، التي كانت الى أمد قريب سندا لها ، واسفت على اسطولها المعتدي الذي كانت تسيره كل عام ضدنا .

ومع أن مكانة صور تدنت وانخفضت في الابهة الدنيوية ، فالحق يقال أنها ارتفعت وترقت في المنزلة الربانية ، فبينما كان لها أيام الكفار إمام أو قاض في مركز السلطة ، سوف يكون لها رئيس اساقفة أو بطريرك تماشيا مع تقاليد الأباء في الاعراف المسيحية ، وحيثما كان هناك مشايخ أئمة سيكون رؤساء أساقفة يعينوا لحكم المقاطعات ، وحيثما كان هناك حاضرة أو مايسمى « أم قرى » سوف يشرف مطران على ثلاثة مدن او اربعة داخل مقاطعة الحاضرة الأم .

وحيث وجد كهنة أو كونتات في البلدان الصغيرة سيتم رسم أساقفة ، زد على هذا لقد عرف الرهبان وباقي رجال الاكليروس في بعض التنظيمات الرهبانية الأقل شأنا « بمحامي الشعب » ولم تكن هذه التسمية من باب الحماقة أبدا .

استسلام مدينة صور :

عندما أدرك ملك دمشق أن الأتراك والمسلمين قد احتجزوا في مدينة صور ومالهم من قبضتنا مناص أثر أن يفتديهم أحياء ولو ببعض المهانة على أن يبكيهم أمواتا ، لذلك استفسر بوساطة بعض الوسطاء العقلاء عن امكانية خروج قومه ومعهم جميع مقتنياتهم أمناء من المدينة ومن ثم تسليمها إثر ذلك خالية الينا .

وبعدما تساوم الطرفان حول هذا الأمر لفترة طويلة ، تبادلا الرهائن ، وغادر المسلمون المدينة ودخلها المسيحيون بأمان ، وقضت الشروط بالسماح لمن أراد من المسلمين البقاء في المدينة والعيش بأمان .

شعر :

ظهرت الشمس احدى وعشرين مرة في برج السرطان .
عندما انتزعت صور مستسلمة مقهورة .
وحصل ذلك بعد سبعة أيام من أول تموز .

لهذا يجب علينا الا نكف عن - لابل الا نتردد في - أن ننشد الرب حاميا رؤوفا ومعينا لنا في أوقات الشدة ، وأن نتوسل اليه في الصلوات حتى يصغي الى تضرعاتنا ، ولقد فعلنا ذلك بالقدس وطبقناه حقا بوساطة زياراتنا المتلاحقة للكنائس ، وبذرف الدموع ، وتقديم الصدقات ، ولجم الأجساد بالصيام ، وأعتقد انا أن الرب المطل من عليائه لن يغادر قبل أن يترك وراءه بركة (يوئيل : ١٤/٢) ولسوف يسمع صلواتنا .

تتواءم كل سلطة زمنية في مقام عزتها مع المرتبة التي

تمثلها ، ففي المقـام الأول هناك أغسـطس أو الامبـراطور ، ثـم القياصرة ، ثم الملوك والدوقات والكونتات ، فهذا مـاقاله البـابا كليمنت ، وأنا كليت وانيسيت وغيرهم كثير .

حمدا للرب في الأعالي الذي اعاد صور الينا ، لابقوة الرجال بل بعفو الخاطر وبدون سفك للدماء ، فصور مدينة نبيلة ، شديدة المنعة يصعب كثيرا الاستيلاء عليها لو لم يمد الرب عليها يمينه .

لقد خذلنا اهل انطـاكية وتخلوا عنا في هـذه المسـألة ، فـلاهم امدونا بالعون ولاهم رغبوا في حضور هذه المعركة ، ولتحل البـركة على بونز كونت طرابلس ، فقد كان حليفا أمينا مخلصا لنا ، ونأمل من الرب أن يصلح مابين كنيسـتي انطـاكية والقـدس ، بعـدما اختصمتا حول صور ، ثـالثهما في المكانة ، فقـد قـالت الكنيسـة الأولى : إن صور كانت تـابعة لهـا ايام اليونان ، بينمـا قـالت الكنيسة الثانية : إن مركزها قد ازداد قوة بالامتيازات التي خصها بها البابا في رومـا ، ذلك أن مجمـع أوفيرن ، ذلك المجمـع النافـذ الكلمة ، الذائع الصيت ، كان قد اصـدر بـالاجماع قـرارا بـدون معارضة ، قضى بوجوب الاحتفاظ بأية مدينة عبـر البحـر العـظيم يمكن انتزاعها من براثن الكفار الى ابد الدهر ، زد على هـذا أعيد تثبيت هذا القرار وسلم به الجميع في مجمع انطـاكية الذي تـرأسه أسقف لى بوي ، أضف الى ذلك : إن القدس هي البقعة التي استلم فيها غودفري والأمير بوهموند بلديهما من البطريرك ديمبرت محبـة بالرب ، وقد ثبت البابا باسكال هذه الامتيازات ، وفعـل ذلك مـن حين لآخر ، ونقلها الى كنيسة القدس ، ولسـوف تتمتـع كنيسـة القدس بحقوق هـذه الامتيازات ، مسـتندة الى سـلطان كنيسـة روما ، وستفعل ذلك أبد الدهر ، ووردت هذه الامتيازات في الوثيقـة التالية :

- ٢٩١٠ -

امتيازات البابا باسكال :

من باسكال خـادم عبيد الرب الى اخيه العظيم التبجيل غوبلين بطريرك القدس ، والى خلفائه في القوانين الكنسية .

تتغير ممالك الأرض وفقا لتبديلات الازمان ، لهذا السبب إنه من المؤلم أن تتغير حدود الابـرشيات الكنسـية وتتنقـل في معـظم المقاطعات ، وكانت حـدود الكنائس الآسـيوية قـد وزعت في قـديم الزمان وفقا لقواعد محددة مثبتة ، وقد أخل بقواعد هذا النظام تدفق شعوب شتى تدين بأديان مختلفة ، وبما أن كل من مدينتي انطـاكية والقدس والمقاطعات والمناطق المجاورة لهما قد اسـتردتا ـ بحمـد الرب ـ في زماننا الى سلطة الأمراء المسيحيين بات مـن الضروري أن نضع يدنا على هـذا التغيير والتحـول الربـاني ، وأن نتـدبر ماينبغي أن نتدبره بما يوائم هـذا الزمـان ، وبناء على ذلك : إننا نمنح كنيسة القدس جميع المدن والمقاطعات التي امتلكت ببركة الرب وبحكمة الملك بلدوين ، وبدماء الجيش الذي كان بامرته .

وبناء عليه اننا نضـفي عليك ونمنحـك ياغوبلين ، وأنت الأخ العزيز والشريك في الأسقفية ، والى من يخلفـك ومـن خـلا لك الى كنيسة القدس المقدسة ، بموجب هذا المرسـوم ، سـلطات الحـكم والتصرف بحقوق البطركية والمطـرانية في جميع المدن والمقـاطعات التي ارجعتها البركات الربانية الى سـلطان الملك المذكور ، أو قـد تتلطف وتتحنن في اعادتها في المستقبل .

ذلك انه من اللائق أن تحظى كنيسة قيامة الرب بالاجلال الجديرة به وفقا لرغبات جند الدين ، وأن تنعم الآن بعدما تحررت من براثن الاتراك والمسلمين بأكبر قدر من التبجيل على أيدي المسيحيين .

- ٢٩١١ -

توزيع الأراضي حول صور :

وسويت المشاكل في صور وفق قواعد الاصول ، وقسمت الممتلكات الى ثلاثة اقسام متساوية ، بحيث أعطي اثنان منهم الى سلطة المدينة ، أما الجزء الثالث فقد اعطي الى البنادقة ، وقد وقع هذا الجزء داخل المدينة وحول المرفأ ، وفي الحقيقة منح للبنادقة نتيجة لتنازلات متبادلة ، تم الاتفاق عليها واحدا إثر الآخر ، وقضى التقسيم باحتفاظ كل فريق بحصته حقا وراثيا مؤبدا ، وبعد هذا عاد الجميع الى بلادهم ، فقد عاد البطريرك وجند القدس الى القدس حيث استقبل رجال الأكليروس والشعب الصليب المقدس بالاجلال اللائق .

الشارات التي ظهرت في تلك الآونة :

ظهرت لنا الشمس في تلك الآونة بلون باهر لمدة ساعة ، ومالبثت ان تبدلت بجمال ارجواني غير مألوف ، ثم انقلبت الى شكل قمري ، كما لو كانت في حالة كسوف مزدوج ، وقد وقع ذلك في اليوم الثالث قبل منتصف شهر أب ، عندما أوشكت الساعة التاسعة على الانغلاق .

وعليك الا تدهش لدى رؤية الشارات في السماء ، لأن الرب يظهر اياته هناك كما يظهرها على الأرض فكما يصنع في السماء يفعل على الأرض يبدل ويدبر الأمور حسب مشيئته ، وصحيح أن جميع الأمور التي يصنعها الرب رائعة حقا ، فان الرب نفسه الذي يصنع هذه الأمور يفوقها روعة ، وانني اتوسل اليك ان تتمعن بالأمور ، وتفكر مليا وتتبصر كيف حول الرب في زمننا هذا الغرب نحو الشرق .

ذلك ان الذين كانوا غربيين بـــاتوا الآن شرقيين ، والذي كان روميا او فرنجيا قـــد تحـــول في هـــذه البــــلاد الى جليلي او فلسطيني ، ومن قدم من الرايم او تشارترز صار الآن مـــن اهـــالي صور أو انطاكية ، ولقد نسينا الآن اماكن ولادتنا فهي قد بـــاتت الآن غير معروفة لدى الكثيرين منا ، ونادرا مايرد ذكرها .

ويمتلك بعضنا الآن البيوت والمساكن بالميراث ، كما اتخذ بعضنا زوجاتا لهم لا مـــن بنات جلدتهـــم ، بـــل مـــن السريانيات او الارمنيات ، بل وحتى من نساء السراسنة اللواتـي حظين ببـركة العماد ، وقد يسكن مع الواحد منا ختنة او زوجة ولده ، أو ابنه ان لم يكن ابـــن زوجتـــه أو زوج امـــه ، ولدينا الآن احفـــاد أولاد وأحفاد ، ويعتني بعضنا بـزراعة الكرمـة ، ويحـــرث آخـــرون الحقول .

وأخذ الناس يلجاون الى اعتماد التعابير من لغـات شـتى ، كذا استعمال البيان في التحادث فيما بينهم ، فقد غدت كلمات كثيرة من لغات مختلفة ملكية مشتركة تعرفها كل امة ، ويوحد الدين فيما بين الذين جهلوا أصلهم ، وحقا صح ماورد في الكتاب « الذئب والحمل يرعيان معـــــا والاســـــد يأكل التبـــــــن كالثور » (اشعيا : ٦٥ / ٢٥) وأصبح الذي ولد غريبا كمن ولد هنا ، ومن ولد أجنبيا صار مثل ابن البلد .

وينضـــم الينا بين أونة واخـــرى اقـــرباؤنا وابـــاؤنا وذوونا ، مضحين ـ وان كان على مضض ـ بكل ماملكت ايديهـم فيما مضى وقد جعل الرب الذين كانوا فقراء في الغرب أثرياء في هـــذه الديار ، والذين كان لديهم قليل من مال امتلكوا الآن هنا مالايحصى من القطع الذهبية ، ومن لم تكن لديهـم دار امتلكوا بنعمـة الرب مدينة .

فلماذا اذن يرجع الى الغرب من وجـد الشرق هـكذا ؟ فـالرب

لايريد أن يعاني من العوز والفاقة الذين كرسوا انفسهم على اتباعة بصلبانهم حتى النهاية .

فانت ترى اذن ، ان هذه اية خارقة ، ينبغي على العالم بـأسره ان يبدي اعجابه بها ، فمن الذي سمع بأمر مثل هذا ، فالرب يرغب في ان يغنينا جميعا ويقربنا منه لنكون أعز اصدقائه ، ولأنه يرغب في هذا ادنا نتوق شوقا اليه بشكل مطلق ، ونحـن نقـوم بمـا ينال ..اه بقلب تغمره المحبة والخضوع حتى نتولى الملك معـه الى ابـد الأبدين .

اطلاق سراح الملك من الأسر وحصار مدينة حلب :

بفضل من الرب القدير ، أطلق سراح ملك القدس من الأسر على يد الترك ، في اليوم الرابع قبل مطلع شـهر ايلول ، بعـدما أمضى في السجن نيفا وستة عشر شهرا ، ونظرا لأنه توجب عليه تقديم رهائن مختارة مقابل اطلاق سراحـه ، أنه لم يمض حـرا طليقـا بـدون مثبطات ، فقد ارغم هو والرهائن على القلق حـول مسـتقبل مبهـم يحفه الغموض .

وبعد هذا بوقت قصير ، واثر عقد بعض المداولات ، سارع الملك ــ بحكم الضرورة ــ الى حصـار مـدينة حلب ، وقصـد بـالقاء الحصار عليها اما ان ينتزع اطـلاق سراح رهـائنه امـا بـوساطة السكان انفسهم او امكانية احتلال المدينة ، لأنها كانت تعاني مـن المجاعة ، فهو قد علم فعلا انها كانت تشكو من شح الغذاء .

وتبعد هذه المدينة قرابة الأربعين ميلا عن انطاكية الكبرى ، فهنا جعل ابراهيم ــ وهو في طريقه من حران الى بلاد كنعان ــ رجـاله يرعون الماشية في هذا المرتع الخصب ، وقـد رعى منهـا الحـوامل

والتي سوف تحمل العجول ، وهنا قام بحلب الحليب في الدلاء ، وتخثيره ، ثم عصر الخثارة في اكياس وصنع الجبنة منها ، فقد كان ابراهيم موسرا لديه من المقتنيات من كل صنف .

وفي اليوم الثالث عشر قبل مطلع شهر كانون الثاني توفي البابا كاالتكستوس وفي عام ١١٢٥ لتجسيد مخلص الدنيا ، في الخمسعشرية الثالثة حاصر ملك القدس ورجاله مدينة حلب مدة خمسة أشهر ، غير انه لم ينجز شيئا ، فقد عبر الأتراك - وهم يقظين كعادتهم - نهر الفرات ، نهر الجنة العظيم (سفر التكوين : ٢ - ١٠ - ١٤) وزحفوا بسرعة قصوى نحو مدينة حلب بهدف فك الحصار عنها ، وذلك انهم كانوا يخشون ان تسقط حلب بعد امد قصير ان لم يغيثوها بالسرعة العظمى ، فقد كان قومنا قد اخذوا بحصارها منذ مدة طويلة .

لقد كان هناك سبعة آلاف فارس من الاعداء معهم نحوا من اربعة الاف جمل محملة بالقمح وغير ذلك من المؤن ، وعندما أخفق رجالنا في الانتصار على الأعداء اضطروا الى رفع الحصار والانسحاب في اليوم التالي الى الأثارب ، وهي أقرب موقع حصين وقع تحت سيطرتنا ، وبعد ماطاردتنا مجموعة من الأتراك لمسافة قصيرة فقدوا اثنين من أشجع رجالهم ، حيث سقطا عن فرسيهما فلقيا حتفهما ، وفقدنا نحن أحد تابعي المعسكر مع ستة خيام .

ووقع هجوم الاتراك في ليلة اليوم الرابع قبل بداية شهر شباط ، ولأن الأتراك باغتونا فقد وجدونا غير محتاطين واربكونا .

وانه لمقيت جدا ان يجري الحديث عن هذا الحدث ، وانه لمعيب جدا وشائن أن يعرف ، ثم انه ممل ومقيت ان يسمع ، ولكنني أنا الذي أرويه لن احيد عن الحقيقة ، وماذا اذن ، من الذي يستطيع ان

يقاوم مشيئة الرب ، فضلا عن هذا لقد صدق المثل الذي ضربه رجل حكيم حين قال :« الحوادث التي ماتزال في بطن الغيب لاتمنع ، ولاهي تسمح لنفسها في ان تهزم » وفي الحقيقة كان لابد لهجوم العدو هذا من الوقوع ، لكن مامن احد توقع ذلك سلفا ، ولو تم توقعه قبل وقوعه لما وقع مطلقا ، اذ ان الفكرة في الذهن تؤدي الى لاشيء الا اذا وجدت ارادة العمل ، ولو تنبأ احد بالهجوم لأدى الحال الى نقضه ولو نقض ماكان وقع .

وانسحب الملك بلدوين اخيرا الى انطاكية ، وذهب معه جوسلين ، وأما الرهائن التي قدمها الملك وقت اطلاق سراحه من الأسر فلاهم أعيدوا ولاهم افتدوا ، ومالبث ان عاد اهل القدس الى القدس وكذلك أهل طرابلس الى ديارهم .

ويكبح التدبير الرباني جماح من أفلح وفقا لمعايير القيم البشرية حتى لايغمره الغرور ، كما أنه يغبط الاشرار بحق حتى لايتمتعوا برفاهية الرخاء المديد .

ومن الذي يمنح كل خير ومن الذي يطرد كل شر غير الرب ، موجه النفس وسلوانها الذي يبصر من عليائه في السموات ، ويدرك الأمور كلها ، فمنذ أمد قصير أعطانا نحن المسيحيين بنعمة منه ، مدينة صور المجيدة الجبارة ، وانتزعها من ايدي الذين تملكوها ، وراق له الآن أن يسحب يده .

لعله ادخر كرمه للذين عظم ايمانهم من المزارعين ليتعهدوه بالعناية ، ولمن توفرت لديهم الرغبة والمقدرة على جني الثمار الوافرة منه في الموسم المناسب ، والحق يقال : ان بعض الناس اذا مازادت ثرواتهم قلت افعالهم ، وهم لايقدمون الشكر المتوجب عليهم لواهب كل الخيرات ، فضلا عن أنهم يقترفون الآثم ويخادعون

عندما يكذبون على الرب مرارا في تلك الامــور التـي وعدوا بهــا في صلواتهم ، لكنهم بخداعهم مايخدعون الا انفسهم .

استقبال الملك في القدس بفرحة عظيمة :

بعد أسر دام عامين على ايدي الكفار ، وبعد ما قيد بــالسلاسل بوحشية ، عاد الملك الى القدس ، ولقد اســتقبلناه جميعــا في اليوم الثالث قبل الخامس من نيسان في موكب رائع ، وكان قدومه مجرد زيارة فبعدما أمضى بيننا فتــرة وجيزة رجــع مسرعا الى انطــاكية إستجابة لدعوة تلقاها منها ، فقد دمر الاتراك تلك البلاد وكان اكبر قادتهم البرسقي الذي قاد ستة آلاف فارس .

البنادقة يدمرون في طــريق عودتهــم الى بــلادهم جــزر الامبراطور :

وصلتنا الأخبار في تلك الآونة أن البنادقة ، قاموا وهــم بــرحلة عودتهم الى بلادهم بعد الاستيلاء على مدينة صــور بــالاغارة على جزر الامبراطور (البيزنطي) التي مروا بها فأحدثوا فيها دمــارا وتنكيلا ، وهذه الجــزر هــي : رودس وميثـــون ، وســـاموس وشـــيوس ، فــدكوا الاســوار وحملوا معهــم الفتيان والفتيات الى السبي والعذاب ، ونهبوا الأموال والأســلاب مــن كل نوع ، ولما لم يكن بمقدورنا تغيير هذه الحقيقة بعد سماعنا لها ، بــكينا لما حــدث بحرقة ولامست الشفقة شغاف قلوبنا .

فقد تمرد أهل البندقية على الامبراطور ، واشتد غضبهم وحقدهم عليه ، فاستشاط منهم غضبا ، ثم احتدم غيظ كل طرف منهما على

الطرف الاخر ، وباتا عدوين لدودين حقا ، ولكن « ويل للعالم من العثرات ، ويل لذلك الانسان الذي تأتي به العثرات » (متى : ١٨ / ٧) فاذا كان الخطأ من جانب الامبراطور فهو اذن المبادر بالسوء ، واذا كان من جانب البنادقة فهم قد جلبوا على انفسهم هلاك الجحيم .

وفي الحقيقة تنبع جميع الآثام من الرعونة والعجرفة ، أولايكون الانسان متعجرفا عندما يأثم ويفعل ماحرم الرب ، فقد كان هدف البنادقة الثأر لأنفسهم ، وكان غرض الامبراطور الدفاع عن نفسه ، وهو يقول ان ذلك اكثر انصافا ، بيد ان الأبرياء الذين وقعوا في الوسط بينهما يعانون من الشقاء لذنوب لم يقترفوها ويهلكون من غير حق .

لكن مالذي يمكن أن يقال عن الذين لاينفكون عن القيام بأعمال القرصنة ، فيوقعون كل مايمكنهم من أضرار بحجاج الرب الذين يركبون البحر يريدون القدس ويتكبدون الجهود الشديدة والعناء محبة بالخالق ؟ واذا حققت البركة للودعاء (متى : ٥ / ٧٢) فأي رحمة تحق لفاقدي الضمير ؟ انهم ملعونون من الكنيسة ومحرومون ولسوف يهلكون غير تائبين من غدرهم وآثامهم ، وعندي إن هؤلاء القوم سوف يلقون في الجحيم وهم على قيد الحياة (المزامير : ٥٤/٦) فهم لم يطيعوا الرسل ، وتمردوا على البطريرك ولم يعبأوا به ، واستهانوا بكلام الآباء المقدسين .

وانا أعرف ماينبغي ان يقال فيهم ، ولست خائفا من أن اقوله ، ولسوف يأتي اليوم الذي سيسمعون ذلك من الرب ، وذلك القاضي العادل والحاكم الصارم لاأعرفكم ، من اين أنتم (لوقا : ١٣ / ١٢) انتم يامن تطلبون أن يفتح لكم الباب ، انكم قد اتيتم متأخرين ولم تجلبوا معكم خيرا ، وان الباب

قد اغلق (متى : ٢٥ / ١٠) لم تشاؤوا ان تصـغوا الي فيمـا مضى ، اما الآن ماأظن انه جدير بـي ان اصـغي اليكم ، وأنا الذي كنت مره قد دعوتـكم بـان قلت:« تعـالوا » اقـول الآن بحق « اذهبوا » (متـى : ١١ / ٢٨ ، ٢٥ / ٤١) «اقـول مااقول امين ولن اغير ماقلت باي حال من الاحوال » واقـول : ان ماتبقى لهم وينتظرهم رهيب لايطاق وسوف يكتب الشقاء السرمدي على الذين استحقوه .

اما الآن فسأتابع سرد الأحداث بتسلسلها الزمني ، وحتى أحقق ذلك ولكي لااقطع مسار الحديث فسـوف أعتني بتـدوين كل حـادث بايجاز .

المضار التي أحدثها البـرسقي والحـرب التـي شـنت ضده :

لذلك كله فان البرسقي الذي ذكرنا من قبل طـرفا مـن اخبـار شجاعته ووصفنا تجرده من المبادىء والاخلاق ، اقدم بعدما تزايدت قوة جيشه تدريجيا يوما اثر لخر ، على محاصرة مدينة اسمها كفـر طاب واستولى عليها بعد الحصار ، فاستسلمت له ، وسلمها وتنازل عنها الرجال الذين تركوا فيهـا للدفـاع عنهـا ، ذلك انه لم يعـد في مقدورهم الحفاظ على مواقعهم وقتا اطول ، ولم يبق لديهم امـل في استلام العون من اي مصدر كان ، فلا الملك وصـل اليهـم ولا كونت طرابلس الذي اصطحبه معه.

فضلاً عن هذا كله لم يكن مع الملك سوى حفنة من رجال القدس ، فقد كان اهل القدس قد اصابهم الانهاك لشدة الجهد الذي بذلوه الآن وفي العام المنصرم ، فكيف كان بمقدور الذين ماكادوا يستريحون في بيوتهم شهرا واحدا ان يحتملوا مثل هذا الجهد المتواصل ، يقينا انه لقاسي القلب كل امرىء لاتتحرك في نفسه عواطف الرحمة نحو الذين

يعيشون حول القدس ، الذين يتحملون الشقاء العظيم ويعانون ليلا ونهارا في خدمة الرب ، والذين يتساءلون - خشية - وهم يغادرون منازلهم عما اذا كانوا سيرجعون اليها ابدا ، واذا مضوا بعيدا كانوا بحكم الضرورة يحملون الاثقال من الاوعية والمؤونة.

واذا كانوا من الفقراء سواء من الفلاحين او من الحطابية فقد يقعون في الاسر او يقتلون على ايدي السودان في كمائن في الوهاد والاحراج ، ويباغتهم المصريون بغارات من البحر او من البر من هذه الناحية ، اما من ناحية الشمال فكان الاتراك يفاجئونهم ، وفي الحقيقة ان آذاننا مشنفة اسماع زعيق الابواق ، فلعل الحرب قام ضجيجها وجلجلت في الغار .، ولو اننا لن نزلق نحو العاصي لغدونا حقا اخلاء للرب بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.

وبعد ما اجتاح البرسقي اراضي سورية المجوفة ضرب الحصار حول قلعة زردنا ، وهو طامع في الاستيلاء عليها والحصول على كل مايتهيأ له ، غير انه اخفق في الوصل الى ماصبا اليه لذلك زحف على رأس جيشه نحو مدينة اعزاز واوشكت على السقوط ،ودنا وقت الهجوم الحاسم على حاميتها ، اذا بملكنا يصل على رأس ثلاثة عشر فيلقا من رجالنا معبئين في ترتيب كامل المعركة ، فقد اتخذ رجال انطاكية مواقعهم على الميمنة ووقف كونت طرابلس مع كونت الرها في اليسرة ، وكان موقع الملك في الساقة حيث وجدت كثافة التجمعات.

وكان الاتراك منقسمون الى احدى وعشرين فيلقا ، لذلك كان عددهم بالفعل متفوقا كثيرا ، وسحبوا قسيهم وفوقوها مشدودة الاوتار بعد أن نقلوها من ايديهم وأقروها على سواعدهم ، ثم هاجموا رجالنا ولم يلبثوا ان انقضوا عليهم بسيوف مشهرة حيث اشتبكوا معهم في قتال التحامي قريب.

ولم يتردد ملكنا طويلا اثر مشاهدته لما حدث فانقض على الاتراك متسلحا ومحميا بالصلوات وبشارة الصليب ، صارخا:« الرب يساعدنا» وفعل ذلك وسط صدح الابواق والضجيج المرتفع ، وامر رجاله في ان يحذوا حذوه ذلك انهم لم يقدموا على المبادرة بالهجوم ومباشرة القتال قبل ان يصدر الملك اوامره بذلك.

والحق يقال ، قاوم الاتراك في البداية بكل بسالة ، غير انهم ضعفوا ، ولحقهم الوهن بقدرة خالق الاكوان ، ودب فيهم اليأس ، وذشرت الملحمة العظمى الفوضى بين صفوفهم ، فولوا الأدبار ، وفر منهم من استطاع الفرار.

شعر :

طلعت الجوزاء خمس مرات
عندما وهبنا الرب هذا النصر

وقد وقعت هذه المعركة ـ التي سوف يخلد ذكراها تمجيدا للرب ـ في اليوم الثالث ، قبل منتصف حزيران اللافح .

عدد القتلى في هذه المعركة :

من غير الممكن معرفة عدد القتلى او الجرحى في هذه المعركة معرفة حقيقية ، ويندرج هذا على أي معركة اخرى ، لأن الاعداد الكبيرة يمكن تقديرها فقط ، وعندما يتفوه مختلف اصحاب المصنفات والكتاب بالكذب والبهتان ، فمرد ذلك في الواقع الى التزلف والمداهنة فهم يسعون الى اغداق المديح على رجالات بلادهم المنتصرين والى الافراط والمبالغة في اطراء قوة

بلادهم ، حتى ينتفع من ذلك أجيال الحاضر والمستقبل ، وبناء عليه من الجلي بكل وضوح ان يقدموا على المبالغة في تقدير عدد القتلى من الأعداء ، وتقليل – ان لم يحذفوا كلية – أرقام الخسائر التي تحل بأصدقائهم . فالكذب يتماشى هنا مع هذه القحة .

وعلى الرغم من هذا كله ذكر لنا الذين شهدوا هـذه المعـركة أن الفي تركي لاقوا حتفهم ، وبذلك شهد أيضـا الأتراك الذين فروا مـن القتال ، وقد هلك عدد هائل من الخيول من الطرفين نتيجة الانهـاك او بسبب العطش الشديد ، فقد كان يوم الملحمة قائظا وزادته شـدة الجهود ورفعت من حـرارته ، وكانت معـركة شـديدة قـد وقعت ، أصاب فيها قوم جنات النعيم وهلك آخرون ، وهـرب قـوم وطاردهم آخرون ولم ينج من المضـار أحـد ، فـاحمرت الحقـول وصبغت بـدم الهـالكين الطـرقات ، وتـلألأت الدروع والسايفات ، واشعت الخوذ وأسنة الرماح والقي بالمعدات البـراقة على الأرض في كل جانب ، فقد رمى واحد بدرعه وقذف آخر بكنانته أو قوسه .

ولم يرغب البرسقي في ادخار جهده للقتال ، لكن طغتكين آثر أن يقيم حالي القـدمين في دمشـق وان يحـافظ على ملكه بحـذر وحكمة ، وخسر الأتراك في المعركة خمسـة عشر اميرا ، ولم نفقـد أكثر من عشرين رجلا ، كان خمسة منهم فقط من الفـرسان وكان قوام جيشنا قبل المعركة الف ومـائة فـارس مـع الفين مـن الرجالة ، بينما كان لدى الأتراك خمسة عشر الف مقاتل .

فدية ابنة الملك :

عبر البرسقي نهر الفرات ، بعـدما تسـكع في ديارنا لعـدة أيام فقط ، وقد رجع الى بلاده دون أن يحمـل الى أصـدقائه في المشرق (فارس) المجد والفخار ، بل نقل معه الفجيعة والعـار ، فهـذا الذي قدم الى هذه الديار مهـددا متـوعدا انكفـأ - بفضـل الرب - محروما من الشفقة مدحورا .

وسارع الملك بدوره بالذهاب الى القدس بعدما دفع فـدية ابنتـه التي كانت في الخامسة من عمرها ، فقد كانت رهينة وكذلك دفع عن عدد من خدمه الذي كانوا في الأسر ، لقـد مضى الى القـدس ليقـدم الشكر للرب ويخصه بالحمد ، فبعدما سحق وداسته الأرجل لفتـرة مديدة ، ونزلت به عجلة الحظ الى الحضيض حتى ان كاد يسـتسلم في بؤس وخزي ، أعادته مشـيئة الرب الآن قـويا ، وأرجعـت اليه مجده الخالص .

شعر :

لقد انقضت الآن ستة أضعاف العشرة مع ضعفي الثلاثة أعوام منذ أن ولدت الى يومنا هذا

لعل الرب يقضي بالشيء نفسه ويحكم فيما تبقى من أيام حياتي .

- ٢٩٢٣ -

القلعة التي شيدها الملك :

شيد الملك في شهر تشرين الأول من هذا العام ، قلعة في الجبال الواقعة فوق بيروت في منطقة عظيمة الخصب وسماها قلعة جبل غلافينوس وذلك اشتقاقا من « ديغلاديو » ذلك ان من يحكم عليه بالاعدام في بيروت كانت تقطع رأسه هنا ، ويعدت هذه القلعة عن بيروت ستة أميال وكان الفلاحون السراسنة يرفضون في الماضي دفع الخراج عن أراضيهم ، أما الآن فقد أرغموا على فعل ذلك .

حملة الملك والمعركة مع الأتراك :

قام الملك بعد هذا مباشرة بالاعداد لحملة على دمشق في سورية ، ذلك ان السلام بينه وبين طغتكين قد خرق ، فاحتل ودمر ، وخرب ثلاثا من أغنى القرى ، ثم عاد نحو بلاده ومعه من الغنائم كلما تمكن من حملة ، وبعد ماقسم المغانم ووزعها بين الفرسان وسواهم ممن كان معه ، وفقا للقواعد العادلة المرعية ، وجه قواته في اليوم التالي في حملة نحو بلاد الفلسطينيين .

وكانت في تلك الآونة قد تجمعت قوات جديدة في عسقلان ، وكان قد جرى ارسالها من القاهرة ، وخيل لقواتنا من الفرسان — وهي راغبة في اظهار شجاعتها على أراضينا — انها سوف تنتصر الآن ، ولما رأى أهالي عسقلان المدينة المذكورة رجالنا يتقدمون بأعلام منشورة خرجوا للتصدي لهم بكل جسارة ، وهم يطلقون الصرخات العالية .

ولم يكن الملك — دهاء منه — قد تقدم بعد نحو الصف الأمامي حيث رجاله ، وتلكأ في الساقة حتى يقدم يد العون عندما تقتضي الضرورة ، فيما لو جرب بعض رجاله الفرار خلسة ، وهاجم فرساننا الذين كانوا في الصفوف الأمامية العدو وبضراوة لاتصدق ، ذلك أنه لم تعوزهم الشجاعة ، وحملوا وهم يصرخون « الرب يعيننا » فسحقوا العدو ، وحسب معلوماتي انه لو توفر لنا بضعة رجال أخرين جاهزين في ذلك الموقع ، لأمكنهم بكل تأكيد اختراق عسقلان مع الذين اشتركوا في المطاردة .

وندب وبكى من بقي من أهالي عسقلان على قيد الحياة ، على مقتل اكثر من أربعين من خيرة رجالهم ، وقد أصيبوا بصدمة هائلة نتيجة لهذه النكبة ، التي لم تكن بالحسبان ، وبعدما صدحت الأبواق ايذانا بوقف القتال ، أراح الملك رجاله تلك الليلة خارج المدينة على مقربة منها ، وفي الوقت الذي رقد فيه رجالنا ببركة الرب ، امضى العدو ليلته ساهدا تعيسا ، وكما قال يوسفيوس :« من عظمت ثقته بنفسه قل احتراسه ، بيد ان الخوف يعلم الحكمة » .

وينبغي ان ننوه أن فرساننا الذي كانوا في المقدمة في ذلك اليوم لم يعثروا على اية فريسة حول المدينة ، فقد كان أهل عسقلان قد أخفوا بتدبر قطعانهم ذلك أنهم كانوا قد اخطروا بقدوم الملك.

المسلمون يبعثون بالرسائل بوساطة الحمام:

من عادات المسلمين الذين يسكنون فلسطين نقل الحمام من مدينة الى اخرى لكي تحمل الرسائل في عودتها الى المدينة التي كانت مؤخرا موطنا لها ، فترشد هذه الرسائل — التي تكتب عادة على

ورق ، وتعلق بأقدام الطيور ـ من يعثر عليهـا ويقـرأها الى الذي ينبغي عمله إثر ذلك ، ومن الجلي أن هذا قد حدث في هذ ه المناسبة.

تنوع العادات:

تختلف العادات وتتبـاين التقـاليد حسـب تعـدد البلدان وتنوعها ، فلفرنسا عادات خاصة وكذلك لانكلترا ومصر والهند لكل منها عادات أخـرى ، وكذلك تختلف البلدان عن بعضـها بـالطيور والأشجار ، فأنا لم أشـاهد في فلسـطين الحـوت ولا سـمك الجلكي ، ولم أر بين طيورها غراب العقعق ولا الشـادي ، وفيهـا حمر وحشية ، وقنافذ شوكية ، بالاضافة الى الضباع التي تحفـر قبور الأموات ، ولم أجـد بين شـجرها شـجر الحـور والبندق والبيلسان والآس البري ولا القبقب.

انواع مختلفة من الافاعي والبهائم في بلاد المسلمين

رأينا جميعا مؤخرا حـول نابلس حيوانا لم يعـرف انسـان منا اسمه ولم يسمع به من قبل ، له وجه كذكر الماعز ، ورقبـة كرقبـة الحمار الصغير ، وأظلاف مشقوقة وذيل كذيل العجل (تيس) وهـو أكبر من الكبش.

وفي مصر حيوان آخـر يدعونه هناك « الكمير » وهـو طـويل في مقدمته وليس في مؤخرته ، وقد اعتادوا أن يلقـوا عليه أيام الأعياد أنفس الأردية بالاضافة الى أشياء فخمة أخرى مما كانوا يرغبون في تقديمه الى أميرهم ، وهنالك أيضا التمساح ، ذلك الحيوان الشرير الرباعي الأقـدام ، الذي يعيش على اليابسـة وفي الانهـار بإلفـة متساوية ، وليس لديه لسان ، بل يحرك فكه العلوي فتطبق عضـته بقوة هائلة واحكام ، وهو ينمـو حتـى يفـوق طـوله العشرين

ذراعا ، ويبيض بيضا مثل الوز ، ويفقس صغاره فقط في المواقع التي لا يصل اليها النيل ، عند ارتفاعه في مده ، وهو مسلح بمخالب ضخمة جدا ويعيش في المياه أثناء الليل بينما يتمدد على اليابسة أثناء النهار ويغلفه جلد خشن ثخين.

ويوجد من هذه الرباعية الأقدام في واحد من جداول قيسارية فلسطين ، ويقال أنها أحضرت بالخداع والمكر مؤخرا من النيل ذاته ، لذلك هي كثيرا ما تلتهم الآن الحيوانات الأخرى وتسبب كثيرا من الأذى في تلك الأنحاء.

أما جاموس النهر (سيد قشطة) فيعيش في نهر النيل فقط ، وكذلك في الهند ، وهو يشبه الفرس في ظهره وعرفه وفي صهيله وشموخ أنفه وانشقاق حوافره ، والتصاق أسنانه والتواء ذيله ، ومن عادته الرعي في حقول القمح في الليل ، تجده يقترب منها مشيحا بوجهه عنها مكرا وخديعة ، ويخلف وراءه أثرا مضللا حتى لا ينصب له أحد فخا في طريق عودته ، ويفوق جسد هذه الحيوان الفيل ضخامة ، ولقد خلق الله جميع الحيوانات صغيرها وكبيرها والذي يرضيه مما خلق لا بد أن يرضينا ، ولهذا وجب علينا أن نقدم له الحمد والشكر.

وفم التنين صغير ، وهو لا يستخدمه للعض لأنه نوع من أنواع المسالك يتنفس هذا الحيوان من خلاله ، ومنه يبرز لسانه ، ولهذا فإن سمه في ذيله وليس في أسنانه ، وهو لا يسبب الأذى باللدغ بل بالدق والالتفاف والعصر ، ويمكن أن ينحت حجر برأسه ، والتنين هو أكبر الأفاعي على الاطلاق ، إن لم يكن أكبر الكائنات الحية على وجه البسيطة ، وكثيرا ما يغرى لمغادرة كهفه الى العراء ، فتثور وقتها في الجو ضوضاء كبيرة ، ولهذا الحيوان عرفا ، ثم إن كل ما يقبض عليه يهلك حالا ، وفي الحقيقة إن الفيل على ضخامة حجمه لا يأمن من شره ، وهو يتوالد في الهند وفي السودان في حرارة الصيف

الدائم ، ويكمن متربصا حول الممرات التي تمر بها الفيلة ، ويربط أقدام ضحيته ويعقدها فتهلك خنقا وهو ليس لديه أرجل.

ويوجد الرخم في سكيثيا الآسيوية (شمال البحر الأسود) وهو طائر شديد التوحش معتوه يتخطى حدود الجنون ، ثم هنالك « الهركانيون » وهم جنس وحشي يسكن الأدغال ، تعج بلادهم بالبهائم الوحشية العملاقة ، ومن بينها النمور ، ويمتاز هذا النوع من الحيوانات بترقيطاته الصفراء اللامعة ، ولست أدري ما الذي يمده بالسرعة في العدو ، أهي رشاقة حركته الطبيعية ، أم هو عزمه وتصميمه ، وما من شيء يركض سريعا قبله فلا يستطيع النمر أن يلحق به بسرعة ، ومامن شيء يسبقه النمر فيستطيع أن يلحق به.
ويوجد في « هيركانيا » فهود تغطيها بقع صغيرة ، ويروي أن قطعانا من الحيوانات الأخرى تتأثر بشكل عجيب برائحتها ومنظرها ، وعندما تشعر هذه الحيوانات بوجود الفهود تحتشد مع بعضها على شكل قطيع ، وعندها لا تخاف سوى من منظر أنياب الفهد ، وتقتل الفهود بالسم أكثر منها بالسلاح ، وذلك لتشبثها الشديد بالحياة.

ويشابه الجمل البغل ببروز شفته العليا ، وهو لهذا لا يقرر أن يرعي إلا إذا مشى الى الخلف وتتكاثر الحرباء ، وهو حيوان رباعي الأقدام في الهند على الأكثر ، والحرباء تشبه السحلية ، غير أن أقدامها مستقيمة وطويلة وتلتصق ببطنها ولها ذيل طويل أعوج ، ومخالب تنحني برقه ، والحرباء ذات مشية بطيئة وجسد خشن ، وجلد كجلد التماسيح ، وفمها فاغر على الدوام وليس لها فائدة تعد ، ويعافها الغراب الأسود ، وهي تقتل من يميتها فإذا ما قتلها الغراب قتلته ، لأن الغراب اذا التهم من جسد الحرباء لقمة صغيرة يموت لتوه ، على أنه في هذه الحال للغراب علاج يتماثل بتناوله الى الشفاء ، وهو ورق الغار ، وليس في جسد الحرباء لحم ، ولا في احشائها طحال ، وهي تكتسب لون ما يحيط بها.

شعر :

هي تدعى سلمندر بالاغريقية وستيليو باللاتينية
وتلك الستيليو الملتهبة هي السلمندر الحرباء الخشنة.
لديها ثلاثة أسماء ولكنها شيء واحد فقط.

وهنالك طير يدعى الفرس المجنح ، مع انه ليس له من صفات الفرس غير الاذنان ، وهنالك أقوام طوال القامات قادرون على امتطاء الفيلة بسهولة كما لو انها خيول ، وهؤلاء من الجنس الأبيض في صغرهم غير انهم يزدادون سوادا مع تقدمهم بالسن.
ويفوق الوحش الأبيض جميع حيوانات البرية في سرعته ، وهو بحجم حمار الوحش وله عجز كعجز الوعل وصدر كصدر الأسد وأقدام كأقدامه ، ورأس كرأس الغرير ، وحوافره مشقوقة ويمتد فمه من أذن الى أذن ، وله عظام متصلة بدل الأسنان ، وكذلك شكله من الناحية الأخرى وصوته يقلد صوت الانسان.

ويتوالد بينها وحش يدعى المنتقيور ، وله ثلاثة صفوف من الأسنان تنطبق وتستعمل بالتناوب ، وله وجه كوجه الانسان ، وعينان براقتان ، ولون دموي أحمر ، وجسد مثل جسد الأسد ، وذيل شائك فيه زعانف مثل العقرب ، وله صوت صفيري كأنه نغم الناي ، وهو يسعى بشراهه في طلب اللحم البشري ، كما أنه خفيف الحركة ويستطيع أن يقفز بعيدا ، فلا تستوعبه أوسع الأماكن ولا تعيقه أشد العراقيل.

من ذا الذي يستطيع أن يفقه آيات الرب أو يسبر غورها ، في تعددها وعظمتها في خضم بحر الحياة الشاسع الواسع حيث تعيش شتى انواع الحيوانات والزواحف التي تفوق الحصر؟ ولقد اقتبست الذي أوردته هنا على ايجازه من الكاتب سولينوس الذي فاق على

الباحثين همة ومهارة ، أمـا مـا وجـده الاسـكندر الكبير في الهند وشاهده هناك فسوف أحكيه فيما بعد ، أو على الأقل سأروي بعضا منه.

لقد شارف هذا العام الآن على الانتهـاء فليمض الرب في حـكمه على سنة هذا الزمن ، ويندمج الآن هذا العام في العام المقبل.

حملة ملك القدس على ملك دمشق:

في عام ١١٢٦ لتجسيد مولانا ، وخـلال الخمس عشرية الثـالثة بعد الاحتفال بعيد الميلاد في القدس ، حشد الملك جيشه بهدف شـن هجوم على ملك دمشق ، وبعدما أعلن المستنفزون التعبئة ، تحركت الطاقة البشرية في مملكة القـدس ، تحـركت بـرمتها فـرسانا ومشاة ، وزحـف رجـال يافـا والرملة وكذلك اللد عبـر نابلس ، وساروا على طريق بيسان بينما سار رجـال عكا وصـور على الطريق الشمالية.

وتحت قيادة الملك عادروا بلدة صفورية ، وكان جبل طـابور على يمينهم ، ووصلوا الى طبـرية ، وهناك انضـم اليهـم رجـال القدس ، ثم عبروا جميعـا نهـر الأردن ، واسـتراحوا بـأمان في معسكرهم.

شعر:

عم الهدوء والسكون في تلك الليلة الصافية.
وأضاءت الأهلة القمر السادس عشر

وعند بزوغ الفجر زعقت الأبواق اشارة الرحيل ، ليغادر الرجال معسكرهم ، فكان أن قوضوا خيامهم واستعدوا جميعا لاستئناف المسير ، ووضعوا أثقالهم وأمتعتهم على ظهور بغالهم وجمالهم وبقية دواب التحميل ، مما أثار كثيرا من الجلبة ، وتعالت الأصوات ونهقت الحمير وصهلت الخيول وارتفع رغاء الجمال ، ثم بدأ الكشافة في استطلاع الممرات للمشاة ، وعندما زعقت البوقات ، اختار الرجال بكل عناية أفضل الطرق لزحفهم.

وبعدما توغلوا في بلاد الأعداء ، وافقوا بعقل على الزحف بأعلام منكسة ، ولبسوا دروعهم خشية أن يباغتهم خطر ليس بالحسبان ، ثم اجتازوا شعاب وادي الراحوب ودخلوا الى منطقة دمشق وقضوا ليلتين خلف الوادي ، وينبع من هنا جدول يجري نحو بيسان من خلال بحر الجليل ثم يصب بالأردن ، وبعد هذا دمروا حصنا عبروه في طريقهم ، وهكذا وصلوا الى موقع حصين اسمه سالومي ، فخرج السريان والنصارى الذين قطنوا هناك في موكب لاستقبال الملك.

وأقبلوا بعد ذلك على واد اسمه « مرج الصفر » وذلك هو المكان الذي ضرب الرب فيه الرسول بولس ، و فقد بصره لمدة ثلاثة أيام (أعمال الرسل : ٩ / ٣ ـ ٩) وهناك توقفوا لمدة يومين ، ومن هناك شاهدوا خيام أهل دمشق الذين يتربصون هناك بانتظار جيشنا.

وعاد (بوري) ابن الملك طغتكين بعد أن كان غائبا ، حيث جمع بهمة ونشاط قوة مكونة من ثلاثة آلاف فارس ، حشدها من جميع الجهات ، والتحق بوالده استعدادا للمعركة ، وكان وصوله في اليوم الذي تقدم على المعركة.

وفي الحال تم ترتيب فـرساننا ورجـالتنا في اثني عشر كردوسـا وهي طريقة تمكنهم مـن أن يدعم واحـدهم الآخـر عند اقتضـاء الضرورة ، وبعدما شارك الجميع في القداس وتناولوا خبـز الشركة المقدس ، ضموا صفوفهم على خط القتال ، ثـم شرعوا في القتـال وهم ينادون « الرب يعيننا » .

وهلل الاتراك أيضا وقاتلوا بشجاعة وعنف ، ودهشوا للبسـالة التي ابداها هؤلاء الذين استخفوا بهم وكأنهـم كانوا قـد قهـروهم فعلا ، فتخلت عنهم شجاعتهم ، وعزموا على الفرار بعدما خـارت عزائمهم ، فانهزم طغتكين وكذلك فعل ابنه ، واشـتد الحـال وزاد الضغط على رجالنا وبـات عليهـم أن يحتملوا فـوق القـدرة على الاحتمال ، ومع هـذا ارتفعـت شـجاعتهم وازدادت أكثـر فأكثر ، وهكذا ظلوا ثابتين صامدين في عزيمتهم.

على أن وابلا من سهام الأتراك انهمرت على المسيحيين فما سلم جزء من أجسادهم من كدم أو كلم ، والحق يقال لم يشهد رجالنا قط معركة أشد عنفا أو أعظـم هـولا ، لهـذا كانوا يتـراكضون محتدين ، وقد تعالى صـخب المعـركة حـولهم وحمـي وطيسها ، وتعالت زعقات الأبواق وأصوات النفر .

وفي ذلك الوقت طوق الاتراك رجالنا ، وأصابوا عددا كبيرا منهـم بجراح ، فلاذوا بالفرار لكنهم بعدما جربوا ذلك لمسافة اربعة أميال عطفوا رؤوس خيولهم ورجعوا على الأتـراك كمـا وجـب عليهـم ولزم ، وباشروا القتال وقد ارتفعت حماستهم واشتد اقبـالهم على الحرب .

- ٢٩٣٢ -

شعر:

وافق يوم المعركة المقدس هذا يوم الذكرى السنوية
لاعتناق بولس دينه ، بولس الذي اصطفاه الرب.

ونشب قتال هذه المعركة في الساعة الثالثة من النهار ، ووضعت العتمة حدا له بنصر منحنا اياه الرب.

المعركة محفوفة بالمخاطر ، والفرار عار وخزي فاضح ، ولكن قد يكون من الأنسب أن يعيش المرء مستضعفا على أن يموت ويندب موته الى الأبد ، لهذا آثر الأتراك الفرار لكي يحافظوا على حياتهم ، وفي الحقيقة لاقى أكثر من ألفي فارس تركي حتفهم على أرض المعركة فضلا عن الرجالة الذين لم يرد ذكرهم ، وفقدنا نحن أربعة عشر فارسا وثمانين من الرجالة.

وكان تصرف مليكنا في ذلك اليوم رائعا ، ومثله كان تصرف فرسانه ورجال معسكره جميعا ، حيث أن الرب القدير كان معهم بذاته ، وفر ملك سورية وكل من تمكن من اللحاق به ، وعاد مليكنا الى القدس وقد امتلأ نشوة بظفره.

وبعد صدور الأوامر بالعودة حاصر رجالنا حصنا كان فيه ستة وتسعون رجلا ، فاستولوا عليه وقتلوهم كما استولى الملك على حصن آخر كان فيه عشرين تركيا ، قد التجأوا اليه ، وعندما تيقن هؤلاء ان رجالنا بدأوا بالحفر حول الحصن وبنزع الحجارة الكبيرة من السور استسلموا وتخلوا عن حصنهم المنيع الى الملك لشدة خوفهم ، واذن لهم الملك بالمغادرة حسب اتفاق التسليم ، ثم هدم الحصن ، واملت تدميره ضرورات المصلحة ، ذلك أن حصانته كانت ستغوي الكثيرين بالتمرد ، إذ كان من الممكن أن يصلح ملجأ أمينا لمن يملكه ، فيصمد فيه فيكون مصدرا للريبة والقلق لمن يهاجمه.

علني أسبب الضجر للسامعين لروايتي لو أنني حكيت كل التفاصيل التي حدثت في الحرب أو نتجت عنها ، سواء بالعنف أو بالحيلة ، فقد أحضر أهالي دمشق معهم شبانا انتقوهم لرشاقتهم في الحركة ، وكانوا مسلحين ، وقد امتطوا الخيول وراء الفرسان الأتراك ، وفور مقابلة الأعداء ترجلوا بسرعة وقاتلوا كمشاة ، بينما تابع الفرسان الذين أحضروهم القتال في الجانب الآخر.

حصار مدينة رفنية ونهر سبتكس:

كتب الأوائل « ليس هناك شيء مبارك من كل ناحية » وهكذا ليس من الممكن أن تكون البركة الكاملة قد حصلت في هذه المعركة ، إذ أننا فقدنا أربعة عشر من خيرة فرساننا وذلك بالاضافة الى بعض الرجالة الشجعان ، لكن ذلك لا يذكر أمام المذبحة التي حلت بين صفوف الأعداء .

وتفسر كلمة دمشق بأنها « شرب الدم » أو « تقبيل الدم » ، فقد قرأنا أنه في دمشق جرى سفك دم هابيل ، وبالفعل إن أهل دمشق قادرين على الاغتسال بدم القتلى ، بل أكثر من هذا قادرين على أن يشربوا من دم انفسهم بأن يطرحوا انفسهم متمددين ووجوههم منبطحة على الأرض.

وأخيرا عاد الملك مع جيشه الى القدس حيث أمضى الجميع ذلك اليوم في اجازة ، وفي تقديم صلوات الشكر ، وبعد أمد وجيز استجاب الملك لتوسلات كونت طرابلس ، وزحف لاعانته في حصار بلدة تدعى رفنية تقع على سفح جبل لبنان ، وحسبما ذكر يوسفيوس في هذه المنطقة « ما بين أرشاص ورفنية يجري نهر له صفة فريدة عجيبة ، ذلك أنه سريع التيار عندما تتدفق مياهه ، غير

أن ينابيعه تنضب بعد ستة أيام حتى يبدو موقعه وكأنه قد جـف وفي اليوم السابع وبدون أي سبب ظاهر يرتفع ماء النهر ثـانية ، ولقـد وجـد انه يعيد تـكرار هـذه العملية على الدوام وحسـب الوتيرة نفسها ، ولذلك دعي هذا النهر بالنهر السبتي ـ سبتكس ـ نسـبة الى السبت ، وهو اليوم السابع من الاسـبوع ، وهـو أيضـا اليوم الذي يقدسه اليهود.

وبـالفعل قضى الأمير طيطس بعض الوقـت حـول بيروت ، ثـم غادرها وهو يثني على هذا المشهد الذي فاق بروعته كل ماشاهده في المدن السورية التي زارها ، وقد ازداد اعجابه بهـذا النهـر (فـوار الدير) ورأى ظاهرة جديرة بالتقدير العفوي.

شأن نهر آخر

ويحكي المؤرخ نفسه خبر أعجوبه اخرى ، فيقول إنه على مقربة من مدينة عكا كان هنالك جـدول (نهر النعامين) ضـئيل المياه كثيرا ، يبعد حـوالي ربـع ميل عن المدينة ويدعي « بيلوس » وهـو قرب كنيسة ممنون ، وهو بالفعل جدير بكل اعجاب ، لأنه على شكل واد مستدير ، وهو ينتج رملا زجاجيا ، وبعد أن تـأتي المراكب اليه وتنقل الرمل منه يعـود الموقـع فيمتليء بـالرمل ، وتحمـل الرياح بطبيعتها رمالا أخرى من التـلال المحيطـة بـالوادي ، والذي يثير عجبي فوق هذا كله ، انه كلما طرح جزء من ذلك الرمل الزجاجي الى حافة المكان عاد ثانية ليصبح رملا عاديا.

الاستيلاء على مدينة رفنية :

سقطت رفنية التي تقدمت مني الاشـارة اليهـا بـاقتضاب على

النحو التالي: بعدما حـاصر الملك والكونت المسـلمين داخلهـا لمدة ثماني عشر يوما ، وبعد قذفها بشدة بحجـارة المجـانيق اسـتسلم سكان المدينة وغادرها دون أن يمسسهم اذى ، ووقـع ذلك في أخـر أيام اذار ، وهكذا تسلم كونت طرابلس المدينة وبات سيدها منذ ذلك الحين وقد اعاد تحصينها ، لكن ملك القدس رجع الى القدس.

وفاة الأمبراطور الروماني:

فيما كنا نحتفل بعيد الفصح (١١ ـ نيسان ١١٢٦) في القدس نقل إلينا الحجاج اخبارا افادت بوفاة الأمبراطور الروماني(هنري الخامس ـ ت ٢٣ / ٥ / ١١٢٥) واضافت أن دوق سكسوني المدعو لوثير قد ارتقى عرش الأمبراطورية .

شعر

عندما توفي هنري اثار برج العذراء
وإثر ذلك حكم لوثير ابن الدوق وغدا ملكا .

حملة الملك على المصريين:

شرع الملك بعد فترة وجيزة في إعداد حملة من مدينة صور ، وهبط نحو سورية السفلى (الشمالية) بعـد أن خلف وراءه قسـما مـن فرسانه واصطحب معه القسم الآخر ، وقد فعل ذلك على الرغم مـن سماعه بأقاويل حكت عن استعدادات للمصريين للحرب ، وبـوشوك زحفهم ضدنا .

فلقد عزم على المبادرة إلى الموقع الذي سمع أن العدو سوف يهاجمه ، فالملك بلدوين كان مثله مثل الخنزير الكاسر ، وقد أحاطت به الكلاب من كل جانب تنهشه بعضاتها المتوالية ، فاضطر أن يدافع عن نفسه ويضرب يمينا ويسارا ، وينقض عليهم مكشرا عن أنيابه بكل شراسة ، وحسبما اعتدنا القول : « تمتد اليد إلى حيث يوجد الألم »

وكان الأتراك قبل وصول الملك إلى هناك قد احتلوا موقعا يشبه القلعة ، ولما كان ذلك الموقع مصدر ازعاج للأتراك فقد توجب علينا استرداده ، وكان جنودنا قد تسللوا منه بمهارة فائقة خلال الليل ناشدين النجاة ، وقد خلفوا وراءهم فيه أزواجهم وأولادهم ، ذلك انهم اثروا إنقاذ بعضهم على فقدان الجميع .

وفي منتصف تموز من ذلك الصيف بدا مذنب بالظهور مابين الشرق والشمال ، وقد ظهر قبيل الفجر وظل شعاعه يسطع حتى حوالي الساعة التاسعة ، ثم بدأ مثل ضوء خافت ، وبذلنا جهدنا لمدة ثمانية عشر يوما حتى ندرك مغزاه ، فلم نستطع فسلمنا ذلك إلى خالقنا أجمعين .

وحاصر الأتراك في تلك الآونة بلدة الأثارب ، وكان البرسقي ابرز قادتهم ، وما أن سمعوا بمقدم ملكنا الذي كان يتعقب خطاهم ، حتى انسحبوا إلى مواقع دفاعية أكثر أمانا ، وقد أحبطت مخططاتهم لأنه لم يكن لديهم ما يزيد على ستة الاف جندي ، ولهذا عاد الملك إلى انطاكية .

الأسطول المصري :

بعدما جدد المصريون في هذا العام أسطولهم وحشودهم أبحروا

تدفعهم ريح جنوبية ودخلوا إلى بلاد الفلسطينيين ، ومروا أولا بالفرما فالعريش فغزة ثم عسقلان ، وكذلك يافا وقيسارية وعكا وصور ، فاستطلعوا المنطقة وتفحصوا الشاطىء خلسة حتى حدود مدينة بيروت ، وتصيدوا وفتشوا من مرفأ إلى مرفأ ليروا فيما إذا كان بإمكانهم العثور على مايعود عليهم بالمنفعة وعلى المسيحيين بالضرر ، ولما كانوا آنذاك قد أخذوا يعانون كثيرا من شح المياه العذبة ، فقد اضطروا إلى النزول على اليابسة لكي يملأوا أوعيتهم من الجداول والينابيع وحتى يطفئوا ظمأهم .

واستاء سكان المدينة المذكورة من ذلك ، وخرجوا على الفور بكل جسارة وقاموا بدون تردد بشن هجوم عليهم ، وكان قد انضم إليهم بعض المسافرين الذين صدف وجودهم هناك ، وسقط من أولئك القراصنة مائة وثلاثين قتلى أو أنهم أصيبوا بجراح قاتلة ، وفي الحقيقة نزل خمسة آلاف من الأعداء إلى اليابسة ، وغادروا سفنهم ليقاتلوا رجالنا ، علما بأنه بقي في السفن من تولى العناية بها وحراستها ، وكان عدد السفن اثنتين وعشرين سفينة ثلاثية المجاذيف ، وثلاث وخمسين سفينة من أنواع أخرى .

وكان أعداؤنا قساة القلوب غلاظا ، لم يكن في قلوبهم شفقة على من استطاعوا أن يخضعوا لسيطرتهم ، يجدون متعة بممارسة وحشيتهم على بني جلدتنا .

ونحن نحمد الرب لأنهم لم يحققوا فائدة ترجى في هذه المرة ؛ حيث تمكن فرساننا برماحهم وقسيهم ونبالهم من صدهم ثم قذفوهم إلى البحر ، وأنزلوا بهم هزيمة نكراء لم تكن عندهم بالحسبان ، فنشروا أشرعتهم بدون تباطؤ ، وانحرفوا متجهين نحو طرابلس ، ثم قبرص .

- ٢٩٣٨ -

رحلة بوهيموند الأصغر :

وكان الحجاج والمراسلون قد نقلوا إلينا في ذلك العام مرارا وتكرارا تقارير أعلنت عن حضور بوهيموند الأصغر ، غير أن مانقلوه قد خدعنا وكان مجرد شائعات ، لأن بوهيموند خاف من الأسطول المصري ، أو الأصح أسطول القراصنة الذي علم أنه قد انتشر في البحر ، وفي الوقت نفسه كان بوهيموند شديد القلق على بلاده نفسها ، فقد خشي أنه إذا لم يحكم حفظها بين أتباعه فقد يفقدها بالمراوغة والاحتيال ، وبمختلف اساليب المكر والخداع ، وفعلا ورد في أمثال الفلاحين . « من لديه جار سيء فصباحه سيء » .

وبعدما أعد بوهيموند لرحلته مرارا تمكن أخيرا أن يجمع في أوترانتو – إحدى مدن أبوليا ـ أكبر عدد استطاعه من السفن لقد جمع إثنتين وعشرين سفينة ، كانت عشر منها من النوع الطويل المزود بالمجاذيف ، وسارع بالتحضير لرحلته ، وفعل ذلك بعدما أودع بلاده وتركها لدوق أبوليا ، بعدما انتقاه وعينه وريثا له فيما لو تقدم عليه بالوفاة ، ومنحه الدوق بدوره الحق ذاته وثبته له عن طيب خاطر ، فيما لو كان الدوق أول من سيفارق الحياة بينهما ، وتم إبرام ذلك بحضور وجهاء القوم من الجهتين وشهاداتهم .

وهكذا أبحر بوهيموند في أواسط أيلول ، فمر بشيكلادس الموزعة حول سطح البحر ، فأتى إلى ميثون فرودس وبامفليا وليسيا ، ووصل في عباب الأمواج إلى أنريا التي تملأ بالرعب قلب كل من يبحر إليها ، ثم مر بأنطاكية الصغرى فأنطاكية الكبرى فاسوريا ، ثم مدينة سلوقية ، وكانت وقتها قبرص عن يمينه ، ثم بطرطوس فمدينة بلنياس التي باتت خرابا ، فكانت عن يمينه .

ونشر في تلك الفترة كثير من الناس الجشعين المتقلبين ، الذين وصلوا مؤخرا من وراء البحار ، حكاية روجوا لها بيننا في القدس افادت ان بوهيموند قد نزل إلى اليابسة فعلا في انطاكية ، بيد انهم تاهوا فيما قالوه ، مع انه خيل إليهم أنهم قالوا الحقيقة ، وسبب ذلك انهم سافروا مع بعض رجاله حتى وصلوا إلى بسارتنا بسرفقة الصقور والبزاة وصيادي الطيور والكلاب التي بعث بها مقدما .

المخاطر التي تعرض في البحر :

كثير هي المصاعب والمخاطر التي تواجه من يركب البحر ــ إذا ماشاء الرب بها وسمح ــ فقد تنقطع المرساة وتنفصل ، وقد يتحطم عمود الشراع ، او مؤخرة السفينة المعكوفة المزخرفة ، أو قد تنفصم السلسلة المعدنية .

وعندما تغير الريح اتجاهها ، يراقب البحارة مؤشر دليل اتجاه الريح ليتأكدوا من أن السفينة تسير بالاتجاه الصحيح ، وهناك دوما خطر من أن تفقد مجراها في الليل ، وعندما تختفي النجوم وراء السحب ، أو عندما تجري فوق الصخور ، فهناك خطر محدق بحدوث الغرق والهلاك (أعمال الرسل : ٢٧ / ٢٠ ، ٢٩ ــ ٣٠) وكما في البر كذلك توجد المخاطر في البحر .

ولماذا نستغرب ما يجري لنا ، إذا ما تذكرنا حطام سفينة القديس بولس ؟ فقد القى ملاحوه الفادن كي يقيسوا به عمق البحر ، ولو لم يشاهد ملاك الرب في محنته لانقطع رجاؤه بالنجاة (أعمال الرسل ٢٧ / ٢٣ ــ ٢٨) .

البحر العظيم :

اعتاد عدد كبير على مصادفة المخاطر في خليج أدريا ، فقد تهب الرياح شديدة من جميع الاتجاهات ، وتهبط من الجبال نحو الوديان ، ثم تنحرف بين الشعاب المنخفضة وتتجمع في إعصار في الخليج ، وإذا قابل البحارة في بعض الأحيان سفينة قراصنة ، فقد تسلب أموالهم ويحل بهم الدمار بدون شفقة ، أما الذين يعانون من ذلك كله محبة بالرب ، فهل تخيب آمالهم قط في ثوابه ؟ .

ودعنا نذكر بضع كلمات عن البحر : علينا الا نغفل عن ذكر مصدر البحر المتوسط ، فبعضهم يعتقد أنه ينشأ من مضائق قادس ، وليس له مصدر غير مصب البحر المحيط الهائل ، أما الذين يعتقدون عكس ذلك فيذكرون ان تدفقه كله يأتي من مضائق بنطش ، ويدعمون ذلك بحجة راسخة أن المد من بنطش لايرتد رجوعا أبدا .
وعلى هذا لنرفع آيات الحمد والشكر إلى خالق الأكوان الذي « ثبت حدود البحر ووضع له تخوما ومداخل ، إذ قال له : إلى هنا تأتي ولاتتجاوز ، وهنا تتخم كبرياء لجحك » ، وحين يندفع البحر هائجا مائجا باتجاه الشاطىء يتكسر إلى زبد ترده أدنى العقبات عن الشاطىء .

ثم ما الذي يمنع البحر الأحمر ـ اللهم إلا إذا نهت إرادة السماء عن ذلك ـ من أن ينضم إلى البحر المصري في سهول مصر ، حيث انه يقع في منطقة اكثر انخفاضا من الوديان ، المنبسطة التي تتصل به ؟ وأخيرا ورد في الكتب ان إثنين من الملوك رغبا في وصل هذين البحرين حتى يصب احدهما بالآخر ، وكان أولهما سيسوتريس المصري ، وثانيهما دارا الفارسي ، وقد أراد هذا الأخير ـ نظرا لأنه تفوق على الملك المصري سلطة ومقدرة ـ أن ينجز ما سعى إليه ذاك .

ويدن هذا على أن المحيط الهندي ، الذي يقع فيه البحر الأحمر هو أعلى ارتفاعا من البحر المصري ، الذي يقع على مستوى أشد منه انخفاضا وليس على المستوى ذاته ، ولعل كل واحد من الملكين قد تخلى عن المشروع لكي يمنع البحر من أن يجري من مستوى مرتفع إلى مستوى منخفض ، فيفيض بذلك ويغمر البلاد ، وقد ورد هذا في مذكرات امبروز ، في حين يذكر سولينوس غير ذلك .

كم هي عجيبة اذن اعمال الرب ، غير ان اعجب منها من خلقها ودبرها ، وإذا مابدا بعضها قبيحا في أعيننا فعلينا أن نثني عليها على الرغم من ذلك ، لأن خالق الكون قد ابدعها . لقد زودنا الرب بالدواء في حشرة البق (المنزلي) فتقدم هذه الحيوانات الدواء احيانا ، وتسبب الأمراض في احيان أخرى او قد تحدث الوفاة ، فهي تعطي الشفاء حينا والضرر حينا أخر ، ويحكى أنه إذا ما أعد ترياق مضاد لسموم لدغة الثعبان من لحم الثعبان وحده فهو ضار ، لكنه ناجح ومأمون إن مزج بمواد أخرى .

اصناف الثعابين :

أما الباسيليق فطوله نصف قدم ، وهو ابيض مثل تاج الأسقف وله رأس مخطط ، وهو لايكتفي بتدمير الانسان والحيوان فقط بل يتعدى ذلك إلى الأرض نفسها فهو يلفحها بالسموم ، وحيثما يكون يخلف وراءه مكمنا قاتلا تذوي فيه الأعشاب والأشجار وتموت ، وهو يلوث الجو ذاته ، فلا يستطيع طائر ان يطير فيه بأمان لأنه يفسده بنفسه الموبوء .

وعندما يزحف الباسيليق يتحرك نصف جسده وينتصب النصف الباقي قائما ، حتى الثعابين ترتعد لسماع فحيحه فتمعن في الفرار

شاردة لاتلوى على شيء ، والذي يقتله الباسيليق بلدغة منه لا يأكله حيوان بري ولايقربه طير ، لكن ابن عرس يتغلب عليه ، لذلك يضعه الناس في جحره .

وصحيح أن أهل بيرغمون قد وضعوا في المعبد الذي جملتـه يدا ايلييس رفات باسيليق سددوا سيسترتيوم (عملة رومانية) كاملة ثمنا له بغية طرد العنكبوت حتى لايغطي المعبد بنسيجه ولئلا تقـطنه الطيور .

أما المثنية فلها رأسان إثنان ، يقع ثـانيهما في الذيل ، وللمقـرنة اربعة قرون قصيرة وهي تطمر جسدها بعناية في الرمل ، ثـم تبـرز قرونها حتى تبدو وكأنها غذاء وبذلك تتخفى فتقتل الطيور ، وتمتص الحمراوية الدماء بعد اللسع ، وهي تمتص الحياة من مجرى الدم في العروق ، وتصيب البرستا من تلدغه بتورم عظيم فيمـوت ، ويحـل التعفن عادة بعد التورم ، وهناك افاعي أخـرى كثيرة لهـا أسـماء مختلفة ، ومهما تباينت أسماؤها فكل منهـا يسـبب الموت بـطريقة مميزة .

أما العقرب والسنقور والسلحفاة فهي جميعا من صنوف الديدان لا الثعابين ، وإذا ما زحفت هذه المخلوقات القذرة فخـطرها أقـل ، وليس لديها أي مشاعر إلا إذا هامت تبحث عن وليفها .

ويسطع ظهـر السـقلطة بضروب الالوان ، ويأسر جمـالها مـن يبصرها ، اما العطشاوية فتسبب العطش القاتل بلدغتهـا ، وتقتـل النوامه بتسبيب النوم ذلك ان النوم يؤدي إلى الوفاة مثلما حصل مع كليوبترا ، ولن نأتي على ذكر انواع الثعابين الأخـرى لأن لدغتهـا قابلة للعلاج .

ولاتقل هذه الأعاجيب ادهاشا عما شـاهده الاسـكندر الكبير في

الهند ، فقد قال لعلمه ارسطو ولوالدته أوليمبيا : « ماكنت لأصدق بوجود كل هذه الأنواع من الأعاجيب لو لم أشاهدها بنفسي » والحق يقال كان هذا الملك رجلا رائعا بكل ماتعنيه هذه الكلمة : كان رجلا عاقلا مدبرا في كل اموره نشيطا في همته وقويا في سلطانه ، ولم يكن كالريشة الطائرة ولا كالقش العائم .

وصول بوهيموند الأصغر ابن الدوق بوهيموند واستقباله في أنطاكية :

وكان بوهيموند قد تأخر في إقلاعه في ذلك العام عما كان متوقعا حتى خيل للناس انه لن يحضر حسبما أعلن وراج بينهم ، ولكن كما ورد في قول النبي ارميا : « ليس للمرء طريقه ، وليس لانسان يمشي أن يهدي خطواته ، ولكن الهدى يأتي من الرب » (ارميا : ١٠ / ٢٣) فلقد خدعتنا أوهامنا وخابت أمالنا ، والأمور لاتجري وفقا لأطماع البشر بل حسبما يقضي به الرب جزاء عادلا لهم .

وقد انتعشت قلوبنا عندما اخبرنا ملكنا في رسائله إلينا في القدس عن وصول بوهيموند إلى انطاكية .

واستقبل الجميع بوهيموند عند قدومه إلى انطاكية بسرور عظيم ، وسار الملك في موكب حافل واستقبله بحرارة وسط هتافات الناس المتوالية ، وعلى الفور عقد الملك و بوهيموند اجتماعا ، وإثر ذلك أعطى الملك الأمير بوهيموند بلاده بأسرها ومنحه إحدى بناته زوجة له .

- ٢٩٤٤ -

شعر :

انظر ترى الختن وترى الصهر : الوالد والابن
فليوقر أحدهما الآخر ليزيد بذلك كلاهما منعة .

وبعدما تمت رسوم الزفاف عقد القران بالطريقة القانونية ، وجـرى تنصيب بوهيموند أميرا وهو جـالس على عرشـه ، وخلع عليه رداء الامارة الجميل ، وبعد ذلك اجتمع النبـلاء فـأقسموا له يمين الولاء الذي حق عليهم لكونهم رجاله ، وعاهدوه على طاعته والقيام بخدمته اعتبارا من ذلك اليوم ، وأنجز هذا كله بحضور الملك وبرضاه .

وعاد الملك إلى القدس بعدما تمت هذه الأمور .

شعر :

سطع برج السرطان بين نجوم السماء
وقت استقبال بوهيموند أميرا لأنطاكية

وقد انحسر الآن مدار هذا العام ، واستعد لبداية عام جديد .

وباء الجرذان :

في عام الف ومـائة وسـبعة وعشرين لتجسـيد الرب ، وفي الخمسعشرية الخامسة ظهرت حشود من الجرذان في بلاد فلسـطين بأعداد هائلة ، حتى أن بعضا منها قبض على مؤخرة ثور وخنقـه ، والتهمته والتهمت معه خمسة اكباش مخصية ، وبعدما نشرت هـذا الدمار في اعماق ديار عكا اتجهت اخيرا نحو جبال صـور بحثـا عن

ـ ٢٩٤٥ ـ

المياه ، ومن هناك طرحتهم إلى الوديان بالآلاف التي لاتعد ولاتحصى ريح عاتية ، وعاصفة ضـــارية وبيلة ، وبقيت تلك المنطقــة مــوبوءة بجثثهم المهترئة .

انتهى هنا تاريخ الحملة الى القدس الذي كتبــه فــولتشر أوف تشارترز .

الحواشي والهوامش

يوميات صاحب اعمال الفرنجة

١ ـ الكتاب المقدس ـ العهد الجديد : ١٦ / ٤٢ .
٢ ـ من المرجح أن المقصود بهذا بلاد فرنسا ، مما يوحي بأن صاحب الكتاب جاء من إيطاليا ، هذا وسبق لنا نشر أجزاء هامة من خطبة أوربان الثاني التي القاها في مجمع كلير مونت سنة ١٠٩٥ م لدى دعوته للحروب الصليبية .
٣ ـ أعمال الرسل : ٩ / ١٦ .
٤ ـ لوقا : ٢١ / ١٥ .
٥ ـ متى : ٥ / ١٢ .
٦ ـ كذا ، ولم يحدث أن سافر شارلمان إلى القسطنطينية ، ولقد قيل بأن اشاعة راجت أثناء الدعوة للحروب الصليبية فيها بأن شارلمان عاد إلى الحياة وسار على رأس حملة صليبية نحو القسطنطينية .
٧ ـ ٢٩ ـ ايلول ١٠٩٦ م .
٨ ـ المعني هنا جميع بلدان السلطنة السلجوقية لاخراسان المعروفة لدى المسلمين .
٩ ـ وصل هنا إلى القسطنطينية قبل بطرس بفترة وجيزة .
١٠ ـ كذا في الأصل ، ومفيد مراجعة هذه المعلومات على ما قدمته انا كومنينا ، ذلك ان جوثيه كان ما يزال في القسطنطينية .
١١ ـ يحسن العودة إلى رواية انا كومنينا حول أسباب عودته وغاياته .
١٢ ـ هو ادهمردي مونتيل ، أسقف بوي اختاره البابا نائبا عنه في رعاية الحملة الصليبية وقيادتها .
١٣ ـ هو ابن وليم أخي روبرت جسكارد .
١٤ ـ هو ابن وليم الفاتح لانكلترا ، البكر .
١٥ ـ أخو ملك فرنسا فيليب الاول ، راجع ما جاء حوله في رواية انا كومنينا .
١٦ ـ رواية انا كومنينا حول هذا الموضوع أكثر تفصيلا واقناعا .
١٧ ـ يراجع في هذا الشأن ما أوردته انا كومنينا ، مع اعتبار محاولات الامبراطور إجبار غودفري وسواه من قادة الفرنجة على تقديم يمين الولاء له ، ومن ثم العبور إلى البر الآسيوي .
١٨ ـ كان أهل امالفي في ايطاليا قد تمردوا على الحكم النورمندي ، وكان بوهموند مع غيره من الامراء النورمنديين يقاتل ضدهم عندما وصل المتطوعة من الفرنسيين وسرعان ما أعجب بوهموند بفكرة الحروب الصليبية ، فقرر الالتحاق بالحركة ، وأخذ الطريق نحو العاصمة البيزنطية ، وقد قصت علينا أنا كومنينا أوفى التفاصيل حول نشاطاته .
١٩ ـ في تارنت وأوترانتو في ايطاليا .
٢٠ ـ يلاحظ اشارة صاحب المذكرات لنفسه وجماعته .
٢١ ـ كذا ، وكان بوهموند عدوا للامبراطور البيزنطي خاض ضده عددا من الحروب قبل قيام الحروب الصليبية .
٢٢ ـ أي شباط لسنة ١٠٩٧ .
٢٣ ـ لعل صاحب الرغبة في الاغارة هو تانكرد .

٢٤ ـ في مقدونية الشرقية .
٢٥ ـ اسمها الآن كوشان ، ووصلوا إليها في أول نيسان سنة ١٠٩٧ م .
٢٦ ـ ١ ـ نيسان ١٠٩٧ م .
٢٧ ـ في رواية انا كومنينا تفاصيل أوفى حول زيارة بوهموند للقسطنطينية .
٢٨ ـ تتعارض هذه المادة مع ما جاء في بقية المصادر ، ولا ندري أمرد ذلك إلى صاحب المذكرات ، أم انها أقحمت بالنص لصالح بوهموند .
٢٩ ـ ١٤ ـ أيار ١٠٩٧ .
٣٠ ـ يعرف أيضا باسم ستيفن ، وهو زوج أديلا ابنة وليم الفاتح .
٣١ ـ مثل هذا قالته انا كومنينا ، وبناء عليه قدر البعض عدد الفرسان بأكثر من مائة ألف .
٣٢ ـ التفاصيل التي أوردتها انا كومنينا حول حصار نيقية وسقوطها أوفى ويمكن الركون إليهـا ، لكن مع الأخذ بعين الاعتبار قيام الخلافات إثر ذلك بين الامبراطور البيزنطي والفرنجة ، وأثر هذا واضح على رواية صاحب المذكرات هذه .
٣٣ ـ رؤيا يوحنا اللاهوتي : ٦ / ١٠ .
٣٤ ـ يرى بعضهم أنها قرب بلدة أسكي شهر ، بينما يذهب رنسمان إلى أن اسم المكان « ساري سو » .
٣٥ ـ هو جسر جكسر عند بلدة ليوك ، فهناك توقف الصليبيون للتشاور .
٣٦ ـ لاشك أنهم كانوا يهتفون بعبارة « الله أكبر » .
٣٧ ـ أي جيش صنجيل .
٣٨ ـ هذا صدى لمقوله ترددت في أيام الحروب الصليبية من أن التركمان والفرنجة من أصل واحد .
٣٩ ـ انظر صفحات من تاريخ الأمة الأرمنية ـ تأليف عثمان الترك ـ ط . حلب : ١٩٦٠ ص ١٣٢ ـ ١٣٤ .
٤٠ ـ هي مدينة كومانا ، وكان التركمان بزعامة أسرة الدانشمند قد حاصروها قبل وصول الفرنجة .
٤١ ـ سبق له عمل مرتزقا في الجيش البيزنطي .
٤١ ـ كان ذلك يوم ١٣ تشرين الأول ١٠٩٧ م .
٤٢ ـ يرجح أن هذا كان يوم ٢٠ تشرين أول .
٤٣ ـ أي العاصي .
٤٤ ـ أي يوم ٢١ تشرين أول .
٤٥ ـ ٢٩ كانون أول ١٠٩٧ م .
٤٦ ـ ذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ في حوادث سنة إحدى وتسعين وأربعمائة : « وقيل إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم ودخول الاقسيس (أتسز بن أوق) إلى مصر وحصرها ، فخافوا وأرسلوا الى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكونوا بينهم وبين المسلمين » . الكامل ٨ / ١٠٨٦ .
٤٧ ـ ٩ شباط ١٠٩٨ .
٤٨ ـ من الجنوية الذين قدموا بأسطولهم يوم ١٧ تشرين ثاني ١٠٩٧ .٤٩ ـ يوم ٦ آذار ١٠٩٨ م .
٥٠ ـ انظر متى : ٢٥ / ٤١ .
٥١ ـ ٧ آذار ١٠٩٨ م .
٥٢ ـ من أنواع العملة لتلك الفترة .
٥٣ ـ هذه واحدة من الشهادات المعبرة عن شره الصليبيين ومدى وحشيتهم وحقدهم .

٥٤ ـ ٨ ـ آذار ١٠٩٨ م .
٥٥ ـ كان ذلك يوم ٥ ـ نيسان ١٠٩٨ م
٥٦ ـ كذا والمرجح أنه أرمني الاصل ، واسمه عند ابن الاثير روزبه وعند ابن العديم في زبدة الحلب « فيروز » وعند ابن القلانسي « نيروز » ولعله الصواب ، ومفيد هنا التذكير بضرورة مقابلة رواية صاحب اليوميات بما أوردته لنا كومينا .
٥٧ ـ ليلة ٢ ـ ٣ حزيران ١٠٩٨ .
٥٨ ـ غالبا ما يستعمل صاحب اليوميات هذه العبارة ليعني بها واحدا من نورمان ايطاليا .
٥٩ ـ في المصادر الاسلامية ما يفيد أن يغي سغان سقط عن ظهر جواده ميتا أثناء فراره ، فمر به بعض الأرمن فعرفه فحمل رأسه إلى الفرنجة
٦٠ ـ يريد به السلطان السلجوقي بركياروق بن ملكشاه ـ انظر كتابي تاريخ العرب والاسلام ٢٣٣ .
٦١ ـ أي يوم ٥ حزيران ١٠٩٨ م
٦٢ ـ لعله كان أحد الابرجة التي قامت عند مدخل جسر العاصي .
٦٣ ـ أي المعركة التي هزم فيها كربوقا ، وسيأتي خبرها مفصلا ، ووقعت في يوم ٢٨ حزيران
٦٤ ـ يوم ٦ حزيران
٦٥ ـ اسمه أحمد بن مروان ـ انظر زبدة الحلب لابن الحلب :٢ / ١٢٩ ـ ١٣٨ .
مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية : ٢٣٦ ـ ٢٤٢ .
٦٦ ـ يشك بصحة هذه الرواية ، وهناك صدى للأساطير الاغريقية عن وجود نهر اسمه الامازون في أسية الصغرى عاش حوله جماعة من النساء اللواتي كن مقاتلات لم يعش بينهن أحد من الرجال
٦٧ ـ كذا ، والرسالة اختراع محض في الاسلوب والافكار ، وفيها جهل فاضح ، فمن هم هؤلاء الأرباب والآلهة وديانة الاسلام ديانة توحيدية ؟! .
٦٨ ـ المزامير : ٦٧ / ٣١ .
٦٩ ـ مزامير : ٧٨ / ٦ .
٧٠ ـ رسالة بولس إلى أهالي رومية : ٨ / ٩ .
٧١ ـ رسالة بولس إلى أهالي رومية ٠ ٨ /١٧
٧٢ ـ التثنية : ١١ / ٢٤ .
٧٣ ـ لاشك ان هذه الحادثة من ابداع خيال صاحب اليوميات ، وهي ذات أهداف دعائية
٧٤ ـ سفر الخروج : ٢٠ / ١١ .
٧٥ ـ الثالث لوصوله إلى أنطاكية أي حزيران ١٠٩٨ م .
٧٦ ـ مزامير : ٧٤ / ٤ .
٧٧ ـ شهر بكثرة رؤاه حتى قيل بأن عددها بلغ خمسا كان أولاها في ٣٠ كانون أول ١٠٩٧ ، وثانيتها يوم ١٠ شباط ١٠٩٨ ، والثالثة يوم ٢٠ آذار ، والرابعة أثناء ذهابه إلى قبرص ، والخامسة يوم ١٠ حزيران ١٠٩٨ .
٧٨ ـ أثناء اشتداد حصار كربوقا لأنطاكية يوم ١٠ حزيران .
٧٩ ـ تبعا لصاحب المذكرات قتل غودفري هذا في معركة دوريليوم وهذا يعني أنه لم يكن في المدينة .
٨٠ ـ يرى البعض أن كاتب هذه اليوميات كان بالأصل كاتبا له ، وقد كانت المودة بين هذا الكونت والامبراطور البيزنطي قوية ، فقد لاحظ الامبراطور حب الكونت للظهور فاهتم بهذه الناحية وأحسن استغلالها .
٨١ ـ دعت بعض المصادر اللاتينية هذا الجبل باسم الجبل الاحمر ، وأنه هو الذي يشرف على سهل أنطاكية الشمالي .
٨٢ ـ كان هذا كله قبل سقوط أنطاكية للصليبيين ، ولعل فراره في طريق العودة باتجاه

القسطنطينية كان يوم ٢ ـ حزيران .

٨٣ ـ اسمها الآن آق شهر ، ويستدل من رواية أنا كومنينا أن الامبراطور البيزنطي قدم إلى هذه المدينة وهو في طريقه إلى انطاكية لنجدة الفرنجة .

٨٤ ـ غوي بن روبرت جسكارد النور مندي ، كان أخا ليوهمند من أم ثانية ، اشترك مع أبيه سنة ١٠٨٤ في حملته على بيزنطة ثم هجر أباه والتحق بالامبراطور البيزنطي ودخل في خدمته ، هذا وقد تعرضت أنا كومينا لمسألة عودة الامبراطور وعدم متابعة زحفه نحو انطاكية .

٨٥ـ تتباين الروايات حول هذه المسألة ، فمن متحدث عن مسمار إلى حربه أو غير ذلك ، وأن القضية برمتها خداع واختراع ، وقد يكون هذا ، وهو يدل على براعة متناهية ، ذلك أن العلاج أفاد وقاد الى رفع معنويات الفرنجة مما أعانهم على هزيمة كربوقا ومتابعة الزحف حتى القدس ، وحدث العثور على الحربة يوم ١٤ حزيران .

٨٦ ـ يتعارض هذا مع ما أوردته أنا كومينا وسواها .

٨٧ ـ أورد ابن الاثير في الكامل : ٨ / ١٨٦ ـ ١٨٧ . رواية تتوافق مع هذه الرواية حيث تحدث أولا عن مسألة الحربة والعثور عليها وما أعقب ذلك من صيام واحتفالات ثم قال: فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين بين خمسة وستة ونحو ذلك ، فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج ، فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقال: لاتفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ، ولم يمكن من معاجلتهم ، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين ، فجاء اليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم ، فلما تكامل خروج الفرنج ، ولم يبق بانطاكية أحد منهم ضربوا مصافا عظيما ، فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولا من الاستهانة بهم والاعراض عنهم ، وثانيا من منعهم عن قتل الفرنج ، وتمت الهزيمة عليهم ولم يضرب منهم بسيف ، ولاطعن برمح ، ولارمي بسهم.

٨٨ ـ كذا ولعله اخترع لغايات دعائية.

٨٩ ـ توجه كل منهم إلى منطقة اختص بها قبل معركة انطاكية ، فعاد بوهموند إلى آسية الصغرى ، وذهب غودفري إلى الرها ـ أورفا ـ حيث كان أخوه بلدوين .

٩٠ ـ أي تل منس .

٩١ ـ يوم ١١ ـ أيلول .

٩٢ ـ كان اسم الرجل الذي جرى اختياره « بطرس النارbوني » وهو أسقف لاتيني جرت سيامته في بلاد الشام .

٩٣ ـ ٢٨ ـ تشرين ثاني ١٠٩٨ م .

٩٤ ـ من الملاحظ أن الفرنجة تفوقوا أيام الحروب الصليبية بتقنية بناء الابراج الخشبية الضخمة العالية التي كانوا يحصلون على الخشب اللازم لصنعها من السفن الايطالية وسواها، وغالبا ما كان ارتفاع البرج أعلى من الاسوار للبلدة المهاجمة ، وزود كل برج متحرك بوسائل الهجوم وكباش دك الأسوار وغيرها من الآلات ، وغطي بالصفائح المعدنية وجلل بالليد المبللة بالخل للحيلولة دون احتراقه ، وطور المسلمون في هذه الفترة تراكيب فعالة من النيران الحارقة ووسائل أخرى للحيلولة بين الابراج المتحركة وبين الوصول إلى الاسوار .

٩٥ ـ طلب تأخير موعد استئناف الزحف نحو القدس .

٩٦ ـ أي قصر يغي سفان وبقاع أخرى ، وكان بوهموند يرغب بالانفراد في تملك انطاكية .

٩٧ ـ من ١٧ إلى ٢٢ كانون الثاني ١٠٩٩ م .

٩٨ ـ من ٢٩ كانون ثاني حتى ١٤ شباط ١٠٩٩ م .

٩٩ ـ يريد بها قلعة حصن الأكراد .

١٠٠ ـ جناح الدولة حسين ، انظر ترجمته .

١٠١ ـ فخر الملك ابن عمار.

١٠٢ ـ أي عرقة .

١٠٣ ـ في العاشر منه .

١٠٤ ـ في تاريخ وليم الصوري اسمه روبرت وكان قسيسا نور منديا من اسقفية روان .

١٠٥ ـ ١٢ حزيران ١٠٩٩ م .

١٠٦ ـ الاول من اب ١٠٩٩ م .

١٠٧ ـ ٩ ـ اب ١٠٩٩ م .

١٠٨ ـ لاشك أن هذا من ابداع خيال الكاتب ، ومع هذا يروي العليمي في الانس الجليل ١ . ٣٠٨ خبر هزيمة الافضل ويقول : « وكان عند الافرنج شاعر منتجع إليهم ، فقال مخاطب ملك الافرنج واسمه صنجلي :

نصرت بسيفك دين المسيح

فلله درك من صنجلي

وما سمع الناس فيما روي

بأقبح من كسرة الافضل

فتوصل الافضل إلى ذبح هذا الشاعر » .

١٠٩ ـ الثاني عشر من شهر اب ١٠٩٩ م .

انا كومينا

١ – يرى ستيفن رنسمان أن معنى هذه العبارة « بطرس الصغير » وقد يكون هذا ، إنما قد اشتهر الرجل عن طريق المصادر الاخرى باسم « بطرس الناسك » .

٢ – كذا ، ولا شك أن مثل هذه الافكار لاتستحق الرد ، والمثير للانتباه هنا صدورها عن الاميرة انا كومينا ، وليدة الغرفة الارجوانية في القصر الامبراطوري في القسطنطينية ، وصاحبة الثقافة العالية والمكانة الرفيعة . ولا شك انها شهادة تدل على مدى تعصب بيزنطة والعالم المسيحي ضد الاسلام انذاك ، انها بحق وثيقة معبرة عن المشاعر الصليبية المتعصبة بشكل اعمى .

٣ – منطقة في الشمال الغربي من بلاد الاغريق ، بين بلاد بندوس وبحر ايونيان ، ومعنى اسم هذه المنطقة « البلاد المتوسطة » وهي بلاد جبلية ، قليلة الخصب ، مشهورة بكثرة قطعان الخيول فيها .

٤ – غودفري دي بوليون ، ودوق مناطق اللورين السفلى .

٥ – وصل الصليبيون إلى العاصمة البيزنطية في الاول من شهر اب ١٠٩٦ . وعبروا مضيق البوسفور في اليوم السادس منه ، وحدث هجومهم على نيقية – إزنيق حاليا في تركيا – التي كانت مقر السلطان قلج ارسلان ، في شهر ايلول .

٦ – هيوج أمير فيرما ندوس الابن الاصغر لهنري الاول ملك فرنسا ، ولن اميرة كييف ، وعلى الرغم من إدعائه ودعواه العريضة غير العادية فإن اثره في السياسية الفرنسية يكاد أن يكون غير ملحوظا .

٧ – هو وليم أمير ميلون ، لقب بالنجار كما يبدو لقوته .

٨ – قدمت من البابا إلى الجنود الذين توجهوا للقتال ضد المسلمين .

٩ – يقع هذا المكان قرب بوسا ، فكاباليون وبوسا هما اسمان لمدينتين في تلك المنطقة ، وإنني لآمل أن يتوجه إلي واحد من الناس بالنقد لاستخدامي هذه الاسماء البربرية ، مشوهة نص تاريخي ، إنما حتى هومر نفسه لم يرفض الاسماء البوتونية ، وفي سبيل الدقة اتى على ذكر عدد من البربر . انا كومينا .

١٠ – هناك بعض الشكوك حول هذا الرجل الذي تدعوه لنا ايضا باسم بنتازاس ، ويذهب بعض الباحثين إلى أنه هو ريموند بروفانس ، حيث أن عبارة بنتازاس تقابل عبارة بروفانس ، وتستخدم انا أحيانا عبارة « صنجيل » مع شيء من التشويه ، فريموند عرف باسم « سانت جايل » وكتب العرب اسمه « صنجيل » وسيرد ذكره كثيرا ، خاصة فيما يتعلق بمدينة طرابلس .

١١ – من العبارة اللاتينية Excussatan وهو عبارة عن قارب حفظ كما يبدو من قبل القائد في المرتبة الثانية .

١٢ – ٦ – كانون اول ١٠٩٦ م .

١٣ – إن القوس العقار هو سلاح خاص بالبرابرة ، ويكاد يكون غير معروف بالنسبة للاغريق ، وحتى يشد هذا القوس ، لايقوم الانسان بشد الوتر بيده اليمنى بينما يدفع بالسهم بعيدا عن القوس بيده اليسرى ، فهذا السلاح الذي يرمي السهام إلى مسافة بعيدة جدا ، يحتاج الانسان في شده إلى أن يستلقي إلى الارض على ظهره ، وتقوم كل قدم من قدميه بالضغط بشدة على نصف القوس ، بينما تقوم اليدان بالشد بكل قوتهما باتجاه الجسم ، ويوجد في منتصف الوتر فتحة تشبه الاسطوانة مقطوعة إلى نصفين ، ومرتبة من اجل الوتر نفسه ، ويؤتى بعد هذا بسهم مناسب ، طوله يساوي المسافة ما بين الوتر ومنتصفه الوتر ويرمى من هذه الفتحة بجميع انواع الرمايات ، صحيح أنها اسهم قصيرة ، لكنها مثقلة برؤوسها الكبيرة ، ويعطي الوتر اثناء الرماية قوة هائلة إلى حد أن الرمية يمكن أن تخرق الترسة والدروع الحديدية الثقيلة ، وتستمر منطلقة لمسافة بعيدة ، لذا لايمكن مقاومة هذه الرمايات ، ومن المعروف أن سهما من هذا النوع يمكن أن

يخرق جسم تمثال من البرونز ، وعندما تتم الرماية ضد سور بلدة كبيرة ، فإما أن يظهر طرف السهم من الجانب الآخر للجدار ، أو يدفن داخل السور ، ويختفي كليا ، إن هذا هو القوس العقار ، فهو كما رأينا آلة رهيبة ، والتعس هو من يرمى بها ، ذلك أنه يموت دون أن يشعر بالرمية ، ودون دراية بقوة الضغط الدافع لها . أنا كومينا .

١٤ ـ تختلف عادات اللاتين فيما يتعلق بالرهبان عن عاداتنا ، فنحن ملتزمون بأحكام القانون ، وبتعاليم الانجيل التي تقول : « لاتلمس ، لاتزمجر ، لاتحارب ، لأنك معمد ، لكن البرابرة اللاتين ، ترى أحدهم يحمل قطعة من الآثار المقدسة ويشد ترسا الى يساره ، ويمسك رمحا بيمناه ويتقرب الى جسد الالهة المقدسة ، ويحدق بالدم ويسفكه حتى يصبح هو نفسه ، رجلا دمويا » كما يقول داوود في المزامير ، وعلى هذا فان هذا الجنس تراه متدينا بقدر اهتمامه بالحرب ، وعلى هذا فاللاتيني هو رجل عمل أكثر منه رجل رهبنة ، ويرتدي ثوب الكهنوت ، ويحمل المجذاف ، جاهزا للملاحة أو للحرب في البر والبحر سواء ، إن احكامنا كما سلف بي القول صادرة عن هارون وموسى ورهباننا الكبار ـ أنا كومينا .

يلاحظ أن آنا كومينا نقلت نص الانجيل بتصرف حيث النص « لاتمس ولاتذق ولاتجس » رسالة بولس إلى أهل كولوسي : ٢ ، ٢١ .

١٥ ـ موقع تعذر تحديده .

١٦ ـ قصر بلا شيرين .

١٧ ـ بني منذ زمن بعيد من قبل أحد الأباطرة ـ أنا كومينا .

١٨ ـ اشارة إلى ثورة آل كومنين .

١٩ ـ الثاني من نيسان ١٠٩٧ كان يوم خميس أيضا .

٢٠ ـ الاليانة (ترجمة انكليزية) : ٤ ، ١٢٣ .

٢١ ـ المقصود بالشاعر هنا هو هومر ، لكن يلاحظ أن آنا كومينا تنقل عنه بتصرف .

٢٢ ـ ما من شيء يقيني معروف حول راؤول هذا .

٢٣ ـ كرس القديس ميخائيل ، راعي الدير الذي عرف باسم القديس اغناطيوس بطريرك القسطنطينية وقد دفن هناك .

٢٤ ـ الاليانة : ٢ ، ٤٦٨ ـ الاوديسا . ٩ ، ٥١ .

٢٥ ـ لربما كان هذا المعبد في سواسون .

٢٦ ـ هو ريموند كونت تولوز ومركيز بروفانس ، كان يأمل بقيادة الفرنجة جميعا في معاركهم ، وبذلك كان منافسا لبوهيموند ، وهذا ما نراه واضحا في كتاب أعمال الفرنجة ، التالي لهذا الكتاب .

٢٧ ـ في نيسان ١٠٩٧ م .

٢٨ ـ في أيار ١٠٩٧ م .

٢٩ ـ هي الآن قرية متواضعة في تركيا على مقربة من استانبول اسمها « إزنيق » وكانت أثناء الحملة الأولى للصليبيين حاضرة دولة سلاجقة الروم

٣٠ ـ كان السلطان قلج أرسلان بعيدا آنذاك في الشرق يحارب ضد الدانشمند صاحب ملطية ، ولربما أساء تقدير حجم الخطر الفرنجي ، وأعطى القصص حول الخلافات بين الفرنجة والامبراطور ألكسيوس حجما أكبر مما تستحق ، وكان في داخل نيقية في ذلك الوقت زوجته وأولاده وذخائر ، مما يؤكد ثقة السلطان ويقينه أن المدينة لايمكن قهرها .

٣١ ـ أخذ هذا البناء اسمه منذ زمن مضى ، عندما جرت ثورة شرقية مانويل المشهور ، والد الامبراطور السابق اسحق كومنين مع أخيه جون (وهو جدي من جهة أبي) ، إلى مرتبه إمرة الشرق كله ، وذلك من قبل الامبراطور باسيل ، وكان قصده وضع حد للحرب مع سكليروس إما عن طريق القوة ، أو باجباره على طلب المصالحة من خلال العمل الدبلوماسي ، وحيث أن سكليروس كان رجل حرب ، يحب سفك الدماء ، فإنه رحب بالحرب أكثر من السلم ، ولهذا كان هناك كل يوم اشتباك عنيف ، ولم يكتف سكليروس برفض المهادنة بل قاتل بقسوة أشد وشجاعة أعظم

للاستيلاء على نيقية ، و تمكن بواسطة المجانيق من تحطيم شرفات السور وهدم الجزء الأكبر من هذا البر ، مما سبب ميلان بقية اجزائه ، حتى بدا و كانه راكع على ركبتيه ولهذا عرف منذ ذلك الوقت باسم غونتار - أنا كومينا - .

لقد تحدث المؤرخ البيزنطي ميخائيل بزللوس في الجزء الاول من تاريخه عن حملة باسيل ضد سكليروس . انظر ص : ٣٠ - ٣٢ من الترجمة الانكليزية ط . لندن ١٩٦٦ .

٣٢ - القنال الضيق بين جزيرة يوربيا والبر الاغريقي ، مشهورة بتياراتها .

٣٣ - بحيرة أسكانيا إلى الغرب من المدينة .

٣٤ - يبدو أن زاخاس هذا كان من المرتزقة التركمان العاملين لدى الامبراطور وسيرد اسمه بعد قليل ص ١٥٧ ، وقد أخذ يعمل لحسابه الخاص ضد الامبراطور .

٣٥ - قيل بانها كانت ابنة زاخاس . انظر ص ١٥٨ المقبلة .

٣٦ - فراغ بالاصل .

٣٧ - في منطقة أسكي شهر الحالية في تركية ، ووقعت المعركة يوم الاول من تموز سنة ١٠٩٧ م ، فقد بدأ بوهمونلم زحفه يوم ٢٦ حزيران ، وتبعه البقية يوم ٢٨ ثم ٢٩ وهكذا .

٣٨ - لربما المقصود هنا ملك غازي كمشتكين بن الملك دانشمند الذي توفي سنة ١١٨٤

٣٩ - الالياذة : ٥ ; ٢٩٩ .

٤٠ - وصل الفرنجة إلى انطاكية يوم ٢١ تشرين أول ١٠٩٧ م ، وسقطت المدينة لهم في الثالث من حزيران سنة ١٠٩٨ م .

٤١ - قيل اسمه فيروز - أو نيروز ، ارمني الاصل ، تظاهر بالدخول في الاسلام وبالطاعة والاخلاص لبغي سغان والي انطاكية ، وأضمر له العداوة والحقد .

٤٢ - برج الاختين ، وقد درس رنسمان بشكل واف أخبار سقوطه معتمدا على مختلف الروايات ، وذلك في المجلدة الاولى من كتابه تاريخ الحروب الصليبية ، والكتاب مترجم من الانكليزية إلى العربية .

٤٣ - هي مدينة ازمير الحالية بتركيا .

٤٤ - لم أستطع ضبط الصيغة التركمانية الصحيحة لهذين الاسمين ، فالاسم الثاني اسم مركب من عبارتين هما : تنجري ، وبيرمس ، وأعرف أن تنجري كلمة تركية مغولية تعني رب السماء ، لكنني غير متأكد من الشطر الثاني « بيرم » ؟

٤٥ - تدعى أحيانا باسم عرب سوس ، ولها ذكر في المصادر المبكرة التي تتحدث عن أخبار الفتوحات الاسلامية ، وهي مدينة أهل الكهف في بعض المصادر الجغرافية العربية .

غ٤٦ - اسمها الآن بولفادين في تركيا .

٤٧ - اسمها الآن على شهر في تركيا .

٤٨ - اسمها الآن آق شهر .

٤٩ - التحق كل من وليم أوف غرانتمسنيل مع ستيفن أوف بليوس وبيتر أليفاس بالامبراطور في حوالي منتصف حزيران ١٠٩٨ م .

٥٠ - سقط بالاصل ، والجدير بالذكر هنا أنه يحول بيننا وبين معرفة مصير الاسرى ، وما فعله الامبراطور بهم .

٥١ - في كنيسة القديس - القسيان - بطرس في انطاكية .

٥٢ - تتحدث أنا هنا عن مسامير ، لكن اللاتين يتحدثون عن حربة أو رمح مقدس .

٥٣ - من الملاحظ أن أنا تمزج هنا بين بطرس الناسك ، وبطرس بارثلميو ، وأدهمر أسقف بوي ، وتحسن العودة إلى رواية صاحب يوميات أعمال الفرنجة .

٥٤ - روبرت كونت فلاندر .

٥٥ - سقطت في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ م .

٥٦ - سبق لأنا أن أشارت في الفصل السابق - الكتاب العاشر - إلى أن عدد الكونتات الذين

وقعوا في الأسر وحملوا إلى مصر هو / ٣٠٠ / .

٥٧ - بني الحصن على تلة الحجاج خارج طرابلس ، ودعاه العرب باسم حصن - أو قلعة - صنجيل .

٥٨ - مات في ١٨ تموز لسنة ١١٠٠ ، ربما بسبب إصابته بسهم ، أو إصابته بالتيفوئيد ، وقد دفن في كنيسة القيامة .

٥٩ - «الذي كان أنذاك في منطقة الرها» - آنا كومينا .

٦٠ - يوم ٢٥ كانون أول لسنة ١١٠٠ م .

٦١ - يبدو أن معظمه كان من اللومبارديين .

٦٢ - كان هدفهم انقاذ بوهموند الذي وقع في الأسر لدى التركمان في شهر آب .

٦٣ - يوم ٢٣ حزيران سنة ١١٠١ م .

٦٤ - تعرف هذه المعركة باسم معركة المرزبان ، وقد وقعت في خريف سنة ١١٠١ ، وفيها قتل حوالي أربعة أخماس الجيش الصليبي .

٦٥ - هي يافرا الآن على فم نهر هاليس .

٦٦ - وليم جوردان كونت سردينية .

٦٧ - كان قسطنطين حاكم لبرص أنذاك - آنا كومينا .

٦٨ - تتابع آنا فيما يلي سرد أخبار حوادث وقعت في ١٠٩٨ - ١٠٩٩ ، وهي لسوء الحظ عادة سيئة من عاداتها .

٦٩ - هو ديمبرت رئيس أساقفة بيزا ، جرى تعيينه بطريركا على القدس من قبل البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٨ م ، إثر موت أدهمر أوف لي بوي ، وجعلت آنا التي كانت تكره رجال الدين اللاتين ديمبرت يبدو وكأنه المسؤول عن تنظيم الأسطول البيزي .

٧٠ - ولد لاندولف في ايطاليا ، ولاشك أنه كان يفهم طرائق عمليات البحرية اللاتينية .

٧١ - تستعير آنا أوصافها من هومر .

٧٢ - هوميروس - الأوديسا : ٣ / ١٧١ .

٧٣ - إلى الغرب من صقلية .

٧٤ - اسمها الحالي كورغوس .

٧٥ - تعالج الأميرة آنا الآن حوادث سنة ١١٠٤ ، علما بأن السفن الجنوية كانت تجوب بحار المنطقة منذ سنة ١٠٩٧ م .

٧٦ - لأسية الصغرى .

٧٧ - ميناء من موانيء العصور الوسطى كان يقع إلى الجنوب الغربي من مدينة طرسوس ويبعد عنها مسافة / ١٥ / ميلا ، وقد حل محله ميناء مرسين الحالي في تركية .

٧٨ - لم تأت المصادر اللاتينية على رواية هذه القصة ، ولهذا يرى البعض أنها محض اختراع ، ولربما كانت من ابداع خيال آنا كومينا ، علما بأن بوهموند كان قادرا على مثل هذه الأعمال .

المحتوى

٣ ـ توطئة
٩ ـ من كتاب الاكسياد
١٠ ـ الحملة الصليبية الاولى

☆ ☆ ☆

٧٧ ـ يوميات صاحب اعمال الفرنجة
٧٨ ـ التبشير بالحملة الصليبية الاولى
٨٦ ـ الكتاب الثاني من واقعة نهر الوردار الى الاستيلاء على نيقية
٩٥ ـ زحف الصليبيين نحو آسية الصغرى
٩٦ ـ معركة دوريليوم
١٠٠ ـ الكتاب الرابع ـ الزحف نحو انطاكية
١٠١ ـ عبور الصليبيين أسية الصغرى
١٠٧ ـ الكتاب الخامس ـ الشروع بحصار انطاكية
١١٢ ـ الكتاب السادس ـ حصار انطاكية
١١٩ ـ الكتاب السابع ـ حصار انطاكية
١٢٠ ـ الحملة على السويدية
١٢٤ ـ نهاية حصار انطاكية
١٣١ ـ الكتاب التاسع ـ حصار التركمان انطاكية
١٥٢ ـ الكتاب العاشر ـ من انقاذ انطاكية الى معركة عسقلان

☆ ☆ ☆

١٧٦ ـ تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس
١٧٧ ـ خطبة الكتاب
١٧٨ ـ الفصل الأول ـ السفر خلال دلماشيا
١٨١ ـ الفصل الثاني ـ الرحلة عبر الأراضي الاغريقية
١٨٥ ـ الفصل الثالث ـ حصار نيقية وعبور الاناضول
١٨٩ ـ الفصل الرابع ـ سد المنافذ والطرق ، وبداية حصار انطاكية
١٩٨ ـ الفصل الخامس ـ المرحلة التالية من حصار انطاكية
٢٠٧ ـ الفصل السادس ـ الاستيلاء على انطاكية
٢١٢ ـ الفصل السابع ـ حصار كربوغا لانطاكية
٢٢١ ـ الفصل الثامن ـ هزيمة كربوغا
٢٣١ ـ الفصل التاسع ـ وفاة ادهمر والابلاغ عن رؤى
٢٣٦ ـ الفصل العاشر ـ الاستيلاء على البارة ومعرة النعمان
٢٤٨ ـ الفصل الحادي عشر ـ استئناف الرحلة والشروع بحصار عرقة
٢٥٩ ـ الفصل الثاني عشر ـ رؤى ومحنة الحربة المقدسة
٢٧٠ ـ الفصل الثالث عشر ـ رفع الحصار عن عرقة واستئناف الرحلة الى القدس
٢٨٠ ـ قصة الطائر الذي حمل رسائل بقتل حملة الصليب
٢٨٢ ـ الفصل الرابع عشر ـ حصار مدينة القدس والاستيلاء عليها

٢٩٧ ـ الفصل الخامس عشر ـ الوقائع التي اعقبت سقوط القدس ومعركة عسقلان

☆ ☆ ☆

٣٠٥ ـ تاريخ الحملة الى القدس ـ تاليف فولشر اوف تشارترز
٣٠٦ ـ مقدمة فولشر
٣٠٨ ـ الكتاب الاول
٣٠٩ ـ المجمع الذي عقد في كلير مونت
٣١٣ ـ ما مر به البابا بشان الحج الى القدس
٣١٥ ـ اسلاف لى بوي والوقائع التي تلت
٣١٧ ـ النزاع بين الباب اوربان وجيليرت
٣١٩ ـ اوقات انطلاق المسيحيين واسماء قادة الحجاج
٣٢٦ ـ من القسطنطينية الى نيقية
٣٢٧ ـ حصار نيقية وسقوطها
٣٢٩ ـ المعركة المدمرة بين المسيحيين والأتراك
٣٣٢ ـ هرب الاتراك وانتصار المسيحيين
٣٣٣ ـ ضيق حال المسيحيين
٣٣٤ ـ اعمال الكونت بلدوين
٣٣٧ ـ وصول الفرنجة الى انطاكية
٣٤٠ ـ فاقة المسيحيين
٣٤٢ ـ سقوط مدينة انطاكية
٣٤٤ ـ العثور على الحربة المقدسة
٣٤٥ ـ محاصرة الاتراك للمسيحيين داخل انطاكية
٣٤٦ ـ الرؤى التي ظهرت داخل المدينة
٣٤٧ ـ الفرنجة يقومون بالهجوم على الاتراك
٣٤٨ ـ الاعداد للمعركة
٣٥٠ ـ المعركة ـ انتصار المسيحيين وفرار الاتراك
٣٦٠ ـ موقع القدس
٣٦٢ ـ حصار مدينة القدس
٣٦٥ ـ الاسلاب التي حصل عليها النصارى
٣٦٦ ـ مكوث النصارى في القدس
٣٦٧ ـ تنصيب ملك في المدينة واختيار بطريرك واكتشاف صليب الصلبوت
٣٦٧ ـ وصول الكفار وفرارهم
٣٧١ ـ عودة بعض الامراء الى ديارهم
٣٧١ ـ حج بوهيموند وبلدوين
٣٧٥ ـ عودة كل من بوهموند وبلدوين الى بلدويهما
٣٧٧ ـ اسر الامير بوهيموند
٣٧٨ ـ موت الملك غودفري
٣٨٠ ـ الكتاب الثاني
٣٨١ ـ اعمال بلدوين الاول
٣٨٨ ـ البحر الميت
٣٩١ ـ تتويج الملك بلدوين
٣٩٤ ـ استدعاء تانكرد الى انطاكية
٣٩٤ ـ حصار قلعة ارسوف

٣٩٥ ـ الاستيلاء على قيسارية
٣٩٨ ـ انتخاب اسقف لقيسارية
٤٠٤ ـ رسالة اهل يافا الى تانكرد امير انطاكية
٤٠٥ ـ حشد جيش مصر ضد الفرنجة
٤٠٦ ـ وفاة هيوج العظيم
٤٠٨ ـ الاستيلاء على طرطوس
٤١٠ ـ فرار الملك بلدوين
٤١٦ ـ الملك يحاصر مدينة عكا
٤١٦ ـ اطلاق سراح بوهيموند
٤١٧ ـ الاستيلاء على عكا
٤١٨ ـ بوهيموند يعبر البحر
٤١٨ ـ اسر رجال انطاكية
٤٢١ ـ اطلاق سراح بلدوين والقتال بينه وبين تانكرد
٤٢٢ ـ بوهيموند يذهب الى غاليا
٤٢٢ ـ انتصار تانكرد على الاتراك
٤٢٣ ـ ملك مصر يبعث بجيوشه ضد الملك بلدوين
٤٢٥ ـ القتال بين الاتراك واهل القدس
٤٢٨ ـ اسطول اهل مصر
٤٢٩ ـ الزلزال
٤٢٩ ـ العلامات التي ظهرت في السماء
٤٣١ ـ هجوم المسيحيين على اهل دمشق
٤٣١ ـ عبور البطريرك الى روما
٤٣٢ ـ بوهيموند يجمع جيشا ويعيث في اراضي الامبراطور
٤٣٣ ـ معاهدة سلام بين الامبراطور وبوهيموند
٤٣٤ ـ حصار طرابلس
٤٣٥ ـ احتلال طرابلس
٤٣٦ ـ الاستيلاء على بيروت
٤٤٠ ـ الاتراك يثيرون المتاعب
٤٤٢ ـ الملك يحاصر صور
٤٤٣ ـ موت تانكرد
٤٤٧ ـ الزلزال وزواج الملك من كونتيسة صقلية
٤٤٨ ـ الزلزلة التي شعر بها في كل مكان
٤٤٩ ـ حصار يافا
٤٥١ ـ معركة بين الاتراك ورجال انطاكية
٤٥٣ ـ القلعة التي جرى تشييدها في وادي عربة
٤٥٣ ـ حملة الملك الى وادي عربة
٤٥٤ ـ البحر الاحمر
٤٥٥ ـ نهر جيحون
٤٥٥ ـ الفرات
٤٥٦ ـ جائحة جراد
٤٥٧ ـ شارات القمر
٤٥٨ ـ القلعة التي بنيت قرب صور

٤٥٩ ـ موت الملك بلدوين
٤٦١ ـ الكتاب الثالث
٤٦٢ ـ اعمال بلدوين الثاني
٤٦٣ ـ الاتراك يحاربون انطاكية
٤٦٤ ـ بلدوين ينجد انطاكية
٤٦٧ ـ استقبال صليب الصلبوت في القدس
٤٦٧ ـ الملك يحصل على انطاكية
٤٧٠ ـ الملك يحمل على اهل دمشق
٤٧١ ـ حملة الملك على كونت طرابلس
٤٧٣ ـ اسر كونت الرها
٤٧٣ ـ توطيد السلام بين البابا والامبراطور
٤٧٤ ـ اهل البندقية يقدمون الى القدس
٤٧٥ ـ بلدوين يقع بالاسر
٤٧٦ ـ حصار يافا ثانية
٤٧٧ ـ معركة ضد الاتراك
٤٧٩ ـ وصول البنادقة
٤٧٢ ـ وفاة يوستاس
٤٨٣ ـ اطلاق سراح الملك بلدوين
٤٨٤ ـ كونت الرها ينجو من الاسر
٤٨٩ ـ اعتقال بلدوين ثانية
٤٩١ ـ التحضير لحصار صور
٤٩٢ ـ حصار صور
٤٩٣ ـ صور وشهرتها
٤٩٥ ـ من تاريخ صور
٤٩٨ ـ مقتل بلك
٥٠٠ ـ حصار صور
٥٠١ ـ اغارة اهالي عسقلان
٥٠٣ ـ استسلام صور
٥٠٥ ـ امتيازات البابا باسكال
٥٠٦ ـ توزيع الاراضي حول صور
٥٠٨ ـ اطلاق سراح الملك وحصار حلب
٥١١ ـ البنادقة يدمرون جزر الامبراطور
٥١٣ ـ حروب البرسقي
٥١٨ ـ فدية ابنة الملك
٥١٨ ـ قلعة شيدها الملك
٥١٩ ـ المسلمون يبعثون الرسائل بوساطة الحمام
٥٢٠ ـ انواع الافاعي والبهائم في بلاد المسلمين
٥٢٤ ـ حملة ملك القدس على دمشق
٥٢٨ ـ حصار رفنية
٥٢٩ ـ الاستيلاء على رفنية
٥٣٠ ـ وفاة الامبراطور الروماني
٥٣٠ ـ حملة الملك على المصريين

٥٣١ ـ الاسطول المصري
٥٣٣ ـ رحلة بوهيموند الاصغر
٥٣٤ ـ مخاطر البحر
٥٣٥ ـ البحر العظيم
٥٣٦ ـ اصناف الثعابين
٥٣٨ ـ وصول بوهيموند الاصغر
٥٣٩ ـ وباء الجرذان
٥٤١ ـ الحواشي والهوامش

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الروايات الاوربية

(الاغريقية واللاتينية)

(الحملة الثانية)

١ ـ رحلة لويس السابع الى الشرق

٢ ـ من تاريخ اعمال انجزت فيما وراء البحار

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء السابع

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة :

ننتقل الان بعد تقديم اهم النصوص التي دونت اخبار ما عرف باسم الحملة الصليبية الاولى الى تقديم اهم المتوفر من النصوص حول الحملة الثانية وهذا المتوفر ليس بغزارة ما توفر لنا عن الحملة الاولى ، انه نتاج اثنين من المؤرخين اللاتين ، رافق اولهما رحلة الحملة الثانية من الغرب ، وعاش ثانيهما عصر الحملة الثانية في الاراضي المقدسة .

وكانا قد كتبا اصلا باللاتينية مثل نصوصنا الثلاثة المتقدمة حول الحملة الاولى ، وكتب اولهما من قبل الراهب اودو اوف دويل الذي كان بمثابة الراهب الخاص بالملك الفرنسي لويس السابع ، ولدى قراءتنا لنص الكتاب يمكننا التعرف الى شخصية هذا الراهب والى دوره الذي شغله اثناء الاعداد للحملة الثانية ، وخلال مرافقته ، ومواده وثائقية المعلومات عظيمة التفاصيل ، لكن فيهما بعض الثغرات ، ولغة الراهب اودو التي دون بها اخباره تعدل في كثير من الجوانب بصعوبة التعامل معها ، لغة الاميرة انا كومينا ، وقد بذلت جهدي في النقل الامين الى العربية والتعليق والضبط .

ويمكن تدارك نواقص اخبار اودو وسد ثغرات كتابه بالاعتماد على ما كتبه وليم رئيس اساقفة صور في كتابه العملاق « تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار » ، وقد ولد وليم ـ كما هو مرجح ـ في القدس سنة ١١٣٠ م من ابوين اوربيين نزحا الى

الاراضي المقدسة في ركاب الصليبيين ، وقد عاش سني حياته الاولى في القــدس ، وتعلم في مــدارسها : اللاتينية والعــربية واليونانية والعبرية والفارسية ، ودخل في خــدمة الكنيســة وتلقــى التــدريب الكهنوتي وتدرج مترقيا فيما بعد في المناصب الكنسية كما سافر الى فرنسة لمتابعة تحصيله وزار القسطنطينية ، وفي ســنة ١١٦٣ رســم وليم قسا في كنيسة صور ، وبعدها تســلم بعض الوظــائف في هــذه الكنيســة ، وكان ملك مملكة القــدس الصــليبية انذاك عمــوري الاول (ولد ســــنة ١١٣٥ ، وحـــــكم مـــــــابين سنتي ١١٦٣ ـ ١١٧٤ م) وقد عاصر هذا الملك نور الدين الشهيد وخطط للاستيلاء على مصر ، وحين شرع في تنفيذ مخــططه راى ان اخذ مصر لايقل شانا عن اخــذ الصــليبيين للقــدس ، لذلك اراد ان يؤرخ لهذا الحدث الخطير ، فقرر توظيف مؤرخ خاص به يرافقــه في حملته ، ووقع اختياره على وليم فعينه رئيسا لاساقفة صور وعهــد اليه بوظيفة التاريخ ، وادى هذا التكليف الى قيام علاقات وثيقة بين وليم وبلاط القدس ومشاكله السياسية وسواها .

واخفقت محاولة عموري في احتلال مصر وتوفي وخلفه ابنه بلدوين الرابع ، وكان صبيا في التاسعة مــن عمــره وعهــد الى وليم القيام بتربية الملك الطفل ، وبعد اربع سنوات من التربية اكتشــف وليم ان تلميذه مصاب بمرض الجذام ، وظل وليم يرافق الملك المريض حتــى سنة وفاته في ١١٨٥ م ، وهي السنة التي توفي فيها وليم ايضا ، اي قبل حطين بحوالي العــامين . وفي ايام بلدوين الرابــع قــام صراع شديد بين القوى الصليبية حول الوصاية على عرش القــدس ، وقــد تورط وليم الصوري فيه وشغل ادوارا هــامة جــدا ، وكان في هــذه الاثناء قد توفي نور الدين وظهر صلاح الدين ، وبدات خططه الكبرى تتضح معالمها واهدافها .

وكان وليم اول ما كلف بــوظيفة المؤرخ للملك عمــوري قــد شرع سنة ١١٦٧ م في كتابة كتاب دعاه باسم « اعمال عمــوري » واثناء عمله عدل في خطته بحيث اضاف مقدمات ارخــت لتــاريخ الفــرنجة

قبله ، وبعد هذا ايضا عدل الخطة ثانية بان مد المقدمات بحيث جعلها تؤرخ للمسيحية وعلاقاتها بالاسلام ، وبعد وفاة عموري اضاف وليم الى هذا الكتاب معلومات عن الحوادث التي وقعت ، وغير اسم الكتاب بحيث اصبح يعرف باسم« تاريخ اعمال انجزت فيما وراء البحار ».

ان مواد هذا الكتاب تقسم الى قسمين : قسم استقى وليم معلوماته فيه من مصادر مختلفة بعضها عربي وجلها لاتيني حيث انه عمد الى جميع كتابات المؤرخين اللاتين الذين تقدموه وادخلها في كتابه ، واما معلومات القسم الثاني فقد عاصر وليم احداثها ، وقام برواية اخبارها عن شهود عيان ان لم يكن هو قد شارك فيها ، وبذلك يرقى بهذا القسم الى درجة الوثائقية ، انما من وجهة نظر خاصة .

ان تاريخ وليم الصوري بالرغم من مصادره المبكرة ، هو افضل ، لابل اكمل ، مصدر لاتيني ارخ للحروب الصليبية يجد فيه الباحث سردا مسلسلا ، لكاتب قدير ، لاحداث هذه الحروب حتى قبيل حطين لذلك لاقى هذا الكتاب عناية كبيرة ، وجرت محاولات لنشره وترجمته الى اللغات الاوربية الحية .

لقد عد وليم عن جدارة المؤسس للادب الغربي للتاريخ للحروب الصليبية ، ولهذا السبب قام الذين ارخو للاحداث بعد وليم بالتذييل على كتابه الى حد قيل فيه ان كتاب المؤرخ الفرنسي الكبير غروسيه عن الحروب الصليبية ما هو الا كتاب وليم وذيوله بلغة فرنسية معاصرة .

وكنت قد نقلت كتاب وليم الى العربية ونشرته منذ مايزيد على العامين في بيروت ، وانتقيت هنا بعض نصوصه عن الحملة الثانية وليس جميع ما كتبه .

- ٢٩٦٧ -

وكان وليم قد صنف كتابا ارخ به للاسلام والمسلمين ، اعتمد فيه بشكل اساسي على تاريخ سعيد بن البطريق وعلى عدد من الكتب العربية كان الصليبيون قد نهبوها من مكتبة الفارس الشاعر المؤرخ اسامة بن منقذ اثناء عودته من مصر الى الشام مع محتويات مكتبات عربية اخرى ، ويعد هذا الكتاب بحكم المفقود .

وطبعا انها المرة الاولى التي تنقل فيها هذه النصوص الى العربية ، واملي كبير في ان اقدم في المجلد المقبل الذيل الاول لتاريخ وليم الصوري مع دراسة اكاديمية حول اشكاليات ذيول هذا التاريخ .

والله الموفق ، ومنه استمد العون والرشاد والصلاة والسلام على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم.

دمشق ٢٨ / ٤ / ١٩٩٣

سهيل زكار

كتاب

« رحلة لويس السابع إلى الشرق »

تأليف

أودو أوف دويل

- ٢٩٧٠ -

رسالة أودو

إلى

صاحب الغبطة الأب سوكر

الى سوكر (١) راعي كنيسة القديس ديدس ، أوف ديويل .

لأحقر رهبانه ، يبعث بتحياته

يطيب لي ان أبين لك بعض الحقائق عن الصليبيين ، مع تطلعي إليك كي تضفي عليها صفة الديمومة بالكتابة ، حيث لايمكنني القيام بذلك ، بسبب انشغالي في صعوبات الرحلة ، ويعيقني عن أداء ذلك التعب ، والانتقاص للمهارة ، ومع ذلك يتعين علينا أحيانا أن نحاول المستحيل ، لكي نحث مساعي رجالنا الاكفاء على القيام بالمهمة التي نود تأديتها ، لكننا لانقدر على ذلك ، ثم بما أنني نعمت بفضل الملك لويس الواسع الشهرة (٢) وكنت معه وعلى صلة وثيقة به ابان الحملة الصليبية ، فانني اتوق لكي اعرب له عن تمنياتي ، بيد ان قواي واهنة ، لذا سادع هذه المهمة تناط بالقديس ديدس ، الذي لحبته تكرم الملك باغداق افضاله ، ولحبتكم ايضا ، لانكم رغبتم راهبكم وتقبلتموه كقبولكم لانفسكم بالذات ، والأكثر من ذلك فإنك انت مدين له بالكثير من جانبك ، لانه فضلك بشكل خاص في مملكته ، وعند مغادرته لها لمدة من الزمن عهد لك بأمور تلك المملكة (٣) مدفوعا بالحماس والغيرة في بسط الايمان ونشره ، وبذلك إنما يحمي مصالحه الذاتية عندما وضع ثقته برجل أثبت ولاءه ، وتحليه بالحكمة الفريدة من نوعها .

لقد كنت قد سجلت مناقب والده (٤)، وإنه لمن الجريمة بمكان أن تخدع الفروع بمعرفة الابن الذي تعتبر حياته برمتها نموذجا للفضيلة ، لأنه عندما تربع على العرش ، ولم يكن قد صلب عوده بعد ، لم يجلب له ذلك الشعور بالفخار ، بل زاد رغبته واندفاعه إلى الفضائل .

وإذا ما بدأ أي كان بالحديث عن سيرته منذ زمن الرحلة إلى القدس فقط ، فإنه سيقتطع الجزء الأكبر من المثل النموذج الذي وضعه الله للملوك ليحذو كل منهم حذوه في المستقبل ، حيث « أننا نعجب باليوم الرابع والسادس لطهارة نيقولا والسمات الأخرى عندما كان طفلا ، أكثر مما نعجب بقدسيته ككاهن ، أي بقدسيته الرائعة كأسقف » (٥)

ترى هل ستبدأ إذا بالكتابة عن حداثة سن الابن الذي تتشرف بالكتابة عنه ، طالما سبق لك وأذعت شهرة الأب في الأدب ، وطالما أنك مدين لهما بالاحترام ، ابدأ بسيرته مذ كان طفلا يافعا ، حيث بدأت فضائله تزدهر ، كما تعلم أنت ذلك جيدا ، لأنك كنت معلمه الخاص . والآن مع أنني أفتقر للأسلوب ، ولكن ليس لمعرفة الأحداث التي وقعت أثناء الحملة الصليبية ، لأنني كنت في أغلب الأحيان حاضرا عندما كان ينطلق للعمل ، وعندما كان يعود ، ذلك أنني كنت قسيسه الخاص ، لذا فإنني والحال كما ترى سأزودك بشكل مختصر بالحقائق التي يجب أن تزخرف ببلاغتك الأدبية ، فلا تتردد بالقيام بواجبك ، حتى ولو سمعت بأن هذه قد تبنيت من قبل الكثيرين .

ابتهج وكن شكورا ، إذا ما نال الذي يستحق الثناء من الناس جميعا ، ثنائهم ومديحهم فعلا (٦)

انتهت الرسالة

بداية الكتاب الأول

في العام ١١٤٦ لتجسيد الرب ، تعهد لويس بن الملك لويس ، ملك الافرنج ، ودوق أكوتين ، المسيح ، بحمل صليبه (٧) ، وذلك يوم الفصح في فيزلي ، وذلك في الخامسة والعشرين من عمره ، وقد سبق في أعياد الميلاد المتقدمة ، عندما عقد الملك الورع ذاته مجلساً في بورجيه أن كشف للمرة الأولى لأساقفة المملكة وأقطابها ، الذين كان قد دعاهم عن قصد بأعداد أكبر من المعتاد من أجل تتويجه ، عن سر مكنون في قلبه ، (٨) ، وتحدث أسقف لانجرس الورع في هذه المناسبة ، بصفته الكهنوتية ، عن دمار الرها ، التي كان اسمها القديم إديسا (٩) ، وعن اضطهاد المسيحيين ، وغطرسة المسلمين ، وهكذا أثار الاحزان وسبب النحيب الكبير ، حول هذا الموضوع المحزن ، وحث الجميع آنئذ مع ملكهم على وجوب القتال في سبيل ملك الملوك ، كيما ينقذوا المسيحيين ، وعندها اتقد الحماس في نفس الملك لويس ، وجاش إيمانه في صدره ، فقرر هجر المتعة ، وازدراء المجد الدنيوي ، وهذا مثل أفصح من أية خطبة كانت ، بيد أن ما ورعه الأسقف في خطبته ، لم يحصده الملك على الفور ، ولم يأخذ به حالا (١٠) ، لذلك توجب موعد آخر يكون يوم الفصح المقبل ، في فيزلي ، حيث توجب على الجميع أن يحضروا يوم الاحد قبل أحد القيامة ، وكان على أولئك الذين ألهمهم الرب للتطوع أن يحملوا الصليب المجيد في يوم أحد الفصح .

وفي الوقت ذاته ، بعث الملك ، الذي كان جاداً في تعهده رسله حول ذلك إلى البابا يوجينيوس في روما (١١) ، وقوبل أولئك الرسل هناك بالترحيب ، وأعيدوا إلى وطنهم مغتبطين يحملون معهم رسائل احلى من شهد العسل ، إذ كانت تأمر بأداء الطاعة للملك (١٢) ، وعلى الاعتدال في السلاح والملبس ، كما وعدت أولئك الذين نذروا

انفسهم لعبادة المسيح بمحو خطاياهم ، وحماية أزواجهم واطفالهم ، كما تضمنت فقرات أخرى محددة حوت إرشادات البابا المقدسة ، وحكمه وعنايته ، فقد أراد شخصيا أن يمنح البركات الأولية ، من أجل هذا التعهد المقدس ، لكن بما أنه لم يكن قادرا ، ويمنعه في أداء ذلك استبداد أهل روما وطغيانهم (١٣) ، فقد أوكل تلك المهمة إلى برنارد راعي دير كليرفو المقدس .

وجاء في نهاية الأمر اليوم الذي طال شوقي الى حلوله، وتاق اليه راعي الكنيسة المتمتع بالتفويض البابوي ، وبقدسيته شخصيا مع الحشد الكبير من أولئك الذين وجهت اليهم الدعوة ، وحضر الجميع في الزمان والمكان المحدد ، وعندئذ تسلم الملك والعديد من النبلاء معه إشارة الصليب ، التي كانت قد ارسلت من قبل البابا ، وبما انه لم يكن في المدينة مكان يتسع لمثل هذا الحشد الكبير من الناس ، فقد اقيمت دكة خشبية كبيرة في حقل خارج المدينة ، حيث يمكن للكاهن التحدث إلى الناس المحتشدين من مكان مرتفع ، وهكذا صعد الى الدكة ، يرافقه الملك الذي كان يرتدي الصليب (١٤) وعندما فاضت الشفاه السماوية بقطرات من ندى *الكلمات* السماوية ، تعالت أصوات الناس من كل حدب وصوب ، تطالب بـــــــــــــــــــــالصلبان (١٥)

وعندما نثر عليهم ماحواه الوعاء المليء بالصلبان التي كانت قد أعدت مسبقا ، اختفت جميعا ، وطولب بالمزيد ، فاضطر إلى أن يمزق رداءه إلى صلبان أخذ ينثرها إلى الخارج ، وانهمك بذلك طوال بقائه في جوار المدينة ، هذا وانني احجم هنا عن وصف جميع المعجزات التي حدثت هناك في ذلك الوقت ، والتي دلت على أن التعهد قد أرضى الرب ، وإنني إذا كتبت عن بضعة منها فقط ، أخشى الايظن بانها كانت على هذا القدر فقط ، وإذا ما كتبت عنها جميعا ، فانني ساحيد عن هدف موضوعي ، ومهما يكن الحال ، فقد إرفض الجمع اخيرا ، وتفرق الجميع وعادوا مغتبطين ، وبعدما أعلن لهم بانهم سينطلقون مع نهاية السنة (١٦) .

وسارع الاب برنارد ، الذي كان يحمل في جسده النحيل الهش روحا وقادة ، مع أن جسده كاد الا يكون حيا ، هرع للتبشير في كل مكان ، وسرعان ماتزايد عدد أولئك الذين أقبلوا يحملون الصليب الى حد لايحصى (١٧) . وشعر الملك بأنه قد حقق أمنيته في نشر الايمان ، لذلك بعث برسله إلى الملك روجر في ابوليا ، ليوصل خطته إلى الجيش الكبير الذي كان قيد الجمع ، واستجاب روجر لرغبته بحماسة فائقة على كافة الاصعدة ، زد على هذا أنه بعث بنبلاء تعهدوا بتموين المملكة بالاغذية ، وبتأمين النقل عن طريق البحر ، وكل الحاجيات الاخرى ، ووعد بأن يمضي هو أو ولده مع الرحلة (١٨)

وبعث الملك لويس برسالة أيضا الى امبراطور القسطنطينية الذي أتجاهل عن عمد اسمه ولا أذكره لانه لم يسجل في « كتاب الحياة » (١٩) . ودون الامبراطور على وثيقة طويلة من « ورق البردي » اطراء يفوق كل حد ، واطلق على ملكنا صفة « الصديق المقدس ، والاخ » ، وقدم الكثير من الوعود التي لم يبر بها (٢٠) ، وزيادة على هذه الامور ، فقد طلب لويس في وقت اخر من مذكي الالمان (٢١) والهنغاريين (٢٢) تأمين حقوق التسويق والمرور في اراضيهما أيضا ، وتسلم منهما مبعوثين ورسائل تضمنت تلبية طلباته ، وعليه فقد انخرط العديد من أمراء تلك البلدان ونبلائها في الحملة الصليبية ، مدفوعين لذلك بمثله وحانين حذوة فيما يتعلق بها .

وهكذا فقد سار كل شيء على ما يرام ، وفي الوقت ذاته طارت الاخبار ، وانتشرت فعبرت الى انكلترا (٢٣) ، كما تسللت الى الاطراف البعيدة من جزر أخرى ، واعد الناس الذين كانوا يقطنون على طول الساحل ، والذين كان عليهم أن يزحفوا مع الملك بحرا ، قواربهم .

والآن وقد نظم الملك لويس مملكته بشكل جيد ، وتفحص كل

شيء ، وحينما ضمن السلام في المستقبل لرعيته ، وتجمع الرسل من مختلف البلدان في باريس ، وكانوا هناك جميعا عندما عاد ، فقدموا رسائل الامبراطور ، وأوامر الأمراء النبلاء ، ووعدوا جميعا شفويا وكتابيا أن يستجيبوا لمطاليبه .

وملك الملك لويس حرية اختيار رجل يعهد إليه بالشؤون المالية ، لكن كما جرت عادته واعتاد أن يعمل أثر أن يشاور جميع الذين كانوا يتعاونون معه ، ولهذا دعا الجميع إلى عقد اجتماع في إتامب يوم أحد القيامة (٢٤) ، ليقرروا جميعا ما سيقومون به ، ويتحملون وزره معا ، ولقد كان المندوبون حكماء وعقلاء في تقريراتهم بقدر سرعتهم في قدومهم إلى الاجتماع ، وعندما التقى حشد القساوسة والنبلاء ، الذي كان كبيرا بقدر ما كان مشهورا ، والتأم جمعه في الوقت المعين والمكان المحدد ، قام فيهم ، القديس برنارد ، المذكور من قبل ، والمبينة فضائله وصفاته ، وأخبرهم بما تم إنجازه مما جعل المجتمعين يسرون ، وخاصة بعدما علموا بأنه عاد لتوه من ألمانيا ، عقب إقناعه ملك تلك البلاد والنبلاء فيها بالانضمام إلى الجند حملة صليب المسيح (٢٥) ، وبعد هذا تليت الرسائل القادمة من مختلف البلدان ، وأصغي إلى كلمات الرسل ، واستمرت هذه الأعمال حتى المساء ، وهكذا انقضى يوم ممتع مليء بالنشاط ، وتركت بقية المسائل ، وأجلت الأعمال إلى اليوم التالي ، وعندما جاء ذلك اليوم ، كان لطيفا ، لابل مبهجا ، فقد وجد بين المجتمعين رجال قالوا أن البيزنطيين رجال خداع ومكر وغش ، وهذا ما قرؤوه عنهم أو خبروه بالتجربة ، لكن الملك ورجاله الذين كانوا لايخشون قوة أمة من الامم ما كانوا ليتملكهم الرعب والمخاوف من بعض الخداع والمكر ، ونظرا لحكمتهم وشجاعتهم العالية وإيمانهم بأن مامن قوة يمكنها أن تقف في وجه إرادة الرب ، ولأنهم اختاروا أن يموتوا ، فقد عزموا على ركوب الطريق الذي يمر بالأراضي الاغريقية (البيزنطية) (٢٦) ، وهكذا انقضى اليوم الثاني دون تأجيل شيء من الأعمال والقضايا ، وعند ذلك انصرف النبلاء رسل الملك روجر جزعين خائفين ، الأسى يكوي قلوبهم ، معربين بكل

وضوح عن حبهم لسيدهم ، وتنبأوا لنا بمكر وخديعة الاغريق ، الأمر الذي خبرناه وعانينا منه فعلا فيما بعد ، وليس في هذا ما يدعو للغرابة ، لأن روجر الملك الحكيم والقادر ، قد أثر أعمال ملكنا ، وفضل كل واحد جاء من الجزء الذي ننتمي له من العالم ، وكان من محبي الفرنجة .

وأخيرا بعد صلاة الشكر ، وترديد الثالوث المقدس ، مضى اليوم الثالث ، وبعد تضرع وصلاة للروح القدس (لعلهم أدوا ذلك القداس بالطريقة نفسها في اليوم السابق) أقيم قداس من قبل الكاهن المقدس ، وتواصل الاجتماع مع بحث مسألة رعاية المملكة ، والآن بعد أن حد الملك من سلطاته خشية من الرب ، كما كانت عادته ، منح أساقفة الكنيسة ، ونبلاء المملكة امتياز الانتخاب ، فمضوا إلى عقد الاستشارة ، وبعد أن كانوا قد اختاروا الطريق الأفضل للعمل بعد تأخر طفيف ، وبينما كانوا في طريق عودتهم بقيادة الكاهن المقدس ، قال لهم هذا الأخير : « يارب هو ذا هنا سيفان ، فقال لهم : يكفي (٢٧)» ، مشيرا إليكم أيها الأب سوكر مع كونت نيفر ، ولعل ذلك كان قد أدخل السرور لقلب كل واحد ، لو كان قد أبهج الكونت فقط ، لكنه كان قد نذر نفسه لشر تيروز ، وبر بوعده بعد ذلك بفترة وجيزة ، ولم يكن رده عنه ممكنا لابدعوات الملك المطولة ، أو بصلوات الآخرين جميعا (٢٨) ، وهكذا ألقي على كاهلكم وحدكم (٢٩) العبء المعين للاثنين ، وتحملتموه وحدكم بسلام لايتخلله كدر ، واعتبرت عبء المسيح (٣٠) السهل ، وفي الوقت ذاته حدد يوم بينتيكوست للرحيل ، وواحد في أوكتيف (٣١) لمقابلة الأمير المتواضع والمشهور في متز .

وبعد هذا ، وحيث لم تنتقص البركة أو الفضل أتى يوجينيوس الحبر الروماني الأعظم ، واحتفل بعيد الفصح في كنيسة القديس دينس احتفالا لائقا ، واجتمع العديد من الناس سوية بسبب مضاعفة الروعة ، أي وجود الملك والأب الرسولي (البابا)

باعتبارهم حجاجا ، وأكثر من ذلك أكد البابا على الترتيبات التي كانت مرضية ، وأصلح العديد من الأمور غير النظامية ، بينما كان ينتظر وصول الملك ، وفي ذلك العام جاء موعد سوق القديس دينس الموسمي نهار الأربعاء بعد بينتيكوست (٣٢) ، لذلك فإن كافة الجماهير الكبيرة التي ذهبت إلى السوق الموسمي اقتربت من الملك ، وعلى مرأى من جميع الحضور ، طلب من القديس دينس راية الحرب ، واستأذن بالرحيل (وهذا ماكانت عليه دائما عادة ملوكنا المنتصرين) فأثار النحيب الكبير ، وحظي بمباركة كل واحد من أعماق قلبه (٣٣) .

وعند حلول ساعة الانطلاق (٣٤) ، قام بشيء يستحق الثناء ، ذلك أن قلة من الناس ، لابل ربما مامن احد سواه يمكنه أن يقوم بما قام به ، ذلك أنه بعدما زار بعض الرهبان في باريس ، أثر مغادرة المدينة عن طريق حي المجذومين ، وهناك رأيته بنفسي (٣٥) يدخل مع اثنتين من مرافقيه فقط ، ويترك والدته (٣٦) وزوجته (٣٧) وعدد كبير لايحصى من الآخرين إلى دير القديس دينس ، وعندما وصل الملك وجد البابا ورهبان الكنيسة ، وراعي دير القديس دينس هناك مجتمعين سوية ، وعند دخوله سجد على الأرض بكل تواضع وخشوع أمام سيده وحاميه القديس ، وفي الحقيقة فتح البابا والراعي الباب الذهبي الصغير ، ثم سحبا المدخر الفضي قليلا ، حتى يزداد الملك شوقا وإثارة بمشاهدة ذخيرة بقايا من كان يقدس روحه ، ويقبلها (٣٨) ، وعندئذ قام بعدما تناول الراية من على المذبح (٣٩) ، وحالما تلقى مزودة الحج وبركة البابا ،فانسحب من بين الجمهور إلى مكان إقامة الرهبان ، فلم تتمكن الحشود وزوجة الملك ووالدته اللذين انهمرت أعينهم جميعا بالدموع ، ثم بسبب شدة الحرارة ، تحمل التأخير ، بيد أن إيقاف الأسى والنحيب الذي حدث أنذاك كان من الجنون بمكان ، كما كان مستحيلا ، وفي ذلك اليوم تناول الملك ولفيف من حاشيته طعام العشاء في القاعة الخاصة مع

الاخوة الرهبان ، وبعد تلقي قبلة السلام من الجميع ، وغادر ترافقه الدموع والصلوات (٤٠) .

آخر الكتاب الأول

بداية الكتاب الثاني

ان الثرثرة المتطرفة مرهقة دائما للانسان المشغول ، وهكذا فانني اخشى بأن تكون روايتي قد مضت ابعد من اللازم دون أن اترك لنفسي متسعا للتنفس ، انني التمس منك ايها الاب أن تغفر لي هذا العجز ، فلقد كنت منهمكا في قضايا مفرحة ، فعندما كتبت العبارات المتعلقة بأرض وطني ، وعندما شرعت اتذكر شؤونه ، اخذت بلا شعور أستعيد ذكريات ماكنت قد رأيته من السعادة في وقت مضى منذ زمن بعيد ، فالانسان عندما يستعيد الذكريات الحلوة لايشعر بالتعب ، وعلى كل حال فإنني أوقف الان نفسي في هذه البداية الجديدة على تقلد مهام صعبة ، عازما في شروحي واوصافي على الدخول الى بلدان غريبة ، وذلك تماما كما فعلنا هذا بالواقع ، وسأتوصل تباعا الى خلاصات أسرع للصعوبات التي نجمت عن ذلك .

بعد مغادرة الملك المبجل لكنيسة القديس دينس ، لم يفعل شيئا يستحق التذكر في مملكته ، اللهم الا اذا كنت ترغب في رواية خبر حقيقة تعيينه رئيس اساقفة رايم شريكا لك في ادارة المملكة (٤١) ، ولست ادري فيما اذا كان يتعين علي أن أترك الكونت راؤول خارج روايتنا (لانه كان في ذلك الحين محروما كنسيا) (٤٢) ذلك انه اضيف اليكما بمثابة مشرف ثالث ، لكونكما انتما الاثنين تنتقصان لسيف مؤقت حيث ان « الخيط المثلوث لاينقطع ابدا » (٤٣) .

لذا دعنا نتوجه بحديثنا نحو متز حيث كان هناك تجمعنا ، وبالرغم من أن الملك لم يجد هناك شيئا يخصه بموجب حق السيطرة السلطوية ، فقد وجد الجميع رعية له بشكل طوعي كما كانت عليه الحال تماما في فيردون ، وهكذا بعد أن خيم خارج

المدينة ، انتظر الجيش بضعة أيام حتى يصل ، فـأصدر القـوانين والاوامر اللازمة لضـمان السـلام والمتـطلبات الاخـرى اثناء الرحلة ، واكدها القـادة بإقسـامهم اليمين ، لكن بمـا انهـم لم يحافظوا على عهودهم وبراعوها كما ينبغي ، فأنا بدوري لم أحافظ على ذكرهم واخبارهم ، وأرسل أمامه من ميتز الى ووفـر الرجلين الحصيفين المتينين وهما : الفيسوس أسقف اراس (٤٤) ، وليو رئيس كنيسة القديس سان بيرتن (٤٥) مـن أجـل إعداد الوسـائل للجيش لعبور نهر الراين ، وقـد قـاما بمهمتهمـا على الوجـه الاكمل ، حيث جمعا اسطولا من جميع الجهات ، وكان حجـم ذلك الاسطول من العظم بمكان حيث لم يعد الجيش بحاجة الى جسر .

واستقبل الناس ورجال الدين في وورمز الملك بحفاوة بالغة في يوم عيد القديسين بطرس (٤٦) وبـولس ، وهنا شـاهدنا للمـرة الاولى الغطرسة الجذونية لشعبنا ، لأن الجيش عبر الراين ، وعندما وجد مرجا مترامي الأطراف ، قرر الملك انتظار صاحب القداسة أسـقف ليزكس ورجاله النورمانديين والانكليز (٤٧) .

واتتنا من المدينة مؤن فائضة عن طـريق النهـر ، وهناك قـامت تجارة متواصلة بين السكان المحليين وشعبنا ، لكن مالبث أن نشب نزاع في نهاية الأمـر أدى الى القـاء الحجاج بـالبحارة في عرض النهر ، وما أن شاهد أهالي وورمز هذا حتى اندفعوا بسرعة لحمل السلاح وجرحوا العديد من رجـالنا وقتلوا واحـدا منهـم ، فـوقع الحجاج في ارتباك عظيم ، وهب الفقراء الى اشـعال النيران التـي الحقت الموت بـكل مـن بعض رجـالنا (التجـار الاغنياء وصرافي الاموال) وبأهالي البلد ، ومهما يكن الحال ، وبمشيئة الله ، تمكن العقلاء من كلا الجانبين من كبح جمـاح الحمقـى مـن الطـرفين المتصارعين ، ومع ذلك ظل الخـوف يعتـري قلوب الأهلين ، وبمـا أنهم كانوا قد نقلوا القوارب عن جـانبي النهـر فقـد أوقفـوا التجارة ، غير أن أسقف اراس ، الرجل المتين ، عبر النهـر مـع

بعض البارونات ، بعدما وجد قاربا بمشـقة ، وهـدأ مـن روع الجمهور ، ثم وعد الاهلين بالامان ، ومن ثم أعيدت القوارب ، ومن جديد انشغلوا بالتجارة كما في قبل ، وأصـبحوا يزودوننا بـالحاجات الضرورية ، وحتى حينه لزم الناس الانضباط ، وتحقق ذلك هنا للمرة الأولى ، وبما أن كل شيء كان باهظ الثمـن بسـبب احتشـاد الناس وكثرتهم ، فقد تخلى العديد عنا هنا ، ومضوا داخـل جبـال الالب .

وقوض الملك الخيام ، واستأنف الرحيل ، بعد أن كان قد ارسـل أسقف اراس والحاجب (٤٨) وراعي دير سان بيرتـن ، ارسـلهم أمامه الى راتسبون لمقابلة مبعوثي امبراطور القسـطنطينية ، الذين كانوا ينتظرون الملك هناك منذ عدة ايام ، وفي هذه المدينة عبر الجميع نهر الدانوب على جسر جيد جدا ، ووجدوا أسطولا كبيرا تولى نقـل أمتعتنا والعديد من رجالنا حتى بلغاريا ، حتى أن بعضـهم وضـع عربات يجرها حصانان واربعة على ظهـر السـفينة ، كيمـا يتـم التعويض عن الخسائر التي كان هذا البعض قـد تـكبدها في أراضي بلغـــاريا البيـــاب (٤٩) . وقــــد وضـــح بشكل قاطع ــ من قبل ومن بعد ــ أن العربات ذات منافع ظاهرية اكثر منها عملية ، وإننا إذ نتطرق الى ذكر هذه الامور إنما نفعل ذلك لنحذر الحجاج فيما بعد ، لانه طالما كان هناك عدد كبير من العربات التي تجـرها اربعـة خيول ، كان على الجميع أن يتـاخروا بنفس الدرجة فيما لو تحطمت إحداها ، وإنما كانوا إذا وجدوا طرقا عديدة سلكوها جميعا في نفس الوقت ، وغالبا مـا كانت الخيول تتعـرض للاعاقة بسبب انسداد الطرق ، ولهذا السبب كان موت الخيول شائع التكرار ، كما كثرت الشكاوى حول قصر المسافة التي كانت تقـطع كل يوم .

واستقبل اهالي راتسبون الملك لويس كما يستقبل الملوك حقـا ، لكن بما أنني لا أستطيع أن أعيد تكرار العبارات التـي أعرب فيهـا الناس حوله عن ولائهم من القلوب ، لذا يجب أن اذكر ولمرة واحـدة

أن جميع المدن والحصـــون والبلدان الواقعـة على الطـــريق إلى القسطنطينية قد أبدت للملك ولاء مشرفا بقدر ماوجدت لذلك ســبيلا (٥٠) والآن وعلى الرغم مــن أن الجميع كانوا على حــد ســـواء راغبين في استقباله استقبالا حسـنا ، فإنني أقــول . « بــدرجات متفاوتة لانهم لم تتوفر لديهم جميعا نفس الموارد والامكانات »

وبعد أن اقيم المعسكر ، وتم إعداد مقر خــاص بــالملك ، جـرى استدعاء مبعوثي الامبراطور ، وعندما جاءوا بادروا الملك بالتحية ، وسلموا رسائلهم ، ثم وقفوا ينتظرون جوابه ، لانهـم اعتــادوا أن لايجلسوا مالم يؤمروا بذلك ، وعندمــا صــــدرت لهـــم الاوامـــر بالجلوس ، أعدوا الكراسي التــي كانوا قــد أحضر وهــا معهـــم ، وجلسوا عليها ، وهناك شهدنا ، ماعلمنا بعد انه عرف بيزنطــي ، اي أن رجال الحاشية يلتزمون بــالعادة الوقــوف بــأكملهم عندمــا يجلس سادتهم ، وبوسع المرء أن يرى شبابا واقفين بــدون حــركة ورؤوسهم منحنية ونظراتهم موجهة قصدا ، وبصمت الى أســيادهم جاهزين لتلبية الاوامر بمجرد إشارة ، وهـم ليس لديهم أردية ، لكن الاثرياء يرتدون ملابس حريرية قصيرة ، ذات أكمام ضيقة ، مخاطة من جميع جوانبها ، مما يتيح لهم حرية الحركة بشــكل دائم دونمــا إعاقة ، كما يفعل الرياضــيون (٥١) ويرتــدي الفقــراء مــلابس مخاطة بنفس الطريقة ، ولكن أرخص نوعا .

وبالنسبة لي فإني اجد أن تفسير الوثائق تفسيرا تاما أمــرا غير لائق من جهة واحدة ومستحيل من جهة أخــرى ، لان الجــزء الاول والاكبر منها صيغ بشكل فيه ذل وصغار وتواضع شديد بغية ضمان ارادتنا ونوايانا الطيبة ، ثم لانه يتوجب علي التلفظ بكلمات هــي في غاية الرقة تملقا ، لأن كلماتهم لاتنبع من العاطفة ، وهي كلمــات لم تكن لتخزي الامبراطور فحسب ، بل حتى المهرج ، ولذا فمن المخجل المرء أن يشغل نفسه بمثل هذه القضايا عندما يسرع متوجها نحــو الآخرين ، وإن هــذا لمن المســتحيل بــالنسبة لي ، ثــم إن التملقين

الفرنسيين مهما جهدوا لا يمكنهم أن يعادلوا الاغريق حتى ولو رغبوا بذلك ٠

والآن وبالرغم من أن وجه الملك احمر خجلا من ذلك التملق ، فقد سمح في البداية أن يستمر كل شيء ، غير أنه لم يكن يعلم من أي مصدر آتى هذا الاطراء والمديح ، بيد أنه في نهاية الامر عندما كرر الرسل زياراتهم له في الأراضي الاغريقية ، وبدأوا دائما يتقدمون له بعبارات على هذا النحو ، فلما كان يتحملها ، قال ذات مرة غودفري ذلك الرجل الروحي المتدين ، بعد أن ضاق ذرعا بذلك ، وترأف بحال الملك ، وازعجته التأخيرات التي سببها المتحدث والمترجم : « أيها الاخوة لاتكرروا عبارات «صاحب المجد» أو « صاحب الطاعة » مشيرين في غالب الأحيان للملك ، فهو يعرف نفسه ، ونحن نعرفه جيدا ، وذوهوا عن رغباتكم بصورة مقتضبة وبحرية أكثر » ومع ذلك فإن المثل القائل :« احذروا الاغريق حتى ولو حملوا معهم الباب » كان دائما معروفا حتى بين صفوف بعض الناس العلمانيين .

وتضمن الجزء الاخير من الرسائل ، والذي كان واضحا تمام الوضوح شرطين : أولهما أن الملك يجب الا يستولي على أية مدينة او حصن في دولة الامبراطور ، بل على العكس من ذلك ، فإذا ماطرد التركمان من أي مكان كان بالاصل يعود لسيطرة الامبراطور ، عليه أن يعيد ذلك المكان للامبراطور ، وكان من المتوجب أن يثبت هذا الاتفاق بيمين يقسمه النبلاء (٥٢) وقد بدا الشرط الاول لمجلسنا معقولا جدا ، أما فيما يتعلق بالشرط الثاني فقد بدا السؤال حول ممتلكات الامبراطور موضعا للنقاش ، فقد مضى بعضهم الى القول :« بالنسبة الى التركمان ، يترتب عليه أن يحاول استرداد ممتلكاته منهم ، وأن يفعل ذلك إما بالشراء أو التفاوض أو بالقوة ، ثم لماذا لايجوز له أن يحاول اخذها منا إذا مارأنا نستولي عليها بشكل من الاشكال » ؟ بينما مضى لغرون الى القول : يتوجب أولا أن تحدد ممتلكاته ، وهكذا فإن الصراع في المستقبل لايمكن أن

يثار حول اتفاق أو قول غير محدد ، وفي الوقت ذاته انقضت عدة أيام ، واحتج الاغريق على التأخير ، زاعمين أنهم يخشون من قيام الامبراطور بإحراق الأطعمة وبقية أنواع المؤن وتدمير التحصينات على سبيل الحيطة قائلين : « إنه انذرنا انه سيفعل ذلك إذا ما تأخرنا » ثم قالوا : « على أساس الاستخلاص من تأخركم أنكم لم تأتوا لتمروا بسلام ، إنه إذا فعل ذلك لن تجدوا مؤنا كافية على طول طريقكم ، حتى وإن أراد الامبراطور ذاته توفير ذلك لكم » .

وبعد لأي اقسم اخيرا بعض الرجال اليمين لصالح أمن الدولة الاغريقية نيابة عن الملك ، وبيمين مماثلة نيابة عن امبراطورهم تعهد الاغريق واقسموا على تجهيز سوق كافية مناسبة ، وعلى تحويل النقود بأسعار لاغبن فيها ، وذلك بالاضافة الى جميع الامتيازات الاخرى التي بدت ضرورية لنا ، أما الشرط الثاني الذي لم يتوصلوا الى قرار بشأنه ، فقد احتفظوا به الى حين اجتماع صاحبي الجلالة (٥٣) ، وبارحنا بعد هذه المفاوضات واحد من المبعوثين الاغريق واسمه ديمتروس وسافر مسرعا ، بينما بقي الآخر واسمه موروس معنا ، واثر هذا تم اختيار الرجال الذين سيوفدون الى القسطنطينية مع موروس المشار اليه ، والذي أتيت على ذكره آنفا (لأن الرسائل اشارت الى هذا المطلب) من بين المطالب الاخرى ، وهؤلاء الرجال هم : الفيوس كونت آراس وبارثو لميو الحاجب ، وأرشيبالد كونت بوربون (٥٤) مع آخرين غيرهم(٥٥) ، وهكذا كلف هؤلاء بالسفارة ، وتحركوا إثر تكليفهم بكل سرعة ، في حين تبعهم الملك بخطى وئيدة حسبما سمح الجمهور المحتشد معه بذلك (٥٦) .

وفي هذا المقام أجد أنه من المفيد جدا القيام بوصف الأعمال الناجحة ، ذلك أنها تزود القارىء بنماذج وأمثلة مفيدة ، ثم إن تسمية المدن التي مررنا بها يوضح طريق الرحلة ، ويبين طبيعة الاماكن الموصوفة ، خاصة تلك التي تستدعي الحاجة اتخاذ الحيطة

فيها ، سيما بالنسبة للمؤن ، فمن المفترض وجود حجاج مسافرين دائما الى الديار المقدسة ، ولاشك انهم سيكونون اكثر حذرا بالاعتماد على خبرتنا التي حصلناها .

حسنا :إن مدن متيز ،ورمز ، ورزبيرغ ، وراتيسبورن ، وباساو ، هي مدن ثرية جدا ، تبتعد كل منها عن الأخرى مسافة ثلاثة أيام(٥٧) ، والمسافة بين آخر هذه المدن وكلوسترنبيرغ هي خمسة أيام ، ومن هناك يوم واحد حتى الحدود الهنغارية ، وتغطي الغابات المناطق الواقعة فيما بين تلك المدن ، وإذا لم تجلب المؤن من المدن الكبيرة ، فهي لايمكنها أن تزود جيشا لجبا بالمؤن ، ومع ذلك فهي تحتوي على كمية من الجداول والينابيع والمروج ، وعندما كنت أعبر تلك الأراضي كنت اظنها تعج بالجبال ، ولكنني الآن ، بالمقارنة مع رومانيا ، أعتبرها مستوية ، فمن جانب واحد تحاط هنغاريا بالماء الموحل ، بينما يفصل بينها وبين بلغاريا نهر صاف ، وفي وسطها يجري نهر دريف الذي تميل احدى ضفتيه بعض الشيء بينما تنحدر الحافة الأخرى انحدارا شديدا ، ذلك أن النهر يفيض في حال هطول مطر خفيف ، وعندما يرفد بمياه المستنقعات والجداول المجاورة ، ويستمر مسير الفيضانات حتى مسافات بعيدة ، وقد سمعنا بأن ذلك النهر كان قد غمر بمياهه بشكل مفاجىء العديد من الالمان الذين سبقونا ، ونحن لم يكن بمقدورنا أن نصل إلى المخيم الذي كانوا يعسكرون به ، ومن أجل عبور النهر كانت لدينا بضعة سفن صغيرة ، وهكذا كان على الخيول أن تسبح ، وبما أنها دخلت النهر من مكان سهل ، فقد خرجت منه في مكان صعب ، وعبرته بالتالي بمنتهى الصعوبة ، ولكن بعون الرب دون خسائر ، ويتخذ ماتبقى من المياه في هذه الأراضي شكل بحيرات ومستنقعات وينابيع (حتى وإن كانت تلك الينابيع من صنع المسافرين ، ذلك أنه من السهل اخراج الماء حتى في الصيف بحفر سطح الأرض حفرا خفيفا) باستثناء الدانوب الذي يجري على شكل خط مستقيم ، وتعبره السفن العديدة حتى يصل الى بلدة غران ، وتنتج

هذه الأرض الوفير من الأغذية ، حتى ليقال بـأن مبعـوثي يوليوس قيصر كانوا قد توطنوا فيها ، وهنا في هذه البقعة اتيح لنا أن نتمتع ببعض امتيازات التسوق كما رغبنا .

واستغرقنا خمسة عشر يوما كيما نعبر هنغاريا ، ثم تـراءت لنا على حدود بلغاريا مدينة محصنة كانت تدعى بلغراد البلغـار ، وذلك بغية تمييزها عن بلدة هنغارية تحمل الاسم ذاته ، ثم قضينا يومـا اخر بعد ذلك وعبرنا احـد الأنهـار ، ووصـلنا الى بلدة بـرانديزي الصغيرة الفقيرة ، أما ماتبقى من البـلاد فمـرج تغـطيه الغـابات والسهوب التي تنمـوا فيهـا أعشـاب المراعي ، وإذا جـاز لنا القول : انها تعج بالكثير من الأشياء التي تنمـو بمحض ذاتهـا ، وتناسب أشياء أخرى ، اللهم إذا توفر المزارعون في المنطقة ، فهـي ليست ممتدة على شكل سهل ولاعلى شكل جبال صخرية ، بل إنهـا تتوضع بين هضاب تناسب زراعة الكرمة والحبوب ، كما أنها تروى من اكثر الينابيع والجـداول صـفاء ، ذلك انه لايوجـد فيهـا انهار ، وبسبب ذلك لم نكن بحاجة للقوارب على طول الطـريق مـن هناك حتى القسطنطينية(٥٨) ، وفي اليوم الخامس من المسير كشفت لنا الأرض عن المدينة الاغريقية الأولى ـ على صغرها ـ واسـمها نيسا ، وتبعـد مـدن : نيسـا ، وصـوفيا ، وفيلبوبولس ، وادريانوبل (أدرنة) مسافة أربعة أيام كل منها عن الأخرى ، وتبعد أدرنة عن القسطنطينية مسافة خمسة أيام ، وتعج السهول المتـدة بين تلك المدن بـالعديد مـن القـرى والحصون ، ومختلف أنواع الموارد ، كما توجد على جـانبيها يمينا وشمالا جبال تبدو قريبة بحيث يتاح للمرء أن يراهـا ، وهي ممتـدة طويلا ، حيث تحصر فيما بينها سهلا غنيا خلابا .

هذا عن تلك المسائل ، ذلك أنه مـن الضرورة بمـكان أن أروح في قصتي جيئة وذهابا لأنه على الرغم من العديد من الأمور التي تبـرز نفسها من اجل الوصف ، يجب الا نخلط بين هـذا الاعتبـار وغنى

المواضيع ، فالكثير من الأحداث تقع في وقت واحد ، غير أنه ينبغي على المرء أن يراعي تتابعها أثناء معالجتها أو حين التحدث عنها (٥٩) ، فقد تبادر كل من الملك والامبراطور لذهني عندما كنت اكتب عن راتسبون ، ذلك انه على الرغم من ان الملك هو موضوع كتابي الرئيسي ، اجد نفسي مرغما بفعل خبرتيهما المتبادلة ، أن اضمن كتابي بضعة كلمات عن الامبراطور.

كان الملك الألماني قد سبقنا في الزمان والمكان : لقد انطلق ملكنا يوم أحد العنصرة ، في حين انطلق الألماني في أيام عيد الفصح(٦٠) ، وسافر ملكنا من سانت دينس ، والملك الألماني من راتسبون (٦١) وإن حقيقة ذهاب الملك الألماني أولا قد هيأت الفرصة أمام ملكنا وسهلت مهمته ، لوجود العديد من الأنهار في ألمانيا ، فقد وجد ملكنا على طريقه جسورا جديدة قد شيدت فوق الأنهار ، ولهذا لم يتحمل أي عناء أو نفقات من جانبه ، وزيادة في الافصاح عن الحقيقة أقول بأن الامبراطور كان قد انطلق بأفضل ما يجب أن تكون عليه التقاليد الامبراطورية على صعيد كل من الاسطول البحري ، والقوات البرية ، وقد نصح بذلك لأن الهنغاريين كانوا آنذاك على عداء معه (٦٢) ، وهكذا فقد دخل هذا الامبراطور الشجاع ، الذي كان يتحلى بمعنويات عالية ، كونه كان بحارا وجندي مشاة (بعد أن رأى أن لديه جيشا كبيرا يرافقه على ظهر الأسطول والفرسان وبقية المراتب الى جانبه يسيرون على محاذاة الشاطىء) الى أراضي هنغاريا كما ينبغي ، وصار سيدا وأميرا.

وكان هناك رجلا يدعى بورس ، ادعى حق ميراث عرش هنغاريا ، وبعث برسائل بهذا الخصوص الى ملكنا في ايتامبس معربا فيها عن شكواه بشكل تام ، ويطلب المقاضاة بتواضع من أجل الانصاف ، وفي طريقه نحو ملكنا إثر رسائله ، قابل الامبراطور الذي كان يثق به ، فعرض الحالة عليه ووعده بأمور كثيرة(٦٣) (وقد أعطاه ـ كما سمعنا ـ الكثير من الأشياء) وتلقى بدوره أملا بكسب حقه ، غير أن ملك هنغاريا ، الذي كان يدرك أن

باستطاعته أن ينتصر بسهولة عن طريق المال (الذهب) أكثر من اعتماده على القوة ، أنفق أموالا طائلة بين صفوف الألمان ، وبذلك نجا من هجومهم عليه (٦٤) ، والآن وبعد أن خدع بورس نفسه بأمل يائس تخفى قدر ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وانتظر مرور ملكنا ، وبخديعة أو أخرى في ذهنه تمكن من الانضمام إلى الفرنج ، وقد قيل بأن اميرين من الفرنجة كانا على علم بذلك ، ولما كان بورس متزوجا من ابنة أخ (أو أخت)امبراطور القسطنطينية ، فقد انضم الى الفرنج بصدق ، وحجة كافية قوية مقبولة من جانب الأميرين إياهما(٦٥) ، وهكذا تمكن من المضي عبر هنغاريا رفقة الجيش الصليبي ، تحت تغطيته وحمايته ، ودون أن يعلم أحد.

وفي الوقت ذاته ، وخشية من ملكنا وخوفا منه ، سعى ملك هنغاريا لنيل رضاه وذلك بارسال المبعوثين والهدايا ، بيد أنه تحاشى عبور الدانوب لمقابلته ، وقد أمل بعقد مؤتمر مع الرجل الذي أثنى على سمعته ، ورغب في الاعتماد عليه (كما أظهرت الأحداث ذلك) ، ولكن بما أنه كان يخشى عبور النهر الى الجانب الذي كنا نشغله ، فقد التمس من الملك بكل تواضع أن يتشرف بالقدوم الى جانبه هو ، واستجاب له الملك ، لسيطرة نزعة التنازل عليه ، وقام بكل يسر وسهولة وتحت وطأة حب الاحسان والتواضع باصطحاب عدد من رجال الاكليروس والنبلاء ولبى رغبته ، وتوجه اليه ، وهكذا أقاما السلام بعد ما قبل كل منهما الآخر ، وتبادلا المجاملات ، وعملا على تقوية أواصر المودة فيما بينهما ، واتفقا على أن يمر الحجاج اعتبار منذ ذلك الحين عبر أراضي هنغاريا بكل أمان ، وبعد أن أنجز ملكنا ذلك غادر هنغاريا تغمره السعادة محملا بالهدايا الملكية والخيول والثياب ، وعزم ملك هنغاريا على أن يزيد من تقديره لملكنا وتشريفه قدر استطاعته ، سيما عندما وجد بورس مع الفرنجة ، لذلك أوفد أناسا من لدنه ليعرضوا عقد معاهدة صداقة وسلام جديدة مع الملك ، ولأن يطلبوا منه بكل تواضع أن يسلم اليه عدوه الذي كان مختبئا بين صفوف الجيش وحدث هذا الأمر كله أثناء الليل ، ومهما يكن من أمر ، فإن الملك الذي لم يكن معتادا على

التعامل بمثل هذه الدرجة من الازدواجية ، لم يصدق القصة تصديقا مطلقا ، بيد أنه سمح في نهاية الأمر للمبعوثين الذين كانوا يواصلون تأكيدهم له على وجوده في معسكره ، ويطلبون تعاونه معهم ، سمح لهم بالتفتيش عنه ، وبناء على هذا ، تقدموا والفرح مسيطر عليهم ، بجرأة ودون تعقل ، نحو مكان بورس ، مثيرين صخبا كبيرا ، فما كان من بورس الا أن نهض من فراشه بسبب الصخب الذي أقامه أولئك الذين كانوا يبحثون عنه ، فهرب عاريا ، وبذلك فوت عليهم الفرصة ، فعادوا وقد أحبطت جهودهم ، ولم يكن بورس الفار أحمقا بأي وجه من الوجوه ، فعندما كان قد غادر ملجأ الخيام في طريقه الى النهر ، قابل فارسا يمتطي صهوة جواد رائع ، فقاتله بشجاعة من اجل الحصان ، فصرخ الفارس وقاوم بشدة ، واستطاع ان ينتصر عليه بصراخه ، أكثر مما فعل بقوته ، لأن الناس سرعان ما ظهروا من كل حدب وصوب ، وقبضوا على بورس ، وكأنما كان من قطاع الطرق ، واقتادوه الى أمام الملك ، بعد أن ضربوه ، ومرغوه بالوحل ، وعري من ثيابه ، فيما عدا ما ستر عورته ، وظن الجميع انه كان من قطاع الطرق ، ولكن بعد ان ألقى بنفسه على قدمي الملك ، ورغم انه لم يعد يكن يعرف لغتنا ، كما أنه لم يكن لدى الملك مترجم ، فقد استطعنا بعد أن خلط كلمات من لغته بعضها ببعض ، وبعد تكرار اسمه استطعنا أن نكشف عن هويته ، فكسي بالثياب بشكل لائق ، واحتفظ به حتى اليوم التالي.

وعندها ، ونتيجة لمعرفته السابقة ببورس ، وخشية منه ، تمكن الملك الهنغاري ، الذي كان قد نصب خيامه على مقربة منا ، تمكن على الفور من معرفة ما حدث ، لأنه كان على صلة وثيقة بنا ، ولأنه كان فضوليا بسبب قلقه ، لذلك سارع فطالب الملك بتسليمه بورس ، وذلك كما يطلب صديق من صديق حاجته ، ملوحا بأن تسليمه اليه كان الزاميا بحكم معاهدة الصداقة فيما بينه وبين الملك ، وقدم بالمقابل وعودا عديدة ، كان من الصعب تصديقها ، كما أثار في نفس الوقت قلق النبلاء وحرك أفكارهم ، وذلك بحضوره

وبكثرة هداياه ، ولكن لا الالحاح في التوسل ، ولا هداياه مكناه من تحقيق مطلبه من قبل الملك ، قبـل أن تتخـــذ محـــكمة البـــلاط قرارها ، واعلن ملكنا أن ملك هنغاريا كان صديقه ، ومـــع ذلك كان عليه ألا يطلب من الملك القيام بأي عمل كان من شأنه الاســـاءة الى الحج ، والتأم بعد ذلك مجلس الاكليروس والنبـــلاء ، وتـــم فحص القضية ، وبعد التدقيق ، تقرر انه يجب على الملك لويس المحـــافظة على السلام مع الملك الهنغاري ، وأن يحـــافظ في نفس الوقـــت على حياة النبيل (بورس) حتى وإن كان أســـيره ، لانه ســـيكون مـــن الجريمة بمكان ان يودي بحياة انسان ، ويرسله للموت دونما سبب وجيه ، وعليه ايضا أن لا يخل بالمعاهدة مع صديقه ، وأدى هذا الى زعزعة ثقة ملك هنغاريا ، ولم يعـــد يثـــق بنا ، ويأمـــن على نفســـه بجوارنا ، ولهذا غادر جوارنا وابتعد عنا ممتعضا ، وســـعى نحـــو أمنه وأمانه بعيدا عنا ، والتجأ الى مكان قصي في مملكتـــه ، وقـــام ملكنا بالاحتفاظ ببورس ، وأخرجه من هنغاريا كما يقتضي الشرف منه.

نهاية الكتاب الثاني

- ١٠٩٩٢ -

بداية الكتاب الثالث

وهكذا شغلنا بهذه المسألة ، وحتى هذا الحد لم نصب بأذى من جراء سوء نية الرجال ، كما اننا لم نخف من الأخطار الناجمة عن حنكة الرجال من ذوي البراعة ، وعلى أية حال ، فقد حدث أنه منذ دخولنا الى بلغاريا ، وهي أرض تعود للأغريق ، وضعت شجاعتنا على المحك ، كما أن عواطفنا قد أثيرت ، وبينما كنا على وشك دخول الجزء غير المسكون منها ، زودنا أنفسنا في بلدة برانديزي الفقيرة بامدادات كانت هنغاريا قد قدمت معظمها عن طريق الدانوب ، وهناك كان الاسطول الذي أحضره الألمان وتخلوا عنه ، وكان كبيرا الى درجة انه زود الأهلين لمدة طويلة بمواد البناء والحطب للوقود ، وقد أخذ رجالنا الانواع الصغيرة من القوارب ، وبعد عبور النهر أحضروا الامدادات من احدى القلاع الهنغارية التي لم تكن تبعد كثيرا ، وهنا واجهنا لأول مرة النقود النحاسية (٦٦) (ستاميناي) لكننا لم نسر بذلك ، لأننا دفعنا خمسة « ديناري » لقاء القطعة الواحدة منها ، أو بالحري خسرنا درجة واحدة من اثنتي عشرة من كل سولدي (٦٧) ، وبعد الدخول الى أراضيهم ، نكث الاغريق بوعودهم ، لانه يجب أن نتذكر ما قيل من قبل ، أي أن المبعوثين كانوا قد تعهدوا بعدما أقسموا اليمين عن امبراطورهم ، بأن يهيئوا لنا سوقا مناسبة لتبديل النقود (٦٨) وعلى كل حال عبرنا الأرض المقفرة ، ودخلنا المنطقة المتناهية الجمال والغنى ، التي يتواصل امتدادها دون انقطاع حتى القسطنطينية ، وهنا بدات الأخطار تواجهنا للمرة الأولى ، وليلاحظ هنا أن البلدان التي مررنا بها ، وباعتنا الامدادات بشكل صحيح ، وجدتنا قوما مسالمين الى أبعد الحدود ، ومع هذا وعلى الرغم من كل شيء ، قام الاغريق باغلاق ابواب مدنهم وحصونهم في وجوهنا ، وعرضوا أواتيهم وسلعهم من

فوق الأسوار ، وكانوا يدلونها بحبال ، ولهذا فإن الأطعمة التي عرضت علينا بهذه الوسيلة لم تكن كافية لحشدنا الكبير لذلك عمد الحجاج الجائعون ، وقد وجدوا انفسهم وسط بحر من الخيرات ، عمدوا الى السلب والنهب ، لأنهم لم يعد بإمكانهم تحمل هذا القدر من الشح والحرمان.

وقد مضى البعض الى الاعتقاد بأن هذه الحالة كانت نتيجة لسوء تصرف الألمان الذين كانوا قد سبقونا ، لأنهم كانوا يقومون بنهب كل شيء(٦٩) ، ولقد شاهدنا بأنهم كانوا قد حرقوا بعض المستوطنات خارج المدن ، ونذكر على سبيل المثال خبر الحدث التالي ونقف عنده ونحن نشعر بالأسى: كانت هناك مستوطنة جميلة واقعة خارج أسوار مدينة فيليوبولس ، يسكنها الأثينيون ، الذين كانوا يبيعون الكثير من الامدادات للمسافرين ، وعندما استقر الألمان في حانة المستوطنة ، ساق سوء الحظ مهرجا ليدخلها ، وبالرغم من انه كان يجهل لغتهم ، فقد جلس ، ودفع بعض المال ، واحتسى الشراب ، وبعدما سكر طويلا ، اخرج من جيبه أفعى كان قد سحرها ، ثم وضعها على رأس قدح كان قد ركزه على الارض ، ثم انهمك في المزيد من أعمال التهريج والعربدة ، وسط اناس كان يجهل لغتهم وعاداتهم ، وسرعان ما نهض الالمان وكأنهم قد شاهدوا شيطانا ،فألقوا القبض على المهرج ومزقوه إربا إربا ، وعزوا جريمة قتل الرجل الى الجميع وأعلنوا بأن الاغريق أرادوا أن يدسوا اليهم السم ، وعجت المدينة بالفوضى في ضواحيها وانطلق الحاكم مع لفيف من رجاله خارج الأسوار وهم عزل من السلاح ، ولكن باندفاع ، بغية تهدئة الجمهور الهائج ، وما أن رأى الألمان ذلك ، وأعينهم تشع بالغضب ــ بعد أن اخذت الخمرة من رؤوسهم كل مأخذ ــ ورأوا الناس يندفعون من كل حدب وصوب ، ولم تكن المشكلة هي هل يحمل الناس سلاحهم ، بل في اندفاعهم الشديد ، انقض الألمان على الذين اقتربوا منهم ، لأنهم خيل اليهم أنهم قدموا للانتقام لجريمة القتل ، وهنا عاد الاغريق زرافات ووحدانا الى المدينة ، فأخذوا اسلحتهم ، وحملوا قسيهم

(لأنها كانت سلاحهم الرئيسي) واندفعوا على الفور نحو الألمان ، فقتلوا كل من صادفوه ، وجرحوا من حاول الفرار ، ولم يتوقفوا حتى طردوا جميع الألمان من داخل المستوطنة ، ولقي العديد من الألمان حتفهم هناك ، سيما أولئك الذين كانوا قد التجؤوا الى الخانات ، لكي يحموا أموالهم في الكهوف ، وعندما استرد أولئك الذين نجوا رباطة جأشهم ، حملوا السلاح ثانية ، وتجمعوا لينتقموا للعار الذي نزل بهم ولمذبحة رفاقهم ، وقاموا بحرق كل شيء تقريبا كان خارج الأسوار.

وفي الحقيقة لم يكن الألمان يمكن احتمالهم حتى من قبلنا ، ففي احدى المناسبات ـ على سبيل المثال ـ ذهب بعض رجالنا الذين رغبوا في الابتعاد عن ضغط الجمهور حول الملك ، وقطنوا بالقرب منهم ، وحدث أن مضت كلتا المجموعتين الى السوق ، غير أن الألمان لم يسمحوا للفرنجة بشراء أي شيء الا بعدما حصلوا هم انفسهم على كل ما ابتغوه ، ونشأ عن هذا الوضع نزاع ، أو بالأحرى شجار ، لأنه عندما يتهم شخص شخصا آخر بصوت جهوري دون أن يفهمه ، يحدث شجار ، وبناء على ذلك ، وبعد تبادل الكلمات ، رجع الفرنجة من السوق بمؤنهم ، وقام الألمان بالاساءة الى كرامة الفرنجة الذين كانوا بدورهم مسلحين ، قاوموا بروح عالية ، لكن الرب وضع حدا لتلك المواجهة الشريرة ، لأن الليل حل بسرعة ولم يكن بالامكان لا تهدئة غضبهم ولا اخماد ثورتهم خلال تلك الليلة ، لأنهم استيقظوا في الصباح ، وهم أكثر مرارة ، بيد أن العقلاء من الرجال بينهم ركعوا أمام الطائشين منهم ، وهدأوا من روع غضبهم بالتواضع والمنطق(٧٠) .

وهكذا أفسد الألمان كل شيء مع تقدمهم ، وعليه فر الاغريق من وجه ملكنا المسالم الذي سار وراءهم ، ومع ذلك فقد استقبله جميع رجال الاكليروس والمحافل الدينية بالتقدير والشرف خارجين من مدينهم يحملون الايقونات والذخائر الاغريقية المقدسة

الأخرى ، وأقام دوق صوفيا(٧١) ، وهـو واحـد مـن أقـربـاء الأمبراطور ـ الذي كان دائما على صـلة وثيقـة بـالملك طـوال الرحلة ـ اقام الأمن والسلام للسكان ، ورأى تخصيص جزء مـن السوق للحجاج ، وقدم خدماته للملك بشرف فيما يتعلق بالمؤن ، الا ان الملك لويس ، الذي لم يبق لنفسه سوى القليل ، في الحقيقـة إن كان ابقى شيئا البته ، قسم المبالغ التي كانت بحـوزته جميعهـا ، فأعطى بعضا للفقراء ، وبعضها للأغنياء ، وهكذا تمـت المحـافظة على السلام من قبله بشكل أكثـر حـزما ، لأنه كان أقـل حـاجة ومطالبا ، ويحظى باحترام أكبر مما يحـظى بـه الآخـرون ، لكن العديد ممن مضى بعده وممن تبعوه حققوا الكسب الوفير لأنفسـهم ، إما من السوق عندما أتيح لهم ذلك او بواسطة السـلب لأنهـم كانوا يتمتعون بالسلطة التي تخولهم القيام بذلك .

ووصلوا في النهـاية الى فيليبـوبولس حيث تـوفي الأسـقف الفيسـوس ، اسـقف أراس ، وذلك أثناء سـفره مبعـوثا الى القسطنطينية ، وذلك في اليوم الثامن من ايلول ، أي بين عيد القديس بيرتن (٧٣) الذي كان من رهبانه ، ومولد العذراء المبارك (٧٢) ، وبعد ان هده المرض الطويل ، قال والدموع في مقلتيه: (لأن البـكاء كان دائما يواسيه) مخاطبا الرهبان والكتاب من حـوله : « احتفلوا يا احبائي بعيد القديس بيرتن بما يليق به من مكانة ، ولكن بمـا أنني لن أكون معكم في الاحتفال بعيد العذراء المبارك ، أرجو أن تتكرموا علي بفضل بمقـدوركم أن تفعلوه ، وهـو تقـديم مـوعد الاحتفال ، فخذوا كتبكم ورتلوا القداس بـكامله كمـا تفعلوا أثناء العيد » ، ولبى الجميع رغبته وسط الدموع ، ورتلوا القداس بكامله ليلا ونهارا ، وكان كلما سمع كلمة « السـلام المريمـي » أو اسـم العذراء ، حتى في لحظة لفظ أنفاسه ، ينهض بجهد ضعيف ، ولكن بورع ، وبعد ذلك اسلم روحه للعذراء ، التي كان قد تـذكرها بهـذا الخشوع ، ووري جسمه الثرى خـارج المدينة بجناز مشرف أمـام مذبح كنيسة القديس جورج ، وفيما بعد عندمـا قـام الملك بـزيارة القبر ، حزن على وفاة الفيسوس ، وطاف في موقع المراسـم مـرة

اخرى مع الرهبان والقساوسة ، ولا بد لي من ان اقول لكم بـأنني انا شخصيا اصبت بحمى ، فنمت أولا تحت النعش ، وبعد الدفـن فوق القبر ، وفي النهاية شكرت الرب والاسقف المتـوفى لانهمـا منا علي بالشفاء.

وبعد هذا الاستطراد القصير ، يطيب لي أن أصـف كيف سـار الالمان الى القسطنطينية ، حتى عبروا البحر ، لان القصة يجـب ان تسرد حسب التسلسل الذي وضعت بموجبه ، وكما كنت اقول فقـد تقدموا بجرأة ، لكن ليس بما يكفي من الحكمة ، لانه على الرغم من انهم وجدوا الكثير مـن كل شيء في كل مـكان مـن تلك الأرض ، لم يظهروا اي اعتدال ، وقد قتل بعض جنود مشاتهم عندما كان السكر قد اخذ منهم كل مأخذ ، وبما ان جثثهم لم تدفن ، كانت جميع (٧٤) الاشياء قد تلوثت ، وهـكذا كان الأذى الذي لحـق بـالفرنج الذين قدموا فيما بعد على يد الاغريق المسلحين ، أقل مما لحق بهم على يد الالمان الموتى ، وعندما اتى الالمان الى أدرنه وجـدوا جمـاعة مـن الاغريق حاولوا منعهم من المضي الى القسطنطينية ، وذلك باغلاقهم الطريق ، مؤكدين لهم بأن البحر اكثر ضيقا ، والأرض اكثر خصـبا في سان جور - سيستوس (٧٥) ، بيد أن امبراطورهم استخف بـكل من أولئك الذين أغلقوا الطريق ، والذين نصحوا بعدم المرور على حد سواء (٧٦) وهكذا تابع السير على الطريق الذي تعهد بالسفر عليه ، فوجد في حوالي منتصف طريق رحلته مرجا يرويه جـدول صـغير ، وهو محاط بالبحر وسمعنا بأنه عندما خيم تلك الليلة هناك والجدول خلفهم واعلاهم ، انهمر عليهم مطر كان معتدلا فعلا ، غير أنه شكل فيضانا هائلا في الجبال ، فاندفعت مياه الجدول بشكل هائج ، أنزل بهم التلف بدلا من أن يكتفي بـالبلل ، وحمـل الفيضـان الجـارف السريع في جريانه الخيام بما كانت تحتـويه ، وسـاقها الى البحـر المجاور ، واغرق الآلاف من الرجال (٧٧)

ونهض الامبراطور والمجموعة التي نجـت معـه ، وقـد تحملوا جميعا هذه المصيبة الكبرى ، إنمـا والحـق يقـال ليس بـدون

أسى ، لكن مع هذا نهضوا وكان اي اذى لم يلحق بهم ، وأصبحوا اكثر اقداما ، بفضل فداحة هذا الخطب ، وأتوا الى القسطنطينية (٧٨) ،وقبل المدينة طالعتهم سلسلة من الاسوار تؤثر في النفس ، وضمنها انواع مختلفة من الموانع ، وفيها العديد من الاقنية والبرك ، كما كان في داخلها عدد كبير من الحفر والكهوف والانفاق وما يشبه شكل الغابات التي كانت مليئة بالحفر والكهوف ومخابيء الحيوانات ، وفي ذلك المكان بالذات كان هناك بعض المواقع التي كان الأباطرة قد بنوها كمنتجعات ربيعية لهم ، وكانت تدل بوضوح على عظمتهم.

وفي مكان المسرات هذا(٧٩) ، إذا جازت لنا تسميته كذلك ، ثار غضب الامبراطور الالماني ، فدمر عمليا كل شيء أمام أعين الاغريق ، ووضع يده على جميع وسائل ملذاتهم من أجل استخدامه الشخصي (٨٠) ، ولما كان القصر الامبراطوري هو المبنى الوحيد الذي يعلو فوق اسوار المدينة ، ويشرف مباشرة فوق ذلك المكان ، تمكن سكانه من خلاله مشاهدة ما كان يجري في ذلك المكان إنما وإن أدخل ذلك المشهد المقيت الاسى والحيرة الى نفس الامبراطور الاغريقي ، فإنه تغلب على عواطفه ، وأرسل مبعوثين يطلبون من الامبراطور الالماني الاجتماع به ، إلا أن الالمان كانوا يخافون ، أو أنهم لم يرغبوا في دخول المدينة ، وكذلك كان شعور الاغريق بالنسبة لمغادرتهم لها ، وما من و حد من الطرفين عدل عن عاداته أو تقاليده ، أو خفف من تعنته تجاه الآخر.

وفي الوقت ذاته قام ملك الفرنجة ، الذي كان دائما يحرص على ممارسة سلطته الملكية بتواضع ، باستعطاف الامبراطور الالماني ، وتوسل اليه بالحاح كي ينتظره عند هذا الذراع(٨١) ، وإن اولئك الذين كانت رغبتهم مشتركة ، وكانوا قد تعهدوا بمهمة مشتركة يجب أن يستخدموا خطة مشتركة ، ومهما يكن من امر ، فقد كان الامبراطور الالماني يسرع بعناد نحو المكان الذي كان

قــد انطلق اليه ، وعندمــا تلقــى دليلا للرحلة (او بــالاحرى للتيه والموت) من الامبراطور الاغريقــي مضى في طــريقه (٨٢) ، وعلى الرغم مما سبق لي ذكره عن حقيقة أن عددا لا يحصى من رجاله كان قد هلك واختفى ، فقد سمعنا من الاغريق الذين واجهــوه ورجــاله عندما عبروا ، بأنه قد عبر ومعه ٥٥٦ر ٩٠٠ رجلا (٨٣) ، وقــدم الى نيقوميديا (٨٤) حيث انقسم رجاله الى مجموعات بسبب عدم الاتفاق فيما بينهم (٨٥) ، فقد ذهب الامبراطور الى قونيه ، بينما سار أخوه اوتو أسقف فــــريزنـغ (٨٦) وعدد مـــن النبــــلاء على الطــــريق الساحلي ، ولسوف نشير الى مصــائبهم الكاسـحة ، التـي تثير الشـفقة وذلك في الزمــان والمكان المناســبين ، لكن دعونا نعــود في الوقت ذاته الى رجالنا.

وبمـــا أن اســـــقف متـــــز (٨٧) وأخـــــوه رينالد ، كونت مونسون (٨٨) ، وا سقف تول (٨٩) ، لم يستطيعوا تحمــل الالمان ، وكان لديهم جيشهم الكبير العــدد ، فقــد وقفــوا ينتــظرون الأمير السالم ، غير ان الاغريق تصرفوا بكل ماأوتوا من قحة ، فسحبوا الأسواق ، ومنعوا عنهم المؤن ، فأجبروهم على العبور قائلين بأنهم قد عقدوا اتفاقا مع الامبراطور الالماني ، فيه انهم لن يســمحوا لأي من رجاله بالتخلف بعده ، ولدى سماع المبعــوثين الملكيين ــ الذين كانوا حتى حينه ينتظرون في المدينة ــ بذلك ، وكانوا على بينة مــن صحة الأمر ، وضعوا حدا للنزاع بالوصول الى عقــد اتفــاق يقضي بوجوب عبور تلك القوات ، وحصولها على أسواق مناســبة ، أثناء انتظارها للآخرين ، وبعدما وضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ ، بقي بضعة مــن الفـــرنج ــ الذين كانوا قــد ســبقوا الجيش ــ في المدينة ، وعندها حذرهم الاغريق ، والحوا عليهــم بمغــادرة المدينة وأن يتبعوا البقية ، وعندما لم يصغوا لهذا ، أرسلوا اليهم بعصــبة كبيرة من البشناق والكومانيين ، من أجل طردهم ، وهم من القــوم الذين كانوا قد قتلوا العديد من رجالنا بنصب الكمائن ، في الأجــزاء غير المسكونة من بلغاريا (٩٠)

فتسلق الفرنجة مرتفعا من الارض ، واتخذوا لانفسهم متاريس من عربات كان يجرها حصانان أو أربعة ، وقاوموا وقاتلوا بكل بسالة ، وهناك قاسى رجالنا ، وعانوا الكثير لانهم لم يكن لديهم سوق ، في حين لم يتوقف العدو عن شن الهجمات ضدهم.

ولدى سماع المبعوثين الفرنجة بذلك ، انما بصورة متأخرة ، وكانوا في المدينة ، مضوا بغضب وهياج شديدين ، الى الامبراطور ، ذلك فور سماعهم خبر هذه الجريمة البشعة ، واعربوا عن استيائهم نيابة عن اولئك الذين كانوا قد عبروا البحر قبل يوم واحد ، وعلى الأخص عن اولئك الذين هوجموا من قبل الكفار في مدينة مسيحية ، وعندها أصدر الامبراطور — الذي يبدو انه لم يتمكن من إيقاف البشناق بأية طريقة — أصدر أوامره الى قواتنا بالانسحاب والتمركز على حواف القصر ، كما أمر أن يقام لهم سوق ، وبناء على هذا عندما تبلغ الفرنجة نص رسالة الملك هذه ، استجابوا للأوامر فخرجوا من وراء متاريسهم بعدما تركوها على حالها ، و انطلقوا نحو الأمام لا يعتريهم خوف ولا وجل ، وعندما شوهدوا لحق بهم بعض البشناق ، وحاول بعض اخر الاستيلاء على مواقعهم المحصنة ، وهنا عادوا بسرعة وقاوموا كل من أولئك الذين كانوا يطاردونهم ، وأولئك الذين كانوا منهمكين في احتلال موقعهم ، وقاتلوا ببطولة وشجاعة ، وفقد العديد من الجند المشاة بعض معداتهم ، إذ رموا بها وهم يحاولون الفرار بسرعة ، وحينذاك ، حمل بعض الرسل الذين أخذهم الغضب الشديد — مثل ايفراد من بيريتولي(٩١) ، ومانا سيس (٩٢) من بوليس ، وآنسسيلم (٩٣) حاجب أمير فلاندرز ، وآخرون غيرهم — السلاح ، إذ اعتقدوا بأنه من الافضل لهم أن يموتوا بشرف من أن يشهدوا رجالهم وهم يموتون هكذا ، لهذا حملوا أسلحتهم ، وخرجوا من المدينة ، وانضموا الى رجالهم ، وشاركوا في الصراع ، وعندئذ مضى مقدم الداوية ، اللورد ايفراد من باريس(٩٤) ، وبارثلميو المستشار ، أسقف بوربون ، وآخرون

معهم الى الامبراطور ، وتغلبوا عليه بالعقل ، بينما لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك بالقوة ، فاقسم يمينا بأنه لم يكن على علم بهذا الذي حدث ، والتمس العذر لرجاله ، وأمر العساكر بالتمركز قرب القصر ، وعندما استقر كل شيء ، وانتهى الصراع أمر بإقامة سوق مناسبة.

ولقد كان بالامكان أن ترضي هذه النتيجة المبعوثين ، لولا أنهم كانوا قد حكموا على كل جريمة في ضوء الأخرى ، لأنهم كانوا قد علموا بأن الامبراطور على اتفاق مسبق مع التركمان وأنه قد حقق مؤخرا نصرا مبينا عليهم ، هو بالذات ، قد وقع بالفعل هدنة معهم لمدة اثنتي عشرة سنة (٩٥) ، وتضاعفت خيانته كذلك ، وتجلت بوضوح في ضوء حقيقة أن الأعداد الكبيرة هي التي يمكنها فقط دخول مملكته بأمان ، لأن أسقف لانجريس ، وكونت وارين (٩٦) ، وبعض الآخرين الذين كانوا قد ارسلوا بضعة رجال للتقدم الى القسطنطينية للتزود بالسلاح والاطعمة للرحلة قد منيوا بخسائر كبيرة في المقتنيات ، وبكوا طويلا على العديد من رفاقهم الذين لاقوا حتفهم ، أو أصيبوا بجراح ، ولم يحدث هذا مرة واحدة فقط ، لأننا منذ ساعة دخولنا الى أرضه تعرضنا للنهب وقطع الطريق من قبل شعبه ، لأن قواتنا لم تكن تعادل قوتهم ، ولعل تلك الحالة كانت تحتمل بأن نقول بأننا نستحق ما نزل بنا، وما عانيناه من مصائب ،وذلك اذا ما وضعنا في الحسبان الجرائم والذنوب التى اقترفناها ، لولا أن الأمر بلغ حد التكفير والعبث بالمقدسات ، فقد صدف انه عندما قام بعض كهنتنا بتأدية بعض القداسات على المذابح الاغريقية قام بتنقية هذه المذابح وتطهيرها بالتقدمات والمطهرات كما لو أنها دنست ، ولقد كان لكل واحد من أغنياء الاغريق كنيسته الخاصة به ، مزينة بالالوان الرائعة والمرمر ، ومضاءة بالمصابيح حيث أن كل رجل من أولئك الأعيان كان بامكانه أن يقول حقا : « يا رب أحببت محل بيتك وموضع مسكن مجدك (٩٧) » لو أشرق نور الايمان الحقيقي فيه ، لكن يا

لرهبة ما سمعناه عن سوء استخدامهم لها ، وهو أمر يجب أن يكفر عنه بالموت ، ذلك أنهم كانوا في كل مرة يحتفلون بها بزواج واحد من رجالنا المعمدين حسب الطريقة الرومانية ، كانوا يعيدون تعميده قبل إجراء العقد ، واننا نعلم المزيد عن بدعهم (هرطقاتهم) الأخرى ، فيما يتعلق بكل من معالجة القربان المقدس ، وسير روح القدس(٩٨) ،لكن ما من مسألة من هذا القبيل ستشوه صفحتنا ، إذا لم تكن متعلقة بموضوعنا ، وفي الحقيقة كانت تلك الأسباب هي التي حملت رجالنا على كراهية الاغريق ، لأن أخطاءهم أصبحت معروفة ، حتى من قبل أقل الناس شأنا ، وعلى هذا الأساس حكم عليهم بأنهم ليسوا مسيحيين ، واعتبر الفرنجة بأن قتلهم مسألة لا تنطوي على أهمية وهكذا فإن منعهم عن ارتكاب أعمال السلب والنهب كان يتطلب المزيد من الصعوبات.

ودعنا الآن نعود نحو الملك ، الذي رغم انه كان يتلقى مبعوثين من قبل الامبراطور يوميا تقريبا ، فإنه كان يشكو من تأخر سفرائه بالذات ، لانه لم يكن يعلم ماذا جرى لهم ، وكان الاغريق يأتون دائما بأخبار جديدة ، دون أن يقدموا أي دليل عليها ، وكانوا أقل الناس موضعا للثقة ، لأنهم كانوا جميعا يستخدمون المداهنة والتملق في كل مناسبة ، وتظاهر الملك بالرضى ، معتبرا الأمر له قيمة ضئيلة ، لأنهم كانوا يستخدمون القابا وعبارات شرف وتمجيد مثل « طال عمرك » ليس للملوك فحسب ، بل للأشراف ، ويحنون رؤوسهم ويركعون وحتى يسجدون على الأرض تواضعا ، وكانت الامبراطورة(٩٩) تكتب للملكة(١٠٠)من حين لآخر ، وعندئذ استحال الاغريق جميعا الى نساء ، ووضعوا جانبا كل صفة من صفات شجاعة الرجولة قلبا وقالبا ، وكانوا يثقون بنا ، ولم يحافظوا على احترام انفسهم ، وكانوا بصورة عامة يرون فعلا ، أن أي شيء يتم من أجل الامبراطورية المقدسة ، لا يمكن أن يعتبر حنثا باليمين ، ولا يظنن امرؤا بأنني أود النيل من قوم من الناس اكرههم ، ولست أقوم باختراع جماعات من الاغريق من نسج خيالي ، كمن لم يرهم قط في عمره ، فكل من عرف الاغريق سيجيب

إذا ما سئل عنهم قائلا بأنهم عندما يخافون ، يصبحون جديرين بالازدراء ، ويفرطون في خستهم ، بينما يتعنتون ويتغطرسون في عنفهم على من يقع تحت رحمتهم عندما يكونوا أصحاب اليد العليا (١٠١) ، وعلى اية حال ، لقد عمدوا بكل ما اوتوا من قوة الى نصح الملك بأن يغير طريقه من ادرنه الى سان جورج في سيتوز ، وان يعبر البحر هناك على جناح السرعة ، وبشكل يوفر له الميزات ، بيد ان الملك لم يكن يرغب ان يقوم بشيء لم يسمع به البتة ، ولم يعرف ان الفرنجة قد فعلوه (١٠٢) في عمرهم ، ولذلك مضى على الطريق ذاتها التي كان الالمان قد سبقونا بالسير عليها من قبل ، لكن ليس مع نفس نذر السوء ، وعندما أصبح على مسيرة يوم واحد من القسطنطينية ، قابل مبعوثيه وممثليه (١٠٣) ، فقصوا عليه قصصا طويلة عن الامبراطور مما سبق لنا واشرنا الى بعضه بصورة جزئية ، وكان هناك آخرون ممن كانوا قد نصحوا الملك بالتراجع والاستيلاء على الارض الوفيرة الغنى بقلاعها ، ومدنها ، وأن يكتب في الوقت ذاته الى الملك روجر ، الذي كان برفقة الاسطول يهاجم بكل عنف اراضي الامبراطور ، ليأتي لمهاجمة القسطنطينية نفسها (١٠٤) ، ولكن بالسوء طالعنا ، بل سوء طالع جميع رعايا القديس بطرس (أي الكاثوليك) لم يؤخذ برأيهم ، لذلك تقدمنا ، وعندما اقتربنا من المدينة(١٠٥) تخيل معي كيف احتشد أشرافها وأثرياؤها جميعا ، وحتى عامة الناس فيها ، وخرجوا لمقابلة الملك ، فاستقبلوه بما يقتضيه الشرف والتواضع ، طالبين اليه أن يمثل أمام الامبراطور ، ويلبي رغبته في مشاهدته والتحدث اليه (١٠٦) وأشفق الملك في تلك الساعة على الامبراطور الذي كان قد اعتراه الخوف ، فاستجاب لطلبه ، فدخل مع لفيف من رجاله ، حيث قوبل بالترحاب الامبراطوري في بهو القصر ، وكان كل من الملكين في عمر واحد وشكل جسماني متشابه ، وتميزا عن بعضهما البعض باللباس والعادات فقط ، وبعد أن تبادلا العناق والقبل ، دخلا الى حيث وضع كرسيان (١٠٧) فجلس الاثنان وتبادلا الحديث بمساعدة مترجم ، في

-٣٠٠٢-

حين أحاط بهما رجالهما على شكل دائرة ، وسأل الامبراطور الملك عن أحواله الحـــاضرة ، واســـتفسر عن رغبـــاته بشـــأن المستقبل ، متمنيا له الأمور التـــي ينعـــم بهـــا الرب ، وواعدا إياه بتقديم المساعدات ضــــمن الامـــكانات المتـــاحة له في نطـــاق سيطرته ، ولكن ترى هل من الممكن أن يكون ذلك قد تـــم بإخـــلاص بقدر ماشرح بسرور ؟ لو أن إيماءاته وحيوية تعابيره وكلماته كانت إشارة حقيقية تعبر بصدق عما كان يدور بخلده من أفكار ، علما بأن أولئك الذين كانوا يقفون على مقربة منه قد شهدوا بأنه أحـــاط الملك بعطف كبير ، لكن مثل هذا الدليل ظاهري فقط وليس قـــطعيا ! وفي النهاية افترق الملكان وكأنهما أخوان ، واصطحب أشراف البـــلاط الامبـــراطوري الملك الى القصر الذي جـــرى اعداده ليكون مـــكانا لاقامته .

نهاية الكتاب الثالث

بداية الكتاب الرابع

تقع القسطنطينية ، مجد الاغريق ، الغنية بشهرتها ، والأغنى بممتلكاتها ممتدة على شكل شراع سفينة(١٠٨)مثلث الشكل ، وفي زاويتها الداخلية تقع سانتا صوفيا (أيا صوفيا)(١٠٩) ، وقصر قسطنطين (١١٠) الذي يوجد فيه معبد(مشهد) صغير يحظى بتقدير كبير ، بسبب وفرة الآثار المقدسة (١١١) ، وفضلا عن ذلك طالعنا ذراع القديس جرجس عن يميننا (١١٢) ، ومصب نهر عن يسارنا ، يتدفق هذا النهر بعد تفرعه من الذراع لمسافة تقارب الاربعة أميال(٦) ، وفي ذلك المكان كان يعلو قصر بلاشرين شامخا ، رغم ان أساساته كانت تقع في أرض منخفضة ، وحيث أنه محاط من جوانب ثلاثة فهو يوفر لسكانه ثلاثة مجالات للتمتع بالنظر الى البحر والحدائق والمدينة ، وإن منظره الخارجي من الجمال بقدر ، حيث لايضاهيه مكان آخر ، أما داخله فبوسعي أن أقول عنه كل شيء : لقد كان مزينا بالذهب بكل دقة ، إضافة إلى عدد كبير من مختلف الالوان ، وكانت الارض من المرمر ، وقد رصفت بمهارة فائقة ، ولست أدري فيما إذا كان الفن أم المواد التي احتوتها قد زادت من جمالها أو من قيمتها(١١٤) ، ويشتمل الجانب الثالث من مثلث المدينة على حقول محصنة ببروج وأسوار مزدوجة تمتد على طول حوالي الميلين ، من البحر الى القصر ، ولم يكن ذلك السور من القوة بمكان ، كما انه لم تكن له أبراج منفردة ، غير أن المدينة تضع ثقتها ، حسب اعتقادي ، في حجم سكانها ، وبطول فترة السلام ، التي كانت تنعم بها(١١٥)وتمتد أمام الأسوار الأرضى الفسيحة المحروثة بالمحراث والمعول ، وتكتنفها حدائق تزود السكان بمختلف انواع الخضراوات ، أما في خارجها فكانت الاقنية الجوفية ، تتدفق بمياه عذبة لتزود المدينة بها بشكل وفير(١١٦) .

وكانت المدينة ذاتها في أماكن متعددة منها تعاني من الظلمة

الدائمة ، وذلك لأن ميسوري الحال فيهـا كانوا يظللون شـوارعها بالمباني ، ويتركون تلك الطرقات تعج بالغبار والأوسـاخ والأمـكنة المظلمة التي يعاني منها الفقراء والمسـافرين ، وهناك في الحقيقـة كانت ترتكب جرائم القتل والنهب ، لأن مثل تلك الأعمال تجد الظلمة وسطا خصبا كي ترتكب فيه ، وبالاضافة الى ذلك ، بمـا أن الناس كانوا يعيشون في تلك المدينة بلا قانون ، ذلك أنها مدينة تحوي مـن الاعيان والأغنياء بقدر ماتحوي من اللصوص والفقراء ، علما بأن المجرم لايلاحـق ، ولايخجـل لأن الجـريمة لاتعـاقب بالقانون ، ولاترى الضوء برمتها ، فهي تتجاوز كل اعتـدال بـأي مجال كان ، وهي تتجـاوز بقية المدن الأخـرى بـالرزيلة ، كمـا تتجاوزها بـالثروة ، وعلى الرغم مـن أنهـا تحتـوي على عدة كنائس ، فليس بينها واحدة تعادل كنيسـة آيا صـوفيا مـن حيث حجمها ، بيد أنه هناك مايعادلها من حيث جمالها ، الذي يزيده فتنة كثرة الآثار المقدسة ، وقد تسنت الفرصة للبعض منا كي يدخل هذه الأمكنة(١١٧) ، فمنهم من دخل لمشاهدة المناظر ، ومنهـم مـن دخـل لتادية فريضة العبادة بإيمان .

وقام الملك يرشده الامبراطور بزيارة المشـاهد والمعـابد(١١٨) ، وتناول بعد عودته طعام العشاء معه ، وذلك نزولا عند رغبته ، وبناء على إلحاحه الشديد في الطلب ، وكانت تلك الوليمة مصـدرا للمتعـة للأذن والفم والعين ، حيث وجد فيها مـايطيب سـماعه ، ومـايلذ أكله ، ومـايسر رؤيتـه(١١٩) وفيهـا كان التفـاح والعنب وغيرهما ، وهناك خشي على الملك عدد من رجاله ، لكنه وهـو الذي سلم نفسه للعناية الربانية لم يخش شيئا على الاطـلاق ، لأنه كان يتحلى بالايمان والشجاعة ، فالذي لايميل الى الحـاق الأذى بغيره لايعتقد بأن أحدا يريد له الضرر .

وعلى الرغم من ان الاغريق لم يقدموا لنا برهـانا على أنهم كانوا ينوون الغدر بنا فما زال الاعتقاد يساورني بأنهم ماكانوا ليظهـروا هذا الاحتفاء وهذه العناية لو أن نواياهم كانت طيبـة ، لقـد كانوا

فعلا يخفون النوايا والخطط الشريرة التي اقترفوها بعدما عبرنا الذراع ، هذا ولايؤخذ على الاغريق اغلاقهم أبواب المدينة في وجه الحشد ، بما أنه قد تم احراق العديد من بيوتهم مع أشجار الزيتون ، وذلك إما طلبا للأخشاب ، أو بسبب غطرسة وسكر الحمقى ، وغالبا ماكان الملك يعاقب المهاجمين بقطع آذانهم وأيديهم وأقدامهم ، ومع ذلك لم يتمكن من وضع حماقات المجموعة بأكملها تحت السيطرة أو المراقبة ، وكان الحل لهذه المعضلة واحدا من اثنين : إما قتل بضعة آلاف دفعة واحدة أو التغاضي عن أعمالهم الشريرة(١٢٠) ، وكما كنت أقول من قبل ، كانت هناك سفينة توفر لنا سوقا كبيرا وذلك أمام القصر ، وحتى بين الخيام كان يتوفر لدينا سوق لتبديل العملة بصورة وافية ، لو أنه دام طويلا ، إذ كنا ندفع أقل من اثنين « ديناري » للستامينا الواحدة ، ومارك واحد لكل ثلاثين ستامينا (ثلاثة سولدي = قطعة ذهبية) لكن بعد أن سافرنا وبعدنا ثلاثة أيام عن المدينة ، صرنا ندفع خمسة أو ستة ديناري لقاء ستامينا واحدة ، وخسرنا ماركا واحدا لقاء كل اثني عشر سولدي (قطع ذهبية) .

وبينما كان الملك ينتظر القوات القادمة من أبوليا ، وعندما كانت تعبر بين برانديزي ودورازو(١٢١)حل عيد القديس دينس(١٢٢)فجرى الاحتفال به بالمراسيم المعتادة ، وكما يقضي الواجب ، ولما كان الاغريق يحتفلون بهذا العيد ايضا ، علم الامبراطور باحتفالنا ، فبعث للملك بمجموعة من رجال الدين تم اختيارها بدقة متناهية ، وزود كل فرد من أفرادها بشمعة زينت بالذهب وبألوان متنوعة ، وبذلك زاد من أبهة الاحتفال ، ولاشك أن رجال الدين لديهم كانوا يختلفون حقا عن رجال الدين عندنا ، من حيث حديثهم ونظام خدماتهم ، وقد تركوا انطباعا جيدا بتراتيلهم الجميلة ، وبأدائهم الجيد باختلاط أصواتهم بين العالي والخافت ، وحيث أن أصوات الخصيان منهم (لأن العديد منهم كانوا خصيانا) وإن كانت أصوات رجال ، تميزت بالدفء ، فقد ادخلت الطرب الى قلوب الفرنجة ورطبتها ، وكما أنها بعثت السرور

-٣٠٠٦-
في قلوب الجميع وكان لتصفيق هؤلاء الخصيان بأيديهم بشكل آخاذ أكبر الآثار ، إنما إننا إذ نذكر بهــذه الافضـــال مــن جــانب الامبراطور ، نريد اظهار الغدر الذي كان يضمره لنا ، ذلك الرجــل الذي كان يتظاهر بعواطف الصداقة التي اعتدنا على ابـدائها نحــو أقرب المقربين من اصدقائنا فقط ، في حين انه كان يخفــي شـعورا بالكراهية لنا ، لم نستطع ان نطفئه الا بموتنا ، ومن المؤكد انه ليس باستطاعة اي مخلوق ان يفهم الاغريق ما لم يعــاشرهم ، او مــا لم يوهب الهاما نبويا .

ونظرا للشك في تعهداتهم ، وازدراء لاحسانهم ، وبسبب تـوقع الأضرار التي لحقت بنا فيما بعد ، ألح علينا اسـقف لانجـرس أن نأخذ المدينة بالقوة ، وقد برهن على أن الجدران التي اضمحل جزء منها امـام أعيننا ، كانت ضـعيفة ، وان أهلهـا كانوا كســالى خاملين ، وأن الماء العذب يمكن أن يقـطع دونمــا إعاقــة او جهــد يذكر ، وذلك بقطع المجاري ، وقد قال ، وهو الورع العــاقل : إنه إذا ماأخذت المدينة ، فلن تقتضي الضرورة دحر المدن الأخرى ، بمــا انها ستدين بالطاعة طوعا لمن امتلك العاصمة (١٢٤) ، واضافـ الى ذلك قوله بأن القسطنطينية مسيحية بالاسم للمسـيحيين في حين ان امبراطورها كان قد جازف قبل بضعة سنوات ، فحاول مهاجمة امير انطاكية (١٢٥) ، او كما قــال: لقــد اسـتولى اولا على طـرسوس والمصيصة وحصون عديدة ، وقطعة كبيرة من الأرض وبعدما طــرد الاساقفة الكاثوليك في المدن واستبدلهم بالهراطقة (١٢٦) اقــدم على حصار انطاكية».

لقد قام بكل هــذا على الرغم مــن ان واجبــه كان : طـــرد « الكفار » المجاورين عن طريق توحيد القوى المسـيحية ، الا انه مضى بمساعدة الكفار للقضاء على المسيحيين ، لكن الرب الذي يعلم كل شيء ، يحكم وينتقم لهذه الامور ، وهكذا قضى بأن يجرح نفســه بسهم مسموم (١٢٧) ، وينهي حياته المخـزية نتيجـة لذلك الجـرح البسيط ، وعلى اية حال لم يقتصر الحاكم الحــالي على الاحتفــاظ

لنفسه ، وهو وريث الجريمة المخزية ، بالسلطات الكنسية والملكيات الأخرى التى حاز عليها ، بل أنه كان يتطلع تماما بتشـوق وجشـع الى ماتبقى من الأراضي التي كان يريدها والده ، وهو الذي كان قـد انتزع بيعة الأمير وطاعته له (١٢٨) ، واقام مذبحا ضد مذبح أخـر ، كما أسس بطركية خاصة به في المدينة ، مـزدريا بـطركية القـديس بطرس:« ليكن القرار قرارك يارب ، فيما اذا كان يتـوجب عليك أن تحافظ على الرجل الذي لاينعم الصليب ولا قبر المسيح بالأمان في ظل حكمه ، والذي بتدميره سيزول من الوجود كل عدوان عليهما».

وعندما انتهى الأسقف من حديثه لقيت ملاحظاته التـرحاب لدى بعضهم ، اما العديد ممن لم يلق الترحاب من قبلهـم فقـد أجـابوا بعبارات ، مثل العبارات التالية : « لايسعنا بدون معرفة بـالقانون أن نحكم على إخلاصهم وإيمانهم ، وإن حقيقة مهـاجمته لأنطـاكية كانت ضربا من ضروب الشر ، لكن يمكن أن تـكون لديه الأسـباب المسوغة لذلك ، والتي نجهلها نحـن ، وإنه لمن المؤكد بـأن الملك قـد تشاور مؤخرا مع البابا ، لكن البـابا لم يعـطه أية نصـيحة ، ولم يصدر إليه أمرا بشأن هذه المسـألة ، والملك يدرك كمـا ندرك بـأنه يتوجب علينا زيارة القبر المقدس بتوجيه من الحبـر الاعظـم ، لكي نمسح خطايانا بالدم ، أو بتحويل الكفار (١٢٩) صحيح أننا في هـذا الوقت يمكننا أن نهاجم أغنى المدن المسيحية ، ونغني أنفسنا ، لكننا بعملنا هذا لابد لنا من أن نقدم على اقتراف القتل والتعرض للقتل ، وعلى هذا إذا كان نبح المسيحيين يمحو خـطايانا ، فـدعونا نمضي للحرب ، ومرة أخرى إذا كان اخفاء المطامع لايدنس مـوتنا ، وإذا كان الموت في هذه الرحلة من أجـل الحصـول على المال يعـد وفـاء بالوعد ، ويعتبر طاعة للحبـر الأعظـم ، فـأهلا بـالثروة ، ودعونا نعرض أنفسنا للخطر دون أن نخشى الموت » ! .

وعلى هذا النحو كان الخلاف فيما بينهم ، وأخذ مؤيدو كل جانب يدافعون عن أنفسهم بكل ماأوتوا من قدرة ، ومع ذلك فإنني أعتقـد أنه كان بوسع الأسقف أن ينتصر ، لولا أن الاغريق لم يكسبوا اليد

العليا عن طريق الخيانة ، أكثر مما فعلوا عن طريق القوة ، ذلك أنهم اعتبروا تأخرنا موضعا للشك (١٣٠) ، ومع هذا لم يتجرأوا على الالحاح علينا بالعبور ، لكنهم استولوا على جزء كبير من سوقنا ، وسحبوه من بيننا ، ثم اخذوا يحثوننا على الجواز عن طريق بث الاشاعات عن الالمان ، فقد قالوا بادىء ذي بدىء بأن التركمان قد حشدوا جيشا عرمرما ، وأن الالمان قد قتلوا / ١٤٠٠ / رجلا من ذلك الجيش دون ان يتكبدوا أية خسارة ، وهكذا اقنعونا بعد يومين لكي نقوم بالعبور التعيس ، وذلك عن طريق إذاعة خبر سعيد ومفرح اكثر من السابق ، فقد قالوا بأن الالمان قد وصلوا إلى قونية ، وأن أهالي تلك المدينة الذين اخذ الرعب منهم كل مأخذ قد فروا هاربين قبل وصولهم إليها .

وبما ان الالمان كانوا يتقدمون بسرعة ، فقد كتب امبراطورهم إلى الامبراطور الآخر (١٣١) يدعوه للالتحاق به ، وأنه بانتظاره ليسلمه ما اقدم على احتلاله لحسابه بدون جهد يذكر (١٣٢) ، وثار الجيش بهذا المهماز وتهامس الرجال ضد تأخر الملك ، لان البعض قد حسدوا الالمان على ثروتهم ، وحسدهم آخرون على شهرتهم ، وعلى هذا قرر الملك العبور قبل وصول أولئك الذين كان ينتظرهم (١٣٣) ، محكوما عليه بكل من نصيحة الأغريق ، وشكاوى رجاله ، وأعد الأمبراطور أسطولا للجواز ، بسرعة تعادل شوقه الكبير لهذا التحرك .

وقضى الملك خمسة أيام (١٣٤) على الجانب الاقرب من الذراع ، منتظرا قسما من جيشه ، ثم أمضى خمسة أيام أخرى على الجانب الآخر ، يتحمل دهاء الأغريق ، فقد توفرت لهم الآن الفرصة التي كانوا يتوقعونها ، وتجرأوا على كشف النقاب عن مشاريعهم ، غير ان حماقة رجالنا سمحت لهم بأن يخفوا شرهم وهكذا فقد وصف الكثيرون تصرفات الأغريق حيالنا على انها انتقام ، وليست من قبيل المكر والخداع ، فمن لديه معرفة جزئية بقضية يقوم بإصدار حكم جزئي عليها ، أما من لايعلم القضية برمتها لايمكنه أن يطلق

حكما عادلا ، وفي حقيقة الامر يمكن الحـاق الاذى بـالاغريق ولكن لايمكن تهدئتهم ، وعليه فقد قمنا بالجواز تتبعنا المؤن والسفن مـع صرافي المال في الخارج ، وقد عرض الصرافون خـزائنهم على طـول الساحل ، وكانت مناضدهم تشع بالذهب وتتلألأ بالأواني الفضـية التي كانوا قد اشتروها منا ، وكان قد خرج من بين صفوف الجيش اناس يقايضون لقضاء حاجياتهم الضرورية ، وانضم إليهم رجـال وضعوا أعينهم على إمدادات الآخرين ، فاشتهوا تملكها ، وذات يوم قام فلمنكي يستحق الازدراء والالقـاء في الجحيم ، قـام وقـد رأى الثروات الهائلة أمامه ، فأعمته شهوته في تملكها فصاح : « هـافو ... هافو (١٣٥) » واستولى على ما اشتهاه ، وقام بتحريض الرجـال من أمثاله على ارتكاب الجريمة ، مدفوعا إلى ذلك بوقاحته وبقيمـة الغنيمة ، وبما أنه كان هناك حمقى في كلا الجانبين (لأنه في تبـديل العملة هناك العديد من الوسطاء والحمقى) فقد هـرع أولئك الذين كانوا يحملون المال واندفعوا في جميع الاتجاهات .

وازدادت الضجة ، وعظم الارتباك ، وسقطت المقاعد ، كما سلب الذهب واحتجز ، وفر صرافوا المال المنكوبين خشـية الموت ، ولدى فرارهم نقلتهم السفن ، ولما غادرت السفن أخذت عددا من رجـالنا الذين كانوا يبتاعون الطعام خارج المدينة ، إلى داخل المدينة ، وقـد تعرض أولئك الرجال للضرب والسلب ، كما سلبت المدينة ضيوفها ، وعاملتهم وكأنهم أعداء .

ووضع الملك في صورة الحال ، فقام وهو يشتعل غضبا ، فـطلب إلقاء القبض على المجرم ، الذي شنق فور تسليمه مـن قبـل كونت فلاندرز (١٣٦) على مشهد كامل من أهل المدينة ، وعندها أسرع الملك للبحث عن البضائع المفقودة ، فـأعلن العفـو عن الذين أعادوهـا ، وتهدد أولئك الذين أخفوها بإنزال العقاب بهم ، مثـل العقـاب الذي أنزل بالفلمنكي ، وهكذا تعين عليهم الا يخافوا أو يخجلوا من وجود المنهـوبات لديهـم ، وأمـــر الجميع بإعادة كل شيء إلى أســقف لانجريس ، وفي الصباح جرى استدعاء صرافي المال الذين كانوا قـد

فروا في اليوم السابق ، فاستعادوا كل ما ستطاعوا أن يقسموا يمينا أنهم قد فقدوه ، وطالب السواد الأعظم منهم وسألوا أكثر مما يتعين لهم ، وكان الملك يفضل تعويض المواد المفقودة من ممتلكاته الخاصة بدلا من أن يزعزع لسلام جيشه (١٣٧) .

وفي أعقاب هذا الاسترداد اختار عددا من المبعوثين أرسلهم إلى الامبراطور يطلبون منه إعادة رجال (الملك لويس) المحتجزين وبضائعهم ، وإعادة نصب سوق للجيش ، وكان على رأس المبعوثين أرنولف صاحب ليزيو ، وهو أسقف صاحب مكانة سامية ، بسبب بلاغته وورعه ، وبارثلميو الحاجب ، وبما أن الملك كان دائما يعرف بسرعته في تصحيح الخطأ ، فقد ألح على مبعوثيه بالاسراع ، فعبروا في الصباح الباكر ، وسمح لهم بالدخول إلى القصر من قبل حراس الأبواب ، لكنهم لم يكونوا قادرين على التحدث مع « الوثن »(١٣٨) ، وترتب على المبعوثين في ذلك اليوم أن يعزي كل منهم الآخر ، وأن يشغلوا أنفسهم بالقاء النظر على الصور بدلا من الانشغال بتناول الطعام ، وأما أثناء الليل ، فقد قام الرخام الذي يعبد الأرض مقام السرير والفراش ، وفي اليوم التالي ، وبعد أن نهض ذلك الرجل غير الورع ، في حوالي الساعة الثالثة ، جلبوا إلى حضرته ، دون أن يكونوا قد ذاقوا الطعام أو عرفوا طعم النوم ، ونفذوا هدف السفارة فيما يتعلق بكل من التعويض لرجاله وشكاوى رجالنا ، وببلاغة حكيمة يسودها اللطف كان بامكان الأسقف أن يجعل الوصول إلى الامبراطور ممكنا ، لو أن ذلك الثعبان كان يمكن سحره من قبل الحواة الراقين ، لكنه كان قد تغير عما كانوا يعرفونه من قبل ، وأصبح « مثل الصل الأصم يسد أذنيه »(١٣٩) ، وأصبح الآن مكشوفا لهم ، بعد أن كان يتستر وراء الخداع ، ومع ذلك كان الأسقف مصرا ، وسادت كلمته جزئيا ، وحصل الجيش على سوق ، وتوفرت هناك طريق لرحيل الحجاج الذين كانوا قد فقدوا بضائعهم ، وقال الامبراطور إنه مازال على استعداد للاجتماع بالملك ، وإرسال المبعوثين على الفور ، وعندئذ أملت الحاجة على

الأسقف أن ينسحب قبل أن يتوجب عليه أن يصوم لليوم الثـالث في قصر الامبراطور .

وعلى أية حال ظل الامبراطور يتزين زيفـا بـاللطف ، لكي يكون أكثر قدرة على الحاق الضرر ، فأمن سوقنا ، لكنه ظل سوقا هزيلا ، وأبقى على نيته الاجتماع بالملك ـ إنما بعد فوات الأوان ـ وهـكذا فقد بعث برسله بعد انقضاء عدة أيام ، وأكل الفرنج أثناء الانتـظار الطعام الذي كان معدا من أجل الرحلة ، وأراد الامبراطور أن يعـود الملك إلى القصر ، بينما أراد الملك أن يجري الاجتماع على الجـانب الذي يقيم عليه ، أو في البحر بحيث يكون الطرفان في موقع متسـاو من حيث مركزيهما ، وكشف الامبراطور أخيرا ، بواسطة رسوله ، عن الشروط التي كان قد أجلها بحصافة وحذر ، فقـد طلب أمـرين إثنين : امرأة من قريبات الملك كانت تـرافق الملكة ، طلبهـا زوجـة لواحد من أبناء أخيه ، وأراد أن يقدم النبـلاء يمين الولاء له ، وقـد وعد مقـابل ذلك بتـأمين الأدلة والتبـادل المالي العـادل (أي الصرافة) والأسواق في كل مكان ، وحيث لن تتوفر هذه الامتيازات للفرنج ، فإن لهم الحق بالقيام بأعمال السـلب ، وهـم مفـوضون بذلك ، وإذا رفضت قلعة ما أو مدينة تقديم المساعدة من هذا القبيل ، يمكنهم الاستيلاء عليها ، لكن بعد نهبها عليهم أن يخلوها وتتـرك له غير محتلة ، وفضلا عن ذلك فقد قدم للملك المزيد من الهدايا الملكية ، ولكل واحد من النبلاء هدايا تليق بمقامه .

وبعد أن سمعوا بتلك الشروط ، أصبح من الضروري مرة أخرى أن يتـأخروا ، أولا لأن كونت مـوريين (١٤٠) ومـركيز مونتفرات (١٤١) أخوال الملك ، وكونت أوفيرن (١٤٢) وعديدون آخرون ممن كنا ننتظره ، كانوا قد خيموا بظاهر المدينة ، حيث كان بوسعنا أن نراهم ، ثانيا لأن النبلاء رفضوا طلب الامبراطور ، وعليه أقـدم الاغريق الذين كانوا في العادة يلحون على الناس أن يعبـروا ، على تأخير العبور بخلق العـراقيل (١٤٣) ، وبناء على ذلك كله فقـد انتشر الفرسان البارزون في الجبـال لتـأمين التمـوين لنا أثناء الرحلة ،

واستطاعوا بفضل الاغارات أن يزودوا الجيش بــالامداد ، وكان في ذلك خسارة للاغريق ، وقـاموا بشراء مــركب لاتبــاعهم ، وبــذلك استطاعوا أن يقدموا ما كان الاغريق قد أوقفوه ، وأبحروا به عبــر الذراع ، وبذلك رحبوا بالرجال الذين كانوا بانتظارهم ، وفي الوقــت ذاته عندما كانت مطالب الامبــراطور تثير الغضــب الشــديد قــام روبرت ، كونت بيرش(١٤٤)أخو الملك باختطاف المرأة قريبته سرا من بين حاشية الملكة ،وبذلك حرر نفسه وبعض النبلاء من الرضوخ الى الامبراطور ، وحال دون زواج قريبته هــــذه مــــن ابــــن أخــــي الامبراطور ، ومن ثم مَضى إلى نيقوميديا .

وناقش الملك عرض الامبراطور مع الاساقفة وبقية البــارونات ، فقد قال بعضهم ، ولاسيما أسقف لانجرس : « ألا ترون إنه رجــل شرير ، يقوم الآن بكشف ماكان قد أخفاه من قبــل ، إنه يطلب منكم امر الرضوخ له ، في حين كان من الممكن أن يكون هــو الراضـــخ ، ويعد بما يجب أن يكون قد حققه نصرنا عليه ، ومهما يكن الحـــال ، دعونا يا أحبائي نضع الشرف فوق التــوافق وقبله ، ودعونا نحقــق بالقوة ماوعدنا به بالرضوخ ، كمـــا لو كنا وضــــعاء مــــن أهــــل الشره ! إنه عندما يكون لدينا مثل هذا السيد الشريف ، مـــن المؤكد أنه من العار أن نقدم الطاعة والولاء لرجل كافر » .

وعلى الرغم من هذا العرض القــوي ، فقــد ســاد رأي جمـــاعة أخرى، بسبب عددها الكبير وطرحها المنطقي ، فقد حاجج أفــرادها وجاءت اجاباتهم على النحو التالي : « إنه طبقا لاعرافنا يمــكن أن يكون لنا بعد الملك أسياد عدة (لوردات) نخضع لسلطانهم ، لكننا نحافظ على ولائنا له أولا ، وإلى أبعد حدود الولاء ، فإذا كنا نعتقد بأن ذلك مدعاة إلى الخجل ، دعونا نقضي على هــذا العــرف ، والآن وبعــد أن اصــبح الامبــراطور يخشى على مصــالحه نراه يطلب منا الرضوخ ، ولذلك إذا كان من العار علينا أن يخشانا ، وإذا كان من المعتقد غير مشرف لنا أن نعمل من أجل الامبراطور مــا نفعله مــن أجل لوردات أقل شأنا ، فهيا بنا نتخلى عن هذه الفــكرة ، وعلى أية

حال إذا كان خوف الامبراطور ، وتعلقنا بالعرف لا يضير الملك ، ولا يسيء لنا ، فدعونا نحـافظ على عرفنا ، ودعونا ننتـزع خشـيته ، ونطرد خوفه كيما نحقق لانفسنا المنافع ، في الوقت الذي نتـطلع فيه إلى الأمام ، إلى مقتضيات الرحلة ، إننا نريد الامدادات ، وما مـن واحد منا يعرف هذه الأرض ، ولذلك نحـن بحـاجة إلى دليل ، إننا نسير ضد « الكفار » فدعونا نكون في سلام مع المسيحيين » .

وتمكن أثناء هذه المناقشات معـظم الرجـال تقـريبا ، الذين كان ينتظرهم الملك ، من عبور الذراع ، هذا وإن ذكر أسمائهم يثير الأسى في نفسي ، لأنني كنت أشهد وفياتهم التي كانت لا تتوقف (فضلا عن أن قوائمهم يمكن أن تذهل القارىء) ولما كان الامبـراطور وحـده يسبب المزيد من التـأخير ، اصـدر الملك أوامـره بإزالة المعسـكر للتحرك ، وما أن سمع الامبـراطور بـذلك ــ بعـد أن أرسـل مبعوثيه ــ حتى أسرع بـالسير وراء الملك ، معينا إحـدى القـلاع لاجتماعهما ، وهناك حشد أسطولا مـن أجـل ضـمان سـلامته ، ومركزه في البحر على مقـربة منه ، وعندهـا لم يرغب الملك ــ الذي أبدى اعجابه بسمعة الألمان ، وبتصرفاتهم ــ في التأخير ، وسـعى سعيا حثيثا لكي يحظى لنفسـه بسـمعة ممـاثلة ، لكنه مـع ذلك لم يرفض فـكرة الاجتمـاع ، ففـي الوقـت الذي مضى فيه الجيش في تقدمه ، عاد هو مصطحبا معه عددا مـن نبـلائه البـارزين ، مـع مجموعة من الفرسان المسلحين بأسلحة خفيفة ، وعلى الرغم من أنه لم يستطع تحمل مطالب الملك ، برضوخ رجاله له ، إلا أنه اعتقد بأن هذه الموافقة قد تكون خـدمة للرب ، علمـا لو أن الامبـراطور كان مسيحيا حقا لكان ملزما بخدمة الرب دون أية مطالب لنفسـه ، لكنه قال بأنه كان يخشى شعبنا ، الذي صارت لديه خبـرة ومعـرفة بـه وبمملكته ، وإذا لم يؤكد له مرة أخرى حسن نواياه ويعطيه مثل هذه الضمانة ، فسيجرد من جميع الامتيازات الممنوحـة ، ولما كان الملك مندفعا ، يريد الاسراع في زحفه ضد « الكفار » فقـد آثـر أن يغير مواقفه الثابتة ويعدلها كيما يتماشى مع رغبات الامبراطور ، بدلا من أن يتأخر عن تأدية الخدمة للرب بأية وسيلة كانت .

ولذلك جرى اعداد الاتفاقات فور اجتماعهما ، وقد نصت على الا يأخذ الملك من الأمبراطور أي حصن أو بلدة خاضعة لادارته وقانونه ، وتبع هذا المطلب المعقول والمتواضع وعد لا يقل عنه كرما ، لكنه كان وعدا كاذبا ، بذله لأنه ــ أي الامبراطور ــ رأى لزاما عليه تقديم عرض من شأنه أن يشكل نظيرا لموافقة الملك على السلام ، لذلك أضاف إلى ما سبق انه سيرسل إثنين أو ثلاثة من كبار بطارقته (نبلائه) للسفر مع الحملة لارشاد الملك إلى الطريق الصحيح ، وتأمين سوق مناسب في أي مكان ، وفي حال عدم توفر السوق ، سيسمح لجيش الملك ، عن رضى ، بسلب القلاع والاستيلاء على المدن ، وعندما يتم الحصول على الغنائم ، يجب ترك المواقع دونما احتلال .

وفي ذلك الحين كان الملك روجر صاحب ابوليا يشن بإلحاح واصرار هجوما ضد الامبراطور ، ويقوم باحتلال اماكن عدة من بلاده ، ولو أن الامبراطور استطاع أن يفوز بملكنا للتحالف معه ضد روجر ، لكان قد جاد عليه بكل ما في خزينته من كنوز ، ولكن بما أنه لم يستطع التأثير عليه ، سواء بمواصلة الطلبات ، أو بالوعود التي لا يوثق بها ، لذلك فقد دخلا في حلف فيما يتعلق فقط بالشروط المشار إليها آنفا ، وفي نهاية الأمر عندما قدم البارونات ولاءهم ورضخوا ، وعندما شرفوا بتقديم الهدايا إليهم وإلى الملك ، وهي هدايا كانت امبراطورية من حيث الكرم والحجم ، سارع لويس إلى اللحاق بجيشه ، وتلطخ الملك غير الورع بمخالفة الأيمان ، لكنه استراح من كابوس الخوف ، فبقي في الخلف ، ومنح السوق لبضعة أيام فقط ، ولم يرسل المرشدين الذين كان قد وعد بهم أبدا(١٤٥)

وفي ذلك اليوم شهدت الشمس جريمة لا تطاق ، لكن تلك الجريمة يجب الا تعتبر على أنها تعادل خيانة الرب ، حيث أن نصف الشمس قد شع بالضوء على العالم ، وحجب النصف الباقي نفسه ، وهكذا بينما كان الجيش يتقدم بدون الملك ، ورأى الشمس على هذا الشكل ، أي شكل نصف رغيف من الخبز ، معظم النهار ، خشي بأن

- ٣٠١٥ -

يكون الملك ، الذي كان يشع أكثر مـن الجميع بـالايمان ، وينضـح بالاحسان ، ويتمتع بسمو إلهي ، بسبب الرجاء(١٤٦)اقد جـرد مـن جزء من نوره ، وذلك بشر الاغريق وخداعهم ، وليس هذا فحسب ، بل هناك شيء آخر يثير الاسى على حـد سـواء ، فقـد حـدث أن الامبراطور الألماني الذي خانه دليله وتخلى عنه في الممـرات الجبلية الضيقة ، أجبر على الانسحاب والتراجع بعد أن لاقـى الآلاف مـن اتباعه حتفهم بسهام التركمان ، كما سنروي خبر ذلك فيمـا بعـد ، ولاننا علمنا فيما بعد بمعناها ، فقد قمنا بتفسير الظاهرة السماوية على وجه اكثر دقة قائلين إن ملكنا والامبراطور الالماني كانا شمسا واحدة ، بما انهما كانا يشعان بايمان واحد ، وإن نصـف الشـمس شع بالضوء ، في حين حجبت اشعة النصف الآخر ، لأن الألمان قـد تراجعوا في حين مضى الملك متـابعا مسـيرته بحمـاسته نفسـها ، وغيرته المعتادة.

نهاية الكتاب الرابع

-٣٠١٦-

بداية الكتاب الخامس

القسطنطينية مدينة متغطرسة بثروتها ، غدارة بممارستها وفاسدة بايمانها ، انها تخشى كل واحد على حساب ثروتها ، والجميع يخشونها بسبب خداعها وعدم اخلاصها ، ولو لم تكن تتسم بهذه الشرور لكانت مفضلة على جميع الامكنة الاخرى ، سيما ومناخها معتدل ، وتربتها خصبة ، وموقعها مناسب تماما للتبشير بالعقيدة ، وفي حقيقة الأمر إنها تسيطر على ذراع القديس جرجس ، الذي هو في الوقت ذاته حوض مائي يحتوي على الوفير من الاسماك والملح ، وهو أشبه بجدول صغير ، لدرجة انه يمكن عبوره بسهولة وامان بمعدل سبع أو ثمان مرات في اليوم الواحد .

وتعتبر رومانيا (بيزنطة) بلادا مترامية الأطراف ، تعج اراضيها بالعديد من الجبال الوعرة ، وهي تمتد حتى أنطاكية في الجنوب وتحدها تركيا من الشرق ، وعلى الرغم من أن الأخيرة كانت تخضع سابقا للقانون الاغريقي ، فإن التركمان يمتلكون الآن الجزء الأكبر منها ، فبعد طردهم الاغريق أخلوا قسما جديدا من الاراضي ، ولكن بما أن الاغريق مازالوا يتمسكون بالقلاع نجد كلا الشعبان يقتسمان ريع المحاصيل ، وقد استرد الاغريق بعض الاراضي واحتفظوا بها ، وهي تلك التي احتلها الفرنجة ، ذلك أنهم لم يحتفظوا بها ، لأنهم كانوا يسعون للوصول الى القدس (١٤٧) ، وكان يمكن ان يفقد هؤلاء الكسالى كل شيء لو لم يدافعوا عن انفسهم عن طريق استيراد الفرسان واستئجارهم من امم مختلفة ، وهكذا انهم يكدسون الذهب ، لكي يفتدوا انفسهم بالذهب ، ومع ذلك كانوا دائما يخسرون(لكن بما انهم يملكون الكثير لايمكن ان يخسروا كل شيء دفعة واحدة) لأن المرتزقة لايكفون لحماية

شعب (١٤٨) ، ليست لديه قواته الذاتية ، وقد أظهـرت لنا نيقـوميديا هذا بادىء ذي بدء ، فهي قائمة وسط الأشواك والأحراج ، وتشهد آثارها القفرة على مجـدها الغـابر ، وعلى كسـل سـادتها الحاليين ، وانعدام نشاطهم ، وهكذا انعدمت فائدة المصب البحري الذي ينتهي في المدينة بعد ثلاثة أيام مـن انبعـاثه مـن الذراع رغم توفيره لها مزية النقل الجيد .

ومـن تلك المدينة كانت هناك ثـلاثة طـرق (١٤٩) تـؤدي إلى انطاكية ، لم تـكن متسـاوية في الطـول أو متشـابهة في الطبيعة ، وكانت اقصر تلك الطـرق ، الطـريق التـي تقـع الى اليسار ، فهي لو انها لم تكن تحتـوي على تعـرجات كبيرة ، لكان بالامكان قطعها بثلاثة اسابيع ، فبعـد اثني عشر يومـا تصـل الى قونية عاصمة السلطان ، وهي مدينة بالغة الجمال ، ثم تسير بعـد خمسة ايام من عبـورك لتـركيا في أرض الفـرنج ، وهنا يسـتطيع الجيش القوي المؤمن بعقيدته وأعداده أن يسقط من حسابه كل ذلك إذا لم يكن منذرا في أيام الشـتاء بسـقوط الثلوج التـي تغـطي الجبال .

اما الطريق التي تؤدي الى الجهة اليمنى ، فأكثر غنى ، وأعظـم سلامة ، ولكن باتباع هذا الخط الساحلي المتعرج يحتاج المسافرون الى ثلاثة أضعاف المدة ، ذلك انه يتوجب عليهم عبور انهار وجداول متدفقة ، ويستلزم الحال خشيتها في الشـتاء مثـل خشـية الثلوج والتركمان على الأولى .

اما الطـريق الوسـطى فتتحلى بميزات ومسـاوىء الطـريقين الاخيرين ، فهي أطول من القصيرة واكثر سـلامة ، وهـي أيضـا اقصر من الطريق الساحلية إنما أفقر منها ، لذلك تفرق الالمان الذين سبقونا وتشـتتوا ، وكان السـواد الاعظـم مـن الالمان ، بقيادة الامبراطور ، قد اتبع الطريق اليسرى ، عبر قونية ، ولسوء الطالع

(١٥٠)اتبع البقية مع أخي الامبــراطور الطــريق اليمنى ، وتــابعوا المسير ، فطالهم سوء الطالع في كل مجال وزاوية فيه ، وبقــي الآن الطريق الأوسط ، الذي يخفــف مـــن مســاوىء الطـــريقين الآخرين ، من نصيبنا ، وذلك بعد أن وقعت علينا اشاعات الاغريق محرضة كضرب المهماز بأن نسير على خطى الألمان ، زحفنا مخلفين نيقية الى اليسار ، وخيمنا في البداية قــرب بحيرة نيقية ، وبينمــا نحن هناك وصل فجــأة بعض النبــلاء الألمان(١٥١) الذين كانوا قــد ارسلوا خلف الملك من قبل امبــراطورهم ، وأفــادوا والأسى يعتصر قلوبهم ، بأن الألمان خلافا لرغبتنا كانوا قـد فــروا ، وعادوا الى نيقية .

ومان سمع رجالنا ذلك ، حتى حل الأسى بهم ، ونال من قلوبهم فذهلوا ، لأن مثل هذا الجيش القـــوي قـــد أخفـــق بصـــورة مفاجئة ، وحقق أعداؤنا ، وأعداء الرب ، انتصارهم على حلفــائنا بسهولة ، وقد سئل الألمان عن كيفية وطريقة وسبب ســوء الطـــالع الكبير هذا ، ولعل جميع تلك التساؤلات قد أجــريت على نحــو غير موائم ، بما أنه ليس هناك في الحقيقة مــن ضــابط للفــوضى ، ولا انفراج ولاطريقة ناظمـــة للامنطقية ، ومـــع ذلك فإن لكل شر بـــداية ونهاية كما قال لنا أولئك الذين اســتطاعوا أن ينجــوا مـــن هـــذه الكارثة ، وقد اتهموا أنفســهم ــ وهــم محقــون في ذلك ــ لأنهــم اغتروا بأنفسهم وبــالغوا الثقــة بقــواهم الذاتية ، وكانوا غالبـــا مايخالفون الرب ، اكثر من المعتـــاد بحـــد كبير ، ثـــم إنهـــم لعنوا « وثـــن » القســـطنطينية ، الذي بإعطـــائه اياهـــم دليلا خائنا ، إنما فعل كل مـــا في وســـعه للقضـــاء على الايمـــــان المسيحي ، وتقوية « الوثنية » وتشــجيع « الكفــار » ، وإطفــاء حماسنا المتقد ، لأنه عندما ارشــد الألمان مــن قبــل دليلهـــم الى نيقية ، أمزهم بعد ذلك بتزويد أنفسهم بما يكفي من الامــدادات الى قونية ، وأثناء الزحف ، اعتقدوا عندما أوشــكت الأيام والأطعمـــة على الانتهاء بأن الطريق لابد مشرف على الانتهاء ايضا ، لكنهم في مواجهة قمم الجبال لم يعد بوسعهم ســوى التســاؤل : متــى وأين (١٥٣)

ياترى سينتهي الطريق ؟ ومع هذا قادهم مرشدهم (لابل الأصح ان نقول جائرهم) بعيدا عن السبيل ، وزاد عناؤهم وتضاعف من صباح الى اخر حتى اليوم الثالث واندفعوا في الجبال التي لايمكن سلوكها ، حيث لاطرق فيها ، وهنا بعدما ساور الخائن الاعتقاد بأن الجيش قد دفن حيا ، فر تحت جنح الظلام عبر طريق مختصرة كان يعرفها ، واحضر حشدا كبيرا من التركمان الى الفريسة ، لذلك حدث في فجر اليوم التالي ، عندما كان حملة الرايات الذين يتقدمون الجموع ، غاضبين لتأخره ، يتطلعون كما جرت عادتهم الى دليلهم ، لم يجدوه ، بل فجأة وجدوا التركمان ، بدلا منه ، وقد احتلوا قمم الجبال ، وحزن هؤلاء الرجال كثيرا لأن الرجل الذي كانوا يبحثون عنه قد فر دون أن يتلقى الجزاء الذي استحقه لجريمته التي اقترفها(١٥٢).

وقد احيط الامبراطور علما بهذه الحقائق ، ليس عن طريق عودة رجاله فحسب ، وإنما بنور الشمس ايضا ، ولذلك دعا مجلس بلاطه للاستشارة ، لكن بعد فوات الأوان ، فقد تعين عليهم الآن أن يختاروا ليس بين الخير والشر ، بل اهون الشرين (١) ، كان يتعين عليهم التقدم أو التراجع ، بيد أن الجوع والعدو ، والجبال الشاهقة المهولة المجهولة الشائكة بمتاهاتها حالت دون تقدمهم ، كما أن الجوع وخشية العار قد حالا دون تراجعهم ، وعلى أية حال ، فقد كان لهم في التراجع أمل بالنجاة ، ولو أن ذلك كان أمرا يكتنفه الخزي والعار ، فقد كان في تقدمهم موت دونما جدوى أو شرف مؤكد ، ترى ماذا تفعل بسالتهم الجائعة اذا ، ترى هل ينأوا بأنفسهم عن خدمة الرب ، وهم لم يعتادوا على أن ينأوا بأنفسهم بمحض إرادتهم ، وترى هل سيمضي أولئك الذين يتمكنون من خدمة الرب ، اذا سلموا ، الى الموت هناك عبثا ؟ من المؤكد انهم كانوا يفضلون موتا مجيدا على حياة الذل المزرية ، بيد انه إذا كان الذل يلطخ كلا الخيارين ، فمن الأفضل أن يحافظوا على أنفسهم بذل ، بإتخاذ عمل فوري ، بدلا من ان يموتوا موت الأذلاء ، ولو كان ذلك دونما تأنيب ، وهكذا مستسلمين لهذه

الاعتبارات ، فعل الألمان مالم يفعلوه عادة ، فأدانوا التراجع ، في الوقت الذي وافقــوا عليه ، بمـــا أن الوقـــت كان يســـتدعي الاصلاح (١٥٤) ، وإعادة التشــكيل ، لذلك فقــد فعلوا مـــااستطاعوا فعله ، وتمنوا ماتعين عليهم ان يتمنوه (١٥٥) و هكذا تسلح الجميع و استعدوا لأن يتحملوا الجوع (بما أنه لم يكن لديهــم ســوى الخيول الهزيلة و الميتة ليأكلوا) و حمل الكونت برنارد (١٥٦) سلاحه مع بعض من رجاله فقط بغية الاشتباك مع العــدو القــادم ، وبينمــا نظمــوا انفسهم على هذا النحو ، أطال الناس الرحلة بــالمحاولة للحصــول على الطعام ، واحط الجوع والجهــد قــواهم ، واخــذ التــركمان يختبرون الصليبيين تدريجيا ، ولما بــدا ضــعفهم واضــحا اخــذوا يضيقون عليهم بشدة من يوم ليوم ، وفي نهاية الأمــر ، بينمــا كان الكونت برنارد ، الذي يستحق أن يمــدح وأن يبــكى ، يســهر على المر هقين ، ويقدم الدعم للضعفاء ، عبر الجيش أحد الجبال ، لكنه بقي هـــو على الجـــانب الآن لأن الليل كان قـــد شـــارف على الحلول ، وعندئذ احاط به الأتــراك هناك ، وأخــذوا يطلقــون عليه السهام ، فقتلوه دون أن يلحقوا بأنفسهم الأضرار ، قتلوه بـــأسهل ممـــا كانوا يأملون ، لأنه لم تـــكن لدى ذلك الرجـــــــل لاقسي ولانشاب ، كما أن الجوع والتعب قد حــرما فــرسانه مــن الخيول السريعة ، ولم يكن التركمان يرغبــون بــالعراك وجهـــا لوجـــه وبالأيدي ، ولم تكن تتوفر لديه الأسلحة التي تمــكنه مــن أن يصــد الهجوم الذي يشن من مدى بعيد ، كما أن الخيول المنهــكة لم تــكن قادرة على حمل فرسانه ضد العدو ، وأما الذي يســتحق أن يبــكى ويندب كثيرا فهــو قــدر أولئك الشــباب الذين كانوا كلهـــم حيوية ونشاط ، أولئك الذين واجهوا الموت في منتصف الطريق بدلا من أن يواجهـــوا رجـــال العـــدو الذين كانوا يســـــيرون على جناح السرعة ، وبجرأة منقطعة النظير لملاقاتهم بسيوفهم وترستهم التي كانت من جلود الأغنام ، ذلك انه عندما سبق للحبر الأعظم أن حظر استخدام الكلاب والصقور ، وحــدد نوعية اســلحة الفــرسان مـــع ثيابهم (١٥٧) ، قـــام الرجـــال الذين لم يوافقـــوا على هــــذه

الاوامر ، بالعمل في حالة انعدام للحكمة والتجربة ، تعادل الحكمة والتجربة في أوامره ، فحبذا لو أنه أمر الرجالة وعاملهم بنفس الطريقة ، وأصر على بقاء الضعفاء في ديارهم ، وألزم بتجهيز الأقوياء بالسيوف جميعا بدلا من الحقائب ، وبالقسي بدلا من العصي ، لأن الضعفاء ومن لاحول لهم ولاطول يشكلون دائما عبئا على رفاقهم ، كما يشكلون مصدر صيد ثمين لأعدائهم .

واخذوا يبحثون في اليوم التالي عن الكونت ، الذي غالبا ماكان يدافع عن شعبه دون مساعدة الآخرين ، وقد علموا بأنه لم يتأخر في القدوم الى الجيش ، لكنه لقي ورجاله حتفهم على أيدي جند التركمان من حملة القسي ، وبما انهم كانوا يعتمدون الى حد كبير على قوته وحكمته ، وبما أن موتا مماثلا كان يهددهم جميعا ، بكى كل واحد منهم منيته ، وحمل السلاح كل من كان قادرا على ذلك ، ومضوا مسرعين ينهكهم الجوع اكثر من اي وقت مضى ، ويهددهم العدو ، وحقيقة الأمر ان التركمان ادراكا منهم انه ليس لدى الصليبيين قسي أو خيول سريعة ، لم يعتر قلوبهم أي خوف ، وعندئذ لم يقوموا باغاراتهم على المؤخرة فحسب ، بل وجهوا سهامهم نحو المقدمة ونحو قلب الجيش ، إنه ليس بوسعي أن أصف مدى الخسائر التي مني بها الالمان في تلك الرحلة ، فالامبراطور ذاته قد جرح بسهمين (١٥٨) وبينما كان بقية الاقوياء يمضون بسرعة ، تخلف الضعفاء في المؤخرة ، ووسط خضم من الفوضى والاضطراب سقط وابل من السهام ، فقتل العديد من الرجال العزل ، وبعد عناء وصل بقية الألمان اخيرا ، وهم يعانون سكرات الموت ، وصلوا الى نيقية(١٥٩)، وهناك اندفع الناس الجائعون نحو الحصول على الطعام ، واستغل الاغريق ظروف الحاجة الشديدة للطعام هذه ، فباعوه حسب الأسعار التي أرادوا ، أو رغبوا بها ، وطلبوا الثمن سيوفا ودروعا بدلا من الذهب ، واستهدفوا بذلك تجريد الجيش من أسلحته ، وذلك رغبة منهم في إعادة العساكر الألمان الى أوطانهم ، ومضى السواد الاعظم من الجيش الألماني بعدما نفدت قواهم وفقدوا ممتلكاتهم ، الى

القسطنطينية ، لكن قبل أن يستطيع هؤلاء القوم الحصول على كل من السوق ووسائل العبور ، كان الجوع قد أودى بحياة أكثر من ثلاثين ألفا من الرجال ، حسبما قيل لنا (١٦٠) ، غير أن الامبراطور المجرد من الراحة الجسدية والنفسية ، إنما الواثق بمساعدة المشيئة الربانية له ، سارع الخطى في المضي في أعقاب الملك ، بقلب مثابر ، باغيا الترافق معه في خدمة الرب ، وأرسل المبعوثين أمامه ، فقابلوا الملك ـ كما سلف وذكرنا ـ عند بحيرة نيقية ، وسردوا له أخبار جميع الوقائع التي كنا قد وصفناها ، وطلبوا منه التوجه الى مقابلة الامبراطور الذي كان قادما في إثرهم ، وأن يكون على استعداد لتقديم العون والمشورة له ، في وقت حاجته لذلك (١٦١) .

وحزن الملك شديد الحزن للضرر الذي لحق بحليفة ، كما لو لحق به شخصيا ، وتوجه نحوه مسرعا ، يرافقه العديد من أعيان رجاله ، وتغمره العاطفة ، واستمع لمطالبه (١٦٢) ، وجامل كل منهما الآخر ، وتبادلا القبل التي صاحبتها دموع التقى ، وأخيرا قررا بأنه يتعين على الملك ان ينتظر الامبراطور في قلعة لوبار (لوباريوم) كما تعين على الامبراطور ان يتبع الملك بسرعة ، بعد أن يحصل على الامدادات من نيقية .

ومنذ ذلك الحين بدأ الاغريق بسحب سوقنا ، غير أن الفرنجة لم يستطيعوا تحمل رؤية الكثير وهم في حاجة ، وهكذا قام بعضا منهم ، عند انتشارهم في المناطق الريفية بالاستيلاء على ماكان حري بهم أن يشتروه ، واشترى آخرون تلك الغنائم منهم ، وكأنهم كانوا أكثر صوابا ، لو انهم عاشوا على نفقتهم الخاصة ، بأية طريقة كانت ، وهكذا وصلوا الى لوبار حيث انتظروا الألمان هناك ـ حسبما سبق الاتفاق ـ وحدث أن الألمان الذين كانوا يتبعون الفرنجة جردهم الاغريق من الحياة والمقتنيات بشكل يومي ، ونغصوا عيشهم تماما (١٦٣) « واكلوهم تماما كما اكل الجراد الطيار ما خلفه الجراد الزحاف »(١٦٤)، وفي النهاية عندما لم

يعد بمقدور الامبراطور الخائر القوى هو ورجاله أن يهـربوا ، رغم قلة أعدائهم ، مضوا يقـاومون بشـجاعة وتعـاسة على طـول الطريق ، وتابعوا زحفهم بصبر وثبات وشـجاعة ، أمـا بـالنسبة للفقراء ، فقد هربوا ولحقوا بركب الملك ، ذلك انه لم تعقهـم عوائق الامتعة والمقتنيات ، ولم يكن لديهـم مـايخشون عليه السـلب ، أو يطمع به ، لأنهم كانوا معدمين .

وطلب الامبـراطور الالماني ، مـن الملك الفـرنسي ، في رسـالة وجهها اليه ، الاجتماع به على وجه السرعة ، وأن يخف نحوه مـع قوة عسكرية،من شأنها القيام بدفن الألمان ، والحفـاظ على بـريق الحياة المتبقـي لدى أولئك الذين ظلوا أحياء ، بصـورة جـزئية ، واسـتجابة لذلك ، وبناء على طلب الملك الملح ، أسرع مفوض الجيش ريفـو صـاحب نيسـل ، كونت سـواسون ، الى العمل ، فطرد جماعات الاغريق ، وحرر بسهولة الألمان الذين كانت قواهم قد استنفدت ، وفي حقيقة الأمـر ــ كمـا قـال الالمان فيمـا بعـد ــ لو لم يأت الكونت على جناح السرعة ، لكانوا قد واجهوا جميعا موتا محتوما ، لكن باللتعاسة ، وياللحظ العـاثر الذي حـل بالسكسون ، وبالباتافيين ، وبالجرمان الآخرين الشجعان ، هؤلاء الذين نقرأ عنهم التواريخ القديمة ، وعن شجاعتهم التـي خشـيها الرومان في الماضي ، قد تلاشت الآن شجاعتهم بسـبب غدر الاغريق المشركين ، وسيأتي الوقت المناسب الذي سنسجل به أخبار سقوط الفـرنج ايضـا ، وسـيصبح الأسى المزدوج امـرا غير محمول ، وسيكون لكلتا الامتين دائمـا شـيئا تندبـه ، وانه اذا لم ينتقم ابناء أولئك الرجال لموت ابائهم ، ولنا نحن الذين عانينا مـن أعمال الاغريق الشريرة ماعانينا ، ان العدالة الربانية ، مع حقيقـة ان شعبنا غير معتاد على تحمل الأذى والخـزي طـويلا ، يعـطيانا الامل بالانتقام ، وهكذا تمكنا من اراحة قلوبنا الحزينة ، وسنتابع طريقنا التعيسة حتى تدرك الأجيال المقبلة افعال جمـاعات الاغريق وغدرها العظيم .

وعليه عندما وصل الامبـراطور محـاطا بحـرسه الى معسـكر الملك ، أقام على ضفة نهر صغير ، فعبر الملك ذلك النهر على ظهـر قارب ، وهو تتملكه روح التقى ، وفي عينيه دموع القـوة ، وسـار مشيا على قدميه كي يهدىء من روعه ، وتلقى الامبـراطور كلمـاته بارتياح ، كرجل وصل الى شاطىء الأمان بعد تحطم سـفينته وطلب منه بمنتهى التواضع ، عددا كبيرا من الأمور التي كان يحتـاجها ، وبدأ يخاطبه على هذا النحو ، كاشفا النقاب عما عاناه ، قائلا بـكل هدوء:« سـيدي الملك ، مـن اختـارته الطبيعـة

ليكون جارا لي وصديقا ، ومن حفظه الرب ليحميني وقت الحـاجة ، إن لقاءنا هذا لا أقصد منه الحديث عن سوء حـظي ، لأنه مـن غير الضروري ، أن اضع أمام ناظري أي كان ما قـد رآه فعـلا ، إنهـا أفعال شريرة حقا ، لذلك أريدك أن تدرك أنني غير مغتاظ من الرب ، ولكنني غاضـب على نفسي ، لأن الرب عادل ، أمـا أنا وشـعبي فحمقى ، فعندما قدت جيشا لجبا عظيم الثراء ، عندمـا قـدته مـن مملكتي لو أنني تقدمت آنذاك بـامتناني لواهـب الأعمـال الخيرة ، لربما كان قد حفظ لي ما وهبه ، ولو أنني أصلحت طـريقة حياتـي الحالية ، وغيرت سـلوكي لدى دخـولي البلدان الأجنبية ، وتخليت دونما أسى عن ماضي ، لما كان الرب قدد أنزل عقـابه بـي ، بشـأن أخطائي التي أستحق التوبيخ عليها ، وعندما أفـكر بـالانتصارات التي كنت قد حققتها على التركمـان ، أخرج بمحصلة مفادها إنه لو لم يركب الغرور راسي بسـبب جيشي الكبير ، ولكن وضـعت أملي في رب الحشود ، لما كان الرب أذل غطرسة غير موجودة أصلا ، علمـا بأنني والحمد له ، مـا زلت حيا أمتلك الثـروات ، وأرغب بشـدة في خدمته ، لأنني أعتقد أنني ما كنت لأبقى ، وأنجو مـن العـديد مـن المخاطر ، وأظل غنيا ، دون أن ينالني أي أذى ، ولما كنت قد حصلت على مساعدتكم انتم في ساعة الموت ، لولا أن الرب قد قدر بأنني مـا زلت أستحق أن أقوم بخدمته ، ولذا لا تساورني الرغبة بأن أنفصل عن مرافقتكم منذ الآن ، أو عندما القى القبـول مـن جـانبكم ، أن أوضع إما في الأمـام أو في الخلف ، ذلك أنني لا أسـتطيع مناجـزة

العدو وصده في المقدمة ، أو مقاومة الأعداء الذين يلحقون بنا ، دون إلحاق الأذى بالجنود في القلب ، وبهذه الاستثناءات دع خيامي تنصب حيث ترغب ، وإنني أطلب أن تكمل أعداد جنودي برفاق من قبلكم » .

وعندما أنهى الامبراطور حديثه ، وقد اخذ الحزن منه كل مأخذ ، وكان أسقف متز يترجم له ترقرقت الدموع في أعين الجميع ، واكتوت قلوبهم بالأسى ، وقام الملك بناء على نصيحة باروناته مع الأساقفة باصدار امر ببقاء كل من عمية : كونت موربين ، ومركيز مونتفرات ، واقاربه ، واسقف متز ، واخوه كونت رينالد وآخرين ، مع الامبراطور ، وهكذا أصبح بوسعه إعداد الخطط المناسبة مع الامبراطور ، وقرر ايضا أن يعسكر هو والامبراطور معا .

نهاية الكتاب الخامس

بداية الكتاب السادس

وهكذا قام الملك مبديا غاية التقدير للامبراطور ، ومعاملا إياه معاملة سامية ، بسبب سوء طالعه ، فأمر بتغيير معسكره ، وتحول الى قلعة اسيرون ، وذلك بعد عيد القديس مارتن (١٦٥) ، ولكن في الوقت ذاته عندما كان حزن الامبراطور جديدا ، وعندما كان لايزال يتذكر مساعي الملك الحميدة ، مضيت الى الملك ، وكشفت له النقاب عما كان الامبراطور يلحق به من اذى وبالقديس دينس فيما يتعلق بايسلنجين وقلعة ايستوسين (١٦٦) ، وذكرته بالحرمان الذي نزل به كعقاب على هذه الاعمال التي قد سمع البابا يبشر بها في عيد الفصح ، والآن وبعد أن ابتهج الملك بالفرصة التي سنحت له ، لخدمة القديس ، لم يتقاعس ، بل على العكس من ذلك أمر أن يبين إليه أولئك الذين كانوا يشغلون تلك الامسكنتهنا وهناك ، فكان أن أجبته بأن الامبراطور نفسه كان يشغل برجا في القلعة ، وأن الدوق فردريك (١٦٧) ، الذي كان معنا ايضا ، احتل هو البرج الآخر ، كما انه بسط سلطانه المطلق على ايسلنجين ، وما أن سمع الملك بهذا الأمر ، ثم سمع به رجاله ، حتى بادر بالتوسل لكل من كونراد وفردريك ، أولا بصورة افرادية ، ثم علنا فيما بعد ، وملحا على أصدقاء الامبراطور ، ومجددا اصراره حول القضية ، فقد طلبهما كمعروف لنفسه ، وألح على ذلك كوسيلة لارضاء الرب والشهيد المجيد ، وقد أجاب الامبراطور بادىء ذي بدء بغموض ، لأنه كان يأمل بأن يتخلى الملك عن هذا المطلب إذا ما تعرض للضيق والسأم ، بيد أن الملك لم يتنازل عن طلبه المشرف والورع ، إلى أن يظهر الامبراطور إلى أي مدى كان غير ممتن للمساعدة التي قدمها له ، وكيف أنه لا يتراجع عن الخطأ ، وعلى الرغم من أن هذا ليس جزءا من موضوعنا ، يا نيافة الأب سوكر ، إلا أنه من المناسب لكم ان تدركوا انه بوسعكم ان تصلوا بخشوع من اجل من كان يظهر

لكم الاذعا ن عندمـا يكون بحضرتـك ، ويرعى مصـالحكم أثناء غيابكم

ومضى الآن الملك يزحف حثيثا إلى فيلادلفيا ، كما كان قد خـطط ، وكان يؤدي إلى ذلك المكان طريق عريض ، يمكن قطعه بثمانية أيام ، لكنه كان طريقا مزودا بشكل كاف من الامدادات وعلما منه بـذلك ، قام الامبراطور — بشـكل غير ذكي — بـالقاء كلمـة أمـام الملك وباروناته ، ولعله أرادنا في خطابه — بمعـرفة أو بـلا معـرفة — أن نشرب من كأس تعاسته (١٦٨) فقال:« انه كما ينبغـي على الرجـل القوي تقليد الاعمال الجريئة ، كذلك يجـب على الرجـل العـاقل ان يتيقـــــــــظ مـــــــــن سوء طالع رجل آخر ، فعلى الرغم من أنه كان لدي في الأونة الأخيرة جيشا يصعب على أي قوم كفرة مقاومته ، فقد استسلم ذلك الجيش عندما قهره الجـوع ، استـسلم إلى أولئك الذين كان بمقـدوره أن يسيطر عليهم ، لو أن الامدادات كانت قد قـدمت إليه ، وإننا الآن في الحالة ذاتها ، فعلى الرغم من انكم لا تخشون قوة أي شـعب كان ، إنكم مع ذلك لا تمتلكون السهام التي تقهر الجـوع ، انظـروا هناك طريقان مفتوحان أمامكم : أولهما أقصر من الأخرى ، لكنها هزيلة الموارد ، وأما الثانية فهي أطول ، غير أنها اكثر بـالامدادات ومـن المؤكد انه افضل لكم أن تعيشوا لمدة طويلة وسط الخير العميم ، من أن تنتهوا بسرعة وبخزي وسط الحاجة ، ومـن الافضـل التـأخر وسط الوفرة التي يبقى الجيش خلالها قويا ، بدلا من اعادة تـرميم جيش منهار القوى يتضور جوعا أو بعثه للحياة ، لذلك فإنني أتوجه إليكم بنصيحتي كي تسلكوا الطريق الساحلي وأن تحافظوا على قوة فرسانكم من أجل خدمة الرب ، حتى وإن كانت تلك الخدمة متـأخرة إلى حد ما » .

ولقد أعار الملك انتباهه إلى هذا الخطاب (١٦٩) الذي كان أكثر قابلية للتصديق بيانيا مما كان عليه من حيث الواقع ، لأن مصيره كان على الفور أن يركب المخـاطرة ويتحمـل الاضرار ، وأن يصـل في اليوم

الثالث إلى مرفأ ايدريميد ، الذي كان جـزء مـن الجيش ــ سلك الطريق مباشرة ــ قد وصله في نصف يوم ، وسبب تـأخر الجيش ، انه راغ عن الطريق إلى احد الوديان ، وهـكذا كان بينمـا يتسلق الشعاب ويطوف حول منحـدرات الجبـال الصـخرية التـي كانت تعترض طريقه ، لم يتمكن من الوصول إلى حيث كان يرغب ، وكان يقترب من السماء حينا ، ومـن الجحيم (جـوف الأرض) تـارة أخرى ، ورأينا في صباح اليوم الثالث ، ووقع نظـرنا على مجمـوعة من القرويين ، رفاق الوحوش المفترسة ، والقينا القبض على واحد منهم ، في حين تمكن الآخرون من الفرار ، واستطعنا بمساعدته أن نسير ذلك اليوم ذاته نحو ايدريميد ، إلى رفاقنا الذين كانوا في غاية القلق حول مصيرنا ، ولقد تكبدنا حقا أولى خسائرنا وافـدحها بين تلك الجبال ، ولما كانت حيوانات النقل لدينا قد لقيت حتفهـا ، فقـد أغنينا سكان الغابة مـن الاغريق بـالذهب والفضـة والسـلاح والملابس ، ولقد تحملنا تلك الخسارة بصـبر ، اننا كنا قـد نجـونا بحياتنا ، لانه كان في تلك المقاطعة سيل ملتـو هـائل السرعة ، كان يتوجب علينا أن نعبره ثمان مرات او تسعا كل يوم ، ولو انه كان قد اتسع قليلا فقط ، بفضل مطر معتـدل ، لما كان بـوسع اي كان أن يتقدم أو يتراجع ، بل كان على كل انسان ان ينتظر نهاية حياتـه ، ويندب خطاياه حيث كان . ورجعنا بعـد ذلك إلى الخـط السـاحلي المتعرج ، لنواجه كل يوم تقريبا منحـدرا وجبـالا صـخرية وعرة ، ومجاري للسيول الجبلية العميقة ، التي كان من الصعب عبـورها ، حتـى ولو كان الطقس جـافا ، لانهـا كانت مملوءة بمياه الثلوج أو الأمطار ، وكانت تياراتها من السرعة بحيث لم يكن لا بوسع الخيول ولا المشاة السباحة فيها ، وهناك وجدنا العديد من المدن التي كانت تعج بالأنقاض ، ومدن أخرى كان الاغريق قد أشادوها فوق سـطح البحر القديم ، وحصنوها بالأبراج والأسوار ، وتمكنا من الحصول على الطعام من تلك المدن ، لكن بصعوبة في واقع الحال ، ومـرد ذلك غالبا ما كان إلى غطرسة حشودنا الغوغائية ، ونادرا جدا مـا كان مرده إلى جشع السكان ، وعليه لعل من لم يكن حاضرا ، قد يقـول

انه كان ينبغي الاستيلاء على تلك المدن ومصادرة البضائع التـي لم يكن بالامكان الحصول عليها بسعر صحيح ، دون دفع ثمنهـا ، بيد انه كانت السكان أسوار و أبراج تحميهم ، وسفن راسية في المرفأ ، لتمكنهم من الفـرار ، فمـا الذي كان بـالامكان كسـبه إذا ، لو أن رجالنا كانوا قد هاجموا مدينة وهـرب سـكانها ، ـ على حسـاب التأخير والحظر والقساوة ـ آخـذين الحـاجيات معهـم ؟ ثـم إن الاغريق كانوا يخفون حيواناتهم الزراعية في الجبال ، وبعد أن هجر الفلاحون منازلهم كانوا يبيعون الطعام من على ظهر السفن ، ممـا سبب ارتفاع الثمن ، أو رفعه من قبلهم كما رغبـوا وطـاب لهـم ، وهكذا سلبوا الحجاج خلال تلك الرحلة المديدة ، ونهبوا منهم الفضة والذهب والسلاح ، والملابس ، وحيثما كان الحجاج يجدون المراكب كانوا يعتلونها دونما اكتـراث بـالخطر ذي الحـدين ، ويسـتعدون للاندفـاع إلى حيث خـداع جمـاعات الاغريق ، وإلى حيث كانت تسوقهم رياح الشتاء العـاصفة ، امـا الآخـرون الذين أودت بهـم الظروف إلى العبودية ، فقد وجدوا من الاسـهل لهـم أن يبقـوا في المؤخرة ، في خدمة جماعات الاغريق ، وعلي الا أخفـي حقيقـة أننا كنا قد عبرنا ثلاثة أنهر بسهولة ، مما اثار حيرة السكان المحليين ، وبعد أن عبرنا ، كان كل نهر يفيض على الفور بسبب الأمطار ، لذلك كان الأمر بمثابة أعجوبة ، حيث أنه خلافا للمعتاد من الوقائع ، كان الشتاء والمطر قد قاما بحفظنا(١٧٠)

ووصلنا اخيرا الى افسوس(عرب سـريس) بعـد بـن قـطعنا سميرنا(ازمير) وبيرغامون ، وكانت افسوس تشتمل على آثار مـن القرون الغابرة ، بين أطلال مجدها القديم ، مثل قبر القديس يوحنا الذي كان يقـع على تلة ، وكان محـاط بسـور اقيم للحيلولة دون وصول الكفرة اليه (١٧١) ، وفي افسوس قابل الملك المبعـوثين الذين يحملون الرسائل اليه من الامبراطور الاغريقـي ، والذين ذكروا أن اعدادا لاتحصى من التركمان ، كانت قد احتشدت لقتال الملك ،والحوا عليه بأن يلتجأ الى القـلاع الامبـراطورية ، لكن بمـا ان الملك كان

يأنف ــ على حد سواء ـ من اظهار الخوف من التركمان والحاجة إلى افضال الامبراطور ، فقد ابرز المبعوثون رسائل اخرى تستحق الازدراء ، ذلك انها ارادت أن تبين الاضرار التي تسببت هناك من قبل الملك ، مع حقيقة أن الامبراطور لن يتمكن من الآن فصاعدا من كبح جماح رجاله عن الانتقام (١٧٢) ، وتابع الملك زحفه ، دون ان يتنازل ويتفضل بالرد على الرسائل ، ومضى في طريقه لأنه كان يرغب في الاحتفال بعيد الميلاد في وادي ديسيرفيون (١٧٣) ، ولما كان الامبراطور الالماني قد أسف لعدم مشاهدته امبراطور القسطنطينية ، عاد ليقضي الشتاء معه(١٧٤)

وعلى هذا ، في عشية عيد الميلاد ، بعدما كانت خيامنا قد نصبت في ذلك الوادي الخصيب ، حاول التركمان بقيادة الاغريق ــ للمرة الأولى ــ أن يأخذونا على حين غرة ، بمهاجمة خيولنا بينما كانت ترعى ، لكن فرساننا البارزين قطفوا ثمار النصر الأولى ، لمقاومتهم الباسلة ولشجاعتهم ، وذلك بقتل بعض التركمان ، وهكذا حققوا السلام للأيام المقدسة ، وبعد ذلك بينما كنا نعتزم البقاء للراحة وشكران الرب ، أغدقت السماء الداكنة علينا أمطار غزيرة ، وكأنها ارادتنا أن ننظف بالمشيئة الربانية قبل أن نتقدم ، لأن الطقس ــ كما اراد الرب ــ لم يكن باردا بعد ذلك أو ماطرا حتى وصلنا انطاكية (١٧٥) وهكذا جعلت الأمطار الغزيرة ، الجداول في الوديان تفيض بالسيول ، كما تكللت الجبال بالثلوج ، واكتست حلة بيضاء واخيرا بعد اليوم الرابع للمطر ، عندما توقف انهمار المطر وانقشعت السماء ، واصبحت صافية ، وتلاشت الغيوم ، خشي الملك من ان يحاصر مجددا بسبب ذوبان الثلوج ، او سقوط المزيد من الامطار ، لذا غادرنا الوادي الكائن بالقرب من افسوس ، وذلك بعد الحصول على المؤن ، وتابع مسيرة الى لوديسيا .

وبين تلك المنحدرات الجبلية ، على تلك الطريق كان ينساب نهر مياندر ، الذي كان في العادة عميقا وعريضا ، وكان يومذاك مكتنزا

بالمياه التي كانت تصب فيه من الجدوال التي ترفده ، وكان مجـراه قد شطر عرضانيا احد الوديان ، جاعلا الوصول الى ضفتيه امـرا ممكنا لجمهور كبير من الناس ، وكان التركمان قـد اعدوا قـواتهم على الضفتين ، معتقـدين ان البعض منهـم يمـكنه أن يعيق تقـدم الجيش بالرمي بالسهام ، بينما يقوم اخرون بسد مخاضات النهـر المكتنزة ، حيث يكون كلا الطرفين في امان اثناء التراجع ، بمـا ان الجبال توفر الملجأ ، وحالما وصلنا الى هناك اكتشفنا بأن العسـاكر التركمان كانوا قد استولوا على منحـدرات الجبـال الوعرة ، و أن بعض التركمان الآخرين قـد تمـركزوا في السـهل لكي يغيروا على الجيش ، في حين أن البقية منهم كانوا قـد احتشـدوا على الضـفة الاخرى من النهر ليمنعونا مـن العبـور ، وجمـع الملك الامتعـة والضعفاء ووضعهم في الوسط ، ثـم غطـى المقـدمة والمؤخـرة والجوانب برجال مسلحين ومن ثم تابع مسيرة بـامان لمدة يومين ، لكن ليس لصالحه كمـا يرام ، وفي الحقيقـة قـد اعاقـة الاعداء بـاغاراتهم المتـكررة على ميمنة الجيش وميسرتـه ، وذلك بـالمكر والخداع ، وليس بالقوة ، لانهم كانوا مهرة ومحنكين في الفروسية ، وغاية في الجراة اثناء التقـدم ، وحيث انه لم يكن بمقدوره تحقيق السلام معهم ، او ان يشـتبك معهـم في معـركة ، لانهـم كانوا يهاجمون بجرأة ، و يتراجعون بمهارة و انسياب ، فقد ركز جهوده على عبور النهر ، لكنه لم يكن يعـرف مـكان المخـاضة ، وبمـا ان التركمان كانوا يسدون الطريق ، كان من الصعب عليه ان يحـاول العبور بأمان ، وفي حوالي ظهيرة اليوم الثاني تجمع جزء من جيش التركمان في خلف جيشنا كما كانوا قد خططوا ، وبقي الجزء الاخـر على طول النهر حيث اصبح المدخل الينا يسيرا والمخرج عسـيرا في وجه التركمان الاخرين ، وعندهـا ارسلوا ثلاثة من رجالهم لاطـلاق السهام علينا ، وبينما كانوا يقومون باطلاق سهامهم زمجرت كلتـا المجموعتين بضجة متواصلة على الفور ، و فر رمـاة السـهام على الطريق التي كانوا قد قدموا عليها ، واندفع على الفـور الكونتـات البـارزين : هنري بـن الكونت ثيوبـالد (١٧٦) ، وثيودريك صـاحب

فلاندرز ، ووليم صاحب ماكون (١٧٧) ، خلفهم كالزوابع ، وتسلقوا الضفة المنحدرة واخترقوا وابل السهام ، واحتشد التركمان على نحو اكثر سرعة مما يمكن وصفه ، كذلك قام الملك يساعده حظ مماثل ، فركب باقصى سرعة ، للتصدي للتركمان الذين كانوا يرمون السهام من المؤخرة ، ففرق قواتهم ، ومزق جموعهم ، ودفع نحو كهوف الجبال اولئك الذين مكنتهم خيولهم السريعة من الفرار ، وهكذا ادت كل هجمة من هجماتنا الخاطفة ، التي تمت بسهولة ، إلى زرع الميادين ، على طول الطريق الى اوكار الجبال بالجثث من رجال فرق التركمان ، وتم هنالك اسر واحد من الأمراء حيث اقتيد الى امام الملك ، وجرى استجوابه ثم قتل .

وعلى مقربة من ذلك الموقع ، قامت بلدة صغيرة من بلدان الامبراطور تعرف باسم انطوخيتا ، شكلت ملاذا للكفرة الهاربين وبذلك فقد حول . الامبراطور (مانويل) نفسه من خائن مراوغ الى عدو لدود (١٧٨) وكان باستطاعة الملك ان يهاجم البلدة ، لكي يقبض على الفارين المختبئين هناك ، لكن لم يكن لديه مايكفي من الامدادات ، ثم لم يكن بمقدوره الاستيلاء على أية غنائم أو مخلفات كافية من البلدة الصغيرة .

ولابد من الاشارة الى أنه كان هناك اناس قالوا بأنهم قد رأوا فارسا على المخاضة ، لم يسبق لهم أن رأوه من قبل ، وأنه كان هو الذي وجه الضربات الأولى الحاسمة في المعركة (١٧٩) وبالنسبة لي فيما يتعلق بذلك انني لاأود ان اخدع احدا ، أو ان أخدع من قبل احد الناس ، غير انني ادرك حقا انه في مثل هذه المضائق ماكان مثل هذا النصر الرائع والسهل ليتحقق الا بمقدرة الرب ، وماكان وابل الحديد قد سقط من جانب العدو دون ان يسبب الموت او الجراح ، ومع ذلك فقد انعم الرب علينا بالنصر ، دونما خسارة باستثناء ميلو صاحب نوجبنت (١٨٠) الذي غرق في النهر.

وعلى طول طريقنا كان التركمان والاغريق قد استولوا على

الاطراف ، وكنا ندرك أن كلا الشعبين عدو مشترك لنا ، وقام التركمان الذين كانوا يندبون قتلاهم باستدعاء رفاقهم من الجوار استعدادا للعودة والانتقام في اليوم السابع ، وبأعداد أكبر من الأعداد السابقة وبجرأة وعزم أمضى ، ووصلنا لوديسيا في اليوم الثالث (١٨١) غير مبالين ، وذلك بسبب ثقتنا بأنفسنا ، وفي هذه النقطة بالذات لابد من ان أستعيد ذكرى الكونت برنارد ، الذي كان قد

أسلم روحه لباريها أثناء عودته مع الامبراطور من قونية ، أسلمها قربانا وفداء للأخوة ، لأنه في لوديسيا هنا بالذات ، ومع أسقف فريزنج ، شقيق الامبراطور ، وكان كونتا آخر يحمل الاسم ذاته قد نزل به القدر ذاته ، حيث لقي حتفه بخديعة مماثلة لانه على الرغم من ان قائد هذه المدينة كان عليه أن يرشد الألمان ويقودهم خارج الجبال ، الا انه أتى بهم في طريق ضالة والقى بهم في كمين تركماني وبعد أن كان الكونت والعديد من رجاله قد لاقوا حتفهم ، تمكن بعضهم الآخر من النجاة بأنفسهم بالهروب والاختباء (١٨٢) ، واكثر من ذلك ، هو ان القائد بالذات ، اما خشية من الملك بسبب جريمته التي اقترفها ، او لانه اراد ايقاع الاذى بطريقة أخرى ، قام باخلاء المدينة من كل سلعة ، وفي حين انه تحاشى القيام بعمل مخادع ، لأن ذلك كان مكشوفا تماما ، خطط لجريمة أخرى لاتقل ضررا ، فقد كان هذا الوغد الخسيس يدرك بأن الـ[illegible] كلها الى انطاليا – حيث كنا قد وصلنا بعد خمس عشرة يوما – خالية من الامدادات في أية بقعة منها ، وأن الجميع سيذوقون مرارة الجوع ، مالم يتم الحصول على الطعام لقاء ثمن ، أو عنوة ، من المدينة المخلاة(١٨٣)

وعليه استشار الملك الأساقفة والبارونات الآخرين حول تلك المسألة ، فهو على الرغم من أنه مامن أحد كان يشك بحكمته لم يكن ينقطع عن تنفيذ الأعمال ذات المصلحة المشتركة وفق نصيحة العديد من الناس ، وان تواضعه كان من الحكمة بمكان حيث أنه أرضخ الواحد لرأي الاكثرية ، والشاب لرأي الشيخ ، وآراءه الخاصة الى

معرفة الناس من ذوي الخبرة ، وكذلك جميع ماكان بوسعه ان يفعله كسيد ، وما كان يدركه كرجل حكيم ، فقد كانت عادته الكريمة الاعتماد على رعاياه ، ومهما يكن فان أولئك الذين اعتادوا على المحاججة في قضايا اخرى ، وعلى المخالفة بالآراء حول خطط مختلفة — وأحيانا بدقة لاجدوى منها — قد أخذتهم الحيرة ، لعدم وجود خطة مناسبة في تلك اللحظة ، وكوى الأسى قلوبهم ، لأنهم لم يروا مخرجا للخطر المشترك ، فلقد حاولوا العثور على الطعام في مدينة كانت قد أخليت منه عن قصد ، ومع ذلك فإن ما ابتغوه لم يكن متوفرا ، ورغم أنهم كانوا من القوة بما يمكنهم من الاستيلاء عليه ، ومن الغنى بحيث كانوا يستطيعون شراءه ، فان اي السبيلين لم يجد نفعا ، ومع ذلك كانت آراءهم تقضي بوجوب البحث عن المقيمين الهاربين في الممرات الجبلية ، وانه بعد اقامة السلام معهم يجب اعادتهم هم وامتعتهم ، وقد تم بصورة جزئية ، لانه تم العثور على المقيمين ، لكن لم يمكن اعادتهم.

وبعد اضاعة يوم واحد في هذا البحث مضينا في طريقنا ، يسبقنا ويتبعنا على الطريق كل من التركمان وجماعات من الاغريق ، وهناك في ذلك المكان حيث كانت الجبال لاتزال ملطخة بدم الالمان(١٨٤)، هناك بالذات ظهر اولئك الذين تولوا قتلهم ، وعندما رأى الملك ، الذي كان قد أنذر سلفا ، ولكن عبثا ، صفوف الاعداء ، وجشت الالمان صف جنوده لزجهم في المعركة ، وهنا حلت كراهيتنا الأبدية على جيوفري صاحب رانكون(١٨٥)، وهو الرجل الذي كان قد أرسله امامنا مع عمه كونت مورين ، ففي حوالي ظهيرة اليوم الثاني ، وفر لنا جبل لعين — كان الملك قد خطط للسير فيه يوما كاملا ، من أجل عبوره ، وعليه ، امانا بنصب خيامنا على سفوحه — مروراسهلا ، وعندما وصل رجال الطليعة الى هناك — على جناح السرعة ، لانهم لم يواجهوا مايعيق سبيلهم — تسلقوا الجبل ، غير متنبهين للملك الذي كان في ذلك الحين يقوم بحماية المؤخرة ، وبينما كان البقية يتبعونهم ، قاموا بنصب خيامهم على الجانب الآخر من النهر حوالي الساعة

التاسعة(١٨٦) ، وكان الجبل و عرا ، وشديد الانحدار ، وقد توجب علينا تسلق حافة منعزلة ، عالية الى درجة بدت معها قمتها وكأنها تلامس السماء ، وان النهر الذي يتدفق في قلب الوادي ينحدر الى الجحيم ، وهنا أصبح الحشد مكتظا ، بينما كان افراده يتسلقون وتقدموا وتجمعوا سوية ، فوقفوا دون ان يفكروا بالفرسان ، وتشبثوا هناك دون ان يتقدموا ، وادى هذا الى انزلاق الخيول التي كانت محملة بالتموين على المنحدرات الصخرية ، دافعة باولئك الذين ضربوهم الى أعماق الهوة السحيقة ، كما ان الصخور المزاحة من اماكنها ، قد سببت الدمار ، وهكذا عندما تفرق الرجال في كل اتجاه سعيا في البحث عن ممرات ، خاف الجميع من أن يسيروا في الطريق الخطأ ، أو أن يصيبهم آخرون بشدة أثناء سقوطهم ، و أكثر من ذلك ، حال التركمان والاغريق برماياتهم دون نهوض الذين سقطوا ، وتجمع التركمان في مواجهة الجزء الآخر من جيشنا يهللون ابتهاجا بهذا المشهد ، على امل أن يأتيهم المساء بمزيد من الفوائد ، واقترب النهار من نهايته ، واخذت كميات بضائعنا الهائلة تتزايد في قاع الوادي ، ومهما يكن من امر ، فان ذلك لم يكف أعداءنا ، بل على العكس من ذلك ، فقد أصبحوا أكثر جراة ، فعبروا باتجاهنا ، لأنهم لم يعودوا في خوف من الطليعة ، فضلا عن أنهم لم يروا جند المؤخرة فطعنوا وضربوا بالبواتر ، وفر من استطاع من الحشد الأعزل ، بينما سقط بعضهم الآخر كقطيع الغنم ، ودوت الاصوات ، وارتفعت الصرخات تشق عنان السماء ، حتى وصلت الى مسامع ملكنا ، وعندها بذل الملك ماكان بوسعه بذله من جهود حيال تلك الكارثة ، ولم تأت مساعدة السماء ، اللهم الا بحلول الظلام ، وبذلك توقف الدمار .

وفي الوقت ذاته ، أرسلت الى العسكر لأنه كان بوسعي كراهب ، أن أتوسل للكونت واحضر الآخرين الى ميدان المعركة ، وقدمت هناك تقريرا عن الوضع ، فما كان من الجميع الا ان اندفعوا بكل شدة الى حمل السلاح ، وكان بوسعهم أن يعودوا

على جناح السرعة ، بيد أن التضاريس الصـعبة كانت تحـول دون التقدم السريع ، ولم يكن بوسع الرجـال أن يتحـركوا ، وعلى أية حال ، فان الملك الذي كان قد ترك في المؤخرة ، في خطر مـع بعض نبلائه ، حيث انه لم يكن يرافقه جنود ولا سرنجتيه(١٨٧) مـن حملة الاقواس(لانه لم يعد نفسه لعبـور الممـر ، حيث كان تـوجب عليه عبوره في اليوم التالي ، وفق الاتفاق الموضوع) اندفـع غير مبـال بحياته ، رغبة منه في إعتـاق الحشـد الذي كان يتـذوق طعـم الموت ، اندفع الى وسط جند المؤخرة ، وتدخل بشجاعة في المذبحـة التي كان يتعرض لها قلب قواته ، وحمل بـكل جـراة وبسـالة على « الكفرة » الذين كانوا يفـوقونه عددا بمـائة مـرة ، والذين كان الموقع قد ساعدهم الى حد كبير ، لأنه مامن حصان كان قـادرا على الوقوف والتحمل ، وهكذا فقد أضـعف الهجـوم البـطيء اندفـاع الفرسان ، فجاءت طعناتهم غير مجـدية وغير قـادرة على جـرح الأعداء ولهذا وقـف رجـالنا على المنحـدر المنزلق يهـددون العدو ، ويلوحون ضده برماحهم بما أوتوا من قـدرة ، لكن بـدون الاستعانة بقوى خيولهم(١٨٨) ، واخذ التركمان من بين الأشـجار والملجأ الصخري الآمن يقذفون بسهامهم ، ومع ذلك تمـكن رجـال الحشد من الفرار بمساعي الفرسان ، وهم يحملون امتعتهم معهم ، أو وهم يقودون الحيوانات ، معرضين الملك ورفاقه للموت بمـوقفهم هذا .

وان يموت النبلاء ، كيما يعيش خدمهم ، هو حدث بحـد ذاتـه يدعو للنحيب ، لو لم يكن سـيد الكل قـد ضرب مثـلا بـذاته على ذلك ، وهكذا فقد ذبلت زهور فرنسا قبل ان تثمر في دمشـق(١٨٩) ، وانني اذ اقول ذلك لاأستطيع‌ان اكفكف الدموع ، بل اشعر بـالاسى يكويني من اعماق القلب ، ففيما يتعلق بهذه المساة يمكن لذي العقل الرصين أن يريح نفسه ويواسيها ، بأن هـذا المثـل الذي ضربـوه وماسبقه من أمثلة عن حماسهم سيعيش في الدنيا ، وأن موتهم محا خطاياهم بالايمان المتقد ، وبذلك أكسبهم تاج الشهادة ، لقد حاربوا حقا ، ولم يمت واحد منهم دون ان ينتقم لنفسه ، فلقد قام كل واحد

- ٣٠٣٧ -
منهم بتكديس الجثث من حوله ، ومـــع ذلك لم يتناقص عدد المغيرين لانهم كانوا قد جندوا من قـطيع كبير ، وقـام التـــركمان بقتـــل الخيول التي كانت ضرورية من أجل حمل الدروع الثقيلة ، مع أنهـــا كانت أنئذ غير قـــــادرة على الجـــــري ، وهـــــكذا أصـــــبح (فرسان) الفرنج الذين يرتـدون الدرو ع يســيرون مشـيا على الاقدام تحت سيطرة العدو وضغطه الكثيف ، كما لو أنهم غرقوا في البحر ، وقد تفرق كل واحد منهم عن الآخـــر ، واخـذوا يلفـظون انفاسهم من اجسادهم العزلاء ، وفقـد الملك أثناء هــذا الاشــتباك حــرسه الملكي الضـئيل ، لكنه بعــزيمته وشـــجاعته وعون الرب له ، تسلق صخرة ، معتمدا على جذور بعض الأشجار التي وفــرها الرب لبقائه حيا ، وتسلق الاعداء خلفـه بغية القـاء القبض عليه ، وصبوا وابل سهامهم عليه بيد أن درعه حماه ــ بمعونة الرب ــ من تلك السهام ، ولكي يقي نفسه شر الوقوع في الأسر ، دا فــع بســيفه الملطخ بالدماء ، فضرب به الأعناق وقطع رؤوس وايدي العديد مــن خصومه ، وبمـــــا انهــــــم لم يعـــــرفوه ، وشـــــعروا بأنه من العسير عليهم أن يأسروه ، فضلا عن خشيتهم من هجـــوم مباغت ، تراجع الأعداء لجمع الغنائم قبل حلول الظلام (١٩٠)

نهاية الكتاب السادس

بداية الكتاب السابع

كان قطار الأمتعة لايزال يعبر الممر على مقربة ، لأنه كلمــا كان أكثر تجمعا ، كلما تباطأ في العبور ، وما أن وصل الملك اليه مــاشيا حتى ضمن لنفسه مطية ، ورافق الرجال في الظلام ، الذي كان قــد حل فعلا ، وقابله في ذلك الحين أفــراد كتيبــة الفــرسان مــن المعسكر ، فهمهموا مستنكرين عندمــا راوه وحيدا بلغ بــه الجهـد مداه ، وكوى الأسى قلوبهم ، لفقــدان الحــرس الملكي ، الذي كان يبلغ تعداده زهاء أربعين فارسا ، أذكر منهم :« كونت وارين وأخوه افرارد صــاحب ثبــريتويل (١٩١) ، ومــانسيس صــاحب بــوليس (١٩٢) ، وغوتيير صــاحب مـــونتجي (١٩٣) ، وآخــرون (١٩٤) ، وهــذا على سـبيل ذكر البعض ، وليس الحصر للجميع ، اذ لاحاجة بي الى سرد جميع الأسماء» ولقد كان الفــرنجة كثيروا العدد يتسمون بالشجاعة ، لكن الوقت كان ليلا ، وكان العدو يتـــربص بـــالجانب الآخـــر مـــن الوادي السحيق ، وهكذا لم يكن لاالزمان ولا المكان مناسبين للفــرنجة كي يتابعوا تقدمهم ، وقد وصلوا الى المعسكر مع الملك في وقــت متــأخر من الليل ، وشعر الناس الذين كانوا هناك بالراحة ، لأن الملك كان في أمان ، بعد ان كان الهلع قد نال مــن قلوبهــم التـــي اكتــوت حزنا ، ولم ينم في تلك الليلة أحــد لأن كل واحــد كان إمــا ينتـظر أصدقاءه الذين لم يأتوا أبدا ، أو يرحب بسرور بمن نجــا ، بصرف النظر عن الخسائر المادية التي تكبدوها ، وقــر قــرار الجميع على وجوب شنق جيوفــري ، لأنه لم يتقيد بــالأوامر حــول خــطة يوم الزحف ، ولعل عم الملك ، الذي شــارك في الجــريمة ، قــد أعفــى جيوفري مــن العقــاب ، لأنه بمــا أن كل مــن الاثنين كانا متهمين ، وبما أن عم الملك كان سينجو من العقاب ، لذا كان لايجوز ادانة أحدهما دون ادانه الآخر (١٩٥)

- ٣٠٣٩ -

وحل فجر اليوم التـالي دون ان يزول الحـزن ، الذي كان يخيم على الجميع ، كما اصبح جيش العدو على مرمى النظر ، وشـوهد منتشرا في الجبال غنيا وسـعيدا ، وعندهـا وبينمـا كان رجـالنا ينوحون على رفاقهم ومقتنياتهـم ، ويدركون أن الوقـت قـد فـات دفعوا عنهم شبح اللا اكتراث ، وتقدموا بنظام لكي ينقذوا ماتبقى في حوزتهم ، وحيث ان ملكنا لم يستطع تحمل حقيقة ان اشرافـه قـد سلبوا قواهم ، ولأن قلبه الورع دفعه ان ينظـر بعين الاعتبـار الى اولئك الذين كانوا اقل شأنا منهم ، فقد بدد رغبـات كلتـا الطبقتين بمنتهى الكرم ، وكأنه قد نسي ما حل بـه ، فبـدا وكأنه مـا شارك في خسارتهم ابدا ، واخذ الجوع ينهك قوى الخيول التي كانت حتى ذلك الحين قد عاشت ايامـا عديدة على مـا اقتاتته مـن رعيهـا للقليل من الاعشاب ، ولم تذق طعم الحبوب ، كما انه لم يعـد هناك طعام للرجال الذين كان ينبغي عليهم أن يزحفـوا لأثني عشر يومـا آخر ، وأخذ العدو كالحيوان المفترس ، الذي يتوحش بعد أن يذوق طعم الدم ، ويشدد هجماته علينا ، خاصة عندمـا أصـبح على علم بضعفنا ، وازداد شرهه بعد ان أخذ يكسب من انهاك قوانا .

ووقف في وجه التركمان فرسان(المعبد) الداوية مع مقـدمهم اللورد ايفراد كونت برس الذي يستحق التبجيل لتـدينه ، فهـو قـد ضرب للجيش مثلا مشرفا ، وانقـذ الداوية ممتلكاتهـم الخـاصة بحـكمة وبتأهب ، كما حموا ممتلكات الناس الآخرين بكل مـا أوتـوا مـن شجاعة ، وعندها أعجب الملك بالمثل الذي ضربـوه ، وود أن يحـذو حذوه ، كما انه رغب في أن يتأثر الجيش بذلك الاتجـاه ، لأنه أدرك انه وإن أنهكهم الجوع الشديد ، فإن روح الوحدة ستقويهم حتـى في أشد حالاتهم ضعفا ، وبناء على ذلك فقد تم اتخاذ القرار التـالي ، وذلك بموافقة من الجميع : إنه يجب على الجميع في مثل هذه الفترة الخطيرة أن يتآخوا مع فرسان الداوية ، واقسم الأغنياء والفقـراء اليمين بألا يفروا من ساحة المعركة ، وأنهم سيؤدون الطاعة للقـادة

في جميع الميادين التي تحدد لهم من قبل الداوية ، وبناء على ذلك عهد بقيادتهم إلى قائد يدعى جلبرت ، وعين عددا من المساعدين عهد لكل واحد منهم بقيادة خمسين فارسا ، وبما أن التركمان كانوا سريعي الفر طلب من رجالنا التحلي بالصبر والتحمل إلى أن يتلقوا الأمر بالهجوم على الأعداء ، وأن يقوموا بالانسحاب حينما يطلب إليهم ذلك ، حتى ولو كانوا في الموقف الذي طلب منهم أن يحققوه أصلا ، وما أن علموا بذلك ، ودربوا أيضا على نظام الزحف ، بحيث لايندفع واحدهم من المقدمة إلى المؤخرة[١٩٦] ، وألا تدب الفوضى بين صفوف الحرس على الميمنة والميسرة ، وأكثر من ذلك فإن أولئك الذين جعلت الطبيعة ، أو جعل الحظ منهم جند مشاة (لانهم فقدوا عتادهم ، أو باعوه ، حيث أن العديد من الأشراف كانوا يسيرون مع الحشد بطريقة غير عادية بالنسبة لهم) أودعوا في المؤخرة لكي يتصدوا لسهام الأعداء بأقواسهم ، ومع ان الملك كان سيد القوانين [١٩٧] ، فانه رغب هو الآخر في ان يخضع ايضا لتلك القوانين ، انما ما من واحد تجرأ على ان يفرض اي امر عليه ، باستثناء وجوب الابقاء على خط المعركة الكامل ، وان يقوم بتقوية الضعفاء بارسال التعزيزات اليهم من مجموعته.

وتقدمنا وفق هذا الترتيب ، وبعد أن انحدرنا عبر الجبال سررنا لوصولنا إلى مستوى الأرض ، وبما أننا كنا محاطين بحماتنا فقد تحملنا هجمات الأعداء الجريئة دون أن نتكبد أية خسارة ، وكان على تلك الطريق نهران تفصل بينهما مسافة ميل واحد ، وجعل الوحل العميق على ضفافهما أمر العبور عسيرا ، وبعد أن عبر النهر الأول ، انتظرنا فرسان المؤخرة ، وسحبنا خيول التموين الضعيفة من الوحل بأيدينا ، وعبر كذلك فرسان المؤخرة مع جنود المشاة الذين كانوا تقريبا مختلطين بالأعداء ، ولم يتكبدوا هم الآخرون أية خسائر لانهم كانوا محميين باتفاقية المساعدة المتبادلة ، واتجهنا نحو النهر الثاني على نية المرور بين شعبين جبليين يمكننا من قمتيهما رمي حشود التركمان اثناء اقترابها ، وتسارع التركمان من

كلا الجانبين نحو الشعبين ، غير أن فرساننا استولوا على واحد منهما قبلهم ، وهنا تمكن التركمان من تسلق الشعب الآخر ، ورموا بشعورهم على الأرض ، وقد فعلوا ذلك - كما أخبرنا - بمثابة اشارة منهم ، على أنه لا يمكن زحزحتهم من هذه النقطة مهما بلغت المخاوف ، على أن تلك الاشارة من جانبهم قد كانت إما كاذبة ، أو أنها لا تعني شيئا البتة ، لأن مجموعة من جنودنا المشاة قد تبعتهم على الفور ، وبينما كانوا يتصارعون من أجل قمة ذلك الشعب الجبلي ، اعتقد الفرسان ، بأنه من الممكن قطع طريق العودة على التركمان فيما بين النهرين ، لذلك عندما أعطي الأمر من قبل القائد قام الجميع دفعة واحدة بمهاجمة التركمان على الفور ، وقتلوا من استطاعوا قتله ، وبذلك انتقموا لرفاقهم ولخسائرهم التي كانت قد أوقعت بهم هم انفسهم ، وعند وصولهم إلى الوحل لقي العديد من التركمان حتفهم ، ودفنوا في المكان الذي يليق بطبيعتهم النتنة ، وبينما كنا نتابع هجومنا العنيف ، وتقدمنا الطويل ، قضينا على أولئك الهاربين ، وخف جوع كل منا ، واصبح يومه أكثر اشراقا .

ومهما يكن من أمر فإن التركمان وجماعات الاغريق كانوا يخططون للقضاء علينا بمختلف الطرق ، لأنهم على الرغم من أنهم كانوا فيما مضى أعداء فيما بينهم ، عقدوا الآن اتفاقا من أجل هذه الغاية ، وهكذا نجد أنه بتجميعهم لقطعان الماشية والأبقار من كل مكان ، وبالسماح لها بالرعي امامنا قضوا على المنتجات التي لم يتمكنوا من حرقها ، ولهذا السبب خلفنا بعض خيولنا على الطريق إما منهكة أو ميتة ، وتركنا معها حمولتها من خيم وملابس وأسلحة ، بالاضافة إلى العديد من الأشياء الأخرى التي قام رجالنا باحراقها باستثناء ما حمله الفقراء للحيلولة دون وقوع شيء في أيدي الأعداء ، وأقدمنا على ذبح بعض الخيول ، وأكل الجيش الكثير من لحمها ، واحتفظ ببعضها ، وهكذا فإن الخيول التي لم تكن مناسبة لقافلة النقل خففت من حدة جوعنا ، وبهذا اللحم مع الخبز الذي تم تحضيره على رماد نيران المعسكر ، شبع حتى الأثرياء ، وخمد

جوعنا بهذا التموين ، واستطعنا نتيجة للتآخي الذي أشير إليه آنفا ، أن نهزم العدو أربع مرات ، وأن ننتصر عليه في المرات الأربع ، وحافظنا على سلامتنا بالمحاولة المتسمة بالحذر إلى أن وصلنا إلى انطالية (١٩٨) دون أن نتكبد أية خسائر بين قواتنا ، باستثناء خسائر ذلك اليوم الذي جعلنا فيه جيوفري صاحب رانكون قائدا لنا نعاني من الموت والدمار .

وفي انطالية (١٩٩) كان لاندولف رسول الامبراطور ، الذي كان قد قام بجزء من رحلته مع التركمان ـ حسب اعترافه ـ يتوقع وكله أمل سماع أخبار موتنا ، إنما في حال وصولنا وشكوانا من الأمبراطور كان محضرا جوابه للاعتذار ، لكن عندما لم يطلب أحد انزال العدالة به ، لأن الجائعين كانوا يسعون للحصول على الطعام ، والمنهكين على الراحة ، توقفت الشكاوى ، وعلى هذا ، ولكونه كان شريكا في الجريمة ، أجبر النبلاء مجددا على إعادة تثبيت الاتفاقية المعقودة مع الامبراطور من أجل امتيازات التسوق ، وبعد ذلك انهمر المطر الذي كنا قد نجونا منه اثناء الرحلة ، وبينما كنا نشعر به فوقنا و تحتنا في الخيام الصغيرة (لأن الخيام الكبيرة كانت قد تركت في الخلف) احتفلنا بعيد« طهارة العذراء »(٢٠٠) » ، لأن الملك والحق يقال ، لم ينس ابدا طوال الرحلة بكاملها واجباته الدينية ، ولم تشغله عنها الفيضانات او الامطار ، او عنف العدو.

وحصلنا على الوفير من الطعام ، إنما بسعر أعلى من المعتاد بكثير ، لكننا لم نتمكن من الحصول على طعام للخيول التي بقيت على قيد الحياة ، بأي ثمن كان ، لأن الاغريق كما روى العديد من رجالنا ، قد خانونا في هذا المجال ، وقالوا مشيرين إلى قحل الأرض ، بأنه لم تكن لديهم حبوب (٢٠١) ، وكان في خارج المدينة سهل تكتنفه الصخور ، ويمتد حتى ضفة أحد الأنهار ، وبما أن العدو كان يحول دون خروج الخيول خلف أبواب المدينة إلى المراعي ، لم تتوفر لها الأعشاب لتأكلها ، ما لم يقم الفرسان باقتيادها إلى تلك المراعي

واعادتها منها ، ولما رأى الملك بـأن الخيول المتبقية ، وهـي قليلة ، كانت تموت جوعا ، ولم تحصل على الراحة التـي تحتـاجها ، وأنه ليسـت هناك خيول للابتياع في المدينة ، دعا رجـاله البـارزين مـن باروناته ، وتحدث إليهم عن الرحيل قائلا : « لا يتمتـع الفـرسان بفرصة الراحة في مكان تموت فيه خيولهم جوعا ، فالتائب يجـب أن يقمع رغبته للراحة ، والرجل الورع يجـب أن يسرع لتحقيق الغـاية التي يتعهدها ، رغم تعبه ومرضه ، وإنه يليق بكل منهمـا أن يتـوج شهيدا لأن الرب قرر أخذ ارواحهم إليه في مثل هذا العناء .

لكن على الرغم من احتفاظهم بالطاعة لسيدهم ، وتمسكهم بمراعاة رغبته على قدر الامكان ، قال البارونات : « تماما كما يأمر الملك ما ينطوي على الشجاعة ، لكن ينبغي على الفارس الحكيم ان يحـاول ما هو ممكن فقط ، وبما انهم كانوا قد فقدوا سـلاحهم ، فإن جميع الفرسان في جيشكم قـد خفض وضـعهم الى جنود مشـاة في هـذه الايام ، كذلك حدث المصير ذاته للعـديد مـن الاشراف ، ومـن بين هؤلاء نجد فارسا لا يستطيع شراء الخيول ، لأنه خسر ممتلكاتـه أو باعها ، وآخر لا يجد خيولا للبيع ، وقد علموا من السكان المحليين بأن الرحلة إلى انطاكية تستغرق ثلاثة أيام قصيرة بتموين جيد عبر البحر ، وهي رحلة أيام مأمونة مـن مـرفأ لآخـر ، في حين أنهـا تستغرق أربعين يوما بـرا ، وتعتـرضها العـراقيل ، ومـواجهة الأعداء ، والقحط الدائم ، لذلك فإنهم يرغبون في ركوب البحر كمـا يفعل جند المشاة الذين انعدمت شجاعتهم بسبب التعـب ، وانعـدام المال والطعام ، ويعد الاغريق بأنهم سيجمعون اسطولا ضخما مـن جميع القرى المجاورة والجزر القريبة ، ومهما يكن مـن أمـر فإننا نرغب في أن نعيش ونمـوت معـكم ، وإننا نوافـق بـكل سرور على الطريق الذي تفضلونه » .

وأجابهم الملك بطريقته الملكية الخاصة قائلا : « بما انني سـاكون غنيا ، فما من رجل مجرب الشجاعة ، ممن تحمل معي الفقر بصـبر

وقت الحاجة الشديدة ، سيكون بحاجة بعد الآن ، ولهذا قوموا بتمييز هؤلاء الرجال عمن سواهم ، لاقوم بتسليحهم وتزويدهم بالعتاد مما لدي ، ثم دعونا نعهد للأسطول امر الحشد الاعزل ، الذي كان دائما قد سبب لنا الأذى ، والذي جعل الطعام دائما غالي الثمن ، والزحف أبطأ ، ودعونا نتبع الطريق الذي سار عليه آباؤنا الذين جعلهم حماسهم الذي لا مثيل له ، يحققون السيادة على الأرض والمجد في السماء »(٢٠٢) .

وأجابوه على أقواله هذه قائلين : « نحن لا نريد ، كما لا نستطيع التقليل من مجد آبائنا ، غير أن الأحداث سارت على نحو أيسر بالنسبة لهم ، مما عليه الأمر بالنسبة لنا ، لأنهم عندما كانوا قد مروا في القسطنطينية ، وعبروا الذراع واجهوا التركمان على الفور ، ودخلوا إلى أراضيهم تماما كما كانوا قد رغبوا ، وبينما كانوا يحافظون على خفتهم ونشاطهم بممارسة الأعمال الحربية ، استطاعوا أن يبقوا أنفسهم أغنياء عن طريق الاستيلاء على المدن ، والحصون ، وأما نحن ففضلا عن مواجهتنا للتركمان قابلنا الأوغاد من الأغريق الذين لسوء طالعنا كنا قد صفحنا عنهم ، وابقينا عليهم كما لو كانوا مسيحيين ، هذا ولقد هد الخمول حيلنا ، وأنهكنا التعب والمقت ، لذا صرفنا تقريبا كل ثروتنا ، وباحساس جنوني بالأمن ، أو من مرارة الفقر ، كان البعض منا قد باعوا أسلحتهم ، أو تخلوا عنها بعد موت خيولهم ، وللأسباب الآنفة الذكر ، فإن الطريق التي تأمرنا أن نسلكها ليست آمنة ، رغم أنها مشرفة ، والآن إننا بصرف النظر عن الخوف والمصاعب سنتابع طريقنا إذا ما وجدنا الخيول التي نعيد تجهيز الفرسان بها ».

وتم السعي من أجل توفير الخيول ، لكنها لم تكن تكفي ، لقلة عددها ولضعفها ، فقد اجبر البارونات الملك على المغامرة البحرية طوعا او كرها(٢٠٣) ، نرجوا ان يمن علينا الرب بالصبر كما من على القديس بولس ، فقد كتب علينا ان نمتحن» بأخطار في

الامم . بأخطار في البرية . بأخطار من أخوة كذبة »(٣٠٤)، وعندئذ تمت استشارة قيادة المدينة ومبعوث الامبراطور حول هذه المهمة ، فأجابا بالاستجابة للتعهد ، ووعدا بوصول المراكب للجيش بكامله على الفور ، وفي الوقت ذاته حل الشتاء والطقس الرديء ، وامطرت السماء ، واثلجت وأبرقت وأرعدت ، وانحجبت الريح التي كنا قد أملنا في أن يمن الرب علينا بها ، ولم تهب حتى الاسبوع الخامس ، وحدث الشيء ذاته بالنسبة للمراكب التي كنا ننتظرها بناء على وعد الاغريق ، والآن وبعد أن أدرك الاغريق بأن الوقت المتوفر تحت تصرفهم كان قصيرا ، لم يتركوا عملا شريرا الا وقاموا به ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، فقد قاموا بسرقة بضائعنا في السوق ، وحاولوا حرماننا من الحياة ، وقد وجد الأصحاء والمرضى ما سمحت احوالهم بطلبه وتمنيه ، غير أن السعر الباهظ احل الاسى في قلوبهم ، فقد كانوا يحصلون على الدجاجة لقاء عشر سويلدات ، والبيضة الواحدة لقاء خمسة أو ستة ديناري ، كما كنا ندفع ثمن البصلة الواحدة أو رأس الثوم خمسة أو ستة ديناري

وجعل السعر يتوامم مع الحجم إذ بلغت حبتا البندق ديناري واحدة ، كما قايض أولئك الذين كانوا لديهم حصان أو بغل على الخبز ، أو باعوه في سوق اللحوم كما ولو كانت خيولهم ابقارا ، لأنه كان علينا أن نبيع بين الاغريق بدون ربح ، وأن نشتري بسعر مرتفع للغاية .

وعلم التركمان من الاغريق بأنه لدى فرساننا خيول ، ولذلك استغلوا هذه الضمانة وهذا الأمان ، وأعدوا العدة لمهاجمة الجيش بكامل قوتهم ، وقد احيط الملك علما بذلك ، فتحرك بسرعة ، وزحف ضد التركمان مصطحبا معه الكهنة والفرسان الذين كانوا ما يزالون يحتفظون بمطاياهم رغم جوعهم ، وظهر فجأة امام التركمان ، وحمل عليهم ، قاتلا بعضهم ، ومجبرا البقية على الرجوع ، وعبور النهر ثانية دون جسر ، وهكذا أجبرهم على الاعتقاد منذ ذلك الحين فصاعدا ، بأن لدى جيشه العديد من الخيول

الممتازة ، وفي الوقت ذاته حمل الاغريق المراكب بـأسعار تفـوق كل تصور ، إنما والحق يقال مطابقة لاسعار حاجياتهم الأخرى ، فقـد دفع كل واحد من الرجال أربعة ماركات للعبور الى انطـاكية ، حيث كنا سنصل في اليوم الثـالث كمـا قـال الاغريق ، واحضرت هـذه المراكب القليلة الفقيرة ، وقـدمت الى الملك كمـا لو انهـا هبـة مجانية ، من قبل القائد ومبعوث الامبراطور ، فوزعت من قبله فيما بين الأساقفة والبارونات ، وعلى الرغم من رفضه للسعر الباهظ وشعوره بالغبن ، غير أنه كان يريد المراكب ، لذلك أخفى امتعاضه الذي لاجدوى منه ــ في خضم الصـمت ــ وسـعى للحصـول على المراكب التي وعد بها ، من اجل بقية الجيش (٢٠٥) ، ولكن في حين كان الاغنياء ينتظرون الفقراء تأخر الاغريق وقتا طويلا ، وبمثل هذه النذالة سلبوا كلتا الطبقتين من ممتلكاتهمـا (٢٠٦) ، وانني اعتقـد حقا بأننا دفعنا ، بسبب تـأخيرنا في هـذه المدينة ، ثمنا اغلى ممـا دفعناه بسبب كافة الصعوبات التي واجهتنا في رحلتنا بأكملها.

إن الذين يجهلون هذه الأمور سيقولون كان ينبغي علينا احتـلال هذه المدينة ، والانتقام من سكانها لما قـاموا بـه مـن أعمـال السـلب ، لكن ليتـذكر هؤلاء أنه لم يكن لدينا طعـام ، وأننا كنا محاصرين من اليمين واليسار مـن قبـل الأعداء ، ومـن الداخـل والخارج ، وأنه كان من المستحيل تـدمير الأبـراج المنفـردة ، أو تقويض الاسـوار المزدوجـة بسرعة بـدون آلات الحصـار والمنجنيقات ، ولقد كان بالامكان القـاء القبض على شـحنة المدينة وعلى مبعوث الامبراطور عندمـا كانا يأتيان لمقـابلة الملك ، بيد أن سكان المدينة ماكانوا ليتخلون عن المدينة من أجل انقاذ هذين الاثنين من الشنق ، كما أن الملك رأى أنه من الغدر بمكان أن تحاصر المدينة بالخدعة ، وأن ذلك مثير للاشمئزاز ، كما ويتعارض مـع مثله ، أن يقدم على تعريض الجميع للمخـاطر دون التمـكن مـن الاسـتيلاء عليهـا (٢٠٧) ، ليغفـر الرب للامبـراطور الالماني ذلك ان رغبتنا في تجنب حظه العاثر ، ثم استماعنا لنصيحته التي تنقصها الخبـرة ،

واتباعها هو الذي اوقعنا في هذه المآزق الشيطانية(٢٠٨) ، لكن كيف لحكم عدل ربما كان ام انساناً ان يصفح عن امبراطور الاغريق الذي قتل العديد من المسيحيين بالمكر والخداع ، وذلك في كل من الجيشين الالماني والفرنجي (٢٠٩) .

وهكذا عندما علم حشد الايتام الجدد ، المسلوبين من اموالهم ، والذين هدهم المرض ، بأن الاغريق قد كذبوا بشأن المراكب ، تقدموا نحو الملك ، وابدوا رغبتهم ، واعلنوا له عن فقرهم بالكلمات التالية مع غيرها: « حضرنا امام جلالتكم يامولانا مرتبكين ، لكنا تجرأنا على القدوم لاننا وضعنا ثقتنا بطيبكم ، فنحن عندما لم نرغب في المسير معكم على الارض ، كنا قد وضعنا ثقتنا بالاغريق ، كما كنا كسالى ومضالين ، وحيث اننا نشعر الآن بمرارة الحرمان ، فاننا نرغب بالمسير بدون قائدنا ، اننا سندفع لنقابل الموت ، لكن اذا شاء الرب ان نبقى فاننا سنتحاشى الموت الذي يحيق بنا ، ولعله من الاسهل علينا ان نتحمل سيف التركمان ، من ان نستمر في تحمل غدر هؤلاء الناس من السكان المحليين ، بعد رحيلكم.

واشفق الملك ، بتعاطفه المعتاد ، واغدق عليهم كرمه الى درجة يظن المرء معها انه لم يسبق له أن أنفق شيئاً من قبل ، او انه انفق الى حد انه لم يأبه بحاجة بيته ، ولما كان يريد الأمان لرعاياه في رحلتهم ، فقد عقد اتفاقاً مع الشحنة ومبعوث الامبراطور فيه انهما سيتلقيان منه خمسمائة مارك مقابل قيادة رجاله الى ما وراء النهرين القريبين ضمن جيش قادر على حمايتهم ثم توصيلهم بأمان وحماية الى طرسوس ، وان يسمح للضعفاء والعجز بالدخول الى المدينة ، والمكوث بها حتى يتعافون ويتوفر طريق يمكنهم اللحاق به ، وعندئذ قام الضباط الاغريق ، الذين كانوا شرهين للمال ، وكانوا يخشون التركمان ، قاموا بالاجتماع مع التركمان اولا ــ كما ظننا في ذلك الوقت ــ واقتسموا الاموال معهم ، وعند عودتهم اقسموا اليمين هم ومعهم بعض الاثرياء من اهل المدينة ، والذين احضروهم

معهم ، على الاتفاقية المذكورة آنفا ، وقد تم دفع الأمـوال ، وامـر الاغريق العجز بدخول المدينة ، وان يعد بقية الرجال انفسهم للرحلة في اليوم التالي ، واضافة لذلك قام الملك بجمع الخيول التي استطاع ان يجدها ، واعطاها الفرسان الذين ثبتت شجاعتهم ، وبما انه كان يخشى وجـود الخـديعة حيث كان قـد خبـرها ، خلف وراءه كونت فلاندرز ورئيس اساقفة بوربون ، الى ان يكون الناس قـد رحلوا ، وصعد ظهر مركبه مصحوبا بدعوات وصـلوات اولئك الذين ظلوا في الخلف(٢١٠) .

وفي اليوم الثـاني ، وبينمـا كان جيش المشـاة ينتـظر ادلاءه ومرشديه ، تحرك التركمان ، الذين كانوا قد ابلغوا برحيل الملك من قبل الاغريق على الفور ، وانقضـوا على جيشـنا وكأنه فـريسة ، وصف كونت فلاندرز ورئيس اساقفة بوربون العسـاكر واعدوهـم المعركة ، وابدى الرجال في تلك المعركة شجاعة ، لكن حركتهم كانت بطيئة لانه لم يكن لديهم الا بضعة خيول هزيلة ، فاندفعوا لمواجهـة اعدائهم ، واشتبكوا معهم ، ففر هؤلاء الذين كانوا قد اتـوا بقصـد السلب فقـط ، ولما لم يكن هناك اي رجـل كان قـادر على تتبعهـم بسرعة ، فقد قتل من العدو عدد قليل فقط ، وطالب الفرنجة بعد هذه الحادثة بأن يقوم شـحنة المدينة ومبعـوث الامبـراطور والسـكان المحليين بتطبيق الاتفاقية التي كانوا قد اقسموا اليمين للملك بانهم سيراعونها ، وعندئذ وللمرة الاولى وجـد الاغريق انفسـهم امـام استحالة تطبيق الاتفاقية ، متذرعين بالتركمان والشـتاء كأسـباب وراء ذلك ، واضاع الفرنج في هذه المناقشات بضعة ايام والكثير من الكلام ، ولم يتمـكنوا مـن التغلب على الاغريق حتـى عن طـريق استرضاء حسهم بالعدالة والمنطق والشرف ، وفي نهاية الامر ، وبعد ان انتهى النزاع حول الحماية على الطريق سمح الاغريق بصـعوبة بالغة لرجالنا بالتمركز داخل اسوار الحصن ، وبسوق يتسوقون منه الى ان يتمكنوا من الابحار ، وعندما وصـل الاسـطول اسرع نواب الملك على متن المراكب يندبون عدم قدرتهم على الانتقام للاسـاءات التي ارتكبت في حقهم (٢١١)

وهكذا اقترب التركمان من المدينة ، فدخلوا وخرجوا واتصلوا مع الاغريق بشكل علني ، ووجدوا اعداءهم محاصرين مشدد الاطباق عليهم بين الاعداء والجدران ، وذلك كقطيع غنم في حظيرة وتأكدوا انهم حيث لم يكونوا يجرؤون على الدخول او الخروج ، كان من السهل القضاء عليهم بالسهام ، وكان السور منخفضا ومنحنيا ، وكان مثل هذا الحشد الكبير من الناس لايمكن ان يحقق الحماية الكاملة لنفسه باللجوء اليه ، لذلك فقد كان البعيدين منهم عرضة للاصابة بالجروح ، وعليه قام التركمان برمي سهامهم من نقاط وفرت لهم مزايا وجرحوا او قتلوا بعض الناس ، وامام ذلك بدأ الشباب بحمل قسيهم وبالقفز عن السور ، وبذلك كانوا يتمكنون اما من الحفاظ على حياتهم وحياة رفاقهم ، او يبيعون حياتهم بثمن باهظ جدا ، وهكذا بمسعاهم هذا للأمان ارغموا بشدة متناهية الاعداء على الانسحاب الى مسافة ابعد ، ولقد كان بوسعهم تحقيق الامن وجلبه ، غير ان الاغريق الذين كانوا

يشددون الحصار على الناس المتبقين في مكان ضيق غير نظيف قتلوهم دون ان يقع بين صفوفهم جرح واحد ، وبما ان البعض كانوا يعانون من مرارة الجوع بسبب عدم توفر المال لديهم ، وحيث ان المرض انهك الآخرين ، فقد لقي العديد حتفهم من جراء تأثير الجثث التي كانت ملقاة هنا وهناك ، وفي حين لم يتكبد الاغريق خسائر في الارواح ، بل اوقعوها بالفرنجة ، ولهذا مات فريقان من العساكر عددهما ثلاثة او اربعة الاف من الرجال كيما يتحاشوا الموت ، ذلك انهم اعتقدوا بأن العيش داخل المدينة يعادل الموت خارجها ، ولهذا تقدموا بعد ان حملوا سلاحهم ، بقصد عبور النهر الاول بسهولة ، غير انهم توقفوا على الثاني امام عقبة مزدوجة ، لانهم كانوا يستطيعون العبور سباحة فقط ، وبامكانهم التسلل بين صفوف العدو المنتشر هناك اذا حاربوا وشقوا طريقهم بينه ، ولكنه ، لم يكن بوسعهم تحقيق الأمرين في الآن ذاته ، ولهذا السبب فقد انعطفوا عائدين فانزلت بهم هزيمة ساحقة ، قتل فيها من قتل ووقع الباقي بالاسر.

وبدم اولئك روى التركمان تعطشهم ، وتحـول غدر الاغريق الى عنف ، لأن التركمان عادوا ليروا من نجا منهم ، واغدقوا الكرم على المرضى والفقراء ، لكن الاغريق ارغموا الاقوياء مـن الفـرنجة على القيام بخدمتهم ، كما قاموا بضربهم لتحصيل المال منهم ، واشترى بعض التركمان نقودنا من حلفائهم ووزعوها على الفقراء بيد حرة ، بيد أن الاغريق قاموا بسلب ما تبقـى ، ولذلك فقـد مضى الفـرنجة بأمان بين« غير مؤمنين»متجنبين«ابناء دينهـم» الذين كانوا في غاية القسوة معهم ، وقد قيل لنا بأن اكثر من ثلاثة آلاف شاب قد ذهبـوا مع التركمان ، عندما رحل هؤلاء المذكورون اخيرا ، ويالالشفقة لقـد كان ذلك اكثر قسوة من اية خيانة ، لانهم كانوا يأخذون الايمان لقاء تقديم الخبز(على الرغم مـن انه مـن المؤكد بـأن قناعة التـركمان بالخدمة التي كسبوها لم يجبر اي واحد على نكران ايمـانه) والآن انزل الرب اللعنة على مدينة انطالية ، واذاق اهلها الموت المفاجيء ، فلقد كانت هناك بيوت عديدة قائمة مهجورة ، في حين من لم يمت من اهلها بقي منهولا مرعوبا ، وخـططوا لمغادرتها جميعـا.(٢١٢) ، وجرد الامبراطور المدينة من الفضة والذهب معـارضا حـكم الرب ، لأنها كانت قد اعدت اسـطولا وسـوقا الملك ، لذلك فـان رأيه كان يتعارض مع مشـيئة الرب ، غير ان كلا الاثنين قـد انزلا العقـاب بالمدينة.

وبعدما كان الملك قد قضى خمسة اسابيع في هـذه المدينة ، فـانه قضى ثلاثة اسابيع اخرى يعاني فيها من تحـطم المراكب في الطـريق الى انطاكية ، وذلك بسبب تعطل وتخـرب مـراكبه ، ولكن بمشـيئة الرب لم يغرق اي منها (٢١٣) مع ان الخسائر التـي تـكبدها كانت فادحة للغاية ، كذلك كانت المخاطر التي احـاقت بـه ، لكن ياأبـانا سوكر عليك ان ترتاح الى حقيقـة انه ظـل آمنا ، ذلك انه كان مـن صالحه ان يعاني بهذا القدر ، لأن مـن المعـروف عنه انه حصـيف ومتبصر بعواقب الامور في وقت الشدة ، كما انه يتحمـل الخسـارة بقلب مرتاح وحبور ، ثم إنه كان قد تحمل انواع السـعادة بحـكمة

وصمود ، وكان الشيء الوحيد الذي يحز في نفسه هو سوء حظ رعاياه الذين كان يوجه عنايته لهم على الدوام قدر المستطاع ، فمن الناحية النظرية لم يكن الملك قد ولد لذاته بل لصالح الآخرين ، وعلى الملك الا يكون ورعا فحسب ، بل ألا يخشى الفقر ابدا ، ولكي يعيش مثل شرفه كان لايأبه بالحصافة التي يجب ان يتمتع بها الملك عادة ، وكان يتحمل برد الليالي وحر الأيام ، بينما كان يتناوب على حماية المقدمة والمؤخرة ، وفي خضم الصعوبات العديدة التي كان يمر بها كان مرد الحفاظ على سلامته لايعود الى سبب غير سبب تمسكه بديانته ، لانه كان دائما يأخذ القربان قبل ان يذهب لمهاجمة قوى العدو ، وعند عودته يطلب قرع اجراس الكنيسة في المساء دعوة للقداس ، وهكذا كان دائما بحكمته يجعل الرب« هو الالف والياء البداية والنهاية» ، (٢١٤) وكأمير كريم ، وفارس مقدام ، وشاب حيوي ، وشيخ متعقل كان قد اعد نفسه للتأقلم مع مختلف الأوضاع ، والظروف والطاقات ، وبتكامله نال حب الناس ، وبورعه حظي بحب الرب له.



من

تاريخ وليم رئيس اساقفة صور

(تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار)

١٨ ـ تحرك الناس في الغرب . كونراد امبـراطور الرومـان ولويس ملك فـرنسا ينطلقـان نحـو الشرق ومعهما عدد كبير من الأمراء بغية مساعدة المسيحيين فيه .

عندما تم الاستيلاء على مدينة الرها ، كما سبق لي ورويت أخبار تلك الحادثة المشؤومة ، انتقل الخبـر إلى الغـرب ، وعم انتشـاره فيها ، وسرت هناك اشاعات فيها أن أبناء الضلال من التـركمان لم يكتفوا بالاستيلاء على مدينة الرها ، لكنهـم شرعوا في تـدمير بقية المدن والقصور والحصون العائدة إلى شعبنا ، وهم يسيطرون الآن سيطرة كاملة على الشرق ، وهكذا فإن رعايا المسـيح يعـانون الآن من محن شديدة بسبب الحروب المستمرة وأعمال الغـارة المتـكررة عليهم .

وانتشر الرسل في كل مكان يحملون هذه الأخبار إلى جميع الأمـم والشعوب ، وزار هؤلاء الرسـل البلدان التـي عمهـا التـراخي واللامبالاة لفترات طويلة ، ونشـدوا مسـاعدتها وحـرضوها على الانتقام لهذه الجرائم الكبرى ، وقد روي ، بـأن البـابا يوجينوس الثالث ، الذي كان رجلا يخشى الرب ، ويحمـل ـ كأب ـ مشـاعر صـادقة تجـاه أبنائه في الشرق ، وكان يفيض بمشـاعر الالتـزام والتعاطف معهم ، قد بعث بالعديد مـن رجـال الدين للطـواف على مناطق الغرب ، وحيث أن هؤلاء كانوا من أصحاب البراعة ، وذوي المقدرة ، في القول والعمل ، فقـد طلب منهـم : إخبـار الأمـراء والشعوب والقبائل والأمـم في كل مـكان ، بـأحوال إخـوانهم في المشرق ، وعن أوضاعهم التـي لا تحتمـل ، بغية إثـارتهم وندبهـم للتطوع ، حتى يتم الانتقام لهذه الجرائم ، وكان بين هؤلاء المبعوثين برنارد راعي دير كليرفو ، وكان بـرنارد هـذا ممـن اسـتحق

الخلود : لتقاه ، ولحياته النبيلة ، التي ضرب بها مثلا رائعا للجميع في جميع المجالات ، ووقع الاختيار عليه ليترأس مهام هـذه البعثـة إرضاء للرب ، وقام بتنفيذ المهام الملقـاة على عاتقـه بـكل نشـاط واصرار ، مع انه كان ضعيف الجسم ، متقدما بـالسن ، ويعيش في حالة صوم دائم ويقتات القليل القليل من الطعام .

وتنقل برنارد في الممالك والبلدان ، بـاندفاع ربـاني ، وبحمـاسة وغيرة ، وبشر بمملكة الرب دون كلل او ملل ، وقـــد أولى عظيم العناية لشرح مـا نزل مـن الكوارث بشـعب المشرق ، ولتبيان نوع العدو الذي يجهد في سبيل التحكم بـه والتنكيل ، واوضـح كيف آل المآل بمدن كانت في السـابق مـواطن للايمـان ، مـكرسة للعقيدة المسيحية ، فصارت الآن تعاني من آثام العبودية تحت سلطان الذين

نكلوا باسم المسيح ؛ ولقد شد إخواننا سكان هـذه المدن بـالاغلال والقيود ، واستهلكهم الجوع ، وعاشوا جميعا في سـجن رهيب ، في حالة كلها قذارة ومرارة ، فهؤلاء الذين أبـدى المسـيح اسـتعداده للموت لانقاذهم ، يعيشون الآن بين التوسل والأغلال ، وحتى يتـم تحرير هؤلاء الاخـوان ، دعا بـرنارد الناس وحـرضهم ، وحـرك عواطفهم ، وأثار شجونهم ، وانتدبهم لمحو هذه الجرائم ، وقـد وعد بمعونة سرمدية ، وبثواب رباني لجميع الذين سيتطوعون للقيام بهذا العمل المقدس .

ونشر برنارد هـذه الرسالة بكل حماسة وتقوى بين الامم والامارات والممالك ، فربح التأييد المباشر من قبل الكبير والصغير ، وتجـاوب الجميع مباشرة مع دعوته ، وأخذوا على أنفسهم العهد بالتوجه نحو القدس ، وعلقوا على عواتقهـم شـارة الصـليب ، وأعدوا العـدة للسفر ، ولم يقتصر اقناعه وتأثيره على سواد العـامة ، بـل شـمل الكبار من الحكام مع عظماء رجالات المـمالك ، ولقـد تبنى كلمـاته أعظم ملوك الأرض واوسعهم شـهرة ، يتقـدمهم كونرادامبـراطور

الرومان ، ولويس ملك الفرنجة مع عدد كبير مـن أمـراء المسـالك ، وذلك بكل حرارة واندفاع شديدين ، ووضعوا على عواتقهـم علامـة الصليب ، بكل تقوى وخشوع دلالة على انهم سيقومون بواجب الحج (١) .

١٩ ــ الامبـراطور ينطلق أولا على رأس جيشـه ويصل إلى القسطنطينية . سـلطان قـونيه ينصـب له الكمائن :

قام الملكان باتخاذ جميع التـرتيبات الضرورية مـن اجـل ادارة مملكتيهما أثناء غيابهما ، وضما إلى صفوفهما جميع الذين أخـذوا على أنفسهم ــ عن طواعية ــ عهد الانقاذ ، وعندمـا انتهـت جميع الترتيبات الضرورية للزحف ، بشكل يليق بالمكانة الملكية ، انطلقـوا بتيسير الرب لأداء حجهم في شهر أيار ، انطلقوا ضمن اشارات غير سعيدة ، ونذر شريرة ، ذلك أنهم شرعوا في الزحف ، كمـا لو انهـم ضد ارادة الرب الغاضب عليهـم ، وللذنوب بني البشر لم ينجـزوا في حجهم هذا كله ما يرضي الرب ، وفوق ذلك حولوا أحوال الذين ذهبوا لانقاذهم وقلبوها من سيء إلى أسوأ (٢) .

وقرر القادة الزحف كل على انفراد ، على أن يقود كل منهم جيشه في اتجاه يختاره ، وبذلك كان يتم تجنب قيام الخلافات بين الناس ، كما أنه بهذه الطريقة كان يمكن للفرق الصغيرة أن يؤمـن كل منهـا لنفسـه الطعـام وبقية ضرورات الحياة ، مـع أعلاف الخيول والحيوانات بسهولة وبكميات كبيرة .

واجتازوا بافاريا ، وعبروا نهر الدانوب العـظيم عند راسـتبون ، وانحدروا إلى أراضي النمسا ، والنهـر على يسـارهم ، ثـم دخلوا اراضي هنغاريا ، حيث عومولوا معـاملة طيبـة مـن قبـل ملك تلك

البلاد ، وبعـدما مـروا مجتـازين أراضي تلك المملكة ، وسـلسلتي أبانونيا ، مضوا من خلال مقاطعات بلغاريا وهي : موشيا وداشـيا المتوسطية ، مخلفين داشيا الثانية على اليسار ، وقـد وصـلوا إلى ثراس (تراقية) بعدما مـروا بـكل مـن المدينتين الشـهيرتين فيلبوبولس وأدريانوبـل (أدرنه) ووصـلوا أخيرا إلى العـاصمة الملكية (٣) .

وقد استقبلوا استقبالا لائقا من مانويل امبراطور القسطنطينية ، ونالوا قسطا من الراحة لبضعة أيام ، وحصلـوا على جميع اللوازم والأشياء الضرورية لراحـة الجيش ومتعتـه بعـد رحلة كلهـا متاعب(٤) ، ثم عبر الجميع مضيق البوسفور ، الذي تمتـد مياهـه حتى القسطنطينية ، وهو ايضا يفصل ما بين كل من آسيا واوربا ، ودخلوا إلى بيثينيا ، وهي أول مناطق آسية التي يصلها الانسـان ، وعسكرت جميع الجيوش في قرية خلقدون ، حيث بدت المدينة التـي كانوا قد غادروها لتوهم على مرأى منهم لقـربها ، وفي هـذه المدينة القديمة سبق أن عقد المجمع المسكوني المقدس الرابـع الذي شـهده ستمائة وستة وثلاثون من آباء الكنيسة ، وذلك في أيام الامبـراطور مارتن والبابا ليون ، وذلك بغية التصدي لهـرطقة يوتيش الراهـب الذي أعلن أنه ليس لمولانا المسيح إلا طبيعة واحدة (٥) .

ولقد عرف سلطان قونيه قبل مدة مديدة ، أخبار زحف هؤلاء الأمراء الكبار ، وأدرك مدى المخاطر القادمة نحوه ، ولهـذا طلب المسـاعدة من أقصى جوانب المشرق ، ونظرا لخشـيته الشـديدة اتخـذ كافـة الاحتياطات وتسلح ضد الخطر المشرف عليه ، والنابع مـن وجـود أعداء كثر حوله ، وحصن مدنه ورمـم قـلاعه وشـحنها واسـتعان بجميع جيرانه ، وانتظر بتوجس ويقظة شديدة دنو العدو الذي وصل إلى مشارف دياره ، والذي كان خطره يقترب يوما تلو الآخر ، حيث جاء يريد تدمير رعيته وبلاده ، وسرت الاشاعات بوصول حشـود لم ير مثيلها ، لا في عددها ولا عددها ، حتى قيل بأن عدد الفرسان فقط

غطى وجه الأرض إلى حد أن أكبر الأنهار لا يكاد تكفي مياهه لشرب هذه الحشود ، وأن أعظم الأراضي خصبا لا تكفي لامدادهم بالمؤن ، وعلى الرغم مما حملته هذه الأقـاويل مـن المبـالغات ، فإن حجم الحقيقة في حد ذاتها ، يلقي الرعب في قلوب أعظم الزعمـاء والقـادة ممن لم يكونوا يدينون بالنصرانية ، ذلك انه اعتمـادا على الروايات الرسمية لعدد من الرجـال الذين شـاركوا في هـذه الحملة ، كان في جيش الامبراطورية وحده قرابة السـبعين الفـا مـن الفـرسان الدارعين ، كل ذلك إلى جانب الرجالة والنسـاء والأطفـال والخيالة الخفاف ، وبالنسبة لجيش ملك فرنسا ، فقد قدر وجود سبعين الفـا من الدارعين الشجعان فيه ايضا ، وذلك بـالاضافة إلى الرجـالة ، (٦) ولو ان الرب كان راضيا عنهم ، فمنحهم رحمتـه ومسـاعدته ، ولم يحرمهم من عونه ، لا شـك انهـم كانوا سـيتمكنون ليس مـن اخضاع السلطان فحسب ، بـل اخضـاع جميع بلدان المشرق ، الى سلطان النصرانية ، لكن الرب بحكمته ، ومكنون علمـه واحـكامه ، رفض خدماته ولم يعتبرها خدمات مقبولة ، لربما لانها قدمت بـأيد غير نقية.

٢٠ ــ بعد عبور البـوسفور قيد جيش الامبـراطور كونراد إلى الضـياع بخـداع مـن الاغريق الذين استجروه إلى مواضع خطيرة جداً .

١

وما ان عبرت جميع الفرق البوسفور ، حتـى قـام الامبـراطور كونراد ، ومعه كبار نبلائه وحاشيته بتوديع الامبـراطور مـانويل ، وعبروا البحر ، وأمرت الفرق ، وقد غدا كل منها تحت إمرة قـائدها الخاص ، بالزحف ، فغـادرت غالاشـيا بـافلوغونيا ، ومقـاطعتي بونتوس على اليسار وفريجيا وليديا وآسية الصـغرى على اليمين ،

وسار كونراد مباشرة عبر قلب بثينيا إلى نيقوميديا (إزميت) حاضرة تلك الديار ، واجتاز مدينة نيقية ، وهي المدينة التي عقد فيها ايام الامبراطور قسطنطين مجمع الثلاثمائة عشر من اباء الكنيسة المقدسين للتصدي للعقيدة الشريرة التي بشر بها آريوس السيء الذكر (٧) ، ومن هنا اتبع الجيش وهو على تعبئة كاملة ، اقصر الطرق إلى ليقاونيا التي مركزها مدينة قونية .

وحشد السلطان في هذا المكان عددا كبيرا من الرجال واعداد كبيرة من التركمان ، من المناطق المجاورة ، وكان ينتظر الوقت المناسب ، والمكان الدوائم ليهاجم النصارى وهم يحاولون المرور وبذلك يمنع تقدمهم ، وكان قد تمكن عن طريق الرشوة والتحالف من اثارة جميع الملوك والقادة والمقدمين من مختلف المراتب ، من اقاصي المشرق وادانيه ، ضد شعبنا ، وقد بين لهم برسائله المتواصلة ، أنه لو سمح لمثل هذا الحشد الهائل من الرجال المسلحين بالمرور خلال بلاده دونما اعتراض ، فانهم سيخضعون الشرق جميعه لحكمهم بقوة السلاح ، واستجاب لندائه عدد كبير من الامم بسرعة من : ارمينيا (العليا والدنيا) وكبادوقية ، وزوريا ، وميديا وبارثيا (اعالي الجزيرة) وهكذا تجمعت الحشود الكبيرة ، وقد امتلا السلطان بمساعدة هذه الامم له انه سيتمكن من المقاومة بقوات معادلة لتلك الحشود الجبارة ، التي قيل انها اشرفت على الدنو منه .

وكان كونراد قد طلب من الامبراطور مانويل قبل ان يغادر القسطنطينية تزويده ببعض الادلاء الذين يعرفون المنطقة معرفة جيدة ، والذين هم في الوقت نفسه خبراء بالمناطق المجاورة ، ومهما يكن الحال فقد برهن هؤلاء انهم ليسوا اهلا للثقة ، فلقد افترض ان

يقوموا بقيادة الجيوش بكل امانة وثقة حتى لاتتعرض العساكر المهتدية بهم للمخاطر والمصاعب او قصور في الامدادات وهم سائرون ، لكن ما ان شرع هؤلاء الادلاء في قيادة الجيش داخل اراضي الاعداء حتى اخبروا قادته بان عليهم الاستفادة من الطريق القصير الذي يقودهم عبر بلاد غير محتلة من العدو ، وعلى هذا عليهم حمل كميات من المؤن تكفي لعدة ايام فقط ، ووعدوهم انهم خلال ايام معدودة سيصلون الى مدينة قونية الواسعة الشهرة ، فهناك سيجدون انفسهم وسط اخصب البلاد والمليئة بجميع انواع الامدادات ، وتبعا لهذه التعليمات ، وتنفيذا لما قضت به ، حمل النصارى المؤن على ظهور الحيوانات والعربات ، وجميع وسائل النقل التي كانت بحوزتهم ، ذلك انهم وثقوا بادلائهم ، وتبعوهم بكل بساطة وثقة .

لكن الادلاء ، وقد جبلوا على طباع الخسة التي عرف بها العرق الاغريقي ، مع كراهيتهم المعتادة للنصارى تصرفوا بخيانة ، وذلك اما بناء على اوامر تلقوها مسبقا من سيدهم ، او لان التركمان رشوهم ، وهكذا قادوا الفرق العسكرية عبر طرق غير مطروقة ، واستدرجوها الى اماكن وفرت للعدو فرصا مناسبة لقتال وهزيمة هؤلاء الناس الذين غدوا بلا حول ولاطول(٨)

٢١ ـ الادلاء الذين قدمهم الامبراطور الاغريقي لارشاد جيش كونراد الامبراطور الالماني يتخلون عنه بكل خبث ، تاركين عساكره معرضين لمخاطر عظيمة .

عندما مرت الايام المحددة ، ولم تصل الحملة الى هدفها الذي طال شوقها اليه ، امر الامبراطور باحضار الادلاء الاغريق امامه ،

وشرع بالتحقيق معهم بحضور اعيان جيشه ، فسـألهم : لماذا سار الجيش ومازال مستمرا في المسير مدة اطول مما حدد له في البداية ، ومع ذلك لم يصل الى اهدافه ـ وكما هي عادتهم ـ لجا الادلاء الى الخداع واكدوا له بشكل قـاطع ، انه بمشـيئة الرب سـتكون جميع الفرق في قونية في مدة ايام ثلاثة ، وكان الامبراطور رجـلا بسـيطا لايعرف المكر ، لذلك صدق بسرعة اقوالهم واجابهم بـانه سـيتحمل عناء الايام الثلاثة المقبلة ايضا ، ذلك انه وثـق بصـدق وعودهـم ، وعندما حل المساء اقيم المعسكر حسبما جرت العادة ، لكن بينما كان الناس نياما ، بعد عناء يومهم ، هرب الادلاء الخونة في ظلام الليل ، وتركوا الناس الذين وضعوا ثقتهم بهم ، وامنوا بعنايتـهـم بهـم ، تركوهم بلا ادلاء ، وفي صباح اليوم التالي ، حـل وقـت اسـتئناف المسير ، دون ان يمـكن العثـور على الادلاء الذين كانوا في العـادة يتقدمون الصفوف ، وبعد لأي حمـل الى الامبـراطور خبـر هؤلاء الخونة وفرارهم وعلم بهذا قادة الجيش ، وطـار خبـر خيانتهـم ، وانتشر بين الجميع .

وزيادة على هذا ، فان هؤلاء الابالسة ، اسرعوا نحـو جيش ملك فرنسا الذي كان بالجوار ، وادعوا كذبا بان الامبراطور ، الذي كان قد سافر بقيادتهم من قبل قـد نال نصرا مـؤزرا على الاعداء ، وانه استولى على قونية بقوة السلاح ، وانه دمرها دمارا كامـلا ، ولقـد اضـافوا بهذا الكذب الى جرائمهم جرائم اعظم .

ومن الواضح انهم اقدموا على هـذا الادعاء : امـا لاقناع الملك لاتباع الطريق نفسها حتى يواجه المخاطر نفسـها ، او ربمـا لجعله يعتقد بان كونراد قد حالفه النجاح الكامل ، وبذلك يمتنع عن التفكير بالاسراع نحوه لتقديم العون لاخوانهم الذين تعـرضوا للمخـاطر ، ولربما اخترعوا هذه الحكاية ليجنبوا انفسهم نيل العقاب ، لانهم لو اخبروا ان الجيش قد هلك ، فسـيلقي القبض عليهـم ، ويعـاملون بمثابة خونة ، حيث ان الناس اندفعوا نحو حتفهم بسبب شرورهم ،

ومهما كانت حقيقة نواياهم ، فانه من المؤكد بان خيانتهم ادت الى التخلي عن الجيش ودفعه للوقوع في مخالب الموت .

وما ان ادرك الامبراطور بان الجيش قد بات بلا ادلاء حتى دعا الى اجتماع لجميع القادة لمناقشة القضية واتخاذ قرار حول السبل التي سياخذون بها ، وظهر على الفور اجماع على عدم الاتفاق والوفاق ، فقد راى بعضهم انه ينبغي على الجميع العودة من حيث اتوا ، بينما راى بعضهم الاخر انه ينبغي عليهم متابعة الطريق ،

وينطبق في هذه الازمة قوله : يسكب هوانا على رؤساء ويضلهم في تيه بلا طريق (٩) .

وبينما هم في حالة الشك هذه مضطربين بشان المنطقة ، قلقين حول انعدام المؤن ، لان اعلاف الخيول وحيوانات الظهر مع جميع انواع المؤن والاطعمة للجيش كانت قد نفدت) سرت اقاويل بان جيش العدو ، الذي يحوي حشودا كبيرة من التركمان ، بات على مقربة منهم ، ولم يلبث ان ظهرت حقيقة ذلك ، وهكذا اصبح النصارى في ارض جرداء قاحلة ، بعيدين عن الاراضي المزروعة ، فلقد قيدوا عن عمد الى هناك كما قلنا من قبل ، وذلك من قبل ادلائهم الخونة ، فلقد كان من المتوجب عليهم السفر عبر ليكانيا ، التي ودعوها عن يمينهم ، فلو ركبوا هذا الطريق ، لمروا با راض مزروعة فيها جميع انواع المؤن ، ولكانوا وصلوا نحو اهدافهم بوقت اقل طولا ، وعوضا عن ذلك قادهم الاغريق يسارا ، واجبروا الجيش كله على الانحراف نحو فيافي كبادوقيا بعيدا عن قونية .

وراجت اقاويل يبدو انها كانت اقرب الى الحقيقة منها الى الخيال ، منها ان عملية التيه الخيانية هذه قد ابدعت بمعرفة من الامبراطور الاغريقي ، وبامر منه ، ذلك انه حسد النصارى ، وغار من نجاحاتهم ، حيث انه من المعروف ان الاغريق نظروا دائما بريبة

- ٣٠٦٤ -

وتوجس (ومازالوا يفعلون) نحو ازدياد قوة امم الغرب عامة ، ونحو الامة الالمانية خاصة ، فقد اعتبروها امة منافسة لامبراطوريتهم ، بسبب ان ملك الالمان دعا نفسه : امبراطور الرومان ، مما كان يعني انتقاما كبيرا من سمعة امبراطورهم ، الذين هم انفسهم يدعونه وحده امبراطور ، ولايوجد امبراطور غيره (١٠)

٢٢ ـ التركمان ينقضون بهجوم صاعق على الحشود الالمانية . الفرق الالمانية يحل بها الدمار لكن الامبراطور ينجو .

في تلك الاونة كان جيش الامبراطور يعاني من : الجوع ، ومن جهله بالمنطقة ، ومن عزلته المزدادة ، ومن مصاعب الطرق ، ومن قلة الخيول ، ومن حمل العتاد ، واثناء ذلك كان امراء التركمان وقادتهم على مختلف مراتبهم يعون هذه الحالة تمام الوعي ويعرفونها بيقين ، لهذا حشدوا قواتهم ، وانقضوا بها في هجوم مباغت على المعسكر المسيحي ، وقد اوقع هذا الهجوم غير المتوقع الفرق الالمانية في فوضى كاملة ذلك انه لم يسبق لهم ان راوا اي شيء من هذا القبيل ، فلقد كمنت قوة من الجند التركمان في خيولهم السريعة التي لم تكن تعاني من جوع او عطش ، وفي عتادهم الخفيف ، المؤلف من قوس ونشاب ، واحاطوا بالمعسكر واصواتهم تتعالى ، وكما جرت عادتهم انقضوا بعنف على عساكرننا الذين اعاقتهم دروعهم الثقيلة ، فلقد كان النصارى يتفوقون على العدو قوة ومهارة في القتال ، انما كانوا مثقلين بدروعهم وسوابغهم وترستهم ، لهذا لم يستطيعوا منازلة التركمان ، كما انه لم يكن بمقدورهم مطاردتهم ابعد من حدود المعسكر ، ذلك ان خيولهم كانت قد انهكها الجوع ، وهدها طول السفر ، لذلك كانت عاجزة تماما عن الركض كرا وفرا ،

واما التركمان فقد كانوا على عكس ذلك ، حملوا حملات جماعية ، واطلقوا نحوهم من مسافات مناسبة ، وابلا من السهام ، سقطت كالمطر المنهمر على الخيول والخيالة وسببت الموت والجراح بشكل شامل ، وعندما حاول النصارى احيانا مطاردتهم ، استدار التركمان ، وفروا على خيولهم السريعة ، وبذلك نجوا من سيوف اعدائهم ، وجرى تطويق جيشنا من جميع الجهات ، وصار في خطر مميت بسبب وابل السهام والنبال ، ولم تتوفر لديه الفرصة للانتقام او الاشتباك بالعدو في قتال قريب ، كما انه لم يستطع امساك العدو وحصره ، فكلما حاول القيام بهجوم مضاد ، تفرق التركمان وبددوا جهودهم ، وركضوا في مختلف الاتجاهات ، وعندما كان النصارى يعودون الى مخيمهم ، كان التركمان يعاودون رص صفوفهم ، ويقومون ثانية بتطويق عساكرنا وقتالهم بضراوة اشد ، وكانما كانوا يحاصرون بلدة من البلدان .

وهكذا ، وبارادة الرب ومشيئته الخفية الحقة ، نجد ان شجاعة هؤلاء الامراء الكبار من النصارى ، الذين بدت قوتهم وشجاعتهم وكانها لاتقهر ، واعدادهم لاتضاهى ، قد انهاروا جميعا تحت ضربات لايمكن وصفها بانها كانت اكثر من لينة حربيا ، ولم يبق مرئيا من شجاعتهم السابقة شيء وبقي من اعدادهم الكبيرة قوات يسيرة فقط ، فمن بين السبعين الفا من الفرسان الدارعين ومما لايحصى من الرجالة الذين صحبوهم ، نجا عشرهم او اقل من ذلك ، وذلك اعتمادا على روايات الذين كانوا ضمن الحملة ومن رجالها (١١) : فلقد هلك بعضهم بفعل الجوع ، وقطع اخرون بالسيوف ، وسقط عدد كبير من الاسرى بيد العدو ، وعلى كل حال نجا الامبراطور مع عدد من نبلائه ، وتمكن بعد عدة ايام ، ومصاعب جمة ، من الوصول الى احواز مدينة نيقية مع الباقين من اتباعه .

وتراجع التركمان إلى حصونهم بعد أن أثقلوا بغنائم لا تحصى وخيول وأسلحة لا يمكن حصرها وبما أنهم كانوا على معرفة تامة

بالمنطقة ، فإنهم انتظروا بلهفة وصول الملك الفرنسي، لأنه كما جاء في بعض الأقاويل كان موجودا في أطراف تلك المنطقة ، وبما أنهم دمروا قوات الامبراطور التي كانت أعظم من سواها ، فقد أملوا بأنه سيكون من السهل عليهم ايقاع الهزيمة بجيش ملك فرنسا ، وكان الذي حدث هو ما توقعوا حدوثه تماما .

ولم يشارك سلطان قونية في هذه الأحداث العظمى ، بل تمكن ــ بعون من الرب ــ واحد من امرائه التركمان اسمه براموس (؟) وكان قائدا لقوات السلطان ، تمكن من إنجاز هذا النصر الرائع ، وقد وقعت هذه الواقعة في شهر تشرين الثاني لسنة ١١٤٦ لتجسيد الرب .

٢٣ ــ ملك فرنسا يعبر البوسفور ، ويصل على رأس حشوده إلى نيقية في منطقة بيثينيا . الملكان يتباحثان مع بعضهما . عودة الامبراطور كونراد إلى القسطنطينية .

ووصل في الوقت نفسه ملك فرنسا مع جيشه إلى القسطنطينية بعد أن اتبع الطريق نفسها تقريبا ، ومكث هناك لمدة وجيزة ، وقد عقد عدة لقاءات خاصة مع الامبراطور ، الذي أظهر نحوه تقديرا واحتراما كبيرا ، ولدى مغادرته اتحفه بعدد كبير من الهدايا ، كما تمت معاملة أعيان حاشيته معاملة طيبة ، وفي بقعة معينة ، قائمة بين العاصمة الملكية والبحر الأسود (المسافة بينهما ثلاثون ميلا) قام بعبور البوسفور ، ففي تلك البقعة كان البوسفور في أضيق أماكنه ، عرضه حوالي ميل واحد ، ثم سار حول خليج نيقوميديا ، الذي اكتسب اسمه لمجاورته لمدينة نيقوميديا حاضرة منطقة بيثينيا ، ويعد هذا الخليج ــ في الحقيقة ــ جزءا من البوسفور ، وفي قرية نيقية ، غير البعيدة عن المدينة نفسها اتخذ الملك

الفرنسي معسكرا له ريثما يقـرر الطـريق الذي سـيركبه ، وقـام باستقصاء دقيق حول امبراطور الالمان الذي سار امامه ، وقـد علم هناك بان جيشا الامبراطور قد دمر ، لكن الامبراطور نفسه نجـا ، وهو الآن شريد ضائع ، نجا بروحه مع عدد قليل من نبلائه ، وقد ظن الملك في البداية ان هذا الخبر مجرد اشاعة لاأساس لها من الصحة ، انما مع مـرور الوقـت تـوصل الى الخبـر اليقين ، ذلك أن فريدريك دوق سوابيا (١٢) وصل الى معسكر الامبراطور ، حـاملا معه أوسع التفاصيل حول هذه الكارثة ، التي كانت المعلومات حولها

حتى هذه الساعة غير واضحة ، وأشبه بـالاشاعة التـي لايمـكن الوثوق بها ، وكان هذا الدوق شابا في مقتبل العمر ، يتمتع بصـفات حميدة ، وهو الذي سيخلف في المستقبل عمه كونراد ، ويصبح حاكما للامبراطورية الرومانية التي يحكمها الآن بكل نشاط ونجاح ، وكان قد جاء لتوجيه الدعوة للملك ليجتمـع بـالامبراطور حتـى يتبـاحثا معا – وإن جاء ذلك متأخرا – حول الطريق التـي ينبغـي السـير عليها ، ولدى سماع الجيش بخبـر هـذه المصـيبة التـي نزلت بالامبراطور ، وبالدمار والشرور التي لحقت بإخوانهم عمت صفوفه موجة من الغضب والأسى، وتـأثر الملك كثيرا بمـا رواه له الدوق ، وبعدما تشاور مع أصحابه ، قام بصحبة الدوق ، وبـرفقة عدد مـن نبلائه بالتوجه نحو معسـكر الامبـراطور الذي لم يكن بعيدا ، بغية التشاور معه .

وبعدما تبادل الملكان التحيات المعتادة ، وتعانقا ، وقبـلا بعضـهما بعضا ، اجتمعا بشكل ودي ، وتباحثا حتى اتفقا على الاسـتمرار في تنفيذ خططهما ، وعلى دمج قواتهما للزحف معا ، وحـدث أن كثيرا من رجال الطرفين ، خاصة مـن بين الألمان ، خـرقوا مـواثيقهم ، وتخلوا عن عهـودهم ، وعادوا نحـو القسـطنطينية وذلك بعـدما استنفدوا ما كان معهم من مال ، وبعدما واجهوا مـا واجهـوه مـن مصاعب جمة على الطريق ، مما بعث الهلع في قلوبهم .

وقرر الملكان بعدما استشارا قادة الجيشين ، التخلي عن الطـريق الواقع على اليسار ، وهو الذي سبق للامبراطور أن ركبه ، ووجهوا صفوفهم باتجاه آسـية الصـغرى ، وكان الآن على يمينهـم بلدتـا فريجيا ، وخلفوا ورائهم بيثينيا ، وزحفوا الآن عبر الطريق الممتـدة على طول الساحل تاركين فيلادلفيا على يسارهم ، ووصلوا أولا إلى سميرنا(أزمير) ، ومن هناك تابعوا السير إلى افسوس ، عاصمة آسية الصغرى ، وشهرت هذه المدينة لكونها قد سبق أن عاش فيهـا الرسول يوحنا ، وفيها بشر ودفن ، وفي افسوس أمـر الامبـراطور فرقه المتبقية بالعودة بـرا ، بينمـا ركب هـو البحـر وعاد إلى القسطنطينية ، هذا وإن الأسباب لعمله هذا غير معـروفة ، ولربمـا كان ذلك لحزنه وأسفه على الأعداد الكبيرة التي أضاعها ، أو لربما بسبب انه لم يكن في مقدوره تحمـل رعونة الفـرنسيين (١٣) ، وقـد استقبله الامبراطور استقبالا اعظم من الاستقبال السابق ،ومكث في القسطنطينية مع نبلائه حتى مطلع الربيع التـالي ، وكانت القـرابة بين الملكين وثيقة ، ذلك أن زوجتيهما كانتا أختين ، فقد كانتا ابنتي بيرنجر الكبير كونت سولزباش الذي كان يعد واحدا من كبار الأمراء واكثرهم قوة في المملكة الالمانية (١٤) ، ولهذا اظهر الامبراطور نحوه رعاية كبيرة ، وبناء على رغبة من الامبراطورة أتحفه بعدد كبير من الهدايا ، وخص أشرافه بجزيل العطاء .

٢٤ ــ ملك فرنسا يتابع مسيره نحو افسوس بـطريق مغايرة . هناك يتوفى غوي أمير بونثيو . على الرغم من جهود العدو تمكن الفرنجة من عبور نهر مياندر .

وانهمك في الوقت نفسـه ملك الفـرنجة مـع نبـلائه في الاعدادات لاستئناف الزحف ، وحاول أثناء وجوده في افسوس اعطـاء جيشـه الفرصة لنيل قسط من الراحة واسترداد عافيتـه ، وتـوفي أثناء ذلك غوي كونت بونثيو ، وكان متميزا بين أقرانه مـن النبـلاء لبـراعته

العسكرية ولقوته ، وجاءت وفاته بعد مرض ألم بـه ، وقـد دفـن في صحن كنيسة افسوس ، وسار وبرفقته جميع جيشه بكل ما امكنه من سرعة متجها نحو الشرق ، ووصل بعد مسيرة عدة أيام مخاضة نهر مياندر ـ المحبوب من البجع ـ وهـذا النهـر هـو الذي كتـب عنه صاحبنا ناسو في الهيرودس :

عندما يأتي داعي المنية استلق على العشب المبلل
فالبجع الأبيض يغني على مخاضات نهر مياندر

وأقام الملك معسكره على ضفتي النهر بين المروج الخضراء ، وحدث هنا لأول مرة أن الفرنجة الذين اشتاقوا طويلا لرؤية أعدائهم ، قـد استجيب لهم ، فما أن حاول النصارى الوصول إلى النهر حتى ظهر امامهم على الضفة المقابلة عدد كبير من التـركمان ومنعـوهم مـن استخدام الماء ، وبعد لأي وجدوا المخاضة ، فتمكنوا ، بـرغم جميع جهود العدو ، من شق طريقهم ، وعبـروا النهـر ، وانقضـوا على التركمان ، فقتلوا عددا كبيرا منهم ، وأسروا أعدادا كبيرة أيضـا ، مما اجبر الباقين على الفـرار ، واسـتولى المنتصرون الفـرنجة في الحال على معسكر التركمان ، الذي كان ممتلئا بجميع أنواع الغنائم الثمينة والمؤن من كل لون ، واستطاعوا بفضل ما بذلوه من جهـد أن يجعلوا أنفسهم سادة الضفة الثانية للنهر ، ولقد امتـلأ النصـارى سرورا بنصرهم هذا ، وبما كسبوه من غنائم ، وأمضوا ليلة هادئة ، وعند الفجر شرعوا في الاستعداد لاستئناف زحفهم .

ثم ساروا من هناك إلى لوديقيا ، التـي كانت مـدينة قـائمة في تلك المنطقة ، ومن هناك زودوا أنفسهم بما يكفيهم من مؤن لعدة أيام كما جرت عاداتهم ، ثم استأنفوا زحفهم بنية واحدة .

٢٥ ـ الجيش الفرنسي يعاني من هـزيمة سـاحقة . الطلائع التي سارت أمام الجيش تنجو .

واعترض طريق الجيش الزاحف جبل صعب المرقى ، شديد الوعورة ، وكانت خطة المسيرة قد قضت بأن يتم الوصول إلى القمة في ذلك اليوم ، وجرت العادة أثناء هذه الحملة أن يتم تعيين عدد من الرجال المعروفين ، كل منهم في أحد الأيام للعمل بمثابة قادة ، يتولى بعضهم قيادة الطلائع ، ويتولى بعضهم الآخر حماية المؤخرة ، ويصرف عنايته نحو جموع الناس ممن غير العسكريين ، خاصة المشاة منهم ، وكان على هؤلاء الرجال واجب مشاركة النبلاء في تحديد الطرق التي ستركب ، ومقدار مرحلة الزحف ، ومكان المخيم لليوم التالي ، ووقع الاختيار ، بحكم الدور ، في ذلك اليوم الموعود على واحد من نبلاء أكوتين واسمه جيوفري رانكون ، وتبعا لذلك تقدم أمام الجيش ، ومعه لواء الملك ، وصعد الجبل ومعه الطلائع ، وكانت الأوامر المعطاة إليه هي أن يقوم رجال الطلائع بنصب المخيم في الأعالي ، ولدى وصوله إلى القمة ، وكان الجزء الأكبر من النهار على حاله بعد ، هنا قرر جيوفري الزحف قليلا إلى الأمام متخليا بذلك عن الأوامر ، وذلك لشعوره بأن المسافة المقررة لذلك اليوم قصيرة جدا ، وكان الأدلاء قد أكدوا له وجود بقعة أنسب لنصب المخيم ، ولهذا ابتعد كثيرا ، وحدث في الوقت نفسه أن الناس الذي يتبعون خطى الطلائع ، خيل إليهم بأن المعسكر قد ضرب على قمة الجبل ، ونظرا لاعتقادهم بأن مسيرة ذلك اليوم شارفت على الانتهاء بدأوا بالتماهل ، وهكذا توزع الجيش ، فبعض من أفراده اجتاز الشعاب ، بينما كان البقية يتبخترون عليها ، ولاحظ التركمان ، الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر قيام فرصة للهجوم ، لاحظوا الأحوال المستجدة فهم في الحقيقة كانوا يماشون الجيش عن كثب غير مرئيين ، ويراقبون تحركات النصارى تمام المراقبة ، وكانت الطريق ضيقة والصفوف مبعثرة ، يضاف إلى ذلك أن قسما من

خيرة القوات كان قد تقدم ، وأدرك التركمان يقينا بأن أحوال المؤخرة لم يتم التعرف على ما نزل بها بسهولة ، كما لا يمكن ارسال المساعدات إليها نظرا لبعد الشقة ، وهنا اغتنم هؤلاء التركمان فرصتهم الممتازة ، واستولوا على قمة الجبل مما سبب مزيدا من الفوضى بين صفوف طلائعنا ومؤخرتنا ، ثم انقضوا وهم في تعبئة كاملة على رجال قواتنا ، وقبل أن يتمكن هؤلاء من تجريد سيوفهم ، كان التركمان قد مزقوا صفوفهم ، وتوقف القتال بالقوس والنشاب ، والتحمت الحرب بالسيوف التي أنزلت الدمار والموت على النصارى ، وقد جرت مطاردة كل من حاول الفرار بكل ضراوة ، وأعاقت الممرات الضيقة والشعاب رجالنا ، كما أن خيولهم كانت منهكة بسبب طول السفر ، كما اربكتهم كميات العتاد والحاجيات ، ومع هذا فإنهم قاوموا كل على حدة بكل شجاعة ، وذلك دفاعا عن حياتهم وحرياتهم وعن رفاق الطريق ، وتابعوا القتال بالسيوف والرماح وكانوا يثيرون حماسة بعضهم بكلمات التشجيع وبالصرخات لمتابعة الكفاح والمثابرة .

وازدادت حماسة التركمان وأملهم بالنصر وسعوا إلى إثارة النخوة بين صفوفهم ، وأعادوا إلى الذاكرة ، ما حدث قبل بضعة أيام مضت ، حين استطاعوا ايقاع الهزيمة بجيش كان أكبر من هذا بكثير ، وكيف انه بجهد اقل ومخاطرة أدنى حققوا النصر على قوات كانت اكثر عددا ، وأعظم قوة .

واستمرت المعركة طويلا ، وحام الشك حول نتائجها ، ومهما يكن الأمر فقد حلت النهاية ونزل بنا العقاب لما اقترفناه من ذنوب وآثام ، فانتصر الكفار ، وقتل عدد كبير من النصارى ، ووقع عدد لايحصى في الأسر ، وانزل تعداد جيشنا إلى حد أنه أصبح لا يتعدى مجرد قوة صغيرة ، وهلك عدد كبير من الأعيان في ذلك اليوم ، وكانوا رجالا تميزوا بأعمالهم العسكرية ، وطاب ذكرهم وحمد لتقاهم ، وكان بين أعدادهم الكبيرة كونت فيرنس دي برتويل ، واتيرس دي مينجانك ،

وآخرون كثر ، نحن لا نتذكر أسماءهم ، لكننا نؤمن أنها كتبت في عليين ، وأن ذكراهم ستظل مثالا يشار إليه دائما(١٥)

وزالت في ذلك اليوم مفاخر الفرنجة ، وتلطخت سمعتهم ، لسوء الحظ ، من خلال أعظم نازلة حلت بالنصارى ، فشجاعتهم التي كانت حتى تلك الساعة تخيف الأمم ، قد سحقت ومرغت بالرغام ، وغدت منذ ذلك اليوم أضحوكة ووسيلة هزء في أعين الشعوب المدنسة ، التي كانوا يبعثون الهلع في قلوبها من قبل .

لماذا هذا كله ؟ تباركت يا مولاي يا يسوع ، فهؤلاء الناس الذين وهبوا نفوسهم لك وأوقفوها عليك ، والذين اشتاقوا طويلا للسير على خطاك ، ولتقبيل جميع الأماكن التي باركتها بحضورك الجسدي ، **لماذا حلت بهم الهزيمة القاسية على ايدي الذين يكرهوك؟ حقا إن احكامك لايمكن سبر غورها ، وليس هناك من هو قادر** على فهمها ، لأنك وحدك يا سيدي قادر على فعل كل شيء ، وما من أحد يستطيع أن يقاوم ارادتك .

٢٦ ـ الملك ينجو مصادفة ويلتحق بالطلائع . وصول بقية الجيش إلى أنطاكية وعبوره من هناك إلى سورية .

وحدث في ذلك الحين أن نجا الملك ـ إنما بفضل حظه ، وليس بسبب جهوده ـ نجا من وسط المخاطر والفوضى ، ففي بهيم الليل تمكن من تسلق الشعاب الجبلية السابق ذكرها ، دون دليل يرشده ، وكان بمرافقته عدد صغير من حاشيته ، وتمكن من الوصول الى المعسكر الذي كان قد نصب بعيدا عن المكان الذي قرر له وكما سلف التبيان فإن رجال الطلائع زحفوا خلف الراية الملكية ، واجتازوا الممرات الجبلية الضيقة دونما صعوبات تذكر ، وأقاموا المعسكر

دونما معارضة ، وذلك في موقع مناسب ، وكانوا يجهلون بشكل مطبق كل ماحدث للجيش في المؤخرة ، ومع هذا فقد وجدوا أن وصول الجند قد أعاقة عائق ما ، وأن التأخر الكبير لوصولهم ماهو الانذير شؤم يحمل خبر مصيبة ما ، وتوجسوا جميعا وقوع شر لايمكنهم دفعه ، لكن عندما وصل الذين نجوا بمرافقة الملك الى المعسكر غدت اخبار الكارثة مؤكدة ومعروفة ،وعندها أخذ الحزن مأخذه من الجيش ، كما أستحوذ الخوف والقلق على قلوب الجميع ، وبأصوات مرتجفة ووسط الدموع والآهات فتش كل واحد عن هؤلاء الذين كانوا أعزاء عليه ، وعندما عرفوا خبر فقدانهم تضاعف الحزن ، وترددت أصوات البكاء والنحيب في جنبات المعسكر ، ومزق الذعر قلوب العساكر ، ولم يكن في المعسكر مكان لم يكن ممتلئا ببكاء الأصحاب والأهل والرفاق ، فواحد فتش عن والده وآخر عن سيده ، وامرأة تبحث في كل مكان عن ولدها ، وأخرى عن زوجها ، وأمضى هؤلاء الذين لم تثمر أعمال بحثهم عن شيء ، أمضوا ليلتهم بلا نوم ، وكانوا مثقلين بالخوف والقلق من شر ماوقع على المتغيبين ، وحدث أثناء الليل أن وصلت جماعات من كل فئة ، كلهم نجا بعامل الحظ لابحسن التدبير ، ذلك أنهم تخفوا بين الاحراج والصخور وفي داخل الحفر ، وتستروا تحت جنح الظلام الذي حماهم ، ورأف بهم ، ووقعت هذه الكارثة في كانون الثاني من سنة ١١٤٦ لتجسيد الرب (١٦) .

وبدأ المعسكر منذ ذلك الحين يشهد نقصا في الخبز وبقية المؤن ، زد على هذا أنه لم يكن هناك سوق وبيع وشراء من أي نوع ، والاسوأ من هذا والأنكى أن أهل المعسكر لم يكن لديهم أدلاء يرشدونهم ، وكانوا تائهين يزحفون هنا وهناك دون أن يعرفوا أين هم ، وأخيرا دخلوا الى بلدة بامفيلا ، وبعد اجتيازهم لمنحدرات جبلية شديدة الوعورة ، ولأودية عميقة ، وبعدما واجهوا شديد العناء ، إنما دون الصدام بالعدو نجحوا في الوصول الى انطالية التي كانت حاضرة منطقة حملت اسمها ، وتقع أنطالية على شاطيء

البحر ، وهي تابعة لامبراطور القسطنطينية ، وتحتوي على حقول غنية جدا ، إنما كانت بلا منافع لأهل المدينة ، لأنهم كانوا محاطين بالأعداء من كل جانب ، مما أعاق زراعتها ، ولهذا تركت الأراضي الجرداء بورا ، لأنه لم يكن هناك من يعمل بها ، ومع ذلك فلقد كان لهذا المكان مزايا وفوائد أخرى كبيرة ، منها : سهولة الوصول اليه من قبل الزوار ، وبهاء الموقع وروعته وكثرة مياهه الصافية والصحية ، ولأنه كان مزروعا بأشجار الفواكه ، كما كانت الحبوب تحمل اليه من وراء البحار بكميات وافرة ، لذلك كان هذا الملجأ مملوءا بجميع المؤن الضرورية للحياة.

وكانت حدودها قريبة جدا من أراضي العدو ، ونظرا لعدم استطاعتها مواجهة غاراته المتواصلة عليها ، فإنها كانت تدفع الجزية له ، وبسبب هذه الصلات ، فقد احتفظت أنطالية بتجارة البضائع الأساسية مع العدو ، وقد صحف عساكرنا اسم هذه المدينة ، فلفظوها « ساضاليا » ذلك انهم لم يكونوا معتادين على اللغة الاغريقية ، ومن اسم أنطالية نجد أن المنطقة البحرية الممتدة من ليسدونا الى جزيرة قبرص قد دعيت باسم بحر أنطالية ، وهو يعرف بشكل عام في استخداماتنا باسم « خليج ساضاليا ».

وفي أنطالية عاني ملك الفرنجة وشعبه من نقص شديد بالأطعمة تسبب عن الزيادة العظيمة التي طرأت على عدد السكان هناك ، وفي الحقيقة كان ما حدث أن الناجين من الجيش ، وخاصة الفقراء منهم هلكوا جوعا ، وفي أنطالية ترك الملك شعبه ليتابع أفراده الزحف على أقدامهم ، وركب هو مع نبلائه ظهر احدى السفن ، وحين أبحر كانت كل من اسوريا وكليكية على يساره وجزيرة قبرص على اليمين ، وكانت الرحلة قصيرة ، وقد وافقته ريح طيبة ، ولقد ابحروا الى داخل فم (مصب) نهر العاصي الذي يمر

بانطالية ، وألقوا مراسيهم قرب مكان اسمه ميناء القديس سمعان (السويدية) على مقربة من مدينة سلوقية القديمة التي تقع على بعد عشرة أميال من انطاكية (١٧) .

٢٧ - ريموند امير انطاكية يستقبل ملك الفرنجة في ميناء القديس سمعان بكل حفاوة ويصحبه الى انطاكية . فيما سيقع الخلاف بينهما ويفترقان .

انتظر ريموند امير انطاكية عدة ايام وصول ملك فرنسا بشوق كبير ، ولدى سماعه بأن الملك نزل في مملكته ، جمع جميع نبلائه وأعيان الناس ، وذهب لاستقباله يرافقه وفد خاص ، وقام بتلقيه أحسن لقاء ، وحياه أطيب التحيات ، ورافقه الى انطاكية وسط مظاهر من الابهة والحفاوة الكبيرتين ، وهناك في أنطاكية استقبل الملك من قبل الاكليروس والشعب ، وكان ريموند قد تصور منذ زمن - في الحقيقة منذ أن سمع أن لويس قادم - انه بمساعدة لويس سيتمكن من توسيع رقعة إمارة أنطاكية ، ولما كانت هذه الفكرة في ذهنه نجده قد أرسل الى الملك لويس - وهو مازال في فرنسا - لم يبدأ بعد رحلته للحج - هدايا وتحف ذات اثمان مرتفعة ، كل ذلك على أمل أن يكسب مودته ، وقد علق كبير الآمال على الملكة التي جاءت برفقة الملك ، وكانت رفيقته التي لم تفارقه على طريق حجة ، ذلك أنها الابنة الكبرى لأخيه الكونت وليم صاحب بواتو (١٨) .

وكما ذكرنا من قبل أظهر ريموند تجاه الملك كل رعاية وعناية ، كما أبدى الشاعر نفسها تجاه نبلائه وأعيان حاشيته الملكية ، وبرهن لهم مرارا عن مدى كرمه ، وباختصار بذل كل ما امكنه من تبجيل وإكرام لكل واحد من النبلاء كل حسب مرتبته ، وتصرف بكل

أبهـــــــــــة واريحية ، ذلك انه كان كله امـــــــــــل انه بمساعدة الملك لويس وعساكره سيتمكن مـــن الاســـتيلاء على المدن المجاورة لانطاكية مثل : حلب وشيزر ومدن أخرى كثيرة ، وحتى لا يتلاشى أمله سعى لاقناع الملك مع أعيان رجاله لتلبية رغباته وتقـــديم العون له ، ذلك ان وصول الملك لويس سبب هلعا شديدا بين صفوف اعدائنا ، الى درجة انهم لم تضعف ثقتهم بقدراتهم فحســب ، بــل فقدوا الأمل بالحياة أيضا .

وحاول ريموند ، أكثــر مـــن مـــرة ، أن يشرح للملك في جلســات خاصة خططه التي في ذهنه ، وقام الآن بعرض افكاره أمام اعضـــاء حاشية الملك والنبلاء بشكل رسمي ، وأوضح لهـــم كيف أن مـــطالبه يمكن تحقيقه دونما مصاعب ، وكم سيجلب لهم من منافع وشهره ، ولكن الملك كان مصرا على تنفيذ رغبته في الذهاب الى القدس للوفاء بنذره ، ولم يتزحزح عن قراره هذا أبدا ، وعندما وجد ريموند بـــأنه لن يستطيع اقناع الملك بالتحالف معـــه والموافقـــة على خـــططه غير موافقه منه ، وبدل معاملته له ، ذلك انه شعر بأن مطامحه واهـــدافه قد احبطت ، لذلك أبدى كراهته لتصرفات الملك ، وقام بالتآمر ضـــده بشكل مكشوف ، كما اعتمد جميع الوسائل لايذائه ، وقـــرر انتـــزاع زوجته منه بالقوة او عن طريق التآمـــر ، وابـــدت الملكة على الفـــور موافقتها على ذلك لانها كانت امرأة حمقـــاء (١٩) ، وكانت جميع أعمالها وتصرفاتها من قبل ومن بعد تؤكد هذا وتبـــرهن انهـــا كانت طائشة غير مبالية ، مما يتنافى مع مكانتها الملكية ، حتى انها لم تقم اي اعتبار لميثاق الزواج ، ولم تكن مخلصة لزوجها .

وما أن اكتشف الملك هذه المؤامرات حتى اتخذ جميع الاحتياطات لحماية حياته ، وللتصدي لخطط الامير ، وقـــام بناء على نصـــيحة نبلائه بالاسراع بمغادرة أنطاكية سرا يرافقه افـــراد شـــعبه ، وعلى هذا فان روعة مشاهدة هذه الحوادث قـــد تغيرت تمـــاما ، حيث أن

البداية اختلفت كليا عن النهـاية ، فقـد أحيط قـدومه بـالأبهة والاحتفاء ، وانعكست الأمور فكانت مغادرته محاطة بالاهمال التام وعدم الاكتراث.

ويعـزو بعض الناس هـذا كله الى سـوء تصرف الملك ونكرانه للجميل ، وانه بذلك تلقـى جـزاءه العـادل ، حيث أنه لم يسـتجب لمطالب أمير عظيم ، قدم له ولأتباعه رعاية وحسن معاملة ، ولهـذا الرأي مكانة خاصة ، سيما وان أصـحابه يؤكدون أنه لو اسـتجاب لمطلب الأمير ، واوقـف نفسـه على تنفيذ مشروعه ، لسـقطت واحدة أو اكثر ، من المدن المذكورة آنفا وبكل سهولة.

٢٨ ــ انقضـاء الشـتاء ــ وصـول الامبـراطور كونراد الى سورية بحرا ــ وصـول الكونت الفـونسو الى مدينة عكا ووفاته في قيسارية.

أمضى امبراطور كونراد الشتاء في العاصمة الملكية ، وقد عومل هناك بكل احترام من قبل امبراطور القسطنطينية ، ولقي منه من الاكرام ما يليق بمكانته كأمير عظيم ،ولدى مغادرته للمدينة أتحفه بعدد كبير من الهدايا الفخمة ، وأبحر كونراد محاطا بحاشيته من النبلاء على متن اسطول أعد له خصيصا مـن قبـل صـاحب الجـلالة الامبراطورية ، واتجه به هذا الاسطول نحـو الشرق ، وأرسى قلوعه في ميناء عكا ، حيث توجه كونراد من هناك الى القدس ، وقام الملك بلدوين ــ ملك القـدس ــ مـع الطيب الذكر البـطريرك فـولتشر يصحبهما الاكليروس وجميع الشعب بتلقيه خارج المدينة ، ومشوا في ركابه الى داخلها وسط الأغاني والأناشيد(٢٠)

وفي الوقت نفسه وصل الى عكا رجل عظيم المكانة وواسع الشهرة هو الفونسو كونت طولوز ، وهو ابن الكونت ريموند الاكبـر ، ذلك

القائد الكبير الذي قام بأعمال هامة في الحملة الأولى ، وكان الفونسو هذا رجلا سامي المكانة ، لما يتمتع به من صفات ، وأكثر من هذا بسبب مكانة أبيه وذكراه الطيبة ، وبينما كان في طريقه الى القدس لتقديم فروض الشكر والامتنان لتوفيقه في انجاز مهمة حجة ، توقف عند ساحل مدينة قيسارية ، وبعد وصوله الى هناك بأيام وقع مريضا ومات ، ولقد أشيع بأن السم قد دس له ، لكن مدبر ذلك لم يتم اكتشافه ، وكان الناس جميعا قد انتظروا وصول هذا الرجل الطيب الذكر بفارغ الصبر ، ذلك أنهم كانوا كلهم أمل ورجاء بأنه سيجلب معه السعادة والازدهار للملكة ، وذلك تيمنا بسيرة والده العظيم.

٢٩ ــ ملك فرنسا يغادر أنطاكية ويتابع سيره نحو القدس ــ ارسال بطريرك القدس لاستقباله.

ووصلت الأخبار في ذلك الحين الى القدس ، تفيد بأن ملك الفرنج قد غادر أنطاكية ، وهو الآن على مشارف أراضي طرابلس وهنا قرر النبلاء في المملكة بالاجماع ارسال فولتشر بطريرك القدس ــ طابت ذكراه ــ ليقدم دعوة للملك تتناسب مع مقامه وليعبر له عن تحيات الجميع ، ودعوتهم له لزيارة المملكة ، واتخذ هذا الأجراء خشية أن يتصالح مع أمير أنطاكية فيعود اليها ، أو أن يحتفظ كونت طرابلس به بحكم قرابته منه ، مما كان سيؤدي في كلتا الحالتين الى اعاقة رغبات شعب المملكة.

وتوزعت ممتلكات اللاتين في المشرق بين أربع امارات : كانت أولاها واقعة إلى الجنوب من مملكة القدس ، التي تبدأ بجدول ماء يجري بين جبيل وبيروت ، وتضم المدن الساحلية لمنطقة فينيقية ، وتنتهي بالصحراء الواقعة خلف الداروم ، وتقوم الثانية في الشمال ، وهي كونتيه طرابلس وتبدأ من الجدول الآنف الذكر وتمتد

إلى جدول آخر قائم بين مرقية و بانياس ، وتحتوي أيضا على مدن ساحلية ، وكانت امارة أنطاكية هي الامارة الثـالثة ، وتمتـد مـن الجدول الآنف الذكر غربا حتى طرسوس في كيليكية ، والرها هـي القسم الرابع ، وتبدأ من غابة تدعى مريم ، وتمتد شرقا إلى ما وراء نهر الفرات .

ومنذ البداية عاش جميع كبار أمراء هذه المناطق وأكثرهم قـوة على رجاء وأمل انه بالمساعدة الفعالة لهؤلاء الملوك القادمين سيكون بالامكان توسيع رقعة أراضيهم ، ومد حدودهم بشـكل كبير جـدا ، فلكل منهم توفر عدو قوي كانت مدنه البغيضـة ، قـريبة جـدا إلى اراضيهم إلى درجة أن كل واحد منهم رغب رغبة حقيقية جـامحة في ضمها إلى ممتلكاته ، وعلى هذا فـالجميع كانوا في قلق واضـطراب حول قضاياهم الخاصة ، وكلهم راغب في توسيع أراضـيه ، ولهـذا نوى كل واحد منهم أن يسبق الآخـر بـارسال الرسـل والهـدايا والدعوات لكل من الملكين ، ومع ذلك فقد بـدا بين هؤلاء جميعـا أن آمال ملك القدس واماني أهلهـا هـي الأقـرب إلى التحقيق مـن سواها ، ذلك أن حب الأماكن المقدسة واجلالها ، لا شك أنه يجـذب الجميع إلى هناك ، زد على هـذا أن الامبـراطور كان مـع أهـل القدس ، لذلك كان هناك سـبب بليغ للاعتقـاد بـأن ملك الفـرنجة سيسرع الخطى نحو القـدس ، لينجـز كلاهمـا حجـه ، وليؤدي صلواته ، ثم لينخرط في عمل ما يكون مفيدا للنصرانية ، كما كان قد تقرر في الاجتماع العام . وخشي أعيان مملكة القدس أن يقـدم أمير انطاكية على منع الملك لويس من السفر ويبقيه في منطقة حلب لسبب روابط القرابة بينهما والصداقة ، وكان هذا أمرا واضحا ومعقولا ، كما أنهم خشوا من تدخل الملكة ، لهذا سارعوا بـارسال البـطريرك لمقابلته .

ولدى معرفتهم بأن الملك والأمير قد افترقا وهما أبعـد الناس عن

مشاعر الصداقة شعروا بمزيد من الأمل بأن الملك سيقدم إلى القدس دونما تأخير ، ومع هذا ، وخشية الحظ العاثر ، وحتى يتم مسبقا تدارك أي شيء يمكن حدوثه ، أرسلوا البطريرك المبجل كيما يستخدم نفوذه على الملك ، ولم يكن هذا الأمر المأمول عبثا ، فقد قنع الملك بكلمات فولتشر وتابع سيره نحو القدس ، وخرج جميع رجال الاكليروس وأهل المدينة لاستقباله لدى وصوله ، وقد استقبل استقبالا حافلا يليق بمقامه ، ودخل المدينة مرحبا به ، ومضى وسط الاناشيد والهتافات يقوده النبلاء لزيارة الأماكن المقدسة .

ولدى اتمامه آخر صلواته تم الاعلان ـ تبعا للتقاليد المرعية ـ عن عقد مجمع عام في مدينة عكا لاستعراض نتائج هذا الحج العظيم ، وللعمل على اتمام هذا الجهد غير الاعتيادي ، وللتباحث في مدرقعة المملكة ، وفي التاريخ المحدد التقى الجميع في عكا وعقدوا مجمعهم كما كان مخططا ، ثم شرعوا مع نبلاء المملكة الذين يملكون معلومات دقيقة بالوقائع والأماكن ، وانخرطوا في مناقشة دقيقة حول اعتبار أي الخطط اكثر فائدة (٢١)

نهاية الكتاب السادس عشر

بداية الكتاب السابع عشر

الاستيلاء على عسقلان محصلة ما باءت به الحملة الصليبية الثانية .

١ ـ عقد اجتماع عام في مدينة عكا الساحلية ـ اسماء الحضور من الامراء

إنه لأمر مفيد ، ويتوافق مع روح هذا التاريخ أن نأتي على ذكر أسماء النبلاء الذين كانوا حاضرين في المؤتمر ، لقد كانوا رجالا جاؤوا من بلدان عالية المكانة ، لذا ينبغي علينا أن نأتي على ذكرهم هنا لمنفعة الاجيال المقبلة : وتصدر كونراد ـ ملك الالمان وامبراطور الرومان ـ الجمع ، وكان بصحبته من نبلاء الاكليروس في بلاطه : أوتو ـ أخوه ـ الذي كان أسقف فريزنغ ، وكان رجل فكر وكتابة(٢٢) ، وستيفن أسقف متز ، وهنري اسقف تول ، وهو اخو ثيري كونت فلاندرز ، وثيوتون اسقف بورتو ، وممثل البابا ، وكان اصله المانيا ، وقد قام بمرافقة الركب الامبراطوري بناء على امر من البابا يوجينوس.

وكان بين الأمراء العلمانيين الحاضرين : هنري دوق النمسا ، وهو أخو الامبراطور ، ودوق غيولف ، الذي كان من ابرز النبلاء وأكثرهم قوة ، وفريدريك ، الواسع الشهرة ، دوق سوابيا وفندلسيا (وربما بافاريا) وهو ابن اكبر اخوة الامبراطور ، وكان هذا الأمير المذكور اخيرا شابا متميز الصفات ، وقد خلف عمه كونراد فيما بعد ، وهو يقوم اليوم بحكم الامبراطورية الرومانية بكل نشاط وشجاعة ، وكان بين الحاضرين ايضا هرمان مركيز فيرونا ، وبرثولد سيد أندش ، ثم دوق بافاريا فيما بعد ، ووليم

الأكبر مركيز مونتفرات ، عديل الامبـراطور في الزواج ، وغي كونت بلاندراس ، الذي كانت زوجته أخت المركيز الســابق الذكر ، وكان الاميران المذكوران أخيرا من أعظم الأمراء وأكثرهم شـهرة ، وقـد جاءا جميعا من لومباردي ، كما كان هناك عدد آخر من الرجال ذوي المناصب العالية ، لم أعد أذكر أسماءهم (٢٣) .

وكان لويس العــظيم الذكر ، وملك الفــرنجة التقـــي ، بين الحاضرين ، وبصحبته غودفري أسقف لانجرز ، وارنولف أسـقف ليز أوكس ، وغي سيد فلورنسا ، وكردينال كاهــن لكنيســة رومـا واسمهاكنيسة القـديس كريسـوغونوس ، والقـاصد الرسـولي ، وروبرت كونت برشي ، وهو أخو الملك ، وهنري كونت ترويس ابـن الكونت ثيوبولد الأكبر ، وفي الوقت نفسه ختن الملك ، وكان شـابا له أخـلاق ومـزايا عالية ، وكان مــع الملك ثيري الكونت الكبير لبـلاد فلاندرز ، وكان عديلا بالزواج لملك القدس ، وايفس من ســواسون الذي كان رجلا عاقلا ومخلصا ، كما كان هناك عدد آخر من النبلاء الكبار أصحاب المراتب العالية وهم جديرون جميعا بالذكر ، لكن بما أن ذلك سيشغل حيزا كبيرا ، تعمدت حذف أسمائهم (٢٤) .

وحضر من رجال بلادنا : بلدوين ملك القدس ، وهو شــاب يبشر بمستقبل عظيم ، وحضرت معه والدته ، التي كانت سيدة عاقلة فاقت مثيلاتها ، قوية القلب ، ولم تكن أقل حـكمة وتـدبيرا مــن أي مـن الأمراء الحضور ، وكان بمــرافقتها البــطريرك فـولتشر ، وبلدوين أسقف قيسارية ، وروبرت رئيس أساقفة الناصرة ، وروجر أسقف عكا ، وبرنارد أسقف صيدا ، ووليم أسـقف بيروت ، وآدم أسـقف بانياس (الداخل) وجيرالد اسـقف بيت لحــم ، وروبـرت مقـدم فرسان المعبد (الداوية) ، وريموند مقدم فرسان الاسبتارية(٢٥) .

وكان بين أعيان النبــلاء الحــاضرين مـاتسيس المراقــب الملكي العــام ، وفيليب أمير نابلس ، وإيلينا صــاحب طبـرية ، وجيرارد

صاحب صيدا ، وولتر صاحب قيسارية ، وبينز صاحب المناطق الواقعة فيما دون الأردن ، وبالين الأكبر ، وهمفري سيد تورون ، وغي صاحب بيروت ، وآخرون كثر ، لو اكتفيت بتسجيل أسمائهم ، لاحتاج ذلك مني حيزا كبيرا ، ولقد اجتمع هؤلاء الرجال ، كما أسلفنا الذكر في مدينة عكا بقصد التباحث قبل كل شيء حول احسن الاوقات والاماكن التي ينبغي بذل الجهد فيها ،انشاء الرب ، لتوسيع رقعة المملكة ، ولاضافة مفاخر جديدة الى اسم المسيحية .

٢ — قرروا جميعا القاء الحصار على مدينة دمشق ، والزحف نحوها حسبما تمّ الاتفاق بينهم :

وتبعا لهذا فان القضية بحثت بحثا دقيقا ، وعرضت الآراء المتباينة ، وكان اخذ ورد كما هي العادة اثناء بحث مثل هذه القضايا الهامة وتم الاتفاق اخيرا ، انه في الظروف الحالية يبقى افضل الأعمال هو الاقدام على حصار دمشق ، ذلك انها مدينة كانت تشكل خطرا كبيرا علينا ، وعندما تم الوصول الى هذا القرار ، صدر الامر الى صاحب النفير ، ان يعلن للملأ بان عليهم جميعا ان يكونوا في اليوم المحدد جاهزين بلا تلكؤ ، لقيادة عساكرهم نحو تلك الاماكن ، وبناء على هذا حشدت جميع الطاقات العسكرية للمملكة من فرسان ومشاة من كلا الجانبين : البلديين والحجاج ووصل الملكان المحبوبان من الرب ، وبرفقتهما قواتهما ايضا ، وبعد هذا عندما حل اليوم الخامس والعشرون من شهر ايار لسنة ١١٤٧ لتجسيد ربنا ، زحفت الجيوش المتحدة يقودها صليب الصلبوت كما كان مقررا من قبل ، وأخذت الطريق نحو طبرية (٢٦) ثم توجهت الحشود جميعها من هناك ، فسايرت اقصر الطرق حول بحيرة طبريا حتى بانياس (التي كانت تعرف باسم قيسارية فيليب) ، حيث تم التباحث مع عدد من الاشخاص الذين كانوا من ذوي المعرفة الكبيرة بالاحوال داخل دمشق والمناطق المجاورة لها ، وبعد التداول بين القادة قرروا ان خير وسيلة لمضايقة دمشق وحصارها ، الاستيلاء اولا على

البساتين التي تحيط بالجزء الأكبر من المدينة وتقدم لها حماية كبيرة ، حيث انه بعد الاستيلاء على هذه البساتين سيكون من السهل حتما الاستيلاء على المدينة .

وبغية تنفيذ هذه الخطة ، استأنفوا زحفهم ، فاجتازوا جبل لبنان الشهير القائم بين بانياس ودمشق ، ثم نزلوا قرية داريا التي تبعد عن المدينة مسافة اربعةاميال او خمسة ، وكان من السهل من هذا المكان رؤية مدينة دمشق والمنبسطات المحيطة بها .

٢ ـ وصف اوضاع مدينة دمشق :

مدينة دمشق هي أكبر مدن سورية الصغرى ، التي تدعى احيانا لبنان فينيقية ، وهي أيضا مركز تلك المنطقة ، وذلك أننا نقرأ: « رأس سورية دمشق (٢٧) » ، وقد اشتق اسم هذه المدينة من اسم مؤسسها وشهرته ، وكان واحدا من خدم ابراهيم ، ومعناه المدينة الدموية ، أو المدينة المليئة بالدم (٢٨) ، وهي تقع وسط سهل جاف جدب فيما عدا المسقي منها بواسطة أقنية ، تجلب المياه من علو لمنفعتها ، وينحدر من الشعاب الجبلية في الجزء الاكبر ، من تلك المنطقة نهر تنقل مياهه في أقنية تساق بها المياه وسط السهل ، لتوزع في مختلف المناطق المنخفضة جالبة الخصب للتربة الجافة ، وحيث ان المياه كثيرة جدا ، فإن النهر يسقي ايضا البساتين الممتدة على جانبيه ، والمزروعة بمختلف الأشجار المثمرة ، ويتابع النهر سيره مخترقا الجانب الشرقي من المدينة .

ونظرا لقرب المدينة من داريا ، فقد قام الملوك هناك بتعبئة قواتهم وصفوها استعدادا للمعركة ، وعينوا لكل فرقة مهامها واهدافها ، وذلك انهم لو زحفوا بلا اعداد ، لكان من الممكن قيام النزاعات بين بعضهم ، مما كان يسبب اعاقة تنفيذ المهام الملقاة امامهم .

وقد عهد بالاجماع من قبل جميع الأمراء الى الفـرقة التـي كانت تحت قيادة ملك القدس بمهام التقدم أمام الجميع وشق الطريق لبقية الفرق خلفها ، وذلك على اساس الافتراض انهـا كانت اكثـر دراية بالمنطقة ، وعهد الى ملك الفرنجة وجيشة بالبقاء في قلب الجيش ، أو الصف الثاني على أساس أنه إذا دعت الحاجة يمكنهم تقديم العون للصفوف الأمامية ، وعهد في الوقت نفسه إلى الامبـراطور بـالصف الثالث ، أو المؤخرة ليكون جاهزا لمقاومة العـدو ، وفيمـا لو حـدث وقام بهجوم من الخلف ، وهكذا يمكنه حماية العساكر المتقدمة مـن خطر اية مفاجأة تأتي من الخلف ، وعندما تم توزيع هـذه الجيوش الثلاثة حسب النظام الاستراتيجي الموصوف ، قدموا المعسـكر إلى الأمام ، وحاولوا قدر استطاعتهم الاقتراب من المدينة .

وتمتد البساتين باتجاه الغرب من حيث جاءت قـواتنا ، وبـاتجاه الشمال أيضا مسافة خمسـة أميال أو أكثـر بـاتجاه لبنان ، وقـد احاطت بالمدينة من جميع الجوانب بشـكل واسـع وعميق ، وكانت اشبه بالغابات المظلمة لكثافة اشجارها ، وقام كل واحد من اصحاب هذه البساتين بـاحاطة بسـتانه بجـدار تـرابي (دك) بغية منع اللصوص من دخولها ولحمايتها ولتحديد مساحتها وفصـلها عمـن سواها ، واستخدمت الجـدر التـرابية لانعـدام الاحجـار في تلك المنطقة ، وقد ترك الناس بين هذه البساتين طرقا عامة يسـتخدمها الجميع ، لكنها كانت ممرات ضيقة ، إنما كافية بالسماح لأصحاب البساتين والعاملين بها اجتيازها على ظهور الحيوانات التـي كانت تحمل الفواكه إلى المدينة .

وشكلت هذه البسـاتين وسـيلة وقـاية كبيرة للمـدينة ، حيث ان الأشجار المزروعة إلى جانب بعضها والممـرات الضـيقة ، كل ذلك جعل من الصعب – إن لم يكن مـن المسـتحيل – بـالنسبة لأي انسان الوصول إلى دمشق من ذلك الاتجاه ، ومع هـذا فقـد قـرر قادتنا – منذ البداية – أن يقودوا الجيش من البساتين ، وبذلك

يفتتحون ممرات توصلهم الى المدينة ، وكان مرد ذلك إلى سـببين : أولهما أنه بعد الاستيلاء على هذه الاماكن الشديدة التحصين والتي وضع بها أهل دمشق عظيم ثقتهم ، سيكون مابقي أخـف وأسـهل تنفيذا ، وثانيهما أنهم (قادة الفرنجة) رغبوا في تمكين عسـاكرهم من استغلال الفواكه والاستفادة من الماء ٠

وبناء على هذا كان ملك القدس أول من قاد رجاله بين ممـرات البساتين الضـيقة هـذه ، وتقـدم الجيش بين مختلف العـوائق والمصاعب ، فقد اعيق تقدمه أحيانا بواسطة الممرات الضيقة ، كمـا تعرض من جهة ثانية لمخاطر هجمات العدو الجريئة وكمـائنه التـي نصبها مموهة بين جـذوع الأشـجار ، وقـد اقتضى الحـال احيانا الدخول في معارك مكشوفة ، ذلك أن العدو اغلق المنافذ ، واسـتولى على منعرجات الممرات الضيقة ، وزحف أهل دمشق جميعا وجاؤوا الى البساتين في نظام واحد وارادة متفقة ، في محاولة لايقاف تقـدم الجيش ومنعه من المرور ، بكل من وسائل القتال المبـاشر والقتـال من وراء المساتر .

يضاف الى هذا كله أنه قام بين البساتين ابنية (قصور – ابراج) محصنة بشكل جيد ، ومدافع عنها من اناس كانت ممتلكاتهـم على مقربة منها ، لهذا عقدوا العزم على الدفاع عنها ، وقد قاموا من هذه الموانع والحواجز في صب سـيل مـن النبـال مـع بقية انواع المقذوفات وبهذا منعوا حدائقهم ، وحالوا دون الوصول اليها ، ثم ان الاسهم المرمية عن بعد جعلت الزحف الجماعي غير مأمون تمـاما ، ولم تات هذه الاجراءات الرهيبة ضد قـواتنا الزاحفـة مـن جهـة البساتين فقط ، بل توفرت المخاطر من المعيار نفسـه لكل مـن كان يحاول العبور من جميع الاتجـاهات فـالرعب الذي كان يقـود الى الموت كان يصدر من كل مكان واتجاه ، فعلى طول الجدران اختبـأ من خلفها رجال لم يكن بالامكان رؤيتهم وكانوا مسلحين بالرماح ، وكانوا بامكانهم النظر والمراقبة مـن فتحـات صـغيرة اعدت بـدقة

خصيصا في الجدران ، ليطعن منها الذين كانوا يحاولون العبـور في خواصرهم واطرافهم ، ولقد قيل ان عددا كبيرا من رجالنا قـد هلك بكل تعاسة ، بواسطة هذه الطريقة في ذلك اليوم وخلاصة القـول : ان المخاطر التي اعتـرضت سـبيل اولئك الذين حـاولوا عبـور تلك الممرات الضيقة لاتعد ولاتحصى .

٤ ـ النصـارى يشـقون طـريقهم بـالقوة بين البساتين ويستولون بشدة على النهـر بـرغم وجـود الاعداء ، وهو نجاح رائع للامبـراطور يثير الدهشـة ويستحق الوصف .

وادراكا من المسيحيين ادراكا كاملا للوضع ، زادوا مـن عنف ضغطهم ، فهدموا المبـاني ـ وازالوا الحـواجز بـكل مقـدرة ، واستولوا بحماسة على البساتين ، ووضعوا كل من وجـدوه داخـل البيوت طعمة للسيف ، أو أخذوه أسيرا ، ولدى توافد اهـالي البلد الذين خرجوا مـن المدينة للمسـاعدة على الدفـاع عن البسـاتين ومعرفتهم بما حدث ، تراجعوا خائفين خشية ان يتعرضوا للمخاطر نفسها ثم هربوا إلى داخل المدينة جماعات جماعات ، وحـدث الان انه بعدما قتل من قتل من العدو ، وهرب الباقون ان دخلت قـواتنا الى داخل البساتين ودونما معارضة .

ولدى ملاحظة اهالي دمشق بان النصارى سيقدمون حالا مـن البساتين الى حصار المدينة تقدمت الخيالة الموجودة لديهم مع قوات الحلفاء الذين هبوا لعونهم ، وسارعوا جميعـا نحـو النهـر الذي يجري الى داخل المدينة ، وأملوا انهم باستخدامهم للنبل والنشـاب والحراب سيتمكنون من ابعاد عساكر العـدو المنهـكة عن النهـر ، ومنعها من اطفاء عطشها الشديد بـالماء الذي طـال شـوقهم اليه ، وحالما علم النصارى باقترابهم من النهر اندفعوا نحوه عاقدين العزم

على اطفاء عطشهم الذي لايرحم والذي نجم عما بـذلوه في ذلك اليوم من جهود مضنية ، ونتيجة لسحب الغبار التي تشكلت بفعل حـوافر الخيول واقدام الرجالة ، ولدى رؤيتهم لحشود القـوات المتجمعـة حـــول النهـــر ، تــــوقفوا قليلا ، وجمعـــوا شجاعتهم ، وأعادوا رص صفوفهم وتنظيمهم بعدها منحتهم الحاجة مزيدا من الجرأة والاندفاع وتقـدموا يكافحـون ثـانية في ســبيل الاستيلاء على النهر ، لكن عبثا فعلوا فقد نالوا المزيد من الاخفاق .

وبينما كان الملك وقواته عبثـا يحـاولون الاسـتيلاء على النهـر استفسر الامبراطور كونراد ، الذي كان يقـود الصـفوف الخلفية ، حول سبب عدم تقدم الجيش ، فـأخبر بـأن العـدو متملك للنهـر ولايسمح لقواتنا بالمرور ، فاغضبته هـذه الاخبـار ، وقـام بقيادة فرسانه ، واسرع الخطا نحو مكان المعركة مخترقا صـفوف قـوات الملك التي كانت تحاول الاستيلاء على النهر ، وهنا قفز الجميع مـن على ظهور خيولهم وترجلوا كما جرت عادة الالمان ، فهم عندما كان يحزبهم امر ويشتد بهم القتال يترجلون ويحملون ترستهم بـايديهم امامهم ويشتبكون بقتـال يد الى يد بـوساطة السـيوف ، وقـاوم الدمشقيون في البداية بكل شجاعة لكنهم حالما شـعروا انه مـا عاد بامكانهم الصمود في وجه الهجوم العاتي تخلوا عن النهر وهربوا نحو المدينة بكل سرعة ممكنة (٢٩) .

ولقد قيل بأن الامبراطور قـام أثناء القتـال بإنجـاز يسـتحق التنويه به ، وبرهن على براعة جديرة بالذكر ، ذلك أنه تمكن من قتل واحد من كبار فرسان التركمان ، كان يبذل جهودا مضنية ويظهـر شجاعة نادرة في المقاومة ، حيث نفحه الامبراطور بضربـة واحـدة بالسيف ، فأزال منه الرأس والرقبة والكتف الأيسر والذراع المعلق به ، وقد بعث هذا العمـل الهلع ليس في قلوب الذين شـهدوا هـذه البراعة التي لانظير لها ، بل في قلوب الذين سمعوا بهـا ، الى حـد انهم فقدوا كل أمل بالمقاومة وقنطوا من الحياة نفسها .

- ٣٠٨٩ -

٥ـ سكان دمشق شرعوا لقنوطهم بالتفكير بالفرار ، تقديمهم الرشوة لبعض قادة النصارى الذين قام الجيش بناء على تحريضاتهم بالتحول الى الجهة المقابلة من المدينة .

أما والنهر قد تملكه النصارى وصاروا يصلون الى ضفتيه بكل حرية فإنهم نصبوا الآن معسكرهم على امتداد ضفة النهر حول المدينة وتصرفوا بمياه النهر واستفادوا منها دونما معارضة ، كما تمتعوا بحرية العمل داخل البساتين ، واستولت الدهشة على أهل المدينة وبهتوا بسبب كثرة تعداد النصارى وشجاعتهم ، وبدأ يساورهم الشك فيما : اذا كانت قواهم كافية للتصدي لهم ، وخشية أن ينقض عليهم العدو بشكل مفاجيء ، عقدوا الاجتماعات لبحث الأمور وببراعة وحذاقة هؤلاء الذين يقعون في ظروف قاسية فيقدمون على اتخاذ القرارات الصعبة ، جاءوا بجذوع أشجار ضخمة وطويلة فسدوا بها جميع الطرقات على أطراف المدينة المقابلة لمعسكرنا ، ذلك أن أملهم الوحيد كان الآن في أن يتمكنوا من الفرار من الاتجاه المعاكس صحبة نسائهم واطفالهم وذلك أثناء انشغال النصارى في إزالة هذه الحواجز وتحطيمها .

وبدا لجميع الحضور أنه بمشيئة القدرة الربانية سيتم الاستيلاء على المدينة من قبل النصارى ، لكن الذي « فعله المرهب نحو بني ادم » (٣٠) قضى أمرا آخر ، فقد كانت المدينة بحالة من الهلع حيث فقد أهلها كل أمل لهم بالمقاومة ، وكانوا يعدون انفسهم ليغادروها بكل سرعة ، على أمل انقاذ حياتهم ، وفي تلك الساعة الحرجة ، وجزاء لذنوبنا ، بدأ الدمشقيون بالعمل على أساس معرفتهم بشره وشدة جشع بعض الناس ، فحاولوا عن طريق الرشاوى تملك قلوب هؤلاء الذين لم يكن لديهم الأمل في قهر أبدانهم ، واثر هذا وبناء عليه قامت منافسات بارعة ، قادها بعض

النبلاء الذين مارسوا دور يهوذا الخياني وأقنعوهم عن طريق الوعود بتسلم مبالغ طائلة من المال تم جمعها ، بالعمل على رفع الحصار ، وقام هؤلاء الرجال ، يقودهم الجشع ـ أصل الشرور جميعا ـ بالسماح لأنفسهم بالفساد عن طريق تسلم الرشاوى والوعود ، فغرقوا في مستنقع الجريمة ، وهكذا أقنعت مقترحاتهم الخبيثة الملك وأمراء الجيوش الذين وثقوا بهم تمام الثقة ، وركنوا الى اخلاصهم ، اقنعوهم بترك البساتين ، وتحويل الجيوش الى الجهة المعاكسة من المدينة ، وحتى يتمكنوا من تغطية جريمتهم احتجوا بقولهم بأن الجهة المعاكسة من المدينة ، التي تواجه الجنوب والشرق ، لايوجد فيها بساتين حماية ولانهر ولا خندق يعيق الوصول الى دفاعات العدو ، كما أعلنوا أن السور المنخفض والمبنى بطوب مجفف بالشمس ، من المستحيل أن يصمد في وجه أول هجوم ، وسيكون هناك حاجة قليلة لآلات الحصار ، وللجهود الكبيرة المبذولة في تلك الجهة ، فالسور سينهار مع أول ضربة ، ولن يكون من الصعب شق طريقهم بالقوة الى داخل المدينة ، وكان هدفهم الوحيد من هذه الحجج العمل على تحويل الجيش من موقعه الحالي ، ذلك أن المدينة هناك كانت قد تعرضت للضغط الشديد ، وباتت منعدمة القدرة على الاستمرار في الصمود ، ومع ذلك لم تسقط ، بينما في الجهة الأخرى من المحتمل عدم القدرة على الاستمرار في مقاومة الحصار ، وانطلت هذه الحيلة على الملوك وكبار قادة القوات المتحدة ، وآمنوا بصحة الأقوال المخادعة ، وهكذا تم التخلي عن الموقع الذي تمت حيازته بالجهد الكبير ، وبفقدان الرجال ، وتحولت جميع الفرق تحت قيادة الخونة عن مواقعها ، وأقيم المخيم في الجهة المعاكسة من المدينة .

وفي الحال ادركوا أن هذا الموقع كان بعيدا عن الفواكه الكثيرة والماء المتيسر الوصول اليه ، ولما بدأت الأطعمة في النقصان لاحظوا ان الخيانة قد عملت عملها ، وعندها ـ انما بعد فوات الاوان ـ أخذ الجميع يتمتمون بأنهم خدعوا في تحويلهم من ذلك الموقع المتاز (٣١)

٦ــ انعدام الطعام في المعسكر ــ وضوح معالم الخيانة الخبيثة ــ ورفع الحصار وعودة شعبنا الى دياره .

وبدأ الطعام بالنقص في المعسكر ، فقبل إقامة المعسكر ، قيد النصارى الى الاعتقاد بأن المدينة ستسقط دونما تأخير ، ولهذا جلبوا معهم من المؤن مايكفي لعدة أيام فقط ، وكان هذا هو الحال بالنسبة للحجاج بشكل خاص ، ولايمكن توجيه اللوم اليهم لذلك ، بسبب عدم معرفتهم بالبلاد ، فلقد تم اقناعهم بأن دمشق ستسقط مع أول هجوم ، وتم التأكيد لهم في الوقت نفسه أنه اذا انعدمت جميع المؤن ، فان جيشا كبيرا مهما كان حجمه يمكنه أن يعتمد في غذائه على الفواكه التي سيحصل عليها بلا مقابل (٣٢) ، وعم الشك وسيطر التوجس على النصارى في هذه الطوارىء ، وعقدت المشاورات الخاصة والعامة ، وبدا واضحا ان العودة الى الموقع السابق صعبة لابل مستحيلة ، لأنه ما ان انسحب النصارى حتى تحققت غايات العدو ، الذي سارع بالدخول الى البساتين لاقامة دفاعات اقوى مما سبق ، فالطريق التي سبق للنصارى ان دخلوا منها سدت الآن بجذوع اشجار ضخمة ، وبكميات من الصخور ، وتمركزت هناك وحدات كبيرة من النبالة حالت دون امكانية الدخول من اي جانب ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كان القيام بالهجوم من الموقع الحالي للمعسكر يتطلب بعض الانتظار ، وهذه مسألة لم تسمح بها حالة نقص المؤن .

واجتمع امراء الحج وتباحثوا بين بعضهم ، ووضحت لهم جميع معالم خيانة هؤلاء الذين وثقوا بهم ، واعتمدوا عليهم ، فأودعوهم حياتهم ومصالحهم ومنافعهم ، والمهم كثيرا أن يخدعوا بهذه الصورة ، واقتنعوا بأن عملهم لاحظ له بالنجاح ، لهذا قرروا التخلي عنه والعودة الى الديار ، وهكذا بسبب آثامنا ان الملك والأمراء الذين تجمعوا في أعداد لاتحصى

اجبروا على التراجع دون التمكن من تنفيذ مآربهم ، عادوا وهـم في لجة من الفوضى ومشاعر الخوف ، وسلكوا في طريق عودتهم نفسها الطريق التي أتوا عليها ، ونظروا منذ ذلك الحين ــ طيلة مدة بقائهم في المشرق ــ وحتى بعد ذلك ــ نظرة كلها ريبة الى جميع أعمال قادتهم ، ومالوا بحق الى الاعتقاد بأن جميع خططهم خطط خيانية ، وأظهروا لامبالاة تجاه قضايا المملكة ، وحتى بعدما اتيح لهم العودة الى بلادهم فان ذكرى الأخطاء التي عانوا منها ظلت مرافقة لهم ، وقدروا بغضب واشمئزاز أعمال أولئك النبلاء ، ولم يكن هذا حقيقة بالنسبة لهم فقط ، وانما امتد اثره الى آخرين ممن لم يكن حاضرا هناك ، فأدى الى التراخي في حب المملكة ورعاية مصالحها ، ونتيجة لكل ماسبق ، فان قلة من الناس هم الذين بقيت لديهم الحماسة للقيام بالحج ، زد على ذلك ، فانه حتى أيامنا هذه ، ان هؤلاء الذين يقدمون ، يخشون الوقوع في المحنة نفسها لذلك يجعلون اقامتهم قصيرة قدر الامكان .

٧ــ طرحت مختلف الآراء حول مسؤولية هذه الخيانة الكبيرة ــ الاقتراح بالقاء الحصار على عسقلان للمرة الثانية ، لكن المحاولة لم تنجح .

مازلت اذكر انني غالبا ماتباحثت مع عدد من الرجال العقلاء ، ممن لاتزال ذاكرتهم حول هذه الأيام واضحة ، بغية استخدام المعلومات التي يمكن الحصول عليها في هذا التاريخ(٣٣) ، وقد جهدت في سبيل معرفة اسباب هذا الخطأ الجسيم ، وكشف الذين خططوا لهذه الخيانة الكبيرة ، وكيف امكن تنفيذ جريمة من هذا النوع ، ولقد وجدت الروايات مختلفة حول هذا الموضوع ، وبعضهم يظن أن مرد ذلك الى أعمال قام بها كونت فلاندرز ، الذي شارك في هذه الحملة على رأس جيش خاص به (٣٤) ، فبعدما وصلت فرقتنا الى دمشق ، وتمكنت من الاستيلاء على

البساتين والنهر ، ووضعت المدينة تحت الحصار ، قيل أنه اجتمع بالملكين كل على حدة ، وواحد بعد الآخر ، وطلب منهما بالحاح بأن تسلم المدينة بعد سقوطها اليه ، ويروى بأنه حظي بالموافقة ، ومع أن بعضا من نبلاء مملكتنا قد أبدى موافقته ، فان الآخرين غضبوا لدى سماعهم بذلك غضبا شديدا ولم يقبلوا بحجة أن هذا الأمير الكبير كان عليه ان يكتفي بما يملكه ، سيما وأنه كان يتظاهر بالقتال في سبيل امجاد الرب ، لاسبيل نيل تعويضات اخرى ، لذا بدا أمرا غريبا اصراره على اعطائه هذا الجزء الكبير من المملكة فهم انفسهم كانوا يأملون بأن الزيادات ـ مهما كان حجمها ـ التي ستحصل عليها المملكة عن طريق هؤلاء الأمراء الشجعان ، وبفضل جهودهم ، ينبغي استخدامها لتوسيع رقعة ممتلكاتهم ، وقاموا تحت وطأة غضبهم ورفضهم بالسير في درب الخيانة ، حيث انهم فضلوا احتفاظ الدمشقيين بمدينتهم ، من أن يروها تعطى الى ذلك الكونت ، ويبدو من غير العدل ، ان يذهب هؤلاء الذين تحملوا مالم يتحمله سواهم ، وأمضوا حياتهم في القتال من أجل المملكة ، أن يذهبوا بدون أمل بالربح ، بينما تعطى الثمار للذين جاءوا لتوهم ، ثمارا هم جنوها بأنفسهم ، بعد جهد طويل مستمر .

ويقول آخرون بأن أمير انطاكية استخدم نفوذه لجلب الاخفاق لمشروع الملك لويس

فقد كان شديد الغضب بسبب تخلي هذا الملك عنه ، وتركه مغضبا ، فهو رغم كل ماقدمه اليه من احسان رفض تقديم المساعدة له بأي شكل من الاشكال ، ولهذا مارس ضغطه على بعض نبلاء الجيش ، وطلب تدبير الأمور بشكل يجبر فيه الملك لويس على التخلي عن مشروعه ويسبب عودته خالي الوفاض .

وتذهب بعض الروايات الأخرى الى القول بأنه مامن شيء من هذا القبيل قد حدث ، فيما عدا أن العدو قام برشوة بعض الأفراد

بمبلغ كبير من المال ، ليسببوا كارثة كبيرة من هذا القبيل ، وتمضي هذه الحكايات الى القول أنه لمن المدهش ان هذه الأموال التي حصلوا عليها بالاثم والخيانة وجدوها مزيفة ، ولاتساوي شيئا (٣٥) .

وهكذا تختلف الآراء حول تحديد المسؤولية في هذا العمل المعوج ، علما بأنني لم أستطع الحصول على معلومات مؤكدة حول هذا الموضوع ، وعلى كل حال ، ومهما تكن اسماء المجرمين لابد أنهم سينالون جزاءهم العادل الذي يستحقونه ، مالم يستغفروا الرب ، ويستجب الرب لهم فيمنحهم الغفران (٣٦) .

وهكذا حدث أن عاد شعبنا ــ كما حكينا ــ دونما فخار وعم السرور بين صفوف الدمشقيين لمغادرة النصارى ، لأن الخوف كان حملا ثقيلا ، عليهم لكن بالنسبة لشعبنا كان الحال على العكس ، كما قيل : « صار عودي للنوح ومزماري لصوت الباكين » (٣٧) .

وبعد العودة الى المملكة دعا الملك (بلدوين) ثانية الى اجتماع لجميع النبلاء ، لكن عبثا فعل حين حاول الاعداد لعمل جديد يجلب اليهم المنفعة والفخار في أعين الناس ، ولقد اقترح بعضهم القاء الحصار على عسقلان التي كانت ماتزال في أيدي الكفار ، حيث أن هذه المدينة واقعة على مقربة من قلب المملكة ، وكان من الممكن نقل المعدات والأشياء الضرورية الى هناك ، وستكون مهمة سهلة التنفيذ لاتحتاج وقتا طويلا ، وبها اعادة الثقة الى نفوس المسيحيين ، لكن هذا الاقتراح رفض ، ورفضت معه اقتراحات أخرى بديلة ، بمجرد عرضها ــ اي قبل تفهمها ــ ذلك ان الرب بغضبه ، بدا وهو يحول كل مشاريعهم الى احباط .

٨ــ الامبراطور كونراد يعود الى بلاده ، لكن ملك الفرنجة تخلف في سورية .

اعتقد الامبراطور كونراد بأن الرب حرمه من نعمتـه ، وحـظر التخصص للقيام بأي دور آخر في قضايا المملكة ، لذلك أمـر بتجهيز سفنه ، وقال وداعا الى مملكته ، وبعد عدة سنوات من هذا الحادث توفي في بامبرغ ، وهناك دفن في كنيستها الكبرى ، وسـط احتفـال مهيب ، وكان كونراد مهيب الطلعـة تقيا وشـفوقا ، يتميز بسـمو روحه ، وبطول خبرته في الاعمال العسكرية ، وكانت حياته وصفاته مثلا يحتذى به في كل مجال ، وستظل ذكراه خالدة أبدا (٣٨)

وقد خلفه على العرش فردريك دوق سوابيا المشـهور ، الذي كان رفيق الامبراطور الدائم اثناء حملة الحج ، وكان شـابا له صـفات محمودة ، وهو ابن الأخ الأكبر لكونراد ، وهو الآن يقـوم بحـكم الامبراطورية بكل نشاط ونجاح .

وأمضى ملك الفرنجة سنة بيننا ، ثم مع عبور الربيع ، وبعدما امضى عيد الفصح في القدس ، عاد الى بلاده ومعه زوجتـه ونبـلاءه وعقب عودته تذكر المساوىء التي سببتها له زوجتـه اثناء الرحلة أو بالحري أثناء عملية الحج كلها ، لهذا قـرر ابعـادها ، ومنح الاذن بطلاقها بشكل رسمي امام اسقف المملكة ، بحجـة وجـود قـرابة بينهما تحظر الزواج (٣٩) ، وقامت مطلقته هذه على الفور ، وقبـل مضي اي وقـــت ، وحتـــى قبـــل عودتها الى اكوتين ــ ميراثها من ابويها ــ فتزوجت هنري ، دوق نورماندي ، وكونت انجوا ، وبعد الزواج بفترة وجيزة خلف هنري ستيفن في ملك انكلترا ، وذلك ان ستيفن تـوفي دون ان يعقـب ولدا ذكرا .

ووفق ملك فرنسا في زواجه الثاني ، عندما اقترن بمـاريا ابنة

-٣٠٩٦-
امبراطور اسبانيا التي كانت فتاة مرضيا عنهـا مـن قبـل الرب ، وذات مكانة عالية لحياتها الطاهرة التي كانت اشبه بحياة القديسات (٤٠)

٩ — نور الدين يجتاح منطقة انطاكية ، ويهـاجمه الامير ريموند وتنشب معركة يقتل فيها .

اصبح وضع اللاتينيين منذ الآن فصاعدا في الشرق اكثـر سـوءا بشكل واضح ، ورأى اعداؤنا ان الاعمال التي نفذها قادتنا وملوكنا الاقوياء كانت اعمالا عقيمة وان جميع الجهود التي بذلوها كانت بلا جدوى ، وسخروا من القوة المتحطمة والمجـد المتصـدع للذين كانوا يمثلون الاسس الجوهرية للمسيحيين ، وكانوا قـد احتقـروا بـكل وقاحة الوجود الحقيقي للذين كانت اسماؤهم ذاتها قد روعتهم مـن قبل ، ولهذا السبب سمت جراتهم وشجاعتهم الى مسـتويات عالية حيث لم يعودوا يخافون من القـوات المسـيحية ، ولم يتـرددوا عن مهاجمتهم بشجاعة منقطعة النظير ، فقد قام نور الدين بن زنكي بعد رحيل الملكين مباشرة بجمـع جيش ضخم من جميع انحـاء الشرق وبدأ يجتاح المنطقة الواقعة حول انطاكية بشجاعة فريدة ، وبعـدما ادرك ان بلاد امراء اللاتينيين باتت خالية من المسـاعدة ، قـرر ان يحاصر القلعة المعروفة باسم انب (٤١) ، ووصلت الى ريمـوند امير انطاكية انباء موثوقة عن هذا التحرك ، فاندفع بطيش مـع بضـعة رجال نحو هذا الموقع فورا ، دون ان ينتظر مـرافقة فـرسانه الذين كان قد استدعاهم ، لانه كان رجلا صاحب شجاعة واقدام لايعرف الصبر ، ولم يسمح لنفسه ان تحكمها نصيحة اي انسان في قضـايا من هذا النوع ، وقد وجد نور الدين مايزال مصـمما على محـاصرة القلعة المذكورة انفا .

عندما سمع نور الدين بـان الامير كان قـادما تـردد في انتـظاره والتصدي له ، لانه خشي ان يحضر ريموند قوات كبيرة معـه ، ولذلك

تخلى عن الحصار وانسحب الى مكان آمن ، وبقي هاهنا حتى يتمكن من التحقق عن طريق تقارير متوالية عن نوع القوات التي كانت موجودة مع الامير ، وعما اذا كانت من المتوقع وجود احتياطات اكبر .

واصيب الامير بالتيه بسبب نجاحه الاول فتجرأ اكثر مما ينبغي له ، وبدأ يتصرف بطيش الى حد ما!(٤٢) ، فمع انه كان يمتلك القلاع في المنطقة المجاورة كان بامكانه ان يبقى فيها بامان مع اتباعه ويعيدهم من هناك دون ان يتعرضوا للخطر ، فضل ان يعتمد على السهل المكشوف ، ورأى انه من غير اللائق ظهوره وهو منسحب – ولو لفترة مؤقتة – لخوفه من نور الدين ، وفضل ان يعرض نفسه لخدع العدو ، وعندما ادرك نور الدين ان الامير لم يتلق اية مساعدة اضافية ، اعتقد انه بامكانه قهر القوات التي جلبها ريموند معه بسهولة ، ولهذا طوق جماعة الامير في تلك الليلة ، وانقض على المعسكر وكأنه يحاصر مدينة ما .

عندما اطل الفجر وبدأ الصباح رأى ريموند جيوش العدو تحيط به فبدأ يرتاب بقوته ، لكن للاسف بعد فوات الاوان ، ومع ذلك فقد عبأ صفوفه بترتيب المعركة ورتب فرسانه واستعد للقتال في مواقع متلاحمة ، وبدأت الحرب بهذه الطريقة ، وبما ان قوات ريموند كانت ادنى قوة ، فانها لم تتمكن من صد اعداد العدو الكبيرة ، فولت ادبارها ولاذت بالفرار ، وترك الامير وحوله عدد قليل من رجاله فقط ، وقد قاتل بشجاعة كمحارب شجاع وعالي المعنويات ، وبعدما انهكه القتال واضنيت روحه في آخر الأمر قتل بضربة سيف وسط المذبحة التي كان قد اقترفها ، وقطع الاتراك راسه ويده اليمنى وتركوا البقايا المشوهة وسط جثث القتلى في ميدان المعركة .

وكان بين الذين سقطوا في تلك المعركة الفارس القوي والعظيم رينو صاحب مرعش الذي اسفت بلاده عليه الى الابد ، والذي كان

كونت الرها قد زوجه ابنته ، كما سقط نبلاء اخرون في الموقع نفسه لكن ضاعت اسماؤهم .

وكان ريموند رجلا صاحب روح نبيلة ، وكانت خبرته كبيرة وواسعة جدا في الحرب ، فقد كان العدو يخشاه كثيرا ، ومع ذلك ، كان قليل الحظ ، ان الاعمال الشجاعة الكثيرة والنبيلة التي نفذها في الامارة جديرة باعتبار خاص ، لكن ينبغي علينا ان نسرع في استئناف الحديث التاريخي العام ولانستطيع التأجيل لتفاصيل من هذا النوع ، او ان نترك القلم يتباطأ حولها .

قتل ريموند في العام ١١٤٨ لتجسيد الرب وفي السابع والعشرين من حزيران وهو عيد الرسولين المقدسين بطرس وبولص ، وكان في العام الثالث عشر لحكمه (٤٣) ، ويدعى المكان الذي سقط فيه باسم العين المسورة ، وهو واقع بين مدينة افامية وقلعة الروج ، وعثر على جثة الامير بين القتلى وتم التعرف عليها بشارات وندبات خاصة ، فنقلت الى انطاكية ودخلت اليها بطقوس جليلة حيث دفن بين قبور اسلافة في ردهة كنيسة أمير الحواريين .

١٠ ــ نور الدين يعامل المنطقة بأسرها حسب هواه . الملك يسرع الى هناك لتقديم المساعدة . سلطان قونية يغزو بلاد كونت الرها .

أرسل نور الدين ، للدلالة على انتصاره ولزيادة مقامه وسمعته رأس ريموند وذراعه الايمن (اللذين كان قد امر بقطعهما لهذا الغرض) الى خليفة بغداد ، اقوى ملوك المسلمين وامرائهم ، وللبرهنة على ان المضطهد الاشد ارعابا للامم بات قتيلا ، ثم جرى ارساله بعد ذلك الى بقية الحكام الاتراك جميعا في كل مكان من الشرق .

استسلم اهالي انطاكية للحزن المطلق بعدما حرموا من تأييد قائدهم العظيم ، وتذكروا بكلمات حزينة وبكاء وعويل وصراخ الانجازات العظيمة لذلك الرجل الشجاع ، ولم يقذف نبأ وفاته الكآبة والحزن في قلوب الموجودين في تلك الاحواز فحسب ، بل حمل الويل لجميع الناس في كل مكان طولا وعرضا وملأ قلوب العظماء والوضعاء جميعا بحزن كله مرارة .

كان نور الدين ، كأبيه مضطهدا جبارا للعقيدة المسيحية وللاسم المسيحي ، وقد رأى بعد مقتل امير المنطقة مع الجزء الرئيسي من قواته في المعركة ان المنطقة باسرها اصبحت تحت رحمته ، وبناء عليه بعث بجنوده على الفور وبدأ باجتياح المنطقة بأسرها بطريقة عدوانية ،ومر قريبا من أنطاكية وحرق كل شيء موجود في جوارها وانتقل بعدها الى دير القديس سمعان الواقع في اعالي الجبال بين انطاكية والبحر ، وتصرف هناك بحرية ايضا وحسب هواه ، وعامل الجميع كما يحلو له بدون قيد او ضابط ، ونزل من هناك الى البحر الذي رآه الان لاول مرة واستحم هنالك بحضور جيشه اشارة الى انه قدم كفاتح حتى الى البحر ، واستولى اثناء مروره في مسيرة العودة على قلعة حارم التي لاتبعد اكثر من عشرة اميال عن انطاكية ، وعززها على الفور بالاطعمة والاسلحة والجنود بحيث تستطيع تحمل حصار يستمر لايام عديدة .

استولى الرعب الان على جميع الناس ، واذلت المنطقة امامه لان الرب اعطى طعمة لسيفه نخبة الجيش وامير المنطقة ، ولم يكن هنالك احد قادر على تقديم حماية ناجعة ضد المخاطر التي كانت تهددهم ، وكانت كونستانس ارملة الامير ريموند قد تركت مع ولدين وابنتين (٤٤) مع مسؤولية جزئية عن رعاية الامارة ، غير انه لم يكن هنالك اي قائد يمكنه ان يتولى مهام الامير وبعث الناس واخراجهم من حالة الاكتئاب التي كانوا يقبعون بها ، وتقدم في هذا الطارىء ايمري بطريرك انطاكية ، وكان رجلا مقتدرا وصاحب ثروة

كبيرة ، وظهر ككافل للمنطقة المتضررة جدا وحام لها وقدم ، خلافا لعاداته ، المال بسخاء لاستئجار الجند ، ووفر بذلك بعض المستلزمات الفورية للمنطقة لبعض الوقت (٤٥) ..

اصابت انباء مقتل ريموند والوضع اليائس في انطاكية ملك القدس بالذعر ، فجمع الجنود فورا لنجدة اخوانه في المحنة وسارع بالتوجه نحو منطقة انطاكية ، وشجع حضوره كثيرا السكان المثبطي الهمة والذين لم يشعروا بأية ثقة بأنفسهم ، ووحد القوات التي قادها معه مع عساكر من سائر تلك المنطقة ودعا الناس للمقاومة ، ولكي يساعدهم على استرداد شجاعتهم المألوفة ، حاصر قلعة حارم ، التي كان العدو قد استولى عليها مؤخرا ، وذلك حسبما ذكرت انفا ، الا ان الموقع كان محصنا بشكل جيد لذلك تخلى عن المحاولة بعد ان قضى عدة ايام هنالك دون نجاح وعاد الى انطاكية .

ونزل سلطان قونيه الى سورية ايضا مع جيش ضخم (٤٦) ، وذلك لدى سماعه بنبأ مقتل الامير ، واستولى غلى قلاع ومدن كثيرة في تلك المنطقة ، واخيرا حاصر تل باشر على الرغم من ان جوسلين وزوجته وابناءه كانوا ضمنها ، وارسل الملك خلال هذا الوقت كافل المملكة همفري مع ستين فارسا ليتولوا حماية قلعة اعزاز للحيولة دون قيام الاتراك بالاستيلاء عليها .

واخيرا اطلق الكونت سراح جميع رعايا السلطان الذين كان يحتجزهم كأسرى ، واعطاه اضافة لذلك اثني عشر لباسا مدرعا ،وهكذا تم التوصل الى السلام بينهما ورحل السلطان ، وتقدم الكونت الى اعزاز في اليوم نفسه بعد ان تحرر من الحصار حيث اسرع من اعزاز الى انطاكية ليشكر الملك على اللطف الذي كان قد أظهره نحوه ، ثم ودع الملك بعدما زاره وعاد الى بلده بصحبة المرافقة المتواضعة التي كان قد جلبها معه (٤٧) .

-٣١٠١-
اخذ الملك على عاتقه مسؤولية المنطقة المنكوبة وبقي في انطـاكية من اجل " -ـرس حتى عادت الامور الى مجاريها بقدر مـاسمح الوقت والزمن ، ثم عاد الى بلاده بعدما تحقـق بعض الهـدوء وذلك ليولي اموره الخاصة عنايته .

١١ ـ العدو يأسر بعـد رحيل الملك مـن انطـاكية كونت الرها وموته بشكل شائن .

كان جوسلين الأصغر كونت الرهـا ادنى كثيرا مـن ابيه في الصفات ، وكان رجلا كسولا ومهملا ومنغمسا في المسرات الخليعـة والوضيعة ، كان شـخصا رفض السـبل الحميدة واتبـع المهـن الوضيعة ، وكان قد طارد امير انطاكية بكراهية شديدة واعتبر مقتله ابتسامة عظيمة من الحظ له . ولم يبال كثيرا بصحة القول : « عندما يحترق منزل جارك تصبح ممتلكاتـك في خـطر » (٤٨) . ويقـال انه انطلق الى انطاكية ليلا تلبية لدعوة البـطريرك ، وكان بـرفقة غلام واحد كان يقود فرسه بعدما ترك حرسه وتنحى جانبا ليقضي حاجته الجسدية عندما هاجمه لصوص انطلقوا من كمين لم يدر بهـم الذين تقدموه ولاالذين لحقوا به ، فقبضوا عليه واقتادوه مكبلا بالسلاسل الى مدينة حلب ، وسجن هناك حيث انهكته احوال السـجن القـذرة والسلاسل الحديدية الثقيلة واضعفته الالام الجسدية والعقلية نتيجة اساليبه الخليعة ووصل الى نهاية رهيبة .

وبحثت عند الفجر عناصر الحراسة بقلق عن سـيدها حيث كانت غير عارفة ابدا بما كان قد حدث ، ولم تتمـكن مـن العثـور عليه . وعندما ثبت ان بحثها كان عقيما ، عادت ونقلت نبأ الكارثـة التـي كانت قد اصابتها ، واصيبت المنطقة بأسرها بالذعر من جديد ، ولم يكن الناس قد شعروا حتى الان بأية عاطفة مع محـن جيرانهـم ، لكنهم عرفوا الان بعدما سحقتهم الكارثة كيف يتعاطفون مع متاعب

الاخرين بمحنة مشابهة ، وعلم فيما بعد من مصادر موثوقة ان الكونت كان اسيرا في حلب (٤٩) .

وتركت زوجته التي كانت امرأة محتشمة ورزينة تخشى الرب وتلقى التأييد منه ، مع ابن قاصر وابنتين ، وحاولت بمساعدة الرجال الرئيسين الذين كانوا مايزالون في المملكة ، ان تحكم الناس بأفضل ما تستطيع ، وشغلت نفسها وبشكل يفوق كثيرا قوة المرأة في تعزيز القلاع في المنطقة وتزويدها بالسلاح والرجال والمواد الغذائية.

وهكذا ، حرم هذان البلدان ـ عقابا لاثامنا ـ من التوجيهات الحكيمة لامرائها ، وباتا يحاولان الصمود بصعوبة في ظل حكم النسوة .

١٢ ـ الملك يعيد مع اعيان المملكة بناء غزة على مقربة من عسقلان .

بعد وقت قصير من وقوع هذه الاحداث في منطقة انطاكية زارت الرحمة السماوية المملكة ، وتشجع الملك ونبلاؤه مجددا بعدما خرجوا من اعماق الكآبة التي كانوا قد سقطوا فيها بسبب الكوارث المتكررة التي كانت قد اصابتهم وصمموا على اعادة بناء غزة ، واملوا بهذه الطريقة ان يضعوا حاجزا اكثر فعالية ضد اعدائهم المروعين من اهالي عسقلان ، ولمنعهم من القيام بغاراتهم المشؤومة .

كانت مدينة غزة القديمة جدا تقع على بعد عشرة اميال جنوب عسقلان ، وكانت مخربة الان ومهجورة تماما ، وصمموا على اعادة بناء هذه المدينة حتى يمكن تطويق عسقلان من ناحية الجنوب

مثلما كانت مطوقة من الشمال والشرق بالقلاع التي كانوا قد بنوها هناك ، ويمكن من هذا الاتجاه شن هجمات متوالية ضد المدينة ومواصلة حرب هجومية بلا انقطاع ، وهكذا ، اجتمع الناس جميعهم في اليوم المحدد كرجل واحد ، وبداوا العمل بجهود صلبة ، وتنافس كل منهم مع جاره في المساعدة على اعادة اعمار المدينة .

كانت مدينة غزة هذه نفسها ، المدينة القديمة جدا ، احدى مدن الفلسطينيين الخمس ، وقد اشتهرت بابنيتها وبكنائس انيقة كثيرة ، وبمنازل فسيحة مصنوعة من الرخام واحجار ضخمة ، فعلى الرغم من انها مخربة الان فانها لاتزال تقدم دليلا على مجدها القديم ؛ كما لا تزال هناك خزانات كثيرة وابار فيها ماء مناسب للحياة . فقد بنيت على ربوة غير عالية وضمت بين اسوارها منطقة واسعة جدا .

ادرك المسيحيون انه لن يكون موائما اعادة بناء المدينة بأسرها وان قوتهم ايضا قد لاتكون كافية لمهمة كهذه في ذلك الوقت ، ولذلك اخذوا جزءا من الهضبة ووضعوا اساسات ذات عمق مناسب وشيدوا قلعة مشهورة لسورها ولابراجها . وانتهى العمل بنجاح في غضون وقت قصير بمساعدة الرب ، وعندما انتهت القلعة بكل اجزائها تماما عهد بها بموافقة عامة لرعاية فرسان الهيكل ليحتفظوا بها الى الابد مع سائر المنطقة المتاخمة ، وصان الداوية الذين كانوا رجالا شجعانا ومحاربين اشداء ، هذه الامانة باخلاص وحكمة حتى الوقت الحالي ، فقد هاجموا مرارا وتكرارا مدينة عسقلان احيانا بشكل علني واحيانا اخرى بشن هجمات من الكمائن ، وبالنتيجة فان هؤلاء الاعداء الذين اجتاحوا المنطقة وخربوها بأسرها من قبل وجعلوا المسيحيين يخافونهم ، يعدون انفسهم الان محظوظين للغاية اذا ماتمكنوا بالتوسلات او المال من الحصول على سلام مؤقت ، واذن بالعيش بهدوء داخل اسوارهم .

برهنت غزة انها ليست فقط مفيدة في قمع عسقلان ــ التي شيدت

لازعاجها ـ بل حتى بعد الاستيلاء على المدينة ، فقد قامت ايضا بدور الخط الدفاعي في الجنوب ، وقدمت حماية كبيرة لتلك المنطقة ضد المصريين .

في مطلع الربيع عاد الملك والبطريرك الى القدس وذلك عندما انتهى بناء داخل القلعة بشكل جزئي (٥٠) ، وتركوا في غزة فرسان المعبد الذين وضعت القلعة تحت مسؤوليتهم ، وكان المصريون في هذه الاثناء معتادين على ارسال قوات اضافية ثلاث مرات او اربع في العام لتعزيز قوة اهالي مدينة عسقلان (٥١) ، وحدث بعد رحيل الملك ان ظهرت هذه القوات باعداد ضخمة امام حصن غزة وشنت هجوما عنيفا على المدينة حيث كان سكان المدينة قد هربوا اليها بسبب خوفهم من العدو ، الا ان القادة المسؤولين ادركوا بعد اضاعة عدة ايام في الحصار ان الجهود التي كانوا يبذلونها كانت جهوداً عقيمة فرحلوا الى عسقلان ، وضعفت قوة العدو بشكل واضح من ذلك اليوم وتناقصت قدرته على ايذائنا حتى توقف بالتدريج عن مضايقة المناطق الواقعة حوله .

بدأ الجيش المصري ، الذي اعتاد كما ذكرنا من قبل على جلب المساعدة مراراً ، بالقدوم عن طريق البحر فقط ، لانه خشي من الكمائن المنصوبة من قبل القلعة القائمة على الطريق واصابه ذعر شديد من الفرسان .

١٣ ـ نشوب نزاع خطير بين الملك ووالدته وتتويجه بدون علمها .

في هذه الاونة كانت امور المملكة في الشرق تتقدم بشكل سار وسادت حالة لابأس بها من الهدوء ، الا ان هذه الحالة فسدت الى حد ما بسبب انتقال الرها الى سلطة اعدائنا ، وبذلك خسرناها

وبسبب ان منطقة انطـاكية كانت خـاضعة لهجمـات معـادية باستمرار ، وبدأ الشيطان عدو الانسـان والمسـتعد لنشـر بـذور الخلاف ، ينظر بحسد الى ازدهارنا ، وحاول تعطيل سلامنا باثارة الخلافات المدنية ، وكان اصل المشكلة وسببها كالتالي : كمـا ذكرت من قبل ، تركت الملكة ميليسـاند ، ذات الذكرى الرائعـة والورعة في الرب ، عند وفاة زوجها ولها ولدان لم يبلغا سـن الرشـد ، ونظـرا لعملها كوصية شرعية لهما ، فقد تولت بموجب حق الوراثة الاهتمام بالمملكة وادارتها ، وتمكنت بمساعدة نبلاء المملكة ومشـورتهم مـن الحكم بقوة واخلاص وبشكل يفوق قوة وشجاعة النسوة وظلت كذلك حتى ذلك الوقت ، وعاش ابنها الاكبر بلدوين ، الذي نكتـب الان عن اعماله ، بانسجام تام معها واطاع اوامـرها بحـكمة حتـى بعـد ارتقائه للعرش .

وكان من بين الذين اعتمـدت الملكة على مسـاعدتهم ومشـورتهم قريبها ماناسيس ، وكان رجلا من منزلة عالية وصديقا حميما لها ، وعينته حالما تولت الحـكم حـاكما للقلعـة وعينتـه في القيادة العليا للجيش ، ويقال انه انتهز عطـف الملكة وتصرف بشـكل متعجـرف جدا ، واتخذ موقف استعلاء وقح تجاه زعمـاء المملكة ، ورفض ان يظهر لهم احتراما مناسبا ، واثار سلوكه هذا كراهية شديدة ضـده من جانب النبلاء ، ولو لم تكن الملكة قد مارست سـلطتها لكانوا قـد حولوا حقدهم الى فعل ، وكان ماناسيس قد تزوج من ارملة بـالين الاكبر ، وهي عقيلة نبيلة ووالدة الاخوة الثلاثة هيو وبلدوين وبالين صاحب الرملة ، وكان قد كسب بهـذا الزواج ثـروة كبيرة ووسـع ممتلكاته كثيرا ، وكان الملك قبـل الجميع على رأس الذين يكرهـون ماناسيس بالمشاعر والاعمـال ، وادعى ان الرجـل كان يصرف ود والدته عنه ويعارض سخاءها .

كان هنالك كثيرون يكرهون سـلطة هـذا الرجـل وسـيطرته الشيطانية ، واثـاروا بـاستمرار كراهية الملك نحـوه ، وطـالبوه

باستمرار باقصاء والدته عن السيطرة على المملكة ، وبما انه كان قد بلغ سن الرشد ، فقد قالوا انه ليس من اللائق ان تتحكم به ارادة امرأة ، وينبغي عليه ان يتولى القيام بنفسه ببعض مسؤولية حكم المملكة (٥٢) .

وتأثر الملك بآراء اخرين مثلهم ، وصمم على تتويج نفسه في القدس في عيد الفصح ، وتوسل اليه البطريرك والرجال الحكماء الاخرون الذين رغبوا ان يحل السلام بالمملكة ، بجدية ان يسمح لوالدته بالمشاركة في مجده ، لكنه بدل استجابة لنصيحة المستشارين المذكورين قبل لحظات من الموعد ، الموعد الذي كان قد حدد للاحتفال حتى معه ، ثم ظهر فجأة في اليوم التالي وهو متوج باكليل الغار دون ان يستدعي والدته .

١٤ ـ تقسيم المملكة بين الام والابن . الملك يدخل القدس بالقوة . ارغام والدته على الاعتصام في برج داود . استعادة الهدوء والسلام اخيرا .

عقد الملك بعد ان انتهى الاحتفال المهيب اجتماعا لنبلائه حضره الكونت ايفزاوف سواسونز وولتر آمز قلعة القديس اومر ، وذهب بلدوين الى والدته وطالبها باقتسام المملكة معه ، على الفور وان تخصص له جزءا من ميراث اسلافه ، وبعد جدال طويل من كلا الجانبين قسم اخيرا الميراث ومنح الملك حق الاختيار فأخذ حصة له المدن البحرية الواقعة في منطقتي صور وعكا مع توابعهما ، وتركت القدس ونابلس مع المدن التابعة لهما للملكة ، وهكذا انفصلا عن بعضهما وامل الناس ان يستمر الاتفاق المتفق عليه من اجل السلام ، وان يرضى كل من الاثنين بالنصيب الذي ال اليه ، وعين الملك في هذا الوقت كافلا لمملكته وقائدا للجيش نبيلا بارزا اسمه همفري صاحب تيرون ، الذي كان صاحب ممتلكات واسعة وكبيرة في فينيقية بين الجبال بالقرب من مدينة صور .

لكن الرغبة بمضايقة الملكة لم تهدأ حتى بهذه الطريقة ، بل على العكس ، فقد اثير ثانية الغضب الذي كان مايزال مضطرما بسبب ذرائع تافهة ، وتأجج متحولا الى حريق هائل اكثر خطرا من ذي قبل . فقد بدأ الملك يسبب المتاعب لوالدته بسبب تحريض النبلاء انفسهم الذين استمع لارائهم من قبل ، وعزم على الاستيلاء على ذلك الجزء من المملكة الذي كانت تستلمه برضا الاثنين وان يقصيها بعد ذلك تماما ، وعندما عرفت الملكة بخطته عهدت بالرعاية بنابلس الى احد نبلائها المخلصين واسرعت الى القدس .

جمع الملك في غضون ذلك قوة كبيرة جدا بقدر ماساعفه الحظ وحاصر ماناسيس في احدى قلاعه المسماة باسم مجدل يابا ؛ فاضطر ماناسيس الى الاستسلام واجبر على التخلي عن المملكة وسائر المنطقة الواقعة على هذا الجانب من بحر (فلسطين) ، ثم استولى الملك على نابلس وتقدم نحو القدس في مطاردة لوالدته .

وتنكر بعض النبلاء ، الذين كانت ممتلكاتهم تقع ضمن اقاليم الملكة والذين كانوا ملحقين بها بولاء اسمي فقط ، لأيمان الولاء التي كانوا قد ادوها وارتدوا عنها ، وكان عدد الذين حافظوا على الوقوف الى جانبها والذين التزموا بقضيتها باخلاص تام قليلا ، وكان بين هؤلاء كل من ابنها عموري كونت يافا وهو شاب صغير جدا ، وفيليب صاحب نابلس وروهارد الاكبر مع عدد اخر قليل اسماؤهم غير معروفة .

عندما سمعت الملكة ان ابنها كان يزحف نحوها مع جيش ، انسحبت الى القلعة مع اركان اسرتها واتباعها المخلصين ووثقت بدفاعات القلعة ، الا ان البطريرك فولتشر ذا الذكرى الطيبة ، ادرك ان اوقات الخطر وايام الفزع باتت تحمل نذير الخوف ، وبما انه كان راغبا بالتدخل كمصلح لذات البين وكملتمس لتقديم اقتراحات سليمة فقد اخذ معه رجالا متدينين يخافون الرب من بين رجال

الدين ، وخــرج لاســتقبال الملك ، ونصــحه بــالعدول عن مشروعه الشرير ، وان يلتزم بشروط الاتفاق ، وان يتــرك والدتــه تســتريح بسلام ، بيد ان هذه التحــذيرات كانت بــلا محصــلة فقــد عاد الى المدينة بمقت تام لهدف الملك .

كان الملك مصمما على الوصول الى غايته وضرب معسكره امــام المدينة ، واخيرا فتح له السكان الابواب وادخلوه مــع جنده تجنبــا لغضبه ، فحاصر على الفور القلعة التــي كانت والدتــه قــد لجــأت اليها ، ووضع الاته الحربية في مواقع لشن الهجوم ، وهاجم القلعــة بطريقة عدائية مســتخدما الات المنجنيق والاقــواس والات القــذف الحربية ، وكانت الهجمات مســتمرة بــلا انقــطاع بحيث لم يتيسر للمحاصرين اية فرصة للراحة ، وقاموا مــن جــانبهم بــكل قــوتهم وصمموا على صد القوة بالقوة ، ولم يترددوا باستخدام الاســاليب ذاتها التي استخدمتها القوات المحاصرة المتمركزة خــارج القلعــة ، وعن الحاق الاضرار بأعدائهم ، وانزال تدمير مماثل بهم . واســتمر الصراع لعدة ايام وبخطر كبير لكلا الطرفين ، لان الملك كان مايزال معارضا للانسحاب على الرغم مــن انه احــرز تقــدما بســيطا في الاستيلاء على القلعة ، وبعد لاي تقدم في اخر الامــر بعض الافــراد كوسطاء من اجل السلام والتفاهم ، وتم اقناع الملكة بالرضى بمدينة نابلس ومنطقتها ، وان تتخلى عن القدس عاصمة المملكة الى الملك ، وقدم الملك من جانبه ضمانة وأدى يمينا جليلا بــانه لن يضــايقها في امتلاكها لتلك المدينة بشكل دائم ، وهكذا تصالحا مع بعضهما وعاد الهدوء من جديد الى المملكة والكنيسة كنجــم الصــباح الذي يشــع وسط الظلام .

١٥ ــ سلطان قونيه يجتاح مجدداً منطقة الرهــا ، الملك يخف الى هناك بكل سرعة .

نقل الى ملك القدس نبأ الكارثة المحزنة التي كانت قد ادت الى اسر

كونت الرها ، كما علم من مصادر موثوقة ان الرها ، التي تركت بلا مدافع عنها كانت معرضة لمكائد العدو ، واستدعت سائر تلك المنطقة مع اراضي انطاكية التي كانت متروكة لحكم النساء اهتمام الملك واستجابة لهذا المطلب اخذ بلدوين معه همفري كافل الملكة وغي صاحب بيروت وذهب الى منطقة طرابلس ولم يتمكن من الحصول على استجابة من الاقاليم التابعة للملكة على الرغم من انه استدعى نبلاءها كل منهم باسمه ، وانضم اليه في طرابلس كونت تلك المنطقة وفرسانه ، وتقدمت القوات بالسرعة الممكنة الى انطاكية .

وانيع في كل مكان ، وقد تأكد ذلك بالفعل ، ان اميرا تركيا قويا هو سلطان قونيه كان قد اجتاح بقوات ضخمة من الفرسان تلك البلاد واستولى على معظم اجزاء المنطقة المتاخمة لاقليمه ، وحيث لم يتمكن الاهلون من صد قوة جيشه ومقاومتها ، فقد سلموه جميع مدنهم وقلاعهم شرط ان يضمن لهم رحيلا امنا وطليقا مع زوجاتهم وابنائهم وتأمين طريق امن الى تل باشر ، وكان ذلك الموقع محصنا – بشكل افضل من باقي المواقع ، وكان فيه عدد كبير من السكان ، وكان للكونت مسكنه الدائم هناك وبدا – حتى الان – هادئا ، لكن عندما كان السلطان قد استولى على المنطقة باسرها باستثناء عدد قليل من القلاع اضطر الى العودة الى بلاده للعناية بقضايا اكثر اهمية ، ومع ذلك لم تتناقص مشاق اهل المنطقة ولم يهدأ قلقهم ، لان نور الدين المضطهد الاكثر ازعاجا لشعبنا ، والذي كان اميرا تركيا قويا جدا ، كان يغزو المنطقة بأسرها ، وكانت هجماته مستمرة على الدوام بحيث لم يجرؤ احد على الظهور خارج القلاع ، وهكذا ، سحق ذلك الشعب البائس باستمرار ، وبات كأنه واقع بين حجري رحى ، فقد لاقى العذاب على ايدي اميرين عظيمين بشكل يفوق الاحتمال ، وذلك على الرغم من انه لم يكن قادرا على تحمل عنف واحد منهما .

١٦ ـ امبراطور القسطنطينية يرسل جيشا الى اراضي انطاكية. مطالبته بتسليم منطقة الرها اليه . حصوله على مطلبه . تسليم القلاع الى الاغريق .الملك يزحف باللاتين الى الامام (٥٢)

وعلم بالوقت نفسه امبراطور القسطنطينية بالوضع البائس في الرها فارسل واحدا من نبلائه الى هناك مع كميات كبيرة من المؤن وقوة عظيمة من فرسانه ، وعرض منح الكونتس دخلا سنويا ثابتا ، وكافيا ليوفر لها ولاولادها اسباب عيش شريفة بشكل دائم ، اذا ماتسلم مقابل ذلك القلعة التي كانت ماتزال تملكها ، وكان واثقا بسبب ثرواته الضخمة انه اذا ماسلمت اليه فسيحافظ عليها سليمة من غزوات الاتراك ، ويعيد الى امبراطوريته بدون صعوبة الاجزاء التي كان قد فقدها .

وعندما وصل الملك الى انطاكية ، وكشف النقاب عن سبب قدوم المبعوثين الامبراطوريين بتوليهم انفسهم شرح المهمة المناطة بهم ، نشب خلاف بين نبلائها ، وقال بعضهم ان الامور لم تصل بعد الى درجة من الشدة تتطلب هذا التصرف ؛ وخلافا لذلك ، اكد اخرون انه يجب اتخاذ اجراء ناجع قبل وقوع المنطقة في قبضة العدو ، ورأى الملك في غمرة هذه الشكوك ان المنطقة لن تتمكن من الاستمرار لفترة طويلة من الزمن في وضعها الحالي ، وان مسؤوليات مملكته لن تسمح به بالبقاء هناك لفترة طويلة جدا من الزمن ، كما لم يكن معه قوات كافية لتمكنه بشكل موائم من حكم اقليمين يبعدان عن بعضهما مسيرة خمسة عشر يوما ، وتوصل ـ بعد اخذه بعين الاعتبار حقيقة ان انطاكية الواقعة في منتصف المسافة بين الاقليمين وكانت لعدة سنوات بلا حماية امير لها ـ الى محصلة انه من الافضل التنازل للاغريق عن القلاع التي كانت ماتزال باقية وذلك وفقا للشروط المقترحة ، ولم يشعر الا بثقة قليلة حول امكانية

-٣١١١-

القوات الاغريقية بالمحافظة على الاقليم في وضع جيد ، الا انه فضل ان تباغتها كارثة بينما هي تحت سلطتهم على ان يوضع عليه مسؤولية سقوط شعب احواله خطرة وبلاده مدمرة مفزعة ، وبناء عليه تم التوصل ــ بموافقة من الكونتس ومن ابنائها ــ الى معاهدة مرضية للطرفين ومبنية على الشروط المذكورة انفا ، وحدد يوم ايضا يتوجب فيه على الملك النزول الى ذلك الاقليم مع جميع قواته ليسلم جميع القلاع ويمكن رجال الامبراطور من تملكها جميعا ، وزحف الملك الى بلاد كونت الرها اي تل باشر وذلك في الوقت المحدد حسب الاتفاق ، وكان بصحبته كونت طرابلس ونبلاء كل من المملكة وانطاكية ورافقه المندوبون الاغريق ، ووضع هنالك تحت حمايته : الكونتس وابناءها والاخرين جميعا من كلا الجنسين سواء اكانوا لاتينيين أو أرمن ، من الذين كانوا راغبين بالرحيل وبتسليم المنطقة الى الاغريق . وكانت القلاع التي كانت ماتزال حتى هذا الوقت في حوزة المسيحيين هي تل باشر ، وعين تاب والراوندان والبيرة وسميساط وربما قلاع اخرى ، فقد تم التخلي عن جميع هذه القلاع ووضعها تحت سلطة الاغريق .

ثم استعد الملك للزحف ، وذهب معه جميع الناس الذين كانوا يرغبون بالرحيل مع حيوانات التحميل التي كانت عندهم وكمية كبيرة من الامتعة ، لان كل رجل صمم على ان يأخذ معه اسرته وبطانته وجميع حاجياته المنزلية وكذلك جميع مفروشاته ، وهكذا ، اسرع الملك بالرحيل مع هذا الحشد الضخم من الناس غير المقاتلين وكميات الامتعة الضخمة حتى يتمكن من نقلهم الى مكان امن .

١٧ ـ نور الدين يصطدم بالملك على الطريق وينجــح في وقف الهجرة . الملك يعود الى انطاكية مع شيء مــن الصعوبات . نور الدين يهاجم الاغريق ويســتولي على كامل المنطقة .

علم نور الدين ان اهالي الرها اقدموا بعدما سيطر اليأس عليهم في قــدرتهم على الاحتفــاظ ببـلادهم على التنازل عن قــلاعهم الى الاغريق المخنثين الضعفاء وان الملك كان قد سار الى هنالك ليتــولى ترحيل الناس . وقد زاد من شجاعة نور الدين ادراكه للخــوف الذي كان يشعر به المسيحيون ، فجمع على الفور قوات مسلحة من سائر المناطق المتاخمة ونزل فجأة الى تلك الاجزاء ، حيث امل ان يواجــه الملك مع شعبه الذين كانوا قد ارتابوا كثيرا بقوتهم ولم يثقوا بهــا ، وقدر ان الامر سيكون لمصلحته كثيرا لو انه تمكن مــن مقــابلتهم في ظروف كهذه حيث يعيقهم مقدار هائل مــن الامتعــة ، وبناء عليه لم يكد الملك يصل مدينة دلوك التي لاتبعد اكثر من خمسة او ستة اميال عن تل باشر عندما انقض نور الدين بقواته على المنطقة بــأسرها ، هذا وكان هنالك قلعة قريبة تــدعى قلعــة عين تــاب تــوجب على المسيحيين ان يواصلوا طريقهم الى مسافة ابعد منها ، وبــادراكهم للخطر المحيق بهم ورغبة منهم في الاسراع ، عبأوا صفوفهم بتشكيل المعركة ونظموا قواتهم بترتيب جيدا ، توقعا لصدام فــوري ، كمــا انتظرت عساكر العدو اقترابنا بتلهف وهي بتشكيل المعركة وكأنهــا واثقة من النصر ، لكن الامور انتهت خــلافا لتــوقعهم حيث وصــل جيشنا بسلام الى تلك القلعة بقيادة رحمــة الرب ، وســمــح هنالك للرجال المرهقين والبهائم بالاستراحة طوال تلك الليلة ، واجتمــع في هذه الاثناء القادة في مؤتمر تدارسوا فيه الزحف لليوم التالي .

طالب بعض اعيان النبلاء بوضع القلعة تحت رعايتهم واعتقدوا ان قوتهم كانت كافية بعون الرب للاحتفــاظ بــالموقع ضــد هجــوم

الاتراك ، وكان من بين رجـالات الملكة الذين ابـدوا هـذا الرأي همفري اوف تبرون كافل الملكة (٥٤) وكان رجلا صـاحب شـجاعة سامية ووافق على هذا الرأي روبرت دي سورد فال و هو نبيل قوي من نبلاء امارة انطـاكية ، غير ان الملك كان مقتنعـا انه لم يكن لدى اي من الاثنين قوة او قدرة كافية للمهمة ، ورفض بالتالي العـرض الذي تقدما به وعده غير جدير بالدراسة ، واصر على المحـافظة على المعاهدة ، وسلم الموقع الى الاغريق وامر الناس بالاستعداد لمواصلة الزحف .

وكان بين ذلك الحشد رجال من ذوي اصـل سـام ، وسـيدات نبيلات مع عذارى كريمات المحتد واطفال صغار ، وكانوا يغـادرون ارضهم الاصلية ومنازل اجدادهم وارض ابائهم بالتنهدات والدموع ويتوجهون الى ارض الغرباء بحزن عميق ، ولاشك ان قلوب القساة كانت ستتأثر بتأوهات وصيحات وعويل هؤلاء الناس عندما خرجوا الى المنفى .

وعندما عاد النهار ثانية رتبت الامتعة واستؤنف المسير ، وانتظم العدو في خط الزحف ايضا وتقـدم معهـم على كلا الجـانبين وكان مستعدا للانقضاض على الرتل من جميع الجهـات ، وعندمـا رأى المسيحيون ذلك العدد الكبير من الجند في صفوف الزحـف ، اعادوا ترتيب كتائبهم مع الفرسان الخمسـمائة الذين كانوا معهـم وعينوا اماكن نظامية للجميع وتوجب على الملك ان يسـير الى الامـام مـع طليعة الجيش ويوجه تقدم حشـود المشـاة ، و جـرى تعيين كونت طرابلس و همفري كافل الملكة لحمـاية الفـرق الخلفية ، وتـوجب عليهما ان يصـدا مع القوات الاخرى القوية والكبيرة هجمات العـدو وان يحموا الناس من اذاها ، وتم وضع نبـلاء انطـاكية على يمين ويسار الرتل ، حتى تكون قوة قـادرة مـن الرجـال الشـجعان والفرسان المسلحين مع الحشد الذي تم وضعه في المراكز .

تقدم المسيحيون طوال ذلك اليوم بهـذا التـرتيب حتـى الغـروب .

وانهكتهم باستمرار كوارث لاتحتمل وهجمات متكررة واشتباكات من مواقع قريبة ، وانهمر وابل من السهام على الجنود المتقدمين حتى غطيت الأمتعة بالسهام واصبحت كالقنفذ ، كما أنهك الغبار والحرارة ، اللتان تسودان في شهر آب ، الناس بشكل يفوق الاحتمال ، وهاجمهم ، إضافة لذلك ، عطش شديد ، وأخيرا أعطى الأتراك عند غروب الشمس شارة الانسحاب حيث لم يكن لديهم أية مؤن غذائية ، إضافة لذلك كانوا قد فقدوا بعض نبلائهم وتوقفوا الآن عن تتبع جيشنا بعدما استولى عليهم العجب تجاه صمود المسيحيين ومثابرتهم .

كان همفري كافل المملكة يطارد الكفرة المتقهقرين وهو مسلح بقوسه على مسافة بعيدة بعض الشيء من الجيش عندما اقترب منه أحد الجنود من صفوف العدو والقى اسلحته ، ثم شبك يديه أولا على أحد الجوانب ثم على الجانب الثاني إشارة للتوقير ، كان تابعا لنبيل تركي قوي جدا وكان موثوقا من قبله ، وكان هذا التركي مرتبطا مع الكافل في اتحاد أخوي حميم جدا ، وكان هذا الرجل قد أرسله ليقدم التحية لهمفري وليخبره بالأوضاع الموجودة في الجيش المعادي ، وذكر أن نور الدين كان يعتزم العودة مع جيشه إلى منطقته في تلك الليلة ذاتها حيث نفدت جميع المؤن في معسكره ، ولم يعد بإمكانه مطاردة المسيحيين إلى مسافة أبعد من ذلك ، ثم عاد الرسول إلى شعبه وعاد الحاكم إلى المعسكر ، ونقل النبأ الذي كان قد تلقاه إلى الملك ، وبما أن الليل كان قريبا فقد خيم الحشد بأسره في مكان يدعى جوها ولم يكن هنالك المزيد من المتاعب ، ووجه الملك الناس خلال الأيام القادمة عبر غابة اسمها مريم إلى مناطق كانت واقعة تحت سلطة المسيحيين ، ثم عاد إلى أنطاكية .

أدرك نور الدين الآن أن منطقة الكونت تركت بدون مساعدة اللاتينيين ، ولذلك بدأ يضايقها بعنف ، مستفيدا من السمات اللاحربية للأغريق الذين وضعت المنطقة تحت رعايتهم ، ووجد

الاغريق أنفسهم غير قادرين على تحمل هجماته المتكررة ، وأرسل اخيرا قواتا ضخمة وحاصر الحصون وطرد الاغريق بالقوة وهكذا استولى في غضون عام واحد على المنطقة بأسرها (٥٥) .

وهكذا سقط بسبب آثامنا ذلك الاقليم الغني للغاية المملوء بالجداول والغابات والمراعي ، وذو التربة المعطاءه لجميع أنواع المنتجات ، وكان مكانا قادرا على تقديم دعم كاف لخمسمائة فارس ، وانتقل إلى أيدي العدو وهو بعيد حتى الوقت الحالي عن سلطتنا .

وعانت كنيسة انطاكية من خسارة ثلاث رئاسة اسقفيات في ذلك الاقليم ، وهن موجودات في الرها ومنبج والرصافة ، وما تزال هذه الكنائس محتجزة على الرغم من إرادتها من قبل الكفرة وتعيش في ظل شؤم الأمم .

١٨ ـ الملك ينصح الأميرة بالزواج بواحد من الأمراء ليحكم مملكتها ، لكن نصيحته لم تلق الأذن الصاغية . الملك يمضي من هناك إلى طرابلس في طريقه إلى وطنه .

كان قلق بلدوين ملك القدس كبيرا في هذا الوقت حول انطاكية والمناطق المتاخمة لها ، وكان يخشى أن تقع في يد العدو وتعاني من المصير المؤلم الذي عانت منه الرها كما ذكرنا ذلك انفا ، لاسيما وانها كانت محرومة من حماية اميرها ، وكان هذا سيسبب المزيد من المتاعب ويحدث خسارة لاتحتمل للشعب المسيحي ، ولم يكن الملك نفسه حرا للبقاء لفترة طويلة في أنطاكية حيث تطلبت مسؤوليات مملكته بعودته إليها ، ولذلك نصح الاميرة بشكل متكرر لاختيار

واحد من النبلاء كزوج لها فتتمكن بمشـورته وجهـوده مـن حـكم الامارة .

كان في المنطقة في ذلك الوقت عدد من الرجال النبلاء والمشـهورين الملحقين بمعسـكر الملك ، وكان بينهـم إيفـز دي نسـل كونت سواسون ، وهو رجل لامع وحكيم وعاقـل وصـاحب نفـوذ كبير في مملكـة فرنسا وولتر دي فولكنبيرغ (٥٦) امر قلعة القديس أومـر ، الذي أصبح فيما بعد حاكما لطبرية وكان رجلا عاقلا ولطيفا وحكيما في المشورة وشجاعا في الحرب ، وأيضـا رالف دي ميرال وكان نبيلا ينحدر من منزلة سامية متمرسا في اسـتخدام الأسـلحة ومشـهورا بحسه السليم ، وبدا كل واحد من هؤلاء قـادرا حقـا على حمـاية المنطقة تماما ، إلا أن الاميرة خافت من عبء الزواج وفضلت الحياة باستقلال وحرية ، ولم تبـال كثيرا بـاحتياجات شـعبها وانصـب اهتمامها على الاستمتاع بملذات الحياة (٥٧) .

وكان الملك مدركا تماما لميولها،لذلك عقد مؤتمرا عاما في طرابلس تألف من نبلاء المملكة والامارة . ودعا بطريرك أنطـاكية واسـاقفته المساعدين والأميرة مع نبـلائها أيضـا لحضـور هـذا المجلس ، وحضرته والدته الملكة ميليساند أيضا بمرافقة أمراء المملكة ،ولاقت مسألة زواج الأميرة الاهتمام بعد أن كانت مواضيع المصلحة العامة قد لاقت عناية شديدة .

ولم يتمـكن الملك أو الكونت ولا أقـربـاؤها ولا الملكة ولا كونت طرابلس ولا عماتها من إقناعها بالتراجع والاحتياط بذلك لنفسـها ولمنطقتها .

هذا وأشيع أنها موجهة بنصيحة البطريرك ، وبما انه كان رجـلا ماكرا وداهية ، يقال إنه أيدها في هـذا الخـطأ بغية التمـكن مـن الحصول على سلطة أكبر وتصرف أعظم في حكم المنطقة ، وهو شيء

رغب به رغبة شديدة ، وبما أنه تعذر إنجاز أي شيء بخصوص هــذه المسألة رفض الاجتماع وعاد الجميع إلى بلادهم (٥٨) .

١٩ ـ الملك يجتمع بوالدته في طرابلس في سبيل ايجـاد وسيلة للمصالحة بين الكونت وزوجته لكن بدون جدوى وقتل الكونت عند باب المدينة على ايدي الحشيشة

نشبت في هذه الآونة عداوة نبعت من بين كونت طرابلس وزوجته اخت الملكة ميليساند ،وقــد حضرت الملكة ميليســاند إلى هناك على أمل إنهاء هذه الكراهية ، وفي الوقت نفسه لزيارة ابنة أختهــا أميرة انطاكية ، وبما أنها لم تلاق سوى نجاح ضئيل في حل هذه المسألة ، فقد صممت على أن تعيد أختهــا معهــا ، وغادرت الاثنتــان مــدينة طرابلس وهــذا الهــدف في مخيلتهمــا ، ورافــق الكونت الأميرة في رحلتها لفترة من الزمن ، ثم استأذنها بالانصراف بعد وقت قصــير وقفل عائدا . وبينما كان يدخل باب المدينة ودون تفــكير بــالحوادث الشريرة طعنه الحشيشية بــالسيف عند المدخــل المؤدي إلى البــاب الواقع بين الحصن الأمامي والسور وهلك بشكل محزن ، وقتل معه أيضا رالف دي مــارل ذلك النبيل المشــهور والمذكور آنفــا وأحــد فرسانه ، فقد صادف أن كانا مع الكونت في تلك الرحلة .

كان الملك خاليا من المشاغل ، وكان يمتع نفسه خلال هذا الوقت بلعبة النرد في المدينة ، ولم يكن عارفا بالذي قد حدث ، وثارت المدينة بأسرها إزاء نبأ مقتل الكونت ، فــامسك الناس بــأسلحتهم وقتلوا بدون تمييز جميع الذين وجدوا أنهم مختلفــون ســواء في اللغــة أو اللباس عن اللاتينيين ، وكان يؤمل بهذه الطريقة أن يتم العثور على مرتكبي العمل الشنيع .

وأثار الغليان المفــاجيء انتبــاه الملك ، وحين علم بنبــأ مقتــل

الكونت ، لم يتمكن من الاحجام عن البكاء والتنهدات بعدما أحــزنه وآلمه النبأ جدا ، وأمر باستدعاء والدته وخالته على الفــور ، ودفنت الجثة لدى عودتهــم بإجـلال لائق وسـط صــيحات عويل الجميع ودموعهم، ووفقا لأمر الملك أدى جميع نبلاء تلك الأجزاء ، يمين الولاء للكونتس وابنائها .

خلف الكونت ابنا يحمل اسمه أي ريموند ، ولم يكن قد بلغ ســن الثانية عشرة من عمره ، وابنة صغرى تدعى ميليساند ، وعاد الملك بعدما رتب الأمور بهذه الطريقة ، إلى المملكة بصحبة والدته والنبلاء التابعين لبلاطه .

٢٠ – جيش ضخم من الأتراك يزحف ضد القدس للاستيلاء عليهــا ، لكن المســيحيين يزحفـون نحـوه ويهزمونه بشجاعة كبيرة .

لم يكن قد مضى بعد هذا وقت طويل عندمــا قــام بعض الحــكام الأتراك المعروفين باسم الأراتقة ، وهم رجال أشــداء ذوو نسـب متميز بين شعبهم ، بجمع عدد كبير من الأتراك وعقدوا العــزم على الذهاب إلى القدس للاستيلاء عليها على أساس أنها تخصهم بحــق (٥٩) وراثي ، لأنه يقال كانت المدينة المقدسة تنتمي إليهم بحق وراثي قبل أن يحررها المســيحيون ، وكانت والدتهــم متحمســة لهــذا ، السلوك وأنبت أبناءها لأنهم سمحوا لأنفسهم بالابتعاد لفترة طويلة جدا عن مملكتهم الموروثة .

وبداوا الزحف بعدما أثــارتهم النصــائح المســتمرة لوالدتهـــم المسنة ، على راس عدد ضخم من الفرسان بهــدف تحقيق غايتهــم المنشودة إذا سمح الرب بذلك ، وتريثوا لفترة من الزمــن في دمشــق لينعشوا جنودهم ويعززوا قوتهم ، وحاول أهــالي تلك المدينة عبثــا

صرفهم عن مشروعهم السخيف إلا أنهم رفضوا الاصفاء ، فاستكملوا مؤنهم واعادوا ترتيب أمتعتهم واستأنفوا زحفهم نحو القدس وكانهم لايشكون بالنصر ، وعبروا بموكبهم الكبير الأردن وصعدوا المنطقة الجبلية حيث تقع المدينة المقدسة ووصلوا إلى جبل الزيتون الذي يطل على القدس والمتاخم لها . وكان بإمكانهم أن يروا بدون عوائق جميع الأماكن المقدسة وخاصة هيكل الرب ، الذي كانوا يوقرونه بشكل خاص ، واشتمل المنظر بالفعل على المدينة بأسرها .

وكانت معظم القوات المسلحة للمنطقة قد ذهبت إلى نابلس لأنها خشيت من احتشاد العدو هناك لأن المدينة نفسها كانت بلا تحصينات ، وعندما رأى الناس ، الذين تركوا في القدس جيش الأتراك يتقدم خافوا من أن ينحط عليهم بالحال ، فأمسكوا بأسلحتهم على الفور وتقدموا بحماسة نحو الأعداء ملتمسين المساعدة من السماء ومتلهفين للاشتباك معهم .

إن الطريق التي تنزل من القدس إلى أريحا ومن ثم إلى الأردن طريق وعرة جدا وخطيرة ، حيث أن الأماكن الكثيرة المنحدرة والشاهقة تجعل كلا من الصعود والنزول صعبا جدا بالنسبة للمسافرين حتى عندما يكون الطريق آمنا ولا يوجد أي سبب للخوف ، وعندما دخل العدو هذا الطريق ، انقض المسيحيون بعنف عليه وجعلوه يلوذ بالفرار بذعر ، فقتل الكثيرون مباشرة وهلكوا بدون مساعدة السيف حيث لم تقدم الجرف والشعاب الضيقة أي ممر سهل للهاربين ، وحاول بعض الذين كانوا قد سلكوا الطرق الأكثر تمهيدا أن يواصلوا هروبهم لكنهم واجهوا هناك أيضا سيوف المسيحيين وأصيبوا بجراح مميتة ولاقوا موتا مفاجئا ، وبما أن مصاعب الزحف الطويل قد أنهكت خيولهم فإنها لم تتمكن من تحمل الطريق الوعرة وأصيبت بالاعياء التام ، ورفضت الاذعان للممتطيها ، واضطر الأتراك بالتالي أن يصبحوا جنودا مشاة ،

وأثقلت أسلحتهم كاهلهم ،ولم يكونوا معتادين على المشقات أبدا ، فقتلوا كالغنم بسيوف مطارديهم ، وكانت المذبحة التي تعرض لها الجند والخيول فظيعة جدا إلى درجة أعاقت تقديم المسيحيين ، ومع ذلك فقد حاولوا بتلهف زائد تحقيق المزيد من المنافع ، ومروا بجانب المغانم محتقرين التفكير بأخذها وواصلوا المذبحة الرهيبة لأن الاغتسال بدم العدو كان يعتبر المكافأة الأسمى .

حالما علم الناس الذين كانوا قد اجتمعوا في نابلس ، بزحف العدو لمهاجمة القدس غادروا بإرادة واحدة واندفعوا نحو مخاضات الأردن لمنع الأتراك من العبور ، وهاجموا على ضفته الذين كانوا قد نجوا من مطارديهم وباغتوهم فجأة وقتلوهم ، لقد كانت يد الرب ثقيلة على أعدائنا بالفعل في ذلك اليوم ، لأنه كما هو مكتوب : « أكل الجراد ماتركته ديدان الأشجار المثمرة » (٦٠) . فقد قتل الذين كانوا قد نجوا من مطارديهم بفضل سرعة خيولهم أو بطريقة أخرى ، بسيوف المسيحيين الذين هاجموهم من اتجاه آخر . والتقت الأمواج الهائجة الآخرين الذين كانوا قد دخلوا الأردن قبل القوات الرئيسة وذلك بسبب جهلهم بالمخاضات وغرقوا في النهر ، وهكذا عاد الجيش ، الذي كان قد دخل بآلاف كثيرة ، وهو قوي متفاخرا بقدراته المعتمدة على قوة الفرسان عاد إلى بلاده بعدما تحول إلى جيش ضئيل اكتنفه الاضطراب والذعر ، ويروى أن نحو خمسة آلاف من العدو قتلوا في ذلك اليوم .

حدث هذا في اليوم التاسع قبل أول شهر كانون الأول أي في / ٢٣ / تشرين الثاني من العام ١١٥٢ لتجسيد الرب وفي العام التاسع لحكم بلدوين الملك الرابع للقدس (٦١) .

عاد المسيحيون إلى القدس ليقدموا القربان المقدس لصلاة الشكر للرب وهم محملون بأسلاب العدو ويسوقون أمامهم الكثير من الغنائم على شكل قطعان .

٢١ ـ عودة الملك ونبلاء المملكة إلى عسقلان بهدف اجتياح البساتين التي تحيط بالمدينة . تطويرهم لخططهم الأصلية ومحاصرة المدينة .

أثار هذا الانتصار الذي منحه التأييد السماوي آمال المسيحيين كثيرا ، ولذلك قرروا جميعا ، والرب يوجه أهدافهم ، حسب رغبة الوضيع والعظيم محاولة الحاق الأذى بطريقة ما بأعدائهم الموجودين في تلك المنطقة المجاورة الذين كانوا قد سببوا لهم متاعب خطيرة في أحوال كثيرة ، أي : أهالي مدينة عسقلان .

بدا أن الخطة الأكثر ارضاء للوقت الحالي هي محاولة تدمير البساتين الواقعة في المنطقة المجاورة لمدينة عسقلان بقوة قوية ، وكانت هذه البساتين ذات أهمية كبيرة للسكان ويمكن بهذه الطريقة الحاق بعض الخسارة بالعدو المتغطرس . وجرى ـ وهذا الهدف بالمخيلة ـ حشد كافة قوة المملكة بأعداد ضخمة أمام المدينة المذكورة منذ لحظات . وشعروا أن هذه الخطة ستكفي إذا أمكن انجازها بنجاح .

رافقت الرحمة السماوية بشكل مدهش المسيحيين المحتشدين امام تلك المدينة ، وبدأت تدفعهم فجأة إلى أشياء أعظم ولم يكن قد مضى وقت طويل على اتخاذ قواتنا لموقعها أمام المدينة عندما استولى الذعر على سكانها وانسحبوا بسرعة كبيرة إلى داخل المدينة ، ولم يجرؤ أي رجل على المغامرة بالظهور خارج الاسوار لمواجهة جنودنا ، ولذلك قرر المسيحيون وقد استفادوا من حالة الذعر التي سيطرت على العدو أن يحاصروا المدينة توجههم الرحمة السماوية في ذلك ، وجرى على الفور ارسال الرسل إلى كل مكان في المملكة للاعلان عن الخطة التي ألهم الرب بوضعها ولاستدعاء الذين كانوا قد بقوا في منازلهم وأن لا يتأخر أحد عن الحضور في اليوم المحدد .

اجتمع الناس ، الذين تم استدعاؤهم ، بـابتهاج وبدون تـأخير ، وانضموا إلى رفاقهم الذين كانوا قد سبقوهم وخيموا مـع الآخـرين حول المدينة ، وتعهدوا واحدا تلو الآخر بيمين مهيب أنهـم لن يتخلوا عن الحصار حتى يتم الاستيلاء على المدينة ، وحتـى يبقـى الجميع مخلصين في مشروعهم وبدون تفكير بالتردد ، خيم الملك والبـطريرك مع بقية نبلاء المملكة العلمانيين والكنيسيين على حد سواء ، وبرفقة شارة صليب الصلبوت المقدس و المانح للحياة أمام مدينة عسقلان في ظل بشائر ميمونة . وذلك في اليوم الثامن قبل بداية شـهر شـباط ، (٦٢) وكان ذلك بعدما جرى حشد قوة المملكة كافة ، وبعد اجتمـاع الناس على هدف واحد.

حضر هذا الحصار رجـال الكنيسـة التـالية أسـماؤهم : اللورد فولتشر بطريرك القدس ، وبطرس رئيس أسـاقفة مـدينة صـور ، وبلدوين رئيس أساقفة قيسارية ، وروبرت رئيس أسـاقفة الناصرة وفريدريك أسـقف عكا وجيرالد أسـقف بيت لحـم ، وحضره بعض رعاة الأديرة أيضا ، كما حضره كل من برنارد دي تـريملي مقـدم فرسان الداوية وريموند مقدم فرسان الاسبتارية .

وكان من بين الأمراء العلمانيين الحاضرين كل مـن هيودي ابلين وفيليب صاحب نابلس وهمفري صاحب تيرون ، وسيمون صـاحب طبرية وجيرارد صاحب صيدا وغي صاحب بيروت وموريس صاحب مونتريال (الشوبك) ورينو دي شاتليون (ارناط) وولتـر أوف سانت أومر ، وقد عمل الأخيران بالدفع لمصلحة الملك(٦٣)

نصبت الخيام ورتبت على شكل دائرة ، وخصصت مـراكز محـددة ومناسبة لكل شكل ثم انكبوا بإخلاص على العمل قيد الاعداد بازلين بحكمة وتعقل الجهود التي كانت تتطلبها مهمـة خـطيرة مـن هـذا القبيل.

٢٢ ـ وصف موقع المدينة وتبيان مزاياها

تعتبر عسقلان احدى مدن الفلسطينيين الخمس ، وهـي واقعـة على ساحل البحر على شكل نصف دائرة يمتـد قـطرها على طـول الشاطىء بينما يقع قوسها على المنطقة المطلة نحو الشرق ، وتستقر المدينة بأسرها في حـوض يميل إلى البحـر وتحيط بـه دفـاعات اصطناعية من جميع الجهات ترتفع فوقها الاسوار مـع ابـراج على مسافات متوالية ، وكلها مشيدة ببناء صلب ملصق مع بعضه بملاط أشد قساوة من الحجر ، كما أن الاسوار واسعة وذات سماكة جيدة وارتفاع مناسب ، وعلاوة على ذلك ، فإن المدينة مطوقة بتحصينات خارجية مبنية بالمتانة ذاتها ، ومحصنة بعناية بالغة ، ولا تـوجد اية انهار ضمن حدود الاسـوار ولا تـوجد اية ينابيع مجـاورة ، إلا أن الآبار الموجودة خارج المدينة وداخلها تقدم زادا وفيرا من الماء العذب المناسب للشرب ، وكاحتياط اضاف اقام السكان صهاريج في داخـل المدينة لتلقي مياه الامطار .

يوجد اربعة أبواب في محيط السور ، محصنة بقـوة بـأبراج عالية وضخمة ، ويدعى الباب الأول من هذه الأبواب وهو المواجـه للشرق باسم الباب الاكبر ، ويسمى احيانا باسم باب القـدس لانه مـوجه نحو مدينة القدس ، ويعلوه برجان عاليان جدا يقدمان حماية قـوية للمدينة في الأسفل ، ويوجد في خط الدفاع الامامي الموجود امام هذا الباب ثلاثة أو أربعة أبواب صغيرة ينتقل المرء خـلالها إلى المدخـل الرئيسي بواسطة طرق ملتوية مختلفة .

يواجه الباب الثاني جهة الغرب ، ويعرف باسم بـاب البحـر لان الناس يحصلون من خلاله على مخـرج إلى البحـر ، ويقـع البـاب الثالث إلى الجنوب ويطل على مدينة غزة التي تمت الاشـارة إليهـا آنفا ويشتق اسمه منها . ويسمى الباب الرابع المطل نحـو الشـمال

بباب يافا اشتقاقا من اسم المدينة المجاورة التي تقع على هذا الساحل نفسه .

هذا ويلاحظ أن عسقلان قائمة في مكان غير موائم وذلك انطلاقا من حقيقة أن موقعها لا يوفر ميناء آمنا للسفن ، والشاطيء رملي جدا والرياح العنيفة تجعل البحر المجاور عاصفا إلى حد أن المبحرين إليها لا يقتربون منها إلا في جو هاديء جدا .

كما أن تربة الحقول المحيطة بالمدينة مغطاة بالرمل لذلك فهي ليست موائمة للزراعة ، ومع ذلك ، فهي مهيأة بشكل جيد لزراعة الكروم والأشجار المثمرة ، هذا وتوجد بضعة أودية في الشمال تزود سكان المدينة بكميات من الفواكه والخضار وذلك عندما يتم تسميدها بشكل جيد وارواؤها بالماء من الآبار .

يوجد عدد كبير من السكان في تلك المدينة يتلقى الوضيع والرفيع منهم ، وحتى الأطفال الرضع ، رواتبا من بيت مال خليفة مصر وذلك حسبما ذكرته الروايات المتداولة ، وشعر ذلك الملك وأمراؤه بقلق بالغ حول عسقلان لأنهم كانوا مدركين أنه إذا سقطت المدينة ووقعت في سلطة المسيحيين فلن يكون هنالك شيء يمنع قادتنا من غزو مصر دون عائق والاستيلاء على تلك المملكة بالقوة .

لذلك اتخذوا عسقلان بمثابة حصن وزودوها عن طريق البر والبحر بمساعدة سخية اربع مرات في العام (٦٤) ، فقد كان بامكان المصريين انفسهم الاستمتاع بالسلام المنشود طالما صمدت عسقلان وبدد شعبنا جهودهم الحماسية عندها ، ولذلك زودوا المدينة بنفقة كبيرة بكل ما هو ضروري وارسلوا الاسلحة والمواد الغذائية والجنود الجدد على فترات انتظامية منفصلة وكان قلق المصريين ازاء قوتنا المروعة قد خف لبعض الوقت عندما كان المسيحيون منشغلين في عسقلان

٢٣ ـ بدء عمليات الحصار . وتعيين قادة في إمـــرة الأسطول والجيش البري أيضا .

قاومت عسقلان كل المحاولات التـي بـذلناها وأظهـرت نفسـها منافسة هائلة لنا لمدة خمسين عاما ونيفا مضت ،بعـدما كان الرب قد منح بقية أرض الميعاد إلى أيدي الشعب المسيحي ، وأخيرا قـرر المسيحيون تطويق المدينة ، وكان هذا عملا شاقا وشبه مسـتحيل ، لأن عسقلان كانت محصنة بشكل جيد بالأسوار والحصون الأمامية والأبراج والسدود ومجهزة بكمية ضـخمة مـن الأسـلحة والمؤن ، أضف إلى هذا أنه كان فيها عدد كبير مـن السـكان كانوا مـدربين بشكل جيد ومتمكنين تماما من استخدام الأسـلحة ، وبـالفعل فإن عدد المدافعين كان ضعف الجيش المحاصر منذ البداية ذاتها وحتـى النهاية .

نصب الملك والبطريرك وسلفنا رئيس أساقفة صور ، مـع رجـال عظماء آخرين من المملكة والأمراء وأساقفة الكنيسة وسـكان جميع المدن خيمهم على حدة وحاصروا المدينة مـن ناحية البـر . ووضـع الأسطول المؤلف من خمس عشرة سفينة والمجهـز للإبحـار بقيادة جيرارد صاحب صيدا ، وكان واحدا من نبلاء المملكة العظماء(٦٥) ، وتوجب عليه أن يمنع أي تقدم من البحر وأن يحبط جميع المحاولات للخروج من المدينة أيضا ، وشن شعبنا هجمات على المدينة قام بهـا الفرسان أحيانا والجنود المشاة أحيانا أخرى بشكل عفوي تقريبا ، لكن سكان المدينة واجهوا هذه المحاولات بشجاعة وقاوموها بقوة ، حيث كانوا يقاتلون دفاعا عن زوجاتهم وأبنائهم ، والأهم من ذلك ، عن حريتهم نفسها ، وكان النصر في هـذه الاشـتباكات تـارة مـن نصيب السكان ومن نصيب المسيحيين تارة أخرى كما يحدث عادة في ظروف كهذه ، لكن النصر غالبا ما كان من نصـيب قـواتنا بشـكل عام .

وقيل إن امناً كبيرا ساد في ذلك المعسكر ، كما توفرت فرص كبيرة دشراء جميع أنواع السلع حيث عاش الناس في خيمهم وسرادقــاتهم كما كانوا معتادين على عمل ذلك في الوطن ، في مدنهم المسورة .

قام سـكان المدينة بحـراسة مــدينتهم بعناية ، خـاصة ليلا ، واستخدمت أبدال الحراس ، وشارك حتى الرجال القـادة في المدينة في حراسة الأسوار ، وأمضوا الجزء الاكبـر مـن الليل بــلا نوم ، ووضعت مصابيح زجاجية تعمل على الزيت وكانت مـزودة بـأغلفة شفافة لحماية لهبها على طول الأسـوار وعلى شرفـات الابـراج ، واضاءت هذه المصابيح المكان في الليل حتى بدا كالنهـار وسـاعدت الحرس أثناء قيامهم بالجولات على الأسوار .

واحتاط حرس مختلف فرق المعسكر المسيحي لحمـاية جنودنا ايضا ، ولم تتوقف الحراسة ابدا لانه كان يخشى من أن السكان قـد يهاجمون المعسكر تحت غطاء الظـلام ، وكان هنالك خـطر مـن أن المصريين الذين كانوا يحثون الخطى لمساعدة عسقلان قد ينقضـون فجاة وبشكل غير متوقع على الجيش وذلك على الرغم من أن عناصر الاستطلاع كانت قد وضعت في مواقع كثيرة حول غزة لتقـدم الانذار في الوقت المناسب من تقدم العدو .

٢٤ ـ عبور حجاج خلال شهر الحصار الثاني ، كان هذا مفيدا جدا ومساعدا على استئناف الحصار .

استمر الحصار لمدة شهرين دون تغيير ، وحدث العبور المألوف في حوالي عيد الفصح حيث جلب أعدادا كبيرة من الحجاج إلى هناك ، وارسل المسيحيون ، بعد تداولهم مع بعضـهم بعضـا ،رسـلا مـن الجيش يحظرون بأمر من الملك على جميع البحارة والحجاج العودة إلى الوطـن ، ووجهت الدعوة إلى الجميع ـ على أسـاس دفـع

الاجور ـ للمشاركة في الحصار ، وهو عمل مقبول جدا من الرب(٦٦). وصدرت الاوامر الى جميع السفن كبيرها وصغيرها بالابحار الى عسقلان. وهكذا وصلت جميع السفن ، التي كانت قد قدمت في ذلك العبور ، الى أمام المدينة في غضون أيام قليلة جدا ، بعدما زادت من سرعتها ريح مواتية ، وانضمت الى صفوفنا قوات كبيرة من الحجاج الفرسان والمشاة ، وهكذا ازدادت قوة الجيش يوما بعد يوم ، وأصبح السرور في معسكرنا عظيما والامل بنيل النصر كان أملا بلا حدود.

وعلى عكس ذلك انتشر القلق والاسى بشكل متزايد دوما بين صفوف العدو ، وبدأت تقل ثقة افراده بقوتهم الخاصة وقل ظهورهم للقتال على الرغم من أنهم كانوا قد تحدونا ودعونا للقتال قبل ذلك مرارا. والتمسوا من الخليفة المصري مرارا وتكرارا ارسال المعونة لهم بالسرعة الممكنة ، والا لابد لهم من الاستسلام حالا ، وبناء عليه اتخذ الخليفة اجراءات فعالة لنجدتهم ، وأمر الاعيان المسؤولين عن عمل كهذا بتجهيز اسطول وجمع الجيش ، وحمل السفن الطويلة بالاسلحة والمؤن والآلات الحربية ، وعين القادة واحتاط للمستلزمات الضرورية وحث في تلك الاثناء على السرعة وأنب على التأخير.

كان المسيحيون في هذه الاثناء قد اشتروا سفنا بمبالغ كبيرة وازالوا سواريها ، ثم جرى استدعاء الصناع وصدرت اليهم الاوامر ببناء برج عال جدا من الخشب ، وتمت حماية هذا البرج بعناية من خطر الحريق وحوادث مشؤومة أخرى بواسطة الستائر المجدولة وجلود الحيوانات المدبوغة من الداخل والخارج على حد سواء بحيث يكون المقاتلون الذين توجب عليهم مهاجمة المدينة سالمين تماما ، واستخدمت المواد الخشبية الزائدة عن السفن لانشاء آلات القذف التي وضعت بعدئذ في مواضع استراتيجية لقصف

الأسوار ، كما صنعت أيضا السقائف المغطاة من المادة نفسها بحيث يمكن ، تحت حمايتها ، الاقتراب من السدود وتدميرها بسلام ، وجرى إعداد جميع هذه الاستعدادات بشكل موائم ثم حدد بعناية تعيين قطاع السور الذي يمكن أن تطبق عليه آلات القذف الحربية بسهولة أكبر ، وبعدما تم تدمير الجزء الأكبر من السد كما ذكرت آنفا نقل البرج مصحوبا بصيحات عالية ، وألصق بالأسوار ، وأمكن الحصول من قمة البرج على منظر للمدينة بأسرها ، ونشب قتال متلاحم مع المدافعين الموجودين في الأبراج المجاورة ، هذا ، واستخدم سكان المدينة الآن قسيهم وسهامهم بشجاعة وإصرار من الأسوار تارة ومن المتاريس أحيانا لانهاك المحجوبين في داخل الأبراج المتحركة ، غير أن جميع جهودهم كانت عقيمة لأنهم لم يتمكنوا من الحاق الأذى بالذين كانوا يدفعون الآلة الحربية الى الأمام ، ثم احتشد عدد ضخم من المدافعين عند جزء السور المقابل للبرج ، وصدرت الأوامر الى الأشخاص الأكثر شجاعة بينهم باختبار قوتهم هنالك في قتال مستمر الى جانب المهاجمين الموجودين في البرج المتحرك .

وتواصل في الوقت نفسه القتال المستمر في مواقع مختلفة ومن مكان الى آخر على طول الأسوار ، ونادرا مامر يوم دون أن تقع مجزرة ، وذلك بصرف النظر عن عدد الجرحى الكبير في الجانبين ، ولقد سمعنا قصصا عن أعمال بارزة قام بها بعض الأفراد في ذلك الحصار ، وعن الشجاعة الملحوظة التي أظهرها العدو والمسيحيون ، غير أنه لايمكن إعطاء سوى اهتمام بسيط لحوادث من هذا النوع لأننا ندون تاريخا عاما .

٢٥ـ وصول الأسطول المصري الى عسقلان خلال الشهر الخامس من الحصار ، وهو حدث قدم مواساة كبيرة للمحاصرين .

صمد قادتنا لمدة خمسة أشهر متتالية في الحصار ، وكانت قوة العدو قد بدات تضعف بعض الشيء بشكل واضح ، وبدت إمكانية الاستيلاء على المدينة اكثر اشراقا مما هو مألوف عندما ظهر الأسطول المصري فجأة أمام المدينة بعدما حملته ريح مواتية ، ورفع اهالي عسقلان أيديهم الى السماء عندما راوا الأسطول وصرخوا بصيحات عالية أن المسيحيين سيتراجعون الآن أو سيهلكون على الفور ، وعندما لاحظ جيراد صاحب صيدا قائد الأسطول المسيحي ان السفن تقترب من المدينة حاول إعاقة تقدمها بمهاجمتها بعدد صغير من الشواني التي كان يقودها ، الا انه انعطف في آخر الأمر راجعا بعدما أرعبته أعداد العدو الكبيرة ، ثم لاذ بالفرار حرصا على حياته وسلامته .

ابحرت قوات العدو بشجاعة الى المدينة وهي تحمل المساعدة للمحاصرين التي تأجلت لفترة طويلة من الزمن ، وكان الأسطول ، حسب ماذكرته إحدى الروايات ، مؤلفا من سبعين شيني وبعض السفن الأخرى المحملة الى الحد الاقصى بالجند والأسلحة والمواد الغذائية ، وكانت السفن ذات حجم ضخم أرسلها الخليفة المصري ، المذكور آنفا ، لمساعدة المدينة ، وبدأ العدو ، الذي تعزز بهذا الشكل ، يقوم بأعمال القتال مجددا وتحدانا الآن بقوة متجددة وبشجاعة أكثر وبتكرار للقتال ، وكان السكان انفسهم الذين عرفوا تماما شجاعة جنودنا حذرين الى حد ما ، غير أن العناصر الأكثر قسوة والقادمين الجدد كانوا متعطشين لتحقيق المجد وتلهفوا لاظهار قوتهم وشجاعتهم فاندفعوا الى القتال دون حذر فقتلوا بأعداد كبيرة حتى تعلموا تسديد هجماتهم بحذر

اكثر ، وتحمل هجماتنا بهدوء اكبر بعدما امتحنوا الشجاعة الثـابتة للمسيحيين .

٢٦ـ زواج كونستانس أميرة انطاكية مـن رينودي شاتليون (أرناط). اسـتيلاء نور الدين على مملكة دمشق بالقوة . تعيين أمالرك في كنيسة صيدا .

وبينما كانت هذه الاحداث تقع في المعسكر أمام عسقلان اقـدمت السيدة كونستانس أرملة ريموند امير أنطاكية التي كانت على غرار عادة النسوة قد رفضت قبول العديد من النبلاء البـارزين ، اقـدمت سرا على الزواج من ارناط ، الذي كان فـارسا مـرتزقا في خـدمة الملك ، هذا ويلاحظ انها لم ترغب بإعلان هذا الزواج على الملا حتى تكون قد ضمنت قرار الملك ابن خالتها وموافقته حيث كانت إمـارتها تقع تحت حمايته ، وبناء عليه أسرع أرناط الى الجيش لينقل نيتها الى الملك ، وعاد الى انطاكية بعد ان حصـل على مـوافقته وتـزوج الاميرة ، ومع ذلك ، فقد دهش كثيرون من رؤية امراة بارزة جـدا ومشهورة وقوية تتنازل بعدما كانت زوجة لرجل بارز جدا ، فتتزوج من فارس عادي(١) .

علم في هــذه الآونة نور الدين ، الرجـل العـاقل والنافـذ البصيرة ، بوفاة أنر(٦٨) والد زوجته . وكان هذا الرجـل البـارز الذي كان قائدا عاما للجيش الدمشـقي ومـدبرا لامـور الملك ، قـد قاوم بقوة جميع مشاريع زوج ابنته ، وكان نور الدين عارفا ان ملك القدس كان منشغلا مع جميع فرسان المنطقة في محاصرة عسـقلان لفترة من الزمن ، وشعر بثقة أن بلدوين لن يتخلى عن ذلك المشروع تلقائيا للاستجابة لمناشدات الدمشقيين لمساعدتهم ضـده . وهـكذا انتهز الفرصة وزحف الى دمشق بجيش كبير للاستيلاء على المملكة بقوة ، هذا وقد استقبله الناس بتـاييد واسـتسلموا له طـوعا لانه

أطاح بحاكمهم ، حيث كان رجلا فـاسقا وتـافها ، وأجبـره على الفرار الى الشرق فأصبح لاجئا ومنفيا على سـطح الأرض ، وكان هذا التغيير مشؤوما بلا جدال بالنسبة لمصالح المملكة ، فقـد بـرز خصم مرعب بدلا من رجل بـلا سـلطة جعله ضـعفه غير مـؤذ للمسيحيين ، وقد استمر يدفع اليهم جـزية سـنوية حتـى هـذا الوقـت ، لأنه كمـا قيل :« كل مملكة منقسـمة على ذاتهـا تخرب »(٦٩) وتبعا لكلمات مخلصنا تميل ممـالك كثيرة حين تتحـد لكسب القوة من بعضها وتظهر بقوة أكبر ضد عدو مشترك .

ورغب نور الدين بعدما استولى على دمشـق وأخضـع المنطقـة المجاورة بأسرها ، أن يساعد عسقلان بالقدر الممكن له ، من مسافة كهذه ، فأقدم على حصار مدينة بـانياس مسـتفيدا مـن انشـغال المسـيحيين ، حيث كانت تقـع هـذه المدينة عند الحـد الأقصى للمملكة ، وأمل أن شعبنا سيتخلى عن حصاره لمدينة عسـقلان عند استدعائه لنجدة مدينة بانياس المحاصرة ، غير أن آماله العظيمة لم تتحقق برحمة الرب التي كانت توجهها ، ولم تنجح أي من مشاريعه أيضا لأنه أخفق في حصاره لمدينة بانياس ، وأجبر المسيحيون مدينة عسقلان على الاستسلام بمعونة الرب(٧٠) .

توفي في هذه الآونة أيضا برنارد أسقف صيدا ذو الذكرى المبـاركة وعين أمالرك ذو الذكرى الورعة في الرب عوضا عنه ، وكان أمـالرك راعي الكهنة النظاميين لرهبنة بريمونستراتينياس في دير القـديس جوزيف أوف أريماثيا ، وكان رجلا مخلصـا يخـاف الله وصـاحب حياة ورعة ، وحيث أنه لم يكن ليسـمح لأي امـرىء بـالذهاب الى مسافة بعيدة عن المدينة المحاصرة ، فإنه تلقـى كمـا يقـال منحـة الترسيم في الكنيسة في اللد على يدي بطرس رئيس أساقفة صور ذي الذكرى الموقرة .

٢٧ـ المحاصرون يشنون هجوما عنيفا على المدينة . السكان يحاولون إحراق الآلة الحربية الموجودة خارج الأسوار . انهيار جزء من سور المدينة . مقتل بعض المسيحيين أثناء محاولتهم الاندفاع الى المدينة . جيشنا يتخلى عن الأمل .

واخذ في هذه الاثناء الذين كانوا منشغلين في هذه الحملة مشروعهم بقوة كبيرة واستأنفوا شن هجمات شديدة على المدينة دون انقطاع ، وكان هذا هو الوضع السائد بشكل خاص حول الباب الكبير ، كما كان يسمى ، حيث تجددت الهجمات مرارا وتكرارا مع نتائج ذات شؤم شديد على السكان ، وهدد وابل الصخور الضخمة المقذوفة من آلات القذف الحربية بإضعاف الاسوار والابراج وبنسف المنازل عن بكرة أبيها داخل المدينة ، وكانت المذبحة الناجمة مذبحة كبيرة ، كما احدث الجنود الموجودون ضمن البرج المتحرك إبادة كبيرة بقسيهم وسهامهم ليس على المدافعين الذين كانوا يقاومونهم من قمة الابراج والاسوار فقط ، بل ايضا على الذين اضطروا بحكم الضرورة للتحرك حول المدينة ، وبدت المحن التى تحملها السكان في مواقع أخرى مهما كانت شاقة ، محنا خفيفة بالمقارنة مع المصائب التي انصبت عليهم من هذا البرج .

ولهذا تداولوا فيما بينهم وصمموا على تدمير تلك الآلة الحربية مهما كان الخطر وكانت المغامرة،مستفيدين بذلك بشكل خاص من نصيحة الذين كانت لهم تجربة كبيرة في مسائل من هذا النوع ، واستلزم الامر القاء الاخشاب الجافة ومادة أخرى موائمة لاضرام النيران وتأجيج ألسنة اللهب بين السور والبرج ، وتوجب احراق هذه المواد خلسة فيحترق البرج ، وكان قد بدا أنه لايوجد أي أمل آخر كما لم تبق لديهم الشجاعة للمقاومة لفترة اكثر من ذلك ، حيث سقطوا الآن الى هاوية اليأس .

استجاب بعض الرجال الشجعان المشهورين بقـوتهم وإقـدامهم رجالا كانوا قد اعتبروا سـلامة أبناء مـدينتهم أهـم مـن سلامتهم ، للمناشدة على الفور وعرضـوا أنفسـهم للقيام بـالمهمة الخطرة ، ونقل الخشب الى قسم السور الذي كان في الموقع الأكثـر قربا للبرج والقي في الفراغ الموجـود في الخـارج بين السـور والآلة الحربية ، وبعدما كدسـوا كومـة كبيرة مـن الحـطب كانت كافية بتقديرهـم لاحراق البرج ، صبوا القار عليها والزيت وسوائل اخرى تزيد الحريق وأي شيء سيزيد من عنف الحـريق ، ومـاأن اشـعلوا النيران حتى تحولت الرحمة السماوية نحـونا لانه بـالرغم مـن أن ألسنة النيران ازدادت كلها نحو الأسوار ، ثـم دفعـت هـذه الريح بضراوتها الخاصة الناس الى السور ، وتـولت عاصـفة متـواصلة استمرت طوال الليل تحويل السور الى رماد ، وفي حـوالي الفجـر انهار جزء كامل من السور واقع بين البرجين واحدث ضجة أيقـظت الجيش بأسره .

واصطدمت الكتلة عندما سقطت بـالبرج بقـوة كبيرة لدرجـة أن بعض الأجزاء الضرورية من الآلة الحربية ، التي لم تتمـكن النيران الحربية من الحاق الأذى بهـا ، قـد تحـطمت ، وسـقط الحرس ، الذين كانوا يقومون بواجبهم على سطح البرج وفي المناطق البارزة منه ، الى الارض تقريبا ، فأمسك الجيش بأسره بأسلحته بعدما أيقظه صوت الانهيار ، واندفع الى الموقع وهو متلهف للدخول حالا وكأنما السماء قد فتحت مدخلا له . وكان برنارد دي تـرميلي مقدم الداوية قد وصل مع اخوانه الى هناك قبل البقية بـوقت كبيرة واستولى على الفتحة ، ولم يسمح لاحد غير جنوده بدخولها ، واتهم بأنه اقصى الباقين حتى يتمكن شعبه من الحصول على الجزء الاكبر والأثمن مـن الأسـلاب والغنائم(٧١) ، كونه أول مـن دخـل الفجوة ، لأن العادة حولت الأمر قانونا بين المسيحيين حتـى يومنا هذا انه عندمـا يتـم الاسـتيلاء بهجـوم على المدينة ،فإن أي شيء يستولي المرء عليه لدى الدخول يستطيع ان يحتفـظ بـه بحـق دائم

لنفسه وورثتـه ، ولو كان الجميع قد دخلوا في فرصة واحدة ، لأمكن الاســتيلاء على المدينة ولكانت المغـــانم كافية للجميع ، لكن « مـــن النادر أن تكون هنالك نهاية حميدة لمشروع سيء في بدايته وفـــاسد في غايته » لأن « المكسب المحقق بطريقة غير شريفة لاينتج نتائج جيدة (٧٢) » لقد رفضوا بسبب الطمع أن يسمحوا لرفاقهم أن يشاركوهم في الغنيمة ، ولذلك تحملوا بعدل خطر الموت وحدهم ، حيث لم يدخل سوى حوالي الأربعين رجلا ولم يتمكن الباقون من اللحاق بهم .

كان السكان حتى هذا الحين قد خـــافوا على أرواحهـــم بـــالذات وكانوا مستعدين لتحمل اجراءات شديدة بـــدون مقـــاومة ، لكنهـــم انقضوا على هؤلاء الجنود الأربعين بعدما أدركوا أنهم انعـــزلوا عن رفاقهم وهـاجموهم بقوة وشجاعة متجددتين وقتلوهم ، ثم حشـــدوا قواتهم وأمسكوا بالأسلحة وكأنما بعثت الشجاعة فيهم مجددا بعدما كانوا قد تخلوا عنها وكأنهم قد هـــزموا ، واندفعـــوا جميعهـــم الى الموقع الذي كان السور قد انهار فيه وســـدوا الثغـــرة هناك بـــربط عوارض عملاقة مع كتل خشبية ضخمة مما وفرت الســـفن مقـــدارا كبيرا منه ، وجعلوا الموقع منيعا بحماسة بالغة .

ثم استعدوا للمعركة وجـــددوا القتـــال بعـــد أن عززوا الأبـــراج الواقعة بجانب المنطقة المحروقة على الجـــانبين ، والتـــي كانوا قـــد تخلوا عنها بسبب ألسنة النيران العنيفة ، وتحدونا للقتـــال طـــوعا منهم وكأنهم نسوا الهزائم السابقة التي ألحقت بهم ، هذا ولما شعر المقاتلون الموجودون في البرج والعارفون أن أسسه قد وضـــعت وأن الجزء السفلي من الاطار الصلب قد اصيب بأضرار بالغة فقدوا الثقة وحاربوا بالتالي بقوة قليلة .

ولكي يحطم الأعداء معنوياتنا علقوا جثث قتـــلانا بـــالحبال مـــن شرفات السور واظهروا الابتهاج الذي كانوا يشعرون بـــه بـــاطلاق كلمات واشارات السخرية ، غير أن حزنا عميقا حـــل بسرعة محـــل

هذا الابتهاج ، وأظهرت الحوادث التي تلت بوضوح كم هو صحيح المقول القائل :« قبل الكسر الكبرياء وقبل السقوط تشامخ الروح »(٧٣)

وعلى العكس ، كان المسيحيون مقهورين عقلا وقلبا ، وتغلب الحزن عليهم ، وضعفت ارادتهم بمرارة الروح ، وفقدوا كل امل بانتصار جوهري .

٢٨ـ المسيحيون يطمئنون مجددا . ويتشجعون لمواصلة الحصار ويثابرون بحماسة أكبر من قبل .

في هذه الاثناء جمع الملك الزعماء بعدما روعته الكارثة الفظيعة ، وعندما اجتمعوا في خيمته (وكان من بينهم البطريرك ورئيس أساقفة صور ومطارنة الكنيسة والآخرون) وضع أمامهم صليب الصلبوت المانح للحياة واستفسر بقلق عما يجب عمله في مثل هذا التغير الكبير للحظ ، وعندما كانوا يتداولون بقلق بالغ ، وبخوف من الرب نشأ انقسام بالرأي شطر المؤتمر الى فريقين حيث اكد بعض المشككين بقوتهم للفوز بالمدينة وبينوا انهم كانوا قد ضيعوا جهودهم عبثا لفترة طويلة من الزمن هناك ، وكانت قواتهم قد قتلت بأعداد كبيرة وجرح القادة أو أسروا ونفدت حتى مواردهم ، وأكدوا أن المدينة كانت منيعة وانه كان لدى السكان وفرة من كل السلع ، وأن قوتهم تتجدد باستمرار بينما كانت قوتنا تضعف ، ونصحوا بالعودة .

وأشار آخرون ، كانوا ذوي تفكير ارشد بالمثابرة آملين برحمة الرب الذي لم يكن راغبا بالتخلي عن الذين كانوا يثقون به بصبر وورع ، وقالوا آنه مامن فائدة بالنسبة لأي مشروع له بداية جيدة مالم يصل الى نهاية مشابهة ، فقد تم بالفعل استخدام وقت كبير

- ٣١٣٦ -
ونفقة عالية ، الا ان ذلك كان مع الامل بتحقيق جزاء أكثر وفـرة لم يحرمهم الرب منه على الرغم من انه بـدا مـؤجلا ، لقـد انهـزمت قواتهم بالفعل ، ومع ذلك فقد بقي لديهم الامل في انهم سيجدون بعثا متألقا لأن الوعد للمـؤمنين هـو :« سـيتحول حـزنكم الى فرح(٧٤) » و « اسألوا تعطوا »(٧٥) ونصحوا ، وهم يفكرون بهذه الطريقة ، بعدم العودة وناضلوا لاقناع المسيحيين بالمواظبة كجنود أقوياء في هذه المهمـة ، وأيد غالبية الأمـراء المدنيين رأي الزمـرة الأولى ، وبدا الملك أنه ميال نحو ذلك الرأي ايضا بعدما أرهقه القدر المعاكس .

واتفق مع الزمرة المعاكسة كل مـن البـطريرك ورئيس أسـاقفة صور وجميع الكهنة وأيضا ريموند مقدم الاسبتارية مع اخوانه .

وهكذا ، انقسم الاجتماع وقـدم الجميع حججـا متنوعة تـؤيد الآراء المعاكسة ، غير أن الرحمـة السـماوية الموجـودة معهـم دائما ، جعلت رأي البطريرك يفـوز لأنه بـدا له ميزة كبـرى ووعد بتحقيق مجد اكبر (٧٦) ، ولذلك تقـرر بـالاجماع العـودة الى الرب والمثابرة على المهمة التي كانوا قد باشروها حتـى يزورهـم ضـوء النهار وينظر بتأييد الى اعمالهم بعد التماسهم المساعدة من السماء.

وبناء عليه ، أمسـك الجميع وهـم مجمـوعون على هـدف واحد ، بأسلحتهم ،وأمروا الأبواق أن تعلن الاشارة وهـم عائدون الى المهمة قيد الاعداد ، واستدعت دعوة البوق مـع صـوت المنادي فورا جميع الناس الى المعركة ، وحيث كان الناس متلهفين للانتقام لمظالم اخوانهم القتلى ، فقد اجتمعـوا امـام المدينة بـاتقاد غريب وتحدوا العدو للمعركة بنهم ، ولدى معاينة صفوفنا ، بدت وكأنهـا لم تكابد أية خسارة ، أو كانت قـد تلقـت تعـزيزات جـديدة على الأقل ، فاستولى على المسـيحيين غضـب جنوني لابـادة العـدو وانقضوا على افراده وهاجموهم بعنف شديد لدرجة أن العدو أصيب

بالدهشة وصعق ازاء الدليل على قوتنا التي لاتقهر ومواظبتنا التي لاتغلب ، وكانت جميع الجهود التي بذلها العدو عقيمة على الرغم من انه بذل جهودا يائسة للثار بطريقة مماثلة ، لانه لم يتمكن من الصمود أمام صدمة جنودنا ولاان يتجنب سيوفهم ، لقد نشبت معركة ذلك اليوم بين قوى غير متكافئة على الاطلاق ، غير أن الفرسان والجنود المشاة فازوا باكاليل غار النصر وانتصروا على العدو في جميع المواقع .

وهكذا وقعت مجزرة كبيرة بين صفوف العدو ، وجرى تعويض الخسارة ، التي كابدها المسيحيون قبل ثلاثة ايام ، بمقادير مضاعفة كثيرا ، فنادرا ماكانت هنالك اية أسرة في المدينة لم يصب افرادها بكرب عميق ، وامتلأت المدينة بالفوضى ، وبدت المحن التي تمت معاناتها من قبل محنا خفيفة بالمقارنة مع الخطر الحالي ، ولم يكونوا قد اصيبوا بكوارث مماثلة في اي وقت منذ بداية الحصار وحتى ذلك اليوم ، كما لم يكونوا قد تحملوا خسائر مماثلةابدا ، فقد ابيدت صفوة مملكتهم وقتل حكام المدينة وباتوا في عوز الى الرأي ، وتناقصت شجاعتهم وتلاشى كل الأمل بالمقاومة .

وهكذا تم ارسال عدد من قادتهم الرئيسيين الى الملك بموافقة عامة كسفراء ، وتوجب عليهم ان يطلبوا التوصل الى هدنة مؤقتة من اجل تبادل جثث القتلى وليتمكن الجانبان من الحصول على الفرصة وكل حسب عادته ـ لاقامة المراسم النهائية لأعمال دفن موائمة .

وافق المسيحيون على الشروط المعروفة ، وجرى تبادل جثث القتلى ودفنت باحتفالات مهيبة .

- ٣١٣٨ -

٢٩ ـ استسلام أهالي عسقلان لليأس ، وتقريرهم بالاجماع الاستسلام :

عندما رأى اهالي عسقلان الدليل على المجزرة التي تعرض لها حشدهم وأدركوا وعرفوا مدى القوة التي أرسلها الرب ضدهم تجدد حزنهم وازداد زعر قلوبهم وتلاشت شجاعتهم بمقدار حجم محنهم . وعلاوة على ذلك ، ولكي تتوج المحن التي اصيبوا بها ، نزلت بهم كارثة أخرى في ذلك اليوم ، فقد حدث أن أربعين جنديا من جنودهم الشجعان كانوا يسحبون عارضة ضخمة إلى موقع كان بحاجة إليها عندما سقطت صخرة ضخمة كانت مقذوفة من آلة القذف الحربية ، التي كانت عندنا ، على العارضة وسحقتها تماما مع الجنود الذين كانوا ينقلونها .

ثم جمع زعماء المدينة الباقون على قيد الحياة الناس مع بعضهم بعضا وهم يشعرون بالمرارة في افئدتهم ويناضلون تحت عبء المحن الثقيلة ، فاجتمعوا وهم يبكون ويطلقون صيحات العويل ، وكان بين الحشد نسوة ضممن أطفالهن إلى صدورهن ، ورجال ضعفاء مسنون كانوا يلفظون أنفاسهم ، ثم تحدث بناء على موافقة الجميع بعض الرجال الحكماء والأعيان إلى الناس المجتمعين على النحو التالي : « تعرفون يا أهالي عسقلان ، أنتم الذين تقيمون وراء هذه الأبواب ، وما من أحد يعرف افضل منكم ، كيف كنا قد خضنا كفاحا خطيرا وصعبا لمدة خمسين عاما ضد هؤلاء الناس المروعين والمصرين على هدفهم ، وتعرفون تماما وبتجربة فعلية كم مرة أطاحوا بزعمائنا في المعركة ، وكم مرة جدد أبناؤنا الكفاح لرد آذاهم بعدما أخذوا مواقع آبائهم ، ودفعنا في ذلك دائما الأمل بالمحافظة على هذا الموقع الذي ترعرعنا فيه ، وبالدفاع عن زوجاتنا وابنائنا وعن الفضيلة الأعظم بكثير الا وهي الحرية ، لقد استمر هذا الكفاح لمدة أربع وأربعين سنة ، منذ الوقت الذي باغتنا فيه ذلك الشعب

المزعج جدا بالنسبة لنا ، والذي قدم من ابعد مناطق الغرب واستولى بقبضة قوية وبعنف على المنطقة بأسرها شروعا من طرسوس في كليكية وحتى مصر ، وبقيت هذه المدينة وحدها وبسبب الجهود الشجاعة التي بذلها أجدادنا سليمة في وسط أعداء أقوياء كهؤلاء حتى اليوم الحالي ، إلا انه يمكن اعتبار المخاطر التي كابدناها حتى الوقت الحالي مخاطر صغيرة أو لا شيء عند مقارنتها مع المخاطر التي تهددنا الآن ، وجميعنا عاقدون العزم على المقاومة حتى الآن ، إلا أن الجيش قد هلك ونفدت المؤن وعبء المشقات الثقيل لا يحتمل ، كما أن حشود العدو القوي مستعدة دائما ومواظبة للغاية ، وقد اضعفت غاراتهم المستمرة قوتنا العقلية والجسدية على حد سواء ، وحرمتنا من القوة لمواصلة النضال .

« وبناء عليه يبدو من الموائم لزعماء عسقلان ، ان توافقوا أنتم ايضا ، في أن نحاول تخليص انفسنا من معاناتنا الحالية في هذا الوقت ، ولنرسل مبعوثين باسم جميع الناس إلى ذلك الملك القوي الذي يحاصرنا ، ولنبذل الجهود في سبيل الحصول على شروط محددة بالاذن لنا بالرحيل بحرية مع زوجاتنا وابنائنا وعبيدنا وامائنا وجميع ما نمتلك ، وسنوافق من جانبنا بالمقابل على تسليم المدينة له ـ إننا نقول هذه الكلمات بحزن ـ لننهي هذه المحن الرهيبة » (٧٧) .

٣٠ ـ إرسال مندوبين مختارين من الرجال القياديين إلى الملك . حصولهم منه على إذن بالرحيل بحرية مع زوجاتهم وأبنائهم وجميع ممتلكاتهم . تسليم المدينة .

بدا هذا الخطاب جيدا في نظر الجميع ، وتمت الموافقة عليه بصيحات الموافقة العالية كما هو مالوف في ظروف كهذه ، واختير

رجال حكماء وعقلاء وذوو مظهر موقر ومبجل من الشعب لينقلوا إلى الملك ونبلائه الاقتراح الذي كانوا قد توصلوا إليه ، وانطلق هؤلاء المندوبون من الباب عندما استلموا الاذن بالتقدم واقتربوا من حضرة الملك .

عندما اجتمع الأمراء جميعا استجابة لطلب المبعوثين ، وضع الاقتراح أمامهم وشرحت الشروط التي وضعت بالتفصيل ، ثم طلب من المندوبين الانسحاب لفترة من الزمن بينما يتشاور الملك مع مستشاريه القياديين ، ويستمع إلى آرائهم حول عرضهم ، وقد انفجروا بدموع الفرح وردوا بعيون وأيدي مرفوعة عاليا إلى السماء بالشكر العميق لخالقهم الذي تفضل بمنحهم معروفا وا فرا كهذا ، مع انهم كانوا لا يستحقون ذلك .

ثم جرى استدعاء الرسل ، وقدمت لهم اجابة جماعية ، في انه ستقبل الشروط التي عرضت إذا ما قاموا بإخلاء المدينة بأسرها في غضون الأيام الثلاثة القادمة ، ووافق المبعوثون على هذه الشروط ، وطلبوا تأكيدها بأداء يمين لاعطاء القوة الكافية للاتفاقية ، وهكذا أدي قسم بإجلال لائق ، ووعد الملك وبعض خيرة نبلائه بأنهم سينفذون جميع شروط الاتفاق المذكور من قبل بإخلاص ودون نوايا شريرة ، ثم سلموا الرهائن التي كان الملك قد طالب بها بالذات ، وعادوا إلى ديارهم بابتهاج ، ورافقهم عدد من الفرسان المسيحيين ليضعوا راية الملك فوق البرج العلوي في المدينة كعلامة على النصر .

عندما رأى جيشنا ـ الذي كان ينتظر بتوقع وتلهف ـ الرايات الملكية ترفرف من الأبراج العلوية انفجروا بصراخ صدر عن الجماعة المسرورة ، وارتفعت صيحات الشكر إلى السماء ترافقها الدموع وكأنها صادرة عن صوت واحد يقول : « تبارك الرب الذي لم يتخل عن الذين وثقوا به ، وتبارك اسم جلالته المقدسة لاننا شاهدنا أشياء رائعة اليوم » .

وعلى الرغم من أن أهالي عسقلان حصلوا ، حسب الاتفـاقية ، على هدنة لمدة ثلاثة أيام متتالية ، إلا أنهم خافوا كثيرا مـن وجـود المسيحيين ، لذلك أتموا جميع استعداداتهم في غضـون يومين ، ثـم استعدوا للرحلة وانطلقوا مع زوجاتهم وابنائهم وعبيدهم وجواريهم وكافة أنواع ممتلكاتهم ، وزودهم الملك ، حسب الاتفاق ، بالمرشدين حتى مدينة العريش القديمة الواقعة في الصحراء وارسلهم بأمان .

ثم إن الملك والبطريرك بمرافقة أمراء المملكة الآخـرين ومـطارنة الكنيسة مـع جميع الكهنة وسـائر الناس دخلوا المدينة بـالتراتيل والأناشيد الروحية وبقيادة صليب الصلبوت ، ونقـل الصـليب إلى المسجد الرئيسي للمسلمين وكان مبنى فائق الجمال تم تكريسه فيمـا بعد على اسم الرسول بولص تشريفا لذكراه ، وانسحب الجميع إلى الأحياء المخصصة لهم بعدما احتفلوا بالطقوس السـماوية وقـدموا صلوات الشكر هناك ، وأمضوا يوما بهيجا وجـديرا بـأن يذكر إلى الأبد (٧٨) .

ونظم البطريرك في غضون أيام قليلة بعد ذلك الكنيسة في عسقلان ، وعين هناك عددا محددا من الكهنة وخصهم بدخل ثابت حمل اسـم أوقاف كنسية ، كمـا عين أسـقفا لمدينة عسـقلان شـخصا يدعى أبسالوم وكان كاهنا نظاميا في كنيسة قبر المسيح على الرغم من أن جيرالد أسقف بيت لحم احتج بقوة ضد هذا التعيين وحـرم تنفيذه ، ثم احيلت القضية بدعوى استئناف إلى البابا في روما ، فعزل البابا الاسقف الذي عينه البـطريرك ومنح لاسـقف بيت لحـم الكنيسـة الموجودة في عسقلان مع سائر ممتلكاتها ليحتفظ بها وبـالكنيسة في بيت لحم بحق دائم (٧٩)

وتلبية لنصيحة والدته ، وزع الملك الممتلكات الواقعة داخل المدينة وخارجها مع المناطق التـابعة لهـا مبـاشرة على أولئك الذين كانوا يستحقونها عن جدارة ، وباع قسما منها الى بعضهم (٨٠) ووهب

بسخاء مدينة عسقلان الى أخيه عموري كونت يافا. لقد تم الاستيلاء على عسقلان في الثاني عشر من شهر آب في العـام ١١٥٤ لتجسيد الرب وفي العام العاشر لحكم الملك بلدوين الثالث(٨١).

حلت كارثة محزنة بسكان مدينة عسقلان التعسة أثناء رحلتهم الى مصر ، فعندما رحل الجنود الذين كان الملك قد عينهم ليرشدوهم في طريقهم وليمنعوا من التحرش بهم من أي كان ، فقد هاجم النازحين شخص يدعى «نوقونيوس » وهو تركي الأصل ، وكان قويا باستخدام السلاح إلا أنه كان صاحب حياة شريرة وغير مخلص على الاطلاق ، وكان هذا الرجل قد شاركهم مشقاتهم ، وكان قد حارب معهم لفترة طويلة من الزمن بشكل مأجور ، وتظاهر بأنه رغب بمرافقتهم في الرحلة الى مصر ، الا أنه عندما رأى أن المرشدين قد تركوهم ، رمى بازدراء جانبا جميع النوايا الطيبة والصفات الانسانية وهجم عليهم ، ثم رحل بعد أن سلبهم جميع ممتلكاتهم وتركهم يجوبون في الصحراء (٨٢) .

انتهى الكتاب السابع عشر

الكتاب الثامن عشر

القـدس اللاتينية في اوجهـا في ظـل بلدوين الثـالث: الانجذاب نحو مصر.

١ ـ ارناط يسيء معـاملة بـطريرك انطـاكية بشـكل معيب ، التجاء البطريرك الى المملكة،انتشـار مجـاعة خطيرة في المنطقة.

كان أرناط قد تزوج من أرملة ريموند امير انطاكية ، كما ذكرت ذلك من قبل ، وكان قـد أدرك منذ البـداية أن هـذا الزواج لم يكن مرضيا للبطريرك ، وبالنظر لاسـتمرار البـطريرك بـالاصرار على الموقف ذاته ،فقد نظر ارناط بارتياب الى كل ما يفعله (٨٣) كمـا ان البطريرك ،الذي كان قويا وثـريا جـدا والذي كان يتمتـع بسـلطة متفوقة عبر بحـرية مـرارا عن آرائه علنا ، وخـاصة حـول أرناط وافعاله ، وكما هو الحال كالمعتاد فقد قام اشخاص ـ سعوا لزيادة الكراهية بين الأمير والبـطريرك ـ بنقـل هـذ التعليقـات الى الأمير ، وهكذا استشاط أرناط غيظا وغضب غضبا شديدا ، وأمـر باعتقال البطريرك ، ونقله بشكل مهين الى القلعة التـي تـطل على انطاكية ، ثم ارتكب عملا بغيضا للغـاية بـأن اجبـر البـطريرك ، المسن ، خليفة بـطرس رئيس الرسـل ، وعلى الرغم مـن أنه كان مريضا لدرجة أن الأمل في شفائه يكاد أن يكون معدوما ، أمـره أن يجلس تحت الشمس الملتهبة طوال يوم مـن أيام الصـيف ورأسـه المكشوف مغطى بالعسل ، ولم يقدم له أحد ، من أجل التقوى ، اية نجدة من اشعة الشمس القاسية أو حاول أن يبعد الذباب عنه.

عندما وصل نبأ هـذه الاهـانة الى ملك القـدس ، تملكه الرعب

والغضب إزاء التصرف الجنوني للأمير الأحمق ، وبما أنه لم يتمالك نفسه من الغضب ، فقد أرسل الى أرناط اثنين من المبعوثين المبجلين هما: فريدريك أسقف عكا والمستشار رالف ، حملا له رسالة أنب فيها الملك ـ استنادا لسلطته الملكية ـ الأمير لعمله الشائن وحذره وطالبه بالعدول عن أساليبه الشريرة ، وأطلق الأمير ، بعد استماعه للرسولين وقراءة رسالة الملك ، سراح البطريرك بعدما أمطره بوابل من الشتائم ، وأعيدت أيضا الممتلكات التي كانت قد أخذت من البطريرك وشعبه ، هذا وغادر في نهاية الأمر البطريرك منطقة انطاكية ، وذهب الى مملكة القدس فاستقبله الملك وزوجته ووالدته بصدر رحب ، واستقبله أيضا البطريرك وجميع أساقفة المملكة وبقي هنالك لعدة سنوات.

انتشرت في العام اللاحق مجاعة خطيرة في سائر المنطقة (٨٤) ، فقد أزال الرب المتلىء بالحقد نحونا دعامتنا الأساسية ، أي الخبز ، الى درجة بيع مكيال القمح بأربع قطع ذهبية ، وفي الواقع ، لو لم يكن قد تم العثور على كميات كبيرة من الحبوب في عسقلان عندما تم الاستيلاء عليها ، لاجتاحت المجاعة المنطقة ولهلك جميع الناس تقريبا ، لقد بقيت الحقول الواقعة حول عسقلان بدون زراعة لمدة خمسين عاما بسبب الخوف من الحروب ، إلا أن المنطقة اصبحت تحت رعاية المزارعين خلال الأعوام اللاحقة للاستيلاء عليها ، وتمكن اهالي تلك المنطقة من زراعة الأرض بحرية بعدما تخلصوا من الخوف من العدو ، وهكذا نعمت المملكة بأسرها بوفرة كبيرة الى حد يمكن فيه تسمية جميع الأعوام السابقة مجدبة وعقيمة بالمقارنة مع الحاضر ، ولقد احتفظت التربة بداخلها بكل طاقتها لأنها لم تزرع لفترة طويلة من الزمن وكانت محرومة من عناية الحراثة ، واستجابت بالنتيجة لعناية المزارعين بفائدة مضاعفة وأنتجت محاصيل تضاعفت ستين مرة.

٢ ـ اختيار هادريان بابا إثر وفاة أناستاسيوس. تتويج الامبراطور فـريدريك في رومـا. نشـوب عداوة خطيرة بين البابا ووليم ملك صقلية.

في الوقت الذي كانت هذه الحوادث تأخذ مجراها في الشرق توفي البابا اناستاسيوس الرابع في روما ، وعين بدلا عنه هادريان الثالث (هادريان الرابع)(٨٥) وكان هذا البـابا انكليزي المولد مـن قلعـة القديس البانز ، وكان راعيا للكهنة النظـامين في كنيسـة القـديس روفوس الواقعة بالقرب من مدينة افيغنانون في بروفانس في أبرشية الآرلز ، وقد استدعي من هنالك الى كنيسة روما مـن قبـل البـابا يوجينيوس صاحب الذكرى الورعة ، ورسم أسقفا لألبـانز بـاسم نيقولاس ، ثم أرسل أناستاسيوس خليفة البابا يوجينيوس كممثـل باباوي الى النروج التي تعتبر من أبعد أقـاليم الغـرب ، وكان لدى عودته بعد وفاة هذا البـابا ، مـوجودا في الانتخـاب وقـد اختير بالاجماع من قبل رجال الدين والناس كبابا ومنح اسم هادريان.

وحدث في هذا العام نفسه أن نزل فـريدريك ملك التيوتـون الى ايطاليا بقوات ضـخمة ، على الرغم مـن أنه لم يكن قـد أصـبح امبراطورا بعد ، وحاصر تـورتونا وهـي احـدى مـدن لومبارديا ، واستمر الحصار لفترة طويلة من الزمن ، الا أنه قـرر الذهاب الى روما وأن يتوج امبراطورا هناك بعدما تم الاستيلاء على المدينة في آخر الأمر. (٨٦)

ونشب خلال الوقت نفسـه عداء خـطير ايضـا بين البـابا هادريان ، الذي نحن بصدده الآن ، وبين وليم ملك صـقلية ، ابـن روجرذي الذكرى الطيبة ، و قد صدر هذا العـداء عن أسـباب مختلفة ، وقد وصل الخلاف بين الرجلين الى درجـة العـداء العلني الى حد أن البابا أصدر عقوبة الحرمان الكنسي ضد الملك وشن حربا ضروسا ضده(٨٧).

ومهما يكن من أمر فإن فريدريك المصمم على بلوغ هدفه حث الخطى على طريقه وزحف في غضون ايام قليلة من لومبارديا الى روما حيث أثار وصوله المفاجيء بعض الريبة في ذهن البابا والكنيسة الرومانية بأسرها ، إلا انه تم في آخر الأمر ، وعن طريق بعض الوسطاء ترتيب الشروط المعتادة ، وتوج فريدريك في السادس والعشرين من شهر حزيران وباحتفال مهيب في كنيسة بطرس واعلن امبراطورا(٨٨) .

وبعد مضي ثلاثة أيام على يوم عيد الرسولين بطرس وبولص ، المتزين بالشارة الامبراطورية والبابا المرتدي للطرز المميزة للمنصب البابوي الأسمى حشدا قواتها في موقع يسمى « جسر لوكان » بالقرب من مدينة تيفولي ، وتقدما في طريقهما مع بعضهما من هناك وسط الكهنة وعامة الناس المبتهجين والغار يتوجهما ، وانفصلا عند انتهاء العيد الديني وهما على وفاق طيب ، وأسرع الامبراطور الى أنكونا حيث تطلبت حضوره شؤون الامبراطورية ، وتقدم البابا الى المنطقة المجاورة لروما حيث أقام لبرهة من الزمن في مدن الهضبة.

كان ملك صقلية قد أمر نبلاءه في هذه الأثناء بحصار مدينة بينيفنتو التي كانت الملكية الخاصة للكنيسة الرومانية ، وأن يطوقوا المدينة باحكام بالقدر الممكن ، فغضب البابا بشكل يفوق الحدود إزاء هذا العمل ، وحاول تحريض نبلاء الملك ضده لأنه كان راغبا برد المعاملة السيئة باجراء مماثل ، ولم تخفق أمانيه في تلك الناحية فقد لاقت جهوده النجاح لأنه أقنع روبرت صاحب باسافيلا الذي كان الكونت الأقوى في صقلية ابن خالة الملك ونبلاء آخرين ايضا ليثوروا ضد سيدهم بتعهده أنهم لن يفتقروا ابدا الى مساعدة الكنيسة الرومانية ومشورتها(٨٩) . وعلاوة على ذلك اقنعت نصائح البابا الكثير من النبلاء البارزين والمشهورين ، الذين كان وليم ووالده قد حرموهم من ميراثهم وطردوهم ونفوهم من المملكة ، بالعودة الى

المملكة واستئناف حيازة الممتلكات التي كانت تنتمي اليهم بحق وراثي ، وكان بينهم روبرت أوف سورنتو وأمير كابوا ، والكونت اندرياس أوف راباكانديا وآخرون كثر ، وقدم البابا تأكيده المهيب الى جميع هؤلاء بأن كنيسة روما لن تخذلهم أبدا ، ولم يكتف بهذه الوعود ، بل زاد فحث كلا من امبراطور الرومان الذي كان ما يزال في ايطاليا علانية وبكلمات شفوية ، وامبراطور القسطنطينية برسائل سرية أرسلها اليه للاستيلاء على مملكة صقلية(٩٠).

٣ ـ نشوب خلاف بين البطريرك واخوانية الاسبتارية حول مسألة العشور. وحول بعض الأضرار التي الحقها ذلك التنظيم بالكنائس.

بينما كانت الكنائس في ايطاليا في هذه الحالة غير المستقرة وكذلك الأحوال في صقلية كانت مضطربة لم تكن منطقتنا في الشرق خالية بدورها من الاضطراب ففي الوقت الذي تم فيه بتأييد السماء استرجاع مدينة عسقلان الى المسيحيين ، عندما كانت أمور المملكة تتقدم بشكل سار أيضا حيث توفرت المحاصيل بدأ عدو الانسان الحاسد للهدوء المكلف من الرب باثارة الضغائن ، فقد شرع ريموند مقدم بيت الاسبتارية ، الذي كان ممتلئا مع اخوانه بالحيوية نفسها أيضا (على الرغم من انه بدا في جوانب أخرى أنه كان رجلا متدينا ويخاف الرب) ، بدأ يسبب متاعب جمة للبطريرك ومطارنة الكنيسة الآخرين حول قضايا ذات طبيعة ادارية كنسية ، ومسائل تتعلق بالعشور ، وكان الاسبتارية معتادين على أن يستقبلوا في الاحتفال بالقربان المقدس الناس بدون تمييز أو مناقشة واستقبلوا حتى الذين كان أساقفتهم قد فرضوا بحقهم عقوبة الحرمان الكنيسي ، أو حرموا بالاسم ، والذين فصلوا عن الكنيسة عقابا لآثامهم ، ولم يرفضوا تقديم قربان الموت والمسح المتطرف بالزيت لهؤلاء الاشخاص أنفسهم عند مرضهم ، ولم يحرموهم من الدفن ، وعندما

كان يفرض الصمت على جميع الكنائس أو على كنائس مدينة أو على قلعة ما بسبب جرائم ارتكبت ، فقد كان الاسبتارية معتادين على قرع نواقيسهم والمناداة بشكل أعلى من المعتاد لاستدعاء المفروضة بحقهم الحرمان الكنسي لحضور الطقس الديني ، وكانوا يفعلون هذا حتى يتمكنوا هم أنفسهم من الاستمتاع بالقرابين وعائدات أخرى كانت تخص الكنائس الأم بعدل بحيث يتمكنون من السرور وحدهم عندما يكون الآخرون يتألمون(٩١) ونسوا أقوال الواعظ الشهير الذي قال : « فرحا مع الفرحين وبكاء مع الباكين »(٩٢)

وعلاوة على ذلك ، فلم يقدموا كهنتهم الى أسقف الموقع حسب الحكم القديم للقوانين الكنسية المقدسة ليتمكنوا من الحصول على موافقة أسيادهم لاقامة الطقوس المقدسة في أبرشياتهم ، كما لم يخبروا أساقفتهم عندما لزم عزل أحد الكهنة من أبرشية ما سواء أكان ذلك بعدل أو بظلم ، ورفضوا بشكل قاطع تقديم العشور من اقطاعاتهم الخاصة ومن جميع العائدات المنقولة اليهم بأي حق كان ، وكان لدى جميع الاساقفة هذه الشكوى ضدهم. كما كابدت جميع الكنائس الكاتدرائية الموجودة في كل مكان من هذه الخسارة نفسها ، هذا وقد نفذوا الخطأ الأكثر إفراطا من جميع الأخطاء ضد البطريرك والكنيسة المقدسة في القدس ، وكان عملا بغيضا بالنسبة لجميع المسيحيين ، فقد بدأوا يشيدون أمام الأبواب نفسها لكنيسة القيامة المقدسة صرحا أعلى بكثير وأكثر كلفة من تلك الكنيسة التي كان الدم النفيس لمنقذنا المعلق على الصليب قد كرسها ــ وذلك ليظهروا احتقارهم الوقح للكنيسة التي قدمت للمنقذ قبرا مرضيا ضمن جدرانها بعدما كابد من الم الصلب(٩٣) .

وعلاوة على ذلك ، فقد حاولوا اعاقة القداس المناط بالبطريرك كلما خرج للتحدث الى الناس وحسب العادة ، ومن الموقع الذي علق فيه منقذ الجنس البشري من أجل خلاصنا ، وجلب بذلك فداء تاما للعالم بأسره ، حيث كانوا يقرعون نواقيسهم الضخمة بمكر مقصود

وبشكل عال جدا مستمر بحيث تعذر على صوت البطريرك أن يرتفع على الضجة ، كما لم يتمكن الناس من سماعه على الرغم من الجهود التي كان يبذلها البطريرك لاسماعهم ، واشتكى البطريرك للسكان مرارا ضد السلوك المهين للاسبتارية الذي كان واضحا تماما ، ومع ذلك ، فقد ظلوا متشبثين بموقفهم على الرغم من أن الكثيرين رجوهم بالتوقف ، وهددوا أيضا بأنهم سيستخدمون في نهاية الأمر اجراءات أقوى أيضا ، ونفذوا هذا التهديد لأنهم واصلوا وقاحتهم الى حدود كبيرة ، الى درجة أنهم تسلحوا بروح العنف الوقح واقتحموا الكنيسة حبيبة الله كما يقتحمون منزل شخص عادي ، وأطلقوا وابلا من السهام وكأنهم يطلقونه على وكر اللصوص ، فجمعت هذه السهام فيما بعد بحزمة ، ورأيناها بأنفسنا مع أخرين كثيرين وهي متدلية من حبل أمام موقع الجلجلة ، وهو الموضع الذي صلب فيه المسيح (٩٤).

ويعتقد الذين اجروا دراسة دقيقة لهذا الموضوع أن الكنيسة الرومانية كانت مسؤولة بشكل رئيسي عن هذا الاثم الكبير ، مع أن ذلك كان كما هو محتمل دون تعمد ودون اعطاء أي اهتمام الى الامتياز الذي طولب به ، لأن الكنيسة هي التي نقلت بجور بيت الاسبتارية من سلطة بطريرك القدس الذي كان خاضعا له بعدل (٩٥) ،ولهذا السبب ، ليس لدى الاسبتارية توقير للرب أو تقدير لأي انسان باستثناء الذين يخافونهم ، ومع ذلك ، فإننا نتهمهم بأجمعهم ـ ودون تمييز ـ بالعجرفة ، وهو اثم بغيض جدا بالنسبة للرب وأصل لجميع الرذائل ، وبالفعل ، إننا نعتقد أنه سيكون من المستحيل تقريبا في جماعة كبيرة كهذه أن يتمكن الجميع من سلوك السبيل ذاته دون انحراف في المسلك.

ولكي نشرح في هذا الكتاب كيف تطور هذا المقر من بداية بسيطة وأصبح قويا جدا ، وكيف تصرف بجور ولا يزال مستمرا بالعمل ضد كنائس الرب ، من الضروري أن نبدأ القصة من وقت

- ٣١٥٠ -
سابق الى حد ما ، لأننا سنحاول بعـون الرب أن ننفـذ هـذا دون انحراف عن الحقيقة بتاتا.

٤ ـ أصل بيت الاسبتارية وتطوره.

تبعا لروايات المؤرخين القدامى اصبحت قوة أهـالي الجـزيرة العربية أيام هرقل امبراطور الروم كبيرة جـدا ضـده وبـالمحصلة سقطت مملكة القدس مع سائر سورية ومصر والاقاليم المتـاخمة في أيدي أعداء العقيدة والاسم المسيحي بسبب آثامنا ، ومع ذلك وعلى الرغم من أن الأماكن المقدسة اصبحت بالتالي تحت سلطة العدو من وقت لآخر ، فقد قام اناس كثيرون بزيارتها من الغـرب مـن أجـل العبادة أو العمل ، وربما من أجل الاثنين ، وكان بين الذين غامروا من الغرب في ذلك الوقت في الذهاب الى الأماكن المقـدسة مـن أجـل التجارة بعض الرجـال الايطـاليين والذين كانوا يعـرفون بـاسم الأمالفين وهو اسم مستمد من اسم مدينتهم (٩٦).

تقع مدينة أمالفي بين جبال شامخة وبين البحر ، وتقع مـدينة سالرنو النبيلة الى الشرق وعلى بعـد نحـو سـبعة أميال مـن البحر ، وتقع الى الشرق كل مـن سـورنتو ونابـولي مـدينة فرجيل ، والى الجنوب وعلى بعد نحـو مـائتي ميل عبـر بحـر تيراهينيان تقع صقلية (٩٧) ، وكما ذكرت مـن قبـل ، كان أهـالي مدينة أمالفي أول من حاول نقل السلع الأجنبية الى الشرق ، التـي لم تكن معروفة بالنسبة له حتى الآن وذلك ليكسبوا المال ، وحصلوا بسبب المواد الضرورية التي جلبوها الى هنالك على شروط مـواتية جدا من الرجال الرئيسيين في تلك المناطق ، وسمح لهم بـالقدوم الى هناك بحرية ، وكان الناس ميالين اليهم بشكل ايجابي(٩٨) .

كان حاكم مصر يحتفظ في تلك الحقبة بسائر المنطقة السـاحلية الممتدة من مدينة جبلة الواقعة على الشاطىء بالقرب من اللاذقية في

سورية ، وحتى مدينة الاسكندرية آخر المدن في مصر ، وكان يترأس كل مدينة حاكم جعل قوة الأمير يحسب لها الحسبان في كل مكان ، هذا وحظي الامالفيون بالتأييد الكامل من الملك ونبلائه أيضا ، وتمكنوا من السفر بسلامة تامة في سائر أنحاء البلاد بمثابة تجار وباعة للمواد المفيدة التي كانوا ينقلونها ، وحيث كان هؤلاء التجار اوفياء لتقاليد ابائهم وللعقيدة المسيحية ، فقد اعتادوا على زيارة الأماكن المقدسة كلما سمحت لهم الفرصة بذلك ، إلا انهم لم يكونوا يملكون اي منزل في القدس حتى يتمكنوا من البقاء فيها لفترة من الزمن كما كان لهم في المدن الساحلية ، وهكذا جمعوا حتى ينفذوا خطة مذشودة منذ زمن طويل ، عددا كبيرا من سكان مدينتهم بالقدر الممكن وقاموا بزيارة الخليفة المصري وكسبوا ود أفراد عائلته ، وقدموا مطلبا مكتوبا وتلقوا اجابة سارة تتوافق مع رغباتهم .

٥ ـ كيف امر الخليفة المصري تلبية لمطلب الأمالفيين بتخصيص موقع لهم حتى يتمكنوا من بناء كنيسة فيه.

وبناء عليه جرى إرسال أمر مكتوب إلى حاكم القدس يقضي بتخصيص منطقة واسعة جدا في القدس في جزء المدينة الذي يشغله المسيحيون ، لأهالي أمالفي والأصدقاء وحملة المواد المفيدة وذلك بناء على مطلبهم ، وتوجب عليهم أن يشيدوا بناء كبيرا هناك حسبما كانوا يرغبون ، وكانت المدينة مقسمة في ذلك الوقت ، كما هي مقسمة اليوم ، إلى اربعة اقسام متساوية تقريبا ، ومنح المؤمنون قسما واحدا من هذه الأقسام وهو الحي الذي يحوي قبر الرب ليكون مقرا لاقامتهم ، وشغل الكفرة باقي المدينة مع هيكل الرب .

وتلبية لأمر الخليفة المصري جرى تخصيص مكان كبير يكفي لاشادة الأبنية اللازمة لأهالي مدينة أمالفي وجمعت الاعانات المالية من التجار وشيدوا ديرا على اسم أم الرب المجيدة والمقدسة مريم

العذراء (٩٩) ، وذلك أمام باب كنيسة قيامة الرب وعلى بعد مرمى حجر تقريبا ، وإضافة لهذا كانت هنالك مرافق مناسبة لاستخدام الرهبان ولاستضافة الضيوف القادمين من مدينتهم .

وبعد إنجاز البناء جلبوا راعيا ورهبانا من مدينة أمالفي وأقاموا الدير تحت حكم نظامي كمركز للحياة المقدسة المقبولة للرب ، وبما أن الذين كانوا قد أسسوا الموقع وحافظوا عليه دينيا كانوا رجالا من العرق اللاتيني ، فقد عرف باسم دير اللاتين منذ تلك الآونة وحتى الوقت الحالي .

وحدث مرارا أن قدم حتى في تلك الأيام الأرامل التقيات والمحتشمات إلى القدس ليقبلن الأماكن المقدسة ، وكن قد واجهن – دون اعتبار للخوف الطبيعي ، ودون خشية – مخاطر الطريق التي لا تحصى ، وحيث لم يكن هناك أي مكان في مداخل الدير يمكن فيه استقبال حاجات كهؤلاء بطريقة مشرفة ، فقد شيد الرجال الأتقياء أنفسهم ، الذين كانوا قد بنوا الدير ، مبنى احتياطيا موائما لهؤلاء الناس أيضا ، بحيث عندما تأتي نسوة ورعات يجدن كنيسة صغيرة ونزلا ومحال منفصلة لهن ، وشيد في آخر الأمر ، وبفضل الرحمة السماوية ، دير صغير هناك تشريفا لتلك المدينة الورعة مريم المجدلية وجرى وضع عدة راهبات هناك ليخدمن النسوة الحاجات .

واندفعت خلال هذه الأزمان الخطيرة نفسها أفواج من الناس من بلاد أخرى إلى هناك من النبلاء والطبقة الوسطى على حد سواء(١٠٠). وبما انه لم يكن هنالك أي طريق إلى المدينة المقدسة إلا عن طريق المناطق المعادية ، فقد كان الحجاج ينفقون بالعادة نقود سفرهم مع وقت وصولهم إلى القدس ، وكان هؤلاء الحجاج يضطرون للانتظار امام ابواب المدينة وهم بائسون وعاجزون ، وفريسة لجميع مشقات الجوع والعطش والعري ، ولم يكن يسمح لهم بدخول المدينة حتى يكونوا قد دفعوا قطعة ذهبية ، وحتى بعد حصولهم في آخر الأمر على حق الدخول وزيارة الاماكن المقدسة واحدا تلو الآخر ، لم يكن لديهم

اية وسيلة للراحة وحتى ولو ليوم واحد باستثناء ما كان يقدم إليهم وبروح أخوية من قبل رهبان هذا الدير ، وكان جميع القاطنين في القدس هم من المسلمين والكفرة باستثناء البطريرك ورجال الدين والسريان التعساء ، وكانت اعمال الابتزاز اليومية والسخرة المتعددة الأشكال والخدمات الاضافية وتنفيذ الأشياء ذات الطبيعة الحقيرة للغاية تثقل كاهل السريان إلى درجة انهم لم يستطيعوا أن يتنفسوا إلا بشق النفس ، وعاشوا في فقر مدقع للغاية وفي خوف مستمر من الموت .

وبما انه لم يكن هنالك احد ليقدم المأوى إلى الحجاج البائسين الذين ينتمون إلى عقيدتنا ، والذين كانوا مبتلين بهذا الشكل ، ومعوزين الى الحد الاقصى ، فإن الرجال الاتقياء الذين كانوا يقيمون في دير اللاتين اخذوا بشفقة شيئا من وسائلهم الخاصة وشيدوا ضمن المجال المخصص لهم رباطا لاعانة حجاج كهؤلاء ، استقبلوا فيه هؤلاء الناس سواء أكانوا مرضى أو معاقين وذلك خشية من أن يتم العثور عليهم بعدما يكونوا قد خنقوا على الطرقات ليلا ، وإضافة لتقديم المأوى في الرباط ، فقد رتبوا وجوب توفير الأقسام الباقية من مؤن الطعام في الديرين ، أي من دير الرهبان والراهبات ، للاعالة اليومية لاناس كهؤلاء .

وشيدوا بالاضافة إلى ذلك مذبحا في ذلك الموقع تشريفا للقديس يوحنا المعطاء ، وكان يوحنا هذا من اهالي قبرص ، وكان رجلا تقيا وجديرا بالثناء من جميع الجوانب ، وأصبح فيما بعد بطريركا للاسكندرية بسبب مؤهلاته ، واشتهر بأعماله الورعة بشكل خاص ، كما أن جميع كنائس القديسين ستمجد حماسة هذا المخلص ، وتقديمه السخي للصدقات ، ولهذا السبب فقد سماه الآباء الأتقياء باسم المعطاء ويمكن ترجمته بالرحيم(١٠١)

لم يكن لهذه المؤسسة المبجلة ، التي مدت يد الاحسان بهذا الشكل

لاعضائها الرجال ، عائدات أو ممتلكات غير أن أبناء أمالفي الموجودين في بلدهم والذين اتخذوا عمل التجارة في الخارج ، جمعوا المال من جماعتهم الخاصة كإعانة طوعية ، وأرسلوا هذا المال إلى راعي الرباط ، أيا كان في وقته ، مع المتوجهين إلى القدس ، وتم من هذا المال تأمين الطعام والمأوى للرهبان والراهبات واستخدم الباقي منه لتقديم بعض المساعدة للحجاج المسيحيين الذين قدموا إلى الرباط (١٠٢) .

بقي هذا الموقع يعييش في ظل هذه الشروط لعدة سنوات حتى شاء الخالق العظيم للكون أن يطهر تلك المدينة من دنس الوثنيين ، المدينة التي كان قد طهرها بدمه ، وأتى في آخر الأمر شعب مسيحي بقيادة زعماء تحميهم العناية الربانية ، أمر المنقذ بتسليم المدينة إليهم ، وعثر في ذلك الحين على امرأة ورعة ومخلصة للرب تدعى أغنيس في دير النسوة تعمل كراعية له ، واستمرت هذه المرأة النبيلة والرومانية المولد وذات النسب السامي بالعيش لبضع سنوات في القدس بعد إعادة المدينة إلى العقيدة المسيحية (١٠٣) ..

وعثر في الرباط أيضا على شخص يدعى جيرالد ، وكان رجلا صاحب سيرة مستقيمة ، قد قدم تنفيذا لأوامر راعي الدير والرهبان ، خدمة مخلصة إلى الفقراء لفترة طويلة من الزمن ، في ذلك الموقع خلال سيادة العدو ، وخلف ري سوند ، الذي نحن الآن بصدد الحديث عنه جيرالد فيما بعد(١٠٤).

٦ ـ البطريرك يذهب مع معظم الأساقفة إلى روما لزيارة البابا هادريان

ازدادت أهمية هذا البيت ازديادا كبيرا من هذه البداية المتواضعة إلى درجة أنهم تملصوا أولا من سلطة رئيس الدير (١٠٥) ثم قامت الكنيسة الرومانية بتخليصهم من سلطة البطريرك

وسيطرته وذلك عندما تضاعفت ثروتهم كثيرا ، ولم يظهروا بعد أن حققوا هذه الحرية الخطيرة أي توقير لرجالات الكنيسة ورفضوا رفضا باتا تقديم العشور عن أي من ممتلكاتهم بصرف النظر عن الظروف التي انتقلت فيها إلى ملكيتهم ، وتأثرت بهذه الأمثولة السابقة المواقع التي تسمى مواقع مبجلة سواء أكانت أديرة أو أربطة وتخلص أربابها أخيرا من ولائهم بسبب ثرواتهم(١٠٦)، وكانت الكنيسة قد شيدت أصلا الكثير من هذه الأديرة بدافع السخاء الخالص وبروحها الورعة المألوفة ، وأوصلتها إلى حالة ازدهار تحسد عليها ، إلا أن أربابها تخلوا عن أمهم الورعة التي كانت قد ربتهم على لبنها في البداية كالأطفال ، والتي زودتهم فيما بعد وبمرور الزمن بطعام أكثر صلابة بحيث يمكن للكنيسة أن تشتكي منهم بعدل وتقول : « ربيت بنين ونشأتهم . أما هم فعصوا علي(١٠٧) . فليعف الله عن أشخاص كهؤلاء ، وليسمح لهم بالعودة إلى رشدهم بحيث يمكن أن يتعلموا وأن يخدموا بإجلال الأم التي هجروها ، وقد يكون الأمر أكثر تسامحا مما كان لذلك الشخص الذي طلب الحمل الوحيد للرجل الفقير على الرغم من أنه كان يمتلك مائة شاة ، حيث قال الرب لذلك الرجل : « هل قتلت وورثت أيضا ؟ » (١٠٨) فالويل لذلك الرجل أيا كان ! لأنه « رجل سفاح » حسب قول الرسول .

طالب البطريرك وبقية رجال الكنيسة بحقوقهم مرارا وتكرارا من هؤلاء الرهبان أنفسهم لكن دون جدوى حتى التجأ الطرفان إلى محكمة البابا في روما كما ذكرت ذلك من قبل ، وانطلق البطريرك إلى هناك على الرغم من أنه كان رجلا مسنا للغاية حيث كان قد بلغ بالفعل المائة من عمره تقريبا ، وأخذ معه بعض رجالات الكنيسة مثل : بطرس رئيس أساقفة صور مع الأساقفة المساعدين وهم فريدريك أسقف عكا وأمالرك أسقف صيدا ، وبلدوين رئيس أساقفة قيسارية وقسطنطين أسقف اللد ورينير أسقف سبسطية وهيربرت أسقف طبرية ، وبدأوا رحلتهم حالما عاد فصل الربيع المبهج وبعد أن بدأت تخمد الأمواج الشتوية المضطربة بتأثير الريح الغربية ،

ووصلوا بعد رحلة ميمونة وبمشيئة الله إلى مدينة أوترانتو بسلام ، وهي مدينة ساحلية في أبوليا(١٠٩)

٧ ـ امبراطور القسطنطينية يغزو ابوليا بموافقة مـن البابا-البطريرك يصل الى البلاط مع مرافقيه.

في الوقت الذي كان فيه السيد البطريرك وأساقفة الشرق قد نزلوا في ابوليا كما ذكرت من قبل كان امبراطور القسطنطينية قد أرسل عددا من نبلائه مع مبلغ كبير من المال لاجتياح هذه المنطقـة بـالقوة وذلك بناء على اقتراح من البابا ، وتـم تنفيذ هـذا بمـوافقة زعمـاء تلك المنطقة ، وهكذا كان اتباع الامبراطور قد اسـتولوا على تلك المدينة عندما وصل البطريرك وحاشيته إلى برنديزي قادمين من أوتـرانتو فقد كان السكان قد سلموا الموقع بأسره باستثناء القلعة التي بقـي فيها عدد من المخلصين المرتبـطين بـالملك ، وعلاوة على ذلك ، كان الكونت روبرت ، المذكور آنفا ، قد استولى بـالقوة بـوساطة الذين كانوا قد انضموا إليه بسبب كراهية الملك أكثر منه بسبب مودتهم له نفسه ، على المدينتين الشهيرتين : تورانتو وباري مع سائر المنطقة الساحلية حتى حدود المملكة نفسـها ، وكان كل مـن روبـرت أمير كابوا وكونت أندرياس ، وهما رجلان مشـهوران وعظيمـان ، قـد استوليا على سائر منطقة كامبانيا التي تدعى عمـوما بـاسم أرض العمل ، وذلك حتى سالرنو ونابـولي وسـ ان جـرمانو ، لقـد كانت المنطقة بأسرها بالفعل في حالة عدم اسـتقرار مـن هـذا القبيل إلى درجة أن الذين رغبوا بالعبور خلالها لم يجدوا الأمن أو السـلامة في اي مكان (١١٠) كان فريدريك امبراطور الرومان ما يزال مـوجودا في المنطقة المجاورة لانكونا مع فيالقه ، لكن القوات التي كان قد جلبهـا إلى ايطاليا كانت قد كابدت من خسائر ضخمة ، فقد كان الكثير من الأمراء الأكثر نبلا وعظمة في الامبراطورية قـد هلكوا بحيث لم يبـق سوى العشر من جيشه تقريبا (١١١) ورغب من بقـي منهـم على قيد الحياة بالعودة إلى بـلادهم ، وحيث لم يتمـكن الامبـراطور مـن

السيطرة عليهم فقد كان يستعد أيضا للعودة على مضض كبير حيث كانت أمور عديدة ما تزال تتطلب وجوده ، وكان اهمها على الاطلاق الحملة ضد ملك صقلية .

وبناء عليه تدارس البطريرك وزملاؤه المسافرون بقلق مسألة الطريق الذي يمكنهم اجتيازه بأمان بالغ عبر منطقة مضطربة للغاية للوصول إلى البابا حيث بدت الحرب والفتنة في كل مكان يقطعان كل السبل إليه ، وكان الطريق الأقصر هو عبر بنفنتو ، غير أن تلك المدينة كانت واقعة تحت الحصار الذي ضربه ارسقينيوس مستشار ملك صقلية (١١٢) ، وارسل البطريرك رسلا الى هناك لطلب حامية له ، الا ان المستشار رفض بشكل قاطع ان يسمح للفريق بعبور تلك المنطقة ، واخيرا قرر البطريرك فولتشر بناء على نصيحة بعض الرجال الحكماء أن يسلك طريق الشاطىء ، ووصل مع أفراد حاشيته إلى انكونا ، وأرسل من هناك بعض أساقفته لينقلوا تحياته إلى امبراطور الرومان (والذي كان الآن على وشك الرحيل إلى بلده ، كما ذكرنا من قبل) ليحصل منه على رسائل امبراطورية إلى البابا بخصوص مهمته ، ونجح المبعوثون في هذا المقصد على الرغم من أن الامبراطور ، كان متلهفا للعودة إلى البلاد ، وكان قد تجاوز مدينتي سينيغاليا وبيسارو (١١٣) .

ثم وجه البطريرك مع جميع حاشيته رحلته إلى روما في سعي حثيث وراء البابا الذي كان قد غادر مدينة نارني ، وبقي الوفد لعدة ايام في روما ، إلا أن البطريرك أسرع إلى فيرينتينو على أمل إنجاز المسألة التي كانت قد جلبته إلى ايطاليا ، وذلك بعدما علم أن البابا كان قد توقف هناك(١١٤) ولقد ذكر بعضهم أن البابا قد تجنب البطريرك لكي يضجره ويزيد من عبء نفقاته ، واكدوا أن الاسبتارية كانوا قد زاروه منذ زمن طويل ، ورشوه باستخدامهم السخي للهبات ، ولذلك كان ميالا إليهم بشكل ايجابي ، وقال آخرون إن البابا كان قد أسرع رحلته في سبيل بنفنتو التي كانت واقعة تحت الحصار ، لكن الحقيقة كانت واضحة فقد كان البابا وبلاطه باسره قد استقبلوا الاسبتارية

بمودة كبيرة ، وعلى العكس كان قد تولى طـرد البـطريرك وشـعبه بحنق وازدراء وعاملهم كأبناء عاقين وغير شرعيين .

٨ ـ البابا هارديان يحث الخطا الى بذفتو ، البطريرك يسرع ايضـا الى هناك ويطـرح القضـية امـامه لكن المحكمة التي تمـت رشـوتها بهبـات سـخية تنكرت للعدالة . البطريرك يعود دون ان يحقق هدفه.

قدم البطريرك نفسه لدى وصوله إلى فيرينتينو إلى الحبر الأعظـم حالا حسب العرف ، إلا أنه لم يلاق استقبالا سارا ، وكانت المعاملة التي تعرض لها معـاملة سـيئة ايضـا (١١٥) ، فقـد كان الكرادلة معارضين له في اغلب الأحوال ، وهكذا توصل الى فهم واضح لموقف البابا تجاهه ، ومع ذلك ، بما انه كان رجلا يتمتع بشخصية ثابتة ، فقد تصرف وفق نصـيحة بعض مسـتشاريه الحـكماء واخفـى مشاعره ، ولازم البابا بدون انقطاع ، وظهر باستمرار في المجـالس الكنسية في ايام الأعياد وهو محاط بموكبه المؤلف مـن الاسـاقفة المبجلين ، وكان يساعده دائما حشد مـن المسـتشارين الجـاهزين بمهامهم كلما تطلب الامر ذلك(١١٦)

وجرى في آخر الأمر منح فـرصة مقـابلة لكلا الفـريقين ودرسـت المسألة لعدة أيام دون نتيجة ، وأدرك البطريرك في النهاية ـ وهـذا ما أبلغه إياه بالفعل عدد من أصـدقائه الحميمين ـ أنه ليسـت لديه أية فرصة للنجاح ، ولذلك استأذن بـالانصراف وبـدأ رحلة عودتـه بارتباك وخوف فوضعه كان متضررا اكثر من كونه متحسنا . وعثر من بين كامل حشـد الكرادلة على اثنين أو ثـلاثة فقـط يتبعـون المسيح ، فقد رغبوا بصدق أن يسعدوا عبده في تلك القضـية ، وكان هؤلاء كل من أوكتافيوس وجون أوف سـان ـ مـرتين وكان فيمـا مضى رئيسا لشمامسة البـطريرك عندمـا كان البـطريرك رئيسـا لأساقفة مـدينة صـور (١١٧) إلا أن جميع الآخـرين الذين ضـللتهم

الهبات اتبعوا سبل بلعام بن بوسور . وقــام البــابا ، الذي حثتــه المسؤوليات في البلاد ، بعبور كامبانيا والذهاب إلى بينيفنتو .

وكان في الوقت نفسه قد أبلغ العديد مــن الرســل وليم ملك صــقلية بالاضطرابات التي كانت سائدة في ايطــاليا ، وقــد علم أن الكونت روبرت أوف باسافيلا كان قد استولى بمساعدة الاغريق على منطقة أبوليا بقوة السلاح ، وأن أمير كابوا وكونت أندرياس كانا يوسعان حكمهما في كل مكان من كامبانيا ، وأن البــابا كان قــد ذهــب إلى بينيفنتو حيث كان يزود جميع الحكام المذكورين منذ لحظات بالقوات والتشجيع ، ولذلك جمع وليم على الفــور جنودا مــن جميع انحــاء صقلية وكالبيرا وزحف إلى أبوليا على رأس قــوة ضــخمة جــدا ، فهرب الكونت روبرت على الفور ، وهزم وليم القــوات الاغريقية في المعركة الأولى التي جرت بالقرب مــن بــرنديزي ، وأسر قــادة ذلك الجيش بعد أن أباده عن بكرة أبيه وأوثقهــم بــالسلاسل ، وهــكذا رافقه حظ طيب وحاز بقوة السلاح على جميع الكنوز الطائلة التــي كان الاغريق قد جلبوها معهم ، ثم قــام بعــدما اســترجع المنطقــة بأسرها التي كانت قد تمــردت عليه وأعاد الناس لتــأييده بحصــار بينيفنتو وسبب هناك متاعب جمة للبابا وكرادلته وللمــدينة نفســها أيضا حيث بدأ يقل مخزون المواد الغذائية ، واصــبح الجميع قلقين جدا حول سلامتهم ، وتم التوصل في آخر الامر إلى اتفــاقية ســلام بين البابا والملك وكان ذلك بواسطة المندوبين العــاملين كوســطاء ، وحسب بعض الشروط السرية ، واقصت هذه الاتفاقية جميع الذين كانوا قد اصبحوا متورطين ، تلبية لاغواء البابا ، في هــذه المشــاق والمخاطر الجمة (١١٨) وأدرك النبــلاء أن الأمــور انتهــت خــلافا لتوقعاتهم وأن البابا كان قد عقد اتفاقية سلام لنفسه ولكنيسة روما دون تحقيق أي امتياز لهم من الملك ، وشعروا أنهــم كانوا في مــأزق خطير ، وحاولوا بقلق العثور على طريقة ما يتمكنون بواسطتها مــن الانسحاب من المملكة بسلام ، وأسرع روبرت وأندرياس مــع بعض النبلاء الآخرين إلى لومبارديا ومثلوا أمام الامبراطور ، وحــدث أن كان أمير كابوا أتعس حظا من الآخرين فقد اعتقله خدمه بينمــا كان

يستعد لعبور نهر غاريقلانو بوساطة احد القوارب ، فقد كان قد أرسل أصحابه أمامه وجلس ينتظر مع عدد قليل من المسافرين للعبور الى الضفة المقابلة عندما تم اعتقاله ، وتم تسليمه لرعايا مخلصين للملك ، فنقل الى صقلية حيث سمل هناك والقي في أحد السجون حتى أنتهت حياته التعيسة.(١١٩)

٩ ـ وقوع ثورة اهلية في مصر فرار السلطان ومقتله من قبل المسيحيين ، ابنة ناصر الدين يقع بالأسر.

كانت مملكة القدس تنعم في هذا الوقت ، بفضل الله ، بدرجة مقبولة من الازدهار ، إلا أن البلاد المجاورة والواقعة على الجانبين كانت مضطربة اضطرابا عظيما بسبب وقوع حدث مفاجيء ، فقد قامت شخصية مصرية قوية ، كانت تشغل منصب وزير وكانت مسؤولة عن الأمور الخاصة لمولاها (١٢٠) بقتل الخليفة حاكم مصر الذي اعتاد المصريون على تبجيله وتوقيره كشخصية مقدسة جدا ، فقد حدث أن أتى هذا الوزير في أحد الأيام وبطريقة غير رسمية الى الخليفة في احدى الغرف الأكثر انعزالا في القصر وقتله بغدر ، ويقال إنه ارتكب هذه الجريمة أملا في ترقية ولده ناصر الدين الى الخلافة ، بحيث يتمكن نفسه في ظل حكم ابنه من الاستمرار في ادارة المملكة دون قلق أو متاعب ، وكان واثقا من أن العمل الذي ارتكبه لن يكتشف لعدة أيام ، حتى يكون قد استولى على القصر الكبير ، ويكون قد تمكن من حيازة الخزينة بأسرها ، وتوقع بمساعدة عصبة من الأصدقاء والتابعين الذين كان قد جمعهم أن يكون قويا بشكل كاف ليقاوم الذين سوف يحاولون قتله جزاء على جريمة القتل التي ارتكبها ، إلا أن المسألة انتهت بشكل مخالف تماما ، حيث اكتشفت الجريمة في غضون زمن قصير ، واجتمع حشد من الناس العظماء والوضعاء ، كرجل واحد و طوقوا تطويقا تاما المنزل الذي كان قد هرب إليه بعد أن ارتكب الجريمة ،و طالبوا

بصوت واحد بتسليم السفاح الغادر الذي اغتال حاكم البلاد ليلقى عقابه ، واستمرت هذه التهديدات بشكل ملح ، حتى انه رأى في آخر الأمر بأنه لا يوجد أي سبيل للنجاة ، فأمر بالقاء الذهب والجواهر وجميع الأشياء الثمينة التي كانت بحوزته من النافذة الى الحشد الصاخب من الناس ، وأمل انه قد يجد طريقة ما للنجاة ، بينما يكون الحشد منشغلا بالتقاط المغانم ، فهل هنالك حاجة لقول المزيد ؟ ونجح بالنجاة من المدينة على الرغم من الحشد المحاصر من الناس ، وسلك برفقة موكب مهيب ، من الأبناء وأبناء الاخوة والأخوات الطريق المؤدي الى الصحراء والمؤدي الى دمشق ، كما يقال ، ولم يتباطأ المنتقمون في مطاردته وبذلوا محاولات قوية للحيلولة دون نجاحه ، غير أن ابنه الأكبر وبعض أفراد حاشيته من الرجال الشجعان والحكماء أعاقوا الخصم وابقوه بعيدا وتحملوا الهجمات بأنفسهم ، ومنعوا المطاردين من الفوز بالهارب ، وتركوا وراءهم وبشكل خادع من وقت لآخر جرارا ذهبية وفضية وأثوابا نفيسة وأنسجة حريرية ذات قيمة كبيرة لاغراء اللاحقين بهم ليتوقفوا ويجمعوا هذه الأشياء بحيث يمكن بوساطتها أن ينشب نزاع حول تقسيم الغنائم(١٢١)

أدرك المصريون أخيرا أن مطاردتهم كانت عقيمة وعادوا مرتبكين الى البلاد ، ومضى الوزير قدما الى الأمام في طريقه معتقدا انه بأمان ، وواثقا انه لن يتعرض لمتاعب أخرى ، إلا أنه وقع في الويلح أثناء هروبه من القاهرة لأن المسيحيين العالمين باقترابه كانوا قد نصبوا كمينا له ، وهو وسيلة شائعة لالحاق الأذى بالعدو ، وكانوا يكمنون خلسة هناك. ووقع الوزير في الشرك وهو غير متوقع أبدا ، وأصيب في المواجهة الأولى بجراح مميتة نتيجة تلقيه ضربة سيف وهلك بالحال ، وكان هذا النبيل المصري يدعى عباس (١٢٢) ووقع ابنه ، ناصر الدين ، مع سائر أفراد أسرته والكنوز الكبيرة التي كانوا قد نقلوها معهم من مصر بأيدي المسيحيين ، فقسموا الغنيمة فيما بينهم حسب العرف. وبالمحصلة

عاد شعبنا الى البلاد محملا بأثمن المغانم التي كانت بالفعل من اكبر الكنوز التي لم تعرفها بلادنا حتى الآن.

كان من بين الذين شاركوا في تلك المسألة العديد من فرسان الداوية وبفضل أعداد هؤلاء الفرسان ، جرى نقل القسم الأكبر من المغانم بما في ذلك العبيد . وكان من بين ما حصلوا عليه وانتقل اليهم بالقرعة أثناء توزيع المغانم ناصر الدين بن عباس ، وكان شجاعا جدا وصاحب قدرات عسكرية غير عادية بين المصريين ، فقد كان أهالي ذلك الاقليم يخافون من اسمه ، وكانت ترتجف قلوبهم برعب لا يوصف لدى رؤيتهم له ، وأبقى فرسان الداوية هذا الرجل أسيرا لديهم لفترة طويلة من الزمن ، وعبر عن رغبة متوقدة لأن يؤمن بالمسيح ، وكان قد تعلم اللاتينية ومبادىء العقيدة المسيحية عندما باعه الداوية الى المصريين مقابل ستين ألف قطعة ذهبية ، حيث طالب به المصريون ليلقى عقوبة الموت ، فقيدت أيديه وأرجله بسلاسل ثقيلة ووضع في قفص حديدي على ظهر أحد الجمال ونقل الى مصر حيث مزقه الناس الى أشلاء بأسنانهم حتى يشبعوا عواطفهم المتوحشة(١٢٣)

١٠ ـ الأمير أرناط يستولي على جزيرة قبرص بقوة السلاح ، ويسلب السكان.

اقترف أرناط أمير انطاكية ، عملا مخزيا خلال العام اللاحق وذلك تنفيذا لنصيحة رجال أشرار كانوا قد أثروا عليه كثيرا ، وأرسل فيالقه كما يرسلها ضد الأعداء ، واستولى بعنف على جزيرة قبرص المجاورة التي كانت مفيدة دائما وصديقة لملكتنا ، والتي كان فيها عدد كبير من السكان المسيحيين ، ويبدو أن الأسباب التي قادت الى هذا الغزو الشائن كانت على النحو التالي : كان يعيش في منطقة كليكية على مقربة من طرسوس نبيل

أرمني قوي يدعى طوروس ، وكان هذا الرجل بنزواته قد تعرض مرارا لغضب الامبراطور وجلب تقريعه على نفسه نتيجة نزواته وغدره ، وبما ان مناطقه كانت بعيدة جدا عن الامبراطورية وقد تعذر بلوغ مقره الموجود في الجبال الشاهقة ، فقد نزل مرارا الى سهل كليكية ونقل المغانم والأسلاب ، ونهب بدون تردد بلاد مولاه بكل وسيلة والحق مضارا بالغة وباهظة بالمؤمنين من رعايا الامبراطورية بدون مراعاة للمنزلة أو الوضع ، وعندما أبلغ الامبراطور بهذه الحالة كتب الى أرناط أن يبعث فرسانه ويبعد طوروس عن أراضي الامبراطورية حتى تأمن ممتلكات رعاياه من غزوات كهذه ، وإذا كانت هناك حاجة للمال لذلك الهدف ، فلسوف يرسل اليه بنفسه بالوقت المناسب مبلغا كافيا من خزائنه.

واستجابة منه للأمر الامبراطوري استدعى ارناط على الفور ، قوة كبيرة من الفرسان وتقدم الى كليكيه حيث طوروس واباد جيشه ابادة تامة ، وبدت المكافأة المشرفة ، التي كان يأمل باستلامها على عمله الشجاع ، بطيئة في الوصول ، ولذلك اقترف الجريمة المشار اليها آنفا بعدما نفد صبره من الانتظار(١٢٤)

كان بعض المؤمنين قد حذروا أهالي قبرص من الخطر ، وكانت جميع قوات الجزيرة قد اجتمعت إلا أن الأمير أرناط ، الذي تولى الهجوم عليهم ، هزم جيشهم على الفور وبدد قواتهم بأسرها بحيث لم يجرؤ بعد ذلك أحد على رفع يده ضده ، ثم اجتاح الجزيرة بدون أن يواجه أية مقاومة ، ودمر المدن وضرب القلاع واقتحم أديرة الرهبان والراهبات على حد سواء ، وأساء معاملة الراهبات والعذارى الضعيفات بشكل معيب وعلى الرغم من أن الأثواب الثمينة وكمية الذهب والفضة التي نقلها كانت كبيرة ، يعد فقدان هذه الأشياء لا يساوي شيئا بالنسبة الى خرق الحرمات(١٢٥)

وتابعت قوات أرناط سلب المنطقة بأسرها لعدة أيام بدون توقف ، وحيث لم يكن هنالك من يبدي مقاومة ، فإنها لم تظهر اية

رأفة نحو السن أو الجنس كما لم تفـرق بين الاحـوال ، وعادت في النهاية الى شاطىء البحر وهي محملة بمقـدار كبير مـن الثـروات والمغانم من كل نوع ، وركبت متـن السـفن عندمـا كانت جـاهزة وابحرت الى انطاكية ، وجرى هنالك خلال زمن قصير تبـديد جميع الثروات التي تم الحصول عليهـا بـطريقة شريرة ، وكمـا يقـول المثل :« لا تعطي المغانم المكتسبة بطريقة شريرة نتائج طيبة »(١٢٦)

١١ ـ الملك يأسر بعض الأتـراك والعـرب في غابـة بانياس دون اعتبار المعاهدة التي كان قد عقدها مـن قبل معهم.

في هذه الآونة كانت مجموعة ضخمة من العـرب والتـركمان قـد اجتمعت في غابة قريبة من مدينة بانياس بأعداد كبيرة لم يسبق لهـا مثيل ، ويعيش هؤلاء الناس عادة في خيام كالبـداة ويعتمـدون في غذائهم على اللبن (١٢٧) وتعرف الغـابة حـاليا بـاسم غابـة بانياس ، وهو اسم المدينة الواقعة بالقرب منهـا ، إلا أن المنطقـة بأسرها ، بما في ذلك تلك الأجزاء التي تمتد الى الشـمال والجنوب إضافة الى ذلك الجزء الذي يغطي لبنان نفسـه ، كانت تسـمى في الأزمان القديمة بـاسم غابـة لبنان ، وورد في الكتـب المقـدسة أن سليمان شيد في هذه الغـابة قصرا جميلا رائع البنيان وكان يسـمى بيت الغابة اللبنانية(١٢٨)بيد أن المنطقة بأسرها تحمل في هـذه الأثناء كما قلنا من قبل اسم المدينة المجاورة لهـا ، وكان الناس المذكورين منذ لحظات قد دفعوا الى داخـل هـذه الغـابة عددا كبيرا مـن الحيوانات ، وبشكل رئيسي الخيول ، بسـبب المرعى الممتـاز الذي كان موجودا فيها.

إلا أن بعض الرجال الأشرار ابناء الشيطان الذين لم ينصبوا أية خشية من الرب امام أعينهم اقتـربوا مـن الملك واقنعـوه بسـهولة بـالموافقة على خـططهم الشريرة ، وعلى الرغم مـن وعده المخلص

والمعاهدة التي عقدها مع هؤلاء البدو (١٢٩) ، فقد اقترحوا عليه ان يشـــــــــــــــــــن
هجوما مفاجئا عليهم بعد أن يكونوا قد أولجوا قطعانهم ودوابهم الى الغابة لترعى ، ويجعلهم هم وحيواناتهم فريسة لشعبه ، ومال الملك بسرعة الى هذه الخطة لان الديون أرهقته وكبلته واجبات كثيرة لم تكن لديه أية وسيلة للأيفاء بمطالبها ، اقتنع بها بسهولة كاقتناعه بأية خطة يمكن بواسطتها تخفيف الضغط الذي يتعرض له ، وأصغى باستعداد للناصحين الأشرار ووافق على اقتراحهم ، واستدعى ، بعدما ضللته نصيحة الرجال الأشرار ، فرسانه وشن غارة مفاجئة على أولئك الناس ، وهاجمهم كأعداء ، بعدما وجدهم غير مستعدين وليس لديهم أدنى تفكير بأي هجوم ، وسلمهم الى قسوة أتباعه وعنفهم وتمكن بعضهم بفضل خيولهم السريعة أن ينقذوا أرواحهم بالهروب ، ونجا آخرون تدفعهم الضرورة في ذلك ، بالاختباء في الغابات ، لكن جميع الباقين قتلوا بالسيف او اقتيدوا الى عبودية وحشية.

ولقد قيل إن عدد الأسرى ومقدار المغانم التي تم الاستيلاء عليها في هذه الغارة لم يسبق له مثيل في بلادنا ، فقد وزع عدد كبير من الخيول بالقرعة ، ونال جميع الأفراد نصيبا من هذا التوزيع حتى الذين ينتمون منهم الى الطبقة الأدنى مقاما ، ومع ذلك ، فإن هذا العمل لم يجلب شهرة متألقة أو جديرة بالثناء لشعبنا لأنهم كانوا قد انتهكوا معاهدة سلام وأساؤوا بالفعل معاملة اناس غير مرتابين ، اناس كانوا يثقون بحسن نية الملك ولم تكن لديهم ــ علاوة على ذلك ــ أية وسيلة للمقاومة.

إلا أن الله ، رب الانتقام ، الذي ينزل عقوبة عادلة على المذنبين ، لم يتركنا نستمتع بمكافآت إثمنا لفترة طويلة من الزمن ، وبالفعل ، أوضح على الفور أنه ينبغي المحافظة على الوفاء بالعهد حتى مع الكفرة ، وانتقم منا عقابا على تلك الجريمة وسبب

هلاكنا ، وضاعف عقوبته لنا بسبب آثامنا الكثيرة وأحاقنا بالارباك كما سيتم توضيح ذلك في الصفحات القادمة.

١٢ ـ همفري كافل المملكة يمنح نصف مدينة بانياس الى الاسبتارية. نور الدين يستولي على المؤن المجلوبة الى هناك ، المدينة نفسها تتعرض الحصار.

ضاق في هذه الآونة همفري أوف تيرون ، كافل المملكة من استمرار مسؤوليته عن مدينة بانياس وانفاقه عليها بعدما ورثها ، ونظرا لعدم تمكنه من حكمها وحمايتها بشكل مناسب بدون مساعدة ، قرر وبموافقة الملك أن يتقاسمها بشكل متساو مع فرسان الاسبتارية ، وكانت الشروط المتفق عليها بموجب هذه التسوية على الشكل التالي: يتملك الاسبتارية نصف المدينة وجميع ممتلكاتها المحيطة بها ، ويتوجب عليهم تحمل نصف النفقات لجميع الأشياء اللازمة والمفيدة ، وتحمل المسؤولية القانونية تجاه المدينة.

كانت بانياس تقع على حدود بلاد العدو ، وكانت قريبة منه جدا بحيث لم يتمكن أحد من الاقتراب من المدينة أو مغادرتها دون التعرض للمخاطر الا إذاكان ضمن جماعة قوية أو إذا سلك طرقا سرية ، وبعدما تولى الاسبتارية القيام بمسؤولية نصيبهم من المدينة ، رغبوا بوضع الموقع في حالة دفاعية جيدة ، وجمعوا لتحقيق ذلك الهدف كميات كبيرة من المؤن والاسلحة ومجموعة من الجنود ايضا ، وبينما كانوا يتقدمون في أحد الأيام ومعهم قطار كبير من الجمال وحيوانات النقل الأخرى المحملة بالمؤن تحت حراسة مجموعة من الفرسان ، الذين توجب عليهم قيادة الحملة بأسرها إلى المدينة بكل ما تحتاجه من مؤن وعتاد لفترة طويلة ومقبلة ، ومع اقترابهم من المدينة مع قطارهم بمجمله انقض عليهم الكفرة الذين كانوا قد اخطروا باقترابهم واستخدم الأتراك سيوفهم بقوة ومزقوا

خط السير المسيحي وقتلوا كثيرا من افرادهم ، ثم استولوا على الامتعة ، بينما هرب الباقون على قيد الحياة لينقذوا أرواحهم ، وأما الذين منعهم الهجوم العنيف ، الذي شنه العدو ، من الهروب فقد قتلوا بالسيف أو أسروا ، وهكذا سقطت في أيدي الكفرة جميع المؤن ، التي كانت قد جمعت لتجهيز المدينة ، ليتم استخدامها ضد المدينة ، وانسحب الاسبتارية من الاتفاقية التي كانوا قد عقدوها ، لانهم خافوا من تعرضهم بعد هذه الكارثة لخسائر ومحن مشابهة ، واعادوا مدينة بانياس مع أعبائها وأجورها الى كافل المملكة(١٣٠)

قرر نور الدين على الفور ، بعدما شجعه هذا النجاح ، انتهاز الفرصة ليحاصر بانياس حيث كانت الكارثة قد انهكتها ، فاستدعى فرسانه ونقل الآته الحربية الى المدينة وظهر فجاة أمامها ، فوضعت القوات في دائرة حولها ، وبدأت عمليات الحصار ، وكان هنالك قلعة في أحد أجزاء بانياس ، وكانت مجهزة بشكل جيد بالاسلحة والرجال ، وبكمية من المواد الغذائية تكفي لفترة قصيرة من الزمن ، وكانت هذه ستؤمن ملاذا للسكان حتى وإن تم الاستيلاء على المدينة ، إلا ان الناس كانوا يثقون ثقة كبيرة في تحصينات مدينتهم لاسيما وانهم كانوا قد تحملوا مرارا هجمات مشابهة ، ولذلك قرروا بذل محاولة قوية للدفاع عنها ، ولو لم يشعروا بثقة مفرطة في انفسهم لكانوا قد نجحوا بالفعل كما كانوا يأملون ، ولذلك فقد استمروا بالعمل دون حذر مناسب.

هاجم نور الدين بالآلات الحربية والقاذفة ، وواصل في الوقت نفسه قذف وابل مستمر من السهام بحيث لم يترك للمحاصرين أية راحة ، واضطروا الى أن يقاتلوا ليل نهار بجراح مميتة ولم تبق الا قلة قليلة لتواصل الدفاع ، ولو لم يكن كافل المملكة وابنه ــ الذي ضاهى بسالة والده ــ قد أظهرا استعدادهما للقتال بحماسة دفاعا عن ممتلكاتهم الوراثية وشجعا الآخرين بالمثل الذي ضرباه في

المقاومة ، لكان السكان ـ الذين أنهكتهم الجهود البطولية التي بذلوها ، قد استسلموا بلا ريب أمام القوة المتفوقة لأعدائهم ، وكما قيل: إن وجود أسيادهم ثبتهم ونجحت الشجاعة المتوقدة لقادتهم والمشرفين عليهم في بعث الحماسة في أنفسهم ، وجددت قوتهم المتناقصة وقدمت لهم شجاعة جديدة للمقاومة.

وفي أحد الأيام ، بينما كان العدو يشدد الخناق بعنف أكثر من المعتاد فتح المحاصرون باب المدينة وقاموا بالانقضاض على العدو في الخارج ، وبما أنهم أنشبوا القتال دون اتخاذ احتياط مناسب فقد أثاروا ضدهم حشدا كبيرا من الأعداء ، واندفع الاتراك نحوهم ، وحاول السكان الانسحاب الى المدينة بعدما عجزوا عن المحافظة على موقعهم ، وتعذر اغلاق الباب بسبب الضغط الكبير الذي بذله الحشد للدخول ، وهكذا ، اختلط العدو مع سكان المدينة ودخل المدينة بأعداد كبيرة بحيث تم الاستيلاء عليها بالقوة ، وأرغم المسيحيون على الانسحاب الى القلعة في ظل مخاطر شديدة ومع التعرض لخسائر بشرية كبيرة(١٢١)

و في هذه الأثناء كان الملك قد علم أن بانياس كانت تكابد شدائد رهيبة على يدي نور الدين ، و انها كانت على وشك السقوط بالفعل ، فجمع بالسرعة الممكنة جميع القوات المتوفرة في ذلك الوقت من الفرسان و الرجالة على حد سواء ، و زحف نحو بانياس بسرعة و معه فيالقه ، و كان مصمما على رفع الحصار أو أن يجرب حظه و يغامر بالقتال مع نور الدين.

١٣ ـ الملك يسرع الى بانياس ويرفع الحصار. جيشنا يسير في طريق العودة دون حذر مناسب ويقع في كمائن خطيرة.

ما أن سمع نور الدين خبر قدوم الملك لتحقيق هدف محدد حتى رفع الحصار ، لأنه لم يكن راغبا بالاعتماد على فرص القتال غير

المؤكدة العواقب ، هذا وقام قبل رحيله بنسف واحراق المدينة التي كان قد استولى عليها بالقوة ، و لم يأذن للقوات التي كان قد جمعها بالتفرق بل أبقاها معه ببصيرة و بعد نظر قوي ، لا بل زاد ذلك بأن استدعى قوات كبيرة و كمن في الغابة المجاورة منتظرا نتيجة الأحداث.

جلب وصول الملك إلى بانياس المساعدة التي انتظرها المحاصرون بتلهف ، ووعد بأنه سيبقى حتى يتم تشييد المواقع المتهدمة و ترميم الصدوع و الثغرات و تعاد المدينة بأسوارها المرممة إلى حالتها السابقة ، و استدعى البنائين من المدن و المنطقة المجاورة بأسرها ، كما استدعى جميع الذين كانت لديهم بعض الخبرة في فن البناء ، و رممت الاسوار و الابراج بشكل كامل ، و جددت الشرفات و المتاريس . و أعيد بناء منازل السكان الموجودة داخل محيط الاسوار ، و أعيدت الابنية العامة إلى وضعها الاصلي لان نور الدين كان قد اهتم اهتماما كبيرا خلال احتلاله للمدينة بتدمير هذه الابنية تدميرا تاما.

شعر الملك و نبلاؤه عندما انتهى كل شيء أنه لم يعد هنالك ضرورة لاقامتهم لفترة أطول هناك لمصلحة السكان ، و كان كل شيء قد تجدد الآن تماما ، و جهزت القلعة بالاسلحة و المواد الغذائية و الجنود بشكل يكفي للوقت الحالي ، و بناء عليه صرف الملك قوات المشاة و صمم أن يعود إلى طبرية برفقة سرايا الفرسان فقط ، و انطلق من بانياس ووجه سيره نحو الجنوب و خيم بالقرب من بحيرة الحولة ، و استراح الجيش هنالك تلك الليلة دون ان يتخذ تدابير أمنية مناسبة ، و دون التقيد بأنظمة المعسكرات و بشكل يخالف كثيرا في الواقع ما كانت تتطلبه مقتضيات النظام العسكري.

يحدث مرارا أن الناس يصبحون مهملين إلى حد ما عندما تسير الامور بنجاح و سعادة ، و يبدي الرجال عادة اهتماما زائدا بأمورهم في المحن (١٣٢) ، ويحتمل ان الفكرة ذاتها متضمنة في هذا القول.

بشـكل جيد:« يسـقط عن جـانبك الف (وربمـا على اليسـار) ، وعشرة الاف عن يمينك »|(١٣٣) ، لأن الغالبية تندفع عادة تحت شروط التقـدم والازد هـار إلى الهـلاك مباشرة وهي مزهوة بـالنجاح ؛ وعلى العـكس فإن الاخـطار تعلم الذين أنهكتهم الخسائر والمحـن أن يتصرفـوا بتعقـل في ظـروف مستقبلية مبهمة وأن لايثقوا بالحظ أبدا حيث يكون قاسيا كما تظهر تجربتهم .

وحيث كان الملك يفكر بحقيقـة أنه كان قـد اجبـر هـذا الأمير العظيم على الانسحاب من حصار بانياس ، فقـد كان يثـق أن نور الدين قد ابتعد الان كثيرا مع قواته ومن المحال أن يكون تمـكن مـن جمع مثل هذه الأمم الكثيرة ضده وضد شعبه ولذلك بدأ يبدي حـذرا قليلا جدا ، كما قلنا ، وكان ميالا لغض النظر بإفـراط ازاء نزوات الافراد ، ووصل على الفور نبأ إلى العدو الذي كان مترصدا في كمين أنه تم صرف قوات الملك من المشاة وأن بقية الجيش كانت مخيمـة بطريقة فوضوية وغير حذرة بالقرب من بحيرة الحولة ، وذكر ايضـا أن بعض القادة كفيليب صاحب نابلس واخرين كثر كانوا قد غادروا مع فرقهم ، وهكذا ، لاحظ الكفرة ان الامور انتهت حسب رغبـاتهم ونقلوا معسكرهم بسرعة ، وعجل قائدهم البارع الامـور لمعـرفته بموائمتها وساق الجيش بـزحف سريع في ذلك الاتجـاه ، ووصـلت قواته على الفور إلى الاردن الواقع بين الجيشـين وعبـرت النهـر وكمنت في موقع يدعى عموما باسم مخاضه يعقوب الواقعة على هذا الجانب حيث سيعبرها جيش الملك في اليوم التالي .

استأنف الجيش المسيحي سيره عند الفجـر وكل مـن فيه غير عالم بالكمين الذي نصب اثناء الليل ، وجاهل ايضا بخـطط اعدائه وتوجه الى الموقع الذي كان الاتراك قد سيطروا عليه خلسة ، وكانت عناصر الجيش المسيحي تتقدم بسلام وهمي غير خائفة من وقوع اي حادث مشؤوم عندمـا انطلق فجـأة الذين كانوا تقـدموا وهـم

مبتهجون دون خوف من الخطر سيوفا مسلولة لعدو مصمم على قتلهم واصابتهم بجراح ، فثار غضب المسيحين ولكن بعد فوات الاوان وادركوا ان معركة خطيرة كانت على وشك الحدوث فاوقفوا ثرثرتهم التافهة وهرعوا الى خيولهم واخذوا اسلحتهم ، الا ان صفوفهم ابيدت قبل ان يتمكنوا من وضع انفسهم بتشكيل المعركة والاحتشاد للدفاع حيث هاجمهم العدو بعنف ومن مواقع متلاحمة بالمبارزة وهكذا كان من المحال بالنسبة لجنودنا الصمود مع بعضهم في اي موقع ما خلا مجوعات صغيرة جدا ٠

١٤ ـ فرار الملك من ميدان المعركة وانسحابه الى قلعة صفد انهزام الجيش ووقوع معظم القادة في الأسر .

بقي الملك محاطا بعدد قليل من الفرسا ن الذين بقوا مصممين على الوقوف الى جانبه ، لكنه أدرك أن الصفوف تمزقت وان الجيش المضطرب كان معرضا لحنق العدو في كل مكان ، وعلاوة على ذلك كانت قوة العدو تزداد من كل الجهات بينما كانت صفوفنا تنهار كما كانت الحالة في الواقع منذ البداية ، ولذلك ، تراجع الملك بحكمة الى هضبة مجاورة ليحتاط لسلامته ، ونجح من هنالك بصعوبة كبيرة في بلوغ قلعة صفد الواقعة على الجبل نفسه متجنبا العدو الرابض على يمينه احيانا وعلى شماله احيانا اخرى ، وبفضل الحصان الذي نقله ، وقد اسر عدد كبير جدا من قادتنا في ذلك اليوم ، ولم يقتل سوى عدد قليل جدا منهم ، وبما ان جميعهم كانوا بدون تمييز محاربين مشهورين بالحكمة والخبرة في الحروب ، ومحاربين متماثلين فقد استسلموا دون مقاومة لينقذوا ارواحهم التعيسة كأحط انواع العبيد وبصرف النظر تماما عن نير العبودية وخزيه وعن وصمة العار االتي ستلتصق بأسمائهم الى الأبد .

وكان بين الاسرى النبيل اللامع هيودي ابلين ويودس دي سينت

اماند وكان قائدا للقوات الملكية وجون غوتمانوس وروهارد صاحب يافا ، واخوه بالين وبرتراندي بـلانكفورت وهـو مقـدم فـرسان الداوية وكان رجلا متدينا ويخشى الرب واخرون كثر واسماؤهم غير معروفة من قبلنا .

لقد اعاد الرب الينا ثمـار اعمـالنا الشريرة ، تمـاما حسـبما تسـتحق اسـاليبنا وسـلوكيتنا ذلك اننا نحـن الذين كنا في ازدراء للقوانين الانسانية قد ظلمنا الابرياء بشكل جائر وعسـفنا ايضـا انفسنا بالذين اعتمدوا على اخلاصنا ورميناهم في فوضى مـن معيار واحد ولذلك غدا ـ عقوبة لاثامنا ـ اللامعون موضع لوم واحتقار الامم الدنية وتعرضوا لسخرية العدو : « تجعلنا مثلا بين الشـعوب لانغاض الراس بين الامم »(١٣٤)

ومع ذلك لم يعاملنا الرب بشفقته الكبـيرة دون رحمة تماما كما لم يمنع رافته على الرغم مـن غضـبه علينا لانه انقـذ الملك فلو كان ملكنا قد سقط في ذلك اليوم لكانت المملكة قد وقعت في خـطر جسـيم بلاريب أسال الرب ان يمنع حدوثه لانه في حالة سقوط فارس واحد مهما كان عظيما تبقى المسألة متعلقـة بمصـير رجـل ، واحـد لكن الخطر الذي يتعرض له الملك يشـتمل على خـطر للامـة بـاسرها ، وهكذا فان داود المخلص الذي كان مليئا بالقلق حـول ملكه تـوسل قائلا : « يارب احفظ الملك » .

ونشأ قلق كبير في كل مكان من المملكة بسبب شـائعات انتشرت في هذا الوقت تضاربت بمحتواها بخصوص سلامة الملك ، حيث قال بعض الناس انه قتل بالسيف ، وقال آخرون انه أخـذ أسـيرا بين بقية الأسرى على الرغم من ان العدو لم يتعرف على هويته ، وأشيع ايضا انه كان ، بفضل الرحمة السماوية ، قد نجا سليما من وسط المعركة ، واحس جميع الناس بقلق عميق حول مصير ملكهـم مثـل قلق ام مخلصة حول مصير ابن وحيد لها ، وبما أنهم كانوا جاهلين

- ٣١٧٣ -

بمصيره فقد تخيلوا أن الشيء الأسوأ قد يحدث بتعـاطفهم الشـفوق من أن يكون مصيره الموت .

ولكن الحقيقة أن الملك أسرع الى عكا عندما وجـد نفسـه على مسافة مناسبة من العدو برفقة العدد القليل من الفرسان الذين كانوا قد تبعوه الى صفد ، ومع بعض الآخرين الذين كانوا قد نجـوا مـن أخطار اليوم السابق ، فرحب به الناس بصيحات ابتهاج متحمسـة وكأنه عائد من الموت .

حدث هذا من شهر حزيران في اليوم الثالث عشر قبل بداية شهر تموز في العام الرابع عشر من حكم بلدوين (١٣٥)

١٥ـ نور الدين يحاصر مـدينة بـانياس للمـرة الثانية دون نجاح لزحف الملك نحوه .

اجتاح نور الدين المنطقة بأسرها واغنى نفسه بالمغانم المأخوذة الآن من هذا المكان وفيما بعد مـن مـكان آخـر ، سـيما وانه كان محاربا لايعرف التعب تواقا لمواصلة تحقيق نجاحاته ، فقد استدعى كتائبه مجددا وأمر بجمع قوات كبيرة أيضا من دمشـق ومـن جميع المناطق الخـاضعة لسـيطرته ، لانه كان مصـمما على محـاصرة بانياس للمرة الثانية ، ولم يكن أي شيء أكثر بعدا عن تصوراته من أن يحضر من جديد الملك والنبـلاء الذين كان قـد ابـاد قـواتهم تماما ، لانقـاذ المحـاصرين ، ولذلك قـام تنفيذا لخـطـطه بضرب الحصار مجددا حول مدينة بانياس ووضع آلاته الحربية العـديدة في مواقع استراتيجية ، فهزت الضربات القـوية للقـذائف الحجـرية الأبراج وأضعف الاسوار ، وتساقط في الوقـت نفسـه وابـل مـن السهام والنشاب كالبرد ومنع المقاومة كلها من جانب الذين كانوا في الداخل ، الا أن أهـالي بانياس ، المتذكرين كم كانت عقيمة الجهـود التي بذلوها لانقاذ المدينة من الحصـار الذي انقضى منذ لحـظات ،

انسحبوا مــع بعضــهم طــواعية الى القلعـــة للحيلولة دون محنة مماثلة .

عندمـــا غادر كافـــل المملكة المدينة ليتـــدبر بعض المســـائل الأخرى ، كان قد عين قريبا له في القيادة العليا يدعى غي دي سكاند ليوم ، وكان رجلا صاحب خبرة واســعة في الحــرب ، الا أن ولاءه كان مريبا ، وكان رجلا لايخشى الرب وقد حاول هذا الرجل بــالقول والقدوة أن يلهب حماسة الآخرين لبذل المقاومة من اجل الرجل الذي كان قد حمله المسؤولية وبسبب سمعته الشخصية أيضا وخشية من أن تتناقص الشهرة التي كانت بسالته الحربية قد حققتها له ، واكد لهم أن النجدة ستصل فورا ، وأن شهرة رائعة وأبدية تنتــظر الذين يستحقونها ، ونتيجـــة لذلك ، قــاتل الجميع وكأنهــم يحـــاربون لصلحتهم الشخصية ، واثارت مقدرتهم في تحمل الســهر الطــويل والمشقات المستمرة دهشة العـــدو واعجــابه ومـــع ذلك ، فقــد أصر الأتراك ، على القتال بكل قوتهم ضد عدو قوي مثلهم قاوم أيضا الى الحد الأقصى ، والحقــوا كوارث بــلا حــدود بــالمدافعين ، وكانت أعدادهم كبيرة ، وتمكنوا من نجدة بعضهم بعضا بالتناوب ، وعلى عكس ذلك لم يكن لدى المســيحيين أية احتياطــات ليعــززوا بهـــا قوتـهم ، وكان الضغط اليومـــي يدفعهــم الى حــافة الاســتسلام تقريبا .

علم الملك في هذه الأثناء أن مدينة بانياس كانت تعاني من شدائد رهيبة ، كما لم تحتجب هذه الحقيقـــة عن أعين نبــلاء المملكة الذين كانوا مايزالون على قيد الحياة ، فجرى ارسال الرسل على الفــور الى أمير انطاكية وكونت طرابلس لحثهما على الاسراع لنجدة المدينة بدون تأخير ، وأرســل الملك المنادين لاســتدعاء القلة البــاقية مــن الفرسان في المملكة ، وهكذا حدث بفضل الرحمة السماوية أن وصل هذان الأميران الشهيران مع مواكبهما المهيبة الى المعسكر الملكي في غضون زمن قصير ، وبشكل أسرع مما كان يتوقع بــالفعل ، وكان

يمكن مشاهدة المدينة على مقربة من هذا الموقع الذي كان قريبا مــن حصن هونين في مكان يدعى « النقطة السوداء »(١٣٦)

ابلغ نور الدين على الفـور أن القـائدين كانا قـد انضـما الى الملك ، وكانوا جميعهم يستعدون للزحف الى مدينة بانياس ، وكان هذا الأمير يتمتع بحكمة وبصيرة كبيرة في ادارة أموره ، فاعتقد أنه من الحكمة تجنب تقلبات المعركة بمخاطرها واحداثها المجهولة وذلك على الرغم من أنه كان قد نجح في تسـبيب الكثير مــن الصـدوع في الحصن ، وكان المحاصرون قد فقدوا كل أمـل بـالمقاومة ، ولهـذا تخلى عن الحصار وانسحب الى مكان بعيد في مملكته .

١٦ــ وصول ثيري كونت فلاندرز بحرا . إرســال الرسل الى القسطنطينية للبحث عن زوجة للملك .

وهكذا كانت أحداث كثيرة متباينة وواسعة الاختـلاف تقـع في المملكة ، وكانت البـلاد مهجــورة لأن معـــظم قــادتنا كانوا في الأسر ، وصدف أن حدث في هذا الوقت بفضل الرحمة الربـانية أن نزل ثيري كونت فلاندرز في ميناء بيروت مع زوجتـه سـيبيلا وهـي اخت الملك من أبيه ، وكانت زيارات هذا الرجل البـارز والمشـهور التي حدثت أكثر من مرة ذات عون كبير وعزاء لنا .

ورحب به جميع الناس بابتهاج كبير ، حيث بـدا وصـوله مــع حاشيته يبشر أن محنة المملكة التي لاتحتمل ستخف الآن على نطاق واسع ، واتقدت آمال الذين تلهفـوا بإخـلاص لاحـلال السـلام في المملكة لأنه تولى فور وصوله وكأنه ملاك الرأي المصـيب ، تـوجيه أمورهم وقادتهم قدما الى الأمام من اجـل مصـلحة المملكة ومجـد العقيدة المسيحية كما يتم ذكر ذلك فيما بعد(١٣٧)

وفي هذه الآونة بدت مشكلة الملك الذين لم يكن قد تـزوج حتـى

الآن على الرغم من بلوغة سن الرجولة ، ستكون ذات اهتمام كبير للأمراء المدنيين والكنسيين في المملكة ، وكان الشيء المهم للغاية أن يكون له أطفال حتى يخلفه ابن له ويكون بمثابة الوريث الشرعي للمملكة ، وبناء عليه اجتمعوا للتداول حول ترتيب زواج مهيب لحاكمهم الذي لم يكن لديه أولاد حتى الآن ، وبعد تقليب للأمر وتبادل معمق للأفكار تم التوفيق بين الآراء المختلفة ، واتفق بالاجماع أن يتم التشاور مع امبراطور القسطنطينية حول هذه المسألة ، وكان يوجد في قصره الكثير من العذارى النبيلات اللواتي كن قريبات له بروابط الدم ، زد على هذا أنه كان بإمكانه ــ لكونه الملك الأقوى والأغنى في العالم ــ أن يخفف من فيضه وغناه المحنة التي كانت مملكتنا تكابد من وطأتها ، وأن يغير فقرنا الى غنى ، ولذلك ، جرى ارسال المبعوثين بموافقة عامة لينفذوا هذه الخطة بعون الرب ، واختير لهذه المهمة كل من أتارد رئيس أساقفة الناصرة وهمفري أوف تيرون كافل المملكة . وتقدما الى الساحل بعدما أعدا عدتهما في تلك الأثناء وركبا متن إحدى السفن هناك (١٣٨)

١٧ــ الملك يحث الخطا نحو أنطاكية بمرافقة كونت فلاندرز وسائر قوات المملكة ، نور الدين يصاب بمرض خطير .

كان الرأي المجمع عليه أن وصول أمير عظيم كهذا مع جنود شجعان ونبلاء كثيرين في موكبه يجب الا يكون بلا ثمار وبدون نتيجة . ولذلك تقرر بموافقة جماعية وبوحي من الرحمة السماوية أن يتقدموا الى منطقة أنطاكية مع القوات المحاربة المتحدة ، ونقل هذا العزم الى أمير تلك المنطقة ، والى كونت طرابلس ، ودعي الاثنان بمودة ليجهزا قواتهما في يوم محدد لغزو منطقة العدو ، وبناء عليه اجتمع بتأييد من السماء ، جميع المسيحيين من المناطق المختلفة في مكان يعرف باسم بوقة في بلاد طرابلس ، وزحفوا بتشكيل المعركة من هناك الى المنطقة

المعادية ، الا أن النجاح لم يلازمهم في أول الامر ، فقد شن هجوم ضروس على واحد من حصون العدو المعروفة باسم قلعة الروج الا أنه لم يثمر شيئا ، « لكن الحظ الافضل يأتي بعد البداية التعيسة »(١٣٩) وهكذا ، تقدم الأمراء المجتمعون ، تلبية لاقتراح أرناط أمير أنطاكية وتوسلاته نحو منطقة انطاكية في ظل بشائر خير أكثر إيجابية .

وبينما كان الملك والنبلاء متريثين هناك لرسم الخطة الاكثر إحكاما في ظل تلك المعطيات ، وصل رسول يحمل أكثر الأخبار استساغة ، وأكثر صحة وهو أن نور الدين ، أقوى أعدائنا ، الذي كان قد خيم مع جيش ضخم بالقرب من قلعة إنب ،قد توفي أو كان متمددا وهو مصاب بمرض عضال وبشكل ميؤوس منه ، وكبرهان على صحة ماذكره روى الرسول أنه كان قد شهد في اليوم السابق اضطرابا كبيرا في معسكر نور الدين ، ويبدو أنه تم اهمال عبيده له وتخلى عنه أكثر العناصر ثقة في حاشيته ، واهملت جميع ممتلكاته الخاصة بدون تمييز ، وباتت عرضة للنهب من قبل أي شخص شاء ، وعلاوة على ذلك ، ذكر أن الجنود الباكين والناحبين بحزن عميق قد تفرقوا هنا وهناك باضطراب كبير وفوضى شديدة(١٤٠)وتأكدت صحة الرواية التي نقلها الرسول ، فقد كان نور الدين قد أصيب بداء خطير جدا ، وأصبحت صفوفه غير منتظمة وكما هي العادة بينهم عندما يموت حاكمهم كان العنف اللامحدود وأعمال النهب منتشرة في جيشه وكان رجال نور الدين المخلصون قد نقلوه على حمالة الى مدينة حلب بعدما اصبح عاجزا عن التحرك جسديا وضعيفا تماما .

ادرك المسيحيون لدى تلقيهم هذه الأخبار عن احوال العدو أن جميع الأشياء كانت تتفاعل مع بعضها بعضا لتحقيق نجاح مشروعهم ، ولذلك جرى ارسال الرسل بموافقة جماعية الى طوروس ، وهو امير ارمني قوي جدا ، وبعثوا اليه دعوة ودية للغاية في أن يتلطف بالانضمام اليهم في مشروع وعدوه انه سيكون

مثمرا جدا ، وصدرت التعليمات الى الرسـل في أن يسـتخدموا كل وسيلة ممكنة لاقناعه في أن يتخلى عن جميع المعانير وأن ينضم الى القوات المتحالفة في انطاكية بنجدات قوية ، وتلقى طوروس الرسالة بسرور ، وبما أنه كان رجلا صـاحب شـخصية نشـطة متـاهية للعمل ، فقد جمع على الفور جيشا ضخما ، وزحف بسرعة قصوى نحو انطاكية ، ورحب به المسيحيون بـابتهاج وقيدت القـوات على الفور من المدينة وتوجه الزحف نحو شيزر .

١٨ـ حصار شيزر والاستيلاء عليها خلال وقت قصير .

تقع مدينة شيزر على نهر العاصي نفسه الذي يجـري بمحـاذاة انطاكية ، ويدعوها بعضهم باسم قيسارية ويعتقد من خلالهم أنهـا حاضرة كيبادوكية المشهورة التـي رأسـها في إحـدى المرات المعلم البارز القديس باسيل ، الا ان الذين يؤمنون بهـذا الرأي يقترفون خطأ كبيرا ، لأن قيسارية تلك تبعد مسافة مسيرة خمسة عشر يوما أو أكثر عن انطاكية ، وتقع هذه المدينة في سورية المجوفة وهو أقليم يقع بينه وبين كيبـادوكية أقـاليم كثيرة ، كمـا أن الاسـم ليس قيسارية ؛ بل هو قيصرية وشيزر هي احدى المدن الاسقفية التـابعة لبطريركية أنطاكية ، وهي واقعة بشكل موائم جدا ، ويمتد الجـزء السفلي منها على طول السهل ، بينمـا تقـع القلعـة على الجـزء العلوي ، وهي قلعة طويلة بعض الشيء في امتدادها الا انها ضـيقة نوعا ما ، وهي محصـنة بشـكل جيد ، فبـالاضافة الى دفـاعاتها الطبيعية ، فإن النهر يحميها من جانب واحد وتحميهـا المدينة مـن جانب آخر بحيث يتعذر بلوغها على الاطلاق .

تقدم المسيحيون بصفوف حسب قواعد النظام العسكري ، وقام القادة فور وصولهم الى المدينة بتـوزيع جنودهـم بـالنظام الأمثـل

وحاصروا المدينة ، ودفع الخوف من العدو سكان المدينة الى التراجع الى داخل الأسوار حالما بدأ الحصار ، ونصب الملك والمخيمون في الخارج آلاتهم الحربية وآلات قذف القذائف على الفور ، ولم يتراخوا في جهودهم ولو لدقيقة واحدة ، بل حاولوا أن يلحقوا بعدوهم كل ضرر ممكن حتى يمكن إنهاك قوة المدافعين بشدة ومشقة متواصلة ، واجهد كل قائد نفسه بشجاعة في القطاع الخاص الذي كان قد عين فيه منذ البداية ، ورفع معنويات جنوده بالأقوال التشجيعية والوعود بالمكافآت لبذل المزيد من الجهود القوية ، ورغب كل واحد منهم أن يكون أول من يقتحم المدينة ، وسعى ليحقق لنفسه الفخار بكونه أول من يدخل المدينة ، وأحدثوا بها لهذا السبب دمارا ذريعا الى حد أن الموت بدا يهدد سكان المدينة من جميع الاتجاهات .

لم يكن لدى سكان شيزر سوى معرفة بسيطة باستخدام الأسلحة ، وكان اهتمامهم موقفا على التجارة الى ابعد الحدود ، وعلاوة على ذلك ، وبما أنهم كانوا جاهلين تماما بالمحنة التي كانت قد حدثت مؤخرا ، فانهم لم يخشوا أدنى خشية من الحصار ، وكانوا يثقون بدفاعات مدينتهم وبقوة حاكمهم الذي كان بصحة جيدة حسبما كانوا يعتقدون ، حيث أنهم لم يتمكنوا من تحمل أعباء من هذا النوع ، ولم يستطيعوا مواصلة الصمود تحت وطأة الهجمات والمناوشات المتواصلة ، فقد استسلموا بعد بضعة ايام تحت الضغط المستمر لمهاجميهم واقتحم المسيحيون التحصينات واندفعوا الى وسط المدينة واستولوا عليها بالقوة ، فتراجع الناس الى القلعة وتخلوا عن كل ماكان قد بقي في المدينة السفلية ، وجرى التخلي عن كل شيء بدون استثناء للعدو ليقوم بسلبه ، وهكذا ، استخدم المسيحيون حسب هواهم منازل الناس بكل ما كانت تشتمل عليه انما لعدة أيام فقط .

وتفجر سبب تافه للخلاف بين قادتنا لكنه كان مزعجا للغاية ، وحدث هذا في الوقت الذي بدا فيه من المؤكد تماما انه يمكن

الاستيلاء على القلعة بسهولة وذلك تحت الضغط المستمر وبالتالي القاء القبض على جميع الذين كانوا قد هربوا الى هناك طلبا للملجأ ، وكان الملك مهتما بمستقبل تقدم البلاد ، وبما انه كان عارفا أن كونت فلاندرز سيتمكن مع قوته الكبيرة من الفرسان والوسائل الكثيرة التي بحوزته من حماية المدينة تماما ضد قوى الاتراك ومكائدهم فقد خصص شيزر له منذ البداية ، وبما انه كان يفكر بهذا الأمر ، فقد شن هجوما عنيفا على القلعة حتى يتمكن من وضع المدينة والقلعة تحت حماية الكونت ويحتفظ بهما كملكية وراثية الى الأبد ، وبدا هذا الترتيب لجميع القادة أنه ترتيب مناسب تماما ووافقوا بالاجماع عليه .

بيد ان الأمير ارناط وحده اثار المصاعب ، وأعلن أن شيزر كانت قد شكلت منذ ا ع توابعها جزءا من ميراث امير انطاكية، ولهذا السبب على من من يتملكها أن يقسم يمين الولاء له ويعتبره سيدا له ، ومع أن الكونت ثيري كان على استعداد لتقديم الولاء للملك في سبيل تملك شيزر فقد رفض بشكل قاطع أن يؤدي يمين الولاء لأمير انطاكية سواء أكان أرناط الذي كان يدير الامارة حاليا ، أو بوهموند الشاب ، الذي كان يؤمل أنه سيتسلم السلطة حالا ، وقال إنه لن يقدم الولاء الا للملوك (١٤١)

وهكذا ، وعقابا على ذنوبنا ، نشب خلاف بين القادة حول هذه المسألة ، وتم التخلي عن المشروع الذي كان هاما جدا والذي كان في قبضتهم تقريبا ، وعاد المسيحيون الى انطاكية مع فيالقهم وهم محملون بالمغانم والأسلاب الى درجة الاشباع التام .

١٩ــ أخو نور الدين يتحرك ضدنا . موت فولتشر بطريرك القدس . عودة حصن كهف (وادي الراحوب) الواقع وراء الأردن الينا . الملك يحاصر قلعة حارم الواقعة في منطقة انطاكية ويستولي عليها .

في هذه الآونة قدم ميرميران أخو نور الدين الى حلب ، بعدما علم بالكارثة التي حلت بأخيه ، واعتقد أنه كان قد توفي ، وسلم له السكان المدينة على الفور بدون إشارة أية متاعب ، وبينما كان يهاجم القلعة بقوة ليجبرها على الاستسلام ايضا ، سمع أن أخاه مايزال على قيد الحياة ، ولذلك فرق عساكره على الفور ورحل(١٤٢)

وتوفي في هذا الوقت نفسه ايضا فولتشر البطريك اللاتيني الثامن للقدس ، وكان رجلا متدينا ويخشى الرب ، وحدث هذا في العام الثاني عشر من توليه لمنصب بطريركيته ، وفي اليوم الثاني عشر قبل بداية شهر كانون الأول(١٤٣)

وفي هذه الآونة استرد المسيحيون أيضا معقلا على الناحية الأخرى من الأردن في منطقة جلعاد ، وكان هذا في الواقع ، على شكل كهف ، جيد التحصين ، (قد تم الاستيلاء عليه خداعا من قبل الأعداء قبل بضعة أعوام بسبب اهمال قواتنا ، وكانت استعادته قد تمت والى حد كبير بفضل الجهود الحماسية للملكة ميليساند وبمساعدة العمل الفعال للذين تركوا في المملكة ولاسيما رعاية بلدوين دي ليلي الذي كان الملك قد عهد اليه بالمسؤولية عن المملكة اثناء غيابه) وأرسلت اخبار هذا النجاح الى الملك فجلبت سرورا كبيرا للجيش بأكمله ، وكانت مصدر سعادة كبيرة للجميع .

وفي تلك الاثناء كان القادة مايزالون مقيمين في انطاكية وبما أنهم رفضوا الاستمرار في حالة الخلاف التي كانوا عليها أمام شيزر

فقد توصلوا الآن بنعمة الرب الى وحدة في الروح والهـدف ، ولهـذا صمموا بالروابط السلمية التي قامت بينهـم أن يتـولوا القيام مـن جديد بعمل بارز . ويكون جديرا بالتذكر الى الأبد ، وتقرر بموافقة الجميع ومساعدتهم ضرب الحصار على (حارم) وهـي احـدى القلاع الواقعة على بعد / اثنى عشرة ميلا / مـن أنطـاكية ، حيث باشر هذا الموقع نفوذا كبيرا وسلطانا على القرى التي تدعى قـرى الجزر وكان مصدر ازعاج كبير للمدينة نفسـها ، وبناء عليه ذهـب الجيش بأسره بتصميم واحـد وخيم أمـام المدينة وذلك في يوم ميلاد الرب .

وفي الوقت نفسه كان المرض ، الذي هاجم نور الدين ، مايزال مسيطرا عليه ، وكان قد تم استدعاء امهر الاطباء من سائر انحـاء الشرق ، الا ان مـرضه رفض الاسـتجابة الى العـلاجات التـي استخدموها واصبحت حياته ميؤوسا منها الآن ، وبدا هـذا الامـر بالنسبة للمسيحيين بأنه مؤشر ايجـابي على أن العناية السـماوية تساعدهم في مشروعهم ، فلو كان نور الدين مستمتعا بصحته وقوته المألوفتين لصعب على جيشنا ان يتصرف بحـرية زائدة في الأقـاليم التي كانت خاضعة له .

وحـول الملك وأولئك الذي رافقـوه في هـذه الحملة الفـرصة لمصلحتهم ، ودفعتهم المعرفة الأكيدة ان هذا المحارب العظيم لم يكن قادرا على المشاركة في أموره الخاصة ، وهذا ما شـجعهم للسـعي وراء هدفهم بحمـاسة كبيرة ، والى تشـديد الحصـار بـاتقاد زائد ، وهكذا ، فقد حاصروا القلعة مـن جميع الجهـات ونصـبوا آلاتهم الحربية وأعدوا جميع الأدوات التي تستخدم عادة في حصـار القلاع .

كانت القلعة ، التي نحن بصددها ، تقع على هضبة منخفضـة مثلث مظهر متـراس مبني هناك بشـكل اصـطناعي كأسـاس للبناء . ولهذا أوقف الرجال الأكثر دربـة في الجيش انفسـهم على

انشاء ممرات سرية من مواد مناسبة بحيث يتمكن الجنود ، الذين توجب عليهم أن ينسفوا السد ، من الاختباء بشكل آمن . وبدا لهم ــ وكانوا مصيبين في ذلك ــ انه اذاتم لغم القلعة بممرات سرية لابد من أن ينهار جزء من الابنية المقامة فوقها ، فأعدت بسرعة ستائر الصفصاف المجدولة والسلالم ذات الطول المعتدل وجميع المعدات الاخرى التي قد تكون ذات فائدة في عمل كهذا ، وبعدما كان كل شيء قد جهز بالعناية المثلى صدرت الأوامر بصوت المنادي الى زعماء كتائب المشاة والفرسان وبأوامر سرية لينكبوا على الفور وباجتهاد على عمل الهجوم ، وخصص مكان محدد لكل زعيم وواصل العمل مع أصدقائه وأتباعه بضراوة وكأن نجاح المسألة بأسرها كان يعتمد عليه نفسه فقط ، وكان كل قائد تواقا ليثبت أن اتباعه كانوا الافضل ، وهكذا واصلوا بهجمات مستمرة وبمناوشات يومية العمل بإصرار بالغ بحيث أن المشروع ، الذي كان يستغرق بالشكل العادي أياما كثيرة ، أنجز في غضون شهرين بفضل الاهتمام واليقظة .

وحدث ذات يوم أن سقط حجر كبير مقذوف من إحدى آلات القذف الحربية ، التي كانت تقصف ليل نهار ، على القائد العام للقلعة الذي ارتكز عليه الدفاع بأكمله ، فسحق على الفور وتحول الى اشلاء وتفرق الناس عند موته كالغنم عندما يصرع الراعي ، وكالرمل بلا كلس فهو لايستطيع أن يتماسك مع بعضه ، وهكذا ، توقفت المقاومة العنيدة التي كانوا قد أظهروها حتى الآن .

وحالما أدرك المسيحيون هذا ضاعفوا جهودهم وبالمقابل تناقصت مقاومة المحاصرين بالقدر نفسه ، وأرسلوا في الحال ــ لابل في الحقيقة بعد بضعة أيام ــ وفدا الى الملك ، وعرضوا عليه تسليم الموقع له شرط أن يسمح لهم بالذهاب الى موطنهم بحرية وأمان مع جميع ممتلكاتهم ، وطلبوا تزويدهم

بالمرشدين ليحموهم من التعرض للهجـوم وليقـودوهم الى هـدفهم المنشود بأمان .

وهكذا تـم الاسـتيلاء على القلعـة ، وسـلمت الى امير انطاكية ، حيث كانت تقع تحت سلطته من قبـل ، وعاد القـادة الى انطاكية بعدما أنجزوا حملة ناجحة ، وهنالك فـارقهم الملك بعـدما تبودلت كلمـات الوداع ، وعاد الى المملكة بمـرافقة كونت فـلاندرز الرائع ، ورافقهم كونت طـرابلس بلطـف على الطـريق حتـى طرابلس (١٤٤)

٢ـ اختيار أمالرك رئيس الشمامسة السالف في كنيسة القبر المقدس في القدس ، بطريركا . انتخـابه بسبب نشوب نزاع بين الأساقفة .

كانت كنيسة القدس في هذه الآونة بلا بـطريرك بسـبب وفـاة فولتشر ذي الذكرى العزيزة ، ولذلك اجتمـع رجـالات الكنيسـة في المدينة المقدسة لمعالجة مسالة اختيار رجل لشغل هذا الكرسي الهـام حسب القواعد الكنسية ، وقد ادعى ان الاختيار أجرى بشـكل غير نظامي بسبب تدخل أخت للملكة ميليساند وسيبيلياكونتس فـلاندرز اخت الملك ، وانتخبت امالرك مقدم رهبان كنيسة قبر المسيح (١٤٥).

كان امالرك فرنجي المولد من مدينة نسلة الواقعـة في أسـقفية نيون ، وكان رجـلا عالي الثقـافة لكنه كان سـانجا للغـاية وقليل الفائدة للكنيسة ، وقد جرى اختياره لهذا المنصب خـلافا لرغبـات هيرونسيوس رئيس أساقفة قيسارية ورغبات رالف أسقف بيت لحم الذي طالب بالعدول عن قرار تعيينه ، وبعدما اعتلى أمـالرك عرش البطريركية وضع المسالة في أيدي فريدرك أسقف عكا الذي ذهب الى الكنيسة الرومانية التي كان يحـكمها آنذاك هـادريان ، ويقـال ان فريدريك ضمن لامـالرك بـاستخدامه السـخي للهبـات ، وبغياب

خصومة ، تأييد بابا الرومان ، وجلب معه طيلسان الحبرية مع اعتراف تام بدعوى أمالرك بمنصب البطريرك .

٢١ـ نور الدين يحاصر كهفا في منطقة السواد تعود ملكيته للمسيحيين . الملك يزحف ضده وينجح في رفع الحصار . نور الدين يتحارب مع المسيحيين ويصاب بالهزيمة .

كان في هذه الأثناء نور الدين قد شفي من المرض الذي أصابه وذلك بفضل المعالجة الدقيقة التي تلقاها من أطبائه ، وكان الملك قد عاد الآن الى مملكته ، وذهب الأمير التركي الى دمشق بنشاط صحيٍ تام ، ولكي لايمضي الوقت بلا عمل وحتى لايتهم بالتراخي في يقظته المألوفة ، استدعى جيشه خلال الصيف التالي ، وجمع قوة ضخمة من الاحتياطات وشن هجوما مفاجئا على احدى قلاعنا ، وكانت هذه القلعة تتألف من كهف في المنطقة التي تدعى السواد وهي واقعة على جانب هضبة مرتفعة ومنحدرة جدا ، ولم يكن هنالك اي طريق لبلوغ هذه القلعة من الأعلى او الأسفل ، الا من الجانب بواسطة ممر ضيق وخطر على طول جرف ، وكانت في داخله غرف ومعدات نوم قدمت التجهيزات اللازمة للقاطنين هناك ، وكان هنالك ايضا ينبوع مياهه موائمة للحياة لم تتلوث ، وبقدر ماسمحت الرقعة المحدودة الضيقة للموقع فانه كان مجهزا بشكل جيد واعتبر مفيدا جدا للمنطقة .

وعلم الملك بنبأ هذا الحصار بوساطة رواية موثوقة ، فجمع قوات المملكة على الفور ، واسرع الى هناك بمرافقة كونت فلاندرز ، وكان الناس الموجودون في داخل الكهف غير القادرين على تحمل قساوة الصراع قد أعدوا شروطا مؤقتة للاستسلام حسبما تفرض ذلك الضرورة عادة ، اي انهم سيسلمون التحصينات اذا لم

تصلهم المساعدة خلال عشرة ايام ، وعلم الملك بهذه الحقيقة ايضا ، ولذلك بذل اقصى مايمكنه للاسراع لنجدتهم ، وخيم مع جيشه بالقرب من طبرية بجانب الجسر حيث تنفصل امواج نهر الأردن عن امواج بحيرة طبرية .

لكن حالما علم نور الدين ان الملك كان قريبا تخلى عن الحصار وزحف مع جيشه الى الأمام نحو المسيحيين وذلك بناء على نصيحة شيركوه القائد العام لجيشه الذي كان رجلا شجاعا جدا وواثقا تمام الثقة من نفسه .

وبعدما علم الملك ان نور الدين قد عقد العزم على مهاجمته استدعى نبلاءه الى قصره في وقت مبكر من الفجر وقدم في اول الامر التوقير المتواضع لصليب الصلبوت المانح للحياة الذي كان يحمله سلفنا بطرس ذو الذكرى العزيزة كرئيس لأساقفة مدينة صور ، ثم أعلن عن خوض القتال بموافقة جماعية ، وحركت الصفوف وتقدمت بابتهاج روحي وكأنها متيقنة من النصر ، وسارت إلى الأمام إلى الموقع الذي قيل إن جيوش نور الدين كانت موجودة فيه ، وعندما اقتربت كتائب المسيحيين حسب أمنيتها من العدو ، بترتيب المعركة وهي مدججة بالسلاح انقضت على الأتراك واستخدمت سيوفها استخداما عنيفا وكأنها مصممة أن تقاتل حتى الموت ، إلا أن الأتراك الجسورين تحملوا الهجوم دون اضطراب ، وشنوا هجوما معاكسا بالسيوف ، وحاولوا بمقاومة شجاعة أن يصدوا هجوم أعدائهم .

وفي النهاية منحت السماء النصر إلى المسيحيين بعد تيارات متقلبة للقدر ، فهزم العدو هزيمة ساحقة بعدما أصيب بخسائر جسيمة واحتل الملك مع جيشه الميدان كمنتصر ، حدثت المعركة في فيق في الأسبوع الثاني من شهر تموز من العام الخامس عشر لحكم الملك بلدوين (١٤٦).

ورأى بلدوين من ثم أنه من الموائم أن يزحف بجيشه إلى القلعة التي كانت واقعة تحت الحصار ، وأصلح هناك الضرر الذي كان قد أصابها وزودها بعناية بالأسلحة والطعام والجنود الشجعان ، ثم أذن لعناصر جيشه وصرفهم إلى منازلهم وعاد إلى المملكة بعد حملة ناجحة .

٢٢ ـ عودة الرسل الذين أرسلوا إلى القسطنطينية بخصوص مسألة زواج الملك . جلبهم معهم ابنة الامبراطور كزوجة للملك .

كان كما ذكرنا من قبل مبعوثون قد ذهبوا إلى القسطنطينية لترتيب زواج الملك ، وقد مات هناك واحد منهم يدعى أتارد وكان رئيسا لأساقفة الناصرة ، وجلبت جثته إلى الكنيسة التي كان يعمل بها بفضل عناية وغيرة رفاقه المخلصين ، وقد خلفه ليتارد رئيس شماسة الكنيسة ذاتها ، وكان رجلا لطيفا جدا ودمثا وأنيسا ولا يزال باقيا في المسؤولية ذاتها للعام الثالث والعشرين من منصبه (١٤٧) ، وكان المبعوثون الباقون على قيد الحياة هم همفري كافل المملكة وجوسلين بيسللوس ووليم دي بريس وكانوا رجالا نبلاء وبارزين ومتمكنين تماما من الأمور المدنية ، وقد تابعوا باجتهاد موائم المهمة الموكولة إليهم في مقر الامبراطور ، ونفذ مطلبهم بعد تسويفات لا تحصى ، وإجابات ملتبسة قدمت بإسهاب مربك وفق الأسلوب الذي يتصف به الاغريق المكرة ، ويستخدمونه بالعادة ، وبعد أن انهيت الترتيبات بخصوص المهر وهبة الزفاف جرى تعيين فتاة لامعة لتكون زوجة للملك ، وكانت أميرة تربت في أكثر الأمكنة انعزالا في القصر الامبراطوري ، وكانت في الواقع ابنة أخي الامبراطور ابنة أخيه الأكبر اسحاق ، وكانت تدعى ثيودورا وكانت عذراء في الثالثة عشر من عمرها ذات جمال فريد من نوعه بالشكل والملامح على حد سواء ، كان مظهرها الكامل يؤثر على كل من

رآها ، وتكون مهرها من مائة الف قطعة نقدية ذات قيمة ثابتة وذلك بالاضافة إلى عشرة آلاف من العملة ذاتها التي قدمها الامبراطور بسخاء لنفقات الزفاف ، ويمكن تقدير تكاليف جهاز الزفاف للفتاة المؤلف من الذهب والمجوهرات والأثواب واللآلىء والزرابي والبسط والأنسجة الحريرية وكذلك الأواني الثمينة ، بما تعادل قيمته أربعة عشر ألف قطعة نقدية إضافية(١٤٨)

كان الملك قد أرسل ضمانة إلى الامبراطور مكتوبة بخط يده وهي انه سيصادق بنفسه على أي شيء يوافق عليه مبعوثوه بالنيابة عنه ، ووعدوا بصدق أن الملكة ستحتفظ في حال وفاة الملك بمدينة عكا مع جميع توابعها بمثابة حصة زواج ملكية مدى الحياة بكل الهدوء وبدون نزاع ، وهكذا سويت المسألة بحلول سارة لكلا الطرفين ، وانتخب مرافقو العروس من أرفع نبلاء الامبراطورية لمرافقة السيدة في رحلتها إلى الملك ، وانطلقت في رحلتها إلى سورية في ظل رعاية المبعوثين لتذهب إلى زوجها .

ونزلت خلال شهر أيلول التالي مع جميع حاشيتها بأمان في مدينة صور ، ورسمت خلال بضعة أيام تلت ذلك في القدس حسبما اقتضت عادة الملكة ، وتوجت بالتاج الملكي ، ثم قدمت لزوجها بعد انتهاء الطقوس المهيبة للزواج ، ولم يتلق بطريرك القدس المنتخب هبة التكريس في ذلك اليوم لان المبعوثين ، الذين أرسلوا إلى البابا من اجل قضيته ، لم يكونوا قد عادوا الآن ، ولذلك جرى استدعاء إيمري بطريرك انطاكية بأمر ملكي ليمنح نعمة المسيح الملكية للملكة ولاقامة طقوس الزواج المألوفة (١٤٩) ، وتخلى الملك منذ ان تزوج عن كل الطيش الذي كان ـ حسب الشائعة ـ قد اظهره بافراط حتى الآن ، ويمكن من ذلك الحين فصاعدا ان يردد مع الحواري:« لما كنت طفلا كطفل كنت اتكلم وكطفل كنت افطن وكطفل كنت افتكر لكن لما صرت رجلا ابطلت ما للطفل(١٥٠) . ويقال انه تعلق دائما بزوجته بحب جدير بالثناء ، ويعتقد انه كان مخلصا حتى النهاية ، وبدأ يتولى القيام

بأعمال هامة ويشغل نفسه تمـاما بـأمور جـادة بعـدما تخلى عن السلوك الطائش وكأنه قد تبدل ولم يعد ذلك الرجل السابق (١٥١)

٢٣ ـ قدوم امبراطور القسطنطينية الى انطاكية ـ الامير أرناط يعتذر عن الآثام التي اقترفها في قبـرص فيحظى بالقبول

في غضون ذلك العام نفسه عزم امبراطور القسطنطينية على النزول إلى سورية ، وجند جنودا من جميع أقاليم مملكته ، بشكل يتمـاشى مع عظمته الامبراطورية ، وعبر بجيشه الضخم ، المجموع من جميع القبائل والشعوب والأمـم ، البسوسفور ومـر بسرعة خـلال جميع المناطق الفاصلة وظهر في حوالي بداية شـهر كانون الأول في كليكية على رأس جيوشه وبشكل مفاجيء للغاية لدرجة بدا فيها أن الأمر لم يكن معقولا ، وكان السبب المبـاشر لمسـيرته المسرعة على النحـو التالي : كان هنالك أمير ارمني يدعى طوروس ـ كنا قد ذكرناه من قبل ـ قد استولى بالقوة على سائر منطقة كليكية المتاخمة للجبـال التي كان يملك فيها عدة قلاع حصينة جـدا ، ولم تنج منه اية قلعـة مسورة أو قـرية بعيدة ، وكانت كل مـن عين زربـة وطـرسوس عاصمتي كليكية الأولى والثانية قد وقعتا كل على حده تحت سـلطته بالاضافة إلى مدن أخرى أيضا بينها المصيصة وأذنه وسـيس حيث كان قد طرد الولاة المعينين هناك لادارة المصـالح الامبـراطورية ، ولذلك ، كان الامبراطور قد أسرع في سيره وأخفى غايته لكي يباغت الأمير الأرمني .

وكان لرحلته هدف آخر أيضا ، فقد كانت عاطفتـه قـد أثـارتها القضية المحزنة للقبـارصة الذين يسـتحقون تـأييده تمـاما والذين كانوا ـ كما ذكرنا من قبل ـ قـد خضـعوا للطغيان الوحشي لأمير انطاكية الذي عاملهم وكأنهم اعداء للعقيدة وقتلة مجرمون .

-٣١٩٠-
لقد كان قدوم الجيوش الامبـراطورية مفـاجئا للغـاية بحيث لم يتسن لطـوروس ، الذي كان مقيمـا في طـرسوس ، الوقـت الكافي للهروب إلى الجبال المجاورة أمام الفيالق وقادة الجيش الذين كانوا ينتشرون فوق السهل المكشوف .

عندما سمع أرناط أمير أنطاكية بهذه الاخبار أنبه ضميره تـأنيبا عظيما وندم على ما اقترفه من اثام ، وكان قـد قـام قبـل وصـول الامبراطور بصب جام غضبه على القبارصة الأبرياء وارتكب بحقهم وحق زوجاتهم وأطفالهم إساءات بغيضـة ينظـر الله والانسـان ، ولذلك فقد خاف من وصول الامبراطور(١٥٢)خشـية مـن أن يتـولى القيام بالثأر لمظالم شعب مهان بعدما حركته قضيتهم العادلة ، وبدأ الأمير يفكر مباشرة تارة بعقله وتارة أخرى بالتداول مـع أصـدقاء حميمين استدعاهم بخصوص منحى العمل الذي يمـكن أن يتخـذه وكيف يمكنه التكفير عن ذنبه وإرضـاء العـظمة الامبـراطورية عن إساءة عميقة جدا كهذه ، ويقال إن وصول الامبراطور أرعبـه غاية الرعب حتى أنه لم ينتظر وصول ملك القدس ، الذي كان على وشـك الوصول مع أنه يعرف أنه سيتمكن من خلال وسـاطة ملك القـدس ونفوذه ، الذي ازداد بالزواج الذي تم مـن ابنة أخـي الامبـراطور مؤخرا أن يضمن علاقات لنفسه أفضل بكثير .

ولذلك قام بناء على نصيحة بعض أعوانه بـاختيار بعض النبـلاء منهم لمرافقته ، وتوجه إلى كليكية ، حيث كان الامبراطور مـوجودا مع قواته في ذلك الوقت ، ورافقـه في هـذه الرحلة أيضـا جيرارد ، الأسقف المبجل للاذقية ، وتقدم ، بعدما حقـق في أول الامـر تـأييد بعض عناصر بلاط الامبـراطور للتـوسط لالتمـاسه ، إلى مـدينة المصيصة حيث استرد رضا وحظوة صـاحب الجـلالة الامبـراطور بعدما قدم تعليلات محكمة كثيرة كانت مشـحونة بـالخزي والعـار للمسيحيين ، ويروى أنه مثل على مشهد من جميع القوات المحتشدة أمام الامبراطور وهو حافي القدمين يرتدي سترة قصيرة حتى المرفق

مع حبل حول عنقه وبيده سيف مسلول امسكه من رأسه وقدم قبضته إلى الامبراطور ، وبعدما سلم سيفه القى بنفسه على الأرض عند قدمي الامبراطور حيث بقي ممددا على الأرض حتى اشمأز الجميع ، وتحول مجد اللاتينيين إلى خزي ، كان رجلا مقدما بشكل غير طبيعي على اقتراف الآثام والتوبة على حد سواء (١٥٣)

٢٤ ـ الملك يسرع إلى منطقة أنطاكية ، ويستقبل من قبل الامبراطور بالترحاب ويخلع عليه الخلع والعطايا .

عندما علم الملك بوصول الامبراطور توجه نحو أنطاكية بمرافقة اخيه وتحيط به حاشية منتخبة من أعظم نبلاء المملكة ، وكان كونت فلاندرز قد صمم على العودة إلى الوطن بالرحلة البحرية القادمة ولذلك تخلف ولم يحضر معه .

أرسل الملك لدى وصوله سفارة إلى الامبراطور كانت مؤلفة من غودفري مقدم الداوية ، وكان رجلا متمكنا تماما من اللغة الاغريقية والنبيل جوسلين بزللوس . وتوجب عليهما أن ينقلا بطريقة لبقة التحيات اللائقة بجلالته الامبراطورية ، وأن يستفسرا عما إذا كان يسره أن يمثل الملك أمام حضرته ، وصدرت الأوامر للرسل ردا على رسالتهم بدعوة الملك بإلحاح بالغ للقدوم على الفور ، اضف إلى هذا انه أرسل أن لا يؤجل القدوم إليه لانه يعتبر ابن الامبراطورية المحبوب .

وبناء عليه ذهب الملك إلى هناك في اليوم المحدد مع حاشية منتخبة من النبلاء البارزين جدا ، واستقبل بطريقة مشرفة للغاية ، وتنفيذا لامر الامبراطور ، استقبله نبيلان من المرتبة العليا بين الرجال البارزين في القصر المقدس وهما يوحنا المسؤول عن المراسم

والكسيوس الحاجب ، وهمــا شــقيقان لأم واحــدة وابنا أخـــوة للامبراطور نفسه ، ورافقتهما حاشية رائعة من النبــلاء ، وتــوجه الملك بقيادة هذه الحــاشية إلى مــدخل السرادق الذي كان يقيم فيه الامبراطور مؤقتا مع معظم نبلائه البارزين .

قدم الملك بــاحتفاء كبير ، وحياه الامبــراطور بلطــف وقبله قبلة السلام-وأجلسه إلى جانبه على مقعد الشرف مــع أنه كان في مـــوقع أخفض من مقعده ، ثم جرى الترحاب بــرفاق الملك بتحيات لائقــة ، ومنحهم قبلة السلام أيضا ، ثم استفسر بــاهتمام عن صــحة الملك وعن صحة أعضاء أركان حــاشيته ، ودل التعبير المدهش لســيمائه وأقواله وموقفه العام أيضا أنه كان مسرورا للغاية بقدومهم ومبتهج لحضور ملك لامع مــن هــذا القبيل مــع حـــاشيته ، ولازم بلدوين الامبراطور وبقي معه لمدة عشرة أيام بدون انقطاع ، واســتمتع منه بمحادثة سارة ، وأجريا أحاديث متــكررة كل على حــدة وبحضــور النبلاء احيانا ، كان الملك ودودا ودمثا جــدا ، وحقــق أثناء إقــامته حظوة كبيرة لدى الامبراطور ولدى نبلائه الذين ارتبطت قلوبهم بــه بروابط الحب العميق ، وتعلقوا به بالفعل بعد ذلك طــالما بقــي حيا معتبرين إياه ابنهم المفضل ، ولم يتوقفوا حتى يومنا هذا ــ مع أنه متوفى ــ عن تذكره بشكل عزيز ورائع .

كان بلدوين رجلا نشيطا صاحب بصيرة ثاقبة بخصوص الأمـــور الدنيوية ، فقد رغب في أن تثمر إقامته مع الامبراطور فوائد جمــة ، وقد لاحظ أن الامبراطور كان قد أمر بحشد القوات في معسكر خارج المدينة لارسالها في حملة ضد طوروس الذي كان يطــارده بــكراهية شديدة ، وبدأ بلدوين ، بعد أن طلب الاذن ، يحاول القيام بإحــداث تفاهم طيب بين الامبراطور وذلك النبيل ، واستدعى إليه طــوروس ورتب اتفاقا سلم بموجبه هذا الأمير القلعة التــي كان الامبــراطور يطالب بها ، وأعيد بعد ذلك إلى رعاية تامة ، وهكذا ، أدى طوروس يمين الولاء إلى الامبراطور عن طريق وســاطة الملك ، ثــم عاد إلى ممتلكاته(١٥٤)

وعلمنا من بعض الأشخاص الذين تعد شهادتهم موثوقة تماما أنه بالاضافة إلى الهبات التي أغدقت على أتباع الملك بسخاء كبير ـ قيل إن هذه الهبات كانت لا تحصى ـ كانت الثروات التي منحت للملك وحده قد بلغت اثنين وعشرين ألف قطعة ذهبية وثلاثة آلاف قطعة فضية ذات وزن قياسي ، وشكلت الأثواب والأنسجة الحريرية والأباريق النفيسة جزءا من الثروة الممنوحة أيضا (١٥٥)

وجد الملك في انطاكية أخاه عموري كونت يافا وعسقلان ، وكان معه هيودي ابلين الذي كان قد تحرر من أسر العدو مؤخرا ، وكان قد عاد ليعيد تنصيب نفسه في منصبه السابق ، وبما أنهما رغبا بزيارة الامبراطور ، فقد انطلقا حالا إلى هناك ، وقدم لهما هبات سخية في نهاية زيارتهما وأعادهما مسرورين إلى المملكة .

٢٥ ـ دخول الامبراطور إلى أنطاكية . إظهاره سخاء كبير نحو السكان . عودته من هناك على الفور إلى بلده .

احتفل الامبراطور بعيد الفصح المقدس في كليكية وأمضى عدة أيام في تلك المنطقة ، ثم قاد جيوشه إلى انطاكية ووقف أمام المدينة بشكل مرعب بسبب عدد جنوده الكبير ، وخرج البطريرك حاملا كتب الاناجيل ومعه رجال الدين وهم محاطون بكل الروعة الطقوسية للكنيسة لمقابلة الامبراطور ومعه جميع الناس ، وانطلق الملك أيضا بكياسة كبيرة للترحيب به ومعه أمير انطاكية وكونت عسقلان وتبعه جميع زعماء المملكة وإمارة انطاكية ، واقتيد الامبراطور وسط أصوات الموسيقى العسكرية للأبواق والطبول ، وبقدر يليق بجلالة المرتبة الامبراطورية ، وهو متوج بالتاج الامبراطوري،اقتيد إلى المدينة حيث ذهب في أول الأمر إلى الكاتدرائية،أي كنيسة رئيس الحواريين ثم إلى القصر بصحبة المرافقة ذاتها من رهبان وأهالي المدينة (١٥٦)

وبعد أن أمضى الامبـراطور عدة أيام بـالاستمتاع بـالحمامات والمسرات الأخرى أغدق خلالها الهبات على سـكان المدينة بسـخاء شديد حسب عادتـه المألوفـة ، عزم ـ الامبـراطور ـ على القيام برحلة صيد لتمضية الوقت ، وهكذا زار بمرافقة الملك مكانا توفر فيه صيد جيد ، فبينما كانا يطوفان خلال الغابة ، كما يفعل الصيادون في متابعة تلك الرياضة ، وقع لهما حادث في اليوم الجليل لصعود سيدنا المسيح إلى السماء ، فقد كان الملك يتجول ممتطيا حصانه الرشـيق على أرض وعرة مغطاة بشجيرات قصيرة وأشـواك عندمـا طـرح أرضا من على حصانه فكسرت ذراعه .

عندما علم الامبراطور خبر الحادث تولى بنفسه مهام الجـراح بعطف شديد للغاية وركع إلى جانب الملك وأسعفه بلطف وكأنه نفسه كان مجرد شخص عادي ، وأصيب بالوقت نفسه نبـلاؤه وأقـرباؤه بالدهشة والانزعاج حيث بـدا للجميع أنه مـن غير اللائق بـالنسبة للامبـراطور أن يتخلى عن وقـاره المهيب ، وأن يصرف النظـر عن عظمته الامبراطورية فيظهر نفسـه مخلصـا وودودا للملك إلى هـذا الحد وبعد عودتهما بسبب هذا الحادث إلى انطاكية كان الامبراطور يقوم بزيارة يومية للملك ، وجدد بنفسه الكمادات ومراهم المعـالجة وغير الضمادات بكل عناية ولم يكن بالفعل ليظهر عناية أكبر لو كان بلدوين ابنه حقا(١٥٧) .

عندما تماثل الملك للشفاء تمـاما ، أعلن الامبـراطور بصـوت المنادي أنه ينبغي على قادة الفيالق إرسال الآلات الحربية إلى الامام وأن يزحف الجيش في يوم محدد نحو مـدينة حلب ، وغادر انطـاكية على الفور بمرافقة الملك وحكام المملكتين ووسط أصـوات الأبـواق والطبول التي تدعو إلى الحرب ، وتوقف الجيش بأسره عند مخاضة البلانة وهذا هو اسمها الدارج على ألسنة الناس .

أرسل الامبراطور رسلا مـن ذلك الموقـع إلى نور الدين ، الذي صادف وكان موجودا في مدينة حلب في ذلك الوقت ، ورتب عن طريق

- ١١٩٥م -

هؤلاء المنذوبين وجوب إطلاق سراح شخص يدعى برترام ، وهو ابن غير شرعي للكونت صنجيل مع بعض الاسرى الآخرين (١٥٨) ، وعاد الامبراطور إلى مملكته بعد وقت قصير من هذا حيث استدعته أموره الخاصة ، وعاد الملك بعد رحيل الأمبراطور ايضا إلى بلاده مع الذين كانوا قد رافقوه .

٢٦ ــ نشوب شقاق خطير في كنيسة روما إثر وفاة البابا هادريان :

توفي في هذه الآونة هادريان نتيجة إصابته بالتهاب في اللوزتين في اناغني في كامبانيا فنقلت جثته إلى روما ، ودفن هناك بإجلال كبير في كنيسة القديس بطرس رئيس الرسل . واجتمع الكرادلة بعد ذلك للبحث في مسالة إيجاد خلف له ، وحدث ان اختلفت آراؤهم ، كما يحدث مرارا في ظروف كهذه ، فقد اختارت إحدى الزمر رونالد ، الكاردينال الراهب لكنيسة القديس بطرس نفسها ، والملقب بالقديس مارك ، والذي كان مستشارا للكرسي المقدس ، فاختارته وعينته بابا باسم الكسندر ، غير أن الفريق الثاني اختار اوكتافيوس وكان رجلا نبيل النسب وكاردينالا راهبا للكنيسة نفسها ويلقب القديس كليكية لما وراء التيبر ، فرسم بالطريقة ذاتها وعين بابا باسم فيكتور (١٥٩) .

سبب الشقاق ، الذي نشب بسبب آثامنا انقساما بشكل عملي وانفصالا يتعذر تغييره في الكنيسة اللاتينية بأسرها ، حيث انتظم أعظم نبلاء المنطقة في زمر وتحالفوا مع هذا الفريق أو مع الآخر .

استمر هذا الوضع تسعة عشر عاما تقريبا ، وتمكن اخيرا فريدريك ،إمبراطور الرومان الذي كان يؤيد ويوجه فريق فيكتور ، من إقامة وحدة في الكنيسة بعدما تصالح تماما مع البابا الكسندر (١٦٠) ، أعيد الوئام إلى كنيسة الرب ، وشع السلام بعد مازالت ظلال الاثم ، كنجم الصباح في وسط الغيوم ، (١٦١) .

-٣١٩٦-

٢٧ – نور الدين يجتاح بلاد سلطان قونية ويستولي على جزء منها بالقوة . الملك يعيث فسادا في بلاد دمشق .

ابتهج نور الدين في هذه الأثناء كثيرا بسبب رحيل الأمبراطور ، فقد كان وصول ذلك الحاكم الجبار قد سبب له فزعا كبيرا ، وكانت إقامته في المنطقة قد أقلقته بشكل كبير أيضا ، وشعر الآن بأمان من القوة المرعبة للملك العظيم ، واعتقد بعدما عرف أن الملك كان قد عاد إلى بلاده ، أن الفرصة التي كان قد تمناها لفترة طويلة من الزمن قد أتت ، ولذلك ، استدعى الجنود من جميع اقاليمه ووجه حملة إلى بلاد سلطان قونية التي كانت تتاخم أراضيه ، وسقطت في قبضته مدينة مرعش بالاضافة إلى حصني كيسوم وبهسني لأن السلطان كان بعيدا جدا عن هذه المناطق ، ولم يتمكن من تقديم المساعدة لهما بسهولة ، ولقد كان نور الدين عارفا تماما بهذا الوضع وإلا لما اقدم على مهاجمة سلطنة قونية وهي سلطنة اقوى منه نفسه .

نقل نبأ هذه الحملة إلى الملك ، الذي كان مايزال محتجزا في تلك المناطق مع جميع قواته ، وبما أنه كان عالما تماما أن منطقة دمشق ، المجردة من قواتها العسكرية ، ستكون مكشوفة ويمكن أن تقع فريسة سهلة المنال لمكائد اي عدو ، صمم على استثمار هذا الواقع لمصلحته الخاصة ، فجمع جيشا واجتاح اراضي دمشق حيث حرق ودمر كل شيء حسب هواه وبدون مقاومة ، وكانت جميع الأراضي الممتدة حتى بصرى ، تلك المدينة المشهورة في العربية لابل حتى دمشق تحت تصرف الجنود لكي يحرقوها وينهبوها كما يشاؤون .

كان في دمشق رجل نبيل يدعى نجم الدين ، وكان نور الدين قد عهد إليه بأمر الاهتمام بشؤونه الشخصية والمسؤولية عن المدينة مع توابعها ليحكمها حسب مشيئته الخاصة ، وذلك بسبب شهرته وخبرته الواسعة في المسائل الدنيوية ، وأدرك نجم الدين أن مولاه

كان مشغولا بأمور هامة على مسافة بعيدة عنه ، في حين لم تكن لديه سوى قوة صغيرة ليقاوم الملك بها ، ولذلك بحث بحكمة عن سبل اخرى ليتجنب المخاطر التي كانت تحدق به ، فعرض على الملك دفع اربعة الاف قطعة ذهبية وإطلاق سراح ستة فرسان من المرتبة العادية كانوا في أسره ، وطالب مقابل ذلك بعقد هدنة لمدة ثلاثة اشهر ، وكان بالاستخدام الحكيم للمال قد رشا العديد من الناس ليتوسطوا له ، ولهذا تمت بالتالي الموافقة على طلبه ، ونجح بهذه الاجراءات الحكيمة في إنقاذ المنطقة من جيش العدو (١٦٢) .

وأصيبت في هذه الأونة ميليساند ، التي كانت امراة ذات حكمة وبصيرة نادرتين ، بمرض عضال لم يكن له علاج سوى الموت ، وقامت اختاها كونتس طرابلس وراعية راهبات دير القديس لازاروس أوف ببياني بالاشراف عليها بعناية متواصلة ، واستدعي امهر الأطباء ، واستعملت افضل العلاجات (١٦٣) ، وكانت ميليساند قد حكمت الممالك بقوة تفوق قوة معظم النساء وذلك لمدة ثلاثين عاما ونيف خلال حياة زوجها وبعد وفاته أثناء فترة حكم ابنها ، وكان حكمها حكيما ومتعقلا ، وتمددت الآن على فراشها لفترة طويلة من الزمن وكأنها ميتة بعدما أصبحت نحيلة الجسم وضعيفة الذاكرة إلى حد ما ، ولم يسمح إلا للقليلين بزيارتها .

وفي هذه الاثناء كانت فترة الهدنة ، التي تم الاتفاق عليها مع نجم الدين ، حاكم دمشق ، قد انتهت وكان نور الدين ، الذي لم يكن قد أنجز مشروعه حتى الآن ، محتجزا في المناطق المذكورة آنفا ، وهكذا دخل الملك بلاد العدو بقوة السلاح وعاث فسادا بالمنطقة حسب هواه ، ودفع القطعان والعبيد وأحرق ونهب دون عائق ، وبعدما نهب المنطقة بأسرها ودمر الحقول المجاورة واسر السكان عاد مجددا إلى مملكته بسلام .

-٣١٩٨-

٢٨ ـ الأتـراك يأسرون الأمير أرناط صـاحب أنطاكية ، ويلقونه في أحد السجون في حلب .

ابلغ بعد وقت قصير من هذا كشافة أرناط ، أمير انطاكية ، انه كانت هنالك منطقة مليئة بالقطعان والمواشي في المنطقـة التـي كانت عائدة من قبل إلى كونت الرها فيما بين مـرعش وبلوك ، وبمـا أن هذه المنطقة كانت خالية من القوات العسـكرية ، ولم يكن سـكانها معتادين على استخدام الاسلحة ، فقـد كانت عرضـة للنهـب بـكل سهولة ، وأصغى أرناط السائر بكل انتباه إلى هذه الرواية ، فجمع على الفور قوة ضخمة وانطلق في زحفه في ساعة شؤم ، ووجـد لدى وصوله إلى الموقع أن القصة كانت صحيحة ، فقد كان هنالك بالفعل عدد ضـخم مـن القـطعان والحيوانات ، إلا أن الناس الذين كانوا يملكون هذه القطعان والحيوانات كانوا من المسيحيين ، لأنه لم يكن هنالك أي من الاتراك في سائر تلك المنطقـة إلا في القـلاع ، وحتـى هؤلاء كانوا أعدادا صـغيرة ، وقـد عينوا في تلك المواقـع لحمـاية الحصون فقط وجمع الجزية من الناس ، وحراستها عند دفعها إلى السادة الكبار الذين كانوا وكلاء عنهم ، وكان المسـيحيون الأرمـن والسريان يشغلون الحقـول المجـاورة حيث كانوا يتـولون حـراثة الارض والعمل بالزراعة التي أوقفوا انفسهم عليها .

استولى أرناط وقواته على المغانم والاسلاب من جميع الجهات بدون أدنى مقاومة ، وبينما هم عائدون بسلام وهـدوء إلى ديارهـم وهم محملون بالمغانم وبجميع أنواع السلع المسروقة قـابلهم فجـأة مجد الدين حاكم حلب ، وهـو صـديق مخلص وحليف لنور الدين . وكان قد خف مع جميع فرسانه من تلك المنطقة المسـلحين تسـليحا خفيفا نحو أرناط بعدما علم أنه كان عائدا مـن حملة نهبـه ، وكان يهدف إلى مباغتة المسيحيين في بعض الشعاب الضيقة وإنزال هزيمة منكرة بهم وهم يحملون الأمتعة والمغانم التي كانت تثقل كاهلهـم ، أو أن يجبرهم بالقوة على التخلي عن الغنيمة على الاقل .

وتنفيذا للخطة الذكية التي وضعها الحاكم واتباعا لها قام الاتراك بالزحف ضد ارناط بتوجيه من الكشافة الذين كانوا قد نقلوا الخبر ، ووصلوا الآن إلى الموقع المذكور حيث كان الأمير مخيما بالقرب منه ومعه جميع المغانم .

عندما علم الأمير أن العدو بات قريبا منه تشاور مع قومه حول افضل ما ينبغي عمله في هذه الظروف ، وكانت الخطة المثلى أن يتم التخلي عن المغانم والاسراع إلى البلاد دون عائق ، وكان هذا أمرا يمكن تنفيذه بسهولة ، لكنهم فضلوا بدلا عن ذلك الاحتفاظ بالغنيمة وخوض قتال عنيف إذا لزم الأمر ، والتقت القوات المتعادية في المعركة في الصباح اللاحق عندما كان النهار قد تقدم إلى حد ما . وهجم العدو بالقسي والسيوف وحارب بشكل جريء للغاية ، وحاول المسيحيون بذل مقاومة عنيفة في البداية ، إلا أنهم استسلموا للذعر في آخر الأمر وتخلوا عن الغنيمة ولاذوا بالفرار ، وارغم الأمير ، عقابا لآثامه ، أن يكفر بنفسه عن جميع الجرائم التي كان قد اقترفها ، حيث أسره العدو ، وقيده بالسلاسل واقتاده إلى حلب بطريقة مخزية للغاية ليصبح هنالك مع زملائه الأسرى سخرية للكفرة .

حدثت هذه الكارثة في الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني في العام الثامن عشر من فترة حكم بلدوين وفي موقع يسمى الجومة (١٦٤) واقع بين كيسوم ومرعش .

٢٩ ــ قدوم رجل اسمه يوحنا إلى سورية ممثــلا للبــابا حيث كان كاردينالا راهبــا في كنيســة رومـــــا ونشوب مشاحنة بين الأساقفة بخصوص اســتقباله . ولادة طفل اسمه بلدوين لعموري أخي الملك وكونت يافا

نزل خلال هذه الفترة ذاتها شــخص يدعى يوحنا ، وكان رجــلا واسع الثقافة وكاردينالا راهبا في كنيسة روما بلقب القديسين يوحنا وبولص ، نزل في جبيل مع بعض الجنويين . وكان البابا الكسندر قد أرسله إلى بلدان الشرق كممثل للبابا ، ونظرا لرغبتــه بــالحصول على إذن لدخول المنطقة كممثل للبابا ، فقد جهد في سبيل تحقيق رضى الملك وأمراء المملكة المدنيين والدينيين بخصوص قدومه إليهم ، فقــد كان هناك ــ كما ذكرنا من قبل ــ شقاق شمل الناس بأسرهم فقــد كان بعضهم يؤيد البابا الكسندر ، وآخرون ضده ويشكلون الطــرف الآخر ، وبعدما درست المسألة دراسة مطولة صــدرت الأوامــر إلى الممثل الباباوي بالبقاء لبــرهة مــن الزمــن في جبيل ، وكان عليه الا يغامر بدخول المملكة حتى يكون رجالات الكنيسة وأمراء المملكة قــد درسوا المسألة بشكل أكثر عمقا ومن ثم كان سيبلغ عما ســيرضيهم حول هذه المسألة .

وبناء عليه جرى استدعاء البطريرك وجميع رجــالات الكنيســة الآخرين في الكنيسة إلى الناصرة حيث بــدأوا يتبــاحثون مــع الملك وبعض النبلاء وأيضا بدراسة المنحى الذي سيتبعونه في وضع صعب كهذا ، لأنه بينما حافظ جميع مطارنة الشرق في البــطريركتين على الحياد علانية ، كأفراد منعزلين ، أيد بعضهم أحد الأطراف بصورة سرية ، وأيد بعضهم الآخر الطرف الثاني .

وكما هو مألوف في ظروف كهذه لم يستطيعوا الاتفاق وسيطرت عليهم رغباتهم وقادتهم في اتجــاهات عديدة فقــد أعلن بعضــهم أنه ينبغي الاعتراف بألكسندر واســتقبال ممثله لكونه يمثــل القضـية

الأفضـل ، وكان المؤيد الرئيسي لهـذا الرأي بـطرس ، ذو الذكرى الطيبة في الرب ، وكان مـن قبلنا رئيسـا لأسـاقفة صـور ، وعلى العكس فضل آخرون فيكتور على أساس أنه كان على الدوام صديقا للمملكة وحاميا لها ، وأكد هذا الفريق الثاني أنه يجب عدم استقبال الممثل البابـاوي مهما تكن الظروف .

وأشار الملك بتبني طـريق وسـط وعدم اسـتقبال أي مـن الطرفين ، وقد أيده في ذلك بعض النبلاء وأصحاب المقامات الرفيعـة في الكنيسة ، فقد خشي من نشوب نزاع بين الأسـاقفة قـد يسـبب انقساما في الكنيسة ، وقـرر الملك أنه يجـب إعطـاء الاذن للممثل البابـاوي بالقدوم كحاج إلى الأماكن المقدسة لاقامة الصلاة ، إذا ما رغب بذلك ، وتخلى عن حقوقه الرسمية ومناصبه الرفيعة ، ومنحـه الحرية للاقامة في المملكة حتى موعد الرحلة البحـرية الأولى ، حيث يجب أن يعود إلى بلاده عند حلول موعد هـذه الرحلة ، وقـدم الملك سببا لقراره هذا على النحو التالي : « إن تاريخ الشـقاق حـديث ، ولايعرف الناس حتى الآن من من الطرفين عنده القضية الأقـوى ، ومن الخطر في مسألة مريبة كهذه تبني موقف مستقل والتجرؤ على الاعلان مقدما عن قرار محدد ، بينمـا مـاتزال النتيجـة مبهمـة ، وعلاوة على ذلك لاتوجد أية حاجة لممثل بـاباوي في المملكة لارهـاق الكنائس والأديرة بنفقات ولاضعافها بالابتزازات .

كان هذا هو رأي الملك ، وبدا أنه معقول للغاية ، ومع ذلك ، فقد ساد رأي الطرف الذي أصر على أنه يجب استقبال الممثل البابـاوي ، وهكذا ، وجهت له الدعوة إلى دخول المملكة ، وثبـت فيمـا بعـد أنه عبء ثقيل بالنسبة للعديد من الذين كانوا قد وافقـوا على اسـتقباله (١٦٥).

في هذه الاونة رزق عموري كونت يافا وزوجته اغنيس ابنة كونت الرها بغلام . واستقبل الملـك ، تلبية لمطلب الاب ، الطفـل في جـرن التعميد ومنحه اسمه ، وعندما سئل بـدعابة عن الشيء الذي سـوف

يمنحه لابن اخيه ، الابن الذي استقبله في جرن التعميد المقدس ، اجاب بلدوين بمرحه المألوف وبطريقته الدمثة : « سأمنحه مملكة القدس » . فأثرت هذه الملاحظة تأثيرا عميقا في قلوب الرجال الحكماء الذين سمعوها لأنها بدت لهم بأنها نبوءة مشؤومة وان الملك سيموت دون ان ينجب اطفالا على الرغم من شبابه وشباب زوجته ، الامر الذي ثبت بمرور الزمن انه كان كذلك(١٦٦)

٣٠ ـ اهالي انطاكية يستدعون الملك ، فيسرع الى هناك . وصول رسل امبراطوريين لطلب احدى قريبات الملك كزوجة لحاكمهم .

حرم اسر الامير ارناط اقليم انطاكية من تأييد القائد له ، واستولى الخوف والقلق على اهالي تلك المنطقة من جديد ، فقد انتظروا بترقب مضني من يوم لاخر خراب المنطقة ما لم يصبح الرب بالمصادفة مدافعا عنهم ، وصمموا في اخر الامر ان يلجأوا الى مصدرهم المألوف للمساعدة والتماس العون ضد الشرور التي كانت تهددهم وذلك بمناشدة الشخص الذي طالما توسلوا اليه وكان يلبي التماسهم على الدوام ، وبناء عليه جرى ارسال وفد ليتوسل الى ملك القدس بالدموع والدعوات ليقدم بدون تاخير لمساعدة شعب بائس ، شعب كان على وشك الهلاك ، حيث يمكنه بذلك ان يحقق لنفسه المجد والشهرة في نظر الجنود ، ويفوز بثواب ابدي من الرب .

تحركت الشفقة العميقة لدى الملك ازاء المتاعب التي كان يعاني ذلك الشعب منها بعدما علم بالوضع اليائس في انطاكية ، وتولى ـ متبعا قدوة اسلافه ـ القيام باخلاص بالمهمة ، واسرع الى انطاكية بصحبة مرافقة مهيبة من الفرسان ، حيث استقبل ببهجة بالغة وسرور عظيم من قبل القادة والناس ، وبقي في انطاكية بقدر ما تطلبت مقتضيات الزمان والمكان ، وابدى عناية مثلى بامور الامارة وكأنها امور تتعلق به ، ثم عهد بحكم المنطقة الى البطريرك

بشكل مؤقت حتى يتمكن بنفسه من العودة ، وبعدما رتب الامور لتأييد الاميرة كما كان يليق بمنزلتها ، عاد الى المملكة حيث تطلبت عدة امور وجوده .

وبعد عودته وصل مبعوثون ونبلاء من منزلة عالية وشهرة كبيرة في القصر المقدس ،قادمين من عند امبراطور القسطنطينية ، وكانوا حملة رسالة ذات ختم ذهبي ورسائل خاصة للملك ايضا ، وكان قائد السفارة هو كونتو ستيفانوس اللامع ، احد اقرباء الامبراطور ، وكان الاخر هو المترجم الاول في القصر واسمه ثيوفلاكت(١٦٧)وكان رجلا داهية ومتحمسا جدا لاجل المصالح الامبراطورية . وكما قلنا كان هذان المبعوثان يحملان رسائل مقدسة فحواها بشكل اساسي على الشكل التالي : « تعرف يا أعز الاصدقاء ، والحبيب العزيز لامبراطوريتنا ان زوجتنا ايريني الشهيرة ذات الذكرى العزيزة في الرب قد توفيت وانتقلت روحها لتقيم مع ارواح النخبة من الناس ، وخلفت لنا ابنة وحيدة كوريثة للامبراطورية ، وبما اننا لم ننجب اي مولود ذكر ، فاننا ممتلئون بالقلق حول الخلافة ، وعقدنا مرارا تداولا جادا مع اشهر نبلاء القصر بخصوص اجراء زواج ثان ، وتقرر في آخر الامر ، بموافقة جميع امرائنا ومصادقتهم انه يستحسن ان ناخذ زوجة امبراطورة لنا سيدة من نسبكم حيث تخصكم من بين جميع امبراطوريتنا باعمق الحب ، كما اننا سنتقبل ايا من قريباتكم تختارونها لنا ، سواء اكانت اختا لكونت طرابلس اللامع ، او كانت الاخت الصغرى لامير انطاكية الرائع ، وكلنا ثقة تامة باخلاصكم واختياركم زوجة لنا ورفيقة امبراطورية بمشيئة الرب » .

عندما ابلغ المبعوثان الملك بغرض الامبراطور بوساطة الرسالة وشفويا وعد بالمساعدة والطاعة وشكر بجدية بالغة جلالته الامبراطورية :أولا لانه اقترح ان يتحالف معه في مركز رفيع كهذا بوساطة احدى قريباته ، وثانيا بسبب اعترافه باخلاص بلدوين

حيث ترك له وحده مسألة اختيار العروس المستقبلية والزوجة الامبراطورية .

٣١ ـ الملك يختار الفتاة اللامعة ميليساند اخت كونت طرابلس لتكون عروسا للامبراطور ، لكن بعد عام من التأجيل تخلى الامبراطور عما اختاره الملك ، وتزوج ماريا ابنة الأمير ريموند.

وبعدما تداول الملك مع مستشاريه بخصوص التحالف الذي سيكون مرغوبا جدا بالنسبة لمصالحه الخاصة ولمصالح جلالة الامبراطور استدعى رسل الامبراطور ووجههم بأقوال مقنعة ان يأخذوا ميليساند اخت كونت طرابلس وكانت فتاة ذات اخلاق رفيعة ومقدرة كبيرة ، كزوجة لحاكمهم الامبراطور ، فتقبل الرسل رسالة الملك باجلال لائق وقدموا موافقتهم ، بيد انهم طلبوا ترك اعلان القرار للامبراطور بوساطة الرسل والرسائل .

في هذه الاثناء جهزت والدة الفتاة وخالها واختها وعدد كبير من اصدقاء الفتاة التي اختيرت لهذا المنصب المجد مجموعة ضخمة من الزينات تفوق زينة الاسرة الملكية نفسها ، وبنفقة غير محدودة وقد اشتملت على اساور واقراط وقلائد وتيجان من الذهب الخالص ، واعدت اوان فضية ذات وزن وحجم كبيرين لتستخدم في المطبخ ، والمائدة والمرحاض ، اضافة الى اللجامات والاسرجة ـ وبالاختصار ، فقد جهزت جميع انواع الاثاث . واعدت جميع هذه الاشياء بنفقة ضخمة وبحماسة كبيرة ، وكانت الطريقة التي صنعت بها هذه الاشياء وحدها دليلا على قيمتها الكبيرة جدا ، وفاقت بسهولة بذخ الملك وتقصي الاغريق خلال هذا الوقت بدقة جميع تفاصيل حياة الفتاة ، واستفسروا عن سلوكها واحوالها حتى انهم استوضحوا عن الصفات الجسدية السرية

للغاية ، وكانوا اثناء انتظار عودتهم على اتصال مستمر مع الامبراطور ، وهكذا انقضى عام كامل .

سخط الملك والبلاط مع بقية الاقارب والاصدقاء بشكل كثير ازاء هذا التاخير ، واستدعوا الرسولين الامبراطوريين علنا واعلنوا انذارا كان مفاده انه يجب عليهم اما ان يرفضا الزواج الذي رتبت اموره منذ زمن طويل ويعوضا الاموال المنفقة ، او ان يتوقفا عن تلفيق اسباب تاخير يتعذر تفسيرها وانهاء المسالة باكمال الزواج حسب الشروط المتفق عليها اصلا ، فقد كان الكونت قد انفق نفقات كبيرة ، حيث كان قد امر ببناء عشرة من الشواني وجهزها تجهيزا تاما ، لانه عقد العزم على مرافقة اخته الى زوجها . واضافة لذلك كان جميع النبلاء الاكثر اهمية في الامارة قد اتوا الى طرابلس بانتظار رحيل السيدة المقترب ، وكان الكونت يتحمل بسبب هؤلاء الضيوف النفقات الضرورية بشكل تام او جزئي .

هذا وقدم الاغريق كما هي العادة اجابات مراوغة ، وحاولوا اطالة المسالة لفترة اطول ايضا ، ولكي يحبط الملك خططهم المراوغة ، ارسل اوتو اوف ريسبيرغ كمبعوث خاص الى القسطنطينية ، وقد خوله في ان يقدم مطلبا لائقا في ان يحصل لكونه مندوبا على معرفة كاملة بالنوايا الحقيقية للامبراطور بدون مواربة . وعاد المندوب بشكل اسرع مما كان يتوقع ان يصل فيه ، وجلب كتابا من الامبراطور ورسائل افادت ان كل ما كان قد تم تنفيذه بخصوص هذا الزواج لم يكن مرضيا لسموه الامبراطوري على الاطلاق .

عندما تلقى الملك هذه الانباء انسحب من المفاوضات ، لان زواجا ، كان قد رتب عن طريق وساطته ، وانجز بمشاركة كبيرة منه ، ثم لم يحقق شيئا ، بدا بالنسبة له امرا مهينا للغاية ، وسينعكس بدون ريب بشكل سلبي عليه نفسه .

رحل المندوبان الامبراطوريان بقارب صغير صادف ان وجداه

جاهزا ، وتوجها الى قبرص لانهمـا خـافا مـن ان يصـب كونت طرابلس جام غضبه عليهما .

ذهب الملك الى انطاكية فور رحيل مجموعة النبـلاء المجتمعين في طرابلس ، حيث كان قد اخذ على عاتقه القيام بمسـؤولية الامـارة تلبية للتوسل الجاد لشعب تلك المدينة ، كما ذكرنا سـابقا ، ووجـد لدى وصوله الى هناك مندوبي الامبراطور نفسيهما اللذين كان يعتقد بانهما غادرا طرابلس متـوجهين الى وطنهمـا(١٦٨). وكانا يعقـدان بشكل مداولات ودية مع الاميرة حول ابنتها الاخرى ماريا ، وعلاوة على ذلك ، كان بحوزتهما رسـائل مختـومة بـالذهب بحضـور الامبراطور كان قد ضمن فيها المصادقة على اي اتفاق يتوصلان اليه مع الاميرة واصدقائها حول موضوع هـذا الزواج ، وابلغ الملك لدى وصوله على الفور بهذه المفاوضات . وكان قد اهين كثيرا بخصوص المسالة السابقة لدرجة كان مـن المسـوغ له ان يرفض حشر نفسـه بالتدخل لمصلحة الامبراطور في المسالة الحالية ، ومـع ذلك وبـدافع الاحترام لقريبته اليتيمة ، التي كانت تفتقر الى اب يحميهـا ، فقـد تولى القيام بذلك الدور ونجـح في تـرتيب الزواج بعـد تـاخيرات كثيرة(١٦٩)

وجهزت الشواني بعد انتهاء المسـالة ، في مـوقع يسـمى ميناء القدس سيمون (السويدية) الواقـع عند مصب نهـر العـاصي ، وسلمت الفتاة الى المبعوثين ، وبدات رحلتها بمرافقة مـوكب مهيب من اعظم نبلاء المنطقة الذين توجب عليهم اصطحابها الى زوجها .

- ٣٢٠٧ -

٣٢ ـ الملك يعيد بناء حصن واقع على مقربة من انطاكية يدعى جسر الحديد . موت والدته الملكة ميليساند .

بينما كان الملك مقيما في انطاكية ، ولكي يجعل وجوده هناك مفيدا للمنطقة ، اعاد بناء قلعة كانت مشيدة فيما مضى عند احد الجسور فوق نهر العاصي ، وكانت تعرف عموما باسم جسر الحديد ، وكانت هذه القلعة الواقعة على بعد ستة او سبعة اميال عن مدينة انطاكية . ذات نفع كبير لمنع وقوع الغارات المعادية ، وخدمت أيضا كعائق ضد المدخل السري لقطاع الطرق .

بينما كان الملك منشغلا بهذا الشكل بأمور الامارة ، توفيت والدته الورعة بعدما أنهكتها المعاناة المستمرة من مرض مزمن ، وحدثت وفاتها في الحادي عشر من شهر ايلول ، واستسلم الملك للحزن عندما تلقى نبأ وفاة والدته ، وأظهر عمق عاطفته وتأثره عليها بشكل واضح الدرجة التي كان يحبها فيها باخلاص ، ولقد بقي في الواقع حزينا بعد ذلك لأيام عديدة .

دفنت الملكة ميليساند ، ذات الذكرى الرائعة ، والتي ستقيم من الآن فصاعدا مع الحشد السماوي ، في وادي يهو شفاط على يمين النازل الى قبر مريم العذراء الطاهرة والمباركة والدة ربنا ، وترقد جثتها في سرداب حجري له بوابات حديدية ، ويقع بالقرب منه أحد المذابح حيث يحتفل يوميا بالقداس لراحة روحها وارواح جميع المسيحيين الذين ماتوا في الرب(١٧٠)

٣٣ــ كونت طرابلس الساخط إزاء رفض شقيقته يسعى لالحاق الأذى بالامبراطور بكل وسيلة ممكنة .

امتلأ في هذه الأثناء قلب كونت طرابلس بحزن وغضب بسبب السخرية التي تعرض لها من الامبراطور الذي رفض في النهاية قبول اخته دونما أي سبب ، وكأنها ابنة شخص عادي ، وبعد أن تحمل الكونت نفقة ضخمة جدا ، وتنهد الكونت وتأوه بشكل عميق عندما فكر بقلق وعمق حول وسائل للانتقام من الامبراطور بطريقة مشابهة و رد الصاع بالصاع ، و على الرغم من أنه أدرك في غمرة تأملاته أن الامبراطور كان أقوى ملك على الارض ، وأن قوته لم تكن كافية أبدا ليلحق به أي ضرر ، فقد دفعه الاستياء الى اتخاذ عمل ما ، وخشية أن يبدو غير مكترث او متناس الاساءة التي لحقت به ، امر بتسليح الشواني التي كان قد اعدها لغرض آخر . ثم استدعى القراصنة والمجرمين المتهورين ، والذين كانوا رجالا ارتكبوا اكثر الجرائم بشاعة ، وعهد اليهم بالمسؤولية عن السفن وأمرهم بتخريب مناطق الامبراطور بدون رحمة . وأمرهم بأن لايستثنوا العمر أو الجنس أو الوضع ، وتوجب عليهم أن يحرقوا كل شيء دونما تمييز بما في تلك الكنائس والأديرة ، وتنفيذ أعمال السلب والنهب في كل مكان ، وليتذكروا دوما أنهم كانوا يستخدمون السلاح والقوة في سبيل قضية عادلة .

وابحر القراصنة والمجرمون على ظهر البحر إطاعة لأمره ، وطافوا في ممالك الامبراطور ، ونفذوا أوامر الكونت بحذافيرها في الجزر وفي المناطق المجاورة الواقعة على البحر ، فقد نهبوا في جميع الجهات واحرقوا وقتلوا ، وانتهكوا حرمة الكنائس واقتحموا الأديرة دون احترام للأماكن المقدسة ، وسلبوا أموال الحجاج المسافرين اثناء رحلاتهم من والى الأماكن المقدسة ، ودفعوهم الى الموت بهذا الشكل ، أو جعلوهم يطلبون حياتهم وهم معوزون وعراة يعيشون على التسول ، واستولوا على

سلع التجار المسافرين الذين كانوا يكسبون أسباب الرزق لزوجاتهم وأطفالهم بتلك الطريقة واجبروهم على العودة الى وطنهم فـارغي الوفاض بعدما فقدوا راس المال والأرباح (١٧١)

٣٤ـ دس السم للملك في أنطاكية . وقوعه بسبب ذلك بمـرضه الأخير وتـوسله أن ينقـل الى الوطن . تفاقم المرض أثناء الرحلة وموته في بيروت .

في الوقت الذي كان فيه كونت طرابلس منشغلا بهـذا الشـكل في رغبته بالانتقام كان الملك مـوجودا في أنطـاكية راغبـا بـالمعالجة والاستراحة قبل اقتراب فصـل الشـتاء ، كمـا كان معتـادا على ذلك ، وقد حصل على بعض الأقـراص مـن بـرق ، طبيب الكونت، وتوجب عليه أن يتناول قسما منها على الفور ، وتناول البقية بعد مضي فترة قصيرة . لان امراءنا الشرقيين كانوا يحتقرون ، بسبب نفوذ نسائهم ، ادوية ومعالجات أطبائنا اللاتينيين ، ولايصدقون سوى الاطباء اليهود والسامريين والسريان والمسلمين (١٧٢) ، فلقد وضعوا انفسهم بطريقة طـائشة للغـاية تحـت عناية أطبـاء كهؤلاء ، وعهدوا بأرواحهم لأناس جاهلين بعلم الطب ، واشيع أن هذه الأقراص كانت مسـمومة ، وربمـا كانت هـذه هـي الحقيقة ، وعلى اية حال ، عندمـا وضـع بـاقي الدواء في خبـز في طرابلس فيما بعد ، واعطى كتجربة الى احد الكلاب ، تـوفي الكلب نتيجة ذلك في غضـون ايام قليلة ، ولقـد اصـيب الملك فـور تناوله الاقراص بحمى واسهال تطورا الى مرض سل لم يتمكن ابـدا مـن الحصول على النجدة أو المساعدة للشفاء منه ، وبعـدما ادرك الملك ان شدة معاناته من المرض كانت تـزداد غادر انطـاكية وذهـب الى طرابلس ، وتمدد هنالك لبضعة شهور املا بالتحسن من يوم لآخـر وبعدما تيقن في آخر الامر أن مرضه كان يتفاقم و أن الشفاء كان مستحيلا ، أمر بنقله الى بيروت وأمر باستدعاء مـطارنة الكنيسـة

ونبلاء المملكة بسرعة ، واعترف أمامهم جميعا بعقيدة تقوى واخلاص ، واعترف بروح متواضعة ونادمة بجميع ذنوبه الى الكهنة ، ثم فارقت روحه ورحلت الى السماء لتستلم هناك بإرادة الرب التاج الذي لايزول أبدا مع مجموعة النخبة من الناس .

توفي الملك بلدوين في العاشر من شهر شباط في العام ١١٦٢ من تجسيد ربنا ، وفي العام العشرين من حكمه والثالث والثلاثين من عمره (١٧٣) ، وكان اخوه وريثا للعرش لأنه لم ينجب ، ونقلت جثته وسط حداد شامل الى القدس بالتبجيل وبمراسم ملكية ، وقابل رجال الدين وجميع الناس الموكب الجنائزي الذي اقتيد الى كنيسة قبر المسيح ودفن بمهابة هناك بين أسلافه أمام موقع الجلجلة حيث صلب الرب من اجل خلاصنا .

لايوجد اي سجل في أي تاريخ ، كما لايتذكر أي رجل باق الآن على قيد الحياة ، ان حزنا حادا وعميقا كهذا قد شهر به أبدا على وفاة اي ملك آخر من شعبنا أو من شعوب أخرى ، فبالاضافة الى مظاهر الحزن والحداد التي أظهرها سكان المدن التي مر موكب الجنازة الملكي خلالها ، نزل حشد من الكفرة من الجبال وتبعوا موكب جنازة الملك بالعويل .

استمر النواح لمدة ثمانية أيام متتالية بينما انتقل الموكب الجنائزي من بيروت الى القدس ، وتجدد الحزن باستمرار تقريبا ، ويقال انه حزن لموته حتى أعداؤه ، وعندما اقترح على نور الدين أن بإمكانه اجتياح منطقة أعدائه وتخريبها بينما نكون منشغلين بالطقوس الجنائزية ، روي انه أجاب قائلا :«يجب علينا ان نتعاطف مع حزنهم وأن نظهر لهم شفقة لأنهم فقدوا أميرا لايوجد مثله في باقي أنحاء العالم اليوم ».

- ٣٢١١ -

وحيث نأتي الى ختام هذا الباب المدون لاعمال هذا الملك ، فــاننا نتوجه ايضا بالدعاء أن تنعم روحه براحة مقدسة مع أرواح صــفوة القديسين آمين.

انتهى هنا الكتاب الثامن عشر

الكتاب التاسع عشر

عموري الأول :الصراع على مصر . المرحلة الأولى

١ ـ عموري يخلف اخاه بلدوين على العرش

توفي الملك بلدوين الثالث ، الملك اللاتيني الرابع للقدس دون أن يخلف أطفالا ، كما ذكرنا ذلك من قبل فخلفه في المدينة المقدسة أخوه الوحيد عموري كونت يافا وعسقلان . وأصبح عموري الملك اللاتيني الخامس في العام ١١٦٣ لتجسيد ربنا وفي العام الثاني والستين من تحرير تلك المدينة ذاتها ، حبيبة الرب (١٧٤) ، وكان الكسندر رئيسا للكنيسة الرومانية المقدسة في هذا الوقت ، أي في العام الرابع لتوليه منصب الحبرية ، وكان أما لرخ البطريرك التاسع للاتين يحكم كنيسة القيامة المقدسة في العام الرابع من توليه منصب البطريركية ، وكان ايمري يراس كنيسة أنطاكية والبطريرك الثالث للاتينيين في تلك المدينة ذاتها وفي العام العشرين من توليه لمنصبه ، وكانت الكنيسة في مدينة صور خاضعة لبطرس رئيس الأساقفة الثالث للاتينيين بعد الاستيلاء على المدينة ، وكان في العام الثالث عشر لتوليه منصبه .

وكانت عملية اعتلاء العرش بعد وفاة بلدوين متزامنة مع حدوث كثير من النزاعات بين نبلاء المملكة الذين كانوا يتأثرون بشكل متفاوت بتغيير الملوك ، وبالفعل ، فقد اقترب هذا النزاع من إحداث شجار خطير حمل في طياته خطر حدوث شقاق ، ومن حسن الحظ ، كانت معنا العناية السماوية التي تعرف كيف تطبق العلاجات المناسبة في أخطر الازمات ، فقد كان رجال الدين والناس وعدد قليل من رجال المملكة العظماء يؤيدون عموري بقوة ، وهكذا

أخفقت بسرعة الجهود التي بذلها النبلاء الساخطون ، واعتلى عموري عرش المملكة الذي آل اليه بموجب الحق الوراثي وذلك في الثامن عشر من شهر شباط الذي كان اليوم الثامن بعد وفاة أخيه الملك بلدوين ، وتلقى في كنيسة قبر الرب هبة المسح بالزيت الملكي على يد البطريرك بمساعدة رؤساء الأساقفة والأساقفة وجميع رجالات الكنيسة المجتمعين ، ومنح شارة التاج ، وكان قد عين كونتا ليافا عندما كان قد أصبح فارسا وحمل السلاح ، ثم منحه فيما بعد أخوه بلدوين ، ذو الذكرى اللامعة ، مدينة عسقلان بسخاء ملكي فقد كان قد تم الاستيلاء على حاضرة الفلسطينيين هذه في عهد بلدوين وهكذا أعيدت الى العقيدة المسيحية بعد مضي فترة طويلة ، حسبما تم تبيان ذلك بتفصيل كثير عندما أتينا على ذكر أحداث فترة حكم بلدوين ، وكان عموري في السابعة والعشرين من عمره عندما ارتقى العرش ، وقد حكم أحد عشر عاما وخمسة أشهر (١٧٥) .

٢ـ سمات الملك عموري مع بعض الملاحظات حول حياته وعاداته .

كان عموري رجلا صاحب حكمة وتعقل ، وكان متمكنا بشكل جيد من الأمور المدنية . وكان لديه عائق بسيط في حديثه الا أنه لم يكن خطيرا جدا ليعد عيبا ، لكنه كان كافيا ليجعله غير مؤهل للفصاحة السريعة . وكان في الراي أفضل بكثير مما هو في الكلام الفصيح أو المزخرف ، وكان بارعا تماما في القانون المألوف الذي كانت المملكة تحكم بواسطته وفي الحقيقة لم يكن هنالك مثيل له في هذا الصدد ، فقد فاق جميع نبلاء المملكة في حدة الذكاء والفطنة المنطقية ، وعالج بقوة وحكمة الأزمات المتكررة التي نشأت خلال أعماله النشيطة والمستمرة في سبيل توسيع رقعة المملكة . وحافظ باستمرار على موقف شجاع ممزوج بحزم ملكي ، وكان متعلما بشكل جيد بعض الشيء ، الا أنه كان أقل بكثير من أخيه ، لكنه كان

بفضل ذكائه الحاد وذاكرته القوية قادرا على استيعاب القضايا التي تكون عادة مهمة للملوك بشكل جيد وكاف ، وساعدته في هذا المجال عادته في طرح الأسئلة بشكل مستمر ، وبالقراءة كلما سمحت له امور المملكة بالحصول على فراغ ، وأبدى مهارة كبيرة في طرح اسئلة كان يجد في البحث عن حلول لها ، واستمع الى التاريخ بتلهف ، وكان يفضله على جميع انواع القراءة الأخرى (١٧٦) ، ولم ينس اذا كان سمعه ، وكان يتذكره بعد ذلك بسهولة ودقة ، واستحوذت المسائل العامة على انتباهه بالكامل ، ولم يهتم ابدا بالممثلين او العاب الحظ ، وكان يستمتع كثيرا في مراقبة طيران الصقور وطيور مالك الحزين في مطاردتها للفرائس ، وكان يتحمل المشقات بصبر ، وكان يعاني من إزعاج قليل من الحرارة والبرد لانه كان يميل الى البدانة لابل كان في الحقيقة بدينا جدا .

كان ورعا بحيث امر بإعطاء العشر بأكمله ودون نزاع الى الكنيسة ، وكان يستمع بورع الى القداس كل يوم ما لم يمنعه عن ذلك المرض او اي طارىء آخر ، وتحمل برباطة جأش الشتائم والسباب التي قذف بها مرارا وبشكل علني وسري على حد سواء حتى من قبل الأشخاص الوضعاء والمحتقرين ، وكان يخفي مشاعره تماما بحيث كان يبدو وكأنه لم يسمع العبارات التي قيلت (١٧٧) ، وكان معتدلا في تناول الطعام والشراب على حد سواء لانه كان يحتقر الافراط في كلا الامرين ، ويقال انه وضع ثقة كبيرة في وكلائه الى درجة انه لم يطلب منهم اي عرض او تصفية حساب بعد ما عهد اليهم بالمسؤولية عن اموره ، ورفض الاصغاء الى الدس ضد اخلاصهم ، وقد عد بعض الناس هذه الصفة نقيصة ، بينما عدها آخرون فضيلة وقالوا انها كانت برهانا على الثقة الاصلية.

ونجمت عن هذه المواهب العقلية والشخصية البارزة بعض المصائب الواضحة فالقت بظلالها بعض الشيء على السمات الجيدة الموصوفة منذ لحظات ، فقد كان يفتقر الى مزاج انيس ، وكان

مسموتا جدا ، ولم تكن لديه تلك الدماثة واللباقة التي يحتاجها الامراء أكثر من الاشخاص الآخرين لكسب عواطف رعاياهم ، ونادرا ماكان يتكلم مع أحد ، مالم تجبره الظروف على ذلك ، أو مالم يجر ازعاجه بالمصادفة بتوجيه الكلام اليه أولا ، وكان هذا العيب اكثر لفتا للانتباه لان أخاه بلدوين كان دوما على استعداد للتفوه بأقوال سارة ، وكان دمثا للغاية بالنسبة للجميع (١٧٨)

ويقال إن عموري قد انغمس في اقتراف الفواحش الجسدية بدون تحفظ ، وأنه أغوى النسوة المتزوجات ، الأمر الذي نرجو ان يغفره له الرب برحمته ! وعلاوة على ذلك ، كان خصما شديدا لحرية الكنائس ، فقد حولها خلال فترة حكمه الى مرحلة الارباك وذلك بإثقال أوقافها بمطالب متكررة ، وهكذا وضع على كاهل الأماكن المقدسة دينا فاق بكثير نطاق عائداتها (١٧٩)

كان جشعه للمال أكثر مما كان لائقا أو جديرا بملك ، وكان يحصل عليه باستخدام حر للهبات ، واستبقاه مرارا لنفسه بشكل يخالف تماما متطلبات العدالة الصارمة والحق . وحاول في حديثه العادي معي أن يسوغ سلوكه الجشع بتقديم الأسباب التالية :« ينبغي على كل أمير ، وقبل كل شيء على كل ملك أن يدرك أنه لن يكون قط واقعا في أزمة شديدة ، وذلك لسببين : أولهما أن ثروة الرعايا تبقى دوما سالمة عندما لايكون الحاكم محتاجا ، وثانيهما أن تتوفر تحت تصرفه موارد كافية يتزود منها باحتياجات مملكته كلما برزت حاجة ملحة مفاجئة ، ويجب على الملك الحكيم في حالة كهذه أن يكون سخيا جدا وأن لايوفر أية نفقة ، وبهذا يتضح أنه مهما كان عنده من أموال فهو لايمتلكها لنفعته ، بل لمصلحة المملكة ».

ولم يستطع حتى الذين كانوا يكرهون الملك ، أن ينكروا أن هذه

الأسباب تنطبق على حالته . لأنه لم يوفر أية نفقة عندمـــا تعـــرضت المملكة لضائقات خطيرة ، ولم يعقــه الاجهـــاد الجســـدي . غير أن ثروة رعاياه كانت بعيدة عن الصون ، لأنه استفاد مـــرارا وتـــكرارا من أكثر الذرائع تفاهة للقيام بانتهاكات خطيرة على مواريثهم .

٣ ـ الحديث عن صفاته الجسدية وعن مسألة محددة عرضها على أحد أصدقائه ليحلها .

كان عموري طويلا بشكل مناسب ووسيما . فقد كان أطول من كثيرين مع أنه كان أقصر من ذوي القوام المشـــوق للغـــاية ، كانت ملامحه وسيمة ، وأظهرت مشيته ـ حتـــى الى الغـــرباء ـ ســـمو الأمير الذي تـــوجب تـــوقيره وكانت عيناه متـــلألئتين وذات حجـــم متوسط ، وكان أنفه معقوفا بشكل غير مناسب كأنف أخيه ، وكان شعره أشـــقر اللون ، وكان ناميا ومتـــدليا الى الخلف بعض الشيء انطـــلاقا مـــن جبينه ، وكانت تغـــطي وجنتيه وذقنه لحية كثيفـــة وجميلة ، وكان يضحك بطريقة مفرطة حتى كان جسده يهتز بأسره عندما كان يضحك ، وكان يحب التحادث مع رجال حـــكماء وعقـــلاء ومـــع الذين كانوا مـــطلعين على البلدان البعيدة والعـــــادات الغريبة (١٨٠)

واتذكر انه استدعاني ذات مرة بطريقة ودية الى قلعة صور بينما كان هناك يعاني من حمى خفيفة لم تكن مرفوقة بالخطر ، وتحـــدثت معه بشكل حميم حول موضوعات كثيرة خلال ساعات الراحة وخلال النوبات التي تحدث في أمراض الحمى المتقطعة ، وأجبـــت عن بعض اسئلته بقدر ما سمح بذلك ، ولقد تحســـن بفضـــل المحـــادثة التـــي اجراها معي .

كان من بين الاسئلة التي طرحها علي في ذلك الوقت سؤال أثارني غاية الاثارة لأن الســـؤال كان غريبـــا ، وكان مـــوضوعه لايســـمح

بمناقشته الا بصعوبة لان عقيدتنا الشاملة كانت تلقنه ، ونقلته كما يليق بالاعتقاد الصادق ، وثانيا لان فؤادي قد تأثر بعمق من أن ملكا ارثوذكسياً ، سليل أسلاف ارثوذكس يمكن أن يضمر شكا بخصوص عقيدة ثابتة وأن يستفسر عنها في أعماق فؤاده .

وبالاختصار ، لقد سألني عما اذا كانت هنالك آية طريقة لاثبات، وبدليل موثوق وجدير بالاعتماد عليه بأن هنالك قيامة مستقبلية خارج تعاليم المنقذ والرجال المقدسين الذين آمنوا بالمسيح ، وهي عقائد لم يرتب بصحتها ؟ وحيث أثارتني غرابة هذا السؤال فقد اجبت : إن تعاليم ربنا ومنقذنا كافية لأن يبشر بوضوح في مقاطع كثيرة من الانجيل بالقيامة المستقبلية للجسد ، ووعد أنه سيأتي كقاض ليحكم الفناء والموت والعالم بالنار ، وقد قال للنخبة إنه سيقدم لهم مملكة معدة من أساس العالم ، الا أن الأشرار سيودعون النار الأبدية المعدة للشيطان وجنوده ويكفي الايمان بالحواريين المقدسين وبرسل العهد القديم .

اجاب على هذا قائلا :« إنني أومن بكل هذا بيقين ، لكنني أبحث عن سبب حيث يمكن إثبات هذا لأمرىء يرتاب بصحة هذه الأشياء ، ولايقبل عقيدة المسيح ويؤمن بقيامة مستقبلية وأن هنالك حياة أخرى بعد هذه الوفاة ».

فأجبت قائلا :« إذا ضع نفسك في موضع رجل متألم جدا ولنحاول أن نتحقق من شيء ما حول هذه المسألة : فقال لي :« حسنا » ثم سألته : « هل تعترف بأن الله عادل » وأجاب :« أعترف انه لايوجد شيء أصدق من هذا ». فقلت له :« من العدل أيضا أن يكافأ الطيب بالطيب . والشر بالشر ؟ » فأجاب « ذلك صحيح » فقلت:« إن ذلك لايحدث كثيرا في هذه الحياة ، حيث لايعاني بعض الناس الطيبين الا من المتاعب والحظ العاثر في هذه الحياة ، بينما ينعم الكثير من الاشخاص

الاشرار بسعادة متواصلة كما يعلمنا ذلك الدليل من الحياة اليومية » فأجاب من جديد : « إن الأمر كذلك » فأكملت حديثي قائلا :« إذن فإن ذلك سيحدث في حياة أخرى لأن من المستحيل أن لايتصرف الله بعدل . فلذلك ستكون هنالك حياة أخرى وقيامة لهذا الجسد حيث يجب على جميع الذين كانوا يستحقون الخير أو الشر في هذه الحياة أن يلقوا جزاءهم » . فأجاب على هذا قائلا :« يبدو هذا جيدا بشكل يفوق الحدود بالنسبة لي ، لقد أزلت كل الشك من فؤادي (١٨١) ». فلقد انتعشت روحه كثيرا بهذه المحادثات وبأحاديث مشابهة لكن دعونا نعد الى موضوعنا .

كان عموري بدينا بشكل مفرط وكان له ثديان كثديي المرأة حيث كانا متدليين على صدره . الا ان الطبيعة كانت قد شكلت اعضاءه الاخرى بيد أكثر لطفا ، حيث لم تظهر هذه وسامة عادية فقط ، بل أظهرت جمالا فريدا من نوعه بالفعل ، ولم يتمكن حتى أعداؤه من أن ينكروا أنه كان معتدلا في تغذيته الجسدية وكان معتدلا في تناول الخمر جدا .

٤ ـ رواية كيف اجبر عموري قبل تتويجه على طلاق زوجته التي كان قد اقترن بها خلافا للقوانين المقدسة.

بينما كان بلدوين مايزال منشغلا بنشاط في القضايا البشرية ويحكم المملكة بنجاح ، تزوج أخوه عموري من اغنس ابنة جوسلين الأصغر كونت الرها (١٨٢) ، وكان قد انجب خلال حياة اخيه طفلين منها هما صبي يدعى بلدوين وهو الذي كان عمه قد استقبله في جرن التعميد المقدس ، وابنة كبرى تدعى سبيليا سميت على اسم كونتس فلاندرز أخت بلدوين وعموري .

واجبر عموري على طلاق زوجته بعد وفاة اخيه عندما طالب أن تؤول المملكة اليه بموجب الحق الوراثي ، وكان هذا الزواج قد تم

على الرغم من المعارضة الواضحة للبطريرك فولتشر ، ذي الذكرى المبجلة ، حيث ادعى انهما كانا اقرباء من الدرجة الرابعة من حيث النسب ، وهي حقيقة أعلن عن صحتها فيما بعد وبإجلال أمام الكنيسة اقارب مشتركون لكليهما(١٨٣) . ولذلك فقد أعلن عن الغاء الزواج بموجب ماقضت به القوانين اللاهوتية . وانفسخ الزواج بحضور البطريرك أمالرخ صاحب الذكرى الطيبة ويوحنا الكاردنال ـ الراهب للقديسين يوحنا بولص والممثل البابوي . وشهد اقارب الطرفين على درجة القرابة بينهما باداء أيمان جليلة ، واقسموا أن الحقائق كانت كما ذكرت ، هذا واتخذ شرط قضى باعتبار نسل الاثنين ذرية شرعية ، وأن يكون لهما حق كامل في وراثة ميراث والديهما .

وبما انني كنت قلقا جدا حول مسائل كهذه ، فقد أجريت فيما بعد تحقيقات دقيقة بخصوص درجة القَرابة بين الاثنين ، لأنني لم أكن قد عدت من المدارس في الوقت الذي وقع فيه هذا الحادث في القدس ، بل كنت مازال مقيما فيما وراء البحار ومنشغلاً بدراسة العلوم العقلية ، وعلمت بالحقائق في النهاية عن طريق السيدة ستيفنا راعية دير مريم الكبرى المقدسة (الذي كان يقع قبالة قبر الرب في القدس) وكانت هذه المرأة الورعة والنبيلة النسب وبسبب حياتها الورعة ابنة جوسلين الاكبر كونت الرها وأخت روجر أمير انطاكية وابن رتشارد (١٨٤) ، ومع انها كانت قد طعنت في السن الآن ، فقد تذكرت تفاصيل المسألة تماما وقدمت سلسلة نسب الاثنين على النحو التالي :

كان بلدوين دي بورغ ، الملك الثاني للقدس ، رجلا رائعا في جميع الجوانب (والذي كتبنا مؤخرا عن حياته وعاداته وأعماله السيئة والجيدة على حد سواء عندما كنا نعالج فترة حكمه) وجوسلين الاكبر ابنين لأختين ، وولدت الملكة ميليساند من بلدوين وولد من الملكة ميليساند الملكان بلدوين الثالث

وعموري ، وكما ولد من جوسلين الأكبر جوسلين الاصغر والد الكونتس أغنس التي كانت بالفعل زوجة لعموري ، انما بصورة غير شرعية ، وأخوها هو جوسلين الثالث الذي يعمل الآن قهرمانا للملك وخالا للملك بلدوين الرابع الذي يحكم حاليا (١٨٥) ، بقي عموري اعزب لفترة من الزمن ، لكن اغنس تزوجت على الفور من الرجل اللامع والنبيل هيو اوف ابلين بن بالين الاكبر ، وكان هيو اخا لبلدوين صاحب الرملة ، الذي يحكم الآن تلك المدينة ، وقد توفي اخوه دون ان ينجب اطفالا ، واخا ايضا لبالين الاصغر الذي تزوج من ارملة الملك عموري. وبعد وفاة هيو ، وبينما كان عموري مايزال على قيد الحياة ارتبطت اغنس بروابط الحب بريندو صاحب صيدا ابن جيرارد ، ويقال ان هذا الرباط لم يكن زواجا شرعيا مثل زواجها من الملك عموري . لأن جيرارد ، والد رينو كان قريب قرابة نسب للاثنين ، وهذا أمر مؤكد برواية حلف على صحتها بالنسبة للاثنين ، حسبما سمعها من اسلافه ، وهكذا تلا هذا الزواج الغاء آخر بالطريقة التي وصفتها من قبل .

٥ ـ الملك يهبط نحو مصر . نشوب معركة بينه وبين السلطان ضرغام شاور يستدعي شيركوه الى مصر .ضرغام يرسل المبعوثين الى الملك لطلب السلام .

بعد أن نصب الملك عموري على العرش ، رفض المصريون خلال العام الأول من حكمه ، إن يدفعوا الجزية السنوية حسب الاتفاق الذي كانوا قد عقدوه مع اخيه (١٨٦) ، ولذلك جمع الملك قوة قوية من الفرسان وجيشا ضخما وهبط نحو مصر على رأس حشد ضخم في حوالي الاول من شهر ايلول فخرج اليه ضرغام حاكم تلك المملكة والذي يدعي باسم سلطان بتلك اللغة ، على رأس حشود لاتحصى ، ولم يتردد بمواجهته في الصحراء على هذا الجانب من

مصر ، الا أنه لم يستطع تحمل هجوم المسيحيين ، و أجبر ، بعد أن فقد الجزء الأكبر من جنوده بالأسر أو بالقتل ، على التراجع الى المدينة القريبة والتي تعرف باللغة المصرية باسم بلبيس ، وخشي المصريون الآن من أن يقرر الملك ـ بعدما حقق هذه المآثر ـ قيادة جيوشه الى الأجزاء الأكثر بعداً من المملكة ، ولذلك اقدموا بعدما يئسوا من ايجاد أي علاج لغزواتنا ، على تخريب السدود التي كانت تحتجز الفائض من نهر النيل حتى الفصل المناسب ، وأطلقوا أيضا مياه النهر الفائض آنذاك حسب زيادتها المألوفة ، وأملوا في أن يمنعوا بهذا السدود على الأقل حصول تقدم إضافي لأعدائهم ، وأن يضمنوا سلامتهم بمساعدة المياه المنتشرة في كل مكان.

وهكذا ، عاد الملك منتصرا ومكللا الى مملكته ، بعدما كان قد انتصر على أعدائه ، وانجز حملة ناجحة (١٨٧)

وكان درغام ـ حاكم مصر وسلطانها بأكملها الآن ـ قد طرد قبل وقت قصير من هذه المنصب من قبل حاكم قوي آخر يدعى شاور ونجح شاور(١٨٨)بالنجاة وذهب مع أصدقائه وحاشيته وجميع الكنوز التي استطاع أن ينقلها الى أبناء قبيلته العرب ليلتمس مساعدتهم ، واختبأ هناك بين أهله ، منتظرا كما قيل ما تنجم عنه القضية مع نتائج الحرب ، وكان يرجو أن فرصة مناسبة ستقدم نفسها على الفور حيث سيتمكن من رد الضربة الى خصمه ، ووصلته معلومات حول عودة الملك الى موطنه إضافة الى أخبار افادت أن خصمه ما زال قويا ومتمكنا كحاكم ، وكان درغام قد أصبح با لفعل أكثر غطرسة من ذي قبل ، وتفاخر باختيال بحقيقة انه قد هزم في الحرب زعيما قويا ، وأجبره على الانسحاب دون أن يسبب أضرار كبيرة لمنطقته ، وبناء عليه بادر شاور بالذهاب الى الأمير القوي نور الدين ملك دمشق والتمس مساعدته ورغب في أن يعود الى مصر وأن يطرد خصمه درغام وأن يحصل من جديد على السيطرة على المملكة ، ووافق نور الدين ، فورا على هذا

الاقتراح بعدما أغراه بالهبات والوعود ، لانه كان يرجو أن يستولي على المملكة لنفسه ساعة دخول جيشه الى مصر ، وخصص لشاور قائد فرسانه شيركوه وكان محاربا متمكنا ونشيطا ومتلهفا لبلوغ المجد ، وصاحب خبرة واسعة في الامور العسكرية ، وبما أن شيركوه كان سخيا بشكل يفوق موارد مواريثه ، فقد أحبه أتباعه بسبب هذا السخاء ، وكان شيركوه صغير القامة وبدينا لا بل سمينا جدا وطاعنا في السن ، ومع أنه كان منحدرا من أصل وضيع ، فقد أصبح ثريا وارتقى بفضل جدارته من مرتبته المتواضعة الى مرتبة أمير ، وكان مصابا بالعمى في إحدى عينيه ورجلا شديد التحمل للمشقات ، فقد كان يتحمل الجوع والعطش برباطة جأش غريب تماما بالنسبة لتلك المرحلة من الحياة ، لقد كان هذا هو الرجل الذي ارسله نور الدين الى مصر مع جيش كبير(١٨٩) .

كانت الرسل تروح وتجيء باستمرار ، وعلم السلطان درغام منهم ومما انتشر من أخبار أن العدو ، الذي كان قد طرده من قبل عائدا بمرافقة جيش تركي مؤلف من الاف كثيرة ، وحيث لم يكن لدى السلطان ثقة كبيرة في قوته ، فقد اضطر الى طلب المساعدة ، وأرسل رسله الى الملك وحملهم رسائل سلمية والتمس بجدية مساعدته ضد العدو الذي كان الآن يتوعد بمهاجمته .ووعد في أن لا يدفع الجزية التي تم الاتفاق عليها أصلا مع الملك بلدوين بل أن يضيف اليها مقدارا كبيرا من المال يحدد حسب قرار الملك ، وأعلن أيضا انه على استعداد لتقديم الرهائن كبرهان على الخضوع الدائم والتحالف على طول الوقت.

٦ ــ موت بطرس رئيس أساقفة صور. خلافته من قبل فريدريك أسقف عكا.

في هذه الآونة توفي بطرس الرئيس المبجل لاساقفة مدينة صور ذو الذكرى الورعة في الرب(١٩٠) وذلك في الأول من شهر آذار في العام

الثاني لحكم الملك عموري ، وجرى خلال بضعة أيام وقبل انقضاء شهر آذار تعيين فريدريك أسقف عكا والأسقف المساعد التابع للكنيسة ذاتها بدلا عنه وذلك تلبية لرغبة الملك المعلنة.

كان فريدريك اللوثريني المولد ، رجلا نبيل المحتد ، وكان طويلا جدا ، ولم تكن لديه سوى ثقافة بسيطة ، لكن كان منصرفا بشكل جامح نحو فن الحرب.

٧ ـ مقتل ضرغام سلطان مصر بسبب دسائس رجاله . شاور يصبح سلطانا . شاور يوجه الدعوة الى الملك ليحضر لمساعدته .الملك يهبط نحو مصر ويطرد شيركوه.

كان المندوبون المصريون في تلك الأثناء يتفاوضون مع الملك ، وقد توصلوا عمليا الى اتفاق مرض الا انهم قبل أن يتمكنوا من العودة الى موطنهم ، كان شاور وشيركوه المذكوران آنفا قد دخلا مصر مع جميع قواتهما وكانا قد واجها السلطان ضرغام في المعركة ، وقد هزما في الأشتباك الأول وعانيا من هزيمة منكرة ، بيد أنه قبل أن يتمكنا من تجريب حظهما في معركة ثانية في ظل الشروط ذاتها ، أصيب ضرغام بسهم أطلق من يد أحد جنوده أودى بحياته الامر الذي أثار حزن اتباعه عليه(١٩١) .وبسبب موته دخل شاور القاهرة كمنتصر كما كان قد رغب بذلك ، وقتل جميع اقارب ضرغام واصدقائه واتباعه الذين عثر عليهم ، واحتل منصبه الرسمي السابق من جديد ، ولم يكن مهما للحاكم الاعلى (الخليفة الفاطمي) فوز مطالب هذا المنافس الآخر طالما هنالك شخص سيوقف نفسه بعبودية على الاهتمام بالامور الشخصية للولده مع امور سكان المملكة.

هاجم شيركوه على الفور مدينة بلبيس المجاورة وبدأ يدعي أن تلك المدينة ملكا له ، واظهر بأعماله وربما بأقواله بأنه كان يعتزم ، إذا أيده الحظ ، أن يبسط سلطته على المناطق الأخرى من تلك المملكة بالرغم من السلطان والخليفة ، وبدأ شاور على الفور يخشى من أنه قد أضر بمصالحه باستقدام ضيف كهذا وكذلك بمصالح مولاه ، وأنه استقبل شخصا سيكافىء مضيفه بطريقة رديئة « كالفأر في خزانة الثياب والأفعى في الصدر ». ولذلك ، أرسل على الفور بالقول والعمل شروط الاتفاق الذي تم التوصل اليه مؤخرا بين الملك وبين السلطان درغام وأن يقدموا إذ دعت الضرورة إغراءات كبيرة أيضا .

انطلق الملك في العام الثاني من حكمه فور مصادقة الطرفين على الاتفاق ، واندفع نحو مصر على راس جميع جيشه للمرة الثانية (١٩٢) ، فانضم اليه هناك شاور مع القوات المصرية وحاصرا معا بعضهما شيركوه في مدينة بلبيس التي كان قد انسحب اليها كما لو أنها كانت قلعته ، وبعد حصار طويل ومتاعب جمة وفقدان للمؤن اضطر شيركوه أخيرا الى تسليم القلعة وكانت الشروط التي طالب بها أن يسمح له بالرحيل الى بلاده مع جميع قواته بحرية وبدون عائق ، ومنح هذا المطلب على الفور ، فتخلى عندها عن المدينة وعاد عن طريق الصحراء الى دمشق.

٨ ـ هزيمة نور الدين في المنطقة الواقعة حول طرابلس ، ونجاته بصعوبة من أيدي المسيحيين بالفرار.

كان نور الدين مقيما في هذا الوقت في المناطق المحيطة بطرابلس في موقع يعرف عموما باسم البقيعة ، وكان التيه الكبير الذي شعر به إزاء انتصاراته قد حوله الى انسان مهمل الى حد ما ، فعانى

بالنتيجة من كارثة يصعب لا بل يتعذر رأبها ، وفي الوقت تماما كان بعض النبلاء قد أتوا حاجين من بلاد أكوتين في سبيل الصلاة وكان بينهم غودفري المكنى بالمطرقة وهو أخ لكونت أنغوليم ولهيودي لوزنان الأكبر المكنى « بالبني » وتقدم هؤلاء الحجاج نحو بلاد انطاكية بعدما أتموا عباداتهم حسب العادة ، وهنا علموا أن نور الدين كان ما يزال مع جيشه في المنطقة المجاورة لطرابلس في الموقع المذكور آنفا ، وكان ينعم بالراحة ويمضي فترة من الاستجمام وهو مطمئن غير مهتم بأمنه وسلامته مطلقا ، وبناء عليه جمع المسيحيون قواتهم وشنوا هجوما مفاجئا على جيشه ، فبوغت نور الدين ، وأسر العديد من جنده ، وهلكت أعداد كبيرة منهم أيضا لقد أبيد جيشه بالفعل فهرب هذا الأمير وهو في غاية الارتباك ويائسا من الحياة نفسها ، وتخلى عن جميع الأمتعة وحتى عن سيفه ، ونجا بصعوبة من الوقوع بالأسر في يد قواتنا بعد أن امتطى احد حيوانات التحميل ، وهو عاري القدمين ، وعاد المسيحيون منتصرين الى موطنهم محملين بالغنائم والثروات التى لا تحصى.

قاد هذه الحملة غلبرت دي لاسي وهو نبيل من مرتبة عالية ومحارب متمرس وقائد لفرسان الداوية في تلك المناطق ، وساعده الرجلان العظيمان المذكوران أعلاه مع روبرت مانسل الذي قاد الغالنسيين في تلك الحملة وبعض الفرسان الآخرين(١٩٣)

٩ ــ نور الدين يحاصر قلعة حارم في بلاد أنطاكية. وقوع كل من أمير أنطاكية وكونت طرابلس وكولمان حاكم كليكية في الأسر.

امتلأ نور الدين ازاء هذه الكارثة المشؤومة بالغضب الشديد وشعر بارتباك عظيم مع الاحباط والاشمئزاز ، وبما أنه كان تواقا لمحو العار والثأر لما نزل به وبشعبه من أضرار التمس المساعدة من

الأصـدقاء والأقـارب . ولم يبـــق أمير في الشرق إلا وطلب منه المساعدة ، وكان يلتمس المساعدات بـالتوسلات أحيانا وبـالوعود بالمكافآت أحيانا وجند في هــذه الأثناء قـواته الخـاصة ، وجمـــع تعزيزات عسكرية من سائر الأنحاء ، وقام معه حشد ضـخم وآلاف من الفرسان كان قد جمعهم بهذه الطريقة بالقاء الحصار على قلعـة حارم التي تعد إحدى قلاع المسيحيين في بلاد أنطاكية ، ووضـع آلاته الحربية حولها بالطريقة المألوفة ، وبدأ بمهاجمة القلعة بضراوة لم تسمح للسكان بأية راحة.

وجرى ابلاغ قادة المسيحيين على الفور بهذه الأعمال ، فبـادرت نحو حارم بدون تأخير جميع القوات من المشـاة والفـرسان التـى امكن جمعها من كل مكان ، واشتملت هذه القـوات على بـوهيموند الثالث أمير أنطاكية ابن ريموند ، وريموند الأصغر كونت طـرابلس ابن الكونت ريموند وكولمان حاكم كليكية وهو من أقرباء الامبراطور كان مسؤولا عن الشؤون الامبراطورية في ذلك الاقليم ، وطـوروس وهو أمير ارمني قوي جدا ، وقد زحفـوا على راس قـوات معبـأة بتشكيل المعركة ، وهم مصممون على رفع الحصار على الرغم مـن جهود نور الدين.

وقرر ذلك الأمير والقادة المشارقة (الفرثيين) ، الذين انضموا اليه ، بعد التشاور أنه سيكون من الأسلم رفـع الحصـار والرحيل طوعا بدلا من المجازفة في مواجهة العدو الذي بـات وصـوله اليهـم وشيكا ، وهكذا ، فقـــد رتبـــوا الامتعـــة وحــــاولوا تنفيذ انسحابهم ، غير أن المسيحيين ، الذين شجعهم النجـاح الذي كان قد رافق جهودهم ، بدأوا المطاردة. ولم يستطيعوا أن يرتاحوا وهـم قانعون بتخليص السكان مـن الحصـار على أيدي هؤلاء الأمـراء العظام. وهكذا قـــاموا وهـــم مهملون لقـــواعد النظـــام العسكري ، بـالتفرق بـطيش وتجـولوا هنا وهناك في مـطاردة العدو ، وتجمع الأتراك فجأة واستردوا شجاعتهم وقوتهم وانقضوا

عليهم ، فتبددت صـفوف المسـيحيين في الهجـوم الأول بعـد أن حوصروا في مكان ضيق مليء بالمستنقعات ، وأصبح الذين كانوا من قبل قـد وزعوا الرعب الكبير قبـل قليل في قلوب الأتـراك ، صـيدا محتقرا من قبل ذلك العدو نفسه ، ولقد قهرتهم سيوف العدو وبددت جموعهم فقتلوا بشكل مخز مثل الاضاحي امام المذبح ، ولم يتـذكر احد منهم شجاعته السابقة ، ولم يناضل واحد منهم ليتـذكر منزلة ابائه أو ليتجنب الكارثة أو ليقـاتل دفـاعا عن الحـرية ومجـد أسـلافه ، والقـى الجميع ، وبإهمـال للشرف ، أسـلحتهم بتهور ، وتوسلوا بشكل مخز حتى يمنحـوا الحياة التـي كان مـن الافضل استهلاكها في القتال برجولة دفاعا عن أرض الآباء وقـدوة للأجيال المقبلة.

في تلك الساعة العصيبة ادرك طوروس الأرمني أن الأتراك بـاتوا متفوقين وأن المسـيحيين على العـكس مـن ذلك ، قـد استسلموا ، ولذلك قرر إنقاذ نفسه بالهروب فـانسحب مـن جحيم المعركة ، وكان قد عارض في البداية مطاردة الأتراك ، وبذل جهوده في سبيل اقناع المسحيين بالعدول عن محاولة ذلك ، إلا أن المشـورة الحمقاء للآخرين هي التي سادت.

واستسلم الى العدو كل من بـوهيموند امير انطـاكية وريمـوند كونت طرابلس وذلك لينقذا روحيهما ، حتى وان كلفهما ذلك الخزي والعار ، وسلك المنحنى ذاتـه كل مـن كولمان حـاكم كليكلية وهيو لوزنان الذي ذكرته آنفا ، وجوسلين الثالث بـن جـوسلين الثـاني كونت الرهـا وعدد كبير من بقية النبلاء ، فأوثقوا بالسلاسل كأحـط أنواع العبيد ، واقتيدوا بشكل مخز الى مـدينة حلب حيث القـوا في السجون وأصبحوا محط سخرية الكفرة.

وتشجع نور الدين وأحلافه بهـذا النجـاح وهـذا الحـظ الكبير والجيد ، وهاجموا بثقـة أكبـر في هـذه المرة المعقـل الذي كانوا

يحاصرونه من ذي قبل ، واستؤنفت عمليات الحصار من جديد وتـم الاستيلاء على الحصن بالقوة في غضون بضعة أيام.

وقع هذ الحدث في اليوم الرابع قبل نهاية الاسـبوع الثـاني مـن شهر آب في العام ١١٦٥ لتجسيد الرب وفي العام الثاني مـن فتـرة حكم الملك عموري. وكان الملك نفسه ما يزال في هذا الوقـت في مصر حيث احتجزته هناك شؤونه الخاصة(١٩٤).

١٠ ـ وصـول الكونت ثيري أوف فـلاندرز الى سورية. نور الدين يحـاصر بـانياس ويسـتولي على المدينة.

اثرت هذه التغييرات الكبيرة والكوارث الرهيبة بشكل خطير جدا على وضع المسيحيين حتى أنهم وصلوا الى حافة الهاوية ، ولم يبق الآن أي شعاع من الأمل ، وكان الجميع بقلوب يائسة يخافون يوميا من وقوع كوارث أسوأ ، عندمـا وصـل ثيري كونت فـلاندرز وكان بمرافقة زوجتـه أخـت الملك ، وكانت أمـرأة متـدينة وتخشى الرب ، ويتبعه مجموعه ضخمة من الفرسان(١٩٥) ورحب الناس بـه بابتهاج لانه بدا بأنه مساعدة فورية جدا ، مثل الانتقال الى نسـمة منعشة بعد حرارة الشمس الشديدة ، ورجوا أن يتمكنوا بدعمه من الصـمود حتـى عودة الملك والجيش المسـيحي ، ولكن للأسف ، مالبثت حالة الصفاء هذه التي كانت مشرقة ، أن حجبتها على الفور غمامة كثيفـة ظهـرت فجـأة وحـولت كل شيء الى ظلام (١٩٦) ، فقد كان نور الدين ، الذي اصـبح متعجـرفا للغـاية بسبب نجاحه ، قد قرر ان ينتهز الفرصة لمحاصرة مدينة بـانياس ، وكان يعرف تماما ان المملكة كانت مجردة من مـدافعيها المألوفين ، لان الملك كان متغيبا مع سائر القوة العسكرية للمملكة، وكان القـادة الرئيسيون أسرى لديه.

ومدينة بانياس هي قديمة جدا تقع عند قاعدة جبال لبنان المشهورة ، وكانت تعرف باسم دان خلال العصور القديمة في أيام بني اسرائيل ،وكان تشكل الحدود الشمالية للممتلكات الاسرائيلية مثلما كانت « بئر السبع » تشكل الحد الجنوبي وبالتالي ، فعندما ، يوصف طول ارض الميعاد ، يقال عنها تمتد من« دان الى بئر السبع» وحسبما جاء عند لوقا.[١٩٧] فان فيليب بن هيرد الأكبر حاكم امبراطورية وكورة تراخونيتس ، كان قد وسعها خلال عهده تشريفا للقيصر تايبيروس وسماها باسم قيصرية فيليب حتى يحافظ على اسمه الى الأبد . وهي معروفة ايضا باسم بانياس ، لكن شعوبنا اللاتينية حرفت الاسم – كما هي عادتهم مع الاسماء عادة – وسموها باسم بيليناس ، وتمتد حدودها في الشرق حتى بلاد دمشق على مقربة من الموقع الذي يوجد فيه اصل النهرين اللذين يشكلان الأردن ، وهذه هي المدينة المذكورة في الانجيل حيث كتب « ولما جاء يسوع الى نواحي قيصرية فيليب سأل تلاميذه »[١٩٨] الى اخره . وحدث هنا ايضا أن تسلم بطرس أمير الحواريين مفاتيح مملكة السموات من المسيح كمكافأة على ايمانه الرائع .

وحاصر نور الدين هذا الموقع لانه وجده بلا مدافعين ، حيث كان همفري كافل الملكة والذي كانت المدينة تخصه بموجب الحق الوراثي ، متغيبا مع الملك في مصر ، وكان اسقف المدينة متغيبا وتناقص عدد السكان الى حد كبير جدا خلال المذبحة ، ونصب نور الدين على الفور المجانيق والآلات الحربية في مواقع حول المدينة ، والغمت الاسوار وأضعفت الأبراج بسبب سقوط وابل مستمر من الحجارة ، ولهذا تم الاستيلاء عليها خلال بضعة ايام ، واجبر الناس الموجودون بداخلها على الاستسلام بشرط ان يسمح لهم بمغادرة المدينة دون مضايقة مع جميع ما كان بحوزتهم ، وهكذا ، استولى نور الدين على المدينة في العام ١١٦٧ لتجسيد ربنا . ووقع هذا الحدث في العام الثاني من فترة حكم عموري وفي اليوم الخامس عشر قبل انقضاء الأسبوع الثاني من شهر تشرين الثاني [١٩٩]

وكان كافل المملكة قد عهد بالمسؤولية عن بانياس عند رحيله الى مصر الى واحد من فرسانه المخلصين ، وهو وولتردي فوسنوي ، وقد أكد بعضهم ان هذا الرجل كان مهملا في الدفاع عن المدينة ، وعلاوة على ذلك فقد أشيع انه قبل بالتواطؤ مع كاهن يدعى روجر ، وهو شماس لتلك الكنيسة ، رشوة بشكل غادر مقابل تنفيذ الاستسلام . ولذلك ، خاف الخائنان خوفا شديدا لدى عودة الملك من مصر خشية ان يقتلهما ، هذا ولاتوجد لدينا معلومات وثيقة حول هذه النقاط باستثناء ان المدينة اسلمت الى العدو .

١١ ـ ذهاب الملك الى انطاكية اثر عودته من مصر. اطلاق سراح الامير مقابل فدية من المال. استسلام الكهف في صيدا الى الاتراك. الاتراك يستولون ايضا على كهف آخر فيما وراء نهر الاردن.

كان هذا هو الوضع الذي كان سائدا آنذاك في سورية ، وكان الملك قد طرد هذه الأثناء شيركوه من بلاد مصر وعين شاور في الحكم كسلطان ، وعاد الآن الى بلاده كفاتح رائع ، وعلم هناك بالأحداث الكئيبة التي كانت قد حدثت في المملكة ، وعلى الرغم من انه كان قد أبلغ ببعض المعلومات عن كل هذا من قبل ، فقد استمع الآن لتقرير مفصل عن الكوارث ، وسمع ان أهالي أنطاكية قد التمسوا المساعدة منه في حالة يائسة تقريبا (٢٠٠) ، ولذلك ، اخذ معه كونت فلاندرز بشفقة وحنو أخويين واسرع الى أنطاكية يحث الخطا ليقدم المساعدة التي كانت المنطقة المتأثرة تحتاجها بشكل شديد ، وتولى لدى وصوله مسؤولية القيام بأمور الأمير حيث ادارها بإخلاص وبشكل جيد وبعناية أكثر من تلك التي كان يقدمها عادة لاهتماماته الشخصية ، وحكم النبلاء والناس على حد سواء بلطف بالغ وببصيرة حكيمة ، وعين في كل مدينة رجلا كفوءا ليعنى بإخلاص وادراك بجميع القضايا المتعلقة بمقاطعة الأمير وعاد بعدها الى

مملكته ، هذا وقد استمر يساعده الاتباع المخلصون للأمير والأصدقاء يشغل نفسه في مسألة اطلاق سراح الأمير ، وأعيد الأمير نتيجة لجهوده النشيطة الى حالته السابقة من الحرية والشرف في ذلك الصيف نفسه بدفع مبلغ كبير من المال ، وكان اسره بين العدو قد استمر مدة عام تقريبا (٢٠١)، ولم يرتح بوهيموند ولم يسترخ بعد عودته الى انطاكية ، بل اظهر نشاطا كبيرا في جمع الفدية للرهائن ثم دفعها ، ليتمكن من تعجيل اعادتهم ، وكان امبراطور القسطنطينية قد تزوج قبل وقت قصير من ماريا ، الأخت الصغرى للأمير ، فأسرع بوهيموند الى هناك واستقبله الامبراطور بترحاب وعامله معاملة لطيفة ، وعاد بعد زيارة قصيرة الى انطاكية محملا بهبات سخية من جلالته الامبراطورية .

يبدو غريبا اقدام نور الدين ، الذي كان أميرا حكيما ومتعقلا ، على الموافقة على اطلاق سراح أمير انطاكية بسرعة كبيرة ، فقد كان معارضا دائما لتحرير الأسرى المسيحيين ، وكان يتفاخر في المقام الأول بحقيقة أنه كان يأسر الكثيرين من شعبنا ، وخاصة ذوي المراتب السامية ، ويخطر على ذهني جوابان ممكنان لهذه المسألة : اولهما انه ربما خشي من إمكانية تدخل الامبراطور وهو الحاكم القوي ، الذي لن يجرؤ على رفض مطلبه ، فقد يطالب بإعادة الأمير دون فدية ، وربما أخذ ايضا بعين الاعتبار احتمال ان يحتاط اهالي انطاكية ، دفاعا عن مصالحهم باختيار حاكم اقوى بدلا من بوهيموند في حال احتجاز اميرهم لفترة طويلة من الزمن ، لأن الأمير كان شابا ولم يقدم سوى دلائل بسيطة بمستقبل خير واعد ، وهكذا قد ينبع ضده خصم أكثر رعبا ، ولهذا السبب ، رأى نور الدين ، الذي كان داهية وحكيما انه من الأفضل بالنسبة لمصالحه الخاصة ان يستمر بوهيموند في حكم انطاكية لأنه ايضا لم ينتظر خيرا كثيرا منه ابدا ، ومن المحتمل ان وضع امير اعقل وأقوى في ذلك المنصب ان يكون اكثر صعوبة في التعامل معه ، ومن وجهة نظري ، ان هذه النظرية الأخيرة تفسر الدوافع الحقيقية التي سيطرت على هذا الأمير الأكثر ذكاء (٢٠٢) .

وفي هذه الآونة نفسـها اسـتولى شـيركوه ـ الذي تـكرر ذكره ، والذي كان مصمما على إبـادة المسـيحيين ـ فجـأة ودون إنذار على قلعة تعود ملكيتها للمسـيحيين وتقـع بـالقرب مـن صيدا ، وكان الموقع يعرف باسم كهـف صـور وكان يعـد مـوقعا لايرام ، ويقال إن الاستيلاء على الموقـع تـم بـدفع رشـوة للحراس ، وأن القلعة كانت قد سقطت في أيدي العدو بسبب التواطؤ مع حراسها كان واضحا تماما ، حيث هرب فـور تسـليمها جميع الذين كانوا موجودين بداخلها الى بلد العدو باستثناء قـائدهم الذي قبض عليه لحسن الحظ وقد واجه نهاية تعيسة في صيدا حيث شـنق فيها .

باغتت المنية خـلال العـام نفسـه وليم ملك صـقلية ذي الذكرى الرائعة وابن الملك روجر (٢٠٣) وسلم رهبـان فـرسان الداوية الى شيركوه في هذه الآونة نفسها تقريبا قلعة ذات طبيعة مشـابهة ، اي كهـف ـــــــــــــــــــــــــــا لا يرام واقعا فيما وراء الأردن على حدود العربية ، بعدما كان قد عهد بالعناية بها الى الداوية ، وهب الملك الى نجدتها مع مجموعة كبيرة من الفرسان ، لكن بلغه عندما كان مخيما على ضـفاف الأردن نبـأ افاد أن القلعة قد سقطت في أيدي العدو ، فأمر الملك بعدما أربكه هذا النبأ واغضبه بشنق نحو / ١٢ / من الداوية المسـؤولين عن تسـليم الموقع(٢٠٤)

وهكذا كابد المسيحيون خلال العام ، الذي كان العام الثالث مـن فترة حـكم الملك عمـوري ، مـن نكسـات كثيرة ، وكانت المملكة بأسرها ، وبسبب آثامنا ، محفوفة جدا بالمخاطر.

١٢ ـ الحديث عن عودة كاتب هذا الكتاب الى موطنه ، ووصف بعض التقدم الذي أحرزه .

(لم يتم العثور على نص هذا الفصل في اي من المخطوطات المتبقية) (٢٠٥)

١٣ ـ انحدار شيركوه نحو مصر على رأس كتلة كبيرة من الجند .

كان هذا هو الوضع الذي ساد بين شعبنا في تلك الآونة ، وتواترت الأخبار في هذه الاثناء بشكل واسع وتأكدت من مصادر مختلفة ان شيركوه كان يستعد للانحدار نحو مصر من جديد في ابهة عسكرية وعلى راس قوة ضخمة من الفرسان جمعت مناطق الشرق والشمال ، ولم تكن هذه الحكاية بدون أساس لأن شيركوه كان قد زار خليفة بغداد ، ذلك الحاكم الأعظم الذي يفوق جميع حكام المسلمين ، والذي يفوق جميع الحكام الآخرين ، ويعترف بانه الحاكم الأهم من جميع الحكام ، وقدم شيركوه لدى وصوله الى هناك التحية المألوفة ، ثم بدأ يصف وبتفاصيل كبيرة الثروة الضخمة الموجودة في مصر ، وابلغ عن الوفرة الرائعة لجميع الأشياء الجيدة هناك وعن كل سلعة منفردة ، وعن الكنوز الثمينة التي تخص الأمير نفسه ، وتحدث عن الضرائب والرسوم التي يمكن جمعها من المدن الواقعة على الساحل والأرض الداخلية البعيدة ، والكمية الضخمة من العائدات السنوية . واضاف ان السكان ، الذين اوقفوا انفسهم على حياة الرفاهية والجاهلين لعلوم الحرب قد أصبحوا ضعفاء بسبب فترة سلام استمرت لمدة طويلة من الزمن ، وحاول مرارا وتكرارا أن يطبع في ذهن الخليفة حقيقة أن الامير ، الذي يحكم مصر الآن ، قد نصب مع اسلافه خليفة منافسا له نفسه (خليفة بغداد) ولأسلافه واجترأوا على

القول أن الخليفـــة لامثيل له ولايعـــادله في منزلتـــه الفـــريدة ايضا ، وعلاوة على ذلك ، فقد تولوا الاخذ بشريعة مخـــالفة وتبني عقيدة معارضة لعقيدة الخليفة بشكل مباشر ، وأثر شيركوه بتكرير اقتراحات كهذه على ذهن الخليفـــة حتـــى أقنعـــه في تنفيذ وصـــية السلطان ، وكتب الى جميع الأمـــراء الذين كانوا يؤمنون بعقيدتـــه المزيفة ، وامرهم بشكل صارم أن يجندوا قواتهم ويتبعوا شـــيركوه لتقديم المساعدة له (٢٠٦).

وعقد الملك عموري لدى سماعه بهذا النبأ اجتماعا عاما في نابلس لابداع وسائل لاحباط خطط الخليفة وتعطيلها ، وتحـدث هنالك عن الخطر الذي كان يهدد المملكة ووصـــفه بعناية كبيرة وذلك بحضـــور البطريرك ورؤساء الأساقفة والأســـاقفة وعدد آخـــر مـــن أصـــحاب المقامات الرفيعة في الكنيســـة اضـــافة الى النبـــلاء والناس كافـــة والتمس مساعدتهم بشكل جاد ، وبالنظر الى الظروف ، تقـــرر عند ذلك بالاجماع أنه ينبغي على كل فرد بدون استثناء تقديم العشر عن جميع مايمتلكه من أشياء متنقلة من أجل نجدة المملكة ، وقد تم تنفيذ القرار بحذافيره .

واستمرت الأقاويل بالانتشار ومفادها أن شـــيركوه ، المجهـــز بشكل جيد بالطعام الضروري لأيام كثيرة وبكميات وفيرة مـــن الماء المنقول بالقرب ، قد بدأ مسيرته عبر الصـــحراء على الطـــريق الذي كان بنو اسرائيل قد دخلوا منه الى أرض الميعـــاد ، ولذلك ، جهـــز الملك جميع قواته المتـــوفرة مـــن الفـــرسان وانطلق بسرعة لمقـــاتلة شيركوه واعاقـــة تقـــدمه ، وتقـــدم حتـــى قـــادس ـ بـــرنيه ـ Barnea - Kades في الصحراء ، الا أنه عاد على الفـــور مـــن حيث أتـــى لأنه لم يجـــد شيركوه .

١٤ـ الملك يلاحـق شيركوه وينحـدر مثله الى مصر لمساعدة المصريين .

صـدرت الاوامـر آنذاك الى المنادين لاسـتدعاء جميع القـوات العسكرية من مدن المملكة كافة مـن المشـاة والفـرسان على حـد سواء ، وصدرت الأوامر الى القوات بالتجمع في عسـقلان (٢٠٧) ، وفي الثلاثين من شهر كانون الثاني انطلق الجيش يحمل معـه المؤن الضرورية من الأطعمة للرحلة ، وسار سـيرا حثيثـا حتـى عبـر الصحراء الشاسعة الواقعـة بين غزة آخـر مـدن مملكتنا ، وبين ارض مصر وتم التوقف قليلا في العريش القلعة القديمة في الصحراء لاجراء احصاء للقوات ، ولانتظار وصول الجيش ، واخيرا وصـل الجيش بأكمله الى المدينة المعروفة حاليا باسم بلبيس مع أنها كانت تعرف في العصور القديمة باسم بيليوسيوم فهكذا تـكرر ذكرهـا في أعمال الرسل .

واستولى الذعر على السلطان شـاور عندمـا علم بقـدوم الملك ، وارتاع بسبب الظهور المفاجيء للميسحيين وارتاب بحسـن نوايا الحشد المقترب ، وخشي من امكانية توجيه الجيش العسـكري ضده ، وعلى العموم كان شاور حاكما عاقلا وكفوءا ، واعتبـر بعيد النظر بشكل خاص ، الا أنه أظهر في هـذه المناسـبة جبنا وجهـلا تاما ، فنادرا ما استطاع أن يصدق سبب قدومنا على الرغم من أنه أبلغ به . وأرسل أخيرا وعلى مضض وبعد فـوات الأوان الكشـافة الى الصحراء لكي يحصلوا على معلومات محـددة حـول تحـركات العدو ، وذكر الرسل لدى عودتهم أن الجيش التـركي كان قـد بلغ أطفيح . فـدهش عندهـا السـلطان بـالفعل ازاء الولاء المخلص للمسيحيين واثنى عليهم كثيرا ، ووضـع تحـت تصرف الملك جميع الكنوز التابعة للمملكة والخليفة على حد سواء وذلك ، امتنانا للعناية التي كان الجيش المسيحي قد أظهرها نحو حلفائه المصريين وعلاوة على ذلك اظهر بدئا من ذلك اليوم حماسة كبيرة في تنفيذ جميع رغبات

الملك ، ولذلك ، نهل الملك عموري بحرية من هـــذه المســاعدة كلمــا كانت لديه حاجة لها .

١٥ – وصــف القــاهرة مــع بعض الاشـــارات الى مؤسسها.

تقدم المسيحيون في طريقهم الى ما وراء مدينتي بلبيس (٢٠٨) والقاهرة ، وكانت الاخيرة المشهورة بمبانيها الضخمة مقرا للسلطة الملكية والمجد السامي لمصر . واقام المسيحيون المعسكر على ضـفة نهر النيل اليسرى في المدينة المهيبة والمشهورة التي تســمى عمــوما باسم بابليون (٢٠٩) وهي مشــهورة بـالاسان العـــربي بـساسم مصر (٢١٠) ، ولم نتمكن من العثور على الاسم القـديم الذي كانت تحمله هذه المدينة في العصور القديمة،وكانت بابليون مدينة قديمة جدا في الشرق ، غير أن التواريخ المتعلقة بالازمنة القديمة جـدا لاتشـير الى اية مدينة بهذا الاسم على انها وجــدت على الاطـلاق في مصر ، ولذلك ، من المحتمل ان هذه المدينة لم تكن قد تأسست ايام الفراعنة فقط ، الذين كانوا اول من حــكم مصر ، ولافي ايام البــطالمة الذين حكموها فيما بعد ، بل حتى بعد زمن الرومان الذين حولوا مصر الى اقليم ، واما بخصوص القاهرة ، فمن المعروف ان هــذه المدينة قــد اسسها جوهر القائد العام لقوات المعز لدين الله ، وكان هذا الحاكم يحكم في ذلك الوقت في افريقية بعدما اســتولى جــوهر له على مصر بالكامل ، هذا وسنذكر في وقت لاحق كيف حدث هذا.

ومع ذلك ، فان بعض الكتاب يؤكدون بيقين أن بابليون هذه هــي ممفيس القديمة تلك المدينة المهيبة والواسعة الشــهرة التــي تـكرر ذكرها في التواريخ القديمة وفي أعمال الرسل ، والتي يقال أنها كانت عاصمة وملكة تلك المملكة بأسرها واقاليم مجاورة كثيرة ، ولاتــزال هناك مدينة مهيبة ذات نطاق واسع على بعد عشرة أميال فيمــا وراء النيل الذي يجري بمحاذاة مدينة بــابليون هــذه ، التـــي نحـــن

بصددها ، حيث مـاتزال هنالك ادلة ذات فخـامة مـاضية ، ويؤكد بعض السكان في تلك الاجزاء بأن هذه هي ممفيس القديمة(٢١١)

وهكذا ، من المحتمل تماما بأن اهالي ممفيس قد نقلوا منازلهـم الى الجانب الآخر من النهر في ذلك الوقت ، أو ربمـا غيروا الاسـم الأصلي في وقت لاحق إما بسبب الضرورة أو لأن هـذا الموقـع كان يقدم فوائد كبيرة .

ونعتبر أنه من الثابت بشكل محـدد أيضـا أن جـوهر الذي بنى القاهرة ، وكما ذكرنا من قبل ، كان قد جرى إرساله مـن إفـريقية بصحبة جيوش الأمير العظيم المعز بغية فتح مصر ، واسس جـوهر هذه المدينة بالقرب من بابليون في عام ٣٥٨ من التاريخ الاسـلامي وذلك بعدما كان قد فتح المنطقة بـأسرها وجعـل الناس خـاضعين له ، وأصبحت هذه المدينة المقر الرئيسي والمفضل لحـاكمه ، وغادر المعز بعد ثلاثة أعوام مدينة القيروان التي كانت مقرا لملكته لسنوات عدة ، وأصبحت هذه المدينة ، حسب رغبات هذا الأمير مدينة رائعة وغدت عاصمة لملكته ومقرا له.(٢١٢) ، وحدث هذا في سـنة ٣٦١ حسب التاريخ الاسلامي ، وفي العام العشرين من فترة حـكم المعـز كما تم سرد ذلك بشكل كامل في مكان اخـر مـن كتـابنا عن امـراء الشرق.

١٦ـ الملك يزحف للقاء شيركوه وشيركوه يعبر النهر متوقعا حدوث عمل من هذا القبيل .

بعدما أقام المسيحيون معسكرهم على ضفاف النهر على بعد اقل من مرحلتين مـن المدينة المذكورة منذ لحـظات عقـدوا اجتمـاعا وارتأوا ، بعد مشاورات طويلة ودراسة دقيقة للآراء المختلفة ، انه من الأفضل أن يخرجوا لمواجهة شيركوه وقـواته قبـل أن يعبـروا النهر ، لأن منعه من دخول المملكة سيكون افضل بكثير من خـوض

معركة بعد أن تكون جيوشه قد مرت ، حيث ستدفعهم صعوبة إعادة العبور الى القتال بشكل أكثر إفراطا .

وهكذا ، حلوا المعسكر ، وساروا بسرعة نحو الموقع الذي اعتقد أن العدو كان موجودا فيه ولقد قيل أن هذا الموقع كان على بعد نحو عشرة اميال من المكان الذي كانت قواتنا قد خيمت فيه من قبل . الا انهم وجدوا ، ولدى وصولهم الى الموقع ، أن شيركوه القائد الحكيم جدا ، كان قد عبر النهر مع جميع جنوده تقريبا . ولم يبق سوى عدد قليل فقبض عليهم رجالنا على الفور وأوثقوهم ، وقدموا للمسيحيين عند استجوابهم مقدارا كبيرا من المعلومات المفيدة وخاصة فيما يتعلق بعبور شيركوه للنهر وعدد جنوده .

وكشفت رواياتهم النقاب عن قصة لم يكن شعبنا يعرفها ، وهي أن زوبعة رهيبة انطلقت فجأة بعدما كانت قواتهم قد اجتازت وادي عربة في الصحراء ، فقد ارتفعت حبيبات الرمل الى الأعلى والتفت خلال الجو كغيوم وضباب كثيف ، ولم يجرؤ الجنود على فتح أفواههم للتحدث مع بعضهم بعضا ، كما لم يستطيعوا إبقاء اعينهم مفتوحة ، بل ترجلوا عن خيولهم وانبطحوا ملتصقين بالأرض وادخلوا أيديهم في الرمل بقدر ماأمكنهم حتى لاتحملهم العاصفة الهوجاء الى الأعلى ثم ترميهم الى الارض لأن أمواج الرمل في تلك الصحراء كأمواج البحر ، معتادة على الأرتفاع والسقوط كما يحدث عادة أثناء العاصفة ، وهي حقيقة تجعل عبور هذه المناطق خطر كالابحار في البحر . وأخيرا عاد الجو لطيفا عدة أيام بالتجول التائه هنا وهناك ، وهم غير متأكدين من الطريق وغير آملين الا بالحياة فقط ، ووصلوا مصر ، كما تم سرد ذلك ، وقد فقدوا جمالهم والقسم الاكبر من مؤنهم ومات الكثير من رجالهم وتفرق الكثيرون منهم أيضا في الرقع الواسعة والمترامية الأطراف من الرمال .

عاد جيشنا من حيث اتى بعدما اتضح أن شيركوه وجيشه كانوا قد عبروا النهر ، وخيم مجددا على ضفة النهر بـالقرب مـن المدينة التى كان قد تركها من قبل .

١٧ــ السلطان شاور يجدد المعاهدة في سـبيل ابقـاء الملك معه .

أدرك شاور الآن أنه يستحيل بالنسبة له أن يقـاوم الأعداء الذين كانوا قد توغلوا الى قلب المملكة بالذات ، أو أن يطردهم من المنطقة الا بمساعدة الملك ، ولذلك بحث بتلهف عن أكثر السبل فعالية ممـا يمكن بـوساطته إبقـاء الملك في مصر لأنه خشي مـن أن يعقـد عموري ــ الذي أرهقته المشاق الجمـة ــ العـزم على العـودة الى بلاده ، وبالفعل بدا أن الوسائل الوحيدة لابقاء الملك في المنطقة تكمن في تقديم مقدار كبير من الجزية له ، ووعده بمبلغ كاف لتلبية نفقـاته ونفقات نبلائه .

وهكذا صمم شاور على تجديد الاتفـاقات القـديمة ، وأن يعقـد معاهدة سلام دائم بين الملك والخليفة على أساس صلب وثابت وهو اقتراح بدا جيدا بالنسبة للمسيحيين ايضا فقد توجب زيادة الجـزية السنوية ، وضمان تامين دفعـة ثـابتة للملك مـن بيت مـال الخليفة ، لأن المسألة كانت بوضوح مسألة لايمكن انجازها بسهولة دون انفاق الكثير من العمل والوقت ، وبعد دراسة مطالب ورغبـات الفريقين ، قرر المسؤولون عن إعداد المعـاهدة والشروط المتعلقـة بذلك ، انه يجب تخصيص مبلغ أربعمائة ألف قـطعة ذهبية للملك . ووجب دفع مائتي ألف قطعة من هذا المبلغ على الفـور ، و ارسـال المائتي الف قطعة المتبقية في وقت محدد متفق عليه بـدون إثـارة أية متاعب ، وكانت الشروط على النحـو التـالي :« أن يضـمن الملك بسلطته وبنية حسـنة ودون خـداع اونية شريرة أنه لن يرحـل عن ارض مصر حتى تتم إبادة شيركوه وسائر جيشه عن بكرة أبيه ، أو

يطرد وأتباعه بالكامل من الأراضي التـابعة لمصر » . ولاقـت هـذه الشروط موافقة الطرفين ، ومد الملك يده اليمنى الى ممثلي الخليفة كبرهان على موافقته على المعاهدة . هذا وأرسل في الوقت ذاته هيو صاحب قيسارية ـ وكان شابا يتمتع بحكمة رائعة وتعقـل يفـوقان عمره ـ مع آخرين كثر للحصول على مصادقة الخليفة على الميثـاق الى يد هيو حسب الشروط المتفـق عليهـا ، حيث بـدت ضـمانة السلطان وحدها غير كافية في هذه المسألة .

١٨ـ ارسال الرسل للحصول على تحديد المعـاهدة من الخليفة . وصف فخامة القصر الملكي .

بما أن قصر ذلك الملك (دار الخلافة) فريد مـن نوعه ، ومبني حسب طراز غريب تماما عن عالمنا ، ارتأيت أنه من المستحسن أن أدون بـالتفصيل مـاعلمته مـن الروايات الموثـوقة للذين زاروا ذلك الأمير العظيم ، وأن أصف حالته وجلالته وكنوزه الضخمة وأبهته الفائقة ، لأن الحصول على تفهم دقيق لكل هذا لاشـك سـيكون له فائدة كبيرة بالنسبة لقرائي .

دخل هيو صاحب قيسارية القاهرة في ظل حماية السلطان ورفقته كرئيس للسفارة التي أرسلت الى هناك وكان برفقة غودفري فولتشر وهو من فرسان الداوية ، واقتيدوا لدى وصولهم الى البـلاط الذي يسمى باللغة المصرية باسم كسكره Cascare (٢١٣)

وساروا خلال دهاليز ضيقة كانت بلا إنارة على الاطلاق ، وسار امامهم حشد ضـخم وصـاخب مـن المرافقين المسـلحين بالسيوف ، ووجدوا عند كل مدخل جمـاعة مـن الزنوج المسـلحين الذين اظهروا تبجيلهم للسلطان بتحيات متكررة رددوها بحماسة .

وتوجهوا بعد تجاوزهم الحرس الأول والثاني الى باحة ضـخمة

وواسعة مفتوحة نحو السماء وبذلك سمحت بدخول أشعة الشمس بحرية ، وكانت هنالك ردهات مدعومة بأعمدة رخامية مغطاة بتصاميم بارزة وذات سقوف مزخرفة ومطلية بالذهب ، وأرضيات مرصوفة بأحجار ملونة متنوعة ، وسادت الأبهة الملكية في كل بقعة من ذلك بأسره ، وكانت المادة والصنعة أنيقتين الى درجة أن عيون جميع الذين رأوها فتنت بشكل لا ارادي بالجمال النادر ، ولم تسأم من رؤيتها أبدا ، وكان هنالك أحواض للسمك مبنية من الرخام ومملوءة بمياه صافية ، كما كان هنالك طيور من أنواع كثيرة غير معروفة بالنسبة لمنطقتنا من العالم ، وكانت هذه الطيور أكبر من الطيور التي نعرفها ، فقد كانت أشكالها غريبة والوانها فريدة وتغريدها مختلفا ، وكان يختلف طعام كل طير تبعا لصنفه وكان موائما لنوعه .

وقادهم مقدم الخصيان (الطواشي) من هذا الفناء الى موقع أبعد حيث رأوا أبنية فاقت في اناقتها تلك التي تمت مشاهدتها للتو ، تماما مثلما بدت الأبنية الاخيرة أكثر روعة من الأبنية المألوفة والعادية ، ووجدت هنا كمية من الحيوانات بقدر ماتحب اليد اللعوب للرسام أو مخيلة الشاعر أن تصور ، أو كما يرى الذهن في احلام الليل مخلوقات كهذه غالبا ماتوجد في بلدان الشرق والجنوب ، الا أنها لم تشاهد في الغرب ، ونادرا ماسمع عنها هناك ، ويقينا ، استمد من هذه الأماكن صاحبنا سولنوس الوصف في كتابه « البولي هستور » Poly histor (٢١٤)

١٩ـ ابرام المعاهدة والتصديق عليها بإعطاء الخليفة يده اليمنى الى هيو صاحب قيسارية .

وبعد المرور خلال العديد من الدهاليز الملتوية والطرق المعوجة

التي يمكن لعجائبها أن تؤخر حتى ... الرجال انشغالا في تـأملها وصلوا الى القصر نفسه ووجد هنا أيضا مجموعات كبيرة من الجند المسلحين وحشود من التابعين والمرافقين أوحت أعدادها وأسـهمت في التعبير عن العظمة الفريدة لسيدها ، وقدم المظهر نفسه للمـوقع برهانا قاطعا على كثرة كنوز الملك وغناه المنقطع النظير .

ولدى الوصول أذن لهـم بـالدخول الى القسـم الداخلي مـن القصر ، حيث أظهر السلطان التوقير العـادي هنا لسـيده حسب العادة ، بالسجود له مرتين على الأرض ، والوقوف بتواضع أمامه وأظهر نحوه تقديسا لائقا بالاله ونوعا من التوقير المذل ، ثم انحنى للمرة الثالثة نحو الأرض ووضـع سـيفه الذي كان يتـدلى مـن رقبته ، وسحبت بعد ذلك الستائر المطرزة باللآلىء والذهـب بسرعة رائعة فقد كانت متدلية تخفي العـرش ، وبـدا الخليفـة بـوجه مكشوف ــ وقدم مظهرا فخما وهو جالس على عرش مـن الذهـب ومحاط ببعض مستشاريه وخصيانه (٢١٥)

تقدم السلطان منه بكل التوقير ، وطبع بتـواضع قبلة على قـدم الملك الجالس ، ثم قـدم سـبب زيارة المبعـوث وشروط المعـاهدة والحاجات الملحة للمملكة ، وشرح أن قوة معادية ضخمة كانت تجثم في المركز نفسه للامبراطورية ، وأوجز بكلمات قليلة مـاطلبه بـاسم الخليفة ، وماسيقدمه الملك بـالمقابل ، فـأجاب الخليفـة على هـذا بسيماء طليقة وصافية وبدماثة بالغة بأنه مستعد لتنفيذ جميع شروط الاتفاقية التى أعدت والتي قبلها الطرفان ، وأن ينفذها تنفيذا سخيا للغاية بسبب احترامه الخاص للملك .

ثم طلب المسيحيون أن يؤكد هذا التصريح بيده كما كان الملك قـد فعل ذلك ، فصدم أعضـاء الحـاشية الملكية الذين كانوا يحيطـون بالخليفة إزاء الاقتراح في بادىء الأمر ، كما صدم مستشاروه ونبلاء حجرة الاستقبال في القصر الذين ارتكزت عليهم مسـؤولية الخـطط

الملكية، واعتبروا هذا الاقتراح لايمكن تصوره وفهمه مطلقا ، ومهما يكن من أمر لقد مد يده في آخر الأمر على مضض وهي مغطاة وذلك بعد دراسة طويلة ، مدها تلبية لالحاح السلطان المستمر . ومما أثار ذعر المصريين ، وادهشهم رؤيتهم شخصا يتكلم بحرية كبيرة مع حاكمهم المطلق ، حيث خاطبه هيو صاحب قيسارية بقوله :« سيدي الصدق ليس لديه مايخفيه ، وعندما يقيد الأمراء أنفسهم مع بعضهم بعضا بإخلاص حقيقي يجب أن يكون كل شيء صريحا ، وكل شيء أدرج بنية حسنة في أي اتفاق ينبغي تأييده أو رفضه بإخلاص واضح ، وبناء عليه اذا لم تمد يدك عارية ، فسنضطر الى الاعتقاد بأن هنالك بعض التحفظ من جانبك أو بعض النقص في الاخلاص ».

ووضع الخليفة يده العارية في آخر الأمر في يد هيو ، لكن في ظل معارضة شديدة ، وكأنما سلبت من جلالته ، الا أنها اتسمت بابتسامة بسيطة احزنت المصريين كثيرا ، وكرر - تقريبا - مقطعا إثر مقطع ، الكلمات التي قالها هيو عندما أملى عليه صيغة المعاهدة ، واقسم أنه سيحافظ على الشروط من ذلك الحين فصاعدا بإخلاص ودون خداع أو نية شريرة » .

وكان الخليفة ، كما ذكر هيو ، رجلا شابا ذا طبيعة سمحة للغاية ، وكانت لحيته الأولى قد بدأت بالظهور ، وكان طويلا ذا بشرة داكنة اللون ، وله مزاح جيد ، وكان لديه عدد كبير من الزوجات .

أرسل الخليفة بعد انصراف الرسل الهدايا اليهم ، كبرهان على سخائه الملكي ، وتركت هذه الهدايا بكمها ونوعها انطباعا جيدا لدى السفراء الذين غادروا الحضرة الملكية بسرور كبير ، وعادوا الى منطقتهم بابتهاج .

- ٣٢٤٤ -

٢ـ تبيان الأسباب التي دفعت الى دعوة أمير مصر باسم مولانا .

بعد أن وصفنا عظمة الخليفة حسب روايات الذين شهدوها بأم أعينهم ، سنتابع الآن الحديث حول لقب منزلته السامية وأصله وتقدمه بقدر ماهو معروف الينا . وهذه المعلومات مستمدة من دراسة كتب الأزمان القديمة ، ومن الروايات الموثوقة ايضا لأشخاص كثيرين ، لانه يستحيل ان ابلغ القارىء بخصوص هذه التفاصيل دون مساعدة التاريخ .

يعرف أمير مصر بالنسبة لشعبه باسمين ، فهو يسمى باسم خليفة ، الذي يفسر بأنه الخليفة أو الوارث لأنه يشغل موقع نبيهم الأسمى ، ويحتفظ بالخلافة بحق وراثي ، ويدعى أيضا باسم مولانا (٢١٦) ، اي «سيدنا» ويبدو ان اصل هذا الاسم الثاني يرجع بتاريخه الى ايام الفراعنة عندما اشترى يوسف الشهير سائر بلاد مصر ، وتم اجبار الناس على بيع ممتلكاتهم بسبب مجاعة رهيبة . وجعل يوسف هذه المناطق وجميع سكانها رعايا لفرعون من الحد الأقصى لمصر وحتى حدها الأدنى ، وقال للذين كانوا يحرثون الحقول :« ستعطون خمسا للملك ، وأسمح لكم أن تحتفظوا بالأجزاء الأربعة الباقية للزراعة بحيث تؤمنون متطلبات أسركم ومنازلكم وأطفالكم ». واشترى ممتلكاتهم في أول الأمر ، ثم اشترى أفرادهم ولهذا السبب ، فان المصريين ملزمون بسيدهم برابطة أكثر صرامة من التزام سكان المناطق الأخرى حيث اشتراهم مع ممتلكاتهم بثمن ، ويفسر هذا أيضا سبب ارتباطهم به على شكل عبودية من أحط الأنواع واكثرها ذلا .

وهكذا ، أصبح المصريون أقنانا بسبب العناية الشديدة لأفضل الحكام هذا ، ودعوا أميرهم دائما بعد ذلك بذلك الأسم المبجل « مولانا » ، ونشأت هذه الحالة في أيام الفراعنة ، وسادت

خلال أيام البطالة واستمرت حتى حكم الرومان ، الذين حولوا المنطقة ، كما كانت عادتهم في عمليات استيلاء اخرى ، الى منزلة إقليم ، ولايزال هنالك أثر لتلك المنزلة القديمة باق في حقيقة أن أمير مصر متحرر من المسؤولية تماما ولايعرف شيئا عن أعمال الشغب والفتن ، فهو يوقف نفسه تماما على التمتع بالراحة والرفاهية ، بينما يدير الحاكم ـ كيوسف القديم ـ كافة شؤون المملكة ، ويستخدم قوة السيف ، وينفذ العدالة بدلا من سيده ، ويسمى هذا الحاكم باسم سلطان وكان هذا هو المنصب الذي شغله شاور الذي تحدثنا عنه مرارا .

٢١ ـ حكاية السبب في تسميته خليفة ، ولماذا هو خصم لخليفة بغداد .

إن سبب لقب خليفة هو على النحو التالي : كان محمد ، رسولهم أو بالحري مدمرهم الذي كان أول من جر شعوب الشرق الى هذا النوع من الضلال ، قد عين أبا بكر ، أحد اتباعه ، كخليفة مباشر له ، وخلف أبا بكر في المملكة عمر بن الخطاب الذي خلفه عثمان أيضا والذي خلفه علي بن أبي طالب . وسمي جميع هؤلاء « الأنبياء » باسم خلفاء ، كما سمي جميع من تبعهم بهذا الاسم لأنهم خلفوا معلمهم المشهور ، وكانوا ورثة له . الا أن الخليفة الرابع ، وهو علي كان أكثر ولعا بالحرب من أسلافه ، وكانت لديه خبرة اكبر بكثير من معاصريه في الأمور العسكرية ، **وعلاوة على ذلك فقد كان نفسه ابن عم محمد (٢١٧) ، واعتبر من غير اللائق بأن يدعى الخليفة لابن عمه ، وأن لايكون هو « نبيا» عظيما ، واعظم كثيرا بالفعل من محمد ، ولم تسره حقيقة** أنه كان أعظم من محمد بتقديره الخاص وبتقدير أخرين كثر ، بل رغب بأن يتم الاعتراف بهذه الحقيقة عموما ، وهكذا ، فقد شتم محمدا ونشر بين الناس قصة كان مفادها أن الملاك جبريل ، منزل الوحي ، كان قد أرسل بالفعل اليه من السماء ، الا أنه أخطأ

-٣٢٤٦-
فأضفى الشرف العظيم على محمد . وقال ان الرب كان قد عاتب الملاك بشكل قاس بسبب هذا الخطأ ، ومع أن هذه الادعاءات بدت مزيفة بالنسبة لكثير من الناس الذين تختلف تقاليدهم كثيرا فقد صدقها اخرون ، ونشأ بالتالي انقسام بين أولئك الناس استمر حتى الوقت الحالي ، ويؤكد بعضهم أن محمدا هو الأعظم والأعظم بالفعل من جميع الأنبياء ، ويسمى هؤلاء بلغتهم باسم « أهل السنة » ويصرح آخرون أن عليا وحده هو « نبي » الله ويسمون باسم « الشيعة »(٢١٨)

هذا وقد قتل علي المذكور آنفا ، وفازت الفئة المنافسة بالسيادة ، وعلى هذا خضعت مملكة الشرق لحكم خلفاء محمد ، واحتفظوا بالسلطة وقمعوا كل من امن بالرأي المخالف ، وبرز في العام ٢٨٦ وبعد حكم المضلل الأنف الذكر (٢١٩) ، رجل نبيل يدعى عبد الله بن محمد بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي الأكبر الذي كنا نتحدث عنه وقد خرج من مدينة السلمية في الشرق وانتقل الى افريقيا ، وبعد ان استولى على جميع أراضي تلك المنطقة ، سمى نفسه باسم المهدي (٢٢٠) الذي يعني « المسوي بين الناس» اي الانسان الذي حول جميع الأشياء الى سلام ، ومهد الطريق وجعلها خالية من العوائق للناس . وبنى مدينة المهدية العظيمة حيث سميت بهذا الشكل اشتقاقا من اسمه ، وعقد العزم على أن تصبح هذه المدينة عاصمة للأقاليم الخاضعة له ، عاصمة تفوق جميع المدن ، وبنى اسطولا واستولى على صقلية ودمر أجزاء من ايطاليا . وكان أول شخص من اسرته بعد سلفه علي يجترىء على تسمية نفسه بـاسم خليفة ، ولم يعتبر نفسه خليفة لمحمد الذي كان يمقته ، بل خليفة لعلي ذلك « النبي» الأكثر شهرة وعظمة ، والذي كان ينحدر من سلالته كما قلنا ذلك. وبالفعل فقد اجترأ على ايجاد مجموعة شعائر اخرى ، وشكلا آخر للصلاة.

- ٣٢٤٧ -

وقام واحد من أحفاده يدعى أبو تميم ولقبه بالمعز ، بـالاستيلاء على مصر بوساطة جوهر القائد العـام لجيشــه حيث شـيد الأخير القاهرة أيضا ، التي يعني اسـمها « الظـافرة »(٢٢١) لأنهـا بنيت لتكون مقرا لسيده العظيم والأسمى ، قاهر كل شيء .

ترك هذا الخليفة القيروان الواقعة في بلاد إفريقية ، حيث كان قد عاش أربعة من أسلافه وذهب إلى مصر ، وجعل المدينة المذكورة منذ لحظات المقر لملكته ، ولم يتوقف منذ ذلك الحين وحتى الآن وجـود منافس يحكم في مصر ، لخليفة الشرق ، الذي كان الخليفة الأسـمى لسنوات كثيرة جدا ، وهـو منافس يكافـح دائمـا ليكون على قـدم المساواة معه ، ويدعي أنه أسمى منه (٢٢٢) .

إذا مارغب المرء بمعرفة المزيد عن هذه المسائل ، فيمكنه أن يقرأ الكتاب الذي كتبناه بعناية مثلى من المصادر العربية تلبية لمطلب الملك عموري وأمره ، حيث يعالج تاريخ أمراء الشرق وأعمالهم من عهـد المضلل محمد ، أي أنه يغطي فترة خمسمائة وسبعة وسبعين عامـا حتى الوقت الحالي الذي هو عام ١١٨٢ لتجسيد ربنا (٢٢٣) .

٢٢ - الملك يبني جسرا فـوق النيل .شـيركوه ينزل على الجزيرة و يهاجمه الملك .

عندما تجددت المعاهدة وتحولت إلى شروط مـرضية للطـرفين ، كما تم سرد ذلك ، استـعد الجميع وبـالاجماع للعمـل المخـطط ، واستعدوا لمهاجمة العدو ولطرده من سـائر أنحـاء المملكة ، وقـدم اقتراب الليل في هذه الأثناء مسوغا للراحـة . ووجـدوا الوضـع في الصباح متغيرا إلى حد ما ، فقد كان شيركوه قـد وصـل أثناء الليل وخيم على الضفة الأخرى من النهر نفسه مقابل جيشـنا ، وعندهـا أمر الملك بإحضار الزوارق وجذوع أشـجار النخيل الموجـودة هناك وبنى جسرا ، وربطت الزوارق إلى بعضها ، اثنين فإثنين ، وثبتـت

بالمراسي ، وحصن الجسر في آخر الأمر بأبراج خشبية وجهز بالآلات الحربية . واستمر العمل به عدة أيام حتى تم التوصل إلى منتصف النهر عندما حال الخوف من العدو دون مد العمل إلى الضفة المقابلة ، وعلقت هنا جميع المواجهات الحقيقية لمدة شهر أو أطول بعد ذلك ، حيث لم يتمكن المسيحيون من عبور النهر ، ولم يجرؤ العدو من جانبه على المغامرة لمسافة بعيدة خشية من أن نهجم على مؤخرته . هذا هو الوضع الذي كان سائدا في أحواز القاهرة ، وكان شيركوه قد أرسل في هذه الفترة فريقا من الرجال للاستيلاء ، إذا أمكن ، على جزيرة مجاورة كانت مليئة بكل أنواع المؤن ، لأنه كان يرغب بمنع المسيحيين من أن يغزوها في المستقبل . وأنجز هذا المشروع بنجاح .

وحالما علم الملك أن العدو قد استولى على الجزيرة ، أرسل إلى هناك ميلون دي بلانسي والكامل وهو واحد من أبناء السلطان مع قوة من الفرسان ، فوجدوا الأتراك قد استولوا على الجزيرة ، ويعاملون السكان بطريقة مخزية للغاية ، فهاجموهم على الفور وتلا ذلك معركة اشتبك فيها الطرفان بشكل عنيف جدا ، وأخيرا انتصر المسيحيون بعون الرب ، ودفعوا العدو مباشرة إلى النهر المجاور ، فغرق فيه الذين نجوا من القتل في الأمواج الثائرة ، لقد هلك خمسمائة جندي من جنود العدو في ذلك اليوم من جراء تعرضهم لحوادث متنوعة وأربك الرعب شيركوه عندما بلغته قصة هذه المعركة وبدأ يفكر بريبة خطيرة بشأن النجاح النهائي لمشروعه .

كانت هذه هي حال الأمور عندما وصل بعض القياديين في المملكة إلى المعسكر وهم همفري أوف تيرون كافل المملكة ، وفيليب صاحب نابلس ، فهما لم يكونا قد خرجا مع الملك ، بل كانا قد تخلفا لأسباب خاصة ، إلا أنهما تبعا الجيش بالسرعة الممكنة وانضما إلى معسكرنا ، فحيتهما الكتائب بابتهاج كبير لأنهما كانا رجلين شجاعين وجبارين في استخدام الأسلحة ، وكانا مدربين من حداثة سنهما على فن الحرب .

عقد اجتماع على الفور لتحديد خطة بشأن الاجراء المتوجب تبنيه وتقرر في النهاية وبموافقة إجماعية أنه يجب تسيير الأسطول باكمله في صمت الليل ودون معرفة العدو إلى جـزيرة تقـع على بعـد نحـو ثمانية أميال دون المعسكر ، وتوجب نقل الجيش بـاكمله في حـوالي الهزيع الأول من الليل عبر النهر ، ومن ثم الانقضاض خلسة خـلال الليل على العـدو بينمـا يكون بعيدا عن الحـراسة ، وإلحـاق كل الأضرار الممكنة به ، وصدرت الأوامر لتنفيذ هـذه الخـطة ، ونزل الأسطول على الفور إلى الموقع المتفق عليه ودون أن يكشـفه العـدو وتبعه الجيش بصمت تام ، وعبر بسرعة واستولى على الجزيرة .

وبينما هم يحاولون عبور القناة البعيدة مـن النهـر وبـالطريقة نفسها حسب الأوامر الصادرة إليهم هبـت فجـأة زوبعـة شـديدة ومنعتهم من تحقيق هدفهم ، واجبروا على إقـامة معسـكرهم على جزء من الجزيرة كان يواجه الشاطيء الآخر ، وخلفت جـزءا مـن القوة لتنهي بناء الجسر ولتحميه بعد إنجازه ، وكان يقودها هيودي ابلين وهو فارس قوي وشجاع ، وكان قد تـزوج مـن مـطلقة الملك عموري كما ذكرت من قبل .

٢٣ – وصف الجزيرة واسماء واعداد المصبات التـي يدخل بوساطتها النيل الى البحر.

المسيحيون يطردون العدو ويسـتولون على الجـزيرة . شـيركوه يهرب إلى الصحراء .

يطلق السكان على الجزيرة موضوع حـديثنا الآن اسـم المحلة ، وهي تتمتع بتربة معطاءة جـدا ، وتعـج بجميع الأشـياء الجيدة ، وتنفصل مياه النيل عند هذا الموقع ، ولاتنضم الفروع التـي تتفـرع هنا إلى النهر الرئيسي ثانية حتى تصل إلى البحر ، وحتـى عندئذ ، فإن الأنهار لاتتحد ، بل تمتزج مع البحر عن طريق أربعـة مصـبات

منفصلة . ويجري الفرع الأول الذي يواجه سورية التابعة لنا إلى البحر بين مدينتين بحريتين قديمتين جدا هما تنيس والفرما. ويجري في طريقه على مسافة قريبة جدا من إحدى هاتين المدينتين حتى أنه يغسل مبانيها ، غير أنه يقع على بعد نحو ثلاثة أو أربعة أميال من المدينة الأخرى ،وينضم الفرع الثاني إلى البحر عند مدينة دمياط ، وهي مدينة مهيبة وقديمة ، بينما يقع الفرع الثالث عند الدلتا ، ويجري الفرع الرابع إلى البحر عند رشيد التي تقع على بعد أربعة أو خمسة أميال من الاسكندرية ، ولم نكتشف أية مصبات أخرى لهذا النهر ، وذلك على الرغم من إجراء بحث وتقص دقيقين ، ونعتبر هذا غريبا لأن القدماء يسمون نهر النيل باسم النهر الجاري بسبعة ، لأنه كان يدخل البحر بسبعة مصبات (٢٢٤)، إن التفسير الوحيد الذي يخطر لنا هو أن سطح المنطقة قد تغير خلال عصور متتالية ، وأن النهر قد غير مجراه كما حدث في حال أنهار أخرى كثيرة جدا ، هذا ومن المحتمل أن الناس الذين عاشوا في تلك الفترة المبكرة لم يفهموا حقيقة المسألة ، أو ربما ازداد النهر زيادة أكبر من المعتاد ، ففاض وشكل في زمن فيضانه السنوي مجاري أخرى بالاضافة إلى هذه المجاري الأربعة التي تخلى عنها البحر عندما انخفض الماء من جديد ضمن قاعه ، وإذا كانت ماتزال موجودة ، فإننا لم نعدها كفروع لأنها غير مملوءة دائما ، بل هي كالسيول تمتلىء في فصول محددة فقط (٢٢٥) .

وعلى الرغم من أنه تم الاستيلاء على ا، جزيرة ، فقد بقي المجرى الأدنى خارج حدود سيطرتنا ، ونهض العدو من النوم عندما سطع نور النهار ، ووجد أن العدو كان قد رحل وأن الأسطول قد رحل أيضا ، فأمسك جنود العدو بأسلحتهم تحسبا لتعرضهم لهجوم مفاجىء على أيدي المسيحيين ، وعندما تقدموا بسرعة ، ونشروا صفوفهم على طول النهر رأوا أن قواتنا كانت قد استولت على الجزيرة ، وكانت تدافع عن حقها بإدخال الأسطول في المجرى الذي يجب عبوره ، وهكذا ضربوا مخيمهم في الموقع المقابل ، وعلى بعد

من الشاطىء إلى حد ما على الرغم من أنهـم لم يحصـلوا في هـذا الموقع على طريق حر إلى النهر ، بل أجبروا على الذهاب إلى مسافة أبعد باتجاه مجرى النهر حتى لسقاية خيولهم .

كان المسيحيون قد صمموا على تجريب قـدرهم في اليوم التـالي إلى الحد الأقصى ، وعلى شق طريقهم بالسيف إذا لزم الأمـر ، غير أن الكفرة رحلوا أثناء الليل ودون علمهـم ، وعبـر جيشـنا النهـر بسرعة عندما انبلج الصبح ورأى أن العـدو كان قـد غادر ، وأسرع بمطاردة العدو . وتخلفت قوات المشاة لتتمكن قوات الفـرسان مـن التقدم بسرعة أكبر ، وانطلق الملك بـرفقة عدد قليل مـن الفـرسان فقط ، وأرسل هيودي ابلين وكامل ، ابن السلطان ، مع قـوة كبيرة من الفرسان المسيحيين والمصريين ليقوموا بحماية القاهرة والجسر الذي كان الجنود قد شيدوه حتى لايتعرض لهجوم معاد مفـاجىء ، وأوكلت مسـؤولية العناية بـالأبراج وجميع تحصـينات تلك المدينة المهيبة إلى شعبنا ، وأصـبح قصر الخليفـة معـروفا بـالنسبة للمسيحيين الذين لم يكونوا قد عرفوه حتى ذلك الحين ، لأن الحاكم ذاته ، وجميع أفراد أسرته اعتمـدوا على قـوات الملك مـن أجـل سلامتهم ثم كشف النقاب للمسيحيين عن أقدس المقدسات ذلك الذي كان محجوبا عن العالم ، وعن الأماكن الأكثر عمقا والتي لم يكشف النقاب عن عجائبها إلا لقلة قليلة فيما مضى .

وأرسل الملك أيضا جيرارد دي بوغي وابنا آخر للسـلطان يدعى طي إلى الضفة الأخرى من النهر مع قوة مؤلفة من الشعبين ، وأمرا أن يقمعا العدو إذا صدف وحاول عبور النهر . ثم انطلق الملك تاركا معظم العوائق ، كما قلنا ـ مطاردا للعدو بعكس تيار النهر لأن بنية المنطقة كانت تمكن تتبع آثار العدو ولحاقه على الطرق التي سـلكها دون صعوبة .

٢٤ –مصر و معالمها المميزة .

تقع بلاد مصر كلها بين صحراوين رمليتين قدر لهما أن تكونا قاحلتين إلى الأبد ، وذلك بدءا من حدودها النائية التي قيل إنها تتصل بأطراف السودان ولاتعرف المنطقة نفسها المحاصيل المثمرة من أي نوع ولاتنتجها ، إلا عندما تصبح خصبة في مواسم محددة عندما يفيض نهر النيل ويغمر الأراضي بمياهه ، وذلك فقط عندما تسمح طبيعة المنطقة المتاخمة بأن يجعل النهر التربة موائمة لانتاج المحاصيل . فالنهر ينتشر بحرية فوق منطقة واسعة حيثما يجد سطحا مستويا ويجعل التربة خصبة . وكلما ازداد توزيع المياه ازداد نطاق المنطقة التي تصبح بالتالي صالحة للزراعة .

وللانهار نطاق واسع فيما وراء القاهرة نحو البحر حيث المنطقة مستوية جدا . ولهذا السبب فإن هذه المنطقة معطاءة للغاية في كل مكان في المجال الواسع الذي يسقيه النيل ، وهكذا ، فإن النهر يضمن إنتاج محاصيل وفيرة جدا ويوسع حدود المملكة أيضا ، لأن النيل ينقل نعم الخصب والحراثة لمسافة مئة ميل ونيف من القلعة التي تدعى الفاقوس التي تواجه سورية وحتى الاسكندرية التي تجاور الصحراء الليبية ، وهي آخر مدينة مصرية ، هذا وإن المنطقة الواقعة وراء القاهرة وحتى قوص – وهي مدينة مصرية واقعة في اقصى الجنوب ، موقع يقال إنه يتاخم مملكة الأثيوبيين – محصورة بهضاب رملية متوالية ، وفقط هنا وهناك يمتد النهر إلى عمق سبعة أو ثمانية أميال ؛ وعموما إلى اربعة أو خمسة أميال احيانا على كلا الجانبين ، وأحيانا على جانب واحد فقط حسب مدى الفيضان ، ويقلص أو يزيد بهذه الطريقة المدى الجانبي للملكة لأن المناطق التي يرويها النهر مقدر عليها كما قلنا عقم دائم بسبب الحرارة الشديدة لاشعة الشمس ، واسم هذه المنطقة العليا الصعيد بلسان المصريين ، ولم نتمكن حتى الآن من ان نعثر على اصل هذا الاسم ، إلا أن الأسطورة تقول إنه كانت في الأزمان الأولى مدينة قديمة في

هذا الجزء العلوي من مصر تدعى السويس ويذكر صاحبنا أفلاطون المدينة في كتابه Timaeus من خلال الحديث عن تلميذه كريتياس الذي تحدث عن صولون وهو رجل كان صاحب نفوذ كبير ، ويبدو من المستحسن ، كدليل أفضل من هذا ، أن نقدم أقواله ذاتها حتى لانفتقر إلى أي توثيق . فهو يقول : « هناك جزء من مصر يدعى الدلتا تتفرع مياه النيل عند طرفه . وقامت فيما مضى مدينة عظيمة تسمى السويس بالقرب من هذا الموقع كانت تحكم حسب عادة قديمة تسمى قانون ساتيران(٢٢٦)وكان الامبراطور اماسيس من هذه المدينة بالأصل » الخ ....

لايزال جزء اخر من هذه المنطقة ينتمي إلى مصر ، فهو يقع على بعد مسافة مسيرة يوم واحد من القاهرة عبر منطقة غير مسكونة ، وتتمتع هذه المنطقة بتربة خصبة بفضل الفوائد التي كانت تتلقاها من النهر بوساطة بعض فروعه ، وتتمتع بحقول وكروم خصبة. ويدعو المصريون هذا الجزء من البلاد باسم الفيوم (الفيلة) .

تقول روايات الأزمان الأولى إن هذه المنطقة كانت قاحلة من قبل ، ولم تتم حراثتها من قبل أبدا بل تركت دون حراثة وعناية من بداية الحياة تماما مثل الأجزاء الأخرى من هذه الصحراء نفسها ، إلا أن يوسف ، ذلك الحاكم العاقل لمصر ، الذي كان على أهبة الاستعداد دائما ليدرك أي شيء يمكن تحويله إلى فائدة ، استقصى عن موقع المنطقة ، ولاحظ أن هذه الأراضي كانت أكثر انخفاضا من المنطقة المحيطة بها ، وأدرك أنه لو أزيلت بعض الروابي المنخفضة التي كانت واقعة بين المنطقة المأهولة بالسكان وبين هذا الجزء من الصحراء فبإمكان هذا الموقع أن يتلقى فائدة المياه بسهولة ، فبنى سدودا ، وسوى الأرض بينهما وأدخل فائض النيل ، وسير الماء خلال قنوات كانت قد جهزت وأنتجت خصبا لم يكن معروفا هناك حتى وقته .

ومع أننا لانعرف الاسم القديم لهذه المنطقة ، فإننا نعتقد أنها كانت تدعى باسم طيبة العصور الأولى ، ويقال إنه نشأت من هنا أسطورة الطيبيين المقدسين ، الذين توجوا بالاستشهاد في أوغانوم في ظل حكم دقلشيان والامبراطور مكسيمنوس والذين نقرأ أن شهيدهم الأول كان مارتوس وهنالك برهان آخر أيضا ، فإن أفضل أنواع الأفيون ينمو هناك ويدعوه الأطباء باسم « الطيبي » (٢٢٧) .

والآن إن بلاد غوشن التي يقال إن يوسف أعطاها لاخوته تقع في الجزء المصري الذي يواجه سورية حسب الوصف المقدم في سفر التكوين ، وهذا ما يمكن للقارىء المجتهد أن يكتشف بسهولة لنفسه ، وعلى العكس ، إن هذه المنطقة التي تواجه ليبيا الدنيا ، واقعة على الطرف الآخر من مصر وهي على الضفة الثانية من النهر ، وتتمتع بمساحة كبيرة ، ويقال إنها تضم بالفعل داخل حدودها ثلاثمائة وستة وستين مدينة وقرية .

وهكذا كانت المملكة ضيقة جدا بسبب طبيعة المنطقة ، كما قلنا ، حيث كان يستحيل الالتفات إلى اليمين أو اليسار ، وجلب الكشافة إلى الملك والسلطان معلومات متواصلة عن تقدم العدو . واستمرت المطاردة لمدة ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع الذي كان يوم السبت قبل يوم الرب عندما ينشد في الكنيسة أنشودة « ابتهجي ياقدس » (٢٢٨) . وصلت الأخبار أن العدو كان في الجوار .

٢٥ ـ نشوب معركة حملت مخاطر شديدة على الجانبيين بين الملك وشيركوه في الصحراء.

عقد على الفور اجتماع قصير بالضرورة لانه اتضح انه كان هنالك حاجة لرأي حكيم وروح شجاعة ولم يسمح الطارىء الملح . بالتأخر طويلا . وتقرر بموافقة اجماعية خوض المعركة ولاقى قرار

وجوب حل المسألة بالسيف ترحيبا بالتصفيق ، الا ان عدد المحاربين المدرعين في الجيشين لم يكن متكافئا على الاطلاق ، فقد كان مع شيركوه اثنا عشر الف تركي ، كان تسعة الاف منهم يرتدون الدروع والخوذ ، ولم يستعمل ثلاثة الالاف الاخرين سوى القسي والسهام ، وكان معه اضافة الى ذلك عشرة او احد عشر الف عربي حاربوا بالرماح فقط حسب عادتهم ، وبالمقابل لم يكن لدى المسيحيين سوى / ٣٧٤ / فارسا تقريبا بالاضافة الى المصريين المخنثين والعديمي الجدوى . والذين كانوا عائقا وعبئا اكثر من كونهم مصدر مساعدة لنا ، وكان لديهم (الفرنجة) ايضا بعض الفرسان المسلحين تسليحا خفيفا من الذين يدعون التوركبلي (٣٢٩) ، لكنني لااعرف عددهم ، الا ان الكثيرين ابلغوني ان هذه القوات كانت عديمة الفائدة على الاغلب في الصراع الضخم الذي وقع في ذلك اليوم .

حالما علم الحشدان المتعاديان باقترابهما من بعضهما بعضا ، نظما صفوفهما بتشكيل المعركة ، حسبما تطلب الحال ،ورتبوا كتائبهما ، وعرضوا اسلحتهما ، وخص المحاربون القدماء بحكمتهم التي حصلوا عليها من الخبرة في صراعات سابقة ، الباقين وارشدوا العساكر واثاروا شجاعتهم بوعدهم بالنصر والمجد الابدي الذي هو ثمرة النجاح .

كان الميدان الذي قدر ان تجري فيه المعركة على منطقة الحدود بين المنطقة الخصبة والصحراء . وكانت الارض وعرة هنا تتخللها هضاب من الرمل ومنخفضات لذلك استحالت رؤية القادمين او الذاهبين من مسافة بعيدة ، كان الموقع يدعى البابين ــ يعني الابواب ــ لان الممر بين الهضاب على كلا الجانبين ضيق جدا في هذا الموقع ، ويقع على عشرة اميال من المنية ، ولهذا السبب ، تعرف هذه المعركة احيانا بانها معركة المنية .

كان العدو قد استولى بحكمة فعالة على الهضاب الواقعة على

اليمين واليسار ، وكان قد شكل قواته بترتيب المعركة ، كما ان الارض الصاعدة ، والطبيعة اللينة للرمل جعل من الصعب بالنسبة لرجالنا ان يقتربوا باندفاع الى هذا الموقع ، وكانت الكتيبة التي يقودها شيركوه قد احتلت القلب ، وانتظم الباقون على كلا الجانبين ، ووصل الصراع بسرعة الى مرحلة اصبح القتال فيها ضروريا من مواقع متلاحمة ، وتقدمت فرقة الملك بشجاعة وبتصميم واحد ، واربكت كتائب شيركوه وشتتها ، فهرب شيركوه نفسه والعدو يلاحقه بمطاردة محكمة .

وهاجم هيو صاحب قيسارية الفرقة التي كان يقودها صلاح الدين ابن اخي شيركوه ، الا ان رجاله تخلوا عنه ، ولذلك مني بالهزيمة وتم اسره مع عدد كبير من جنده ، وجرى قتل اعداد اكبر ايضا وقتل في هذه المعركة يوستاس وهو حاكم نبيل وشجاع من منطقة بونتيو .

اتحدت الفرقة التركية الاخرى بعدما ابتهجت بهذا النجاح ، وطوقت بالكامل القوات المسيحية التي كانت قد عينت لحماية الامتعة والمعدات ، فهزموها وشتتوا شملها على الفور بهجوم ضروس ، ويقال ان هيو اوف كريونا سقط في هذه المعركة ، وكان نبيلا صقلي المولد ، وكان رجلا شابا صاحب حياة مستقيمة وشريفة .

وتمزقت صفوف المسيحيين الان ، وقتل العديد من شعبنا ، ولاذ بالفرار الذين كانوا قد نجوا من الموت ، فاستولى العدو على الامتعة والمعدات دون نزاع وقام بنقلها بعيدا .

وحاربت القوات المتفرقة هنا وهناك بين الاودية الصغيرة بحظ متنوع ، وكان المحاربون انفسهم هم الشهود فقط ، حيث لم يتمكن شخص اخر من مشاهدتها ، ولم تكن المعركة حاسمة ، فقد تغلب الاتراك احيانا وتغلب المسيحيون على الاتراك تارة اخرى ، وكلهم

جاهلون على حد سواء بما كان يجري في الموقع الاخر ، واصيب اخونا المبجل رالف اسقف بيت لحم ، الحاجب الملكي الذي خلفناه فيما بعد في ذلك المنصب ، بجراح خطيرة في غمرة الفوضى وفقد جميع امتعته(٢٣٠)، ولم تحسم نتيجة المعركة لفترة طويلة من الزمن ، كما ان القرار الحقيقي للنصر قد ارجىء حتى انذر مغيب الشمس الجنود المتفرقين بالعودة الى الويتهم ، ثم بدأ في اخر الامر الذين كانوا مايزالون طليقين بالاسراع بالعودة الى صفوفهم بسبب الخوف من الليل القادم وهم يبحثون عن الملك بتلهف ، واحتشدوا من جميع الجهات ووحدوا الصفوف من جديد .

كان الملك قد خرج منتصرا في الموقع الذي كان قد حارب فيه ، وكان اخرون موجودين في هذا المكان او الاخر قد جربوا حظ الحرب بنتائج مختلفة حيث كانوا ينعمون بالنجاح هنا ، وبمصير معاكس هنالك بحيث لم يتمكن اي من الطرفين الادعاء بانتصار حاسم ، وانسحب الملك في النهاية مع عدد قليل من اتباعه الى احدى الهضاب المرتفعة بعض الشيء فوق السهل ، وقرر التمركز هنالك ، وانتظر رفاقه رافعا لواءه لاستدعاء قواته المتفرقة،ورأى المسيحيون ، عندما كانت هذه القوات قد احتشدت بشكل جزئي ، ان الفرقة التركية التي كانت قد ابانت قطار امتعتهم ، بقتلهم لبعضهم واسرها لاخرين ، كانت في حالة فوضى على الهضبتين المقابلتين لهم ، ولم يكن هناك اي طريق ممكن لينسحب فيه جيشنا باستثناء ذلك الطريق الذي كان يمر بين الهضبتين اللتين كان العدو يحتلهما ، هذا وصمم المسيحيون على الانسحاب فعبأوا صفوفهم بشكل متراص ، وبدأوا يتقدمون ببطء بين العدو الذي شاهدوه على اليمين واليسار ، وتقدموا على هذه الصورة بثبات حيث لم يجرؤ الكفرة على محاولة القيام باي عمل عدائي ضدهم ، وشق رجالنا طريقهم متراصين الى مكان محدد من النهر حيث عبروه بسلام بواسطة احدى المخاضات بعدما وضعوا الرجال الاقوى والافضل تسليحا حول الصفوف ، واستمروا بالتراجع بهذا الشكل نفسه طوال الليل باسره وعلى طول الطريق ذاته الذي كانوا قد تقدموا عبره من قبل .

والتقى جيشنا في المنية مع جيرارد دي بـوغي الذي كان يسـيطر مع خمسين فارسا ومئة من التوركبلي وبمسـاعدة طـي احـد ابناء السلطان على الضفة الاخرى من النهر لقمـع العـدو اذا مـاحاول عبوره ، وكان وصول جيرارد موائما للغاية لان الملك كان قلقا جـدا خشية ان يهاجمه العدو وحده على احد جوانب النهر ، هـذا وكان مايزال قلقا حول كتائب المشاة التي كانت ستلحق به بقيادة فـارس شجاع وحكيم يدعى جوسلين صاحب سميساط ، وكان هنالك خطر كبير بالفعل من انهم قد يصطدموا بـالعدو فجـأة وهـم غافلون عن الحراسة .

انتظر الملك وصولهم مدة ثـلاثة ايام في المنية ، ومـع اليوم الرابـع اخذت قوات الرجالة بالتجمع بالتدريج وانضمت الى قواته من جديد.

واثر هذا تابعت القوات زحفها دون توقف نحو القاهرة وعسكرت الى جانب الجسر امام بابليون ، واحصى الملك فرسانه هناك ، ووجد انه فقد مائة فارس ، ويقال ان العدو فقد خمس عشرة مـائة جندي في تلك المعركة .

٢٦ ـ شيركوه ينسحب الى الاسكندرية ، والملك يمضي مسرعا الى هناك ويحاصر المدينة.

جمع شيركوه الان جميع قـواته المتبقية واعاد تنظيمهـا في قـوة واحدة . ثم زحف خلسة ودون معرفة المسيحيين عبر الصـحراء الى الاسكندرية حيث سلم السكان المدينة اليه فورا .

نقلت معلومات هذه الواقعة الى الملك حالا ، فاستدعى على الفور مستشاريه الرئيسـين بـالاضافة الى السـلطان وابنائه والنبـلاء المصريين وتداول معهم بخصوص الاجراءات التي ينبغي اتخاذها ،

وتقرر بعد مناقشة طويلة ــ كما هي الحال في مسائل محـط خـلاف ــ وضع الاسطول في النهر كعائق لانه لم يكن لدى الاسكندرية ضمن حدودها اية مصادر للحبـوب او المؤن الغـذائية الاخـرى ، وكانت تعتمد كليا على ماتجلبه السفن من مصر العليا ، وفي هـذا الوضـع كان الاسطول يسـتطيع ان يقـطع جميع التجـارات مـع الناس في الخارج .

وبعدما جرى تنفيذ هذا قـاد الملك سـائر جيشـه الى المنطقـة المجاورة ، واقام معسكره بين تروجه ودمنهور في موقع يقع على بعد نحو ثمانية اميال من الاسكندرية ، وارسل الكشافة من هناك لزيارة جميع القرى الواقعة في المنطقة المجاورة وتدميرها حتى مـع القـرى البعيدة جـدا في الصـحراء ، ورغب في ان يمنع وصـول اية مساعدة مـرسلة الى المحـاصرين ، وان يعتـرض ايضـا جميع المراسلين المغادرين المدينة لطلب المساعدة مـن الخـارج ، وكعـائق اضافي ، منع الاسطول كل مرور في النهـر ، ولم يسـمح لاي واحـد مهما كان معروفا بالنزول دون الخضوع لاستجواب دقيق .

وانقضت فترة شهر واحد في ظل هذه الظروف ، ولم تتلق المنطقة خلال ذلك الوقت اية مؤن من الخارج ، وبـدأ الناس يتـذمرون لان الخبز بدأ ينفد من خـزائنهم ، ولم تـكن لديهـم اية مـواد غذائية ، وعندما علم شيركوه بهذا الامر بدأ يخشى ان يدفع وجيشـه لمكابـدة المجاعة مع الباقين ، وهكذا ، ترك ابن اخيه صلاح الدين مـع نحـو الف فارس مسؤولين عن المدينة ، وانسحب هو ليلا عبر الصـحراء ومع انه مر على مسافة قريبة جدا من قواتنا ، فقد نجح في النجـاة الى القسم العلوي من مصر ، الى حيث كان قد اتى منذ زمن قصير

بدأ الملك بالمطاردة حالما علم برحيل شيركوه وتقدم حتى بابليون ، وكان جميع جيشه مستعدا للتقدم ، وكان قد امر بتـرتيب الامتعـة للقيام بمطاردة اضافية عندما اقترب منه فجأة ابن القرصللي ، وهو

نبيل مصري قوي ، وابلغه أن الاسكندرية كانت تعاني مـن مجـاعة شديدة جدا ، زد على هذا ، لقد قال انه له اقارب ذوي نفوذ كبير في المدينة نفسها لابل وكانوا حكاما للمدينة بالفعل ، وان بامكانهم بكل سهولة توجيه الناس الذين يعيشون الان تحت وطـأة الجـوع ، الى اي اتجاه يرغبون ، وحتى الى درجة تسليم المدينة ووضعها بين يدي الملك مع جميع الاتراك الذين تركوا هناك .

تاثر الملك بهذا النبأ ، وسأل مستشاريه مباشرة عن السياسة التي يرونها هي الامثل واخيرا عادوا الى الاسكندرية فتلك كانت رغبات الجميع وهذا ماوافق عليه السلطان نفسه ، ووضعوا الجيشين حول المدينة كقوة محاصرة .

٢٧ - وصف موقع الاسكندرية

تعتبر مدينة الاسكندرية احدى المدن المصرية الواقعة في ذلك الجـزء من البلاد الذي يمتد غربا نحو ليبيا ، فهي تقع على الحد الواقع بين الارض المزروعة والصحراء القاحلة ، وتقع فيما وراء أسوار المدينة صحراء واسعة تتاخمها من ناحية الغرب وهي لم تنعم ابدا ببركات الحراسة والعناية ، وحسب التواريخ القديمة ، أسس هـذه المدينة الاسكندر المقدوني بن فيليب حيث استمدت اسـمها منه ، ويصرح جوليوس سولنوس انها بنيت في ايام الاولمبياد الثاني عشر بعد المائة في عهد القنصل لوكيوس بابيروس نجل فوريوس وفي عهد القنصل غايوس بيتليوس بـن غايوس و خـططها المهندس المعمـاري دينو كراتيس الذي يحتل المكان الثاني بعـد مـؤسسها في ذكريات الناس المقرة بالجميل. (٢٣١)

تقع مدينة الاسكندرية بالقرب من مصـب نهـر النيل الذي يدعوه بعضهم باسم هيراكليوتيكون ويسـميه آخـرون بـاسم مصـب كانوبك ، هذا وإن الموقع الذي يشتق منه اللسان البحـري الاقـرب

لتلك المدينة اسمه ، قد فقد تسميته القديمة ويدعى الآن رشيد . وتقع المدينة على بعد خمسة أو ستة أميال من مجرى النهر ، إلا أن بعض الماء ينقل الى المدينة بواسطة قنوات عديدة خلال موسم الزيادة السنوية لماء النهر ، ويحفظ تدفق الماء هذا بعناية مثلى في أحواض ضخمة مصممة خصيصا لهذا الغرض ، من أجل استخدام الناس خلال العام بأكمله ، ويحول مقدار من الماء بقدر ما هو ضروري خلال قنوات تحت الأرض من أجل سقاية البساتين الواقعة خارج المدينة.

تقع الاسكندرية في موقع موائم للغاية لمواصلة تجارة واسعة ، وفيها مرسيان منفصلان عن بعضهما بمساحة ضيقة جدا من الأرض ويرتفع عند ذلك اللسان برج ذو ارتفاع رائع يسمى الفاروس . ويقال إن يوليوس قيصر قد بنى هذا من أجل الاستخدام والافادة منه وأنه كان قد قاد جماعة من المعمرين الى هناك(٢٣٢).

تتلقى الاسكندرية وفرة من المؤن الغذائية من كل نوع بواسطة نهر النيل ، وتتلقى بالفعل ثروة كبيرة من كل نوع تقريبا ، وإذا وجد هنالك أي شيء تفتقر اليه المنطقة نفسها ، فإنه يجلب بوساطة السفن من البلدان عبر البحر بوفرة وغزارة. ونتيجة لذلك تشتهر الاسكندرية بتلقي كميات كبيرة من السلع من كل نوع أكثر من أية مدينة بحرية أخرى ، ومهما ينقص منطقتنا من العالم بخصوص التوابل واللآلىء والكنوز الشرقية والسلع الأجنبية ، فإنه يجلب الى هنا من الهندين وسبأ وشبه جزيرة العرب والسودان والحبشة وكذلك من بلاد فارس ومن مناطق أخرى مجاورة ، وتنقل جميع هذه السلع الى مصر العليا عن طريق البحر الأحمر الذي شكل الطريق من تلك الشعوب الينا ، ويتم تفريغها عند مدينة عيذاب(٢٣٣) الواقعة على شاطىء ذلك البحر نفسه ، وتنقل عبر النيل من هناك الى الاسكندرية . وهكذا ، يندفع الناس من الشرق ومن الغرب الى هنالك بأعداد ضخمة ، وهكذا تعتبر الاسكندرية سوقا عامة لهذين

العالمين ، وهي مشهورة بالقابها القديمة والحديثة ، إلا أنها تستمد منزلة خاصة بسبب وعظ وحديث القديس مرقص الابن الروحي لأمير الحواريين الذي أرسلته الارادة السماوية الى تلك الكنيسة ، وعلاوة على ذلك ، لقد باتت مشهورة أكثر بحقيقة أن الأبوين المقدسين سيرك وأثناسيوس اختاراها كمكان لسكناهما ودفنا فيها ، وتحتل الاسكندرية المرتبة الثانية بين البطريركات الأربع وتتوجه اليها كمطرانية مصر وليبيا وبنتابولس واقاليم اخرى كثيرة.

أرسل الاسطول باكمله الى هناك ، وحوصرت جميع الأبواب وجميع وسائل الاقتراب ، ولم يسمح لأحد بالدخول.

٢٨ ـ الملك يواصل الحصار ، ويذكل بالسكان بشكل مريع

وفي هذه الأثناء علم المسيحيون الذين كانوا قد بقوا في سورية أن الملك القى الحصار على مدينة الاسكندرية ، وعرفوا أنه يمكنهم الوصول الى تلك المدينة خلال بضعة أيام بالابحار دون توقف ، وهكذا ، حملوا أسلحتهم وباشروا الرحلة بتلهف ، وأبحروا بابتهاج وبمبادرتهم الخاصة بعدما حملوا السفن بجميع المؤن اللازمة ، وذهب معهم فريدريك رئيس أساقفة صور وسلفنا الذي تأثر بحماسة الآخرين وبعاطفة جياشة نحو الملك ايضا ، إلا أنه بدا يعاني على الفور من نوبة خطيرة من مرض الزحار نشأت بسبب شربه من ماء النيل ، وازداد مرضه فاضطر للعودة الى موطنه قبل أن تستسلم الاسكندرية للملك.

جمع الجيش المحاصر والمجتمع امام المدينة الآن عددا ضخما من السواري ، واستدعى الحرفيين والنجارين وامرهم بتشييد برج

الرعب حتى أنهم تخلوا الآن عن الرغبة الكلية بالحرية ، وفضلوا أن يتخلوا عن المدينة وأن يستعبدهم أي فرد على أن يموتوا من جوع قاس في بيوتهم مع زوجاتهم وأطفالهم ، وبدأت الشكوى تنتشر بين الناس ، وقيل علانية وعلى الفور إن الغرباء المزعجين الذين كانوا قد جلبوا هذا الأسى عليهم يجب طردهم من المدينة ، ونادوا بضرورة البحث عن اتفاق من نوع ما يمكن بوساطته تبديد هذه المحن غير الموائمة ، ورفع الحصار وإعادة المدينة الى حالتها السابقة من السمو والحرية.

واحس صلاح الدين بحالة الشعور العامة هذه ، فأرسل رسلا سريعين بسرعة قصوى الى عمه مع بيان عن الأحوال : الوضع البائس للمدينة ، والفقدان التام للمؤن الغذائية ، ورغبة الناس بالتخلي عنها ، وتوسل اليه بجدية بالغة وبكل حجة ممكنة ليتدبر إرسال نجدة فورية لاسعاف الناس البائسين من الوقوع في خطر وشيك جدا.

وناشد في غضون ذلك أعيان المدينة والناس أنفسهم ، وحذرهم من أنه ينبغي عليهم أن يقاتلوا حتى الموت دفاعا عن زوجاتهم وأبنائهم ، وحثهم على مجاراة عادات أسلافهم وتقاليدهم وأن المعونة أمام الأبواب ، لا بل إن عمه شيركوه قادم عبر مصر ليطرد العدو وليحرر الاسكندرية ، وسيصل بسرعة بالغة مع عدد كبير من الجنود .

وطالب الملك ، المدرك تماما للنزاع القائم بين السكان ، بتشديد الحصار دون توقف وكانت تزداد هجماته ضراوة كلما ازدادت معرفته بوضعهم البائس ، وكان السلطان أيضا على أهبة الاستعداد باستمرار ، وكان نشيطا وفعالا ومجتهدا ومليئا بالقلق ، وقام بالتجول بين جميع القادة . ووزع المال بيد سخية لبناء الآلات الحربية ، كما وزع مبالغ طائلة لجميع مستلزمات

شديد الارتفاع يمكن من ضمنه معاينة المدينة بأسرها ووضعت أيضا وفي أماكن استراتيجية حــول الاســوار الآلات الحــربية المسـماة المجانيق التي تقذف أيضا حجارة ضخمة ذات وزن كبير ، وقــذفت من هذه الآلات وبشكل مستمر تقريبا الى أبعد الحدود.

وكانت المدينة محـــاطة بحــدائق مثمـــرة ذات مـــظهر بهيج للغاية ، وكانت مليئة بأشجار الفــاكهة والنبــاتات الطيبــة كغــابة مورقة ، وكان منظر هذا المنتجع الرائع يجذب المارين به الى دخوله والاستراحة فيه ، واجتـــاح جندنا هـــذه البســـاتين بـــأعداد ضخمة ، وبقصد أساسي هو ايجاد مادة لبناء الآلات الحربية ، لكن ما لبثوا أن تملكتهم رغبة وحيدة في الحاق الأذى والتخريب فقـطعوا الأشجار العطرية باذلين جهودا تفوق بحماستها الجهود التي بـذلت اثناء الزراعة أصــلا ، وكانت هـــذه الأشـــجار مفيدة لأغراض كثيرة ، كما لم يمض وقت طويل حتى أبيدت الحدائق عن بكرة ابيها و لم يبق أي أثر من الآثار على حالته السابقة ، و كان هذا العمل قد دفع الناس الى الشكوى بمرارة بالغة بعدما جرى اقــرار معــاهدة السلام ، فقد شعروا انهم تلقوا في هذا المجال أذى وأضرار بالغة.

واستمر جيشنا في تضييق الحصــار ، واســتخدمت كل وســيلة لالحاق الأذى ، وكانت تستنبط باستمرار وســائل جـديدة لانهــاك المحاصرين ، ولم تسمح الهجمات المستمرة بأية استراحة للمدافعين المرهقين ، كما أن السكان المعتادين على المتاجرة فقط ، والذين لم يكونوا متدربين على فن القتــال ، ولم تـــكن لديهـــم خبـــرة في الصراع ، وجدوا أنه من الصعب تحمــل هــذا النوع الغــريب مــن العمل ، وكان الأتراك الذين بقوا في المدينة قليلي العــدد ، وتــرددوا بالوثوق بــالشجاعة المقبلة وغير الموثــوقة الســـكان ولهـــذا نادرا ماخرجوا الى القتال ـ وإن خرجوا خرجوا على مضض ـ الموقف الذي لم يشجع الباقين كثيرا على خوض القتال ، فهل هنالك سـبب لقول المزيد؟ وأضنى الناس بالقتال اليومي والقتل المستمر للأصدقاء وأعمال الحراسة المستمرة ، والخوف من الليل ، وفقدان الطعام في المقام الأول ،الأمر الذي دفــع الناس الى اليأس. ولذلك ، تملكهــم

الحرب ، ودفع اجورا للعمال وقدم هدايا للفقراء والمعوزين ، والى الجرحى في المقام الأول بغية حصولهم على عناية مناسبة ، وكان سخيا بالنسبة للمقاتلين ايضا وخاصة بالنسبة للذين كان يعرف أنهم كانوا شجعانا في المعركة.

٢٩ ـ شيركوه يتباحث مع هيو صاحب قيسارية حول السلام بعد أطلاعه على التقرير المرسل اليه.

في الوقت الذي كانت تقع فيه هذه الأحداث امام مدينة الاسكندرية . كان شيركوه يزحف في بلاد مصر العليا ولدى وصوله الى قوص بذل محاولة للاستيلاء على المدينة بهجوم صاعق ، لكنه سرعان ما اكتشف ان جهوده كانت عقيمة ، وأن هناك حاجة لوقت طويل لمشروع كهذا ، وأن الوضع المتقلقل لابن اخيه كان يتطلب منه أن يتولى عملا اخر ، وهكذا ، قبل مبلغا من المال من هذه المدن وأسرع مع قواته الى مصر السفلى.

ولدى وصول شيركوه الى بابليون وجد أن الملك قد أرسل هيودي ابلين لحراسة القاهرة ، ولاقامة جسر هناك ، وبالاختصار ، كانت الظروف القائمة مختلفة تماما عما كان قد افترضه ، ولذلك ، استدعى هيو صاحب قيسارية ، الذي كان يحتجزه كأسير ، الى مؤتمر ودي ، وحيث كان مستعدا للتكلم فقد بدأ يخاطبه بشكل لبق ولطيف وبكلمات جيدة الأختيار على النحو التالي : « أنت أمير عظيم وصاحب منزلة سامية ونفوذ كبير بين شعبك ، ولا يوجد أي من نبلائك أفضل منك لأنقل اليه ـ لوصح لى الاختيار ـ هذا السر الخاص بي ، واجعله مؤتمنا على أسراري ، لقد قدم القدر لنا عن طواعية ومنحتنا فرصة الحرب ميزة كان ينبغي البحث عنها بجهد كبير ، وأعني بذلك حصولي على ميزة الافادة من خبرتك لهذه الحاجة الحالية ، وأعترف بصراحة أن ثروة هذه المملكة جذبتني كوني متهلفا لبلوغ المجد كجميع المخلوقات

البشرية ، وفكرت ذات مرة بالاعتماد على الشخصية الضعيفة للسكان الاصليين بأمل أن هذه المملكة قد تسقط في يدي يوما ما .

وبناء عليه انحدرت نحو مصر عبر مخاطر كثيرة وعلى حساب نفقة كبيرة ومشاق لا تحصى أراها الآن عقيمة ، وانحدرت معي مجموعة كبيرة من الفرسان جذبتهم كلهم الى هنا الرغبة ذاتها ، إلا ان رغباتي لم تتحقق لأن القدر ، كما أرى الآن ، كان معارضا لدخولي الى المنطقة ، وآمل أن يسمح لي بالعودة في ظل بشائر خير مواتية على الأقل ، وكما قلت ، إنك رجل من منزلة سامية ، وأنت عزيز على الملك ومؤثر بالقول والفعل ، فتوسط لاحلال السلام بيننا ، فقد تنجح المسألة على يديك : أخبر الملك أننا نضيع وقتنا هنا ، وأن الأيام تمضي دون نتيجة ، وتنتظرنا واجبات كثيرة في الوطن ، وعلاوة على ذلك ، إن وجود الملك نفسه ضروري للغاية بالنسبة لمملكته ، فهو ينفق جهوده الآن لمصلحة الآخرين لأنه عندما يتولى صدنا ، فلسوف يتخلى عن ثروات هذا الأقليم للسكان التعساء الذين لا يستحقون حتى أن يعيشوا فليأخذ شعبه الذين هم أسرى عندي الآن ، وليرفع الحصار ، وليعد الأسرى الذين يحتجزهم مع الذين يحاصرهم في مدينة الاسكندرية ، هذا وانني مستعد من جانبي للمغادرة فور استلامي منه ضمانة بأننا لن نواجه آية متاعب من جنده على الطريق.

٣٠ ــ هيو يرتب شروط المعاهدة مع الملك والنبلاء

فكر هيو بذهنه في هذا الاقتراح بعناية لفترة طويلة بعد ما استمع لهذا الحديث سيما وانه كان رجلا صاحب إدراك سليم وحكمة ، ولم يشك أن بنود السلام وفق شروط المعاهدة ستكون مفيدة للمسيحيين ، إلا أنه تردد في تولي القيام بهذه المهمة بنفسه ، حتى لايبدو أنه مهتم بالحصول على حريته أكثر من اهتمامه بالمصلحة العامة ولذلك شعر أن شخصا آخر يمكنه أن يقوم بالخطوات الأولى

بشكل أكثر احتراما . وفسر لنا إحساسه حول المسألة بصورة سرية في وقت لاحق .

وهكذا ، أرسل حاملا للرسالة أسيرا آخر هو أرنولف صاحب تل باشر وهو صديق حميم الملك كان قد أسر في المعركة ذاتها مثل هيو موضوع حديثنا الآن ، فأسرع إلى الملك بعدما كلف بهذه المهمة وشرح له هدف قدومه بالتفصيل ، فعقد الملك أجتماعا على الفور ، وكان بين الحضور في اجتماع النبلاء ذاك كل من السلطان وولده ايضا ، . وقدم أرنولف الاقتراح وشرح طبيعة المعاهدة ، ولاقى اقتراح السلام موافقة الجميع ، وبدت الشروط المقترحة أنها تكفي لتحقيق المجد ولانجاز المعاهدة بنية حسنة ، تلك المعاهدة التي تم التوصل إليها بين الملك والخليفة . فقد توجب أن تنقل المدينة بالاستسلام إلى سلطة الملك ، وأن يجري تبادل لجميع الاسرى في كلا الجانبين ، وأن يغادر جميع الاتراك الذين كانوا قد احتجزوا بسبب الحصار ، بالاضافة إلى جنود شيركوه المتفرقين حاليا فوق أرض مصر حدودها بالكامل .

وافق السلطان شاور مع جميع قادة مصر على المعاهدة ، وقبلوا شروطها طوعا . وأعلن السلطان بنفسه أنه راض تماما لأن المعاهدة اقصت عدوه الأكثر ترويعا ، وخصمه المنافس له من أجل التفوق في المملكة .

ثم قدم هيو نفسه ، ووضع اللمسات الأخيرة للمعاهدة ، وأوصل المسألة إلى خاتمة مرضية بعد أن قام الجانبان بدراسة وافية للمعاهدة في جميع جوانبها .

٣١ ـ المدينة تستسلم للملك ، وإعلان السلام لأهالي الاسكندرية .

ثم أعلن المنادي لكل فرقة وللناس عموما بأن القتال قد انتهى ، كما صدر أمر رسمي يحظر القيام بأي تحرشات أخرى بأهالي الاسكندرية ، وحالما تم التوصل إلى السلام ، انطلق الناس المرهقون بوطأة الحصار الطويل وهم مبتهجون . واستخفوا بالشدائد التي كانوا قد كابدوها ، واستمتعوا بالتجول دون عائق للتخلص من إرهاقهم ، وتوفرت الآن مواد غذائية كثيرة وسمح باستئناف التجارة . وهكذا ، فقد أوقف الناس ، الذين تخلصوا من مجاعة مزمنة ، أنفسهم على استرداد صحتهم ونشاطهم ، واستمتعوا الآن بمراقبة الجنود أنفسهم وهم الذين كانوا يخافونهم منذ عهد قريب كممثلين للخطر والموت .

وكان المسيحيون من جانبهم متلهفين بقدر مماثل لدخول المدينة التي كانت محط رغباتهم منذ زمن طويل ، فتجولوا بحرية في الشوارع وحدقوا بالمراسي والشرفات وجمعوا بملاحظة مجتهدة مادة يتمكنون منها لدى عودتهم إلى بلادهم أن يؤلفوا في أحوال كثيرة قصصا لأصدقائهم ، وينعشوا عقول المستمعين إليهم بحديث مستساغ .

يعلو فوق هذه المدينة الرائعة برج له ارتفاع رائع يسمى الفاروس (٢٣٤) ، حيث توجه السفن مجراها ليلا نحو هذا البرج وكأنما تتوجه نحو أحد النجوم ، يرشدها في ذلك الضوء اللامع لمشاعله المضيئة الكثيرة ، لأن الطريق إلى الاسكندرية خطرة جدا ، كما أن البحر المظلم مليء بالمخاطر الغادرة المحجوبة . إلا أن الناس الذين تحذرهم الأضواء التي تبقى متوهجة دائما فوق البرج ينجون من مخاطر التهديد والتعرض للتحطم ويتقدمون بسلام في طريقهم .

نشرت راية الملك فوق هذا البـرج دليلا على النصر ، وإزاء رؤية الراية ، فإن حقيقة الاستسلام التي لم يكن قد عرفها حتـى الآن إلا العدد القليل من الناس ، أصبحت ظاهرة للجميع وفي أخـر الأمـر ، فإن العديد من الناس ، الذين كانوا قد تنحوا بحذر أثناء المحـادثات الأولى للمعاهدة ، وكانوا يخـافون مـن الوثـوق بـالمسيحيين ، لم يترددوا الآن من الانضمام إلينا بعدما تحقق السلام ، وأن يعتمـدوا على إخلاص نيتنا الحسنة ، وظهر شيء واحد مدهش بشـكل يفـوق جميع الأشياء الأخرى وهو أن جيشـا صـغيرا جـدا اسـتطاع أن يحتجز داخل الاسكندرية حشدا كبيرا جدا من السكان بالاضافة إلى العديد من الاجانب الذين تعاونوا جميعهم باخلاص من أجل الدفـاع عن المدينة ، وأجبـرهم على اسـتسلام شـائن ، حيث لم يكن لدى المسيحيين سوى خمسمائة فارس تقريبا وأربعة أو خمسة آلاف من الجنود المشاة ، بينما كان لدى المحاصرين أكثر مـن خمسـين ألف جندي قادرين على حمل السلاح .

٣٢ ـ الملك يعـود إلى أراضـيه منتصرا ومعـه جميع قواته .

خرج صلاح الدين الآن من المدينة وذهب إلى الملك . وبقي هناك في المعسكر المسيحي حتى يستعد للانطلاق في عودته ، وعومـل بـكل إحترام ، وزود بحارس ليحميه من إساءات قد يقوم بها أشـخاص وقحون . ودخل السلطان أبواب الاسكندرية مبتهجـا بـالنصر على رأس جنده محاطا بصفوف مكتظة ، ولاقى ترحيبا بـدوي الأبـواق وبصوت الطبول وبكل أنواع الآلات الموسيقية الأخرى ، وتقدم برفقه مجموعات من الرجال المذشدين ، وتقدمه خدم كثيرون وحشود مـن الرجال الهاتفين وبأيديهم الأسلحة فارتجف السكان رعبـا ، وقـد أدان بعضهم ، وأطلق سراح آخرين ، ووزع مكافآت على كل من كان يستحقها مع أنه عاقب المذنبين بقسوة وحزم .

حكم السلطان في آخر الأمر على سكان الاسكندرية أن يدفعوا مبلغا كبيرا من المال غير ثابت بشكل محدد ، وخصص مكافين لجمع الفدية ، وعين موظفين ليتولوا القيام بمسؤولية جمع الضرائب والعائدات من المدينة ، وبعد أن انتزع السلطان مبلغا كبيرا من المال ، عهد بشؤون المدينة إلى عبيد مخلصين من مواليه ، وتراجع مليئا بالمجد إلى معسكره .

كان الجيش المسيحي يتلهف الآن للعودة إلى الوطن ، وهكذا ، أعد الذين قدموا بالبحر الاستعدادات الضرورية للرحلة ، وركبوا متن السفينة ، وسلموا أنفسهم للنسمات وعادوا بابتهاج إلى موطنهم ، وأمر الملك بإحراق الآلات الحربية وبإعداد الامتعة ، ثم سلك الطريق إلى بابليون فانضم إلى قواته من جديد الرجال الذين قد أرسلهم من قبل ، وهكذا ، دخل الملك عسقلان في اليوم الثاني عشر قبل نهاية الأسبوع الثاني من شهر أيلول (٢١ — آب) من العام الرابع من حكمه وسنة ١١٦٧ لتجسيد ربنا . وذلك بعد أن عزز السلطان في حكم المملكة وطرد العدو ، واسترجع رجاله الذين كانوا قد وقعوا في الاسر (٢٣٥)

انتهى هنا الكتاب التاسع عشر

الكتاب العشرون

الصراع على مصر . حلف مع الامبراطور مانويل

١ ـ عودة كل من هيرنسيوس رئيس اساقفة قيسارية ويودس دي سانت اماند الساقي الملكي من القسطنطينية جالبين معهما الزوجة المقبلة للملك . تتويج عموري في كنيسة صور وزواجه .

عاد في هذه الاثناء كل من هيرنسيوس رئيس اساقفة قيسارية ذي الذكرى العزيزة ويودس دي سانت اماند ، الذي كان يعمل انذاك ساقيا ملكيا ، من القسطنطينية عن طريق البحر ونزلا في مدينة صور ، وكانا قد نفذا بحكمة واخلاص المهمة التي كانا قد ارسلا في سبيلها الى الامبراطور مانويل ، وتمكنا بالحكمة والاخلاص مع نهاية عامين من تحقيق النجاح لمهمتهما حيث جلبا ابنة يوحنا بروتو سيباستوس كزوجة مستقبلية للملك (٢٣٦)

اسرع الملك الى مدينة صور فور معرفته بمقدمهما ، وتزوج هناك ، بعد استدعاء قادة الكنيسة ونبلاء المملكة ، من الاميرة ماريا التي كانت قد تلقت من قبل هبة المسح بالزيت والترسيم الملكي ، واحتفل بالزواج بابهة وبمراسيم لائقة في التاسع والعشرين من شهر اب في كنيسة صور بواسطة البطريرك امالرخ صاحب الذكرى الطيبة ، وكان الملك مرتديا الثياب الملكية بشكل رائع ، ووضع على راسه تاج اسلافه .

كان يوحنا بروت سيباستوس هذا ، الذي ذكرت ان الملك تزوج

من ابنته ، ابن الاخ الاكبر للامبراطور ، وارسل الامبراطور كمرافقة لابنة اخيه عددا من النبلاء اللامعين والبارزين المقربين اليه بشكل حميم كان بينهم اللورد باليولوغز ومانويل سيباتوس وهو واحد من اقربائه ، ولخرين كثر(٢٣٧)فقد توجب عليهم واجب مرافقة الملكة المستقبلية بابهة كبيرة الى السيد الملك ، والتأكد من انه لم يحذف ايا من الاحتفالات المهيبة المفروضة .

كان رئيس كنيسة صور ، التي اقيمت فيها هذه الاحتفالات انذاك هو اللورد فريدريك ، وكان قد نقل من كنيسة عكا . ومنحني فريدريك هذا بسخاء بعد ثلاثة ايام من الاحتفال بتتويج الملك وزواجه في تلك المدينة ، منصب رئيس شمامسة الكنيسة في مدينة صور وهو المنصب الذي تخلى عنه وليم عندما استدعي الى الكنيسة في صور ، وفعل هذا تلبية لطلب الملك وبحضوره مع عدد اخر كبير من الرجال المبجلين(٢٣٨)

٢ - اندرونيكوس أحد أقرباء الامبراطور ،ينقل أرملة الملك بلدوين الى ارض العدو .

وصل في هذه الاونة بينما كان الملك مايزال موجودا في مصر شخص يدعى اندرونيكوس وهو نبيل اغريقي صاحب نفوذ كبير واحد اقرباء امبراطور القسطنطينية قادما من كليكية بمرافقة موكب كبير من الفرسان(٢٣٩)، وبقي معنا حتى عودة الملك ، وكان مصدر عون كبير بالنسبة لنا ، لكنه كان مثل الافعى في الصدر او كالفارة في خزانة الثياب ، فقد كانا مضيفية بشكل دنيء ، وبرهن على صحة تلك القول الذي قاله مارو : « انني اخشى من الاغريق حتى عندما يحملون الهبات »(٢٤٠) .

ومنحه الملك مدينة بيروت فور عودته ، ثم دعا الاغريقي ثيودورا

ارملة الملك بلدوين التي كانت ابنة اخيه ايضا ، لتذهب معـه لزيارة بيروت ، وكانت ثيودورا تمتلك مدينة عكا التي سبق ان قـدمت لهـا كمهر في زمن زواجها ، وكانت قـد اسـتضافت اندرونيكوس لزمـن طويل في منزلها . وذلك في الوقت الذي كان يتعاون فيه مع نور الدين اثناء هذه الرحلة ويتآمر فقد خطف الملكة واحتال عليها ونقلهـا الى بلاد العدو أولا الى دمشق ثم الى بلاد فارس(٢٤١)

٣ –بناء كنيسـتين في البتـراء و الخليل و تعيين أسقفين فيهما .قدوم ستيفن مسـتشار ملك صـقلية و الأسقف المنتخب للكنيسة في بالرمو الى سورية . موت الكونت وريم أوف نفرز أثناء وجوده معنا .

لم يحدث شيء يستحق الذكر في المملكة خلال هذا العام بـاستثناء تأسيس كنيستين في ايام عيد الفصح ، وتعيين أسقفين فيهما وقـد أقيمت أولاهما في البتراء الواقعة فيما وراء الأردن في منطقة مـوآب وهي عاصمة العربية الثانية ، ولم يكن لهـذه الكنيسـة أي أسـقف لاتيني منذ دخول المسيحيية الى أرض الميعاد . ويقال إن الكنيسـة الثانية واقصد بها كنيسة الخليل لم تتلق ذلك الشرف من قبـل حيث كانت في أيام البيزنطيين مجرد أبرشية ، وهذه كانت ايضـا مـرتبة الكنيسة في بيت لحم كما هو معروف تماما إلا ان كنيسة بيت لحـم رقيت باستحقاق الى ذلك المقـام الرفيع أولا بسـبب التـوقير الذي احتفظت به كمسقط لرأس ربنا . كمـا منحـت حقـوق وامتيازات كاتدرائية في أيام حكم الملك بلدوين الأول مباشرة بعد استرداد المدينة المقدسة حبيبة الرب (٢٤٢)

واكتسبت الخليل ايضا ، لأول مـرة في هـذا العـام الذين نحـن بصدده ، ذلك المقام الذي كان لائقـا بهـا بسـبب صـلتها بعبيد الله ، ذوي الذكرى المباركة الى الأبـد ، وهـم إبـراهيم وإسـحاق

ويعقوب . واختير غوريكوس أسقفا للكنيسة في البتراء ، وهو شماس نظامي في هيكل الرب ، وعين مطرانا للعربية ايضا ، بينما تلقت الخليل كرئيس لها ، رينالد ابن أخي البطريرك فولتشر ذي الذكرى المبجلة .

وصل في الصيف اللاحق ستيفن ، وهو نبيل من منزلة سامية ، ومستشار الملك صقلية واسقف منتخب للكنيسة في بالرمو ، الى المملكة بمرافقة حاشية صغيرة . كان ستيفن أخا للكونت روتودي بيرشي وكان رجلا شابا له مظهر وسيم وصاحب مقدرة طبيعية ممتازة ، وكان قد وقع ضحية لمؤامرة من جانب عصبة النبلاء في صقلية ، نجحوا في مؤامرتهم بطرده من البلاد ، وتم تنفيذ هذا خلافا لرغبات الملك الشاب الذي كان قاصرا ، وخلافا لرغبات والدته ، إلا أنهما كانا عاجزين عن الحيلولة دون حدوثه ، ونجح ستيفن بصعوبة بالغة في تفادي مؤامرات النبلاء ، وأتى الينا بطريق البحر ، لكنه أصيب بمرض خطير بعد زمن قصير من وصوله أدى الى وفاته ، فدفن في القدس بإجلال رائع في إحدى كنائس هيكل الرب (٢٤٣) .

وأتى الى القدس في حوالي الوقت نفسه وليم كونت نفرز حيث كان سيدا قويا من أسرة نبيلة تتمتع بنفوذ كبير ، وقد قدم من مملكة فرنسا بمرافقة مجموعة مهيبة من الفرسان ، وقد قدم على نية القتال في سبيل الديانة المسيحية ، وعلى نفقته الخاصة ، ضد أعداء عقيدتنا ، الا أن موتا مبكرا وحقودا على شجاعته الناجحة ، قد حال بشكل مؤسف للغاية دون تنفيذ هذا الهدف النبيل والورع ، فقد أصيب وليم بداء مزمن ، وتوفي بعد معاناة طويلة وذلك في البداية نفسها لحياة كانت ذات مستقبل واعد جدا ، وحزن الجميع على موته وتأسفوا عليه (٢٤٤)

٤ – وصول مبعوثين من عند الامبراطورية يطالبون ببعض الموافقات من الملك.إرسال رئيس شماسة صور كمبعوث الى القسطنطينية .عقده الاتفاقية المقترحة مع الامبراطور .

وصل في غضون ذلك الصيف نفسه الكونت الاسكندر أوف غرافينا ورجل اسمه ميخائيل هايدرو نتنوس (أوف او ترانتو) ، وكلاهما عضوان في بلاط امبراطور القسطنطينية ، الى صور في مهمة إمبراطورية (٢٤٥) ، ومنحا مقابلة خاصة كان الملك قد استدعى اليها الذين كان يرغب بوجودهم في المداولة ، وشرح المبعوثان اسباب قدومهما وقدما الى الملك رسالة من جلالته الامبراطورية تعالج الموضوع ذاته .

كان فحوى الرسالة على النحو التالي :« أدرك الامبراطور أن المملكة المصرية ، التي كانت حتى الوقت الحالي قوية وغنية بافراط ، قد سقطت في أيدي جنس مخنث وضعيف ، كما أصبحت الشعوب المجاورة مدركة أيضا لعجز وضعف الحاكم والأمراء ، وحيث يبدو أنه من المستحيل أن تتمكن المملكة من الاستمرار لفترة طويلة من الزمن بحالتها الراهنة ، وأنه يجب أن تنتقل حكومتها والسيطرة عليها بحكم الضرورة الى شعوب أخرى : فان الامبراطور يعتقد أنه يستطيع بمساعدة الملك أن يخضعها لسلطاته بسهولة » . ولقد كان بسبب هذه المسألة أرسل المبعوثين الى الملك .

يقول بعض الناس – وبشكل معقول جدا – ان الملك هو أول من اقترح هذه المسألة على الامبراطور بوساطة رسل ورسائل متكررة بحيث حث الأخير على مساعدته بالجنود وبأسطول وبالمال اللازم ، وكان الامبراطور سيتلقى مقابل ذلك حصة محددة من تلك المملكة ومن جميع المغانم التي يمكن الاستيلاء عليها .

اذا هذه طبيعة العمل التـي كان المبعـوثان قـد قـدما الى الملك بشأنها ، ولقد انضممت الى الوفد كواحد منه بأمر الملك وذلك عندما كان الطرفان قد وافقا في آخر الأمر على شروط الاتفاقية ، وتوجب علي زيارة الامبراطور كحـامل للرسـائل ، وأن أنقـل قـرار الملك والمملكة بأسرها اليه ، وعلاوة على ذلك ، فقد خولت بالمصادقة على الاتفاق بينهما كما هو متوقع ان يطلب مني ، لكن وفق الشكل المتفق عليه من قبل .

وهكذا ، انضـممت الى المبعـوثين الامبـراطوريين اللذين كانا ينتـظران قـدومي في طـرابلس ، وذلك حسـبما وجهني الملك بالرسائل ، وانطلقنا سوية الى القسـطنطينية ، وكان الامبـراطور نفسه محتجزا في تلك الآونة في الصرب حيث كان الناس قد تمـردوا على سلطته .

والصرب هي بلاد جبلية واقعـة بين دالماشـيا وهنغـاريا إيلليريا ، وهي مكتظة بالغابات ويتعذر بلوغهـا . وكان الصربيون قد تمردوا معتمـدين على تعـذر الاجتياح الشـامل لبـلادهم وعلى الممرات الضيقة المؤدية الى داخلها .

تقول التقاليد القـديمة إن جميع الناس يسـتمدون أصـلهم مـن المغتربين الذين نفوا الى هذه البلاد والذين حكم عليهـم بـالعمل في مقالع الرخام وفي المناجم ، ويقال إنهم أخذوا اسـمهم مـن حـالة العبودية هذه . وكانوا شـعبا فـظا وفـوضويا يعيش في الغـابات والجبال ، وليس لديه أية معـرفة بـالزراعة ، لكنه يمتلك قـطعانا وماشية كبيرة تزوده بكميات كبيرة مـن الحليب والجبـن والزبـدة واللحم ، ولديه إضافة لذلك وفرة من العسـل والشـمع ، وعندهـم حكام يحملون اسم سوبانيSuppani .

وكانوا يطيعون الامبراطور أحيانا ، وبمـا أنهـم شـعب مـولع بالحرب وشجاع ، فإنهـم كانوا يهجمـون مـن معـاقلهم الجبلية

ويخربون جميع المنطقة المجاورة ، وكان الامبراطور قد زحف بشجاعة اليهم على رأس جيش كبير بسبب اعتداءاتهم التي لاتحتمل ضد جيرانهم ، ونجح اخيرا في قمعهم واسر زعيمهم الأكبر ، وحدث أن صادفنا الامبراطور عائدا من هذه الحملة في مدينة بوتلا في اقليم بيلاغونيا ، بعدما تغلبنا على الكثير من مصاعب الطريق ، وتقع مدينة بوتلا هذه بالقرب من المدينة القديمة والمعروفة سابقا باسم جستنيا الرئيسة ، التي كانت مسقط رأس الامبراطور جوستنيان الذي كان لايقهر وكان الأكثر حكمة وسعادة ، وتدعى الآن عموما باسم أكريدا أو (خريدا) .

منحنا هنا استقبالا مشرفا من قبل الامبراطور ، الذي عاملنا بلطف امبراطوري ، وأعلنا اليه دوافع رحلتنا وأسباب مهمتنا ، وشرحنا فحوى المعاهدة بعناية مثلى . واستمع الى القصة باكملها بسرور كبير وقبلها بلطف ، ووافق على كل ماكان قد اتفق عليه ، وبعدما أدى الطرفان يمينا مقدسا ، صادق الامبراطور بسلطته على جميع التفاصيل التي أعدها المبعوثون من قبل ، وأبرم المعاهدة .

وتلقينا رسائل امبراطورية تتضمن نص المعاهدة بأكملها ، ثم اذن لنا بالمغادرة بعد أن حملنا أعطيات رائعة حسب العادة المألوفة ، وانجزت مهمتنا الآن بنجاح ، وهكذا ، بدأنا رحلة العودة في الأول من شهر تشرين الأول .

٥ – الملك يقود جيشا الى مصر و يشتبك بالقتال مع المصريين و ذلك خلافا لشروط المعاهدة التي كان قد عقدها معهم من قبل .

في هذه الأثناء بعد رحيلنا مباشرة ، وقبل ان تتمكن سفارتنا من العودة لابلاغ الملك عن المساعدة الموعودة للامبراطور ، بدأ يشاع في

كل من البلاد أن شاور سلطان مصر كان يرسل باستمرار رسلا الى نور الدين ، ويلتمس مساعدته بشكل سري ، وقد ادعى انه كان معارضا تماما ولايرغب بالانضمام الى أية معاهدة سلام مع العدو ، وأنه راغب بالانسحاب من الاتفاق الذي كان قد عقده مع الملك ، وأنه سيلغي المعاهدة ويتخلى عن الملك تماما اذا ماتأكد من مساعدة نور الدين له .

يقال ان الملك جمع قوات من المشاة والفرسان من جميع انحاء المملكة ، بعدما سخط — وهو محق — إزاء النبأ ورحل بسرعة متوجها الى مصر ، هذا ويوجد من يدعي أن جميع هذه الاتهامات كانت كاذبة ، وأن السلطان شاور كان بريئا تماما ، وكان قد حافظ بنية طيبة على المعاهدة وعلى جميع شروطها دون أن يستحق هذه المعاملة ، ويؤكدون أن الحرب التي أثيرت ضده كانت حربا جائرة ومخالفة للقانون السماوي ، وأنها لم تكن سوى ذريعة مفتعلة للدفاع عن مشروع فظيع ، ويؤكدون أنه لهذا السبب ، سحب الرب ، الذي يحكم بشكل دقيق وفقا لاطلاعه على أسرار القلب والضمير ، تأييده منا تماما ، ورفض ان يمنح النجاح لمشروعنا الغادر .

ويروى ان غيربرت المكنى أساليت (غليرت دي أسالي) مقدم بيت الاسبتارية في القدس ، كان المحرض الرئيسي ، ان لم يكن المبدع لهذه الحملة المشؤومة ، فقد كان رجلا عالي الروح ، وسخيا جدا ، غير أنه لم يكن مستقرا بل كان متقلب السلوك والسمات ، فقد استلف مبلغا كبيرا من المال بعد نفاد جميع ثروات الاسبتارية ، وانفقة بأكمله ايضا على الفرسان الذين استدرجهم اليه من كل مصدر ، وأثقل بهذه الطريقة منظمته بدين باهظ لم تكن هنالك أية امكانية لدفعه ، وقد تخلى أخيرا عن منصبه بعدما أصابه اليأس وتخلى عن مسؤوليات ادارة الاسبتارية وتركها مثقلة بديون تصل الى مائة الف قطعة ذهبية ، ويقال انه انفق هذه المبالغ

الضخمة على أساس اتفاق عقده مع الملك وعلى أنه اذا تم الاستيلاء على مصر وجرى اخضاعها فان بلبيس ، التي كانت تعرف من قبل باسم بليوسيوم ، ستصبح ملكا لهذا البيت مع جميع أرضها الى الابد .

وخلافا لهذا رفض فرسان الداوية المشاركة في هذه الحملة ، اما لأنها بدت بالنسبة لهم مخالفة لأوامر الضمير ، أو لأن مقدم بيت منافس لهم كان من الواضح مؤسسا للمشروع وزعيما له ، وقد رفضوا اتباع الملك أو تزويده بالجند ، وبدا لهم أن اعلان الحرب ضد قوة صديقة كانت تعتمد على نيتنا الحسنة ، كان خطأ ومخالفا لفحوى المعاهدة ، وتحديا للحق والعدالة لأن مصر كانت قد حافظت على نية حسنة ولم تكن تستحق معاملة كهذه (٢٤٦)

٦ ـ حصار مدينة بلبيس والاستيلاء عليها. السلطان يضلل بوعده بمبلغ كبير من المال.

وهكذا فقد اتخذ الملك جميع استعداداته ، وجمع سائر المعدات الحربية ، ثم استدعى في شهر تشرين الأول من العام الخامس لحكمه قوات المملكة ، ونزل الى مصر (٢٤٧) ، ووصل الى بلبيس بعد مسيرة نحو عشرة أيام في الصحراء الفاصلة بين مصر وفلسطين ، وبدأ على الفور عمليات الحصار ، وتمكن خلال ثلاثة أيام من شق طريقه الى داخلها بالقوة واستولى على المدينة بحد السيف ، ودونما تأخير قام في الثالث من شهر تشرين الثاني بتمليك قواته جميع ارجاء المدينة .

وماان جرى الاستيلاء على المدينة حتى جعل الغالبية العظمى من السكان طعمة للسيف دون مراعاة للعمر أو الجنس ، واذا صدف أن نجا بعضهم من الموت فقد كابدوا من فقدان الحرية ، وسقطوا تحت نير العبودية التعيس وهو مصير بالنسبة للرجال الشرفاء اسوأ

بكثير من أي شكل من أشكال الموت ، وكان بين الأسرى ذوي المنزلة العالية الذين اسروا في بلبيس معزى ابن السلطان اضافة الى واحد من ابناء اخوته (السلطان) فقد كانا مسؤولين عن المدينة ويقودان العساكر المحشودة هناك .

اندفع الجند الى داخل المدينة بفوضى وبدون ضوابط فور فتح أحد مداخلها ، وتغلغلوا ـ دون مراعاة لأي تمييز من أي نوع ـ الى اكثر الملاجىء انعزالا ، وفتحوا الدور الخاصة وجروا بالسلاسل الى موت شائن كل من فكر بيأس بالنجاة بواسطة الاختباء ، كما قتلوا على الفور جميع الرجال الذين كانوا في ريعان الشباب والذين كانوا قادرين على حمل السلاح ، ونادرا ماجرى استثناء المسنين والأطفال ، ولم يقم لعامة الناس أدنى اعتبار، واصبح كل شيء له قيمة او مرغوب به غنيمة للعدو ، وقسمت السلع الاكثر قيمة بالقرعة كغنائم.

واستولى الرعب على شاور تماما لدى سماعه نبأ هذه الاعتداءات وقد احتار حول المنحى المتوجب اتباعه ، وبدأ يفكر بقدر ماسمحت له الظروف والوقت بمحاولة تخفيف سخط الملك بعرض المال عليه وبالتوسل الى الزعماء المجاورين الذين كانوا ينتمون الى عقيدته نفسها كي يساعدوه بشكل مجاني أو مأجور ، وصمم في النهاية أن يستخدم كلتا الوسيلتين كتدبير وقائي وعاجل للمسألة وهكذا ، فقد ارسل وفدا الى نور الدين لطلب المساعدة ، وجرى تلبية هذا المطلب بسرعة واستدعى نور الدين شيركوه ، الذي ذكرناه من قبل ، وعهد اليه بقيادة قسم من الجيش ، وأعطاه عددا كبيرا من نبلائه للمشاركة في المسؤولية ، وعهد بتأمين المؤن الضرورية للزحف ، وأمن عددا مناسبا من الجمال لحمل الأمتعة وأرسل الحملة الى مصر .

٧ – الملك يعسكر أمام القاهرة و هو ينتظر المال الذي وعد به السلطان .

بعد تدمير بلبيس زحف الملك نحو القاهرة مع جميع قواته وسار بشكل بطيء جدا لدرجة انه نادرا ما تقدم مسافة مسيرة يوم واحد كل عشرة ايام ، ووصل اخيرا الى هدفه ، واقام معسكره امام المدينة ، وجهز الآلات الحربية للعمل . وأقيمت السواتر الحاجزة ، واعد كل شيء آخر قد يكون مفيدا في عمليات الحصار ، وبدت هذه الاستعدادات خارج الأسوار بأنها تنبيء بوقوع هجوم خلال وقت قصير جدا ، وامتلأت قلوب المحاصرين رعبا وارتجفت وشعروا انفسهم انهم معرضون تماما للمخاطر وسيواجهون الموت(٢٤٨)

وأعلن الذين يعرفون الأسباب السرية المؤكدة لأعمال الملك بأنه اجل شن الهجوم حتى يتمكن السلطان (٢٤٩) الخائف من الحصول على مزيد من الوقت التفكير ، وليدفع بالتالي لتقديم المال لشراء انسحاب الجنود ، وكان الهدف الكلي للملك هو ابتزاز المال من السلطان ، وكان يفضل ان يأخذ رشوة كبيرة وينسحب على أن يعرض تلك المدن للسلب على ايدي شعبه ، كما تم تنفيذ ذلك في بلبيس وسيتم شرح هذه الرواية بشكل أكمل في وقت لاحق .

جرب السلطان خلال هذه الفترة جميع وسائل التقرب الى الملك عن طريق أفراد اسرته وعن طريق أفراد أسرة الملك ، واستخدم كل وسيلة بارعة ، واخيرا اثرت عروضه على عقل الملك الجشع لأن المبلغ الذي وعده به كان كبيرا جدا الى حد أن جميع موارد المملكة بدت عاجزة عن دفعه ، حتى وان جمع من جميع الجهات ، ويقال انه وعد بمليوني قطعة ذهبية مقابل اطلاق سراح ابنه وابن اخيه وانسحاب الجنود الى موطنهم ، وقدم هذا العرض ـ كما كشف النقاب عن ذلك فيما بعد ـ دون أن يتوقع القدرة مطلقا على تنفيذ

وعوده ، بل ليمنع الملك من التقدم نحو القاهرة فجأة ، حيث لم تكن المدينة مستعدة على الاطلاق ، وكان يمكن الاستيلاء عليها بسهولة في هجوم مفاجيء بحالتها اللادفاعية ، ويعتقد الذين كانوا موجودين في ذلك الوقت أن هذا كان سيحدث دون ريب لو تقدم جيشنا بسرعة ودون توقف نحو القاهرة مباشرة بعد الاستيلاء على بلبيس ، لأن المصريين كانوا في ذلك الوقت ضعفاء جدا ، ولقد صعقوا بالفعل بسبب المجزرة التي وقعت مؤخرا ، والكارثة المفاجئة التي حلت بتلك المدينة العظيمة ، ويبدو هذا محتملا جدا بالفعل ، لأن سكان القاهرة كانوا ضعفاء ومخنثين وبدون تدريب عسكري على الاطلاق ، وكانوا قد أوقفوا انفسهم على الملذات لفترة طويلة من الزمن . وكانت المدينة المجاورة ماتزال تحترق ، وكانوا انفسهم منهكين تماما بسبب فقدان أصدقاء كثيرين ، ولم تكن لديهم شجاعة ولاقوة للمقاومة في وقت كهذا بينما كانوا يخافون على انفسهم من المصير الذي كان قد باغت الآخرين .

٨ - اسطولنا يبحر في نهر النيل و ينضم الى القوات البرية .السلطان يتخلى عن اتفاقه . السلطان يحاول المقاومة و يلتمس المساعدة من الاتراك .

كان هذا هو الوضع الذي ساد انذاك في المنطقة المجاورة للقاهرة ، ووصل في هذه الأثناء الأسطول الذي كان الملك قد أمر ـ عند رحيله من المملكة ـ أن يبحر بالسرعة الكلية ، ويقال إنه دخل نهر النيل ، بعدما نقلته رياح مواتية ، عن طريق ذلك الفرع المعروف عموما باسم الدلتا واستولت القوات البحرية فورا على مدينة تنيس ، وهي مدينة قديمة جدا تقع على تلك الضفة من النهر ، وسلمتها الى الجند للسلب والنهب . ثم حاول الاسطول أن يبحر الى الأمام لينضم الى الملك ، الا أن المصريين سدوا نهر النيل بمراكبهم ومنعوا مروره ، فأرسل الملك على الفور همفري أوف تورون ، كافل المملكة مع مجموعة منتخبة من الفرسان للاستيلاء

على الضفة المقـابلة إذا أمـكن ذلك ، وأن يحتفـظ بممـر على ذلك الجانب على الأقل بدون إعاقة ، وكان مـن المـكن تنفيذ هـذا دون صعوبة لو لم تكن إشاعة قد ظهرت في تلك الأثناء افادت أن شيركوه بات على مقربة من المنطقة ، وفرض هذا تغييرا للخطط ، وصدرت الأوامر الى الأسطول بأن يبحر ليخـرج مـن النيل الى البحـر على الفور وأن يعود الى الوطن ، وتم تنفيذ ذلك ، هـذا وفقـدت إحـدى الشواني بسبب قلة الحيطة الموائمة .

ولم يوقف السلطان وشعبه جهودهم في هذه الأثناء لطرد الملك من بلدهم ، وحققوا ببراعة في التخطيط ماكانوا قد افتقروا الى تحقيقه بالقوة ، وعوضوا عن ضعف قواتهم باستخدام وسائل بـارعة فقـد طالبوا عندما وعدوا بتقديم المال ، بمنحهم المزيد من الوقت والفرصة ليقوموا بدفع المال ، وكان المسوغ الذي قدموه هو تعذر تـأمين مبلغ ضخم من المال بهذا المقدار من مصدر واحد ، لذلك يجب منح وقـت اضافي قبل أن يمكن تنفيذ الاتفاق ، الا انهم دفعوا مبلغا قدره مـائة الف قطعة ذهبية على الفور ، فأطلق المسـيحيون مقـابل ذلك سراح ابن السلطان وابن اخيه ، وقدم السلطان اثنين مـن أبناء أخـواته كرهائن لدفع المال المتبقي ، وكانا غلامين صغيري السن .

وبناء عليه رفع الملك الحصار وانسحب مع قواته الى موقع يقـع على بعد نحو ميل ، وأقام معسـكره بـالقرب مـن حـدائق البلسم ، ومكثت القوات هنا لمدة ثمانية أيام ، وتلقى الملك خلال هذا الوقت رسائل كثيرة غير مرضية من السلطان ، وأخيرا نقل المعسكر ثانية الى موقع يسمى سرياقوس .

كان السلطان يرسل رسله في هذه الأثناء الى كل مكان من المملكة لالتماس المساعدة ، وجمع جميع الأسلحة المتوفرة ، واستدعى المدد من الريف المجاور . وأمر بجلب المؤن الغذائية الى القاهرة ، وتأكد أنه تم دعم جميع الأماكن الضـعيفة في المقـاومة ، ودرسـت جميع وسائل المقاومة ، ودعا شعبه بأقوال مقنعـة ، الى خـوض القتـال

دفاعا عن أرواحهم وحريتهم وعن زوجاتهم وابنائهم ، ورسم أمـام أعينهم صورة حية للكارثة الرهيبـة التـي كانت قـد حلت بمـدينة مجاورة ، ووصف مـرارة العبـودية ونير المحتـل الذي لايمـكن حمله ، والقدر البائس للخاضعين للعبودية .

٩ –مليون دي بلانسي يفسد عقل الملك برأي شرير . وصول شيركوه استجابة لدعوة المصريين .الملك يزحف في الصحراء لمواجهته ، لكنه لا يجده . الملك يعود لهـذا السبب الى موطنه دون تحصيل نتيجة .

كان من جيش الملك رجل من أسرة نبيلة غير أنه منحط الأخـلاق وكان رجلا لا يخشى الرب ولايحترم الانسـان ، لقـد كان ميلون دي بلانسي رجلا بلا حياء ، وكان مثيرا للشحناء وقـادرا نشـيطا على اثارة المتاعب دوما وبما أنه كان على بينة تامة بجشع الملك وبنهمـه لتحقيق الثراء ، فقد اختار ان يرعى هذه النزعات البشعة بدلا مـن ان يقدم نصائح مفيدة ، وكان قد نصـح الملك بشـكل مسـتمر منذ البداية في أن يوقف جهوده على هدف محدد و هو أن يبتز من المملكة المصرية المبلغ المذكور أنفا ومن ثم التوصل الى تسوية مع السـلطان والخليفة عوضا عن محـاولة الاسـتيلاء على القـاهرة وبـابليون بالقوة ، ويقال أنه فعل هذا لالانه كان يعتقد استحالة الاستيلاء علي المدينة ، بل ليتمكن من التفوق على الفرسان والآخـرين الذين كانوا يتطلعون بتلهف الى المغانم ، ويحول بـالتالي جميع مـكافآت هـذه الحملة العـظيمة الى الخـزينة الملكية ، لأن الجيش يحصـد عادة الحصاد الاعظم من المغانم ، عندما يتم الاسـتيلاء على مـدينة مـا بالقوة وبشكل اغنى بكثير مما هي الحال عندما يتم الاستسلام لملك أو لأمير بشكل مباشر ووفق شروط محددة لمعاهدة يستفيد الحـاكم منها فقط .

يسمح حق الحرب لكل جندي في الحالة السابقة أن يستولي وسط

جلبة النهب وفوضى السلب على كل شيء يلقيه الحظ في طريقه ، وتزداد بالتالي الوسائل الخاصة للمنتصرين ، هذا وإن الفائدة تكون كلها للملك في الاحتمال الثاني ، ويصبح كل ما يكسبه بهذه الوسيلة حقا لخزائنه ، زد على هذا انه وإن كان يبدو ان كل شيء يزيد ثروة الجميع ، غير أن الفرد يسعى دوما بتلهف للحصول على المكاسب التي تساعد على توسيع ممتلكاته الخاصة وتزيد ممتلكاته الذاتية أو المنزلية.

ولذلك ، فإن اختلاف المشاعر أدى الى حدوث مشادات خطيرة ، فقد طالبت الأغلبية أن يترك القرار الى السيف وأن يعهد بكل شيء للنهب ، بينما طالب الملك وفريقه بعكس ذلك ، وانتصرت رغبات الملك وفريقه في آخر الأمر ونفذت ارادتهم.

عندما كان الجيش مخيما في القرية المذكورة منذ لحظات والتي تبعد خمسة أو ستة أميال عن القاهرة استمر تيار ثابت من الرسل بالذهاب والاياب بين الجانبين وكان السلطان يرسل وعودا بشكل مستمر بأنه كان يبذل كل جهد لجمع المبلغ الموعود ، وتوسل الملك في هذه الأثناء بعدم التفكير في التأجيل بل الانتظار بصبر ، كما نصحه بعدم الاقتراب الى مسافة قريبة من المدينة خشية من أن يغضب الخليفة والشعب اللذين كانا يعتمدان بأمن تام على معاهدة السلام التي أعدت من قبل ، وسيتم دفع المال بسرعة وسيتمكن الملك من العودة الى موطنه في ظروف مواتية ، واستغل السلطان شاور سذاجة المسيحيين بنجاح وعود كاذبة من هذا القبيل ، وأبطل بذلك النصيحة الجيدة والتحذيرات الحكيمة التي صدرت عن أشخاص اخرين اقترحوا خططا أكثر حكمة ، ثم ظهرت فجأة شائعة أفادت أن النبأ صحيح وأمر بترتيب الأمتعة وعاد إلى بلبيس ، وزود نفسه هناك بالمؤن اللازمة للزحف وترك قوة من المشاة والفرسان لحماية المدينة وخرج في الخامس والعشرين من شهر كانون الأول الى الصحراء لمقابلة شيركوه ، لكنه بعدما تسوغل في داخل الصحراء ، ذكر له كشافة ثقاة ، كانوا يعرفون المنطقة تماما ، أن

شيركوه كان قد عبر نهر النيل بقواته ، فدفع هذا النبأ إلى إجراء تغيير في الخطط ، وبما أن قوة العدو ستتضاعف بهذه التعزيزات ، فلن يأمن البقاء لفترة طويلة من الزمن ، لأن التأجيل كان مشحونا بخطر شديد ، هذا وبدا أن المجازفة باشتباك مع شيركوه تنطوي على مجازفة مماثلة ، ولم يظهر السلطان بعد ذلك أية نية للالتزام بالمعاهدة ، وكنا عاجزين عن اجباره لعمل ذلك ، وكان قد مدد المسألة بسياسة تأجيل بارعة ومدروسة بحذر حتى أصبح الأتراك قريبين وتوجب علينا أن نرحل ، وهكذا ، عادت القوات الى بلبيس حيث انضمت اليها الفرقة التي كانت قد خلفت هنالك لحراسة المدينة ، وعاد الجيش المسيحي وهو على تعبئة الى سورية في الثاني من شهر كانون الثاني(٢٥٠) .

١٠ ـ استيلاء شيركوه على مصر. شيركوه يقتل السلطان ثم يقتل هو نفسه بعد ذلك بوقت قصير.

شعر شيركوه الآن أن الوقت كان موائما لينجز هدفه ، حيث لم يكن هنالك أي شيء يعيق رغباته . بعدما رحل الملك ، ولذلك أمر بتنفيذ الخطة التي كان قد وضعها ، وأقام معسكره أمام القاهرة وكأن قدومه كان بدون نية عدوانية ، وانتظر بصبر هنالك كرجل واع لعدة ايام ، ولم يبد أية دلالة على مشاعر معادية أو لخطة ماكرة ، وأخفى بذكاء نيته الحقيقية وببراعة كان مشهورا بها ، وكان السلطان شاور يخرج كل يوم بمرافقة حاشية ضخمة لزيارته في معسكره ، وكان يعود الى المدينة بعد تقديمه التحية المخلصة المألوفة ومنح الأعطيات.

بدت الطمأنينة المرافقة لهذه الزيارات المتتالية واعدة بشكل جيد للمستقبل ، وزاد من ثقة السلطان الاستقبال المبجل الذي أضفي عليه لعدة ايام ، إلا انه اعتمد للأسف ـ في هذه الطمأنينة

الوهمية ـ اعتمادا مفرطا على إخلاص الاتراك ، ولذلك باغته على حين غرة شيركوه كمخطط للقتل ، فقد كان قد أصدر أوامـر سرية الى اتباعه أنه يجب عليهم مهاجمة الحـاكم المصري وقتله في فجـر اليوم التالي عندما يخرج بنفسه وكأنه ذاهب الى الشاطىء في الوقت الذي كان يقوم به السلطان بزيارته اليومية وهكذا انقضت قـوى الموت على شاور عندما ذهب الى المعسكر في الموعد العـادي ليقـوم بزيارته المألوفة ، وليقدم التحية اللائقة ، ونفذت أوامـرها والقتـه أرضا وطعنته طعنات قاتلة ثم قطعت رأسه.

وشهد أبناؤه الجريمة ، فامتطوا جيادهم على الفـور ، وجـروا بسرعة عائدين الى القاهرة حيث سجدوا أمام الخليفة وركعوا أمامه متوسلين اليه أن ينقذ حياتهم ، ويقال أنه أجـاب أنه بإمـكانهم أن يأملوا بالنجاة شرط أن لا يقـوموا بإجـراء أي اتصـال سري مـع الاتراك ، غير أنهم خالفوا هذه الشروط مباشرة وذلك بأن أرسـلوا بصورة سرية رسلا للتفاوض مع شيركوه حول السلام. فأمر الخليفة بقطع رؤوسهم عندما أبلغ بهذا .

كان الملك قد رحل الآن ، وكان شاور قد أزيل من هـذا العـالم . فاستولى شـيركوه على المملكة فـورا بعـدما سر تمـاما بتحقيق رغباته ، وقام بزيارة للخليفة ليقـدم له التبجيل اللائق ، فـاستقبل بإجلال كبير ومنح لقب سلطان. وهكذا أصبح شـيركوه سـيدا لمصر بأسرها لأنه كان مقتدرا يعتمد على قوة عسكرية كبيرة.

يا للطمع الأعمى لدى الرجـال ، الجـريمة الأسـوأ مـن جميع الجرائم ، يا للجنون الشرير للقلب الجشع والنهم ، فقد كانت رغبة مفرطة لحيازة الممتلكات قد دفعتنا من حالة سـلمية آمنة الى وضـع قلق ومضطرب ، لقد لبـت جميع مـوارد مصر وثـرواتها الضـخمة حاجاتنا ، وكانت حدود مملكتنا آمنة في ذلك الجـانب ولم يكن هنالك أي عدو يخشى منه في ناحية الجنوب . وكان البحر ممرا آمنا وسليما

الى الذين كانوا يرغبون بالقدوم الينا ، وكان بإمكان شعبنا دخول الأراضي المصرية دون خوف والقيام بأعمال الشراء والبيع وفق ظروف مواتية ، وجلب المصريون من جانبهم ثروات أجنبية وسلعا غريبة الى المملكة لم تكن معروفة حتى الآن بالنسبة لنا ، وكانوا يقدمون لنا منافع كبيرة وشرفا كلما قاموا بزيارتنا ، وعلاوة على ذلك ، فإن المبالغ الطائلة التي انفقوها كل عام بيننا قد أغنت الخزينة المالية وزادت الثروة الشخصية للأفراد ، بيد أنه حدث العكس الآن وتغيرت جميع الأمور الى الأسوأ . « كيف أكدر الذهب تغير لا أجد الابريز الجيد » و « صار عودي للنوح ومزماري لصوت الباكين » (٢٥١)وحيثما التفت لا أجد سوى أسباب الخوف والقلق ، فالبحر يرفض أن يقدم لنا طريقا آمنا ، والعدو يسيطر على جميع المناطق المجاورة ،والممالك الأخرى تستعد لابادتنا .إن جشع أحد الرجال قد جلب علينا جميع هذه الكوارث ، كما أن فهمه ـ وهو أصل الشر ـ قد شوه الصفاء التي كانت السماء قد منحتنا إياه (٢٥٢) ولنكمل الآن قصتنا.

امسك شيركوه ، بعد المقتل الجائر للسلطان وأبنائه والذي كنا السبب الشرير له بسبب سلوكنا الآثم ، بالسلطة الملكية والتحكم بمصر حسب رغبته ، لكن لم يسمح له بالتمتع لفترة طويلة من الزمن في سلطانه ، لأنه أنزاح من بين مشاكل هذا العالم قبل مضي عام واحد على تسلمه السلطة.(٢٥٣)

١١ ـ صلاح الدين ابن أخي شيركوه يخلفه وهو الذي يحكم مصر الآن.

خلاف شيركوه في الحكم صلاح الدين ابن اخيه نجم الدين (٢٥٤)وكان الحاكم الجديد رجلا حاد الذكاء نشيطا وشجاعا في الحرب وفي غاية الشهامة والكرم ، ويروي أنه طرح مولاه أرضا بهراوة كان يحملها بيده وقتله وذلك في بداية حمكه عندما زار الخليفة

ليقدم له الولاء الذي كان مدينا له به ، ثم قتل جميع أبناء الخليفة حتى لا يخضع لأية سلطة عليا ، بل ليتمكن من الحكم كخليفة وسلطان على حد سواء ، فقد كان المصريون ينظرون بكراهية الى الأتراك ، وخاف صلاح الدين من أن مولاه الخليفة قد يأمر بقتله في يوم ما عندما تسنح له الفرصة للمثول أمامه ، وهكذا ، اتخذ وسائل لاحباط أية نية كهذه ، والحق بالخليفة المطمئن المصير الذي ، إن صحت الرواية ، كان يحضره لينزله به كسلطان (٢٥٥) .

استولى صلاح الدين لدى مقتل الخليفة على ثروته وعلى جميع كنوزه الملكية وحازها لنفسه ، وذلك بالاضافة الى كل شيء له قيمته كان موجودا في القصر ، وتصرف بجميع الاشياء حسب هواه ، وأغدق الأموال على جنوده خاصة بسخاء كبير لا بل بسرف لدرجة أن الخزائن فرغت في غضون بضعة أيام ، واضطر لأن يستقرض المال من الآخرين ، وهكذا ، جلب على نفسه عبئا كبيرا من الدين.

ويروي أن بعض الموالين للخليفة المقتول انقذوا سرا بعض ابنائه بهدف أنه إذا ما استعاد المصريون في وقت قادم السيطرة على الحكومة ، لن يعدموا وريثا لاسمه ومنصبه وسلالته.

١٢ ـ تعيين برنارد ، راعي دير جبل الطور رئيسا لكنيسة اللد . رحيل فريدريك ، رئيس أساقفة صور الى الغرب ، لطلب المساعدة من الأمراء هناك.

لم يحدث بعد عودة الملك الى المملكة اي شيء جدير بالملاحظة خلال القسم الأول من ذلك العام ، باستثناء وفاة رينوروس اسقف اللد ، الطيب الذكرى ، وتنصيب برنارد رئيس دير جبل الطور في مكانه.

بدأ الرجال الحكماء في المملكة يلاحظون في الربيع اللاحق ، الذي كان بداية العام السادس لفترة حكم الملك عموري(٢٥٦)أن اخضاع الاتراك لمصر شكل خطرا كبيرا وحمل اذى شديدا بالنسبة لنا ، وأن وضعنا قد ازداد سوءا من الناحية المادية .وكان بإمكان نور الدين ، اكثر أعدائنا قوة ، أن يحاصر المملكة بالابحار خروجا من مصر بأسطوله الضخم ، وأن يحاصر جميع المدن الساحلية بجيشه برا وبحرا ، وكان الشيء الذي يخشى منه أيضا هو حقيقة أنه كان بإمكانه إعاقة طريق الحجاج القادمين الينا ، أو حتى أن يرفض السماح لهم بالمرور على الاطلاق ، ولذلك ارتؤي أن من الملح إرسال سفارة مختارة من أصحاب المقامات السامية في الكنيسة الى أمراء الغرب لتعرض بالعناية المثلى المحنة المفرطة التي كانت المملكة ترزح تحتها ، مع مآسي الشعب المسيحي والكوارث الرهيبة التي كانت تهدد الرهبان ، واختير لتولي القيام بهذه المهمة وبالاجماع كل من البطريرك وهيرونسيوس رئيس أساقفة قيسارية ووليم أسقف عكا وكانا رجالا مبجلين وموهوبين بحكمة وفصاحة مقنعة ، وهكذا أبحروا وحملوا معهم رسائل من الملك وجميع الأساقفة الى فريدريك امبراطور الرومان ، ولويس ملك الفرنجة ، وهنري ملك الانكليز ووليم ملك صقلية ، وأيضا الى النبلاء المشهورين الكونتات : فيليب أوف فلاندرز وهنري أوف ترويز وثيوبولد الثاني أوف تشارترز ، لا بل بالفعل الى جميع النبلاء العظماء الآخرين في الغرب إلا أن عاصفة عنيفة هبت فجأة في الليل بعد رحيلهم فقذفت السفينه هنا وهناك وكسرت المجاذيف وحطمت السواري ، وعاد المبعوثون بعد ثلاثة ايام مذعورين جدا ، وكانوا قد نجوا بصعوبة من الغرق . ولذلك ، اختير وفد آخر وأرسل بدلا عن الوفد الاول ، وكان يتألف من فريدريك رئيس اساقفة صور الذي تم اقناعه اخيرا بقبول المهمة بوساطة التوسلات الملحة للملك والنبلاء ، ويوحنا اسقف بانياس ، وهو اسقف مساعد لتلك الكنيسة ذاتها ، وبدأ الاثنان رحلتهما في ظل بشائر اكثر يمينا ، ووصلا الى مقصدهما بعد رحلة ميمونة بيد انهما لم يحققا سوى القليل في المسألة التي اوكلت اليهم ، فقد توفي

الاسقف في باريس بعد وصـوله الى فـرنسا مبـاشرة وعاد رئيس الاساقفة بعد إقامة مدة عامين في الخارج دون أن ينجح في مهمته.

١٣ ـ الامبـراطور المتلهـف لتنفيذ المعـاهدة يرسـل أسطولا الى سورية بقيادة بعض نبلائه.

انقضى ذلك الصيف دون وقوع أي حدث يسـتحق التـدوين ، وفي بداية الخريف اللاحـق أرسـل الامبـراطور ـ المهتـم كثيرا باتفاقيته ـ الاسطول الذي وعد به ، وذلك تنفيذا للمعاهدة التي كان قد عقدها مع الملك تنفيذا لاقتـراحنا ورغبتنا ، ويجـب الثناء كثيرا على الامبراطور و كان في هذه القوة البحرية مئة وخمسـون سـفينة حربية مجهزة بالمناقير وبصفوف مزدوجة من المجـازيف . وتعـرف هذه السفن باسم شواني ، وكانت مصممة للاستخدام خصـيصا في الحرب ، وكان يوجد إضافة الى ذلك سـتون مـركبا ضـخما جيدة التسليح كانت قد صنعت لنقل الخيول بفتحـات كبيرة في مـؤخراتها لتصبح أكثر مـواءمة في تحميل الحيوانات وتفـريغها ، وكان فيهـا جسور يستطيع بوساطتها الرجال والخيول الصـعود والنزول مـن السفينة بسهولة ، وكان الاسـطول يشـتمل ايضـا على عشرة أو عشرين سفينة ذات حجم ضخم تسمى درومونس تم تحميلها حتـى التخمة بمؤن المواد الغذائية من كل نوع ، كما تـم تحميلهـا ايضـا بالأسلحة من كل صنف بالاضافة الى آلات الحرب ومعداته.

وعين الامبراطور واحدا من نبلائه واقربائه يدعى ميغال دوكاس (٢٥٧) قائدا للاسطول بأكمله وكان بمرافقته نبيل آخر يدعى مـوريس وكان يحتل مكانا ساميا ومحـط ثقـة مـولاه الامبـراطور ، وكان الامبراطور يعتمد كثيرا على خبرة هذا الرجل ، ووضح هذا بشـكل جلي عندمـا عين مـوريس مسـؤولا عن جميع شـؤون الامبراطورية ، وانضـم الكونت الكسـندر اوف كونفير سـانا الى هـاتين الشـخصيتين في القيادة ، وكان نبيلا مـن ابـوليا ، وكان

الامبراطور يخصه بعاطفة صافية بسب الاخلاص العميق والصادق الذي اظهره الكونت نحوه.

سلمت قيادة الجيش الامبراطوري الى هؤلاء النبلاء الثلاثة عندما بعث الجيش الى منطقتنا في الشرق ، وفي حوالي نهاية شهر أيلول دخل الاسطول ميناء صور بعد رحلة ميمونة ، وتقدم من هناك الى عكا وألقى مراسيه في مكان هادىء واقع بين النهر والميناء.

١٤ ـ الملك يتوجه مع جيشه الى مصر . الاغريق يرافقونه بقوات برية وبحرية.

أمر الملك الجيش بأكمله من اللاتين والاغريق بالتجمع في الخامس عشر من شهر تشرين الأول في مدينة عسقلان وذلك بعدما رتب امور المملكة وترك قوة من الفرسان لحمايتها خلال غيابه من خطط نور الدين ومطامعه لأنه كان مايزال يحوم في المنطقة المجاورة لدمشق ، وذلك في العام ١١٦٩ لتجسيد الرب الذي كان العام الثامن والستين لتحرير المدينة والعام السادس من فترة حكم الملك عموري (٢٥٨) وكان الأسطول قد أبحر قبل عدة أيام من ميناء عكا متوجها يريد الأراضي المصرية.

انطلق الجيش في السادس عشر من شهر آب ، (٢٥٩) وتقدمت القوات بزحف بطيء في سبيل عدم انهاك قوات المشاة أكثر من اللازم ، واستخدمت أماكن كثيرة للتوقف حيث كان الماء متوفرا فيها ، وفي اليوم التاسع وصلت القوات الى مدينة الفرما القديمة وكانت ترغب بسلوك الطريق الساحلي ، إلا أن حدثا وقع مؤخرا جعل من الضروري اتباع الطريق الداخلي الأطول ، لأن بعض السدود الواقعة بين السهل والبحر المجاور كانت قد تخربت بسبب ضرب الامواج المستمرة وشقت المياه ممرا لها بالقوة عبر السدود

المقابلة ، وبما أن الماء قد تدفق الآن بحرية فقد غمر الطريق المؤدي الى السهل الواقع وراءه ، فشكلت المياه المتجمعه بركة ضيقة في أول الامر ولكنها ما لبثت أن توسعت كثيرا فغمرت السهل بأكمله ، وجلب تدفق البحر هذا معه كمية كبيرة من السمك ، بحيث تم منذ ذلك الحين فصاعدا توفير زاد من ذلك النوع من الطعام بوفرة لم يكن يحلم بها من قبل ابدا ، ليس فقط للمدن الواقعة في تلك المنطقة المجاورة ، بل ايضا للمدن الاكثر بعدا ، وبما ان البحر غمر المنطقة الواقعة على طول الساحل ، فإن المسافرين الذين عزموا على الذهاب الى مصر بواسطة الطريق الساحلي أجبروا على السير عبر تحويلة طولها عشرة أميال أو أكثر حول هذه البركة وذلك قبل أن يتمكنوا من العودة الى الطريق.

لقد قدمت هذ التفاصيل بسبب جدة هذا الحدث المدهش ، وأيضا لأن هذه المنطقة الصحراوية التي كانت معرضة لحرارة الشمس الشديدة فيما مضى ، قد غمرت الآن بالماء نتيجة التدفق المستمر للبحر ، وتردد الآن اليها اصحاب الزوارق ، فامتلأت هذه المنطقة ، التي أصبحت خصبة جدا بشباك صيادي الأسماك وأعطت غلالا لم تكن معروفة حتى الآن.

إن مدينة الفرما ، المشار اليها آنفا ، خالية من السكان الآن ، لكنها كانت فيما مضى مقرا لعدد كبير من السكان ، وتقع على الحد الصحراوي بالقرب من الدلتا وهي اللسان البحري الأول للنيل في موقع يصب فيه ذلك الفرع من النهر في البحر . ولذلك فهي تقع بين النهر والبحر والصحراء . ومع ذلك ، فهي تبعد ثلاثة أميال عن مصب النيل.

وجد جيشنا عندما وصل الى الفرما أن الأسطول كان قد سبقه اليها ، وتم على الفور تأمين المجذفين اللازمين ، وهكذا جاز الجيش بأكمله الى الضفة المقابلة ، ثم تقدم الجيش بعد أن ترك

تنيس على يساره – وهي التي كانت سابقا مدينة مهيبة ، وليست الآن سوى بلدة صغيرة – مسافة عشرين ميلا تقريبا على طول طريق واقع بين أحد المستنقعات والشاطىء وأخيرا وصل الى دمياط بعد مسيرة يومين .

١٥ – الملك يحاصر دمياط . جيشا اللاتينيين والاغريق يجهدان أنفسهما في حصار تلك المدينة دون نتيجة .

تعتبر دمياط من أقدم المدن المصرية وأشهرها ، وتقع على ضفة النيل على مسافة قريبة منا ، وفي الموقع الذي يندفع فيه النهر إلى البحر بواسطة مصبه الثاني ، وهي واقعة على نحو موائم بين النهر والبحر الذي تبعد عنه نحو ميل واحد ، ووصل جيشنا إلى دمياط في السابع والعشرين من شهر تشرين الاول ، وعسكر بين المدينة والبحر منتظرا وصول الأسطول الذي عاقت تقدمه الامواج العاتية والرياح المعاكسة ، وهدأت الامواج المضطربة بعد ثلاثة أيام ، واستغل الأسطول رياحا مواتية ودخل النهر وألقى مراسيه في ميناء هادىء على طول الساحل في منتصف المسافة بين المدينة والبحر .

ووقف برج مرتفع على الضفة المقابلة ، وكان محميا بشكل جيد بمجموعة من الرجال المسلحين الذين كان عددهم كافيا لتقديم الحماية التامة له ، ومدت سلسلة حديدية من هذا البرج إلى المدينة منعت تماما العبور إلى القسم العلوي من النهر ، وبرهنت بأنها عائق كبير لقواتنا ، إلا انه كان بإمكان جميع السفن القادمة من الاعلى من القاهرة وبابليون العبور إليهم بحرية وبدون عائق .

انتقلت القوات ، بعدما كان الأسطول قد وضع في موقع موائم ، عبر البساتين التي انتشرت بين موقع مخيمها والمدينة نفسها ، ونصبت خيمها بالقرب من دمياط تماما . حيث كان الطريق إلى

الاسوار طليقا ، لكنها ارجأت شن الهجوم حتى تكون قد انقضت ثلاثة ايام ، ولهذا تعلمت بالتجربة صحة القول : « من الخطر التأجيل عندما يكون كل شيء جاهزا (٢٦٠) لأنه قدم من الأجزاء العليا لمصر حشد لايحصى من الأتراك مع سفن محملة بجنود مسلحين ، واضطر جيشنا أن يرقب ذلك بإحباط ودون أن يستطيع فعل شيء ، وذلك بينما امتلأت المدينة حتى التخمة بعدما كانت عمليا فارغة في وقت سابق ، واتضح للمسيحيين على الفور انهم لن يتمكنوا من الاستيلاء على دمياط دون مساعدة الالات الحربية والمجانيق ، مع انها بدت لدى وصولهم إليها انها لن تتمكن ابدا من الصمود أمام الهجوم الاول .

وبناء عليه جرى اختيار الحرفيين وتأمين المواد المناسبة ، ثم شيد برج شامخ مؤلف من سبعة أدوار ـ على حساب الكثير من الانفاق والعمل ـ يمكن من قمته مراقبة المدينة بأسرها ، وشيدت الات أخرى من مختلف الانواع ، وقد صمم بعضها لقذف الصخور الضخمة لتدمير الاسوار ، واخرى لحماية الملغمين الذين كان بإمكانهم الاقتراب من التحصينات بالجلوس بداخلها وكأنهم داخل كهوف مخفية ، ومن ثم حفر انفاق سرية تحت الأسوار مما سبب انهيارها بعد حرمانها من أساسات الاستناد .

وكانت الطرق المؤدية إلى المدينة قد مهدت في هذه الأثناء بطريقة جيدة ، بحيث يمكن لصق الآلات الحربية ، التي شيدت الآن بالاسوار ، وواصل المقاتلون الموجودون في البرج المتحرك الضغط باستمرار على المحاصرين ، وقذفوا بلا انقطاع وابلا من السهام والقذائف الحجرية بالاضافة إلى اسلحة اخرى بقدر ما سمحت لهم ضراوتهم والرقعة المحددة ، وفي الوقت نفسه أطلق الرجال الموضوعون في الات القذف وابلا من الصخور الضخمة ، وبذلوا جهودا حماسية لتدمير الأسوار والمنازل الملصقة بها .

وحاول سكان المدينة أن يواجهوا الخدعة بالخدعة لدى رؤيتهم

لهذه المحاولات ، ولكي يقاوموا جهودنا ببراعة مماثلة ، شيدوا برجا عاليا مقابل برجنا وزودوه بجنود مسلحين توجب عليهم أن يقاوموا جهودنا من داخل آلة حربية مشابهة ، وأن يردوا على هجماتنا بهجمات أخرى ذات ضراوة مماثلة ، وهكذا وضعوا الاتهم الحربية مقابل آلاتنا وبذلوا جميع الجهود لتدميرها ، كما أن الحاجة للدفاع عن انفسهم طورت الخبرة لديهم ، وأمدتهم الضرورة بالقوة ، واخترع الذين كانوا قد شعروا حتى هذا الوقت بأنهم غير أكفاء للمقاومة ، والذين حثتهم الحاجة ، اخترعوا خططا لم يفكر بها أحد حتى الآن ، وأصبحت أذهان حتى الأشخاص الاكثر غباء نشيطة في استنباط وسائل لضمان سلامتهم ، وتعلموا بتجربة اليمة صحة القول : « المحنة تطور الدهاء » (٢٦١) .

وبدأ المسيحيون يظهرون علامات الجبن واللامبالاة في الوقت الذي كان يتوجب عليهم أن يشددوا الحصار بضراوة أكثر من ذي قبل ، ونسب تغير المعنويات هذا إلى الخيانة ، ونسبه آخرون إلى مجرد إهمال واستخفاف ، واتضح على الفور أن جنودنا كانوا يبدون براعة وحصافة أقل من المعتاد ، أو مهما يكن من أمر فقد كان الذين يستلمون زمام القيادة يتصرفون بنية خائنة فقد أمروا بإلصاق احد الأبراج ، التي شيدت مؤخرا ، بالأسوار في موقع منحدر ولايرام تقريبا ، فقد كان هنالك في ذلك القسم نفسه من المدينة مواقع كثيرة كان السور فيها أكثر انخفاضا وأقل قوة حيث كان من الأسهل كثيرا الاستيلاء عليه ، ومع ذلك وضع البرج المتحرك في الموقع الاقوى والافضل تحصينا في مكان لم يقدم سوى الكثير من الصعوبات أكثر مما قدمه أي موقع آخر لوضع الآلات الحربية فيه ، وعلاوة على ذلك ، كان الضرر من ذلك الموقع لن يوجه إلى سكان المدينة أو إلى مبانيهم ، بل إلى كنيسة أم الرب المقدسة فقط ، التي كانت تقع بالقرب من الاسوار .

لايمكن أن يكون هنالك أي شك ان التأجيل في مهاجمة مدينة دمياط فور وصولنا قد نشأ عن نية شريرة ، فقد كانت المدينة في ذلك

الوقت مهجورة تقريبا ، ولم يكن يشغلها سوى سـكانها الذين كانوا اناسا ضعفاء ومسالمين وجاهلين تماما بفن الحـرب . ولو هـاجم المسيحيون المدينة بشجاعة على الفور ، كما كان ينبغـي عليهـم ان يفعلوا لتم الاستيلاء عليها في الهجوم الأول ، لكن المحاصرين منحوا فترة راحة ، فازداد عددهم كثيرا خلال ذلك الوقـت بتعـزيزات مـن المقاتلين الشجعان والأشاوس . وكانت النتيجة أنهم استطاعوا أن يقاوموا هجماتنا ليس فقط ضمن المدينة نفسها ، بل حتى في ميدان القتال خارجها .

١٦ ــ انتشار مجاعة في المعسكر . أسـطولنا ينجـو بصعوبة من الدمار والنار . رفع الحصار بعد التـأكد من أن جميع جهودنا كانت عقيمة .

في هذه المرحلة الحـاسمة أضيفت محنة أخـرى إلى متـاعب المسيحيين ، فقد بدأ الأغريق الآن ، الذين كانوا قـد أتـوا بـأعداد كبيرة في ذلك الاسطول ، يعانون من نقص في المؤن ، فقد كان زادهم من الخبز قد نفد تماما ولم يبق لديهم بالفعل اي نوع مـن الطعـام ، وحدث أن أيكة من أشـجار النخيل ، كانت مـوجودة بـالقرب مـن المعسكر ، كانت قد قطعت لتستخدم في طرق مختلفة ، وعندما سقطت الأشجار بحث الاغريق الجائعون عن لقمة طرية نامية في القمة حيث تنبع الأغصان فتزودهم بالنسغ ، وبما أنها كانت مادة تؤكل ، فقـد زودتهم بنوع من الطعـام خفـف ــ وإن كان ضـئيلا بقيمتـه الغذائية ــ من لسعات الجوع ، وجعلت حـالة الجـوع هـذه هؤلاء الناس ماهرين في البحث عن الطعـام ، وطـورت متـطلبات المعـدة الشديدة الجوع براعتهم لتـزويدها بـاحتياجاتها ، ولقـد تـدبروا أمورهم لبضعة أيام بائسة وعاشوا على هذا الطعام وسـد آخـرون من بينهم وأشخاص لم يكونوا معوزين تمـاما ، متـطلبات الجـوع بالشوفان والزبيب والكستناء ، كان لدى المسـيحيين زاد كاف مـن الخبز والمؤن الأخرى المتعددة الأنواع ، وكانوا يوفـرون مخـزونهم

القليل لأنهم كانوا منتبهين للمستقبل ، لأنهم لو كانوا مسرفين بما يكفي لمشاركة المؤن مع الذين لم يكن لديهم شيء منها ، لكان هنالك خطر من أنهم أنفسهم قد يقعون في فاقة يوما ما ، وعلاوة على ذلك فإنهم لم يكونوا واثقين من طول فترة الاقامة التي سوف يمضونها أمام دمياط ، وتوقعوا أنها طويلة الأمد .

هطلت كمية كبيرة من الأمطار في هذا الوقت ، وكانت الأعاصير عنيفة جدا لدرجة أن الناس الأكثر فقرا لم يتمكنوا من منع الماء من التساقط خلال خيامهم بأية وسيلة ، ولم تكن حال الأغنياء أفضل من حال الفقراء ، فقد تبللت سرادقهم بالمطر الغزير ، أو بالحري الأمطار المنهمرة من السماء . ولم يتمكنوا من الحصول حتى على وقاء بسيط إلا بحفر خنادق حول الخيام لابعاد فيضانات الماء .

حلت بهم الآن كارثة خطيرة أخرى ، فقد كانت الشواني والسفن الأخرى التي تم جلبها من البحر إلى النهر ، ووضعت بالقرب من المدينة في موقع كان آمنا تماما بشكل واضح ، بيد أن سكان المدينة ، اندفعوا بعدما أدركوا أن الريح كانت تهب من الجنوب ، وأن أمواج النيل تندفع بعنف كبير ، فانتهزوا الفرصة لتنفيذ خطة كانوا قد فكروا بها من قبل ، فقد أخذوا قاربا من الحجم العادي وملأوه حتى التخمة بخشب جاف وقطران وبجميع المواد القابلة للاشتعال والتي تؤجج النيران ، واشعلوا النار فيه ، ثم قذفوه في النهر فتناقلته الأمواج بإرادتها نحو أسطولنا ، وانتقل اللهب بسرعة إلى الوقود الذي كان محملا في القارب بعدما دفعته ريح جنوبية ، فأبحر المركب المحترق نحو الأسطول ، وتوقف بين سفننا المجمعة بإحكام وبقي هنالك بشكل ثابت ، فنقلت الحمولة الملتهبة بهذه الطريقة إلى سفننا واحترقت ست سفن متقاربة من نوع الشواني احتراقا تاما ، ولو لم يكن الملك يقظا لكان الأسطول بأكمله قد حوصر بلهب ألسنة النيران التي ازداد عنفها ، فقد اكتشف الملك الحريق ، فامتطى جواده بسرعة دون أن ينتظر حتى لانتعال حذائه ، وأيقظ البحارة وطلب

- ٣٢٩٩ -
منهم بصيحات مذعورة وإشارات أن يخمدوا ألسنة النيران ، فنجحوا في تنفيذ هذا بفصل السفن عن بعضها بعضا ، وهكذا تمت السيطرة على ألسنة النيران المنتشرة في كل مكان ، وأنقذت على الفور كل سفينة حدث أن اشتعلت فيها النيران بسبب الشرر المتطاير من المواد المشتعلة الأخرى التي نقلتها الرياح ، وذلك باستخدام ماء النهر الذي كان لحسن الحظ قريبا جدا .

شنت الهجمات على المدينة على فترات لعدة أيام ، وكان النصر تارة حليفا للمسيحيين وتارة أخرى حليفا للكفرة كما يحدث عادة عندما تكون نتيجة المعركة مبهمة ، وعلى العموم كان المسيحيون هم الذين يتحدون أعداءهم للنزال ونادرا ما قاتل المسلمون ما لم يثاروا ، هذا وحدث أن انطلق المحاصرون عندما كانوا يشعرون بالثقة أحيانا من باب خلفي مقابل معسكر الأغريق وشنوا هجمات مفاجئة على ذلك القسم من الجيش ، ومن المحتمل انهم سمعوا أن القوات الاغريقية كانت أقل قوة من قواتنا ، او ربما وصلتهم أنباء الشائعات التي تحدثت أنهم كانوا واقعين في محنة مريرة بسبب الجوع ، ولذلك كانوا أقل قدرة على صد الهجوم ، ومع ذلك حارب ميخائيل دوكاس وبقية الاغريق - على الرغم من هذا العائق - بشجاعة وبسالة وبنظام قتالي . كما أن ذوي المراتب الأدنى تشجعوا بالمثل الذي ضربه أسيادهم فهاجموا الأعداء مرارا وتكرارا بقوة فريدة وصمدوا بجرأة .

هذا وازدادت قوة المحاصرين باستمرار بواسطة فرق كبيرة كانت تصل إليهم دائما عن طريق البر والبحر . ونتيجة لهذا أصبح سكان المدينة يشكلون مصدرا لذعر كبير لأعدائهم أكثر مما كان المسيحيون بالنسبة لهم وذلك على الرغم من انهم كانوا مقيدين ضمن مدينة كانت واقعة تحت الحصار بدأ التذمر ينتشر بين الناس ، وبات جميع الناس يشعرون أن جهودنا قد تبددت وصار الرأي العام مجمعا على ان الحملة قد

نفذت ضد ارادة الرب ، ولذلك فقد أشاح بوجهه عنا بغضب ، وأنه من الأفضل بكثير أن نعود الى الوطن بدلا من ان نتعرض للانهاك في مصر بسبب المجاعة ، او أن نهلك بسيوف الكفرة ، وهكذا عقدت اتفاقية بشروط سرية بفضل الجهود المشتركة لبعض قادتنا وبعض الحكام الأتراك ، وبشكل ملحوظ بفضل الدور الفعال لزعيم اسمه جيفيليو . ووافق الاغريق على التسوية نفسها واعلن السلام على الفور بصوت المنادي(٢٦٢)

١٧ـ الغاء الحملة وعودة الملك الى أراضيه . دمار جميع الأسطول الاغريقي تقريبا في رحلة العودة الى الوطن بسبب رياح معاكسة .

ثم خرج سكان المدينة وحلفاؤهم الذين قدموا لمساعدتهم لزيارة معسكرنا بحرية ، كما سمح لعدد من جنودنا ، كانوا يرغبون بشيء مشابه ، بالمرور ذهابا وإيابا بين المدينة والمعسكر دون عائق ، واستطاع الطرفان في آخر الأمر أن يتاجرا بحرية مع بعضهم بعضا ، حيث سمح للجميع بالشراء والبيع والمقايضة كما يشاؤون ، وهكذا ، استخدم المسيحيون السوق بالاشتراك مع الكفرة لمدة ثلاثة أيام ، وأعدوا جميع تحضيراتهم للزحف ، ثم خربوا الآلات الحربية واحرقوها ، وقام الجيش البري بعد ذلك بالسير وراء الملك عائدا الى سورية ، وقد ساروا مسرعين وبدون توقف على الطريق الذي كانوا قد أتوا منها ووصلوا في الحادي والعشرين من شهر كانون الأول الى عسقلان ، وخف الملك الى عكا بسبب اقتراب يوم العيد ووصلها عشية يوم ميلاد الرب .

هذا وأبحر الذين كانوا قد أتوا بالسفن وسط نذر مشؤومة وحظ تعيس ، فما أن شرعوا ، بالرحلة حتى هبت فجأة عاصفة

شديدة ، وعانوا من مخاطر البحر التي لايمكن تجنبها لأن الأمـواج حطمت السفن والقتها الى الشاطيء ، وغرق الجميع تقـريبا ، ولم يبق سليما من الأسطول الضخم الذي كان قد أتى الينا سوى بضـع سفن كان بعضها كبير الحجم وبعضها الآخر كان صغيرا وتمـكنت من العودة بدافع من قوتها .

ومع أن مبعوثي الامبراطور كانوا قد أبدوا الاجتهاد الكلي الممكن في الجهود التي بذلوهـا لانجاز المهمة الموكولة اليهم ، فإنهم اضطروا للعودة مخفقين ويشعرون بالأسى في قلوبهم ، بعدما روعتهـم شـدة القدر . لأنهم خافوا من أن يحملهم جلالته الامبراطورية ــ بشـكل يفوق استحقاقهم ــ مسؤولية النتيجة المشؤومة الحملة ، فقـد كان من المحتمل أن يعزو هذه النتيجة بشكل جائر الى إهمالهم ، أو سوء إدارتهم على الرغم من أن هذه النتيجة بـأكملها كانت بسـبب قـدر محتوم .

اتذكر انني اجريت بعد عودتي تحقيقا دقيقا وجـادا حـول الملك وحول بعض الرجال المهمين في المملكة وعن سـبب أن حملة ضـخمة جدا كهذه كانت تحت قيادة أمراء بارزين للغاية ، قد انتهت بشـكل مشؤوم جدا ، وكان اهتمامي في ذلك العام قد تـركز حـول أمـوري الخاصة ، حيث كنت قد ذهبت الى روما لأتجنب العـداوة الجـائرة لرئيس الاساقفة الذي كنت تابعا له(٢٦٣) و حـاولت لدى عودتـي أن أبحث في الجوهر الحقيقي للقضية ، وسعيت الى كشـف الحقيقـة الفعلية بالاستماع الى روايات شديدة الاختلاف ، لأن نتائج الحملة كانت مختلفة تماما عما كنا قد رجوناه ، واستخدمت حذرا كبيرا في هذه المسألة لأنني كنت قد درست فكرة تدوين تاريخ لهذه الأحـداث وقد وجدت أن الاغريق غير معفين من اللوم ، فقد كان الامبـراطور قد وعد بإخلاص في أن يرسـل مبلغـا كافيا مـن المال لدعم الجيش الضخم ، الا أن وعوده أثبتـت انهـا غير جـديرة بـالثقة في ذلك الخصوص ، وقد بدأ قادته يعانون من وطأة الحاجة من اللحظة التي ذهبوا فيها الى مصر ، وفي الوقت الذي كان عليهم أن يكونوا قادرين

على تامين حاجات الآخرين من المخزون الامبراطوري الكبير توجب عليهم أن يبحثوا عن المال لتوفير الطعام والمدفوعات أيضا حتى لفيالقهم ، ولم يعطهم ذلك أي انسان .

١٨ـ زلزال كبير يهز عمليا جميع بلاد الشرق . المدن القديمة يلحق بها الدمار .

ضرب زلزال مخيف وكبير الشرق ، وكان أكثر عنفا من أي زلزال آخر محفوظ ضمن ذاكرة الرجال الموجودين الآن على قيد الحياة وذلك في شهر حزيران(٢٦٤)من الصيف التالي ، اي في العام السابع من فترة حكم الملك عموري ، وقد دمر هذا الزلزال مدنا محصنة تحصينا قويا ومشيدة من أزمان قديمة جدا ، وسحق السكان الذين احتجزوا داخل منازلهم المهدمة ، ولم يبق على قيد الحياة سوى القلة القليلة من الناس ، ولم تنج اي بقعة ضمن المنطقة بأسرها دون أن تصاب بخسارة في الممتلكات أو بكارثة عائلية ، فقد امتلأ كل مكان بدلائل الحزن وبجنائز الموتى ، كما دمرت المدن الكبرى في أقاليمنا واقاليم سورية وفينيقية أيضا و كانت مدنا مشهورة طوال عصور بقدمها المهيب . فقد سحقت في سورية المجوفة مدينة أنطاكية عن بكرة أبيها وهي التي كانت عاصمة لأقاليم عديدة والتي كانت فيما مضى رئيسة لممالك كثيرة ، وأبيد سكانها عن بكرة أبيهم ، ودمرت الأسوار الضخمة والأبراج العملاقة والشديدة القوة المبنية على طول محيطها ، وهدمت كنائس ومبان من كل نوع بعنف كبير لدرجة أنها لم ترمم حتى الآن الا بشكل جزئي على الرغم من إيقاف جهد كبير ونفقة واسعة لترميمها ، وكان بين المدن الأخرى التي دمرت في ذلك الاقليم كل من جبلة واللاذقية وهما مدينتان مشهورتان واقعتان على الساحل ، وكان من بين المدن الداخلية البعيدة التي دمرت والتي كان العدو ما يزال محتفظا بها كل من بيروا المعروفة أيضا باسم حلب ، وشيزر وحماة وحمص ومدن اخرى ، كما أن عدد القلاع المدمرة كان يفوق الاحصاء .

اصيبت مدينة طرابلس العظيمة والمزدحمة بالسكان والواقعــة في فينيقية فجأة في التاسع والعشرين من حزيران في حـوالي السـاعة الأولى من اليوم بهزة أرضية كانت عنيفة لدرجة أنه نادرا مــا نجــا منها انسان ممن كان موجودا ضمن أسـوارها ، وتحـولت المدينة بأسرها الى أكوام من الحجارة ، وأصـبحت مقبـرة لابـل قبـــرا مشتركا للسكان الذين هلكوا فيها ، وكانت الهزة الأرضـية عنيفــة جدا في مدينة صور المدينة الأكثر شهرة في هذا الأقليم ، حيث دمرت عدة ابراج ضخمة غير أنه لم تقع أية خسائر بشرية هنا ، وعثــر في مناطقنا ومناطق العدو على قلاع نصف مدمرة و مفتــوحة على جميع الجهات و عرضة بكل حرية لعنف و خداع الخصم ، و لم يجرؤ أحــد على التحرش بزميله الانسان لأن الجميع خافوا مــن أن ينزل بهــم غضب الحاكم الجبار كل على حـدة ، ولانشـغال كل واحــد منهــم بمشاكله الخاصة ولأنه كان مــسرهقا بحمـــل أعبـــاء أمـــوره الخاصة ، ولهذا السبب لم يفكر أحد في إيذاء جاره .

وحل الســلام ، الذي أحــدثته رغبــة الجميع ، وإن كان لفتــرة قصيرة من الزمن ، وأعدت هدنة بسـبب الخـوف مـن الغضـــب الالهي ، وكف الجميع عن القيام بأعمال العدوان وقمعوا بــواعثهم الشريرة ، بينما كان كل منهم يتوقع كل لحظة انصباب غضب عادل من السماء عقابا على آثامهم .

لم يكن هذا الاظهار لسخط الله شيئا سريع الانقضـــاء كمــا كان يحدث دائما ، فقد ظل الناس يشعرون ليل نهار بذلك الزلزال المخيف لمدة ثلاثة أو اربعة أشهر بالفعل لابل حتى لفترة أطول من ذلك بثلاث مرات أو أربع أو اكثر ، وكانت كل هزة مصــدرا للرعب الآن ، ولم يعثر على أي مكان آمن للراحة ، وحتى أثناء النوم دفــع الشـعور الخفــي المذعور بصــورة ذلك الشيء الذي أخــافه أثناء اليقـظة الى الوثوب قافزا نحو الشعور الواقعي من جديد(٣٦٥).

وتجنبت الأجزاء العليا من إقليمنا ـ أي من فلسطين ـ هذه الكوارث بفضل العناية الرحيمة لله الواقي .

١٩ـ صلاح الدين يغزو أراضينا ويحاصر قلعة الداروم .

في شهر كانون الاول من هذا العام نفسه ، اي العام السابع لفترة حكم عموري (٢٦٦)انتشرت شائعة كبيرة بين الناس افادت أن صلاح الدين كان على وشك القيام بغزو بلادنا ، وذكر اعتمادا على مصادر كثيرة انه كان قد حشد قوات من جميع انحاء مصر ومن اراضي دمشق أيضا ، وانه زاد أعداد أتباعه كثيرا بتجنيد جنود من « الطبقتين » الوسطى والدنيا ، وأنه كان يخطط للزحف نحو فلسطين ليدمر المنطقة ، فذهب الملك حالما بلغه هذا النبأ الى منطقة عسقلان ، وعلم هنالك بشكل قاطع من معلومات موثوقة تلقاها من شعبه أن هذا الأمير القوي والعظيم كان يحاصر قلعة الداروم منذ يومين مضيا بجيش ضخم أقوى من ذي قبل . وأنه لم يمنح في تلك الأثناء أية راحة للمحاصرين ، وكان قد الحق بهم أضرارا كبيرة ، فقد كان جنده قد أمطروا وابلا من السهام بشكل مستمر على الموجودين في داخل القلعة الى درجة أصيب فيها الجميع بجراح ، ولم يعد هنالك سوى عدد قليل قادر على حمل السلاح للدفاع عن القلعة ، وكان السور قد تقوض وفتح بالقوة ، وبات صلاح الدين مستوليا على جزء من الموقع ، وقد لجأ سكان المدينة بحكم الضرورة الى القلعة التي بدت بأنها الجزء الأقوى تحصينا ، وكان العدو قد شق طريقه الى القسم السفلي من أحد الأبراج وأحرق المدخل ، غير أن المحاصرين كانوا مايزالون يدافعون عن الجزء العلوي . لقد كان هذا هو النبأ الذي حمل الى الملك وثبت أنه كان صحيحا .

وكان النبيل آنسلم دي باس قائد قلعة الداروم والمدافع عنها

رجلا ورعا ويخاف الرب ومقاتلا شجاعا ، ولو حدث وكان بعيدا في اليوم الذي وقع فيه الهجوم ، لسقط بلا ريب في أيدي الأعداء .

ملأ نبأ هذا الوضع الخطير قلب الملك بالحزن والغضب ، فجمع على الفور قوات المشاة والفرسان من سائر الأنحاء بقدر ماسمح المجال الزمني القصير وقرب العدو ، وغادر عسقلان في اليوم الثامن عشر من هذا الشهر نفسه وأسرع نحو غزة ، ورافقه السيد البطريرك الذي حمل صليب الصلبوت النفيس المانح للحياة ، ورافقه ايضا رجلان مبجلان هما رالف أسقف بيت لحم ، المستشار الملكي ، وبرنارد ، أسقف اللد ، كما صاحبه عدد آخر ضئيل من نبلاء المملكة ، ولدى احصاء القوات وجد أنها كانت تتألف من مئتين وخمسين فارسا ونحو ألف جندي من المشاة .

أمضت القوات ليلة أرقة في غزة ، وهي تجر الساعات المملة منهكة بعبء القلق العميق ، وانطلقت من غزة مع شروق الشمس في الصباح التالي ، وانضم فرسان الداوية الذين كانوا قد اتوا الى هنا لحماية الموقع ، بقواتهم اليها ، وتقدم الجميع معا نحو قلعة الداروم .

أعتقد أن هذه القلعة كانت واقعة في أدوميا ، أي أدوم ، فيما وراء النهر المسمى باسم نهر مصر ، الذي يرسم الحدود بين فلسطين والمنطقة المذكورة منذ لحظات ، وكان الملك عموري قد شيد قبل بضع سنوات من هذه الآونة هذه القلعة على موقع مرتفع بعض الشيء فوق الخرائب القديمة ، التي ماتزال بعض آثارها باقية ، وتحكي التقاليد المنقولة عن السكان القدماء لهذه المناطق أنه كان هنالك دير للروم الاغريق في هذا الموقع في الأزمان القديمة كما أن اسم داروم الحالي للموقع ، أي « دار الروم » يذكر بتلك الحقيقة ويشهد على صحتها .

كان الملك ، كما ذكرنا من قبل ، قد أمر ببناء قلعة ذات ابعاد

معتدلة في هذا الموقع ، لم تغط مسافة زادت على مرمى حجر من الارض ، وكانت مربعة الشكل ، وكان يوجد برج في كل ركن من أركانها ، وكان احد هذه الابراج اضخم من باقي الأبراج وافضل تحصينا ، ولم يكن هنالك خندق حول القلعة أو دفاعات أمامية لها .

وتقع الداروم على بعد نحو خمسة اميال من البحر واربعة اميال من غزة ، وتجمع هنا عدد قليل من مزارعي الحقول المجاورة مع بعض التجار وشكلوا مستعمرة صغيرة . وبنوا قرية وكنيسة على مقربة من القلعة ، واتخذوا مقر سكناهم هناك ، ولقد كان موقعا بهيجا توفرت فيه شروط الحياة للناس ذوي المراتب الدنيا افضل مما كان في المدن (٢٦٧)

كان الملك قد بنى هذا الحصن لكي يوسع حدوده ، وكان في ذهنه حقيقة أنه باستطاعته أن يجمع بكل سهولة من هذا الموقع العائدات الكاملة المفروضة سنويا ، من سكان القرى المحيطة الذين يدعوهم شعبنا باسم « كاساليا » كما كان يمكن أيضا فرض ضريبة ثابتة على المسافرين المارين على الطريق .

٢ـ الملك ينطلق بسرعة الى هناك ومعه مجموعة صغيرة من الفرسان . العدو يقتل عددا كبيرا من شعبنا في كل من مدينة غزة وأثناء السير .

وهكذا انطلق جيشنا من غزة . وبينما كان متوقفا على مرتفع صغير على طول خط السير لمح معسكر العدو ، فأخافته أعداده الكبيرة فشرعت عناصره تحتشد مع بعضها وتتكتل اكثر من المعتاد وكانت محصلة هذا التكتل أن صفوفهم المضغوطة حالت الى حد بعيد دون احراز اي تقدم اضافي ، فهجم الكفرة على الفور وحاولوا تفريقهم ، لكن المسيحيين احتشدوا وتكاتفوا بفضل المساعدة

الالهية بإحكام اكثر وقاوموا هجوم العدو ، ثـم ســاروا بخـطوات سريعة قدما نحو غايتهـم حيث تـوقف الجيش بـأسره ونصـب خيامه ، وذهب السيد البطريرك الى القلعة ، وخيم الباقون جميعـا في الخارج بالقرب من أطراف القرية ، وكان الوقـت عندئذ حـوالي الساعة السادسة من اليوم ، وحدثت معارك فردية كثيرة في غضـون ذلك اليوم بالاضافة الى بعض الاشـتباكات التـي شـاركت فيهـا مجموعات كاملة ، واظهر جنودنا شجاعة كبيرة في الهجوم والمقاومة على حد سواء ، ومع حلول الظـلام نظـم صـلاح الدين صفوفه بتشكيل الزحف وقادها نحو غزة ، واسـتراح في تلك الليلة بـالقرب من النهر ، وواصل زحفه في الصباح الى غزة وتوقف أمام المدينة .

كانت مدينة غزة القديمة جـدا عاصـمة مشـهورة فيمـا مضى للفلسطينيين وقـد ورد ذكرهـا مـرارا في التـواريخ المدنية والكنسية ، كما ان الأبنية الرائعة الكثيرة التي مازالت باقية فيهـا تعطي دليلا على روعتها القديمة . وكانت قد بقيت مهجـورة لفتـرة طويلة من الزمن دون أن يقطنها احد من السكان . حتى قـام أخيرا بلدوين الثالث الملك الرابع للقدس صاحب الذكرى اللامعة ، بجمـع قوات المملكة ومواردها وبنى على أحد أجزاء الهضبة حصـنا قـويا بشكل جيد الى ابعـد الحـدود (٢٦٨) وكان ذلك كله قبـل ان يتـم الاستيلاء على عسقلان . ولدى انتهاء هذا الحصن اعطاه لفـرسان الداوية ليحتفظوا به بحق دائم . غير ان القلعة لم تشـغل الهضـبة بأسرها التي بنيت عليهـا المدينة كمـا تـم ذكر ذلك ، وحـاول الناس ، الذين أتوا الى هناك للعيش ، أن يحموا بقية القلعة بسور وبوابات ليحتاطوا لسلامتهم . الا ان هـذا السـور كان منخفضـا بعض الشيء ولم يكن قويا البتة .

عندما وصل نبـأ اقتـراب العـدو الى الناس السـاكنين على الهضبة ، قرروا اللجوء الى القلعـة مـع زوجـاتهم وأبنائهـم وأن يتخلوا عن الجزء الباقي وغير المحمي من المدينة الى العدو . لانهـم

كانوا مزارعين ورجالا غير مسلحين وغير معتادين أبدا على أشـياء تتعلق بالحرب ، الا أن ميلون دي بلانسي الذي كان واحدا من النبلاء العـظماء في المملكة ورجـلا شريرا ، رغب في ان يشـجعهم على المقاومة . ولذلك رفض السماح لهم بالدخول وأمـرهم بـالدفاع عن ذلك الجزء الأكثر ضعفا من المدينة .

وحدث ان كان في غزة مجموعة مؤلفة من خمسة وستين شابا من المقاتلين الشجعان مسلحين تسليحا خفيفا ، وكانوا من أهالي بلدة تـدعى (البيره) Mahumaria بـالقرب مـن القدس(٢٦٩) وكانوا قد وصلوا في تلك الليلة ذاتها الى غزة في طـريقهم للانضمام الى الجيش ، وقد عينوا بأمر مـن ميلون لحمـاية بـاب المدينة الخارجي . وكانوا يقاتلون هنالك بشجاعة دفاعا عن بلادهم وحريتهم ، ويقاومون بشجاعة محـاولات العـدو لشـق طـريقه بالسيف ، واقتحم الكفرة الموقع على المجموعة الصـغيرة ، التـي كانت ماتزال تدافع بقوة عن الباب وطوقوها بالكامل ، ولم يتمـكن الآخرون من المقاومة لفترة أطول مـن ذلك بعـدما بـوغتوا وهلكوا بالسيف ، وعلى الرغم مـن مقتـل عدد كبير مـن هؤلاء الشـبان الشجعان واصابة الكثير منهم بجراح فان الأعداء لم يخـرجوا مـن هذه المعركة سالمين ، لأن انتصارهم كان انتصارا دمويا .

قام سكان المدينة الآن بمحاولة اخـرى لدخـول القلعـة ، وعلى الرغم من أن الأتراك كانوا داخل الأسوار وكانوا يقـومون بمـذبحة لاتمييز فيها وفظيعة جدا في كل مـكان ، فـانه لم يسـمح لهـم بالدخول ، ولم يحصلوا على أية وسيلة للنجاة ، واندفـع الأتـراك على الفـور واسـتولوا على المدينة ، ولم تجـر مـراعاة لجنس أو لعمر ، وقذف حتى الأطفال الرضع الى الحجارة ، ومع ذلك ، فـان الغضـب اللامحـدود للغـزاة بدا عاجزا عن الاشباع ، ولقد ابقاهم اللاجئون الموجودون في البرج بعيدين عنهم بقذفهم بـالحجارة والأسـلحة الأخـرى بشـكل مستمر ، وهكذا ، بقي الحصن سليما بمساعدة الرب .

عاد الاعداء الى الداروم بعـــدما اســـتولوا على المدينة وقتلوا السكان ، عادوا وكأنهم يرفعــون أكاليل النصر ، وصـــادفوا نحـــو الخمسين من قوات رجالتنا كانوا يســيرون مسرعين نحــو الجيش دون التقيد بالحذر المناسب ، فقتلوا هؤلاء دون اســتثناء وذلك على الرغم من أن المسيحيين قاتلوا بكل شــجاعة بســيوفهم في محـــاولة يائسة منهم لانقاذ أرواحهم .

٢١ـ صلاح الدين يعود الى أراضيه . الملك يعــود الى عســقلان بعــد زيارة الداروم المخـــربة حـــاليا جزئيا . مقتــل تــوماس رئيس أســاقفة كانتبــري في كنيسته في العام نفسه ، وهو شهيد رائع في المسيح .

عبأ الاتراك صفوفهم الآن ووضعوها بتــرتيب المعــركة حســب القــانون العســـكري ، وقســـموا قـــواتهم الى اثنتين وأربعين فرقة ، وصدرت الاوامر الى عشرين فرقة من هذه الفــرق بـــالتقدم بالطريق الساحلي بين الداروم والبحر ، وتوجب على الفرق الباقية أن تسلك الطريق البري حتى يتم اجتياز القلعة عندما تتحد القــوات ثانية وتعود من جديد كتلة واحدة .

استعد المسيحيون لخوض المعركة ايضا بعدما تصوروا ان العدو كان عائدا بترتيب المعــركة ، وصـــحيح أن أعدادهـــم كانت قليلة إلا انهم وضعوا ثقتهم بـــرحمة الرب ، واســـتعدوا للمـــواجهة بعـــد أن التمسوا المساعده مـــن عليين ، ومنحهـــم الرب قـــوة وشـــجاعة راسخة ، وما كان من شيء بدا لهم أكثر تأييدا من أن الاتـــراك قـــد عادوا ليحاربوهم . إلا أن نية الأتراك كانت مختلفـــة كل الاختـــلاف فهم لم ينعطفوا نحو اليمين أو اليسار بل عادوا بـــالسرعة الكلية الى مصر .

جلب رسل ثقاة الآن نبأ أفـــاد أن العـــدو قـــد رحـــل دون نية

بـالعودة ، وبناء عليه عاد الملك يوجهـه الرب مـع جيشـه الى عسقلان . وترك في الداروم قوة من الجند لتعيد بناء القلعة النصف مخربة والتي توجب تحصينها بعد إعادة بنائها بقوة أكثر وحراستها بعناية ، وقال الذين شهدوا حملات كثيرة في المملكة لم يحتشد حسب معرفتهم قط جيشا كبيرا من الأتـراك مثـل هـذا ، وقـد كان عدد الفرسان وحدهم حسب إحدى الروايات نحو أربعين ألفا (٢٧٠)

واحتفل في حوالي هذا الوقت نفسـه ، أي في التـاسع والعشرين من شهر كانون الأول بذكرى وفاة الشهيد الرائع القـديس تـوماس رئيس أساقفة مدينة كانتبري في انكلترا (٢٧١) وكان مـن سكان لندن وكان قد أصبح في زمن ثيوبولد رئيس أساقفة كانتبـري ذي الذكرى المباركة ، رئيسا لشماسة تلك الكنيسة ، ثم استدعاه فيمـا بعـد هنري الثـاني ملك انكلتـرا ليشـارك في مسـؤولية المملكة ، وكان مخلصا وحـكيما كمسـتشار ، وكان مـدبرا متمـكنا للمملكة بأسرها ، وبعد وفاة الأب المبارك ثيوبولد استدعي توماس بناء على أمر الملك ليصبح رئيسـا لأسـاقفة كانتبـري وذلك كمـكافأة على خدماته ، فكافح بقوة واقدام في سبيل حقوق الكنيسة ضد الاستبداد والشرور واضـطر نتيجـة لذلك الى الهـروب الى فـرنسا ليتجنب اضطهاد الملك هنري ، وتحمل هنالك النفي لمدة سبع سنوات بصـبر بارز جدير بالمدح السـامي ، ولدى عودتـه مـن هـذا الغياب القسري ، وبينما كان منتظرا الأمن الذي كان قـد وعد بـه ، ذبـح بسيوف رجال أشرار في داخل الكنيسة ذاتها التي كان قـد تـرأسها بإرادة الرب ، فقد قتل بشكل شائن عندما كان يصلي من أجل مضطهديه ، و كلل بدمه و لاقى مصير الشهادة الرائع ، و كان الرب قد تجلى من خلاله في تلك الكنيسة ذاتها وفي كل مكان مـن المنطقـة بالفعل لينجز معجزات كثيرة جدا ، وبشكل يومي تقريبا لدرجـة أن ازمان الرسل بدت وكأنها قد عادت بالفعل .

٢٢ـ الملك يزور القسطنطينية بمرافقة بعض نبلائه . الامبراطور يغدق عليه اعطيات كثيرة .

استدعى الملك في العام اللاحق ، الذي كان العام السابع(٧٧٢) من حكم عموري ، جميع نبلائه اليه ووضع امامهم احتياجات المملكة ، لأنه ادرك أن اضطرابات كثيرة كانت تثقل كاهل المملكة ، وأن أعداء العقيدة المسيحية كانوا يتزايدون باستمرار ليس فقط في العدد والقوة بل في القوى والثروات ايضا ، هذا وكانت مملكتنا من جهة أخرى خالية تماما من القادة الحكماء والعقلاء ، حيث ان الجيل الشاب الذي كان يأخذ مواقع اسلافه كان ينمو في الشر ، فقد كان يحتل دون غاية أو نتيجة مواقع رجال بارزين ، وقد أخذ يبدد بطرق مخزية الميراث الذي تلقاه من آبائه ، وكانت المحصلة تدهور المملكة كثيرا بحيث اتضح ضعفها حتى لأكثر الناس غباء ، ولذلك فقد طلب الملك نصيحة نبلائه بخصوص طريقة معالجة هذه الحالات الشريرة وانقاذ المملكة ، فأجابوه بعدما تداولوا بين بعضهم ، وبالاجماع تقريبا « انه بسبب آثامنا هوت المملكة في حالة يائسة كهذه حيث لم تعد تستطيع مهاجمة أعدائها ولاصد هجماتهم ». ونصحوا بوجوب التماس المساعدة من ملوك الغرب القارعة هذه المشاكل ولم يكن لديهم اية خطة لمعالجة اخرى يقترحونها .

وهكذا تقرر وبناء على موافقة الجميع إرسال وفد مؤلف من رجال ذوي منزلة ساميةالى ملوك الغرب ليشرحوا معضلات المملكة ويبينوا مصاعبها ويطلبوا مساعدتهم ، وصدرت الأوامر الى المبعوثين بوجوب زيارة البابا وكبار النبلاء وامبراطور الرومان وملوك فرنسا وانكلترا وصقلية واسبانيا وجميع الأمراء والحكام الآخرين المشهورين والتماس مساعدتهم في مكافحة المخاطر الوشيكة التي تهدد المملكة الآن ، وتقرر علاوة على ذلك اعلام امبراطور القسطنطينية بالوضع المتقلقل في المملكة ، لأنه لقربه منا ولغناه أكثر من غيره يستطيع بشكل سهولة تقديم المساعدة

المطلوبة . وتقرر بالتحديد أن يكون المبعوث المرسل الى الامبراطور شخصا موهوبا جدا بالحكمة والفصاحة والقوة المقنعة حتى يتمكن بلباقته ومقدرته من استمالة ذهن ذلك الملك العظيم ليستجيب لرغباتنا .

وبينما كانوا يتداولون حول اختيار شخص مناسب يتولى القيام بهذه المهمة الهامة كان الملك يتباحث مع بعض مستشاريه المقربين ، ثم وضع الملك أمام الحشد خطة كان قد تصورها من قبل ، وهكذا أعلن أن مهمة ذات أهمية كهذه لايمكن لأحد أن يتولى القيام بها غيره ، وأضاف أنه كان مستعدا لتحمل جميع الأخطار والمشقات لتأمين النجدة الضرورية جدا للمملكة ، وإرتبك كبار النبلاء لدى سماعهم هذا الاقتراح وقد امتلأوا بالاعجاب ـ واحتجوا أن المهمة شاقة جدا ، والأكثر من ذلك ، أن المملكة ستكون بحالة مزرية بدون وجود الملك فيها ومع ذلك أجابهم عموري قائلا :« فليحكم الرب ، الذي أنا وكيله ، المملكة وأما بالنسبة لي فانني مصمم على الذهاب ، ولايستطيع أحد أن يقنعني بإلغاء ذلك القرار ».

وبناء عليه انطلق برحلته في العاشر من شهر آذار وبصحبته موكب عظيم يليق بالجلالة الملكية مع مرافقة مؤلفة من عشر سفن ، وكان في موكبه وليم أسقف عكا والنبلاء التالي اسماؤهم من المملكة : غورموند صاحب طبرية ، وجون صاحب أرسوف ، وجيرارد دي بوني قائد القوات الملكية ، و روهارد حاكم القدس ، و رينودي نفنس ، و جرى إرسبال فيليب صاحب نابلس ، الذي كان قد تخلى عن منصبه كمقدم لفرسان الداوية أمام الركب برا ، وبما ان التأييد الرباني كان مع الملك فقد استمتع برحلة بحرية ميمونة ووصل بسلام الى مضائق أبيدوس ومطلع البوسفور المعروف باللغة العامية باسم ذراع القديس جورج .

وعلم السيد الامبراطور الذي كان ملكا حكيما وحصيفا وصاحب

مكانة سامية جدا ، وجديرا بالمدح في كل النواحي ، علم بدهشة أن ملكا قويا وحاكما لملكة مشهورة وعظيمة حبيبة الرب ، كان خلافا للعرف على وشك زيارة امبراطوريته ، وكان تفكيره الأول التساؤل حول الدافع لرحلة غريبة وصعبة جدا كهذه ، ثم امتلأ بالحبور بعدما اتضح له أن نعمة فريدة لامثيل لها قد اضفيت عليه بكل كرم من عليين وأنها ستزيد امجاده وترفع مكانته ، حيث لم

يسجل حدث غريب كهذا في اي مكان من حوليات تاريخ امبراطوريته ، ولم يحدث من قبل أبدا أن زار ملك من ملوك القدس ـ الذي يعتبر المدافع والحامي عن الاماكن المقدسة لآلام المسيح وقيامته ـ أيا من أسلافه الأباطرة ، فقرر الامبراطور استباق وصول الملك في أن يظهر له تشريفا كبيرا ، ولهذا ، استدعى ابن أخيه يوحنا البرتو - باستوس وكان ابرن نبلاء القصر المقدس وهو الذي تزوج الملك عموري من ابنته ، فأرسله ليقابل الزائر الملكي .

وأمره أن يتأكد شخصيا من وجوب إظهار إجلال كبير للملك في جميع المدن والأماكن التي يمر فيها موكبه وذلك تمشيا مع العرف الأزلي للامبراطورية ومع العظمة الفريدة المتعلقة بها ، وعلاوة على ذلك ، وجب عليه أن ينصح الملك كابن له لينتظر قدوم الممثلين الامبراطوريين الذين سيرافقونه إلى المدينة الملكية .

وتنفيذا لأمر الامبراطور استقبل هذا الأمير الرائع ومعه حاشية رفيعة المستوى ، الملك في مدينة غاليبوس الواقعة على البوسفور ، والتي تقع على مسافة قريبة من مضائق أبيدوس ، وبما أن الريح لم تكن بالاتجاه الصحيح في ذلك الوقت لتدفع السفينة إلى المدينة الامبراطورية نزل الملك هنا من الشيني وتقدم مع أفراد حاشيته الشخصية على صهوة الجواد إلى مدينة هرقلية الواقعة على الساحل نفسه ، وقد وجد الأسطول هناك في الميناء ، حيث كان قد

استفاد من تغيير موات للريح ووصـل قبله ، وهـكذا ، ركب ظهـر السفينة مجددا ووصل إلى القسطنطينية بعد رحلة ميمونة .

٢٣ – الملك يدخـل إلى الحضرة الامبـراطورية ويستقبله الامبـراطور بإجـلال ملحـوظ . إجـراء محادثات متكررة بينهما حول مسائل بالغة الأهمية .

يقع في هذه المدينة المقـر الامبـراطوري المعـروف بـاسم قصر قسطنطين على شاطىء البحر المقابل للشرق . وللطـريق المؤدي إليه من البحر رصيف رائع من رخام بديع وتنزل درجات السلم الرخامي إلى حافة الماء وتزينها تماثيل الأسود والأعمدة المصنوعة من الرخام وتضفي على الموقع روعة ملكية ، ولقد احتفـظ عادة بهـذا المدخـل لاستخدام الامبراطور فقط عندما كان يرغب بصعود الجـزء العلوي من القصر ، ومنح الملك امتياز اسـتخدامه خـلافا للعـادة المألوفـة وكإشارة على تشريف خاص ، وانتظر قدومه هنا كبار النبـلاء مـن القصر المقدس يحيط بهم حشد من عناصر الحـاشية الملكية ، وقـد منح استقبالا مهيبا للغاية ، وتـوجه مـن هناك بصـحبة حـاشيته وملحقين كثر من البلاط وسار خلال أروقة مختلفـة وغرف متعـددة الأنواع إلى القسم العلوي مـن القصر حيث يقيم الامبـراطور مـع نبلائه المشهورين ، وتدلت أمام قاعة المقابلات ستائر مـن أنسـجة ثمينة مزخرفة بالأعمال اليدوية مماثلة في قيمتهـا للمـادة نفسـها ، ويمكن أن ينطبق عليها بالفعل بشكل موائم أقوال ناسو : « فـاقت الصنعة المادة كثيرا »(٢٧٣) .

استقبل نبلاء الامبراطور العظماء الملك خارج هذه القـاعة تمـاما حيث وجهوه إلى ما وراء الستائر المذكورة منذ لحظات ، ويقـال إنه تم عمل هذا حتى يمكن المحافظة على سمو العـظمة الامبـراطورية وليكسب في الوقت نفسه ود الملك تجاه الامبراطور . حيث يقـال إن الامبراطور ، الذي لم يكن محاطا إلا بأعظم نبلاء قصره ، قـد نهض

بطريقة ودية ليحيي الملك ، وهو عمل لو تم بحضور البلاط المحتشد ، لبدا أنه يظهر تلطفا كبيرا من جانب جلالته الامبراطورية (٢٧٤).

وحالما دخل الملك سحبت الستائر وأصبح الامبراطور مرئيا بالنسبة للموجودين في الخارج ، وكان جالسا على عرش من الذهب ومرتديا أثوابا امبراطورية ، وأجلس الملك إلى جانبه على عرش آخر كان رائعا لكنه أخفض قليلا عن عرش الامبراطور ومنح الامبراطور بسخاء زائد التحية المألوفة وقبلة السلام لنبلائنا أيضا وأجرى استفسارات لطيفة حول سعادة الملك وأعضاء حاشيته ، واظهر بوضوح بأقواله وتعبيره أن قدومهم قد أعطاه سرورا كبيرا ، وكان قد أمر الخدم وموظفي القصر المقدس باعداد أجنحة خاصة ذات عظمة كبيرة داخل القصر نفسه للملك وحاشيته ، وهيأت في المدينة مساكن منفصلة ذات مستوى رفيع مناسب وقعت على مقربة من مقر إقامة الملك لسكن النبلاء المرافقين ، ثم انسحب الزوار من الحضرة الامبراطورية وخلوا لأنفسهم لفترة من الزمن بمرافقة الملك ، ثم صرفهم الملك أيضا بعد أن حدد الساعة التي وجب عليهم العودة فيها ، وارسلهم إلى مساكنهم .

عقد المبعوثون يوميا مداولات جدية في ساعات حددت خصيصا لهذا الغرض وكانت تارة مع الامبراطور وتارة فيما بينهم وتناولت المحادثات القضايا التي أتت بهم إلى هنا وخصصوا في المقام الأول دراسة حذرة للغاية للاجراءات التي يمكن بواسطتها إنجاز هدف رحلتهم الذي كانوا قد تحملوا في سبيل نجاحه مشقات كثيرة جدا ، حتى يتمكنوا من العودة إلى الوطن متوجين بالنجاح .

شرح الملك في أحاديث ودية كثيرة عقدها مع الامبراطور على انفراد احيانا وبحضور النبلاء البارزين من القصر مرات أخرى الأسباب التي أدت إلى زيارته ، وأعلن في آخر الأمر عن احتياجات مملكته ، وأكد على الشهرة الأبدية التي يمكن للامبراطور أن يحققها بتولي القيام بمشروع الاستيلاء على مصر وأكد له ببراهين إيجابية كيف

يمكن إنجاز المشروع بسهولة ، وأصغى الامبراطور بشكل إيجـابي لاقتراح الملك بعدما أقنعته أقواله ووعد بتنفيذ رغباته بأكملها .

أغدق الامبـراطور في هـذه الاثناء ، حسـبما يليق بعـظمته الامبراطورية ، هبات عديدة على الملك وعلى النبـلاء مـن حـاشيته واظهر عناية كبيرة خلال زيارات متكررة حول سعادتهم وصحتهم ، وتنفيذا لاوامره ، فتحت لهم حتى الأجزاء الداخلية من القصر ـ أي الاجنحة الخاصة التي لا يطـؤها عادة سـوى المقـربين مـن أبناء شعبه ، والجناح الخاص المفرد لاسـتعماله ـ كمـا تفتـح لأفـراد أسرته ، وامتدت هذه الامتيازات أيضا إلى المبـاني المغلقـة أمـام العامة مـن الناس ، وإلى جميع الكنوز الثمينة التـي كان أسـلافه الأباطرة قد جمعوها هناك ، وبلغ الأمر إلى حد السماح لهم بـرؤية آثار القديسيين وآثار مـولانا يسـوع المسـيح الثمينة بمـا في ذلك الصليب والمسامير والحربة(٢٧٥)والأسفنجة والقصبة والتاج الشوكي والرداء الكتاني والصنادل . ولم يبق هنالك أي شيء مقدس أو روحي حوفظ عليه بتـوقير مـن أيام الأبـاطرة قسـطنطين وتيوديوس وجستنيان إلا وشاهدوه في المستودعات الخـاصه للغـرف المقـدسة بدون تحفظ .

ودعا الامبراطور الملك وحاشيته من وقت لآخر في العـطل وأوقـات الفراغ ليستمتعوا بالاستجمام الذي قدمته تسليات جديدة ذات سمو ورفعة ، حسبما يليق بالمرتبة المجدة للملكين ، وجلبت أحيانا أنواع مختلفة من الآلات الموسيقية حيث تصاعدت من أوتارها نغمات ذات عذوبة رائعة بمقياس متناغم من أجل ابتهاجهما . وفـوق ذلك ، فقـد غنت جوقات من الفتيات وقـدمت مسرحيات إيمـائية ذات سـمات عالية ، ومع ذلك ، فقد تم التقيد دائما بـالذوق والأخـلاق الحميدة . وأمـر الامبـراطور أيضـا أن تقـدم ـ على شرف الملك ـ للناس القاطنين في المدينة ألعاب نفيسة ورائعة تشبه التي ندعوهـا ألعـاب مسرحية أو سيركات(٢٧٦) .

٢٤ ـ عودة الملك مـــع نبـــلائه إلى بـــلادهم محملين بالهدايا وذلك بعدما تحقق الهدف من رحلتهم .

اقام الملك ونبـلاؤه عدة ايام في قصر قسـطنطين ، ثـم نقـل الامبراطور اقامته الى القصر الجديد المسمى بـلا شـيرين.(٢٧٧) . بمرافقة الملك لاجراء تغيير حيث اعتبر ذلك الوسيلة الاكثـر فعـالية التخلص من الرتابة ، وتقيد الامبراطور هنالك ايضا وبشكل كامـل بقوانين الضيافة ، فقد استضاف الملك بكرم في قصره لعدة ايام حيث خصصت اجنحة فخمة للملك عموري في اكثر المناطق خصـوصية في المقر الامبراطوري لاسلافه ، وصـدرت الاوامـر في القـوت نفسـه بتجهيز مساكن لحاشية الملك قريبة مـن هـذا القصر ، ولم يتـوقف ضباط خزانة الملابس هنا كما لم يتوقفوا من قبل ، مع عدد آخر من الضباط معينين خصيصا لهذا الواجب عن تامين كل النفقات بشكل فخم ومفرط ليس فقط للأشـياء الضرورية بـل حتـى للكمـاليات الزائدة .

تمت مرافقة الملك إلى كل مكان من المدينة بـكاملها داخـل كل مـن الأسوار وخارجها وقام بزيارة الكنائس والأديرة التي تـوفر منهـا عدد غير محدود . ونظـر إلى أقـواس النصر والاعمـدة المزخـرفة بالاشياء التذكارية ، وكان مرشدوه نبلاء كبـارا يعـرفون الأمـاكن بشكل جيد ، ولدى استفساره عن طبيعة وهدف كل معـروض ، كان الرجال الأكبر سنا والمطلعـون بشـكل جيد يقـدمون له المعلومـات الكاملة .

وأبحر في هذا الوقت نفسه عبـر البـوسفور إلى مـدخل البحـر الأسود ، حيث يبدأ البوسفور مجراه إلى البحر المتوسط ، وهكذا ، زار الملك الذي كان متفتح الذهن متلهفا دوما لمعرفة سـبب الأشـياء أماكن لم تكن معروفة له حتى الآن . وعاد في نهاية الأمر إلى المدينة وهو مسرور تماما بما كان قد رآه وسمعه ، وواصل المداولات الودية

مع الامبراطور حيث كانت رغبته الأكثر جدية أن يوصل مهمتــه إلى نهاية ناجحة .

وبعد مضي الوقت المناسب تم التــوصل إلى إيجــاد حلول ســعيدة لجميع المسائل الهامة التي جرى بحثها بتلهف ، وتم تحويل الاتفاق إلى معاهدة مرضية لكل من الامبراطور والملك وتم تدوينها ثم ختمت بختمي الامبراطور والملك ، وبعدها استأذن الملك بالانصراف وبــدأ يعد التحضيرات للرحيل مصاحبا بود الجميع وأمانيهم الطيبة ، ثــم اظهر الامبراطور نحو الملك الكرم والسخاء بشكل أكثر من ذي قبل ، وبصورة لا يمكن للمديح تصويرها ، إضافة إلى هــدايا رائعــة غاية الروعة من السلع الاجنبية ، بينما أمطر حاشيته ، حتــى الصــغير منها ، بهدايا لا حدود لها وأكثر من أن تحصى .

واظهر بروتو سيباستوس اللامع سخاء كبيرا أيضا نحو الســفارة بأكملها ، والهبت الروح ذاتها الأمراء الآخرين أيضــا ، فتنافســوا فيما بينهم في إهداء هبات سخية للملك ، لم تفتقــر إلى أناقــة المادة وجمال الصنعة ، وكلها عبرت عن حسن ودهــم ، وعندمــا أصــبح الأسطول جاهزا أبحر الملك بعدما انجــزت مهمتــه بنجــاح ، مــن القسطنطينية مسافة مائتي ميل عبر البوسفور الذي يعتبر عادة الحد الفاصل بين أوربا وآسيا ، وبعــدما مــر بين مــدينتي ســيستوس المشهورتين اللتين تعتبران مــوطني ليانذر نقلتــه ريح مــواتية إلى البحر المتوسط وأخيرا ألقى مراسيه في اليوم السابع عشر قبل بداية شهر تموز في مدينة صيدا(٢٧٨)

٢٥ ــ الملك يحشــد الجيش في الصـــفورية . عودة فريدريك رئيس أساقفة صور من بلاد ما وراء البحر . مقتل وليم أسقف عكا في رومانيا .

علم الملك لدى عودتـــه إلى المملكة أن نور الدين كان مـــا يزال

معسكرا ينتظر مع جيش ضخم في أحواز بانياس ، فاستدعى إليه نبلاء المملكة ، ذلك انه خشي من أن يحاول نور الدين شن الغارات على بلادنا من هناك ، وتقدم نحو طبرية ليحتاط بقدر الامكان ضد طارىء كهذا ، وخيم بالقرب من النبع المشهور الواقع بين الناصرة والصفورية ، بالنظر لوقوع هذا النبع على مقربة من قلب المملكة فكان بإمكانه التحرك بسهولة نحو أي جزء من البلاد يمكن أن تستدعي إليه الحاجة ، ونظرا لموائمة هذا الموقع اعتاد عموري وأسلافه من قبله على جمع جيوشهم في ذلك الموقع .

وحدث في حوالي الوقت ذاته أن عاد سلفنا فريدريك رئيس أساقفة صور ، الذي كان قد أرسل باسم المملكة ليلتمس المساعدة والمشورة من ملوك الغرب ، إلى البلاد مخفقا بعد اقامة استغرقت عامين في البلاد الواقعة فيما وراء البحار . وكانت الجهود التي بذلها عقيمة تماما ، ولم يحصل على أي شيء كان قد طلبه باسمنا . هذا وكان قد أرسل قبله الكونت ستيفن ، وكان رجلا منحدرا من أسرة نبيلة غير أن حياته كانت بعيدة عن النبل ، وكان ستيفن ابن ثيوبلد الثاني كونت بليوس وتشارتزر وترويز ، وقام الملك باستدعائه نتيجة لوساطة رئيس الأساقفة ووعد أن يزوجه بابنته ، ولدى وصول الكونت إلى المملكة ، ذكره الملك بلطف بالمسألة ، إلا أن ستيفن رفض العرض ، بعدما كان قد تم عرضه وقبوله ، وبعدما عاش حياة فاسقة مخزية لعدة شهور في المملكة ، وقرر العودة إلى موطنه عن طريق البر ، وذهب تنفيذا لهذا الهدف ، إلى أنطاكية في أول الأمر ومن هناك إلى كليكية ، وعقد العزم من ثم بعد حصوله على مرافقة من سلطان قونية على عبور تلك البلاد في طريقه إلى القسطنطينية إلا انه تعرض في كليكية بالقرب من مدينة المصيصة لبلية السقوط في كمين قد نصبه له مالح (ماليه) (٢٧٩) وكان اميرا ارمينيا قويا جدا وأخا لطوروس ، فقد انقض قطاع الطرق عليه من مكمنهم وانتزعوا منه جميع الكنوز الثمينة التي كانت معه ، وبعد الحاح وتوسلات عظيمة اقنعهم اخيرا وبصعوبة كبيرة في أن يتركوا فرسا هزيلا لاستخدامه ، ووصل في نهاية المطاف إلى القسطنطينية بهذا الشكل

المخزي ، إنما بعدما عانى مـن مشـقات كبيرة وكان بصـحبته عدد ضئيل من المرافقين ، وصل وهو مـلاحق بـكراهية سـكان الشرق أجمعين(٢٨٠)

وصل إلى المملكة في ذلك العام كونت آخر يدعى ستيفن وهـو ابـن الكونت وليم دي سوان في رحلة حج لاقامة الصـلاة والعبـادة ، غير انه كان يختلف تماما عن ستيفن الآخر فمع انه كان يحمـل الاسـم نفسه ، فقد كان رجلا متواضعا له حياة شريفة ، وجدير بـالاحترام الكبير التام ، وكان بمـرافقته هنري الأصـغر دوق بيرغندي ابـن إحدى أخوات ستيفن المذكور آنفا ، وقد عادا إلى موطنهما بعد إقامة قصيرة ، لكنهما تـوقفا في الطـريق إلى القسـطنطينية حيث ابـدى الامبراطور نحوهما اهتماما ملحـوظا ، وودعهمـا محملين بهـدايا كثيرة (٢٨١) .

وفي العام التالي الذي كان العام الثامن من حكم الملك عمـوري(٢٨٢) واجه وليم أسقف عكا ، صاحب الذكرى الطيبة مصيرا غريبا كان لا يستحقه ، فقد كان الملك قد أرسله من القسـطنطينية إلى ايطـاليا ، وقد طاف في تلك البلاد محاولا بكل وسـيلة ممـكنة إنجـاز المهمـة الموكولة اليه ، وعندما كان في طريق العودة الى الوطـن وقـد عقـد العزم على زيارة الامبراطور أثناء عودتـه ـ وذلك حسـب تـرتيب سابق ـ وبعدما وصل الى أدرنة وهي مـدينة مشـهورة في تـراقية الثانية . وكانت قد أتعبته رحلته الطويلة ، تناول الاسـقف الطعـام عند الظهر ثم تمدد ليريح أوصاله المتعبة ، وكان بين أتباعه شخص يدعى روبرت ـ كان قد رقاه هو نفسه الى منصـب الكاهـن وجعله بين افراد حاشيته الشخصية ـ كان مستلقيا في الغرفة نفسها التي كان يستريح الأسقف فيها ، وكان آنذاك يتماثل للشفاء من مـرض طويل عانى خلاله الكثير ـ فاستبد به الجنون فجأة وأمسك بسـيفه وطعن الأسقف النائم وأصابه بجراح مميتة ، وسمع رجال الأسقف الموجودين في الخارج صرخاته وأدركوا من خلال تأوهاته وصيحاته العالية أن سيدهم كان في الام الموت ، وحاولوا الاندفاع لمساعدته

الا أن الباب كان مقفلا بإحكام من الداخل حيث كان الدخول مستحيلا ، وعندما تم أخيرا فتح الباب بالقوة وجدوا سيدهم بدون حراك مع أن قلبه كان مايزال يخفق بضعف ، وكان هدفهم الأول الآن هو القبض على المجرم وتسليمة مكبلا بالسلاسل الى العقاب اللائق به حسب القوانين التي تحظر القتل ، غير أن الأسقف منعهم من ذلك بالقول والاشارة وتوسل اليهم بجدية بالغة أن يمنح القاتل غفرانا كاملا لسعادة روحه ، وعندما كان ما يزال يتوسل اليهم بعدم اتخاذ أي اجراء ضد الرجل الشاب لاماتته تخلى عن نفسه الأخير الى الرب ، وقد حدث هذا في التاسع والعشرين من شهر حزيران.

ولم نتمكن حتى الآن من تحديد سبب هذا العمل ، وقد قال بعضهم إن روبرت ، الذي اقترف هذا العمل الوحشي ، كان يعاني من مرض طويل ، وكان على الرغم من تماثله للشفاء قد انتابته نوبه عنيفة مفاجئة ، ولذلك لم يكن مسؤولا عن هذا العمل الشرير ، وعلى العكس من ذلك ، يؤكد آخرون أنه ارتكب الجريمة بسبب كراهيته لرجل كان يعمل حاجبا للأسقف ، وكان يستغل حظوته لدى سيده الى أبعد الحدود ، فعامل روبرت و الآخرين بشكل سيء (٢٨٣)

وفي الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني من العام نفسه جرى تعيين جوزشيوس وهو كاهن وشماس في تلك الكنيسة ذاتها ، أسقفا لعكا وخليفة لوليم المتوفى.

٢٦ – مالح (٢٨٤) الأرمني ، أخو طوروس يضم قواته إلى قوات نور الدين و يجتاح منطقة انطاكية . الملك يسرع بالتوجه الى هناك ليقمع عمله الشرير

حدثت في هذه الآونة وفاة طوروس الذي كان رجلا عظيما ونبيلا كنت قد ذكرته مرارا كأمير قوي للأرمن. ورغب أخوه مالح ، الذي

كان رجلا شريرا للغاية ، أن يستولي على الميراث لنفسه ، لهذا القصد ذهب الى نور الدين وتوسل اليه بجدية أن يعطيه قوة من الفرسان ليستولي بها بقوة على ممتلكات أخيه ، وكان النبلاء العظماء في تلك المنطقة قد ارسلوا الآن بعد وفاة طوروس في طلب توماس (٢٨٥) ، وهو احد ابناء اخت لهذين الحاكمين ، وعينوه وملكوه بشكل أمن به سائر امارة خاله ، وكان توماس لاتيني المولد ، غير انه افتقر تماما الى القوة والعقل ليوائم نفسه للتعايش والتعاون مع هؤلاء الذين قد استدعوه .

وتمكن مالح في ظل بعض الشروط المحددة تماما المرضية لنور الدين من الحصول على قوة كبيرة من الفرسان ، وبعمله هذا كان مالح أول بني جنسه اقداما على انتهاك عادات اسلافه ، بطلب مساعدة العدو وبادخال قوة مسلحة من الكفرة الى ميراثه واراضي ابائه ، واجتاح ممتلكات اسلافه بالقوة ، وطرد ابن أخيه ، واستولى على المنطقة باسرها ، وكان أول أعمال حكمه بعدما استولى على السلطة ، تجريد فرسان الداوية من جميع ممتلكاتهم في كليكية مع أنه كان ينتمي من قبل الى منظمتهم ، ثم شكل حلفا مع نور الدين والاتراك وفق معاهدة نادرا ما تعقد حتى بين الأخوة ، وتخلى عن شريعة الرب بعدما أصبح كافرا ومن ثم الحق بالمسيحيين جميع الأضرار التي استطاع الحاقها ، والقى في غياهب السجون جميع الذين حدث أن وقعوا في قبضته ونقلهم الى بلد العدو ليباعوا كعبيد .

وأظهرت هذه الاساءات التي ارتكبها هذا الرجل الشرير ضد المسيحيين على الفور أنه من أسوا أعدائهم ، وهكذا ، حمل أمير انطاكية وعظماء تلك المنطقة السلاح ضده مع أنه بدا شاذا وغريبا بالنسبة للمسيحيين أن يثوروا ضد أمرىء كان يعتنق العقيدة نفسها ، الامر الذي كان مماثلا في الواقع لحرب أهلية تقريبا ، ودفعوا مالح ووصموه بأنه عدو المملكة .

وبادر الملك مع قواته الى أنطاكية عندما علم بالمشكلة التـي كانت قد ثارت في تلك البلاد لأنه رغب في أن يقوم بدوره في اي اجراء يخدم السلام ، وأرسل مـن هناك رسـله الشـخصيين الى مـالح ذلك التعيس ، الذي كان رجلا منبـوذا تمـاما ولا يحـظى بتـأييد الرب ، وطالب بالحاح في أن يوافق على عقد مداولة معـه بنفسـه في وقت ومكان موائمين ، وتظاهر مالح بالسرور بهذه الرسالة غير أن عواطفه كانت مختلفة تماما في الواقـع ، و أرسـل الملك إليه مـرات عديدة المندوبين وحاول عقد هذا اللقـاء ، إلا أنه اكتشـف في اخـر الأمر أنه مخدوع بحيل هذا الرجل الشرير و مكره ، و أنه لا يمـكن بالتالي تحقيق أي شيء بهذه الطريقة ، وبناء عليه جمـع في خـاتمة المطاف جميع قوات المسيحيين الموجودة في ذلك الموقع ، وغزا أراضي عدوه بهذا الجيش ، وحرق الجند المحاصيل أثناء سيرهم عبر سهل كليكية (لأن الزحف عبر الطريق الجبلي المنحدر كان أمـرا في غاية الصعوبة) وحاول الجند الهجوم على القلاع الواقعة على طول خط سيرهم ، لكن وصل فجاة رسول يحمل نبأ مشـؤوما أفـاد أن نور الدين كان قد ألقى الحصـار على البتـراء عاصـمة العـربية الثانية ، والمعروفة أيضا باسم الكرك ، وهـي شـائعة ثبـت أنهـا صحيحة.

أحدث هذا النبأ كربا شديدا للملك ، فاستأذن الأمير بالانصراف على الفور وانطلق بسرعة مع اتباعه الذاتيين ، لكن كان نبلاء المملكة قد جمعوا قبل وصوله الى بلاده بعمل فوري وحصيف سـائر القـوة العسكرية في المملكة ، وكان همفري كافل المملكة قد تولى المسؤولية الكاملة عن الجيش ، بينما عهد الى رالف أسقف بيت لحـم مهمـة حمل صليب الصلبوت ، وكان الجنود يتقاطرون بشـجاعة وبونمـا تأخير الى المكان المحدد عندما قابلهم رسول جلب الأخبـار الهـامة التي ثبت انها صحيحة ، وافـادت أن نور الدين كان قـد تخلى عن الحصـار دون أن يحـدث أضرارا للمـوقع ، وأنه عاد الى موطنه ، وحـدث بـالتالي ان وجـد الملك لدى وصـوله الى

المملكة ــ خــلافا لتــوقعاته ــ أن كل شيء كان آمنا بقــدر مــا كان مرغوبا.

٢٧ ــ صلاح الدين يحاصر قلعة الكرك الواقعة فيمــا وراء الأردن ــ ادراكه أن جهوده عقيمة وعودتــه الى بلاده.

استعد صلاح الدين في العام اللاحق مع بداية حلول فصل الخريف ليغزو منطقتنا بقوات ضــخمة وعدد كبير مــن الفــرسان ، وعبــر الصحراء على رأس حشود لا تحصى جمعها من سائر انحــاء بــلاد مصر ووصل الى الموقع المسمى باسم كنيس الترك.

وكان الملك قد استبق قــدومه فحشــد جيشــه ، ونصــب معسكره ، بمرافقة الســيد البــطريرك الذي كان يحمــل صــليب الصلبوت المــانح للحياة ، بالقرب من بئر الســبع حيث يمــكنه مقابلة العدو بسهولة أكثر.

ولقد قيل إن قوات صلاح الدين كانت تتمركز على بعد ســتة عشر ميلا تقريبا من معسكر الملك ، الا أن الملك عموري لم يكن واثقا حتى الآن أن الأتراك قد وصلوا بالفعل الى ذلك الموقع ، ومع ذلك ، ثبتت صحة الرواية ، وكان صلاح الدين قد أقام بــالفعل معسكره هناك بسبب توفر الماء الموائم.

وقرر الملك بعد التداول مع نبلائه أن يغير طريقه ليتجنب المقــابلة مع الأتراك ، وهكذا ، تقدمت القوات والناس جميعا الى عســقلان تحت ذريعة البحث عن العدو الذي كانوا قد تجنبوه بحذر وهــو على مقربة منهم ، وزحفوا من عســقلان الى الداروم وعادوا مــن هنالك ثانية الى نقطة انطلاقهم الأصلية بعد تبديد عقيم للجهد والنفقة.

تقدم صلاح الدين في هذه الاثناء عبر سهول أدوم وقاد كتائبه الى وادي عربة ، وحاصر هنالك قلعة تعتبر المعقل البارز والرئيسي لذلك الاقليم بأسره ، وهاجم هذه القلعة بنشاط عنيف بقدر ما سمح الوضع ، لانها كانت تقع على هضبة مرتفعة وكانت محصنة بشكل رائع بالاسوار والابراج والشرفات وكانت القرية الخارجية واقعة على منحدر الهضبة ، في موقع منحدر جدا وعال بحيث لم يكن هنالك حاجة للخوف من الغزوات أو الهجمات بالآلات الحربية أو الأقواس ، وكان السكان جميعهم من المسيحيين ، ولذلك كان ممكنا الاعتماد عليهم ، وعلاوة على ذلك كانت القلعة مزودة بشكل جيد بالأسلحة والمؤن وكان فيها حامية كافية من الجنود للدفاع عنها.

وبدد الكفرة جهودهم لبضعة أيام دون نجاح ، واخيرا اصدر صلاح الدين أمر الرحيل بعدما اقتنع أن القلعة كانت منيعة ، وعاد الى مصر مع قواته عن طريق الصحراء.

٢٨ ـ صلاح الدين يدمر المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن بالأكمل. الملك يحتفظ بجيشه في موقع يسمى الكرمل. ريموند صاحب طرابلس يعود من الأسر.

في العام اللاحق الذي كان العام العاشر من فترة حكم الملك عموري أجرى صلاح الدين استعداداته من جديد لغزو المملكة ، وقد رغب بالتعويض عن إخفاقه بعدما ادرك أنه لم يكن قد أنجز سوى القليل ضد قواتنا في العام السابق ، وهكذا جمع حشدا ضخما من المحاربين من أنحاء مصر كلها ومن أماكن اخرى أيضا وتقدم عبر طريق الصحراء حتى تبدو تحركاته أقل لفتا للنظر ، ويمكنه بالتالي الحاق ضرر اكبر بالسكان (٢٨٦) ، ووصل في شهر تموز الى الموقع ذاته الذي كان قد احتله بجيوشه في ألعام السابق.

الا ان الملك كان قد بلغته أخبار تقدمه ، وهكذا ذهب الى

الصحراء مع نخبة القوات العسكرية في المملكة ليقابل الأمير الكافر ، وأبلغ مجددا أن صلاح الدين كان قد انتقل ، كما فعل في العام السابق الى وادي عربة ، وذهب الملك الى المنطقة الجبلية بعدما خاف من اللحاق به الى هنالك ، وخشية أن يقوم صلاح الدين لدى معرفته بأنه كان يطارده من الدخول من ناحية ثانية ويدمر المملكة ، اختار الملك موقعا موائما هناك وتراجع الى الكرمل.

والكرمل هذه هي ليست جبل الكرمل المشهور الواقع على الساحل،والذي كان فيما مضى دار الياس ، بل هي قرية قرأنا أن نابال الأحمق كان قد سكن فيها من قبل (٢٨٧) واختار الملك هذا الموقع بحكمة بسبب توفر المياه ، حيث كان هنالك بركة قديمة ذات امتداد كبير وكانت كافية لتزويد الجيش بأسره بالمياه الوفيرة ، وعلاوة على ذلك ، كانت الكرمل بالقرب من المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن ، ومفصولة عنها فقط بالوادي الشهير الذي يشكل الحدود بين المنطقتين والذي يقع البحر الميت فيه ، ولهذا السبب ، فقد كان بامكان جيشنا الحصول على أخبار متواترة عن تحركات العدو والتأكد من وضع قوات صلاح الدين.

نهب صلاح الدين ــ في الوقت نفسه ، وكما شاء ــ المنطقة بأسرها لأن الملك تردد في الاقتراب من تلك المنطقة للأسباب المذكورة منذ لحظات ، وأمر صلاح الدين باحراق كل ما عثر عليه خارج القلعة ، وأمر بقطع الأحراش والكروم وأمر بتدمير القرى ، وعاد أخيرا الى مصر وذلك في حوالي نهاية شهر ايلول بعدما اجتاح المنطقة اجتياحا تاما وحسب هواه الاستبدادي.

عاد في هذه الآونة ريموند الأصغر كونت طرابلس الى ممتلكاته الموروثة وكان قد أمضى ثماني سنوات كسجين في الفقر المدقع والسلاسل ، وقد أطلق سراحه في النهاية بعد دفع فدية قدرها ثمانون (٢٨٨) ألف قطعة ذهبية ، وأعيد الى وضعه السابق من الحرية ، فرحب الملك به لدى عودته بلطف بالغ ، وأعاد اليه المنطقة

التي كانت تحت رعايته خلال غيابه وذلك دون إثارة لأية متاعب ، وقدم اليه علاوة على ذلك مقدارا كبيرا من الهبات بسخاء ملكي يساعد في دفع فديته ، وأقنع نبلاءه ومطارنة الكنيسة أيضا أن يحذوا حذوه.

٢٩ ـ الحديث عن فرقة الحشيشة. وعن السفارة التي ارسلوها الى الملك ايضا.

وقع بيننا في هذه الآونة بالذات أمور كانت مشحونة بنتائج رهيبة للمملكة والكنيسة ، لقد وقعت كارثة يؤسف عليها حتى الوقت الحالي ، وربما الى الأبد ، وحتى نحصل على فهم واضح للقضية فمن الضروري أن نأخذ في سرد الحكاية إنما بعد أن نعود الى الخلف قليلا.

تعيش قبيلة من الناس في منطقة صور في فينيقية وفي ابرشية طرطوس حيث تمتلك عشرة حصون مع القرى الملحقة بها ، ويبلغ تعدادهم ، كما سمعنا مرارا ، نحو سبعين الف نسمة ، وربما يزيد على ذلك ، ولقد اعتاد هؤلاء الناس على اختيار حاكمهم ليس بحق وراثي ، بل بامتياز الجدارة ، ويطلقون على زعيمهم عند اختياره اسم « الشيخ » مترفعين بذلك عن مناداته بلقب مبجل ، وخضوعهم وطاعتهم له مطلقتان حيث لا يعتبرون أي شيء صعبا أو قاسيا جدا في سبيل ذلك ، ويتولون القيام بتلهف بأكثر المهام خطورة تلبية لأمره(٢٨٩)، ومثالا على ذلك ، إذا ما حدث ووجد أمير جلب على نفسه كراهية هذا الشعب أو عدم الثقة به ، فإن الزعيم يضع خنجرا في يد واحد أو عدد من اتباعه ، فيعملون بحماسة طالما يستلزم ذلك حتى تأتي الفرصة المواتية في آخر الأمر بحيث يمكنهم تنفيذ أمر الزعيم(٢٩٠)، ولا يعرف المسيحيون ولا المسلمون من أين اشتق اسم الحشيشية هذا ، حيث كان الحشيشة(٢٩١)قد اتبعوا شريعة وتقاليد المسلمين منذ قرابة اربعمائة عام وبشكل عام لدرجة ان جميع

الشعوب تبدو بالمقارنة معهم منحرفة وانهم وحدهم المتقيدون الكاملون بالشريعة ، لكن حدث خلال عهدنا أن اختاروا حاكما لهم كان رجلا فصيحا جدا ، وحاد الذكاء ولامعا ، وكان بحوزة هذا الرجل - خلافا لعادات أسلافه - كتب الاناجيل والشريعة الرسولية ، وقد اذكب باستمرار على دراسة هذه الكتب وحاول لفترة من الزمن وبجهد كبير اتباع الوصايا الرائعة للمسيح والعقيدة الرسولية أيضا .

ودفعته العقيدة الوديعة والمهيبة للمسيح وأتباعه ، بعد مقارنتها مع عقيدة محمد التعيسة التي كان قد نقلها إلى أصحابه وأتباعه المخدوعين ، إلى احتقار المعتقدات التي كان قد رضعها مع حليب أمه ، وإلى مقت معتقدات الضلال القذرة ، فكان أن أقدم بالطريقة نفسها على تعليم شعبه وجعلهم يتوقفون عن التقيد بخرافة الاسلام ، فدمر المساجد التي اعتادوا على استخدامها ، وأعفاهم من الصوم وسمح لهم بشرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، وأرسل في نهاية المطاف مندوبا إلى الملك حيث كان راغبا بالتقدم إلى فهم كامل لأسرار شريعة الرب ، وكان هذا المندوب الذي يدعى عبد الله ، رجلا حكيما وفصيحا وبارعا في المشورة ، ومتمكنا تماما من فهم عقيدة سيده ، وقد حمل اقتراحات سرية كانت الفكرة الرئيسة منها والفقرة الأكثر أهمية أن شعب الحشيشة سيقوم إذا ماتولى الداوية ، الذين كانوا يحتفظون ببعض القلاع المجاورة لمناطقهم ، بإلغاء جزية الألفي قطعة ذهبية التي كان شعبه يدفعها لهم سنويا ، وإذا ماتقيدوا من ذلك الحين فصاعدا بمعاملتهم بلطف أخوي ، سيقوم باعتناق عقيدة المسيح وتلقي التعميد .

-٣٣٢٩-

٣٠ - فرسان الداوية يقتلون رسول الحشيشة .نشوب اضطراب عنيف جدا في المملكة نتيجة لهذا .موت رالف أسقف بيت لحم.

استقبل الملك الرسول بسرور ، وبما أنه كان رجلا صاحب حس سليم ، فقد وافق تماما على المطالب المقدمة ، ويقال إنه كان مستعدا لأن يعوض الداوية من خزينته الخاصة ويدفع لهم الفي قطعة ذهبية ، اي مقدار الجزية السنوية التي طلب الحشيشية إعفاءهم منها ، واحتفظ بالرسول لديه فترة طويلة من الزمن ليكمل معه تفاصيل الاتفاق ، ثم أعاده إلى سيده لاعداد الترتيبات الأخيرة ، ومعه مرشد ليقوده ويحميه على الطريق ، وكان عبد الله قد اجتاز طرابلس بمرافقة الدليل والرفيق الذي زوده الملك به وكان على وشك الدخول في بلاده عندما انقض بعض فرسان الداوية فجأة على فريقه بسيوف مسلولة وقتلوه . وكان هذا الرسول يواصل رحلته دون حذر ، وبشكل بعيد عن توقع حدوث عمل كهذا ، وباعتماد تام على أمانة الملك وعلى الود المخلص لشعبنا ، وجلب الفرسان على أنفسهم بهذه الجريمة تهمة الخيانة(٢٩٢) .

أثار نبأ هذا العمل الوحشي غضب الملك ، بشكل عنيف جدا ، فاستدعى النبلاء ، وهو مسعور تقريبا ، وأعلن لهم أن الاعتداء وصل إلى حد الاساءة إليه شخصيا وطلب مشورتهم بخصوص العمل المتوجب اتخاذه ، وكان النبلاء على رأي واحد وهو أنه لاينبغي التغاضي عن عمل شرير كهذا ، لأن السلطة الملكية بدت أنها ملغاة ، وأنه قد جلب عارا جائرا على ود وولاء العقيدة المسيحية ، زد على هذا أن الكنيسة بدت في الشرق بهذا العمل معرضة لاحتمال فقدان التوسع السار جدا للرب الذي جرى إعداده لها من قبل .

ولذلك ، تم بموافقة الجميع اختيار نبيلين هما : سيهير دي ميمدنك وغودزكالوس (غودتشوكس) دي توراوت كرسولين

خاصين ليطلبا من يوذردي سينت أماند مقدم الداوية تقديم تعـويض إلى الملك والمملكة بأسرها عن هذا الاعتداء المدنس للمقدسات .

قيل إن واحدا من الداوية يدعى وولتر دي ميسـيلو وكان رجـلا بعين واحدة وصاحب سـمعة شريرة ، ويفتقـر إلى التعقـل تمـاما « حيث كانت روحـه في منخـريه »(٢٩٣) ، كان المدبـــر الحقيقـــي للجريمة ، وأنها تمت بمعرفة الداوية جميعا ، ويقال إضافة لذلك إن المقدم أرسل ـ رغبة في استبقاء هـــذا الرجـــل بشـــكل يفـــوق استحقاقاته ـ رسالة إلى الملك مع رسول كان مفـادها أنه كان قـد فرض عقوبة على الفارس المذنب ، و هـو على وشـك إرسـاله إلى البابا ، وقد حـظر نيابـة عن البـابا على أي إنسـان القبض على الفارس المذكور أو إلحاق الضرر به(٢٩٤) ، كمـا اسـتدرك فـأضاف عبارات أخرى أملتها روح التعجرف المفـرطة والرعونة التـي كانت تستبد به ، وإنه لمن غير الضروري أن ندونها هنا .

ذهب الملك شخصيا إلى صيدا بخصوص هذه المسـألة ، ووجـد المقدم مع عدد كبير من الفرسان بما فيهم المجرم نفسه ، وأمـر الملك بعد تداوله مع الذين كانوا قد رافقوه إلى هناك بجر الرجـل المتهـم بالخيانة بالقوة من داخل منزله وإرساله مكبلا بالسلاسل إلى مدينة صور حيث ألقي في السجن ، وكاد هــذا الاعتــداء على المبعـوث أن يقحم المملكة بأسرها في دمار يتعذر إصلاحه ، وتمـكن الملك بإعلان براءته إلى مقدم الحشـيشية الذي كان رسـوله قـد هلك بـسطريقة مشؤومة جدا ، واستطاع تنظيف شرفه ، وبذل الملك في تعـامله مـع فرسان الداوية اعتدالا كبيرا لدرجة أن المسألة بقيت معطلة حتى يوم وفاته . ومن ناحية ثانية يقال إن الملك عموري كان قد عقـد العـزم على عرض المسألة على ملوك وأمراء الأرض عن طريق مبعوثين ذوي منزلة سامية ، حيث كانت ستلاقي دراسة دقيقة للغاية ، لو أنه شفي من المرض الأخير الذي ألم به(٢٩٥)

في الربيع اللاحق حدثت وفاة مستشار المملكة ، الراهب المبجـل

رالف أسقف بيت لحم ذي الذكرى السعيدة ، وكان رجلا له طبيعة سمحة ولطيفة ، ودفن بمراسم سامية في بيعة الكنيسة ، وعرضت بعد وفاته مسألة انتخاب خلف له ، إلا أن صعوبات نشأت بسبب الآراء المتضاربة للمنتخبين أثناء مناقشة هذه المسألة ، ولم يمكن إيجاد الحل حتى العام الثاني من حكم الملك بلدوين ابن الملك عموري وخليفته ، وتحملت الكنيسة في بيت لحم دفع نفقات كبيرة بسبب هذا الخلاف .

٣١ - موت نور الدين .الملك يحاصر بانياس إلا أنه يعقد في آخر الأمر هدنة و ينسحب .إصابته بالمرض و إسراعه بالعودة إلى القدس حيث مات في غضون بضعة أيام .

في شهر أيار بعد مضي أقل من شهر من هذا الوقت مات نور الدين المضطهد الجبار للاسم المسيحي ، وكان ذلك في العام التاسع والعشرين من حكمه(٢٩٦) وقد كان أميرا عادلا وشجاعا وحكيما ، وكان بالنسبة لمواريثه وشعبه رجلا متدينا .

وما أن علم الملك بوفاته حتى حشد قوة المملكة كافة على الفور ، وألقى الحصار على مدينة بانياس ، وهنا أرسلت أرملة نور الدين بشجاعة تفوق شجاعة معظم النسوة رسالة إلى الملك طالبته فيها بالتخلي عن الحصار ومنح السكان هدنة مؤقتة ، ووعدت أن تدفع مبلغا كبيرا من المال مقابل ذلك ، وتظاهر الملك في بدء الأمر برفض التماسها وواصل الحصار على أمل ابتزاز رشوة كبيرة .

تابع الملك أعمال الحصار بقوة وحماسة لقرابة خمسة عشر يوما وسبب متاعب كبيرة للعدو بآلات حصاره ، وبطرق أخرى متنوعة ، إلا أنه أدرك في نهاية المطاف أن مقدرة الأتراك على المقاومة كانت تزداد بثبات ، وبدأ يلاحظ انه لم يكن لديه أية فرصة بالنجاح ،

واستمر في هذه الأثناء رسل السيدة النبيلة بالمطالبة المستمرة بالسلام ، وأخيرا قرر الملك بقبول المال المعروض إضافة إلى إطلاق سراح عشرين من الفرسان المسيحيين الأسرى ، ورفع الحصار بنية القيام بمشاريع أكبر في وقت لاحق .

واشتكى في طريق عودته إلى الوطن إلى الموجودين من حوله بأنه يشعر بالمرض بعض الشيء ، وأنه لم يكن في حالة جيدة ، وصرف قواته وتابع السير مع حاشيته الشخصية إلى طبرية ، حيث بدأ يعاني من نوبة إسهال شديد ، وبما أنه كان يخشى من اقتراب المرض ، فقد تابع السير على صهوة جواده من هناك (لأن قوته كانت ماتزال كافية لذلك الجهد) سالكا طريق الناصرة ونابلس إلى القدس ، وهناك استمر وضعه يزداد سوءا وباغتته حمى شديدة على الرغم من أن مهارة الطبيب قد شفته من الاسهال ، وبعدما عانى بشكل لايحتمل من الحمى لعدة أيام ، أمر باستدعاء الأطباء الاغريق والسريان وأطباء من شعوب أخرى اشتهروا بمهارتهم في المداواة ، واصر على أن يقدموا له علاجا مطهرا ، وبما أنهم لم يوافقوا على مطلبه هذا ، فقد أمر باستدعاء أطباء لاتينيين وقدم إليهم المطلب ذاته مضيفا أنه سيتحمل المسؤولية بنفسه مهما كانت النتيجة ، فقدموا له أدوية أدت بسهولة إلى حدوث النتيجة المنشودة وبدت بأنها تقدم له بعض العون . إلا أن الحمى المألوفة عادت إليه قبل أن يتمكن من تناول الغذاء ليقوي جسده الذي كان الدواء العنيف قد اضعفه ، واستسلم لمنيته وقد توفي في الحادي عشر من شهر تموز في العام ١١٧٣ لتجسيد ربنا ، وفي العام الثاني عشر والشهر الخامس من حكمه وفي العام الثامن والثلاثين من عمره (٢٩٧). ودفن بجانب اخيه وبين أسلافه من الذسب ذاته أمام موقع الجلجلة وكان رجلا صاحب حكمة وفطنة ، وكان مؤهلا تماما لتولي زمام الحكم في المملكة . وبسبب طلباته الملحة عقدنا العزم على كتابة هذا التاريخ بخصوص أعماله وأعمال اسلافه .

الكتاب الحادي والعشرون

إجبار بلدوين الرابع المجذوم على تولي الحكم في القدس

١ ـ ما يتعلق ببداية فترة حكم بلدوين الرابع الملك السادس القدس وما يتعلق ايضا بأسلوب حياته وسنه ومظهره.

كان بلدوين الرابع(٢٩٨) هو الملك اللاتيني السادس للقدس وكان ابنا لعموري ذلك الملك صاحب الذكرى اللامعة الذي كنا نكتب عنه منذ لحظات ، وكانت والدته هي الكونتس اغنس ابنة جوسلين الأصغر كونت الرها الذي تكرر ذكره أيضا في الصفحات السابقة ، وكان كما ذكرت من قبل عندما دعي عموري لاستلام عرش أسلافه ، بموجب حقوقه الوراثية ، اقدم على تطليق أغنس ، واقتيد لهذا العمل بسبب ضغط الكنيسة ، حيث أجبره على تطليقها أمالرخ صاحب الذكرى الطيبة الذي كان بطريركا للقدس في تلك الأثناء فقد سار على خطا سلفه فولتشر ولقد ادعى ـ وكان ذلك صحيحا بالفعل ـ أن قرابة الدم بين عموري وأغنس كانت قريبة جدا ، وكنت قد شرحت هذه الحقيقة بحذر عندما كنت أعالج بالتفصيل فترة حكم الملك عموري (٢٩٩) .

وعندما كنت رئيسا لشماسة مدينة صور كان الملك عموري قلقا بشأن تعليم ابنه ، وقد استطاع إقناعي بتولي هذه المهمة وذلك بعد ممارسته ضغوطا شديدة علي ، وبضمان شخصي منه ، بمنحي تأييده وحظوته (٣٠٠) ، وهكذا عهد برعاية الطفل إلي وكان آنذاك في حوالي التاسعة من عمره ، وذلك لأعلمه وأثقفه في الدراسات العقلية ، وبينما كان الطفل الملكي تحت رعايتي أوقفت نفسي على

العناية به بيقظة واهتممت بـه اهتمـاما يليق بمنزلتـه المجـدة ، وحاولت تدريبه على صياغة أشـكال الحـروف ، وأن القنه أيضـا القراءة والكتابة ، وحدث أنه كان يلعب في أحد الأيام مع رفاق له من منزلة نبيلة عندما بدأوا يقرصون أذرعتهم وأيديهم بـأظافرهم كمـا يفعل الفتيان عادة ، وقدم الفتية الآخرون دليلا عن الألم بصرخاتهم إلا أن بلدوين تحمل الألم بصبر بـالغ على الرغم مـن أن رفـاقه لم يوفروه ، وتصرف وكأنه لم يشعر بشيء ، ونقل الأمر إلي بعدما حدث مرات عديدة ، واعتقدت في بدء الأمر أن هذا صادر عن مقـدرته على الاحتمال وليس من فقدان الحسـاسية ، إلا أنني اكتشـفت عندمـا ناديته وبدأت أسـتفسر مـاالذي يعنيه ذلك ، أن ذراعه ويده اليمنى كانتا فاقدتي الحس جزئيا لدرجة أنه لم يشـعر بـالقرص أو حتـى بالعض على الاطلاق ، وبدأت أرتبـك متـذكرا أقـوال الرجـل الحكيم : « من المؤكد أن العضو الذي بلا إحساس يقلل كثيرا مـن صحة الجسـد ، وأن الانسـان الذي لايدرك انه مـريض هـو في خطر » (٣٠١) .

أبلغ والد الغلام بوضع ابنه ، واستشير الأطبـاء ، واسـتخدمت كمادات متكررة وتدليكات بالزيت وحتى علاجات سامة دون نتيجـة كل ذلك كمحاولة لمساعدته ، حيث لاحـظنا بمـرور الزمـن وجـود علامات على مرض خطير للغاية من المحال شفاؤه ، وهذا ما اتضح فيما بعد تماما .

من المستحيل الاحجام عن البكاء لدى الحـديث عن هـذه المحنة الكبيرة ، لأنه اتضح ، عندما بدأ يقترب من سـن الرشـد ، أنه كان يعاني من مرض الجذام الخطير . وازدادت حالته سوءا يومـا إثـر يوم ، فقد هاجم المرض الأطراف والوجه بشكل خـاص بحيث تـأثر خدمه المخلصون شفقة وأثيرت عواطفهم عندما نظـروا إليه ، ومـع ذلك ، فقد استمر يحقق التقدم في مواصلة الثقـافة ، وقـدم بشـائر واعدة دوما على امتلاكه لطبيعة محببة . وكان جميل المظهر بالنسبة لسنه ، وفارسا ممتازا بشكل يفوق كثيرا عادة أجـداده ، وكان على

دراية بمعاملة الخيول ، وكانت له ذاكرة قوية ويحب الحديث ، وكان مقتصدا لكنه كان يتذكر دائما الرعايات والاساءات ، وشابه أباه في كثير من الملامح ، ليس في الوجه فقط بل في سائر مظهره ، حتى في مشيته ولهجة صوته أيضا ، وكان ذكاؤه حادا ، إلا أنه في كلامه كان متلعثما بعض الشيء . واستمع كأبيه بتلهف إلى التاريخ ، وكان ميالا بشكل جيد لتتبع النصيحة الجيدة (٣٠٢) .

٢ – ما يتعلق بتاريخ ترسيمه و تتويجه .

لم يتجاوز بلدوين الرابع الثالثة عشرة من عمره يوم وفاة والده ، وكانت له اخت كبرى تدعى سيبيلا مولودة من الأم ذاتها قد نشأت في دير القديس لازاروس في بيسان وتربت على أيدي السيدة ايفيتا التي كانت عمة أبيها من ناحية الام ، والتي كانت راعية للدير .

وإثر وفاة الملك عموري اجتمع نبلاء المملكة الدينيون والعلمانيون على حد سواء في مجلس واحد ووجد أن رغبات الجميع كانت في انسجام تام ، وهكذا رسم بلدوين وتوج بإجلال وحسب الأعراف في كنيسة قبر الرب وذلك في الخامس عشر من شهر تموز وكان اليوم الرابع بعد وفاة والده ، وتراس الطقوس بطريرك القدس أمالرخ ذو الذكرى الطيبة بمساعدة رؤساء الأساقفة ومطارنة الكنيسة الآخرين.

وكان البابا الكسندر الثالث رئيسا لكنيسة الروم في هذا الوقت ، وكان إيمري بطريركا للكنيسة المقدسة في أنطاكية أما أمالرخ فكان بطريركا للقدس . وكان فريدريك رئيسا لأساقفة مدينة صور ، والأمبراطور مانويل صاحب الشهرة الكبيرة والذكرى الورعة يحكم في القسطنطينية ، وفريدريك امبراطورا للرومان بينما كان لويس ملكا للفرنجة ، وكان هنري بن غودفري ، كونت أنجو يحكم في بريطانيا ، في حين كان وليم الثاني بن وليم الأكبر يحكم في صقلية ،

- ٣٣٣٦ -
وكان بوهيموند بن الأمير ريموند يحكم أنطاكية ، وريموند الأصغر ابن الكونت ريموند الأكبر يحكم طرابلس .

٣ – معاناة أسطول أرسله ملك صقلية من خسارة كبيرة جدا أمام الاسكندرية في العام الأول من فترة حكم بلدوين الرابع . كونت طرابلس يطالب ، بالوصاية على المملكة و بنيابة الملك بحكم قرابته منه .

وفي العام الأول من فترة حكم الملك بلدوين الرابع في حوالي بداية شهر آب (٣٠٣) أرسل الملك وليم صاحب صقلية أسطولا مؤلفا من مائتي سفينة لمهاجمة الاسكندرية . وأبحر الأسطول إلى مصر مع قوة رائعة من المشاة والفرسان . وقد تكبدت جميع قوات المشاة والفرسان خسائر كبيرة بالموت والأسر خلال الاقامة التي استغرقت خمسة أو ستة أيام أمام المدينة وذلك بسبب فقدان الحذر الذي أظهره الحكام والقادة ، واضطرت في آخر الأمر للانسحاب باضطراب .

كانت شؤون مملكتنا قد عهد بالمسؤولية عنها إلى ميلون دي بلانسي ، ونشأ نتيجة لذلك عداوة خطيرة بين هذا النبيل وبعض نبلاء المملكة ، فقد كانوايحسدونه على سلطته ولم يتمكنوا من تحمل حقيقة أنه تم تجاهلهم ولم يستدعوا أبدا ، بينما انفرد وحده بجرأة مفرطة وبازدراء للآخرين دوما إلى جانب الملك وكان مستعدا لمساعدته . وقد أبعد الآخرون في هذه الأثناء عن الاتصال الشخصي مع الملك ، وسير ميلون أمور الدولة دون التشاور معهم .

وجاء في هذه الآونة كونت طرابلس إلى الملك وطالب بحضور النبلاء الذين حدث أن كانوا هنالك بالوصاية على المملكة . وأكد انه بالفعل اقرب الأنسباء إليه والوصاية على الملك ، الذي كان مايزال

قاصرا ، حق شرعي له ، وقال إن هذا المنصب كان يخصه لأكثر من سبب واحد : ليس فقط لأنه كان من أقـــرب أنســـباء بلدوين ، بـــل أيضا لأنه كان أغنى الرعايا المخلصين للملك وأقواهم(٣٠٤) وأضاف سببا ثالثا مقنعا جدا وهو انه عندما تم أسره كان قد أمر من السجن نفسه شعبه المخلص ، بناء على تعهدهم له بالوفاء ، أن يسلموا كافة أراضيه وحصونه وقلاعه إلى الملك عمـــوري والد هـــذا الغـــلام وأن يضعوا كل شيء تحت أوامره ورعايتـــه الملكية ، وعلاوة على ذلك كان قد أضاف أمرا نهائيا وهو إذا كان مصيره كرجل سينهي حياتـــه في السجن ، فقد عين الملك المذكور آنفا كوريثه الوحيد بحكم كونه أقرب أنسبائه إليه ، وطالب تقديرا لجميع هذه الخدمات أن يأتـــي الوفـــاء إليه بسبب الشرف لابســـبب أي أمـــل في تحقيق امتياز مســـتقبلي ، وتأجل الرد على مطالب الكونت هذه بسبب أن الملك لم يكن حـــوله في ذلك الوقت ســـوى عدد قليل مـــن نبـــلاء المملكة الذين يمـــكن أن يستشيرهم ، فسيتم استدعاؤهم ومشاورتهم في وقت موائم وبسرعة حسبما هو ممكن بشكل عام حيث ستقدم بمعونة الله إجابة مناسبة على جميع هذه المسائل ، وعاد الكونت إلى بلاده بعد استلامه هـــذه الاجابة ، وأيد الناس جميعا تقريبا قضـــية الكونت ، وكان مـــن بين مؤيديه من النبلاء كل من همفـــري دي تيرون كافـــل المملكة وبلدوين صاحب الرملة وأخوه بالين ، ورينو صاحب صيدا وجميع الأساقفة

٤ – مقتل مليون دي بلانسي في عكا .مـــوت فـــريدريك رئيس أساقفة مدينة صور .

كان ميلون دي بلانسي هذا الذي كنا نتحدث عنه ، رجلا نبيلا من شامبين فيما وراء الجبال ، من بلاد هنري كونت ترويز ، وكان على علاقات حميمة جدا مـــع قـــريبه الملك عمـــوري الذي جعله قهـــرمانا لمملكته . وعند وفاة همفري الأصغر ابن همفـــري أوف تيرون قـــدم الملك عموري ستيفني أرملة همفـــري المتـــوفى وابنه فيليب صـــاحب نابلس إلى ميلون كزوجة له . وكان ميلون بفضل زوجته ســـيدا على

وادي عربة ، أي على المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن التي تـدعى عموما باسم الكرك ، هذا وكانت ستيفني قد أنجبت طفلين من زوجها السابق وهما ابن وابنة .

كان ميلون كما تم ذكر ذلك ، قد استغل الصداقة الحميمة التي كان قد نعم بها مع والد الملك الحالي واحتقر نبلاء المملكة حتى الذين كانوا أعظم منه ، ولم يكن حذرا في تصرفاته ، وكان رجلا متكبرا بل متعجرفا ثملا بالعبارات الطنانة مع نفسية وقحة بشكل مفرط ، ولكي يقلل من حسد الآخرين بطريقة من الطرق استخدم ذريعة الحسد بشكل مفرط بالوضوح ومبالغ فيه . وحرض رجلا يدعى روهارد كان شحنة قلعة القدس ، وكان رجلا عاديا جدا وعاجزا تماما ، وتظاهر ميلون أنه يطيع أوامر هذا الرجل وكأنه كان خاضعا له ، وكان الأمر في الواقع على العكس تماما ، فقد كان أحدهما يحمل لقبا رفيعا فارغا من الجوهر بينما قام الآخر تحت ذلك المظهر بإدارة أمور المملكة كما كان يحب تماما ، وعلى الرغم من أنه كان يتصرف بإهمال ويتحدث بطيش فقد جعل شؤون مسائل المملكة

تسير وفق رغباته على الرغم من الآخرين . ورتب جميع القضايا ووزع جميع الامتيازات حسبما أراد مثيرا بذلك كراهية شديدة ضده شخصيا ، ووصلت الأمور في أخر الأمر إلى مأزق كبير بحيث تم تحريض بعض الرجال بصورة سرية للتآمر على حياته .

واستهان بهذا الأمر عندما نقل إليه واستمر يتصرف كالمعتاد دون أن يتخذ تدابير وقائية موائمة . وفي أحد الأيام طعن بينما كان مقيما في مدينة عكا عند الغسق في الشارع العام وتوفي بعدما عانى من معاملة شائنة ومخزية ، واختلف الرأي بين الناس بخصوص مقتله حيث قال بعضهم إنه قتل بسبب الولاء المخلص الذي كان قد أظهره للملك ، وخلافا لذلك فقد ادعى أخرون أنه كان يتخذ بصورة سرية الخطوات للاستيلاء على السلطة الملكية ، وقيل إنه كان قد أرسل

رسلا إلى اصدقائه ومعارفه في فرنسا حاثا إياهم للقدوم بكل سرعة إلى المملكة حتى يتمكن بمساعدتهم من الاستيلاء على المملكة ، لكنني لم اتحقق بشكل قاطع فيما إذا كانت هذه الآراء صحيحة ، هذا ومن المعروف تماما ان بالين صاحب يافا اخو روهارد المذكور انفا كان قد ارسل إلى المناطق الواقعة فيما وراء البحر مع رسائل وهدايا ملكية وان عودته كانت تنتظر يوميا .

حدث في هذه الآونة لا بالفعل في الثلاثين من شهر تشرين الأول هذا نفسه ان توفي سلفنا فريدريك (٣٠٥) رئيس اساقفة صور ، وكان رجلا من مرتبة عالية جدا في نسبه ، وكان ذلك في مدينة نابلس حيث كان قد احتجز فيها لفترة من الزمن بسبب مرض خطير ، ونقلت جثته بجنازة وطقوس لائقة الى القدس ودفن في كنيسة هيكل الرب حيث كان شماسا نظاميا في كنيستها.

٥ - وصف كونت طرابلس والأجداد الذين انحدر منهم وكيف تولى نيابة الملك. تعيين مؤلف هذا التاريخ مستشارا ملكيا.

عاد أيضا في هذه الآونة كونت طرابلس ليتلقى ردا على المطلب الذي كان قد قدمه بخصوص النيابة ، وذلك بعدما اجتمع نبلاء المملكة ورجالات الكنيسة بحضور الملك في القدس للتشاور ، وكرر الكونت مطلبه ثانية واكد على دعواه ذاتها . وبعد دراسة استمرت لمدة يومين متتاليين ، وافق الملك اخيرا بناء على رضا من الجميع ، وقلد الكونت وسط صيحات الابتهاج العالية للناس في كنيسة قبر المسيح جميع سلطات المملكة وحكمها وجعله في المرتبة الثانية للملك فقط ، وبما اسم الكونت جلب إلى الشهرة في محصلة الأحداث التي نحن بصددها ، يبدو هذا وقتا موائما لنسجل من اجل فائدة الأجيال القادمة الحقائق التي كنا قد علمناها بتيقن حوله ، وليس في نيتنا ان نكتب مديحا ، غير أننا سنعلن عما كان وعن نسبه بقدر ما يسمح السياق المحدد بالضرورة لتاريخ موجز .

يعود أصل الكونت ريموند ، موضوع بحثنا ، حسب النسب إلى ريموند الأكبر ، ذلك الذي كان قائدا هاما في جيش الرب الذي تمت بأعماله ومآثره الحماسية إعادة مملكة الشرق إلى خدمة المسيح ، وسجلت هذه الحقائق بدقة عندما كنا نتعامل مع الزعماء الأوائل الذين قدموا في الحملة الأولى ، وكان للكونت ريموند الأكبر ، ذي الذكرى النفيسة ، ولد يدعى برترام الذي أصبح كونتا لطرابلس بعد وفاة أبيه واغتيال وليم جوردان وكان ابن أخت الأخير . وكان لبرترام ابن يدعى بونز نجح إثر وفاة والده بالوصول إلى الحكم بحق وراثي ، وتزوج من سيسيليا أرملة تانكرد وابنة فيليب ملك فرنسا وقد أنجب منها غلاما يدعى ريموند خلفه في حكم طرابلس وتزوج ريموند من هودرينا ابنة بلدوين الملك الثاني للقدس ، وهي التي أصبحت أما لريموند هذا الذي نتحدث عنه الآن ، وخلف ريموند هذا أباه ككونت لطرابلس بعدما قتل ريموند الأكبر عند باب المدينة في طرابلس في هجوم مفاجيء شنته الحشيشية ، ولذلك فقد كان هذا الكونت من جانب والدته ابن خال الملك عموري وبلدوين لأنهما كانا ابنين لأختين ، لكنه كان من منزلة أدنى من ناحية والده ، وكانت سيسيليا ، المذكورة منذ لحظات ، جدته من ناحية والده ، وأختا للملك فولك والد الملك بلدوين وعموري ، أختا له من أمه وليس من أبيه ، لأن أمهما التي كانت أخت أموري مونتفرات كانت زوجة لفولك الأكبر كونت أنجو وقد تركت زوجها بعد مولد فولك الأصغر وهربت إلى فيليب ملك فرنسا ، الذي أنجبت منه سيسيليا هذه وأبناء آخرين كثيرين : وكان فيليب ـ مفتونا بالكونتس برتراد ـ قد طرد ، خلافا لقانون الكنيسة الملكة زوجته الشرعية التي كان قد أنجب طفلين منها هما لويس وكونستانس ، وهكذا ، كان الكونت والملكين المذكورين مرتبطين من كلا الجانبين .

كان الكونت رجلا صاحب بنية نحيفة ، وكان هزيلا للغاية متوسط الطول ، وله بشرة داكنة اللون ، وكان شعره أسود مسبلا إلى حد ما ، وكانت له عينان ثاقبتان وكتفاه منتصبتان جدا ، وكان حازما وقويا في العمل ومعروفا برباطة الجأش والحكمة ، وكان معتدلا في

تناول كل من الطعام والشراب بشكل يفوق كثيرا الرجــل العــادي ، وابدى سخاء نحو الغرباء إلا أنه لم يكن سخيا جدا نحــو شــعبه ، كان متعلما بشكل جيد إلى حد ما وهو إنجاز كان قد حققــه عندمــا كان اسيرا لدى العدو ، إلا أن ذلك تم على حساب بذل جهد كبير وقد ساعده في ذلك حدة ذهنه الطبيعية (٣٠٦) ، وبحث بتلهف مثــل الملك عموري عن المعرفة المتضمنة في الأعمــال المكتــوبة ، وكان لايعــرف التعب في طرح الأسئلة اذا ماحدث ووجد شخص كان قــادرا بــرأيه على الاجابة.

وتزوج في العام ذاته ، الذي بــاشر فيه إدارة المملكة ، مــن اشــيفا وكانت امراة ثرية جدا وارملة لوولتر أمير طبــرية الذي أنجبــت منه اطفالا كثرا ، إلا انها ، ولسبب مجهول ، لم تنجــب أي طفــل مــن الكونت بعد زواجها منه . ويقال إنه أحبها وأبناءها بــرقة وكأنهــا كانت قد ولدتهم جميعا له .

ولنعد الآن بعد هذا الاستطراد القصير إلى السياق الرئيسي .
وكان رالف ، ذو الذكرى النفيسة ، أســقف بيت لحــم ومســتشار المملكة قد توفي خلال الصــيف الســابق (٣٠٧) ، ولكي يكون هنالك شخص مسؤول عن المرا سلات الملكية فقد عينني الملك في ذلك المنصب بناء على نصيحة نبلائه ، ومنحني مرتبة مستشار

٦ – استيلاء صلاح الدين على مدينة دمشق والأجزاء الأخرى من تلك المنطقة تلبية لأهالي دمشــق .و كونت طرابلس يزحف ضده لمقاومة خططه .

وفي هذه السنة استدعى أعيان دمشق البــارزين سرا صــلاح الدين ابن نجم الدين الذي خلف عمــه شــيركوه في مملكة مصر وكان الملك الصالح بن نور الدين حاكمهم الشرعي قد جعل مقره في مدينة حلب ، وأوكل صلاح الدين شؤون مصر إلى واحد من إخوته واسمه ســيف

الدين ، وأسرع عبر الممرات الصحراوية لسورية ووصل إلى دمشق ليستولي على المملكة ، وتقدم بعد مضي بضعة أيام ، وبعد أن استلم المدينة من سكانها ، ضمها إلى سورية المجوفة حيث أمل في وضع جميع مدن تلك المنطقة تحت حكمه دون حرب ، وثبت أن هذا الأمل كان صحيحا ، حيث استسلم سكان تلك المدن خلال وقت قصير له طوعا ، وفتحوا أبواب مدنهم له ، وهكذا ، وخلافا للولاء الذي كان مدينا به لسيده وحاكمه ، استولى صلاح الدين على جميع مدن ذلك الاقليم أي : مدينة هيليوبولس المسماة بهذا الشكل باللغة الاغريقية والمعروفة حاليا باسم ملبك أو بعلبك باللغة العربية ، ومدينة حمص المسماة عموما باسم كاميلا وحماه وشيزر المسماة عادة باسم قيسارية الكبيرة ، وكان كله أمل في أن تستسلم له حلب وتخضع له مع أميرها الشاب من خلال عمل بعض الخونة ، إلا أن ذلك لم يحدث بالمصادفة .

هذا هو الوضع الذي كان سائدا آنذاك في ذلك الجزء من المنطقة ، وكان الملك قد تلقى في هذه الأثناء نصيحة بخصوص العمل الضروري في أزمة مفاجئة من هذا القبيل ، عندما توشك تغيرات هامة أخرى أن تحدث . وتقرر في آخر الأمر وبعد مداولة طويلة مع النبلاء ، وبموافقة الجميع انه ينبغي على الكونت أن يزحف بالسرعة الممكنة مع جيش مجموع من قوات المملكة وكونتية طرابلس نحو سورية المجوفة وأن يستخدم جميع الجهود لمقاومة تقدم صلاح الدين ، وكان هذا اجراء حكيما ، لان أية زيادة لقوة صلاح الدين كانت سببا للريب في نظرنا ، وبدا كل شيء زاد من سلطته بأنه مضر تماما بمصلحة المملكة ، لانه كان رجلا حكيما في الراي وشجاعا في الحرب وسخيا بشكل يفوق الحدود ، ولهذا السبب بالذات ، ارتاب به نبلاؤنا الذين كان لديهم بصيرة أشد ، فحتى في ايامنا لا توجد وسائل افضل يستطيع الملوك بواسطتها ان يكسبوا قلوب رعاياهم ، أو قلوب سواهم أكثر من اظهار الكرم والسخاء نحوهم ، وما من شيء كالكرم يجذب بسهولة أكبر عقول الغرباء خاصة عندما يأتي من الأمراء ، ولذلك كان لزعمائنا سبب كبير للخشية لان صلاح الدين

إذا زاد في حجم ممتلكاته ، ووسع امبراطوريته وضاعفها فسيثور بهذه القوة ضد المملكة ، بقوات كبيرة ، ويسبب لنا المضار بعنف أكثر من قبل ، هذا وكانت جميع المحاولات للتصدي له عقيمة على الرغم من جميع الجهود التي بذلناها ، ونرى اليوم (٣٠٨) بعيون باكية ان مخاوفنا قد تحققت ، لأنه قد نهض بقوة جبارة ضدنا برا وبحرا حيث ليس لدينا امل بالمقاومة ما لم يشرق علينا الأمل والرحمة من عليين.

وبدا من الحكمة بمكان تقديم المساعدة للملك الفتى الذي لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد ، ليس بابداء بعض اللطف نحوه إكراما له ، بل بتشجيعه كعدو واقف ضد عدونا المخيف صلاح الدين حتى يمكن إعاقة خطط صلاح الدين وتقليل فعالية هجماته على المملكة .

٧ – لماذا أصبح العدو أعظم قسوة في مواجهة المسيحيين

لا بد لي أن أستطرد في هذه المرحلة فأخرج عن مجرى روايتي بعض الشيء ، ليس لأطوف بلا هدف ، بل لأوضح شيئا قيما ، فالسؤال المطروح دائما ، وبعدل تام هو لماذا قاوم آباؤنا على الرغم من أنهم كانوا أقل عددا ، قاوموا دائما بشجاعة قوات العدو التي كانت أكبر بكثير ، ولماذا كانت دوما قوة صغيرة تبيد بواسطة الرحمة السماوية حشود العدو ، مما جعل مجرد النطق باسم المسيحيين يثير الرعب لدى شعوب لا تعرف الرب ، وهكذا تمجد الرب بأعمال آبائنا ، ويقابل هذا أننا نجد رجالنا في أيامنا غالبا ما قهروا من قبل قوات أدنى منهم وأقل ، وفي الواقع ، كانت جهودهم عقيمة وغالبا اضطروا للاستسلام عندما حاولوا القيام ببعض المآثر ضد أعداء كانوا أدنى قوة منهم .

ونجد لدى دراستنا لهذا الوضع المعاصر بدقة وعمق ونحن متطلعون

للعون من الرب ، خالق كل شيء أن السبب الأول الذي يقدم نفسه هو أن أجدادنا كانوا رجالا متدينين ويخافون الرب ، قد قام مقامهم الآن جيل شرير أبناء آثمون مزيفون للعقيدة المسيحية يتبعون سبل جميع الأشياء المحرمة دونما تمييز ، وهم أشبه ، أو حتى أسوأ من الذين قالوا لربهم : « أبعد عنا وبمعرفة طرقك لا نسر »(٣٠٩) ويسحب الرب بعدل تأييده من هؤلاء بسبب خطاياهم وكأنما أثير سخطه ، هؤلاء هم رجال العصر الحالي ، وخاصة القاطنون في الشرق ، كما أن المرء الذي سيتولى بقلم حذر وصف أخلاقهم أو بالأحرى رذائلهم الوحشية المرعبة سيقف عاجزا أمام هول المادة وضخامتها وسيبدو بالاختصار بأنه يكتب مقطوعة هجائية اكثر من انه يصنف تاريخا(٣١٠)

ويبرز امامنا بالمناسبة سبب آخر : لقد اعتاد الرجال المبجلون الأوائل الذين قدموا في الأزمان السابقة إلى بلدان الشرق تقودهم الحماسة السماوية والذين كانوا ملتهبين باندفاع روحي نحو العقيدة على النظام العسكري ، وكانوا مدربين على خوض المعارك وكانوا معتادين على استعمال الاسلحة (٣١١) ، وعلى العكس كان اهالي الشرق قد اصبحوا ضعفاء بسبب الهدوء الطويل ، ولم يكونوا معتادين على فن الحرب وغير مطلعين على قواعد القتال ، وكانوا مبتهجين في حالة كسلهم ، ولذلك ليس غريبا أن رجالا مقاتلين ، وإن كانوا قلة في عددهم ، قد تغلبوا على أعداد كبيرة وكان بإمكانهم أن يتباهوا بتفوقهم بتحقيق شرف النصر ، لانه في أمور كهذه (كما يعرف أكثر مني الذين لديهم خبرة أكبر في الحرب) أن البراعة في الأسلحة العائدة إلى ممارسة مستمرة وطويلة تفوز عادة عندما تتصدى لقوة غير مدربة ولدى تصديها لانعدام الاضرار .

ويفرض سبب ثالث ، مماثل في أهميته وفعاليته ، نفسه على اهتمامي : لقد كان فيما مضى لكل مدينة حاكمها الخاص وإذا ما تكلمنا حسب أسلوب أرسطو لم تكن هذه المدن معتمدة على بعضها بعضا ، ونادرا ما تحركت بالبواعث نفسها ، بل ثارت بالواقع ببواعث معاكسة تماما في مرات كثيرة،هذا وأن تقاتل في المعركة ضد

أعداء لهم آراء مختلفة اختلافا شاسعا ومصالح متضـاربة كثيرا ، خصوم يرتابون ببعضهم بعضا فيه مخاطر أقل ، وهكذا لم يستطع الذين كانوا يخافون من حلفائهم أكثر من خوفهم من المسيحيين أن يتحدوا بسهولة للتصدي للخطر المشترك ولا أن يسلموا أنفسهم لابادتنا . لكن الآن جلبت بإرادة من الله جميع الممالك المتاخمة لنا وصارت تحت سلطة رجل وقد حدث مؤخرا أن تمكن زنكي ، الوحش الذي كان يمقت الاسم المسيحي كما يمقت الوباء ، والذي كان أبـا لنور الدين هذا الذي توفي منذ زمن قريب ، تمكن بالأمس القريب من الاستيلاء أولا بالقوة على ممالك كثيرة ثم استولى بكل قـوة على الرها المعروفة أيضا باسم أديسا ، التي كانت – حتى داخل ذاكرتنا – الحاضرة الرائعة والبارزة للميدين ، لقد استولى على هذه المدينة مع جميع توابعها وقتل جميع المؤمنين المخلصين الذين عثر عليهم داخل حدودها .

ثم قام ولده نور الدين بطرد ملك دمشق من بلاده ، وحصل هذا بواسطة خيانة رعايا الملك له لا عن بذله أية شجاعة حقيقية ، لقد استولى على تلك المملكة لنفسه وأضافها إلى ميراثه الأبوي ، ثم استولى نور الدين هذا نفسه مؤخرا على مملكة مصر الغنية والقديمة بالمساعدة المواظبة لشيركوه وخصص نفسه بها بالطريقة التي تم سردها بشكل تام عندما بحثنا في فترة حكم الملك عموري .

وهكذا أصبحت كما ذكرت من قبل جميع الممالك الواقعة حولنا تدين بالطاعة لحاكم واحد ، وتنفذ أمر رجل واحد وهي مستعدة لتلبية أوامره فقط ، وأن تحمل السلاح حتى على مضض لالحاق الضرر بنا ، ولا يوجد أحد يجرؤ على الانغماس في أية نزعة خاصة به أو أن يتجاهل – بغير إفلات من تعرضه للعقوبة – أوامر سيده الأعلى ، فصلاح الدين هذا الذي حصلنا على فرصة لنذكره مرارا ، والذي كان ينحدر من أسلاف متواضعين ومن مركز وضيع ، يسيطر الآن على جميع هذه الممالك ، حيث كان القدر قد ابتسم له بلطف كثير ،

الفرسان قيل انها كانت قوية جدا ، وزحف ضد الخونة ليحمل العون إلى ابن أخيه .

كان هـذا الأمير العـظيم حـاكما لمدينة نينوى تلك المدينة القـديمة والمشهورة جدا ، والتي يقال إنها تحولت منذ زمن طويل إلى خـراب ورماد بسبب إنذار من النبي يوحنا ، ونشأت مكانها مـدينة جـديدة تحت اسم معدل جديد هو الموصل وذلك على مقـربة مـن تلك المدينة الأكثر قدما ، وقد بنيت من بقـايا نينوى القـديمة وهـي تـؤوي المنحدرين من المدينة السابقة وتحتفظ بالمنزلة المبجلة بكونها عاصمة إقليم آثور بأكمله ، ونصب الأمير لدى وصوله معسـكره في السـهل الواقع حول مدينة حلب .

كان صلاح الدين خلال هذا الوقت بدون أعمال ، وكان قـد حـاصر بصرى أهم مدن العربية الأولى وحاصر أيضـا مـدينة هيليوبـولس التي تدعى الآن عادة باسم بعلبـك حيث اسـتسلم له سـكان كلتـا المدينتين طوعا ودون حرب . ثم حاصر مدينة حمص المعروفة أيضـا باسم كاميلا .

سلم السكان الجزء السفلي من هـذه المدينة ودون أدنى تـأجيل ، حيث كان الذين بقوا مخلصين للملك الشاب قد انسحبوا إلى القلعـة التي كانت واقعة على هضبة مرتفعة بعض الشيء وكانت قد حصـنت بقوة فيما مضى ، وكانت مزودة بشكل جيد بالأسلحة والمؤن ، وتلقى صلاح الدين استسلام بعض المدن الأخرى على أيدي سـكانها ممـا كان واقعا في المنطقة المجاورة لهذا الاقليم ، وهي مدن حماه وشيزر وسائر المنطقة وصولا إلى مدينة حلب نفسها .

وارسل اللاجئون المقيمون في قلعة حمص في هذه الأثناء رسـلا الى كونت طرابلس ، وإلى قواتنا التي كانت قد خيمت في الموقـع المذكور آنفا وكانت تنتظر على أمل أنه بحدوث هذا الاضطراب الهائل لا بـد أن هذا الطرف أو الآخـر سـيستدعيهم وفـق الشروط المرغوبـة ،

وهو يجمع من مصر ومن البلدان المتاخمة لها كميات هامة من أنقى الذهب ومن النوعية الممتازة المعروفة باسم الابـريز (٣١٢) وتـزود اقاليم اخرى بمجموعات لاتحصى من الفرسان والمقـاتلين ، رجـال متعطشون للذهب ، لانها مسألة سهلة بالنسبة للذين يملكون كميات وفيرة من هذه السلعة أن يجتذبوا الجند إليهم ، ولنكمل الآن قصتنا (٣١٣)

لقد بدا مرغوبا في رأي جميع الحاضرين ، كما ذكرنا ، وجوب بـذل كل جهد ممكن لمقاومة هذا الرجـل الرائع في تقـدمه السريع – مـن خلال انتصاراته المتتـالية – نحـو القمـة العليا لطمـوحه ، وكان الشعور العام أنه قد يبرهن وهو يزداد قوة أكثـر فـأكثر أنه العـدو الأشد خطرا وإخافة بالنسبة لنا ، وهكذا ، جمع الكونت العسـاكر من جميع المناطق المجاورة وأسرع بـالتوجه إلى منطقـة طـرابلس بمرافقة نبلاء المملكة ، وتمركز في الاقليم المعروف باسم بلاد الخليفة واقام معسكره بالقرب من مدينة عرقة .

٨ – حاكم الموصل يقدم بسرعة لمساعدة ابـن اخيه . انتصار صـلاح الدين عليه و اسـتيلائه على المنطقـة بأسرها . الكونت يعقـد معـاهدة معـه . تسـلمه الرهـائن .

عندما كانت هذه الاشياء تقع في وسطنا ، علم عم ابـن نور الدين ، الذي كان أميرا قويا جدا يدعى (قطب الدين) ، وواحدا من اقوى الأمراء بين الشرقيين المنحدرين من الأصل الفـرثي ، بـوفاة اخيه وبكل الظروف اللاحقة لها ، وكان صلاح الدين قـد تمـرد الآن على سيده الشرعي بتحد واضح لقوانين الانسانية ، وبإهمال تام لمنزلته الوضيعة ، وبإنكار للمساعدات التي كان قـد أغدقهـا عليه والد ذلك الفتى ، وعبر قطب الدين نهر الفرات بعدما جمـع قـوة كبيرة مـن

وصدرت الأوامر لهؤلاء المبعوثين أن يتــوسلوا إليهــم للقــدوم دون تأجيل وأن يعدوهم أن اية مســاعدة يمــكن أن يقــدموها ضــد عدو مخيف كهذا ستلاقي مكافأة لائقة .

وعلاوة على ذلك ، كان يوجد في هذه القلعة ذاتها الرهائن التي كان الكونت قد أعطاها لنور الدين ، والد الملك الشاب ، مقــابل إطــلاق سراحه من الأسر ، وذلك كضمان لمبلغ تصل قيمته إلى ســتين ألف قطعة ذهبية على الأقل ، كما كان يحتجز فيها بعض الرهائن التــي قدمها رينو صاحب صيدا لاسترداد أخيه يوستاس .

أسرع المسيحيون بالزحف نحو القلعة مع جميع قواتهم بــكل سرعة ممكنة يحدوهم الأمل في إنجاز ترتيب مــا يتمــكنون بــواسطته مــن الحصول بوعد إطلاق سراح هؤلاء الأسرى من قــائد القلعــة التــي كانوا محتجزين فيها ، مقابل إمكانية تقديم المســاعدة ، غير أنهــم اكتشفوا أنه لا يمكن الاعتماد أبدا على أقــوال الكفــرة ، حيث كان لديهم بعض الأمل بإمكانية رفــع الحصــار بــوساطة جهــود الأمير المذكور آنفا ، ولهذا عاد المسيحيون أخيرا إلى المعســكر الذي كانوا قد غادروه قبل فترة قصيرة ، وذلك بعد دراسة دقيقة للمــوقف ومــن زوايا متنوعة .

وزادت حقيقة أن المسيحيين قد انسحبوا وكأنهــم غاضــبون مــن عجرفة صلاح الدين ، وبدأ يقترب مــن مــدينة حلب واضــعا أهمية كبيرة على انسحابهم ، وضايق هنالك بسلسلة من الهجمات المتكررة قوات الزعماء وحاول إثارتهم للقتال ، والتقت القوات في آخر الأمــر بعد تحديات كثيرة من هذا القبيل في معركة في غاية العنف تم خوضها من مواقع متلاحمة ، وقد تغير فيهــا تيار المعــركة في آخــر الأمــر لصلحة صلاح الدين ، واضطر الموصليون للاســتسلام ، ويقــأل إن بعض الناس من شعبهم قد خانوهم بعدما أخذوا رشوات كبيرة مــن المال ، وعاد الآن صلاح الدين إلى حمص واستولى على قلعتها مثلما كان قد استولى على المدينة من قبل .

وارسل صلاح الدين من حمص رسالة إلى المسيحيين طلب فيها من الكونت أن لا يعترض تقدمه الظافر بل أن يسمح له في الصراع منفردا مع ابن نور الدين والآخرين الذين كانوا قد أتوا لمساعدته ، وخشية ان يرفض هذا الاقتراح بازدراء ودون تعويض لائق ، فقد عرض ان يطلق سراح رهائن الكونت ورهائن رينو دون دفع للمال ، فوافق الكونت على هذا الاقتراح وأعيدت الرهائن كما اتفق على ذلك في التسوية وصرف النبلاء الذين شاركوا في هذه الحملة بسخاء لائق ، ثم جرى التخلي عن المعسكر وعاد الجميع إلى ديارهم .

يقال إن همفري أوف تيرون كافل المملكة ، كان مرتبطا بروابط الصداقة القوية مع صلاح الدين . وكان عمله ضارا بلا ريب بمصالحنا ، حيث نال هذا الأمير ودنا ، في حين كان ينبغي مقاومته إلى الحد الاقصى خشية أن تزداد وقاحته ضدنا مع ازدياد قوته ، ذلك ان قوته المتزايدة كانت تضر دوما بالمسيحيين وتدفعه للتجرؤ على الاستخفاف بنا .

وهكذا ، فإن القوات التي كانت قد غادرت المملكة في حوالي الأول من شهر كانون الثاني عادت إلى الوطن ثانية في حوالي الأول من شهر أيار (٣١٤)

٩ ـ موت مينارد أسقف بيروت . ترقية مؤلف هذا التاريخ الى مرتبة مطران لمدينة صور .

حدث في هذه الآونة ، أي الخامس والعشرين من شهر نيسان ، أن توفي مينارد أسقف بيروت صاحب الذكرى السعيدة وحدثت وفاته في مدينة صور بعد مرض مزمن استمر لفترة من الزمن ، فلتنعم روحه بالسلام .

وكانت الكنيسة في صور الآن بلا رئيس لها وذلك منذ سبعة اشهر

- ٣٣٥٠ -
متتالية ، هذا وقد استدعيت في هذا الشـــهر(٣١٥) ذاتــه بناء لرغبــة جماعية من رجال الدين والناس وبتأكيد الملك ايضا كما هو مألوف ، ومن خلال معاناتي في ذات الرب ، اكثر من اي ميزة مـــن ميزاتــي ، دعيت لأتولى المسؤولية في تلك الكنيســة ، وتلقيت بعــد مضي عشرة ايام اي في الثامن من شهر حزيران وبمشيئة الرب هبة الترسيم على الرغم من أنني لا أستحقها بأكملها وكان ذلك في كنيسة المسيح على يدي امالرخ بطريرك القدس .

١٠ - الملك يغــزو أراضي الدمشــقيين و يخـــــرب المنطقة . موت هرنيسيوس رئيس أساقفة قيسارية .

وصلت في هذه الآونة بينما كان صلاح الدين منشــغلا بإنهمـــاك في المنطقة المجاورة لمدينة حلب أخبار كان مفادها أن منطقــة دمشــق ، التي كانت خالية من جيش يحميها وقائد يرعاها ، معــرضة للنهــب وفريسة سهلة لأي اذى يمكن لأي عدو ان يلحقه بها بمــوجب حــق الحرب ، وجمع الملك بلدوين لدى تلقيه هــذه المعلومـــات قــوة مـــن الفرسان وعبر الأردن ، ومر خلال الغابة الواقعة بالقرب من مـــدينة بانياس والتي تشتق اسمها منها ، ووصل إلى سهل دمشــق بعــدما ترك سلسلة جبال لبنان المشهورة على يســـاره ، وكان ذلك في زمـــن الحصاد ، وتفرقت قواتنا فوق الســـهول وتجــولت بحــرية في جميع الاتجاهات ، وأودعت إلى السنة النيران المحاصيل النامية والبيادر المجمعة في الحقول وذلك بالاضافة إلى الغلال التي كانت مخـــزنة في مخازن الحبوب ، هذا وكان المزارعون الذين اخطروا بمقدمنا ، قــد انسحبوا مع زوجاتهم وأطفالهم إلى امكنة محصـــنة بشــكل اكثــر قوة ، وهكذا تقدمت قواتنا وصولا حتى داريا بعدما جعلت المنطقــة بأسرها تحت سيطرتها ، وداريا هذه هي قرية في السهل الواقـــع في جوار دمشق وتقع على بعــد نحــو أربعــة أميال مـــن تلك المدينة ، وتقدمت قواتنا من هناك إلى عين الجر التي تقــع عند ســفح جبــل لبنان ، وقد أعطت المياه الصافية المتدفقة من تلك المرتفعات الموقــع

اسم منزل السرور ، واستولت قواتنا على هذا الموقـع بـالقوة على الرغم من المقاومة الشجاعة لسكانه ، ثم رحلت القوات ناقلة معهـا مغانم ثمينة أمام عيون الدمشقيين البائسين ، ووصلت بعد عدة أيام إلى الوطن سالمة وآمنة .

وتوفي في هذه الآونة نفسها هرنيسيوس ، رئيس أساقفة قيسـارية صاحب الذكرى الطيبة ، واختير هرقل ، رئيس شـماسة القـدس ، خلفا له ورسم بشكل لائق .

١١ ـ الملك يجتاح بلاد العدو من جديد ويخـرب واديا يدعى البقاع. تحرير كل مـن ارناط وجـوسلين خـال الملك من قيود العدو.

استدعى الملك بلدوين الرابع في العام الثاني من حـكمه ، وفي الأول من شهر آب (٣١٦) زعماء المملكة وذلك بينما كان صلاح الدين ما يزال منشغلا أمام مدينة حلب ، وجمع فرسانه وغزا بلاد العدو من جديد ، فعبر صيدا ثم صعد الجبال التي تقع بين أراضـينا واراضي العـدو ووصل إلى المصارة وهو موقع ينعم بتربة خصـبة وتـرويه الأنهـار بشكل جيد ، وفي الواقع ، هو مزود تقريبا فيما يبدو بـكل مـا هـو موائم زمانيا ، ونزل من هناك مجددا إلى واد يدعى البقاع حيث عثر على البلاد الممتلئة بالحليب والعسل حسبما نقرأ في الكتب المقدسة ، ويعتقد بعضهم أن هذه هي المنطقة التـي كانت تسـمى في العصـور القديمة باسم ايطورية والتي اخبرنا عنها في إنجيل لوقا أن فيليب بن هيرارد الاكبر كان حاكما لها ، كمـا كان حـاكما أيضـا لبـلاد تراخونيتس ، وكانت منذ زمن قـديم جـدا ربمـا خـلال أيام ملوك اسرائيل تسمى باسم غابة لبنان لأن الوادي امتد إلى سـفح جبـال لبنان ، وهذه المنطقة جذابة كثيرا بسبب تربتها الخصـبة ومياههـا الصحية والسكان الكثر في دساكرها الكثيرة ، ومناخها المستساغ ، وتظهر في الجزء السفلي من هذا الوادي مـدينة تحـاط حتـى اليوم بأسوار قوية حيث تعطي أبنيتها التي تعرف الآن بـاسم عين الجـر دلائل كثيرة عن عظمتها في الأزمان الماضية .

يعتقد بعض طلاب تاريخ العصور القديمة بأن هذه هي تدمر ، التي كانت فيما مضى مستعمرة فينيقية مهيبة والتي أورد يولبيان الصوري ذكرها في « المختصر » الجديد في فصل «الاحصاء»(٣١٧)

بدأت قواتنا ساعة وصولها إلى هذا الموقع باجتياح المنطقة بأسرها دون عائق وأشعلت النار في كل شيء ، ولم يمنعهم أحد لأن السكان كانوا قد هربوا إلى الجبال ، حيث لم يكن هنالك أي طريق يستطيع الجنود عبوره ذلك أنهم كانوا قد أخطروا باقترابنا ولذلك دفعوا بالقسم الاكبر من قطعانهم وحيواناتهم إلى الغياض الواقعة في منتصف الوادي حيث كان المرعى خصبا جدا .

تقدم في هذه الأثناء كونت طرابلس فجأة مع جنوده ، بعدما عبر سهل جبيل الواقع قرب القلعة المعروفة باسم المنيطرة حسب ترتيب مسبق ، إلى المنطقة المجاورة لبعلبك الواقعة في الوادي نفسه حيث شرع في إحراق كل شيء ، وأسرع شعبنا لدى سماعهم بهذا النبأ بتلهف في ذلك الاتجاه ، وبما أن الكونت كان راغبا بشكل مماثل في مقابلتنا فقد وحد الجيشان قواتهما في منتصف الوادي تقريبا .

كان شمس الدولة ، أخو صلاح الدين ، مقيما في دمشق كحاكم لها ، وجمع قواته حالما بلغه هذا النبأ وبذل بمساعدة سكان المدينة جهدا للمقاومة ، ونظم صفوفه وعبأها بترتيب المعركة واستعد ليزحف نحونا ، كما رتبت قواتنا كتائبها أيضا بترتيب جيد وتقدمت بروح شجاعة نحو القتال ، وحارب الجانبان بشجاعة ، وقتل الكثيرون وجرح عدد اكبر ووقعت أعداد كثيرة في الأسر . إلا أنه تم في آخر الأمر إجبار العدو على الفرار ، ونجا شمس الدولة مع عدد قليل من اتباعه وهرب إلى المنطقة الهضبية المنحدرة . وعاد المسيحيون محملين بالمغانم من العدو مع قطعان المواشي ومقدار ضخم من المغانم ، وعانى المنتصرون من خسارة عدد قليل من الجند الذين غامروا بطيش في التوغل في الغياض للنهب مع أنهم لم يكونوا

مطلعين على الطرقات ، ولم يعرفوا خبر الانسحاب المفاجيء للقوات المسيحية .

وهكذا ، عاد الملك وجنوده بإرادة الرب إلى مدينة صور بسلامة تامة . وجلبوا معهم مغانم ثمينة من كل نوع بما فيها قطعان الحيوانات وكميات كبيرة من الأغنام كبراهين بارزة على قوتهم الظافرة .

وقفل كونت طرابلس ، المحمل أيضا بغنيمة ثمينة ضخمة ، مسرورا مع قواته وعاد إلى ممتلكاته سالكا الطريق نفسه الذي كان قد قدم بواسطته .

وعاد خلال ذلك العام نفسه (٢١٨) ارناط والذي كان قد ورث بواسطة زواجه من كونستانس ارملة ريموند ، امير انطاكية ، تلك الامارة ، وحصل على اطلاق سراحه عندما دفع اصدقاؤه فدية كبيرة وبعد عدة سنوات من الاسر الصعب في حلب ، وكان معه جوسلين بن جوسلين كونت الرها وخال الملك الذي انقذه أيضا من السجن واعيد إلى الحرية بفضل الجهود المستمرة للكونتس اغنس زوجة رينو صاحب صيدا ووالدة الملك .

كما تلقى في ذلك العام نفسه وفي اليوم الثاني من شهر أيار كل من أودو الأسقف المنتخب لصيدا والذي كان شماسا للكنيسة في صور ، وريموند الأسقف المنتخب لبيروت ، تلقيا هبة الترسيم في الكنيسة في صور من خلال إدارتنا لها .

١٢ – إمبراطور القسطنطينية يتعرض للهزيمة بشكل مخز في قونية

واجه مانويل امبراطور القسطنطينية صاحب الماضي الرائع

والذكرى اللطيفة في المسيح ، وهو الذي كان الجميع تقريبا قد استفادوا من خدماته ونالوا من كرمه وسخائه غير المحدود ، واجه أيضا في هذه الآونة نفسها كارثة خطيرة في قونية ، فقد كان يحاول بورع جدير بالثناء أن ينشر الاسم المسيحي بمحاربة عرق الأتراك المرعب وزعيمهم الشرير سلطان قونية . غير انه عانى هنالك وبسبب آثامنا من مذبحة كبيرة ، ولم تشتمل هذه المجزرة على المجموعة الشخصية لأتباعه فقط ، بل شملت أيضا القوات الامبراطورية التي كان يقودها معه بأعداد كبيرة جدا وبشكل يكاد يفوق التخيل البشري ، وترافق الاشتباك بخسارة ضخمة في الجند كان بينهم بعض أقاربه البارزين الجديرين تماما بذكر خاص ، فقد كان بينهم ابن أخيه يوحنا البروتوسيباستوس وكان رجلا سخيا مشهورا وصاحب كرم ملحوظ وهو الذي كان الملك عموري قد تزوج من ابنته ماريا ، فقد قتل عندما كان يبدي مقاومة شديدة أمام العدو وبعدما اصيب بجراحات كثيرة بالغة ، ونجح الامبراطور نفسه في جمع معظم جيشه ووصل إلى بلده سالما جسديا ومنهكا ذهنيا إلى حد بعيد بسبب الكارثة المشؤومة.ويقال إن هذه الكارثة نشأت إلى حد ما عن طيش الضباط الامبراطوريين الذين كانوا مسؤولين عن الفرق العسكرية وليس بسبب قوة العدو ، لأنهم حشروا أنفسهم بإهمال وباندفاع في الأماكن الضيقة الخطيرة التي كان العدو قد استولى عليها مع أنه كانت هناك طرق مفتوحة وواسعة ومهيأة بشكل جيد لمرور الجيش ولنقل كتلة الأمتعة ، ومختلف المعدات التي قيل إنها كانت تفوق التقدير ، وقد استحال في ظل ظروف من هذا القبيل إبداء المقاومة ، ولم يكن هنالك اية فرصة لتغيير المعطيات تغييرا تاما ضد العدو ، ويقال إن الامبراطور حصل منذ ذلك اليوم وبشكل مؤثر بعمق على فؤاده ، ذكرى تلك الكارثة المميتة ، ولم يظهر بعد ذلك أبدا ابتهاج الروح الذي كان صفة له ، ولم يبد نفسه مبتهجا أمام شعبه مهما توسلوا إليه ، ولم ينعم قط طوال حياته ، بالصحة الجيدة التي كان يمتلكها قبل تلك الكارثة بدرجة رائعة جدا.

وبالاختصار ، لقد انهكته دوما ذكرى تلك الكارثة لانها ظلت ماثلة

امامه الى درجة انه لم ينعم أبدا ثانية بهدوء الذهن او براحة النفس المألوفة (٣١٩)

١٣ - وصول وليم الاصغر ، مركيز مونتفرات الى سورية وزواجه من اخت الملك .

وفي العام الثالث لحكم بلدوين الرابع وصل الماركيز وليم ، الملقب بالسيف الطويل (٣٢٠) ، ابن وليم الأكبر ، ماركيز مونتفرات الى ميناء صيدا مع بداية شهر تشرين الاول ، وذلك بدعوة من الملك وجميع نبلاء المملكة المدنيين والدينيين ، وتزوج من الأخت الكبرى للملك خلال اربعين يوما من وصوله ، وكان هذا الزواج قد تم ترتيبه في العام السابق في الوقت الذي دعي فيه وليم للقدوم لهذا الغرض ، وقد تم تأكيد هذا بيمين اداه الملك وجميع النبلاء بشكل مؤكد ومهيب ، وتلقى وليم مع زوجته مدينتي يافا وعسقلان البحريتين مع توابعهما والمقاطعة بأسرها أيضا بموجب الاتفاق المعقود حول ذلك في تلك الآونة ، غير أن بعضهم عارض هذا الاجراء ولم يترددوا في التعبير عن معارضتهم علانية ، وكانوا بين الذين سبق أن وافقوا على الدعوة التي وجهت لوليم دون إعطاء المسألة الاهتمام الكافي ، وقد غيروا آراءهم الآن كما هو مألوف بالنسبة للطبائع البشرية المتبدلة والمتقلبة .

كان الماركيز طويلا بعض الشيء ، وشابا وسيما شعره اشقر ، وكان سريع الغضب بشكل مفرط غير أنه كان في غاية الكرم وله مزاج متحفظ وشجاعة ورجولة . ولم يخف ابدا أية غاية بل أبدى علانية تماما ماكان يفكر به في ذهنه ، كان مغرما في تناول الطعام وموقفا نفسه تماما على الشرب ، ولكن ليس الى درجة الحاق الضرر بعقله . وكان قد تدرب على استخدام السلاح منذ حداثة سنه واشتهر بتمرسه في فن الحرب ، وكانت منزلته الدنيوية ممجدة ، ولم يتمكن في الواقع الا قلة من محاكاته إن ادعينا أن له نظراء ، وكان والده خال لويس ملك فرنسا ، وكانت والدته أخت

كونراد الامبراطور الشهير للرومان ، وعمـة لفـريدريك الذي يدير الامبراطورية الرومانية بقوة بعد وفاة عمـه اللورد كونراد صـاحب الذكرى المشهورة ، و هكذا ، كان الماركيز مـرتبطا بهـذين الملكين البارزين بالدرجة نفسها من القرابة .

ولم يكن قد انقضى الا ثلاثة أشهر تقريبا على زواجه عندما أصيب بمرض خطير ، وقد كابد الآلام لقرابة شهرين بدون توقف وقد تـوفي في شهر حزيران التالي في الوقت الذي كان الملك فيه مريض جـداً في عسقلان وقد خلف زوجته حاملا ونقلت جثته الى القدس ودفن بأبهة عظيمة في ردهة كنيسة دار الداوية والى اليسار من المدخـل ، وقـد تراس القداس وليم الصوري مؤلف هذا الكتاب (٣٢١) .

وتزوج في هذه الآونة همفـري أوف تيرون كافـل المملكة ، مـن السيدة فيليبيا ، وكانت ابنة ريموند أمير انطاكية وأخت بـوهيموند الثالث الذي يحكم الآن هذه الامـارة ، وأختـا لماريا امبـراطورة القسطنطينية وكانت فيليبيا قد تزوجت للمرة الأولى من أندرو نيكوس احد اقرباء الامبراطور ، لكنه طلقها وتزوج سرا من ثيودورا أرملة الملك بلدوين وابنة أخيه (٣٢٢) ، وهو عمل مخز وفـاحش على حـد سواء . وما أن أخـذ همفـري هـذا ، الذي كنا نتحـدث عنه منذ لحظات ، فيليبيا الى بلاده حتى أصيب بمرض شديد ، كما أصيبت زوجته بداء خطير ماتت بسببه خلال بضعة أيام .

١٤ ـ وصول كونت فـلاندرز الى المملكة وذلك بعـد طول انتظار .في العام الرابع والشهر الثاني من حـكم الملك بلدوين الرابع

في العام الرابع والشهر الثاني من حكم الملك بلدوين الرابع وصل في مطلع شهر آب الى عكا (٣٢٣) فيليب كونت فلاندرز ، الذي انتظر قدومه لفترة طويلة من الزمن ، فأمر الملك بأن ينقل على حمـالة مـن

عسقلان الى القدس وذلك على الرغم من انه كان مـايزال مـريضا وارسل وهو في غاية البهجـة عددا مـن بـاروناته ونبـلائه الدينيين ليرحبـوا بفيليب بمراسم لائقة ، ولدى وصول الكونت الى القدس ، حيث كان الملك مايزال مريضا بشكل خطير ، جرى تفويضه بجميع السـلطات مع ادارة المملكة بأكملها بـدون قيود وجـاء ذلك بناء على نصـيحة جماعية للسيد البطريرك ورؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء أديرة الرهبـان ومقـدمي الداوية والاسـبتارية وجميع أعيان الناس ورؤسائهم ، وتوجب أن يحصل على سلطة تامة على الأعلى والأدنى منزلة في السلم والحرب وفي الداخل والخارج ، وأن يمارس إرادتـه على الخزينة وعائدات المملكة (٣٢٤)

ورد الكونت بعد تداوله مع أتبـاعه انه لم يكن قـد حضر بهـدف استلام أية سلطة ، بل لينذر نفسه للخـدمة السـماوية التـي كانت الهدف لزيارته ، ولم يكن قد خطط ليحمل نفسه أية مسؤولية ، بـل على العكس ، كان يرغب في أن يكون حرا ليعود الى موطنه عندمـا تستدعيه أموره الشخصية ، وليعين الملك اي انسان يختاره كحاكم في مملكته ، فهو نفسه سيطيع ذلك الانسان لمصـلحة المملكة ، كمـا يطيع مولاه ملك فرنسا .

وبعدما أدرك الملك أن فيليب قد رفض تماما المنصب الذي كنا قـد عرضناه عليه ، طالب عن طريق نبلائه أيضـا وبشـكل جـاد في أن يوافق — على الاقل — أن يتولى قيادة جميع القـوات المسـيحية في الحملة التي كانت على وشك الانطلاق ، وكانت هذه الحملة قـد تـم ترتيبها منذ زمن طويل مع امبراطور القسطنطينية وتوسل الملك الآن اليه في أن يتولى العناية بمعارك الرب ضـد المصريين ، ورد الكونت على هذا المطلب بالاجابة ذاتها التي قدمها من قبل .

وهـكذا ، عين الملك أرناط ، الذي كان فيمـا مضى أميرا لأنطاكية ، نائبا للمملكة وقائدا عاما للجيش حسـبما كان قـد تـم

ترتيب ذلك قبل وصول الكونت ، وكان أرناط رجلا صاحب إخلاص واضح ووفاء ملحوظ . وتوجب أن يؤول اليه واجب توجيه أمور المملكة وحكم جميع الأشياء بمساعدة الكونت إن لم يتمكن الملك من المثول شخصيا .

عندما نقل هذا الامر الى الكونت أجاب أن وكيلا كهذا لايبدو ضروريا بالنسبة له ، وينبغي خلافا لذلك تعيين شخص ما ليتلقى شخصيا مجد هذه الحرب ، ان كان ذلك يرضي الرب ، أو ليتلقى عار الهزيمة اذا قضي الرب ذلك ، وينبغي اعطاء مملكة مصر الى قائد كهذا ، اذا وضع الرب تلك المملكة تحت سيطرتنا .

ـ واجبنا على هذا ـ نحن الذين كان الملك قد أرسلنا : إن الملك لايستطيع أن يعين مسؤولا بسلطة كهذه دون ان يجعل الشخص ذاته ملكا ، حيث لم تكن تلك الفكرة فكرة الملك ولافكرتنا . وحيث كان هذا هو الحال ، فقد كشف الكونت في آخر الأمر النقاب عن التفكير السري لعقله ، ولم يحاول اخفاء الهدف الذي كانت جميع خططه موجهة نحوه ، وأشار إن الأمر كان غريبا لانه لم يتطرق أحد معه للحديث في موضوع الزواج من قريبته سيبيلا .

ولدى سماعنا لهذه الاقوال ، دهشنا بمكر الرجل ولخططه الشريرة . لأن الكونت ، الذي كان الملك قد استقبله بلباقة بالغة ، كان يحاول الآن بتحد لقوانين حسن الضيافة وروابط الأسرة أن يحل نفسه محله .

١٥ ـ اتباع الكونت يؤثرون عليه بشكل مضلل ويقنعونه بعدم قبول اراء نبلاء المملكة .

من الضروري أن نستطرد قليلا في هذه المرحلة ، حتى يتمكن قراؤنا من أن يفهموا بشكل تام الخطة الشريرة التي كان الكونت

يحاول تنفيذها ، وتم الحصول على معلوماتنا حول هـذا الموضـوع ليس فقط من روايات فرنجية كثيرة ، بل من اعترافه ايضا .

كان هنالك رجل صاحب نفوذ كبير ، هو المحامي عن بيثيون قـد رافق الكونت في رحلته ، وكان قد جلب معه ابنيه اللذين كانا رجلين في مقتبل الشباب ، ويقال ان المحامي قد شرع ، بمسـاعدة الكونت وليم دي مـاندفيل ، الذي كان ايضـا مـوجودا في هـذه الرحلة نفسها ، بالضغط على فيليب ليعتقـد أن بإمـكانه أن يبـدل وضـع المملكة كثيرا لمصلحته ، وادعى أنه يمتلك ممتلكات وراثية واسعة في بلاد الكونت ووعد في أن يتخلى عنها جميعا الى الكونت ويملكه اياها بشكل دائم وبحقوق وراثية اذا ماتمكن فيليب مـن عقـد الزواج بين ابنتي الملك عموري وبين ابني هذا المحامي ، وكان الملك عموري قـد ترك ابنتين كانت احداهما ارملة الماركيز ، وكانت الأخرى ، التـي بلغت سن الزواج الآن ، تعيش مع والدتها الملكة في نابلس ، ووافق الكونت على هذا الاقتراح وبات يجهد في سبيل تدبير أمر هذا الزواج لكن دعونا نعود الى سياق خبرنا .

كنا قـد علمنا الآن الهـدف الذي كانت مـطامح الكونت مـوجهة نحوه ، وهكذا اجبناه انه ينبغي عرض المسألة أولا على الملك ، ثـم سـننقل في اليوم التـالي الرد الذي سـيراه الملك ــ بعـد التشاور ــ لائقا بالتقديم .

وبعد عقد اجتمـاع تـداولنا فيه القضـية عدنا في الصـباح الى الكونت ، وقدمنا ردا جـاء على النحـو التـالي : إنه مـن عاداتنا ، الموافق عليها بالاستخدام الطـويل ، ان لاننظـر في اعادة زواج أرملة ، لاسيما من كانت حاملا منهن ، قبل مضي عام واحـد على وفاة زوجها ، لأن ذلك لن يكون حدادا شريفا ، ولذلك ، ينبغي عليه في حالة هذه السيدة التي لم يكن قد مضى إلا ثـلاثة اشـهر على وفاة زوجها الماركيز ، الا يسيء الفهـم أنه ليس بـامكاننا معـالجة

إعادة زواجها ، لأن ذلك سيكون خلافا لعادات العصر و لبلادنا ، و مع ذلك ، إنه سيلاقي تاييدنا جميعا و مـوافقتنا اذا أمـكن تقـديم الاقتراح المذكور آنفا مشفوعا بنصيحة الشخص الذي عرضه الآن لان الملك قد رغب بالتاكيد في أن يوجه بنصـيحة الكونت ورغب في أن يتفق معه في الراي طالما كان متوائما مع شرفه الخـاص ، فليأخـذ الكونت المبادرة وليحدد شـخصا مناسـبا لذلك التحـالف ونحـن مستعدون في المسألة الحالية للعمل وفقا للرغبة العامة .

وتضايق الكونت من هذا الرد وأجـاب أنه لن يرضي أبـدا وفي أية حال من الاحوال على القيام بهذا مالم يقسم جميع النبلاء أولا أنهم سيلتزمون باقتراحه دون نقاش ، لأن أي نبيل سيعتبر نفسه مهـانا اذا ماتم رفضه بعدما تمت تسميته .

واجبنا على هذا انه سيشين شرف الملك وشرفنا أيضا اذا أعطينا أخته لشخص لانعرفه حتى بالاسم ، وبمـا أن مشـيئة الملك وجميع النبلاء كانت واضـحة في آخـر الامـر ، فقـد تخلى الكونت عن نواياه ، لكن ليس بدون اظهار قسط وافر من السخط والرفض .

١٦ ـ وصول رسل من عند امبـراطور القسـطنطينية المطالبة بتنفيذ المعاهدة التي كان الملك قد عقـدها مـع حاكمهم على الفور وتجهيز حملة ضد مصر.

وجد في القدس في هذه الآونة سفارة كانت مؤلفة من رجال بارزين ذوي منزلة عالية وهم : السـيد أندرونيكوس المكنى أنغيلوس ابـن اخت الامبراطور وميغالتيراخ (أي) يوحنا وهو رجل عظيم جـدا والكونت الكسندر أوف كونفير سانا في أبوليا وهـو نبيل مـن منزلة سامية ، وغيورغيوس اوف سيناي(جورج سيناتيز) أحد عناصر البلاط الامبراطوري (٣٢٥) ، وقـد اتـوا الى الملك بـأمر مـن الامبـراطور الذي

اعتبر الوقت موائما الآن لتنفيذ المعاهدة التي كانت قد عقدت بينه وبين الملك عموري والتي تجددت فيما بعد وفق شروط مماثلة مع الملك الحالي بلدوين ، وكان يأمل بالمزيد ايضا ، بمساعدة الرب ، من قدوم كونت فلاندرز ، وهكذا ، عقد اجتماع عام في مدينة قدس الأقداس ذاتها لدراسة هذه المسألة ، و ذهب جميع نبلاء المملكة إلى هناك ، و تعلق الجميع قاطبة بالأمل ذاته و هو انه بمشورة الكونت ومساعدة حاشيته فسان المملكة ، حبيبة الرب ، يمكن أن تحظى بالتوسع المنشود وانه يمكن اتخاذ اجراءات فعالة لابادة أعداء المسيح ، ثم رحل الكونت دون سابق انذار ، كما كنا قد ذكرنا ، وأوقف نفسه على مشاريع أخرى متخليا عن وعوده ، وهكذا دكت اسس آمالنا بالذات ونسفت .

أصر المبعوثون الامبراطوريون على الرغم من تخلي الكونت ، على أنه يجب تنفيذ المعاهدة ، وحاولوا ان يثبتوا أن التأجيل يحتمل أن يترافق بالخطر ، وليس هنالك اي سبب من جانب الاغريق حول عدم مباشرة الحملة المقترحة ، وكانوا مستعدين لانجاز جميع شروط المعاهدة باخلاص وبأداء تام .

وقررنا ، بعد الاستماع لأقوال المبعوثين والتداول مع بعضنا بعضا ، أن نضع المسألة أمام الكونت بأتم التفاصيل . فاستدعى الكونت ، وعندما وصل وضعت امامه مادة الاتفاقية بين الامبراطور وأنفسنا التي دونت بدقة وختمت بالخاتم الذهبي للامبراطور .

وسئل عن رأيه بعدما درس الوثيقة بعناية وفهمها بشكل شامل . فأجاب بأنه غريب وغير مطلع على المنطقة المحلية وخاصة على بلاد مصر ، التي قيل إنها كانت تقع على مسافة بعيدة جدا وابعد من جميع البلدان الأخرى وانها خاضعة لأحوال مختلفة كما تفيض الأنهار فيها في مواسم محددة من العام وتغمر الأرض بشكل كامل . وكنا بالطبع نعرف طبيعة البلاد بشكل أفضل وفرص الاقتراب منها ، الا أنه كان قد سمع من الذين غالبا مازاروا مصر

ان الموسم الحالي لم يكن موسما مواتيا للغزو . واضاف أن الشتاء بات على الأبواب وأن مصر مغطاة بفيضان النيل ، وفـوق ذلك كان قد سمع أن الأتـــراك كانوا قـــد اندفعـــوا الى هنالك بـــأعداد ضخمة ، واخيرا فقد خشي ، وهذا أهم شيء ، بأنه سـيكون هنالك ندرة في المؤن خلال الزحف وحتى بعد وصـــولهم لمصر ، وأن الجيش سيعاني بالنتيجة من المجاعة .

ادركنا من هذه الاعتراضات أنه كان يسعى للعثور على مســوغ ذكي ليتجنب تولي القيام بالحملة ، وللحيلولة دون هذا ، فقد قدمنا له ستمائة جمل لنقل المواد الغذائية والأســلحة والأمتعــة الأخــرى برا ، ووعدناه بتقديم العدد اللازم من الســفن لنقــل المؤن والآلات الحربية وجميع المعدات اللازمة للحرب بحــرا ، الا أنه رفض هــذه العروض بأكملها وأضاف بأنه لن يهبط الى مصر معنا بـأية شروط خشية أن يضطر وقواته بالمصادفة للمعاناة من المجاعة ، واضـــاف أنه كان قد اعتاد على أن يقود جيوشه عبر بلدان غنية ، وأن جنوده لن يتمكنوا من تحمل مصاعب من هذا القبيل ، وأنه ينبغي علينا أن نختار منطقة اخرى الى حيث نســتطيع تســيير الجيوش بســهولة اكثر ، ولنكافح بشكل موائم لنشر الاسم المســيحي ولابــادة أعداء المسيح وعندها سيعد التحضيرات مع جنوده بسرور للانطلاق .

١٧ ــ معـــارضة الكونت تعيق هـــذا المشروع المهيب وتحول دون تنفيذ المعاهدة .

ومهما يكن الحال انه لم يكن آمنا ولا جديرا بالاحترام بــالنسبة لنا بأن ننسحب من المعاهدة(٣٢٦) ، كما أن الرســل الامبــراطوريين الذين كانوا رجالا مشهورين في المنزلة ، كانوا الآن في القدس مــع موارد مالية ضخمة ، وأعلنوا انهم مستعدون لتنفيذ المواثيق ، التي ابرمت بين الامبــــراطور وبيننا ، وبـــاخلاص كمـــا كنا قـــد ذكرنا ، وكانت لديهم سبعون شيني راسية في ميناء عكا اضافة الى

سفن اخرى كافية للرحلة والحملة حسب الاتفاق المعقود ، وبدا ان رفض الالتزام بالاتفاق الذي كنا قد تعهدنا به انه امر مخز للغاية وخطير بالفعل ، وشعرنا انه سيكون من الطيش ان نخسر مساعدة الامبراطور المعدة لنا الآن حتى وان وافق الرسل الامبراطوريون على تأجيل الحملة الى موعد آخر ، وعلاوة على ذلك فقد خشينا من استيائه الامر الذي يمكن أن تكون له نتائج خطيرة بالنسبة للمملكة ، وهكذا صممنا بموافقة الطرفين ، على مباشرة الحملة تمشيا مع المعاهدة والترتيبات المعدة ، وأن نستمر بالتحضيرات للحملة التي تم الاتفاق عليها مع الامبراطور منذ زمن طويل .

وغضب كونت فلاندرز غضبا شديدا عندما علم بقرارنا ، وأعلن أن المسألة بأسرها قد صيغت كاهانة له ، وتأجلت الحملة ثانية الى مابعد نهاية شهر نيسان وكان ذلك بموافقة الاغريق مع شعبنا .

وهكذا امكن حل المسائل بهذه الطريقة ، وكان الكونت الآن موجودا في القدس منذ خمسة عشر يوما تقريبا ، وكان قد انجز عباداته ، وهكذا حمل سعف النخيل الذي هو بالنسبة لنا إشارة على حج كامل ورحل الى نابلس وكأنه قد عزم على الانسحاب تماما . وأرسل من هنالك بعد بضعة ايام المحامي عن بيثيون مع اخرين من جماعته الينا في القدس ، وكانوا مفوضين لأن يعلنوا ، باسم الكونت ، انه كان مستعدا ــ وكان هذا هو جوهر مداولاته ــ ليلحق بنا حيثما نشاء سواء أكان ذلك الى مصر أو الى مناطق أخرى ، وبدا لنا تبدل الرأي المتكرر هذا انه سخيف وشعرنا انه يمكن بعدل اتهام الكونت انه صاحب شخصية متقلبة ، حيث لم يلتزم بأي مشروع محدد ، ومع ذلك ، قمنا لدى استلام هذه الرسالة المتضمنة نبأ قراره ، بالتداول على مضض مع الاغريق ، غير انه ثبت انه لم تكن لديه أية نية في تحويل أقواله الى افعال ، بل العكس ، كان يحاول بكل قوته ان يضعنا في موقع الزلل ، حتى يتمكن من الكتابة الى الأمراء الموجودين فيما وراء الجبال بأننا

نتحمل مسؤولية تأجيل الحملة (٣٢٧) . وكان قد ارسل المذكورين اعلاه أملا في ان الاغريق لن يوافقوا البتة على مطلبنا ، وان خطاه ، سيرتد بالتالي علينا .

١٨ – عودة رسل الامبراطور الى بلاده الكونت يتابع السير الى بلاد انطاكيا زواج بسالين من ارملة الملك عموري .

طلبنا عند ذلك من الاغريق ان يتأكدوا فيما اذا كانوا مايزالون راغبين بتنفيذ اتفاقهم الاصلي والنزول الى مصر ،شريطة حضور الكونت معنا . فاجابوا انه على الرغم من ان الوقت قصير جدا لاعداد التحضيرات اللازمة لجيوشهم ، انه اذا ما ادى الكونت اليمين بيده في انه سيذهب معنا وانه في حال مرضه اواثناء الزحف سيرسل قواته معنا ، واذا ما وعد بالكفاح لتوسيع الديانة المسيحية في الحملة باسرها باخلاص ودون احتيال او نية شريرة ، واذا ما ضمن علاوة على ذلك ان الاتفاقية ، التي قد رتبت ودونت ، لن تخرق في اي بند من بنودها سواء اكان ذلك بالنصيحة او المساعدة ، واذا ما دفع شعبه ليقسم متعهدا بتنفيذ الشيء نفسه عندئذ سيذهبون معنا مع ان تغييرات مشاعره الكثيرة بدت غريبة وتتناقض بالنسبة لهم مع سمات الرجولة والثبات ، وما هدفهم سوى توسيع مجد المملكة حبيبة الرب وجلب الفخار للامبراطور وزيادته :

ثم عرض المحامي والذين ارسلوا معه اداء القسم على الشروط كما هي مقدمة اعلاه ، بيد انهم لم يكونوا راغبين في ادراج جميع الشروط فيه ولا ان يعدوا ان الكونت سيؤدي القسم ايضا ، وعندهاارفض المؤتمر ، لاننا لم نعد مهتمين في مواصلة النقاش دون الوصول الى هدف ، كما ان المسألة التي تعرضت للمفاوضات مرارا تأجلت الى موسم اكثر مواءمة ، ثم استأذن الرسل الامبراطوريون بالرحيل وعادوا الى موطنهم .

وبدأ ممثلو الكونت يتساءلون بعد رحيل رسل الامبراطور عن سبب تأجيل الحملة المقترحة وعدم تنفيذها حالا وقالوا : « ما هو المشروع الذي بامكان الكونت القيام به بمساعدة المملكة حتى لايبدو كسولا وعاطلا عن العمل ؟ » واخيرا قرر الذين توقف عليهم اتخاذ القرار النهائي ، التحرك نحو طرابلس اوانطاكية حيث بدا ممكنا انجاز شيء ما لمصلحة امجادهم الخاصة ولتقدم المسيحية .

كان هنالك بعض من القى مسؤولية ما حدث على عاتق كونت طرابلس ايضا وهو الكونت الذي كان كارها جدا للحملة الى مصر (٣٢٨) . ولقد كانا يحاولان جره الى مناطقهما حتى يمكن بمساعدته القيام بمشروع ما يؤدي الى توسيع ممتلكاتهما . الا ان هذه الامال تبددت لان السماء لم تسمح للكونت بعمل اي شيء جدير بالواقع بالتسجيل بيننا اوبينهم . وكان بالفعل حقيقا كهذا الذي كان الرب قد سحب تأييده منه ، الا ينجح في اي شيء « لان الله يقاوم المستكبرين واما المتواضعون فيعطيهم نعمة » (٣٢٩) .

هذا وقد وعد الملك في ان يقدم لفيليب تعاونه ومساعدته ، وقد منحه عند رحيله مئة من فرسانه وقوة مؤلفة من الفين من الجنود المشاة.

لقد كانت هذه حالتنا واوضاعنا في حوالي الاول من شهر تشرين الاول (٣٣٠) وغادر الكونت مع قواته في ذلك الوقت ، مصحوبا بكونت طرابلس ومقدم الاسبتارية وعدد كبير من فرسان الداوية وتوجه الى بلاد طرابلس .

وفي حوالي الوقت ذاته ،تزوج – بناء على موافقة من الملك – بالين دي ابلن اخو بلدوين صاحب الرملة من الملكة ماريا ارملة الملك عموري وابنه يوحنا البروتوسيباستوس الذي تكررت الاشارة اليه آنفا ، وتسلم بالين مع ماريا مدينة نابلس التي سبق ان اعطيت لها ايام زواجها كمهر عقاري مسمى ، وكان عليه الاحتفاظ بها خلال حياة زوجته .

١٩ ـ كونت فلاندرز يحاصر قلعة حارم بمساعدة أمير انطاكية وكونت طرابلس ، الا أن الجهود التي بذلوها لم توصل الى محصلة.

بعد الوصول الى طرابلس قاد الكونت قواته بصحبة كونت طرابلس الى بلاد العدو وبعد اعداد جميع الترتيبات الضرورية للزحف وتعبئة الجنود بشكل جيد ، بقيا لفترة من الزمن من مدينتي حمص وحماه ، وهي خطوة أدت الى الحاق بعض الخسارة في صفوف العدو. لأن صلاح الدين كان بعد تحقيق هدفه في تلك المنطقة المجاورة واحلال السلام مع ابن نور الدين حسب شروطه الخاصة قد رحل الى مصر فقد بدت له التحضيرات ، التي أشرت اليها اعلاه ، بأنها تشير الى أن الحملة ، التي كانت تهدد مصر منذ زمن طويل ، والتي اعدت لها الترتيبات قبل وقت طويل ، كانت على وشك الحدوث ، وهكذا ، قاد معه جميع القوات التي حصل عليها من أي مصدر وحشد قواته الضخمة من الفرسان في المواقع الاستراتيجية حيث بدا ممكنا أن تشهد وقوع أكثر الأحداث اهمية فيها ، ونتيجة لهذا وجد الكونت وقواته أن البلاد خالية من المدافعين وانه من الممكن اجتياح المنطقة بدون مقاومة ، بيد أن المدن المحصنة وقلاع المدن كانت مزودة بشكل جيد بالمؤن ، وكان فيها عدد كاف من الحراس والأسلحة من أجل الدفاع عنها.

وعندما عرف أمير انطاكية أن الكونتين قد دخلا الى بلاد العدو بادر بالانضمام اليهما عبر طريق آخر وذلك حسب الاتفاق المعقود بينهم من قبل ، وهكذا فإن القوات المتحدة في قوة واحدة باتت ذات تصميم واحد ايضا ؛ وبناء عليه تقرر محاصرة قلعة حارم وكانت هذه أفضل خطة في تلك الظروف ، وتقع هذه القلعة في منطقة خالكس التي تعرف الآن باسم حصن صغير جدا ، وتقع كل من المدينة والحصن على بعد نحو اثني عشر ميلا عن انطاكية.

ولدى وصول القوات أمام حارم ، نصب المعسكر على شكل دائرة حول الموقع حيث تم تطويق المحاصرين من جميع الجهـات ، ولهـذا فقد منعوا بالكامل من الظهـور ، ولم يتمـكن أي إنسـان مـن الاقتراب ، وإن كان راغبا في ذلك ، لتقديم المساعدة اليهم ، وشيدت على الفـور الالات الحـربية وجميع المعـدات الضرورية لمواصـلة الحصار ، وبنى المسيحيون أيضا أكواخا من الاغصـان حيث كان الشتاء يقترب وأيضا كاشارة الى أن العمليات الحـربية سـتستمر الى النهـاية ، وحصـنوا المعسـكر بـالاسيجة للحيلولة دون قيام الامطار الغزيرة بجرف مقتنياتهم وعمل سـكان المنطقـة المجـاورة والناس المسيحيون في هذه الأثناء بحماسة لجلب المؤن الضرورية من انطاكية والأماكن القائمة في المنطقة المجاورة.

كانت قلعة حارم تخص ابن نور الدين ، وكانت القلعة الوحيدة في ذلك الجزء من المنطقة التي سـمح له صـلاح الدين بـأن يحتفـظ بها ، وبعدما احكم الحصـار حـولها مـن جميع الجهـات شرع المسيحيون بالهجوم عليها على نوبـات متـوالية حسـبما جـرت عادتهم ، وقصفوا الاسوار بالاتهم الحـربية بشـكل دائم حتـى ان المحاصرين لم يتمكنوا من الحصول على راحة من اي نوع .

٢٠ ـ وصول صلاح الدين مع قوات ضخمة مـن مصر وغزوه المملكة. احتلاله موقعا امام عسـقلان. خـروج الملك لمقابلته مع جميع قـوات المملكة. نشـوب معـركة هامة امام المدينة.

كانت هذه هي أوضاع الامور في انطـاكية آنذاك ، وكان صـلاح الدين قد علم في غضون ذلك أن الكونت والجيش المسـيحي بـاكمله كانوا قد تقدموا الى منطقة انطاكية ، عرف ذلك بينما كان ينتظرهم بخوف شديد ، في بلاد مصر ، وبدا له بشـكل مقنع بـأنه يسـتطيع بأمان أن يغزو بلادا مجردة من جنودها ، حيث يمكن تأمين واحـد من شيئين بسهولة ، فإما أن الغزو سيجبر العـدو على التخلي عن

حصار حازم ، أو سيتمكن من تحقيق نصر على المتروكين في المملكة إذا اصروا على مواصلة ذلك.

وهكذا ، جمع العساكر بأعداد كبيرة من جميع المصادر وأمر بتجهيزهم بشكل حتى افضل من المعتاد بالأسلحة وبجميع الاشياء المستخدمة عموما في الحرب ، ثم خرج من مصر مع هذا الجيش . وبعد سيره بدون توقف واجتيازه للبراري الشاسعة الفاصلة بين مصر وفلسطين وصل الى مدينة العريش القديمة المهجورة حاليا ، وترك هناك جزءا من الأمتعة الثقيلة واثقال الجنود ، ثم أخذ معه الجنود المسلحين تسليحا خفيفا وأكثر المحاربين ممارسة ومر بقلعتي الداروم وغزة.وتعد مدينة غزة مدينة مشهورة جدا وبعدما بعث بالكشافة امامه ظهر فجاة امام عسقلان.

هذا وكان الملك قد تلقى تحذيرا عن تقدمة قبل بضعة أيام ، فبادر الى جمع القوات التي كانت ما تزال باقية في المملكة ، وقام مع جنوده بالعسكرة بالمدينة قبل وصول صلاح الدين اليها.

وكان كونت طرابلس قد مضى ، كما ذكرنا من قبل ، أخذا معه مئة من فرساننا وكانوا رجالا منتقين أختيروا من بين عدد كبير ، وكان مقدم الاسبتارية قد مضى أيضا ومعه إخوانه وعدد كبير من فرسان الداوية ، وكان بقية الداوية قد انسحبوا الى غزة توقعا منهم أن صلاح الدين سيحاصر ذلك الموقع ، حيث كانت تلك المدينة الأولى من مدننا التي سيصلها ، وكان همفري كافل المملكة يعاني أنذاك ـ كما أشرنا من قبل ـ من مرض خطير. ولذلك لم يكن مع الملك سوى قلة من الجند. وعندما علم أن العدو كان يتجول بكل حرية وبطريقة عدوانية وأنه كان قد تفرق عبر السهول المتاخمة لأراضينا ، ترك عددا قليلا من الجنود لحراسة المدينة وخرج مع قواته المستعدة للقتال طالبين المساعدة من عليين.

كان صلاح الدين قد حشد عساكره ككتلة واحدة بالقرب من

المدينة وعندما تقدم الجيش المسيحي ورأى افراده الاعداد الضخمة لأعدائهم ، نصح الذين كانوا اصحاب خبرة اكبر في الحرب أن تبقى القوات في موقعها الحالي بدلا من ان تجازف بقدرها المجهول في المعركة . وهكذا فقد صد المسيحيون هجمات الأعداء حتى المساء ، ذلك أن القتال لم يتعد في ذلك اليوم المبارزات الفردية في فترات منفصلة ، لأن الجيشين لم يكونا بعيدين عن بعضهما ومع اقتراب المساء تراجع المسيحيون بحكمة الى المدينة مجددا حيث بدا من المخاطرة أن يودعوا قواتهم البسيطة في معسكر لقضاء الليل بسبب أعداد العدو المتفوقة ، واثار هذا العمل صلاح الدين وجنده الى درجة من التعجرف حيث لم يبقوا بعد ذلك في ترتيب متراص ، بل تمزقوا واخذوا في استعراض قواهم والتبجح بها ، وبدأ صلاح الدين يوزع اجزاء محددة من ممتلكاته المكتسبة على اتباعه الجنود وكأنه قد ظفر بالنصر ، وبدات قواته تتصرف بإهمال تام للحذر ، وكأنها كانت قد ضمنت كل ما كانت ترغب به ،وتجولت بحرية في زمر مبعثرة وطافت في المنطقة في جميع الجهات .

٢١ ـ الاتراك يجتاحون المنطقة بالطول والعرض ويحرقون المدن والمناطق النائية.

افترضنا اثناء الليل أن العدو كان منشغلا في اقامة معسكره امام المدينة ، حيث المكان الذي كان عنده في اليوم السابق ، او كان قد اقترب الى مسافة أقرب من المدينة وبات يحاصرها تماما ، لكن الذي حدث هو العكس. فقد انتشرت قواه على شكل زمر فوق المنطقة بأسرها ، هنا وهناك كما استحوذ الباعث على بعضهم البعض ودون أن يتركوا لانفسهم أو لخيولهم اية استراحة . وكان بين قادتهم شخص يدعى جاولي (٣٣١) ، كان محاربا شجاعا ومستعدا دائما لتنفيذ اية مأثرة جريئة ، وكان ارمني المولد ، ومرتدا ، كان قد تحول الى الاسلام بعدما تخلى عن عقيدة الوسيط بين الرب

والانسان ، وكان يتبع سبلا ملتوية ، وتقدم هذا الرجل مع الجند الذين كان يقودهم الى الرملة وهي مدينة واقعة في السهل ، وأحرقها بعدما وجدها مهجورة ، وكان السكان قد هجروا المدينة بياس لانها لم تكن محصنة بشكل جيد ، وكان بعضهم قد ذهب مع حملة بلدوين الى عسقلان ، وكان آخرون قد ذهبوا الى حيفا مع الضعفاء والنسوة والأطفال ، وكان بعضهم أيضا قد ذهبوا الى حصن محصن بشكل جيد في الجبال التي تدعى مجدل يابا . وتقدم جاولي مع جميع قواته ، بعد أن أحرق الرملة ، الى مدينة اللد المجاورة ، وقسم جنوده هنا وطوق المدينة بسرعة ، ثم هاجم السكان بوابل من السهام والأسلحة من كل نوع وانهكهم دون توقف ، وهرب جميع السكان الى كنيسة الشهيد المبارك القديس جورج .

استحوذ في هذه الرحلة الخوف واليأس على المسيحيين حيث بدا ان أملهم الوحيد يتوضع في الفرار ، فقد حل الرعب الكبير ليس بين الناس الموجودين في السهول حيث كان العدو يطوف بحرية ودون مقاومة ، بل حتى بين الذين يعيشون في الجبال ، وكان سكان القدس نفسها مستعدين الى حد ما للتخلي عن المدينة المقدسة ، وحيث لم تكن لديهم أية ثقة في تحصيناتها ، فقد أسرعوا بالتلهف الكلي الى برج داوود ، كما يعرف بهذا الاسم عموما ، وتخلوا عن باقي المدينة . وكان بعض المغيرين قد تقدموا وصولا الى الموقع المسمى باسم قاليقليا وكانوا قد انتشروا فوق سطح ذلك السهل بأكمله تقريبا ، وكانوا الآن على وشك مغادرة المنطقة المستوية والصعود الى الهضاب.

وكان مظهر هذه المنطقة الآن بائسا ومنهكا بالمرارة ، كما كان في اليوم الذي فيه سخط الرب عندما « غطى السيد بغضبه ابنة صهيون بالظلام »(۳۳۲) ومع ذلك « فإنه لم يكبح رحمته حتى في غضبه ، ولم ينس الرحمة أيضا(۳۳۳)»إلا انه« مال الينا وواسانا (۳۳٤) وساعدنا

وكان مايزال مؤيدا لنا (٣٣٥) و« وقعها لحشد الاحزان في قلوبنا ابهجت مساعداته ارواحنا (٣٣٦) ».

٢٢ ـ الملك ينطلق من عسقلان ويقابل العدو. الطرفان يعبئان صفوفهما للقتال ويستعدان للمواجهة.

بينما كانت هذه الأحداث تـاخذ مجـراها في ذلك الجـزء مـن البلاد ، وصل نبأ الى الملك مفاده أن حشدا من العـدو ، قـد انتشر فوق أراضيه بالطول والعرض ، واسـتولى على ممتلكاتـه ، ولذلك غادر عسقلان على الفور مع جنوده واستعد للزحف ضد العدو ، لأنه شعر أنه من الاكثر حكمة تجريب الأقدار المريبة للحرب مـع العـدو بدلا من أن يكره شـعبه على التعـرض للسـلب والحـرائق والذبائح ، وهكذا زحف بمحاذاة الساحل وتقدم على طول شـاطىء البحر عله يتمكن من مباغتة العدو خلسة وفجأة ، وعندما وصل الى الموقع الذي كان صلاح الدين مخيما في سـهله ، وجـه على الفـور جميع قواته من الفرسان والمشاة بترتيبهم العسكري نحوه وانضـم اليه فرسان الداوية الذين كانوا قد بقوا في غزة واستعدوا مع بعضهم بعضا بصفوف منتظمة بتـرتيب المعـركة لمواجهـة العـدو ، وأثناء زحفهم ، وهم مصممون على الهدف الواحد للانتقام لمظـالمهم ، فإن منظر الحرائق في كل الجهات وروايات المذبحة التي حلت بشعبهم قد الهبتهم بشجاعة ربانية وأسرعوا الى الأمام كرجل واحـد ، ورأوا صفوف العدو فجأة أمامهم وعلى مسافة قريبة . وكان ذلك حـوالي الساعة الثامنة من النهار.

وكان صلاح الدين قد علم خلال ذلك أن المسيحيين كانو يتقدمون على أمل القتال. ونظرا لأنه كان يخاف من الاشـتباك الذي كان قـد تلهف اليه بوضوح حتى الآن ، فقـد أرسـل رسـلا لاسـتدعاء جنوده ، الذين كانوا قد تفرقوا في اتجاهات مختلفـة ، وحـاول أن

يشجع رجاله لخوض القتال بصوت الأبواق وقرع الطبول وبالنصائح أيضا ، كما هو مألوف في أوقات كهذه ، وأن يثيرهم بأقواله(٣٣٧)

وكان مع الملك أودو دي سانت أماند مقدم فرسان الداوية وثمانون من إخوانه ، والأمير رينو وبلدوين صاحب الرملة ، وأخوه بالين ، ورينو صاحب صيدا ، والكونت جوسلين عم الملك وقهرمانه ، ولم تتجاوز اعدادهم على ـ قرابة ـ ثلاثمائة وخمسة وسبعين فردا بما في ذلك جميع المراتب والحالات ، وتقدموا جميعا بعدما التمسوا المساعدة من السماء بتشكيل المعركة وهم متلهفون للمواجهة يقودهم صليب الصلبوت الرائع المانح للحياة وكان يحمله البرت اسقف بيت لحم .

بدأت في الوقت نفسه قوات العدو ، التي كانت قد غامرت بالتوغل الى مسافة بعيدة بعض الشيء للبحث عن الغنيمة ونشرت الحرائق ، بالوصول من اتجاهات مختلفة ، الحال الذي زاد كثيرا من قوة صلاح الدين ، وفي الواقع ، لو لم يكن الرب ، الذي لا يخذل ابدا الذين يضعون ثقتهم فيه (٣٣٨) ، قد الهب جنودنا بشكل شفوق بشجاعة داخلية ، لكان المسيحيون قد دفعوا الى اليأس ليس من النصر فقط ، بل من الحرية والسلامة أيضا ، ومع ذلك ، فقد نظموا قواتهم وعبأوها بترتيب المعركة ونظموا صفوفهم حسب الأسس العسكرية ، وأعدوا بترتيب موائم الذين توجب عليهم شن الهجوم الأول مع الاحتياطيات التي توجب عليها الحضور لمساعدتهم.

٢٣ ـ وقوع معركة. هزيمة صلاح الدين واجباره على الفرار وسط مخاطر واسعة وخزي كبير.

اقتربت الآن صفوف المحاربين في كلا الجانبين بالتدريج من بعضهما بعضا وأعقب ذلك معركة لم تكن حاسمة في أول الأمر ،

وكانت القوات غير متكافئة ابدا .إلا أن المسيحيين الذين عززتهم الرحمة التي أغدقتها السماء عليهم ، بدأوا على الفور يشددون الخناق على عدوهم بشجاعة متزايدة دوما ، فتبددت صفوف صلاح الدين واضطر الى الفرار بعد مذبحة رهيبة.

وحيث كنت راغبا بالتيقن من الحقائق الواقعية ، فقد أجريت تحقيقا حول أعداد العدو ، واكتشفت من روايات العديد من الناس الثقاة أن ستة وعشرين الف فارس مسلحين تسليحا خفيفا بالاضافة الى آخرين ممتطين صهوات الجمال وحيوانات التحميل كانوا قد دخلوا منطقتنا (٣٣٩) ، وكان من بين هذه القوات ثمانية الاف ينتمون الى الجذود الرائعين الذين يحملون بلغتهم الخاصة باسم طواسين وكان الثمانية عشر الف الآخرون هم الفرسان العاديون المعروفون باسم قراغلام (٣٤٠) . وعمل الف من اشجع الفرسان كحرس لصلاح الدين ، وكان جميع هؤلاء يرتدون حريرا اصفر فوق دروعهم وهو اللون الذي كان صلاح الدين نفسه يرتديه. ومن عادة الحكام الاتراك والزعماء العظماء ، والذين يسمون باللغة العربية باسم امراء ، ان يربوا بعناية كبيرة بعض الرجال الشبان ، بعضهم عبيد اسروا في الحرب ، وآخرون تم شراؤهم او ربما ولدوا من امهات جوار ويدرب هؤلاء الشبان على العلوم العسكرية ، وعندما يبلغون سن الرجولة فانهم يعطون اجورا او حتى ممتلكات كبيرة حسب جدارة كل منهم ، ويعرف هؤلاء الرجال بلغتهم الخاصة باسم مماليك ، ويعهد اليهم بواجب حماية ذات مولاهم أثناء تقلبات المعركة ، ويعتمد عليهم بدرجة مماثلة من الأهمية الأمل في تحقيق النصر. ويحاولون دوما بالاجماع وهم يحيطون بسيدهم حمايته من الأذى ويتشبثون به حتى الموت ، ويواصلون القتال كرجل واحد حتى يلوذ بالفرار وينجو وهكذا ، يحدث مرارا أنه في الوقت الذي يفلح فيه الباقون بالفرار ، يقتل جميع المماليك تقريبا(٣٤١)

طارد المسيحيون العدو المنهزم من المكان المعروف باسم تل

الصافية الى ما بعد المخاضات الموجودة وراء نهر هذا التـل حتـى غياب الشمس وهبوط الليل عليهم ، وظل العدو يقتل بلا رحمة أثناء ذلك الفرار لمسافة اثني عشر ميلا ونيف . ولولا حلول الظـلام الذي جاء سريعا فأنقذهم من مطارديهم لما بقي أحد من صفوفهم على قيد الحياة ، وقام الجنود الأكثر قوة والذين كانت معهـم خيول سريعـة بإلقاء أسلحتهم وأعتدتهم وتخلوا عن أحمالهم حتى يسـهل عليهـم الفرار وهربوا بكل قوتهم تاركين الناس الضعفاء وراءهم ، ونجـا هؤلاء من الموت بفضل حلول الظلام . وواجه المتخلفون مصيرا أسوأ حيث أسروا جميعا أو كانوا طعمة للسيف .

وفقدنا في بداية القتال أربعـة أو خمسـة مـن الفـرسان وبعض الرجالة إلا أن العدد الدقيق لهؤلاء ليس معروفا .

عندما وصل الذين كانوا قد نجوا بالفرار إلى مستنقع المخاضات المذكورة منذ لحظات القوا بين القصب وفي الماء نفسـه كل مـاكانوا لايزالون يحملونه اي دروعهم وواقيات اقدامهم المصنعة من الفـولاذ حتى يمكنهم أن يتقدموا بأنفسهم غير معـاقين ، وحتـى الأسـلحة قذفت في الماء حتى لايتمكن المسيحيون من استخدامها حتى كعـلامة للنصر .

إلا أن شعبنا استرد جميع هـذه الاشـياء بسرعة ، لأنه بتتبعـه الدقيق لخطوات العدو الهارب ، فتش في تلك الليلة وفي اليوم التـالي وبشـكل دقيق المسـتنقع المملوء بـالقصب المذكور منذ لحـظات ، وبتمشيطهم للمستنقع نفسه بالقوائم والكلاليب ، فقد وجدوا بسرعة كل شيء كان العدو قد خبأه هناك .

لقد سمعنا من اشخاص جديرين بـالتصديق أنهـم رأوا في أحـد الايام مئة درع استردت من ذلك الموقع بالاضافة إلى الخوذ وواقيات السوق الحديدية واشياء اخرى ذات قيمة أدنى إنمـا كانت مـاتزال ثمينة ومفيدة .

أضفت الرحمة السماوية علينا هذه النعمة الظاهرة ، الجديرة بالتذكر إلى الأبد ، في العام الثالث من حكم الملك بلدوين الرابع وفي الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني ، عيد الشهيدين بطرس الاسكندراني والعذراء كاترين (٣٤٢).

عاد الملك إلى عسقلان حيث انتظر عودة قواته التي كانت قد طاردت الهاربين بطرق مختلفة ، ووصل الجميع خلال أربعة أيام وهم محملون بالمغانم ، وجاؤوا يحملون الخيم ويسوقون امامهم العبيد واعدادا كبيرة من الجمال والخيول حسب أقوال الرسول : « كالذين يبتهجون عندما يقتسمون غنيمة » (٣٤٣).

٢٤ ـ جو عاصف وبرد غريب ينهك قوى الهاربين الذين كانوا قد نجوا من المعركة. موت اعداد كبيرة منهم واسر آخرين كثر. الملك يعود الى القدس ظافرا.

أظهر ظرف آخر بوضوح أيضا أن الرحمة السماوية كانت معنا ، فقد هطلت أمطار عنيفة مصحوبة ببرد غريب في اليوم التالي ولمدة عشرة أيام متتالية بعد ذلك ، لدرجة بدت تقريبا بأن العوامل الجوية نفسها قد تآمرت ضد الأعداء ، وكانوا قد فقدوا جميع خيولهم والتي لم تكن قد تلقت أي طعام أو شراب أو حتى استراحة خلال احتلال أراضينا الذي دام ثلاثة أيام ، وكانوا قد ألقوا وبشكل طوعي أيضا أمتعتهم وجميع أنواع الملابس ، كما ذكرنا ذلك . ولزيادة مجموع تعاساتهم كانوا بلا طعام تماما وكانوا يهلكون من البرد والجوع وتعب المسير وعبء مشقات غير مألوفة ، فقد كان يعثر في كل مكان على عدد قليل من هؤلاء الهاربين تارة وعلى أعداد كبيرة تارة أخرى حيث تمكن حتى الضعفاء والعاجزون من صب جام غضبهم عليهم كما يحلو لهم ، كما أن الكثيرين بجهلهم بالمناطق وباعتقادهم أنهم كانوا في الطريق إلى الوطن ، قدموا انفسهم في قرانا إما للمسافرين أو الذين كانوا يتصيدونهم .

وفي هذه الأثناء ، بادر البداة العرب ، ذلك العرق من الكفار ، بعدما تصوروا الكارثة التي كانت قد حلت بالأتراك ، نحو الذين كانوا قد تركوا لحراسة الأمتعة في مدينة العريش كما كنا قد ذكرنا ذلك ، وسببوا لهم ذعرا كبيرا عندما نقلوا إليهم أخبار الكارثة التي كانت قد حلت بشعبهم لدرجة أنهم هربوا بفزع ، وطارد هؤلاء البداة بمواظبة أي واحد نجح بالمصادفة بالتملص من قبضتنا ، وهكذا فإن الذين اعتقدوا أنهم كانوا قد نجوا منا سقطوا في أيديهم كفريسة ، بحيث بدت النبوءة القائلة : « فضلة القمص أكلها الزحاف وفضلة الزحاف أكلها الغوغاء »(٣٤٤) . قد تحققت ، ويقال إن الشيء التالي هو عادة ذلك العرق الشرير ، فهم يتجنبون دائما مخاطر القتال مهما كان القائد الذي يتقدمون تحت قيادته إلى المعركة ، ولايشتبكون طالما نتيجة المعركة مازالت مجهولة ، ويقفون ينتظرون عن بعد ، وعندما يتقرر مصير المعركة يلحقون أنفسهم بالمنتصر ، ويطاردون الأعداء المهزومين ويغنون أنفسهم بالمغانم .

جلب الأسرى لعدة أيام من الغابات والجبال وحتى من الصحراء . وقدموا أحيانا إلينا طوعا مفضلين على أن يحتجزوا بالسلاسل والسجون على أن يهلكوا تحت عذاب البرد والجوع .

أسرع الملك في هذه الأثناء إلى القدس ، بعد أن وزع المغانم والثروات حسب قواعد الحرب ليقدم صلوات الشكر والقرابين للنعم التي أغدقها الرب عليه ، وعاد صلاح الدين ، الذي كان قد مضى نحونا بنفس شديدة الرعونة ومع صفوة لاتحصى من الفرسان مصفوعا باليد الربانية وليس معه إلا مئة من أتباعه تقريبا . ويقال إنه نفسه كان راكبا على جمل .

فلندرس بمزيد من الاحكام والدقة سخاء هذه الهبة الالهية ولنعتبر كيف أن العون الرباني رغب في أن يكون المجد كله له في السخاء المظهر نحونا ، فلو كان كونت فلاندرز ، وأمير أنطاكية ، وكونت طرابلس ـ والمجموعة الضخمة من الفرسان الذين لم يكونوا

حضورا ، قد شاركوا في هذا النصر الذي احدثته الرحمة السماوية ، ما كانوا ليترددوا في الاعتقاد ، مع انهم لم يقولوا : « يدنا ارتفعت وليس الرب فعل كل هذه »(٣٤٥) . لأن الطائشين والغافلين ميالون للتسلسل بهذا الشكل عندما يكون كل شيء مواتيا .

والآن ، حسب قوله كما هو مكتوب : « ومجدي لا أعطيه لآخر » (٣٤٦) . فقد احتفظ بكل المجد والسلطة لنفسه بينما لم يستخدم مساعدة الكثيرين ، بل مساعدة القلة . وجدد بلطفه الشفوق معجزة جدعون ، فبدد حشدا ضخما واوضح بالتالي كيف يمكن للمرء بمساعدته فقط وليس بمساعدة كائن آخر « أن يطرد واحد الفا ويهزم اثنان ربوه » (٣٤٧) .

ولذلك فلنعزو النصر له فهو الذي يأتي منه كل خير وهبة تامة (٣٤٨) ، لأنه لايوجد في هذا المثال الحالي أي شيء يستطيع المرء ان يعزوه لأعماله ، إنها هبة الرحمة السماوية وقد أظهرت للذين لايستحقونها . « تمد يمينك فتبتلعهم الأرض » (٣٤٩) . « وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك » (٣٥٠) .

٢٥ ـ القوات المحاصرة لقلعة حارم في منطقة انطاكية تتخلى عن المهمة وتعود الى اراضيها.

بينما كانت هذه الأحداث تقع بيننا ، واصل الكونت والموجودون معه حصار القلعة المشار إليها آنفا دون جدوى ، لأنهم كانوا منكبين على الطيش واهتموا كثيرا بألعاب الحظ والمسرات الشريرة الأخرى أكثر مما سمح به النظام العسكري أو قواعد عمليات الحصار ، وكانوا يجيئون ويذهبون باستمرار إلى انطاكية حيث امضوا وقتهم في الحمامات والولائم وانغمسوا في فنون السكر ومسرات جسدية أخرى متخلين بالتالي عن عمل الحصار لأجل مباهج الكسل .

وحتى الذين بدوا أنهم مواظبون على الحضور هناك اصبحوا

كسالى ومهملين ولم ينجزوا شيئا له أهميته . وأمضوا وقتهم في الكسل وعاشوا حياة فاسدة (٣٥١) .وصرح الكونت نفسه يوميا أنه ينبغي عليه العودة إلى الوطن ولح بأنه كان محتجزا في حارم على الرغم من إرادته . ولم يعق هذا الموقف الذين كانوا يحاولون بشرف مواصلة الحصار في الخارج فقط ، بل زود بحافز لبذل مقاومة أكثر شجاعة من جانب سكان البلدة ، وكان الأمل في أنه سيتم رفع الحصار حالا صعبا ، لكن حتى ذلك كان أفضل من تسليم الحصن الذي عهد به إليهم إلى الجنس المقيت ، والتعرض بالتالي لخزي الخونة إلى الأبد .

تحتل قلعة حارم موقعا مرتفعا على هضبة يبدو أن معظمها كان اصطناعيا وهي سهلة المنال للمهاجمين من جانب واحد فقط ، وأما بالنسبة للجهات الأخرى فلا يمكن أن يبلغها أحد يرغب بشن هجوم عليها . إلا أنه من الممكن بالنسبة لآلات القذف الحربية أن تقصفها من جميع الجهات دون عائق .

وكانت قد شنت عليها هجمات متوالية مع نتائج متنوعة ، وبرهنت هذه الهجمات وأشارت إلى أنه إذا تم شن هجوم قوي عليها فمن الممكن الاستيلاء على القلعة بمساعدة عليين ، إلا أن المسألة انتقلت كما قلنا إلى حالة من اللامبالاة ، وكانت الشجاعة بأسرها قد رحلت عنا كما كان التعقل بأكلمه قد تلاشى بسبب آثامنا ، وبدأ المسيحيون يتدارسون مسألة العودة إلى الوطن ، على الرغم من أن المحتجزين داخل أسوارها كانوا قد وصلوا الآن إلى الدرجة الأخيرة من اليأس ـ ولايمكننا أن ندهش بشكل كاف أمام حقيقة أن الرب أسدل ظلاما كبيرا على عقول هؤلاء الأمراء العظماء ، وأعماهم بغضبه (وهذا فوق التصور البشري) فعلى الرغم من أنه لم يكرههم أحد ، وكانت القلعة الآن تحت سلطانهم تقريبا ، تخلوا عنها للعدو بدافع الغيرة وبرغبتهم الخاصة في الكسل ، وعندما أدرك الأمير أن كونت فلاندرز قد صمم على سلوكه

وكان مصمما على هذا القرار بشكل نهائي ، قبل من المحاصرين مبلغا من المال ، لانعرف مقداره ورفع الحصار .

ثم عاد كونت فلاندرز إلى القدس حيث احتفل بأعياد الفصح المقدسة ، ثم اجرى استعداده للعودة وحالما جهزت الشواني وسفن النقل اللازمة ابحر من اللاذقية في سورية بنية العودة إلى موطنه بعد زيارة لامبراطور القسطنطينية لكنه خلف وراءه ذكرى لم تكن مباركة على الأطلاق (٣٥٢) .

وتصالح في هذه الآونة نفسها فريدريك امبراطور الرومان مع البابا ألكسندر في مدينة البندقية بعد عشرين عاما من الشقاق .

وانهارت أسوار مدينة القدس المقدسة جزئيا بسبب عمرها الكبير ، وهكذا انضم الأمراء الدينيون والعلمانيون مع بعضهم بعضا في هذه الآونة وقرروا أنه ينبغي دفع مبلغ ثابت من المال سنويا حتى ينتهي عمل ترميم الأسوار بمساعدة الرب ، ويكون بالتالي قد أنجز القول : « احسن برضاك إلى صهيون ابن اسوار أورشليم » (٣٥٣) .

٢٦ ـ الاعلان عن عقد مجمع كنسي عام في روما. الملك يبني قلعة فيما وراء نهر الأردن في ظل شارات معاكسة ويعهد بها عند انتهائها الى الداوية.

غادر شرقنا في شهر تشرين الأول (٣٥٤) من العام الخامس لفترة حكم الملك بلدوين الرابع الذي كان العام ١١٧٨ لتجسيد ربنا ، بعض الرجال ، الذين كانوا قد استدعوا لحضور مجمع كنسي عام في روما جرى الاعلان عنه في العام السابق في كل مكان من العالم اللاتيني بأسره . وكان الممثلون المدعوون (٣٥٥) : أنا وليم رئيس أساقفة مدينة صور وهرقل رئيس أساقفة قيسارية والبرت اسقف بيت لحم ورالف اسقف سبسطية ، وجوشيوس اسقف عكا وروما‌نوس

أسقف طرابلس ، وبطرس رئيس شماسة القبر المقدس ورينالد رئيس جبل صهيون ولم يحضر جوشيوس ـ فقط ـ المجمع الكنسي معنا ، بل ذهب أيضا كمبعوث إلى هنري دوق بيرغندي وهو مكلف بمهمة دعوته للقدوم إلى المملكة ، لأننا كنا قد وافقنا بالاجماع على وجوب زواجه من أخت الملك وفق الشروط نفسها التي كانت قد أجريت في زمن الزواج السابق للماركيز ، وتلقى الدوق هذا العرض على يدي الأسقف جوشيوس بلطف ويقال إنه اقسم بيده انه سيأتي غير أن الدوق أهمل قسمه لأسباب لاتزال مجهولة بالنسبة لنا ، ورفض الوفاء بالوعد الجليل الذي كان قد الزم نفسه به .

وبدأ الملك خلال الشهر نفسه الذي بدأنا فيه رحلتنا لحضور المجمع الكنسي ، مع سائر قوة المملكة ببناء قلعة فيما وراء نهر الأردن في الموقع المعروف عموما باسم مخاضة يعقوب (٣٥٦) .

تقول الروايات القديمة إن هذا هو المكان الذي قسم فيه يعقوب ، لدى عودته من بلاد الرافدين ، شعبه إلى زمرتين وارسل رسلا إلى اخيه قائلا : « إني بعصاي عبرت هذا الأردن والآن قد صرت جيشين » (٣٥٧) . وتقع هذه المخاضة في منطقة قادس النبطية ، الواقعة بين النبطية ودان ، وتعرف الأخيرة منها باسمي بانياس وقيسارية فيليبس . وتشكل هاتان جزءا دن فينيقية ، وهما مدينتان تابعتان لمدينة صور ، وتقع المخاضة ء ى بعد عشرة أميال من بانياس ، فوضعوا هنالك ، على هضبة ذات ارتفاع معتدل ، أسسا ذات عمق مناسب ، وشيدوا خلال ستة أشهر قلعة ذات بناء صلب على شكل مربع وذات سماكة رائعة وارتفاع كاف .

وبينما كانوا منشغلين في عمليات البناء هناك ، حدث أن ظهر قطاع الطرق من منطقة دمشق وحاصروا بالتالي الطرق العامة بحيث لم يتمكن أحد من الخروج جيئة وذهابا من الجيش دون التعرض للخطر ، كما لم يتمكن المسافرون من السير على اي من الطرق ، وقدم هؤلاء اللصوص من موقع في الجبال الواقعة بالقرب من عكا

يدعى بكدس او بكاك باللغة العامية . ويقع هذا الموقع بشكل سار للغاية في منطقة زوبلون ، وعلى الرغم من انه واقع على قمة أحد الجبال ، فهو يروى بشكل جيد ومزروع ببساتين كثيفة من الأشجار المثمرة ، وسكانها رجال متغطرسون ومقاتلون أشداء ورجال فخورون كثيرا بأعدادهم الضخمة جدا حيث جعلوا بوساطتها جميع الحقول والقرى المحيطة بهم تابعة إليهم . وهم يقدمون ملاذا آمنا بينهم للأشرار الآبقين من عقاب مناسب ولقطاع الطرق واللصوص ، وذلك بالنظر إلى انهم يتلقون حصة من الغنيمة والمغانم المستولى عليها بالعنف . وكان هؤلاء الناس قد أصبحوا بسبب تعجرفهم الذي لايحتمل مكروهين من قبل جميع الموجودين حولهم من المسيحيين والمسلمين على حد سواء ، وبذلت محاولات متكررة لابادتهم تماما لكن دون نجاح ، وبالنتيجة ، أصبحوا أكثر شجاعة بشكل يومي . ووجد الملك نفسه في آخر الأمر انه لم يعد بإمكانه تحمل رعونتهم التي لاتحتمل والسرقات والجرائم التي ارتكبوها بعد اليوم فاستولى على الموقع فجأة وبقوة السلاح وقتل جميع من استطاع أن يقبض عليهم ، إلا أن غالبيتهم نجت ، لأنهم كانوا قد هربوا مع زوجاتهم وصغارهم إلى منطقة دمشق بعدما علموا بنية الملك وواصلوا من دمشق عاداتهم القديمة وشنوا هجمات كثيرة على منطقتنا وبشكل سري .

وكانوا قد اجتاحوا اراضينا في هذه الآونة مع أصحاب لهم من الصنف ذاته كما تم ذكر ذلك ، واثارت هذه الأعمال المسيحيين ، وأغضبهم كثيرا معرفة أن رجالا من هذا الصنف كانوا يجعلون الطرق العامة خطرة جدا ، وهكذا ، نصبوا كمائن في مواقع استراتيجية ووجهوا جميع انشطتهم لخداع الأوغاد ، وحدث ذات ليلة أن كان هؤلاء اللصوص ينزلون من جبال زوبلون بعد قيامهم بإحدى الغارات وهم عازمون على العودة إلى الموقع الذي كانوا قد انطلقوا منه ، غير انهم جنوا ثمرة أساليبهم بوقوعهم في كمائن نصبها المسيحيون حيث أسر تسعة منهم وقتل اكثر من سبعين آخرين ، وحدث هذا في الحادي والعشرين من شهر آذار (٣٥٨)

وعقد في هذه الأونة نفسها ، في الخامس من شهر آذار ، مجمع كنسي مؤلف من ثلاثمائة أسقف في روما في كاتدرائية قسطنطين المسماة اللاتيران . كان هذا في العام العشرين من حبرية البابا اسكندر (٣٥٩) وفي الثاني عشر من الاسبوع الثاني.

إذا ما رغب أحد بمعرفة القرارات المتخذة وأسماء الأساقفة وعددهم وألقابهم فيمكنه أن يقرأ الكتاب الذي ألفناه بدقة تلبية للمطلب الجاد للرهبان المقدسين الذين شاركوا في هذا المجمع الكنسي ، وقد أمرنا في أن يوضع هذا في سجلات الكنيسة المقدسة في صور بين الكتب الأخرى التي جمعناها لتلك الكنيسة نفسها التي نرأسها منذ ستة أعوام (٣٦٠)

٢٧ ـ الملك يغزو منطقة معابية ويتكبد خسارة هائلة. همفري كافل المملكة يلاقي الموت هناك.

عندما كانت القلعة قد شيدت وانتهت من جميع الجوانب ، بلغت الملك أنباء كان مفادها أن العدو قد قاد قطعانه ومواشيه إلى الغابة الواقعة بالقرب من بانياس بحثا عن الكلأ ، وكانت بدون مقاتلين يمكن الاعتماد عليهم لصد أي هجوم نقوم به ، وهكذا تقدم شعبنا إلى هنالك خلسة ظانا أنه سيتمكن من الفوز عليهم بسهولة إذا كانوا بلا دفاع ولا حماية عسكرية كما تم نقل ذلك ، وأجرى المسيحيون الزحف بأسره ليلا للانقضاض على الأتراك فجأة ، ودون تحذير قبل أن يكونوا عالمين بالمنطقة المجاورة للعدو ، وبلغوا مقصدهم في الصباح ، وبينما كان بعض الجنود يسرعون في هذا الاتجاه وذلك باحثين عن الغنيمة ، كان آخرون يتبعونهم ببطء بعض الشيء وعلى مسافة في الخلف ، وقعت المجموعة التي كان الملك راكبا معها وتسير بإهمال كثير ، في شرك في مكان ضيق ما بين الصخور ، حيث كان يكمن فيه بعض افراد العدو ، لأنهم بعدما علموا بأننا قادمون قرروا أن يختبئوا آملين بهذه الطريقة أن يتفادوا هجومنا ويحتاطوا

لسلامتهم الخاصة . لكنهم عندما رأوا المسيحيين ينقضون عليهم دون حذر مناسب ، دفعتهم الضرورة مرغمين ليصبحوا شجعانا مع انهم كانوا كارهين لذلك ولا يزالون يائسين حتى من ارواحهم . فانطلقوا من مكمنهم فجأة وهاجموا جنودنا بشجاعة وذلك بعدما ادركوا أن جنودنا كانوا في موقع صعب ، وكانت رغبتهم الوحيدة حتى في هذا الوقت تجنب العدو بالاختباء ، إلا أنهم قتلوا الآن خيولنا بعدما اطلقوا وابلا من السهام من بعد وشددوا الخناق على قواتنا .

وما أن أدرك كافل المملكة أن العدو قد ظهر هكذا بشكل غير متوقع ومفاجيء حتى انقض عليه بكل غضب وكالعادة حارب بقوة واخلاص بكل قوته لحماية الملك في هذه الأزمة الخطيرة ، حتى لا ينقض عليه العدو ليهلكه ، وبينما كان منشغلا بهذا الشكل ، امطره العدو مرارا وتكرارا بضربات عنيفة احدثت به جراحا مميتة ، وقد انقذه جنوده بصعوبة من هذا الوضع الخطير ، ونقلوه على صهوة الجواد .

قتل في تلك المعركة جنود مشهورون كثيرون جديرون بالتذكر الورع ، وكان بين هذه المجموعة كل من ابرهام صاحب الناصرة ، وهو شاب له مظهر وسيم ، قدمت شخصيته النبيلة ومولده السامي وثروته الكبيرة وعدا طيبا للمستقبل ، وغودشوكس دي تورت الذي خلف أيضا وراءه سمعة حسنة ، كما قتل آخرون عديدون من منزلة أدنى في ذلك الموقع .

كانت هذه هي حالة الأمور عندما أنقذ الملك بهذا الشكل من خطر كبير جدا بوساطة الجهود التي بذلها أتباعه ، وعاد إلى المعسكر الذي كان قد انطلق منه في وقت سابق واستدعى الجنود المضطربين الذين كانوا قد تفرقوا هنا وهناك .

أصبحت حالة كافل الملكة همفري أكثر خطرا ، وهكذا نقل في الحادي عشر من شهر نيسان إلى القلعة الجديدة التي كانت ما تزال قيد الانشاء ، وبقي على قيد الحياة هنالك مدة عشرة أيام تقريبا ، مطيلا حياته تحت وطأة ألم شديد ، ونطق بعبارته الأخيرة بحكمة وتدبر ، وانتهت في الثاني والعشرين من شهر نيسان الحياة المثالية لهذا الرجل والذي ستحزن بلاده عليه إلى الأبد . ودفن بمراسم لائقة في قلعته الشهيرة والنبيلة تيرون في كنيسة أم الرب المباركة العذراء الطاهرة .

بدأ صلاح الدين يحاصر القلعة التي بنيت مؤخرا بعد وفاة همفري مباشرة وفي السابع والعشرين من شهر ايار نفسه (٣٦١) ، واطلق دون انقطاع وابلا كثيفا من السهام وانهمك المحاصرين الموجودين داخل اسوار القلعة بهجمات متكررة ، وحدث فجأة ان سهما اطلقه احد المحاصرين يقال إن اسمه كان رينيروس اوف ملروم(رينه دي مارون أو ماروبل) أصاب بجرح مميت واحدا من أغنى أمراء صلاح الدين ، وأثار مقتل هذا النبيل اضطرابا كبيرا بين الكفرة إلى درجة انهم تخلوا عن مشروعهم ورفعوا الحصار ورحلوا .

٢٨ ـ صلاح الدين يغزو اراضي صيدا. الملك يجمع قوات المملكة العسكرية ويخرج التصدي له.

كان صلاح الدين قد غزا من قبل صيدا بقوة السلاح مرتين أو أكثر دون أن يلقى اية مقاومة كما وكان قد نهبها بحرية وأحرقها وقتل سكانها . وقرر في اليوم التالي أن يشن غزوة أخرى وهكذا ، نصب معسكره بين مدينة بانياس ونهر دان وأرسل مناوشين بأعداد ضخمة للحصول على الغنائم واشعال الحرائق . وبقي هو في المعسكر مستعدا للمساعدة في حالة الطوارىء،وانتظر هنالك عودتهم ونتيجة هجماتهم ، وبلغ الملك في هذه الاثناء النبأ بأن صلاح الدين هو الذي كان يدمر اراضينا بهذا الشكل ، فأسرع إلى مدينة طبرية

مع جميع القوات التي استطاع أن يجمعها من جميع المصادر آخـذا معه صليب الصلبوت . وتقدم من هناك من خلال مدينة صفد ومـدينة ناسون القديمة ووصل مع قواته إلى تيرون .

واستلم هناك معلومات دقيقة مـن الرسـل ، الذين كانوا يذهبـون ويجيئون باستمرار ، أفادت أن صـلاح الدين وجيشـه كانوا مـا يزالون في الموقع ذاته ، وأنه قد أرسل فـرسانه المسـلحين بشـكل خفيف إلى الأمـام ليخـربوا حقـول صـيدا ، وكانوا هناك يقتلون ويحرقون وينهبون بأسلوب عدواني ، ولذلك ، تقرر بـالاجماع بعـد التداول ، التقدم نحو العدو ، ووجه المسيحيون الجيش ، تمشيا مع هذه الخطة ، من تيرون إلى بانياس ووصلوا إلى قرية تدعى مسـفر وكانت هذه القرية واقعة على قمة جبل ، وأمكن منهـا رؤية المنطقـة بأسرها في الأسفل وصولا إلى قاعدة سـلسلة جبـال لبنان ، وكان معسكر العدو مرئيا أيضا على بعد ، ورأى الجميع الحرائق وأعمال التخريب التي ارتكبها العدو عندما تجول جنده بالمنطقة هنا وهناك .

ولم يستطع جند المشاة ، الذين أضـناهم المسـير الطـويل حتـى الانهاك ، مجاراة حركة الفرسان عندما ساقوا بسرعة أثناء نزولهم من الجبال ، وهكذا نزلت قوات الفرسان بصحبة عدد قليل فقط مـن الجنود المشاة الأكثر نشاطا إلى مكان يعرف عموما باسم مرجعيون واقع في السهل الواقع مباشرة تحت الجبل ، وتـوقفوا هنالك لعـدة ساعات للتداول حول برنامجهم الاضافي .

أصبح صلاح الدين في تلك الساعة خائفا بعض الشيء ، إزاء خبـر الوصول المفاجيء للملك ، وكان قلقا حول طلائعه التي بدت وكأنهـا معزولة عنه وعن الجيش ، وخشي أيضـا مـن احتمـال مهـاجمة معسكره ، ولذلك أمر بوضع الأمتعة والمعوقات وجميع المعـدات بين السور والفصيل في المدينة المجاورة حيث يمكن العثور عليها بسهولة مهما تكن نتيجة المعركة ، وانتظر نتيجة الأحداث وهو مستعد بهـذا الشكل ومتوجس حول النتيجة .

وفي هذه الأثناء ، علم المناوشون ، الذين كانوا قد خرجوا في حملة نهب ، بذعر كبير باقترابنا ، فعقدوا العزم على الالتحاق بقطعانهم إذا كان ذلك ممكنا متخلين عن جميع الاعتبارات الأخرى ، إلا أنهم واجهوا قواتنا بعد عبورهم للنهر الواقع بين منطقة صيدا والسهل الذي كان جيشنا مقيما فيه كما ذكرت من قبل ، وتلا ذلك على الفور مناوشة من مواقع متلاحمة انتصر فيها المسيحيون بعون الرب ، فاستدار العدو هاربا وحاول بلوغ معسكر صلاح الدين إنما بعد قتل العديد منهم وإلقاء عدد أكبر أرضا .

٢٩ ــ نشوب القتال . المسيحيون ينهزمون ويؤسر العديد منهم .

بينما كانت الأمور على هذه الصورة ، صعد أودو ، مقدم فرسان الداوية بصحبة كونت طرابلس وآخرون ممن كان يتتبعهم هضبة واقعة في الجهة المقابلة ، وكان النهر إلى يسارهم وكان السهل الكبير ومعسكر العدو إلى يمينهم .

وعندما علم صلاح الدين بالمحنة الشديدة التي نزلت بجنوده ، حيث كانوا معرضين للخطر بل للموت ، استعد للذهاب إلى مساعدتهم ، وقد اتخذ قراره هذا عندما لمح عددا من جنوده المنهزمين بشكل تام . فانطلق لمقابلتهم ، وشجعهم ، لدى معرفته بالوضع ، بأقوال مشجعة وأعادهم إلى الصفوف . ثم انقض فجأة على المسيحيين الذين كانوا يطاردون الهاربين بشكل طائش .

وفي هذه الأثناء ، كانت قواتنا من المشاة ، التي اغتنت بالمغانم من القتلى قد خيمت على طول ضفة النهر ، وكانت ترتاح بهدوء اعتقادا منها أنه تم احراز نصر تام على العدو ، إلا أن قوات الفرسان لاحظت أن العدو الذي اعتقدوا أنهم كانوا قد قهروه كان يندفع إليهم بقوة مجددة ، فحاربوا بشجاعة وبصفوف مضطربة

ودون وقت او فرصة لاعادة ترتيب صفوفهم او تنظيم قواتهم بترتيب المعركة حسب الأسس العسكرية ، وقاوموا لبـرهة مـن الزمـن ، وصدوا بقوة هجمات العدو ، واخيرا استداروا وهـربوا على أقبـح صورة ، وكان بإمكانهم أن يتجنبوا بسهولة العدو المطـارد وانقـاذ انفسهم بالتحول إلى اتجاه آخر ، إلا انهم اتبعوا بسبب آثامنا خطة هزيلة واندفعوا إلى ممر ضيق محاط بجروف شـاهقة ، واسـتحال هنا التقدم أو الانسحاب عبر صفوف العـدو إلا بـالتعرض لخـطر الموت ، وعبر بعضهم النهر ، وانسحب معظم هؤلاء ، بـأمل انقـاذ ارواحهم ، إلى اقرب حصن كان يدعى شقيف أرنون ، بينما سـار آخرون بعد العبور على طول الضفة الأخرى إلى صـيدا ، وتجنبـوا بالتالي التيار العنيف للمعركة ، وصادفوا في الطـريق رينو صـاحب صيدا وجنوده ، الذين كانوا يسرعون السير نحـو الجيش ، إلا أن رينو انصاع لتحذيرهم لدى علمه بهـذه الكارثـة وعاد إلى صـيدا ، ويعتقد أن هذا العمل كان مسؤولا عن كوارث متعددة في ذلك اليوم ، فلو أنه واصل سيره إلى القلعة فلربما تمكن من انقـاذ العـديد مـن رجالنا من براثن العدو بمساعدة سكان المدينة والمنطقـة الذين كانوا يعرفون المكان ، فقد حـدث ، أن اختبـأ الهـاربون في تلك الليلة في كهوف بين الصخور . فاكتشفهم العـدو في صـباح اليوم التـالي ، بعدما فتش كل زاوية وركن ، فأسرهم وألقاهم في السـجن ، إلا أن الملك نجا سليما بمساعدة جنوده الملكيين . كما وصل كونت طرابلس إلى مدينة صور ايضا مع عدد قليل من الرفاق(٣٦٢)

كان مـن بين المسـيحيين الذين اسروا في ذلك الوقـــت أودو دي سينت ــ أماند مقدم فرسان الداوية . وهـو رجـل شرير ، متـكبر ومتعجرف سكنت في منخريه روح الحقـد (٣٦٣) ، وكان انسـانا لم يخش الرب ولم يحتـرم الانسـان ، وقـد حمله اشـخاص عديدون مسؤولية الخسارة ، وخزيا دائما لايموت بسبب الكارثة ، ويقال إنه توفي ذلك العام اسيرا في سجن قذر فلم يحزن عليه احد.

. وكان بلدوين صاحب الرملة ، وهو رجل نبيل وقوي ، قد أسر هنالك

ايضا ، كما كان هيو صاحب طبرية قد وقع بالأسر ايضا وهو ربيب كونت طرابلس ، وكان رجلا في بداية شبابه يبشر بمستقبل رائع ، وقد احبه الجميع كثيرا ، ووقع بالأسر هنالك آخرون كثر لا أعرف اسماءهم .

٣٠ – صلاح الدين يحاصر القلعة التي بنيت مؤخرا. يستولي عليها بهجوم عاصف ويدمرها . هنري كونت ترويز وبطرس اخو لويس ملك فرنسا يصلان الى سوريا .

كانت هذه هي حالة الأمور في المملكة في هذا الوقت ، وكانت حظوظنا في الدرك الأسفل عندما نزل في مدينة عكا الكونت الرائع لترويز وابن الكونت ثيوبولد الأكبر ، والذي كنا قد افترقنا عنه في مدينة برنديزي في أبوليا عندما كنا عائدين من المجمع الكنسي . وكما تم ذكر ذلك ، وكان معه مجموعة كبيرة من النبلاء كما قدم في العبور نفسه نبلاء آخرون كان من بينهم بطرس دي كورتني أخو لويس ملك فرنسا ، وفيليب ، الأسقف المنتخب ببيوفيس ابن الكونت روبرت وأخو الملك لويس ، فأنعش قدومهم قلوب شعبنا التي اضعفتها الكوارث الأخيرة ، وبعث فيهم الأمل بأنهم قد يتمكنون بحماية نبلاء عظماء كثيرين من تفادي المحن في المستقبل وربما الثأر لمحن الماضي ، إلا أن هذا الأمل كان عقيما لأن الرب لم يكن معهم ، فلم يتمكنوا من التغلب على نتائج الكوارث الماضية ، ووقعوا حتى في مشاكل أكثر سوءا لأن صلاح الدين ، عدونا الأكثر ترويعا ، كان قد ارتقى إلى درجة من التكبر بسبب نجاحاته الكثيرة وحظه الجيد إلى درجة أنه ضرب الحصار فجأة ، وقبل أن نحصل على فرصة لاسترداد انفسنا على حصننا الذي كان قد انجز في شهر نيسان الماضي .

وضعت هذه القلعة ، التي تكرر ذكرها ، عند إنجازها تحت رعاية رهبان فرسان الداوية الذين ادعوا ملكيتهم لسائر تلك المنطقة بموجب تنازل من الملوك لهم .

استدعى الملك كامل قوات المملكة وجميع القوات العسكرية الأخرى وذلك عندما عرف أن صلاح الدين كان قد حاصر القلعة ، كما استدعى ايضا الكونت هنري والنبلاء الآخرين الذين كانوا قد وصلوا مؤخرا وأسرع إلى طبرية ، ودعا إلى الاجتماع به هنالك جميع زعماء المملكة بقصد الذهاب لمساعدة المحاصرين واجبار العدو على رفع الحصار .

وبينما كان ينتظر هنالك ، بعد أن أجل التحضيرات لمدة يوم واحد ، وصلت اقاويل ثبت أنها صحيحة كان مفادها أن العدو قد استولى على الموقع ودمره عن بكرة أبيه ، وأن جميع جنود الحامية التي كانت قد تركت هناك لحراسة القلعة قد غدت بين قتيل وأسير (٣٦٤) .
وهكذا ، اضيفت كارثة أكبر إلى محنهم السابقة ، بحيث يمكن القول عنهم بصدق : « لقد تخلى الرب إلههم عنهم » . حقا إن « أحكامك لجة عظيمة » . و : « ما أهيب أعمالك »(٣٦٥)

إنه الله الذي كان قد أضفى خلال العام المنصرم هبات كثيرة على أبنائه المؤمنين عرضهم لمحنة ارتداء الخوف العظيم والاضطراب الشديد ، من ذا الذي يعرف نية الرب ؟ ومن ذا الذي يشاركه بآرائه ؟ لماذا إذا أيها الرب ؟ هل سحبت تأييدك بسبب وجود الحشد الضخم العدد والكبير من النبلاء خشية أن يعزو لانفسهم ذلك الذي لم يعط بسبب الجدارة بل بالرحمة ؟ أو ربما لأنهم لم يردوا ردا مناسبا على ما منحتهم إياه برحمتك من عطايا أيها المحسن إليهم ، أو « لأن الذي يحب الرب يؤدبه ويجلد كل ابن يقبله » (٣٦٦)
لقد كسوت وجوهنا بالخزي حتى نلتمس اسمك المقدس المبارك إلى الأبد ، إننا نعرف ونعترف أيها الرب بأنك لا تتغير . لأنك

- ٣٣٩٠ -
قلت« لأني انا الرب لاأتغير» (٣٦٧) . ومع ذلك ، مهما كان السبب ، إننا نعرف انك عادل ايها الرب ، وان احكامك قويمة.

وتجددت في هذه الآونة المفاوضات التي كانت قد أجريت في العام السابق بخصوص دوق بيرغندي وذلك بوساطة عمه الكونت هنري . وكان من المؤمل وصوله في العبور الثاني ، إلا أنه رفض القدوم لأسباب مجهولة كما اتضح تماما فيما بعد .

هنا انتهى الكتاب الحادي والعشرون

الكتاب الثاني والعشرون

تضارب المصالح

١ ـ الملك يزوج اخته أرملة الماركيز الى رجل شاب، يدعى غي دي لوزنفنان. الملك يعقد هدنة مع صلاح الدين بشروط متساوية وهو عمل لم يسبق له مثيل.

وصل في هذا الوقت أيضا بوهيموند أمير انطاكية وريموند كونت طرابلس إلى المملكة مع مرافقة من الفرسان ، وسبب هذا ذعرا كبيرا للملك ، لأنه خشي من أنهما قد يحاولان إحداث ثورة ، بحيث قد يحاولان في هذه الحالة الاستيلاء على المملكة لمصلحتهما بعد خلعه من العرش ، وكان مرض الملك يقلقه الآن أكثر من ذي قبل ، وأصبحت دلائل الجذام أكثر وضوحا من يوم لآخر .

وكانت أخته التي كانت زوجة لماركيز مونتفرات ، ما تزال أرملة ، وكانت تنتظر قدوم الدوق ، كما تم شرح ذلك ، مع أن الملك كان يعرف هذين النبيلين تماما وعلى الرغم من أنهما كانا قريبين له فقد ارتاب بدوافعهما في القدوم ، وعندما سمع بأنهما كانا قد وصلا ، عجل بزواج أخته ، ولربما كان بالامكان عثوره في المملكة على نبلاء ذوي أهمية وحكمة وحتى ثروة أكبر بكثير من بين الأجانب والسكان على حد سواء ، حيث كان الزواج من أي منهم له منافع أكبر بكثير بالنسبة للمملكة ، إلا أن الملك ولأسباب خاصة به ، وبدون الانتظار التمعن في «ان السرعة الكثيرة جدا تفسد كل شيء» (٣٦٨) ، زوج اخته فجأة من رجل شاب من منزلة لابأس بها وهو غي دي لوزنفنان ابن هيو البني من ابرشية بواتيه. واحتفل بالزواج اسبوع عيد الفصح خلافا للعرف المألوف.

أدرك النبيلان المذكوران منذ لحظات أن الملك ونبلاءه كانوا قد نظروا بارتياب إلى قدومهما ، وبناء عليه عادا إلى بلادهما حالما أتما الصلوات المألوفة ، وبقيا لبضعة أيام في طبرية ، وبينما كانا هنالك ، شن صلاح الدين ، غير العارف بوجودهما ، هجوما على المدينة ، إلا أنه لم يلحق أي ضرر بالسكان ، وانسحب مجددا إلى المنطقة الواقعة حول بانياس ، وبقي مع جيوشه هناك منتظرا ـ كما عرف فيما بعد ـ وصول أسطول مؤلف من خمسين من الشواني كان قد أمر بإعدادها في غضون فصل الشتاء المنصرم ، وسبب انتظارها هناك بعض الارتباك للملك ، ولذلك أرسل رسلا الى صلاح الدين للبحث في عقد هدنة.

رحب صلاح الدين بالاقتراح ـ مع أنه ادعى غير ذلك ـ لأنه ارتاب بقوته أو ربما كان لديه سبب ما للخوف من قواتنا التي كان قد هزمها في أحوال كثيرة خلال العام الماضي ، ذلك أن جفافا شديدا وندرة في الأمطار في المنطقة الواقعة حول دمشق كانا قد سببا ندرة في الطعام من كل نوع للناس والبهائم لمدة خمسة أعوام متتالية.

وهكذا ، فقد رتبت هدنة في البر والبحر على حد سواء وللاجانب والمواطنين على حد سواء و تمت المصادقة عليها بتبادل الاقسام بين الطرفين ، و كانت الشروط مذلة لنا إلى حد ما ، حيث عقدت الهدنة بشروط متساوية ودون أية تحفظات هامة من جانبنا ، شيء يقال إنه لم يحدث أبدا من قبل.

٢ ـ صلاح الدين يغزو بلاد طرابلس ويدمر المحاصيل والممتلكات المسيحية الأخرى في تلك البقاع.

قاد صلاح الدين جميع قواته من الفرسان نحو بلاد طرابلس خلال الصيف التالي مباشرة من العام نفسه وذلك بعدما اتخذ الترتيبات الأمنية لاقليمي دمشق وبصرى ، وأقام معسكره قرب طرابلس وأرسل سرايا خيالته الى الريف المجاور ، كان الكونت قد

انسحب مع قواته الى مدينة عرقة وكان ينتظر هناك فرصة للاشتباك مع العدو دون خسارة كبيرة ، كما بقي فرسان الداوية ، الذين كانوا يعيشون في المنطقة المجاورة نفسها ، محتجزين في حصونهم ، وكانوا يتوقعون كل ساعة تقريبا أن تتم محاصرتهم ولم يرغبوا بالمجازفة في مواجهة مع الاتراك ، وكان فرسان الاسبتارية قد انسحبوا أيضا بذعر الى قلعتهم المحصنة في الكرك . وشعروا أنه إذا كان بامكانهم الدفاع في وسط اضطراب كهذا عن القلعة المذكورة قبل قليل وحمايتها من أذى العدو ، فإن واجبهم يكون قد نفذ ، واحتل الجيش التركي موقعا واقعا بين هؤلاء الفرسان وبين قوات الكونت ، وهكذا ، لم يتمكن المسيحيون من مساعدة بعضهم بعضا ، كما لم يتمكنوا من ارسال الرسل من جيش آخر للتأكد من احوال كل منهما.

وتجول صلاح الدين خلال هذا الوقت هنا وهناك فوق السهل ، وخاصة فوق الحقول المزروعة ، وعاث بالموقع بأسره دون مقاومة . وأحرق جميع المحاصيل مما كان قد تم جمعه في المخازن ، وكل ما كان مكوما في الحقول وحتى المحاصيل النامية ايضا ، وساق أمامه قطعان الماشية غنيمة وضرب الريف بأسره في جميع الاتجاهات.

٣ ـ وصول اسطول مصري الى جزيرة أرواد. كونت طرابلس يعقد هدنة مع صلاح الدين

كان هذا الوضع سائدا في طرابلس عندما ظهرت قوات صلاح الدين البحرية فجأة في حوالي بداية شهر حزيران في المنطقة المجاورة لبيروت ، وعندما علم قادة تلك القوة بحقيقة أن صلاح الدين قد عقد معاهدة مع الملك ، احترموا شروط السلام التي كان قد أعلنها وخافوا من انتهاك أية شروط من تلك المعاهدة في أراضي بيروت أو بالفعل ضمن حدود المملكة بأسرها (٣٦٩) . ولدى معرفتهم بأن ـــــــــــــــــيهم كان

مع جيشه في منطقة طرابلس فقد ذهبوا الى هناك واستولوا على جزيرة أرواد الواقعة قبالة مدينة طرطوس ، وعلى بعد نحو ثلاثة أميال منها ، ووجدوا في الميناء مرفأ موائما لشوانيهم.

يقال ان Aradius أراديوس بن كنعان حفيد (كذا) نوح هو الشخص الأول الذي سكن في هذه الجزيرة ، وأقام عليها مدينة محصنة حيث اشتق منه اسم ارواد ، وكان يقع في مكان مجاور منها الى الشرق مدينة اتسمت بالروعة فيما مضى تدعى انطرطوس وحملت هذا الاسم لأنها وقعت كما قلنا قبالة أرواد ، وقد تحرف هذا الاسم حاليا الى طرطوس ، ويقال إن الرسول بطرس قد أسس هنا ـ عندما كان مسافرا عبر فينيقية ـ كنيسة صغيرة تشريفا لأم الله ولا يزال هذا الصرح يزار من قبل عدد كبير من الناس ، ويروي ان السماء منحت هنا الكثير من الاعانات استجابة لوساطة العذراء الطاهرة وذلك بناء على صلوات المؤمنين في زمن الحاجة ، وتعتبر هاتان المدينتان تابعتين لمطرانية صور ، إضافة الى موضع آخر مجاور يعرف باسم مرقيه يعتبر من بلاد فينيقية.

ارسل نزول هذه القوات في جزيرة أرواد رعشة رعب في المنطقة بأسرها ، وبينما كان الجند ينتظرون أوامر سيدهم ، أشعلوا النار بمنزل واقع فوق ميناء طرطوس ، وحاولوا الحاق الضرر بالسكان بقدر الامكان ، غير ان جهودهم ثبت بأنها عقيمة ، وكان صلاح الدين في الوقت نفسه قد دمر المنطقة بشكل يرضيه وأمر الاسطول الآن بالعودة ، ثم جمع جنوده وعاد الى موطنه أيضا ، وعقد بعد بضعة أيام معاهدة سلام مع الكونت وانسحب الى مكان بعيد من بلاد دمشق.

٤ ـ عودة رئيس اساقفة صور من القسطنطينية.موت لويس ملك فرنسا.

كنا خلال هذا الوقت ولمدة سبعة اشهر متوالية نقيم مع

مانويل ، الامبراطور العظيم للقسطنطينية ذي الذكرى الرائعة اقامة كانت قد اثمرت فوائد عظيمة لانفسنا وللكنيسة ، وحصلنا في اليوم الرابع بعد عيد الفصح وبعد توسلات جدية كثيرة على إذن للعودة الى موطننا(٣٧٠)

أمر الامبراطور عندما رحلنا مبعوثية برعايتنا ، وهم رجال عظماء ونبلاء ، ثم ابحرنا في أربع شوان تم تجهيزها بسخاء بالغ بكرمه الامبراطوري المألوف ، وكان خط سيرنا مرورا بجزر تندوس Tenedos وميتيلين Mitylene وكيوس Chios وساموس ودلوس Delos وكلاروس Claros ورودس وقبرص مع اقاليم فريجيا وآسيا الصغرى وليقية وليكانيا وبامفيليا وايزوريا وكليكية على يسارنا ، ووصلنا في آخر الأمر في الثاني عشر من شهر أيار سالمين وفي صحة وتوفيق الى مصب نهر العاصي وميناء القديس سمعان (السويدية).

نعتقد أنه ينبغي عدم التغاضي هنا عن مسألة ليست ذات قيمة صغيرة بالنسبة للكتاب الحالي ، فبينما كنا نقيم في المدينة الامبراطورية ، كما تم ذكر ذلك من قبل ، بسبب أن فصل الشتاء لم يكن مواتيا للابحار الى حد ما ، وأيضا تلبية للأمر الخاص للامبراطور الأكثر سعادة فقد احتفل ذلك الملك بزواج ابن وابنة وقد فعل ذلك ببصيرة أبوية وربما بنذير لرحيله المبكر من هذا العالم ، فقد منح لابنه الكسيوس ، الذي يحمل اسم جده لأبيه (٣٧١) ، بشكل مهيب اغنس ابنة لويس ملك فرنسا الرائع ، ولم يكن الكسيوس قد بلغ سن الرجولة بعد ، ولم يكن في الواقع قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره ، بينما كانت اغنس قد بلغت الثامنة من عمرها تقريبا ، ومنحت الشارة الامبراطورية الى الاثنين في جزء من قصر قسطنطين القديم ذاك الذي يحمل اسم ترللوس Trullus ويقال إن المجتمع المسكوني المقدس السادس قد عقد هنا في ايام قسطنطين بن قسطنطين بن هرقل ـ

وأعطيت ابنة الامبراطور زوجة الى شـاب يدعى رينير بـن وليم الأكبر ، ماركيز مونتفرات وأخـو وليم الذي كنا قـد أعطيناه أخـت ملكنا ، وأمر الامبراطور رسلا امبراطوريين باستدعاء هذا الشـاب الذي كان عندئذ في حوالي السابعة عشرة من عمره ، وكان قد وصل الى المدينة الامبراطورية قبل حوالي خمسة عشر يوما من وصـولنا الى هناك ، وبقي لبرهة مـن الزمـن في المدينة وزار الجيش أيضـا بصحبة جلالة الامبراطور .وجمـع الامبـراطور بـلاطه بعـظمة امبراطورية في القصر الجديد المسمى بلاشيرين وذلك لدى عودتهمـا من هناك مـع حلول عيد التجلي في شـهر شـباط . واحتفـل هناك باشراف سيودوسيوس بطريرك القسطنطينية بزواج ابنتـه مـاريا ورينير الذي منحه اسم جون وهو اسم والده مع لقب قيصر ، وكانت ماريا ابنة الامبراطور من زوجته الأولى الامبراطورة ايرين ذات الذكرى الورعة ، والتي كانت قد أتت لتصـبح زوجـة له مـن مملكة التيوتون.(٣٧٢) ، ولم ينجب من زواجه الثـاني مـن مـاريا سـوى الكسيوس الامبراطور الحالي للقسطنطينية.

سيكون من العبث تماما القيام بأية محاولة لوصف جميع عجائب تلك الأيام بالتفصيل بسبب الكمية الهائلة من المادة ، حتى وإن افرد لها بحث خاص ، يمكننا أن نذكر العاب السيرك التي يدعوها سكان القسطنطينية باسم ميادين الهيـودروم ، والمشـاهد الرائعـة ذات الطبيعة المتنوعة المعـروضة للناس بـأبهة عظيمـة خـلال أيام الاحتفال ، والأبهة الامبراطورية للملابس والثياب الملكية المزركشة بـكميات كبيرة مـن الأحجـار الكريمـة واللآلىء ذات الوزن الكبير والمقدار الكبير من الذهـب الثقيل والأثـاث الفضي في القصر الذي لا يمكن تقدير قيمته ، وسنقتصر الأقوال على التحدث بعبارات مناسبة ووافية عن ستائر الدمسـتق الرائعـة والمزخـرفة في المقـر الامبراطوري ، ومن غير الممكن الحديث بـالتفصيل عن العبيد الذين لا يمكن إحصاءهم مع أعضاء البـلاط ، و لا عن عظمـة الزفـاف و أبهته و الهبات السخية التي أغدقها الامبراطور على شعبه والغرباء على حد سواء . ولنعد الآن الى القصة .

نفذنا أوامر جلالته الامبراطورية في انطـاكية مـع الأمير والمولى البطريرك لتلك المنطقة ، ووجدنا في بيروت الملك الذي كان في طـريقه الى مدينة صور برا . وواصلنا رحلتنا البحـرية وعدنا بفضـل الرب الى الكنيسة في صور في السادس مـن شـهر حـزيران ، بعـد عام وتسعة أشهر من رحيلنا الى المجمع الكنسي.

توفي لويس ملك فرنسا الاكثر تقوى ، في الثامن عشر مـن شـهر ايلول في العام السابع من فترة حكم الملك بلدوين الرابـع ، وانتقلت روحه الى السموات لتلقى مكافأتها الابدية مع صـفوة الملوك ، لقـد كان ملكا صاحب مناقب كثيرة وذكرى سرمدية ، ولم يخلف سـوى ابن وريث واحد هو فيليب ، وكان قد أنجبه من زوجتـه الملكة ألكس ابنة ثيوبولد الاكبر واخت : الكونت هنري أوف ترويز ، و ثيوبـولد كونت تشـــــارترز ، وســـــتيفن كونت ســــــــــانسري Sancerre ووليم رئيس اساقفة الرايمز ، وقد توفي في العام الخمسين من فترة حكمه وفي الستين من عمره ، (٣٧٣)

توفي في السادس مـن شـهر تشرين الأول اللاحـق امـا لرخ ذي الذكرى النفيسة ، حيث كان رجلا بسيطا للغاية وبدون اهمية تقريبا وذلك بعدما شغل منصـب بـطريرك للقـدس لمدة عشرين عامـا تقريبا ، واختير خلال عشرة ايام بعـد ذلك هـرقل رئيس أسـاقفة قيسارية ليشغل منصب امالرخ(٣٧٤)

٥ ـ الملك يزوج اخته الصغرى من همفـري الثـالث. موت امبراطور القسطنطينية.

زوج الملك في ذلك الشهر نفسه أخته ، التى لم تكن آنذاك تجاوزت سن الثامنة من عمرها مـن شـاب همفـري (٣٧٥) . وكان همفـري الثالث هذا ابنا لهمفري الثاني وستيفني ابنة فيليب صاحب نابلس .

وكان والد همفري الثاني هو همفري الاكبر كافل المملكة الذي أشير اليه مرارا من قبل ، وكان فيليب صاحب نابلس جد همفري الثـاني حاكما للعربية الثانية التي هي البتراء والتي تدعى عموما في الوقـت الحالي باسم الكرك ،أيضا باسم وادي عربة ،المعروفة حاليا بـاسم مونتريال ، حيث تقعان كلاهما فيما وراء الأردن ، وتبنى فيما بعـد الحياة الدينية واصبح مقدما لفرسان الداوية(٣٧٦) .

تولى القيام بالمفاوضات بخصوص هـذا الزواج بحمـاسة كبيرة الامير رينو الزوج الثالث لوالدة همفري الثاني ، الذي كان قـد بلغ منزلة الرجولة. ولدى اتمامها جرى الاحتفال بخطبة همفري وأخـت الملك في القدس.

وكان همفري قد استلم عند وفاة جده لأبيه بحـق وراثـي بعض الممتلكات في اقليم صور وهي : تيرون وقلعة أنفة ومدينة بانياس مع ملحقاتها ، ثم أجرى تبادلا لهذا الميراث مع الملك وفق شروط محددة حيث اودع نصها ، الذي امليناه كما هو متعلق بواجبنا الرسـمي في السجلات الملكية (٣٧٧)

وتوفي في اليوم الثالث من الشهر نفسه مانويل الامبراطور اللامع للقسطنطينية ذي الذكرى الابـدية والذي فـاق سـخاؤه جميع ملوك المنطقة ، وسلم روحـه لعليين ، وسـيحتفظ بـذكراه في مجمـع القديسين ببركة بسبب صدقاته وتبرعاته السخية ، ويقال إنه تـوفي في العام الاربعين من حكمه ، وفي العام الواحد والستين من عمـره وذلك بشكل تقريبي حسبما استطعنا التحقق من ذلك (٣٧٨)

وتخلى في هذه الآونة ايضا بوهيموند أمير انطـاكية عن زوجتـه الشرعية ثيودورا ابنة إحدى أخوات الامبراطور ، واجترأ بتحـدي قوانين الكنيسة على الزواج من أمـراة تـدعى سـيبيل اشــتهرت بممارسة الفنون الشيطانية(٣٧٩)

كان جوسلين عم الملك وقهرمانه أيضا موجودا آنذاك في القسطنطينية حيث كان بلدوين قد أرسله الى هناك بخصوص بعض أمور المملكة ، وكان بلدوين صاحب الرملة مقيما هنالك أيضا بغية التماس مساعدة الامبراطور في مسألة دفع فديته ، وجرى خلال إقامتها في المدينة الامبراطورية ــ حيث كان الامبراطور مانويل ذو الذكرى النفيسة متوفى الآن ــ أن اكتشف في الأول من شهر آذار أن نبلاء بارزين كانوا قد تآمروا لاحداث تمرد ضد الامبراطور الكسيوس نجل مانويل الذي كان حسب وصية والده ما يزال تحت وصاية والدته ، فجرى اعتقال هؤلاء بتهمة الخيانة وقيدوا حسب أوامر الامبراطور وألقى بهم في السجن ، على الرغم من أن بعض المجرمين كانوا من أقربائه.

وكان من بين زعماء هذه المؤامرة مانويل بن أندرونيكوس الاكبر ، الذي ذكر آنفا ، والكسيوس البروتوسيباستوس وثيودورا كلوزينا ابنة أخي الامبراطور ، وأخو لوغوثيت الذي كان يشغل منصب الحاجب ، ونحو اثني عشر رجلا آخرين من مرتبة عالية ، وكانت السيدة ماريا ، أخت الامبراطور ، ممن حرض على المؤامرة أيضا ، وقد هربت خلال الليل مع زوجها ، ابن الماركيز آنفا(٣٨٠)، الى كنيسة القديسة صوفيا حيث وضعت نفسها تحت حماية الكنيسة بترقب قلق لمصيرها ، وحاولت أن تتخذ إجراءات ضد أخيها الامبراطور من ذلك الملاذ الذي جمعت فيه الأسلحة والرجال المسلحين ، يساعدها في ذلك زوجها ومناصروها وعدد من المتورطين في المؤامرة نفسها ، وأيدها في ذلك حتى بطريرك المدينة نفسه ، هذا واستمر فريق الامبراطور ، الذي كان يعتمد بشكل خاص على مساعدة اللاتين بالزيادة في القوة ، فقامت في آخر الأمر بالتماس الرحمة عن طريق الوسطاء وذلك بعدما تبددت قواتها ويئست من الحياة نفسها ، ووافق الامبراطور على مطلبها وأعادها الى حظيرة رضاه (٣٨١)

٦ ـ اعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد أمير انطاكية بسبب الخليلة التي كان قد اتخذها لنفسه مع أن زوجته كانت ماتزال على قيد الحياة.

في هذه الآونة كانت حالة الشعب اللاتيني في الشرق ، وخاصته في إمارة انطاكية ، مضطربة كثيرا لأن بوهيموند امير انطاكية كان قد تخلى عن زوجته الشرعية واتخذ من خليلته زوجة ثانية ، وكان قد جرى تحذيره اكثر من مرة حتى يتخلى عن حالة الزنا الشريرة التي كان يعيشها بشكل علني مكشوف وان يستعيد زوجته الشرعية ، لكن « إذا جاء الشرير جاء الاحتقار أيضا ومع الهوان عار »(٣٨٢)

وهكذا رفض الأمير الاصغاء وأصم اذنيه ولم « يستمع الى صوت الحواة الراقين رقي حكيم(٣٨٣) ». ونتيجة لذلك وبما أنه أصر بعناد على البقاء آثما ، فقد جلب على نفسه عقوبة الحرمان العادلة والطرد من الكنيسة ، لكنه لم يعبأ بهذا كثيرا ، بل العكس ، استمر بسلوكه الشرير وبنشاط مضاعف ، وعامل البطريرك والاساقفة ورجال الدين الآخرين في الكنيسة في تلك المنطقة كأعداء وضايقهم بعنف ، وانتهك حرمات الأماكن المقدسة في كل من الكنائس والأديرة ، واستولى على ذخائرها المقدسة ووزع ممتلكاتها بروح الوقاحة الشريرة ، يقال إنه حاصر بالفعل البطريرك مع الكهنة الذين كانوا قد هربوا اليه طلبا للملاذ ، وذلك في قلعة تخص الكنيسة ، وكانت هذه القلعة مجهزة بشكل جيد بالأسلحة والجنود ومزودة بالمواد الغذائية ، ويروي أنه شن هجمات كثيرة عليها وكأنها كانت من ممتلكات العدو.

وهنا وجد بعض الرجال العظماء من هذه المنطقة أنفسهم غير قادرين على تحمل سلوكه الجنوني لفترة أطول من ذلك ، فتخلوا عنه بالجسد والروح وبمقت تام لأعماله الشريرة مدركين أن واجبهم كان نحو الرب وليس نحو الانسان ، وكان بين هؤلاء رجل نبيل قوي

يدعي رينوماسيور ، وانسحب الى إحدى قلاعه ، التي كانت قلعة منيعة لا ترام ، ودعا الذين كان في قلوبهم الاخلاص والاستقامة وأمام أعينهم الخوف من الرب ، لينضموا اليه هناك ، وقدم ملاذا آمنا هناك للنبلاء الذين كانوا قد طردوا من ممتلكاتهم ، ولآخرين من أي وضع اجتماعي ممن كان قد هرب لذلك السبب نفسه.

ونتيجة لسلوك بوهيموند واجهت المنطقة بأسرها حالة صعبة للغاية .ورأى رجال حكماء ذوو خبرة طويلة انه إذا لم تأت الرحمة الربانية بسرعة لمساعدتنا فستفتح من غير ريب سبل يتمكن العدو بها من تدميرنا وستصاب مصالح المسيحية إصابة أبدية . ولسوف تسقط المنطقة بأسرها من جديد في أيدي السلطات التركية ، بعدما انقذت بمعونة الرب منهم ، من خلال عمل القادة المخلصين ، وعلى حساب مشقات لا تحصى تحملها شعب المسيح ، لان القول الحق لا يتغير وجدير بكل القبول حيث أن « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب ، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت »(٣٨٤)

واجتمع ملك القدس والسيد البطريرك يدفعهما إحساسهما المألوف بالمسؤولية مع رجال الكنيسة الآخرين والأمراء العلمانيين للتداول بجدية بخصوص السبيل الموجب إتباعه في مواجهة طارىء خطير كهذا ، ومع أن السلوك الشائن للأمير الفاسق والطائش بدا بحد ذاته يطالب باتخاذ اجراءات قاسية ، إلا أنهم ترددوا باستخدام القوة خشية من أن يستدعي قوات العدو لمساعدته للمقاومة. وسيفتح عمل كهذا المنطقة للأتراك بحيث لن تجدي بعد ذلك أكثر الجهود جدية لطردهم ، وكان واضحا ايضا أن الوقت الحالي لم يكن مناسبا للتوسلات والنصح المفيد ، ولهذا السبب لم يتجرؤوا على إرسال رجال حكماء موهوبين في فن الاقناع لشخص كان مندفعا بشكل جنوني على مدى طرق الشر ، ومنهمكا تماما في اقتراف الذنوب حيث سيكون ذلك مثل « سرد حكاية لجحش أطرش (٣٨٥) و « إلقاء الكلمات الى الريح »(٣٨٦)

ولذلك ، قرروا تحمل هذه الكارثة خشية من أن يقعوا في اشـياء أكثر سوءا ، واستمروا في هذه الأثناء بـالبحث عن المسـاعدة مـن الرب الذي اعتاد انقاذ حتى المرميين في أعمـاق البحـر ، إنه الرب الذي«يعطي الثلج كالصوف و يذري الصقيع كالرماد»(٢٨٧) وكان املهم أن يثوب الأمير الى رشـده ، بعـدما يحـذره عقـاب الهي ، فيرتدي من عليين بجميع الفضائل التـي يتحلى بهـا اكثـر القادة عظمة ، وينذفع ليكافح للحصول على ثمرة حياة افضل .

٧ ـ ارسال بطريرك القدس الى انطـاكية في محـاولة لايجاد علاج لهذه الأحـوال الخـطيرة. مـوت البـابا الكسندر.

مالبث أن أصـبح واضـحا للجميع أن الكارثـة كانت آخـذة في الازدياد ، وانه لم يكن هناك اي أمـل بـالحصول على اي علاج فوري ، ولم يكن الأمير وحده محتجزا في قيود الحرمان الكنسي ، بل شمل الحرمان المنطقة بـأسرها نتيجـة لسلب واحـراق ممتلكات الأماكن المقدسة ، ولم تقدم أي من الاسرار المقـدسة للكنيسـة الى الناس الآن باستثناء تعميد الأطفال ، وادرك المسيحيون بـذعر أنه ليس بإمكان الأوضاع الحالية الاستمرار لفتـرة مـن الزمـن بدون تعرض الجميع للمخاطر .

ولذلك تقرر بموافقة عامة انه ينبغي على السيد البطريرك الذهاب الى انطاكية ، ويحاول اذا أمكن ، بنعمة الرب ، أن يجد علاجا مـا مؤقتا أو دائما يمكن أن يخفف من وطـأة هـذه الكوارث ، ورافـق البـطريرك في مهمتـه أرناط الذي كان أميرا لانطـاكية فيمـا مضى ، وزوجا لوالدة بـوهيموند الأصـغر ، والراهـب أرنولد أوف توروغ Toroge مقدم فرسان الداوية والراهب روجر دي مولينز مقدم فرسان الاسبتارية ، واتخذت هـذه الخـطوة لانه كان يخشى أنه اذا لم نعط أية اشارة تعـاطف تجـاه المصـيبة البـائسة

لجيراننا ، ولم نحاول معالجة الوضع ، فقد يتهمنا البابا والأمـراء عبر البحار بالاهمال أو حتى بالنية الشريرة .

ورافق البطريرك ايضا عدد من رجالات الكنيسـة وكانوا رجـالا حكماء وعاقلين كان من بينهم موناخوس رئيس الأساقفة المنتخـب لقيسارية والبرت أسقف بيت لحم وريتالد راعي دير جبـل صـهيون وبطرس رئيس رهبان كنيسة القبر المقدس ، وانطلق البطريرك الى انطاكية مع بقية الأصحاب آخذا معه أيضا كونت طـرابلس ، وهـو صديق حميم ومحبوب من قبـل الأمير ، وهـو الذي كان يؤمـل أن أقواله عندما تضاف الى أقوالنا قد تحقـق النجـاح والوصـول الى غايتهم .

تشاور المبعوثون لدى وصولهم الى اللاذقية مع السيد البـطريرك والأمير كل على حدة ، وحددوا يومـا تـوجب فيه عليهمـا أن يكونا بأنطاكية . وبعدما نوقشت المسألة بشكل شامل من جميع وجهـات النظر ، عقدت هنا هدنة مؤقتة وفق الشروط التالية : لقد تم الاتفاق على وجوب ايقاف الحرمان ، وإعادة امتياز أسرار الكنيسة المقدسة الى الناس بعدما تتم إعادة جميع المقتنيات المفقودة الى البـطريرك والأساقفة والأماكن المقدسة ، وأما بخصوص الأمير نفسه ، فيجب أن يتحمل بشخصه وبصبر العقوبة التي فرضها بحقه الأساقفة ، أو أن يتـولى صرف خليلتـه ويعيد زوجتـه الشرعية اذا طلب غفـرانا تاما .

عاد المندوبون الى موطنهم بعد أن تم هذا الترتيب ، معتقدين أنهم كانوا قد خففوا الى حد ما على الأقل لهيب النيران اللاشرعية التـي كانت متأججة في إمارة أنطاكية .

هذا وواظب الأمير وأصر على سلوكه المخزي ، اضف الى هـذا فقد تورط بسياسة رافقتها مخاطر كبيرة نحو المملكة ، فقد طرد من المدينة ـ ومن سائر ممتلكاتـه بـالفعل ـ افضـل نبـلائه

المخلصين ، حيث كانوا رجالا ذوي سمو عظيم ، ومن الواضح أنه طردهم للسبب الوحيد وهو أنه قيل أنهم شجبوا سلوكه . وكان بين الذين نفاهم كافل إمارته وحاجبه غيسكارد دي ليلي (غويشارد دي ليسلي) وبراتراند بن غسلبرت (٣٨٨) وغاريينوس غينارت وبما ان هؤلاء النبلاء قد ارغموا على مغادرة انطاكية ، فقد ذهبوا الى روبينوس(روبن) وهو زعيم نبيل من الأرمن (٣٨٩) ، واستقبلهم جميعا باجلال بالغ واعطاهم هبات رائعة خص بها كل واحد منهم واعد لهم مؤنا وفيرة لاعالتهم

توفي البابا الكسندر الثالث في السابع والعشرين من شهر آب (٣٩٠) من العام نفسه وفي العام الثالث والعشرين من شغله لمنصب البابا ودفن في كنيسة اللاتيران ، فخلفه لوكيوس الثالث ، الذي كان اسمه من قبل هيوبولد اسقف اوستيا ، وكان البابا الجديد بالأصل من توسكانيا من المنطقة المجاورة للوكا ، وكان رجلا مسنا قليل التعليم .

وحدث أيضا في هذه الآونة نفسها في الثالث عشر من أيلول أن رحل أخونا المبجل في المسيح ، ريموند ، أسقف الكنيسة في بيروت ذو الذكرى المباركة في الرب من هذه الحياة لينعم بنعم الرب بمكافأة الحياة السرمدية ، وعين في منصبه فيما بعد رجل مبجل له ثقافة جيدة هو ماستر أودو رئيس شماسة كنيستنا ، وأضفينا عليه خلال أيام العيد في كانون الأول بمشيئة من الرب رتبة منصب الكاهن والمنصب الأسقفي .

٨ ـ موت ابن نور الدين. تركه ميراثه لابن عمه مسعود.

حصلت في هذه الآونة وفاة الملك الصالح بن نور الدين ، وهو شاب كان مايزال في أوائل سن الرجولة ، لم يبق له من جميع الميراث الذي تلقاه من والده سوى مدينة حلب وعدد قليل من

الحصون ، ويقال إنه أورث في وصيته الأخيرة ، التي أعدها أثناء وفاته ، مدينة حلب وجميع ميراثه الى مسعود ، حاكم الموصل ، والذي كان ابنا لعز الدين (اقرأ : قطب الدين) أخي والده . وأرسل رجالات الملك الصالح بعد وفاته رسلا الى مسعود ، الذي كان حاكما تركيا شهيرا وعظيما ، وحثوه على المبادرة بالقدوم اليهم بالسرعة الممكنة (٣٩١)

وبادر مسعود بالقدوم الى هنالك فور استلامه الرسالة ، واستولى على أملاك أسلافه وكل ماكان يخصه بحق وراثي ، لأنه خاف من أن يقوم صلاح الدين ، الذي كان قد سلب ابن عمه معظم ممتلكاته ، بالقدوم ثانية من مصر والاستيلاء على المدينة بالقوة على الرغم من إرادة سكانها لاسيما وأن بعض النبلاء الأكثر أهمية كانوا يؤيدونه بصورة سرية .

هذا وكان صلاح الدين قد عاد الى مصر بعدما أبرم معنا صلحا مؤقتا لمدة عامين لينكب على أموره في تلك المملكة . وكان قد سمع بارتباك كبير أن أسطول ملك صقلية كان قد نزل الى البحر بمعدات جبارة وقوات لاتحصى بهدف الزحف ضد مصر ، بيد أن خوفه لم يكن ضروريا في هذا الصدد حيث جرى توجيه مسار الأسطول غربا نحو جزر البليار ، وتقع هذه الجزر على مقربة من سواحل اسبانيا وتعرف إحداهن عموما باسم ميورقة ، بينما تسمى الأخرى باسم منورقة ، وتبرهن أن الرحلة الى هناك كانت خطيرة ، حيث دفعت رياح معاكسة الأسطول ، فتحطم بأسره في المنطقة الواقعة قرب سواحل مدن سافونا والبنجه وفنتمقلا حيث دفعت الأمواج العنيفة السفن الى الشاطىء .

بينما كانت المملكة تنعم في هذه الآونة بالسلام المؤقت حسبما حكينا من قبل ، ألم تغيير جذري رائع بطائفة من السريان تقطن منطقة فينيقية ، قرب سلسلة جبل لبنان ، حيث شغلوا أراضي بالقرب من مدينة جبيل ، فقد كان هؤلاء الناس قد اتبعوا منذ

خمسين عاما تقريبا العقائد الهرطقية لشخص يدعى مـارون ، منه استمدوا اسـم الموارنة ، وكانوا قـد انفصـلوا عن كنيسـة المؤمنين ، واختاروا طقوسا دينية خاصة بهـم ، غير انهـم عادوا الآن بفضل الهـداية الربـانية الى رشـدهم وتخلوا عن هـرطقتهم. وذهبوا الى إيمري بطريرك انطـاكية وهـو البـطريرك اللاتيني الثالث الذي يرأس تلك الكنيسة ، وأعلنوا عودتهم عن الخـطأ الذي كان قد استعبدهم لفترة طـويلة مـن الزمـن ، وعادوا الى وحـدة الكنيسـة الكاثـوليكية ، وتبنوا العقيدة الارثـوذكسية واسـتعدوا لاعتناق تعاليم الكنيسة الرومانية والتقيد بها بكل التقوى .

ولم يكن هؤلاء الناس في أي حال من الأحوال قليلي العـدد ، وفي الواقع ، قدروا عموما بأنهم أكثر مـن أربعين الفـا ، وكمـا ذكرت آنفا ، فقد سكنوا في أسـقفيات جبيل والبتـرون وطـرابلس ، على منحدرات الجبال اللبنانية ، وكانوا شـعبا قـوي البنية ومقـاتلين شجعانا ، قدموا فوائد عظيمة للمسيحيين في المعارك الصعبة التـي كانوا قد خاضوها مرارا مـع العـدو ، ولذلك كان تحـولهم للعقيدة الصحيحة مصدر ابتهاج كبير بالنسبة لنا .

وقوام بدعة مارون وأتباعه قائمة على قوله يوجـد ووجـد في ربنا يسوع المسيح ، من البداية بالفعل ، إرادة واحدة ، وقـوة واحـدة فقط ، وهذا مايمكن استخلاصه مما صدر عن المجمـع المسـكوني السادس الذي من المعروف تماما أنه عقد ضـدهم ، والذي تحملوا فيه عقوبة اللعن ، وقد اضافوا الى هـذه الفقـرة ، التـي أدانتهـا الكنيسة الأرثوذكسية ، تعاليم خبيثة أخرى كثيرة ، بعدما انفصلوا عن مجموعة المؤمنين ، غير انهم تابوا الآن وتخلوا عن جميع هـذه البدع ، كما تم سرد ذلك ، وعادوا الى الكنيسة الكاثـوليكية تحـت قيادة بطريركهم والعـديد مـن أسـاقفتهم ، واظهـر هؤلاء القادة ــ الذين كانوا حتى الآن قـد قـادوا شـعبهم في السـبل الشريرة ــ الآن حماسة مماثلة في توجيههم بورع عندمـا عادوا الى الحقيقة(٣٩٢)

-٣٤٠٧-

٩ ـ نشوب خلاف بين كونت طرابلس والملك ما لبث ان تطور الى عداوة خطيرة معلنة.

كانت المملكة تنعم في هذه الأيام بدرجة محدودة من الهدوء بفضل المعاهدة المؤقتة التي عقدت بين الملك وصلاح الدين حسبما حكينا ذلك من قبل ومع ذلك ، كانت هنالك أرواح متململة لاتعرف الاستقرار هي نفوس ابناء ابليس وابناء الذين فطروا على الخصام ، الذين كانوا على اهبة الاستعداد دائما لخلق الشقاق في المملكة ولاحداث اضطرابات مدنية .

كان عدد لايحصى من القضايا قد احتجز الكونت لمدة عامين متتاليين في إمارة طرابلس ، ومنعه ذلك السبب من زيارة المملكة(٣٩٣) غير ان المسؤولية التي شعر بها الآن نحو مدينة طبرية ، ميراث زوجته ، دفعه الى الذهاب الى هناك ، فاتخذ جميع استعداداته للرحلة ، وكان قد سار وصولا الى جبيل عندما اقنع الرجال الأشرار المذكورون آنفا الملك السائح جدا بتملقاتهم الماكرة ليعتقد أن الكونت كان قادما الى المملكة بالنوايا الشريرة للعمل سرا ليحل محله ، وقد اصغى بسهولة الى اقوالهم المغررة وأرسل على الفور رسالة نهائية ترفض منح الكونت الاذن لدخول المملكة .

امتنع الكونت ، المضطرب والساخط بعدل ، إزاء هذه الاهانة التي لم يستحقها تماما ، امتنع وهو مكره جدا من التقدم الى ابعد من ذلك ، وعاد الى طرابلس بعد تبديد عقيم للجهد والمال .

وكانت مقاصد مثيري القلاقل هؤلاء ، عدم الارتباك بوجود الكونت الذي كان رجلا مستقيما تماما ولايعرف التعب ، وأن يقوموا انفسهم بمعالجة أمور المملكة تماما كما كانوا يرغبون ، وأن يحولوا ضعف الملك لمصلحتهم الخاصة ، وكان من بين الذين أثروا على الملك بشكل مخز ليتخذ هذا الاجراء والدته ، حيث كانت امرأة

-٣٤٠٨-

جشعة بلا حدود ، وهاجرة للرب تمام الهجـران ، ومعهـا اخـوها قهرمان الملك وعدد قليل من الرجال الأشرار كانوا موالين لهم (٣٩٤)

عندما علم النبلاء بهذا العمل ، تولاهم الرعب الكبير ، لاسـيما وأنهم كانوا رجالا ذوي خبرة وحكمة كبيرتين ، لأنهم خافوا من أن المملكة سوف تسقط بسرعة من منزلتها السامية في حال حرمانها من حماية الكونت الرائع ، وحسب قول الرب « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب » (٣٩٥) كانت هذه هي الحال على نحو أكثر خصـوصية لأن الملك ، الذي كان يزداد مرضه يوميا ، كان ضـعفه يزداد ويقـل استعداده للانكباب على أمور المملكة وفي الواقع ، نادرا ما تمكن من دعم نفسه وكان مشلولا بشكل تام تقريبا .

وركز النبلاء الأكثر اهمية ـ لدى رؤيتهم الخطر الذي سـيحدث بالتأكيد للمملكة نتيجة للعمل السابق ـ جميع جهـودهم ووجهـوها نحو إعادة استدعاء الكونت وتخفيف غضبه ، وأجبـروا أخيرا الملك بعد مناقشات مطولة واقتراحات متنوعة وعلى الرغم من معـارضته أن يسمح لهم باسترجاع الكونت الى المملكة ، كما تغـاضى الكونت الرائع عن الاساءات التي كانت قد ألحقت به ، وأعيد توطيد السلام تماما بين الملك وبينه (٣٩٦)

١٠ ـ حـدوث ثـورة في القسـطنطينية انتصر فيهـا اندرونيكوس الشرير. نتيجـة لذلك الشـعب اللاتيني يضطرب اضطرابا شديدا.

في الوقـت الذي كانت فيه بـلادنا في الشرق تشـهد هـذه الوقائع ، حدث تغيير هام في امبراطورية القسطنطينية . فأثر هـذا بشكل مشؤوم جدا على الشـعب اللاتيني بـأسره ، وألحـق بهـم إهانات غير مسموعة وخسائر ضخمة لأن الشرور التي خـطط لهـا الاغريق الغدارون والخـونة منذ زمـن طـويل أثمـرت « وولدت كذبا(٣٩٧) »وبهتانا ، ذلك أن ألكسيوس نجل الامبراطور مانويل ذي

الذكرى اللامعة للغاية ، ارتقى العرش إثر وفـاة والده ولم يكن قـد بلغ الثالثة عشرة من عمـره ، وذلك حسـب وصـية والده بحـق وراثي ، ولقد كان تحـت وصـاية والدتـه ، غير أن شـؤون الامبراطورية و إدارتها كانت في يد الكسيوس الحـاجب ابـن الأخ الأكبر للامبراطور المتوفي ، وهـكذا ، شـعر النبـلاء الرئيسـيون وسكان تلك المدينة أن الفرصة قد جاءت لتنفيذ الخطط الشريرة التي كانوا قد حاكوها ضد شعبنا .

كان اللاتين قد لاقوا تأييدا كبيرا من مانويل ، حبيب الله ، خلال فترة حكمه ـ وكان ذلك مكافأة مستحقة تماما بسـبب إخـلاصهم وشجاعتهم ، كما أن الامبراطور ، الذي كان صاحب نفس عظيمة ونشاط فريد ، قد اعتمد بشكل مطلق على إخلاصهم ومقـدرتهم الى درجة أنه أهمل الاغريق وعدهم أناسا مخنثين وفيهم فسولة ، وعهد بالمسائل الهامة للاتينيين فقط ، ونظرا لوضعهم في تقدير عال كهـذا وإظهاره نحوهم كرما سخيا كهذا ، فقد عده رجال العـرق اللاتيني القادمين من سائر انحاء العالم بالاضافة الى النبـلاء ورجـال ذوي منزلة أدنى بأنه المحسن العـظيم لهـم واندفعـوا بتلهـف الى قصره ، ونتيجة لهذا الاحترام المتحمس ، إزداد ميله نحو اللاتينيين أكثر فأكثر وكان يرفع من منازلهم باستمرار .

حمل النبلاء الاغريق ، وخاصة الأقرباء المقربون من الامبراطور وبقية الناس أيضا ـ بشـكل طبيعـي مشـاعر الكراهية الشـديدة ضـدنا ، وازدادت هـذه الكراهية بسـبب الاختـلاف بين أسرارنا المقدسة وأسرار كنيستهم ، الأمـر الذي زودهـم بـدافع إضـافي لغيرتهم ، فبعدما انفصلوا بـوقاحة عن كنيسـة رومـا ، اعتبـروا بغطرسة غير محدودة أن كل واحـد لم يتبـع معتقـداتهم السـخيفة هرطقيا ، وعلى العكس ، لقد كانوا هم أنفسهم الذين استحقوا أن يسموا بالهراطقة ، لأنهم كانوا قد انشأوا أو اتبعوا معتقدات خبيثة جديدة مخالفة لكنيسة الرومان وعقيدة الرسولين بـطرس وبـولص التي « لن تقوى أبواب الجحيم عليها ».(٣٩٨)

لهذه الأسباب وأسباب أخرى كانوا قد أبقوا هذه الكراهية في قلوبهم لفترة طويلة من الزمن ، وكانوا يبحثون دائما عن فرصة ، بعد موت الامبراطور على الأقل ، لابادة تامة لشعب اللاتين المكروه في المدينة وفي كل مكان من الامبراطورية بأسرها بحيث يتمكنون بهذه الطريقة من إشباع حقدهم المتصلب (٣٩٩)

١١ ـ عرض لأسباب الثورة والشقاق.

بدا أنه لاتوجد أية فرصة لتنفيذ هذه الخطط الشريرة . بعدما توفي الامبراطور مانويل وكان الكسيوس الحاجب يتولى تسيير أمور المملكة ، فقد حذا ألكسيوس نفسه حذو الامبراطور واستفاد من نصيحة اللاتينيين ومساعدتهم وجعلهم أصدقاء له بالقدر الممكن ، غير أن اللاتين والاغريق على حد سواء كرهوه من جانب واحد . فمع انه كان مخنثا للغاية ومستسلما تماما لآثام الجسد الشهوانية مثل جميع الاغريق كان جشعا أيضا وبخيلا لايرى الانفاق من الخزينة الامبراطورية وكأنه كان قد جمعها بنفسه وبعرق جبينه ، وأشيع أيضا انه أقام علاقة إجرامية مع الامبراطورة مع انها كانت قد اعتنقت الحياة الدينية عندما كان زوجها متمددا على فراش موته (٤٠٠)

وعلاوة على ذلك ، كان رجلا متعجرفا وفي غاية التكبر ، وعد نفسه متفوقا على الجميع ، واستخدم كل شيء حسب رغباته الخاصة ودون مشاورة السادة الآخرين ، وبدا بأنه لايهتم بشيء بالنسبة للباقين ، مع أنهم كانوا رجالا عظماء من منزلة مساوية تماما لمنزلته . وهكذا ، اتخذ أمراء القصر إجراء فعالا ضد الكسيوس بعدما اثارتهم نحوه كراهية شديدة للأسباب المذكورة منذ لحظات ، فاستدعوا اندرونيكوس الأكبر وهو أحد أبناء عم الامبراطور المتوفي ، استدعوه من بنتوس بذريعة تعيينه في منصب الحاكم ، وذلك لمنعه من إثارة المتاعب في المدينة حسب عادته ، وإثارة الثورات بأمل الفوز بالمملكة(٤٠١)

اذا كان هذا هو الرجل الذي جرى استدعاؤه سرا من قبل الأقرباء المقربين من الامبراطور والحاجب ايضا ، ووضعوا فيه ثقة خاصة ، لقد دعوه بوساطة رسلهم ليتسلح ضد الرجل الذي كان قد كبل أبناءه ورجالا لامعين أخرين بالسلاسل بشكل مخز لأن الحاجب كان قد سجن بعض الرجال المشهورين الذين قبض عليهم في المؤامرة فأثار بذلك عداوة أكثر ضد نفسه كما تم ذكر ذلك .

وهكذا ، قدم أندرونيكوس الى المدينة بعدما استدعي جالبا معه قوات ضخمة من الجنود البرابرة . وخيم على طول البوسفور ، وعلى مشهد تام للمدينة ، واستولى على بيثينيا بأكملها ، وفر بعض النبلاء الاقوياء الذين أرسلوا ضده لمقاومة محاولاته ، والتحقوا به ووقفوا الى جانبه بشكل خائن . وكان الشخص الأول والاكثر اهمية بين هؤلاء هو اندرونيكوس أنفلوس قائد الجنود الذين أرسلوا ضده والكسيوس ميغالدوكاس القائد العام للأسطول ، وكلاهما من أقرباء الامبراطور ، وأضعف فرار هؤلاء الذين خرجوا لحرب أندرونيكوس بهذا الشكل كثيرا قضية شعبنا ، كما أضعفتها حقيقة أن نبلاء آخرين كثيرين وأعداد كبيرة جدا أظهروا ولاءهم لاندرونيكوس بشكل علني . وتلهفوا لرؤيته يدخل المدينة وبذلوا كل مساعدة ممكنة لاسراع موعد عبوره .

١٢ ـ اندرونيكوس يقتل النبلاء ويستولي على القصر والمدينة. ويقمع الناس بالعنف الصادر عن حكمه.

استمرت المؤامرة في حيازة القوة ، والقي القبض على الحاجب وسملت عيناه وشوه بشكل مروع ، ونشر تحول الأمور هذا رعبا بين اللاتينيين ، لانهم خافوا من أن يشن المواطنون هجوما مفاجئا عليهم ، وكانوا بالفعل قد تلقوا تحذيرا بوجود نوايا من هذا القبيل وذلك من بعض الناس الذين كان عندهم معرفة خاصة بالمؤامرة ، ولذلك هرب الذين أمكنهم النجاة من خدع الاغريق والموت الذي كان

يهددهم ، وركب بعضهم متن أربع وأربعين من الشواني صادف أن كانت راسية في الميناء ، ووضع آخرون جميع مقتنياتهم على متن بعض السفن الأخرى الكثيرة التي كانت موجودة هناك .

هذا وترك المسنون والعجزة والذين لم يتمكنوا من الهروب ، في بيوتهم فانصب عليهم الغضب المدمر الذي كان الآخرون قد نجوا منه، وأما بالنسبة لأندرونيكوس ، الذي أمر بصورة سرية بتجهيز سفنه ، فقد قاد قواته بأكملها إلى داخل المدينة ، وحالما دخل هؤلاء الجنود الأبواب بمساعدة السكان ، اندفعوا نحو ذلك الحي من المدينة الذي كان يشغله اللاتين وقتلوا البقية القليلة الذين كرهوا الفرار مع الآخرين أو لم يتمكنوا منه . ومع أن عددا قليلا من هؤلاء كان قادرا على القتال ، إلا أنهم قاوموا لفترة طويلة من الزمن وجعلوا انتصار العدو انتصارا دمويا .

ألقى الاغريق القبض على جميع الذين بدا أنهم قادرون على المقاومة ، وأشعلوا النار بمنازلهم وحولوا بسرعة الحي بأسره إلى رماد بصرف النظر عن المعاهدات والخدمات الكثيرة التي كان شعبنا قد قدمها للامبراطورية ، فهلكت النسوة والأطفال والمسنون والمرضى على حد سواء في ألسنة النيران ، ولم يكتفوا بهذا كله لاشباع كراهيتهم الآثمة ليصبوا جام غضبهم على مباني المدينة فقط ، بل أشعلوا النار أيضا بالكنائس والأماكن المقدسة من كل نوع ، وأحرقوا مع الصروح المقدسة الذين كانوا قد هربوا إلى هنالك طلبا للملجأ . ولم يميزوا أبدا بين الرجال المدنيين والدينيين سوى أنهم أبدوا عنفا شديدا تجاه الذين كانوا يرتدون الأثواب الدينية الجليلة او التي تدل على شغل صاحبها لمنصب رفيع . وكان الرهبان والكهنة الضحايا الخاصة لجنودهم ، وقتلوا تحت تعذيب شديد .

وكان بين هؤلاء الرهبان والكهنة رجل مبجل اسمه يوحنا وهو شماس مساعد من الكنيسة الرومانية المقدسة كان البابا قد أرسله إلى القسطنطينية بأمر يتعلق بالكنيسة ، فقبضوا عليه وقطعوا رأسه

وشدوه إلى ذنب كلب قذر كإهانة للكنيسة ، ولم ينج في غمرة تدنيس المقدسات هذه . التي كانت أسوأ من الكفر نفسه ، حتى الموتى الذين حتى الكفر نفسه يوفرهم ويستثنيهم عانوا وأزعجوا وسبب لهم الاضطراب . فقد انتشلت الجثث من القبور وسحبت عبر الشوارع والساحات وكأنما الجثث الهامدة قادرة على الشعور بالاهانات المتعرضة إليها (٤٠٢).

ثم مضى الغزاة نحو المشفى الذي عرف باسم مشفى القديس يوحنا ، وقتلوا هنا جميع المرضى الذين عثروا عليهم ، وقام الرهبان والكهنة ، الذين يفترض أن يكون واجبهم الورع لنجدة المظلومين ، قاموا باستدعاء قطاع الطرق واللصوص لمواصلة المذبحة ، مع وعود بالمكافأة ، وفتشوا بصحبة هؤلاء الكفرة عن الملاجيء الأكثر انعزالا وعن الأجنحة الأكثر تغلغلا في البيوت حتى لايمكن لأحد مختبيء هناك أن ينجو من الموت ، وعندما عثروا على أشخاص كهؤلاء ، جروهم بعنف وسلموهم إلى الجلادين الذين حصلوا على الثمن الدموي لقتل هذه الضحايا البائسة حيث كانوا لايعملون دون أجر .

وتولى الذين ظهروا بأنهم يبدون مراعاة أكثر نحو شعور الآخرين بيع الهاربين الذين كانوا قد لجأوا إليهم ، والذين كانوا قد أعطوهم أملا بالسلامة ، باعوهم إلى عبودية سرمدية بين الأتراك والكفرة الآخرين ، ويقال إن أكثر من أربعة آلاف لاتيني من أعمار واجناس وأوضاع مختلفة سلموا بهذا الشكل لشعوب بربرية مقابل مبلغ من المال .

جازى الشعب الاغريقي الخؤون ، سلالة الأفاعي ، كالحية في الصدر أو كالفأرة في خزانة الملابس ، ضيوفه بشكل شرير وبطريقة كهذه – ضيوفهم الذين لم يستحقوا معاملة كهذه ، وكانوا لايتوقعون أبدا شيئا من هذا القبيل ، أولئك الذين كانوا قد زوجوهم من بناتهم وقريباتهم وأخواتهم ، والذين كانوا بالعيش الطويل مع بعضهم بعضا قد أصبحوا أصدقاءهم .

١٣ ـ اللاتين ، الذين كانوا قد نجوا في السفن يتولون بطريقة عدوانية تدمير الجزر واماكن اخرى على طـول الشاطىء.

يقــال إن هــذا الاعتــداء الرهيب الذي لم يســبق له مثيل في كل العصور لم يمض بدون عقاب تماما ، فقد تجمع اللاتين الذين كانوا هربوا في الشواني ، كما تم ذكر ذلك ، والأعداد الضخمة التي لحقت بهم بعد برهة وجيزة من الزمن في أسطول ذي حجم جيد واحتشــدوا في المنطقة المجاورة للقسطنطينية بانتظار نتيجة الأحداث . واستلموا هنا معلومات محددة أفادت أن الذين كانوا قد اثاروا الفتنة الأولى في المدينة قد أحرقوا الحي اللاتيني بأسره ، وأن زوجــاتهم وأطفــالهم وجميع افراد أسرهم كانوا قد هلكوا إما بــالحرائق أو بــالسيف ، وأثار هذا النبأ سخطا عارما واســتياء في قلوب الجميع ، وألهبهــم برغبة متقدة للثأر لدم أصــدقائهم ، وهــكذا ، أبحــروا على طــول شواطىء البوسفور من مصب البحر الأسود ، الذي يقــع على بعــد ثلاثين ميلا عن القسطنطينية وإلى مدخل البحر المتــوسط ، وهــي مسافة يبلغ طولها مائتي ميل ، واســتولوا بــالقوة على جميع المدن والقلاع الواقعة على طول الشاطئين معا وعلى الجــزر الصــغيرة المبعثرة في كل مكان من ذلك البحر ، وقتلوا هنا انتقاما لدم إخوانهم جميع الرهبــان المزيفين والكهنة المدنســين وأحــرقوا الأديرة مــع اللاجئين الذين كانوا قد هربوا إلى هناك ، ويقال إنهم قد نقلوا مــن هذه الأماكن مقدارا ضخما من الذهــب والفضــة مــع الجــواهر والأنسجة الحريرية بمقــادير كبيرة ، وعوضــوا بتلك الأشــياء عن خسارة ممتلكاتهم وعن تخــريب ســلعهم أضــعافا مضــاعفة ، فبالاضافة إلى الثروة الضخمة للأديرة والكنوز التي لاتحصى التــي كانت قد جمعت هناك لفترة طــويلة مــن الزمــن ، كان ســكان القسطنطينية قد أودعوا في هذه الأماكن المقدسة ، من أجل حماية ، مقادير ضخمة من الذهب والكنوز الأخرى .

ثم غادر اللاتين مضائق ذلك البحر ، وهم محملون بهذه المغانم ،

وابحروا إلى البحر المتوسط بين المدينتين المحصنتين الساحليتين القديمتين . ستوس وأبيدوس .

وقاموا لدى إبحارهم على طول شواطىء تساليا بالبحث بدقة فائقة في جميع المدن والبلدان في المناطق القريبة من البحر ، ووضعوا كل شيء للنهب والحرق . وقتلوا أعدادا لا تحصى من الناس ، ويقال إنهم عثروا على عشرة شواني بالقرب من غريسوبولس وهي مدينة في مقدونية ، وعلى أعداد كبرى أخرى في أماكن مختلفة ، وشكلوا بهذه السفن أسطولا ضخما للغاية ثبت بأنه آلة دمار للأغريق كانت مرعبة جدا .

هذا وامتنع بعض اللاتين عن متابعة أعمال القتل والسلب هذه (٤٠٣) وركبت هذه المجموعة متن بعض السفن الكثيرة الراسية في الميناء ، وتركوا الجيش ومعهم زوجاتهم واطفالهم وكل ما بقي من ممتلكاتهم ، واتوا إلينا في سورية .

استولى اندرونيكوس في هذه الاثناء على المدينة ، حسب رغباته ، وحيث لم يكن هنالك احد ليعارض، فقد توج الامبراطور بشكل مهيب في اليوم المقدس لعيد الخمسين مع زوجته المقدرة له ، ابنة ملك فرنسا واظهر له كل التبجيل ، وعامل بلطف ايضا والدة الامبراطور مع اخته وزوجها اللذين كانا ما يزالان داخل فناء القصر ووجه اندرونيكوس شخصيا جميع امور الامبراطورية ، في المدينة وفي الخارج على حد سواء ورتب كل شيء حسب مشيئته الخاصة .

ولكن يخشى من انه قام بابداء مظهر الاحترام هذا نحو هؤلاء الأشخاص ليخفي هدفه الغدار حتى يتمكن من احتلال العرش لفترة من الزمن ويكون قد اخضع بالتدريج كل شيء لسلطته الخاصة ، حيث يستطيع عندها ان يظهر علانية مقاصده الحقيقية نحوهم (٤٠٤) .
حدث هذا في شهر نيسان في عام ١١٨٢ لتجسيد ربنا .

-٣٤١٦-

١٤ ـ صلاح الدين يلغي المعاهدة التي كان قد عقـدها مع الملك ، الملك يخرج الى ما وراء الاردن للتصدي له . الأتراك يهاجمون قرية دبــورية وينقلون الناس معهـم الى الاسر .

وفي الوقت الذي كانت بلاد الاغريق تشهد فيه هذه التحولات تحطمت سفينة كان على متنهـا ألف وخمسمائة حـاج ، في دمياط في المملكة المصرية بعدما دفعتهـا رياح معـاكسة الى الشـاطىء بيد أن هؤلاء الحجاج شعروا بثقة في أنه سيتم انقـاذهم ، حيث كان معـروفا أن صلاح الدين كان قد عقد هدنة وسلاما مؤقتا مع المسيحيين في البـر والبحر .

الا أن المصير الذي آلوا إليه كان مختلفا تماما عما اوجبـه قـانون المعاهدات لان صلاح الدين الذي كانت رغبته في الفوز بـالمغانم قـد سيطرت عليه ، كان معارضا في السـماح لعـدد كبير جـدا مـن المسيحيين مثل هذا بالرحيل بحرية من بـلاده حسـبما كانت شروط الاتفاقية تلزمه ، وهكذا ألقى بهم جميعا في السجن وأمر بمصـادرة ممتلكاتهم لاستخدامه الخاص ، ثم ارسل رسولا الى الملك وقدم إليه بتحد مباشر لشروط المعـاهدة مـطالب اسـتحالت عمليا تلبيتهـا ، واضاف كانذار اذا لم يستجب لهذه المطـالب تمشـيا مـع رغباتهـ، فلسوف يحتفظ بالسفينة المذكورة انفا كتعويض لنفسه ،وعلاوة على ذلك سيلغي الاتفاقية التي كانت قد عقدت بينهما (٤٠٥) .

لم يتمكن الرسول من الحصول على الاستجابة لمطـالب صـلاح الدين ، لانه حاول ان يخترع مسـوغات سـافرة يمـكن بـذريعتها الاحتفاظ بالسفينة بدلا من تقديم اسباب شكاية عادلة ، ولذلك الغى صلاح الدين المعاهدة على الفور ، وبدأ يخطط للطريقة التي يمـكنه ان ينهك بها المملكة بطريقته المألوفة ، فاسحا المجـال لعـدائه الذي

ابقاه في ذهنه من زمن طويل ، فجمع قوات تألفت من كل من الفرسان والمشاة ، وزاد من حجم جيشه بأعداد كبيرة من الرجال الذين كانوا في سنوات سابقة قد غادروا دمشق والمناطق المجاورة وكانوا قد ذهبوا الى مصر لتجنب وطأة المجاعة ، وصمم ان يعود بهذه القوات الى دمشق حيث بامكانه ان يسبب متاعب كثيرة لان ذلك يتم من قاعدة قريبة .

وعقد العزم ايضا وهو زاحف الى دمشق ان يلحق الاذى بالقدر الممكن بمواقع ممتلكاتنا الواقعة فيما وراء الاردن ، وكانت المحاصيل هنا جاهزة للحصاد ، وبإمكانه ان يلحق الكثير من الضرر بالمسيحيين باحراق هذه المحاصيل او بالاستيلاء على قلعة او اكثر من قلاعنا في ذلك الموقع .

ويقال ان الهدف الخاص في التصرف على هذا النحو كانت الرغبة بالانتقام من الامير ارناط حاكم تلك المنطقة ، لان هذا الامير كان كما روي قد اعتقل بعض العرب خلال فترة الهدنة خلافا للاتفاقية ، ورفض اطلاق سراحهم عندما طلب منه .

علم الملك عن طريق كشافته بتقدم صلاح الدين وبخططه ايضا ، فعقد على الفور مجلسا عاما في القدس ، حيث درست شروط الامير التركي (٤٠٦) بدقة ، ثم ، وتنفيذا لنصيحة بعض مستشاريه ، قاد جميع قواته عبر وادي موسى حيث يوجد البحر الميت ، ووصل الى الموضع الذي اقترح ان يقابل صلاح الدين في زحفه ومنعه من تخريب تلك المنطقة .

كان زحف صلاح الدين عبر الصحراء قد تم في ظل صعوبات كثيرة واستغرق حوالي العشرين يوما ، وكان مقيما الان مع قواته في منطقة مأهولة بالسكان من أراضينا وعلى بعد مسافة قدرها عشرة اميال تقريبا من معقل الكرك المسيحي . وكان ينتظر هنا بغية

تسلم معلومات محددة حول وضع الموقع وحول امـاكن وجـود الملك وجيشه .

كان بلدوين قد وضع معسكره بالقرب من مدينة قديمة تدعى بتراء الصحراء في العربية الثانية ، على بعد نحو ستة وثلاثين ميلا مـن معسكر صلاح الدين ، وكان معه قوة الجيش باسرها . وبقي كونت طرابلس مع القوات ايضا ، مع ان ذلك كان متعـارضا بشـدة مـع ارادته ، لان الملك قد زحف الى هناك خـلافا لما اشـار بـه وتـرك بالتالي الاجزاء الاخرى من مملكته بدون حماية ومجردة تماما مـن الجنود . وكان بعض النبلاء قد اثروا على الملك ليتبع هذا المنحـى ، بدافع رعاية الامير ارناط والدفـاع عن مصـالحه وليس في سـبيل المصلحة العامة ، وبدون اعطاء اهتمام مناسب لما يمكن حـدوثه في المملكة المتروكة بدون مدافعين .

واظهرت الاحداث اللاحقة على الفور كم كان هـذا العمـل بعيدا عن الحكمة ، لان الحكام في المنطقة المجاورة لدمشـق وبصرى وبعلبـك وحمص جمعوا قواتهم بصمت وسرية بعدما ادركوا ان نخبة المملكة كانت متغيبة وان المنطقة باسرها كانت خالية من الجنود . وعبـروا الاردن بالقرب من بحيرة طبرية اي بـالقرب مـن مـدينة طبـرية ، ودخلوا منطقتنا خلسة ، وبعـدما اجتـاحوا جـزءا مـن الجليل ، وصلوا الى موقع عند سفح جبل الطور يدعى دبـورية بـالقرب مـن مدينة نين القديمة ، ولم يكن سكان تلك المناطق عارفين حتـى الان انه تم الغاء المعاهدة ، ولهذا لم يتخذوا اجراءات لحمـاية انفسـهم اعتماداً منهم بشكل تام على المعاهدة ، ونتيجة لذلك انقض العـدو عليهم خلسة في الليل وطوق الموقع تماما بحيث لايمكن للمحـاصرين النجاة الى الجبال التي ارتفعت فوقهم .

رأى السكان عندما بزغ ضوء النهار انهم كانوا مطوقين مـن جميع الجهات من قبل العدو ، فانسحبوا بسرعة الى برج فوق القـرية فطوق الاتراك على الفور هذا البرج وبذلوا جهودا جبارة لتـدميره ،

فنجحوا في غضون اربع ساعات وانهار البرج الى الارض ، غير ان اللاجئين الذين كانوا قد هربوا اليه طلبا للحماية استسلموا قبل النكبة الاخيرة ، عندما بدأت الصدوع بالظهور ، وبات انهياره وشيكا .

جمع الكفرة عند ذلك جميع المغانم من دبورية واماكن اخرى مجاورة ، واخذوا معهم ، بدون مقاومة ، نحو خمسمائة نفس كأسرى ، وتركوا في الميدان العديد من القتلى الذين كانوا قد سقطوا اثناء القتال ، وبما ان الموقع كان خصبا جدا وكان موعد الحصاد وشيكا ، فقد كانت اعداد كبيرة من الناس قد قدمت الى هناك من اماكن مجاورة للمساعدة في جني المحصول ، وقام العدو بنقل جميع هؤلاء ، كما قلنا ، بدون مقاومة ، ثم عبر الاتراك الاردن من جديد وعادوا الى موطنهم سالمين معافين .

١٥ ـ صلاح الدين يستولي بالقوة ايضا على واحد من معاقلنا وهو كهف محصن بشكل جيد في اراضي السواد.

حدثت في هذا الوقت والملك والجيش المسيحي مايزالان منشغلين في وادي عربة كارثة شديدة جدا عرضتنا لمخاطر جديدة سوف يأسف عليها شعبنا دائما ، كان المسيحيون يمتلكون موقعا محصنا بشكل قوي جدا في منطقة السواد فيما وراء الاردن وعلى بعد ستة عشر ميلا من طبرية ، وكان يعتقد بانه لايرام ، وكان له نفع كبير لشعبنا ، وكانت هذه المنطقة تقع على مسافة اقرب الى ممتلكات العدو اكثر من قربها لمملكتنا ، وبامكانهم بالنتيجة ان يفرضوا ارادتهم عليها والهيمنة على السكان كما يشاؤون ، ومع ذلك ، وبسبب الحماية التي قدمتها هذه القلعة ، فان عادة اقتسام السلطة بشكل متماثل بين المسيحيين والكفرة قد سادت لسنوات كثيرة ، وكانت ماتزال تطبق في هذا الوقت ، كما قسمت الضرائب والجزية بشكل متماثل بينهما ايضا (٤٠٧) .

كانت القلعة التي اشير اليها منذ لحظات تقع في كهف على منحدر احد الجبال وتحت جرف معلق ضخم ، ولم يكن هناك اي طريق من اي نوع على الجانب العلوي ، بينما لم يكن على الجانب الاخر سوى ممر ضيق للمشاة يتمكن بوساطته المرء ان يجد طريقه بصعوبة اذا كان خاليا من كل المعيقات ، وكانت العناية بهذا الموقع قد اوكلت الى فولك صاحب طبرية ، وكان نبيلا متيقظا ومخلصا ويمتلك ثروات كبيرة .

كان قادة القوات التركية قد استولوا على دبورية وجعلوا شعبنا اسرى هناك ، كما تم ذكر ذلك انفا وظهروا الان فجاة امام هذا الموقع ، وكانوا قد استولوا عليه بهجوم عاصف خلال بضعة ايام .

هنالك اختلاف بالراي حول الاستيلاء على هذه القلعة ، ويقول بعضهم ان الحامية التي كانت في القلعة قد سلمتها لقاء مبلغ من المال ، ويؤكد اخرون ان جنود العدو كانوا قد شقوا طريقهم الى داخل الكهف من طرفه بنسفه ، وهو عمل امكن انجازه بسهولة حيث كانت الصخرة ذات طبيعة جصية ، وتسللوا الى الطابق الاول واستولوا عليه ثم اجبروا بعد هذا الاستيلاء على استسلام الموجودين في الطوابق الوسطى والعلوية (لان المكان كان يتألف ـ كما قيل ـ من ثلاثة طوابق) .

هذا وتم التأكيد في وقت لاحق ان العدو امتلك الكهف بوساطة خيانة الضباط المسؤولين ، فعلى الرغم من ان البقية رغبت في متابعة المقاومة ، غير ان اولئك المسؤولين ، حظروا اجراء اي دفاع ، وتخلوا انفسهم عن القلعة بعد الاستسلام والالتحاق بالعدو . ويقال ان القادة المسؤولين كانوا من السريان ، وهو شعب نعتبره ضعيفا ومخنثا (٤٠٨). ولذلك وجه اللوم الاكبر الى فولك صاحب طبرية الذي كان مسؤولا عن تعيين رجال من هذه المنزلة مسؤولين عن موقع هام جدا كهذا ، كانت هذه من الاقاويل التي انتشرت في كل مكان عبر المملكة حتى وصلت في اخر الامر الى مسامع

المسيحيين الموجودين وراء الاردن والذين كانوا يحاولون منع صلاح الدين من العبور الى سورية في طريقه من مصر الى دمشق .

غمر هذا النبأ قلوب الجميع بالرعب . وكان هذا صحيحا بشكل خاص بالنسبة لكونت طرابلس ، الذي اعتمدت عليه مسؤولية هذه القلعة ورعايتها .

وهكذا حدث ان الذين كانوا قد غادروا المملكة باهمال وكانوا يتصرفون بطيش ايضا في هذا الموقع ، لم يتمكنوا من انجاز اي شيء مقبول للرب او مفيد للمملكة ، وكان ينبغي عليهم ان يقابلوا صلاح الدين عند حدود مملكتنا ويحولوا دون دخوله الى المنطقة ، الا انهم سمحوا له بطيش كاف بان يتقدم وصولا الى الموقع المسمى القريتين حيث وجد وفرة كبيرة من الماء الذي طلبه جيشه الظامىء بشكل شديد للغاية ، وارسل من القريتين قسما من قواته الى المنطقة المجاورة لقلعتنا المعروفة باسم الكرك حيث قطعوا الكروم والحقوا خسائر اخرى بالناس القاطنين هناك ، ولو كان المسيحيون قد اسرعوا الى ذلك الموقع لاجبر العدو حتما على التقهقر الى مصر ، لانه كان يقود حشدا ضخما من الناس غير المقاتلين ، والذين كانوا قد اكتشفوا ان الماء في قربهم والخبز الموجود في صناديقهم اخذ بالنفاد وكان ينبغي ان يهلك جميع هذا الحشد من المجاعة في الصحراء ، حيث كان التقدم مستحيلا ، والاشتباك مع قواتنا سيرافقه خطر عظيم (٤٠٩)

عندما علم المسيحيون أن السلطان كان قد وصل إلى الموقع المذكور منذ لحظات قرروا ثانية أن يهاجموه في هذه المرة عند الماء المعروف باسم راس الرشيد ــ (عقبة شتار ؟) ولو تم تنفيذ هذ الخطة لأجبر صلاح الدين على محاولة الزحف خلال الصحراء البعيدة ، وهو عمل كان يتعذر انجازه دون حدوث خسارة ضخمة من الرجال وحيوانات التحميل .

إلا أنه وصل إلى المياه دون صعوبة لأنهم أهملوا تنفيذ هذا ، ثم دخل بلاده دون معارضة ووصل بسلامة تامة إلى دمشق .

عاد المسيحيون أيضا لدى معرفتهم بمغادرته ، إلى بلاده وعلى الطريق ذاته الذي كانوا قد أتوا عبره . وكان يتوجب اتخاذ الحيطة خشية أن يستنبط صلاح الدين من دمشق ، إلى حيث كان قد رحل مع جميع أتباعه ، بعض الدواهي التي يمكن أن تلحق المخاطر بالمملكة ، ولهذا صدر الأمر إلى جميع سكان المنطقة بالاجتماع عند نبع الصفورية الواقع بين الصفورية والناصرة ، وحضر معهم الملك والبطريرك وجميع الأمراء المدنيين والكنسيين مع صليب الصلبوت وانتظروا من يوم لآخر اقتراب العدو .

١٦ - صلاح الدين يغزو أراضينا بقوة مسلحة . نشوب معركة قرب قلعة عفربلا بدون نتيجة حاسمة.

كان صلاح الدين قد جمع خلال هذا الوقت قوات من سائر أنحاء ممتلكاته ليغزو الجيش الذي كان قد جلبه معه من مصر ، وتقدم الآن ، وهو مصمم على غزو بلادنا ، إلى الموقع الذي يدعى بلغتهم باسم رأس الماء . ويقال إنه يقع على مسافة قصيرة فقط من ديارنا وعلى مسافة قريبة من مدينة طبرية ، ودخل صلاح الدين منطقتنا فجأة بعد بقاء لبضعة أيام في رأس الماء ، وعسكر بين نهرين في موقف يعرف باسم الفوار وهو يقع على بعد نحو أربعة أميال عن طبرية .

ونقل الكشافة على الفور هذه الحقيقة إلى قادتنا ، فتقرر شن هجوم فوري ، وأرسلت القوات بسرعة إلى طبرية لتتحد مع الفرقة التي كانت قد أرسلت إلى هنالك لتقوم بحماية المدينة والأماكن المحصنة في المنطقة المجاورة ، أي : صفد وكوكب .

حدث أن كان كونت طرابلس ــ وهو رجل متمكن وشجاع وله خبرة واسعة في الحرب ــ في هذا الوقت مستلقيا وهو مريض بشكل خطير لتعرضه لنوبة حمى إقليمية مضاعفة (كذا) وقد أضاف هذا الكثير لمتاعب المسيحيين ، لأنه حرمهم في وقت خطير من مساعدة هذا الحاكم العظيم الذي اعتمدوا اعتمادا كبيرا على مشورته وحكمته . ومع ذلك ، فقد استدعوا قوات اضافية من المواقع المجاورة وانطلقوا نحو العدو برايات مرفوعة . لكن ما أن علم صلاح الدين بأنهم كانوا يتقدمون ، حتى عبر الأردن بجيوشه وانسحب إلى الأماكن المحيطة بسقيثوبولس .

تقع سقيثوبولس التي كانت فيما مضى حاضرة فلسطين الثالثة والمعروفة أيضا باسم بيسان ، في سهل وسط حقول مروية بشكل جيد بين جبال الجلعاد ونهر الأردن . إلا أن الامتيازات التي نعمت بها من قبل قد تم نقلها الآن إلى الكنيسة في الناصرة في الأبرشية ذاتها ، لأنه لا يوجد سوى عدد قليل جدا من السكان في بيسان واصبحت مجرد بلدة صغيرة .

زحفت كتائب العدو إلى هناك ، وشنت على الفور هجوما عنيفا على حصن صغير واقع في منطقة مستنقعية ، إلا أن سكان المدينة أبدوا مقاومة عنيفة واكتشف الاتراك أنه لم تكن لديهم أية إمكانية للنجاح ، ولذلك ، وحتى يزحفوا ضد المسيحيين ، وجهوا صفوفهم نحو قلعة جديدة ، تسمى الآن باسم كوكب وهي واقعة في الهضاب الواقعة بين بيسان وطبرية .

سلك المسيحيون طريق الأردن حتى وصلوا إلى الموقع المذكور منذ لحظات عندما تركوا الوادي وصعدوا إلى الجبال ، فأنهكوا كثيرا بسبب الحرارة الشديدة التي أصبحت لا تحتمل تقريبا أثناء تقدمهم . وأمضوا الليل بحالة يقظة مستمرة ، لأنهم توجسوا أن يكون العدو في المنطقة المجاورة ، وعندما أتى الصباح عادوا إلى السهل الذي يقع بين القلعة المذكورة منذ لحظات وقرية تدعى عفر بلا

وهنا شاهدوا قوات صلاح الدين منتشرة في كل الأماكن المجاورة بأعداد تفوق كثيرا ما كانوا قد جربوه من قبل ، وبالفعل ، فقد أعلن الأمراء الأكبر سنا في المملكة بأنهم لم يشاهدوا في أية مرة منذ أن دخل اللاتين سورية لأول مرة عددا ضخما من الأعداء كهذا ، لقد كان عدد الفرسان المجهزين للحرب نحو عشرين الف فارس ، بينما قدر عدد فرساننا بنحو سبعمائة فارس ليس اكثر ، وكان لدى صلاح الدين ونبلائه تصميم وهدف مشترك واحد ، وهو تطويق جيشنا بالكامل حتى لايتمكن احد من النجاة ، لأنهم احتقروا قوتنا الصغيرة ، معتمدين على اعدادهم الضخمة ، التي ذكرتها للتو وكانوا واثقين ان المسيحيين لن يتمكنوا من مقاومتهم .

إلا أن الأمر بدا للرب مختلفا جدا ، لأنه هو الذي يقهر بسهولة حشدا ضخما بعدد قليل من الناس ، فمع أن أعدادنا بدت بأنها لا شيء بالمقارنة مع جيش العدو ، إلا أن المسيحيين نظموا صفوفهم حسب أسس العلم العسكري ، تؤيدهم في ذلك رحمة الرب ، وتقدموا نحو العدو بشجاعتهم المألوفة ، وقاوموا بثبات الهجمات الموجهة ضدهم وعلى الرغم من أن العديد من المسيحيين ـ الذين نمتنع عن ذكر أسمائهم ـ هربوا بشكل مخز من وطيس المعركة جالبين على أنفسهم خزيا سرمديا ، فقد أثبتنا تفوقنا في تلك المعركة على أعدائنا ، وأبدى كل من بلدوين صاحب الرملة وأخوه بالين شجاعة عظيمة في ذلك اليوم ، وحاربا بقوة واقدام ، كما أن هيو الأصغر ، ربيب كونت طرابلس ، الذي كان مع الفرقة القادمة من طرابلس ، يستحق أن تحفظ ذكراه في البركة ، فمع أنه كان أصغر من الآخرين فإنه ناضل ببسالة تفوق سنه كثيرا ، وهزم مع الجند الذين كانوا تحت قيادته ثلاث مجموعات من الأتراك وجعلها تلوذ بالفرار ، ثم عاد بفضل الرب سليما إلى أصدقائه .

لم يقتل في تلك المعركة سوى عدد قليل من فرساننا ، وهم على وشك الدخول في جماعة القديسيين في عليين ، لكن هلكت اعداد كبيرة من الناس ، وكانت خسائر العدو تفوق خسائرنا كثيرا ، وسقط بعض

قادتهم الرئيسين ، وهي مصيبة دفعت الكفرة إلى الفرار من ميدان المعركة مذعورين .

ويجب عدم التغاضي والسكوت عن ذكر حقيقة أن الحرارة خلال تلك الأيام كانت أعلى بكثير من المعتاد إلى درجة أن العديد من الجيشين هلكوا نتيجة اصابتهم بضربة شمس وكانوا بقدر من هلك قتلا بالسيوف .

لم نستطع أن نعلم أي شيء ثابت بخصوص عدد القتلى في صفوف العدو ، لأنهم نقلوا جثث الذين كانوا قد قتلوا في المعركة ليخفوا خسائرهم عنا ، ودفنوهم خلسة في الليلة القادمة في معسكرهم ، خشية أن يقوم الدليل على مقتلهم بالهاب شعبنا بشجاعة اضافية ، إلا اننا تأكدنا أنه نتيجة للسببين المذكورين أعلاه هلك حوالي ألف منهم .

انسحب صلاح الدين وهو محبط لأن الأمور لم تسر حسبما كان يرجو ، ولأن المسيحيين كانوا قد أثبتوا بأنهم أقوى مما توقع ، وعبر الأردن من جديد وعاد إلى موطنه مخيما لمرة ثانية في الموقع الذي كان قد انطلق منه .

وأستدعى المسيحيون قواتهم أيضا وعادوا إلى نبع الصفورية الذي كان نقطة البدء لهم ، وأنهكت الحرارة الشديدة في هذا الزحف بلدوين ، وهو أحد شماسة قبر المسيح وخازن لتلك الكنيسة حيث كان يحمل صليب الصلبوت فوضع في محفة ونقل إلى سفح جبل الطور إلى مقربة من وادي كوسين حيث لفظ انفاسه الأخيرة .
وهلك أيضا راهب آخر هو غودفري أوف فلنيوف وهو شماس من الكنيسة ذاتها كان قد أرسل في تلك الحملة كمساعد لبلدوين هذا ، وبما أن اهتماماته الدنيوية حملته بعيدا فقد أصيب بسهم أدى إلى هلاكه ، ومن العدل بالفعل حسب قول الرب أن « كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » (٤١٠)

-٣٤٢٦-

١٧ – صلاح الدين يستدعي اسطولا من مصر ويحاصر مدينة بيروت.

عاد الملك مع قواته إلى الموقع المذكور آنفا ، وجمع صلاح الدين الآن قواته للمرة الثانية ، وهو غاضب غاية الغضب من أن حملته اثبتت بأنها عقيمة جدا ، وراجع في ذهنه من جديد أساليبه وخططه كافة ، وتداول بقلق من مستشاريه حول أفضل الطرق لتجديد الاجراءات العدوانية ضد المسيحيين ، ووصل إلى محصلة خلاصتها : إن أكثر الطرق نجاعة في إلحاق الضرر بنا هي مهاجمة شعبنا في عدة مواقع مختلفة في وقت واحد معا ، وبناء عليه أرسل تعليمات دقيقة إلى أخيه ، الذي كان قد تركه مسؤولا عن أموره في مصر ، بجمع أسطول من الاسكندرية ومن مصر وارساله إلى سورية بالسرعة الممكنة ، وأوضح أنه عقد العزم ، فور وصول هذا الأسطول على محاصرة بيروت برا وبحرا ، ولكي يمنع الملك وشعبه من الاسراع لنجدتها فقد أمر اخاه أن يجمع قوات الفرسان التي كانت قد تركت مصر ، وتوجب عليه أن يدخل مع هؤلاء الجنود بلادنا من الجنوب فيدمر سائر المنطقة الواقعة حول غزة وعسقلان والداروم ، التي تعتبر المدن الأخيرة التي تخص المملكة على هذا الجانب المحاذي لأرض مصر .

وكانت غاية صلاح الدين من اعطاء هذه الأوامر ، هو أنه عندما يكون قسم واحد من القوات المسيحية منشغلا في مقاومة الغزاة من مصر يكون قد تم بوساطته تقليص قوة الجيش وأعداده ، وبذلك يمكن هو نفسه من أن يكون حرا في مهاجمة المدينة المحاصرة بضراوة أكبر .

ونفذت خططه حسب الأوامر التي كان قد أعطاها ، ووصل في غضون بضعة أيام أسطول مؤلف من ثلاثين سفينة منقارية الشكل حسبما كان قد أمر وقاد أخوه إلى المنطقة المجاورة للداروم القوات التي كان قد جمعها من سائر أنحاء مصر ، وحتى يكون كل شيء

جاهزا عندما يصل الأسطول ، قاد صـلاح الدين بنفسـه قـوة إلى الموقع المعروف عموما باسم وادي البقاع . ووضـع الكشـافة على الهضاب التي تشرف على البحر بين المنطقـة المذكورة منذ لحـظات وسهل بيروت ليخطروه عند رؤيتهم للأسطول ، وجمع خـلال هـذه الفترة قوات اضافية من المشاة من المنطقة المجاورة ولم تحظ بعناية كبيرة جميع الاستعدادت التي أعتقد بـأنها سـتكون ضرورية لعملية الحصار الناجحة .

ووصل الأسطول في الأول من شهر آب بالضبط وكان قبالة الساحل بالقرب من بيروت ، وقدم الكشافة المعدون خصيصا لهذا الغـرض ، اشعارا فوريا بهذا الوصول ، وعبر صلاح الدين على الفور الجبـال الفاصلة بين موقعه وبيروت وقاد قواته ونزل إلى السهل ، وحـاصر هنا مدينة بيروت بشكل تام حسب الخطة التـي رتبهـا قبـل زمـن طويل .

بدأت الآن شائعات متضاربة بخصوص نوايا صـلاح الدين تصـل إلى قواتنا التي كانت معسكرة في الصفورية ، فقد قـال بعضـها إنه اعتزم أن يحاصر مـدينة بيروت والأمـر ثبـت في النهـاية أنه كان صحيحا ، واعتقد أخرون أن فكرته الكلية كانت الفوز بحلب ، بينما أكدت فئة ثالثة أيضا أن غرضه هو الاشتباك مع حـاكم الموصـل ، الذي كان حاكما تركيا قويا وعظيما ، والذي أشيع أنه كان يحـاصر بعض مدن صلاح الدين في أحواز الفرات .

وبينما كانت هذه الشائعات المتقطعة تنتشر في المعسـكر ، انتهـت الشكوك بأسرها بوصول رسول أعلن أن مدينة بيروت كانت بالتأكيد القاطع في حالة حصار ، وقدم في الوقت نفسـه رسـول آخـر مـن الجنوب بمعلومات وثيقة كان مفادها أن أخا صلاح الدين قد اجتـاح بقوة ضخمة منطقتنا في المنطقة المجاورة للداروم ، وأن ستة وثلاثين من الفرسان المسلحين تسليحا خفيفا ممن يسمون باسم التوركبلي قد قتلوا ، وأحرقت بعض القرى النائية .

قرر الملك بعد تلقي هذا النبأ وبعد التداول مــع نبــلائه أن يهــاجم الموقـع الأشد خطرا في أول الأمر ، بتحرير المدينة المحاصرة في الخطر الذي واجهته ، لأنه لم ير قواته بأنها قوية بمــا فيه الكفــاية لطــرد العدوين من أرضه في الوقت نفسه .

١٨ ـ الملك يصل الى صور في طـريقه لنجـدة بيروت. صلاح الدين يرفع الحصار

وبناء عليه استدعى الملك قواته ، وتقدم على رأس الجيش بــأكمله نحو مدينة صور حيث أمــر بتجهيز الأســطول الذي كان راســيا في موانىء عكا وصور . وتشكل في غضون ســبعة أيام ، بشــكل أسرع مما هو متوقع ، أسطول مؤلف من ثلاث وثلاثين ســفينة ، مســلحة بشكل جيد ومزودة برجال شجعان ، وكان متأهبا للعمل .

بينما كان المسيحيون يجرون هذه الاستعدادات بعناية وحمــاسة ، كما تم سرد ذلك ، كان صــلاح الدين يحــاصر مــدينة بيروت وكان جيشاه يجهدان أنفسهما إلى الحد الأقصى ليلحقــا بــالسكان جميع المتاعب الممكنة ، واستخدمت الفيالق المنتشرة حــول المدينة ، بنوب متتابعة وواصلت لمدة ثلاثة أيام ضغطا مســتمرا بحيث لم تعــط أية فترة راحة للمحاصرين من اجل النوم او تناول الغــذاء الضروري لم يكن صلاح الدين قد جلب معه آلات القذف الحربية ولاي نوع أخــر من الآلات الحربية المستخدمة عادة في محــاصرة القــلاع ، ولربمــا اعتقد انه سيتمكن من الاستيلاء على المدينة بهجــوم مفــاجىء دون مساعدة أدوات كهذه ، اوربما انتقص من قيمة اضاعة جهــد كهــذا دون توقع لاية نتائج مجدية لأنه كان يتوقع وصول الجيش المسيحي من لحظة لاخرى ، الا انه انجز بجهوده الحماسية والحذرة كل مــا كان ممكنا دون مساعدة الآلات الحربية ، لانه كان قد وضع جيشــه الضخم في صفوف متتالية حــول المدينة ، كمــا كان تــم شرح ذلك ، وانجدت هذه الفرق بعضها بعضا بالتناوب واطلقت وابلا غزيرا مــن

السهام على المدافعين الذين كانوا يقاتلون على الأسوار وفي الابراج لدرجة أن المدينة والتحصينات تغطت بالسهام مثلما يغطيها البرد .

لكن لم تكن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي حاولت بها قوات صلاح الدين منع السكان من الدفاع عن المدينة ، فقد استقدمت بالقوة أيضا لغامين جلبوا للغرض الخاص لنسف السور ، وكان يؤمل بهذه الوسيلة فتح ثغرات بتدمير الحواجز الامامية والأسوار بحيث يمكن ادخال مجموعات من الجنود المسلحين فيها على الرغم من جهود المحاصرين ، واستمر باقي الجند بصب وابل من القذائف بشكل غير منقطع من أقواسهم والعرادات التي كانت معهم حتى يتمكن اللغامون من الانكباب على عملهم بدون عائق ، ونفذ هذا بمواظبة بالغة إلى درجة أن السكان الموجودين داخل الأسوار كانوا في خطر موت وشيك ونادرا ما تجرأوا على رفع إصبع من أصابعهم .

استجاب المدافعون بنبل لأوامر الحاكم وتحريضاته مع أنهم كانوا قليلين جدا في عددهم ، واستجابوا للأسقف بشكل خاص ، وكانت البسالة والثبات العظيمان اللذان اظهرهما الأسقف في هذا الظرف الطارىء جديرين بالثناء الرفيع ، وقابل المسيحيون جميع أساليب العدو بإجراءات مضادة وجربوا جميع سبل المقاومة الممكنة ، وقذفت الرماح والسهام على رماة السهام المتمركزين خارج الأسوار بخبرة وحماسة مماثلتين لخبرة وحماسة المهاجمين ، مما أدى إلى إلحاق خسائر كبيرة بالأتراك وقتل مرة تلو الأخرى الذين كانوا الأكثر شجاعة في التقدم إلى الهجوم .

وقوبل اللغامون ، الذين كانوا يناضلون لنسف الاسوار ، بمهارة مماثلة لمهارتهم لدرجة ان الكثير من الذين كانوا منشغلين بحماسة في ذلك العمل قتلوا او فقدوا آلات حفرهم

لم تكن القوات التي وصلت برا هي وحدها التي أحدثت دمارا كبيرا بين المحاصرين بل أظهر الذين كانوا قد أتوا بالبحر ضراوة مماثلة

وشجاعة في الهجوم ، وكان صلاح الدين نفسه قد احتل موقعا على هضبة قريبة ولم يتوقف بحضوره وأقواله المشجعة عن بث الحماسة في جنوده لخوض القتال ، وكان في هذا ناجحا للغاية حتى أن واحدا من كبار قادته ويدعى عز الدين (فرخشاه) اقترح اسناد السلالم إلى الأسوار وشق الطريق بالقوة ، لأنه شعر انه من المخزي أن يكون لدى قوة صغيرة كهذه الشجاعة او القوة لتقاوم جيشا كهذا ، وكان يصر بالحاح على هذه الخطة وكان يطالب الباقين بالقول والأمثولة أن يوافقوا عليها ، عندما أصيب بسهم فجأة بالقرب من عينه ، فأجبره هذا الحادث ، كما أجبر الآخرين عن التخلي عن المشروع .

وحوصرت المدينة لمدة ثلاثة أيام متتالية بالطريقة التي ذكرت منذ لحظات . إلا أن القوات البحرية انسحبت بأمر صلاح الدين إلى الشواني حيث اتضح في آخر الأمر أنه لا توجد أية فرصة للنجاح ، وغادرت عند حلول الظلام في اليوم الثالث بصمت وبدون سابق إنذار .

واستدعى صلاح الدين قواته البرية أيضا وانسحب إلى مسافة قصيرة عن المدينة ، ثم قسم الفرسان إلى مجموعات وأمرهم أن يطهروا السهول الواقعة حول المدينة وأن يدمروا تدميرا تاما جميع الأبرجة الواقعة في المناطق النائية ، ودمرت بأوامره أيضا جميع البساتين والكروم الكثيرة الواقعة في المنطقة المجاورة للمدينة بالفؤوس والبلطات .

وأمر صلاح الدين بعض الرجالة باحتلال بعض الطرق الصعبة والضيقة الواقعة بين بيروت وصيدا ، والتي لابد ان يجتازها جيشنا في طريقه لنجدة المدينة ، حتى يمكن لعمل الحصار أن يستمر بحرية وضمان زائدين ، كما شيد ستائر دفاعية من الحجارة بدون ملاط بحذاء شاطىء البحر ، ورجا بمساعدة هاتين الوسيلتين أن

يعيق فيالقنا من التقدم . وأن يتمكن في هـذه الأثناء مـن مـواصلة الهجوم على بيروت بدون اعاقة .

ولقد ذكر انه كان مصمما بعزم على الا يتخلى عن الحصـار حتـى يتمكن مـن الاسـتيلاء على المدينة بـالقوة ، غير انه غير رأيه الآن واستعد للعودة إلى الوطن . وذكر أن سـبب تغيير الرأي هـذا كان على النحو التالي : حدث أن أوقـف الذين كانوا يحـرسون الممـر رسولا كان حاملا رسائل تشـجيع مبعـوثة مـن بعض المؤمنين إلى سكان بيروت ، وأحضر هذا الرسول إلى عند صلاح الدين واخضـع لتحقيق شديد للغاية ، وعلم صلاح الدين من الاعتراف الذي انتـزع من الرسول بالقوة ومن محتويات الرسالة أيضـا أن جيشـينا كانا مستعدين تماما وسيصلان بكل تأكيد في غضون ثـلاثة أيام ، ولذلك غير خططه ورفع الحصار كما حكينا ذلك .

وصل أسطولنا بسلام إلى غايته ، غير انه عاد دون إضـاعة كبيرة للوقت إلى الموانىء التي كان قد أبحـر منهـا بعـدما وجـد المدينة متحررة ، وبقي الملك ـ لدى معرفته بأن العدو قد تخلى عن الحصار ورحل ـ لبضعة أيام في مدينة صور مع جيشه بـأسره ، ثـم جمـع قواته من جديد و عاد إلى العصفورية .

١٩ ـ صلاح الدين يعبـر الفـرات ويدخـل بـلاد الجزيرة .

رغب صلاح الدين ـ الذي كان نشيطا وحذرا دائما ـ بكل فؤاده أن يزيد مجد اسمه ويوسع حدود مملكته ، وصمم أن يتقـدم إلى الشرق حيث كان تواقا لتحقيق انتصارات أكبر أيضـا ، وقـد تقـدم وهـو محتقر لقوة المسيحيين وكأنها لا شيء ، وليس واضحا بشـكل تـام حتى الآن فيما إذا كان قد تقدم إلى هناك بمبادرته الخـاصة ، وذلك بوحي من عظمة نفسه الأمر الذي اتسمت طبيعته به ، ومن المحتمـل

أن هذه المهمة الصعبة التي بدت انها تفوق قـوته ، قـد نفـذت تلبية لأمراء تلك المنطقة ، ومهما يكن من أمر ، لقد جمع مـن جـديد قـوة كبيرة من الفرسان ، وأمر ــ بقـدر مـا سـمح له الزمـان والمكان ــ بتجهيز جميع المعدات والأمتعـة اللازمـة للقيام بـزحف طويل جدا ، وقاد قواته نحو الفرات .

وكان الرأي السائد بين المسيحيين أنه سيزحف نحو مدينة حلب في محاولة للاستيلاء عليها ، لان مدينة حلب وحدها مـن سـائر ميراث نور الدين مع بعض المعاقل المتاخمة لها لم تكن قد وقعت حتـى الآن تحت سيطرته . فقد احتفظ بها ، بعد وفاة ابـن نور الدين ، أخـي قطب الدين ، حاكم الموصل ، بتأييد من قطب الدين والذي كانت قـد الت اليه بحق وراثي عند وفاة الشاب المذكور آنفـا.(٤١١) لقـد كان هذا المعتقد عموما وقد بدا هذا محتملا في ان صلاح الدين كان يزحف الى هناك بغية الاستيلاء على المدينة ، لكنه كان قد فكر بأفكار ارفع بكثير ، كما أثبتت النتيجة ذلك . وقد عبر الفرات مخلفا مـدينة حلب وراءه ، واستولى في غضون أيام قليلة وبهجوم عاصف على حـران والرها ، هاتان المدينتان الرائعتان في بلاد الجزيرة ، وذلك مـع عدد كبير من المدن الاخرى ومع قراها التابعة لها ، واستولى في الواقـع بالقوة المسلحة أو بالرشوة ، تقريبا على كامل المنطقة التي كانت من قبل تحت سلطة أمير الموصل المذكور منذ لحظات ، وأغوى بسـخائه الوافـر أعيان المنطقـة الذين كانوا يدينون بـالولاء والاخـلاص لحاكمهم ، وبعدما استلم قلاعهم نجـح ايضـا في كسـب ولائهـم لنفسه ، ولقد قيل أن أمير الموصل الرجل العظيم ، وجد نفسه وقـد حرم تماما من دعم نبـلائه غير قـادر على مقـابلة صـلاح الدين أو مقاومته ولقد راج بين الناس اقاويل اشـاعت أن صـلاح الدين قـد افسد عبيد وأصدقاء هذا الأمير ، وكان قد أمر بإعطائه جرعة مـن السم كادت أن تقتله ، ولهذا السبب كان يعتقد من هذه الروايات أن صلاح الدين كان قد وصل الى الموصل مع قـواته بـدون أن يعيقـه شيء ، وانتشرت بيننا قصص ذات مغـزى متفـاوت بخصـوص هذا ، حيث كان مفاد بعضها أن زحفه كان ناجحا وأن كل شيء كان

يتغير حسب رغباته ، بينما أشارت قصص أخرى الى مايخالف هذا وحكت أن كبار رجالات تلك المنطقة قد توحدوا معا للتصدي لمحاولاته الوقحة ، وأن جيشه على هذا قد واجه معاملة قاسية|(٤١٢)

٢- الملك يعيث فسادا في أراضي الدمشقيين بطريقة عدوانية .

على هذا بدت بلاد العدو بأنها مجردة من المدافعين عنها ، ولذلك اعتقد الملك ونبلاء المملكة ، بدون سبب واضح ، أن الفرصة المرغوبة منذ زمن طويل لالحاق الضرر بالعدو قد حلت ، وازداد غضبهم ضد صلاح الدين كثيرا بحكم حقيقة أنه كان بعجرفته وتعاليه قد احتقر القوة العسكرية للمملكة ، ورحل ليفوز بممالك اجنبية دون الدخول في هدنة أو معاهدة مع الملك ، ولذلك جمعوا بعد التداول فيما بينهم ، قواتهم ودخلوا ، بصحبة البطريرك وصليب الصلبوت المانح للحياة ، بلاد الكفرة ليعيثوا فسادا في المنطقة بقدر ماسمحت لهم قوتهم .

ومروا خلال بلاد حوران التي تشكل جزءاكبيرا من أراضي بصرى ودخلوا سورية الصغرى التي عاصمتها دمشق ، ثم وجهوا سيرهم نحو الجزء الشرقي في هذه المنطقة وشقوا طريقهم الى مدينة درعا المشهورة والآهلة بالسكان ، والقريبة من دمشق . واجتاحوا المنطقة من هناك ودمروا جزءا كبيرا من المواقع النائية والمعروفة عموما باسم القصور حيث حرقوا هذه المواقع أو خربوها بكل وسيلة ممكنة ، وكان سكان هذا الاقليم قد علموا باكرا باقترابنا فهربوا مع زوجاتهم وأبنائهم وقطعانهم وجشارهم الى مواقع كانت فيها تحصينات أفضل . وهكذا ، لم يجلب المسيحيون معهم سوى القليل أو لاشيء من المغانم أو الثروات ، هذا وقد حرقوا و دمروا بطريقة أو بأخرى المحاصيل ومستلزمات الحياة الأخرى التي لم يتمكن العدو من أخذها معه أثناء هروبه .

وتوجب عليهم ، بعدما أتلفوا كل ماراوه ، أن يمروا لدى عودتهم بالقرب من مدينة مهيبة في تلك المناطق تدعى بصرى ، وتداول شعبنا هنا حول امكانية الاستيلاء على أحوازها بيد أنه تبين لهم أن هذا لايمكن انجازه بسرعة بل سيتطلب اقامة أطول مما سمحت به ندرة الماء لذلك قرروا العودة خشية ان يكابدوا مع مواشيهم من العطش ، وهذه المنطقة قاحلة وجافة بشكل عام ، وخالية تماما من الينابيع والجداول والأنهار ، واعتاد الناس خلال اشهر الشتاء على تجميع ماء المطر في خزانات ، ويحافظون عليه بعناية لاستخدامات ضرورية خلال العام بأسره ، مع انه يصبح آسنا بسبب حرارة الشمس والقذارة التي تتجمع على سطحه ، وكان الناس قد حطموا هذه الصهاريج بحيث تسرب الماء منها ، أو افسدوها بالقاء القاذورات فيها ليمنعوا الجيش من البقاء هناك عندما مر لاسيما أنهم كانوا قد أخطروا بمقدمنا ، ولم يسمح ذلك الوقت من السنة للمسيحيين باحداث ضرر كثير حسبما كانوا يرغبون ، فقد كانت الحبوب والمحاصيل الأخرى ، التي كانوا بالعادة يرغبون باحراقها قد جمعت في مخازن الحبوب ، التي كانت حسب عادات تلك المنطقة تتالف من مغائر مبنية تحت الأرض ، ولقد كان من الصعب العثور على هذه المغائر حيث كانت مغطاة بالتراب ومخبأة بشكل بارع ، وكل ماكان باقيا من الحبوب في البيادر ، كان قد جرد من قشوره ، ولذلك لم يحترق بسهولة ، لأن الحب لايشتعل وحده ، وتعذر الى حد كبير الحاق اي ضرر بالبيادر باستثناء بعثره الحبوب ونقل بعضها معهم كعلف لخيولهم ، هذا واقبل العديد من الجنود الباحثين عن سبل لالحاق الضرر بمزج التبن والقش الموجود هنا وهناك مع الحبوب المنظفة من قبل حتى يمكن احراقها بسهولة .

ولم تكن قوة الجند الصغيرة ، التي كانت تركت في ذلك الاقليم لدى مغادرة صلاح الدين ، قادرة بما فيه الكفاية للمجازفة بالصدام مع المسيحيين ، أو التصدي لهم بالاشتباك في قتال قريب معهم الا انهم تعقبوا عن بعد على شكل زمر مؤخرة العدو الراحل وحاولوا

الحاق بعض الضرر به ، لكنهم لم يتمكنوا حتى بهذه الطريقة من تقديم أي عائق للمسيحيين أو الحاق الأذى بالجيش جملة وتفصيلا .

٢١ ـ المسيحيون يحاصرون القلعة التي استولى عليها صلاح الدين مؤخرا. فيستولون عليها بالحصار ويعيدونها الى العقيدة المسيحية.

وتوقف شعبنا لدى عودته في الاقليم نفسه الذي يدعى السواد بعد اجتيازهم للمنطقة بأسرها وإلحاق الضرر بها ما وسعهم ذلك ، والسواد هذا هو الاقليم التي تقع فيه تلك القلعة التي كان العدو قد أخذها من المسيحيين بالحيلة قبل وقت قصير من هذا الوقت ، عندما كان جيشنا في وادي عربة كما تم ذكر ذلك من قبل .

ويشتهر السواد بمنتجاته من الخمر والحبوب والزيتون ، كما يشتهر أيضا بمناخه الصحي وبموقعه البهيج عموما ، ويقال أن بلداد Bildad صديق أيوب Job ، الذي كنية سوادي Shuhite كان من هذه البلاد ، وكان ينتمي الى هاهنا .

أرتأى المسيحيون لدى وصولهم الى هنا انه سيكون مرغوبا به محاصرة الحصن ، ولذلك قرروا الاستيلاء عليه ، حتى ترتد الشرور ، التي كان الكفرة قد الحقوها بهم في الاستيلاء على الموقع أو الاحتفاظ به بشكل غادر ، ترتد اليهم اذا سمحت السماء بذلك .

ولهذا الغرض أقيم معسكر أمام القلعة المذكورة منذ لحظات ، وبذلت جهود فعالة لاجبار الموجودين داخلها على الاستسلام ، كانت القلعة محصنة بشكل جيد للغاية ، وكان موقعها رائعا حيث لم تكن مهاجمتها ممكنة الا من الجزء العلوي ، ولم يكن ممكنا مهاجمتها حتى من هنالك اذا لم تقطع الصخور حتى موقع

القلعة نفسها ، ولذلك ، تقرر وضـع الحجـارين للعمـل في الجـزء العلوي ، وتوجب تزويد جميع المساعدين والحراس المطلوبين بحيث يتمكنون من العمل بسلامة وبدون التعرض لمخاطر القتال .

كان الكهف واقعا على جانب جبل عال جدا ، وكان الطـريق اليه مصحوبا بأعظم المصاعب واشدها عبر طريق شاق حتـى بـالنسبة لجندي مشاة واحد اذا كان خاليا من جميع المعيقات ، ولم يتجـاوز عرض الممر الآخذ من الجانب أكثر مـن قـدم واحـد ، وانفغـر في الأسفل جرف عميق ومروع امتد الى أسفل الوادي .

وكان لهذا الكهف ثلاثة طوابق ، واحد فوق الآخر . وكان هنالك سلم خشبي بفتحات ضيقة يؤدي من طابق الى آخر .

وبما أن هذه الوسـيلة الوحيدة التـي كان يمـكن مهـاجمته بوساطتها ، فقد حاول المسيحيون اختراق الكهف من الأعلى ، كما كنا قد ذكرنا على أمل انهم سيتمكنون من التغلغل بهذه الطريقة الى المستوى الأول والعلوي مـن القلعـة ، وكان هـذا كل هـدفهم وغايتهم ، وبذلت جميع الجهود لتحقيق ذلك الهدف ، وتمركز جميع العمال المطلوبين في مواقعهم ، وتولى المساعدون الذين تم تـأمينهم رمي قطع الصخور والأحجار والنفـايات غير اللازمـة الى أسـفل الوادي الموجود تحتهم وذلك بالسرعة نفسـها التـي تـم فيهـا نزع الصخور والحجارة ، ولكي يستمر العمل بدون انقـطاع ، رتبـت المناوبات خلال الليل والنهار وعلى هذا عندما كان يتعب الموجـودون في الطاقم الأول ، كان يأخذ أماكنهم عمال مفعمون بالنشاط ولديهم المهارة والمقدرة اللازمة لمواصلة العمل ، وتقدم العمل بسرعة بسبب عدد العمال وحماستهم وأيضا بسبب أن الصـخرة نفسـها قـطعت بسهولة ، لانها كانت ذات طبيعة جصية وتم اختراقها بسـهولة حيث برزت عروق من الصوان القاسي جدا ، والتي غالبا ما افسدت الأدوات الحديدية وقـدمت عائقـا للعمـال المتلهفين ، ودحـرجت

الشظايا نحو الوادي في الأسـفل لتنظيف الموقـع ، كمـا تـم شرح ذلك . وحصلت جميع هذه الأمور على مـراى تـام ومشـهد مـن المحتجزين ضمن الكهف فزادت من خوفهم كثيرا ، لأنهـم انتـظروا باستمرار الوقت الذي سينتهي فيه العمل ويشق به الطريق بالقوة .

قسم جيشنا الى مجموعتين : اقـام احـد الاقسـام كمـا قلنا معسكره على قمة الهضبة التي كان يشـغلها الكهـف ، حيث كان بإمكان عناصره أن يتولوا من هذا الموقـع بـكل سـهولة حمـاية المنشغلين في العمل من كيد العدو وشروره . وبقي القسم الآخـر في السهل الواقع في الأسفل ، حيث وضع هنالك للقيام بمهمـة خـاصة هي منع اي خروج أو دخول من جانب المحاصرين ، واقترب عدد من القوة الأخيرة احيانا من الجزء السفلي للكهف على طـول الطـريق الضيق الموصوف أعلاه وحاولوا مهاجمة الموجودين في الداخل ، لكن هذه الجهود كانت عقيمة ، لانه كان في داخل الكهف ، والمزود بالمواد الغذائية والأسلحة بشكل جيد ، قوة مؤلفة من نحـو سـبعين جنديا شجاعا وقـويا ، وكان صـلاح الدين قـد اختـار هؤلاء الجنود المتمرسين عندما كان على وشك الرحيل ، وكان قـد أوكل الحصـن الى رعايتهم ويقظتهم وكانت لديه اسـبابه المسـوغة للاعتمـاد على اخلاصهم ووفائهم .

كان العمل قد وصل الآن الى مرحلة لم تعد الضربات المتـواصلة للمطرقة تسمح بأية استراحة للحامية الموجودة في الكهـف ، وبـدت الكتلة بأكملها بأنها تهتز وترتعش عندما تضـاعفت الضربـات الى درجة أن الخوف من امكانية أحداث مدخل اجبـاري فسـح المجـال للخوف من أن الكهف قد ينهـار فجـأة ويسـحق جميع الموجـودين بداخله بعدما حطمته الضربات المتكررة ، وكان مـن العبـث الأمـل بوصول أية مساعدة لأن صلاح الدين ، كما كانوا يعرفون ، كان قد رحل مع جميع جنده الى مناطق نائية جدا ، حيث لايستطيع ان يعود بسهولة ، وأرسلوا في آخـر الأمـر سـفارة الى الملك بعـدما كان

الحصار قد استمر لمدة ثـــلاثة أســـابيع أو أكثـــر مـــن ذلك بقليل ، وحصلوا من خلال وساطة كونت طرابلس على اذن بالرحيل بحرية الى بصرى ، واشترط عليهـم تسـليم القلعـة والتخلي عن الأسلحة التي كانوا قـد نقلوهـا وعن جميع معـداتهم ، وبناءعليه تخلوا بالحال عن الموقـع ورحلوا ، وهـكذا تخلصـنا بنعـم الرب الوافرة من الوضع الخطير الذي بـدا حتـى الآن بـأنه يعـرضنا للخطر .

وبعد ماتمت عملية الاستسلام ارتـأى الملك وبقية النبـلاء بحكمة وتدبير تزويد القلعة بـالأسلحة والمؤن . ثـم عهـد بعـد ذلك بالمسؤولية عنها الى رجال مخلصين لم يكن هنالك شـك في ولائهـم ومقدرتهم ، وعادت القوات الى موطنها بعد ما تمت العناية بكل شيء بدقة متناهية . حدث هذا في اليوم ..... من شهر تشرين الأول مـن العام ١١٨٢ لتجسيد الرب (٤١٣)

٢٢- الملك يغزو من جديد أراضي الدمشـقيين ومعـه قواته .

مالبث قادتنا أن ادركوا بعد زمـن قصـير في شـهر كانون الأول التالي ، أن صلاح الدين : الذي كان مشغولا بأمور أكثـر أهمية في البلاد القريبة من الموصل ، لم يعد حتى الآن ، فاجتمعوا من جـديد وهم كارهون لفقدان الفرصة التـي قـدمها غيابـه ، وقـرروا بالاجماع ، بعد التشاور فيما بينهم حول مايفيد المملكة ، أن يلتقوا في قيسارية على الساحل ، وتقـرر بـالاجماع جمـع قـوات المملكة وتزويدها بكل ماهو ضروري لاسـتخدام الجنود والحيوانات خـلال حملة اخرى تستغرق خمسة عشر يوما في بلاد العدو ، حتى لاتضيع الفرصة القائمة وتهمل ، وشنت في البداية غارة سرية ، لم يشـارك فيها سوى الفرسان ، على منطقـة معـادية بـالقرب مـن بصرى ، تمشيا مع ترتيب مسبق ، وعاد الفرسان من هذه الغـارة سالمين وجلبوا معهم الكثير من المغانم على شكل قـطعان وجشـار

وعدد كبير من العبيذ ايضا ، وبما أن هذه الغارة قد انطلقت من أراضي طبرية وعادت الى الموقع نفسه ، فقد كانت تحت قيادة كونت طرابلس .

واخيرا ، اجتمع الملك ونبلاء المملكة مع قوة من المشاة والفرسان بقدر ماستطاعت المملكة أن تقدمه في ذلك الوقت ، وبصحبة صليب الصلبوت تجمهروا بالقرب من طبرية في اليوم الخامس عشر في موقع قائم على شاطىء بحيرة طبرية يدعى الحسينية وعبروا النهر من هناك عند مخاضة يعقوب ودخلوا بلاد العدو . وتقدم الجيش ، الى اليمين من لبنان ، خلال السهل وصولا الى موقع يدعى بيت جن ، فدمروا هذا الموقع تدميرا تاما مع جميع الدساكر المتاخمة له وخربوا تماما كل شيء عثر عليه هناك . بحرق بعضه وتدمير المتبقي ، ثم وصلوا بعد مسافة الى داريا ، وهو موقع يقع على بعد اربعة أو خمسة أميال من دمشق ، فخربوا هذه ايضا بالطريقة ذاتها مع القرى المجاورة لها .

كان الناس في هذه الاحواز قد هربوا ، بعضهم الى الجبال اللبنانية وبعضهم الآخر الى دمشق ، ونتيجة لذلك نادرا ماأخذوا أسيرا من سائر تلك المنطقة ، هذا وقد فقدنا بعض جنودنا بسبب سلوكهم الطائش اثناء الغزو ، وكان بعض الفرسان الاتراك ، الواثقين بسرعة خيولهم ، قد انطلقوا من دمشق وكانوا يحومون حول صفوفنا ، يسيرون حينا الى الأمام الى مسافة قريبة من صفوفنا ، ثم يعودون ليتعقبونا من جديد ، وبما أنهم كانوا يتربصون بشكل دائم فرصة لالحاق الأذى بنا فقد انقضوا فجأة على الغزاة المهملين المذكورين منذ لحظات وقتلوهم في هجوم ضار من غير استثناء ، كما انطلق الدمشقيون من مدينتهم ايضا وحشدوا أنفسهم حول البساتين التي تحيط بالمنطقة بأعداد ضخمة ، وواصلوا من هذه المسافة مراقبة جندنا مراقبة دقيقة الا أنهم لم يجرأوا على الزحف الى مسافة اقرب ، ولم يجرؤ

المسيحيون على مهاجمتهم ولم يحاولوا هم القيام بأي شيء ضدنا ، وعندما رحل شعبنا انسحبوا بدورهم الى داخل المدينة .

عاد الجيش المسيحي الى الوطن دون مواجهة صعوبة او عائق بعدما غزا ذلك الجزء من المنطقة ، وسبب له أضرارا بالغة حسبما وصفنا ذلك ، وبادر الملك نفسه بالتوجه الى مدينة صور وهناك احتفل معنا بعيد ميلاد الرب(٤١٤)

٢٣ ـ القيام باحصاء للملكة كاجراء وقائي ضد نوازل مستقبلة.

كان هناك في هذه الآونة شائعات غير محدودة قد انتشرت بشأن نشاطات صلاح الدين فقد أشارت بعض الروايات الى انه كان يواجه نجاحات كبيرة في الجزيرة في أحواز الموصل حيث اخضع المنطقة بأسرها ووضعها تحت سيطرته ، وخلافا لذلك ، أفادت روايات أخرى أن جميع أمراء الشرق قد اتحدوا ضده في محاولة منهم لطرده من المنطقة بقوة السلاح ، وبذلك تم استرداد المنطقة التي كان قد كسبها منهم بالخداع والرشوات ، وسبب تقدمه ونجاحاته الكثير من الارتباك للمسيحيين ، ونظروا بذعر كبير الى الازدياد في سلطانه ، خشية ان يعود اليهم بتعزيزات ضخمة .

وبناء عليه عقد في القدس في شهر(٤١٥)شباط اللاحق اجتماع عام لجميع نبلاء المملكة للتداول حول الوضع ، وكان هنالك خوف كبير من عودته ، كما تم ذكر ذلك ، وتقرر لذلك السبب استخدام كل وسيلة ممكنة لمقاومته .

تقرر بالاجماع وبعد مداولات مطولة وتعبير عن آراء مختلفة أن يجري احصاء لجميع مناطق المملكة فاذا توفر بيان كهذا ، فسيكون ممكنا في ظرف طارىء الحصول على قوات من المشاة والفرسان

حيث يجدنا العدو ، في حال عودته ، مستعدين للمقاومة ، وكان الملك والنبلاء قد صاروا الى حالة بائسة من العوز لدرجة أن العائدات لم تكن كافية ابدا للنهوض بأعباء الانفاق الضروري ، ولذلك توجب جمع المال من الناس جميعا ويمكن لدراسة هذا القرار الذي اتخذ حول هذه المسألة ان يقدم فهما دقيقا للأسلوب الذي تم فيه فرض الضرائب ، فهو قد كان على النحو التالي :« هذه هي طريقة جمع الضرائب التي يجب فرضها للمصلحة العامة لهذه المملكة ، بموافقة واجماع عام من قبل جميع النبلاء المدنيين والكنسيين ، وبموافقة سكان مملكة القدس لمواجهة الضرورات الحالية الملحة ».

لقد تقرر لمصلحة الدولة أن يختار من كل مدينة من هذه المملكة أربعة رجال عقلاء جديرين بالثقة حيث يؤدون قسما مهيبا بأنهم سوف يعملون بإخلاص وصدق في هذه القضية القائمة ببذل دينار واحد عن كل مئة دينار يملكونها أو بدفع مايعادلها من الأشياء التي بحوزتهم أو عن الديون المستحقة الدفع لهم ، ثم يجبرون الآخرين بعمل الشيء نفسه ، ولسوف يقدمون أيضا دينارين عن كل مائة دينار من العائدات التي يحصلون عليها ، ويجب عليهم أن يعملوا كذلك على اجبار الآخرين ، بحيث يقوم كل مواطن ، سواء أكان من المدينة أو من مواقع أخرى يحكمها ، بالدفع في سبيل جمع هذا المال حسبما سوف يحكمون باخلاص أن ممتلكاته تستحق ، ولسوف يقدرون هذا بشكل منفصل على كل واحد حسب مقدرته على الدفع .

هذا ويمكن لأي انسان ، لدى ابلاغه بالقدر الذي يتوجب عليه دفعه أن يعلن أنه حمل أكثر من طاقته وفرضت عليه ضرائب بشكل يفوق موارده المالية ، وذلك حسب ضميره وان يبين قيمة اثاثه كما يبدو عادلا بالنسبة له ، وسوف يمضي آمنا حسب الشروط المذكورة بعدما يكون قد أعلن مقسما انه لايستطيع ان يعطي المزيد..

وسوف يلتزم الرجال الاربعة بقسمهم بالحفاظ على سرية ماقدمه لهم كل مواطن سواء أكان ذلك قليلا أم كثيرا ، وسوف يتقيدون بألا يكشفوا النقاب عن ثراء أو فقر أي انسان ، ويجب عليهم أن يتقيدوا بهذه القوانين بخصوص الذين يبلغ دخلهم مائة دينار مهما كانت اللغة أو الشعب أو العقيدة التي ينتمي اليها أولئك الناس وبدون نظر للجنس سواء أكان ذكرا أو أنثى ، لأن الجميع سوف يخضعون لهذا الحكم بدون تمييز .

واذا ماعرف الرجال الأربعة ، المنتخبون لهذه المهمة والمعنيون بهذا الواجب ، بشكل مؤكد أن ملكية انسان مالا تساوي مائة دينار عليهم أن يأخذوا منه « مال الموقد » ، اي دينار واحد عن كل موقد نار ، واذا لم يستطيعوا الحصول على دينار ، كامل سوف يأخذون نصف دينار واذا لم يستطيعوا الحصول على النصف سوف يأخذون نسبة حسبما سيبدو ذلك ـ بإخلاص ـ عدلا بالنسبة اليهم ، ولسوف يخضع جميع الذين لاتساوي ممتلكاتهم مائة دينار ، مهما كانت لغتهم وشعبهم وعقيدتهم أو جنسهم لهذا الشرط .

وتقرر أيضا أن على كل كنيسة ودير وعلى جميع النبلاء بقدر مايتوفر وجوده منهم هناك بالاضافة الى التابعين وجميع الآخرين في المملكة أيضا الذين لهم عائدات ، اعطاء دي ارين عن كل مائة دينار سيحصلون عليها من الايجارات ولسوف يبذل أصحاب الأجور والرواتب دينارا واحدا عن كل مائة .

ان جميع الذين يملكون القصور ملزمين بموجب قسم يحلفونه في أن يدفعوا بإخلاص عن كل « موقد نار » يملكونه في القرى أو القصور دينارا واحدا بالاضافة الى ماهو مفروض اعلاه ، بحيث اذا كان في القصر مائة موقد ينبغي اجبار القرويين على دفع مائة دينار ، وسيكون بعدئذ من واجب سيد القصر توزيع عدد من الدنانير المذكورة أعلاه بين قرويي ذلك الموقع بأجزاء متساوية وبذلك يمكن

لكل منهم دفع الضريبة الآنفة الذكر ، بنسبة تتواءم وموارده . وهكذا ، لن يتمكن الغني من الافلات بلا مبالاة ولن يتحمل الفقير فوق طاقته ، وستكون النسبة ذاتها سواء أكان في القصر مواقد كثيرة أو قليلة .

ان المال المجموع بهذا الشكل من كل مدينة شروعا من حيفا وحتى القدس سيتولى نقله الى القدس المعينون على كل مدينة وقلعة ، كما قلنا من قبل ، وسيدفعونه بعدد محدد ووزن ثابت الى المسؤولين عن هذا العمل في القدس ، ولسوف يقوم هؤلاء المسؤولون ، بحضور البطريرك أو نائبه مع رئيس شماسة دير رهبان قبر الرب المقدس وشحنة قلعة القدس أكياس مختومة منفصلة ، ثم وضعه في صندوق في خزينة الصليب المقدس ، وسيكون لهذا الصندوق ثلاثة أقفال وثلاثة مفاتيح حيث يحتفظ البطريرك بالمفتاح الأول ، بينما يحتفظ رئيس شماسة قبر المسيح بالمفتاح الثاني بينما سيحتفظ آمر المدينة والمواطنون الأربعة المذكورون آنفا بالمفتاح الثالث .

ولسوف ينقل المسؤولون عن المدن الممتدة من حيفا وحتى بيروت المال المجموع بطريقة مماثلة الى مدينة عكا ، ومن ثم يسلمونه هناك وفق عدد محدد ووزن ثابت ، تماما كما جلب من كل مدينة وقلعة ، الى الرجال الأربعة الذين وجد نظراؤهم في كل مدينة مسؤولين عن جمع المال ، وسيتم وضعه في أكياس منفصلة مغلقة ومختومة . ومن ثم توضع هذه الأكياس في صندوق سيكون له ثلاثة اقفال وثلاثة مفاتيح حيث سيحصل رئيس أساقفة صور على المفتاح الأول ويحتفظ جوسلين قهرمان الملك بالمفتاح الثاني وسيحتفظ المواطنون المذكورون آنفا والمسؤولون عن المسألة بالمفتاح الثالث ، وسيستلم الذين لديهم المفاتيح ، المال المذكور آنفا بحضور السادة المذكورين أعلاه .

ينبغي ألا ينفق المال المجموع بهذا الشكل على الأمور العادية

للمملكة ، بل فقط على الدفاع عن المنطقة ، وبقدر مايدوم هذا المال ، فان الضريبة المعروفة عموما باسم ضريبة الأراضي سيوقف اخذها من الكنائس والمواطنين .

سوف تفرض هذ الضريبة مرة واحدة فقط ، ولن تعتبر سابقة يؤخذ بها في المستقبل(٤١٦)

٢٤ ــ صلاح الدين يحاصر مدينة حلب ويفوز بها وفق اتفاق محدد . وأمير أنطاكية يرتب مبادلة طرسوس مع روبين دوق أرمينية.

كان صلاح الدين ، صاحب النشاط الذي لايعرف الكلل ، والذي قام دائما بدور قائد قوي في كل شيء ، قد استولى على أراضي سورية في الجزيرة ، واستولى بالقوة على مدن ذات شهرة عظيمة . وكان بين ما قام به هو انه حاصر واستولى على مدينة آمد الحاضرة المشهورة التي بدت عمليا لا ترام بسبب عدد سكانها الكبير والأسوار الضخمة التي كانت تحيط بها وطبيعة موقعها . وأعطاها بعد ما تم الاستيلاء عليها ، وحسب الاتفاق ، الى نبيل تركي يدعى نور الدين ، وهو ابن قرا أرسلان ، الذي كانت مساعدته المخلصة قد مكنته من تمديد إقامته في تلك الأجزاء و من إكمال إخضاع تلك المنطقة.

استدعى صلاح الدين قواته ثانية في الربيع اللاحق ، ووضع المنطقة بأسرها تحت حماية بعض اتباعه المخلصين ، وعاد الى سورية المجوفة عابرا نهر الفرات ، ووضع جيشه هنا حول مدينة حلب واستخدم كل وسيلة ممكنة لانهاك المدينة.

كان حاكم حلب مدركا تماما أن أخاه ، حاكم الموصل ، الذي كان حاكما اقوى منه بكثير ، لم يتمكن من ابعاد صلاح الدين هذا

نفسه عن ممتلكاته ، على الرغم من جميع الجهود التي بذلها والتي انعكست ضده ، وهكذا تمكن هذا السلطان العظيم من إخضاع جميع الأقاليم الواقعة فيما وراء نهر الفرات ، وخشية منه في أن يواجه مصيرا مماثلا قد يقضي عليه ، أرسل خلسة مبعوثين الى السلطان بدون معرفة سكان مدينة حلب ، للبحث في شروط السلام. فإذا ما أعاد صلاح الدين اليه سنجار وبعض القلاع الأخرى التي لا أتذكر أسماءها ، فإنه سيسلمه مدينة حلب مقابل ذلك.

تلقى صلاح الدين السفارة بفرح كبير ، وكانت رغبته الأكثر جدية من لحظة بداية حكمه هي الحصول على مدينة حلب بوسيلة من الوسائل ، حيث كان يعتبرها بمثابة حصن المملكة بأسرها وعمادها ، ولذلك وافق بكرم على قبول الشروط ، وسلمه المدينة الآنفة الذكر مع قلاعها المجاورة ، واستلم مدينة حلب في اليوم السابع من شهر حزيران(٤١٧)

استولى رعب مضاعف على شعبنا لدى سماعه لهذا النبأ ، لأن النتيجة التي كانوا يخافونها خوفا شديدا قد حدثت ، لقد كان واضحا للمسيحيين منذ البداية أنه إذا نجح صلاح الدين في إضافة مدينة حلب الى امارته ، فلسوف تكون أراضينا محاطة بسلطته وقوته وستغدو كأنها في حالة حصار ، لذلك حاولوا تعزيز تحصينات مدنهم وبلدانهم بكل وسيلة ممكنة ، وخاصة تلك المدن التي كانت تقع بالقرب من حدود العدو ، ووسعوا في المقام الأول دفاعات مدينة بيروت التي بدت ضعيفة بشكل خاص.

كان أمير انطاكية مذعورا بلا حدود إزاء مجاورة عدو قوي جدا ، وبعدما أدرك أن عدوا مروعا للغاية كان مقابلا له الآن توجه نحو الملك الذي كان آنذاك مقيما في مدينة عكا ، ولم يأخذ معه سوى مرافقة صغيرة حتى لا يترك المنطقة مجردة من المدافعين عنها ، وأخذ معه كونت طرابلس كرفيق له ، وطلب هناك ، بحضور أمراء المملكة ، المساعدة ضد صلاح الدين ، وتقرر الاصغاء لشكواه

وتلبية مطلبه ، وتم منحه ثلاثمائة فارس من فرسان المملكة من مختلف المراتب وذلك استجابة لما طلبه ، فتبعوه الى انطاكية وهم جاهزون لخوض القتال بقيادته ، غير انهم عادوا بعد زمن قصير بعدما استأذنوا الأمير بالرحيل ، فقد كان عقد هدنة مؤقتة مع صلاح الدين وبدأ يشعر بعض الشيء بالثقة والهدوء ، وكان قد تنازل عن مدينة طرسوس ، عاصمة كليكية ، التي كان قد تسلمها من الاغريق الى روبين ، و هو حاكم أرمني قوي كان يملك المدن الأخرى في تلك المنطقة ، و كان ذلك لقاء مبلغ ضخم من المال و اقدم عليه ليقلل من قلقه و ليتمكن الاشراف بحذر أكثر على منطقة انطاكية ، وقد اظهر حكمة كبيرة في عمله هذا حيث كانت طرسوس بعيدة جدا عن انطاكية وتفصلها عنها أراضي روبين ، ولذلك كان من الصعب عليه الاشراف عليها والاعتناء بها.وهي مسألة كانت سهلة تماما بالنسبة لروبين.

وبعد ما رتب صلاح الدين جميع الأمور في ذلك الموقع بشكل يرضيه غادره مع فيالقه متوجها الى دمشق فسببت هذه الحركة خوفا كبيرا بالنسبة لشعبنا ، وخاصة لأنه كان من المستحيل الحصول على معلومات محددة عن طريق الكشافة بخصوص هدفه الحقيقي ، فقد اعتقد بعضهم أنه سيحاول محاصرة – بعد استدعائه للقوات البحرية – مدينة بيروت كما كان قد فعل ذلك في العام السابق ، واعتقد بعضهم أنه عزم على مهاجمة تيرون وهونين وهما حصنان واقعان في الجبال المطلة على مدينة صور ، واعتقد آخرون ايضا أنه كان ينوي اجتياح المناطق الواقعة فيما وراء الأردن اي وادي عربة وتدمير المواقع المحصنة الواقعة في تلك الأحواز ، وكان هنالك ايضا بعض من حاول أن يؤكد أن صلاح الدين أراد اغتنام فرصة وجود الهدنة ، فخطط للنزول الى مصر لاعادة تأهيل جيشة الضعيف ولجمع الأموال اللازمة للحملات المستقبلية وذلك بعدما أرهقته الحملات الطويلة الأمد في مناطق بعيدة جدا.

ابقت هذه التخمينات المتنوعة ، والتي كانت جميعها

غامضة ، الملك والنبلاء في حالة قلق وترقب دائمين ، وأخيرا حشدت جميع القوات المتوفرة في المملكة عند نبع الصفورية ، حيث اعتادت الجيوش من الأزمان الأولى على التجمع فيه ، وانتظرت هناك نتيجة الأحداث ، وجرى إرسال الرسائل الى أمير انطاكية والى كونت طرابلس اللذين ضما قوتهما ومشورتها الى الباقين إنما بعد توسل و الحاح ، و انتظروا بهذه الطريقة متوقعين من يوم لآخر أن صلاح الدين سوف يغزو فجأة منطقة من مناطق المملكة بقوات قوية فوق العادة .

٢٥ ــ الملك يصاب بمرض خطير في الناصرة . تعين غي دي لوزنغنان ، كونت يافا ، وصيا على المملكة.

بينما كان الجيش منتظرا بحالة الترقب هذه عند نبع الصفورية كان الملك يعاني من هجمة حمى حادة في الناصرة ، اضف الى هذا أن مرض الجذام الذي بدأ بإزعاجه في بداية فترة حكمه ــ لا بل في الحقيقة في أوائل شبابه ــ تفاقم فضعف بصره وشلت أطرافه تماما الى درجة امتنعت يداه وقدماه عن أداء واجبها ، ومع ذلك ، فقد رفض حتى هذا الوقت الاصغاء الى الاقتراح الذي قدمه بعضهم في أن يتنازل عن منصبه الملكي ويتخلى عن ادارة المملكة بحيث يتمكن من العيش حياة هادئة في التقاعد مع مورد مناسب لاحتياجاته من العائدات الملكية.

وكان الملك قويا في الناحية العقلية مع انه كان ضعيفا وعاجزا من الناحية الجسدية ، وكافح بشكل يفوق قوته لاخفاء مرضه ولاعالة هموم المملكة ، إلا أنه فقد الأمل بالحياة عندما هاجمته الحمى ، فاستدعى نبلاءه اليه وعين ، بحضور والدته والبطريرك ، غي دي لوزنغنان كونت يافا وعسقلان وزوج أخته ، الذي تكرر ذكره في الصفحات السابقة ، وصيا على المملكة.إلا أنه احتفظ بالمنصب الملكي وابقى لاستخدامه الخاص

مدينة القدس ، مع عائدات سنوية كانت قيمتهـا عشرة الاف قـطعة ذهبية.

وتخلى الملك عن ادارة بقية أجزاء المملكة جميعا وعهد بها الى غي بدون قيود وامر رعاياه المخلصين وجميع النبـلاء عامـة أن يعـدوا أنفسهم تابعين لغي وأن يؤدوا يمين الولاء له ، وتم تنفيذ هذا ، هذا ويروي أن غي أقسم ، بناء على أمر بلدوين انه لن يطمـح بـاعتلاء العرش طالما مـازال على قيد الحياة ، وأنه لن يتنازل للآخـرين أو ينقل من الخزينة أيا من المدن والقلاع التي كانت بحوزة الملك في ذلك الوقت ، ومن المعتقد أن هـذا فـرض على غي صـدورا عن حـذر وبصيرة في غاية الدقة وأنه أضطر لالزام نفسه بقسم بحضور جميع النبلاء حتى يتقيد باخلاص بذلك الشرط ، لأنه كان قد وعد تقـريبا جميع الحكام الأكثر اهمية في المملكة بتقديم اجزاء كبيرة من المملكة لكل منهم ليضمن أصواتهم ونفوذهم في الحصول على هدفه ، وأشيع أيضا انه كان قد أدى قسما مشابها لهؤلاء الحطام بأنه سوف ينفـذ وعوده ، ولا يمكن الاعلان بتأكيد هـذا ، لأنه ليس لدينا معلومـات قاطعة حولالقضية ، لكن شائعات متوالية بهذا المعنى كانت منتشرة بين الناس.

وكان هنالك اسـتياء إزاء هـذا التغيير ، وكان بعضـهم ميالا لمعارضته بسبب مصالحه الشخصية ولأسباب خاصة ، فقد صرحوا علانية أن الكونت لم يكن كفؤا لتحميل مسـؤوليات المملكة الجسـام وغير قادر على ادارة أمور المملكة ، هـذا ، وأكد آخـرون ـ كانوا يرجون أن ترقية غي قد تحسن أوضاعهم ـ(٤١٨)أن تعيينه كان عملا قد أنجـز ببـراعة ، وانتشر بين الناس تـذمر كبير واختـلاف في الراي ، لأنه كما يقول المثل « كلما ازداد الناس ازدادت الآراء » (٤١٩)هذا ولم يتمتع الكونت طـويلا بهـذا المنصـب الذي تـطلع اليه بتلهف ، والذي أسند اليه الآن بناء على رغباته ، والذي تمجد به في البداية مع انه لا يستحق ذلك.

لقد قلنا إنه تولى هذه المسؤولية ووضعها على كاهله بحماقة لهذا السبب : لم يدرس قـوته بشـكل كاف بخصـوص المهمـة الموكولة اليه ، فقد تولى القيام بعبء ثقيل جـدا ، وهـو غير كفء لحمله في القوة أو الحكمة ، ولم يكن قد تعلم حقيقة المثـل الذي قـاله المبشر الانجيلي الذي ينصح « من منكم يريد أن يبني برجا عليه أن يجلس أولا ويحسب النفقة هـل عنده مـا يلزم لكمـاله » لئلا يبتـدىء ولا يستطيع اكماله لئلا يقال : « هـذا الانسـان ابتـدأ يبني ولم يقـدر يكمل »(٤٢٠)

٢٦ - صلاح الدين يغـزو اراضـينا بقـوات ضـخمة ويخيم في جوار بيسان. المسيحيون يزحفون ضده.

كانت هذه هي حـالة الامـور السـائدة انذاك في المملكة ، وكان الجزء الاكبر من الجيش مخيما في هذه الأثناء في الصفورية ، وكان صلاح الدين في هذه الأثناء قد استدعى بعد دراسته متمعنة ، قـواته من المناطق الواقعة فيما وراء الفرات ، واجتاز حـدود المملكة مـع جميع قوات الفرسان التـي اسـتطاع ان يجمعهـا مـن كل مصدر ، يتبعه جيشه الضخم المدجج بالسلاح ، وظهر فجأة ، بعـد اجتيازه منطقة حوران الواقعة على طول بحيرة طبرية ، مع فيالقـة في فرق عديدة في موقع يدعى الأقحوانه في سـهل الأردن وتقـدم مـن هنالك تابعا مجرى النهر الى سيقوبولس ، وكما ذكر مرارا من قبل أن هذا الموقع ، المعروف حـاليا بـاسم بيسـان ، كان فيمـا مضى عاصـمة لجميع بـلاد الجليل ، ولا تـزال تشـاهد دلائل كثيرة على عظمتها السابقة في آثار الأبنية القديمة وفي كمية الرخـام الموجـودة بينها ، وقد تحولت الآن الى خراب تقريبا ، ولا يوجد فيهـا سـوى عدد ضئيل فقط من السكان المتفـرقين ، وليس هناك سـوى قـرية صغيرة واقعة في مكان مستنقعي.

ومــع أن الناس القــاطنين هناك كانوا مجهــزين بشـــكل جيد بالأسلحة والطعام بالنسبة لأعدادهم وحجــم الموقــع ، إلا أنهــم لم يشعروا بأية ثقة في دفاعات قلعتهم ، ولذلك تخلوا عن القلعــة قبــل وصول الجيش المعادي وذهبوا الى طبرية تاركين جميع ممتلكاتهــم خلفهم ، وهكذا عندما وصـــل العـــدو الى بيســـان وجـــدها فارغة ، فتمكن من بسط سيطرته عليهـــا ، وبناء عليه نقــل أفــراد العدو معهم جميع الأســلحة والمواد الغــذائية وكل مـــا كان مفيدا في الموقع ، وانطلقوا بكتائب منفصلة في بيسان وخيمــت احــدى هـــذه الكتائب بجانب نبع يدعى عين جــالوت ينبــع عند ســـفح جبـــل جلبوع ، في المنطقة المجاورة لمدينة كانت مشهورة فيمـــا مضى وكانت معروفة سابقا باسم يزرائيل Jezrael لكنهـــا تعــرف الآن عموما باسم جيرين الصغرى ، وذلك لتحصل الكتيبـــة على زاد الماء المناسب.

كان المسيحيون مـــا يزالون مخيمين بـــالقرب مـــن نبـــع صفورية ، الذي تكرر ذكره في هذا الكتاب ، وكانوا منتــظرين بقلق ليعرفوا الجهة التي سوف تغـــزو منهـــا القـــوات المعـــادية منطقتنا ، وأمسكوا بالأسلحة بالاجماع عندما وجــدوا أن الأتــراك كانوا قد استولوا على سهول بيسان وأن فيالقهم كانت قد اجتــاحت الآن تلك المنطقة بفرق كثيرة ، وعبر المسيحيون الجبال التــي تقــع فيها الناصرة ، مدينة ربنا ، ونزلوا ، تــابعين صــليب الصــلبوت المانح للحياة والألوية الملكية ، الى السهل الكبير ، والذي كان اسمه القديم مرج ابن عامر ، ووجهوا سيرهم من هناك ، بقوات بتشكيل المعركة ، ومرتبة بشكل يتناسب وقــواعد العلم العسـكري ، نحــو ينابيع عين جالوت حيث كان صلاح الدين قــد أقـــام بـــالقرب مـــن الينابيع مع فرقة قوية مختارة من الفرسان المشهورين ببسالتهم.

كانت مقاصد المسيحيين طرد العدو والحصـــول على منافـــع الماء لاستخدامهم الخـــاص ، إلا أنهــم شــعروا ، لدى وصــــولهم الى هناك ، أنه سوف يكون من المستحيل الاستيلاء على الموقـــع بـــدون

تجشم مصاعب جمة وخوض معارك خطيرة مع العدو ، و وصل صلاح الدين الى المعسكر فجأة وتخلى عن الينابيع بشكل مفاجيء للغاية ، ثم خيم من جديد في منطقة سفلى قبالة بيسان وعلى بعد نحو ميل واحد عنا وذلك بعدما اتبع مجرى النهر ، وقبل أن يتمكن المسيحيون من الوصول الى الموقع توزع الكفرة الى زمر صغيرة خرجت من الجيش الرئيسي ، وبدأت باجتياح ونهب تلك الأحواز بطريقة عدوانية وكانت احدى هذه الزمر قد هاجمت جيرين الصغرى ، القرية المذكورة آنفا ، واتلفوا تماما كل ما كان فيها هذا وعثروا على عدد قليل — أو لا شيء — من السكان لأنهم ، كانوا قد هربوا الى مواقع محصنة بشكل أقوى بعدما أخطروا بقدوم العدو.

وصلت زمر اخري الى موقع يعرف عموما بأنه عفربلا ، فاستولوا على هذا الموقع بالقوة ، وعاثوا به وضربوه بطريقة عدوانية وفعلوا الشيء نفسه في كل ما رأوه ، وسلك آخرون الطرق العامة ، وترافق وجودهم بمخاطر كبيرة على الفرسان والجنود المشاة ، لدرجة أن الذين كانوا يسرعون من نواح مختلفة للانضمام الى جيشنا وصلوا الى هنالك بتعريض حياتهم للخطر ، وصعد بعض هؤلاء الأعداء أنفسهم جبل الطور ، وهو عمل بطولي لم يكن معروفا حتى الآن ، وعاملوا هناك الدير الاغريقي المكرس للقديس الياس حسب هواهم ، حتى أنهم حاولوا أن يشقوا طريقهم بالقوة الى داخل الرواق الكبير بالذات و انسحب الرهبان مع سائر أسرهم والناس من القرى المجاورة الى داخل الدير الذي كان محميا بسور وأبراج ، وأبدوا هنا دفاعا وهزموا من جميع أجزاء الشرفات المحيطة عناصر العدو التي تسلقت الجبل.

وحيث لم يروع شيء هذه الزمر ، فإن بعضها تسلقت المرتفع الذي تقع الناصرة وراءه ، حيث كان بامكانهم أن يشاهدوا المدينة بأسرها من الهضاب المطلة في الأعلى ، وسبب ظهورهم رعبا شديدا للنسوة والأطفال الذين ذهبوا الى هناك مع الرجال المسنين

والمرضى ، ويقال إن الكثيرين خنقوا في الازدحام و هـم يكافحـون للهرب طلبا للمـلاذ في الكنيسـة الكبيرة ، كمـا أن أغلبية السـكان القادرين على حمل السلاح كانت إما تتبع العساكر مع الحملة العامة أو رحلت مع اسرها الى المدن الواقعة على الساحل ، و خـاصة الى عكا .

٢٧ ـ انتشار مجاعة رهيبة في الجيش. المسـيحيون والأتراك يرحلون أخيرا دون أن يشتبكا في المعركة.

سببت هذه الزمر المنفصلة عن جيش صلاح الدين ، التـي كانت منتشرة في كل مكانٍ فوق المنطقة بأسرها ، خطرا شـديدا بـالنسبة للذين كانو يرغبون بالوصول الى جيشـنا ولم يجـرؤ احـد بسـبب الخوف منهم على الاقتراب من المعسكر المسيحي للمتاجرة أو لجلب المساعدة ، ونتيجة لذلك انتشرت مجـاعة على الفـور بين صـفوف العساكر ، فقد كانوا قد تقدموا الى هناك دون امتعة أو مؤن ، لكي يزحفوا ضد العدو بدون عائق ، آملين ان المسألة سوف تحل خـلال يومين أو ثلاثة على الأكثر ، وكابد الرجـالة مـن الخـطر الأكبـر وخاصة الذين قدموا من الساحل حيث تم إسـتدعاؤهم دون سـابق انذار وأعني بهم البيازنه والجنويين والبنادقة واللومبارديين. وكان هؤلاء قد تركوا سفنهم ، واتخذوا استعداداتهم للابحار (كان ذلك في حوالي منتصف شهر تشرين الأول حيث بات موعد الجواز وشيكا) وانضموا الى قواتنا مـع الحجـاج الذين كانوا قـد التقـطوهم ليعيدوهم ، ولم يكونوا قـد جلبـوا معهـم اية كمية مـن المواد الغذائية ، وكانوا لا يقدرون على حمل اسلحتهم الا بصـعوبة لأن المعسكر كان يقع على بعد عشرين ميلا من البحـر ، ولذلك ارسـل الرسل الى المدن المجاورة ليطلبـوا مـن المسـؤولين ارسـال المؤن بسرعة ، وأطيعـت الاوامـر الملكية على الفـور بحمـاسة وعناية ، وأرسل الى المعسكر جميع الطعام الذي أمكن جمعه بـدون تأخير ووصل القسم الأكبر مـن هـذه المخـزونات الى اهـدافه

بأمان ، وقدمت مؤونة كافية للطارىء الموقت ، الا أن فريقا كان يحمل كمية ضخمة من المؤن وقع في أيدي العدو بسبب انعدام الحذر المناسب ، ولأن الأتراك كانوا ايضا في حاجة شديدة ، وكان بعض فرساننا قد أرسلوا ليعملوا كمرافقة لحماية الفرق التي كانت تجلب الامدادات وقد قادوا الذين قابلوهم بأمان الى المعسكر ، لكن الذين لم تكن لديهم مساعدة كهذه ، ووقعوا بين خطوط العدو ، إما قتلوا بالسيف ، أواجبروا على أن يخدموا العدو الى الأبد.

لو أن آثامنا في تلك الآونة قد حرضت الرب ليكون مساعدا لنا لأمكن ، تحويل قوة الأتراك بسهولة لابادتهم ، ولجعلت غطرستهم التي لا تحتمل سخرية ، حيث لم يردفي أي مصدر مدون أن قوات ضخمة جدا كهذه من الفرسان والمشاة على حد سواء قد اجتمعت من قبل من سائر مناطق الشرق ، كما لا يتذكر المسنون أن قوات مجهزة بشكل جيد كهذه قد اتحدت أبدا من قبل في مجموعة واحدة من مملكة واحدة ، فقد كان لدى المسيحيين قوات من الفرسان بلغ تعدادها الف و ثلاثمائة فارس ، و قيل ان عدد الجنود المشاة المجهزين تجهيزا جيدا قد تجاوز خمسة عشر الف جندي ، علاوة على ذلك كان الجيش تحت امرة قادة عظماء ومشهورين ، رجال كانوا من سلالة لامعة اشتهروا بالقوة في المعركة وهم : ريموند كونت طرابلس ، وهنري دوق لوفان وهو قائد من منزلة سامية من مملكة التيتون ورالف دي ميلوان وهو محارب صاحب شهرة كبيرة من أكوتانيا ، أضف الى ذلك انه كان هنالك النبلاء التالي أسماؤهم من المملكة وهم :غي كونت يافا ، وأرناط سيد مقاطعة واقعة فيما وراء الأردن ، وهو الذي كان سابقا أميرا لأنطاكية ، وبلدوين صاحب الرملة وأخوه بالين صاحب نابلس ، ورينو صاحب صيدا ، وولتر صاحب قيسارية ، وجوسلين قهرمان الملك. أمام هذه الحقائق كان من المحتمل كثيرا أن أعداءنا كانوا طائشين جدا في عبور الأردن واحتلال مناطقنا ، الا أن خلافا نشأ بين النبلاء عقابا على آثامنا يقال أنه نتيجة لمعاملة قضايا الدولة باهمال ، وبشكل شرير وهي قضايا كانت تتطلب العناية المثلى ، ويقال إن الذين كان بامكانهم

-٣٤٥٤-
معالجة الوضع بالشكل الامثـل رفضـوا(العمـل) (٤٢١) بسـبب كراهيتهـــــــــــــــــــــــــم
كونت يافا ، الذي كان الملك قد عهد اليه قبل يومين بمسؤولية ضمان مصالح المملكة ، لأنهم استاؤوا من أن مسائل ذات أهمية قصوى قد وضعت في وقت خطير وعصيب جدا بين يدي رجل غامض و عاجز و احمق تماما ، و بالمحصلة سمحوا للعدو ، بصبر أو بالأحرى بخزي في أن يبقى لمدة ثمانية أيام متـوالية مخيمـا في المنطقـة المجـاورة لجيشنا ، وعلى بعد أقل من ميل ـ وهو أمر يقـال إنه لم يحـدث في المملكة من قبل وقد اجتاح الأتراك خلال هذا الوقت المنطقة بـأسرها وعاثوا فيها كما أرادوا.

وتسـاءل الناس البسـطاء الذين كانوا مـع الجيش والذين لم يشاركوا في مكر القاد ة المسـيحيين ، عن سـبب عدم نشـوب أية معركة مع العدو عندما تهيأت فرصة كهذه ، ولماذا لم يتخذ أي اجراء بشأن المعركة. وعندما نوقشت المسألة علانية كان المسوغ الذي قدم عن سبب التأجيل هو أن صلاح الدين ، قـائد قـوات الكفـرة كان متمركزا في موقع دفاعي قوي في مكان محاط بـالصخور ، وأنه كان يستحيل بالنسبة لقواتنا أن تقترب منه دون تعرضها لخـطر كبير ، وعلاوة على ذلك لقد قيل إنه وضع مجموعات قوية من القـوات على شكل دائرة احاطت بـالمنطقة ، ومجـاورة كانت لديهـا اوامـر بالانقضاض على قواتنا مـن جميع الجهـات فيمـا اذا حـاولنا أن نشتبك مع جيشهم.

لقد قال بعضهم إن هذه كانت الحقيقة بـالفعل وأكدوا أن القـادة معذورون في الموقف الذي اتخذوه وخلافا لذلك فقد أكد آخرون أن ذلك لم يكن سوى ذريعة ومجرد حيلة استنبطت عمـدا لتجنب المعـركة ، خشـــية مـــن ان ينســــب

النجاح الى الكونت اذا ماحالف قواتنا ، التي كان بامكانها في ظـل قيادته ان تحارب لتحقيق نتيجة ناجحة .

لقد اوردنا هذه الاسباب كآراء متنوعة لاناس كثيرين ، الا اننا نؤكد ان لاشيء منها كان واقعيا ، لاننا لم نتأكد تماما من حقيقة المسألة ، والذي هو حقيقي هو ان العدو بقي لمدة سبعة او ثمانية ايام متتالية دون مقاومة في اراضينا القائمة في احواز الاردن ، والحق يوميا الكثير من الاضرار بجيشنا دونما عقاب .

وبعد طول انتظار استدعى صلاح الدين قواته في اليوم الثاني او بالحري التاسع ، وانسحب سليما الى منطقته ، وعاد المسيحيون الى نبع الصفورية وهم ليسوا مقتنعين حتى الان تماما بانه لن يعود

جرى خلال الوقت الذي كان فيه جيشنا ينتظر عند نبع عين جالوت حدث جدير بالتسجيل ، فقد كان يعتقد حتى ذلك الوقت ان النبع والجداول المتدفقه منه لم يكن فيها سوى عدد قليل من السمك او لم يكن فيها شيء منه على الاطلاق ، لكن يقال انه قدم خلال اقامة المسيحيين هناك زادا كافيا من السمك للجيش بأسره .

٢٨ ـ صلاح الدين يحاصر مدينة البتراء فيما وراء الاردن ويستولي عليها بالقوة .

انتهت الامور تماما كما كان المسيحيون قد توقعوا ، حيث كان قد مضى شهر تقريبا ، عندما استعد صلاح الدين للحرب من جديد بعدما جند قواته ، فقد استدعى كتائبه من جديد وجند فيالقه ونقل الاته الحربية ، وجهز بعناية مثلى جميع الادوات العادية المستخدمة في عمليات الحصار . وبعدما اتخذت جميع هذه الاستعدادات على نحو واف زحف عبر باشن وجلعاد واجتاز بلاد عمان ومآب الواقعة فيما وراء الاردن ، لمحاصرة المدينة المسماة سابقا باسم بتراء الصحراء والمعروفة حاليا باسم الكرك .

ومان علم ارناط عن طريق كشافته بنية صلاح الدين محاصرة

الكرك خف الى هناك مع قوة من الفرسان بدت كبيرة بما فيه الكفاية لحماية الموقع ذلك انه كان مسؤولا عن هـذه المناطـق لانهـا تخص ميراث زوجته .

وكانت ايضا له اهتمامات اخرى بالكرك . فقد كان همفـري بـن همفري الثاني ، حفيده عن طـريق والده همفـري صـاحب تيرون وكافل المملكة ، على وشك الزواج في هذه الوقت من الاخت الصغرى للملك ، التي كان قد خطبها منذ اربعة اعوام من قبل .

يقال ان صلاح الدين ظهر امام الموقـع اثـر وصـول ارناط الى الكرك وبعد فترة قصيرة جدا من انتهاء احتفـال الزواج ، لابـل في ذلك اليوم نفسه بالفعل ، وكان مع صلاح الدين جيش ضخم وجميع المعدات والالات الحربية والمجانيق والعرادات المستخدمة عمـوما في انهاك مدينة واقعة تحت الحصار ، ونصب على الفور معسكره على شكل دائرة حول القلعة وبدأ الحصار .

كانت مدينة البتراء قائمة هنا فيما مضى على جبل عال جدا محاط بأودية عميقة ، الا انها بقيت مخربة لفترة طويلة من الزمـن وكانت مهجورة تماما ، حتى قام في اخر الامـر شـخص يدعى بـاغانوس الملقب بالساقي ، وكان سيدا لمقاطعة واقعـة فيمـا وراء الاردن ، ببناء قلعة في هذا الموقع خلال فترة حكم فولك الملك الثالث للاتيين في الشرق ، وشيدت القلعة فوق الجبل نفسه التي كانت المدينة مقـامة عليه من قبل ، لكن على جرف اقل انحدارا نحو السهل في الاسفل ، وكان خلفاء باغانوس لاسيما ابـن اخيه مـوريس وفيليب صـاحب نابلس قد اضافا خندقا وابراجا ليجعلا القلعة اكثر منعة ، والتصق بالقلعة وتجمع حولها الان قرية قامت في مـوقع المدينة السـابقة ، وكان سكانها قد اقاموا منازلهم هناك كمركز امـن نسـبيا ، وكان الحصن يقع الى الشرق منهـم حيث كان يقـدم الشـكل الامثـل للحماية ، بينما ارتفع الجبل في الجهات الاخرى وهو مطوق بـاودية سحيقة كما تم سردذلك ، وهكذا لم تكن هنالك حاجة لخشية السكان

من اي هجوم معاد ، حتى وان كان سور القرية منخفضا بعض الشيء . ولم يكن هناك امكانية لبلوغ قمة الجبل الا من بقعتين فقط وكان من الممكن الدفاع عن هاتين البقعتين بسهولة بعدد قليل من الرجال يمكنهم ان يصدوا عددا كبيرا من القوات العادية ، وكان من المفترض ان الجوانب الاخرى كانت لاترام .

عندما لاحظ الامير ارناط ان العدو كان قد وصل ، اقترح بشكل طائش تماما ــ كما بدا الامر للخبراء في مسائل من هذا النوع ــ محاولة الدفاع عن الموقع الخارجي والقرية المتاخمة للقلعة (٤٢٢) ، ولذلك منع الناس ، الذين شرعوا بنقل حاجياتهم الى داخل القلعة والعمل على تأمين سلامتهم هناك ، منعهم من هجر منازلهم او التجرؤ على نقل اي شيء من ممتلكاتهم مهما كان صغيرا .

وفي هذه الاثناء كانت كتائب الفرسان والمشاة منشغلة بنشاط وفعالية في محاولة لاغلاق طريق العدو الى اعلى الجبل ، الا ان حشد العدو اثبت انه كان اقوى منهم ، فاجبرهم على الفرار ومنع الذين كانوا يعملون في وضع المعيقات على الطريق وهزمهم ، واستولت قوات صلاح الدين على الجبل وشقت لانفسها طريقا بالسيف وهكذا نجح العدو الى حد كبير في شق طريقه الى القلعة وذلك في الوقت الذي كان المسيحيون يحاولون فيه الانسحاب اليها ، ولو لم يكن الفارس المسمى ايفين قد ابدى ثباتا رائعا لامكن للاتراك ، الذين كانوا بالقرب من الحصن ، شق طريق حر بدون صعوبة لرفاقهم فوق الجسر وعبر البوابة المجاورة له .

وهكذا ، كابد السكان التعساء خسارة مقتنياتهم بسبب التدابير الطائشة لحاكمهم ، فقد استولى العدو على جميع ممتلكات اسرهم وجميع اثاثهم وجميع ادواتهم من كل نوع ، وزيادة في محنتهم قام الذين هربوا الى القلعة خوفا من بطش وتهور صلاح الدين ، بانزال الجسر وكسره ، وبما ان هذا الجسر كان يقدم المعبر الوحيد عبر

الخندق ، وكان ايضا هو الطريق الوحيد الذي بإمكان الموجـودين في داخل القلعة الذهاب والاياب عبره ، فقد بات الان مدمرا ومغلقا .

امتلأت القلعة من داخلها بأعداد كبيرة من الناس البائسين مـن كل نوع ومن كلا الجنسين ، وكان ذلك عبئا اكثر مـن كونه معـونة للمحـاصرين ، وكان هنالك عدد كبير مـن الممثلين والبهلوانيين والموسيقيين واناس اخرون ممن اندفع الى هناك من سـائر انحـاء المنطقة لحضور المهرجانات المرافقة للزفـاف ، واحبـطت تـوقعات هؤلاء جميعا بشكل محزن لانهم واجهوا معارك عسـكرية واعمـالا حربية في الموقع الذي كانوا قد تـوقعوا ان يجـدوا فيه مـكاسب ، ويحتفلوا فيه بالزواج بابتهاج ، وكانت هـذه المعـارك مختلفـة كل الاختلاف عن الممارسات التي كانوا معتادين عليها .

وعلاوة على ذلك ، كان العديد من السريان قد اتوا مع زوجـاتهم وابنائهم من الريف الجاور ، وامتلأت القلعـة بهـم الى درجـة ان الذين كانوا يرغبون بالمرور جيئة وذهابا لم يتمـكنوا مـن فعـل ذلك بحرية بسبب ازدحام الحشود واكتظاظها ، وهـكذا اصـبح هؤلاء ايضا عائقا ومانعا للرجال الاكثـر نشـاطا وللذين كانوا يحـاولون الدفاع عن الموقع ، هذا وكانت القلعة مجهزة تماما بـالمؤن مـع ان امدادات الاسلحة لم تكن ضخمة كما بدا ضروريا للدفاع عن الموقع .

٢٩ ــ الملك بلدوين يعـزل كونت يافـا عن الادارة العامة للمملكة . الملك يتوج ابن اخيه بالتاج الملكي .

ادرك الملك في هذه الاثناء ان كونت يافـا ، الذي كان قـد سـلمه حكم المملكة كما حكينا من قبل ، قد اظهر نفسه بعيدا عن الحـكمة وليس شجاعا على الاطلاق في ادارة الامور عند ينابيع عين جـالوت حسبما وصفنا ذلك انفا ، فقد كانت حـالة المملكة قـد وصـلت الى

صورة من التردي سيئة جدا بسبب طيشه وعجـزه العـام ، ولذلك استرد الملك بلدوين ـ بناء على نصيحة المستشارين الاكثـر تعقـلا ـ الى يديه مسؤولية العناية بالامور التي كان قد عهد بها الى كونت يافا ، ويقال ان اسبابا اخـرى كانت مسـؤولة عن هـذا العمـل ، وكانت الحقيقة قد ذكرت من قبل وهي ان الملك عندما منح مسـؤولية المملكة الى غي ، كان قد احتفظ بمدينة القدس لنفقاته الخاصة مـع ريع قدره عشرة الاف قطعة ذهبية تدفع سنويا ، وندم فيما بعـد على هذا العمل ورغب في ان يبادل مدينة صـور بمـدينة القـدس حسـب الشروط ذاتها ، لان مدينة صـور كانت المدينة المحصـنة بـالشكل الامثل في المملكة باسرها ، وبدت بانها مجهزة بشكل افضل لمتطلباته. وبما ان الكونت بدا انه غير راغب في تنفيذ هذا المطلب ، يقـال ان الملك قد شهد تغييرا تاما بالرأي والميول .

وكان بالفعل خليقا بالانسان الذي رفض ان يظهر نفسه سخيا في مسألة صغيرة نحو الرجل الذي منحه كل شيء ان يحرم من السيطرة العليا والاشراف على الامور ، ولم يؤخذ منه مسؤولية المملكة وشرف ادارتها فقط ، بل حرم تماما من جميع امال وراثة العرش ، ووفقـا للنصيحة الجماعية للنبلاء وخاصة نصائح بوهيموند امير انطـاكية وريموند كونت طرابلس ورينو صاحب صيدا وبلدوين صاحب الرملة واخوه بالين وبناء على اقتراح ونصيحة ملحة صدرت عن والدة الملك تلقي بلدوين ، الذي كان طفلا صغيرا لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره ، المسح بالزيت الملكي وتوج بشكل مهيب في كنيسة قيامـة المسيح ، وصادق جميع الناس على هذا العمل ووافق عليه الحضور من رجال الدين . وكان كونت يافا حاضرا ايضا الا انه لم يجرؤ على التكلم ضده .

ادى جميع النبلاء على الفور وبدون تاجيل يمين الولاء الى الفتى وفقا لصيغة المألوفة ، وقدموا له حسـب المعيار الاكمـل الاحتـرام والاجلال اللائقين بـالجلالة الملكية . ولم يطلب مـن كونت يافـا ان يؤدي له الولاء . وبدت هذه الحقيقة لذوي الخبرة الطويلة ـ وهـذا

ماكانته بشكل اكيد ـ انها برهان مقنع على عداوة عميقة الجذور او بالاحرى ، كراهية واضحة ، وسيتم اظهار هذا بشكل اوضح في وقت لاحق .

كانت آراء الرجال الحكماء حول هذا التغيير الهام كثيرة ومتنوعة ، فقد قال بعضهم إن ترقية هذا الفتى لا يمكن أن تكون له أية فائدة للمملكة أو أية منفعة للأمور العامة ، لأن ترقيته كانت عديمة الجدوى تماما حيث كان الملكان معا معاقين أحدهما بالمرض والآخر بصغر السن ، وكان أفضل بكثير لو عهد برعاية الأمور الملكية وبمسؤلية شؤون الدولة لشخص ما قوي في الحرب وحكيم في الراي ، فهذا كان الراي العام للرجال الأكثر أهمية في المملكة ، وشعر آخرون أنه حتى لو اعتبر العمل المتخذ بخصوص الفتى له فائدة بسيطة ، بيد أنه قد يثبت أنه مفيد للدولة من ناحية واحدة فقط في إزالة الأمل الكلي لوراثة العرش من قبل الكونت ، وبما أنه كان عاجزا تماما ، حسب التقرير بأكمله ، وممتلئا بتلهف قوي للحكم ، فإنه قد يصبح مصدرا للنزاعات في المستقبل ، ومثيرا لاندلاع فتنة خطيرة ينبغي الحسبان لها بعد وفاة الملك ، وكان من المؤمل زوال هذا الآن تماما .

ومع ذلك ، لم يكن في قلوب الجميع سوى فكرة واحدة ورغبة واحدة ، وكانت هي إمكانية تعيين وصي ليدير شؤون المملكة ، وخاصة ليقود الجيوش ضد العدو الذي كان يهددنا الآن بشكل أعنف من ذي قبل بكثير ، وكان الرأي مجمعا إلى أبعد الحدود على أن كونت طرابلس وحده سوف يكون قادرا على القيام بهذا الواجب بنجاح . لقد حدث هذا كله في العشرين من شهر تشرين الثاني في الخمس عشرية الأولى في العام ١١٨٣ لتجسيد ربنا (٤٢٣)

-١٦٤٣-

٣٠ ـ الملك يحشد قواته ويسرع عبر الأردن لمساعدة المحاصرين . صلاح الدين يرفع الحصار .

كان صلاح الدين اثناء وقوع هذه الأحداث في القدس يعمل على إنهاك المدينة المحاصرة باجتهاد وعنف متواصلين ، فقد حالت مواظبته الملحة دون قيام اي فرصة للراحة للذين كانوا محتجزين داخل القلعة ، وكان قد أمر ببناء ثماني الات حربية ست منها في الداخل ، حيث قامت المدينة القديمة ، واثنتان في الخارج ، في ذلك الموقع المعروف عموما باسم الربض ، واستمر الهجوم بشكل لا يعرف التعب ليلا ونهارا ، وقذفت أحجار ذات حجم كبير جدا ، بحيث لم يجرؤ أحد من الموجودين ضمن الأسوار على رفع يد أو على النظر من الفتحات أو تجريب أية وسيلة للمقاومة ، واستحوذ الرعب واليأس على السكان البائسين إلى درجة أنهم لم يجرؤوا على إظهار أنفسهم حتى عندما تدلى افراد العدو بوساطة الحبال وقتلوا بكل وقاحة الحيوانات التي كان اللاجئون قد جلبوها إلى داخل الخندق حول القلعة ، وقطع الأتراك الذبائح إلى قطع لحم كبيرة ، دون مواجهة أدنى مقاومة ، ودون أن يتعرضوا لأي خطر ، وذلك ليستخدموها كطعام لهم .

كما أن الذين عملوا كطباخين وخبازين في جيش العدو ، والذين كانوا يزودون السوق بجميع أنواع السلع وضعوا ورشات عملهم في بيوت السكان وواصلوا أعمالهم بكل حرية هناك وسط وسائل راحة من جميع الأنواع ، وكانت هذه البيوت مجهزة بشكل جيد بالحبوب والشعير والخمر والزيت حيث استولى العدو على جميع هذه الأشياء بالقوة على الرغم من المالكين ، واستخدموها كما شاؤوا .

حاول المحاصرون في القلعة مرة أن يشيدوا آلة حربية خاصة بهم ، إلا أن أفراد العدو المسؤولين عن آلات القذف الحربية الموجودة في الخارج سددوا قذائف الصخور بخبرة متناهية إلى درجة أن

المسيحيين تخلوا عن المحاولة بعدما روعتهم الضربات المستمرة مع الخوف من الموت الذي بدا أن كل حجر كان يهدد به ، وارتأوا أنه من الأعقل أن يتحملوا بصبر أي قدر سيحل بهم بدلا من أن يعرضوا انفسهم للموت بمحاولة القيام بأي نوع من أنواع الدفاع .

ولم تقتصر هذه المخاطر ، التي سببت ارتجاف الجنود برعب ، على مهاجمة الذين تسللوا من مخابئهم لقذف الأسلحة أو القذائف الصخرية من الشرفات ، أو للتحديق بالقوات المحاصرة ، فقد ارتجف برعب أمام ضربات وزئير القذائف المقتربة ، وبدا القصف كالرعد حتى للذين هربوا إلى الغرف والحجر الأكثر عمقا ، والتي كانت تعد أكثر الأماكن انعزالا وكانوا في ترقب دائم خشية أن يتهدم البناء وينهار عليهم ، وانتظروا من لحظة إلى أخرى الضربة الصاعقة .

كان الملك يحاول بجدية خلال هذا الوقت أن يدبر المساعدة للمحاصرين بكل طريقة استطاعها ، وأن يرسل النجدة المرغوبة بالسرعة المكنة ، وأخذ صليب الصلبوت المانح للحياة وذلك بعدما جمع قوة المملكة من كل مصدر ، وزحف إلى هناك بنفسه ، ولدى وصوله إلى البحر الميت ، الذي يدعى الآن باسم بحيرة الزفت ، جعل بعد دراسة متروية من كونت طرابلس قائدا للجيش وآمرا للقوات بأسرها .

وتخلى صلاح الدين عن الآته الحربية لدى معرفته عن طريق كشافته أن الجيش المسيحي كان قريبا ، وأن كونت طرابلس كان يقود الفيالق ، وأمر جنوده بالانسحاب ، وهكذا رفع الحصار وعاد إلى منطقته بعد تهديده للمدينة بهذه الطريقة وازعاجه لها مدة شهر كامل(٤٢٤)

ومع ذلك ، فقد واصل الملك زحفه إلى الكرك حيث جلب وصوله إلى أهالي تلك البقعة النجدة المطلوبة منذ زمن طويل ، ثم أعلن النداء

- ٣٤٦٣ -
بالرحيل ، وأعاد جمع قواته من جديد ، ومـن ثـم عاد بسـلام إلى القدس .

هنا انتهى الكتاب الثاني والعشرون

الكتاب الثالث والعشرون

هل يمكن انقاذ القدس بوساطة ريموند كونت طرابلس

توطئة

لقد صممنا على التخلي عن الكتابة وأن نودع إلى صمت القبر تاريخ الحوادث التي كنا قد باشرنا كتابتها للأجيال القادمة وذلك بعدما أرهقتنا الكوارث المحزنة التي تقع كثيرا في المملكة ـ بالفعل بشكل مستمر تقريبا ـ حيث لا يوجد أحد يرغب في سرد عيوب بلاده ، وأن يظهر للنور أخطاء شعبه ، فقد أصبح أمرا مقررا بين الناس جميعا ، ويعتبر بالفعل طبيعيا وجوب كفاح كل انسان بكل ما أوتيه من قوة في سبيل تمجيد بلاده وأن لا يحط من السمعة الحسنة لأبناء بلده .

لكننا الآن فقدنا جميع مصادر السمعة المتألقة ، كما أن الموضوعات الوحيدة التي تقدم نفسها هي كوارث بلد متألم ، ومحنه المضاعفة وهي موضوعات لا تقدم إلا لاستدراج صيحات العويل والدموع .

كنا قد وصفنا حتى الوقت الحالي في الكتب السابقة ، بالشكل الأمثل لمقدرتنا المآثر البارزة للرجال الشجعان الذين احتفظوا بالسلطة الحاكمة لمدة ثمانين عاما ونيف في منطقتنا من الشرق ، وبشكل خاص في القدس (٤٢٥) . الا اننا الآن نفتقر الى الشجاعة لكي نستمر ونحن في مقت تام للوقت الحالي ، ومندهشون ازاء المادة المقدمة أمام عيوننا ومسامعنا ، وهي أشياء غير صالحة لتسرد حتى

في اغاني مهرج (٤٢٦) او في حكايات قصاص (٤٢٧) ، مهما كان نوعها ، اننا لانملك الشجاعة المتابعة ، ولايوجد اي شيء من اعمال امرائنا يبدو لرجل حكيم انه جدير ليتم تسليمه لخزانة الذاكرة ، لاشيء يمكنه ان يساهم في انعاش القارىء او يضفي الاحترام على الكاتب ، حقا ، اننا نستطيع ان نندب مع الرسول انه هلك من وسطنا « الشريعة عن الكاهن والمشورة عن الحكيم والكلمة عن النبي »(٤٢٨). وحدث بيننا انه « كما الشعب هكذا الكاهن »(٤٢٩). ويمكن ان يطبق علينا ايضا بصدق تلك النبوءة التي تقول : « كل الراس مريض وكل القلب سقيم . من اسفل القدم الى الراس ليس فيه صحة(٤٣٠). لاننا وصلنا الان الى مرحلة حيث « لايمكننا ان نتحمل اثامنا و لا علاجها »(٤٣١) . ولذلك اصبح العدو – عقابا لنا على اثامنا – اقوى من انفسنا ، كما اننا نحن ، الذين اعتدنا على الانتصار على اعدائنا والذين حملنا معنا اكاليل الغار الرائعة الدالة على النصر ، ننسحب من الميدان بهزيمة شائنة بعد كل صراع ، ونحن محرومون من التاييد السماوي .

ولذلك ، حان الوقت لنلزم الصمت ، لانه يبدو من الموائم اكثر ان نسدل ستائر الليل فوق اخفاقاتنا بدلا من ان نسلط ضوء الشمس على خزينا ، بيد ان هناك بعض من يرغب منا ان نستمر في المهمة التي باشرناها فيما مضى ، انهم الذين يرغبون الينا بجدية ان نسجل في هذا الكتاب للاجيال القادمة جميع اطوار مملكة القدس المعاكس منها والمزدهر ايضا ، وهم يستشهدون ، من اجل تشجيعنا ، بمثال ابرز المؤرخين واعني تيتوس ليفي الذي لم يقتصر في كتابه على تسجيل نجاحات الرومان فقط ، بل هزائمهم ايضا ، ويوسفيوس الذي لم يقتصر في اعماله الشاملة على اظهار اعمال اليهود البارزة ، بل ايضا الامور المخزية التي الحقت بهم (٤٣٢).

كما يقدمون امثلة كثيرة اخرى في الجهود التي يبذلونها لاقناعنا بمواصلة هذا العمل ، وقد تاثرنا وبتنا على استعداد للاذعان لهذا

المطلب ، حيث انه من الواضح بالفعل ان مؤرخي الحوادث السـابقة قد سجلوا دون تميز حوادث معاكسة وحوادث ميمونة ايضا ، لانهم ياملون برواياتهم لاخبار المنجزات الناجحة الهـاب الاجيال القـادمة بالشجاعة ، في حين انهم قـد يقـومون بتـوعية الاجيال اللاحقـة فيجعلونها اكثر حذرا في ظروف مشابهة ، وذلك بتزويدهم بامثلة عن محن تم تحملها بصبر .ينبغـي على كاتـب الحـوليات ، اسـتنادا لمنصبه ، الا يودع الحروف احداثا يرغب هو بها ، بل الاحداث التي تعـرضها الايام ، ان محصـلات الحـوادث الدنيوية ، وخاصة حوادث الحرب ، متقلبة دائما وليست مـؤكدة ، والازدهار ليس مستمر ابدا ، كمـا ان المحنة ليسـت على الاطـلاق بدون فترات فاصلة براقة .

وبناء عليه ، لقد وافقنا على متابعة الاحداث بعـد مـا تخلينا عن عزمنا السابق ولسـوف نسـتمر بمسـاعدة الرب مـا دمنا على قيد الحياة(٤٣٣)في ان نسجل بالعناية المثلى ، كما فعلنا في السـابق ، اية حوادث يقدمها المسـتقبل . وليجعلهـا الرب احـداثا سـعيدة ومزدهرة (٤٣٤)

١ ـ اندلاع العداوة القائمة منذ زمـن طـويل بين الملك وكونت يافا وتحـولها الى صراع عنيف استبعاد اي امل للمصالحة. كونت طـرابلس يصـبح نائبـا للملكة ووصيا على الملك.

استمرت في الوقت نفسه العداوة بين الملك وكونت يافا بـالازدياد قوة يوما بعد يوم بعدما غذتهـا اسـباب سرية ،وكانت الضـغينة ، المكبوحة حتى هذا الوقت ، قد انفجرت الان بعنف زائد لدرجـة بـدا فيها الملك يبحث علنا عن اسباب لفصل اختـه عن زوجهـا ولالغـاء

الزواج ، ولهذا الغرض ذهب بلدوين بشكل مكشوف الى البطريرك ، وفي نيته تقديم شكوى ضد الزواج ، وطالب بتحديد يوم يمكن ان يعلن فيه الغاء الزواج بشكل مهيب وبحضور البطريرك .

وجرى ابلاغ الكُونت لدى عودته من الحملة بتفاصيل الاجراءات باسرها ، فترك الجيش على الفور وانطلق الى عسقلان عبر الطريق الاقصر ليحذر زوجته ، التي كانت موجودة في القدس في ذلك الوقت ، لتغادر تلك المدينة وتتوجه الى عسقلان قبل وصول الملك ، لانه خشي انه اذا ابقاها بلدوين في حوزته لن يسمح لها بالعودة الى زوجها .

ثم ارسل الملك رسولا ليستدعي الكونت للمثول اثناء البت في الدعوى وليبلغه باسبابها . الا ان غي قاوم وسوغ عدم مثوله بادعاء المرض ، وبعدما وجهت اليه عدة مرات ، وثابر غي على الرفض وعدم الاستجابة ، صمم الملك ان يذهب اليه شخصيا وان يسلمه شفويا وبشكل مهيب الدعوى للمثول امام العدالة ، الا ان بلدوين وجد عندما وصل الى مدينة عسقلان الابواب موصدة ، وكان بمرافقته بعض نبلاء قصره ، فطرق بيده على الابواب ، وطالب ثلاث مرات بان تفتح له . وحيث لم يبد احد الرغبة في اطاعة امره ، انسحب ساخطا بشكل محق ، وقد حدث هذا على مرأى تام من جميع سكان المدينة الذين كانوا قد تمركزوا في الابراج وعلى الأسوار ، لدى معرفتهم بوصول الملك ، منتظرين نتيجة القضية .

وتقدم من عسقلان إلى يافا مباشرة . والتقى على الطريق بعدد كبير من سكان تلك المدينة ، من الرجال الاكثر أهمية من كلا الطبقتين ، وفتحت أبواب المدينة له ، ودخل بدون صعوبة ، ثم وضع حاكما هناك ليتولى مهام الأمور ومن ثم تقدم إلى عكا حيث اعلن عن عقد مجلس عام في تلك المدينة نفسها ، وعندما اجتمع جميع نبلاء المملكة في اليوم المحدد ، قام البطريرك ، بمساعدة وتعاون المقدمين أي مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية بمخاطبة السيد الملك ، وجثا على

ركبته وشرع يتوسط للكونت ، وقدم التماسا جديدا كان مفـاده أنه ينبغـي على بلدوين أن يتخلى عن اسـتيائه ويعيد غي إلى الرضى ، وعندما لم يتم الاصغاء إلى المطلب على الفور ، انسحب البـطريرك ومؤيدوه وهم يشعرون بسـخط شـديد ، وغادروا البـلاط والمدينة أيضا .

وقدم اقتراح للنبلاء المحتشدين بارسال مبعـوثين إلى الملوك وبقية النبلاء في بلدان ما وراء الجبال لدعوتهم للقدوم لمد يد المسـاعدة إلى المملكة والديانة المسيحية نفسها ، وكان ينبغـي اسـتعراض هـذه المسألة في البداية ، إلا أن البطريرك قاطع العمل ، كما تم ذكر ذلك ، وباشر الحديث المذكور أعلاه وبعدما أحبط الموضوع الرئيسي ، غادر عكا وقد جرفته العاطفة ، كما تم وصف ذلك (٤٢٥)

عندما علم كونت يافا أن الملك لن يتراجع لاحلال السلام معه ، زاد من سوء سلوكه الشرير السابق بأعمال أكثر عنفا ، فقد أخذ طـريقه مع القوات التي كانت تحت تصرفه نحو القلعة التـي تـدعى الداروم وانقض فجأة على مخيم بعض البداة العرب الذين كانواقد ضربـوا خيامهم في تلك المناطق بسبب موائمة المرعى ، وكان الملك قد وعدهم بالحماية وكانوا يعتمدون على هذا تمـاما ، وبمـا أنه وجـدهم غير مستعدين للمقاومة ، فقد ساق قطعانهم وعبيدهم وعاد بهذ الغنيمـة إلى عسقلان . وعندما بلغ نبأهذه الغزوة إلى الملكا ستدعى من جديد نبلاءه وجمعهم ، وعهد برعاية المملكة وإدارتهـا العامة الى كونت طرابلس الذي كان لديه سبب ليثق بحكمته وشـهامته ، وبدا هذا العمل مرضيا لرغبـات جميع الناس ، ولاغلبية النبـلاء ، لأنه كان واضحا بالنسبة للجميع أن طريق السلامة الوحيد قائم في وضع أمور المملكة في يدي كونت طرابلس(٤٣٦).

هنا توقف الكتاب

الهوامش والحواشي

حواشي – رحلة لويس السابع الى الشرق

(١) من المرجح ان هذه الرسالة ، مع كتاب التاريخ هذا قد كتبا في شتاء ١١٤٨ م .

(٢) إن لويس السابع هو محور الحديث في كتاب التاريخ هذا ، وسنرى من خلال صفحاته نوعية العلاقات بين اودو صاحبه ومالكه .

(٣) كان سوكر النائب الاول الملك لويس السابع في فرنسة اثناء غيابه في الحملة الصليبية الثانية .

(٤) في كتاب الذي حقق وترجم الى الانكليزية من قبل .

(٥) ينقل هنا من النص اللاتيني لحياة القديس نيقولا المكتوب في القرن التاسع من قبل جون داكون حيث جاء فيه : « إنه عندما كان يرضع حليب امه ، شرع يرضع مرتين فقط في اليوم الرابع من كل اسبوع ، ومرة واحدة في اليوم السادس » .

(٦) لم يستطع سوكر ان يحقق امنية اودو هذه فكتب قطعة ادبية رائعة عن الملك لويس السادس ثم شرع بالحديث على نفس المنوال عن ابنه ، كما تمنى اودو . لكن المنية حالت بينه وبين اكمال عمله .

(٧) يسرد اودو ، كما سنرى ، اخبار حوادث وقعت قبل اجتماع فيزلي ، حيث يوضح كيف تسلسلت الوقائع .

(٨) توحي هذه الفقرة بان لويس قد خطط للذهاب الى الشرق قبل ان يطلب منه البابا فعل ذلك . مما اثار نقاشا واسعا بين الكتاب ، فقد خطط لذلك حسب بعض الآراء للثار من المسلمين وللتكفير عن ذنوب اقترفها .

(٩) الرها هو الاسم العربي لمدينة اديسا بالسريانية ، وهي اورفا الحالية في تركية . فيها تاسس للصليبيين اول امارة لهم في الشرق ، وقد حررها عماد الدين زنكي سنة ١١٤٤ م .

(١٠) عارض سوكر فكرة الحملة في البداية قبل اجراء المشاورات والاستعدادات اللازمة .

(١١) اصبح برنارد دي بانكالي بابا باسم يوجينيوس الثالث سنة ١١٤٠م . واشرنا في الحاشية – ٢ – في الصفحة السابقة الى الخلاف حول مسالة دوره في التحريض على قيام الحملة الصليبية الثانية .

(١٢) حاول بعضهم ان يفسر هذا النص على انه يعني طاعة الملك للبابا ، وهو امر غير مقبول .

(١٣) عاشت روما فترة اضطرابات شديدة فيما بين ١١٤٥ – ١١٤٦ م اثرت على حرية البابا وعلى تحركاته .

(١٤) تذكر بعض المصادر الاخرى بان الدكة انهارت جميعها ، ما عدا المكان الذي وقف عليه الملك وقد اعتبر هذا كرامة له ومعجزة سماوية .

(١٥) تملك برنارد هذا قدرة خطابية كبيرة ، فببلاغته استطاع ان يثير الحشود اثناء عظته لهذم ، وقد قرا عليهم وهم في حالة الهيجان رسالة البابا التي تحضهم على حمل الصليب .

(١٦) تبدلت هذه الخطة كما سنرى فيما بعد .

(١٧) جاء في رسالة وجهها الاب برنارد الى البابا يوجينيوس يصف فيها نتائج اعماله التبشيرية بالفقرات التالية :« وما تبقى انت امرت ، وانا اطعت ، وقضت ارادة الرب الذي يصدر الاوامر أن تكون طاعته مثمرة ، فحيثما بشرت بالحرب المقدسة ، كان عدد الذين استجابوا لحمل الصليب اكبر من ان يحصى ، حتى إن المدن والقلاع خوت من الرجال ، الى حد أنه تعذر على كل سبعة نساء ايجاد رجل واحد ، وهكذا غدت النساء في كل مكان اشبه بالارامل مع أن رجالهن

وازواجهن مازلوا احياء » .

(١٨) سيمر بنا المزيد من المعلومات عن علاقة روجر صاحب ابوليا بالحملة الصليبية الثانية .

(١٩) المقصود هنا الامبراطور مانويل كومنوس ، ونظرا لانه كان ارثوذكسيا ، فهو تبعا لاودو لم يكن بين الذين اختارهم الرب ، ورضي عنهم .

(٢٠)مرد الخلاف الى طلب الامبراطور البيزنطي من رجال الحملة الثانية اداء يمين الولاء له كما فعل رجال الحملةالأولى مع جده الكسيوس .

(٢١) سترد بعض الاشارات حول دور كونراد الثالث في الحملة الصليبية الثانية .

(٢٢) كان عيسى الثاني [١١٤١ ـ ١١٦١م] على عرش هنغاريا ، وكان الاتفاق معه ضروريا بالنسبة للصليبيين لطول اراضيه التي سيمرون بها .

(٢٣) قام القديس برنارد بارسال رسالة تبشيرية الى انكلترا لاقت بعض الاصداء الايجابية .

(٢٤) اثر المؤلف هنا اختصار بعض الاخبار ، مثل اخبار الاجتماع الذي عقد في شالون بين الملك لويس والقديس برنارد ومندوب كونراد الثالث ، ودوق ولف .

(٢٥) المعلومات المفصلة عن نشاط برنارد التبشيرية للحملة الثانية في المانيا قليلة جدا .

(٢٦) لقد وقع الاختيار على الطريق البيزنطي من قبل رجال الحملة الثانية ، لان الحملة الاولى سارت على ذلك الطريق ، ثم لوجود المتطوعين الالمان الذين كانوا معادين للملوك النورمانديين اصحاب صقلية المتحكمين بالطرق والممرات البحرية ، خاصة ممر مسينا .

(٢٧) لوقا: ٢٢ / ٢٨ .

(٢٨) ـ كان وليم الثاني نيفر(١٠٨٩ ـ ١١٤٧ م) من اكبر مؤيدي العرش الفرنسي ، وقد توفي عقب تكليفه بوقت قصير .

(٢٩) المخاطب هنا الأب سوكر .

(٣٠) في هنا اشارة الى ما جاء في انجيل متى ١٩٠ / ٣٠ قول المسيح عليه السلام : « لان نيري هين وحملي خفيف » ومفيد ان نشير هنا بأن اودو يحوم حول الموضوع متجنبا الحقيقة وهي ان سوكر لم يقبل تكليفه بوظيفة نائب الملك ، لانه اعتبر ذلك حملا ثقيلا ، وليس تكريما وتشريفا ، ولم يستجب لطلب الملك الا بعدما امره البابا بذلك فاطاعه .

(٣١) أي يوم ١٥ حزيران ١١٤٧ م .

(٣٢) الاربعاء الثانية من شهر حزيران عام ١١٤٧ كان يوم / ١١ / منه .

(٣٣) يبالغ اودو في عرضه هذا الخبر ففي القديم كانت راية الحرب المشار اليها توضع في كنيسة دينس ، وكانت راية مقدسة ، انما في عصر الحملة الثانية او قبله بفترة كانت هذه الراية ضمن المحتويات الملكية يحملها الملك متى شاء دون الطقوس المشار اليها .

(٣٤) ـ مرة جديدة يتخلى اودو عن رواية أخبار العديد من الحوادث ويختصرها كثيرا ، ثم يعود بلا مقدمات الى ذكر تفاصيل جديدة لحوادث تالية .

(٣٥) إن وجود اودو في حاشية الملك لويس قبل زيارته للقديس دينس يوحي بانه دخل في خدمته واصبح من رجاله المقربين قبل الحملة الصليبية .

(٣٦) هي اديلاد ابنة هيومبرت الثاني صاحب مورين واخت البابا كالسكتوس الثاني وقد تزوجت من ماثيو صاحب مونتومورس في سنة ١١٣٨ م اي سنة واحدة من وفاة لويس السادس .

(٣٧) هي اليانور دوقه اكوتين ، التي غدت في سنة ١١٤٧ م ملكة فرنسة واستمرت كذلك مدة عشر سنوات ، وما يثير الدهشة انها لم تحظ بما استحقته من مكانة وقامت به من دور في كتاب اودو ، فكل ما نالته اشارات عابرة ، مع أنه من المشكوك فيه ان يكون اودو غير مطلع على دورها وما قامت به ، لكن لماذا اهملها فلذلك العديد من التعليلات .

(٣٨) اكمل سوكر استرداد بقايا القديس دينس في سنة ١١٤٤ ، وفي تلك السنة وضع جسد القديس دنيس واجساد رفاقه الشهداء في وعاء فضي مغطى بصفائح ذهبية ، وثبت على مذبح مرتفع لتسهل رؤيته .

(٣٩) ربما تناولها من سوكر . نلاه ان كونت فلنكسين اعتاد ان يتناول الراية من الاب رئيس كنيسة القديس دنيس .

(٤٠) اغفل اودو الحديث عن الاضطرابات التي وقعت انذاك في فرنسة بسبب الضرائب العالية المفروضة على الشعب .

(٤١) هو سمسون رئيس اساقفة الرايم منذ سنة ١١٤٠ ، ولقد كان دوره في نيابة المملكة ضئيلا .

(٤٢) كان راؤول الاول كونت فيرماندوس وفاليوس [١١١٧ ـ ١١٥٢] من المؤيدين الكبار للعرش الفرنسي أيام لويس السادس وشغل وظائف عالية منها وظيفة ، ومدير المراسم ، او الحاجب . وقد تخلى عن هذه الوظيفة في بداية حكم لويس السابع لخلافة مع سوكر لكنه عاد الى عمله هذا سنة ١١٣٨ وظل يشغله حتى سنة ١١٥٢ م ، وكان اثناء فترة النيابة عن الملك نشط وله دوره الكبير ، لكن الادنى من دور سوكر ، واما الحرمان الذي اشار اليه اودو فقد نتج في سنة ١١٤٢ م عن تخليه عن زوجته ليتزوج بواحدة أخرى .

(٤٣) العهد القديم ـ الجامعة : ٤ ، ١٢ .

(٤٤) جرت محاولات لاثبات انه كان اخا لسوكر ، وقد تقلب في عدة مناصب كنسية آخرها اسقفية اراس من سنة ١١٣١ وحتى ١١٤٧م .

(٤٥) كان ليو من زملاء الفيوس وشغل منصبه من ١١٣٨ ـ ١١٦٣ م وسافر معه بالحملة الصليبية وقام بدور بارز فيها .

(٤٦) ٢١ حزيران ١١٤٧ .

(٤٧) شغل ارنولف وظيفته كاسقف من ١١٤٢ وحتى ١١٨٢ ، وكان مثقفا واسع المعرفة ، يحسن نظم الشعر ، لذلك كان دوره في الحملة الصليبية الثانية كبيرا ومؤثرا .

(٤٨) هو بارثلميو يروى أنه شغل منصب الحاجب من حزيران ١١٤٧ م وحتى نهاية تشرين أول ١١٤٩ م وقد رافق لويس السابع في الحملة الصليبية ، وقد بعثه الملك الى فرنسة سنة ١١٤٩ ليقدم لسوكر المعلومات التفصيلية عن الحملة الصليبية ، وقد قام اثناء الرحلة نحو المشرق بعدة مهام دبلوماسية هامة ، فقد تقدم الجيش الفرنسي الى القسطنطينية ، وتدخل لاجل تامين الطريق ، وحل بعض المشاكل بعد تفاوضه مع الامبراطور مانويل .

(٤٩) يعني استهلاك المؤن .

(٥٠) جاء في رسالة ارسلها لويس الى سوكر من هنغاريا العبارات التالية : بينما يقدم الرب لنا العون في كل زاوية فإن امراء البلاد التي مررنا بها قد استقبلونا بالترحاب والسرور . وبكل اخلاص اعتنوا بنا ولبوا مطالبنا بكل شرف .

(٥١) الثياب المشار اليها هنا تشبه نوعا من انواع ، الجاكيت والتنورة ، مع اكمام ضيقة .

(٥٢) لاشك ان الامبراطور مانويل اراد ان يفعل ما سبق لسلفه الكسيوس ان فعل مع رجال الحملة الصليبية الاولى .

(٥٣) سيتم التعرض فيما بعد للمناقشات بينهما .

(٥٤) هو أرشيبالد السابع كونت بوربون حتى سنة ١١٧١ م ، وكان من حلفاء التاج الفرنسي ، وزوجا ـ لاجنيس ـ عمة الملك لويس السابع .

(٥٥) منهم : ماناساس صاحب بولوس ، وافرارد صاحب برتويل ، وانسلم الحاجب في الفلاندر ، وافرارد صاحب باراس .

(٥٦) من اجل الطريق الذي سلكوه انظر الخريطة المثبتة في نهاية الكتاب الخامس .

(٥٧) يرى بعض الباحثين بان تقديرات أودو للمدد المحتاجة بين مكان وآخر هي للمسافر المجد وليس للجيوش الزاحفة .

(٥٨) بسبب توفر المؤن ، لذلك لم يكن هناك حاجة لمؤنة السفن .

(٥٩) تميز اودو باسلوب خاص في العرض ، نرى هنا نموذجا منه .
(٦٠) يحل احد العنصره بعد الفصح بسبعة اسابيع .
(٦١) احتفل كونراد بعيد الفصح في بامبرغ ، ثم عقد اجتماعا كبيرا في نورمبرغ ، ومن ثم تابع سيره الى راتسبون حيث مكث حتى أواخر ايار ، ثم عسكر في ٢٩ أيار في ارناكير .
(٦٢) في الحقيقة كانت العلاقات بين هنغاريا والمانيا عدائية ، بسبب تدخل بورس امير بوهيميا الذي ادعى احقيته بعرش هنغاريا ، فعمل على معونة من كونراد امبراطور المانيا ضد الملك الهنغاري عيسى ، وحدث في سنة ١١٤٦ ان تمكن فارس قدم من الشرق أن يغزو هنغاريا ، فاستولى على حصن بوساو ، وقام ملك هنغاريا بشراء هذه القلعة منه ، ثم جمع جيشا كبيرا وزحف في تشرين الثاني من العام نفسه ضد امير بوهيميا واوقع به الهزيمة ، وعندما زحف كونراد يريد الشرق للاسهام في الحروب الصليبية لم يكن قد انتقم بعد لهزيمة حليفه ، لذلك عبر هنغاريا محاربا يمارس السلب والنهب والتدمير ، وليس كحاج يريد الوصول الى القبر المقدس ، وذلك حسب تعبير بعض المؤرخين الذين عاصروه .
(٦٣) كان بورس الذي ذكر اعلاه إبن الملك كولومان ملك هنغاريا من بوهيميا اميرة كييف ، وقد شجعه الامبراطور البيزنطي يوحنا كومينوس لينازع اخاه الاكبر وينتزع العرش لنفسه ، ويبدو انه استمر في تآمره ضد كل من بيلا الثاني وعيسى الثاني حتى قتل في حملة بيزنطية ضد هنغاريا سنة ١١٥٥ م .
(٦٤) يذكر بعض المؤرخين ان ملك هنغاريا جمع ماكان في خزائنه من أموال مع مساحوته البيرة والكنائس . وانفق ذلك كله بين الالمان من رجال الحملة الصليبية ، خوفا وأملا .
(٦٥) قيل هما : كونراد ولويس بالذات ، ورفض بعض المؤرخين هذا ووجدوا من المحال التعرف الى هذين الاميرين .

(٦٦)تعني كلمة نقود عند الإغريق ، المعدن المطبوع او المختوم ، وبهذا فهي اشبه بنقود عصرنا المصنوع من معادن رخيصة أو من الورق ، ويضاف الى هذا ان المصاعب الاقتصادية والمالية في بيزنطية ايام الامبراطور مانويل كومين اجبرته ليس فقط على انزال عيار الذهب في النقود بل على عدم ضرب نقود ذهبية البتة .
(٦٧) سيذكر المؤلف مزيدا من التفاصيل حول اسعار التبادل النقدي .
(٦٨) وجه مانويل اعلانا الى الصليبيين بأن المؤن ستقدم لهم للشراء على طول الطريق الذي سيعبرون بلاده عليه .
(٦٩) يذكر بعض المؤرخين الذين عاصروا هذه الاحداث بان الالمان مروا في البداية مسالمين في المنطقة الجبلية الواقعة بين نهر استير وصوفيا ، إنما عندما دخلوا منطقة السهول بدأوا السلب والنهب .
(٧٠) يرى البعض بأن هذا وقع في القسطنطينية ، ولكن هذا الراي مشكوك فيه ويرجح ان الحدث وقع قبل الوصول الى العاصمة البيزنطية .
(٧١) ربما كان اسمه ميخائيل براناس .
(٧٢) الخامس من تشرين ثاني ١١٤٧ م .
(٧٣) الثامن من تشرين ثاني ١١٤٧ م .

(٧٤) تذكر المصادر المعاصرة ان الامبراطور مانويل سمع بالفوضى بين صفوف الالمان فأرسل واحدا من كبار قادته واسمه بروسوش على راس قوة جمعت على عجل وامره أن يواكب الحملةالصليبية ، ويراقب أعمال افرادها ويمنعهم من التشرد على الطريق الذي كانوا يسافرون عليه ، وقد وجد هذا القائد الحملة الالمانية تسير ببطء شديد وتتجول على الطريق دون نظام ، ولعل مرد وفاة عدد من الجنود الالمان يعود الى اعمال انتقامية قام بها الاهلون من الاغريق الذين تعرضوا للنهب والسلب او انها من فعل جنود بروسوش .

(٧٥) من المعتقد ان جند برسوش هم الذين اغلقوا طريق ادرنة . وقيل بان الامبراطور مانويل ارسل ادرو نيكوس أويوس وكان من كبار رجالاته لينظم الامور مع الالمان وانه اقترح عليهم طريقا اخر اقصر من طريق ادرنة .

(٧٦) اضاف بعض المؤرخين هنا معلومات اخرى هامة فيها ان واحدا من النبلاء الالمان اصيب بجراح فدخل الى احد الأديرة بعد سفر الحملة الالمانية ، وبينما كان في الدير قام بعض اللصوص الاغريق بمهاجمة الدير واحرقوا هذا النبيل في غرفته بعدما استولوا على ماله . ولدى سماع الالمان بهذا رجعت فرقة منهم الى المدينة فاحرقت الدير برمته ، ومن ثم اخذ الالمان يسلبون وينهبون على طول الطريق ، وعندما سمع الامبراطور مانويل بذلك زاد من استعداداته العسكرية في عاصمته وارسل قوة جديدة انضمت الى عساكر بروسوش .

(٧٧) يعرف هذا المرج بسهل كواروباكجي وهو مروي بنهري ميلاس واثيراس ، ووقع حادث الفيضان ليلة ٨ تشرين ثاني .

(٧٨) يذكر بعض المؤرخين انه بعدما سمع الامبراطور مانويل بقضية الفيضان بعث برسالة الى كونراد اقترح فيها ان يجتمعا للتباحث في القضايا الهامة ، واجابه كونراد بان عليه ان يقدم لمقابلته في منتصف الطريق كما اشترط عليه شروطا اخرى قاسية . مما دفع مانويل الى الغاء فكرة المباحثات والاجتماع .

(٧٩) دعيت هذه الحديقة الكبيرة باسم فيلوباشن وقامت خارج اسوار القسطنطينية قرب الباب الذهبي ، ويعتقد ان معرفة اودو بهذه الحديقة تعود الى ان الملك الفرنسي اقام بها اثناء وجوده في القسطنطينية .

(٨٠) يرى البعض في هذه الرواية شيئا كبيرا من المغالاة .

(٨١) غالبا ما عرف البوسفور باسم ذراع القديس جرجس .

(٨٢) ان موضوع اقامة الالمان في القسطنطينية ثم عبورهم هو موضوع متداخل جدا ولا تملك حوله ما يكفي من المعلومات ، فالتباعد تام بين مانويل وكونراد قبل وصول الاخير الى القسطنطينية مما حال دون اجتماعهما والتباحث المباشر بينهما ، ومع هذا يقال بان كونراد راى ان امكاناته لا تسمح له بالقيام بأي عمل ضاغط على العاصمة البيزنطية . وانه مل من مهمة المشاركة بالحروب الصليبية لذلك تعجل العبور إلى البر الاسيوي ليقضي مهمته .
ولعل الامبراطور البيزنطي ادرك هذا وشجعه على العبور باعطائه بعض الخيول الجيدة وبتزويده بدليل او اكثر .

(٨٣) هذا الرقم فيه نظر .

(٨٤) كذا والارجح هو نيقية . هذا واسم نيقوميديا الحالي « ازميت » .

(٨٥) مرد هذا الى خلاف قام بين الملك والعامة ، فقد اشيع بين كونراد أعلن بان رجاله قد تعبوا من الرحلة والمخاطر وانه لذلك سيعوض عليهم ويعيد تشكيلهم ليبعث بهم مباشرة نحو القدس دون سواهم ، ورفض عامة رجال الحملة هذا وانتخبوا واحدا منهم قائدا واسمه برنارد ، واعلنوا انهم سيعتزلون عن الملك المتكبر عليهم طالما هو لا يريد العامة معه ، فالعامة ما عادوا يعتبرونه ملكهم .
وقام خلاف حاد تم التوصل الى حله عن طريق ذهاب العامة مع الاسقف والبقية مع الملك .

(٨٦) هو اخو كونراد لامه ، ذلك انه كان ابن ليبولد الثالث صاحب النمسا ، وامه اجنيس ابنة الامبراطور هنري الرابع ، تسلم الاسقفية منذ ١١٣٧ وحتى ١١٥٨ ، وكان قد نال تعليمه في باريس ، وحظي بشهرة كبيرة لانه ترك عددا من الاثار التاريخية الهامة .

(٨٧) هو ستيفن شغل منصبه من ١١٢٠ الى ١١٦٠ وهو ابن كالكستوس كونت بار .

(٨٨) هو كونت رسودنسون وبار من ١١٠٤ وحتى ١١٤٦ ، وقد ملئت حياته بالمشاكل والاعمال الحربية .

(٨٩) هو هنري الاول اسقف تول من ١١٢٦ وحتى ١١٦٥ كان اخوه كونت فلاندرز .

(٩٠) يرى بعض المؤرخين أن ما قام به البشناق والكومان ، إنما جاء بمثابة ردة فعل على اعمال السلب والنهب التي مارسها الفرنجة .
(٩١) كان بين رجال الحرس الملكي واشتراكه في البعثة الى القسطنطينية يوحي بـأنه كان مـن طبقة النبلاء .
(٩٢) هو ايضا كان من رجال الحرس الملكي ، ولا نملك عنه معلومات مفيدة .
(٩٣) كان حاجب أمير فلاندرز من ١١٤٥ ـ ١١٤٧ والمعلومات حوله غير واضحة .
(٩٤) كان مفوض الداوية (فرسان المعبد) من سنة ١١٤٣ وحتى ١١٤٧ ثم صار مقـدمهم مـن ١١٤٧ وحتى ١١٤٩ ساعد لويس اثناء حملته عسكريا وماديا وعندما عاد الى فـرنسا انخـرط في سلك الكهنوت وظل كذلك حتى توفي سنة ١١٧٤ .
(٩٥) اقام مانويل هذه الهدنة سنة ١١٤٧ م . وما يشـير اليه اودو هنا بناه على رسـالة بعثهـا مانويل الى لويس سنة ١١٤٦ م قال فيها بانه على الرغم من ان مملكته ليست على استعداد لخوض الحرب ، وهي في شبه هدنة مع الاتراك الا انه سيستخدم القوات المتوفرة لديه حالما يخرق الاتـراك التفاهم القائم على ايقاف الحرب .
(٩٦) هو وليم الثالث كونت وارين ، وامير سري (١١٣٨ ـ ١١٤٨ م) كان من كبـار مـؤيدي ستيفن ملك انكلترا .
(٩٧) المزامير : ٨٦ / ٨ .
(٩٨) سمحت الكنيسة الاغريقية لاعضائها بـالمشاركة في التعميد بـاخذ الخبـز والنبيذ ، لانهـا اعتقدت بان روح القدس تنحدر وتاتي من الآب وحده ، وليس مـن الآب والابـن كمـا في الكنائس الاخرى .
(٩٩) الملكة بيرثا وكانت تعرف بالقسطنطينية باسم ايرين كانت ابنه كونت سولز باش احد كبـار نبلاء بافاريا وهي اخت جيرترودز زوجة كونراد الثالث خـطبت الى مـانويل قبـل وفـاة يوحنا كومينوس وتزوجت سنة ١١٤٦ م .
(١٠٠) اي الى الملكة اليانور ، ويتساءل المرء عن نصوص هـذه الرسـائل ، لذلك اعتقـد بعض الباحثين أن مثل هذه الرسائل لم يكتب ورأى بعض اخر انها حذفت عمدا من الاصـول المخـطوطة للكتاب .
(١٠١) في هذا تحامل شديد تعود اسبابه الى التباين الحضاري بين البيزنطيين والفـرنجة وإلى الاختلاف في طرائق التعامل السياسي .

(١٠٢) ـ من المفترض ان لويس سار على الطريق نفسه الذي سار عليه رجال الحملة الاولى .
(١٠٣) من هؤلاء غودفري صاحب لانجرس .
(١٠٤) ابحر اسطول روجر في صيف ١١٤٧م من اوترانتو إلى كورفو حيث تمكن من اقامة قاعدة له ، وقام من هذه القاعدة بنهب نجروبونت وسيرجو ثم تابع سيره نحو خليج كورنثه حيث احتل كل من كورنثه وطيبة
(١٠٤) في الرابع من تشرين اول . ويستدل على ذلك من رسالة بعث بها لويس من القسطنطينية الى سوكر قال فيها : وصلنا بكل سرور وحسن طـالع الى القسـطنطينية يوم الاحـد قبـل عيد القديس دنس .
(١٠٦) يؤكد هذا المصادر الاخرى ، التي تذكر بان جميع نبلاء الدولة خرجوا لاسـتقبال لويس ، ورافقوه الى القصر بابهة كبيرة .
(١٠٧) تتحدث المصادر البيزنطية عن هذه المقابلة ، وتقدم وصفا يختلف عن هذا الوصف وفيهـا أن الامبراطور استقبل الملك لويس وهو جالس على عرشـه وقـدم له مقعـدا صـغيرا ليجلس عليه قبالته ، في حين ظل رجال حاشيته وقوفا بلا استثناء ولم يسمح لهم بالجلوس اثناء المحادثات .
(١٠٨) يوصف موقع القسطنطينية عادة على أنه رأس بحري مع انه في الواقع مـربع الاضـلاع

إنما يدعى عادة بمثلث بسبب قصر الضلع القائم في الجانب الشرقي ، وطول هـذا الرأس حـوالي اربعة اميال ويتراوح عرضه ما بين ميل الى اربعة اميال ويتراوح عرضـه مـا بين ميل الى اربعـة اميال ، وسطحه فيه عدد من التلال .

(١٠٩) من أجل اياصوفيا انظر كتاب ، كنيسة ايا صوفيا في القسطنطينية ، تأليف و . ر لثابي و . ها سوين سن ، لندن ، ١٨٩٤ ، وقد تلا هذا العديد من الدراسات المتطورة .

(١١٠) بني القصر الكبير من قبل الامبـراطور الكبير قسـطنطين الى الشرق مـن الهيـودروم ، واستخدم مقرا رسميا للاباطرة منذ ذلك الحين ، وحتى ايام اسرة كومينوس .

(١١١) كان من بين الذخائر المقدسة ما تعلق بآلام الصلب مثـل : الحـربة المقـدسة ، وصـليب الصلبوت ، وتاج الشوك ، ومسامير الصلب ، والكفن وقطع من احجار القبر .

(١١٢) أي البوسفور .

(١١٣) هو القرن الذهبي .

(١١٤) قام هذا القصر بالاساس خارج الاسوار ، قام على هضبة بعضها صـناعي لكي تخـدم كدكة ترفع البناء القائم عليها ، وقد اعتنت اسرة كومنين بهذا القصر وقـام الامبـراطور مـانويل بترميمه وتزيينه الى درجة نال فيها اسم القصر الجديد .

(١١٥) قام الامبراطور قسطنطين نظاما دفاعيا رفيعا لمدينته ، لقد كان هناك أولا خندق عرضـه ٦١ قدما وعمقه ٢٢ قدما فدكه دفاعية [فصيل] عرضها ٦١ قدما يليها سور اعلى منهـا ب ٥ر٢٧ قدما ، وتتراوح سماكته ما بين ٢ الى ٥ر٦ قدما ، ثم دكه داخلية عرضها ما بين ٥٠ الى ٦٤ قدما ، ثم سور داخلي أعلى وأسمك من السور الخارجي. وما أشار اليه أودو هنا تم بعد التخلي عن هـذه الجدران والحاق ضاحية باشرين بالمدينة .

(١١٦) جلبت المياه الى المدينة بأنابيب مرت في الخندق وتحت الاسوار وخزنت المياه داخل المدينة بخزانات جوفية كبيرة قام معظمها وسط المدينة حول منطقة اياصوفيا ، فتحت اياصوفيا وحـولها يوجد مايزيد على ٥٨ من هذه المستودعات .

(١١٧) كما سبقت الرواية اوصدت ابواب المدينة في وجه الحملة الالمانية ، واجبر افرادها على البقاء خارج الاسوار ، إنما بالنسبة للحملة الفرنسية فقـد سـمح للملك الفرنسي وبعض رجـال حاشيته بالدخول والزيارة .

(١١٨) تذكر روايات أخرى ان لويس ذهب بعد دخوله القسطنطينية رفقة مانويل الى القصور في جنوب المدينة لمشاهدة الاثار المقدسة ، فذلك كان مما يثير الاعجاب ، ويأتي على شكل حج .

(١١٩) قدمت الدراسات حول الحضارة البيزنطية أوصـا ا لبعض الولائم الرسـمية التـي كان الاباطرة يقيمونها لضيوفهم الكبار .

(١٢٠) تعود الفوضى التي اتسمت بها الحملة الفرنسية الى طبيعة تشكيلها وقيادتها ، فهي حملة متطوعين من العامة وعصابات وجماعات التفت حول بعض النبلاء ، وعمل كل نبيل حسب هـواه لا وفق نظام عسكري خضع له الجميع ، فالنبلاء رأوا في انفسـهم سـادة مثـل الملك ، ولم يعتبـروا انفسهم قط ضباطا في جيش ملكي يقوده الملك بالذات .

(١٢١) ـ قوات كونت موريني وكونت أوفرجني مركيز مونتفرات

(١٢٢) ـ التاسع من تشرين الأول .

(١٢٣) ـ هذا يناقض ماسبق ذكره عن كونراد بانه ود احتلال المدينة ، لكنه بعد تفحص دفـاعاتها رأى ان ليس بامكانه ذلك فقرر لذلك عبور البوسفور .

(١٢٤) ـ يشير بهذا إلى حملة الامبراطور يوحنا كومينوس ضد ريموند صـاحب انطـاكية سـنة ١١٤٢ ـ ١١٤٣م .

(١٢٥) ـ يريد بهم رجال الكنيسة الأرثوذكسية الاغريقية .

(١٢٦) ـ ذكر هنا المؤرخ السرياني فلينظر .
(١٢٧) ـ انتهت الحملة البيزنطية ضد انطاكية سنة ١١٤٤ م وقام ريمـوند صـاحب انطـاكية (١١٣٦ ـ ١١٣٩) وقد تأثر بسقوط الرهالزنكي ، بفتح باب المباحثات مع الامبراطور البيزنطي ، وزار فير يوحنا كومينوس واعتذر له ، ثم اعترف بالتبعية للامبراطورية البيزنطية .
(١٢٨) ـ وعد البابا يوجينيوس بغفران ذنوب جميع الذين تطوعوا للحملة الصـليبية ، وقـرروا الالتزام بتنفيذ هذه المهمة المقدسة ، والواجـب الضروري بتقـوى وايمـان ، كمـا بين ، أن جميع الحجاج من رجال الحملة مغفور لهم ذنوبهم سواء وصلوا إلى الديار المقدسة أو ماتوا على الطـريق إليها ،، وقد استخدم معارضوا فكرة الاستيلاء على القسطنطينية وصايا البـابا حجـة ، واصروا على ان مهمتهم الأساسية هي الحج والحـرب في الاراضي المقـدسة ، واعتبـروا كل مـاسوى ذلك خروجا .
(١٢٩) ـ خشي البيزنطيون من تحالف الفرنجة مع الملك روجر ضـد القسـطنطينية سـيما بعـد سماعهم بأن الملك لويس كان ينتظر بعض القوات المرسلة من صقلية .
(١٣٠) ـ أي مانويل .

(١٣١) ـ ان يكون الاغريق نشروا هذه الاشاعات فأمر معقول ، ومهم هنا يمكن أن نلاحظ أنهـم مزجوا فيها ان الفرنجة راغبين في التخلي عما يحتلونه للامبراطور الاغريقـي ، وواضـح أن هـذا الجزء من الخبر من صنع اغريقي ، ولا شك انه جعل الفرنجة غير واثقين بـالبقاء على مقـربة مـن الجيش الامبراطوري البيزنطـي ، وفيه إيحـاء بخلفيات عدم التعـاون بين الامبـراطور الالماني والامبراطور البيزنطي ، ومفيد هنا أن نشير إلى أن وليم الصـوري أفـاد في تـاريخه (الترجمة الانكليزية) ٢ ، ١٦٩ بأن هذه الاخبار راجت بعدما وقعت الهزيمة بالالمان فهل ياترى لم يفهم أودو الاخبار على جليتها فسجلها هكذا ؟ .
(١٣٢) ـ في ١٦ أو ١٧ تشرين أول .
(١٣٣) ـ يستدل من رسالة لويس إلى سوكر والتي بعث بها من القسطنطينية انه وصل إلى هذه المدينة يوم ٤ تشرين أول ، وحيث انه بدأ زحفه في اسية الصغرى يوم ٢٦ من الشهر نفسه فهو على هذا اقام مع اتباعه عشر يوما في الضيافة الرسمية وثم خمسة أيام على الشـاطيء قبـل العبـور منتظرا القادمين من عند الملك روجر من صقلية ، ثم خمسة ايام اخرى على الشاطيء الاسيوي بعد العبور ، ومن ثم انطلق في الحملة .

(١٣٤) ـ اختلف في تعليل هذه العبارة وتفسيرها ، فـالبعض قـال إن معناهـا ثـروات أو كنوز والبعض قال هي مجرد عبارة للاثارة وجمع الجمهور وتحريضه .
(١٣٥) ـ هو ثيوبولد كونت فلاندرز من ١١٢٧ إلى ١١٦٨ ، كان صاحب مكانة كبيرة في أوربـة ، وكانت مشاركته في حملة ١١٤٨ احدى رحلاته الاربع إلى الشرق ، وسـيرد ذكره ثـانية في مسـألة حصار دمشق كما رواها وليم الصوري .
(١٣٦) ـ في هذا شاهد على ضعف لويس وعدم تمكنه مـن فـرض أي نوع مـن الانضـباط على جيشه ، ولا شك ان كرمه وانفاقه دعاه إلى طلب المال بشكل دائم من مملكته وهذا واضح في رسائله لسوكر .
(١٣٧) ـ كان الامبراطور البيزنطي يرتدي ثيابا أرجـوانية مطرزة بـالخيوط الذهبية ومحـلاة بالجواهر ، وكان يعتبر نائبا للمسيح وممثلا له على الارض ، مقدسا مثـل اكبـر الرهبـان وكانت جميع حركاته وتصرفاته رسـمية طقـوسية ، لهـذا دعاه أودو « الوثـن» متخيلا ان الاغريق كانوا يعبدونه .

(١٣٨) ـ الكتاب المقدس المزامير : ٥٨ ، ٤ .
(١٣٩) ـ اماديوس الثاني بن همبرت الثاني كونت مورين ، امه جيزيل صاحبة بيرغندي ، ذهب

إلى ايطاليا رفقة الامبراطور هنري الخامس في سنة ١١١١ ، وعين هناك كونتا للامبراطورية الرومانية المقدسة . وعلى الرغم من عداوته مع ادوليدا اميرة سافوي التي ارادت الاستيلاء على اراضيه ، كانت علاقته بابن اخته لويس السابع جيدة ، وقد توفي اثناء الحملة الصليبية في نيقوسيا في قبرص في ١ – ايار ١١٤٨ م .

(١٤٠) – هو وليم الثالث ابن رينير مركيز مونتفرات . امه جيزيل صاحبه بيرغندي . كان من اشد اعوان كونراد الثالث وفردريك الاول . وهو والد وليم صاحب السيف الطويل ، وجد بلدوين الخامس ملك القدس .

(١٤١) – هو وليم الثالث كونت اوفيرن من ١١٤٥ وحتى ١١٥٥ . وقد طرد من منصبه هذا من قبل عمه وليم التاسع ، فاتخذ لقب وليم الاول ولي عهد اوفيرن وكونت بنوي ، وقد توفي سنة ١١٦٩ .م .

(١٤٢) – من المعتقد أن الامبراطور اخر تقديم مطاليه للحملة الفرنسية حتى مابعد جواز معظم رجال الحملة ووصول هذه البقية التي اخر اقامتها في البر الاوربي وعدم عبورها مستخدما افرايها كرهائن .

(١٤٣) – روبرت الاول كونت دريوكس ١١٣٢ – ١١٨٤ ، وقد حمل أيضا لقب كونت بيرش لزواجه سنة ١١٤٤ من هارفس أميرة افريوكس وارملة كونت بيرش ، وقد كان الابن الثالث للويس السادس .

(١٤٤) – من المعتقد أن رفض الملك لويس مطلب الإمبراطور بالتحالف ضد روجر اغضب مانويل وجعله لايرسل الادلاء ويوقف امدادات التموين .

(١٤٥) – من الواضح أنه يريد ماجاء في الفقرة الاخيرة من الاصحاح الثالث عشر من رسالة بولس الرسول الاولى إلى اهل كورنثوس التي جاء فيها : « اما الان فيثبت الايمان والرجاء والمحبة ، هذه الثلاثة ولكن اعظمهن المحبة » .

(١٤٦) – استعاد الامبراطور الكسيوس بمعونة الفرنجة : نيقية وساحل الاناضول الجنوبي والغربي حتى انطاكية مع اماكن اخرى .

(١٤٧) – اعتمدت بيزنطة على المرتزقة في جيوشها منذ فترات قديمة في تاريخها .

(١٤٨) – هذه غلطة جغرافية فالطرق الثلاثة في نيقية وليس في نيقوميديا .

(١٤٩) – اوضح الملك الالماني كونراد لواحد من نبلائه سبب اخذه هذا الطريق بانه يرغب في انجاز الحملة بسرعة ولهذا تبنى طريقا مباشرا بين الجبال دله الادلة عليها .

(١٥٠) – ذكرهم وليم الصوري : ٢ ١٧٣٤ وعد منهم فردريك صاحب سوابيا وغيره .

(١٥١) – تتشابه رواية اودو هنا مع رواية وليم الصوري ٢ . ١٦٨ – ١٧٢ ، فكلاهما يضع اللوم على الدليل الاغريقي ويرويان خبر فراره وخيانته . وفي روايات أخرى . أكثر قبولا نجد الحقائق التالية : كونراد اختار الطريق الجبلي لقصره لانه اراد انهاء الحملة باقصى سرعة ، فهو اذا الذي اختار وليس الدليل قام بقيادته ، ثم كان الالمان قد جمعوا ماتيسر لهم من المؤن وليس كمية محددة لايام محدودة ، فهذا مرفوض اصلا ولم يحدث ، هذا وقوات التركمان كانت هناك ترصد التحرك الصليبي وتنتظر الفرصة للانقضاض على الحملة معتمدة على ذاتها وليس على دليل بيزنطي ، هذا ولم تقم الحجة ابدا بان الدليل غادر المعسكر الالماني .

(١٥٢) – تشير مصادر اخرى بان فرسان الالمان حملوا على التركمان ، فتظاهر هؤلاء حسب عادتهم بالفرار واستدرجوا الفرسان إلى مسافة كافية مكنت من فصلهم عن الرجالة ، واتعبت خيولهم ، ثم انقضوا عليهم ففتكوا بهم أيما فتك . ولا شك ان هذه الواقعة او بالحري المواجهة الاولى مع عدو سمع عنه الالمان في السابق وراوه راي العين بهذه الصورة المرعبة كانت دافعا نحو اتخاذ قرار التراجع .

(١٥٣) ـ انظر العبرانيين في العهد الجديد ٩ ، ٦٠ .

(١٥٤) ـ ذكر الملك كونراد في رسالة له ، بانه حزن كثيرا لموت شعبه وقام بناء على طلب جماعي من امرائه ونبلائه بقيادة جيشه باتجاه البحر حيث يمكنه إعادة تنظيمه ، واعدائه مفضلا بذلك ابقاء قواته سليمة لمواجهة الاحداث الكبار بدلا من اضاعتها في معارك ضد الرماة التركمان ، فكسب نصر من هؤلاء كان سيكلف الالمان الكثير من الدماء .

(١٥٥) ـ كونت برنارد صاحب بلوتز كان من أصل سكسوني ، لانملك الكثير من المعلومات حوله .

(١٥٦) ـ حض البابا يوجينوس في رسالته إلى الملك لويس على أن يلاحظ الملك بنفسه ان رجاله سلحوا انفسهم فقط بالسيوف والخيول وبقية التجهيزات التي يمكنهم أن يقاتلوا أعداءهم بها ، وبعدم ارتداء الملابس المزركشة الفاخرة واصطحاب الكلاب والصقور وبقية الاشياء التي تستخدم في اوقات المتعة لافي اوقات الحروب .

(١٥٧) ـ جرح الامبراطور كونراد برأسه وقد افقده هذا فترة طويلة .

(١٥٨) ـ ربما يوم ٢ او ٣ تشرين ثاني .

(١٥٨) ـ توحي عبارة ، حسبما قيل لنا ، بوجود عنصر المبالغة .

(١٦٠) ـ في الوقت الذي أيد فيه وليم الصوري : ٢ ، ١٧٣ رواية أودو هذه نجد المصادر الالمانية لاتاتي على ذكر الرسل ولا طلب المعونة من لويس على اساس أن كونراد لم يكن بمكانة لويس .

(١٦١) ـ قدم لويس وباروناته لكونراد المال والسلاح والمتاع .

(١٦٢) ـ ربما انتقاما لاعمال النهب والسلب التي قام بها الفرنجة

(١٦٣) ـ العبارة بين حاصرتين جزء من الفقرة الرابعة من الاصحاح الاول من سفر يوئيل من العهد القديم ونصها كما في الترجمة العربية: فضله القمص أكلها الزحاف وفضله الزحاف أكلها الغوغاء وفضلة الغوغاء أكلها الطيار، ولعدم انسجام هذا النص مع المعنى اثرت ترجمة الفقرة وعدم الاعتماد على النص المترجم لفقاقته .

(١٦٤) ـ بعيد ١١ تشرين ثاني .

(١٦٥) ـ ادعت رهبانية القديس ديفس حق ملكية ايسلنجين في سوابيا وايستوسين (كونجسبرغ) في الالزاس ، لان فولارد الأب الرابع عشر للرهبانية كان قد بنى فيهما ديرين .

(١٦٦) ـ هو الامبراطور فردريك الاول (١١٥٢ ـ ١١٩٠) م .

(١٦٧) ـ انظر المزامير في العهد القديم ـ المزمور ٢٣ ، ٥ حيث جاء ، ترتب قدامي مائدة تجاه مضايقي ، مسحت بالدهن رأسي ، كأسي ريا .

(١٦٨) ـ أي أنه اختار الطريق الساحلي ، بدلا من السفر مباشرة إلى فيلادلفيا .

(١٦٩) ـ يستخلص من هذا رغم المبالغة والصيغة العدائية للاغريق أن الاسطول البيزنطي كان يماشي الحملة على طول الطريق الساحلي مزودا اياها بالمؤن .

(١٧٠) ـ المشهور عن افسوس وهي في كتب العرب الاولى (عرب سوس) أنها تحتوي على جماعة اهل الكهف ، وعند وليم الصوري كما سنرى قبر الرسول يوحنا .

(١٧١) ـ يرى بعض المؤرخين بأن التركمان ، وقد شجعهم نصرهم على الالمان حشدوا قواهم للتصدي للفرنجة ، وانهم ربما قد تلقوا بعض التسهيلات من السكان الاغريق المحليين الذين ودوا الانتقام من الفرنجة لما قاموا به في ديارهم من سلب ونهب .

(١٧٢) ـ هو واد قريب من إفسوس .

(١٧٣) ـ يذكر الامبراطور كونراد في رسالة بعث بها إلى واحد من نوابه ، بانه وصل إلى إفسوس دونما صعوبات تذكر وانه قرر الاحتفال بعيد الميلاد هناك ، غير انه مرض مع عدد من اتباعه وعجز

بذلك عن متابعة السير مع الملك لويس ، علما بأن الملك الفرنسي انتظره ما فيه الكفاية ، وعندما علم الامبراطور البيزنطي بمرضه جاء لرؤيته مع الامبراطورة على جناح السرعة ، هذا ويرى بعض

الباحثين بانه ليس المرض هو الذي حال بين كونراد وبين متابعة السير رفقة الملك لويس ، لكنه خشي والفرنسيون قد أخذوا يستخفون بالألمان ، ان ينظر إليه على انه ادنى مرتبة من لويس ، يضاف إلى هذا ان الامبراطور مانويل اراد الاحتفاظ بكونراد في القسطنطينية بعدما انهارت قواه وعدا عديم الخطر ، وذلك بغية فصل قوات الصليبيين واضعاف الحزب المعادي لبيزنطة بين القوات الفرنسية ، وهو حزب كان الامبراطور البيزنطي يخشاه ويتتبع نشاطاته .

(١٧٤) ـ ترجمها بعض الكتاب العرب ، اداليا او اضالية ، وهذا الموقع سبق العرب معرفته وتعريب اسمه ، وجاء في معجم البلدان ، إذا تجاوزت قلمية واللامس انتهيت إلى انطالية ، حصن الروم على شط البحر منيع واسع الرستاق ، كثير الاهل ، ثم تنتهي إلى خليج القسطنطينية ، .

(١٧٥) ـ هو هنري كونت مواكس في تلك الآونة ثم كونت شامبين وبري ١١٥٢ ـ ١١٨١ ، ابوه ثيوبالد الرابع أمير شامبين وامه ماتيلدا اميره كارنثيا ، كان الملك لويس معجبا به ، وقد تحدث عن شجاعته وما قام به هنا في رسالة بعث بها إلى نائبه .

(١٧٦) ـ هو وليم الرابع كونت ماكون من ١١٢٥ إلى حوالي ١١٥٦ .

(١٧٧) ـ من الصعب قبول تهمة اودو للامبراطور البيزنطي على انها حقيقة ، فمن المحتمل ان يكون الاغريق المحليون عاونوا الاتراك للانتقام من الفرنجة لكن ليس هناك مايثبت علم الامبراطور مانويل بذلك ، وموافقته عليه .

(١٧٨) ـ تحفل أخبار الحملات الصليبية بمثل هذه الرؤى التي روجها رجال الدين والسلطة سواء، لرفع معنويات الجند ودفعهم نحو الغايات المبتغاة .

(١٧٩) ـ ليس في المصادر المتوفرة معلومات عنه .

(١٨٠) ـ ٣ او ٤ كانون ثاني .

(١٨١) ـ كان اوتو صاحب فريزنج قد زحف من نيقية على طول الطريق الساحلي لبحر ايجه وذلك كما سلف القول ، ويبدو انه انحرف نحو الشرق عند وادي هرمز او وادي افسوس وتابع سيره إلى مياندر حتى وصل إلى احواز لوديسيا مع نهاية عام ١١٤٧ ، وهناك تصدى له التركمان ففقد اولا الكونت برنارد صاحب كارنثيا مع جزء من جيشه ، مما اضطره إلى الانعطاف ثانية نحو الطريق الساحلي فوصل إلى مدينة انطالية حيث تلقى وعساكره ضربة قاسية افقدته اعدادا كبيرة منهم وذلك في اواخر شهر شباط .

(١٨٢) ـ صبغ اودو رواياته جميعا بصبغة عدائية للبيزنطيين وحملهم مسؤولية كل شيء بحق او بدون حق

(١٨٣) ـ اي جيش اوتو صاحب فريزنج .

(١٨٤) ـ نول جيوفري صاحب رانكون سنة ١١٩٨ ، وكان من كبار بارونات بواتو ، بدأت علاقته بالملك لويس السابع والملكة اليانور بدعوتهما إلى حفلة في قلعته وذلك اثناء رحلة زفافهما .

(١٨٥) ـ توحي بعض المصادر بان الملكة اليانور هي التي حرضت جيوفري على تجاهل الملك وعدم انتظاره وتوريط الجيش ، في حين ان وليم الصوري ٢ ، ١٧٥ ـ ١٧٨ ينفي علاقة اليانور بالموضوع .

(١٨٦) ـ اختلف السرجندية عن سلاح فرسان الاقطاع من حيث التسليح والتجنيد والانفاق ، فهم وان كانوا يستدعون الخدمة في اية حملة ، خاصة التي يتوقع لها ان تدوم طويلا ، فقد كانوا يجندون في العادة لحساب الكنيسة والمؤسسات الدينية الاخرى ، والكنيسة مع هذه المؤسسات هي التي كانت تتولى الانفاق عليهم وارسالهم للالتحاق بالجيوش وغير ذلك .

(١٨٧) ـ كان فرسان الفرنجة من النوع الثقيل يرتدون مع خيولهم دروعا معدنية ، وكانت خيولهم قوية لكن غير رشيقة ولامرنة الحركة ، وكان الرمح هو السلاح الاساسي للفارس ، واعتاد الفارس على تثبيت نفسه على مطيته ، ولما كان رمحه عبارة عن اسطوانة طويلة قوية في راسها سنان حاد

وضع الفارس رمحه هذا تحت إبطه أو في مكان محدد وسلطه نحو خصمه ، فهو لم يكن يقوم بالطعن بيده لأن دروعه وثقل رمحه لم تسمح له بذلك ، لهذا اعتمد على قوة الخرق الناتجة عن اندفاع مطيته ، وكان إذا قتلت مطيته أو حصرت في مجال ضيق انعدمت قواه وغدا بلا حول ولاطول ، لهذا اعتمد المسلمون في قتالهم الفرسان الفرنجة على الرمايات التي كانت تعقر خيولهم ، وعلى نظام حصر الفرسان في مجالات ضيقة صعبة وفي استدراجهم بعيدا عن رجالتهم ، لأن الرجالة كانوا يؤمنون الحماية من جميع الجوانب لهؤلاء الفرسان ، ويشبه هذا الحال في أيامنا هذه سلاح الدبابات بعلاقاته بسلاح المشاة .

(١٨٨) – يوحي هذا بأن أودو كتب كتابه أثناء حصار دمشق الذي سيأتي ذكره

(١٨٩) – أوضح الملك لويس في رسالة بعث بها من انطاكية إلى سوكر الصعوبات التي واجهها في آسية الصغرى ،

وقد عزا بعضها إلى خيانة الامبراطور البيزنطي ، وبعضها إلى أخطاء اقترفها الفرنجة وأتى على ذكر المصاعب التي نجمت عن النهب الدائم للسكان المحليين مع صعوبات الطرق ، والصراع اليومي مع التركمان (الذين أذن لهم الامبراطور البيزنطي بدخول أراضيه لمطاردة الفرنجة) ونقص المؤن في بعض الاماكن ، ثم تحدث عن موت عدد كبير من النبلاء أثناء تسلق جبل أوبيسيا ، قائلا بأن ذنوب الفرنجة قد سببت هذا الحكم العادل ، وبين لويس أنه خاف مرارا ، وكاد أن يقتل لكن الرب حماه ، هذا ويرى بعض الباحثين في تهم لويس للامبراطور البيزنطي تسويغا لضعفه واخفاقاته غير مقبول ولايستساغ أبدا .

(١٩٠) – لعل أودو يريد أخوه السلاح أو وهم فقال : أخوه

(١٩١) – كتب لويس إلى سوكر يطلب منه الاحتفاظ بأملاك ماذسيس صاحب بووليس لصالح أخيه ريغنالد الذي كان آنذاك في الشرق .

(١٩٢) – لانملك عنه معلومات زائدة .

(١٩٣) – زاد الملك لويس في رسالة بعثها إلى سوكر اسم رينالد صاحب تور وأضاف وليم الصوري : ٢ / ١٧٧ – اسم ايتايرز صاحب مينجناك .

(١٩٤) – عاد جيوفري سنة ١١٤٨ إلى أوربا مباشرة من انطاكية ، وليس مغضوبا عليه بدليل أن الملك لويس كلفه بتأمين مبلغ من المال كيما يدفعه إلى فرسان الداوية سدادا للدين الذي أخذه منهم في سورية .

(١٩٥) – توحي هذه الاوامر مدى الفوضى التي كانت حالة بين صفوف الجيش الفرنسي

(١٩٦) – على أساس الفكرة القائلة بأن الملك هو مصدر العدالة .

(١٩٧) – ربما في ٢٠ كانون ثاني ١١٤٨ م .

(١٩٨) – في وليم الصوري : ٢ ; ١١٧٨ المعلومات التالية عن انطالية : تقع انطالية على شاطىء البحر وهي في حوزة امبراطور القسطنطينية ، وتحتوي على حقول غنية ، إنما بدون منفعة كبيرة لسكان المدينة ، ذلك أنهم محاطون بالاعداء من جميع الجهات وهذا يعيق الزراعة والاستثمار، وعليه تركت التربة الغنية بورا لعدم وجود من يعمل بها ، ولهذا الموقع مزايا أخرى فهي مفتوحة الزوار ، وذات موقع جميل ومريح ، وفيها مياه غزيرة وعذبة ، وكثيرة الاشجار المثمرة ، وتجلب إليها الحبوب وبقية أنواع المؤن والحاجيات عبر البحر بكميات كبيرة ، ولذلك نجد مخازنها ملأى بضروريات الحياة ... ولما كانت أراضيها ملاصقة لأراضي العدو ، فقد وجدت نفسها من الصعب عليها العيش بسلام وتحمل هجماتهم المستمرة ، لذلك آثرت دفع الجزية لهم ، وقد أفادها هذا ، فانطالية لها علاقات تجارية طيبة مع الاعداء .

(١٩٩) – ٢ شباط

(٢٠٠) – أكد هذا وليم الصوري ٢ ١٧٨ بقوله : عانى ملك الفرنجة في أنطالية من نقص كبير

في المؤن بالنسبة للاعداد الكبيرة من الناس التي وصلت إلى هناك ، ونتيجة لذلك مات عدد كبير ممن ظل حيا من العساكر ، وهلك معظم الفقراء من الناس بسبب المجاعة .

(٢٠١) ـ اي الزحف على طريق الحملة الاولى .

(٢٠٢) ـ لاشك في صحة المناقشات التي قامت ، وهي تعكس مدى الضعف الذي ألم بسلاح الفرسان ، والحد الذي بلغته كراهة الفرنجة البيزنطيين ، هذا وقد أشار الملك لويس إلى هذه الاوضاع والمناقشات وانصياعه لقراراتها في رسالة بعث بها إلى سوكر قال فيها : بأنه تمت مناقشة مسالة متابعة الرحلة من قبل مجلس النبلاء ورجال الكنيسة ، وان المجلس تمنى عليه ركوب الماء إلى أنطاكية لعدم توفر مايكفي من الخيول ولصعوبة المتبقي من الطريق ، وأنه قبل برايهم فوصل انطاكية يوم ١٩ اذار .

(٢٠٣) ـ العهد الجديد رسالة بولس الثانية إلى اهل كورنثوس : ١٢ ـ ٢٦

(٢٠٤) ـ جاءت هذه الفقرة حول السفن متداخلة غير واضحة المعاني والمقاصد فلعل المقصود أن بعض الفرنجة استاجر بعض السفن والبعض الآخر ابتاع لنفسه مركبا او اكثر ، وهذا حال الملك حيث يستخلص انه ابتاع عددا من المراكب قام بتوزيعها على النبلاء ورجال الكنيسة .

(٢٠٥) ـ أي عن طريق أسعار الاطعمة والحاجيات الاخرى التي كانت في غاية الارتفاع .

(٢٠٦) ـ دقة لويس وتردده سببا الارتباك الشديد لاعماله ، وعرض حملته في الحل والترحال إلى المزيد من المخاطر .

(٢٠٧) ـ لانه اقترح اعتماد الطريق الساحلي بدلا من السفر مباشرة عبر فيلادلفيا

(٢٠٨) ـ كذا وسبق التعليق اكثر من مرة على هذه الآراء والمواقف .

(٢٠٩) ـ ان يخاف الملك لويس عدم تنفيذ هذه الاتفاقات امر بديهي ، لكن مغادرته لانطاكية وتركه لاتباعه في مثل تلك الظروف يعد نوعا من الهروب والتخلي عن المسؤولية رغم مايقال . ماذا كان بامكانه ان يعمل اكثر مما عليه لجيش ممزق ضعيف فاقد المعنويات قليل المؤن والمعدات ؟ إنها المسؤولية وقت الضيق والحاجة الشدة .

(٢١٠) ـ لاشك ان اودو قد غادر انطاكية مع الملك لويس ، فهو على هذا لم يشهد هذه الاحداث . وحيث انه لم يذكر مصادره يفترض ان يكون كونت فلاندرز ورئيس أساقفة بوردون هما مصدره .

(٢١١) ـ من الواضح ان الوباء حل بالمدينة نتيجة الامراض التي كانت منتشرة بين الصليبيين ، وما اتهم به أودو سكان المدينة من أنهم نشروا جثث المرضى والموتى حول الفرنجة لايقبله العقل فسكان المدينة لم يكونوا من الحماقة إلى درجة يجلبون بها الموت لانفسهم ، ولعل حصرهم الفرنجة في مكان منعزل مرده إلى درجة تفشية الامراض هذه .

(٢١٢) ـ يبدو ان اودو امتطى ظهر سفينة الملك ، ووصل إلى انطاكية بعد ثلاثة ايام فمعلوماته عن سفن الملك فيها ما فيها ذلك لان الملك لويس وصف في احدى رسائله الرحلة بانها كانت مريحة .

حواشي – من تاريخ أعمال أنجزت فيما وراء البحار

(١) – تدعى هذه الحملة عادة اسم الحملة الصليبية الثانية ، وكان يوجينيوس الثالث مثله مثل برنارد راعي دير كليرفو داعيا لها بنفس الرتبة القيادية التي تمتع بها رؤساء دير كلوني بالنسبة للحملة الاولى ، ويعزى للقديس برنارد الفضل في اقناع كل من كونراد ولويس السابع للتطوع في هذه الحملة ، رغم نصائح وزرائها لهما بعدم التطوع ، ولقد أطلق يوجينيوس الثالث دعوته الاولى لهذه الحملة في كانون الاول ١١٤٥ م ، وكرر هذه الدعوة آذار ١١٤٦ م .

(٢) – قام هذا الحكم على نتائج الحملة لا على أخطاء اقترفت أثناء الاعداد لها .

(٣) – يقدم وليم هنا رواية مختصرة جدا لرحلة كونراد حتى القسطنطينية بالمقارنة مع الروايات الاخرى المبكرة حول هذه الحملة التي يبدو أنها أعدت إعدادا أفضل من الحملة الاولى ، وواجهت مشاكل أقل ، وكان أوتو أسقف فريزنج قد رافق كونراد في رحلته ، وكتب وصفا للرحلة ، الرواية التي يبدو ان وليم لم يطلع عليها .

(٤) – لم تكن العلاقات بين مانويل وكل من كونراد ولويس السابع بنفس درجة البساطة والوفاق حسبما وصف وليم ، وهذا واضح في رواية أودو ، كما يروى أنه سبق لكل من الملك الفرنسي والامبراطور الالماني أن راسل مانويل وتبادل معه الوفود ، ومنذ اتخاذ قرار القيام بحملة صليبية ، وعندما أصبحا على مقربة من القسطنطينية كان لدى مانويل من القوات العسكرية أكثر مما كان لدى ألكسيوس كومينوس أيام الحملة الاولى ، وذلك أن مانويل كان داخلا في حرب ضد روجر صاحب صقلية ، كما أنه كان لتوه قد تملك ميلوشيا في آسية الصغرى ، وكان مجرد وصولهما إلى شرقي آسية الصغرى سيهدد ذلك .

(٥) – في هذا المجمع خالفت اليعاقبة سائر النصارى . انظر كتاب التنبيه والاشراف المسعودي ط . القاهرة ١٩٣٨ ص : ١٢٩ – ١٣٠ .

(٦) – يشك بعض الاوروبيين بهذه الارقام ويرونها عالية

(٧) – انظر التنبيه والاشراف : ١٢٢ – ١٢٣

(٨) – يرفض بعض المؤرخين هذه التهم بالخيانة ، واوضحوا بان مانزل بجيش كونراد كان نتيجة الضعف الذي لحق بهذا الجيش بسبب الجوع والعطش

(٩) – الكتاب المقدس – المزامير ١٠٧ ,٤٠

(١٠) – يبدو أن هناك بعضا الاسس لهذه النظرية حول التنافس والغيرة ، فمن الملاحظ أن عدم اتفاق الامبراطورين حول من الذي ينبغي دعوته بهذا اللقب ، يوم وصول كونراد إلى القسطنطينية قد خلق صعوبات جمة وسبب مضايقات فعلية .

(١١) – كان وليم آنذاك في الثامنة عشرة من عمره ، ولعله تحدث مع بعض الذين نجوا ووصلوا إلى القدس حيث التقيهم فيما بعد ، هذا وينبغي تصحيح تاريخ الحملة لديه إلى ٢٦ , تشرين اول ١١٥٧ , أما النسبة التي يقدرها حول عدد الموتى والاحياء فهي صحيحة إلى ابعد الحدود .

(١٢) – سيكون هذا فريدريك بربروسا ملك المانيا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ١١٥٢ – ١١٩٠

(١٣) – لاشك أن اختلاف اللغة والطباع والعادات كان له اثاره على كونراد الذي شكا من المرض ، وحدث أن جاء مانويل تصحبه زوجته إلى افسوس ، حيث كان كونراد فيها ، ووجها الدعوة إليه العودة معهما إلى القسطنطينية حيث أشرف على الاعتناء به بنفسه .

(١٤) – خطبت بيريا أميرة سولز إلى مانويل سنة ١١٤٢ قبل وفاة الامبراطور جون وقد غير اسمها إلى ايرين ، وتطبعت بالطباع الاغريقية ، وتدربت قبل زواجها سنة ١١٤٦ م

(١٥) – يلاحظ أن معلومات وليم حول الجيش الفرنسي اكمل وأصح منها حول الجيش الالماني ، الذي كانت قطعة منه تحت قيادة أوتو أسقف فريزنغ قد تقدمت الجيش الفرنسي على هذا الطريق ولاقت مثله ضربة قاصمة .

(١٦) – كذا والصحيح ١١٤٨ م

(١٧) – وصل يوم ١٩ اذار ١١٤٨ م

(١٨) – هي اليانور أميره أكوتين صاحبة الشهرة الواسعة في تاريخ كل من فرنسا وانكلترا وقد تمت خطبتها إلى لويس بفضل جهود سوكر رئيس أساقفة دير القديس دينس الذي كان من الناحية العملية أشبه برئيس وزراء مملكة فرنسا ، ذلك انه توقع وفاة وليم العاشر دوق أكوتين دون وريث ذكر ، وأمل انه من خلال هذا الزواج سيزيد من رقعة المملكة ، وحدث ان توفي وليم العاشر أيام الزواج .

(١٩) – ينبغي التنبه إلى أنه عندما كتب وليم هذا كله كانت اليانور قد انفصلت عن لويس السابع منذ زمن طويل وأخذت منه ميراثها ، وأعطته إلى هنري الثاني ملك انكلترا ، وحدث التباعد بين اليانور ولويس عقب عودتهما من الرحلة الصليبية ، فلقد اختلفت طباعهما تماما ، فهي كانت امرأة اجتماعية تحب البهجة ، على عكس لويس الذي كان تقيا يعيش حياة روحية صافية ، ولقد تمتعت اليانور بالحياة الاجتماعية في الشرق وأعجبت بها ، وخاصة في القسطنطينية وانطاكية ولاندري فيما إذا كانت علاقاتها الاجتماعية قد جرتها إلى جوانب أخرى ، ذلك ان المصادر الفرنسية تنال منها وأعادت الحديث عن اقترانها العديد من الآثام ، كما حاكت الاساطير حول مغامراتها العاطفية مع عدد من الشخصيات إلى حد جعلت صلاح الدين واحدا منهم ، علما بأن صلاح الدين كان انذاك ابن عشر سنوات ، ولاشك أن مصادر وليم هنا حولها كلها فرنسية .

(٢٠) – وصل كونراد إلى القدس حوالي منتصف الاسبوع الثاني من نيسان ١١٤٨ .

(٢١) – يوحي هذا العرض التحليلي بمدى الضعف الذي ألم بالممالك اللاتينية ، ويلاحظ هنا ان

وليم يدين ذلك ، مادامت المحصلات لصالح مملكة القدس .

(٢٢) – كان أتو أسقف فريزنغ ، أعظم المؤرخين الالمان في القرن الثاني عشر ، أخا لكونراد الثالث من امه ، ذلك أن أم كونراد تزوجت بعد وفاة أبيه من أمير النمسا ، وكان أوتو من أسرة كبيرة جدا ، وقد وجه لدراسة اللاهوت ، وأنهى دراسته في باريس ثم توجه نحو حياة الرهبنة والانعزال ، وصار فيما بعد رئيسا لاحد الاديرة ثم انتخب أسقفا ، وقام بمرافقة كونراد في حملته وكان مسؤولا عن احدى الفرق العسكرية أثناء عبور اسية الصغرى ، ويتصدر كتاباته التاريخية كتابا التاريخ ، وأعمال فردريك الاول ، وهما يحويان اشارات ضئيلة ، إنما مفيدة لما جرى أثناء الحملة الثانية

(٢٣) – كما اعترف وليم هنا فإن لائحة الاسماء الالمانية غير كاملة ، لذلك حاول بعض الكتاب اكمالها .

(٢٤) – إن شدة معرفة وليم بأخبار الفرنسيين يرجح أنه اطلع على بعض المواد والمصادر الفرنسية خاصة كتاب ، أعمال لويس ، هذا ويرى بعض المؤرخين العكس ، وأن صاحب كتاب ، أعمال لويس ، استقى معلوماته من كتاب وليم الصوري .

(٢٥) – لم يذكر وليم الصوري في هذه اللائحة شبه التامة التي تضمنت شخصيات مملكة القدس ، رالف الحاجب الملكي الذي حاز على هذا المنصب دون موافقة رسمية من البابا ، ويثير هنا الامر سؤالا هاما وهو هل كان وليم – الذي كان تلميذ لاهوت انذاك وفي الثامنة عشرة من عمره – بين

الحضور شخصيا ؟ إنه امن المؤسف انه لم يوافنا بالمزيد من التفاصيل حول المناقشات التي دارت في الاجتماع وذلك لعلاقة ذلك بالاحداث التي ستقع فيما بعد .

(٢٦) – ينبغي جعل السنة ١١٤٨ م ، فذلك هو الصواب ، ولاندري مرد هذا الوهم إلى الناسخ أم إلى المؤرخ وليم الصوري ؟

(٢٧) – الكتاب المقدس – اشعيا ٧ ٨ وفيه « لان راس ارام دمشق » . وتمسكت بما جاء بالمتن .

(٢٨) – كذا وهذا مجرد وهم من اوهام العهد القديم ، وبالمناسبة لم يتفق العلماء حول أصل واشتقاق كلمة « دمشق» .

(٢٩) – كذا وهذا مجرد اختراع فابن القلانسي الذي كان موجودا داخل المدينة وتحدث عن القتال حول النهر لم يذكر شيئا من هذا القبيل ، في حين روى سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان ، ٢ ١٩٨ – ١٩٩ « وكان مع الفرنج قسيس كبير طويل اللحية يقتدون به ، فأصبح في اليوم العاشر من نزولهم على دمشق فركب حماره وعلق في عنقه صليبا وجعل في يديه صليبين ، وعلق في عنق حماره صليبا ، وجمع بين يديه الاناجيل والصلبان والكتب والخيالة والرجالة ، ولم يتخلف من الفرنجة احدا إلا من يحفظ الخيام ، وقال لهم القسيس . قد وعدني المسيح انني افتح اليوم وفتح المسلمون الابواب واستسلموا للموت ، وغاروا للاسلام وحملوا حملة رجل واحد ، وكان يوما لم ير في الجاهلية والاسلام مثله ، وقصد واحد من دمشق القسيس ، وهو اول اليوم فضربه فابان راسه وقتل حماره ، وحمل الباقون ، فانهزم الفرنج ، وقتلوا منهم عشرة الاف ، واحرقوا الصلبان والخيالة بالنفط ، وتبعوهم إلى الخيام ، وحال بينهم الليل ، فاصبحوا قد رحلوا ولم يبق لهم أثر » .

(٣٠) – الكتاب المقدس – المزامير ٦٦ ٥ .

(٣١) – انظر ماكتبه ابن القلانسي بين النصوص العربية لكاتبي الحروب الصليبية .

(٣٢) – جاء في مرآة الزمان ٢ ١٩٨ . وكان زمان الفواكه ، فنزل الفرنج الوادي ، فأكلوا منها شيئا كثيرا فاخلت اجوافهم ، ومات منهم خلق كثير ، ومرض الباقون .

(٣٣) – يوضح هنا وليم إحدى طرائقه المفضلة في جمع المعلومات ، ويلاحظ عدم استعداده لتقبل رواية واحدة حول الموضوع حتى في حال تبنيه موقف ما ، وجاء إخفاق هذه الحملة بمثابة ضربة قاسية لجميع التوقعات التي عاشتها اوربا وارادتها منها ، ليس بسبب أنها قيدت من قبل إثنين كانا اعظم ملوك اوربا ، وإنما لان برنارد أسقف كليرفو كان الداعية لها والمبشر بنجاحها ، وكان برنارد قد اعتبر قدسيا ، لذلك كان من غير الممكن عزو اسباب إخفاق هذه الحملة لغير عمل خياني ، وهو شعور تبناه وليم وعبر عنه .

(٣٤) – زار ثيودور او ثيري كونت فلاندرز الاراضي المقدسة على الاقل ثلاث مرات (١١٣٧ و١١٤٨ و ١١٥٧) ورافقه في كل مرة قوة معتبرة قامت ببعض الاعمال القتالية لصالح الدول اللاتينية ، وربما قاد هذا إلى الاعتقاد بانه طمح إلى امتلاك مناطق لنفسه ، وعلينا هنا ان نأتي على ذكر زوجته سيبيلا ذلك انها كانت ابنة الملك فولك واخت الملك الشاب بلدوين الثالث ، وتبعا لبعض المصادر فإنها دخلت اخيرا إلى الدير في الاراضي المقدسة ، هذا ولاتوجد اسس لهذه التهمة ، وهي على كل حال تعكس مشاعر الشك التي حملها نبلاء الشرق تجاه نبلاء الغرب

(٣٥) – يبدو ان هذه التهمة اسطورية مختلفة ، وقد قام بعض الرواة بتسمية ايلي ناندوس أو هيلي ناندوس صاحب طبرية على انه كان هو الشخص المتهم ، وانه تسلم مبلغ ٥٠ الف دينار ذهبي من اهل دمشق ، ثم اكتشف بانها مزيفة ، ولابد هنا من ان يسجل لوليم عدم اقدامه على ذكر المتهم ، واكتفائه بعرض الرواية .

(٣٦) - اخذ بعض الكتاب المتأخرين بتهمة الخيانة هذه والصقوها بـالاسبتارية والداوية وحتـى بالملك بلدوين الثالث ، وذلك بالاضافة إلى العناصر التـي ذكرهـا وليم هنا ، وقـالوا بـأن هؤلاء مجتمعين او افرادا حملوا مسؤولية إخفاق عملية حصار دمشق مع الحملة الصليبية الثانية ، هـذا وينبغي أن نلاحظ هنا بأن تعداد الجيش الصليبي لم يكن كبيرا جدا . ويبدو ان تعداد ذوي المراتـب القيادية فيه فاق تعداد الافراد ، الذين فقد اكثرهم حياته على الطريق في اسية الصغرى بعـد أن تخلفوا في انطاكية وسواها ، يضاف إلى هذا كله ماذكره ابن القلانسي من القدرات لأهل دمشق ومن تـــــــــــــــــــــــوالي

النجدات إليها من جميع المناطق من : الموصل وحلب وحوران وبعلبك ، هذا ويمكن أن نضـيف هنا أن من أسباب تحول المعسكر الصليبي من مكانه - إذا كان قد تحـول - انتشـار الامـراض بين صفوف أفراده مع عدم مناسبة البقعة لمناورات الفرسان الصليبيين ، فهؤلاء كانوا يستطيعون القتال فقط في الاماكن المكشوفة ، وليس بين الاشجار ، وابن القـلانسي يذكر محـاولة الفـرسان القيام بهجومهم المعتاد وعدم تمكنهم من ذلك ٠

(٣٧) - الكتاب المقدس - ايوب ٠ ٣٠ - ٣١

(٣٨) - توفي كونراد الثالث سنة ١١٥٢ م ، وقد خلفه - كما أشار وليم واشرنا من قبل - ابـن أخيه فردريك بربروسا الاول الذي حكم حتى سنة ١١٩٠ م

(٣٩) - عاد لويس إلى فرنسا في صـيف عام ١١٤٩ ، وهناك بـذل سـوكر راعي دير القـديس دينس ، الذي كان بالأصل صاحب مشروع الزواج ، جهوده لمنع افتراق الزوجين المتباعدين ، ونجح في مسعاه هذا حتى تاريخ وفاته سنة ١١٥١ م ، ففي بداية ربيع عام ١١٥٢ م ، حدث الطلاق بعدما أعلن لويس بأن الزواج باطل بسبب القـرابة ، وكانت اليانور مـرغوبة مـن عدد كبير مـن الراغبين وذوي المطامع ، وخشية اختطافها وحجـزها فـرت ، واقـدمت على اختيار هنري كونت أنجوا زوجا لها ، وتزوجته بعيد فراقها للويس بقرابة الشهر ، وفي سنة ١١٥٤ م صـار هنري ملكا على انكلترا ، وبتحكمه بميراث اليانور صار ايضا ملكا على حوالي نصف فرنسا .

(٤٠) - لم يكن اسمها ماريا بل كونستانس ، وهي ابنة الفونسو السابع الذي تميز بين ملوك ليون وكاستيل بلقب ، الامبراطور ، فقد تو ٠ امبراطورا على اسبانيا عام ١١٣٥ م بحضـور عدد كبير من الأمراء الاسبان من نصارى ومسلمين ، هذا ويفيد أن نشير هنا إلى ان عددا من الملوك الذين سبقوه ادعوا هذا اللقب ، لكنه لم يعلق بواحد منهم ، والفونسو السابع هو الوحيد الذي علق به هذا اللقب ، واستمر معه .

(٤١) - اخفق وليم في ذكر الهجوم السابق على قلعة العريمة في طرابلس وحسب المؤرخين العرب ، دعا ريمون الثاني صاحب طرابلس نور الدين وأنر اللذان كانت قواتهما قد اتحدت عندما أتى الأول لنجدة دمشق ، لمهاجمة هذه القلعة ، التي كانت تحتفظ بها انذاك أرملة الفونسو صـاحب طـولوز واحد أبنائه ، وخاف ريموند من مطالباتهم بإمارته ، واستولى نور الدين وأنر على القلعة ونقـلا معهما برترام ووالدته أسيرين ، وحدث هذا بعد وقت قصـير مـن التخلي عن حصـار دمشـق (ستيفنسون - الصليبيون في الشرق ص ١٦٤) .

(٤٢) - كانت حملة نور الدين في منطقة انطاكية التي تمت في أواخر عام ١١٤٨ حملة غير ناجحـة وحقق ريموند صاحب أنطاكية بالفعل انتصارا على جزء من جيش نور الدين .

(٤٣) حدثت هذه الكارثة في ٢٩ حزيران من عام ١١٤٩ ، واتبـع نور الدين الانتصـار بحصـار افامية التي استولى عليها في ٢٦ تموز .

(٤٤) - كانت كونستانس امرأة في ريعان الشباب في الثانية والعشرين من عمرها تقريبا عند وفاة زوجها (ستيفنسون - الصليبيون ص ١٦٥)

(٤٥) - كان ايمري ، الذي لم يكن وليم قد وافق على انتخابه ، متورطا بمشاكل مـع البـابوية في هذا الوقت ، ومع ذلك ، فإن المساعدة التي قدمها في هذه الظروف كانت مساعدة مفيدة .

(٤٦) – كان مسعود هذا هو ابن قلج ارسلان الذي حكم سلطنة سلاجقة الروم أو قونية من عام ١١١٦ وحتى عام ١١٥٦ .

(٤٧) – ينبغي تحديد تاريخ زيارة بلدوين الثالث وجوسلين بالجزء الاخير من عام ١١٤٩ .

(٤٨) – هوراس – الامثال : ١ / ١٨ / ٨٤

(٤٩) كانت بعض قوات نور الدين قد أسرت جوسلين الثاني ، وحسب الروايات العربية فقد بقي في السجن في حلب لمدة تسعة أعوام حتى زمن وفاته ، واجبر على تحمل أعمال التعذيب المتعددة الانواع ، ويرجع ابن القلانسي تاريخ أسرة إلى ٥ ايار عام ١١٥٠ (تاريخ دمشق ، ص ٣٠٠) .

(٥٠) – لابد أن يكون تشييد هذه القلعة قد حدث في شتاء عامي ١١٤٩ – ١١٥٠ وحسب رواية ابن القلانسي كان الملك مايزال منشغلا في ذلك العمل عندما استدعته دمشق للمساعدة على صد هجوم نور الدين على تلك المدينة وكان انر قد توفي في ٢٨ آب من عام ١١٤٩ ، وكان هطول الامطار الغزيرة بشكل غير اعتيادي في شهر نيسان وقدوم بلدوين الثالث قد ثبطا من شجاعة نور الدين في هذا الوقت إلى درجة انه وقع معاهدة سلام مع دمشق في / ١ / ايار من عام ١١٥٠ .

(٥١) – يؤكد وليم في روايته أن الحامية تغيرت ثلاث أو أربع مرات في العام ، مع أن السياسة الثابتة للمصريين كانت قائمة على تغييرها مرتين في العام ، وحدث الاختبار الجدي الاول لهذه القلعة في عام ١١٥٢ . وربما كان هذا في ذهن وليم آنذاك (جب . تاريخ دمشق ص ٣١٢) .

(٥٢) – بلغ بلدوين الثالث سن الحادية والعشرين من عمره في عام ١١٥١ ، وكان سن الخامسة عشر هو السن القانوني الذي يستطيع عنده الملك أن يحكم في القدس ، ولابد أن بلدوين الثالث قد اصبح ضجرا جدا تحت حكم والدته وكافل المملكة المتمكن لكن اللاشعبي، ولربما بدا من المعقول توقع حدوث هذه المشكلة في عام ١١٥١ مع أن روشيت قد وضعها في العام اللاحق .

(٥٣) – اثارت احداث عام ١١٤٩ انتباه الامبراطور مانويل . وبدا الموقف بأنه يقدم فرصة غير عادية لتحقيق المطالب السابقة للمنطقة ، لذلك لم يكتف بتعزيز جيشه في الجوار ، بل استعد ايضا لتوسيع مصالحه في كل من الرها وانطاكية ، ويجب اعادة تاريخ التحولات المدونة هنا إلى عام ١١٥٠ (انظر ف شالدون – آل كومينين : ٢ / ٢ – ٤٢٤ – ٤٢٥) .

(٥٤) – هنالك تشوش زمني بسيط هنا . فقد جرى تعيين همفري صاحب تيرون كافلا للمملكة من قبل بلدوين الثالث عندما انفرد بالحكم لوحده في عام ١١٥١ أو عام ١١٥٢ ، في حين أن تحويل حصون الرها إلى عهدة الاغريق قد حدث في عام ١١٥٠ ، ومن المؤكد أن همفري أوف تيرون كان مع بلدوين لكنه لم يكن قد اصبح بعد كافلا للمملكة .

(٥٥ – صحيح انه تمت خسارة الاقاليم على الفور ، غير أن مسعود استولى على معظمها في الاعوام الثلاثة أو الاربعة اللاحقة . وحصل نور الدين على كثير منها بعد وفاة مسعود في عام ١١٥٥ أو ١١٥٦ .

(٥٦) – كان ولتر دي فولكيبرغ احد افراد الاسرة المشهورة من حكام قلعة القديس أومر وكان هو واحدا منهم ، وقد كان صاحب طبرية الثاني (ر . غروسيه – تاريخ مملكة الفرنجة في القدس ٢٠ – الملحق أو انظر أيضا الحاشية ٤٠) .

(٥٧) – كان الامبراطور مانويل مهما تماما في جعل كونستانس تقبل زوجا مناسبا كما كان بلدوين الثالث هنا ووقع اختياره على شخص اغريقي يدعى القيصر يوحنا ، وهو أخو زوجته (شالدون – آل كومينيين : ٢ / ٤٣٦) .

(٥٨) – ليس من الواضح زمن هذا الاجتماع في طرابلس ، وربما حدث لدى عودة بلدوين من الشمال في أواخر عام ١٥٥٠ ، إلا أن أحداث الفصل اللاحق متداخلة مع هذا وتشتمل على وفاة ريموند الثاني صاحب طرابلس والتي لايمكن وضعها قبل عام ١١٥١ .

(٥٩) – لايذكر ابن القلانسي هذا المشروع المحتج من قبل أبناء الاسرة التركية التي كانت قد احتفظت بالقدس حتى عام ١٠٩٨ ، وتمت مطابقة هوية القائد الذي يدعوه وليم باسم هارفيق (

ربما تصحيف بارورق) بأنه تمرتاش صاحب ماردين وهو من الأسرة الأرتقية ، ويقبل هذه المطابقة كل من روشيت وستيفنسن وذلك على الرغم من رواية وليم من أن الحملة توقفت في دمشق في طريقها ، ليست مذكورة في تاريخ دمشق . (ص ٢٧١) .

(٦٠) - يوئيل : ١ / ٤

(٦١) - يعتبر هذا البيان للتاريخ بيانا رسميا ويبدو بأنه صحيح ، ولم يطبق وليم هذا التحديد على الكونت غودفري كملك أول ، الامر الذي قد جعل بلدوين الثالث الملك الخامس ، ويأتي تقدير عام ١١٥٢ بأنه العام الملكي التاسع لبلدوين الثالث كنقطة مقارنة مع تواريخ رسمية أخرى استخدمها وليم .

(٦٢) - ٢٥ كانون ثاني ١١٥٣

(٦٣) - من الممتع أن نشير أن نبلاء ذوي أهمية ، مثل وولتر حاكم قلعة القديس أومر ، قد خدموا لقاء الاجر ، وكان كل من هذين الرجلين مغامران نبيلان حقق كل منهما مكانه في سورية اللاتينية عن طريق الزواج ، هنالك مجموعة موجزة جدا من الإشارات إلى وولتر دي فولكبيرغ حاكم قلعة القديس أومر من قبل غيري (انظر غيري : حكام قلعة القديس أومر ١٠٤٢ - ١٣٨٦ - مكتبة مدرسة تشارتز : ٣٥ (١٨٧/٤) (٣٤١ - ٣٤٣) وكان أرناط موضوع دراسة لحياته مطولة (انظر غ . شلمبيرغر - رينودي شاتلون) .

(٦٤) - انظر الكتاب ١٧ - ، والكتاب ١٣ -

(٦٥) تعتبر هذه من الاشارات الاوضح إلى وجود أسطول ملكي ، وليس منصوص فيما إذا كانت السفن قد بنيت أو اشتريت للمناسبة أو كانت جزءا من قوة دائمة ، مع أن تعيين جيرارد صاحب صيدا قائدا يبدو بأنه مؤقت ولالبس في ذلك .

(٦٦) - أصبح بحلول هذا التاريخ استخدام المال شائعا وبشكل متزايد في تسيير الحرب في الشرق ، فقد كان بإمكانه شراء انواع كثيرة من الخدمات تراوحت فيما بين العمل اليدوي وحتى المساعدة العسكرية الموثوقة بها .

(٦٧) - تعتبر هذه الرواية متضاربة إلى حد ما مع رواية وليم السابقة بخصوص وولتر اوف سينت أومر والقائمة التي قدمها عن القادة البارونين في عسقلان الذين أدرج بينهم أرناط وولتر حاكم قلعة القديس أومر .

(٦٨) - كان أنر قد توفي في ٢٨ آب من عام ١١٤٩ حسبما ذكر ابن القلانسي ، الذي يصف الحادث ببعض التفاصيل (تاريخ دمشق : ٢٩٤ - ٢٩٥) وقام نور الدين بمحاولات للفوز بدمشق بعد وفاة أنر وقبل وفاته أيضا ، ونجح في آخر الأمر في شهر نيسان من عام ١١٥٤ بعندما أعد السبل باستخدام نوع من أنواع حصار المواد الغذائية (تاريخ دمشق : ٣٢٠ - ٣٢١)

(٦٩) متى : ١٢ / ٢٥ .

(٧٠) - كان نور الدين قد دعا أهالي دمشق لمساعدته في حصار بانياس وفق شروط المعاهدة الأخيرة التي كان قد عقدها معهم ، ومع أنهم انضموا إليه ، فقد كان ذلك مع مشاعر من الريبة أدى في آخر الأمر إلى نشوب شجارات بينهم وإلى التخلي عن الحصار في شهر حزيران من عام ١١٥٣ .

(٧١) - يعتبر لندغرين تهمة الجشع ضد الداوية انعكاسا لتحامل وليم ضد هذه المنظمة وهو غير مسوغ تجاه الحقائق التي يمكن شرحها بطرق أخرى .

(٧٢) - أوفيد ٢ . م . ٩ / ٤٨

(٧٣) - الأمثال : ١٦ / ١٨

(٧٤) - يوحنا : ١٦ / ٢٠

(٧٥) - متى : ٧ / ٧ .

(٧٦) من المهم أن نشير في هذه المرحلة ليس فقط مثال آخر للموقف العدواني القوي للبطريرك فولتشر ، بل إلى تعاون فولتشر مع الاسبتارية الذين كانوا بشكل واضح المجموعة العسكرية الوحيدة المؤيدة بقوة للعمليات المستمرة .

(٧٧) ـ من البديهي اعتبار هذا الحدث من نسيج خيال وليم ، وهو بذلك يقدم مثالا ممتعا لتقديره التعاطف لمأزق العدو .

(٧٨) ـ كان وليم قد رأى هذه البيعة قبل كتابته لهذا الوصف ، الذي يعتبر دليلا آخر على اهتمامه القريب بفن العمارة وتوحي قوة وصفه للحصار ان وليم نفسه كان موجودا خلال قسم منه منع أنه لايشير إلى وجوده في أي مكان وكان آنذاك في حوالي الثالثة والعشرين من عمره وكان لايزال طالبا ، وربما في القدس التي لم تكن بعيدة جدا .

(٧٩) ـ انعكست العلاقة بين بيت لحم وعسقلان من تنظيمها التقليدي وقد ثارت هذه المشكلة خلال الحملة الصليبية الاولى وتأسست السابقة عندئذ للعمل البابوي (انظر الكتاب ٩٩ ـ الفصل ١٢) وربما أمكن المحافظة على عسقلان كاسقفية منفصلة إلا أن احتجاجات جيرالد رالف الذي أصبح خلفا له في الاسقفية في بيت لحم نجحت في جعلها خاضعة لذلك المقر (الكرسي) وحسم القضية وقررها البابا هادريان الرابع .

(٨٠) ـ من المهم أن نلاحظ أن والدة الملك لم تكن قد فقدت اهتمامها بادارة الأمور على الرغم من هزيمتها قبل عام أو عامين ويعكس بيع الامتيازات الذي أشار إليه وليم أهمية العنصر التجاري في الدول اللاتينية .

(٨١) ـ يمكن للأخطاء في هذا التاريخ أن تكون بسبب الناسخين ، ويجب أن يكون العام ١١٥٣ ، وربما يوم الشهر هو ٢٢ آب بدلا من ١٢ (انظر ستيفنسون الصليبيون ص ١٧١ حاشية ٣) .

(٨٢) ـ لاتذكر أية روايات أخرى حادث نوقونيوس هذا ، إلا أن من المحتمل أن غزوات كهذه كانت شائعة للغاية ، لهذا لم تكن لتثير التعليق من قبل المؤرخين العرب ، مع أن هذه الغزوة قد أثارت بالفعل تعاطف وليم .

(٨٣) ـ امتدت هذه المشاجرة بين أرناط والبطريرك إيمري لعدة سنوات ، ومن المؤكد أن السبب الذي دفع وليم لوضعها هنا هي الحقيقة أن أرناط تزوج من كونستانس في عام ١١٥٣ . هذا وإن الحوادث التي يسردها امتدت حتى عام ١١٦٠ ، إذا لم يكن إلى مابعد ذلك .

(٨٤) ـ مجاعة عام ١١٥٤ هذه مذكورة أيضا بأنها حدثت في دمشق في ذلك العام . إلا أن ابن القلانسي يعزوها آنذاك إلى حصار متعمد لدمشق من قبل نور الدين الذي منع التصدير العادي للحبوب من الشمال (تاريخ دمشق ، ص ٣١٧) .

(٨٥) ـ هادريان الرابع (وليس الثالث) انتخب نيقولا بريكسبير بابا في حوالي نهاية عام ١١٥٤ ، وكان البابا الوحيد حتى ذلك الحين من أصل انكليزي . كما أن الاحداث الرئيسة في حياته كما هي معطاة هنا صحيحة فعليا مع أن مكان مولده يقدم عادة بأنه لانغلي بالقرب من سانت ألبانز (انظر معجم التراجم القومية والموسوعة الكاثوليكية .) .

(٨٦) ـ تم الاستيلاء على تورتونا في ١٨ نيسان من عام ١١٥٥ بعد حصار دام تسعة أسابيع ، وانتقل فريدريك ، بعد استراحة قصيرة في جنوا ، إلى روما وزار عددا من المدن بما فيها بولونيا على الطريق

(٨٧) ـ كانت المشاكل بين وليم الاول صاحب صقلية والبابوية قد بدأت قبل انتخاب هادريان الرابع ، ورفض هادريان الاعتراف بوليم كملك وواصل الصراع الذي أصبح الآن حربا عليه (انظر ف . شالدون ـ الحكم النورماندي في صقلية وايطاليا : ٢ / ١٩٤ ...)

(٨٨) ـ ترافق اجتماع هادريان وفريدريك مع سلسلة من سوء التفاهم . كما أن الحادث المشهور لرفض فريدريك الامساك بركاب البابا حدث في هذا الوقت وحدث تتويج فريدريك كامبراطور قبل وقت قليل بعض الشيء من التاريخ الذي قدمه وليم أي ١٨ حزيران ١١٥٥

(٨٩) - خلقت ثورة ابن عم وليم روبرت اوف لوريتلو ونبلاء لخرون من جنوب إيطاليا وضعا خطيرا كان إمكان فريدريك بربروسا او مانويل أن ينالا فيه نفوذا حاسما ، وكان ممثلو مانويل سريعين بالاستفادة من الوضع مع أن مانويل كان منشغلا للغاية في مكان لخر حتى ليقوم بإرسال اي جيش له قدرته .

(٩٠) - من غير المؤكد فيما إذا تفاوض هادريان مع الاثنين في الوقت نفسه او مع مانويل بعدما كان فريدريك قد أشار إلى عجزه عن التدخل في ذلك الوقت ، وهنالك سؤال عما إذا كان الاول أو الاخير قد أخذ المبادرة في العمل لاقامة العلاقات بين هادريان والاغريق (انظر شالدون - ال كومينيين : ٢ ، ٣٥٨ - ٣٦٠)

(٩١) - كان ينشا بالعادة خلاف كبير بين رجال الدين المدنيين والنظاميين بعد فترة قصيرة من تاسيس كل نظام كهنوتي جديد . وتفاقم هنا بالتحرك الاكبر للانظمة الاخيرة . وعندما أعطيت الانظمة العسكرية الحق في تعيين قساوستها وبإعفائها من طاعة المطارنة المحليين ، فإن أمثلة تضارب السلطان القضائي كانت مؤكدة ، ويسرد وليم هنا قائمة تامة تقريبا عن المظالم التي اثارها المطارنة المحليون ضد الانظمة العسكرية .

(٩٢) - الرومان : ١٢ ، ١٥

(٩٣) - كان هذا البناء الرئيسي للاسبتارية في القدس ، وربما في فلسطين باسرها ، وتوجب ان يكون كبيرا ليلبي حاجاتهم المتزايدة ، ولايواء فرسانهم والاعتناء بالمرضى ومصالح اعمالهم ، ووصفه الحاخام بنيامين التطيلي ، الذي زار القدس في حوالي عام ١١٦٣ ، بأنه كان يستوعب اربعمائة فارس بالاضافة إلى المرضى والحجاج الزائرين وربما لم يكن بالنية أية إساءة بهذا التوسع في بنائهم ، إلا أن المطارنة فسروه على هذا الشكل خلال الشهار .

(٩٤) - سيبدو اعتناء كهذا بانه يمثل مرحلة متقدمة في الخلاف بين الاسبتارية والكنيسة العلمانية بالقرب من زمن مناشدة روما . ويشهد الحادث على وجود وليم في القدس في حوالي هذا الوقت .

(٩٥) - الاشارة إلى الامتيازات البابوية المختلفة من انوسنت الثاني ٢٩ آذار عام ١١٣٩ وإلى امتيازات اناستاسيوس الرابع في ١٧ شباط عام ١١٥٤ واشتملت كل واحدة من هذه الهبات على توسيع للامتيازات ، ومن المؤكد أن الامتياز الممنوح من أناستاسيوس الرابع هو الذي عجل الاضطراب في القدس (انظر ف . لندغريف : وليم الصوري والداوية - الملحق الاول : ١٨٣ - ١٨٥) .

(٩٦) - كانت أمالفي إحدى المدن الرئيسة من منطقة غرب المتوسط قبل الحملات الصليبية ، وكانت تابعيتها للقسطنطينية ، إلا أنها كانت مستقلة عمليا . (انظر فونهايد : تاريخ التجارة في الشرق خلال العصور الوسطى : ١ ، ٩٨ - ١٠٨)

(٩٧) - يبدي وليم هنا ، كما يبدي في اماكن متعددة ، اطلاعا على جنوب إيطاليا يوحي بمعرفة شخصية ، ومن غير الواضح سبب اعتباره نابولي بانها مدينة فرجيل .

(٩٨) - يظهر تعاطف وليم نحو التجارة هنا كما يظهر في أماكن اخرى ، ومن غير المؤكد فيما إذا كان سكان أمالفي الشعب الاول أو الوحيد الذي تولى جلب منتجات الغرب إلى الشرق ، إلا ان اتصالهم الاكيد بالقدس يتجاوز هذه الملاحظة الشاملة من قبل وليم (هايد : تاريخ التجارة) .

(٩٩) - من المحتمل أو من غير المحتمل ان يكون هذا الاجراء قد اتبع في ذلك الوقت ، إلا ان الرواية توحي على الارجح بنوع الاجراء في مسائل كهذه في زمن وليم . ويعتقد هايد انه يجب تقييم معظم الفضل بقيام هذه المؤسسات في القدس إلى واحد من حكام امالفي يدعى ماروس الذي في توفي عام ١٠٧١ (هايد : تاريخ التجارة : ١ ، ١٠٤ - ١٠٦) وقد أرخ اعادة بناء هذه الاديرة بين عام ١٠٦٣ و ١٠٧١ خلال فترة حكم الخليفة المستنصر

(١٠٠) - حرفيا الطبقة الثانية . وكانت الطبقات الاجتماعية أكثر وضوحا ايام وليم مما كانت من قبل حتى سنة ١١٠٠ .

(١٠١) ـ انظر الكتاب الاول ـ الحاشية ٥٢

(١٠٢) ـ أفرط وليم في تبسيط دعم هذه الاديرة . وهنالك دليل على أن كميات من المال قد جمعت في جنوب فرنسا بالاضافة إلى مكان اخر ايضا لدعم هذا العمل (انظر هايد ـ تاريخ التجارة ١ ١٠٥) .

(١٠٣) ـ اغنس وجيرالد شخصان شبه خرافيان وذاكرتهما محفوظة في تاريخ الاسبتارية بسبب ذكرهما هنا ، وكان وليم قد ذكر جيرالد في وقت سابق (الكتاب السابع ، الفصل ٢٣ ، انظر ج . كنغ ـ فرسان الاسبتارية في الاراضي المقدسة ـ الفصل الثاني . وجعل فولتشر اوف تشارتر وفاة جيرالد سنة ١١٢٠ (هاغنمير تاريخ فولتشر : ٦٤١ ـ ٦٤٢ ـ الحاشية ٢٥) .

(١٠٤) ـ كان ريموند دي بوي المقدم الثاني للاسبتارية ١١٢٠ ـ ١١٦٠ وللحصول على وصف قصير لحياته وإدارة نظامه انظر كنغ ـ الاسبتارية فصل ٣ وفصل ٤ .

(١٠٥) ـ انظر الحاشية في ص ٨٧٨ .

(١٠٦) من المؤكد أن مؤسسات كهذه مثل اسقفية بيت لحم واسقفية الناصرة واديرة كثيرة مثل تلك التي كانت موجودة على جبل صهيون وجبل الطور وماري سينة وادي يهوشافاط مدرجة تحت هذا الوصف ، ولم يكن وليم ميالا أبدا للاعتراف بالصعوبات التي سببتها هذه المؤسسات الكنيسة ، وكان الحجاج الاتقياء من كافة انحاء العالم المسيحي يصرون على تقديم الارث بوصية لهذه المؤسسات ، وكانت هذه الهبات عادة على شكل دخل من ممتلكات موزعة بشكل متساوي ، أو حتى قطع من الاراضي . ولم تكن هنالك اية وسيلة لضمان دوام هبات كهذه إلا عن طريق البابوية التي كان يعترف بسلطتها بشكل عام ، ولم يكن بطريرك القدس في موقع ليضمن حماية كهذه ، ولهذا السبب فقد بحثت المؤسسات العديدة عن الامتيازات من البابوية ، وكما أشير لعدة مرات من قبل فإن السلطة البابوية لم تكن متاكدة من طموحات الاباطرة سواء في القدس أو في انطاكية . ولهذا السبب فقد كانت مستعدة على الدوام لمنح امتيازات كهذه ومعها اعفاء من السلطان القضائي البطريرك ومن الاسقف المحلي ورئيس الاساقفة . وكانت هذه الحقيقة الاخيرة التي استاء منها رئيس الاساقفة وليم بشكل خاص

(١٠٧) ـ اشعيا ١ ٢

(١٠٨) ـ الملوك الأول ٢١ ١٩

(١٠٩) ـ لابد وأن هذه الرحلة حدثت في ربيع عام ١١٥٥ لتوافق الاحداث في ايطاليا التي يشير إليها وليم .

(١١٠) ـ تولى شالدون وصف أحداث الحرب هذه في جنوب ايطاليا بشكل مطول (انظر ـ شالدون ـ النورمان ج ٢ الفصل ٧)

(١١١) ـ جرى الاتصال بفريدريك من قبل مبعوثي كل من البابا والامبراطور مانويل للتدخل في جنوبي ايطاليا ، ولم يمكن اقناعه ورفض العروض بحكم الظروف

(١١٢) ـ كان هذا تبعا لشالدون هو اسكلتين .

(١١٣) ـ أدرك مبعوثو البطريرك فولتشر فريدرك . ربما في أوائل شهر اب من عام ١١٥٥ . ويبدو وليم مطلعا على هذا الطريق الروماني القديم والذي يعدد تسلسل مدنه بشكل صحيح .

(١١٤) ـ لابد أن هادريان قد وصل بينفنتو في حوالي الأول من شهر تشرين الاول من عام ١١٥٥ (شالدون ـ النورمان ج ٢ فصل ٧) .

(١١٥) ـ إن معاملة البطريرك فولتشر هي مثل المعاملة التي تلقاها البطاركة اللاتينيون الاخرون في البلاط البابوي ، ومن المؤكد أن الاسبتارية كانوا يلاقون تأييدا كبيرا هناك مثلهم مثل الداوية .

(١١٦) ـ يعكس وجود المحامين في البلاط البابوي لمساعدة المستأذنين من أجل الاهتمام البابوي وتأييده ، التوسع الضخم للأعمال التي كانت تتطلب اهتمام البابا ، وتظاهر هؤلاء المحامون - بأنهم يعرفون كيف يصلون إلى حضرة البابا فقد كانوا يقدمون خدماتهم لقاء أجر ، الامر الذي كان يؤدي بسرعة إلى اتهامات الفساد في المحكمة .

(١١٧) – يقدم هذا السرد لمحة أساسية للقوة العملية للسلطة البابوية ، ومالت أوامر الكنيسة الواسعة الانتشار في سياق الزمن إلى الاعتماد على بعض الكرادلة من أجل المساعدة ، ولم يكن الاساقفة المدنيين الذين كانت اعمالهم مع الادارة البابوية غير متواصلة عادة محظوظين جدا .

(١١٨) – هنالك بعض الشك حول التواريخ المحددة لهذه الاحداث . فتاريخ هزيمة الاغريق في برنديزي هو نيسان من عام ١١٥٦ وتاريخ معاهدة هادريان مع وليم الاول هو ١٨ حزيران عام ١١٥٦ .

(١١٩) – من أجل المزيد من التفاصيل حول معاملة وليم للبلاد المفتوحة (انظر شالدون – النورمان : ٢ ٢٣٢ – ٢٣٥) .

(١٢٠) – كان عباس ، وهو فرد من عائلة ذات شهرة واسعة من الشمال الافريقي ، قد حقق مكانة في القاهرة كقائد عسكري . وكان قد أمر بتولي قيادة الحامية في عسقلان في عام ١١٥٣ ، إلا أنه رفض ذلك وقتل الوزير الذي كان صهرا له واستولى على منصبه . غير أن منصبه لم يكن امنا ، ولذلك فقد تآمر لقتل الخليفة الظافر ولم يكن حتى قتل الظافر وإبداله بالفائز الشاب كافيا ، ولذلك فقد توجب عليه الهروب لينقذ حياته كما هو مشار هنا .

(١٢١ – إن المصدر الأمثل للمعلومات حول هذه الاحداث هو ما رواه أسامة الذي كان في القاهرة في هذا الوقت والذي كان صديقا حميما لعباس . (انظر فيليب حتي – كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ : ٤٣ – ٥٥) .

(١٢٢) – هو الإسم الذي أطلقه وليم على عباس وناصر ديئوس عوضا عن ناصر الدين أو نصر ، وكان هذان والدا وابنا حسبما جاء عند وليم . كما أن تاريخ المعركة ووفاة عباس كانا بتاريخ ٧ حزيران عام ١١٥٤ .

(١٢٣) – اذكر لندغرين (وليم الصوري وفرسان الداوية ٩٣ – ٩٦) تفاصيل هذه الرواية لاسيما ماتعلق بموقف الداوية .

(١٢٤) – هنالك بعض الشك بخصوص تاريخ هذه الاحداث ، ويضعها وليم في العام اللاحق لوفاة عباس ، الذي كما هو مفترض عام ١١٥٥ . ويبدو أن أرناط قد شكل ، بعدما هزم طوروس واسترد عدة قلاع إلى الداوية ، حلفا مع الارمن ، وتعاون معهم في غزوة قبرص (انظر شالدون – آل كومينين . ٢ ٤٣٦ – ٤٣٩) .

(١٢٥) – يؤكد المؤرخون السوريون تهمة اقتراف الاعمال الوحشية هذه من قبل أرناط ، ومن الصعب أن نحدد إلى اي مدى تأثرت فيه رواية وليم بحقيقة أن أرناط كان خصما سياسيا لريموند صاحب طرابلس ، لأن آخرين يشهدون على صحة معاملة أرناط القاسية للمعارضة ، وحدثت هذه الحملة إما في أواخر عام ١١٥٥ أو أوائل عام ١١٥٦ (شالدون – آل كومينين ٢ ٢٨) .

(١٢٦) – أوفيد ، آمور : ١ ١٠ ٤٨

(١٢٧) – كان التركمان ، وهم فرع من الاتراك الايرانيين ، أوقفوا حياتهم على تربية الخيول ، وربما كان الحليب الذي أشير إليه حليب فرس أو لعله حليب جمل .

(١٢٨) – الملوك الاول ١٠ ١٧ . أخبار الايام الثاني : ٩ ، ٢٠ .

(١٢٩) – كان نور الدين ، حسبما ذكره ابن القلانسي ، قد عقد هدنة مع بلدوين الثالث لمدة عام بدءا من شهر ايلول عام ١١٥٦ ، وحدثت هذه الغزوة ، التي يصفها الكاتب ، في شهر شباط من عام ١١٥٧ وفسر عمل بلدوين في أن وصول قوات جديدة من الغرب قد شجعه على عدم مراعاة الهدنة (جب – تاريخ دمشق : ٣٢٧ – ٣٢٨) .

(١٣٠) – إن تدمير هذه الزمرة من الداوية والاسبتارية كان سببا لابتهاج كبير في دمشق ، وقاد أخو نور الدين قوات المسلمين التي حققت النصر ، كما طاف بالاسرى ورؤوس القتلى الاعداء في المدينة في موكب عظيم . وحدثت المعركة في ٢٦ نيسان من عام ١١٥٧ (جب – تاريخ دمشق : ٣٣٠ – ٣٣٢) .

(١٣١) ـ تبعا لما ذكره ابن القلانسي عرض همفري الاستسلام شريطة السماح له ولجنوده الموجودين في القلعة بالانسحاب بأمان . وهو عرض رفض نور الدين قبوله . كما أن وصول بلدوين المحكي في الفصل اللاحق ، قد انقذ همفري وعاشت بانياس تحت الحصار قرابة شهر من أيار إلى حزيران ١١٥٧ (جب ـ تاريخ دمشق . ٣٣٣ ـ ٣٣٦) .

(١٣٢) ـ ميتا . ٦ ٥٧٦

(١٣٣) ـ الامثال : ٩١ ٧

(١٣٤) ـ الامثال ٤٤ ١٤

(١٣٥) ـ يتفق تاريخ ابن القلانسي وهو ١٩ حزيران ١١٥٧ ، الذي كان العام الرابع عشر من فترة حكم بلدوين . إلا أن الاخير يقول إن بلدوين لم يجدد بناء أسوار بانياس ، ويقول أيضا إن المسلمين اعتقدوا انهم كانوا قد قتلوا بلدوين غير انهم لم يتمكنوا من العثور على جثته ، وقد جرى عرض الاسرى والمغانم في دمشق بعد خمسة أيام من المعركة (انظر جب ـ تاريخ دمشق : ٣٣٦ ـ ٣٣٧)

(١٣٦) ـ لم يذكر ابن القلانسي هذا الهجوم الثاني على بانياس ، وقد أشار بشكل غامض إلى جهود نور الدين في متابعة استغلال نصره على الملك .

(١٣٧) ـ يجب تحديد تاريخ وصول ثيري مع حوالي نهاية صيف عام ١١٥٧ ، وسببت ظروف عديدة في نقل مسرح النشاطات إلى شمال سورية ، حيث قلج أرسلان الثاني قد غزا منطقة أنطاكية ، بينما وجد نور الدين ، الذي كان قد ذهب لنجدة المدن المصابة بالزلزال على طول العاصي الاعلى ، الظروف أكثر مواءمة لمهاجمة المنطقة نفسها من الجنوب .

(١٣٨) ـ لابد وأن هذه السفارة حسب السياق ـ قد انطلقت إلى القسطنطينية بعد وقت قصير من وصول ثيري ، وربما كان ذلك في شهر ايلول من عام ١١٥٧ مع أن ذلك يمكن أن يكون قد حدث فيما بعد .

(١٣٩) ـ أوفيد .

(١٤٠) ـ باغت هذا المرض الشديد نور الدين في مطلع شهر تشرين الاول وأدى إلى حدوث الاضطراب الموصوف هنا (انظر جب ـ تاريخ دمشق : ٣٤١ ـ ٣٤٢) .

(١٤١) ـ يعزو ابن القلانسي ثانية هذا الاخفاق الجديد المسيحيين في الاستيلاء على شيزر إلى وصول تعزيزات من المسلمين (جب ـ تاريخ :٣٤٢)

(١٤٢) ـ كان مير ميران نصرة الدين أخو نور الدين ، هو المنتصر على الاسبتارية في مطلع عام ١١٥٧ ويعتبر وصف وليم لاستيلائه على حلب وانسحابه الطوعي بمثابة موجز تقريبي لرواية ابن القلانسي (جب ـ تاريخ دمشق ٣٤٢) ؤ

(١٤٣) ـ ٢٠ تشرين ثاني ١١٥٧ ـ انظر الفصل ٢٢ .

(١٤٤) ـ ليس من المقرر بشكل واضح ، أن هذه القلعة التي تم وصف حصارها والاستيلاء عليها بتفصيل تام ، انها قلعة حارم . (انظر ستيفنسون : الصليبيون في الشرق ، ص ١٧٩ حاشية ١) وإن كان الأمر كذلك ، فلا بد وأنها فقدت مؤخرا وربما لقلج ارسلان في وقت سابق من العام .

(١٤٥) من الغريب ان وليم لايحدد أيا من اخوات الملكة هي المقصودة وربما كانت ايفيتا ، الأخت الصغرى ، التي كانت الآن رئيسة لديرها وكانت سيبيليا أوف فلاندرز مكرسة بشكل خاص لهذه الاخت من زوجة أبيها ميليساند ، ويقال : إنهما بقيت معهما عندما عاد زوجها إلى فلاندرز (انظر ل . ديلسلي ـ محقق كتاب « تاريخ روبرت دي توريغيني راعي دير جبل القديس ميخائيل ١ ٣٢٥) .

(١٤٦) ـ ١٥ تموز ، ورواية ابن القلانسي عن هزيمة نور الدين مختصرة (جب ـ تاريخ دمشق : ٣٤٧) .

(١٤٧) – تؤرخ هذه الاشارة إلى السنة الثالثة والعشرين من وجود ليتارد في عمله إلى ان وليم كان يكتب هذه الفقرة سنة ١١٨١ .

١٤٨) – من المحتمل أن السفارة إلى القسطنطينية مضت في أواخر عام ١١٥٧ وعادت مع الأمير الاغريقية كعروس مستقبلية لبلدوين الثالث في شهر ايلول من عام ١١٥٨ (شالدون – آل كومينين : ٢ / ٤٣٩ – ٤٤٠) وكان السوليدوس في يوم من الايام قطعة نقدية ذهبية تساوي دولارين ، وقد أنقصت قيمتها من قبل الأسرة الكومينية واصدروها ايضا من الفضة (فازلييف – تاريخ الامبراطورية البيزنطية : ٢ / ١٤٩) .

(١٤٩) – كان ايمري في القدس في ايلول ١١٥٨ .

(١٥٠) – كورنثوس الأولى : ١٣ / ١١

(١٥١) – فرجيل : انا : ٢ / ٢٧٤

(١٥٢ – وصل الامبراطور انويل إلى كليكية في خريف عام ١١٥٨ وبقي في الجوار لأكثر من نصف عام (انظر شالدون – آل كومينين : ٢ / ٤٤١ . جب – تاريخ : ٣٤٩) .

(١٥٣) – تبعا لما يذكره المؤرخون ، كان البطريرك ايمري قد عرض تسليم أرناط إلى الامبراطور ، وكان بلدوين الثالث شريكا بالعرض ، املا بذلك أن يحصل على إمارة أنطاكية بشكل منفصل حتى من قبل أرناط (انظر آل كومينين : ٢ / ٤٤٣ – ٤٤٨) . ويؤكد المؤرخون السريان والاغريق أن بلدوين سعى إلى تحسين الشروط المفروضة على أرناط والتي تشتمل من بين ما اشتملت على إزالة البطريرك اللاتيني وإبداله ببطريرك اغريقي لانطاكية . إلا ان بلدوين لم يستطع أن يحقق شيئا حول هذه المسالة ، مع أن الوصول الحقيقي للبطريرك الاغريقي لم يحدث إلا بعد مضي بضع سنوات .

(١٥٤) – اديرت المفاوضات مع طوروس بشكل مشترك من بلدوين الثالث والداوية (شالدون – آل كومينين : ٢ / ٤٤٨ – ٤٥٠) .

(١٥٥) – ليس من المستبعد أن يكون وليم قد حصل على هذه المعلومات من عموري اخو بلدوين الثالث .

(١٥٦) – كان دخول مانويل إلى انطاكية وإقامته هناك بروح النصر إلى بعض الحدود ، الأملا التي حاول أرناط ان يمنعه بدون جدوى . فقد احتاط مانويل بطلب الرهائن لاقامته هناك ، وكان في هذه المناسبة أن عقد مانويل مبارزة بطريقة غريبة ، وشارك بنفسه في الحدث (انظر شالدون – آل كومنين : ٢ / ٤٤٨ – ٤٥٠) .

(١٥٧) – يبدو أن مانويل تفاخر بمعلوماته الطبية ببراعته في معالجة الجروح (انظر ايضا للكتاب ١٦) .

(١٥٨) – كان نور الدين قد أسر برترام بن الفونسو في عام ١١٤٩ ، وهي حقيقة أهمل وليم ذكرها في ذلك الوقت . كما ان نور الدين ، الذي كان كارها للتخلي عن الأسرى ، أطلق سراح عدد منهم تنفيذا لطلب مانويل ، وربما كان ذلك شرطا لاحلال السلام بينهما .

(١٥٩) – حدثت وفاة هادريان الرابع في عام ١١٥٩ ، وتبعه ، كما يقول وليم ، شقاق ساعد فريدريك بربروسا ، لاسباب سياسية على إبقائه متقدا لسنوات كثيرة .

(١٦٠) – حدثت هذه المصالحة بعد مضي بعض الوقت على معركة لقانو في عام ١١٧٦ ، وهي المعركة التي كابدت فيها قوات فريدريك هزيمة منكرة على أيدي المدن اللومباردية ، وكان مجمع اللاتيران لعام ١١٧٩ – الذي حضرة وليم – من بعض الوجود احتفالا باستعادة وحدة الكنيسة .

(١٦١) – اكلوس : ٥٠ / ٦

(١٦٢) ـ وقعت أحداث دمشق هذه بعد وفاة ابن القلانسي التي كانت في ١٨ ـ آذار ١١٦٠ ، وكان نور الدين قد عهد بدمشق إلى نجم الدين أيوب كما ذكر جب (انظر جب ـ تاريخ : ٣٥٧ ـ ٣٦٨) .

(١٦٣) ـ الأختان كانتا هوديرنا وايفيتا ، وتنطبق رواية وليم حول مدة حكمها على عام ١١٦١ وهو تاريخ مرضها .

(١٦٤) ـ إن العام غير أكيد إلى حد ما ، لأن قائمة وليم العادية لأعوام فترة حكم بلدوين ستجعل هذا هو عام ١١٦١ ، الذي أعطاه أيضا عدد من المؤرخين العرب ، ويفضل كل من شالدون وستيفنسون عام ١١٦٠ على أنه العام الصحيح ويقبلان رواية وليم عن اليوم والشهر (شالدون ـ آل كومينين : ٢ / ٥٢٠) (الصليبيون ص ١٨٢ . الحاشية ٢) .

(١٦٥) ـ عقد هذا المجمع في عام ١١٦٠ ، وربما في أواخر العام (انظر ر . روهرخت سجلات ملوك القدس رقم ٣٥٧ . وج د . مانسي ـ المجامع المقدسة الجديدة ومجموعات وثائقها : ٢١ ملف ١١٤٥ ـ ١١٤٦) .

(١٦٦) ـ أصبح بلدوين بن عموري ، بلدوين الرابع ، ملكا للقدس في الفترة الممتدة من عام ١١٧٤ ـ ١١٨٥ ، واستنتاجا من روايات وليم اللاحقة كان ذلك الشاب بلدوين في التاسعة من عمره في عام ١١٧٠ ، وفي الثالثة عشرة من عمره عند وفاة والده في عام ١١٧٤ ، وقد ولد في عام ١١٦١ .

(١٦٧) ـ كانت أسماء هذين السفيرين يوحنا كونتوستيفانوس وثيوفلاكت ، وكان هذا الأخير ايطاليا وكتابة وليم للاسمين توحي أنه حصل على معلوماته بشكل شفوي ، وكانت بيرثا أوف سوزلباخ أو ايرين حسبما أعيدت تسميتها ، كانت زوجة مانويل الأولى وكانت قد توفيت .

(١٦٨) ـ إن هذه العلاقة التاريخية المتبادلة التاريخية المتبادلة لهذه الأحداث ذات أهمية كبيرة ، إلا أن وليم لايقدم المعلومات الدقيقة المطلوبة لتوطيدها ، وربما كان نفسه يدرس في مدارس الغرب خلال ١١٦١ ـ ١١٦٣ ، ولذلك كان خارجا عن الاتصال بالقيل والقال المحلي في فلسطين ، ومن الواضح أن مانويل كان قد أرسل سفارة إلى بلدوين قبل أن يعرف بأسر أرناط ، وكانت المفاوضات زواج ميليساند صاحبة طرابلس مستمرة عندما أرسلت كونستانس إلى مانويل مناشدة للحصول على المساعدة وربما عرضت ابنتها ماريا للزواج في الوقت نفسه ، وعلى أية حال فقد تعارضت المفاوضتان ، وقدم التحالف مع انطاكية مغريات كبيرة إلى مانويل . ولابد أن وليم مخطىء في إشارته بأن مانويل لم يبدأ المفاوضات مع بلدوين حتى بعد أسر أرناط . (انظر شالدون ـ آل كومينين : ٢ / ٥١٧ ـ ٥٢٥) .

(١٦٩) ـ حدث زواج مانويل وماريا في القسطنطينية في ٢٥ كانون الأول من عام ١١٦١ (شالدون ـ آل كومينين : ٢ / ٥٢٣) ويضبر وليم هنا بعض التفاصيل المحيرة ، ومن غير المؤكد فيما إذا طلب مانويل أو استخدم مساعدة بلدوين في هذه المفاوضات .

(١٧٠) ـ أرخ روهرخت وفاتها في ١١ أيلول من عام ١١٦١ (انظر روهرخت تاريخ تاريخ ملوك القدس : ١١٠٠ ـ ١١٢٩ ص ٣٠٧) ولابد أن بلدوين قد أمضى الشتاء في انطاكية .

(١٧١) ـ يشير الوصف المغري والعاطفي لوليم عن معاناة بيت طرابلس ، بأنه تغاضى إلى درجة ما عن الثأر المرعب الذي تطلبه ريموند الثالث . ويقال إن ميليساند قد دخلت ديرا بعد هذه المسألة المشؤومة .

(١٧٢) ـ ليس من الواضح فيما إذا كان مرد هذا التفضيل إلى حقيقة أن عددا كبيرا من النسوة كن أنفسهن شرقيات أو لأنهن أدركن تفوق الشرقيين بالمعارف الطبية ، ومهما يكن من أمر إن التفضيل بحد ذاته واضحا .

(١٧٣) ـ إن التاريخ محدد هنا ، إلا أنه متناقض في فقرة الافتتاح للكتاب التالي ، كما أن الأحداث بعد عام ١١٦٠ مشوشة إلى حد ما ، ويهمل وليم ذكر حملة قام بها بلدوين الثالث إلى مصر خلال هذا الوقت ، وينقل الانطباع عن حملتين إلى انطاكية في عامين متتاليين ، ومن المؤكد أن

غياب وليم عن فلسطين خلال هذه الاعوام يفسر بعض هذا التشوش ، وقبل كثير من المؤرخين تاريخ وفاة بلدوين ، كما ينص عليه وليم هنا ، وبين المؤرخين كل من روهرخت ولامونت ، ويبدو من الضروري أن نعدد بعض هذه التناقضات ، فلو لم يكن بلدوين قد ولد قبل شهر شباط من عام ١١٣٠ (انظر الكتاب ١٤ ـ الحاشية ١٠ . الكتاب ١٦ ـ الحاشية ٣) لما كان قد تجاوز الثانية والثلاثين بحلول العاشر من شهر شباط من عام ١١٦٢ ، ولو أن فترة حكمه بدأت عندما توفي والده في العاشر من تشرين الثاني عام ١١٤٣ ، لما كان قد حكم سوى ثمانية عشر عاما وثلاثة أشهر وعلاوة على ذلك ، لو كان أخوه في السابعة من عمره عندما بدأ بلدوين الحكم في عام ١١٤٣ ، لما كان قد تجاوز أكثر من السادسة والعشرين من عمره على الاكثر بحلول شهر شباط من عام ١١٦٢ بدلا من السابعة والعشرين التي يحددها وليم له (الكتاب ١٩ ـ الفصل ١) في هذا الوقت ، والطريقة الوحيدة التي يمكن بوساطتها إزالة هذه التناقضات الشديدة هي قبول عام ١١٦٣ بدلا من عام ١١٦٢ لعام وفاة بلدوين .

(١٧٤) ـ من المحتمل أن هذه الفقرة جزء من اطار وليم المعد بسرعة في عام ١١٨٢ . وربما أعد قراره لادراج غودفري في قائمة الملوك فيما بعد ، وربما كان قد فكر بهذا الأمر بشكل جزئي حيث كان يؤرخ هذا للاستيلاء على القدس عام ١٠٩٩ ، بدلا من بداية المملكة عام ١١٠٠ ، واستلزم هذا اختلاف العام في التقويمين المعتمدين للتاريخ المسيحي ، إلا أن وليم عكس الارقام ، ويجب أن تقرأ إما ١١٦٣ وأربعة وستين عاما ، أو ١١٦٢ وثلاثة وستين عاما ومن الصعب التحقق من العام بالاشارة إلى المواضيع التاريخية لأن التعبير النعتي يسمح بفرق قدره عام واحد تقريبا في كل حالة .

(١٧٥) ـ تعتبر هاتين الروايتين للتاريخ محددتين ومتواءمتين وتشير كلاهما إلى أن عموري أصبح ملكا في عام ١١٦٣

(١٧٦) ـ غالبا ماجرى تجاوز المعاني المتضمنة لهذه الرواية ، وهي الدليل الأوضح على أن وليم نفسه كان يقرأ التاريخ لعموري وأن وليم كتب في الاصل ليقرأ تاريخه له .

(١٧٧) ـ يقدم هذا دليلا ممتازا لروح الحرية التي سادت في مملكة القدس الاقطاعية ، مع أن بعض التحسينات الحياتية كانت قد ادخلت في الشرق ، فإن الكبت الرسمي للحديث الحر الذي ساد في قصور الشرق لم يكن قد تبني بعد .

(١٧٨) ـ توحي هذه المقارنة المتكررة بين الاخوين أن وليم قد عرف بلدوين أيضا ، ولذلك فقد كان في البلاط حتى قبل أيام عموري والذي كان قد عرفه عن قرب وبشكل وثيق .

(١٧٩) ـ لاشك أن في هذا إشارات إلى فرض بعض الضرائب من أجل العملات مع أن وليم كان لايقر مثل هذه الممارسات إلا في الظروف الطارئة عندما تتعرض المملكة للمخاطر .

(١٨٠) ـ يفيد هذا بوجود اهتمامات ثقافية محددة في بلاط القدس .

(١٨١) ـ يذكرنا هذا الحوار بين الملك ومؤرخه بالحوار بين شارلمان والكوين مع أن موضوع الحوار يظهر وجود بعض الشك في الدوائر المدنية للقرن الثاني عشر .

(١٨٢) ـ ذكر روبرت أوف تورغني أن هذا الزواج قد وقع سنة ١١٥٧

(١٨٣) ـ لابد أن أغنس قد تمتعت بجاذبية غير اعتيادية ، فقد كانت قد خطبت إلى واحد من نبلاء المملكة عندما توجب على عموري الانفصال عنها .

(١٨٤) ـ كان جوسلين الاول قد تزوج من أخت روجر الذي تزوج بعد وفاتها من الاميرة الارمنية .

(١٨٥) ـ عين جوسلين الثالث قهرمانا للمملكة بعد فترة قصيرة من إطلاق سراحه في عام ١١٧٦ ، وشغل هذا المنصب حتى عام ١١٩٠ ، ومن المؤكد أن أخت أغنس كانت مسؤولة عن بدايته الجديدة في الحياة (انظر ح لامونت ، صعود وهبوط نبلاء الفرنجة في سورية في أيام الصليبيين ، المجلة التاريخية لجنوب شرق أوروبا : ١٥ (١٩٣٨)(٣٠١ ـ ٣٢٠) .

(١٨٦) — تبعا لفييت ، فإن هذا الوعد لدفع الجـزية ، كان نتيجـة لحملة بلدوين إلى العـريش في الجزء من عام ١١٦١ ، وقد اهمل وليم ذكر هذه الحملة (انظر غاسـتون فييت ، مصر مـن الفتـح العربي وحتى الفتح العثماني ٦٤٢ ، ١٥١٧ م ص ٢٩١) .
(١٨٧) — هنالك بعض الجدل حول تاريخ هذه الحملة . يضعها كل من روهـرخت وشـلمبيرغر في خريف عام ١١٦٣ بينما يصر كل من فييت وديرنبيرغ على ان عام ١١٦٢ هو التاريخ . ويعتبر فييت المسالة بانها محلولة بقصيدة تهنئة موجهة إلى رزيك الذي توقف عن شغل منصب وزير في ٢٨ أيلول عام ١١٦٢ (انظر فييت — مصر من الفتح العربي . ص ٢٩١) .
(١٨٨) — خلف شاور رزيك بالوزارة وقد حصل على المنصب بالقوة في أوائل عام ١١٦٣ . وقـام ضرغام بطرده في شهر آب عام ١١٦٣ (انظر فييت — مصر من الفتح العربي . ص ٢٩٢) .
(١٨٩) — كان شيركوه قد ظهر بشكل بارز في الاستيلاء على دمشـق وعلى الرغم مـن إنجـازاته الكبيرة كمحارب ، فهو يتذكر بشكل رئيسي كعم لصلاح الدين ، الذي تلقى تدريباته العسـكرية على يديه .
(١٩٠) — هنالك بعض الشكوك حول هذا العام ، ويشير دليل العقود الى شـهر اذار عام ١١٦٤ ، بانه التاريخ المحتمل (انظر — ر . روهرخت ملوك القدس — رقم ٣٨٥ و ٣٩٧) .
(١٩١) — حدثت وفاة ضرغام في معركة تحت أسوار القاهرة في شهر آب من عام ١١٦٤ (فييت — مصر من الفتح العربي : ٢٩٤) .
(١٩٢) — نفذت حملة عموري هذه خلال خريف عام ١١٦٤ (فييت — مصر من الفتح العـربي : ٢٩٤ — ٢٩٥) .
(١٩٣) — لابد وأن هزيمة نور الدين قد حدثت في أواخر عام ١١٦٣ (انظـر ف . لندغرين — وليم الصوري والفاوية :
٩٩ — ١٠٠) .
(١٩٤) — من الواضح أن عام ١١٦٥ تاريخ غلط ، وربما جاء نتيجة لعمل أحد النسـاخ ، ومـن الواضح أن وليم كان يعتزم ربط هذه الحوادث مع حملة عموري على مصر في عام ١١٦٤ .
(١٩٥) — هذه الرحلة الرابعة لثيري أوف فلاندرز إلى الاراضي المقدسة ، وكان قد عهـد بـرعاية المنطقة لابنه فيليب ، وتبعا لروبـرت أوف تـورغني الذي أشـار إلى رحيل ثيري في حـوادث عام ١١٦٤ ، إن سبيلا كانت قد بقيت في القدس مع ايفيتا راعية لراهبات دير القديس لازاروس في بيت حانه ، عندما عاد ثيري إلى الوطن في عام ١١٥٨ (انظـر ل . ديليسـلي — تـاريخ روبـسـرت دي تورغني — راعي رهبان القديس ميخائيل : ١ / ٣٢٥ — ٣٤٨) .
(١٩٦) — يوئيل : ٢ / ٣١ . أعمال الرسل : ٢ / ٢٠ .
(١٩٧) — لوقا ٢ . ١ .
(١٩٨) — متى : ١٦ / ١٣ — ١٩
(١٩٩) — أوحى وليم في مكان آخر بعام ١١٦٤ على أنه السنة الثانية لحكم عموري ، وعلى هـذا لابد من اعتبار ١١٦٧ كخطا صادر عن أحد النساخ . أو سقطة قلم مـن وليم بحـكم السرعة ، لأنه بلا شك يربط هذا بغياب عموري في مصر في عام ١١٤٦ . ويؤرخ و . ب . ستيفنسون (الصليبيون في الشرق ص ١٨٩) الاستيلاء على بانياس في ١٨ — تشرين أول ١١٦٤ .
(٢٠٠) — ربما حالت أخبار نشاطات نور الدين في غيابه بين عمـوري وبين متـابعة نجـاحاته في التوغل في مصر .
(٢٠١) — أطلق سراح بوهيموند الثالث في صـيف عام ١١٦٥ وذلك نتيجـة للنجـاح العسـكري لطوروس الأرمني ولقدرة عموري على الاقناع .
(٢٠٢) — كان نور الدين لايزال محتجزا عددا من الأمراء اللاتينيين الهامين بينهم أرناط وريموند

الثالث صاحب طرابلس ، وكان قد احتجز جوسلين الثاني اسيرا لمدة تسعة اعوام، ولم يطلق سراح أسرى كهؤلاء إلا تحت الضغط ، حيث ان تهديد غزو الامبراطور مانويل هو المثال اللافت للنظر ، وكان هذا مثال لغر ، ولم تغريه العروض المادية للفدية ، وربما كان وليم محقا في تـزرقه بخصوص سبب إطلاق نور الدين سراح بوهيموند ويقترح روهرخت سببا أكثر احتمالا في وجود تهديد لهجوم لغر من قبل مانويل (روهرخت - تاريخ ملوك القدس : ١١٠٠ - ١٢٩١ ص ٣١٩) .

(٢٠٣) - توفي وليم صاحب صقلية في ايار عام ١١٦٦ وخلفه ابنه وليم الثاني ، الذي لم يكن الا في الثالثة عشر من عمره (انظر . ف . شالدون - تاريخ الحكم النورماندي في ايطاليا وصقلية : ٢ ، ٣٠٣ - ٣٠٥) .

(٢٠٤) - التاريخ الذي أعطاه وليم لهذه المأساة هو العام الثالث لحكم عموري او في عام ١١٦٥ ، ولم يستطع لندغرين الذي وضعها في عام ١١٦٦ العثور على اي مستند لخبر حول شنق الداوية وناقش رواية وليم دون ان يكون قادرا على رفضها (وليم العموري والداوية ، ص ١٠١)

(٢٠٥) لدى بروتز تخمينات متنوعة بخصوص هذه المادة المفقودة (هـ . بروتز - . دراسات حول وليم الصوري ، الوثائق الحديثة : ٩٨ - ٩٩) وإذا كان الافتراض ان وليم ولم يتمكن من انهاء هذا العمل صحيحا ، وان القسم الذي لم ينته هو القسم المغطي للفترة الواقعة بين ١١٦٠ و ١١٦٦ ، فإن التفسير الاكثر معقولية هو ان وليم لم يكتبه ، فقد كان قد خطط الفصول للكتاب بأكمله بسرد للعناوين ، الا انه لم يكن قادرا في عجلته على اكماله . كما أن الطبيعة التخطيطية ذاتها للفصول السابقة لهذه تقدم دعما اضافيا للشرح . وربما يفسر تغيبه عن فلسطين خلال جزء من هذه الفترة ، كما هو مشار اعلاه ، غموض مادة الاعوام من ١١٦٠ وحتى ١١٦٣ ، بينما يشير الكمال والدقة النسبية للحوادث المسرودة في عام ١١٦٤ إلى انه كان قد عاد إلى الارض المقدسة انذاك ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإن سرعة اختتام عمله يمكن ان تفسر الاخبار القليلة عن عام ١١٦٥ ، ولا شيء تقريبا عن عام ١١٦٦ . ويؤكد هذه الامكانيات الاتمام المغاير لاخبار العام القادم الذي ربما بدأ عمله به كمؤرخ .

(٢٠٦) من الواضح تماما أن هذا الوصف للوضع في مصر أعد دون اعتبار للفصول السابقة ، وهذا سبب لغر للاستنتاج ان وليم بدأ تاريخه عن هذه المرحلة .

(٢٠٧) لابد أن التحضير لهذه الحملة ، بما في ذلك مؤتمر نابلس قد انتهى في خريف ١١٦٦ ، وبدأ الزحف من عسقلان في ٣٠ كانون ثاني ١١٦٧ .

(٢٠٨) عرف هذا المكان فيما بعد باسم الفرما .

(٢٠٩) كانت بابليون قلعة قوية زمن الفتوحات العربية . وكانت موقعا لمعركة ضارية وحصار طويل ، وتم الاستيلاء على القلعة في ٦ نيسان عام ٦٤١ ، وبنيت مدينة القاهرة فيما بعد الى الشمال من بابليون ، وربما استمد الغربيون من بابليون الاسم الذي اطلقوه على مصر التي يدعونها عموما باسم بابليون ، ووليم محق في رفضه تعريفها بانها ممفيس القديمة ، التي وضعها بدقة على مسافة نحو عشرة أميال فوق النيل .

(٢١٠) مصر هو الاسم الرسمي لهذه البلاد .

(٢١١) هذه اشارة واضحة الى ان وليم قد استخدم أكثر من مصدر عربي لتاريخه عن مصر ، كما ان استنتاجه بخصوص الفتح الفاطمي لمصر وتأسيس القاهرة منسجم مع أحسن الابحاث الحديثة ، وتغطي سنة ٣٥٨ للهجرة الفترة الممتدة من ٢٤ تشرين الثاني ٩٦٨ إلى ١٣ تشرين الثاني من عام ٩٦٩ م . وقد انجز بناء القاهرة في ٢٢ حزيران عام ٩٧٢ ، وتمركز الخليفة نفسه هناك في ١١ حزيران عام ٩٧٣ . (انظر فييت - مصر من الفتح العربي : ١٧٩ - ١٨٨) . ويعتبر

هذا المقطع هو الوحيد الذي يورد وليم فيه بصورة دقيقة التاريخ الاسلامي ، مع انه استخدم الحساب مرارا .

(٢١٢) تقع القيروان ، المتداخلة مع القاهرة هكذا بسهولة ، على مسافة قصيرة جنوب شرق مدينة تونس ، وكانت العاصمة السابقة لافريقية قبل الفاطميين .

(٢١٣) هذا المصطلح كلمة عربية مستعارة من الاسم اللاتيني للحصن (كاستروم) وقد كسبت منزلة جديدة في ان اصبحت متطابقة مع كلمة « قصر » .

(٢١٤) لايقدم سولينوس وصفا خاصا لطيور كثيرة في بحثه عن مصر مع انه اتى على ذكر الحيوانات ، وتشير رواية وليم الى اطلاع عام على الكتاب كله .

(٢١٥) كان هذا هو الخليفة العاضد الذي حكم من عام ١١٦٠ الى عام ١١٧١ ، وكان ابن عم - وليس ابنا - الخليفة السابق الفائز ، وكان في حوالي السادسة عشر او السابعة عشرة من عمره في هذا الوقت ، واستمد وليم هذا الوصف للقصر واحتفالاته مباشرة من هيو صاحب قيسارية ، ويوحي الاختلاف في العادات الموصوف في هذا الفصل ان اللاتينيين في الشرق لم يكونوا قد فقدوا حتى الآن جميع طرقهم الغربية .

(٢١٦) جاء هذا اللقب على نقش اكتشف تحت غطاء من الجص في المسجد الاقصى في القدس ، وينطبق هناك على المستنصر الخليفة الذي حكم من عام ١٠٣٥ وحتى عام ١٠٩٤ وربما قرأ وليم هذا النقش (انظر س . ا . س حسيني «نقش الخليفة المستنصر بالله ٤٥٨ هـ [١٠٦٥ م] دورية دائرة آثار فلسطين ٩ [١٩٤٢]- ٧٧ - ٨٠)

(٢١٧) كان علي ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته .

(٢١٨) القيمة الوحيدة لهذه المعلومات انها ابنة عصرها تشير الى عقلية وليم والى مستوى معارفه واهل عصره بالاسلام .

(٢١٩) تمتد سنة ٢٨٦ ها من ١٦ كانون ثاني الى ٦ كانون ثاني ٩٠٠ م ، وهناك خلافات شديدة بين الكتاب العرب حول صحة سلاسل نسب ابناء علي (انظر فيليب حتي - تاريخ العرب ص ٦١٨) .

(٢٢٠) يعتقد حتي ان وليم قد اخطأ في فهم معنى كلمة « المهدي » حين قراها « المهدي » اشتقاقا من كلمة عبرية التي عنت الجزية ، وفي هذا دليل على معرفة وليم بالعربية

(٢٢١)هناك خلافا حول ترجمة هذه الكلمة [انظر - حتي - تاريخ العرب ص ٦١٩ حاشية ٢] .

(٢٢٢) الغى صلاح الدين الخلافة الفاطمية في عام ١١٧١ فهذا ما سيرويه وليم فيما بعد ، غير ان رواية وليم واصراره انه كان ما يزال هنالك خليفة في القاهرة عندما كان يكتب ، تشير ان هذا المقطع تمت كتابته قبل ان يكون وليم قد علم بالتغيير وربما قبل عام ١١٧٥ ، وانه نقل هنا من كتابه اعمال حكام الشرق .

(٢٢٣) يعتبر هذا البيان الزمني ذا اهمية استثنائية، ومن الواضح ان مادة الفصلين السابقين استمدت من كتابه « تاريخ حكام الشرق » وليس واضحا فيما اذا كان نقلها كما كان في الاصل قد كتبها او اوجز قسما منها ، كما ان التعبير المشير للقارىء الى ذلك العمل الاخر ، هو اشارة انه كان قد اقتبس المادة السابقة مباشرة ، هذا وامتد عام ٥٧٧ هـ ، من ١٦ ايار عام ١١٨١ الى ٦ ايار عام ١١٨٢ ، ولذلك فان تطابقه مع العام المسيحي ١١٨٢ مقتصر على الاشهر الاربعة الاولى من ذلك العام وعلى هذا ، كان منشغلا في مراجعة هذا الكتاب خلال تلك الاشهر .

(٢٢٤) اوفيد ميتا ١ ٤٢٢

(٢٢٥) رفض وليم هنا كما فعل مرارا قبول روايات الكتب مهما كانت قديمة اذا ما تعارضت مع الحقائق المشاهدة

(٢٢٦) هذا النص مقتبس من الترجمة اللاتينية لكتاب تيموس تاليف كالسيدوس وفيه اخطاء في ترجمة اسم القانون .

(٢٢٧) استخدام الافيون من قبل الاطباء في القرن الثاني عشر خبر هام للتاريخ الطبي .
(٢٢٨) انشد هذا في الاحد الرابع الصوم منذ ١٨ اذار ١١٦٧ .
(٢٢٩) رواية وليم حول الاعداد تعارضها المصادر العربية مع حقيقة انسحاب شيركوه امام مطارديه ، والتور كبلي كانوا خيالة مرتزقة يجندون من قبل الصليبين من السكان المحليين وبعض الاغريق والارمن وسواهم .
(٢٣٠) لابد ان هذا المقطع قد كتب بعد وفاة عموري وبعد زمن من تعيين وليم كمستشار في أواخر عام ١١٧٤ .
(٢٣١) سولينوس بوليهستور ٣٢ ، ٤١ .
(٢٣٢) سولينوس ٣٢ ، ٤٣ .
(٢٣٣) بالقرب من موقع السويس الحديثة فقد امتد طريق التجارة القديم الى الغرب بشكل مباشر تقريبا لينفذ الى النيل بالقرب من القاهرة ، وكان هذا الطريق مهما جدا الى درجة ان قناة شقت في العصور القديمة ثم باشرها المسلمين الاوائل من جديد من النيل الى البحر الاحمر ، وشقت قناة لماء عذب كهذه من القاهرة الى السويس لآخر مرة في عام ١٨٦٩ .

(٢٣٤) يوحي تكرار هذه العبارة حول الفاروس (انظر فصل ٢٧) بهذه السرعة انه تمت كتابة هذين الفصلين في اوقات مختلفة ، وربما كان ورودها الابكر قد كتب على اساس بحثه الاول في شؤون الحملة المصرية لعام ١١٦٧ ، كما ان ورودها السابق هو جزء من المعلومات الاثرية التي كان وليم قد اضافها لصالح جمهور القراء الاكثر بعدا الذين كان يخاطبهم بعد عام ١١٨٠ .
(٢٣٥) بدات السنة الخامسة للملك عموري في شباط ١١٦٧ .
(٢٣٦) لابد وان هذه السفارة قد ارسلت الى القسطنطينية في عام ١١٦٥ ، وخبرها من احداث ذلك العام التي أهمل وليم ذكرها في وقتها ، ومن المفترض انها غادرت في خريف عام ١١٦٥ ، لان هيرنسيوس كان ما يزال موجودا في فلسطين فقد ورد ذكره في وثيقة تعود لأواخر الصيف او مطلع خريف ذلك العام . وكان بروتوسيباستوس واحدا من القاب الشرف التي ابدعها آل كومنين ، واطلق بالعادة على اقرباء الامبراطور ، ولم يكن هناك ما يعادله تماما في الغرب .
(٢٣٧) كانت ماريا ابنة يوحنا كومنين وقد ترأس مرافقتها جورج باليولوغوس ومانويل كومنين وهما من اعضاء الاسرة الامبراطورية (انظر شالدون ـ آل كومنين : ٢ ٥٣٦) .
(٢٣٨) من المهم ان نلاحظ ذكر وليم لنفوذ الملك في ترقيته لمنصب رئيس شمامسة من الاول من ايلول عام ١١٦٧ . وربما جاءت بسبب موافقة وليم على كتابة تاريخ حول اعمال الملك عموري .
(٢٣٩) كان الامبراطور قد صرفه كحاكم لكليكية لانه لم يكن كفؤا ولانه عنف وتوافح في غزله مع فيليبا أخت زوجة الامبراطور مانويل في انطاكية ، وقد وصلت عمليا الى حد الزواج الا ان الامبراطور الغاها ، ولذلك فقد كان حرا للانغماس في مغامرات إضافية في القدس . وتنتظر سيرته المحفوفة جدا بالمخاطر كاتب سيرة ليدونها ، وينظر الى مختصر اخباره بشكل غريب (انظر س . ديهل . شخصيات بيزنطية ـ السلسلة الثانية ، ص ٨٦ ـ ١٣٤) .
(٢٤٠) فرجيل . ان : ٢ ،٤٩ .
(٢٤١) يبدو ان حبه لثيودورا كان اصيلا وسلم اندورونيكوس نفسه عندما اسرت ثيودورا مع ولديهما ، من قبل الامبراطور مانويل .
(٢٤٢) انظر الكتاب ١١ ـ الفصل ١٢ .
(٢٤٣) كان ستيفن دو بيرش مستشارا لصقلية ورئيس اساقفة منتخب لبالرمو . ووصف ج . س . هلت في كتابه (وزارة ستيفن أوف بيرش خلال طفولة وليم الثاني صاحب صقلية ـ دراسات كلية سمث : ٣ [١٩١٨] ١٣٩ ـ ١٨٦) السيرة المحزنة لهذا الشاب النورماندي النبيل الاصل والمشاعر وسط المأزق السياسية المعقدة للمسائل الصقلية ، وحدثت ثورة القصر ، التي يشير وليم اليها في عام ١١٦٨ ، لذلك يجب تاريخ وصول ستيفن الى الارض

المقدسة في حوالي الجزء الاخير من الصيف (انظر ف . شالدون - تاريخ الحكم النورماندي لايطاليا وصقلية :٢ ٣٤٥) .

(٢٤٤) توفي وليم الرابع ، كونت نافار في عكا في عام ١١٦٨ . وجاء دخول روبرت أوف تورغني بشكل خاطىء في الحدث تحت عنوان عام ١١٧٠ (انظر ل . ديلسل - تاريخ روبرت تورغني راعي دير جبل القديس ميخائيل ٠ ٢ ٢٠)

(٢٤٥) من الممتع أن نلاحظ ان مبعوثي الامبراطور مانويل كانا من أصل ايطالي جنوبي ، فلقد كان هنالك الكثير من الغربيين في بلاط القسطنطينية في هذا الوقت ، ويبدو ان مانويل اعتمد عليهم في مسائل ذات اهمية كبيرة : ووهم شالدون في افتراضه انهما طالبا بجزء من مملكة في القدس فقد استخدم وليم مصطلح « مملكة » مشيرا الى مصر (انظر شالدون - ال كومينين : ٢ . ٥٣٦

(٢٤٦)يعتقد لندغرين اعتمادا على ابي شامة ان الداوية شاركوا بالفعل في اخر الامر بعد اعلانهم عن معارضتهم المغامرة ، وكان الداوية قلقين بشكل خاص لان مقدمتهم الاكبر غودفري فولتشر كان قد عقد معاهدة مع الخليفة في القاهرة في عام ١١٦٧ . هذا واعطى وليم فضلا رئيسا لهيو صاحب قيسارية (انظر لندغرين - وليم الصوري والداوية ، ص ١٠١ - ١٠٦) .

(٢٤٧) غادر عموري وجيشه عسقلان في . ٢٠ . تشرين الاول من عام ١١٦٨ (ر . روهرخت - سجلات حكام القدس : رقم ٤٥٣) . ولم يتمكن وليم ، الذي غادر او شريدا في الاول من تشرين الاول من الوصول الى فلسطين قبل رحيل عموري .

(٨دط) فرجيل ٠ ان . ١ ٩٥

(٢٤٩) يذكرنا اختيار وليم لكلماته هنا بتيرنس - فورميو ٤ وافلاطون باخوس ٥ . ١ . ١٦ .

(٢٥٠) لايعكس السرد المفصل لاخبار هذه الحملة مع التاكيد والالحاح على الاعمال الشنيعة التي ارتكبها المسيحيون ، والبواعث الدينية في مفاوضاتهم مع شاور والاعجاب التعاطفي لأساليب شاور ، لايعكس فقط اهتمام وليم النورمنجي بحرمة المعاهدات ، حتى عند عقدها مع الكفرة ، بل قلقه حول الخرق الحقيقي ، وإن يكن رسميا ، للمعاهدة التي كان قد وقعها بنفسه مع الاغريق .

(٢٥١) تبعا لما ذكره بهاء الدين ، كان صلاح الدين هو الذي نفذ هذه الاوامر باغتيال شاور ، ويقال إن الخليفة طالب براس شاور : وارسل لدى استلامه للراس ، خلع الوزارة الى شيركوه ، الذي قام بزيارته الرسمية للخليفة في اليوم التالي اي في ١٩ كانون الثاني من عام ١١٦٩ (انظر بهاء الدين - المحاسن اليوسفية ص ٥٥) .

(٢٥٢)مراثي ارميا ٤ ١ أيوب : ٣ ٣١ .

(٢٥٣) إن هذا التقدير لاهمية التجارة كالتقدير السابق للسياسة تقدير حديث بشكل غريب وتم ذكره مرارا انظر س . هاسكنز - نهضة القرن الثاني عشر ، ص ٢٧٠) وربما ادخل وليم هذه الافكار عندما كان ينقح كتابه في حوالي عام ١١٨٢ ، لان الظروف الموصوفة لم تسد الا فيما بعد .

(٢٥٤)حدثت وفاة شيركوه نتيجة لنهمه في ٢٣ اذار من عام ١١٦٩ وبعد اقل من شهرين من استلامه منصب وزير (بهاء الدين - المحاسن اليوسفية ، ص ٥٦) .

(٢٥٥ (كان نجم الدين ايوب واسرته من أصل كردي ، وليس من أصل تركي ، ولهذا السبب كانت اقرب الى الفرس ، وكان صلاح الدين نفسه يسمى يوسف . ويشار الى العائلة عموما باسم الاسرة الأيوبية .

(٢٥٦) لاتؤكد مصادر اخرى هذا وصف لوفاة الخليفة . ومن المحتمل ان وليم مزج دور صلاح الدين في ابادة شاور واسرته مع وفاة الخليفة ، ويبدو ان الخليفة العاضد قد توفي وفاة طبيعية في ١٣ ايلول عام ١١٧١ فلقد كانت الخلافة العباسية قد اعلنت في مصر حتى قبل وفاته ودون ان تسبب اي اضطراب . (انظر ليبت - مصر من الفتح العربي . ٢٠٢) وحدث التغيير بشكل هادىء جدا الى درجة ان الامر احتاج عدة سنوات حتى يسمع به وليم . لقد انتهت الخلافة الفاطمية مع الخليفة العاضد .

(٢٥٧) عاد الملك عموري في شهر كانون الثاني من عام ١١٦٩ . وقد اكمل العام السادس من

حكمه في شهر شباط اللاحق ، ولذلك توافق فصل الربيع اللاحق مع بداية العام السابع من حكمه ، ووصلت السفارة المشار اليها في هذا الفصل الى روما في شهر تموز ، ووصلت الى باريس في شهر ايلول من عام ١١٦٩ (انظر ر روهرخت ـ تاريخ ملوك القدس ١١٠٠ ـ ١٢٩١ ، ص ٢٤٤) .

(٢٥٨)كان هذا هو الكسيوس كونتوستيفانوس دوقا كبيرا (غراندوق) وهو اللقب الذي استخدمه وليم . وكان القائدان الاخران هما الاسكندر اوف غرافينا أو كونفيرسانا وكان واحدا من اعضاء سفارة مانويل في عام ١١٦٨ ، وثيودور ماروزوس وقد دعاه وليم هنا باسم متوروس ، وقد غادر الاسطول بعد معاينة من قبل مانويل ، المنطقة المجاورة القسطنطينية بعد فترة قصيرة من العاشر من تموز من عام ١١٦٩ (انظر شالدون ـ ال كومينين : ٢ / ٥٣٨) .

(٢٥٩) وليم مضطرب هنا ثانية في تطبيق صيغة لمعادلة التاريخ المسيحي مع تاريخ القدس اللاتينية وعبارة العام الملكي ، ويجب ان يكون التاريخ عام ١١٦٩ ، وهو العام السبعون للاستيلاء على المدينة ، والعام السابع من فترة حكم الملك عموري .

(٢٦٠) من الواضح أن هذه سقطة قلم والمقصود هو ١٦ ـ تشرين أول .

(٢٦١) اوكان ـ فارسال : ١ / ٢٨

(٢٦٢)اوفيد ميتا ٤ / ٥٧٥

(٢٦٣)لدى المؤرخين الاغريق الكثير ليقولوه حول هذه الحملة ، ومن غير الضروري أن نضيف ، انهم يضعون اللوم على اللاتينيين ، وفي الواقع فإن وليم يعطي تاييدا كبيرا للمؤرخين اليونانيين على الرغم من الاتهامات التي يكيلها ضد الاغريق ، ومن الواضح أن اللاتينيين كانوا منقسمين في الراي ، حيث كان الكثير غير قلقين ابدا حول اقتسام مصر مع الاغريق ، ولابد ان هذا كان القصد من السفارة بالبحث عن المساعدة في الغرب في عام ١١٦٩ ، مع انهم كانوا قد عقدوا حلفا لهذا الغرض مع مانويل ، ولابد ان هذا كان القصد من حملة عموري السريعة الى مصر في عام ١١٦٨ مع ان مبعوثه كان عائدا في تلك اللحظة ذاتها من بلاط مانويل مع المعاهدة الموقعة ، ويبدو ان هنالك الكثير لتاييد اعتراضات شالدون (شالدون ـ ال كومينين : ٢ / ٥٤٦) . وذكر شالدون ان اسم الزعيم التركي الذي تفاوض لعقد المعاهدة كان جاولي .

(٢٦٤) لايقدم وليم اي تفسير اضافي لصاعبه مع رئيس الاساقفة الذي كان تابعا له ، وسيكون من المعقول ان نخمن أن عموري كان قد اصر على تامين دخل وافر لوليم كرئيس شماسة وكمؤرخ رسمي بشكل يفوق الدخل العادي للمنصب ، وربما كانت هنالك اسباب اخرى ايضا وعلى اية حال ، وكان وليم متغيبا عن المملكة خلال معظم عام ١١٦٩ وتوجب عليه ان يحصل على معلوماته حول الحملة بعد عودته ، وبعد عودة الجيش بعد بعض الوقت من عيد الميلاد لعام ١١٦٩ ، وتؤكد عبارته انه انه كان قد فكر بفكرة كتابة تاريخ ، المعنى المتضمن انه توصل الى هذا القرار في عام ١١٦٧ ، وانه كان يجمع بعض المواد انذاك .

١)

(٢٦٥) حزيران ١١٧٠ ـ العام الثامن من حكم عموري .

(٢٦٦) تعكس حيوية هذا الوصف تجربة وليم الشخصية وتبين انه كان في صور عندما وقعت الزلازل .

(٢٦٧) كانون أول ١١٧٠ ـ العام الثامن من حكمه .

(٢٦٨) لم تكن مثل هذه العواطف والاهتمامات بالفلاحين وبقية الناس منتشرة في ادبيات البلاط للقرن الثاني عشر .

(٢٦٩) انظر الكتاب ١٧ ـ الفصل ١٢ .

(٢٧٠) يعتقد أنها البيرة الحديثة وهي على الطريق الرئيسي الى الشمال من القدس .

(٢٧١) يعني عددا كبيرا جدا ، ولا شك ان ذلك قد كان ، لكن ينبغي ألا يحمل حرفيا .

(٢٧٢) قتل توماس بيكت رئيس اساقفة كانتربري في ٢٥ كانون الأول من عام ١١٧٠ . وهنا

الوصف الموجز لحياته ووفاته صحيح فعليا ، وأعلن البابا الكسندر الثالث قداسته في بداية الصوم الكبير لعام ١١٧٣ على الارجح .

(٢٧٣) ينبغي أن يكون عام ١١٧١ هو العام التاسع لحكمه وليس السابع .

(٢٧٤) اوفيد ميتا ٢ ، ٦ ولربما تعكس هذه العبارة المفضلة لدى وليم اهتمامه بالصناعات الحرفية .

(٢٧٥) يذكر شالدون الذي تتبع رحلة عموري خطوة خطوة من السفينة الى القصر التي الصقها وليم بمراسم الاستقبال والستارة (شالدون ــ ال كومينين : ٢ ، ٥٤٧ ــ ٥٤٩)

(٢٧٦) ربما كانت هذه هي الحربة المقدسة التي كانت قد ظهرت اثناء هزيمة كربوقا في انطاكية عام ١٠٩٨ وكان ريموند صنجيل قد احتفظ بها واعطاها الى الامبراطور الكسيوس عندما زار ريموند القسطنطينية من جديد في عام ١١٠٠ .

(٢٧٧) كان فن التسلية والرعاية العامة قد تطور كثيرا في القسطنطينية انذاك اكثر منه في اي مكان اخر في اوروبا ولابد أن نضيف الى ذلك جاذبيتها بالنسبة للناس القادمين من الغرب .

(٢٧٨) كان هذا القصر في الجزء الشمالي الغربي من المدينة الذي كان الامبراطور يقيم عادة فيه .

(٢٧٩) ١٥ ــ حزيران ١١٧١ . والعبارة مستعارة من كتابات اوفيد .

(٢٨٠) كان مليح أو مليح هذا اخا لطوروس الثاني صاحب ارمينية (انظر الحاشية رقم ١ من العنوان رقم ٢٦) وربما كانت معاناة ستيفن او لخرين كانوا معاصرين بشكل مماثل من قبل قد دفع هنري الاسد لرفض عرض مرافقة عبر اراضيه (ابحاث وسيطة وتاريخية على شرف جيمس وستفول تومبسون ص ١٩٦) .

(٢٨١) هذا هو ستيفن اوف بلويس الثالث كما يستخلص من وصف وليم . وكان حفيدا للقائد في الحملة الصليبية الاولى وابن اخ للملك الانكليزي الذي كان يحمل ذلك الاسم .

(٢٨٢) ستيفن أوف سوان وهنري أوف برغندي . ومن الغريب ان لايذكر وليم زيارة هنري الاسد دوق ساكسوني ، الى القدس في عام ١١٧٢ ــ فقد توفي في مدينة صور كونراد اسقف لوبك وكان واحدا من حاشية هنري .

(٢٨٣) تعد سنة ١١٧٢ ــ السنة العاشرة من حكمه .

(٢٨٤) هذا مثال ممتاز ليس فقط عن موقف وليم القضائي عن عدالة القرون الوسطى ، التي اعترفت بوضوح بالجنون كجهة لمصلحة المدعى عليه . ومن المؤكد أن وليم كان يعرف الافراد المشتركين .

(٢٨٥)كان مالح او مليح متقلبا بطرق عديدة فقد اصبح عضوا في الكنيسة الغربية ومن الداوية ، ثم هرب فيما بعد الى بلاط نور الدين واصبح مخلصا جدا له . واستولى بمساعدته على مملكة ابن اخيه واساء معاملة الداوية ، ثم قتله جنوده في اخر الامر في عام ١١٧٥ (انظر فريدريك مكلر ، ارمينيا ، في تاريخ كمبردج للعصور الوسطى : ٤ ، ١١٧٠ ــ ١١٧١)

(٢٨٦) لايعرف سوى القليل عن توماس هنا زيادة على هذه العبارات التي اوردها وليم كانت والدته اختا لطوروس الثاني ومالح وكان والده نبيلا لا تينيا ، وقد استدعي ليعمل كوصي على روبان الثاني ابن طوروس الثاني وقد طرده مالح وخلع الوريث الحقيقي (انظر جوردانسون ، هنري الاسد ، ــ المصدر نفسه ص ١٩٦ ــ الحاشية ١٧٧) .

(٢٨٧) إن روايات وليم عن الحملات العديدة لصلاح الدين الى جنوب فلسطين ومنطقة الكرك ، متشابهة للغاية مما يثير شبهة وجود اضطراب لديه (انظر ستيفنسون ــ الصليبيون في الشرق ص ٢٠١ ــ ٢٠٣ . روهرخت ــ ملوك القدس ص ٣٥٦ ــ ٣٥٧) .

(٢٨٨) صموئيل الاول : ٢٥ ، ٢ .

(٢٨٩) تم اسره في حارم في عام ١١٦٤ . وستنتهي الثمانية اعوام من الاسر في ، ١٨ ، تشرين

الثاني عام ١١٧٢ ، مع ان السياق العام يبدو وكأنه يشير الى صيف عام ١١٧٣ على انه عام اطلاق سراحه .

(٢٩٠) قدم حتي وصفا موجزا لهذه الطائفة الاسلامية واعاد أصلها الى الخلافة الفاطمية، تلميح وليم الى الطاعة غير لاتباع شيخ الجبل انه كان مطلعا قصة مراسم الحشيش التي نقلها حتيمن وصف ماركوبولو، وربما رواها وليم في كتابه - أعمال حكام الشرق - لأن جاكودي فيتري الذي استخدم كتاب وليم يروي هذه القصة (حتي - تاريخ العرب ص ٤٤٦ - ٤٤٨) هنا ونشرت عدة ابحاث جديدة حول هذه الطائفة بعد حتي وتوصل الباحثون الى انها عرفت ببلاد الشام بناسم الحشيشة لسبب غير معروف ، إنما من المؤكد لا علاقة له بمادة الحشيش ، وهذا ولا يمكن الافتراض حول ماقاله وليم في كتابه الآخر ما دام لم يصلنا كما لا يصح تحميل روايته هذه اكثر مما تحتمل وتأويلها بعيدا عن الحقيقة .

(٢٩١) قتل الحشيشة القادة من المسلمين والمسيحيين ، وكان وليم قد اشار الى ريموند الثاني صاحب طرابلس كأحد ضحاياهم ، ويعزو ابن القلانسي اليهم عدة اغتيالات حدثت في دمشق ، وقد قاموا بمحاولة لقتل صلاح الدين ، الا ان تهديده بإبادة الطائفة انهت تلك المحاولات ، لاسيما بعد توسط والي حماه (انظر حتي - تاريخ العرب ص ٤٤٧) .

(٢٩٢) كان الامر مقبولا عموما أيام حتي في مطلع هذا القرن ان الاسم مشتق من « حشيش » ومعناه المتعاطون للحشيش وهو المادة المخدرة المستخرجة من القنب او الماريجوانا (حتي - تاريخ العرب ص ٤٤٦) . (ومن المفيد العودة الى كتاب الحشيشة او الدعوة الاسماعيلية الجديدة لبرنارد لويس . وقد ترجمته وطبع في بيروت ١٩٧٠) .

(٢٩٣) يسخر لندغرين - غير قادر على ذكر اي مصدر مخالف - من هذه القصة كمثال اخر على تحامل وليم ، ورغبته في اتهامهم بالجشع ، ودليله الوحيد هو مسألة ان هنري دوق ساكسوني وبافاريا قد قدم هبة مالية سخية الى الداوية في تلك الاونة (وليم الصوري والداوية ، ص ١١١ - ١١٤) .

(٢٩٤) اشعيا ، ٢ ٢٢

(٢٩٥) كان الداوية قد اصبحوا ، مثل الاسبتارية تحت الرعاية البابوية وبوساطة سلسلة من المراسيم وبشكل خاص مرسوم عام ١١٥٤ ، وذلك كنظام ديني ، وقد بات بامكانهم بالطبع التماس الحصانة الاكليركية ، كما حدث هنا ، للحصول على الحصانة من القضاء المدني ، وحقق هذا الالتماس ، الذي تجاهلته السلطات الاقطاعية لفترة طويلة ، نفوذا كبيرا خلال القرن الثاني عشر . هذا ومن الممتع أن نشير الى ان عموري لم يمنحه سوى احتراما جزئيا حتى في الارض المقدسة ، وكانت معاملة رجال الدين المجرمين احد المواضيع الرئيسة للشجار بين هنري الثاني وتوماس ابيكت في الفترة ذاتها تقريبا .

(٢٩٦) من المؤكد ان وليم حصل على هذا الوصف لنوايا عموري من الملك نفسه مباشرة ، واستاء وليم ، كونه رئيسا للاساقفة ، من استقلال الداوية عن السيطرة الكنسية المحلية وربما قدم موافقته القلبية لمناشدة كهذه .

(٢٩٧) حدثت وفاة نور الدين في ١٥ ايار من عام ١١٧٤ . وكان والده زنكي قد قتل في ١٤ ايلول من عام ١١٤٦ الأمر الذي يجعلنا نجد في تقدير وليم لطول حكمه زيادة ثلث عام .

(٢٩٨) يجب ان يكون ١١ تموز عام ١١٧٤ ، وهكذا فان وليم واهم بشأن العام الاول ايضا بالنسبة لفترة حكم عموري ، ومن المؤكد ان هذه النهاية هي جزء من الاطار الزمني الذي اقامه على الارجح في عام ١١٨٢ ، ومن سخرية القدر ان يعرض وليم بيانات خاطئة حول فترة حكم عموري اكثر مما فعله بشأن فترة اي حاكم اخر ، وبالطبع ان السبب الرئيسي لهذا الخطأ هو انه كان أجل العمل حول السنوات السابقة لحكم عموري ، اي قبل عام ١١٦٧ ، حتى كان قد انجز التاريخ الملكي التمهيدي . ولم تكن المهمة الاخيرة قد انجزت عندما توفي عموري ، ومن المقرر ان عام ١١٧٤ هو التاريخ المعروف لوفاة نور الدين ووصف وليم لنشاطات عموري جاء نتيجة لذلك ونادرا ما

يخطىء وليم في بياناته لتسلسل الأحداث المترابطة التالية (انظر ستيفنسون - الصليبيون ، ص ٢١٢) .

(٢٩٩) من الواضح ان هذا قد كتب قبل التمهيد الذي وصل فيه وليم الى قرار ادراج غودفري كملك وسمي بلدوين الرابع باسم الملك السابع .

(٣٠٠) الكتاب ١٩ - الفصل ٤ .

(٣٠١) لايمكن ان يكون هذا المطلب قد تم قبل نهاية عام ١١٦٩ ، لان وليم كان متغيبا في الغرب خلال معظم ذلك العام ولم يعد عموري من مصر حتى ٢٥ كانون الاول عام ١١٦٩ (انظر الكتاب ٢٠ الفصل ١٧) ولذلك باشر وليم تعليم بلدوين الصغير في عام ١١٧٠ عندما كان في التاسعة من عمره ، وواصل واجباته حتى توج بلدوين ملكا بعد مضي اربعة أعوام عندما كان الثالثة عشر من عمره تقريبا ، ويساعد هذا في تصحيح الوهم حول وفاة عموري في ، ١١٧٣ . .

(٣٠٢) تعكس هذه العبارة اثرا لابقراط أفورزم ٦ ٢

(٣٠٣) يمكن لوليم الحديث حول هذه المسالة بكل ثقة لانه نفسه كان احد المستشارين.

(٣٠٤) - حدد شالدون تاريخ هذا الهجوم على الاسكندرية في الفترة الممتدة ما بين ٢٨ تموز وحتى الأول من اب من عام ١١٧٤ . كانت هذه الحملة قد نتجت عن دعوة عموري الغرب للمساعدة ، واخفقت في تلقي الدعم من البر بسبب وفاة عموري (انظر شالدون - تاريخ الحكم النورماندي في ايطاليا وصقلية: ٢ ٣٩٦).

(٣٠٥) هذه الاقوال كثيرة في الفصل الخامس ، وهام هنا ماقاله وليم من أن طرابلس كانت دولة تابعة لملك القدس .

(٣٠٦) ٣٠ تشرين أول ١١٧٤ .

(٣٠٧) يبدو هذا القول وكانه يناقض القول السابق حول اسره ، والذي مثل فيه مقيدا بالسلاسل ومضيقا عليه ، وكان مؤرخو الفترة من المسلمين يعتبرون ريموند عموما رجلا صاحب ذكاء حاد جدا والقائد الاكثر كفاءة بين القادة المسيحيين في تلك الاونة .

(٣٠٨) اخر تواقيع رالف كمستشار - مما وصلنا - موجود في وثيقة تاريخها ١٨ نيسان عام ١١٧٤ (ر. روهرخت - سجلات حكام القدس - رقم ٥١٤) وتواقيع وليم الاول موجود في وثيقة تاريخها ١٣ كانون الاول عام ١١٧٤ (المصدر نفسه - رقم ٥١٨) وسبق لوليم ان ذكر (الكتاب ٢٠ - الفصلان : ٣٠ - ٣١) ان وفاة رالف كانت قد حدثت في شهر نيسان قبل حوالي الشهر من وفاة نور الدين .

(٣٠٩) من المحتمل ان هذا لم يكتب قبل سنة ١١٨٣ ، الجزء المتاخر منها .

(٣١٠) ايوب : ٢١ ١٤ .

(٣١١) يعكس هذا معرفة وليم بالكتاب الكلاسيكيين مثل جوفنال وربما مجاوزون اخرون ، كما ان الاتهام العام لاخلاق معاصريه قد يكون اكثر دقة والا يعامل باهمال اراء رجل دين .

(٣١٢) كانت تدريباتهم على استخدام السلاح اوسع شهرة من انضباطهم حسب المنطق العسكري المعتمد .

(٣١٣) اوبريزوم واحدا من المصطلحات اللاتينية المتاخرة التي استخدمها وليم .

(٣١٤ توضح اية عملية تحليل مقارن لاسباب التغيير في العلاقات بين الصليبيين واعدائهم المسلمين فيما بين الحملة الصليبية الاولى والثالثة ، يقوم مؤرخون معاصرون قدرة وليم غير الاعتيادية كمؤرخ .

(٣١٥) من كانون ثاني الى ايار ١١٧٥ .

(٣١٦) من الصعب القول في ، الشهر ، نفسه ، مع ان الامر مسوغا باللاتينية التي ترى النصف الاخير من الشهر من منطلق التقويم للشهر التالي ، ولم يذكر تاريخ انتخابه - حوالي ٣٠ ايار ، بالطريقة نفسها ، ومهما يكن من أمر أصبح وليم رئيسا لاساقفة صور في ٨ حزيران ١١٧٥ .

(٣١٧) يعتبر هذا التاريخ من اكثر تواريخ وليم دقة ويشير الى نيته العادية لبدء العام الملكي من يوم ارتقاء العرش ، وكانت السنة الثانية لحكم بلدوين قد بدات في هذا اليوم قبل اسبوعين ، ومن الواضح ان الاحداث عائدة لعام ١١٧٥ ، وفيها مزيد من التصحيحات .

(٣١٨) مختصر القوانين المدنية ٥٠ ١٥ ١ ٥

(٣١٩) من المفترض ان العام الملكي كان يعني ١٥ تموز عام ١١٧٥ ـ ١٤ تموز عام ١١٧٦ وهكذا من المحتمل ان اطلاق السراح حدث في عام ١١٧٦ كما حدث ترسيم الاسقفين المذكورين اثر ذلك مباشرة .

(٣٢٠) كانت هذه كارثة ميروكيفاليون المشهورة لعام ١١٧٦ (انظر ف . شالدون ـ ال كومينين ٢ ٥٠٧) .

(٣٢١) لم ينزل هذا اللقب بالفعل ابدا الى وليم دي السيف الطويل لانه توفي قبل والده ، الا ان مؤرخنا يطبقه بلا شك كلقب مجاملة ، ويؤرخ وصول وليم ذي السيف الطويل هنا بانه تشرين الاول عام ١١٧٦ .

(٣٢٢) يدفع تواضع الكاتب القارىء الى عدم الاهتمام بالرواية فقد كانت جنازة صهر الملك والخليفة المرتقب له حدثا له اهمية كبيرة وقد تراسه البطريرك بحكم كونه رئيسا الكنيسة وكان اختيار وليم للعمل بدلا عنه ، ربما لانه كان مسنا ومريضا في ذلك الوقت ، وقد حمل بعض الاحتمال للخلافة في حال وفاة البطريرك .

(٣٢٣)انظر الكتاب ٢٠ ـ الحاشية ٤ . ومثلت فيليبا إحدى المسائل العابرة والمبكرة من مشاكل اندرونيكوس .

(٣٢٤) مايزال تاريخ وليم ثابتا ، وتقابل مقولته ٢ ـ اب ١١٧٧ ، مصححا بذلك غلطه ١١٧٣ كسنة شهدت وفاة عموري واعتلاء بلدوين العرش .

(٣٢٥) قد يكون جديرا بالاهتمام ملاحظة ان المصطلحات المستخدمة هنا تذكرنا بالصيغ التي يستخدمها الاباطرة الرومان في اضفاء الصلاحيات على نوابهم وعمالهم ، ويظهر مشرعو القرن الثاني عشر انهم خلطوا صيغا من القانون والمختار منه . ومن الممكن ان وليم استمد منهما (انظر مجموعة القانون المدني ٢ ، ١٢ ، ١٠ ـ المختار منه ١ ، ١٩ ، ١ ، ٣، ٣ ، ٣؛ ١ ، ٠ر٥ ، ١٥ ، ١ ، ٧ ، ١) .

(٣٢٦) كانت هذه السفارة مؤلفة من اندرونيكوس انفيلوس ، ويوحنا دوكاس ، ورئيس النبلاء ، وجورج سينياتس والكونت الاسكندر دي غرافينا (انظر شالدون ـ ال كومينين : ٢ ، ٥٥١) وكانت هذه هي البعثة الدبلوماسية الثالثة للكونت الاسكندر الى القدس مما اتى على ذكره وليم وكان لدى عدد قليل من شخصيات القرن الثاني عشر خبرة دبلوماسية اكثر وهو نورماندي من جنوب ايطاليا ، وكان قد جرد من اراضيه في ثورة النبلاء ضد روجر الثاني ، وقد سافر جيئة وذهابا لبضعة سنوات بين بلاطي كونراد الثالث والقسطنطينية ساعيا لاسترداد اراضيه بمساعدة اي من الطرفين ، واستخدمه القصران كمبعوث ، واستقر في اخر الامر في القسطنطينية حيث عهد اليه مانويل بقيادة القوات النورمانية ، وارسله في مهمة الى المانيا وصقلية والى الاراضي المقدسة ايضا ، وقد ظهر اسمه وظل بارزا بشكل غير اعتيادي لفترة طويلة من الزمن اي من عام ١١٣٢ وحتى عام ١١٧٧ على الاقل (انظر شالدون ـ ال كومينين : ٢ ، ٥٥١) .

(٣٢٧) من المحتمل ان المعاهدة التي يشير وليم اليها هي تلك التي عقدها عموري اثناء زيارته لمانويل في عام ١١٧١ وكانت احداث متنوعة قد تدخلت لتاجيل تنفيذ المعاهدة (انظر كتاب ٢٠ فصلا ٢٢ و ٢٣)

(٣٢٨) لقد وصفت هذه المفاوضات بشكل مطول بعض الشيء، ولا شك أن ذلك كان بحكم عمل وليم انذاك كمستشار رئيسي للملك فكان مسؤولا مباشرة عن المفاوضات مع فيليب ، وبما أن وليم كان خائفا من نوايا فيليب في تكثيب البلاط اللاتيني في نظر الحكام الغربيين ، فهو لا يسرد فقط اخبار

المفاوضات بالتفصيل هنا ، بل يبدو ايضا بانه بحث برسائل حول الموضوع نفسه . وهكذا فان كلا من روبرت أوف تورغيني ، ووليم أوف تيوبيرغ ـ اللذين لم يحدث أي منهما فترة كافية ليتمكن من قراءة كتاب وليم ـ قدم وصفا موجزا الى حد ما لهذه الاحداث كما رواها وليم .

(٢٢٩) لم يوفر وليم وهنا صديقه ريموند صاحب طرابلس من حمل حصته من اللوم على اخفاق المفاوضات .

(٢٣٠) بطرس الأول : ٥ ، ٥ .

(٢٣١) ١ ـ تشرين أول ١١٧٧ .

(٢٣٢) جاولي (انظر الكتاب ٢٠ ـ الحاشية ٢٨) ويدعوه بهاء الدين (المحاسن اليوسفية ص ٨٩) المملوك .

(٢٣٣) تراثي ٢٠ ، ١ . وتصرف وليم وفي اماكن اخرى بالنصوص حتى توائم مقاصده .

(٢٣٤) المزامير ٧٩ ، ١٠ .

(٢٣٥) المزامير : ٧٠ ، ط .

(٢٣٦) المزامير ٧٦ ، ٨ .

(٢٣٧) المزامير : ٩٣ ، ١٩ .

(٢٣٨) ربما نقلا عن فرجيل . انا : ٩ . ٧١٧ .

(٢٣٩) المزامير ٢٣ ، ٢٢ .

(٢٤٠)من المحتمل ان يكون وليم قد رافق الملك في هذه الحملة ، لان استخدام لغة الشخص الاول هنا ودقة التفاصيل ، وكمال وصفه يشير الى هذه الحقيقة .

(٢٤١) ينقل روهرخت عن نولد كه تعريف الطواسين بانها اسم أطلق على قوات كان لها اهمية دينية . وقرا ـ غلام بانها تعني حرفياء عبيد سود ، او مماليك (انظر ر . روهرخت تاريخ مملكة القدس ١١٠٠ ـ ١٢٩١ ص ٣٧٧ ـ الحاشية ١)

(٢٤٢) هذا هو الوصف المعتاد للماليك .

(٢٤٣) ينبغي القول ، السنة الرابعة ، ومرد هذا إما ان وليم استخدم هنا السنة التقويمية ، او سقطة قلم ، وهذا هو المرجح ، والتاريخ هو ٢٥ ـ تشرين ثاني ١١٧٧ .

(٢٤٤) اشعيا ٩ ، ٢

(٢٤٥) يوئيل ١ ، ٤

(٢٤٦) التثنية ٣٢ ، ٢٧

(٢٤٧) اشعيا ٤٢ ، ٨

(٢٤٨) التثنية : ٣٢ / ٣٠

(٢٤٩) جيمس : ١ / ١٧

(٢٥٠) الخروج ١٥ / ١٢

(٢٥١) الخروج ١٥ / ٧

(٢٥٢) بيرسيوس سات ٥ / ٦

(٢٥٣) وصل الى بلاده في خريف ١١٧٨ .

(٢٥٤) المزامير : ٥١ ، ١٨

(٢٥٥) هذه العبارة مرة ثانية هي مصطلح يعني سنة ملكية بدأت من يوم اعتلاء العرش .

(٢٥٦) تعتبر هذه القائمة ذات اهمية ليس فقط في انها تضع وليم على راس الوفد ، بل ايضا بسبب حذف اسماء العديد من رجال الدين وبشكل ملحوظ اسم البطريرك امالرخ ورئيس اساقفة الناصرة حيث كانا مسنين تقدما في العمر وضعيفين يصعب عليهما القيام بالرحلة ، وقد ذهب بطرس ، رئيس شمامسة القبر المقدس كممثل شخصي للبطريرك ، مع أن وليم لايذكر هذه الحقيقة (انظر ج . د مانسي مجموعة وثائق المجامع المقدسة الجديدة ج : ٢٢)

(٢٥٧) تشرين أول ١١٧٨ .

٣٥٨ • التكوين ، ٣٢ - ١٠

(٣٥٩) ٢١ - اذار ١١٧٩

(٣٦٠) كان الاسكندر الثالث قد انتخب بابا في اواخر عام ١١٥٩ وانعقد مجمع اللاتيران الثالث ، الذي دعا الى عقده ، بشكل رسمي في ٥ اذار عام ١١٧٩ مع ان رجال الدين كانوا - مثل وفد القدس - متجمعين في روما منذ فترة من الزمن في حين وصل عدد قليل بعدما انعقد المجلس ، وكان اكبر واهم اجتماع للكنيسة عقد في الغرب لعدة قرون .

(٣٦١) كان تاريخ كتابة هذا بعد ٨ حزيران ١١٨١ ، وكانت مكتبة موضع تفاخر ، ولم يصلنا فهرس بمحتواها ، لكن من المنطقي الافتراض انها حوت جميع الكتب التي اشار اليها مرارا .

(٣٦٢) ان قوله هنا وهو مخطىء : الشهر ، نفسه ، اكثر تسويغا ، حيث ارخ الحدث السابق بمصطلحات الاول من شهر ايار . وكان همفري اوف تيرون الذي كان بلدوين الثالث قد عينه كافلا للمملكة ، في عام ١١٥١ ، كان مصدرا للقوة لثلاثة ملوك متتابعين . لم يكن مقاتلا شجاعا فحسب ، بل كان قائدا عسكريا حكيما ايضا وحدثت وفاته في ٢٧ ايار عام ١١٧٩ .

(٣٦٣) تاريخ هذه المعركة هو ١٠ حزيران عام ١١٧٩ (انظر ستيفنسون ص ٢٢١)

(٣٦٤) ايوب ٢٧ ، ٣

(٣٦٥) تم الاستيلاء على القلعة بهجوم عاصف في الثلاثين من اب عام ١١٧٩ .

(٣٦٦) المزامير : ٣٦ ، ٦ ، ٦٦ ، ٣ .

(٣٦٧) حبقوق ، ١٢ ، ٦

(٣٦٨) ملاخي ٣ ، ٦

(٣٦٩) ستاتيوس ثيب : ١٠ ، ٧٠٤ .

(٣٧٠) يجب ان نلاحظ هنا ان وليم لا يعبر عن اية دهشة ازاء حقيقة ان الهدنة التي عقدها الملك لا تنطبق على طرابلس مع ان ريموند صاحب طرابلس كان قد اكد مطالبه بالوصاية بحكم كونه التابع الاكثر اهمية للمملكة (انظر الكتاب ٢١ - الفصل ٣)

(٣٧١) على هذا حصل وليم على الاذن بالمغادرة في ٢٣ نيسان ١١٨٠ ، وبذلك يمكن التخمين انه وصل الى القسطنطينية في اواخر ايلول او اوائل تشرين اول ١١٧٩ .

(٣٧٢) اطلق اسم الكسيوس عليه تيمنا باسم امبراطور فترة الحملة الصليبية الأولى ، وقد كان ابنا لماريا الانطاكية ، الزوجة الثانية لمانويل .

(٣٧٣) كانت هذه بيرثا اوف سولزباخ ، وقد غير اسمها الى ايرين ، ولم تلد اي ولد ، الامر الذي ادى الى بعض النفور من جانب مانويل الذي كان يخشى من ان الزواج كان واقعا تحت لعنة ، وقد اوقفت معظم وقتها خلال اعوامها الاخيرة على الاعمال الورعة (انظر س . ديهل - شخصيات بيزنطية - السلطة الثانية ، ص ١٧٠ - ١٩١)

(٣٧٤) كان لويس السابع قد اصبح ملكا اثر وفاة والده في عام ١١٣٧ ولذلك فقد حكم اكثر من اربعين عاما وليس اكثر من ، خمسين ، عاما عندما توفي في عام ١١٨٠ .

(٣٧٥) هذا سرد هادىء بشكل استثنائي وربما مرده للحقيقة التي شكلت خيبة الامل الكبرى في حياة وليم ان الدليل الوحيد للشعور هو الدليل السلبي الذي يخفق في وصف خصمه الناجح في اية طريقة ، يصف ارنول هذا الانتخاب وصفا طويلا ، وتبعا لارنول كان وليم موضع اختياره رجال الدين ، الا انه كان من المعتاد بالنسبة لرجال الدين ان يقدموا اسمين الى الملك لاختياره النهائي ، وبدلت اغنس كل نفوذها القوي لمصلحة هرقل المرشح الاخر المعين ، وفعلت ما ارادته (انظر ل . دي ماس لاتري - تاريخ ارنول وبرنارد الخازن ص ٨٢ - ٨٦) .

(٣٧٦) كانت ايزابيل ابنة عموري من زواجه الثاني من الاميرة الاغريقية ماريا ، ولذلك فقد كانت اختا غير شقيقة لبلدوين الرابع .وشكلت زواجاتها المكثرة جوهر السياسة لمملكة القدس الاخيرة (انظر ج . ل . لامونت الملكية الاقطاعية في المملكة اللاتينية في القدس ١١٠٠ - ١٢٩١ ص ٤٧) .

(٣٧٧) كان فيليب صاحب نابلس ، سيد الداوية قد ورد ذكره مرارا في هذه الصفحات . وبالنسبة لنسب همفري أوف تيرون ـ انظر لامونت ـ الملكية الاقطاعية ص ٣٥ .

(٣٧٨) لم تحفظ هذه الوثيقة . ومن المفترض انها اعدت في شهر ايلول من عام ١١٨٠ وتقدم دليلا واضحا على ان وليم كان مايزال ينفذ الواجبات الرسمية للمستشار مع ان مجموعة معادية له كانت تسيطر على البلاط .

(٣٧٩) حدثت وفاة مانويل في ٢٤ ايلول عام ١١٨٠ ودفع ولع وليم بالارقام الكاملة الى تخصيص ثلاث سنوات اضافية لفترة حكم مانويل . وربما نتجت هذه الخطيئة من اخفاقه في اثبات عام وفاة يوحنا التي كانت قد حدثت في عام ١١٤٣ . (انظر ف . شالدون ـ آل كومينين : ٢ ، ٦٠٦) .

(٣٨٠) كان الاعتقاد بالسحر والشعوذة والكهانة واسع الانتشار في الشرق والغرب ايضـــا وطلب من الامبراطور مانويل وهو على فراش موته أن يوقع وثيقة رسمية لطرد منجميه ولتحـــريم التنجيم على انه مخالف لتعاليم الكنيسة .

(٣٨١) الفصل الرابـع ـ وكان لوغثتـي وكاناكلينوس مـــن الموظفين الادنى مـــكانة في الادارة الامبراطورية . وكانت اعمالها مرتبطة بالادارة مع شيء من الاهتمام بالانفاق الامبراطوري .

٣٨٢) لم تكن هذه الثورة المخفقة سوى مؤشرا على الاضطرابات الاكثر خطرا التي ستظهر على الفور . (انظر الفصول : ١٠ ـ ١٣)

(٣٨٣) الامثال : ١٨ ، ٣ .

(٣٨٤) المزامير : ٥٨ ، ٥

(٣٨٥) متى : ١٢ ، ٢٥

(٦٨٦) هوراس : ٢ ، ١ ، ١٩٩

(٣٨٧) اوفيد : لنا١ ، ٦ ، ٤٢ . وهير ٢: ، ٢٥ .

(٣٨٨) المزامير : ١٤٧ ، ١٦ .

(٣٨٩) يقدم طردهم امتحانا هاما حول القوة الاقطاعية .

(٣٩٠) روبن الثالث ١١٧٥ ـ ١١٨٥ .

(٣٩١) توفي الاسكند الثاني في ٣٠ ـ آب ١١٨١ .

(٣٩٢) هنالك بعض التشوش في عبارة العلاقات هذه ، فمن المحتمل ان عز الدين يمثـل عز الدين الذي كان ابنا لقطب الدين أخو نور الدين وربما قصد من قـطب الدين ، ممـا يعني ان وليم عكس العلاقة للاب والابن . وكان عز الدين هو الذي اســتولى بـالفعل على حلب كميراث له في تلك الاونة وتبادلها بعد فترة قصيرة مع اخيه عماد الدين (انظر بهاء الدين ، المحـاسن اليوسـفية ص ٨٠ ـ ٨١) ومن المؤكد ان وليم تلقى معلومات متروكة شفوية .

(٣٩٣) استمر اتحاد الموارنة مع اللاتينيين حتى اليوم الحالي . انظر مقالة كتبهـا م . ســيبنكا ، اثر الحملات الصليبية على المسيحية الشرقية ، حقائق في اطر التاريخ المسيحي .

(٣٩٤) كانت زيارته الاخيرة ايام فصح ١١٨٠ (انظر الفصل الاول) .

(٣٩٥) هذا هو انفجار وليم الاول المباشر ضد هذا الزوج ، اللذين كانا على الارجح مسؤولين عن فقدانه للبطريركية ، ان تعبيرا كهذا بعاطفة طليقة غريب لدى مؤرخنا ويدل على انه كتبه إما في عام ١١٨٤ بعد وفاة اغنس ، التي يؤرخها لامونت في اواخر عام ١١١ و مطلع عام ١١٨٤ (انظر ج ل . ، قيام وانحطاط النبلاء الفرنجة في سورية في ايام الحـروب الصـليبية ، دورية تـاريخ جنوب شرقي أوروبا : ١٥[١٩٣٨] ٣١٣ .

(٣٩٦): متى ١٢ ، ٢٥ .

(٣٩٧) ربما تمت المصالحة في وقت مبكر قد يكون ٢٧ نيســان عام ١١٨٢ . ومـا يزال بـاقيا في القدس وثيقة هامة جدا من ذلك التاريخ قدم فيها بلدوين الرابع هبة لبعض المشور في تيرون الى وليم رئيس اساقفة مدينة صور . وشهد على الوثيقة ريموند صاحب طرابلس بالاضافة الى نبلاء عظماء آخرين ، وختمها وليم بنفسه كمستشار . وتتضمن هذه الصفقة ، التي تعـد بمثـابة امتياز سـخي

لوليم . قد - يعني - ليس فقط ان المودة قد اعيد تاسيسها بين ريموند والملك ، بل ايضا ان وليم كان عاملا هاما في ذلك الحل البهيج . (روهرخت - سجلات رقم ٦١٥) .

(٣٩٨) المزامير : ٧ / ١٤

(٣٩٩) متى : ١٦ / ١٨

(٤٠٠) جاء هذا التحليل لمشاعر الاغريق نتيجة لمعرفة وليم وخبرته بالاحوال كما ان ادراكه لاهمية الاختلافات الدينية كعامل في الثورة له اهمية خاصة ، وهذا مؤكد من المصادر الاغريقية (انظر فازلييف - تاريخ الامبراطورية البيزنطية : ٢ / ٧٧)

(٤٠١) قبل المؤرخون الاغريق عموما هذا الاتهام بوجود علاقات محرمة مع الامبراطورة التي كانت الآن الوصية المسماة (انظر ديهل - شخصيات بيزنطية السلطة الثانية ص ١٩٥) .

(٤٠٢) انظر الكتاب ٢٠ - الحاشية ٤ .

(٤٠٣) يؤكد هذا التشويه للكاردينال الروماني اهمية العنصر الديني في كراهية الاغريق اللاتينيين ، ولم تكن الاهمية السياسية او الاقتصادية اللاتينيين بل بالاحرى نجاح اللاتينيين في كسب موافقة مانويل على اتحاد ممكن للكنيستين اللاتينية والاغريقية تحت رئاسة رومانية هي التي اعطت الثورة هذه الحدة والتعصب ، وجمعت اجزاء جثة الكاردينال فيما بعد ومنحت دفنا لائقا (انظر إ . جيبون انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية - ط . ج . ب . بري : ٦ / ٣٧٣) .

(٤٠٤) لقد اهمل اثر هذه المجازر على دول المدن التجارية الايطالية وخاصة على البندقية ، التي كابدت الاسوا ، وكانت الحملة الرابعة قد مثلت مرارا بانه مشروع اعمال صرف لسكان البندقية ، ولم يوافق على هذا الرأي الابناء والبنات والاقارب البعيدون لسكان البندقية الذين فقدوا ارواحهم في مجزرة عام ١١٧٢ هذه ومن المفيد ان نعرف ان بعض اللاتين لم يوافقوا على قساوة الانتقام حتى وان كان للاخذ بالثار . هذا ومن المؤكد ان وليم قد حصل على معلوماته من هؤلاء اللاجئين .

(٤٠٥) تخلص منهم قبل نهاية عام ١١٨٢ ، وبعدما خنق في بادىء الامر ماريا الانطاكية وبعدما خنق ابنها الكسيوس بشكل مشابه في العام نفسه ، وتزوج في هذا الوقت ايضا وبشكل رسمي من الامبراطورة الفرنسية الشابة اغنس التي كانت انذاك في حوالي الثانية عشر من عمرها (فازلييف - تاريخ الامبراطورية البيزنطية : ٢ / ٧٦) .

(٤٠٦) تقاعس وليم في ذكر الاتهام الذي قدمه الكتاب المسلمون ضد ارناط على انه أول من خرق الهدنة ذكر هذا فيما بعد في آخر هذا الفصل وقد اتهم كل فريق بخرق الهدنة (انظر ستيفنسون ٢٢٤ - ٢٢٥) .

٤٠٧) كان صلاح الدين كردي الاصل .

(٤٠٨) طمست مقدرة الصليبيين اللاتينيين وجيرانهم العرب على العيش بامان مع بعضهم بعضا في ثنايا روايات اخبار الحرب. ومع ذلك فهنا مثال واضح لتعاون كهذا الذي كان مستمرا منذ سنوات .

(٤٠٩) القصد من هذا النص اثبات ان وليم لم يكن سوريا مع انه ولد في فلسطين .

(٤١٠) لم يشعر وليم انه يملك ما يكفي من المعلومات او الاهتمامات بالامور العسكرية حتى يتولى نقد الاستراتيجيات والتطبيقات .

(٤١١) متى : ٢٦ ، ٥٣ ويعكس هذا المقطع اراء وليم الخاصة حول العلاقة الصحيحة بين رجال الكنيسة والمحاربين وحدثت هذه الاحداث في شهر تموز من عام ١١٨٢ . (ستيفنسون : ٢٢٨ - ٢٢٩)

(٤١٢) انظر ص ١٠٢٤ الحاشية .

(٤١٣) امتدت هذه الحملة الى شمال شرق سورية من شهر ايلول من عام ١١٨٢ حتى شهر آب من عام ١١٨٣ . ويتذكر وليم هنا موقف اللاتين في عام ١١٨٢ قبل ان تصبح نتيجة الحملة معروفة (انظر ستيفنسون : ٢٢٩ - ٢٣٠) .

(٤١٤) سقط ذكر اليوم والشهر من النص .

(٤١٥) استمرت صداقة بلدوين الرابع مع وليم على الرغم من العداء الذي يكنه له فريق البلاط . ولابد ان قرار وليم بوقف الكتابة قد تم قبل هذا ، في ٢٥ كانون الاول عام ١١٨٢ .

(٤١٦) شباط ١١٨٣ .

(٤١٧) اصبحت هذه الضريبة ، التي فرضت لتلبية مساعدات طارئة كبيرة ، نموذجا لفرض الضرائب في الغرب ، ومن المهم ان نلاحظ ان موافقة الناس والنبلاء المدنيين والكنسيين ، مفصلة في افتتاح الوثيقة الخطة الاكثر نظاما وشمولية لفرض الضرائب التي استنبطت حتى الآن بوساطة السلطات الاقطاعية . وقد اثرت على كل من هنري الثاني وفيليب الثاني كنموذج . للعشر الذي كان يجمعه صلاح الدين وضريبة أخرى ومن المحتمل جدا أن وليم نفسه أعد مسودة هذه الوثيقة .

(٤١٨) ذكر بهاء الدين ان حصار صلاح الدين لمدينة حلب قد تم في الفترة الممتدة من ٢١ ايار وحتى ١١ حزيران من عام ١١٨٣ ، وان الاستسلام جرى في اليوم الاخير هنا [المحاسن اليوسفية : ٨٩] .

(٤١٩) وصف وليم هنا طرائق سياسة الحزب في المملكة في ذلك الحين ، وجرى تحديد ان اغنس دي كورتني ، والدة الملك ، والبطريرك كانا زعيمين للحزب ، ولم يكن حزب وليم هو المشار اليه باعتماده على شائعة او رواية .

(٤٢٠)هذا من الاقوال المفضلة لدى وليم وكذلك الحال لدى مدارس القانون في الغرب ، ويحدود صداها الى تيرنس لكنها لم تستخدم كثيرا وقليل من الافراد من عرف اصلها .

(٤٢١) مقتبس من لوقا ١٤ / ٢٨ ـ ٣٠ .

(٤٢٢)هنالك حذف في النص عند هذه النقطة ، وجرى اقتراح المعنى المحتمل داخل حاصرتين ، ولابد من الاشارة الى ان وليم ينتقد هنا اصدقاءه ، ومن الواضح انه يعتبر احتياجات الدولة بانها تفوق مصالح الحزب حتى وإن كان حزبه .

(٤٢٣) ينتقد وليم هنا استراتيجية الجيش ، وينتقد في هذه المرة استراتيجية ارناط الذي كان القائد الحقيقي في انتصار بلدوين الرابع على صلاح الدين في عام ١١٧٧ ، وربما عكس هذا رايا لانه من المؤكد أن معلومات وليم أتت من نبلاء كانوا معارضين لارناط بقدر ما كانوا معادين لكي .

(٤٢٤) لابد ان آمال وليم ورغباته قد جعلته يرى اختيار ريموند صاحب طرابلس بالاجماع فعليا ، ولعل خصوم ريموند الرئيسين لم يكونوا في الاجتماع .

(٤٢٥) تاريخ مغادرته هو ١٢ ـ ايلول ١١٨٣ (انظر روهرخت ـ تاريخ ملوك القدس : ٤٠٩)

(٤٢٦) من المحتمل ان الحالة الذهنية التي كشفتها هذه الملاحظات الافتتاحية كانت مستحوذة عليه في عام ١١٨٢ ، عندما كانت النجاحات المتكررة لصلاح الدين والتي تتوجت بالصفعة الموجهة للفرنجة برحيله الى الشمال دون ان يابه بعقد هدنة ، ولا بد انها كانت مثبطة للغاية ، وكان فريق البلاط المعادي مايزال مسيطرا ومن المؤكد ان وليم لام عجزه وعدم كفاءته وحمله مسؤولية نجاحات صلاح الدين ، ومن المحتمل ان حقيقة انه كان يدون بداية سلسلة الاخطاء الفادحة هذه ـ اي زواج سيبيلا وغي ـ قد ابرزت مشاعره في هذه الاونة ، (واواخر عام ١١٨٢) .

(٤٢٧) اشارة الى فرجيل : ٧ / ٢٢ ، (ايكل)

(٤٢٨) ايضا اشارة الى فرجيل : ٣ / ٩٠ ، (ايكل) .

(٤٢٩ ارميا : ١٨ / ١٨

(٤٣٠) هوشع : ٤/ ٩ وهذا من الاقوال المحببة اليه .

(٤٣١) اشعيا : ١ / ٥ ـ ٦ .

(٤٣٢) اللاويين ـ التوطئة .

(٤٣٣) قد يفيد هذا معرفته بكتاب لخر ليوسفيوس وذلك بالاضافة للتاريخ القديم الذي غالبا ما نقل عنه .

(٤٣٤) وردت هذه العبارة هنا وفي التمهيد ، وتوحي انهما كتبا ربما في الوقت ذاته .

(٤٣٥) من المؤكد ان شعاع الامل بالمستقبل هو نتيجة نقل الوصاية من كي لوزنفنان الى ريموند صاحب طرابلس .

(٤٣٦) لابد ان هذه الاحداث قد جرت في مطلع عام ١١٨٤ . وكان دليل سخط الملك واضحا بشكل كاف في اجتماع ٢٥ تشرين الثاني عام ١١٨٣ . ومن المحتمل ان الحملة لنجدة الكرك قد صرفت اهتمام الملك لمدة شهر تقريبا . ولم يكن بامكانه ان يستأنف عداءه نحو غي قبل نهاية شهر كانون الاول . واستمرت بعد ذلك سلسلة الاحداث المسرودة هنا بالتعاقب في تواتر مستمر حتى عكا .

(٤٣٧) من الواضح ان وليم متعاطف مع مسلك هرقل هذا احد الامثلة القليلة الذي يشير فيه بوضوح الى موقفه نحو منافسة الناجح بالفوز بالبطريركية .

(٤٣٨) اخبر ابن جبير عندما زار عكا في ايلول ١١٨٤ بان الملك ـ ودعاه ملك عكا ـ محجوب عن النظر ، لانه مصاب بالجذام ، واضاف ان صاحب طرابلس وطبرية كان ابرز شخصيات الفرنجة واقواهم واوضح انه جدير بالعرش لانه كان حاد الذكاء والبراعة (روهرخت ـ الوثائق ، ٣ / ٤٥١ ـ ٤٥٥) .

المصـــــادر

Anderson, Romola, and R.C. Anderson. The Sailing Ship. London, 1926.
Archer, T.A. «On the Accession Dates of the Early Kings of Jerusalem», *English Historical Review*, IV (1889), 89 - 105.
Auber, C.A., Abbé. Histoire générale civile, religieuse, et littéraire du Poitou. 9 vols. Fontenay-le-Comte, 1885 - 1893.
Baldwin, M.W. Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem (1140 - 1187). Princeton, 1936.
Beaumont, A.A., Jr. «Albert of Aachen and the County of Edessa», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C.Munro, pp. 101 - 38. New York, 1928.
Beazley, C.R. The Dawn of Modern Geography. 3 vols. London, 1897 - 1906.
Beha ed-Din. The Life of Saladin (1137 - 1193 A.D.). Trans. by C.W. Wilson; rev. by C.R. Conder. London, 1897. Palestine Exploration Fund, Publications.
Bongars, J., ed. Gesta Dei per Francos. 2 vols. in one. Hanover, 1611.
Bréhier, L. L'Eglise et l'Orient au moyen âge. 5 th ed. Paris, 1928.
Byrne, E. H. «The Genoese Colonies in Syria», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro, pp. 139 - 82. New York, 1928.
Genoese Shipping in the Twelfth and Thirteenth Centuries.
Cambridge, 1930. Mediaeval Academy of America, Monograph I.
«Genoese Trade with Syria in the Twelfth Century», *American Historical Review*, XXV (1919 - 20), 191 - 219.
Cambridge Medieval History, The. 8 vols. London and New York, 1911 - 1936.
Chalandon, F. Les Comnène; études sur l'empire byzantin au XIe et XIIe siècles.
Vol. I: Essai sur le règne d'Alexis Ier Comnène (1081 - 1118). Paris, 1900. Société de l'École des chartes, Mémoires et documents, Vol. IV.
Vol. II: Jean II Comnène (1118 - 1143) et Manuel I Comnène (1143 - 1180). Paris, 1912.
Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile. 2 vols. Paris, 1907.
Chalandon, F. (*Continued*) Histoire de la première croisade jusqu'à l'élection de Godefroi de Bouillon. Paris, 1925.
Chartrou, Josèphe. L'Anjou de 1109 à 1511. Paris, 1928.
Chevalier, U. Répertoire des sources historiques du moyen âge: Bio-bibliographie. New ed. 2 vols. Paris, 1905 - 1907.
Colvin, Mary Noyes, ed. Godeffroy of Boloyne; or, The Siege and Conqueste of Jerusalem, by William, Archbishop of Tyre. Translated from the French by William Caxton and Printed by Him in 1481. London, 1893. Early English Text Society, Extra Series, Vol. LXIV.
Corpus Juris Civilis, ed. by P. Kreuger and T. Mommsen, Vol. I. Berlin, 1882.

(1101 - 1118)», *Revue de l'Orient latin*, IX (1902), 384 - 465; X (1903 - 4), 372 - 405; XI (1905 - 8), 145 - 80, 453 - 85; XII (1909 - 11), 68 - 103, 283 - 326. Incomplete.

Peter der Eremite. Leipzig, 1879.

Hagenmeyer, H., ed. Anonymi gesta Francorum et aliorum Hierosoly-mitanorum. Heidelberg, 1890.

Ekkehardi Uraugiensis abbatis Hierosolymita. Tübingen, 1877.

Epistulae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes quae supersunt aevo aequalis ac genuinae. Innsbruck, 1901.

Fulcheri Carnotensis historia Hierosolymitana (1095 - 1127). Heidelberg, 1913.

Galterii Cancellarii bella Antiochena. Innsbruck, 1896.

Halphen, L. Le Comté d'Anjou au XIe siècle. Paris, 1906.

Haskins, C.H. The Normans in European History. Boston and New York, 1915.

The Renaissance of the Twelfth Century. Cambridge, 1927.

Hefele, H., trans. Albert von Aachen, Geschichte des ersten Kreuzzugs. 2 vols. Jena, 1923.

Heyd, W. von. Histoire du commerce du Levant au moyen-âge. Ed. and trans. by Furcy Raynaud. 2 vols. Leipzig, 1885 - 1886.

Hildt, J.C. «The Ministry of Stephen of Perche during the Minority of William II of Sicily», *Smith College Studies in History*, III (1918), 139 - 86.

Hitti, P.K. History of the Arabs. 2d ed. London, 1940.

Hitti, P.K., trans. An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades; Memoirs of Usamah ibn-Munqidh. New York, 1929. Records of Civilization, Sources and Studies.

Husseini, S.A.S. «Inscription of the Khalif El-Mustansir Billāh 458 A.H. (= A.D. 1065)», Palestine, Department of Antiquities *Quarterly*, IX (1942), 77 - 80.

Iskenderian, Galust Ter-Grigorian. Die Kreuzfahrer und ihre Beziehungen zu den armenischen Nachbarfürsten bis zum Untergange der Grafschaft Edessa. Weida. i. Th., 1915.

Joranson, E. «The Alleged Frankish Protectorate in Palestine», *American Historical Review*, XXXII (1926 - 27), 241 - 61.

«The Great German Pilgrimage of 1064 - 1065», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro, pp. 3 - 43. New York, 1928.

«The Palestine Pilgrimage of Henry the Lion», Medieval and Historiographical Essays in Honor of James Westfall Thompson, pp. 146 - 225. Chicago, 1938.

King, E.J. The Knights Hospitallers in the Holy Land. London, 1931.

Klein, C. Raimund von Aguilers. Berlin, 1892.

Knappen, M.M. «Robert II of Flanders in the First Crusade», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro, pp. 79 - 100. New York, 1928.

Kohler, C. «Chartes de l'Abbaye de Notre-Dame de la Vallée de Josaphat en Terre-Sainte (1108 - 1291)», *Revue de l'Orient latin*, VII (1899), 108 - 222.

Kretschmayr, H. Geschichte von Venedig. 3 vols. Gotha, 1905 - 1934.

Krey, A.C. «A Neglected Passage in the Gesta», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro, pp. 57 - 78. New York, 1928.

«William of Tyre: The Making of a Medieval Historian», *Speculum*, XVI (1941), 149 - 66.

Krey, A.C., trans. The First Crusade. Princeton, 1921.

David, C.W. Robert Curthose, Duke of Normandy. Cambridge, 1920. Harvard Historical Studies, Vol. XXV.
Dawes, Elizabeth A.S., trans. The Alexiad of the Princes Anna Comnena. London, 1928.
Delisle, L., ed. Chronique de Robert de Torigni, abbé du Mont-Saint-Michel. 2 vols. Rouen, 1872 - 1873.
Diehl, C. Figures byzantines, 2d Series: Byzance et l'Occident à l'époque des croisades. 3 d ed. Paris, 1909.
DuCange, Charles du Fresne, Sieur. Les Familles d'outre-mer. Paris, 1869. Collection de documents inédits sur l'histoire de France.
Duncalf, F. «The Peasant' Crusade», *American Historical Review*, XXVI (1920 - 21), 440 - 53.
«The Pope's Plan for the First Crusade», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro, pp. 44 - 56. New York, 1928.
Duncalf, F., and A. C. Krey. Parallel Source Problems in Medieval History. New York and London, 1912.
Dussaud, R. Topographie historique de la Syrie antique et médiévale. Paris, 1927. Haut-commissariat de la République Française en Syrie et au Liban. Service des antiquités et des beaux-arts. Bibliothèque archéologique et historique, Vol. IV.
Eginhard. «Annales Laurissenses et Einhardi», Monumenta Germaniae historica, Scriptores, I, 124 - 218. Hanover, 1836.
«Vita Karoli Imperatoris», Monumenta Germaniae historica, Scriptores, II, 426 - 63. Hanover, 1829.
Emerton, E. Mediaeval Europe (814 - 1300). Boston, 1894.
Fliche, A. Le Règne de Philippe Ier, roi de France, 1060 - 1108. Paris, 1912.
Funk, P. Jakob von Vitry, Leben und Werke. Leipzig and Berlin, 1909. Beiträge zur Kulturgeschichte des Mittelalters und der Renaissance, H. 3.
Gibb, H.A.R., trans. The Damascus Chronicle of the Crusades; Extracted and Translated from the Chronicle of ibn al-Qalanisi. London, 1932. University of London Historical Series, Vol. V.
Gibbon, E. The History of the Decline and Fall of the Roman Empire. Ed. by J.B. bury. 7 vols. London, 1896 - 1900.
Gindler, P. Graf Balduin I von Edessa. Halle, 1901.
Giry, A. «Les Châtelains de Saint-Omer (1042 - 1386)», Bibliothèque de l'Ecole des chartes, XXXV (1874), 325 - 55.
Gjerset, K. History of the Norwegian People, Vol. I. New York, 1915.
Gregorovius, F.A. History of the City of Rome in the Middle Ages. Trans. by Lady Hamilton. 8 vols. in 13. London, 1894 - 1902.
Gröber, G. Grundriss der romanischen Philologie. 2d ed. 2 vols. Strassburg, 1904 - 1914.
Grousset, R. Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem. 3 vols. Paris, 1934 - 1936.
Hagenmeyer, H. «Chronologie de la première croisade (1094 - 1100)», *Revue de l'Orient latin*, VI (1898), 214 - 93, 490 - 549; VII (1899), 275 - 339, 430 - 503; VIII (1900 - 1901), 318 - 82.
«Chronologie de l'histoire du royaume de Jérusalem, règne de Baudouin I

Mommsen, T., ed. C. Julii Solini collectanea rerum memorabilium. Berlin, 1864.
Morris, W. Britain and the Holy Land Prior to the Third Crusade. Unpublished Ph.D. thesis, University of Minnesota, 1940.
Munro, Dana C. «Did the Emperor Alexius I Ask for Aid at the Council of Piacenza, 1095?» *American Historical Review*, XXVII (1921 - 22), 731 - 33.

The Kingdom of the Crusaders. Student's ed. New York, 1935.

«The Speech of Pope Urban II. at Clermont, 1095», *American Historical Review*, XI (1905 - 6), 231 - 42.

Munro, Dana C., and others. Essays on the Crusades Burlington, Vt., 1903.
Muratori, L.A., ed. Rerum Italicarum scriptores ab anno aerae Christianae 500 ad 1500. 25 vols. in 28. Milan, 1723 - 1751; new ed. 1900 . References are to the original edition.
Nicholson, R.L. Tancred. Chicago, 1940.
Norgate, Kate. England under the Angevin Kings. 2 vols. London and New York, 1887.
Oman, Charles. A History of the Art of War in the Middle Ages. 2d ed. 2 vols. London, 1924.
Ordericus Vitalis. The Ecclesiastical History of England and Normandy. Trans. by Thomas Forester. 4 vols. London, 1853 - 1856.
Pantaleon H., ed. Historia belli sacri verissima... authore olim
Willelmo Tyrio... una cum continuatione... Cum praefatione

Henrici Pantaleonis atque ipsius authoris vita. Basel, 1564.

Paris, P. Guillaume de Tyre et ses continuateurs. 2 vols. Paris, 1879.
Pastoret, Claude. «Guillaume de Tyr», Histoire littéraire de la France, XIV (1817), 587 - 96.
Pocock, Edward, ed. Contextio gemmarum, sive Eutychii... annales... interprete Edwardo Pocockio. Arab. & Lat. Oxford, 1650.
Potthast, A. Bibliotheca historica medii aevi. 2d ed. 2 vols. Berlin, 1896.
Preston, Helen G. Rural Conditions in the Kingdom of Jerusalem during the Twelfth and Thirteenth Centuries. Philadelphia, 1903.
Prutz, Hans. Entwicklung und Untergang des Tempelherrenordens. Berlin, 1888.

Die geistlichen Ritterorden; ihre Stellung zur kirchlichen, politischen, gesellschaftlichen, und wirtschaftlichen Entwicklung des Mittelalters. Berlin, 1908.

Kulturgeschichte der Kreuzzüge. Berlin, 1883.

«Studien über Wilhelm von Tyrus», Gesellschaft für altere deutsche Geschichtskunde, *Neues Archiv*, VIII (1882), 93 - 132.

Rashdall, H. The Universities of Europe in the Middle Ages. 2 vols. in 3. Oxford 1805.
Recueil des historiens des croisades. 16 vols. Paris, 1841 - 1906.

Documents arméniens, 2 vols.
Historiens grecs, 2 vols.
Historiens occidentaux, 5 vols.
Historiens orientaux, 5 vols.
Lois, assises de Jérusalem, 2 vols.

Rey, E.G. Les Colonies franques de Syrie aux XIIme et XIIIme siècle. Paris, 1883.
Riant, Paul, Comte. Expéditions et pèlerinages des Scandinaves en Terre Sainte au temps

Kugler, B. Albert von Aachen. Stuttgart, 1885.

Analecten zur Geschichte des zweiten Kreuzzugs. Tübingen, 1878.

Analekten zur Kritik Albert's v. Aachen. Tübingen, 1888.

Geschichte der Kreuzzüge. Berlin, 1880.

Neue Analecten zur Geschichte des zweiten Kreuzzugs. Tübingen, 1883.

Studien zur Geschichte des zweiten Kreuzzugs. Stuttgart, 1866. La Monte, J.L. Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1100 to 1291. Cambridge. 1932. Mediaeval Academy of America, Monography IV.

«Rise and Decline of a Frankish Seigneury in Syria in the Time of the Crusades», *Revue historique du Sud-Est Européen*, Année XV (1938), pp. 301 - 20.

«Some Problems in Crusading Historiography», *Speculum*, XV (1940), 57 - 75.

«The Viscounts of Naploùse in the Twelfth Century», *Syria*, XIX (1938), 272 - 78.

«The Lords of Le Puiset on the Crusades». *Speculum*, XVII (1942), 100 - 18.

Lane-Poole, S. The Mohammedan Dynasties. Westminster. 1894.

Lawrence, T.E. Crusader Castles. 2 vols. London, 1936.

Revolt in the Desert. New York, 1927.

Lees, Beatrice A., ed. Anonymi gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum. Oxford, 1924.

Records of the Templars in England in the Twelfth Century. London, 1935. British Acadamy, Records of the Social and Economic History of England and Wales, Vol. IX.

Le Quien, M. Oriens Christianus. 3 vols. Paris, 1740.

Luard, H.R., ed. Matthaei Parisiensis, monachi Sancti Albani, chronica majora. 7 vols. 1872 - 1883.

Luchaire, A., ed. Louis VI le Gros: annales de sa vie et de son régne, 1081 - 1137. Paris, 1890.

Lundgreen, F. Wilhelm von Tyrus und der Templerorden. Berlin, 1911. Historische Studien, H. XCVII.

«Das Jerusalem des Wilhelm von Tyrus, und die Gegenwart», *Neue kirchliche Zeitschrift*, XX (1909), 973 - 92.

Madden, F., ed. Matthaei Parisiensis, monachi Sancti Albani, historia Anglorum, sive, ut vulgo dicitur, historia minor. 3 vols. London, 1866 - 1869.

Manitius, M. Deutsche Geschichte unter den sächsischen und salischen Kaisern, 911 - 1125. Stuttgart, 1889.

Geschichte der lateinischen Literatur des Mittelalters. 3 vols. Munich, 1911 - 1938.

Mansi, J.D., and others, eds. Sacrorum conciliorum nova et amplissima collectio. 53 vols. Paris, etc., 1759 - 1927.

Mas Latrie, L. de. «Essai de classification des continuateurs de l'histoire des croisades de Guillaume de Tyr», Bibliothèque de l'Ecole des chartes, XXI (5 th ser., Vol. I; 1860), 38 - 72, 140 - 78.

Mas Latrie, L. de., ed. Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier. Paris, 1871.

Merriman, R.B. The Rise of the Spanish Empire in the Old World and the New. 4 vols. New York, 1918 - 1934.

Michaud, J.F., ed. Bibliothèque des croisades. 2d ed. 4 vols. Paris, 1829 - 1830.

Molinier, A. Les Sources de l'histoire de France des origines aux guerres d'Italie. 6 vols.

des croisades. Paris. 1865.

«Inventaire sommaire des manuscrits de l'Eracles», *Archives de l'Orient latin*, I (1881), 247 56.

Röhricht, R. Die Deutschen im Heiligen Lande. Innsbruck, 1894.

Geschichte des ersten Kreuzzuges. Innsbruck. 1901.

Geschichte des Königreichs Jerusalem, 1100 - 1291. Innsbruck, 1898.

Röhricht, R. ed. Regesta regni Hierosolymitani, 1097 - 1291. Innsbruck, 1893.

Regesta regni Hierosolymitani, 1097 - 1291. Additamentum. Innsbruck, 1904.

Rozière, E. de, ed. Cartulaire de l'église du Saint Sépulchre de Jérusalem. Paris, 1840.

Salloch, Marianne. Die lateinische Fortsetzung Wilhelms von Tyrus. Greifswald, 1934.

Salmon, F.J., comp. Palestine of the Crusades: a Map of the Country. Pub. by Palestine Exploration Fund. Jaffa, 1937.

Schlumberger, G.L. Renaud de Châtillon. Paris, 1898.

Siedschlag, Beatrice N. English Participation in the Crusades, 1150 - 1220. Menasha, Wis., 1939.

Simonsfeld, H. Jahrbücher des deutschen Reiches unter Friederich I. Vol. 1: 1152 - 1158. Leipzig, 1908.

Spinka, M. «The Effect of the Crusades upon Eastern Christianity». Environmental Factors in Christian History, ed. by J.T.McNeill and others. pp. 252 85. Chicago, 1939.

Steenstrup, J.C.H., and others. Danmarks Riges Historie. Vols. I VI. Copenhagen, 1896 - 1907.

Stevenson, W.B. The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

Sybel, H. von. Geschichte des ersten Kreuzzugs. Düsseldorf, 1841; 2d ed., Leipzig, 1881.

Thorndike, L. A History of Magic and Experimental Science in the Middle Ages, Vols. I - II. New York, 1923.

Tiedau, W. Geschichte der Chanson d'Antioche des Richard le Pèlerin und des Graindor de Douay. Göttingen, 1912.

Vacandard, E. Vie de Saint Bernard, abbé de Clairvaux. 3d ed. 2 vols. Paris, 1902.

Vasiliev, A.A. History of the Byzantine Empire. Trans. by Mrs. S. Raggin. 2 vols. Madison, Wis., 1928 - 1929. Wisconsin Studies in the Social Sciences and History, nos. 13 - 14.

Wiet, G. L'Egypte arabe de la conquête arabe à la conquête ottomane. 642 - 1517 de l'ère chrétienne. Paris, 1937. Vol. IV of Gabriel Hanotaux, ed., Histoire de la nation égyptienne.

Wilken, F. Geschichte der Kreuzzüge nach morgenländischen und abendländischen Berichten. 7 vols. Leipzig, 1807 - 1832.

Yewdale, R.B. Bohemond I, Prince of Antioch. Princeton, 1924.

Zacher, Gustav. ed. Die Historia orientalis des Jacob von Vitry. Königsberg, 1885.

المحتوى

٣ ـ توطئة
٧ ـ رحلة لويس السابع الى الشرق
٩ ـ رسالة اودو الى سوكر
١١ ـ بداية الكتاب الاول
١٨ ـ بداية الكتاب الثاني
٣٠ ـ بداية الكتاب الثالث
٥٢ ـ بداية الكتاب الرابع
٥٥ ـ بداية الكتاب الخامس
٦٥ ـ بداية الكتاب السادس
٧٧ ـ بداية الكتاب السابع
٩٢ ـ من تاريخ وليم الصوري
٩٤ ـ تحرك الناس في الغرب
٩٦ ـ امبراطور المانيا يتوجه نحو الشرق
٩٨ ـ ماواجه الامبراطور من مشاكل
١٠٠ ـ الادلاء يتخلون عن الامبراطور
١٠٢ ـ ملك فرنسا يعبر البوسفور
١٠٧ ـ ملك فرنسا يتابع مسيرة نحو افسوس
١٠٩ ـ الجيش الفرنسي يعاني من هزيمة
١١١ ـ نجاة الملك
١١٤ ـ أمير انطاكية يستقبل الملك الفرنسي
١١٦ ـ وصول الامبراطور كونراد الى سورية
١١٧ ـ ملك فرنسا يغادر انطاكية
١٢٠ ـ الكتاب السابع عشر ـ الاستيلاء على عسقلان
١٢٠ ـ عقد اجتماع عام في عكا
١٢٢ ـ القرار بحصار دمشق
١٢٣ ـ وصف أوضاع دمشق
١٢٦ ـ الفرنجة يشقون طريقهم وسط بساتين دمشق
١٢٨ ـ قنوط اهل دمشق
١٣٠ ـ انعدام الطعام في المعسكر
١٣١ ـ مسؤولية الخيانة في حصار دمشق
١٣٤ ـ عودة الامبراطور كونراد
١٣٥ ـ نور الدين يجتاح منطقة انطاكية
١٣٧ ـ نور الدين يعامل المنطقة حسب هواه
١٤٠ ـ وقوع كونت الرها بالاسر
١٤١ ـ اعادة بناء غزة
١٤٣ ـ نزاع بين الملك ووالدته

١٤٥ ـ تقسيم المملكة بين الأم والابن
١٤٧ ـ سلطان قونية يجتاح منطقة الرها
١٤٩ ـ امبراطور القسطنطينية يرسل جيشا الى انطاكية
١٥١ ـ نور الدين يصطدم بالملك
١٥٤ ـ مشاكل انطاكية
١٥٦ ـ اجتماع الملك بوالدته
١٥٧ ـ جيش ارتقي يزحف نحو القدس
١٦٠ ـ عودة الملك الى عسقلان
١٦٤ ـ بدء حصار عسقلان
١٦٥ ـ قدوم جماعات من الحجاج
١٦٨ ـ وصول الاسطول المصري الى عسقلان
١٦٩ ـ زواج اميرة انطاكية من ارناط
١٧١ ـ اخبار حصار عسقلان
١٧٤ ـ متابعة حصار عسقلان
١٧٧ ـ استسلام عسقلان
١٧٨ ـ ارسال وفد من عسقلان الى الملك
١٨٢ ـ الكتاب الثامن عشر ـ القدس في ظل بلدوين الثالث
١٨٢ ـ ارناط يسيء معاملة بطريرك انطاكية
١٨٤ ـ اختيار هادريان بابا جديد
١٨٦ ـ خلاف بين البطريرك والاسبتارية
١٨٩ ـ اصل الاسبتارية
١٩٠ ـ الاماليفيون وبناء كنيسة لهم
١٩٣ ـ البطريرك يذهب الى روما
١٩٥ ـ امبراطور القسطنطينية يغزو ابوليا
١٩٧ ـ البابا هادريان يذهب الى بنفنتو
١٩٩ ـ وقوع ثورة في مصر
٢٠١ ـ ارناط يستولي على قبرص
٢٠٣ ـ الملك يخرق المعاهدة مع المسلمين
٢٠٥ ـ الاسبتارية ينالون نصف بانياس
٢٠٧ ـ الملك يقدم الى بانياس
٢١٠ ـ الملك يفر من ميدان المعركة
٢١٢ ـ نور الدين يحاصر بانياس
٢١٤ ـ وصول كونت فلاندرز
٢١٥ ـ الملك يذهب الى انطاكية
٢١٧ ـ حصار شيزر
٢٢٠ ـ اخو نور الدين يتحرك نحو الفرنجة
٢٢٣ ـ اختيار امالرك بطريركا
٢٢٤ ـ نور الدين يحاصر كهفا في منطقة السواد
٢٢٦ ـ زواج الملك
٢٢٨ ـ قدوم امبراطور القسطنطينية الى انطاكية
٢٣٢ ـ دخول الامبراطور الى انطاكية

٢٣٤ ـ شقاق في كنيسة روما
٢٣٥ ـ نور الدين يجتاح بلاد سلطان قونية
٢٣٧ ـ اسر ارناط
٢٣٩ ـ قدوم ممثل البابا الى سورية
٢٤١ ـ اهالي انطاكية يستدعون الملك
٢٤٣ ـ اختيار عروس للامبراطور
٢٤٦ ـ اعادة بناء حصن جسر الحديد
٢٤٧ ـ المشاكل بين كونت طرابلس والقسطنطينية
٢٤٨ ـ دس السم للملك
٢٥١ ـ الكتاب التاسع عشر ـ عموري الاول
٢٥١ ـ عموري ملكا للقدس
٢٥٢ ـ سمات عموري
٢٥٥ ـ صفات عموري الجسدية
٢٥٧ ـ عموري يطلق زوجته
٢٥٩ ـ الملك يهبط الى مصر
٢٦١ ـ موت بطرس رئيس اساقفة صور
٢٦٢ ـ مقتل ضرغام
٢٦٣ ـ هزيمة نور الدين حول طرابلس
٢٦٤ ـ نور الدين يحاصر قلعة حارم
٢٦٧ ـ نور الدين يحاصر بانياس
٢٦٩ ـ ذهاب الملك الى انطاكية
٢٧٢ ـ عودة المؤلف الى موطنه
٢٧٢ ـ توجه شيركوه الى مصر
٢٧٤ ـ الملك يلاحق شيركوه
٢٧٥ ـ وصف القاهرة
٢٧٦ ـ الملك يزحف للقاء شيركوه
٢٧٨ ـ شاور يجدد المعاهدة مع الملك
٢٧٩ ـ ارسال رسل الى خلافة مصر
٢٨٢ ـ اسباب دعوة امير مصر باسم مولانا
٢٨٤ ـ اسباب تسميته خليفة
٢٨٦ ـ الملك يبني جسرا فوق النيل
٢٩١ ـ مصر ومعالمها المميزة
٢٩٣ ـ نشوب معركة بين الملك وشيركوه
٢٩٧ ـ انسحاب شيركوه الى الاسكندرية
٢٩٩ ـ وصف موقع الاسكندرية
٣٠١ ـ حصار الاسكندرية
٣٠٤ ـ شيركوه يبحث شؤون السلام
٣٠٥ ـ ترتيب شروط المعاهدة
٣٠٧ ـ استسلام الاسكندرية الملك
٣٠٨ ـ عودة الملك منتصرا
٣١٠ ـ الكتاب العشرون ـ الصراع على مصر
٣١٠ ـ تتويج الملك عموري

٣١١ ـ نقل ارملة بلدوين الثالث الى ارض العدو
٣١٢ ـ بناء كنيستين في البتراء
٣١٤ ـ وصول مبعوثين من عند الامبراطور
٣١٦ ـ الملك يتوجه الى مصر
٣١٨ ـ حصار بلبيس
٣٢٠ ـ الملك يعسكر امام القاهرة
٣٢١ ـ اسطولنا يبحر في النيل
٣٢٣ ـ وصول شيركوه
٣٢٥ ـ استيلاء شيركوه على مصر
٣٢٧ ـ صلاح الدين يخلف عمه
٣٢٨ ـ تعيين برنارد رئيسا لكنيسة اللد
٣٣٠ ـ الامبراطور يرسل اسطوله الى سورية
٣٣١ ـ الملك يتوجه الى مصر
٣٣٣ ـ الملك يحاصر دمياط
٣٣٦ ـ رفع الحصار عن دمياط
٣٣٩ ـ القاء الحملة
٣٤١ ـ زلزال كبير يهز المشرق
٣٤٣ ـ صلاح الدين يغزو اراضينا
٣٤٥ ـ الملك يحاول التصدي لصلاح الدين
٣٤٨ ـ عودة صلاح الدين
٣٥٠ ـ الملك يزور القسطنطينية
٣٥٣ ـ الملك مع الامبراطور
٣٥٦ ـ عودة الملك
٣٥٧ ـ الملك يحشد الجيش في الصفورية
٣٦٠ ـ مالح الارمني ينضم الى نور الدين
٣٦٣ ـ صلاح الدين يحاصر الكرك
٣٦٤ ـ اخبار حملة صلاح الدين
٣٦٦ ـ فرقة الحشيشة
٣٦٨ ـ فرسان الداوية والحشيشة
٣٧٠ ـ موت نور الدين
٣٧٢ ـ الكتاب الحادي والعشرون ـ بلدوين المجذوم
٣٧٢ ـ بداية حكم بلدوين الرابع
٣٧٤ ـ تاريخ ترسيمه وتتويجه
٣٧٥ ـ هزيمة اسطول صقلية امام الاسكندرية
٣٧٦ ـ مقتل ميلون دي بلانسي
٣٧٨ ـ وصف كونت طرابلس
٣٨٠ ـ استيلاء صلاح الدين على دمشق
٣٨٢ ـ لماذا اصبح العدو اكثر قوة
٣٨٦ ـ حاكم الموصل يقدم لمساعدة حلب
٣٨٨ ـ موت اسقف بيروت
٣٨٩ ـ الملك يغزو اراضي دمشق
٣٩٠ ـ الملك يجتاح بلاد العدو

٣٩٢ ـ هزيمة امبراطور القسطنطينية
٣٩٤ ـ وصول وليم الاصفر
٣٩٥ ـ وصل كونت فلاندرز
٣٩٧ ـ مواقف كونت فلاندرز
٣٩٩ ـ وصول رسل امبراطور القسطنطينية
٤٠١ ـ معارضة كونت فلاندرزللحملة ضد مصر
٤٠٣ ـ عودةرسل الامبراطور الى بلادهم
٤٠٥ ـ كونت فلاندرز يحاصر حارم
٤٠٦ ـ وصول صلاح الدين من مصر
٤٠٨ ـ وصول صلاح الدين من مصر
٤٠٨ ـ الاتراك يجتاحون البلاد
٤١٠ ـ الملك ينطلق من عسقلان
٤١١ ـ هزيمة صلاح الدين
٤١٤ ـ جو عاصف وبرد غريب
٤١٦ ـ رفع الحصار عن حارم
٤١٨ ـ الاعلان على عقد مؤتمر مجمع كنسي في روما
٤٢١ ـ الملك يتكبد خسارة كبيرة
٤٢٣ ـ صلاح الدين يغزو اراضي صيدا
٤٢٥ ـ المسيحيون ينهزمون
٤٢٧ ـ صلاح الدين يحاصر القلعة التي بنيت مؤخرا
٤٣٠ ـ الكتاب الثاني والعشرون تضارب المصالح
٤٣٠ ـ الملك يزوج اخته لغي لوزنغنان
٤٣١ ـ صلاح الدين يغزو بلاد طرابلس
٤٣٢ ـ وصل اسطول مصري الى أرواد
٤٣٣ ـ عودة رئيس اساقفة صور
٤٣٦ ـ الملك يزوج اخته الصغرى
٤٣٩ ـ اعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد امير انطاكية
٤٤١ ـ ارسال بطريرك القدس الى انطاكية
٤٤٣ ـ موت ابن نور الدين
٤٤٦ ـ نشوب خلاف بين كونت طرابلس والملك
٤٤٧ ـ حدوث ثورة في القسطنطينية
٤٤٩ ـ أسباب الثورة
٤٥٠ ـ اندرونيكوس يقتل النبلاء
٤٥٣ ـ ردات فعل اللاتين
٤٥٥ ـ صلاح الدين يلغي المعاهدة مع الملك
٤٥٨ ـ صلاح الدين يستولي على احد معاقلنا
٤٦١ ـ صلاح الدين يستولي على احد معاقلنا
٤٦١ ـ صلاح الدين يغزو اراضينا
٤٦٥ ـ صلاح الدين يحاصر بيروت
٤٦٧ ـ الملك يصل الى صور
٤٧٠ ـ صلاح الدين يعبر الفرات
٤٧٢ ـ الملك يعيث فسادا في اراضي الدمشقيين

٤٧٤ ـ المسيحيون يحاصرون القلعة التي استولى عليها صلاح الدين
٤٧٧ ـ الملك يغزو اراضي الدمشقيين
٤٧٩ ـ القيام باحصاء المملكة
٤٨٢ ـ صلاح الدين يحاصر حلب
٤٨٦ ـ اصابة الملك بمرضٍ خطير
٤٨٨ ـ صلاح الدين يغزو اراضينا
٤٩١ ـ انتشار مجاعة رهيبة في جيشنا
٤٩٤ ـ صلاح الدين يحاصر البتراء
٤٩٧ ـ الملك يعزل كونت يافا
٥٠٠ ـ الملك يحشد قواته ويسرع عبر الأردن
٥٠٢ ـ الكتاب الثالث والعشرون ـ هل يمكن انقاذ القدس
٥٠٥ ـ اندلاع العداوة بين الملك وكونت يافا
٥٠٩ ـ الحواشي
٥٥٣ ـ المصادر

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الروايات الأوربية الاغريقية واللاتينية

الحملة الثالثة

١ ـ تاريخ أرذول وذيول تاريخ وليم الصوري
(دراسة)

٢ ـ ذيل تاريخ وليم الصوري (النص)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثامن

دمشق ١٤١٤ / ١٩٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

رأينا بشكل واضح في المجلد المتقدم مكانة وليم رئيس اساقفة صور ومعه كتابه الذي ارخ به لأحداث الحروب الصليبية حتى قبيل وفاته في سنة ١١٨٥ م. ومن المؤكد ان نجاح وليم كمؤرخ ، وتميزه عمن تقدمه من اللاتين ، يرجع الى ثقافته العربية وتأثره بطرائق المؤرخين العرب ، وعليه فإن كتاب تاريخ وليم الصوري وإن كتب باللاتينية وبروح صليبية متعصبة ، هو من حيث الطرائق والجغرافيا نتاج شرقي.

وكان وليم قد توفي في وقت عصيب جدا بالنسبة لمستقبل المملكة اللاتينية بالقدس ولشؤون صراعاتها ضد المسلمين بقيادة صلاح الدين يوسف بن ايوب ، لقد توفي وليم ايام مقدمات معركة حطين ، وصحيح انه عاصر حطين من رجالات صلاح الدين المؤرخين العماد الاصفهاني والقاضي ابن شداد ، لكن مادوناه لايغطي كامل الصورة من جميع الجوانب ، ولحسن الحظ توفر لاتيني فرنجي آخر من بين فرنجة الشرق ، قام بالتذييل على تاريخ وليم الصوري ، وغطى اخبار معركة حطين وتحرير القدس ثم حوادث ملحمة عكا وما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة.

وهذا الذيل ، وإن اختلف حول تحديد هوية مصنفة ، على درجة عالية من الاهمية ، وكتب اصلا بالفرنسية القديمة ، التي عدت ناشئة وقتها ، وسلف ان نشر من قبل في القرن الماضي ، ثم قامت عالمة فرنسية في ايامنا هذه بتقديم اطروحة دكتوراه حوله بالانكليزية ، ثم اعادت نشره استنادا الى مخطوطات جديدة ومعطيات حديثة.

ولم يكن من الصعب الحصول على نسخة من النص الفرنسي المحقق جديدا من قبلها ، لكن وجدت صعوبات كبيرة جدا في تحصيل نسخة عن الدراسة الانكليزية ، وبذل اكثر من صديق جهودا مشكورة في انكلترا لرؤية نسخة من الكتاب لتصويرها فلم يفلحوا ، واخيرا تمكن احد الاصدقاء اليابانيين من رؤية نسخة منه في احدى مكتبات المؤسسات العلمية في طوكيو فصورها ، وبعثها لي مشكورا.

لقد انطبق علي في هذه الحال فحوى الوصية النبوية بطلب العلم ولو من الصين ، ودراسة النص ـ كما لاحظت ـ كانت دراسة لغوية المقاصد ولم تكن تاريخية ، ومع هذا هي مفيدة جدا ، لهذا قررت نقلها الى العربية وجعلها تشكل الشطر الاول من مجلد يحويها مع نص الذيل الاصلي.

والصعوبات التي واجهتها في نقل النص الانكليزي الى العربية لاتقارن ابدا بمتاعب النقل من الفرنسية القديمة ، انما من اعتمد على الله كان الله عونه ومرشده فالحمد لله دوما وابدا.

سيجد القارىء العربي فائدة كبيرة في مواد ذيل تاريخ وليم الصوري ، وستغدو صورة الأحداث متكاملة لديه خاصة لدى العودة الى بقية المصادر العربية ، ولااعني هنا ماكتبه كل من العماد الأصفهاني والقاضي ابن شداد فقط بل مارواه غيرهما ووصلنا في مصنفات متأخرة ، نشرتها ضمن موسوعتنا هذه.

من الله استمد العون دوما ومنه التوفيق وله الحمد والشكر ، والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين.

دمشق ١١ ـ رجب الفرد ١٤١٥ هـ

١٣ / ١١ / ١٩٩٤ م

سهيل زكار

تنويه

رفعت الرسالة التي تقوم عليها هذه الدراسة الى كلية اللغات الحديثة ولغات القرون الوسطى تحت عنوان « نيول تاريخ وليم رئيس أساقفة صور حتى ١٢٣٢ » ويذهب شكري الاول للمشرف على بحثي البروفسور ت .ب . و . ريد . وهو دين سار بقدر أكثر أن أعترف به حيث أنه قد علم أبي أيضا قبلي ، وبينما كان غائبا لفترة قصيرة في كندا ناب عنه السيد ا . د . كراو ، وقد أعطاني مساعدة بالغة الكرم .

وأثار تكييف بحث كتب من قبل لغوي الى سلسلة تاريخية كل المشكلات المرتبطة بدراسات تمر عبر نظامين ، وأنا مدينة للآنسة باربارا هارفي لمساعدتها الصبورة في عملية التنقيح وللبروفسور سزرن لعدد كبير من الاقتراحات والتعليقات المفيدة ، وكنت ممتنة أيضا لمختلف أنواع المعونة من البروفسور ر . هـ . ل . ديفز والدكتور جاروسلاف فونداء والدكتور ر . س . سميل وأكثر الجميع لزوجي مورغان ر . و. مورغان الذي بدونه لم يكن هذا الكتاب ليكتب بالمرة ، واليه أهديه .

م . ر . مورغان

الروا ميز

بابكوك وكري

« تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار » سجلات الحضـارة ٣٥ نيويورك ١٩٤٣

– ها.ف .تاريخ اداب فرنسا

م . ل . تاريخ ارنول وبرنارد الخازن ـ تحقيق لويس دي ماس لا تري ، باريس ١٨٧١

ب . ل مؤلفات آبـاء الكنيسـة اللاتينية ـ تحقيق . ب ميني (٢٢١ مجلدة ، باريس ١٨٤٤ ـ ١٨٦٤)

ر هـ. س را شيل لتواريخ الحروب الصليبية طبع من قبل أعضـاء أكاديمية الاداب والمخـطوطات بـاريس ١٨٤١ ـ ١٩٠٦ وإذا مـا استخدم هذا الرمز لوحده فإنه يشير الى سلسلة را شيل المستخدمة بشكل عام في هذه الدرا سة وحددت الا شارة الى مؤرخي الغرب حيث قصد سلسلة أخرى برا شيل لويس الأولى .

ريس المخـطوطات الايطـالية تحقيق ل . ا مـــوراتوري ميلان ١٧٢٣ ـ ١٧٥١

رنسمان . س . س رنسمان تاريخ الحروب الصليبية كمبردج ١٩٥١

سميل ر . س ســـميل فـــن الحـــروب لدى الصـــليبيين ١٠٩٧ ـ ١١٩٣ ـ كمبردج ١٩٥٦

جدول المخطوطات

أعطيت حروف الا شارة الأولى في هذا الجدول للمخطوطات التـي اعتمدت في هذه الدارسة ، وتشـير الاعمـدة التـالية الى رقـم كل مخطوط ، مع الحروف الاولى للمخـطوطات إن وجـدت في طبعـات ماس لا تري ورا شـيل ، ورقـم المخـطوط في مـــوجز رانيت

الاحصائي ، مع اشارة موجزة لأي نص تضمه . وفقط هي المخطوطات التي ذكرت في هذه الدارسة ، قد وردت في الجدول.

واستخدم تعبير موجز خلال الدراسة ليعني كل من نصي ا و ز معا ، وسوف ترد أوصاف مفصلة لكل المخطوطات المدرجة في هذا الجدول في الصفحات (١٢ ـ ١٤) المقبلة.

	م.ل	ر.هـ ـ س	رانيت	
ا ـ ب ن ف فر ٢٦٣٤	—	ا	٤٧	ذيل هرقل حتى ١٢٦١ ذيل روسلين من ١٢٤٨ فما بعد
ا ـ أرسنال ٤٧٩٧	ا	٠	٢١	برنارد الخازن مع اسم المؤلف حتى ١٢٣١
ب ـ ب . ن . ف . فر ٢٦٢٨	٠	ب	٦٣	ذيل هرقل حتى ١٢٦٥ ،و يشكل هذا النص (١) ما دعاه ماس لاتري كولبرت فونتينبلو
ب ـ برن ٣٤٠	ب	٠	٢٤	برنارد الخازن مع اسم المؤلف حتى ١٢٣١ سف ا
س ج ـ ب . ن . ف . فر ٩٠٨٦	ج	س	٣٤	هرقل حتى ١٢٣١
د ـ ليون ٨٢٨	٠	د	٧١	هرقل حتى ١٢٤٨ مع كون القسم ١١٤٨ ـ ١١٩٧ غريب على هذه المخطوطة
غ ـ ب . ن . ف . فر ٩٠٨٢	غ	ج	٦٧	هرقل حتى ١٢٧٥
ز ـ سانت أومر ٧٢٢	٠	٠	١٣	أرنول مع اسم المؤلف حتى ١٢٢٧

مدخل

ان نيول تاريخ وليم الصوري باللغة الفرنسية القديمة والتواريخ المستقلة المتعلقة بها موجودة في تـواريخ مـرضية حـول الحـروب الصليبية ، ومن الناحية الشكلية هـي أمثلة على الكتـابة النثـرية الفرنسية القديمة ، وهكذا فإنها قد لفتت في الماضي انتبـاه كل مـن المؤرخين واللغويين بصورة جيدة ، ولكنهـا تبقـى بسـبب ذلك كله مشكله صعبه ، ومؤرخون من مثل غروسـيه ورتشـارد ورنسـمان وبراور مكتفين فقط بتسمية الأكثر ظهـورا ، وهـكذا يسـتخدمون ارذول وهرقل كمصدر رئيس لجزء كبير من تـاريخ المملكة اللاتينية لبيت المقدس ، في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القـرن الثـالث عشر ، وهم مدركون بشكل جيد وهم يفعلون ذلك أنه لا يعرف بـأي درجة من التأكيد ما الذي كتبه أرذول أو أي نوع من النصوص يشكل تاريخ هرقل حقا ، وفيما يتعلق بأرذول فإن اعتمادهم على التـاريخ المعروف باسمه يقوم بقدر كبير على افتراض أن ارذول كان مـرافقا مقربا لصاحب يبنا (١) وهكذا لا بـد أنه كانت لديه المعـرفة الأولى بكل ما حـدث ، وهـذا ــ بصرف النظـر عن الحيازة ــ يؤكد كونه شاهد عيان أمرا صحيحا ، وهكذا يبدو من المرغوب فيه أن نعـرف ما الذي شهده أرذول بالضبط ، ومثل هذا ، إنه أمر بديهي أن نيول وليم الصوري التي تعرف اجمالا بتاريخ هرقل ، تسمى عادة بتاريخ ارذول وبرنارد الخازن ، وهي ترتبط نوعا ما ببعضها بعضا ، ولكن الطبيعة الدقيقة ومدى تلك العلاقة ، والأهمية التي يمـكن أن تـكون لها في ترسيخ كلا النصين ولتقـويم جـدارتهما النسـبية كمصـادر تاريخية ، لم تحدد مطلقا بشكل واضح .

والاهمية الادبية للنصوص أيضا برغم أنها معروفة بشكل غامض من قبل اغلب النقاد ومؤلفي التواريخ الأدبية وما يشابههم تختبـيء تحت عدد من المشكلات النصية الخطيرة المانعة التى تعـوق بشـكل

جدي ، إن لم تحل تماما ، دون أي تقـويم واضــح للمقـدرة الادبية التي استخدمت في صياغة النصوص ، والعقبة الرئيسة أمام الناقـد التاريخي والادبي على السواء هي حقيقة أن هناك الكثير جدا مـن النصوص ، التي كلها بلا شك ذات كيانات مستقلة ، ولكنها بلا ريب ترتبط ببعضها بعضا بشكل متساوي بأنواع مـن الطـرق الدقيقـة - وهذه النصوص هي :

« تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار » لوليم رئيس أساقفة صور ، والترجمات الفـرنسية القـديمة للتـاريخ وعدد مـن الذيول الفرنسية القديمة ، ويعرف هؤلاء معـا ويسـميان أجمـالا بـاسم «تاريخ(او كتاب اورمان) هرقل» وهو كتـب بـاللاتينية (٢) وهناك اخيرا عملان لاتدل عناوينهما على اي صلة بالبقية ولكنهما في الواقع مرتبطان بالذيول المكتوبة باللغة الفرنسية القـديمة وهمـا: تـاريخ ارذول وبرنارد الخازن (٣) المتقدم ذكره والعمل غير المنشور المعروف بصورة عامة باسم« تاريخ ماوراء البحار واصل صـلاح الدين (٤) » وهكذا فان المشكلة الرئيسية هـــي تـــرتيب هـــذه النصـــوص ومحاولة تحديد علاقتها ببعضها بعضا ، وكان المعروف من قبل من الدراسات المتقدمة أن النوع الاول من الذيول ، ذلك الذي ينتهـي في ١٢٣٢ ، قد أوجد المشـكلات المعقـدة والأكثـر اهمية الى حـــد بعيد ، وبدا في الواقع أن هذه لو أمكن حلها فإن المشكلات المتعلقـة ببقية النص ستتوقف عن أن تكون مشكلات بالمرة ، وهو افتـراض اثبت صحته تماما بالنتيجة ، وهذه الدراسة بناء عليه محصـورة في هذا الفرع الاول من الذيول والاهداف الرئيسـة وراءهـا الاثنان : توضيح بنيتها وان يعاد منها ومن النصوص المرتبطة بناء الصـورة الاصلية لتاريخ أرذول المفقود ، وبصرف النظـر عن هـذه المسـائل الرئيسة ، إن هناك ايضا غاية عامة فضفاضة ، أو اثنتان تختلفان عن الدراسات السـالفة ، وتتـطلبان التعـامل معهمـا ، إذا كان المسائل الرئيسة أن تسوى بصورة مرضية ، ومعظم هـذه النقـاط صغيرة وتظهر بشكل طبيعي تماما في مراحل معينة من الحل على أي حال ، ولكن إحداها أكبـر نوعا وسـتؤخذ بعين الاعتبـار بصـور

مستقلة في الفصل الخامس ، وهويتا المؤلفين المفترضين ارنول وبرنارد وتاريخيهما ستدرسان منفصلتين ، قبل أن تؤخذ جميع النصوص معا وتقارن في محاولة لكشف بيئة النيول وعلاقتها ببعضها بعضا وبالتواريخ القصيرة . وسينشأ عن هذا التحليل إعادة بناء عمل ارنول الأصلي ، وهذا بدوره سيسمح بتحديد بنية ومصادر التاريخ القصير المنسوب الى برنارد بوضوح ، والفصل التاسع موقف على تقويم مكان النصوص بين أدب فترتها ، ويفحص العاشر الطرق التي تؤثر بها نتائج هذه الدراسة في نظرتنا الى قيمتها كبينة تاريخية ، وتبقى مسألة ارتباط مخطوطة النيول بالمؤرخين بالضرورة بالغة التعقيد جزئيا بسبب العدد الكبير من المخطوطات (٥) ، وعلى اي حال أن الاساس قد اتضح الى حد بعيد بفضل عملين هما: عمل ماس لاتري« مبحث التصنيف » (٦) وعمل كونت راينت (٧) « التحليل الاحصائي » الذي مع أنه يدعي بتواضع أنه ليس أكثر من تعديل لتصنيف ماس لاتري ، قد أصبح المرجع المعياري للبحوث التالية في هذا المجال ، وكان نهجه تقسيم النصوص الى فئات بحسب التاريخ الذي تم فيه انجاز نيولها ، وهكذا فإن الفئة الاولى هي مخطوطات وليم الصوري بلانيول ، والفئة الثانية موجز وليم الصوري وتتمته حتى ١٢٢٨ أو ١٢٣١ مع ثلاثة أقسام فرعية ، مع مايسمى « تاريخ ارنول لما وراء البحار وبرنارد الخازن » والفئة الثالثة وليم الصوري مترجم ومكمل حتى ١٢٦١ ، والفئة الخامسة حتى النيول ١٢٧٥ ،وهناك ضعفان واضحان في الطريقة :

الأول والأقل خطورة هو أن كل فئة في الواقع تحوي نصوصا متباينة جدا (حتى أن الفئة الخامسة تحوي ليون ٨٢٨ التي تنتهي في ١٢٤٨ وليس في ١٢٧٥ بالمرة) ثانيا والأكثر خطورة أن الفئات تمضي الى ماوراء أسر المخطوط ، حتى أن المخطوطات التي تتشابه في الواقع في الكثير من أطوالها يمكن ان يفصلها راينت في تصنيفه ببساطة لأن في واحد منها قسما إضافيا ملحقا بنهايته ، ومع ذلك فإن هذا التصنيف يبقى قيما كوسيلة لاختزال حالة معقدة بصورة

متعذرة التجزئة تقريبا الى أحجام أكثر قابلية التعامل معها ، وتمكننا في التمييز - مع أن ذلك قد يكون أحيانا بشكل محدود - بين نص وآخر ، فعمليات جرد رانيت اذا تزودنا بنقطة استدلال في المتاهات النصية ، والمخطوطات الفردية كانت ايضا موصوفة بصورة وافية في القسم الاعظم منها ، وفي بعض الحالات أكثر من مرة ، ويبدو من التكرار الممل أن تكرر كل هذه الأوصاف بطولها ، وقد اقتصرت بناء عليه على أن أصف في الملحق الاول مخطوطين فقط : مخطوط القديس أومر ٧٢٢ الذي لم يوصف بالمرة من قبل وانما ذكر فقط من قبل رانيت (رقم ١٣ في قائمته) ومخطوط ليون ٨٢٨ من قبل ٧٣٢ و٨١٥ (رانيت رقم ٧١) الذي وصف بشكل غير واف في مصنف راشيل ومحتويات كلا من هذين المخطوطين أساسية في مناقشتي .

وقد بدا من غير المرغوب فيه ابتكار مجموعة رموز جديدة من الحروف الاولى طالما أن هناك من قبل الحروف الأولى التي استعملها ماس لاتري ، وتلك التي استعملت من قبل محققي راشيل التي قد تتوافق جزئيا وتختلف ، وقد اعتاد المؤرخون الذين يستعملون تلك النصوص الاشارة اليها بعبارة « النص :د » وهلم جرا ، ذلك أن تغيير هذه الحروف الرامزة سيؤدي بالتأكيد الى التشوش ، وبدا أن الجواب هو تكييف النظام الموجود دون إضافة الى العدد الوفير من الأسماء والأعداد التي كانت تحيط من قبل بالنصوص ، وهكذا فمن أجل المخطوطات التي تذكر كثيرا جدا في مناقشتي قد استعملت حروف ماس لاتري ومحققي راشيل مميزة بينها حيث أنهم أحيانا يستعملون الحرف نفسه للاشارة الى مخطوطات مختلفة (مثل أوب اللذان يستعملان بصورة مختلفة في الطبعتين بوضع حروف ماس لاتري في صورة حرف كبير (جسم) وحروف راشيل في صورة حرف صغير وهكذا فان أشير الى المخطوط المختار من قبل ماس لاتري « ارسنال ٤٧٩٧ » (من قبل ١٦٧٧ أ) في حين أن (أ) تشير الى ب. ن . ف . فر ٢٦٣٤ مخطوط (أ) من طبعة الأكاديمية ، وفي

حالتين وصف المخطوط من قبل كلا المحققين وفيهما جمعت بين الرموز هكذا غ . ج . س . ج وحيث أن كلا المحققين وصف وأعطى حروفا رامزة للمخطوطات التي استعملها قليلا جدا في تحقيقه ، وكذلك لتلك التي لقيت أغلب اهتمامة ، فان كل المخطوطات الرئيسة قد غطيت بهذه الطريقة باستثناء « القديس أومر ٧٢٢ » التي أعطيتها حرف (ز) الذي لم يستعمل حتى الآن للرمز لأي مخطوط .

وبالنسبة للمخطوطات الافرادية نواجه الآن أكثر الاسئلة صعوبة حول كيفية الاشارة الى النصوص ذاتها بطريقة مايجب أن تكون موجزة وواضحة ، طالما أن التعابير المستعملة يجب أن تتكرر في الحقيقة كثيرا جدا في أقسام معينة ، مع ذلك يجب أن لانحكم سلفا على المسائل التي بين ايدينا ، على سبيل المثال إنه من غير المرغوب فيه بوضوح الاشارة الى اي شيء على انه « تاريخ أرنول » في حين لم يترسخ بعد ماذا كان تاريخ أرنول بالضبط ، وإن كل نص يوجد في مخطوطين على الاقل وعادة أكثر سوى ليون ٨٢٨ هو وحيد ، وبين مخطوطات أي نص يوجد نوع من الاختلافات هي التي تهم ، وتهم المرء الذي يحاول تحقيق اي واحد من النصوص ، ولكن المشكلة موضوع المناقشة في هذه الدراسة تعني مستوى آخر من الاختلاف تماما ، والاختلاف ليس بين المخطوطات العديدة لنص واحد بل بين نص وآخر ، ولهذه الغاية اخترت لكل نص مخطوطا واحدا يمكن أن يؤخذ بشكل موائم على أنه يمثل ذلك النص ، حتى أنه على سبيل المثال عندما تحتوي على النص نفسه مثل س . ج ، وهكذا فإن الاختلافات في القراءة بين مختلف المخطوطات لأي نص تترك جانبا على انها عديمة الاهمية لغرض هذه الدراسة ، وهو فحص العلاقة بين محتويات كل نص وبين محتويات النصوص الاخرى ، وفي النهاية علاقة كل نص بالتاريخ الأصلي لأرنول .

واختيار هذه النصوص الممثلة كان في بعض الحالات يستوحي

من عمل المحققين المتقدمين ، وفي حـــالات أخـــرى أتـــى مـــن تصنيفاتهم ، وهكذا فإن اختيار الخطوطات غ ج ، س ج و ب و ا من قبل محققي الاكاديمية وماس لاتري على انها افضل الخطوطات للنصوص الخاصة بكل منهم يبدو عند الاختيار بان له ما يســوغه ، وقد احتفظت بها كممثلة لنصوصهم ، ومن اجـل مـا يدعى تـاريخ أرنول » من جانب آخر ، اخترت مخطوط القديس أومر ٧٢٢ الذي لم يكن ماس لاتري يعرفه والذي يبدوا افضل من مخطوطة الاســاس بروكسل١١٤٢ لاسباب مشروحة مطولاً في مكان اخــر (٨) ، ومثـل هذا ان مخطوط ليون« د» برغم انه معروف لدى محققـي الاكاديمية ومطبوع من قبلهم بصــورة متنوعة ، فـانه لم يمنح الشــهرة التـي يستحقها ونصه فريد ، وسوف يعامل هنا كاسرة مستقلة ذات عضو واحد ستصبح اهميته الكبيرة بشكل متدرج ،ولايدخله تاريخ ماوراء البحار » (راينت فئة ٢ ب) بشــكل عام في الاكثـر تعقيدا مـن الجدول النصي لانه بين كل النصوص هو المخطوط الاقل إحـكاما في الارتبــاط بغيره ، وعلاوة على هـــذا يتعــــذر وصـــف كل من ب ، ن ، ف ، فـر ٧٧٠ أو ١٢٢. على أنه ممثـــل لهـــذا النص (٩) وهــكذا فحيثمــا يذكر فإني أشــير اليه ببســـاطة ب « تاريخ » .

والمخطوطات موضوع البحث هي .

أ ـ مكتبة آرســـنال في بـــاريس رقـــم ٤٧٩٧ (رقـــم سالف ١٦٧٧) (١٠) مـن القـرن الثـالث عشر لبـروفانسي غير معروف .

تاريخ بـــرنارد الخـــازن الذي يســـمى في شـــبارة دار النســـخ ف ١٢٨ ـ أ ،ويصـــفه مـــاسي لاتـــري في صـــفحة ٣٦ ، ويســـتعمله كمخـــطوط أســـاسي له للقســم ١٢٢٩ ـ ١٢٣٢ مـــن النص ، انظـــر أيضـــا أدناه ص ٨ ـ ٩ .

أ- المكتبة الوطنية في باريس - مجموع فرنسيس ٢٦٣٤ من أواخر القرن الثالث عشر أو أوائل القرن الرابع عشر ، يحتمل أنه من شرقي بروفانس (قبرص احتمالا تاريخ هرقل - مكمل حتى ١١٦١ مع كون القسم ١٢٣٤ - ١٢٦٠ نيل روسلين .

واستعمل مع ب أدناه كمخطوط أساسي للفرع الاول من النيول من طبعة راشيل ولاجل وصفهم له أنظر راشيل ٢٠ من ١٤ - ١٥ وانظر ايضا أدناه ص ١٢ - ١٤ .

ب - المكتبة الوطنية باريس مجموع فرنسيس ٢٦٢٨ القرن الثالث عشر بروفانس ، ويحتمل أنه شرقي ، تاريخ هرقل مع نيول حتى ١٢٦٤ انظر (أ) أعلاه راشيل ٢٠ . ب١٤ وانظر أدناه ص ١٢ - ١٣ .

س ج - المكتبة الوطنية باريس - مجموع فرنسيس ٩٠٨٦ (١١) من أواخر القرن الثالث عشر أو أوائل الرابع عشر ، ربما من شرقي بروفانس ، تاريخ هرقل استكمل حتى ١٢٣١ وصفه ماس لاتري ص ٤١ ولكنه استعمله تحليلا وقد استعمل لاغراض مختلفة من قبل محققي راشيل الذين وصفوه في راشيل ٢٠ ص ١٥ انظر ص ١٦ - ١٨ وأيضا ١٩ - ٢٠ .

د - مكتبة بلدية ليون (من قبل ٨١٥ و ٧٣٢) أواخر القرن الثالث عشر ربما كتب في عكا والمنمنمات هي بالتأكيد من عمل ورشة من عكا ، تاريخ هرقل استكمل حتى ١٢٤٨ وهناك اجزاء طويلة من النص فريدة ، وقد وصفت بشكل غير واف في راشيل ٢٠ ص ١٥ - ١٦ ،ومن أجل وصف كامل أنظر أدناه ١٩٢ - ١٩٣ .

وهي مطبوعة باشكال مختلفة في راشيل وكثيرا ما تكون غير مستوفاة . أنظر هوغو بو ختال نقوش المنمنمات في المملكة اللاتينية

لبيت المقدس آ (أكسفورد ١٩٥٧) ص ٨٧ وماتلاها انظر أيضـا أدناه ص ١٣ .

غ ج ـ المكتبة الوطنية في باريس مجدوع فرنسيس ٩٠٨٢ كتب في روما ١٢٩٥ ،تاريخ هـرقل استكمل حتى ١٢٧٥ طبع في « إ . مارتيني و أو دوراند ـ مخطوطات مختلفة ومذكرات تاريخية وعقائدية ومعذوية ـ مصدفة ومجموعة» . (بـاريس ١٧٢٤ ـ ١٧٣٣) راشـيل ٢٠ ص ١٩ ـ ٢١ . انظر ما يلي ص (١٧ ـ ٢٧) .

ز ـ سانت اومر مكتبة البلدية ٧٢٢ ـ القرن الثالث عشر من دير القديس برتين ، تاريخ أرذول المذكور في ورقة ٣٢ ظ وصف أدناه في الملحق الأول ص ١٩٠ ـ ١٩٢ انظر ايضا ٨ ـ ٩ .

وبالنسبة للعناوين من مثل « تاريخ أرذول » وماأشبه ذلك التي كثيرا ماتستعمل من قبل المحققين في الاشارة الى النصوص ،فقد استعملت فقط تلك التي لها مرجع لامجال للخطأ فيه ، مثل نيل كوبرت فونتنبلوا ، وليس تلك التي تستعمل بصورة مختلفة ، أو التي لايسوغ استعمالها بما هو معروف عن النص الذي تطبق عليه عادة ، وكان من الضروري اجراء استثناء واحد ، لتغيير الذي استعمله ماس لاتري لوصف النص الذي نشر من قبله وهو ماسمي « تاريخ أرذول وبرنارد الخازن » واتباعا لاجرائه أشرت في كل مكان الى النص بكل الصور التي وجد فيها بالاصطلاح الشامل « الموجز » من جانب ، وعن التاريخ القصير الآخر « تاريخ ماوراء البحار » من جانب آخر . وهذا الاصطلاح هو تعبير لالون له بشكل معقول ، وكان ضروريا بصورة مطلقة أن يكون هناك اسم ما يمكن به الاشارة الى النصين (آ) و (ز) المأخوذين معا دوما دون تكرار كلا الرقمين ، ومع تدرج الجدول فإن هذه المشكلة حول كيفية الاشارة الى النصوص تتناقص حيث أن

طبائعها الحقيقية تصبح ظاهرة ، ويمكن إعطاؤها أسـماء موائمة
بشكل صحيح وليست مجرد أسماء اعتباطية ٠

الفصل الأول

النصوص الباقية حتى الآن

مما لا شك فيه أن كتاب « تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار » لوليم الصوري (١) هو بصورة محققة أحد الأعمال الاكثر شهرة لكتابة التاريخ ،في القرون الوسطى ، وبه تلك الصفات من الدقة والتوثيق والموضوعية في الحكم وأناقة الاسلوب التي تعتبر الآن أساسية في كتابة التاريخ ، ولكنها كانت في زمانها غير شائعة بالمرة ، وفيه أيضا الحيوية نفسها التي كانت شائعة في كل التواريخ عدا الأسوأ منها في العصور الوسطى ، وهو الاكثر أهمية بينها بنجاحة المباشر ، لأنه كان موضوعيا ، وكانت هذه الصفة الأخيرة هي التي جعلته موائما ، بشكل بارز للترجمة الى اللغة الدارجة ، وجعلت من هذه اللغة بدورها أساسا لمؤلفات متنوعة كانت الأكثر رواجا في أيامها ، وبقيت شعبية زمانا طويلا بعد ذلك ، وينتهي « التاريخ » بشكل مفاجيء نوعا ما عام ١١٨٤ مع تعيين ريموند صاحب طرابلس وصيا على العرش من قبل بلدوين الرابع وهو على فراش الموت ، ولكن النص الدارج استكمل على مراحل عديدة حتى وصل أخيرا الى عام ١٢٧٧ .

والتاريخ ذاته عمل موحد ودقيق ، ونعرف قدرا كبيرا حول ظروف تأليفه مما ــ يخبرنا به المؤلف نفسه وباستثناء فصل واحد اكتشف حديثا ، وكان مفقودا حتى الآن (٢) ليس هناك غموض حوله ، والعكس هو الصحيح تماما حول الجزء الأساسي من الكتابات الفرنسية المرتبطة به ، وقد أضيفت الذيول الفرنسية الى ترجمة التاريخ بشكل تراكمي على فترات طوال القرن الثالث عشر ، والأعمال التي تشكلت هكذا تعرف إجمالا باسم تاريخ

هرقل (أو الكتاب ، أو رومـــان) ونقـرأ في الكلمـات الافتتـاحية للترجمة : التاريخ القديم للبطل الشهير هرقل حاكم الامبـراطورية الرومانية » (٣) .

ومكونات النيول ، وهي أحد موضوعات هذه الدراسة يمــكن أن يكون الافضل وصفها بأنها مشكالية : لأن عددا معينا مــن العناصر تشكل بشكل مستمر نماذج متبـدلة ، ومــاهـو الآن مــن التفـاصيل يصبح في تشكيل آخر سمة رئيسة ، وماهـو مركزي ومثار اعجاب في احداها لايظهر بالمرة في أي صورة اخــرى ، وأحيانا يظهــر عنصر جديد تماما دون إنذار أو تفسير ، وعند مقارنة النصوص الرئيســة للنيول واحدا بــالآخر ، يتضــح على الفــور أن الاصــطلاحات مثل « مماثل » و « مخالف » ذات فائدة محدودة في وصف علاقاتها الواحد بالآخر . حيث أن هناك درجات عدة من التماثل والاختــلاف.
ومن الضروري التعامل بصورة مســتقلة مــع كل مســتوى مــن التماثل (مثل مرضي ، صياغة الخ) وبصورة مستقلة ايضا مع كل قسم من النصوص ، طالما أن علاقة خاصة بين اثنين منهما في أحــد الاقسام ليست بالضرورة دليلا ، وليست مطلقا ضمانا لعلاقة مماثلة في أي قسم آخر ، وكل هذه النصوص باستثناء وحيد وهـو التــاريخ نفسه عبارة عن تصنيف وتجميع ويجب أن تعامل هكذا .

ويبين الجــدول التــــالي تنوع التجميع الذي تشـــــــكله النصوص ، حيث يمثل كل نص بــالمخطوط الذي انتخــب في وقــت سالف (٤) والمخطوطان « أ » و « ب » همــا مــايسميهما مــاس لاتري نيل كولبرت فــونتبلو ، و « د » هــو مخــطوط ليون الوحيد و س . ج و غ . ج همـــا نصــــان « لهــــرقل » ينتهيان في ١٢٣١ و ١٢٧٥ على التــوالي و « فـزآ » هــو النص المســمى بتاريخ بــرنارد الخــازن ، و « ز » هــــو الذي يدعى « تـــاريخ أرنول » وذكر اسمه ، مع اصطلاح « تاريخ » ليشير الى « تاريخ ماوراء البحار » والتـــواريخ كلهـــا تشــير الى محتـــويات

النصوص ، وليس الى تواريخ تاليفها ، فمثلا « أ » يقوم على انه انتهى في ١٢٣١ ، لأن هذا هو تاريخ الحدث الاخير المذكور في النص على الرغم من أننا نعرف غ . ج مؤرخ ب ١٢٧٥ وليس ١٢٩٥ وكل قسم قد علم بتاريخ ينتهي فيه نص أو في حالة ١١٨٥ و ١٢١٨ ، وهو تاريخ بدأت فيه نصوص متماثلة في عدم الاتفاق أو نصوص مختلفة في الاتفاق :

١.٩٥ ـ ١١٨٥ تتفق نصوص أ ، ب ، س ج ، غ. ج
وتتفق نصوص (أ) و (ز) د ،تاريخ
١١٨٨ ـ ١١٨٧ تتفق أ و ب وتتفق س ج و غ ج ، أ ، ز
د تاريخ
١١٩٧ ـ ١٢١٨ يتفق كل من أ ، ب ، س ج
د ، ج ،. (أ) و (ز) جميعا
١٢١٨ ـ ١٢٢٧ تتفق (أ) و (ب) وتتفق س ج
د ، غ ج ، أ
١٢٢٧ ـ ١٢٢٩ ـ١٢٣١ تتفق أ ، ب وتتفق س ج
د ، غ ج ، أ
١٢٢٩ / ١٢٣١ ـ ١٢٤٨ تتفق أ ، ب ، د ، غ ج
١٢٤٨ ـ ١٢٦١ تتفق أ ، ب ، د ، غ ج
١٢٦١ ـ ١٢٦٤ تتفق (ب) و (غ ج)
١٢٦٤ ـ ١٢٧٥ غ ج

ويتضح من هذا أن الفترة الاولى من الذيول أعني حتى ١٢٣١ هي الى حد بعيد الاكثر اشتباكا ، أو حسب كلمة ماس لاتري الاكثر تشويشا ، وبعد ذلك يصبح النص واضحا بشكل جيد ، ومن الممكن التنويه ، وقبل ذلك لم يكن واضحا بالمرة عند النظرة الاولى كيف تم صدور التجمعات المتبدلة ، وأفضل مكان للبدء بمقارنة النصوص الواحد بالآخر من أجل تصنيفها حسب محتواها هو القسم الذي لايوجد فيه العدد الاكبر من المجموعات

أعني ١١٨٥ ــ ١١٩٧ ، وهنا كما يحدث في مكان آخر أيضـا فإن النصين الاكثر قربا كل منهما للآخر هما « أ و ز » .

أرنول : والنص الممثل في هذا الجدول في المخطوط « ز » يعـرف بتاريخ أرنول وذلك من ذكره لاسمه في النص ، ويبدأ : « وسأحدثكم الآن عن أرض القدس ، وعن الصليب المقدس الذي انتزعه المسلمون من المسيحيين » (٥) .

وهو عمل متقلب ديني ثم لاديني واقعي ثم اسطوري جاد ثم عابث بالتناوب ، والقسم المركزي هو ذلك الذي يغطي هـدف المؤلف كمـا ذكر في العبارة الافتتـاحية المثبتـه أعلاه ، ولكن حـول هـذا القلب تتجمع الاشياء ذات العلاقة ، وغير ذات العـلاقة في سـلاسل مـن الاستطراد تبدأ على الفور بعد تلك الجملة الاولى وتمتد الى فصـول عدة ، وهذه تتضمن فقرات توراتية وشبه توراتية ، وأساطير تتعلق بالافاعي التي توجد في فلسطين ، وأوصاف لأجزاء من الجليل كلها مختلطة في تاريخ « موجز للمملكة اللاتينية ، مـن بـدايتها حتـى الفترة التي تشـكل مـوضوع المؤلف الحقيقـي ، أعني منتصـف ١١٨٠ وماليها ، فمن هنا ومابعد يخبو التقسيم ويصبح الكتـاب بالغ الجدية ، ورواية تامة جدا عن تلك السنوات العصيبة ، وخـلال رواية قصة معركة الناصرة ، يرد ذكر اسم أرنول الذي ينفرد به هذا النص الذي اشتق منه الاسم المعطى له من مـاس لاتـري ، والذي يستعمل الآن عاليا .

'Dont fist descendre .i. sien vallet qui avoit non
Ce fu cil qui cest conte fist metre en escrit. (٦)

وقبل حصار بيت المقدس في ١١٨٧ هناك وصف تفصيلي للمدينة ويبدو أنه قد استعير من نص أقدم ويبدأ:

'Ainçois que je vous die coment
Salehadins assegei Iherusalem et coment il le prist vous dirai
je l'estat coment Jherusalem siet.(٧)

وهكذا برغم أن الجملة الافتتاحية في « ز » يبدو أنها تشير الى

بداية في *in medias res,* فإن هذا في الواقـــع بعيد عن الحقيقة .

ومثل هذا فإن المؤلف لايتوقف عندما يكون قد اتم المهمة التي ندب نفسه لها ، بل يتـابع تـاريخه لبعض الوقـــت مغــطيا الحملتين الصليبيتين الثالثة والرابعة وحملة دمياط وحملة فـريدريك الثــاني الصليبية ، وحربه الخاصة ضد جان دي برين .

ويتوقف التاريخ اخيرا في منتصف هذه الحرب (١٢٢٩ م)

'Quant li empereres fu arivés si i enveia par toute se terre por saisir les maisons dou temple et quanques il avoit d'avoir et fist chacier tous les freres fors de se terre. Aprés s'amassa grant gens et grant ost et ala encontre le roi Jehan. Et manda son fil en Alemaigne.(٨)

وفي المخــــطوطات الاخـــــرى لهــــذا النص (مثــــل بروكسل ١١١٤) تأتي فقرة تبدأ « سنة التجسيد » ثـم تعـدد بعض الاحداث في تاريخ المملكة اللاتينية .

برنارد الخازن

يختلف النص الوارد في المخـطوط « ز » الموصــوف آنفـــا عن النص « آ» قليلا جدا والفقرة « سنة التجســيد » ننتقــل هنا الى البداية ، وذكر أرنول يحذف ببســاطة ، وهناك اضــافات صــغيرة وتبديلات مثل تفسير عابر لما يعنيه اصــطلاح « لاتينيون » عندمــا يستعمل لوصف سكان ماوراء البحار (٩)

ومن ناحية أخرى إن « آ » هو من نتاج « ز » حتى نهايته التي

بعدها يتابع « أ » دون توقف (كون المادة الجديدة على مايبدو أصلية) حتى أيلول ١٢٣١ وينتهي .

'Li empereres et li chevaliers de la terre firent volentiers quanque li rois Jehan lor devisa si com il avoient en couvent et li rois atant s'en tint.(١٠)

في المخطوط « أ » وواحد آخر من الأسرة (مخطوط ماس لاتري ب بيرن ٣٤.) فيما يلي اشارة الناشر

'Ceste conte de la terre d'outre mer fist faire li tresoriers Bernars de Saint Pierre de Corbie. En la carnation millesimo cc.xxij.'

ومن هذه الاشارة يعرف النص عموما بأنه تاريخ برنارد الخازن ، ولكن حقيقة أنه تقريبا جدا مشابه لما يسمى بتاريخ أرذول كانت مصدرا لغير قليل من التشويش ، وتعني أنه حيثما يذكر ناقد أيا من هذين النصين من الجوهري جدا التأكد مما يشير اليه بالضبط .

وقد نشر ماس لاتري في ١٨٧١ ،بعد أن قارن بدقة هاتين الأسرتين طبعة قامت على مخطوط من الاسرة نفسها مثل « ز » (بروكسل ١١١٤٢) ولكنه اضاف بحروف مائلة الى البداية والنهاية فقرة (سنة التجسيد) ثم قسم ١٢٢٧ ـ ١٢٣١ ـ على التوالي من المخطوط « أ » وأعطى لهذه الطبعة العنوان المركب« تاريخ ارذول وبرنارد الخازن» (١١) وكان هذا الاختيار قابلا التسويغ ، ولكنه غير موفق ، لأنه جعل عقول القراء تتحيز ضد مسألة تأليف هذين التاريخين وقادهم الى الاعتقاد بصورة معقولة نوعا ما بأن الشخصين المسميين في العنوان هما مؤلفا العمل المعنون المسمى هكذا.

وماس لا ترى نفسه كما يتضح من كل نقده للنصوص ، وبرغم انه مهيأ للاشارة اليها بهذه الاسماء لاجل القناعة ، اعتبر مسألة التأليف مسألة مفتوحة جدا في الحقيقة .

تاريخ ما وراء البحار : يبدو موائما كثيرا جدا لنصوص « ز » و « أ » التعامل بعد ذلك مع النص الثالث والأخير من النصوص الذي لا يضم ترجمة وليم الصوري ، وهو تاريخ ما وراء البحار . ومن المهم في الفترة التي نشير اليها ١١٨٥ ـ ١١٩٧ أنها تقوم وحدها ويجب أن يضاف أنه حتى إذا بدا أنها تتفق مع نصوص أخرى ، فإن التوافق يكون دائما من النوع التقريبي جدا ، ويسمح بمزيد من الانحراف أكثر من أي توافق آخر بين نصين في كل الجدول وبدقة مطلقة يجب أن يبقى منفردا ، ولكن هذا لن يدل على التشابه الذي ينطوي عليه والذي كثيرا ما يكون محكما تماما في أجزاء متفرقة في نصه ، مع بعض ما في نصوص أخرى ، وبدا هاما اظهار هذا التشابه من الجدول المبين في ص (١٠ ـ ١١) حتى مع انه يجب أن يكون مبينا في وصف النصوص ، والواقع هو أن ال « تاريخ » نص مختلط جدا بالفعل ، وقد عالج مؤلفه مادته بيد أكثر حرية من أي مؤلف آخر لهذه النصوص ، وهكذا خرج المزيج الأكثر بعثرة وتشويشا بصورة لا يمكن تخيلها ، فهو يضع الروايات التاريخية الراسخة إلى جانب الأساطير الفاضحة متنقلا من الجانب الواحد الى الآخر جيئة وذهابا حتى مع كثير من الخفة والتحذير الأقل مما كان يفعله معاصروه ، ومع ذلك منصبه ذو أهمية لأنه يتضح من تلك الأقسام التي لها نظراء في أماكن أخرى أنها قد استخدمت بصورة مستقلة من مصادر قديمة ، وأنها لا تحتفظ فقط بتفاصيل كثيرة لا توجد في مكان آخر بل أيضا بمقاطع كاملة تتعلق بصلاح الدين وملك الكرك أرناط وراؤول دي بمبراك ، والأكثر أهمية من كل شيء هو القسم الأخير من التاريخ الذي يغطي السنوات ١١٩٧ ـ ١٢٣٠ وهو مكثف بشدة بالمقارنة مع « أ » و « ز » ويفتتح ال « تاريخ » شأنه شأن التواريخ الموجزة الأخرى « أ » و« ز » كما يلي : « وسأحدثكم الآن عن أرض القدس وعن خسارتها »(١٢) .

وهو يشبهها دون اختلافات كبيرة حتى وصول رينو دي شاتيلون الى فلسطين حيث الموضوع دون احتفال

- ٣٥٤٦ - 'Mais or se taist ici endroit une piece li contes de lui et dira dont li bons rois Salehadins ki tant fu preudom et renoumés de bien vint et de quel gent il fu estrait. Au tans passé ot un conte en Pontiu ki mout ama chevalerie et le siecle.(١٣)

وجاء اثر ذلك قصة الكونتيسة دي بونثيو وقصة كيف ان صلاح الدين قد تحدر من خلالها من بيت فرنسي نبيل ، والشريحة الرئيسة الاخرى التي توجد فقط في ال « تاريخ » وهي ليست تاريخا ، وتتعلق ايضا بصلاح الدين ،وقد ادخلت بعد معركة مونتغسارت (١٤) وهو نص منذور عن نظام الفروسية معروف جيدا في الشعر ولكنه على ما يبدو غير موجود في مكان آخر نثرا (١٥) والبطل همفري دي تورون في النصوص الاخرى هو هنا هوغ دي تباري ويجب ان يفترض ان الكاتب قد وجد الحروف الاستهلالية هـ . د . ت . *prosateur* في الشعر ووسعها لتوائم ذاته ، وفي الواقع إنه من الممكن جدا أنه كان لديه بعض الاهتمام بأن يجعل من بطل القصة عضوا في عائلة التبرياذي لان العائلة اشتقت من أمراء القديس أومر الفركمبرغز ، ومخطوطا ال « تاريخ »(ب ، ن ، ف ، فر ٧٧٠ و ١٢٢٠) يعرفان من قبل مؤرخي الفن بأنهما قد صورا ، ويحتمل أيضا انهما نسخا في ورشة في الشمال الشرقي من فرنسا (١٦) ، ويخدم هذان الاستيفاء ان المفترضان هدفا واحدا ، وهما نموذجيا بين كثير من الحكايات الاسطورية أو نصف الاسطورية التي كان المؤرخون الذين يكتبون للقراء الاوروبيين مضطرين للجوء اليها من أجل الخروج من الصعوبات الاخلاقية الكبيرة التي واجهتهم بها شخصية صلاح الدين ، فهو قد كان غير مسيحي ، ولكنه كان أخلاقيا جيدا ، ولم يكن فارسا ومع ذلك كان شهما ، وكان من الممكن أن يوجد حل واحد فقط للمظاهر المتناقضة برغم كل دليل على العكس ، لا بد أن صلاح الدين كان في الواقع مسيحيا ، وفارسا أيضا ، وعليه فإن عددا من القصص قد صدر ليظهر ان هذا الامر كان كذلك ،وهاتان تصوران على التوالي كيف كان صلاح الدين عند الاوروبيين ، بل فوق هذا ايضا من اصل فرنسي ، وكيف انتزع من الاسير فرانك اسرار الفروسية وهذه امثلة ممتازة على النوع (١٧) .

وبالاختصار إن نص الـ « تـاريخ » يختلف عن « أ » و« ز » بطريقتين رئيستين ، فهو يحتوي على القصتين الموجزتين أعلاه اللتان من السهل تمييزهما ، ولا تتطلبان أي تفسير لوجودهما ، إذ انهما إقحام بسيط محرف يحتوي أيضا على كمية من الروايات التاريخية بادية الجدية التي لا توجد في مكان اخر ، وهي كالاسطورتين تتمركز حول صلاح الدين وينتهي النص في ١٢٣٠ :

'En celui point s'asemblerent .x. mille Sarrasin et vinrent en Jherusalem et le quidierent prendre. Et cil de la vile les requellirent bien et les ochisent tous et prisent et misent fors y larra cinc [*sic*. B.N.f.fr. 12203: ocisent tous fors .ij.] ke li emperes y avoit laissiés pour garder le sepucre (١٨)

قبل ترك الـ « تاريخ » من الضروري ذكر كتاب مطبوع سبب بعض الجدل في الماضي ، ومازال حوله بعض الغموض(١٩) ، ومن الواضح انه نص من الـ« تاريخ» ويحمل العنوان نفسه ولكنه كما نشر من قبل ستري دي لاغويت بالفرنسية الحديثة يختلف عن النص في المخطوطين الباقيين من ناحية واحدة يمكن أن تكون هامة جدا ، عندما تعني تثبيت الصور الاصلية للنص ، فقد سبق أن لاحظنا انه في النص الباقي الشريحة التي تغطي السنوات ١١٩٧ ـ ١٢٣٠ مكثفة جدا بالمقارنة مع الشريحة المقابلة في « ز » و« أ » . هذا ونص ستري دي لاغويت ما يزال أكثر تكثيفا ، وفي الحقيقة لن يكون من المبالغة القول إنه ليس هناك في الواقع شيء يمكن للمرء أن يسميه رواية تاريخية بعد وفاة هنري شامبين في ١١٩٧ ، وهناك تفسيران محتملان الاول أن ستري دي لاغويت كان اقل إخلاصا لمخطوطه مما يدعي ، وأنه ببساطة قد كثف هذه الشريحة بنفسه ، والجدل المؤيد لذلك هو أن المخطوط « ب ، ن ، ف ، فر ٧٧٠ » إذا كان هذا هو الذي استعمله ، به الآن ، وربما كانت تنقصه بالتأكيد في حينه أوراق عديدة مفقودة قبل الورقة الأخيرة مباشرة ، وأسرع طريقة للتعامل مع هذا النقص لابد انها كانت ببساطة معالجة النص من الورقتين الأخيرتين الموجودتين

معا ، حيث يخفي التــكثيف بفعــالية ، الثغــرة التـــي في الرواية ، ومقابل هذا على أي حال يجب أن نوازن الحقيقة التـي لا نزاع فيها وهي انه في الحقيقة في مكان اخر كثير التـدقيق في تتبـع مصدره ، وايضا انه في كل موضع من النص توحي التفاصيل الهامة برغم صغرها بـوجود اختــلاف بين مخــطوطه والمخــطوطات الباقية ، وحتى يحين الوقت الذي يمكن ان يخرج فيه مخطوط جديد مثل ال« تاريخ » الى النور فإن الافتراض الســليم الوحيد انه كان هناك اخر في الوجود ، مع شرط أن نص ستري دي لاغويت لا بد أن يكون قد عولج بحذر ، ولم يؤخذ به كاثبـات أكيد على أن مخــطوطا اخر كان موجودا [٢٠] .

تاريخ هرقل المخطوطان س ج و غ ج

بصرف النظر عن المخطوطات الثلاث « ز » و« أ » واا « تاريخ » فإن كل المخطوطات الاخرى المذكورة في الجدول الوارد في الصفحة ٤ تبدأ بترجمة فرنسية لتاريخ وليم ، يربطون بهـا نيولا ذات اتســاع أكبر أو اقل ، وعندما نبدأ بمقارنتها مـع بعضــها نرى على الفـور معوقات نهج راينت في التصنيف [٢١] ، فقـد قسـم النصـوص الى فئات على معايير التاريخ الذي تنتهي به ، وكان لهذا تـأثير فصـل النصوص التي هي في الواقع متماثلة تقريبا في القسـم الاكبـر مـن محتواها ، وعلى سبيل المثال يمكن أن يرى في الجـدول أن س ج و غ ج يظهران دائما في المجمـوعة نفســها في كل شريحــة مــن نصوصهما ، ولكنهما يوصفان في زمرتين مختلفتين من قبـل راينت ببساطة لان نص س ج ينتهي أبكر بنحو ست وأربعين ســنة مـن نص غ ج ، ومضمون هذين النصـين يمـكن أن يوصـف ببســاطة تامة ، والى ١١٨٣ أنهما يتـآلفان مـن التــرجمة الفــرنسية لوليم ، ومن ١١٨٣ الى ١٢٣١ يتوافقان مع الشريحة نفسها في «ا» (ومن اخذ طرابلس [٢٢] حتى نهاية ا) [٢٣] ويتصل الجزءان معا بشريحة وصل من ثـلاثة فصـول في س ج وفي غ ج بـأول الثـلاثة

فقط ، وبعد ١٢٣ يمضي س ج بالمتابعة نفسها الموجودة في ب الى مدى يصل الى ١٢٦٤ ، ومن ١٢٦٤ الى ١٢٧٥ هناك نيل آخر خاص به في حين ينتهي س ج في الموضع نفسه كما في آ ، وفي الواقع بالكلمات نفسها (فلتراجع أعلاه ص ٩) دون إشارة الناشر بالطبع ، وفي الشريحة من ١١٩٧ ــ ١١٨٣ ، يبدي س ج و غ ج احيانا اختلافات هامة عن نص آ ، ولكن هذه الشريحة هي دائما وبشكل جلي ترجمات مختلفة للنص الاساسي نفسه ، وايضا من ١٢١٨ الى ١٢٣١ فإن اس ج أكثر دقة قليلا من غ ج ، ولكن هذه الدقة تأخذ صورة الاقتصاد في الصياغة وليس اي تكثيف في المادة ، والشيء نفسه في كل التفاصيل في كل مواضع هذه الشريحة ، وهذان النوعان من الاختلاف بين النصوص لا يدعان مجالا للشك في حقيقة أن المخطوطات الثلاث كلها تحوي في نصوصها الخاصة النص الاساسي نفسه للفترة ١١٨٣ ــ ١٢٣١ ، وقبل هذا إنها بالطبع مختلفة تماما حيث في « آ » فصوله التسع والنصوص الاولى مشوشة سواء فيما يتعلق بمادة الموضوع أو طريقة عرضها وفي « س ج » و « غ ج » ترجمة وليم ، وهكذا تبدي مظهرا مهنيا وموحدا أكثر من « آ » كثيرا ، وواضح مع ذلك أن مؤلفي « س ج » و « غ ج » كانوا يعرفون الشريحة القديمة من « آ » واحدهما يعطي في « غ ج » في وسط معركة حطين رواية انتخاب هركليوس لبطركية بيت المقدس واسلوبه السيء السمعة (٢٤) في الحياة ، الامر الذي ذكرته « آ » و « ز » في نقطة مبكرة اكثر ، في ترتيبه الزمني المناسب ، أما الآخرون فيعطي « س ج » مباشرة قبل حصار القدس وصفا للمدينة (٢٥) ، يوجد في المكان نفسه في « آ » ، في حين حذف في « غ ج » ، وهذان النموذجان مثاليان بشكل جيد في نص ال « تاريخ » اجمالا ، في أن فرديتهما لا تأتي من احتواء أي مادة جديدة ، بل من جمع جديد للعناصر الموجودة في مختلف النصوص الاخرى ، حتى أن « س ج » على سبيل المثال لا يشبه اي نص اخر ، ومع ذلك فإن كل من مكوناته على حدة له نظيربالضبط في أي مكان آخر .

-٣٥٥٠-

تاريخ هرقل والمخطوطات«أ» و«ب»

ويختلف نوعا مـا عن«س ج» و «دغ ج» نصـان لخـــران في الهرقل ممثلان في الجدول بالمخطوطين «أ» و «ب» وحتى ١٢٤٨ فإن هذين الاثنين يمكن أن يعتبرا في الواقع كنص واحد ، ولكنهمـا بعد ذلك يختلفان كليا ، ومثل «س ج» و «غ ج» يبدأن بتـرجمة اوليم تعقبها الفصول الواصلة الثـلاث الموجـودة في «س ج» ثـم ينتهيان بما يبدو في البـداية مثـل الذيل نفسـه كمـا في «س ج» و «غ ج» ولكن عند الرواية حول معركة حطين يبـدءان في تقـديم فقرات كثيرة ومطولة لا تشبه أبدا أي شيء في «س ج» و «غ ج» وواضح أنه هنا لا يقتصر الأمـر على مجـرد تنويع في النص نفسـه كذلك الذي يلاحظ في مقارنة «س ج» و «غ ج» و «أ» بل شيء ما يجب أن يعتبر تتمة مختلفة بالمرة ، ويستمر نص «أ» و «ب» في الاختلاف بصورة متقطعة عن نص «س ج» و «غ ج» ، حتى وفاة هنري دي شامبين في ١١٩٧ ، ومن هناك تتفق كل النصـوص مع بعضها حتى ١٢١٨ (و وفاة أوتو الرابـع ، حيث تـوجد قفـزة مفاجئة في الترتيب الزمني وفي مادة الموضوع ، ومنذ الحملة الصليبية الرابعة تعاملت الرواية فقـط مـع اوروبـا والامبـراطورية البيزنطية (٢٦) . والآن ينتقـل المشـهد الى المملكة اللاتينية وتتـابع جميع النصـــــــــــــــــــــــــــــــوص القصة عند موت عموري ، ولكن برغم أن مادة الموضوع هي نفسـها فإن النصوص ليست كذلك ، ومـن هنا حتـى ١٢٢٩ يختلف «أ» و «ب» مـرة أخـرى جـذريا عن «س ج» و «غ ج» فقـط في موضوع واحد زيارة جان دي بريين لأوروبا في عام ١٢٢٢ وزواجـه من برنغاريا الكاستليه وحربه ضد فردريك الثاني حيث لا يوجـد أي تشابه وسيناقش هذا الاستثناء مفصلا فيما بعد ، والصورة العامة بين «س ج» و «غ ج» من جانب «أ» و «ب» من جانب آخر هي صورة الفترة من : ١١٨٣ ــ ١١٩٧ ، فالمجموعتان متمـاثلتان جزئيا ولكنهما بشكل عام تختلفان بقدر كبير تماما فهما متمـاثلتان من ١١٩٧ الى ١٢١٨ ومختلفتان كليا بعد ١٢١٨ .

تاريخ هرقل ، المخطوط د :

والنص الاخير الذي بقي علينا وصفه هو (د) أي مخطوط ليون الذي يبدو أن ماس لاتري قد حول اليه اهتمامه اذا كان الوقت قد سمح له بذلك (٢٧) ، وسوف يعطى مكانا فسيحا في جدول الوقت الراهن ، وهو يقدم نصا يختلف عن أي نص لخر ، وكما يمكن رؤيته في الجدول الذي على صفحة ٧ ـ ٨ فإنه يميل بشكل عام الى الشبه ب (غ ج) عدا في الشريحة ذات الأهمية البالغة ١١٨٣ ـ ١١٩٧ ففي هذه الشريحة ، ليس في « د » نص مختلف بكليته بل إنه ينتشر هنا وهناك بين الفقرات على غرار ما في النصوص الاخرى كثير من الفقرات المسهبة عديمة القيمة ، خاصة ب « د » وحده ، وتكون هذه أحيانا روايات مختلفة عن الأحداث التي سبق لنا معرفتها من الروايات في النصوص الأخرى ، التي يلقي عليها « د » ضوءا جديدا ومختلفا ، وهي تتعلق أحيانا بأحداث لم يسمع بها في مكان آخر بالمرة .

الذيول من عام ١٢٣٢

الآن وقد وصفنا بالخطوط العريضة محتويات كل النصوص في الفترة الاولى للذيول ١١٨٣ ـ ١٢٣٢ ، وهي موضوعنا ، يبدو مفيدا أن نضيف ملاحظة موجزة على الاقسام الباقية من الذيول بعد ١٢٣٢ ، من أجل الحصول على تصور او رأي كامل عن هذه النصوص التي تتابع في الفترتين الثانية والثالثة ، ولأنه سيصبح ضروريا فيما بعد ، عند مقارنة الذيول في الفترة التي تنتهي في ١٢٣١ ـ ١٢٣٢ ، وضع بعض الاشارات الى الاقسام التي تلي مباشرة .

في ١٢٣١ يتابع « غ ج » و « د » النص نفسه كما في « أ »

و « ب » وهو الذي يبدأ في ١٢٢٩ ، مع أن هـذا يورطهـم في تـكرار بعض الاحداث التي سبق لهم ذكرها ، وتستمر النصوص الاربـع في الاتفاق حتـى ١٢٤٨ حيث ينتهـي « د » ويبتعـد « أ » عن الاثنين الباقيين لينضم الى نص عائلة روثلين ويستمر المخـطوطان « ب » و « س ج » في اعطاء النص نفسه كل واحد للآخر حتى يتـوقف « ب » في ١٢٦٤ التي يتابع بعدها « غ ج » وحده حتـى ١٢٧٥ (مجلس ليون البلدي) (٢٨) .

نيل روثلين :

تبدأ الآن عند النقطة نفسها ـ ١٢٣١ ـ مخطوطات أخرى هـي التي عرفت حتى الآن ب « س ج » « غ ج » تبدأ بما يعرف بـاسم نيل روثلين ، ونبع هـذا الاسـم عن الكاهـن روثلين الذي كان أول متملك معروف لمخطوطات هذا النص (٢٩) ، ويبدأ هـذا النيل في سنة ١٢٢٩ ويستمر حتى ١٢٦١ ، ويتضمن وصـفا للقـدس كما فعل « ز » و « أ » و « س ج » (٣٠) وعدة فصـول في وصـف الاراضي المقدسة ، وأساطير متعلقة بها بعضها مستوحى من الكتاب المقدس ، ومن نصوص الابوغرافيا ، بينما بعض آخـر هـو مجـرد أساطير كانت رائجة في العصور الوسطى ، وغير معروفة أصـولها الادبية ، ويتضمن نيل روثلين أيضا قـطعة غالبـا مـا تعتمـد على تواريخ الحروب الصليبية وتدعى « نبوءات أغاب » وقد فسرت على أنها تتحدث عن بعض حوادث الحروب الصليبية ، مع رسالة موجهة الى انسونت الثالث حول صلاح الدين ، هي موجودة أيضا في كتـاب جاك دي فيتري ، وفصول قصيرة عن خليفة بغـداد والحشـيشية ، وجاء هؤلاء جميعـا في بـداية النيل حيث قـاطعوا رواية أحـداث سنة ١٢٢٩ ، وهناك في أماكن أخرى صفحات نقلت بدون تحفظ من كالشين المزيف ولو كان مع أغنيتين ، احداهما شـعبية والاخـرى معزوفة لفيليب دي ناتويل ، وفيما عدا هذا فـالنيل متتـابع السرد ، وإن يكن متداخل وهو تاريخ مختصر يستمر حتى سنة ١٢٦١ .

كيف جاء هذا التنوع الكبير في النصوص مع الشبكة المعقدة في العلاقات ؟ وما هي العناصر الاساسية التي ترقد في جذور العملية ، وكيف تطورت هذه الأنواع المختلفة عن الجذس الواحد ؟

منذ البداية الاولى حيث ما كاد الحبر يجف عن آخر مخطوط ، افسدت دراسات كل هذه الاعمال بسبب واحد أو اثنين من الافتراضات الخاطئة التي لم تعترض ، حتى أنه في زمن قصير اصبحت حالة الدراسات كحالة موضوعها ، وقبل معالجة النصوص من الجوهري في البداية ازالة التشوش الطفيلي بسبب سوء الفهم الذي احاطتها به اعمال الدارسين ، الذين غالبا ما اعتمد كل واحد منهم جميعا على ملاحظات الآخر غير القابلة للاعتماد عليها .

الفصل الثاني

حالة الدراسات

بحلول نهاية القرن الثالث عشر كانت النصوص التي يمكن القول بدقة انها تعود الى مجموعة وليم الصوري قد استقرت ووجدت في صورها النهائية وبعد هذا ليس هناك مزيد من الامتداد ، ولامزيد من اعادة التجميع ، ولامزيد من التفصيل من النوع ذي الاهمية ، وفي القرن التالي بقيت شعبية التواريخ بلا نقص ، والحكم من عدد النسخ الصادرة في حينه والتي بقيت حتى الوقت الراهن ، وفي هذا القرن ايضا ظهر في الوقت نفسه تقريبا اول عمل استعمل الذيول كمصدر مع اول ترجمة لها .

ويعد كتاب « تحرير الاراضي المقدسة من قبل الصليبيين » تأليف ماريذوس سانيوتس تورسيلي ، وهو رجل بارز من البندقية بين ١٣٠٥ و ١٣٠٧ (١) اول عمل مطول عالج نواح عديدة من الحروب الصليبية ، ويدل عنوانه الفرعي بدرجة كافية على مجاله :

scope: '. . . qui est tam pro conservatione fidelium quam pro conversione et consumptione Infidelium: quanquam etiam propter acquirandam et tenendam Terram Sanctam, et alias multas terras in bono statu pacifico et quieto'.

وعليه فهو تاريخي جزئيا ، وجغرافي جزئيا ، ولكنه يتكون في معظمه من بحث في كيف يمكن استعادة الارض المقدسة بأفضل طريقة ، والكتاب رقم ٣ تاريخ للارض المقدسة من ازمنة العهد القديم حتى الوقت الحاضر ، ويحتل منه تاريخ المملكة اللاتينية في بيت المقدس الاجزاء ٤ الى ١٢ ، وهذا مستمد من تاريخ هرقل مبتدئا من ١ / ٢ مع حرية نوعا ما في التكيف والايجاز ، حتى انه

يعتبر استخلاصا حرا من تاريخ هرقل ، وليس من نسخة التاريخ اللاتينية الاصلية ، وهذا يتضح من حقيقة انه في كل الفروق الدقيقة بين وليم ومترجمه كان سانيوتس يحتفظ دائما بنص المترجم ، وهو ايضا كثيرا مابقى اسماء الاعلام بالفرنسية في حين انه في غير ذلك ابتكر صورا جديدة وغريبة تخالف تماما تلك التي اعطاها وليم [٢] ولايمكن ان يكون هناك شك انه لدينا هنا للمرة الاولى مؤرخ يستعمل النص الفرنسي وليس اللاتيني كمصدر له ، واستعمال سانيوتس لتاريخ هرقل ليس حصرا ولامستمرا ، ولكن هناك بعض الفقرات التي ليست شيئا اقل من ان تكون ترجمات دقيقة لاجزاء من تاريخ هرقل ، ويتضح ذلك في نص كولبرت فونتنبلو .

(اعني نص ا و ب) [٣] فانه من المتعذر لسوء الحظ ان يقال بدقة ماذا كان اتساع النص الذي استعمله سانتوتس ومحتواه واختصاراته تجعل الترتيب التاريخي يتداخل ، وكثيرا ماهضمت فصولا عديدة فجعلت منها فصلا واحدا بحيث لم تسمح لنا باكثر من التقاط شرائح اما مترجمة من تاريخ هرقل ، او مكيفة عنه كما يبدو ، ومايمكن ان نقوله بالتأكيد انه في العقد الاول من القرن الرابع عشر ، كان تاريخ هرقل على مايبدو يعتبر مصدرا موثوقا لمؤلف اظهر عمله درجة غير صغيرة من الجد .

وليس طويلا بعد نشر عمل سانتوتس وفي عام ١٣٢٠ على وجه الدقة ، وايضا في ايطاليا اتم فرنسيسكو ببيذو وهو راهب دومينيكي من بولونيا كتابه *magnum opus.* وهذا العمل غير معنون ويشار اليه بشكل عام ببساطة باسم « التاريخ » وهو تاريخ عام نموذجي نوعا ما بين جنسه ، لانه يغطي مساحة واسعة وفترة طويلة ، وليس فيه ادعاءات بالاصالة ، والكتاب الخامس والعشرون منه هو الذي يعنينا هنا وهو في الاساس ترجمة الى اللاتينية لجزء من الترجمة الفرنسية لوليم ، وجزء من الموجز ، والمقارنة الاكثر ايجازا او سطحية بين عمل ببيذو ووليم تكفي لبيان تجاهل مهمة ببيذو ، وبالنسبة لتاثير تاريخه على الدراسات التالية فانه كان

مفجعا ، وهو اقل من خلال اخطائه الذاتية منه من خلال خطأ محققه موراتوري الذي نشر اجزاء منه ، وبرغم انه ليس كامل تاريخ ببينو في مجموعته الحاملة لعنوان « الكتابات الايطالية الوسيطة » وفي المجلد السابع المنشور في ١٧٢٥ طبع موراتوري كامل كتاب ببينو الخامس والعشرين ومنحه عنوان « كتاب برنارد الخازن – الاستيلاء على الاراضي المقدسة » (٤) .

وقد حصل موراتوري على هذه الفكرة من ذكر ببينو لبرنارد مرتين في عمله.

Haec ex Historia Damiatae sumta sunt. Sed de discessu Regis Johannis, et qualiter Christiani Damiatam Soldano reddiderunt, et nonnulla quae sequuta sunt, sic scribit Bernardus Thesaurarius. (٥)

Haec de gestis Regis Johannis sumta sunt ex Historia Bernardi Thesaurarii. Qualis autem fuerit exitus non inveni, vel quod Historiam non compleverit, vel quod codex, unde sumsi, fuit imperfectus.(٦)

وبطريقة ما أو بأخرى اخذ موراتوري هذه المراجع وخاصة الثاني ، الذي يرد ذكره في الفصل قبل الأخير ، ليعني ان كامل الكتاب الخامس والعشرين مأخوذ من برنارد ، وبناء عليه اعطى الكتاب الخامس والعشرين العنوان الذي يحمله في طبعته ، وادى هذا بالدارسين وكتاب التراجم على السواء الى ان ينسبوا الى برنارد اصل كامل الكتاب الخامس والعشرين ، على الرغم من حقيقة ان اسم برنارد موجود فقط في مخطوطين لتاريخ قصير ، ويحتمل انه لم يتمكن من تقديم كل المادة ولايرتبط مطلقا باي مخطوط لتاريخ هرقل الذي امكنه وحده ان يقدم الاجزاء الاولى من الكتاب ، وقد استمر هذا الخطأ حتى ١٨٧١ ، وعندما صححه ماس لاتري اخيرا في طبعته عن برنارد ، وحتى في حينه اقتصر ماس لاتري على بيان كيف ولماذا اخطأ موراتوري وكل اولئك الذين ضللوا بطبعته (٧) .

وهكذا شغل على مايبدو بالتخلص من الخطأ ، حتى وقف عاجزا تماما عن تفحص بينة ان عمل ببينو قد اعطانا حقا بينة على تاريخ برنارد سوف تدرس مفصلة فيما بعد فيما يتعلق بمسألة التأليف ، وفي الوقت الراهن فان سمات عمل ببينو التي تبدو هامة هي انه مثل سانيوتوس لم يكن يعرف « التاريخ » بل ترجمة باللغة الدارجة له حتى انه مرة اخرى مثل سانيوتوس يتقبلها كمرجع ، وانه الاول الذي يذكر برنارد الخازن كمؤلف للتاريخ ، وهذه نقطة علام في تطور النيول ،لأنه للمرة الاولى تستعمل النصوص العامية على نطاق واسع كمصدر (ان استعمال سانيوتوس لتاريخ هرقل شيء صغير بالمقارنة ، وهو لم يكن يعرف برنارد بالمرة) وبهذا ارسى الاساس لاكثر الاخطاء تشويشا ، وبعدا عن الادراك ، لافساد الدراسات التالية للنصوص .

ويقدم دخول الطباعة في القرن الخامس عشر دلالة مفيدة على الاذواق الادبية في ذلك العصر : اي كتب كانوا يرونها تستحق الطبع ، ومما له مغزى ان تاريخ هرقل او على اي حال اي جزء منه كان احدها ، وكانت مخطوطات منه بالطبع مازالت تستنسخ ، وعلى سبيل المثال تلك النسخة فاخرة التزيين المعدة من اجل البلاط الانكليزي ، وهي الان في المتحف البريطاني [٨] ، ويرجع تاريخها الى هذه الفترة ، وفي ١٤٨١ نشر وليم كالستون تاريخ غودفري البوليوني وفتح بيت المقدس وهووترجمة كالستون الخاصة للكتب التسع الاولى من تاريخ هرقل ، اعني التي تغطي حياة غودفري البوليوني مع مقدمة قصيرة وخاتمة من تاليف كالستون نفسه ، وقد حرف كالستون العمل كما تبين من عنوانه ، وتذكر مقدمته كأبطال ثلاث عظام آرثر وشارلمان وغودفري ، والكتاب هكذا سيره ذاتية لغودفري اكثر منه تاريخ للحروب الصليبية ، وهنا نرى النص العامي يستعمل مرة اخرى وهذه المرة لاكمصدر تاريخي كما استعمله ببينو ولكن كجزء من سيرة ادبية راسخة وقابلة للمقارنة بالسير المحيطة بارثر وشارلمان ، وهي في الواقع ليست اقل من مادة جديدة وقد اعيد نشر كتاب كالستون في ١٨٩٣ من قبل وليم

موريس الذي اعاد في مطبعة كلمسكوت . طبع الطبعة الأولى (٩) من كتاب كاكستون ، وفي السنة نفسها نشرت جمعية النصوص الانكليزية القديمة طبعة من عمل كاكستون بواسطة ماري كوافن (١٠) ، ولسوء الحظ انه الى الحد الذي يعني مصادر كاكستون ، فإن مقدمة الآنسة كوافن ثانوية تماما ومضللة بدرجة كبيرة وهي لاتقصر نفسها على تاريخ وليم وترجمته الفرنسية ولكنها تضع تعليقات واسعة نوعا ما على أرنول وبرنارد وكلها قائمة على البحوث المختلفة لماس لاتري المنشورة في الفترة التي سبقت طبعتها مباشرة ، ولكن هذه لاتمثل دائما مكتشفات ماس لاتري بدقة ، ولحسن الحظ أن تأثير هذه الطبعة على الدراسات التالية يبدو أنه معدوم ، وبعد منشورات كاكستون ١٤٨١ فان الذيول وكل النصوص المرتبطة بها يبدو انها نسيت لنحو ٢٠٠ سنة ، وليس حتى ١٦٧٩ ان ظهر اي عمل جديد على النصوص وقد قدمت في حينه بصورة غير متقنة جدا ، وبحيث لم تثر بين النقاد سوى الشك في مصداقيتها ، وكان مؤلف العمل صمويل دي بروويه ـ صاحب «سيرتي دي لي غوتتة » الذي ادعى أنه قد ترجم الى الفرنسية الحديثة « مخطوطا قديما جدا » وفي مقدمته اكد مطولا على اخلاصه الكلي للنص (١١) وفي الواقع انه كان بشكل عام يعتبر أنه قد اكد كثيرا وأكثر من اللازم وكانت العقبة ان لااحد سواه رأى المخطوط الذي زعم بأنه أعطي له من قبل كبارت دي فيلرمونت كما أنه لم يعرف في الواقع حتى اليوم ، وهذا الظرف مجتمعا مع الاختلافات بين تاريخه والحقائق المعروفة آنذاك حول الحروب الصليبية جلب له عدم التصديق الاجتماعي في نقاد الأدب ،وتعطيه « دورية العلوم » نوعا ما من جوائز الترضية لكونه من السائغ القراءة فيه ، وغير ذلك فانها لم تزعج نفسها بالتحري عن مصدره (١٢) . ولكن الرواية التي حواها كتاب دي برويه هي بشكل واضح تماما نسخة معدلة من النص الذي نعرفه الآن باسم « تاريخ ماوراء البحار » الموجود في مخطوطين ف . فر ٧٧٠ و١٢٢٠٣ في المكتبة الوطنية ، وكما ذكر سابقا في استعراض النصوص المتبقية (١٣) هناك فروق بين الكتاب المطبوع

والمخطوطين الباقيين تكفي للايحاء بأن مخطوط دي بـرروويه لم يكن أيا منها ، ولكن لايوجد أي ظل محتمل للشك في انه استعمل مخطوط آخر للنص نفسه ، هـذا وأن نص دي بـرروويه مصـان ، ويبقـى اكتشاف اذا ماكان المخطوط الذي استعمله دون شك مايزال بـاقيا.

وأخيرا ظهـرت في ١٧٢٩ أول طبعـة حقيقية للذيول ففـي مجلد (٥) من كتابهما « المصنف المجموع » لكل مـن مـارتيني وديوارند نشرا ذيل تاريخ وليم الصوري ، اعتمـادا على مخـطوطة امتلكها غاستون دي نوللي (١٤) وذلك بعنوان :« ذيل تـاريخ وليم رئيس اساقفة صور » ولم يذكرا اسم المؤلف (١٥) .

وشعرا أن من الضروري أن يضيفا الى هـذا مسردا للكلمـات الفرنسية القديمة العسرة ، وشروحها التي لايمكن معرفتها بسهولة من قبل قراء تقتصر معرفتهم على اللغة الفرنسية الحديثة، ولكنهمـا لم يوفرا اي جهاز نقدي ، والمقدمة تحـوي ببسـاطة مـديحا لوليم وبعض الملاحظات على الصـعوبة اللغـوية للتـكملة وتـاريخ تأليفها ، ولكن طبعتهما قد أدت مع ذلك الهدف الضروري جدا وهـو توفير نص واحد من التكملة بصـورة مـطبوعة ، وتقـديم نقـطة ماللمقارنة بطبعة موراتوري في الكتـاب ٢٥ لتـاريخ بيبنو ، وقـد لوحظ التماثل بين النصين المره الاولى من قبـل سـاندي في طبعتـه لحوليات رانيالدي ، ويجدر حكمه بالاقتباس الكامـل لانه يبين كيف ان خطأموردتواري ، مع كونه فرضية لم يعترض عليها ، بل ايضـا غير مثبتة ببينة من نوع رديء تدعمه ، أصبح نبـذه أكثـر صـعوبة بكثير ، وبعد اقتباس فقرات من النصـوص المنشـورة مـن قبـل موراتوري ومارتيني وديوراند خلص الى مايلي :

Ex his patere arbitror Gallicum Latinumque scriptum unum idemque esse opus Bernardo Thesaurario tribuendum, quod a doctissimis Gallici editoribus ignoratum fuit. Discimus pariter F. Pippinum mutilum codicem Gallicum nactum fuisse, cum Latinam Historiam nonnisi ad annum 1230 circiter perduxerit. . . . Continuavit utique Thesaurarius historiam suam usque ad annum 1274 quo Lugdunense I Concilium celebratum fuit; ejusdem enim in fine historiae suae meminit. Hinc etiam de aetate Bernardi Thesaurarii, quam Muratorius ex conjectura tantummodo subodoratur argumentum capere licet. (١٦)

ومحور جدل ماذس وأساسه ان نص مارتيني وديوراند ومصدر نص موراتوري كانا واحدا ، وكان واضح الصواب جدا حتى أن احدا لم يتمكن بأي حال من دحضه ، وقد حمل معه بقية تأكيداته وتعريفه للتاريخ بنص المخطوط غ . ج مع النيل حتى ١٤٧٥ كمصدر لتاريخ بيبنو حتى ١٢٣٠ . بدا معقولا تماما ، ألم يشك بيبنو نفسه بأن المخطوط الذي كان يستعمله كان ناقصا ؟

وهكذا كان موراتوري مبرأ ، وهكذا بدا ، وكان هناك مع ذلك تيار راي منافس ينسب التتمة الى رجل يدعى هوغ بلاغون ، وبينما كان من السهل رؤية كيف ولماذا ظهر خطأ موراتوري بدا أن هوغ بلاغون قد أوجد من لاشيء فاسمه لايظهر في اي مخطوط النيول ، أو النصوص المتعلقة بها ، ولكنه يذكر للمرة الاولى من قبل دو كانج في مسرد شروح ١٦٧٨ في قائمة المؤلفين باللغة الدارجة ، الذين تم الرجوع اليهم من قبل هوغ بلاغون في نص وليم الصوري ، فهذا ماجاء في مقدمة المسرد (١٧) ، فقد نسب دوكانج الى بلاغون ترجمة التاريخ ، ولكن دوم كاربينير محقق كتاب دوكانج اضاف الى هذه الطبعة في ١٧٦٦ اشارة الى نص مارتيني وديوراند وهكذا نسب الى بلاغون التتمة كما نشرت في كتابهما المصنف المجموع (١٨) ومنذ ذلك الحين فصاعدا تتنافس هاتان النسبتان المتساويتا الزيف بعزو النيل الى برنارد من جانب وهوغ بلاغون من جانب آخر ، تتنافسان مع بعضهما بعضا ، وقد تبع فيفريت دي فونت وهو محقق كتاب ليونغ « مصادر التاريخ الفرنسي » في ١٧٦٩ كاربنتير ، كما فعل ميوسيل في مراجعته لكتاب ستروفيوس « مصادر تاريخية » في ١٧٨٦ (١٩) ومع ذلك فان

ميشو قد تبع ماذسي في طبعة ١٨٢٢ من كتابه « مصـادر الحـروب الصليبية » وقد ترجم ملاحظته مزودا اياها بمقارنات اضـافية بين طبعتي موراتوري ومارتيني ليدعم استنتاجات ماذسي (٢٠) .

واخيرا واكثر اهمية فان غويزو وقد لاحظ أنه لاتوجد مـدرستان للفكر في الموضوع أثر رأي ماذسي وقد نشر مجموعة مذكراته المتعلقة بتاريخ فرنسا « مجموعة مـذكرات متعلقـة بتـاريخ فـرنسا » في ٣٠ مجلدا خلال السنوات ١٨٢٣ ـ ١٨٣٥ ، والمجلد ١٩ يحتـوي على مايسميه تاريخ برنارد الخازن وهو في الواقع الترجمة الفرنسية لوليم مع نيل مارتيني وديوراند بعـدها ، و في الواقـع ان معـرفته بالنصوص بالكاد يختلف عن معرفتهما ، ومقدمته تعيد اخـراج كل رصيد الملاحظات على مايمكن الآن ان يسمى تقليد مـاذسي ، ولكن غويزو اتخذ خطوة واحدةهامة الى الامام فهو قد بين أنه بينمايكمل نص مارتيني وديوراند حتى ١٢٧٤ فان مخطوط ببيذو عن بـرنارد على مايبدو توقف عند ١٢٣٠ ، ونسي على مايظهر ادعاء ببيذو بأن مخطوطه كان على أي حـال ناقصـا ويقـدم غويزو الآن النظـرية المفيدة ، والتي هي اتفاقا صحيحة ، ان نيل تاريخ وليم الصوري في الواقع ليس واحدا بل سلسلة من النيول ، وبصرف النظر عن هـذا فان طبعته غير جديرة بالملاحظة فهي نص معروف من قبل مع ترجمة فرنسية حديثة على الصفحة المقابلة ، مع حواش نيلية بشكل رئيس ذات أهمية تاريخية وليست متعلقة بالنص .

وبدا الاسهام في حقل الدراسة يلي بعضه بعضا كثيفا وسريعـا ، واول ماظهر بأكثر من معنى واحد ، وهو الاكثـر وزنا كان الطبعـة التي اخرجها اعضـاء أكاديمية النحـت عن تـاريخ وليم بـالنص اللاتيني مع التـرجمة الفـرنسية مـع النيول بـأربع روايات (٢١) اضافة الى تكملة روثلين وقد نشرت هذه في مصـنف راشيل «مؤرخو الحروب الصـليبية» ،كمجلد (١) ومجلد (٢) مـن سلسله المؤرخين الغـربيين ،وظهـر المجلد الاول مـن جـزأين في ١٨٤٤ ويتالف من « التاريخ » الصحيح مع التـرجمة الفـرنسية

تحتـه في حين أن المجلد الثـاني الذي نشر في ١٨٥٩ يقـــدم كل النيول ، وهو عمل دال على البـراعة الحقيقية ، وبـالطريقة التـي اختارها المحققون هـي اخـذ نيل واحـد ونيل « أ و ب » اي نص كولبرت فونتنبلو كنص رئيسي حتى نهاية الكتـاب ٣٣ (١٢٤٧ م) ثم طبـاعة منوعات ع . ج و س . ج و د في حـواشي نيلية ، أو في حالة الفقـرات الموسـعة ، كنص مسـتقل في نيل الصـــفحة ونص روثلين (٢٢) مطبوع بصورة مستقلة في النهاية ، وطبعتهـم هـكذا لايمكن تثمينها لاي دراسة للنيول فهي تقدم كما تفعـل كل الروايات الرئيسية في صورة تسمح بسهولة المقارنة .

وهناك عقبـة واحـدة كبيرة مـع ذلك ، أعني الاغراء بـالسماح لصورة الطبعة المختارة من قبل المحققين بأن تحكم مسبقا للقـارىء في قضية أولوية احد النيول على الآخر ، وأن تقـود وبغير وعي الى قبول أفضليته على « أ وب » وحتـى الى اعتبـار كل النصـوص الاخرى صورا مختلفة لهذين الاثنين ببساطة لانهما طبعـا هـكذا ، وللتأكد هناك حجة تتخذ لعمل ذلك بالضبط ، ففي الواقع إن مـاس لاتري سيمضي فيما بعد بعيدا الى حد تأكيد أن نص « أ و ب » هو الأقرب للتاريخ الأصلي لأرنول : ولكن هذا ليس بأي وسيلة مسـألة مطروحة ومنتهية واحدى الحجج الرئيسـية حـول هـذه الدراسـة ستكون ان الادعاء القائم هكذا حول نصـد أ و ب» ليس مسوغا.

ومقـدمة المحققين النيول في المجلد الثـاني هـــي خليط غريب لاستنتاجات مستخرجة بدقة ، وحدس فـج والمثـال على الأول هـو الفقرة (٢٣) حول أصل المخطوط « د » في حين ان كل المادة حول ارنول وبرنـارد يجب ان تنقل الى الفئة الثانية ، وقد يكون المحققـون محقين في استنتاج ان التواريخ القصيرة التي تحمل هذه الاسماء لا يمكن ان تصنف على نحو يتوافق مع نيول وليم الصـوري بغـرض تحقيقها ، ولكن الاقتراحات التي في مقدمتهم تؤدي الى هذه النتيجة ويجب ان ترفض تماما فليس لديهم على سـبيل المثـال أسس كافية

حتى للافتراض (٢٤) بأن أرذول وبرنارد كلاهما مخلصين للأعمال السالفة أكثر منهما مؤلفين بحق ، أو نقطة ضعيفة الضرى في المقدمة ، برغم أن هذا ليس تأكيدا زائفا بقدر ماهو تأكيد مضلل هي تحليلهم (٢٥) للنيول الدقيقة بين الاثنين الفترة ١١٨٣ ـ ١٢٢٩ قائلين ببساطة بأن في هذا القسم يتكون التنقيح الغربي من النيل الشرقي في صورة موجزة .

ويبدو هذا في البداية نقطة صغيرة ، ولكن بأخذها بقيمتها الظاهرة فإنها تفسر منذ البداية اي دراسة العلاقات بين النيول ، والمقارنة الدقيقة للنصوص تظهر انه في المقام الاول أن الصلة بين الاثنين أكثر دقة مما يوحون وأنها في الواقع من نوع مختلف بالمرة ، وفي المقام الثاني فانه يصبح ظاهرا بسرعة ان مثل هذا التقسيم الصارم للنصوص في نسختين منفتحتين غير واقعي تماما ، وإجمالا فان طبعة الأكاديمية للنيول تبعث على الاعجاب في كل مايتعلق بالنصوص ولكن المقدمة يجب ان تعالج بحذر في الأقسام المتعلقة بالنيول ، في حين ان الفقرات حول ارذول وبرنارد من الافضل اغفالها تماما ، ونشر هذه الطبعة يدخل فيما يمكن أن يوصف بالعصر العظيم لدراسات وليم الصوري ، وفي سنة ١٨٦٠ السنة التي نشر المجلد الثاني نشر لويس دي ماس لاتري كتابه « دراسة تصنيفية لنيول تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري » (٢٦) ، في ١٠٢ صفحة ، حيث قام بهجوم مباشر على المشكلة الرئيسية التي لم تمس حتى حينه حول أصل تنوع النيول المتبقية ، استهدفت حركته الاولى ، محاولة اختزال الظاهرة في تعابير قابلة للفهم ولترسيخ خمس فئات من المخطوطات ، وكان المعيار الوحيد هو الزمن الذي وصل اليه التأريخ ، وهذا النهج مضلل الى حد ما ، لأنه يحجب الحقيقة (التي كان ماس لاتري بالطبع مدركا لها بشكل جيد جدا) وهي أن المخطوطات التي تتبع فئات مختلفة قد تكون متشابهة لبعضها بعضا في أقسام معينة من نصها على سبيل المثال « س ج وغ ج و د » في الجدول الذي على صفحة ٧ ـ ٨ كلها تتوقف عند تواريخ مختلفة ، وهي توضع بناء

عليه من قبل ماس لاتري في فئات مختلفة ، ولكنها جميعا تعطي النص نفسه (انظر الجدول) للفترة ١١٩٧ ـ ١٢٣١ وبكلمات اخرى فان فئات ماس لاتري تمضي الى ماوراء حدود عائلات المخطوط ، هذا وإن « الدراسة » ايضا مكتوبة بتركيز شديد حتى انها مشوشة أحيانا ، ومع ذلك فانه أول رسم المشكلة بتعابير عامة هو أول محاولة ناجحة لتقويم المعتقدات الموجودة حول مجموعة وليم الصوري ، والتمييز بين الحقيقة والخيال والتخمين ، وعلاوة على أن تصنيف ماس لاتري للمخطوطات وفر الاطار ليس فقط من أجل ابحاثه الخاصة التالية ، بل من أجل كل الذين تلوه في هذا الميدان حتى الوقت الحاضر .

وبصرف النظر عن تصنيفه للمخطوطات المعروفة له ، فان ماس لاتري عالج ايضا العديد من المشكلات ذات العلاقة وابرزها هوية برنارد وايضا هوية أرنول الذي شد الاهتمام الآن المرة الأولى ، وحتى هذه النقطة لم يبذل اي اهتمام بمخطوطات التواريخ القصيرة التي تحمل اسماءها ، الا من قبل محققي الاكاديمية الذين اتوا على ذكرها فقط ليستعبدوها .(٢٧) وقد ترجم سيرتي دي لي غوتيه « التواريخ » وقد عالجت كل الدراسات الأخرى اما « التاريخ » أو الذيول الحقيقية ، مع أن كثيرا منها كما رأينا نسبتها جزئيا أو كليا لبرنارد ، والآن صنف ماس لاتري أخيرا كل المخطوطات المعروفة من قبله ، سواء الذيول أو للتواريخ القصيرة فتعامل معها كأنواع مختلفة من جنس أو أصل واحد وبين هذا في حد ذاته أنها كما لو كانت بطريقة غير مصنفة بعد ، ومرتبطة ببعضها بعضا ،أما كيف تترابط بالضبط ، هي المسألة التي شغلته والتي مضى شوطا مانحو تحديدها، وأشار عمله بالنهاية الى حل ، لكنه لم يتوصل الى هذا الحل ، وكانت الفرضية التي طورها أن الذيول المرتبطة بالنص الفرنسي لوليم تتكون جزئيا من تواريخ مستقلة كتبت في أوروبا وفي بلاد ماوراء البحار ، قبل اجراء الترجمة ثم تكيفت فيما بعد من أجل الاستعمال كذيول ، وقد استنتج ان تواريخ أرنول

وبرنارد كانا اثنين من النوع الاخير ، وفيما يتعلق بـارنول اقتـرح مـــاس لاتـــري ايضـــا ان النص الذي ذكر فيه اســـمه وهو « المختصر » ، رواية ١٢٢٩ ليس في الحقيقة أفضل رواية محفوظة من عمله بل ان نيل كولبـرت فـونتيلو (أ وب) التـي كثيرا ماتعطي رواية أكمل كثيرا القصة الاساسية نفسـها ، هــي أكثـر انتاجه صحة ، وهذا الايحاء يبدو انه فقد تماما مــن قبـل المؤرخين الحديثين الذين عندمـا يشـيرون الى أرنول يعنون بصـورة لاتتغير بذلك التاريخ الذي يسميه كما نشره ماس لاتري ، والايحاء الآخـر لماس لاتري هو أنه اعتقد انه من الممكن رغم عدم البـرهنة على ذلك ان التاريخ الاصلي لأرنول قد توقف أبكر من ١٢٢٧ (النهاية هي جزء النص الذي يحوي اسمه) جـزئيا لانه بـدا أن هناك تبـدلا في تنقيح عن أو حـول وفـاة هنري دي شـامبين في ١١٩٧ ، وجـزئيا بسبب تلميح من قبل رالف الكوغشالي الى تاريخ فرنسي هو تـرجمة من قبل رتشارد رئيس دير رهبان الثـالوث المقـدس في لندن اعتقـد ماس لاتري انه يمكن أن يكون تاريخ أرنول (٢٨) ، فاذا كان كذلك اذا فلابد أنه قـد وجـدت في حينه رواية لهـذا النص متـوقفة في ١٢٢٠ أو قبلها عندما المح اليها رالف ، ولكن ماس لاتري غامضا حول الطبيعة الصحيحة ، وكذلك حول اتساع عمل ارنول مشيرا الى القسم المتقدم على ١١٩٧ من التاريخ مع اسـمه كأنه لم يكن هـذا هو التاريخ الاصلي لارنول بل إنه على الاقل تاريخ سالف استعمل من قبل ارنول وأن ارنول نفسه منقح (٢٩) أولي أو مصنف واجمالا لابد أن شيئا مايمكن قد توقف عند ١١٩٧ لكن ماهو ؟

وهل الف أرنول أم أنه قام بمجرد جمـع ؟ وكل هـذه الاسـئلة المتروكة دون حل من قبل ماس لاتري ، سوف يتم التعامل معهـا في فصول تالية ، و بالنسبة لتاريخ برنارد الخازن بين تماما ماس لاتري اخيرا خطأ موراتوري ، وأكد أن برنارد لم يترجم وليم بـل إن عمله كان مستقلا تماما عن « التاريخ » الذي يمكن أولا يمـكن أن يكون برنارد على معرفة به ، وعند هذه النقطة يزحـف بعض التشـويش

على حجة ماس لاتري ، فهو يذكر بوضوح من جانب أن برنارد الف تاريخه (أ في الجـدول الموجـود في ص ١٠ - ١١)بـاستنساخ التاريخ القصير وفيه اسم أرنول (ز) ومضـيفا تـكملة قصـيرة أصلية حتى يوصله الى ١٢٣١ وأيضا البداية التي مطلعها « سنة التجسيد »

ولكنه من جانب آخر يورد بيانات حول برنارد لايمـكن بحـال أن نستنتج من الأقسام الصغيرة لكامـل النص « د » (٣٠) وهــذا الاخفاق في التمييز بدقة كافية ، وبصورة متساوية ومتمـاسكة بين عمل برنارد الخاص ومصدره ، مع أن المرء يقـدر تمـاما صــعوبة القيام بذلك في متاهة النصوص المتنوعة ، وهــذه احـدى الســمات الأكثر ارباكا في « الدراسة » ومن الضروري الاشـارة بـاستمرار رجوعا الى بيانات ماس لاتري المحددة لرأيه في بـرنارد وقـراءة كل مادته الأخرى عن برنارد في ضوء ذلك (٣١) وأخيرا يستنتج ماس لاتري من استخدام ببينو لبرنـارد ، انه في الزمـن الذي كان يكتـب فيه ببينو في ١٣٢٠ كان تاريخ بـرنارد قـد امتص تمــاما مـــن النيول ، وفحص جديد لببينو سوف يظهر في فصل تال أنه بينما كان يوجد بالتأكيد بحلول ١٣٢٠ روايات عن « الهرقليات » تتضـمن أجزاء من التاريخ المنسوب الى برنارد ، لم يكن هكذا ان ببينو قـد عرف برنـارد ، ولكن كعمل تـام ومسـتقل ، متمـاثل وأن يكن غير مشابه للعمـل الذي نملكه الآن في نص « أ » أو بينمـا يبين مـاس لاتري ويصحح خطأ موراتوري فـان شـبحه مـايزال مســتحوذا عليه ، ثم يمضي ماس لاتــري بعــد ذلك في القســم الثــاني من « الدراسة » ليدرس النيول الحقيقية في فتـرتها الاولى ، أعني حتى ١١٣٢ ، وهي أيضا مجال هذه الدراسـة ، ويبـدأ بملخص مفيد للنتائج التي قاده اليها القسم الاول بادئا بواحدة يناقض فيهــا نفسه ،أكد انه هناك ترجمات لوليم تقدم عمل بـرنارد نفســه ، وفي وقت أسبق كان يهاجم فيه فـكرة ان بـرنارد لم يكن يعـرف عمــل وليم ، أكد انه هنـاك ترجمات لوليم تقدم عمل برنارد نفسه وانه بناء عليه كان ممكنا تماما لبرنارد أن يعـرف « التـاريخ » في تـرجمة

فرنسية (٣٢) وهـو يعلن (٣٣) الآن كنتيجة رئيسية أن أرذول وبرنارد كلاهما قد كتبا تاريخهما قبل أن تجري أي ترجمة لوليم وفي وقت متأخر مع ذلك (٣٤) رجع الى فكرته الاولى مرة أخرى واعلن متذمرا نوعا ما :« يبدو لي مرة ثانية ، من خلال التاريخ انه (أي برنارد) كان لايعرف بوجود ترجمة فرنسية للتاريخ العظيم الحروب الصليبية » .

ومن بقية هذا القسم تخرج أفكار جديدة عديدة برغم أنها تخمينات حول دور ماس لاتري أكثر منها استنتاج من البينات ، فهي بين أكثر اسهاماته قيمة ، وليس غير كثير أن الفحص الدقيق للنصوص الباقية حتى الآن ، يشمل مخطوطا هاما واحدا لم يكن ماس لاتري يعرفه (٣٥) والعديد مما لم يوليه اهتماما حقيقيا ، يؤدي إلى نتيجة منطقية كان قد سبق له أن قدمها كفرضية متخيلة ، وكثيرا مايكون مصيبا ، ولكنه غير قادر على عرضها بصورة مقنعة ، وهذه المعالم يقدمها ليرشد إلى طريق لم يكن هو نفسه قادرا على اتباعه حتى نهايته ، وهو على الأقل بقيمة النتائج نفسها التي توصل إليها بالفعل وأحيانا أكثر .

لقد أحدثت « الدراسة » ثورة في دراسة الذيول ، ولسوء الحظ إن الأثر لم يكن محسوسا على الفور ، إذ في شباط ١٨٦١ ظهرت دراسة للودويغ ستريت لم تأخذ الدراسة في الحسبان بالمرة ، وحيث أن ستريت يشير إلى عمل ماس لاتري حول ارنول مجسدا في كتابه « تاريخ جزيرة قبرص » فإنه من المعقول افتراض انه كان لابد أيضا أن يشير إلى « الدراسة » أو أنه كان يعرفها إذ أنه لابد أنه كان مكبا على كتابة بحثه الخاص ، والحكم من تاريخ النشر ، الفعلي في الوقت نفسه الذي كان فيه ماس لاتري يكتب « الدراسة » والمفروض أن يكون قد وصلت إليه متأخرة جدا ، وعلى كل الاحوال ففي كتابه « ذيل تاريخ ماوراء البحار لوليم الصوري باستثناء مواد غاليكو » (٣٦)

(واخفق الاسلوب الواعد بشكل مؤسف في كل صفحة)

ونسخ استريت إلى حد ما العمل الذي قدمه ماس لاتري في « الدراسة » ولكن أيضا غطى بعض الجوانب الجديدة التي لم يمسها ماس لاتري ، وهذا يجعل من المستحق الاحاطة بإيجاز بمضمون ماأسماه « لبلوس » وهو يعرض بنفسه خطة عمله بقوله :

> Itaque ab initio, quo melius disputatio procedat, breviter superiorum sententias recensebo . . . , tum ad ipsam caussam [*sic*] ita aggrediar, ut primum de totius corporis transmarini compositione disseram . . . , deinde narrationis, quae primae continuationis loco habetur, originem et propagationem investigare studeam . . . , denique scrutari incipiam, num certa quaedam illi cum Guilelmi Tyrii historia intercedat condicio quidve auctor secutus sit.(٣٧)

هذه اربعة اهداف من أجل « لبلوس » في نحو ٧٠ صفحة ، وهذا هو العناء الرئيس في بحث استريت فالاقتصاد يتجه نحو التردي وإلى السطحية ، ومع ذلك فإن لديه شيئا ما ليقوله حول كل هذه الموضوعات تارا كا جانبا غير الاصلي والواضح ، ويمكن أن نلخص إسهامه هكذا فهو ينبذ (٣٨) التمييز الذي قام به محققو الأكاديمية بين التنقيح الغربي والشرقي مبينا أن هناك ارتباطات متقاطعة بين الاثنين ، وهو مع ذلك لايصل إلى فكرة تقاطع مشتركة لمصدر المادة ، ولكنه فيما بعد يعطي فهرسا مساعدا ، وإن كان سطحيا وناقصا لمختلف الشرائح التي ترد في أكثر من نص واحد ، وهو أيضا ينتقد محققي الاكاديمية لوضعهم ثقتهم في نص المخطوطين « أ و ب » ولكن حججه في هذه النقطة ليست مقنعة في الواقع ، وهو يعطي (٣٩) أمثلة على القراءات السيئة في هذين المخطوطين ، وهذا في الواقع حجة القول بأنهما ليسا مخطوطين جيدين للنص الذي يعطيانه ، ولكن هذا ليس ماادعاه محققوا الاكاديمية في المقام الاول ، والاحرى أنهم أكدوا انه حيث يختلف نص هذين المخطوطين جذريا عن ذلك الذي تعطيه الروايات الاخرى عن الذيول في المحتوى وليس في مجرد الصياغة ، فإن رواية « أ و ب » هي التي تعتبر النص الأقدم ، ويبدو أن ستريت قد خلط نوعا ما بين المخطوط والنص ، وعلى أي حال فإن الحجج التي يعطيها (٤٠) حول أولوية

س . ج على كل الروايات الأخرى مقنعة بصورة ضئيلة ، وأكثر الأجزاء أهمية في عمله هو الفصل القصير الأخير حول أرنول ، فاستريت يظهر أرنول مؤهلا بشكل يعيد إليه اعتباره ، وكان مجردا حتى الآن من المعرفة لأن الكل قد نسبوا إلى برنارد ما يعتقد ستريت أنه من عمل أرنول ، أعني التاريخ القديم الممثل أعلاه على صفحة ٧ ــ ٨ بحرف « ز » ويجب تذكر أن ستريت يعتقد أنه أصلي جدا في إيراد هذه النقطة لأنه لم يقرأ « دراسة » ماس لاتري وهو يشير إلى فرص أرنول كموافق لباليان دي ابلين في الحصول على معلومات عسكرية صحيحة ، ويتفق مع الرأي القائل بالاعتراف بأنه من عمل أرنول الذي لاينازع ذلك الجزء من التاريخ الذي يشكل العمل الأكثر تكاملا مع تاريخ ابلين .

وهو يعتقد مع ذلك بأن أرنول قد مضى بعيدا إلى ماوراء الهدف الذي وضعه هو نفسه في جملته الافتتاحية مكملا تاريخ فلسطين لنحو ٤٠ سنة بعد فقدان بيت المقدس ، وبكلمات أخرى لايقبل ستريت نظرية أن أرنول قد توقف في أ قبل ١٢٢٧ ، بل إنه يعتقد أن عمل أرنول كما هو الآن مجزأ ، (٤١) فالأوهام التاريخية ينبذها كسمة لطريقة أرنول ويعتبرها إضافات أجنبية الحقت بالنيل (٤٢) ومرة أخرى يكرر تفضيله لرواية س . ج ، وبالنسبة للسؤال إذا ماكان أرنول قد استمد من « التاريخ » من أجل الجزء الأول من تاريخه ، يصل ستريت إلى النتيجة الغريبة أنه قد فعل ، ولكنه كثيرا لايتفق مع وليم وهما كما لاحظ سابقا مؤلفان مختلفين جدا .

ثم يثير ستريت بعض النقاط الصغيرة ، ولكنه لايخطو أي خطوة كبيرة قدما ، وكانت هناك عشر سنوات أخرى قبل ظهور عمل آخر ملموس . هذه المرة في صورة طبعة نقدية من قبل ماس لاتري لما عنونه باسم « تاريخ أرنول وبرنارد الخازن (٤٣) » وكانت هذه طبعة النصوص ، سمت المؤلفين ، هي التي مثلت في الجدول الذي على صفحة ٧ ــ ٨ بحرف « ز و أ » على التوالي ، وقد تم تبني مخطوط من العائلة نفسها مثل « ز » هو بروكسل ١١١٤

كأساس ، والاشكال المختلفة لما سـمي بمخـطوطات (٤٤) بـرنارد أعطيت في الحواشي النيلية ، وإضافة إلى ذلك فإن الاقسـام المميزة لعائلة « أ » المنسوبة من قبل ماس لاتري إلى برنارد نفسه . أعني المقدمة التي تبدأ بعبارة « سـنة التجسـيد » والقسـم الأخير الذي يغطي السنوات ١٢٢٧ – ١٢٣١ طبعت بالحروف المائلة في البـداية والنهاية ، وأعيد طبع « الدراسة » لعام ١٨٦٠ كملحـق بـالطبعة ، وأضاف ماس لاتري أيضا مـدخلا جـديدا انسـجاما بين طبعتـه وطبعات موراتوري ومارتين وغويزوت والاكاديمية ، ومـع النيول ، وكذلك أضاف أخيرا ، أوصافا للمخطوطات وللطبعات السابقة التي استعملها .

وفي المدخل تطورت آراء ماس لاتري كما يتوقع المرء عن تلك التي عبر عنها في « الدراسة » قبل ذلك بأحد عشر عاما ، والتغيير الاكثر قابلية للملاحظة هـو أنه الآن يشـد الانتبـاه إلى القيمـة المحتملة لمخطوط ليون (د) (٤٥). دون التخلي مع ذلك عن رأيه السابق بأن نص كوليرت فونتنبلو (أ و ب) هـو الاقـدم والاكثـر قيمـة بين الجميع ، ومخطوط آخر أيضـا هـو بـروكسل ١١١٤ قـد أدركه اهتمامه حديثا فقط ، وفي الواقع إنه قد أعد طبعتـه بـدونه ، وقـد انتهى تقريبا عندما لفـت كيرشـن دي لتنهـوف انتبـاهه إلى المخطوط ١١١٤ من المكتبـة الملكية بـروكسل الذي هلل له مـاس لاتري الآن على أنه « نص أعطى فرصة إضافية لتقرير مصنف نص أرنول » (٤٦) .

وقد بدأ مرة أخرى باستعماله بصورة شاملة كأساس لطبعتـه ، وكان مايزال لايعرف والواقع أنه لم يعرف مطلقا ، مخطوطا كان من الممكن جدا أن يفضله حتى أكثر من مخطوط بروكسل ، هو مخطوط القديس أومر ٧٢٢ (مخطوط ز) ويبقـى مـن المدهش أن مـاس لاتري وقد أخذ كما كان باكتشاف مخطوط بـروكسل ، لم يدرك أنه كان حريا أن يغير آراءه حول تأليف شريحة « سنة التجسيد » الى

آخره التي مازال يسميها تـوطئة بـرنارد والتـي طبعهـا بناء عليه بحروف مائلة في بداية العمل ، وسـوف نرى فيمـا بعـد أن هـــذه الشريحة كانت في الأصل غير مرتبطة كليا بالتاريخ الذي يرتبط بـه الآن ، لأنها لم تكن توطئة ، ولأنها لم تكتب من قبل برنارد (٤٧) .

وغير ذلك فإن المدخل يتعامل على نحو واسع مع بيينو ، متعقبـا تاريخ خطأ موراتوري ، ومرة أخرى إنه لغريب أن ماس لاتـري لم يستثمر بأي حال بشكل كامل البينة التي يقدمها بيينو لنا حول عمل برنارد ، بل إنه نبذ مسألة أي نص بالضبط هو ماظن بيينو أنه مـن عمل برنارد على أنها غير ذات أهمية (٤٨) ، بالتأكيد لأن نبذ سـوء تفسير موراتوري لبينة بيينو حيوي ، ولكنه ليس أقل جوهرية النظر إلى لما قاله بيينو حقا حول مصدره ، وقد وجدت الآن طبعات يمـكن استعمالها برغم أنها غير دقيقة للنص اللاتيني وللذيول الفـرنسية ، وللتواريخ القصيرة المنسوبة إلى أرنول وبرنارد ، وبقيت ترجمة وليم محققة بصورة غير وافية نوعا ما لأنها في مصنف راشـيل كانت قـد أعطيت منزلة حاشية نيلية ، ويبدو أن جهدا استثنائيا أقـل نسـبيا مما بذل للنص نفسه قد بـذل في سـبيله ، وبناء عليه اقتـرح بـولن باريس إخراج طبعة من « الهرقليات » أي التـرجمة والذيول معـا قائمة على المخطوطات التي تخص امبرواز فيرمين ـ ديدو ، وظهر المجلدان ١ و ٢ من هذا العمل المخطط له ، وهما يحويان الترجمة مع أوصـاف بيت المقـدس والجليل مـن النص الذي نشره مـاس لاتـــري ، وقـــداضيفت كملحـــق للمجلد الثـــاني في ١٨٧٩ و ١٨٨٠ (٤٩) وكانا مـزودين بحـواشي نيلية ومسرد الكلمات الصعبة وخرائط لونيون ، وهـذان المجلدان يجعـلان المرء يأسف كثيرا في الحقيقة لأن البقية لم تظهر (٥٠) .

ومن ذلك الحين لم تنشر سوى قطعة كبيرة واحدة من العمل وهي تتعلق بالذيول كما تتعارض مع وليم نفسه ، وترجمة وليم هذه هـي « المصنف المجموع» (٥١) لراينت ، ونشر في ارشيف الشرق اللاتيني لعام ١٨٨٠ ـ ١٨٨١ وهو فهـرس لكل المخـطوطات المعـروفة لكل

النصوص سواء « الهرقليات » أو التواريخ القصيرة وهو تحسين لتصنيف ماس لاتري على الرغم من أنه قائم على الأسس نفسها ويبقى القائمة المعيارية حتى يومنا هذا (٥٢) .

وقد أوقفت كل البحوث من زمن راينت على نصوص أخرى من المجموعة سواء « التاريخ » نفسه أو النيل اللاتيني أو الترجمة الفرنسية ، ولم يوقف منها شيء للذيول الفرنسية أو التواريخ القصيرة وكل هذا سوف يوجد مدرجا في ثبت المراجع ، ويبدو ذا علاقة هنا أن يذكر فقط تلك التي رغم أنها لاتتعلق بالنصوص التي تشكل موضوع هذه الدراسة أعني الذيول والتواريخ القصيرة ، فإن لها بعض الصلة بالمسالة التي بين أيدينا ، وقد حقق ماريان سالوخ في ١٩٣٤ التكملة اللاتينية التي وجدت ملحقة « بالتاريخ » في المتحف البريطاني المخطوط Reg. 14.c.x., (٥٣) وفي ١٩٤٣ نشرت اميلي بابكوك و م . س كراي ترجمه انكليزية للتاريخ تحت عنوان «الاعمال المنجزة فيما وراء البحار» (٥٤) وفي سنوات حديثه نشر ر . س . ب هو ينجز العديد من المواد العالية القيمة عن وليم تتضمن طبعة من فصل السيرة الذاتية المفقود من « التاريخ » (٥٥) وهو يعد الآن مع هـ . ي ماير طبعة جديدة من « التاريخ » (٥٦) .

ماالذي يبقى إذا ليفعل ؟! اي دراسة للذيول الفرنسية والتواريخ البسيطة مفيدة الى حد ما بأن تأخذ كنقطة انطلاق عمل ماس لاتري الذي يشكل في التحليل الاخير العمل النقدي الوحيد للذيول الذي يستحق أن يؤخذ بجدية كبيرة ، والوحيد الذي من المعقول ان توضع عليه أي درجة من الاعتماد ، ويصف ماس لاتري بوضوح بعض العمل الذي تركه ليعمل بعده « هو انهاء الفوضى الاساسية المتعلقة بتصنيف ذيول تاريخ وليم الصوري » (٥٧) .

وسيكون هذا هو الهدف العريض للدراسة الراهنة ، وضمن ذلك

الهدف الاكثر دقة وهو إعادة بناء تاريخ ارذول على الاقل في خطوطه العريضة حيث لاتسمح بما هو اكثر وحيث يكون ممكنا بالتفصيل .

ومن جانب أخر إن استنتاجات ماس لاتري عندما تفحص بإمعان تنقلب احيانا لتصبح اقل من محكمة ، وطريقته الكاملة في تحليل النصوص تستدعي عددا من الاسئلة على سبيل المثال القول عند إحدى النقاط في تتمة فونتبلو « أ و ب » وعند نقطة من بروكسل ١١١٤ (٥٨) بانها تشكل اقرب من تاريخ ارذول الأصلي ، وهو يفترض أنه سوف يوجد نص واحد يكون أقرب من النصوص الأخرى كلها من الاصل ، في كل قسم منه (٥٩) . وفيما يتعلق بالطبيعة المركبة لكل النصوص ، فإنه من الواضح ان هذا ليس يقينا يمكن الاعتماد عليه ، وهويميل أيضا بالاشتراك مع كل عمل في النصوص لان يتعامل مع كل منها ككل ، وبرغم أنه يعرف أن كل منها هو مجموعة من الأجزاء التي كانت يوما مستقلة عن بعضها بعضا فإنه لايعالج الاجزاء المنفصلة ، والاسئلة التي يسالها حول النص تنطبق دائما على الكل مع انها يمكن ان تكون بطبيعتها الذاتية مرتبطة بمرحلة مبكرة من تطور التصنيف حتى أن النصوص التي لدينا لايمكن باي حال ان تعطي اي جواب ذي معنى .

فعلى سبيل المثال بسؤال الى اي مدى كان تاليف معين قريبا لارذول الاصلي ، من الجوهري السماح على الاقل بإمكانية أن مراحل جديدة من التطور تفصل الاثنين ، وأن بعض أجزاء من النص يمكن أن تكون قد عانت تماما تغييرا أكثر من أخرى في العملية ، ويبدو أكثر منطقية وكذلك أكثر ربحا بقوة جعل الوحدات التي في التجمعات دائمة التغيير تذهب دائما الى تنظيم النصوص ، وليس هذا صعب العمل فيما يتعلق بالعدد الكبير نسبيا من النصوص التي نجدها في المتناول للمقارنة .

وسوف نبدأ ، اذا بدراسة مقدار ماهو معروف عن هويات شخصيتين ضبابيتين يجب أن توجه اليهما إشارات دائمة في دراسة

- ٣٥٧٤ -

النصوص وهما أرنول وبـرنارد ومـا الذي كتبـاه قبـل فحص بنية مختلف الروايات في « الهرقليات » .

الفصل الثالث

المؤلفون المفترضون

أرذول وبرنارد

١ـ أرذول

في نيسان ١١٨٧ أرسل غي لوزنغنان الى تابعة المتعب ريموند صاحب طرابلس وفدا يتالف من رئيس اساقفة صور مع مقدم الداوية والاسبتارية وريذو صاحب صيدا ، وباالين دي ابلين ، واذشقت الجماعة في نابلس حيث تخلف بالين في المدينة بينما تابع الاخرون رحلتهم متفاهمين على أن عليه أن يلحق بهم في اليوم التالي عند قلعة الفولة ، وبذلك لم يكن حاضرا عند الاشتباك المفجع والسيء التخطيط ، والذي وقع بين فرسان المعبد ومجموعة الاستطلاع بقيادة الافضل بن صلاح الدين وهو الاشتباك الذي يسمى أحيانا بمعركة الناصرة ، وعندما وصل بالين الى الفولة ، في اليوم التالي وجد المكان على مايبدو مهجورا » وبناء عليه بعث خادمه أرذول إلى الداخل ليسال من يجده فيه ، مخطوط ز ـ ورقة ٣٢ ظ ـ العمود (١) .

إن هذه هي صياغة اربعة مخطوطات الاولى منها هي برن ٤١ ، وبرن ١١٥ ، وبروكسل ١١١٤ (١) وكل المخطوطات الاخرى من الموجز ومعظم تلك الهرقليات، وتروى الحادثة بالطريقة نفسها بالضبط مع مجرد حذف اسم خادم باالين (٢) ويقوم على هذا الذكر القصير أساسا اي ارتباط باسم أرذول بأي من النصوص وهذه بينة ضعيفة ربما بذاتها ، ولكنها ليست بلا سند

قوي من مصادر أخرى والبـداية بتعـابير عامـة ، ان جـزء المختصر ، الذي يرد فيه ذكر اسم ارنول هو بقوة وبصورة موحدة مؤيد لموقف ابلين ، ويتعارض في تخمينه لشخصية باليان ومقاصده مع تواريخ معاصرة أخرى ، وهناك على سبيل المثال مسألة علاقة بالين بصلاح الدين ، ويذكر كاتب المختصر بشكل واضح انهما كانا صديقين مقربين تماما ، ولكنه يرجع ذلك الى شرف بـالين ، كما يظهر جيدا بشكل خاص في روايته حول مفاوضات بالين مع صلاح الدين من أجل افتداء فقراء بيت المقدس بعـد أن سـقطت المدينة في أيدي العرب المسلمين في ١١٨٧ وطبقـا للمختصر استخدم بـالين نفوذه لدى صلاح الدين لتخفيض المبلغ المطلوب الى نسب معقـولة ، ثم طالب علاوة على ذلك بتحـرير ٥٠٠ مـن الناس بـدون فـدية ، كمعروف شخصي له ، وأن صـلاح الدين وافـق على هـذه الشروط مراعاة لصداقته مع بـالين ، وليس ببسـاطة كحصـيلة للمسـاومة الدبلوماسية المعتادة والبعيدة عن الشك .

: 'Lors s'amolia Salehadins, et dist que, pour Diu, avant, et pour l'amor de lui qui l'em prioit, metroit le raençon a raison, si qu'il i poroient avenir. (٣)

وفي مكان آخر يشار الى بالين وأخيه بولدوين . صـاحب الرملة على انهما البارونان الفرنجيان الوحيدان في بلاد مـا وراء البحـار اللذان كان العرب المسـلمون يخشـونهم حقـا وعند ارتقـاء غي لوزنغنان سدة الحـكم في ١١٨٦ رفض بلدوين تقـديم الولاء له لانه كان يعتقد أن غي وزوجته سيبل ، التي أدعى بـأحقيته بـالملك مـن خلالها ، قد توجا بصورة غير مشروعة ، وقد عهد بأراضيه وبـابنه الصغير توماس الى اخيه بـالين ، وتـرك مملكة بيت المقـدس الى انطاكية حيث دخل في خدمة بوهموند ويقول المختصر :

'Quant Bauduins de Rames ot ensi fait, si vint a Balyan de Belin sen frere, se li carja son fil et sa tiere a garder, et prist congiet, si s'en ala. Dont che fu mout grans duels et grans domages a le tiere, et dont Sarrasin furent mout lié, car il ne douterent puis homme qui fust en le tiere, fors Balyan son frere seulement, qui demoura. (٤)

وقد ادخلت الحادثة بالتأكيد البهجة الى معسكر العرب المسلمين لأن المعارضة لغي كانت واسعة الانتشار ولم يكن بولدوين اللورد الوحيد الذي ترك المملكة عند ارتقائه العرش .

وثار انشقاق ونزاع عام بين بارونات الفرنجة وسرعان ما انشقت البلاد الى معسكرين منهم الموالون لغي وخصومه الذين اعتبروا ريموند صاحب طرابلس رئيسهم غير الرسمي ، وكان انقساما عجزت الدولة الصغيرة عن احتماله وكان اليه يعزى بالاجماع سقوطها ولكن « المختصر » . يتخذ رأيا مختلفا تماما من الحادثة المقتبسة أعلاه ، فهو يجعلها لا تصور الحالة العامة للاضطرابات السياسية السائدة في المملكة بل اهمية رجل واحد هو بلدوين صاحب الرملة ، وهذا نموذج لكامل معالجة « المختصر » والنصوص الاخرى حيث تتفق مع المختصر ، تعطى أهمية أكبر لأسرة أبلين مما كان لها حقيقة ، ومما كان لها هذا من قبل بشكل كبير .

علاوة على أن التواريخ الاخرى رغم معرفتها جيدا بعلاقات أبلين الوثيقة بصلاح الدين تضع تفسيرا أكثر اثارة الشك وحتى ازدرائيا صريحا لها وهي ليست مادحة جدا في وصف الطبائع الاخلاقية لباليان ، ومؤلف المدخل التمهيدي ، الذي على نحو لا يمكن انكاره يمثل القسم المتطرف من نقاد أبلين إلا أنه ليس منفردا بآرائه فهو يعطي هاتين الاشارتين الى أبلين .

Porro Balisantus, mortuo rege Amalrico, matrem puellae duxerat uxorem, quae Graia faece a cunis imbuta, virum moribus suis habebat conformem, saevum impia, levem mobilis, perfidum fraudulenta.(٥)

. . . contigit Stephanum de Torneham, ipsis obviare exeuntibus a Salahadino de Jerusalem, quorum nomina tunc temporis ob notam infamiae satis erant notoria. Unus eorum vocabatur Balianus de Ybelino, alter Reginaldus de Sydone.(٦)

وبكلمات أخرى إن شهرة ومقاصد أسرة أبلين . لم تكن بالمرة أمرا محددا فهل كانوا يا ترى الفرنجة الذين استخدموا نفوذهم الشخصي من أجل خير بلادهم أو كانوا ببساطة متعاونين ، أو ماكرين أو خونة ؟ مشهورين أي سيئي السمعة ؟ إن « المختصر » بلا تردد في جانب الابلينيين .

وبدقة أكثر إن التأكيد بأن مؤلف هذا الجزء من النص كان تابع بالين دي أبلين قد تأيد أيضا بواسطة الرواية ، ومن وصفه لمعركة حطين حيث من المؤكد أنه هو نفسه قد اشترك فيها ، وهو يصف المعركة من وجهة نظر جنود المؤخرة ، وفي هذا النص وتلك النصوص المرتبطة به عند هذه النقطة وليس في أي تاريخ آخر ، نقرأ قصة الساحرة العربية التي وجدت من قبل سرجندي من قوات المؤخرة وهي تلقي التعاويذ (٧) ، وبعد ذلك كل الرواية هي في المقام الأول عن عمل جند المؤخرة ، ومن المعروف جيدا من مصادر أخرى ان جند المؤخرة كانوا تحت قيادة بالين دي أبلين في ذلك اليوم ، علاوة على ذلك بعد المعركة يمضي المختصر في وصف هرب بالين ، مع واحد أو اثنين حيث كانت رحلته الى بيت المقدس ، وادارته للمفاوضات لتسليمها قد وصفت سابقا أعلاه ، وهذه الرواية برغم انها ليست بدون الضعف والانحياز الذي سبق لنا ملاحظته كسمة لها ، هي في الأساس دقيقة تاريخيا ، أي أنه لا يبدو ، عند مقارنتها مع مصادر أخرى بأنها قد حرفت الحقائق ، بل إنها فقط قد قدمت تفسيرا غريبا لها ، وكامل النص الذي تفحصناه للتو ، من معركة الناصرة الى استسلام بيت المقدس هو أحد أجزاء هذه التواريخ الاكثر قيمة ، والتي يستعملها المؤرخون الحديثون ، ولا يبدو إذا أن هناك سبب لعدم تصديق البيان المعطى في المختصر ، بأنه كان ارنول خادم بالين دي أبلين « الذي كان له الفضل في الكتابة » .

ان المعنى الصحيح المعزو الى تلك الكلمات مسألة كبيرة وحيوية ، وفي الوقت الراهن فإن هوية الرجل المسمى هي المسألة

التي في أيبينا ، وهناك ثلاث قطع من البينات خارج النص يفترض انه قد كتبها تلقي مزيدا من الضوء عليها .

اكتشفت الأولى واختيرت من قبل ماس لاتري في كتابه « تاريخ جزيرة قبرص » وهي وثيقة قبرصية ، معاهدة حلف هجومي دفاعي مدته خمس سنوات بين قبرص وجنوة ، أبرمت في نيقوسيا ومؤرخة في ٢ كانون أول ١٢٣٣ (٨) وبين أسماء الشهود اسم ارنايكس دي غيبلتو ويذكر المحقق أن هجائيات رسم أخرى للكلمات توجد في اماكن اخرى ، ولكنه لا يعطي أي مراجع ، وكما يبين ماس لاتري إنه بالطبع ليس مؤكدا ان هذا الرجل والرجل المشار اليه في « المختصر » واحد ، وهو نفسه ، ويحتمل أنه لا يمكن اثبات ذلك بطريقة أو بأخرى ، ولكنه احتمال واحتمال قوي عندما يتذكر المرء أنه كانت هناك صلة وثيقة بين عائلتي أبلين وغيبليت ، وفيما بعد عند فحص النيول سوف نجد مثالا واضحا حول طفل غيبليتي كان يربى في أسرة أبلين (٩) وانه على الاقل يحتمل جدا أن أرنول الذي كان في ١١٨٧ يتعلم مهنة السلاح كتابع لبالين دي أبلين كان هو أرنول دي غيبلت نفسه الذي في ١٢٣٢ كان رجلا ذا اهمية كافية في قبرص ليشهد على معاهدة ذات أهمية وطنية ، وكانت قبرص في ذلك الوقت محكومة بفعالية من قبل الايبلينيين الذين كانوا هكذا في وضع يمكنهم من المكافأة بمنصب رفيع ، وهو اخلاص ظهر أثره على كل صفحة من المختصر ، وقصة أن أرنول التابع كما يدعى أدت الى تسجيلها كتابة ، والاشارة الثانية الى أرنول سجلها فيليب النوفاري في قائمة لمشاهير المحامين والقانونيين الذين تلقى منهم تعليمه القانوني الكامل ولو أنه غير رسمي .

Apres fui moult acointé de monseignor de Saeste a Baruth et a Acre et en Chypre; et moult de chozes m'aprist la soie merci volentiers. Et apres tout ces grans seignors et sages usai moult en cort entor messire Guillaume vesconte et messire Harneis et messire Guillaume de Rivet le joune, qui moult estoient grans plaideors. Et au reaume de Jerusalem fui je moult acointé de messire Nicole Anteaume et de sire Phelippe de Baisdoin, qui estoient grans plaideors en cort et hors court.(١٠)

ولسوء الحظ لا يخبرنا فيليب أين عرف أرنيس وكما يمكن أن يرى من هذا الاقتباس فقد سافر كثيرا ولكنه يقرن اسم أرنيس باسم وليم دي ريفت الذي نعرف أنه كان في قبرص في الفترة موضوع البحث ، أعني في ١٢٢٠ حتى قبيل وفاته ١٢٣٠ .

وترد آخر اشارة الى ارنول في الهرقليات ، مع أن ذلك ليس في القسم الذي تتعلق به هذه الدراسة ، وفي صيف ١٢٣٢ نجد أرنيس دي غيبلت محاصرا في قلعة إله الحب من قبل قوات ريتشارد فيلا نجيري

Or retornerons a Richart le mareschal. Apres ce que il ot fait l'eschec a Casal Ymbert, il envoia en Chypre les Chypreis qui o lui estoient, et de la soe gent ausi. Quant cil furent venus en Chypre, si firent ensi que il orent le chastel et la vile de Cherines et la Candare, et la tor de Famagoste, et assegerent Deu d'Amors. Dedens le chastel de Deu d'Amors estoient . ii. serors dou roi, damoiseles Marie et Ysabel; et si y avoient chastelein Felipe de Cafran, et y estoit Arneis de Gybelet, que li sires de Barut avoit laissé cheveteine de la terre, qui moult poi y mist de conroi, si que neis le chastel ou les serors dou roi estoient, et il meismes ne garni il mie; ains dut estre perdu par soffraite de viande; et a grant mesaise et a grant meschief se tindrent tant que il furent rescos.(١١)

ومن هذه الاشارات الثلاثة يمكننا أن نبني صورة تخطيطية ، إلا أنها مساعدة تماما لارنيس دي غيلبت وهو رجل له أهمية كبيرة في الحقلين القانوني والسياسي ، وهو في الدول الصليبية كان معقدا أكثر من المعتاد في أغلب الأوقات وفي معظم الاماكن ، وحياته يبدو أنها قد امضيت في بطانه أسرة أبلين الحاكمة والتي في أواخر ١٢٢٠ وأوائل ١٢٣٠ كان حكمها قد تأسس بإحكام في قبرص ، وكل هذه العوامل ستؤخذ بالاعتبار في تعيين ما الذي امكنه وما لم يمكن أن يكتب بالضبط من مجموعة التواريخ التي هي موضوعنا ، وقد أن الآن الوقت للتحول الى الشخصية التي خلف الاسم الوحيد الآخر الذي تحفظه التواريخ لنا وهي شخصية برنارد الخازن .

برنارد الخازن

حالما نبدأ بدراسة برنارد الخازن نواجه بعبارة ظاهرة التناقض ، كما رأينا عند استعراضنا لحالة الدراسات ، لقد كان ينسب اليه تأليف أقسام كبيرة مختلفة من التواريخ سواء المختصر أو النيول أو ترجمة « التاريخ » حتى طبعه ماس لاتري في ١٨٧١ ، ومع ذلك فإن بينة المخطوط في ربط اسمه بالتواريخ هي في الحد الادنى بالمرة ، وملحق بنهاية المخطوطين برن ٣٤٠ وارسنال ٤٧٩٧ هذه الاشارة للناشر « أعمال ما جرى في بلاد ما وراء البحار للراهب برنارد الخازن من رهبانية القديس بطرس غوربي ـ المجموع ٢٣١ (١٢) » هذا كل شيء ، إن برنارد مسمى في مخطوطين فقط من عائلة من خمسة مخطوطات تحتوي النص نفسه ، ثم في اشارة نشر فقط ، وليس مثل ارنول في صلب النص ، ومع ذلك فلكل هذا يكون من غير المعقول التخلي بخفة عن صلة التاريخ هذه بغوربي ، إذ أن دير الرهبان كانت له شهرة عالية كمركز للدراسة واستنساخ المخطوطات ، وكان مكانا عاليا على الارجح لتأليف الروايات باللغة الدارجة عن الحروب الصليبية.

وقد تمتع دير القديس بطرس منذ تأسيسه بثروة طيبة فريدة ، ففي ما بين ٦٥٧ ـ ٦٦١ حولت باتيلدا أرملة كلوفيس الثاني مقر مستعمرة رهبانيه لوكسيل الى غوربي ، حيث منحت الطائفة الجديدة الأرض والماء بسخاء ، وقد توبعت رعاية هذه الطائفة من قبل ستة ملوك ميروفنجيين هم : كلوثير الثالث شيلدريك الثاني ثيري الثالث كلوفيس الثالث شيلدريك الثالث وداغوبرت الثالث ومن قبل ببين القصير وشارلمان ،حتى أن مزايا الدير عندما قدمت للتأكيد عليها من قبل راعي الدير ليوتشر بين ٧٥١ و ٧٦٨ ، ذكر أن الدير يملك أملاكا واسعة في

والميزة الاخرى لغوربي كانت الميزة الطبيعية لموقعه ، على بعد ١٢,٥ ميلا فقط من المركز الرئيسي لاميين على تقاطع الطرق الرئيسية من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب عاملا ذا اهمية خاصة في فترة الحروب الصليبية ، مما أوجد حركة أكثر من المعتاد بين معظم أقسام المجتمع ، وفي كل الاوقات كانت غوربي في تماس مباشر مع مجيء التجار وذهابهم ، وكذلك الحجاج سواء من الاكليروس أو عامة الناس والمبشرين والجنود ، وكثير من مثل هؤلاء الناس لا بد أنهم قد لقوا الحفاوة حتى في الدير نفسه ، وقد أسهم هذان العاملان بدرجة كبيرة في النمو السريع لفرقة النسخ ومدرسة غوربي ، وعبر عن احتلاله لمكانته العلمية وانشغاله بالبحث في الاجراء الذي اتخذه اولهارد الاكبر في ٨٢٢ (١٣) من اجل حصر استخدام ورق البردي من قبل الدير ، وقد أصبحت مخطوطات غوربي شهيرة جدا في الواقع ، وكان على المرء فقط أن ينظر الى كتاب مابلول « الدبلوماسية الملكية » (١٤) ليرى أي عدد متفاوت من صوره مأخوذه من مخطوطات غوربي ، وكان لغوربي تأثير كبير على المدارس الرهبانية الأخرى وعلى الشؤون غير الرهبانية أيضا ، وكان رهبانه يتجولون في كل أنحاء أوروبا لهدف أو لآخر ، وقد جاء كل من هاربرت راعي دير لوبس وبودس أسقف بوفيه وباسكارس رادبرتس ومنافسه راترمنوس ودروثمار اللغوي الذي درس في مدارس ستيفلوت ومالميدي،واخيرا الراهب يوحنا الذي ساعد في تأسيس مدرسة قصر الفريد في ويذشستر جميعا في الاصل من غوربي ، واستمرت شهرة الدير طويلا في الفترة التي تهمنا ، وذلك اعتمادا على الروايات المتوفرة حول مكتبته والفهارس الموضوعة لعام ١٢٢٠(١٥)وما بعده ، واجمالا كان غوربي في اوائل القرن الثالث مكانا مثاليا لتاليف التاريخ الصليبي ، فقد كان لديه كل التسهيلات الضرورية لمثل هذه المهمة : غرف النسخ ومكتبته وشهود عيان من الصليبيين العائدين ، وموارد مالية ووسائل لنشر العمل الناتج،وعليه فليس مما يدهش أن نقرأ في اشارة الناشر المقتبسة أن التاريخ قد صنع (بأي معنى صنع مسألة تالية) من قبل برنارد

الخازن من دير الرهبان ، وكان قدرا معينا من النقاش حول ما إذا كان برنارد هذا راهبا أم لا قد تركز على بينتين ، توحي الاولى بأنه كانت له أملاكه الخاصة والثانية بانه في الوقت المتعلق بـذلك لم يكن هناك راهب بهذا الاسم في غوربي (١٦) ، وقد عولجت الاولى من قبل بولين باريس الذي اقتبس ما يلي من سجلات الدير:

'... sous la date de 1203, une charte de l'abbé, confirmant à notre trésorier la propriété de ce qu'il avait acheté d'un chevalier nommé Bernard de Moreuil, antérieurement à la donation que ce chevalier avait fait de ses biens à la même abbaye (١٧)

والآن فإن حكم س . بنديكت لافت النظر حول مسـألة الامـلاك الشخصية من كل الانواع (١٨) ، فمع ان هناك ظروفا في ظلهـا كان المرء يمكن ان يجـد راهبـا بندكتينيا مشـغولا بمعـاملات تتعلق بالممتلكات فإن ايا منها لايوائم الحالة الموصوفة هنا ، وعلى سـبيل المثال لابد انه كان ممكنا افتراض ان راعي الدير كان يعطي الخازن الممتلكات موضوع البحث لاستعمالها ضـمن البنية المالية العـامة للدير ، ويذكر النظام الاساسي لادلهارد بشكل خاص مثل هذه الطرق على انهـــــــــــــــــــــا

مرغوبة وفعالة ومرة أخرى نجد الخازن يشتري املاكا وليس هـذا مدهشا : ويجب أن نفترض أنه كان يعمل نيابـة عن الطـائفة ولكن هنا فإن راعي الدير هو الذي يؤكد أمـلاك الخـازن بمعنى انه كان يقصد أن تكون له شخصيا ، وفي الواقع ان هدف هذا المرسـوم كان كما يبدو التمييز بدقة بين جزئي أملاك برنارد دي مـوراي والجـزء الذي باعه للخازن وهو مـا يؤكد راعي الدير هنا انه ملك للخـازن ، والجزء الذي وهبه بالتالي للدير كرهبانية ، واجمـالا إن التفسـير الذي لا يمكن تفاديه للمرسوم يبدو في كون خازن غوربـي في ١٢٠٣ كانت له ممتلكات خاصة ، وعلى هذا الاساس وحده يجـب ان نؤكد أنه لم يكن راهبا محتـرفا . وليس مـؤكدا بـالطبع ان الخـازن في ١٢٠٣ والخازن في ١٢٤٢ كانا واحدا والشخص نفسـه مـع أن بولين باريس كما يبدو اعتقد انهما كذلك ، وهناك مـع ذلك صـعوبة

أخرى حول برنارد الخازن أعني أن سجلات الدير حول عام ١٢٣٢ لا تذكر احدأبهذا الاسم ، وهذا ظرف اقترح ماس لاتري انه يمكن ان يفسر بغياب برنارد الطويل على سبيل المثال في الحج (١٩) وهذا يعني ان عمله لم يكن في الواقع يتم في غوربي وانما يعني فقط انه جاء اصلا من دير القديس بطرس في غوربي ، واقوى اعتراض على هذه النظرية (التي هي بالطبع على أي حال فرضية صرفة) هو ارتباط العمل الذي لا جدال فيه بشمال شرق فرنسا ، وهذه الصلة سوف تصبح أبدا أكثر ظهورا كلما تقدم فحص مصادره وتاليفه ، والاحتمال البديل بأن برنارد كان ينتمي للدير دون أن يكون راهبا ، وهو بالتضاد مقبول بشكل تام،ففي أي دير في العصور الوسطى كان هناك دائما تقريبا عدد من عامة الناس يعملون في وظيفة أو أخرى ، وفي دير له حجم وأهمية غوربي يحتمل ان العدد كان كبيرا تماما (٢٠) ، وفي الواقع ان وجود مثل هؤلاء الناس في المجتمعات الرهبانية اصبح مشكلا نوعا ما ، وكانت اصلاحات هيرشو مصممة لاختزال اعدادهم وتأثيرهم على حياة الطائفة ، وكان بعضهم مرتبطا بوظيفة رسمية على سبيل المثال كخدم منازل أو كتدفينيين ممن يمكن أن يشغلوا مناصب ذات أهمية ، دون أن تكون دينية ، وكلا النوعين يمكن أن يعتبر كأعضاء في العائلة الرهبانية ولكنهم أعضاء من العامة ، وبصرف النظر عن هؤلاء مع ذلك كانت هناك فئة كبيرة من الناس ، قدم لها الدير النوع الوحيد لسياسة التأمين المتوفرة ، وكانت مشتركة للافراد ، وأحيانا لعائلات كاملة حيث كانوا يدخلون الدير حاملين كل ممتلكاتهم للطائفة ، مع أن هذا عادة يكون مع الاحتفاظ بحق الانتفاع لأنفسهم مدى الحياة ، وهكذا يعطيهم ضمانا لايمكن للدنيا ان تعطيه (٢١) في الأزمنة المضطربة سياسيا ، ومثل هؤلاء المنذورين ، كما كانوا يسمون كانوا يعدون بإطاعة راعي الدير في الأمور التي ترتبط مباشرة بحياتهم في الدير،ولكنهم كانوا يحتفظون بحقوقهم الشرعية التي لايحتفظ بها الرهبان المنذورين ، وكان هذا الترتيب واضح النفع لكلا الطرفين ، فكان الامن سلعة قيمة للواحد ، والثروة للآخر ،

وكان هناك ايضا كثير من الناس ممن لجأوا الى احد الاديرة في سن متأخرة ، وطبقا للبروفسور ليغ كان هذا ما فعله بينيس بيرامس ، وكما بينت فإن ديرا مزدحما مثل دير القديس ادموند من غير المحتمل ان يدع موهوبيه يمضون دون الافادة منهم (٢٢) وبلاشك ان غوربي قد استثمر ايضا العباقرة من عامة الناس استثمارا كاملا ،وقد اظهر برنارنفسه موهوبا كمصنف للتواريخ فقد اعطيت لحريته العنان في بيت كان بحق فخورا بمكتبته .

واجمالا ، كانت هناك طرق عديدة كان يمكن فيها لرجل من العامة ان يجد نفسه في عام ١٢٣٢ خازنا في دير بند كتي كبير ، وفي وضع يمكنه من ان يكون له كتاب معد لمكتبته وليس كبير الاهمية لفحصنا لتاريخه معرفة اذا ماكان برنارد راهبا او من العامة ، وماهو مؤكد انه كان مرتبطا بغوربي وان عمله سوف يحمل اثارا من تاثير الوسط الديري ، على الرغم من ان منزلته الخاصة بالضبط في الطائفة ، وهكذا ففي ارنول وبرنارد لدينا رجلان كانا بطريقتين مختلفتين مشغولين بشكل رائع بتاليف مثل هذه التواريخ مثل تاليف الموجز والذيول فكل من اسميهما مرتبط بالموجز ، فماذا كانت بالضبط اسهاماتهما المتعلقة بهذه النصوص ؟

الفصل الرابع

عمل برنارد الخازن

الظروف التي سمي تحتها ارنول وبرنارد مبينة في روايتي الموجز (١) ـ وهي تختلف بطريقة تعطينا بذاتها بعض الادلة على الاختلاف في اسهامهما في هذا التأليف ، وارنول مذكور بالمناسبة بطريقة لاتعطينا اي دلالة حقيقية بالمرة عن مقدار ماهو مؤهل له ، دع عنك مقدار ماهو في الحقيقة مقدار حصافته ، ولكن اسم برنارد يضاف رسميا الى عمل تام ، أما ما الذي كانت وظيفته بالضبط لانعرف بعد ، ولكن من الواضح انه بطريقة ما او باخرى كان مسؤولا عن العمل بكلتيه في الصورة التي لدينا الان في المخطوطات المسماة برن ٣٤٠ وارسنال ٤٧٩٧ (٢) .

واول شخص ذكر صلة برنارد بالتواريخ كان بالطبع فرانسسكو بيبنو التي وصفت من قبل اشارته الى برنارد في استعراض حالات الدراسات (٣) وكما رأينا يبدو ان بيبنو لم يقصد ان ينسب الى برنارد مادة كامل الكتاب التي يذكره فيها كمصدر ، بل فقط اجزاء خاصة منها ، وفي الواقع انه يسمي في اماكن اخرى مصادر اخرى مثل كتاب اوليفر البادر بورني « تاريخ دمياط » وفنسنت البرفيزي (٤) وبروكاردوس التي بذاتها كانت كافية لمنع الخطأ الذي ارتكبه موراتوري في عنونة كامل الكتاب « الاستيلاء على الاراضي المقدسة » .

وكان زيف هذا العنوان مصورا بقوة من قبل ماس لاتري الذي بين ان برنارد لم يكتب شيئا زيادة عما هو مضمن في المخطوطات التي تحمل اسمه ، ولكن ماس لاتري ، استبعد مسألة ماالذي كان يحويه بالضبط مصدر بيبنو على انه غير هام ، واذا ماكان قد

استعمل مخطوطا من ترجمة وليم الصوري مع الذيول الى عام(١٢٣٠)او مخطوطين منفصلين واحد للترجمة وواحد لتاريخ برنارد كما هو لدينا الان في المخطوطات مع اشارة الناشر (٥) ، وهذا الاستبعاد يبدو نوعا ما قاطعا ، اذ انه في اي حال فان المعلومات سوف تؤثر بشكل خطير تماما في رأينا عن برنارد فيما يتصل بالذيول ككل ، فاذا كان البديل الاول صحيحا فان ببينو اذا كان لديه مخطوط من الاثر المنقح للهرقليات ينتهي في عام(١٢٣٠)، وهو غير باق حتى الان في اي مخطوط علاوة على انه كان معلما عند نقطة ما باسم برنارد ، وهذا يوحي بانه يحتمل على الاقل ان اهتمام برنارد الاصلي كان ان يكتب ذيلا للرواية الفرنسية للتاريخ التي بدورها تعني ان مايسمى حاليا بتاريخ برنارد لابد انه من نوع مامن الاختصار واعادة العمل في ذلك الاصل.

والبديل من ذلك يمكن ان يكون قد فسر على انه يعني ان مصنفي تلك الرواية المفقودة لعام ١٢٣٠ من الهرقليات قد استمدوا من عمل برنارد للسنوات التي سبقت ١٢٣٠ وان اسهامه بناء عليه لايمكن ان ينحصر في قسم ١٢٢٩ ــ ١٣٢١ الموجود فقط في روايته عن المختصر ، وليس في الرواية التي تذكر ارنول . واذا كان جانبا اخر يمكن بيان ان ببينو قد استعمل مخطوطين وان نسخته من تاريخ برنارد كانت اقصر من اي نسخة نعرفها الان ، ففي تلك الحالة يثار مرة اخرى السؤال : باي مقدار يكون برنارد المؤلف الاصلي ؟ اليس من الممكن انه بقدر مايكون مخطوط برن ١١٣ نسخة من تاريخ برنارد المعروف ، بدون اسم المؤلف (الذي كما رأينا نعرفه فقط من مخطوطين اخرين للنص المماثل)(٦) فان بروكسل ١١١٤ هو نسخة من التنقيح الاول لعمل برنارد ، الذي يسمى على انه له هنا ، ولكنه قد سمي هكذا في المخطوط الذي عرفه ببينو ؟ وقد حددنا ماالذي لم تدعيه .

وفي الواقع ان ببينو يبدأ كتابه الخامس والعشرين بترجمة دقيقة نوعا ما ، للرواية الفرنسية « للتاريخ » مرجعا اياها للاتينية ،

مختصراً هنا ومسهبا هناك ومضيفا مادة من مصادر اخرى ، وهو يتابع هذه الترجمة حتى الفصل الاول من الكتاب الرابع من الهرقليات (تسلم فولك اوف انجو ملكا لبيت المقدس) حيث يتخلى عنه فجاة لصالح المختصر الذي يستعمله كمصدر اساسي له من تلك النقطة ومابعدها ، دون اعتبار تماما لما اذا كان اكثر معلومات من الهرقليات وهو ماليس كذلك دائما تقريبا ، وفي هذه الناحية كما في نواح اخرى كثيرة ان طرق بيبنو غامضة ، وليست مشكورة بالمرة ، وهو غير مؤرخ ، فعلى سبيل المثال في فصله ١٢٦ ينقل المعلومة الخاطئة تماما التي يعطيها الموجز عن الحصار المفترض لعسقلان من قبل فولك اوف انجو ولويس السابع وكونراد الذي يعطي تاريخ هرقل عنه رواية دقيقة وعرضا اكثر اهمية بكثير من الكتاب السابع عشر ، تحت حكم بلدوين الثالث (٧) ولكن يمكن ان لايكون هناك شك حول اي نص استعمله بيبنو كمصدر له.

إنه في ذلك الجزء المبكر من الموجز الذي يوجد في الرواية المنسوبة لبرنارد ، وفي الرواية الاقصر التي تذكر برنارد ، ولكنه غير موجود في اي رواية من تاريخ هرقل (٨) ، وهو غير ضروري فيه لأن ترجمة وليم تغطي الموضوع نفسه ، وكان بيبنو بالتأكيد يملك ويستعمل نصين احدهما نسخة من تاريخ هرقل والثاني تاريخ منسوب لبرنارد

ما الذي يحويه هذا النص الثاني ؟ إنه بالتأكيد لا يتطابق مع المخطوطات التي لدينا الآن ، لأن هذه تمضي بعد النقطة التي ينتهي عندها مصدر بيبنو ، ويقول :

> 'Haec de gestis Regis Johannis sumta sunt ex Historia Bernardi Thesaurarii. Qualis autem fuerit exitus non inveni, vel quod historiam non compleverit, vel quod codex, unde sumsi, fuit imperfectus. (٩)

هكذا كان ما وصل اليه نص بيبنو ولا يمكن تشبيهه بالرواية القصيرة في الموجز (١٠) حيث انه يمضي بعد أن يتوقف هذا النص ، ولا

بالرواية الاطول ، ونحن مضطرون لا ستنتاج انه كان يوجد هناك مع ذلك رواية اخرى للنص نفسه وهي التي ينسبها بيينو الى برنارد ، ومع ذلك من حقيقة أن تكيف بيينو يتطابق بدقة مع تاريخ برنارد الباقي حتى الآن ، يمكننا ان نستنتج أن هذه الرواية الاقصر له قد اختلفت فقط في الطول ، وحقيقة ان بيينو كان يعرف أن برنارد كان المؤلف برغم أن مخطوطه كان كما كان يعتقد ناقصا يوحي بشيء ابعد حول نصه ، أعني ان برنارد كان مذكورا بصورة مختلفة عما في اشارة الناشر في النهاية ، أو أن بيينو لا يمكن أن يكون كثير الشك في اكتمال مخطوطه وهكذا بدأ ماس لاتري ، فقد ادعى لنفسه أثرين منقحين من تاريخ برنارد ، وواضح الآن أنه كان محقا في ذلك (١١) ولكن يجب اضافة أن الاول يمكن ببساطة كما يوحي ، اعادة العمل في المادة الموجودة في الموجز الاقصر الى عام ١٢٢٧ ، لان مصدر بيينو يتوقف فقط عند ١٢٣٠ ، والاحرى ان يبدو بناء عليه أن برنارد قد أخرج أولا تاريخا مشابها للتاريخ الباقي في ذلك الحين في كل الوجوه سوى أنه انتهى في ١٢٣٠ (وهو عمل يمكن أن نسميه ب ١) ثم أضاف قسما اضافيا موصلا اياه الى ١٢٣١ ، وهكذا أصدر الرواية الباقية حتى الآن (ب ٢) .

ويبقى هذا السؤال قائما فيما اذا كان برنارد مؤلفا أصليا بالمرة ، وهو سؤال تنقسم حوله المراجع تماما ، وتتجه الى تفسير كلمات اشارة دار النشر الصحيح ، وقد أيد بولين باريس الرأي القائل بأن برنارد أعد الكتاب ، ربما مستمدا كل المادة من مختلف المصادر المكتوبة ، بينما كان ماس لاتري واثقا بالقدر نفسه من أن برنارد كان مؤلف اجزاء على الاقل من النص ، وان ما لم يفعله كان عدم تحرير الكتاب واخراجه فعلا بنفسه ، وكل البينات المتوفرة في جانب باريس .

والمادتان حول المكتبة وحجرة النساخ في كوربي من قبل دي ليسل وجونز (١٢) تعطي مجموعة مختارة من اشارات الناشرين ، ومع ان هذه كلها مأخوذة من مخطوطات كوربي فانها نموذجية نوعا ما ،

بالنسبة لمخطوطات العصور الوسطى بشكل عام ، وقد ألقت قدرا كبيرا من الضوء على ذلك في برن ٣٤٠ ويمكن تلخيصها كنماذج عديدة مميزة كما يلي:

(a) Ego Audoinus scripsi. (B.N lat. 13351)

(b) Hic codex Hero insula scriptus fuit, jubente sancto patre Adalhardo, dum exularet ibi. (Leningrad F.v.I.11)

(c) Isaac, indignus monachus, propter Dei amorem et propter compendium legentium hoc volumen fieri jussit. Quicumque hunc librum legerit, Domini misericordiam pro eo exoret. (B.N. lat. 17234. A

نسخة من القرن العاشر من الرسائل الانجيلية للقديس بول .

(d) Ad honorem tocius Trinitatis et perpetue ac gloriose virginis Marie et beatorum apostolorum Petri et Pauli et omnium sanctorum quorum corpora et reliquie in hac Corbeiensi ecclesia continentur, compositus est liber iste a fratre Iohanne de Flissicuria, anno ab incarnatione Domini MCCLXXV. (B.N. lat. 13222.

مجموعة طقسية دينية أعدت في ١٢٧٥.

(e) Amalarius: *De Divinis Officiis.* (B.N. lat. 11580).

وفي بداية هذا المخطوط لوحة كبيرة من القرن الثاني عشر تظهر القديسين بطرس واندروز وليونارد ، وأسقف أمالا ريوس ، والراهب هربرت يقدمون كتابا والراهب روبرت ينسخ كتابا .

وتميز هذه النقوش بين مختلف العناصر في اعداد كتاب : التأليف ، التصنيف ، قرار أنه يجب أن ينسخ ، الفعل البدني الفعلي الكتابي .

وتدل الاشارة (أ) ببساطة على الناسخ : فقد كتب أودانوس المخطوط ، دون أن يكون له أي دور في تأليف محتوياته ، وفي (ب) و (س) يسمى الراعي ، وهو الشخص الذي بمبادرة منه أعد المخطوط وفي (ب) هو رجل له بعض المكانة ، أدلهارد نفسه الذي

عند عودته من المنفى وضــع النظــام الداخلي لدير غوربــــي ولكن في (س) هـو راهب بسيط وفي (س) لا يحتمل أن اسحق يمـكن أن يدعي بأنه كان له أي دور في تــأليف الرســائل البــولينية ، ولكن يقال بأنه قد تعهد اعداد الكتاب ، وفي (د) نصــبح مســؤولين عن مجموعة طقوسية دينية مصنفة ــ من قبـل جيان دي فليكســكورت الذي لم يقم بمجرد الاشراف على العمل ، بل إنه في الواقــع اختــار العناصر وجمعها بنفسه ، ومــع ذلك فهــو ليس المؤلف الاصــلي ، والاكثر اهمية بين الجميع هو (إ) التــي تصــور كامــل العملية ، وشرح جون للنصوص (١٣) ، هو الاوضح: الف امالا ريوس الكتاب بنفسه ، أعني أنه المؤلف الاصلي ، وتعهــد (هــربرت بنســخه) ونسخه روبرت .

اي من هذه الادوار مبين في اشارة دار النشر لبرن ٣٤٠ ؟ ليس هناك مجال للشك في أن برنارد كان هو الكاتــب ، وبســبب وجــود الرواية الاقصر من الموجز التي منها كانت روايته بلا منازع تــكييفا وتوسيعا ، فنحن نعرف أنه لم يكن المؤلف الاصلي للمجموع بالمعنى الذي كان (امالا ريوس) المؤلف « للديوان المقدس » فإما أنه كان مثل جيان دي فليكسكورت قد جمع التــاريخ مــن مصــادر عديدة ، وكانت الرواية القصيرة للموجز هــي العنصر الرئيسي ، أو انه كان مثل اسحق وهربرت ، أي انه ببساطة قد امر باعداد نسخة من اجل مكتبة الدير من العمل الذي كان موجودا بالفعل في صورته الكاملة ، واقوى اعتراض على هذا الحــل الاخير هــو عنصر الوقــت ، فقــد اعطينا أن مخطوط برنارد قد استنسخ كمــا تعلمنا اشــارة الناشر في ١٢٣٢ ، وان اخــر حــــدث مــــروي وقــــع في أيلول ١٢٣١ في القسطنطينية ، فهناك بالكاد وقت يكفــي لكي تنتقــل الاخبــار الى فرنسا ، ثم تدمج في تاريخ حديث التــأليف ، ثــم يعــاد نســخها في غوربي كل ذلك بين ربيع ١٢٣٢ (أول إبحار ممــكن الى أوروبــا) ونهاية السنة ، وهناك أيضا حقيقــة الوجــود الواضــح لتــاريخين لبرنارد مستكملين الى نقاط مختلفة ، فمن غير المحتمل أنه قد وجــد مصدر مــكتوب مــوافق بــالضبط لهذه الثغــرة بين ب ١ و ب ٢ ،

والاكثر احتمالا بكثير هو الفرضية البديلة أن الرواية القصيرة للموجز كانت متوفرة في مكتبة غوربي ، وأن القطعتين المتواليتين اللتين اضافهما برنارد اليه كانتا من تاليفه الخاص ، ويحتمل أنهما قامتا على روايات شفوية للاحداث من قبل المحاربين الصليبيين العائدين .

اضافة الى الاستيفاءات التي تمت في كل مواضع الموجز من قبل برنارد ، ولآخر قسم من تاريخه ، نسب اليه ماس لاتري أيضا على أنه عمله الاصلي الخاص ، المقدمة التي يستهل بها بداية تاريخه « سنة التجسيد » (١٤) . ولكن ماس لاتري كان حينئذ يلقى صعوبة في شرح حقيقة أن هذه المقدمة موجودة أيضا في مخطوطين من الرواية القصيرة للموجز (بروكسل ١١١٤٢ و ب ن ف فر ٧٨١) طالما أنه يفترض من جانب أن نص هذه المخطوطات لا سيما نص بروكسل ١١١٤٢ ، الذي يستعمله كاساس له ، يسبق تاليف تاريخ برنارد ، ومن جانب آخر فإن المقدمة هي عمل برنارد الاصلي وقد دفع الى نتيجة (١٥) هي أن ناسخ هذه المخطوطات كان عليه أن يسلم كلا من الموجز القصير دون مقدمة ، وأيضا رواية برنارد الاطول ، وانه اثناء نسخ مقدمة برنارد وفي نهاية عمله فضل من أجل التاريخ نفسه الالتزام بالرواية الاقصر ، بدلا من تضمين استيفاءات برنارد وقسمه لاعوام ١٢٢٩ ـ ١٢٣١ ، وقد اعترف ماس لاتري نفسه كيف كان هذا التفسير غير مرض ، وهو يتعارض مع كل شيء معروف حول الطريق الذي سلكه المصنفون فيما يتعلق بعملهم ، وبصرف النظر عن أشخاص غريبي الاطوار مثل ببينو ، فإنهم لم يكونوا عادة ميالين لتسويغ مادة جيدة ، ومع أنه يعلن أن استيفاءات برنارد هي مجرد تجميع تفصيل ناقص ، ويضيف كثير منها قدرا كبيرا من الوضوح على القصة ، والقسم النهائي المغطي للسنوات ١٢٢٩ ـ ١٢٣١ هو بالطبع معلومات جديدة ، فهل علينا ان نصدق أن مصنف بروكسل ١١١٤٢ قد اختار عمدا ان يحذف كل تلك المادة المفيدة والهامة ، في حين انه في الوقت نفسه ادخل المقدمة

السطحية المهلهلة ذات النقص الواضح ، واضاف لها علاوة على ذلك من نهاية العمل ؟ان هذا يبدو صعب التصديق ، ويجب علينا بوضوح ان نأخذ في الاعتبار على الاقل ، الاحتمال المعاكس ، وهناك بينتان تساعدان هنا : الاولى هي صورة المقدمة (او الخاتمة حسبما تكون الحالة) نفسها ، وهذه القطعة في جوهرها مخطط موجز للاحداث ، في المملكة اللاتينية في بيت المقدس مابين وفاة غودفري دي بوليون في ١١٠٠ وتسلم عموري للعرش في ١١٦٢ ـ ١١٦٣ ، او تتعلق بتلك الاحداث ، وهذه نقطة اعتباطية للتوقف عندها ، مالم يكن على تلك القطعة ان تعمل كمدخل لتاريخ يبدأ في حينه ، وهو ماليس لدينا بالطبع بينة عليه بالمرة ، ومرة اخرى ، ان الحوادث المفصلة على مايبدو اختيرت اعتباطيا تماما ، وبصرف النظر عن الحملة الصليبية الثانية المفجعة ، فان الكاتب يلقي فجأة بعض الضوء على الرها ، بصورة شديدة المبالغة في التبسيط ، فضلا عن انه اضفى عليها الخيال ، والحملة الفلمنكية تحت قيادة شحنة دكسمود (قائد قلعتها) ، والتي استولت على لشبونة في ١١٤٧ وكذلك وفاة روجر صاحب انطاكية التي ربطها بتعليق كثير الميل للنقد حول حياته ، وبكلمات اخرى ، ان الاشارة الوحيدة المحلية بشكل خاص هي الى شحنة ديكسمود ، وهي ليست اكثر من تكرار عما كان بالفعل شديد الوضوح من مصدر المخطوطات في ان كل واحدة من روايتي الموجز مرتبطة ارتباطا وثيقا بشمال شرق فرنسا وفلاندرز

وباختصار فان الفاتحة ، كما يبدو قطعة ناقصة لم تكتمل ، وتبدو كما لو كانت بداية لشيء جديد بدلا من ان تكون نهاية للنص الذي يسبقها ، وهذا يدفعنا للسؤال عما اذا كانت في الحقيقة مرتبطة بالمرة بالموجز ، والجواب يقدمه مخطوط لم يكن معروفا لماس لاتري ، حيث يحوي مخطوط القديس او مر ٧٢٢ الرواية نفسها الموجودة في الموجز مثل بروكسل ١١١٤٢. ولكنه لايتضمن تلك الشريحة بالمرة سواء في المقدمة او الخاتمة ، وهو النسخة الوحيدة لموجز عام ١٢٢٩ التي لاتغفل ذلك ، ونرى للمرة الاولى الموجز في هذه الرواية منفصلا تماما عن هذه الشريحة .

ويمكننا الان ان نرى لماذا كانت الشريحة - قطعة من نص غير مرتبط تماما بالموجز باي طريقة ، حيث اعتقد ناسخ ما لاحدى المخطوطات - مثل بروكسل ١١١٤٢ - ان من المناسب استنساخها ، وكما تصادف فانه بدأ بها بعد ان اتم موجز عام ١٢٢٩ ، الذي يفترض انه اخذه من مخطوط وجد فيه وحده ، كما في مخطوط القديس اومر ٧٢٢ ، واعتقد النساخون المتأخرون مثل نساخ « ب.ن.ف.فر ٧٨١ » خطأ ان الشريحة تتبع النص الذي اتت بعده ، وافترض برنارد ايضا ، وقد استمد الموجز من مخطوط كهذين الاثنين ، وجود صلة ، ولكنه بمزيد من روح المبادرة نقل الشريحة الى بداية العمل . وهذا بحده ، لاكما يقول ماس لاتري مكانه الحقيقي (١٦) ؛ ولكنه من المؤكد المكان الاكثر منطقية ، لانه اذا كانت له اي قيمة بالمرة فهو تمهيد ، ونقل برنارد له يشكل تحسينا لاشك فيه .

ثم باستنساخ هيكل العمل ، طامسا اسم ارنول ، مضيفا تفاصيل هنا وهناك ، ينهيه ببرنارد بروايته الخاصة لحوادث ١٢٢٩ - ١٢٣٠ ليقوم بتحديثه .وهكذا يخرج تاريخه في روايته الاولى (ب ١) ، التي لم تعد موجودة الان . ثم يعود فيما بعد (ب ٢) ، وهو نسخة من (ب ١) مع قسم اضافي ١٢٣٠ - ١٢٣١ ، وهذه النظرية هي بطرق عديدة تفسير مرض جدا لاصل تاريخ برنارد كما يبدو الان في المخطوطين ؛ برن ٣٤٠ وارسنال ٤٧٩٧ وهي تفسير لماذا كانت المقدمة هناك اساسا : ان برنارد لم يصنف تلك القطعة الغامضة تماما تقريبا لمجرد ، كما افترض ، اضافة شيء من عنده ، حتى لو كلف ذلك اخراج عمل ادنى من الاصل ، بل وانه في الواقع محسن ، على مصدره . والشيء الذي اضافه ، ومما لا وجود له في ذلك المصدر ، اعني قسم ١٢٢٩ - ١٢٣١ كان في صميم الموضوع تماما ويشكل ايضا تحسينا . واخيرا فان هذا التنقيح وهذا التوسع من جانب يسوغ بقوة ويفي بالضبط بادعاء اشارة الناشر : « كتاب برنارد الصحيح »

لقد صنف برنارد الخازن اذا ، التاريخ الذي تحتويه المخطوطات الممثلة بحرف (ا) في الجدول على ص ١٠ ـ ١١ ، باستنساخ رواية المخطوط (ز) محولا الشريحة المضافة في النهاية الى البداية ، ومضيفا مختلف الاستيفاءات القصيرة الخاصة به ، وحكاية اضافية (وهي لعدم وجود البينة على العكس يجب ان نفترض انها الاصل ، ولكننا لانستطيع ان نبرهن انها كذلك) ، لايصال التاريخ الى ١٢٣٠ ،وفي رواية اخرى الى ١٢٣١ . واسهامه كمؤلف اصلي هكذا صغير جدا ،ولكنه مصنف موجز ١٢٣٢ ، وان اسمه ، وليس اسم ارنول ، هو الذي يجب ان يوضع على راس العمل ، لان اسم ارنول مرتبط فقط بحادثة واحدة ، موجودة في اعمال عديدة واحد منها من اعمال برنارد ، ويعود الى برنارد ، عمل الجماعة .

-٣٥٩٦-

الفصل الخامس

عمل ارنول

بينة رالف الكوغشالي

مع برنارد الخازن المشكلة هي ان يحدد دوره بالضبط في ايجاد نص خاص واحد ، هو رواية ١٢٣٢ للموجز الذي يحمل اسمه ، وقد تم فعل ذلك بمقارنة النص المنسوب اليه بالنصوص الاخرى ذات العلاقة ، وقد ظهر كمصنف لموجز ١٢٣٢ ، ولرواية اخرى سابقة مفقودة تنتهي في ١٢٣٠ ، وقد قدم الى مادة تواريخه على اقصى حد اسهاما محددا ولكن « النيل » له وحده . وفي حالة ارنول على اي حال ، فان المشكلة ذات نظام مختلف تماما ، فالذكر الوحيد لاسمه الذي بقي لدينا في مخطوط جاء عرضا ، والاشارة اليه حتى اكثر غموضا من تلك الموجهة الى برنارد ، واسوأ من كل هذا ان المعنى الواضح للبيان المعطى حوله سرعان ماروي بانه ليس المعنى الحقيقي .

بمعنى اننا حين نقرأ في موجز ١٢٢٧:

'Ce fu cil qui cest conte fist metre en escrit',(١)

من الطبيعي جدا ان نستنتج ان ارنول هو مؤلف نص ذلك ، والمعلومات التي يستطيع المرء ان يجمعها او يستخرجها حول هويته تميل الى تأكيد هذا الرأي ، فلديه وسائل للحصول على المعلومات بصورة مباشرة حول مادة الموضوع ، والاراء المطروحة تتفق مع مايجب ان نتوقعه من تابع لابلين ، وباختصار فان كل شيء يدعونا لان نعطي الكلمات القيمة نفسها مثل مالها في تاريخ روبرت دي كلاري ، وان نرى في موجز ١٢٢٧ التاريخ الاصلي لارنول . وهذه الفرضية تنقلب لتصبح جيدة اكثر مما ينبغي ، ولتكون

صحيحة ، وعندما نفحص بعض نيول وليم الصوري يتضح لنا بسرعة أنها تضم كثيرا من المادة نفسها التي في موجز ١٢٢٧ ولكن بصورة أكمل كثيرا ، وتماثل أجزاء النصين ، أكبر مما ينبغي لهما ، لتصور أنهما مستقلين عن بعضهما بعضا . ومع أن الموجز ليس ببساطة صورة مختزلة من النيول ، هو بالتأكيد مكثف عن مصادرها المشتركة ، وأكثر من هذا ، إن الاقسام الخاصة بالموجز وحده ، وهي التي يمكن أن تكون من عمل ارنول ، ليست بالضبط الاجزاء التي يجب أن نتوقع أنه كتبها ، باستثناء المواد المتنوعة التي في الفصول العشر الأولى ، ومن الأجزاء المركزية قصة الفترة من نحو ١١٨٦ وما بعدها ، هي المشتركة بين النصوص ، وهي التي يسمى فيها أرنول ، والرواية المدعى أنها هي بشكل واضح ليست الاكمل أو الاقدم ، وإنما هي اشتقاق من مصادر مكتوبة استعملت أيضا من قبل مصنفي مختلف الروايات الهرقليات .

وقد اضطرت هذه الحالة محققي « راشيل » الى أستنتاج غريب جدا في الواقع : إن ارنول مع كونه شاهد عيان لمعركة حطين ، واستسلام بيت المقدس ، وللاحداث الاخرى الرئيسية المحكية في النصوص ، لم يكتب برغم ذلك رواية أصلية مباشرة عن تلك الفترة ، بل أخذ تاريخا من عمل شخص ما آخر وكثفه ، ذلك أنه كان طويلا أكثر مما ينبغي ليتوافق مع أذواقه العسكرية (٢) ، وهذا بالتأكيد تفسير معقول للكلمات .

'cest conte fist metre en escrit',

وهذا تقريبا كل ما يمكن للمرء أن يقوله في هذه النظرية ، تاركين جانبا حقيقة أن الاجراء الذي يقترحونه بالكاد يمكن تصديقه ، وهو لا يتوازن مع محتويات النيول أيضا ، فلو أن ارنول كان مجرد مختصر كما يوحون ، لثار السؤال : من الذي كتب التاريخ الاصلي الذي أخذ عنه هو والمصنفون الآخرون ؟

وكما سنرى عند فحص محتويات النصوص العديدة ، إن أجزاء

منها على الاقل يصعب أن تكون قد كتبت إلا من قبل شخص يتفق بالضبط مع وصف أرنول .

وعليه لا يمكننا ان نقبل سواء أن موجز ١٢٢٧ كما هو عليه ، هو عمل ارنول الاصلي او ان ارنول قد صنفه بتلخيص المصادر التي استخدمتها ايضا مصنفوا الهرقليات ، ويجب أن نفحص الآن فرضية اقترحها ماس لاتري ، ولكنها لم تختبر مطلقا ، وقد اثيرت باشارته في « دراسة تصنيفية » الى عمل رالف الكوغشالي ، وظنه بأن رالف يمكن أن يكون قد عرف ترجمة لاتينية لارنول(٣) .

وحقائق هذه الحالة هي : كتب رالف الكوغشالي حوالي عام ١٢٢٠ « تاريخ الاراضي المقدسة » وفي هذا التاريخ عندما كان يحكي عن رحلة رتشارد ، وفيليب اغسطس الى الأرض المقدسة ، أحال قارئه من اجل رواية أكمل لهذه الاحداث الى تاريخ آخر :

Post Pascha anno ab Incarnatione Domini MCXCI, rex Franciae PHILIPPUS applicuit apud Achon et non multo post, scilicet circa Pentecosten, venit rex Anglorum RICHARDUS: quorum seriem itineris et quae in itinere gesserunt, seu ex qua occasione rex Philippus repatriavit, si quis plenius scire desiderat, legat librum quem dominus prior Sanctae Trinitatis de Londoniis ex gallica lingua in latinum tam eleganti quam veraci stilo transferri fecit.(٤)

ويكشف هذا الالماع عددا من المشكلات وهي تقريبا بالتعقيد نفسه مثل تلك التي تطرحها نيول وليم ذاتها ، والعمل الذي يشير اليه رالف هو بالتأكيد ذلك المعروف الآن باسم : « رحلة حج وأعمال الملك رتشارد وقد رفض محققه الاول ، استبس (٥) ، تماما فكرة انه كان ترجمة لعمل فرنسي ، وفسر اشارة رالف بالقول بأنه لابد ان يكون قد سمع بكل من « رحلة » وتاريخ « ماوراء البحار » (وهذا هو الموجز) وافترض دون مسوغ أن يكون الاول ترجمة للثاني ، وهو الاكثر قابلية للفهم طالما أن كليهما كانا في الجوهر ، إن لم يكن في الهدف ، نيولا لعمل وليم الصوري .

ولا يبدو أن ماس لاتــري كان مـطلعا على مقـــدمة اســـتبس هذه ، ولكن الغريب أنه أيضا يوحي بوجود صــلة بين « الرحلة » و « المختصر » إلا انه خلافا لاستبس يعتقد بأن الصلة يمكن أن تكون حقيقية وليست ملفقة من خيال رالف ، وهي مقتبســة مــن الفقــرة نفسها من تاريخ رالف ، وبين أن مسألة أي تاريخ أشار اليه رالف وماذا كان أصله الفرنسي ، ليست تخمينا تافها ، لانه إذا أمــكن أن يظهر أن التاريخ الفرنسي كان من عمل ارنول ، لوجب إذا أن نعرف بالتأكيد أن عمل ارنول قد انجـــز وأصـــبح قيد التـــداول قبـــل ١٢٢٠ وهـو التاريخ الذي فيه أو حواليه كتب رالف تاريخه (٦) ، وهذا بدوره يخبرنا بعدد لا بأس به من الأشياء حول عمل أرنول كما رؤي بعيون معاصريه : إنه كان مقدرا بدرجة كبيرة حتى كان متداولا على نطاق واسع امتد الى انكلترا ، وبأنه على سبيل المثـال تـرجم الى اللاتينية ، بدرجة عالية نوعا ما من الدقة ، ويجب أيضا أن نتمــكن من استنتاج انه قد توقف باقتضاب في ١٢٢٠ على أقصى حد ، وربما قبله بقليل ، وبناء عليه فإن الموجـز بعـد ١٢٢٠ لا يعتمـــــد على أرنول ، وبكلمات أخرى ، يجب أن نكون واثقين بأن الموجز كان من تأليف ثاني على الاقل ، ولا يشـير مـــاس لاتـــري الى حقيقـــة أخرى ، يمكن أن تستنبط مـن كلمـات رالف هـــي : إن التـــاريخ الفرنسي الأصــلي ، وكذلك التـرجمة اللاتينية لا بـد أنهمـــا كانا معروفين لديه ، طالما انه كان قادرا على الحكم ليس فقط على أناقة أسلوب الترجمة ، بل أيضا على مطابقتها للأصل ، فلم تكن بناء عليه مسألة مثال واحد مســتقل على كون التـــاريخ الفــرنسي معـــروفا في انكلترا ، فقد كان يقرأ في ديرين مستقلين على الاقل هما :الشالوث المقدس في لندن ، وبيت رالف في اسكس ، وباختصار إذا ثبتت صحة فرضية ماس لاتري ، فإن جزءا كبيرا من الغموض المحيط بـأرنول والموجز سيتضح ، وسيكون ممكنا تحـديد تقسـيم في الموجـز بين أقسام ما قبل ١٢٢٠ وما بعد ١٢٢٠ ، وهذا بدوره سوف يؤثر على معالجتنا لمسألة علاقة الموجز بالهرقليات ، ويحتمل أن يصبح ممكنا أن نقول شيئا أكثر مصداقية حول الصورة الأصــلية لعمـل ارنول الخاص ، المبعثر جـدا الآن بين مختلف روايات هـــذه الفتـرة مـــن

النيول . وهناك سؤالان يتطلبان الاجابة : هل « الرحلة » حقا ترجمة لتاريخ فرنسي ؟ وإذا كانت كذلك ، هل التاريخ الفرنسي موضوع البحث هو صورة ما من عمل ارنول ؟ وقد نوقش أول هذين السؤالين كثيرا . واعتقد غاستون باريس في طبعته عن « تاريخ الأراضي المقدسة » المنشور في وقت يرجع الى عام ١٨٩٧ ، انه قد بت في الامر ، ولكنه في الحقيقة فتح باب المناقشة التي كان لها أن تستمر زمنا طويلا (٧) ، فالتاريخ الذي حققه هو رواية حول الحملة الصليبية الثالثة في مقاطع ثمانية ، كل مقطع فيها من بيتين من الشعر المقفى من نظم امبرواز وهو شاعر نورماندي جوال كان يدعى أنه اشترك في الحملة التي قادها ريتشارد قلب الأسد ، ومقارنة باريس المفصلة لهذا النص بنص « الرحلة » تثبت بما لا يدع مجالا للشك وجود صلة وثيقة ، وليست بالمادة فقط بل أيضا بالكثير من التعابير في الجزء الاول من التاريخ ، التي تتوافق بالضبط مع تلك التي في الرحلة ، وقد أكد باريس أن العلاقة كانت علاقة أصل فرنسي وترجمة لاتينية ، ومثل هذه النتيجة تستبعد بالطبع من المسألة بالمرة ، ولكن في وقت أكثر حداثة ناقضت دراستان عن امبرواز ، واحدة تآليف ج.غ ادا وردز (٨) والاخرى تأليف ج.ل لامونت وح هيوبرت (٩) ، باريس واستبدلت نظريته بصورة مقنعه ، بنظرية ذات أصل مشترك مفقود ، وهذا الأصل كما يقولون يحتمل انه كان بالفرنسية المنثورة ، وهو وصف يضع أرنول مرة أخرى وسط الدوامة القوية .

وفي ١٩٦٢ ، ظهرت طبعة جديدة من « الرحلة » ل هـ . ي ماير (١٠) . الذي قدم الكثير من البراهين الجديدة ، وبالتالي الكثير جدا من النظريات الجديدة ، وهذه ليست مجرد أجوبة على أسئلتنا ، بل إن الاسئلة نفسها يجب أن تعاد صياغتها كليا .

وبشكل أساسي يؤكد ماير انه ليست هناك رواية واحدة بل روايتان باقيتان من « الرحلة » يسميها ي ب ١ و ي ب ٢ . وتنتهي

ال « ي ب ١ » في تشرين الثاني ١١٩٠ ، وتقابل الكتاب (١) من نص استبس إلى نهاية ال غ ، باستثناء الفصل ٦٥ . وال « ي ب ١ » هو التاريخ الكامل كما حققه استبس ، ويؤكد ماير دون إثبات مطلق ، ولكن بحجة مقنعة بشكل معقول ، أن ال « ي ب ١ » كتب حوالي ١١٩٢ في صور من قبل داوي انكليزي ، كان قسيسا أكثر منه فارسا ، وأنه كان في جوهره عملا أصيلا ، ولكن استمد من اجل حملة بربروسا الصليبية من رواية المانية مستقلة .وريتشارد « الثالوث المقدس » الذي كان يعتبر قبل نشر طبعات ماير بشكل عام مؤلف الرحلة ، أخذ في حينه ال « ي ب ١ » طبقا لماير ، وباستعمال تاريخ امبرواز للاسهاب والتوسع فيه أخر ال « ي . ب ٢ » .

والفرضية المقدمة هكذا من قبل ماير لديها الكثير مما يزكيها ، فهي تنهي التأكيدات بأن كتاب الرحلة كان ، أولم يكن ، مترجما عن الفرنسية ، ولكنها فرضيه ليست مرضية تماما . فعلى سبيل المثال هناك فقرات أساسية مشتركة في « ي ب ٢ » وامبرواز وهي موجودة أيضا في « ي ب ٢ » ولم يستعرها مصنف ال « ي . ب ٢ » من امبرواز ليدخلها في « ي . ب ١» :

فهي موجودة من قبل في ال « ي ب ١ » طبقا لنظرية ماير قبل أن يبدأ عمله في التصنيف . وبكلمات أخرى ، من الواضح أن هناك بعض الصلة بين امبرواز و « ي ب ١ » ، منفصلة تماما عن « ي ب ٢ » ومصنفها . وأدق نقط هذه العلاقة هي مع ذلك غير جوهرية بالنسبة للمناقشة الجارية ، وكل مانحتاج لقبوله حاليا ، هو أنه بينما يمكن أن يكون لدينا بعض التحفظ حول نظرية ماير عن تأليف « الرحلة » ، والنيول فإنها تسمح لنا بأن نأخذ « تاريخ » امبرواز على أنه لايحوي شيئا ماديا ليس موجود أيضا في « كتاب الرحلة » كما حققه استبس .

وليس معنى هذا القول أن « التاريخ والرحلة » دائما في توافق

كامل ومفصل ، بل إنهما يتفقان على العموم في الخطوط الخارجية العريضة .

ومن البداية الاولى حتى لمقارنة سريعة لكتاب الرحلة مع نيول وليم ، فإن عاملا واحدا يصبح واضحا : أن تعاطف مؤلفيهما يتعارض فعليا تماما حول كل شيء ، وكل انسان ، فالشرير لدى احدهما بطل لدى الاخر والعكس بالعكس ، وبلا شك إن الحقائق التاريخية ، إذا كان من الممكن إخراجها من شراك الروايات المتحيزة بقدر متساو برغم أنه مختلف ، تقع في مكان ما بينهما ، ولكن الوضوعية الجامدة ليست مخزون هذه التواريخ ، وبقراءة الوجز يقتنع المرء بأنه مالن ترك ريموند صاحب طرابلس ليرتب الامور دبلوماسيا مع صلاح الدين لم تعد هناك حاجة لحروب مأساوية ولافقدان للأرواح ، ولكن أعمال النهب غير الذكية من قبل غي لوزنغنان بتشجيع من مقدم الداوية الغادر جيرار أوف ردفورد ، جلبت الخراب الكامل للمملكة اللاتينية (١١) ولدى رتشارد الثالوث المقدس من جانب آخر كان ريموند هو الحية المختبئة بين الاعشاب ، والمتعاون الذي كان اهتمامه غير الوطني بالذات يجعل الاشياء بالغة الصعوبة عند الملك النبيل الصالح ويعجل قطار الأحداث الذي توفي على مساره جيرارد نفسه ميتة الشهداء (١٢) .

إنه بناء عليه أمر ملح أن يكون المرء أكثر حذرا من المعتاد في فصل الحقيقة ، أو بالاحرى مايقدمه المؤلفون على أنه حقيقة ، عما لايمكن أن يكون شيئا سوى رأي ، إنه برغم كل شيء ليس مستحيلا على مصنفين اثنين أن يكيفا المادة نفسها جذريا ليجعلا التاريخ متوازنا مع ولاءاتهما الخاصة ، والاختلافات في التفسير لاتستبعد إمكانية وجود مصدر وحيد مشترك للمعلومات الحقيقية ، لكن بالنسبة للحقائق نفسها ، أي المعلومات الاساسية هناك اتفاقا معينا ، لكنه لايدل بالضرورة على اعتماد الروايتين على بعضهما بعضا أو على مصدر مشترك ، ومع القصص التاريخية خلافا للأدب القصصي ، هناك دائما احتمال الدقة المستقلة ، ولكن الاختلاف

الواضح حول المواد الواضحة المباشرة للحقيقة ، التي لايمكن لأي من الجانبين أن يكون له أي اهتمام بتزييفها ، يمكن أن يدل على الاستقلال .

وكما سوف نرى فإن مقارنة الرحلة وتاريخ امبرواز والموجز والنيول تقدم أمثلة على التماثل والاختلاف ، ليست بدون اهتمام ، مع أن النتائج التي تستمد ليست مايمكن أن نكون قد توقعناه عند الابتداء .

إن مادة موضوع الرحلة كما يدل عنوانها هي رحلة رتشارد والحجاج الذين تبعوه في الارض المقدسة ، والاعمال التي قام بها هناك ، ولكن الكتاب (أ) قائم مع مخطط خلفي للأحداث التي سبقت مباشرة ثم تتزامن مع حملة الصليبيين ، لاسيما حصار عكا (١٣) . ويضع امبرواز معلومات الخلفية نفسها من استطراده (١٤) ويبين أنه امتلك مصدرا مكتوبا لهذه المعلومات :

Si velt Ambroises faire entendre
E saveir a cels qui aprendre
Le voldront, par com faite enprise
La citié d'Acre fud assise;
Kar il n'en aveit rien veu,
Fors tant come il en a leu.(١٥)

وتلك الفترة اي السنوات الخمس او الست التي تنتهي في ١١٩٢ ، هي المعالجة إلى حد بعيد بأكثر كثافة في الموجز ، وتلقت أيضا معالجة مفصلة في كل روايات النيول ، ولكنها في امبرواز والرحلة تستعرض سريعا ، حتى أن أي مصدر تقريبا كان يمكن أن يفيد ، ومعركة حطين ، على سبيل المثال التي يمكن أن تعتبر بحق قطعة الانطلاق في الموجز ، والتي أوقفت النيول حتى تلك التي لاتتفق كلية مع الموجز ـ عليها مساحة أكبر مما أوقفته على أي حدث آخر ، هي بالكاد مذكورة من قبل امبرواز . (١٦) ويضيف رتشارد في رواية الرحلة العديد من الاقتباسات التوراتية الملائمة ، وبعض الملاحظات الاخلاقية الباعثة على الفضيلة الخاصة به . ولكن ليس لديه مادة أكثر واقعية من امبرواز . (١٧) ومرة أخرى حول حصار

واستلام بيت المقدس ، هذه واقعة اخرى قد رويت كاملة في الموجز وفي الذيول ، بينما يقول امبرواز ببساطة ان صلاح الدين استولى على المدينة ..(١٨) وهنا يعطي رتشارد قدرا معينا من التفصيل مع انه ليس بقدر النصوص المتعلقة بأرنول ، وهو يضع لمحة مختلفة على كامل الرواية .!(١٩) وكمناهض معلن لابلين لايمكن بالطبع أن يتوقع منه أن يذكر الدور الذي شغله ، بالين دي ابلين ، في افتداء فقراء بيت المقدس . ومبالغ الفدية التي يعطيها هي نفسها التي في الموجز : عشرة دنانير عن الرجل ، وخمسة للمرأة وواحد للطفل ، ولكنه أكد أن الذين كانوا لايستطيعون الدفع لشراء حريتهم كانوا يقعون في الاسر ، وفي الموجز والذيل من جانب آخر نقرأ أن بالين دي ابلين وبطريرك بيت المقدس قد نظما بعناية سكان المدينة ، وأجبرا كل واحد على أن يصرح بأي ثروة كان يملكها فوق الكمية الضرورية لافتداء نفسه ، ونظما سجلا لغير القادرين على افتداء أنفسهم .(٢٠) ، وبعد هذا تتخلى القصة عن الحقيقة الباردة لأجل مديح فوق الخيال ، وتفاصيل الترحيل السليم للمسيحيين المفتدين يختلف أيضا في النصين : ولاتوفر النصوص المنسوبة لأرنول تفاصيل المعاملة المخزية التي عانى منها اللاجئون على أيدي أبناء جلدتهم وبينهم المسيحيين ، سواء في طرابلس أو في الاسكندرية ، وهي تفاصيل بالكاد تتضمنها « شريعة الثالوث المقدس» ، في تاريخها ، حتى لو كان يعرفها . ولكن رتشارد يقول أيضا ، وهنا لايمكن للمرء أن يرى باعثا على التزييف ، انه قد سمح لهم باختيار انطاكية او الاسكندرية كمقصد لهم ، بينما يقول الموجز والذيول إن بعضهم أيضا قد ذهب إلى طرابلس وبعضهم الآخر إلى أرمينية .

وكان إطلاق سراح غي افتراضا قليل الاهمية عند أرنول ، فهو يحسمه في فقرتين ، (٢١) ولكن امبرواز يعتبر غي موضوعه الحقيقي ، ويهمل حصار صور الاكثر اهمية سياسيا ، ليعطينا صورة مؤثرة ، أو ما يعني به بوضوح أن يكون صورة مؤثرة للملك وهو يبكي أرضه الضائعة ، (٢٢) وحول حصار صور فإنه حكاية الرحلة هي مرة اخرى اقرب للموجز : فكلاهما لديه قصة كونراد

اوف مونتفرات الذي عرضت عليه حياة ابيه مقابل صـور ورفض ، وكلاهما يعطي قدرا معينا من التفصيل حول دفاع كونراد عن المدينة وكلاهما ايضا يذكر الاموال التي ارسلت الى ماوراء البحار (٢٣) من قبـل هنري الثـاني الانكليزي ، ولكن في سـياقات مختلفـة ، ووصف بواعث مختلفة ــ وفي الموجـز التـكفير عن مـوت تـوماس بيكيت ، والاعداد لحملة الى فلسطين ككفارة ، وهـي في الرحلة كرم صرف ، ورتشارد كرجل دين ليس لديه سبب لتبيض مقاصد هنري ، وفي الواقع احرى بان يكون ميالا لانتهـاز الفـرصة لتـذكير قـرائه بشهادة بيكيت .

وطبقا للموجز استعمل المال للدفاع عن مملكة بيت المقدس . قبـل حطين ولافتداء فقراء بيت المقـدس بعـد سـقوط المدينة ، وطبقـا لرتشارد انفقـه كله في الدفـاع عن صـور في ١١٨٨ (٢٤) ولايذكر امبرواز المال بالمرة. وهو ايضا يحذف تماما خبر التعـزيزات التـي ارسلها وليم الصقلي باستثناء اشارة عابرة في مكان اخر ، وفيمـا يتعلق بوفاة وليم يعطي الموجز والرحلة كلاهما معـا التفـاصيل عن الموضوع (٢٥) ،ويتفقان حول اعداد القوات المرسلة ٥٠٠ فـارس مع ان الموجز يقسمهم الى جماعة مـن ٢٠٠ في اذار وقـوة اخـرى من ٣٠٠ في اب التالي ، ويضيف رتشارد اسم قائد الاسطول وهـو مرغريت بينما يتوسع الموجز حول المعونة التي قدمها وليم الصـقلي الى رئيس اساقفة صور عندما مر عبر صقلية في طريقه الى اوروبـا حاملا نبأ سقوط بيت المقدس ، وفي شـأن طـلاق ايزابيل صـاحبة القدس من هنفري صـاحب تيرون ثـم زواجهـا مـن كونراد اوف مونتفرات فان النقاط العامة والدينية في الموجز والرحلة على التوالي تصبح طفيلية جدا لدرجة تعوق اي مقارنة صحيحة بالمرة ، ويشـعر رتشارد انه من الضروري ان يضفي صفات اخلاقية بشكل واسع ، مؤيدا لقضية الحزب المناهض لكونراد ، ومشـوها اخـلاق مـؤيدي كونراد . وهذه هي الفرصة لوصف ريتشارد المشوه للسمعة لبـالين دي ابلين الذي سبق اقتباسه في مكان آخر (٢٦) .

ويكتفي الموجز بالقول :

'Teus i ot qui s'acorderent al departir, et tels i ot qui dist qu'il ne pooit estre'(٢٧)

وروايات الهرقليات التي لاتتماثل مع نص الموجز عند هذه النقطة ، لديها اهم وابرع رواية عن الاحداث ، مبينة البواعث الخفية من جانب مختلف الزعماء ، وكيف شغلت العداوات الشخصية دورا بحجم الاعتبارات السياسية نفسها وتنتهي هذه الرواية نهاية مشؤومة .

'Encores deit l'on douter que li roiaumes de Jerusalem ne soit alé perillant et amenuisant par icestui fait.(٢٨)

وتشمل ايضا كما تفعل رواية الرحلة ، التأكيد بان كونراد رشا رجالا ليأخذوا مكانه ، واشارة الى غي دي سنليس تختلف على اي حال بشكل غريب عن الرواية الواردة في الرحلة ، ففي الرحلة اسر غي من قبل الاتراك في يوم زفاف ايزابيل من كونراد ، ولم ير ثانية فيه ، بينما يقدمه تاريخ هرقل كبطل لايزابيل متحديا هنفري وفي كل هذه الروايات المختلفة حول الطلاق ، هناك من التناقض اكثر من التشابه ، ولكن في هذا الحدث تبدأ حقيقة واحدة في الظهور بصورة باهتة ، سوف تصبح اكثر وضوحا واهمية كلما تقدمت مقارنته للنصوص ، ويحدث هذا عندما يكون هناك اي تماثل واضح نوعا ما بين نصوص امبرواز او نصوص الرحلة مع نصوص الموجز او الهرقليات ، والرابطة دائما تقريبا بين الرحلة وتلك الروايات في الهرقليات هي الاقل شبها بالموجز ، وهذه هي رواية «ا و ب» عادة ، ومن حين لاخر ايضا « د » ، عندما يكون نص « د » متفقا مع «ا و ب» وأعطي حصار عكا قبل وصول ريتشارد قلب الاسد اهتماما قليلا نسبيا في كل من الموجز او تاريخ هرقل ، في حين ان امبرواز والرحلة تحشوان كل التفاصيل الممكنة ، طالما ان هذه العملية التي سوف تشكل اول اهتمام للجيش الانكليزي والفرنسي عندما ينزلون من المراكب (٢٩) ، واي اقتراح بان يوميات الحصار التي يفترض انهم قد استمدوا منها مادتهم يمكن ان تكون هي ارنول

الاصلي ، او نصا مستمدا منه ، لايمكن تأييده طويلا بشكل جدي ، ولا يمكننا حتى الافتراض انه كان رواية مستقلة اكمل اخـذ منهـا الموجز كما اخذت النيول ايضا ، لانهم عندما يلمسـون الموضـوع نفسه كما يفعل امبرواز ورتشارد تكون هناك فروق بينهـم لايمـكن حقيقة تفسيرها بعيدا على انها حتـى خـلافات جـذرية جـدا في التكيف ، والمثال واحد عندما يعالجون جميعـا مـوضوعا متحـررا نسبيا عن مضمون سياسي ، حيث ان أي واحد منهـم ليس لديه أي اهتمام ملموس بتشويه الحقائق ، ولكن عندمـا يتـدبرون مـع ذلك الاختلاف حول الامور غير التفسيرية بل مجرد المعلوماتية ، ووصف المجاعة التي عانى منها الجيش المحاصر لعكا ، الاسعار التي كانت تباع بها مختلف السلع في أوج المجاعة ، فـانها لاتـكون واحـدة في الفقرات الاكثر جمالا فنيا او أخذ ا من التواريخ ، وفي الوا قـع يكون معقولا ان توصف على انها عادية مبتذلة وحتى مملة ، ولكن من اجل هذه الاسباب بالذات فانها تعرض مقارنة جيدة : وهناك قليل جـدا فيها ، باستثناء المعلومات الجافة ، وهـذا بـرغم كل شيء مـانريد مقارنته في الروايات المختلفة .

Mult ert li muis de blé pesanz
Qui costeit en l'ost cent besanz
Que uns hom portast soz s'aissele
Mult aveit ci freide novele,
Chiers i esteit blez e farine,
Doze solz valeit la geline
E l'oef vendeit l'om sis deners,
Tant esteit li tens pautoners.

(*Estoire*, vv. 4217-4324.)

Quid plura? modii tritici, mensura modica quam videlicet quis facile portaret sub ascella, centum aureis vendebatur: gallina quoque solidis duodecim, ovum sex denariis. (*Itinerarium*, i. 66)

Grant cherté avoit en l'ost, si que li muis dou blé valoit .xx. besanz Sarrasinas; une geline valeit .lx. solz; de buef ne de moton ne troveit l'en point; un huef valoit .xij. deniers. La meaudre char que les gens de l'ost manjassent, si estoit char de cheval ou de mule ou de asne. La mesaise estoit si grant que, quant les povres gens poent trover aucune beste morte il la mangeent a grant deintié. (*Eracles, a-b* and *d. RHC* ii. 150.)

Or vous di jou qu'il ot si grant cierté en l'ost des Crestiiens qu'il fu tele eure c'on vendi le mui de forment .lx. besans et le mui de ferine .lxx. Or vous dirai conbien li muys est: çou c'uns porteres porte a son col est li muis de le tiere. Et .i. oef vendoit on .xii. deniers; et une geline

.xx. sols; et une pume .vi. deniers. Vins et cars parestoit si ciers c'on n'en pooit avoir, se de ceval non, quant il moroit. (Abrégé, M-L p. 266.)

Lors ot tel foiz, fu si grant chierté en l'ost des Crestiens que l'en vendi le mui de froment .lx. besanz et le mui de farine .lxx. Et le mui est ce que un home puet porter a son col. Et vendoit l'en un oef. xii. deniers et une geline .xx. solz; et une pome .vi. deniers. Vin et char par estoit si chier que l'en n'en pooit point avoir, fors char de cheval, quant il moroit.
(*Eracles cJ. RHC* ii. 151-2.)

Une si grant chierté fu en l'ost aucune foiz c'om vendoit .i. mui de forment .l. besanz, et le mui de farine .lx. Le mui de la terre est tant com .i. porteor porte a son col a une foiz. L'en vendoit .i. oef .xx. deniers, une geline .x. solz, une pome .vi. deniers. Vin et char par estoit si chier c'om n'en pooit avoir se de cheval non, quant il moroit.
(*Eracles gG. RHC* ii. 152-3.)

وهنا النموذج الذي رأيناه بغموض كبينة في روايات طلاق ايزابيل يظهر بوضوح اكثر ، وتتفق روايات الموجــز وال س.ج وال غ.ج من الهرقليات فعليا كلمة بكلمة ، والارقام التــي اعطــاها غ.ج ليست الشيء نفسه دائما ، ولكن نسخ الارقــام الرومــانية بشــكل خاص معرض للخـــطأ وهنا عندنا رقـــم واحـــد هـــو نفسه —vi— وــ × × مقابل xii, خطأ قابل للفهم ، وال × الاخيرة محذوفة من الثلاثة الاخرى ، وبصرف النظـر عن هذا فان الموجز و« س.ج و غ.ج » متفقين تماما . وهذه الحالة كثيرة جدا في كل اجزاء الذيول . وليس فقط في هــذا القســم ، كمــا سوف نرى بوضوح فيما بعد . وبالمثل يتفق التاريخ والرحلة بالضبط مع بعضهما بعضا على الاسعار ، كما يجب ان نتوقع ، وايضا على تحديد معيار ، مثل ، الكمية التي يمكن للانسان ان يحملهـا تحـت ذراعه ، بينما تقول كل النصوص الاخرى فوق كتفيه . وبين هــاتين المجموعتين «التاريخ» و«الرحلة» من جــانب ، والموجــز و « س.ج» و« غ.ج » من الجانب الاخر ، تقف الرواية الباقية من الهرقليات اي من « اوب » وهو النص الرئيسي من طبعة راشيل التي حدث واتفقت معها هنا رواية « د » مع ان هذه ليست باي حال الحـــالة المعتــادة للامور كما سوف نرى ، (٣٠) ان هذه الرواية لاتشبه تماما ايا من الروايات الاخرى ، والسلع التي تختارها كامثلة موضحة هــي تلك المختارة ايضا من قبل امبـرواز ورتشــارد ــ ومثلهمــا ــ وخــلافا

للموجز « و.س . ج ».و« غ .ج » ، فانها لاتـذكر التفـاح او النبيذ غير المتوفر الحصول عليه واللحم ـ ولكنهـا في خـلاف كامـل مـع امبرواز ورتشارد حول الاسعار ، ويبقى صحيحا مع ذلك انها تتفق معهما في بعض المعايير ، مع انهـا صـغيرة ، وانهـا الوحيدة مـن نصوص الهرقليات التي تفعل ذلك ٠

ومن اجل كامل حكاية الحملة الصليبية الثالثة ، فـان نصـوص النيول موجودة في هـاتين المجوعتين ، حيث يتفق الموجز مع « س ج و غ ج » ضد « أ ـ ب » ورواية « د » هنا كما في أحوال كثيرة في زمرة لوحدها ، متفقة مرات عديدة مع « أ ـ ب » ، ولكنها تمثل في أحوال كثيرة نصا خاصا بها ، ومن أجل المقارنة مـع الرحلة وهـو النص الرئيس في مصنف راشـيل ، فـان رواية « أ ـ ب » هـي الاكبـر اهمية كثيرا ، وهـذه الرواية تتفـق أحيانا مـع الموجز « وس ج » و « غ ج » حول نقاط الحقيقة ، ولكن لايوجد مطلقا التماثل النصي نفسه كما يوجد بين هذه النصوص الثلاث فيما بينها فعلى سبيل المثال ، هناك رواية رتشـارد قلب الأسـد عندمـا يلتقي بـز وجته المقبلة ، بيرنغـاريا النافـارية (٣١) فـطبقا للرحلة ، ذهب رتشارد الى ريغيو ليلتقـي بـأمه الياذور ، وأختـه جوانا صاحبه صقلية ، وبيرنغاريا ، وأرسل جوانا وبيرنغاريا قدما متقدمتين عليه في سفينتهما ، وتتفـق كل روايات النيول والموجـز ، رغم أنها تروي القصة بشكل مختلف ، أن الياذور وبيرنغاريا وصلتا الى مسينا عندما كان رتشارد قد سبق له المغادرة ، ولكنهما وجـدتا سفينة جوانا على وشك الابحار ، وانضمت اليها بيرنغاريا ، وعند وصول الملكتين خارج شاطىء قبرص ، كل النصـوص لديهـا بعض الروايات عن المتاعب مع اسحق كومنينوس ولكن التفاصيل تختلف ، ففي الرحلة أرسل اسـحق هـدايا الى الملكتين اللتـان سـايرتا موافقتين على النزول من السفينة في اليوم التـالي ، ولكن قبـل أن يصـبح ذلك ضروريا وصـل رتشـارد ، وفي الهـرقليات والروايات « أ ـ ب » و « د » رفض اسحق طلب الملكتين تجـديد تموينهما من الماء وأرسل سفنا لمطاردتهما ، وقـد رفعتـا الرسـاة

وهربتا وقابلتا اسطول رتشارد في أعالي البحر في اليوم التالي ، وفي الموجز ، وفي المختصر و « الهرقليات و س ج و غ ج » وهما هنا مرة أخرى على اتفاق تام أمر اسحق جوانا بالنزول من السفينة فرفضت فلاحقها من قبل سفنة ، ولكنها التقت بسفينة رتشارد على الفور تقريبا ، وتدعى هنا حاشية نيليه في مصنف راشيل . بتهور نوعا ما بأن روايات « أ ـ ب » و « د » والرحلة متماثلة والخلافات لفظية فقط (٣٢) ولكن الفروق في الواقع كبيرة تماما ، وتقريبا بالحجم نفسه لتلك التي تفصل الرحلة عن الروايات الاخرى في الذيول وعن الموجز .

وإنه مع وصول جيش رتشارد الى فلسطين ، فإن التماثل بين « أ ـ ب » والرحلة والتاريخ يصبح واضحا حقيقة المرة الاولى ، وحادثة الشيني الكبير على سبيل المثال تتفق بالتفصيل (٣٣) : وكانت السفينة تحمل تعزيزات من القوات وأسلحة ، وأفاعي ، وقوارير من النار اليونانية ، وليس بدعة أنه يمكن أن يعثر عليها بسهولة مصادفة من قبل مؤلف يخترع تفاصيله الخيالية كما هو مطلوب ، وجاء في كلا التاريخين بأن السفينة قد غرقت خارج عكا ، بعد اشتباك مع سفن رتشارد الكبيرة ، والفرق الصغير الوحيد هو في مصير البحارة : ففي الهرقليات غرقوا جميعا ، بينما في الرحلة أخذ بعضهم أسرى ، وليس هناك مسألة اعتماد مباشر من رواية على الأخرى ، إذ أن كلا منهما تعطي تفاصيل تحذفها الأخرى .

وعلى سبيل المثال سمي القبطان في الهرقليات ، ولكن لم يذكر اسمه في الرحلة ، بينما الأخيرة لديها تفاصيل اكثر حول المناوشة ، ولكن الاتفاقات هنا لاتتحمل إمكان تفسيرها على أنها مصادفة .

والاستيلاء على عكا من جانب آخر ، غير متماثل في النصين ، مع أن الفروق ليست كبيرة جدا بحيث تتوفر إمكانية

وجود تكييفين مختلفين للنص نفسه .(٣٤) والاختلاف الرئيس هو أنه في قصة الهرقليات يهاجم الملك الفرنسي والانكليزي معا ، ثم رتشارد وحده ، ثم الاتفاق معا مرة أخرى بينما في الرحلة يكون رتشارد مريضا ، وفيليب أغسطس هو الذي هاجم وحده ، وأعطيت بنود المعاهدة ايضا مختلفة نوعا ما ، ولكن في هذه الحالة إن الاختلاف في التشديد أو التوكيد ، اكثر منه في الحقيقة ، فنص الرحلة دقيق جدا حول اعداد الاسرى المأخونين ، وأعطى أولا الاقتراحات المقدمة من قادة المسلمين ، ثم البنود المتفق عليها أخيرا بعد التفاوض . ولدى كتاب هرقل نفذ الاستسلام كله على يد قائد مسلم واحد هو قراقوش الذي كان قائدا لعكا في غياب صلاح الدين ، وقد ذكر اطلاق سراح كل الاسرى من المسيحيين ، وليس مجرد رقم معين ويمكن لهاتين الروايتين أن تكونا مختلفتين لصورة يمكن تصويرها ، ومن المحتمل أنهما تكيفتا نوعا ما بلا مبالاة عن المصدر نفسه ، أو أنهما تمثلا مصدرين مختلفين .

ومن الصعب في هذه الحالة القول بأن واحدة هي حتما الحالة اكثر من أن تكون الاخرى ، ولكن يجدر ملاحظة أن رواية الاستسلام التي تعطيها كل من « س ج » و « غ ج » والموجز بعيدة جدا عن الهرقليات والرحلة مما هما الواحدة عن الاخرى ، حيث تعطيان الشروط بصورة مختلفة تماما :

مبادلة الاسرى سجين بسجين ، وفدية يتفق عليها لذوي المناصب ولاذكر لاعطاء الامان لسكان عكا ، (٣٥) ومرة أخرى أيضا نعود الى الحالة حيث ، مع أن أيا من نصوص الهرقليات لايتفق بالضبط مع الرحلة ، فإن رواية « أ - ب » تحمل بعض الشيء معها ، وعندما تقارن برواية « س ج » و « غ ج » والموجز تبدو في الواقع أقرب الى الرحلة .

وحول اغتيال كونراد أوف مونتفرات مع ذلك فان الروايات العديدة للهرقليات تتفق في الواقع مع الموجز ضد

الرحلة ، (٣٦) وكل النصوص تتفق حول نقطة واحدة هي أن الحشيشية كانوا متورطين نوعا ما ، وتتفق الهرقليات والموجز في ذكر استيلاء كونراد على سفينة الحشيشية ويتخذ من ذلك الباعث على قتله ، ولكن الرحلة اكثر غموضا ، معالجة إياها كنزوة من شيخ الجبل :

'qui Marchisum
morte dignum judicabat, et infra certum illius temporis trucidari mandaverat(٣٧)

لكننا هنا في الحقيقة في مواجهة تعصب وطني ، وكان في مصلحة الانكليز كثيرا الغموض بقدر الامكان حول موت كونراد ، طالما انه لم يقع حتى القليل من الشك على البطل الانكليزي ، ريتشارد نفسه ، وتجهد التواريخ الفرنسية لبيان ذلك مذكرة إيانا بأن كونراد توفي يوم الثلاثاء ، وفي يوم الخميس زوج ريتشارد الأرملة ايزابيل لابن أخته ، هنري دي شامبين وتمضي الرحلة على العكس في اسهاب كبير وخيالي في الواقع ، لتضع رتشارد في الضوء الذي يظهره ، مزودا ايانا بمشهد درامي ، ولكن غير محتمل ، يوجه فيه كونراد الذي يعاني سكرات الموت ايزابيل الى تسليم صور الى رتشارد لا الى أي واحد آخر ، ويتهم المؤلف الفرنسيين مباشرة بنشر الاشاعات المسيئة للسمعة حول رتشارد . وهذه الحادثة بناء عليه حتى أكثر صعوبة في التقويم من استسلام عكا ، حيث أننا هنا يمكن أن نكون واثقين تماما من أن تزييفا متعمدا عمل في نص واحد على الاقل ، ويحتمل جدا في كليهما ، ولكن في حين أنه يستحيل تأكيد أن كلتا الروايتين استمدتا من مصدر مشترك فان من المستحيل بالمقدار نفسه بيان انهما لم تفعلا .

ولكن حادثة واحدة أخيرة تقدم الامكانيات للمقارنة بين مختلف النصوص وتزودنا ببنية واضحة في الحقيقة . وهي قصة هدية من الخيول قدمت الى رتشارد اثناء حصار يافا ممن قبل صلاح الدين ،(أو في بعض الروايات من قبل أخيه سيف الدين) وترد في

كل النصوص باستثناء روايات «ب ، ج وغ ج من الهـرقليات ، وفي هذه الحادثة إن « ا ــ ب » في اتفاق واضـح مـع الرحلة ففـي كلا النصين قدم سيف الدين هـدية تـألفت مـن زوج مـن الخيول لرتشارد ، وكان قادرا على الاستفادة منهما فيما بعد بشكل ممتاز .

'Quant li rois les ot receus, si fist monter sus et les fist assaer et eschaufer; si trova que il estoient moult bien en frain. Si monta sur l'un et fist monter Guillaume de Preaus sur l'autre et establi ses gens et issi hors dou chastel et se feri es Turs qui estoient ou borc, et les mist a desconfiture.(٣٨)

وألقي ضوء مختلف كلية على الحادثة من قبل الموجز (٣٩) ، وهنا نقرأ انه أثناء الحصار ، رأى صلاح الدين ريتشارد يقاتل على قدمية مع رجاله ، وإذ وجد ذلك حالة تبعث على الشفقة بالنسبة للملك ، أرسـل له حصانا ، ورفض رتشارد قبـول الحصـان وجعـل خـادما يمتطيه ، فحمله الحصان على الفور عائدا الى معسـكر المسلمين ويقول صلاح الدين حسب رواية هذا النص :

'en fu mout honteus de ce que li cevaus estoit retornés. Si en fist .i. autre apparellier, et se li renvoia.'

ولكن لكون الهدية بسيطة كانت تنطوي على حسن النية ، اصبح الحصان هنا حيلة ماكرة صممت على مـا يبـدو لاخـذ رتشـارد أسيرا ، والرواية الباقية من القصة التي تـرد في رواية « د » مـن الهرقليات (٤٠) هي أكثر أهمية بكثير ، والاكثر اقناعا ، من ناحية أنها لم تلون الحادثة كلها بالسواد ولا كلها بالبياض ، بـل قـدمت تفسيرا أكثر رقة لها كلها ، وتقع الحادثة في هـذا النص في سـياق طويل جدا نوعيا ، يعطي تفصيلا أكثر بكثير حول حصار يافا ممـا يفعل أي من النصوص الاخـرى بـالمرة . وتـروي حـادثة الخيول هكذا : نزل رتشارد من السفينة في يافا تمـاما في الوقـت الذي كان المسلمون فيه على وشك الاستيلاء على القلعة ، وقـاد هـو نفسـه مترجلا الهجوم المضـاد ، مبـديا شـجاعة شـخصية كبيرة في

ذلك ، ومنع المسلمين ليس فقط من الاستيلاء على القلعة ، بل أيضا من أخذ أسير واحد ، وعاد المسلمون منهزمين الى قائدهم ، أخو صلاح الدين سيف الدين ، الذي دهش كثيرا من اخفاقهم ، فطلب أن يروه رتشارد ، الذي اشاروا اليه وهو واقف مع رجاله فوق رابية . وكان عند هذه النقطة أن وردت لسيف الدين فكرة أن يرسل اليه حصانا ، ولكن البواعث التي يعزوها المؤلف الى المسلم المهزوم في تصرفه هكذا تجاه المنتصر ألطف بكثير من كل الخيانة الواضحة أو الكرم البسيط في الروايات الاخرى :

Seif Lddin, le frere Salahadin, demanda ou estoit le rei. L'en li mostra ou il estoit aveques ses homes sur un toren Il s'entremist de bien et d'onor, si li envoia un cheval tirant, qui estoit mult mesaisié de la bouche, par un sien memeloc, et li encharja que il deist au rei que n'en esteit mie avenant chose que rei se combatist as Sarasins a pié.(٤١)

واقتراح هذه الفقرة هو أن قصد سيف الدين لم يكن أن يجلب رتشارد الى معسكر المسلمين بواسطة الحصان ، ويؤخذ أسيرا ، وإنما اختبار مهارته كفارس وربما وجد غير كفء عندما ألقى به الحصان ، وأن وجه سيف الدين يجب أن ينقذ هكذا ، وفي الحقيقة يدرك رتشارد أن الحصان ليس بالهدية البسيطة ويجعل المملوك يعدو به . وعندما يراه يشد عند الفم يقول عندئذ

'Mercie ton seignor et li meine son cheval, et li di que ce n'est mie l'amor qui entre lui et moi estoit qu'il me mande cheval tirant por mei prendre.(٤٢)

ويركب المملوك الحصان عائدا الى سيف الدين ، الذي كان أمينا ومتفهما ، فبعث الى رتشارد حصانا جيدا ، فجربه رتشارد بواسطة خادمة فوجده مرضيا فركبه في المعركة .

وهذه الرواية التي يعطيها المخطوط « د » مفيدة من عدة وجهات نظر ، إنها تصوير آخر لاخلاق رتشارد كما كان يرى من خلال

عيون المسلمين والفرنجة السوريين ، وكما سوف نرى فيما بعد (٤٣) ،إن مؤلف«د» لم يكن لديه مزيد من الوقت اجمالا للصليبيين الأوربيين ، وهي قاعدة كان رتشارد الاستثناء المدهش فيها ، وهناك أيضا بينة أن رتشارد كان معجبا بالقدر نفسه بعدوه المسلم سواء لأجل شجاعته في المعركة أو لذكائه ودهائه ، ومع أخذ كل هذه الحقائق في الاعتبار ، وتذكر أيضا أن « د » هو أكثر الكتاب موالاة للمسلمين (٤٤) ، ويميل اذا صح شيء من ذلك الى تبيض مقاصد سيف الدين ، ويمكننا ان نرى ان القصة تروى كمثال على شجاعة رتشارد ودهائه ، وكانت هدية الحصان« *cheval* *tirant* » وسيلة لوضع مؤهلاته هذه تحت الاختبار ، وكلمة رتشارد *por mei* *prendre* ، من الواضح أنها تعني في السياق (لا ليأسرني) بل (ليخدعني).

ومن وجهة النظر النصية ، يبدو أن تفاصيل هذه الرواية تفسر التفاصيل المتصارعة للروايات الأخرى ، فإذا افترضنا أن هذه هي القصة الاصلية من السهل أن نرى كيف خرجت الأخرى منها ، فالرحلة والهرقليات أتيا على ذكر حصانين كما في القصة الأصلية ، لكنهما حذفتا الخدعة ، وانطلقتا من النقطة التي أخذ عندها رتشارد الحصان الثاني فجربه وركبه بنجاح ، ويؤكد الموجز على العكس على الجزء الاول من القصة ، مضيفا تفسيره الخاص لعودة الخادم الى المعسكر الاسلامي فوق الحصان ، أي أنه كان مدربا على العودة براكبه ، ويذكر فقط هدية الحصان الثاني باختصار ، ويتوازن هذا التأكيد مع الرغبة في وضع رتشارد في صورة مشرقة بشكل خاص والمسلمين في صورة معتمة بشكل خاص ، ولكنه يمكن أيضا أن يقفز ببساطة من اساءة تفسير عبارة *por mei prendre.* ، وتحوي رواية « د » كل تفاصيل الروايتين الأخريين إلى جانب بعض الزيادة ،و الخلاصة أنه في هذه الحادثة لدينا بوضوح ثلاث روايات لقصة ـ واحدة ، ومن الواضح انها استمدت كلها من رواية أصلية

واحدة حيث المخطوط (د) هو الاقرب منهـا ، وبـاعتبار ان هـذا كذلك يمكننا ان نرى ان النصوص الاخرى اقـرب لبعضـها بعضـا برؤية ايها تتفق في تكيفها مع الاصل ، ونجد انه بدون اي شك بالمرة الرحلة و « ا ـ ب » يتفقان بالضبط مع بعضـهما بعضـا بـاعطاء تكيف يخالف تشابه اي من النصوص الاخرى ، وهذا هو الاوضـح مع انه ليس التصوير الوحيد الذي لدينا لقرابة هذين النصين .

وعليه فالصورة التي تظهر من فحص الهرقليات والتاريخ فيمـا يتعلق بنيول وليم الصوري وبالموجز هي هذه . إن أي تشابه يوجـد بين مجموعتي النصوص يوجـد بـلا خـلاف في رواية الرحلة ونص « ا ـ ب » من التاريخ وهذه نقطة قوية بـدرجة كافية لتقتـرح بعض الصـلة الطفيفـة الغـامضة بين الاثنين ، ولكن لا شيء أكثـر : وفي الواقع إن اقتراح مـاس لاتـري بـأن الرحلة كانت تـرجمة للنص الاصلي لارنول ، وأن الموجز تكيف عنها ، بات يمكن بشكل حاسم اهماله ، والتشابة الموجـود بين « ا ـ ب » والرحلة يمـكن التعبير عنه بافضل صورة بالقول بانه مع أن « ا ـ ب » مستمدة مـن المواد التي استعملها المصنفون للروايات الاخرى في الهـرقليات و « س ج و غ ج و د » من قبل مصنف الموجـز ، كان عليه ايضـا أن يعـطي مصدا اخر ، أو مصادر تتبع تقاليد غير معـروفة لهؤلاء المصـنفين الاخرين ، ولكنها معروفة لرتشارد الثالوث المقدس مؤلف الرحلة في الرواية التي يسميها ماير « ي ب٢ » ، وهكذا فإن «ا ـ ب » هـو النص الوحيد من نصوص الهرقليات الذي يحمل أي قـرابة بـالمرة للرحلة ، وهذه ليست إلا قرابة طفيفة ، وهذه النتيجة لا تلقي مزيدا من الضوء على مصادر الرحلة والهرقليات وهي مخيبة للآمـال ، في ان النتيجة المعاكسة التي هي تأكيد لفكرة ماس لاتري ، قد وضعتنا تماما على الطريق الى إعادة بناء عمل أرنول الاصلي ، ولكن هـذا الفحص للذيول والرحلة قد قدم بعض النتائج الصغيرة التي لم يبحث عنها ، ولكنها مفيدة لبيان اشياء معينة حول الذيول ذاتهـا ، وقـد بينت أن هناك في هذه الفترة من الذيول على الاقل ، رابطة واضـحة وقوية بين روايات الهـرقليات « و س ج و غ ج » والموجـز ، وأن

«أ ـ ب» مستقل نوعا ما عنها وكثيرا ما يتفق معها ، ولكنه يحتوي ايضا مواد خاصة به تختلف عن موادها ، وأن نص «د» هو الاكثر تعقيدا من الجميع في البناء ، فهو يتفق هنا مع « أ ـ ب » وغالبا ما يعطي نصا مختلفا كليا عن كل النصوص الاخرى التي ، في حالة واحدة على الاقل ، قدمت لنا في السابق المفتاح للغز النص ، وكل هذا لا يجيب على السؤال الاصلي حول الرحلة ، ولكنه يجيب على سؤال اكثر اهمية حول تجميع مختلف الذيول فيما بينها ، ومع أن الطريق الذي تعده لنا ملتو عن ذلك الذي تصوره ماس لاتري ، فإنه يمكن في النهاية أن يؤدي الى المكان نفسه والى إعادة اكتشاف التاريخ الاصلي لأرنول .

الفصل السادس

عمل أرنول

بنية النيول

من الواضح إذا أن فرضية ماس لاتري حول رالف الكوغشالي ليست راسخة ، وأن مفتاح اللغز يكمن بالأحرى (١) في اقتراحه الأكثر عمومية بأن تاريخ أرنول ليس باقيا الآن ، ولكن خدم كمادة مصدرية لكل من النيول والموجز ، التي ليست بأي حال أدق تصوير ممثل لنص أرنول ، وقد حفظت بالمناسبة اسم المؤلف ، وهذه مازالت حتى الآن فرضية فقط ، ولكنها واحدة توافق كل الحقائق حول النصوص ، ويجب أن تكون قادرة على البرهنة أو عدم البرهنة ، بمقارنة النصوص مع بعضها بعضا .

مفترضين عندئذ أن عمل أرنول ينتمي إلى طبقة مختلفة تماما في تشكيل الجزء الأساسي عن طبقة برنارد ، والمشكلة في تعقب مابقي من عمله إلى مرحلة أبكر وأكثر غموضا بالمرة ، ومن الضروري أن تتميز من خلال هذه الكتلة من المادة المتجمعة ، محاولين التمييز بين شريحة وأخرى لنفصل بين العناصر الكثيرة الداخلة في تركيبها ، بأمل معرفة ماالذي جاء به أرنول ، وكان عمله على مايبدو مصدرا منتشرا لدى المصنفين : والقسم الرئيس الذي يسمى فيه أربع مخطوطات (٢) يظهر مرة أخرى مع أن ذلك في كل الصور المتنوعة ، وفي كل رواية فردية من النيول ، وهذا مجرد دليل ، وليس تحديدا للكثرة التي استمد فيها من روايته .

ومشكلة ترسيخ الصورة الأصلية لتلك الرواية هي في بعض النواحي قريبة من المشكلة المقدمة من الرومانسيات التريستانية .

وفي كل حالة تظهر الروايات المختلفة خليط التوافق نفسه والتعارض والتنقيح . وتختلف المسألتان على أي حال بطريقتين هامتين :

في حالة أسطورة تريستان ، أيا كان قدر وزن البنية لصالح التسليم بصورة مكتوبة ثابتة تستمد منها الروايات الأخرى في النهاية ، ووجودها مايزال غير يقيني تماما . وصورتها مادة للتخيل ومعايير ترسيخ مضمونها هي كما تبين رواية بدبير بطريقته الخاصة وهي على الأقل غير موضوعية بمقدار كبير (ذاتية) . (٣) وحتى بعد تنقيح جرترود سكو بيرل ، يبقى التاريخ كيانا غامضا ، ذا تاريخ قابل للتساؤل ، وتأليف غير معروف ، ومصدر إقليمي موضع جدال . ومعرفتنا بأرنول مع أنها ضئيلة تعطينا نقطة انطلاق مختلفة تماما ، فنحن نعرف أن لديه شيء مكتوب 'cest conte fist metre en escrit'

ولدينا معايير معينة يمكننا أن نحكم بها ماذا كان هذا المكتوب يمكن أن يحوي ، وإلى حد معين ماالذي لايمكن – أعني تعاطف أرنول السياسي ، وموقعه الجغرافي ، ومنزلته الاجتماعية ، صحيح أن عمله قد فقد بالتأكيد تماما ، وهو نفسه لايعرف عنه إلا القليل . ولكن مانبحث عنه قد وجد يوما ما كوثيقة مكتوبة ، وتلك اللمحات القليلة من حياة مؤلفها واضحة وتضعه في زمرة مختلفة تماما عن المؤلف المفترض لحكاية تريستان الرومانسية .

ولكن الفارق الثاني الكبير بين المشكلتين يرجع على الجانب الآخر .

وسيرة تريستان هي من الأدب القصصي . فإذا ظهرت بناء عليه أحداث مشابهة من روايتين ، فإن من المؤكد بكل المعاني أن كلتا الروايتين مستمدتان إما الواحدة من الأخرى ، أو أن كلتاهما في النهاية من مصدر مشترك ، لأن التشابه بين مؤلفين يخترعان منفصلين بدقة الأدب القصصي نفسه من الممكن إهماله ، ومع التواريخ من جانب آخر ، هناك دائما إمكانية أن كلا منهما يروي

الحقيقة مستقلا عن الآخر ، مع رؤيتهمـا مـرة واحـدة في الضـوء نفسه ، وبكلمات أخرى هناك إلى حد ما دائما بـركة مشـتركة مـن المادة ، أعني الأحداث كما حدثت بـالفعل ، والتمـاثل بين روايتين مكتوبتين يجب أن يكون شديدا ومفصلا أبعد من التماثل الأساس في مادة الموضوع ، قبل أن نجد تسويغا في افتراض وجـود علاقـة بين الاثنين .

كيف لنا أن نقرر ، بين المصادر المختلفة التي يبدو أن كل مصنف قد أفاد منها كثيرا بحـرية ، بـالضبط ، مـاالذي ينسـب لأرنول ؟ ونقطة الانطلاق الوحيدة الممكنة هي الاحتفاظ العرضي تماما باسمه في المخطوطات الأربع المسماة بمخـطوطات أرنول ، وهـذا تـوافق بمعنى أنها بشكل عام بعيدة جدا عن أن تكون الرواية الأكثر تفصيلا للنص ، ولكنها تزودنا بنقطة انطلاق وهي حادثة فردية يرتبـط بهـا اسم أرنول بإحكام على انه اسم راويها ، والتي منها يمكن العمل في كل اتجاه بدوره ، في محاولة لاكتشاف إلى أي مدى قبـل ، وإلى أي مدى بعد هذه النقطة توسعت حكاية أرنول ، والطـريقة الواضـحة التي تقدم نفسـها هـي فحص كل الروايات في كل مـن الموجـز والتاريخ ، ومحاولة فصل هذا الجزء من نصهما بخطوط حـدودية ، وبالطبع ليس هناك شيء يمنع مصنفا ما من أن يتوقف فجأة قبل أن يصل إلى نهاية مصدر معين ، أو أن يبدأ عند جزء ما خلال آخـر . ولكن إذا تحولت روايات عديدة لتتفق على نقطة التحول من مصـدر لآخر ، عندئذ تكون البينة بقـوة لصـالح افتـراض أنهـا كانت نهاية ـ لمصدرهما المشترك .

كيف يمكن إدراك مثل هذا التحول في أي تاريخ واحد ؟

كما رأينا إن تفاصيل سيرة أرنول الذاتية غير معروفة لنا ، ولكن هناك شيئين مؤكدين : أنه كان من عامة الناس ، وأنه كان مـواليا لابلين ، وسيكون من غير الحكمة تعليق أهمية أكثر مما ينبغـي على الحقيقة الأولى ، لأن أرنول كسيد كبير لابد أنه كان لديه الكثير مـن

المدونة الكهنوتية التي تحت تصرفه ، وهكذا فإن المصـادر اللاتينية المكتوبة التي لايمكن أن يكون قادرا على قراءتها كانت مع ذلك سهلة المنال عنده ، والفقرات التوراتية الطويلة التي كثيرا جدا مـاتظهر في أجزاء معينة من التصانيف التي تعرض بمعرفة أكثر تفصيلا ودقـة بالترجمة اللاتينية المقبولة Vulgate مـن أي رجـل عامي عادي يمكن توقع معرفته بهـا ، ولايمـكن إسـقاطها حـالا كاستيفاء كهنوتي متـأخر في عمـل أرنول ، وعلامـة أرنول المميزة الأخرى ، ولاؤه لقضـية ابلين ، الذي يمـكن الاعتمـاد عليه أكثـر كثيرا ، مع أنه هنا مرة أخرى توجد حدود معينة يجـب معـرفتها . وكون الابلينيين إحدى العائلات الهامة في بلاد ماوراء البحـار فقـد كانوا مقيدين بالظهور في أي تاريخ معاصر ، وكانت أعمالهم إلى حد ما مادة من المعارف العامة ، ولن يكون من المستطاع كتـابة تـاريخ الفرنجة ماوراء البحار في هذه الفترة دون ذكرهـم بقـدر جيد ، ولكن ليس كل الكتاب يقدمونهم على نحو مرض بـأي وسـيلة ، أو حتـى بشكل حيادي كما سبق أن رأينا ، وبشـكل خـاص حـوالي وقـت سقوط بيت المقدس ، عندما كان سلوكهم حتى أكثـر غمـوضا مـن المعتاد ، وماالذي يبحث عنه المرء بتعقب عمل أرنول ، بناء عليه ؟ إن فقرات غير متذبذبة مواتية للأبلينيين ، والأفضـل تلك التـي تحـوي معلومات حولهم لن تكون متوفرة على الفـور ، أو غير ذات أهمية ، بالنسبة لأي شخص لم يكن على صلة وثيقة بالعائلة .

وقد سبق فحص الموجز في هذا الضوء من قبل ماس لاتري ، الذي لاحـظ أنه يحتمـل أنه كان هناك فـاصل في التنقيح حوالي ١١٩٢ أو ١١٩٤ (٤) ، وليس لهذا أن يقرر مسبقا الحـكم في قضية تأريخ لتصنيف أبكر لرواية الموجز ، تشير في وقت مبكر إلى سقوط القسطنطينية الذي ثبت على أي حال بعـد ١٢٠٤ ، ولاهـي تستبعد إمكانية استيفاء المادة من مصادر أخرى قبل هذه النقـطة ، ولكن هنا إن كل ذكر للابلينيين يوقف فجأة ونهائيا ، وبالين دي ابلين الذي كان الشخصية المركزية في التاريخ حتى هذه النقـطة ، والذي يختفي الآن فجأة يمكن أن يكون قد مات في حينه . ويذكره التـاريخ

لآخر مرة في بنود المعاهدة المبرمة بين صــلاح الدين وريتشــارد قلب الأسد في ١١٩٢ (٥) ، و ١١٩٣ وهو التاريخ الذي ســمع فيه عنه لآخر مرة حتما ، ولكن بقية عائلة ابلين الكبيرة تــابعت تقــاليدها في البروز السياسي ربما حتى كان بتمايز أكثر ، وفي بقية الموجز مع ذلك بشكل عابر من حين لآخر كما لو كانت قليلة الأهمية أو لا أهمية لها بالمرة ، والنتيجة التي لامفر منها : إنه عند أو حول هذه النقطة يغير مصنف الموجز المصادر ، ويبـدأ في اســتعمال مصــدر غير ابليني ، وهذا ينطبــق بــالطبع على كل الروايات الثــلاث المــوجز ــ ز ــ أ (ب ٢) ، و الـ (ب ١) المفقود ــ إذ إنها جميعا متفقة في هذا .

وفي حالة تاريخ ماوراء البحار ، إنه لأكثر صعوبة بــكثير القــول أين يحدث التوقف ، لسـببين . الاول : كان مصــنف هــذا الخليط معنيا في الحد الأدنى بالأهمية التاريخية للكتاب كما نفهم التعبير أو كما يبدو أن معاصريه قد فهموه ، لهذا فإنه سيكون تهورا افتــراض أن تغييرا في مصدره يدل على أي شيء أكثر من نزوة مــن جــانبه ، وثانيا : إن الشيء كله هو هكذا مزيج على أي حال حتى إن التغيرات الفجائية من موضوع لآخر ، والعودة مرة أخرى أيضا هي القــاعدة اكثر منها الاستثناء .

وبالرموز نفسها ، إن المخطوطات الباقية من التاريخ لايمكنها أن تقدم دليلا من أجل هدفنا الحاضر ، ولكن من الضروري أن نذكر مرة أخرى في هذا المجال تــرجمة ســتري دي لاغويت (٦) فــاذا كانت بالدقة نفسها استخلاصا من أصله في كل الأجزاء كمــا هــي في تلك الاجزاء التي يمكننا أن نتحقق منها ، فإن هــذا الأصــل مختلف عن المخطوطات البــاقية في ناحية حيوية واحــدة ، فمــكانة ســتري دي لاغويت مفصلة جدا حتى خبر سقوط القدس ضمنا ، ثم تصبح أقــل بمقدار طفيف هكذا حتى نقطة تلي تماما التقسيم الذي لاحــظناه في الموجز ، والدقة عند وفاة هنري دي شامبين في ١١٩٧ ، وبعد هــذه الحادثة لا توجد قصة مفصلة بالمرة ، بل مجــرد قــائمة بــالأحداث الكبيرة من حينه ، الى وقت الكتابة ، الذي يبــدو أنه كان بين كانون

أول ١٢٣٩ ، وخريف ١٢٤٣ ، ويحوي النص أيضا رواية عن وفاة صلاح الدين تصل الى المديح تقريبا ، وليس هنا فاصل ملموس بالمرة في الحكاية قبل وفاة هنري ، فمن أجل ماذا كانت قيمة بينة ستري دي لاغويت اذا ؟ يبدو أن مخطوطه كان يقوم على تاريخ أدخل فيه المصنف استيفاءات من القصص الأدبي (كما ذكر في استعراض النصوص) (٧) وان هذا التاريخ انتهى في عام ١١٩٧ بوفاة هنري دي شامبين .

ونتحول الآن الى الذيول الحقيقية (٨) ، وهذه تقدم بشكل عام نموذجا مختلفا نوعا ما ، من التواريخ القصيرة ـ الموجز والتاريخ ، وتختلف أيضا بقدر كبير فيما بينها ، كما يمكن أن يرى من الجدول على صفحة ١٠ ـ ١١ ، واجمالا فإن العناصر المكونة تنسجم معا بطريقة أكثر تعقيدا بكثير مما في الحالة التي في التاريخ ، أو الموجز وتجعل تمييز البنية أكثر صعوبة ، ولكن هناك ، استثناءات مدهشة لهذه القاعدة (أبرزها في د) وهناك أيضا ميزة أنه مع نصوص عديدة تغطي بشكل جوهري الأساس نفسه وتستمد الى حد بعيد من المصادر نفسها ، فإن المقارنات الدقيقة بينها ممكنة بطريقة لا تكون ممكنة بالنسبة للتاريخ ، المعزول نسبيا والموجز . تاركين جانبيا الفروق اللفظية بين المخطوطات من العائلة نفسها ، والتنوع بين عائلة وعائلة من نوعين : تلك التي تكون حيث تغطي رواية واحدة ما هو ظاهر انه مجرد رواية أشمل أو أكثر ايجازا للمادة نفسها كالروايات الأخرى ، وتلك التي يكون المصنف على ما يبدو قد استعمل فيها مصدرا جديدا ، ولم يستعمل من قبل المصنفين الآخرين ، أو أضاف مادة أصلية خاصة به ، في حين أن الأولى هامة في توطيد العلاقات بين النصوص بقدر ما يعتمد كل منها على الآخر ، والثانية تبين أين يبدأ هذا الاعتماد وأين ينتهي .

والروايات الخمسة الرئيسية في الذيول المدرجة أعلاه يمكن تقسيمها الفترة موضع البحث ، أعني حتى ١٢٣٢ ، الى ثلاثة مجموعات « أ و ب » (نيل كولبرت فونتنبلو كما يسميه ماس

لاتـــري) ، و« ســـس. ج و غ . ج ،و د وحـــــــدها ، والزوج الاوسط س . ج و غ . ج يوافق بشكل تام تماما الموجز ، وبالكاد يختلفان ماديا عن بعضـــهما بعضـــا في هــذه الفتـــرة ، في حين أن الاخير « د » متميز كثيرا لدرجـة أنه يتـطلب أن يعتبـر منفصــلا تماما ، والروايات د أ و ب لا تقدم فروقا مادية عن بعضها بعضا في هذه الفترة ، ومع أن فروقا صغيرة في القراءة بينها سيشار اليها من حين لآخر ، ويمكن عموما أن تؤخذ كرواية واحدة . وعلاقة هذه الرواية برواية س . ج و غ . ج تتغير جذريا عند نهاية الكتاب ٣٠ الفصل ١٠ ، حتى أن مقارنتين منفصلتين لهاتين الروايتين تكونان مطلوبتين ، أولا حتى تلك النقطة ، ثم من هناك حتى نهـاية الفتـرة موضوع البحث .

ولندرس أولا بناء عليه العـلاقة بين « أ و ب » مـن جـانب و « س . ج و غ . ج » من جـانب آخـر مـن بـداية الذيول ، أي ١ / ١٣ من التاريخ حتى ١٠ / ٣٠ ضمنا ، مصنفين المنوعات لا بحسب الترتيب الذي ترد فيه ، بل حسب النوع ، وحسب اهميتهـا للمسألة الراهنة .

وبعض الفروق بين هاتين الروايتين يمكن أن يرى بسرعة أنها لا تعطي دلالة بالمرة على الاختلاف في المصـدر . وفي ٢٧ / ١٤ ــ ١٦ على سبيل المثال تعطي « س . ج و غ . ج . » رواية أكثر اختصارا للمعارك المتتابعة التي أعقبت وفاة تـانكرد وحقيقـة أنهمـا (و د ايضا) أعطيت هنا النص نفسه مثـل بـرنارد مهمـة في ذاتهـا ، وستدرس أكثر فيما بعـد ، ولكن ليس هناك شيء في هـذه الرواية لا يمكن أن يكون قد استمد مـن رواية « أ ــ ب » أو مـن مصـدر مشترك ، وعليه فالى الحد الذي تذهب اليه مسألة المصدر فإن هـذا التنوع غير هام ، والشيء نفسه صـحيح عن ٢٧ / ٦ ــ ١١ التـي تتعامل مع محاولة اغتيال عموري في ١١٩٨ والاستيلاء على بيروت في السنة نفسها : ويتفـق س . ج بـالضبط مـع بـرنارد في حين أن غ . ج و د يختلفان في مجرد القول ان هيو صاحب طبـرية الذي

اشتبه في تحريضه على محاولة الاغتيال ونفي بالتالي من المملكة ، بينما « س . ج » وبرنارد يقولان ببساطة أنه كان

وتعطي رواية أ ـ ب الاحداث بترتيب مختلف ، بيروت أولا ومحاولة الاغتيال ثانيا ، وتقول أن راؤول صاحب طبرية قد اتهم ونفي . ولكن مرة أخرى بصرف النظر عن اسمي الأخوين اللذين كثيرا جدا ما يختلط بينهما بأي حال ، جزئيا في عملية كتابة الحروف الاولى فقط ، وجزئيا لانهما كثيرا جدا ما عملا معا ، لا توجد مادة في أي رواية لا توجد أيضا في الأخرى .

ومثلان آخران متشابهان هما ٢٣ / ٢٢ التي يحوي فيها غ . ج. نص برنارد في حين أن « س . ج و د ، أ ب » مع أنهما لا يتفقان على ما حدث يعطيان تفاصيل مختلفة بصورة طفيفة عن رفض بلدوين صاحب الرملة . تقديم الولاء لغي ، و ٣٤ / ٢٣ حيث «س .ج و غ . ج» وبرنارد حذفت خبر وفاة الامبراطور الالماني وأعطت رواية موجزة عن الارض المقدسة ، وأخيرا هناك التنوع في ٢٣ / ١٣ فيما يتعلق بوفاة لانفوس واندرونيكوس واعتلاء اسحق انجيلوس العرش وتسلمه سدة الحكم . وهنا كما في ٢٣ / ٢٢ . يتفق برنارد و « غ . ج » ضد النصوص الاخرى ، حيث تكون الفروق في هذا التنوع ملحوظة أكثر قليلا عما في تلك التنوعات التي لوحظت حتى الآن ، وعلى سبيل المثال في « غ . ج » وبرنارد ، يأخذ اسحق بنصيحة أخويه ، وفي وفي أ ـ ب وس.ج ود» تساعده امه (٩) . ولكن الحكايات مازالت من الرتبة نفسها ، وتوحي أيضا بتنقيح أكثر منه بوجود مصدر جديد .

وكل التنوعات الخمس ، تشير بالاختصار الى النتيجة نفسها ، وهي تشبه بعضها بعضا الى درجة تدل على مصدر مشترك ..

وعندما تنقسم في مجموعتين تميل المجموعتان للايحاء بروايتين مباشرتين ، من احداهما استمد « س . ج و غ . ج » وبرنارد ، ومن الأخرى « غ ــ ب » .

ويبقى هناك ثلاثة أقسام توجد فيها فروق هامة في التنقيح بين « أ ــ ب و س . ج و غ . ج » واهتمت هذه مرة أخرى بالترتيب حسب الأهمية وليس بترتيب الوقائع : الحملة الصليبية الثالثة وهدنة ١١٩٢ ، وفاة هنري دي شامبين ، ومعركة حطين .

وقد سبق أن قورنت حكاية الحملة الصليبية الثالثة في فصل سابق (١٠) ولتلخيص نتائج تلك المناقشة : الفروق الممكن ملاحظتها بين الروايتين (رواية أ ب من جانب ، ورواية «س ج و غ ج »من الجانب الآخر) ليست فقط في تفسير الوقائع ولكن ماهو اهم في بيان ماذا كانت تلك الوقائع ، ومن هذه الفروق يظهر أنه من اجل تاريخ الحملة الصليبية الثالثة كان لهاتين الروايتين مصدر مشترك ، ومن الممكن أيضا أن يكون مصنف « أ ــ ب » استعمل مصدرا اضافيا ايضا غير معروف لمصنف رواية «س ج و غ ج » واستعمال مصدر اضافي لهذا القسم من الحكاية ليس شيئا مدهشا فعله ، لأن النصوص التي لم تفعل ذلك (س ج و غ ج) هزيلة عند هذه النقطة .

وهذا الاختلاف بين أ ــ ب و س ج و غ ج ينتهي برحيل رتشارد قلب الأسد من الأرض المقدسة وهدنة ١١٩٢ أي عند تلك النقطة بالذات من الموجز ، حيث ينتهي الانحياز المواتي لابلين ، وكما يجب أن نتوقع الآن يتفق غ ج (بأقل دقة هذه المرة) و س ج بالضبط مع برنارد وفي تعداد ليس بنود المعاهدة فقط ، بل ايضا في مختلف عمليات تعداد الأملاك والتعويض عنها ، التي قام بها صلاح الدين نحو أفراد معينين أعني : حيفا وقيسارية وأرسوف ، ويافا ، الى أصحاب كل منها كل على

الخاف من خلالها ، ويسقط معه قزمه وهو يحاول التمسك بثيابه ويقتلان كلاهما ، وقد دفن هنري في كنيسة الصليب المقدس مع القزم عند قدميه .

وفي « د » كان هنري في عكا من اجل حشد الجيش لرفع الحصار عن يافا ، وبينما هو مرتكز على نافذة ذات حاجز ، وفي هذه المرة ينظر نحو الخارج وينهار الحاجز ويلقى القزم بنفسه وراء هنري في حزن ، ويقتل ويعلق مؤلف رواية « د » أيضا أن بعضهم زعم أنه لولا سقوط القزم فوق هنري ما مات هنري على الفور ، ويضيف الى هذا تأبينا قصيرا للكونت .

ونرى في « س . ج و غ . ج » والموجز(كل الروايات) القزم(غلاما)خادما كان يمسك بالمنشفة بينما كان هنري يغسل يديه قبل العشاء ، وعندما يسقط هنري من النافذة التي بدون حاجز قفز الخادم وراءه :

'por ce qu'il ne voloit mie que l'en deist qu'il l'eust bouté'.

ومرة أخرى يذكر الراوي أنه لو لم يفعل ذلك لما مات هنري بالمرة ، ولايقتل الخادم بل يهرب بعظم فخذ مكسور ويطلق الانذار ، الذي يؤخذ في البداية خطأ على أنه اقتراب المسلمين ، وتضيف هذه الرواية أن هنري قد أمر عدة مرات بأن يركب حاجز للنافذة ويضيف س . ج والموجز أيضا ان هذا قد تم فعله في الواقع بعد وفاته .

والحقائق الاساسية التي تظهر هي هذه : سقط هنري من نافذة وسقط معه خادم من نوع ما ، والفروق بين الروايات يمكن أن تلخص هكذا : مالذي كان يفعله هنري قبل أن يسقط ؟ هل كانت هناك نافذتان أم واحدة ؟ هل كان الخادم قزما أو لا ؟ هل جرى جذبه وراء هنري أم أنه القى بنفسه ؟ هل قتل أم اصيب فقط وبعض هذه الفروق يمكن نسبتها بوضوح الى محاولات لاعطاء

حدة ، وإعطاء الصرفند الى ريموند صاحب صيدا ، والداروم الى باالين دي ابلن (١١) .

وبدلا من كل هذه التفاصيل تقول رواية أ ـ ب عن ريذو انه لم يعط فقط الصرفند بل ايضا نصف كل الأراضي في صيدا ، ويخصص أن هذا كان من أجل اجراء تسويات المناسبة التي تراجع فيها صلاح الدين عن كلامه بسأخذ ريذو أسيرا بعد أن أعطاه الأمان (١٢) وبالنسبة للبقية تقول الرواية فقط « سلم المسيحيين يافا وارسوف وقيسارية ، وحيفا وعكا وصور » (١٣) .

وكانت المدينتان الاخيرتان المسميتان في أيد مسيحية في زمن الهدنة على أي حال ، وتركنا نستنتج أن الاربعة الأولى قد سلمت كجزء من المعاهدة ، ومرة أخرى نلاحظ اتفاقا ماديا عاما بين « أ ـ ب » ورواية «س ج و غ ج ، مع فروق في التفصيل والتأكيد ، ومرة أخرى فان الاستدلال هو من مصدر أصلي واحد ، مع أن « س ج ـ غ ج » يستمدان من وسيط مختلف عن« أ ـ ب » ، ونقطة جديدة هي أن إنهاء هذا النوع الطويل الهام في هذا المكان الخاص يجب أن يبقى في الذهن كبينة مفرزة لوضع تغير في التنقيح الجاري على الذيول هنا .

والاختلاف الرئيسي الثاني بين هاتين الروايتين من الذيول موجود في سردهما لواقعة وفاة هنري دي شامبين وهنا فإن رواية د يمكن أن تدخل بشكل مريح في المقارنة مع الروايات الأخرى ، وترد القصة في ٢٧ ـ ٣ ـ ٤ (١٤) وهناك ثلاث روايات لها : واحدة في « أ ـ ب » وأخرى في « س . ج ، غ . ج » وبرنارد و الثالثة في « د » .

وفي القصة كما أعيد سردها في أ ـ ب كان يرتكز هنري على نافذة ذات حاجز ذي قضبان ، ويتقدم لاستقبال وفد من بيزا ويرجع بطريق الخطأ الى نافذة مختلفة ليس لها حاجز ، ويسقط الى

معنى للحادث بعد وقوعه ، فعلى سبيل المثال إن أيا من الرواة لم يكن قادرا آنذاك ان يعرف حقا الذي وراء فعل القزم في وقتها ، وبواعثه يمكن تخمينها ب « *ad infinitum,* » وما هو أسهل من استبدال تخمين بآخر أنسب لذوق المصنف (١٥) .

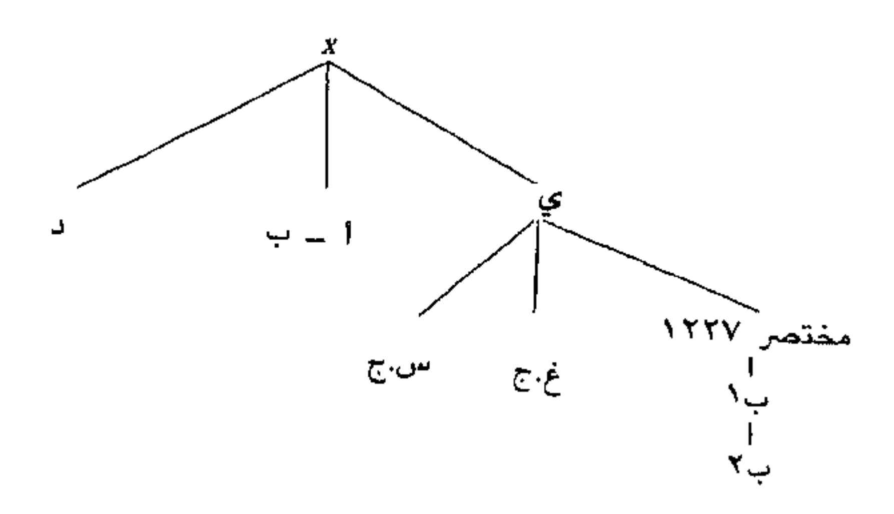
وواضح أن أيا من هذه الروايات الثلاثة حول وفاة هنري لم تتمكن من ان تبرز للعيان حتى مع تكيف كبير مع الاثنين الآخرين ، فهل يجب ان نفترض وجود مصدر مشترك كيف بصور مختلفة ، أو مصادر عديدة مختلفة؟ وبالنسبة الى المدى الذي تمضي اليه مسألة النوافذ ، تذكر رواية أصيلة اثنتين : أحداهما ذات حاجز والثانية بدون حاجز ، يمكنهما أن تفسحا مجالا لكل الروايات الثلاثة الموجودة، وتحتفظ رواية أ ـ ب بكليهما ، وتحذف الثانية ، وتحذف س ج وغ ج الاولى ، والشيء نفسه بالنسبة للأسباب المختلفة لوجود هنري في عكا ومشاغله في تلك اللحظة ليست متغيرة حصرا ، ويمكننا بسهولة ان نفترض أن الروايات الثلاثة تتخير ثلاثة تفاصيل مختلفة : زيارة وفد بيزا ، حشد الجيش وغسل اليدين من مصدر أطول كثيرا وأكثر تفصيلا مما قدم كل الثلاثة .

ومن جانب آخر هناك تعارض مباشر بين الروايات حول موضوع الخادم ، قزم ميت أو خادم بساق مكسورة ؟ وهنا يجب ببساطة أن نختار من أجل «أ ـ ب و د» تفضيلا على س ج و غ ج على أساس أنها على الفور أقل تفصيلا وأكثر دقة وخاصة من رواية أ ـ ب عن مكان وطبيعة الدفن وهي تفاصيل يمكن علاوة على ذلك أن تكون مختلفة في ذلك الوقت ، ويحتمل انها كانت مسألة معلومات عامة ، وبالنسبة للساق المكسورة والانذار ، من الممكن تماما أن تكون ساق القزم قد كسرت عند سقوطه ، ولكنه لا بد أن يكون قد مات بسرعة نوعا ما ليدفن مع هنري في اليوم التالي كما تطلب الطقس ، ولا بد أن يكون الانذار هو صراخه عندما رأى هنري يسقط : وسقوطه هو نفسه ، ونجاة القزم واطلاق الانذار بعد

السقوط يظهر هكذا كتفصيل غير ضروري ، وقد اخترع الأول لتفسير الثاني ، فإذا كان هذان الاثران : الانذار الذي أخذ خطأ كتحذير من جيش مقترب ، واصابات القزم الميت ـ قد ذكر بشكل عابر في الأصل ، فإن حذفها في «أ ـ ب و د» ، وتفصيلها في «س ج و غ ج» تفسير معقول وكاف للروايات الراهنة ، وهكذا يصبح واضحا ان كل هذه الروايات أمكنها في الواقع أن تأتي من مصدر نهائي واحد ، وانه لاحاجة لافتراض وجود اكثر من واحد ، وواضح ايضا مع ذلك انه كانت هناك روايتان وسيطتان لهذا المصدر ، على اساس ان الاقدم أكثر خلافات صغيرة بين النصوص مما أوحى بأن س ج ـ غ ج والموجز قد استمدا من احداهما وأ ـ ب(مع التحفظ) و د من الاخرى ، ويجب أن نضيف هنا مع ذلك أهلية جديدة لهذه الفرضية ، أعني انه في التاريخ ككل ، كما في مثال وفاة هنري التي جرى تحليلها اعلاه . فإن «أ ـ ب ود» قد اعطت بتساوق رواية ابسط في حين ان «س ج و غ ج» والموجز كان لديها بشكل عام قصة فنية اكثر ، مع اغراء أكثر دراميه ، ومثل هذا الحكم بالطبع ، مثل حكم بنيير على التريستان ، وهو على الاقل حزبي ذاتي (١٦) ، ولكن من جانب التصديق للجدال ، يجب ان يضاف أن في مسالة التواريخ هناك قدر كبير يقال لتفضيل الرواية الاقل زخرفة واتجاها نحو الأدب ، على أنها اقل اغراء شعبيا ، وبناء عليه أكثر عرضة للتنقيح لمصلحة الاثارة والتشويق .

واذا كان للمرء أن يختار رواية واحدة على انهـا الأقرب للأصل ، فهذا هو الأمر الذي يجري الاختيار من إجله ، والاحتمال بناء عليه يقدم نفسه ان « أ ب و د» قد استمدا مباشرة من الاصل في حين أن «س ج و غ ج» والموجز يستمدان من تكيف لهذا الاصل وهما على درجة واحدة من البعد لما عليه أ ـ ب و د وهذا ايضا يفسر حقيقة أنه بينما «س ج ـ غ ج» والموجز في المجموع، عادة على اتفاق لفظي مع بعضها فإن الاتفاق بين « أ ـ ب و د » متنوع جدا ومتقطع ، واحيانا يتفقان ايضا حرفيا ، وفي احيان أخرى لا تكون حتى مادة حكايتها هي نفسها بكلمات اخرى بينما تكون المجموعة

الاولى للنصـوص في هـذا القسـم (حتـى ٣٠ ـ ×) على أي حال ، ببساطة تنسخ عن نص واحد ، فإن المجموعة الثـانية هـي بالأحرى تكيفات لمصدرها المشترك وهذه العلاقات يمـكن ان تمثـل بصورة تخطيطية مؤقتة هكذا ٠



ويجب التأكيد على أن هذه الصورة صالحة فقط الذيول حتى نهاية ٣٠ / ١٠ ، وليس بالمرة بعد هذه النقطة ، عندما تصبح علاقة النصوص مختلفة تماما ، علاوة على ذلك فإن المكان المعين لـ« د » مؤقت جدا .وتبقى دراسة التنوعات من «د» في هذا القسم مرة أخرى مقتصرة على الفروق المادية تاركين جانبا في الوقت الحاضر القراءات المختلفة التي تدل فقط على العلاقات بين المخطوطات العديدة لذيل واحد .

وليس بين نيل وآخر وفي الواقع ان (د) تحوى كثيرا من المعلومات الواقعية التي لا توجد في اي نص آخر بالمرة ، واستعراض موجز لهذه الخصائص سيمكننا من دراسة ما الذي تدل عليه حول مصادر « د » طالما ان تصنيفها « ا ـ ب اولي » لطلب السؤال ، وفي هذه الحالة سوف نعددها بالترتيب الذي ترد فيه في النص ، ومقارنة نص « د » بالذيول الاخرى ليست سهلة ، لأنه حتى المقارنة الخاطئة تظهر ان النص مشوب جدا ولا يقوم على علاقة بسيطة مع النصوص الأخرى ، وعليه فمن الأصعب وصف تقلبات دون وضع معايير للمقارنة التي يمكن ان تثبت في النهاية انها مضللة أي بدون وصفها فيما يتعلق بنصوص أخرى ، التي بالنسبة لها يمكن ان تبدو ممكنة المقارنة ولكنها في الواقع قليلة الارتباط بها ، ومع ذلك فإن بعض المقارنة يجب أن تتم من أجل الوضوح ، وحيث أنه في قسم النص موضوع البحث ، أعني حتى ٣٠ / ١٠ إن نص د بالنسبة لكثير من الحكاية متفق مع حكاية « ا ـ ب » وانه لهذا النص سوف نقارنه الآن ، ولكن يجب التأكيد بأن الطريقة المتبناه لم تعد أكثر من ذريعة ، ولا تلمح الى ان « د » باي حال معتمد على ا ـ ب او انه حتى بالضرورة تكيف آخر المصادر نفسها بالضبط

وأول تباعد بين نصوص « د وا ـ ب » يأتي دوما بعد بداية ٢٢ / ٤٠ لجزء من الطريق عبر قصة حطين(١٧)ويستمر هذا الاختلاف من خلال عشرة مقاطع مغطيا استسلام طبرية وعكا ، ورحلة باليان

دي ابلين الى بيت المقدس وتاريخ جوهان غيل وكونراد أوف مونتفرات المؤقتة في القسطنطينية ، ووصوله الى فلسطين وتنظيمه للدفاع عن صور .

وكل هذه الموضوعات تعالج ايضا في القسم المقابل في « أ ــ ب » باستثناء جوهان غيل الذي يظهر فيما بعد(١٤/ ١٢)(١٨)وعن كل موضوع يعطي «د» رواية أكثر تفصيلا بكثير ، ولكنها رواية لاتتعارض مطلقا مع رواية «أ ــ ب» وفي كل هذه الفصول العشرين يوجد فرق واحد فقط في الوقائع بين النصين : لوحظ وصول كونراد الى عكا ثم مغادرته لها في « د » كمسيحي من قبل مسلم مرتد ، في حين أنه في «أ ــ ب » كان المسلمون الذين تحرى (١٩) منهم عن الوضع السياسي قد افترضوا انه صديق لصلاح الدين وخلافا لذلك إن « د » في كل حالة ببساطة رواية أكمل عن القصة نفسها وهكذا نميل في هذه الحالة الى تأكيد الخطط أعلاه ، وأن نوحي بأن « د » يستمد من المصدر نفسه مثل «أ ــ ب » مغطيا على اجزاء الاداء الكامل لها ، واحيانا يمكننا حتى أن نرى من « د » بالضبط أي نوع من التداخل قد انجز في تكيف « أ ــ ب » وعلى سبيل المثال ، طبقا لـ «أ ــ ب » ، كان رينو دي شاتيللون (أرناط) قد اخذ اسيرا في حطين ، وقطعت رأسه من قبل صلاح الدين ، ولكن « د » يحدد أن صلاح الدين نفسه هو الذي طعن أرناط بسيفه ، وأن المماليك الواقفين بالاستعداد اندفعوا نحوه وقطعوا رأسه (٢٠) .

والفقرات الثلاثة التالية المختلفة في « د » في الفصول ٥٢ ، ٦٢ ، ٦٤ ، هذا الكتاب نفسه (٢١) ، كلها حكايات متصلة بالاحداث التي جرى وصفها وهي ترد في رواية مماثلة ، بصرف النظر عن وجودها في الاقسام المقابلة من «أ ــ ب » وتتوافق بسهولة في القطعة كصدور أو تعزيزات للنقاط القائمة ، وأول قصتين من هذه القصص تتعلق بحصار بيت المقدس ــ وكيف أرسل صلاح الدين في طلب توماس ابلين ووليم صاحب جبلة ، وبكى من اجل هذين

المقاتلين المسيحيين الذين كان انتصاره الوشيك سيحرمهما من حقوقهما(١٢) الانسانية ، وكيف أن رجلا فقيرا كما يبدو قد اكتشف وهو يحاول خداع شروط الاستسلام بأخذ مال الى خارج بيت المقدس معه (٢٢) وتصف الحكاية الثالثة حادثة أثناء سير المسيحيين الهاربين من بيت المقدس ، عندما نصب رجال صاحب هونين كمينا لهم وسلبوهم ، وقد عاملهم أبناء دينهم ـ حسبما سارع المؤرخ للقول ـ أسوأ مما فعل العدو المسلم (٢٣) ، وهنا ما هو المصدر وما هي أهمية هذه الحكايات ؟ هذا ما سوف نراه .

ويغطي الكتاب الرابع والعشرون الاحداث التي تلت سقوط بيت المقدس ويحوي سبع مدونات من « د » وأولها في الفصل الثاني (٢٤) ، ويتعلق بتطهير صلاح الدين للمسجد الأقصى ، وباستثناء انها تحوي بعض التفاصيل التوضيحية الموجزة حول المعتقدات الدينية للمسلمين ، فإنها تافهة ، ومرة أخرى فإنه من الممكن شرح ذلك ببساطة كتشكيك أكمل للمصدر نفسه الذي استعمل في «أ ـ ب » والفقرة الثانية المختلفة مثل ذلك تحوي اختلافات عديمة الاهمية في التفصيل في روايات الاستيلاء على قلعة الشقيف وحصار صور ، ولكنها ايضا تضيف رواية فريدة حول حصار الشوبك (٢٥) ، والثالثة في الفصل التالي عديمة الاهمية بالكامل ، لكنها ببساطة (٢٦) رواية مختلفة الصياغة للقصة نفسها بالضبط الواردة في «أ ـ ب» إنه في الفصل الرابع نلتقي أولا باختلاف كبير حقا في الكتاب الرابع والعشرين حيث رواية طويلة ومفصلة حول الحيلة التي استعملها صلاح الدين للاستيلاء على الشقيف (٢٧) وإنه لبالغ الاهمية أن نجد ان نص د يضع الاستيلاء على الشقيف عند هذه النقطة ، لانها تتفق مع تواريخ المؤرخين العرب في تأريخ هذا الحدث في السنة نفسها مثل سقوط الكرك والشقيف في ١١٨٩ (٢٨) ويخطيء نص «أ ـ ب » تماما في وضع كل هذه الاحداث في ١١٩٢ خلال الحملة الصليبية الثالثة (٢٩) ، وأن هذا غلط واضح من حقيقة أن «أ ـ ب» يقول انها جميعا قد حوصرت سنتان ، مما يتفق مع المصادر الاخرى (انظر اعلاه)

ولكنه يخالفها في انها جميعا تضع حصار القلاع في عام سقوط بيت المقدس ١١٨٧ ، عندما كان صلاح الدين يعزز مواقعه الارضية وهكذا يضع الشيء كله ابكر ثلاث سنوات ونحن مضطرون لاستنتاج أن روايات هذه الحصارات كانت موجودة في (×) في المخطط أعلاه (ص ٨٩) ، وأن مصنف « أ ـ ب » قد حذف في البداية ، ثم عكس قراره فيما بعد ، احتمالا لأنه أدرك أن بنود معاهدة ١١٩٢ قد أشارت الى حادثة الشقيف .

والنص المخالف ا ـ « د » الموجود في الفصلين الثامن والتاسع من الكتاب نفسه ليست أقل توضيحا ، والاشارات الاضافية العابرة الى الحروب بين فرنسا وانكلترا ، والواردة في د » قليلة الاهمية ، والسمة البارزة هي حذف « د » لموت بربروسا الذي يعطيه كل نص لخر في النيول عند هذه النقطة ، وهذا الحذف من «جانب مصنف » هام لأن موت بربروسا سوف يروى فيما بعد في الفصل السادس والعشرين من هذا الكتاب نفسه (٣٠) من قبل « د » وأيضا من قبل « أ ـ ب » وهكذا فإن « د » يتجنب ايراد حكايتين لهذا الحدث نفسه ، ويفعل ذلك لا بحذف الثانية منهما بل الأولى ، وما هو أكثر أن الاثنتين كما يعطيهما « أ ـ ب » تناقض احداهما الاخرى .

Un jor re eston li empereres herbergez en Ermenie, sur une riviere. Si li prist talent de baignier soi. Si entra ens, en tel maniere que il fu noiés(٣١)

. . . et l'empereres se mist a passer le flum, et li dui chevalier devant lui, et de ses homes devant et derriers lui a grant plenté. Si come il fu el mi luec dou flum, li chevauz sus cui il chevaucheit trabucha et il chei ou flum. Par la force de la chalor que il avoit sofferte et par la froidure de l'eve ou il chai, il perdi sa vertu, que il ne se post aider. Les veines de son cors s'ovrirent, si que il nea.(٣٢)

والرواية الاولى الموجودة في أ ـ ب وس ج وغ ج مبتسرة ، وواضح أن الرواية الثانية المفصلة الموجودة في « أ ـ ب » ود (٣٣) في مكانها حسب الترتيب الزمني هي النموذج الاصلي ، في حين انها حسب الماع ٢٤ / ٩ (الفقرة الأولى من

النص المقتبس أعلاه) هي استيفاء ، وقد تفادى مصنف « د » بطريقة ما أخطاء النسخ والتناقض .

فإذا كان المزيد من البرهنة على نظرية أن د وا ـ ب قد تبنتا بصورة مختلفة مصدرا واحدا ما زال مطلوبا ، فإنه قدم بواسطة الفقرة المختلفة التالية في الفصل نفسه إنها قصة اعدام عدد من فرسان الداوية الذين أخذوا أسرى من قبل صلاح الدين ، والذين يفترض انه عرض عليهم أخذهم لخدمته الخاصة ، شريطة أن يرجعوا عن دينهم ، وقد رفضوا ثم اعدموا ، وهنا حذر الامير بهاء الدين قراقوش ، صلاح الدين من أن هذا الفعل غير حكيم لانه سيحفز على الانتقام معبرا عن نفسه باستعارة خاصة تماما:

'Je vos fas assavoir que
les Templiers naistront o toutés lor barbes. (٣٤)

وهذه الحادثة بكاملها موجودة فقط في«د» ولكن بعد ذلك بوقت قصير ، في د وهذه المرة ايضا أ ـ ب علق قراقوش هذا التعليق حول وصول جاك دي أفيذس الى بلاد ما وراء البحار .

: 'Sire, dist Caracois,
ce est le secors qui vient as Francs. Je vos di(s) bien, quant vos comandastes a occirre les Templiers, que il Templier naistreent o toutes les barbes.(٣٥)

وكما في حالة أخذ الشقيف واضح انه هنا مرة أخرى إن مصنف أ ـ ب قد حذف حادثة ما مع أنه لم يعرفها ، سيعود مصدره الى الاشارة اليها فيما بعد وفي المثال الاول يعالج هذا باستدراك ويضيف الحادثة مباشرة قبل الاشارة اليها وهنا يترك اسم المصدر ، إلا أنه ليس هناك شيء يشار اليه .

وبصرف النظر عن حكاية الحملة الصليبية الثالثة وهي مسألة منفصلة ، قد تم التعامل معها في مكان آخر (٣٦) ، هناك ثلاث فقرات مختلفة أخرى في « د » بين هنا ونهاية القسم الذي تحت

الدراسة ٣٠ / ١٠ الأول منهـا طـــويل جـــدا مـــن ٣٦ / ٧ الى ٣٧ / ٥ ، ومثل ذلك التي سبق فحصها تتكون اساسا من الحـكاية نفسها مثل « أ ـ ب » مع إضـافة قـــدر كبير مـــن التفــاصيل الاضافية ، وبعض هذه عبارة عن تفاصيل إضـافية حـول احـداث مغطاة في كلتـا الروايتين ، وبعضـــها يمس امـــورا لم تعــالج في « أ ـ ب » أو في الواقع في أي رواية سوى « د » ومع ذلك فإن زمرة ثالثة من تلك الفقـــرات المتنوعة هـــي مـــادة غير مـــوجودة في « أ ـ ب » ولكنها مـــوجودة في « س ج ـ غ ج » وفي الموجـز أو في الثلاثة جميعا في نقطة تالية ، وهي تعاود تأكيد ارتباط « د » بهـذه النصوص الثلاث ، وإن يكن ذلك بعد مسافة ما في هذا القسم ، ومثل كل المنوعات حتى الآن فإن هـــذا لا يتناقض مـــع « أ ـ ب » وهـــو الاستثناء الطفيف الوحيد في أمر وفاة هنري دي شامبين المفحـوص أعلاه والذي به يصل هذا الاختلاف المطول الى نهايته .

وبعد هذه النقطة لا يقدم « د » معلومات أكثر مميزة لذاتها ، ولا حتى أي من تنقيحات المادة الموجودة في مكان آخر ولكنه يعبر عنهـا بـطريقة مختلفـة وحيثمـا يختلف « د » عن « أ ـ ب » مـن الآن فصاعدا فإنه يتفق مع « س ج و غ ج » (٣٧) ، وعلى ماذا يأتـي هذا الاتفـاق ؟ والاعتمـاد المبـاشر له « د » على « غ ج » يمـكن استبعاده ، بسبب تواريخ تاليفهما ، في حين أن العـلاقة العـكسية يجب أن تستبعد أيضا كحل مباشر ، طـالما أنهـا لا تفسر التمـاثل القوي بين س ج و غ ج لا سيما في أجزاء أخرى مـن النص حيث لا يتفق « د » معهما ، والتفسـير الممـكن الوحيد أن لدينا هنا علاقـة مختلفة تماما عن تلك المصورة بالمخطط الموجود على صـفحة ٨٩ : « د وس ج و غ ج » تستمد الآن من مصدر مشترك لم يستعمل مـن قبل « أ ـ ب » الذي هو هنا في زمرة مستقلة به ، ومن المناسب أن نذكر هنا انه من ١٢٠٥ الى ١٢٣١ هـذه هـي الحـالة بشـكل ثابت ، وفي الحقيقة إنه لصحيح القول أنه لتلك الفترة ، فإن «س ج و غ ج » و« د » هـي رواية واحـدة متشـابهة ، و« أ ـ ب » غير مرتبطة بها كلية .

ومن أجل القسم المتخلل ، من ٣٠ / ١٠ الى عام ١٢٠٥ تتفق كل الروايات مع بعضها ، وعليه فمن الواضح أن علاقة الذيول الواحد بالآخر لا تخضع لتغيير جذري عند وفاة هنري دي شامبين وبعد ذلك تكون الامور بسيطة لدرجة كافية ويستمر الاتفاق بين كل الروايات الى ١٢٠٥ (وفاة آمالرك دي لوزنغان) ثم حكايتان فقط حتى ١٢٣١ واحدة في « أ ـ ب » والاخرى في « د س ج ، غ ج» والموجز ، وإنه حتى الفترة ، ١١٨٦ ـ ١١٩٧ يمكن أن تختزل القسم الأكثر تعقيدا من الذيول ، وقد اقترح المخطط الذي في صفحة ٨٩ على أنه يمثل النصوص في هذه الفترة ولكن هناك بعض التعديلات التي يجب أن نجريها الآن .

أولا : إن المخطط كما يبدو يظهر مصدرا واحدا « × مع ثلاثة نصوص مستمدة منه هي : « د و أ ـ ب » والنص «ي » المفقود هو المصدر الوسيط المشترك لكل من س ج و غ ج والموجز ، ولكن قد أصبح واضحا أن « أ ـ ب » لديهما تماسك معين مشترك في تكيفها عن هذا المصدر ، الذي لا يشترك « د » معها فيه ، وبكلمات أخرى ، إذا كان المخطط صحيحا كما يبدو تماما ، فإن المرء يتوقع أن بين هذه الثلاثة « أ ـ ب و د و ي » لابد أن يوجد توزيع عشوائي نوعا ، للمادة التي توجد أصلا في « × » ، ولكن كما رأينا مع أن هذه هي الحالة في أحوال كثيرة جدا ، فإن هناك كتلة كبيرة من المادة فقط في «د » أكبر كثيرا مما يمكن تفسيره عن مستوى الصدفة ، وهي بشكل دائم غائبة عن « أ ـ ب » أو أي من النصوص التي تعتمد على « ي » ولكن من جانب آخر لا يوجد شيء حقا في « أ ـ ب » أو نصوص ي مما يسمح لنا بافتراض أي نوع من اعتماد واحد على الآخر ، أن نرى « ي » على سبيل المثال كأنه قائم على « × » بل إنه متأثر ب«أ - ب» أو العكس بالعكس ، ماذا إذا يفسر الاستبعاد المشترك لكتلة كبيرة من المادة من قبل هذه النصوص ؟

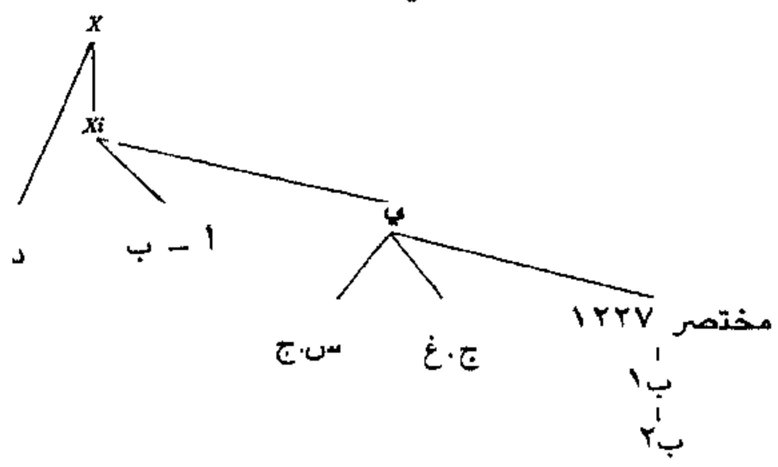
والاحتمال الذي يقترح نفسه هو بالطبع أن المادة الخاصة ب

« د » لم تكن في « × » ، بالمرة ولكنها استمدت من قبل مصنف « د » من مصدر آخر معروف لديه فقط وليس للمصنفين الآخرين ، والاعتراضات على هذا هي أولا ، ان اضافات « د » إذا كانت هكذا تتوائم مع مسار القصة بيسر و نعومة لم تتوفر عند وجودها في النصوص الأخرى التي تستبعدها ، ولن تتوفر لدى المرء فكرة أنها كانت اضافات ، ويبدو بالكاد ممكن التصديق أنه كان هناك تاريخ آخر الى جانب × ، وكان يغطي نفس الأساس للفترة ١١٨٦ ــ ٩٧ بدقة كبيرة حتى يمكن للمصنف أن يملأ فراغ منه بقليل جدا من المتاعب وكثير جدا من الاقتناع .

ثانيا : والاكثر جدية ، لقد رأينا من قبل مثلين معينين :الاستيلاء على الشقيف واعدام الداوية ، حيث لا يوجد شك بالمرة أنه بعيد عن « د » مضيفا مادة جديدة لما كان في« × » و « أ ــ ب » من مادة معلوماتية حذفت من ذلك المصدر ، ومن المحتمل جدا بناء عليه أن الشيء نفسه قد ورد في أمثلة أخرى ايضا ، مما ليس من السهل جدا اكتشافه ، وذلك حيث كان يوجد في د حكاية مشابهة ومادة إضافية ، وهي مادة كانت في × واستبعدت من قبل مصنف « أ ــ ب » .

وتبدو امكانية وصول « د » الى مصدر اضافي منفصل تماما عنه ومع ذلك يشبهه بدقة بصورة مدهشة جدا ، تبدو في الواقع غير محتملة ، ومع ذلك فإن روايته أكثر اختلافا عن الاثنين الآخريين مما لا يمكن تفسيره بمجرد الاختيار العشوائي لمادة من × ، خاصة مع مافي الفقرات المحفوظة في « د » وحده ، وكما سنرى من عدد من المميزات المشتركة ، ونحن مضطرون لاستنتاج أن استبعاد هذه المادة قد تم عند مرحلة بين × وي من قبل مكيف ماكان عمله في حينه متكيفا اكثر من قبل مصنفي « أ ــ ب » و « ي » وهكذا فإن مصنف « د » استعمل × ، في حين أن مصنفي « أ ــ ب » و « ي » قد استعملا كلاهما تكيفا ل × يمكن لنا عن إقتناع أن نسميه ×١ ، وما هو موجود في « أ ب ، د » والاشتقاقات

عن « ي » لابد أنها كانت في x/ ، وأنها كانت محفوظة من قبـل كل من « د » و«x/ » ، في حين أن الفقـرات الموجـودة فقـط في « د » كانت في x ، ولكنها استبعدت من قبل x ، ومن ثم كانت كلها غير متوفرة ل « أ ـ ب » و « ي »



من الممـكن بـالطبع أن مصـنف رواية « د » كان لديه إمـكانية وصول إلى « x » وانه قد سايرها من أجل الكثير مـن الحـكاية ، متحولا فقط إلى x عندما أدرك أنها كانت متميزة وتحتوي مـزيدا من المعلومات مثل حكاية مسلية وتفصيل مكيدة تصلح للعرض ، ومن المستحيل أن نحسب بدقة كافية درجة التـوافق وعدم التـوافق بين « د » والنصوص المستمدة من ١ x كي نقول فيما إذا كانت هذه هي الحالة أم لا ، وفيما إذا كان ذلك يهم كثيرا .

وما يهم إلى الحد الذي تتعلق به مشكلة تعقب أرنول ، هو انه من المؤكد أن كل الذيول لديها في النهاية مصدر واحـد مشـترك ، وهـو الذي بالحكم مـن التغير التـام في العـلاقات بين الذيول بعضـها ببعض ، بعد وفاة هنري دي شامبين قد انتهى في حينه . وهذا يدعم بقوة فرضية ماس لاتري .

'Peut-être faudrait-il alors réduire aux années antérieures à 1197, si ce n'est la chronique primitive d'Ernoul, du moins une chronique antérieure employée par Ernoul.(٣٨)

والسؤال الآن هو هل « التـاريخ الأسـاسي لأرنول » هـو الذي ينتهي هنا في الحقيقة ؟ وتظهر منوعات « د » الآن كبنية جديدة على طبيعة ذلك التاريخ المصدري « × » ومع أننا يجب أن نسمح لأذواق مصنف « د » الذي كان يعمل في اختيار المادة مـن « × » مـزخرفا إياها قليلا أيضا بصورة يمكن فهمها ، فإننا يمـكن على الأقـل أن نجد في هذه المنوعات بعض الدلالات الواضحة على تلك الخصـائص التي في « × » والتي اعتقد مصـنف « × » الذي تعتمـد عليه كل الذيول سوى « د » أن من المناسب حذفها ، فهل اختـار × بشـكل نزوي أم هل أمـكن لا سـتبعاداته تلك التـي تحجـرت في « د » أن تتميز ؟ وإذا كان كذلك هل تسمح لنا بأن نعرف × على أنه التاريخ الأصلي لأرنول؟

الفصل السابع

تاريخ أرذول الأصلي

عندما نأتي لنقوم بدراسة خصائص × كما هي ظاهرة في منوعات الذيل الوحيد المستمد مباشرة منه وهو × ، فإن شيئا واحدا يصبح واضحا على الفور إن مؤلف × كان من أهالي المملكة اللاتينية في بيت المقدس ، وهناك للبداية ، كان استعماله لاصطلاح « ماوراء البحار » . والاستعمال الطبيعي لهذا الاصطلاح من قبل المؤرخين الاوربيين ، ومن قبل مصنفي كل الذيول الأخرى هي أنه به يشيرون إلى فلسطين أو الشرق الأدنى بشكل عام ، وفي الواقع إلى الاراضي الأعلى من أوروبا . ولكن × يستعمله دائما ليعني أوربا وهي أراضي ماوراء البحر من فلسطين . وعلى سبيل المثال في نهاية ٢٣ / ٦٤ فإن المسيحيين الهاربين من بيت المقدس يشتون في الاسكندرية .

ب	س ج (مثله غ. ج)	د
. . . et demorerent ilec jusques au mars.	. . . jusques au mars qu'il entrerent en nes pour passer en terre de Crestiens.	La furent jusques au marz que il entrerent es nez por aler Outre mer en terre des Crestiens. (١)

ومرة أخرى عندما سمع صلاح الدين بالاستعدادات لحملة صليبية ثالثة فإن خلافات وجهات النظر واضحة بجلاء في « د » .

ا ــ ب (س ح وغ ح مثله)	د
Noveles li vindrent que li empereres d'Alemaigne estoit croisez, et li rois de France et li rois d'Engleterre et tuit li haut home *de Crestienté*. . . *por aler* sur lui.	[illegible] d'Alemaigne et le rei de France et le rei d'Engleterre, et tuit li haut baron *d'Outre mer* estoient croisié *por venir* sur lui. (٢)

وفي هذا المثال إن اصطلاح « ماوراء البحار » يمكن بالطبع أن يكون إضافة أو تحشية من قبل مصنف « د » إذا كان هو نفسه وليس مؤلف × هو الذي عمل في فلسطين ، وأن هذه ليست الحالة جلي من كامل التصور العقلي الواضح في كل مكان من منوعات«د» واعني اصطلاح« بولیان(٣) »الذي عرف به الفرنجة البلديون ، وذلك حسبما كان الصليبيون الاوربيون يسمونهم وهذا التوجه الفلسطيني في × ، كثيرا مايكون واضحا بالذات بالطريقة التي كان يروى بها حدث ما قارن على سبيل المثال في ٢٦ / ٢٣ :

أ ـ ب	د
Quant li empereres ot tout aprestе́ et il dut mover, si le prist une maladie de quoi il fu morz a Brandis, ou l'assemblée estoit, si que l'en dist que sa feme l'empereris Costance l'avoit enpoisoné.(٤)	Dedens ce que les Alémans atendoient a avoir le chastel dou Toron, novele lor vint que l'emperere Henri lor seignor estoit mort, et que le secors de Babiloine venoit a ciaus dou chastel. Et enssi com il aparsurent le secors il orent conseil entr'iaus; si se departirent come ciaus qui avoient perdu les cuers et la volenté por la mort de lor seignor.(٥)

وأثر آخر لـ × ظاهر هنا وفي كل مكان وهو كراهيته للصليبيين الاوربيين الذين يعتبرهم متطفلين حمقى ، خاصة الالمان ، وكامل النوع الذي تأتي منه الفقرة أعلاه هو مقال طويل حول مختلف السمات الباعثة على الأسى للشخصية الالمانية ، بداية بتدنيهم العسكري :

'Ensi come les Alemans virent le poeir des Sarasins qui estoit si grant, il furent esmaié.(٦)

وشجاعة وحكمة البارون السوري هيو صاحب طبرية هي فقط التي حالت دون الهزيمة الكاملة التي كان سببها الاعظم ذعر الالمان ، وعلاوة على ذلك أخفق الالمان في فهم أي شيء حول عقلية أهل الارض الذين عاملونهم بعجرفة ورعونة ، ومن موقع السيادة والتسلط ، أو حسب عقلية المسلمين ، الذين كانوا يستخفون بهم

باستمرار ، والذين كانوا يرفضون التعامل على قدم المساواة ويضع × على لسان المسلمين واحدا من انتقاداته الخاصة ، قائلا إن المسلمين كانوا يخشون قسوة الالمان (٧) ، وفي مكان اخر يقوم ببساطة بانتقادات واضحة وبشكل مطلق للشخصية الالمانية ولتاثيرها الشائن على الدبلوماسية الالمانية .

Les Alemans se fient moult en lor force et en lor fausse vertu, ne n'orent pitié des esclas Crestiens que l'on lor devoit rendre, ne ne conurent le bien et l'onor qui lor avenoit. Car se il eussent receu le chastel en la maniere que li Sarasin le voloient rendre, les Sarasins lor eussent des puis rendu le chastel de Biaufort, qui est en la terre de Sayete, et les autres chastiaus. (٨)

ويمكن للمرء أن يعتقد أن هذه الانتقادات نموذجية لأي كاتب فرنسي سواء أكان سوريا أو لا ، ولكن انتقادات × المتميزة بكراهية « الوافدين الاوربيين» تبين ولاءه بدقة أكثر ووضوح أعظم .

وفقط في تنوع « د » نجد الاغنية السياسية التي من تأليف الوافدين الاوربيين ضد :

ciaus de cest pais: 'Maugré li Polein avrons nous roi Poitevin.' Ceste haine et cest despit firent perdre le roiaume de Jerusalem. (٩)

ومرة أخرى لايتردد المؤلف في التعميم ، واخذ وليم بارليس نموذجا للوافدين الاوربيين

: 'A tant s'en parti dou conte Guillaume Barlais, et si s'en ala por saisir Japhe. Mais il fist come Peitevins, que dou conseill et dou comandement dou conte il ne fist mie le disme. Car il euvrent de lor sens et s'aseurent en lor poeir. (١٠)

وتظهر منوعات « د » ، في هذا وفي أمثلة كثيرة اخرى باستمرار موقفا يمكن أن ياتي فقط من فرنجي سوري عارض لقاء ، الملك

غي « الملك الوافد من أوربا » وانتمى إلى العصبة التي كان ريموند كونت طرابلس الزعيم غير الرسمي لها .

ومرة أخرى كان مؤلف × يعي أن عادات مملكة بيت المقدس خاصة ، وكثيرا ما أجهد نفسه في تفسيرها لقرائه ، وعلى سبيل المثال إن رواية إجراءات انتخاب بطريرك بيت المقدس تظهر في كل النيول (٢٣ / ٣٨) ، ولكن « د » فقط يروي أيضا الفضيحة التي انتشرت فيما بعد ونتج عنها تغيير الاجراءات [١١] ومثل ذلك شرح « د » بدقة أكثر من النصوص الأخرى ، لماذا قاد ريموند كونت طرابلس مقدمة الجيش في حطين .

'Ce est le droit des barons dou roiaume. Quant il i a ost banie en lor seignorie, li baron en cui terre se doit faire le bataille, il a la premiere eschiele et la premeraine pointe, et a l'entrer de sa terre fait il l'avant garde, et au retorner l'ariere garde. Por ce ot le conte de Triple la premiere pointe, que Thabarie estoit soue.[١٢]

وعندما وصل كونراد أوف مونتفرات ورجاله إلى مشارف عكا اكتفى « أ ـ ب و س ج و غ ج » بالقول بأنهم لم يسمعوا صوت أجراس ، ولم يروا قاربا يأتي للقائهم .

'. . . si en furent moult corrocez, ne n'oserent ancrer, ains se traistrent arriere'.[١٣]

وفي « د » نجد رد الفعل هذا مشروحا

En le tens que il furent arivés devant la cité d'Accre, il estoit costume en la devant dite cité que on sonoit une campane quant aucune nave ariveit d'Outre mer, et une gamele aloit a la nave, et grant piece avoit que nave n'en estoit venue. Quant le marquis ariva, il n'en oi poinct de campane soner, si fist geter une barche en mer, et mist des plus sages homes de sa nave et les envoia en la cité por savoir que ce devoit que il n'avoient point oie la campane soner, et quels noveles il i avoit ou pays.[١٤]

وبصورة لامفر منها أظهر × اهتماما خاصا بالسياسة المحلية ، وهذا الاهتمام ظاهر إلى حد ما في كل الذيول ، ولكن فحص منوعات « د » يظهر أنه كان هناك أكثر بكثير من هذا النوع من المعلومات في × مما اعتقد مصنفوا × أنه يستحق الحفظ ، وبالضبط مثل ما اعتبر مؤلف × أن الأوربيين متطفلين ، وأن مأثرهم أقل نفعا من العمليات التي أثيرت من قبل السوريين ، وهكذا فإن المؤرخين الأوربيين يميلون للنظر بشكل رئيسي إلى الخطوط العريضة للحرب المقدسة على أنها الأكثر أهمية ، وأن البقية نزاعات صغيرة بين قادة الحرب المحليين ، ولكن عندما تؤثر مثل هذه النزاعات بشكل خطير على القضية الأكبر ، كما في حالة رفض ريموند كونت طرابلس الاعتراف بغي ملكا عليه ، يتوقفون عن إعطاء التفاصيل ثم يروونها بأسلوب روتيني مختلف جدا عن أسلوب × ، كما رأينا من قبل في كثير من المنوعات التي في « د » المفحوصة أعلاه . وهكذا في الذيول الأخرى ، فالتنافس بين الفرنجة البلديين والفرنجة الوافدين ورد بشكل عابر تماما ، وسوء أعمال أصحاب هونين عديمة الأهمية عند الذين لم يعرفونهم ، ويحتمل أنهم لم يسمعوا حتى بهم ، لا بل أكثر من ذلك إن حدثا بالغ الأهمية لدى المؤرخ هو تأسيس أول كيمونة في أنطاكية ترك جانبا ، [١٥] وربما كان الخوف الأكثر اثارة للدهشة من هذا النوع هو الرواية التي حفظت فقط في«د» حول النزاع بين هنري دي شامبين وايمري دي لوزنغنان مفوض جيش مملكة القدس وكافلها ومن ثم مغادرته ونهابه الى قبرص[١٦] .

وهذه المعلومات ضرورية بلا ريب اذا كان لنا أن نفهم كيف تسنى لايمري أن يكون في قبرص في وقت وفاة غي وقد انتخب بناء عليه ملكا ، لسبب رئيس هو أنه كان متاحا على الفور ، ومثل هذا ما اتصل بأسر رتشارد من قبل دوق النمسا حيث أضاف « د » حكاية تعلقت بسلوك رتشارد تجاه الدوق في الأرض المقدسة بعد حصار عكا ، وقدمها بشكل صحيح أو خاطىء ، ولكن بالتأكيد بشكل

مقنع ، على أنها سبب شعور الدوق السيء تجـاه رتشـارد ، ولديه أيضا تفصيل أكثر حول جمع فنية رتشارد ولكنه اعاد روايتها كشيء معروف لديه بصورة غير مباشرة كاشاعة ، مع أربعة جمل مـن كل ستة متعاقبة في النقطة الواحـدة تبـدأ بـكلمات :

'J'en dist que.'(١٧)

وغريب حقا ، أن مظهرا أخذ لضيق الافق في × هو العكس تمـاما لهذه الشروح المفيدة أعني افتراض المعرفة من جـانب قـرائه ، وفي صورة تلميحات عابـرة لما يفتـرض أنه حسـم للمعلومـات العامة ، وهذا الافتراض كان مسوغا دون شـك في المكان والزمـان الذي كتب فيه ، ولكنه يتركنا نخمن ونفترض ، وعلى سبيل المثال حول اتفاقية الوراثة المبرمة عند زواج ايزابيل وهنري حيث يقول :

'L'on dit que la greignor partie et le miaus des gens dou reiaume jurerent au conte Henri que il fereient de ses heirs seignors et reis de Jerusalem. Car ciaus qui jurerent au conte Henri n'en esteient neent tenus au marquis ne a ses heirs; se il l'ont d'autre maniere fait, il est bien seu.(١٨)

واحد أكبر النواحي بشاعة في هذا العنصر المحلي في × ، وهـو الذي كثيرا مايفسر استبعادات × وتكيفاته ، وهو مـوقفه تجـاه المسلمين بشكل عام وصلاح الدين بشكل خاص ، وقـد كان صـلاح الدين «الطيب» مشكلة كل مؤرخ أوروبي : وقد اخفـق تمـاما في أن يتواءم داخل أي من الزمر المعتـادة وكثيرا مـاكان المؤلفـون الذين يشـكلون مصـــدرا اليأس يجـــدون مـــلاذا في القصص الادبية الدوائمة ، إن لم تكن اعتباطية ، وهـكذا كمـا رأينا في اسـتعراض النصوص الباقية (١٩) فان مصـنف « تـاريخ بـلاد مـاوراء البحار » قام باستيفاءين خصصـا في حـالة أولى منهمـا لبيان أن صلاح الدين قد منح مرتبة فارس بالطريقة الصحيحة من قبل بارون مسيحي اسير ، لم يتمكن من افتداء نفسه بأي طريقة أخـرى ، وفي الحالة الاخرى أن جدة صلاح الدين لامه كانت فرنسية ، وهكذا فان

مؤرخا زائفا آخر أيضا هو المنستر آل دي ريمز أكد أن صلاح الدين كان في الواقع مسيحيا سريا ، وانه قد عمد نفسه وهو على فـراش الموت (٢٠) ولكن × بعيدا عن الانغماس في هذه الخيالات لم يع حتى هذه المشكلة ، وعنده أن صلاح الدين خصم عسكري ولكن هذا لايعني انه يجب أن يصـور كشرير تمـاما ، ومـرتان حـوى « د » روايات حول السياسة الاسلامية الداخلية وكرر ثلاث مرات رواية الحوادث التي ألقت ضوءا مختلفا تماما على العـلاقات بين المسلمين والمسيحيين وعن ذلك الطـرح الدقيق مـن قبـل مضـيفي النيول ، فقـد ذكروا بـاختصار ، وان كان بـوضوح ودقـة معقولين ، بعض التصرفات المتضمنة نقل الملكية التي قام بها صلاح الدين بالنسبة لأرضه عند وفاته ، وأيضا الوفاة في حادثة صيد التـي جرت لابنه الملك العزيز (٢١) ولكنهم لم يهتمـوا ، بـالقتال بين المسلمين الذي مـلأ الفـاصل بين هـذين الحـادثين ، الذي يعيد « د » روايته ببعض التفاصيل ، و هذا النوع في « د » يصور أيضا النوع الموازي ل ـ × الذي غالبـا مـا قـارن بين العـادات الاسلامية والمسيحية ، ولشراح المتقدم بلغة التالي ، وجعلهما بـذلك قابلين للفهم السريع ولشراح المتقدم باصطلاحات التـالي ، وبـذلك جعلها قابلة للفهم السريع من قبل القارىء المسيحي .

: 'Ensi come le patriarche corone
le rei de Jerusalem de corone d'or et l'enoint, en itel maniere
(chez) les Sarasins le plus grant home, qui est en icele seignorie
porte devant celui qui deit estre soutan une housse devant lui,
mostrant la et disant au pueple: Vees ci nostre seignor.(٢٢)

وعلاوة على ذلك فان « د » وحـده بين كل منظمـي النيول يذكر المنازعات بين صلاح الدين وأخيه سيف الدين ، وتخلي عدد كبير من المماليك الساخطين عن خدمته والتحاقهم بـرتشارد ، واسـتخدام بناة عرب كجواسيس (٢٣) ومع أن كل هذا متعلق مباشرة بفهـم واضح لسياسات رتشارد فان من الواضح أنه أدخل مـن قبـل × لذلك الغرض ، وفي هذه الحالة فان مصنف « د » ليس فقط مؤرخا أفضل ، ولكنه ينتج حكاية أفضل ، بمعنى واحدة أكثر قابليته للفهم

بسهولة ، واهتمامه بالمسلمين إكراما لخواطرهم ، و ليس لكونهم مجرد مساعدين للشخصيات الرئيسية من الفرنجة يمنع عدم التوازن وعدم قابلية الفهم التي كثيرا ماتلي ، والتي يشيع وجودها بين مؤرخي الحروب الصليبية والتي أعفي منها بشكل بارز مواطن آخر أكثر شهرة من ماوراء البحار هو وليم الصوري ، والحياد النسبي لـ « د » واضح من ثلاث حوادث اخرى موجودة فقط في روايته وهناك اولا القصة العربية المذكورة في وقت سبق (٢٤) عن معاملة صلاح الدين لطفلين مسيحيين ، توماس دي ابلين ووليم صاحب جبلة . التي تظهر صلاح الدين كرجل شرف – فهو يستجيب لطلب من بالين دي ابلين أنه يجب ان يأخذ الأطفال تحت حمايته – وأنه مؤهل بالمشاعر الرقيقة الى جانب ماهو عليه من بسالة عسكرية ، وهو على الفور واثق من النصر الوشيك ، ومدرك لمضاعفات الهزيمة على أطفال أعدائه ، والقصة كلها علاوة على ذلك تجذب الى دائرة الضوء علاقة شبيهة الاحكام واكثر ضمانا بين المسلمين والمسيحيين مما يسمح به عادة ، مع أنه على نحو لايمكن إنكاره كانت العائلة ذات العلاقة عائلة معروفة بأنها للخير والشر كاليد في القفاز ، مع أن صلاح الدين والابلينيون ليسوا على أي حال مشمولين في النوعين الآخرين من هذا الصنف وعندما أصبح ، غي لوزنغنان ملكا على قبرص أرسل الى صلاح الدين كما يقول «د» طالبا النصيحة حول كيفية ادارة مملكته الجديدة ومرة اخرى ايضا تصرف صلاح الدين بأفضل تقاليد الشهامة ، وأعلن فضلا عن ذلك احدى اسس اخلاقيات سلوك الفروسية بوضوح في العملية

:: 'Salahadin respondi as messages que il n'ameit gaires le rei Guy, mais depuis que il li requereit de conseill, il le conseillereit au miaus que il savreit. Car puis que l'on demande conseill a autrui, soit ami, soit henemi, leiaument li doit conseillier.(٢٥)

وهذا لايخبرنا بالضرورة بشيء عن صلاح الدين الذي يمكن أو لايمكن أن عبر مطلقا عن مثل هذا الاحساس ، ولكنه يخبرنا بقدر

كبير تماما عن مصنف « د » الذي أعتقد أنه يستحق أن يضمن ، وعن × ، الذي صدق صلاح الدين بالقول من المقام الاول .

وآخر الاضواء الجانبية المقصورة على صلاح الدين في « د » هي ايضا الاكثر اهمية تاريخيا والاكثر إرباكا لوجهة النظر التقليدية لكل المسيحيين باعتبارهم الاعداء العنيدين المؤكين لكل المسلمين . وتعلق بالزواج الذي اقترح ، مع انه لم يعقد مطلقا بين أخي صلاح الدين سيف الدين وجوانا صاحبة صقلية ، الاخت الأرملة لريتشارد قلب الأسد ، والآثار المحتملة لهذا الزواج ، والتحالف الذي كان ينطوي عليه بين رتشارد وأخي صلاح الدين كان واسعا في الحقيقة ، وكان يمكن ان يرسم نهاية سيادةصلاح الدين في الشرق .

: '. . . et se icelui mariage se feisoit, il [Salahadin] doutoit que il ne perdist toute sa conqueste.(٢٦)

وكان هذا الخوف صحيحا حتى انه أدى بصلاح الدين إلى أن يعرض على ريتشارد هدنة على شروط مواتية للغاية للمسيحيين ، تتضمن أن يعاد لهم جزء من مملكة بيت المقدس . ولكن ريتشارد اجاب بانه يجب أن يحصل على كل المملكة كما حكمها عموري الاول قبل فتحها من قبل نور الدين أو لا شيء بالمرة ، وكان رفضا طائشا سرعان ماندم عليه عندما أرغمته الأوضاع في انكلترا لان يقبل معاهدة غير مواتية ، وهي معاهدة ١١٩٢ ، وقبل أن يترك بلاد ماوراء البحار ، كان الكسب الكبير الذي يمكن أن يكون ريتشاردقد حققه لقضية المسيحيين لو أنه قبل عرضه ، وهو معيار لنقص حدة ذهنه ، أو ربما للمبالغة بثقته بنفسه ، وقد رفض ، وقد حظيت هذه الحادثة بالصمت من قبل الجميع سوى مصنف « د » .

وسيكون على أي حال مضللا تصوير × على أنه موال لصلاح الدين وفقا لمبدأ ما ، وما يسمى بموضوعيته على أنها مجرد بندول يتأرجح بين هذا الطرف وذاك ، فقد كان قادرا على نقد صلاح الدين بقدر ماكان قادرا على مدحه ، حسبما كانت تقضي الظروف وكشاهد

على قصة مذبحة فرسان الداوية التي كما رأينا من قبـل كانت في × ولكنها حفظت فقط في « د » (٢٧) وهذا تصوير من الدرجـة الأولى لموقف × ، فقد بدأ بذكر حكمه على فعل صلاح الدين بوضوح

: 'Quant Salahadin fu en la cité de Domas il ot en sei un mauvais apenssement. Car il fist ocire tous les Templiers, qu'il avoit pris en la bataille. (٢٨)

ورفض فرسان الداوية إنقاذ أنفسهم بالارتداد عن دينهـم فـأعدموا ولكن × على الرغم مـن رأيه المعلن في فعـل صـــلاح الدين على أنه « عمل انتقامي » بين الآن بـاعث صـلاح الدين الخـارج على المفهوم المعتاد . 'un mauvais apenssement'

عارضا الآن موقفه غير الاعتيادي في تفهمه لدافع صلاح الدين

'Mult fu grans la doulor et la mortalité et la confusion de sanc. Car il cuida faire grant sacrefice a Deu en ce que il faiseit ocire les Crestiens. Car ensi le dist Nostre Seignor en l'Evangile a ses deciples: "Encore venra l'ore que cil qui vos tueront me cuideront avoit fait grant sacrefice. (٢٩)

والآن فإن × بعيد عن أن يكون سياسيا ساذجا ، ويمكننا بأمان أن نفترض أنه قد أدرك تمـاما مـاذا كان بـاعث صـلاح الدين الحقيقي ، أعني الرغبـة في إبـادة أحـد أهـم العناصر في الجيش الفرنجي ، ولكن × رقيق بقدر كاف ليتمكن من نقد صلاح الدين دون أن يشعر بضرورة لتسويد صفحة شخصيته كلية : مع أنه عمل بدافع الانتقام ، يجب أن يبقى محظيا ببعض الاخلاص الديني وذلك خلافا لمارسيل الذي قال ن هذا العمل لن يغفـره الله له (٣٠) ، ولم ير صلاح الدين هنا كعدو الله ، بل بالضبط على أنه اعتقد أن فعله يرضي الله ، ومرد ذلك لأنه ضلل من قبل ديانة مزيفة ، لكن من أجل ذلك كله بإيمان طيب ، وتتناظـر بـراعة × في هـــذا ، وفي أمثلة أخـــرى وتتشابه ـ مع أن ذلك بطريقة مختلفة نوعا ما ـ فقط مـع بـراعة وليم نفسه .

ومن الحقائق الاخرى لمنوعات « د » إنه مع ارتبـاطها بـاهتمام المؤلف بفلسطين وماوراء البحار بشكل عام إن مـا يسـتحق الذكر

الخاص . أن كل الذيول بها قدر كبير تماما من المادة حول قبرص بشكل لايمكن تفاديه ، ولكن في « د » أكثر من الباقي . فبعد طلب غي من صلاح الدين ، المقتبس أعلاه على سبيل المثال ، يمضي ليخبرنا ماذا كانت النصيحة ، وكيف نفذها غي بإعطاء الاقطاعات الكبيرة الذين كانوا يرغبون في المجيء من فلسطين والاستيطان هناك ، وهكذا حدث بفضل الرب ورحمته أن قدم إلى جزيرة قبرص عدد كبير من الفرسان وأصبحوا فيها من كبار الملاك (٣١) .

هل هناك ملاحظة ذات مصلحة شخصية هنا ؟ يبدو من الصعب أن نفسر تماما بأي طريقة أخرى هذا التغيير المفاجيء في القلب تجاه « غي » الوغد حتى الآن والذي كان « واحدا ممن أضاعوا الأرض » فهو الآن تحول إلى حاكم طيب وحكيم فهل كان × نفسه أحد الذين استفادوا من سياسة غي ، وممن أصبحوا من « كبار الملاك في جزيرة قبرص » ؟ وهل كان هذا في الحقيقة أحدا غير أرذول دي غيليت ؟ إن كل بينات المنوعات في « د » التي امتحنت حتى الآن تشير إلى هذه النتيجة : الاهتمام الوثيق في الشؤون المحلية في بلاد ماوراء البحار ، والمعلومات المضبوطة حول عادات المسلمين والموقف غير الاوربي جدا تجاههم ، والتشابه مع الزمرة المناهضة لغي في فلسطين ، ولقد حان الوقت الآن لفحص المنوعات في ضوء تلك المعايير الدقيقة التي رسمناها من قبل (٣٢) ، أي منزلة أرذول كرجل ليس من رجال الدين والتزامه بقضية آل ابلين ، ومعلوماته الداخلية عن العائلة .

ولكي نبدأ بالاولى توجد في المنوعات سمات كثيرة تميل عند النظرة الأولى إلى الايحاء بتأليف مدني غير كهنوتي ، وبتعابير عامة إن نص « د » له مظهر أكثر احترافا بكثير من أي من النصوص الأخرى ، فهو على سبيل المثال يظهر بعثره في التواريخ السنوية في القسم موضوع البحث ، بينما ليس للموجز مثل ذلك ففي الذيول في الفترة حتى ١٢٣٢ ، في أ ـ ب اثنان وفي « غ ج »واحد ، ولا شيء بالمرة في الأخرى ، ومثله هذا إن أسلوب « د » أسمى بكثير

من الاسلوب في النصوص الاخرى وهذا سيناقش بشمولية أكثر في مكان لخر (٣٣) .

وباختصار فإنه يعرض مفردات اغنى بلا حدود ، مع صدور علمية من حين لاخر (مثل : (*pecunie, nave*) وحبا للحكم والاقوال المأثورة المدهشة ، والتعابير التي تجرى مجرى الأمثال والاستعدادات ، وهناك ايضا اقتباسات توراتية ـ على سبيل المثال تلك المضافة كتعليق اعدام فرسان الداوية ، (٣٤) والندب على بيت المقدس المقحم في القصة التحنيرية عن أصحاب هونين (٣٥) ، وفي مكان لخر نجد بينة على الاهتمام بالامور الكنسية ، ومعلومات دقيقة حولها (٣٦) مع أنها ليست غير عادية بمعايير مؤرخي العصور الوسطى اللاتينيين ، وتبرز بالمقارنة مع المسيرة العامة للمؤرخين باللغات الدارجة ، ومع النيول الاخرى بشكل خاص ، ويقدم سؤالان نفسيهما : هل هذه السمات بالضرورة من عمل رجل ديوان ؟ وإلى أي مرحلة من العمل تنتمي : إلى مؤلف × أم إلى مصنف « د » .

وبالنسبة للاسلوب العام فإنه غير مشابه لعمل ذلك الرجل غير الكاهن لكن سريع التأثر المشوش أعني روبرت دي كلاري الذي خلاصه وصفه أن نقول إنه كان عاجزا عن الوصف ، ولكنه كرجل مدني ذكي كان بإمكانه أن ينجز أفضل من ذلك ، كما يبين تاريخ فيلها ردين ومع أن اسلوب « د » أسهل كثيرا وأكثر حيوية في القراءة وأكثر تنويعا بكثير في الوسائل التي يستخدمها فإنه مايزال اكثر مهارة من اسلوب فيلها ردين ، وهو ليس وراء حدود المستطاع بالنسبة لمثل هذا الرجل من المدنيين . ويجب أن نتذكر أيضا ، إذا كان عمل أرنول هو ما نبحث عنه والذي يصفه فيليب دي نافار ككاتب فصيح جدا (٣٧) ، فإن من المفترض انه قد أحرز في البلاط على بلاغة أهلته لاحتلال مكان مفيد عندما حول يده إلى كتابة مذكراته ، والمعرفة باللاتينية أمر لخر على أي حال ، واستخدم ذلك ووضح بالجملة التالية : 'Car ensi le dit Nostre Seignor' etc. (٣٨)

والاقتباس ترجمة ليوحنا ١٦ / ٢ مع أنه ليس دقيقا بشكل مطلق ، إنه يستخلص المفرد من الجمع
'omnis qui interficit vos' 'cil qui vos tueront', ويضيف الصفة grant,

حيث لايوجد في الأصل سوى obsequium. ويبدو مع

ذلك قريبا جدا من أن يكون مجرد مدد من الذاكرة لرجل مدني كان قد سمع هذا القول (لقد كان الشعر جزءا من الانجيل من أجل يوم الأحد التالي ليوم عيد الصعود – خميس الصعود) وهو لايعبر عن مجرد فكرة الشعر بل يأتي بالصياغة الفعلية ، وعليه يجب أن نستنتج أنه قد استمد مباشرة من اللاتينية ، ويدلك على يد« د » يد كاتب» أثناء العمل في النص عند نقطة ما .

ويقلد ندب بيت المقدس – بشيء من التصرف – الشعر الافتتاحي لمراثي إرميا

Quomodo sedet sola civitas plena populo! Facta est quasi vidua domina gentium; princeps provinciarum facta est sub tributo.

Qui vos porreit conter le plor et la doulor de si grant mesaventure qui avint a la sainte cité de Jerusalem? Cele qui esteit nomée dame des autres citez devint serve et ancelle; cele qui deveit regner en franchise fu puis tributaire.(٣٩)

ومع أن هذا كان بتصرف بالمقارنة مع المثال الأول ، فإنه يبقى بلا شك اقتباسا توراتيا ، وله يضاف تعقيد آخر ، هو أن كتاب المراثي خلافا للأناجيل ليس في الطقوس الدينية أي ليس من الأجزاء التي تقرأ كثيرا جدا من التوراة .

- والتواريخ لم تأت بالطبع بالضرورة من مصدر مكتوب ، أو اثبتت بواسطة« كاتب » فهي كلها مستمدة من الذاكرة ، وهي على أي حال دقيقة بالتقرب فقط باستثناء حطين ، التي ذكرت بيومها وتاريخها مع الشهر والسنة (٤٠) وغير ذلك هناك أمثلة وفاة غي ، وهي ليست فقط بعيدة سنة ، بل قيل إنها حدثت في السنة

نفسها التي توفي فيها صلاح الدين (٤١) ، بينما في الواقع كان بينهما أربعة عشر شهرا (في آيار ١١٩٤ . وفي ٣٠ آذار ١١٩٣ كل على حده) .

هذا هو حجم الخطأ الذي يمكن بسهولة أن يقع بزلة من الذاكرة ، وقائمة الاحداث المعطاة جميعها تحت ١١٩٦ (٤٢) تظهر عند النظرة الاولى ببساطة خطأ ، ولكن من وجهة نظر حقيقية إنها وقعت كلها تقريبا ، على سبيل المثال وفيات غي وصلاح الدين ، وهي الى حد بعيد مترابطة بسببها أيضا ، ويبدو أن التاريخ قد جرى تذكره خطأ ، أو أنه حتى أستنسخ خطا (٧ × بدلا من ١ ×) وليس ان مسار الاحداث قد أسيء فهمه تماما ، فقد توفي كليمنت الثالث وخلفه كليستين الثالث في آذار ١١٩١ وتوج هنري السادس امبراطورا رومانيا مقدسا من قبل البابا الجديد سهل الانقياد في ١٥ نيسان التالي ، وأسر رتشارد في فينا في كانون الاول ١١٩٢ ، وسلم الى هنري بعد ذلك بثلاثة شهور .

وبشكل عام يمكن أن نقول إن كل هذا كان يمكن تذكره بسهولة بهذه الدرجة من الدقة من قبل أي شخص جيد المعلومات يكتب بعد وقوع الأحداث بعام واحد فقط ، وتختلف الأمثلة الهامة الكثيرة حول الأمور الكنسية بالنوعية ، ولدى الحديث عن الاستيلاء على قبرص نجد هذه الملاحظات :

(1) Mais le Rei de Gloire, qui aveit conduit le rei Richart jusques la et voleit planter iqui la bone plante, ce est assaveir Sainte Yglise et la Crestiènté de la loi de Rome en la devant dite isle, et arachier la mauvaise racine des felons Griffons, il manda son bon conseill au rei Richart . . .

(2) Mais la porveance et l'aie dou Rei de Gloire, qui ne deguerpist pas les siens, dona force et victoire au devant dit rei.

(3) Et ensí par l'aie de Dieu sousmist le rei toute la seignorie de Chypre a son pooir et la torna a la lei des Latins, et fu fait arcevesques de Nicossie Salein, qui estoit arcediaque de Saint Jorges de Rames (٤٣)

وهذه اقوال موالية بقوة وفي « د » فقط صدور الاستيلاء على

قبرص في هذا الضوء ولكن من الممكن أن يكون أيضا يمثل قوة شعور فارس مثلما يمثل شعور « كاتب » وكان أحد واجبات الفارس الدفاع عن الكنيسة المقدسة والايمان الحقيقي ضد غير المؤمنين ، الذي كان لا يعني لدى فرنجة بلاد ما وراء البحر المسلمين فقط بل أيضا الهراطقة القبارصة « ومجد الملك وفخاره » لم يكن عدوانا شائعا فقط في المزامير ، بل في الأحاديث الدينية بشكل عام واستعارة عبارة الزرع مع شيوع وجودها في الكتاب المقدس ، ليس بالتأكيد تحولا كتابيا في العبارة ، وما هو أكثر إن كل هذه التعليقات تتعلق بقبرص ثم وما هو أكثر طبيعية من ذلك لا بد أن « الملاك الكبير في جزيرة قبرص » قد تملكه شعور قوي بشكل خاص نحو الاستيلاء على الجزيرة حيث اتخذ منها موطنا وحل فيها محل « اللصوص الهراطقة الرافضين لشريعة روما » ، أو أنه رغب بشدة بمعرفة اسم رئيس اساقفة نيقوسيا ومن أين جاء ؟

وما يختلف نوعا ما مع ذلك هو الاستطراد الطويل حول الكنيسة ونزاع الدولة الذي عرض عن طريق شرح التغيير في اجراءات الانتخابات البطريركية لبيت المقدس وشرحت صيغة الانتخاب بالطبع في الموجز وفي « غ ج » اللذان اعتقد مؤلفهما أنها كانت ما تزال متبعة (٤٤) ولكن « د » بعد رواية وقائع الاجراءات استند على التعابير نفسها تماما ، مثل تعابير الروايتين الأخريين ، ثم ابتعد في انعطاف طويل بشأن تنقيح الاجراءات الذي ادخله كلستين الثالث في ١١٩٤ بعد النزاع بين هنري دي شامبين والكهنة ، والفضيحة التي تلت ذلك ، واعطيت إشارة خاصة الى مراسيم وفتاوى البابا كلستين حول الموضوع :

: 'Dont le Pape Celestin reprist le conte Henri, et fit une decretale, si comence enssi: Com la terre, qui est commeue et apelée l'eritage et la partie de Deu. Des adonques en ça le rei de Jerusalem n'en est pas sort (٤٥)

ثم تبع ذلك عرض قصير للمشاكل بين البابا والامبراطور خلال

السنوات المائة السالفة ، وهـي بشـكل غريزي منحـازة لصـالح الكنيسة وهذا الآن لا يشبه تماما الخلاصات الثلاثة عن الاسـتيلاء على قبرص المقتبس أعلاه ، ففي تلك إنه بينما يمكن بسـهولة رؤية أنه من عمل واحد من عامة الناس ، لا يمكن حقيقة أن تـكون هـذه الفقرة قد جاءت من قلم رجل من العامة ؛ ولا بد أن يكون شخص ما له ارتباط بالبلاط قد عرف بالقدر نفسه ما يقال حول ازالة دور الملك في الانتخابات ، ولكنه توسع في نقطه بعيداً جدا يمنعنا من أن نتخيل أن رجلا من العامة قد عرف عنوان الفتاوي المتعلقة ، وتـاريخ عدم اتفاق الكنيسة والدولة وان يكن مختصرا خلال كامـل فتـرة وجـود مملكة بيت المقدس اللاتينية ، والمعلومات إجمالا في هذه الحالة فنية دقيقة جدا وتعطي فترة أطول جدا مما يجب ، فكيف تفسر على أنهـا معلومات مباشرة أو مبنية على مصدر شفوي ، وهي تكشف بمـالا يرقي اليه شك عن يد كاهن .

من كان هذا الكاهن ؟ ولاي طبقة من التشكيل التـراكمي للنص ينتمي عمله؟ الى × أم الى تصنيف د من × ؟ ومـن الضروري الآن أن ننظر بامعان الى الفقرات التي أشرنا اليها على أنها فوق الشـك ذات مصدر كهنوتي ، ومـن السـياق إن المسـألة الاكثـر وضوحا ، والتي يمكن بناء عليه أن تحسم أولا هي مسألة ندب بيت المقدس :

Ensi come il orent passé le Pui dou Conestable, et entrerent en la terre dou seigneur dou Botron et de Nefin, Renaut, qui sires estoit de Nefin, fist metre ses serjanz en un destreit de sa terre et lor comanda que il deussent rober et tolir as genz de Jerusalem quant que il porcient aveir, ensi que il pristrent le remanant que Salahadin aveit laissié a ciaus de Jerusalem. Qui vos porreit conter le plor et la doulor de si grant mesavènture qui avint a la sainte cité de Jerusalem? Cele qui esteit nomée dame des autres citez, devint serve et ancelle; cele qui deveit regner en franchise,/fu puis tributaire. Cil qui eschaperent de la maisnée dou seignor de Nefin alerent envers Triple et cuiderent avoir recet dedens Triple.(٤٦)

ويبين اقتباس التفجع والنص المحيط به بتمامه وطوله بـالضبط كيف أنه لا يتعلق بسياقه ، وكيف كان تـوضعه سـيئا ، وكم هـو

صارخ قطعه لتسلسل الحكاية وواضح أن هــذا اقحــام عند نقــطة ما ، وهو لا ينتمي لـ × .

وفي الامثلة الاخرى لا يمكننا أن نأمل في قطعه من التصــنيف غير البارع الى حد بعيد (حتى بمعايير مصنف « د » هو أدنى نوعا مــا في هذا المجال) لتمكننا من التاكيد بشكل قاطع أن أقحــاما مــا قــد جرى ، وفي حالة فرسان الداوية على سبيل المثال ، كل مــا يمــكن قوله هو أن الاقتباس مــن يوحنا (٤٧) يمــكن ازالتــه دون اضرار بالمعنى ، وهكذا يمكن أن يكون هناك احتمالا اضافة أخــرى مثــل التفجع ولكن ليس بداهة كذلك .

وتبقى هناك الفقرات الثلاث المتعلقة بالبابوية ، وفي حــالة اثنتين منهما من المســتحيل تقــرير مــا إذا كانت في × أو إذا مــــا كانت اقحامات تمت من قبل مصنف « د » وهذه الفقرة التي تتعــامل مــع الفتاوي البابوية لكلستين الثالث (٤٨) وتلك التــي تصــف الحــزن الحادث في كل الأنحاء النصرانية بسبب أخبــار حــطين . وبشــكل خاص وفاة أوربان الثــــالث التــــي رويت كنتيجــــة مبــــاشرة للصدمة ، وخلافة غريغوري الثامن وحكمه مدة شــهرين وانتخــاب كليمنت الثالث .

'A cui Joce l'arcevesque de Sur li porta ceste novele veraiement, ensi com vos le troverés escrit ça en avant (٤٩)

وكل ما يمكن أن نقوله حول هــاتين الفقــرتين هــو أنه يمــكن ازالتهما دون اضرار بتسلسل الحكاية ، ولكن لا يمكن بشكل حاسم بيان أنهما قد اضيفتا من قبل مصنف « د » الى مادة مصدره ×.

وثالث الفقــرات مختلف في النوع على أي حــال لكونه ملخصــا سريعا لعدد من الاحداث خلال ١١٩١ ــ ١١٩٢ (٥٠) التي قد روي معظمها كاملا إما قبل أو بعد هذه النقطة ، وواضح نوعا ما أنه مــن تلخيص المصنف الذي يتخطى على أي حال قدرا كبيرا فــي تــرتيبه

الزمني لهذا الجزء من التاريخ ، علاوة على ذلك فإنه يمكنه أن يؤرخ بدقة بـــالرجوع الى فـــريدريك الثـــاني غير الشـــعبي لـ « *le derain.* » وقد تـــوفي فـــريدريك في ١٣ كانون أول ١٢٥٠ بالضبط حوالي الوقت نفسه الذي صـــنف فيه « د » الذي يتضـــمن حوادث حتى ١٢٤٨ ، وعليه فإن هذه الفقرة يمكن أن تنسب حتمـــا للمصنف .

ولتلخيص مسألة الملامح غير الكهنوتية في نص « د » في حينه من المناسب القول أن بعض الحالات مثل تلك التي تذكر فريدريك الثاني يمكن أن تنسب بالتأكيد لمصـــنف « د » ليس لـ × ، وفي الحـــالات الاخرى يجب أن يبقى بعض الشك ولا شيء من احتياجات الفقـــرات وجد في × ، ولكن يمكننا التأكيد بثقة ان مـــامن شيء منهـــا كان كذلك ، وهذا لايستبعد امكانية ان كان التاريخ الاصـــلي لارذول لان مامن واحدة من هذه الخلاصات اكبر مما ينبغي لتكون اضافة جرت بناء على اقتراح كاتـــب الامـــلاء لارذول حينمـــا كان يكتـــب املاء . ولكنه يعني اذا شبهنا في النهاية بسارذول الاصـــلي ســـيكون علينا ان نراجع افكارنا حول طبيعة عمل ارذول متيجين لهـــا درجـــة اعلى كثيرا من سعه الاطلاع مما يجب علينا ان نتوقعه من مـــذكرات جندي .

ويبقى ان ناخذ في الاعتبار الصفة الاخرى التـــي نتـــوقعها في عمـــل ارذول ، اعني مايمكن ان نسميه عامل ابلين ، وهنا تكون النتـــائج اكثر ادهاشا . فمنوعات « د » تحوي عددا كبيرا مـــن الارشـــادات الاضافية وبعضها تافه ، واخرى ذات اهمية شـــعبية عامـــة ، لكن الكثير منها في الواقع تـــاريخ عائلي فقـــط دون اهمية اوســـع وقـــد استبعدت بناء عليه بعد التنقيح الاكثر قوة في *Xi* وعلى ســـبيل المثال الحكاية المتعلقة بالطفل توماس دى ابلين . المقتبسة من قبل في مكان اخر (٥١) ، وهي في الاســـاس قصـــة عاطفية هـــامة فقـــط للمؤرخين الذين يريدون اظهار نوعية شـــخصية صـــلاح الدين ، او المعنيين بشكل خاص بالابلينيين . ومن اجل هدف هذه الدراسة فان

لها اهمية اخرى تماما ، في انها تعطينا اشارة لطفل من بيت غيبليت اسمه وليم قد تربى في بيت ابليني ، وبذلك تصور مرة اخرى الروابط المحكمة بين ارذول والابلينيين ، ولكن هذه قصة اخرى ، ويظهر ان القصة قد حفظت من قبل مصنف « د » على اساس ذوقه لان « تذوقه الادبي » هو الذي يمكن ملاحظته في مكان اخر (انظر معاملته لهنري دي شامبين) وكما بينا من قبل المصنف الاكثر صرامـة في × الذي رآها بحق بدون اهمية عامة .

واحيانا بالطبع – ان المعلومـات عن الابلينيين الموجـودة في « د » ليست اكثر مـن دليل على عنايتـه بـالتفصيل ولاهتمـامه في « 'ciaus de cest païs' » او ميله لذكر الناس بالاسم . وهـكذا وصف بالتفصيل نظام زحف ريتشارد نحو يافا « وقام بتنظيم قوات المقدمة وقوات الساقة ، وقاد بالين دي ابلين ووليم صاحب طبـرية قوات المؤخرة » (٥٢) .

ومرة اخرى لاشك ان الدقة هي وحدها التي ادت به الى ان يخصص ان باليـن دي ابلين كان المفاوض في هدنة ١١٩٢ (٥٣) ولايمـكن اخذ هذه الاشارات على انها قد سجلت لتعطي اهمية خاصة لبـالين دي ابلين ، ولكنها دقة اكبر فقط ، ممـا حفـظ في اعادة العمـل في × ، وهو وسيط تجاهله مصنف « د » لحسن الحظ ، ولكن في امثلة اخرى هناك ميل لايمكن اغفاله ليس فقط لافسـاح مجـال لتوافه آل ابلين مثل قصة توماس ، بل ايضا لربط احـداث واناس بالابلينيين بلا مسوغ ، مفترضين انهـا نقـطة الانطـلاق بـطريقة تجعلها اكثر مركزية مما كانت ، خذ على سبيل المثال هذا الوصـف لجوسلين الثالث .

: '. . . le conte Joscelin, qui aveit esté bailli en Acre, et esteit eschapé de la desconfiture o Balian d'Ibelin, qui faiseit l'ariere garde, vint en la cité.(٥٤)

والان كان جوسلين شخصية سياسية كبيرة في المملكة ، تماما بمثل

اهمية الابلينيين ، وكان هناك سبب جيد جدا لنتذكر وصايته السيئة المصير على الطفل بولدين الخامس ، وانه لغير ضروري بالمرة ربط اسم بالين هنا .

واشارة اخرى لاتقدم بالين فقط ، ولكن تسميه باسمه الاول ، ونفترض اننا نعرف من هو المقصود ، وجرى هذا لدى حديثه عن دفينه ، بالين صاحب صيدا :

'Icestui Balian, seignor de Seete, il fu fis de la fille Balian, qui avoit non Helvys, et de la reyne Marie. (٥٥)

وحيث ان الحكاية التي تقدمت مباشرة ، قد تعاملت مطولا مع رينو صاحب صيدا ، فلا بد انه كان كافيا تماما لكي يعرف بالين صاحب صيدا على انه ابنه ، كما كان النص في الواقع من قبل ، وبدون هذه المعلومات الفائضة عن اصول امه .

ومثال اخير عن تنوع « د » يجسد حادثة يشكل فيها ابليني الشخصية المركزية ، وهي بالاحرى حذف مدهش من جانب *Xi,* مع اختطاف اسكيفا ابنه بلدوين دي ابلن وزوجة ايمري لوزنغنان وكانت اسكيفا ملكة قبرص في ذلك الوقت ، وبناء عليه شخصية لها بعض الاهمية العامة ، والقصة ليست بدون اهمية سياسية ، وقد اعيدت اسكيفا في النهاية من خلال نفوذ لاون صاحب ارمينية الذي تحرك « لحبه للملك ايمري لانه كان صديقه ، وحبا ببلدوين دي ابلن الذي كانت السيدة ابنته »(٥٦) ونجم عن هذا الحادث تأسيس علاقة طيبة بين لاون واقرباء اسكفيا :

: 'Illueques conquist Lyvon de la Montaigne l'amor dou rei Heimeri et del parenté de la dame por le servise que il lor avoit fait.(٥٧)

ويتبين من هذا كله ان القصة بالاساس ذات اهمية لتعلقها « بأبي السيدة » وقد استبعدت من قبل x مع قدر كبير من المادة

الاخرى حول دولة ارمينية ــ وهي بلاد كانت عديمة الاهمية في اعين الاوروبيين ــ ومنازعاتها الخاصة التافهة مع الدول الصليبية في بيت المقدس وانطاكية .

وماهذه سوى امثلة للاهتمام بعائلة ابلين تعرضها مدونات « د » وهناك اخرى كثيرة للاقتباس من النوع نفسه ، وفوق ذلك هناك تحيز تجاه العائلة ومصالحها مما يجعل الشيء كله يبدو كدفاع عن مسلكهم في العمل في الاحداث الكبيرة ، في تاريخ المملكة اللاتينية ، وفي الحقيقة انه دفاع مهما بلغ من حد قد جاء واقعيا ، وهو وان لم يكن اعد عن سابق نية المؤلف ، لايمكن ان يخامرنا شك معقول في انه كتب من قبل صديق مقرب من الابلينيين ، بدون انحراف ، واحيانا بلا نقد ، مواليا لهم ، ومهتما فوق كل شيء بذكر قضيتهم .

وكان هو نفسه « فرنجيا بلديا » معارضا لغي وعصبته ، ولكنه عاد فعدل موقفه من غي عندما افاد هو نفسه على مايبدو من سياسة غي في توزيع الاقطاعيات على مقياس كبير في قبرص ، وقد كان بالتأكيد على معرفة جيدة بشكل ملحوظ بقبرص ، وكان لديه اهتمام خاص بالجزيرة ، ووصفه للمعارك ومعرفته بالامور العسكرية بشكل عام يوحي بانه فارس او انه قد كان في فترة من حياته فارسا عاملا ، ولكن من جانب اخر توحي مهارة التأليف ، واسلوبه البليغ نسبيا في روايته في الوقت نفسه برجل على مبلغ من العلم ، مع انه لم يكن كاهنا بالضرورة ، وهذا كله يتطابق باحكام مع مانعرفه عن ارنول حتى اننا يجب ان نستنتج ان x كان هو المصدر المباشر لنص « د » من تاريخ هرقل للفترة ١١٨٤ ــ ١١٩٧ ، وهذا لم يكن في الواقع شيئا اخر غير التاريخ الاصلي لارنول

لكن هل انتهى هذا التاريخ في ١١٩٧ ؟ يجب ان نؤكد ذلك ، ذلك ان مدونات « د » تتوقف بدقة في تلك السنة ، تماما بعد وفاة هنري دي شامبين ، ومع اخبار وفاة هنري السادس (ايلول ١١٩٧) (٥٨) وواضح ان المصدر الذي استمد منه « د » فقط قد

توقف هنا ، وبعد هذه النقطة فان اي منوعات في « د » باتت مشتركة مع نص اخر واحد على الاقل في كل حالة ، ولم يعط مطلقا شيئا مختلفا من ناحية المادة كان خاصا به . وكما لاحظنا من قبل ، ان كل مجموعة العلاقات بين النصوص تتغير هنا فجأة وكلية ، وفي الواقع ان مخططا مختلفا تماما يجب ان يفترض ليفسرها بعد هذه النقطة ، واحد الفروق الرئيسة هي ان « د » حتى اليوم هو حالة قائمة بذاتها ويبدأ الان في التماثل مع « غ.ج » بشدة حتى انهما في الواقع متماثلين من هنا حتى النهاية .

والتاريخ الاصلي المفقود لارنول ، محفوظ لنا بافضل طريقة في رواية « د » مع ان كل الذيول الاخرى لوليم الصوري ، ونص الموجز قد استمد منه بصورة غير مباشرة ، وهكذا تتوفر نقاط قيمة للمقارنة ، كثيرا ماتسمح لنا بالقول فيما اذا كانت سمة ما في « د » اتت من « x » أو انها اضافة من قبل المصنف او الناسخ ، وحيث لايمكن اجراء مثل هذه المقارنة ، يجب ان نقبل رواية « د » على اساس المبدأ العام على انها ادق اخراج او اعادة انتاج لارنول الاصلي ، ومنها يمكن ان نستنتج ان ارنول الاصلي كان عملا ساميا من نواح كثيرة على ماتلاه ، فهو اكثر تنويعا وحيوية في الاسلوب ، مع كثير من المعلومات التاريخية القيمة ، من نوع كان في الراي المعاصر للاسف متخصصا اكثر مما يجب لينجو من دقة التنقيح . ونحن ندين لمصنف « د » بقدر كبير ، ويجب هنا اضافة انه يبدو ان المصنف كان مقيما ان لم يكن مثل المؤلف الاصلي واحدا من سكان ماوراء البحر ، حيث وحده من بين كل مصنفي الهرقليات شاطر ارنول ضيق الافق ، (٥٩) أما ماالذي لم يحفظه من مصدره ، يمكننا فقط ان نتساءل ونحن نخمن باسف حول محتويات ذلك المصدر المفقود نفسه ، الذي من اجله كان على كل حال لحسن الحظ الاحتفاظ بنص « د » في مخطوط مفرد ، لابد ان يغرينا بعض الشيء ، وهذا المخطوط الفريد هو ايضا من اصل شرقي ، وتعد منمنماته احد الامثلة القليلة الباقية من ورشة رسم عكا (٦٠) ومعروف انه في الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، كانت هناك

فترة احياء قصيرة لورشة النسخ العائدة للضريح المقدس في بيت المقدس ، وليس خياليا جدا ان نرى ان المخطوط « د » من تاريخ هرقل قد صنف بالضبط حوالي منتصف ذلك القرن كاحد منتجات ذلك الاحياء .

وهكذا يمكننا ان نحصل من النص « د » على كثير مما احتواه تاريخ ارنول ، الذي لولا ذلك كان سيضيع منا ، وبمقارنة الذيول مع بعضها يمكننا ان نستنتج ان عمل ارنول قد انتهى بعام ١١٩٧ . فأين بدأ؟

ويبدو السؤال على الفور اكثر صعوبة واقل اهمية ، فهو صعب لان الانقطاع الواضح في التنقيح في ١١٨٤ ، مشترك بين كل الذيول ، وهو قد حدد بنهاية تاريخ وليم ، وهذا ليس بالضرورة بناء عليه ، اشارة البدء في المصدر او المصادر التي تحول اليها في حينه . وهو اقل اهمية لانه بينما القسم ١١٨٥ - ١١٩٧ من تاريخ ارنول هو على الاقل بقدر كبير رواية شاهد عيان ، فالواجب ان يفترض ان المادة التي تغطي الفترة التي تسبق فترة حياة ارنول (كما يمكن بالتقريب ان نؤرخها) لابد انها لم تكن اصلية ، ان كانت قد وجدت اصلا بالمرة ، ولكن اذا كان لنا ان نعيد بناء خطوطها الخارجية العامة حيث لايمكننا تعقب تاريخ ارنول بالتفصيل ، يجب ان ننظر الى التاريخ الوحيد المرتبط بارنول ، الذي لم يستعمل للجزء الابكر ترجمة مباشرة لوليم الصوري ، وهو الموجز [٦١] وفقط هذا النص الذي من الممكن له تقديم اي مفاتيح لما احتواه قسم تاريخ ارنول الذي تقدم على ١١٨٥ ، وبتحليل تركيبه ومصدره يمكن ان يبرهن على امكانية تحديد الحد الاقدم وكذلك الاخير لعمل ارنول .

الفصل الثامن

مصادر الموجز وبنيته

١ـ البداية حتى ١١٩٧ ، إعادة بناء تاريخ أرذول

من كلمات [١] « أرسلت ملكة طرابلس » حتى نهايته ، يمكن مقارنة الموجز بشكل صحيح ، كما رأينا في الفصول المتقدمة بالاقسام المقابلة في الذيول ، التي ترتبط بإحكام في ذلك الجزء من نصها ، ومن بدايته حتى تلك الكلمات ، يقف الموجز على أي حال مستقلا تماما عن الذيول . وفي حين انها جميعا تضم ترجمة من تاريخ وليم الصوري ، فإنها تقدم بدلا من ذلك نصا غير مرتبط بالمرة ، أقصر كثيرا جدا ، ولكنه يخدم تقريبا الغرض نفسه من حشو تاريخ الحروب الصليبية ، منذ بدايتها الى الفترة التي تتعلق بها بشكل رئيسي وهي الثمانينات والتسعينات من القرن الثاني عشر، (١١٨٠ ـ ١١٩٠) . وهذا النص المغطى لبعض الوقت ونصف فصول طبعة ماس لاتري ، هو في الاساس تاريخ موجز أو مسودة لتاريخ المملكة اللاتينية في بيت المقدس ، ولكنه موشى بوفرة بكثير من المادة جزئية التعلق ، أي المرتبطة بطريقة ما بالأرض المقدسة ، لكن ما هي هذه الفصول التسع الاولى ؟ هل تمثل بداية تاريخ أرذول ، محذوفة من قبل مصنفي الهرقليات لان ترجمة وليم عدتها فائضة ، ولكنها حفظت من قبل مصنف الموجز ؟ أو هل هي العمل الاصلي لهذا المصنف نفسه ، الذي وجد في مصدره نصا بدأ في الواقع حوالي عام ١١٨٤ ، واضاف هذه الفصول التمهيدية إقحاما ؟ فاذا كان البديل الاول هو الحالة ، حينئذ يكون × ، التاريخ الاصلي لارذول ، قد بدأ حوالي النقطة التي عندها يبدأ الموجز والذيول في السير المتوازي ، وذلك عند الكلمات

التالية : « ارسلت ملكة طرابلس » في العام ١١٨٥ ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، اذا كان مصنف الوجز قد وجد الفصول التسعة الأولى مع القسم المركزي في الحكاية كلها في × ، واختزل كل ذلك عندئذ لابد أن يكون مستملكو الهرقليات قد بدأوا عندما وجدوا ذلك مناسبا لأنفسهم ، بعد نهاية ترجمة تاريخ وليم ، ولابد أن يكون تاريخ أرنول قد بدأ في وقت أبكر بقدر كبير من ١١٨٥ .

وهكذا إنه بفحص هذه الفصول المبكرة من الموجز ، لنرى بدقة ماذا تكون ، ومن الذي يمكن أن يكون قد كتبها ، واذا ماكان هناك أي انقطاع ملموس بينها وبين الجزء المركزي ، الذي يسمى فيه أرنول ، يمكن أن نأمل في ترسيخ بداية عمل أرنول الأصلي ، كما رسخت مقارنة الذيول نهايته .

وبدراسة احتمال أن × بدأ في أو حول عام ١١٨٥ ، يكون من الملائم أن نذكر النظرية المقدمة من قبل أ س . كراي (٢) أن أرنول كتب كمكمل لوليم ، ويجب أن نضيف على الفور بالطبع أنه عندما أعد كراي هذا الرأي أعتقد أن الموجز من عمل أرنول نفسه ، لأنه يذكر اسمه ، ولكن مع أننا نعرف الآن أن الحالة ليست كذلك ، يبقى الاحتمال أن العمل الحقيقي لأرنول ، × ، بدأ حوالي ١١٨٥ ، وبهذا كان فعلا ذيلا لتاريخ وليم ، وفحص حجج كراي بناء عليه دليل مفيد لمدى قوة الإقناع الممكنة بالضبط لنظرية التذييل هذه حول تاريخ أرنول .

ويؤكد كراي أن الموجز أخذ يصبح مفصلا حوالي عام ١١٨٣ ، تماما في الوقت الذي كان فيه تاريخ وليم يتجه في الرواية نحو النهاية بدون الكتاب ٢٣ الذي يفترض أن أرنول ، طبقا لكراي قد استعمله (٣) ، ويتخذ كراي من هذا بينه على أن كاتب الموجز قصد أن يقدم ذيلا للتاريخ ، وهو في الحقيقة يمضي بعيدا جدا الى حد أنه يؤكد فيه أن كل مؤرخي الحروب الصليبية بعد وليم كتبوا كخلفاء له ، وهناك عنصر حقيقي في

هذا ، من حيث أنه كما رأينا من قبل أن التاريخ والاكثر خصوصية نصه الفرنسي ، « الهرقليات » كان شائعا بقدر كبير في زمانهما ، وقد أضيف اليه الكثير بحيث بقي دائما مناسبا للعصر ، وكأن يشكل في الحقيقة العمل القياسي حول الحروب الصليبية ، كما بقي المرجع المعياري المعاصر ، ولكن من أجل التأكيد بثقة بأن كل المؤلفين التاليين كتبوا في ضوء عمل وليم ، فإنه من الضروري أولا بيان أنهم عرفوا ذلك العمل ، وفي حالة أرذول فإن هذا ليس مؤكدا بأي حال من الاحوال .

ويمضي كراي الى بعض الابعاد ليوحي بأن أرذول ربما قرأ ، لابل قد قرأ تاريخ وليم الصوري ، وهو مقتنع حول النقطة الاولى : وقد إقترح أن إحدى نسخ تاريخ وليم كانت متداولة بين أصدقاء وليم ، وبينهم بالين دي ابلين ، ولايمكن القول أنه قد برهن على ذلك ، ولكن يبدو مقبولا جدا في الظاهر أن بيت ابلين لابد أنه كانت لديه نسخة من تاريخ وليم ، وأنها هكذا كانت ولا بد في متناول يد أرذول ، ولكن هذا يفترض أن أرذول كان يعرف اللاتينية وهو اعتقاد يؤيده كراي في مكان آخر (٤) ، ولكنه مرة أخرى بغير برهنة ويبقى احتمالان آخران : إما أن أرذول كان على معرفة بالترجمة الفرنسية لتاريخ وليم أو أنها ترجمت له ، ربما شفويا ، من قبل أحد الكتاب في اطار البيت ، ومع هذا يوحي الاقتراح الاول بشيئين حول الترجمة من المعلوم الآن أنهما غير صحيحين ، وأعني أنها جرت في وقت مبكر جدا لنقل حوالي نهاية القرن ، طالما أننا نعرف أن تاريخ أرذول قد انتهى بأحداث عام ١١٩٧ ، ويفترض أنه قد كتب بعد ذلك بوقت غير طويل جدا ، وأنه جرى في بلاد ماوراء البحار ، إما في سورية بالذات أو في قبرص ، وبالنسبة للتاريخ ، فان عمل السيد غولدن قد حدده بالسنوات الأخيرة من حكم فيليب أغسطس (٥) ولنقل حوالي ١٢٢٠ الى ١٢٢٣ ، وبالنسبة للموقع بين أوست (٦) بشكل حاسم انه قد كتب في فرنسا ، وأن المترجم كان فرنسيا ، والاقتراح الثاني أن تاريخ وليم قد قرىء بصوت مرتفع ، وربما ترجم على الفور ، ودون تأخير ، يمكن

تصديقه ،معروف جيدا أن القراءة بصوت مرتفع كانت إجراء شائعا في تلك الفترة ، وأن التواريخ مثل أنواع الأدب الأخرى كانت تقرأ بصوت مرتفع ، وهذا واضح من مقدمة « تاريخ القدس » لروبرت الراهب :

'Universos qui hanc historiam legerint, *sive legi audierint,* et auditam intellcxerint, deprecor . . . ut concedant veniam. (٧)

وأن يكون القارىء قد ترجم على الفور أمر لم يتفق عليه مطلقا ، ولكن الشعبية البالغة الانتشار لعمل وليم توحي بوجود قراء أكثر من الاقلية المتكلمة باللاتينية ، وبلا شك ان الطلب الكبير على قصص الحروب الصليبية باللغة الدارجة قد بز قدرة النساخ على انتاج تراجم مكتوبة مثل تاريخ هرقل ، وربما ملئت الثغرة بالاجراء الذي اقترحناه ، وهذا بالطبع ليس أكثر من تخمين ، ولكنه على كل حال يعطي كراي فائدة الشك ، ويفترض أن ارنول ربما كان يعرف أو استطاع بوسيلة ما أن يعرف ، عمل وليم الصوري .

ولنفترض الآن أنه كان يعرف ، أن تاريخ وليم الصوري انتهى فجاة في عام ١١٨٤ ، وعليه فإن أرنول قصد بالابتداء بقصته عند هذه النقطة ، ولكنه مثل أغلب مؤرخي القرون الوسطى كانت لديه كراهية للدخول المباشر في مادة موضوعة . فهو كان يريد الاستمرار بهدف اعطاء انطباع المعرفة المبرمجة والسمعة الثقافية ، وكان هذا من الممكن أن يتحقق فقط بالابتداء بطريق جيد رجوعا ، لذلك مع أنه لم يتبين ما اعتبره كثير من الكتاب المعاصرين على مايبدو معالجة شاملة حقا بأن يبدأ بأدم ـ أو على الاقل بيوليوس قيصر ،وقد شعر بحق أنه من الضروري تحديد اطار تاريخ المملكة اللاتينية ، فهل استمد من أجل هذا من المصدر الواضح ال *magnum opus* الذي يفترض أنه نموذجه الاصلي ؟ ويعتقد كراي أنه فعل ، ولكنه اضطر للاقرار أنه في بعض الامور ، اختلفت الفصول

المبكرة من الموجز بمقدار كبير عن رواية وليم ، بما في ذلك كما يقول كراي ـ مسألة وفاة وليم نفسه! وقد فسر الاختلاف بافتراض اعتماد أرنول على نسخة ناقصة من تاريخ وليم لم يكن فيها الكتاب الثالث والعشرين ، وأرنول بالأساس ـ كما أكد لنا متفق مع وليم في الأجزاء الأكثر تبكيرا ـ وهذا التأكيد في الواقع مركز على بينة ضئيلة جدا ، وأي مقارنة صعب القيام ، بها ، لأن ما ذكره وليم في ثلاثة وعشرين كتابا غطاه الموجز في تسعة فصول قصيرة ونصف الفصل كل ذلك بما فيه مواد الوصف الجغرافي والأساطير والخرافات ، مع أحداث تاريخية لم تعالج بالمرة من قبل وليم ، وما يبقى للمقارنة قليل جدا ، وعلاوة على ذلك إنه مع توفر الفرق الكبير في طرق تعبير المؤلفين ، لن يكون أمرا سهلا كشف الاستعارات إن وجدت . ومرة أخرى لا بد بين أي روايتين عن الأحداث نفسها من وجود بعض التماثل القليل الذي ينجم بكل بساطة بحكم الضرورة عن موضوعهما المتشابه ، وليس بين وليم وبين الفصول الافتتاحية الموجز ، هناك كثير من التباين الصارخ ، وليست هناك سمة واحدة ، كخطأ مشترك ، يمكن أن توحي ، دع عنك أن نقيم علاقة مباشرة ، مثل تلك التي ادعى كراي انه شعر بها واحس .

هل هو صحيح بأي حال أن رواية الموجز اصبحت مفصلة في عام ١١٨٣ ؟ إنه بالطبع من الصعب تطوير أي طريقة دقيقة للحكم على التفصيل أو النقص فيها ، ولكن كمرشد غير مصقول ولكنه جاهز ، ويمكن أن نأخذ عدد الصفحات في طبعة ماس لاتري التي استغرقتها كل سنة ، وبتعابير عامة يمكن أن نقول أنه حتى ١١٨٠ كان التوزيع عشوائيا تماما ، فلم يكن هناك اتجاه ثابت محسوس سوى ذلك الذي كان نحو أواخر السبعينات من القرن الثاني عشر ، حيث أن الحكاية بدت بشكل عام تتحرك بسرعة أقل ، وعدد الصفحات التي شغلتها الثمانينات من القرن نفسه هي كما يلي :

1180: 6½	1186: 12
1181: 1	1187: 59
1182: 10½	1188: 13
1183: 7½	1189: ½
1184: 3	1190: 11½
1185: 3	

وهنا مرة أخرى لايوجد تحـول محـــدد ، في اتجـــاه ثـــابت واحد ، يمكن ادراكه بالمرة ، والشيء الوحيد الذي ظهر هو العـامل الذي يمكن توقعه ، في حـــولية تـــاريخية تتعـــامل على الاقـــل ظاهريا ، مع ضياع بيت المقـدس والصـليب المقـدس ، وهناك في الواقع الحاح كبير جدا ، ولكنه متفـاوت حـول السـنة المصـيرية ١١٨٧ ، وبالنسبة للنقطةحيث ينتهي تاريخ وليم ، لا يمكن للمـرء بالتاكيد القيام حتى بتخمين حـولها مـن البينة التـي في الجـدول اعلاه ، ومع انعدام هذه الدعامة فإن نظرية « التنييل » المقترحة من قبل كراي بالكاد يمكن أن تبقى صامدة .

وهذه النظرية هشة من نواح أخرى أيضا : فلا قارىء حتى مـن لنوع غير المبالي يمكن ان يخفق في أن يصدم بالفروق الوا سـعة في الأسلوب والميول نحو عمليهما ، أي ما يفصـل وليم عن الذي ندعوه خليفته ، ففي وليم لدينا رجل ذو مواهب طبيعية عظيمـة ، تـطورت الى حدها الاقصى بالتعليم الرائع الذي تلقـاه ، كمـا يخبـرنا هـو نفسه ، على أيدي رجال مثل غيلبـرت دي لا بـوريه ومـوريس دي سولي ومينيروس الذي كان هو نفسه تلميذ أبيلارد(٨)وقد أردف وليم هذا التعليم بخلفية واسعة من القراءة ، إضـافة الى انه جـاء الى عمله باحساس دراسي : تدقيق من أجل الحقيقة وحياد ، وإحساس بمسؤولية المؤرخ تجاه قرائه ، مما أسهم بقـدر كبير في منح صـفة الديمومة لتاريخه ، ولم يكن نجـاحه عفـويا ، فقـد تـــوقع دوام عمله ، فكتب للذرية بوضوح : « نحـن لا يهمنا كثيرا مـا سـيكون انتقاد الاجيال المقبلة لنا ، كما لن نهتم ايضا للحكم الذي سـيصدر على اسلوبنا »(٩) .

ولن يدهش إذا عرف أن قراءته مـا زالت مسـتمرة طيلة ثمـانية قرون بعد وفاته ، وبالنسبة لمؤلف الموجز من جانب اخر ، يبـدو أن الخلود الأدبي لم يكن بعيدا عن فكره ، ومـن الواضـح أن العمـل وسيلة لغاية . أعني نشر المعلومات ومـن الواضـح أنه لم يكن لدى المؤلف وعي بذاته ككاتب بالمرة .

وهذا تعارض مباشر مع وليم ، الذي ذكر نفسه بتواضع أسقفي كاف ، عند كل النقـاط ذات العـلاقة ، وكثيرا مـا حلل احسـاسه الخاص لنا بطريقة تغـرينا بـأن نرى فيه نذيرا متبصرا يتـطلع الى الامام .

والآن لا يتوقع المرء بالضرورة مؤلفا قصده تكميل عمل رجل اخر كي يقلد محاكاة أسلوب ذلك الرجل بشكل مطلق ، ولكن المرء يتوقع أن يكون اختيار المادة دقيقا ومناسبا ، لتفـادي التمييز القـوي بين الشطرين ، للادعاء على الأقل بالتماثل ، وبـاختصار يتـوقع المرء محاولة صغيرة للمعارضة ، والموجز لايفعـل شـيئا مـن ذلك ، وفي الحقيقة إن المؤلف لم يذكر حتـى تـاريخ وليم عندمـا تـكلم عن وليم ، وإذا كانت المسألة مسألة تفاخر للمؤلف فإنه لغـريب بشـكل خاص أنه لم يفعل ، فمؤلف الموجز يعجب بوليم ، لكن هذا الاعجاب العفوي من الصعب الحكم على مقداره أو على مقدار الحـكمة فيه : والسياق الذي ذكر فيه وليم هـو سياق الظروف الغـامضة لانتخـاب هرقل بطريركا لبيت المقدس في ١١٨٠ ، وجهد كي يوضح ليس فقط تفوق وليم الاخلاقي الذي لا يذكر على هذا الاسقف الفـاسق ، بـل ايضا كان هو نفسه في جانب الحق في هـذا الامـر ، ووصـفه لوليم مؤيد بلا تحفظ ، ولكنه غير مبالغ فيه كثيرا بشكل يجعل منه نفـاقا واضحا :

'Li archevesques de Sur ot a non Guillaumes, et fu nés en Jherusalem, et ne savoit on en Crestiienté mellour clerc de lui, a son tans. (١٠)

ولا بد أن هذه كانت اللحظة المناسبة لاضافة أن وليم كان مـؤلف التاريخ ، فإذا كان هو نموذج مؤلف الموجز والهامة فمـن الصـعب تصديق انه لم يكن ليضيف ملاحظة الى هـذا الواقـع هنا ، ويؤدي صمته حتى بالمرء الى التساؤل فيمـا إذا كان في الحقيقـة قـد عرف تاريخ وليم بالمرة ، وبالتأكيد واضح أنه لم يكن حاضرا في ذهنة .

وكل حجج كراي من أجل تسمية أرنول مذيلا لتاريخ وليم ، تقوم بالطبع على افتراض أن موجز ١٢٢٩ كما هو قـائم ، هـو تـاريخ أرنول وكما رأينا(١١)إن قضية تصديق أن الموجز نفسه قد كتب كذيل التاريخ ، هزيلة الغاية ، لكن هل هناك امكانية للاعتقاد بـأنه ليس الموجز بل مصدره « × » هو الذي كتب ذيلا شروعا من سنة ١١٨٥ عندما « أرسلت ملكة طرابلس » وقد استعمل هكذا من قبل مصنفي الهرقليات ، ولكنه تكيف بصور مختلفة من قبل مصنف الموجز ؟ فلو كان الأمر كذلك ، لتوجب تمييز انقطاع واضح في تنقيح الموجـز عند النقطة التي افترض أن المصنف قد أتم فيها مدخله الخاص ، وبـدأ بعملية نسخ × ، مختصراً إياه في هذه العملية ، وبكلمات أخـرى لا بد من وجود بعض الفروق التي يمكن ملاحظتها بين الفصول التسع والنصف الأولى من الموجز ، التي يفترض أنها من عمـل المصـنف الخاص ، والبقية من جملة « وأرسلت ملكة طرابلس » وما بعـدها استمدت مثل الجزء المماثل في تاريخ هرقل ، من التـاريخ الاصـلي لأرنول أي « × » .

وفي الحقيقة إنه عند النظرة الأولى نرى أن الفصول المبـكرة مـن الموجز تعطي الانطباع بكونها مركبة بصورة مختلفـة نوعا مـا عن بقيته وعن النيول بالذات . في حين أن النيول والموجـز بعـد ١١٨٥ هي تقريبا حكاية تاريخية صريحة ، والفصول التسـع الأولى مـن الموجز مختلطة جدا في محتواها ؛ على الاقـل عند القـراءة الأولى ، حيث تعطي القارىء انطباعا بعدم التنظيم وعدم الوحدة ، ولكشـف إذا ما كانت كيانا مستقلا بذاتها ، أو إذا كان لهـا بعض الروابـط ببقية الموجز وبالذيول ، من الضروري بناء عليه أن نفحص بدقة أكبر

مم تتكون بالضبط تلك الفصول المبكرة ، وإذا أمكن ، ماهي مصادر المادة ؟

وتقع محتويات هذه الفصول المبكرة من الوجز في أربع زمر عريضة : مقتطفات توراتية ، وأوصاف جغرافية ، ومادة أسطورية وتقليدية ، وتاريخ حقيقي .

وتختلف المادة التوراتية كثيرا جدا في الاتساع والتفصيل ولاتتعدى بعض الأمثلة أكثر من إشارات عابرة إلى قصص توراتية ، كثيرا ماكانت حوادث مرتبطة بمكان ما في الأرض المقدسة قام المؤلف بوصفها ، ولكن أخرى كانت طويلة وربما قريبة من الكتاب المقدس ، كلا العهدين القديم والجديد ، وعرف الكاتب بالتفصيل على الأقل أجزاء من كل الأناجيل الأربعة (مع أنه لم يقم باي إشارة نصية إلى أي رسالة إنجيلية) (١٢) وعرف من كتب العهد القديم وأسفاره : الخروج ، والعدد ، ويوشع ، ويهوديت والكتابين الثالث والرابع من الملوك . (١٣) .

ومقتطفات العهد الجديد ذات معالجة دقيقة جدا بالفرنسية عن الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس ، مع بعض الاضافات ، عادة حوار ، بطريقة مفعمة بالحيوية وقصص العهد القديم على أي حال ، في الحقيقة مستمدة من مصدرين : العهد القديم وأعمال فلافيوس يوسيفوس ـ واستمد المصنف كثيرا ، من العصور القديمة ، ومرة واحدة من الحرب اليهودية عند يوسيفيوس ، وهكذا على سبيل المثال قصة أبناء اسرائيل الذين عبروا البحر الأحمر ، وهي بوضوح قائمة على الرواية الواردة في سفر الخروج ١٤ وليس على تلك التي أعطاها يوسيفيوس (١٤) بينما قصة اليشع لسد المياه (١٥) ، ممكنة التشبيه بفاتحته ، وغير موجودة بالكتاب الثاني من أسفار الملوك الأربعة وهي تكييف للكتاب الرابع الفصل ٨ قسم ٣ من الحرب اليهودية .

والحالة الهامة بشكل خاص هي حالة ابراهيم من قصة وجدت في الفصل ١٨ / ١ من سفر التكوين : « وتجلى له الرب في بلوط ممرا وهو جالس بباب الخباء عند احتداد النهار » وتتحول هذه في الموجز إلى

'Abraham se seoit desous un arbre qui avoit a non Mambré,'

وهكذا أضاف ماس لاتري كلمات على أنها ضرورية المعنى ، وجعل الجملة ترجمة صحيحة للفصل ١٨ / ١ من سفر التكوين (١٦) وفي الواقع إن لدينا هنا ترجمة ، لأنواع من يوسيفيوس مره أخرى (العصور القديمة ١٠ ـ ١١ ـ ٢) : « إلى جانب بلوط ممرا عند باب خبائه » (١٧) وتنقيح ماس لاتري تنقيح فائض . وقد حصل المصنف على أشياء خاطئة بشكل طفيف جدا ، فقد اعتقد بالتأكيد أن ممرا هو اسم الشجرة . وابتعاده البالغ الصخب عن النص ورد أيضا في هذه الفقرة ، كان له هدف واضح . ذلك أن نص الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس عند هذه النقطة غريب قواعديا :

سفر التكوين : ١٨ / ١ ـ وتجلى له الرب في بلوط ممرا وهو جالس بباب الخباء عند احتداد النهار .

سفر التكوين : ١٨ / ٢ ـ فرفع طرفه ونظر فإذا ثلاثة رجال وقوف أمامه ، فلما رآهم بادر للقائهم من باب الخباء وسجد إلى الأرض .

سفر التكوين : ١٨ / ٣ ـ وقال : ياسيدي إن نلت حظوة في عينك فلا تجز عن عبدك .

وهذه فرصة يجب عدم تفويتها لتفسير نمط العهد القديم من الثالوث المقدس ، وأفاد منه المصنف استفادة كاملة :

'Tout si que il vint pries de lui si l'aoura. En l'aourer qu'il fist s'en vit .iii. Un en vit et .iii. en aoura; li .iii.

estoient en un, et li uns estoit en .iii., et tout en une personne. Il li proia qu'il herbergast aveuc lui . . (١٨)

وفي أمثلة أخرى لاتوجد التفاصيل التي أعطاها مؤلف الموجز في العهد القديم ولاني يوسيفيوس . ولم تحسن القصة دائما ، وفي الحقيقة إنها تبدو أحيانا غير قادرة على التفسير إلا كتفصيل لامسوغ له ، ورواية الموجز حول حصار السامرة في زمن اليشع على سبيل المثال هي اداء دقيق للرواية في أسفار الملوك الرابع : ٦ ، مع تفصيل واحد مضاف غير موجود في النص الاصلي بالمرة .

Quod cum audisset rex, scidit vestimenta sua, et transibat per murum, viditque omnis populus cilicium quo vestitus erat ad carnem intrinsecus. Et ait rex: Haec mihi faciat Deus et haec addat, si steterit caput Elisei, filii Saphat, super ipsum

Dont fu li rois si dolans qu'il descira ses dras, *et se laissa caoir de son cheval a tiere* et manda par .i. sergant Elyseu le prophete pour ocire, pour che que c'estoit avenu a son tans. (١٩)

وهذا بحد ذاته غير محتمل ، وهو على الاقل لايتواءم مع بقية القصة كتفصيل ، وهو في الواقع يجعلها بالاحرى لامعنى لها ، ولايمكن أن ينظر إليه كسوء ترجمة للاصل ، ولايمكن أن يرى تفسيرا خاطئا للأصل ، وهذا في الواقع تفسيرا اخر أشد غرابة .

(Genesis 18: 1): Apparuit ei Dominus in convalle Mambre sedenti in ostio tabernaculi sui in ipso fervore diei.
(Genesis 18: 2): Cumque elevasset oculos, apparuerunt ei tres viri stantes prope eum; quos cum vidisset, cucurrit in occursum eorum de ostio tabernaculi, et adoravit in terram.
(Genesis 18: 3): Et dixit: Domine, si inveni gratiam in oculis tuis, ne transeas servum tuum.

هل من الممكن أن يكون المصنف قد أخطأ قراءة يوشع ٦ : ١

autem clausa erat atque munita', as 'clausa erat magne', or as 'clausa erat atque magnetica'?

حيث أن مفرداته في الترجمة لها حدودها حسبما تأكد ذلك في أماكن اخرى ، فبعدما اخبر حمار بلعام ، بلعام أن الملاك يسد ممرهما ، قام بالفعل بالعودة ، وهذا شيء لم يرد حدوثه لافي العهد القديم ولا عند يوسيفيوس (٢٠) ، والمخرج هنا هو ان المصنف ربما اقدم على إضافة هذه التفاصيل من عنده معتمدا على ذاكرته ومستمدا منها مما كان قد قرأه في وصف ما لمدينة لها في بنائها مثل مدينة نربونة :

Aymeris fet soner .xxx. olifans,
Bondir en fet Nerbone la plus grant,
La mestre tor et lo dur aymant.(٢١)

وبصرف النظر عن يوسيفيوس والتوراة ، هناك عدد من الاقوال ترجع إلى تقاليد مصدقة كثيرا ، على سبيل المثال تعريف سبسطية بأنها مكان دفن يوحنا المعمدان ، ويهوشافاط على أنه مكان دفن سيدتنا وأشياء أخرى كثيرة من مثل هذه التعاريف المتعلقة تقليديا بأمكنة في فلسطين كمسرح لهذا الحدث أو ذاك ، وفي الحقيقة إن معظم المادة التوراتية ممزوجة مع الاوصاف الطبوغرافية لفلسطين ، وهكذا فإن ذكر أريحا يستدعي ذكر مكثف لقصة يوشع ويشكل أيضا استطرادا مضحكا حول عادات أفاعي معينة أكد المؤلف أنها تعيش في تلك المنطقة (٢٢) ويبدو أن تحديد الموقع كان من اختراعه هو ، ولكن المعلومات عن الافاعي استمدها من كتاب « أصول الكلمات » لايزيدور الاشبيلي (٢٣) وأعطي الموقع نفسه لهذه الافاعي في كتاب جاك دي فيتري « الكتاب الشرقي » (٢٤) ولكن هذا لايمكن أن يكون مصدر الموجز ، مادمنا تاركين جانبا المسألة التي نوقشت مطولا ، والتي تتعلق بتأريخ الموجز ، الذي يعطي معلومات غير موجودة لدى جاك دي فيتري ، فهو يقول عن الناشر (الصل المصري) وهو أفعى صغيرة سامة إنه يستخدم لصنع الترياق ، في حين أن الموجز به أيضا قطعة أخرى من المعلومات التي يعطيها ايزودور ، هي أنه يتجنب الأسر بنصب أذنية ، والاخيرة قصة شائعة جدا ، أصلها في المزامير : ٥٧ / ٥ ـ ٦ ولاتوجد فقط عند ايزودور والموجز ، بل أيضا مثلا في المؤلف الرمزي عن الحيوانات لفيليب دي ثاؤون الذي حصل عليها من ايزيدور ، الذي استغل تماما إمكانياته الرمزية ، (٢٥) وبالنسبة لمصنف الموجز يبدو مؤكدا من النصوص ، أنه لايمكن ان يكون قد حصل عليها من أي مكان إلا من عند ايزودور ، وأن موقع الافاعي في أحواز أريحا ، هي فكرته هو ، ويحتمل أنها في الحقيقة مقلدة من قبل جاك دي فيتري ، كما

سوف نرى عندما يصبح تاريخ تأليف هذا الجزء من الموجز ، أكثر وضوحا .

والأوصاف الطبوغرافية ذاتها كانت موضوعا لكثير من البحث ، الذي تأوج في الطبعة التي حققها ميشلان ورايندود مع مقدمة راينت [٢٦] ، ويستنتج راينت أن وصف الجليل هو العمل الأصلي لأرنول نفسه ، في حين أن وصف بيت المقدس هو توسع في النص الأقدم الذي احتفظ التاريخ بجزء منه في تنقيح مختلف .

ويجب أن يؤخذ في الحسبان بالطبع أنه عندما كتب راينت هذا ، في ١٨٨٢ ، اعتقد بأن الموجز بحد ذاته كما حققه ماس لاتري قبل ذلك بإحدى عشرة سنة ، هو تاريخ أرنول وعليه يكون من المناسب أن ننقح أطروحته في ضوء الفصل السالف ، والقول بأن وصف الجليل كما هو في الموجز ، ليس له مصدر مكتوب باق ، ولايمكن لمصدر مفقود أن يخمن ، لكن مصدرا مكتوبا مفقودا يمكن تخمينه في حالة وصف بيت المقدس ، بمقارنة الرواية الموجودة في الموجز بتلك الموجودة في التاريخ ، وبكلمات أخرى يمكننا أن نعدل نسبة راينت لوصف الجليل إلى أرنول بالقول بأنه عمل المجهول الذي كتب هذا الجزء من الموجز ، ومن المناسب أن يضاف هنا أن الشخص نفسه هو الذي صنع أيضا المقتطفات التوراتية والمقتطفات المأخوذة من يوسيفيوس وايزودور ، لأنها بصورة لامفر منها تتخلل وصف الجليل ، وكثيرا مايكون ذلك إلى حد أن الحدث المروي من التوراة أو من يوسيفيوس ، هو المعلومات الوحيدة المعطاة حول المكان موضوع الوصف ، ولايمكن أن يكون هناك تساؤل عن وجود سالف لوصف طبوغرافي موسع مأخوذ من الكتاب المقدس والتقاليد ، لأن مثل هذا النص لم يكن له أن يقف بذاته ، وفي الحقيقة إنه لصعب وجوده بالمرة ، بصرف النظر عن الرسوم الشارحة التي تتكون منها في الواقع في أقسام كبيرة .

والشيء نفسه ، غير صحيح بالضرورة بالنسبة للأجزاء التاريخية

الدقيقة لهذه الفصول المبكرة ، مع انها متداخلة كثيرا مع الانواع الاخرى من المادة التي وصفناها توا ، ومن الممكن استخلاصها وان يشكل منها حكاية مستقلة ، مع ان هذا سيكون هزيلا جدا ، ومع أن فصلها هكذا عن النص المحيط بها سينطوي على فعل عنيف جدا بالموجز كما هو قائم ، والفصل الذي لايمكن تحقيقه هو بين هذا الجزء من الحكاية التاريخية والقسم الذي يتمركز على حطين وسقوط بيت المقدس ، هو العمل الفني التاريخي ، الذي يحقق القصد المحدد للمؤلف ، ليخبر قراءه كيف سقط الصليب المقدس وبيت المقدس في بيت المسلمين . وكحكاية تاريخية هو متجانس بشكل ملحوظ لان التفاصيل التي يعطيها تختلف بقدر كبير فهي تتكون في البداية في مجرد الماعات ، ولكنها تصبح بشكل ثابت أكثر تفصيلا حتى اوائل الثمانينات من القرن الثاني عشر عندما يمكن ان يقال انها تخوض في الاحداث المركزية التي تتعامل معها ، لتصبح تاريخيا صحيحا اكثر منه موجز ظهر انه اصليا ، على الاقل لايمكن تعقب اي مصدر له وانه ليس كما اكد كراي ملخص تاريخ وليم ، فان اجزاء كبيرة منه هي بالطبع روايات موجزة لحقيقة يمكن ان تكون مأخوذة من وليم (على سبيل المثال ، زواج عموري وماري كومينا) (٢٧) وكثير مما لايوجد بالمرة في وليم (مثل ، تاريخ حياة جيراردي رد فورت واعماله) (٢٨) وغطى بعضها الساحة نفسها واعطى رواية مختلفة تماما عن رواية وليم .

وهكذا على سبيل المثال ان روايته كل منهما المتعلقة بتأسيس طائفة فرسان المعبد لاتشبه بعضها بعضا في ادنى حد (٢٩) . ويحتمل ، مع عدم القدرة على البرهنة ان عمل وليم المفقود « تاريخ اعمال امراء الشرق » قد قدم المادة للفصول المبكرة عن حياة صلاح الدين وصعوده للشهرة ، ولكن تاريخ وليم ليس المصدر لبقية التاريخ.

وفي حالة عدم وجود اي عمل يمكن تعريفه على انه مصدره ،يجب ان نفترض انه عمل اصلي مستوفى باستعارات ليمكن تحديد هويتها ، من اماكن اخرى ، اعني من ايزودور ، ويوسيفوس ،

والتوراة ، والوصف مجهول المؤلف لبيت المقدس ، الذي رسخ رأينت كونه مأخوذا من عمل أبكر ومكيف جزئيا (٣٠) .

وليس ممكنا ان يتحرى في هذا الجزء من الموجز اي انقطاع في المادة او الطريقة مثل ماكتشفنا في النصوص في ١١٩٧ ، وبصرف النظر عن التغير في المشهد ، مثلا من بيت المقدس الى بيزنطة او القاهرة حسبما كان يتطلب الموضوع ، فان الترتيب الزمني متتابع بدون انقطاع ، خلافا للترتيب الزمني للاجزاء التالية من الموجز ، او من الذيول ، لتلك المادة ، حيث تتحرك رجوعا وقدما باسلوب مشوش وغير منظم ، كثيرا مايكشف عن مجرد نقص في مهارة التأليف اكثر من ان يكون تنقيحا فنيا متعمدا ، يسمح بتغيير في الموضوع واستيفاءات للحكاية الصحيحة من مختلف العناصر الاخرى ، التي سبق تحليلها ،ويعطي التاريخ انطباعا بوحدة الرواية حيث تبدو كلها كقطعة واحدة مع القسم الذي يذكر ارنول بالاسم ، وكلها تتحرك في اتجاه تلك الاحداث التي كان حاضرا فيها ، متطلعين اليها ومهيئين ايانا لتقدير الفاجعة تماما عندما ترد ، وكون هذه هي في الواقع الحالة امر يمكن بيانه ، وهو امر بالغ الغرابة عند مقارنة الموجز مرة اخرى بالذيول ، اذ مع انهم ظاهريا لايعالجون هذه الفترة ، قبل ١١٨٤ ، سوى من خلال ترجمة وليم لدى ذكره بعض الروايات المتداخلة في حكاية الاحداث التالية ، هناك ايضا ثلاثة اقسام في تلك الفصول الافتتاحية من الموجز .

وهذه الاقسام الثلاث كلها مرتبة زمنيا في الموجز ، ولكنها في الذيول تعمل كقواطع للتسلسل التاريخي ، وفي كل حالة اختار مصنفوا الذيول فقرات تتعامل مع الاحداث التي كانت ضرورية لفهم واضح للاجزاء التالية في التاريخ ، وهي معالجة بصورة غير وافية او لم تعالج بالمرة من قبل وليم الصوري ، وهكذا فان تاريخ « زواج سيدة البترون والمحاولة المجهضة التي قام بها جيرار دي رد فورت وريموند كونت طرابلس » (٣١) ، بالضبط توفر السبب نفسه لذكر هذه القصة على انها كانت عاملا مسهما في ضياع المملكة ، وقد

اعطي من قبل مصنف الموجز ايضا (٣٢). ومثل هذا انتخاب هــرقل بطريركا لبيت المقدس ، وحياته الماجنة ، ووصف باسل دي ريفيتــي «للبــطريرك » مثبــت في « ا.ب »و« د » وفي « غ ج » هــــذه المرة ايضا ، (٣٣) لتبيان ممر خلال الحركات العســكرية في حــطين ، قاطعا العمل بصورة غيرموائمة وبشكل بــالغ الاربــاك ولكنه يخــدم الغرض نفسه ، وهو توفير تفسير ضروري جــدا لمســألة لماذا خسر المسيحيون :

nation of why the Christians lost: 'Dont toz li clergés en prenoit mauvais eissample a la vie dou mauvais cheveteine; por les pechez des quels Nostre Seignor se corroça moult durement a ceauz qui habitoient en Jeruşalem et ou roiaume de Surie et netoia sa terre de ceauz qui le peché ovroient. ٣٤.

والقطعة الثالثة من المادة المقحمة بهذه الطريقة هــي قســم مــن التاريخ البيزنطي ، الذي لم يغطه وليم بقدر كاف ، والذي وضع على نحو موائم في المحــل المناســب لدى الحــديث عن دفــاع كونراد دي مونتفرات عن صور ، ومرة اخرى من الضروري اعطاء القارىء هذه الخلفية اذا كان له ان يفهم بشكل صحيح الحالة التــي كانت علهــا السياسة البيزنطية في ايام اقامة كونراد الجبــرية في القســطنطينية وهربه ، وحقيقة انه بناء عليه وصل الى فلســطين متــأخرا جــدا ، عندما كانت المملكة بكليتها تقريبا قد اصــبحت في يد صــلاح الدين ، والملك غي لوزنغنان اسير لدى المسلمين ، لان جزءا من هذا القســم « غ.ج » اعطت الحكاية نفسها كما هي موجودة في نقطة ابــكر ، في الموجز ، في حين ان الذيول الاخــرى اعطــت رواية اكمــل الا انهــا ليست باي طريقة رواية متناقضة في كل اجزائها (٣٥) .

ولاتتركنا هذه المقتطفات بالمرة في شــك حــول حضــور « x » على الاقل في بعض الحكاية التاريخية لما قبل سنة ١١٨٤ ، الموجودة في الموجز . ولم تستمد الذيول هذه الاقســام مبــاشرة مــن الموجــز واقحمتها في حكاية مصدرها المشترك ، لان لها دائما تقــريبا رواية

اكمل مما لدى الموجز نفسه . ونصيا يمكن للمرء فقط ان يفسر هـذه الاقسام في الموجز والذيول على انها تكيفات مختلفة لمصدر مشترك ، بين فيها كل نص معـالجته المميزة الخـاصة للمصـدر : الموجـز يلخص ، و« د » يحتفظ كما في رواية وصـول كونراد الى مشـارف عكا [٣٦] ، وتفسير موضوع الجرس الذي كان يتوقع سـماعه ، وهكذا دواليك . وباختصار ، ان هذه الاقسام الثلاث على الاقل لابد انها كانت في x وانه لمن المعقول تخمين ان بعض الباقي على الاقـل من المادة التاريخية الموجودة في الفصـول الافتتـاحية للمـوجز قـد استمد ايضا من x ، من قبل مصنف الموجز ، وفي الواقـع طـالما ان الحكاية تشكل كلا متجانسا بشكل ملحوظ في قسمه ، كما لاحـظنا من قبل ، وتؤدي بشكل مباشر الى داخل القسـم الذي يسـمى فيه ارنول دون اي انقطاع ملحـوظ او تغيير في التنقيح ، مـن المعقـول تأكيد انه ليس هذه المقتـطفات الثـلاث فقـط ، بـل كل الرواية التاريخية التي تنتهي اليها اتت من تاريخ ارنول .

وماذا بشـأن المادة الاخـرى في الفصـول التسـع الأولى ، أي الاوصاف الجغرافية والمستخلصات التوراتية ، والنقول بتصرف من يوسيفوس وايزودور ؟ وطالما انه يمكن فصلها بشـكل ملمـوس عن الحكاية التاريخية الأصلية ، لا يمكن بالضرورة افتراض أنها هـي ايضا أتت من x فقد استطاع مصنف الموجز بشكل جيد اقحامها في التاريخ ،ربما بقصـد اخـراج رواية أكثـر تنوعا ، مـع اغراء أوسع ، ولقد باتت حقيقة اقتطاعه لمصدره الى درجة كبيرة غالبا ما أضعفت الأهمية التـاريخية لعمله بشـكل كبير ، واضـحة بـدرجة كافية ، حتى أن القيمـة المعلومـاتية الصرفـة لعمله لم تـأخذ عنده اولوية على جاذبيته لجمهور عريض ، مثلمـا لدى المهتـم في أيامنا بالتأريخ للحروب الصليبية ، وفي حين أن التاريخ الصـحيح ينتمـي لارنول ، فإن الباقي يمكن أن ينتمي الى مصنف الموجز .

فهل كانت هذه هي الحال ؟ مهما يك من أمر إن المرء يتـوقع أن يجد أن حكاية الذيول الصحيحة كانت تاريخية صرفة ، وهذه ليست

الحالة ، وإن المادة غير التاريخية في الفصول التسعة الاولى من الموجز موجودة فقط بالطبع في ذلك النص ، ولكن كل القصص التوراتية التي جاءت في الموجز بعد جملة « وأرسلت ملكة طرابلس » وهي بركة سلوان ، وصوم اليشع ، وبناء سليمان للأمكنة المرتفعة وقصة بلعام موجودة في النيول الصحيحة أيضا [٣٧] وفي الواقع إن النيول أيضا تحوي قصة أخرى من النوع نفسه ، وهي قصة جدعون وهو منكب على جز الصوف [٣٨] ومرة أخرى كما هو في حال ما قبل ١١٨٤ من الاحداث الموجودة في كل من الموجز والنيول ، ليس هناك خلاف حول استعارة مصنفي الهرقليات هذه القصص مباشرة من الموجز ، لأن الهرقليات لديها مرة أخرى من روايات « أ ـ ب » و « د » اقتباسا أكثر دقة ، وعادة أكمل من العهد القديم أو من يوسيفوس مهما تكن الحالة ، مما لدى الموجز ومرة أخرى فإن التفسير الوحيد الممكن هو أن المصدرين نقلا واستفادا مستقلين من مصدر مشترك ، ومرة أخرى نحن مضطرون لاستنتاج أن الاقتباسات من يوسيفوس والتوراة الموجودة في كل من النيول والموجز كانت موجودة في × ، ومرة أخرى يمكننا أن نخمن أن المادة الاخرى من النوع نفسه الموجودة في الفصول التسعة الأولى من الموجز قد استمدها مصنف الموجز من القسم من × الذي أخذ منه مصنف الهرقليات فقط الخلاصات التاريخية الثلاث المذكورة اعلاه [٣٩] ، وطالما انه قد سبق لنا ان عرفنا × على انه تاريخ ارذول الاصلي ، يجب الآن أن نأخذ بالاعتبار كيف توصل أرذول لأن يعرف التوراة بمثل هذا التفصيل ، وأيضا أعمال يوسيفوس وايزودور .

وليس بالضرورة أن يكون قد عرف اللاتينية فغالبا ما توفرت شرائح مترجمة الى اللغة الدارجة من ايزودور ويوسيفوس في مصنفات تلك الفترة ، ولنأخذ على سبيل المثال عمل جاك دي فيتري وفيليب دي ثاؤون اللذان ورد ذكرهما من قبل ولكن طالما أنه ليس هناك بينة إيجابية على تكوين مثل هذا النص الذي كان يحوي بدقة النقول التي استخدمها أرذول ، فإن هذا الاحتمال يجب ان يبقى تخمينا ، ويجب أن نفترض حتى يمكن اثبات العكس ، أن أكثر

التفاسير وضوحها صحيح ، وأن استعارات من يوسيفوس وايزودور أتت من أصل لاتيني (٤٠) .

ومن أجل الذقول من الكتاب المقدس ، خاصة نصوص العهد القديم ، تتوفر لدينا اشارات أكثر تحديدا ، فكل أسفار العهد القديم التي استخدمها أرذول موجودة أيضا في الترجمة باللغة الدارجة المعروفة باسم توراة عكا ، وأقدم مخطوط لهذا النص هو « ارسنال ٥٢١١ » ، وقد أعد من أجل القديس لويس ويمكن أن تكون نسخ أقدم من النص نفسه ، أو على الأقل أجزاء منه كانت متداولة جيدا قبل هذا التاريخ ، وكانت عكا جغرافيا داخله بشكل محكم في مجال أرذول ، وطالما أن لدينا نصا باللغة الدارجة يوفر كل الأجزاء الصحيحة من العهد القديم ، في المكان الصحيح في نحو الزمن الصحيح سيكون من الخطأ افتراض أن أرذول بالضرورة قد استعمل الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس ، إلا أنه هذا يترك الذقول من العهد الجديد بحاجة الى تفسير ، وهنا مرة أخرى نتراجع الى التخمين ، ويمكن أن تكون جميعا قد جاءت من حياة المسيح ، وهذه شاع وجودها في تراجم التوراة الى اللغات الدارجة ، ولكن في هذه الحالة لا توجد بينة ايجابية حول توفر مثل هذا النص ، كما يوجد في حالة توراة عكا ، ويمكن أن نعتبره ممكننا تماما ، وحتى محتملا ، إنه لم يكن هناك شيء متوفر ، ولكننا لا يمكن أن نستبعد الاحتمال المعاكس ، أن أرذول أخذ مباشرة من الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس ، وطالما أن الأمر يبدو هكذا ان هناك على الأقل فرصة جيدة لأن يكون أرذول كان على معرفة باللاتينية ، ويجب أن نضيف هذه السمة لصورتنا العقلية عنه ، ويمكن بالطبع أنه كان لديه كاتب يدون ما يملي عليه ، ترجم له النصوص المناسبة ، ولكن يمكن بالدرجة نفسها أن يكون قد فعل ذلك بنفسه .

وبناء عليه رؤي بوضوح أن كل عنصر من الفصول الافتتاحية التسعة من الموجز غير خاص بهذه الفصول ، وكذلك الحال أيضا في بقية النص ، وفي مصنفات الهرقليات أيضا ، وليس هناك انقطاع

ملموس في نص الموجز بين الاجزاء المبكرة والمتأخرة ، وفي أقسام الجزء المبكر الذي يمكن أن نقارنه بالهرقليات لأن مصنفي الهرقليات قد نقلوا أقسام تتبع الجزء الابكر من مصدرهم المشترك × ، ويمكننا أن نلاحظ أن مصنف الموجز قد قام بثبات بتقطيع مصدره ، وحذف قطعا أحيانا (مثل قصة جدعون) ، ولكنه لم يضف مطلقا شيئا ماديا ، بقدر ما يمكن أن نرى ، ويجب أن نستنتج أن قسم ما قبل ١١٨٤ من × ممثل مع المحذوفات ولكن بدون إضافات بوساطة الفصول التسعة والنصف الأولى من الموجز كما حققه ماس لاتري ، حتى أنها بدات ، مثل الموجز بملخص سريع لتاريخ المملكة اللاتينية من تأسيسها الى أواخر القرن الثاني عشر ، وأنها حوت – وكذلك التاريخ الصحيح –الخليط نفسه من المادة المرتبطة ونصف المرتبطة مثل بداية الموجز ،وبكلمات أخرى نجد في الفصول التسعة الاولى من الموجز إخراجا مصغرا الجزء المبكر من تاريخ أرنول ، ومحتويات هذه الفصول إن لم تكن من عمل عالم فإنها على الاقل من عمل رجل واسع الاطلاع ، وهذا هو أرنول الذي وصفه فيليب دي نوفار بقوله :

'. . . messire Harneis et messire Guillaume de Rivet le joune, qui moult estoient grans plaideors(٤١)

والذي رآه ماس لاتري: . . . aussi apte, comme la plupart des chevaliers des Assises, a dicter un livre qu'à soutenir une discussion féodale(٤٢)

وتحديد هوية المصادر التي استعملها أرنول قد برهن على أن ماس لاتري مرة أخرى أنه متبصر حقيقي ، لأنه وضح لنا أن الكتاب الذي وضعه أرنول كان عملا أكثر علمية ، وأكثر أناقة ، وكل متماسك أكثر مما أمكن لماس لاتري – مع البينة التي توفرت له في زمانه احتمالا – أن يعرف وبالتفكير في المناسبة المفجعة في ١٢٣٢ حينما ترك أرنول متوليا لأمور قبرص فأظهر عدم كفاءة عسكرية بإخفاقة في تموين قلعة « رب الحب » وأوشك أن يتسبب في مقتله هو ، ومقتل أخوات الملك اللائي كن تحت

رعايته ، مما يجعلنا نستنتج بشكل جيد أنه كان في الواقع موهوبا بالعلم اكثر بكثير منه بميدان السيف (٤٣) ، وبالتأكيد إنه بين مؤلفي يومه يبرز ببراعته الخاصة .

وهكذا فإن تاريخ أرنول ، كعنصر بين الكثير ، يظهر من بين المواد الخام المصنفة لمختلف التواريخ الفرنسية لمجموعة وليم الصوري ، وبجمع القطع المختارة من كل جانب نستطيع في النهاية أن نعيد تركيب عمل أرنول ، وهو عمل مثقف بصورة غير متوقعة في مصادره ، إلا أنه في تصنيفه متحرر على نحو مرض من قيود التقاليد ، ويمكننا ان نلخص بنيته بإيجاز هكذا :

ـ البداية حتى ١١٨٥ : الفصول الثمانية الأولى ، من الفصل التاسع ، من الموجز كما تظهر في طبعة ماس لاتري ، حتى الكلمات 'li enfes fust d'eage' (م . ل ـ ص ١١٦) ولكن مخطوط القديس أومر ٧٢٢ (أوراق ٤ ظ ـ ٢٦ ظ) الذي لم يكن معروفا لماس لاتري ، يجب أن يستعمل مرجحا على أصله المخطوط (بروكسل ١١٤٢) وأيضا على المختارات الثلاثة المأخوذة من« x» من قبل مصنف الهرقليات وهي روايات أكمل من الاقسام المقابلة في الموجز ، التي لابد أنها أخذت من مخطوط ليون ٨٢٨

وتشكل هذه الاقسام في طبعة الاكاديمية الفصول ١١ ـ ١٦ و ٢٤و ٣٨و ٣٩ من الكتاب ٢٣

ـ ١١٨٥ ـ١١٩٧ : من جملة « وارسلت ملكة طرابلس » حتى نهاية الكتاب ٢٧ الفصل الخامس من طبعة الأكاديمية ، من مخطوط ليون مخطوط القديس أومر ٧٢٢ قبل رواية حصار بيت المقدس مباشرة (أوراق ٣٩ ـ وماياليها) يجب أن يضاف عند النقطة نفسها ، والاقسام التي سبق أخذها من المخطوط « د » وأعيد وضعها في ترتيبها الزمني الصحيح (أي ٢٣ ـ ١٦ ، ٣٤ ـ ٣٩) يجب حذفها بالطبع .

ويحتمل أيضا أن يتوجب على المرء أن يدخــل في إعادة التــركيب هذه في المواضــع الدوائمة الاقسام الواردة في تــاريخ بــلاد مــاوراء البحار والمتعلقـــة بحـــروب صـــلاح الدين ضـــد ملك النوبة (٤٤) فالبينات الموجودة حول النص الحــاوي لهــا وحــده توحي أنها كانت موجودة في « x » ولكن هناك بينة ادنى بكثير حولها مما حول بقية نص اعادة البناء ، وعليه لا يجب بالتأكيد أن تضــمن دون تحفظات على الاقل حتى يعرف المزيد عن تاريخ بــلاد مــاوراء البحار في المخطوطين الباقيين .

وما توصلنا اليه هكذا لايدعي بأنه حرفيا التــاريخ الذي وضــعه أرذول 'fist metre en escrit'. أو حتى «د» و هو اقــرب نص إلى تاريخ أرذول الاصلي ، مــا يزال تصــنيفا ، وإعادة اخــراج لأرذول وليس أرذول نفسه ، لكن أين هو اقترابه من الاصل اكبر واين هــو أقل لايمكننا القول ، و الذي يمكننا قــوله هــو أنه افضــل اخــراج متوفر ، ومثل هذا إن الموجز ، في الاقسام التــي يمــكن مقــارنتها بالذيول ، من الواضح أنهــا قــد اختصرت مصــــدرها x . بقـــدر كبير ، ويمكننا أن نستخلص بأن الفصول المبكرة الشائنة في الموجــز هي بالقدر نفسه من التأكيد خلاصة اكثر منها نســخة عن الفصــول المقابلة في « x » وهكذا إنها تزودنا بظل ، وليس بصــورة لهــذا القسم من «x» ولكنه مرة أخرى هــو افضــل إخــراج ، والوحيد في الواقع الذي لدينا في الوقت الراهن ، ويمكننا على الاقل ان نعــرف أنه مع أنها ليست مشابهة دقيقة إنهــا ليســت تحــريفا مشـــوها لها ، وإعادة بناء أرذول هذه باختصار لها حدودها ولكنها افضــل مايمكن أن نحصل عليه مطلقا ، مالم تكتشف مخطوطات جديدة تقدم ليس مجرد قراءات منوعة للنصوص الباقية الآن بل فروقا جذرية في التأليف ، وحتى مع هــذه التحفــظات القليلة ، بــات النص وبناؤه هكذا أخيرا ذا معنى بين التشــكيلة الكبيرة مــن ذيول تــاريخ وليم الصوري في الفترة الأولى هذه التي كانت ترى مــن قبــل على أنهــا مرتبطة بطريقة مشوشة وغير محددة ، والتي يمــكن أن تــرى الآن على أنها تستمد مباشرة أو غير مباشرة من نموذج أرذول الاصلي .

وما هو أكثر ، لدينا أخيرا في إعادة البناء هذه نص يلبي المهمة التي أعد المؤلف لها نفسه ، في الحملة الافتتاحية للموجز ، وقد اصبح شيئا شائعا في دراسات أرذول ملاحظة أن الكلمات الاستهلالية في الموجز ليست سوى بيانات دقيقة عما يحويه الكتاب : (٤٥) (والآن سأحدثكم كيف استولى المسلمون على أراضي القدس والصليب المقدس وهزموا المسيحيين »(مخطوط ز ورقة ٤ ظ)

ومن المسلم به أن عام ١١٨٧ شغل حيزا أكبر بكثير وكثير من أي سنة مفردة أخرى ، (٤٦) ولكن يبقى مضللا جدا أن نعلن أن هذه الأحداث كموضوع للموجز ، لأنه حتى في أقصر رواية من العمل ، تلك التي تنتهي في ١٢٢٧ ماتزال روايتها تشكل قسما واحدا فقط بين كثير ، وفي الواقع إن مصنف الموجز بعيدا عن أن يكون لديه سبب جيد لتلفيق هذه الافتتاحية غير الموائمة لا سيما من أجل تصنيفه الخاص ، ولعلها انزلقت انزلاقا لتدخل فيه وهي بلا شك قد نشلت جاهزة الصنع من مصدره ، من عمل كانت حقا موائمة له ، وكان يتعامل فقط مع الفترة التي تتعلق مباشرة بضياع بيت المقدس والصليب المقدس ، والتي بدأت والمملكة اللاتينية على مايبدو محكمة الرسوخ ، وانتهت بها وهي خراب ، ومن هذا العمل يأتي توجيه الفصول الافتتاحية للموجز نحو ضياع الأرض المقدسة وضمنها وصف جيرارد دي رد فورت .

'por che . . . que ce fu .i. de ciaus par coi la tiere fu perdue',

وذكر « للاغنية السياسية ضد الفرنجة البلديين كتصوير لانقسام المملكة على نفسها:« على الرغم من البلديين» . . . .
لدينا ملك من الوافدين

فإذا افترضنا أن التنظيم الجديد لـ « × » أعلاه هو تاريخ أرنول ، تكون كل هذه السمات للموجز والهرقليات معقولة ، ويكون لوصف المحتويات نص يشار إليه .

وبالقراءة خلال النص الذي ننسبناه الآن لارنول ظهر التأكيد على عائلة ابلين حتى أكثر وضوحا من ذي قبل ، وفي الواقع بدأ التاريخ يأخذ مظهر مايشبه مسوغ لسلوكهم في الفترة موضوع البحث ، ويمكن حتى أن يكون قد كتب هكذا بناء على طلب الابلينيين للدفاع عنهم ضد المشاعر السيئة والاتهامات الخاصة التي وجهت كثيرا ضدهم ، وارتبطت بهم أكثر بكثير من الارتباط بالوقت ، الذي بكل دقة فقدت فيه القدس مع الصليب المقدس فقد كان هناك أولا معارضتهم لغي ، وبعض الذين اتفقوا مع ارنول في أن المملكة سقطت لأنها كانت منقسمة على نفسها ، خالفوه مع ذلك ، في القاء اللوم على زمرة أكثر منه على الاخرى ، وكان هناك ايضا حقيقة أنه في حطين بينما أخذ هو وكثير من البارونات أسرى ، هرب بالين دي ابلين وريموند صاحب طرابلس إما بالحظ أو بالتخطيط ؟ ثم أدار بالين بنفسه المفاوضات مع صلاح الدين لتسليم بيت المقدس : لماذا بالحري ــ لم يصمد أمام المسلمين حتى النهاية المرة ؟ وكان بالين أيضا هو الذي وضع بنود معاهدة ١١٩٢ بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ، وهي معاهدة لايمكن لأحد أن يدعوها مواتية للمسيحيين بل إنها حوت بين بنودها الهدية الشخصية من صلاح الدين إلى بالين وهي قلعة الداروم ، وباختصار بينما كانت المملكة اللاتينية تتهاوى على مسمع منهم احتفظ الابلينيون لأنفسهم بوضع مأمون نسبيا ، وأولئك الذين خرجوا بحظ أقل كانوا أكثر من مستعدين لبيان الاسباب الاكثر وضوحا في الاختلاف ، ويمكن أن تكون هناك أسباب أخرى أجدر بالثناء ، ولكنها كانت أقل كثيرا جلاء بذاتها ، وكانت تحتاج لبيانها بصورة أوضح ، فما الذي حدث حقا في ١١٨٧ ؟ هذا بالضبط ما شرع أرنول في قوله لنا : « كيف استولى المسلمون على أراضي القدس والصليب المقدس وهزموا المسيحيين » ، وعرض هذه القصة من وجهة نظر الابلينيين تجيب ضمنيا على انتقادات الذين رأوا في الابلينيين أنذالا وليس أبطالا ، وهي تؤدي للابلينيين ما أداه قادة الحملة الصليبية الرابعة .

وينبغي أن يلاحظ أخيرا أن تاريخ أرنول هذا يجب أن يعترف به واحدا بين قلائل ، قلائل جدا من الأعمال الأدبية التي أنتجت في بلاد ما وراء البحار الفرنجية وكما بين رنسمان لم تسهم بلاد ماوراء البحار إجمالا إسهاما كبيرا في ثقافة الغرب ، وبين الاستثناءات تاريخي وليم الصوري وأرنول (٤٧) ، والآن إن عمل أرنول يمكن أن يفترض كشيء أسمى كثيرا من الموجز الذي كان يعزى إليه حتى الآن ، ربما يمكن لنا أن نأخذ نظرة أكثر تفاؤلا بصورة طفيفة جدا ، إلى حجم إسهامه ، فهو نوع من المنتجات الثانوية للاهتمام الباقي والشامل بالشؤون القانونية التي كانت تميز الفارس في الدول الصليبية ، وأدت إلى تجمع الكتلة الهائلة من الكتابات عن « قوانين بلاد ماوراء البحار » التي تعرف إجمالا باسم « مجموعة القدس » فإذا كانت مهنة أرنول كجندي أعطته مادة لتاريخه ، فقد كانت خبرته في المحاكم هي التي أعطته دون شك وسائل التعبير عنه ، وعليه فإن الثقافة الخاصة ببلاد ماوراء البحار بإصرارها على ربط هذين الاثنين قد أعطته خلفية فريدة لم يكن له أن يجدها في مكان آخر ، وتاريخه هو نتاج تلك الثقافة ، التي أعطته على الفور بصيرة أعظم في طبيعتها وتقديرا أكبر للجدارة الخاصة به ، ومنها في الحقيقة آثار قليلة باقية في نواح أخرى .

٢ ـ الموجز والذيول ، ١١٩٧ ـ ١٢٣١

وبناء عليه تعطينا الفصول المبكرة من الموجز رواية لأنواع بداية تاريخ أرنول . ويبقى الآن في تحليل الموجز ، توضيح الأبنية ، والمصادر إذا أمكن لبقية الموجز ، من عام ١١٩٨ حتى نهايته ، وهنا يمكننا مرة أخرى أن نأخذ بشكل مفيد الموجز والذيول معا ، والحقيقة كما سوف نرى ، أن بعض روايات الذيول تتعلق بأحكام الموجز في هذا القسم ١١٩٨ ـ ١٢٣١ حتى أنها وإياه يجب أن تعتبر بمثابة نص واحد .

ولكن الموجز والذيول ليست بأي حال كلا موحدا طيلة هذه

الفترة ، وفي الواقع إن هناك انقطاعا آخر في التنقيح ، وتحولا آخـر في العلاقات بين النصوص بالنسبة لبعضها بعضـا وهـو ملحـوظ بالضبط مثل ذلك التحول الذي أثبتناه في ١١٩٧ ، وهو يقسم الفترة ١١٩٨ ـ ١٢٣١ بوضوح إلى فترتين ،وخلافا لفـاصل ١١٩٧ على أي حال ، إنه لم يحدث ببساطة في سياق حكاية تبدت موحدة ومرتبة زمنيا ، وفي الواقع إن قسمي النص في هذه الحالة يتداخلان زمنيا ، وبكلمات أخرى ، إن الانقطاع في التنقيح في ١١٩٧ يمكن أن يلاحظ فقط بمقارنة بنية مختلف النصوص الواحد بالآخر ، ولكن الانقطاع الآخر ظاهر في أي نص مفرد بسبب أن الترتيب الزمني متتـابع ثـم يأخذ فجأة قفزة رجوعا إلى الوراء ثم يبدأ مرة أخرى وهكذا يتوفر لدينا مباشرة بعد القسم الذي يقوم على أرنول وينتهـي في ١١٩٧ ، الذي انتهينا للتو من تحليل حكايته ، مـع أنهـا تـذكر أحـداثا في القسطنطينية متأخرة حتى ١٢٢٨ ، وتغطي بشكل أسـاسي الفتـرة ١١٩٨ ـ ١٢١٦ ، التي تنتهي بوفاة أوتو الرابع وانتخاب فريدريك الثاني امبراطورا ، ثم تبدأ الحكاية مرة أخـرى في ١٢٠٥ وتسـتمر مرة أخرى في ترتيب زمني إلى ١٢٣١ والعلاقات بين النصـوص في هذين القسمين تختلف كليا ، وسـوف ندرس كلا منهـا على حـدة بدوره .

والقسم الاول من الحكاية ، الذي يلي مباشرة بعد نهـاية أرنول ويمتد في مصنف راشيل من ٢٧ / ٦ إلى ٣٠ / ١٠ (٤٨) بسـيط نسبيا في تركيبه وتغطي النصوص كلها الاحداث نفسها : مملكة بيت المقدس في عهد عموري ، والأحـداث المعـاصرة في الامبـراطوريتين البيزنطية والرومانية حتى ١٢٢٨ و١٢١٦ كل على حـدة والمعـارك الأخيرة لريتشـارد قلب الاسـد ، والحملة الصـليبية الرابعـة ، والاستثناء الوحيد من هذا الاتفاق العام بين النصوص يحـدث عند بداية القسـم الذي يقحـم فيه « س ج » و « غ ج » و « د » كمية معينة من المادة حول أرمينية (٤٩) . التي سبق أن أعطيت من قبـل « أ ـ ب » في صـورة أقصر ومختلفـة قليلا ، بمـا فيه عند ٢٧ / ٢٥ ـ ٧ ، وتقريبا كل الاحداث المحلية في هذه الفقـرات قـد

سبقت روايتها من قبل « د » (٥٠) في صور أكمل كثيرا ، حيث فيها هذه الرواية الثانية مجرد تلخيص واضح تماما وبدقة ، وبكلمات أخرى إن هذه المادة كانت في الحقيقة موجودة في × وحوفظ عليها من قبل « د » فيما يمكن أن يفترض أنه كان مكانها الاصلي في قسم ماقبل ١١٩٧ من تاريخه ، ولكنها على مايبدو قد اختصرت من قبل × الذي انتقلت منه مع البقية إلى « أ ـ ب » وأيضا مع أن ذلك كان لدى نقطة مختلفة ـ إلى « ي » ومن ثم إلى « س ج » و « غ ج » (٥١) والشيء المهم هو بالطبع أنها وجدت بطريقة ما طريقها إلى « د » هو نص الفترة التي تنتهي في ١١٩٧ ، أو غير معتمد على « ز × » وسبب ذلك واضح : بعد ١١٩٧ عندما يتوقف « × » ويأخذ « د » مصدرا جديدا ، وذلك المصدر هو « ي » الذي كان كل من « س.ج » و« غ.ج » يستمدان منه باستمرار ، ومتبعا هذا المصدر مع النقص المعتاد في مقدرته على تصنيف نص حقيقي متماسك ، ينسخ « د » بشكل اعمى هذه الاقسام عن ارمينية ، غافلا عن حقيقة انها ليست اكثر من رواية متدنية لجزء ابكر من نصه .

وبصرف النظر عن هذا التنوع ، هناك فقط فقرتان قصيرتان اخريان ، حيث ليس هناك اي تباعد بين مختلف النصوص ، وتغطي الاولى الاستيلاء على جبلة وبيروت ومحاولة اغتيال عموري (٥٢) وهنا يعطي « س.ج » و« غ.ج » و« د » والموجز بشكل اساسي الرواية مثل « ا ـ ب » ولكن بصورة موجزة جدا وترتيب الاحداث معكوس ؛ والفقرة الثانية ، رواية محاولة ختن تانكرد ، غوتيير دي برين .اعادة الاستيلاء على ابوليا (٥٣) . ، وهي حالة صريحة لاختصار قاس من قبل « س.ج » و« غ.ج » و« د » والموجز للنص الذي اعطي في « ا ـ ب » ، ومن اجل بقية قسم ١١٩٨ ـ ١٢١٦ فان كل النصوص تغطي الرواية نفسها ، مغطية الحملة الصليبية الرابعة والاحداث في الامبراطورية البيزنطية حتى ١٢٢٨ ، التي وصفت على شكل مقتطفات ، ورواية اكثر شمولا عن الامبراطورية الرومانية المقدسة من عام ١٢٠٨ الى ١٢١٦ ، وهنا بعد وفاة

اوتو الرابع وانتخاب فريدريك الثاني ، يقدم انقطاع طبيعي نفسه :

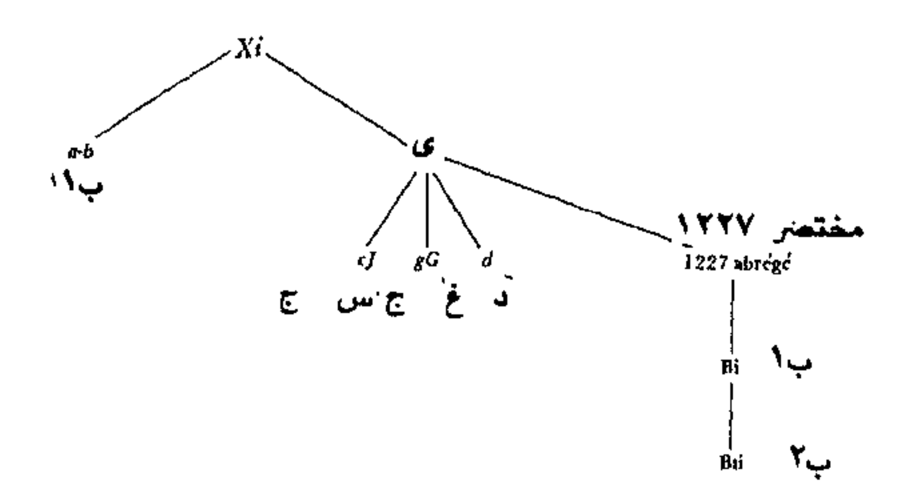
'Ci endreit dist li contes que il vos laira a parler dou roi Fedric d'Alemaigne . . . si dirons de la terre de Jerusalem.(٥٤)

والترتيب الزمني لكل الحكايات متعاقبا بشكل معقول ، وقد توقف فجاة فقط بسبب انقطاع في مادة الموضوع ، وقفز الان من ١٢١٦ رجوعا مباشرة الى ١٢٠٥ حيث بدأت الحكاية من جديد بوفاة عموري .

وبالنسبة للقسم الاول التي انتهى عند هذا التحول المفاجىء في الترتيب الزمني ليس هناك مزيد كبير ليقال حول الموضوع وعلاقة النصوص ببعضها بعضا ، وكما اصبح واضحا في وصف محتويات هذا القسم فان جميع النصوص لها مصدر واحد مشترك مع وسيطين ، « ا ــ ب» إستمدا من الأول ، وكل النصوص الاخرى س.ج »و« غ.ج » و« د » والموجز من الاخر ، وليس الوسيطان في الواقع مختلفين كثيرا الواحد عن الاخر ولاتوجد مادة في اي منهما غير موجودة ايضا في مكان ما من النصوص التي يتعمد الواحد منها على الاخر ، والاخرى انها تختلف فقط في ان المصدر الوحيد « س.ج » و« غ.ج » و« د » والموجز يحوي مادة تمت معالجتها في وقت ابكر في « اــ ب » وتلخص فقرتين لدى « ا.ب » صورة اكمل منهما (٥٥) .

وهكذا فان المخطط لهذا القسم من الذيول لايختلف كثيرا عن ذلك الذي سبق اعطاؤه (٥٦) القسم المنتهي في ١١٩٧ والاختلافان هما ان « × » ، التاريخ الاصلي لارنول المنتهي في ١١٩٧ لم يعد يظهر بالمرة و« د » الذي كان حتى ١١٩٧ معتمدا مباشرة على « × » يرى الان انه معتمد على « ي » وهكذا ارتبط باحكام بـ« س . ج »و« غ .ج »وبالموجز ، وعلاقات النصوص ببعضها بعضا:القسم ١١٩٨ ــ ١٢١٦ / ١٢٢٨ التي تغطي من تاريخ

هرقل ٢٧ / ٦ الى ٣٠ / ١٠ ضمنا ، يمكن بناء عليه ان تعرض كما يلي



ومن اجل الجزء الباقي من النيول الذي يأتي ضمن موضوع هذه الدراسة ، اي الحكاية التي تبدأ في ١٢٠٥ «هــرقل ٣٠ / ١١ » وتنتهي في ١٢٣١ لايمكن العثور على مثل هذا التفسير البسيط ويقدم النص سمات هامة سواء من وجهة النظر التاريخية او النصية ، وتتطلب فحصا ادق واكثر دقة مما تطلبه قسم ١١٩٨ ـ ١٢١٦ وشيء واحد يمكن ان يقال عن حكاية ١٢٠٥ / ١٢٢٩ / ٣١ عند الاستهلال ، وذلك هو ان هناك في الاساس روايتان في هذا القسم واحدة في « ا.ب » والاخرى في كل النصوص الاخرى (س.ج ، غ.ج ، د د) والموجز وكلها تتفق بدقة كبيرة في كل اجزائها والتي يمكنها في الواقع ان تعتبر تماما انها تحوي نصا واحدا من ١٢٠٥ الى ١٢٢٧ حيث تنتهي اقصر رواية للموجز ،

وافضل طريقة موائمة لتحليل هذا الجزء من النيول بناء عليه هي النظر الى علاقة رواية ال « ا.ب » بروايات النصوص الاخرى .

وتمت معالجة اربعة موضوعات رئيسية في « ا.ب » هي : جين دي برن ، وفريدريك الثاني سواء مستقلين او في تعاملهما مع بعضهما ، وحرب فريدريك ضد قبرص ، والعلاقات بين ارمينية وامارة انطاكية ، وحصار دمياط ، ولأن كل واحدة من هؤلاء علاقة « ا.ب » بالرواية الاخرى مختلفة ، والحرب الامبراطورية ـ القبرصية محذوفة تماما من قبل « س.ج » و« غ.ج » و« د » الخ مثل القسم القصير حول ارمينية ، الذي على كل حال اخذ في « ا.ب » مظهرا كليا على انه مقحم في الجسم الرئيسي من النص ، وتختلف الروايتان كليا في روايتهما لحصار دمياط ، والتماثل الوحيد بينهما في الحقائق الاساسية ، وحتى هذا كثيرا مايكون بعيدا عن الوضوح ، ومن اجل الحكاية المتعلقة بجين دي برن وفريدريك مع ذلك فان الحالة معقدة اكثر كثيرا ، والحكايتان غير متماثلتين عند النظرة الاولى ، ولكن التحري الدقيق يظهر ان مادتهما ـ وان لم يكن ليس طريقتهما في شرحهما ـ متماثلة جدا في الواقع ، والفقرة التالية هي مثال نموذجي :

أ ب

Li rois Johans se parti de France et s'en ala en Espaigne en pelerinage a mon seignor Saint Jaque. Et quant il ot fait son pelerinage, si ala voir le roi de Castele, qui moult li fist grant onor, et li dona de beaus dons, et en la fin se acorderent a ce que li rois Johans esposa une suer dou roi de Castele et s'en revint o tout lui en France. Quant il fu venus ne tarsa gaires que li rois Phelipes acocha au lit de mort, si que il fist sa devise et laissa a la Sainte Terre C L mile mars d'argent, les L mile [illegible] Johan, et les L mile en la main dou Temple, et les L mile en la main de l'Ospital; et moult de autres aumosnes fist en sa devise beles et granz. Ensi trespassa li bons rois Phelipes qui longuement et honorrement avoit vescu. Ne tarsa guerres apres que ses fiz Loys fu coronez a Rains hautement et a grant honor.

المختصر (س ج وغ ج و د متماثلة)

Ne demoura gaires puisque li rois Jehans fu en France que li rois Phelipes morut. Si laissa grant avoir al roi Jehan, et grant avoir a envoier en le tiere d'Outremer. Li rois Jehans fu a Sainte Denise a l'enfouir le roi Phelipe. Apres si fu au coroner le roi Loey sen fil a Rains. Puis prist congié en France, si s'en ala a Saint Jakme. Al revenir k'il faisoit de Saint Jakme fu li rois d'Espagne a l'encontre a Burs, qui grant honor li avoit faite en [illegible] li dona [illegible] rois a feme une sereur qu'il avoit, si l'espousa et grant avoir li donna.

Quant li rois Jehans ot espousee se feme si prist congié si s'en ala en France. Quant il ot esté une piece en France si prist congié al roi Loey et as barons si dist qu'il l'en estovoit raler, que li emperere l'atendoit en

Puille por passer mer et por se fille espouser. Il s'en ala, et erra tant qu'il vint en Puille a l'empereur.(٥٧)

Et quant li rois Johans sot que li termes aprochoit dou mariage de sa fille et de l'empereor, il s'en vint en Puille (٥٨)

لدينا هنا في الاســـــاس الاحـــداث المروية نفســـــها في كل حالة : وفاة فيليب اغسطس وتتويج ابنه لويس الثـامن ، واســفار جين دي بريين في فرنسا واســـبانيا حـــوالي زمـــــن هــــنه الاحداث ، وزواجه من برنغاريا الكاستيلية ، وترتيب الاحداث مــع ذلك مختلف تماما ، ويختلف الاختيار ايضا بـدرجة طفيفـة ، فعلى سبيل المثال فإن الموجز والذيول متفقــان معهــا عند هــذه النقــطة لايذكرون بنود وصية فيليب اغسطس ، ولكنهــم مــن جــانب آخــر يصفون بايجاز (تماما قبل الخلاصة المقتبسة) زيارة جين البلاط الانكليزي وهي محذوفة من قبــل « أ ـ ب » ولكن ليس هناك عدم اتفاق كبير في الواقع بين الروايتين ، وفي هذا ايضــا فــان الفقــرة المقتبسة نموذجية في أن الروايتين تختلفان فقط حول ما اذا مــاكان جين دي بريين قد زار اســـبانيا قبــل أو بعـــد وفــــاة فيليب اغسطس ، واذا مــاكان قـــد ذهـــب الى بـــورغوس لرؤية ملك كاستيل ، ام أن الملك قد جاء خصيصا لقائه وكلتــا النقــطتين غير حيويتين بـــــالنسبة لســــياق الحــــكاية ولتفســــير المؤرخ للأحداث ، والتعارض الكبير في الواقــع بين الروايات في معــالجتها الكلية لموضوع جين دي بريين وفيردريك ، هـو الباعث الذي يعــزونه لفريدريك لعدم ابحاره في برنديزي مع اسطوله ، فإحداهـا تــؤكد انه كان مريضا ، والاخرى تراها كقطعة من التحايل ، ولهذا النوع من الاختلاف حلقة مألوفة ، وهـو مثــل آخــر للتخمين التـــافه بعــــد الاحداث ، ويعود الى زمرة حكاية البواعث المعزوة الى قــزم هنري دي شامبين للسقوط أو ربما كما قيل الى القاء نفسه مــن النافــذة ذات الحاجز أو بدون حاجز ، (٥٩) ومثل هذه الفروق الصــغيرة لاتحاجج بأي طريقة ضد مصدر نهائي مشترك للروايتين ، وانمــا تدل فقط على وسيط مشترك لتلك النصــوص يتفــق بــدقة مــع كل منهمــا (أعني « س ج » و « غ ج » و « د » والموجـــز ، وفي الواقع إن جميع التمــاثل والاختــلاف الموجـودين بين رواياتهـــا

ورواية « أ ــ ب » هو الشيء نفسه بالضبط مثل ذلك الملاحظ من قبل من مدونات قسم ١١٩٨ ــ ١٢١٦ فيما يتعلق بأخذ بيروت وجبلة ، ومحاولة اغتيال أمالرك (٦٠) ، والمخطط (٦١) الذي يشرح العلاقة بين الروايتين في هذا القسم مفيد أيضا لروايتهم عن جين دي بريين وفريدريك في هذا القسم الأخير أعني الحرب الامبراطورية مع قبرص ، ومعاملات أرمينية مع انطاكية ، وحصار دمياط . و من أجل هذه الأجزاء من قسم ١٢٠٥ ــ ١٢٢٧ كما سبق أن لاحظنا (٦٢) لاتعطى الروايات بينة على كونهما مرتبطتان ببعضهما بالمرة .

ويبقى هناك مشكلة واحدة صعبة ، وهي تتعلق بالنهاية بالقسم ١١٢٠ ــ ١٢٢٧ من النيول ، وهذه واحدة صعبة ، وهي تتعلق بالنهاية ذاتها لهذا القسم من النصوص ، التي كما يمكن أن يستخلص ناجمة ببساطة من الصعوبة في تقريرها نهاية للتأريخ للفقرة (١٢٢٧ ؟ ١٢٢٩ ؟ ١٢٣١ ؟) المتباينة في مختلف النصوص ، والوصف المفصل بشكل جيد لمحتويات مختلف النصوص في هذا القسم وفواصل التنقيح الملحوظة فيها ضرورية اذا كان لدلالتها أن تصبح واضحة (٦٣)

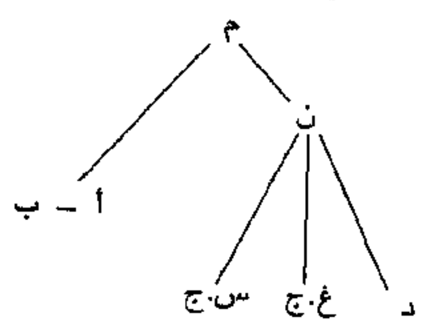
ولتلخيص الحالة بإيجاز : إن نصوص « س ج » و « غ ج » و « د » كانت على اتفاق محكم وقد أظهرت في الواقع العملي نصا واحدا منذ وفاة أمالرك عام ١٢٠٥ مبتدئة في ٣٠ ــ ١١ في راشيل (٦٤) وأعطي هذا النص نفسه أيضا في الموجز ، مبتدئا في الفصل ٣٥ من طبعة ماس لاتري ، (٦٥) والاتفاق بين « س ج » و « غ ج » و « د » والموجز يستمر حتى نهاية أطول رواية في الموجز وهي « ب ٢ » هذا وعالجت الفقرة الأخيرة من النص الكامل كما نشره ماس لاتري ميثاق سان جرمانو وغفران فريدريك الثاني (٩ تموز و ٢٨ آب ١٢٣٠) ، وفي الفصل الأخير من برنارد ، والفقرات المقابلة في النيول ، العروض المقدمة الى جين بريين من قبل المواطنين المكروبين في القسطنطينية ، وتردده في

قبول دعوتهم ، وأخيرا رحلته الى هناك وتزويج ابنتـه للامبـراطور الطفل بلدوين الثاني (أيلول ١٢٣١) ووعد السـيادة الشـخصية لجين نفسه مدى حياته ، وفي راشـيل (٦٦) ينهـي هـذا التنوع الطـويل في « س ج » و « غ ج » و « د » ، وفي الواقـع ان رواية «س ج» ، مثـــل الموجـــز تتــــــــوقف هنا ولكن «غ ج» و « د » تمضيان في أخذ النصف نفسه مثـل « أ ــ ب » عند ٣٣ ١٣ ، ومع أن هذا يشـغلهم بـالتكرار في ٣٣ ١٤ ١٥ ، فـان معظم المادة التي أعطوها لتوهم هي حياة جين دي بريين السياسية الجديدة في الامبراطورية البيزنطية ، وبكلمات أخـرى هناك نسـخ طبق الأصل واضح ، من نوع يوحـي بـدين شـك بـوجود تغيير في المصدر من قبل مصنفي « غ ج » و « د » .

وبنية أخرى عن الفـاصل الواضـح مـن النصـــوص بين ٣٣ ١٢ و ٣٣ ١٣ تعطيها عائلة من المخطوطات ، تقـع بشـكل عام خارج اعتبارنا ، ولكن بامكانها أن تـوضح عند هـذه النقـطة بنية النصوص التي نحن معنيون بها ، وهي العائلة التـي تحـوي النيل المعروف بـــاسم روثلين وهـــو نص ســـبق لنا وصـــفه بإيجاز (٦٧) وهـو مختلف كليا عن كل النيول الاخـرى ، وعدا الأوصاف الجغرافية التـــي يضـــمها إنه غير مـــرتبط تمـــاما بها ، والنقطة انه يبدأ في المخطوطات التي تحتوي عليه بالضبط عند هذه النقطة ، بعد نهاية ٣٣ ١٢ وعليه هناك نيل واحـد مشـطور بين عائلة روثلين و « أ ــ ب » ينتهي عند ٣٣ ١٢ وبعده يبدأ نص روثلين النيل الخاص به والمتميز عن كل النصوص الأخرى ، بينمـا يبـدأ كل مـن « ب » و « غ ـج» و « د » عند ٣٣ ١٣ نيلا جديدا ، وفي « ب » يتابع هذا من النص المتقدم بشكل مقبول ، وفي الواقع انه يمكن أن يكون قد كيف لهذه الغاية ، أو على الأقل تكيف بشكل شامل من قبل المصنف ، ولكنه في « غ ج » و « د » يتـابع بشكل سيء جدا .

والآن عندما نأتـــي لننظـــر الى قســـم «د» الذي ينتهـــي

في ٣٣ ـ ١٢ (٦٨) نرى مباشرة أن نهايته بالذات تشبه معالجة الاحداث نفسها من قبل « س ج » و « غ ج » و « د » والموجز بالطريقة الغامضة نفسها التي لاتنكر مع ذلك ، مثل بقية رواياتهم عن فريدريك وجين دي بريين ، حتى أنها في الواقع احد أجزاء « أ ـ ب » التي استمدت من المصدر المشترك مع النيول الأخرى ، والموجز ، وليست احد الأقسام غير المرتبطة بالمرة ، والعلاقة بين النصوص من أجل روايتها عن جين وفريدريك هي كما سبق أن راينا ، (٦٩) تلك نفسها التي بين النصوص للفترة ١١٩٨ ـ ١٢١٦ ـ ١٢٢٨ ويمكن أن تمثل بالمخطط نفسه مع أنه من الضروري استعمال حروف مختلفة المصدر المشترك غير المعرف ، ومن أجل النص الوسيط المفترض ، ومن أجل تفادي الانطباع بأن الوثائق نفسها كانت بالضرورة مشتركة في كل حالة ، وعليه من أجل الموضوع محل البحث وليس غيره ، في القسم ١٢٠٥ ـ ١٢٢٧ ١٢٢٩ / ١٢٣١ من النيول ، يمكن أن نمثل اشتقاق المادة التي تشترك فيها هكذا :



يجب الآن أن نأخذ في الاعتبار حقيقة أخرى حول مضمون ٣٣ / ١٢ في نص « أ ب » ، أعني النقطة التى عندها ينتهي ، طالما اننا قد سبق أن ثبتنا أن هذه كانت نهاية مصد نصي ، المصدر الذي كان مشتركا بين « أـ ب » وعائلة روثلين ، وينتهي النص هكذا :

: 'Dont il avint puis que des princes d'Alemaigne, li patriarches d'Aquilée, et li arcevesques de Sausebore, et le duc d'Osteriche, et le duc de Merain, et moult d'autres hauz homes vindrent a Rome et firent la pais, par quoi li empereres fu tsot. Et y ot plusors covenances en cele pais. (٧٠)

والمدهش ، أنه عند هذه النقطة بالضبط ، أن ببيذو يخبـرنا أن مخطوطه عن برنارد قد انتهى ، وفي الواقع إن كلماته الأخيرة قبـل الملاحظة على برنارد تعبر مع أنها كما هي عادته ، أكثر إيجازا عن المعلومات نفسها بالضبط :

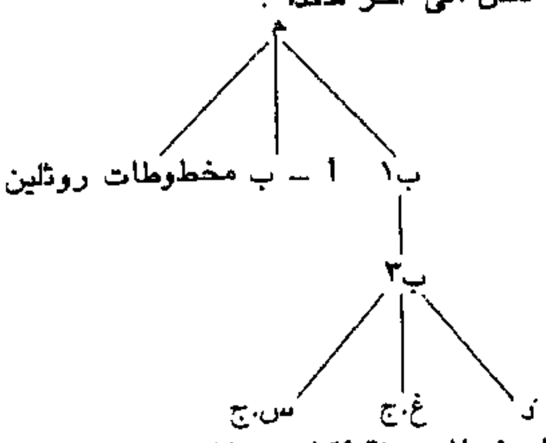
'Interim Dux Austriae inter Papam et Imperatorem pacem composuit, et sic tunc imminens cessavit quassatio Haec de gestis Regis Johannis sumta sunt ex Historia Bernardi Thesaurarii Qualis autem fuerit exitus non inveni, vel quod Historiam non compleverit, vel quod codex, unde sumsi, fuit imperfectus. (٧١)

وكما اثبتنا من قبل لم يكن مخطوط ببيذو كاملا ، والاحـرى أنه كان نسخة من أول تنقيح أجراه برنارد على تاريخه ، وقد أسـمينا النص المفقود «ب ـا » ، وعليه فإن الصورة التي تبـدأ في الظهـور هي هذه : النص المعـطى مـن قبـل « س ج » و « ع ج » و « د » للفترة ١٢٠٥ ـ ١٢٣١ هـو بـالضبط نص أطـول رواية مـن الموجـز ـ ب ٢ ـ النص الذي نشره مـاس لاتـري ، ولهـذا النص ، بـالقدر الذي يتعلق بجين دي بـريين وفـريدريك الثاني ، يحمل له نص « أ ـ ب » تماثل ، مع أن وجـوده لا يمـكن إنكاره ، هو مميز ومتنوع ، ساعة قريب ، وساعة باهت ، ويوحي بقرابة بعيدة بين النصين كما هو ممثل في المخطط على صفحة ١٤٥ وعندما تعالج الذيول أي موضوع آخر ـ مثلا الحرب الامبـراطورية ضد قبرص أو حصار دمياط ـ تبدوان كأنهما مستقلتان تماما وغير مرتبطتين ، ويبقى هذا صحيحا حتى عندما يكون هناك تحول سريع من موضوع الى آخر ، وعليه يجب أن نستنتج أن مصدرها المشترك « م » في المخطط ، كان وثيقـة متعلقـة حصرا بـالتعامل بين جين وفريدريك وأنها انتهت ، كما نستطيع أن نخمـن مـن تغيير التنقيح من نصوص « أ ـ ب » وروثلين ومن التداخل في « غ ج » و « د » في اب ١٢٣٠ ، النقطة التي عندها يخبرنا ببيذو أن « ب » قـد انتهـى أيضـا . ولكن « ن » النص الوسـيط الذي أخـذ عنه « س ج » و

« غ ج » و « د » للموضوع نفسه ، يتابع بدون انقطاع ملحوظ خلال أيلول ١٢٣١ .

وجواب النص واضح الآن وفي وصف « م » و« ن » ووصفنا بدقة في الواقع روايات جين دي بريين وفريدريك بأنها موجودة في « ب » كما نعرف من ببيذو ، وفي « ب٢ » كما هو باق في الوقت الحاضر ، هل هو إذا صحيح أن نص « م » هو« ب » و« ن » هو « ب »؟ ، وهذا للمبالغة بالتبسيط ، إذ بينما لا معارضة هناك في تشبيه « ب ٢ » بذاته ب« ن » فإن كل البينات في الواقع تؤيد ذلك ، و« ب » فقط يشبه « م » لأن المادة حول هذا الموضوع واحدة ولا شيء آخر ، وهكذا يبدو أن « م » كان حريا به أن يكون المصدر الذي أخذ عنه برنارد ، عند تصنيف « ب » ، من أجل المعلومات حول جين وفريدريك التي أخذ عنها أيضا ، للغرض نفسه من قبل مصنفي « أ ــ ب » والنصوص التي بعد ٣٣ / ١٣ تنحرف في تكمله روثلين ، وهذا الجواب يفسر كل الحقائق التي يمكن ملاحظتها : الطبيعة الغامضة للتشابه بين الروايتين ، الطريقة التي يختلف بها التوافق في هذا الموضوع ، بالاستقلال التام في كل المواضيع الأخرى ، وتبدل التنقيح عند ٣٣ / ١٣ في «أ ــ ب » وذيل روثلين ، وغياب مثل هذا التغيير عند هذه النقطة مع التكرار الثاني للمعلومات ، في ع ج و « د » كان الوسيط « م » هو « ب » وكان المصدر المشترك لكل الذيول « م » ، وبدقة كانت تتعامل مع موضوع واحد فقط انتهى في آب ١٢٣٠ ، وهو الذي خلطه مختلف المصنفين بما فيهم برنارد بمواد الموضوعات الأخرى ، وهي ربما من مصادر أخرى ، أو ربما مكتوبة من قبلهم هم أنفسهم ، ليخرجوا الى محصلة واحدة هي أن الذيول التي لدينا الآن للفترة ١٢٠٥ ــ ١٢٢٧ في رواية « أ ــ ب » ومخطوطات روثلين ، وفي الآخر أي نص « ب » المفقود ، المعروف لدى ببيذو ، وهذا الأخير قد وسع بالتالي من قبل برنارد الى ١٢٣١ مشكلا النص الذي نعرفه على أنه تاريخه « ب » ومن هذا استمد مصنفو روايات الهرقليات الموجودة في « س ج » و« د » لكامل الفترة ١٢٠٥ ــ ١٢٣١ .

وعليه من أجـــل تـــــاريخ جين دي بـــــــريين وفـــــــريدريك الثاني ، والغفران لفريدريك في آب ۱۲۳۰ ، يمكن أن نصور انتقال المعلومات من نص الى اخر هكذا :



وتوضح لنا هذه المعـرفة أكثـر ، كلا مـن البنية في تلك الفتـرة الذيول ، وأيضا المصادر ، وتركيب تاريخ برنارد ، والطـرق التـي استعملها في تصنيف روايته ونحن واثقون الآن أنه من أجل تـاريخ جين دي بريين وفـريدريك ، حتـى آب ۱۲۳۰ ، كان لديه مصـدر مكتوب ــ م ــ وبالقدر نفسه يبدو واضحا أنه بعد هذه النقطة باتت مادته أصلية ، ومازلنا لا نعرف بالطبع من أين جاء هو أو بالاحرى مصنف موجز ۱۲۲۷ ، ببقية المادة للفترة ۱۲۰٥ ــ ۱۲۲۷ ، أو إذا ما وجد نصا مكتوبا بالمرة ، ومرة أخـرى واضـح الآن أن تـاريخ برنارد ، في تنقيحه الثاني ، عمل كمصدر لنص تاريخ هـرقل الوارد في روايات « س ج » و« غ ج » و « د » على الأقل من أجل الفتـرة التي تسبق مباشرة ۱۲۳۱ ، والأكثر احتمـالا ، بحـكم استمرار نصوصها من ۱۲۰٥ الى ۱۲۳۱ ، مـن أجـل كامـل هـــذا القسم ، وبكلمات أخرى ليس ببينو في الواقع أول مـؤرخ يسـتعمل عمل برنارد كمصدر ، فقبل أن يكتب بزمن طويل استخدم ثلاثة مـن مصنفي الهرقليات بالفعل جزءا جوهريا من تاريخ برنارد كجزء مـن عمل أكبر ، وبتكليف أقل كثيرا ممـا وجـد ببينيو فيمـا بعـد أنه مرغوب ، وأقدم مصنفي الهرقليات . هو الرجـل الذي أنتـج رواية «س ج» التي تنتهي في ۱۲۳۱ ويمكن أن يكون قد عمل بعـد وقـت

قصير نسبيا بعد برنارد ، وإجمالا يبدو مع ذلك ، كما يجب أن نقر ، أن برنارد لم يكن أصليا بوجه الاجمال وكانت مقدرته على تصنيف تاريخ متماسك ، وهام ، ومفيد اعتمادا على انتاج أناس أخرين ، هائلة . وموهبته ، وقيمة عمله ، كان معترفا بها كما يبدو بسرعة جيدة من قبل مصنفين آخرين ، وهم الذين حكموا بأنه جدير بأن يشكل قسما من المصنف الذي استمد أيضا من التاريخ الهائل القيمة لشاهد العيان أرنول والذي امتدت بداياته الى مؤلف ليس أقل قيمة ومكانة من وليم الصوري نفسه .

الفصل التاسع

مكانة النيول في الادب الفرنسي القديم

من دراسة الفرع الاول من النيول والتواريخ المرتبطة به ، كأدب ، ومن محاولة لاصدار اي نوع من الحكم الادبي عليه ، نواجه على الفور بعدد من الصعوبات ، والصعوبة الرئيسة اننا هنا لانتعامل مع مؤلف واحد ،لديه هدف واضح تقريبا من الكتابة ،يمكن الحكم عليه بالمدى الذي توصل اليه في بلوغ هذا الهدف ، ولانقدم نحن عرضا ملموسا لنوع أدبي خاص ، له معاييره الخاصة ، المتصلبة أو المرنة كما هي الحالة لنقل : مع تراجيديا كلاسيكية ، ولانحن حتى نتعامل مع عمل قصصي خيالي ، يرى بسهولة أكثر من قبل النقاد الحديثيين على انه فن أكثر منه كتلة مواد قدمتها احداث حقيقية ، او على الاقل اتت من أحداث يزعم انها حقيقية ، وماعندنا في هذه التواريخ هو كتل من الكتابات ذات المضمون المتنوع ، مرت عبر ايادي كثير من الكتاب ذوي الاعراض المختلفة ، والنظرات المتباينة نحو مهامها والطرق المتعددة لانجازها ، وواضح ان اي جدارة ادبية يمكن ان تتوافر في هذا الخليط يمكن فقط احتمالا ان تكون خاصة بالقطع المتفردة ، اذ ان الكل هو على الاكثر ناتج عن المصادفة اكثر منه عن التصميم .

حتى ولو قررنا ان نأخذ كل عنصر من التواريخ على حدة بقدر الامكان ، فان مهمتنا ماتزال غير واضحة المعالم . ان نعتبر انه من الادب بالمرة جنسا هو المقام الاول اخباري اكثر منه تزييني ، اجراء صلاحيته هي احيانا موضع جدل .

فرو داف برومر مثلا في استعراض للنثر القصصي القديم ، استبعد عامدا كل التواريخ من دراسته من بدايتها .

'da es sich bei ihr nicht um erzahlende Prosa*dichtung* handelt, sondern um eine Gattung, die der wissenschaftlichen Darstellung nahekommt. Abei es gibt auch Grenzfalle . '(١)

وعلى الرغم من هذا الوصف الاخير ، مع ذلك لم يقر بـرومر كحالات جانبية أيا من النصوص التي هي موضوعنا ، مع ان اثنين منها على الاقل ، الوجز وتاريخ بلاد ماوراء البحار ، لديهما ادعاءات غير قابلة للتغيير لهذا الوصف ، اذ يحتويان على نسب عالية جدا من التوجهات الادبية ، وهما ليس حقيقة كتابة تاريخية حرفية وبالطريقة نفسها ان للنيول كلمة *wissenschaftlich* ، وهي اخر كلمة يمكن للمرء ان يستعملها لوصفها .

وعلى اسس اكثر عمومية ايضا ، يمكن للمرء ان يجادل استبعاد حتى الاعمال غير الخيالية تماما من استعراض ظهور النثر باللغات الدارجة ، وعدم اصالة المادة لاتوحي بالضرورة بعدم اصولية الطريقة ، لاسيما في هذه الفترة ، وبقراءة التواريخ ، كثيرا مايمكن للمرء ان يصدم باخفاق المؤلف في تحقيق اسلوب مؤثر مدهش يحظى باهتمام القارىء ويساعد في تغطية مايريد المؤلف جعله يعتقد بـه ويشعر حيال الموضوع الذي بين يديه ، ولكن هذا ليس القول نفسه بان المؤلف ليس لديه احساس بالاسلوب ، وان ضعفه الاسلوبي يأتي بفعل الاهمال اكثر منه بفعل العجز ، ولاهو يدعم بالمرة الادعاء الذي جاء به برومر ، بان مثل هذه الاعمال ليست الموضوع المناسب للاحكام الجمالية وماهو اكثر ، ان استبعاد الكتابة التاريخية من اي دراسة على ظهور النثر باللغات الدارجة يبدو أكثر عدم قابلية للتسويغ طالما انها كانت واحدة من اول الحقول التي كان الوسط الجديد مستعملا فيها على نطاق واسع ، واخيرا هناك حقيقة ان التمييز بين الحقيقة والخيال هو في بعض التواريخ غير واضح جدا ، وهذا بحد ذاته دالا على عقلية المؤلف ويستحق ان يؤخذ في الاعتبار

لذاته ، واجمالا يبدو ان التواريخ ليست فقط موضوعا مناسبا للفحص النقدي كأمثلة للادب الفرنسي القديم ولكنها يحتمل ان تكون مجزية بشكل معقول في هذه الناحية .

ولنأخذ اولا العلاقة بين الحقيقة والخيال ، ان عملا يعلن عن نفسه انه كسجل للاحداث الحقيقية يحدث فرصة فريدة لنا لكي نرى اثناء العمل معايير المؤلف للحقيقة ، مقابل فكرته عن الواقع او الصدق وبالطبع يمكن استخدام الخيال لنقل هذه الامور الثلاث كلها ،أي الحقائق ، بمعنى حوادث خارجية قد `وقعت فعلا ، ويمكن البرهنة على وقوعها ، او انها حقيقة بالمعنى الذي استعمل فيه اورباخ الكلمة وهي الحقيقة النفسية الداخلية ، او الصدق كما رآه الشاعر ، سواء فلسفيا او شعريا ، ففي الحقيقة لم يذهب دانتي ــ بالمعنى التاريخي الحرفي ــ ليتمشى في الغابة ويقابل هناك نمرا وسبعا وذئبة ، واخيرا شبح فرجيل ، وانه لم يبذل في الواقع اي محاولة لاخفاء قصته الخيالية ، لان اول سطر بالذات له فيها يخبرنا بان طريقه كان 'cammin di nostra vita' ولكن ماان استرسل في القصة حتى اكملها دون ان يذكر بانها قصة خيالية واستعملها في نقل الحقيقة كما بدت له ، ومثل هذا جين دي موين ــ مكتفين باسم واحد ــ استعمل قصة خيالية ، وضمن هذه القصة الخيالية قصة أخرى ، وينقل هذه المرة حقيقة ، بل على كل الاحوال شيئا مابدع له انه حقيقة ، بمعنى اورباخ ، وايضا قدا معينا من المعلومات الحقيقية ، وبالنزول الى مستوى اكثر واقعية حتى ، لنقل الوقائع بالقصص الخيالية ، فان اولئك المؤرخين الذين يروون ان غود فري بوليون رفض ان يضع تاج بيت القدس من منطلق الاحساس بالتواضع على افتراض انه اعتقد ان الرفض كان حدثا تاريخيا (٢) ، ولكن هذا لم يكن اهتمامهم الرئيسي في رواية ذلك والاحرى انهم كانوا مهتمين بما تقوله عن شخصية غودفري ، واذا كانت الحادثة لم تحدث (او لم تقع في الواقع) فانهم كانوا مضطرين لاختراعها ، ولم يكن الاختراع لينقص من امانتهم الخاصة او القيمة الرمزية للقصة ، وعند فحص قصة كهذه يسأل

المؤرخ نفسه هل حدثت ام لا ؟ ولكن الناقد الادبي يسأل هل اعتقد الكاتب انها حدثت ؟ وهل اهتم فيما اذا كانت قد حدثت ام لا ؟ ويهتم المؤرخ في المقام الاول بما يمكن المؤلف ان يقول حول الاحداث المعاصرة ، والعقلية المعاصرة ، ولكن الناقد يسأل : ماذا كانت معايير المؤلف عن الحقيقة ، ومالذي اعتبره كمادة موضوع جديرة باهتمامه الادبي ؟ وبهذه الطريقة فان حكاية تاريخية منتحلة تقدم مادة لتحرياته ، لم يكن توفرها بواسطة عمل قصصي خيالي صريح ، لان لديه في روايات اخرى الاحداث نفسها ، وفي الشواهد الاثرية ، مقياس لما هو حقيقي ومالیس كذلك في مادة المؤلف ، ومع انه لايستطيع دائما ان يكون واثقا بشكل مطلق ، فانه يستطيع ان يمضي في بعض الطريق نحو فصل الحقيقة عن الخيال ونحو القصة الخيالية التي يقصد بها فصل الحقيقة او الواقع ، او الصدق عن القصة الخيالية لذاتها .

وبكلمات اخرى التخيل وظيفة في نقل ماليس خياليا بذاته ويستعمل لهذه الغاية من قبل المؤرخين ، واذا كان الكلام المباشر يعطي معنى اكثر اقناعا ، فان المؤرخ لن يتردد في وضع الحوار الضروري ، وتأكيد ان الشخصيات قالت تلك الكلمات بدرجة الاقناع نفسها التي يؤكد بها ان المشهد جرى ، حتى لو كأنه نفسه يعرف بأنه قد اخترع الواحد وليس الآخر ، ويمكن ان لايتوازن هذا مع فكرة المؤرخ التاريخي حول الدقة ، ولكنه صحيح وبشكل واضح كاجراء فني ، ويكون ناجحا عادة ولكن يجب الاقرار بان حدود الاستعمال الصحيح للخيال بعيد عن ان يكون مصورا بوضوح في هذه الفكرة ، او الاحرى انه يجب ان نقول بانه لم يصور لانه يمكن ان تكون هناك حدود وراءه ، ولذلك يصبح استعماله غير صحيح ، ويحتمل انه ليس من المبالغة القول بانه حيث تكون لدينا حكاية واقعية نسبيا وغير مزوقة مثل حكاية فيلها ردين ، فانها ناتجا اليا لمزاج المؤلف اكثر من كونها محاولة مقصودة لازالة غموض الافكار المعاصرة لها حول الحقيقة ، وبشكل عام فان اي شيء يمكن اعتباره قابلا للتصديق في عصر كان جيوفري اوف مونماوث قد اخذ بجدية .

والفصل بين مؤرخ كان يعمل بهذه الطريقة في حينه عن كاتب مثل كريتيان دي تروبس ، الذي كان بامكانه ايضا ان يأخذ قصته جاهزة ، ويعيد العمل فيها بشكل يبدو اعتباطيا تماما ، والمؤرخ مفيد بمادته اكثر من كاتب القصص الخيالية ، ولكن ليس الى حد ان لاشيء قد ترك الى قدراته الابداعية : فاذا وفرت الحقيقة كل مادته تقريبا ،وقررت السياسة الى حد بعيد التوجه ، فان اللحمة تخصه كلية والفرق بين كاتبين هو في الدرجة لا في النوع وكلاهما مبتكر بطرق مختلفة واعمالها بناء عليه قابلة للنوع نفسه من النقد ، والفرق هو انه في احدى الحالتين ان مثل هذا النقد سينطبق على كافة العمل ، وفي الاخرى على ناحية واحدة فقط منها : ويمكن ان يكون التاريخ بغيضا من ناحية الاسلوب ومع ذلك يبقى مصدرا للمعلومات القيمة ، وعلى العكس فان المسرة الجمالية التي نحصل عليها في عمل يمكن ان يدوم طويلا بعد ان تكون قيمته العملية قد ذوت : فما الذي يبحث عنه القارىء الحديث في كتاب « كتاب قيسوس من النصائح العملية حول فن الحكم الجيد ؟ (٣)

وبكلمات اخرى ، هناك نوعان مختلفان متميزان يمكن ان نطلبهما من عمل غير خيالي اعلامي وجمالي ، ولايحتاج الاثنان للوجود في نسب معاكسة احداهما للاخرى ، وانها فكرة حديثة جدا الاحساس بالتزيين على انه ينقص من امكانية الاعتماد على عمل وتوقع طبيعة المضمون للحكم سلفا على الاسلوب ، وعليه فاننا لانجد ان تاريخ ماوراء البحار مكتوب بتفصيل اكثر من ـ لنقل ـ ترجمة وليم او نيل « ا ـ ب » مع انه اقل واقعية بكثير من اي من هذين .وفي الواقع إن النص الذي التقطناه على انه الأكثر بالمعلومات ، اي نيل(د) هو كما سوف نرى أيضا واحد من افضل ماكتب متعة ، فالكاتب لم يكن مقيد في اختياره للأسلوب برغبته في ان يكون دقيقا ٠

وهو مقيد مع ذلك وبشكل جدي باللغة التي يستعملها في وسط ادبي حديث هو حتى الان غير موائم بالمرة لمهمته ، وحيث ان كاتب

ايمان سترا سبورغ وهو اول من حاول كتابة شيء يمكن ان نسميه فرنسيا ، كان عليه ان يبتكر وسائل جديدة من اجل المعاني الجديدة ، وايضا كان على هؤلاء المؤرخين الفرنسيين المبكرين ان يبتكروا تعابير جديدة باللغة الدارجة من اجل المادة الجديدة التي كانوا يعبرون عنها للمرة الاولى نثرا باللغة الدارجة ، وقد فحص بشكل مرض من قبل ب — م سكورن من اين حصلوا على كثير من الوسائل وتبين انهم اخذوا الكثير من اسلافهم المؤرخين اللاتين والكثير ايضا من الطرق والاعمال التي كانت عادة متبعة من قبل الشعراء الجوالين ، الذين مثلهم كثيرا ماتعاملوا مع شخصيات بطولية ومآثر عسكرية ، واحرزوا مجموعة واسعة نوعا ما من المفردات المناسبة للغرض (٤) ، ومن اجل الباقي كان على المؤرخين ان يحسنوا الارتجال ، وكان القصور الرئيسي في اللغة الدارجة في امكانياتها المحدودة في تركيب الجمل قد اتضح كثيرا في الترجمة الفرنسية لتاريخ وليم ، حيث تصور عجز القدرة على تركيب الجمل الفرنسية باد بوضوح خاصة بالمقارنة مع الامكانيات الاسلوبية الكبيرة في اللاتينية التي كان وليم كاتبا مقتدرا بها ، على سبيل المثال قوله :« وعلاوة على ذلك ارسل خليفة مصر ، وهو الحاكم الكافر الاقوى بين جميع الحكام الكفرة بسبب ثرواته وقواته العسكرية » (٥) .

وهذه تشبه لا بل هي ، جملة لاتينية بسيطة تماما . وهناك عبارة رئيسية واحدة ، عبارة وصفية تصف الفاعل ، وعبارة موصولة تابعة تصف المفعول . ولكن عندما ننظر الى الترجمة الفرنسية ، فان رقة اللاتينية البسيطة جدع ، والفن الذي يتكتم على فن ، يصبح ظاهرا على الفور :

'Entre les autres mescreanz princes, li califes d'Egypte estoient [sic] li plus puissanz de genz et li plus riches d'avoir. Icist envoia ses messages as barons qui estoient en l'ost. Si vos dirai par quele achoison. (٦)

ويتضمن هذا بالضبط كل معلومـات الاصـل ، ولكنه لايحصـل شيئا بالمرة من الاسلوب ، وللتأكيد ، هناك طرق يمكن للمترجم ان يقوم فيها بوظيفة افضل بالمواد نفسها ، وعلى سبيل المثـال لانرى المرء سببا لعدم اختيار .

كما هي قائمة للاداء بدلا مـن العبـارة الاطـول ولكن هناك عدم مواءمة اساسية فعبارة هي من قبل التركيب الشائع ، حتى اننا من قـــــراءتها لانلحـــــظ انهــــــــا اداة اسلوبية بارعة ، ولكن بالتمعن بالتوسع المطلوب لتأدية المعنى نفسه باللغة الفرنسية القديمة نبدأ ندرك بالضبط كم هي معبرة واقتصادية

ومامقدار الخسارة عندما لايمكن ايجاد تركيب مماثل ليحل محلها

والفرق الرئيسي بين الاصل والترجمة على اي حـال هـو الذي له اعظم تأثير جذري ، وهو الافعال الرئيسـية ـ واحـد في اللاتينية وثلاثة في الفرنسية ، واخر واحـــد مســـبوق بـــكلية الوجـــود ويمكن ان تأتي المرادفات مستقلة في « اناشيد العمـال» حيث تـكون العبارات القصيرة الملفتـــة النظـــر المناســـبة للخـــطابة هي بالضبط ماتدعو الحاجة اليه ، وحيث يكون القراء قد نسوا ماذا كانت بداية الجملة ، اذا ادخل من العبـارات التـابعة (الثـانوية) اكثر مما ينبغي قبل النهاية ، ولكن بالنسبة لقارىء ووجه بحـكاية نثرية مطولة فانه يصعب ان يكون مثاليا . ومع ذلك فـان الفـرنسية القديمة ، على الاقل في الفترة التي تتعامل معهـا ، كانت مـاتزال تميل لان تكون في الاساس لغـة متـرادفات ، والمؤلف الذي حـاول استعمال جمل طويلة فعل ذلك مخاطرا بقرائه كما سيبين هذا المثال من تاريخ هرقل :

Il avint quant Androines ot copée la teste a Alexe, qui avoit l'empire de Costantinople en se garde et l'enfant, qui fu fiz de l'empereor Manuel; vint lors Androines, si se pensa d'une grant traison, et par le conseil d'un suen escrivain, qui avoit nom Langosse. Adonques fist il prendre le juene enfant, qui baron estoit de la fille dou roi de France Loys, que il devoit garder en bone foi, et le fist metre en un sac, et porter en un batel par mer et le fist geter ens, et fu noiés. (٧)

والمشكلة هنا أن هاتين الجملتين هما في الواقع لا شيء سوى سلسلة طويلة من العبارات المتتابعة ، وكلها مترابطة بكلمة (ثم) او باسم موصول وكلها تحمل الوزن نفسه مثل بعضها ولا تعلو واحدة على الأخرى .

والانطباع الإجمالي هو عدم النظام ، ومما هو أكثر أنه في « غ ج » و « د » نجد عند هذه النقطة : الجملتين تقسموا جملة واحدة :

La nuit quant Andronnes ot la teste copée a Alex qui avoit l'empire de Costantinople en sa garde et l'enfant qui fu fis l'empereor Manuel, vint lors Andronnes, si se pensa d'une grant traison, et par le conseill d'un sien escrivain qui avoit a non Langosse, et fist une nuit prendre le jnene enfant qui baron estoit a la fille dou roi de France Loys, que il devoit garder en bone foi, et le fist metre en un sac et porter en un batel par mer et le fist geter ens et si fu noiiés. (٨)

إن هذا حتى أكثر تلونا وتشتتا ولكنه يعطي صورة مصقولة أكثر ويجب أن تقبلها كأفضل قراءة « *lectio difficilior* » التي حاول مصنف « أ ـ ب » تحسينها وتوضيحها ، ولكنه لسوء الحظ أضاع المعنى (٩) في العملية وفي كليهما غموض في المعنى في النهاية : فقد كان اندروان الفاعل لكل فعل حتى الأخير منها ، والنظرة السليمة ، وليست القواعد ، هي التي تخبر القارىء بأن هناك تغيير في الفاعل عند
'et si fu noiiés'.

وهذان المثلان يصوران على الفور تأثير اللاتينية على اللغة الدارجة التي أخذت في الظهور ومحاولة تقليد توازي « 'divitiis et militia' » نموذجية وأيضا إن القصور ، وهو ذلك المتأصل في اللغة ذاتها ، وفي اختيار وعرض المادة له تأثير أكثر ظهورا بكثير ، وهنا يبدو التباعد بين التواريخ

الصرفـة ، والذيول الصـحيحة والتصـانيف « المختلطـة » والموجز ، وتاريخ بلاد ماوراء البحار أكثر وضوحا. وهـو مـرتبط بهوية كثير من موادها ، لأنهـا تنتمـي في الواقـع الى أنواع أدبية مختلفة تماما .وليس هناك فروق جـذرية في اللغـة المسـتعملة أو في الفائدة المتحققة منها ، وكل الخصائص الموصوفة من قبل سـتكون موجودة في هذه التواريخ كما هي في التواريخ التي حللها ، وتـكمن الفروق كليا في تطبيق الوسائل نفسـها على مختلف الغـايات فهـل يمكننا حقا أن نسمي الموجز والتاريخ مبـدئيا مصـنفات تـاريخية بشكل مـطلق ، أم أن الأحـرى بهـا أن تـوصف كقصص خيالية (رومانسية) تصادف أنها ذات مضمون تـاريخي عالي كأسـلاف الرواية التاريخية الحديثة ؟ وللاجابة على السؤال من الضروري أن نسأل ليس فقط ما هي محتوياتها ، ولكن ما الذي نوى المصنف أن يصنعه من هذه المحتويات ، وذلك بقدر مـا يمـكننا أن نحـكم على مقاصده من خلال تصنيفه .

ويبدو عند النظرة الأولى أن الموجز يحوي تشكيلة مـدهشة مـن المواد ، ويلقـي على القـارىء انطبـاعا بعـدم التنظيم وعدم الوحدة ، فهو يقفز من موضوع لآخـر ويتناول وصـفا طـويلا لبيت المقدس في مكان يقطع فيه التوتر الصاعد للحكاية بطريقة باعثة على منتهى الازعاج (١٠) ، وبشكل عام يبدو وكأنه مبني على حبل طويل من الافكار المرتبطة مع حبال أقصر تتفرع عنه حسبما وعندما يجـد المؤلف ذلك موائما ، أكثر من أن يكون طبقا لخطة مقررة سلفا .

ولكن هنا بالضبط توجيد وحدته ، والمؤلف أو بدقة أكثر المصنف كان لديه فكرة في ذهنه ، واختـار مـادته ورتبهـا حـول تلك الفكرة ، وقد أعلن كما أخبـرنا في أول جملة له أنه سـيخبرنا كيف سقطت القـدس في أيدي المسـلمين ، وكيف فقـد الصـليب المقدس ، وكل شيء يوحي به هـذا الموضـوع يعتبـر متعلقـا به ، وهكذا فإن خط الترتيب الزمني للقصة ، وسلسلة الأحـداث

بالترتيب الذي وقعت فيه ، ذو أهمية ثانوية ، ويمكن أن يضحى بـه بشكل صحيح ، عندما يظهر اختيار من قطار أفكار المصنف ، وهذا المبدأ الموحد الحقيقي للعمل ، وفي هذا المجال فإنه صحيح تماما القول بأنه لم يكتب تاريخا من نوع التواريخ الرومانسية ، بل كتب تاريخا أعد ليخدم هدف حكاية جيدة ، والنتيجة النهائية تشبه كثيرا القصص الخيالية النثرية الفروسية بقدر ما يعنيه شكل القصة فهو يسهب ويتسكع ، مع مكائد ثانوية وشخصيات صغيرة بوفرة ، ولكن يبقى الموضوع مع ذلك واضحا في الذهن ، وهذا صحيح بالطبع عن الموجز فقط حتى ١١٩٧ بقدر ما يستمد من التاريخ الأصلي لأرذول ، الذي يأتي منه الموضوع ، وبعد ١١٩٧ فإنه يشبه كثيرا جدا التواريخ الأخرى : رواية مباشرة للأحداث ذكرت عادة بترتيب زمني ، مع درجات مختلفة من الدقة وبدون عنصر الأخبار القصصي ، والخلاصة فإن الموجز كقطعة من الأدب في حينه يمكننا أن نقول أنه حتى ١١٩٧ هو على أي حال حقا قصة ، فيها الموضوع ومعظم المادة قد أخذها المصنف من مصدره ، أرذول الأصلي ، وجعلها بالانتخاب والاختصاص وبعض الاضافات الخاصة به ، حكاية الغرض الرئيسي منها تشويق القارىء ، ولكن في مضمونها الواقعي العالي يمكن أن نتبين أيضا رغبة قوية ، وإن تكن ثانوية ، في الاعلام والاخبار ، وبعد ١١٩٧ ، يبقى فقط ثاني هذه الأهداف ، وباقي الموجز بالتالي أقل امكانية للقراءة بقدر كبير ، وهو اجمالا ليس عملا له أي جدارة أدبية خاصة ، مع أنه شائع بقدر كاف •

وفي حالة تاريخ ما وراء البحار ، غير المنشور ، وغير المعروف تقريبا ، فإن تقنية خلط الحقائق بالخرافات وترابطها جميعا وتصورها للموضوع نفسه هي حتى أكثر وضوحا ، لأن الاقحامات القصصية الخيالية واضحة تماما ولها هدف واضح ، ولم يبال المصنف حقا بالمرة إذا ما كان صلاح الدين حقا قد منح سرا رتبة فارس أو إذا ما كان قد تحدر من كونتات بونثيو ، ولكنه رغب في لفت

الانتباه الى تلك الوجوه في شخصية صلاح الدين التي كان هدف هذه القصص هو شرحها ، وعلى العكس رغب في رسم صورة نفسية أكثر اقناعا لبطله بتقديم ايضاحات لما يمكن خلافا لذلك أن يرى كعناصر متنافرة في شخصية رجل كان هو فوق كل شيء العدو الرئيسي للفرنسيين ، أي لقراء المؤلف وجمهوره ، ويرى صلاح الدين بوضوح من سلوكه في مجرى التاريخ الصحيح الذي يحتويه الكتاب ، كشخصية ذات سمات معقدة ، لذا توجب أن يتزود بماض يتوافق مع هذا ، والمعايير التي اختيرت وفقها أحداث هذا الماضي ليست لانها قد حدثت حقا أو حتى لأنها تتواءم بيسر مع بقية القصة ، وهو مالم يحدث ، بل مع متطلبات ليسنغ لأي قصة خيالية مقنعة « 'es hätte geschehen können. »
والتأكيد ، إن فكرة القرن الثالث عشر عما يمكن أن يكون قد حدث قد اختلفت بدرجة واسعة عن فكرة زمان ليسنغ ، ولكن *mutatis mutandis* مازال المبدأ الذي يطبق .

وعليه فإن الموضوع الموحد في التاريخ هو نفسه كموضوع الموجز ، موجود في ذهن المؤلف ، ولكن مع أن كليهما لديه ظاهريا الموضوع نفسه أي ضياع بيت المقدس والصليب المقدس ، فإن التاريخ في الواقع مشغول أكثر بكثير وبثبات بموضوع صلاح الدين ، وهو انشغال مرئي بشكل رئيسي في الحكايتين الخياليتين المقحمتين، وأيضا في الفقرات الواسعة نوعا ما التي تتعامل مع حروبه ضد ملك النوبة ، والتي لم تذكر في أي من النصوص الأخرى بالمرة . وهنا يصبح العنصر الموحد الثانوي في هذه الاعمال ظاهرا أيضا ، أي وجهة نظر المؤلف في موضوعه ، وهذا أكثر أهمية في التاريخ مما في أي من النصوص الأخرى ، وأكثر أهمية حتى من الابلنيين في « د » اذ أن ولاء المؤلف لهم جعل التاريخ الذي يحتويه بلا شك منحازا في الواقع الى حد مساعدتنا في التعرف على تغير المصدر ، وما يزال عاملا واحدا فقط في الحكاية الاوسع كثيرا . وفي التاريخ لا يكتفي موضوع صلاح الدين بمجرد تلوين الحكاية كما

فعل موضوع الا بليشيين في « د » ، بل هو مهيمن على كل العمل . وهذا المعنى القوي لنية المؤلف وهو الانطباع الذي يمكن أن يستطرد فيه أحيانا مع أنه لن يزعجنا بحكاية تافهة ملتوية ، ويساعد في جعل التاريخ أخف كثيرا وأكثر تسلية من الموجز ، الذي يبدو أحيانا كأنه قد فقد كل حس بالاتجاه ، وعامل اخر في تأليف التاريخ يجعل المرء يأسف هو تعذر الوصول اليه وفقر المعلومات بسبب عادة الشرود لدى مصنف إحدى المخطوطات (ب ن ف فر ٧٧٠) بوضع التفاصيل الصحيحة في النص بصورة تنتهك احساسه بالدقة ، من ذلك على سبيل المثال :

'Sor cele mer fu çou que Nostre Sire fist de l'aighe vin quant il fu as noces de Sainte Eglyse, mais non pas d'Archedeclin com on dist en ces roumans rimés. Archedeclin fu uns asaieres de vins. Nan pour quant il estoit princes entre les mengans, et ce fu fait en la cité de Tabarie.(١١)

وهذا ليس صحيحا فقط بل مسل ، وهكذا نغفر المؤلف النفحة المميزة من تهنئة النفس ، التي بها صحح مصدره الخاطىء ، وأسهمت هذه الملاحظات في التنوع الواسع تماما في الاسلوب والموضوع الموجود في التاريخ ، والذي يعني لاجل ذلك كله أنه نص لا يعتمد عليه لانه بمزجه بين الحقيقة والقصص ذات الخيال الصارخ يتركنا احرارا في تكذيب مضمونه ، وذلك مع التأكيد أنه ممتع القراءة .

وعندما نتحول من هذين التصنيفين الى الذيل الصحيح نجد أن الهدف السائد مختلف ويضفي شكلا مختلفا على العمل ، وهنا يعطي المؤلف — الى درجة كبيرة جدا — أفضلية أولى لتسجيل الحقائق والأحداث كما هي ، وهكذا تميل الذيول الى استبعاد الاساطير الاكثر تلونا بدرجة كبيرة ، ولبيان فكرة الارتباط التي

تصبح أكثر قربا من الفكرة الحديثة ، وترتيب الحكاية أكثر دقة من الناحية الزمنية بكثير مما عليه الحالة مع الموجز ، والتاريخ والاستثناء لهذه القاعدة بصرف النظر عن تلك التي تسببت بتغيير من التنقيح – هو من نوع نتقبله بسهولة ، إنه الاشارات الراجعة : وتشير مقدما الى تنمية الفعل الذي يجري وصفه ، والتي تسمح لنا بروايتها بإدراك متأخر ، ونوع تيار تقنية الوعي الذي ادى بمصنف الموجز الى طرق غريبة وملتوية غائبة هنا ، وفي الاغلب ان الاستطراد يتألف من فقرة أو اثنتين ، والاستثناء الوحيد هو النص المسمي بذيل روثلين (١٢) الذي لاينتمي بدقة للفرع الأول بأي حال ، والذي هو خليط من الأساطير والاوصاف من الجغرافية والمنقول من جاك دي فيتري ، وهذه كلها كمنوعات مثلها مثل العناصر المجلوبة من بعيد التي يوفرها التاريخ ، وبصرف النظر عن هذا كله ان النيول بكلمة واحدة كلها متماسكة بشيء من الجمود .

وليس هذا القول بأنها على الاقل مملة فالنثر الجديد باللغة الدارجة كان عليه أن يثبت احترامه وملاءمته للأعمال الجدية في حقول كانت حتى الآن عاملا مقصورا على اللاتينية ، ولكن كانت هناك سابقة جيدة الجدية بلا ملل وحتى وليم نفسه بكل ثقله ، لم يستنكف عن تطوير تاريخه بمثل تلك الحوادث الملهية مثل قطع رأس جمل بضربة واحدة من السيف من قبل غودفري أوف بوليون (١٣) وهي حقيقية لو استمرت بصورة صحيحة لأمكن أن توفر التسلية بقدر ما تستطيع القصص الخيالية ، ومع أن النيول تفتقر الى النوع المدهش دائما في الموجز والتاريخ فإنها تجتذب اهتماما كافيا بالمادة نفسها للتعويض عن هذا ، وبعد كل شيء إن المادة التي يستعملوها قادرة بشكل متأصل على إثارة مجال واسع من العواطف لدى القارىء ويخبرنا جوسلين أوف بريكلوند عن رد فعل الاب سامسون .

us of the reaction of Abbot Samson, '. . . qui, audito rumore de capta cruce et perdicione Jerusalem, femoralibus cilicinis cepit uti, et cilicio loco staminis, et carnibus et carneis abstinere (١٤)

وبالتأكيد ان نهوض وسقوط الرخاء الفرنجي في الشرق كان موضوعا حيويا ، كان بإمكانه دائما أن يسيطر على الاهتمام بسهولة اكبر ، وبفضل مادة موضوعهم ، كانت النيول مضمونة النجاح تقريبا ، والعدد الكبير جدا من المخطوطات التي ماتزال باقية ، الى جانب حقيقة انها قد نسخت وأعيد نسخها حتى دخول الطباعة ، ثم طبعت (١٥) تشهد على هذا النجاح ، وقد تمتع تاريخ هرقل بكل وضوح بشعبية دائمة واسعة الانتشار .

ولكن مع أن شيوع مادتهم ، تفسر هذه الشعبية للسنوات المائة الأولى ، او نحوها لوجود التواريخ يجب أن نبحث بعد هذا عن تفسير آخر ، يبدو انه يكمن في المهارة التي قدمت بها المادة والطريقة التي استمدت بها الامكانيات السهلة للقصص التي أعطيت الشمول والدوام ، وبناء عليه فان هذه الصفة هي التي يجب أن تكون موضوع حكم إجمالي ، بعد سبعمائة سنة أزالت كل الزخم المباشر للأحداث المروية ، وقد استبدلت بالطبع بشيء ما لم يوجد في ذلك الوقت ، وهو اهتمام أثري ، ولكن هذا لايمكن أن يفترض بشكل معقول أنه كان في نية المؤلف ، وهكذا يصلح موضوعا لسؤال آخر ، وفي الوقت الراهن هناك بعض الأمثلة على الطريقة التي قدم بها مصنفو النيول مادتهم ، ستصور كيف أعطت هذه الطريقة اهتماما دائما لأحداث كان مقدرا لأهميتها الأولى أن تذوي مع مرور الوقت .

ويشكل المثال الأول في تاريخ هرقل الفصل العشرين من الكتاب الخامس والعشرين (١٦) ويروي قصة فارس نورماندي أنقذ

عددا كبيرا من الحجاج من الموت على يد اسحق كومنيدوس ، مع انه كان عارفا أن فعل ذلك يعني موته المؤكد ، اذ انه كان مرتزقا في خدمة اسحق ، وهي قصة درامية بحد ذاتها ، الا أن الاسلوب الذي رويت به صريح تماما واستعمل عددا من الكلمات والعبارات العاطفية بشكل لامفر منه مثل : قاسي (مرتان) و « شهيد » (مرتان) « وشعر نحوهم بعاطفة كبيرة وبرحمة عظيمة » وهكذا هلم جرا ، ولكنها استخدمت جميعا دون مزيد من التأكيد ، ولم ترتب كلمات الجمل أو تصمم بشكل خاص لجعل تأثيرها دراميا ، فقد رويت حادثة تلو أخرى بطريقة واقعية جدا حتى البطل لم يذكر اسمه ، ولكن أشير اليه بمجرد القول :« فارس من أصل نورماندي » .

ويحتمل أن المؤلف لم يكن حتى يعرف اسمه ، وباختصار فان كامل الفكرة الاساسية للحادثة هي انقاص الاهمية ، أو حتى يمكن أن نقول تقنية الطرح جانبا التي ترسو دراما المحتوى فيها بالرفع بلا مبالاة ، وتدعه يقف بدون أي من التزيين البلاغي أو المبالغة التي في كتاب دي كلاري على سبيل المثال ، والتي غالبا ماكان لها أثر معاكس لما بدا انه كان يرمي اليه ، وبإقامة دعائم مفرطة فوق أخرى مفرطة تبلد احساس القارىء وتنقص من زخم الموضوع نفسه ، ويساعد مصنف تاريخ هرقل في هذا المثال حقيقة أن الصفات التي تمتع بها من أجل ان يثير اعجابنا مقبولة عالميا على أنها مثيرة للاعجاب بأي حال : وفي الواقع تغدو القصة من وجهة النظر هذه واضحة الى حد ما ، ولكن بالتقنية غير الدرامية يجعلها تقول الشيء نفسه .

ومثال أخر على الايجاز والبساطة التي تعطي فاعلية لحادثة غير جديرة بالملاحظة نوعا ما ، وهو وصول برنغاريا النافارية الى عكا وروايتها هكذا في جميع نصوص تاريخ هرقل باستثناء « د » و الموجز :

Quant li rois de France sot que li rois d'Engleterre venoit, et que il avoit feme espousee, si en fu moult dolenz. Et por ce ne laissa il mie que il n'alast encontre lui. La fu li rois de France de si grant humilité que il descendi de son cheval a terre et prist la feme dou roi Richart entre ses braz et mist a terre hors dou batel, si come l'en dit. (١٧)

وتتوفر معارضة هامة بالمعالجة التي في رواية « د » لهذا الحدث بالضبط الذي يروى بالتعابير نفسها بالضبط تقريبا ، ولكن مع وخزة بالنيل :

Au descendre la feme dou roi Richart, le rei de France fu de si grant humilité que il ala encontre yaus au rivage. Il meismes enbraça l'espouse et la descendi en terre, et n'i vost descovrir son corage, ne semblant n'en fist de l'outrage que le rei Richart li avoit fait Ce est assaveir de ce qu'il avoit laissié le mariage de sa seror por le mariage de Berengiere la suer dou rei de Navarre. Il li mostra bien quant il torna en France(١٨)

وهذا مثال رائع لعادة تميز مصنف « د » عن كل المؤرخين الآخرين ، وهي اضافة تعليق موجز مفاجيء ومناسب يلقي ضوءا مختلفا تماما على كامل الحادثة ، وتظهر بالتضاد النفحة الرقيقة للرواية التي تعطيها النيول الاخرى ، ومرة أخرى تعتمد على انقاص الأهمية لاعطاء تأثير الوخز .

وهذان الاثنان كلاهما حادث صغير في تاريخ الحروب الصليبية ، ولكن هناك حادثا كبيرا شكل واحدا من أقوى النقط في قيمة النيول تاريخيا ، وقدم ايضا واحدا من افضل الصور للوسائل الأدبية الصرفة المستعملة بنجاح ، وجعل القصة حية بصرف النظر عن المعلومات التي احتوت عليها ، انها حكاية مفاوضات بالين دي ابلين مع صلاح الدين من اجل افتداء فرنجة بيت المقدس قبل تسليم المدينة في ١١٨٧ ، وكان هذا ذا أهمية سياسية عظيمة ، وتعطينا النيول رواية كاملة بشكل خاص عنها . ولكن الغريب ان الناحية

السياسية في المفاوضات اهميتها منتقصة ، ويمكن للمرء ان يقـول انها تقريبا مهملة ، بينما يركز المؤلف كل جهوده على جعل القصــة شخصية ، حتى انها تصبح كما او كانت جـزءا مـن كتلة القصص حول صلاح الدين كفرد ، اكثر منه كشخصية عامة ، وتغطي القصة فصلين طويلين (١٩) والقسم الرئيسي فيها هـو بـالكلام المبـاشر في صورة حوارات بين صلاح الدين وبـالين دي ابلين . وهـذا وحـده يجعلها مباشرة ودرامية . ولدينا بسهولة الانطباع بان المشاهد قـد مثلت امامنا ، وترى الشخصيات كاشخاص حقيقيين ، يتصرفـون على سجيتهم اكثر من ان يكونوا دمى للمؤلف ، وهذا اسلوب مقنع جدا لتقدم فيه الحادثة ، وله ايضا فضيلة السماح بقـدر كبير مـن التفاصيل التي يعبر عنها بدون ضجر مفرط ، وتميل الفقرات التـي بالكلام غير المباشر ردا على العكس ـ الى درجة شديدة من الرتابة مع كثير من التكرار في

dist que and *distrent que.*

ولم تضف ثروة التفاصيل التـي ضـمنها المؤلف في روايتـه شـيئا للمعلومات التي أعطاها لنا ويمكن ان يكون قد عبر عنها كلهـا كثيرا جدا بإحكام اكبر ، ولكنهـا تفيد في اشـغال القـارىء بتـطور المفاوضات ـ فنحن نراها تجري خطوة خطوة ، بدلا من ان نخبـر بكل شيء على الفور بتقدير مباشر ـ وهي اضافة الى الجو نصـف المسرحي الذي بناه المؤلف ، وهذا بدوره يضيف شيئا مـا لوجهـة نظرنا عن الاستيلاء كحدث تاريخي ، وليس الى معلوماتنا الحقيقية حـوله ولكن الى تقـويمنا لاهميتـه ، والاهمية التـي كانت له عند الفرنجة في ذلك الزمان وربما تكون هذه الحادثة : افضل مثال في كل الذيول عن قطعة من المادة كان مقدرا لها ان يكون لها بعض القيمـة ـ كمعلومات صرفة ـ لاي قـارىء وبناء عليه للاسـتمتاع ببعض

النجاح حتى اذا عولجت من قبل مؤلف معتدل ولكن هذا المؤلف بالتقنية التي استعملها ، وبـالنظرة الى مـوضوعه ، التـي سـاعدت تلك

التقنيات على نقلها ، لم يعطها قيمة واحدة بل اثنتين ، دون التضحية باي معلومات كانت تنطوي عليها ، وقد جعل منها تقريبا قطعة من المسرح النظري ، وقد رأى اي امكانيات درامية لدى القصة واستثمرها بكفاءة ، حتى ان ماكان يمكن ببساطة ان يكون حادثة في الحرب مع اهتمام سياسي غير شخصي فقط ، قد اصبح ايضا صورة سيكولوجية باهرة لرجلين والعلاقة بينهما ، ورواية ململمة مدهشة عن معركة في المهارة الدبلوماسية ، مع الابقاء على التوتر عاليا بمعرفة ان حياة وحرية الالاف من الفرنجة في خطر . وانه بفضل مهارة المؤلف كمؤرخ ، اي مقدرته على تنظيم الحقائق وتقديمها بوضوح ، فاننا بقينا في نهاية الرواية على معرفة جيدة باستسلام بيت المقدس ، واننا نشعر ايضا بانغماس في النتائج ، وباننا مهتمون بمصير الفرنجة ، وهذا معيار لمهارته كقصاص .

وحتى الان ، ان كل هذه الامثلة كانت مشتركة بين كل الذيول ، وبالتضمين الذي يمكن ان يعزى الى مصدرهم المشترك ارنول الاصلي ، ولكنه يمكن ان يكون بالطبع خاطئا تماما ان تعالج كل روايات تاريخ هرقل معا كما لو ان لها جميعا اسلوبا مشتركا واغراء واحدا للقارىء ، وهذا صحيح عن الفقرات المشتركة بينها ، مثل تلك المقتبسة ، ولكن هناك ايضا الاقسام الطويلة الموجودة فقط في واحدة او اثنتين من الروايات وليس في الاخرى ، والرواية المتفردة الاكثر إثارة الدهشة من وجهة النظر المتعلقة بالاساليب وايضا في محتواها هي « د » ، وهنا كل الحيوية والبداهة ونوعية التقنية التي تذهب لجعل كل الروايات ممكنة القراءة مضاعفة ، وبقبول أن هذه هي الرواية الاقرب في مضمونها التاريخ الأصلي لأرنول ، يجب ايضا أن نقبل أنها تعطينا الانطباع الاكثر دقة لما كان عليه أسلوبه ، وبفعل ذلك يجعلنا نأسف أكثر مما كان أبدا لان الاصل قد فقد منا ، وهذا القرب من أرنول يقدم المفتاح للأسلوب المفعم بالحيوية للعمل : إنه ينطلق من اشتغال المؤلف في القصة التي يرويها ، والتي هي أقل نكهة في هذه الرواية عما في الاخرى ، ويأتي انشغال أرنول الخاص إلينا بوضوح هنا ، حتى أننا نحن أنفسنا

نتماثل بسهولة أكثر معه أكثر مما في تلك الروايات التـي أصـبحت نزيهة أكثر وهادئة أكثر ، وهكذا أقل أخبارا ، وقد سبق لنا أن رأينا مثالا في «د» يضيف تعليقا شخصيا إلى حكاية شبيهة بتلك التـي في الروايات الأخرى ، وبذلك يحول كامل القصة بضربـة واحـدة ، في قصة وصول بيرنغـاريا إلى عكا (٢٠) وهـي رواية حتـى أكثـر تشخيصا ، فيها في الحقيقة يشـكل الاهتمـام الشـخصي الظـاهر للمؤلف السمة الرئيسية للعرض ، ويتعامل مع تقسيم غي لقبـرص إلى إقطاعيات بعد أن اشـتري الجـزيرة مـن رتشـارد في ١١٩٢ (٢١) ، وكل زوايات النيول تقـوم ببعض التعليق على معالجته للحالة ، ولكن رواية « د » تمضي بعيدا جدا أكثر من البقية .

ورواية « د » وحدها هي التي تخبرنا أنه عندمـا استحوذ غي على الجزيرة أرسل إلى صلاح الدين في طلب النصـيحة حـول كيفية إدارتها وقد تعلم على مايبدو من أخطائه ، وقـد رأينا مـن قبـل أن موقف المؤلف من صلاح الدين كما هـو مبين هنا نمـوذجي : أعلن صلاح الدين أن غي عدوه ، ولكنه مع ذلك تصرف تجـاهه بشرف و *leiaument* هي الكلمة المهمـة ، وبقية القصـة هي بيان كيف أن غي وضع موضع التنفيذ النصـيحة التـي أعطـاه اياها صلاح الدين (٢٢) بمنح الاقطاعات للفرسان الذين فقـدوا أراضيهم في سورية نتيجة لفتوحات صلاح الدين .

Les chevaliers et les serjans et les borjeis, cui Sarasins avoient deserités, oirent le comandement dou rei Guy. Il murent et vindrent a lui, et des dames juenes et des orfenins et orfenines a grant planté, iceles cui les barons et les peres estoient mors et perdus en Surie. Il lor dona riches fiés, et as Griffons et as chevaliers que il avoit menés o lui, et as corversiers et as massons et as escrivains en Sarrasineis, ensi que la Deu merci, sont devenus chevaliers et grant vavassors de l'isle de Chypre. (٢٣)

وهناك ملحوظة شخصية لاتخـطيء في هـذا الاقحـام لعبـارة « رحمة الرب » التي صدرت عن حوار في المفـاوضات بين بـالين وصلاح الدين لتعـطينا تبصرا بـأهمية الحـدث بـالنسبة للناس

المعنيين ، وهي أيضا بالمصادفة بينة وموثقة ، من أجل مطابقة أرذول المؤلف مع أرذول صاحب جبلة والقول انهما الشخص نفسه الذي حرم من أراضي عائلته بالفتح الاسلامي واصبح « ملاكا كبيرا » في جزيرة قبرص (٢٤) والكسب الشخصي من سياسة غي ، يفسر ايضا كيف ان المؤلف الذي كان من قبل يري في غي الحاكم الضعيف الذي أضاع فلسطين ، وجد فجاة أن لديه بعد كل شيء بعض المؤهلات .

وبعد هذا التعداد للناس الذين جاءوا لاستعمار قبرص تحت حكم غي قامت رواية « د » مثل كل الروايات ، بمقارنة بين نجاح غي في قبرص واخفاق السياسة المضادة التي مارسها بلدوين في امبراطورية القسطنطينية ، ومرة أخرى أضافت رواية « د » ملاحظة من عندها ، هذه المرة المثل القائل « من يحاول احتضان كل شيء يخسر كل شيء » (٢٥) ، ولعل هذا عاطفيا بعض الشيء ، تعوزه البراعة ، ولكنه مع ذلك ربط المؤلف مباشرة بموضوعه بإظهار اهتمامه بمضمونه خطأ بلدوين ، وأعطاه تحريفا خاصا من أجلنا ليزيد من حدة الزخم كثيرا ، ويظهر هذا أيضا سمة أخرى لاسلوب«د»وهي شغفة بالعبارات المحورة بمهارة ، وبالعبارات الموجزة أو حتى بالكلمات المفردة المستعملة بصورة مثيرة للعواطف ، وارسال صلاح الدين بالنصيحة الى غي يزودنا بمثال جيد على هذا الاستعمال الكلمات :

Salahadin repondi as messages que il n'ameit gaires le rei Guy, mais depuis que il li requereit de conseill, il le conseillereit au miaus que il savreit. Car puis que l'on demande conseill a autrui, soit ami ou henemi, leiaument li doit conseillier, et sur ce dist as messages: 'Je conseille au rei Guy que, se il viaut que l'isle soit tote soue, que il la doigne toute. (٢٦)

وهنا في هذه الفقرة أولا كان استعمال « *leiaument* » الذي سبق ملاحظته والذي يثير على الفور هنا موقف صلاح الدين الكامل ومسلكه تجاه غي في هذا الامر ، والمعيار الخلقي الذي عمل به والذي كان بعد كل شيء معيار

الفرنحة أنفسهم ، وهذا يذكرنا بغانلون وهو فارس كان مثيرا للاعجاب بشكل مثالي له كثير من الفضائل ، وهي مع ذلك لم توفر له شيئا لانه كان يفتقر الى الفضيلة اللازمة والتي لايستغني عنها ،

وتقدم الكونت غانيلون ووقف أمام الملك
كان جسمه جميلا وبدا لونه ينبض بالحياة
لقد بدا رجلا نبيلا ، لكن ذلك كان زائفا (٢٧) .

وقد جعلنا مؤلف « د » باستعمال صلاح الدين لكلمة ذات معاني عديدة جدا ، وتتضمن بذاتها مجموعة أخلاقية كاملة ، نرى صلاح الدين كما كان يريدنا هو أن نراه ، بفعالية أكثر مما يستطيع وصف مطول حول الأخلاق وبلطف أكثر وقد قبلنا تقويمه حتى دون أن نشعر انفسنا أننا قمنا بذلك

ثانيا تقدم كلمات صلاح الدين مثالا آخر لنوع التوازي الذي تؤثره رواية « د »

كلمتان متضادتان في المعنى ولكنهما متماثلتان في النغم ولهما التأثير نفسه بناء عليه مثل 'qui tout coveite tout pert', بنغم ايقاعي مع الحرف المتحرك نفسه في المثال الأول ، وفي المثال الثاني الكلمة نفسها مكررة في نصفي العبارة وهذا النوع من تركيب الجملة شامل تقريبا في الأمثال الشعبية والحكم المأثورة ، وواضح أن رواية « د » تؤثره كثيرا وفيه دليل على غرامه بالسجع وتناغم القوافي ، وندين له بالمحافظة على الأغنية السياسية الشعبية :

Maugré li Polein
Avrons nous roi Poitevin.

وهنا مرة أخرى تعبر الكلمتان متماثلتا النغم بوليان وبواتفين عن التناقض الذي يكون جزر معنى الجملة (٢٨) .

والنقطة الأخيرة في كلمات صلاح الدين والتي تصور خصائص اسلوب « د » هي الطريقة التي صيغت بها النصيحة ذاتها .

, 'se il viaut que l'isle soit tote soue, que il la doigne toute'

وهنا لايوجد تلاعب بالكلمات ، ولكن الفكرة صيغت بعبارة ظاهرية التناقض ، وحيث انه يمكننا أن نفترض بثقة أن المؤلف لم يكن يعرف حرفيا ماذا قال صلاح الدين ، ويمكننا ايضا ان نفترض أنه بمعرفة ماقيل في جوهره ، اختار هو نفسه هذه الطريقة للتعبير عنه .

ان هذا الشغف بالعبارات الآسرة بمهارة ، وبالاستعارة والمثل هو الذي أدى برواية « د » في فقرة ذات جذب خاص الى خليط مسل من الشخصيات ، فهي تصف حصار عكا من قبل المسيحيين في ١١٨٩ ، وكانت محاولة اليأس ظاهر عليها عندما بدات طالما أن الجيش المحاصر كان صغيرا بصورة تدعو للاشفاق ، والمدينة جيدة الدفاع ، وفي جهد لتنقل لنا التساوي بين القوتين مضت رواية « د » بعيدا بفضل بلاغتها الخاصة :

Grant fu la fei des feaus de Deu, quant ensi poi de gent oserent enprendre si grant fait com de metre siege devant Accre. Car tant i avoit des Sarazins dedens la cité d'Acre que a peine i avoit un Crestien a dix Sarazins. Il se mistrent entre le maill et l'enclume, et se cil de la cité vosissent, il eussent devoré les Crestiens et pris si come fait l'espervier le petit oiselet (٢٩)

وهنا للأسف يمضي المؤلف بعيدا، وحيثما حقق في معظم الحالات تأثيرا دراميا أو واضحا ، لدينا في تلك الحالة فقط تسلية غير مقصودة وغير مناسبة ، ولكن الاستثناء من القاعدة العامة هو أن مؤلف « د » يقف ورأسه وكتفاه فوق كتاب الهرقليات الآخرين ليس فقط بالاهتمام الفعلي بمادته ، بل ايضا ببراعته الفنية في التعبير

عنها ، وإن براعته هي الاكثر اثارة للاعجاب بين كل الذيول في هاتين الناحيتين .

ومزايا نيل « د » كما رأيناها كبيرة ـ هو ادق تقليد لدينا لمزايا عمل أرذول الأصلي ، والحكم على ماالحتفظ به « د » لنا ، يمكننا القول بأن أرذول ككاتب كان بارعا الى درجة كبيرة ، وفي كتابته حيوية روبرت دي كلاري ولكن بدون النقص الوحيد في مجموعة الالفاظ الوصفية العجز الذي اتسم به دي كلاري ، هذا واذا كان وصف دي كلاري البالغ القوة هو مايؤكد أنه كان لايستطيع حقا وصف موضوعه بالمرة ، بالمقابل ندر أن كانت تعوز أرذول الكلمات ، وكمؤرخ جمع في الواقع بين فردية دي كلاري وذكاء فيلهاردين ، وككاتب هو أكثر براعة من كليهما ، حيث لم يعبر اي منهما عن نفسه بشيء له مثل سعة مجال الطرق التي استعملها أرذول ، فعندما أمر صلاح الدين بقتل الداوية أعطانا أرذول رأيه الخاص بأنه كان خطأ في الحكم ، ولكنه أضاف ايضا تحليلا محايدا لبواعث صلاح الدين (٣٠) وحول موضوع الصليبيين الألمان من جانب آخر كان منحازا بلا خجل (٣١) ، وهو ماهر في تفسيره ، دقيق التفصيل للموضوع المعقد ، فهو على سبيل المثال تتبع بوضوح مثير للاعجاب تطور اجراءات انتخاب بطريرك بيت المقدس (٣٢) ولكنه ايضا استطاع ان ينقل معناه ببضع كلمات كما في مسودته الموجزة والمثيرة للعواطف عن هنري دي شامبين (٣٣) فهو عاطفي وساخر ، صافي التفكير وانطباعي حسبما كان يتطلب الموضوع أو المناسبة ، ضيق الأفق وكريم بالتناوب ، وفي الحقيقة ان التقلب ربما كان ميزته الرئيسية ، سواء في وسائل التعبير التي استعملها أو في مجال الموضوعات التي تعامل معها .

واختلف عن معاصريه ايضا في فهمه لموضوعه وكلمة « كيف » هي بدقة الكلمة المناسبة لعمله لأنه كان قصاصا كما كان مؤرخا بالفطرة ، وقد بين سكون بصورة مقنعة أن المؤرخين القدامى

باللغة الدارجة قد أخذوا من تقاليد « نشيد الاعمال » الكثير من الالفاظ والكثير من الحيل الاسلوبية (٣٤) ولقد شاطرهم أرنول ايضا في مختلف الاحوال في معالجته لموضوعه وللتأكد هو أكثر دقة بلا حدود مما كان عليه الشعراء المتجولون ، ولكنه مثلهم كان يرى ابطاله كأبطال بالمعنى الفني والتاريخي ، وينقل مفهومه المزدوج الى قرائه وسمح له هذا بدوره بكثير جدا من الرقة وحدة الذهن في تعامله مع الشخصية مما هو ممكن في اطار معظم التواريخ من أجل شطري رؤيته ـ التاريخية والفنية ـ حيث يمكن فصلها عند الضرورة ، وهكذا فان رتشارد قلب الأسد بطل بالمعنيين ، في حين كان صلاح الدين سياسي قاسي ، ولكنه بطل فنيا بالمقدار نفسه ، وبهذه الطريقة فان التقسيم غير المرن للشخصيات الى فرنجية وبناء عليه هم طيبون ، ومسلمين وهم بناء عليه سيئون ، قد تم تفاديه ، ولدينا على الفور صورة أغنى اخباريا عن الحالة الحقيقية للامور ، وأكثر اقناعا من الناحية النفسية ، وهنا فان الناحيتين الفنية والتاريخية بعيدتان عن الصراع مع بعضهما ، وتمضيان يدا في يد وهكذا تفيد تقنية واحدة العمل بكلتا الطريقتين .

وفي الحقيقة ان هذين الهدفين : الاخباري والأدبي هما الباعثان الرئيسيان لعمل أرنول ، وعلى وجه الاجمال فانه كان يوازن الاثنين بشكل جيد ، فهو لم يسمح لضرورة الاخبار بطمس الرغبة في التسلية ، ولم يحمله الخيال بعيدا جدا عن الحقيقة ، وبالمقارنة مع هذين الجزئين من الهرقليات وهما غير معتمدين على عمله ، تبدو كتابة أرنول مليئة بالتسلية ، اذا كانت ربما مفتقرة قليلا للرصانة ، وبالمقارنة من جانب لخر مع الخليط المنظم تماما ، وهو تاريخ ماوراء البحار تبدو هذه الكتابة مرتبة اخبارية وبراقة ويصورها ماس لاتري متبعا وصف فيليب دي نوفار *messire Harneis*

ومنصوره ك

'aussi apte à dicter un livre qu'à soutenir une discussion féodale(٣٥)

ومرة أخرى اثبت ماس لاتـري أنه متنبـيء حقيقـي فـالقيمة الاخبارية لعمل ارنول ، حتـى وإن لم تـسكن صـورته مـؤكدة الشكل ، قدم تم الاعتراف بها طـويلا مـن قبـل المؤرخ ، أو يبقـى الاعتراف ايضا بمهارته الكبيرة ككاتب لم يسـتحق بين معـاصريه مكانا وضيعا .

هكذا اذا القيمة الجمالية للتواريخ التي تبقى حتى بعـد انقضـاء نحو سبعمائة سنة ، ولا شك انهم في ايامهم كانوا يقدرون لاسـباب اخرى ايضا تهرب الآن من أحاسيسنا الحديثة ، ولكنهم مع مـرور الوقت أحرزوا اهتماما بالنسبة لنا ماكان لهم ليمتلكوه بالأصل ، الا وهو الاهتمام بقطع المتاحف ، ومع أن هذه قـد لاتعـد شـكلا مـن الجدارة الأدبية ، إن لها أهمية أدبية بمعنى انها تزودنا بقـدر كبير من المعلومات حـول تشريح نوع واحـد مـن أدب العصـور الوسطى ، والى درجة معينة بالطبع من أي عمل مفرد يخبرنا بشيء حول الجنس ، والعمر أو المدرسـة التـي ينتمـي اليهـا ، ولكن في الهرقليات والتاريخ ، والتواريخ المرتبطة بهما لدينا شيء مـا أكثـر قيمة بلا حدود من مجموعة عشوائية من العينات : و لدينا سـلسلة من الاعمال التي بارتباطها الشديد وتنوعها تصور كليا تماما تـطور انواعها ، وهي تضم معظم طرق العمل الاساسية لمؤرخي العصـور الوسطى وتغطي بينها تقريبا كل القرن الثالث عشر وتعطي أو تأخذ عشر سنوات من كلتا النهايتين ، وهي فترة حيوية في تطور التاريخ المكتوب باللغة الدارجة ، وبينها نجد أكثر الاعمال تنوعا التي يصور لنا احتضانها في شجرة الأسرة نفسها كم من الغايات المختلفة يمكن تحقيقها من قبل كتاب ممـن اسـتعملوا على نطـاق واسـع المواد الاساسية نفسها ، فما الذي يمكن أن تعلمه التـواريخ لنا في هـذه النواحي ؟

ولقد كان العنصر الأصـيل في الجسـم الاسـاسي كل مـاليس في البقية : متماسك وموحد مع اجتهاد ، ومعرفة تريد قاصدة وبنجـاح ان تدوم ، وكان وليم الصوري في الوضـع المثـالي لكتـابة تـاريخ

الحروب الصليبية ، فقد كان مواطنا سوريا بالمولد ولكنه تعلم كما اخبرنا في موطن أهله ، فرنسا حيث تعلم على ايدي رجال مثل موريس دي سالي وبطرس لومبارد وغيبرت دي لابوري (٣٦) وانتهى تعليمه فعاد الى بلده فلسطين ، ثم أصبح على التوالي معلما خاصا للشاب بلدوين الرابع ثم مستشارا لمملكة بيت المقدس ثم رئيسا لأساقفة صور ، وهكذا كان لديه مجال للوصول الى أوراق الدولة في المملكة والى اصدقاء من ذوي النفوذ لتشجيعه في مهمته ، والى كل مصادر البيوت الاسقفية ، من النساخ والمترجمين وما الى ذلك من الذين كانوا تحت تصرفه ، وقد انتج عملين تاريخيين كبيرين هما :« تاريخ الاعمال المنجزة في مملكة ماوراء البحار » وكتاب اخر ذكره في التواريخ ، هو تاريخ لمصر ، أشير اليه عادة بكلمات وليم باسم « أعمال امراء الشرق » وهو مع الأسف مفقود الآن (٣٧).

وعلى الرغم من كل هذه المزايا من الموهبة الطبيعية والظروف السعيدة كان وليم مع ذلك كاتبا مترددا ، وقد كتب رائعته فقط من احساس ضاغط بمسؤولية المؤرخ ، وهو مدرك بحدة لوضعه ومخاطره ، وقد يقع المرء فريسة للانحياز والتحامل ، وقد يغري بتبديل الحقيقة حتى لاينفر الاصدقاء ، وهذه النقطة يبدو أنها ترجح لديه بشكل خاص ، وهو يستشهد بأحد مؤلفيه الاثريين سيسيرون قوله :« الحقيقة مزعجة ، لأن الكراهية تنبع منها ، وهي سامة الصداقة ، لكن التغاضي أكثر شؤما لأنك حين تتعامل برقة مع واحد من اصدقائك فانك تسمح له ان ينزلق بشدة نحو الدمار (٣٨)» وفي النهاية كان تقريبا تحت الاكراه انه قبل بالمهمة المعروضة عليه من قبل عموري ، ومن أجل سبب لابد أن يظهر ليعمل ضد الانحياز الذي قد يجده للتو ، إنه الولاء الوطني في قوله :« لكن حبي الدائم لبلدي يدفعني ويحرضني ، فمن أجل البلاد وفي سبيلها على الانسان المخلص اذا قضت الحاجة واستدعى الوقت ان يضحي بحياته ، وأكرر القول ان بلادي تحثني وتأمرني بالحاح شديد وبكل ماتملكه من سلطان على العمل » (٣٩)

وكان هذا الباعث مع ذلك متوازنا مع آخر أكثر وعدا ، ظهر بجلاء قبيل نهاية العمل وكانت حظوظ المستعمرين تتردى بحدة وقد اصبح مؤلما لوليم الاضطرار لرواية اشياء ضارة بمواطنيه وببلاده ، وكان فقط قادرا على الاستمرار كما يخبرنا ، بسبب رغبة لاتهدف الى تمجيد موطنه بل لصنع سجل دقيق للأجيال القادمة ، وإنه لمفيد وله دلاله على عقليته ، وخلفيته ، انه أتخذ مرة أخرى المؤلفين التقليديين ، كمثال له وهذه المرة ، ليفي ويوسيفوس اللذان سجلا حظوظ شعوبهما ، ومحتذيا مثلهما ومتسلحا بدرسيهما تابع وليم العمل في كتابه حيث قال :« ان نسجل في هذا الكتاب للأجيال القادمة جميع أطوار مملكة القدس المعاكس منها والمزدهر ايضا » (٤٠) .

وهذا الهدف لم يكن عاما في زمانه ، وقد نفذ خطته بنجاح كبير ، وأبقته ثقافته مع أساسها الكلاسيكي المتين في وضع المتابع مثلما فعل على مايبدو حبه الفطري للدقة الواقعية ، ومقدرته وارادته في رسم الخط بين الحقيقة والخرافة تطور الى درجة ملحوظة في عصر كان التمييز فيه غامضا ، إذا كان موجودا أصلا ، ولم يختلف عمله كأدب عن عمل معاصريه الاوربيين والاخرى إنه اختلاف في تماسك المظهر الخارجي الكاتب ، وكان وليم رجل لاهوت بطبيعته كما هو بفضل منصبه ، ومع ذلك كان عليه أن يجهد من أجل حياد فكره ، وكان ملزما في النهاية بان يأخذ نظرة أساسها رأي الحكم الديني في التاريخ ، وبالنسبة له لم تكن بلاد ماوراء البحار في المقام الاول مستعمرة فرنجية بل الأرض المقدسة ، وإذا كان لمدينة الرب أن توجد في أي مكان على الأرض فإنها يجب أن تكون بالتأكيد في بيت المقدس ، وكان حتى أكثر وضوحا لوليم من معاصريه بشكل عام ، أن الملوك كانوا يحكمون باسم الرب ، وهذا يجب أن يكون صحيحا بشكل خاص بالنسبة لهؤلاء الذين حكموا في بلاد الرب ، وعندما سجل بناء عليه بدقة تاريخ تلك البلاد على مدى حوالي ستة قرون وصل إلى وقت في العقود الأخيرة من القرن الثاني عشر عندما ، أخذ الرب بوضوح يسمح لشعبه محرر الاماكن المقدسة بأن

يتخلص تدريجيا من الأرض التي كسبها باسم الرب ، واكتئاب وليم أمر يمكن تفهمه . ولكن نظامه لم يخفق ، فالرب سيحفظ فلسطين الذين يطيعونه ، وهذا مالم يفعله الفرنجة . فقد مات الجيل القديم والجيل الجديد مختلف تماما سمعه يقول : « ونجد لدى دراستنا لهذا الوضع المعاصر بدقة وعمق ونحن متطلعون العون من الرب ، خالق كل شيء أن السبب الاول الذي يقدم نفسه هو أن أجدادنا كانوا رجالا متدينين ويخافون الرب ، فقد قام مقامهم الآن جيل شرير وابناء آثمون مزيفون العقيدة المسيحية ، يتبعون سبل جميع الاشياء المحرمة دونما تمييز ، وهم أشبه ، أو حتى أسوا من الذين قالوا لربهم : أبعد عنا وبمعرفة طرقك لانسر ، ويسحب الرب بعدل تأييده من هؤلاء بسبب خطاياهم ، وكأنما أثير سخطه ، هؤلاء هم رجال العصر الحالي ، وخاصة القاطنون في الشرق ، كما أن المرء الذي سيتولى بقلم حذر وصف أخلاقهم أو بالأحرى رذائلهم الوحشية المرعبة » (٤١) .

وهكذا اخرج وليم قصته حتى نهايتها بلغة اعتقاده الديني وبالتالي بالنظرية السياسية الثيوقراطية ، وهي كلها متماسكة جدا ولابد أنه كان محزونا بلا شك ، وكان سيندهش قليلا لو أنه عاش ليرى سقوط بيت المقدس ، وفقدان الصليب المقدس ، وبالتالي سقوط الحكم المسيحي في فلسطين ، وفي الواقع إنه توفي في ١١٨٤ أو في ١١٨٥ في روما في ظروف مريبة . وقال بعضهم إنه ذهب إلى هناك في عمل خاص بالعائلة ومات ميتة طبيعية ، ولكن بعضهم زعم أنه كان في الطريق إلى الكرسي المقدس ، ليشجب هناك طريقة الحياة الفاضحة لهرقل بطريرك بيت المقدس ، وأن هرقل ، وقد ادرك أن وليم إذا وصل إلى غايته فإن هذا يعني دماره هو بالتأكيد . رشا طبيبا سوريا ليتبع وليم ويسممه ، فهذه هي القصة التي يعطيها الموجز (٤٢) ، وهي موائمة جدا للصورة المتملقة التي رسمها ذلك التاريخ لوليم ، وهكذا انتهت بعذف الحياة الفاضلة للرجل الذي لم نعرف كاهنا أفضل منه في النصرانية في أيامه ، انتهت بالقتل على يد خصمه الشرير .

ومع ذلك يمكن أن يكون التاريخ قد انتهى في ١١٨٤ مع الترتيبات من أجل الملكية بعد وفاة تلميذ وليم ، بلدوين الرابع ، وكما هو واضح إن كتاب التاريخ نموذج للتأريخ اللاتيني في العصور الوسطى في أفضل صورة : إخباري دون أن يكون جافا ، ومنظم ، ومنوع في حكايته ، براق في لغته وأسلوبه وقد رأى وليم نفسه في تقاليد الكتاب الكلاسيكيين وبشكل خاص كتاب التأريخ الرسمي الكلاسيكيين مثل ليفي ، وبهذا المعنى كان كتاب التاريخ نظرة إلى الوراء وقد ألقت مرساها بإحكام في تقليد قديم ، وعندما ترجم إلى اللغة الدارجة فإنها سرعته إلى الحاضر ، وربطته بتقليد كان بالكاد جيد الرسوخ لتسويغ الاسم والرصانة ، والعبارات الموزونة والاجتهاد في التفصيل في الأصل ولكنه ذهب كله في الاهمال ، لأنه كان في ذهن المترجم جمهور لن يتحمل الاسهاب من أجل خاطر العبارات الجميلة ، ومع ذلك كان الكسب تقريبا بقدر الخسارة . وتلت هذه الشعبية الواسعة ، ومن لايستطيع أن يقول إن تضمين التاريخ في تصانيف الهرقليات الأدنى سوية باعتراف من الجميع لم يساعد بطريقة ما في المحافظة على الاهتمام بالأصل ؟

والحقيقة الاكثر اهمية حول الترجمة ، من وجهة نظر تعزيز تقاليد التأريخ باللغة الدارجة ، هو توقيتها فإذا كان أحدث توقيت حالي صحيحا (أوائل العشرينات من القرن الثاني عشر ، وبالتحديد سنة ١٢٢٣) (٤٢)

فإنه بناء عليه يؤخر توقيت ليس فيلها ردين ، بل أيضا أرنول الأصلي وربما تاريخ دي كلاري أيضا ، وهذا يوحي بأن الترجمة المباشرة من اللاتينية إلى الفرنسية ربما هي أقل أهمية لتقويم الكتابة النثرية باللغة الدارجة عما يعتقد بشكل عام ، لان هنا جسما واحدا نجد فيه قدرا كبيرا من المادة باللغة الدارجة وفي الواقع واحد من المصادر الرئيسية لهذه اللغة ، كان موجودا قبل كتلة المادة المترجمة ببعض الوقت ، ويبدو أن تواريخ الحروب الصليبية باللغة الدارجة كانت في الواقع جزءا جيد التوطد على المسرح الأدبي قبل أن

يفكر احد في أن يتـرجم إلى الفـرنسية التـاريخ اللاتيني المعياري للحروب الصليبية ،وليس هذا للقول بأن ترجمة الأعمال اللاتينية لم تساعد بشكل عام في أن تجعل اللغة الدارجة معترفا بها كلغة للكتابة الجادة ، وتعدها لمهمتها ، ولأن وجود تقليد التاريخ بالنثر اللاتيني كان بلا تأثير في جعل المؤلفين مدركين لامكانية كتابة التواريخ أيضا باللغة الدارجة المنثورة ، ولكنه يوحي بأن التـأثير كان غير مبـاشر أكثر مما يفترض عادة .

وهكذا لدينا في جسم الهـرقليات أمثلة مـن التـاريخ بـالنثر اللاتيني ، ومن الترجمة من اللاتينية إلى الفرنسية ، ولدينا أيضا ، مع أن هذا مكون من فتات ، تاريخ مبكر جدا باللغة الدارجـة ، هـو تاريخ أرذول ، الذي يجب أن نصـنفه مـن حيث النوع مـع حياة القديس لويس لجوانفيل ، وكان تاريخ أرذول على مايبدو مثل عمـل جوانفيل مـن ناحيتين : كان رواية لشـاهد عيان واسـتمد قيمتـه التاريخية من تلك الحقيقة ، وكان مديحا تأبينيا ، وتقريبا دفـاعيا ، عن عائلة واحدة ، كما كان عمل جوانفيل سيرة تقديسية من الكاتب للمترجم له .

وقد رأينا من قبل أن جدارة أرذول ككاتـب كبيرة ، وكمثـال على كتابة التاريخ الرسمي فإن قيمة عمله أقل ، لأنه لم يخبـرنا بشيء لم نكن قد علمناه من قبل من جوانفيل ـ وهـذا الانحياز في الموقـف في اتجاه الموضوع لايؤثر فقـط على مضـمون العمـل ، وإنمـا يجعله متعاطفا أمام القارىء ، الذي يستعير انشغاله من انشـغال المؤلف نفسه . ومن جانب آخر إن الطريقة التي كيف بهـا كل واحـد مـن المصنفين الذين استخدموا عمل أرذول وتبنوه جرى إيضاحها ، فكل واحد فرض عليها أسلوبه الخاص ، بنجـاح متفـاوت ـ فمصـنف «أ ـب » على سبيل المثال كثيرا ماصاغها في قالب رسـمي قيد فيه عدم الرسمية الأساسية للمصدر ، في حين احتفظ مؤلف الموجز بعدم الرسمية بصورة أكبر ، ولكنه طمس مصدره في كتلة من المعلومـات الدخيلة كانت على مايبدو تغري ذوقه ، وهي لحسن الحظ غائبة عن

النيول . والأكثر أهمية من الجميع أن العناصر الأكثر شخصية في تاريخ أرنول على مايبدو قد كبحت إلى درجة أكبر أو أقل من قبل كل المصنفين . ولا يمكننا الحكم بالطبع على مقدار ما استبعده « د » في هذا المجال ، ويمكننا فقط القول بانه كان أقل من المصنفين الآخرين في الاقتطاع ــ ولكن من يعرف قدر المعلومات المتعلقة بالابلينيين مما يحله المؤرخ الحديث،وقدفقدت حتى في هذه الرواية ؟ وكان لأعمال الحذف هذه سبب موضوعي ولم تكن مجرد نتيجة نزوات المصنفين : كما رأينا في تحليل متنوعات « د » ، فكثير من مادتهم مضحك جدا تقريبا ما لم يفترض المرء الاهتمام الشديد بعائلة ابلين .

وبصرف النظر عن هذا ، إن النصوص المتباينة التي يمكن أن نتعقبها بمقارنة النيول الواحد بالآخر ، تعطينا بعض الدلالات على مجال ذوق المصنفين ، والأذواق التي نسبوها لجمهورهم .

ومن الواضح انه كان هناك قدر من التنوع لا يمكن أن يتوقع ، فقد قصد أن يكون الموجز كمرشد قصير للفترة ١١٨٥ ــ ١٢٣١ بينما تاريخ هرقل هو كتاب أثقل وزنا بكل معنى ويمكن أن نستنتج من هذا أن الموجز كان عملا مبسطا ، فإذا كان كذلك فقد كان اخفاقا مدويا في هذا المجال ، حيث مايزال باقيا تقريبا ستة أضعاف الموجز من تاريخ هرقل وهو اختلاف يعطي مجالا حتى لحوادث الحفظ، ومايزال اختلافا هاما جدا ، ومن المهم أيضا أن مخطوطات تاريخ هرقل تحوي العديد من العينات الدقيقة الكتابة ، الجميلة التزيين والوضوح بينهما تلك المعدة للبلاط الانكليزي والتي يمكن أن تسمى في هذه الأيام طبعة « مائدة ــ القهوة » (٤٤) .

ومخطوطات الموجز على العكس كان الغرض منها الفائدة العلمية لاالجمال مع أن مخطوط آرسنال ٤٧٩٧ مكتوب بأناقة كافية ،

ومنظم الصفحات ، وليس في اي واحدة منها منمنمات ذات جدارة ، لكن في بعضها حروف كبيرة مزينة برسوم تاريخية •

وبالنظر الآن الى تقدم التواريخ على مدى القرن الثالث عشر ، يتردد المرء في استعمال تعبير التطور بالمرة لأنها لاتحقق في الواقع شيئا في أي اتجاه ، والمراحل الأخيرة من تاريخ هرقل اذا قورنت بالأقدم لاتبدو أكثر اشراقا ، ودقة أو بعدا عنها برشاقة أكثر ، واذا حدث تردي في التصنيف أثناء مساره ، بحيث تصبح حكاية ابنى فاننى ويصبح أشبه بالحوليات وفي الكتاب « ٣٤ » (٤٥) الموجود فقط في « غ ج » و « ب » يجد المرء فصولا كاملة تتألف بكاملها من قوائم للأحداث دون أي تعليق آخر ، وعندما يوجد شيء من نوع الحكايا التاريخية فانها تكون عرضية ومفككة ، وبأخذ الهرقليات ككل فان الفترة الاولى من النيول ، حتى ١٢٣٢ تدهش القارىء بأنها بلا شك الأكثر أهلية للتقدير من وجهة النظر التاريخية ، وحتى أكثر هكذا من وجهة النظر الجمالية .

وفي الواقع بأخذ تواريخ القرن الثالث عشر الفرنسية ككل ، ماهو صحيح بالنسبة للهرقليات ، وهي تتطور ، يبدو ايضا صحيحا للنوع كله في هذه الفترة وقبل أن تنتهي الرواية الأخيرة من تاريخ هرقل ، كان جوانفيل قد كتب سيرة القديس لويس (٤٦) ومع أن هذه بالكاد هي نموذج لحكاية حسنة الترتيب ، فإنها بالتأكيد عمل أقل فوضى من الهرقليات ، ذلك أنه جرى تصوره على نطاق أضيق كثيرا ، وأنجح بالكامل من قبل رجل واحد ، وباقرار هذا كله أنه ليس بأي حال قطعة سامية من العمل ، واذا قورن بالقسم « د » المستمد من أرنول ، وهو الجزء الذي يغطي ١١٨٤ ـ ١١٩٧ فانه يسقط كحل أسوأ بشكل مميز ، ويجب أن ننظر القرن التالي وقرنا آخر مرة أخرى لنرى تغييرا في المحتوى والعرض ، وذلك عندما أخرج كومينز أخيرا شيئا يشبه كتابة التاريخ الحديث بالفرنسية ، وحتى عند ذاك فان كومينز المثير

للاعجاب مثل عمله لايمكنه أن يتماشى مع الحيوية والمباشرة غير المتعارضة لحكاية أرذول ، وهكذا فإنه تاريخ هرقل يعرض في مختلف فقراته مراحل نمو وتطور التأريخ باللغة الدارجة في فرنسا على مدى القرن الثالث عشر ، وأسهم بعض الاعتماد على المؤرخين اللاتين على مجاله ، لكن بدرجة قليلة ، لابل أقل صراحة مما يمكن أن نفترض ، وتميل التواريخ المستقلة ، أي تلك التي هي بقدر مانعرف من عمل رجل واحد ، لأن تكون قصيرة ، ولكنها مابرحت تنتحل الاعمال الابكر الى حد ملحوظ ، وفي الواقع ان حرية الانتحال أسهمت على مايبدو بقدر كبير في التقدم الذي حصل في التواريخ لأنه سمح للمؤلف أو المصنف بممارسة قدراته في اتجاه ترتيب المادة والبناء والتعبير بدون المهمة الاضافية ، وهي وضع مادة جديدة وتصنيفها في الوقت نفسه ، وكل تقدم تم بهذه الطريقة تحقق مبكرا ، لنقل قبل ١٢٥٠ أو نحو ذلك ،ومـاأن استنبط معيار مرض ، فانه بقي وجميع التعديلات التي جرت ، وتمت لمواءمة الموهبة الفردية للمؤلف : كان جوانفيل أصيلا بقدر كبير ، وفرواسار مسهب للغاية وأحداثي نوعا ما ، ولكن أيا منهما لم يفعل شيئا جوهريا اختلف كثير عما انهمك فيه العديد من المؤلفين الذين تورطوا أخيرا في انتاج تاريخ هرقل الذي سبق ان تم صنعة قبلهم ، واكتشف كتاب الهرقليات فيما بين وليم الصوري وأرذول الى المصنف المجهول ، الذي جمع نص « غ . ج » الطويل جدا ، واستثمروا كل الامكانيات التي كانت هناك او التي ستتوفر لبعض الوقت في المستقبل ، واعمالهم فيما بينهم هي تجسيد لكل شيء نجده في أعمال معاصريهم ، وليس تاريخ هرقل مجموعة من المستحاثات الاثرية التي يمكن من خلالها تعقب تاريخ أنواعها ، إنه بالاحرى عرض كامل مثل تطوره الخاص الذي يمكن أن نراه يتتابع أمام أعيننا ، وهو بالنسبة للمؤرخ لأدب التاريخ يحتل بين المؤرخين مكانة تعدل أن لم نقل تفوق على مكانة جزيرة غالاباغوس لدى شارل داروين .

الفصل العاشر

النصوص كبينات تاريخية

يبقى ان نسأل : ماهي مضامين هذه الدراسة المـؤرخين الذين اعتادوا على استعمال هذه النصوص كمصادر ؟

وبأي الطرق ان كانت هناك طرق غيرت النتائج المستمدة نظـرتنا الى النصوص كبينات تاريخية ؟

كما سبق ان رأينا ,١ ، لقد عملت كل النصوص كثيرا جدا كمـادة مصدرية لمؤرخي الحـروب الصـليبية والدول الصـليبية ، وبـالكاد نحتاج الى ذكر التاريخ نفسه وقد جرى استخدام الهرقليات والموجز ايضا كثيرا ، ولقد نهلت التواريخ العامة للحروب الصليبية خاصة الرئيسية منه مثل مـؤلفات : روهـرخت وغروسـيه ورتشـارد ورنسمان وبروور ،واستمدت من هذين النصين بدرجات متفاوتة في الصغر والكبر ، وفي حالات عديدة خـدمت كمصـدر رئيسي لأواخـر القرن الثاني عشر وأوائل القـرن الثـالث عشر ، وقـد اسـتمدت الاعمال الاكثر تخصصا ايضا بقدر كبير منها مثل اعمـال لين بـول وسميل وكاهن التي تقفز مباشرة الى الذهن ، وليست حالة الأمـور هذه مثيرة للدهشة عندما نتذكر مقدار قيمة هذه التواريخ كمصـادر للمعلومات عن الابلينيين وعن الشخصيات الهـامة في اي رواية عن المملكة اللاتينية في تلك الفترة ، وأكثر ايضا عن المشاكل السـياسية والعسكرية ، والاقتصادية يوما تلو آخر .

ولكن السؤال الذي يعنينا في الوقت الحاضر ، ليس كثيرا مـدى استخدامهما وطرائق ذلك ، بل ان النتائج التي ظهرت تقترح اجراء بعض التعديلات الكبيرة ، وفي هذا المجال ان التـواريخ نوعا مـا في

الحالة مثلها مثل كتاب « جين دي ابلن » (٢) الذي هو نص آخر ، ومع انه في الحقيقة منجم غني بالمعلومات ، هو ليس بالضبط كما ظهر في البداية وكان بقدر كبير أساس الاعتقاد بأن مملكة بيت المقدس قدمت نوعا من أنواع مستحاثات الاقطاع ، وهذا النص بلغ درجة من الدقة دفعت الى الاعتقاد أنه كتاب الاسس لانه من خلاله يمكن اعادة تشكيل هذه الاسس ، ولكن كما بين برور (٣) ، لم يكن جين دي ابلن يكتب عن التركيب المؤسساتي والاداري للمملكة منذ زمن سحيق ، بل حول الأعراف القانونية حسبما كانت سائدة في أيامه ، ومثل هذا يجب أن نسأل انفسنا اي نوع من النصوص نتعامل معه هنا ؟

ومالذي أراد مؤلفوها ومصنفوها تحقيقه في كتاباتهم ؟

وتقع التغيرات في الاستعمال الجاري في الوقت الحاضر للنصوص الذي تقترحه هذه الأسئلة في أربعة زمر كبيرة : أولا ، يجب التعامل مع النصوص كفئات وليس كوحدات قائمة بذاتها ، ثانيا ، يجب الغاء التأكيد الموضوع على بعض النصوص على حساب أخرى ، ثالثا ، يجب على الاقل تعديل النهج المألوف للوائح الكلمات ، وأخيرا لكن ليس آخرا أبدا يجب تبني موقف أكثر حذرا تجاه هذه التواريخ المتقلبة .

والسمة الاكثر اثارة للدهشة في التواريخ من وجهة النظر النصية هي تلك التي تؤثر بشكل جوهري بالغ في قيمتها كمصادر ، وهي الطبيعة المركبة لكل منها ، ومع أن هذا معترف به عالميا من قبل المؤرخين (٤) فان هناك بشكل لامفر منه ميل لمعاملة كل كتاب كوحدة قائمة بذاتها ، وهذا النوع من الاستعمال يمكن ان يصور بشكل افضل على انه مشابه لاستعمال الاصوليين للكتابات المقدسة ، الذي يعتمد على الاعتقاد بأنه ليس فقط كل أجزاء الكتاب المقدس صحيحة بالقدر نفسه ، بل انها صحيحة بشكل أكثر حيوية بالطريقة ، نفسها وكما رأينا في الفصل المتقدم تتباين تواريخنا في الواقع كثيرا في معالجتها لمواضيعها ، وما هو أكثر انه بين كل

النصوص الفرنسية لجسم تاريخ وليم الصوري ، لا يوجد واحد ليس إما تصنيفا من مصادر عديدة ، أو ترجمة تمت بدرجات مختلفة من الدقة ، أو شكلا من أشكال التبني لأعمال ابكر .

ولسنا بأي حال نتعامل مع تاريخ لنقل مثل تاريخ جوانفيل ، وهو عمل رجل واحد في موضوع واحد ، خطط له ، ونفذ من قبله بالصورة التي نملكها الآن ، وبناء عليه إنه أساسي فوق كل شيء من الاشياء أن نعامل الموجز ، وتاريخ ما وراء البحار ، والروايات العديدة للهرقليات ، على أن كلا منها مجموعة من المصادر ، وليس كل واحد منها مصدر واحد قائم بذاته .

وتبسط هذه المعالجة في الواقع الامور بفعالية وذلك بقدر ما يعني المؤرخين ، وتجيب عن السؤال المتعب دوما عن ارتباط النصوص ببعضها بعضا ، وباعتبار كامل الجسم كمجموعة من الشذرات كل منها يمكن أن يظهر في نص واحد فقط ، أو في العديد منها ، ونؤكد في وقت واحد ميزيتين حيويتين هما الطبيعة المستقلة لكل شذرة ، وتعلق مختلف النصوص ببعضها ، وهي التي تعاود هذه الشذرات باستمرار الظهور فيها ، ومن ثم من المرغوب فيه كثيرا محاولة تجنب اصدار بيانات عامة حول قيمة نص كامل كمصدر موثوق المعلومات ، والتركيز بالاحرى على تقويم الاقسام المختلفة التي سبق لنا فصلها ، وبكلمات اخرى أن ننظر الى النصوص افقيا ، اخذين الشذرة نفسها عبرها كلها ، لا أن ننظر راسيا الى نص واحد على امتداد طوله الكامل ، وحتى نضرب مثلا لنأخذ الحملة الصليبية الرابعة ، حيث نجد أن لكل النصوص قيمة متماثلة ، طالما انها جميعا تعطي أساس الرواية نفسها ، بينما من اجل الفترة ١١٨٤ - ١١٩٧ يمكننا القول أن رواية « د » تقارب بدقة اكثر تاريخ أرنول الاصلي من الروايات الأخرى ، ومن أجل غزو قبرص لدى « أ - ب » مادة ليست موجودة في أي مكان آخر بالمرة ويجب أن نأخذ كل عنصر من هذه العناصر بحسب جدارته الخاصة ، أي حسبما يستحق ، باذلين دوما جهدا واعيا لفصل

العنصر حسب تقديرنا عن المكونات الاخرى التي اختارها كل مصنف لاحاطته بها .

وبأخذ النقاط السلبية أولا ، يمكننا عمليا أن نقتطع من أجل البينة التاريخية الصريحة مثلما كان المؤرخون يفعلون دائما [٥] ، كل ذاك الجزء من تاريخ هرقل ، الذي هو ترجمة لتاريخ وليم ، ومن الواضح أن المؤرخين لن يقرأوا ، بشكل طبيعي الترجمة عندما يتوفر لهم الأصل ، هذا وإن الأجزاء الأخرى من المصنفات هزيلة جدا بحيث تكاد تكون عديمة الفائدة ، والجزء الابكر من الموجز ، على سبيل المثال سطحي جدا حتى انه يصعب أن يكون ذا فائدة حتى كوسيلة ضبط ، علىمصادرأخرى أكمل ، فإذا وجدنا تعارضا ــ لنقل ــ بينه وبين وليم ، فإنه سيكون قد أسيء نصحنا بأخذ وجهة نظر الموجز بصورة جدية كبيرة ، طالما أن المؤلف لم يعتبر بكل وضوح هذه الفترة عمله الرئيسي ، بل إنه تعامل معها بالاحرى كشيء مقحم على موضوعه الحقيقي ، وبالنسبة لأخذ هذه الفصول المبكرة كبينة على تذوق الغرب وتصوره أنذاك للمملكة اللاتينية ، وايضا وجهة نظر مصنف الموجز حول قيمة عمله ، سيكون لدينا المزيد لنقوله فيما بعد ، وكمصادر للمعلومات المحضة ، فانهم قد وصفوا بشكل جيد من قبل بلدوين [٦] على أنهم يمكن أن يكونوا مفيدين في تكملة التاريخ ، ولكن لا يمكن قبولهم مطلقا بدون جدل .

والشيء نفسه يصح ، وإن لم يكن الى المدى نفسه بالضبط عن رواية الحملة الصليبية الرابعة الموجودة في كل النصوص[٧] ، وهي الى الحد الذي يمكن لنا ايضا ان نقوله مستقلة تماما عن المصادر الأخرى المعروفة من قبل ، وأعني بالاساس دي كلاري ، وفيلهاردين وهكذا كان يمكن أن تقدم رأيا مختلفا عن الاحداث نفسها ، وهذا دوما شيئا نافعا أن نستحوذ عليه طالما أنه يسمح بالحصول على نظرة مجسمة للموضوع ، ولكن مقارنة مع هذين الاثنين تعطي النيول اهتماما أقل كثيرا لهذه الحملة

الصليبية ، حتى أن المقارنة يمكن بالكاد أن تكون تماما اما عادلة او مسرفة ، ونقص التفصيل مع ذلك ليس بأي حال بالمعيار نفسه ، مثل ذلك المبين في الجزء الأول من الموجز ، حتى لا نستطيع تماما أن نستبعد احتمال أن الذيول يمكن أن تثبت بأن لها بعض الأهمية في هذا الموضوع ، ويمكننا فقط القول انها يجب ان تعامل ببعض الحذر ، في القسم الذي فيه تكون مصداقيتها اما غير ثابتة ببينة خارجية او هي غير كافية في معالجتها لمواضيعها .

وحول مواضيع أخرى للذيول هل تمتلك بدقة هذه القيمة ، أي انها تقدم منظورا مختلفا للأحداث التي سبق أن كان لدينا قدرا كبيرا من المعلومات عنها ، وفي هذه الزمرة تقع روايتا حصار دمياط (٨) ، ومختلف الروايات عن حملة صليبية فريدريك الثاني وحروبه ضد قبرص وضد جين دي بريين ، ولا نستطيع أن ندعي أن الذيول تبطل بأي طريقة ما سبق معرفته ، ولا أنها مصادر ثمينة بشكل بارز في هذه المجالات ، ولكنها بالقدر الذي يمكننا قوله واسعة الاطلاع بشكل معقول ، وتعطي قدرا معقولا من التفصيل ، حتى اذ في هذه الاقسام نمتلك تسويغا قويا في أخذها بجدية واعتمادها اذا لم تتفق مع مصدر اخر ، وأيضا انها من المحتمل جدا أن تكون قادرة على سد الثغرات الباقية في معلوماتنا من خلال استخدام المصادر الأخرى المتوفرة ، ومرة اخرى يمكنها ان تقدم لنا ليس فقط معلومات مختلفة أحيانا ، ولكن تفسيرا مختلفا للأحداث أكثر تماسكا ، وربما أكثر أهمية ، علما أنه ما من تاريخ يقدم معلومات صحيحة بدون اي تفسير مضاف من جانب المصنف ، وانه لحيوي جدا للمؤرخ اذا كان له أن يحاول أن يقوم بينته حياديا بقدر الامكان ، أن تتوفر له مصادر تصور أكثر من ولاء واحد ، والموجز والذيول المتفقة معه عند هذه النقطة هي — على سبيل المثال — في الواقع متعارضة مع فريدريك الثاني ، وهكذا تزودنا بتوازن مفيد مع المصادر الأخرى التي تتبنى موقفه .

وهذه الاستبعادات تتركنا — دون أن نقول — مع تلك الاجزاء من

التواريخ التي تعتمد على تاريخ أرنول ، والتي تستمد قيمتها الاستثنائية في كل مجال من هذا بالاعتماد على الأقسام التي تغطي الفترة ١١٨٤ ـ ١١٩٧ ، وهنا ينطبق التضمين الثاني لحصلاتنا ، في تحريك التأكيد والاهتمام ، لأن هذه الشذرة مؤكد تمام التأكيد أنها مستمدة من تاريخ أرنول ، الذي هو أغنى المصادر جميعا ، وهذه الشذرة أيضا هي التي تتباين كثيرا في مظاهرها المتعددة في روايات الهرقليات والموجز .

وسيكون واضحا الآن اي تحويل في التأكيد والاهتمام أنا على وشك الدفاع عنه : إنه التحول تجاه المخطوط « د» لهذه الفترة ١١٨٤ ـ ١١٩٧ وكان الاهمال المحزن لهذا المخطوط والنتيجة التي يؤسف لها ، وربما التي لا مفر منها ، انزاله الى الحواشي الذيلية وهي كثيرا ما كانت غير مرضية جدا في راشيل ، ورنسمان وحده هو الذي حقق اي فائدة هامة من بعض منوعاته الهامة (٩) ، وتبقى منوعات اخرى كثيرة غير مستثمرة بالمرة ، وليس هذا القول بالطبع بأن الروايات الأخرى في تلك الفترة عديمة القيمة ، فرواية غولبرت فونتنبلو (أ ـ ب) تحتوي على سبيل المثال بشكل خاص على معلومات عن غزو قبرص (١٠) ، لايوجد في اي رواية اخرى ، مع انه لا علاقة لها بأرنول الأصلي ، وتبقى ثمينة مثلها مثل اي رواية اخرى عن الأحداث نفسها ، والتي اعتقد مصنف واحد على الاقل انها افضل من تلك التي قدمها ارنول ، لأن ارنول لم يكن شاهد عيان لكل الأحداث التي يرويها.

وقيمة « د » هي ببساطة انها كانت في هذه الفترة ، أدق اعادة اخراج باق لنا ، من تاريخ أرنول ، وفي هذا القسم هناك بالطبع بعض اجزاء أكثر قيمة من أخرى ، والقيمة تختلف بحسب عاملين : اذا ما كانت المعلومات لشاهد عيان أم لا ، وما هو القدر المعروف انه من مصادر اخرى تبرهن انها ذات قابلية ثابتة للاعتماد عليها ، وهكذا مع أنه لدينا من مصادر أخرى كميات كبيرة من

المعلومات حول معركة حطين وسقوط بيت المقدس ، وحول الفترة التي سبقت مباشرة ، وتلت تلك الاحداث ورواية أرنول كما نقلها مصنفو الهرقليات والموجز ، وبشكل خاص من قبل مصنف « د » هي عالية القيمة كثيرا لسببين :

انها رواية شاهد عيان ، وانها أعطتنا التفسير الوحيد للأحداث مقدما من قبل فرنجي بلدي ومؤيد بالوقت نفسه لريموند صاحب طرابلس .

وعن الجزء المبكر من الحملة الصليبية الثالثة من جانب آخر كما سبق أن قلنا يجب الافتراض أن أرنول أقل امكانية للاعتماد عليه ، مع ان تفسيره يبقى هاما ، ولكن منذ ساعة وصول كل من رتشارد ، وفيليب اغسطس الى فلسطين (١١) ، حيث كان ارنول كما تبرهن لنا انه كان يشارك مرة اخرى بالنشاطات ، وتلقي صورة رتشارد بشكل خاص بعض الضوء الجديد على شخصية شهيرة ، لان الصفات التي جعلت رتشارد ، غير شعبي عند الملوك الاوروبيين الآخرين ، ومكره الذي كثيرا ما كان يقارب الخيانة ، وانفراده بالاهداف التي وسمت بالقسوة ، وبذلك سميت ، وبراعته في التعامل مع المسلمين هي على سبيل المثال ، كانت بالضبط تلك التي ضمنت له نجاحا شعبيا مع الفرنجة البلديين ، وكانت الافكار المثالية عن الحرب المقدسة مقبولة جدا في أوربا وصالحة لها ، لكن في سورية كانت الاعمال العسكرية الصحيحة والسياسة الاستراتيجية هي التي تحتل المكانة .

وهناك موضوع يقدم تاريخ هرقل والموجز وبشكل خاص المخطوط « د » عنه قدرا كبيرا من المعلومات وهو مذكور بقدر صغير في المجرى العام للتواريخ (خلافا للعربية) الغربية ، إنه السياسة الداخلية للشرق الاوسط ، خاصة دولة ارمينية ، وعلاقاتها مع الدول الصليبية ، وهنا تتعزز قيمة التواريخ كثيرا أمام ندرة المصادر الاخرى ، وتزداد أكثر من أي شيء آخر ، لكن لا يجوز

التقليل من قيمة هذه المصادر وازدرائها على هذا الأساس ، وفوق كل شيء هنا ربما أكثر من أي مكان آخر نحرز أفضل تبصر ، بالحالة التي كانت عليها مملكة بيت المقدس وامارة أنطاكية بين الدول المجاورة لها ، وهنا ندرك مدى البعد عن أوروبا وعن السياسة الأوروبية وفق ما كانت عليه آنذاك ، وعن قدر الانشغال بقارة مختلفة كليا ، مختلفة في عقليتها ، وفي آليتها السياسية ، وفي ثقافتها ككل ، وهذا بدوره يغير رأينا في أرنول وتاريخه ، ويجعلنا نرى أنه وإن كان مكتوبا بالفرنسية ، غير أن عوالمه منفصلة تماما عن عوالم التواريخ الفرنسية الحقيقية في تلك الفترة ، لنقل مثلا عن فلهاردين و جوانفيل ، إذ مع أن احدهما استقر في الشرق ، وأمضى الآخر عددا من السنوات هناك ، فإن كل منهما بقي فرنسيا لا في مجرد اللغة ، بل في العقلية ايضا ، وبالنسبة للقارىء الأوربي الغربي ان تاريخ ارنول كما يمكن تتبعه في المخطوط « د » بشكل خاص يكشف عن عالم جديد بصورة مؤكدة بالضبط مثلما تفعل كتابات معاصريه من العرب .

وباختصار اذا ، ان تاريخ أرنول قيم للغاية كمصدر تاريخي لانه يعطينا معلومات لا يمكن الحصول عليها من اي مكان آخر ، ولأنه فريد تقريبا في تفاسيره ، وهو يقف في هذا المجال في منتصف الطريق بين نصين رئيسيين من التواريخ : عربي وأوروبي ، والروايات المختلفة من الهرقليات والموجز ذات اهمية بالدرجة الاولى على اساس معيار تمثيلها الصحيح لأرنول ، وبناء عليه ان القسم ١١٨٤ ـ ١١٩٧ من رواية « د » هو الى حد بعيد أعلى الجميع أهمية وقيمة ومع أن تاريخ أرنول قد حظي منذ وقت طويل بتقدير المؤرخين فإن هذا التقدير قد عطل ، والمدى الكامل لجدارة أرنول قد طمس بقدر كبير ، بايلاء الاهتمام للنصوص الخاطئة ، ومن ثم ظهر ارنول أضعف كثيرا ، قد لون باللون الغربي ، وذلك من خلال الممارسة العامة بالاشارة الى الموجز على انه « ارنول » افتراضا على اساس ، النصف الأول من عنوان طبعة ماس لاتري ، وفي الحقيقة مال جميع المؤرخين منذ ايام ماس لاتري الى قبول آرائه

ومحصلاته حول مؤلف الموجز ، وذلك بتأكيد أعظم وقبول أشد مما هو نفسه قد ادعى أصلا ، وبالنسبة للهرقليات ، إن الرواية الرئيسية من طبعة راشيل أي رواية « أ ـ ب » هي التي كانت البؤرة الرئيسية لاهتمام المؤرخين ، لكون السبب افتراضا هو نفسه وهو انهم اتبعوا الدليل المعطى ضمنا في بنية الطبعة ومقدمتها ، وهكذا كانت قدرة المحقق في خلق وعدم خلق نصه ، وهكذا كانت قدرة التفاؤل التي تقبل بها قراؤه استنتاجاته مهما كانت درجة التردد التي قدم بها نفسه هذه الاستنتاجات ، وبناء عليه لم يكن عبثا ولانزوة أن ماس لاتري نفسه أعطى طبعته عنوانا مزدوجا هو « تاريخ أرنول وبرنارد الخازن » وقد أظهر فحص أخر النص ان هذا الحذر له ما يسوغه تماما ،لكن العنوان كان طويلا ، وقد قدر له أن يختصر بالاستعمال الدائم ، والنتيجة التي لا مفر منها ، حتى أن حذر ماس لاتري قد ذهب دون أن يؤبه به كثيرا .

وبشكل مثالي لانجاز المضمون الثالث لهذه الدراسة ، قد يحب المرء ان يرى تنقيحا كاملا للجهاز المضلل للأسماء الذي أصبحت به النصوص بالتدريج مذ انه من الواضح ان الاسم المعطى الى نص ما هو عامل رئيسي في تحديد درجة المصداقية التي ينسبها القارىء اليه ، وسوف يرجح دائما في النهاية على اي شيء يمكن ان يقوله المحقق في المقدمة ، وبناء عليه يكون من الافضل ان لانسمي ان النص باسم ارنول ، طالما انه ولانص باق الآن يمكنه ان يتحمل المسؤولية

الكاملة لعمل أرنول غير المتبدل أو المعدل ، وحتى رواية « د» هي في أحسن الاحوال عمل متبني للقسم ١١٨٤ ـ ١١٧٩ ، والقسم المتقدم على ١١٨٤ معروف لدينا فقط في الرواية المختصرة كثيرا جدا ، والمزيفة للموجز وكما بين المخطط (١٢) كانت أصالة هذه النصوص بعيدة جدا عن البساطة ، وعلاوة على ذلك فإن المخطط يكون على مسافة أو عدة مسافات من المخطوط الأصلي لنصه ، مع

كل المداخلات الكتابية المربكة التي يتضمنها هذا ، وعليه بينما يعترف بنص المخطوط « د » على أنه من ١١٨٤ الى ١١٩٧ أقرب مالدينا من أرذول يجب أن نؤكد مع ذلك أن هناك مسافة معينة ، ويحتمل أن تكون مسافة كبيرة بينهما ، ذلك أن تاريخ ارذول الحقيقي مفقود بالنسبة لنا .

ماذا اذا نسمي النصوص ؟ ان اسم « تاريخ هرقل » غير ضار أبدا كعنوان لمتن الترجمة والذيول ، طالما أنه لايقول شيئا عن تأليف النص أو المصدر أو المضمون ، أو في الواقع عن أي شيء سوى الكلمات الافتتاحية ، ولهذا لاحاجة لنا لأي تحفظات حول الاستمرار في استعمال اسم الفئة التي ترشحه لوحدها بقوة ، هذا ويمكن لهذا الاسم ان يتبنى بطرق مختلفة ليصف الروايات العديدة : فنص « أ - ب » مثلا يمكن أن يسمى (كما هو الحال بالفعل) تاريخ هرقل برواية غولبرت فونتيذبلو ويمكن أن يصبح نص « غ ج » معروفا باسم رواية ذوالي لتاريخ هرقل ، متخذين له اسما كما فعل النص المعروف باسم « نيل دي روثلين » المستعار من اسم أقدم متملك معروف للمخطوط ، ويجب بالتأكيد أن يسمى نص « د » باسم تاريخ هرقل حسب مخطوطة ليون ، والاكثر صعوبة هي المشكلة المثارة بفعل الروايات العديدة الموجز ، وفيما يتعلق (١٣) بنص ١٢٣٢ إن العنوان البديهي هو تاريخ برنارد الخازن ، طالما أننا نعرف بالتأكيد أنه قد صنفه ، وأن أرذول عمل فقط كمصدر له ، غير أنه عرف باسم تاريخ أرذول لفترة طويلة جدا ، هي بكل دقة مائة سنة بالضبط حتى الآن حتى أن مثل هذا التغيير الكلي في الاسم سيسبب بلا شك تشويشا لا نهاية له و يحدث ضررا أكبر من الفائدة المقابلة ، وفي الوقت نفسه إنه من غير المرغوب فيه حقا في المضي في تسميته بتاريخ أرذول ليس فقط لأنه ليس تاريخه بل لأنه حتى ليس شبيها جيدا به في الجزء الاكثر جوهرية ، وهو ١١٨٤ - ١١٩٧ ، وقبل ١١٨٤ يمكن الاعتماد عليه فقط كحقيقة قائمة لعدم توفر الأفضل ، وافضل تسوية كما يبدو هي أن ندعوه باسم « تاويخ أرذول - برنارد » وهو اسم

م ٨ - ج٨

مماثل بشكل معقول للاسم الحالي ، ثم إنه وإن لم يحمل الحقيقة الكاملة ، فانه يحمل على الاقل بعض الحقيقة حول النص ، وهي أن أرنول هو أحد مصادره الرئيسية ، وبرنارد هو مصنفه ، واقصر روايات الموجز التي تنتهي في ١٢٢٧ و ١٢٢٩ [١٤] لاتستعمل بالعادة منفصلة عن رواية ١٢٣٢ ، طالما انها لاتقدم شيئا هاما لايوجد في أرنول – برنارد ، ولكن اذا دعت الحاجة الى اسم متميز ، على سبيل المثال لتسهيل مناقشة هذه النصوص يمكن أن يكون هذا الاسم هو « موجز أرنول » مقدما مرة أخرى رابطة ذات مثال متقدم ، وايضا تعديلا لصالح الدقة ، واذا ماأمكن تطوير مجال كامل الاسماء ، وتم تبنيه بهذه الطريقة ، فإنه سوف يعني أن استعمالا أكثر تمييزا من ذي قبل يمكن تحقيقه من النصوص ، لاسيما في الاماكن الحيوية حيث تتصادم مع بعضها بعضا ، طالما أننا عندئذ سنكون متأكدين مما يعنيه أحد بقوله « أرنول – برنارد » بينما في الوقت الحالي ، إن أحد النواحي بالغة التشويش في المناقشات النصية ، هي أن المرء لايستطيع مطلقا أن يكون متأكدا تماما مالذي يعنيه ناقد واحد مثلا ، بتاريخ أرنول ، ونظام الاسماء المقترح هنا ليس مثاليا بأي حال ولكنه على الاقل يعني أن قضية المصداقية في النصوص لن يحكم عليها تماما مسبقا في ذهن القارىء بالعناوين المستعملة لتسميتها وتمييزها.

ورابع المضامين المذكورة أعلاه وآخرها أن معالجة أكثر حذرا بكثير للتواريخ مرغوب فيها ، على أن يبقى في الذهن أي نوع من النصوص هم في الحقيقة . ومالذي قصده كل واحد من مؤلفيها أن يكتب ؟ وأبسط طريقة للاجابة على هذا السؤال الجوهري هي افتراض السلسلة المتصلة ، التي لها من طرف مصادر ، هي عبارة عن تقارير معاصرة للأحداث ، أو أحوال الامور – سجل الابرشية أو الدائرة – مثلا وفي الطرف الاخر كل أنواع الابداع الأدبي الصرف ، الذي لم يكن لدى مؤلفيه تصور في أن يكون عملهم مستودعا لمعلومات دقيقة ، إنما قصدوا ببساطة شد انتباه قرائهم

اليهم ، ويمكن لكتاباتهم مع ذلك أن تقدم عرضيا كمصادر ، مع أن هذا سيكون بطريقة مختلفة تماما عن النوع الاول من الوثائق ، وحسبما قال غلادستون : ان أشعار هوميروس في أرفع معنى تاريخية ذلك أنها سجل للاخلاق والطبائع والمشاعر والاذواق ، والاعراف والبلاد والمبادىء والمؤسسات (١٥) .

ان هذه بينة ولكنها من أكثر الانواع غير مباشرة ، ويجب أن تفسر بصورة مختلفة جدا عن بينة وثائق الوقائع المقصودة والاكثر صراحة ، وبين هذين الطرفين لاي نص بالضرورة مكان دائم في هذه السلسة ، وعلى سبيل المثال بين تحليل الموجز كيف تفاوت انشغال مؤلفه بالوقائع الصحيحة بدرجة كبيرة من جزء في النص الى آخر (١٦) . ولكن من الجوهري أن نسأل أنفسنا قبل استعمال اي نص : مالذي أراد مصنف النص أن يكتب ؟ والاخفاق في طرح هذا السؤال ، والتمييز بين النصوص ، مع ارتباطها السطحي ببعضها بعضا ، مختلف جوهريا في النوع ، ويمكن أن تكون له نتائج غير مرغوب فيها وسنتفحص الآن مثلا منها .

أعطى مؤرخ واحد فقط بعض الاهتمام للترجمة الفرنسية لتاريخ وليم وأعني هنا برور ، ففي بحثه عن استعمار المملكة اللاتينية (١٧) ، استخدم مرارا وتكرارا الفروق بين التاريخ وترجمته ، وتعلق استخدامه الاعظم لهذه الفروق حول تأسيس قلعة الشوبك في سنة ١١١٥ ، فقد تحدث وليم الصوري كيف جلب الملك سكانا الى القلعة بقوله « ... وضع حامية من الفرسان والجنود المشاة هنالك وأعطاها ممتلكات واسعة » (١٨)

وعلق برور على كلمة « ممتلكات » : لأن ما معنى كلمة « ممتلكات » هذه لدى وليم الصوري ؟ وأزال المترجم والشارح الفرنسي جميع الشكوك ، وأضاف معلقا على الصادر بقوله :

'Il [i.e. rei] i fist remanoir de sa gent chevaliers, sergens, villains gaengneors, et à toz douna granz teneures en la terre selonc ce que chascun estoit.'

وهكذا بين انه كان بين الذين نالوا الممتلكات بعض الفلاحين ، ومن المهم ملاحظة انهم لم يكونوا من السكان الاصليين للمنطقة بل كانوا رجالا جلبهم الملك مع حملته الى الجنوب (١٩) والآن ما الذي أراد المترجم أن يحققه في عمله ؟

يفترض برور هنا أنه كان يعمل على إخراج ترجمة بقدر مايستطيع من الدقة لكتاب تاريخ وليم ، وفي الحقيقة يبقى أفضل ان نقول أن اضافاته غير الكثيرة الى نصه ، قصد بها أن تكون شرحا للكلمات الصعبة ، ولم تكن انحرافات عن روح نصه ومعناه ، بل كانت توضيحات تمت عن معرفة ،وفي الواقع واضح مما نعرف عنه ، وعن عمله أن كل اهتماماته تعلقت بالتبسيط الشعبي أكثر منه بالنقل بدقة ، وأنه كرجل فرنسي كان يعمل في الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، لم يكن بأي حال في وضع يجعله يعرف التفاصيل الدقيقة من هذا النوع ، ويحتمل أنه كانت لديه فكرة صغيرة جدا عمن كان هؤلاء الذين نالوا الممتلكات ، ولاتقدم أي كلمة فرنسية قديمة نفسها كترجمة مباشرة لهذا الاصطلاح ، وهكذا اخرج هذا الاداء الحر مكملا النقص في المعرفة من خياله الخصيب ، ومعطيا رواية أكثر تلوينا عما كان عليه الاصل المحترم ، وكان يقدم للقارىء الفرنسي عملا مشهورا أكثر مما ينبغي لأن تكون حاجة للاشارات الخارجية للاحترام ، مما يعتقد ان الأسلوب الرفيع يمكن أن يمنحه ، ولعل الذي التمسه هو أن يجعله اجمل مايمكن لجمهور كان بالطبع مهتما بالتاريخ الذي كتبه وليم أكثر منه بقصة ساحرة عن انجازات الجيوش فيما وراء البحر ، وأكثر من سجل ذي دقة مطلقة بالوقائع ، وكان تاريخ هرقل يعرف أحيانا باسم « رومان دي ايراكل » وهذا لم يكن عنوانا دقيقا لأنه كان مايزال تاريخا في جوهرة ، ولكن ليس تاريخا بدون دلالات .

وهذا المثال يخدم لبيان كيف أن المعالجة المختلفة لكاتبين (في هذه الحالة وليم ومترجمه) للمادة نفسها يمكن أن تعني أن معالجة مختلفة كانت مطلوبة أيضا من كل من يحاول تفسير معانيهما . وفحص هذه المجموعة من التواريخ قد بين أنها تغطي كامل المجال من الكتابة التاريخية الأكثر رصانة الى القصص الخيالية . واوضح وليم لنا في تاريخه أنه رأى في نفسه مؤرخا . وأن هدفه من الكتابة كان تدوين سجل للأجيال المقبلة بأدق طريقه ممكنه وأكثرها حيادا دون أخذ بالاعتبار لمشاعره الخاصة بالأمر . وموقفه الثيوقراطي الواضح لم يخرب رؤيته للتاريخ كسياق سبب واثر . وهو في الواقع كما وصفه رنسمان [٢٠] كان واحدا من أعظم مؤرخي العصور الوسطى . ونحتاج فقط أن نأخذ بعين الاعتبار تعاطفه المعلن ـ الكهنوتي والملكي ـ وبعض عدم الدقة الذي لا مفر منه . قبل أن نضع ثقتنا في عمله . وبالمقابل كان مترجمه في انشغاله وانشغاله المسبق رجل أدب ولم يكن مؤرخا . ويمكن لعمله أن يخبرنا بشكل غير مباشر بقدر كبير حول الاختلافات في أذواق جمهور القراء . مثلما هو الاختلاف المفترض بين مؤلف التاريخ ومترجمه . وأيضا شيئا حول كيف تصورت فرنسا القرن الثالث عشر . بلاد ما وراء البحار في القرن الثاني عشر . ولكنه كمصدر للمعلومات الواقعية لا يحتاج التوصية بنفسه بالمرة . وإذا استعمل هكذا يجب أن يكون فقط مع أكبر التحفظات . [٢١]

وتظهر هذه المقارنة بين التاريخ وترجمته الى الفرنسية بوضوح كيف يمكن لمنتجات مختلفة جدا أن تنطلق من المادة الاساسية نفسها ببساطة لأنها استخدمت بطريقة مختلفة . وقصد متباين . ويصبح هذا حتى أكثر وضوحا عندما نتأمل الهوة التي تفصل بين التواريخ الصحيحة والذيول الصحيحة من جهة والمصنفات المختلفة أي الموجز وتاريخ ما وراء البحار من جانب آخر . وسيكون افراطا في التبسيط . ولكنه ليس بدون فائدة . الاعتقاد بأن الأول (الموجز) يمكن مقارنته (مع أنه أدنى بكثير) مع تاريخ وليم والثاني (تاريخ

ما وراء البحار) كأنه مؤلف بروح أكثر شبها بروح مترجم وليم ، وإن التمييز بالطبع بين الجنسين من التاريخ والخيال في اذهان مؤلفيها لا بد أنه كان كالتمييز بين الحقيقة والخيال بشكل عام ، وضبابي جدا لكي يكون غير مفهوم عمليا ، ولكن مازال ضروريا لنا أن نسأل أنفسنا عندما نستعمل هذه النصوص التي يميلون بأكبر قوة نحو مناقضتها ، بالتالي أي نوع من البينة منطقيا يمكن أن نتوقع منها ؟ ،

وهكذا فإن الموجز لكونه كما رأينا عمليا تبسيطا ، وإن يكن بالاحرى غير ناجح ، يمكن على المستوى الواقعي أن لا يفعل شيئا أكثر من تكمله مصادر اخرى أكثر اكتمالا ، ولكن يعطينا أيضا بالاهتمام الذي منحه للعام ١١٨٧ [٢٢] بعض التلميحات الى الأهمية الكبيرة التى أولاها الغرب لضياع بيت المقدس والصليب المقدس ، والطريقة الدرامية التي تم التعامل بها مع هذه الأحداث ، ويرينا الاعداد المسرحي الذي هيء (والاستعارة اختيرت قصدا) لهم أيضا كيف أصبحت قصص بيت المقدس ترى من ضوء ليس غير مشابه للجو نصف الضبابي ، ونصف البطولي الذي أحاط بقصة آرثر ، وهذه ناحية قدر لها أن تجد تعبيرها النهائي والأكثر وضوحا مع كاكستون [٢٣]

ومثل هذا في حالة مواد تاريخ ما وراء البحار ، لا يمكن لاحتجاجات المصنف بنظرته بازدراء اليهم « كحكايات رومانسية » أن تخفي ميله الخاص اليهم حسبما تبين من الاقصاصين الخياليين ، اللذين سبق ووصفناهما [٢٤] ، والمادة التاريخية الظاهرة التي يقدمها لنا هذا النص ، والتي ما أراد المؤلف حقا ان ينتجه كان قصصا رومانسيا عن صلاح الدين ، وفي هذا نجح بشكل مثير للاعجاب ، ونظرته للتمييز بين الحقيقة والخيال طفيفة. حتى أننا لا نستطيع أن نخاطر بالتصديق بدون فحص دقيق لأي شيء يقوله ، ولكن ما أراد لنا أن نصدقه كان صحيحا ، وبشكل خاص حول صلاح الدين نفسه ، وهذه هي الناحية الأكثر أهمية في

عمله ، وهي الناحية الأجدر بالدراسة القريبة ، وبكلمات أخـرى : إن هذا النص ليس لديه على ما يبدو قدرا كبيرا يسهم به في معارفنا عن التاريخ السـياسي للملكة اللاتينية ، ولكنه أضـاف بينة جـديدة لمسألة المساوية في الاهمية ، وهي مسألة الصورة الشعبية لصلاح الدين في الغرب .

ومع النيول كما تتعارض مع هذه التواريخ القصيرة ، نحن فوق أرض أكثر أمنا بعض الشيء ، والفخ الرئيسي الواجب تفاديه هنا هو الاعتقاد أو الافتراض أن النيول قد كتبت هكذا كما هي ، لأن هـذا وان كان صحيحا بـالنسبة لبعضـها إنه غير صـحيح بـالنسبة للجميع ، فتاريخ أرنول وهو أحد المصادر الرئيسية التي استخدمها مصنفو النيول ، يبدو انه كتـب كمـا رأينا كمسـوغ لسـياسات الابلينيين في فترة حرجة من تاريخ بلادهم ، وقد بقيت هـذه الناحية بعد الآثار المعدلة للتنقيح بدرجات مختلفة في الروايات العديدة التـي استخدمته ، ولكن بعيدا عن الانتقـاص مـن قيمتـه بـوساطة بينة انحياز آرنول ، ببساطة لأنه انحياز واضح جدا ، مما يفقـده كثيرا من خطره ، ويضيف الى القيمة الاخبارية لعمله الفرصة المتاحة لنا لرؤية المملكة اللاتينية من خلال عيني فرنجي بلدي ، ويضيف هـذا بدوره قليلا لمعرفتنا الهزيلة حول مجتمع خلف القليل جدا من الأثـر الثقافي ، وهو مع أنه كان أوربيا بجذوره ومواريثه ، فإنه في الحقيقة أكثر غموضا بالنسبة لنا منه للجيران العرب الغـرباء كليا ، والذين لديهم تراثهم الثقافي القوي جدا ، وتاريخ أرنول هو الى الحـد الذي يمكننا فيه أن نتعقبه ، هو الى جانب كونه سجلا لكيفية سقوط بيت المقدس ، والصليب المقدس في أيدي المسـلمين هـو أيضـا سـجل « للاخلاق والطبائع والمشـاعر والأذواق » لحضـارة عاشـت قليلا لكنها كانت حضارة متميزة .

ولا يمكننا أن نكرر كثيرا جدا الحقيقة المؤسفة أنه حتـى تـظهر مخطوطات جديدة ، الأكثر احتمالا انه تاريخ أرنول سيظل مفقـودا الى الأبد ، ولكننا نستطيع أن نخفف من وقع هذه الخسـارة بعض

الشيء بتوجيه الاهتمام المستحق للنص الاكثر شبها بـه وصدورا عنه ، وأعني به قسم ١١٨٤ ـ ١١٩٧ من مخطوطة ليون من تاريخ هرقل (أي نص د) الذي لم يتلق حتى الآن الاهتمام الذي هو جدير به ، ويمكننا أيضا أن نتفادى الاضرار بأرنول باعارة اسمه لعمل قصير بسط شعبيا ذلك انه غير لائق به بأي شكل من الاشكال ، أو إعارة مصداقيته لقطع أخرى من النص التي وضعها سوء الحظ وحده الى جانب عمله ، كما ويجب أن لا نضع ثقتنا في أي من هذه التواريخ على الاقل ليس الثقة التي لا تستدعي أي تساؤل ، لاننا يجب أن نأخذ دائما في الحسبان أنه من بين كل مؤلفيها ومصنفيها فقط الاول منها والاعظم أي وليم الصوري هـو الذي كتب بـوعي وضمير كمؤرخ لايامه ، وكان لدى كل خلفائه بـواعث اقل صفاء بكثير ، ويجب أن لا ندع لقناعتنا بـاساليبهم مجالا لان تـدغدغنا بقبول غير متحرز بكل ما استهدفوا أن نصدقه ، وليس هذا القول بأن الهدف (أو ما يجب أن يؤمل ، أو النتيجة) من هذه الدراسة كان « إثبات سخف كل ماكتب حتى الآن واعادتنا الى الجهل مرة أخرى » بل الاحرى تقديم بعض المفاتيح لبناء هذه المتاهة المعقدة ، وفي الوقت نفسه تأكيد أننا لا يمكن مطلقا أن نتحمل التقليل من شأن تعقيدها ، ولكن الاستعمال الحكيم لهذه التواريخ يمكن أن يسمح لنا بأن نستخلص منها شيئا ما ، مع أنه ليس القصة التي تسبب أرنول بأن تسجل كتابة ، يمكنها ان تخبرنا بقدر كبير مما حدث في زمانه ، وكيف بدا ذلك لمعاصريه ، وهكذا فإن عمله كعمل وليم مع أنه بأسلوب أقل مباشرة يمكن في النهاية أن يستخدم كسجل لتقدم ثم سقوط المملكة اللاتينية في بيت المقدس .

الملحق رقم ١

مخطوطتا : القديس أومر ٧٢٢ وليون ٨٢٨

المخطوط رقم ٧٢٢ في مكتبة بلدية القديس أومر ، وهـو مجلد ورقـي مـن ١٦٣ ورقـة ، وبـالاضافة الى ورقتين فارغتين ، ومحتوياته كما يلي :

١ـ قطعة من « تاريخ القدس » تأليف جاك دي فيتري ـ أسقف عكا :

Incipit (f.1a): Innocens li apostoles de Rome vaut savoir les usages et les costumes les contrees des passages de le terre des Sarrasins. Explicit (f.4a): Toutes ces choses manda li patriarches al apostole Innocent et a l'eglyse de Rome.

٢ـ الاولمبياد أو فقدان القدس تأليف بيير دي بوفياس :

Incipit (f.4a): Lonc tans devant l'incarnation Nostre Segnor fu une chités en Gresse qui avoit non Elyde. Explicit (f.4b): A m ans et IIII vins et vii le reprist Salehadins. Or sont xiij fois. Encore le tiennent Sarrasin, Dieus par sa debonaireté le nous rende.

٣ـ تاريخ ارنول مع ذكر اسم المؤلف :

. Incipit
(f.4b): Or entendés conment le terre de Iherusalem et le Sainte Crois fu conquise des Sarrasins sor Crestiiens
(ff. 49b ff.)

يحتوي هذا النص على وصف فلسطين والقدس ويأتـي على ذكر ارنول بالاسم

f. 32b, col 2: Dont fist descendre i sien vallet qui avoit non Ernous. Ce fu cil qui cest conte fist metre en escrit. Explicit (f.91b): Apres s'amassa grant gens et grant ost et ala encontre le roi Jehan. Et manda son fil en Alemaigne.

٤ـ حياة شارلمان :

Incipit (f.92a): Ci commence le vie KM si come il conquist Espaigne.

وهذا المخطوط لم يكن معروفا لماس لاتري عندما أعد طبعته للموجز في ١٨٧١ ولكنه كان معروفا لدى راينت الذي ضمنه كرقم ١٣ في كتابه « مصنف جامع لمخطوطات هرقل » الذي نشر في سجلات الشرق اللاتيني لعام ١٨٨٠ ـ ١٨٨١ وهو مفيد من عدة وجهات نظر تتجمع لتجعل منه قطعة هامة مفقودة في صورتنا الكاملة عن تطور الموجز .

ويمدنا مخطوط القديس أومر ، ٧٢٢ بنسختنا الثالثة من موجز ١٢٢٩ ، والأخرى هي بروكسل ١١١٤٢ (مخطوط ماس لاتري الاساس) وب . ن . ف . فر ٧٨١ مع ذكر واسع لاسم أرنول كمؤلف بالاضافة الى هذين الاثنين والى موجز ١٢٢٧ الموجود في برن ٤١ وهو لايشابه النسختين الآخريين لموجز ١٢٢٩ على اي حال من ناحية هامة ، اعني أنه لايرتبط به على اي صورة والقطعة التي تبدأ بجملة : « سنة تجسيد مولانا » ، ويحوي بروكسل ١١١٤٢ هذه بالصورة التي طبع بها من قبل ماس لاتري مثبتة في نهاية نص الموجز ويحويها ايضا في ب ن ٧٨١ في النهاية في صورة حتى أطول تمتد لبعض الطريق بعد نهاية رواية بروكسل ، وعليه فان مخطوط القديس أومر ٧٢٢ هو النسخة الوحيدة من موجز ١٢٢٩ الذي لاتوجد فيه هذه الشريحة والتي يسمح لنا بأن نرى الشريحة لاجل ماهي قطعة من نص غير مرتبط بالموجز الا بهوية مواضيعها ، وملتصقة بلا فائدة بنهاية من قبل احد الكتاب الذي نسخ النص كما هو موجود في القديس أومر ٧٢٢ ، وأعتقد أنه من المناسب أن يتابع الى شيء مشابه ، وهو الذي على مايبدو لم يتممه ابدا في بروكسل ١١١٤٢ بالنظر للرواية الأطول الباقية في ب . ن ٧٨١ وبطريقة مابناء عليه يصور القديس أومر ٧٢٢ بذاته عائلة مختلفة من النصوص (اذا كان بالامكان استعمال كلمة « عائلة » حيث يوجد فقط عضو واحد) وهذا هو موجز ١٢٢٩ قبل ان تضاف الشريحة غير ذات العلاقة اليه ، ويشوش قضية العلاقة بينه وبين القديس أومر ٧٢٢ أن موجز ١٢٢٩ له

وجود مستقل ، ويصور النص في مرحلة أبكر في تطورة من أي من المخطوطات التي كانت معروفة لماس لاتري ، ويتوجب على أي محقق جديد للموجز أن يأخذ مخطوط القديس أومر بجدية أعظم ، وهناك امكانات كبيرة في أن تقوم طبعة جديدة عليه بدلا من القيام على مخطوط بروكسل ١١١٤٢ الذي يجب أن يغطي نصا تاليا دون اعتبار لتواريخ المخطوطات طالما أنه سبق للشريحة أن اضيفت هنا ، ويجب على المرء أن يضيف أنه مستحيل بشكل غير قابل للاثبات أن المصنف قد نسخ نصا من عائلة بروكسل١١١٤٢ مستبعدا الشريحة وهكذا أخرج نص القديس اومر ، ولكن يبدو أنه بكلمة واحدة ذلك غير وارد بالبتة .

أما بالنسبة لتاريخ مخطوط القديس أومر ٧٢٢ فهو قد أعطي في الفهرس ومن قبل راينت الذي يحتمل أنه قد اعتمد في هذا على تاريخ أمين المكتبة ــ على أنه القرن الرابع عشر ، ولكن الدكتور جارو سلاف فولدا من جامعة نورث كارولينا شابيل هل قد أثبت أن المنمنمات ومن ثم المخطوط ذاته لايمكن أن يكون تاريخه أبعد من القرن الثالث عشر (١) .

ونقطة واحدة أخيرة حول المخطوط هي أنه أتى من دير القديس بيرتين وهو بيت بندكتي (لم يبق منه سوى الأطلال) ومكانه في القديس أومر ، وهذا يثبت حتى بوضوح ارتباط الموجز بهذه المنطقة من فرنسا ، وماهو أكثر فان القديس أومر يقع على أقل من ..١ كيلو مترا من طيران الغراب عن بيت بندكتي أكثر شهرة ، هو غوربي ، ونعرف أنه كان اجراء شائعا بين البيوت الدينية ان تعير بعضها بعضا كتبا ، أحيانا لافساح المجال لأخذ نسخة لمكتبة الدير ولدينا الآن نصان ــ القديس أومر ٧٢٢ وتاريخ برنارد الخازن - المثبت باحكام ببيوت المرتبة نفسها وقريبة نسبيا من بعضها بعضا ، وعلاوة على ذلك فان تحديد هوية (مرة أخرى من قبل الدكتور فولدا) كل من مخطوطي تاريخ ماوراء البحار وب . ن . ف . فر . ٧٧. و ١٢٢. ، بأنهما زينا في هذا الجزء

نفسه من فرنسا يعطينا نصا متعلقا اخر ، مرتبط بالناحية نفسها ، ويبدو ان شمال شرق فرنسا وفلاندرز لم تعط فقط كثيرا من الحملات الصليبية بل ايضا كثيرا من التواريخ المتعلقة بالحروب الصليبية ، لأسباب يوجد هنا فقط وقت لذكرها كتخمينات : انها ربما الرخاء العام للمنطقة وكذلك الوجود الكثيف للبيوت البندكتيه ، التي أمكن لفرق النسخ فيها أن تقدم كل التسهيلات الضرورية ، وفوق كل شيء الطريق الذي مالت فيه الصليبية لأن تصبح تقليدا عائليا كما فعلت في عائلة جوانفيل وفي قادة قلاع القديس أومر ـ الفوكمبرغ ، وباختصار بأخذ القيمة الاجمالية لنص القديس أومر بحد ذاته بالاعتبار والبنية التي يقدمها عندما ينظر اليه في علاقته بالنصوص الأخرى ، وما سبق معرفته حولها ، نرى ان راينت لم يكن مبالغا بالحد الأدنى عندما وصف هذا المخطوط بالثمين جدا [٢] .

وبالانتقال الآن الى مخطوط ليون ، نجد حتى أكثر لنتعلم منه ، لا بل حتى الكثير من القيمة كما أصبح واضحا في مجرى هذه الدراسة انه مجلد من قطع الربع كبير « بقياس ١٢ بوصة × ٥ر٨ » بوصة مكون من ٣٨١ ورقة ، بالاضافة الى ثلاث ورقات بيضاء ، وهو مكتوب بأيد عدينة في عامودين من ٣٩ سطر للعامود وبه ٢٣ من المنمنمات ، وهذه كلها كبيرة نوعا ما ، وبشكل نمونجي بعمق ثلاث بوصات واتساع كامل العمود وذات اهمية خاصة لمؤرخي الفن ، الذين يعرفونها بأنها من عمل ورشة عكا [٣] .

ومايمكن ملاحظته ان المنمنمات ترد فقط في ترجمة وليم ، وليس في جزء النيل من النص ، والمخطوط ليس مؤرخا بالضبط ولكن الصور يعتقد من قبل بوخثال بأنها شبيهة جدا بصور مخطوط عكاوي اخر ، حتى انه يمكن ادراك أنهما من عمل المعلم نفسه ، وأعطي هذا المخطوط الثاني تاريخا هو حوالي ١٢٨٠ ، وكان هذا المخطوط في أحد الأوقات تابعا للكلية

اليسوعية في ليون ، وتذكر رقعة مكتوبة أثبتت على أول الكتاب انه قد أعطي لها في ١٦٩٨ من قبل شخص يدعى ملكور فيلبرت وهو الآن ملك لمكتبة المجلس البلدي ويحمل رقم ٨٢٨ (من قبل ٨١٥ و ٧٣٢) في مجموعتهم .

والخط في القسم الأعظم كبير ، ومقروء بوضوح ولكن عددا من الصفحات قد بهتت واصبح من الصعب ،ويجمل احيانا من المتعذر ، قراءتها والصعوبات ليست على أي حال بقدر مايمكن بشكل معقول استنتاجه ، من قراءة طبعة هذا المخطوط في صور مختلفة في راشيل ، حيث الكثير من المسافات الفارغة غير الضرورية والكثير من القراءات الخاطئة بدرجة كبيرة ، ولاحاجة للاسهاب في الحديث عن أهمية هذا المخطوط للناقد التاريخي ، والنص على السواء ــ وقد سبق أن رأينا أن نصه فريد وحيوي لفهمنا لتعدد روايات الهرقليات ، والحاجة الى طبعة جديدة واضحة وفي الحقيقة يمكن للمرء أن يقوم ببساطة بطبعة طالما أن طبعة راشيل له غير مقروءة في صورتها ، وغير أهل أيضا للاعتماد عليها ، ولكن السؤال هو ، ماالذي يجب تحقيقه بالضبط ؟ وبالنسبة للمؤرخين ماهو مطلوب هو طبعة جزئية لهذا الجزء من النص الذي يعتمد مباشرة وبدقة على تاريخ أرنول ، والذي يحوي كثيرا جدا من المعلومات القيمة لهم ، وهو القسم ١١٨٤ ــ ١١٩٧ ، وهذا ايضا القسم الذي يهتم به أكثر دارس النص ، ولكن تبقى حقيقة أن طبعة جزئية في كثير من الاحوال غير مرضية كثيرا له. والبديل مع ذلك هو تحقيق كامل النص ، اي جميع ال ٣٨١ ورقة منه ، وهذا سيكون طويلا ، والى حد بعيد غير مثمر تماما لانه ما من احد سيكون مهتما بقراءة الترجمة الصحيحية ، ثم إن القسم ١١٩٨ ــ ١٢٣١ ليس فيه خلاف جوهري عن الموجز الذي سبق تحقيقه بشكل واف ومناسب من قبل ماس لا تري .

والقسم ١٢٣١ ـ ١٢٤٨ مشابه تقريبا للقسم نفسه من المخطوطات الاساسية في راشيل ، وهو مرة أخرى كاف بشكل مناسب في هذا المجال ، والمشكلات المثارة هكذا بفعل مسألة تحقيق هذا المخطوط هي في حد ذاتها ليست دلالة سيئة على التشكيلة الواسعة من الاهتمامات التي تخدمها ، وعندما نسأل انفسنا ، ماذا تكون حالة معرفتنا حول كتاب تاريخ هرقل بدون هذا المخطوط فإن الجواب سيكون محبطا بدرجة كافية ، وفيما يتعلق بتتبع الصورة الأصلية لتاريخ أرنول ، فإن هذا يكون مستحيلا ، وقد أصدر ماس لاتري تعليقا عابرا فقط حول النص (٤) ، لكنه كان مصيبا مرة أخرى.

الملحق رقم ٢

الفرنجة البلديون ـ البوليانز ـ

لا يتصل المعنى الذي ينسب عادة لهذه الكلمة من قبل مصنفي المعاجم بدقة الاستعمال الجاري لها من قبل مؤلفي اللغة الفرنسية القديمة ، ويتفق كل من توبلر لوماتش وغودفري ـ والملاحظة الواردة في نيل روثلين (راشيل ـ ج ٢ ص ٦٣٣ ، ملاحظة ب) في وصف البوليانز بأنهم أبناء زيجات مختلطة بين الفرنجة ، والسوريين ، ولكن النصوص لا تؤيد ذلك ، ويقتبس كل من توبلر لوماتش وغودفري فقرة من جوانفيل قيل فيها : « الناس من الفلاحين والبوليانز » فهو لم يقل شيئا حول تحدرهم المختلط ، وواضح من السياق أن كلمة « فلاحين » اصطلاح أراد به هنا بكل بساطة الفقراء من سكان فلسطين ، وهؤلاء « الفقراء » في مواجهة الاوربيين مثل جوانفيل نفسه ، لم يشكلوا طائفة اجتماعية ، ولم يكن من المستبعد أنها حوت أناسا من الشريحة الراقية ولدوا في الدول الصليبية ، ولم يستبعد أيضا الذين كانوا من سلالة فرنسية صرفة ، ويتفق هذا مع استعمال الاصطلاح نفسه في نص « د » من تاريخ هرقل (انظر راشيل ج ٢ ص ٦٣ ، « د » متنوع) حيث وصف البوليانز « بجيل الفقراء » و « بأبناء المملكة » وذلك في مقابل الفرنجة الوافدين ـ البوتيفينز ـ وهم الذين لم يلدوا في المملكة بل أنهم ، جاءوا من أوروبا مع غي لوزنغنان ، ومرة ثانية ما من شيء محدد حول تحدر البوليانز ، ومن المؤكد أن الطائفة المواجهة البوتيفينز حوت أعداد كبيرة من الناس الذين لم يكن تحدرهم الفرنسي وأصلهم الصافي موضع أي شك ، ولنضرب هنا مثلا بالاخوة الابلينيين ، وريموند صاحب طرابلس ، ونكتفي هنا بالاسماء ذات الشهرة الواسعة والوصف الاكثر تفصيلا ووضوحا

البوليانز موجود في « تاريخ المشرق » و « تاريخ القدس » لجاك دي فيتري حيث أن هناك فصل كامل (فصل ٧٣ من طبعة ١٥٩٧ و ٧٢ في النص الوارد في كتاب بونغراس أعمال الفرنجة) أوقف على وصف البوليانز ، ويوجد هنا عدة نقاط جديرة بالملاحظة ، أولاها أن جاك دي فيتري مثله مثل النصوص الاخرى لم يقل أي شيء عن البوليانز انهم سلالة خليطة ، وكل ما قاله بكل بساطة انهم انحدروا من الصليبيين الاصليين مع انهم غير جديرين بوراثة ما استولى عليه آبائهم:

'ex supradictis peregrinis . . . procedentes', albeit

مع انهم غير جدرين بوراثة ما استولى عليه ابائهم:

Generatio enim prava atque perversa, filii scelerati et degeneres, homines corrupti, et legis divinae praevaricatores, ex supradictis peregrinis, viris religiosis Deo acceptis, et hominibus gratiosis, tanquam faex ex vino, et amurca ex oleo, quasi lolium ex frumento, et rubigo ex argento procedentes, paternis possessionibus, sed non moribus successerunt; bonis temporalibus abutentes, quae parentes eorum ad honorem Dei contra impios strenue dimicantes, proprii sanguinis effusione sunt adepti. *Filii autem eorum, qui Pullani nominantur* . . . (Bongars i. 1088-9, my italics.)

وهذه الفقرة مشابهة بشكل مدهش لوصف وليم لابناء قومه ، كأبناء متهورين لآباء نبلاء ، وفي الحقيقة استعمل المؤلفان الكلمة نفسها في عدة أماكن ، من ذلك قول وليم : « ونجد لدى دراستنا لهذا الوضع المعاصر بدقة وعمق ونحن متطلعون العون من الرب ، خالق كل شيء ، أن السبب الأول الذي يقدم نفسه هو أن أجدادنا كانوا رجالا متينين ويخافون الرب ، وقد قام مقامهم الآن جيل شرير وأبناء آثمون مزيفون للعقيدة المسيحية يتبعون سبل جمع الاشياء المحرمة دونما تمييز ، وهم أشبه ، أو حتى أسوأ من الذين قالوا لربهم : ابعدنا ، وبمعرفة طرقك لانسر ، ويسحب الرب بعدل تأييده من هؤلاء بسبب خطاياهم ، وكانما أثير سخطه ، هؤلاء هم رجال العصر الحالي ، وخاصة القاطنون في الشرق ، كما أن المرء الذي سيتولى بقلم حذر وصف اخلاقهم أو بالاحرى رذائلهم الوحشية المرعبة سيقف عاجزا أمام هول المادة وضخامتها ، وسيبدو بالاختصار بانه يكتب مقطوعة هجائية أكثر

منه يصنف تاريخا » (راشيل ج ١ ص ١٠١٥ ـ الترجمة العربية ص ٩٧٩ ـ ٩٨٠) .

ولو أن البوليانز لدى رجال دي فيتري أو « الأبناء الآثمون » لدى تاريخ وليم كانوا جزئيا من أصل سوري ،لكان هذا زود هذين المؤلفين بأحسن وسيلة للاعتذار ، لكن مامن واحد منهما فعل ذلك .

ثانيا : يتفق دي فيتري مع تاريخ هرقل في فصل البوليانز كطائفة ، ليس على أساس العرق ، بل بالأحرى على أساس أنهم قد ولدوا في الشرق ، وذلك مقابل الفرنسيين المتروبولتان ، أو أولئك الذين ولدوا في الغرب بشكل عام .

. . nisi Francos et *Occidentales populos* secum haberent, plusquam sexum foeminum non formidarent' (Bongars, loc. cit., my italics).

وفي مكان آخر ميزهم عن المجتمعات الايطالية المختلفة في فلسطين ، وهو ما يوحي ربما بأن البوليانز كانوا من أصل فرنسي أكثر منهم من أصل أوروبي بشكل عام .

ثالثا : ويصف دي فيتري الموقف السياسي للبوليانز نحو المسلمين كما يلي :

'Ipsi autem cum Saracenis foedus ineuntes . . . et bella civilia inter se concitantes, et plerumque ab inimicis fidei nostrae contra Christianos auxilium postulantes' (Bongars, loc. cit.).

وهذه بالضبط هي التهم التي وجهها المؤرخون الأوروبيون الى بارونات الفرنجة المولودين في سورية ، خاصة ريموند صاحب طرابلس وبالين دي ابلن ، في أنهم أبرموا مواثيق مع المسلمين ، وأضاعوا الوقت والطاقة وهم يتشاجرون فيما بينهم ، والتمسوا مساعدة المسلمين ضد المسيحيين .

وإذا كان دي فيتري قد عنى بالبوليانز شعبا من سلالة

فرنجية ـ سورية خليطة ، كان لديه فرصا عديدة ليقول هذا ـ أصله السوري جزئيا يمكن ان يقدم كأفضل التفاسير وضوحا من اي من المزايا والسمات المقتبسة أعلاه ، وأيضا من اخرى من عاداتهم التي ذكرها فيما بعد ، وهي في ابقاء زوجاتهم تحت حراسة مشددة داخل البيت ، وهذه الاخيرة عزاها لا لتحدرهم من شعب كان مثل هذا لديه عاديا ، ولكن لطبائعهم الغيورة . أما بالنسبة لاشتقاق كلمة بوليانز فإن توبلر لماتس ، فقد رآها كمعنى موسع للاسم الشائع : *polain<pullus,*

وهو صغير الحيوان ، وهذا يتطابق بالضبط مع ما رايناه لدى استعماله من قبل جاك دي فيتري : كان البوليانز هم ذراري الصليبيين ، الذين قارنهم دي فيتري مثله مثل وليم مع ابنائهم الصليبيين الاصليين ، وفي تاريخ هرقل أيضا هم ليسوا جيل المهاجرين الاول من اوروبا ، مثل غي واتباعه ، بل : « ابناء المملكة » اي ، ذرية المهاجرين . مدعيا بأن هذا في الواقع هو اصل الكلمة ، الامر الذي لا يبدو هناك أي سبب الشك فيه ، والمضمون النهائي هو أن البوليانز كانوا على الاقل مستعمرين من الجيل الثاني ، ولم يكونوا بالمرة من دم خليط .

ذيل

تاريخ وليم الصوري (١١٨٤ ـ ١١٩٧)

حققته مرغريت روث مورغان

تقديم

من المتوارث والمتعارف عليه أن مخطوط ونص نيل تاريخ وليم الصوري كثير التعقيد ، ولو عدنا الى ماقبل عشرين سنة لوجدنا انفسنا بعيدين عن أن نعرف كل شيء عن موضوعه ، وفيما يتعلق بالطبعة الحالية ، لها هدف واحد متواضع هو أن تضع في متناول مؤرخي الحروب الصليبية واحدا من نيول تاريخ وليم الصوري وهو المخطوط رقم ٨٢٨ في مكتبة مدينة ليون ، وليس المجال هنا متوفر للرجوع الى جميع تفاصيل الدراسة – المتقدمة – التي أوقفناها على النيول ، حيث كانت النتيجة هي لفت الانتباه الى أهمية نص ليون .

وسنكتفي هنا بتلخيص الجوهري والمهم من دراستنا المتقدمة مضيفين اليها بعض التعديلات مع شيء من التعمق الذي توفر نتيجة ابحاثنا منذ عام ١٩٧٣ ، هذا وسيتاح للقارىء تحديد النص المتعامل معه من بين المجموعات العائد اليها والتي لايمكن فصله عنها ، ذلك أنه يوجد اليوم تسع وأربعون مخطوطة معروفة من تاريخ هرقل ، وجاء تحت هذا الاسم منذ زمن بعيد الترجمة الفرنسية لتاريخ وليم الصوري الكبير مع النيول التي الحقت به ، وكنا قد أعطينا المخطوطات الرئيسية رموزا ، هذا ونجد بين التسع وأربعين مخطوطة أربع وأربعين منها مرتبطة على الاقل بالمخطوطة الكبيرة « غ » ، ولايوجد طابع واحد يجمع المخطوطات في أسرة واحدة ، بل على العكس يمكن أن نرى عدة منها، ومع هذا ان هذه المخطوطات وان أعطتنا نصوصا ذات مجال قابل للتبديل ، وقراءات متنوعة ، انها تمنحنا المصنف نفسه ، وأعني بذلك النص نفسه الذي يقدم لنا المادة ذاتها ، وتبقى لدينا المخطوطات الخمس التي غضضنا النظر عنها وهي المخطوطات : أ – ب . س . و د من راشيل و المخطوطة «بلوتس»

« ٦١ ـ ١٠» في مكتبة لورانتسي في فلورنسا ، وقد استخدمت المخطوطة الاولى مع الثانية كأساس لطبعة راشيل ، وبدايتهما هي سنة ١١٨٤ (نهاية تاريخ وليم) ونهايتهما سنة ١٢٢٩ ، وهما تقدمان نصا متطابقا ـ فيما يخص أكبر جزء من الرواية ـ مع مجموعة « غ » مع شيء من الخلافات أحيانا ، ولكنها خلافات هامة ، ومنذ عام ١٢٢٩ فصاعدا يشكل المخطوطان « أ ـ ب » و مخطوط « غ » مخطوطا واحدا حتى سنة ١٢٤٨ ، حيث يبدأ المخطوط « أ » بالالتحاق بـذيل روثلين ، في حين يتابع المخطوط « ب » التحاقه بالمخطوط « غ » حتى سنة ١٢٦٤ حيث يتوقف ، ومن الممكن القول إن العلاقات بين الروايات « أ ـ ب » و « غ » غير ثابتة الى بعض الحدود ، ويمكن للقارىء أن يرى بأم عينيه في راشيل وجود بعض التشابه بالمظاهر في الصيغ ، ومن فوائد وضعها في صفحة واحدة أنه تتضح لنا السبل التي تنفصل به هذه المخطوطات أو تنتظم عدة مرات .

ولننتقل الآن الى الرواية « س » هنا ، في هذه الحالة سنتردد طويلا بالحديث عن مؤلف مستقل مادام نصه لايمكن أن يبتعد كثيرا عن « غ » وهكذا سيجد قارىء « ي » من راشيل بعض النصوص الخاصة بمخطوط « س » ولكنه سيلاحظ أحيانا أن مصنف المخطوط « س » لم يقم الا بتعديل نص « غ » باختصاره كثيرا دون أن يجدد فيه شيئا ، وهكذا نرى في « س » نوعا من التقارب العائلي مع « غ » .

اما بالنسبة لمخطوط « د » الذي هو الاصل المعتمد لطبعتنا ، أجد أنه من غير الضروري تكرار الاسباب العديدة التي حدت بنا أن نرى فيه بينة واحدة وثمينة جدا الحقبة ١١٨٤ ـ ١١٩٧ ، ولنذكر هنا بمسألة أساسية هي أن هذا النص لايحتوي على ماكتبه أرنول مباشرة ، ومع هذا إننا من خلاله نستطيع التوصل الى تحصيل فكرة عما كان عليه كتاب أرنول ، وهنا سبب من الاسباب الرئيسية التي فرضت علينا العمل

على طباعة مخطوط « د » هذا ، يضاف الى هذا ان مصنف هذا المخطوط كان أمامه اثناء عمله نموذج من عائلة « غ » ونموذج آخر من عائلة « ب » ونموذج ثالث ، ان لم يكن كتاب أرنول نفسه كان قريبا منه كثيرا .

ومن أجل حقبة ١١٨٤ ـ ١١٩٧ ، احدث مصنف النص خليطا لم يكن دوما عقلانيا ، وقام ذلك على المصدرين الآخرين ، وانضم بعد هذا التاريخ (موت هنري دي شامبين وتتويج ايزابيل « سيبيل » نهائيا الى عائلة « غ » ولم يفارقها بعد ذلك ، ولهذا قد يقال بعد ذلك إن نص « د » يخلو اعتبارا من عام ١١٩٧ من الفائدة الخاصة لانه لم يتعد كونه نسخة اضافية للمؤلف « غ » ، ويعطينا نص « د » هذا التاريخ بالمشاركة مع « أ ـ ب » وأحيانا مع « غ » في جزء من اخباره كثيرا من النصوص الطويلة التي هي غير موجودة في أي مكان اخر ، مما يؤكد أنها بأصولها غير متصلة نهائيا لابالمخطوط « غ » ولابالمخطوط « أ ـ ب » وهكذا نشكر أصالة هذا المؤلف لانه احتفظ لنا بالشيء الذي غيره من المؤلفين حكم لأسباب ما ، أنه غير مفيد ادخاله في مجموعة مصنفاتهم .

وتبقى أمامنا مخطوطة فلورانسا حيث يبدو أنها منقولة عن رواية « غ » وهكذا لم نضف أولها ، وفيما يتعلق بأكبر قسم بقي من النص يبقى التناظر دقيقا ، ولكن هناك بين صفحات ٢٩١ و ٣٠٣ بعض النصوص التي لايمكن أن تكون قد أتت من غير عائلة « د » وأحرص هنا على توجيه الشكر الى الدكتور ادبري الذي لفت انتباهي الى هذا القسم من مخطوطة فلورنسا ـ ويتبين لنا من تفحص مخطوطتي ليون أنه ولا واحدة من الاثنتين كانت نموذجا للأخرى ، انهما بالأحرى نسختان لابل نقول انهما ايضا تكييفان من نموذج مشترك لهذا الجزء من النص فقط ، وباختصار تحتوي مخطوطة فلورنسا مجموعة خليطة لمؤلفي « غ » و « د » ، وأكبر جزء من نصها يخص فصيلة

عائلة « غ » وليس له فائدة محتملة لهذا المؤلف ، والجـزء الآخـر مختصر كثيرا ، ويتعلق بنص « د » ولهـذا اسـتعملناه ونشرناه مع « د » .

ومن جديد ماذا تعلمنا مخطوطة فلورنسـا عن نيول تـاريخ وليم الصوري ؟ انها من حيث المبدأ زادت عدد المؤلفات المعروفة في هـذا الباب ، وعرفنا من قبل أن طرائق المصنفين قامت على جمـع مـواد وجدت في مصنفات أخرى مع اضافة بعض الشيء من لدنهم ، وهـذه الطريقة ذاتها اتبعها مصنف مخـطوطة فلورنسـا ، فقـد اعتمـد كأساس له نص « غ » ثم وضع محل جزء من هـذا النص شـطرا قابله في نص « د » واضاف الى هذا كله تذييلا جديدا من عنده بداه من آخر نص « غ » حتـى غاية عام ١٢٧٧ ، وبهـذا تـوصل الى تصنيف نص جديد في مجمله ان لم يكن في عناصره .

وهكذا تطلعنا مخطوطة فلورنسا على أن مخـطوطة « د » التـي هي الآن وحيدة ، لم تكن دائما متوفرة ، وأن مصنف « د » قد وجد ربما منها مخطوطتان ، التي نعرفها الآن وأخرى استخدمها مصنف مخطوط فلورنسا وهي مفقودة الآن ، ونستخلص من هـذا نتيجـة هامة هـي ان نص « د » لكونه كان قليل الانتشـار لم يكن عمـلا محرفا أبعد عن الأصل من قبل الناسخ ، وبفضـله لدينا مخـطوطة ليون ، ونلاحظ ايضا بما أن الناسخ لربما نسخ احيانا بشيء من قلة العناية المؤسفة ، و يضفي هذا على مخطوط فلورنسا مـزيدا مـن الأهمية لكن لن نستفيد في التعرف الى محتوى المخطوطة المفقودة الا قليلا لأن الذي احتفظ به مصنف مخطوط فلورنسا كان قليلا ، ومع هذا هناك بعض الفوائد الثمينة ، فصـحيح عرفنا أن صـاحب نص فلورنسا اطلع على أصل يشبه أصـل مخـطوطة ليون ، لكن في نص فلورنسا نصين اسقطهما ناسخ مخطوطة « د » ، ومع ذلك يبدو أن ناسخ « د » لم يضف شيئا الى الأصل الذي اعتمده ، ومـع هـذا ينبغي علينا التمسك هنا بالحذر لأن مصنف مخطوطة فلورنسا برهن لنا في كل مكان عن اتجاهه نحو الاختصار ، فقد بتر شطرا من نصه

المتعلق بنص « غ » والشيء نفسه قام به مع الجزء الذي هو موضع اهتمامنا ، ولقد كان احيانا يتبع مصدره كلمة كلمة ، لكنه غالبا ما اختصر وحذف ماراه زائدا من كلمات أو لاسباب لغوية ، وبتر أحيانا مقاطع مع نصوص كاملة ، لعله اعتبرها مفسرة ، ومن هنا قام ببعض التعارض في روايته ، وظهر ذلك من خلال عرضه ، فمثلا روى لنا وفاة أسقف بيت لحم ودي أوبري دي ريمس وكأنه حدثنا عن ذلك من قبل ، مع أنه لم يفعل ذلك ، بل إنه قفز فوق المكان الذي له نظير في نص « د » حيث نحن أمام سفارتهم الى صلاح الدين .

لكن اذا كان هذا المصنف كان يميل الى الايجاز نعرف على العكس ان مصنف « د» كان يستطرد ثم يخرج بسهولة مبتعدا عن موضوعه ليقدم لنا منشورات تاريخية وتعليقات شخصية ، أو بكل بساطة تفاصيل جذابة أو مثيرة للاعجاب ، ونعرف ايضا انه كان مصنفا أحمق أساء التوفيق بين مصادره وضاع في سياق الأحداث ، وكرر لنا الشيء نفسه ثلاث مرات حول احاديث مختلفة ، وعلى عكسه كان مصنف نص فلورنسا ، لقد كان ذكيا وفنانا : قام بواجبه لينتج لنا أثرا جيد التأليف ، منسجما وواضحا وذلك انطلاقا من مادة صعبة وقاسية ، وذلك ان الحقيقة التاريخية لاتتم دائما الا بالرواية المنطقية المتسلسلة ، فهناك حوادث بعيدة الواحدة عن الأخرى بالمكان والزمان من الممكن ان تلتقي وتترابط بالتحليل السياسي ، وهنا هل ينبغي اتباع خط تسلسل الحوادث أم خط الفكر ؟ انها مسألة منهج وطريقة ، بيد أن مصنف مخطوطة ليون لم يعبث بنصه الى حد التشويه ، بل إنه أنتج من انعدام النظام لديه رواية حية هامة ومثقفة ، ومع ذلك انها غامضة ايضا لكنها توشك أثناء العرض ان تتصل بالقارىء ، وليس علينا الا أن ننظر الى الصفحة ١٠٨ ومايليها من الطبعة الحالية لنتعرف الى الطرائق المختلفة بالعرض لدى هذين المصنفين أثناء معالجة الحكاية لموضوع واحد ، ليكن مثلا احتلال قبرص أو احتلال عكا ، فهنا تتشابه الروايتان بشكل ضيق ، لكن تختلف بالوقت نفسه في وصف أحداث كثيرة في بلدان اخرى ، وبالنظر الى هذا التباين في الروايات وجدنا

من الضروري اضافة اعادات للاجزاء المقابلة الواردة في النص الآخر .

وأمام هذا التباين في العقليتين لانستطيع القول بالتأكيد فيما اذا كان هذا النص أو ذاك قد حذف من قبل احدهما أو اضيف من قبل الآخر ، فالفصل الذي يصف وصول الألمان الى عكا موجود بالمكان نفسه في نصوص « أ ـ ب » وس و غ ، وفلورنسا ، ومن المحتمل ان عدم وجوده في مخطوطة « د » جاء بسبب اسقاطه من قبل ناسخها ، ان كان هذا الفصل قد وجد أصلا في مخطوطة الاصل التي اعتمدها ، وفي حالة تاريخ ملك أرمينية نتكب على استخلاص نتيجة عكسية ، حيث نعثر على هذا التاريخ في جميع الذيول ولكن بصيغ مختلفة وفي أماكن متنوعة ايضا ، ويبدو لنا أن هذا التاريخ قد انتشر تحت صيغة مستقلة (نشرة دعائية بدون شك لأن لاون توج ملكا على أرمينية من قبل هنري دي شامبين) واستخدمها كل مذيل اختياريا ، ففي مخطوطة « د » جاء مكان هذا التاريخ ووضعه سيئا جدا ، حيث عرض إثر الحديث عن وفاة هنري ، وذلك في الوقت الذي انضمت فيه مخطوطة « د » الى مخطوطة « غ » وعلى عكس ماقام به مخطوط « د » نجد أن مصنف مخطوطة فلورنسا ـ وهو منطقي دائما ـ فضل هنا أن يثبت هذا التاريخ في مكانه ضمن سياق الأحداث ، أي قبل موت هنري ، لكن مامن شيء يخبرنا أنه وجد ذلك في مخطوطة من عائلة « د » .

وفي الحالة العكسية التي تعني أن بعض النصوص موجودة في مخطوطة « د » ومحذوفة في مخطوطة فلورنسا يمكن القول بالتأكيد أن الاسقاط كان متعمدا من جانب مخطوط فلورنسا فقد حدثنا هذا المخطوط علنا أثناء رواية أخبار سفارة الألمان لدى اسحق كومنين عن نيته بحذف بعض التفاصيل التي تعيق تقدم روايته ، وبالعكس ان بعض النصوص الموجودة فقط في مخطوطة « د» ربما هي من عمل ناسخ هذه المخطوطة ، وهذا ماتبين لي عام ١٩٧٣ أثناء التعليق على طباع الامبراطور فريدريك الثاني ، الذي هو غير

موجود في مخطوطة فلورنسا ، وبشكل عام عمل نيل فلورنسا على اختصار مواده بمنهجية ، بينما تاه نيل ليون بكل سهولة ، وهذا ماحال بيننا وبين معرفة المضمون الدقيق لأصلهما المشترك .

ومن أجل سعة هذا النموذج الأصل ليس بامكان مخطوطة فلورنسا أبدا أن توضح لنا التاريخ الذي بدأت فيه الرواية ، وليس مؤكدا أن ذلك كان الوقت نفسه الذي بدأ فيه نيل فلورنسا ، وسبب هذا أننا نجد في مخطوط فلورنسا مقطعا واحداً لعله نقل بالصدفة من رواية « د » ليدخل في سياق الحديث ، وجاء هذا لدى روايته أخبار حصار القدس ، ونستنتج من ذلك أنه كان أمام عيني الناسخ أو المصنف نسخة من « د » احتوت على هذا الجزء من النيل ، لكنه لم يستخدم هذه النسخة بشكل منهجي الا من أجل الجزء الملحق بتصنيفه التنظيمي ، أما بالنسبة لنهاية النموذج المشترك بين « د » وفلورنسا لانعرف شيئا مطلقا ، وثابت بما أن مخطوط فلورنسا توقف عن اعطاء رواية « د » نفسها في الوقت الدقيق لموت هنري دي شامبين ، أن هذا يؤكد النتائج التي استخلصناها من بينات أخرى ، ومن الممكن أيضا أن مخطوط مصنف « د » الذي كان نموذجا أصيلا لمخطوطتي ليون وفلورنسا ، قد توقف في ذلك التاريخ ، ومن أجل ذلك بدأ آنذاك مصنف نص مخطوط ليون اكمال تذييله اعتمادا على مخطوطة من عائلة « غ » ومن المؤكد الى حدما أن نموذج أصل « د » وفلورنسا من الذيول لم يقدم بعد ١١٩٧ مواد لها اهمية خاصة .

وخلاصة القول أن معرفتنا المعمقة عن مخطوطة فلورنسا لم تغير غير القليل من تقديرنا الذيول التي نعرف منها الآن خمسة مؤلفات هي « أ و ب وس » و « د » و « ف ل ، وغ » ومن مؤلف « غ » وحده انتشرت في أوربا ، وبين الأربع والاربعين مخطوطة من « غ » ثلاث منها أتت من عكا وواحدة من لومبارديا ، وواحدة من روما ، وواحدة من انكلترا ، وأتى الباقي جميعا أي الثمان والثلاثين مخطوطة من فرنسا ومن

فلاندرز ، ولاتوجد المؤلفات الاخرى الا في خمس مخطوطات هي التي تحمل في راشيل وفي عملنا الحروف الاولى « أ - ب - س - د - ف ل » ومخطوطة « أ » وحدها أتت من عكا ، ولايوجد نسخة أخرى عنها في مكان لخر .

وهكذا لاتتفق مخطوطة ليون ٨٢٨ في مجملها مع اي مخطوطة اخرى معروفة من النيول ، ونتعامل معها هنا كمخطوطة وحيدة للنص الذي تحتويه ، ويجب أن نبين أن هذه لكونها نتاج ناسخ قليل العناية ، تحتوي على عدد معتبر من النصوص الغامضة والطنانة الى حد أن المنضد في مطبعتي ، وأن كان ملتزما ، وجد أن عليه التدخل والتصحيح ، ولهذا هناك ثلاث طرائق تبنيناها اثناء النشر ، جاء كل منها حسب الحالات ، ففي الحالات التي لايوجد المتعامل معه في اي مخطوطة أخرى أعطيناه اضطرارا قراءة حدسية أو تخمينية ، وابدلنا في مكان لخر قراءة غير مقبولة في « د » بقراءة من « ب » وذلك في أجزاء من النص حيث وجدت علاقة واضحة بين المؤلفين ، وبدت لنا أحيانا قراءات في « د » مقبولة ولكنها غامضة ، وحينئذ لم نصحح نص « د » ولكننا اقتصرنا عن التوضيح باعطاء قراءة من « ب » في الحاشية ، ومن أجل الجزء الاخير من النص الذي نتولى طباعته استخدمنا مخطوطة فلورنسا كأداة رقابة وضبط لمخطوطة « د » وطبعنا منها النص كاملا في مقابل نص ليون ، وفي الاماكن التي اتضح فيها ان ذلك كان مستحيلا بسبب الوضعية المختلفة للمادة نفسها ، تولت الحواشي توجيه القارىء نحو الصفحات المقابلة في نص ليون .

المخطوطات التي استخدمناها هي كما يلي :

مخطوطة ٨٢٨ في مكتبة مدينة ليون ورمز اليها بحرف « د » من قبل الذين تولوا تحقيق راشيل ، واحتفظنا برمز الحرف الاول في

جميع الحالات الممكنة ، وبالنسبة لمخطوطة عكا التي يعود تاريخها الى حوالي سنة ١٢٨٠. ، فقد كان يتملكها في القرن السابع عشر ملكيور فيلبرت ، وهو تاجر من سكان مدينة ليون ، وقد أهدى هذا المخطوط في سنة ١٦٩٨ الى الكلية اليسوعية في ليون ، ومن الكلية هذه انتقل الى مكتبه بلدية ليون ، وهذا المخطوط ورقي ، صفحاته ذوات عمودين ، والكتابة بشكل عام مقروءة بشكل جيد ، باستثناء بعض المحلات ، حيث هي مطموسة جزئيا ، وكلمة واحدة قاومت جهودنا لحل رموز خطوطها ، وهي اسم أسقف « دي بوي » (ص ٩٨) ويبدو أن هذا الاسم قد محي عمدا ، ووصف هذا المخطوط بالتفصيل من قبل بوخثال وكذلك من قبل فولدا .

ــ مخطوط بلوتوس ٦١ ــ ١٠. في مكتبة اورانتسي في فلورنسا ، وهي نسخة ورقية كتبت على عمودين ، ونسخة من عكا تاريخها حوالي سنة ١٢٩٠ ، وقد دون على غلافها : « العبور الى الاراضي المقدسة واحتلالها باللغة الدارجة لأحد المؤلفين » وكتبت الاوراق ١ ــ ٨ على وجه واحد ، وامتلات بملاحق اختصرت تاريخ هرقل الموجود في بقية المخطوطة ، وفي هذه الملاحق ايضا بعض الاضافات لاحداث اخرى وقعت في دول الصليبيين ، وكانت هذه المخطوطة بين مخطوطات اسرة مدتشي ، خطها مقروء بشكل جيد في كل المواضع ، منمنماتها جميلة بشكل منقطع النظير وقد حظيت بدراسة مفصلة من قبل فولدا ، وقد رمز لها محققو راشيل بالحرفين « ف ل » وقد احتفظنا بهذا الرمز في الطبعة الحالية .

ــ مخطوط ٢٦٢٨ وهو ملك المكتبة الوطنية الفرنسية ، ورقي كتب على عمودين ، وقد نسخ الجزء الاول منه في عكا سنة ١٢٦٠ والجزء الثاني في حوالي سنة ١٢٨٠ ، ولقد استخدم أصلا من قبل محققي طبعة راشيل وهم الذين رمزوا له بحرف « ب » .

ولقد احترمت الكتابة السليمة للمخـطوطات في كل مـكان وكذلك التقسيمات والفصول والعناوين .

وأشكر هنا بكل اخلاص الاستاذة أوديت دي موروغوس ، والسيد م . فوستر ، والسيد أ . كوبي، وجميع الزملاء على كثرتهم الذين قدموا لي المساعدة بـأشكال مختلفـة ، وأشـكر الاكاديمية البـريطانية ، والسـيد ارنسـت كاسـل رئيس الهيئة التعليمية ، وجامعة كمبـردج التـي سـهلت مسـاعداتها مهمتنا هذه ، ومكتبات ليون وفلورنسا وباريس ، والسيدة أ . م بولي دي اسدين - سكرتيرة القسم الروماني في معهد الدراسات التـاريخية والنصوص ، شكري لجميع الذين أعانوني ، وفيمـا أنا أشـكرهم جميعا أقدم هذه الطبعة لمؤرخي الحـروب الصـليبية على أمـل أن تساعدهم وتكون بمثابة دليل داخل المتاهة الساحرة ، الا وهي ذيول تاريخ وليم الصوري .

ذيل

تاريخ وليم الصوري ١١٨٤ ـ ١١٩٧

اعتمـــادا على مخـــطوطة مـــكتبة مـــدينة ليون رقم ٨٢٨

١ ـ وجدت كراهية شديدة بين الملك وكونت يافا ، واخذت هـذه الكراهية تزداد يوما تلو الآخر وبـات هـــذا الشـــغل الشـــاغل للملك ، فسأل رئيس الأساقفة وليم الذي التقـاه واشـتكى اليه عن زواج أخته لأنه لم يكن صحيحا ولاقانونيا ، وعلم الكونت بهذا فأتى الى القدس حيث كانت زوجته مقيمة آنذاك ، وطلب منها بالحاح أن تغادر المدينة بالحال قبل أن يعود الملك من سفره ، وكان مرتابا بأن الملك لو وجدها هناك لن يسمح لها بـالعودة اليه ، لذلك الح عليهـا بالرجاء أن تعـود الى عسـقلان الى حيث كان يريد هـو الذهـاب حالا ، وعندما قدم الملك الى قصره بعث اليها بـرسالة طلب منهـا فيها العودة الى البلاط ، فأجابت أنها لاتسـتطيع فعـل ذلك لأنهـا محتجزة بالمرض،ثم بعث اليها بعدة رسائل أخرى ، بعث بـالواحدة تلو الأخرى لتعود غير أنها كانت تعتذر بسبب المرض ، وقـال الملك بما أنها لاتريد الرجوع فأنا سأذهب اليها وأدعوها بنفسي ، وهـكذا ارتحل يتبعه البارونات مباشرة وقصد عسقلان غير انه وجد الابواب موصدة ، فنادى وأمر أن يفتح له ، لكن لم يأت أحـد ولم يسـتجب انسان لما أصدره من أوامر ، وصـعد أهـالي المدينة الى الاسـوار وتسلقوا الأبراج ووقفوا دون أن يتحرك أحد ، وهكذا انتظروا بعض الوقت ، وغادر الملك المكان مزعوجا جدا ، وأخذ طريقه مباشرة الى يافا ، وتلقاه الفرسان والجنود وصـحبوه الى الداخـل بـدون أية مقاومة ، ثم ترك المدينة بعد ماعين لها حاكما ثم سافر من هناك الى

عكا ، ودعا الى مؤتمر يضـم البـارونات جميعـا مـع كل الاساقفة ، وعندما اجتمعـوا تقـدم البـطريرك ومقـدم الداوية (جيرارد دي ردفـورت) ومقـدم الاسـبتارية (روجـر دي مولين) من الملك وجثوا أمـامه وتـوسلوا اليه بـكل تـواضع وتقوى ، وطالبوه أن يغفر للمذنب ، على أساس أن يمثل كونت يافا أمامه ويعتذر اليه ، ولم يرد عليهم الملك ، وكل مافعله كان الاصغاء اليهم ، ثم أجاب مصرحا أنه لم يتخذه قط صديقا له ، ولهـذا عبـر عن كراهية شديدة له ، فالملك وأن كان ضعيفا في جسمه الا انه حمل حقدا عظيما في قلبه ، ثم غادر المجتمعون البلاط وتوجهوا الى خارج المدينة ،وكان على المجلس ان يجتمع ليرسل وفدا كبيرا الى فـرنسا وغيرها من البلدان يطلب اغاثة بـلاد يسـوع المسـيح وسـكان الأرض ، ولكن البطريرك الذي كان عليه أن يتكلم عن هذه المسألة قد تحدث عن أمر آخر ، ولأنه لم ينجز شيئا ، فقـد غادر المكان ومعـه البارونات ورجالات الاكليروس ، وهكذا لم ينتج عن الاجتماع أمرا مفيدا ، ولم يتحقق ماجاءوا من أجله ، واجتمعوا للبت فيه . وسمع كونت يافا أن الملك لم يمدحه ولم يطـره وأنه لا سـلام ولامصـالحة،

ففكر حينئذ بما يمكن أن يزعجه به ، فقاد أكبر عدد ممـكن مـن الفرسان ، وذهب الى قلعة الداروم حيث احتشد عدد كبير من البداة العرب الذين كانوا يرعون الحيوانات في المراعي ، وكانوا قد قـدموا للملك حصة من دخولهم مقابل احاطتهم بعنايتـه ووضـعهم تحـت حمايته ورعايته ، وبـذلك رقـدوا بـأمان ، ولم ينتـابهم أدنى خوف ، وباغتهم الكونت والفرسان ولم يقتلوا أحدا غير أنهم أخذوا كغنيمة كل ما وجدوه لديهم من مواشي وأمتعة وألبسة ، وحملوا ذلك كله الى عسقلان ، ولدى عودة الملك من عكا الى القدس بلغه الخبـر كيف انقض الكونت غي كونت يافا على ارض الداروم ، ونهب البدو الذين كانوا تحت حمايته ، مما أغضبهم وخيب آمالهم وبعد ذلك وقع الملك مريضا ، وقدأودى ذلك المرض بحياتـه ، وراسـل آنذاك أمير طرابلس ، لأنه كان يثق بشـخصه وأمـانته ، وفـوض اليه بـذلك الاشراف على السـلطة وعلى بـارونات الأرض والمملكة ، وحصـل بذلك فـرح عظيم وعم السرور بين صـفوف البـارونات وبـاقي

الشعب ، لأنهم قالوا لم تكن البلاد في وضع جيد من قبل ، لأن الملك لم يكن قادرا قويا ، ولم تكن السلطات كلهـا تحـت وصـاية كونت طرابلس .

٢ ـ وبينما كان الملك بلدوين على فراش الموت ، استـدعى اليه جميع رجالات مملكة القـدس ، وأمـرهم بتـأدية القسـم لكونت طرابلس (ريموند الثالث)بأن تكون المملكة تحت وصايته حتى يبلغ ابن أخته بلدوين السن المناسب ،وكان قد توجه أثناء حياته ،و جعله ملكا مثلما فعل معه عمه الملك بلدوين الثالث وبهـذا الشـكل صـار الترتيب او أن سوء الحظ الم بابن أخته بلدوين الملك الصغير ، الذي كان ابن أخته سـيبل مـن المركيز وليم بـن وليم الثـالث العجوز ، ومات بـدون ولي العهـد ، ولم يكن هناك وريثـا لمملكة القدس ، عليهم تنصيب ريموند صـاحب طـرابلس ، وليس هناك حاجة لجلب ملك من وراء البحـار ، لأن ريمـوند متمتـع بـالحكمة والارادة ، وكان الملك بلدوين الرابع يعرف جيدا ان مامن أحد آخـر يوجد أصلا في مملكة القدس له الحق مثلما لكونت طـرابلس ، لأنه كان ابن عم الملك بلدوين الثالث ، وسبب عدم وصـوله الى الملك أنه عندما انتقل الملك بلدوين من الحياة الى الموت ، تم الاتفـاق على أن يكون لأخيه عمـوري الملك في مملكة القـدس ، لأنه كان ولي العهد الحقيقي والوريث الشرعي ، ومن بعده ابنه بلدوين لانه كان ابن اخيه .

٣ ـ بعد موت من يعرف باسم الملك بلدوين الثالث ، جاء أخـوه عموري الى بطريرك القـدس والى بـارونات المملكة وطـالب بتـاج الملك ، لانه كان من حقه ويعود له وليس لغيره ، فأجابه البـطريرك ليس من حقك أي شيء من هذا القبيل ، والذي في مثل وضـعك ليس جديرا أن تكون مملكة القدس تحت حـكمه ، لكونك تحـت طـائلة الخطيئة المميتة ومـن كان مثلك لايمـكن أن يؤول اليه التـاج أو أن يحمـل أي لقـب شرف آخـر ، والجـريمة أو الذنب الذي أنب عليه

البطريرك الأمير عموري ، هو أن عموري كان قد تزوج من أغنس أخت الكونت جوسلين ، لوجود قرابة بينهما توجب الابتعاد والانفصال ، ورد عموري على البطريرك قائلا انه يريد أن ينال المغفرة برحمة من الكنيسة ومنه ايضا ، وأنه سيعمل ما في وسعه للامتثال لاوامره ، فأجابه البطريرك اذا لابد لك من أن تترك ابنة عمك وتنفصل عنها ، لأنك تزوجتها ضد الرب وضد العقل ، وعند ذلك يمكنك أن تحصل على تاج مملكة القدس ، وبعدما وافق عموري على الانفصال عن أغنس ، اتفق مع البطريرك ان يراسل روما ويطلب له من الكرسي الرسولي المقدس الغفران ، وتبرئة زوجته وأولاده من الذنب ، وبعدما انفصل عموري عن السيدة توج ملكا وبات سيدا لمملكة القدس ، وفي الوقت الذي بعث عموري برسائل الى بلاد روما اقترنت أغنس بهيو دي ابلين ، وفيما بعد تزوج عموري من ماري ابنة أخي الامبراطور مانويل (وكان ذلك في ٢٩ آب ١١٦٧) ومنها ولد ابنة سماها ايزابيل ، وهي التي أصبحت فيما بعد ملكة القدس ، ولم يكن الملك بلدوين المجذوم يرغب بدخول أي أجنبي الى مملكة القدس بدون موافقة الوصي على أمر المملكة ، فضلا عن ذلك كان يعرف معرفة أكيدة أن غي لوزنغنان ليس مناسبا أبدا لان يحكم في القدس أو أن يتمكن من تثبيت الأوضاع فيها وفي المملكة ، ثم انه ليس لأخته سيبل أي حق بالملك لان أمها عندما انفصلت عن أبيها لم تجر تبرئة الأولاد واعتبارهم شرعيين ، لهذا رأى ان أفضل الحلول منح الوصاية الى كونت طرابلس ، وإعطاء السلطة على بارونات المملكة ورجالاتها له وحده وليس لأي انسان آخر .

٤ ـ واستجاب الكونت ريموند صاحب طرابلس ، وقال انه سيتحمل أعباء السلطة بكل رغبة ، فهو لن يخشى من الطفل خلال السنوات العشر المقبلة ، اللهم اذا لم يصبه مكروه ، أو مات أو حدث أي شيء آخر له ، وأراد أن تكون القلاع والحصون تحت حماية فرسان الداوية والاسبتارية ، وآنذاك لم تكن هناك أية هدنة بين المسلمين والمسيحيين ، وأراد ريموند أن تتثبت له السلطة خلال

عشر سنوات (حتى يبلغ بلدوين الخامس سن الرشد) انما اذا مات الملك الطفل أثناء تلك المدة فتؤول السلطة لمن هو أحق بها، وذلك استنادا الى قرار مجمع السلطة الرسولية في روما وامبراطور المانيا وملك فرنسا وملك انكلترا، فالذي يقرر هؤلاء أن له الحق بالسلطة من الورثة بين الاختان سيبل التي كانت ابنة الاميرة أغنس أو ايزابيل ابنة الملكة ماري، ذلك أن الملك عموري جاء من أم لها حق بالوراثة لانها البكر بين أخواتها من الملك والملكة، ولهذا السبب لم توكل الا لمن له حق الوراثة بالبكورة، أو استنادا الى أمر مجلس السلطة العليا حسبما ذكرناه ولم توكل الى قريب ملكة طرابلس، حتى لايقع الخلاف في البلاد اذا مات الطفل، ولذلك أرادوا التمسك بما يقره المجلس الثلاثي الذي ذكرناه.

٥ - وكان هذا التدبير لصالح الملك والبارونات، وقد ارتأى هؤلاء بأن يكون الكونت جوسلين وصيا على الولد لانه كان عم أمه، وأن يحكم كونت طرابلس مدينة بيروت وتوابعها، وكان هذا تعويضا له من قبل بارونات البلاد، وعندما آن الأوان أمر الملك بتتويج الطفل، وان يحمل الى كنيسة الضريح المقدس، ويوضع على رأسه التاج، وحمله احد الفرسان على ذراعه الى هيكل الرب، وذلك لانه كان صغيرا، وكان الفارس كبيرا وعاليا، وكان اسمه بالين دي ابلين، وكان واحد من بارونات البلاد، وكانت العادة انذاك في القدس اثناء تتويج الملك ان يحمل التاج الى الضريح المقدس، ثم يحمله راعي الضريح الى الهيكل حيث وضع يسوع المسيح، وهناك يترك التاج، ومن ثم الاحتفال بانقاذ الضيف، ففي العادة عندما كانت الأم تلد اول ولد ذكر يضحى له بحمل او بحمام او بشحرور، وعندما كان الملك يقدم تاجه الى هيكل سليمان، حيث يقيم مقدم فرسان الهيكل، كانت تنصب مائدة الطعام والاكل، وما عدا اهالي القدس، فهم الذين كانوا يتولون الخدمة، فقد كان من واجبهم خدمة الملك، عند تناوله الطعام بعد تتويجه.

وبعدما توج الملك مات الملك المجذوم ، وكان قبل وفاته استدعى كل رجاله للاجتماع به في القدس ، فقدموا جميعا ، وبعد قدومهم توفي الملك ، ووقتها كان جميع بارونات الارض بين الحضور . ودفن في اليوم التالي في الجلجلة حيث دفن بقية الملوك منذ ايام غودفري دي بوليون ، لقد دفنوا في جبل الجلجلة حيث صلب يسوع المسيح بعدما واجه الالام .

٦ ـ قبل وفاة الملك وايضا قبل تتويج الطفل تمت مراسم تقديم الولاء من قبل جميع بارونات غلبلاد حسبما يحصل بين النبيل والملك ، وقدم هذا الولاء الى كونت طرابلس صاحب السلطة ، الذي اقسم بدوره اليمين امام جميع بارونات وفرسان المملكة الذين استدعاهم ، كما حصل من الاختان على الوعد بمساعدته في الحفاظ على الارض خلال عشر سنوات ، الا اذا مات الطفل وعندما توفي الملك المجذوم ، وقبل تتويج الطفل كلف الكونت جوسلين بالمحافظة عليه واخذه الى عكا ، ليرعاه ويحافظ عليه باحسن مايمكنه ، واستلم ريموند كونت طرابلس سلطة الملك .

٧ ـ وكان مما حدث في السنة الاولى من بعد وفاة الملك بلدوين المجذوم ان السماء لم تمطر في القدس ، ووجد شح بالماء للشرب ، وحدث انه كان في القدس واحد من اهلها يدعى غيرمين ، كان يقدم الخير تلقائيا ، لابل الخير الكثير في سبيل الرب ، فقد احضر احواضا الى القدس للتخفيف من ضيق العيش فيها ، وكان يتركها كل يوم مملوءة بالماء ، واليها كان يذهب كل من اراد الشرب ، وعندما رأى غرمين ان مجاري المياه قد جفت لانعدام المطر ، تألم كثيرا لانه لم يعد بامكانه متابعة عمل الخير الذي اعتاد على القيام به .

٨ ـ ولم تكن مياه نبع سلوان صالحة للشرب لانها كانت ملوثة ، ففي مياه هذا النبع كان الانسان يغسل جلود المدينة القديمة كما كانوا يغسلون الالبسة ، وكان الناس يسقون البساتين القائمة

تحت النبع في الوادي ، ومياه هذا الينبوع لاتجـري ياصـديقي يوم السبت ، ففي هذا اليوم يكون كل شيء هـادىء ، حتـى لتتسـاءل ماالذي حدث لهذا الينبوع .

وذات يوم بينما كان يسوع المسيح متوجها عبر المنطقة ، كان مولانا انذاك في القدس بين رسله ، وعندما عبروا الطريق رأوا رجلا بائسا بدون عيون ، وحينذاك توجه الرسل الى يسوع المسيح يسألونه فيما اذا كانت حالته بسبب خطأ من الاب او الام او الاهل ، حتى صـار هكذا بدون عيون ، فاجاب يسوع المسيح : هذه الحالة ليست نتيجـة خطأ للاب او الام او الاقارب ، ولكن ذلك ماحصل له ، ثم جاء يسوع المسيح وجلس هناك وتناول كاسا ووضعه امام عيني الرجل ثم امره ان يذهب ليغتسل في مياه نبع سلوان ، فذهب واغتسل ، فعـاد اليه البصر وراى الاشياء ، وبعد هذا قصد مـدينة القـدس ، ومضى الى اهله الذين اندهشـوا كثيرا ، لدى رؤيتهـم انه اصـبح قـادرا على الرؤية بعدما تعافى من مرضه ، وسألوه كيف رد اليه بصره ، فـروى لهم ماحدث معه ، ولم يستطع احد ان يفهم كنه ماحدث وتساءلوا عن السر ، وتعلقت القضية بالبصيرة قبل العين .

٩ ـ وسأحدثكم الان عن الكونت ريموند صاحب طـرابلس ، الذي كان حاكم مملكة القدس ، فهو عندما راى انحباس الامـطار ، وان الامطار لم تنزل على الارض ، وان القمح الذي بذر لم ينمو بتـاتا ، خاف من هذه الحالة والوقت الصعب فاستدعى بارونات البلاد مـع مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وتوجه اليهم بالخطاب : اي نصـيحة يمكن ان تقدموا لي بشأن انحباس المطر وتأخر نمو القمح ، واخشى ان يلاحظ المسلمون مانعاني منه في هذا الموسم الجاف والصـعب ، ويتعرفوا على هذا الوضع السيء ، فما رايكم ايها السادة ، وماهي النصيحة التي تقدموها الي ، هل اقـدم على ابـرام هـدنة مـع المسلمين ، واتوسل الى صلاح الدين من اجل ذلك ؟ وبالفعل اتصل بصلاح الدين وتوسل اليه فأعطاهم صلاح الدين هدنة سنة واحدة ، وبعدما عقدت الهدنة بين المسيحيين والمسلمين ، قدم المسلمون كثيرا

من الاغنية والمؤن الى المسيحيين ، ففرجوا عنهم خلال هذه السنة الصعبة والوقت القاسي ، والذين- من المسيحيين - لم يعقدوا هدنة مع المسلمين ، ماتوا جوعا ، ولعقد كونت طرابلس هذه الهدنة مع المسلمين ، احبه سكان البلاد كثيرا وبجلوه كثيرا وباركوه .

ونسيت عندما حدثتكم عن نبع سلوان ان احدثكم عن الاحسان الذي قام به واحد من اهالي القدس . فقد قام يوم الاربعاء من الاسبوع الرابع من الصيام ، وفقا لما تحدث عنه الانجيل عن الرجل الفقير الذي اعاد له يسوع المسيح الابصار بوساطة كأس الماء وعندما امره بالذهاب الى نبع سلوان ، فلبى طلبه فاسترد بصره وبات مبصرا ، وبمناسبة هذه الذكرى ومرورها كان يتم هذا الاحسان ،فقد كانوا يحملون الاحواض الى النبع ومن ثم ملأوها بالنبيذ ثم حملوا الجنود الخبز والخمر من كل نوع ، وقدم اليهم الناس الفقراء فحصلوا على الخبز والنبيذ كما حصلوا على الماء ، وشارك الرجال والنساء وساروا ذلك اليوم للاسهام بهذا الاحسان .

١٠ - وسأحدثكم الآن عن رجل صاحب مقام رفيع أصله من لومبارديا واسمه بونيفيس وهو أبو وليم صاحب السيف الطويل ، واسمه بالحقيقة وليم الثالث وابنه بونيفيس أخو وليم صاحب السيف الطويل كان بمرتبة مركيز ، وكان هذا المركيز جد الملك بولدين الذي كان ما يزال طفلا ، وكان أبوه وليم السيف الطويل ، وكان أبو هذا ملكا ايضا ، وعندما سمع أن أخوه البكر كان ملكا سر سرورا عظيما ، وقدم اليه ، وترك الأرض الى ابنه البكر ، وتوجه مسافرا الى بلاد ما وراء البحر ، وعندما وصل الى بلاد ما وراء البحر طمأنه كثيرا الملك وكونت طرابلس وبارونات البلاد ، فقد كانوا مسرورين بمجيئه ، وآنئذ قام الملك واعطاه قلعة قرب النهر حيث صام يسوع المسيح اربعين يوما ، ويبعد هذا المكان ستة أميال عن القدس وميلان اثنان أيضا عن النهر بجانب جبل يدعى جبل القديس الياس ، ويروى بالنسبة لهذا المسمى هلياس انه صام عند الجبل عدة أيام ثم نام فأرسل الرب اليه الى هنالك طبقا

فيه قطعة من الخبـز مـع بعض الماء ، وقـد أيقـظه الملاك ليأكل ويشرب ، فأكل وشرب وبعدما حصل هـذا في ذلك المكان الذي يدعى بلد القديس الياس والذي كان يدعى قديما افرام ارسل الرب مـلاكه الى جدعون (هنا التباس جغرافي بين منطقتين هما : افـرون وعلى مقربة منها دير القديس الياس ، وجبل الأربعين قـرب اريحـا حيث قرية هلياس) الذي تحرك في الهواء وقال انه سيذفي المدينيين الذين جاءوا لهدم بلد القديس وتخريب ارضـها ، وقـال جـدعون أعطني اشارة تبرهن بها وتجعلني أومن بها ، وطلب منه ذلك لانه كان مـن أسرة فقيرة ، وبرهنت له الشارة المقدمة اليه مع المكافأة التي حصل عليها عن رضى الرب وأنه مرسل اليه ، فقد أصبحت أرضـه مملوءة بالورد بعدما كانت جافة تقريبا ، وكان في هذا اشارة الى سيدتنا .

١١ ـ وكان للمركيز بونيفيس ولد يدعى كونراد ، وكان هذا قـد قرر التوجه الى بلاد ما وراء البحار بعد سفر والده حيث ابـن أخيه الذي كان ملك القدس ، وبعدما أصبح على ظهر البحـر لم يرغب له مولانا بالعبور ، فبعث اليه من قادة الى القسـطنطينية ، فهـو قـد فقدالأرض ، ولما اقترفه كونراد من الآثام هـو وأتبـاعه ، وللآثـام التي اقترفها الناس في أرض القدس ، وللاغراق في الترف الذي أمر مولانا بالنزوع عنه والاقلاع ، اخرهم هنا بعض الوقت ، وحصـل معه تماما مثلما حصل مع سليمان عندما غضب الرب عليه للخـطيئة التي اقترفها مع امرأة وثنية كانت لديه ، والتي كان يجب الا يبقيها لديه ، وجعله يكفـر ببناء معبـد على الجبـل الذي يبعـد ميلان عن القدس وثلث المسافة عن جبل الزيتون ، ثم غضـب الرب مـن بنائه المعبد على جبل الزيتون أكثر من غضبة من الخطيئة التي اقتـرفها من قبل ، فمن هناك صعد يسوع المسيح الى السـماء أمـام رسـله وذلك بعدما انبعث من الموت الى الحياة . وقال الرب آنذاك لسليمان لقد أغضبتني ، لكن من أجل حبه لابيه داود هدم مـا بناه ، ولهـذا تألم سليمان كثيرا بالتأكيد طيلة حياته ، ولم يتسلم المملكة الا قليلا من بعده ، وتركه الرب هكذا حيا محبة لابيه داود ، وهكذا لم تنتشر المسيحية في الأرض إلا محبة البشر ، وايضا ترك سليمان بن داود ،

كما ترك أيضا المدينة باسمه، وعقد كونراد عقدا بالقسطنطينية واذا ما سألتم كيف حصل ذلك ؟

ولم يبرم كونراد هذا العقد في القسطنطينية عندما كان اسحق الثاني هو الامبراطور وقبل أن يفقد بصره ، فقد كان في القسطنطينية رجل كبير اسمه ليفرناس (الكس برناس) وكان ابن عم الامبراطور مانويل (كومينوس) وكان ليفرناس هذا متخفيا ومطاردا أيام الامبراطور أندرونيكوس (أندروكومينوس) وسبب اختفائه أنه كان يتعرض لما تعرض له أقرباؤه على يدي أندرونيكوس ، وعندما قيل له ان أندرونيكوس قد توفي ، وأن اسحق الثاني اصبح الامبراطور خرج من مخبئه ، والتحق بالامبراطور الذي وثق به واعتمد عليه وتعلق به كثيرا ، وصار سيدا لامبراطورية القسطنطينية ، ولم ينزع من شيء طيلة امبراطورية اسحق .

١٢ ـ وحدث عندما كان أندرونيكوس وصيا على الطفل الكسوس بن مانويل امبراطور القسطنطينية ، أن تآمر أندرونيكوس هذا وخطط لخيانة كبرى وذلك بنصيحة من واحد من كتابه واسمه لانغوس (ايتين هاغيوكرستوفارايت) وفي احدى الليالي اخذ الأمير الطفل الى ابنة ملك فرنسا (أغنس ابنة لويس السابع) لتحتفظ به لديها ولتضعه من بعد في كيس ثم تحمله في مركب الى قلب البحر ، وتلقيه هناك فيغرق ، ثم تمكن أندرونيكوس من وضع آل الامبراطور مانويل في السجن ، فقلع عيون بعضهم وقطع السنة بعضهم الآخر وشفاههم ، وبعدئا فعل ذلك بكل من وصل اليه أو استطاع العثور عليه ، بعد هذا صار امبراطورا توج وأحدث كثيرا من الشرور كما قلت لكم .

١٣ ـ وعندما صار أندرونيكوس امبراطورا لم تبق راهبة في دير أو ابنة فارس أو سيد الا وجلبت غليه بالقوة والغضب ، وبما أنه كان مكروها لخبثه وشروره تمنى جميع سكان القسطنطينية دماره وموته ، وجاء يوم كان فيه أندرونيكوس خارج القسطنطينية ونزل

هناك في أحد القصور ، وكان معه خادم من سلالة الامبراطور ما
دويل اسمه كيرساك (اسحق الثاني انجيلوس) وكان ابن أرملة
وفقيرا جدا ، ولقد خدم أندرونيكوس في بلاطه وتحمله على
مضض ، وأخذ منه ذات يوم أثنا بالذهاب الى القسطنطينية ليأخذ
مناشفه وأغراضه الى الحمام فأعطاه أندرونيكوس الأذن . وبعدما
غادر من عنده كيرساك ، غرق الامبراطور بالتفكير العميق ، فقد
أراد أن يعرف كم ستكون حياته وكم ستطول ، فأرسل يسأل
المنجمين كم سيعيش ، واستجاب المنجمون لطلبه ، وذهبوا ليسألوا
الفلك فوجدوا أنه يعيش غير أيام ، وقال أقدمهم لآخر إن يشك أن
تدوم حياته سوى أيام ، وأراد أن يخفي عنه ذلك حتى يخفف عليه
الألم الشديد ، واتفقوا على ان يقولوا له ، إنه سيعيش
أياما ، وبعدما تطابقوا على هذا القول مثلوا في حضرته وقالوا له :
إنه سيعيش أياما ، وقد انزعج كثيرا لدى سماعه بذلك ، وسألهم
من الذي سيكون الامبراطور من بعده ، وما هو اسمه ، فطلبوا منه
امها لهم حتى يوم الغد ليخبروه ، فأعطاهم
ذلك ، ثم عادوا اليه وقالوا له إن اسمه كيرساك ، فخيل
لأندرونيكوس أن المعني هو (اسمه كوميذوس) دوق قبرص في ذلك
الوقت ، فجهز جيشه برا وبحرا ، وأعلن الحرب ضد الخائن
كيرساك ، الذي قالت النبوءة أنه ضد مولاه الامبراطور ويريد أن
يسلبه عرش الامبراطورية ، وعندما امر أندرونيكوس بهذا مثل في
حضرته لانغوس وأخبره أنه يشك في كيرساك الخادم ، وأنه له كل
الحق في قتله اذا كان مشكوكا به ، وفوضه أندرنيكوس في أن يعمل
ما يريده ، فذهب الى القسطنطينية وتوجه الى بيت
كيرساك ، وعندما سمع كيرساك صوت لانغوس قال لأمه : إن هذا
الذي يناديني يريد قتلي ، لذلك قولي له إنني نائم ، وكان اهالي
القسطنطينية يعرفون جيدا أن لانغوس عندما يطلب أحدا لايطلبه الا
ليقتله ، وقالت أم كيرساك للانغوس إنه نائم ، فأجابها إن عليه
الاسراع والمثول في حضرة الامبراطور ، فما كان من كيرساك الا أن
استأذن أمه ومن أهله ونزل ومعه سيفه قد أخفاه تحت
ثيابه ، وعندما مثل أمام لانغوس خاطبه بجنون وسأله أين

كان ، فأجابه : لماذا تسيء معاملتي ، لقد جئت برضى من الامبراطور ، فقال له لانغوس : إذا كنت مزعوجا مما أقوله فأنا مزعوج منك أكثر ، ورفع يده التي كان يحمل بها سوطا ليضربه به وداراه كيرساك حتى وضع يده على سيفه فضربه فقطع رأسه .

١٤ ـ وفي الحال خرج كيرساك الى الطريق يحمل راس لانغوس ، فتجمهر الناس حوله وحملوه وهو ملطخ بالدماء الى« قصر بوكليون » ومن هناك أخذوا التاج ومضوا به الى كنيسة آياصوفيا وتوجوه امبراطورا ، وبعدما انجزوا ذلك علا الصراخ في المدينة : مات الشيطان ، مات الشيطان ، وسمع أندرنيكوس الذي كان في منتجعه بذلك وعلم أن كيرساك قد توج امبراطورا ، فبادر على الفور بعبور البوسفور والعودة الى القسطنطينية ونزل في قصر بلاشرين ، وجهز قوسا ، وتمركز هناك ، وقال ان كيرساك سيمر بعد تتويجه من أمام القصر ، وعندها سيرميه ويقتله وبذلك يعود فيبقى امبراطورا وتعيش الامبراطورية بسلام ، وحدث هذا بالفعل ، لكن عندما مر كيرساك متوجا فوق أندرونيكوس قوسه نحوه وعندما أراد ارسال سهمه نحوه انكسر القوس بين يديه ، وأحبط سعيه ، واكتشف أمره ، فكان أن حاصره أهالي القسطنطينية على الفور وقبضوا عليه ، وجاء كيرساك فأودعه في قصر بوكليون ، وقرر أن يميته شر ميته لأنه أغرق سيده في البحر مع أنه كان ولي عهد الامبراطور مانويل شرعيا ، ولأنه اقترف اساءات فظيعة ، ثم جاء كيرساك وعراه من ثيابه ، وأخذ منه القوس ، ثم صنع له تاجا وتوجه مثلما يتوج الملك ، ثم حاكمه ومدده على الصليب فقلع احدى عينيه وترك له الاخرى ليرى بها ما سيحل به من عذاب وما سيلحقه من عار ، وأركبوه بعد هذا على ظهر حمار بالمقلوب وجعلوه يمسك بذيله ، ثم قيد عبر شوارع القسطنطينية وعلى رأسه التاج ، وسأقول لكم ما الذي فعلته النساء ، لقد أحضرن البول والاوساخ ورمينها على وجهه ، والنساء اللواتي لم يستطعن الوصول اليه صعدن الى أسطحة المنازل والقوا ايضا على رأسه

البول والقاذورات ، وجرى هذا في كل شارع واندرونيكوس حامل على رأسه التاج ثم حمل الى خارج المدينة حيث سلم الى النساء ، فركضن عليه مثل الكلاب الاليفة فمزقنه قطعة قطعة وأكلنه حتى آخر جزء منه ، وبعدما جردوا عظامه وأضلاعه ، ولم يبق منه ما لم يؤكل ، قالوا إن اللواتي أكلن منه سينجين من كل عذاب لأنهن ساعدن على الثأر منه لآثامه التي اقترفها ضد الناس ، وبعدما مات وعذب كما وصفنا أخذ ما تبقى منه الى « ساحة موكوفليس » حيث كانت هناك مزبلة ، وهناك وضعوه ودفنوه في أسوأ مكان ، وهناك وجدوا وعاء أخضر فكتبوا عليه بالاغريقية « عندما يموت امبراطورا مجللا بالعار سيدفن هكذا »

١٥ ـ وكان الامبراطور كيرساك محبوبا كثيرا من سكان البلاد ، والكراهية التي حظي بها أندرونيكوس مع لانغوس لما اقترفاه من اساءات لم يبق دير في القسطنطينية الا وكتب على بابه لعنات عليهما ، وعندما توج كيرساك لم تكن له زوجة ، وبناء على نصيحة من رجاله أرسل الى ملك هنغاريا (بيلا الثالث) يطلب أخته لتكون زوجة له ، وكان هذا الملك مستجيبا ومتفهما لمطالبه ، فأرسلها الى القسطنطينية فتزوجها كيرساك وتوجها امبراطورة ، وحدث أن الامبراطور سافر عبر امبراطوريته ونزل في مدينة القيصر فيليب ، حيث ولد الاسكندر كما قيل ، وهي قرب القسطنطينية ، ذكرها القديس بولس في جزء من رسائله التي عرفت باسم رسائل الى أهل فيلبي ، وكان هناك مدينة تدعى استيف كانت تعج بالاقمشة الناعمة المستوردة من سورية . وفي دير هناك عاش ألكس أخوكيرساك ، وبتحريض من زوجته التي قالت له إنها إذا لم تكن امبراطورة فلن تعيش معه ، سافر الكس وتوجه الى عند أخيه ، فاستخدمه وشرفه ، وطبعا لم يحذر منه ولم يحترس ولم يخش خيانته ، وفي أحد الايام دخل الكس الى الغرفة التي كان فيها أخوه الامبراطور ، فانقض عليه وتناوله من شعره ثم رماه أرضا وجلس على صدره فاقتلع عينيه ، ثم جاء الى القسطنطينية فتوج نفسه امبراطورا وتوج معه زوجته .

١٦ ــ بعدما تتوج الكس ، قامت الامبراطورة التي كانت زوجة كيرساك فزوجت ابنتها من فيليب بن الامبراطور فريدريك (ايرين أنجليوس التي تزوجها فيليب دي سوابيا بن فريدريك بربروسا سنة ١١٩٦ كانت ابنة الزوجة الأولى لاسحق ولم تكن ابنه مرغريت) وبعثت أيضا ابنها الى أخيها وملك هنغاريا فأعتنى به ورباه وحافظ عليه حتى قدوم ملك فرنسا ، حسبما ستجدونه في المخطوطة ، وقام ليفرناس الذي ذكرته من قبل ، وكان من أقرب الناس الى الامبراطور مانويل ، فجمع زعماء الناس ، وقدم نحو القسطنطينية ، وعندما عرف ألكس أن ليفرناس زاحف ضده أعلنه عدوا له ، وتوسل الى المركيز كونراد ، الذي كان انذاك في القسطنطينية ، أن يبقى هو ورجاله ويقف الى جانبه حتى ينتهي من حربه مع عدوه ، وطمانه المركيز أنه سيبقى وسيقف الى جانبه بكل رغبة ، وجاء ليفرناس الى القسطنطينية وكله أمل في معاقبة المجرم ، وقبل نشوب القتال لم يرغب ألكس في حشد قواته ضد ليفرناس في خارج المدينة لأن له أعوان كثر في المدينة ، ولهذا جاء المركيز ووقف ضد ليفرناس ، ثم قام بمهاجمته ، وانذاك خيل لليفرناس ومن معه أن كونراد ترك المدينة وقدم لمساعدتهم ، لكن عندما اقترب كونراد من ليفرناس وضربه فرماه من على ظهر حصانه ميتا ، ثم عاد أدراجه نحو القسطنطينية ، وعندما رأى رجال القسطنطينية الذين ارادوا حصار المدينة أن سيدهم قد مات هربوا ، وحينئذ قدم الامبراطور الى عند كونراد وشكره في قصره ، ذلك أنه لم يرغب في ان يلحق أدنى أذى بأتباعه من أهل المدينة ، وهنا رأى كونراد أن يستأذن الامبراطور ليسافر ، ذلك أنه جاء الى ما وراء البحار ليحافظ على المدينة التي وهبها الرب الى المسيحيين.

١٧ ــ وفيما يخص الملك بلدوين الطفل الذي كان في عكا يعيش تحت رعاية خال أمه ، انتابه المرض وتوفي سنة ١١٨٦ في شهر ايلول ، وحينذاك فكر الكونت جوسلين في خيانة عظمى قام بها ضد كونت طرابلس ذات تأثير ، فقد قال له ناصحا اذهب الى طبرية ولا

تذهب مع الملك الى القدس لدفنه ، ولم يسمح جوسلين بذهاب أي بارون من البلاد الى القدس ، وعوضا عن ذلك أعطوا الجثة الى الداوية الذي توجب عليهم حمله إلى القدس لدفنه ، واخذ كونت طرابلس بمشورته وعمل بها بكل حماقة ، وحمل رجال الدواية جثة الملك لدفنه في القدس وذهب كونت طرابلس الى طبرية ، وعند ذلك جاء الكونت جوسلين فاستولى على مدينة عكا ، ثم ذهب الى بيروت التي كانت تحت حماية كونت طرابلس ، وتورط في الأعمال الخيانية بشكل مؤكد حيث شحنها بالفرسان والسيرجانتية ، ثم أرسل الى اميرة يافا التي كانت ابنة أخته لتأتي الى القدس مع جميع فرسانها ليقوموا جميعا بعد دفن ابنها بالاستيلاء على القدس والمحافظة عليها وبذلك يمكن تتويجها ملكة .

وعندما عرف أمير طرابلس أن الكونت جوسلين قد خانه بهذه الصورة ، بعث الى جميع بارونات البلاد ليجتمعوا به في نابلس ، وذهبوا كلهم للاجتماع به باستثناء الامير ارناط وجوسلين ، ولم يرغب الكونت جوسلين بالتخلي عن عكا ، بل احتفظ بها وذهبت كونتسية يافا الى القدس ورافقها زوجها مع جميع فرسانهما ، وقامت بالاشراف على اجراءات دفن ابنها الملك ، وكان في القدس أيضا المركيز بونيفيس مع البطريرك مع مقدمي الداوية والاسبتارية ٠

وبعدما دفن الملك جاءت كونتسية يافا الى البطريرك والى مقدمي الاسبتارية والداوية وتوسلت اليهم ليجتمعوا بها ، وأخبرها البطريرك ومقدم فرسان الداوية أن عليها الا تشغل بالها تجاه هذه المسألة ولتأخذ الامور بالهوني ، فهما سيتوجانها على الرغم من آراء جميع الموجودين في بلاد سورية ، ومرد ذلك لحب البطريرك لأمها ولكراهية مقدم فرسان الداوية لكونت طرابلس ، وبعثوا وراء الأمير أرناط صاحب الكرك ، ليأتي الى القدس ، واستجاب وجاء الى القدس ، ثم تداولوا فيما ينبغي عليهم القيام به ، وكيف عليهم التصرف .

وأقر المجتمعون أن على الكونتيسة أن ترسل الى كونت طرابلس والبارونات الذين كانوا في نابلس تستدعيهم لحضور تتويجها ، لأن المملكة آلت اليها ، وبادرت على الفور بارسال رسول الى هناك ، وأجابها البارونات الذين كانوا في نابلس أنهم لن يحضروا ، وعوضا عن ذلك بعثوا باثنين من رعاة الديرة الى القدس للقاء البطريرك مع مقدمي الاسبتارية والداوية يحظرون عليهم أمام الرب والرسل القيام بتتويج كونتيسة يافا حتى ينعقد مؤتمر يضم جميع الذين أدوا يمين الولاء في أيام الملك المجذوم ، وذهب الراهبان الى القدس ومعهما فارسان هما جون دي بلسم ووليم دي كيوز الذي كان والد توماس دي سينت بيرتن وأبلغوهم الرسالة .

وأجابهم البطريرك ومقدم الداوية والامير أرناط أنهم لا يحسبون أدنى حساب لقسم أو كلمة ، وبدلا عن ذلك سيتوجون السيدة ملكة ، ولم يرغب مقدم الاسبتارية أن يكون طرفا مشاركا ، ولا أن يحضر لأن كل شيء كانوا يقومون به هو ضد الرب ويمينهم . ثم أوصدت أبواب المدينة حتى لايتمكن أحدا من الخروج منها أو الدخول إليها ، لأنهم باتوا يخشون أن يقوم البارونات الذين كانوا في نابلس (على مسافة اثني عشر ميلا من هناك) بالدخول الى المدينة أثناء تتويج السيدة ، وأن قتالا قد يندلع .

١٨ ـ وعندما سمع البارونات الذين كانوا في نابلس بأن أبواب المدينة قد أوصدت ، وأن مامن احد يمكنه الدخول اليها أو الخروج ، أخذوا جنديا من الرجالة ، وكان من مواليد القدس واهلها ، والبسوه ثياب راهب وارسلوه الى القدس ليراقب عملية تتويج السيدة ، وتوجه هذا الرجل الى هناك غير انه لم يتمكن من الدخول الى القدس عبر أي واحد من أبوابها ، فمضى الى دير مالدري المقدسي الذي كان مجاورا لسور المدينة وهنا أقنع راعي الدير بالسماح له بالدخول من باب خلفي من خلال الدير ، وقصد مباشرة الى كنيسة القيامة ، ومكث حتى شاهد وسمع وعرف كل ما بعث ليعرفه .

واصطحب مقدم الداوية والأمير أرناط السيدة الى كنيسة القيامة حيث كان البطريرك وذلك من أجل تتويجها ، وارتقى الأمير ارناط مكانا عاليا ثم وقف يخاطب الحضور من الشعب قائلا :أيها السادة انكم تعلمون أن الملك المجذوم وحفيده (ابن اخته ، الذي كان قد توجه هما الآن ميتان ، وهكذا باتت المملكة بلا وريث وبلا حاكم ، ونحن نرغب ، من بعد اذنكم ان نتوج سيبل ، التي هي موجودة هنا ، والتي هي ابنه الملك عموري وأخت الملك ، بلدوين المجذوم ، لأنها صاحبة الحق الأوفى والواضح والوريث الصحيح الملك ، وردد الشعب الذي كان موجودا هناك في صوت واحد بأنهم يفضلون أقرباء الملك عموري على أي واحد آخر ، وبذلك نسوا بالحال الأيمان التي أقسموها لكونت طرابلس ، ولهذا السبب لحقهم سوء الحظ منذ ذلك الحين .

وعندما كانت السيدة في كنيسة الضريح المقدس جاء البطريرك الى مقدم الداوية وطلب منه مفتاح خزانة الذخائر حيث كان التاج . موضوعا ، وأعطاه مقدم الداوية المفتاح بكل رضى ، ثم طلب من مقدم الاسبتارية أن يحضر مفتاحه ، وأجابهما مقدم الاسبتارية أنه لن يعمل شيئا من هذا القبيل ، فضلا عن أنه لن يخطو خطوة واحدة الى هناك ، ما لم يكن التدبير صادرا عن ارادة مجلس بارونات البلاد ، ثم توجه البطريرك مع مقدم الداوية الى حيث كان مقدم الاسبتارية للحصول منه على المفتاح ، وعندما علم مقدم الاسبتارية انهما في طريقهما اليه ، أسرع للدخول الى دير الاسبتارية ، ولم يكن من السهل أبدا العثور عليه والتكلم اليه ، وعندما عثرا طلبا منه أن يعطيهما المفاتيح فأجابهما أنه لن يسلمهما اياها ، واقد توسلا اليه ورجوه بحرارة ليفعل ذلك مما اغضبه والقى بالمفاتيح بعيدا عنه ، ثم التقطهم وامسكهم بكلتا يديه خشية أن يلتقطهم واحد من رهبان الاسبتارية ويعطيهم الى البطريرك ، ثم جاء مقدم الداوية مع الأمير أرناط وأخذا المفاتيح منه وذهبا الى الخزانة وأخرجا التاجين منها وسلماهما الى البطريرك ، فوضع البطريرك أحدهما على مذبح الضريح المقدس وتوج بالثاني كونتسية يافا .

وبعدما توجت الكونتسية ملكة خاطبها البطريرك قائلا : سيدتي إنك امرأة ، ومن الضروري أن يكون الى جانبك رجل يساعدك في حكم المملكة ، ويستطيع بالفعل أن يحكمها ، وجاءت وأخذت التاج ودعت اليها زوجها غي لوزنغنان الذي وقف أمامها ، وخاطبته بقولها : مولاي ، تقدم وتسلم هذا التاج ، لأنني لا أعرف استخداما له أفضل من اعطائه لك ، وجثا الرجل أمامها فوضعت التاج على رأسه ، ووضع مقدم الداوية يده عليه وساعدها في وضعه على رأسه وقال مخاطبا اياه : إن هذا التاج افضل لك وأربح من الزواج من سيده البترون ، وبعد هذا قام البطريرك برسمه ومباركته ، وهكذا أصبحت ملكة وأصبح ملكا ، وتم هذا يوم جمعة في سنة ١١٨٦ لتجسيد مولانا المسيح ، ولم يحدث من قبل أن جرى تتويج ملك في القدس يوم جمعة ، ولم يحدث أيضا اغلاق الأبواب وقت ذلك .

وبعدما فرغ العسكري ــ الذي تخفى بزي راهب ــ من مشاهدة عملية التتويج غادر القدس من الباب الخلفي الذي دخل منه الى المدينة ، وانطلق نحو مدينة نابلس الى كونت طرابلس والبارونات الذين أرسلوه ، وأخبرهم بالذي رآه .

وعندما سمع بلدوين صاحب الرملة أن غي لوزنغنان بات ملكا للقدس قال : انني أراهن أنه لن يبقى بالملك سنة ، وبالفعل لم يبق ملكا لمدة سنة لأنه توج في منتصف ايلول وخسر المملكة في يوم القديس مارتن في الشطر الأول من حزيران (٤ ــ حزيران) .

ثم توجه بلدوين صاحب الرملة بالخطاب الى بارونات البلاد وقال : أيها السادة الكرام ابذلوا ما يمكنكم من جهد لأن البلاد قد ضاعت ، وسأقوم بمغادرة البلاد لأنني لا أرغب في أن انتقد أو الام لمساهمتي بأي شكل من الأشكال في ضياع الأرض ، ذلك أنني أعرف أن الملك الحالي معرفة جيدة ، إنه على درجة عالية من الحماقة ثم انه رجل سوء ، وإنه لن يفعل شيئا مفيدا بناء على مشورتكم ، وبدلا عن ذلك انه يفضل الضياع والضلال بوساطة بدع

هؤلاء الذين لايعرفون شيئا ، ولهذا السبب انني سأغادر البلاد ، فرد عليه كونت طرابلس قائلا : ياسيد بلدوين من أجل الرب ورحمة بالمسيحية دعنا نجتمع ونتداول حول كيف سيكون بامكاننا الحفاظ على سلامة البلاد ، لدينا ها هنا ابنة الملك عموري مع زوجها همفري ، اننا سنتوجها ومن ثم نقصد القدس ونستولي عليها ، لأننا نمتلك قوى بارونات البلاد مع قوى مقدم الاسبتارية ، وذلك باستثناء الأمير أرناط الموجود مع الملك في القدس ، ولدينا هدنة مع المسلمين ، يمكننا أن نمددها حسبما نريد ، ولن يأتينا أذى أو ضرر من جانبهم ، لا بل عوضا عن هذا انهم سيساعدوننا اذا ما احتجنا ، وهكذا تعاهدوا واقسموا أنهم سيتوجون في اليوم التالي همفري .

١٩ ـ وعندما عرف همفري أنهم يرغبون بتتويجه ملكا ، فكر عميقا بالمسألة ورأى أنه لن يكون أبدا قادرا على تحمل هذه المسؤولية ، وعندما حل الظلام امتطى حصانه وكذلك فعل فرسانه ، وساروا طوال الليل ، وبذلك هربوا الى القدس ، وعندما جاء صباح اليوم التالي ، وبعدما استيقظ البارونات أخذوا في اعداد انفسهم لتتويج همفري ، ثم سمعوا فيما بعد أنه هرب وذهب الى القدس .

وعندما وصل همفري الى القدس مثل في حضرة الملكة ، التي كان زوجا لأختها ، ورحبت به ثم قالت انها لا ترحب به لأنه عارضها ووقف ضدها ولم يحضر تتويجها ، فأخذ يحك رأسه حياء مثل الأطفال قائلا : مولاتي هذا ما لم أتمكن منه ، فقد احتفظوا بي وأرادوا أن يجعلوني ملكا بالقوة ، ورغبوا في تتويجي بالحال ، ولقد هربت لأنهم أرادوا جعلي ملكا بالقوة ، وردت عليه الملكة بقولها : ياسيد همفري أنت على حق ، إنهم أرادوا الاساءة اليك اساءة كبرى عندما رغبوا في جعلك ملكا ، وبما أنك تصرفت على هذه الشاكلة فسأجنبك غضبي اذهب الآن وقدم ولاءك للملك ، وشكر

همفري الملكة لأنها أعفته من غضبها وقدم الولاء الى الملك ، ومكث مع الملك في القدس .

ولدى سماع كونت طرابلس والبارونات الذين كانوا في نابلس أن همفري ذهب وقدم الولاء للملك حزنوا كثيرا ، ذلك أنهم خسروا بذهابه ما كانوا يخططون له لمساعدة أنفسهم للحفاظ على البلاد ، ولم يعودوا يعرفون ماذا سيعملون ، ثم جاء البارونات الى كونت القدس وخاطبوه قائلين : مولانا ، بحق محبة الرب ، أشر علينا ماذا يمكن أن نفعل بالنسبة لليمين الذي أخذه علينا الملك المجذوم نحوك ، ذلك أننا لا نرغب أن نقوم بأي عمل سننال من ورائه اللوم أو النقد ، فضلا عن أننا لا نود مطلقا أن نقدم على أي اجراء فيه أدنى ضرر نحوك ، وأخبرهم الكونت ان عليهم الاحتفاظ بيمينهم والا يبدلوا شيئا عما صنعوه من قبل ، فهو الآن لا يعرف رأيا أصوب ليقدمه لهم ، واجتمع البارونات فيما بينهم للتداول .

٢٠ — وبعدما تداولوا بين أنفسهم جاءوا الى الكونت وخاطبوه قائلين : مولانا ، بما أن الأمور سارت على هذا المنوال ، وأخذت هذا المنحى ، فبات هناك ملك في القدس ، لا يمكننا الآن أن نحكم ضده ، لأننا لو فعلنا ذلك فزنا بالملامة ، ولانحب أن نحصل على ذلك ، إننا نتوسل اليك ، من أجل الرب ولا تنزعج منا تجاه ذلك أو تشعر بالأذى أن تذهب إلى طبرية وأن تمكث هناك ، وسنذهب نحن إلى القدس ونقدم الولاء للملك ، وكل ما نستطيع أن نفعله لصالحك سنفعله الا ما تعارض مع كرامتنا ، وسنسعى لتأمين التعويضات عن كل ماأنفقته على البلاد ، الأمر الذي كان الملك المجذوم أعطاك ضمانا له مدينة بيروت ، ولم يرغب بلدوين صاحب الرملة في مشاركتهم بهذا الرأي والمسلك .

وعندما رأى كونت طرابلس أن جميع البارونات قد تخلوا عنه ، ذهب الى طبرية وذهب البارونات الى القدس لتقديم الولاء الى الملك ، باستثناء كونت الرملة ، فقد بعث بأصغر أولاده ، وطلب

من البارونات أن يتوسلوا للملك ليعطي ابنه حق وراثة الارض عندما يقدم الولاء له .

وعندما قدم البارونات الولاء للملك اخذوا معهم ابن بلدوين صاحب الرملة ليمنحه وراثة أرض أبيه وليقدم له الولاء ، فأجاب الملك بأنه لن يمنحه حق الارث للأرض ولن يقبل الولاء منه حتى يأتي الاب بالذات ويقدم بنفسه الولاء الى الملك ، وعندما يقوم الاب بتقديم الولاء يمكن جعل الابن وريثا لابيه ، واضاف الملك انه إذا لم يأت وليم صاحب الرملة لتقديم الولاء ، فسيصار الى مصادرة أرضه .

٢١ - واستدعى الملك غي اليه بلدوين دي ابلين (يبنا) ثم وجه الدعوة الى باقي بارونات البلاد للاجتماع به في عكا ، وقد استجابوا جميعا ، واجتمعوا في مقر رئيس كنيسة الصليب المقدس ، وفي البداية ارتقى الملك المنبر واخذ يتحدث مبينا كيف توج ملكا على القدس ، وكيف أن الرب من عليه بهذه النعمة وجعله جديرا بالتاج ، وبعدما أنهى خطابه قال له الأمير ارناط الذي كان واقفا على مقربة منه : ادع الأمراء لتقديم الولاء لك وادع أيضا بلدوين دي ابلين ليقدم لك الولاء ، ومالبث الأمير أرناط أن توجه بالدعوة الى بلدوين عدة مرات ، ولما كان بلدوين رجلا حكيما عاقلا متزنا لم يرغب بتلبية طلبه ، ولما رأى الملك أن بلدوين دي ابلين لم يستجب لطلب الأمير أرناط ناداه بنفسه وقال : أصدقائي الكرام تقدموا لتأدية الولاء ، وليكن لكم الشجاعة بأن يكون الناس الطيبون هنا على رأسكم .

ورد الكونت بلدوين دي ابلين على الملك قائلا : بما أن والدي لم يقدم الولاء لوالدك ، فأنا لن أقدمه لك ولن اكون وفيا لك ، لكن هناك ابني توماس الذي مايزال صغيرا فعند بلوغه السن المناسبة سيأتي اليك ويمثل بحضرتك كما يمثل امام سيده ، وسيقدم لك الولاء وسيقوم بكل ما يتوجب عليه وانا سأترك المملكة في يوم قريب .

ثم التفت الى أخيه بالين واستأذنه وكلفه في ان يتولى حفظ ولده حتى بلوغ السن وبعد ذلك أخذ الطريق وقصد أنطاكية وبرفقته الفرسان الذين كانوا تحت إمرته ، ولدى سماع بوهيموند الثالث امير انطاكية أن بلدوين دي ابلين قادم اليه مع كثير من الفرسان ابتهج كثيرا ، وتوجه الى استقبالهم وتلقاهم ورحب بهم بسرور عظيم .

٢٢ ــ وبينما كانت الأمور تسير على هذا المنوال ، جاء رجل الى الامير أرناط واخبره أن قافلة عظيمة قادمة من مصر تريد دمشق لابد أن تمر قريبا في ارض قلعة الكرك ، فما كان من أرناط الا العودة الى الكرك ودخل الى هذه القلعة وجمع أكبر عدد من رجاله ، وتوجه بقصد الاستيلاء على القافلة ، وكان فيها أخت صلاح الدين ، وتمكن من ذلك .

وعندما سمع صلاح الدين ان الامير أرناط استولى على القافلة واسر أخته غضب غضبا شديدا وتألم كثيرا ، وبعث بعدة رسائل الى الملك الجديد يطالب باسترداد القافلة مع أخته ، ولم يعلن الغاء الهدنة ، واراد اعطاء الفرصة الى الملك الجديد الشاب ، وبالفعل أرسل الملك غي الى الامير أرناط يطالبه باعادة القافلة الى صلاح الدين مع أخته التي أسرها عند الاستيلاء على القافلة ، فأجابه بأنه لن يعيد شيء قطعا ، لأنه هو سيد أرضه كما أنه سيد بلاده ، ولايوجد بينه وبين المسلمين هدنة ، المهم أن الاستيلاء على هذه القافلة كان السبب في ضياع مملكة القدس ، حسبما اشرنا من قبل .

٢٣ ــ وعقد الملك غي اجتماعا في القدس مع مقدم فرسان الداوية ، وقال له : أن أمير طرابلس لم يقدم له الولاء والطاعة ، فأشار عليه أن يرسل قواته لمحاصرته في طبرية ، وعندما عرف أمير طرابلس بأن الملك غي أرسل جنده ضده انزعج كثيرا فراسل صلاح الدين في دمشق وأعلمه أن الملك غي قد أعد قواته

ليزحف ضده الى طبرية ، وتساءل فيما اذا كان بوسعه انقاذه فبعث اليه صلاح الدين بالفرسان والجنود مع كثير من السلاح ، وأوصى قواته : أنهم اذا حاصروه صباحا ، انقذوه مساء ، على هذا تدخل صلاح الدين فأرسل بقواته ، بعدما حشدها في بانياس ، وبعث منها الى طبرية مقدار ألف شخص .

وحشد الملك غي قواته في الناصرة ، وعندما فعل ذلك قدم اليه بالين دي ابلين وقال له : لماذا يامولاي جمعتم هذه الفيالق كلها ؟ والى أين ستزحف هذه القوات ؟ فالوقت غير مناسب للقتال ، فأجابه الملك بأنه يريد حصار طبرية ، فقال له بالين : من الذي أشار عليكم بالقيام بهذا العمل ؟ إنه رأي سيء ، ومامن رجل حكيم يوافقك على هذا التحرك ، واعلم علم اليقين انه برأيي ورأي البارونات أنك لن تنجح في هذه المهمة لوجود عدد كبير من الفرسان داخل طبرية من المسيحيين والمسلمين ، ولديك قليل من الرجال لحصار طبرية ، ثم اعلم أنك اذا ذهبت للقيام بهذا العمل ، وعندما ستتولى حصارها سيقدم صلاح الدين الى انقاذها بعدد كبير من الرجال ، والآن اصرف قواتك وعندي عدد كبير من الرجال يمكن أن يذهبوا الى أمير طرابلس ، وسنعمل بقدر ماأوتينا من قوة لاصلاح ذات البين بينكما ، لأن الشحناء بينكما ليست مجدية .

واستجاب الملك فصرف قواته وبعث برسائله الى طبرية ، ولدى وصول الرسل الى طبرية التقوا بالأمير ريموند وتحدثوا معه بشأن احلال السلام بينه وبين الملك ، فأجابهم الأمير انه لن يكون هناك سلم ولن يستجيب لأي مسعى للصلح مادام الاستيلاء على حصن بيروت مستمرا ، واذا مااستمروا في الاستيلاء على حصن بيروت الذي اغتصبوه ، فسيعمل ماسيراه مناسبا ، وعاد الرسل الى الملك ورووا له ماوجدوه لدى الكونت .

٢٤ ــ وهكذا ظلت الأحوال طيلة موسم الشتاء حتى قبيل حلول عيد الفصح ، وقبيل حلول عيد الفصح سمع الملك أن صلاح الدين

شرع بحشد قواته على نية غزو البلاد والدخول الى أراضي المملكة ، فبعث وراء جميع بارونات البلاد ، ورؤساء الاساقفة والاساقفة للقدوم اليه والاجتماع به في القدس ، واستجابوا لطلبه ، واجتمع به البارونات وبقية السادة فأخبرهم بتحركات صلاح الدين ، وطلب منهم تقديم الرأي والمشورة حول ماينبغي القيام به ، وقال له بارونات البلاد ناصحين ان عليك الاتفاق مع أمير طرابلس ، واذا لم تتفق معه لن يستطيع الجند التصدي للمسلمين ، وذلك انه لدى كونت طرابلس جيشه الكبير من الفرسان ، ثم أنه رجل حكيم مدبر واثق من نفسه ، استهدف دوما ضمان أمنه واظهار أنه لايخشى من أحد حتى من المسلمين ، ثم استطرد البارونات يقولون : مولاي لقد فقدتم أعظم فارس في أرضكم وأحكم رجل في بلادكم الا وهو بلدوين صاحب الرملة ، واذا ماخسرتم مساعدة أمير طرابلس ورأيه تكونون قد خسرتم كل شيء .

وعند ذلك قال الملك لابد من ازالة الخلاف والنزاع فيما بيننا واقامة مصالحة وسلام معه ، واذا ماوافق على ذلك بطيبة خاطر سيكون هذا مفيدا ، وسيكون حسنا فعل ، واثر ذلك استدعى اليه مقدم فرسان الداوية الاخ جيرارد دي ردفورت ، ومقدم فرسان الاسبتارية الاخ روجر دي مولين ، ويوسيه رئيس اساقفة صور ، وبالين دي ابلين وريندو صاحب صيدا ، ثم أمرهم بالتوجه الى طبرية للاجتماع بأمير طرابلس لعقد المصالحة معه واقامة السلام ، واعلامه أن الملك تائق لهذا السلم الذي سيعقدونه فيما بينهم .

وتحرك الوفد وذهب الى نابلس أولا ، وذلك باستثناء ريندو صاحب صيدا الذي سافر عبر طريق آخر ، ووصل ليلا الى نابلس ، ثم جاء بالين دي ابلين الى مقدمي الداوية والاسبتارية والى رئيس أساقفة صور وقال لهم : ان نهار الغد قصير ، وأنه

سيمكث بنابلس ثم يتحرك ليلا ، ويبقى مسافرا طوال الليل حتى يلتحق بهم عند مطلع النهار ، وهكذا سافر هؤلاء وبقي بالين .

٢٥ ـ وكان واحد من أبناء صلاح الدين عرف باسم نور الدين ، قد برز أنذاك وعبر عن نفسه كفارس شجاع ، وهو الذي حمل اسم الملك الأفضل ، وأصبح فيما بعد أمير مدينة دمشق ، وكان هذا الأمير معسكرا أنذاك عبر نهر الأردن ، على مقربة من مخاضة يعقوب ، وكان صلاح الدين ، والده قد أمره بالدخول الى أراضي المسيحيين بغية الانتقام منهم لحادثة القافلة التي استولى الأمير ارناط عليها وليثأر لاخته التي أسرها حين الاستيلاء على القافلة وابقاها لديه سجينة ، ولانه لم يكن بامكانه الدخول عن طريق آخر غير خلال ممتلكات طبرية التي عادت انذاك لكونت طرابلس ، وبسبب أن الكونت المذكور كانت بينه وبين صلاح الدين هدنة قائمة وقد تسلم منه مساعدات كبيرة ، وعطايا تدل على صداقته نحوه ، لم يرغب صلاح الدين في الدخول الى أراضي المسيحيين بدون اذن وبالنظر لوجود شقاق بين كونت طرابلس والملك ، طلب من كونت طرابلس السماح له بالدخول الى أراضي المسيحيين من خلال أراضيه ، ومن ثم القيام بغارة هناك .

وعندما سمع الكونت بهذا الطلب أصيب باضطراب عظيم ، فهو إن رفض هذا المطلب الذي قدم اليه ، بات يخشى فقدان مساعدة صلاح الدين ومساندته ، واذا ماسمع بذلك فانه سيوصم بالعار ويوجه اليه اللوم الشديد في أوساط المسيحيين ، واخيرا قرر أن يتصرف وفق مايلي : سيقوم بانذار المسيحيين وبذلك لن يخسروا شيئا ، وبناء على ذلك أعلم ابن صلاح الدين انه على استعداد لاعطائه الاذن المطلوب بالدخول الى أراضيه والى أراضي المسيحيين في ظل بعض الشروط المحددة : عليه أن يعبر النهر عند شروق الشمس وأن يعود عند غروبها الى اراضيه بدون كرة ، والا يسلب بيتا أو يستولي على شيء ما أو يلحق به أذى في أي مدينة أو بلدة ، ووافق ابن صلاح الدين على هذه الشروط والتقيد بها .

وعندما أتى صباح اليوم التالي ، عبر المسلمون النهر حسب الاتفاق ، ومروا من أمام أبواب طبرية ، ودخلوا الى أرض المسيحيين فأغلق كونت طرابلس أبواب طبرية حتى لايدخلوها فيحدثوا فيها الاضرار ، وكان هذا التصرف من كونت طرابلس احمقا في ذلك اليوم ، لأنه قام به قبيل وصول رسل الملك اليه ، ولتدارك الامور أعد الكونت رسالة وبعث بها مع رسول الى الناصرة الى الفرسان الذين كانوا هناك ليتنبهوا ويأخذوا حذرهم ، كما بعث ينذر أهالي البلاد جميعا لاسيما المناطق التي كان يعرف ان المسلمين لابد أن يمروا بها ، وطلب منهم الا يغادروا مدنهم ويغلقوها ويتحصنوا بها ويلتزموا بيوتهم ، لأن المسلمين لن يهاجموا مدينة مغلقة وسيلتزمون بالصمت ، لكن اسوء الحظ اذا وجدوا أحدا خارج المدن سيأسرونه أو يقتلونه ، وبموجب هذه الوصايا تصرف الكونت في طبرية وجهز سكان مدينته ، ثم بعث بعد ذلك بالرسل الى حصن الفولة حيث التقوا بمقدمي الداوية والاسبتارية وبرئيس أساقفة صور ، وقدموا اليهم الرسائل التي حملوها من كونت طرابلس .

ولدى اطلاع مقدم الداوية على الأخبار التي ذكرت أن المسلمين سيدخلون غدا الى البلاد ، بعث على الفور برسول الى دير الداوية الذي كان على مسافة أميال من حيث كان ، وطلب من فرسانه القدوم اليه لأن المسلمين سيدخلون يوم الغد الى البلاد في الصباح ، ولما سمع الفرسان استعدوا واحتشدوا ونفذوا أوامر مقدمهم فساروا نحوه فكانوا في منتصف الليل لديه حيث تمركزوا أمام حصن الفولة .

وعند حلول الصباح من اليوم التالي تحركوا وقصدوا مدينة الناصرة حيث كان بعض فرسان الداوية وفرسان الاسبتارية مع مقدمهم كما كان هناك الفرسان المخصصين لحماية الملك ، وعبر الناصرة نحوا من ألف فارس وأخذوا اتجاه طبرية ، فوجدوا المسلمين عند نبع ماء اسمه كرسون ، وكانوا على نية العودة لعبور

نهر الأردن ، دون الحـاق أدنى ضرر بـالمسيحيين لأن المسـيحيين كانوا قد صانوا أنفسهم بالالتزام بوصايا كونت طرابلس .

وكان في مقدمة فرسان الداوية فـارس مقـدام ازدرى كل الناس الآخرين واحتقرهم ، ولهـذا لم يعـر الاهتمـام الى آراء مقـدم الاسبتارية الاخ روجر دي ميلون ولاأيضا أوامر الاخ جاك دي ميالي مارشال فرسان الداوية ، حتى أنه خـاطبه بـرعونة وقـال إنه لن يسمع كلام رجل يستعد للفرار ، فأجابه المارشال بـأنه سـوف لن يهرب أبدا من المعركة ، وهكذا وقف في ساحة القتال ، غير أنه هرب فيما بعد مثل جندي خائن ، خـلاصة القـول اندفـع مقـدم الداوية والفرسان الذين كانوا بصحبته وألقوا بأنفسهم أمام المسلمين وكان معهم أيضا مقدم الاسبتارية ، فتلقاهم المسلمون بكل شدة ، وغرق المسيحيون بين صفوفهم ، فقد كان المسـلمون مسـلحين تسـليحا جيدا ، ولم يكن المسيحيون كذلك ، وعلى أرض المعركة فقـد مقـدم الاسبتارية رأسه وفقد معظم فرسان الداوية كذلك رؤوسـهم ، حيث قطعت جميعا ، ولم ينج غير مقدم الداوية مع ثلاث من فرسانه ، أما الفرسان الذين كانوا يتولون حماية الملك فقد أسروا جميعا ، وعندما رأى جنود الداوية والاسبتارية أن فرسانهم غرقـوا في لجـة جيش المسلمين ، هربوا وأخذوا معهم عتاد المسـيحيين وهـكذا لم يخسر المسيحيون شيئا من عتادهم .

٢٦ـ ـوحدث أنه عندما كان مقدم الداوية يعبر الناصرة زاحفـا ضد المسلمون أن بعث جنديا على ظهر حصان ليستنفر في الناصرة كل من هو قادر على حمل السلاح ليجتمعوا ويبـادروا على الفـور الى اللحاق به ، فعندما سيصلون اليه سيجدون المسلمين قـد أصـابهم الانهاك ، وبعدما احتشد أهل الناصرة وأسرعوا مغادرين لمدينتهـم وركضوا ليصلوا الى حيث كانت المعركة ، وجـدوا عندمـا وصـلوا المسيحيين أمواتا مدمرين ، ومـالبث أن انقض عليهـم المسـلمون وأسروهم جميعا ، وما أن فرغ المسلمون من عملهـم ومـاأن أكملوا قتل المسيحيين وتحطيمهم قاموا بحمل رؤوس فـرسان المسـيحيين

الذين قاتلوهم على أسنة رماحهم ، واقتادوا الذين أسروهم نحو السجون ، ومروا في طريق عودتهم من أمام طبرية ، وعندما رأى مسيحيو طبرية أن المسيحيين قد دمروا وأن المسلمين حملوا رؤوس المسيحيين على أسنة رماحهم وأخذوا الباقي أسرى واقتادوهم أمامهم ، أصابتهم الام عظيمة .

وهكذا عبر ابن صلاح الدين ومعه رجاله النهر عائدين عند غروب الشمس ، وقد حافظوا تماما على مواثيقهم مع كونت طرابلس ، بحيث لم يتسبب أي منهم بأي أذى لقلعة أو مدينة أو لبيت من البيوت ، وفقط الذين صدفوهم على ساحة القتال نزل بهم مانزل ، ووقعت هذه المعركة يوم الجمعة ، وكان يصادف يوم عيد القديس جيمس مع القديس فيليب ، وهو أول أيام شهر أيار ، وجرى هذا كله بسبب استيلاء الأمير أرناط على القافلة في أراضي الكرك ، وكانت هذه بداية فقدان المملكة .

٢٧ ـ عند حلول الظلام تحرك بالين الذي كان في نابلس حسب الاتفاق ومايقتضيه الحال باتجاه مقدم الاسبتارية ومقدم الداوية وليطارد الأعداء ، لكن بعدما قطع مسافة عشرة أميال وصل الى البلدة التي تحمل اسم سبسطية ، وعندها لاحظ أن الفجر قد بزغ فآثر التوقف لسماع القداس وبناء عليه عاد وقصد بيت الأسقف وأيقظه وجلس معه وتحدث حتى شروق الشمس ، وعند ذلك ارتدى الأسقف لباس الصلاة ورتل القداس .

وبعد ماسمع بالين القداس بادر الى السفر بسرعة نحو مقدم الداوية ، وظل مندفعا حتى وصل الى حصن الفولة ، فوجد هناك خارج الحصن خيما منصوبة ولايوجد فيها أحد ، فاصيب بالذهول لعدم وجود أحد فيها ليسأله عن جلية الأمر ، وبناء على ذلك بعث بواحد من أتباعه الى داخل الحصن ليسأل من يجده فيه ، ودخل التابع الى الحصن وصاح في داخله فلم يجد أحدا ، ولم ير انسانا يطلعه عن خبر ، وفقط عثر على المرضى في احدى الغرف ، ولم

يستطيع هؤلاء ان يخبروه بشيء مطلقا ، وعند ذلك عاد الى سيده واخبره أنه لم يجد احدا يخبره عن سر الاوضاع القائمة ، وهنا أمره سيده بامتطاء ظهر حصانه ويتبعه للذهاب الى الناصرة ، وماأن ابتعدوا قليلا عن الحصن ، حتى خرج منه أخو مقدم الداوية ممتطيا ظهر جواده وصاح طالبا انتظاره حتى يصل اليهم ، فانعطف نحوه باليان دي ابلين وسأله عن الاخبار فأجابه : انها سيئة ثم استطرد يقول : ان رأس مقدم الاسبتارية قد قطع مع جميع رؤوس فرسان الداوية باستثناء الذين لاذوا بالفرار ومنهم مقدم الداوية وثلاثة من فرسانه ، وقد وقع الفرسان الذين يتولون حراسة الملك بالاسر جميعا ، ولدى سماع باليان دي ابلين بهذه الأخبار تيقن أن المعركة كانت كبيرة وقاسية ، فاستدعى واحدا من جنوده وبعث به الى نابلس الى عند الكونتيسة زوجته ليطلعها على الأخبار ، وليقول لها بأن تأمر جميع فرسان نابلس ليأتوا اليه ليلا من نابلس ، ثم مالبث أن تصادف مع الجنود الذين كان معهم عتاد فرسان الهيكل ، أي الجنود الذين فروا من المعركة الضارية ، ولقد أدرك باليان انه لو لم يذهب الى سبسطية ويتوقف لسماع القداس لكان أتى عليه ماأتى على الذين حضروا المعركة .

وعندما جاء باليان الى الناصرة سمع بحدوث فوضى كبيرة في المدينة بسبب سكانها الذين قتلوا أو أخذوا أسرى في المعركة ، وشكل هؤلاء أكثرية الذين لديهم منازل في المدينة ، وهناك وجد مقدم الداوية الذي هرب من المعركة ، وهناك أيضا مكث فرسانه ثم أعلم أمير طبرية أنه في الناصرة ، وعندما علم كونت طرابلس بما حدث في المعركة انزعج كثيرا ، وعندما جاء الغد بعث بفرسانه اليه ليصحبوه الى طبرية .

٢٨ ــ وعندما وجد الكونت باليان مقدم الداوية في الناصرة توجه اليه ، ومن ثم سأله كيف كانت المعركة ، فعرف انها كانت معركة حامية الوطيس قتل فيها العديد من المسيحيين من قبل

المسلمين ، فقد كان المسيحيون في وضع صعب جدا عندما اشتبكوا مع المسلمين فقد طوقوا من ثم هـزموا ، وأثـر ذلك تبادلوا الراي لارسال جماعة الى مكان المعركة من اجل دفن أجساد الفـرسان وفي سبيل ذلك جمعوا الخيول التي توفرت بالمدينة ، وأرسـلوها لحمـل هذه الأجساد الى الناصرة لأجل دفنها .

وفي اليوم التالي اجتمع بالين مع رئيس أساقفة صـور ومقـدم الداوية ، وتحركوا للذهاب الى طبرية ، وبعـدما قـطعوا مسـافة قصيرة عاد مقدم الداوية.فقد وجد نفسه غير قادر على السفر بسبب ماعاناه من الام حصلت له نتيجة الضربات التي تلقاها في معـركة اليوم السالف.غير أن بالين ورئيس أساقفة صور تابعا سفرهما الى طبرية ، وعندما سمع كونت طرابلس بقدوم بالين مع رئيس أساقفة صور توجه لاستقبالهما ، مبديا أله الكبير وغضبه الشديد للفـاجعة التي حصلت في اليوم الماضي ، فقد كان ذلك كله محصلة لرعونة مقدم الداوية ونتيجة لعجـرفته ، وعندمـا التقـى الكونت بـالسفيرين استقبلهما بحفـاوة عظيمـة ، واصـطحبهما الى قصره ، وفي ذلك الحين وصل ريذو صاحب صـيدا ، وبعـدما دخـل السـفراء الى القصر ، ومثلوا بين يدي الكونت ، قـدموا له الرسـالة التـي حملوا ، وذكر بهم الكونت انه متألم كثيرا ويشعر بـالخجل العـظيم بسبب الفاجعة التي حصلت ، وبعد هذا عمل على ابعـاد المسـلمين عن مدينة طبرية ، وعندما تحقق له هذا رافقهم وتوجه معهم لمقـابلة الملك ، وكانوا قد بعثوا برسول الى الملك أعلمـوه بـوساطته أنهـم قادمون وبصحبتهم الأمير .

وعندما سمع الملك بمجيء كونت طرابلس نحـوه ، وسـمع بمـا حدث ، تألم كثيرا وانزعج غاية الانزعاج بسبب الاضرار التي لحقت بفرسان الداوية ، ومع هذا خرج من القدس حيث كان مقيما وذهب لتلقي أمير طرابلس ، وجـاء كونت طـرابلس بـدوره للالتقـاء بالملك ، وكان أن التقيا أمام حصن يدعى حصن القديس جوب ، لأن جوب عاش كما يقال هناك ، وكانت هذه قلعته ، ومـن بعيد عندمـا

راى الملك امير طرابلس ترجل وذهب لملاقاته ، وعندما رأى الامير الملك يترجل لملاقاته ، ترجل هو أيضا ، وذهب لملاقاة الملك ، وعندما اقترب الملك منه جثا أمامه فأقامه الملك وأحاط ذراعية برقبته وعانقه وقبله ، ثم عادا معا الى نابلس ، وتوجها الى القصر واعتذر الملك للأمير بشتى السبل لما حصل اثناء تتويجه ومن أجل ذلك ومن اجل أعمال اخرى ، وتحدث الأمير الى الملك وأعلمه أنه اذا سار وفق نصائحه وأخذ بمشورته ستكون المملكة قوية ومستقرة ومحكومة بشكل جيد ، لكن مالبث ذوي الحسد والبغضاء يشعرون بالالم نتيجة اصغاء الملك لنصائح الأمير وعمله وفقها .

وبعد هذا تحرك الملك والأمير وغادرا نابلس الى القدس حيث استقبلا بحفاوة كبرى ، واقام السكان احتفالا كبيرا ، وعم السرور بين الناس لتوطد السلام بين الملك والأمير ، ومالبث أن استأذن الأمير الملك المغادرة ، فأمره الملك بأن يجمع جنده ويقودهم الى نبع الصفورية لانه علم أن صلاح الدين يجمع عساكره ليقودهم الى داخل أرضه ، ونصحه الأمير أن يراسل أمير أنطاكية ويطلب منه ارسال النجدات له ، وقام الجميع بحشد فرسانهم وتقدمهم بذلك مقدما الداوية والاسبتارية ، وذهب أمير طرابلس الى صفورية ، وأرسل أمير أنطاكية ابنه البكر ريموند مع (خمسين من) فرسانه ، وبعد وصول الانطاكيين أمر الملك البطريرك ليحضر له الصليب المقدس ، واحضره البطريرك من القدس ، ثم عهد بحملة الى راعي الضريح المقدس ، وطلب منه أن يتولى حمله ويأخذه الى الملك لأنه هو نفسه لديه عذره بالتخلف وبعدم الذهاب ، وسيكون من الصعب عليه التفكير بالالتحاق بالجيش (وترك السيدة باسك دي رفري) وحقق هذا الملك النبوءة التي سبق لرئيس أساقفة صور أن عملها يوم جرى اختياره ليكون بطريركا ، لقد هزم هرقل الفرس وأعاد الصليب الى القدس ، وسيلقي به هرقل وسيفقد الى الابد ، ففي ذلك الوقت القى هرقل (البطريرك بالصليب الى خارج القدس ولهذا لم يعد مطلقا ، ولكنه فعل ذلك في المعركة التي سنسمع عنها :

وعندما حمل الصليب الى الملك استعدادا للمعركة ، جـاء مقـدم الاسبتارية ونصح الملك في أن يصدر الاوامر بحشد جميع الرجال في ارضه ليأتوا اليه ، وأن يدفق عليهم ببحبوحة وكرم مـن المبلغ الذي بعث به هنري الى بيت الداوية .

٢٩ ـ وكان عندما عذب الملك هنري القـديس الشـهيد تـوماس أوف كانتربري وسبب شهادته في ٢٩ ـ أيلول ١١٧٠ ـ اعتقد أنه اقترف اثما عظيما ، وندم كثيرا ، وراح يعمل للتـكفير ، وتصـدق بكثير من الخبز وغير ذلك ، على أمل أن يساعده الرب ويغفر آثامه وما اقترفه من أعمال أخرى ، لقد كان هـذا مـاحصل بعـدما عذب القديس توماس ، وصار يرسل في كل عام واحدا مـن عنده ليأخـذ الطريق الطويل حتى يضـع بعض المال في خـزينة كل مـن فـرسان الداوية والاسبتارية في القدس .

واستهدف الملك هنري جمع كمية كبيرة من المال في القدس حتـى يجد هذا المبلغ أمامه عندما سيصل الى الاراضي المقدسة ليسـاعدها وينقذها وأعطى مقدم فرسان الداوية خزانة المال التي كانت لديه الى الملك غي ، وقال له : أريدك أن تحشد أكبر عدد ممـكن مـن الناس مثلما جمع المسلمون وأكثر ، فبذلك يمكنك أن تحارب وتثـأر للعـار والاضرار التي سببها المسلمون لي وللمسيحيين والمسيحية ، واخذ الملك المال واغرى به الفرسان والجنود ، وهكذا تمكن من جمـع عدد كبير من الفرسان والاف من الرجالة ، وطلب أمير طـرابلس الأذن ليذهب الى طبرية ويجهزها ذلك أنه سمع أن السلطان صـلاح الدين قد جمع بالفعل الافا من الرجال يمتطون الخيول ، وأراد أيضـا أن يسوغ موقفه أمـام الملك لأن الأخير عرف بـوجود اتفـاق بين أمير طرابلس وصلاح الدين لكن الآن تصالح هذا الأمير مـع الملك لهـذا توجه الامير الى طبـرية لتحصـينها وتجهيزهـا بـالعتاد اللازم والرجال ، وأمر زوجته التي تركها فيها ، وكذلك أمر أعوانه أنهـم اذا رأوا قوات صلاح الدين كبيرة جـدا الى حـد أنهـم لايمـكنهم

مقاومتهم أن يتحصنوا داخل البحيرة ، وهو سـينجدهم في أقـرب وقت .

٢-في الوقت الذي غادر فيه الملك القدس وتوجه الى عكا نجد من جانب آخر كونت طرابلس يتوجه بدوره من طبرية الى عكا ، وفيمـا الجميع في عكا وصلت رسالة مستعجلة بشكل مفاجىء مـن طبـرية ارسلتها اميرة طبرية تعلم فيها الملك أن صلاح الدين قـد دخـل الى المملكة وحاصر طبرية بقوة كبيرة من الرجـال ، وتـألم الملك كثيرا وتأثر لسماع هذا الخبر ثم أمر بدعوة الفرسان والبارونات ليتشاور معهم حول الاحداث التي علم بها ، وعندما حضر الجميع طلب الملك مساعدة الحضـور مـن الرجـال ونصـيحة جميع الذين كانوا هناك ، وأشار مقدم الداوية مع الأمير أرناط ومعهم عدد آخـر كبير على الملك أن يزحف مباشرة لطرد صلاح الدين من البـلاد ووضـعه خـارج المملكة ، ففـي هـذا

محك لسلطته الملكية ، فصلاح الدين بعمله هذا جرده مـن سـلطاته الملكية ، وبذلك اصطدم بـالمسلمين ، ولقـد احتقـره صـلاح الدين ، وهو ان لم يستطع ـ منذ هذه السـاعة ـ الوقـوف ضـده وصده ، فهو على وشك أن يفقد المملكة ، وعند نهاية الاجتماع سأل الملك أمير طرابلس عن رأيه ونصيحته ، فخاطبه على مسـمع مـن الذين كانوا هناك قائلا :

« مولاي انني انصحك واقترح عليك أن تشـحن مـدنك وقـلاعك بـالرجال والمؤن والعتـاد والسـلاح والمواد الأخـرى المفيدة بالدفاع ، ومع أن أمير انطاكية قـد بعـث ابنه مـع خمسـين فارسا ، راسله ثانية ، واكتب أيضا الى بلدوين دي ابلين وأخبره أن صلاح الدين قد دخل الى أراضي المملكة مـع جيش جبـار ، وأن عليه القدوم لمساعدة المملكة ، فأنا أعرف أنه سيقدم ، وأنت تعرف أن الوقت الآن منتصف الصيف وهو الوقت الذي تصل فيه الحـرارة الى الذروة خلال السـنة كلهـا ، هـذا وان عزلة المكان وخشـونته

والطقس الحار سيهاجمونهم ، وفي تلك الأثناء سيمتلك بلدوين دي ابلين الوقت الكافي للوصول ، وفي الوقت الذي سيشعر فيه صلاح الدين بالأمان سنكون جاهزين ، وسنهاجم ساقة قواته وسننزل بها ضربات مؤلمة ستمكننا - بمشيئة الرب - من ابقاء مملكتكم تعيش بسلام » .

٣١ - وعندما فرغ الأمير من كلامه ، رد عليه مقدم الداوية مع الأمير ارناط وقالا : ان النصيحة التي سمعناها غير جيدة ، ورأي غير مقبول ، فيه رائحة الخيانة ، هو مبرقع بجلد الذئب ، وعندما سمع الأمير ذلك التفت نحو الملك وقال له :« مولاي اسألك لا بل ادعوك أن تذهب لتقديم النجدة والعون الى طبرية » ، فرد عليه مقدم الداوية مع الأمير أرناط : ان الملك سيذهب بكل سرور الى النجدة ، وحينذاك تجهز الملك ومعه جميع فرق الفرسان في مملكة القدس ، وتحركوا جميعا من مدينة عكا ، وذهبوا للتمركز قرب نبع الصفورية ، وهناك أظهر الملك كرمه مرة أخرى فحصل على عدد معتبر من الفرسان والرجالة والخيالة ، ولهذا السبب أحضر الصليب المقدس من القدس ليحمله وليسير في حمايته كثير من الناس ، ووضع الملك ثقته برجاله بفضل يسوع المسيح الذي قدم الفداء على الصليب .

٣٢ - بعدما مارس الملك كرمه على هذه الصورة أراد أيضا ان يتشاور مع رجاله فبعث مجددا وراء كونت طرابلس ليستشيره وليستمع الى رأيه .

وأجابه ريموند ، بحكمة وعقل ، قائلا : اعلم ياسيدي أن أي ضرر يلحق بطبرية أنا مسؤول عنه ، ويقع على عاتقي وحدي وليس سواي ، وبالنسبة لزوجتي سيدة طبرية ولأولادي ، هم في طبرية داخل قلعتها ، وأن لاأرتضي بكل ما في الدنيا من ثروات مقابل لحاق الأذى بأي منهم ، ولهذا سبق لي أن أوعزت اليهم أنهم اذا ماوجدوا قوات صلاح الدين أكبر من أن يستطيعوا التصدي لها ، عليهم أن

يصعدوا على ظهر قواربهم ، ويفتشوا عن ملجأ داخل البحيرة حتى يأتي وقت نستطيع فيه القدوم لتقديم العون لهم ، وبعد هذا استطرد يقول : سيدي اذا كنت ترغب أن تدخل الحرب ضد صلاح الدين دعنا نرحل ونتمركز أمام عكا ، حيث نبقى على مقربة من قلاعنا ، إنني أعرف صلاح الدين ، انه رجل متكبر ، ومتشبث وشجاع ومقدام ومأأظنه سيترك أراضي المملكة حتى ينشب القتال معك ، واذا ماجاء لمحاربتك أمام عكا وسارت الأمور لغير صالحنا ، وقانا الرب من ذلك ، يمكننا أن نطلب النجدات من عكا والمدن القريبة منه ، واذا مانصرنا الرب ،وتمكنا من الحاق الهزيمة به قبل وصوله الى أراضيه ، فسننزل به ضربة مميتة لن يتمكن من التعافي منها أبدا .

وعندما انهى الكونت ريموند كلامه تمتم مقدم الداوية بشكل يسمعه قائلا : اني أشم رائحة الخيانة ، انه يتبرقع بجلدالذئب ، وعندما سمع الكونت قوله ، احتد وانبرى قائلا موجها خطابه الى الملك : سيدي أرجوك وأتمنى عليك أن تهب الآن الذهاب الى نجدة طبرية ، فأجابه بأنه يتمنى أن يفعل ذلك ، وفي تلك الساعة وصلت رسالة من صاحبة طبرية موجهة الى الملك طالبة القدوم لمساعدتها ، لأنها ومن معها عرضة الخطر الشديد ، ولدى سماع الفرسان لهذه الأخبار ضجوا وصرخوا جميعا في وسط الجيش : دعونا نذهب لحماية سيدات طبرية ونسائها .

٣٣ ــ لقد تحدثنا عن الملك وعن كتائب فرسانه التي كانت متمركزة قرب نبع الصفورية ، وبقدر مافعلنا ذلك نولي الاهتمام مسألة أخرى فنتساءل عن السبب في سوء التفاهم والتباغض بين مقدم الداوية الاخ جيرارد دي فورت وخصمه أمير طرابلس ، عندما جاء من قبل مقدم الداوية الى أرض القدس ، بات فارس عصره ، وقدره الملك عموري منذ أن كان أميرا ، ووعده ثم أجاز له أفضل زواج يحصل بين فرسانه ، وكان هناك وليم دوريك الذي كان قبل موته سيد البترون ، وهو الذي كان قد تزوج من استيفاني ابنة هنري دي بوفل ، وبعد وفاة وليم تزوجها هيو صاحب جبلة ومنها

جاء غي صاحب جبلة ، وقد كان لديه ابنة من امرأته الاولى ، وقبيل وفاته قدم الى البلاد رجل ثري يدعى بليفين ، وأحضر بليفين هذا له اموالا طائلة ، وطلب أمير طرابلس منه ابنته زوجة له ، وهي طبعا سيدة البترون ، ووعده الكونت بتلبية طلبه ، وكان ذلك بحضور جيرارد دي ردفورت ثم أعطاها له بكل سرور بحضور بليفين لأن بليفين أعطى الى أمير طرابلس أموالا طائلة في سبيل إتمام هذا الزواج ، حتى ليقال انهم وضعوا الآنسة في الميزان ووزنوها وأعطى الذهب الذي وزنته الى الأمير ، وأكثر من ذلك ، ومن أجل هذا المال الكبير ، أعطى الأمير ابنته الى بليفين ، ولم يعطها الى جيرارد .

وعندما رأى جيرارد دي ردفورت أن أمير طرابلس بصنيعه هذا قد رفضه وحرمه من الزواج بابنته غضب غضبا شديدا ، لأنه أعطاها ـ كما قال ـ الى رجل سافل ، ولهذا السبب عامل الفرنسيون الايطاليين بكل ازدراء ، فهذا الغني ماكان ليستفيد لو لم يكن سافلا ، فأكثر سكان إيطاليا عبيد وقراصنة أو تجار أو بحارة ، والفرنسيون فرسان ، لذلك احتقروا الايطاليين ، ولهذه الأسباب غضب جيرارد كثيرا من أمير طرابلس ثم سافر الى القدس ، وهناك أصابه مرض ولهذا التجأ الى بيت الداوية ، وبعدما توفي الأخ أرمانت صاحب قلعة الروج ومقدم الداوية ، انتخب رجال بيت الداوية الأخ جيرارد دي ردفورت مقدما ، وأثناء حادثة تتويج الملك غي ، عندما وضعت الملكة التاج على رأس الذي سيكون ملكا ، ساعد مقدم الداوية الملكة في وضع التاج على رأس البارون غي دي لوزنغنان ، وبعدما وضعته توجهت نحوه وقالت :« في هذا التاج سداد للبترون » ولقد كان هذا هو سبب البغضاء بين مقدم الداوية الأخ جيرارد رد فورت وأمير طرابلس .

بعد هذا استدعى الملك أمير طرابلس والبارونات ومقدم الداوية في المساء وتشاور معهم وسأل عما يرونه ، وأشار أمير طرابلس على الملك ألا يتحرك من عند الينبوع حيث كانت اقامته وألا يغيرها ، لأن

صلاح الدين كان لديه الكثير من الرجال والملك ليس لديه مايكفي من الرجال ليتمكن من التصادم معه ، وعليه البقاء حتى وأن هدم صلاح الدين طبرية أو استسلم من فيها له ، وسلم الملك والبارونات لصواب هذا الرأي ، وجرى اقرار ذلك في سرادقه .

وبعد هزيع من الليل دخل مقدم الداوية على الملك وخاطبه بقوله : سيدي لاتثق بمشورة الكونت ريموند ، لانه رجل خائن وأنت تعرف أكثر من سواك أنه لايحبك ، ويتمنى أن يلحق العار بك ، وأن تفقد المملكة ، ولهذا أشير عليك بأن تمضي من هنا ، فنحن معك ، ونحن نرى أن علينا التوجه نحو صلاح الدين لالحاق الهزيمة به ، وهذا بالأصل واجبك الأول الذي عليك القيام به ، طبعا بمشيئتك وحسب رغبتك ، واعلم انك اذا لم ترحل من هذا الموقع ، فسيأتي صلاح الدين ويحاربك هنا ، واذا ماانسحبت من هذا الموقع خشية هجومه فسيلحق بك العار ، وسينصب لوم الناس عليك بشكل أعظم .

وعندما سمع الملك هذا أصدر أوامره بتحرك الجيش ، ولدى سماع بارونات الجيش بأنه أصدر الاوامر بالزحف توجهوا اليه ، وقد استولت عليهم الدهشة ، وخاطبوه بقولهم : ايها السيد ، لقد سلف أن وافقت معنا في اجتماعنا الأخير على قرار عدم التحرك من هنا ، فما الذي جعلك تصدر الامر بتحرك الجيش ؟ فأجابهم بقوله : ليس من شأنكم توجيه مثل هذه الاسئلة ، ماعليكم سوى امتطاء خيولكم ، والتحرك حالا ودونما ابطاء نحو طبرية :

لقد كانوا رجال صدق واخلاص ، لهذا أطاعوا أوامر الملك التي اصدرها اليهم ، وليتهم لم يطيعوه ، فذلك كان أفضل للمسيحية ، وهنا أجد لزاما علي اخباركم بأمر عجيب حدث في ذلك اليوم ، فقد رفضت جميع حيوانات النقل والخيول في الجيش المسيحي شرب الماء من نبع صفورية وملامسته في اليوم والليلة قبل

الرحيل على الرغم من شدة الحر ، وظهر عليها الحزن الشديد كما ظهر على رجال الجيش الذين تحركوا وهم يبكون وينتحبون ، ولهذا تخلوا في اليوم التالي ـ أثناء العمل ـ عن أصحابهم لما لحق بهم من ضعف شديد ، وماتوا عطشا لانعدام الماء .

٣٥ ـ وعلي أيضا الا أغفل عن اخباركم بحادثة رهيبة نزلت برجالات الجيش ، مع أنها تبدو كأسطورة ، تحظر علينا الكنيسة المقدسة تصديق أمثالها والاعتقاد بصحتها : عندما انطلق الجيش من منطقة نبع صفورية ، وتجاوز الناصرة ، فكان على مسافة ميلين منها ، اجتاز سيرجانتية الجيش بامرأة مسلمة عجوز ممتطية حمارا ، واعتقد السيرجانتية بأنها عبدة أبقة ، فألقوا القبض عليها ، وتعرف عليها بعضهم وقال بأنها من الناصرة ، وسألها الجميع عن وجهتها في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ولم تتمكن من تقديم جواب واضح لجميع الأسئلة ، فهددوها وتوعدوها ، فاعترفت اثر ذلك بأنها عبدة لأحد السوريين من أهالي الناصرة : فسألوها : الى أين انت ذاهبة ؟ فأجابتهم بأنها ذاهبة الى صلاح الدين لتحصل على جائزة ، مقابل خدمة أدتها له ، فعرضوها لمزيد من العذاب الشديد ليعرفوا منها نوع الخدمة التي أدتها الى صلاح الدين ، فأخبرتهم أنها ساحرة ، وأنها نفثت سحرها على رجال الجيش لمدة ثلاثة أيام متوالية حيث دارت حولهم مرارا ، وألقت سحرها عليهم باسم الشيطان ليمنعهم من التحرك من مكان اقامتهم ، وقيدتهم بفن شيطاني ، حتى يتمكن صلاح الدين من قبضهم جميعا ، ولن يفلت أحد منهم من بين يديه ، ولقد كان حقا أن قلة من الفرسان هم الذين نجو من الموت أو الوقوع بالأسر ، ثم سألها الناس الذين وجدوها قائلين : هل تستطيعين الافراج عن الجنود الذين قيدتيهم ؟ فقالت : نعم اذا أرادوا العودة الى المكان الذي تحركوا منه ، وليس هناك من طريقة أخرى ، فاعتبروها محتالة ، لأنها مسلمة ، ثم لأنها اعترفت انها ساحرة ، وبناء عليه قاموا بجمع كميات كبيرة من الأشواك والأعشاب الجافة ثم أوقدوا نارا عظيمة وألقوها فيها ، فقفزت منها

مرتين أو ثلاث مرات ، وكان هناك واحد من السيرجانتية وبيده بلطة هولندية ، فضربها ضربة عظيمة شطر بها رأسها شطرين ، وعندها القيت في النار فاحترقت ، وسمع صلاح الدين فيما بعد بقصتها فأسف أسفا شديدا لفقدانها ، ذلك أنها لو بقيت حية لفداها بمبلغ كبير من المال .

٣٦ ـ ولايستغربن احد هذا الخبر لأننا نجد في كتاب الموسويين (سفر العدد) قد كتب أنه عندما عبر بنو اسرائيل صحراء سيناء ودخلوا الى مآب التي كنا ندعوها من قبل الكرك ومونتريال (الكرك والشوبك) وكان اسم ملك هذه الأرض بسالاق ، وخوفا من بني اسرائيل استعان هذا الملك بأناس آخرين من الأراضي المجاورة ، وبعث اليهم برجاله محملين بالأموال وامرهم أن يذهبوا الى بلعام الساحر الذي كان مقيما بالرها فيما وراء الفرات ويعطوه هذا المال ويعدوه بأكثران جاء ليلعن بني اسرائيل ويسحرهم ، ووصل اليه الرسل واعطوه رسالتهم والهدايا التي حملوها ، فأمرهم بأن يعودوا اليه فيما بعد ، ثم قام في الليل وقدم قربانا للرب حسب العادة ، فقال له في المنام دع هذا وامتنع عن لعن بني اسرائيل ، وبينما هو يسير على الطريق أغفل الأمر الذي أعطاه الرب اياه ، وأراد أن يلعن بني اسرائيل ، فأرسل مولانا ملاكا التقى به بالطريق وهو يحمل سيفا ، وعندما رأت أتانه الملاك حاملا سيفه خافت وحادت عن الطريق الى داخل الحقل ، وبدأ بلعام يبحث عن الأتان ليعيدها الى الطريق ، وعندما عادت الأتان الى الطريق الضيق الذي كان على حدود كرمة ، وكان الملاك ايضا أمامها حاملا سيفه ، وخافت الأتان خوفا شديدا فأوقعت صاحبها ، وعندما سقط كسرت رجله ، ثم فتح مولانا فم الأتان وجعلها تتكلم وتخاطب بلعام قائلة له : مولاي الست انا اتانك التي يجب أن تحافظ عليها ، فلماذا تضربني ؟ فقال لها : لو كان لدي سيف لقتلتك ، لهذا الكلام ، ففتح مولانا عينيه فرأى الملاك حالا ، وعند ذلك قال له الملاك : طريقكم هذا ضدي ، فأجابه : مولاي انني سأرجع وأعود الى الوراء اذا كان هذا يرضيك ؟ فأجابه

الملاك : كلا أريدك أن تمضي في سـبيلك على أن تمتنع عن لعنة بني اسرائيل .

واستقبله بالاق بكل حفاوة وتشريف واقتاده الى جبل مرتفع حتى يستطيع رؤية بني اسرائيل فيتمكن من لعنهم بشكل جيد ، وعندما توجه بلعام نحو بالاق قائلا : كيف يمكنني لعنة هؤلاء الذين باركهم الرب ، وعند ذلك تلا نبوءة سيدتنا مريم المباركة وحكى عن ولادة يسوع المسيح بأنها ستكون على الشكل التالي : أنها ستولد من نسل يعقوب ، وسيأتي رجل من بني اسرائيل ويهد أركان مآب .

وعندما عجز عن لعن بني اسرائيل وأن يتغلب عليهم بسحره وبأعماله السيئة أشار عليه أن يختار أجمل بنات أرضه وأن يعطي لكل منهن كمية من الخمر ويرسلهن الى الحسانة أو النزل لأن الاسرائيليين الذي يشتغلون فيه سيشاهدون جمال الفتيات فسيأتون اليهن ويشربون الخمر معهن ، وهكذا سيأثمون فيغضبون الرب ، فيغضب عليهم « وهكذا يخطئون ويغضبون الرب فيغضب عليهم الرب ، واذا طردتموهن يعدن اليكم واعلموا أنهن يهدمكن » ، لقد منع بذوا اسرائيل الفتيات ولكنهم شربوا الخمرة .

ولايستغربن أحد اذا ضاعت أرض القدس ، فقد اقترفوا خطايا كثيرة فيها وفي القدس بالذات حتى غضب الرب عليهم كثيرا ، وبذلك سهل عمل عبيد الشيطان فتقدموا العمل بين صفوفهم فرموا بالبغضاء فيما بينهم فضاعت المملكة بذلك من بين أيديهم .

٣٧ ـ وسأحدثكم الآن عن انتخاب البطريرك هرقل الذي كان رئيسا لأساقفة قيسارية .

عندما مات البطريرك أمالرك ، جاء رئيس أساقفة صور الذي كان يخشى الرب كثيرا وطبعا يحبه وكان نائب البطريرك الى أساقفة الضريح المقدس ورهبانه وجمعهم ، ثم توجه اليهم بالقول : تعلمون

ان الرب أخذ أمانته بموت أبينا البطريرك ، وأنتم مكلفون بانتخاب البطريرك الجديد ، وانصحكم بايمان الا تنتخبوا أحدا من هذا الطرف من البحر ، لانكم لن تستطيعوا ان تنتخبوا من هنا كما تحبون ، ولذلك ستقع الخسائر على المملكة ، فاما أن تنتخبوني شخصيا ، أو تنتخبوا هرقل رئيس أساقفة قيسارية ، واذا انتخبتموه وقدمتموه الى الملك سيستقبله بكل طيبة خاطر لان أمه (اغنس دي كورتني) تحبه كثيرا ، وأنتم تعرفون كيف عينته رئيسا لاساقفة قيسارية ، وأنكم على معرفة تامة بحياته وكيف هي ، تماما كما أنا أعلم شخصيا ، واذا مارغبتهم بانتخاب واحد من وراء البحر ، أنا وسائر الاساقفة بالمملكة أنصحكم بذلك بكل طيبة خاطر ، واذا شككتم بما قلت وارتبتم بالامر لانني أشرت عليكم هكذا ، اعلموا انني قرأت في واحد من الكتب : هرقل قد أحضر الصليب من بلاد الفرس ووضعه في القدس ، وهرقل سيأخذه من القدس ولذلك سيفقد ، ولهذا السبب دعوتكم الى هذا الاجتماع .

ثم افترق رئيس اساقفة صور عن هؤلاء اساقفة الضريح المقدس ورهبانه ، وعندما أصبحوا لوحدهم ، عقدوا اجتماعا ، فرجتهم هنا أم الملك ان ينتخبوا المعروف باسم هرقل ، غير أنهم لما كانوا مجتمعين قرروا انتخاب رئيس اساقفة صور وذلك بموافقة الجميع ودون ان يخالف أحد منهم ، ثم مالبثوا أن اختاروا كل من وليم رئيس اساقفة صور وهرقل رئيس اساقفة قيسارية ليكون واحد منهما بطريركا ، وقدموا بعد هذا الاسمين الى الملك ، وقبل الملك اللائحة بكل سرور ، وهنا ترجته أمه أن يقع اختياره على هرقل ، ويتخذه بطريركا ، وقبل الملك رجاء أمه ووافق على الاختيار الذي رفعه له أساقفة الضريح المقدس ورهبانه ، ولايمكن لاحد أن يقول ان الملك لم يتلق اقتراحا من الاساقفة بشأن تسمية البطريرك ، وجرت العادة انه عندما يتولى أساقفة الضريح المقدس اختيار البطريرك عليهم أن يقدموه الى الملك ، فاذا ما انتخبوا احدا عند صلاة المساء يقدمون الاقتراح الى الملك فورا ، والملك يعطيهم الجواب في الساعة الاولى من صباح اليوم التالي ، واذا اختاروه في

ساعات الصباح يرفعونه الى الملك حتى يعطي جوابه عند المساء وبصراحة يقال كان الملك موجودا أثناء الاجتماع لاختيار بطريرك القدس ، وهذا مالم أجد من يؤكده وما سمعت أحدا يتكلم أنه شهده ، اذا لم يكن للملك أي تأثير مباشر على الاجتماع لأنه كان يعرف جيدا أن أثره وتأثيره سيظهر عند اللزوم ، ومع ذلك قضت القاعدة بالاختيار بالقرعة فهذا ماوجد في الكتاب المقدس حيث يروى أنه عندما كان الرسل مجتمعين (أعمال الرسل : ١-١٥) في جبل صهيون بعد عيد العنصرة وذلك بعد موت يهوذا رشحوا اثنين هما يوسف العادل ومتى ، ووضعوا اختيار القرعة عليهما ، فوقعت القرعة على متى ، ولهذا السبب يقول الناس أساقفة الضريح المقدس يختارون والملك يجري القرعة ويوافق .

٣٨ ـ وسأحدثكم الآن واصفا حياة البطريرك هرقل ، وكيف غدا بطريركا ، فهو كان ذكيا ، أديبا ، وكان أيضا شخصا جميلا ، وكانت أغنس أم الملك المجذوم تحبه كثيرا ، والمحبة العظيمة التي كانت تكنها له جعلته رئيس كهنة القدس ثم رئيس أساقفة قيسارية وبعد هذا بطريركا ، كما تحدثت عن ذلك من قبل ، وكانت هناك زوجة أحد السادة في نابلس ، التي تبعد ثلاثة وعشرين ميلا عن القدس ، وتدعى باسك دي رفري ، وقد وقع البطريرك بحبها وهام ، حتى غالبا ما كان يأتي بها الى القدس حيث كانت تمكث لديه يوما أو أكثر ، وكان البطريرك يغدق عليها الأموال وعلى البارونات حتى جعلهم أغنياء ، وذلك بسبب أن البارونات كانوا متطابقين مع ارادة البطريرك ، وعندما مات زوج هذه المرأة ، لم تبق لوحدها ، لأن البطريرك احضرها الى عنده ، واشترى لها ملكية كبيرة من الأرض ، وزرع لها فيها أشجار التفاح ، وكانت تروح دوما وهي مزينة بالذهب داخل مدينة القدس ، وكانت كل امرأة أجنبية أميرة أم غنية تقدم لها الذهب والاحجار الثمينة لتزين بها جسمها ، وكان الناس الذين يعرفونها يقولون عندما تمر من أمامهم . « هذه البطريركة ».

٣٩ ـ وفي احدى المرات ، بينما كان البطريرك والملك وبارونات المملكة في واحد من اجتماعات مجلسهم الذي اعتادوا على عقده في قصر البطريرك للبحث في مصالح البلاد وحاجات الشعب ، جاء واحد من الناس الى حيث كان مجمع الاسياد وصاح : « مولاي البطريرك معي لك أخبار جديدة سأقولها لك إذا سمحت لي على انفراد » ، وخيل للبطريرك والملك والبارونات الذين كانوا مجتمعين معا انه يريد أن يقول للبطريرك اخبارا جديدة مفيدة للمسيحيه لأنهم اكانوا يشعرون بالانزعاج عندما لا تأتيهم اخبار جديدة إلى القدس ، وذهب مع البطريرك ليقول له ما حمله من اخبار ، وعند ذلك قال له : هات ما عندك من أخبار جديدة ، عسى أن تكون مفيدة لنا ، فقال له : لقد انجبت السيدة باسك دي رفري ابنة ، فقال له البطريرك : اسكت يا مجنون ولا تقل شيئا بعد ، ومن أجل هذه السيرة التي كان يعرفها عنه رئيس أساقفة صور ، قال ما سمعتوه من قبل الى اساقفة الضريح المقدس وكهنته ، ومع هذا تصرفوا على عكس ما نقل اليهم ، مع أن مولانا قد تعذب بسبب خطايا أهل القدس ومن أجلها .

وكان بعدما أصبح هرقل بطريركا أن قام يوم الخميس المقدس (١١٨٣) على جبل صهيون فحرم رئيس أساقفة صور ، بدون دعوة مثارة ضده أو حجة وبدون أن يستدعيه اليه ليستجوبه ، وقام رئيس الأساقفة المذكور بناء عليه بالشكوى الى روما ، وعندما كان على نية السفر الى روما ليمثل أمام البابا الكسندر(الثالث) بناء على طلبه ، وليشارك في المجمع المسكوني الذي كان سيعقده ، واستعد رئيس الأساقفة وتحرك ليسافر ، وهنا استأجر البطريرك كيماويا وأعطاه المال الكثير ليذهب الى رئيس الاساقفة وليم واستجاب المأجور وسممه .

وقام البطريرك بدوره بالسفر فعبر البحر وذهب الى مرسيليا ، ومن مرسيليا ذهب الى جلفادان (جيفودان) في بلاده ، وهنا عندما سمع البطريرك أن وليم رئيس أساقفة صور قد

مات ، عاد من بلاده ، وجاء الى القدس ، متظاهرا بذلك انه لم يكن موجودا من قبل عند وقوع حادث التسمم ، ولنتذكر ان رجال الاكليروس أعطوا في كل عصر المثل الصالح لكن من أجل خطاياهم الآن غضب مولانا كثيرا ، غضب على الذين يسكنون مملكة القدس ، وطهر الأرض من الخطيئة ومن الذين أقترفوها ، وحدث انه عندما أخذ صلاح الدين القدس ، وجد في المدينة رجالا مسنين ، يدعى أحدهم روبرت دي كودري ، وهو ممن كانوا مع غودفري دي بوليون اثناء احتلال القدس ، واسم الآخر فولتشر فويل ، وقد ولد بالقدس عندما احتلت للمرة الأولى ، كما وجد صلاح الدين رجالا مسنين آخرين فأشفق عليهم ، وأخبروه انهم يودون البقاء في القدس وامضاء حياتهم فيها ، فأذن لهم بكل طيبة خاطر ، واوعز أن يعطوا العمل الذي يرغبونه ماداموا على قيد الحياة وكذلك ما يكفيهم لعيشهم ، وهنالك امضوا حياتهم .

٤٠ ـ ونعود الان لنحدثكم عن الملك غي وجيشه ، فقد تحركت قواته من موقعها قرب نبع الصفورية بقصد التوجه نحو طبرية ، ولكن ماأن ساروا قرابة مرحلة حتى جاءهم صلاح الدين فصدمهم من الأمام وأرسل بمقاتليه فتحاربوا معهم من الصباح حتى الظهيرة، وكانت الحرارة شديدة ، ولم يستطع أحد تقديم المساعدة أو القدوم بها ، وأصيب الملك وجميع الناس الاخرين بالشرور والضياع إلى حد انهم لميعرفوا ماالعمل ، وكانوا لايستطيعون التراجع لان الخسائر ستكون فادحة •

وبناء عليه بعث إلى كونت طرابلس الذي كان في خط الدفاع الاول فسأله عن رأيه وماالذي ينبغي عمله ، فأجابه الكونت أنه لو سمع نصيحته بالمقام الاول كما يود سماعها الان ، لكان ذلك أعظم فائدة له ، ولأمكن انقاذ المسيحية ، ولكن الوقت تأخر الان كثيرا ولايمكنه أن يفكر بوسيلة مجدية أو مفيدة سوى التظاهر بالتوقف هنا ، وأن يقدم الملك على نصب خيمته هناك ، واخذ الملك بهذه النصيحة الفاسدة ، على عكس ماكان يفعله من قبل عندما كان يقدم له

النصائح الجيدة فلا يأخذ بها ، ولم يكن على هذا الجانب غير المسيحيين ، ولم يعارض المسلمون التوقف وكذلك فعل صلاح الدين ٠

٤١ ــ وبينما المسيحيون في خيامهم أمر صلاح الدين رجاله أن يجمعوا أشواكا واخشابا وأشياء اخرى ليشعلوا فيها النيران ، وأوقف المسلمون القتال مع قوات المسيحيين ، وبعدما نفذت أوامر صلاح الدين بحذافيرها ، وجاء الصباح أمر صلاح الدين باشعال النيران بين صفوف المسلمين وصفوف المسيحيين ، ونفذ الأمر بشدة ودون تقاعس ، واشتعلت النيران وكان الدخان المنبعث من النار كبيرا ، وعلى هذا كانوا علاوة على الأذى الصادر عن الدخان وحرارة النار متضايقين جدا أيضا من حرارة الشمس ، وفي هذه الاثناء أمر صلاح الدين بأن يجلبوا بقوافل الجمال بالمياه من بحيرة طبرية ، وافرغت المياه أمام المسيحيين الذين كانوا يتألمون كثيرا من شدة العطش .

وكانت قد حدثت حادثة غريبة شائنة لقوات المسيحيين يوم تمركزوا قرب نبع الصفورية الا وهي رفض الخيول الشرب من الماء في الليل ونهار اليوم التالي ، وهكذا أوشكوا على الموت لشدة العطش هم وفرسانهم .

وآنذاك جاء فارس الى الملك كان يدعى جيوفري دي فرانك ليوك وقال له : « مولاي حانت الساعة أن تسقط رؤوس السادة وتقص لحاهم جميعا » ، وكانت هذه احدى الوقائع التي حصلت لشدة بغض سكان هذه البلدة للملك غي والسادة ، فما أن أصبح غي ملكا انشد أهل هذه البلدة انشودة في القدس ، ازعجت كثيرا أهالي المملكة ، وتقول الانشودة :

على الرغم من البلديين
لدينا ملك من الوافدين
وجعلنا هذا البغض وهذا الحقد نفقد مملكة القدس

٤٢ ـ بعدما اندلعت النيران ، وارتفع الدخان الكثيف تقدم المسلمون وتسللوا بين صفوف المسيحيين ، وبدأوا يأسرون من المسيحيين بين الدخان ، وهكذا حتى طوروا عملهم فضربوا وقتلوا الرجال والشجعان من الفرسان ، وعندما رأى الملك ما أصبحت عليه حالة جنوده واتباعه عموما استدعى مقدم الداوية والأمير ارناط وسألهما : ما رأيكما وما العمل ، فأشارا عليه بمتابعة القتال ضد المسلمين ، فاستدعى أخاه ايمري (أمالرك ـ عموري) ليعطي أوامره لكتائبه بالحملة ففعل ذلك ، وكان أمير طرابلس في المقدمة ، يقود أول الكتائب ، وكان أول من حمل ريموند ابن أمير انطاكية وفرسان كتيبته ، وكان هناك في المقدمة أيضا أولاد سيدة طبرية وهم : هيو ، ووليم وراؤول وأوتو ، وفي الوقت نفسه كان بالين دي ابلين والكونت جوسلين في ساقة القوات ، وبعدما انتظمت الكتائب واحتدم القتال واشتد ، تحرك خمسة من الفرسان من كتائب امير طرابلس والتحقوا بقوات صلاح الدين ، وذهبوا اليه قالوا : « مولاي ما الذي تنتظره ، انهب واستول على المسيحيين لأنهم جميعا في وضع ميؤوس منه » وعندما سمع هذا أمر كتائبه بالتقدم ، وتحرك هو الى الأمام نحو المسيحيين .

وعندما رأى الملك أن صلاح الدين قد زحف يريده ، وجه الاوامر الى كونت طرابلس بأن ينقض على المسلمين ، فهذا حق أسياد المملكة ، فعندما يكون الجنود مع اسيادهم على صاحب الارض أن ينشب القتال ويبدأ المعركة ، وأن تكون كتائبه أول الكتائب ، وأول من يهاجم أول الاهداف ، ويتولى عند مدخل الارض قيادة مقدمة الجيش ، وعند عودة الجيش يكون في الساقة ، ولهذا كان أمير طرابلس على راس مقدمة القوات ، ذلك أن طبرية كانت تحت امرته ، وهكذا هاجم الامير وكتيبته أول هدف للمسلمين ، وكان ذلك الهدف أكبر كتائب المسلمين ، ففتح لهم المسلمون الطريق وسمحوا لهم بالمرور ، وعندما أصبحوا في وسطهم أطبقوا عليهم فلم يفلت من الحصار من فرسان الامير غير قلة والامير نفسه وأبناء سيدة طبرية

وريموند ابن أمير أنطاكية ، ولم يجرؤ ريمـوند أمير طـرابلس على الذهاب الى طبرية التي كانت قـريبة منه ، لأنه رأى أنهـم خـذلوا وهزموا ، وهكذا خشي من أن يحاصر هناك ، فيعرف صـلاح الدين بمكانه فيأتي للقبض عليه ، ولهذا سافر مع قسم كبير من رفاقه الى مدينة صور .

لقد هزمت الكتائب المسيحية ، وكان وقتهـا غضـب الرب كبيرا على الجنود المسيحيين ، وذلك بسبب خطاياهم ، فقد هزمهم صلاح الدين بمدة ساعات قليلة ، فمنذ الساعة الثالثة بعد الظهـر وحتـى حلول المساء احتل صلاح ساحة القتال بأكملها وأسر الملك ، ومقدم الداوية والأمير أرناط والمركيز بـونيفيس ، وايمـري كافـل المملكة ، وهمفري صـاحب تيرون ، وهيو صـاحب جبلة . وبليفين رئيس البترون ، وسادة لخرين كثـر ، مـع عدد كبير مـن الفرسان ، وفي الحقيقة يطول الحديث اذا ما ذكرنا اسـم كل واحـد ممن وقع في أسر صـلاح الدين ، وضـاع ايضـا صـليب الصلبوت ، وحدث في أيام هنري دي شامبين أن جـاء واحـد مـن فرسان الهيكل اليه ، وقال له بأن كان حاضرا في معمعـة الخـذلان الكبرى ، وقام بتهريب صليب الصلبوت ، ويعـرف جيدا أين هـو مـوجود ، وإذا سـمح له ، بـالذهاب الى ذلك المكان فسـيذهب لاحضاره ، وأعطاه الأمير هنري الأذن باحضاره ، وذهـب وفتش عليه ليلا ونهارا فلم يجده ، فمن ثم عاد الى مدينة عكا .

وحلت هذه الكارثة بالمسيحيين في مكان اسمه قرني حطين قـرب طبرية ، على بعد قرابة الثلاثة أميال منها ، وكانت في سـنة ١١٨٧ لتجسيد يسوع المسيح وذلك في اليوم الرابع من حزيران ، وكان يوم السبت نهار عيد القدس مارتين لى بـويلان ، وكان الجـالس على الكرسي الرسولي في كنيسة روما البابا أوربان الثالث ، وايضا أيام فريدريك (الأول بربروسا) امبراطور المانيا ، وأيضـا أيام فيليب أوغسطس (ابن لويس السابع) ملك فرنسا ، وأيضـا أيام هنري الثاني ملك انكلترا وأيام كيرساك امبراطور القسطنطينية .

وأثر هذا الخبر على المسيحيين وأحزنهم كثيرا ، وحز في نفوس المؤمنين بيسوع المسيح ، حتى أن البابا أوربان الذي كان في فراري مات متأثرا من الالم الذي حل به (ت ٢٠ تشرين أول ١١٨٧) وذلك اثر سماعه لهذا الخبر المؤلم ، وبعده كان غريغوري الذي كانت حياته كلها قداسة ، فقد بقي شهرا يشغل الكرسي الرسولي المقدس ، وقد توفي وانتقل الى رحمة الرب (انتخب في ٢١ تشرين أول ومات في ١٧ تشرين ثاني في ١١٨٧) وجاء بعد غريغوري كلمنت الثالث (١٩ تشرين ثاني ١١٨٧) واليه حمل جوسيه رئيس أساقفة صور هذا الخبر ، فهذا ما وجدته مكتوبا ومرويا من قبل .

٤٣ ـ وبعدما عاد صلاح الدين الى مخيمه وقد حقق النصر في المعركة ، شعر بفرح عظيم لأنه بالفعل نال نصراً كبيرا ، وما أن استقر في سرادقة حتى امر باحضار جميع الأسرى المسيحيين الذين اسروا في المعركة ، فأحضروا له اولا الملك ومقدم الداوية والأمير أرناط والمركيز بونيفيس ثم همفري صاحب البترون ثم ايمري كافل المملكة ، ثم هيو صاحب جبلة وعدد كبير آخر من الفرسان ، وعندما رآهم جميعا أمامه توجه بالخطاب الى الملك قائلا : انه يشعر بفرح عظيم ، وبفخر كبير لوقوع أسرى نبلاء من هذا القبيل تحت سلطته ، فيهم مثل ملك القدس ومقدم الداوية والبارونات الآخرين .

وعند ذلك امر بأن يجلب له شراب ملطف في كأس من ذهب ، وبعدما تذوقه قدمه للملك لكي يشرب ، وقال له :« اشرب حتى ترتوي » ذلك أن الملك كان يشعر بعطاش شديد ، وشرب الملك ثم قدم الكأس الى الأمير أرناط ، ولم يقبل الأمير أرناط أن يشرب ، وعندما راى صلاح الدين أنه قدم الكأس الى الأمير أرناط انزعج منه ، وعندئذ قال للأمير أرناط :« إشرب وإن كنت لن تشرب ثانية أبدا » فأجابه الأمير : إن شاء الرب لن أشرب من عندك ولن اكل .ثم سأل صلاح الدين الامير أرناط :« ياأمير أرناط ، في شريعتكم اذا اسرتوني ووضعتموني في سجنكم كما عملت أنا معكم

كيف تعاملونني ؟ فاجابه :« لئن أعانني الرب أقطع رأسك » ولأنه أجاب صلاح الدين بهذه القساوة وبهذا اللؤم تأثر صلاح الدين وغضب غضبا شديدا ، وقال له عند ذلك :« ياخنزير أنت في أسري وتجيبني بمثل هذه الرعونة » ؟! وكان ممسكا بيده سيفا فأدخله في جسمه ، وبادر الحراس الذين كانوا واقفين أمامه فقطعوا رأسه ، ثم أخذ صلاح الدين بعضا من دمه ودهن جسمه به ليعلم من كان هناك انه ثار منه ، ثم أمر ان يؤخذ رأسه الى دمشق ، وأن يطاف به في البلدان ليظهر الى المسلمين أن الأمير أساء اليه فلاقى عقابه الشديد .

٤٤ ـ ثم أمر صلاح الدين بحمل الملك والأسرى الآخرين الى دمشق ، هذا وعندما سمعت سيده طبرية ان الملك وقع بالاسر ، وأن المسيحيين قد هزموا ، اعتقدت أن زوجها واولادها قد هلكوا في هذه المعمعة ، فكان ان أرسلت الى صلاح الدين تعرض عليه تسليم طبرية مقابل اعطائها الامان للذهاب إلى طرابلس ، واستجاب صلاح الدين بكل سرور ، وأرسل فاستولى على طبرية ، واقتاد السيدة وأهالي طبرية اليه بسلام .

وبعد مضي ثلاثة أيام على المعركة أمر صلاح الدين ابن اخيه الأمير الكبير الذي كان يدعى تقي الدين عمر والذي كان أميرا على حماة ، أمره أن يذهب حالا الى عكا ، ونفذ الأمر وسافر فوصل الى مدخل المدينة ، وهكذا عندما وصل الى مكان عند مدخل عكا اسمه سفران ، بادر جوسلين الذي كان مقيما في عكا ، بعدما فر اليها اثر الهزيمة العظمى ومعه بالين دي ابلين قائد ساقة جيش المسيحيين ، فهذا أيضا فر الى هذه المدينة ، بادر عندما سمع أن القائد الكبير الأمير تقي الدين قد جاء مسرعا الى عكا فاستدعى عددا من أهالي المدينة ، وتقرر بالتشاور معهم ارسال مفاتيح المدينة الى تقي الدين طالبا منه الامان حتى يسلم المدينة الى السلطان ، شرط منح أهالي المدينة رجالا ونساء الأمان مع أموالهم ، وكان الذي حمل المفاتيح الى تقي الدين مع عرض

الاستسلام واحدا من اهالي عكا اسمه بيبربرايس ، وعندما سمع السادة من بقية الشعب أن الامير جوسلين قد سلم مفاتيح المدينة الى المسلمين ثاروا وغضبوا أشد الغضب ، ولكون المدينة سلمت بدون قتال رأى هؤلاء اشعال النار في جميع أرجاء المدينة على أن يسلموها الى المسلمين ، وهكذا ألقى بعض هؤلاء الناس النار في مدينة عكا ، ومهما يكن من أمر أرسل تقي الدين الاخبار الى صلاح الدين قائلا ان المملكة بأكملها صارت اليه ، وطلب منه القدوم لان اهالي عكا سلموا اليه المدينة والمفاتيح بين يديه .

وعندما سمع صلاح الدين هذه الاخبار سر سرورا عظيما ، وجاء حالا لكنه لدى وصوله وجد النيران تشتعل بالمدينة ، فتوجه بالخطاب الى سكان المدينة بكل مودة ولطف ، وطلب منهم القدوم الى حضرته وأعطاهم الامان ، وطلب منهم اطفاء النار واخبرهم انهم اذا ارادوا البقاء بالمدينة يمكنهم البقاء بأمان وسلام ، واستهدف ازالة الصراع بين المسيحيين و المسلمين ، وخبرهم انهم اذا لم يرغبوا البقاء فهو سيقودهم سالمين الى حيث يريدون الذهاب .

٤٥ ـ وعندما سمع أهالي عكا هذا الكلام أخذوا بالنصيحة واطفأوا النار وأرسل صلاح الدين رجاله فاستولوا على المدينة وابراجها وقلاعها ، وأعطى مهلة بضعة أيام للذين كانوا في داخل المدينة حتى يستطيعوا أن يخرجوا نساءهم وأولادهم وامتعتهم ، وبعدما استولى صلاح الدين على مدينة عكا شحنها برجاله ، وسمح للناس الآخرين بالمغادرة وقادهم الى حيث أرادوا الذهاب ثم حاصر مدينة صور التي كان فيها بالين دي ابلين الذي كان يقود مؤخرة الجيش يوم المعركة ، فهو قد استقبل بعد فرارة في مدينة صور ، ولدى اقتراب صلاح الدين من صور توصل بالين الى صلاح الدين يرجوه ويتوسل اليه بأن يأذن له ويؤمنه ليذهب الى القدس حتى يجلب امراته (ماريا كوميتوس أرملة الملك عموري واولادهم) ومن ثم ليذهب الى طرابلس ، وأجابه صلاح الدين

بقوله : انه معطيه الامان بشكل سرور وأذن له بالذهاب الى القدس، شريطة أن يقسم اليمين في الدير على انجيل المسيحيين الا يبقى في القدس سوى ليلة واحدة ، وأن يغادرها في اليوم التالي ، وبعدما أقسم اليمين المطلوب مكنه صلاح الدين من الذهاب بأمان وسلام الى القدس .

وادخل وصوله السرور كثيرا على قلوب أهل القدس مع البطريرك والسادة ، ونفذ بالين بعد وصوله الى القدس قسمه ، وأراد أن يغادر المدينة كما وعد صلاح الدين في الدير ، غير أن أهالي المدينة ذهبوا الى البطريرك وتوسلوا اليه باسم الرب في أن يحتفظ ببالين ويبقيه في المدينة لانه لم يبق لهم مرشد أو حاكم غيره ، فهو يستطيع أن يرشدهم ويسوسهم ، وبعث البطريرك يسأل بالين ذلك ويطلب منه البقاء معهم فأجاب بالين البطريرك بأنه أقسم يمينا لصلاح الدين ، ولن يستطيع البقاء أبدا ، فقال له البطريرك لا بأس ، ووعده بأن يحلله من هذا القسم الذي اداه لصالح الديانة المسيحية ، ووافق بالين على نصيحة البطريرك فتحلل من هذا القسم الذي اداه ومكث بالقدس حتى غادرها فيما بعد .

وبعد هذا الحدث ذهب صلاح الدين لالقاء الحصار على مدينة صور ، والذي حصل أنه واجه عند مدخل المدينة أمرا جديدا ، فقد وجدها محمية بشكل ممتاز بالجنود والناس والفرسان الذين فروا من المعركة ووجدوا الملاذ داخل هذه المدينة ، وعندما رأى أنه لن يستفيد شيئا ذهب وتحرك من هناك فقصد مدينة صيدا للاستيلاء عليها (٢٩ ـ تموز ١١٨٧) وبعد ذلك قصد بيروت (٦ آب ١١٨٧) فاستولى عليها ، ثم زحف نحو جبلة ، واقتاد معه (هيو) صاحبها الى مقابلة القلعة ، وجعله يتحدث الى رجاله ليعملوا على تخليصه من الأسر بتسليمها ، وأصغى رجال الحامية في قلعة جبلة واستجابوا فأنقذوا سيدهم ، ومن هناك زحف صلاح الدين ضد طرابلس فوجدها محمية بشكل ممتاز فتجاوزها ، وذهب من هناك الى أرض جبيل

فاستولى على مدينة جبيل ثم على اللاذقية ثم على قلعة صهيون ثم على القصر الابيض (طرطوس) ثم على بغراس ثم على بكسرائيل ثم ذهب لحصار قلعة فرسان الداوية المعروفة باسم قلعة المرقب ، وكان في هذه القلعة فارس ولد في صور يدعى جوهان غالية وكان قد فرمن المملكة ، وجاء الى هذه القلعة لانه كان قد قتل سيده ، وعندما جاء الى صلاح الدين عفا عن ابن عمه ليعلمه استخدام السلاح وحمله وفق طرائق الفرنجة ، كما علمه طرائق المبارزة بشكل جيد جدا ، أما التابع الذي كان يحرس الفارس فأراد الحصول على السلاح ليعود به الى عند المسيحيين ، فحصل على ذلك بكل يسر وطيبة خاطر ، وذهب صلاح الدين بعد هذا الى منطقة حلب واصطحب معه الفارس وتابعه ، وتركهما في منطقة حلب ، واحيط جوهان غالية بالاكرام والتشريف والهبات ، فبعث برسالة الى فرسان الداوية في قلعة بغراس يخبرهم انهم اذا ارادوا الحصول على ماأخذه من صلاح الدين من سلاح عن طريق الشراء فهو على استعداد لبيعهم اياه بكل سرور في أي دير يريدون ، فبعد اعطائهم السلاح سيعود الى مملكة القدس ، وتجاوب معه رجالات الداوية ، كما واعطاه المسلمون الطيبون الامان والسلام ، وبعدما طمأنه رجال الداوية جاء اليهم مع تابعه ، ودخل الى أراضي المسيحيين ، وهنالك تجهز رجال الداوية وأخذ الداوية التابع واقتادوه الى القلعة .

٤٦ ـ بعدما هزم صلاح الدين المسيحيين وأسر الملك ، بدأت أخته تلح عليه لايجاد من يستطيع اعادة ابنه الظاهر من حلب والح عليه كذلك تقي الدين من أجل إعادة ابنه وكان صلاح الدين يريد ذلك ايضا ، وذهب صلاح الدين ليحاصر كل من كان في القلعة ، وكان في داخلها رينو صاحب صيدا وكان قد فر من المعركة والتجأ الى مدينة صور ، وبعث هذا بفارس الى صلاح الدين الذي كان يحاصر قلعة كوكب يقول له إنه يريد تسليم مدينة صور ، ويريد شاراته وأعلامه لتوضع فوق القلعة ، وعندما سمع صلاح الدين بهذه الأنباء فرح كثيرا ، وأعطى الشارات المطلوبة الى الفارس الذي جاء اليه وطلب

أن تسلم اليه المدينة حالا وذهب الفارس الى صور وسلم الشارات الى رينو صاحب صيدا وفكر هذا بالذي عليه ان يعمله وكان الرب لايريد ان تسلم صور الى المسلمين ، بل أراد الحفاظ عليها للمسيحيين ، وخاف رينو صاحب صيدا من وضع الشارات والرايات على القلعة لخوفه من اهل المدينة فأرسل كتابا الى صلاح الدين حيث كان يحاصر كوكب قائلا بأنه لايجرؤ على أن يضع الاعلام والشارات على قلعة صور ، اذا لم يأت هو بنفسه ، وأن عليه القدوم بسرعة اذا ماأراد الحصول على المدينة ، وماأن وصل الخبر الى صلاح الدين حتى تحرك وترك حصار قلعة كوكب ، وفيما هو في طريقه الى صور أرسل اليها الرب المركيز كونراد مونتفرات الذي كان في القسطنطينية منذ زمن طويل فاستولى على مدينة صور ، وحصنها ضد حملة صلاح الدين ، كما أنه طرد رينو صاحب صيدا من صور ، وأخذ الشارات والاعلام التي وجدها على القلعة فمزقها ورمى بها الى خارج القلعة ضد صلاح الدين ، وعند وصول صلاح الدين الى صور كان يتأمل في أن يجد رينو صاحب صيدا في انتظاره ليسلمها له ، فلم يجده أبدا ، بل على العكس وجد المدينة محمية بشكل جيد جدا ، فكان أن سافر من هناك لحصار قلعة عسقلان .

٤٧ ـ أنا ساحدثكم الآن عن قدوم الماركيز ، وكنت قد حدثتكم من قبل أن الماركيز كونراد قد تحرك من بلاده على نية القدوم الى القدس ليقوم بحجة ، لكن الايام رمته في مدينة القسطنطينية ، ثم كان أن أعطاه الامبراطور كيرساك أخته لتكون زوجة له ، وذلك لانه قتل ليفرناس ، وقد هدده أهل ليفرناس بالقتل ، وكان كونراد نفسه شجاعا باسلا حتى أن الامبراطور الكس (اقرأ : كيرساك) كان يخاف منه كثيرا ، وهكذا أراد أن تنتزع عينيه ، وعرفت زوجته ذلك فأخبرته لانها كانت تحبه كثيرا ، وترجته في أن يحتاط لنفسه حتى لايصاب بأذى ، فما كان منه الا أن استدعى الفرسان الذين كان قد أحضرهم معه من بلاده ، واطلعهم على الكلام الذي نقلته له زوجته ، وترجاهم وقال لهم : عندما ستذهبون لتحية

الامبراطور ، عليكم أن تطلبوا منه اذنا يسمح لكم بموجبه بالذهاب الى القدس والقيام بالحج ، وأوصاهم الا يقبلوا من الامبراطور أي عطاء أو وعود سخية من أجل البقاء لأنهم لو قبلوا بالبقاء سيكونون تحت خطر الموت ، أو فقدان العيون .

وذهبوا في اليوم التالي لأداء التحية الى الامبراطور ، وكان بعدما أدوا التحية له أن طلبوا من الماركيز الاذن للذهاب لأداء الحج ، فترجاهم الماركيز للبقاء ، فأجابوه بالرفض وأنهم لن يمكثوا أكثر مما فعلوا أبدا ، وسمع الامبراطور من رسوله أنهم يطلبون اذنا للذهاب والمغادرة فورا فترجاهم ووعدهم بالأموال الطائلة من أجل الحروب التي كان يقوم بها ، فأجابوه كلهم بالاجماع بأنهم لن يبقوا مطلقا ، ثم قال الماركيز للامبراطور بأنهم وعدوه ، وأقسموا له بالعودة اليه بعد تأديتهم الحج : وتلقى الامبراطور هذا الوعد بطيبة خاطر وسمح لهم بالسفر .

وكان لديه قطعة بحرية تابعة لأهالي بيزا ، تريد الذهاب الى سورية ، فطلب منهم نقلهم ، وزودهم الامبراطور باللحوم والمؤن وأعطاهم ايجار السفينة ، وأعطاهم الماركيز جميع الأموال التي كانت بحوزته في القسطنطينية ، وبينما كانت السفينة مستعدة للاقلاع ، كان الامبراطور قريبا من شاطىء البحر ، ولدى رؤية الماركيز السفينة جاهزة للسفر والبحر هادئا ، والوقت مناسبا للابحار وللسفينة للانطلاق قال للامبراطور :« مولاي نسيت حاجة علي أن أعطيها الى واحد من الفرسان ليذقلها الى والدي وابن عمي » فقال له الامبراطور :« اذهب بأمان الرب وقل له ماتريد » وركب الماركيز في أحد الزوارق وذهب الى السفينة ، وعندما صعد الى ظهرها سأل بحارته عما اذا كان الوقت مناسبا للتحرك ، فأجابوه بالايجاب ، فقال لهم ارفعوا أشرعتكم واقلعوا فورا بمشيئة الرب ، وبالفعل حركوا أشرعتهم ، ومنحهم الرب الوقت الجيد المناسب ، فوصلوا الى سورية وجاءوا الى أمام مدينة عكا ، وبذلك نجا الماركيز من الامبراطور .

٤٨ ــ كان في ذلك الوقت ــ الذي وصلوا فيه الى أمام مدينة عكا ــ عادة في المدينة أن يقرع الناقوس ساعة وصول أحد من وراء البحار ، وأن تسير ناقة الى السفينة ، وعندما وصل الماركيز لم يسمع أبدا صوت الناقوس ، فألقى بزورق بالبحر ووضع فيه مجموعة من الرجال الأكثر حكمة في السفينة ، وأرسلهم الى السفينة ليسألوا وليستطلعوا سبب عدم قرع الناقوس ، وليعرفوا له ماهي الأخبار بالبلد ، ووصل الزورق الى أمام برج موسى ، وسألوا هناك الذين صدفوهم : لمن تعود الآن ملكية هذه المدينة ، فأجابوهم انها تعود الى صلاح الدين ، وقالوا لهم أيها الأخوة والأخوات أننا أتينا الى هنا بأمان صلاح الدين ، فقال لهم هؤلاء الرجال : ماكنا قدمنا الى هذه المدينة لو عرفنا أنها بحوزة المسلمين ، فقال لهم رجل من داخل البرج :« اذهبوا الى صور حيث سيأسركم مولاي صلاح الدين الذي استولى على صليبكم وأسر ملككم واخذ جميع ممتلكات المسيحيين».

وعندما سمع الذين كانوا في الزورق هذا الكلام عادوا الى السفينة ، وأطلعوا الماركيز على هذا الخبر ، فتألم الماركيز لسماعه كثيرا ، ثم اقلعت السفينة من هناك الى أمام مدينة صور ، ولدى وصولهم اليها ابتهج المسيحيون الذين في المدينة كثيرا، وسروا لأن الرب أرسل اليهم السفينة في هذا الوقت وهم في أمس الحاجة اليها ، ثم بعث سكان المدينة من يستطلع لهم أمر السفينة وليعرف من كان على ظهرها ، وعندما عرفوا بأن الماركيز كونراد دي مونتفرات فيها ابتهجوا كثيرا .

وذهب عدد كبير من أهل المدينة اليه ورجوه بأن ينزل ويلتحق بهم ، وأن يأتي لانقاذ مدينة صور ، لأنه اذا لم يأت الرب وهو لانقاذ المدينة ، فحالما يغادر من هناك ويسافر سيسلموها الى المسلمين » لأن قوات صلاح الدين موجودة في المدينة » وعند ذلك استجاب المركيز لطلب أهل مدينة صور وقال :« أيها السادة انكم تقولون إنه اذا ماسافرت سوف تستسلم المدينة الى المسلمين

وسيخسرها المسيحيون ، اذا أردتم ان تستقبلوني لكم سيدا وان تكون المدينة بحوزتي ، وتقسمون لي بأنه بعد وفاتي سيكون أولادي أسيادكم سأنزل عند رغبتكم وبعون الرب سأدافع عنها ضد المسلمين ، وبعدما تفرق سكان المدينة ، وعلموا أن صلاح الدين قادم للاستيلاء على المدينة ، نظروا في عرض الماركيز الذي تجرأ على التعهد بحكم المدينة والقيام بحمايتها ، وقدروا حق التقدير ارادته الطيبة ، وأقسموا له ولخلفائه من بعده حسبما طلب منهم ، واثر هذا نزل الماركيز الى اليابسة ، حيث استقبل بتشريف عظيم وبمسيرة كبرى الى داخل المدينة ، فاستولى حالا على المدينة وقلعتها والأبراج وذلك في الوقت الذي لم يتجرأ فيه ريذو صاحب صيدا الذي كان يريد تسليم المدينة الى صلاح الدين على الانتظار ، وركب في زورق وهرب الى طرابلس ، وغدا المركيز سيد مدينة صور .

٤٩ ـ ومااًن فرغ من انزال ماكان في السفن المحملة من مؤن واناس وصلوا الى صور واطمأن السكان فيها ، حتى وصل صلاح الدين للاستيلاء على المدينة وفق ماتم ترتيبه مع ريذو صاحب صيدا ،وبعدما تمركز أمام المدينة خيل اليه أن المدينة ستفتح ابوابها لاستقباله ، لكنه وجد نفسه مزعوجا لأن المركيز ـ كما سمعتم من قبل ـ كان قد استولى على المدينة ، ووجد في القلعة بعضا من قوات شحنة صلاح الدين ، فاعتقلهم وحملهم الى أعلى الأسوار ، ثم وقف مقابل تمركز صلاح الدين ، والقى بهم نحو الخنادق تحديا لصلاح الدين ، ولدى مشاهدة صلاح الدين لهذا التحدي الذي جرى له حينما أوشك أن يستولي على المدينة أرسل الى دمشق ليحضروا له الماركيز بونيفيس ، وعندما أحضر هذا الاخير جعله يتكلم مع المركيز الذي كان في المدينة ويسأله إن كان يريد أن يسلم له صور فيعيد له والده الذي أسره ، ويعطيه كثيرا من المال ، فأجابه الماركيز بأنه لن يعطيه أصغر حجر من صور من أجل أبيه «. ولكن اربطوه بوتد لأكون أول من يطلق سهما عليه لأنه شيخ طاعن بالسن ولاقيمة له أبدا » وقرب الماركيز الأب من أسوار المدينة

فصرخ : « بني ياكونراد احرس المدينة بشـكل جيد » وهنا أمسـك كونراد قوسه وفوقه نحو أبيه واطلق عليه ، وعندمـا سـمع صـلاح الدين بأنه أطلق على أبيه قال :« هذا مجرم شديد التوحش » .

وتخلى صلاح الدين عن متابعة حصار صور ، وقصد مـن هناك مدينة قيسارية فاستولى على أرسـوف ثـم على يافـا (في شـهر تموز ١١٨٧) وذهب مـن هناك لمحـاصرة عسـقلان ولم يسـتطع الاستيلاء عليها بالسهولة التي توقعها ، لأنها كانت مدينة محصـنة وقوية ، فأرسل الى دمشق فأحضر له الملك غي ، وعندما حضر الى أمام عسقلان قـال له :« أيهـا الملك اذا سـلمتني مـدينة عسقلان ، أعدك بأن أطلق سراحك وادعك تذهب سـالما » فـأجابه الملك بأنه سيتكلم مع رجـاله ، ولدى اقتـرابه مـن أسـوار المدينة استدعى اليه رجـال المدينة لانه لم يكن فيهـا ولا فـارس ، وقـال لهم :« أيها السادة ، قال لي صلاح الدين اذا سـلمته هـذه المدينة سيدعني أذهب سالما ، وهذا بـالطبع ليس بـالعمل الجيد ، وليس مناسبا قطعا ان تسلم هذه المدينة الجميلة مـن أجـل رجـل ، واذا علمتم انكم تستطيعون متابعة الدفاع عن عسقلان في سبيل المسيحية ومن أجلها فافعلوا ولاتسلموها ، واذا رأيتـم انكم لن تسـتطيعوا المحافظة عليها ، أرجـوكم أن تسـلموها وتحـررونى مـن الاسر » واجتمع أعيان المدينة ، ورجالاتها وتشاوروا فيمـا بينهـم فراوا أنهم لن يستطيعوا المحافظة على المدينة، ولا أمل لهـم حيث لن تأتيهم نجدة من جهة ما ، ولو أنهم علموا أن نجـدة مـا سـتأتيهم لكانوا اسـتمروا بـالمحافظة عليهـا ، وكان الرأي أن يسلموها ، وينقذوا حياتهم أفضـل مـن ان يجـوعوا ويؤخـذوا بالقوة ، وهـكذا سـلموها الى صـلاح الدين الذي وفى لهـم بوعوده ، فحفظ حياتهم ومعهـم نسـاءهم وأولادهـم وأمـوالهم وأوصلهم الى أرض المسيحيين ، ثم أفرج عن الملك ، فتحـرر مـن سجن صـلاح الدين ، وجـرى انذاك اختيار ايمـري كافـل المملكة ، مقدما لفرسان الداوية وهو اخو الملك ، واتخذ الملك لنفسه أحد الفرسان كاتبا ، واعطـى الفـروسية الى واحـد مـن

السريان ، وكان صلاح الدين قد أبقى الملك محتجزا لديه حتى نهاية اذار ، ثم أن عسقلان استسلمت في نهاية أب (١١٨٧) وبعدما حصل صلاح الدين على عسقلان أرسل الملك ليقيم في نابلس وبعث الى الملكة لتذهب الى نابلس وتقيم مع زوجها هناك ، فهو لم يرغب في بقائها في القدس عندما سيذهب لمحاصرتها ، وعندما وصلت الرسالة الى الملكة وسمعت بها ذهبت الى نابلس لتقيم مع الملك ، وظلت هناك حتى استولى صلاح الدين على القدس .

وفي اليوم الذي استسلمت فيه عسقلان الى صلاح الدين عاد اليه من القدس الوفد الذي ارسله الى اهلها يعرض عليهم شروط الاستسلام ، وكان اليوم يوم جمعة عندما تحرك ، وكانت الشمس قد مالت الى الغروب حتى بدا أنه قد حل الظلام ، ولدى وصوله الى مشارف القدس بعث الى رجالات المدينة يقول · انكم تعلمون باستيلائي على كل الأرض باستثناء القدس ، فاذا سلمتموها لي فحسنا تصنعون (لقد نسيت أن اقول لكم أنه في اليوم الذي استسلمت فيه عسقلان الى صلاح الدين سلمت اليه جميع القلاع المجاورة) ورد سادة القدس على صلاح الدين بقولهم : بمشيئة الرب لن يسلموه المدينة ، فقال لهم صلاح الدين :« قولوا لي مالذي تودون صنعه اذن أعتقد ان القدس بيت الرب ، وايمانكم هو ايماننا ، وسوف لن أحاصر بيت الرب ، ولن اضع فيه النار اذا استوليت عليه بالسلم والمحبة ، اريد ان أتسلمه بطيبة خاطر ، وسوف أعلمكم مالذي سأصنعه معكم ، سأقدم لكم الف مساعدة ومساعدة مقابل تخليكم عن القدس وسأعطيكم الحرية لتذهبوا حول القدس الى حيث تودون ، واذا أردتم الحصول على أي بضائع أو مؤن من أي مكان في الأرض ، لن تحصلوا من أي سوق على الذي سأعطيكم اياه ، وسأمنحكم الآن هدنة من اليوم حتى عيد العنصرة ، وفي هذا الوقت اذا حصلتم على مساعدة لتحموا انفسكم مني افعلوا ، واذا لم تحصلوا على أي مساعدة وتعيدون المدينة الي سأقتادكم انتم واموالكم بسلام الى أرض المسيحيين . فردوا عليه · بمشيئة الرب لن يسلموا المدينة

للمسلمين ، وانهم لن يسلموا المكان الذي سفك فيه المخلص دمه من أجل خلاصهم فلهذا السبب جاء .

وعندما سمع صلاح الدين الجواب وراه ، اقسم انه لن يأخذها بالتسليم ولكنه سيأخذها بالقوة ، وهنا طلب باليان دي ابلين أن يعطى له الأمان ولامرأته ولأولاده ليذهبوا الى طرابلس ، وأعلن أنه لن يستطيع البقاء في القدس والمحافظة عليها ، وأرسل له صلاح الدين فارسا اقتادهم الى طرابلس ، وبذلك استولى على جميع ممتلكات مملكة القدس باستثناء صور والكرك والشوبك .

٥٠ ـ وغادر صلاح الدين عسقلان بقصد حصار القدس يوم الخميس مساء (١٧ ـ ايلول ١١٨٧) وبدأ بحصارها صباح الجمعة من جهة باب داود حتى باب القديس ايتين ، وفيما هو مقيم الحصار عليها أرسل الى سكان القدس يطالبهم بتسليم المدينة ، ويعرض عليهم ماوعدهم به أمام عسقلان ، وانه على استعداد لتنفيذ وعوده بكل طيبة خاطر ، وهنا أدرك اهالي القدس بشكل جيد أنهم اذا لم يسلموا المدينة له سيشدد الحصار عليها ، وسوف لن يمنحهم الأمان وسيستولي عليها بالقوة لأنه أقسم يمينا أنه سيفعل ذلك .

وبعث سكان المدينة الى صلاح الدين يقولون مهما تفعل من خير أو شر لن نسلمك المدينة أبدا ، وحينئذ سلح صلاح الدين رجاله لحصار القدس ، وخرج المسيحيون منها وقاتلوا ضد المسلمين ، ولم تدم المعركة طويلا لأن شمس الصباح بهرت عيون المسلمين فانسحبوا الى الوراء ، وانتظروا حتى الزوال ، وعند حلول المساء بدأوا الهجوم وحاصروها طوال الليل ، وهكذا بقي صلاح الدين أياما يحاصر القدس ، وليس من ضعف أو خوف لم يستطع المسلمون الاستيلاء بالقوة على المدينة وقهر المسيحيين فيها ، فهؤلاء كانوا دوما يشتبكون بالمسلمين خارج الابواب خلال النهار وكانوا يصدونهم الى الوراء حتى خيمهم وأماكن

اقامتهم ، ولم يستطع المسيحيون بدورهم اصابة المسلمين بالسلاح أو القذائف ، وقد تساءلون كيف حاصر المسلمون المدينة وحاربوا أهلها ، انهم لم يحاربوهم الا بعد مرور فترة الصباح ، عندما تغدوا الشمس وراء ظهورهم وفي وجوه المسيحيين ، وعند ذلك كانوا يحاصرونهم حتى الليل ، وهكذا اعتاد المسلمون أن يفعلوا وتولوا قذف المدينة بالمواد المشتعلة والمتفجرة ، كانوا يقذفون بقذائفهم نحو الأعلى ، وبذلك كان المسيحيون يتلقون منذ الزوال المواد المشتعلة والمتفجرة مع أشعة الشمس في وجوههم .

٥١ ـ وعندما رأى صلاح الدين انه لم يستطع قهر المسيحيين من هذه الجهة نقل حصارة وحول قواته من باب القديس ايتين حتى جبل الزيتون ، لأن الذي يقف على جبل الزيتون يمكنه أن يرى كل مايجري داخل القدس ، وبذلك لايستطيع أحد الخروج أو الهرب أبدا من باب القديس ايتين حتى باب يهوشافاط حيث تشدد الحصار ، لذلك لم يبق باب يستطيع ان يخرج منه من هم داخل المدينة لمحاصرة المسلمين ، وذلك باستثناء باب مسادلين الذي ترك مفتوحا للمرور بين الأسوار وداخلها ، وفي اليوم الذي تحرك فيه صلاح الدين من باب داود وجاء الى باب القديس ايتين ، في ذلك اليوم أرسل جيشه للانقضاض على أسوار المدينة ، كما وارسل في الليل عددا كبيرا من الجنود والرجال المسلحين ، وبذلك انقضوا بشدة واندفعوا نحو اسوار المدينة ، وعندما جاء الصباح ، سلح صلاح الدين رجاله والبسهم الخوذ ، ودفعهم للهجوم ومن ورائهم النبالة الذين حملوا القسي ، وانهمر النشاب كالمطر ، حتى أنه لم يوجد بين المسيحيين في المدينة رجل شجاع أو قوي تجرأ على أن يرفع اصبعه فوق الأسوار ، وكان المسلمون قد حفروا نفقا تحت السور ، ثم لغموا الحفرة ، وفي الصباح صبوا على الأخشاب الزيت ثم اضرموا النيران ، وهكذا سقط السور ، ولم يتمكن المسيحيون من الحيلولة دون اللغم كما وعجزوا عن المقاومة ضد هجمات المسلمين ، فقد خافوا من ضربهم بالأسلحة أو اصابتهم بالقذائف وشعروا أنهم لن يستطيعوا متابعة المقاومة .

٥٢ ـ وتكلم صلاح الدين أثناء حصاره القدس بكل لباقة ، وظل يفعل ذلك لدى مخاطبته السكان وكان بلدوين دي ابلين عندما سافر من مملكة القدس ترك ابنه الذي يدعى توماسن تحت رعاية أخيه بالين ، وكان له طفل آخر اسمه وليم من ابنة ريموند صاحب جبلة وعندما سمع والدهما أن صلاح الدين قد حاصر القدس أرسل يتوسل اليه أن يطلق سراح ولديه اللذان هما في المدينة حتى لايقعا في الاسر وفي الحال أرسل صلاح الدين الى بالين الذي كان مقيما في القدس أن يبعث اليه ابن أخيه توماسن وابن أخيه بلدوين ووليم ابن ابنة ريموند صاحب جبلة ، وعندما عرف بالين بما رغب به وأراده بعث بهم بكل طيبة خاطر ، وعندما جلب الطفلان إلى حضرة صلاح الدين استقبلهما بكل احترام بما يليق بهما كأبناء أناس أشراف ، وخلع عليهما الالبسة وأعطاهما مالا ، وأمر أن يجلس أحدهما على ركبته اليمنى و الآخر على ركبته اليسرى ثم أخذ يبكي بحنان وعندما سأله بعض قادته عن سبب بكائه قال مجيبا :لا أحد يتعجب أو يستغرب لان كل شيء في هذا العصر أخذ وعطاء ، أو دين وسداد ، وأقول لكم لماذا بكيت ، لانني كما أعامل أولاد الآخرين سيعاملون أطفالي بعد وفاتي ، وأضيف لكم مثلما أعامل الاجانب وكل من هو ضد سلطتي ، وأخي سيف الدين ، الذي سيحافظ على أولادي بعد وفاتي سيعاملهم أيضا بالمثل ، وكانت نبوءة صحيحة ، لانه كما قال عاملهم سيف الدين

٥٣ –بسبب رغبة صلاح الدين في الاستيلاء على مدينة القدس سليمة ، لم يشدد عليها الحصار ليلا ونهارا بدون استراحة ، مع أن الذين كانوا داخل المدينة كانوا يشعرون بالانزعاج كما وكانوا قد هدهم الارهاق من العمل المتواصل وعندما تيقن هؤلاء انهم لن يستطيعوا الاستمرار بالدفاع طويلا ، اجتمع وقتها مسيحيو المدينة وأخذوا يتداولون حول أفضل السبل ، ويبحثون عن أفضل المخارج لما هم فيه ، ثم توجهوا الى البطريرك والى بالين دي ابلين وقالوا لهما بأنهم يريدون الخروج ليلا من المدينة والانقضاض على المسلمين ، لانهم يفضلون الموت بشرف في المعركة على أن يؤخذوا

أسرى في المدينة ، وأيقنوا أن استمرارهم بالدفاع لن يجدي شيئا ، وفضلوا أن يموتوا حيث تألم يسوع المسيح من أجلهم ومات ، وأشروا ذلك أن يسلموا المدينة ووافق الفرسان وأعيان المدينة على هذا الرأي ، أما البطريرك فقد رأى عكس الذي رأوه حيث قال :أيها السادة أريد هذا الذي تريدون جيدا ، فهو التصرف الذي يعجبني ، ولكن يوجد شيء آخر ، فنحن اذا تخلصنا وأخذنا معنا كل مايمكننا من سلاح سيكون ذلك أفضل لنا.ان هذا الذي أراه شخصيا ، لأن لكل رجل في هذه المدينة زوجة وأطفال ، واذا متنا كلنا يأخذ المسلمون النساء والأطفال ، وهم لن يقتلونهم ، بل سيرغمونهم على ترك الايمان بيسوع المسيح ، وكلهم بذلك سوف يخسرهم الرب ، والأنسب أن نتوسل الى صلاح الدين بوساطة أحدنا حتى نتمكن من الخروج جميعا من المدينة والذهاب الى بلاد المسيحيين ، وهذا عندي الرأي الأفضل من أن نذهب الى الحرب لأننا لن نستطيع أن ننقذ منهم النساء والأطفال »

ووافق الجميع على هذا الرأي ، وقدموا الرجاء الى بالين دي ابلين لينهب الى صلاح الدين ليتفق معه على السلام الذي يريدون أن يقيموه معه ، وذهب بالين هذا الى صلاح الدين وتكلم معه حول هذا الموضوع ، وبينما هو في حضرة صلاح الدين انقض المسلمون على المدينة وقربوا بعض السلالم الى أسوار المدينة ، وبعدما اسندوها الى الاسوار صعدوا عليها حيث مهدوا السبيل لدخول المدينة ، ورفعوا أعلام صلاح الدين على أسوار المدينة .

وعندما رأى صلاح الدين أعلامه ورجاله وحاشيته فوق أسوار المدينة قال لبالين :« لماذا تطلب مني التباحث بشأن تسليم المدينة وأعقد معكم الصلح ؟ انظر فهاهم رجالي وأعواني فوق أسوار المدينة لقد تأخرت ، ان المدينة أصبحت لي ، ان الفقراء والحجاج وعلماء دين محمد (صلى الله عليه وسلم) سيحرجونني وسيلحون علي الا آثق بكم ، وهذا وقت الثأر للذين سفكت دماؤهم في شوارع القدس وفي الهيكل والانتقام لدماء المسلمين التي سفكها غودفري».

وفي تلك الساعة التي كان الحديث يجري على هذه الصورة سارع مولانا فأمد المسيحيين بالقوة والنصر على المسلمين الذين كانوا فوق الاسوار ، فالقوا بهم على أرض الخندق ثم طردوهم الى خارج الخندق ، وهنا خجل صلاح الدين وتألم كثيرا ، وطلب من بالين أن يعود الى المدينة دون أن يعمل شيئا .

وعند الصباح عاد بالين اليه ، فسمع كلامه بكل سرور ، وعند ذلك توسل اليه بالين وقال مخاطبا اياه : مولاي ، احمد الرب على كل حال لأن سكان المدينة يئسوا من حياتهم وهم يتسابقون أحدهم أمام الآخر مدافعين لئلا يؤخذوا بالقوة ان مذبحة كبيرة ستقع اذا ما استطعتم أخذ المدينة بالقوة كما تعتقدون .

٥٤ ـ وأحدثكم أنه وقع هجوم هائل من المسلمين أضر بأهالي المدينة وأخافهم كثيرا ، وكل الذين كانوا في الداخل والخارج استبد بهم الرعب ، وكان كل منهم يصرخ ويصيح « خيانة خيانة » واعتقد الذين كانوا في داخل المدينة أن المسلمين قد دخلوا الى المدينة ، وأن المسيحيين قد هوجموا وحوصروا .

وسأحدثكم الآن عما صنعه نساء القدس ، لقد أخذن أطباقا ، ووضعنها في الساحة أمام جبل الجلجلة ، وملأنها بالغذاء البارد ، ثم وضعن أطفالهن في الداخل وقطعن لهم قطعا والقين بها بعيدا عنهن ، وسار الرهبان والأساقفة والراهبات جميعا حفاة الى أعلى الاسوار في موكب ، وكان الاساقفة يحملون القربان المقدس على رؤوسهم ، بيد أن مولانا أمر الا يسمح لا لصلاة ولا لصياح ولاحتى توسل بالدخول الى المدينة ، لأن القذارة العامة وروائح الانتان والخطيئة ضد الطبيعة لم تسمح بارتفاع الصلاة الى عند الرب ، فقد كان الرب غاضبا غضبا شديدا على شعب هذه المدينة ، وهكذا لم يبق فيها ولارجل ولاامرأة سوى الاناس المسنين الذين لم يعيشوا طويلا .

٥٥ ـ ونحدثكم عما حدث بعد ذلك ، ففي هذا الجو الرهيب والرعب الشديد ذهب بالين دي ابلين الى صلاح الدين واعلمه أن المسيحيين على استعداد لتسليمه المدينة مقابل الحفاظ على حياتهم ، فأجابه صلاح الدين لقد جئت متأخرا :« لانني عندما اردت ذلك وقدمت لهم أفضل الشروط اذا سلموا لي المدينة ، رفضوا القبول بما تقدمت به اليهم وعرضته عليهم ، وعند ذلك أقسمت بعدما رفض هذا العرض انني لن أتصالح معهم مطلقا ، بل سأقهرهم بالقوة ، والآن اذا أرادوا أن يستسلموا لرحمتي فسأعاملهم بارادتي كعبيد وقعوا بالأسر ، والا فلا » .

وعند ذلك جاء اليه بالين وقال له بصوت مرتفع : شكرا ، من أجل الرب أشفق عليهم ، وحينئذ أجاب صلاح الدين ورد على بالين بقوله :« محبة لله ولك سأقول لك ما سأصنعه ، سأشفق عليهم بطريقة ما حتى أبر بقسمي وأنفذه ، انهم سيستسلمون لي كأنهم أخذوا بالقوة ، وسأترك لهم أثاثهم وأموالهم طبقا لارادتي ، وسأزج بهم في سجني ، وكل من يستطيع أو يريد أن يفدي نفسه سأدعه يذهب بعد دفع فدية حرب ، والذي ليس لديه اي شيء يدفعه أو لايريد أن يفتدي نفسه سيظل في سجني وكأنه أخذ بالقوة » وعند ذلك قال له بالين : « مولاي ماهي قيمة الفدية »؟ فأجابه صلاح الدين قائلا : ستكون قيمة الفدية متساوية للفقراء كما هي للأغنياء ، مع اعفاء النساء والاطفال ، أما الذي لن يستطيع دفع الفدية سيكون عبدا » فأجابه بالين قائلا :« مولاي لايوجد في هذه المدينة سوى القليل من الناس الذين يستطيعون دفع الفدية ، لأن المدينة مكتظة بأعداد كبيرة من الذين جاءوا اليها من جوارها ، فكيف لهؤلاء الاستطاعة في هذه الحالة التعويض عن أنفسهم » ؟ فقال له صلاح الدين : تدبر الامر وتشاور معهم وتعال الي بالغد ، واستأذنه بالين ورجع الى المدينة ، والتقى بالبطريرك واستدعى ايضا جميع السادة ، ليقول لهم الذي وجده ، وعندما سمعوا ذلك غضبوا غضبا شديدا من أجل شعب المدينة .

ثم اجتمعوا اليه واخبروه بوجود مبلغ معتبر في مقر الفرسان الاسبتارية جاء من ملك انكلترا ، واذا ماتمكنوا من الحصـــول على المال من بيت الاسبتارية ليفدو به قسما من الشعب سيكون ذلك عملا جيدا ، لأن الملك غي أخـذ المال الذي في بيت الداوية ، وانفقــه على الناس الذين جندهم معه ، ولقد هلك هؤلاء جميعاوفقــدوا الصـــليب المقدس ، واذا ماأمكن الحصـــول على هـــذا المال مـــن الاســـبتارية فسيكون انفاقه افضل بكثير مـــن انفــاق مـــال الداوية ، وبناء عليه اجتمع البطريرك مع بالين واستدعيا اليهما رجال الاسبتارية وقـــالا لهم :« نريد مال ملك انكلترا الموجود في بيتكم لنفدي به العـــديد مـــن شعب المدينة بقـــدر مـــانستطيع ويرضى صـــلاح الدين ، واجـــابهم الاسبتاري الذي التقى بهم بأنه سيتشاور مع اخوته ، فأجاباه بان سكان المدينة ينتظرون نتيجة التشـــاور ، ومعـــرفة فيمـــا اذا كان هؤلاء سيدفعون المال لفـــدية الفقـــراء والمســـيحيين ، وتشـــــاور الاسبتاري مع الفرسان في بيتهم ، وقـــال الفـــرسان بمـــا أن المال يخصهم فيودهم أن يفتدوا به الفقـــراء ، ثـــم عاد الاســـبتاري الى البطريرك والآخرين وقال لهم : ان الاسبتارية يرغبون في تسليم مال ملك انكلترا اليهم لفداء الفقراء ، وبناء عليه تـــوجهوا بـــالرجاء الى بالين ليذهب الى صلاح الدين ويعقد معه أفضل صفقة ممكنة وليدفع له ، وهكذا توجه بالين الى صلاح الدين وسط جيش المسلمين وسلم على صلاح الدين ، فسألة صلاح الدين : مالذي جاء بك ولماذا جئت وماذا تطلب ؟ فقال : انه جاء ينشد لطفه ورحمته وتنفيذ وعده مـــن اجل الذين ترجاه ، فقال صلاح الدين انه سيكتفي بأخذ مـــا هـــو في بيت الاسبتارية ، واذا لم يكن في هذا البيت شيئا فلن يأخذ شيئا ابدا

« لأن المدينة وكل ما فيها ملكي » فأجابه بـــالين : حمـــدا للرب يا مولاي ، سير رجالك الى فقراء المدينة وسأعمل مـــا في وســـعي كي يدفعوا لكم الفدية » فقال صلاح الدين من أجل الله مـــن قبـــل ومـــن أجله من بعد تقرر عليهم الفدية بقـــدر مـــا يســـتطيعون بحيث يدفـــع الرجل القادر عشر قطع نقدية ، وتـــدفع المرأة خمس قـــطع ويدفـــع الطفل قطعة واحدة ، وسيجري تسديد هذه المبالغ عند أبواب المدينة

أثناء المغادرة ، وعند ذلك يتم احضار الرجال والنساء والأطفال ويتم طلب الفدية من الذين يستطيعون دفعها ، ويبحثوا فيما اذا كان لديهم أثاث أو متاع يمكنهم بيعه أو أخذه معهم دون أن يسبب أية اساءة أو ضرر لهم .

وبعدما هيأ على هذه الصورة مسألة فديتهم قال باليان لصلاح الدين : « مولاي اذا أخذنا الفدية من الذين هم لديهم القدرة على الدفع ، لن يبق في المدينة احد يستطيع دفع فدية رجل واحد ، فمن أجل الرب خفض الفدية وحددها وسأطلب أنا من البطريرك ومن الداوية والاسبتارية دفع فدية الفقراء» وبناء عليه أجابه صلاح الدين انه سيستجيب لطلبه بكل طيبة خاطر ، وأنه أنقص قيمة الفدية وحددها بدينار بيزنطي واحد ، من دفعه سمح له بالذهاب ، وحينئذ قال باليان : « مولاي إن الذين يستطيعون دفع الفدية يفرج عنهم ويسمح لهم بالمغادرة ، ولم يبق سوى المبلغ الذي تطلبه من الفقراء » فأجابه صلاح الدين انه لن يتصرف خلاف ذلك ، وارتأى عند ذلك باليان أن من المستحسن الا تدفع المبالغ دفعة واحدة ولكن على أقساط ، فلعله سيحصل على مساعدة الرب لتأمين الدفعة الأخيرة ، ثم سأل صلاح الدين عن عدد الرجال الذين سيفرج عنهم ، فقال له صلاح الدين ، كل رجل مقابل دينار بيزنطي ، فقال له باليان :« مولاي ، بحق الرب ، اجعل ذلك مقابله ». ثم تحدث باليان مع صلاح الدين عن عدد الرجال القادرين ثم أحصيا عدد النساء والشيوخ والأطفال من مختلف الأعمار .

٥٦ ــ وبعدما تم الاتفاق ، أعطاهم صلاح الدين أربعين يوما ليبيعوا أغراضهم أو يرهنوها ومن ثم يدفعون الفدية ، وأنه من وجد بعد ذلك سيكون هو وماله لصلاح الدين ، ووعدهم صلاح الدين أنهم عندما يصبحون خارج المدينة سيرسلهم بأمان الى بلاد المسيحيين ، وقال لباليان من كان لديه سلاح فليحمله للدفاع عن الذات أثناء الطريق ، وبعدما أبرم اتفاق السلام طلب باليان الأذن

من صلاح الدين وقال له : « مولاي سأذهب الى المدينة واذا وافقوا على شروطكم ومطاليبكم سأحضر لكم المفاتيح ».

ومن ثم ذهب بالين الى المدينة ، ومضى الى البطريرك حيث جرى استدعاء رجالات الداوية والاسبتارية وأعيان المدينة وسادتها ، ليستمعوا الى موضوع السلام الذي حققه ، ويروا فيما اذا كان يوافقهم ، فقالوا بعدما شرح لهم جلية الأمر :« اذا لم يتوفر ما هو افضل من هذا ، ولا يمكن القيام بعمل آخر فليكن ذلك ، وهكذا كان بعدما شرح لهم كل شيء وبين لهم طبيعة مفاوضاته مع صلاح الدين ، اخذوا مفاتيح الابواب وأحضروها الى صلاح الدين ، وبعدما حصل صلاح الدين على المفاتيح سر سرورا عظيما وشكر مولاه (الله) و(صلى على) محمد (صلى الله عليه وسلم) وارسل شحنة من الجند من الفرسان والرجالة الى برج داود ، وأمر الا يسمح لمسيحي واحد بالمغادرة وذلك من أجل دفع الفدية ، ودخل المسلمون الى المدينة لشراء الاغراض التي كان المسيحيون يريدون بيعها ، وكان اليوم الذي سلمت فيه القدس الى صلاح الدين يوم جمعة ، وصادف ذلك الثاني من تشرين الأول .

٥٧ ـ زين صلاح الدين البرج وأبواب المدينة ، وما أن فرغ من ذلك ، نادى في المدينة بأن يحمل سكانها فديتهم الى برج داود ، حتى يدفعوها الى رجاله وكتابه الذين وضعهم لاستلام الفدية ، والا ينتظروا الأيام تمضي ، فكل ما يوجد فيما بعد من رجال ومال سيكون حقا لصلاح الدين ، وذهب البطريرك وباليان الى بيت الاسبتارية وأخذا المال ، ونقلاه الى برج داود لدفع فدية المسيحيين الفقراء ، وبعد دفع أموال الفدية استدعيا البارونات والسادة من كل شارع ومن كل منطقة ، وجعلوهم يقسمون الأيمان باسم القديسين ليعترفوا بألا يوفروا احدا من رجل أو امرأة سواء من الاصدقاء أو الأهل الا ويحلفوهم بالقديسين ليعترف كل منهم بما يملك ، وألا يأخذوا معهمْ إلا ما يكفيهم للذهاب الى بلاد المسيحيين ، وبعدما نفذوا هذا وجدوا أنفسهم أنهم ما عادوا يستطيعون التعويض عن

الفقراء ، ولقد سجلوا اسماء الفقراء كل حسب الشارع الذي يقطنه ، وحسب حالته المادية ، فبعضهم كان افضل حالا من بعضهم الاخر ، واختلف عدد الفقراء بين شارع ولخر ، وإثر ذلك وضع خارج المدينة الذين جرى التعويض عنهم ، وانقطع الاتصال بين هؤلاء والذين تخلفوا في المدينة ، ثم اجتمع البطريرك وباليان وأرسلا الى القائمين على بيتي الداوية والاسبتارية والى السادة ، وتوجها اليهم بالرجاء ـ من أجل الرب ـ للاجتماع بالناس الفقراء الذين لم يتمكنوا من الخروج من القدس لتقديم المساعدات اليهم ، وقدم بيتا الداوية والاسبتارية بعض المساعدات ، ولكنهما لم يدفعا مايكفي وما توجب عليهما ، ثم إن الداوية والاسبتارية لم يخافوا أبدا من أن يؤخذ منهم بالقوة ما كانوا يملكون لأن صلاح الدين أكد لهم الامان ، ولو أنهم ظنوا أنهم سيعاملون بقسوة لكانوا قد دفعوا أكثر مما أعطوا ، ومع الذي أخذ من الفقراء الذين خرجوا دفع سادة القدس المزيد من أموالهم وعوضوا عن الناس الفقراء ، ولا اقدر أن أذكر لكم تعداد هؤلاء ، لكن سأحدثكم عن صلاح الدين واصف لكم كيف حافظ على مدينة القدس ، وحرص الا يساء الى أحد المسيحيين الذين كانوا في المدينة ، من قبل المسلمين ، فقد وضع في كل شارع عددا من الفرسان والجنود القيام بحراسة المدينة ، وبالفعل حرسوها بشكل جيد ، ولم يسمع احد بأي اساءة قام بها رجل مسلم ضد أي مسيحي ، خاصة اذا ذكرنا ان المسيحيين كانوا يخرجون من القدس ويسكنون امام جنود المسلمين ، ولم يحدث أن أصيب أحدهم من أحد بسهم ، فقد أمر صلاح الدين جنوده بحراسة المسيحيين ليلا ونهارا لئلا يعتدى عليهم ، أو يزعجهم أحد اللصوص .

وعندما خرج من المدينة الذين أمكن التعويض عنهم ، بقي فيها الذين لم يعوض عنهم وكان هؤلاء الذين ظلوا في المدينة من الفقراء وكان عددهم كبيرا جدا ، وقال حينذاك سيف الدين لأخيه صلاح الدين : « مولاي لقد ساعدتك في الاستيلاء على الارض وعلى مدينة القدس ، أرجوك أن تمنحني عددا من هؤلاء الفقراء في القدس

أتخذهم عبيدا لي » فسأله صلاح الدين ماذا سيصنع بهم ، فـأجابه بأنه سيتصرف بهم وفق ارادته ، وبناء عليه أمر صلاح الدين اتباعه باعطائه ما اراده عبيدا ، ونفذ هؤلاء الاتباع أوامر صلاح الدين على الفور ، وقام سيف الدين اثر ذلك في اطلاق سراحهم جميعا وتركهم يذهبون بأمان الله ، واثر ذلك جاء البطريرك وبـالين الى صـلاح الدين ورجواه باسم الرب ، أن يطلق سراح الذين لم يستطيعوا دفع الفدية ، وقالا له :لقد اطلقت لنا عددا من رجال الاسبتارية والداوية والسادة وغيرهم ، فلو اطلقت لنا اكثر منهـم لما كان هناك خسـارة واضرار ، فالتفت صلاح الدين نحو رجاله وقال : بودي أن أتصـدق وأحسن مثلما فعل أخوتي والبطريك وبالين ثـم أمـر صـلاح الدين أتباعه في القدس أن يفتحوا مخرجا خلفيا أمام دير القـديس لارد ، وأن يوضع هناك بعض الجنود ليقفوا عند هذا الباب ، كمـا وأمـر المنادي بالنداء بالمدينة بأنْ يخرج الناس الفقراء من المدينة ، ثم أمر اتباعه أن يوعزوا الى الجنود عند باب داود ليفتشوا في السجون عن كل من يستطيع أن يدفع الفدية لاخراجهم ، وكان في السجون أعداد كبيرة من الشباب والشابات ، ثـم أخرج المسـنين الى خارج القدس ، ودامت هـذه العملية مـن شروق الشـمس حتـى غروبها ، وخرج من المنفذ الذي اعد خصـيصا جميع الفقـراء الذين تصدق عليهم صـلاح الدين ، وكانوا كثـرة لم يعـرف لذلك أحـد عددهم .

ثم أوقف السماح بخروج الفقـراء الذين بقيوا هناك ، وأقـول لكم : لم يكن هذا اجراءاً سيئا ، فقد مشى رجل مع عدد كبير آخر من الفقراء ، وكان يحمل جرة كبيرة من الخمر على كتفيه وقـد ربـطها بعصاه ، ولم يكن هناك بين الحشد ولا واحد مـن المسـلمين ، بـل الذي وجد عدد كبير من رجال الاكليروس ومن الرهبـان مـع الذين يدعون الحجاج ، وكان هؤلاء يشربـون فيمـا بينهـم كثيرا مـن الخمرة ، مع أننا نعد ذلك اسرافا ، ورأى واحد مـن الجنود هـذا المشهد وظن أن الجرة كانت مليئة بالخمرة فقال : « أما آن أن يذهب هؤلاء الخنازير ونتخلص منهـم ومـن خمـرهم ، أعاننا الله على

تنظيف المدينة منهم » ثم ضرب الجرة بعصا كان يمسكها فأفرغ ما كان بها ، واذا هو مال كثير ، فدهش الجنود والمسلمون كثيرا ، وأعلموا صلاح الدين أن المسيحيين كانوا يحملون الاموال ، ولم يرغبوا ابدا في دفع الفدية عن الفقراء ، وبناء عليه أوقف صلاح الدين الخروج من المدينة ، ولم يعد يسمح لأحد بالذهاب دون دفع ألفدية ، وهذه الحادثة رواها لي واحد ممن بقي في المدينة ، وحدثت أيضا انه عندما علم البطريرك وباليان ببقاء عدد كبير في الاسرى ، مثلا امام صلاح الدين وقالا له : « مولاي من أجل الرب ضعنا نحن الاثنين في السجن ، ودع هؤلاء الفقراء يذهبون ، وسنبقى رهينة في سجنك حتى نرسل واحدا ليجمع لك الفدية » لكن صلاح الدين رفض أن يضع أحد في السجن أما الذين كان قد أسرهم فلم يرغب بالحديث عنهم لاطلاق سراحهم ، ولهذا مكث بعض الناس طويلا أسرى في سجن صلاح الدين .

٥٨ ــ وأحدثكم الآن عن الصنيع الطيب والمجاملة الرائعة التي قام بها صلاح الدين نحو سيدات القدس من نساء الفرسان وبناتهم ، الفرسان الذين ماتوا أو أسروا في المعركة ، فقد هربن الى القدس ، وبعدما دفعت فديتهن وخرجن من القدس ، ذهبن الى صلاح الدين وشكرنه بأعلى صوت ، وعندما رآهن صلاح الدين سأل عنهن وماذا يطلبن فقيل له انهن نساء وبنات الفرسان الذين ماتوا أو أسروا في المعركة ،وسأل ماذا يردن فقيل له انهن يردن أن يشفق عليهن ، وأن يطلق في سبيل الله من في أسره من أزواجهن وآبائهن ، فقد فقدوا الآن الارض ، ويسألنه من أجل الله أن يجتمع بهم ليساعدهن ، وعندما رآهم صلاح الدين يبكين ، أشفق عليهن كثيرا وقال لهن انه سيبحث عن رجالهن وسيطلق سراحهم جميعا ، وبالفعل جرى التفتيش وأطلق صلاح الدين سراح كل الذين كانوا في سجنه ، وبعد ذلك أمر أن يعطى للسيدات والفتيات اللواتي توفي اباؤهن أو أزواجهم في المعركة كفاية كل واحدة منهن من المال ، وهكذا دفع لواحدة خلاف الاخرى أقل أو أكثر حسب

وضعهن ، ولقد أعطين بقدر ما توسلن لله مالا وشرفا أولاهـن اياه صلاح الدين .

وبعدما أخرج جميع المسيحيين من القدس ، تجمع الذين خرجوا من فقراء واغنياء في الجهـة المقـابلة لجيش المسـلمين ، وأصـيب المسلمون بالذهول لدى رؤيتهم للحشد الهائل من الشعب الذي تجمع هناك ، وهكذا اعلموا صلاح الدين أن عدد الشعب الذي خـرج مـن المدينة كان كبيرا جدا ، بحيث لا يمكن أن يسافروا كلهم معا .

٥٩ ــ وأمر صلاح الدين أن يوزعوا على ثلاثة أقسـام ، فـأخذ الداوية قسما منهم ، وأخذ الاسبتارية قسـما آخـر ، ثـم أخـذ البطريرك وبالين الثلث المتبقي ، وعندما أخذ كل قسمه ، كلف صلاح الدين بعضا من فـرسانه أن يقتـادوهم بسـلام وأمـان الى أراضي المسيحيين . وسأحدثكم كيف اقتـادوهـم : سـار بعض الفـرسان أمامهم في المقدمة وسار بعضهم الآخـر مـن خلفهـم ، وكان الذين يسيرون في المقدمة يتـوقفون عندمـا ينامـون لاعطـاء العلف لخيولهم ، وتراهم بعد العشاء جميعا قد حملوا اسلحتهم وامتـطوا ظهور خيولهم ، وهم يطوفون طوال الليل بين المسـيحيين وحـولهم حتى لا يهاجمهم أحـد اللصـوص ، وأمـا الفـرسان الذين كانوا يسيرون في المؤخرة ، فكانوا عندما يرون رجلا أو امرأة أو طفـلا لا يستطيعون السير يترجلون عن ظهـور خيولهـم ، ويسـيرون على الاقدام ويحملون هؤلاء حتى أمـاكن الاسـتراحة وكثيرا مـا كانوا أنفسهم يضعون على ظهور خيولهـم مـن أمـامهم أو خلفهـم الأطفال ، وعندمـا كانوا يصـلون الى محـطات التـوقف ، كانوا يتناولون طعامهم وينامون ، واعتـاد الذين يسـيرون هـذا اليوم في المقدمة على السير غدا في المؤخرة ، ويتقـدم الذين في المؤخـرة الى الامام ، وجرت عادتهم لدى وصولهم الى ممر ضيق أو موضع ريبـة وخوف ، أنهم كانوا يسلحون بعض المسيحيين ، ويعـطوهم بعض الاسلحة التي يحملونها بغية حراسة الممـر الضـيق حتـى يعبـر الجميع ، ولدى التوقف كان بائعو اللحوم في الارض يجلبون اللحوم

بكثرة حتى أن المسيحيين أقاموا لذلك سوقا كبيرا ، وبالنسبة للقسمين الاولين اللذان عادا الى أرض المسيحيين ، كان أول من وصل مقدم الداوية ومعه قسمه ، ثم تلاه مقدم الاسبتارية ، وجاء بعد ذلك البطريرك وباليان لانهما فكرا في اقناع صلاح الدين بتوسلاتهما ليطلق سراح الأسرى الذين بقيوا في المدينة ، وقد أخفقا في اقناعه ·

٦٠ ــ على هذه الصورة جرى اقتياد المسيحيين الى أرض طرابلس ، وبعدما عبروا أراضي كافل المملكة دخلوا الى اراضي صاحب البترون وهونين ، وأمر ريذو صاحب هونين بجمع جنوده وأوقفهم في مكان محدد من أرضه حيث أمرهم بتقديم المساعدات الى الناس بقدرما يستطيعون ثم استقبل بقية أهل القدس الذين تركهم صلاح الدين .

من الذي يستطيع وصف البكاء والآلام أو رواية أخبار هذه المحنة الحزينة التي عانت منها مدينة القدس المقدسة ، هذه المدينة التي كانت تدعى سيدة المدن جميعا أصبحت الآن خادمة وتابعة ، هذه التي كان ينبغي ان تحكم بجدارة باتت محكومة .

وأساء صاحب هونين معاملة الذين التجأوا اليه ، فذهبوا الى طرابلس ، ظانين أنهم سيستقبلون بشكل لائق داخل طرابلس و لكن كونت طرابلس أمر باقفال أبواب طرابلس في وجوههم ، والا يسمح بدخول اي شخص اليها ، ثم بعث رجاله الى قلعة كوكب ، فأخذ هؤلاء سادة القدس واغنيائها وعاملوهم معاملة سيئة ، ولا بد هنا من الاقرار ان اهالي طرابلس وهونين عاملوا أهل القدس أسوأ معاملة ، وبما أن المساعدة أمر يجب الاقرار به لم تكن معاملة أهل طرابلس وهونين مثل معاملة المسلمين لأن المسلمين كما سمعتم من قبل اقتادوهم بأمان وقدموا لهم مساعدات كبرى ، بينما أساء هؤلاء معاملتهم ولم يستقبلوهم واقتص المولى من صاحب هونين ، لأجل ما اقترفه من أثام ، اقتص منه في حياته

حيث فقد بصره ، وخسرت أخــواته أزواجهـن وهــن أحياء ، ولم يخلفه أحد لا هـو ولا أخواته من بعده ، وحصــل القصــاص نفســه ونزل ليس فقط بأهالي هونين بـل بـكل المتآمـرين والذين يعملون الشر ، وذهب فقراء أهل القدس الى انطاكية ودخـل بعضـهم الى الاراضي البيزنطية ، وبقي قسم منهم أمام مدينة طرابلس ، وذهـب سكان قادس وعسقلان مع قسم من أهالي القدس الى الاسـكندرية حيث أحسن استقبالهم في أراضي المسلمين ، بينما الذين ذهبوا الى طرابلس لم تحسن معاملتهم هناك .

وعندمــا جــاء هؤلاء الى أرض الاسـكندرية ، اسـتقبلهم والي الاسكندرية استقبالا جيدا ، فوضع حرسا بينهم وحافظ عليهم ليلا ونهارا ، واستمر يعاملهم بمثل هذه المعاملة الطيبة وبحمايتهم طيلة الشتاء ، فقد مكثوا هناك حتى شهر آذار ، حيث ذهبوا اثر ذلك الى أرض المسيحيين فيما وراء البحار .

٦١ ـــ وأحدثكم الآن عما كان يقوم به المسلمون في الاسـكندرية كل يوم ، كان أعيان المدينة يخرجون فيقـدمون الهـدايا والاعطيات الكبيرة الى المسيحيين وكانت من الخبـز والخمـر والمال ، ثـم إن اغنياء المسيحيين الذين كانوا يملكون الأموال قاموا فـاستخدموهـم كسلعة فربحوا منهم ربحا كبيرا عندما عبروا البحر .

وأروي لكم الآن خبر المخاطرة الكبيرة التي تعرضوا لها ، فقـد ذهبوا الى ميناء مدينة الاسكندرية ، ووقفوا أمــام أهــالي : بيزا والبندقية وجنوى وقوم آخرين ، فقد كان يعقد لهؤلاء في شــهر آذار سوق كبير للعبور ، وعندما جاء شهر آذار استقبلوا هناك ، ثم قام مقدموهم بالذهاب الى والي الاسكندرية ليسددوا ماعليهم من حقوق وطلبوا منه أن يعطيهم حكام هؤلاء وقـادتهم ، حتـى عندمــا يحين الوقت يستطيعون الذهاب معهم ، فقال لهم : انه لن يحرر حكامهم اذ لم يتسلموا الفقراء منهم ، فأجابوا بأنهم لن يتسلموا الفقراء لأن القوانين لاتسمح لهم بـذلك ، وليس لديهـم مســاعدات ليقـدموها

لهم ، فقال لرجاله :« مـــاذا تـــرون ان نعمـــل ومـــاذا تريدون ؟ » فقالوا :« نقيدهـم » ثم توجه هذا الوالي بالخطاب اليهم قائلا :« غريب أمـركم الا تفـكرون ، هـل تـريدونهم أن يهلكوا ويصبحوا عبيدا المسلمين بخرق الأمان الذي أعطـاهـم اياه صـلاح الدين ؟ هذا لن يكون ، خذوهم معكم ، وسأخبركم ماالذي سأعمله للمحافظة على الأمـان ، سـأعطيهم الخبـز والمســاعدات الكافية ، وتتسلموهم أنتم وتصبحوا مسؤولين عنهم ، وبخلاف ذلك لن تستطيعوا الحصول على حكامكم ».

وعندما رأى اصحاب السفن أن لامناص امامهم ، سمحوا لهـم بالصعود الى ظهر السـفن ، ولقـد كان الوالي حـكيما وكان يخشى الله ، هل تعلم ماالذي قاله هـــذا المســلم للســادة وقبــاطنة السفن :« تقدموا واقسموا لي على انجيلكم بأنكم ستنقلونهم نقـلا جيدا وستعاملونهم بكرامة حتى يصلوا الى مرسى السـلام في أرض المسيحيين ، وأن تضعوهم حيث تضعون الأغنياء والا تسيئوا اليهم أو تزعجوهم ، واذا سمعت يوما من الايام انكم أسأتم معاملتهم أو أزعجتموهم سأضايق تجـار بــلادكم الذين يأتــون الى هـــذا البلد » وهكذا ذهب المسيحيون الذين أمضوا الشتاء في الاسـكندرية بسلام الى بلادهم عبر أرض مصر .

٦٢ ـ وسـأحدثكم الآن عن الذي صـنعه صـلاح الدين عندمـا استولى على القدس ، إنه لم يغادر المدينة قبل أن يصلي في المسـجد الاقصى ، فقد بعث فجلب اخته التي أسرها وغصبها نفسـها الامير ارناط حتى تصلي معه في المسـجد الاقصى ، ليقـدما الشـكر لله وليصليا على محمد(صـلى الله وعليه وسـلم) لعـظيم الشرف الذي اولاه اياه الله ، وعندما سمعت هذا النداء حملت الجمال بـالهدايا والمساعدات ، وتحركت للقدوم الى القدس .

وقبل ان يدخل صلاح الدين واخته الى المسـجد الاقصى ، عمـلا على تنظيف هذا المسجد وتخليقه بالعطور ، وامر رجال الاكليروس

والاساقفة بالعودة الى الكنائس التي قد انتهكت ، ذلك ان المسلمين قالوا : لاخنزير ولارجل يأكل الخنزير يجوز ان يدخل الى هذا المسجد ، الذي اوقفه صلاح الدين على عبادة الله : وتوجه عدد من المسلمين الى الضريح المقدس ، وانزلوا الصليب الذي كان فوقه ، وبعدما حطمه المسلمون سحبوه الى باب داود ، وتعالى قبل ذلك وبعده صراخ ضد المسيحيين ، ويقول بعض الناس بأنه نقل الى الكرك اثر استيلاء صلاح الدين عليه ، ويقول اخرون : انه حطم فوق المسجد الاقصى ، وامر صلاح الدين بغسل المسجد الاقصى بالعطور التي احضرت من دمشق ، ثم دخل الى المسجد الاقصى ، فصلى وشكر الله على منحه السيادة على بيته المقدس ، وبعدما خرج من القدس ذهب الى طبرية ، ثم مر من امام قلعة كان يسيطر عليها مقدم الاسبتارية واسمها شقيف ارذون ، فاستردها ثم جاء الى صفد التي كان يحكمها مقدم الداوية ، وكان الداوية بداخلها فاستسلموا له ، وبعدما ان استولى على جميع المدن والقلاع التي كانت على ضفتي نهر الاردن ذهب لمحاصرة قلعة الكرك ، وكان مقدرا ومعتقدا انه حين يصل اليها ستستسلم له ، وكان بداخلها اناس طيبون كانوا لايريدون ان يصيبهم العار ، ولاان يسببوا الضرر للمسيحيين ، فقاموا ودافعوا بكل قواهم ، وبينما كانوا يدافعون عن انفسهم اكلوا الكلاب والهررة وكل مافي القلعة من حيوانات ، وحاصرهم صلاح الدين وشدد عليهم الحصار ، لكنه كان يفكر بصور لانه اراد ان يستولي عليها ، وحاصر ايضا قلعة الشوبك التي تقع على مسافة خمسة وثلاثين ميلا من الكرك ، وتقع الشوبك في بلادأدوم بينما تقع الكرك في بلاد مآب ، وعانى المسيحيون من الحصار الى حد ان نساءهم واولادهم جاءوا يستجدون الخبز من المسلمين ، وفقد سكان الشوبك ابصارهم ولم يعودوا قادرين على النظر لانهم عانوا من قلة الغذاء والمواد المغذية التي انعدمت من بينهم ، ولم يرغبوا بمغادرة القلعة ، وانتظروا ودافعوا بالايام علّ الرب يرسل لهم النجدة ، وعرض عليهم صلاح الدين مرارا وتكرارا الاموال الطائلة ووعدهم بان يقودهم سالمين الى ارض المسيحيين فلم يقبلوا .

وتخلى صلاح الدين عن قيادة الحصار ، ولم يتابع الوقوف امام القلاع ، وذهب إلى دمشق ، وهناك جهز اسلحته وجيشه وذهب الي صور ، وارسل الى مصر فاحضر سفنه البحرية وحاصر صور برا وبحرا ، واحضر ابا الماركيز الذي كان في سجنه قرب صور ، كما احضر قسما كبيرا من سكان القدس ، وجعلهم يعبرون امام صور ، وكان امامهم فرقة من جنوده واستهدف ان يراهم الماركيز مع مسيحيي صور حتى يرتعدوا ويخافوا فيسلموه صور في اقرب وقت ، غير ان الماركيز ، المسيطر على المدينة ، لم يرتعد ولم يخف مما رآه .

٦٣ ــ وطلب صلاح الدين من الماركيز ان يتمعن ويتفكر جيدا كيف انه استولى على القدس ، واسر والده ورماه بالسجن ، واعلمه انه لو رغب في تسليم صور لاعاد اليه والده واعطاه مالا كثيرا ، فاجابه الماركيز سيعمل ويبذل كل جهده من خير وشر ولن يعيد له ابدا صور اذا اراد الرب ، وسيدافع عنها بعون الرب .

وعندما سمع صلاح الدين هذا الكلام امر قادة البحر ان يحاصروا مدينة صور ، ويشددوا الحصار عليها حتى لايستطيع احد ان يخرج منها او يدخل اليها ، وامر ان يوجه الى اهل صور الانذار بالتسليم ، فوجهوا اليهم عدة انذارات ليلا ونهارا ، لكنهم لم يلحقوا ضررا بسكان المدينة ، حيث لم يمض النهار حتى انقض المسيحيون على المسلمين بمساعدة فارس من اسبانيا كان في صور واسمه شانجه مارتين ، كان يحمل سلاحا اخضر ، وعندما خرج هذا الفارس استنفر المسلمون جميعا لينظروا الى هندامه الجميل ، وكان اهالي صور يسمونه الفارس الاخضر ، وكان يحمل قرون غزلان وضعها على ثيابه ، قد احضرها له كثير من الناس .

وصنع الماركيز مراكب مغلفة بالجلد في داخلها ذوافذ جلس امامها جنود الدفاع ، وكانت هذه المراكب خفيفة جدا تقاد بسهولة الى

الشاطىء ، والحق هؤلاء الجنود اضرارا بالغة بالمسلمين ، ذلك ان المراكب الاخرى لم تستطع الاقتراب منهم .

وعندما رأى الماركيز انه قد حوصر من البحر والبر سلح مركبا واخرجه من صور ليلا وبصمت ، وبعث به الى امير طرابلس يطلب منه المساعدة بالرجال والعتاد ، وماان سمع امير طرابلس هذا الخبر حتى جهز سفنه الحربية ووضع داخلها الفرسان والعتاد وامرهم بالذهاب الى صور ، لكن عندما وصلوا الى قرب صور ، لم يشأ الرب ان يدخلوا الى المدينة ، فقد بعث بريح عاصف مما ارغمهم جميعا على العودة الى طرابلس دون احداث اية اضرار .

وعندما رأى الماركيز انه لم يستطع الحصول على النجدة من احد ، توسل الى الرب ان يرشده ويساعده في حماية صور ومداومة السيطرة عليها ، وساعده الرب ، فقد روي انه حدث مايلي : قام واحد من امراء المسلمين ، وكان ابن قائد الاسطول بالفرار من والده بعدما غضب منه ، فهرب من جيش المسلمين ودخل الى مدينةصور ، وقد جعله الماركيز يصير مسيحيا ، وسأحدثكم الان عن الذي فعله الماركيز : عندما كان هذا الامير في احدى القاعات الكبيرة داخل مدينة صور ، كتب الماركيز بوساطة هذا الذي تحول الى المسيحية رسائل الى صلاح الدين ، بعث فيها بتحياته الى مولاه صلاح الدين وكتب اليه يفيده بما علمه عما كان يحصل داخل مدينة صور ، واخبره ان المسيحيين يعدون الان العدة للهرب من المدينة بحرا ، وانه إذا لم يصدق ليذهب لرصد المرفأ ، حيث سيسمع ضجيج الناس الذين اخذوا يتجمعون في المراكب بهدف الفرار ليلا ، وبعدما كتب هذه الرسائل ارسلها الماركيز الى جنود المسلمين ، مع واحد من حراس مدينة صور .

٦٤ ــ وعندما وقف المسلمون على الرسائل المبعوثة اليهم حملوها الى صلاح الدين ، فقرأها ثم اطلع عليها قادة البحر وسواهم ، ثم امر باستنفار جنود الاسطول ليكونوا جاهزين للعمل

ضد المسيحيين ، وفي الوقت نفسه زاد الماركيز من تحصينات البرج القائم فوق الباب الرئيسي ، كما وحصن السور الرئيسي ، حتى اذا مارغب المسلمون بالهجوم عليه امكن صدهم والدفاع عنه ، وامر الرجال الذين كانوا يعملون بالتحصينات ان يلزموا جميعا الصمت والا يحدثوا ادنى ضجيج فذلك سر المهنة .

واثر ذلك اغلق الابواب ، ولم يسمح لاحد بالدخول او الخروج وظل طيلة النهار داخل المدينة ، وبعدما فرغ من تحصين البرج والاسوار ، توجه الى المرفأ ، وسلح المراكب ، وامر جميع الناس الذين يستطيعون حمل السلاح ان يكونوا ليلا في المرفأ ، فكانوا كلهم هناك ، وهكذا لاحظ المسلمون ان الرسائل التي بعث بها الامير كانت صحيحة .

وتسلح المسلمون وصعدوا الى مراكبهم وتأهبوا لمواجهة المسيحيين ، وعندما حل النهار جاء المسلمون الى الميناء ، فوجدوا المنطقة خالية ، فخيل اليهم ان المسيحيين اضطروا الى الخروج قبيل هذا الوقت والفرار ، وقام المركيز بهذا العمل لانه اراد التغرير بسفن المسلمين حتى تدخل الى ميناء المدينة ، بعدما جعلهم يرون وهما جموع الناس التي تجهزت في الميناء واثارت الفوضى في اليوم الفائت .

وعندما راى المسلمون خلو المرفأ من جموع الناس ، شرعوا بالولوج الى هذا المرفأ رويدا رويدا ، ودخلت المراكب المسلمة الى الميناء ، وهنا عندما راى الماركيز ان المراكب قد دخلت الى المرفأ امر الناس المتمركزين في الخفاء بالانطلاق ، وفورا اندفع المسيحيون بشكل مفاجيء الى المراكب المسلمة ، فاخرجوا جميع المسلمين منها واستولوا عليها ، وبسرعة سلح الماركيز مراكب المسلمين التي استولى عليها مع المراكب التي وجدها في مدينة صور ووضع في داخلها عددا كبيرا من الفرسان والجنود المسلحين بمختلف الاسلحة ومع مجيء فجر اليوم التالي ، اخرج هذه المراكب

بكل هدوء فانقضت على بقية سفن المسلمين ، وعندما رأى المسلمون انه ليس بامكانهم مقاومة هجوم المسيحيين انسحبوا نحو اليابسة بالحال ، وجاءوا الى مقربة رجالهم ، واندفع فرسان جيش صلاح الدين باعداد غفيره وهم على ظهور خيولهم نحو الشاطىء ، وخاضوا في البحر لمساعدة جنود المراكب ، وقد لحق بالمسلمين اضرار بالغة حيث فقدوا عددا كبيرا من جنودهم بين قتلى وغرقى ، ولقد فقدوا ايضا بعض خيولهم ، وعندما وجدوا انفسهم غير قادرين على صد الهجوم ومتابعة المقاومة انسحبوا الى اليابسة، ثم رفعوا الحصار وذهبوا الى بيروت حيث احدثوا فيها ضررا كبيرا والحقوا بالمسيحيين خسائر لم يسبق لها مثيل .

٦٥ ـ واحدثكم الان عن المسلمين وعن نشاطهم فوق الارض ، فقد احضروا سلالم وحملوها حتى وصلوا الى السور الرئيس ، وهناك ارادوا استعمال السلالم ، لكنهم وجدوا ان الاسوار كانت عالية جدا ، فلم يستطيعوا البلوغ اليها ، وهكذا لم يتمكنوا من الحاق الضرر من خلالها بسبب التحصينات المعدة فوق الاسوار ، وعندما وجدوا انهم غير قادرين على الصعود الى اعلى الاسوار ، احضروا النقابين فلغموا الاسوار ، وبعدما لغموها نسفوها وبذلك لم يبق مايحمي المسيحيين ، فدخلوا الى المدينة واشتبكوا مع المسيحيين ، وفي تلك الساعة ارسل الرب عونة ، فبعدما دحر المسيحيون المسلمين من البحر ، علموا ان المسلمين اخترقوا اسوار المدينة ، وان الساحات باتت مليئة بالمسلمين .

وماان سمع الماركيز بذلك حتى عاد وبادر الى فتح الباب الرئيس للمدينة ، واخرج جميع القوات التي لديه دفعة واحدة ضد المسلمين ، وعندما رأى المسلمون حملة المسيحيين من سكان المدينة الكبيرة ضدهم ، تخلوا عن مواقعهم ، وتدبروا امورهم قدر الامكان وعادوا الى جيش صلاح الدين ، ثم تم القاء جميع القتلى في البحر ممن مات في الساحات ، وحصلت هذه الهزيمة في اليوم الاول من السنة الجديدة ، فقد بدأ الحصار في يوم عيد جميع القديسين ودام حتى

اليوم الاول من كانون الثاني من سنة ١١٨٦ لتجسيد المسيح (في الحقيقة ١١٨٨) •

٦٦ ـ ورأى صلاح الدين انه اخفق في البر والبحر ، فاوقف الحصار على المدينة ورفعه ، وعند حلول الظلام اضرم النيران في المراكب التي هربت واحرق كل شيء ثم انسحب ليلا حيث اتخذ مواقع جديدة له بعيدا عن صور ، ووجد قلعة لم يكن قد سيطر عليها بعد تدعى قلعة الشقيف ، ورأى ان الاستيلاء على هذه القلعة سيمكنه من اضعاف صور كثيرا ، وبذلك يمكن السيطرة عليها في وقت مقبل ، وكان صلاح يعرف ان ريذو صاحب صيدا موجودا داخل القلعة ، فبعدما طرده الماركيز من صور ذهب اولا الى طرابلس ، ثم توجه الى الشقيف .

٦٧ ـ وعندما وقف صلاح الدين امام قلعة الشقيف ورأى حصانتها ادرك انه لن يستطيع تحصيل اي شيء بالقوة ، ففكر بعمل خياني مميت ، فقد راسل ريذو واعطاه الامان ليأتي للحديث اليه ، غير ان ريذو رفض طلبه ، ولم يشأ الذهاب ، لانه يجب عدم الثقة بغير المؤمن ، وامره صلاح الدين عدة مرات بالقدوم اليه وتهدده انه اذا لم يأت سيقوم بالاستيلاء على القلعة بالقوة ومن ثم سيقوم باحراقه هو وكل من في القلعة ، وقد تشكك ريذو بذلك غير انه بعدما طلب منه ذلك مرة اخرى اجتمع ريذو برجاله وتشاور معهم وسألهم :

هل يذهب ام يبقى ؟ واشار عليه رجاله ونصحوه بعدم الذهاب مطلقا ، لانه اذا ذهب سيعتقله رجاله ورفض مشورتهم ، فذهب مخالفا لنصحهم ، دافعا ثقته بالطرف الاخر ، وقبل ان يتحرك من القلعة اقسم متعهدا لرجاله بالمحافظة على القلعة وان يسعى لانقاذها لصالح المسيحيين ، وعلى الا يسلموها مطلقا الى صلاح الدين ، مهما كلفهم الامر ، وهكذا غادر القلعة وجاء الى صلاح الدين ، فاستقبله استقبالا جيدا ، ثم ابدى له عظيم السرور بقدومه .

٦٨ ـ ما أن اصبح صاحب صيدا المتولي على قلعة الشقيف بين يدي صلاح الدين حتى تأكد من حصوله على هذه القلعة ، وهكذا بعث اليه بالهدايا الجميلة والجواهر الثمينة وفق ما جرت عليه عادات المسلمين في اغراء المسيحيين ، ثم أحاطه بالحراس ، وهنا شعر ريذو بمؤامرة مدبرة ضده ، واشتم رائحة الخيانة المدبرة ضده ، وبناء عليه طلب مهلة ليذهب بسلام الى حصنه تحت حماية صلاح الدين كما جاء اليه تحت حمايته ، وهكذا عندما أدرك صلاح الدين أن ريذو شعر بالمؤامرة ، أعطاه المهلة المطلوبة .

وبعدما سافر ريذو من عند صلاح الدين وبات قريبا من بيروت ، واقترب من الشقيف ، جاء كاتب من الشقيف ، كان في خدمة ريذو واسمه بلهيس ، الى صلاح الدين وسأله : لماذا سمحت لصاحب صيدا بالذهاب ؟ فأجابه صلاح الدين بأنه جاء بأمان منه ، ولم يرغب في خرق الامان االذي أعطاه اياه ، فقال له بلهيس :إنه إن دخل القلعة لن تتمكن من اخراجه منها ابدا ، ان أمانك الذي أعطيته اياه قد انتهى منذ أن سافر من عندك ، فقال صلاح الدين : إن محاولة القبض عليه ستكون بدون جدوى ، فقال الكاتب مجيبا صلاح الدين : أعطني رجالا يأتمرون بأمري يسيرون وفق ارادتي وأنا أذهب فألقي القبض عليه وأجلبه لك ، فأمر صلاح الدين فرقة من رجاله بالذهاب مع الكاتب وتنفيذ أوامره ، وتحرك هؤلاء الجند ، فأمرهم الكاتب بأن يمضوا بسرعة ويقوموا بأسر صاحب صيدا ومن معه من الرجال الذين سيدخلون الى القلعة برفقته ،وقال الرجال الذين كانوا برفقة صاحب صيدا : « مولاي هناك عدد غفير من الناس قادمون خلفنا » فأجابهم صاحب صيدا : « نعم أعرف جيدا أنني خدعت ، فهؤلاء الناس قادمون لالقاء القبض علي ، تسلحوا جيدا وحافظوا على القلعة بقدر ما تستطيعون ، واحتراما لي أرجو الا تسلموها ، وأن تدافعوا عنها وتحافظوا عليها لصالح المسيحيين ، ولا أرغب بهذا الأمر من أجل انقاذي انا ثم امر الفرسان الذين كانوا معه بالصعود الى القلعة . ووصل المسلمون فاعتقلوا صاحب صيدا واقتادوه الى صلاح الدين

٦٩ ـ ما أن ألقى صلاح الدين القبض على صاحب صيدا حتى تأكد من أن قلعة الشقيف قد تم الاستيلاء عليها ، وهنا أحضر صاحب صيدا الى حضرة صلاح الدين فطلب منه تسليم قلعة الشقيف ، فأجابه ريذو ، رجاء من أجل الرب يا مولاي ، ولكونك عظيما بين الرجال ، والله قد أكرمك بشكل جيد ، لا تخرق أمانك من أجل هذه القلعة المتواضعة ، فقد حافظت على كل أمان أعطيته لأحد من الناس ، فأجابه صلاح الدين : يا ريذو علمني نبيي محمد (صلى الله عليه وسلم) أن أقبض على كل عدو لله ، وأن أتوكل على الله وأثق به ، هذا من جانب ومن جانب آخر : لقد أقسمت يمينا بألا أدع قلعة ولا مدينة دون أن أسعى للاستيلاء عليها بجميع الأساليب التي أتمكن من استخدامها ، دون أن أقترف خطأ أو جريمة ، فأجابه ريذو : يا مولاي رجاء من أجل الرب ، دعني أذهب الى القلعة ومن ثم سأسلمك اياها ، فأجابه صلاح الدين : دع عنك هذا الكلام ومن مصلحتك أن تسلم القلعة وإلا سأميتك شر ميتة ، وسلم ريذو أمره الى الرب وقال صلاح الدين : جسدي بين يديك ، أما الروح فبيد الله ، وتستطيع أن تعمل بجسدي الذي تريده ، لكنك لن تحصل أبدا على القلعة .

٧٠ ـ وبعدما سمع صلاح الدين كلام ريذو هذا غضب غضبا شديدا ، واقتاده الى أمام القلعة ، وهناك جعل يضربه ويعذبه بقسوة ، وعلقه من يديه ورجليه أمام رجاله في القلعة ، الذين أشفقوا عليه ، وقام حيث كان يعذب فصرخ الى رجاله :« قاوموا جيدا ، ولا تغضبوني حافظوا على القلعة من أجل المسيحيين »

وعندما رأى صلاح الدين ريذو يتحمل العذاب ، ولا يريد تسليم القلعة ، شدد عليه العذاب ، ولما لم يعد ريذو يستطيع تحمل العذاب ، وفي الوقت نفسه لم يقدر أن يموت من شدة العذاب الذي عانى منه ، وقضت ارادة الرب أن يبقى حيا ليحصل على ذويه ويراهم ، عند ذلك طلب أن يقاد الى قرب القلعة ، وطلب من رجاله السماح وقال :« لم أعد أستطيع تحمل العذاب ، وأحلكم من القسم الذي أقسمتموه لي ، سلموا القلعة وأنقذوني ، فأنا أخشى أنه اذا لم

تحررونني أن أهلك جسدا وروحا » ، فتشاور هؤلاء فيما بينهم ، وسلموا القلعة الى صلاح الدين من أجل انقاذ سيدهم ، وهكذا سيطر عليها المسلمون وظلوا مسيطرين حتى مجيء ملك نافار . (ثيبوت دي شامبين ـ وصل الى عكا في شهر ايلول سنة ١٢٣٩).

٧١ ـ فرح صلاح الدين فرحا عظيما عندما استطاع الاستيلاء على قلعة الشقيف ، لأن مدينة صور ، ضعفت من جراء ذلك ضعفا شديدا ، وبعدما أصبحت القلعة تحت سلطته ، أعطى ريذو من أجل الخيانة التي قام بها بتنازله له عنها أعطاه نصف صيدا وكل ما كان يقتنيه ، ولم يطالبه بشيء أبدا ، وحافظ على ذلك طيلة حياته ، وكذلك فعل من بعده ابنه بالين حتى تاريخ الهدنة التي أبرمها الملك الكامل ، ملك مصر مع الامبراطور فريدريك (شغل بالين صاحب صيدا دور الوسيط في مفاوضات الهدنة بين الكامل و فردريك الثاني في ١١ شباط سنة ١٢٢٩ ، أما منحه صيدا من قبل صلاح الدين فكانت في سنة ١١٩٠) . و بالين هذا صاحب صيدا كان ابن ابنة بالين الذي يعرف باسم هلفس ، وأمه (أي بالين بن ريذو) الملكة ماريا ، وكان ريذو هذا الذي تحدثنا عنه قد تزوج من هذه الفتاة بعد أن فقد الأرض ، أي إثر تحرره من بين أيدي صلاح الدين . هذا وسافر صلاح الدين من هناك ، وذهب الى دمشق ليقيم فيها هو وحاشيته ايضا .

٧٢ ـ والآن سنريحكم من الحديث عن صلاح الدين ، لأنني سأحدثكم عن جوسيه رئيس أساقفة صور ، فقد كان قد سافر الى مدينة روما ، رسولا يحمل معه أخبار الكارثة الحربية التي ألمت بأرض الميعاد ، ولقد سافر في مركب طلي كله بلون السواد ، واستهدف من طليه بهذا اللون ، أنه عندما يصل المركب الى قرب الشاطيء يعرف الناس أنه يحمل اخبارا سيئة ، لا بل مميتة ، ووصلت هذه السفينة الى بلاد الملك وليم الذي كان حاكم بلاد : صقلية ، وأبوليا وكالبريا ، وكان الملك وليم هذا متزوجا من

ابنة هنري (الثاني) ملك انكلترا ، وكان اسم هذه السيدة جوهاني ، وكان الملك وليم موجودا في المكان الذي وصل اليه رئيس أساقفة صور ، وعلم رئيس الأساقفة أن الملك وليم كان قريبا من المكان الذي وصل اليه ، فذهب اليه وحدثه عن الخسارة الفادحة التي حلت بأرض القدس ، وعندما علم الملك بهذه الأخبار تألم كثيرا ، وتذكر أنه كان هو أيضا مسؤولا عن ذلك الأمر مثلما هو مسؤول عن ضياع الأرض ، وسأروي لكم كيف :

عندما سمل الكسي عيني أخيه الذي كان امبراطورا ، وأصبح هو الامبراطور ، اجتمع الملك وليم مع رجاله وأخبرهم أنه سيرسل عددا كبيرا من الناس الى القسطنطينية ليستعيد بوساطتهم الأرض ، ووعدهم بكل تأكيد أنه سيقوم بذلك ، وأعد اسطولا كبيرا ، من الشواني ومختلف أنواع السفن ، وبعث به الى بلاد ما وراء البحر ، والى جميع البلدان التي كان فيها فرسان وجنود وأعطاهم السلاح والعتاد كل حسب حاجته واختصاصه ، واحتفظ بهؤلاء الحجاج وحال دون مرور غيرهم ، فقد كان متعذرا على أي حاج الذهاب الى بلاد ما وراء البحار الا عبر الممر الذي احتفظ به في بلاده ، وهكذا ضعفت بلاد ما وراء البحر ، وعندما هزم الملك غي كان ذلك بسبب العدد القليل جدا من الرجال الذين كانوا لديه ، فقد كان قد جلب الى ساحة المعركة كل ما استطاع حشده من الرجال ، وهكذا استسلمت جميعها له ، باستثناء مدينة صور ، ونتيجة لهذه الهزيمة قال الملك وليم بأنه كان مخطئا ومسؤولا عن خسارة الأرض.

٧٣ ـ وسأحدثكم الآن عما حدث لهذا الاسطول ، وبعده عن النجدة التي أرسلها الى ما وراء البحار ، ولم يذهب الملك وليم مع هذا الاسطول وبقي حيث هو ليرسل بالعتاد والرجال الحاقا بالاسطول وارسل الملك وليم خيرة رجاله وأرقاهم في بلاده ليتولوا حراسة هؤلاء الناس وادارة أمورهم ، وبعدما جهزت الشواني والسفن اجتمعت ثم تحركت مقلعة في البحر حتى وصلت الى

دورازو ، فاستولوا عليها وحصنوها ، ثم ذهبوا نحو سالونيك فاحتلوا البلاد الواقعة ما بين دورازو وسالونيك ، واثر هذا استولوا على سالونيك وحصنوها ، (احتلت هذه المدينة من قبل النورمانديين في شهر آب ١١٨٥) ثم اجتازوا سالونيك وتوجهوا نحو القسطنطينية ، وعندما رأى كونت هنغاريا أنهم استولوا على كثير من البلدان تألم وشعبه كثيرا ، غير أنهم قالوا لهم : أهلا وسهلا ، وتأثروا كثيرا من قدومهم ، ثم أعلموهم أنهم سينضمون اليهم اذا ما ثاروا الذي سملت عيناه ، وأعلموهم أنه خطأ كبير التوجه بحرا الى القسطنطينية ، والافضل السفر برا ، وهكذا اقتادوهم برا ، وذهبوا معهم ، وأحضروا معهم مساعدات كبيرة ، ذلك أنهم كانوا لا يحبون الامبراطور ، واصطحب فرسان الاسطول كونت هنغاريا واتباعه ، وتخلوا عن الاسطول وساروا برا حتى كانوا هناك في الوادي ، وكان عندما اقتاد كونت هنغاريا رجال الاسطول برا ، انتشر الخبر في طول البلاد وعرضها ، وتجمع السكان قرب فيلبه وتسلحوا ثم هاجموا في اليوم التالي رجال الاسطول ، وهزموهم وأسروهم باستثناء عدد قليل فروا وعادوا الى الاسطول ، وهكذا دمر الاسطول .

وسأحدثكم الآن عن الملك وليم ، وأبين لكم نوع النجدة التي أرسلها الى بلاد ما وراء البحار ، فقد أرسل بالمراكب وحملها بالفرسان وبعث بهم لحماية البلاد التي بقيت للمسيحيين ، ثم جهز بعد ذلك اسطولا كبيرا من الشواني ومختلف أنواع السفن ، وقدم مع ملك انكلترا الذي كانت أخته زوجة الملك وليم ، ولم أقل انه عبر مع الصليبيين ، ذلك أنه لم يمكث طويلا بعدما بدأ بهذه الحملة ، فقد مات بدون وريث ، ومن ثم قام أهالي صقلية وأبوليا وكالبريا فاختاروا ابن عمه تانكرد واتخذوه ملكا ، وحدث هذا في سنة ١١٨٧ لتجسيد يسوع المسيح (مات وليم الثاني بالفعل في ١٨ - تشرين الثاني ١١٨٩) .

٧٤ - وسأحدثكم الآن عما حدث مع تانكرد في ذلك الوقت ، وعما

سيحدث معه فيما بعد ، كما وسأحدثكم عن جوسيه رئيس أساقفة مدينة صور الذي وصل الى بلاد الملك وليم ، فقد أعطى الملك وليم الى جوسيه هذا بعض الخيول وما لزمه من نفقات للذهاب الى روما ، غير أن رئيس الاساقفة هذا وجد البابا أوربان في مدينة فيراري ، فروى له أخبار الكارثة وحدثه عن الخسائر الفادحة التي لحقت بالمسيحيين في أرض مملكة القدس ، وشرح له كيف استولى عليها المسلمون ، وعندما سمع البابا ذلك كله تولاه الغضب والحزن معا ، وتألم كثيرا حتى أنه مات من شدة الألم ، وكان الذي حدث معجزة ، فهرقل ـ الامبراطور ـ وضع الصليب في القدس ، وهرقل ـ البطريرك ـ أخرجه من القدس ففقد ، وفي أيام أوربان الثاني جرى احتلال القدس ، وفي أيام اوربان الثالث سقطت القدس ، لأن المسلمين استولوا عليها .

وبعد وفاة أوربان ، صار غريغوري الانساني بابا ، لكنه عاش فقط لمدة شهر واحد ، وتولى عرش البابوية بعده كليمنت الثالث ، وهو الذي بعث برسله الى جميع البلدان المسيحية لاطلاعها على فحوى الأخبار السيئة التي وصلت اليه من أرض الميعاد ، وبعث الى جميع وجهاء المسيحية والى كل امبراطور والى الملوك والأمراء والفرسان والقادة بعدهم بأن كل الذين سيكونون صليبيين ويبدون الاستعداد للذهاب الى أرض الميعاد سيغفر لهم كل خطاياهم ، فهو الذي سيتحملها ويمحوها عنهم أمام الرب ، واعلن ان كل االذين يريدون خوض الحرب المقدسة ، سيخولهم السلطة من اجل خدمة الرب وعبادته .

وبعدما سمع هذا الخبر والنداء رجالات المسيحية من ملك وامبراطور ورئيس أساقفة وأساقفة وغيرهم كثير أصبحوا صليبيين ، وكان أول من تحرك ، وركب الطريق فريدريك امبراطور المانيا (فريدريك الأول بربروسا) وقد سافر عبر الطريق البرية ، فكان أن وصل الى أراضي بيزنطية وذلك حسبما جاء الحديث عنه من قبل ، وكان لهذا الامبراطور عدة أولاد ، البكر منهم

يدعى هنري ، وهـذا سيكون فيما بعد الامبراطور (هنري السادس) وهو الذي تزوج من كونستانس ، وهي عمة الملك وليم واخت ابيه ، وكان اسم الولد الثاني أوتـو (أمير بورغون) وهـو الذي تزوج من (مرغريت) ابنة ثيبوت (الخامس) امير بلوا ، وقد توفي بدون أولاد ، ودعي الابن الثالث باسم فيليب ، وهـو الذي كان رئيس دير بافنبيرك ، وقد خلع لباسه الكهنوتي بعد وفاة والده واخيه فردريك امير سوابيا (في كانون ثاني ١١٩١) ، وتزوج هذا الاخير من ابنة كيرساك امبراطور القسطنطينية ، وهي التي كانت من قبل زوجة وليم الشاب ملك صقلية ، وقد اصطحبها معه الى ارض الميعاد ، ثم مات فيما بعد في مدينة عكا .

وتفجرت حرب كبيرة بين فيليب ملك فرنسا وهنري ملك انكلترا ، وقد نشبت في اسقفية بورغ قرب المدينة التي اسمها ياسودون ، وكانت الصفوف معبأة والمعركة معدة وكل شيء مرتب لخوض القتال والمواجهة العنيفة ، عندما وصل الى هناك رسل كنيسة روما ، فعندما جاء هؤلاء الرسل وجدوا المعركة وشيكة الوقوع ، فكل شيء معد لها ، ولكن بفضل مواعظهم المباركة ونصائحهم القدسية ، حلت نعمة روح القدس على الملكين ، حتى تخليا عن الحرب التي اوشكت على النشوب بينهما ، وقد عقدا سلاما بينهما ، واصبحا بدورهما صليبيين ، واثر هذا غدا الفرسان وسكان المملكتين من الصليبيين وذلك قدوة باسيادهم ، ولم يتحرك ملكا فرنسا وانكلترا ، ولم يسافرا كما فعل الامبراطور ، هذا ولم أحدثكم عن السبب في تفجر الحرب بين ملكي فرنسا وانكلترا ، وسأدع هذا حتى مناسبة اخرى ، فانا سأحدثكم اولا عن صلاح الدين الذي دخل الارض واستولى عليها .

٧٥ ــ ووصلت الاخبار الى صلاح الدين تتحدث عن امبراطور المانيا وكذلك عن ملكي فرنسا وانكلترا ، وجميع بارونات ماوراء البحر ، وتخبر انهم جميعا صاروا صليبيين بهدف القدوم لمحاربته ، ولم يذف صلاح الدين هذه الاخبار ولم يصدقها كما هي ، غير انه

اقدم على تحصين عكا بشكل جيد وشحنها بالسلاح والعتاد والمؤن ، وسكرها في وجه من يرومها ، ورابط فيها الجند المسلحين ، ولنقل ارقى الرجال وافضلهم ممن وثق بهم ، فهو كان مدركا انه إذا لم يأخذ مع رجاله باسلوب اليقظة والحذر فقد تأتي قوة مسيحية الى مرفأ عكا لتستولي على المدينة ، هذا وامر صلاح الدين الذين عهد اليهم بحراسة عكا من الداخل الا يتخلوا عنها وان يقاوموا كل من يأتي لحصارها ، وحظر عليهم الخروج منها واوجب عليهم مقاومة من يهاجمها حتى النهاية مهما اشتدت الضغوط ، واذا ماجاء المسيحيون لحصارهم عليهم اعلامه ليأتي حالا للتفريج عنهم ، فاذا جاءه الرسل وهو جالس الى مائدة الطعام لن يكمل طعامه بل سيتحرك فورا لانجادهم ، واذا وصل اليه الرسل ليلا او نهارا سيبادر الى التحرك نحوهم حتى وان كان مريضا مدنفا ، وبعد مافرغ صلاح الدين من تحصين عكا ، التفت الى حصون الساحل ومدنه فحصنها ، وبعد هذا جهز جيشه للذهاب نحو طرابلس وحصارها .

وفي الوقت الذي وصل فيه صلاح الدين الى طرابلس لالقاء الحصار عليها ، وصل اسطول الملك وليم الى صور المحصنة بالقوات والفرسان ، ولهذا اعد الماركيز اسطوله وسلح سفنه الحربية وشحنها بهدف التحرك لنجدة طرابلس ، وطلب بالوقت نفسه من فرسان وليم وقواته مرافقته لانقاذ مدينة طرابلس ، وهكذا توجهوا نحوها جميعا ومعهم الفارس الاخضر ، وبعدما وصلوا الى غايتهم واستراحوا قليلا هاجموا جيش المسلمين ، وكان الفارس الاخضر في المقدمة ، وهنا اعلم المسلمون صلاح الدين ان الفارس الاخضر جاء مع قوات نجدة طرابلس ، فراسله صلاح الدين ورجاه ان يأتي لزيارته ، فلبى الدعوة وحضر امام صلاح الدين ، فرحب به وقدم اليه الخيل والذهب وصندوف المال ، وأظهر له السرور بقدومه وذكر أنه لايريد منه شيئا سوى رؤيته ، وعرض عليه أنه اذا أراد البقاء عنده فسيعطيه أرضا كبيرة ، فأجابه انه لم يأت الا للزيارة ولن

يمكث عند المسلمين بل سيحاربهم ويعطل خططهم بقدر مايستطيع ، ثم استأذن وتوجه الى طرابلس .

وعندما أدرك صلاح الدين انه لن يحقق النجاح أمام طرابلس لوصول النجدات الكبيرة اليها ، غادر موقعه وتوجه الى المدينة التي اسمها طرطوس وهي واقعة أيضا على شاطىء البحر وإثر مغادرته الى طرطوس راسلته الملكة سيبيل زوجة الملك غي ، وكانت تعيش داخل طرابلس وطلبت منه تنفيذ الاتفاقية التي أبرمها مع البارون عندما سلمه مدينة عسقلان ، فقد حان وقت تحرير الأسرى المتفق على تحريرهم ، فأجابها صلاح الدين بأنه سيعمل على تحريرهم بكل طيبة خاطر .

فبعث أوامره الى دمشق بأن يرسلوا له الملك مع عشرة من الفرسان حددهم بغية اطلاق سراحهم ، وكان قد حدد هؤلاء واختارهم من قبل ، كما وبعث صلاح الدين يأمر بأن يرسل اليه الى طرطوس الماركيز بونيفيس والأسرى الأخرين الى حيث كانت عساكره تحاصر طرطوس ، ونفذت أوامره وحمل رجال صلاح الدين الأسرى الى طرطوس ، وبعد وصولهم أخذ صلاح الدين العهد على الملك وعلى جميع البارونات الذين أطلق سراحهم وجعهلم يقسمون الايمان ألا يحملوا السلاح ضده أبدا ، ثم أعطاهم حرياتهم شرط أن يعبروا البحر .

وركب الملك في السفينة وانتقل الى جزيرة (أرواد) الكائنة مقابل مدينة طرطوس ،واخبر رسل صلاح الدين الذين رافقوه انه بهذا برهن على انه عبر البحر ونفذ ماتعهد به ، ومن هناك سافر بونيفيس الى ابنه الموجود في صور ، ثم ذهب الى الكرك واصطحب معه همفري الذي كان محتجزا أيضا في سجنه ، وعندما وصل الى القلعة كلف همفري ان يتكلم الى سكان القلعة ، وبالفعل خاطبهم همفري بقوله :« ايها السادة اذا استطعتم الحفاظ على القلعة لصالح المسيحيين ، تمسكوا بها ، لكن اذا رأيتم أن لن تستطيعوا

ذلك أرجوكم أن تسلموها وتحرروني » وكان سكان القلعة في ضـيق شديد ، فاجتمعوا وتداولوا بالأمر وقرروا أنه اذا أعطـاهم صـلاح الدين الأمان لهم ولأزواجهم وأولادهم وأمـوالهم في أن يذهبـوا الى بلاد المسيحيين وأن يحرر سادتهم فسيسلمون القلعة اليه .

وتلقى صلاح الدين هذا الكلام بكل سرور ، ووافق على العـرض وزاد بأن وعدهم باطلاق سراح نسائهم وأولادهم الأسرى عنده أينما وجدوا في البلاد ، وبعدما أبرمت هذه الاتفاقية بينهـم وبين صـلاح الدين سلموه القلعة ، ومن هناك ذهب صلاح الدين الى الشوبك التي وجد سكانها أنهم بعد سنة ونصف السنة من تاريخ الاسـتيلاء على القدس لم يحصلوا على اية نجـدة ، وجـدوا مـن الأنسـب التسليم ، وهذا مـاكان ، واصـطحب صـلاح الدين همفـري الى أمه ، واقتاد سكان القلعة بسلام الى أنطاكية ، ثـم عاد مـن هناك نحو طرطوس لاستئناف حصارها ، وبعدما عسـكر امـامها فتـرة وجيزة ، وبعدما فرغ من أمرها توجه نحو مدينة أخرى على مسافة خمسة أميال منها تدعى بلنياس فـاستولى عليهـا ، وكان فـوقها حصن حصين فوق الجبل لم يرغب في اضاعة الوقـت أمـامه ، ثـم توجه الى أراضي أمـارة انطـاكية واسـتولى على مـدينتين هناك وحصنهما ، وكان اسم الأولى جبلة والثانية اللاذقية ، ومـن هناك توجه حتى اقترب من أنطـاكية ، فـوجدها محصـنة تحصـينا جيدا ، وعلم ذلك من جون غاله الذي كان ايضا في الروج ، وذهـب ليحاصر الروج فلم يستطع الاستيلاء عليهـا ، لهـذا عاد مـن هناك وتوجه الى دمشق ليريح جيشه ويجعله يستجم قليلا ، فقـد أراد أن ينزل ضربة شديدة بالداوية ، الذين اشتد غضبه عليهم لأنهم اسروا ابن عمه ، وساندوا جون غالة ضده .

٧٦ ــ وعندما كان صلاح الدين في دمشق ،فـكر بخـطة سـيئة جدا ، فقد أمـر بـاخراج جميع فـرسان الداوية الذين أسرهـم في المعركة مع جميع الناس الآخرين الذين أخذهم أسرى ايضا ، وأمر رجاله جميعا وكل الذين لديهم أسرى أن يأتوا بهم ، وماأن أمر بذلك

وسمع رجاله حتى أحضروا الأسرى الذين كانوا لديهم ، وهكذا عندما جمع الأسرى أمام صلاح الدين توجه اليهم بالخطاب قائلا :« أنتم أيها الفرسان ورجال السلاح لكم عندي فوائد عظيمة يمكن أن تعمكم جميعا ، أنتم تعلمون أولا أنني استوليت على أراضي المسيحيين الكائنة شرقي البحر بمجملها ، واستوليت على صليبكم ، وأسرت ملككم وأكثر البارونات ماتوا أو أسروا ، ولقد أشفقت عليكم ، لأنكم فرسان ، وشبان طيبون ، ويمكن ان تتأتى منكم فوائد كبرى للبلاد ، واذا أطعتم أوامري يمكنكم ان تعيشوا ، وسأعطيكم وأرد عليكم النساء والأطفال ، وامنحكم الذهب والمال واقطعكم بعض الأرض التي استوليت عليها مثلما فعلت مع رجالي » فسألوه عن الشيء الذي يريدهم أن يفعلوه ، فقال لهم الذي أريد فعله ان تتنكروا لعقيدتكم والصليب والايمان بيسوع المسيح ومن ثم الهداية والتحول الى شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) وعقيدته ، فأجابوه بالاجماع وبصوت واحد : انه اذا شاء الرب لن يتنكروا لعقيدة يسوع المسيح وشريعته ، ويسوع المسيح هو الذي صلبه اليهود في القدس « فهو كما تحمل العذاب من أجلنا على الصليب نريد ان نتألم حتى الموت على يديك من اجله ، لأننا نؤمن أن عقيدة محمد(صلى الله عليه وسلم) وشريعته خطأ وخداع » .

٧٧ ـ وعندما سمع صلاح الدين هذا الكلام تأثر كثيرا ، وشعر بغضب شديد ، فأمر بالحال بقتل فرسان الداوية ، وما أن أصدر أمره حتى شرع أتباعه بقتلهم ، وكان الألم شديدا ، والاضطراب عظيما وكذلك الموت وسفك الدماء ، فهو قد خيل اليه أنه بقتله للمسيحيين يقدم تقدمه كبيرة لله وقربانا عظيما وكما قال مولانا لحوارييه في الانجيل :« بل ستأتي ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يقرب لله قربانا » (يوحنا : ١٦ /٢) ، وفيما صلاح الدين يشرف على تنفيذ أوامره رأى مسلم مسن اسمه قراقوش رؤيا فيها غودفري دي بوليون الذي كان أول بارونات الاحتلال يقول لصلاح

الدين :« إنك لم توفق أبدا بقتلك لفرسان الداوية ، فهل تعتقد أنك أنهيت حربك ؟ أنني أعلمك أن الفرسان الداوية سيولدون بلحاهم التامة ، وأقول لك علاوة على ماقلت : ان أصدقاءهم وأهليهم لن يدعوا موتهم يذهب سدى ، ولكنهم سيثأرون لكل واحد منهم »، وكما ذكرنا من قبل ظهر له هذا عندما جاء دي آفين لحصار عكا ، ثم أنه عندما سمع البابا كليمنت الثالث بما حدث ، غضب غضبا عظيما ، وبعث برسله لمزيد من التحريض للاسراع بالحملات الصليبية .

٧٨ ـ في سنة ١١٨٨ لتجسيد المسيح ، بعدما إستولى صلاح الدين على القدس وأطلق سراح الملك غي ، عاشت أراضي المملكة بسلام لمدة عامين أو أكثر ، وذلك حتى سمع سكان بلاد ماوراء البحار بأخبار هذه الفواجع والآلام التي حلت بمملكة القدس ، فقد قام جفري دي لوزنغنان ، وكان أخا الملك غي ، غير أنه كان حكيما متشددا ، فلم ينتظر لا ملك فرنسا ولاملك انكلترا ، بل أسرع لاجتياز البحر ، فقد استهدف تقديم النجدة للملك ، وعبر معه رجل نبيل اسمه أندرو دي برن ، فقد كانا رفيقا سلاح ، ولهذا أسرعا بالعبور قبل الآخرين ومعهما عدد كبير من الفرسان ، فوصلوا الى مدينة صور ، وفي صور سمع جفري الاخبار عن أخيه وعن مملكة القدس ، فقد حدثوه عن هزيمة الملك وأسره ، ثم أخبروه أنه قد أطلق سراحه ، وعندما سمع جفري هذه الأخبار وقع بارتباك شديد ، وضاقت نفسه وشعر بخجل أشد من الخجل الذي حصل لأخيه ، ثم سأل أين يستطيع أن يجد الملك ، فقيل له أنه ذهب الى أنطاكية .

٧٩ ـ ولم يلبث أن سافر من صور ، وذهب الى طرابلس ، حيث استقبل بحفاوة كبيرة هناك ، وعم الفرح العظيم بين الناس الذين كانوا هناك لدى سماعهم الاخبار التي تحدثت عن حملة التي ستعبر اليهم ، وبعدما ارتاح جفري واصحابه من وعثاء السفر ، اصطحبهم أمير طرابلس حتى انطاكية ، وهناك التقى

جفري بأخيه الذي فرح بقدومه فرحا عظيما ، ولدى اجتماع جفـري والملك وايمري مقـدم الداوية - كافـل المملكة ، وأخـوه بـالوقت نفسه ، قاموا بحشد فرسانهم الذين فروا من المعـركة ، وتحـركوا يريدون الدخول الى أراضي مملكة القدس ، وعندمـا وصـلوا امـام مدينة صور فكر الملك والملكة بالدخول الى هذه المدينة وكأنها تـابعة لهما ، لكن الماركيز مـونتفرات الذي حـال بين صـلاح الدين و بين الاستيلاء على صور ، منع ملك القدس من الدخول الى صور ، لأن سكان المدينة كانوا قد استقبلوه سيدا لهم ، وحـدث ذلك في الوقـت الذي كان فيه الملك في سجن صلاح الدين .

٨٠ - وعندما رأى الملك عجرفة الماركيز ونذالته ومنعه اياه مـن الدخول الى المدينة ، وأنه لم يعـد لديه في المملكة قصر أو دار يعيش فيها شعر بألم عظيم حل فؤاده ، وأحـسب أن يمـوت بشرف على أن يعيش في الذل ، وبناء عليه اجتمع مع جفري ، ومع مقـدم الداوية وبقية البارونات الذين كانوا معه ، وقد قالوا له : انهم يعرفون أهل البلد وموقفهم ، فهم يعرفونه أنه فوق كل شيء سيدهم وملكهـم لكن المسيطر الآن على المدينة اناس غرباء ، وعمل هؤلاء مايسر الماركيز ومايرضي ارادته ، وقال له أخوه جفري : ان امبراطور ألمانيا وملك انكلترا وملك فرنسا وعدد كبير آخر من البارونات قد باتوا الآن من الصليبيين ، وقد اقترب وقت وصولهم ، وسألهم الملك بعدما سـمع منهم مـا سمع فيمـا اذا كانوا يريدون أن يتبعـوه حيثمـا ذهب ، فأجابوه أنهم ماجاءوا من وراء البحار الا مـن أجـل هـذا وأنهم على استعداد للعمل حسب أوامره حتى الموت .

٨١ - وعندما سمع الملك غي كلام هؤلاء السـادة فـرح فـرحا عظيما للارادة الطيبة التي توفرت لديهم ، وعلم أن مولانا لن يحارب أبدا ضد المسيحيين ، لذلك شد مـن عزيمتـه واسـترد شـجاعته وثبتها ، وأوكل مصيره الى الرب ، وأخذ الطريق وسار ليتمـركز في أحواز مـدينة عكا ، ولا شـك أن ايمـان المؤمنين بـالرب كان عظيما ، وذلك عندما تجرأ حفنة من الرجال على القيام بمثـل هـذا

العمل الكبير ، اي بمحاصرة عكا ، وبما أنه كان هناك عدد كبير جدا من المسلمين داخل مدينة عكا ، وبالكاد وجد مسيحي واحد مقابل عشرة من المسلمين ، فان المسيحيين حين قدموا الى عكا قد وضعوا أنفسهم بين المطرقة والسندان ، فلو رأى سكان المدينة ذلك ، لكانوا التهموا المسيحيين واستولوا عليهم مثلما يستولى الباشق على الطير الصغير .

٨٢ ـ وبعث في تلك الأثناء صلاح الدين الى جميع سكان مملكته من دمشق الى مصر والى مناطق البلاد التي كان عماله يحكمون فيها فاستنفرهم وقواتهم للقدوم عليه بهدف الحاق ضربة فاصلة بالمسيحيين الذين فروا من المعركة ، ويقومون بتشديد الحصار على عكا ، واستجاب المسلمون لاوامر صلاح الدين وقدموا اليه .

٨٣ ـ وعندما جمع صلاح الدين رجاله واطمأن الى جيشه زحف فتمركز على مسافة ميل واحد من عكا ، ومنطقة مخيمة تعرف الآن باسم ضاحية صلاح الدين لأنه تمركز هناك ، فقد توفر حشد كبير من المسلمين ، وتولى هؤلاء حصار الذين جاءوا لحصار مدينة عكا ، ومرارا قال رجالات الاسلام وقادة الجيش وأعوان صلاح الدين لصلاح الدين :« دعنا نمضي فنستولي على معسكر هؤلاء ونهزمهم وبذلك سنرتاح في المستقبل ، ولسوف لن نجد أحدا يأتي لمحاربتنا » ، فأجابهم صلاح الدين بأنه يود انتظار قدوم أخيه سيف الدين الذي كان قد أرسله الى خليفة بغداد ، فهو يريده أن يكون حاضرا أثناء تحقيق هذا الانتصار وأن يشارك في الفرحة بذلك .

وعندما رأى المسيحيون الجهود التي يبذلها المسلمون الذين سبق لهم أن الحقوا بهم الهزيمة خافوا خوفا عظيما ، ووقعوا في شك رهيب ، ولم يكن ذلك بغريب ، فاستسلموا لهذا الى ملك الرحمة مثلما استسلموا لعبادته من قبل ، واستجاب لهم فأرسل اليهم بالنصيحة التالية قائلا :« تمسكوا بمنهجكم في السلاح والعتاد » ولم يبق سوى أعداء الصليب الذين ماعادوا يخافون من

المسيحيين مثلما كانوا من قبل ، ومع ذلك زار مولانا المسيحيين ومنحهم مشورته وشجعهم لأنهم استسلموا اليه بقلب طيب وفكر نقي .

٨٤ ـ فبينما كان صلاح الدين يجهز حشوده ، تفقد مولانا ـ كما تعلمون ـ أتباعه بنعمته فبعث اليهم من وراء البحار برجل عظيم هو جاك دي آفين والقادة الذين كانوا برفقته ، وينبغي الا يساور أحد الشك في أن الرب قد أرسل هذه النجدة وهذا العون الى هؤلاء الذين استسلموا اليه ووثقوا بنعمته ورحمته ، وفيما كان صلاح الدين يتجول في أحد الأيام وبرفقته الأمير قراقوش قال عندما رأى تقاطر القادة الفرنجة واجتماعهم:« العياذ بالله يبدو لي أن الفرنجة جن جنونهم وهم مقبلون على ركوب المخاطر في البحر » ورد عليه قراقوش قائلا :« مولاي ان هذه نجدات قادمة الى الفرنجة ، لقد سبق وقلت لك عندما أمرت بالتخلص من فرسان الداوية بأن هؤلاء سيلدون ثانية مع لحاهم » وعندما ذكره بهذه النبوءة غضب منه صلاح الدين ولهذا أمر قراقوش بالدخول الى مدينة عكا ، وحدث أنه في اليوم نفسه الذي دخل فيه قراقوش الى مدينة عكا أن وصل القادة الى عكا ، وفي الثلث الأول من الشهر بدأ الملك بحصار عكا ، وعندما وصل القادة مع الملك ، بذل المسلمون غاية جهدهم للحيلولة بين الفرنجة وبين العسكرة وانزالهم لعتادهم الذي كان معهم ، لكن الذي حدث هو أن مولانا ساعد اتباعه وتم بنجاح وأمان انزال العتاد ، ومن ثم المعسكرة ، وهنا تأكد فرسان يسوع المسيح من العناية الربانية التي خصوا بها .

وتمركز جاك دي آفين على الشاطيء الرملي أمام عكا ، في حين تولى الألمان والفريزيون والبريتانيون الذين قدموا معه تطويق عكا ووضعها تحت الحصار ، وحفروا بينهم وبين المسلمين خندقا وأقاموا الحواجز والسواتر من الأشجار وسواها ، واستولوا في الوقت نفسه على النهر الذي كان يجري أمام المدينة قرب المتمركزين على الشاطيء الرملي ، وبهذا شرع الذين كانوا داخل المدينة

بالعطش وعانوا كثيرا من قلة توفر مياه الشرب ، حيث لم تتوفر لهم داخل المدينة مياه الشرب الا من مياه الأمطار المخزنة بالصهاريج .

وعندما راى صلاح الدين التزايد المضطرد في أعداد المسيحيين ، أمر رجاله بالانقضاض عليهم بكل شدة ودون اضاعة للوقت والجهد ، وبات الآن على المسيحيين أن يتولوا الدفاع عن أنفسهم من جهتين ، ومع هذا استمرت حالة الحصار هذه - حسبما وصفناها لكم - حتى قدوم كل من ملكي فرنسا وانكلترا ، ومر الزمن وتخلل ذلك عدة أشكال من المعارك الشديدة ، وكان بارونات ماوراء البحار قد عانوا كثيرا منذ أن اصبحوا صليبيين ، وتكبدوا مشاق هائلة أثناء عبورهم البحر ، لكن عندما وصلوا قدموا مساعدات هامة للاستيلاء على عكا .

٨٥ - وفي هذا الوقت بينما الملك غي يحاصر مدينة عكا جاء لامداده عدد كبير من بارونات مملكة فرنسا والممالك الأخرى ، وشاركوا في هذا الحصار ، وكان صلاح الدين متمركزا في الجهة المقابلة لرجالنا ، ومعه أعوانه جميعا وقواته ،وتمكن صلاح الدين من صد الفرنجة وقمعهم حتى أنهم لم يعد بامكانهم الحصول على المساعدة من أي جهة لاسيما بعدماتناقصت امداداتهم وكلف شح الامداد وتدمير المؤن عددا كبيرا من رجال قواتنا حياتهم ، ووصلوا الى حد لم يعودوا يستطيعون فيه تحمل سوء الحالة التي عاشوها ، ولهذا دعا الملك البارونات وقادة القوات الى الاجتماع في مؤتمر لدراسة الأوضاع ، وفي هذا المؤتمر تم الاتفاق على الزحف ضد معسكر المسلمين وسحقه ، وهذا ماكان فقد زحفوا ضد معسكر صلاح الدين والمسلمين وكان جيرالد دي ردفورت ، مقدم الداوية في المقدمة ، وكان أندريه دي برن في الساقة أما الملك غي ومعه أخوه جفري دي لوزنغنان فقد توليا مواقفة القوات المتمركزة داخل المدينة خوفا من خروجها وهجومها عليهم .

وعندما رأى صلاح الدين زحف قوات الفرنجة ضد معسكره، أفرغ هذا المعسكر وانسحب الى الوراء ، ودخل المسيحيون الى معسكر المسلمين وكانوا جميعا يعانون من الجوع ، ولسوء حظ المسيحيين الذين وجدوا هناك أن حصانا واحدا من خيول الحجاج فر هاربا ، فاندفع الحجاج لامساكه ، فاضطربت صفوفهم وهاجوا وماجوا ، وشرع رجال القوات الرديفة يتصرفون خلافا لما كان عليهم أن يفعلوه ، وارتبكوا ولم يعودوا يعرفون كيف يتصرفون ، وشاهد صلاح الدين من مكان تمركزه اضطراب أوضاع الفرنجة وسوء أحوالهم فسأل واحدا من أعوانه الذين كانوا بصحبته عما يجري في صفوف الفرنجة ، ولماذا الاضطراب فيما بينهم فأجابه :« مولاي مرد هذا الوضع المضطرب هو أنه لم يبق لديهم فرسان ، ولذا اذا هاجمتهم حالا ستتمكن من هزيمتهم وأسرهم جميعا » .

ورأى صلاح الدين الحجاج الفرنجة يخرجون من معسكرهم ويدخلون الى معسكر صلاح الدين فتلاشت آماله بالعودة الى معسكره الاول ، فقد كانت أعدادهم كبيرة جدا وقواهم عظيمة ، ومع هذا انقض صلاح الدين على الفرنجة ، فلم يستطيعوا الصمود له ، فأخذوا يتقهقرون وينهزمون ، وتدفق المسلمون ضد المسيحيين مثل نهر كان يجري بالدم ، وهكذا قهروهم ، ولهذا السبب هب المسيحيون الاخرون والملك غي واندريه دي برن ومقدم الداوية ومعهم اعداد كبيرة من الاتباع والاعوان لنجدة المسيحيين والتفريج عنهم .

٨٦ ـ وكان المسلمون الذين تمركزوا داخل مدينة عكا ، قد رأوا معسكر الفرنجة قد اخلي ، والذين كانوا متمركزين فيه قبالتهم قد ذهبوا مع الملك لنجدة المسيحيين ، لذلك خرجوا من المدينة وسط ضجيج كبير وجلبة عظيمة ، وسعوا الى الاستيلاء على معسكر الفرنجة ، وكادوا يفعلون ذلك لولا ان الرب انقذ المسيحيين بوساطة جفري دي لوزنغنان ، فقد واقف المسلمين ودفعهم وصمد في وجههم

طوال النهار مع حفنة من الرجال الذين تركهم الملك برفقته للدفاع عن المعسكر ، لقد دافع هذا الفارس بشدة وتصميم عن المعسكر فقد كان شجاعا وقويا ، لذلك لم يستطع المسلمون السيطرة على المعسكر ، فقد صدهم بالقوة والسيف وقاتلهم امام باب القديس نيقولا وقاومهم بيديه ، وكذلك فعل الذين كانوا معه .

اما الملك ومقدم الداوية واندريه وجميع الذين كانوا معهم فقد هجموا على المسلمين وقدموا المساعدة للذين قد دخلوا الى معسكر صلاح الدين وانجدوهم ، لكن انقضاض تقي الدين ابن اخي صلاح الدين ومعه قواته المسلمة وهجومه العنيف كبد الملك ورفاقه خسارة كبيرة حتى اوشكوا – بعد قليل من الوقت على الهلاك جميعا ، وكان مقدم الداوية واندريه في مؤخرة الجيش ، وقد قاوما بعنف من اجل خروج الناس وانسحابهم سالمين ، وفي انقضاض تقي الدين تكبدت قواتهما خسائر كبرى واضطربت وتمزقت صفوفها وأبيدت ، فكان أن قتل مقدم الداوية وقتل معه أندريه هناك ، وحدثت بلبلة عظيمة ، وحل الم عظيم بين صفوف المعسكر لموت هذين القائدين الكبيرين ، وقام فرسان الداوية بعد موتهما باختيار مقدم جديد لهم ، كان وقتها في المعسكر ، هو روبرت دي سابلوي (اختير روبرت الثالث دي سابلوي ابن روبرت الثاني دي سابلوي مقدما الداوية في ١١٩١).

٨٧ – وبعد هذه الهزيمة الساحقة والخسارة الكبرى كتب صلاح الدين الى الملك غي يقول له بانه لم يحافظ على قسمة ولا على الاتفاقية التي ابرمت عندما حرره من السجن ، وكان من واجبه الا يحمل السلاح ضده ، فضلا عن ذلك كان قد وعده بعبور البحر ، واجابه الملك بانه نفذ وعده وبر بقسمه بشكل جيد ، فهو قد وعده بعبور البحر وبالفعل عبر البحر مع اتباعه ، غير انه لم يستطع القول انه لم يشهر السلاح ضده ، وفي الحقيقة كان حصانه يحمل في لجامه سيفا ودرعا في ظهره ، لئلا تونبه النبال ، وبهذه الصور سوغ الملك غي لصلاح الدين اعتذاره عن القسم الذي اداه .

٨٨ ـ وفي فترة الحصار الذي القي حول عكا ، اعد الامبراطور فردريك الكبير حملته ، وزحف برا وقد جلب معه عددا كبيرا جدا من فرسان المانيا مع العتاد والمال والثروات ، فقد سار وكأنه يعمل في سبيل التاج الامبراطوري ، وعبر الى الاراضي البيزنطية من هنغاريا ، وبذل امبراطور القسطنطينية (اسحق الثاني) ماوسعه من جهد ، وحاول بكل جد وجهد وشدة ان يمنع الامبراطور السالف الذكر من العبور من بلاده ، ولهذا بعث اليه الامبراطور فردريك الكبير بوفد ضم هيرمانت رئيس اساقفة موستريير مع رجال اخرين من الاشراف .

ولدى وصول الوفد الى القسطنطينية طلبوا من الامبراطور تجهيز الطريق حتى يتمكن سيدهم امبراطور المانيا من العبور ومعه رجاله ، بغية الذهاب لاسترداد ارض القدس ، وانقاذها ، لكن الامبراطور في القسطنطينية رفض الطلب ، واعلن انه لم يسمح بالمرور عبر اراضي بلاده ، ثم اوقف الوفد والقاه بالسجن ، ولايستغربن هذا التصرف احد ابدا ، لان الاغريق كانوا يبغضون دوما كنيسة روما والمسيحيين اللاتين .

وعندما علم الامبراطور فريدريك بخبر رفض طلبه وسجن وفده غضب كثيرا وابدى امتعاضه ، ورأى الان ان من مصلحته تمضية ذلك الشتاء بمجمله في الاراضي البيزنطية ليتمكن من حرب امبراطور القسطنطينية حتى يترك له جزءا من اراضيه للعبور ، وعندما رأى الامبراطور الاخير ان الامبراطور فردريك قد استولى على جزء من امبراطوريته خشي من ان يستولي على الجزء الباقي ، ولهذا عقد مفاوضات مع خصمه وقرر التراجع عن موقفه ، فقد اجتمع وفدان من السادة مثلا الجهتين المتصارعتين وتوصلا الى عقد سلام وتوافق بين الامبراطورين ، وبناء عليه حرر امبراطور القسطنطينية رئيس الوفد والسادة اعضاءه ، اي هيرمانت رئيس اساقفة موستريير والذين كانوا برفقته ، واذن هذا الامبراطور للذين يريدون السفر بحرا بالمرور الى ميناء نيغربونت والعبور من هناك ، اما

الذين كانوا يريدون السفر برا فقد اعطاهم مبالغ كبيرة مـن المال ، وقدم اليهم المساعدات والمعونات من اجل استرداد اراضي القدس .

٨٩ ـ وعندما سمع سلطان قونيه (قلج ارسلان الثاني) بما حدث وعرف ان الامبراطورين قد عقدا سلما فيما بينهما ، وان امبراطور المانيا سيعبر من خلال ارضه ، انزعج كثيرا ، وحاول صده فقد جمع رجاله جميعا ، وحصن جميع الممرات والطرق التي سـيعبر عبـرها الامبراطور ، وعندما سمع الامبراطور بدوره بانه يريد صـده ، وانه قطع المعابر واغلق الممرات على الطريق الذي سيسلكه ، فترك هـذا الطريق ، وذهب الى طريق اخر ، فقد وجـد بعض المزارعين ليدلوه على الطريق ، وفي الوقت نفسه لم يدر بخلد المسلمين بان المسيحيين سيعبرون على الطريق الذي اختاره الامبراطور ، واسـتغربوا كيف وقع اختياره عليه لانه كان طريقا مزعجا وقاسيا ، يمر عبر الجبـال والجروف والشعاب ، وهو بعيد عن الطريق الاخر المستقيم .

وبعدما عبر الامبراطور صحراء صـعبة حيث قـاسى كثيرا مـن المشاق ومن الجوع والعطش ، اخيرا وصـل الى ارض منبسـطة ، وكانت محصنة ومحمية ، وقد تكبد الامبـراطور خسـائر كبـرى في رجاله وفرسانه وعندما وصل الامبراطور الى هـذا المكان ، ارتـأى الذهاب الى قونيه ، حيث خيل اليه أنه سيجد طريقا أفضل لا يصـد فيه ، هذا ما فكر فيه ، فكر أنه سيجد طريقا صالحا ، غير أنه وجد مصاعب جمة وغضايقات لا عد لها ولا حصر ، فمرارا لم يكن أحـد يستطييع المرور لا على الاقدام ولا على ظهور الخيل ، ولهـذا أمـر الامبراطور بتمهيد الطريق للمشاة ، كما أنه أمر بالقاء الخيول الميتة في الممرات الصعبة لتكون جسرا للعابرين ، والذي حصـل أنه كمـا امر نفذت أوامره ، وبعدما عبروا هذا الممر الضيق والخطير بمعونة الرب ، وصلوا الى قونيه ، وهنا خرج حاكم قـونيه للتصـدي لهـم ومعه جميع قواته ، ولقد فكر بعـرقلة الطـريق أمـام الامبـراطور المذكور .

وعندمـا رأى الامبـراطور أن قـوات المسـلمين كانت كبيرة وقوية ، رتب جنوده ورجـاله للمعـركة ، وكان ابنه فـريدريك أمير سافوى في الساقة ، وكان رجلين وشريفـا يتمتـع بشـهرة عالية وبسمعة طيبة ، وكان أبوه يقف في المقـدمة يتـولى القيادة بحـكمه ومقدرة ، واستطاعوا - بنعمـة الرب - أن يهـزموا صـاحب قونيه ، وأتبعوا ذلك الاستيلاء على المدينة المذكورة ، وهرب الاتراك مع نسائهم وأولادهم ، وآلت المدينة الى الامبراطور (في ١٨ - ايار ١١٩٠ ، وبعد خمسة أيام عقدت معاهدة للسلام مع صاحبها).

٩٠ - بعد أمد قصير من استيلاء الامبراطور فريدريك على مدينة قونية ، عقد حاكمها هدنة مع الامبراطور حتى أنه وضع نفسه تحت امرته وأعطاه رهائن مناسبة ضمانا للهـدنة ، وزوده بـكميات مـن الاغذية والعتاد ، كل ذلك حتى يثبت له اخـلاصه وحسـن سـلوكه ليتسلم منه مدينة قونية ويستردها لحكمه ، والتقى الامبراطور بهذا الحاكم واستمع الى كلامه وأعجب به ، ولأن اهتمـام الامبـراطور كان مصروفا باتجاه مملكة القدس ، فقد أعلن عن تـوصله الى عقد هدنة مع حاكم نيقية ، على أسـاس تسـلمه منه رهـائن مـن علية القوم ، وأبرمت الهدنة حسب شروط التفاوض والاتفاق ، وأقسـم حاكم قـونية على التمسـك بشروط الهـدنة وكذلك فعـل الامبراطور ، وفقا لما جرت عليه العادة بين السادة الحكام ، وما أن أبرمت الاتفاقية حتى خرج الامبراطور من مدينة قونية ومعـه جميع رجاله ، وتمركز أمام المدينة ، فعلى هـذا تـم الاتفـاق حسـبما ذكرنا ، ولقد حصل رجالنا على الاموال والاعتدة والاشياء التي كانوا بحاجة اليها ، وقد حصل هذا كله في شهر حزيران

٩١ - واستمعوا الآن لما سأحدثكم بـه ، عمـا فعله الالمان بالاتراك بعدما جرى اعلان الهدنة مـع صـاحب قـونية واسـتلام رهائنه ، وشـعر الالمان أن لا قـاذون يلزمهـم ولا رادع لكونهـم في موقف القوة ، مع أنهم اعتادوا عندما يكونون في موقف صـعب على ملازمة الحق واعتبار جميع الناس أصدقاء لهم طيبون ، المهم أنهـم

الآن وجدوا أنفسهم في موقف القوة لذلك بدأوا يسببون الاضرار للمسلمين الأتراك واخذوا في ازعاجهم ، ولانهم وجدوا انفسهم في موقف قوة تصرفوا بشكل فوقي فكانوا يأخذون المؤن ويستولون على كل شيء كانوا يجدونه في السوق من دون أن يدفعوا ثمنهم ، واذا حدث وطالبهم بعض الناس بدفع ثمن الاشياء التي اخذوها ، كانوا يعرضونهم جميعا للموت ، وتم اطلاع حاكم قونية على الطرائق التي يعامل بها الالمان رجاله ، فبادر الى ارسال وفد من عنده لاطلاع الامبراطور على الامر ، غير أن الامبراطور لم يقدم على تغريم أحد من أتباعه ولم يعاقب أحدا أبدا من الذين اساءوا الى المسلمين ، وعندما ازدادت الشكوى وعم الضجيج من تصرفات الالمان الذين لم يرعووا مطلقا بل ساءت تصرفاتهم أكثر من ذي قبل ، هنا خاف حاكم قونية من ان يحدث له أسوأ مما حدث من قبل ، لهذا أمر رجاله بالاستعداد بالخيل والسلاح لملاحقة جنود الالمان ، والسعي بشكل خاص للثأر من الجرائم الت اقترفها امبراطور الالمان ورجاله بحق المسلمين .

وتابع الامبراطور سيره ومعه جميع الرهائن الذين أخذهم من حاكم قونية ، وتوجه مباشرة نحو أرمينية ، وهو يخيل اليه أنه في أمان يتمتع بشروط الهدنة التي عقدها مع حاكم قونية ، غير أن هذه الهدنة لم تفده كثيرا ، لأن حاكم قونية قام بالانقضاض عليه من دون اعذار ولا انذار ، فهذه عادة المشارقة عندما يرون أن من المناسب لهم خرق الهدنة .

على هذا عندما تحرك الامبراطور مطمئنا يريد الوصول الى ارغينية خرق الحاكم المذكور الهدنة وحنث بالوعود التي تعهد بها ، ولم يحافظ على يمينه الذي اقسمه ، فلقد اتفق مع الامبراطور وتعهد له ألا يلحق أحد من رجاله أدنى ضرر بجنود الامبراطور المذكور ، ومهما يكن من أمر ، لقد جمع هذا الحاكم جنوده جميعا ، وبدأ بخرق الهدنة التي تعهد بها ، وأقسم اليمين على

رعايتها ، فكان في كل يوم يهاجم جنود الامبراطور ، ولهـذا لحـق رجال الامبراطور ــ مرارا وتكرار ــ الكثير من المضار والانزعاج .

وعندما وجـد الامبـراطور أن المسـلمين كانوا يتآمـرون عليه وينقضون على قواته بشكل أخذ يزداد كل يوم ــ استدعى اليه قواده الحكماء والأشداء وأوصاهم باليقظة والانتباه ، ووقف الامبـراطور في المقدمة وتولى ابنه رعاية الساقة وقيادة قـواتها ، وهـكذا دافـع الامبراطور بكل انتباه وحذر عن رجاله ، ومع هـذا كان المشـارقة ينقضون مـرات عديدة على رجـال الامبـراطور فيأسرون منهـم ويقتلون ، وكانوا ينفذون عملهم هذا بكل دقة ، ومـع هـذا اسـتمر الامبراطور يدافع عن رجـاله الذين حشـدهم ولملم أطـرافهم بـكل مهارة ، وبهذه الوساطة وهذا النظام قاد الامبارطور رجاله المشـاة والفرسان بدون توقف وبدون اسـتراحة ، فقـد سـار بهـم ليلا ونهارا ، وبوساطة هذا الجهـد المضـني وصـلوا أخيرا الى أرض ارمينية ، فهناك شعروا أنهم باتوا بأمان .

٩٢ ــ وعندما وجد الامبراطور أن السلطان لم يحافظ على عهده وحنث بأيمانه ، لم يسرح له رهائنه ، وأخذ بعد هذا بقطع رؤوسهم في عدة أمكنة ، فقد ألحـق السـلطان بجنوده المضـار وقتـل بعضهم ، ومن هؤلاء كان (غودفري) أسـقف وورزبـرغ ، وكان رجلا حكيما ، من أصل نبيل ، وكان أيضا خـطيبا مفـوها وأديبـا رفيعا ، وقد عمل مستشارا للامبراطور ، وكان هذا الأسقف يشجع المسيحيين بعظاته المدسة ، وبنصائحه القيمة ، ويعـزيهم ويخفـف عنهم بأن المسـاوىء التـي كانوا يتحملونهـا كانت في سـبيل الرب ، ومن أجل التكفير عن خطاياهم .

٩٣ ــ وعندما وصل الامبراطور الى أرمينية كان يحـكمها أمير اسـمه لاون (الثـاني) الكبير ، وكان قـد تـوج آنذاك ملكا على أرمينية ، وكما حدثناكم من قبل جعلت الشهرة الكبيرة التي رافقـت مجيء الامبراطور المسـلمين يخـافون ، ولهـذا تخلى الذين كانوا

يسيطرون على قلعة بغراس عنها ، وهذه القلعة كان قد استولى عليها صلاح الدين بعد استيلائه على مملكة القدس ، وعلم فاوق دي بوليون ابن عم لاون بأن المسلمين قد أخلوا قلعة بغراس فدخلها وسيطر عليها وحكمها عدة سنوات .

وفي هذه الآونة حارب لاون الأمير بوهيموند (الرابع) وذلك بعد موت أبيه، وكان سبب الحرب بينهما من أجل روبن بن بوهيموند (الثالث) وحدث آنذاك أيضا أن طالب فرسان الداوية بهذه القلعة (بغراس) لأنها كانت تخصهم ، وقد حاصروها في احدى المرات بأمر من البابا انوسنت ، وعقد لاون اتفاقية مع رجالات الداوية وعدهم فيها أنه عندما سيستولي على أنطاكية وينتزعها لصالح ابن اخته روبن (ريموند روبن ابن اليس الارمنية وابن أخت لاون الثاني) سيعيد اليهم هذه القلعة ، وهكذا عادت القلعة بنعمة من الرب الى المسيحيين ، وسيعيدها لاون بدوره الى فرسان الداوية الذين كانوا يمتلكونها من قبل ، وهذا ماسأشرحه لكم فيما بعد .

٩٤ ــ في فصل الصيف ، عندما كانت الشمس حارة والناس منهكين من شدة الحرارة ، في ذلك الوقت وصل الامبراطور فريدريك مع قواته جميعا الى ارمينية (دولة أرمينية الصغرى في كليكية) ، وهناك كانوا بأمان أكثر مما كانوا عليه من قبل ، لأن سلطان قونية قد تخلى عنهم وعاد الى بلاده ، وعسكر الامبراطور عند أول أرمينية على ضفة نهر قرب قلعة سلوقية التي تسيطر على مجرى نهر السن (غوك سو) حيث غرق بربروسا .

وكان صاحب أرمينية قد توجه لملاقاة الامبراطور عبر بلاده وذلك ليرحب به ويسلم عليه ، غير أنه لم يستطع الوصول اليه لكثافة عدد الجنود وازدحامهم الشديد ، وكان هذا الازدحام على جسر توجب عليهم عبوره ، وعندما أخفق لاون في العبور الى الامبراطور أوفد اليه رجلين من الاعيان في بلادش ، وكانا أخوين يدعى أحدهما كونستانس ، والآخر بلدوين دي كمرديس سيواس ، ووصل هذان

الرجلان الى معسكر الامبراطور الالماني ، وابلغا باسم سيدهما لاون بالتحيات وانه ارسلهما الى الامبراطور ليرشداه الى الطريق الى مدخل ارمينية ، واصطحبهما القادة الالمان الى الامبراطور ، وعندما مثلا في حضرته انحنيا امامه وابلغاه برسالة لاون .

وتلقى الامبراطور بسرور بالغ ما بعث به لاون اليه ، وسأل مبعثيه عما اذا كانا يعرفان طريقا آخر غير طريق الجسر يمكن العبور عليه بدون صعوبة ، فأجاباه بالايجاب وقالا من الممكن عبور النهر « لان النهر صغير سهل العبور وليس كبيرا » فامتطى حصانه ومعه فريدريك ابنه أمير سافوى (سوابيا) وقالا له :« دعنا يا مولاي نعبر الى الضفة الثانية امامك لنداك على الممر ، ونقودك الى المخاضة من حيث تستطيع أن تعبر بأمان » ، واوعز الامبراطور اليهما ان يعبرا امامه ، فعبرا امامه الى الضفة الثانية ثم عادا ليسيرا خلفه ويرشداه فأمرهما بأن يعبرا مع ابنه الأمير ، ففعلا ثم عادا الى الامبراطور ليرشداه ، وهكذا بدأ الامبراطور بعبور النهر والفارسان الارمينيان امامه والرجال الآخرون من حوله وأمامه وخلفه ، وعندما أصبح الامبراطور في وسط النهر كبابه فرسه الذي كان يمتطيه فتقنطر عن ظهره وسقط في النهر ، ولشدة الحرارة التي قاساها ولبرودة الماء الشديدة حيث وقع ، فقد قوته ، ولم يتملك نفسه فعجز أن ينجو ، وتيبست عروق جسمه فغرق ، وتقهقر رجاله ودبت فيهم الفوضى حتى انهم لم يستطيعوا أن يجتمعوا لايجاد وسيلة يستطيعون بها انقاذ سيدهم .

٩٥ ـ وتكبدت المسيحية خسارة عظمى بوفاة سيد كبير وقدير ، جاء ليسترد أرض مملكة القدس المباركة بكرامة وتقوى ، فمن الذي يستطيع أن يروي أو أن يصف الآلام السابقة الذين جاءوا معه وبكائهم عليه ، فلقد تحسر الفرسان وتألموا والناس جميعا لفداحة الخسارة التي لحقت بهم بوفاة سيدهم بسرعة

خاطفة ، وفيه تحقق مادون في كتاب سليمان : « جعلوك سيدا ، فكن أيضا مثل واحد منهم » .

هذا الذي كان امبـراطورا عظيمـا تـواضع في قيادة الفـرسان المسيحيين ، فهو الذي كان الناس من الفقراء يعدونه أخا لهم ، لقد كان مثله مثل وردة المحبة ذبلت في طريقها وذوت ، فهو لم يذهب مـن الحاضر حتى أنهكته المتاعب ، ولأنه كان متـواضعا وطيبـا وتـكبد المسيحيون خسارة كبرى بوفاته ، وحصل هـذا كله وحـدثت هـذه الواقعة في يوم أحد كان هـو الخـامس عشر مـن شـهر آب لسنة ١١٩٠ لتجسيد يسوع المسيح ، وأخرج جسمانه من النهر ثم حنط وكفن كما يليق به كامبراطور ، ثم نقل الى مدينة انطاكية حيث دفن في كنيسة القديس بطرس وسط حزن شديد ، قرب ضريح ادهمر أسقف لي بوي ، والى اليمين من ذلك المكان عثر على الحربة التـي حملها لونغيس بعدما انتزعها من جسد مولانا يسـوع المسـيح على جبل الجلجلة .

٩٦ ـ وسأحدثكم الآن عن السـبب الذي دفـع بـه القـدوم الى الأرض المقدسة ، فهو عندما كان امبـراطورا في المانيا ، جـاء اليه أحد المنجمين ليقدم استشارته ، فقد كان الامبراطور عالي الثقـافة كثيرا ، لهذا كان بعض رجـال الاكليروس يأتـون اليه ليستشـيروه وليسألوه رأيه أحيانا حول بعض القضايا الدينية واللاهـوتية التـي كانوا يتناقشـون حـولها ، وكان يسـتدعيهم اليه كلمـا راق له الحال ، فيتحاورون حـوله فيفيدهـم كثيرا بنصـائحة ، لهـذا كانوا يمدحونه كثيرا ، وقد سأل في أحد الأيام منجمه عن شكل الموت الذي سيلقاه ، فطلب منه المنجم بعض الوقت حتى يتمكن من اجابته على سؤاله ، ومنحه الامبراطور المهلة التى أرادها ، وبعد انقضاء المهلة جاء المنجم الى الامبراطور وقال له : « مولاي يناسبك أن تمـوت في الماء ».

وحفظ الامبراطور هذا الكلام في قلبه ، ولم ينسه أبدا ، وعندمـا

غدا صليبيا تذكر كلام المنجم ولهـذا عبـر البحـر وجـاء الى الأرض ، وكانت معجزة كبرى عندما لم يغرق أحد ممن عبـر النهـر سوى الامبراطور ، فهو وحـده الذي سـقط وغرق ، والمدهش أنه تخلص من خطر البحر الذي اجتازه ، وواجه هذا الخطر في النهر .

وقام صلاح الدين لشدة خوفه من قدوم الامبراطور فأمر بتـدمير أسوار اللاذقية وجبلة وجبيل وبيروت وجميع المدن الأخـرى الكائنة على شاطىء البحر حتى لا يستولي عليها المسيحويون ، ولخوفه من مرور الامبراطور فعل هذا كله بالمدن والقلاع لئلا يأتي الامبـراطور اليها ويستولي عليها ويحصنها ، ثـم يلتفـت بعـد ذلك الى تـكبيد المسلمين الخسائر ، ولهذا دمر ــ كمـا قلنا ــ صـلاح الدين المدن والقلاع القائمة على شاطىء البحر .

٩٧ ــ بات جيش الامبراطور الكبير بدون قائد بعد وفاته ، ولهذا تشتت في عدة أمكنة مثل قطيع بلا راعي ، وعندمـا وصـل فـريدريك أمير سافوى ابن الامبراطور الى سهول أرمينية كان مصابا بمرض شديد ، ولشدة مرضه لم يستطع الصعود إلى الجبل ، ذلك أن سهول ارمينية حارة في الصـيف ومغلقـة ، في حين كان الجبـل رطبـا وصحيا ، ولذلك اعتاد سكان البلاد على الصـعود الى الجبـل حيث كانوا يمكثون هناك أيام اشتداد حرارة الصـيف مـن بـداية شـهر حزيران حتى منتصف شـهر ايلول ، فمنذ ذلك الحين كانوا ينزلون الى السهل لأن الأرض تكون معتدلة وأقل انغلاقا .

ونقل الأمير الى أنطاكية كما هو في حالته المرضية ، وجاء معـه قسم من الجيش ، ووجد هؤلاء الراحة في أنطـاكية بعـد الاشـغال القاسية والمآسي التي عانوا منها ، فأخذوا يأكلون هناك ويشربـون حيث استقبلوا في انطاكية بكل حفاوة .

وبعد وفاة الامبراطور وزوال وعثاء السفر ، بـدأ بعض فـرسان ألمانيا والناس الذين هربوا من حطين والقدس بالتجمع ، وسـاروا

مع الأمير الالماني الى عكا (وصل فريدريك دي سوابيا الى عكا في ٧ ـ تشرين أول ١١٩٠ توفي في ٢٠ كانون ثاني ١١٩١) وقد مات هذا الأمير نفسه في عكا بعد الاستيلاء عليها بعدما أدخل الى بيت الالمان ، وفي ذلك الوقت لم يكن بامكان اسبتارية الألمان الاحتفاظ بالمرضى لأنه لم يكن لهم مشفاهم الخاص بعد ، فقد ادعى أصحاب مشفى القديس يوحنا (الاسبتارية) بأنهم وحدهم فقط يمتلكون من روما حق اقامة مشفى في عكا ، ولا يجوز لأحد أن يكون لديه مشفى إن لم يكن من اتباعهم ، ولهذا عندما كان يموت واحد من الرجال العظماء في مدينة عكا ، حتى وان كان في بيت الألمان ، كانوا يأخذونه ليدفنوه في مقبرتهم ، ولهذا السبب طلب هذا الأمير في أواخر أيام حياته من الالمان الا يكرموه كثيرا عند موته ، وأن يدفنوه في قبر متواضع بين قبور الفقراء ، لأنه كان يعرف بشكل مؤكد أن أصحاب مشفى القديس يوحنا سيعملون على تكريمه بالقوة ،ولهذا فضل الدفن في مكان متواضع .

وما أن توفي حتى جاء أصحاب مشفى القديس يوحنا ليطلبوه لكنهم لم يجدوه أبدا ، ولم يستطيعوا معرفته بين الأموات ، وفي ذلك الوقت لم يخش اسبتارية الألمان من هذا الأمر كثيرا ، فاللباس الذي كانوا يرتدونه تحت معطفهم لونه أحمر مع نصف صليب أسود ، أما الرهبان الفرسان فكان معطف كل منهم من الصوف (المصنع في استامفورد في انكلترا) ولم يتجرأ الفرسان على ارتداء المعطف الأبيض الا في جيش دمياط ، فيومها كان المعطف أبيض والصليب أحمر (استولى الفرنسيون على دمياط في ٥ تشرين ثاني ١٢١٩ وأرغموا على اعادتها الى السلطان في نهاية شهر آب ١٢٢١) .

وطالبهم اسبتارية القديس يوحنا بعدما توفي مقدمهم بتعيين مقدم جديد لهم ، وهكذا توجب على الأعيان والرهبان اختيار مقدم لهم ، وطالب أصحاب مشفى القديس يوحنا الألمان بأن يكون المقدم منهم ، وهذا ماحاولوه هذه المرة ، غير أن الألمان رفضوا طلبهم

وأعلموهم انهم لن يعطوهم أعيانا أخرين من أجل اختيار مقدم لهم ، وهكذا نشب الخلاف فيما بينهم .

٩٨ ـ ودفن الالمان فيما بعد الأمير في بيتهم ، ولاجل دفنهم له على هذه الصورة كوفئوا مكافأة عظمى ، وشهد كثير من الناس بكفاءة الامير ومهارته وخاصة أنه كان مايزال في ريعان الشباب .

وبعدما سمع الالمان بوفاة الامبراطور فردريك توجوا ابنه البكر هنري الذي كان ملك المانيا ، توجوه امبراطورا ، وتولى تتويجه البابا كلستين ، الذي كان يشغل في ذلك الوقت الكرسي الرسولي في روما (انتخب كلستين الثالث بابا في ٣٠ آذار ١١٩١ ، وهو الذي توج هنري السادس في ١٥ نيسان ١١٩١ ، اي توجه غداة انتخابه بابا) ، وتزوج الامبراطور هنري (السادس) من كوستانس عمة النبيل وليم صاحب صقلية ، الذي كانت المملكة من حقه بعد وفاة ابن عمه ابن أخي الملك وليم ، لأن هذا الملك قد توفي بدون وريث ، ولهذا خلفه الامبراطور السالف الذكر فردريك (الثالث) الذي غدا فيما بعد امبراطورا وملكا لصقلية .

ولنعد الآن الى موضوعنا لنحدثكم عن ملكي فرنسا وانكلترا ، وعن الحرب التي كانت أن تنشب بينهما ، وهي التي كانت بسبب رتشارد كونت بواتيه ، وكان الملك هنري أربعة أولاد وثلاث بنات من المملكة اليانور ، التي كانت من قبل زوجة لويس ملك فرنسا ، وكان ابنه البكر يدعى هنري وهو الذي تزوج من أخت فيليب ملك فرنسا ، وهي ابنة ملك اسبانيا (هي مرغريت ابنة لويس السابع من زوجته كنستانس ابنة الفونسو ملك صقلية) وكان الولد الثاني يدعى رتشارد ، وهو الذي أعطى امارة بواتيه ، وكان الولد الثالث يدعى جفري ، وهو الذي أصبح أمير بريتاني ، وكان الولد الرابع يدعى يوحنا سان تيرا ، ومن بناته الثلاث أعطى احداهن للملك الفونسو صاحب كاستيلا ، ومنها ولدت الملكة بلانشي (اليانور قد تزوجت من ألفونسو الثامن ملك كاستيلا

وابنتها بلانشي تزوجت من لويس الثامن وهي أم القديس لويس التاسع)، وتزوجت الابنة الثانية من أمير سكسونيا (هي ماتيلدا زوجة هنري الأسد أمير ساكسونيا) وتزوجت (جوانا) الابنة الثالثة من وليم ملك صقلية ، ويروى أن يوحنا الذي أصبح فيما بعد ملكا لانكلترا قام باغراق أولاد أخيه جفري .

٩٩ ـ مات الكونت هنري ابن الملك هنري ، وبعدما حدث ذلك جرى في تلك الأثناء تعذيب القديس توماس الشهيد ، وأعقب ذلك أن الملك أراد أن يتوج ابنه الصغير يوحنا ملكا ، وعندما سمع بهذا الخبر الكونت رتشارد انزعج كثيرا ، وقصد فيليب ملك فرنسا وخاطبه بقوله :« مولاي بودي أن أعلمك أن والدي يريد أن يحرمني ، ويقترف خطأ فقد رأى تفضيل أخي الأصغر علي وتتويجه ملكا ، وانك تعلم تماما أنني رجلك المعتمد ، (في تشرين الثاني ١١٨٨ ادى قسم الولاء لفيليب أغسطس فتكرم عليه فأعطاه جميع الأراضي التي كان يملكها في فرنسا) لذلك أرجوك أن تساعدني بالحصول على حقي » ، ووعده الملك بكل سرور أن يقدم له المساعدة ، وبناء عليه حشد جنوده وساقهم فدخل بهم الى الأراضي التابعة لسيطرة الملك هنري فيما وراء البحار ، فاستولى على ماذس وتوروشيذون ، وحولها الى رتشارد ، وعندما سمع الملك هنري أن الملك فيليب انتزع منه الأراضي التي كان يملكها فيما وراء البحر ، جمع جنوده ، وعبر البحر وساق حتى وصل الى المنطقة التي ذسكر فيها الملك فيليب ، وفيما الجيشان يستعدان لانشاب القتال ، وصل رسل الكرسي الرسولي يحملون الرسائل والأخبار عما حدث في أرض القدس التي خسروها ، ولم يسترد الملك هنري أراضيه من الملك فيليب ، وفي الوقت ذفسه ترك على العرش ابنه يوحنا ، ولم يلغ تتويجه وعاد الملك هنري الى انكلترا ولم يلبث أن مات نتيجة الحزن والألم لخسارته اراضي أوفرن وتركه لها لصالح ملك فرنسا ، وكانت هذه الأراضي غنية ، واثر هذا جاء ابنه رتشارد الى ملك فرنسا وشكره على الأراضي التي سلمه اياها في

بلاد ماوراء البحر ، واقسم انه سيتزوج أخته (اليس دي فرانس) بعدما يتوج ملكا في لندن .

١٠٠ ـ وذهب رتشارد الى ملك فرنسا طواعية وبطيب خاطر ، واخذا يتداولان حول تحديد الموعد لتحركهما والذهاب في سبيل استرداد مملكة القدس ، وحدد له ملك فرنسا يوم الاثنين الاول بعد عيد القديس يوحنا من سنة ١١٩٠ لتجسيد يسوع المسيح ، ومن هناك سافر رتشارد الى لندن حيث توج ملكا (في ٣ ـ ايلول ١١٠٩) وبعدما استولى على المملكة سحب حاشيته وجاء الى فرنسا الى عند الملك فيليب ، وعندما جاء الى فرنسا توسل الى الملك وطلب منه مايلي قائلا :« مولاي ، بودي أن أذكرك انني رجل شاب ، وقد توجت من جديد ملكا ، ثم ركبت هذا الطريق ـ كما تعلم ـ للذهاب الى ماوراء البحر ، وبرضاك اريد أن اتوسل إليك أن تؤخر لي هذا الزواج حتى عودتي من وراء البحر ، واقسم لك بأنني سأتزوج من أختك خلال أيام من عودتي » ، وصدق الملك كلامه ، وتلقى بكل سرور هذا الاقتراح وأعطاه المهلة التي طلبها ومن ثم التزما بالصمت .

١٠١ ـ وأعد فيليب ملك فرنسا عدته للجواز من غنز ، أما ملك انكلترا فقرر السفر من مرسيليا ، وذلك يوم القديس يوحنا ، وذهب ملك فرنسا الى سانت ديذس للاستراحة والاستجمام ، والى هناك وصل اليه رتشارد ملك انكلترا (في ٢٤ ـ حزيران ١١٩٠) وتبادلا الأيمان في أن يكونا رفيقين مخلصين ، وأن يحملا الايمان والكرامة وأن يكن كل واحد منهما للآخر الاحترعم ، وذهب ملك فرنسا الى غنز ، كما ذهب رتشارد الى مرسيليا حسبما كان مقررا ، وفي تلك الاثناء تحرك العديد من كبار رجال فرنسا لمرافقة الملك ، وكان منهم فيليب دي فلاندرز ، وهنري دي شامبين والأمير ثيبوت دي بلوا والامير استين دي سانكوري وشيوج أمير بورغون وفيليب أسقف دي بوفو ، ووليم دي باري مع عدد كبير آخر من الفرسان ، وأعداد غفيرة من

النبلاء ، وكان الملك فرنسا ابن من الملكة ايزابيل ، التي كانت ابنة كونت هيذوت (ايزابيل هي ابنة بلدوين الخامس كونت هيذوت ، وهي أم ملك فرنسا المقبل لويس الثامن الذي ولد سنة ١١٨٧) وقد ترك ملك فرنسا ابنه لحماية المملكة ، وترك معه عمه وليم رئيس اساقفة رينز ، والكونت ريذو دي بونثيو (الحقيقة أن كونت بونثيو حمل الصليب في الوقت نفسه الذي حمله فيليب أوغسطس ، وكان اسمه جان وقد مات في أثناء حصار عكا) .

وعندما وصل الملك الى غنز شحن سفنه وأعد مراكبه الحربية ، ومثله فعل الملك رتشارد في مرسيليا ، واقلع ملك فرنسا مسافرا يريد الأراضي المقدسة ، ومنذ اقلاعه من غنز رافقته أنواء سيئة وظل هكذا حتى وصل الى مسينا (في ١٦ ـ ايلول ١١٩٠) وقد أصيب بخسائر كبيرة ولحقته اضرار جمة في السفن والعتاد ، وذلك كله بسبب سوء الأحوال الجوية ، وعندما سمع الملك تانكرد أن ملك فرنسا وصل الى بلاده ذهب الى استقباله ، فرحب به بكل حرارة ووضع تحت تصرفه مملكة صقلية بأكملها ، وقال له كل شيء في المملكة سيكون وقفا على ارادتك وسرورك ، ورجاه أن يمكث في بلاده ما شاء من وقت.

ولما رأى الملك ماحل بعتاده وسفنه من أضرار رأى عين الصواب في نصيحة الملك تانكرد فمكث بعض الوقت في صقلية ، وفي تلك الاثناء كان الملك رتشارد قد تحرك من مرسيليا ، وعندما وصل الى جزيرة صقلية فكر بالذهاب لرؤية أخته الملكة جوانا ، التي كانت زوجة الملك وليم ، واستهدف ايضا أن يسأل فيما اذا كان ملك فرنسا قد وصل الى هناك ، وهكذا عندما اقترب من جزيرة صقلية سأل عن أخبار وصول ملك فرنسا اليها ، فقيل له نعم وصل وهو مقيم في مدينة بلرم (في الحقيقة كان في مسينا ، وكان تاريخ وصول الملك رتشارد ٣ ـ ايلول) المدينة الرئيسية لمملكة صقلية ، ذلك أن فيها أغنى القصور في العالم وأفخمها ، ففي هذه المدينة أقام ملك

فرنسا ، فقد افرغ الملك تانكرد أحد القصور ووضعه تحت تصرفه تشريفا له .

١٠٢ ـ وعندما علم رتشارد ملك انكلترا أن ملك فرنسا كان مقيما في بلرم فرح فرحا عظيما ، وأمر رجاله أن يجدوا لأنفسهم مقرا هناك ، فهو قد عزم على البقاء هناك مع الملك حتى ينقضي الشتاء ، ولهذا جرى اعفاء الفرسان والجنود من مهامهم ، وبدوره عندما سمع ملك فرنسا أن ملك انكلترا قد وصل الى هناك فرح كثيرا وجاء لملاقاته ، فابتهج الملكان معا وسر كل واحد منهما بالآخر ، وتولدت محبة كبيرة بين كل من ملك فرنسا وملك انكلترا في تلك الاثناء واقسما لبعضهما الايمان بأن يظلا رفيقين مخلصين دوما ، وأن يحمل كل واحد منهما للآخر المشاعر الطيبة والثقة الغالية والايمان المتبادل ، ولم أعرف من قبل من الذي بدأ الحرب فيما بينهما ، أعني بين الاثنين ، لأنه نجمت خسائر كبيرة ووقعت مضار عظيمة منذ أن نشبت الحرب بينهما ، بيد أنهما عندما سافرا الى بلاد ماوراء البحار واتجها نحو أرض الميعاد كانا صديقين حميمين الواحد منهما للآخر ، وكان الواحد منهما يدعو الآخر « ياسيدي » ولو دام حبهما لبعضهما لازدادا شرفا مع الأيام ولانتصرت الديانة المسيحية المقدسة بهما ، وستجدون في هذا الكتاب خبر من بدأ الحرب بين الملكين .

وبعدما سلم ملك انكلترا على ملك فرنسا وتبادلا التحيات تقدم تانكرد ملك صقلية من ملك انكلترا ورحب به واحسن استقباله ودعاه للاقامة في القصر نفسه في بلرم حيث أقام ملك فرنسا ، ذلك أن القصر كان كبيرا ومتسعا ، وبامكان الملكان الاقامة معا ، وعندما سمع ملك انكلترا ان ملك فرنسا قد أقام في القصر ، وأن الملك تانكرد يعرض عليه الاقامة معه شكر الملك تانكرد شكرا كثيرا ، وقال له بأنه لايرغب في أن يضايق ملك فرنسا في اقامته ، وهكذا افضل الاقامة في مكان آخر ، وظل ملك فرنسا مقيما في القصر ، كما ذكرنا لكم ذلك من قبل ، لكن ملك انكلترا فضل

الاقامة في ضاحية المدينة ، ولهذا سبب آخر لانه كما قال كان يعرف أن الفرنسيين متكبرين متعجرفين ، والانكليز حملان متواضعين ، فهو قد آثر الاقامة بعيدا عن ملك فرنسا حتى لايكون هناك اختلاط وخلاف .

وبعد أن أقام الانكليز هناك حدث تنافر بينهم وبين سكان البلاد ، ولذلك نشب خلاف كبير بين رجال ملك انكلترا ورجال الملك تانكرد ، أدى الى الحرب بينهما ، ولهذا السبب تحصن الملك في القلعة بعض الوقت ، واغلقها على نفسه ووضع عليها الرنك الملكي (الغرفين) الانكليزي ، وذلك بسبب الحاجة والضرورة ولانقلاب رجال البلاد ضده ، وعندما رأى الملك تانكرد أن الملك قد أغلق هذه القلعة عليه ، وتحصن بها جاء لتقديم العون له والتفريج عنه ، ثم أقنع رجال الشعب الذين شكلوا بأن يقدموا له الغفران ، واستقبلهم الملك بسرور وتمت المصالحة وباتوا في سلام ، وقد ظلوا هناك حتى شهر اذار .

١٠٣ ـ وذهب الملك رتشارد لزيارة أخته جوانا ورؤيتها ، ففرحت به فرحا عظيما ، وسرت كثيرا لقدوم أخيها وزيارته لها .

وكان الآن قد انقضى على حصار عكا وتطويقها سنة ، وتوجه الى عكا للمشاركة في الحصار وعبر قبل عبور الملكين كل : من الكونت هنري (دي شامبين) والكونت ثيبوت (دي بلوا) والكونت استين دي سانكوري وفيليب اسقف دي بوفو ، ووصلوا الى عكا وقدموا المساعدات والات الحصار ، وهذه الآلات كانت مما جهزة ملك فرنسا ووصل قبل عبوره ، وقام الكونت بتقديم المساعدات التي جلبها ، وحالما وصل ملك فرنسا وجه هنري آلات الحصار نحو سور مدينة عكا وألصقها به .

وكان الجيش قد عانى من غلاء عظيم حتى أن المكيال الواحد من

القمح بات يباع بثلاثين بيزنتــه ، ومــكيال الطحين بســتين ، ولم يتوفر لحم البقر ولالحم الغنم ، وكانت البيضة الواحدة تباع بـأحد عشر ديناري ، وكان افضل لحم يأكله الجنود هــو لحــم الخيول أو البغال أو الحمير ، وكانت المجاعة كبيرة وشاملة قــاسية حتــى أن الفقراء كانوا اذا ماوجدوا حيوانا ميتا أكلوه بنهم ، وبدأ الجنود بعد مجيء كونت شامبين يضرحــون بــالشكوى لعـــدم تـــوفر المؤن لديهم ، وأخذوا يعلنون نقدهم للسادة وكبار القــادة الذين شـــاركوا بالحصار ، ووجهوا اللوم اليهم ، واتهموهم بعدم الرغبة بــالزحف ضد صلاح الدين وحربه ، ورأى الاشراف والنبلاء بدورهم انهم لن يستطيعوا حرب صلاح الدين مــادامت مــدينة عكا تحــت ســيطرة المسلمين .

وفي داخل المعسكر لم يعد الفرسان يتجــرأون على التحــرك مــن مكان الى اخر ، لأن كل واحد منهم بات عرضـــة للشــتم والاهـــانة بالكلام ، فقد تمرد الجنود والسيرجانية على الفرسان ، واعتقــدوا انه لاقيمة للفرسان وأنهم لم يعودوا بحاجة اليهم ، وخيل اليهــم أن بامكانهم لوحدهم خوض الحرب ضد صلاح الدين ، وأنهــم ليســوا بحاجة الى مساعدة الفرسان .

وطلب السيرجانية من الملك والبارونات مرارا وتكرارا بأن يسمح لهم بالخروج من المعسكر ، وعندما وجدوا انفسهم غير قادرين على اقناعهم أو اجبارهم أعلنوا انهم سيخرجون ولو قاد ذلك الى هلاكهم فهم اذا جاء الخير أو الشر ســيفرحون كثيرا ، لأن الامــر ســواء عندهم ، وهم ايضا مدركون تمام الادراك أنه اذا ماحاق بهم ســوء الحظ فلن يجدوا أحدا سيأتي الى نجدتهم .

وخرج السيرجانتيه والجنود وزحفوا ضــد المســلمين ، ولما رأى صلاح الدين انهم خرجوا لوحدهم أفرغ لهم معسكره ، وماأن شاهد السيرجانية والجنود أن معسكر صلاح الدين قــد اخلي اسرعوا الى هناك مطمئنين واثقين ، وتركهم صلاح الدين حتى اطمــأنوا واكلوا

ونهبوا وتأكد في الوقت نفسه أنه لا وجود للفرسان بينهم ، وهنا انقض عليهم في مكان وقوفهم ، وقتل منهم أعداد كبيرة جدا حتى مات منهم الكثير الكثير ، فقد قيل أنه لم يفلت أحد من السيرجانتية ، بل ماتوا جميعا في فترة وجيزة .

ولقد تألم مولانا كثيرا للنازلة التي حلت بين صفوف السيرجانتية والجنود ، فقد انتقم من رعونة هؤلاء القوم الذين تمردوا على فرسانهم وسادتهم ، واثر ذلك أمر صلاح الدين رجاله ان يقوموا بجر جثث القتلى ورميها في النهر ، وكانوا من الكثرة بمكان أن النهر فاض عدة أيام بدماء القتلى وجثثهم ، حتى أن الجنود لم يعد بامكانهم شرب الماء منه ، وواقع الحال أن الضيق في معسكر المسيحيين كان في ذلك العام شديدا فوق حد الوصف ، وكذلك في معسكر المسلمين فلكثرة جثث القتلى ، انتشرت روائح النتن وكثر الذباب الى درجة بات من الصعب جدا البقاء في أماكن العسكرة هذه من الجانبين ، وحدث هذا في يوم عيد القديس جاك الموافق للخامس والعشرين من حزيران ، وماتت في هذا الفصل الملكة سيبل ملكة القدس (في تشرين الاول ١١٩٠) ومات ابنتاها اليس وماري ، ولم يبق لها ولد ، وهكذا انتقلت المملكة بحق الميراث الى ايزابيل زوجة هنفري صاحب تيرون ، وهي ابنة الملك عموري والملكة ماري .

١٠٤ ــ بعد وفاة الملكة سيبل ، عرف الماركيز كونراد ، الذي كان مستوليا على مدينة صور أنه لم يبق لمملكة القديس من وريث شرعي سوى التي تدعى ايزابيل التي ورد ذكرها من قبل ، وللطموح الذي توفر لديه بالحصول على المملكة أقنع الملكة ماريا التي كانت والدة ايزابيل أن تثير دعوى ضد زواج ابنتها من هنفري ، وأن تحصل على موافقة الابنة على هذا التحرك الذي استهدف الطلاق ، وتكلمت الملكة مع ابنتها وحاولت اقناعها لتوافق وتعمل للانفصال عن هنفري من ثم الزواج من الماركيز ، غير أنها لم توافق على ذلك لأنها كانت تحب زوجها هنفري وهذا ماأزعج

أمها ، وقد بينت الأم لها مرارا السبب الذي يحول بينها وبين أن تكون سيدة المملكة ، وقالت : لن تصل الى ذلك مالم تنفصلي عن هنفري ، وذكرتها بالاخطاء التي اقترفها هنفري ، خاصة عندما أراد كونت طرابلس والبارونات الذين كانوا مجتمعين في نابلس تتويجها ملكة وتتويجه ملكا ، فهرب الى القدس وطلب المغفرة وقدم الولاء الى الملك والملكة ، واوضحت لها أنها مادامت زوجته فلن تستطيع الحصول على المكانة والتشريف ونيلها مملكة ابيها ، وزادت على جميع ماتقدم بقولها أنها عندما تزوجت لم تكن في سن الزواج ، ولهذا السبب يمكن الادعاء ضد الزواج القائم ، وبعد طول وقت وافقت على ماأرادت أمها ، والذي ارادته أمها هو الزواج من المركيز ، وكانت الملكة الام تكره هنفري لسبب لخر هو أنه عندما تزوج من ابنتها بدأ يكره الملكة الام ماري ، ولم يرد أن ترى ابنتها ، وكان يفعل ذلك بمشورة من أمه استيفاني التي كانت سيدة قلعة الكرك .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى غادر الماركيز مدينة صور وجاء للمشاركة في حصار مدينة عكا وتحدث الى فيليب أسقف بوفو ، والى هيوبرت رئيس اساقفة بيزا ، الذي كان يحظى بمكانة عالية في كنيسة روما ، وطلب منهما المساعدة والمشورة للحصول على الزواج المرغوب ، وتمكن عن طريق اغداق العطايا والاموال من شراء ذمم عدد كبير من الناس وافسد كثيرا من رجال الجيش بمنحه ووعوده ، وتمكن بشكل خاص من أتباع رئيس اساقفة بيزا وأعوان أسقف بوفو ، ورتب كل شيء وأعد الأجواء ، وهكذا عندما رفعت الملكة ماري دعواها ضد هذا الزواج ، تم الانفصال حالا وبدون معيقات ، وكانت مسوغات الدعوى التي رفعتها الملكة ماري ووضعتها أمام رئيس اساقفة بيزا وممثل روما أن ابنتها لم يكن عمرها سوى ثلاث عشرة سنة عندما تزوجت ، وهي على هذا لم تكن في سن الزواج وقتذاك ، وبناء عليه تم استدعاء هنفري لسماع هذه الشكوى والاجابة عما لديه من معلومات ونفي هذا الادعاء حتى تبقى السيدة زوجة له ، فقال هنفري انه عندما سئلت السيدة وقتها

وافقت على الزواج ، وكان بين الشهود قاروراتي شرابيار) اسمه سنلس (غي الثالث دي سنلس) فكذب هنفري وتحداه قائلا : ان السيدة لم توافق مطلقا على الزواج ، وكل مافعله الملك بلدوين (الرابع) كان ضد ارادة السيدة وأمها ، واذا كان لديك شيئا لغير تقوله فتبرهن به على صحة اقوالك وتدحض به خصومك فهاته ، وشعر هنفري أنه قد طعن في الصميم ، ومع هذا تراجع ولم يجرؤ على التحدي ، وقام الذين أفسدتهم عطاءات الماركيز فاشاروا على هنفري ونصحوه بفسخ هذا الزواج والانسحاب منه ، وأقنعوه أنه لن يستطيع حكم المملكة ، وصعب عليه الامر كثيرا ، ومع هذا استمع الى نصائحهم ووثق باقوالهم ، وفسخ الزواج وانسحب منه .

١٠٥ ـ وقام رجل الدين البيزاوي المخول فسخ الزواج وفصل بين الزوجين ، ولو انه أراد خلاف ذلك لم يفسخ الزواج مطلقا ، حيث لم يتوفر سبب كبير يترتب عليه فسخ الزواج ، ولكن رجل الدين المخول نفذ الفسخ لصالح الماركيز ، لان البيازنة هم الذين اصطحبوا هذا الماركيز من القسطنطينية الى مدينا صور ، وهم الذين ثبتوه هناك ، وفكروا بالحصول على عرفان للجميل وعطايا عظمى من مملكة القدس اذا ما امتدت أيام الماركيز .

١٠٦ ـ لايمكن لاي عمل جبار يبدأ تنفيذه بالخداع أن ينتهي نهاية طيبة .

بعد تقديم هذه الحجج وسماع هذه الشهادات أمام رجل الدين أحضرت الملكة ماري ابنتها لاستماع رأيها ولسماع قرار الحكم ، وأعطى رجل الدين المذكور تخويلا كاملا وحرية مطلقة للسيدة ، وأخبرها أنها تستطيع الزواج من أي شخص تريده وصدر هذا القرار وفقا لاحكام الناموس وارادة الرب ، والرب وحده يعلم ذلك ، وهكذا لم تعد السيدة تحت سلطة البارون وولايته ، بل

أصبحت تحت ولاية الماركيز وسلطانة فقد تزوج منها بعدما صدر القرار بالفسخ .

وبعدما قدمت السيدة ايزابيل طالبت بالمملكة على أنها حق لها ، وقدم لها البارونات الذين كانوا هناك الولاء ، واعتبروها الوريث الشرعي للمملكة ، وعندما استلمت حقها من الميراث تحدثت بحضور بارونات المملكة وقالت أنها منذ أن انفصلت عن زوجها الاول لم تتوفر لديها رغبة في أن تجرد من حقها بالميراث لا هي ولا ذويها واستطردت تقول : « انني أسترد جميع الممتلكات التي منحها لي أخي (بلدوين الرابع) عندما تزوج مني (هنفري) ، أن هذا ما ينبغي أخذ العلم به ، وهذه الممتلكات : قلعة تيرون ، والقلعة الجديدة وجميع ماتحتويه وكل ما أودعه فيهما والدي وجدي » .

وبعد هذا الخطاب تزوج الماركيز من ايزابيل ، وقد قيل انه تزوجها حسب الايمان والشرع ، لان زواجها الاول تم بشكل خاص ، بينما عقد الثاني في الكنيسة ، ولم تعد هذه السيدة لتكون ثانية تحت ولاية زوجها هنفري ، لانها لم توافق مطلقا على الانفصال فيما بعد . ومرة ثانية لا شك أن مملكة القدس لم تعلم أنها تسير نحو الخطر والتقهقر بسبب هذا الحدث .

(نص مخطوطه فلورنسا)

وثبت ملك انكلترا مواقعه قرب مسينا ، وشرع في وضع الرنك (غريفن) الملكي الانكليزي على واحد من الابراج بكل هدوء ، وذلك بأن عمل على احضار جميع رجال الحرف الى القلعة ، وقد وافق ملك فرنسا على عمله هذا ٠

وصف وصول ملك فرنسا الى عكا :

وامضى فيليب ملك فرنسا وريتشارد ملك انكلترا الشتاء في صقلية ، وفي أثناء اقامة الملك ريتشارد هناك رجا أخته أن تبيع ممتلكاتها وتذهب معه وتشاركه في مشروع الحج هذا ، واقسم لها يمينا تعهد فيه أنه حالما تعود معه الى انكلترا سيعيد اليها ثمن كل ما باعته ، ويعوض عليها ما منحته اياه ، وسيزوجها بشكل رفيع وبحفلة بهية جدا ، واجابته بانها توافق على مطالبه وتقبل بكل اقتراحاته وبدون تردّد ، وقد زوجها فيما بعد من الأمير صنجيل وقد انجبت له ولدا أصبح فيما بعد أميرا لكونتيه سان جايل ، وذلك بعدما عقدت معاهدة البي جيوس (تزوجت جوانا الانكليزية من ريموند السادس كونت سانت جايل وطولوز — في تشرين أول ١١٩٦ ، ووقع فيما بعد ريموند السابع في سنة ١٢٢٩ معاهدة ميوكس) ٠

وعندما حصل الملك ريتشارد على موافقة أخته على بيع ممتلكاتها ، تحدث حول الموضوع مع تانكرد ملك صقلية الذي اشترى هذه الممتلكات بكل طيبة خاطر بناء على نصيحة رجاله ومشورتهم وبعدما انقضى شهر آذار شحن ملكا فرنسا وانكلترا سفنهما بالعتاد وبكل الاشياء المحتاج اليها ، وما أن فرغا من

الجهاز حتى حان وقت الاقلاع ، وتحـرك ملك فـرنسا فـوصل الى عكا ، لكن ملك انكلترا لم يصل معـه ، لان حـادثا واجـه هـذا الملك ، وهو ما ستعرفونه فيما بعد

وعندما وصل ملك فرنسا الى عكا استقبل هناك استقبالا مشرفا من قبل النبلاء الذين كانوا هناك ، فقـد فـرحوا بـوصوله فـرحا عظيما ، ذلك أنهم انتظروا هذا الوصول منذ زمن طـويل ، وحـالما وصل الى هناك امتطى فرسه ليستطلع المنطقة وليختار الجهة التي يمكنه منها الاستيلاء على المدينة بسهولة ، ثـم اقـام حـول المدينة سواتر دفاعية .

١٠٧ ــ امضى فيليب ملك فرنسا ورتشارد ملك انكلترا الشتاء في صقلية ، وكان الملك رتشارد بارعا ، ذلك أنه ما أن وصل الى هناك لم يتوان عن التوسل إلى اخته و الطلب منها ان تبيع ممتلكاتها هناك ومن ثم الذهاب معه و مـرافقته في حملتـه إلى الأراضي المقـدسة ، واقسم لها وتعهد انه عندما سيعود الى انكلترا سيعيد اليها كل مـا تلقاه منها من ثمـن امـلاكها ، وان يزوجهـا زواجـا راقيا وغنيا ، وأصغت هذه السـيدة الى نصـيحة اخيهـا واخـذت بها ، ووافقت على ماأراده فباعت ممتلكاتها واخذت اثمانها .

وفرح الملك رتشادر كثيرا عندما خولته اخته ببيع املاكها ، وكان قد تحادث من قبل مع الملك تـانكرد حـول مـوضوع بيع اختـه لاملاكها ، واسـتشار الملك تـانكرد رجـاله فـأشاروا عليه بالشراء ، وبناء عليه تسـاوم مـع الملك رتشـارد لشراء امـلاك السيدة ، وحالما استلم الملك رتشارد المال من الملك تـانكرد ، اسرع للسفر ، فأعد سفنه في لنار للعبور ، وأعطاه الملك تانكرد الكثير من المساعدات ، وكذلك أعطـى ملك فـرنسا ، وتحـرك الملكان مـن هناك ، وتوجها يريدان المشاركة في حصار عكا ، ولم تتمكن جـوانا ملكة صقلية وأخت الملك رتشارد من السفر مع أخيها الملك ، لوجود

مشاغل كثيرة توجب عليها انجازها فيما يتعلق بممتلكاتها ، ثم انها ارادت ان تسافر بكل راحة وهدوء .

وبعدما غادر الملكان مسينا ، قصد فيليب ملك فرنسا الوصول مباشرة الى سورية ومعه جميع اتباعه ، وقد وصل الى ميناء عكا حيث كان الحصار قائما حول عكا ، وكان النبلاء الذين كانوا هناك ينتظرون وصوله بفارغ الصبر ، ويتمنون مجيئه منذ زمن طويل ، وما ان وصل حتى استقبل بكل حفاوة ، استقبل بما يليق برجل كبير مثل ملك فرنسا ، وابتهج افراد الجيش كثيرا بقدومه ، ذلك انه احضر معه ومع اتباعه سفنا محملة بالاغذية وباشياء اخرى مفيدة ، كما جلب معه عددا من البارونات والفرسان حسبما يليق بتاج فرنسا وبالسادة الآخرين مثل فيليب كونت فلاندرز ، وهيوكونت بورغون ووليم كونت براس ، ولنشوب بعض الخلافات لم تبدأ الحرب مباشرة .

١٠٨ ــ وحالما وصل الملك فيليب امتطى فرسه وطاف حول الجيش وحول مدينة عكا ليستطلع الموقع وليبحث عن المكان المناسب والجهة التي يمكنه منها الدخول الى المدينة والاستيلاء عليها بكل يسر ، وما ان اكمل استطلاعه وتعرف الى المكان قال : « مدهش ورائع قدرة وحكمة هؤلاء الذين بدأوا الحصار ، كيف امكنهم الحصول على المكان المعسكرين فيه » ثم امر باقامة حواجز وسواتر حول المدينة ، وكانت مصنعة من الحديد المغطس بالقصدير الأبيض حتى انها كانت تبرق كالفضة ، وامر رجاله وفرسانه أن يشددوا الحراسة بدون هوادة حتى لا يستطيع احد من داخل المدينة أن يرفع اصبعه فوق اسوار المدينة .

وعندما راى سكان المدينة انفسهم وقد حوصروا بشدة ، رفعوا بايديهم من جانبهم سواتر حديدية وثبتوها على اسوار القلعة البيضاء ، وكانت تلمع كالفضة ، ثم نشروا جنودهم من الرماة القناصة والمجانيق بهدف احباط اية محاولة للتسلق فوق اسوار

المدينة ، وتابع ملك فرنسا حصار سكان مدينة عكا حتى مجيء ملك انكلترا ، وقام اللغامون فلغموا الاسوار التي كانت على مقربة من برج الذبان ، فقد دفع البيازنة كبشا الى قرب أسوار المدينة ، ولكن المسلمين أضرموا النار فيه بعدما القوا عليه بالزيت والاسفلت من فوق الشرافات واحرقوا ايضا كل المعدات التي كانت موجودة قرب الاسوار مع الذين كانوا فيها ، وأضرم الملغمون النار بالاخشاب التي وضعوها في اللغم الذي عملوه تحت السور ، فانهار هذا السور ، وحاول مارشال الجيش الفرنسي ومعه اعداد كبيرة من رفاقه الفرسان الدخول الى المدينة من حيث سقط السور ، ولكن تصدى لهم المسلمون واشتبكوا معهم بقوة ، وقتل في تلك الأثناء المارشال الفرنسي وكثير ممن كان معه من الفرسان ، وهذا ما أزعج كثيرا ملك فرنسا والبارونات الآخرين الذين كانوا معه هناك ، ومع هذا لو أراد ملك فرنسا اقتحام المدينة والاستيلاء عليها لكان بامكانه ذلك ، لكنه آثر انتظار ملك انكلترا ، لانهما كانا مترافقين بالسفر ، وقد تحالفا معا منذ ان تحركا واتفقا حول جميع ما سيستوليان عليه من أماكن ولهذا انتظره ليشاطره الفرح في الاستيلاء الذي سيقومان به على مدينة عكا .

يوجد ثلاثة وعشرون كتابا تتحدث ، عن كيفية عبور كل من ملكي انكلترا وفرنسا الى سورية ، وعن احتلالهما لجزء من هذه البلاد ، واحداثهما اضرارا بالغة في أراضي سورية ، وتتحدث كيف أن الملك رتشارد توقف عند مجيئه في جزيرة قبرص التي احتلها ثم باعها الى الملك غي لوزنغنان .

وكان الملك رتشارد عندما عزم على التوجه لنجدة مملكة القدس ، قد أقسم آنذاك يمينا لأخت فيليب ملك فرنسا ، تعهد فيه بأنه سيتزوجها بعد أربعين يوما ، من عودته ، وعندما سمعت أمه الملكة اليانور - التي كانت مرة ملكة فرنسا ، والآن ملكة انكلترا - أن ابنها سيتزوج من أخت ملك فرنسا انزعجت كثيرا ، لانها كانت تكره أقارب الملك لويس ملك فرنسا الذي كان

زوجا لهـا ، وأرادت أن تحبـط هــذا الزواج الذي وعد ابنهـا به ، وهكذا بحثت وسألت أين يمكن أن تجد زوجة لابنها .

وقام على مقـربة مـن كنيسـة القـديس لينارد رابية صغيرة ، سيطرت عليها وتحكمت بها ، وأخـذ أصـحاب الكنيسـة يلوحون من فوق الرابية الى قوات المسلمين ليقدموا لنجدتهم وتقديم العون لهم ، وكمن هناك بعض الفرنسيين ، وهكذا عندمـا اقتـرب المسلمون انقض هؤلاء عليهم ولم يستطيعوا المقاومة .

ومع هذا أبقى ملك فرنسا على الذين كانوا داخل مدينة عكا حتى وصول ملك انكلترا ، ولقد ندب الملغمين للغم السـور الذي كان على مقربة من برج الذبـان ، وقـام البيازنة بصـنع آلة كبيرة اسـمها الكبش ، وسحبوها حتى ألصـقوها بـالسور حيث كان الملغمـون يلغمون ، واضرم المسلمون النار من داخـل المدينة وصـبوا الزيوت والاسفلت على آلة الكبش ثم رموها بالنار مـن الداخـل والخـارج فأحرقوها والذين كانوا فيها ، وحـدث في الوقـت نفسـه أن نجـح الملغمون في لغم السور واضرام النار تحتـه فـانهارت قـطعة مـن السور ، وبادر مارشال فـرنسا وبصـحبته عدد كبير مـن رفـاقه الفرسان بالدخول الى المدينة من الثلمة التـي فتحـت بـالسور لكن تصدى لهم المسلمون بكل قوة ومنعوهم من الدخـول ، وقتـل في تلك الاثناء مارشال فـرنسا مـع عدد كبير مـن الفـرسان الذين كانوا معه ، وقد أزعج هذا الحـادث ملك فـرنسا كثيرا وكذلك أزعج بقية البارونات الذين كانوا معه .

١٠٩ ــ ولو أراد ملك فرنسا اقتحام المدينة والاسـتيلاء عليهـا لكان بامكانه فعل ذلك ، لكنه آثر انتظار ملك انكلترا ، لأنهمـا كانا مترافقين بالسفر ، وقد تحالفا معا منذ ان تحركا ، واتفقـا حـول جميع ما سيستوليان عليه من أماكن ، ولهذا انتظره ليشاطره الفرح في الاستيلاء المشترك الذي سيقومان له على مدينة عكا .

١١٠ - وكان الملك رتشارد عندما عزم على التوجه لنجدة مملكة القدس قد أقسم يمينا وقت ذاك تعهد فيه لأخت فيليب ملك فرنسا أنه سيتزوجها بعد أربعين يوما من عودته ، وذكرنا من قبل ان الملكة اليانور أم الملك رتشارد أرادت احباط زواج ابنها من أخت ملك فرنسا ، لانها كانت تكره اقارب الملك لويس ملك فرنسا ، الذي كان زوجا لها من قبل ، وهكذا بحثت وتقصت علها تجد زوجة مناسبة لابنها .

فأخبرت بوجود خالتها في اسبانيا ، وقيل لها بأن ملك نافار لديه اخوات وإذا ما سمعت يمكنها الحصول على احدى هؤلاء الاخوات لتكون زوجة لابنها ، وبالفعل بعثت الى الملك المذكور تخطب احدى اخواته لتزوجها من ابنها ولتجعلها ملكة انكلترا ، وفرح ملك نافار بهذا الطلب كثيرا ، ووافق عليه ، وجهز أخته الكبرى التي تدعى بيرنير بجهاز ثمين واكرمها غاية الاكرام ، وبعث بها في موكب حافل الى بواتو حيث كانت ملكة انكلترا بانتظارها ، وفرحت هذه الملكة بقدومها كثيرا ، ثم جهزت نفسها وبادرت الى السفر ، فقد أرادت الوصول الى صقلية لتعقد قران ابنها على الاميرة النافارية قبل أن يسافر من صقلية ، وعندما غادرت بواتو متجهة نحو صقلية سمعت خبرا أفاد أن ابنها الملك رتشارد وكذلك ملك فرنسا قد تحركا وغادرا صقلية وسافرا ، وأن أخت رتشارد الملكة جوانا ملكة صقلية قد باعت ممتلكاتها في الجزيرة ، وجهزت نفسها للسفر بغية اللحاق بأخيها الى سورية ، وبالفعل توجهت الى مسينا لتقوم بذلك ، وفرحت الملكة بهذه الاخبار كثيرا ، وأسرعت مسافرة الى صقلية ، وقد استهدفت الوصول الى ابنتها لترسل معها بالفتاة النافارية بكل تشريف وكرامة حتى تتأكد من ان الزواج منها سيتم ، وبهذا تنفذ ارادتها وتحقق رغباتها .

شرح صورة سفر ملكة صقلية الى سورية :

سافرت الملكة اليانور مسرعة نحو صقلية ، وعندما وصلتها

وجدت ابنتها هناك فاستقبلتها بتشريف عظيم ، وابتهج بقدومها سكان البلاد ابتهاجا كبيرا ، وكان على ملكة صقلية أن تتحرك وتسافر بأسرع وقت ، وقد تولت أمر العناية بالفتاة ، وقبلت أن تنقلها معها ، وأن تعمل وفق ارادة أمها فتزوجها من الملك رتشارد ، وأن لا توفر جهداً لاتمام هذا الزواج من هذه الفتاة ، وبعد هذا افترقوا عن بعضهم بعضا ، فعادت الملكة اليانور الى بواتو ، وقصدت الملك جوانا بلاد سورية .

وعندما وصلت الى شواطىء جزيرة قبرص وأبصرت أراضيها ، قالت الملكة لمرافقيها ان بودها الحصول على أخبار أخيها ومعرفة فيما اذا كان قد عبر من هناك ، فاستأذنوها بالاقتراب من الساحل حتى يمكن السؤال ، وفي الوقت ذاته كان اسحق صاحب قبرص قد نشر رجاله على الشواطىء لحراسة الجزيرة لانه كان خائفا من ملكي فرنسا وانكلترا ، وخشي من أن يستوليا على جزيرة قبرص عند وصولهما اليها ، ولهذا عندما رأى عدداً من السفن تقترب من الشاطىء بعث بمن يستطلع له خبر القادمين ، وليعرف من أين قدموا ، فقيل له هذا اسطول ملكة صقلية أخت الملك رتشارد التي سافر قاصدا سورية بهدف الحج ، وسأل رجال الاسطول القبارصة عما اذا كانت لديهم معلومات عن عبور الملكين السالفي الذكر ، فأجيبوا بعدم توفر أي معلومات .

وسافرت ملكة انكلترا من بواتو ، وأمت جزيرة صقلية ، وفعلت ذلك بعدما استقبلت الاميرة النافارية حيث كانت تنتظر قدومها ، وقد سرت بوصولها سرورا عظيما ، ومن ثم جهزت موكبها بالحال ، وتحركت مسافرة نحو صقلية ، فقد أرادت الوصول الى هذه الجزيرة لتعقد قران ابنها على الأميرة النافارية قبل أن يسافر من صقلية ، عندما غادرت بواتو قاصدة صقلية سمعت خبرا مفاده أن ابنها الملك رتشارد وكذلك ملك فرنسا قد تحركا وبارحا صقلية وسافرا ، وأن أخت رتشارد الملكة جوانا ملكة

صقلية ، قد باعت ممتلكاتها في الجزيرة ، وجهزت نفسها للسفر بغية اللحاق باخيها الى سورية ، وبالفعل توجهت الى مسينا لتقوم بذلك ، وفرحت الملكة بهذه الاخبار كثيرا ، واسرعت مسافرة الى صقلية ، وقد استهدفت الوصول الى ابنتها لترسل معها الفتاة النافارية ، بكل تشريف وكرامة حتى تتأكد من أن الزواج منها سيتم ، وبهذا تنفذ ارادتها وتحقق رغباتها .

١١١ ـ وسافرت الملكة اليانور مسرعة نحو مسينا ، وعندما وصلتها وجدت ابنتها هناك ، فاستقبلها بتشريف عظيم ـ وابتهج بقدومها سكان المدينة ابتهاجا عظيما ، وكان على ملكة صقلية أن تتحرك وتسافر باسرع وقت ، وقد تولت أمر العناية بالفتاة ، وقبلت أن تبقيها معها ، وأن تعمل وفق ارادة أمها فتزوجها من الملك رتشارد ، والا توفر جهدا لاتمام هذا الزواج من هذه الفتاة ، وبعد هذا افترقوا عن بعضهم بعضا ، فعادت الملكة اليانور الى بواتو ، وقصدت الملكة جوانا بلاد سورية .

وعندما اقتربت من شواطئ قبرص ـ وأبصرت أراضيها قالت الملكة لمرافقيها إن بودها الحصول على أخبار أخيها ـ ومعرفة فيما اذا كان قد عبر من هناك ، فاستأذنوها بالاقتراب من الساحل حتى يمكن السؤال ، وفي الوقت ذاته كان اسحق صاحب قبرص ، وقد نشر رجاله على الشواطىء لحراسة الجزيرة ، لأنه كان خائفا من ملكي فرنسا وانكلترا ، وقد خشي من أن يستوليا على جزيرة قبرص عند وصولهما اليها،ولهذا عندما رأى عددا من السفن تقترب من الشاطىء بعث بمن يستطلع له خبر القادمين وليعرف من أين قدموا ، فقيل له هذا اسطول ملكة صقلية أخت الملك رتشارد الذي سافر قاصدا سورية بهدف الحج ، وسأل رجال الاسطول القبارصة عما اذا كان لديهم معلومات عن عبور الملكين السالفي الذكر ، فأجيبوا بعدم توفر أي معلومات .

حول خبث سكان قبرص :

وعاد القبارصة فأطلعوا اسحق على خبر وصول ملكة صقلية ، وانها جاءت لتلحق بأخيها الى سورية ، وكان اسحق يكره اللاتين كثيرا ، فخطط لعمل خياني ومكيدة ضد الصقليين ، فبعث بوفدين من لدنه الى السيدة ليتوسل اليها ويطلب منها القدوم لتقيم في قبرص في حسن ضيافته ورعايته حتى يحصل لها على أخبار أخيها ، واستشارت الملكة رجالها ، وبناء عليه قالت للقبارصة بانها تشكر سيدهم لمبادرته لكنها لاتجرؤ على النزول الى اليابسة بدون اذن أخيها واوامره ، وعاد القبارصة فأعلموا سيدهم بجواب الملكة ، وانها قالت لهم كل ماترجوه هو تزويد رجالها بالماء ، وعندما سمع اسحق ذلك فكر ، ثم أمر رجاله أن يقدموا الماء الى ركاب سفينة الملكة ، ثم تصرف بحذر شديد فقد كان لايريد أن يقترب احد من شواطيء قبرص ـ لهذا جهز جنوده للاستيلاء على السفينة بالقوة ، ولاحظ رجال السفينة مكيدة اسحق ، فرفعوا مرساتهم ، ونشروا أشرعتهم ، ثم ابتعدوا الى عرض البحر ، وقد التقوا في اليوم التالي بالملك رتشارد ، الذي فرح بهم فرحا عظيما .

كيف كانت سفن الحجاج تمر بجزيرة قبرص :

في تلك الآونة التي أحدثكم عنها كانت هناك سفينتان محملتان بالحجاج الذين جاءوا لنجدة مملكة القدس ، وخيل لهؤلاء الحجاج عندما وصلوا الى قبرص أنهم قد سلموا من مخاطر البحر ، وأنهم باتوا بأمان أعظم ، لكن العكس هو الذي كان ، حيث تعرضوا لخطر جسيم أعظم ، حين قام قراصنة قبرص بالاستيلاء على سفينتيهما وقادوهم بقسوة وعنف الى اسحق الذي كان يكره اللاتين كثيرا ، وكان قد اتحد بالزواج مع طوروس ملك مملكة أرمينية الصغرى في كليكية ، فقد أعطاه طوروس ابنته زوجة له ، ومن ثم

انجب منها الابنة التي اخذها الملك رتشارد ، وحملها فيما بعد الى ماوراء البحار ، بعد الاستيلاء على جزيرة قبرص .

وكما حدثتكم من قبل عندما جلب الحجاج ليمثلوا أمام اسحق ، أمر بعرضهم جميعا على السيف وأن تقطع رؤوسهم ، وقد وسم بعمله هذا بالاسراف بالقسوة ، فهو قد أمر بقتل أناس لم يسيئوا إليه أبدا ، ولم يأتوا للعمل ضده ، انما جاءوا في سبيل الرب ، ولكي يثأروا للعار الذي الحقه بهم المسلمون ، فواجهوا قسوة كبرى عند هؤلاء الذين يسمون أنفسهم مسيحيين وهي قسوة ماكانوا ليواجهوها عند مجرمي المسلمين .

١١٢ ـ وعاد القبارصة الذين بعثهم اسحق ليخبروه بوصول ملكة صقلية ، وأنها جاءت وبنيتها الالتحاق بأخيها الملك رتشارد ، أي السفر الى سورية ، وكان اسحق يكره اللاتين كراهية عظيمة ، لهذا خطط لعمل خياني ومكيدة ضد ملكة صقلية واتباعها ، فبعث بوفد من لدنه الى هذه السيدة ليتوسل اليها ويدعوها للنزول في قبرص والاقامة فيها بضيافته الكريمة ، ولتعش برعايته حتى يحصل لها على أخبار اخيها ، وتشاورت الملكة مع رجالها ، وبعد ذلك قالت لرسل اسحق بأنها تشكر سيدهم على مبادرته الكريمة ، وأنها لاتجرؤ على النزول الى اليابسة بدون اذن من أخيها الملك وأمر مباشر منه ، وعاد الرسل القبارصة الى سيدهم واعلموه بجواب الملكة ، وأنها قالت لهم كل ما ترجوه هو تزويد رجالها بالماء .

واستمع اسحق لهذا الجواب ثم أمر رجاله بتقديم الماء الى ركاب سفينة الملكة ، ثم تصرف بحذر شديد ، وخطط للاستيلاء على السفينة بالقوة ، غير أن رجال السفينة انتبهوا لمكيدة اسحق وخيانته فاخذوا حذرهم ورفعوا مرساة سفينتهم ، ثم نشروا اشرعتها ومن ثم اقلعوا فابتعدوا الى عرض البحر ، وفي اليوم

التالي التقوا بأخي الملكة الملك رتشارد ، الذي فرح بهم فرحا عظيما .

١١٣ ــ في تلك الآونة التي أحدثكم عنها كانت هناك ثلاث سفن محملة بالحجاج الذين جاءوا لنجدة مملكة القدس وقد خيل لهؤلاء الحجاج عندما وصلوا الى قبرص انهم قد سلموا من مخاطر البحر ، وأنهم باتوا بأمان عظيم ، لكن العكس هو الذي كان ، حيث تعرضوا لخطر جسيم أعظم حين قام قراصنة قبرص بالاستيلاء على سفنهم وقادوهم بقسوة وعنف الى اسحق الذي كان يكره اللاتين كثيرا ، وكان اسحق قد ارتبط بالزواج مع طوروس ملك مملكة أرمينية الصغرى في كليكية فقد أعطاه طوروس ابنته زوجة له ، ومن ثم انجب منها الابنة التي أخذها الملك رتشارد وحملها فيما بعد الى ماوراء البحار وذلك بعد الاستيلاء على قبرص .

وعندما أصدر اسحق اوامره بقتل الحجاج اقتادهم القراصنة لتنفيذ ذلك ، وكان هناك في خدمة اسحق فارس من أصل نورماندي اسمه سوديو اسحق ، وقد تأثر بقلبه للمصير الذي سيؤول اليه الحجاج وحزن عليهم وأشفق كثيرا لأنهم لم يقترفوا ذنبا يستحقون عليه الموت بهذه الطريقة القاسية ، فما كان منه الا أن حمل سلاحه باسم الرب ، وقرر التخلي عن جسده حبا بالخالق والشهادة ، وفضل أن يموت هو على أن يهلك جميع الحجاج ، وهكذا جاء الى المكان الذي كان من المفترض أن تقطع فيه رؤوس الحجاج والزوار ، وأمر الذين أوكل اليهم أمر تنفيذ الاعدامات التي أمر بها اسحق ، بالتوقف وعدم تنفيذ أي شيء وخيل لهؤلاء أنه قد أرسل من قبل سيدهم ، ولذلك صدقوه لأنه كان من اتباعه المقربين اليه ، فاقلعوا عن الفتك بالحجاج ، وقال هذا الفارس الذي رغب في أن يتمكن من انقاذ الحجاج من الموت المحقق ــ للحجاج ان عليهم الفرار والاختباء في الجزيرة حيث يلهمهم الرب وييسر لهم ، وتوسل اليهم أن يتضرعوا الى الرب حتى يمنحه السلام والقوة ، فهو كان يعلم جيدا أن الاجساد ستقدم

الحجاج من الموت المحقق للحجاج ان عليهم الفرار والاختباء في الجزيرة حيث يلهمهم الرب وييسر لهم وتوسل اليهم أن يصلوا للرب من أجل نفسه وسلامة روحه ، لانه كان يعرف معرفة يقينية أن جسمانه سيقدم للشهادة وانه بات عرضة للقتل بسبب انقاذه لهم ، وظلوا على هذه الحالة حتى وصل الرب لنجدتهم ، وثار لهم بوساطة الملك رتشارد كما سنشرح لكم ذلك فيما بعد .

١١٥ - وعندما علم اسحق أن الفارس قد تصرف ضد أوامره ، وأنقذ الحجاج من السيف ، أمر بقطع رأسه ، وبالحال نفذ أمره ، ذلك ان الاغريق حاصروا الحجاج الفرنجة ، واعتقدوا أنهم يرضون الرب ويسرونه عندما يقتلون لاتينيا .

١١٦ - وبعد هذا الحادث خاف اسحق كثيرا وخشي من قدوم الملك رتشارد ، وسبب خشيته الاعمال السيئة التي اقترفها بحق المسيحيين بجزيرة قبرص ، وهكذا جاء بالحال الى مدينة ليماسول وحصنها بجنود من الرجالة وجنود من الفرسان ، وأمر باليقظة والتشديد في حراسة الشاطىء وأمر جنده بالتمركز امام الشاطىء وأوعز اليهم أنهم ما أن يروا السفن الحربية حتى ينذروه .

وبعدما فر اسحق من القتال تولى هاربا في الارض وهنا امر الملك بتنزيل الحمولات من على ظهور خيوله ، وهكذا بعدما خفف من اثقاله ، استأنف مجددا مطاردة اسحق وجنوده في السهول والجبال ، وقد لحق باسحق وجنده في الجبال ، وهناك هزمهم مرة أخرى قرب قناة تدعى كولوس ، وعندما وجد اسحق نفسه قد هزم مجددا تابع فراره وسط الجبال حيث لم يجد الماء ولم يحصل على المساعدة في المناطق الاخرى من الجزيرة ، ولم يجد مكانا يعتصم فيه ويأمن به من سطوة الملك.ومع هذا حشد قواته من اللصوص الارمن والقرصان ورجال الجزيرة ليعاود الهجوم على الملك رتشارد ويطرده بالقوة من الجزيرة ، ولكن الرب جاء بالملك رتشارد الطيب الى هناك ليزرع عقيدة روما فيها لانها العقيدة الجيدة وليقتلع أعمال

القراصنة ويعم رحمته ، وزحف الملك ضد قلعة كيرينس واستولى عليها فورا ، ووجد فيها ابنة اسحق مع ثروة عظيمة ومال كثير فاستولى عليه ، ثم جاد به ووزعه كرما منه على رجاله .

وبعد هذا : كله اطمأن الملك وشرع بترميم اسطوله وتدعيمه .

وحشد اسحق كل رجاله وجميع الذين كانوا تحت سيادته ، وتمركز بين نيقوسيا وفيماغوستا ، وهناك انتظر الملك رتشارد ليثأر منه اذا استطاع ، ولكن العناية الربانية والمساعدة السماوية التي لاتخيب ذويها أعطت القوة والدعم الى الملك رتشارد حتى تمكن من هزيمة اسحق وجميع رجاله الفرسان ، وعندما رأى الملك اسحق انه قد انهزم وهلك رجاله جميعا ، ولم تبق له سلطة في قبرص ولاقدرة للوقوف ضد الملك حاول جاهدا ان يؤمن نفسه ويصون ذاته في قلعة محصنة اسمها بوفوفنت ، لكن الملك توجه نحو هذه القلعة قبله ووصلها واستولى عليها وعلى ماكان داخلها ، وهكذا أخضع ملك انكلترا بمساعدة من الرب جميع سادة قبرص ووضعهم تحت سلطانه وحكمه ، وأعاد الجزيرة الى حظيرة الكنيسة الرومانية ، ومن ثم بات الن رئيسا لاساقفة نيقوسيا،وذلك بعدما كان راعي دير القديس جرجس في رامس .

كيف سافر ملك انكلترا من قبرص وتوجه لحصار عكا :

بعدما هزم الملك رتشارد اسحق واستولى على جزيرة قبرص وانقذها من حكم قراصنة اسحق ، ذهب الى ليماسول ، وهناك كانت أخته والفتاة التي أرسلتها أمه ليتزوجها ، وحال وصوله الى المدينة تزوجها في كنيسة القديس جورج ، ثم جهز اسطوله وسافر من هناك في البحر ومعه جنده حتى وصل امام مدينة عكا ، وأحضر معه اسحق وابنته .

- ٣٩١٢ -

للمسلمين ، وكان في داخلها ثعابين حية كثيرة جدا ، أراد ارسـالها الى جيش المسيحيين كي ترهبهم وتسممهم ، وتوجه ركابهـا نحـو الصليبيين وحاربوا بشدة ، غير أن مولانا أعطى في النهـاية شرف النصر الى ملك انكلترا ، وغرقت السفينة وهلك من كان فيها .

وعندما رأى اسحق نفسه انه انهزم وهلك رجاله جميعا ، ولم تبق له سلطة في قبرص ولاقدرة علي الوقوف ضد الملك رتشارد ، حاول أن يؤمن نفسه ويصون ذاته في قلعة محصنة اسمها بوفوفنت ، غير ان الملك قصد هذه القلعة ووصلها قبله فاستولى عليها وعلى ماكان في داخلها ، وهكذا اخضع ملك انكلترا بمعونة من الرب جميع سادة قبرص ووضعهم تحت سلطانه وحكمه ، واقام فيها العقيدة اللاتينية ، فعين الن رئيسا لاساقفة نيقوسيا ، وكان من قبل راعي دير القديس جرجس في رامس .

١١٩ ـ وبعدما هزم الملك رتشارد اسحق ، واستولى على جزيرة قبرص وانقذها من حكم قراصنة اسحق ، ذهب الى ليماسول ، وهناك كانت اخته والفتاة التي ارسلتها امه ليتزوج منها ، وبعيد وصوله الى مدينة ليماسول تزوجها في كنيسة القديس جورج ، ثم جهز اسطوله وسافر من هناك في البحر ومعه جنده حتى وصل الى امام مدينة عكا ، وقد احضر معه اسحق وابنته .

وفرح ملك فرنسا بقدومه فرحا عظيما ، وكذلك فعل جميع الذين كانوا امام عكا ، وبالمقابل انزعج المسلمون وتألموا ، واستقبل رتشارد استقبالا حافلا من قبل قادة الفرنجة الذين كانوا امام عكا ، وقد خف ملك فرنسا لاستقباله لدى نزوله على الشاطيء ، ونزل الملك رتشارد الى اليابسة وانزل معه زوجته ، وعندما اكتشف ملك فرنسا امر زواج رتشارد غضب غضبا شديدا ، وانزعج من الملك رتشارد لانه تزوج من بيرنيرا اخت ملك نافار ، ولم يف بتعهده بالزواج من اخت ملك فرنسا .

١٢٠ ـ وبعد وصول الملك ريتشارد الى عكا ، احضر صلاح الدين سفينة كبيرة من مصر ، وكانت مشحونة بالرجال المسلحين والمدعومين بالمال والعتاد ، وقدمت هذه السفينة بهدف تقديم العون المسلمين ولالحاق الضرر بالمسيحيين ، وجاءت هذه لتقديم النجدة للمسلمين ، وكان في داخلها ثعابين وافاعي حية كثيرة لتسريحها

وتأثر ملك فرنسا مما حدث كثيرا ، وقام وهو في حالة من الغضب الشديد باعطاء الاوامر الى رجاله بحمل اسلحتهم لمهاجمة ملك انكلترا الذي لم يأبه بالامان الذي اعطاه للمسلمين .

كيف سلم المسلمون عكا الى رجالنا :

وتصالح ملكا انكلترا وفرنسا ، ثم قاما معا بمهاجمة المدينة بكل قوة ، وشعر المسلمون الذين كانوا في داخلها ، لا بل أدركوا تمام الادراك أنهم لن يستطيعوا متابعة المقاومة ، ولهذا كتبوا الى صلاح الدين يطلبون انجادهم ، وإلا فسيضطرون الى تسليم المدينة ، وأجابهم صلاح الدين بأن عليهم التصرف وفق أفضل الشروط الممكنة ، وعندما سمع الأمير قراقوش الذي كان سيد المدينة ، بهذا ، بعث الى الملكين يطلب التباحث معهما ، ووافقا على ذلك ، لكن بحذر .

وخرج قراقوش من المدينة وتوجه الى خيمة ملك فرنسا ، فهناك كان مجتمعا به ملك انكلترا وبقية البارونات ، وأعلمهم أنه على استعداد لتسليمهم مدينة عكا بكل طيبة خاطر ، مقابل سلامة حياته وحياة المسلمين الذين في داخل المدينة ، يضاف الى هذا أن صلاح الدين سيعيد اليهم الصليب المقدس الذي فقده المسيحيون يوم قرني حطين ، عندما هزم الملك غي ، وأسر ، وسيطلق أيضا سراح الذين في سجنه من الأسرى ، ويدعهم يذهبون بسلام ، وإذا لم ينفذ صلاح الدين ما أعدكم به ، سنبقى تحت رحمة سلطانكم ونعيش كعبيد لكم .

ووافق الملكان على اقتراح قراقوش ، وهكذا سلم المسلمون المدينة للمسيحيين وكان ذلك في الحادي عشر من آذار من سنة ١١٩١ لتجسيد يسوع المسيح ، وابتهج المسيحيون كثيرا ، ودخلوا الى المدينة شاكرين الرب الذي حرر مدينة عكا من أيدي المسلمين .

اعادة ترتيب الأوضاع :

وبعدما سلمت المدينة الى المسيحيين خاطب ملكا فرنسا وانكلترا رجال الجيش ، وأصدرا الاوامر بأن يتمركز الجيش بالمدينة وفيها يقيم ، وأقام ملك فرنسا في القلعة أما ملك انكلترا فقد نزل بدار الداوية ، ونزل بقية الفرسان في بيوت أعيان أهل عكا الذين كانوا فيها قبل صلاح الدين ، وعندما قصد هؤلاء الاعيان بيوتهم للاقامة بها ، منعهم الفرسان الذين استولوا عليها وأقاموا فيها ، وهنا ذهب هؤلاء الأعيان الى ملك فرنسا ، ورفعوا اليه ظلامتهم ، والتمسوا منه مساعدتهم في استرداد ميراثهم وملكياتهم ، لان المسلمين كانوا قد انتزعوها منهم بالقوة وقالوا له : « قد متم يا مولاي لاسترداد مملكة القدس ، ومن غير المعقول أن تحرمونا من ممتلكاتنا ، ذلك أن الفرسان قد احتلوا بيوتنا ، ويقولون انهم استولوا عليها من المسلمين ».

ومنح الامان للمسلمين ، واصطحبهم حتى المدينة ، وأعطاهم مهلة ، وأوصاهم بأن يدافعوا عن حقهم وانفسهم ، وقام ملك فرنسا وهو في حالة من الغضب الشديد باصدار الأوامر الى رجاله بأن يتسلحوا ليذهبوا معه لمهاجمة ملك انكلترا .

وكان مثل هذا الخلاف قد حدث من قبل ، ولولا تدخل البارونات ووساطتهم في ازالة الغضب وتهدئة الخواطر لوقع ضرر كبير بين المسيحيين نتيجة لهذا الخلاف .

ودخل المسلمون الى المدينة ، ودافعوا عن أنفسهم ضد رتشارد بكل قوة ، فلم يستطع الانتصار عليهم ، بل إنه خسر كثيرا من رجاله .

١٢٣ ـ وبعدما تصالح ملكا فرنسا وانكلترا ، قاما بمهاجمة

واحدا من المسيحيين حسب رتبته ، وعندما حل يوم تنفيذ ما وعد به بعث الى المسيحيين يطلب منهم امهاله الى يوم آخر ، لأنه لم يتح له احضار ما تــوجب عليه احضـــاره ، وأعطـــاه رجـــالنا المهلة المطلوبة ، ذلك انهم كانوا يعدون حصــولهم على الصــليب المقــدس انجازا رائعا ، وكذلك تحريرهم للأسرى الذين كانوا في سجونه .

وعندما حل الموعد المتفق عليه فيما بينهم استعد الملكان والفرسان جميعا ورجـــال الجيش والاســـاقفة والرهبـــان ورجـــال الاكليروس ، وارتدوا أفخر ما لديهم من ملابس وخرجوا جميعا من المدينة بخشوع تام وتقوى عظيمة ، وساروا الى المكان الذي حــدده لهم صلاح الدين ، وعندمــا وصــلوا الى هناك كانوا يعتقــدون أن صلاح الدين سيعيد اليهم صــليب الصــلبوت ، غير أنه أخلف وعده معهم .

وغضب ملكا فرنسا وانكلترا لذلك غضبا شديدا ، وشــعر الناس من المسيحيين بآلام عظيمة في قلوبهم ونفوسهم ، وذرفــوا الدمــوع الغزيرة طيلة الأيام التالية •

قدمتم لاسترداد مملكة القدس ، ومن غير المعقول أن تحرمونا من ممتلكاتنا ، ذلك أن الفــرسان قــد احتلوا بيوتنا ، ويقــولون انهــم استولوا عليها من المسلمين .

وبعث ملك فرنسا يطلب ملك انكلترا وبقية البــارونات للاجتمــاع معا ، وبعدما التأم الجمع توجه ملك فرنسا بــالخطاب الى الســادة الذين طالبوا باعادة بيوتهم وممتلكاتهــم اليهــم قـــائلا :« أيهـــا السادة ، نحــن لم نأت أبــدا لاحتــلال أراضي أو أمـــلاك أو بيوت الآخرين ، إننا قدمنا من أجل الرب وفي سبيله ، ولتقديم المســاعدة لجيوشنا ولاسترداد مملكة القــدس التــي اغتصـــبها المســـلمون وانتــزعوها مـــن المســـيحيين ، واعادة ممتلكات المســـيحيين

اليهم ، ويبدو لي أنه كان من المناسب فعل ذلك بعدما منحنا الرب السلطان والقدرة على احتلال المدينة ، ولقد كان من الواجب القيام بذلك ، إن هذا ما أراه وأقترحه إذا كنتم توافقون »

ووافق ملك انكلترا والبارونات الآخرون على ما اقترحه ملك فرنسا ، وقالوا :إن كل من يبرهن على أن ما حصل هو ملكه وحقه يسمح له بالبقاء به ، ثم أصدروا الأوامر للفرسان باخلاء البيوت التي استولوا عليها واعادتها الى أصحابها .

١٢٥ ـ وبعد تسليم عكا ، وعد صلاح الدين كل من ملكي فرنسا وانكلترا باعادة الصليب المقدس الى المسيحيين ، وأن يعطي مقابل كل واحد من المسلمين واحدا من المسيحيين حسب رتبته ، وعندما حل يوم تنفيذ ما وعد به بعث الى المسيحيين يطلب منهم امهاله الى يوم آخر ، لأنه لم يتمكن بعد من احضار ما توجب عليه احضاره . وأعطاه رجالنا المهلة المطلوبة ، ذلك أنهم كانوا يعدون حصولهم على صليب الصلبوت المقدس انجازا عظيما ومفخرة كبيرة ، وكذلك نظروا الى تحريرهم للأسرى الذين كانوا في سجونه .

وعندما حل الموعد المتفق عليه فيما بينهم ، استعد الملكان والفرسان جميعا ورجال الجيش والأساقفة والرهبان ورجال الاكليروس ، وارتدوا أفخر ما لديهم من ملابس ، وخرجوا جميعا من المدينة بخشوع تام وتقوى عظيمة ، وساروا الى المكان الذي حدده لهم صلاح الدين وعندما وصلوا الى هناك ، كانوا يعتقدون أن صلاح الدين سيعيد اليهم صليب الصلبوت غير أنه أخلف وعده معهم .

وغضب ملكا فرنسا وانكلترا لذلك غضبا شديدا ، وشعر الناس من المسيحيين بآلام عظيمة في قلوبهم ونفوسهم ، وذرفوا الدموع الغزيرة طيلة الأيام التالية ، وعندما شاهد الملك ريتشارد الشعب

وساروا الى المكان الذي حدده لهم صلاح الدين ، وعندما وصلوا الى هناك كانوا يعتقدون أن صلاح الدين سيعيد اليهم صليب الصلبوت غير انه أخلف وعده معهم .

وغضب ملكا فرنسا وانكلترا لذلك غضبا شديدا ، وشعر الناس من المسيحيين بآلام عظيمة في قلوبهم ونفوسهم ، وذرفوا الدموع الغزيرة طيلة الأيام التالية .

وخاف صلاح الدين كثيرا عندما رأى ماحدث ، وخشي من أن يتمكن الفرنجة من استعادة مملكة القدس ، ثم أنه تحرك من هناك ، وقصد مدينة عسقلان ، وقام هناك بخوض الحرب ، ولقد خاف صلاح الدين من استيلاء المسيحيين على عسقلان ، لان هذه المدينة كانت واقعة على الشاطىء ، فاذا مااستولوا عليها وحصنوها ، توجب عليه الذهاب الى مصر عبر طريق آخر غير طريق غزة ، الذي كان أقصر طريق وأسهله للسفر من سورية الى مصر .

١٢٦ ــ وعندما شاهد الملك رتشارد الشعب يبكي لاخلاف صلاح الدين بوعده ، ثار غضبه ، واشفق عليهم كثيرا ، واراد أن يخفف من آلامهم واحزانهم ، فأمر باحضار المسلمين الذين كان قد أودعهم في سجنه ، وقام على مرأى من المسلمين الذين كانوا على مقربة منه باعدامهم وقطع رؤوسهم .

١٢٧ ــ وبعد وقت قصير أصيب الكونت دي فلاندرز بمرض خطير ، وهو المرض الذي مات منه (حزيران ١١٩١) وقبل موته أرسل الى ملك فرنسا وطلب منه أن يأتي اليه واستجاب هذا الملك وقدم لعيادته وقد تحدثا معا ، واعلمه الكونت أن عليه الاحتراس الشديد ، وأن يكثر من الحذر لأن في الجيش عناصر اقسمت الأيمان على التخلص منه وقتله ، واهتم الملك بهذا الكلام ، وحصره في دخيلته ، وغضب كثيرا ، وخاف حتى أنه أصيب من جراء ذلك بمرض شديد ، سيتوفى بعد أمد من جرائه .

وفي أثناء مرض ملك فرنسا عمل الملك رتشارد على حبك مؤامرة خيانية كبيرة ، فقد أراد قتل ملك فرنسا دون أن يبدو أن له يد بذلك ، لكن الملك رتشارد شعر أنه مذنب بحق الملك الفرنسي ، فقد أساء اليه كثيرا وأذنب بحقه مثل زواجه من بيرنيرا أخت ملك نافار ، ثم محاولاته اجتذاب رجاله اليه بالعطايا والوعود المختلفة مع ازعاجات أخرى سببها له أثناء حصار عكا ، ولهذا ندم الملك رتشارد كثيرا .

وحين عزم الملك رتشارد (إقرأ : فيليب) على السفر دعا كل من دوق بورغونيا ووليم دي باراس وكل من كان في حاشيته ، ونظرا لولائهم له ، طلب منهم اعلامه عما اذا كان لديهم أخبار عن موت لويس ابن ملك فرنسا ، فاذا كان ، يجب عليهم اطلاعه عليها ، فقال له دوق بورغونيا : « مولاي منذ أن قدمت لحصار عكا لم يأت مركب من بلاد ماوراء البحار لينقل مثل هذا الخبر » ، ولقد أراد ملك انكلترا اشاعة هذا الخبر ليزيد من ازعاج ملك فرنسا في مرضه ، ولدى اطلاع ملك فرنسا على تفاصيل هذا التصرف ، لم يظهر ذلك ، بل استدعى بعض الحكماء ومنحهم أشياء ثمينة ليضعوا حدا لمرضه وليعملوا من أجل شفائه ، وعمل هؤلاء وفق طلبه ، وأعطاه الرب النعمة واستجيب لطلبه بالشفاء

كيف عاد ملك فرنسا .

عندما شفي ملك فرنسا من مرضه أمر بتجهيز سفنه من أجل العودة الى بلاده ، واستدعى اليه دوق بورغونيا وجميع فرسان فرنسا ، وأمرهم أن يكونوا تحت إمرة هذا الدوق ، ثم منحه شطرا كبيرا من خزينته ، وأمره أن يتخلف ويأخذ مكانه .

ثم صعد الى سفينة ومن ثم أقلع باسطوله لعبور البحر ، وعندما وصل الى خليج ساتاليا هاجت عاصفة في البحر دامت يوما

أن قاموا بتحصين عكا ، ثم شحنوا السفن بالعتاد وأرسلوها الى يافا ، ثم سافر الجيش برا ، وتقرر أن يكون ملك انكلترا والكونت همفري في المقدمة ، ودوق دي بورغونيا ، وجاك دي أفانس في الساقة .

وعندما علم صلاح الدين بنواياهم ومقاصدهم ، جمع قواته كلها ليناوش هؤلاء وليعيق تقدمهم وليحبط خططهم ، وسار بقواته خلفهم وكان يغير عليهم من اليمين ومن الشمال ويضيق عليهم بجنوده ، وقد هاجمهم بالنشاب ، هذا وعندما جاءوا لعبور نهر القصب سلح الملك الساقة تسليحا جيدا ، ونشر قواته ثم صفها وعبأها تعبئة القتال ، وبعد هذا وجه قواته ضد صلاح الدين فصدها وألحق بها الهزيمة ، ومع هذا مات كثير من الطرفين ، وكان من بين القتلى جاك دي أفن وعدد كبير اخر من الفرسان ، المهم تكبد المسيحيون خسائر كبيرة ، ولكن بمعونة يسوع المسيح خرج المسيحيون من المعركة أفضل حالا من خصومهم

وتراجع صلاح الدين مع الدين نجو من المعركة من أصحابه الى الوراء ، وتوجهت قواتنا الى بيت نوبة وهو واد بين يافا والقدس ، وعسكروا هناك لتمضية الليل ، وأمروا بأن يتولى الملك رتشارد قيادة المؤخرة ، وأن يتولى دوق بورغونيا المقدمة ، وذهب كل منهما الى قاعدته .

وعندما رأى دوق بورغونيا ماحدث ، وبعدما إستقر في موقعه ، استدعى للاجتماع به رجالات فرنسا الذين كانوا يحبون كثيرا التا ، الملكي ، وتوجه اليهم قائلا :" ايها السادة ، أنتم تعلمون أن مولانا ملك فرنسا قد ذهب وبقيت نخبة فرسانه ، بينما ليس مع ملك انكلترا سوى قلة من الجند ، وهاهم أمامنا ، فاذا ذهبنا قبلهم واستولينا على القدس ، لن يكون بمقدورهم أن يقولوا فيما بعد لم يكن هناك فرنسيون ، ثم أن يقولوا ايضا : لقد استولى ملك انكلترا عليها ، أما ملك فرنسا فقد فر هاربا ، فبسبب ذلك

تلطيخ سمعة الملك وسمعة المملكة بالعار ، وانتم تعلمون أنه لم يسبق لأحد أن وجه الملامة لفرنسا ، لذلك يجب أن نذهب قبلهم » ، ووافق بعضهم على رغبته ، ولم يوافق بعضهم الآخر ، وحينذاك قال لهم الدوق :« من أراد أن يتبعني فليفعل »، وأما بالنسبة لملك انكلترا الذي لم يعرف شيئا عن هذا المؤتمر ، فقد استعد في اليوم التالي ، وزحف باتجاه القدس ، أما دوق بورغونيا فقد سلح الفرنسيين .

وقصد صاحب الكرسي الرسولي وهناك تحدث عن الأخطاء التي اقترفها الجيش الذي كان في ارض القدس ، ثم انه اسرع في الذهاب حتى لايتسلم أحد امارة فلاندرز ، لأن الكونت فيليب دي فلاندرز قد توفي وباتت الامارة خالية .

١٣١ ـ وسنتحدث الآن عن ملك فرنسا ، كما وسنتحدث عن ملك انكلترا وعن باروناته الذين مكثوا هناك فقد أعلم ملك انكلترا ان المسلمين قد اخلوا مدينة القدس، وأن الفرصة التي توفرت له ممتازة ، فهو يستطيع الآن الاستيلاء عليها دون قتال أو مقاومة ، وأطلع الملك دوق بورغونيا وبارونات الجيش على ذلك ، واجتمعوا للتداول حول المسألة وقرروا في الاجتماع أن يذهبوا الى تحصين مدينة عكا ، ثم حملوا الاعتدة على السفن وأرسلوها الى يافا ، ثم اقتسموا الوظائف والأدوار ، اي اتفقوا على من سيقود المؤخرة وعلى من سيكون في المقدمة ، وتقرر أن يتولى الملك رتشارد ومعه الكونت ايمري المقدمة ، وأن يقف دوق بورغونيا وجاك دي أفانس في المؤخرة .

وعندما سمع صلاح الدين أنهم على نية قصد هذه المناطق ، جمع قواته كلها ، وحاول أن يمنع المسيحيين من الذهاب الى يافا ، وطاردهم من الخلف ، وهاجمهم من اليمين ومن اليسار ، وقمعهم بجنوده وأطلق عليهم الحراب والسهام من جميع الجهات ، وكان عدد الجنود كبيرا ، وحين جاءوا لعبور نهر القصب

وعندما أصبح الملك هناك رأى مدينة القدس المقدسة ، فنزل لكي يؤدي صلواته فهذا مايقوم به جميع الحجاج الذين يقصدون القـدس فهناك يصلون ومن هناك يمكن رؤية الهيكل والضريح المقدس .

وبعدما أدى الملك صلواته وصلته رسالة من قبـل احـد اصـدقاء الجيش تقـول أن دوق بـورغونيا وصـل الى عكا وكذلك عاد غالبية الفرنسيين الى عكا ، وعندما سمع الملك أن الدوق قد عاد ، غضـب غضبا شديدا ، وعاد فورا الى يافا .

وعندما وصل دوق بورغونيا الى عكا ، لم يتجول بهـا بـل تـوفي ودفن في مقبرة القديس نيقولا ولقد الحق مؤتمره ومـا قام بـه ضررا عظيما بالمسيحيين ، ولولا خـلافه مـع الملك بشـأن الذهـاب الى القدس ، لتمكنت حملة ملك انكلترا من الاستيلاء على القدس وعلى جميع أراضي المملكة ، وأغلق ملك انكلتـرا يافـا وقـام بتحصـينها وشحنها بالرجال المسلحين وبالعتاد ثم ارتحل قاصدا مدينة عكا

كيف استولى فرسان الداوية على جزيرة قبرص ثم تخلوا عنها :

بعدما استولى ملك انكلترا على جـزيرة قبـرص وبـات سيدها باعها الى الداوية بمبلغ مائة ألف دينار اسـلامي ، وبعـدما استولى رجال الداوية على جزيرة قبرص أرادوا أن يعاملوا سـكان قبرص مثل معاملتهم لسـكان اقـطاعية قلعـة مـن أراضي القدس ، وأرادوا أن يجبروا سكان الجزيرة على الحضـوع لحـكم وارادة عشرين من رهبان الداوية ، وعندما رأى القبارصة مايلحقهم من أذى ومساوىء ، فضلا عن أنهم كانوا يكرهون اسيادهم هؤلاء ويتألمون كثيرا لزيادتهم ثرواتهم ، لم يعـودوا قـادرين على تحمـل الأعباء التي أثقلهم بها رجال الداوية ، لذلك هبوا ضدهم ورحفـوا

لحصارهم في قلعة نيقوسيا ، ولما رأى رجال الداوية حشدا كبيرا من الناس زحفوا لحصارهم انزعجوا كثيرا وخافوا ٠

ولما رأى فرسان الداوية أن القبارصة لن يشفقوا عليهم مع أنهم كانوا مسيحيين مثلهم ، وأنهم بالوقت نفسه لم يأتوا الى قبرص بجميع قواتهم ، عرفوا انهم سيعذبونهم ، حتى يخرجوهم من جزيرة قبرص ، فعرضوا عليهم الخروج عن طيبة خاطر ، لكن عندما رأى القبارصة أن فرسان الداوية قد تواضعوا أمامهم كثيرا تعجرفوا وركبوا رؤوسهم وقالوا : انهم لن يسمحوا لهم بالخروج، بل سينتقمون منهم ومن أهلهم ، ومن أصدقائهم لأن اللاتين حطموهم وقتلوهم ، وعندما رأى فرسان الداوية أن القبارصة لن يشفقوا عليهم مع أنهم ..

كيف يمكنه الحصول على المال والقروض ، فسأله الاسقف عن المدة المستوجب عليه فيها تسديد المبلغ ، فأجابه الملك أن عليه ان يسدد ثمنها خلال شهرين ، وبناء عليه ذهب الاسقف الى طرابلس واقترض من اعيان المدينة مبلغا من المال ، وما أن انقضى أول شهر حتى أحضر المال الى الملك غي ، فقام هذا بدوره فأعطاه الى ملك انكلترا حسب الاتفاق المعقود بينهما ، وأراد الذهاب الى جزيرة قبرص ، وهنا طالبه الملك رتشارد بالمبلغ المتبقي عليه وقدره أربعين الف دينار ، فطلب منه الملك أن يسامحه به ، لأنه كان فقيرا ، وليس لديه مال ، وكان رتشارد كريما فلم يطالبه بشيء فيما بعد .

...كانوا مسيحيين مثلهم ، وانهم بالوقت نفسه لم يأتوا الى قبرص بجميع قواتهم ، عرفوا أنهم سيعذبونهم حتى يخرجوهم من جزيرة قبرص ، فعرضوا عليهم الخروج عن طيبة خاطر ، ولكن عندما رأى القبارصة أن فرسان الداوية قد تواضعوا أمامهم كثيرا تعجرفوا وركبوا رؤوسهم ، وقالوا : إنهم لن يسمحوا لهم بالخروج ، بل سينتقمون منهم ومن ذويهم ومن أصدقائهم ، لأن اللاتين حطموهم وقتلوهم .

وعندما سمع الاخ ريذو بوكارت الذي كان مقدمهم والاخوة الفرسان الآخرون أن القبارصة ليس لديهم أدنى شفقة نحوهم ، توسلوا الى الرب وسلموا أمرهم له ، واعترفوا وتناولوا القربان المقدس ، وتسلحوا وخرجوا ضد القبارصة ، فأعطى الرب بعنايته النصر الى فرسان الداوية ، وهكذا هزموهم ، وقتلوا عددا كبيرا منهم ، كما أسروا بعضا آخر منهم ، وإثر هذا ذهبوا الى عكا وأطلعوا مقدم الداوية على تفاصيل ما حدث ، ثم تشاوروا فيما بينهم وتداولوا ، واخيرا اتفقوا على الا يتمسكوا بالجزيرة ، وان يعيدوها الى الملك رتشارد إذا أعاد إليهم القلعة التي أعطوه إياها .

١٣٤ ـ وقام الفارس روبرت دي سابلوي مقدم الداوية ورجالات الدير بالتوجه الى الملك رتشارد ، والتمسوا منه أن يعيد اليهم القلعة التي منحوه اياها ، وأن يسترد بالمقابل الجزيرة ، لأنها لم تكن ابدا المكان الذي يستطيعون التمسك به ، وقد تأثروا كثيرا من أعماق قلوبهم لانهم لا يستطيعون ، لا بل لا يجرؤون على التمسك بالجزيرة والاحتفاظ بها ، وعندما سمع الملك رغبتهم ، قرر تسلم الجزيرة منهم ، فطالبوه بالمال الذي أعطوه اياه ، فأجابهم هذا الملك بأنه لن يعيد المال اليهم مطلقا ، لأنه أخذ قلعتهم بثمن مرتفع مع انها لا تساوي نصف أو ربع السعر الذي دفعه .

ولما استرد الملك رتشارد جزيرة قبرص من فرسان الداوية ألحقها بمملكته ، وإثر ذلك جاء اليه الملك غي الذي بقي بدون إرث وبدون

مملكة ، وخاطب الملك رتشارد بقوله : « مـولاي ، انك تعلم بـأنني بدون ارث وبدون مملكة ، لذلك التمس منك أن تبيعني جزيرة قبرص بقدر ما بعتها لفرسان الداوية » ، ووافق الملك رتشارد ، وقـال انه راض ببيعها له بمثل ما بـاعها لفـرسان الداوية ، وفـرح الملك غي فرحا عظيما ، ومالبث أن تحـدث الى مسـتشاره بييردي أنفـويم أسقف طرابلس في ذلك الحين ، واعلمـه كيف انه اشـترى جـزيرة قبـرص ، ولكونهمـا صـديقان طلب منه أن يبين له كيف يمـكنه الحصول على المال أو من أين يمكن اقتراضه ، فساله : « ما هـي الفترة المتفق عليها لدفع هذا المال »؟ فأجابه : انه من المتوجب عليه أن يسدد ثمنها خلال شهرين ، فأجابه الاسقف انه خـلال شـهرين سيعينه الرب على ذلك ، ثم سافر الاسقف فـورا بـوساطة احـدى السفن الى مدينة طرابلس ، فاقترض مـن سـايس الذي كان مـن اعيان طرابلس ومن يوهـان دي لي موناي ومن اثرياء اخرين مبلغـا من المال ، وبعدما انقضى شهر على ذلك حمل هذا المال الى الملك غي فدفعه بدوره الى الملك رتشارد حسب الاتفاق المعقود بينهما.

وعندما قصد الملك قبرص للاستيلاء عليها ، اصطحب معـه عددا من فرسان المملكة الفقراء . وأرسـل الملك غي رسـالة الى صـلاح الدين يستشيره كيف يمكنه السيطرة على جـزيرة قبـرص ، ولدى تسلم صلاح الدين الرسالة منه قال انه لا يحب الملك غي ، ولكن بما انه طلب مشورته فسينصحه بكل أمانة ويقول له ما يملكه مـن آراء مفيدة له ، ثم التفت نحو الرسل قـائلا : « قـولوا للملك غي انه اذا اراد التملك في جزيرة قبرص فليضم الجزيرة كلها وليضعها بأكملها تحت سلطانه ». وعاد الرسل الى الملك غي وأعلموه بالذي نصح بـه صلاح الدين ، وبنصيحته أخذ ، فبعث برسله الى أرمينية وانطاكية وعكا معلنا أن كل من يود القدوم الى قبرص والسكن بها فسـيعطيه ما يحتاجه للعيش ، وهكذا ذهب الى قبرص الفرسان والسيرجانتية والفرنجة الذين جردهم المسلمون من ممتلكاتهم والنسـاء الأرامـل اللواتي فقدن أزواجهن ، والفتيات اللواتي فقدن آباءهن ، فـأعطى الملك لهؤلاء أراضي واسعة ، وكل من جاء اليه حصـل على مـارغب بالحصول عليه ، وتزوجت الارامل والفتيات اليتامى مـن الشـبان الذي قدموا الى الجزيرة ، وسـاعدهم الملك بمـا له ، وأعطى لكل فارس ثلاثة اقـطاعات ولكل واحـد مـن السـيرجانتية الخيالة اقـطاعين ، أمـا البقية الذين سـكنوا المدن فـأعطاهم أراضي واسعة ، ومنح كبيرة ، وقد وزع كل شيء حتى لم يبـق لديه الا مـا يكفي لعشرين من فـرسانه ، وهـكذا سـكن الملك غي جـزيرة قبرص ، ولو أن الامبراطور بولدوين فعل الشيء نفسه عندما سـكن القسـطنطينية ، لما كان فقـدها ، لكنه طمـع بحيازة كل شيء لنفسه ، فكان أن فقد حياته وكل البلاد .

ونهب الملك غي ليتسلم جزيرة قبرص ، ومن ثم ليقيم نفسه سيدا عليها ، فطالبه الملك رتشارد بمبلغ الاربعين ألف دينار المتبقي عليه ، وهنا التمس منه الملك غي أن يسامحه ويعفيه من دفع هذا المبلغ ، لما كان يعانيه من الفقر ، فضلا عن انه لم يرث شيئا من اهله ، والآن عندما بات ملكا لقبرص صار واحدا من رجاله ، ولهذا تمنى عليه أن يسقط عنه المطالبة بهذا المبلغ ، وكان الملك رتشارد كريما لذلك سامحه ولم يطالبه فيما بعد بشيء .

١٣٥ ــ وبعدما أعفى ملك انكلترا الملك غي من دفع مبلغ الاربعين ألف دينار ، ذهب الى قبرص واصطحب معه عددا من فرسان المملكة الفقراء ، ثم أرسل الملك غي رسالة الى صلاح الدين يستشيره كيف يمكنه السيطرة على جزيرة قبرص ، ولدى تسلم صلاح الدين الرسالة منه قال انه لا يحب الملك غي ، ولكن بما انه طلب مشورته فسينصحه بكل أمانة ، وسيقول له ما يملكه من آراء مفيدة له ، ثم التفت الى الرسل قائلا : « قولوا للملك غي أنه اذا اراد التملك في جزيرة قبرص فليضم الجزيرة كلها وليضعها بأكملها تحت سلطانه ، وعاد الرسل الى الملك غي وأعلموه بالذي نصح له صلاح الدين .

١٣٦ ــ وسأحدثكم الآن عما فعله الملك غي بعدما تسلم جزيرة قبرص ، فقد أرسل رسلا من قبله الى أرمينية والى انطاكية والى عكا والى كل البلدان معلنا : أنه كل من أراد القدوم الى قبرص للسكنى بها سيؤمن لهم كل سبل العيش فيها .

وعندما سمع الفرسان والسيرجانتية والفرنجة الذين جردهم المسلمون من ممتلكاتهم نداء الملك غي تحركوا وسافروا الى عنده ومعهم فتيات ويتامى كثيرون من أبناء البارونات والفرسان والجنود الذين ماتوا في سورية أو فقدوا فيها ، فأعطاهم الأمان وقدم اليهم المساعدات ، وكذلك أمن القبارصة الذين ثاروا على الداوية والحقهم بخدمته مثلهم مثل الفرسان الذين اصطحبهم معه .

وكذلك رعى البنائين والكتاب ، وهكذا بحمد الرب صاروا جميعا فرسانا وحماتا كبارا لجزيرة قبرص ، كما أنه زوج النســاء اللائي قدمن الى الجزيرة وأعطاهن من مــاله مســاعدة نالهــا كل مـــن تزوج»، وهكذا استقروا جميعا في قبرص بسلام .

لقــد منح أراضي الى كل هؤلاء والى الفــرسان والســيرجانتية الخيالة ، أما اهل المدن الذين ســكنوا الآن في المدن فقــد اعطــاهم اراضي وأشياء كثيرة ، وقد وزع كل شيء حتى أنه لم يبق من جزيرة قبرص الا ما يكفي لعشرين فــارسا جعلهـــم تحـــت ســـيطرته المباشرة ، وهـــكذا ســـكن الملك غي مـــع هؤلاء في جـــزيرة قبــرص ، واقــول لكم لو أن الامبــراطور بلدوين أســكن الناس في القسطنطينية مثلما فعل الملك غي في قبرص لما كان خسرهــا ، ولكنه مات لانه أراد الاحتفاظ بكل ما في الامبراطورية له شخصيا ، ولذلك فقد كل شيء ، ويقول المثل « من يحاول احتضان كل شيء يخسر كل شيء ».

كيف فتك الحشيشية بالماركيز :

وحدث أن وصلت سفينة من سفن تجــار المســلمين مــن بـــلاد الحشيشية الى مدينة صور ، وكان الماركيز هو سيد المدينة يتصرف فيها وفق هواه ، وهـــكذا بعــث بـــرجاله فـــاستولوا على السفينة ، وعندما علم مقدم الحشيشية بما حدث بعــث بــرسالة الى الماركيز تهدده بهــا ، وطلب منه اعادة مــاانتزعه مــن رجــاله والا فسيقتله ، فأجابه الماركيز بأنه لن يعيد شيئا أبــدا ، وعند ذلك طلب مقدم الحشيشية من اثنين من رجاله الذهاب الى مدينة صور ليقتــلا الماركيز ، فنفذا الأمر وارتحلا ، وعندما وصلا الى صـــور تــظاهرا انهما مسيحيين فقد لبسا لباسهم ، وقصد احدهما الماركيز وقصــد الآخر بالين الذي كان متــزوجا مــنالملكة مــاري ، والمقيمــة آنذاك بصور .

وحـــدث في احـــد الأيام أن ايزابيل زوجـــــة الماركيز كانت بالحمام ، ولم يشأ الماركيز تناول طعامه حتـى تعـود ، غير انهـا مكثت مدة طويلة بالحمام وهـو راغب بالاكل ، لذلك امتطى فرسه هـو وبعض الفرسان وذهب الى بيت رئيس الاساقفة دي بـوا فـ ليتناول الطعام معه ، غير انه عندما وصل اليه وجده قد تناول طعامه فقـال له : « مولاي الاسقف لقد جئت لتناول الطعام معكم ، ولكن بما أنكم قد تناولتم طعامكم فسأعود من حيث اتيت » وسر الاسقف بقـدومه ورجاه بالبقاء حتى يقدم له ما يأكله ، لكنه لم يقبل ، وأخذ الطـريق عائدا الى بيته ، وفيما هو في طريق العودة مر بطريق ضـيق ، واذا به برجلين وقفا على جـانبي الطـريق ، كل واحـد منهمـا على جانب ، وقد وقفا أمـامه ، وتقـدم واحـد منهمـا منه وناوله رسالة ، ومد الماركيز يده لتناول الرسالة ، فما كان من الآخر الا ان استل مدية هاجمه بها وطعنه عدة طعنات فأرداه قتيلا ، ولقد دفن في بيت فرسان الاسبتارية ، وحدث هذا في سنة ١١٩١ لتجسيد يسوع المسيح .

كيف تزوج الأمير هنري دي شـامبين سـن ايزابيل التي كانت زوجة الماركيز :

وسمع ملك انكلترا الذي كان مقيما في يافا أن فيليب ملك فـرنسا قد وصل الى بلاده .

١٣٧ ـ وسأحدثكم الآن عما قدم من قبرص التي قامت صـلات بينها وبين سورية وبلاد ما وراء البحـر ـ فقـد حـدث أن وصـلت سفينة عليها تجار من بلاد المسلمين ، ومن بلاد مقـدم الحشـيشية الى مدينة صور ، وكان الماركيز هو المتصرف بشؤون مدينة صـور والمتحكم بها ، ولذلك بعث رجاله فاستولوا على السفينة ، وعندمـا علم مقدم الحشيشية بما قام به الماركيز ، كتـب اليه يتهـدده وطلب منه اعادة ما انتزعه من رجاله واطلاق سراحهم والا سيقتله ، فـرد

عليه الماركيز بأنه لن يعيد اليه شيئا ، ثم راسله مقدم الحشيشية ثانية وكرر طلبه ، لكن الماركيز كرر الرفض ، وبناء عليه أصدر مقدم الحشيشية أوامره الى اثنين من رجاله للذهاب الى مدينة صور واغتيال الماركيز ، فنفذا الامر وارتحلا ، وعندما وصلا الى مدينة صور دخلاها وهما متظاهرين بانهما من المسيحيين ، فقد لبسا لباسهم ، وقصد أحدهما الماركيز وأما الآخر فقد قصد الى بالين الذي كان متزوجا من الملكة ماري ، التي كانت مقيمة في مدينة صور .

وحدث في أحد الأيام أن كانت ايزابيل زوجة الماركيز بالحمام ، ولم يرغب الماركيز بتناول طعامه حتى تعود ، غير أنها مكثت مدة طويلة بالحمام ، وبما أنه كان راغبا بالاكل فقد امتطى ظهر حصانه وقام برفقة بعض الفرسان بالذهاب الى بيت دي بواف رئيس اساقفة صور مستهدفا تناول الطعام منه ، لكنه عندما وصل اليه وجده قد تناول طعامه ، ومع هذا قال للأسقف :« مولاي الأسقف لقد جئت لاتناول الطعام معكم ، ولكن بما انكم قد تناولتم طعامكم فسأعود من حيث أتيت » ٠

وابتهج الاسقف بقدومه وترجاه بالبقاء حتى يقدم مايأكله ، لكنه لم يقبل ، ثم مالبث الماركيز أن أخذ الطريق عائدا الى بيته ، وفيما هو خارج من بوابة بيت رئيس اساقفة صور ، واذا به برجلين قد وقف كل واحد منهما على أحد الجانبين ، ثم تقدما منه ، وقام أحدهما بمناولته رسالة ، ومد الماركيز يده لتناول الرسالة ، فما كان من الآخر الا أن استل مدية ووثب عليه فطعنه بها عدة طعنات فأرداه قتيلا ، وجرى اعتقال القاتلين ، ثم حمل جثمان الماركيز حيث جرى دفنه في مقر فرسان الاسبتارية ، وقد حدث هذا في سنة ١١٩١ لتجسيد مولانا يسوع المسيح (الصحيح ٢٨ ـ نيسان ١١٩٢) .

١٣٨ ـ وكان ملك انكلترا مقيما في يافا ، وقد سمع تقارير وردت

من بلاد ماوراء البحار تفيد أن الملك فيليب ملك فرنسا قد عاد سالما الى مملكته ، ودخل الى فرنسا واستقر في غيسورت ، وهنا أراد ملك انكلترا الاستيلاء على كل البلاد والسيطرة عليها لنفسه ، فغادر يافا وقصد مدينة عكا ، ثم مالبث أن وصلت الاخبار تتحدث عن اغتيال الماركيز من قبل الحشيشية ووجهت أصابع الاتهام والملامة الى الملك رتشارد وقيل انه قتل الماركيز بالتآمر مع الحشيشية والاتفاق معهم .

واستقر في غيسورت ، وهنا أراد ملك انكلترا السيطرة على كل البلاد فغادر يافا الى عكا ، ومالبث ان وصلت الاخبار تتحدث عن اغتيال الماركيز من قبل الحشيشية ووجهت اصابع الاتهام والملامة الى الملك رتشارد .

وسرت اشاعات ان الملك رتشارد قد تآمر مع مقدم الحشيشية ليرسل رجاله للفتك بملك فرنسا ، ولاندري مدى صحة هذه الاخبار ، وقد اطلع ملك فرنسا على هذه المؤامرة ، فما كان منه بعدما سمع بذلك الا ان شدد الحراسة حول نفسه وهكذا لم يسمح لزمن طويل لرجل غريب أو أجنبي من الاقتراب منه .

ووجه آخرون الاتهام والملامة الى الملك غي بسبب الاهانة التي وجهت اليه عندما جاء ومعه الملكة سيبل من طرابلس ، ووقفا أمام مدينة صور فمنعهما الماركيز من الدخول اليها .

وعندما تأكد ملك انكلترا من صحة خبر وفاة الماركيز ، استدعى بارونات مملكة القدس للتشاور معهم بشأن مدينة صور ، واصطحب معه الكونت هنري ليزوجه من ايزابيل أرملة الماركيز ، وبعدما فاتحه الملك رتشارد بهذا الموضوع قال له الكونت : ان هذه السيدة التي تريد ان تزوجني منها حامل من الماركيز ، واذا ماولدت ولدا ذكرا فهو الذي سيرث المملكة ، ثم استطرد يقول : وسأكون وقتها مزعوجا من السيدة ، وأنت تعلم شخصيا السبب الذي يجعلني غير

قادر على الذهــاب الى شــامبين ، فقــال له الملك :« ســأعطيك كل مايلزم من مساعدة للذهاب الى شــامبين ، واعدك أيضا أنني إذا مامكنني الرب من الذهاب الى انكلترا ، سأجهز جيشــا اقــدم على راسه لأساعدك به على اعادة احتلال كل اجزاء المملكة مــع احتــلال بلدان اخرى أيضا ، وستتوفر لدي القدرات حين أعود ، فأتمكن من الاستيلاء على امبراطورية القسطنطينية ، وفي ذلك ستنال مســاعدة كبرى ، كما أنني سأمنحك جزيرة قبرص التي سبق لي الاســتيلاء عليها ، ذلك أن الملك غي لم يسدد لي مجمل ثمنها ، ومازال مدينا لي بمبلغ اربعين الفـ دينار ، وانني سأطارده وســألاحقه ، ولن يفلت أبدا من يدي حتى يعيد الي جزيرة قبرص ».

وبناء عليه وافــق الكونت هنري على الزواج المقتــرح مــــن السيدة ، واحتفل بزواجه مــن الســيدة (في الخــامس مـــن أيار سنة ١١٩٢ في مدينة صور) وقيل ان غالبية الشعب ونخبــة الناس في المملكة اقسموا متعهدين أنهم سيجعلون ذويه ، اي أبناءه ســادة القدس وملوكها ، وكان هـؤلاء الذين تعهدوا بهذا للكونت هنري ممن لم يتفاهم مع الماركيز ، ولم يرغبوا به ولابذريته .

وكان البيازنة الذين اقاموا في صور قد اشتكوا من الماركيز ، فقد كانوا قد اقرضوه أموالهم لشراء جــزيرة قبــرص ، لكن الماركيز لم يسدد لهم المال الذي استلفه منهم ، فمــا كان منهــم الا أن بعثــوا برسول خاص من قبلهــم الى الملك غي ليأتــي الى المملكة ليســلموه صور ، غير ان الملك رتشارد فاجأه ، لأن اغتيال الماركيز وقع يوم الثلاثاء ، وفي يوم الخميس تزوجت ايزابيل من الكونت ، وبناء عليه بعث الملك رتشــارد رســولا الى الملك غي ليحضره اليه ، ولكن الملك غي أعلم الرسول بتمنعه من الاستجابة والذهاب معه .

- ٣٩٤٦ -

كيف اغاث ملك انكلترا يافا التي هـاجمها صـلاح الدين وكاد ان يحتلها :

علم صلاح الدين أن الملك رتشارد قد سافر من يافا ووصـل الى عكا ، فما كان منه الا أن حشد قواته وحاصر يافا ، ونصب امامها المجانيق واخذ يقذفها ، وركز رمـاياته على القلعـة حتـى ان الذين كانوا في داخلها لم يعرفوا الراحة ليلا ولانهارا .

-٣٩٤٧-

وذكر أنه تعاون تعاونا تاما مع مقدم الحشيشية حتى يرسل بعض رجاله للفتك بملك فرنسا ، ولاندري مدى صحة هذا الخبر ، المهم أن ملك فرنسا قد اطلع على هذا الامر ، فما كان منه بعدما سمع بهذا الخبر حتى شدد الحراسة حول نفسه ، ولزمن طويل لم يسمح لرجل غريب أو أجنبي من الاقتراب منه .

ووجه اخرون الاتهام واللوم الى الملك غي للاهانة التي وجهت اليه عندما جاء ومعه الملكة سيبل من طرابلس ، ووقفا امام مدينة صور فمنعهما الماركيز من الدخول اليها

وعندما تأكد ملك انكلترا من صحة خبر وفاة الماركيز ، استدعى بارونات مملكة القدس للتشاور معهم بشأن مدينة صور واصطحب معه الكونت هنري ليزوجه من ايزابيل أرملة الماركيز ، وبعدما فاتحه الملك رتشارد بهذا الموضوع قال له الكونت :« ان السيدة هذه التي تريد ان تزوجني منها حامل من الماركيز ، واذا ولدت ولدا ذكرا فهو الذي سيرث المملكة ، ثم استطرد يقول : وسأكون وقتها مزعوجا من السيدة ، وأنت تعلم شخصيا السبب الذي يجعلني غير قادر على الذهاب الى شامبين ، فقال له الملك :« سأعطيك مايلزم من مساعدة للذهاب الى شامبين ، وأعدك أيضا اذا مكنني الرب من الذهاب الى انكلترا ، سأجهز جيشا أقدم على رأسه لأساعدك به على احتلال كل اجزاء المملكة واستردادها مع احتلال بلدان أخرى ايضا ، وستتوفر لدي القدرات حين أعود فأتمكن من الاستيلاء على امبراطورية القسطنطينية ، وفي ذلك ستنال مساعدة كبرى ، كما أنني سأمنحك جزيرة قبرص التي سبق واحتللتها ، ذلك أن الملك غي لم يسدد لي مجمل ثمنها ومازال مدينا لي بمبلغ اربعين الف دينار ، وانني سأطارده وسألاحقه ولن يفلت أبدا من يدي حتى يعيد الي جزيرة قبرص ».

ولهذا وافق الكونت هنري على الزواج المقترح ، واحتفل بزواجه من السيدة (في الخامس من أيار سنة ١١٩٢) وذلك في مدينة

صور) وقيل ان غالبية الشعب ونخبة الناس في المملكة أقسموا له متعهدين أنهم سيجعلون ذويه أي ابناءه سادة القدس وملوكها ، وكان هؤلاء الذين تعهدوا بهذا للكونت هنري ممن لم يتفاهم مع الماركيز ولم يرغبوا به ولا بذريته .

١٣٩ ـ وكان البيازنه الذين أقاموا في صور قد اشتكوا من الماركيز ، فقد كانوا قد أقرضوه أموالهم لشراء جزيرة قبرص ، لكن الماركيز لم يرد لهم المال الذي استلفه منهم ، فما كان منهم الا أن بعثوا برسول خاص الى الملك غي ليأتي الى المملكة ليسلموه صور .

غير ان الملك رتشارد فاجاه ، لأن قتل الماركيز وقع يوم الثلاثاء ويوم الخميس تزوجت ايزابيل من الكونت .

وعند ذلك بعثوا برسالة الى الملك رتشارد يخبروه فيها أن القلعة التي كان قد حصنها واقعة الآن تحت حصار صلاح الدين الشديد ، واستدعى الملك رتشارد الصليبيين وأعيان الرجال في عكا ، وأخبرهم أن صلاح الدين قائم على حصار قلعة يافا ، وأراد أن يعرف مدى رغبتهم واستعدادهم وارادتهم في تقديم المساعدة والنجدة ، فأجابوه جميعا أنهم على استعداد للسير معه في سبيل خدمة مصالح المسيحيين ، ثم اتفقوا فيما بينهم على أن يذهب الملك بحرا ، ويزحف الفرسان برا ، وقد سار على رأس المقدمة هيو صاحب طبرية وبلدوين صاحب بيسان ، وسار في المؤخرة بالين دي ابلين ، ووليم صاحب طبرية ، وترامى الى مسامع المسلمين بأن الملك رتشارد قادم لنجدة يافا ، فزادوا من ضغطهم على القلعة وشددوا الهجمات عليها ، وعندما رأى المحاصرون داخل القلعة انفسهم وقد اشتد عليهم الحصار ولامخرج أمامهم راسلوا صلاح الدين يعرضون عليه الاستسلام مقابل التأمين على حياتهم .

وكان صلاح الدين قد علم من مخبريه أن المسيحيين قادمين لنجدة يافا ، فشدد حصاره على القلعة وزاد ضغطه عليها حتى يستولي عليها قبل وصول المسيحيين ، وفيما هذا يحدث في يافا كان الملك رتشارد قد غادر عكا مساء ومعه سفنه فوصل الى يافا عند الفجر ، وعندما وصل الى المرفأ سمع صراخ الناس وضجة عظيمة ، فسأل رجلا كان واقفا فوق السور عما يجري ، فأجابه هذا الرجل : ان المسلمين قد استولوا على القلعة واقتادوا المسيحيين

الى السجون ، فاقسم يمينا بحق القديس جاك بأنه لن يسمح بذلك ، فما كان منه الا أن لبس سلاحه وحمل سيفه بيده ونزل الى الارض وتبعه رجاله فصعدوا جميعا الى القلعة ، فأنجدوا المسيحيين ، وهكذا حافظ جيدا على قسمه .

وبناء عليه بعث الملك رتشارد رسولا الى الملك غي ليحضره اليه ، ولكن الملك غي أعلم الرسول برفضه الاستجابة والذهاب معه .

وعلم صلاح الدين أن الملك رتشارد قد سافر من يافا ووصل الى عكا ، فما كان منه الا ان حشد قواته وحاصر يافا ، ونصب امامها المجانيق وشرع بقذفها ، وقد ركز رماياته على القلعة حتى أن الذين كانوا في داخلها لم يعرفوا الراحة ليلا ولانهارا .

وعند ذلك بعثوا برسالة الى الملك رتشارد يخبروه فيها أن القلعة التي كان قد حصنها واقعة الآن تحت الحصار ، من قبل صلاح الدين ، وهو حصار شديد جدا ، ودعا الملك رتشارد الى اجتماع عام لأعيان عكا ، وأراد أن يعلم عن مدى استعدادهم للسير معه وتقديم المساعدة له خدمة لمصالح المسيحيين ، فأجابوا جميعا بالموافقة على السير معه خدمة لمصالح المسيحيين ، ثم اتفقوا فيما بينهم أن يسافر الملك بحرا ، ويزحف في الوقت نفسه الفرسان برا ، وقد سار على رأس المقدمة هيو صاحب طبرية وبلدوين صاحب بيسان ، وسار في المؤخرة بالين دي ابلين ووليم صاحب طبرية ، وترامى الى مسامع المسلمين أن الملك رتشارد قادم لنجدة يافا ، فزادوا من ضغطهم على القلعة وشددوا الهجمات عليها ، وعندما رأى المحاصرون في القلعة أنفسهم وقد اشتد عليهم الحصار ، ولامخرج أمامهم راسلوا صلاح الدين يعرضون عليه الاستسلام مقابل التامين على حياتهم ، وكان الذي فاوض صلاح الدين باسمهم راندولف أسقف بيت لحم وشخص لخر اسمه أوبري دي رايذس .

وكان الملك رتشارد قد غادر عكا مساء ، واقلع ومعه سفنه فوصل الى يافا عند الفجر ، وكان رجال صلاح الدين قد دخلوا القلعة وانتشر رجال المسلمين في المدينة ، وثارت هناك جلبة كبيرة وضجة وعمت الفوضى ، وعندما وصل الملك رتشارد الى ميناء يافا ، وسمع

الصراخ ، سأل رجلا كان واقفا فوق السور عما يجري ، فأجابه هذا الرجل ان المسلمين قد استولوا على القلعة ، واقتادوا المسيحيين الى السجون فبادر الى حمل سلاحه واقسم بأنه لن يسمح بسقوط القلعة ، وشهر سيفه ونزل الى اليابسة ولحق به رجاله ، فصعدوا جميعا الى القلعة ، فأسعفوا المسيحيين واستنقذوا الأسرى ، وبذلك حافظ الملك على قسمه .

أمر الملك ركاب السفن بأن يضعوا أشجارا وأوتادا وحواجز أمام القلعة لصد هجمات المسلمين ، ونفذت أوامره تنفيذا كاملا ، وهاجم المسلمون رجالنا حتى اشتبكوا معهم بالأيدي داخل ساحة القلعة ، ودافع المسيحيون عن أنفسهم بشدة وقوة ، وكان عندما يدخل المسلمون من جهة يخرجهم المسيحيون بالقوة من جهة أخرى ، وقاتل الملك بكل شجاعة ، وكسر في يده السيف ، فدافع عن نفسه بسيف آخر ، وظل يقاتل حتى حقق هدفه ، وآنذاك ألقى ما عليه من سلاح الى الأرض .

وعاد المسلمون الى مواقعهم ، واثر ذلك سألهم صلاح الدين فيما اذا كانوا قد استولوا على القلعة ، فأجابه هؤلاء : ان ملك انكلترا قد وصل وأغاثهم ، وهنا سأل سيف الدين أخو صلاح الدين : وأين هو الملك ، وأين هو واقف ؟ فأشار له أحدهم وأوضح أنه واقف وسط رجاله على هضبة هناك ، وعند ذلك قال سيف الدين : هذا شيء مستحيل ، ومن غير المعقول أن يكون الملك واقف على قدميه بين رجاله ، فما كان منه الا أن أمر باسراج حصان ولجمه بمقود ، ثم أرسله مع أحد الجنود ، وكلفه ان يقول للملك : انه شيء غير مناسب ان يحارب الملك واقفا على قدميه ، ولاحظ الملك الخدعة ، وأدرك أن الحصان فيه شرك للايقاع به وأسره ، فما كان منه الا أن أعاده الى الرسول وقال له : « شكرا لمولاك لارساله الحصان ، وقل له أنه لم يرسل هذا الحصان لمحبة بيني وبينه ، ولكنه أرسله من أجل هلاكي » وعاد الرسول وقاد الحصان

الى سيده وقال له : ان الملك قد اكتشف الخـدعة ، وخجـل سـيف الدين ، ثم عاد وارسل له حصانا اخر مع الرسول نفسـه الذي كان قد قاد اليه الحصان الاول ، وامتطى الملك صهوة الحصـان ، وكان سلاحه عجيبـا ، وفي اليوم التـالي وصـل الجيش والفـرسان الى يافا ، وحارب صلاح الدين بشدة ومداومة ، وقد تألم كثيرا لسـوء المعاملة التي تلقاها راندولف اسقف بيت لحم ، وأوبري دي رايدس اللذان ماتا في السجن .

١٤٠ ـ أمر الملك ركاب السفن بأن يضعوا أشجارا وأوتادا وحواجز أمام القلعة لصد هجمات المسلمين ، ونفذت أوامره تنفيذا كاملا ، وهاجم المسلمون رجالنا حتى اشتبكوا معهم بالايدي داخل ساحة القلعة ، ودافع المسيحيون عن انفسهم بشدة وقوة ، وكان عندما يدخل المسلمون من جهة يخرجهم المسيحيون بالقوة من جهة اخرى ، وقاتل الملك بكل شجاعة ، وكسر في يده سيفه ، فدافع عن نفسه بسيف آخر ، وظل يقاتل حتى حقق هدفه ، ولذاك القى ماعليه من سلاح الى الارض .

وعاد المسلمون الى مواقعهم ، واثر ذلك سألهم صلاح الدين فيما اذا كانوا قد استولوا على القلعة ، فأجابه هؤلاء : ان ملك انكلترا قد وصل واغاثهم ، وهنا سأل سيف الدين اخو صلاح الدين : وأين هو الملك ، وأين هو واقف ؟ فأشار له أحدهم وأوضح أنه واقف وسط رجاله على هضبة هناك ، وعند ذلك قال سيف الدين : هذا شيء مستحيل ، ومن غير المعقول ان يكون الملك واقف على قدميه بين رجاله فما كان منه الا أن أمر باسراج حصان ولجمه بمقود ، ثم أرسله مع أحد الجنود ، وكلفه أن يقول للملك : انه شيء غير مناسب أن يحارب الملك واقفا على قدميه ، ولاحظ الملك الخدعة ، وأدرك أن الحصان فيه شرك للايقاع به وأسره ، فما كان منه الا أن أعاده الى الرسول وقال له :« شكرا لمولاك لارساله الحصان ، وقل له إنه لم يرسل هذا الحصان لمحبة بيني وبينه ، ولكنه أرسله من أجل هلاكي » وعاد الرسول وقاد الحصان الى سيده وقال له : ان الملك قد اكتشف الخدعة ، وخجل سيف الدين ، ثم عاد وأرسل له حصانا آخر مع الرسول نفسه الذي كان قد قاد اليه الحصان الاول ، وامتطى الملك صهوة الحصان ، وكان سلاحه عجيبا ، وفي اليوم التالي وصل الجيش والفرسان الى يافا وحارب صلاح الدين بشدة ومداومة ، وقد تألم كثيرا لسوء المعاملة التي تلقاها راندولف أسقف بيت لحم ، وأوبري دي رايذس اللذان ماتا في السجن .

١٤١ ـ وبعدما وصل الملك والجيش الى يافا لانجادها نشب

خلاف حاد جدا بين صلاح الدين وأمراء جيشه ، ولم يلاحظ رجالنا ذلك ، حتى انسحب المسلمون من أمام يافا ، وذهبوا للتمركز بين اللد ورام الله ، وذهب الملك وجنوده للاقامة في قلعة السهول (قرب يازور) وسمع صلاح الدين أن الملك يلاحقه ، وفي الوقت نفسه ارتاب صلاح الدين بأخيه سيف الدين وببقية الأمراء ، لذلك لم يقم في معسكره ولم ينتظر وصول الملك بل توجه الى سورية الجافة حتى يقوم بتحصين قلعتي الكرك والشوبك ، اللتان كان قد استولى عليهما منذ زمن قريب .

الملك رتشارد يستولي على قافلة اسلامية ثرية :

بعدما وصل الملك والجيش الى يافا لانجادها نشب خلاف حاد جدا بين صلاح الدين وأمراء جيشه ، ولم يلاحظ رجالنا ذلك ، حتى انسحب المسلمون من أمام يافا ، وذهبوا للتمركز بين اللد ورام الله ، وذهب الملك وجنوده للاقامة في قلعة السهول (قرب يازور) وسمع صلاح الدين أن الملك يلاحقه ، وفي الوقت نفسه ارتاب صلاح الدين بأخيه سيف الدين وببقية الأمراء ، لذلك لم يقم في معسكره ولم ينتظر وصول الملك ، بل توجه الى سورية الجافة حتى يقوم بتحصين قلعتي الكرك والشوبك ، اللتان كان قد استولى عليهما منذ زمن قريب .

وذهب الملك وجنوده ليتمركزوا قرب قلعة الفرسان الداوية في النطرون وهناك وصل اليه اثنان من البدو ، وأخذا من الملك الامان والثقة ، وأقسما له يمينا تعهدا به بأنهما سيخدماه باخلاص وسيطلعاه على كمائن جيش صلاح الدين ، وعن كل مايدور حول صلاح الدين وجميع أهل البلاد وسمع عدد من مماليك أمراء صلاح الدين الاحاديث التي راجت حول كرم الملك وسماحته وحسناته ، فصار كل من غضب من مولاه يفر اليه هاربا ، ويلتحق به ويصبح تحت حماية ملك انكلترا ، وتزايد عدد هؤلاء المماليك حتى

وصل الى ثلاثمائة مملوك ، ويذكر أنه عندما غادر الملك سورية عائدا الى بلاد ماوراء البحار اصطحب معــه مــن هؤلاء المماليك مـــائة وعشرين مملوكا .

وتجسس البدويان لصالح الملك وراقبا الطرق فـاطلعا على خبـر قافلة كبيرة وغنية كانت قادمة من مصر الى دمشــق ، فتــوجها الى الملك واطلعاه على خبر هذه القافلة الكبيرة التي ستعبر قـريبا مـن هناك ، وهي قد قدمت من مصر تريد دمشق للشــعور بـالأمان وأن صلاح الدين قد استولى على يافا وأن القوات المسلمة مسيطرة على المنطقة ، ثم ان ملك فرنسا والفرنسيين كانوا قد عادوا الى بـلادهم منذ زمن طويل ، ولم يكن لدى الملك رتشارد عدد كبير مـن الرجـال حتى يضــطروا الى العبـور في الممــرات الجبلية ، وكانوا مـطلعين اطلاعا جيدا على الخــلافات الحــاصلة في معســكر صـــلاح الدين ويعرفون واقع حال الملك رتشــارد ، وأرســل اليهــم صــلاح الدين اربعين رجلا مسلحا حتى يقودوهم الى الغور .

وطلب الملك رتشارد من البدويين اللذان نقــلا له هــذا الخبـر أن يتوليا مراقبة القافلة والتعرف مـن أي الممــرات يمــكن أن تمـــر بسهولة ، فاخبراه أنهما يعملان بجد ويبذلان كل مابوسعهما حتـى يمكناه من الاستيلاء على القافلة ، ولم يشك الملك بهما أبدا ، وقــد أغرقهما بالهدايا الكثيرة ، ومنحهما عددا وافرا مـن قـطع النقــود الذهبية ، وسافر هذان البدويان وهما يتباهيان بـالهدايا والنقــود التي منحها لهما الملك ، ولهذا بذل البداة الآخــرون غاية جهــودهم لمراقبة حركات القافلة مع تحــركات أهـــالي البـلاد لاطـــلاع الملك عليها ، وبذلك بات الملك على اطلاع ومعرفة بجميع حركات اهـــالي البلاد .

وراقب البدويان سير القافلة حتى وصلت الى مكان قـــريب مـن مكان اقامة الملك ، وعندما أطلعــاه على الخبـر غمــرهما بـالهدايا والاعطيات ، وما أن تأكد من أن القافلة قد باتت قـريبة منه حتـى

تسلح هو وفرسانه وسيرجانتيته بالأسلحة الخفيفة ، ولم يصطحب معه أحدا من الجنود العاديين ، بل كانوا جميعا من الكونتات وكبار القادة ، وهؤلاء ايضا تسلحوا بالأسلحة الخفيفة ، وفيما بعد فقد الفرسان والسرجانتية خيولهم من جراء ما عانوه أثناء الحملة ومع ذلك ، بفضل الحرب تساعدوا على الاقدام ومعروف أنه في تلك الأيام عندما كان الفارس يحمل سلاحا محدودا وثقيلا ، كان عندما يسقط عن حصانه لا يمكن لأحد مساعدته .

وتحرك الملك واتباعه من مكان تمركزهم مساء ، وساروا طوال الليل حتى وصلوا عند انبلاج الفجر الى موقع « الصهريج الأحمر » فوجدوا هناك القافلة ومن فيها معسكرين ، وانقضوا عليها وعلى من فيها بسلاحهم ، ودافع رجال القافلة عن انفسهم لكنهم لم ينجحوا ، فقد غلبهم الملك واستولى على القافلة وعلى ما كان فيها ، ويروى أن عددا كبيرا من المسلمين لا يقل عن الف ومائتي رجلا لاقوا حتفهم ، واقتاد الملك القافلة الى يافا ، وعاد ومعه اتباعه بسلام وفقد المسيحيون ستين رجلا ، ومع هذا لم يحقق المسيحيون قط مثل هذا النصر ، ولم يحصلوا ابدا على مثل هذه المرابح ، وبعدما رجع الملك الى يافا أعطى مما ربحه من القافلة الى الفرسان والسيرجانتية ، واحتفظ لنفسه بمبلغ كبير من المال.

ثم غادر الملك يافا وتوجه الى عسقلان ليزيد من تحصيناتها ، ثم قصد غزة ففعل الشيء نفسه وأعادها الى فرسان الداوية ، ثم قصد الداروم فحصنها ، وعندما رأى صلاح الدين أن الملك رتشارد قد ضاعف قوته وزاد نشاطه ، جمع قواته وجاء ليقوم بحصار الداروم ، وكان في ذلك الحين بامكان الملك رتشارد مجابهة صلاح الدين على أرض المعركة . وحدث انه .....

وذهب الملك وجنوده ليتمركزوا قرب قلعة الفرسان الداوية في النطرون وهناك وصل اليه إثنان من البدو ، والخذا من الملك الامان والثقة ، وأقسما له يمينا تعهدا به بأنهما سيخدماه بإخلاص وسيطلعاه على كمائن جيش صلاح الدين ، وعن كل ما يدور حول صلاح الدين وجميع أهل البلاد ، وسمع عدد من مماليك أمراء صلاح الدين الاحاديث التي راجت حول كرم الملك وسماحته وحسناته ، فصار كل من غضب من مولاه يفر اليه هاربا ، ويلتحق به ويصبح تحت حماية ملك انكلترا ، وتزايد عدد هؤلاء المماليك حتى وصل الى ثلاثمائة مملوك ، ويذكر أنه عندما غادر الملك سورية عائدا الى بلاد ما وراء البحار اصطحب معه من هؤلاء المماليك مائة وعشرين مملوكا .

وتجسس البدويان لصالح الملك وراقبا الطرق فاطلعا على خبر قافلة كبيرة وغنية كانت قادمة من مصر الى دمشق ، فتوجها الى الملك وأطلعاه على خبر هذه القافلة الكبيرة التي ستعبر قريبا من هناك ، وهي قد قدمت من مصر تريد دمشق للشعور بالأمان وأن صلاح قد استولى على يافا وأن القوات المسلمة مسيطرة على المنطقة ، ثم إن ملك فرنسا والفرنسيين كانوا قد عادوا الى بلادهم منذ زمن طويل ، ولم يكن لدى الملك رتشارد عدد كبير من الرجال حتى يضطروا الى العبور في الممرات الجبلية ، وكانوا مطلعين اطلاعا جيدا على الخلافات الحاصلة في معسكر صلاح الدين ويعرفون واقع حال الملك رتشارد ، وارسل اليهم صلاح الدين أربعين رجلا مسلحا حتى يقودوهم الى الغور .

وطلب الملك رتشارد من البدويين اللذان نقلا له هذا الخبر أن يتوليا مراقبة القافلة والتعرف من أي الممرات يمكن أن تمر بسهولة ، فأخبراه انهما يعملان بجد ويبذلان كل ما بوسعهما حتى يمكناه من الاستيلاء على القافلة ، ولم يشك الملك بهما ابدا ، وقد اغرقهما بالهدايا الكثيرة ومنحهما عددا وافرا من قطع النقود الذهبية وسافر هذان البدويان وهما يتباهيان بالهدايا والنقود التي

منحها لهما الملك ، ولهذا بذل البداة الآخرون غاية جهودهم لمراقبة حركات القافلة مع تحركات أهالي البلاد لاطلاع الملك عليها ، وبذلك بات الملك على اطلاع ومعرفة بجميع حركات أهالي البلاد .

وراقب البدويان سير القافلة حتى وصلت الى مكان قريب من مكان اقامته وعندما اطلعاه على الخبر غمرهما بالهدايا والأعطيات ،و ما إن تأكد من أن القافلة باتت قريبة منه حتى تسلح هو وفرسانه وسيرجانتيته بالأسلحة الخفيفة ، ولم يصطحب معه أحدا من الجنود العاديين ، بل كانوا جميعا من الكونتات وكبار القادة ، وهؤلاء أيضا تسلحوا بالأسلحة الخفيفة ، وفيما بعد فقد الفرسان والسيرجانتية خيولهم من جراء ما عانوه أثناء هذه الحملة ، ومع ذلك بفضل الرب تساعدوا على الاقدام ، ومعروف أنه في تلك الايام عندما كان الفارس يحمل سلاحا محدودا وثقيلا ، كان عندما يسقط عن حصانه لا يمكن لأحد مساعدته .

وتحرك الملك واتباعه من مكان تمركزهم مساء ، وساروا طوال الليل حتى وصلوا عند انبلاج الفجر الى موقع « الصهريج الاحمر » فوجدوا هناك القافلة ومن فيها معسكرين ، وانقضوا عليها وعلى من فيها بسلاحهم ، ودافع رجال القافلة عن أنفسهم لكنهم لم ينجحوا ، فقد غلبهم الملك واستولى على القافلة وعلى ما كان فيها ، ويروى أن عددا كبيرا من المسلمين لا يقل عن ألف ومائتي رجلا لاقوا حتفهم ، واقتاد الملك القافلة الى يافا ، وعاد ومعه اتباعه بسلام ، وفقد المسيحيون ستين .

وجده في مكان فسيح فتحارب معه ومع جنوده وتمكن من الحاق الهزيمة به وبهم ، وبات المسلمون يخشون الآن من أن يتمكن الانكليز وملكهم من الاستيلاء على جميع المملكة ، وعظمت شهرة الملك رتشارد ، وصار اسمه يخيف المسلمين الى حد انه عندما كان طفل منهم يبكي كانت أمه تخيفه وتسكته باسم الملك رتشارد بأن تقول له « أخرس قبل ان يسمعك ملك انكلترا » ، وعندما يكون واحد من المسلمين يطوف على ظهر حصانه ، فيحرن ويتمنع من الحركة فيقول له : « مالك التعتقد أن ملك انكلترا موجود في هذه الغابة »؟ واذا ما أراد أحد الجنود سقاية فرسه ، والفرس ترفض الشرب من الحوض فيقول لها : « مالك أتظنين أن ملك انكلترا موجود في الماء ».

كيف أراد صلاح الدين عقد هدنة مع الملك رتشارد ، لكنه رفض :

ولم يلبث صلاح الدين طويلا حتى بعث الى الملك رتشارد يسأله فيما اذا كان يريد العودة الى بلاده ، فإذا ما رغب بذلك انه على استعداد لعقد هدنة معه ، وأن يعيد اليه شطرا من المملكة التي استولى عليها وانتزعها من المسيحيين ، واقدم صلاح الدين على تقديم هذا العرض لخشيته من أخيه سيف الدين ، لأن الملك رتشارد وعده أنه اذا أصبح مسيحيا سيزوجه أخته التي كانت ملكة صقلية ، وخاف صلاح الدين أنه اذا ما تم هذا الزواج فسيخسر كل فتوحاته وجميع البلاد التي استولى عليها ، وكان صلاح الدين حين قدم عرضه للملك رتشارد على استعداد للقبول بمنحه نصف مملكة القدس أو أكثر ، لكن الملك رفض هذا العرض وأخبر رجال الوفد الذين بعثهم صلاح الدين : إنه يريد مملكة القدس بأكملها ويريد أيضا كل ما انتزعه نور الدين من المسيحيين واستولى عليه في أيام الملك عموري ، وأنه اذا لم يشأ صلاح الدين أن يعيد اليه كل ما

يطلبه ، فإنه سيذهب للاقامة في مصر ، لا بل هو ذاهب الى هناك ، وسيرى من الذي سيدافع عن مصر *

وفي تلك الاثناء جاء الملك غي الى عكا وذلك بناء على طلب من الملك رتشارد ، ولم يجد الملك غي الملك رتشارد هناك ، لذلك أراد العودة الى قبرص ، غير أن الكونت هنري الذي كان يعرف سبب استدعائه ، طلب منه الانتظار ، وعلم الملك غي لماذا استدعاه الملك رتشارد ، فخاف الآن انه إذا ما قال للكونت أنه لن ينتظره ، سيقدم على اعتقاله ، لذلك قال له إنه سيذهب إلى يافا حيث الملك رتشارد ، وذلك ليسمع أوامره وليمتثل لارادته ، فقال له : أنه سيرسل معه اثنين أو ثلاثة من رجاله على ظهر السفينة نفسها ، وفعل الكونت هذا ليحول بينه وبين الهرب ، لكن الملك غي تحدث الى البيازنة - أصحاب السفينة - ووعدهم بمنح كبيرة وكثيرة وبامتيازات هائلة في قبرص ، فهو سيحكمهم ب « أيوبرت ماريا » وسيجعلهم يحلون محله في حكم قبرص عندما يكون مسافرا في البحر ، واهتم البيازية ب « أيوبرت » وهكذا أقسموا يمينا تعهدوا فيه باطاعة الملك غي عندما يكون خارج عكا .

وأقلع الملك غي من عكا ، وسافر معه على ظهر السفينة نفسها اثنان من فرسان الكونت وذلك بناء على توجيهه ، وعندما اقتربت السفينة من قبرص وجد هناك مركبا فأنزل اليه فارسي الكونت وقال لهما : أبلغا تحياتي الكونت وقولا له بأنني لا أستطيع الذهاب الى يافا ، وعاد الفارسان الى عكا ، ونزل الملك غي في قبرص ، وهنا لاتسألوا عن الكونت هنري وعن مدى ما شعر به من غضب نتيجة لما قام به الملك غي ، وما حاكه من خديعة .

....رجلا ، ومع هذا لم يحقق المسيحيون قط مثل هذا النصر ، ولم يحصلوا ابدا على مثل هذه المرابح ، وبعدما رجع الملك الى يافا أعطى مما ربحه من القافلة الى الفرسان والسيرجانتية ، واحتفظ لنفسه بمبلغ كبير من المال .

ثم سافر الملك من يافا الى عسقلان حتى تولى تحصينها ، ثم قصد غزة ففعل الشيء نفسه ثم أعادها الى فرسان الداوية ، وبعد هذا قصد الداروم فحصنها ، وعندما رأى صلاح الدين أن الملك رتشارد قد ضاعف قوته وزاد من نشاطه ، جمع قواته وجاء ليقوم بحصار الداروم ، وكان في ذلك الحين بامكان الملك رتشارد مجابهة صلاح الدين على أرض المعركة ، وحدث أنه وجده في مكان فسيح فتحارب معه ومع جنوده وتمكن من الحاق الهزيمة به وبهم ، وبات المسلمون يخشون الآن من أن يتمكن الانكليز وملكهم من الاستيلا على جميع المملكة ، وعظمت شهرة الملك رتشارد ، وصار اسمه يخيف المسلمين الى حد أنه عندما كان طفل منهم يبكي كانت امه تخيفه وتسكته باسم الملك رتشارد بأن تقول له : « اخرس قبل أن يسمعك ملك انكلترا » وعندما يكون واحد من المسلمين يطوف على ظهر حصانه ، فيحرن ويمتنع من الحركة فيقول له :«مالك اتعتقد أن ملك انكلترا موجود في هذه الغابة»؟ واذا ما أراد أحد الجنود سقاية فرسه والفرس ترفض الشرب من الحوض فيقول لها : « مالك اتظنين أن ملك انكلترا موجود في الماء ».

١٤٢ _ ولم يلبث صلاح الدين طويلا حتى بعث الى الملك رتشارد يسأله فيما اذا كان يريد العودة الى بلاده ، فإذا ما رغب بذلك فانه على استعداد لعقد هدنة معه ، وأن يعيد اليه شطرا من المملكة التي استولى عليها وانتزعها من المسيحيين ، واقدم صلاح الدين على تقديم هذا العرض لخشيته من أخيه سيف الدين ، لأن الملك رتشارد وعده انه إذا أصبح مسيحيا سيزوجه اخته التي كانت ملكة صقلية ، وخاف صلاح الدين انه اذا ما تم هذا الزواج فسيخسر كل فتوحاته وجميع البلاد التي استولى عليها ، وكان صلاح الدين حين

قدم عرضه للملك رتشارد على استعداد للقبول بمنحة نصف مملكة القدس أو أكثر ، لكن الملك رفض هذا العرض وأخبر رجال الوفد الذين بعثهم صلاح الدين انه يريد مملكة القدس بأكملها ويريد أيضا كل ماانتزعه نور الدين من المسيحيين واستولى عليه في أيام الملك عموري ، وأنه إذا لم يشأ صلاح الدين أن يعيد اليه كل ما يطلبه ، فإنه سيذهب للاقامة في مصر ، لا بل هو ذاهب الى هناك ، وسيرى من الذي سيدافع عن مصر ، أو يدفعه عنها .

وفي تلك الاثناء جاء الملك غي الى عكا وذلك بناء على طلب من الملك رتشارد ، ولم يجد الملك غي الملك رتشارد هناك ، لذلك أراد العودة الى قبرص ، غير أن الكونت هنري الذي كان يعرف سبب استدعائه ، طلب منه الانتظار ، وعلم الملك غي لماذا استدعاه الملك رتشارد ، فخاف الآن انه اذا ما قال للكونت إنه لن ينتظره ، سيقدم على اعتقاله ، لذلك قال له أنه سيذهب الى يافا حيث الملك رتشارد ، وذلك ليسمع أوامره وليمتثل لارادته ، فقال له أنه سيرسل معه اثنين أو ثلاثة من رجاله على ظهر السفينة نفسها ، وفعل الكونت هذا ليحول بينه وبين الهرب ، لكن الملك غي تحدث الى البيازنة اصحاب السفينة ، ووعدهم بمنح كبيرة وكثيرة وبامتيازات هائلة في قبرص ، فهو سيحكمهم ب « أيوبرت ماريا » وسيجعلهم يحاولون محلة في حكم قبرص عندما يكون مسافرا في البحر ، واهتم البيازنة ب « أيوبرت ماريا » وهكذا أقسموا يمينا تعهدوا فيه باطاعة الملك غي عندما يكون خارج عكا .

-٣٩٦٣-

كيف عقد الملك رتشارد الهدنة مع صلاح الدين :

ووصلت رسائل ورسل الى الملك رتشارد أخبرته ان ملك فرنسا قد استولى على كل أراضيه وممتلكاته في فرنسا ، كما وقام اخوه يوحنا بانكلترا بالاستيلاء على جميع المدن والقلاع ، واقسمت المملكة يمين الولاء له ، وعندما سمع بهذه الاخبار لم يكن مسرورا ابدا ، لهذا بادر بمراسلة صلاح الدين يعرض عليه التفاوض من أجل الهدنة ، لكن صلاح الدين اجابه أنه على غير استعداد لعقد الهدنة معه ، لأنه عندما قدم له مثل هذا العرض بالتهاون رفض ، وبعث رتشارد وفدا جديدا الى صلاح الدين ، وكان فيه بالين دي ابلين ، وقد طلب الملك من بالين أن يبذل جهده لعقد هدنة مع صلاح الدين ، واخبر صلاح الدين بالين أنه لن يبرم اي هدنة مالم يتخل له الملك عن : غزة ، وعسقلان ، والداوم ، ويافا ، ذلك أن جوا سيسه أطلعوه على الاخبار التي تلقاها الملك من بلاد ماوراء البحار ، وعاد بالين الى الملك واخبره بما وجده عند صلاح الدين ، وغضب الملك لهذا السبب ، فهو كان على بينة بضعف أحوال سكان المملكة ، ولم يرغب بالذهاب بدون عقد هدنة ، لذلك امر بالين بالذهاب ثانية الى صلاح الدين وليحاول أن يستثني يافا من الاعادة ، وذهب بالين وتمكن أخيرا من عقد هدنة مع صلاح الدين على أساس اعادة ، غزة وعسقلان والداروم انما بشرط الا يسكن أحد من المسلمين في عسقلان بل تهدم ، وبقيت يافا للمسيحيين ، وشملت الهدنة : قيسارية وأرسوف وحيفا ، وتنازل الملك عن عسقلان والمدن الاخرى ، واستدعى الملك الكونت واعلمه أن مدة الهدنة عشر سنوات ، وأنه تنازل عن عسقلان وطلب منه أن يقسم على التمسك بالهدنة وهذا مافعل ، وهنا قال له الملك : « انه من الضروري بالنسبة لي أن أسافر ، وتأكد أنه اذا منحني الرب الحياة سأعود وأحضر لك رجالا استرد بهم لك عسقلان وجميع اجزاء المملكة وسأتوجك ملكا في القدس » ثم إنه شحن يافا بالرجال والعتاد والمؤن والسلاح ، ثم رافق الملك وعاد معه الى عكا .

وتحدث الملك غي الى البيازنة – أصحاب السفينة – ووعدهم بمنح وافرة وكثيرة وبامتيازات هائلة في قبرص ، فهو سيحكمهم ب « أيوبرت ماريا » وسيجعلهم يحلون محله في حكم قبرص عندما يكون مسافرا في البحر ، واهتم البيازنة ب « أيوبرت ماريا » وهكذا اقسموا يمينا تعهدوا فيه بطاعة الملك غي عندما يكون خارج عكا .

واقلع الملك غي من عكا ، وسافر معه على ظهر السفينة نفسها اثنان من فرسان الكونت وذلك بناء على توجيهه ، وعندما اقتربت السفينة من قبرص وجد هناك مركبا فانزل اليه فارسي الكونت وقال لهما : أبلغا تحياتي الكونت وقولا له بأنني لاأستطيع الذهاب الى يافا ، وعاد الفارسان الى عكا ، ونزل الملك غي في قبرص ، وهنا لاتسألوا عن الكونت هنري وعن مدى ماشعر به من غضب نتيجة لما قام به الملك غي ، وما حاكه من خديعة .

١٤٣ – ووصلت رسائل ورسل الى الملك رتشارد وأخبرته أن ملك فرنسا قد استولى على كل أراضيه وممتلكاته في فرنسا ، كما وقام أخوه يوحنا بانكلترا بالاستيلاء على جميع المدن والقلاع ، واقسمت المملكة يمين الولاء له ، وعندما سمع بهذه الأخبار لم يكن مسرورا أبدا ، لهذا بادر بمراسلة صلاح الدين يعرض عليه التفاوض من أجل الهدنة ، لكن صلاح الدين أجابه أنه على غير استعداد لعقد الهدنة معه ، لانه عندما قدم له مثل هذا العرض بالتهادن رفض ، وبعث الملك رتشارد وفدا جديدا الى صلاح الدين ، وكان فيه بالين دي ابلين وقد طلب الملك من بالين أن يبذل جهده لعقد هدنة مع صلاح الدين ، وأخبر صلاح الدين بالين أنه لن يبرم أي هدنة مالم يتخل له الملك عن : غزة ، وعسقلان ، والداروم ويافا ذلك أن جواسيسه أطلعوه على الأخبار التي تلقاها الملك من بلاد ماوراء البحار ، وعاد بالين الى الملك وأخبره بما وجده عند صلاح الدين ، وغضب الملك لهذا السبب ، فهو كان على بينة بضعف أحوال سكان المملكة ، ولم يرغب بالذهاب بدون عقد هدنة ، لذلك

أمر بالين بالذهاب ثانية الى صلاح الدين وليحاول أن يستثني يافا من الاعادة ، وذهب بالين وتمكن أخيرا من عقد الهدنة مع صلاح الدين على أساس اعادة : غزة وعسقلان والداروم انما بشرط الا يسكن أحد من المسلمين في عسقلان بل تهدم ، وبقيت يافا للمسيحيين ، وشملت الهدنة ، قيسارية وأرسوف وحيفا ، وتنازل الملك عن عسقلان والمدن الاخرى ، واستدعى الملك الكونت هنري ، وأعلمه أن مدة الهدنة عشر سنوات ، وانه تنازل عن عسقلان وطلب منه أن يقسم على التمسك بالهدنة وهذا مافعل ، وهنا قال له الملك : « انه من الضروري بالنسبة لي أن أسافر ، وتأكد أنه اذا منحني الرب الحياة سأعود وأحضر لك رجالا استرد بهم لك عسقلان وجميع أجزاء المملكة وسأتوجك ملكا في القدس » ثم أنه شحن يافا بالرجال والعتاد والمؤن والسلاح ، ثم رافق الملك وعاد معه الى عكا وبرفقتهما أسقفها .

كيف ألقي القبض على ملك انكلترا عندمــا عاد الى بلاده :

بعدما حل الملك في عكا أعد شوانيه وحمل سفنه بالرجال وشحنها بالمؤن ، ثم اصعد الى السفن زوجته ، وزوجة ملك قبرص ـ وكان قد مات في سجنه ـ وكذلك ابنته ورجاله ، ثم طلب من مقدم الداوية أن يؤجره عددا من فرسانه والسيرجانتية ليرافقوه في ســفره وعلل طلبه بقوله :« انني سمعت أن ملك فــرنسا يراقبني وأخشى مــن أن يقبض علي ، وبوجود الفرسان معي يمــكنني أن أتخفــى كواحــد منهم ، وبذلك أسافر كواحد من الفرسان الى بلادي ».

ووافق مقدم الداوية على طلبه وعمل وفق هواه ، وبعدما أكملوا الاستعدادات للسفر صعدوا الى الشواني والسفن ، وودعوا الكونت هنري وسكان البلاد ، وبعدما سافروا من عكا واصبحوا في وســط البحر ، فكر الملك بالانتقال من سفينة الى أخرى ، غير أنه وجد أنه لايستطيع القيام بذلك مالم يكن معه في السفينة قــوة حــراسة كافية له ، لذلك استأذن زوجته وطلب منها ومــن حــاشيتها الذهــاب الى مرسيليا ، في حين ذهب هو والفرسان باتجاه آخر ، وعندما وصلوا الى أقويلي ، التي كانت أكبر مدينة في مدخل المانيا قريبة من بحــر الاغريق ، اشتروا بعض الحاجيات ثم تابعوا طريقهم بالحال حتــى وصلوا الى دوقية أو ستريا (النمسا) وكان الدوق في احدى قلاعه على مقربة منهم ، وجاء إليه فورا أحــد الحــراس واخبــره أن ملك انكلترا موجود في قلعته ويرغب في مقابلته اذا سمح بذلك .

وفرح الدوق بهذا الخبــر فــرحا كبيرا فهــو يســـتطيع الآن أن يثأر للعار الذي لحقه في عكا ، لهذا أمر باغلاق أبواب القلعة ، وأن يحمل رجاله اســـلحتهم ، ثـــم تـــوجه نحـــو الملك حيث كان مقيما ، وصدرت أصوات مزعجة من هؤلاء الرجــال الذين جــاءوا لالقاء القبض على الملك ، لأنهم انفعلوا انفعالا كبيرا ، وأمام هــذا

الحال يروى ان الملك دخل الى المطبخ فخلع ثيابه ، ثم ارتدى ملابس واحد من الخدم ، وتناول بعض الأطعمة ليعدها ثم أخذ يقوم بأعمال الشواء ، وجاء واحد من الحرس الى البيت وشرع يبحث عنه حتى وجده فقال له :« قف يامولاي ان الدوق يريد ان يتحدث اليك » .

وجاء رجال الدوق فساقوه امامهم حتى أوصلوه الى الدوق ، فأمر الاخير بوضعه في أحد الابراج وحراسته فيه ومعاملته بكرامة تليق بمكانته وذلك حتى يعلم الامبراطور بأمره ، وعندما علم الامبراطور بذلك اهتم كثيرا بالموضوع ، وطلب من الدوق ان يحضره اليه ، وحمله الدوق اليه ، وقام الامبراطور هنري (السادس) بالقائه بالسجن حيث بقي حتى تاريخ اخراجه منه .

وسأتحدث اليكم الآن عن اسباب العداوة التي قامت بين ملك انكلترا ودوق النمسا ، فقد حدث أنه عندما استردت عكا من المسلمين .

١٤٤ ـ وسأحدثكم الان عما حدث لملك انكلترا بعدما غادر مملكة القدس :

بعدما حل الملك في عكا أعد شوانيه وحمل سفنه بالرجال وشحنها بالمؤن ، ثم أصعد إلى السفن زوجته ، وزوجة ملك قبرص ـ وكان قد مات في سجنه ـ وكذلك ابنته ورجاله ثم طلب من مقدم الداوية أن يؤجره عددا من فرسانه والسير جانتيه ليرافقوه في سفره وعلل طلبه بقوله : « إنني سمعت أن ملك فرنسا يراقبني واخشى من أن يقبض علي ، وبوجود الفرسان معي يمكنني أن أتخفى كواحد منهم ، وبذلك أسافر كواحد من الفرسان الى بلادي .

ووافق مقدم الداوية على طلبه وعمل وفق هواه ، وبعدما أكملوا الاستعدادات للسفر صعدوا الى الشواني والسفن ، وودعوا الكونت هنري وسكان البلاد ، وبعدما سافروا من عكا واصبحوا في وسط البحر ، فكر الملك بالانتقال من سفينة إلى أخرى ، غير أنه وجد أنه لايستطيع القيام بذلك ما لم يكن معه في السفينة قوة حراسة كافية له ، لذلك استأذن زوجته وطلب منها ومن حاشيتها الذهاب إلى مرسيليا في حين ذهب هو والفرسان باتجاه آخر ، وعندما وصلوا إلى أقويلي ، التي كانت أكبر مدينة في مدخل المانيا قريبة من بحر الاغريق ، اشتروا بعض الحاجيات ثم تابعوا طريقهم بالحال حتى وصلوا إلى دوقية اوستريا (النمسا) وكان الدوق في احدى قلاعه على مقربة منهم ، وجاء إليه فورا أحد الحراس واخبره أن ملك انكلترا موجود في قلعته ويرغب في مقابلته إذا سمح بذلك .

وفرح الدوق بهذا الخبر فرحا كبيرا فهو يستطيع الان ان يثأر للعار الذي لحقه في عكا ، لهذا أمر بغلاق أبواب القلعة ، وأن يحمل رجاله أسلحتهم ، ثم توجه نحو الملك حيث كان مقيما ، وصدرت أصوات مزعجة من هؤلاء الرجال الذين جاءوا الالقاء القبض على الملك ، لانهم انفعلوا انفعالا كبيرا ، وامام هذا الحال يروى أن الملك دخل إلى المطبخ فخلع ثيابه ، ثم أرتدى ملابس واحد من الخدم ،

وتناول بعض الاطعمة ليعيدها ، ثم اخذ يقوم بأعمال الشواء ، وجاء واحد من الحرس إلى البيت وشرع يبحث عنه حتى وجده فقال له : « قف يامولاي إن الدوق يريد أن يتحدث اليك » .

١٤٥ وجاء رجال الدوق فساقوه امامهم حتى أوصلوه إلى الدوق ، فأمر الاخير بوضعه في أحد الابراج وحراسته فيه ومعاملته بكرامة تليق بمكانته وذلك حتى يعلم الامبراطور بأمره ، وعندما علم الامبراطور بذلك اهتم كثيرا بالموضوع ، وطلب من الدوق أن يحضره إليه ، وحمله الدوق إليه ، وقام الامبراطور هنري (السادس) بالقائه بالسجن حيث بقي حتى اخراجه منه •

كان دوق النمسا مع غاليران دوق لامبروك قد دخلا الى عكا واقاما فيها ، وحينذاك جاء مارشال ملك انكلترا فهاجم مقر اقامتهما وطردهما منه بكل قسوة وعنف ، الامر الذي أزعجهما كثيرا ، ولذلك عندما واتتهما الفرصة ثأر لكرامتهما ، وقد أثار هذا الحادث كثيرا من الحقد والحريب حيث هدمت ممالك عديدة من جراء ذلك .

وعندما علم ملك فرنسا انه القي القبض على الملك رتشارد وأودع السجن في المانيا ، عمل على حماية الطرق ومراقبة المنافذ ثم جمع جنوده ودخل الى بلاد ملك انكلترا ، وقاتل هناك بشدة وشراسة ، واستولى على المدن والقلاع وبذلك توصل الى اسر كونت دي ليفاستري الذي أنابه الملك رتشارد في حكم نورماندي والدفاع عنها وعن البلاد الواقعة تحت حكمه فيما وراء البحر ، هذا ومكث الملك رتشارد زمنا طويلا في السجن ، وقد حدث هذا كله في سنة ١١٩٣ لتجسيد يسوع المسيح .

كيف اطلق سراح ملك انكلترا

بعث هذا الملك إلى انكلترا ليؤتى له بالمال حتى يتحرر من سجن

الامبراطور ، وكان قد أقسم له أن يدفع له الفدية في زمن حـــدده له ، وبذلك أطلق سراح الملك رتشارد ولم يتــأخر الملك رتشــارد في دفـــع الفدية فقد ساعده أصدقاؤه ورجاله مساعدة كبيرة ، وحين علم ملك فرنسا بذلك ، شدد الحراسة على طرق بــلاده حتــى لايدخــل الملك رتشارد إليها ، وعندما وصل الملك رتشارد إلى انكلترا جمــع مــال فديته وقدره مائتي ألف مارك ، وأرسله إلى الامبراطور حتى يحــرر شواطيء انكلترا والرهـائن الذين أودعهم عنده ، ولينفذ القسم الذي تعهد به ، ويحــكى أنه لم يبــق كاســا أو مبخـــرة في الكنائس إلا واعطاها للامبراطور مقابل فديته ، ونال الامبراطور من هـــذا المبلغ الجزء الاعظم واعطى جل البقية إلى الدوق ذلك أن ملك فرنسا قد نال شطرا من هذا المبلغ لانه سمح بمرور هذا المال من أراضيه ، وبعــد ذلك حشد ملك انكلترا جنوده وعبر البحر حيث تمكن مــن اســتعاده جزء من بلاده مما كان فيليب ملك فــرنسا قــد اســتولى عليه أثناء وجوده بالسجن ، وجعل من ابــن عمــه أوتــو الذي كان ابــن دوق سواسون كونت على بواتيه ، وبالوقت نفسه قاتل بشدة وعنف ضــد ملك فرنسا .

وسأتحدث اليكم الان عن أسباب العداوة التي قامت بين ملك انكلترا ودوق النمسا ، فقد حدث أنه عندما استردت عكا من المسلمين كان دوق النمسا مع غاليران دوق لامبروك قد دخلوا إلى عكا وأقاما فيها ، وحينذاك جاء مارشال ملك انكلترا فهاجم مقر اقامتهما وطردهما منه بكل قسوة وعنف ، الامر الذي أزعجهما كثيرا ، ولذلك عندما واتتهما الفرصة ثأرا لكرامتهما ، وقد أثار هذا الحادث كثيرا من الحقد والحروب حيث هدمت ممالك عديدة من جراء ذلك .

وعندما علم ملك فرنسا انه ألقي القبض على الملك رتشارد وأودع السجن في المانيا ، عمل على حماية الطرق ومراقبة المنافذ ثم جمع جنوده ودخل إلى بلاد ملك انكلترا ، وقاتل هناك بشدة وشراسة واستولى على المدن والقلاع وبذلك توصل إلى اسر كونت دي ليفا ستري الذي أنابه الملك رتشارد في حكم نورماندي والدفاع عنها وعن البلاد الواقعة تحت حكمه فيما وراء البحر ، هذا ومكث الملك رتشارد زمنا طويلا في السجن ، وقد حدث هذا كله في سنة ١١٩٣ ، لتجسيد يسوع المسيح .

١٤٦ ــ بعث هذا الملك الى انكلترا ليؤتي له بالمال حتى يتحرر من سجن الامبراطور ، وكان قد أقسم له أن يدفع له الفدية في زمن حدده له ، وبذلك أطلق سراح الملك رتشارد ولم يتأخر الملك رتشارد في دفع الفدية فقد ساعده أصدقاؤه ورجاله مساعدة كبيرة ، وحين علم ملك فرنسا بذلك ، شدد الحراسة على طرق بلاده حتى لايدخل الملك رتشارد اليها ، وعندما وصل الملك رتشارد الى انكلترا جمع مال فديته وقدره مائتي الف مارك ، وأرسله الى الامبراطور حتى يحرر شواطىء انكلترا والرهائن الذين أودعهم عنده ، وليذفذ القسم الذي تعهد به ، ويحكى أنه لم يبق كأسا أو منجزة في الكنائس الا وأعطاها للامبراطور مقابل فديته ونال الامبراطور من هذا المبلغ الجزء الاعظم وأعطى جل البقية الى الدوق ذلك أن ملك فرنسا قد نال شطرا من هذا المبلغ لأنه سمح بمرور هذا المال من أراضيه وبعد ذلك

- ٣٩٧٢ -

حشد ملك انكلترا جنوده وعبر البحر حيث تمكن من استعادة جــزء من بلاده مما كان فيليب ملك فرنسا قد اســتولى عليه أثناء وجــوده بالسجن وجعل من ابن عمه أوتو الذي كان ابن دوق سوا سون كونتا على بواتيه ، وبالوقت نفسه قاتل بشدة وعنف ضد ملك فرنسا .

- ٣٩٧٣ -

كيف مات الملك غي لوزنغنان ملك قبرص :

بعد سفر ملك انكلترا . علم الكونت هنري ان البيازنة استدعوا الملك غي للقدوم والاستيلاء على مدينة صور ، وقد اغضب هذا الكونت هنري المذكور ، وكان في تلك الاونة للبيازنة سلطة كبيرة في سورية ، حتى أنهم كانوا يكبدون الذين كانوا يقدمون الى سورية خاصة الجنويين خسائر عظيمة ، وكانت الشكاوى من الجنويين تصل كل يوم ضد أعمالهم هذه الى الكونت هنري ، مما دفعه الى طلب البيازنة المقيمين في عكا وقال لهم : ان ماتفعلوه في مدينة عكا هو عمل سيء جدا ، وعليكم أن تتوقفوا ومن ثم الامتناع عن هذه التصرفات ، غير أن هذا لم يفد ، بل تصرفوا ضد رغباته وتهديداته ، فغضب الكونت منهم ، وقرر طردهم ، وأمرهم باخلاء بلاده ، وهددهم أنه اذا وجد أحدا من زعمائهم في بلاده فسيمسك به من رقبته ويلقي به في السجن .

وحين فعل الكونت هنري ذلك احتج عليه ايمري لوزنغنان - كافل المملكة - أخو الملك غي وقال للكونت هنري :« انه أمر غير مقبول طرد أناس طيبين مثل البيازنة من عكا ، وغضب الكونت هنري ورد عليه بحنق قائلا :« كيف ؟ هل تريد أن تبقيهم ضد ارادتي لأنهم أرادوا أن يسلموا صور الى أخيك ؟ اعلم انك لن تفلت من يدي حتى يعيد لي أخوك قبرص ، واثر ذلك جاء اليه مقدم الفرسان الداوية مع مقدم الفرسان الاسبتارية وبارونات البلاد ولاموه على اعتقال هذا القائد الكبير الذي كان يعد من رجاله ، ويعد ايضا اعظم بارونات البلاد ، فرد عليهم الكونت مغضبا : انه لايعده واحدا من رجاله ، ولايعده ايضا قائدا كبيرا ولامن البارونات ، ولم يسلموا له وجادلوه مطولا وضغطوا عليه حتى أفرج عنه وأخلى سبيله .

وبعد مضي ثلاثة أيام جاء القائد ايمري الى البلاط وأعلن للكونت عن تخليه عن وظيفته القيادية ، ثم ذهب من هناك الى قبرص حيث

منحه أخوه الملك غي ولاية يافا ، وبعد موت الملك غي تـرك يافـا ، بسبب أن أخاه جفري استدعي أولا لتسلم المملكة فرفض القدوم الى قبرص فما كان من سكان قبرص إلا أن وجدوا انفسهم مرغمين على استدعاء أخيه ايمري لينصبوه ملكا، هذا من جانب ومن جانب آخـر أعطى الكونت هنري الوظيفة القيادية التي كان يشغلها ايمـري الى جون دي ابلين ، الذي كان اخا للملكة ايزابيل فاتفق هذا مع البيازنة واعطاهم ما يستحقونه وما يليق بمكانتهم.

١٤٧ ـ بعد سفر ملك انكلترا ، علم الكونت هنري أن البيازنة استدعوا الملك غي للقدوم والاستيلاء على مدينة صور ، وقد أغضب هذا الكونت هنري المذكور ، وكان في تلك الاونة للبيازنة سلطة كبيرة في سورية ، حتى أنهم كانوا يكبدون الذين كانوا يقدمون الى سورية خاصة الجنويين خسائر عظيمة ، وكانت الشكاوى من الجنويين تصل كل يوم ضد أعمالهم هذه الى الكونت هنري ، مما دفعه الى طلب البيازنة المقيمين في عكا وقال لهم : ان ماتفعلونه في مدينة عكا هو عمل سيء جدا ، وعليكم أن تتوقفوا ومن ثم الامتناع عن هذه التصرفات ، غير أن هذا لم يفد ، بل تصرفوا ضد رغباته وتهديداته ، فغضب الكونت منهم ، وقرر طردهم ، وأمرهم باخلاء بلاده ، وهددهم أنه اذا وجد أحدا من زعمائهم في بلاده فسيمسك به من رقبته ويلقي به في السجن .

وحين فعل الكونت هنري ذلك احتج عليه ايمري لوزنغنان ـ كافل المملكة ـ أخو الملك غي وقال للكونت هنري :« انه أمر غير مقبول طرد أناس طيبين مثل البيازنة من عكا»، وغضب الكونت هنري ورد عليه بحنق قائلا :« كيف ؟ هل تريد ان تبقيهم ضد ارادتي ، لأنهم أرادوا أن يسلموا صور الى أخيك ؟ اعلم انك لن تفلت من يدي حتى يعيد لي أخوك قبرص»، واثر ذلك جاء اليه مقدم الفرسان الداوية مع مقدم الفرسان الاسبتارية وبارونات البلاد ولاموه على اعتقال هذا القائد الكبير الذي كان يعد من رجاله ، ويعد ايضا أعظم بارونات البلاد ، فرد عليهم الكونت مغضبا : انه لايعده واحدا من رجاله ، ولايعده ايضا قائدا كبيرا ولا من البارونات ، ولم يسلموا له وجادلوه مطولا وضغطوا عليه حتى أفرج عنه وأخلى سبيله .

وبعد مضي ثلاثة أيام جاء القائد ايمري الى البلاط وأعلن للكونت عن تخليه عن وظيفته القيادية ، ثم ذهب من هناك الى قبرص ، حيث منحه أخوه الملك غي ولاية يافا ، وبعد موت الملك غي

- ٣٩٧٦ -

رواية عما اقترفه هنري بحق رهبان الضريح المقدس :

في الايام التي كان الكونت هنري يحكم فيها في عكا ، مات هرقل الذي كان بطريركا للقدس ، واجتمع رهبان القبر المقدس فانتخبوا بطريركا جديدا ، وكان اسود البشره ، وكان من قبل رئيسا لاساقفة قيسارية ، وتمت عملية الانتخاب من دون اعلام الكونت ، ولهذا عندما علم بذلك غضب غضبا شديدا ، وقال : لقد جرت العادة من قبل عندما يموت بطريرك القدس يقوم الرهبان في الضريح المقدس بانتخاب اثنين ، ويرفعون اسميهما الى الكونت ليقوم باختيار واحد منهما فيكون بطريركا للقدس ، وقام الكونت هنري بالقاء القبض على رهبان الضريح المقدس ، والقى بهم بالسجن ، ولامهم كثيرا ، وانتقد تصرفهم وقال : إنهم يريدون ازالة سلطة ملوك القدس والصلاحيات التي تمتعوا بها في تقرير انتخاب البطريرك ، وأثار هذا الاجراء ضجة كبيرة وكان أشبه بفضيحة ضخمة ، ووجه رئيس الاساقفة جوسيه النقد الشديد للكونت ومثله فعل البارونات والسادة الاخرون ، ولاموه على فعلته ، وألحوا عليه حتى يطلق سراح رهبان الضريح المقدس ليعودوا الى منزلتهم ، واخيرا وافق على عملية الانتخاب ، ثم منح ابن عمه المسمى غراشيان قلعة في منطقة عكا اسمها كفربولا ومنحه ثقته والحقه بحاشيته .

وقرر الرهبان الذهاب الى روما ليعرضوا نتيجة عملية انتخابهم للبطريرك على البابا ، وهناك حصلوا على الموافقة ، ثم أطلعوا البابا كلستين (الثالث) على ما فعله الكونت بحق رهبان الضريح المقدس ، وقد أزعجه هذا التصرف كثيرا ، وهكذا أوقف دور ملك القدس في انتخاب البطريرك ، وقرر أن يكون الرهبان لوحد هم هم الذين يتولون انتخاب بطريركهم .

ولا يعجبن أحد أو يدهش لهذا الشرف الذي حصل عليه ملك

القدس ، ذلك أنه منذ احتلال القدس وحتى ذلك الحين ، قليلا ما كان لكنيسة روما من رأي وتدخل ، لأنه عندما جاء الدوق غودفري والبارونات الآخرون لاحتلال البلاد جاء بموافقة البابا أوربان وكذلك بموافقة الملك هنري ، ثم فيما بعد من قبل البابا الاسكندر والامبراطور فردريك ، جد هذا الذي أقام بالحكم سبع عشرة سنة ، وحدث أن اثنان من البابوات ماتا ميتة مشؤومة ، وما من أحد حمل الملك مسؤولية هذه العادة .

ترك يافا ، بسبب ان أخاه جفري استدعى أولا لتسلم المملكة ، فرفض القدوم الى قبرص ، فما كان من سكان قبرص إلا وأن وجدوا أنفسهم مرغمين على استدعاء أخيه ، ايمري لينصبوه ملكا ، هذا من جانب ومن جانب لخر اعطى الكونت هنري الوظيفة القيادية التي كان يشغلها ايمري الى جون دي ابلين ، الذي كان أخا للملكة ايزابيل ، فاتفق هذا مع البيازنة فعادوا الى عكا وأعطاهم ما يستحقونه وما يليق بمكانتهم، وقد حدث هذا في سنة ١١٩٣ (الصحيح ١١٩٤) لتجسيد المسيح .

١٤٨ — في الايام التي كان الكونت هنري يحكم فيها في عكا ، مات هرقل الذي كان بطريركا للقدس ، واجتمع رهبان القبر المقدس فانتخبوا بطريركا جديدا ، وكان أسود البشره ، وكان من قبل رئيسا لأساقفة قيسارية ، وتمت عملية الانتخاب من دون اعلام الكونت ، ولهذا عندما علم بذلك غضب غضبا شديدا ، وقال : لقد جرت العادة من قبل عندما يموت بطريرك القدس يقوم الرهبان في الضريح المقدس بانتخاب اثنين ، ويرفعون اسميهما الى الكونت ليقوم باختيار واحد منهما فيكون بطريركا للقدس ، وقام الكونت هنري بالقاء القبض على رهبان الضريح المقدس ، والقى بهم بالسجن ، ولامهم كثيرا ، وانتقد تصرفهم وقال : انهم يريدون ازالة سلطة ملوك القدس والصلاحيات التي تمتعوا بها في تقرير انتخاب البطريرك ، واثار هذا الاجراء ضجة كبيرة وكان اشبه بفضيحة ضخمة ووجه رئيس الاساقفة جوسيه النقد الشديد للكونت ومثله فعل البارونات والسادة الآخرون ، ولاموه على فعلته ، والحوا عليه حتى يطلق سراح رهبان الضريح المقدس ليعودوا الى منزلتهم ، واخيرا وافق على عملية الانتخاب ثم منح ابن عمه المسمى غراشيان قلعة في منطقة عكا اسمها كفربولا ومنحه ثقته والحقه بحاشيته .

وقرر الرهبان الذهاب الى روما ليعرضوا نتيجة عملية انتخابهم

- ٣٩٧٩ -
للبطريرك علي البابا ، وهناك حصلوا على الموافقة ، ثم أطلعوا البابا كلستين (الثالث) على ما فعله الكونت بحق رهبان الضريح المقدس ، وقد أزعجه هذا التصرف كثيرا ، وهكذا أوقف دور ملك القدس في انتخاب البطريرك ، وقرر أن يكون الرهبان لوحدهم هم الذين يتولون انتخاب بطريركهم .

- ٣٩٨٠ -

رجل مقترف للمساوىء في قبرص :

كان في الايام التي توج فيها ايمري لوزنغنان ملكا على جزيرة قبرص ، في هذه الجزيرة رجلا مقترفا للمساوىء يدعى كانا قي ، وكان نشطا هناك منذ أيام الاغريق ، ولقد أساء في الجزيرة كثيرا الى المسيحيين ، وعندما علم الملك ايمري بخبر هذا الرجل المسيء أمر بالقاء القبض عليه ، ووعد الذي يأتيه به بجائزة كبيرة ، وقد استهدف من القاء القبض عليه محاكمته ، وعندما علم ذلك الرجل بأن الملك يبحث عنه هرب من جزيرة قبرص ، وذهب الى غريفون في كليكية التي كان اسم حاكمها اسحق ، وكان سيدا لأنطاكية القائمة على البحر التي كانت تعرف قديما باسم انطاكية بيسيديا ، وقد وجد الرجل المسيء منقذا كبيرا في شخص اسحق ، فقد استقبله السيد اسحق استقبالا طيبا واعتنى به لمعرفته أنه كان مكروها جدا من قبل المسيحيين ، ولانه هو نفسه كان أيضا مكروها من قبل المسيحيين ، وطلب هذا المدعو كاناقي من اسحق تزويده بجيش حسن التسليح حتى يحارب به ضد رجال قبرص ، ووافق اسحق على طلبه بكل سرور .

وعندما تم ذلك توجه نحو جزيرة قبرص ، وعندما اقترب منها وجد مركبا لجماعة من معارفه ، فسألهم عن أخبار الملك ، وعن الأوضاع في جزيرة قبرص ، حتى يستطيع أن يقوم بعمل يزعج به أهل قبرص ، وقد أخبره هؤلاء أن الملكة جاءت مع أولادها للاقامة

قرب البحر في منطقة اسمها « الفردوس » ، ذلك أن الملكة كانت متعبة ، فقد قدمت الى هنا لترتاح ولتستبدل هواء مملكة القدس ، وحالما علم كاناقي أن الملكة كانت هناك ، نزل الى اليابسة ، وكذلك فعل اتباعه ، وكان هذا الرجل يعرف مداخل جزيرة قبرص ومخارجها ، وهكذا وصل عند الفجر الى المنطقة التي

كانت فيها الملكة ، وفاجا الناس الذين كانوا مع الملكة ، فاخذها وأولادها واصطحبهم معه في سفينة .

وبعدما اصطحب معه الملكة ، ارتفع الصراخ في البلاد ، فـوصل الخبر الى الملك ، وقد أزعجه هذا الخبر كثيرا ، وبادر بدون تـأخير نحو المكان الذي كانت فيه ، ظانا انه سيدركها قبـل أن تحمـل الى سطح البحر ، ولكنه لم يتمـكن مـن الوصـول في الوقـت المناسب ، ولهـذا تـألم الملك كثيرا ، وكذلك تـألم أهـل الملكة والآخرون ، وأزعجهم هـذا العـار الذي لحـق بهـم في مملكة قبرص ، ووصل كاناقي الى سيده اسحق وهو يشعر انه حقق نصرا عظيما ، وذلك بسبب الصيد الثمين الذي احضره له .

وعندما سمع لاون دي مونتايين ـ الذي كان سيد مملكة أرمينية بهذا الخبر ، غضب للعار الذي لحق بالملك ايمري وبـالسيدة ، وذلك محبة له لانه كان صديقه ، وحبا بـالملك ايمـري وحبـا ببلدوين دي ابلين الذي كانت السيدة ابنته ، أرسل بالحال وفدا الى اسحق الذي كان عزيزا عليه يحبه حبه لحياته ، وعندمـا رأى اسـحق رسـالته احضر السيدة وأولادها الى كورك.

ولا يعجبن أحـد أو يندهش لهـذا الشرف الذي حصـل عليه ملك القدس ، ذلك أنه منذ احتلال القدس وحتى ذلك الحين ، قليلا ما كان لكنيسة روما من رأي في البلاد وتدخل ، لأنه عندما جاء الدوق غودفري والبارونات الآخرون لاحتلال البلاد جاءوا بموافقة البـابا أوربان وكذلك بموافقة الملك هنري ، ثم فيما بعد مـن قبـل البـابا الاسكندر والامبراطور فردريك ، جد هذا الذي أقام في الحكم سبع عشرة سنة ، وحدث أن اثنان من البابوات ماتا ميتة مشؤومة ، وما من أحد حمل الملك مسؤولية هذه العادة .

١٤٩ ـ كان في الأيام التي توج فيها ايمـري لوزنغنان ملكا على جزيرة قبرص ، في هذه الجزيرة رجـلا مقتـرفا للمسـاوىء يدعى كاناقـي ، وكان نشـطا هناك منذ أيام الاغريق ، ولقـد أسـاء في الجزيرة كثيرا الى المسيحيين ، وعندما علم الملك ايمري بخبر هـذا الرجل المسيء أمر بالقاء القبض عليه ، ووعد الذي يأتيه به بجـائزة كبيرة ، وقد استهدف من القاء القبض عليه محاكمته ، وعندمـا علم ذلك الرجل بأن الملك يبحث عنه هرب من جزيرة قبرص ، وذهب الى غريغون في كليكية التي كان اسـم حـاكمها اسـحق ، وكان سـيدا لأنطاكية القائمة على البحر التي كانت تعرف قديما باسم انطـاكية بيسيديا ، وقد وجـد الرجـل المسيء منقـذا كبيرا في شـخص اسحق ، فقد استقبله السيد اسحق استقبالا طيبا واعتنى به لمعرفته انه كان مكروها جدا من قبل المسيحيين ، ولأنه هو نفسه كان ايضا مكروها من قبل المسيحيين ، وطلب هذا المدعو كاناقي مـن اسـحق تزويده بجيش حسن التسليح حتى يحـارب بـه ضـد رجـال قبرص ، ووافق اسحق على طلبه بكل سرور .

وعندما تم ذلك توجه نحو جزيرة قبرص ، وعندما اقتـرب منهـا وجد مركبا لجماعة من معارفه ، فسـألهم عن أخبـار الملك ، وعن الأوضاع في جزيرة قبرص ، حتى يستطيع أن يقوم بعمل يزعج بـه أهل قبرص ، وقد أخبره هؤلاء ان الملكة جاءت مع أولادها للاقـامة قرب البحـر في منطقـة اسـمها « الفـردوس » ذلك أن الملكة كانت

متعبة ، فقد قدمت الى هناك لترتاح ولتستبدل هواء مملكة القدس ، وحالما علم كاناقي أن الملكة كانت هناك ، نزل الى اليابسة ، وكذلك فعل اتباعه ، وكان هذا الرجل يعرف مداخل جزيرة قبرص ومخارجها ، وهكذا وصل عند الفجر الى المنطقة التي كانت فيها الملكة ، وفاجأ الناس الذين كانوا مع الملكة ، فأخذها وأولادها واصطحبهم معه في سفينة .

١٥٠ ــ وبعدما اصطحب معه الملكة ، ارتفع الصراخ في البلاد ، فوصل الخبر الى الملك ، وقد أزعجه هذا الخبر كثيرا ، وبادر بدون تأخير نحو المكان الذي كانت فيه ، ظانا انه سيدركها قبل أن تحمل الى سطح البحر ، ولكنه لم يتمكن من الوصول في الوقت المناسب ، ولهذا تألم الملك كثيرا ، وكذلك تألم اهل الملكة والآخرون وأزعجهم هذا العار الذي لحق بهم في مملكة قبرص ، ووصل كاناقي الى سيده اسحق وهو يشعر أنه حقق نصرا عظيما ، وذلك بسبب الصيد الثمين الذي أحضره له .

وعندما سمع لاون دي مونتايين ، الذي كان سيد أرمينية بهذا الخبر ، غضب للعار الذي لحق بالملك ايمري وبالسيدة ، وذلك محبة له لأنه كان صديقه ، وحبا بالملك ايمري وحبا ببلدوين دي ابلين الذي كانت السيدة ابنته ، أرسل بالحال وفدا الى اسحق الذي كان عزيزا عليه يحبه حبه لحياته ، وعندما رأى اسحق رسالته أحضر السيدة وأولادها الى كورك ، ومن ثم بعث برسالة الى الملك ايمري لئلا يظل حزينا وأعلمه أنه حرر السيدة وأولادها من أيدي أعدائهم ، ولما سمع الملك ايمري هذه الأخبار سر كثيرا ، وشكر هذه الخدمة والعمل الصالح الذي قام به نحوه ، ثم سلح سفنه واصطحب معه خيرة رجاله وتوجه الى ارمينية ، حيث استقبل بحفاوة ، وقد ابتهج كثيرا عندما وجد السيدة وأولاده سالمين أصحاء ، وحظي الملك لاون بمحبة الملك ايمري ومحبة أقارب السيدة للخدمة التي أسداها للسيدة ولأولادها ، واستعد الملك للعودة الى

قبرص ، وعندما أكمل استعداداته أصعد السيدة وأولادها الى السفينة وكذلك صعد هو مع رجاله .

كيف اعتقل لاون سيد أرمينية أمير أنطاكية :

في أثناء حصار عكا ذهب بوهيموند امير انطاكية لمشاهدة كل من ملكي انكلترا وفرنسا ، لانهما كانا من اقربائه ، واغتنمت زوجته سيبل فرصة غيابه ، وكانت علاقتها به سيئة ، فاتصلت بلاون دي مونتايين سيد أرمينية ، وتآمرت معه لاعتقال زوجها ، ووعدها لاون بالزواج منها وباعتقال الامير وايداعه في سجنه من أجل اعطاءانطاكية الى وليم ابنها وجعله الوريث،ذلك أنه اراد حرمان ورثة الأمير .

وعندما جاء الامير ثانية الى انطاكية دعاه لاون لتناول الطعام معه قرب نبع بغراس (في سنة ١١٩٤) ووافق الأمير واستجاب لدعوته وذلك بسبب تشجيع الأميرة سيبل له ، وذهب الامير والأميرة الى نبع بغراس وقد اصطحبا معهما بارونات انطاكية ، وقائد قواتها راؤول دي مون ، ومارشال بيت لحم وأولفر الحاجب وردشارد دي ارمنت وبقية الاتباع والأصحاب ، ولم يبق في انطاكية سوى البطريرك ايمري وريموند الابن البكر للأمير ، وعندما كان الأمير على نبع بغراس وجد لاون نفسه غير قادر على تنفيذ ماأراده فما كان منه الا أن طلب من الأمير مصاحبته لزيارة قلعة بغراس ، حيث يمكنه من هناك رؤية البحيرة والتمتع هناك ، واستجاب الأمير لدعوته وذهب معه الى القلعة ، وبعدما أكمل تناول طعامه ونال قسطا من الراحة ، أمر أن تسرج خيوله وتعد مراكبه للعودة الى أنطاكية ، ولم يكن أحد قد أخبره ان جنوده وفرسانه ورجاله قد جرى اعتقالهم .

وشحن لاون القلعة بالرجال المسلحين وجعلهم على أهبة الاستعداد ثم

وعندما سمع لاون دي مونتايين ، الذي كان سيد مملكة أرمينية بهذا الخبر ، غضب للعار الذي لحق بالملك ايمري وبالسيدة ، وذلك محبة له لأنه كان صديقا له ، وحبا بالملك ايمري وحبا ببلدوين دي ابلين الذي كانت السيدة ابنته ، أرسل بالحال وفدا الى اسحق الذي كان عزيزا عليه يحبه حبه لحياته ، وعندما رأى اسحق رسالته أحضر السيدة وأولادها الى كورك ، اذ انصاع اسحق لأوامر سيد أرمينية ، ونفذ ما أراده منه فأرسلهم الى كورك بكل عناية واحترام ، وما أن عرف لاون بوصولهم حتى خف لاستقبالهم ، فاستقبلهم بكل حفاوة وترحاب كبير،حسبما يليق بهم فهذا كان مما يبعث السرور في نفسه كثيرا .

١٥١ ـ ولما وصلت السيدة الى كورك ارسل وفدا الى الملك ايمري ، حتى لايبقى حزينا مغضبا ، وأخبره أنه حرر السيدة وأولادها من سلطة أعدائهم ، وبعدما سمع الملك هذه الأخبار اعتلاه السرور ، وشكر للاون هذه الخدمة وهذا المعروف الذي اسداه له ، ثم مالبث ان أعد سفنه وسلحها ثم اصطحب معه خيرة رجاله وتوجه نحو أرمينية حيث استقبل بكل حفاوة وترحاب .

وابتهج الملك ايمري كثيرا عندما وجد السيدة مع أولاده بخير سالمين ، وبذلك ازدادت حظوة لاون دي مونتايين عند الملك ايمري وعظم حبه له ، وابدى نحوه الشعور نفسه أقارب السيدة للخدمة التي قدمها لها ولاولادها ، وعندما شرعوا بالاستعداد للعودة الى قبرص سار معهم سيد أرمينية من كورك ، ثم سأل الملك أن يقبل دعوته لتناول الطعام معه هو وجميع رجاله ، فلبى الملك دعوته بكل سرور ، وبعدما جهزت الامور ليأكلوا معا ، جاء ريموند دي بوردون ، الذي كان آمرا للاسطول ، الى الملك ايمري وقال له :« يامولاي اذا لم تسافروا الآن من أرمينية ستضطرون للبقاء فيها أكثر مما تريدون » وسأله الملك عن السبب ، فبين له أن الوقت قد تغير وتغيرت معه الانواء ، فصدقه الملك وأمر بصعود السيدة والاولاد الى السفن وكذلك فعل هو ورجاله حيث صعدوا ايضا .

وقد انزعج ملك أرمينية لسرعة رحيلهم ولانه لم يستطيع أن يسرهم أكثر مما فعل ، وعندما وجد أن الملك ورجاله لن يستطيعوا تناول الطعام معه ، أمر بتحميل التجهيزات مع جميع أدوات الطعام في السفن ، وهكذا أقلعوا مسافرين من كورك حيث وصلوا الى شيرني ، ولما أبحروا ثانية هبت عليهم ريح شديدة وهاجت عاصفة كبيرة في البحر ، وتقاذفتهم الامواج وأبعدتهم عن اليابسة ، وعندما صاروا وسط لجة البحر غرقوا وهلكوا .

١٥٢ ــ في أثناء حصار عكا ذهب بوهيموند أمير أنطاكية لمشاهدة كل من ملكي انكلترا وفرنسا لانهما كانا من أقربائه ، واغتنمت زوجته سيبل فرصة غيابه وكانت علاقاتها به سيئة ، فاستعانت بلاون دي مونتابيين سيد دولة أرمينية وحاكت معه خيوط مؤامرة يستقبل فيها زوجها ويعتقله ، والسبب الذي دفعها الى هذا التصرف ضده ، هو أن الأمير كان قد تزوج من قبل من سيدة أخرى ، ثم طلقها لانه كان فقيرا ركبته الديون ، ووعدها لاون .

جاء الى عند الأمير ، وعندما اكتشف الأمير هـذه الخيانة قال له :« ماهذا يا لاون هل أنا الآن رهن الاعتقال »؟ فأجابه: « نعم ، لانني أريد الحصول على انطاكية التي وعدتني بها مرارا ، واخذت مني في سبيلها أموالا طائلة ، وعلاوة على ذلك الا تذكر كيف اعتقلت أخي روبين ، عندما دعوته لتناول الطعام معك ولمرافقتك الى مدينة أنطاكية ، فهناك ألقيت القبض عليه واودعته في سجنك ، وأخذت منه أموالا كثيرة ، ولم تخرجه من سجنك حتى سلمك البلاد الواقعة فيما بين نهر جيحان ومشارف قلعة بغراس (اعتقل بوهيموند الثالث روبين الثالث سنة ١١٨٢ وسيطر اثر ذلك على المنطقة الممتدة مابين قلعة بغراس ومصب نهر جيحان) لهذا السبب أريد ان تعيد لي انطاكية مع الاموال التي أخذتها من اخي ، وبدون ذلك لايمكنك أن تفلت من يدي » .

ولما سمع الامير هذا الكلام قال للاون :« كيف أعيد لك انطاكية واسلمها وأنا سجين بين يديك ؟ لذلك دعني اذهب ومن ثم سأعيدها لك ، فقال له لاون :« لالن أفعل ذلك قطعا ، عليك أن ترسل بعضا من رجالك الذين هم الآن معك حتى يسلموا انطاكية الى مبعوثي ، وبعد هذا الاجراء سأطلق سراحك وأدعك تذهب حيث تريد ، ووافق الامير على طلبه هذا وأصدر أمره الى رتشارد دي ارمنت ومارشال بيت لحم أن يذهبا الى انطاكية ، ويسلما المدينة ويضعاها تحت امرة لاون ، وأرسل لاون بدوره رجلا نبيلا من أرمينية العليا يدعى هيتوم دي سيسون ، وكان متزوجا من ماريا أم السن ابنة أخي لاون ، أي ابنة روبين التي كانت زوجة ريموند ابن الامير البكر ، ومنه انجبت روبين الذي صار أميرا لانطاكية .

بالزواج منها وباعتقال الامير وايداعه في سجنه من أجل إعطاء انطاكية الى وليم ابنها وجعله الوريث ، ذلك أنه أراد حرمان ورثة الامير .

وعندما جاء الامير ثانية الى أنطاكية دعاه لاون لتناول الطعام معه قرب نبع بغراس (١١٩٤) ووافق الامير واستجاب لدعوته وذلك بسبب تشجيع الاميرة سيبل له ، وذهب الامير والأميرة الى نبع بغراس وقد اصطحبا معهما بارونات انطاكية ، وقائد قواتها راؤول دي مون ، ومارشال بيت لحم وأولفر الحاجب ورتشارد دي أرمنت وبقية الاتباع والاصحاب ، ولم يبق في أنطاكية سوى البطريرك ايمري وريموند الابن البكر للامير ، وعندما كان الأمير على نبع بغراس وجد لاون نفسه غير قادر على تنفيذ ماأراده ، فما كان منه الا أن طلب من الامير مصاحبته لزيارة قلعة بغراس ، حيث يمكنه من هناك رؤية البحيرة والتمتع هناك ، واستجاب الأمير لدعوته وذهب معه الى القلعة ، وبعدما أكمل تناول طعامه ونال قسطا من الراحة ، أمر أن تسرج خيوله وتعد مراكبه للعودة الى انطاكية ، ولم يكن احد قد اخبره أن جنوده وفرسانه ورجاله قد جرى اعتقالهم .

١٥٣ ـ وشحن لاون القلعة بالرجال المسلحين وجعلهم على أهبة الاستعداد ، ثم جاء الى عند الامير ، وعندما اكتشف الامير هذه الخيانة قال له :« ماهذا يالاون هل انا الآن رهن الاعتقال »؟ فأجابه « نعم ، لانني أريد الحصول على انطاكية التي وعدتني بها مرارا ، وأخذت مني في سبيلها أموالا طائلة ، وعلاوة على ذلك الا تتذكر كيف اعتقلت أخي روبين ، عندما دعوته لتناول الطعام معك ولمرافقتك الى مدينة أنطاكية ، فهناك القيت القبض عليه وأودعته في سجنك ، وأخذت منه أموالا كثيرة ، ولم تخرجه من سجنك حتى سلمك البلاد الواقعة فيما بين نهر جيجان ومشارف قلعة بغراس (اعتقل بوهيموند الثالث روبين الثالث

سنة ١١٨٢ وسيطر اثر ذلك على المنطقة الممتدة مابين قلعة بغراس ومصب نهر جيجان) لهذا السبب أريد أن تعيد لي أنطاكية مع الاموال التي أخذتها من أخي ، وبدون ذلك لايمكنك أن تفلت من يدي »

١٥٤ ـ ولما سمع الامير هذا الكلام قال للاون :« كيف أعيد لك انطاكية وأسلمها وأنا سجين بين يديك ؟ لذلك دعني أذهب ومن ثم سأعيدها لك ، فقال له لاون : لالن أفعل ذلك قطعا ، عليك أن ترسل بعضا من رجالك الذين هم الآن معك حتى يسلموا أنطاكية الى مبعوثي ، وبعد هذا الاجراء سأطلق سراحك وأدعك تذهب حيث تريد ، ووافق الامير على طلبه هذا وأصدر أمره الى رتشارد دي ارمنت ، ومارشال بيت لحم أن يذهبا الى انطاكية ، ويسلما المدينة ويضعاها تحت امرة لاون ، وأرسل لاون بدوره رجلا نبيلا من ارمينية العليا يدعى هيتوم دي سيسون ، وكان متزوجا من ماريا أم السن ابنة أخي لاون ، أي ابنة روبين ،

كيف تولت كومونة أنطاكية الحكم فيها:

وعندما توجه الفرسان الى انطاكية لتسليم المدينة واعطائها الى هيتوم ، طلب هيتوم من المارشال ومن رتشارد الذهاب أولا الى أنطاكية ، وأن يقيما في سانت جوليان الى أن يسلموه الابواب والقلعة وبقية الحصون ويضعوها تحت امرته ، ولما دخلوا الى المدينة استولوا على باب الجسر ، ثم قصدوا القصر ، ولما دخلوا الى قلب البلاط أخذ الرجل الذي أرسله هيتوم يستولي على ما فيه من أواني ، وشاهد هناك وراى بيعة صغيرة كان الامير ريموند قد بناها على اسم القديس هيلاري الصغير ، وبادر بعض رجال الحاشية الى حراسة البيعة ، فما كان من نائب هيتوم الا أن سأل أهل البلاط : ماهذا المبنى ؟ فقالوا له : انها بيعة هيلاري ، فما كان منه الا أن قال : نحن لانعرف قديسا اسمه هيلاري ولامايعنيه ، ولهذا سنعمدها من جديد ونعطيها اسم القديس سرجس

وعندما أنهى الرجل الذي أرسله هيتوم كلامه هذا ، تألم رجال الامير الذي أشرنا اليه ، والذين كانوا هناك ، وانزعجوا لدى سماعهم لهذا الكلام المتعجرف ، وتجمع هذا مع الالام التي شعروا بها نحو اميرهم، ولشدة تأثرهم قام أحد الرجال الذين كانوا هناك مغضبا وصرخ بصوت مرتفع : « ايها السادة كيف تتحملون هذا العار ، وهذه النذالة ، كيف لكم أن تقبلوا بخروج انطاكية وانتزاعها من سلطة الامير وذويه ، وأن تؤول بالتالي الى سلطة أناس سفلة مثل هؤلاء الارمن »؟! ومالبث أن تناول حجرة من كومة كانت هناك ، وقذف باحداها مندوب هيتوم ، وبهذه الضربة طرحه الى الارض ميتا ، وصرخ الآخرون :« الى السلاح ، واحتشد كل أهالي المدينة بارادة واحدة وصوت واحد ، واندفعوا مسرعين نحو

باب الجسر ، فـاستولوا عليه ، واسروا جميع الارمـن الذين كان هيذوم قد أرسلهم لاستلام أنطاكية ، ثم نظموا المدينة واقاموا فيهـا كومونة قوية،وهذا أمر لم يحصل من قبل ودام منذ ذلك الحين.

ثم ذهبوا الى ريموند الابن البكر للامير ، واخبروه أنهم قـرروا اختياره أميرا عليهم ، وذلك مثلما كان آباؤه من قبل .

التي كانت زوجة ريموند ابن الامير البكر ، ومنه انجبت روبين الذي صار اميرا لانطاكية (ريموند روبين أمير انطاكية ١٢١٦ ـ ١٢١٩) .

١٥٥ ـ وعندما توجه الفرسان الى انطاكية لتسليم المدينة واعطائها الى هيتوم ، طلب هيتوم من المارشال ومن رتشارد الذهاب أولا الى انطاكية ، وأن يقيما في سانت جوليان الى أن يسلموه الابواب والقلعة وبقية الحصون ويضعوها تحت امرته ، فبعدما يسلموها له سيدخل الى المدينة ، ولما دخلوا الى المدينة استولوا على باب الجسر ، ثم قصدوا القصر ، ولما دخلوا الى قلب البلاط أخذ الرجل الذي ارسله هيتوم ليستولي على مافيه من أواني ، وشاهد هناك ورأى بيعة صغيرة كان الأمير ريموند قد بناها على اسم القديس هيلاري الصغير ، وبادر بعض رجال الحاشية الى حراسة البيعة ، فما كان من نائب هيتوم الا ان سأل اهل البلاط : ماهذا المبنى ؟ فقالوا له : انها بيعة هيلاري ، فما كان منه الا ان قال : نحن لانعرف قديسا اسمه هيلاري ولامايعنيه ، ولهذا سنعمدها من جديد ونعطيها اسم القديس سرجس (كان سرجس بطريركا للقسطنطينية من ٦١٠ حتى ٦٣٨ ، وقد وقف معارضا لكنيسة روما حتى أنه بات رمزا لاستقلال الكنائس الارثوذكسية).

١٥٦ ـ وعندما أنهى الرجل الذي أرسله هيتوم كلامه هذا ، تألم رجال الأمير الذي اشرنا اليه ، والذين كانوا هناك ، وانزعجوا لدى سماعهم لهذا الكلام المتعجرف ، وتجمع هذا مع الالام التي شعروا بها نحو أميرهم ، ولشدة تأثرهم قام أحد الرجال الذين كانوا هناك مغضبا وصرخ بصوت مرتفع : « ايها السادة كيف تتحملون هذا العار ، وهذه النذالة ، كيف لكم أن تقبلوا بخروج انطاكية وانتزاعها من سلطة الامير وذويه ، وأن تؤول بالتالي الى سلطة أناس سفلة مثل هؤلاء الأرمن » ؟!

ومالبث أن تناول حجرة من كومة كانت هناك ، وقذف بـاحداها مندوب هيتوم ، وبهذه الضربـة طـرحه الى الأرض ميتـا ، وصرخ الاخرون :« الى السلاح» واحتشد كل أهالي المدينة بارادة واحـدة وصوت واحد ، واندفعوا مسرعين نحن بـاب الجسر ، فـاستولوا عليه ، وأسروا جميع الأرمن الذين كان لاون قد أرسـلهم لاسـتلام انطاكية ».

١٥٧ ـ وحينما اجتمعوا في الكنيسة الرئيسـية لمدينة انطـاكية ومعهم البطريرك ايمري تداولوا فيما بينهم ، وتوحدوا وهذا أمـر لم يحصل من قبل ودام حتى يومنا هذا ، ثم ذهبوا الى ريمـوند الابـن البكر للأمير ، وأخبروه أنهم قرروا اختياره أميرا عليهم بـدلا مـن أبيه ، وذلك الى حين اطلاق سراح أبيه .

وعندما سمع هيتوم هذا الخبر ، وكان مقيما في سانت جوليان ، وعرف أن سكان انطاكية ثـاروا ورفضـوا أوامـر الامير واعتقلوا رجال لاون خاف على نفسه أن يعتقل ويؤخذ اسـيرا عندمـا يعثـر عليه ، فما كان منه الا ان بادر مسرعا بقدر ماأمكنه نحـو بغـراس حيث كان لاون مقيما ينتظره هناك .

وماأن عرف هيتوم أن سكان أنطاكية قد ثاروا ورفضـوا أوامـر الامير ، واعتقلوا رجال لاون خاف على نفسه ان يعتقل ، أو يؤخـذ اسيرا عندما يعثر عليه ، فمـا كان منه الا أن بـادر مسرعا بقـدر ماأمكنه نحو بغـراس حيث كان لاون مقيمـا ، ولدى سـماع لاون ماحدث مع هيتوم حمل الأمير ومن كان معه الى قلعة سـيس وهناك عاملهم معاملة طيبة واحتفى بهم .

كيف جرى اطلاق سراح الأمير من سجن لاون :

وحينما اجتمعوا في الكنيسة الرئيسـية لمدينة انطـاكية ومعهـم البطريرك ايمري تداولوا فيما بينهم ، وتـوحدوا ، وهـذا أمـر لم

يحصل من قبل ودام حتى يومنا هذا ، ثم ذهبوا الى ريموند الابن البكر للأمير ، واخبروه أنهم قرروا اختياره أميرا عليهم بدلا من أبيه ، وذلك الى حين اطلاق سراح أبيه .

وعندما سمع هيتوم هذا الخبر ، وكان مقيما في سانت جوليان ، وعرف ان سكان انطاكية ثاروا ورفضوا أوامر الأمير واعتقلوا رجال لاون خاف على نفسه أن يعتقل ويؤخذ اسيرا عندما يعثر عليه ، فما كان منه الا ان بادر مسرعا بقدر ماامكنه نحو بغراس حيث كان لاون مقيما ينتظره هناك .

وحالما وصل هيتوم الى بغراس واطلع لاون على ماجرى معه ، قام لاون باقتياد الأمير وكل من كان معه ووضعهم جميعا في سجن قلعة سيس حيث عوملوا بكرامة ، وفق مايليق بمكانتهم ، وظلوا في السجن حتى ذهب الكونت هنري لتحريرهم .

وقام في عام ١١٢٣ لتجسيد المسيح ايمري بطريرك أنطاكية وريموند وبوهيموند ولدا الأمير بمراسلة الكونت هنري وسألوه القدوم اليهم للمساعدة على اطلاق سراح والدهما من سجن لاون ، وبالحال لبى الكونت هنري الطلب الذي تلقاه لأنه كان ابن عمه ، وسافر من عكا فكان خلال عدة ايام في طرطوس ، وهنا كتب اليه مقدم الحشيشية وبعث اليه بوفد يرجوه بالتفضل بالمرور في أراضيه ، وأعلمه أنه سيكون له الشرف العظيم في أن يراه ويجالسه ذلك أنه يعده سيدا وصديقا له ، وسر الكونت هنري بهذا الطلب وتوجه نحوه وهو يشعر بالبهجة .

وعندما تحرك الكونت هنري من طرطوس جاء مقدم الحشيشية لاستقباله وقد تلقاه بكل حفاوة وترحاب ، ثم صحبه في جولة خلال بلاده وجعله يزور قلاعه وعندما وصلوا الى القلعة التي تدعى الرصافة ، وهي أعظم القلاع التي يمتلكها ، سأل الكونت قائلا :« هل يطيعك رجالك كما يطيعني رجالي »؟ فأجابه الكونت :

نعم فقال مقدم الحشيشية وسيدهم :« لكن رجالك لاينفذون أوامرك مثلما ينفذ رجالي أوامري ، وسأريك ذلك » ثم امسك حربة بيده ، وأشار بها اليهم ، فما كان من الذين كانوا واقفين على ظهر القلعة الا أن القوا انفسهم بالقناة فتحطمت أجسادهم ، فعندما رأى الأمير هنري ذلك ، رجاه الا يكرر هذا العمل ثانية ، فأشار اليهم فتوقفوا عن رمي انفسهم ، ثم دخلا الى القلعة ، وكان امام مدخلها حاجز حديدي ، فالتفت سيد الحشيشية نحو الكونت وقال له :« وسأريك ايضا كيف يطيعون أوامري » فألقى بملاءه كانت في يده ، كان قد أخذها من الرجال الواقفين أمام الباب ، فألقى ثلاثة أو أربعة من رجاله بأنفسهم خلفها ، وانقضوا عليها فماتوا ، فرجاه أيضا الكونت هنري بالتوقف والا يفعل مافعله ثانية .

وأقام الكونت هنري عنده فترة طويلة ، منحه خلالها سيد الحشيشية هدايا ثمينة ، وفوق كل ذلك أكرمه وأكرم من كان معه غاية الاكرام ، ومن هناك سافر الأمير الى انطاكية حيث استقبل استقبالا عظيما ، وهناك اجتمع الكونت بالبطريرك مع ولدي الأمير وتداولوا بشأن تحرير والدهم وبعد هذا الاجتماع سافر الكونت من انطاكية وقصد بلاد أرمينية ، فجاء لاون لاستقباله والترحيب به بكل حفاوة ، ثم اصطحبه معه الى مدينة سيس وهناك اتفق معه على اطلاق سراح الامير من سجن لاون ، وعلى أن يتم الزواج فيما بين ابنة أخي لاون ، أي ابنة روبين وبين ريموند الابن البكر للأمير .

١٥٨ ـ وحالما وصل هيتوم الى بغراس واطلع لاون على ماجرى معه ، قام لاون باقتياد الامير وكل من كان معه ووضعهم جميعا في سجن قلعة سيس ، حيث عوملوا بكرامة ، وفق مايليق بمكانتهم ، وظلوا في السجن حتى ذهب الكونت هنري لتحريرهم .

١٥٩ ـ وقام في عام ١١٩٣ لتجسيد المسيح ايمري بطريرك انطاكية وريموند وبوهيموند ولدا الأمير بمراسلة الكونت هنري وسألوه القدوم اليهم للمساعدة على اطلاق سراح والدهما من سجن لاون ، وبالحال لبى الكونت هنري الطلب الذي تلقاه لانه كان ابن عمه ، وسافر من عكا فكان خلال عدة ايام في طرطوس ، وهنا كتب اليه مقدم الحشيشية وبعث اليه بوفد يرجوه بالتفضل بالمرور في اراضيه ، وأعلمه أنه سيكون له الشرف العظيم في أن يراه ويجالسه ذلك أنه يعده سيدا وصديقا له ، وسر الكونت هنري بهذا الطلب وتوجه نحوه وهو يشعر بالبهجة .

وعندما تحرك الكونت هنري من طرطوس جاء مقدم الحشيشية لاستقباله ، وقد تلقاه بكل حفاوة وترحاب ، ثم صحبه في جولة خلال بلاده وجعله يزور قلاعه وعندما وصلوا الى القلعة التي تدعى الرصافة ، وهي أعظم القلاع التي يمتلكها سأل الكونت قائلا :« هل يطيعك رجالك كما يطيعني رجالي »؟ فأجابه الكونت : نعم ، فقال مقدم الحشيشية وسيدهم :« لكن رجالك لاينفذون أوامرك مثلما ينفذ رجالي ، وسأريك ذلك » ثم امسك حربة بيده ، وأشار بها اليهم ، فما كان من الذين كانوا واقفين على ظهر القلعة الا أن القوا أنفسهم بالقناة فتحطمت اجسادهم ، فعندما رأى الامير ذلك رجاه الا يكرر هذا العمل ثانية ، فأشار اليهم فتوقفوا عن رمي أنفسهم ، ثم دخلا الى القلعة ، وكان امام مدخلها حاجز حديدي ، فالتفت سيد الحشيشية نحو الكونت وقال له :« وسأريك أيضا كيف يطيعون أوامري » فالقى بملاءة كانت في يده ، كان قد أخذها من الرجال الواقفين امام الباب فالقى ثلاثة أو أربعة من رجاله بأنفسهم خلفها ، وانقضوا عليها فماتوا ، فرجاه أيضا الكونت هنري بالتوقف والا يفعل مافعله ثانية .

١٦. ـ وأقام الكونت هنري عنده فترة طويلة ، منحه خلالها سيد الحشيشية هدايا ثمينة ، وفوق كل ذلك أكرمه وأكرم من كان معه غاية الاكرام ، ومن هناك سافر الأمير الى انطاكية حيث استقبل استقبالا عظيما ، وهناك اجتمع الكونت بالبطريرك مع ولدي الأمير وتداولوا بشأن تحرير والدهم ، وبعد هذا الاجتماع سافر الكونت من أنطاكية وقصد بلاد أرمينية ، فجاء لاون لاستقباله والترحيب به بكل حفاوة ، ثم اصطحبه معه الى مدينة سيس .

-٣٩٩٨-

كيف مر الكونت هنري بقبرص وتصالح مع الملك ايمري

وكنا قد تحدثنا من قبل عن ذهاب الكونت هنري لاطلاق سراح الأمير بوهيموند بن بيتابين من سجن لاون دي مونتابين ، وأنه زوج ابنه روبين التي كانت ابنة أخي لاون من ريموند ابن أمير انطاكية ، ثم عاد للتوجه نحو عكا ، وقد نصحه بارونات مملكة القدس الذين كانوا بصحبته بأن يمر على الملك ايمري ، لأنه عندما كان ايمري كافلا لمملكة القدس جرى حديث بينه وبين الكونت هنري حول أمور تتعلق بسيادة المملكة ومسائل أخرى أيضا ، ويحكى أن الكونت هنري كان لا يدعم ايمري الذي انتخب بطريركا ، وذلك من اجل خاطر الملك ايمري ، ورأى بارونات المملكة ان العلاقات السيئة وفساد النوايا ليست مفيدة لمملكة القدس ، وأن حسن النوايا والارادة الطيبة من السيدين يمكن أن تكون مفيدة لهما معا ، هذا وكان البيازنة قد بذلوا جهودا كبيرة لاصلاح ذات البين بين الملك والكونت .

وأدرك الكونت هنري ان هذا سيكون لصالحه ، فغادر أرمينية قاصدا جزيرة قبرص ، وعندما علم الملك ايمري أن الكونت قد وصل الى قبرص ، ذهب هذا الملك لاستقباله ، فاستقبله بكل حفاوة كما يليق به ، وجرت مصالحة بينهما ، وتمتنت أواصر السلام بينهما ومنذ ذلك الحين باتا افضل أصدقاء ، وعند ذلك سعى بارونات مملكة القدس وبارونات مملكة قبرص لعقد زواج بين ابناء ملك قبرص وبين بنات الكونت هنري مع بنات ايزابيل زوجته والتي كانت ملكة لمملكة القدس ، وتمت مراسم الزواج وبموجبها دفع الملك ايمري الى الكونت ثمن جهاز جميع البنات ، أما الكونت هنري فقام نزولا عند رغبة زوجته ايزابيل وتحقيقا لارادتها ، بابتياع امارة يافا ، وقدمها هدية الى ابنته بمثابة جهاز وميراث ، ولكن الذي حدث فيما بعد هو أن ولدي الملك ايمري : غويتين وجوهانين قد

توفيا وهما في ريعان الشباب وبــذلك انتقلت وراثـة الملك الى هيوت الذي سمي فيما بعد باسم هيوج ، وهو الذي تزوج إ مــن اليس ابنة الكونت هنري .

وفاة صلاح الدين :

في سنة ١١٩٥ لتجسيد المسـيح تـوفي صـلاح الدين (التـاريخ الصحيح ١١٩٣)

وبعد وفاته تمكن أخوه سـيف الدين مـن اسـتحواذ السـلطة لنفسه ، والحكم بدلا من أبناء صلاح الدين ، فقـد دس السـم الى احدهم ، وكان سـيدا لمدينة دمشـق ، واسـمه نور الدين ، وقـد استدعى هذا الحكماء ، وشرح لهـم كيف سـممه عمـه فسـاعدوه وقدموا له العلاج. للتخلص من السم ، ثم هــرب سـيف الدين مــن القلعة وذهب الى

١٦١ ـ في سنة ١١٩٥ لتجسيد يسوع المسيح توفي الملك غي ، وقام أهالي مملكة قبرص بمراسلة جفري دي لوزنغنان أخي الملك المذكور ، وأعلموه بحادث الوفاة وبرغبتهم في استقباله في قبرص لتتويجه ملكا عليهم ، ولم يرغب جفري بالقدوم ، فقام أهالي قبرص بتتويج ايمري ملكا بدلا من أخيه .

وتوفي في السنة نفسها صلاح الدين (وفاة صلاح الدين كانت يوم ٤ ـ نيسان ١١٩٣) وقد تمكن أخوه سيف الدين من استحواذ السلطة لنفسه ، والتحكم بأبناء اخيه صلاح الدين ، ودس السم لأحدهم ، الذي كان سيدا لمدينة دمشق ، واسمه نور الدين .

١٦٢ ـ بعد وفاة صلاح الدين جاء سيف الدين الى دمشق ليضع ابن اخيه في سدة الحكم ، وجرت العادة انه عندما كان البطريرك يتوج ملك القدس بتاج من ذهب ويمسحه يغدو ملكا ، وبالمقابل جرت العادة بين صفوف المسلمين ان يقوم أعظم الرجال مكانة بينهم فيحمل راية ويسيربها أمام الذي سيكون سلطانا جديدا ويبرزها عالية أمام الشعب وهو يقول لهم بأعلى صوته : « هذا هو سيدكم » فهذا ما فعله سيف الدين لابن اخيه ، حيث رفع راية سار بها أمامه وهو يعلن للشعب : « هذا هو سلطان دمشق ».

وكان سيف الدين هذا عظيم المكر كبير الحسد ، امتلك رغبة عارمة بالحصول على المملكة وانتزاعها من سلطان أبناء اخيه ، فعلى هذه الصورة خدم ابن اخيه وشرفه ، وتصرف ظاهريا حسبما توجب عليه أن يفعل ، لكن عندما عاد سيف الدين الى القلعة طلب من ابن اخيه احضار بعض التفاح ليأكل ، فجلب له التفاح ووضعه أمامه ، وبعدما اصبح التفاح أمام سيف الدين استل سكينا من وسطه ، كان قد وضع على رأسها سما ، ثم اخذ تفاحة وشطرها الى شطرين ، فأكل منها أولا ، ثم قطع قطعة من التفاحة نفسها ووضعها على رأس السكين ، وبكل أدب ولياقة تقدم من ابن اخيه وأعطاه هذه القطعة ، وأخذ ابن اخوه التفاحة وأكلها ، وبعدما

اكمل اكلها شعر حالا بأن السم سرى في جوفه ، فاستدعى الحكماء لمداواته وانقاذه من هذا السم الذي تناوله ، وقد شرح لهم كيف سممه عمه ، فساعدوه وقدموا له العلاج للتخلص من هذا السم .

ولما رأى سيف الدين أن ابن أخيه قد أكل التفاحة التي كانت مسممة تركه ثم هرب من دمشق بأسرع وقت ممكن ، وذهب الى بلاد ميديا ، أي الى بلاد الموصل والى تكريت ، اسكنى الأكراد في تلك المنطقة ، وحشد هناك حشدا كبيرا من الأكراد والتركمان والشعوب الأخرى ، وعاد على راس هذا الحشد الى دمشق ، ولدى اقترابه منها سلمت اليه المدينة ، وعندما دخل الى المدينة ثم الى القلعة حيث كان ابن اخيه ، وكان في القلعة عددا من أمراء صلاح الدين ، فأقبل هؤلاء نحو ابن سيدهم ، وجردوه من سيفه الذي كان الى جنبه ، وكان معنى تجريده من السيف عزله من السيادة ، ومن ثم أعلنوا سيف الدين سيدا عليهم .

وبعدما استولى سيف الدين على حكم دمشق ، غادر ابن صلاح الدين الذي كان قبله سيدا عليها ــ المدينة ــ وذهب الى عند أخيه البكر الملك العزيز ، وكان سيدا في القاهرة ، وهذا الذي تحدثنا عنه كان اسمه الأمير نور الدين علي ، وكان لقبه الذي شهر به « الملك الافضل ».

واثر استيلاء سيف الدين على دمشق ، سمع سلطان حلب الذي يدعى الملك الظاهر بن صلاح الدين ، بما اقترفه عمه من مساوىء تجاه أخيه ، فغضب كثيرا وتألم الى أبعد الحدود لما نال أخيه ، فأصدر أوامره الى قائد قواته بحشد جيشه للزحف ضد دمشق للثأر من عمه للأذى الذي الحقه بأخيه ، وهكذا تحرك من حلب مع قوة كبيرة ، وجاء ليحاصر دمشق وعمه الذي كان فيها ، وجاء من جهة ثانية نور الدين الذي كان سيد دمشق ، جاء على رأس القوات التي أعطاه اياها أخوه سلطان القاهرة مساعدة منه لاسترداد ملكه .

وقام سيف الدين في أثناء الحصار خفية بمراسلة قادة قوات ابني اخيه ووعدهم بالاموال والهدايا ، وجذب لهذه الوعود اليه القسم الاكبر من جيش ولدي أخيه ، وانزعج أهالي دمشق حيث خيل اليهم

ان مدينتهم ستؤخذ عنوة ، ولهذا قالوا لسيف الدين بأنهم سيسلمون المدينة مقابل حياتهم وسلامتهم ، فقال لهم سيف الدين « أيها السادة أعدوا انفسكم فانا على نية الزحف ضد مصر للاستيلاء على الحكم في القاهرة ».

وتابع سلطان حلب حصار دمشق ، غير انه ما لبث أن عرف أن عددا من قادة جيشه تخلوا عنه وتحولوا إلى عمه ، وعلى الرغم من معرفته بأمور هذه الخيانة التي قام بها القادة لصالح عمه ، شدد الحصار على دمشق مستهدفا الدخول اليها ، غير أنه عندما وجد أن رجاله قد تخلوا عنه ، أوقف الحصار وعاد الى حلب ، وكذلك عاد اخوه نحو القاهرة ، عندما أدرك انه واخوه لم يعد بمقدورهما متابعة حصار دمشق ، وانطلق سيف الدين خلفه ، وسار من دمشق يريد مصر ، وكان ينزل وراء ابن اخيه منزلا تلو الآخر حتى مصر .

وعندما وصل سيف الدين الى بلبيس كان الملك العزيز ـ ابن اخيه وسلطان القاهرة ـ في الصيد ، وبينما هو في الصيد تقنطر من على ظهر حصانه فاندقت رقبته ، وبسهولة سيطر سيف الدين على السلطنة في القاهرة ، وطرد ابن اخيه الذي كان سيد دمشق ، الذي سلف وتحدثنا عنه من قبل ، وهكذا استولى اذن سيف الدين على المملكة ، وبات منذ ذلك الحين يعرف بالملك العادل وما زال أولاده يحكمون البلاد .

وأرسل الكونت الذي كان داخل انطاكية الى سلطان حلب يطلب منه تقديم المساعدة ، لأن ملك أرمينية يريد حرمانه وانتزاع الامارة منه . فأجابه سلطان حلب بأنه سيساعده في كل مرة يطلب منه المساعدة ، ذلك انه لم يكن يحسب ملك أرمينية ووافق هذا امير انطاكية ، لأنه بدون ذلك ما كان بإمكانه المقاومة ضد ملك أرمينية وأن يحول بينه و بين السيطرة على البلاد ، ودامت هذه الحروب مدة سبع سنوات ، وأخيرا سلمت انطاكية الى ملك أرمينية عن طريق الخيانة .

وبعدما غادر الكونت هنري ارمينية وجاء الى قبرص واتفق مع الملك ايمري كما حدثتكم من قبل ، جاءته أخبار جديدة أفادت أن العادل قد استولى على مملكة باب اليون (القاهرة) ومملكة دمشق منتزعا اياهما من ولدي أخيه ، وأنه ـ أي العادل ـ قد خرق الهدنة التي ابرمها الملك رتشارد ، فانتشر المسلمون في البلاد وأحدثوا فيها أضرارا كبيرة ، ولهذا أسرع الكونت هنري وقدم الى ليماسول ومن هناك عبر الى عكا .

كيف حشد الامبراطور هنري أعداد كبيرة من الناس ليرسلهم الى سورية :

مات في ذلك الزمان ، والاحداث تتسارع هكذا في سورية ، وليم ملك صقلية بدون وريث فانتقلت المملكة الى عمته التي كانت تدعى كونستانس ، وكانت زوجة هنري ملك المانيا الذي كان ابن الامبراطور فريدريك الذي مات في أرمينية بينما كان ذاهبا الى سورية ، وكان لكونستانس أخ يدعى تانكرد ، وبعدما مات وليم استولى تانكرد على البلاد ، وتوج نفسه ملكا من دون ان يكون له الحق بذلك ، لأنه ـ كما قيل ـ ولد من زواج غير شرعي ، وبعد وفاة تانكرد هذا سيطر أولاده على المملكة من بعده .

- ٤٠٠٥ -

وبعدما وطد الملك هنري أموره في ألمانيا ولمباريا والبلاد الاخرى التي كانت تتبعه ، استدعى جميع البارونات الذين تحت سلطانه ، وبعدما أمن شؤون الامبراطورية حشد جيشا كبيرا فدخل به الى ...

١٦٨ ـ في العـــــــام ١١٩٥ لتســـــجيد مـــــــــــولانا وميلاده (الصحيح ١٩٩١) توفي كليمنت الثالث الذي كان البابا في روما ، وقد انتخب خليفة له البابا كلستين الثالث ، وكما حكينا من قبل عن غرق الامبراطور فريديريك لدى عبور نهر السن ، وكان أكبر أولاده يدعى هنري ، وهو الذي توجه ملكا على المانيا ، وزوجه من سيدة اسمها كونستانس ، وكانت عمة الملك وليم ملك صقلية ، وقد توفي وليم هذا بـدون وريث ، فـانتقلت مملكة صـقلية الى السـيدة كونستانس ، غير أن واحدا من أخوته واسمه تانكرد اسـتولى على المملكة وتوج نفسه سيدا عليها ، وقد قيل انه لم يكن له حـق بـذلك أبدا ، لانه ولد من زواج غير شرعي ، وبعد وفاة تانكرد هذا سـيطر أولاده من بعده على المملكة .

وبعدما وطد الملك هنري أموره في المانيا ولمباردیا والبلاد الاخرى التي كانت تتبعه وبعدما أمن شؤون الامبراطورية ، سار على رأس جيش كبير ، فدخل به الى صقلية ، فاستولى على بلرم وعلى القصر فيها ، وكان في داخله أولاد تانكرد فقضى عليهم ، وكان للملك تانكرد ابنتين وقد تمكنتا من الفرار ، وقد تـزوجت احـداهما مـن الكونت غوتيير (الثالث) دي بـرن ، وتـزوجت الثـانية مـــن كونت دي غريفين (بييرزياني دوج البندقية في ١٢٠٥) وأبـــاد الملك هنري كثيرا من سكان بيولا مع سكان صقلية .

وحمـل في تلك الآونة دوق النمسـا الملك رتشـارد ملك انكلتـرا واعطاه الى ملك المانيا ، وجمع هـذا الملك مبلغ المائتـي الف مـارك الذي أخذه فدية من الملك رتشـارد مـع المال الذي أخـذه مـن بيولا وصقلية ، ثم ذهب الى روما حيث توج امبراطورا ، فبهذا المال أقنع الرومان في أن يتوج بسلام وأمـان ، لانه يقـال : أنه في اليوم الذي يستلم فيه الامبراطور تاج امبراطورية رومـا يجـب عليه أن يدفـع كثيرا من المال الى الرومان واذا لم يسـتطع أن يدفـع ذهبـا يدفـع دما ، لانه في تتويج عدد كبير من الاباطرة عندما لم يدفـع للرومـان المال الكثير دفع لهم الدم الغزير الذي كان يسيل مثـل الســواقي في

وسط الشوارع ، وحدث في عدة مرات أثناء تتويج الامبراطور ان امتلأت كنيسة القديس بطرس بالدم ، هذا وتوج هنري هذا غداة انتخاب البابا كلستين .

١٦٩ ـ رأس الامبراطور فريدريك الذي تحدثنا عنه الامبراطورية في أيام حياته ، كما أمر أن يقسم له بأن تكون السيادة على الامبراطورية له وحده ، وهكذا ظل حتى تاريخ وفاته (في سنة ١٢٥٠) وغمرنا الرب بنعمه .

١٧٠ ـ بعدما أبرم الصلح بين الملك ايمري والكونت هنري حسبما تحدثنا من قبل ، استعد الكونت هنري للعودة الى عكا ، لكنه سمع أن الملك العادل الذي استولى على مملكة القاهرة بعدما انتزع الملك من أبناء أخيه قد أوقف العمل بالهدنة التي عقدها معه الملك رتشارد لذلك اسرع بالذهاب الى ليماسول ومن هناك ....

صقلية ، فاستولى على بلرم وعلى القصر فيها وكان في داخله أولاد تانكرد فقضى عليهم ، وكان للملك تانكرد ابنتين ، وقد تمكنتا من الفرار ، وقد تزوجت احداهما من الكونت غوتيير دي برن ، وتزوجت الثانية من كونت دي غريفين ، وأباد الملك هنري كثيرا من سكان بيولا مع سكان صقلية .

وحدث في هذه الفترة أن قبض دوق النمسا على الملك رتشارد ، وحمله الى الملك هنري ، وجمع هذا الملك الاموال التي حصل عليها من فدية رتشارد ومن بيولا ومن صقلية وجاء بها الى روما ، وطمأن الرومان فتوج امبراطورا .

وفي الحقيقة كان فردريك والده الذي تحدثنا عنه قد حكم المملكة واورثها حتى الثالث من أولاده .

وبعدما انجز هنري امبراطور ألمانيا كل هذه الاعمال وبعدما توج امبراطورا ، عطف على مملكة القدس ، متذكرا العواطف التي أبداها والده نحوها وكيف أنه أراد أن يراها بحالة جيدة ولكنه لم يتمكن من ذلك ، فبعث (هنري) بوفود الى ألكس امبراطور القسطنطينية ، طالبا منه أن يعمل على تمهيد الطرق والسبل واعداد المرافىء حتى تتمكن قواته وسفنه من العبور والنجاح ، وأن يرسل ايضا رجاله الى مملكة القدس لينقذها من أيدي أعدائها . واذا لم ينفذ ذلك سيأتي بالفعل ليراه .

وجاءت الوفود الى الامبراطور ألكس وأبلغوه ما أوصاهم به سيدهم ، فانزعج من ذلك كثيرا ، ولم يرق له جل ما قالوه له ، لكنه في النهاية وافق على مطالب الامبراطور هنري ، وذلك نزولا عند مطالب رجاله واستجابة لنصائحهم .

عبر وجاء الى عكا ، فوجد أن المسلمين قد جاسوا خلال الديار حيث أحدثوا أضرارا جسيمة .

١٧١ ـ وكنا قد تحدثنا عن الامبراطور هنري الذي استولى على سالرنو وبلرم مع بقية أجزاء مملكة صقلية ثم توج امبراطورا ، لقد أشفق هذا الامبراطور كثيرا على مملكة القدس ، لهذا قام بأعمال كبيرة ، ثم أخذ هذا الامبراطور بارضاء الناس غير انه لم يستطع اتمام مابدأ به ، ولو أن الرب منحه حياة أطول لكان قد تمم ذلك ، فلقد طلب برجاء ، ثم أمر أمراء المانيا بحمل الصليب للذهاب لتحرير مملكة القدس ، فأجابوه أنهم لن يمكنهم المغادرة قبل العودة الى مناطقهم واماراتهم لاكمال الاستعدادات لهذه الحملة ، فهم أرادوا العودة الى المانيا لتفقد قصورهم وقلاعهم ، فسمح لهم بذلك فعادوا الى المانيا واستعدوا للعبور بالطرق التي تناسبهم ، وقام الامبراطور باستعدادات كبيرة في بيولا حيث جهز السفن وشحنها بالمؤن والعتاد .

١٧٢ ـ وفي أثناء الاستعدادات التي قام بها الامبراطور هنري أوفد رسلا من قبله الى امبراطور القسطنطينية الذي كان يدعى الكسس ، حيث طلب منه اعداد الطرق والمرافىء التي سيعبر منها هو ورجاله وسفنه ، فقد كان هذا مما توجب عليهم القيام به ، وأن يرسل هذا الامبراطور نفسه بعضا من رجاله الى مملكة القدس لينجدها ضد أعداء الصليب ، واذا لم ينفذ مطالبه ويفعل ذلك ، سيأتي اليه ليزوره وهو يتحداه سلفا .

١٧٣ ـ وعندما جاء رسل الامبراطور هنري الى القسطنطينية استقبلهم الامبراطور الكسس بكل حفاوة وذلك تقديرا منه لسيدهم ، وأراد أن يظهر مجده وغناه أمام رسل امبراطور المانيا ، وقبل ان يطلع على مهمتهم ، زين قصره بالزينات الذهبية والحريرية ، وبعد ذلك استدعى اليه الرسل ، وعندما مثلوا في حضرته سألهم عن امبراطور المانيا وعن أملاك وثروات

سيدهم ، وعما اذا كان غنيا مثله ، وعما اذا كان لديه جواهر ثمينة مثله ، ولم يتردد الرسل الذين كانوا حــكماء

ومدربين في احسان الجواب ، فأجابوه ان سيدهم اغنى منه بعشر مرات ولديه ثروات اكبر بكثير مما رأوه في مملكة القسطنطينية ، وعند ذلك قال لهم:« هل لديه زينات وزخارف غنية مثلما ترون لدي»؟ فقالوا له

نعم يامولاي لديه أجمل وأثمن ، فقال الامبراطور :« بأي شيء هي أجمل »؟ فقالوا :« أولا لديه محبة رجاله ، وثانيا كل أرجاء الامبراطورية تحت امرته وسلطانه وهي : روما ، وتوسكانيا ، ولومبارديا ، وألمانيا ، وبورغونيا ، وبيولا ، وصقلية ، ولذلك يطلب منك بوساطتنا أن تعد السفن والطرق حتى يتمكن هو ورجاله من القيام بمهام العمل الذي عزموا تنفيذه ،وهو يطلب منك أيضا ان تستعد أنت بدورك حتى تمضي معه الى مملكة القدس ،عندما سيمر بك للعبور ، واذا لم تنفذ ماطلبه منك بوساطتنا سيأتي لزيارتك في امبراطوريتك ، وانذاك سيكون بامكانك أن ترى الزينات والزخارف الذهبية التي سميناها لك ».

١٧٤ ـ عندما سمع الكسدس ، امبراطور القسطنطينية قول الرسل تأثر كثيرا ، وغضب غضبا شديدا ، لكنه لم يفقد شجاعته أو توازنه فقال للرسل :« أيها السادة، سمعت جيدا مانقلتموه لي من سيدكم ، اذهبوا الآن واستريحوا ، وسأفكر ثم أجيبكم حسبما يترتب علي ».

وبعدما غادر الرسل حضرته ، استدعى اليه جميع الشيوخ المحنكين وأعيان القسطنطينية ، ولما اجتمعوا به قص على مسامعهم ماحمله له رسل امبراطور ألمانيا وأبلغوه به ، وكان يريد اظهار قدرته على اللامبالاة بامبراطور ألمانيا ، وكذلك أراد اهانة الرسل الذين أبلغوه في امبراطوريته مثل هذه الرسالة ، لهذا قال مخاطبا الحضور :« انني جمعتكم هنا وأريد أن أستمع الى نصيحة كل واحد منكم ، وليخبرني كل واحد منكم بما يريده ، وقد وافقه بعض الشباب على توجيه الاهانة للرسل واذلالهم .

١٧٥ ــ ولكن انبعث من بين الحضور شيخ اغريقي من أيام الامبراطور مانويل ، فطلب من الامبراطور أن يسمح له بالتعبير عن رأيه فقال :« يامولاي هل تسمحون لي بالتعبير عن رأيي ، ولعل ماسأقوله هو الصحيح »؟ فقال الامبراطور :« أريد أن تقول ماتراه الافضل » فقال :« دعني أخبركم أن الملك وليم الذي كان جارا لكم قد خطب ابنة الامبراطور مانويل لتكون له زوجة ، فوافق أولا على طلبه ، ثم ندم على ذلك ، ولهذا حاربه الملك وليم بقسوة حتى أنه استولى على ثلث امبراطوريته وانتزعها منه و لو لم .

وقــال الامبــراطور الكسس لرســل الامبــراطور هنري أنه كان سعيدا جدا لسماع أن الرب قد ألهم رجلا ســاميا مثـل امبــراطور المانيا وملك صقلية للذهاب في سبيل انقاذ مــدينة القــدس المقــدسة وللثأر للعار والأضرار التي سببها غير المؤمنين وانزلوها بحق شعب يسوع المسيح ، « وانني سأبذل كل ماأستطيع واقدم كل مســاعدة ممكنة ، وتأكدوا أنه عندما سيعبر من هنا امبراطور المانيا ســأكون قد هيأت كل مايروق له ولاتباعه » ثم أعطى هدايا جميلة وثمينة الى أعضاء الوفد ، واســتأذنه هؤلاء ، وعادوا الى ســيدهم في صــقلية ونقلوا اليه الجواب الذي أعطاهم اياه الامبراطور الكسس .

وثائقية حول هذا الموضوع :

وكان عندما ذهب الوفد الى القسطنطينية أن أرسل الامبــراطور هنري الى المانيا لاستدعاء الأمراء والبارونات وحثهم على الذهــاب الى مملكة القدس، وبعث كذلك الى الكرسي الرســولي المقــدس في رومــا يطلب منه أن يرســل أســـقفا الى المانيا ليبشر بـــالحروب الصليبية ، وليعلم الناس أن كل من يريد الذهاب الى بــلاد ســورية من فقراء أو اغنياء انه سيقدم لهم الاموال والمســاعدات لعبــور كل منهم الى القدس أو سورية ، واستجاب كثير من الناس وأصــبحوا صليبيين وقدموا الى بيولا حيث كان الامبراطور بــانتظارهم وحيث كان قد أعد لهم مايلزم للعبور ، وعندما اجتمع الالمان والذين تقــرر أن يرسلهم الامبراطور على نفقته كان بينهم ثلاثة آلاف من الفرسان واجتمع الى جانب هؤلاء عدد كبير جدا من الرجالة ، وكان في هــذا الحشد كونراد رئيس اســاقفة ميذس والقــاصد الرســولي الممثـل لرومــا ، وكونراد مســتشار القصر الامبــــراطوري ، وأوصى الامبراطور هؤلاء المسافرين باطاعة أوامر المستشار ، وكان معهــم أيضا هنري كونت بــالاتين وهنري دوق بــرابانت وعدد كبير لآخــر لايمكن عده ، وأوصاهم الامبراطور بــألا يســافروا مــن بيولا الا

- ٤٠١٥ -

لخدمة يسوع المسيح ، ووعدهم بـارسال المزيد مـن القـوات مـع مساعدات عظيمة .

ولو لم يمت سريعا لكان انتـزع منه مـا تبقـى مـن امبراطوريته ، ولم يعوض عن ذلك منذ ذلك الحين حتى أصبح أخوك امبراطورا ، فعوضه بذكائه ، وقد شهدت أنت نفسـك قـدوم الامبراطور فردريك والد هذا ، للذهـاب الى مملكة القـدس ، على الرغم من أنه عندما اصبح أخوك امبراطور القسطنطينية ، لم يرغب في استقباله أو التجاوب معه ، وذلك الامبراطور لم تـكن له سـلطة قوية مثلما لهذا الامبراطور ، فهذا يتمتع بسلطة أكبر مما كان لذاك في مملكة صقلية ، وبناء عليه انني أنصحك بأن تجيب جوابا حسـنا على طلب الرسل ، وعند وفاة هـذا الامبـراطور يدبـر الرب مـا يريد ، حيث يحكى أن الالمان سيثورون ضده ، والاغريق غاضـبون عليه ، وعليه أنصحك الا تنفعـل ولا تـظهر أنني غضـب تجـاه الرسل ، لأن هؤلاء الرسل أبلغوك ما كلفهم به سيدهم .

وأصغى الامبراطور المذكور بكل عناية الى نصيحة هـذا الشـيخ النبيل ، ورأى أنه قد نصحه بشكل جيد وبكل اخلاص ، ثم دعا اليه رسل امبراطور المانيا وقال لهم : لقـد وجـد أن عليه الاجـابة على رسالة سيدهم الذي أرسلهم اليه ، لأنه يحب مملكة القـدس ويرعى مصالح المسيحيين ، ولأنه يبذل جهـوده في سـبيل مصـلحة مـدينة القدس المقدسة ، وفي سبيل تحريرها ، وانه لأمر يبعث على السرور أن ألهم الرب ويسر للقيام بهذا العمل رجـل عظيم هـو امبـراطور المانيا وملك صقلية ، فجعله يقرر الذهاب كي يحرر مـدينة القـدس المقدسة ، وكي يثأر للعار الذي لحق بيسوع المسيح ، وبمشيئة الرب وعونه ، إنه سيفعل مثلما فعل أسلافه ، وبالنسبة لي إنه مثلما كان الامبراطور مانويل سيبذل جهده ويقدم مساعداته لتحـرير الأراضي المقدسة ، هكذا سافعل ، فعندما سيمر الامبراطور من هنا سـأقوم باستعدادات ترضيه وترضي أصحابه ومن معه ، وبعـد ذلك أعطـى الرسل هدايا جميلة وثمينة ، فاستأذنه هؤلاء وسافروا الى صـقلية حيث وجدوا سيدهم امبـراطور المانيا ، فقـدموا له الجـواب الذي أعطاهم اياه امبراطور القسطنطينية .

- ٤٠١٧ -

١٧٦ ـ وبعدما عاد الرسل المشار اليهم من القسطنطينية ، وقدموا الجواب الى سيدهم ، كتب امبراطور المانيا حالا الى امراء المانيا والى بقية البارونات للحاق به ومن ثم التحرك للذهاب الى مملكة القدس ، وأخبرهم أنه سيقدم المساعدات والسفن الى جميع الذين سيذهبون للاسهام في بذل المساعدة على احتلال أراضي القدس ، وعلى هذا إن هذا التحرك لن يكلفهم شيئا من النفقات ، ولقد كان هذا هو التحرك الثاني للألمان في سبيل احتلال مملكة القدس .

-٤٠١٨-

كيف وصل الالمان الى عكا:

وصل قسم من الالمان الذين عبروا البحر الى قبـرص ، ووصـل القسم الآخر الى عكا ، وكان مع الذين وصلوا الى قبرص مستشار المانيا ، وعندما علم الملك ايمري بذلك ذهب الى استقباله ورحب بـه ترحيبا كبيرا ، وأعلمه انه منذ أن كان عند الامبراطور تـوسل اليه للقدوم ، لانه رغب في استلام البلاد من أيدي الامبراطور ، واتفـق مع المستشار وأخبروه بأنه سيقوم بذلك لأنه استقبله ، ثم اصطحب معه فرسانه وذهب الى نيقوسيا وتوجه فيها وبعدما توجه ذهب الى سفينته وسافر وصحبه مـن قبـرص ، هـكذا وصـلوا الى عكا بعدوصول الآخرين .

وعندما بـات الالمان في عكا تعـالوا على سـكان البـلاد واحتقروهم ، وبدأوا يسببون لهم ازعاجا عظيما ، ويلحقـون بهـم أضرار كبيرة لم يستطيعوا تحملها ولكن مولانا لم يكن يريد حصـول مثل هذه المشاكل والاساءات بين المسيحيين حيث أن سـادة الالمان عندما سمعوا بما يحصل أرسلوا اتباعهم ليتمركزوا على الشـاطىء خارج المدينة .

١٧٧ ـ وكتب الامبراطور هنري الى بابا روما متوسلا اليه وطالبا منه أن يرسل الى المانيا ممثلا له ليبشر بالصليب ، واعلمه انه سيقدم ما يلزم من المساعدات والسفن الى جميع الذين سيذهبون لتقديم المساعدة في سبيل احتلال مملكة القدس ، وأن السفر لن يكلف أحدا شيئا من المال ، وانه لن يتخلى عن قيادة هذه الحملة حتى تتحرر القدس ، ونتيجة لهذا الطلب والتحريض اجتمع عدد كبير من الفرسان والبارونات ، وذهبوا الى بيولا حيث كان الامبراطور بانتظارهم ، وهناك أسند الامبراطور قيادة الذين اجتمعوا الى مستشار مملكة المانيا ، فرحب هؤلاء بهذا القرار واستقبلوه بكل سرور ، وظل العدد الاكبر من المتطوعين والفرسان تحت امرة الامبراطور ، وشجع الامبراطور كل الذين باتوا تحت امرة المستشار وحثهم وطمأنهم ووعدهم انه لن يغادر بيولا قبل ان يصلوا الى بلاد ما وراء البحار وسيمدهم بالمال والرجال ماداموا في خدمة يسوع المسيح .

وتجهز الاسطول واحتشد الناس واقلعوا وابحروا حتى وصلوا الى عكا ، وكان الذين عبروا عبارة عن ثلاثة كونتات مع ثلاثة الاف فارس ورجالة وسيرجانتية لا يمكن عدهم ، وكان في عداد هذه الحملة مندوب البابا دي لي اغليس دي روما وكونراد رئيس أساقفة دي مذس وكونراد مستشار القصر الامبراطوري ، وهنري كونت بالادين وهنري دوق برابانت ، وعدد كبير لخر ، يمكن أن يقال أشياء كثيرة حول اسم كل واحد منهم .

١٧٨ ـ وعندما وصلوا الى عكا جعلوا من هنري كونت بالادين قائد الجيش كله ، ومن دوق برابانت رئيس القضاة ، ذلك انه وصف بالنزاهة والشرف والعدل في القضاء ، ومنذ أن وصلوا الى مدينة عكا عاملوا سكان البلاد بازدراء حتى أنهم طردوهم من فنادقهم ، لا بل أكثر من ذلك ، عندما كان فرسان البلاد يخرجون بمهام خارج عكا ، كانوا يذهبون الى بيوتهم ويطردون نساءهم ويسكنون محلهم ، وقد أزعج هذا التصرف سكان البلاد ازعاجا

كبيرا ، فأطلعوا عليه الكونت هنري ، وعندما سمع الكونت بأمر هذه التعديات غضب كثيرا وتشاور مع اعيان المملكة واخبرهم انه سيتدخل لحسم الأمور ، فقال له السير هيو امير طبرية :إن هذه التعديات مما لا يمكن تحمله ابدا ، وهو يعرف شخصيا أن مثل هؤلاء الالمان اذا لم يواجهوا ببعض القسوة لا يمكن احتمالهم ، ثم قال : « لنضع نساءنا وأولادنا في داري فرسان الداوية وفرسان الاسبتارية ولنضع معهم بقية الناس ، فإذا انقضوا عليهم ، يمكن لنذاك التخلص من هذه المشاكل ، وهكذا بحث الأمر واتفق عليه ، ورفض سادتنا نشر أخبار هذه الاساءات بين أوساط المسيحيين ، وعندما سمع أشراف الالمان بأخبار هذه الاساءات نصحوا الالمان بالخروج من المدينة واتخاذ معسكراتهم قرب الشاطىء لئلا يلحق الضرر بأي انسان ، واستمعوا الى هذه النصيحة وخرجوا للسكن هناك .

وجمع العادل الذي استولى على مملكتي باب اليون (مصر) ودمشق وانتزعهما من ولدي اخيه ، عددا كبيرا من رجال السلاح وبذل كل جهوده ، ثم جاء الى عكا ، وبعدما علم الكونت هنري بذلك أعلم الالمان ، فحملوا أسلحتهم وزحفوا ضدهم ، وعندما رأى الالمان المسلمين قال لهم هيو صاحب طبرية : « أيها السادة ، انظروا هاهي مملكة بابليون ومملكة دمشق ومملكة القدس ، لا بل البلاد بمجملها أمامكم ، وبناء عليه فليبرهن من أراد منكم على فروسيته » ، ونشبت معركة قاسية خلال اليوم كله ، وفي النهاية تخاذل الالمان وانسحبوا أمام تفوق قوة المسلمين ، فقد قيل كانوا يتألفون من سبعين الف مقاتل مسلح ، ولذلك انسحب أكبر قسم منهم ومن سكان المملكة ، واعلنوا أنهم اضطروا الى التراجع الى داخل عكا ، وتركوا باقي الناس تحت رحمة الرب .

وعندما علم هيو صاحب طبرية أنهم اضطروا الى التراجع مما شكل عارا على المسيحية ، توجه بالخطاب الى الكونت هنري قائلا : أحلفك بالرب يا مولاي ، لا تلحق هذا العار بك وبمملكة القدس ، وذلك بالتراجع والاستسلام ، ولكن أرسل الى عكا واستدع كل الذين يستطيعون حمل السلاح والقدوم الى نجدتكم » وبعث الكونت واحدا من فرسانه الى عكا لاستدعاء الناس الذين بقيوا داخل عكا ، ووصل في تلك الاثناء أعداد كبيرة من البيازنة والفلورنسيين ، وكانوا قد جاءوا متطوعين من بلادهم ، وكانت لهم مكانتهم الكبيرة في المسيحية ، كما أنهم كانوا مسلحين وفق طرائق بلادهم ، وبناء على نصيحة هيو صاحب طبرية وزع الكونت فيالقه ونظمها ، وعين الناس الذين سيقفون في المقدمة وأمرهم بعدم التحرك لأي سبب كان ، وتظاهر المسلمون الذين رأوا ذلك بأنهم زاحفون نحو رجالنا ، وزحف رجالنا نحوهم ، غير أن المسلمين قاموا بتحرك خاص متعمد ثم عادوا الى الوراء ، ومن ثم عاد رجالنا الى عكا ، وهكذا انقذ الرب في ذلك اليوم المسيحيين بنصيحةهيو صاحب طبرية ، وبعد ذلك رحل المسلمون من هنالك وذهبوا الى يافا .

١٧٩ ـ وفيما هؤلاء في معسكرهم على رمال الشاطيء ، قام العادل الذي استولى على مملكتي دمشق والقاهرة بعدما انتزعهما من ولدي أخيه صلاح الدين ، فحشد رجال جيشه مع جميع الذين كانوا تحت سلطانه وسيادته ، ودخل الى اراضي عكا ، وبعد دخولهم أطلع الكونت هنري دوق برابانت على الأمر وأخبره أن المسلمين باتوا على مقربة من عكا . فامتطى الفرسان خيولهم وحملوا أسلحتهم واستعدوا لملاقاتهم فقال لهم هيو صاحب طبرية :« أيها السادة هاهي مملكة القدس ، ومملكة دمشق والبلاد كلها أمامكم » .

وعندما رأى الالمان قوات المسلمين كم هي عظيمة وكبيرة اعترتهم الدهشة لانه قيل لهم أن العادل بالذات قد جاء ومعه سبعين الف رجل مسلح ، وواجه الالمان يوما قاسيا جدا ، حتى أن جل سكان المملكة والالمان اضطروا الى الانسحاب إلى داخل مدينة عكا ، وبقي الكونت في الخارج مع عدد قليل من الرجال علق مصيرهم بين أيدي الرب ، وعندما رأى هيو صاحب طبرية أن رجال امبراطورية المانيا مع رجال مملكة القدس اضطروا الى التراجع والانسحاب مرغمين وملحقين العار والخجل برجال المسيحية قال للكونت هنري :« كيف ؟ هل تريد أن تجلب العار والخجل لشعبك ولمملكة القدس »؟ فقال له :« بماذا تشير علي ياسيد هيو ، وماذا تريد مني أن أعمل ؟ الا ترى أن هؤلاء السادة قدحبطت أعمالهم » فرد عليه قائلا :« أشير عليك باستدعاء بقايا جيشك ليأتوا اليك ، ويقفوا معك لمساعدتك هنا ».

ودخل الى عكا وحرك رجال الدين واثار الرهبان وسواهم من الناس ، ووصل في تلك الاثناء اعداد كبيرة من البيازنة والفلورنسيين ، فاستنفروا أنفسهم وخرجوا متطوعين للوقوف ضد المسلمين ، فقد كانوا يحبون المسيحيين كثيرا ، وهكذا وضعوا أنفسهم تحت أمرة الكونت هنري ، وعندما فعلوا ذلك قالوا للعسقلانيين :« وأنتم ، لماذا لاتذهبون لنجدة سيدكم »؟ فقال

الكونت :« بالنسبة لي إنهم لم يعودوا من أتباعي » وعندما وصلت النجدات الى الجيش ، قال هيو صاحب طبرية للكونت :« لقد رأى المسلمون أننا حصلنا على بعض النجدات ، ولا شك أنهم حسدونا على ذلك كثيرا ، وسيقدرون الموقف ، فاذا ماوجدوا أنهم مازالوا يستطيعون الانتصار علينا والحاق الهزيمة بنا فسيبقون ، لكن اذا قدروا أنهم ماعاد بامكانهم التغلب علينا والحاق الخسارة بنا ، فسيسافرون ويرتدون عنا ، على كل حال نظموا جيدا فرق فرسانكم وفرق سيرجانتيتكم ، ومروهم الا يخافوا أبدا من هجومهم عليهم ، لأنهم سيحاولون الآن اظهار كل ماليديهم من قوة ».

١٨٠ ــ ووثق الكونت بكلام هيو صاحب طبرية ، وأمر بالحال بتنظيم فرق الجيش ، وحصل على عدد كبير من البيازنة والفلورنسيين المسلحين بشكل جيد وفق طرائق بلادهم ، فأمر بوضعهم في المقدمة امام الفرسان ومعهم كثير من السيرجانتية الآخرين ، وأصدر الكونت أوامره اليهم في أن لايتحرك أي منهم الا بناء على أوامره هو وعندما أكمل الكونت تنظيم فرقه ، تظاهر المسلمون بالزحف نحو رجالنا .

كيف مات الكونت هنري :

بعدما عاد الكونت هنري الى عكا ، أرسل الملك ايمري واحدا من فرسانه ويدعى وليم برلياس ، وهـو والد ايمـري بـرلياس ، الى الكونت هنري يطالبه باسم سيده تسليمه يافا وفقا لما تـم الاتفـاق عليه .

وأعجب الكونت بهذا الطلب وقال للرسول عليك الذهاب للاستيلاء على المدينة ، وعليك أن تبذل الآن كل جهد ممكن وأن تقوم بـانجاز مايحتاج الى سنة لانجازة في الأحوال العـادية ، لانني سـمعت أن الملك العادل يريد محـاصرتها ، واذا لم تنجـح الآن سـتعود منهـا خائبا ، وعليك أن تقوم مع رجالك وقواتك بحمـاية المدينة والدفـاع عنها بشكل جيد .

وسافر هذا من عند الكونت ، وتوجه الى يافـا ، لكنه لم يصـنع شيئا مما قال له الكونت وأوصاه به ، بل اصطحب معه زوجتـه الى هناك .

وكانت ملكة هنغاريا ابنة الملك لويس ملك فرنسا ، خـالة الكونت هنري ، وكان زوجهـا قـد تـوفي بـسـدون خلف ، فآلت المملكة الى أخيه ، وتملكت الملكة رغبـة بـالذهاب الى القـدس لزيارة الضريح المقدس ، وحيث ان الامبراطور كان قد بعث بنجـدة كبيرة ، فقـد خيل اليها انه

وعند ذلك قال هيو صاحب طبرية :« لنتظاهر بدورنا أننا متوجهون نحوهم » فقال الكونت : أحسنت كثيرا وأصبت الرأي ، وعندما رأى المسلمون ذلك عادوا الى مراكزهم ، ولم يحققوا هدفهم ، بل تراجعوا من هناك ، وهكذا خلص مولانا يسوع المسيح المسيحيين في ذلك اليوم وأنقذهم بوساطة نصيحة هيو صاحب طبرية .

١٨١ ـ وتخلى المسلمون عن المنطقة وسافروا من هناك الى يافا ، وفي تلك الأثناء عاد الكونت مع رجاله الى داخل عكا ، وفيما هو في عكا أرسل الملك ايمري رجلا واحدا من فرسان قبرص اسمه وليم برلياس ، وهو والد ايمري برلياس ، وذهب وليم الى الكونت هنري لاستلام يافا ، فبذلك كلفه الملك ، وفق ماكان متفقا عليه ، ولدى اطلاع الكونت على هذا التكليف وبعدما قرأ ماجاء في رسالة الملك سر كثيرا وقال لوليم :« انهب الآن بدون تأخير الى يافا حتى تستولي عليها ، وتتصرف بها ، ولتبذل كل جهد ممكن للحفاظ عليها ، وعليك الآن ان تقوم بالأعمال التي قد تحتاج في الأحوال العادية الى سنة لانجازها ، فلقد بلغني ان الملك العادل في طريقه لحصار يافا ، لأنه اذا لم يحقق هناك نصرا على المسيحيين فسيعود الى مقر ملكه مخفقا مهزوما ، لذلك انني أدعوك لابل اكلفك ان تبادر بالذهاب الى يافا فتستولي عليها وتشحنها برجالك ، فاذا ماوصل اليها لن يستطيع الحاق اي ضرر بها ، لأنك ورجالك ستستطيعون الدفاع عنها » .

١٨٢ ـ وسافر الكونت وليم برلياس بدون تأخير ، وذهب ليستولي على يافا ولكن فعل مثلما فعل بيتابين ، وذلك انه لم يأخذ بنصيحة الكونت ولم ينفذ أوامره ، بل تصرف وفق ماأملاه عليه هواه ، ووثق كثيرا بنفسه ، وهكذا قصد يافا ومعه عدد صغير من المرافقين ، واثر دخوله الى يافا وصل الملك العادل ليقوم بمحاصرتها ، وعندما وجد سكان القلعة انفسهم تحت الحصار ، ولما رأى قائدها ان مالديه من رجال هو قليل بعث الى

الكونت هنري يطلب انجاده بالرجال والعتاد والا فأن القلعة ستدمر ، وستسقط مالم تحصل على النجدات السريعة .

١٨٣ ـ وعندما سمع الكونت بهذه الاخبار غضب غضبا شديدا ، وانفعل وتأثر كثيرا ، لكن الذي حدث ليس مدهشا ، فهو كان قد كلف وليم برلياس ونصحه بالتقيد بالاوامر في أن يشحن القلعة بالرجال والسلاح والعتاد وبكل ما تحتاجه من ضرورات ، لكنه اكتفى باصطحاب زوجته معه .

وفي الوقت الذي وصلت فيه هذه الاخبار الى الكونت ، علم أن الملكة مرغريب ابنة الملك لويس السابع ملك فرنسا وخاله الامير هنري قد توفي زوجها ملك هنغاريا من دون وريث ٠

لابد من أن يتم نصره وانقاذ مملكة القدس ، ولذلك بـاعت هـذه الملكة كل ماكانت تملكه الى أخي زوجها ، وحصـلت على مبلغ مـن المال كبير ، وحملت شارة الصليب ، واصطحبت معها عددا مناسبا من الفرسان ، ثم قـدمت مـع الألمان الى سـورية ، فـوصلت الى صور ، واستقبلها الكونت هنري استقبالا مشرفـا ، غير أنهـا لم تعش سوى سبعة ايام ثم مـاتت ، وقـد دفنت في سـاحة كنيسـة صور ، وقبل موتها اعطت كل أمـوالها الى الكونت هنري لانه كان ابن اختها ، وعاد الكونت هنري الى عكا بعدما دفنت .

وبينما كان وليم برلياس في يافـا جـاء الملك العـادل الى يافـا وحـاصرها ، وعاث هناك وضرب مـن كان بـداخلها بـكل قسوة ، وعندما رأى حاكم يافا هـذا الوضـع ارسـل الى الكونت هنري يطلب ان ينجده بسرعة ، والا فان القلعة ستسقط ، وعندمـا سمع الكونت غضـب غضـبا عظيمـا ، ولم يكن الذي حـدث مدهشا ، لان حاكم يافا لم يعمل شـيئا ممـا أمـره بـه الكونت ، واستدعى الكونت السيرجانتية ، والعساكر من الرجـالة ليرسلهم الى يافا ، وعندما جاءوا ساحة القصر للاستعراض ، كان الكونت مستندا الى حافة النافذة ينظر الى الوادي ، فسقطت حـافة النافذة وهـوى الكونت الى الحفرة العميقة في الوادي ، وسقط واحد من خدمه ، وكان واقفا الى جانبه ، بعده من شدة الخـوف والرعب ويقال لولا ان سقوط الخادم القزم جاء فوق جسمان الكونت لم يمت بسرعة ، وكان الكونت قد أمر مرارا عدة بتـدعيم حـافة النافـذة ، ودفن بعد موته في كنيسة الصليب المقدس في عكا .

وتمكن المسلمون الذين كانوا أمام يافـا مـن الاسـتيلاء عليهـا بالقوة ، واجتاحوا القلعة واسروا جميع المسـيحيين الذين كانوا في داخلها .

فانتقلت المملكة الى أخيه البارون ، وخططت الملكة للذهاب الى القدس لزيارة الضريح المقدس ، وحيث أن الامبراطور كان قد بعث بنجدة كبيرة ، فقد خيل اليها أنه لا بد من أن يتم انقاذ مملكة القدس ، ولذلك باعت هذه الملكة كل ما كانت تملكه الى البارون أخي زوجها ، وقبضت على مبلغ كبير جدا من المال ، فحملت شارة الصليب ، واصطحبت معها عددا مناسبا من الفرسان ثم قدمت مع الالمان الى سورية ، فوصلت أولا الى صور ، وكلها أمل أن قدوم الالمان سيمكن من استرداد مدينة القدس وانقاذها من أيدي المسلمين .

وذهب الكونت هنري من القدس لرؤية خالته ، فاستقبلته بحفاوة عظيمة ، غير أنها لم تعش بعد دخولها الى صور سوى سبعة أيام ، ثم ماتت ، فدفنت في ساحة كنيسة صور ، وقبل موتها أعطت مالها كله الى الكونت هنري لانه كان ابن عمها وابن أختها بالوقت نفسه .

وبعدما دفنت الملكة عاد الكونت الى عكا وأمر باستدعاء السيرجانتية والجنود من رماة المجانيق لتجنيدهم ومن ثم ارسالهم الى يافا لمساعدتها ، وبعدما تم استدعاؤهم جاؤوا الى قصره ودخلوا الى ساحته حتى يقوم باستعراضهم ، وكان الكونت آنذاك متكئا على شرفة النافذة ينظر الى الوادي أمامه فسقطت الشرفة ، فوقع في احدى الحفر ، وسقط واحد من مرافقيه بعده ، أو رمى نفسه بعده خوفا عليه وألما ، ويقال ان مرافقه القزم لم يسقط بل جاء لينتشل جسده ، ولم يعش الكونت بل فارق الحياة على الفور ، ويوم وفاته أصيب المسيحيون في مملكة القدس بخسارة عظيمة ، لانه كان رجلا شريفا وحكيما ، وفر الراحة والمنفعة طيلة حياته لسكان المملكة ، وقد كانوا في أيام حياته يرتدون أفخر الملابس ، ولكن بعد وفاته استولى الرعب على من كان يدين بالطاعة له .

١٨٤ ــ وبعد وفاة الكونت هنري تمكن الملك العادل ، الذي كان يحاصر يافا ، من الاستلاء عليها ، ودخولها عنوة من جهة البحر ، من المنطقة التي كان البطريرك غيروت قد حصن برجها بشكل جيد ، ذلك أنه كان أضعف مكان في القلعة وأسر المسلمون وليم برلياس مع زوجته ، ولجأ الناس الآخرون الذين كانوا في القلعة إلى كنيسة القديس بطرس ، لأنهم أملوا أن ينتظروا هناك وصول النجدة اليهم من عكا ، ولكن الذي كان عليه أن ينجدهم كان قد مات ، وهكذا تمكن المسلمون من التسلق الى ظهر الكنيسة فأسقطوا قبتها وسقفها فوقهم ، حتى ان العدد الأكبر منهم لاقى حتفه هناك ، وأما الذين نجوا فقد ألقي القبض عليهم ، ووقع اضطراب عظيم بين صفوف أهل يافا وأصيبت قلوبهم ونفوسهم بهلع عظيم ، فهم قد وقعوا في أسر المسلمين بعد الحصار الشديد مرتين : الأولى أيام صلاح الدين والثانية في أيام أخيه سيف الدين الذي كان يدعى العادل .

١٨٥ ـ بعد استيلاء المسلمين على يافا اجتمع الالمان بسكان المملكة للتشاور حول اعانة المسيحيين ، ثم غادر الالمان عكا ، وذهبوا لحصار قلعة الشقيف (في ٢٨ تشرين ثاني ١١٩٧) وأثناء حصارها ذهب رئيس الاساقفة ايمري دي ميانس الى أرمينية لتتويج لاون دي مونتايين ملكا على أرمينية (توج لاون الثاني ملكا من قبل بطريرك أرمينية غريغوري أبيراد بحضور رئيس الاساقفة ايمري دي ميانس وذلك في ٦ ـ كانون ثاني ١١٩٨) وفيما مستشار القصر الامبراطوري قائم على حصار الشقيف بعث برسالة الى بلاد ما وراء البحار ، الى الامبراطور هنري ، وعندما وصلته الرسالة وعلم أن رجاله يحاصرون الشقيف ، أزعجه ذلك كثيرا وغضب غضبا عظيما ، وليس هذا مدهشا (في الحقيقة توفي هنري السادس في ٢٨ ـ ايلول قبل حصار الشقيف) لانه كان في تلك الايام سيدا عالي المقام وقويا ، فقد اقترف رجاله خطأ كبيرا ، وخاب الامل فيهم حين حاصروا هذه القلعة ، وسأل الامبراطور الرسل : « كيف حدث هذا ، أوليس هناك مدينة أخرى غير هذه القلعة حتى يحاصرونها »؟ فأجابه الرسل : « مولانا ليس هناك مدينةآخرى غير القدس ودمشق ، ونحن لم نمتلك مطلقا ما يكفي من الرجال للقيام بمثل هذا الحصار ، أوالقيام بهجوم ، ذلك أن عدد المسلمين كان كبيرا جدا في هذه المناطق ».

١٨٦ ـ وبعدما أرسلت الرسالة الى الامبراطور ، قام المحاصرون للشقيف بحفر مكان لغمين لنسف القلعة ، وعندما لاحظ الذين كانوا داخل القلعة خطورة الوضع لاشتداد الحصار ولوضع الألغام خافوا ورأوا أنهم لن يستطيعوا الحصول على أية نجدة من أية جهة كانت ، لذلك اجتمعوا فيما بينهم وتداولوا حول الوضع فوجدوا أنفسهم مضطرين لتسليم القلعة ، فبعثوا برسالة الى الالمان عرضوا فيها عليهم تسليم القلعة مقابل حياتهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وأن يطلقوا سراح غالبية الأسرى المسيحيين الذين في سجونهم ، وعندما سمع الالمان بعرض الاستسلام هذا تكبروا وتجبروا وركبوا رؤوسهم وتشددوا كثيرا ، وقال الرسل :

إنهم على غير استعداد لقبول استسلامهم على هــذه الصــورة ، إذ عليهم التنازل عن كل شيء والخضــوع لهــم ، وبعــدها أطلع الألمان رسل المسلمين على موضع اللغمين ، ثم قالوا لهم بعدما بينوا لهــم ما سيفعلوه : « كيف نمنحكم هذا الأمــان المطلوب وأنتــم الآن ملك أيدينا ؟» وبعد هذا أعطوهم مهلة للتفكير وسمحوا لهم بــالعودة الى القلعة .

١٨٧ ـ يثق الألمان كثيرا بقوتهم وبفضائلهم الخاطئة ، فهــم لم يشفقوا على الأسرى المسيحيين الذين سيعادون اليهم ، ولم يعرفوا ما يليق بهم من خير وشرف ، لأنهم لو تسلموا

القلعة وفق الشروط التي عرضها المسلمون ، لاعاد لهم المسلمون وقتها قلعة الشقيف القائمة في أرض صيدا مع بقية الحصون ، وهاجم الالمان القلعة برجالهم ومجانيقهم ، غير أن المسلمين دافعوا آنذاك بكل قوة وعزيمة ، وانهارت الاسوار الملغومة ، وأراد الالمان الدخول الى القلعة والاستيلاء عليها عنوة ، ولكنهم صدوا من قبل المسلمين ومنعوا من الدخول ، وعندما رأى المسلون شدة الهجوم خافوا من ان يستولي الالمان على القلعة ويقهروهم بالقوة ، فجددوا عرض الاستسلام وتسليمهم الرهائن ، وقال لهم الالمان : إن عليهم تسليم القلعة بما فيها من أموال ومقتنيات ، وسيتركونهم يخرجون باشخاصهم فقط ، وتسلم المستشار الرهائن ، وأخبر المسلمين أنه لن يستطيع تسلم القلعة قبل الغد لانها كانت ليلة الميلاد ، وكان عليه أن يحتفل بالعيد ، وبعدما أطلق المسلمون سراح الرهائن ز ندموا على ذلك ، لأنهم كانا يخشون من وحشية الالمان وقسوتهم ، هذا من جهة ومن جهة اخرى كانوا قد ترامت الى اسماعهم بأن النجدات هي في طريقها اليهم من مصر ، فغيروا رغباتهم ومواقفهم وتوقفوا عن أطلاق سراح بقية الرهائن .

١٨٨ ـ وفيما الألمان ينتظرون استسلام قلعة الشقيف ، بلغهم ان الامبراطور هنري سيدهم قد توفي ، وأن النجدات من مصر في طريقها الى المقيمين داخل القلعة ، وعندما شاهدوا النجدات اجتمعوا واخذوا يتداولون فيما بينهم واضطربوا واستولى عليهم الرعب ، وفقدوا شجاعتهم وارادتهم وحزنوا وما عادوا يدرون ما سيفعلون بسبب وفاة سيدهم .

١٨٩ ـ وفي هذا الوقت بالذات حدث أن سلطان مصر ، وهو ابن صلاح الدين ، ذهب ذات يوم الى الصيد فسقط عن ظهر حصانه فاندقت رقبته ، وعندما سمع عمه الذي كان بدون مملكة ، بذلك استولى على البلاد وحصنها ، وأطلق سراح جميع الفرسان والسيرجانتية واعطاهم اموالا طائلة ، وعندما علم سلطان دمشق

- ٤٠٣٥ -

بأمر الاستيلاء على يافا وأن اخاه قد مات ، وأن عمه قد سيطر على البلاد خاف كثيرا وانسحب الى دمشق ، وجمع رجاله لأنه كان يعلم ان عمه سيحرمه من كل ارث اذا استطاع وهذا ما فعله .

-٤٠٣٦-

كيف تزوج الملك ايمري مـن ايزابيل أرملة الكونت هنري :

وبعدما مات الكونت هنري عقد سادة البلاد اجتماعا لانتخاب سيد للبلاد وتزويجه من أرملته ، وكان في البلاد رجلا عالي المقـام ، عظيم المكانة اسمه هيو صـاحب طبـرية ، وكانت ابنتـه كونتسـية قبرص وأخت السيدة زوجة له ، وكان له أخ اسمه راؤول ، وقد نصح بالزواج منها ، ووافق الجميع على ذلك ، ولكن فرسان الداوية مع فرسان الاسبتارية عارضوا ذلك ، وأعلنوا أنهم لن يوافقوا على ذلك مطلقا ، لأن المساعدات التـي وصـلت إلى الكونت مـن بـلاد شامبين لن تمكنه من حكم البلاد ، ولأنه كان بشكل عام فقيرا ودوما بحاجة إلى المال ، وقـالوا : كيف تعـطي البـلاد إلى رجـل لايملك شيئا ، وكيف لهذه لساعدات التي حصل عليها أن تمكنه مـن حـكم البلاد ؟ إننا سنجتمع ، وسنعطي ـ بمشيئة الرب ـ حكم البـلاد إلى الرجل المناسـب ثـم اجتمعـوا واتفقـوا على أنه إذا رغب ملك قبرص بأخذ البلاد وتملكها فسيمنحونه إياها فقد قـدروا أن هـذا سيكون أفضل الحلول ، وأنذاك يمكن صيانة البلاد وانقاذها .

واتفقوا على هـذا ، بناء على نصـيحة مسـتشار المانيا جـرى استدعاء ايمرى ملك قبرص واعطـوه السـيدة فتـزوجها ، وأخـذ التاج ، وصارت هي للمرة الاولى ملكة .

وبعدما مات الكونت هنري عقد سادة البلاد اجتماعا لانتخاب سيد للبلاد وتزويجه من ارملته ، وكان في البلاد رجلا عالي المقام ، عظيم المكانة اسمه هيو صاحب طبرية ، وكانت ابنته كونتيسة قبرص(١) واخت السيدة زوجة له ، وكان له اخ اسمه راؤول ، وقد نصح بالزواج منها ، ووافق الجميع على ذلك ، لكن فرسان الداوية مع فرسان الاسبتارية عارضوا ذلك ، واعلنوا أنهم لن يوافقوا على ذلك مطلقا ، لأن المساعدات التي وصلت الى الكونت من بلاد شامبين لن تمكنه من حكم البلاد ، ولانه كان بشكل عام فقيرا ودوما بحاجة الى المال ، وقالوا :كيف نعطي البلاد الى رجل لا يملك شيئا ، وكيف لهذه المساعدات التي حصل عليها ان تمكنه من حكم البلاد ؟ إننا سنجتمع وسنعطي – بمشيئة الرب – حكم البلاد الى الرجل المناسب » ثم اجتمعوا واتفقوا على انه اذا رغب ملك قبرص بأخذ البلاد وتملكها فسيمنحونه اياها ، فقد قدروا أن هذا سيكون افضل الحلول ، وأنذاك يمكن صيانة البلاد وانقاذها

واتفقوا على هذا ، وبناء على نصيحة مستشار المانيا جرى استدعاء ايمري ملك قبرص وأعطوه السيدة فتزوجها ، وأخذ التاج ، وصارت هي المرة الأولى ملكة ٠

١ – هي ابنة كونت طرابلس ، هذا وكان ابن زوجة ريموند الثالث ، فهي قد انجبت في زواجها الاول هيو ، ووليم ، وراؤول ، واوتو ، وكان هيو متزوجا من مرغريت دي ابلين ابنة باليان ديمي ابلن من ماريا كومينوس التي هي ام ايزابيل

الهوامش والحواشي

حواشي الدراسة ــ المدخل

(١) انظر على سبيل المثال كتاب ج براور . تاريخ المملكة اللاتينية بالقدس (باريس ١٩٦٩) ص ٥٥١ الحاشية ، حيث وصف ارنولد كشخصية معروفة في بيت ابلين وكفارس يعمل في خدمة باليف الثاني .

(٢) تاريخ وليم الصوري . م سالوخ (لايبزغ ١٩٥٤)

(٣)، تحقيق ل . دي . ماس لاتري باريس ١٨٧١

(٤) مخطوطات ب ف فر ٧٧٠ و ١٢٢٠

(٥)هناك في الوقت الحاضر من المخطوطات المتبقية ، ٥١ ، مخطوطا تحوي ترجمة لوليم مع نيول ذات اتساع اكبر او اصغر ،، من الترجمة وحدها و١٣ من التواريخ الموجزة الثلاث (ومحسوبة معا) تشكل ٧٠ في المجموع .

(٦) مكتبة مدرسة الحقوق ــ السلسلة الخامسة ــ اعادة طباعة ، تاريخ ارنول وبرنارد الخازن ،

(٧) من ارشيف الشرق اللاتيني (١٨٨٠ ــ ١٨٨١)

(٨) انظر ادناه ص ٣٤ ــ ٣٥ وفي الملحق الاول

(٩) من اجل مناقشة اولى لهذا النص انظر ادناه ص ٩ ــ ١١ ، وفقط مخطوط ب . ن . ف . فر ٧٧٠ يحتوي على نظام الفروسية .

(١٠) طبعت خطا كـ ٦٧٧ في م . ل . ص ٣٤ .

(١١) طبعت خطا كـ ٩٠٠٦ في م ل ص ٤١

حواشي الفصل الأول

(١) راشيل ج ق ١ ق ٢
(٢) ر . ب . س هوغنس . قطعة من تاريخ وليم الصوري . لاتوموس ٢١ (١٩٦٢) ٨١١ - ٨٢٩
٣ - راشيل ج ١ ص ٩
(٤) انظر ما تقدم ص ٤ - ٦
(٥) مخطوط ز - الورقة ٤ ظ
(٦)مخطوط ز ورقة ٣٢ ظ العمود ٢
(٧) مخطوط ز ورقة ٣٩ ظ
(٨) مخطوط ز ورقة ٩١ ظ
(٩) انظر م . ل . ص ٣٦٥ الحاشيتان ٣ و ٤
(١٠) مخطوط أ ورقة ١٢٨ وعمود ١
(١١) طبعة ماس لاتري « تاريخ ارنول وبرنارد الخازن » باريس ١٨٧١
(١٢) مخطوط ب . ن . ف . ار ٧٧٠ ورقة ٣١٣ و
(١٣) ورقة ٣١٥ ظ
(١٤) انظر ف ورقة ٣٢٦ و - ٣٢٧ ظ وقارن م . ل . ص ٤٣ - ٤٥
(١٥) تحقيق وترجمة وليم موريس « نظام الفروسية » (هامر سميث ١١١٩)
(١٦) أنا ممتنة للدكتور جاروسلاف فولدا في جامعة نورث كارولينا شابل هل لهذه المعلومات التي نقلت شفاها
(١٧) انظر ايضا على سبيل المثال قصة صلاح الدين معمدا نفسه وهو على فراش موته في نقول من منسترال دي ريمز ، تحقيق نولس دي وللي «
باريس ١٨٧٦ (٢١٢ - ١١١ - ١١٢)
(١٨) ورقة ٣٥٤ و
(١٩) صموئيل دي لوز « السيد ستري دي لاغويت - تاريخ فتح مملكة القدس المسيحية من قبل صلاح الدين » (باريس ١٦٧٩)
(٢٠) انظر ايضا أثناء ١٦ - ١٧
(٢١) انظر أعلاه
(٢٢) م . ل . ب : ١١٦ راشيل : ٢ / ٦
(٢٣) هرقل : ٢٣ / ١ - ٣ (راشيل : ٢ / ١ - ٦)
(٢٤) راشيل : ٢ / ٥٨ حاشية ٤٤ وعند لفر .
(٢٥) راشيل :٢ / ٨٢ حاشية ٤ انظر م . ل : ١٩٠ - ٢١٠
(٢٦) انظر ما تقدم
(٢٧) م . ل ب : ٢٣ « مزايا وخصائص وتوجهات مخطوط ليون »
(٢٨) يوجد مخطوط بلوتيوس ، ٦ - ١٠ في مكتبة لورانتيان في فلورنسا تكملة أخرى تصل بالرواية الى انتخاب فيكولاس الثالث في ١٢٧٧
(٢٩) راشيل : ٢ / ٤٨٩
(٣٠) انظر ماتقدم

حواشي الفصل الثاني

(١) ماريئوس تورسلل ، تحرير الاراضي المقدسة من الصليبيين ،في بونغار ،يوميات صاحب اعمال الفرنجة ، ج ٢ (هانوفر ١٦١١)
(٢) انظر مثلا قائمة اسماء الصليبيين في الصفحات ١٣١ ــ ١٣٢
(٣) مثلا سانيوتس ١٣١١ (ص ٢٠٨ فقرة 28...)

وهي ترجمة لتاريخ هرقل ٢٢ , ١٣ ــ ١٤ راشيل ٢ , ٣٣٤)

وايضا سانيوتس : ١١ , ١٢ (ص ٢١٢ فقرة ١٠)

ترجمة لتاريخ هرقل ٠ ٣٣ , ١٩ راشيل : ٢ , ٣٧١) ....

(٤) الكتابات الايطالية الوسطية تحقيق ل . م موراتوري (ميلانو ١٧٢٣ ــ ١٧٥١) مجلد ٧
(٥) المصدر نفسه ج ٧ عمود ٨٤٢
(٦)المصدر نفسه عمود ٧٤٦
(٧) م . ل . ص ١ ــ ١٤
(٨) المخطوطات الملكية ١٥ ــ إ ــ ١
(٩) وليم كاكستون ، تاريخ غودفري البويلوني وفتح بيت المقدس صححه هـ . هاليداي سبارلنغ أعيد طبعه من قبل وليم موريس مطبعة كلمسكوت هامر سميث نيسان ١٨٩٥
(١٠) وليم كاكستون غودفري البويلوني طبعة ماري كولنن (جمعية النصوص الانكليزية القديمة لندن ١٨٩٣
(١١) انظر اعلاه ص ١١ ص ١٣
(١٢) ، دورية العلوم ، ج٧ (امستردام ١٦٧٩ ــ ١٦٨٠) ص ٨٠ . وايضا كتاب لبلوك مصادر تاريخ فرنسا تحقيق فيفرت دي فونتري (باريس ١٧٦٩) ص ١٤١ ١٦٠ التي تنقل المقال .
(١٣) انظر اعلاه ص ١١
(١٤) مخطوط غ ج
(١٥) مارتيني وديوراند ، المصنف المجموع ، (باريس ١٧٢٩) ج ٥ الاعمدة ٥٨١ ــ ٧٥٨
(١٦) بارنيوس ورايناليدي جوليات تحقيق باذسي (ليوك ١٧٤٧ ج ١ ص ٢٦٧
(١٧) دوكانج مسرد شارح للكلمات الوسيطة واللاتينية (باريس ١٦٧٨) ج ١ عمود ١٩١ .
(١٨) المصدر نفسه كاربنتيير (باريس ١٧٦٦) مجلد ٤ عمود ٨٢
(١٩) ليابونغ في المصدر نفسه تحقيق فونتيت مجلد ٢ ص ١٣٩ رقم ١٦٦٨ استروفيوس ، مصادر تاريخية ، تحقيق ج . غ موسيل (ليبزغ ١٧٨٦) مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٩٤
(٢٠) ميشو ، مصادر الحروب الصليبية (باريس ١٨٢٢) ج ١ ص ٤٠٥ ...

(٢١) هذه المبينة في الجدول في ص ٧ ــ ٨ بواسطة المخطوطات أ ــ ب ــ أ ــ س ج ــ غ ج
(٢٢) من اجلها انظر اعلاه ص ١٣
(٢٣) ص ٧
(٢٤) ص ٦

(٢٥) ص ص ٣ ـ ٤
(٢٦) مكتبة كلية الحقوق ـ السلسلة الخامسة ج ١ ص ٣٨ ... و ١٤٠ ... واعيد طبعه بعنوان « تاريخ ارنول ووليم الخازن (باريس ١٨٧١)
(٢٧) راشيل ج٢ ص ٤
(٢٨) م . ل ص ٤٩٨ انظر ادناه الفصل الخامس
(٢٩) م . ل ص ٤٩٩
(٣٠) انظر على سبيل المثال قوله . في ص ٥٠٩ « برنارد الخازن هو ليس الكاتب الشخصي لأحد التواريخ حسب مخطوطات برن وارسنال » ثم قارنه بقوله ص ٥٢٠ : « برنارد هو صاحب الملخص حتى سنة ١٢٢٧ وليس حتى سنة ١٢٣١ » .
(٣١) م . ل ـ ص ٥١٥ « توطئة للتاريخ »
(٣٢) ص ٥١٥
(٣٣) ص ٥٢٠ ـ ٥٢١
(٣٤) ص ٥٢٦ ـ ٥٢٧
(٣٥) القديس اومر ٧٢٢ مخطوط ز .
(٣٦) غريفسوالد ١٨٦١
(٣٧) المصدر نفسه ص ٧
(٣٨) ص ١٩ ـ ٢٠
(٣٩) ص ٤٥
(٤٠) ص ٦٦ ـ ٧٠
(٤١) ص ٧٣
(٤٢) ص ٧٥
(٤٣) باريس ١٨٧١
(٤٤) ارسنال ٤٧٩٧ (مخطوط ا وبرن ٣٤٠)
(٤٥) م ـ ل . ص ٢٢ ج

(٤٦) المصدر نفسه ص ٢٥
(٤٧) انظر ادناه ص ٣٥
(٤٨) م . ل ص ٢٠ ج
(٤٩ ـ ب . باريس (محقق) . وليم الصوري وذيوله . (باريس ١٨٧٩ ـ ٨٠)
(٥٠) والمقدمة على أي حال : ترتكب فيها بعض الاخطاء القديمة حول برنارد الخازن وهذا تقلب مدهش طالما ان باريس قد شجب هذا بوضوح في فهرسه للمكتبة الملكية قبل ذلك باربعين سنة انظر ب باريس المخطوطات الفرنسية في المكتبة الملكية (باريس ١٨٣٦) ج١ ص ٨١ المخطوطات المنسوبة لبرنارد الخازن .
(٥١) المصنف المجموع لراينت انظر اعلاه ص ٣
(٥٢) يمكن الآن اجراء بعض التنقيحات رقم ٣٨ موجود الآن في المتحف البريطاني رقم ١٢ من مجموعة يانتس تومبسون أرقام ٤٢ ، ٥٥ موجودة في بهو فنون والتوربلتيمور ماري لاند مصنف ١٣٧ و ١٤٢ على التوالي ويملك هذا البهو أيضا مخطوطين لم يدرجهما راينت بحملان أرقام مجموعتهما
(٥٣) م . بالوخ مصنف وليم الصوري اللاتيني . لا يبزغ ١٣٤)
(٥٤) سجلات كولومبيا (نيويورك ٢٩٤٣) العدد ٣٥
(٥٥) انظر كامل القائمة في ثبت المراجع
(٥٦) بالاضافة فان المستر و . غ . غولدن من جامعة نورث ستافورد ـ شير يعمل في الترجمة

الفرنسية القديمة التاريخ والدكتور ج فولدا من جامعة نورث كاروليا شابل هيل قدم حديثا في جامعة جونز هو يكنز بحثا في المنمنمات في مخطوطات كل من التاريخ والنصوص الفرنسية المرتبطة بها ، (وقد تلطف كل منهما بالسماح لي باستعمال المعلومات المجموعة من قبلهم في مسار بحوثهم الخاصة وانا ممتنة جدا لمساعدتهم

(٥٧) م ل – ص ٢٤

(٥٨) رانيت رقم ١٦

(٥٩) م . ل – ص ٢٥

حواشي الفصل الثالث

(١) انظر مخطوط م . ل ص ١٤٩
(٢) راشيل - ج ٢ صعلد
(٣) مخطوط ص ٢٢٢
(٤) المصدر نفسه ص ١٣٨ - ١٣٩
(٥) ص ١٢١ من ط . لندن ١٨٦٤

(٦) المصدر نفسه ص ٣٣٧
(٧) م . ل . ص ١٦٣ - ١٦٤ الهـــرقليات ٢٣٠ / ٣٦ راشـــيل ج ٢ ص ٥٣ - ٥٤ . النص الاساسي
ص ٥٤ - ٥٥ متباين
(٨) ماس لاتري . تاريخ جزيرة قبرص . ١٨٥٢ - ١٨٦١) وانظر أيضا ج١ ص ١٣٦ من اجل ملاحظات حول اسرة فيليب
(٩) انظر ادناه ص ١١٢ .
(١٠) كتاب فيليب دي نوفارو في راشيل - لوس ج١ ص ٥٢٥
(١١) راشيل ج ٢ ص ٣٩٩
(١٢) برن ٣٤٠ - ١٢٧ - و . ارسنال ٤٧٩٧ ، ١٢٨٩ - وايضا .
(١٣) انظر ل . ليفللين . انظمة ادلهارد . العصور الوسطى السلسلة الثانية ج ٤ (١٩٠٠) ص ٣٢٢ .
ومن اجل الاشارة الى ورق الرق انظر ص ٣٥٢ وكال لدى مكتبة البودليان نسخة مكتوبة على الالة الكاتبة من النظام الاساسي مع كثير من الخرائط المفيدة ومخططات الدير معنونة النظم الاســاسية القديمة لدير القديس بطرس في غوربي وبرقم ١١٠٧ - ب ٤ في الفهرس
(١٤) ج مابللون . كتاب الدبلوماسية الملكية (باريس ١٧٠٩)
(١٥) ل . دلسلي . ابحاث في المكتبات القديمة في غوربي - مكتبة مـدرسة الوثـائق الســلسلة الخامسة (١٨٦٠) و ٤٢٠ . انظر ايضا مقال مع تـرجمات وافية حـول هــنا : ل . و . جـــون . المخطوطات في غوربي . سبكيليوم ١٢ (١٩٤٧) ١٩١ - ٢٠٤ و ٣٧٥ - ٣٩٤
(١٦) م . ل ص ٥١٠
(١٧) ب . باريس ووليم الصوري ونيوله . ص ٠٨ والمراسيم غير محققة
(١٨) انظمة الرهبنة البندكتية - تحقيق بتلر (فريبرغ - ام - بسرسغو ١٩١٢) انظــر بشــكل خاص ج ٣٣ ، ٥٨ ، ٥٩ (ص ٦٤ - ٦٥ ، ١٠٣ - ١٠٥)
(١٩) م ل - ص ٥١٠
(٢٠) او . بيرلير . اسر الرهبان البندكتيين في العصور الوسطى . الاكاديمية الملكية البلجيكية - شعبة الاداب والمذكرات . سلسلة ٢٩ (١٩٣٠ - ١٩٣٢) انظر بشكل خاص ١٢ ومايليها . ومن اجل الوضع في غوربي في أيام أدلها رد - المصدر نفسه ص ٢٥
(٢١) ابوشير . جمعية فيليب اغسطس الفرنسية . (باريس ١٩٠٩) حيث يقدم مثالا عن دخول احدى الاسر المؤلفة من أب . وابنة . وجده الى الدير في ظل هذه الشروط
(٢٢) م . د . ل انكلوندورمان في الاديرة (ادنبره ١٩٥٠) ص ٦ - ٧

حواشي الفصل الرابع

(١) من اجل استعمال اصطلاح « المختصر » في مواضع هذه الدراسة انظر اعلاه ص ٧ وجــدول المخطوطات ومن اجل وصف الروايتين اعلاه ص ١١ ــ ١٣

(٢) انظر اعلاه ص ٤٦

(٣) ص ٢٣ ــ ٢٤

(٤) مثل (ر ي . س) مجلد ٧ ، عمود ٧٩٢ و ٨٠١ و٨٤٢

(٥) مخطوط م . ل ــ ص ١٠، ٥٢٦

(٦) انظر اعلاه ص ٤٦

(٧) ريس ــ ج ٧ ، عمود ٧٦١

م ل ص ١٢ ــ ٢٣ . راشيل ح ظ ق ٢ ص ٧٩٤ ــ ٨١٣

(٨) اعني حتى عام ١١٨٣ . م . ل ــ ص ١١٦

(٩) ريس ــ ج ص ٨٤٦

(١٠) انظر اعلاه ص ١١ ــ ١٢

(١١)م ل ــ ص ٥٢٥

(١٢) انظر اعلاه ص ٤٧ ــ رقم ١٥

(١٣) ل و جون ــ المخطوطات في غوربي ــ سد كيلوم ٢٢ (١٩٤٧) ١٩٧ .

(١٤) م ل ص ٥١١

(١٥) المصدر نفسه ص ١٥

(١٦ المصدر نفسه ــ ص ٣٧ في وصفه لمخطوط س

حواشي الفصل الخامس

(١) انظر اعلاه ص ١٢ و ٤١
(٢) راشيل ـ ج٢ ص ٥
(٣) م . ل ص ٤٩٦ ـ ٤٩٨
(٤) مارتيني وديوارد ـ ج ٥ . عمود ٥٤٣ ومايليه
(٥) سلسلة رولف ١٨٦٤ انظر اعلاه ص ٤٣ ورقم ٥
(٦) م . ل المقطع نفسه
(٧) امبرواز ـ تاريخ الاراضي المقدسة ، تحقيق غاستون باريس في وثائق تتعلق بتاريخ فرنسا ، (باريس ١٨٩٧) ومن أجل مشكلة الرحلة انظر المقدمة ص ٥٩ ـ ٧٦ .
(٨) ج١ غ ادوارد ، رحلة الملك رتشارد وتاريخ الاراضي المقدسة ، في بحث تاريخي نشر على شرف جيمس تيت (مانشستر ١٩٣٣) ص ٥٩ ـ ٧٧ .
(٩) ج . ل . لامونت مع م . هيوبرت ، صليبية رتشارد قلب الاسد ، (سجلات الحضارة . نيويورك ١٩٤١)
(١٠) هـ . إ . ماير ، رحلة الحج ، الجمعية الالمانية للاثار التاريخية رقم ١٨ ـ ستوتغاريت ١٩٦٢ وبما ان طبعة ماير تحتوي على قطعة فقط ان جميع احالاتي على الرحلة هي على طبعة سلسلة رولس .
(١١) انظر على سبيل المثال وصف المجلس الاستشاري قبل حطين م ل ص ١٥٨ ـ ١٦٢ .
(١٢) الرحلة ص ١٣ (خديعة كونت طرابلس ١ و ١٢١ ، وموت جيرارد ص ٧٠
(١٣) الرحلة ص ٥ ـ ١٣٧
(١٤) التاريخ ـ ١٠ ـ ٢٣٨٧ ـ ٤٥٦٨
(١٥) التاريخ ١٠ ـ ٢٤٠١ ـ ٢٤٠٦ وايضا ـ ١٠ ـ ٢٧٤٣ ـ ٢٧٤٤ ، ٣٥٢٦ ، ٣٥٦٣ ، الخ
(١٦) المصدر نفسه ١٠ ـ ٢٥٣١
(١٧) الرحلة ص ١٤ ـ ١٦
(١٨) التاريخ ج٥ ص ٢٥٩٠
(١٩) الرحلة ص ٢٠ ـ ٢٣
(٢٠) م . ل ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ انظر ايضا الرحلة ص ٢٥ ـ ٢٦
(٢١) م . ل ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ انظر ايضا الرحلة ص ٢٥ ـ ٢٦
(٢٢) التاريخ ١٠ ـ ٢٦٥٧ ـ ٢٦٩٠
(٢٣) الرحلة ص ٢٣ ـ ٢٥ م . ل ـ ص ١٧٩ وما يليها
(٢٤) الرحلة ص ٢٦ م ل ـ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ ـ ٢١٩ .
(٢٥) الرحلة ص ١٢١ . وانظر ماتقدم ص ند
(٦ب) الرحلة ص ١٢١ وانظر ماتقدم ص ٤٣
(٢٧) م ل ـ ص ٢٦٧
(٢٨) راشيل ج٢ ص ١٥١ ـ ١٥٤ ، النص الاساسي ، س ج و غ ج موافقات متعددة مع المختصر .
(٢٩) الرحلة ص ٦١ ـ ١٣٨ التاريخ ٢٧٢٩ ـ ٤٥٢٦
(٣٠) انظر تحليل محتويات د ادناه ص ٨٩ وما يليها ، والفصل السابع
(٣١) الرحلة ص ١٧٥ ـ ١٧٦ وانظر ايضا ص ١٨٦ ـ ١٨٨ و ١٩٥ ـ ١٩٦ راشيل ج٢ ص ١٥٧ وما يليها . وانظر ايضا م . ل ص ٢٧٠ وما يليها

(٣٢) راشيل ج٢ ص ١٦٠ الحاشية ب . وتشير الرحلة هنا الى « فنسوف » الذي اعتقد خطأ انه المؤلف

(٣٣) هرقل ج ٢٥ ص ٢٧ . راشيل ج٢ ص ١٦٩ الرحلة ج٢ ـ ٤٢ ص ٢٠٤ وما يليها .

(٣٤) الرحلة ص ٢١٤ ـ ٢١٥ و ٢٣١ ـ ٢٣٤

(٣٥) م . ل ـ ص ٢٧٤ ومايليها . انظر ايضا راشيل ج٢ ص ١٧١ ومايليها . قراءات مختلفة .

(٣٧) الرحلة ص ٣٣٩

(٣٨) راشيل ج٢ ص ١٩٧ النص نفسه . انظر الرحلة ص ٤١٩

(٣٩) م . ل ص ٢٨١ ـ ٢٨٢

(٤٠) راشيل ج٢ ص ١٩٥ ـ ١٩٦ و « د » يختلف

(٤١) المصدر نفسه ص ١٩٥

(٤٢) المصدر نفسه

(٤٣) انظر ماسياتي في الفصل المقبل

(٤٤) هذا صحيح الى حد معين حول كل روايات الهرقليات والموجز لدى ماير وأقـواله ان ارنولد (التي يعني بها الموجز) تصور صلاح الدين في ضوء عاتم ، وهذا شائع في التواريخ التي تبدو غير ماهرة في التفسير ، وهو بالتأكيد مما يتعذر الدفاع عنه . انظر ماير المقدمة ص ٨٤

حواشي الفصل السادس

(١) انظر الجدل العام في مدخله خاصة ص ٢٣ المصادر الفترة الاولى من الذيول
(٢) انظر اعلاه ص ٤١
(٣) رومانسية تريستان لتوماس تحقيق ج بدير (باريس ١٩٠٥) ومن الجدل الطريقة التي تبناها انظر ج ٢ ص ١٨٨ ومايليها .
(٤) م . ل ص ٤٩٨ _ ٤٩٩
(٥) م . ل ص ٢٩٣
(٦) من اجل وصف كتابه انظر ما تقدم ص ١٦
(٧) انظر اعلاه ص ١٢ _ ١٥
(٨) اعني النصوص : أ ، ب و س ج ، و د ، و غ ج
(٩) لعله مزج بين كلمة MKYE وكلمة FYKYE
(١٠) انظر اعلاه الفصل ٥ ، لاسيما ص ٦٥
(١١) راشيل ج٢ ص ٩٩ رقم ٤ غ متنوع ص ١٩٧ _ ١٩٩ س متنوع . انظر ايضا م . ل ص ٢٩٣ _ ٢٩٤
(١٢) راشيل ج٢ ص ١٩٩.
(١٤) راشيل ج٢ ص ٢١٩ _ ٢٢١ النص الرئيسي ، وس وغ متنوع وص ٢٢٠ ، ومتنوع . م . ل _ ص ٣٠٦ _ ٣٠٧
(١٥) ومثال مشابه بشكل غريب ورد في ١٣٦٦ حول موت ولي عرش اسبانيا : وانا ممتنة

> . . . Sus hijos fuessen traidos a la seguridad de nuestra Ciudad y Alcaçar donde murio el Infante Don Pedro. Dizen algunos que de una ventana mui alta se cayó de los braços al ama que le tenia; la qual arrebatada del dolor se arrojó tras el. Cierto es que nuestra Ciudad celebró sus funerales con aparato y sentimiento conveniente . . .' Diego de Colmenares, *Historia de la Insigne Cuidad de Segovia, y conpendio de las Historias de Castilla* (Segovia, 1637), p. 283.

الدكتور ج . ب كروفت من المكتبة الملكية في هولوي _ لندن بلفتة انتباهي الى هذا النص .
(١٦) رومانس تريستان لتوماس تح . بدير (باريس ١٩٠٥) ج٢ ص ١٩٢
(١٧) راشيل ج٢ ص ٦٢ ومايليها
(١٨) المصدر نفسه ص ١٢١ _ ١٢٣
(١٩) المصدر نفسه ص ٧٥ نص رئيسي ص ٧٦ متنوع عن د
(٢٠) المصدر نفسه ص ٦٧ ، النص الاساسي ، ص ٦٩ « د » مختلف متنوع ويمكن لهذا السياق في « د » ان يلقي ضوءا مفيدا على نص لخر ، وهو الذيل اللاتيني للتاريخ الذي وجد في المتحف البريطاني . المخطوطات الملكية ١٤ س ١٠ ، وفيه وصف غريب لبعض الوقائع وفيه جرى قتل ارناط مرتين ، انظر م . سالوخ الذيل اللاتيني لتاريخ وليم الصوري « (ليبزغ ١٩٢٤) ص ١٢ من المقدمة وص ٧٩ _ ٨٠ من النص . ويبدو هنا مزج بين الفعلين الموصوفين في « د » والوحيد من كل التواريخ الاخرى ، ولدى الذيل اللاتيني ذكرة عن الهجومين ، ولكنهما في روايته يصبحان حدثين منفصلين تماما . وهكذا ينتج بشكل غير معقول موتان ، ومن الممكن أيضا انه قد ، مزج بين شخصية رينودي شاتللون (ارناط) وريغو صاحب صيدا ، ومهما يكن من امر هناك شيء ما خطأ في النص لاننا نعرض ان رينو صاحب صيدا لم يقتل من قبل صلاح الدين لا اثناء حصار الشوبك او في مكان لخر وعلى العكس نجده مازال حيا في سنة ١١٩٢ ، حيث تسلم من صلاح الدين نصف اراضي صيدا مع بلدة الصرفند ، وذلك تعويضا عن المعاملة التي تلقاها اثناء حصار الشوبك . انظر

راشيل ج٢ ص ١١٠ – ١١١ « د » متنوع و ص ١٩٩ النص الاساسي

(٢١) راشيل ج ٢ – ٤ متنوع ص ٨٤ – ٨٥

(٢٢) المصدر نفسه ص ٨٧ – ٨٨

(٢٣) المصدر نفسه ص ١٠٠ – ١٠١

(٢٤) المصدر نفسه ص ١٠٣ – ١٠٤

(٢٥) المصدر نفسه ص ١٠٨ – ١٠٩

(٢٦) المصدر نفسه ص ١٠٤ – ١٠٥

(٢٧) المصدر نفسه ص ١١٠ – ١١١

(٢٨) المصدر نفسه ص ١٠٨ – ١٠٩

: 'Cil des chastiaus [sc. Crac and Beauvoir] se furent tenus deus
apres la terre perdue.'

(٢٩) راشيل النص الاساسي ص ١٨٧ – ١٨٨

(٣٠) المصدر نفسه ص ١٣٧ – ١٣٨

(٣١) المصدر نفسه ص ١١٧

(٣٢) المصدر نفسه ص ١٣٨

(٣٣) المختصر و س و غ ج لاتحوي ٢٤ ، ١٦ ; ٢٥ – ٥ في الجميع

(٣٤) راشيل ج٢ ص ١٢٤ ، د متنوع

(٣٥) راشيل ج٢ – النص الاساسي ص ١٢٨

(٣٦) في الفصل السابع اعلاه

(٣٧) هناك فقرتان مرتا في ٣٠ ; ١٠ من اجلها هذا ايضا صحيحا اعني ٢٧ ; ٦ – ١١ و ١٤ –
١٦

(٣٨) م . ل – ص ٤٩٩

حواشي الفصل السابع

(١) راشيل ج٢ ص ١٠١ النص الرئيسي حاشية ٣٠ دده متنوع
(٢) المصدر نفسه ص ١١٨ . النص نفسه ودده متنوع . بأحرفي المائلة .
(٣) من أجل اصطلاح « بوليانه » انظر الملحق الثاني .
(٤) راشيل ج٢ ص ٢١٠ .
(٥) راشيل ج٢ ، دده متنوع ص ٢٢٢ .
(٦) المصدر نفسه ص ٢١٧ .
(٧) المصدر نفسه - ص ٢٢٢ (٨) المصدر نفسه - ص ٢٢١
(٩) راشيل - ج٢ - د متنوع ص ٦٣ .
(١٠) المصدر نفسه ص ٢١٩
(١١) المصدر نفسه ص ٢٠٣ - ٢٠٥
(١٢) المصدر نفسه ص ٦٤ - ٦٥
(١٣) راشيل ج٢ النص الأصلي ص ٧٥
(١٤) المصدر نفسه ص ٢٠٣ - ٢٠٥
(١٥) راشيل ج ٢ - د - متنوع ص ٧٦
(١٦) المصدر نفسه ص ٢٠٩ .
(١٧) المصدر نفسه ص ٢٠٢ - ٢٠٣
(١٨) المصدر نفسه ص ٢٠١ - ٢٠٢
(١٩) المصدر نفسه ص ١٩٣
(٢٠) انظر اعلاه ص ١٥
(٢١) انظر اعلاه ص ١٥
(٢٢) راشيل ج٢ - النص الاساس ص ٢٢٢ ، وانظر ايضا دده متنوع ص ٢١٢ .
(٢٣) راشيل ج ٢ - د متنوع ص ٢١١
(٢٤) المصدر نفسه ص ١٩٦ - ١٩٧ انظر ايضا ملاحظات صلاح الدين حول اخيه - المصدر نفسه ص ٨٥ .
(٢٥) المصدر نفسه ص ٨٤ - ٨٥ ، انظر اعلاه ص ٩١
(٢٦) المصدر نفسه ص ١٨٨
(٢٧) المصدر نفسه ص ١٩٨ .
(٢٨) انظر اعلاه ص ٩٣
(٢٩) راشيل ج ٢ - ، متنوع ص ١٢٢ .
(٢٩) المصدر نفسه ص ١٢٣
(٣١) نشيد رولاند - تحقيق وايتهد (اكسفورد ١٩٥٧) ج ٢ - والعواطف نفسها خلال ذلك .
(٣٢) راشيل ج ٢ - متنوع ص ١٨٩ .
(٣٣) انظر اعلاه ب٨٠
(٣٤) انظر ادناه ، الفصل ٩ خاصة ص ١٦٣ - ١٦٨ .
(٣٥) راشيل ج ٢ ، د متنوع ص ١٢٣ . انظر يوحنا - ١٦ ، ٢
(٣٦) المصدر نفسه ص ١٠٠ ، انظر الرثاء ١ ، ١
(٣٧) المصدر نفسه ص ٢٠٣ - ٢٠٥ انظر اعلاه ص ١٠٠

(٣٨) انظر اعلاه ص ٤٥

(٣٩) انظر اعلاه ص ١٠٥

(٤٠) المصدر نفسه ص ١٠٠

(٤١) راشيل ج ٢،ده متنوع ص ٦٦ .

(٤٢) المصدر نفسه ص ٢١٠

(٤٣) المصدر نفسه ص ٢١٣ .

(٤٤) المصدر نفسه ص ١٦٥ ـ ١٦٧ .

(٤٥) المصدر نفسه ص ١٦٥ .

(٤٦) راشيل ج ٢ ص ٥٩ ، غ متنوع .

(٤٧) المصدر نفسه ص ١٠٠

(٤٨) انظر اعلاه ص ١٠٥

(٤٩) انظر اعلاه ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٥٠) راشيل ج ٢ ص ٦٦ ـ ٦٧ ،ده متنوع انظر ايضا ص ٦٧ ـ النص الاساس وحاشية رقم ٢ .

(٥١) انظر ماتقدم ص ١٠٨ .

(٥٢) انظر اعلاه ص ص ٩١ ـ ١٠٣

(٥٣) راشيل ج ٢ ، د متنوع ص ١٩٤

(٥٤) المصدر نفسه ص ١٩٩ :« كان الرسول بناء على طلب من الملك هو بالين دي ابلين » .

(٥٥) المصدر نفسه ص ٦٩

(٥٦) المصدر نفسه ص ١١١ .

(٥٧) المصدر نفسه ص ٢٠٦

(٥٨) المصدر نفسه ص ٢٠٧

(٥٩) المصدر نفسه ص ٢٢٢ .

(٦٠) انظر اعلاه ، ص ٩٨ ـ ١٠٧

(٦١) هو غوبوغال « رسم المنمنمات في المملكة اللاتينية في القدس (اكسفورد ١٩٥٧) ص ٨٧ ومايليها .

(٦٢) إن نصوص « اوز » في الواقع متماثلين في هذا القسم المبكر .

حواشي الفصل الثامن

(١) م.ل – ص ١١٦ . انظر ايضا راشيل ج ٢ ص ٦ ، وبداية تاريخ هرقل : ٢٣ ، ٤

(٢) بابكوك وكراي ، ص ٣٨ ومايليها
(٣) بابكوك وكراي ، ص ٣٨
(٤) المصدر نفسه ص ٤٠
(٥) معلومات نقلت شفاها
(٦) ف . اوست ، ذيل تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري (هيل ١٨٩٩)
(٧) روبرت دي سانت ريمي ، تاريخ القدس، الاعمدة ٦٦٧ – ٧٥٦ تاريخ القدس
(٨) س . ب . س هويغز ، وليم الصوري الطالب ،
(٩) تاريخ وليم الصوري – ترجمتي العربية ص ١٣٥
(١٠) م.ل – ص ٨٢ .
(١١) أنظر ماتقدم .

(١٢) اشا ر لي مكان آخر إشارة عابرة إلى فيليبي على أنها مكان تاليف (كذا) الرسائل الانجيلية إلى أهل فيلبي انظر م.ل – ص ٩٥ ، ورا شيل ج٢ ص ٢٣ .
(١٣) جميع الاشارات التوراتية هي الى الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس ، والمزامير واسفار الملوك معدة طبقا لذلك .

(١٤) م.ل – ب٦٩ . يوسيفوس – العصور القديمة كتاب ٢ – فصل ١٦
(١٥) م.ل – ص ٧٨ – ٧٩
(١٦) المصدر نفسه ص ٧١ حاشية ٩
(١٧) كل الاقتباسات من يوسيفوس هي من نص العصور القديمة والحرب اليهودية لفلافيوس ، يوسيفوس ، ترجمة وليم ويستون (لندن ١٩٦٣) .
(١٨) م.ل – ص ٧٢ .
(١٩) سفر الملوك الرابع ٦ ، ٣٠ – ٣١ . م ل – ص ١١٠ الحروف المائلة من عندي .
(٢٠) م.ل – ص ٧٥ .
(٢١) موت امـوري دي ناربـون . تحقيق ج كوري دي بـاري (بـاريس ١٨٨٤) ج ٥ ص ٣٣٦١ – ٣
(٢٢) م.ل – ص ٧٦ – ٧٧ .
(٢٣) ايزودور الاشبيلي دراسة الكلمات الكتاب ١٢ الفصل ٤ القسم ٢ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢
(٢٤) جاك دي فيتر – ، الكتاب الشرقي (دواي ١٥٩٧) ص ١٨٦ – ١٨٨
(٢٥) فيليب دي ثاؤن ، تحقيق ولبيرغ (لندن ١٩٠٠) ١٦١٥ ومايليها
(٢٦) هـ ميشلان وغ رينو ،رحلات وصف القدس بالفرنسية،(جنيف ١٨٨٢) ص ٢٣ ومايليها المقدمة ص ١٢ و ١٥ .

(٢٧)راشيل ج ١ ص ٩٤٢ . بابكوك وكراي ج٢ ص ٣٤٤ – ٣٤٥ م . ل – ص ١٨ .

(٢٨) م.ل – ص ١١٤ .
(٢٩) راشـيل ج١ ص ٥٢٠ – ٥٢١ . بـابكوك وكراي ج ١ ص ٥٢٤ – ٥٢٧ . م ل – ص ٧ – ٩ .
(٣٠) هـ . ميشلان وغ ريموند ، رحلات القدس ، ص ١٥ .

(٣١) راشيل ج ٢ ص ٥٠ ـ ٥٢
(٣٢) م .ل ص ٨٧
(٣٣) راشيل ج ٢ ص ٥٩ ـ ٦١ النص الاساس ص ٦٠ ـ ١ غ متنوع .
(٣٤) راشيل ج٢ ص ٦١ .
(٣٥) المصدر نفسه ص ١٦ ـ ٢٥ انظر ايضا م . ل ـ ص ٩٥ ـ ٩٦ و ١٢٨ ـ ١٢٩ .
(٣٦) انظر ماتقدم ص ١٠١ .
(٣٧) م .ل ص ١٢٣ ، ١٢٦ ـ ١٢٧ . وانظر راشيل ج ٢ ص ١١ ، ١٥١٤ .
(٣٨) راشيل ج ط ص ١٤ ـ ١٥ .
(٣٩) انظر ماتقدم ص ١٢٨ ـ ١٢٩
(٤٠) انا شاكرة للسيدس . ر سندون من سانت ادموندهول في اكسفورد لاقتراحه امكانيه الثـورة المكاوية .
(٤١) كتاب فيليب دي نافار ـ فصل ٤٩ راشيل ـ لوس ١ ص ٥٢٥
(٤٢) ـ م .ل ـ ص ٥٠٠
(٤٣) تاريخ هرقل ٣٣ ، ٣٠٣ راشيل ج٢ ص ٣٩٩ .

(٤٣) تاريخ هرقل ٣٣ ، ٣٣ . راشيل ج٢ ص ٣٩٩ .
(٤٤) انظر البحث حول النصوص الباقية .
(٤٥) م .ل ـ ص ٤٩٥ . خلافا لشروط سداد الدين .
(٤٦) انظر ماتقدم
(٤٧) انظر رنسمان ، مجلد ٣ ملحق ٢ الحياة الفكرية في بلاد ما وراء البحار .
(٤٨) راشيل ج ٢ ص ٢٢٤ ـ ٣٠٤
(٤٩) المصدر نفسه ص ٢٢٨ ـ ٢٣١ ـ ، س ، غ و د ، متنوع
(٥٠) ـ المصدر نفسه من ص ٢٠٧ ومايليها
(٥١) انظر مخطط ص ٩٦
(٥٢) المصدر نفسه ص ٢٢٤ ـ ٢٢٧ ، النص الاصلي ومتنوع
(٥٣) المصدر نفسه ص ٢٣٤ ـ ٢٣٨ ، النص الأصلي ومتنوع
(٥٤) المصدر نفسه ص ٣٠٤ بداية تاريخ هرقل ٣٠ ، ١١ .
(٥٥) انظر اعلاه ص ٢٣٨

(٥٥) انظر اعلاه ص ١٣٨ ـ ١٣٩
(٥٦) انظر اعلاه ص ٩٦

(٥٩) انظر اعلاه ص ٨٦ ـ ٨٨
(٦٠) ص ١٣٩ اعلاه . ٦١ ـ ١٤٠ ٦٢ ـ ص ١٤١ .
(٦٣) بشكل المقطع موضوع السؤال نهاية الفصل ٤٠ مع جميع الفصل ٤١
(٦٤) راشيل : ٢ ، ٣٠٤
(٦٥) ـ م . ل ص ٤٠٦
(٦٦) المصدر نفسه ، ص ٣٧٩ ، متنوع
(٦٧) انظر اعلاه ص ٢٠
(٦٨) راشيل ج ٢ ص ٣٧٨
(٦٩) انظر اعلاه ص ١٤٢ والمخطط ص ١٤٠

- ٤٠٥٤ -

(٧٠) راشيل ج ٢ ص ٣٧٩ .

(٧١) ريس ج ٧ – عمود ٨٤٦

حواشي الفصل التاسع

(١) رودلف برومر : ظهور النثر في الأدب الرومانسي للغات الدارجة (بـرلين ١٩٤٨) ج ١ ص ٣٦ .
(٢) على سبيل المثال – التاريخ ٩ ، ٩ . (راشيل ج ١ ص ٣٧٦ – ٣٧٧) بابكوك وكراي ج ١ ص ٣٩٢ – ٣٩٣ . انظر أيضا : كتاب جين دي ايلن – راشيل – لوس ج ١ ص ٢٢ ، وبير دي بوفياس ، الأولمبياد ، مخطوط وورقة ٤ – ظ ومخطوط البودليان ٧٧ هاتون – ورقة ٣٩٣ .
(٣) برنتولاتيني ، كتب تيسو ، تحقيق ب تشايللي (باريس ١٨٦٣) .
(٤) ب .م سكون ، دراسة لنشوء النثر الفرنسي ، (فرانكفورت ١٩٦٠) (انادلتا رومانسيا ٨)
(٥) تاريخ وليم ترجمتي العربية ص ٢٩٧ . راشيل ج ١ ص ١٩١ .
(٦) راشيل ج ١ ص ١٩١ .
(٧) راشيل ج ٢ ص ١٧ . مخطوط أورقة ٣١٣ ومخطوط ب – ورقة ٢٤٨ ظ .
(٨) مخطوط « د » ورقة ٢٩٠ و . مخطوط « غ ج » الشيء نفسه .
(٩) وقراءة أخرى من قراءات كثيرة لم تلاحظ من قبل ستريت (انظر أعلاه ص ٣٤ ومـا بعدها) ، ولكنها تدعم تفضيله « غ ج » على « ب » وهذه القراءة هي أيضا واحدة من كثير تدل على تفوق « د » على «أ» و«ب» في الاقسام المشتركة بينها .
(١٠) م .ل – ص ١٩٠ – ٢١٠ .
(١١) مخطوط ب ن . ف فر ٧٧٠ – ورقة ٣٣٠ و ، وعمود ٣ . انظر أيضا م . ل – ص ٦٥ .
(١٢) راشيل ج ٢ ص ٤٨٩ وما يليها وانظر أيضا ماتقدم ص ٢٠
(١٣) راشيل ج ١ ص ٣٩٨ – ٣٩٩ . التاريخ ٩ ، ٢٢ . بابكول وكراي ج ١ ص ٤١٣ .
(١٤) تاريخ جوسلين أوف بريكلوند تحقيق هـ إبتلر (لندن ١٩٤٩) ص ٣٩ – ٤٠
(١٥) انظر أعلاه ص ٢٤ – ٢٥ .
(١٦) راشيل ج ٢ ص ١٦٢ .
(١٧) المصدر نفسه ص ١٧٠ . م ل – ص ٢٧٣
(١٧) المصدر نفسه ص ١٧٠ . م .ل – ص ٢٧٣
(١٨) راشيل ج ٢ . « د » متنوع ١٦٩ .
(١٩) تاريخ هرقل : ٣٣ ، ٥٩ – ٦٠ . راشـيل ج٢ ص٨٨ – ٩٣ . انظـر أيضـا م .ل – ص ٢٢٢ – ٢٢٤ .
(٢٠) انظر أعلاه ص ١٦١
(٢١) راشيل ج ٢ ص ١٨٨ – ١٩٠ .« د » متنوع .
(٢٢) For 'qu'il la teigne toute' (*RHC* ii, 188) read 'qu'il la doigne toute' (MS *d*, f. 330a) Also in this passage, for 'perdue . . . il fu mort' (*RHC* ii, 190) read 'perdue. Car il fu mort' etc. (MS *d*, loc. cit.).
(٢٣) راشيل ج٢ ص ١٨٨ – ١٨٩ . «د» متنوع .
(٢٤) انظر أعلاه ص ٤٤ – ٤٥ و ١١٤
(٢٥) راشيل ج٢ ص ١٩٠ «د» متنوع
(٢٦) المصدر نفسه ص ١٨٨
(٢٧) نشيد رولاند تحقيق وايتهد – الأبيات ٣٧٦٢ – ٣٧٦٤ .
(٢٨) ومثل صغير لفر ، العبارة التي استعملها ريذو دي سيتي ويحتمـل انه الآن سـنويا بين كل

أنواع (راشيل ج ٢ ص ١١١ ـ « ده مقتورع) التورية في اللغة الفرنسية القديمة .

(٢٩) مخطوط «د» ورقة ٣١٦ و ، عمود ١   وانظر أيضا راشيل ج٢ ص ١٣٦ «د» مقتورع .

(٣٠) راشيل ج٢ ص ١٢٢ ـ ١٢٤ «د» مقتورع

(٣١) المصدر نفسه ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢

(٣٢) المصدر نفسه ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ .

(٣٣) المصدر نفسه ص ٢٢٠

(٣٤) ب .م سكون ـ المصدر نفسه ص ١٣٤ ومايليها .

(٣٥) م .ل ص ٥٠٠

(٣٦) انظر لاتوموس ٢١ (١٩٦٢) ٨٢٢ ـ ٨٢٤

(٣٧) راشيل ج ١ ص ١٥ . بابكول وكراي ج ١ ص ٥٦

(٣٨) راشيل ج١ ص ٣ ترجمتي إلى العربية ص ١٣٢ ـ ١٣٤

(٣٩) راشيل ج ١ ص ٤ ترجمتي ص ١٣٥

(٤٠) راشيل ج ١ ص ١١٣٢ ترجمتي ص ١٠٧٣ .

(٤١) التاديخ ٢١ ٧ راشيل ج ١ ص ١٠١٥ ترجمتي ص ٩٧٩ .

(٤٢) م ل ـ ص ٨٥ .

(٤٣) توفيت و .غ غولدن

(٤٤) المتحف البريطاني رويال ـ ١٥ ـ إ ـ ١ .

(٤٥) راشيل ج٢ ص ٤٣٦ ومايليها

(٤٦) جين سيد جوانفيل ـ تاريخ القديس لويس ـ تحقيق ناتالي دي ويللي (باريس ١٨٧٤)

حواشي الفصل العاشر

(١) انظر المدخل
(٢) راشيل لوس ج١ ص ٧ ـ ٣٤٠
(٣) برور ـ بدايات وأسس الاقطاع في المملكة اللاتينية في القدس :
TIJIDS CHRIFT VOOR RECHTS GESCHIEDENIS XXII (1954)
(٤) انظر على سبيل المثال رنسمان ج٢ ص ٤٧٧ ـ ٤٧٨ .
(٥) هناك استثناء واحد هام لهذه القاعدة ، سوف يناقش كاملا في هذا الفصل ، انظر ما سيأتي من ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .
(٦) م . و بلدوين ريموند الثالث صاحب طرابلس وسقوط القدس (بسرنر ستون ـ ن ج ١٩٣٦) ص ١٦٣ .
(٧) راشيل ج ٢ ـ ص ٢٤٣ ومايليها م .ل ـ ص ٣٣٦ ، فقرة ٢ ومايليها .
(٨) راشيل ج ٢ ص ٣٢٦ ومايليها ، النص الأساس ص ٣١٥ ومايليها ، متنوع ـ م . ل ، ص ٣١٣ ومايليها .
(٩) انظر على سبيل المثال ج ٣ ص ٨٩ ، ٩١ ، ٩٣ .
(١٠) راشيل ج٢ ص ١٦٣ ـ ١٦٩ . وانظر ماتقدم ص ٧٠ ومايليها .
(١١) راشيل ج ٢ ص ١٧٠ .م . ل ص ٢٧٣ .
(١٢) انظر ماتقدم ص ٩٦ .
(١٣) أعني كامل نص «أ» كما هو في طبعة ماس لاتري .
(١٤) في م . ل ص ٤٥٨ ، ٤٦٧ ، كل على حده .
(١٥) مقدمة للترتيب التزامني لهوميروس ـ بحث في زمان ومكان هوميروس (لندن ١٨٧٩) ص ٩ والاقتباس من عمله الماثل لعنوان :« دراسات عن هوميروس والعصر الهوميروسي (اكسفورد ١٨٥٨) ١٠ ص ٣٦ . انظر أيضا المناقشة في :
(لندن ١٨٦٩) ص ٧ ـ ٩) .
(١٦) انظر أعلاه ص ١٥٦ ـ ١٥٧
(١٧) انشطة الاستعمار في المملكة اللاتينية في القدس ـ في دورية اللغات والتاريخ ٢٩ (١٩٥١) ١٠٦٣ ـ ١١١٨
(١٨) راشيل ج١ ص ٥٠٠ . ترجمتي العربية ص ٥٦٠ .
(٢٠) رنسمان ج٢ ص ٤٧٧ .
(٢١) وكمثال على الاستعمال الصحيح للترجمة بهذه الطريقة ، انظر سميل ص ٧٦ ـ ٧٧ مع الحاشيتين ٨ ـ ٩ .
(٢٢) انظر ماتقدم ص ١٢١
(٢٣) انظر ماتقدم ص ٢٤ ـ ٢٥
(٢٤) انظر ماتقدم ١٤ ـ ١٥

- ٤٠٥٨ -

حواشي الملاحق

(١) في اطروحة دكتوراه لم تنشر بعد

(٢) انظر مقدمة ميسلانت وريذو .

(٣) انظر بوخثال ، مذمنمات مرسومة ، ص ٨٧ ومايليها

(٤) م . ل ، ٢٢

اهم المصادر والمراجع

Albert of Aix: *Historia Hierosolymitanae Expeditionis* In *RHC* iv.
Ambroise: *L'Estoire de la guerre sainte.* Ed. Gaston Paris, Paris, 1897. See also La Monte and Hubert.
Babcock (E.) and Krey (A C.): *A History of Deeds Done Beyond the Sea.* Records of Civilisation, 35. New York, 1943.
Baldus (D.) ed: *Enchiridion Locorum Sanctorum.* 2nd ed. Jerusalem, 1955.
Beha-Eddin: *Vita et Res Gesta Sultani Almalichi Alnasiri Saladini.* Ed. A Schultens. Lyons, 1732. See also Wilson (C.W.).
Beugnot (A.A.), ed.: *Assises de Jérusalem.* In *RHC Lois*, i and ii.
Bongars (J.): *Gesta Dei per Francos.* Hanover, 1611.
Brochardus: *L'Advis directif pour faire le saint voyage d'Oultremer, par le frère Brochard Lalemont. RHC Documents arméniens,* ii, contains the Latin text (*Directorium ad passagium faciendum*) with the French text below.
Butler (Cuthbert, O.S.B.), ed.: *Sancti Benedicti Regula Monachorum.* Friburg-im-Breisgau, 1912.
Caxton (W.): *Godeffroy of Boloyne, or the Siege and Conqueste of Jerusalem, by William Archbishop of Tyre, translated by William Caxton.* London, 1481. See also Colvin (M.) and Sparling (H.H.).
Chroust (A.), ed.: *Historia de Expeditione Friderici Imperatoris.* Monumenta Germaniae Historiae. Berlin, 1928.
Citry de la Guette (Samuel de Broe, Seigneur de): *Histoire de la conqueste du royaume de Jérusalem sur les Chrestiens par Saladin. Traduite d'un ancien manuscrit.* Paris, 1679.
Colmenares (Diego de): *Historia de la Insigne Ciudad de Segovia, y conpendio de las Historias de Castilla.* Ist ed., Segovia, 1637.
Colvin (M.), ed.: *William Caxton: Godeffroy of Boloyne.* Early English Text Society, London, 1893.
Conder (R.E.): *The City of Jerusalem.* London, 1888. Palestine Pilgrims' Text Society, 6. See also Michelant and Raynaud.
Corbie. 'The Ancient Statutes of the Abbey of St. Peter of Corbie'. A typewritten transcription, with no name of author or date, numbered 1107 b.4. in the catalogue of the Bodleian Library.
Curzon (H de), ed.: *La Règle du Temple.* Paris, 1886.
Du Préau (G.): *L'Histoire de la Guerre Sainte.* Paris, 1573. An edition of the French translation of William of Tyre, with the continuation of Hérold.
Guizot (F.P.G.): *Collection des mémoires relatifs à l'histoire de France.* Paris, 1823-35.
Isidore of Seville: *Etymologiae.* In *PL* lxxxii.
Jacques de Vitry: *Epistola de Captione Damiatae.* Published by Iacobus Gretserus, S.J., Ingolstadt, 1610.
—— *Liber Orientalis, siue Hierosolymitanae* Douai, 1597. Also in Vol i of Bongars and Vol. xv of Guizot (qq.v.).
—— *Lettres.* Ed. R.B.C. Huygens. Leyden, 1960.

Jocelin of Brakelonde: *Chronica Jocelini de Brakelonda de rebus et gestis Samsonis Abbatis Monasterii Sancti Edmundi.* Ed. J.G. Rokewode, London 1840.

Josephus: *The Antiquities and The Jewish War of Flavius Josephus* Translated by William Whiston. London, 1963.

La Monte (J.L.) with Hubert (M.J.): *The Crusade of Richard the Lion Heart.* Records of Civilization, 34. New York, 1941. A translation of Ambroise (q.v.).

Lodeman (F.E.), ed.: *Le Pas Salhadin.* In *Modern Language Notes,* xii (Jan. 1897).

Martène (E.) and Durand (U.): *Veterum Scriptorum et Monumentorum Historicorum, Dogmaticorum, Moralium, Amplissima Collectio.* Paris, 1724-33.

Mas-Latrie (L. de), ed.: *La Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier.* Paris, 1871.

Matthew of Edessa: *Chronicon.* In *RHC Documents Arméniens,* i.

Mayer (H.E.): *Das Itinerarium Peregrinorum* Stuttgart, 1962. See also Richard of London.

Michelant (H.) and Raynaud (G.), eds.: *Itinéraires à Jérusalem et descriptions de la Terre Sainte rédigés en français au XIe, XIIe et XIIIe siècles.* Publications de la Société de l'Orient Latin, série géographique, 3. Geneva, 1882.

Migne (J.-P.): *Patrologiae Cursus Completus. Series Latina.* Paris, 1844-55.

Morris (William), ed. and trans.: *L'Ordène de chevalerie.* Hammersmith, at the Kelmscott Press, 1893.

Muratori (L.A.), ed.: *Rerum Italicarum Scriptores* Milan, 1723-51.

Oliver of Paderborn: *De Captione Damiatae.* Ed. H. Hoogeweg, Tübingen, 1894. Also in Bongars, Vol. i (q.v.).

Paris (P.), ed.: *Guillaume de Tyr et ses continuateurs.* Paris, 1879-80. The French translation of William of Tyre only; the continuations were never published.

Philippe de Novare: *Mémoires 1218-1243.* Ed. Ch. Kohler, Paris, 1888.

—— *Le Livre des plaits et des us et des costumes des assises d'outre-mer et de Jérusalem et de Chypre.* In *RHC Lois,* i under the title *Le Livre de Philippe de Navarre.*

Pierre de Beauvais: 'Les Olimpiades'. Unpublished. MSS Saint-Omer 722, Berne 41 and 113, and Bodleian Hatton 77.

Pipino (Francesco, O.P.): *Chronicon.* In *RIS* vii and ix.

Ralph of Coggeshalle: *Chronicon Anglicanum,* and the *De Expugnatione Terrae Sanctae per Saladinum Libellus,* doubtfully attributed to Ralph. Ed. J. Stevenson, Rolls Series, 66. London, 1875.

Raynaud (G.), ed.: *Les Gestes des Chiprois.* Publications de la Société de l'Orient Latin, série historique, 5. Geneva, 1887.

Richard of Devizes: *Chronicon de Rebus Gestis Ricardi Primi, Regis Angliae.* Ed. J. Stevenson, London 1838.

Richard of London: *Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi; auctore ut videtur Ricardo, Canonico Sanctae Trinitatis Londiniensis.* Ed. W. Stubbs, Rolls Series, 38, London, 1864. See also Mayer (H.E.)

Robert de Clari: *La Conquête de Constantinople.* Ed. P. Lauer, Paris, 1924.
Robert the Monk: *Historia Hierosolymitana.* In *RHC* iii.
Salloch (M.): *Die lateinische Fortsetzung Willelms von Tyrus.* Leipzig, 1934.
Sparling (H.H.): *William Caxton: The History of Godefrey of Boloyne and of the Conquest of Iherusalem.* Corrected by H. Halliday Sparling, printed by William Morris at the Kelmscott Press, Hammersmith, Apr. 1893.
Tobler (T.), ed.: *Descriptiones Terrae Sanctae ex saeculo VIII, IX, XII et XV.* Leipzig, 1874.
—— *Topographie von Jerusalem.* Berlin, 1854.
Tudeboeuf (Pierre) or Tudebodus: *Historia de Hierosolymitano Itinere.* In *RHC* iii.
Villehardouin (Geoffroi de): *La Conquête de Constantinople.* Ed. E. Faral, Paris, 1938.
Vincent de Beauvais: *Speculum Historiale.* Augsburg, 1474.
—— *Speculum Majus.* Venice, 1494.
Wailly (Natalis de), ed.: *Récits d'un menestrel de Reims.* Paris, 1876.
William of Newburgh: *Historia Rerum Anglicarum.* Ed. H.C. Hamilton, London, 1866.
William of Tyre: *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum.* In *RHC* i. See also Babcock and Krey, Du Préau, and Paris.
Wilson (C.W.): *Saladin; or, What befell Sultan Yūsuf-Salāh-ed-Dīn.* Palestine Pilgrims' Text Society, 13. London, 1897. A translation of Beha-Eddin (q.v.).

Bibliographies

Becker (G.): *Catalogi Bibliothecarum Antiqui.* Bonn, 1885.
Carpentier (P.), ed.: *Glossarium Novum ad Scriptores Medii Aevi.* Paris, 1766. A supplement to Du Cange (q.v.).
Du Cange (Charles du Fresne, sieur): *Glossarium ad Scriptores Mediae et Infimae Latinitatis.* Paris, 1678. A revised edition of this work, by Carpentier (q.v.) and others, Niort, 1883-7.
Fabricius (J.A.): *Bibliotheca Latina mediae et infimae aetatis.* Hamburg, 1734-46.
Grober (G.): *Grundriss der romanischen Philologie.* Strassburg, 1886-1901. 2nd ed., Berlin, 1933.
James (M.R.): *A Descriptive Catalogue of Fifty Manuscripts in the Library of Henry Yates Thompson.* Cambridge, 1898.
Lelong (J.): *Bibliothèque historique de la France.* Paris, 1719.
Manitius (M.): *Geschichte der lateinischen Literatur des Mittelalters.* Munich, 1911.
Mayer (H.E.): *Bibliographie zur Geschichte der Kreuzzüge.* Hannover, 1960.
Meusel (J.G.): *Bibliotheca Historica.* Leipzig, 1782-1802.
Michaud (J.F.): *Bibliographie des croisades.* Paris, 1822.
Montfaucon (B. de): *Bibliotheca Bibliothecarum Manuscriptorum Nova.* Paris, 1739.

Paris (P.): *Les Manuscrits français de la Bibliothèque du Roi.* Paris, 1836.
Riant (P.): *Inventaire sommaire des manuscrits de l'Eracles.* In *Archives de l'Orient Latin*, i, 1881.
Woledge (B.) and Clive (H.P.): *Répertoire des plus anciens textes en prose française.* Geneva, 1964.

Secondary Sources

Alphandéry (P.): *La Chrétienté et l'idée de croisade.* Paris, 1954.
Archer (T.A.): *The Crusade of Richard I.* London, 1888.
Baldwin (M.W.): *Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem.* Princeton, N.J., 1936.
Beaunier (Dom) and Besse (J.M.): *Abbayes et prieurés de l'ancienne France.* Archives de la France Monastique. Paris, 1905.
Bourgeat (J.B.). *Études sur Vincent de Beauvais.* Paris 1856.
Brummer (R.): *Die erzahlende Prosadichtung in den romanischen Literaturen des dreizehnten Jahrhunderts.* Berlin, 1948.
Buchthal (Hugo): *Miniature Painting in the Latin Kingdom of Jerusalem.* Oxford, 1957.
Butler (Cuthbert, O.S.B.): *Benedictine Monachism.* London, 1924.
Cartellieri (A.): *Philipp II August, Konig von Frankreich.* Leipzig, 1899.
Chevalier (U.): *Répertoire des sources historiques du Moyen Âge.* 2nd ed., Paris, 1905-7
Cottineau (L.H.): *Répertoire topobibliographique des abbayes et prieurés.* Mâcon, 1935.
Cousin (Patrice, O.S.B.): *Précis d'histoire monastique.* Paris-Tournai, 1959.
Curtius (E.R.): *Europaische Literatur und lateinisches Mittelalter.* Berne, 1948.
Daniel (N.): *Islam and the West.* Edinburgh, 1960.
Daoust (J.) and Gaillard (L.), eds : *Corbie Abbaye Royale. Volume du XIIIe Centenaire.* Lille, 1963.
Delatte (Paul, O.S.B.): *The Rule of St. Benedict: a Commentary by Dom Paul Delatte.* Translated by Dom Justin McCann. London, 1921.
Donovan (J.P.): *Pelagius and the Fifth Crusade.* Philadelphia, Pa., 1950.
Du Cange (Charles du Fresne, sieur): *Les Familles d'Outremer.* Published by E.G. Rey. Paris, 1869.
Erdmann (C.): *Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens.* Stuttgart, 1935.
Fuller (Thomas): *The Historie of the Holy Warre.* Cambridge, 1639.
Grousset (René): *L'Empire du Levant: histoire de la question d'Orient.* Paris, 1946.
— *Histoire des Croisades et du royaume franc de Jérusalem.* Paris, 1934-6.
Guérin (V.): *Description de la Palestine.* Paris, 1869.
Hackett (J.W.): 'Saladin's Campaign of 1188'. Oxford B.Litt. thesis, 1937.
Huygens (R.B.C.): *Latijn in Outremer.* Leiden, 1964.
Jenkins (C.): *The Monastic Chronicler and the Early School of St. Albans.* London, 1922.

Kestner (E.): *Der Kreuzzug Friedrichs II.* Göttingen, 1873.
Kohler (Charles): *Mélanges pour servir à l'histoire de l'Orient latin et des croisades.* Paris, 1900.
Laking (G.F.): *A Record of European Armour and Arms through Seven Centuries.* London, 1920.
Lane Poole (S.): *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem.* Heroes of the Nations, 24, London, 1898.
Longnon (J.): *Les Français d'Outremer au Moyen Âge* Paris, 1929.
—— *L'Empire latin de Constantinople et la principauté de Morée.* Paris, 1949.
Luchaire (A.): *La Société française au temps de Philippe-Auguste.* Paris, 1909.
Maimbourg (L.): *Histoire des croisades.* In *Les Histoires du sieur Maimbourg.* Paris, 1686.
Maître (L.): *Les Écoles épiscopales et monastiques en occident avant les universités.* Archives de la France Monastique, 26, Ligugé, 1924.
Mas-Latrie (L. de): *Histoire de l'île de Chypre.* Paris, 1852-61.
Mercuri (P.) and Bonnard (C.): *Costumes historiques du XIIIe XIVe et XVe siècles.* 2nd ed., Paris, 1860-1.
Michaud (J.F.): *Histoire des croisades.* Paris, 1841.
Montalembert (C.F.R.): *Les Moines d'Occident depuis S. Benoît jusqu'à S. Bernard.* Paris, 1860-77.
Ost (F.): *Die altfranzösische Ubersetzung der Geschichte der Kreuzzüge Wilhelms von Tyrus.* Halle, 1899.
Pihan (A.P.): *Glossaire des mots français tirés de l'arabe, du persan et du turc.* Paris, 1847.
Prawer (J.): *Histoire du royaume latin de Jérusalem.* French translation by G. Nahon, Paris, 1969.
Prutz (H.): *Kulturgeschichte der Kreuzzüge.* Berlin, 1883.
—— *Quellenbeiträge zur Geschichte der Kreuzzüge.* Danzig, 1876.
Richard (J.): *La Royaume latin de Jérusalem.* Paris, 1953.
Riley-Smith (J.S.C.): *The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus.* London, 1967.
Röhricht (R.): *Die Kreuzfahrt Kaiser Friedrich des Zweiten.* Berlin, 1872.
—— *Quellenbeiträge zur Geschichte der Kreuzzüge.* Berlin, 1875.
—— *Zusätze und Verbesserungen zu Du Cange: Les Familles d'Outremer.* Berlin, 1886.
—— *Studien zur Geschichte des funften Kreuzzuges.* Innsbruck, 1891.
—— (ed.): *Regesta regni Hierosolymitani.* Innsbruck, 1893.
—— *Geschichte des Königreichs Jerusalem 1100-1291.* Innsbruck, 1898.
Runciman (Sir Steven): *A History of the Crusades.* Cambridge, 1952-3.
—— *The Families of Outremer. The Feudal Nobility of the Crusader Kingdom of Jerusalem 1099-1291.* Creighton Lecture, London 1960.
Schon (P.M.): *Studien zum Stil der fruhen französischen Prosa.* Frankfurt, 1960.
Setton (K.M.), ed.: *A History of the Crusades.* Vol. i: *The First Hundred Years,* ed. M.W. Baldwin. Pennsylvania, Pa., 1955. Vol. ii: *The Later Crusades,* ed. R.L. Wolff and H.W. Hazard. Pennsylvania, Pa., 1962.

Smail (R.C.): *Crusading Warfare, 1097-1193.* Cambridge, 1956.
Smalley (B.): *The Study of the Bible in the Middle Ages.* 2nd ed., Oxford, 1952.
Southern (R.W.): *Western Views of Islam in the Middle Ages.* Cambridge, Mass., 1962.
Streit (L.): *De rerum transmarinarum qui Guilelmum Tyrium excepisse fertur Gallico auctore specimen.* Greifswald, 1861.
Vasiliev (A.A.): *History of the Byzantine Empire, 324-1453.* 2nd English ed., Oxford 1952.

Articles

Archer (T.A.): 'On the Accession Dates of the Early Kings of Jerusalem', *English Historical Review,* iv (1889).
Cahen (C.): 'Indigènes et Croisés; quelques mots à propos d'un médecin d'Amaury et de Saladin', *Syria,* xv (1934).
Delisle (L.): 'Recherches sur l'ancienne bibliothèque de Corbie', *Bibliothèque de l'École des Chartes,* 5th Ser. i (1860).
Duval (A.): 'Auteur anonyme de l'Ordène de chevalerie', *HLF* xviii (1835).
Edwards (J.C.): 'The *Itinerarium Regis Ricardi* and the *Estoire de la guerre sainte'.* In *Historical Essays in Honour of James Tait.* Manchester, 1933.
Giry (A.): 'Les Châtelains de Saint-Omer 1042-1386', *Bibliothèque de l'École des Chartes,* xxxv (1874).
Hellweg (M.): 'Die ritterliche Welt in der Geschichtschreibung des vierten Kreuzzugs', *Romanische Forschungen* lii (1938).
Huygens (R.B.C.): 'La Tradition manuscrite de Guillaume de Tyr', *Studi Medievali,* 3e série, v, 1 (June 1964).
—— 'Guillaume de Tyr étudiant. Un chapitre (XIX, 12) de son "Histoire" retrouvé', *Latomus,* xxi (1962).
Jones (L.W.): 'The Scriptorium at Corbie', *Speculum,* xxii (1947).
Kohler (E.): 'Zur Entstehung der altfranzosischen Prosaromans', *Wissenschaftliche Zeitschrift der Friedrich-Schiller-Universitat Jena,* v (1955-6).
Krey (A.C.): 'William of Tyre: the Making of a Historian in the Middle Ages'. *Speculum,* xvi (1941).
La Monte (J.L.) and Downs (N.): 'The Lords of Bethsan in the Kingdoms of Jerusalem and Cyprus', *Medievalia et Humanistica,* vi (1950).
La Monte (J.L.): 'John d'Ibelin, the Old Lord of Beirut, 1177-1236', *Byzantion,* xii (1937).
—— 'The Lords of Caesarea in the Period of the Crusades', *Speculum,* xxii (1947).
Lesne (E.): 'L'Économie domestique d'un monastère au IXe siècle d'après les statuts d'Adalhard, abbé de Corbie.' In *Mélanges Offerts à F. Lot* Paris, 1925.
Levillain (L.): 'Les Statuts d'Adalhard', *Le Moyen Âge,* 2e Sér. iv (1900).
Manzoni (L.): 'Frate Francesco Pipino da Bologna dei pp. Predicatori, geografo, storico e viaggiatore', *Atti e Memorie della R. Deputazione di Storia Patria per le Provincie di Romagna. Terza serie,* xiii (Bologna, 1896).

Mayer (H.E.): 'Zum Tode Wilhelms von Tyrus', *Archiv fur Diplomatik*, v-vi (1959-60).
Mayer (P.): 'Notice et extraits du MS 8336 de la Bibliothèque de Sir Thomas Phillips à Cheltenham', *Romania*, xiii (1884). See especially p. 530 on the *Ordene de Chevalerie.*
—— 'Les MSS français de Cambridge', *Romania*, viii (1879) and xv (1886). See especially description of MS GG 6.28 of the University Library.
Munro (D.C.): 'The Western Attitude towards Islam during the Crusades', *Speculum* vi (1931).
Ohly (F.): Vom geistigen Sinn des Wortes im Mittelalter', *Zeitschrift für deutsches Altertum*, lxxxix (1958).
Ortroy (F. van): S. François d'Assise et son voyage en Orient', *Analecta Bollandiana*, xxxi (1912).
Paris (G.): 'La Légende de Saladin', *Journal des Savants* May to August inclusive, 1893. Ostensibly a review of Fioravanti: *Il Saladino nelle legende del medioevo.* Reggio-Calabria, 1891.
Paris (P.): Untitled article on *Histoire d'Outremer* in a collection under the general heading of 'Chroniques'. In *HLF* xxi (1847), 679-85.
Pastouret (E.C.J.P.): 'Guillaume de Tyr. Sa Vie', *HLF* xiv (1817).
Petit-Radel (L.C.F.): 'Bernard, dit le Trésorier, traducteur et continuateur de Guillaume de Tyr', *HLF* xviii (1835).
Prawer (J.): 'Assise de Teneure et Assise de Vente: a Study of Landed Property in the Latin Kingdom', *Economic History Review*, 2nd Ser. iv (1951-2).
—— 'The Settlements of the Latins in Jerusalem', *Speculum*, xxvii (1952).
—— 'Colonization Activities in the Latin Kingdom of Jerusalem', *Revue Belge de Philologie et Histoire*, xxix. 2 (1951).
—— 'La Noblesse et le régime féodal du royaume latin de Jérusalem', *Le Moyen Âge*, 4e série, xiv (1959).
—— 'La Bataille de Hattin', *Israel Exploration Journal*, xiv (1964).
—— 'Les Premiers Temps de la féodalité dans le royaume latin de Jérusalem—une réconsidération', *Tijdschrift voor Rechtsgeschiedenis*, xxii (1954).
Prutz (H.): 'Studien uber Wilhelm von Tyrus', *Neues Archiv der Gesellschaft fur ältere deutsche Geschichtskunde*, viii (1883)
Richard (J.): 'An Account of the Battle of Hattin referring to the Frankish Mercenaries in Oriental Moslem Sates', *Speculum*, xxvii (1952).
Smail (R.C.): 'Crusaders' Castles of the Twelfth Century', *Cambridge Historical Journal*, x (1951).
Woledge (B.): 'La Légende de Troie et les débuts de la prose française.' In *Mélanges Offerts à Mario Roques.* Paris, 1950.
Wolff (R.L.): 'Baldwin of Flanders and Hainault', *Speculum*, xxvii (1952).

المحتوى

٣ ـ توطئة
٥ ـ تنويه
٦ ـ الرواميز
١٠ ـ مدخل
١٩ ـ الفصل الاول ـ النصوص الباقية حتى الآن
٣٤ ـ الفصل الثاني ـ حالة الدراسات
٥٥ ـ الفصل الثالث ـ المؤلفون المفترضون ارنول وبرنارد
٦٦ ـ الفصل الرابع ـ عمل برنارد الخازن
٧٦ ـ الفصل الخامس ـ عمل ارنول
٩٨ ـ الفصل السادس ـ عمل ارنول ـ بينة النيول
١٢٢ ـ الفصل السابع ـ تاريخ ارنول الاصلي
١٤٥ ـ الفصل الثامن ـ مصادر الموجز وبنيته
١٨٣ ـ الفصل التاسع ـ مكانة النيول في الادب الفرنسي القديم
٢١٦ ـ الفصل العاشر ـ النصوص كبينات تاريخية
٢٣٣ ـ الملحق رقم١ ـ مخطوطتا القديس اومر
٢٣٩ ـ الملحق رقم٢ ـ البوليانز
٢٤١ ـ نيل تاريخ وليم الصوري
٢٤٦ ـ تقديم
٢٥٣ ـ المخطوطات التي استخدمناها
٢٥٦ ـ الذيل اعتمادا على مخطوطة مكتبة ليون
٣٧٥ ـ نص مخطوطة فورنسا
٣٧٥ ـ وصف وصول ملك فرنسا الى عكا
٣٨٠ ـ سفر ملكة صقلية الى سورية
٣٨٣ ـ مرور سفن الحجاج بقبرص
٣٨٦ ـ احتلال رتشارد ملك انكلترا قبرص
٣٨٩ ـ سفر رتشارد الى عكا
٣٩٤ ـ كيف حارب ملك فرنسا مع ملك انكلترا عكا
٣٩٦ ـ تسليم عكا
٣٩٧ ـ اعادة ترتيب الاوضاع
٣٩٩ ـ كيف لم ينفذ صلاح الدين الاتفاق
٤٠٢ ـ اصابة ملك فرنسا بالمرض
٤٠٥ ـ عودة ملك فرنسا
٤٠٧ ـ محاولة ملك انكلترا احتلال القدس
٤١٢ ـ استيلاء الداوية على قبرص
٤١٥ ـ كيف اصبح غي اوزنغنان سيدا لقبرص
٤٢١ ـ اغتيال المركيز
٤٢٢ ـ زواج هنري دي شامبين من ارملة المركيز

٤٣٤ ـ استيلاء رتشارد على قافلة اسلامية ثرية
٤٣٩ ـ محاولات عقد الهدنة
٤٤٣ ـ عقد الهدنة
٤٤٦ ـ اعتقال رتشارد بالنمسا
٤٤٩ ـ اطلاق سراح رتشارد
٤٥٣ ـ موت الملك غي
٤٥٦ ـ مافعله هنري برهبان القبر المقدس
٤٦٤ ـ لاون سيد ارمينية يعتقل امير انطاكية
٤٧٠ ـ كومونة انطاكية
٤٧٣ ـ اطلاق سراح الامير من سجن لاون
٤٧٨ ـ مرور الكونت هنري بقبرص
٤٧٩ ـ وفاة صلاح الدين
٤٨٤ ـ الامبراطور هنري يحشد جيشا لارساله الى سورية
٤٩٤ ـ ثانية حول الموضوع
٤٩٨ ـ وصول الالمان الى عكا
٥٠٤ ـ موت الكونت هنري
٥١٦ ـ زواج الملك ايمري من ارملة هنري
٥١٩ ـ الهوامش والحواشي
٥٤٠ ـ اهم المصادر والمراجع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الروايات الأوروبية اللاتينية والاغريقية

الملاحم

١ ـ نشيد رولاند
٢ ـ رتشارد قلب الأسد

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء التاسع

دمشق ١٤١٤ ـ ١٩٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

كلما تعمق الباحث في ميادين تاريخ الحروب الصليبية ، يجد نفسه وسط مجموعة هائلة من الاسئلة التي تحتاج الى اجابات موثقة ، ويبقى على رأس الاسئلة: ما هو سر الاستجابة الشعبية الهائل للنداء الذي اطلقه البابا اوربان الثاني؟ ما الذي حرك مئات الالوف من الاوربيين للزحف نحو الشرق ولتحمل مخاطر الحملة؟ ثم ماسبب الحقد المرعب الذي حمله افراد الحملة الاولى تجاه المسلمين في الشرق الى حد انهم لم يكتفوا بإبادتهم بل اكلوا لحومهم بعد قتلهم؟.

لقد عرف التاريخ عددا من موجات هجرات الشعوب ، وجلها كانت هجرات شعوب بدوية ، لكن ان يهجر الناس مدنهم وقراهم ويرحلون نحو الشرق باسم الحج وتخليص الاماكن المقدسة من ايدي المسلمين فهذه ظاهرة فريدة من نوعها تحتاج الى البحث عن اسبابها البعيدة والقريبة.

وعبثا يحاول المرء ان يجد الاجابات الكاملة المقنعة في الروايات عن تعذيب الحجاج ، او في ازمات نظام الاقطاع الاوربي وتراكماته ، يضاف الى هذا إن الحديث عن الرغبات في توحيد الكنيستين الشرقية والغربية لايقنع ، لاسيما ان ايا من زعماء الحملة الاولى لم يثر هذا الموضوع مع اركان الكنيسة الارثوذكسية او مع الامبراطور البيزنطي. هذا وإن الحديث عن دور الدول الايطالية والاهداف الاقتصادية سيكون متأخرا يرتبط بما حدث بعد

الحملة الثالثة ، وتبقى المسالة ليست معلقة بما اراده البابا اوربان الثاني او غيره لكن بالاستجابة الشعبية الهائلة لنداء الزحف نحو المشرق.

وعندي ان افراد الحملة الاولى عندما اكلوا لحوم العرب المسلمين فعلوا برغبة الانتقام والتشفي وليس بسبب الجوع والحاجة الى الطعام ، فما سر هذا الحقد الدفين لدى الاوربيين ، ومتى وكيف تكون؟

من المؤسف ان المصادر التاريخية لاتحمل الاجابة ، لكنها تساعد على رسم الاجواء التي عاشها الغربيون منذ القرن الثامن للميلاد حتى اواخر القرن الحادي عشر.

المجتمع الاوربي كان مغلقا الى حد بعيد ، شغلت فيه الكنيسة الدور القيادي الموجه مثلما شغلت دور مقر الثروة والثقافة والقيادة الشعبية ، واذا ما عدنا الى اخبار نشاط الفتوحات العربية في اوربا الغربية نجدها استهدفت الكنائس والاديرة ، وذلك في كثير من الحالات.

ومع هذا لانجد في مدونات الكنائس والاديرة ما نبحث عنه من اجابات ، اننا نجد ذلك في الملاحم الشعبية ، فالشعوب الصانعة الفعلية للتاريخ عبرت ان ارادتها ورغباتها وتصوراتها لاحداث التاريخ وعن مشاعر العداء او الصداقة من خلال الملاحم الشعبية ، وكتب التاريخ ، وإن لم تخل من بعض المادة عن الجماهير ، هي بالاصل سجلات لاعمال القادة والحكام.

وفوائد الملاحم كبيرة وكذلك عيوبها ، فالملاحم لاتتقيد بالتاريخ بدقة ولاتعطي الزمن قيمة كبيرة ، ولعل مرد ذلك ان التغييرات التي تنال الشعوب بعمق هي دوما بطيئة الحركة لاتتوافق ولاتتماشى مع التغييرات السياسية.

ولايجوز لاي باحث تجاهل الملاحم والتمنع عن التعامل معهـا ، لوجودها ولانه لسوء الحظ لم يتوفر للجماهير من يؤرخ لها جماعة او فردا فردا ، وكان على راس الملاحم التي اسـهمت في صياغة الراي الجماهيري العام في غربي أوربا تجاه الاسلام والمسلمين ، وذلك بشكل عدواني رهيب فيه روح التعصب والانتقام : ملحمة نشيد رولاند ٠

ولن اتحدث عن محتويات هذه الملحمة فقد جاء هذا في مقدمة الترجمة ، ولقد بحثت عن نظير لهذه الملحمة في اوربا الشرقية فلم اجد ، وتعاملت مطولا مع ملحمة « دايجيس اكريتس » فلم اجدها تفي بالغرض.

ومع نشيد رولاند قدمت ملحمة رتشارد قلب الاسد ، اقوة الترابط ، ولأن شعراء هذه الملحمة ساروا على الطريق الذي عبده شعراء نشيد رولاند وتفوقوا عليهم تعصبا.

وانه لامر مثير للدهشة ان نجد صورة الاسلام والمسلمين لدى شعوب اوربا الغربية كما هي مرسومة في الملاحم ، على قرب اوربا الغربية من الاندلس وصقلية ، واعظم اثارة واشد غرابة استمرار هذه الصورة مع الجهالة بعد مضي قرن على قيام الحروب الصليبية ، فهذا مانراه لدى وليم الصوري وسـواه مـن كتـاب الغـرب المسيحي ــ لابل حتى عند الشرقيين ــ ومرد هذا ان جل الكتاب هم من رجال الكنيسة ، ورجال الدين لايرغبون دوما في تغيير قناعاتهم الموروثة وتصوراتهم ، وهم ابعد الناس عن استخدام المحاكمة العقلية الصحيحة ، وهم في اوربا مثلوا الثقافة والعقيدة ووجهوا الجماهير وقادوها ، وقد يساعد هذا على تفهم جذور اسباب بعض الحركات الاصلاحية التي استهدفت تدمير الكنيسة.

ومما لاريب فيه ان الحروب الصليبية اثرت على اوربا الغربية والكنيسة فيها ، ومع ان اوربا هزمت في نهاية هذه الحروب عسكريا

في المشرق لكنها كانت قد حققت انتصارات هائلة في الغـرب ، لأنهـا استعارت الخبرة الحضارية العربية لاسيما في مجالات التعامل مـع العقل ، وبذلك اتيح لها ملكة المسـتقبل ، لكن وقتهـا فقـد العـرب المستقبل لانهم منذ ايام الحروب الصليبية شرعوا بالتخلي عن العقل تدريجيا ، فالجند الغرباء وقفوا دوما ضد العقل وكذلك شجعهم جـل الذين تحالفوا معهم من رجال الدين ، فضلا عن ان التصوف كان قد تحول من حركة تفكر الى استسلام وغيبيات وطقوس غناء وطعـام ورقص جذوبي

سيعثر القارىء العربي على كنوز من صور الشاعر في ملحمتـي نشيد رولاند ورتشارد قلب الأسد ، واملي عظيم في ان يساعد هـذا على دراسة اوفى لظاهرة الحروب الصليبية ، والله الموفـق للسـداد وهو من وراء القصد ، له الحمد والشكر - والصلاة والسـلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

القاهرة ٢٦ / ١١ / ١٩٩٤

سهيل زكار

نشيد رولاند

مدخل

الشعر :

جاء في سنة ٧٧٧ وفد يمثل أمـراء مسـلمين مـن الأندلس الى الامبراطور شارلمان لطلب مساعدته ضد واحد من أعدائهـم ، الذي كان أيضا مسلما مثلهم ، وكان شـارلمان مشـغولا بـالحرب ضـد السكسون ، ومع هذا تقبل دعوتهم ، وبعد تركيزه بعض الحاميات لتقوية حدوده زحف الى الأندلس ومعه جميع قـواته التـي تـوفرت له ، وقد قسم جيشه الى قسمين ، قام قسم منهمـا بعبـور جبـال البرانس الشرقية باتجاه جرندة ، وعبر الآخر تحت قيادتـه جبـال البرانس البشكنسية (الباسك) واخذا اتجاه بمبيلونا ، وسـقطت المدينتان والتقى الجيشان واتحدا معـا أمـام سرقسـطة التـي حاصراها بدون نجاح ، وأرغمت تجدد أعمـال القتـال في بـلاد السكسون شارلمان على التخلي عن حملته الاندلسية ، وفيمـا هـو راجع يعبر جبال البرانس هوجمت ساقة جيشـه مـن قبـل طـائفة متآمرة من البشكنس الذين كانوا قد زرعوا عدة كمـائن على طـرفي الممر الواقع بين الشعاب الجبلية الكثيفة الأشجار ، واستغل هؤلاء تعرجات الأرض وخفـة أسـلحتهم فـانقضوا على جنود السـاقة فقتلوهم حتى آخر رجل ، ونهبوا قطار الامتعة والمعدات ثم اختفـوا تحت جنح الظلام ، وختم المؤرخ ايكنهارد الذي روى هذه الحـادثة التاريخية المحزنة في كتابه « حياة شـارلمان » الذي كتبـه حـوالي سنة ٨٣٠ م ، ختم حديثه بقوله :« وقتل في هذه الواقعـة ايغهـارد حاجب الملك ، وأنسلم كونت القصر ، وورلاند دوق تخوم بـريتاني مع أعداد أخرى كبيرة »، وزودتنا مخطوطة أخرى من القرن التاسع حوت بالشعر اللاتيني ماكتب عن وفاة الحاجب ايغهـارد ، بتـاريخ المعركة بأنه كان ١٥ ـ آب ٧٧٨ ، وجرى ذكر هذه الواقعة مجـددا

في سنة ٨٤٠ من قبل مؤرخ آخر ، كان قد قام أولا باختصار الرواية المعطاة في كتاب « حياة شارلمان » ثم أضـاف :« بمـا أن أسـماء الذين سقطوا مدونة على السجلات لاأجد حـاجة لاعادة ذكرهـم في روايتي »

واختفت بعد هذا حـكاية رونسـيفو لمدة تقـارب المائتـي سنة ، وعندما ظهرت ثانية الى الوجود كانت قد مرت بعمليات تحول كانت بلا شك ستدهشنا لولا أننا رأينا الشيء نفسـه يقـع في حـكاية حروب الملك آرثر ، فقد فعـل سـحر الاسـطورة فعله وتضـخمت الحوادث التاريخية الصغيرة حتى غدت ملحمة واسـعة ذات أجـزاء بطولية وأهمية عقـائدية عالية ، فشـارلمان الذي كان في الثـامنة والثلاثين من عمره أيام الحملة الى الاندلس ، أصبح الآن شخصية عالية التقديس ، له مائتي سنة مـن العمـر ، ملك لحيتـه بيضـاء كالثلج ، انه الامبراطور المقدس ، بطل المسيحية والمحامي عنها ضد المسلمين ، وأمير الحرب الذي امتدت أعماله التوسعية فعمت العالم المتمـدن ، وغدت الحملة حـدثا رئيسـا في الصراع بين الهـلال والصليب ، وتحول المغيرون البشكنس وتعاظم حجمهم وباتوا الآن عبارة عن جيش عملاق ضم آلافا مؤلفة من المسلمين ، واختفى اسم كل من ايغهارد وأنسلم من الساقة وبقي رولاند ، وبـات الآن ابـن أخت الامبراطور « والساعد الايمن له » وأعظم المحاربين في العالم يمتلك قوى خارقة وطاقات ، وهو بـطل انجـازاته الرائعـة لاتعـد ولاتحصى ، ويرافقه أولفر صديقه الحميم مـع عشرة آخـرين مـن الاتراب ، وهي عصبة مختارة مـن الفـرسان الذين لايوجـد مـن يباريهم شجاعة ، انهم نخبة فرسان فـرنسا ، وظـل الكمين الذي ساقهم الى الموت نتيجة عمل خياني من الجانب الفرنجي ، غير أنه أصبح الآن قد كشـف الغـطاء عن أنه كان مـؤامرة دبـرها الملك مارسليون المسلم والكونت غانلون وهو نبيل فرنسي ، كان زوجا لأم رولاند ، وكان الهدف الكامل مـن المؤامـرة تـدمير رولاند نفسـه وأترابه ، ونشأت المؤامرة وتأسست نتيجة للغيرة الحقـودة التـي شعر بها غانلون تجاه ابن زوجته ، وقد صـيغت روايتهـا بشـعور

درامي وشعور أخلاقي مع زوائد سيكولوجية ، يمكن أن تمتن عملية مقارنة مع دسائس ايفو المشوهة ، وباختصار بدانامع كارثة عسكرية من النوع العادي ، ولها اهمية صغيرة الى حد ما ، وحصلنا بشكل ما خلال قرنين من الزمن على ملحمة درامية رائعة ، لقد وصلنا الى نشيد رولاند .

وحسب معلوماتنا يبدو أن الشعر وصل الى شكله النهائي مع نهاية القرن الحادي عشر ، وليس من الصعب رؤية السبب الذي جعل الأسطورة تأخذ الشكل الذي اخذته ، وأيضا لماذا كانت شعبية في هذه الآونة ، فقد أصبح الخطر الاسلامي على المسيحية مزعبا مع نهاية القرن العاشر ، وقاد الى عدد من الحملات ضد مسلمي الأندلس مما كانت دوافعه بكل تأكيد دوافع دينية ، وفي الوقت نفسه أخذت سلسلة من الأقاصيص البطولية والأشعار تطرح بالتداول على طول مختلف طرق التجارة ، وسبل الحجاج في اوروبا ، وهي أقاصيص ارتبطت بأسماء بعض الأبطال المحليين وتعايشت مع المدن الهامة والأديرة المنتشرة على كل طريق ، وقاد طريق الحج الى معبد القديس جيمس الهام في كومبوستيلا الى الممر نفسه الذي عبرته ساقة جيش شارلمان وعانت فيه ماعانته ، فما الذي يمكن أن يكون أفضل موائمة للرحالة من أن يتعايشوا ويتسلوا بالنصوص التي تمجد المأساة المحلية ، زد على هذا لقد كان القرن العاشر هو القرن الذي شهد ذروة ازدهار النظام الاقطاعي وتطور قانون الفروسية الذي ربط التابع بروابط أداء خدمات دينية لسيده ، وبالاخلاص نحو أتباعه ، واخيرا الهب التبشير بالحملة الصليبية المسيحية كلها بحماس منقطع النظير لممارسة الحرب المقدسة ضد المؤمنين برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

ولدينا القليل من البينات الخارجية حول نشيد رولاند وكما هي قائمة الآن يبدو أنها تتوافق مع البينات الداخلية (المتعلقة باللغة ، والأعراف الاقطاعية والأسلحة ، والمحاكمات ، وربطت أسماء الشخصيات التاريخية بشكل خاطىء باسطورة شارلمان

ومسحت كل مابدا معلومات أصلية عن المسلمين وبلادهم) التي اخذت أماكنها في نشيد رولاند – كما هو لدينا الآن – بعد وقت قليل من الحملة الصليبية الأولى ، ولقد قلت كما هو لدينا الآن لأن اسطورة رولاند لابد وقد وجدت في وقت أبكر بكثير ، وقد افترض شاعرنا وتصور لدى شروعه بحكاية قصته أن جمهور المستمعين كانوا يعرفون كل شيء حول شارلمان وأترابه وحول صداقة رولاند أولفر ، وحول غانلون ، وكان مثله مثل هومر يحكي حكاية موجودة في قلوب الرجال وذاكرتهم ، والأمر الذي لم يستطع الباحثون تتبعه بعد هو المراحل التي حول التاريخ فيها نفسه الى أقاصيص ، والأقاصيص الى ملحمة ، ولابد أن رولاند دوق تخوم بريتاني كان شخصية هامة ، لكننا لانمتلك المزيد من الالماعات التاريخية حوله ، فلماذا وقع الاختيار عليه ليشغل دور البطل في الملحمة وتم اقصاء الآخرين الذين قاتلوا وقتلوا معه ؟ كيف تبدلت الحكاية وتحولت وبأي شكل ؟ أناشيد شعبية ؟ الأغاني ذات النوعية الملحمية البدائية ؟ نحن لانعرف وكل ما يمكننا فعله هو الارتكاء على العبارة الغامضة لكن المفيدة :« تقاليد شفوية » ، وأن نشير اذا شئنا الى كتاب السير موريس بورا الرائع الذي حمل عنوان « شعر البطولة » الذي أظهر كيف أنه يمكن بسرعة وبشكل غريب ، حتى في هذه الأيام في اجزاء من أوروبا الوسطى ، أن يتلى تاريخ هذه الأيام ليكون ملحمة الغد ، وشيء واحد مؤكد هو أن نشيد رولاند القائم بين أيدينا ليس تصنيفا عابرا لمجموعة من القصص الشعبية ، إنه عمل قام عن سابق تصميم ، وهو قطعة فنية رائعة ، ذات شكل واحد ، ووراءها عقل بناء ، ساق جميع أحداثها وسماتها وفق نظام واضح ومتوازن بشكل جميل على العموم .

ولنترك بسرور الى العلماء النقاش حول الأصول ، فعملنا مرتبط بالشعر نفسه ، فنشيد رولاند ، يعد واحدا من أقدم الملاحم الفرنسية التي تعرف باسم « أناشيد الأعمال » وأكثرها شهرة ، وأعظمها مكانة ، وباختصار في الملحمة مايزيد على أربعة آلاف بيت من الشعر ، وهذا يعني أنها بدون شك ثروة أدبية

كبيرة ، لكنها ليست أدبا بالمرة ، ويمكن لقوتها بالذات وبساطتها ومظهرها غير الفني أن تخدعنا وتجعلنا نراها أنها ليست بدائية فقط (وهي حقا كذلك) ولكنها فجة أو بالحري ساذجة ، لكنها ليست حقا كذلك ، ففي تصميمها توازن نبيل بين الأجزاء ، واذا ما سايرناها فقرة فقرة ودخلنا الى مشاهد المعارك نجد تحت السطر براعة سيكولوجية ذات أخلاق وحركة ، وهذا كله قد ترك لنا لنكتشفه ، فقد كان الشاعر ينشد ويغني الى جمهور مزيج بشكل واسع ، جمهور يطلب قصة سريعة مثيرة فيها الكثير من الافعال ، وهو لم يمتلك الوقت ليهدره في سبيل تحليل أدبي طويل على طريقة هنري جيمس أو ماريسيل براوست .

ان اسلوب الملحمة في الحقيقة أشبه مايكون بأسلوب الدراما ، يدخل كل واحد من الممثلين فيتكلم ويمثل وفق دور مسرحي مرسوم وتعليقات من القصاص ، وذلك من وقت لآخر كنوع من التوجيهات المسرحية في إخبارنا أن ذلك الانسان « متسرع » وذاك الآخر « عاقل » وتلك الحالة كذا وذلك الامر كيت ، أو فلان « حزين أو » غاضب « أو » لديه اعتبارات ماكرة الذي سيوله « ، لكن في الجزء الأعظم علينا أن نراقب وأن نصغي وأن نستخرج لانفسنا المحرضات التي حركت الممثلين ، والعلاقات فيما بينهم ، ونادرا ماأرينا مافكروا به أو أخبرنا حول ذلك ، مما ليس له علاقة مؤكدة مع الدور ، وهناك بعض النقاط التي لم توضح أبدا ، وهكذا لم نخبر عن السبب الأصيل للنزاع بين رولاند وزوج امه ، وفقط في نهاية الملحمة يلمح غانلون بأن « رولاند أخطأ بحقه في المال والأملاك » وتركنا نخمن ماهي طبيعة الحكاية الأصل وكانت معروفة بشكل جيد من قبل الجمهور ، أو أن مسألة الغيرة بين ابن الزوجة زوج الأم ، وهي أمور مطروحة في التقاليد الشعبية ، اتخذت أساسا لحكاية النزاع ، لكننا في الحقيقة لانحتاج لمعرفة هذه التفاصيل ، فالوضع العام جعل واضحا لنا بما فيه الكفاية من خلال الكلمات الأولى التي تفوه بها رولاند وغانلون ، وفي الحقيقة إن مشاهد افتتاحية الملحمة هي نموذج لما سيكون العرض

عليه ، وتخبرنا القصيدة الأولى باختصار بصورة الوضع العسكري ، ويبدأ مشهد مجلس مارسليون بالعمل ليرينا بأن المسلمين جاهزين للقيام بأي عمل تآمري ، ويعرض مشهد مجلس شارلمان الكبير كافة الممثلين الرئيسيين في الجانب المسيحي ، ومع عرض سريع موجز يتضمن بشكل مؤكد الخطوط العريضة لسماتهم واوضاعهم بالنسبة لبعضهم بعضا : فشارلمان هو في الوقت نفسه رجل حذر وحاسم ، ورولاند شجاع الى حد التهور ، سهل الاثارة ، متعجرف مع سذاجة ادعاءات بطل ملحمي ، فهو مخلص ، وواثق من نفسه ومنفتح مثل النهار ، وكان أولفر مثله شجاعا ، لكن متعقل وحكيم ومدرك لنقاط الضعف لدى صديقه ، وأما الدوق نايمون ، فكان عجوزا حكيما في مشاوراته ، وايضا توربين ، رئيس الأساقفة المقاتل ، مع تقديراته للآخرين ومسحة من الدعابة الحادة ، ولم يكن غانلون جبانا كما برهن مؤخرا في الملحمة ، وقد دعمت نصيحته في ابرام الصلح من قبل جميع رفاقه ، ولكن لسوء الحظ كان عليه بعدما اظهر رولاند ان اقتراح البعثة خطير ولايمكن الوثوق بمارسليون ، ان يضرب ضربته بالحال ويعلن عن تطوعه ، فقد ترك الآخرين يتقدمون عليه ، وعارض شارلمان الذهاب ، وبذلك اظهر أنه كان أيضا مدركا للمخاطر ويتشكك بمارسليون ، ثم سمى رولاند غانلون ، وعندما صدر هذا عنه ، حملت الامور رائحة شيء من التحدي ، ولم يعترض شارلمان على برهان غانلون الغاضب في أنه يقدره أقل من تقديره لنايمون أو توربين واقل من رولاند أو أي واحد من الاتباع الأثني عشر ، وجاءت ردات فعل غانلون من موقفه الصعب بالحال عبثا بقوله : « هذه مؤامرة للتخلص مني » وأما رولاند (المؤكد تماما أنه لم يحمل أية فكرة من هذا القبيل في ذهنه البسيط) فقد انفجر ضاحكا ، وهذا أنهاها ، واستبد الغضب والارغام والغيرة والانتقام للاهانة العامة على شخصية هي بالأصل غير مستقرة عاطفيا ، وسقط فريسة لأحزانه الشخصية ، ورأى نفسه قد جرح واهين ، وتملكته رغبة شديدة بضرورة التخلص من رولاند بأي ثمن دون اقامة اعتبار للشرف والواجب ، وبدون اهتمام مطلق

بالنتائج ، وقد أوجد القرن الثاني عشر كلمة لوصف غانلون هي « الهلوسة وانفصام الشخصية ، ولم يعرف شاعر القرن الحادي عشر هذه الكلمة ، ومع هذا وصف الحالة بكل صدق وأمانة ».

وماهو مثير للاهتمام ودرامي في منهج الشاعر هو الطريقة التي أظهر بها الحقيقة كاملة حول غانلون ، فهي قد ظهرت مع مسيرة القصة تدريجيا ، فقد تركنا معلقين حوله ، ولم نكن في البداية متأكدين فيما اذا كان رجلا شجاعا أو جبانا ، وعندما رفض في حركة انفعالية عالية أن يسمح لحاشيته في مرافقته الى سرقسطة قائلا :« الأفضل أن أذهب وحيدا ، لأن أذبح خيرة الرجال معي » أخذنا وقتها كلماته على ظاهرها ، ولم يخطر ببالنا أنه لم يرغب بوجود شهود على المؤامرة الخيانية التي كان يحيكها ، وفي الحقيقة شهر سيفه فقط ، بعدما قام عن سابق تصميم بتحريض المسلمين حتى وصلوا الى حد الانفجار » وأسند ظهره الى جذع شجرة صنوبر » عندها نلاحظ أنه كان بعيدا عن الجبن ، وأنه هادىء الأعصاب ومقامر صعب ، جاهز ليخاطر بحياته في اللعبة الخطيرة التي كان يلعبها ، حتى عندما قدم للمحاكمة بقي متحديا وبكل جلد وهدوء أقر بخيانته مع دعاوى مسوغة بقذفه بالتهم ضد رولاند ، ولم تتخل عنه أعصابه ـ أن كانت قد تخلت ـ الا في اللحظة الأخيرة عندما لم يعد رأسه ويداه تخدمانه ، وهنا صرخ لقريبه بينابل قائلا :« أتطلع اليك لتخرجني من هذا كله » لقد توفرت شارة لعجزه لكن ليس أكثر ، وبديهي ان تهمه الأولى ضد رولاند قامت على حق : فرولاند متسرع ، مثير للخصام ، أرعن ، وسلوكه تجاه زوج أمه يوحي أن الكراهية لم تكن كلها من جانب واحد ، والقصة التي حكاها غانلون الى بلانكاندرين (الأبيات ٣٨٣ ـ ٣٨٨) حول رولاند وعجرفته وسوء تصرفه مع التفاحة هي إما سمة مخترعة أو حقيقة ، وليس فيها شيئا غير ممكن ، ولا شك أن تقرير غانلون العدواني حول رسالة شارلمان (الأبيات ٤٣٥ ، ٤٣٩) بعيد كل البعد عن الصدق ، لكن

يمكن ـ بحدود مانعرف ـ انه عبر بصدق عما اعتقده غانلون انه نوايا شارلمان ومقاصده ، وحتى التفاصيل الزائدة (البيتان ٤٧٤ ـ ٤٧٥) المخترعة يمكن أن تكون « توقعات ذكية مسبقة » وبناء عليه نعطي غانلون هنا مزية وأسبقية الشك ، لكنه عندما عاد الى معسكر الامبراطور وبين اخفاقه في احضار الخليفة كرهينة (الابيات ٦٨١ ـ ٦٩١) من خلال خطة مرسومة وبيان أوضاع نعرف أنها كذب من الاول الى الآخر ، عندها نعرف اين نحن ، ولانميل بعد هذا الى تصديق قصة التفاحة ، أو اية تهمة صدرت عن غانلون ، او اية كلمة قالها .

ومثل هذا ، من الممكن حتى أن نعجب خلال مشهد الاجتماع والمشاهد مع بلانكاندرين ومارسليون ، دقة غانلون وغيرته وحرارته في اخلاصه للامبراطور ، وكان ماأعلنه هذا التابع لدى مديحه لسيده : اذا لم يكن شيء ما سيء جدا بالنسبة لرولاند مامن شيء سيكون طيب جدا لشارلمان ، ولكن عندما حيكت المؤامرة ، وكانت قيد التنفيذ ، وفيما هو راكب عائدا الى بلاده برفقة شارلمان سمعا صوتا ظن أنه لن يسمعه ثانية ، لقد كان نعيق بوق رولاند ، وهنا قال شارلمان : « اسمع ان رجالنا يحاربون » واجابه غانلون بوقاحة لانظير لها :« لو أن احدا غيرك قال هذا ، لكان كاذبا ، وعندما اصر الامبراطور انفجرت الوقاحة تقول بدون اعتبار :

> لقد تقدمت بك السنون ، وشعرك شاب وابيض
> وعندما تتحدث هكذا تتكلم وكأنك طفل

ليس فيه لاايمان ولاصدق ولاأدب ، لان عقله كله وشجاعته تعفنت ثم تعفنت ، ومع هذا لم يكن هكذا دوما ، فقد كان قد كسب حب رجاله ، وعده الفرنسيون بارونا نبيلا ، ولابد إن بعض الخير توفر بالرجل قبل أن تجرفه حرارة الغيرة وتلتهمه :

انتصب امام الملك الكونت غانلون
بجسم رشيق ولون نقي
وبدا سيدا جيدا ، او لم يكن هذا زيفا
هكذا وصفه الشاعر بايجاز ثم تركه

ورسمت صورة شارلمان وصنعت من خلال عدد من الاقاصيص وسمات لاتعد ولاتحصى عزيت الى شخصيته بحكم انه الامبراطور المقدس ، فالقداسة الامبراطورية هي واعمالها تسلمها شارلمان عبر الامبراطور قسطنطين ومن خلال الامبراطور جستنيان ، تسلمها كامبراطور للغرب ، وبه بقيت ، واشارلمان من العمر مالايمكن عد سنيه ، او بالحري هو العمر كله والوقت جميعه ، لأن ولده وابن اخته من الشباب ، ولحيته البيضاء الكثة وقوته لم تتأثرا « بمائتي سنة او اكثر » وهما مثلان علويان ورمزان للأبوة ، فهو خليفة الرب على الارض ، ووالد المسيحية كلها ، وهو النموذج الأرضي للأيام الخوالي ، واليه تتحدث الملائكة وتعطيه القوى العلوية من عليين وتظلله .

ونستخر ، من تحت هذه الشخصية العظيمة ، التي هي اعظم بحجمها من الحياة شخصية اخرى هي صورة الحاكم الدنيوي المثالي : العادل والحكيم والعظيم والمؤمن ، ولقد بذل الشاعر ماامكنه من جهد بالنسبة لشارلمان ليرسم لنا تصور العصور الوسيطة المبكرة لما ينبغي أن ندعوه في ايامنا هذه الملك « الدستوري » فهو لم يكن « متسرعا بالاجابة » وماكان ليقوم بشيء الا بعد الاصغاء الى آراء مستشاريه ، وقد امتلك ـ كما يبدو ـ الحق في الاعتراض على اي اقتراح قبل عرضه على التصويت ، ومالن ينال الاقتراح الموافقة الجماعية لمجلس المستشارين حتى يرتبط بذلك القرار ، سواء اوافق عليه شخصيا أم لم يوافق ، وفي هذا كان بكل عناية على عكس مارسليون الملك المسلم ، الذي قاد بذاته معظم مناقشاته ، وامتنع عند بعض النقاط بكل صعوبة عن رمي خنجره نحو رسول من الرسل الذي كان

عندما يستدعي مجلس مستشارية يفعل ذلك الذي قال انه سيفعله ، ورأى بعض الكتاب أن سلوك شارلمان الدستوري دليل على الضعف لكنني لا أرى أن ذلك ما عناه الشاعر مطلقا ، فهو قد بدا وهو يعد ذلك صحيحا جدا بالنسبة لسلوك الملك ، مع أننا قد يساورنا الشك حول الحدود التي عكست حقيقة سلوك أي ملك في الفترة الاقطاعية ، وتقترب الصورة المقدمة من حالة الملك الانكليزي في يومنا هذا ، الذي يعطي موافقته على القرار بعد مروره بصورة قانونية على مجلسي العموم واللوردات ، هو يمكن أن يراه غير حكيم ، لكنه لن يحجب لهذا السبب الموافقة ويمتنع عن توقيعه.

ومجددا يقوم تحت هذا كله السمات الشخصية لشارلمان :قدراته السلطوية ، وأدبه ، وشجاعته ، وقوته ، وعمق مشاعره الدينية ، وصداقته مع نايمون ، ومشاعره الحارة تجاه ابن اخته واترابه مع جميع « الشباب العزابة » الذين دعاهم « بأبنائه » واعتاد ان يركب فرسه وأن يقاتل بين باروناته بمثابة البارون الأكبر بينهم جميعا .

وهنا أيضا ، علينا كما رأى أن نلاحظ وجود نقطة ضعف به ، وذلك عندما غلبه الحزن لدى موت رولاند ، الى حد أنه فقد وعيه وسقط فوق جثته ، وحتى أنه احتاج الى مساندة باروناته ليتمكن من النهوض وهو يندبه بكلمات الندب والبكاء ، لقد كانت هنالك طرائق لاظهار المشاعر كما لكل شيء ، ففكرة أن الرجل القوي ينبغي ان تكون ردات فعله تجاه المصائب الشخصية والوطنية بظهور بعض التأثر على شفتيه ، وبرميه بكل هدوء وصمت بسيكارته في قلب موقد النيران هي فكرة ذات أصل حديث ، وبالنسبة لمعايير العصر الاقطاعي كان مسلك شارلمان صحيحا تمام الصحة ، ففقدان الصواب ، والبكاء والنحيب هو ماكان يستدعيه الحال ، وقد حذا جميع الفرسان والبارونات المحتشدين بشكل علني حذوه ، وبكوا وانتحبوا وندبوا مثلما فعل :

- ٤٠٨٩ -

شهق مئات الالوف من الفرنسيين حزنا
وما من واحد منهم إلا وبكى وعلا صوته بالنحيب
وفي نهاية هذا الفصل :
ومزق لحيته التي كانت بيضاء كالثلج
واقتلع من رأسه شعره الابيض من الجذور
ومئات الالوف من الفرنسيين انتحبوا مثله وأكثر

ويمكن ان نأخذ هـذه الاستجابة على أنها طقوسية وشعرية ، فالحزن مثل كل شيء في الملحمة تم عرضه بشكل مكشوف اكثر مما نفعل نحن الآن ، ليس هناك من سبب لكي نفترض أنهم تدربوا على فقدان الوعي بعيدا عن الناس ، وهـذه الحركة كانت تلاقي القبول منهم ، فهذا ما كانوا يرغبون رؤية الناس يقومون به ، ففي كل عصر يحتفظ لنا الفن بالنموذج المحتذى بالسلوك ، وهو ما تسعى الحياة الحقيقية لتأكيده بكل ما يمكن ، ولا يمكننا أن نستخلص من بكاء شارلمان وسقوطه مغشيا عليه اية محصلات حول أخلاقه ، باستثناء أن الشاعر قدمه كمثل نموذجي حول اظهار الرجل لمشاعره ، وفقا لمعايير أحاسيس تلك الفترة .

ولدى مقارنة أخلاق رولاند وسماته ببراعة ودهاء غانلون ، نجده بسيطا في ذاته ، متسرعا ، متعجرفا وكريما ، يكره الاخطاء ويفضحها ، مخلص ، وانفعالي ، متفرد بتفكيره ، إنه حمل جميع السمات التي أحبها الرجال في قائدهم وتعلقوا بها مع صورة البطل الرومانسية المقدمة للجمهور ، ولم يكن لديه أدنى مكر ، وكانت عقول الناس الآخرين بالنسبة له كتابا مغلقا ، ففي البداية رفض أن يصدق خيانة غانلون ، وعندما تمت مواجهته بالحقيقية ، كل ما استطاع القيام به هو أنه افترض أن الجريمة قد اقترفت من « أجل الذهب » ، وفي الحقيقة لم يفهم مطلقا السبب الذي جعل أولفر غاضبا منه ، ولم يقدر أبدا القدر الذي اسهم فيه كبرياؤه وحماقته في مأساة رونسيفو ، لقد امتلك سذاجة لخيل وغروره ، مما سيدمر الحملة

وذلك من أجل الكبرياء الذاتي ، ولكنه كان انسانا أكثر لطفا من آخيل ، فهو لم يشمت قط أو حمل حقدا ، وقد تحمل انتقادات أوليفر بطبع هادىء لطيف ، وكان تحت « جديته المتطرفة » تسامح حقيقي في القلب ، وبساطة كبساطة الأطفال في الحب والاخلاص : للرب وللامبراطور ، ولاصدقائه ، ولرجاله ، ولفرسه ، ولدورندال سيفه الطيب ، ومشهد موته مثير بشكل غريب

ولكن الصورة التي تبقى أكثر اشراقا معنا هي صورة الشاب المسرور الذي لا يقهر فما من ملحمة تضرب على هذا الوتر بمثل هذا الوضوح :

مضى رولاند خلال بوابات اسبانيا عابرا على ظهر فرسه
نحو فيلانتف ساق فرسه مسرعا
وكان هو الذي مضى شاكي السلاح
مضى بشجاعة يهز رمحه عاليا
نحو السماء رفع سنان رمحه بعيدا
وربط على قناته ريشة بيضاء كالحليب
وكانت حوافها تلامس يده عند المقبض
وسار مرافقوه خلفه مجدين
وأعلن الفرنسيون جميعا عنه أنه حاميهم
وألقى نحو المسلمين نظرة كبرياء
لكن ما ألقاه نحو رجال فرنسا كان لطيفا ناعما
فإليهم تحدث دوما من قلب ودود

وهكذا ساق داخلا الى ذلك العالم المنظف حديثا ، ذي الشمس الواضحة

والالوان البراقة التي ندعوها العصور الوسطى (مع أنها كانت في عمرها الوسيط)لكن لعلها امتلكت حقا أكثر من صيف النهضة المتفجر الذي سيدعى بعصر الولادة الجديدة ، إنه عالم مليء

بالدماء ، والحزن ، والموت ، والوحشية العارية ، ولكن ايضا عالم العواصف الصريحة ، والبساطة البريئة ، والطافح بالثقة بالنفس ، إنه عالم فقدنا الاتصال به كلية الى حد التورط في استخدام كلمات « اقطاع » أو « عصور وسطى » كمجرد عناوين لظلام دامس ، وأي انسان يرى بارقة ضوء في ذلك العالم يتعرض للاتهام بمرض رومانسيه الحنين الى العصر الذهبي الذي لم يوجد قط ، لكن شخصية رولاند تقف هناك لتكذبنا : فقد كان في عصر الشباب كما رأى ذلك العصر نفسه ، وبالمقارنة معه إن مغامري الفضاء والأطفال اللامعين في ايامنا ، ليسوا أقل من الرجال القساة الأشداء في ملحمة من عصور النهضة ، يبدو أنهما ولدت وسيطة العمر .

« كان رولاند حادا وكان أولفر عاقلا » ، وكان أولفر رفيق رولاند ، نشأ وتربى معه ، ووفقا لتقاليد وممارسات تلك الايام شاركه أعماله وتدريباته ، كما أظهر بعضا من طباع الهدوء والصمت ، والعناد التي هي سمات عامة توجب تقليديا توفرها في « صديق البطل » وكانت الحكمة بمعنى الممارسة العقلانية ثمينة لكن لم تكن العرض

أو ربما سمة محبوبة جدا ، فلقد كانت حياة ماري استيورات التاريخية المأساوية ، وليست حياة اليزابيت تيودور الحذرة والماهرة ، هي التي الهبت طريقها خلال صفحات الاناشيد الشعبية والرومانسيات ، وكان أولفر عسكري أكثر اتقانا من رولاند واعظم اهتماما وتمسكا بالمستلزمات العسكرية منه بسمعته الشخصية ، فقد كان يعتلي الهضاب قبل المعركة ليستطلع أوضاع الأعداء ويعرف أعدادهم وأوضاعهم ، وهو عمل بالنسبة لمعايير اناشيد الاعمال نادرا ما عد من أعمال السادة ، وكان حين يجد الامور شائنة وغير معقولة كان يحرض رولاند على طلب المساعدة ، وهو أمر كان البطل يراه مما يحط بكبريائه ، وكان يمضي عابسا وواجما الى عمل كان يعرف مسبقا أنه غير

ممكن ، وكان لا يرعى الامور الخيالية ولم يكن رومانسيا ليشعر بالسرور عندما يعرف أن « انسانا ما اقترف خطأ » ، فهو لم يكن وضعه مشرقا مثل وضع رولاند ، فقد كان قادرا على المثابرة بالرفض ، وعندما يتبرهن أن ما حذر منه بات صحيحا ، كان يخاطب رولاند قائلا بأسف : «لقد أخبرتك بذلك ».

يارفيق أنت الذي وضعتنا في هذا الارباك
هناك شجاع حكيم وهناك مهمل
الحكمة أسوأ بكثير من الحماقة
فمن خلال تعقلك ابك الآن على الفرنسيين المدمرين
إننا لن نكون ثانية قادرين على خدمة شارلمان
لو انك أصغيت قليلا لما قلته
لجاء مولاي ومضت المعركة على خير ما يرام
وكان الملك مارسليون هو الآن أسيرا أو قتيلا
إن شجاعتك يارولاند لعنة على رؤوسنا

هذا صحيح جدا ، وليس من الكرم أن تمسح الامور هكذا في ساعة المأساة ، ولعل الذي بات طبيعيا هو أن تقع المسؤولية تحت نير اللامسؤولية ، وذلك مهما كانت ذكية وعبرت عما في نفسها هكذا ، وعلى كل حال إن عددا كبيرا من النساء المتزوجات سيتعاطفن مع أوليفر .

وكان له كبرياؤه ، وقد غضب ، وانزعج وتألم ، عندما قرر رولاند بعد طول انتظار استدعاء شارلمان وذلك بعدما رأى أن قوات المؤخرة التي تحت امرته قد نقص عددها من العشرين ألفا الى ستة الاف رجل فقال له : « عندما طلبت منك فعل ذلك ، لم تستجب ، ولو أنك فعلت لما خسرت اليوم ولانقذت رجالنا ، وأن تفعل ذلك الآن (يعني عندما لم يبق أحد للانقاذ غيرنا) سيكون عارا ، وتدخل رئيس الاساقفة بقوله : صحيح أنه لا يمكن انقاذ اي انسان الآن ، إن لشارلمان القدرة على الانتقام لهم ، وأن يدفنهم بشكل

مسيحي لائق ، وخضع أولفر لهذه المناقشة الرائعة بصمت ، فقد كان هناك بالفعل رئيس أساقفة للرايمز اسمه تلبيذوس وذلك في نهاية القرن الثامن ، ولكن لعل صورته في الشعر تدين كثيرا للخيال أكثر منها للحقائق ، وهذا لا يعني مطلقا أنها صورة غير ممكنة ، فرجال الدين المقاتلون عرفوا بشكل جيد في التاريخ المسيحي ، ولكن من المؤكد أن توربين كان بطلا متميزا بشجاعته وبجاذبيته الشخصية ، وقد عامله الشاعر بتشريف خاص ، فقد أعطي مكانا متميزا في الهجوم الاول الذي قام به المسلمون وذلك بعد كل من رولاند أولفر مباشرة (البيت ١٢٤٣ وما يليه) وأعطي في الهجوم الثاني شرف « افتتاح المعركة » (البيت ١٤٨٧) وكان هو آخر من ترك ليقف الى جانب رولاند عندما كان البقية قد قتلوا ، ولقد انتمى توربين الى عصر كان - عندما كتب نشيد رولاند - قد شارف على الانتهاء ، وهو عصر عاش فيه الراهب العلماني قريبا جدا من الراهب الديني ، وفي فترة متأخرة إن اشارة توربين الناقدة لحياة الرهبنة (الأبيات ١٨٨٠ - ١٨٨٢) قد جاءت غريبة جدا بخروجها من شفتي رئيس الاساقفة ، وكما علق مارك بلوخ « يبدو أن الاصلاح الغريغوري لم يكن قد وصل بعد الى شاعرنا » * ومع هذا عندما صرخ الفرنسي : « حسننا هل يدافع عنا اسقفنا بصولجانه » (أو بحرفية أكثر « بالنسبة لرئيس أساقفتنا صولجانه قوي للانقاذ ») وقد حملت الكلمات معنى مزدوجا ، أي أن توربين كان مع كل سماته القتالية ومؤهلاته ، رجل كنيسة صالح وكاهنا جيدا ، فقد كان عاقلا في مشاوراته ، ففي منطق قوي طيب وبلطف ، لكن مع سلطة قوية ، تمكن من اجمال الخصام بين رولاند واولفر ، وجاء خطابه الى العسكر نموذجا للشجاعة والتقوى البسيطة ، وقد تحمل واجباته الكهنوتية بجدية ، وكان آخر عمل قام به قبل أن يموت هو محاولة بطولية لمساعدة انسان آخر ، وهناك لمسة خاصة في بكاء رولاند عليه وندبه له :

انت يا طيب الذكر رجل جيد وفارس نبيل
إنني أعهد بك الآن الى رب القدرة

- ٤٠٩٤ -

فهو لن يجد عبدا أكثر طاعة منك
فمنذ أيام الرسل لم يكن هناك نبي مثلك
في الحفاظ على العقيدة وكسب الرجال
أرجو الا تلاقي روحك أي عائق في تحليقها
ولتفتح أبواب السماء لاستقبالك

ولعل هذا هو المكان المناسب لنتحدث فيه عن الروح المسيحية لشعر الملحمة ، فهذه الملحمة ليست مسيحية في موضوعها فقط ، إنها مسيحية في كل مفصل من مفاصلها ، ومامن مكان آخر جرت تحته مجاري العقائد القديمة ثم نبعت على السطح على شكل مسيحي كما حدث هنا ، وليس هناك خوارق غير الخوارق المسيحية ، وهدف هذا التأثير فقط (بحكم كونه مسيحيا صرفا) على عقول الرجال واعمالهم وليس لتقديم الية حركة للقصة ، والمسيحية هنا هي المسيحية البسيطة غاية البساطة والمعقدة كثيرا حسبما هي موجودة في أبسط القرى وفي الكنائس ، ورجال العنف هؤلاء في اعمالهم قد تمت دعوتهم للوفاء بواجبهم تجاه ايمانهم وتجاه الامبراطور ، وسيؤخذون عندما يموتون ليستلقون على فرش من الورود بين ـ بشكل غريب ولكنه موائم ـ الأبرياء المقدسين ، وسيسكنون الفردوس مع الرب وملائكته ، وسيصلون وقتها الرب نفسه مباشرة ، دون تدخل القديسين ، وكما أرى دون تدخل أم الرب ، فالمسألة باتت على درجة عالية من البساطة .

والبساطة لا تعني الجهالة أبدا ، ويبدو أن الشاعر لم يكن راهبا أو منتظما بالسلك الكهنوتي لاحدى التنظيمات الكبرى ، كان قسيسا فقط يملك ما يكفي من معرفته بالكتابات المقدسة وآداب الكنيسة وعقيدته صحيحة كما هو واضح من خلال عمله ، ولكنه كان مثله مثل غالبية معاصريه المسيحيين يمتلك أفكارا غامضة حول ديانة المسلمين ، وهكذا كان المسلمون بالنسبة له مجرد (بينميز) (أي كفار) ولذلك كانوا (بالحري) وثنيين كانوا يعبدون مثلثا

جهنميا كون بشكل غريب عجيب من مهوند (محمد صلى الله عليه وسلم) وتيرماغانت (شخصية عامية ذات أصل مجهول) وبشكل غير متوقع مطلقا - أبولو الذي مسخ في مجريات الحوادث الى « أبوليون الشيطان الأحمق » الذي اعتدنا على معرفته من خلال « تطور الحج » وحملت نصب هذه « الآلهة المزيفة » امام الجيوش الاسلامية وتمت عبادتها بوساطة الجثو على الركب ، وعندما تنزل مصيبة بالكفار ، تراهم يغضبون ويتصرفون بطريقة وحشية مجنونة ، وعقيدة (يعني شريعة) « مهوند وتيرماغانت » موجودة في كتاب ، وهنا لا نعرف حقا فيما إذا كان الشاعر قد عرف بوجود القرآن ، أو أنه افترض فقط على أساس شروح الكتاب المقدس - أن كل ديانة لا بد أن يكون لها كتاب مقدس من نوع ما (وكان هذا الجهل متبادلا ، ويمكن أن يرى من قبل أي انسان يحرص على معرفة الروايات عن العبادات المسيحية والعادات حسبما عرضت جزئيا في ألف ليلة وليلة).

وجرت محاولات لطيفة لتفريق العادات الشرقية عن العادات الغربية ، فمارسيلون ملك الكفار اعتاد على عقد مجلس مستشارية وهم مضجعون على المرافق أو الدواوين ، في حين جلس شارلمان منصبا على مقعد (كرسي أو عرش) ، وانحصر استخدام رمي الحراب وبقية انواع الأسلحة المقذوفة بالجيوش المسلمة ، ويوحي حصار سرقسطة أن الشاعر حمل في ذهنه صورة المدن الاسلامية ذات الاسوار العظيمة في الأندلس ، حيث كان فن التحصين متقدما كثيرا على نظيره في شمالي أوربا ، ولعل من المهم ايضا معرفة ان الامير باليغانت قد وعد عساكره ليس بالغنائم فقط ولكن « بالنساء الشقراوات » وذلك جزاء على شجاعتهم ، ومهما يك من أمر كان المجتمع الاسلامي بشكل عام - سواء أكان في حالة مواجهة المجتمع الغربي أم لا - يتسم بسمات بناء المجتمع الاقطاعي نفسها ، كما أن الشاعر المسيحي لم يكن غير كريم نحو الاعداء ، فصحيح أن مارسيلون كان مخادعا واميرا مطلق السلطات بالمقارنة مع ملكية شارلمان « الدستورية » لكنه كان

شـــجاعا ، وكانت الشـــجاعة الشـــخصية متـــوفرة على كلا الجانبين ، ومع أن عددا من الابطال المسـلمين اتهمـوا بـالخداع وبالتآمر الرهيب المرتبط بالشياطين والسحر ، إنهم لم يسـتخدموا قط بشكل غير صحيح الاعمال العسكرية المؤيدة بالسحر ، وكان كل شيء صحيحا ، والقتال نظيفا ، ولم تـكن شـخصية صـلاح الدين العظيمة الفروسية قد قامت بعد لتجتذب الاعجاب الفرنجي ، لكن سمعة المقاتل المسلم انتصبت عالية وكانت محط اعجاب غير مشوب

جاء من بالاغويت أمير
شكله شكل نبيل ، عيناه شجاعتان ونقيتان
وعندما يمتطي ظهر حصانه للقيام بمهمة
يحمله بشجاعة شاكي السلاح للمعركة
وكانت شجاعته معروفة من القريب والبعيد
وهو وان لم يكن مسيحيا ظهر بمظهر فارس صحيح

ولم يتم التغلب على رولاند واتباعه بالعدد المتفوق ، بـل واجهـوا عدوا كان كفئا لسلاحه وجديرا به ، وهذا يعني من بعض الجـوانب انه لايمكنك صياغة ملحمة حول صراع حيث جميع السمات البطولية موجودة فيه في جانب واحد

وجاء وصف مشاهد المعـركة مـــزودا بمـــا لا يحصى عده مـــن المقبلات ، ومن وجهة نظرنا بتطويل ممل ، لكن علينا ان نتـذكر ان الاعمال الحربية وفنون القتـال كانت بـالنسبة لشـعب العصـــور الوسطى أكثر من مجرد دعوة تسلية ، لقـد كانت أعظـم الاعمـال الرياضية وأهمها تمتع الشعب بتفاصيل القتـال ، وبـاحصاء وعد مختلف المقاتلين الذين اشتركوا بأعمال القتال مثلما نتمتع في أيامنا هذه في سماع التعليقات المذاعة حـول مبـاراة رياضـية أو تصـفية نهائية لكأس ما ، وذلك مع اعطاء ملاحظات حول حياة كل واحد من اللاعبين .

وتمت الاعمال القتالية كلها من على ظهور الخيل ، وجرى استخدام السلاحان النبيلان فقط وهما الرمح والسيف ، ولم يرد ذكر للرجالة ، أو للنبالة الذي شغلوا دورا هاما في معركة هيسنغ ، وجاء هذا من بعض الجوانب ليتواءم مع صياغة الملحمة ، ولكنه كان صحيحا تاريخيا من جانب لخر ، في أنه في تلك الفترة شغل هجوم الفرسان الدور الاعظم في المعركة ، وما من واحد من الفرقاء توفرت لديه رغبة قوية في اثقال اي جيش بأعداد كبيرة من المشاة ، لاسيما في البلدان الاجنبية حيث سرعة التحرك كانت اساسية ، عندما كان الامر يتطلب قطع مسافات شاسعة عبر طرق قليلة وسيئة مع تسهيلات فقيرة للتنقل والتزود بالمؤن.

اما بالنسبة لاعمال أصحاب المراتب والافراد فإن مازودنا به قليل ، وفيما عدا ذلك تبادل الفرنسيون والمسلمين الضربات أثناء اللقاء بشكل عام ، وتم التركيز في جميع الاماكن على المبارزات الشخصية بين القادة على كلا الجانبين ، وسنلاحظ هذا الشيء نفسه في الروايات التاريخية الجادة حول معارك العصور الوسطى، وهذا ثانية لم يكن مجرد قانون ، ويظل الادنى (كما يودنا بعض الكتاب أن نعتقد) هو اظهار الروح « غير الديموقراطية » أو عدم التقدير للانسان العادي ، ولقد توفر سبب عملي جدا لهذا الحال ، ففي ظل النظام الاقطاعي كان على واحد من البارونات الكبار خدمة الملك في المعركة ، وأن يجلب معه كل ما يتوفر له من الاتباع المسلحين ، الذين جلب كل واحد منهم بدوره ما توفر له من الاتباع الأدني الخاصين به ، وهكذا نزولا الى ادنى مستويات الطبقية ، وكان كل تابع مرتبطا بيمين الولاء نحو سيده وسيده فقط ، «طوال استمرار حياتهم » ، ونتيجة لهذا اذا ما قتل سيد كبير في المعركة كان اتباعه يتحررون بشكل آلي من ولائهم ، وكان بامكانهم ــ وهذا ما فعله بعضهم ــ عدم متابعة القتال والا يأخذوا المزيد من الدور فيه ، ويطبق الشيء نفسه اذا ماوقع بالاسر أو هرب من ميدان المعركة ، فالاتباع وقتها يتركون بلا قائد وقد يميلون الى

التميز وعدم الاندماج بغيرهم ولهذا كان عظيم الأهمية ان يقود السيد رجاله ، وأن يقاتل باقدام ظاهر

وأن يجهد (بقدر الامكان) في أن لايقتل أو أن يرجل من على ظهر حصانه ، حتى لايبتعد اتباعه عن مشاهدته فيفقدون شجاعتهم ، ولهذا السبب أصر غانلون كل الاصرار أنه اذا ماأمكن التخلص من رولاند ، فان زهرة الجيش الفرنسي ، الذين كان معظمهم من أتباع رولاند سيتفرقون ، وهذا هو السبب أنه عندما أصيب مارسليون بجراح وهرب ، نكص الجيش المسلم كله على أعقابه وهرب ، وحدث مثل هذا في المعركة النهائية الكبيرة حين جاء الامبراطور شارلمان والأمير باليغانت ، سيد المسلمين جميعا ، التقابل وجها لوجه ، وتعلقت نتيجة الحرب كلها على مبارزتهما ، وسقط باليغانت ، وهرب الجيش المسلم كله في تلك اللحظة من ميدان المعركة .

وحملت الملحمة اسم « نشيد رولاند » لكن النصف الاول منها هو الذي يتعامل مع انجازات رولاند نفسه ، فهو قد مات (البيت ٢٣٩٦) في نهاية وقفته الكبرى مع قوات المؤخرة ضد هجوم الملك مارسليون الغدار ، وتعلق القسم المتبقي من القصة بالانتقام الذي قام به شارلمان لموته ، ولمقتل الاحد عشر رجلا من الاتباع الآخرين والعشرين الفا من الفرنسيين الذين قتلوا معهم ، وبالنسبة لمعايير تلك الايام كانت الحكاية ستترك غير كاملة بدون الانتقام ، وكان اسم شارلمان سيبقى تحت الرغام لانه سمح لمقتل واحد من أتباعه أو اقربائه أن يعبر دون أن ينتقم له ، فذلك كان سيبقى شيئا مشينا ، لكن في الملحمة أمر أكبر من هذا ، هناك مسألة تتعلق بمجال الملحمة كله كملحمة وبعملها ، وبحق رولاند في أن يحمل لقبا ملكيا .

عندما تعاملت أولا مع نشيد رولاند ، وكنت وقتها تلميذة جامعية ، تقبلت انذاك الاحكام الرائجة وقتها والتي أطلقت على

الجزء الثاني من الملحمة ، فوقتها قال غوستاف لانسون :« أنا لايمكنني شخصيا الا أن أضع نفسي الى جانب الذين يرون أن انتقام شارلمان من الأمير باليغانت والأمير مارسليون مجرد اضافات رخيصة صممت لمديح العبث الوطني على حساب الشعر » ولدى قراءتي الملحمة مجددا بعد مضي أربعين سنة ، وذلك بقصد ترجمتها وجدت من المستحيل أن أضع نفسي الى جانب أولئك .

ويعود ماحدث خلال تلك الفترة لسبب واحد ، هو التغيير والتحول من الفكرة الرومانسية حول طبيعة ومقصد الشعر الملحمي الى الفكرة الكلاسيكية ، فمع نهاية هذا القرن كانت ماتزال الاهتمامات تميل نحو التركيز بشكل ضيق على سحر التعاطف الشخصي واستغلال الاوضاع المثيرة ، فقد قامت سمعة الالياذة على أدوار هكتور وأندروماخ ، واللقاء بين بريام وأخيل ، ومثل هذا من « الجماليات » المنتقاه ، وثمنت الانياد بسبب أحزان ديدو ، والكوميديا الالهية بسبب حادث باولو فرانسيسكا والرعب اللطيف لاغيليدو في برج المجاعة ، لكن الاطار الفكري الأوسع وهيكلته أن يغوص المرء في جسم الحكاية في سبيل انتقاء بعض اللقطات « الشعرية » راسخة في عقول عدد من مخرجي الأفلام ، وهؤلاء الذين ينتجون نصوصا مصنعه من حكايات كلاسيكية ، أو يعرضون علينا هومر والكتاب المقدس بصورة ساخرة وتقنية عارية ، ومفيد لهؤلاء الذين يأسفون كثيرا بسبب آخر النتائج أن يتذكروا أن كثيرا من البذور المنحطة بامكانها الافتخار عاليا بأجدادها المحترمين ، لكن ماعاد بالامكان لدراسة نقدية جادة أن تتبنى الميول الرومانسية ، إن عليها القيام بدراسة الملحمة الشعرية ككل .

واذا ماقمنا الآن بتفحص رأي لانسون في ضوء رولاند نفسه سنجد ان ماقام به بالفعل هو أنه تعامل مع الحقائق بالطريق المعكوس ، حيث أنه ليس القسم الثاني من الملحمة بل القسم الأول هو الذي صنع لتلبية العبث الوطني ، فقد تكونت قوات المؤخرة

المشهورة كليا من « رجال فرنسيين من فـرنسا » وعندمـا سـأل مارسليون على من يعتمد شارلمان في انتصاراته العسكرية ، أجـابه غانلون :« على الفرنسيين » وكان الامبراطور في مجلسه « لايصنع شيئا الا بناء على نصيحة الفرنسيين » ، وقدمت لنا الحرب نفسها في البـداية على انهـا صراع على السـلطة بين « مسـلمي الاندلس » و « مسيحي فرنسا » لكن من أجل هذا كله بشكل رئيس بين اسبانيا وفرنسا ، وفقط بعدما سـقط خيرة فـرسان فـرنسا أمواتا في رونسيفو ، وهرب مارسليون الى سرقسطة بعـد اصـابته بجراح مميتة ، انبعث قائما خلف شخصيات الابـطال الفـرنسيين والملك الاسباني النصبان العمـلاقان للأمير والامبـراطور ، للشرق والغرب ، للاسلام والمسيحية ، ان العـالم مفتـوح امـام أعيننا ، وبامكاننا أن ننظر عبر سرقسطة إلى الاسكندرية ، لا بل الى بـابل الحكايات ، « فمن أربعين مملكة » جمع باليغانت قواته ، وحـارب بها ضد الفـرنسيين ، فللمـرة الاولى نرى « الفـرنجة » ونسـمع بصوت جميع العالم المسيحي ، ففي المواجهـة النهـائية للمعـركة الكبرى الاخيرة التقى شارلمان وباليغانت وجها لوجه :

قال الأمير : فكر يا شارلمان وانظر في
أن تعتذر الي من كل ما اقترفته بحقي
لقد ذبح ابني واعرف أن ذاك تم من قبلك
واقترفت الاثام على أراضي التي اخذتها
كن واحدا من رجالي وساكون مولاك
ثم تعال واعمل في خدمتي من هنا الى الشرق
وقال شارلمان : لا ، أنا أعد ذلك خيانة
لن اظهر لمسلم ادنى حب أو سلام
امن أنت بما أوحاه الرب
اعتنق المسيحية وعندها ساكون صديقك الأول
وقال باليغانت :« طقوسك » ماهي الا دعوة مريضة
ومجددا حارب أحدهما الاخر

وتم أخيرا التفوة بالكلمة التي تـوجب التفـوه بهـا منذ زمـن بعيد :« لن أظهر لمسلم أبني حب أو سلام » ، ولابد انه تم التفـوة بها في ذلك الاجتماع المأساوي الاول ، ولكن شـارلمان مـع أن عقله وضميره قد غفـرا له ، اسـتشار الفـرنسيين ، واختـار الفرنسيون ـ بعد اقناعهم من قبل نايمون وغانلون ـ السلام مـن أجل السلام ، وصحيح أن مارسليون قد وعد ـ اذا ماأزيل الخطر العسكري ـ أن يعتنق المسيحية ويقدم الولاء للامبراطور ، لكن هل يمكن لرجل قادر على قتل السفراء ، أن يفي بمثل هذه الوعود خلال ثلاثة أشهر ، أو يعطي أدنى قيمة لحياة رهـائنه ؟ وكان شـارلمان عندما سمع بالعرض للمرة الاولى ، ألمح أن لديه بعض الشكوك حول ماكان حقا في ذهن مـارسليون ، لكن هـذه النقـطة لم تناقش أثناء الاجتماع ، وكان رولاند وحده المصمم على عدم الوثوق بالمسلم ولو لانش واحد ، فقد أراد استسلاما كامـلا ، وفـق شروط يفـرضها المنتصر ، ولسوء الحظ أعطى الانطباع بشـدة انه أشـار بـالرأي الصواب من أجل سبب خاطىء ، وأنه أراد الحرب من أجل الحـرب فقط ، وأخذت الدبلوماسية طريقها ، ونسي المسيحيون ، وكان هذا هو الذنب الذي سبب وقوع المأساة ، وتم التلاعب بالحكمة الدنيوية بشكل خياني من قبـل غانلون ومـارسليون ، وكان الثمـن فقـدان الرفاق الاثني عشرة مع العشرين ألفا من الفرنسيين ، وفي النهـاية كان لابد من مواجهة النتـائج ، وقبـل كل شيء أرسـل مـارسليون رسولا الى معسكر الامبراطور يخبر أن بـاليغانت قـد أبحـر مـن الاسكندرية •

وهكذا حددت الخطوط العظمى للملحمة نفسـها ، هناك حـرب خاصة نشبت داخل حرب وطنية ، والحرب الوطنية ثانية داخل حرب عالمية بين الصليب والهلال ، وقـد هـز الصراع الصـغير في المركز الهيكل بأكمله ، ومـافعله الشيطان كان مـن غير الممـكن منع حدوثه ، وقضى الرب بقضائه الحـق ، فـكان أن قتـل مـارسليون وباليغانت ، وتم الاسـتيلاء على سرقسـطة وطلب مـن أهلهـا أن يختـاروا بين الموت والتعميد ، وتحـولت الملكة بـراميموند بـكل

سلام ، لكن رولاند مات وأترابه ماتوا ، والحرب بين المؤمنين وغير المؤمنين مستمرة هناك بلا توقف ، وسأل مرسليون عن شارلمان قائلا :« انه رجل مسن ، ومتى سيتعب من الذهاب الى الحروب »؟ وأجابه غانلون :« لن يتوقف مطلقا مادام رولاند حيا ومتى مامات رولاند سنمتلك السلام » لكن ذلك كان كذبا ، صحيح انه بات مسنا ، لكنه يبذل كل ماأمكنه لتقديم المساعدة ، فضلا عن انه ـ أي شارلمان ـ مايزال عبدا تابعا للمسيح ، مماجعله يقول :« لن أظهر لمسلم أدنى حب أو سلام » ولقد استدعاه الملاك وأمره بالذهاب :

قلب شارلمان صغير حتى يتحمل أعباء السفر والقتال
وقال الملك :« يالهي كم هي حياتي متعبة »
وبكى ثم ربط لحيته البيضاء المتطايرة
هنا نهاية سجل الأعمال

انتهت الملحمة مثلما انتهت الالياذة والاينادة ، بمفتاح صغير ، ومع نهاية الانشاد لاأرى أن هناك مايمكن خشيته من عقد المقارنة .

وما أن فرغنا من رؤية البناء المنهجي للملحمة ، بات من الصعب أن نعد النصوص المتعلقة بشخصيته باليغانت « سجل حوادث » أو أن نعتبر قصة الانتقام « اضافة »، وحتى اذا ماقدرنا الشعر فقط ، من أين سنقوم بالقطع ؟ بعد وفاة رولاند ؟ لكن كنا قد سمعنا لتونا صوت البوق وهو يجلجل ، وصوت النفير والأبواق الامبراطورية ، وبعد الانتقام من مارسليون هل نترك البكاء على رولاند ، أم نترك وفاة ألدا ، أم ندع حكاية غانلون بلا نهاية ، هل نفعل ذلك فنخسر الكثير الكثير ؟ ولقد نسيت ، حتى قرأت الملحمة ثانية ، فعرفت كم هو جميل ، لابل كم هو مشرق النصف الثاني من نشيد رولاند ، فقد جعل الاسطول المسلم ، بمشاعله التي لاتعد ولاتحصى ، الليل جميلا وأضاء ساحل اسبانيا بطوله ، ولمع مثل

صاروخ ألعاب متلألىء الالوان ، وهناك صورة مارسليون وهو يموت وقد جلله العار ، يموت في مخدعه العالي والمقيت ، وهو يسلم قفازه واقطاعه الى باليغانت ، مضفيا عليه شرفا لم يتمتع به خلال حياته ، ثم هناك المبارزة الاخيرة للمعركة الاخيرة عندما اشتبك هذان الشيخان المرعبان بالقتال يدا بيد ، ووقفت الارض والسماء حابسة أنفاسها تنتظر النتيجة ، وهي لحظة يبدو أنها حدثت خارج الزمان ، لقد كانا عظيمان وقديمان بشكل خارق ولحيتاهما « بيضاوتان مثل أي وردة على شوكة » وتلقى شارلمان لكمة كاد يسقط أرضا بسببها ، وأتاه صوت القديس جبرائيل فاستعاد وعيه واسترد قواه ، ذلك أن الصوت السماوي تتباين قوته عن صوت التقوى الخافت :

وقال :« ماأنت مقبل عليه أيها الملك العظيم »؟

وتوجد هنا قسوة حقيقية ، كان بامكان القديس ثيراس أوف أفيلا ملاحظتها ، وتبعت الأحداث بعضها بعضا بسرعة صحيحة ، وبدون اضاعة كلمة واحدة ، وذلك من الدخول الى سرقسطة ، الى الرحلة الجنائزية الى بلاي ، الى العودة الى أكس (آخن) الى وفاة ألدا ، الى أعمال الاستئناف ذهابا وأيابا أثناء المحاكمة ، الى المحنة بالقتال ، الى الاعدام المريع لغانلون ، كل ذلك مع المشهد الصغير اللطيف المتعلق بتعميد براميموند ، وسيكون من السهل عدم تدارك هذه السرعة بسبب التسارع ، سهل ، ولكنه مصطنع ، وهذا ماصنعناه مع أعمال الخصام الخاصة ، واللا حسم ولا قرار ، والتطور البطيء للنقاش والتآمر ، فالأحداث الآن ضربة من ضربات مطرقة الرب ، ولهذا وقعت مسرعة ، وهناك عيب عام امتاز به القصاص في العصور الوسطى هو عدم القدرة على توزيع فراغاتهم لتتواءم مع أوزانهم الشعرية ، لكن المهم أن يعرف المرء موضوع الحديث ، وهكذا فان نشيد رولاند وأن كان قصيرا وبسيطا في اسلوبه قد حقق الوصول الى درجة ملحمة ، إنه ليس كتاب سيرة رومانسية ، بل شعر ملحمي عظيم حول موضوع عظيم .

وبين الملاحم الشعرية العظيمة في العالم لعل ملحمة رولاند هي الامتن ، ليس في الموضوع فقط بل في المعالجة أيضا ، فالاساوب غير مزخرف كليا ، هناك تصريحات مباشرة، وخطابات مباشرة ، ونادرا ماتجد اصداء عامة ، كل ماهنالك تجد هنا وهناك خلاصات حكيمة تجمل الاوضاع أو تشير الى المقاصد الخلقية والمعنوية .

عندما يعرف أنه لن يكون هناك أسرى
سيقاتل الرجال بكل شجاعة وسيتمسكون بصفوفهم
الخيانة تدمر نفسها وتدمر الآخرين أيضا

ويوجد بين الأربعة الاف بيت أقل من نصف دزينة من التشابيه البلاغية ، وهذه التشابيه ليست مثل تشابيه هومر ، وهي لم تحكم صنعها من أجل خاطرها ، بل لتعبر عن أشياء بديهية بأدنى الحدود وأبسط الكلمات :

لم يكن الفهد او الاسد حادا قط مثله
لحيته بيضاء مثل أي وردة من ورود الربيع
ومثلما يهرب الغزال أمام كلب صيد الغزلان
أبدى المسلمون أعقابهم وهربوا أمام رولاند

وأعقبت أعمال المبارزة أحدها الاخر ، مع قليل من محاولات التنويع ، بل صدرت كلها عن الوصف نفسه ، الأبيات نفسها وكذلك أنصاف الابيات ، ولائحة الحشود نفسها ، والتعليقات نفسها من البداية الى النهاية ، فهذا مايقتضيه بناء الملحمة ، ولذلك جميع الابطال شجعان وكل منهم مقدام ، طليت خوذاتهم بالذهب ، مهورهم سريعة الجريان أسلحتهم متينة ، وسالت الدماء على الاعشاب الخضراء ناصعة براقة ، وتم الايحاء بهذا المشهد في بيت أو بيتين :

-٤١٠٥-
الهضاب عالية والوديان عميقة مظلمة
الصخور مخيفة والشعاب عابسة مريعة
وكان النهار مشرقا وتلألأ نور الشمس بوضوح

وقام في مواجهة، هذه الخلفية الازرق والابيض والارجواني والذهبي ، والاشرطة البراقة ، والتروسة الملونة والمرصعة بالكريستال البراق والمسطح المقطوع باتقان مثل رمز خط على قطعة من الرق ، واذا ماقررنا ألا نجد أية متعة بل تجارب وتعقيدات فالافضل لنا أن نترك ملحمة رولاند وشأنها ، أنها تقدم لتوقعاتنا المتداخلة أضيق الحلول وأشدها اختصارا : المسلمون على خطأ ، والمسيحيون جميعا على صواب ، ومايهم هو الشجاعة والاخلاص ، والوفاة النبيلة تاج لحياة نبيلة .

وتغير الزمان ، وانهار البناء الاقطاعي العظيم ، وجاءت الثقافة الجديدة من الشرق ،« وعلم بهجة » الحب من بروفانس ، وأعطت القلعة مكانها للبلاط ، وحول قصاص الحكايات نفسه من القاعة الصاخبة الى العزلة الهادئة ، وتبددت الموسيقى الخشنة لروايات الاعمال واضمحلت ، وتخلى السجع عن مكانه لصالح القافية ، أما القصائد الطوال والكثيرة التكرار وذوات الاشكال والابنية غير المحكمة فقد حل محلها المقطعات المقفاة المتدفقة بلا عوائق والرشيقة بالوقت نفسه والنقية ، وتخلى شارلمان عن مكانه لصالح إرثر البريطاني ، وقام مقام رولاند وأولفر فرسان الطاولة المستديرة ، ثم عاود هؤلاء الظهور بعد قرون بمثابة الابطال الغامضين وغير الطبيعيين ، اشدة المبالغة ، لدى بوياردو ، وأريستو ، ومع منتصف القرن الثاني عشر تغيبت الملحمة وقام في مكانها الرومانسيات ، ونسيت الآن معظم أناشيد الاعمال الا من قبل الباحثين ، ومن الذي مايزال يتذكر اسماء : وليم دي أورانج ، وراؤول دي كامبراي ، وكواتر فلزايمار ، وجيرارت دي فيين ، وحقل السكانز ؟ قد يكونوا

قلة ، لكن مع ذلك مايزال صوت بـوق رولاند يصـدح خـلال ممـر رونسيفو « ياالهي كم هـو محزن صوت البوق في قلب الغابات »

٢ ــ الصورة الاقطاعية:

غالبا ما استخدمت عبارة « عصور وسطى » بشكل غير محدود لتغطي الفترة الممتدة من نهاية عصـور الظـلام (حـوالي القـرن التاسع) الى بداية عصر النهضـة (حـوالي القـرن السـادس عشر) ومن السهل أن نخرج بانطباع أن المجتمع الاوروبي بقـي خلال تلك الفترة متشابها بعضه من بعض ، وكان كله منظما بشكل ماعلى أساس « النظـام الاقـطاعي » وهـذه اليتنا القـانونية والاجتماعية حتى هذا اليوم ، لكن التنظيم الاقطاعي الاصـيل كان قد بدأ بالتمزق في كل مكان تقـريبا في حـوالي القـرن الحـادي عشر ، (الوقـت الذي دونت فيه ملحمـة رولاند كتـابة للمـرة الاولى) ليتخلى عن مواقعه لصالح نمط مـن الحـكومات الاكثـر مركزية في ظل التيجان التي تـزايدت قـوتها بشـكل كبير ، ومـع منتصف القرن الثاني عشر كان وجه المجتمع قد تبـدل كليا ، فقـد توفرت ثقافة جديدة وأدب جديد ، ومواثيق جديدة للعلاقة والسـلوك بين الرجل والمرأة ، وأخلاق جديدة ، وعادات جـديدة ، وأسـلحة جديدة ، واهتمامات جـديدة ، وتـطورات جـديدة في الكنيسـة والقلعة ، والمعسكر والبلاط ، وان هذا ماندكر بـالعادة فيه عندمـا نسمع عبارة « العصور الوسطى » لأن القصة والصـورة جعلتهـم معروفين بالنسبة لنا ، لكن نشيد رولاند ينتمي الى قلب الفتـرة غير المتطورة ، وعندما جعل انعدام الامـن الكلي في الحياة مـن القـوة المادية الضرورة التي هي أساسية لعدد كبير من الفضـائل ، وكان الشغل الشاغل لكل بارون في أن يجعل من نفسه ملاذا قويا للقاطنين على أرضـه ، وبناء عليه جـاءت البنية الاقـطاعية حسـبما ظهرت ــ بشكل غير مقصود التنظيم ، من الاوضاع السائدة ، بنية مجتمع منجذب بشكل دائم الى الاعمـال الحـربية ، وكانت أغانيه كلها تقريبا حكاياته حول المقاتلين الشجعان والأعمال البـطولية في

المعركة ، وليس حول السيدات أو الافتتان ، أو مغامرات العالم الأخرى مثل رومانسيات الفرسان التي ستأخذ مكانهم ، وكان العالم الفرنسي أيام « اناشيد الاعمال » عالما للرجال بشكل واضح أكثر من عالم هومر ، أو عالم الحكايات الكلتية الشعبية ، أو حتى عالم الملاحم الاسكندنافية ، وأحيانا صدف بالفعل للمرأة أن صنعت ظهورا لنفسها ، أحيانا كما فعلت سيدة صلبة متماسكة مثل غيوبروك ، زوجة وليم أوف أورانج ، التي كانت قادرة على الاحتفاظ بقلعة زوجها أثناء غيابه ، وتمكنت أن تطبخ له ايضا وجبة عظيمة جدا لدى عودته من ميدان المعركة ، وأحيانا كضحية غير سعيدة لحظوظ الحرب ، مثل الحسناء أودي في نشيد رولاند ، وأحيانا مثل الملكة المسلمة براميموند ، التي كانت امرأة روحانية ، لكن بأفق ضيق لتدرك فيه امكاناتها ، لكن لم تسلط اية انفعالات عاطفية قوية على هذه السمات الانثوية ، وكانت العلاقات التي تلامس شغاف القلب هي العلاقات التي تربط التابع بمولاه والمقاتل برفيقه بالسلاح وصديقه ، وكانت الروابط فيما بين الجنود الاتباع قوية دوما ، ووضحت قوتها الفائقة عندما سببت الحرب الغياب عن المنزل لسنوات في وقت لم تتوفر فيه الرسائل أو وسائل الاتصال ، وامتلكت العلاقة فيما بين رولاند وأولفر البريق والعمق والاخلاص في روابط الحب ، لكن بدون سوء نية أو انفعال عاطفي حولها ، وبذل ذلك القرن جهده التقليل من قيمة العلاقات البشرية الى حد أنه من الصعب ايجاد كلمة كافية وافية لوصف هذه العلاقات القوية من التعاطف والاعجاب والاخلاص بين رجلين ، ان كلمة « صداقة » صغيرة وليس فيها مايكفي من حرارة ، وعبارة « عبادة متبادلة البطولة » هي صغيرة أيضا وجافة في نبرتها العالية

ولعل الشيء الأكثر اثارة بالنسبة لنا حولها هو أن نلاحظ أنه في الأحوال الجادة والرسمية ، كانت عبارة التخاطب والتشريف الفردية في الحزن والسرور وفي الغضب والهيام ، وفي القتال والموت هو دوما « سيدي اللطيف » رفيقي

٣ ـ التابعية الاقطاعية :

قام البناء الاجتماعي في العصر الاقطاعي على التابعية ، ورسا هذا ـ في جميع مستويات اصوله ـ على رباط شخصي للخدمات المتبادلة والحماية بين السيد وتابعه ، وتأكد بقسم وبطقوس اعطاء الولاء ، ووضع التابع يديه بين يدي السيد ، كما لو أنهما يصليان معا ، وتعهد مقسما أن يكون رجله طوال حياتهما ، وكان بعد ذلك يقبل الاثنان بعضهما بعضا على الفم ، ومن الواضح أن كلا الدورين من الطقوس يرمزان الى المقايضة في العلاقات فهذا ما عبر عنه التشابك بالايدي والخضوع والقبلة المتبادلة ، وبتعهد التابع في أن يكون مخلصا لسيده وأن يخدمه في مختلف الطرق والوسائل بما في ذلك (ماهو رئيس بالنسبة لموضوعنا هنا) واجب اللحاق به الى الحرب مع أكبر عدد ممكن من الرجال المسلحين جرى اختيارهم من بين أتباعه ، وفق ماتوجب عليه تبعا لثروته ومرتبته ، وكان واجب السيد حماية تابعه في أثناء الحياة والانتقام له في حالة الموت ، وتحقيق العدل واقامته بينه وبين اتباعه ، والاحتفاظ به ومكافأته على خدماته ، وكان الاحتفاظ على نوعين : وكان التابع يؤخذ في النوع الأول الى مقر سكني السيد ، حيث كان يسكن ، ويأكل ويلبس ويجهز بما يلزم على حساب السيد ، وشكل هذا النوع من الاتباع حاشية السيد وأهل بيته أو عزبته ، واحتفظوا بعلاقة شخصية خاصة معه ، وعرف النوع الآخر باسم « السكنية » حيث أعطي التابع مسكنا ، أي قطعة من الارض ، كان من المتوقع أن ينفق على نفسه من دخلها ، ودعي تعداد الخدمات ، لاسيما تعدادها على شكل منح من الأرض باسم « إقطاع » وهي كلمة أعطت اسمها النظام الاقطاعي ، وأصبحت مع مرور الوقت هذه الاقطاعات وراثية ، انما احتفظ بها في بداية الفترة الاقطاعية على شكل ايلاء ، وتمثل منح الاقطاع بمناولة أعطية ماأمام شهود ، وقد تكون هذه الاعطية صكا مكتوبا ، وغالبا ماتكون بعض الاعشاب مع جذورها أو حزمة

حصاد ، او (في حالة التعيين في مـركز عسـكري هـام) عصـا صولجانا و علم ونرى في مخطوطة المانية لملحمة رولاند صورة تمثـل شارلمان وهو يناول رولاند علما وذلك كأمـارة على اقـطاعه تخـوم اسبانيا ، ونلاحظ في نشـيد رولاند أن الامـارة التـي غالبـا مـا استخدمت لمنح اقـطاع أو تسـليمه كانت قفازا ٠ (الابيات ٢٨٢٧ ـ ٢٨٣٩) .

٤ ـ العلامات والامارات :

ولا شـك أن مناولة الامـارة المرئية كعـلاقة على تعيين أو اتفاق ، مشهد قديم جـدا ، ويبـدو أنه كان لهـا مقصـدان اساسيان ، أولهما اظهارها كنية على السلطة المعهودة الى انسان ما :« جئت مـن عند الملك ، هـذا هـو خـاتمة (عصاه ـ علمه ـ قفـازه ـ أو أي شيء آخـر) كبـرهان على ذلك ، وكان هـذا له عظيم الفـائدة وعملي في مجتمـع عرفـت قلة القراءة ، انما استخدمت أيضا بمثابة وسيلة للتاثير في تلك المناسبة على ذاكرة ذوي العلاقة والحضور سواء ، وبالروح نفسها ، وبغية اثارة الشهود الشباب للاهتمام بأمر ما ، قدم لهم صـناديق لطيفـة لتوضع على الاذن ، لتدليل على ان مـا سمعوه لن ينسـوه بسرعة ولعل تقديم القفاز قصد به أن يكون امـارة للتـذكير مـن هـذا القبيل ، وجاء استخدام أمارة القفاز في نشـيد رولاند كعـلاقة على منح اقطاع كما رأينا من قبل ، وقدم القفاز والصولجان أثناء تعيين سفير ما أو رسول ، وقدم شارلمان القوس الى رولاند عندمـا عينه آمرا لقوات المؤخرة .

٥ ـ الفروسية :

نجد من خلال شعر الملحمة أن كلمتي « فـارس وفـروسية » لم تستخدم لتشير بالضرورة الى رجال رسموا بالسيف ليكونوا بشكل

رسمي أعضاء في منظمة الفروسية ، وعلى الرغم من اشتقاق الكلمتين من كلمة « فرس » فان أيا منهما لاتساوي بكل بساطة ماتسميه الآن « خيال أو فارس » وصحيح أن الفارس دوما مقاتل له مطية ، لكن ليس كل مقاتل محمول هو فارس ، ذلك أن السادة ، والسيرجنية وشطر كبير من أي جيش قد يزحفون نحو الحرب وهم على ظهور المطايا ، وعلى ظهورها يقاتل أكثريتهم ، والعلامة المميزة للفارس هي جمعة بين « فرس حربي » وسلاح كامل ، وينبغي أن يكون السلاح متوائما مع ثروة الرجل ومنزلته ، ويتكون السلاح بالعادة من خوذة فولانية ، وسابغة معدنية (درعا كاملا من الزرد أو بدنة مقواة بالصفائح الفولانية) وترس ، ورمح وسيف ، واضيف أحيانا الى هذا هراوة معدنية ، علما أنه لم يرد ذكرها في شعر رولاند ، وكانت أسلحة المراتب الادنى أخف مع سابغة من الجلد أو القماش المبطن ، وكانت خيولهم بالتالي أخف وأدنى متانة ، وبناء عليه عندما يتوجه اقطاعي كبير نحو معركة ما ، سيسير خلفه فرسان مقره مع الاتباع الرئيسين في اقطاعيته ، وسيتبع هؤلاء بدورهم أتباعهم الذين قد يكون بعضهم في مرتبة الفروسية ، وسيحاط الجميع باتباع من مراتب أدنى نزولا الى ... والفلاحين الملاكين الذين توجب عليهم تأدية الخدمة العسكرية لصالح اللوردات بحكم كونهم من « رجالهم » وكانت الخدمات العسكرية المطلوبة من فلاحي الأرض محصورة حكما بعدة ايام من السنة ، مع الدفاع عن أراضي الموطن ، وعندما باتت الأوضاع تتطلب حملات طويلة الأمد خارج الحدود ، توجب اعطاء المزيد من المشجعات ، والمحرضات ، وكان السيد مسؤولا بشكل دائم عن اطعام رجاله وتزويدهم بما يلزمهم في ساحات القتال ، وقد يقدم أحيانا على توزيع بعض الأعطيات النقدية أو العينية ، ولتعويض هذه النفقات وسواها نظر الجميع من أعلى المراتب الى ادناها بشكل رئيس الى الحصص التي سينالونها من غنائم الحرب ، وكونت اسلحة القتلى والمبالغ المدفوعة من فداء الأسرى ، والجزية المفروضة على المغلوبين والثروات المنهوبة من

المدن ، مكافاة النصر ، وبما أن الحديث الآن عن الغنائم والاهتمام مركز عليها (تصدرها الفضة والذهب والبسة القتال الصالحة) كان على رأس الهدايا الثمينة التي عرضها مارسليون (أسود ودببة وخيول ، وكلاب الصيد ، وبغال محملة بالذهب) ثمنا لابرام معاهدة سلام ، بيد انه كان على رأس الكنوز جميعا شكة سلاح جاء وصفها بأنها حوت (خوذات محلاة بالذهب ، وسرج مطلي بالذهب وقربوسة من الفضة وسيوف رصع قراب كل منها بالجواهر وهكذا دواليك)، وبصرف النظر عن الاشارات الى هذا كله ، ان النغمة العامة المنتشرة في شعر الملحمة مع سلوك جميع الشخصيات ، اتسمت بالفروسية ، واللامبالاة ، وتحكم بجميع المشاعر الاعمال العسكرية ، فما من واحد أضاع الوقت ـ مثلما فعل مقاتلوا هومر دوما ـ بالتوقف في وسط المعركة لينتزع جثة واحد من أعدائه ويجمع سلبه ، ويشعر المرء أنه وقف خلف بساطة المعركة ووحشيتها شعور دقيق بالتمسك باللياقة .

٦ ـ أحكام المعركة :

وقال الفارس الابيض للفارس الاحمر :« طبعا إنك ستراعي أحكام المعركة » وقالت أليس تحدث نفسها وهي ترقب القتال :« لعلك تتذكرين أن أحد الاحكام هو اذا ماضرب فارس فارسا لخر يسقطه عن ظهر حصانه ، واذا اخطأه عليه أن يؤرجح نفسه من جانب الى لخر »، وكان حظ الفارس في القرن الحادي عشر اثناء المعركة سيئا ، وقيل له :« اذا أردت البقاء حيا ، من اهم الأمور التي عليك مراعاتها هي أن تبقي فرسك واقفا على رجلية ، وأن تبقى أنت نفسك على ظهره ، فإذا مالقيت أرضا ، او سقطت ستواجه مخاطر عظيمة ، فاما ستجر الى الموت جرا ، أو ستفقد رقبتك على أيدي أي رجل مسلح يصدف أن يراك » وصمم السرج في العصور الوسطى على أساس أن يكون له احزمة

قوية ، وأن يكون وسطه عبارة عن مقعد مبطن أمامه قربوس مرتفع وخلفه واحد اخر ، من أجل ابقاء الفارس ثابتا في مكانه ، ويختلف هذا السرج عن سرج السباق الحديث الذي يمكن الفارس من الانزلاق بسهولة من على ظهر حصانه اذا ماكبا على الارض ، وذكر الشاعر بشكل واضح (الابيات ٢٠٣١ ـ ٢.٣٤) أنه عندما فقد رولاند وعيه وهو في سرجه على ظهر حصانه نتيجة الالم ونزف دمه « كان حتما سيسقط ، لكنه بقي منتصبا عليه بفضل الاحزمة » وقيل للفارس :« اذا مافاتك طعنة رمح الى الخلف ، ستجد نفسك مسنودا بقربوس السرج الخلفي ، واذا ماجعلتك ضربة شديدة بالسيف تنبطح على رقبة الفرس ، أمسك بقربوس السرج الامامي ، ذلك أن انزياحك عن سرج فرسك هو الطامة الكبرى ، لانه سيقودك حتما للسقوط على الارض ، ووقع هذا الحادث مرتين في ملحمة رولاند ، لكن كان ذلك في كلتا الحالتين اثناء مبارزة فردية ، ولحسن الحظ انزلق الفارسان في وقت واحد ، لهذا امتلكا الوقت والمكان ليعودا الى وضعهما السابق ومن ثم متابعة النزال .

وعلى كل حال يمكننا أن نستخرج بعض أحكام ـ أو لنقل بعض أسس ـ المعركة التي اتسمت بها المبارزات في الملحمة ، ولابد هنا من ترك بعض المساحة لاسلوب الشعر ، لكن الخطوط العامة مرجح أنها قامت على الممارسات الفعلية ، وكان القتال الذي يأخذ مداه الكامل يسير نظريا على ستة مراحل :

١ ـ التحدي : عندما يلتقي المتبارزان وجها لوجه ، ويسبق المنازلة تهديدات واهانات (انظر على سبيل المثال الابيات : ١٢٣٨ ـ ١٢٤٢)

٢ ـ المبارزة بالرماح :

استخدم المتبارزون في ملحمة رولاند الرمح وفق ماعرف بالطريقة الحديثة ، وهي أن يجري تثبيت الرمح تحت الذراع الايمن بكل

قوة ، وأن يسدد في الوقت نفسه نحو صدر الخصم أو خوذته ، وكان الهدف أما خرق صدره أو اقتلاعه من على سرجه بفعل وزن الرمـح وسرعة اندفاع الحصان ، ونجد على سجادة بايو التـي تعـود الى فترة ملحمة رولاند نفسها تقريبا ، الفرسان يستخدمون الطـريقتين الحديثة والقديمة معا ، فقد صـور بعض الفـرسان وهـم يحملون رماحهم فوق رؤوسهم وبذلك اسـتخدموا الرمـح كسـلاح رمـي ، ويلاحظ أن الرماح التي استخدمت للرمي كانت قناة كل منها بسيطة بدون زينة ، بينما زينت التي استخدمت في الطـريقة الحـديثة بعلم مثلث الشكل صغير أو بريشة أثبتت تحت السنان ، تماما مثلما جاء الوصـف في رولاند (على سـبيل المثـال الأبيات : ١٢٢٨ ، ١٥٣٩ ، ١٥٧٦ ، الخ)

٣ ـ المبارزة بالسيف :

أ ـ على ظهور الخيل :

اذا انقصفت الرماح بدون نتيجة حاسمة ، ولم يتوفر تابع التزويد برماح جديدة ، يشهر المتبارزان سيفيهما ويتابعان القتـال ، وكان السلاح في تلك الآونة سلاحا للاسـتخدام بيد واحـدة ، لكن لم يكن أمرا شاذا أن يؤخذ باليدين لتوجيه ضربات قاسية جـدا ، ووقتهـا يرخي زمام فرسه ، ويترك فرسه المدرب يقوم بواجبه ، واسـتخدم حد السيف ولم يعتمد على رأسه ، وتوجب تـوجيه الضربـات على رأس الخصم ، وإذا ما تفادى الرأس الضربة ، أو صدتها الخوذة قد تنزل الى الكتف فتحدث جرحا مميتا يعطل الذراع الأيمن ، أو كمـا حدث عندما تمـكن رولاند مـن قـطع يد مـارسليون اليمنى عند مفصلها ، فعطله عن متابعة القتال (البيتان : ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣)

ب ـ المبارزة بالسيف على الاقدام :

اذا ماترجل المتبارزان وتمكنا من الوقوف على اقدامهما يتابعان القتال بالسيف مترجلين وفق طريقة الطعن والضرب نفسها .

٤ ـ الدعوة المتبادلة للاستسلام :

غالبا مايحدث في المبارزة الفردية الطويلة ، كالتي قامت بين شارلمان وباليغانت (الأبيات ٣٥٦٤ ـ ٣٦٢٤) او بالاحتكام الرسمي بوساطة محنة القتال كما حدث بين شيري وبينابل (الأبيات ٣٨٧٣ ـ ٣٩٣٠) ، وقفة لاسترداد الأنفاس ، ويحق في تلك اللحظة أن يدعو كل مبارز الآخر الى الاستسلام حسب شروط ، واذا مارفض كلاهما يتابعان القتال حتى يموت أحدهما .

٥ ـ ضربة الموت :

عندما يفقد أحد المتبارزين سلاحه أو يتعطل عن متابعة القتال ، أما أن يدعوه المنتصر الى الاستسلام والأسر ، أو يوجه اليه ضربة الموت ، وأعلن في رولاند (البيت ١٨٨٦) وجوب القتل وعدم أخذ أسرى .

٦ ـ مباهاة المنتصر وافتخاره :

بعد قتالك لعدوك ، ستتولى تشجيع نفسك ورجالك بكيل السباب والشتائم الى الجسد الميت ، وصحيح أن هذه العادة لاتتماشى كليا مع صورة الفروسية لدى الانكليز ، لكنها كانت جزءا من الاجراءات الصحيحة في جميع الملاحم المبكرة ، فعند هومر غالبا ماجاءت المباهاة على شاكلة التحدي وعرضت في خطاب طويل محكم الصنعة ، وكقاعدة يتكون الخطاب في رولاند من بيت او ما يشبه ذلك ، وقد لايتجاوز القول :« خذ ذلك ، انت يا ... » وهذا مسموح به حتى في المعايير المعاصرة في مثل هذه المبارزات الحامية (انظر على سبيل المثال الابيات ١٢٣٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٧ ، ١٢٩٦) .

وغني عن القول انه اعتبر عملا خيانيا وليس من أخلاق الفروسية مهاجمة انسان من خلفه ، ولم يدع الشاعر أولفر رفيق رولاند ، والبطل الذي لانظير يموت في قتال مباشر ، بل جعله يقتل بضربة قذرة من هذا النوع (البيت ١٤٩٥)

٧ ـ التنشئة والمرافقة :

كان هناك فوق وأعلى من رباط التابعية العام ايضا الرابط الخاص الذي ربط رجلا بسيد تربى معه ونشأ ، أو الذي ربط سيدا بمرافقه ، وقضت العادات القديمة بإرسال ولد من أسرة كريمة ليتربى وينشأ ويرعى في بيت سيد رفيع المقام ، ويتلقى هناك مايحتاجه من تعليم وثقافة ، ويتعلم الأخلاق الجيدة ويدرب على استخدام السلاح ، والرياضة والفروسية ، واذا حدث وتربى صبيان هكذا ونشأ معا في الجد واللعب ، سيغدوان صديقان من نوع خاص أو لنقل رفيقين ، وسيستمر هذا التقارب مع تنافس الأصدقاء وسيتطور مع تقدم الحياة ، وكان التعاطف بين الرفاق ، أو بين السيد والفتى الذي تربى ونشأ في بيته قوية جدا ، وغالبا ماغطت علاقات القرابة بالدم ،وهكذا نسمع عن « العزاب الشباب » في بيت شارلمان « الذين دعاهم بأبنائه »، ونرى كيف مضي تفكير رولاند ساعة موته فقط نحو « الرجال في صفه » بل أيضا نحو « سيده شارلمان الذي رعاه ورباه منذ أن كان صبيا » ، وبشكل خاص نحو « رفيقه » أولفر ، وسنلاحظ ايضا أن كل واحد من الاتراب الاثني عشر كان له « رفيقه » ولذلك غالبا وردت الأسماء بشكل مزدوج : غيرين وغيرير ، ايفز وايفوز ، أوثون وبيرنغر ، أنسيس وسانسون يبدو ان الزوج المتبقي جيرارد أوف روسيلون وانغلر أوف بوردوا زدواجا معا من خلال المرافقة ، ولهذا لم يرد ذكرهما بشكل خاص ، ولعل ذلك ايضا بسبب أن جيرارد عرض بمثابة رجل عجوز

٨ ـ الخيول والسيوف :

لعله ليس من الضروري كثيرا اظهار أهمية الخيول الجيدة والسيوف الماضية ولا الالحاح على العواطف تجاههم مع مراعاة هذه الممتلكات الثمينة والعناية بها ، وهذا ليس بغريب فعليهما اعتمدت سمعة الرجل المقاتل وحياته ، وكان فقدان أحدهما معناه كارثة حقيقية وأن نرى وقوع أحدهما بيد العدو فذلك يسبب العار

والشعور بالاسى ، ومنحت السيوف والخيول المتميزة أسماء تشرفها وترفع من قدرها ، ونلاحظ أن الأمير المسلم باليغانت قد منح سيفه اسما حتى لايبدو بحال من الاحوال أقل منزلة من سيف شارلمان وسيمر بنا في نص رولاند اسماء العديد من السيوف المسيحية والاسلامية .

نشيد رولاند

١ ـ قارله الملك ـ امبراطورنا شارلمان
أمضى سبع سنين طوال كاملة مسافرا في اسبانيا
استولى على الأراضي المرتفعة بعيدا حتى ميان
ما من قلعة أمكنها الوقوف في وجهه
أو مدينة أو أسوار تركت له الا واقتحمها
باستثناء سرقسطة في موقعها الجبلي المرتفع
يحكمها مارسليون الذي يكره اسم الرب
إنه يطيع مهوند ولأبولو يصلي
لن ينجو من الدمار الذي ينتظره
٢ ـ أقام مارسليون في بلدة سرقسطة
وبحث عن حديقة ليقيم فيها ظلته
وأقامها على دكة رخامية لامعة
ووقف حوله والتف حول علمه عشرون ألفا من اتباعه
والمذول في حضرته استدعى قادته وأمراء جيشه
أصغو الي ايها السادة ـ إن ما أزعجنا وأضر بنا
الامبراطور شارل المرتدي لتاج فرنسا الجميل
هاجم بلادنا بهدف الاستيلاء على ثرواتنا
ليس لدي ما يكفي من الحشود لمنازلته
أنا لم أجد قوة كافية لطرد قواته
أيها الرجال العقلاء أشيروا علي الآن
أبقوا على حياتي واحفظوا لي شهرتي
ما من مسلم تفوه ببنت شفه
حتى تكلم بلانكاندرين سيد فالفوندا
٣ ـ كان بلانكاندرين حكيما وسط حشد المسلمين(٢٤ ـ ٤٦)
وبالشجاعة كان فارسا قويا ومقداما
ولائقا بالعقل لتقديم المشورة الى سيده
وقال للملك : لا تخش شيئا ولا يتخلك الفزع
بل أرسل الى شارلمان المتكبر والغاضب

خدماتك المخلصة وعرضا بصداقة مستقبلية
وعده بأسود ودببة وكلاب صيد
وسبعمائة جمل وألف صقر مدرب
وأربعمائة بغل محملة بالذهب وكنوز الفضة
وخمسين عربة تشكل قطار عربات
وبهذا سيمكنه اعطاء عساكره هدايا ثمينة
وقل : يكفيك ما قمت به من حرب في هذه الأرض
الى اكس في فرنسا دعه يعود ثانية الى وطنة
ويوم عيد القديس ميخائيل الحق به الى بلاطه
وهناك ستقدم طاعتك للقانون المسيحي
وكن من رجاله بالايمان والعهد والميثاق
وإذا ما طالب برهائن ليطمئن
أعطه ربما عشرة أو عشرين
واذا كان مفيدا سنبعث بأولادنا الذين ولدوا من زوجاتنا
سأرسل بابني مع أنه سيموت لذلك
الافضل كثيرا أن تسقط رؤوسهم
من أن نفقد شرفنا واملاكنا وكل شيء
وأن نصبح مدقعين متسولين
٤ ـ وقال بلانكاندرين :« أنا أقسم بيميني (٤٧ ـ ٧٥)
وبلحيتي التي ترتعش حول حضني
سترى بالحال حشد الفرنسيين يتبدد
سيعودون مسرعين نحو موطنهم فرنسا ارضهم ومحلهم
وعندما سيستقر كل واحد مع أحبائه من جديد
سيتخذ شارل مقامه في بيعته في اكس
وسيقيم هناك احتفالا عظيما يوم القديس ميخائيل
سيمضي الوقت وستمر الساعات
ما من أخبار عنا ، ما من رسائل منا سيستلم
الملك سريع الغضب في قلبه حقد وحشي
سيقطع رؤوسنا ويفصلها بضربة فأس
الافضل سقوط رؤوسهم في أحضانهم

من أن تسقط اسبانيا الجميلة وتذهب من بين أيدينا
وستعاني من خسائر مروعة ومن المآسي
وقال بلانكاندرين : « في ذلك شيء من الصحة »
٥ ــ وأنهى الملك مارسيل النقاش
واستدعى للمثول أمامه كلارين البلاغاتي
واسترامارين ويودروبين صديقه
وغارلرن ذي اللحية الطويلة واسمه برايامون
وما كنير وعمه ماتثاي
وجوهون من وراء البحار ومالابين
وبلانكاندرين ، وصنع هؤلاء العشرة الحكاية
كانوا شجعان بلانظير واليهم توجه بالخطاب قائلا :
أيها السادة ، سادتي توجهوا الى شارلمان
الذي يلقي الحصار على قرطبة يريد الاستيلاء على المدينة
ليحمل كل منكم بيده غصن زيتون وليظهره عيانا
فالخضوع والسلم يظهران بهذه الطريقة
إذا ما نجحت جهودكم في اعداد هذه المعاهدة
سأعطيكم ذهبا وفضة بأوزان مفيدة
وأراضي واقطاعات بقدر ما يتمناه القلب (٧٦ ــ ١٠٠)
وأجاب العشرة سيكون ذلك كثيرا ومرضيا
٦ ــ وأنهى الملك مارسيل مؤتمره
وقال لرجاله : سادتي اذهبوا بسرعة
احملوا في ايديكم اغصانا من شجر الزيتون
وفي سبيلي اطلبوا من الملك شارلمان
من أجل الرب أن يظهر الرأفة نحوي
وقولوا صدقا لن يمضي هذا الشهر قبل أن يراني
قاصدا اياه اقود معي الفا من الاتباع
عندها هناك سأتلقى شريعة المسيح
وبإيمان وحب سأكون تابعا له
سأرسل اليه رهائني إن كان هذا يرضيه
ثم قال بلانكاندرين : تأكدوا من استجابته لرجائي

٧ ــ وطلب مارسيلون احضار عشرة من البغال بيضاء كالثلج
(هدية أرسلها من قبل ملك سواتيليا)
سروجهم من فضة واعنتهم جميعا من ذهب
واعتلى الآن ظهورهم الرجال الذين كانوا على نية الذهاب
كلهم حمل في يده غصن زيتون
وقدموا على شارلمان المتملك لفرنسا
وبطريقة ماغرروا به فهذا ما كان مقدرا
٨ ــ كان الامبراطور شارلمان مسرورا مليئا بالبشر
سقطت قرطبة ، أسوارها الخارجية خرقت
المجانيق دمرت الأبراج وأحالتها الى ركام
آلت الغنائم الثمينة الى جميع فرسانه
ذهب وفضة ومعدات حربية ثمينة
لم يعد في المدينة أحد من المسلمين (١٠١ ــ ١٢٩)
فالذي لم يذبح تحول الى المسيحية رعبا وخوفا
وجلس الامبراطور في حديقة في الجوار
ومن حوله رولاند وأولفر
والدوق سمسون وأنسيس الشجاع
وغودفري دي أنجو حامل علم الملك
وغيرين أيضا ومعه غيريير أيضا
وحيث هؤلاء كان هناك اخوة كثيرون
خمسون ألفا كاملة من فرنسا الجميلة والعزيزة
على زرابي بيضاء جلس هؤلاء الاتراب النبلاء
وقدم الصرافون الداما والشطرنج
واحتفظوا بهما لتسلية الشيوخ من البارونات
وتسلى العزاب الشبان بالسيف والرمح
تحت صنوبرة الى جانب شجرة عليق
قام سرير من الذهب الاحمر الخاص
بجلال جلس ملك فرنسا الجميلة
شعر رأسه أبيض ولحيته فضية
جسمه نبيل مظهرة مخيف

إذا ما قصده قاصد لاحاجة للقول : انتبه هنا
عن بعد ترجل الرسل عن ظهور مهورهم
أحسنوا صنعا فحيوه بمظاهر الحب والاخلاص
٩ ـ أمامهم جميعا تقدم بلانكاندرين ووقف
وحيا الملك :أضفى الرب نعمته عليك
الرب سبحانه الحقيق بالعبادة
هكذا تكلم الملك مارسليون العظيم في حكمه
كثيرا ما تعلم العناية بالايمان والصدق
اليك وارضاء لك سيرسل الآن ثرواته
أسود ودببة وأعداد غير قليلة من كلاب الصيد بمقاودها
وسبعمائة جمل والف صقر مدرب
وذهب وفضة حملوا على أربعمائة بغل (١٣٠ ـ ١٥٣)
قطار من خمسين عربة لنقل
وتخزين ما يكفي من النقود الذهبية الجيدة
منها ستدفع لجندك كما تريد
لقد أقمت طويلا في هذه البلاد لاتعاسنا
عد الى اكس في فرنسا تلبية لمطالبنا
الى هناك من المؤكد سيتبعك مولاي
وسيكون رجلك بالايمان والاخلاص
ومملكته كلها سيحتفظ بها اقطاعا من يدك
وبيدين رفعهما الامبراطور نحو الرب مستلهما
ثم طأطأ رأسه مفكرا
١٠ ـ ولوقت طويل مكث الامبراطور يحدق نحو الارض
فهو لم يكن رجلا يتسرع في اجاباته
بل اعتاد أن يتكلم بعد مشاورات طويلة
وعندما نظر نحو الاعلى كانت نظراته صاقبة وعالية
وقال للرسل : كلامكم جميل وجيد
ومع ذلك إن الملك مارسيل عدو لي وعدوي
في كل ما تفوهتم وعرضتموه علي
لا أجد ما أثق به وأعول عليه

لتأكيد هذا وضمانه أجاب المسلم
سنعد عشرة رهائن أو خمس عشرة أو عشرين
واحدا منهم ابني سأرسله برغم خوفي عليه من الموت
آخرون أيضا نبلاء أقسم سيكونوا لديك
عندما ستحتفل في قصرك العظيم بعيد
القديس ميخائيل الكبير أوف بيرل على الشاطىء
سيلحق بك ، على هذا يمكنك أن تعود
وفي هذه الحمامات التي أعدها لك الرب بقدرته (١٥٤ ـ ١٧٠)
سيتحول الى المسيحية وهناك سيعمد
وقال شارلمان : وقتها يمكن أن يبقي نفسه حيا
١١ ـ كان المساء جميلا وأشرقت الشمس بجلاء
بالحال أرسل الملك شارلمان البغال البيض العشرة الى الحظيرة
في الحديقة الكبرى أمر الرجال بنصب
خيمة للرسل العشرة كي يقيموا
مع اثني عشر من السيرجانتية لتلبية جميع مطالبهم
وأمضوا الليل هناك حتى انبلاج ضوء الصباح
ونهض الامبراطور الآن من فراشه مبكرا
وفي القداس والتراتيل قدم صلواته
ثم توجه الملك نحو شجرة صنوبر
والى هناك دعا باروناته لعقد اجتماع
وتبعا للنصيحة الفرنسية سار، ولها استجاب دوما
١٢ ـ ومضى الامبراطور ليجلس تحت شجرة صنوبرطويلة
وللاجتماع به دعا باروناته :
الدوق أوغيير وبرئيس الاساقفة توربين التقي
ورتشارد العجوز وحفيده هنري (١٧١ ـ ١٩٥)
والكونت أسلين شجاع غاسكوني
ومايلز وابن عمه اللورد تيبولد أوف رايمز
وأيضا غيرن وكذلك حضر غيريير
وجاء الكونت رولاند ومعه جاء البقية
وأولفر النبيل والجيد وقت الحاجة

وجميع فرنسيو فرنسا وربما كانوا الفا أو أكثر
وغانلون ذاك الذي حاك المؤامرة
هكذا بدأ ذلك الاجتماع الذي وصل الى تلك النتائج المحزنة
١٣ ـ وبدأ الامبراطور شارلمان بقوله :أيها البارونات سادتي
من عند الملك مارسيل ، جاء رسل ، ينشدون السلم
وعرض على منحي عطايا عظيمة
من الاسود والدببة وكلاب الصيد المقودة
وسبعمائة جمل وصقور مدربة شجاعة
واربعمائة بغل محملة بالذهب العربي
وخمسين عربة محملة بشكل جيد مقطورة الى بعضها
لكنه يستعجل الآن ذهابي الى قصري في اكس
وهناك سيغير ايمانه الى ايمان أكثر فائدة
سيصبح مسيحيا وسيعتبرني قائده
لكن ماهي مقاصده الحقيقية ؟ هذا ما لا أستطيع الاجابة عليه
وقال الفرنسيون جميعا : الأحسن أن نكون حذرين
١٤ ـ وماأن انهي الامبراطور شارلمان خطابه
حتى رفض الكونت رولاند بحدة
وسارع بالمعارضة باندفاعه واقفا على قدميه
وقال الملك : لاتثق بمارسيل مطلقا (١٩٦ ـ ٢٢٥)
لقد مضى على وجودنا في أرض اسبانيا سبع سنين طوال
لقد حصلت لك على كل من نوبل ووكوميبلز
واستوليت على فالتيرنا وحزت على أرض الصنوبر
وعلى بالاغيت واشبيلية وطليطلة
ثم اقترف مارسيل عملا خيانيا عظيما
وأرسل رسله وعددهم خمسة عشر
ويحمل كل منهم غصن شجرة زيتون
وبكلمات طيبة ينشدون منكم السلام
ثم كان أن سألتم السادة الفرنسيين عن رأيهم
لقد أعطوك نصيحة حمقاء حقا
لقد أرسلت الى المسلمين كونتين من حاشيتك

باسان كان الأول وباسيل كان الآخر
لقد قطع راسيهما على رابية دون هاليتايل
هذه الحرب التي بدأت أججها ولاتوقفها
والى سرقسطة قد حشودك الى الوغى
أمض حياتك ، ان اقتضى الحال ، في الحصار
انتقم للرجلين من الخائن الذي سفك دمهما
١٥ ــ وجلس الامبراطور شارلمان ساكنا مطرق الرأس متفكرا
وحرك لحيته وشاربيه بكل لطف
ولم يرد على ابن أخته لابخير ولابشر
ولازم الفرنسيون الصمت ، باستثناء غانلون وحده
هب واقفا والى حضرة شارلمان تقدم
وقال للملك : لاتثق بهذا الفتى الثرثار
ولابي أيضا ، وابحث عن مصالحك فقط
ان كان الملك مارسيل قد أخبرك بوساطة رسله
انه سيضع يده في يدك ويعطيك العهد والميثاق بالولاء لك
ويحكم اسبانيا كلها باسمك ووفقا لرغباتك
والأيمان الذي نتبعه سيقبله
الرجل الذي طالبك بعدم القبول ارفضه (٢٢٦ ــ ٢٥١)
لاتهتم سيدي بالموت الذي يهددنا به
لايصح أن يتعجرف المستشارون ويركبوا رؤوسهم
ودعنا نصغي الى الرجال الحكماء والا نستمع الى الحمقى
١٦ ــ وانتصب نايمون في هذه اللحظة أمامهم جميعا
لم ير تابع قط أفضل منه بالقاعة
وقال للملك : حسنا مولاي هل استمعت
الحجج التي عرضها الكونت غانلون
فيها ثقل وعليك الاهتمام بها
الملك مارسيل هزم في الحرب
وانتزعنا منه قلاعه وحصونه
وبالمجانيق دمرت أسواره
لقد أحرقت مدنه وجيوشه أبدت

جاءك الآن ناشدا رحمتك
انه لاثم عظيم مضايقته أكثر
ولانه سيقدم رهائن تؤكد حسن ايمانه
علينا الاسراع بايقاف هذه الحرب الكبيرة
وردد الفرنسيون جميعا : لقد تكلم الدوق كما ينبغي
١٧ ــ أيها البارونات ، سادتي ، من سنرسل فورا
الى سرقسطة الى الملك مارسليون ؟
أنا سأذهب ، اذا سمحت ، قال نايمون
لهذا امنحني القفاز والصولجان
أنت احكم حكمائي ــ هكذا أجاب الملك بفخار
والآن بحق لحيتي ووجنتاي وذقني الحوامل لها
لن تجشمك السفر لمدة اثني عشر شهرا طويلا
لذلك ، اجلس ، لاننا لم نستدعـك
١٨ ــ أيها البـــارونات ، ســــادتي ، مـــن ســـــنرسل منكم (٢٥٢ ــ ٢٧٦)
الى سرقسطة ، الى الملك المسلم ؟
أنا ان كنت للمهمة أصلح ، قال رولاند
لن تكون أنت ، أوضح أولفر :
أنت انفعالي وعنيد في أعمالك
أنا عندي أرض أنت أعطيتنيها اقطاعا
ان سمح الملك أنا سأقوم بهذه المهمة
ورد الملك : اصمتا أنتما هناك
لاأنت ولاهو سيخطو خطوة على ذاك الطريق
بحق لحيتي هذه ذات المرأى الفضي
لن أسمي أيا من الأتراب الاثني عشر حتى لاأبكيه
ولم يقل الفرنسيون شيئا ووقفوا مصعوقين صامتين
١٩ ــ ثم نهض من بين صفوفهم توربين أوف ايمز
وقال للملك : دع باروناتك الفرنسيين يرتاحون
لقد مضى على وجودهم في هذه الارض سبع سنين طوال
فيها عانوا كثيرا من الخوف والمتاعب

أرجوك ياسيدي ، أعطني – بناء عليه – الصولجان والقفاز
سأقصد مسلم الاندلس وأراه
وفي نظراته سأقرأ مقاصده
وبمظهر غاضب أجابه الامبراطور :
على تلك السجادة البيضاء اجلس وابق دونما حركة
وأيضا أقول : الزم الصمت حتى آمرك بالكلام
٢٠ – قال الامبراطور : عصبتي من الأحرار والفرسان
تعالوا واختاروا لي واحداً من بارونات أرضي
ليحمل رسالتي ويضعها في يد الملك مارسليون
وتكلم رولاند فقـــال : غانلون زوج أمـــــي ، ياســــيدي هـــــو الرجل (٢٧٧ – ٣٠٢)

وقال الفرنسيون جميعا : في الحقيقة هو الاكثر جدارة
اذا لم تختره لن تجد له نظيرا
وانفجر الكونت غانلون مغضبا غضبا عظيما
وتنهد مغضبا واشدة ذلك مال نحو الخلف
ووقف أمامهم بردائه الحريري المشوق
عيناه تبرقان ، مظهره مظهر سمو وكبرياء
قوامه رشيق وعرض صدره كبير
الأتراب كلهم حدقوا به فقد كان شكله شكلا عظيما
وقال لرولاند : أحمق ، مالذي جعلك احمقا
أنا مولاك وزوج أمك ، وهؤلاء جميعا يعرفون من أنا
وأنت سميتني لاقصد معسكر مارسليون
اذا ما قدر الرب العظيم أن أعود من هناك
سأنزل بك فوق ماتستحق وادمرك
ورد رولاند : هذا كله تبجح وادعاء
التهديد لايخيفني ، والعالم كله يعرف ذلك
لحمل هذه الرسالة نحتاج الى رجل جيد
أنا سآخذ مكانك لو أن الملك أذن
٢١ – قال غانلون : مكاني لن تأخذه

أنت لست تابعا لي وانا لست مولاك
شارلمان امرني وخدمة له أنا مطيع
ساقصد مارسيل لالقاه عند أبواب سرقسطة
وهناك سأحيك مؤامرة مميتة
ان لم أجد منفذا لاطفاء غضبي اللامحدود
ماأن سمعه رولاند حتى ضحك في وجهه
٢٢ ـ عندما رأى غانلون رولاند يضحك بلا مبالاة (٣٠٣ ـ ٣٢٨)
كاد ينفجر من غضبه وانزعاجه
وكاد ان يخرج من عقله
واخبر الكونت : انا لاأحبك ، لاأنا ...
وأنت تسلطت علي بظلم وارغام
ايها الامبراطور العادل ، هنا أنا اقف أمام ناظريك
جاهزا لصنع كل ماتراه صحيحا
٢٣ ـ الى سرقسطة ارى ان علي المضاء
لاعودة لي من تلك الرحلة الى هنا
أعتقد انك ستعد زوجتي بمثابة أخت لك
لقد ولدت لي صبيا هو الأجمل والأفضل بين الأولاد
بلدوين (قال هو) وبطلا سيكون
له أترك أراضي ومماتلك
لن أراه ثانية ، سيدي اعتن بقريبك
وقال شارلمان : قلبك في جوفك رقيق جدا
عليك الذهاب الآن ، لانه مع ذلك أنا أمرك
٢٤ ـ ثم قال الملك : قف أمامي ياغانلون
هاك تسلم من يدي القفاز والصولجان
لقد سمعت الفرنسيين ـ أنت الرجل الذي يريدون
وقال غانلون : مولاي رولاند اقترف بحقي هذا الخطأ
انا لن أحبه طوال حياتي
ولاأولفر صديقه ورفيقه الحميم

ولاالأتراب الاثني عشر الذين عليهم يعتمد
سيدي : بحضورك أنا أتحداهم جميعا
عندها قال الملك : ان انفعالاتك عالية جدا
آمرك بالذهاب وماعليك الا بالرحيل
حسنا أنا يمـــكنني الذهـــاب ، انمـــا بـــدون حراسة (٣٢٩ ـ ٣٤٤)
فكهذا كان باسيل ، وكذلك باسان ، الرب يعلم
٢٥ ـ وناوله الملك قفاز يده اليمنى
مرغم سيكون الكونت غانلون على قطع مئات الاميال
عندما تناول القفاز ، وقع في التراب
فصرخ الفرنسيون جميعا على الفور : ياالهي ، ماهذا ؟
لاشك أن هذه الرسالة ستحمل لنا سوء الحظ
وقال غانلون : سيدي لن تلبث حتى تعلم ذلك
٢٦ ـ سيدي إئذن بالذهاب من هنا الى هناك
طالما علي الذهاب ، فلا يذفع الانتظار
وقال الملك : امض ، باذن يسوع وأنني
وبيمناه حلله ، وبها وسمه
ولتيسير أموره أعطاه رسالة وصولجانا
٢٧ ـ وبادر الكونت غانلون الى مقره مسرعا
ومن بين صفوف أتباعه بدأ يبحث
عن خيرة من يخدمه ويلبي حاجاته (٣٤٥ ـ ٣٧٢)
وربط مهمازيه الذهبيين على عقبيه
وشد على وسطه مورغليز سيفه الفولاذي
وامتطى ظهر مهره تاشيبرون
وحمل عمه غونمير ركابيه
ثم لك أن تتصور عددا كبيرا من الفرسان الشجعان يبكون
ويقولون له : واحسرتاه على فقدان شجاعتك
كنت في بلاط الملك منذ سنين طوال
تابعا نبيلا بتقدير الجميع
الذي سماك للقيام بهذه المهمة الكبيرة

شارلمان نفسه لن يحميه ولن يغطيه
ماكان رولاند محقا في حياكة هذه الخطة
لانك رجلا جئت من أصل نبيل
ثم قالوا : مولاي خذنا معك ، نرجوك
وأجاب غانلون :« الرب يحظر وقوع ذلك
خير أن اموت وحيدا من أن يقتل معي بعض خيرة الفرسان
ايها السادة ستعودون قريبا الى فرنسا الجميلة
باسمي قدموا التحيات لزوجتي
والى بينابل صديقي وتربي
والى بلدوين ابني الذي تعرفون جيدا ، أمالي نحوه
ستساعدونه وستقبلونه سيدا لكم
ثم انطلق واخذ طريقه مسافرا
٢٨ ـ وامتطى الكونت غانلون مهره تحت شجرة زيتون عالية
ومالبث أن لحق بالسفراء المسلمين في الوقت المناسب
وتراجع بلانكاندرين ومن ثم قام بمسايرته
وشرعا الآن يتحادثان بمكر
وقال بلانكاندرين : شارلمان محارب رائع
على بيولا استولى وعلى كالبريا ايضا
والى انكلترا عبر فوق أمواج البحر المالح
ولصالح القديس بطرس جبى جزية الجزيرة (٣٧٣ ـ ٣٩٦)
مالذي يريده هنا من حربه داخل حدودنا ؟
وأجابه الكونت غانلون : هكذا ينال سروره
في العالم أجمع لن تجد نظيرا له
٢٩ ـ وقال بلانكاندرين : الفرنسيون قوم محترمون
ومع هذا يسيئون الى مولاهم
فهؤلاء الامراء والكونتات عندما أشاروا عليه بهذا العمل
سارعوا بالحاق الضرر به وبآخرين
وقال غانلون مامن أحد أثر مثل هذه الكلمات المريبة
باستثناء رولاند وحده الذي سينال جزاءه كأسوأ مايكون
تمعن الآن ، كان الامبراطور جالسا يتحدث تحت ظل لطيف

واذا بابن أخته قادما في ثيابه الملكية
متحمسا يحمل غنائمه التي عاد بها من كاركاسون
حمل رولاند بيده أرفع الجوائز
وعرضها على عمه قائلا : خذها مولاي العادل
التيجان التي أعطيك تيجان ملوك الارض جميعا
مؤكد في يوم من الأيام سيؤنبه كبرياؤه
خطر الموت المحتم يقترب منه يوما تلو آخر
لو أن أحدا قتله لأمكن تحصيل بعض السلام
٣٠ ـ قال بلانكاندرين : شرور رولاند وآثامه
على هذا يريد شعوب الأرض كلها أن تقتتل
وأن تقع كل أرض مرغمة تحت نيره
من الذي أمره وأمده بسلاحه وقوته
وأجاب غانلون : لقد تآمر على الفرنسيين
هم لم يخذلوه قط وهم يحبونه حبا جما (٣٩٧ ـ ٤٢٤)
فضة وذهبا يعطيهم بلا مقدار
وخيولا وبغالا وحريرا ويمدهم بالمعدات
وكل مايريده الامبراطور يؤمنه له
وهو سيستولي له على الأرضي فيما بين الشرق والغرب
٣١ ـ وتساير غانلون مع بلانكاندرين ذلك اليوم طويلا
حتى تعهد كل واحد منهما للآخر بالصدق والايمان
واتفقا على ايجاد الوسائل لقتل الكونت رولاند
وتسايرا طويلا وانتقلا من درب الى طريق
الى سرقسطة وعلى مقربة مـن شـجرة طقسـوس ألقيا عصـا الترحال
وفي ظل شجرة صنوبر تحتها نصب سرير
قد لف بثوب من حرير الاسكندرية
عليه جلس الملك المسؤول عن حكم اسبانيا
ومن حوله اصطف عشرون ألفا من المسلمين
لم يتفوه أيا منهم بكلمة واحدة

كلهم انتظر بلهفة سماع الأخبار
والى حضرته وصل غانلون وبلانكاندرين
٣٢ ـ وتقدم بلانكاندرين على غانلون
وبيده امسك الكونت غانلون
وخاطب الملك قائلا : مولاي ، وقيت ، بحق مهوند
وبحق أبولو الذي نمجد عقيدته المباركة
أعطينا رسالتك الى شارلمان بكل مافيها
رفع يداه عاليا نحو السماء
وحمد ربه ، وبعد هذا لم يعطنا جوابا
وأرسل واحدا من نبلائه ، هذا الذي تراه
سيد من فرنسا ، من أشهر فئاتها
منه ستسمع ان السلم هو الرابح أم الخاسر
وقال مارسيل ، منه سنسمع ، دعه يتكلم
٣٣ ـ وكان غانلون قد فكر بهذه المسألة مليا (٤٢٥ ـ ٤٥٠)
وبمكر عظيم بدأ الآن يتكلم
وكأنه رجل للأخلاق ولد
وقال الملك : حفظك الرب بكلماته
الرب سبحانه الذي ينبغي أن نعبده
الملك شارلمان العظيم بعث يقول لك :
عليك تلقي الأيمان بالمسيح ربنا
وسيكافئك بنصف اسبانيا اقطاعا لك
واذا ما رفضت عرضه
ستؤسر وتقيد بكل شدة
وتحمل بعيدا الى اكس ، الى بلاطه
هناك ستدان وينفذ فيك الحكم حالا
هناك ستموت منفيا مهانا
ولدى سماع مارسيل هذا شعر بضيق عظيم
وكان يمسك نصلا مذهبا ومريشا
وكان على وشك أن يرميه به غير انه تحمل وصبر
٣٤ ـ وتغير لون الملك مارسيل كليا

امسك قناته وهز رمحه
وعندما رأى غانلون ذلك مد يده الى سيفه
واستله من غمده مقدار اصبعين
وقال له : أنت صقيل تماما وشجاع
في بلاط الملك حملتك أياما عديدة
لن يحجبني امبراطور فرنسا أن أقول
سأموت وحيدا ، بعيدا في أرض غريبة
قبل ذلك ستدفع أغلى ثمن
وصرخ المسلمون : علينا أن نمنع هذا الخصام
٣٥ ــ هكذا احتج عليه عقلاء المسلمين (٤٥١ ــ ٤٧٨)
فما كان من الملك مارسيل الا أن تراجع وجلس على عرشه
وقال الخليفة : لقد عرضتنا للنقد
ظننا اننا سنخيف هذا الفرنسي بضربة
ماعليك الا الاصغاء وتسجيل الملاحظات
وقال غانلون : مولاي علي تحمل هذا كله
لن ابالي بكل الذهب الذي خلقه الرب
لا ، ولن أعبأ بجميع الثروات التي تفتخر بها بلادك
لأن اتفوه بالرسالة ــ طالما أعطيت الفرصة ــ
التي الملك شارلمان ذلك الرجل العظيم البنيان
أرسلها معي الى هذا العدو المميت
المتلفح برداء مبطن بفراء الفنك
والمغطى بحرير نسجته الاسكندرية
أنه يدليه الى الأمام حتى يمسكه بلانكاندرين
لكن لن يحرك سيفه ويشهره بدون حكمة
هو ممسك بيمينه مقبضه الذهبي
وقال المسلمون : انظروا هاهنا بارون جريء
٣٦ ــ واقترب غانلون من الملك وخاطبه كما يلي
قال له : أنت تعبث باثارة المتاعب لنفسك
شارلمان الذي يمتلك فرنسا يأمرك بما يلي :
عليك تقبل الايمان المسيحي

وسيمنحك نصف اسبانيا اقطاعا لك
والنصف الآخر الى ابن أخته رولاند
سيكون لبيك في الاقطاعية شريك متعجرف حقا
اذا مارفضت هذه الشروط من قبلك
في سرقسطة سيحاصرك وسيضيق عليك الخناق
وبالقوة سيأسرك ويقيدك
ومن ثم سيرسل بك الى اكس مباشرة
ولن تسافر بعدها الى بالفري ولا الى دستريير
ولن يقدم اليك للسفر لابغلا ولامهرا قصيرا (٤٧٩ ـ ٥٠٦)
على ظهر أتان عجفاء هزيلة سيضعك
وستفقد رأسك هناك بقضائه
انظر الآن ، لقد كتب اليك الامبراطور بهذه الرسالة
والى يمناه سلم المسلم الرسالة
٣٧ ـ ولشدة غضبه إبيض لون الملك مارسيل
فدمر الختم ورمى بالشمع جانبا
ونظر الى الرسالة وقرأ مافيها
هذه هي الكلمات التي كتب بها شارلمان ملك الفرنسيين الي
علي أن اتذكر حزنه وانزعاجه
بسبب هذين الاخوين : باسان وباسيل السامي
اللذين قطعت رأسيهما في هالتوي على الهايت
واذا كنت أغالي في تقدير قيمة حياتي
علي ارسال عمي الخليفة بمثابة مكافأة
وإلا لن يكون بعد اليوم صديقا لي
وفي هذه الساعة دخل ابن مارسليون وهو يصرخ :
كلمات غانلون جنون وبلا عقل
هذا شيء كثير ـ انه لن ينال طعم الراحة حيا
سلمه لي وسيواجه العدالة
عندما سمع غانلون هذا هز سيفه عاليا
واستند الى جزع شجرة صنوبر
٣٨ ـ وداخل الحديقة جدد الملك مارسيل الاجتماع

- ٤١٣٧ -
واصطحب معه خيرة رجاله لمشاركته
والى هناك جاء بلانكاندرين ابيض الشعر
وجوورفرات الذي كان ابنه ووريثه
والخليفة عمه وقائده
وتكلم بلانكاندرين قائلا : استدع ذلك الفرنسي الى هنا
انه سيخدم مقـــاصدنا ، هـــذا مـــا سمعته يتعهـــــد
به (٥٠٧ ـ ٥٣٤)
وامره الملك قائلا : أحضره بنفسك فهذا أفضل
وبيمناه امسك الكونت غانلون وجاء به
الى الحديقة حيث كان الملك ومستشاريه
وهكذا شرعوا يحيكون مؤامرة شريرة
٣٩ ـ قال مارسيل : غانلون أيها السيد الرفيع ، لقد عاملتك
بشيء كبير من اللطف حتى الآن
عندما كنت مغضبا وددت لو أني صرعتك
لكن اقسم بحق هذه الاحزمة من فراء الفنك
التي تساوي قيمتها خمسمائة قطعة ذهبية جيدة
سأجعلك غنيا في أقرب وقت اليوم أو في الغد
هذا ماأرفضه ـ قال الكونت غانلون
الرب ان شاء ، سيعدل الأحوال
٤٠ ـ ثم قال الملك مارسيل ، حقا ، ياكونت غانلون
نويت ان اجعلك صديقا لي فهذا ماتستحقه
عن مشاكل شارلمان بودي أن اسمعك تتكلم
هو عجوز تقدمت به السنون وعانى من حياة صعبة
مائتي سنة وأكثر ، كما أعرف قـد رأى
في البلدان كثيرا مـالا في جسده المتاعب
ضربات قاسية لاتعد ولاتحصى تلقى على ترسه
ملوك اغنياء كثر حولهم الى متسولين
متى سيتعب من القتال على ساح الوغى ؟
وقال غانلون : هذه ليست عادته مطلقا

مامن انسان عرف الامبراطور أن نظر الى طلته
الا وقال عنه : حقا انه رجل عظيم
مهما أطنبت في مدحه وتقديره
ستظل مكانته وسموه فوق أن أفيه حقه
شجاعته الجبارة ، من بامكانه وصفها بالكلمات ؟
الرب أسكن فيه شجاعة بلا حدود (٥٣٥ ـ ٥٦٢)
انه يفضل الموت على أن يتخلى عن فرسانه وقت الحاجة
٤١ ـ قال المسلم : انا في تفكيري مندهش
من شارلمان في انه عجوز وشعره ابيض
انا أعرف أنه عاش مائتي سنة وأكثر
في البلدان كثيرا ماعلى جسده من المتاعب
حمل أعداد كبيرة من السيوف القاطعة والحراب والرماح
كثير من الملوك الاغنياء صاروا متسولين وباتوا في حالة الاملاق
متى سيتعب من الذهاب الى الحرب ؟
وقال غانلون : لن يتعب مادام رولاند يحمل سيفا
ما من واحد شجاع مثله تحت أديم السماء
وأولفر صديقه سيد شجاع ايضا
والأتراب الاثني عشر الذين يحبهم شارلمان حبا جما
يحمون ساقة الجيش مع فرسان عددهم ألف
شارلمان في أمان لايخاف من انسان أبدا
٤٢ ـ قال المسلم : انا متعجب في عقلي
من شارلمان الذي رأسه ابيض وعجوز
كما أعلم مرت به مائتان من السنين
قهر من البلدان كثيرا طولا وعرضا
بالحربة طعن كثيرا ممن أسره أثناء القتال
من الملوك الاغنياء كثير من ذقلهم الى الفقر والاملاق
متى سيتعب من المضي الى القتال
قال غانلون : لن يتعب مادام رولاند يرى الضياء
فيما بين الشرق والغرب ليس لشجاعته نظير
وأولفر صديقه فارس شجاع ايضا

والاتراب الاثني العشر الذين يحبهم الملك
ركبوا مع عشرين الفا من الفرنسيين في ساقة الجيش
شارلمان في أمان لايخشي من انسان من الاحياء
٤٣ ـ ثم قـال الملك مباشرة : غانلون أيهـا السـيد
الجليل (٥٦٣ ـ ٥٨٧)
عندي جيش لن تجد أحسن منه
اربعمائة الف من خيرة الفرسان حسب تقديري
هل يمكنني الاشتباك بشارلمان وبرجاله الفرنسيين ؟
ورد غانلون : لايمكنك ، وسأخبرك لماذا
لأن الخسائر بين رجالك ستكون مريعة
دع عنك هذه الحماقات وعد الى عقلك بجد
أرسل الى الامبراطور كميات هائلة من الذخائر
تجعل الفرنسيين جميعا ينبهرون لعظمتها
عشرين كرة ستتابع ارسال الشيء نفسه اليه
عندها سيعود شارلمان الى فرنسا الجميلة راضيا
تاركا وراءه قوات ساقة لحمايته
معهم ، أنا أؤكد ، سيكون ابن أخته رولاند
واولفر أيضا السيد الشجاع
اقتل هؤلاء الكونتات ، اذا أردت الوثوق بي
عندها سيرى شارلمان سقوط كبريائه ونهايته
ولن يملك الشجاعة للقتال معك منذ ذلك الحين فصاعدا
٤٤ ـ وصرخ الملك مارسليون : غانلون أيها السيد الحكيم
مالذي ينبغي علي القيام به لقتل رولاند ؟
وأجابه غانلون : سأخبرك بذلك
عندما سيصل الملك الى بوابة سيزر (كول دي سيزين رونسيفو
وبامبلونا)
سيخلف قوات المؤخرة لحفظ الممرات ورائه
هناك سيكون ابن اخته رولاند الفارس العظيم
وأولفر ايضا الذي عليه يعتمد كثيرا

ومن حولهما عشرين ألفا من خيرة الفرنسيين
ارسل مائة الف من بني جلدتك من المسلمين (٥٨٨ ــ ٦٠٨)
وسيشتبك هؤلاء أولا مع الفرنسيين في قتال
ولن تكون الخسائر في صفوف الفرنسيين قليلة
ورجالك سيقتلون وهذا لن يغضبني
وبهجوم مماثل للمرة الثانية عليك القيام
وأولا أو أخيرا سيلقى رولاند مصرعه
وستكون قد قمت بانجاز بالسلاح رائعا جدا
ولن ترى بعدها حربا طوال حياتك
٤٥ ــ من الذي سيطعن الكونت رولاند ويقتله ؟
عندها من جسد غانلون تحركت اليد اليمنى
عندها الجيش العظيم سينهار ويباد
ولن يستطيع شارلمان جمع حشد عظيم مماثل
وبذلك ستنعم أرض آبائنا بالسلام والراحة
ومان سمع الملك مارسيل بهذا حتى انحنى
ومال فورا الى خزائن نخائره فأمر بفتحها
٤٦ ــ ثم قال مارسيل : بقي شيء واحد
ليس هناك رباط جيد حيث لاايمان جيد
أعطني ميثاقل مقسما على خيانة رولاند
وأجابه غانلون : سأفعل كل ما تقوله
على آثار سيفه موغلاس الجيد
أقسم على الخيانة وأقسم على التخلي عن ايمانه
وكان هناك عرش صنع كله من العاج (٦٠٩ ــ ٦٣٠)
وأمر مارسيل بجلب كتاب مجلد
فيه شريعة .... ومحمد
عليه أقسم مسلم اسبانيا
بالبحث عن الكونت رولاند بين قوات المؤخرة
وإذا ما وجده هناك ، سيقاتله بكامل قواه
وسيبذل غاية جهده لقتله والتخلص منه الى الابد

وأجاب غانلون : ولعل ذلك سيكون هكذا
٤٨ ـ وفيما القوم هكذا منشغلون دخل المسلم ولد برون
ووقف أمام الملك مارسيلون
وقال لغانلون وهو يضحك بحيوية :
هاك ، خذ سيفي ، فلن تجد شفرة خيرا منه
حليت مقبضة بألف مثقال
إنه لك يا سيدي الحكيم خالصا لحبك
المساعدة ضد البطل رولاند
إذا ما وجدناه في قوات الساقة حسبما طلبنا
وقال غانلون له : سيتم تنفيذ ذلك
وقبلا بعضهما بعضا على الوجنات والذقون
٤٩ ـ ثم جاء بعد ذلك مسلم آخر اسمه كليمبورين
وشرع وهو يضحك يقول بحيوية لغانلون :
اقبل وخذ خوذتي التي لم أر أثمن منها
على عرفها ياقوتة
أعطيكها عربون صداقة صافية
إن كنت ستساعدنا ضد رولاند ببراعتك
في أن نسبب له ميتة تعيسة (٦٣١ ـ ٦٥٣)
ورد غانلون على ذلك : هذا ما سينفذ
وقبلا بعضهما بعضا بالفم والذقن
٥٠ ـ ثم توجهت الملكة براميموند بالخطاب الى الكونت :
عزيزي السيد الحكيم اني احبك عن صدق
مليكي يثني عليك ثناء عظيما وكذلك أتباعه
امنح هذا الزوج من الاقراط باسمي الى زوجتك
مثقلين بالياقوت والزمرد والذهب
هما أثمن من جميع ثروات روما
مثلهما امبراطورك لم يمتلك قط
وتناول الجوهرتين ودسهما في قبعته
٥١ ـ واستدعى الملك مالدويت ، القائم على بيت المال وسأله :
هل انتهيت من اعداد هدايا الملك شارلمان

فأجابه : نعم يامولاي ، بكميات هائلة :
سبعمائة جمل محملة بمعادن ثمينة
وعشرين رهينة لا نظير لهم تحت قبة السماء
٥٢ ــ ووضع مارسيليون يده على كتف غانلون
وقال مخاطبا اياه : أنت عاقل وشجاع
الآن بحق الايمان الطيب المشع من عينيك
لا تدع قلبك يتراجع عما صممناه
سأعطيك كنزا عظيما وله قيمة كبيرة
حمولة عشرة بغال من الذهب المستخرج من مناجم ديار العرب
وما من سنة ستمر الا وستستلم مثل ذلك
خذ الآن مفاتيح برجي الكبير (٦٥٤ ــ ٦٧٩)
وقدم للملك شارلمان كل ما فيه من ثروات
لكن تأكد أن رولاند سيكون في جيش الساقة
وإذا امكن ان نجده في ممر أو في معبر
سأشتبك بالقتال الحاد معه حتى الممات
وقال غانلون : يخيل لي أنني أبدد الوقت
وامتطى ظهر حصانه وبدأ رحلته مسرعا
٥٣ ــ عاد الامبراطور الآن أدراجه
ووصل امام مدينة غين
(استولى الكونت رولاند عليها وازال أسوارها
وقد بقيت بعد هذا مائة سنة مدمرة)
وهناك انتظر الملك وصول اخبار من غانلون
ووصول جزية بلاد اسبانيا العظيمة
ومع انبلاج الفجر وعند تباشير الصباح
دخل الى مخيم الكونت غانلون
٥٤ ــ مبكرا في ذلك اليوم غادر الامبراطورفراشه
حضر القداس وردد الآن صلواته
على العشب الاخضر أمام خيمته وقف رولاند
وكان مع رولاند أوليفر الشجاع أيضا
والدوق نايمون وأيضا آخرون كثر

- ٤١٤٣ -
ثم جاء غانلون الخائن اليهم ليخدعهم
وشرع يتكلم بزيف حاضر بارع
وقال مخبرا الملك: اليك حماك الرب
جلبت اليك الى هنا مفاتيح سرقسطة
وجلبت لك ايضا ثروات ترضي قلبك
وعشرين من الرهائن انظر اليهم محفوظين بدقة
وأرسل الملك مارسيل الشجاع هذه الرسالة (٦٨٠ ـ ٧٠٧)
يرجوك الا تغضب من غياب الخليفة
رأت عيناي أربعمائة الف رجل
بالسوابغ تسلحوا وعلى الرؤوس شدوا الخوذ
وعلى أوساطهم علقوا السيوف المحلاة المقابض بالجواهر الثمينة
حضروا أمامه ثم الى شاطيء البحر ذهبوا
الايمان بدين المسيح لن يقبلوا وله لن يحفظوا
ولهذا السبب هربوا من امام مارسيلون
لكن ما ان سافروا بالبحر أربع مراحل ، ربما ، أو أقل
هبت عليهم عاصفة سوداء وعليهم حل الغضب
كلهم غرقوا ولن يروا ثانية
لو أنه ظل حيا لجئت به بنفسي
والآن ، بالنسبة للملك المسلم نفسه
صدقني يا سيدي إنه قبل مرور شهر
سيلحق بك الى فرنسا الى مملكتك
هناك سيتلقى الايمان الذي انت به تعتقد
وهناك سيضع يديه بيديك ويؤدي يمين الولاء
ومنك سيتسلم مملكة اسبانيا اقطاعا له
ثم قال الملك : تبارك اسم الرب
حسنا صنعت ، سأجيزك خير الجزاء
في وسط الحشود ألف من الأبواق صدحت
وقوض الفرنسيون المعسكر ووضعوا بضائعهم على دواب التحميل

الى الوطن الى فرنسا الجميلة كلهم باتوا قاصدين
٥٥ ـ عاث الملك شارلمان فسادا بالحدود الاسبانية
استولى على القلاع ، والمدن دمر والسكان ذبح
الآن قال الملك :إنه أنهى حروبه
نحو الوطن الى فرنسا الجميلة أدار الامبراطور رؤوس خيوله
....(سقط بيت أوبيتان من الأصل)
علم صغير الى سنان رمح رولاند ربط
على الروابي عرضه هناك وراء الحدود (٧٠٨ ـ ٧٣٣)
في السهوب نصب الفرنسيون معسكراتهم حول بعضها بعضا
في داخل الوديان الواسعة مضت الحشود الاسلامية الى الامام
(كلهم شاكي السلاح) لبس لأمته وحمل سلاحه
خوذاتهم مربوطة وسيوفهم في جفونها
الدروع معلقة على رقابهم ورماحهم مجهزة بشكل جيد
في أعالي الجبال في مكان كثيف توقفوا
اربعمائة ألف انتظروا هناك قدوم الصباح
يا الهي إنه لمخيف أن يكون الفرنسيون بدون تحذير
٥٦ ـ ومضى النهار وتبعه الظلام وحل محله
الامبراطور مستغرق في نومه ، شارلمان الجبار
حلم أن سبيله اعترض في بوابه سيزرا العالية
ممسكا بيده رمحه الأسمر العظيم
أمسكه الكونت غانلون ، وهزه
وبغضب عظيم لواه بشده وحطمه
والى السماء العالية طار الحطام وتناثر
وظل شارلمان نائما ، ولم يستيقظ
٥٧ ـ وبعد هذا الحلم رأى مناما آخر
رأى نفسه في بيعته في اكس في فرنسا
على ذراعه الأيمن وضع دب شرير أسنانه
قادما من أردنز رأى فهدا مقبلا نحوه بسرعة
وارتعش جسده بسرعة واستبد به الغضب
ثم من القاعه جرى كلب صيد بكل سرعة

- ٤١٤٥ -
واقبل نحو غانلون يعدو ويقفز
وباول عضة أزال بوحشية أذنه اليمنى
ثم انعطف نحو الفهد واشتبك معه في معركة حامية
وقال الفرنسيون جميعـا القتـال جميل صـالح للمشـاهدة
(٧٣٤ ـ ٧٥٨)

لكن ما من أحد يمكنه أن يحزر من سيكون المنتصر
وظل شارلمان نائما ، ولم يستيقظ من نومه
٥٨ ـ وعبر ظلام الليل وانبلج نور الفجر
(ألف بوق) صدحت للحشود
وركب الامبراطور بأبهة ملكية وتابع نهابه
وقال شارلمان : أيها البارونات ، سادتي انتبهوا الآن
هذه هي الممرات العالية ، هذه هي المسالك الضيقة قريبة
ثم قال : من سيتولى قيادة جيش المؤخرة ويقوم بحفظهما
وقال غانلون : أنا اسمي رولاند ابن زوجتي
ليس لديك بارون يمكن أن يباريه في جسارته
وعندما سمع الملك ، نظر اليه نظرة حادة
وخاطبه بقوله : الشيطان حل بك حقا
الشر قد تلبسك واستولى عليك كليا
من الذي سيحفظ المؤخرة أثناء تقدمي ؟
قال غانلون : أوغيير الداني ، أنا أصوت له
ليس لديك بارون آخر يمكن ان يقوم بذلك بشجاعة أكبر
٥٩ ـ عندما سمع رولاند ما عين للقيام به
قام بالرد حسبما يليق بالفارس أن يفعل
مولاي ووالدي العزيز : إنني أدين لك بالشكر
في أنني عينت لقيادة المؤخرة بناء على رغبتك
شارلمان ملك فرنسا لن يعاني من الخسارة أبدا
أنا مفوضك بالمهر هناك وبسرجه
ما من حيوان ركوب أو بغلة أو بغل
أو فرس نقل أو كديش لذلك سيخسر

باستثناء السيف أولا الذي اعطيته حقه (٧٥٩ ـ ٧٧٣)
وقال غانلون : أعرفه ، لقد تفوهت بالصدق
٦٠ ـ عندما سمع رولاند أنه ذاهب الى قوات المؤخرة
وأن زوج والدته هو الذي سماه ، تكلم بغضب صادر عن القلب :
له ، أيها الساحر الجبان ، والمجرم القذر ، والمنحط الاصل
لاتظنن أن القفاز سيسقط من يدي
كما سقط الصولجان منك أمام الملك شارلمان
٦١ ـ ثم طالب الكونت رولاند الامبراطور بجسارة قائلا : أيها الامبراطور العادل

من يمينك أعطني قوسك
واقسم ما من انسان سيتفوه بكلمة نقد
في أن أسمح له بالسقوط من يدي
كما فعل غانلون حين خلى الصولجان يهوي
وجلس الامبراطور مطرقا برأسه نحو الاسفل
وعبث بلحيته لحزنه وشدها حينا على وجنته وحينا على ذقنه
ولم يستطع أن يمنع دموعه من التدفق
٦٢ ـ وتقدم نايمون بعد دخوله نحو الملك(٧٧٤ ـ ٧٩٦)
ثم اتخذ مجلسه بشكل لائق جدا
وخاطبه بقوله : لقد أصغيت الى هذا كله
الكونت رولاند سريع الغضب
قيادة الساقة قد لزمته
وليس لديك بارونا قادرا على جعله يستقيل
أعطه القوس الذي تمسكه بيدك
واختر خيرة الرجال لعونه في هذه المهمة
وبناء عليه ناوله الملك اياه ، وامسكه رولاند
٦٣ ـ ثم توجه خاله الملك نحو رولاند بالخطاب قائلا
ابن أختي ، أيها السيد العاقل اسمعني الآن وانتبه لي جيدا
نصف جيشي سأترك بعهدتك لاداء هذا الواجب
احفظهم معك وستكون محفوظا معهم

واجاب الكونت : لا ، أنا لن أوافق ابدا
ربي يقيني من مقارفة العار
سأحتفظ بعشرين ألفا من شجعان فرنسا
امض خلال الممرات بسلام وكن مطمئنا
لا تخش من انسان ما دمت على قيد الحياة
٦٤ ــ وامتطى رولاند حصانه المعد للقتال
ثم التحق به رفيقه أوليفر
وجاء غيرين الشجاع والكونت غيريير
وجاء أوثون وكذلك فعل بيرنغير
وانسيس العجوز واستو المليء بالفضائل
وجيرارد ايضا وروسيلون الامير المتكبر (٧٩٧ ــ ٨١٨)
ومعهم جاء غانفير الدوق الغني
وقال رئيس الاساقفة : بحق السماء أنا معك سيدي
وأنا ايضا ، أكد الكونت وولتر
انا رجل رولاند ، انا به مرتبط لخدمته
اختاروا عشرين ألفا من الفرسان ليكونوا اتباعا لهم
٦٥ ــ الى وولترهوم أعطى الكونت رولاند أوامره
خذ الف فرنسي من فرنسيي أرضنا
واحفظ الشعاب والمرتفعات على كلا الجانبين
لا تدع الامبراطور يفقد من جانبه رجلا واحدا
وقال وولتر : أنا مقبل على فعل كل ما طلبته
مع ألف فرنسي من فرنسا بلادهم العزيزة
على الشعاب والهضاب نشرهم الكونت وولتر لحفظ الجانبين
ليأتي ماسيأتي هو لن يتخلى مطلقا عن مواقفه
حتى يطبع سيفه بحده سبعمائة طبعة
الملك الميرك صاحب بالفيرنا الشاطيء
سيشتبك في ذلك اليوم مع هذه العصابة في قتال صعب
٦٦ ــ الهضاب عالية والوديان عميقة ومظلمة
الصخور مخيفة والشعاب عابسة مريعة
وأمضى الفرنسيون ذلك اليوم بألم وحزن

- ٤١٤٨ -

كان ضجيجهم مسموعا عن بعد خمس عشرة مرحلة كاملة
لكن عندما بعد طول انتظار رأوا أرض آبائهم
أرض سيدهم ، أرض غاسكوني (٨١٩ ـ ٨٤٥)
وقتها تذكروا مواطن عزتهم واقطاعاتهم
وزوجاتهم العزيزات اللاتي هم بشوق لتحيتهم
ما من واحد كان هناك لم يبك لشدة انفعاله
وكان شارلمان أكثرهم شعورا بالحزن
فابن اخته ترك لحماية بوابات اسبانيا
في كل خلجة لم يكن قادرا على غير اختيار البكاء
٦٧ ـ الأتراب الاثني عشر خلفوا في اسبانيا
معهم عشرين ألفا من الفرنسيين الشجعان
كانوا شجعانا ، ومن الموت لا يخشون
الى أرض فرنسا ، سارع الامبراطور نحو أرض الوطن
وظل رأسه تحت ردائه مخفيا له
الى جانبه ركب الدوق نايمون
وسأل الملك : ما هي الهموم التي تفكر بها ؟
وقال شارلمان :إنه لعمل سيء أن تسأل لماذا
إنني حزين جدا ولا يمكنني إلا أن أتنهد
من خلال غانلون فرنسا الجميلة دمرت تماما
أراني ملاك رؤيا في الليل
كيف حطم في يدي رمحي تحطيما كاملا
هو الذي عين ابن أختي لقيادة قوات المؤخرة
في التخوم الاجنبية المهجورة رولاند مقيم
يارب ، ان فقدته ، لن أجد مثله ابدا
٦٨ ـ ولم يستطع شارلمان حبس دموعه
مائة ألف من الفرنسيين بكوا من أجله
ومن أجل الكونت رولاند كانوا بكل دهشة خائفين
هو الذي خانه اللورد غانلون
الملك المسلم دفع جائزة عظيمة
ذهبا وفضة وثياب الحرير والسقلاطون (٨٤٦ ـ ٨٦٩)

وخيول وبغال وجمال وحيوانات الصيد
واستدعى مارسليون بارونات اسبانيا
وامامه وقف نائبه الكونت المنصور
ايها السادة والأمراء والشباب ذوي المكانة الرفيعة
اربعمائة الف جمعهم في ثلاثة أيام
في سرقسطة أمر بضرب الدفوف
مهوند وثنهم عاليا على البرج رفعوه
وكل مسلم تعبده واثني عليه وحمده
ثم زحفت جيوشهم بقوة ومضت بعيدا
من خلال تيرا سيرتاقطعوا الهضاب والوديان
رأوا الآن أعلاما فرنسية منشورة
والرفاق الاثنا عشر الذين كانوا في المؤخرة وقفوا ينتظرون
جاهزين للقتال ، ومامن أحد قادر أن يقول لهم لا
٦٩ ـ ومضى ابن أخت مارسليون مسافرا أمام الحشود
وكان يركب بغلا كان يضربه بعصاه
وقال لخاله وضحكة بادية على اسانه
سيدي الملك العادل : لقد خدمتك جيدا وطويلا
كثيرا ماعانيت ومن المتاعب تحملت
في العديد من ساحات الوغى قاتلت وكثيرا من المعارك ربحت
الضربة الاولى نحو رولاند هي المكافأة الاولى التي أريد
بسيفي البتار سأشطر جسمه الى شطرين
وقتها ، سأنال رضى مهوند وحظوته
بذاك سأحرر اسبانيا ، وأفك قيودها ٠
من بـــوابة اســـبانيا الى دور ســـتانت ومـــاوراء
ذاك (٨٧٠ ـ ٨٩٣)

سيخاف شارلمان وسينهزم الفرنسيون بالحال
وستتخلص من الحروب طوال حياتك
وحصل على القفاز من الملك مارسليون
٧٠ ـ وامسك ابن أخت مارسليون القفاز بيده

ثم شرع يخاطب خاله قائلا :
سيدي الحكيم ومليكي لقد اعطيتني عطية ثمينة
اختر لي اثني عشر أميرا ، خيرة من تستطيع انتقائه
ضد الاتراب الاثني عشر شجعاننا سيكمنون
وكان فالسرون أول من استجاب وتميز
وكان أخا لمارسليون الملك
أنا وانت يابن اختي سنذهب بسرور لها
بكل يقين سنبين في هذه المعركة
مع مؤخرة شارلمان ، تلك القوات التي حشدها لنفسه
ان كل شيء قد تم ، وكلهم قد قتلوا من قبلنا
٧١ ـ واندفع الآن الملك كورسابليس من بين الجموع
بربري المولد لفن السحر متقن
ومثل رجل شجاع شرع بكل جسارة يتكلم
لن أكون جبانا ، لا ، ليس من اجل جميع ذهب الرب
...... (سقط من الاصل عدة أبيات)
وجاء مالبريمس صاحب بريفيل يتدفق شجاعة
كان يمكنه أن يسابق على قدميه مهرا سريعا
وقال بصوت مرتفع متبججا أمام مارسيل
سأذهب بنفسي معك الى رونسيفو
واذا ماوجدت رولاند سأقاتله حتى أقتله
٧٢ ـ جاء من بالاغويت أمير (٨٩٤ ـ ٩١٨)
شكله شكل نبيل عيناه شجاعتان وذقيتان
وعندما يمتطي ظهر حصانه للقيام بمهمة
يحمله بشجاعة شاكي السلاح للمعركة
وكانت شجاعته معروفة من القريب والبعيد
وهو وان لم يكن مسيحيا ظهر بمظهر فارس صحيح
وأمام مارسيل صرخ حتى يسمعه الجميع :
قائلا الى رونسيفو أنا آخذ طريقي مسرعا
اذا ماوجدت رولاند سيكون الموت نصيبه
وأولفر أيضا وجميع الاتراب الاثني عشر

الفرنسيون سيموتون ميتة عار ودموع
الملك شارلمان العجوز الفاني والاصم
سيمل حالا من اثارة الحرب هنا
ستكون اسبانيا لنا في سلام لسنين طويلة
وصب الملك مارسيل كلمات الشكر في أذنيه
٧٣ ـ وجاء المنصور سيد موريان
لم يكن هناك أشد شكيمه منه في اسبانيا كلها
وأمام مارسيل وقف متبجحا متفاخرا يقول :
الى رونسيفو سأقود جماعتي مباشرة
عشرون الفا في الصفوف يحملون الرماح والحراب
بحق عقيدتي اذا مالقيت رولاند سأقتله
ومامن فجر يوم سيمر الا وسيبكيه شارلمان
٧٤ ـ وبعده جاء تورغيز صاحب تورتيلاوزا
كان أميرا وكان يمتلك المدينة كلها
وأبدى دوما سوء نواياه تجاه المسيحيين
وقف أمام مارسيل واصطف خلفه أتباعه (٩١٩ ـ ٩٤٦)
وخاطب الملك قائلا : لاتخف من أي واحد من الاعداء
مهوند اسمى بكثير من القديس بطرس الروماني
أخدمه ، ساحة الوغى لنا ، وغنائم الحرب لنا
الى رونسيفو أنا ذاهب للقاء رولاند
هناك سيموت ، هناك لن يلقى مساعدة انسان
انظر هنا الى سيفي كم هو طويل وأصيل
أعده ضد دورندال وأراه له ند شجاع
من الذي سينتصر ؟ لن يطول بك المقام حتى تعرف
الفرنسيون سيلقون حتفهم اذا ماتجرأوا على التصدي لنا
شارلمان العجوز سيبكي طويلا وينتحب
التاج لن يلبسه بعد تلك اللحظة
٧٥ ـ وكان اسكريميز صاحب فالتيريني هو التالي
هو مالك لها كاقطاع ، وهو مسلم
وأمام مارسيل صرخ وسط الجموع :

أنا ذاهب الى رونسفال لأفرق جموعهم
واذا ماوجدت رولاند هناك سيفقد رأسه
وأولفر الذي هو رئيس البقية
الاثني عشر رفيقا سيعدون بين الأموات
والفرنسيون سيموتون وفرنسا ستكون خاسرة
وقلة من الرجال الجديرين سيتركون لشارلمان
٧٦ ـ ثم جاء مسلم اسمه استورغان
ومعه جاء استرامارين رفيقه
شريران خبيثان كلاهما كانا ومتآمران خائنان
ثم قال مارسيل : ايها السادة اقتربا مني ، أرجوكما
هل تريدان ان تشقا طريقكما خلال رونسيفو
واقود قواتي وتقدما لنا أفضل مساعداتكما ؟
واجابا : أئمرنا ونحن سنطيع
على كل من أولفر ورولاند سننقض (٩٤٧ ـ ٩٧٤)
من الأتراب الاثني عشر ن ينجو ـا من الموت
سيوفنا مشحونة ونصالها ممتازة
كلهم سنصبغهم بالدماء الساخنة الحمراء ذلك اليوم
الفرنسيون سيموتون وشارلمان سينزل به الويل
وسنقدم لك هدية وطن عرقهم
ايها الملك تعال معنا وانظر كيف ستمضي المعركة
وكهدية سنعطيك شارلمان
٧٧ ـ ثم جاء مسرعا مرغريس صاحب اشبيلية
الذي يمتلك من البلاد بعيدا حتى كازمرين
السيدات جميعا يحببنه ، لأنه كان جميلا جدا
تلك التي تحتويه على شفتيها ابتسامة
سواء اشاءت هي أم أبت لابد أن تضحك كثيرا
وليس هناك مسلم يوازيه بالفروسية
لقد التحق بالجميع وصرخ نحو الملك قائلا :
سيد الجميع لاتخش أبدا من الخسارة
في رونسيفو الى رولاند هذا سأذهب واقتله

وأولفر سوف لن يعيش طويلا
جميع الرفاق الاثني عشر سأمزقهم اربا اربا
تعالوا وانظروا ، هذا هو سيفي بمقبض منهب
أمير الأمراء أعطانيه هدية
اقسم أنني سأصبغه بالدماء القانئة حتى مقبضه
الفرنسيون سيموتون وفرنسا في العار ستعيش
شارلمان ذي اللحية الشهباء ، لن يعيش كما أظن
يوما ، الا وسيزمجر ويبكي لهذا
فرنسا ستكون لنا ، في سنة ، اذا ماأردنا
في سانت دينس سنأكل وننام كما نريد
وقدم الملك المسلم تحية وافية وعميقة له
٧٨ ــ واخيرا جــــاء شـــيرذوبلز صـــــــاحب مونغير (٩٧٥ ــ ١٠٠٣)
شعره غير المقصوص جره متدليا حتى قدميه
بامكانه اثناء التباري ان يحمل على كتفيه اذا اراد
وزنا أكثر مما يستطيع أربعة بغال أقوياء ان يحملوه
انه يقطن في منطقة ، فيها كما يعتقد
الشمس لاتشرق أبدا ، وهي لاتنبت حبة قمح
لامطر يمكن أن يهطل والندى لم ير فيها قط
هناك كل حجر أسود أكثر من السواد
وبعض الناس يقول انها موطن الشيطان
وقال شيرذوبلز : سيفي موضوع في غمده
في رونسيفو سأصبغه كله بالدم الأحمر
اذا ماعبر رولاند من ممري ، ذلك الرئيس الشجاع
ولم أطعنه ، لاتثقن بي أبدا
امام سيفي هذا سينهزم دورندال
الفرنسيون سيموتون وفرنسا ستترك عرضة النهب
هذا ماقيل ، واجتمع الأبطال الاثنا عشر التشاور
لقد قادوا مائة ألف مسلم شجاع
كل واحد منهم كان يلتهب حماسا ليقوم بانجازات عظيمة

في ظل ايكة من شجر الارز سلحوهم للقتال
٧٩ ـ ارتدى المسلمون الآن السوابغ الاسلامية
وضاعف معظمهم سوابغهم ثلاث مرات
وشدوا على رؤوسهم باحكام الخوذ السرقسطية الجيدة
سيوف من فولاذ فيانا علقت على أوساطهم
وحملوا رماحا بلنسية وترسة جيدة تماما
وكانت راياتهم ارجوانية وزرقاء وبيضاء
وخلفوا بغالهم واكاديشهم
وامتطوا ظهور مهورهم
وساروا في صفوف متلاصقة
وكان النهار جميلا ، وتلألأ نور الشمس بوضوح
الف بوق صدحت لاظهار مزيد من السرور (١٠٠٤ ـ ١٠٣١)
وكانت الضجة عظيمة ، ووصلت الى صفوف الفرنسيين
وقال أولفر : يخيل لي يارفاقي
سنحتاج الى هذا اليوم للقتال ضد المسلمين
ورد رولاند : ارجو الرب أن تكون محقا
هنا ينبغي ان نقف لنخدم الى جانب الملك
على الرجال أن يتحملوا في سبيل ساداتهم مصاعب جمة
وأن يتحملوا الحر الشديد والبرد القارص في كل موسم
وأن يضحوا في سبيله ـ اذا اقتضت الحاجة ـ بالبشرة والروح
انتبهوا الي الآن ـ ليطعن كل رجل بشدة
لن تغنى أغاني مخجلة لتعييرنا
المسلمون على خطأ والمسيحيون على صواب
وأنا أقول : لن تحكى عني حكايا مريضة
٨٠ ـ وتسلق أولفر على شرف مرتفع
ونظر الى يمينه عبر الشعب المعشوشب
ورأى المسلمين وكيف كانوا يسيرون متراصين
ودعا رفيقة رولاند وقال :
أرى من اسبانيا أمواجا وصفوفا تتدفق
وسوابغ كثيرة لامعه ، وكثيرا من الخوذ المشعة

يوما من الغضب سيجعلونه افرنسيينا
غانلون ذي القلب الزائف والمتورط في الخيانة كان يعرف ذلك
عندما سمانا للامبراطور للقيام بهذه المهمة
وقال رولاند : اسكت ياكونت أولفر اسكت ياصديقي
هو زوج والدتي ، لن أسمح بكلمة ضده
٨١ ــ وتسلق أولفر تلة مشرفة على السهل
منها كان يمكنه ان يرى ارض اسبانيا كلها
ويرى كم هي صفوف المسلمين كبيرة
ويرى الخوذ البراقة والمتلألئة بالذهب والجواهر
وجميع التــــــــــــرسة وكل الدروع والســــــــــــوابغ
اللامعة (١٠٣٢ ــ ١٠٥٨)

وجميع الرماح التي ترفرف الاعلام فوق اسنتها
حتى فيالقهم كان غير قادر على تقديرها
لم يستطع عدها ، كانت أعدادها كبيرة جدا
ومع انه قوي متماسك فقد شعر برعب عظيم
وبادر الى الهبوط بكل ما أوتيه من سرعة
وجاء الى الفرنسيين واخبرهم بحكايته كلها
٨٢ ــ قال أولفر : القوات المسلمة التي رأيت
لم يجتمع مثلها قط على وجه الارض
مائة الف متقاطرون تحت التروس
خوذهم مشدودة وسوابغهم براقة
رماحهم مرفوعة بأسنة فولانية مشعة
ستواجهون معركة لم يواجه أحد مثلها على ساحة الوغى
سادتي الفرنسيين ليمدكم الرب بالقوة وقت الحاجة اليها
انقذوا موقفكم بسرعة ، هذا المكان لايمكن الحفاظ عليه
وقال الفرنسيون جميعا ، عار مهين ان نفر
نحن رجالك حتى الموت ، مامن رجل منا سيتراجع
٨٣ ــ قال أولفر : حشود المسلمين هائلة
وفرنسيونا عددهم ليس بالكبير

يارفيقي رولاند : ارجوك دع بوقك يصدح
حتى يمكن لشارلمان أن يسمع ويعود مع قواته كلها
ورد رولاند : مجذون أنا اذا ، لابل اكثر
وسمعتي في فرنسا الجميلة ستتشوه
سأضرب الجموع العظيمة بسيفي دورندال
سأصبغه بالدم الاحمر حتى مقبضه
وصل المسلمون الى هذا الممر في صباح تعيس
اقسم لكم الموت سيكون ماكتب لهم هاهنا
٨٤ ـ يارفيقي رولاند ، اصدح ببوقك العاجي
سيسمعنا الملك شارلمان وسيعود نحونا مع قواته
سينقذنا بوساطة قوات فرسانه
ورد رولاند : لا سمح الرب بذلك
في أن القي العار على بيتي
او على فرنسا الجميلة أنزل أي عار
الافضل أن أقاتل بدورندال وأضارب
بهذا السيف المعلق بكتفي والمتدلي برباط منه
من رأسه حتى مقبضه سترى الدماء تسيل عليه
الويل للمسلمين الذين سيعاذون من هزيمة ماواجهوا مثلها قط
اقسم بايماني سنطعنهم ونلقيهم موتى على القاع
٨٥ ـ رفيقي رولاند ، انفخ في بوقك
شارلمان في الممرات سيسمع الصوت وهو يسير
صدقوني سيعود الفرنسيون مباشرة
واجاب رولاند مغضبا ، الآن الرب يمنع ذلك
ذلك الرجل الحي ينبغي أن يقول انه رآني انفخ
نفخ الابواق من أجل أي من أعدائنا المسلمين
لن يتعرض أقربائي للانتقاد قط
عندما سأقف في صدام الحشود العظيمة هذا
سأضرب الف ضربة ثم اتبعها بسبعمائة اخرى
الدماء الحمراء ستسيل على فولاذ دورندال
الفرنسيون أقوياء ، سيذشبون معركة جسورة

رجال اسبانيا هؤلاء سيموتون ولاأمل أمامهم
٨٦ ـ قال أولفر : هاهنا لاأرى ملامة (١٠٨٢ ـ ١١٠٩)
لقد تفحصت مسلمي اسبانيا فوجدتهم
يغطون جميع الجبال والوديان
وقد انتشروا علىٰ أطراف الهضاب والسهول
الطاقة التي يعرضها هؤلاء الاجانب هائلة
وصفوفنا تبدو صغيرة
وقال رولاند : أنا مشتاق أكثر للنزال
واصلي الآن للرب وملائكته ليحول
دون وسم فرنسا الجميلة بالعار من قبلي
أنا أفضل أن أموت على ان يلحق بها العار
اذا كان الملك يحبنا فمن أجل شجاعتنا
٨٧ ـ رولاند مندفع وأولفر متعقل
وكلاهما في ميدان الشجاعة فازا بالجائزة
وماأن يمتطيا فرسيهما ويتسلحا فقرار الحرب قد اتخذ
خوفا من الموت لم يهربا قط من ساح الوغى
الكونتان شجاعان كلاهما يحرض ويرفع المعنويات
والآن زحف المسلمون المزيفون بحنق عظيم
وقال اولفر : انظر رولاند انهم على مدى البصر
شارلمان بعيد جدا ، وهؤلاء قريبون جدا
انت لن تنفخ ببوقك بسبب كبريائك
لو كنا مكان الامبراطور لكنا على أحسن مايرام
التفت نحو بوابة اسبانيا وارفع عينيك
انظر بنفسك الى الوضع المأساوي الذي فيه قواتنا
الذي سيقاتل هذا اليوم لن يرى قتالا بعد هذا
ورد رولاند : لاتتفوه بمثل هذا الكلام المعوج
ملعون الصدر الذي يعرف قلبه الجبن
هنا في هذا المكان سنقف وهنا سنقيم أبدا
ليكن اللكم والضرب لنا حتى نأخذ ونطعن
٨٨ ـ عندما رأى رولاند أن المعركة لابد واقعة

هناك (١١١٠ ـ ١١٣٦)
لا الفهد ولا الاسد بدوا أكثر شجاعة منه
هو دعا الفرنسيين وأمر أولفر ان يصغي :
السادة الاصدقاء والرفاق بكلمات من هذا القبيل لن تتفوهوا
عندما أعطانا الملك الفرنسيين القيام بهذا الواجب
هؤلاء العشرين الفا اختارهم لأداء هذا العمل
عرف جيدا أن مامن واحد منهم سيتردد أو يهرب
على الرجال تحمل المشاق العظيمة من أجل مولاهم
وأن يتحملوا في سبيله البرد القارص والحر المحرق
وأن يعانوا من الجراح الكبيرة وأن يدعوا أجسادهم تنزف
اطعنوا بأسنتكم سأضرب بسيفي البتار
دورندال الذي أعطانيه الامبراطور
واذا مامت على الذي يناله أن يوافق
على أن من سيحمله لابد أن يكون فارسا جيدا وجديرا
٨٩ ـ ثم الى جانبهم جاء رئيس الاساقفة توربين
ممتطيا فرسه وعلى طرف رابية اعتلى
ودعا الفرنسيين وأقام لهم قداسا وقال في مواعظه :
ايها البارونات ، سادتي ، اختارنا الملك شارلمان لهذا الغرض
علينا ان نستعد للموت في خدمة مليكنا
المسيحية بحاجة لنا ، لذا ساعدونا على الحفاظ عليها
المعركة ستخوضون ، اعينكم قد شاهدتهم
اضربوا الآن صدوركم واسألوا الرب رحمته
أنا سوف احللكم وأضمن ارواحكم
اذا مامتم ستكون الشهادة نصيبكم
وستقيمون في أعالي الفردوس أبدا
وابتهج الفرنسيون وجثوا على ركبهم يتعبدون
وللرب اعترفوا ولهم منح رئيس الاساقفة التبريكات
(١١٣٧ ـ ١١٦٤)
ولنيلهم الغفران امرهم بالضرب بصلابة

٩٠ – ونهض الفرنسيون ووقفوا على أقدامهم متقاربين
كلهم قد حللوا من ذنوبهم وتحرروا
ولهم منح رئيس الأساقفة التبريكات
ثم قفز كل منهم على ظهر مهره السريع واستقر على سرجه
وكلهم تسلح بالسلاح الذي أوجبه قانون الفروسية
نحن الآن جميعاً جاهزين للذهاب الى ساحة العراك
وقال الكونت رولاند لاولفر ما يلي مباشرة :
سيدي ورفيقي الكلمة التي تفوهت بها صحيحة جدا
لقد باعنا غاذلون جميعا
لقد أخذ ثروات عظيمة وبضائع وذهبا
وأعتقد أن انتقام الامبراطور لن يكون بطيئا
لقد راهن الملك مارسيل على أجسادنا
سيحتاج الى السيف لجلب ما اشتراه الى الديار
٩١ – مضى رولاند خلال بوابات اسبانيا عابرا على ظهر فرسه
نحو ميلانتف ساق فرسه مسرعا
وكان هو الذي مضى شاكي السلاح
نحو السماء رفع سنان رمحه بعيدا
وربط على قناته ريشة بيضاء كالحليب
وكانت حوافها تلامس يده عند المقبض
حمل بنبل وبوجه مشرق ضاحك
وسار مرافقوه خلفه مجدين
وأعلن الفرنسيون جميعا عنه أنه حاميهم
وألقى نحو المسلمين نظرة كبرياء
لكن ما القاه نحو رجال فرنسا كان لطيفا ناعما
فإليهم تحدث دوما من قلب ودود
والآن سادتي البارونات ، ازحفوا تقدموا بخطاكم
(١١٦٥ – ١١٨٧)
انظروا الى هؤلاء المسلمين المرعبين وهم يزحفون بحجم عظيم
سنحصل مع مرور هذا اليوم على غنائم ثمينة ورائعة
لم يحصل أي ملك فرنسي على نصف مثلها قط

وفيما هو يتكلم كانت المعركة قد بدأت وكان القتال قد نشب
٩٢ ـ وقال أوليفر : ليس لدي المزيد اقوله
لن تسمح بنفخ بوقك طالبا المساعدة
والى هنا لن يأتي شارلمان
ما يعرفه قليل ولن يوجه اللوم الى القلب الشجاع
ومثله الذين معه ، فهم لم يقترفوا خطأ من الأخطاء
ازحف الآن الى الامام وافعل خير ما يمكنك فعله
أيها البارونات ، سادتي ، اثبتوا وسط المعمعة
أرجوكم ، من أجل الرب ، كونوا شجعان ثابتين
لتطعنوا بشدة وتضربوا ، لتأخذوا منهم وتعطوهم
لا تنسوا شعار الملك شارلمان أن لاتنادوا به
وصرخ الفرنسيون معا صوتا مجلجلا
جعل كل من سمعه يهب مرعوبا
وسيتذكر شجاعتهم طوال ايامه
واندفعوا مهاجمين فالرب لم يرقط مثلهم شجاعة
ونخسوا خيولهم لتسرع غاية السرعة
وانقضوا يقاتلون ذلك أنه لم يكن أمامهم سبيل لخر
والتحم المسلمون بهم بكل شجاعة
وبات المسلمون والفرنجة يقاتلون وجها لوجه
وتقـــدم الآن أدلروث ـ ابـــن أخـــت الملك مـــارسيلون
(١١٨٨ ـ ١٢١٦)
أمام الحشود وكان الأول بين اتباعه
وخاطب الفرنسيين بالكلمات الشريرة التالية :
أيها الفرنسيون الشجعان عليكم أن تدركوا معنا
أنكم قد خنتم من قبل الذي عليه حمايتكم
ينقص ملككم الذكاء لانه في الممرات ترككم
ستخسر فرنسا الجميلة شرفها في هذه المغامرة
من جسم شارلمان ذراعه اليمنى ستقتطع
عندما سمع رولاند هذا ، الرب وحده يعرف مقدار غضبه
غمز حصانه وأرخى عنانه وعلقه بركابه

وسدد ضربة بذل فيها كل ما أوتيه من قوة
فشطر المجن والدرع حطم
والصدر مزق ولعظام الصدر خرق
ومن ظهر الرجل أخرج عظام الظهر ملتوية
وروحه وكل ما فيه أحضره على سنان الرمح
وطعنه طعنة نافذة ومن على سرجه ألقاه
وأطاح به ورمى به بعيدا مقدار طول قصبة أو أكثر
والى قسمين قطع رقبته
ثم اليه توجه بالخطاب وقال له :
لن تتفوه ثانية بأن الامبراطور يعوزه الذكاء
لانه ليس كذلك ولانه لم يحب الخيانة قط
لقد صنع ما هو صحيح ذاك الذي تركنا بالممرات
ولن تفقد فرنسا شرفها بهذه المغامرة
الدم الاول لنا ، امضوا في سبيلكم يا شجعان فرنسا
وكونوا الى جانبنا واسيئوا الى هؤلاء السحرة
٩٤ ـ وكان هناك أمير اسمه فالسارون
وكان أخا للملك مارسيلاون
وقد امتلك أرض ابيرام وداثان
ولم يكن تحت السماء من هو أشجع منه
بين عينيه كان حاجباه كثيفان ونافران (١٢١٧ ـ ١٢٤٧)
أفترض أن طولهما كان نصف قدم تماما
وقد ندب مقتل ابن اخته بمرارة
ومن بين الصفوف اندفع وحيدا
وفيما هو مندفع نادى بشعار المسلمين
وعلى الفرنسيين صب اللعنات الشريرة
فرنسا الجميلة ستجد شرفها اليوم قد طار
وسمعه أوليفر وازداد غضبه منه
ونخس حصانه بمهمازيه الذهبيين
واندفع بخلق فروسي ليطعن عدوه
فحطم درعه وخرق سابغته

وجعل رمحه ينفذ من صدره وكذلك حربته
وأطاح به ومن على ظهر حصانه رماه مقدار قصبة
انظر نحو الاسفل لترى الكافر قد تمدد ميتا
وهكذا خاطبه بصوت كله فخار :
أيها المنحط انا لن أعبأ بتهديداتك ولن اهتم
أيها السادة الفرنسيون ، اضربوا ،سنلقيهم جميعا على الارض
وبشعار حرب شارلمان ـ جبل المسرة رنادوا بكل شجاعة
٩٥ ـ وكان هناك ملك اسمه كورساباس
من أرض بعيدة جاء ، من بلاد البربر
الى المسلمين توجه بالخطاب قائلا :
حسنا هل اتخذنا موقع القتال هذا لنحتفظ به
لأن أعداد هؤلاء الفرنجة ضعيفة
وبامكاننا التخلص من هؤلاء القلة الذين نرى
لن يستطيع شارلمان القدوم لمساعدتهم وقت الحاجة
هذا هو اليوم الذي قضي فيه بموتهم جميعا
واصغى رئيس الأساقفة توربين الى خطابه
فأبغضه أكثر من ابغاضه لأي انسان في الوجود
وبمهمازيه الذهبيين نخس بشدة مهره
وساق ضده واندفع اندفاع الشجاع
فحطم درعه ومزق سابغته الفولانية
وفي صدره دفع سنان رمحه عميقا (١٢٤٨ ـ ١٢٧٤)
وجعله ينفذ منه ، ثم القاه كومة هامدة
ورماه ميتا مقدار طول رمح بعيدا عنه
ونظر نحو الارض فرآه تحت قدميه
لكن ليخاطبه لم يتوقف بل تابع سيره نحوه قائلا :
أيها الكافر الشرير ، كذبت بكل ما تفوهت به
سيدي شارلمان العظيم لن يتوقف عن تقديم المساعدة لنا
وليس لدى فرنسيينا أدنى رغبة بالفرار
وأصدقاؤك هؤلاء من بين جنسيك نريد أن نترك لهم
أخبارا : ستموتون ، وهناك ستكونون

أيها الفرنسيون ، تابعوا سيركم نحو الوطن ولا تنسـوا أصـولكم الطيبة
الضربة الطيبة الاولى لنا ـ حمدا الرب
وصاح ـ جبل المسرة ـ ليشجع جميع المحاربين
٩٦ ـ وضرب غيرين مالبريمز صاحب بريفيل
ولم يصمد درعه ولم يدفعه أبدا
وحطم المجوهرات المرصع بها وأحاله الى فتات
ووقع شطر الدرع على الأرض
وقطع السابغة ووصل الى الجسد
والى القلب سدد رمحه وجعله ينفذ
وسقط المسلم وتمدد على الأرض بكل ما عليه
ثم جاء الشيطان وحمل روحه بعيدا
٩٧ ـ واندفع غيريير صديقه نحو الامير
شطر درعه وقطع عراه
ومرر رمحه في صدره وأحشائه
وبعدما دفعه عميقا مرره من ظهره
ثم رمى به وجعل جسده يطير مقدار طول رمح
وقال أولفر : نحن أفلحنا في عملنا
واندفع الدوق سمسون نحو الأمير المنصور (١٢٧٥ ـ ١٢٩٦)
وخرق درعه المذهب والذي عليه رسوم الورود
ولم تفده سابغته ولم تدفع عنه
مزق قلبه ، وكبده ، ورئتيه
وضربه فخرميتا ، لا يبكي ولا يبكيه أحد
وصرخ رئيس الأساقفة : هذه مهارة الفرسان وأعمالهم
٩٩ ـ وأرخى أنسيس العنان لمهرة الجيد

واندفع وساق مسرعا نحو تورغير صاحب تورتلوز
وخرق درعه حيث كان مطليا بالذهب
ونفذت ضربته خلال سابغته المزدوجة
والى داخل جسمه انفذ سنانه الفولاذي

وجعله يمر من خلال ظهره
ثم أطاح به وقذفه ميتا مقدار طول رمح
وقال رولاند : رائع ، هذا عمل من أعمال الشجعان
١٠٠ ـ اما انغلير الكاسكوني صاحب بوردو
فقد نخس مهره الطيب وارخى له عنانه وتركه يمضي
ومن اسكريمر سيد فالتيرنا اقترب
وحطم الياقة التي أحاطت بعنقه
والسابغة مزقها بضربة واحدة
وفصل رأسه عن جسده
واطاح به ورماه بعيدا مقدار طول رمح تماما
ثم قال له : ليأخذ الشيطان روحك
١٠١ ـ وضرب أوثـــون مســـلما اســـــمه اســــتورغانت
(١٢٩٧ ـ ١٣١٩)
وسدد ضربة نحو النقطة البيضاء في درعه
وهكذا تمزق البياض وتحطم الارجوان
وخرقت سابغته ومزقت
ومضى الرمح خارقا جسده
ومن على ظهر مهره السريع أطيح به وسقط ميتا
وقال : والآن ، احصل على الراحة إذا تمكنت
١٠٢ ـ ثم ساق بيرنغر نحو استرامارن
فحطم درعه ومزق سابغته
وعلى فتاة رمحه القوي حمل جسده
ثم رماه ميتا وسط آلاف المسلمين
وبات الآن عشرة من الأتراب الأثني عشر مقتولين
اثنان منهم وليس أكثر ظلا بين الأحياء
وهذان هما شارنوبل والكونت ما رغاريس
١٠٣ ـ والآن مارغاريس واحد من الرفاق الشجعان
نشيط وقوي ، ماهر وسريع وشجاع
غمز حصانه ليضرب أولفر
وشطر درعه وقطع العلامة الذهبية التي عليه

وعلى طول جنبه مر سنان الرمح اللامع
لكن بنعمة الرب جسمه لم يخرق
كما أنه لم يقع مع أن الضربة حطمت رمحه
ومربه المسلم وهو يؤدي واجبه تماما
واستدعى رجاله بصوت مجلجل واضح
١٠٤ ـ المعركة كبيرة والحشود هائلة (١٣٢٠ ـ ١٣٤٨)
لم يتوقف الكونت عن الطعن في ذلك اليوم
وصال وجال برمحه ما دام سنانه في مكانه
وتلقى خمس عشرة ضربة شديدة حتى انقصف وتحطم
ثم امتشق حسامه دورندال وتناوله
وغمز مهره وساق بسرعة ضد شارنوبل
وبسرعة البرق قطع الخوذة
وجرى وسط العرف الفولاذي ثم في الراس ثم في المخ
ومضى خلال السرج ذي الصفائح الذهبية
وظل نصل هذا السيف ماضيا في جسد الحصان
لم يقف في سبيله شيء ومر قاطعا
فالقى بالحصان والرجل ميتين على السهل المعشوشب
اسقط أيها القذر ، ايها الجبان ، ولن تقاتل ثانية
وقال ايضا : لن ياتي محمد (صلى الله عليه وسلم) لمساعدتك ابدا

شجاع مثلك عبثا حاول نيل النصر .
١٠٥ ـ ومضى رولاند وسط المعركة على ظهر حصانه
وبسيفه الجيد ، دورندال يضرب ويقطع
وما جباه من المسلمين كان مرعبا
لو رايته ، لرايته يلقي جثة ميت فوق جثة ميت آخر
ولرايت الدم القاني حول طريقه
واصطبغ درعه وذراعاه بالدم أثناء القتال
وتلون حصانه بالدم من عرفه الى حوافره
ولم يتوقف أوليفر ايضا عن الضرب

ولم يكن الأتراب الاثني عشر متخلفين عنهما
وكان الفرنسيون جميعا يضربون ويطعنون
وسقط المسلمون بعضهم موتى وبعضهم يموتون
وقـــال رئيس الأســـاقفة :ليبـــارك الرب فـــرساننا
(١٣٤٩ ـ ١٣٧٢)
وصرخ ـ جبل المسرة ـ شعار حرب شارلمان الجبار
١٠٦ ـ ومضى أولفر على ظهر حصانه وسط الحشود
رمحه قد انقصف وظل بعض القناة معه فقط
وساق مباشرة ضد مالون المسلم
فحطم درعه ذي الورود والمحلى بالذهب
واقتلع عينيه من رأسه
وهكذا تطاير مخه حول قدميه
والقى بالجثة وسط سبعمائة من الأموات
ذبح توزغيز ثم الحق به استورغوت
حتى تحطمت القناة وباتت أجزاء
صرخ رولاند : ماذا تفعل يا صديقي ؟
أنا لن أعطيك قناة ضعيفة عوضا عنها
هنا يذفع الفولاذ ، الفولاذ فقط ولا شيء آخر
أين هو سيفك هوتيكلير حسبما سميته ؟
بشاربيه الذهبيين ومقبضه المرصع بالجواهر
وقال أولفر : لم أجد الوقت لامتشاقه
كنت مشغولا بالضرب يمنة وشمالا
١٠٧ ـ وامتشق أولفر سيفه الممتاز
بناء على الحاح من صديقه رولاند
الآن سيبرهن به أنه فارس قوي بذراعيه
ووجه ضربة الى المسلم جوستين صاحب وادي فيرات
فمضى في وسط رأسه وحطمه
وشق منكبيه وصدره وظهره
والسرج المحلى بالذهب والمرصع بالجواهر (١٣٧٣ ـ ١٣٩٥)

ووصل الى ظهر الحصان فقطعه
وسقط الجميع وتمددوا على الأرض موتى أمامه
وقال رولاند : بعد هذا ، سأدعوك أخي
لمثل هذه الضربات أحب امبراطورنا الرجال
ومضى النداء ـ جبل المسرة ـ عاليا فوق كل يد
١٠٨ ـ انطلق الكونت غيرين على ظهر مهره سوريل
ومثله فعل رفيقه غيرييز على ظهر باسيسيرف
كلاهما أطلقا اعنتهما ومضيا الى الأمام
وتوجها ليضربا المسلم يتموزيل
احدهما على ترسه والآخر على صدره
وخرق رمحاهما في لحظة واحدة صدره
وألقيا به نحو الأرض ميتا
إنني لا أعرف ، كما لا أستطيع أن أروي
أي الاثنين كان أسرع وأمضى
(وبعدها انغلير الفارس من بوردو
قتل اسبريفير الذي كان ابنا لبوريل)
وأطاح رئيس الأساقفة توربين بسغلوريل
الساحر الذي ذهب فورا الى الجحيم
والذي قاد جوبتير بتعاويذه السحرية
وقال تورسين وقتها : كتب عليه الموت
ورد رولاند : جاءت نهاية الدنيء
بضربة من أخي أولفر جعلتني في غاية السرور
١٠٩ ـ وكان القتال ضاريا وازداد ايضا ضراوة
(١٣٩٦ ـ ١٤٢٢)

وقاتل الطرفان الفرنسي والمسلم بكل شدة
بعضهم يضرب وبعضهم يرمي
عدد كبير من الرماح صبغت هناك بالدماء وتحطمت
كم من الرايات وكم من الاعلام تلطخت ومزقت
كم من شباب فرنسا في عمر الورود طرحوا أمواتا

الذين لن تلتقي بهم أزواجهم وأمهاتهم ثانية
ولا الفرنسيين الذين وقفوا بانتظارهم على الطريق
لا بد ان يبكي الملك شارلمان وينتحب لما فعله العدو
ماذا يمكنه أن يفعل ؟ هو لا يمكنه انقاذ شعبه
هل سيخدم الكونت غانلون شارلمان عندما يمضي
الى سرقسطه وهو قد باع شعبه كله
لهذا فقد روحه وأطرافه
على حبل المشنقه بعدما حاكموه في اكس
وجرى شنق ثلاثين من أقربائه ايضا
ممن لم يعتقد انه سيلاقي مثل هذه النهاية
١١٠ ـ المعركة ضارية والقتال يزداد قسوة
وضرب أولفر ورولاند بكل شجاعة
وسدد رئيس الأساقفة آلاف الضربات الشديدة
ولم يتخاف الاتراب الاثنا عشر في الوراء
وتقدمت الصفوف الرئسية وقاتلت بكل قواها
مئات الالوف من جثث المسلمين تكومت

ما من أحد أمكنه النجاء ما لم يدير ظهره ويفر
سواء أرغب أم لم يرغب لا بد أن يفقد حياته
ولا بد ان تفقد فرنسا هناك خيرة فرسانها
هم لن يروا ثانية أقربائهم أو ذويهم
ولن يرو شارلمان الذي راقب الممرات بعيون قلقة
وسرت في خلال فرنسا كلها روح من الرعب (١٤٢٣ ـ ١٤٤٨)
سمعت أصوات الرعود وهبت رياح عاصفة شديدة
وتساقط من السماء مطر وبرد لم يعهد لهما مثيل
وكان هناك برق كثيف أضاء الأرجاء
وفي الحقيقة زلزلت الأرض طولا وعرضا
بعيدا حتى القديسيين ووصولا الى شاطىء القديس ميكائيل
وشعر بها من بيساذكون الى ميناء ويسانت
ولم يبق بيت أو جدار الا تشقق وتصدع

ووقت الظهيرة حل ظلام مثل الليل الدامس
وباستثناء البرق لم يكن هناك بارقة ضوء
ما من أحد واجه ذلك الا وشعر برعب شديد
وقال كثيرون : هذا يوم الآخرة
انها نهاية الدنيا ودنا يوم الحساب العظيم
هم لم يقولوا الصدق وما كان بامكانهم قراءة العلامات
إنه موت رولاند هو الذي سبب هذه الجلبة الهائلة
١١١ ـ وقاتل الفرنسيون بشجاعة ونجاح
وانتشرت جثث المسلمين بالعشرات والآلاف
من مائتي ألف أقل من اثنين سيكون بامكانهما القتال ثانية
وقال رئيس الاساقفة : حقا ان رجالنا رجال شجعان
مثلهم ليس لدي أي سيد تحت قبة السماء
هكذا كتب في تواريخ أعمال الفرنسيين:
قوى امبراطورنا لم تستعد بعد
يبحثون في أرض المعركة عن جرحاهم وموتاهم
بنفوس حزينة وعيون بللها الدمع من الأسى
وبحب وشفقة على اقربائهم ورفاقهم
الذين انقض عليهم مارسيل بكل قواه
١١٢ ـ وجاء الملك مارسيل يسوق فوق أحد الشعاب
(١٤٤٩ ـ ١٤٧٧)
وجيشه كله حوله في قوة عظيمة
فقد حشد عشرين فيلقا قتاليا عظيما
الخوذات تبرق وتلمع بجواهرها وبالذهب الذي طليت به
وكان هناك الكثير من الدروع والترسة المصنوعة بكل دقة واتقان
سبعمائة بوق صدحت ايذانا بالهجوم
وانتشرت أصواتهم في جميع أرجاء البلاد
وصرخ رولاند : صديقي أولفر ، أخي ، ايها السيد العزيز
إنه موتنا ، به تعهد غانلون المزيف
الخيانة واضحة ، ولا يمكن اخفاؤها بعد

سيتولى الامبراطور القيام بانتقام عظيم مناسب
لكن علينا كتب أن نخوض حربا مريرة
ما من انسان واجه مثلها من قبل
انا سأتابع معتمدا على سيفي دوراندال
اعتمد أنت أيها الرفيق على سيفك هوتكلير
كم حملنا هذه الاسلحة على الارض
كم من المعارك المنتصرة قاتلنا بهم
لن ينشد حولهم اناشيد منحطة في القاعات
١١٣ ـ وجمع مارسيل فرسانه المقاتلين
وأمر نفره وابواقه أن تصدح بالحال
ثم تقدم نحو الامام مع جماعته الكبيرة
ثم تقدم مسلم اسمه ابيسم
لم يكن في ذلك الحشد من هو اشجع منه
في ابن مريم ، ولد الرب ، لم يؤمن
وكان أسود اللون مثل لون القار
أحب الذبح والخيانة اكثر
من كل الذهب الموجود في غاليشي
ما من أحد رآه مرحا أو مسرورا
بل كان جريئا ومندفعا الى أقصى حد (١٤٧٨ ـ ١٥٠٤)
ولهذا السبب كان محبوبا من قبل الملك مارسيل
وقد حمل تنينا لحشد اتباعه خلفه
وعندما رآه رئيس الاساقفة الطيب لم يكن مسرورا
لقد أراد أن يضربه عن قرب ، هذا ما شعر به
وقال لنفسه بكل هدوء
يبدو هذا المسلم لي بطل حقيقي
من الافضل لي المضي نحو هذا الوحش وقتله
أنا لم أحب قط الجبناء ولا أعمال الجبن
١٤ ـ وافتتح رئيس الاساقفة المعركة مجددا
وركب مطيته التي أخذها من كروسايل
(وذاك كان ملك الدانمارك وهو قد تولى قتله)

وكان مهرا سريع الجريان وناعما
عريض الركبتين عالي الحافرين
قصير الفخذين عظيم الكفل
طويل الجناح عالي الظهر
ذنبه أبيض ولون وبره أصفر
أذناه صغيرتان مامن طريق يصعب عليه
له امتطى رئيس الأساقفة المشهور بشجاعته
وماأن غمزة حتى اندفع ومامن قوة تستطيع صده
لقد ساق ليضربه على سابغته الواقية
التي كانت مرصعة بالجواهر الثمينة وكذلك حذاؤه
وكانت هذه المجوهرات بألوانها المختلفة تشع وتبرق
(وكان الأمير غاليف قد أهداه اياها
وله أعطاها الشيطان في وادي ميتاس)
الحسام لايخرقها وكذلك الرمح ، وماأخبرك به هو الصدق
بعدما ضربه لم تعد تساوي فلسا (١٥٠٥ ـ ١٥٣٢)
أطاح بجسده من جانب الى جانب ورماه أرضا
ألقى به ميتا في المكان الذي وقع فيه
وصرخ الفرنسيون جميعا : انها ضربة شجاعة وعمل بارع
ضربة قوية مكنت من انقاذ صولجان رئيس أساقفتنا
١١٥ ـ الآن بامكان الفرنسيين التصدي لقوات المسلمين
لقد رأوا هذه القوات تغطي السهل من طرف الى طرف
والحوا على رولاند وكذلك طلبوا من أولفر
ومن الاتراب الاثني عشر الفرار والنجاة بأرواحهم
والى هؤلاء تحدث الأسقف معبرا عما في رأسه :
أيها البارونات ، سادتي ، لاتستمعوا الى هذه الافكار المهنية
أمركم بحق الرب بالثبات وبعدم الفرار
حتى لاتدعوا الرجال الشجعان ينشدون حولكم أناشيد مخجلة
من الافضل الهلاك أثناء القتال
حالا ، لابل الآن ، سنموت نحن جميعا
مامن أحد منا هنا سيرى ضوء يوم الغد

شيء واحد أنا أعدكم به وأتعهد
من أجل وقفتكم أبواب الفردوس باتت مفتوحة
هناك مع الأبرياء الطيبين ستعيشون
وملأتهم كلماته بالشجاعة والحماس
ولم يكن بينهم من لم يصرخ عاليا ـ جبل المسرة ـ
١١٦ ـ مسلم من بلدة سرقسطة
كان سيدا لنصف المدينة وماأحاط بها
كلمبورين كان اسم ذلك الخائن المزيف والقذر
وكان قد تبادل الايمان مع الكونت غاناون
وفي سبيل الصداقة قبله على فمه
وبحق خوذته والياقوتة التي نالها
أقسم بالمحافظة على شرف أرض آبائه
ومن الامبراطور سينتزع التاج (١٥٣٣ ـ ١١٦١)
وجاء الآن ممتطيا فرسه باربموخ
سباقا كان لايجاريه عقاب أو نسر
ارخى له عنانه ونخسه بشدة بمهمازه المعدني لينطلق
وباتجاه انغلير الكاسكوني مضى
ومامن قوة كان بامكانها اعتراض سبيله
وطعنه بسنان رمحه طعنة نجلاء
من صدره الى ظهره خرقت القناة وخرجت
وأطاح به أرضا بعدما رماه مقدار طول رمح
وصاح : هذا السلاح صالح للقتل تماما
أيها المسلمون اضربوا بشدة وشقوا طريقكم وسط المنهزمين
ياالهي ـ قال الفرنسيون ـ واحد من خيرة رجالنا سقط
١١٧ ـ واستدعى رولاند صديقه أولفر وقال له :
سيدي الحكيم ، رفيقي ، انظر انغلير قد مات
لم يكن لدينا رجلا أفضل في الفروسية
ورد الكونت : ليمنحني الرب انتقاما عادلا
ونخس طرفي مهره بمهمازية الذهبيين وانطلق
ممسكا بيده هوتيكلير الذي انصبغ نصله باللون الاحمر

وسدد الى أحد المسلمين ضربة قوية ورهيبة
ثم لوح ثانية بسيفه وسقط المسلم أرضا
وحمل الشيطان روحه ومضى بها الى الجحيم
ثم تابع عمله ، فكان الدوق الفاين ضحيته الثانية
واجتث رأسه من جذوره وأطاح به
ثم رجل سبعة من العرب وتركهم لما بهم
وعلى الأقل لن يتمكن هؤلاء من القتال ثانية
وقال الكونت رولاند : صديقي غاضب
مقاتل لمقاتل هو ساواني تماما
لهذه الفعال أحبنا الملك شارلمان وآثرنا
ورفع صوته صارخا ، اضربوا ، يارجالي الشجعان
١١٨ ــ وتمركز في مــــكان آخـــر مســــلم اســـمه
فالدابرون (١٥٦٢ ــ ١٥٨٨)
وكان من أقرباء الملك مارسليون
وامتلك اسطولا قويا فيه أربعمائة شيني
ولم يكن هناك بحار الا وفي خدمته
وهو الذي استولى على القدس بالخدعة في وقت مضى
ونهب الهيكل الذي بناه الملك سليمان الحكيم
وقتل هناك البطريرك على جرن المعمودية
وحصل على تعهد من الكونت غانلون
وبناء عليه ، ودليلا على الولاء أعطاه سيفا ومنجنيقا
وقد امتطى حصانا دعاه غراميموند
ومامن حصان أصيل باراه بالسرعة
وبالمهماز الحاد حرضه على الاندفاع
وانقض مباشرة على الدوق سمسون العظيم
مزق الترس وخرق الدروع
وجعل سنان رمحه يمضي في جسده وينفذ
وأطاح به من على ظهر حصانه ورماه بعيدا مقدار طول رمح
وصرخ المسلمون : اضربهم بعد ، واقتلهم
وقال الفرنسيون : ياالهي ، ذهب بارون شجاع

١١٩ ــ وعندما رأى الكونت رولاند سمسون متمددا
يمكنك أن تخمن مقدار الحزن الذي شعرت به روحه
وغمز حصانه بمهمازيه واندفع مسرعا لضرب العدو
بدورندال الأغلى من أفضل الذهب
وبقوة وتصميم سدد البارون ضربته
فسقطت على الخوذة المحلاة كلها بالذهب
فشطر الرأس وحطم العنق والصدر
وقطع السرج المحلى كله بالذهب
ومضى السيف عميقا في ظهر الدابة
اراد أو لم يرد ، لقد دمرهما معا (١٥٨٩ ــ ١٦١٢)
وقال المسلمون : هذه ضربة لؤم
وقال رولاند : صدقا انني لاأحبكم
رجالكم الأعداء ، رجالكم المتفاخرون الادعياء
١٢٠ ــ وكان هناك افريقيا من افريقيا ايضا
يدعى ملقوانت ابن الملك ملكود
كان مكسوا بالذهب من رأسه الى قدميه
ومامن أحد في ضوء الشمس كان منظره أكثر لمعانا
امتطى فرسا دعاه ساوت ــ بردو
مامن مهر كان يمكن أن يجاريه في عدوه
وضرب انسيس على وسط ترسه ضربة شديدة صادقة
فأطاح بالأرجوان والأزرق
وخرق سابغته ودروعه الواقية
وأمضى في جسده الفولاذ والقناة
وسقط الكونت ميتا ، ووصل يومه الى نهايته المحتومة
وقال الفرنسيون جميعا : أسفا عليك ايها السيد الشجاع
١٢١ ــ وجال رئيس الأساقفة توربين على أرض المعركة
مامن راهب حليق وسط الرأس يرتل القداس
كان بامكان جسده أن يفعل مثل هذه الأفعال الشجاعة
دعا على المسلم قائلا : لينزل الرب بك السوء
أنت الذي قتلت واحدا يبكي عليه قلبي حزنا

وحرض مهره الطيب على الاسراع في عدوه
وضربه بشدة على درعة الطليطلي
والقاه ميتا على العشب الاخضر
١٢٢ ـ وكان هناك مســـــــــــــــــــلما ، وكان يدعى
غراندوني (١٦١٣ ـ ١٦٣٨)
ابن ملك كابل ، من شواطىء كبدوكية
راكبا على مرمور ، فذاك كان اسم حصانه
اسرع من أي طائر طار وحلق
ارخى له عنانه ، فاندفع يعدو الى الأمام
وعدا ليضرب غيرين بكل ماأوتيه من قوة
ومن حول رقبته قطع الدرع الأحمر ومزقه
ومن على جسده خرق السابغة وقطعها
والى قلبه نفذ السنان الحامل للراية الزرقاء
واطاح به ورماه ميتا على تبة صخرية
وبعد ذلك سدد ضربة الى رفيقه غيرين فأرداه قتيلا
وبعده الى بينير والى غي أوف سانت أنتونيو فأرداهما
ثم ضرب دوق أستورغ الجبار
(الذي دعته أنفير على الرون وفالنس السيد)
والقاه ميتا ، ومن شدة السرور تعالى زئير المسلمين
وقال الفرنسيون : ماأفدح الخسارة التي من أجلها سننوح
١٢٣ ـ وامسك الكونت رولاند بشدة سـيفه المصـبوغ بـالدماء الحمراء
مدركا مدى الحزن الذي سيطر على الفرنسيين
قلبه بكى ، ولشدة الحزن كاد ينفطر الى شطرين
ودعا على المسلم : أصابك الرب بجميع الأسقام
أنت الذي قتلت واحدا سأجعلك تسدد
ونخس حصانه فاستجاب يعدو بسرور ونشاط
ليربح من يستطيع ، لقد جاءا وجها لوجه
١٢٤ ـ كان الأمير غراندوني فارسا جيدا وشجاعا

قوي الذراعين وشجاعا في المعركة
اليه وصل رولاند القائد العظيم
هو لم يلقه من قبل ، لكنه عرفه بالحال (١٦٣٩ ـ ١٦٦٥)
من منظره العظيم ، وبنيته الرائعة
ونظراته المتعالية وسلوكه وسماته
لم يتمالك نفسه فشعر بخوف مميت
وأراد الفرار ، لكن مالفائدة ، لايمكنه
وانقض الكونت عليه وضربه بشجاعة هائلة
حتى أنه فصم عرف خوذته ، لابل الخوذة كلها شطر
شطر الأنف والأسنان ، والحلق
والسابغة وعظام الصدر والظهر
وقربوسي السرج الفضيين فصمهما عن السرج الذهبي
الفارس والفرس شطرهما وألقاهما
وتركهما بلا حياة ، أشلاء ممزقة
وأخذ رجال اسبانيا ينوحون من شدة حزنهم
وصاح الفرنسيون جميعا : يالها من ضربة ، ياله من بطل
١٢٥ ـ المعركة حادة ورائعة وعظيمة
لعب الفرنسيون برماحهم وفعلوا الأفاعيل
لو رأيتهم لرأيت كم من الرجال تركوا يتألمون
كم من الجرحى ، والذين ينزفون والموتى
تكوموا فوق بعضهم ، وتمددوا على وجوههم أو ظهورهم
ماعاد بامكان المسلمين تحمل هذه المشاق
سواء اسيفرون ، أو لن يهربوا عبر السهل
سيطاردهم الفرنسيون بكل ماأوتوه من قوة
١٢٦ ـ المعركة رائعة ، وازدادت سرعة
قاتل الفرنسيون بغضب ، وبحنق انقضوا
خرقوا الدروع ونفذوا الى الأجساد الحية
سالت الدماء على الأرض الخضراء حمراء ونقية
(وقال المسلمون : نحـــن ليس بـــامكاننا تحمـــل هــــذا

العناء) (١٦٦٦ ـ ١٦٩٣)
لتحل لعنات محمد (صـــلى الله عليه وســـلم) على أرض آبــاء الفرنسيين
أبناؤك هم أشجع أبناء الرجال
لم يكن بينهم من لم يصرخ : أنجدنا يامارسيل
اركب اركب ايها الملك ، لأننا في شدة عظيمة
١٢٧ ـ نادى الكونت أولفر قائلا :
سيدي الحكيم ، رفيقي ، قدم اعترافك ، دنت النهاية
سيدي رئيس الاساقفة حلله مثلما حللت بقية الاتراب
ليس على وجه الارض من يدانيه ولاتحت قبة السماء
من اجاد مثلة استخدام الحراب والرماح
واجاب الكونت : دعنا نعينه الآن وهاهنا
وهنا تابع الفرنسيون بكل نشاط
ضرباتهم ، كانت شديدة ، والقتال كان حادا
والخسائر بالنسبة للمسيحيين كانت هائلة
وكل من رأى وقتها رولاند وأولفر
رآهما يضربان بسيفيهما ويخرقان الصفوف
ومضى رئيس الاساقفة يطعن برمحه
بأسلحتهم قتلوا أعدادا جاء ذكرها
في المدونات وروايات المؤرخين
أكثر من أربعة آلاف حسبما جاء في تواريخ الأعمال
تحملوا أربع هجمات بشجاعة واضحة
ثم جاءت الخامسة ، ثقيلة ، ومرعبة ، ومخيفة
جميع فرسان الفرنسيين سقطوا موتى
وستون فقط ، بنعمة الرب ، ظلوا احياء
هؤلاء سيستدون قبل موتهم ثمن أجسادهم غاليا
١٢٨ ـ عندما رأى رولاند جميع رجاله الشجعان قد تمددوا
صرخ بصوت مرتفع لصديقه أولفر :
من أجل الرب ، أخبرني يارفيقي ، ياسيدي الحـكيم ، مـــالذي تراه الآن ؟

انظر كم مـن الفـــرسان الجيدين قـــد تمـــددوا على الأرض
أمامنا (١٦٩٤ ـ ١٧٢١)
اننا نشعر بالأسى تجاه فرنسا بلادنا الجميلة
لأنها تركت مجردة محرومة من زهرة فرسانها
لماذا أنت لست هنا ، ياصديقي وامبراطوري
أخي أولفر ماهي السبل التي يمكن أن نجدها ؟
كيف سنرسل له أخبار ماألم بنا ؟
وقال أولفر : كيف يمكنني أن أعرف ، كيف ؟
أنا أفضل الموت على أن أخسر شهرتي
١٢٩ ـ قال رولاند سأنفخ الآن ببوقي مباشرة
عندما سيسمع شارلمان ، وهو يجتاز بوابة اسبانيا
أنا أتعهد ان الفرنسيين سيعودوا ثانية
قال أولفر : سيكون ذلك عملا مشينا
وسيكون النقد الموجه لآلك عظيما
وهم طوال حياتهم لم يعيشوا في ظل العار
عندما رغبت اليك بذلك ، لماذا قلت لي لا ؟
اذا فعلت ذلك الآن ، لن تنال الحمد مني
انفخ اذا اردت ـ هذا ليس من أعمال الشجعان
تبصر ، بكم من الدماء غسلت ذراعيك
اجابه الكونت : لقد وجهت ضربات ممتازة هذا اليوم
١٣٠ ـ ثم قال رولاند : هذا القتال مليء بالمآسي
سأنفخ في بوقي ، وشارلمان سيسمع صراخي
وقال أولفر : هذا سيكون مسيئا ومهينا بالنسبة للفارس
أنا سألتك ذلك ، وأنت رفضت ، بسبب الكبرياء.
فلو أن شارلمان كان هنا ، لمضى وقتها كل شيء بشكل صحيح
هو ليس ملوما ، وكذلك الرجال الذين من حوله
(ثم قال) الآن بحق لحيتي ، لن أرى بعيني
ثانية ولن أضم أختي أودي الجميلة
بين ذراعي ، ولاتظنن انني أكذب

وقـــــال رولاند : لماذا أنت غاضـــــب مني هـــــــكذا ياصديقي ؟ (١٧٢٢ ـ ١٧٤٩)

ورد هو : أنت يارفيقي الذي وضعتنا في هذا المأزق
هناك شجاع حكيم وهناك مهمل
الحكمة أفضل بكثير من الحماقة
فمن خلال شططك دمرت الفرنسيين
اننا لن نكون ثانية قادرين على خدمة شارلمان
لو أنك أصغيت قليلا لما قلته
لجاء مولاي ومضت المعركة على خير مايرام
ولكان الملك مارسليون الآن أسيرا أو قتيلا
ان شجاعتك يارولاند لعنة على رؤوسنا
منا لن ينال شارلمان المساعدة ثانية
ولن يرى الرجال منا ثانية حتى يوم القيامة
أنت ستموت وسيجلل العار فرنسا الجميلة
صداقتنا المخلصة وصلت هنا الى نهايتها
سنفترق عن بعضنا بكل أسى قبل غروب شمس هذا اليوم
١٣٢ ـ وعندما سمعهما رئيس الاساقفة يتجادلان هكذا
نخس بمهمازيه الذهبيين مهره مجددا
واقترب منهما ووجه اليهما هذا النقد :
ياالورد أولفر وأنت أيضا ياالورد رولاند
دعونا من الخصام ، باسم الرب أخبركما
صحيح أن النفخ بالبوق لن ينقذنا
مع هذا كان من الأفضل القيام بذلك
دع الملك يأتي ، وسيكون انتقامه قاسيا
لن يذهب أحد الى اسبانيا حاملا أخبارا طيبة
بعدما يلقيهم رجالنا الفرنسيون على الأرض قتلى ممددين
سيبحثون عن أجسادنا وأعضاءنا بقلوب جريحة
وسيحملونا على ظهور بغال التحميل
وسيبكونا بحزن وبآلام مبرحة

وقرب الكنيسة سندفن بشكل لائق (١٧٥٠ ـ ١٧٧٧)
ولن نكون طعاما للكلاب والذئاب والعقبان
وقال رولاند : سيدي كلماتك صحيحه وجيدة
١٣٣ ـ وضع رولاند بوقة على فمه
أمسكه بثبات ونفخ فيه بكل شدة
الجبال عالية ، والصوت بعيد ومرتجف
الى ثلاثين فرسخا مضى الصوت وصداه
وسمعه الملك شارلمان وكل الذين كانوا معه
وقال الملك ، انتبهوا ، رجالنا يقاتلون الآن
وبادره غانلون قائلا : لو أن أي رجل قال هذا
فيما عداك ، لظننت أنه يكذب
١٣٤ ـ وأمسك الكونت رولاند بألم وبمزيد من الاسى
بوقه ونفخ به بكل ماأوتيه من قوة
الدم تدفق من فمه أحمر براقا
ومن بين يديه ومن البوق جاق النداء بصوت مرتجف
وسمعه الملك شارلمان الذي كان يعبر الممرات
وسمعه الدوق نايمون وجميع الفرنسيين بجانبه
وقال شارلمان : انني اسمع بوق رولاند ينادي
هو لم صدح به قط الا في وسط القتال الشديد
ورد غانلون : ليست هناك معركة
لقد تقدمت بك السنون وشعرك شاب وابيض
وعندما تتحدث هكذا تتكلم وكأنك طفل
أنت تعرف رولاند جيدا وأنه مليء بالكبرياء
إنه لأمر غريب أن الرب جعله يتحمل كل هذا الوقت الطويل
الم يستولي عل نابولي تماما ضد أوامرك ؟
وقام المسلمون بهجوم من الداخل
واشتبكوا هناك بالقتال مع رولاند الفارس العظيم
لذا سـفح الدم على الارض ، وكان بـذلك مبـدعا شجاعا (١٧٧٨ ـ ١٨٠٤)
أراد ابقاء الارض مضرجة بالدم حتى تراها بعينيك

من أجل أرنب صغير هو سينفخ بوقه من الصباح الى المساء
أنه الآن ، يعرض براعاته أمام أترابه
امض في طريقك ، تابع سيرك ، لماذا تتوقف هنا وتتأخر
ارض أباءنا تقع على مسافة أميال كثيرة
١٣٥ ـ فم رولاند تدفق الدم منه بات لونه أحمر
لقد فجر صدغيه في رأسه
فقد صدح ببوقة بألم وقنوط
سمعه الملك شارلمان وكذلك فعل الفرنسيون جميعا
ثم قال الملك : هذا الصوت طويل وعميق
وقال نايمون : انه يصدح بكل قوة رجل شجاع
هناك معركة ، وهذا أمر أعرفه ومتأكد منه
والذي يريد ابقاءك ماهو الا متورط بالخيانة
الى السلاح ، دع نداء حربك يصعد عاليا الى السماء
سارع لتقديم العون الى رجال حاشيتك الشجعان
الا تسمع كيف يندب رولاند بشكل قانط
١٣٦ ـ وأمر الملك شارلمان أن تصدح الابواق عاليا
وهب الفرنسيون بالحال الى السلاح
بخوذ وسوابغ وسيوف مذهبة تمنطقوا
دروعهم جيدة ورماحهم شديدة ومتينة
أعلامهم المربوطة بها حمراء وبيضاء وزرقاء
على ظهور خيولهم امتطى فورا السادة المحاربون
وبسرعة تدفقوا خلال الممرات ولم يتوقفوا
تحدث كل منهم الى الآخر وتجاوب معه قائلا :
لو أننا سنصل الى رولاند قبل موته وذهابه
كنا سنقاتل بشدة الى جانبه وسط
الحشود (١٨٠٥ ـ ١٨٢٩)
مافائدة ذلك ؟ لقد تأخروا كثيرا
١٣٧ ـ وانحسر ظلام الليل وبات النهار مشرقا
وفي وجه الشمس لمعت أسلحتهم
وأرسلت دروعهم وخوذهم أشعة قوية

وعرضوا كثيرا من الدروع المرسوم عليها صور الورود
وكميات هائلة من الرماح المذهبة والأسنة
وساق الامبراطور بدون توقف وهو مغضب
وكان الفرنسيون جميعا غاضبين ومستائين
لم يكن بينهم من لم يبك من شدة غضبه
ومن أجل رولاند كانوا جميعا محزونين خائفين
واعتقل الملك الكونت غانلون مباشرة
وحوله الى المطابخ في قطار جيشه
واستدعى كبير الطباخين واسمه بيسغون وقال له :
احرسه جيدا ، كما يليق برجل دنيء مثله
وتولى بيسغون اعتقاله ومعه مائة من الطباخين
من أحسن العاملين في تلك الدائرة وأكثرهم سوءا
فنتفوا اللحية من على وجهه وذقنه
وكل منهم صفعه أربع صفعات شديدة
وعلى الفالقة وضعوه وبالعصي جلدوه
وربطوا حول رقبته سلسلة قوية
وكتفوه بشكل محكم مثل دب في قفص
ثم ألقوه على ظهر واحد من خيول التحميل بشكل مهين
وكانوا سيبقونه سليما حتى يطلبه شارلمان
١٣٨ ـ وكانت التلال ضخمة وذات ظلال
وارتفاع (١٨٣٠ ـ ١٨٥٥)
وجرت في الوديان الجداول وتدفقت
وزعقت الأبواق أمامهم وخلفهم
ورددت كلها صوتا واحدا جاء ردا على النداء
وبقلب مفعم بالغضب ساق الامبراطور شارلمان
والفرنسيون جميعا بحزن وحنق
لم يكن هناك غير الحزن والبكاء من العيون
وكلهم توجهوا للرب بالدعاء ليحفظ حياة رولاند
حتى وصولهم وانخراطهم معه في القتال
وما أن يصلوا اليه حتى يقاتلوا الى جانبه قتالا شديدا

ماذفع ذلك كله ؟ صلواتهم كانت فارغة تماما
لقد تأخروا كثيرا ولايمكنهم الوصول في الوقت المناسب
١٣٩ ـ وساق الملك شارلمان عابس الوجه مغضب
على وجهه تطايرت لحيته
واندفع جميع البارونات الفرنسيون الى جانبه مسرعين
ولم يكن بينهم من لم يمتليء بالغضب
لعدم مساعدة رولاند البالاديني
الذي يقاتل الآن مسلمي اسبانيا
لقد جرح جرحا بليغا ، وأخشى أنه لن يعيش
الرب ، وهؤلاء الذين تبقوا من الرجال الستين معه
لم يعرفوا قائدا خيرا منه ولاحتي ملك
١٤٠ ـ واستعرض رولاند الجبال والمنحدرات
كم من الفرنسيين رآهم هناك ممددين موتى
وكفارس جيد ندبهم كما يلي :
أيها البارونات ، سادتي الرب برحمته الواسعة
ليجلب أرواحكم جميعا الى فردوس الرحمة
وليجعل بين الورود البراقة حفر قبورهم (١٨٥٦ ـ ١٨٨٥)
أنا لم أر أشجع منكم أو أعظم رجولة
طوال خدمتكم لي لم تتوقفوا وكنتم جيدين
لقد قهرتم أراضي كثيرة لصالح ملك شارلمان
وا أسفاه لأي نهاية محزنة رباكم الامبراطور
ايتها الأرض الحبيبة ، الحاضنة الجميلة للفرنسيين
كم عانيت هذا اليوم مما ألم بك ونزل
بارونات فرنسا لاقوا حتفهم من أجلي
وأنا أيضا لايمكنني الدفاع عنك أو منحك الأمان
الآن ليعنك الرب الذي لم يتخل عني بعد
أولفر ياأخي ، لن تعدم مساعدتي
ومع أن أحدا لم يقتلني ، سأموت من حزني فحسب
سيدي الحبيب ، يارفيقي ، دعنا نستأنف القتال
١٤١ ـ عاد الكونت رولاند الى أرض المعركة

وكمقاتل استخدم سيفه دورندال
فأطاح بفالدرون دي بوي وسط الشعاب
مع أربع وعشرين بجانبه من منزلة رفيعة
مامن رجل توفرت لديه رغبة الانتقام بمثل هذه الحدة
ومثلما هرب الغزلان أمام كلاب الصيد
أبدى المسلمون أعقابهم أمام رولاند
وقال رئيس الأساقفة : عمل رائع ، عمل رائع حقا
ليكن شجاعا مثل هذا ، الذي سيتربى فارسا
الذي سيحمل سلاحه وينطلق على مهره الطيب
مقداما وشجاعا عليه أن يكون في المعركة
والا هو لن يساوي فلسا واحدا
الأحسن أن يتحول ليكون راهبا في دير حقير
ومن أجل ذنوبنا يصلي يوميا وهو جاث على ركبتيه
وقال لرولاند : اضرب ولاتوفر أحدا منهم
وعند هذا استأنف الفرنسيون القتال بسرعة
وعانى هناك الفرنسيون من خسائر عظيمة وأحزان

١٤٢ ــ عندما يعرف انه لن يكون هناك أسرى (١٨٨٦ ــ ١٩١٢)

سيقاتل الرجال بكل شجاعة وسيتمسكون بصفوفهم
ولهذا ازداد الفرنسيون شجاعة وحنقا
وهنا جاء مارسيل ، الذي لم ير بارون يجاريه شجاعة
ممتطيا فرسا ، واسمه غايغدون
واتجه نحو بيفون وانقض عليه
وهو الذي يمتلك بيون وديجون
وشطر الترس ومزق السابغة
وألقاه ميتا ، لن يحتاج للقتال ثانية
واردى بعده ايفون ثم ألحق به ايفور صديقه
والكونت رولاند الذي لم يكن بعيدا
نادى على المسلم قائلا : ليلعن الرب روحك

- ٤١٨٥ -
هؤلاء رفاقي ، لقد قتلتهم بوساطة الخيانة
وقبل أن نبرح من هنا ستدفع ثمنا عاليا
وستتعلم اسم سيفي البتار
واندفع نحوه مثل بارون شجاع
ومن ذراعه التي حمل بها السيف بتر اليد وأطاح بها
ثم أردى على الطريق بعده جورفيرات الجميل
ابن مارسليون ، وقطع رأسه
وصرخ المسلم : يامحمد ، عونك يامحمد
انتقموا لنا من شارلمان ، انتم ياآلهة عقيدتنا
فالى ارضنا أرسل شعبه الشرير
سواء أجاءت الحياة أم جاء الموت لن يتخلى أبدا عن المكان
ثم صاح واحدا للآخر : اهربوا اذا ، اهربوا بسرعة
مائة الف هربوا من أرض المعركة مباشرة
انهم لن يعودوا ، ليدعوهم من يستطيع
١٤٣ ـ أية مساعدة هذه ؟ لقد هرب
مارسليون (١٩١٣ ـ ١٩٣٩)

ومع هذا بقي عمه مارغانايس
حاكم قرطاج والفرير وغارمايل
وأثيوبيا ، أرض ملعونة وشريره
تحت امرته جميع قبائل السودان
انوفهم كثيفة وآذانهم عريضة جدا
خمسون الفا كاملة تجمعوا في صفوفهم
وساقوا باقدام وسرعة وغضب
يصرخون عاليا بشعار حرب المسلمين
ثم قال رولاند : هنا قضي علينا أن نموت
اعرف معرفة جيدة لايمكننا العيش طويلا
خوفا من العار ، لاتحجموا واندفعوا ياأحبائي لبيع حيواتكم
سادتي ، ارفعوا عاليا سيوفكم الملطخة وقاتلوا
سواء أجاءت الحياة أم جاء الموت سيدفع العدو الثمن

- ٤١٨٦ -
وعلينا أن نجنب فرنسا الجميلة الذل
عندما سيلقي مولاي شارلمان نظرة على هذه الأرض
سيرى كم استنفدنا من قواهم
سيجد خمسة عشر مسلما ماتوا مقابل كل واحد منا
ولن يتردد في مباركتنا لانجازنا العظيم هذا
١٤٤ ــ عندما ألقى رولاند نظرة على رجال القبائل الملعونين هؤلاء
جلودهم سوداء كالحبر من رؤوسهم الى أقدامهم
مامن شيء أبيض فيهم غير اسنانهم
عند ذلك قال الكونت : صحيح بدون شك
انني أعرف جيدا ، في هذا اليوم سيجرفنا الموت
ايها الفرنسيون قاتلوا الحشود الى جانبي
وقال أولفر : ليأخذ الشيطان المتخلف المتقاعس
وسمع الفرنسيون هذا ومرة اخرى اندفعوا يقاتلون
١٤٥ ــ عندما رأى المسلمون كم تناقص عدد الفرنسيون (١٩٤٠ ـ ١٩٦٤)
رصوا صفوفهم وامتلأوا كبرياء وآمال
وقالوا : ستصل الآن جرائم الامبراطور اليه في الوطن
وجاء مارغانايس ممتطيا على مهر أشقر
ونخسه بشدة بمهمازين كلهما من ذهب
وسدد من الخلف ضربة لأولفر
ونفذت الضربة عميقا من خلال الدروع
ووقف سنان الرمح عند عظام الصدر
وقال له : لقد تلقيت ضربة قاصمة
ارسلك شارلمان الى الممرات لتلاقي حتفك
إنه قد أساء الينا ومن المفيد أن يفقد كبرياءه
لقد استوفيت بقتلي لك وحدك جل خسائرنا
١٤٦ ــ وشعر أولفر انه أصيب اصابة مميتة
فأمسك سيفه هوتيكلير الحاد النصل

وسدد ضربة الى مارغانايس على خوذته الذهبية العالية
فصمت منها الورود والجواهر التي رصعت بها
ومضت عميقا الى أسنانه قاطعة وسط رأسه
وسحب سيفه ثم أطاح به أرضا وقد فارق الحياة
ثم قال اسقط ايها الدنس ايها المسلم البائس التعيس
لقد خسر شارلمان كثيرا ، بهذا سأعترف تماما
لكنك لن تعود أبدا الى الأرض التي غادرتها
لن تعود لتتفاخر أمام السيدات والفتيات
ولن أجعلك تنتفع مني أو من رجال آخرين
وماأن صنع هذا حتى نادى عاليا طالبا من رولاند العون
١٤٧ ـ شعر أولفر أن جرحه كان مميتا (١٩٦٥ ـ ١٩٨٨)
عطشه للانتقام كان لايمكن اخماده
فجال بين الصفوف يضرب بشجاعة
دمر الرماح الصحيحة والدروع
ومزق السوابغ والسروج وقطع الأيدي والأقدام
من رآه رآه وهو يقطع المسلمين الى أشلاء
ويرمي واحدا فوق آخر حتى غدت جثثهم ملقاة على شكل أكوام
يمكنه أن يتذكر أعمال زهرة الفرسان هذا
ونداء حرب شارلمان لم يتوقف عن الترداد
بل ظل يصرخ عاليا وبوضوح :« جبل المسرة »
ودعا رولاند رفيقه وصديقه قائلا :
سيدي يارفيقي اقترب مني وقف معي
لأسانا لابد أن نفترق هذا اليوم
١٤٨ ـ وجه أولفر عندما نظر اليه رولاند كان
شاحبا ومحزنا ، بلا لون ، مليئا بالجراح
وغطى دمه القانيء جسمه من رأسه الى قدميه
منه الى الأرض جرى مشكلا عدة بقع
وقال الكونت : ياالهي ، أنا لاأعرف ماذا سأعمل
سيدي الحكيم ، يارفيقي ، انني أبكي بصدق طاقاتك الهائلة
لن يشاهد رجل يساويك

اسفي ، يافرنسا الجميلة ، على رجال شجعان حقا
عليك ان تبكيهم هذا اليوم ، فقد طرحوا أرضا وماتوا
ان الخسارة التي سيعاني منها الامبراطور مؤلمة
لقد تحدث كثيرا ثم هوى في سرجه مغمى عليه
١٤٩ ـ هوى الآن رولاند في سرجه مغمى عليه (١٩٨٩ ـ ٢٠١٣)

وأولفر عاجز يعاني من سكرات الموت
لقد نزف كثيرا حتى أن عينية تجمدتا
ماعاد بامكانه رؤية شيء مباشرة من قريب أو بعيد
ولاتمييز أي شكل حي
لذا عندما جاء الى حيث كان ينتظر رفيقه
ضربه على خوذته الذهبية بكل عنف
فمضى السيف قاطعا العرف والأماكن المرصعة بالجواهر
فقط لم يلمس السيف رأسه
ثم رفع رولاند ـ وقد علته الدهشة ـ عينيه وحدق في وجهه
وسأله بصوت منخفض وبلطف قدر الامكان
سيدي ، يا رفيقي هل أنت جاد بضربتك ؟
انظر الي ، أنا رولاند ، الذي أحبك طوال ايامه
انت لم تتحداني قط او طالبت بمبارزتي
وقال أولفر :أنا لا أستطيع أن أراك بوضوح
أنا أعرف صوتك ، حفظك الرب ووقاك
وأنا قد ضربتك ، اغفر لي ، أرجوك
ورد رولاند قائلا : أنا لم أصب بجراح
أنا اغفر لك ، باسمي وباسم الرب
ثم انحنى كل في مكانه للآخر بكل أدب
وبمثل هذا الحب العظيم افترقا عن بعضهما
١٥٠ ـ شعر أولفر باقتراب الموت
عيناه تجمدتا في رأسه
هو الآن أعمى تماما ، وتماما أصم

ترجل بسرعة من على حصانه وجثا على ركبتيه
وأدى الاعتـــراف بصــــوت مـــرتفع ، وضرب على صــــدره
(٢.١٤ ـ ٢.٣٩)
ثم صفق بيديه ورفعهما عاليا نحو السماء
ودعا الرب ليسكنه في الفردوس
وأن يبارك فرنسا الجميلة وشارلمان
ورفيقه رولاند فوق جميع الرجال
وتقطعت شرايين قلبه ، وألقى بخوذه فروسيته
وجسده على الأرض ، وتمدد هناك على طوله
مات الكونت ، وصلت أيامه الى نهايتها
وبكى عليه رولاند الشجاع وندبه
مامن انسان على وجه الأرض شعر قط بمثل أساه
١٥١ ـ عندما رأى رولاند صديقه ورفيقه قد مات
وعلى الأرض انكب متمددا
ودعه بالكلمات اللطيفة التالية :
سيدي ، يا رفيقي ، أسفي عليك وعلى شجاعتك وقوتك
عشنا سنين طويلة وأياما جنبا الى جنب
لم تخطىء بحقي قط ولم أخطىء بحقك
والآن أنت ميت سأبكيك طوال حياتي
وما أن قال المركيز هذا حتى سقط مغشيا عليه
على ظهر مهره فيلانتف العالي
وبقي على ظهره ولم يسقط لربـطه بـوساطة الاحـــزمة الذهبية اللامعة

فأينما ذهب امسكوه وابقوه منتصبا
١٥٢ ـ وما لبث أن عاد رولاند الى نفسه ثانية
واسترد وعيه وتخلص مما ألم به
لقد كتب عليه أن يلاقي حظا تعيسا ومخيفا
جميع الفرنسيين قد خسرهم وقد ذبحوا
وفقط رئيس الأساقفة مع وولتر هيوم بقيا

هبط وولتر من الأعالي ثانية (٢٠٤٠ ـ ٢٠٦٥)
لقد قاتل جيدا ضد رجال اسبانيا
رجاله ايضا أموات ، تمددوا بوساطة سيوف المسلمين
برغبة أو بدون رغبة هرب نحو الوادي
وصرخ عاليا الى رولاند ليمده بالعون :
أين انت ، أين أيها الكونت العظيم ، أيها المحارب الشجاع
ما دمت هناك انا لم أشعر بالرعب
أنا وولتر الذي جاء ممتطيا مالغوت
أنا حفيد درون المتقدم بالسن
أنا لشجاعتي اعتدت أن تحبني دوما
رمحي قد انقصف ، وترسي انشطر الى قسمين
دروعي تحطمت وسابغتي خرقت
طعنت برمح نفذ (من وسط كبدي)
لقد نزل الموت بي ، ومع هذا جعلتهم يدفعون الثمن غاليا
عجبا ، عند هذه الكلمة سمعه رولاند وأفاق
نخس حصانه ومضى نحوه مسرعا
١٥٣ ـ وأمتلأ رولاند بالأسى والغضب المرير
ووسط الصفوف الكثيفة استأنف الآن حربه
وأردى وولتر ستة ، وزادهم رئيس الأساقفة خمسة
وقال المسلمون : هؤلاء الرجال هم أسوأ الجميع
يجب ألا ينجو أحد منهم حيا ، تدبروا هذا ، أيها السادة
من يخش الهجوم عليهم ، ليكن العار نصيبه
من يدعهم يذهبون ، سيجلله العار
ومرة ثانية ارتفع الضجيج وتعالت الأصوات
ومن كل جانب تدفقت حشود المسلمين
١٥٤ ـ الكونت رولاند جبار في حركاته (٢٠٦٦ ـ ٢٠٩٣)
وولتر دي هيوم كان واسع الشهرة لفروسيته
ورئيس الأساقفة محارب مجرب وخبير
بين شجاعتهم ليس هناك أدنى فوارق
وطعنوا وسط الصفوف الكثيفة المسلمين وقتلوا

- ٤١٩١ -
وترجل ألف من المسلمين ليقاتلوا على أقدامهم
وتقدم أربعون ألفا من الفرسان لمساعدتهم
ضد هؤلاء الثلاثة ، وصدقا إنهم خافوا من التقدم
فقذفوهم بحرابهم من على بعد
ففقدوا كثيرا من حرابهم وخناجرهم وسهامهم وأقنية
رماحهم ، ورماحهم
وواجه وولتر الشجاع في الرمية الأولى منيته
وانشطر درع توربين أوف رايم الى شطرين
وتحطمت خوذته وجرح في رأسه
وخرقت سابغته ، ودرعه تحطم وتقطع
وطعن صدره بأربعة رماح حادة وخرق
وقتل تحته حصانه ولوى رقبته وتكوم
ونزل رئيس الأساقفة يبكي بحرقه ومرارة
١٥٥ ـ وجد توربين أوف رايم نفسه مصابا
بأربعة أسنة نفذت الى داخل ظهره
نهض اللورد الشجاع مسرعا ، ووقف منتصبا
ثم تطلع نحو رولاند ، وركض نحوه وقال :
كلمة واحدة فقط : قواي لم تضمحل بعد
الرجل الحقيقي لا يسقط أبدا ما دامت الحياة تدب فيه
وامتشق الماس ، سيفه الفولاذي البتار
وضرب به ألف ضربة وسط الصفوف
سريعا سيرى شارلمان أنه لم يوفر عدوا قابله
لأنه سيجد قد تكوم حوله أربعمائة رجل
بعضهم جرحى ، وبعضهم تحولت أجسادهم الى أشلاء
وبعضهم جعلوا قصارا بقطع رووسهم (٢٠٩٤ ـ ٢١١٩)
هكذا تحدثت تواريخ الأعمال ، أنه قاتل هناك على هذه الصورة
بحق القديس جايل ، الذي باركه الرب بالمعجزات
والذي كان راهبا في ليون ، فهكذا جاء في الكتابات
إن الذي لا يعرف هذا ، لا يعرف شيئا مما حدث
١٥٦ ـ قاتل الكونت رولاند بشجاعة حسب الامكان

لكن جسده تعاظمت حرارته وازداد تعرقه
وغرق رأسه كله بآلام محزنة
من شدة نفخة الذي مزق عروقه
لكنه كان سينشط لو عرف أن شارلمان قادم لعونه
أمسك ببوقه ونفخ به بضعف تام
وتوقف الامبراطور ، وقد سمع صوتا متحشرجا
فقال : سادتي : هذا يخبرنا خبرا مريعا
فقدنا يومنا هذا رولاند ابن اختي
هذا النداء يعلن أنه بات على حافة الانهيار
من أراد الوصول اليه عليه ان يسوق نحوه بسرعة يائسة
نادوا بين الحشود ، على كل بوق أن ينعق
ستون ألفا نعقت أبواقهم بصوت مرتفع
رددت الروابي الأصوات ، ونعقت الوديان ثانية
وسمع المسلمون ذلك ، فانعدمت لديهم الرغبة بالضحك
وقالوا : لن يلبث شارلمان ان يقدم
١٥٧ ـ المسلمون قالوا : الامبراطور كر راجعا
لقد سمع كيف صدحت أبواق هؤلاء الفرنسيين
اذا جاء شارلمان ، سندمر ونهزم
اذا ظل رولاند حيا سيسعر الحرب ضدنا مرة جديدة
ولن نحتفظ بقدم واحدة من اسبانيا
وعلى الفور اندفع نحوه والتف حوله اربعمائة مقاتل على رؤوسهم الخوذ (٢١٢٠ ـ ٢١٤٥)
كانوا خيرة المقاتلين الموجودين في تلك البقعة
وقاموا بهجوم مخيف على الكونت
وتابع اللورد رولاند البطل عمله يبتر
١٥٨ ـ عندما رأى الكونت رولاند هجومهم وقد بدأ
ازداد حدة وقوة وارعابا
ما دام حيا هو لن يتراخى أو يتوقف
ساق حصانه الذي اسمه فيلانتيف

وعلى جنبيه نخسه بمهمازيه الذهبيين
وانقض عليهم ، على حيث أكثر الصفوف كثافة
وساق السيد رئيس الاساقفة توربين الشجاع معه
وصرخ مسلم لمسلم : رفيقي عليك بهما "
الم نسمع ابواق الفرنجة تصدح ؟
شارلمان عائد ، الملك الجبار والعظيم
١٥٩ ــ لم يحب الكونت رولاند الجبن قط
ولا القلب المزيف ، ولا السيد المتعجرف
ولا أي فارس لم يكن رجلا جيد التصرفات
ونادى لتوربين رجل الكنيسة العسكّري
سيدي أنت على قدميك ، وأنا على ظهر فرسي
حبا بك سأتوقف هنا
وجنبا الى جنب سنتلقى معا الخير والشر
أنا لن أهجرك من أجل أي انسان فاني
لنذهب كلانا معا لقتال هؤلاء المسلمين
الضربات الجبارة هي ضربات دورندال
وقال رئيس الاساقفة : أنا اشعر بالخجل لأن ضرباتنا آخذة بالضعف
١٦٠ ــ وقال المسلمون : لماذا نحن ولدنا أصلا ؟
(٢١٤٦ ــ ٣١٧٤)
الويل لنا ، لقد دنا يوم نهايتنا
خسرنا الآن رفاقنا وسادتنا
شارلمان الجبار قادم مع جميع قواته
نسمع من هؤلاء الفرنسيين نعيق أبواقهم
وصوت ــ جبل المسرة ــ يجلجل مرعبا عبر الحدود
مخيفة حركات رولاند أثناء غضبه
ما من انسان حي يمكنه أن يصرعه بالسيف
دعونا نرميه ، وعند ذلك تنتهي الحرب
لذا طيروا نحوه رماحا وحرابا ، وصبوا عليه

النشاب ، والسكاكين ، ونصال النبال المريشة
وخرق ترس رولاند وانشطر وتحطم
وتقطعت عرى دروعه وتمزقت سابغته
ومع هذا لم يصب هو بجسمه أبدا
لكن مطيته أصيبت بثلاثين جرحا أو أكثر
عقر حصانه فيلانتيف وسقط ميتا
انهزم المسلمون وتخلوا عن الحرب
وترك رولاند وسط أرض المعركة مترجلا
١٦١ ـ بغضب وأسى هرب المسلمون
عائدين نحو اسبانيا مسرعين بلا توقف
لم يكن بمقدور الكونت رولاند مطاردتهم
فيلانتيف قد مات وليس لديه مهر ليمتطيه
سواء أشاء أم أبى سيبقى على قدميه
وانعطف ليقدم العون الى رئيس الأساقفة توربين في محنته
ومن على رأسه تفككت اربطة الخوذة الذهبية
وتجرد ت سابغته من عراها المتينة والبراقة
وقطع الى قطع صغيرة جدا غلالته الرقيقة
ليضمد بها جروحه العريضة والعميقة
ثم ضمه الى صدره وحمله بخفة
وبلطف مدده على طرف الرابية المعشوشب (٢١٧٥ ـ ٢١٩٩)
وبخطاب عذب ناعم واساه قائلا :
آه يا سيدي النبيل ، اسمح لي أن أتركك لبعض الوقت
أصدقاؤنا هؤلاء الذين أحببناهم كثيرا أثناء الحياة
لا يجوز لنا أن نتركهم ممددين حيث ماتوا
سأذهب للبحث عنهم ، والعثور عليهم والتعرف
وسأمددهم هنا جميعا أمام ناظريك
وأجابه الأسقف قائلا :اذهب وعد
شكرا للرب ، أرض المعركة هذه ملك لي ولك
١٦٢ ـ غادر رولاند ومضى خلال أرض المعركة
يبحث لوحده بين الوديان والصخور المرتفعة

- ٤١٩٥ -

(وهناك وجد أيفور ، وهناك ايڤون)
وغيريير وغيرين الرفيقين الطيبين
(وانغلير الذي جاء من كاسكوني)
وعثر على بيرنغيز وأوثون
وبعد هذا وجد جيرارد العجوز أوف روسيلون
ورفعهم البارون الشجاع واحدا واحدا
وحملهم بكل سرعة الى عند رئيس الأساقفة
وعند ركبتيه صفهم جميعا
وبكى الأسقف ، ولم يستطع التوقف عن العويل
ورفع يده ومنحهم جميعا الغفران
وقال بعد ذلك : اسفي عليكم ايها الرفاق الشجعان
لتسكن أرواحكم مع الرب المتعال
في الفردوس وسط الورود المتفتحة
أنا ايضا أموت ، وأسف على جماعتي
الذين لن يمكن للامبراطور العظيم أن يراهم ثانية

١٦٣ ــ وعاد رولاند مــــــــرة أخــــــــرى الى أرض المعركة (٢٢٠٠ ــ ٢٢٢٥)

وأخذ يبحث عن رفيقه أولفر
رفعه الى صدره بكل عناية
وحمله بأفضل ما يمكنه الى عند رئيس الأساقفة
ومدده على ترسه هناك مع الآخرين
وصلبهم الأسقف وحللهم جميعا بصلواته
وبدموع جددا أسفهما وأعلناه
وقال رولاند : تابعي أولفر الحكيم
كنت ابنا للدوق رينير
الذي يحكم التخوم في وادي الروان
أنت يا من حطمت الترسه وقصفت الرماح في كل مكان
واعتاد الرجال العظماء أن يقوموا من على مقاعدهم تقديرا لك
وكنت شجاعا بالكلمة وبالرأي الصائب

وكنت تدمر الشرير وتسبب له الاسى
ما من فارس على وجه الارض كان شجاعا مثلما كنت
١٦٤ ـ وعندما راى الكونت رولاند اترابه ممددين موتى
ومعهم أولفر اعز أصدقائه عليه
بدأ يبكي اسى ورحمة
ومن وجنتيه ذهب اللون
ولم يعد قادرا على الوقوف ، وذلك لشدة أساه
فسقط ارضا ، وما عاد قادرا على مساعدة نفسه
فقال الاسقف ، أسفي عليك وحزني ايها السيد الطيب
١٦٥ ـ عندما رأى رئيس الأساقفة رولاند قد سقط مغشيا عليه
لم يكن حزينا مثله آنذاك ، لأنه شعر بأسى عميق
وزحف نحوه ، وتناول بوق رولاند ورفعه
وفي رونسفال جرى هناك جدول من الماء
أراد على ضعفه أن يذهب الى هناك ويجلب له قليلا منه
(٢٢٢٦ ـ ٢٢٥٣)

وبخطوات ضعيفة جدا ، الى حد أنه كان غير قادر على التقدم
لما نزفه من دم لم يكن لديه القوة لمتابعة التقدم
وقبل ان يقطع الطريق سيرا
تخلى عنه ، وانكب على وجهه بلا حراك
استحوذ الموت الكافر عليه بقسوة كبيرة
١٦٦ ـ واستفاق الكونت رولاند واسترد وعيه
ووقف على قدميه مع أنه كان يشعر بآلام مبرحة
ونظر فيما حوله الى الهضاب والى الوديان
فيما وراء رفاقه ، مد بصره الى السهول الخضراء
رئيس الأساقفة العظيم ، خليفة اسم الرب
ضرب على صدره وحملق بعينتين محبتين
وبصعوبة رفع يديه نحو السماء وشرع بالدعاء
أن يمنحه الرب مكانا بالفردوس
توربين الآن بين الأموات ذاك الذي قاتل من أجل شارلمان

وكان شجاعا في الوعظ ، وفي المعارك الهائلة
وظل ضد المسلمين بطلا للعقيدة
ليباركه الرب وليمنحه رحمته
١٦٧ - ورأى الكونت رولاند رئيس الأساقفة ممددا
ورأى أمعاءه ومعدته مندفعة الى جانبه
وعلى حاجبيه دماغه قد سال بشكل واضح
وعلى منتصف الصدر حيث مفتاح توزيع العظام
وهكذا أخذ يندبه حسبما قضت العادات المحلية :
آه ، أيها الرجل الأديب ، أنت فارس عظيم ونبيل
الآن أنا أعهد بك الى الرب القادر
عبدا مطيعا خيرا منك لن يجد (٢٢٥٤ - ٢٢٨٠)
فمن أيام الرسل لم يكن هناك نبيا مثلك
في الحفاظ على العقيدة وفي كسب الرجال
أرجو الا تلقى روحك أي عائق في تحليقها
ولتفتح أبواب السماء لاستقبالك
١٦٨ - شعر الآن رولاند أنه على أبواب الموت
من أذنيه أخذ دماغه يتدفق خارجا
والآن وقد صلى لأترابه ودعا الرب اليهم جميعا
واليه قدم القديس جبرائيل العون
ثم خشية من العار أمسك بكل من يديه
بوقه وسيفه دورندال
ومثلما يطيرُ النشاب من القوس
انطلق نحو أرض اسبانيا الى منبسط شاسع
وتسلق رابية حيث نبتت شجرة جميلة باسقة
وتحتها والى جانبها قامت أربع أحجار رخامية
وسقط هناك منكبا على العشب الأخضر
وأغمي عليه ، لأنه كان على أبواب الموت
١٦٩ - الروابي عالية وعالية جدا الأشجار
قامت هناك أربعة أحجار (صوى) ، من الرخام اللماع
هناك تمدد الكونت رولاند ، على بقعة خضراء بلا حراك

- ٤١٩٨ -

وكان هناك مسلما راقبه بكل دقة
وكان قد تظاهر بالموت ، وتمدد بين قومه
ولطخ صدره ووجهه بالدم
انبعث الآن مسرعا وركض نحوه مندفعا
كان قويا ، رشيقا ، ومتفوقا بشجاعته
والآن بغضبه وآماله المتعاظمة
انقض على رولاند وأمسك ذراعيه وجسده
وتفوه بعبارة واحـــدة : الآن ابـــن أخـــت شـــارلمان هزم (٢٢٨١ ـ ٢٣٠٧)

سآخذ سيفه ، والى بلاد العرب سأحمله
لكن عندما سحبه عاد رولاند الى وعيه وشعر به
١٧٠ ـ شعر رولاند أن سيفه قد سرق
فتح عينيه وتفوه بهذه العبارة وحدها :
أنت لست منا ، هذا ماأعرفه تماما
ثم أخذ بوقه الذي كان ممسكا به بقوة
وقذفه على الخوذة المحلاة بالذهب
فحطم الفولاذ والجمجمة والعظام
ومن رأسه أخرج عينيه معا
وعلى الأرض تمدد ميتا ذلك الشرير الدنيء
ثم قال : كم أنت جريء أيها المسلم المزيف
حتى أمسكتني هكذا بحماقة أو بحكمة
وسيراك أحمقا كل من استمع الى رواية هذه الحكاية
ياالهي ، فوهة بوقي قد تحطمت
سقطت منها جميع اللآليء وسقط الذهب
١٧١ ـ وشعر رولاند الآن أن بصره ازداد ضعفا واظلاما
وحاول بكل مابقي لديه من قوة أن يقف على قدميه
واختفى كل الدم الاحمر من وجنتيه
وقام أمامه حجر أسمر اللون عند ركبته
ضربه عشر ضربات بغضب وأسى

انه انكشط لكنه لم يكسر كما أن السيف لم يثلم
وصرخ الكونت : أه القديسة مريم قادمة لعوني
أسفي على هذا اليوم يادورندال الطيب والحاد
أنا الآن أموت ، أنا لايمكنني الحفاظ عليك
كم من معركة ربحتها معك على أرض الوغى
معك قهرت عددا كبيرا من الاقطاعات الجيدة
ليمتلكهـــا شـــارلمان ، ذلك الســـيد ذي اللحية البيضاء (٢٣٠٨ ـ ٢٣٣٥)
لاتدع أحدا من الاعداء يستخدمك ومنهم اهرب
انت الذي استخدمت فترة مديدة من قبل تابع جيد
مثلك لن ترى فرنسا المباركة أبدا
١٧٢ ـ وضرب الكونت رولاند الحجر الرخامي على أعلاه
ارتفع صوت الفولاذ عاليا لكنه لم يتحطم أو يتثلم
وعندما رأى الآن أنه لن ينكسر أبدا
اشتكى لنفسه الشكاية التالية :
أه يادورندال ، اللامع والشجاع والنشيط
ماأروعك وأنت تلمع وتبرق تحت أشعة الشمس
عندما كان شارلمان محتفظا بوادي مورين
حملك ملاك الرب وأمره
أن يمنحك الى واحد من الكونتات القادة
على وسطي ربطك ، شارلمان النبيل
وبذلك حصلت له على أنجووبريتاين
وبهذا حصلت له على بواتو وقهرت ميان
وبهذا حصلت له على نورماندي ذات الأراضي الجميلة
وبوساطته ربحت بروفانس وأكوتين
ولومبارديا وجميع أراضي رومانيا
وبافرايا أيضا وجميع الدولة الفلمنكية
وعلى بورغاندي وأبوليا استوليت
والقسطنطينية وضعتها في يد الملك

وفي سكسونيا تكلم فاطيع
وبهذا نلت سكوتلندا (وايرلاندا وولز)
وانكلترا حيث أقام دولته
كم من الأراضي والبلدان أنا قهرتها بمساعدته
لأحفظها بقدر ما أستطيع لشارلمان ذي اللحية البيضاء
أنني الآن حزين ومضطرب من أجل سيفي
خوفا أن يقع في يد مسلم فهذا أعظم من الام
الموت (٢٣٣٦ ـ ٢٣٦٣)

حرم ياربي العزيز أن يسبب العار لفرنسا
١٧٣ ـ وضرب الكونت رولاند على الحجر الرخامي
أنا لايمكنني أن أحدثك كم قطع منها وفصل
ومع هذا لم ينكسر السيف ولم ينثلم مع أنه أن وزمجر
وارتد نحو السماء عاليا من أثر الضربة
وعندما رأى الكونت انه لن ينكسر
التفت نحو نفسه وبلا شعور انتحب قائلا :
اه يادورندال الجميل والمحترم والمخلص
اي آثار مقدسة محزنة في مقبضك الذهبي
فيك اسنان القديس بطرس وفيك دماء القديس باسيل
وفي ضمنك مخبوء شعر مولاي القديس دينس
ومثل هذا فيك قطعة من ثوب مريم المباركة
انه ذنب أن أدعك تسقط في يد مسلم
ينبغي أن تستخدم من قبل رجال مسيحيين فقط
ولايجوز أن تسقط الى أي انسان جبان
أراضي واسعة كثيرة استوليت عليها بضرباتك
لاحتفظ بها لشارلمان ذي اللحية البيضاء كالثلج
لتزيد عرشه غنى وقوة
١٧٤ ـ وأخذ رولاند يشعر الآن أن الموت يضغط عليه بشدة
وأنه يزحف من رأسه هبوطا الى قلبه
تحت شجرة صنوبر حضة على الأسراع بالمغادرة

وتمدد هناك ووجهه الى الأسفل على العشب الأخضر
ومدد تحته سيفه وبوقه
وحول رأسه الى حيث كان المسلمين
وفعل هذا من أجل الفرنسيين ومن أجل شارلمان
وبما أنه كان راضيا سيقولون بالتأكيد : قلب شجاع
ذلك أنه مات قاهرا في النهاية
وضرب صدره مرات عديدة وبسرعة (٢٣٦٤ ـ ٢٣٨٩)
ثم عهد بقفازه وبذنوبه الى الرب
١٧٥ ـ شعر رولاند الآن بدنو نهايته
نحو طرف الرابية باتجاه اسبانيا حول رأسه
وبيد واحدة أخذ يضرب على صدره
ويقول : أرجوك يارب ان تغفر لي ذنوبي
جميع ذنوبي صغيرها وكبيرها
جميعها وكل مااقترفته منذ يوم ولدت
حتى هذا اليوم الذي أسقط فيه ميتا
مد بيده اليمنى قفازه نحو الرب
نزل الآن ملائكة من السماء الى جانبه
١٧٦ ـ تمدد الكونت رولاند تحت شجرة صنوبر
وتوجه نحو أرض اسبانيا وهو متمدد
وشرع في استعراض كثير من الامور في عقله :
جميع الأراضي الحدودية التي استولى عليها في أيامه
وفرنسا أجمل البلدان ، ورجال عصره
ومولاه شارلمان الذي رباه منذ صغره
ولم يتمالك نفسه عن البكاء والتنهد
ومع ذلك بذاته كان مشغولا آنذاك
فضرب صدره واستمطر رحمة الرب :
ايها الأب الحقيقي والذي ليس فيه كذب
يامن بعثت القديس لازاروس من الموت
واستعدت دانيال سالما من بين براثن الأسد
احفظ روحي من الخطر على الرغم

من جميع الذنوب التي اقترفتها في حياتي كلها
وقدم بيده اليمنى قفازه ليعطى للمسيح
ومن يده تقبل جبرائيل التقدمة (٢٣٩٠ ــ ٢٤١٥)
وفورا سقط رأسه فوق ذراعه
وبيدين متشابكتين وصل الى النهاية ومات
وأرسل الرب له ملاكه شيردباين
والقديس ميكائيل العظيم صاحب بيرل على الشاطىء
ومعهما كان القديس جبرائيل واقفا الى جانبه
وحمل هؤلاء روح الكونت الى الفردوس
١٧٧ ــ رولاند بين الاموات ، وفي السموات تسلم الرب روحه
وسار الامبراطور شارلمان عبر ممر رونسيفو
مامن نهج كان هناك أو طريق
أو ممر أو ذراع أو قدم من الأرض العارية
الا وكان هناك بعض جثث الفرنسيين أو المسلمين ممددة متناثرة
وصرخ شارلمان : أين أنت ، يابن أختي الحبيب ؟ أجبني
أين رئيس الاساقفة وهل تمدد أولفر ميتا ؟
أين غرين وأين تربه غيريير ؟
وأين بيرنغير والكونت أوثون الطيب ؟
وأين ايفور وايفز وهما من أحببت بشكل كبير ؟
وأين انغلير الكاسكوني الكبير والمرموق ؟
وأين الدوق سمسون وانسيس الشجاع ؟
وأين جيرارد العجوز من روسليون ؟
وأين الاتراب الاثني عشر الذين تركتهم لحراسة الحشد ؟
مافائدة النداء ؟ كلهم لم يتحركوا وكأنهم أحجار
وقال الملك : وارباه ، كم هو مر لومي لنفسي
انني كنت غائبا عندما وجهوا الضربة الأولى
وأمسك لحيته ، وهزها بحنق وغضب
وبكى البارونات والفرسان جميعا وانتحبوا
عشرون الفا تمـــاما ســـقطوا لحـــزنهم على الأرض بـــــلا
وعي (١٤١٦ ــ ٢٤٤٢)

وحزن الدوق نايمون بكل أحاسيسه
١٧٨ ـ لم يكن هناك بارون أو فارس في الجيش كله
لم ينتحب بمرارة وألم
ونادى الاخوة والأبناء والأحفاد بالويل
لأنهم سببوا شكوى مولاهم وصديقهم
وسقط كثير منهم الى الأرض وأغشي عليهم
ثم أظهر الدوق نايمون حكمة عظيمة
حيث تقدم نحو الامبراطور وكان أول من قال له :
انظر أمامك ربما على مسافة مرحلتين
هذه السحب من الغبار ، المتصاعدة في الجو
تبين كم هي حشود المسلمين كبيرة وكم هي مسرعة في فرارها
اركب ، اركب يامولاي ، وانتقم لهذه الواقعة المؤلمة
وقال شارلمان : واأسفاه ، أي فائدة حصلوا عليها
لاشك أنك أشرت بالصواب وبما يقتضيه الشرف
استلبوا زهرة فرنسا مني في هذا اليوم
واستدعى أوثون وغيبون لمساعدته
وتيبولد أوف رايمز والكونت ميلون الشجاع وقال لهما :
احرسا أرض المعركة ، واحرسا جميع الهضاب والوديان
وأقول : دعوا الأموات المتمددين كما هم متمددين
ولاتمكنوا الأسد من لمسهم ولاأي حيوان مفترس
ولاأن يلمسهم أي سيد أو أي طفل
انا آمركما ، مامن أحد ، مامن يد توضع عليهم
حتى نعود ـ أرجو الرب ـ الى هذه الأرض ثانية
وأجاباه بحب وباحترام عظيم قائلين :
مولانا الأكثر جلالة ايها الامبراطور العادل ، نحن لأوامرك طائعين
ثم عينا من أتباعهما ألفا من الفرسان
١٧٩ ـ وأمر الامبراطور أن تصدح الأبواق ايذانا بالحرب (٢٤٤٣ ـ ٢٤٧١)

وزحف الى الامام الملك الشجاع ومعه جيشه كله
وقاموا بعملية مطاردة شديدة لهدف واحد
هو رجال اسبانيا الذين اداروا ظهورهم هاربين
وعندما رأى الملك ان الظلام اخذ بالحلول
القى بنفسه فوق العشب في مرج أخضر
وجثا على الارض وأخذ يصلي للرب مولانا
حبا له أن يبقي الشمس حيث هي
وأن يطيل النهار وان يأمر الظلام بالانحسار
ومباشرة جاء ملاك اعتاد على الحديث معه
جاء بناء على دعوته واستجابة لندائه وقال له :
انت ستنتقم من حشود الكفرة
وعندما سمع الامبراطور هذا ، امتطى ظهر فرسه
١٨٠ ـ صنع الرب لشارلمان معجزة عظيمة
وقفت الشمس في منتصف السماء محبوسة
واستمر المسلمون بالفرار ولاحقهم الفرنسيون عن قرب
وأدركوهم في وادي تيذبروسا
فساقوهم الى سرقسطة وأوقعوا بهم ومزقوهم
وبضربات جبارة قتلوهم وهم يطاردونهم
وقطعوا عليهم طريق الانسحاب في طرق الجبال والطرق العادية
ومالبث نهر ابرو أن واجههم وهو يتدفق مسرعا
وكان عميقا جدا ومغرقا مخيفا
ولم يكن هناك سفن ، ولاجسور ولاعبارات
واستمطروا وهم في يأس الرحمة السماوية
وألقى المسلمون أنفسهم بالماء لكن ربهم لم يهتم بهم
والذين حملوا اسلحة ثقيلة من خوذ ودروع
غطسوا الى الاعماق بأعداد فاقت الحصر
وجرف التيار آخرين وسحبهم معه (٢٤٧٢ ـ ٢٤٩٥)
وكان السعيد بينهم من احتفظ بالقدرة على التنفس
وغرقوا جميعا بشكل مرعب جدا
وصرخ الفرنسيون : كان اليوم تعيسا ، يوم نظرتم الى رولاند

١٨١ ـ وعندما رأى شارلمان المسلمين جميعا موتى بدون شك
بعضهم قد ذبح والجزء الاكبر قد غرق
وأنه على اسلابهم الثمينة يمكنه أن يعتمد
ترجل الملك النبيل من على ظهر حصانه
وجثا على الأرض وقدم الشكر للرب
وعندما نهض وجد الشمس مضت نحو المغيب
وقال الامبراطور : أرى ان الوقت مناسب للعسكرة
فالوقت متأخر جدا حتى نعود الآن الى رونسيفو
لان خيولنا معقورة وقد أضناها التعب
ارخوا أحزمة السروج قليلا وانتزعوا اللجم من افواهها
ودعوهم يرعوا في هذه المروج من حولنا
ورد الفرنسيون : مولانا ، ماأشرت به سليما
١٨٢ ـ بات معسكر الامبراطور الآن منصوبا
وترجل الفرنسيون جميعا ووقفوا في السهل الفسيح
وحرروا خيولهم من سروجهم وأحزمتهم
وارخوا المقاود الذهبية وحلوها من فوق رؤوسهم
وتركوهم يرتعون حيث العشب كثيفا وطازجا
كان هذا جل مايمكنهم تقديمه لهم
ومن كان منهم منهكا اتخذ الأرض فراشا له
ولم يمركزوافي تلك الليلة ، من يتولى حراستهم
١٨٣ ـ واستلقى الامبراطور شارلمان على المرج الاخضر (٢٤٩٦ ـ ٢٥٢٢)

ونصب الى جانب رأسه رمحه الجبار
ولم ينزع عنه تلك الليلة دروعه وسلاحه
وظل واضعا عليه سابغته اللامعة والمطلية بلون العصفر
وابقى على رأسه خوذته المحلاة بالذهب والمجوهرات
وربط حول وسطه سيفه جوييوس الذي لانظير لشفرته
وهوذاك الذي يتغير لونه ثلاثين مرة باليوم
هل تعرف الحربة التي لطالما سمعنا عنها الحكايات

التي خرقت جنب مولانا عندما كان معلقا على الصليب ليقتل
لقد امتلك شارلمان رأس هذه الحربة ، والحمد للرب
واحتفظ بها كأثر مقدس في صندوق مذهب
واحتفاء بهذه الهبة وهذه المنحة الربانية
أطلق اسم جويوس على سيفة
نادرا ماكان بارونات فرنسا ينسبون ذلك الشيء
فلأجله صنع شعارهم ـ جبل المسرة ـ الحرب
ولهذا مامن أمة تستطيع أن تقف في وجههم
١٨٤ ـ الليلة صافية والقمر يشع براقا
واضطجع شارلمان لكنه لم ينم وبكى مانزل برولاند
ومن أجل أولفر بكى بقدر مااستطاع
وبكى الاتراب الاثنى عشر ، جماعته الفرنسيين الذين خلفهم وراءه
في رونسيفو موتى مضرجين بالدماء وتنهد
ودعا الى الرب ليأخذ أرواحهم الى الفردوس
وكان الملك منهكا ، لأن الحزن كان ثقيلا على عينيه
ولم يعد بامكانه الاستمرار ، فاستغرق بالنوم بعد قليل
ومثله نام جميع الفرنسيون هناك
ولم يكن بين الخيول من استطاع أن يظل واقفا
اذا أرادوا العشب رعوه وهم متمددين (٢٥٢٣ ـ ٢٥٤٩)
أن من يعاني يتعلم اشياء كثيرة في الحياة
١٨٥ ـ وكان شارلمان نائما وكأنه انسان هده الحزن
اليه جاء القديس جبرائيل مرسلا من مقعده في السماء
ليحرس الامبراطور ، بناء على أمر رباني
وبقي الملاك يحرس رأسه طوال الليل
ويريه ماأحب من أحلام :
معركة جديدة ، عليه ان يخوضها
وكشفت الرؤيا وسط معاني مأساوية
بدا شارلمان فيها واقفا ينظر الى السماء
وأمسك هناك عصا مشعة مخيفة ومرعبة

برق ورعد وعاصفة مرعبة وأمطار تشبه الثلج
ونار ولهب مضيء يتساقط وكأنه لوحات
كله بشكل مفاجيء على حشده في أرض الوغى
محرقا الرماح حتى تغدو رمادا وكذلك جذوع أشجار التفاح
حتى الذهب الذي طليت به الدروع كان يحترق
وصدر عن احتراق الرماح الحادة مايشبه الزوبعة
وتمزقت السوابغ والخوذ المصنعة من الفولاذ
ورأى فرسانه في حالة يائسة جدا
ثم جاء لافتراسهم دببة وفهود مخيفة
ديدان ، أفاعي مجنحة وعدد كبير من أنواع التنين ، وشياطين من الاعماق
وثلاثون الفا من الوحوش المجنحة جاءوا مع هؤلاء
جاء هؤلاء جميعا وانقضوا على الفرنسيين والتهموهم أفرادا وجماعات
وصرخ الفرنسيون : النجدة ياشارلمان اسرع لعوننا
وشعر الملك بألام بالقلب وبحزن عميق
وكاد ان يسقط مغشيا عليه لكن المصائب الجديدة حالت دون ذلك
وقفز اسد جبار من داخل الغابة
وكان منظره جبارا ومرعبا ومخيفا (٢٥٥٠ ـ ٢٥٧٢)
وهاجم الجسد الملكي وامسكه
وامسك أحدهما بالآخر واخذا يتصارعان : انسان ووحش
ولا يمكن أن نقول من كان هو الأسفل ومن كان هو الأعلى
وتابع الامبراطور غطيطه ولم يستيقظ من نومه
١٨٦ ـ وبعد هذه الرؤيا حلم الامبراطور ثانية :
انه وقف على دكة في فرنسا ، في مدينة اكس
وكان يقود دبا مربوطا بسلسلة مزدوجة
ومن آردن جاء ثلاثون دبا آخرين
تكلم كل منهم مثلما يتكلم البشر :
وبدوا كأنهم يقولون : سيدي أعده الينا
ذلك أنه ينبغي ألا يبقى في يدك

هو قريبنا وعلينا أن نقدم له العون
ورأى خارج القصر كلب صيد يسعى
رآه ينقض عن بعد على الدب الاكبر ويقاتله
على العشب الاخضر خلفهم مباشرة
أقام الامبراطور مبارزة حادة رائعة
لكن لا يمكن أن نخبر من الذي سيربح اليوم
عرض هذه الأشياء على الملك الطيب ملاك الرب
وظل شارلمان نائما حتى أشرق نور الصباح
١٨٧ ـ هرب مارسيل الى مدينة سرقسطة
وترجل في ظل شجرة زيتون
ووضع جانبا سيفه وبيضته ودرعه المشع
وعلى العشـــب الأخضر اســـتلقى بشــــكل تعب
(٢٥٧٣ ـ ٢٥٩٩)
ضاعت يده اليمنى ولا بد أن يعتاد على العيش بدونها
لشدة آلامه ونزيفه سقط مغشيا عليه
وأمامه جاءت زوجته الملكة براميموند
تبكي وتندب بصوت مرتجف مخيف
ووقف حوله عشرون الفا من اتباعه
يلعنون فرنسا الجميلة ويشتمون شارلمان
واقتحموا كهف أبولو ودخلوا عليه
فأهانوه اهانات بشعة وصرخوا في وجهه مهددين
آه ، لماذا أيها الرب الشرير جللتنا بالعار الآن؟
لماذا سمحت للفاجعة تحل بملكنا هذا ؟
تحل بعبد مؤمن وسيد كريم مثله
وانتزعوا صولجانه وتاجه
وعلقوه من يده مربوطا على عمود
وبعصا غليظة ضربوه وحصروه
ثم داسوه على الارض بأقدامهم
ومزق تيرماغانت رداءه وانتزع مجوهراته
وبأقدامهم ركلوه بعيدا الى أحد المجاري

لتدنسه الخنازير والكلاب وتدوس عليه
١٨٨ - واستفاق الملك مارسيل وعاد الى وعيه
فأمرهم أن يحملوه الى حجرته المقببة
التي نقشت بألوان لامعة ودهنت
وكانت هناك زوجته براميموند تبكي عليه
مزقت شعرها وصاحت يالك من سيدة تعيسة
وبكل كلمة تفوهت بها ندبتها وبكتها قائلة :
آه يا سرقسطة ، ستبقين مهجورة
لأجل هذا الملك العظيم الذي كان سيدك وحاميك
حقا إن ربنا تصرف نحوه بشكل رديء (٢٦٠٠ - ٢٦٢٩)
فهو الذي تخلى عنه اليوم في المعركة وسبب اخفاقه
وسيظهر الأمير نفسه مستسلما
ولن يخوض القتال ضد هذا الشعب الشجاع
الذي لا يعرف الاستقرار ويحمل أرواحه على أكفه
وامبراطورهم هذا الشيخ العجوز ذي اللحية البيضاء
لن يهرب إذا ما الحرب حمي وطيسها
أسفي أنه ليس هناك من يقوم بقتله
١٨٩ - بقوة السلاح والبراعة أمضى الامبراطور شارلمان
سبع سنوات تامات متصلات في اسبانيا
وحاز عددا من المدن والقلاع لنفسه
وبذل مارسيل كل ما أوتيه من طاقة للمقاومة
وأرسلت في السنة الأولى رسائل منه
الى باليغانت في بابليون بعث يقول :
الى الأمير هذا الرجل المغرق بالقدم
الذي عاش أكثر من هومر وفرجيل
دعه يقدم الى سرقسطة مسرعا ليفرج عنا
إن لم يأت سيتخلى مارسيل عن رب المسلمين
(وتقول الأوامر) عليه أن يتخلى عن جميع الأوثان التي يعبدها
وأن يخضع الى الايمان المسيحي المبارك
وأن يعقد سلمه مع الملك شارلمان

كان هناك تأخير فالأمير عاش في منطقة نائية
من أربعين مملكة استدعى شعبه اليه
وبعد طول انتظار أكمل تجهيز مراكبه العملاقة
وسفائنه وشوانيه وبوارجه وقواربه وسفن القتال
في الاسكندرية حيث المرسى واسع وعميق
في البحر اسطوله كله جاهز للاقلاع
في أيار حيث أول بداية الصيف
وانطلق في سبيله مع جميع جيوشه
١٩٠ ـ كانت قوات هـــذا العـــرق المذبـــوذ هـــائلة
(٢٦٣٠ ـ ٢٦٤٨)

وأبحر المسلمون وتحركت سفنهم بالمجانيف والأشرعة
وقفوا على السواري العالية وعلى المقدمات الطويلة
ما لايحصى من المصابيح والمجوهرات لمعت
وبدا البحر في الليل جميلا مشرقا
وعندما وصلوا أرض اسبانيا
أشرق الساحل كله ولمع من خلال الاشعاعات
وسمع مارسيل أخبار أفادت أنهم على الطريق
١٩١ ـ وسارت الحشود الاسلامية باذلة جهدها المستطاع
غادروا البحر وجددوا الآن نشاطهم
وعبروا مار برايس ثم خلفوا ماربروس وراءهم
واتجه الاسطول بأكمله نحو الابرو وأبحر بهدوء
مع اللالىء وما لا يحصى من المشاعل تضيء
ومن المساء حتى الفجر توفرت لديهم الكثير من الاضواء
وفي اليوم التالي وصلوا الى سرقسطة
١٩٢ ـ وكان النهار مشرقا ، وبدت الشمس جميلة المنظر
ومن السفينة نزل الأمير العظيم
وعن يمينه سار الاسبانيون
وسار خلفه سبعة عشر ملكا وتبعوه (٢٦٤٩ ـ ٢٦٧٨)
لا يمكنني أن أحصي عدد الكونتات والبارونات الذين كانوا هناك

في مرج جميل تحت شجرة غار
انتشرت ثياب بيضاء كأنها الثلج على بساط أخضر
وعليها نصبوا عرشا من العاج
هناك اتخذ باليغانت المسلم مجلسه
وأحاط به جميع الذين جاءوا معه ووقفوا أمامه
وكان أول من تكلم منهم سيدهم ومولاهم قائلا :
استمعوا إلي الآن وأصغوا أيها الفرسان الشجعان والأحرار :
إن الامبراطور شارلمان الذي يملك الفرنجة ويدير أمورهم
لن يأكل الخبز ما لم آذن له
لقد عمل ضدي في اسبانيا بشكل مقيت
الآن سأذهب الى فرنسا الجميلة وهناك سأواجه قواه
وما دمت حيا أنا لن أتوقف عن الحرب
حتى يموت أو يستسلم إلى حيا
وكان في تلك الأثناء ممسكا قفازه بيده اليمنى يضرب على ركبته
١٩٣ ـ وتحدث ثم أقسم يمينا لهذا القصد
أنه لن يتراجع مقابل الذهب الموجود تحت قبة السماء
عن الذهاب الى اكس حيث يقيم شارلمان بلاطه
وأعلن رجاله عن موافقتهم وأيدوا جميع ما قاله
واستدعى الآن اليه اثنين من الفرسان من بين البقية
وكان احدهما كليرفانت والآخر كليرين وخاطبهما :
أنتما ابنا الملك مالترين
الذي انطلق من عندي سفيرا بكل سرور ورضى
آمركما أن تسافرا من هنا الى سرقسطة
وأن تخبرا باسمي ما يلي الى الملك مارسليون :
إنني قدمت لمساعدته ضد الفرنسيين
وسأثير حربا عوانا حيث ألتقيهم
أعطياه هذا القفاز الموشى بالذهب
وتأكدا من أنه سيرتديه بيده اليمنى
وأعطياه أيضا هذا الصولجان المصنوع من الذهب الخالص
(٢٦٧٩ ـ ٢٧٠٤)

واطلبا منه أن يأتي للقائي وأن يقدم لي هنا ولاءه التام
أنا سأذهب الى فرنسا للحرب ضد شارلمان حتى الموت
إذا لم يستلق أمام قدمي رغما عنه
إذا لم يتنكر لايمان الرجال المسيحيين
فإنني سأنتزع التاج من على رأسه
وقال المسلمان : مولاي هذا صحيح وحسنا قلت
١٩٤ ـ قال باليغانت : أيها السيدان الى الخيول ، انطلقا
واخذ أحدهما القفاز ، وأخذ الآخر الصولجان
وأجاب الرجلان بثقة : مولانا العزيز سنفعل
وانطلقا الى سرقسطة فوصلاها ظهرا
واجتازا عشرة أبواب ، وعبرا أربعة جسور
وقطعا الشوارع حتى وصلا الى حيث الحكام
وعندما وصلا أخيرا الى أعلى المدينة
سمعا أمام القصر بكاء عاليا وطويلا
وتجمعت هناك اعداد كبيرة من المسلمين في حشود
يبكون ويندبون بأصوات حزينة
على تيرماغانت ومهوند الهيهما
وعلى أبولو : الذين من خلالهم خسرو
وكان كل منهم يصرخ : ويل لي ، ما الذي سيكون مصيرنا ؟
لقد سقطت على رؤوسنا كارثة مرعبة
واسفاه ، لقد فقدنا ملكنا مارسيلون
الكونت رولاند قطع يمينه
وجورفرت الحكيم قد مات ايضا
اسبانيا كلها اليوم ستقع تحت نيرهم
وترجل الرسولان وصعدا الى الداخل فورا
١٩٥ ـ وتركا تحت شجرة زيتون فرسيهما تنتظران
(٢٧٠٥ ـ ٢٧٣٢)
وأسرع مسلمان للامساك بمقوديهما
وأمسك كل من الرسولين أحدهما بثوب الآخر
ودخلا وإلى القصر العالي صعدا

وعندما جاءا الى الحجرة المقببة
حاولا أن يقدما تحيتيهما بشكل لطيف في ذلك الجو الكئيب :
ليقم مهوند ، الذي يحمينا
والرب أبولو ، وتيرماغانت برعايتهم
بحماية الملك ، وأن يجعلوا الملكة سعيدة
وقالت براميموند : لماذا أسمع هذا الكلام الأحمق
أربابنا هؤلاء خونة تعساء
لقد صنعوا عجائب في رونسيفو الحقير
لقد تركوا فرساننا يقتلون بدون عون
وبالنسبة لمولاي ، لقد خانوه تماما
ذهبت يمناه ولم يبق منها ادنى أثر
لقد قطعت بضربة من رولاند ، الكونت الذي لا نظير له
الآن غدت اسبانيا كلها عرضة لأن يمتلكها شارلمان
وماذا عني ، أنا السيدة المثكلة التعيسة
الويل لي هذا اليوم ، اليس هناك من يقوم بقتلي ؟
١٩٦ ـ وقال كليرين : سيدتي ، اضبطي لسانك لبعض الوقت
لقد وصلنا من عند باليغانت المسلم
الذي اعلن انه سيقدم العون الى مارسيل
وقد ارسل قفازه وصولجانه كعلامة
وعلى سطح نهر ابرو هناك الآن أربعة آلاف من السفين
ومراكب أخرى الى جانبها لا يمكن عدها
أميرنا غني ، ليس هناك من يجاريه بقوته
سيذهب الى فرنسا ، وهناك سوف يجد شارلمان
وسيجعله يستسلم أو يقتله ويزيله من الوجود
(٢٧٣٣ ـ ٢٧٦٠)
وقالت براميموند : بعيدا حتى فرنسا ؟ عجبا ، عجبا !
لدينا أعداد كبيرة من الفرنجة على مقربة منا على بعد أميال
هؤلاء هنا منذ سبع سنين دونما انقطاع
ألامبراطور شارلمان قوي ومولع بالقتال
ليس هو من يفر من المعركة بل انه يؤثر الموت على ذلك

يعد أفضل الملوك الأحياء ليس أكثر من مجرد طفل
شارلمان لا يخشى أي انسان بين الأحياء
١٩٧ ـ ثم قال الملك مارسيل : صنع ، وصنع
والتف نحو السفيرين قائلا : أرجوكما ايها السادة الي تـوجها بالخطاب
أنا واقف على باب الموت ، كما تريان بكل وضوح
ما من ولد ، وما من ابنة ، ولا وريث أنا سأترك
كان لدي ولد واحد وقد قتل بالأمس
اطلبا من الأمير ان يقدم لزيارتي
دعوى جيدة وصحيحة بالنسبة لأرض اسبانيا
إن ود أن يتملكها سأتخلى له عنها بمحض ارادتـي ضـد هـؤلاء اللصوص الفرنجة
وسأعلمه كيف عليه ان يتعامل مع شارلمان
وبشهر واحد سيهزمه ويجعله يخر أمامه على ركبتيه
اذهبا من سرقسطة ، واحملا له المفاتيح
ليأخذها ويمتلكها اذا تمسك بنصائحي
وأجاباه :مولانا ، كلماتك معقولة حقا
ثم قال مارسيل : امبراطور الفرنجة
قتل رجالي وعاث فسادا في أرضي
ودمر مدني ايضا ونهبها
ووصل الليلة الماضية الى ضفاف نهر ابرو
على بعد اقل من سبع مراحل ، أقام معسكره ، وفق ما اقدر
اطلبا من الأمير ليقدم وقواته بأقصى سرعة ممكنة
بوساطتكما أكلفه بالزحف للقتال (٢٧٦١ ـ ٢٧٨٩)
ووضع مفاتيح المدينة في ايديهما
ثم انحنى الرسولان احتراما أمامه
وودعاه وركبا الطريق نحو معسكرهما عائدين
١٩٩ ـ وامتطى الرسولان فرسيهما
وانطلقا مغادرين للمدينة بأقصى سرعة ممكنة
ووصلا الى الأمير وهما على درجة كبيرة من الخوف

وقدما له مفاتيح سرقسطة
وقال باليغانت : مالديكما من أخبار لتحكيا ؟
أين الملك مارسيل ، الذي اليه ارسلتكما ؟
وأجاب كليرين : إنه مصاب بجرح مميت
بالأمس اتجه شارلمان نحو الممرات
وقصده العودة الى فرنسا
ووضع في ساقة جيشه قواتا نبيلة
وخلف هناك ابن اخته الكونت رولاند
وأولفر وجميع الأتراب الاثني عشر
وكان معهم عشرين الفا من الفرنسيين مسلحين
وعليهم انقض الملك الشجاع مارسيل
وعلى أرض المعركة تواجه مع الكونت رولاند
وهناك سدد ضربة بدورندال
فقطعت يمين مارسيل وفصلتها عن جسده
وكذلك ابنه ، الذي أحبه كثيرا ، قد مات
وجميع البارونات الذين قادهم كلهم قتلوا
ولم يستطع تحمل ذلك ، فهرب من ساحة القتال
وطارده شارلمان لمسافات طويلة
ويرجو الملك الآن أن تجلب له المساعدة
واليك يتنازل عن مملكة اسبانيا
وبات الآن على باليغانت أن يفكر بنفسه
ولشدة غضبه وحزنه كاد أن يفقد رأسه
٢٠٠ ـ قال كليرين ثانية : سيدي الامير (٢٧٩٠ ـ ٢٨١٨)
بالأمس وقعت معركة في رونسيفو
رولاند قد مات والكونت أولفر قد قتل
وكذلك الأتراب الاثني عشر الذين أحبهم شارلمان
عشرون الفا من الفرنسيين تمددوا موتى على أرض المعركة
بترت يمين مارسيل وعن جسده فصلت
وعلى الفور قام الامبراطور وهو حاذق بعملية مطاردة
لم يبق ولا فارس في أرضه

إما قد قتل أو غرق بين أمواج الابرو
ونصب الامبراطور معسكره على ضفاف النهر هناك
إذا ماانطلقت الآن ، ستجدهم معسكرين قريبا من هذا المكان
أي أنهم سيجدون من الصعب عليهم الفرار
وفيما باليغانت يستمع أشرق وجهه بالفخار
وامتلأ قلبه سرورا وانشراحا
وقفز من على عرشه وانتصب قائما
وصاح رافعا صوته : تعالوا ايها الأمراء دونما تأخير
واخرجوا من السفن ، وامتطوا خيولكم ولننطلق مسرعين
حتى لا يتمكن شارلمان من النجاة فرارا
سينتقم الملك مارسيل هذا اليوم
وسأعطيه رأسا بدلا عن الذراع
٢٠١ ـ وخرج المسلمون العرب من السفن
ومالبثوا أن امتطوا خيولهم وبغالهم
وركبوا الطريق مسرعين بأقصى ما أوتوه من قوة
ثم قام الامير الذي حرك عواطفه الحربية
باستدعاء جمالفين خيرة بحارته
وخاطبه قائلا :أعهد اليك بقيادة جميع قواتي
ثم امتطى مهره ذي اللون البني
واتخذ حرسا لنفسه يرافقونه أربعة من الأمراء
ونحو سرقسطة ارتحل قاصدا
وعلى دكة من الرخام المنحوت أقيمت هناك (٢٨١٩ ـ ٢٨٤٤)
وقف أربعة كونتات لامساك ركابه
وصعد السلم القائم تحت سطح القصر
والى هناك أقبلت براميموند مسرعة لاستقباله
وصرخت وهي تتلقاه : الويل لي من الأخبار المرعبة
مولاي يموت ، موت مشين في غير وقته
وارتمت امامه ، فما كان منه الا أن ساعدها على النهوض
وقدما الى الحجرة بوضع كئيب

٢٠٢ ـ عندما رأى الملك الامير يدخل
استدعى على الفور اثنين من مسلمي اسبانيا وقال :
أعيراني أذرعتكما ، وارفعاني حتى أستطيع الجلوس
فامسك بيده اليسرى أحد قفازيه
ثم قال مارسيل : سيدي الامير مولاي الملك
انظر ، هذه البلاد كلها (أضعها بين يديك)
وسرقسطة وجميع اقطاعاتها مقدمة لك
بالنسبة لنفسي ، أنا فقدت شعبي وأقربائي
ورد عليه قائلا : انني اشعر بالحزن العميق لهذا
على عدم الاقامة طويلا للتشاور
سيسافر شارلمان ، أنا اعرف ذلك ، انه سيرتحل
ومع هذا سآخذ قفازك وهداياك
واستدار وهو يبكي وقد امتلأ صدره بالحزن العميق
وهبط على السلم ومن ثم غادر القصر
وامتطى فرسه والتحق برجاله المتقدمين
وتجاوزهم جميعا وساق مسرعا
وتقدم وهو يصرخ بصوت مرتفع ومناسب :
أيها المسلمون تقدموا ، صدقوني الاعداء يهربون الآن
٢٠٣ ـ مع انبلاج الفجر ، عندما يظهر أول نور النهار
(٢٨٤٥ ـ ٢٨٦٩)

استيقظ الامبراطور شارلمان من نومه ظهرا
الملاك المكلف بحراسته ، القديس جبرائيل المرسل من قبل الرب
رفع يده ورسم عليه علامة الصليب
وكان الملك متجردا ، قد وضع سلاحه جانبا
ومثله كان الحشد بأكمله قد أرخى أعنة خيوله
وامتطى الجميع خيولهم وتقدموا مسرعين
خلال السهول الفسيحة وعلى طول الطرقات
لقد ذهبوا ليشاهدوا الخسائر الهائلة
في رونسيفو حيث نشبت المعركة

٢٠٤ ــ الى رونسيفو جاء شارلمان وتجول
ورأى الموتى ، وذفرت الدموع من عينيه
وخاطب الفرنسيين قائلا : أيها السادة تحركوا بأناة
سأمضي أنا أولا ، لوحدي ، بدون من يمشي الى جانبي
لأنني شيخشى علي عندما سأجد جسد ابن أختي
بعيدا في اكس ، كنت واقفا في أحد أيام الأعياد
ومن حولي يقف رجالي الشجعان
يتفاخرون بالمعارك وبحروبهم المريرة
قال رولاند شيئا أنا الآن أتذكره
أن عليه الذهاب الى أرض غريبة الموت هناك
وسيتمدد خلفهم جميعا من مشاة او اتراب
وسيجعل وجهه منعطفا باتجاه الأعداء
فقد سقطوا بالقتال ، وانتهى وكأنه منتصر
أمام البقية ألقيت عصاة أو على مقربة منهم
ومضى الامبراطور ثم تسلق الى قمة رابية
٢٠٥ ــ وفيما الملك ذاهب للبحث عن ابن أخته
(٢٨٧٠ ــ ٢٨٩٥)
رأى ورودا كبيرة فوق المروج
حمراء بدم فرساننا
وشعر بالأسى وما كان بامكانه الامتناع عن البكاء
ووصل الآن الى مكان تحت شجرتين
ورأى هناك أن الكونت رولاند قد ضرب على ثلاثة احجار
وشاهد ابن اخته ممددا على عشب أخضر
وليس غريبا ان بكى شارلمان بشكل حاد
وترجل بسرعة والى هناك ركض على قدميه
وأمسك بيديه وجنتي البارون
وسقط فوقه مغشيا عليه فقد اعتصره الحزن
٢٠٦ ــ واسترد الامبراطور وعيه ورفع رأسه
ثم تلاه الدوق نايمون والكونت اسيلون

ومن بعدها غودفري دي انجو واخاه هنري
ونهض الملك ووقف امام جزع شجرة صنوبر
ونظر نحو الارض فرأى ابن اخته ميتا
وبنعومة كبيرة تفوه بهذا الرثاء:
ليظهر لك الرب الرحمة ياكونت رولاند ، ياصديقي
كنت فارسا عظيما ومثلك لن يرى ثانية
للقيام بالحروب الكبرى ونيل النصر ايضا
واأسفي ، امجادي تغرق لتنتهي
وفقد الملك شارلمان وعيه وماعاد بامكانه مساعدة نفسه
٢٠٧ ــ واستفاق الملك شارلمان وبدأ يسترد وعيه
وامسكه اربعة بارونات بين ايديهم ونهضوا به
جسمه جميل ، لكن جلده كله ابيض شاحب
وحرك عينيه اللتين ظللهما الليل
وبصدق وحب ندبه شارلمان قائلا :
رولاند ، ياصديقي ، الرب قد رفع روحك
الى جنات الفردوس بين الورود النضرة
مولاك التعيس قد ارسلك الى اسبانيا لتموت
لن يعيد النهار الراحة الى عيني
بسرعة قصوى ذوى سروري وضعفت قواي
لن استطيع الاحتفاظ بشرفي مشرقا
واعتقد انه لم يبق لي صديق واحد تحت السماء
لي اقرباء ، لكن مامن واحد منهم مثلك
ومزق شعره بكلتا يديه لشدة اساه
وشهق مائة الف من الفرنسيين حزنا
ومامن واحد منهم الا وبكى وعلا صوته بالنحيب
٢٠٨ ــ رولاند ، ياصديقي ، انا ذاهب الى فرنسا ثانية
وعندما سأكون في ليون في مملكتي
سيأتي كثيرون من ممالك وشعوب غريبة
يسألون : اين هو ، الكونت القائد العظيم ؟
وانا لابد ان اخبرهم انه متمدد ميت في اسبانيا

وساحكم طوال حياتي بالحزن
ولن اتوقف يوما من الايام عن الشكوى والالم
٢٠٩ ـ رولاند ، ياصديقي ، ياصاحب القلب الشجاع الطيب
عندما سأكون في اكس تحت سقف بيعتي
سياتي كثيرون وسيسالون عن الاخبار
وعندها لابد من اخبرهم بالحقيقة الغريبة والثقيلة
ابن اختي ميت ، ذاك الذي اخضع لي جميع ممالكي
ثم سيثور السكسون ضد حكمي (٢٩٢١ ـ ٢٩٤٨)
والهنغار والبلغار وكثير من الشعوب المعادية سيأتون
من روما وبالرمو وابوليا للنهب
وعصابات الافارقة ، فريق الكاليفرنين
وعندما ستتجدد اضطراباتي ومتاعبي
اين هي الطاقة التي تمكنني من قيادة عساكري
بعدما مات الذين اعتاد دوما ان يمكننا من النجاح؟
واأسفي عليك يافرنسا الجميلة ، كم انت تعيسة
انا كئيب جدا ، وسأهلك انا ايضا
ومزق لحيته التي كانت بيضاء كالثلج
واقتلع من رأسه شعره الابيض من الجذور
ومائة الف من الفرنسيين فقدوا وعيهم مثله
٢١٠ ـ رولاند ، ياصديقي ليمنحك الرب رحمته
وليجعل مقر روحك في الفردوس المبارك
ان الذي قتلك دمر فرنسا ايضا
حزني عظيم جدا حتى انني أود لو كنت ميتا
اسفي على اهل بيتي الذين قتلوا دفاعا عني
اجعل الان يارب يامن استلقيت على صدر ماري
قبل ان تتمكن قدماي من جواز ممر سيزر
تخرج روحي من جسدي
واجعلها بين ارواحهم ، ومكنها من السكنى معهم
واجعل جسدي تحت التراب الى جانب اجسادهم
وبكى لأساه ، ونتف شعر لحيته الشهباء

وقال الدوق نايمون : شارلمان في وضع محزن للغاية
٢١١ – ثم تكلم غودفري دي انجو قائلا : مولاي الامبراطور
ارجوك ان تهدأ ، والا تحزن بمثل هذه المرارة
دعنا نفتش في ارض المعركة عن رجالنا وامرائنا
الذين قتلوا رجال اسبانيا اثناء المعركة
وان ندفنهم جميعا في قبر واحد
واجابه الملك : سأفعل ، اذهب واصدح في بوقك
٢١٢ – وجعل غودفري دي انجو بوقه ينعق
وبأمر من شارلمان ترجل الفرنسيون بلا تأخير
وعندما تم العثور على جثث جميع اصدقائهم
وضعوهم جميعا في حفرة كبيرة تحت الارض
وطاف الاساقفة ورعاة الاديرة بين الحشود هناك
وكذلك القساوسة والرهبان ورجال الدين الذي حلقوا منتصف روؤسهم
وباسم الرب حللوهم وصلبوهم
واحرقوا المر والبخور فتعالى الدخان كثيفا مثل السحاب
وطيبوهم جميعا بكل عناية وايديهم حولهم
ثم رفعوا جميعا بتشريف عظيم نحيب الدفن والعويل
وتركوهم هناك ، وماالذي بامكانهم ان يفعلوا اكثر؟
٢١٣ – واعد شارلمان رولاند لطقوس الدفن
والى جانبه الاسقف توربين واولفر
وجعل اجسادهم مكشوفة امامه
وغلف قلوبهم بقماش حريري ناعم
ووضعهم في تابوت من الرخام الابيض
ومالبثوا ان صنعوا الغطاء من جلد خاص
وذلك بعدما غسلوهم اولا بالسدر والخمر
ودعا الملك تيبولد وغيبون للوقوف الى جانبه
وكذلك المركيز اوثون وكونت ميلون وقال لهم :
ضعوهم على ثلاث عربات وانتم ينبغي ان تكونوا قادتهم

ومدوا على كل واحدة شقة من الثياب الغلاطية
٢١٤ ـ كلهـــم انطلقـــوا يريدون الوطـــن تحـــت لواء شارلمان (٢٩٧٤ ـ ٢٩٩٨)
وفجأة جاء احد الطلائع المسلمين
كان قد ركب مسرعا امام السفراء
المكلفين بحمل اخبار التحدي من الامير :
لاتفكر ايها الملك المتفاخر بالمغادرة سالما دون جراح
انتبه إن باليغانت مطارد لك بشدة
جلب معه حشدا عظيما من العرب
والان سنرى فيما اذا كنت قوي القلب
ومرر الملك اصابعه فوق لحيته
وهو يتذكر خسائره والضربات المريرة
وبفخار القى نظرة على حشود فرنسا
ثم ارسل صوتا عاليا سمع عن قرب وبعد :
بارونات فرنسا ، الى خيولكم ، الى السلاح
٢١٥ ـ وكان الملك اول من حمـل الســلاح للنزول الى ســاحة الوغى
ارتدى بكل سرعة دروعه اللامعة
وشد بيضته على رأسه وتمنطق بسيفه الفولاذي
جوبوس الذي يفوق شعاع نصله شعاع الشمس
وعلق على رقبته مجنه القوي الاصيل
وتناول رمحه ، وهزه من قناته
ثم امتطى حصانه الاصيل تدسندور وساق
وعند مخاضه ارسون او قبيلها ربح الدابة
والقى مالبالين صاحب نربونه من على مقعده
بعدما ارخى لفرسه العنان ساق ضده بشدة
وعدا يركض مسرعا ليرى جميع رجاله
داعيا الرب وذاك الذي يحمل المفاتيح .
٢١٦ ـ وترجل الفرنسيون في السهل مباشرة

ووضع مائة الف او اكثر على انفسهم دروعهم
وبالنسبة للتجهيزات توفر لديهم كل ما يتمناه القلب
خيول سريعة ورشيقة واسلحة اعدت بشكل جيد
وامتطوا خيولهم واظهروا تدبرهم ونظامهم
وعندما يحين الوقت سيقاتلون بكل شجاعة
وفوق رؤوسهم خفقت الاعلام زاهية
وعندما راى شارلمان كم هو رائع منظرهم
وهكذا التفت نحو الدوق نايمون وانتلمي الشجاع صاحب ميذس
وجوز راين صاحب بروفانس وبادرهم بالقول :
بمثل هؤلاء الرجال يمكن للانسان ان يثق
ومن يشك بهؤلاء يعد احمقا
حسنا فعل هؤلاء العرب انهم جاءوا للانتقام
اظن انهم سيدفعون غاليا ثمنا لموت رولاند
واجابه الدوق نايمون : ادعو الرب ان يمنحك ذلك
٢١٧ ـ واستدعى شارلمان رابل وغوينمانت
ثم خاطبهما الملك قائلا : امركما ايها السيدين الان
ان تاخذا مكان رولاند واولفر
وليامخذ احدكما السيف والاخر البوق
واركبا وتقدما قائدين على رأس الجيش
مع خمسة عشر الفا من الفرنسيين وراءكما
من العزاب والشبان والاكثر شجاعة في البلاد
ثم سيشكل عددا مساويا الرتل الثاني
يتولى قيادة غيبوين ومعه غوينمانت
والدوق نايمون والكونت جوزراين
مارشال الارتال تبعا لهذه الخطة
وسيكون هناك عملا كبيرا عندما سيقاتلون يدا بيد
٢١٨ ـ وتكون الرتلان الاول والثاني من الفرنسيين
والرتل الثالث ، الذي كونوه بعدهما
تشكل كليا من الرجال البافاريين الشجعان
وكان قوامه عشرين الفا من الفرسان

صفوفهم في المعركة لن تكسر ولن تلوى
عدهم شارلمان اغلى ما عنده تحت السماء
اللهم باستثناء فرنسيه الذين ربحوا لصالحه هذه الممالك الواسعة
وكان اوغيير الداني ، الكونت الطيب ، على راسهم
وكانوا عساكر عظيمة وكان هو مقاتلا مرعبا
٢١٩ ـ وامتلك الامبراطور شارلمان الان ثلاثة ارتال
ثم قام الدوق نايمون فشكل رتلا رابعا
وتم تشكيل هذا الرتل من لوردات شجعان جدا
كلهم المان ، وكلهم ولد في المانيا
وروي ان عددهم كان عشرين الفا او ما يقارب ذلك
وكانوا مجهزين بشكل جيد بالسلاح والخيول
هم لم ينكلوا أبدا مع أنهم قد يتعرضوا للفناء جميعا
وقادهم هيرمان دوق تريس الى الحرب
وكان هذا يؤثر الموت على التراجع او النكول
٢٢٠ ـ الدوق نايمون والكونت جوزراين
اختارا الرجال لتشكيل الرتل الخامس من اراضي النورمان
وكانوا عشرين الفا حسبما احصاهم الفرنجة
معهم مايكفيهم من الخيول ومع كل رجل ما يحتاجه من عتاد
وكانوا يؤثرون الموت على ان يديروا ظهورهم للاعداء
ومن الصعب ان يوجد من يحاربهم تحت السماء
وكان رتشارد العجوز قائد صفوفهم
سيسدد ضربات طيبة بسنان رمحه الحاد المحمول بيده
٢٢١ ـ وكان في الرتل السادس رجال بريتاني (٣٠٥٢ ـ ٣٠٧٤)
وكان تعدادهم الكامل ثلاثون الفا من الفرسان
وزحفوا الى الامام ، وساقوا امام الجميع مسرعين
حاملين رماحا ملونة عليها اعلام خفاقة
وتولى يودون القيادة على هذه الجماعة

المركيز اوثون وتيبولد لورد الرايمز
استدعاهما كونت نيفيلون وإليهماتوجه بالخطاب
أرجوكما قودا رجالي ، وتقبلا هذه الهبة مني
٢٢٢ ــ بات لدى الامبراطور ستة أرتال جاهزة
ومضى الدوق نايمون لتشكيل السابع
ووقع اختياره على لوردات أوفرين وبواتو
وتجمع لديه أربعون الفا من الفرسان أو نحو ذلك
وكلهم جيد التسليح وامتطوا خيولا طيبة
وعسكر بهم في بطن أحد الوديان تحت إحدى الهضاب
وباركهم شارلمان جميعا بيمينه
وتولى قيادتهم غودسلم وجوزراين معا
٢٢٣ ــ وشكل نايمون بكل سرعة رتلا ثامنا
تكون من الفلمنكيين وبارونات فريزيا
وكان بصحبتهم اربعين الفا من الفرسان او ربما اكثر
وكانت صفوفهم القتالية مرصوصة بدون خلل
وقال شارلمان : افضل من هؤلاء لايمكنني أن أتمنى
الشجاعة الصحيحة هي المتحكمة بهؤلاء الجنود
٢٢٤ ــ ولم يتوقف الكونت جوزراين ونايمون عن العمل
بل شكلا الرتل التاسع من العساكر الشجاعة
من رجال اللورين ومن شعب برغنديا
وقدرت حشودهم بخمسين الفا من الفرسان
خوذاتهم مشدودة وسوابغهم مربوطة
رماحهم قصيرة لكنها قوية بشكل فائق
اذا لم ينهزم العرب من صدمة المعركة
ما ان يندفع هؤلاء سيعطوهم كل ما يستحقونه
لقد قادهم ثيري دوق اراغون الطيب
٢٢٥ ــ ووقف في الرتل العاشر لوردات فرنسا واصطفوا
وكانوا مائة الف من خيرة قادتنا
ووقفوا بكل فخار ، وكانت قاماتهم ممدودة تماما

وكانت رؤوسهم علاها الشيب ولحاهم شهباء
ولبسوا السوابغ وضاعفوا الدروع
وتمنطقوا بالسيوف المصطنعة بجودة في فرنسا أو اسبانيا
وكان لديهم ترسة رائعة مشرقة بشكل بديهي
وامتطوا خيولهم ومضوا بانتظام الى القتال
وصرخوا ـ جبل المسرة ـ وكان معهم شارلمان
وغودفري دي انجو الذي نصب الراية المقدسة
وكان اسمها « القديس بطرس » ثم دعيت « رومين »
لكن الى « جبل المسرة » غيرت فيما بعد اسمها
٢٢٦ ـ وتـــرجل الامبـــراطور الان مـــن على حصـــــانه
(٣٠٩٦ ـ ٣١٢٤)

وجثا على ركبتيه فوق عشب اخضر وطأطأ رأسه
ثم رفع وجهه نحو الشمس المشرقة مباشرة
وتوجه بالدعاء الى الرب باحترام قلبي قائلا :
ابانا الحقيقي ، في هذا اليوم سادافع عن قضيتي
انت الذي مددت عونك الى يونس
في جوف الحوت ، واخرجته سالما من هناك
وبعدما وفرت ملك نينوى
انقذت عبدك دانيال
من بين أنياب الأسد الشجاع المفترس
ووقيت الاطفال الثلاثة وسط النار
مولاي اجعل هذا اليوم هبتي وعوني
واذا كان يرضيك ، امنحني ذلك قبل نهاية النهار
لانتقم تماما لابن اختي رولاند
ونهض بعدما انهى صلاته ، ووقف منتصبا
ورسم علامة القوة على حاجبه وعلى صدره
وقفز الملك مرة جديدة إلى ظهر فرسه
وأمسك جوزراين ونايمون بركابه
وتناول ترسه ورمحه الحاد السنان أيضا

كان جسمه متماسكا وقامته منصوبة
ووجهه فرنجي ، ونظراته واثقة
وانطلق نحو الامام متمكنا من ركابيه
من المقدمة الى الساقة ارتفع الزئير وتصاعد
وتردد صوت البوق فوق رؤوس الجميع
وذكرى رولاند جعلت الدمع يتحدر من عيون كل الفرنسيين
٢٢٧ ـ ومضى الامبراطور شارلمان في طريقه بشكل مهيب
وترك لحيته تتطاير فوق درعه
وحيا به فعل الفرنسيون مثله الشيء نفسه
هكذا كان من الممكن تمييز هؤلاء المائة الف
وعبروا الجبال وعبروا المرتفعات الصخرية
وخلفوا الشعاب العميقة والوديان الضيقة خلفهم
وزحفوا مسرعين عبر الممرات والأراضي الجرداء
لقد زحفوا عبر الاراضي الاسبانية
وفي أحد السهول عبأوا صفوفهم للقتال
وفي الوقت ذاته عاد الكشافة الى باليغانت
وروى احدهم ، وكان سوريا ، ماراه كما يلي :
راينا الملك شارلمان بكل عظمته
رجاله أشداء ، ليس للفرار في ذهنهم مكان
احمل سلاحك الآن ، لانك ستشتبك بالقتال
وقال باليغانت : تلك شجاعة ، اعلن هذه الاخبار
الى جميع المسلمين ، اذهب وازعق بالبوق عاليا
٢٢٨ ـ وقرعوا وسط الحشود طبول الحرب
وصوتت نفرهم ، وزعقت ابواقهم
واندفعت حشود المسلمين الى حمل السلاح
وتقدمها في ذلك الامير العظيم
وارتدى سابغة طلي مئزرها باللون العصفري
وشد بيضته المرصعة بالجواهر والمحلاة بالذهب
وتمنطق بسيفه على جانبه الايسر
وبفخاره العظيم اوجد اسما له :

ليتبارز مع شارلمان ، الذي سمع الرجال يتحدثون عنه
(انه حمل لقب « بريشيوس » فبهذا دعي السيف)
وكان هذا شعاره في الحرب عندما توشك المعركة على الوقوع
وحتى ينادي فرسانه بشعاره تعلموا ذاك
وعلق حول عنقه صدريته العريضة
وسطها منهب وحوافها مرصعة بالجواهر
والحزام من حرير قوي مطرز بشكل انيق
وتداول الان بيده رمحه « مالتيت »
قناته سميكة مثل مطرقة ثقيلة
وكان وزن السنان يساوي حمل بغل او اكثر
وامتطى باليغانت ظهر حصانه
(مركول الذي جـــاء مـــن وراء البحـــار امســـك بركابه)(٣١٥٦ ـ ٣١٨٣)
متين هو ، وواسع الكف
واسع الكفل ضيق الخصر رشيق
عريض الصدر ، جميل التكوين
كتفاه عريضان ، بشرته نقية وصافية
مظهره مظهر مقاتل ، شعره المجعد طويل
ابيض كوردة في صباح يوم صائف
برهن عن شجاعته مرات ومرات
لو انه كان مسيحيا ، ياالهي ماروعه من مقاتل
نخس مهره حتى تدفق منه الدم الذقي
ومضى يعدو مسرعا فوق الهضاب والوديان
على بعد خمسين قدما تعالت هتافات المسلمين جميعا
المحافظة على زحفه قائلين : لدينا قائد عظيم
الفرنجة الذين يحاولون ان يجاروه قوة بقوة
سيزحف او لن يزحف ضدهم جميعا
شارلمان احمق ، عليه الانسحاب
٢٢٩ ـ كانت منظر الامير ذاك اليوم جميلا
لحيته بيضاء مثل اية وردة متفتحة

هو في الراي مستقيم وحكيم
وفي المعركة ثابت لايعرف الذكول
وابنه مالبرامز فارس جدير بالثناء
قوي البنية وطويل ومعتمد من شعبه
واخبراباه قائلا : مولايي ، دعنا نسرع في سبيلنا
اذا مارايت شارلمان سأثير اعجابك
وقال باليفانت : سنفعل ، لانه شجاع
في كثير من تواريخ الاعمال ملأ صفحة مشرفة
لكن ابن اخته رولاند ، فقد وقتل
لن تكون لديه القوة ليصمد امام هجومنا
٢٣٠ ــ قال باليفانت ، انتبه يامالبرامز ، ولدي الحكيم
(٣١٨٤ ــ ٣٢١١)
بالامس واجه الامير الكبير رولاند حتفه
مع اولفر صديقه النبيل الشجاع
والاتراب الاثني عشر الذين اثرهم شارلمان بمحبته
وعشرين الفا من المقاتلين الفرنسيين المنتخبين
انا اثمن البقية مثلما اثمن قفاز قديم
الامبراطور قادم القائنا ومعه رجاله
فهذا مااخبرنا به ربيئتنا السوري
مع قوة عظيمة ، شكلها في عشرة ارتال
وشجاع ذلك الذي ينفخ بالبوق امامهم
وبعث اليه رفيقه كليريون بجواب
هذان اللذان في الطليعة ، يقودان هذه الصفوف
وتوجب على خمسين الف من الفرنجة ان يكونوا مع
الذين يدعوهم شارلمان « ابنائه » وهم فرسان شباب اصحاء
ووراء هؤلاء مايساويهم عددا مرتين
سيقاتلون بشجاعة وبشكل جيد
وقال مالبرامز : اعطني الشرف انئذ
٢٣١ ــ اجاب باليفانت بطلاقة : ولدي مالبرامز
بسرور انا امنحك الذي سألتني اياه

ستكون اول من سيقاتل الفرنسيين على ارض المعركة
وسيكون الملك الفارسي تورلو معك
ودابمورت الملك اللوشي
اذا ما استطعت هزيمة هؤلاء الادعياء
سيكون جزاؤك منحك قطعة من ارضي
ممتدة من شيريانت حتى وادي مارشيز
واجاب مالبرامز : مولاي ، اقدم لك شكري
ثم تقدم نحـوه وتسلم منه المنحة
الارض التي كانت وقتها ملكا للملك فلوري
والان ملكا له ، لن يرى تلك الارض ثانية (٣٢١٢ ــ ٣٢٣٩)
لن يسهم في تلك الاقطاعية ولن يستثمر
٢٣٢ ــ ومضى الامير العظيم بزحفه وسط الحشود
وبعده ولده ، ذي البنية الجبارة
ثم الملك دابامورت وملك تورلو
وما لبثت قواتهم ان تشكلت في ثلاثين رتلا
وقام فرسانهم بعرض رائع
كانوا على الاقل خمسين الفا من النفوس
وتكون الرتل الاول من رجال من بوتنتروت
وبعدهم مايكونايس برؤوس ضخمة وشعور طويلة
متدلية على ظهورهم حتى عظام الحوض
تشبه الشعور الخشنة التيسة
وكان قوام الرتل الثالث رجال من النوبة وبولوس
والرابع من بروني وساحل سلافونيا
وتكون الخامس من الصرب والصقالبة
والسادس من المغاربة والارمن
وتشكل السابع من رجال من اريحا
والثامن من السودان والتاسع من شعب غروسان
والعاشر من رجال اقوياء من باليدا
الذين هم عرق شرير مخادع
واقسم الامير الان قسما عظيما

بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ومعجزاته واثاره :
الملك شارلمان صاحب فرنسا مقبل على اقتراف خطأ عظيم)
ستكون هناك معركة مالم يهرب مسرعا
لن يحمل راسه بعد اليوم تاجه الذهبي
٢٣٣ ــ وبعد هذا ظهرت عشرة ارتال اخرى
في الاول رجال اشداء من كنعان
(خارج وادي الفواكه مر طريقهم عبر البلاد)
الثاني من الترك والثالث من الفرس (٣٢٤٠ ــ ٣٢٦٧)
والرابع من البشناق وعصابات البيرسك
والخامس من الافار ومعهم السوتيران
والسادس من الاوغل ومن الاورماليان
والرتل السابع كله من البلغار
والثامن من البروسان والتاسع من الكلافران
والعاشر من اقيانوسيا الجرداء
ابناء الصحارى ، العشيرة المتوحشة الكافرة
انت لن تسمع مطلقا بمثل هؤلاء القساة
جلودهم على الاطراف والرأس اقسى من الفولاذ
وهكذا ازدروا دروع الفولاذ ولم يستخدموا الخوذ
وكانوا في المعركة على درجة عالية من الحدة والاندفاع
٢٣٤ ــ ومالبث ان امتلك الامير عشرة ارتال
في الاول عمالقة من مالبرايس
الثاني من الهون والثالث من الهنغار الاقوياء
في الرابع رجال من بالديسا الطويلة
في الخامس مقاتلين من وادي دولوروس
وتكون السادس من جماعات من ماروس
والسابع من ليش ورجال من استريمون
والثامن والتاسع من ارغولي وكلاربون
وشكل العاشر من طوال اللحى من فروند
هذه شعوب لاتحب الرب
هكذا ذكر تاريخ الاعمال الفرنجي ثلاثين رتلا

الحشود عظيمة وصوت البوق مرتفع
وتابعت صفوف المسلمين الزحف وهي تواقه القتال
٢٣٥ ــ الامير العظيم جبار ومشهور
وحمل علمه المحلي بصورة التنين امام قواته
وراية تيرماغنتت ومهوند
وتمثال ابو لو القوي الشرير (٣٢٦٨ ــ ٣٢٩٥)
وقد تولى حراستهم عشرة من الكنعانين
وطوال زحفهم اعلنوا بصوت مرتفع
من اراد نيل الحماية من اربابنا هؤلاء
عليه ان يسجد لهم ويتوجه بالدعاء الخالص
واطرق المسلمون رؤوسهم وحدقوا بالارض
والقوا بخوذهم البراقة على الارض
وصرخ الفرنسيون : انتم ستموتون اليوم ايها الكلاب
ليحل الدمار بكم ولتحبط جميع اعمالكم
ابق يامولانا ، ايها الرب ، شارلمان سليما صحيحا
باسمه العظيم سنقاتل هذه المعركة
٢٣٦ ــ كان الامير رجلا عاقلا وحكيما
استدعى ابنه مع اثنين من الملوك وانفرد بهم قائلا :
ايها البارونات ، سادتي ، انطلقوا الى الامام زاحفين
اسندت اليكم قيادة ارتالي وارشادها
ماعدا ثلاثة احتياط احتفظت بهم من رجال مجربين
الاول من الترك والثاني من فرسان الاورمالين
وبالنسبة للثالث من العمالقة المالبريسيين
وانا نفسي سأقود قبيلة الاقيانوس
وسنتحارب مع شارلمان ومع الفرنسيين
اذا مارغب شارلمان ان يقارن قواه بقواي
سيجد رأسه قد قطع من جسده
هذا كله سحصل عليه مني وسيجده
٢٣٧ ــ الحشود عظيمة والشجاعة بدت على ارتالهم
لم يكن بين الفريقين لارابية ولاوادي

في منبسط من الارض وقفوا وجها لوجه
وقال باليغانت : يامسلمي ، انهضوا وانطلقوا .
ازحفوا الى الامام لتنشبوا المعركة(٣٢٩٦ ــ ٣٣٢٦)
ورفع امبور اوف اوليفيرن الراية
وعلى بريشيوس دعا المسلمون بالاسم
وصرخ الفرنسيون جميعا : ستعانون من خسائر عظيمة هذا اليوم
ورددوا بصوت مرتفع :« جبل المسرة ، جبل المسرة * » ثانية
طلب الامبراطور شارلمان ان تصدح جميع ابواقه
وزعقت الابواق اعلى من اي يوم مضى
وصرخ المسلمون : لدى شارلمان صفوف جيدة
المعركة التي سنواجهها ستكون شديدة وعظيمة
٢٣٨ ــ السهل واسع ومترامي الاطراف
الخوذ تشع وتلمع بالجواهر وبما حليت به من ذهب
والترسة البراقة والسوابغ المطلية بالزعفران
الرماح المتلالئة التي تخفق من عليها الرايات
وزعقت الابواق باصوات عالية ونافذة
وكانت الاصوات التي صدرت عن النفير واضحة ومؤثرة
وامر الامير كانابيوس بالاقتراب
كان هذا أخوه ، عرشه موشى وجميل
مد سلطانه الى وادي سيفري وامتلك
امره ان يعرف مكان رتل شارلمان ويقصده
انظر ، هناك يقف فخر فرنسا وشهرتها
وبينهم هناك يزحف الامبراطور بجراة
في الصفوف الاخيرة وسط هؤلاء الشيوخ ذوي اللحى الطويلة
الذين تركوا لحاهم ترفرف فوق دروعهم
لحاهم التي هي بيضاء مثل الثلج المتساقط
بالحراب والرماح سيوجه هؤلاء الرجال ضربات طيبة
سنشتبك في قتال سيكون صعبا وقريبا
قتال لم يعرف مثله ابدا بعد

وسيرمي الرجال بحرابهم بقدر ما اوتوا من قوة
ومضى الملك باليفانت امام شعبه
وخاطبه بكلمة واحدة قائلا :
ايها المسلمون اقبلوا ، انا منطلق نحو قتال الاعداء
وهز قناة رمحه الجيد واعده (٣٣٢٧ ـ ٣٣٥١)
وضد شارلمان وجه سنانه ليطعنه
٢٣٩ ـ عندما راى الملك شارلمان الامير
مع راية التنين وسلاح كامل
راى القوات العربية الهائلة بعدما بانت
تملا الارض على قدر مد البصر
باستثناء المكان الذي وقفت فيه حشود شارلمان
ثم صرخ الملك الفرنسي بصوت صعب :
يابارونات فرنسا ، انتم جميعا خيرة الاتباع
المعارك التي خضتم غمارها كثيرة
تطلعوا الى هؤلاء المسلمين جماعة من الجبناء والادنياء
اربابهم لاتعين ولاتساوي فلسا واحدا
سادتي ، من يهتم ، مهما كانت اعدادهم كبيرة
ليذهب الى البيت من لايود الزحف معي
ثم نخس بمهمازيه مهره بلطف
ومن ثم قفز من تحته تدسندور اربع قفزات
وقال الفرنسيون جميعا ها هو الملك الحقيقي
نحن معك الى اخر رجل ، تقدم ايها المولى الجيد
٢٤٠ ـ اليوم منير ، والشمس مشرقة في السماء
الجيوش عظيمة وفرق القتال كثيرة
ووجها لوجه وقفت الطلائع امام بعضها بعضا
واستعد الكونت غونيمانز والكونت رابل
ارخوا اعنة خيولهم الطيبة السريعة
واندفعوا ، وهجم الفرنسيون جميعا
ومضوا ليطعنوا برماحهم الحادة والثقيلة
٢٤١ ـ الكونت رابل فارس شديد المراس (٣٣٥٢ ـ ٣٣٧٧)

بتجافيفه المذهبه شق طريقه بخفة
وزحف ضد تورلو الملك الفارسي
لا الترس ولا الدرع امكن لهما ان يصمدا لضرباته
وانفذ الرمح المذهب من خلال جسده تماما
والقاه على ايكه صغيرة ميتا
وقال الفرنسيون : الرب الآن الى جانبنا
لن نتخلى عن شارلمان ، شارلمان على حق
٢٤٢ ـ انقض غونيمانز برمحه على ملك ليشيا
حطم الترس المزين بالورود من طرف الى طرف
ودمر السابغة وقطع عراها
وانفذ الرمح وما تعلق به خلال صدره
وضربه فاماته ، وليبكي من يبكي وليضحك من يضحك
وتعالت اصوات الفرنسيين لدى رؤيتهم لهذه الضربة البارعة :
وقالوا : ايها البارونات ، اضربوا ولاتقصروا
ضد هؤلاء الاشرار ، فالشارلمان الحق في قتالهم
الرب بحكمه العدل اودعهم هكذا بين ايدينا
٢٤٣ ـ جلس مالبرامز على حصان ابيض
بين الفرنجة يقاتلهم يدا بيد
يضرب بهذا الاتجاه ثم ينعطف فيسدد اشد الطعنات
رمى جثة فوق جثة وجعلهم اكوام
ثم صرخ امامهم باليفانت قائلا :
سادتي ، اسنوات طويلة حفظتكم واطعمتكم
وانظروا كيف يبحث ابني عن شارلمان
وكم من اللوردات قتل بسيفه
تابع احسن منه انا لا ارغب ان اجد
بـــــــرماحكم النافـــــــذة امضـــــــوا وســـــــاعدوه في القتال ٣٣٧٨ ـ ٣٤٠٤

وتفوه بهذه االكلمة على راس الحشود المسلحة
الصراع حاد ، والضربات المتبادلة شديدة

وازداد الان القتال شدة وتعاظم العناء
بشكل لم يكن من قبل ، ولم يكن في اي وقت من الاوقات
٢٤٤ ـ الحشود عظيمة ، وفرقهم على درجة عالية من الشجاعة
الارتال جميعها الان على الطرفين مشتبكة .
قاتل المسلمون بشجاعة رائعة وحذق
ياالهي كم هي اقنية الرماح التي انقصفت الى قسمين
كم ترس تحطم وكم سابغة انشطرت الى اقسام
الارض تغطت بهم في كل مكان
العشب الاخضر الذي كنت تراه في السهل
كله تلطخ بالدم الأحمر وتلون
وصرخ الان الامير بأل بيته بصوت مرتفع :
ايها السادة اضربوا بشدة ضد العرق المسيحي
المعركة شديدة وتزداد قسوة
لم يكن مثلها من قبل معركة عظيمة
لن تكون هناك هدنة حتى ينهي الظلام النهار
٢٤٥ ـ وحرض الامير الان عساكره قائلا :
اضربوا ، ايها المسلمون اضربوا ، فهذا ما جئتم القيام به هنا
ساعطيكم نساء ، نبيلات وشقراوات
واشرفكم وامنحكم اقطاعات من الارض
واجابه المسلمون : خدماتنا واجب علينا نحوك
ضرباتهم كانت شديدة ، الرماح تقصفت الى قسمين
مائة الف سيف ابرقت امام الابصار
المعركة قاسية ، مخيفة ، ومرعبة
ولقد تعلم معنى الحرب كل من قاتل فيها
٢٤٦ ـ وحرض الامبراطور الان جميع الفرنسيين :
ايها البارونات ، سادتي ، انا احبكم واثق بكم ايضا
كثيرة هي المعارك التي قاتلتم بها دفاعا عني
لقد اخضعتم كذا من الملوك وقهرتم كذا من الممالك
اعرف تماما انني مدين لكم
بكل ما املك ، وبجسدي وبالاراضي والثروات

انتقموا الان لاولادكم وورثتكم ولاخوانكم
الذين قاتلوا مؤخرا في رونسيفو وسقطوا
انتم تعلمون ، انني محق بقتالي الكفرة
واجابه الفرنسيون : سيدي ما قلته هو الصدق
وتجمهر حوله عشرون الف رجل
الذين تعهدوا بصوت واحد بايمانهم وبشرفهم
انهم لن يتخلوا عنه مهما عانوا او لو لاقوا الموت
بالرمح والحربة ، لم يكن بينهم من لم يبذل غاية جهده
ثم امتشقوا السيوف فاظهروا قوة اعظم
المعركة حادة ورائعة ومخيفة
٢٤٧ ـ وخرق مالبرامز الصفوف على ظهر حصانه
واحدث بين الفرنسيين مذبحة مريعة
وراه الدوق نايمون ، وكانت نظراته حادة ومتعالية
وبمنتهى الجراة شق طريقه نحوه ووافقه
وضرب الترس فشطره من نصفه
وخرق السابغة القرطبية المضاعفة
وانفذ من الصدر البيرق المربوط الى قناة الرمح
واطاح به ميتا وسط سبعمائة من الجثث
٢٤٨ ـ الملك كانابوس اخو الامير الكبير (٣٤٢٩ ـ ٣٤٥٤)
نخس بمهمازيه مهره وانطلق مسرعا
وامتشق سيفه الذي حده مثل الزجاج الصافي
وسدد ضربة نحو نايمون فجاءت على عرف خوذته
لذا تفتت نصفها من جراء الضربة وتقطعت عراها
وسرت الضربة خلال خمس طبقات من البطانة وقطعتها
ولم يصمد الدرع وتقطعت عراه
وتهاوى غطاء الدرع حتى الجلد بعدما تقطع
واقسوته سقطت قطعة كبيرة منه على الارض
واذهلت الضربة المرعبة الدوق واخافته
ولولا عناية الرب وعونه لاتت عليه تماما
لكنه امسك برقبة فرسه وتعلق بها

ولو اوتي المسلم الفرصة لتجديد الضربة
لكان البارون بين الاموات ولما استطاع النجاة
انتبهوا ، سارع شارلمان صاحب فرنسا لانقاذ المقاتل
٢٤٩ ـ كاد الدوق نايمون ان يموت من خوفه
وبسرعة رفع المسلم سيفه ليجهز عليه
وصاح شارلمان : ايها الشرير ، الاحسن الا تتورط
وبكل ما اوتيه من شجاعة انقض عليه
وسدد ضربة نحو القلب فخرق الترس وحطمه
ودمر السابغة شروعا من واقية الوجه
والقاه ميتا ، وترك السرج فارغا
٢٥٠ ـ واحزن الملك شارلمان كثيرا واقلقه
رؤية نايمون يصاب بالجراح امامه
وان يرى الدم يجري على العشب الاخضر
وخاطبه الامبراطور وقال له مباشرة :
نايمون ايهـــــا السـيد الحـــكيم ، ابـــق الى
جانبي ٣٤٥٥ ـ ٣٤٨٠
المسخ الذي اذاك لبعض الوقت بين الاموات
امررت رمحي به واطحت به الان
الدوق قائلا : انا مدان لك ، سيدي
انا لن انسى ذلك ما دمت حيا
ثم ركبا جنبا الى جنب في حب وثقة
مع عشرين الفا من الفرنسيين الطيبين حقا والمجربين
ممن لم يتوقف اي منهم عن الضرب والطعن
٢٥١ ـ ومضى الامير الان يتجول في ارض المعركة
وساق ضد الكونت غوينماز بكل سرعة
وسدد ضربة ضد قلبه فحطم درعه الفضي
ودمر سابغته وقطع حلقاتها الفولانية
ومن طرف الى طرف شطره الى قسمين
والقاه ميتا ، من على ظهر مهره السريع

رتشارد العجوز ، لورد نور ماندي
ولورانت وغيبوين ، لهؤلاء الثلاثة قتل
وصاح المسلمون : الشجاعة ثمينة حقا
اضربوا ، ايها السادة اضربوا ، نحن على ثقة من الدفاع
٢٥٢ ـ كم هي عظيمة شجاعة الفرسان العرب في القتال
واصطف رجال الاوقيانوس ، وارغويل وباسكل
يطعنون ويضربون واعطوا رماحهم منتهى الحرية
ولم يحلم الفرنسيون ابدا بالتخاذل
واستمر القتال شديدا حتى حلول الظلام
وعانى لوردات الفرنجة من خسائر كبيرة
مع مزيد من المآسي قبل ان تربح المعركة
٢٥٣ ـ كل من الفرنسيين والعرب يقاتلون بشكل جيد
(٣٤٨١ ـ ٣٥٠٧)
كم من الرماح انقصف وكم من الحراب انشطر !
من رآها رأى كم من الترسه قد تحطم الى قطع
وسمع الدروع البراقة تطحن وتمزق عراها
وسمع قرع الرماح على الخوذ
ورأى اولئك الفرسان وقد قذفوا خارج سروجهم
وعاشت الارض كلها مع الموت وبصراخ الموت امتلات
ولعل صور المعاناة ستظل في الذاكرة طويلا
هذه معركة من الصعب تحملها ، وقاسية
استغاث الامير الان باربابه ـ
مهوند ، وابولو وتيرماغانت قائلا :
ايها الارباب ، ياأربابي ، لقد خدمتكم من قبل بشكل جيد
والان ساصنع تماثيلكم من الذهب الصافي
اذا ما منحتموني النعمة وجعلتموني اربح ضد شارلمان
وفجاة ظهر صديقه المقرب غيما لفين
وكانت الاخبار التي حملها حقا شريرة وقال :
سيدي باليغانت بالنسبة لك بدا النهار يعتل

ابنك قضى ، لقد خسرت مالبرامز
واخوك كانابوس قتل ايضا
ولقد تولى فعل ذلك اثنان من الفرنسيين
الامبراطور نفسه ، واحد منهما كما اظن
هو قوي البنية ومظهره كما يبدو مظهر ملك
لحيته بيضاء مثل اي وردة من ورود الربيع
ثم غرق حاجبا الامير تحت بيضته
واسود وجهه وعلاه الشحوب
وبدا الامر وكأنه سيموت من حزنه فورا
واستدعى جنغلاو الذي هو من وراء البحار إليه ٠
٢٥٤ ـ قال الأمير : أقبل الى يا جنغلاو ، وكن صريحا
أنت شجاع ، ورجل حكيم جدا
واعتمادا على آرائه اعتدت منذ زمن طويل أن أعمل
كيف اثر بك ، العرب والفرنجة ؟
هل سننال النصر في ايدينا هذا اليوم ؟
وأجابة : أنت ميت يا باليغانت
ولن يستطيع أربابك كلها انقاذك من سوء المصير
شارلمان مصمم وجنوده شجعان
انا لم أر بعد رجالا مثلهم يقاتلون بجنان
لكن ادع لعونك سادة الأوقيانوس
وأتراك ، والعمالقة ، والعرب والأفارقة
وليحدث ما سيحدث ، لا تتأخر ، بل قاتل
٢٥٥ ـ ترك الامير العظيم لحيته تتطاير أمامه
إنها بيضاء مثل أي وردة على شوكة
هو لن يبقى مختبئا بل عليه أن يهاجم
ووضع على فمه نفيرا أمسكه
ونفخ به بصوت مرتفع ، فسمع المسلمون النداء
فأقبلوا من كل جانب الهجوم
رجال الأوقيانوس يزمجرون ، وينبحون ويصرخون
وكان رجال أرغويل جميعا مثل الكلاب ينبحون

وانقضوا على الفرنجة بكل شدة وغضب
مزقوا الصفوف وبعثروها
ونتيجة لهذه الضربة مات سبعة الاف مقاتل
٢٥٦ ـ لم يكن الكونت أوغيير قط ضعيفا بالحركة
ما من تابع امتلك الصبر مثله في القتال
عندما رأى صفوف الفرنسيين قد تمزقت
دعا ثيري ، دوق أرغون
والكونت جوزارين وغودفري أوف آنجو
والى شارلمان نفسه كلمه هكذا ناقدا :
انظر كيف أثار المسلمون الفوضى بين قواتك
لينزع الرب التاج من على رأسك
اذا لم تنتقم لهذا العار حق الانتقام
ومامن واحد رد بكلمة واحدة على هذا اللوم
نخسوا خيولهم ، وأرخو أعنتها
وزحفوا ليضربوهم أينما أمكنهم ذلك
٢٥٧ ـ قاتل الملك شارلمان بشجاعة هذا اليوم
وشجاعا كان الدوق نايمون وشجاعا كان أوغيير الداني
وكان شجاعا غودفري الذي حمل الراية
أشجعهم جميعا كان دان أوغيير الداني
نخس حصانه وتركه يعدو بسرعة
وانقض على حامل راية التنين بقوة وغضب
ونكسه محطما ، وسقط أمبور بكل وزنه
وسقط التنين والراية جميعا على الأرض
ورأى باليغانت رايته مرميه
رأى راية مهوند توقفت فجأة
عندها بدأ الأمير يشعر بالخوف
الخطأ معه ، والصواب مع شارلمان
وترنح العرب المسلمون وسط المعركة
وصوت الامبراطور شارلمان يصرخ عاليا : النجدة ، النجدة
ألن تساعدوني أيها السادة ، باسم الرب

ورد الفرنجة : لماذا تسأل ؟ أنت أسأت الينا
اللعنة على الذي لا يضرب بشدة
٢٥٨ ـ النهار شارف على الانتهاء والشفق بدأ يقترب
(٣٥٦٠ ـ ٣٥٨٨)

مسلم وفرنجي يتجالدان الآن بالسيوف
أظهرا شجاعة وقوة
ولم ينس أحد منهما النداء بشعار حربه
من جانب الأمير تردد صوت « بريشيوس »
ومن جانب شارلمان « جبل المسرة » شعار قتاله تردد
لقد تعرفا على بعضهما بعضا بوساطة هذه الاصوات العالية
والواضحة

وكل منهما في ساحة الوغى نشد عدوه فوجده
تقابلا ، هجما ، وتبادلا ضربات شديدة
على حلقات الدروع قرعت أسنة الرماح بقوة
وخرقت الترسة وحطمتها
وحولت السوابغ والدروع الى قطع متطايرة
لكن جسديهما لم يلمسا وظلا بسلام
قطعت الاحزمة ، ومال السرجان
فوقعا على الأرض ، وبات الملكان جالسان
لكن ما لبث كل منهما أن هب واقفا على قدميه
شجاعتهما عظيمة ، وعلى الفور كان سيفاهما مشهوران
ما من شيء يمكنه أن يوقف هذه المبارزة الآن
لن تتوقف حتى يسقط أحدهما على الارض ميتا
٢٥٩ ـ شارلمان ملك فرنسا الجميلة رجل عظيم وقوي
ولم يعرف الأمير الخوف ولم يفكر بالفرار
وأشهرا الآن سيفيهما المجردين عاليا
وتبادلا على المجنين ضربات قاسية من كلا الجانبين
فقطعا الخشب والجلد المكون من طبقتين
وتقطعت عرى السابغة ووقعت السابغة

وبلا دروع تقاتلا الآن صدرا لصدر
وتطاير الشرر من جراء الضربات على الخوذتين
ما من شيء يمكنه أن ينهي صراعهما
حتى يعترف أحدهما انه مخطيء والآخر على صواب
٢٦٠ ـ قـــــال الامير فـــــكر يا شـــــارلمان وانظـــــر في
(٣٥٨٩ ـ ٣٦١٤)

أن تعتذر إلي من كل ما اقترفه بحقي
لقد ذبح ابني وأعرف أن ذلك تم من قبلك
واقترفت الآثام على أراضي التي أخذتها
كن واحدا من رجالي وسأكون مولاك
ثم تعال واعمل في خدمتي من هنا الى الشرق
وقال شارلمان : لا أنا اعد ذلك خيانة
لن اظهر لمسلم ابدى حب أو سلام
امن أنت بما أوحاه الرب
اعتنق المسيحية وعندها سأكون صديقك الأول
الملك القدير وقتها سيرعاك وايمانك
وقال باليغانت : طقوسك ما هي الا دعوة مريضة
ومجددا حارب أحدهما الآخر بالسيف
٢٦١ ـ الامير العظيم مليء بالقوة والبراعة
سدد على بيضة شارلمان ضربة هائلة
حتى أن الفولاذ على الرأس انحنى وتحطم
ومضى حد الحسام الى الشعر ثم جلدة الرأس
وقطع الجلد مقدار عرض كف كامل
حتى أن العظم ظهر عاريا تحت الجلد
وترنح الملك شارلمان وفي تلك اللحظة هبط الليل
وارادة الرب كانت ضد أن يهزم أو يقتل
وجاء القديس جبرائيل هابطا مسرعا نحوه
وقال :وماذا ، الست هاهنا ، أيها الملك العظيم ؟
٢٦٢ ـ عندما سمع ما قاله الملاك المبارك

لم يعد يخشى الموت ، وتحرر من خوفه
وعادت قواه ، وعاد الى نفسه ثانية
وانطلق نحو الأمير شاهرا سيفه الفرنسي (٣٦١٥ ــ ٣٦٢٣)
وشطر البيضة ذات الجواهر اللامعة
وحطم الراس ودفع الدماغ الى الخارج
ومضى السيف قاطعا حتى لحيته من خلال الوجه
وكانت ضربة مميته اتبعها فأطاح به أرضا مقتولا
وعلى الفور ومباشرة نادى بشعار حربه « جبل المسرة »
وهنا جاء الدوق نايمون ، يقود من عنانه
تنسندور الجيد ، حيث امتطاه شارلمان
هرب المسلمون ، الرب لن يستطيع ايقافهم
الجميع عمل ، الجميع ربح ، لقد ربح الفرنسيون اليوم
٢٦٣ ــ المسلمون فروا ، لأن الرب أراد ذلك
وطاردهم الفرنجة بشدة ومعهم الامبراطور
وعندها قال الملك : سادتي خذوا ثاراتكم
ابذلوا قصارى جهدكم ، ارفعوا معنوياتكم وشجاعتكم
لأنني هذا الصباح بالذات ، شاهدت عيونكم تبكي
وقال الفرنجة ، مولاي ، بالفعل هذا ما كان
وسددوا بكل ما أتوه من قوه ضربات هائلة
قلة ممن كانوا هناك سينجحون
٢٦٤ ــ اشتدت حرارة القتال ، وتصاعد الغبار الى مــا يشــبه السحاب

وهرب المسلمون ، وساق الفرنسيون خلفهم بشكل حثيث
واستمرت المطاردة حتى مدينة سرقسطة
وصعدت الملكة براميموند الى أعلى برجها
ووقف الى جانبها كاتبها وقاضي
ذلك الايمان المزيف الذي لم يسمح به الرب
ورجال دين للكنيسة غير منتمين ولانصاف رؤوسهم غير حالقين
ورأت العرب مهزومين مطاردين

وزعقت بصوت متحشرج مرتفع :العون يا مهوند
أه أيها الملك النبيل ، رجالنا هزموا
الأمير الكبير قد قتل ، يالها من ساعة عار
وما أن سمع مارسيلون هذا حتى استدار (٣٦٣٤ ـ ٣٦٧٠)
بوجهه نحو الجدار ، وبكى ، ثم أطبق جفنيه
ومات حزنا ، ضربه الرعب فأتى عليه
وتخلى عن روحه الى قوات الجحيم
٢٦٥ ـ المسلمون جميعا قتلى أو يفرون رعبا
وانتهت حرب شارلمان بشكل رائع
دمر باب سرقسطة حتى الأرض
وبات متيقنا أنها لن يمكنها الدفاع
استولى على المدينة ودخلها مع جيوشه
وناموا تلك الليلة هناك منتصرين متملكين
ومضى متفاخرا ، الامبراطور صاحب اللحية الفضية
وسلمت الملكة براميموند جميع أبراجها
أبراجها العشرة الطوال ، والخمسين الأقل طولا
التوفيق حالف ذلك الرجل ، الذي الرب أعانه
٢٦٦ ـ وانتهى النهار ، واقترب الظلام مبشرا بالليل
القمر مشرق ، والنجوم تلمع مضيئة
غدت سرقسطة كلها في قبضة الامبراطور
بضعة الاف من الفرنسيين يفتشون المدينة وبعضهم يتجسس
واخذوا يدمرون الكنس والمساجد ومعابد الكفار
بالمطارق الثقيلة والمطارق المعدنية
ودمروها كليا وازالوا بقاياها
لأن شارلمان يخشى الرب وسيظل يناضل في خدمته
ثم طهر الأساقفة الماء
والى جرن المعمودية ساقوا جموع المسلمين
واي انسان سيرفض ما أمر به شارلمان
سيشنق سيذبح ، أو سيحرق بالنار
وهكذا جرى تعميد مائة الف أو أكثر (٣٦٧١ ـ ٣٧٠١)

وتمسحوا ، وفقط الملكة توجب معاملتها بشكل مختلف
كانت ستذهب أسيرة الى فرنسا رويدا رويدا
وسيتولى الملك تحويلها ، حبا بالرب
٢٦٧ ـ ومضت الليلة ، وأشرق صباح النهار منيرا
وعلى الفور شحن شارلمان الابراج بالرجال
فقد عين الفا من أجود الفرسان
ليحفظوا المدينة سالمة لصالحه
ثم امتطى الملك والجيش خيولهم ثانية
مع براميموند أسيرة تسير في ركابهم
ولم يستهدف شارلمان سوى سلامتها وابقائها حية
بسرور وشمور بالنصر ركبوا الطريق نحو الوطن
واقتحموا نربونة ، ثم غادروها عابرين
ووصلوا بوردو ، المدينة ذات الشهرة العالية
هناك على مذبح القديس سفرين
تركوا البوق مملوءا بالذهب الصافي
(حتى يراه الحجاج عندما يزورون المكان)
وعبروا غيروند ، حيث وجدوا الكثير من السفن الجيدة بالانتظار
وهكذا أحضر الملك ابن اخته وارسله الى بلاي
مع مرافقه ، الكونت أولفر العظيم
ورئيس الاساقفة الذي كان حكيما وشجاعا
ومددهم جميعا ، أعنى هؤلاء النبلاء ، في قبور بيضاء
هناك تمددوا ومازالوا ، اللوردات الجيدين ، في القديس رومين
وأودعهم الفرنسيون للرب ، لقوته ولاسمه
وتابع شارلمان سفره صاعدا الجبال وهابطا الأودية
ولم يتوقف حتى وصل الى أكس
وأخيرا ترجل أمام بوابات القصر
وبعدما جلس في قاعة العرش العالية
أمر باستدعاء القضاة ، وأرسل رسائل مستعجلة الى :
السكسون والبافاريين والفريزيين واللوريين
واستدعى ايضا البيرغنديين ورجال المانيا

ونورماندي وبواتو وبريتين (٣٧٠٢ ــ ٣٧٢٩)
ورجال فرنسا ، وهم أعلاهم علما وحكمة
لابد من اعداد غانلون للاستجواب
٢٦٨ ــ وانطلق الامبراطور شارلمان من اسبانيا يؤم بلاده
ووصل الى أكس ، أفضل قلعة فرنسية
وصعد سلم قصره ودخل الى القاعة
وجاء لمقابلته هناك أودي ، الفتاة الجميلة
وسألت الملك : أين القائد المرعب
وقالت : أين رولاند الذي وعدني بالزواج
وعندها امتلأ قلب شارلمان بالأحزان
وفاضت الدموع من عينيه ، واهتزت لحيته البيضاء كالثلج وهــو يقول :

أختي ، أيها السيدة الحلوة ، سألتيني عن ميت
مع هذا سأعطيك بدلا عنه رجلا أكثر نبلا
أعني لويس ، ماذا يمكنني أن أفعل خيرا من ذلك ؟
هو ابني ، وهو الوريث لجميع ممالكي
قالت أودي : بالنسبة لي هذه الكلمات بلا معنى
الرب وقديسيه وملائكته يحرمون الآن
أن أعيش بعدما أفنى رولاند حياته
وسقطت عند قدمي شارلمان ، بعدما اختفى لونها
وماتت مباشرة ، وأعطى الرب الراحة لروحها
وبكاها السادة الفرنسيون بألم وندبوها
٢٦٩ ــ ووضعت ألدا الجميلة حدا لحياتها
ظن الملك أنها فقدت وعيها فقط
اسف لها ، وتساقطت دموعه من عينيه
امسكها من يدها وأراد انهاضها
لكن رأسها مال على كتفيها
وعندما رأى شارلمان أنها ماتت حقيقة
استدعى أربع كونتيسات للوقوف بجانبها

وحملت الى دير للراهبات لتدفن (٣٧٣٠ ـ ٣٧٥٤)
ومكثوا الى جانبها طوال الليل وحتى بلوج النهار
ثم دفنت الى جانب مذبح بطقوس حزينة
واهتم بها شارلمان وشرفها بقدر ما أمكنه
٢٧٠ ـ عاد الامبراطور شارلمان الآن الى أكس
غانلون الزائف الآن بالاغلال
وقف وسط المدينة أمام القصر
وربطه الغلام الى عامود
بأحزمة من جلد الغزال ربطوا يديه
بعصي صغيرة وكبيرة وجهوا اليه العديد من الضربات
لم يستحق جزاء غير هذا
وانتظر المحاكمة بألم ، وبشعور بالعذاب
٢٧١ ـ في تواريخ الأعمال القديمة كتب هذا كله ليقرأ
كيف جمع شارلمان أتباعه من جميع اقطاعاته
واجتمعوا الآن في مدينة اكس لاشابل
كان يوما رفيعا ، وعيدا عظيم التقديس
عيد القديس ، وعيدا عظيم التقديس
عيد القديس سلفستر كما يراه كثير من الناس
الآن نبدأ المحاكمة والاستئناف
لغانلون الذي قام بأعمال خيانية
وأمرهم الامبراطور أن يجروه الى أمام عرشه
٢٧٢ ـ ثم قال الملك شارلمان : أيها البارونات ، سادتي
احكموا اليوم بيني وبين غانلون
لقد ذهب معي ومع حشدي الى اسبانيا
وسبب مقتل عشرين ألفا من فرنسيي
وابن أختي الذي لن تروه ثانية
وأولفر ذلك اللورد الأديب الشجاع (٢٧٥٥ ـ ٢٧٨٢)
وجميع الاتراب الاثني عشر ، في سبيل المال خانهم
قال غانلون : أنا أنكر ، ولا أعترف بهذا الشيء
أخطأ رولاند بحقي بالمال والاملاك

لذا تآمرت على موته وشقائه
لكنني أنكر التآمر ضد الدولة
ورد الفرنجة : هذا يستدعي كثيرا من النقاش
٢٧٣ ـ انتصب أمام الملك الكونت غانلون
بجسم رشيق ، ولون نقي
وبدا سيدا جيدا ، أو لم يكن هذا زيفا
ونظر الى الفرنسي وتفحص قضاته جميعا
ومؤيديه وكانوا ثلاثين من شعبه
ثم صرخ عاليا بصوت واضح وقوي
سادتي ، اسمعوني الآن ، من أجل محبة الرب
أيها السادة ، في الحقيقة ذهبت مع الجيش
وبصدق وحب انا خدمت الامبراطور طويلا
ابن أخته رولاند كرهني وأساء بحقي
وتآمر على موتي بشكل مريع
جعلت سفيرا الى الملك مارسليون
لكنني استخدمت براعتي ، وهكذا خرجت سالما
وتحديت رولاند ، ذلك المقاتل الشهير
واولفر وجميع مرافقيهما
وسمعت شارلمان وباروناته وفهموني
لقد انتقمت ، لكنني لم أخن
ورد الفرنجة : علينا أن نتناقش بعد هذا
٢٧٤ ـ عندما رأى غانلون محاكمته بدأت هكذا
كان حوله ثلاثون من أقربائه
وكان بينهم واحدا أعطوه زمام القيادة
اسمه بينابل وقلعته سوريدس (٣٧٨٣ ـ ٣٨١٠)
وكان متحدثا بارعا ، وسريع الفهم
وفي حمل السلاح كان قويا وبارعا
قال غانلون : انتبه الي حتى لااهان أو أقتل
أنا أعتمد عليك ياصديقي حتى تخرجني من هذا
قال بينابل : سأخرجك نعم سأفعل

اذا ماحكم عليك اي فرنسي بالشنق
يجب على شارلمان أن يضعنا بالقائمة وجها لوجه
وبسيفي البتار ، سأنهي حياته
وانحنى غانلون ليقبل قدميه
٢٧٥ - وانسحب السكسون والبافاريون للتشاور
مع الذين من فرنسا وبواتو ونورماندي
وكثير من التيوتون ورجال المانيا
استخدم الذين من أوفرين منتهى الكياسة
ولخوفهم من بينابل تكلموا بنعومة
وقالوا : بالنسبة لهذه المحاكمة الأفضل أن
نتخلى عنها ونقدم الى الملك رجاء
لهذه المرة يجب أن يترك غانلون حرا
وبعدها سوف يخدمه بصدق واخلاص
رولاند ميت - لن يرى ثانية -
لايمكن لأحد اعادته بالمال أو بالايجار
بينابل قاتل ؟ من كان متعجلا ؟ لست أنا
وواحد واحد فقط رفض الموافقة انه
أخي اللورد غودفري ، الذي اسمه ثيرى
٢٧٦ - وعاد هؤلاء اللوردات الى شارلمان ثانية
وقالوا للملك : بتواضع يرجوك رجال محكمتك
ان تعفو عن الكونت غانلون لما اقترفه من آثام
وسيخدمك من الآن فصاعدا بصدق وحب
نرجـــــوك دعه حيا ، هـــــو أصـــــيل مـــــن حيث المولد (٣٨١٠ - ٣٨٣٧)

موته لايمكن أن يعيد أبدا اللورد الشجاع
ولايمكن أيضا اعادة الميت بالمال
ورد الملك : خونه مزيفون أنتم جميعا
٢٧٧ - عندما وجد شارلمان أنهم جميعا خذلوه وتخلوا عنه
اربد وجهه واسود وأثقل جسمه

بالأسى لرؤيته جبناء بهذه الدناءة
وعندها انبعث الفارس تيري وتحرك
وكان أخا لغودفري دوق انجو ، بالميلاد الصحيح
جسمه رشيق وأطرافه مرنه وحساسة
بشرته داكنة وشعره اسود متجعد
لم يكن طويلا جدا ولايمكن أن تعده قصيرا
وتوجه الى الامبراطور يتكلم بلياقة قائلا :
سيدي الحكيم ومليكي لاتدع هذه الاحزان تزعجك
أنت تعرف تماما كيف خدمتك باخلاص
هذا الخصام خصامي بحق العرق والطبيعة
ومع أن رولاند اساء بعض الشيء بحق غانلون
ضباطك مقدسون بأشخاصهم
وأن تتخلى عنه كان خيانة وقتل
بالنسبة لك سيدي غانلون كان مزيفا ومخادعا
انا أحكم عليه بالموت شنقا ، زد على هذا :
الامر (بسحل جسده بخسة على محفة)
بما يتوافق مع مثل هذه الخيانة المجوجة
واذا مارفض أحد من أقربائه هذا الحكم
عندها ، بالسيف المعلق هنا حول وسطي
في أي لحظة انا جاهز لمواجهته
وصاح الفرنجة جميعا : صحيح ماقلته بالتأكيد
٢٧٨ ــ ووقف الآن بينابل أمام الملك
وكان قويا ونشيطا وكبيرا جدا وقاسيا
وعلى طرف اراضيه رمال الحياة تجري
وقال لشارلمان : هل هذا بلاطك ، ياسيدي عجبا ؟
اخبر هؤلاء الناس ليوقفوا الضجة بالحال
انا أرى هنا تيري ، الذي جلس ليحكم
انه يكذب ، انا سأقاتله ، وسأنتزع حلقومه واقطع رقبته
واعطي الملك قفاز يده اليمنى المصنع من جلد الغزال
قال الملك : قدم لي مايكفي من الرهائن الجيدة

وتعهد الأقرباء الثلاثون بالعهد والايمان
وقال الامبراطور : أنا سآخذ عهد الآخرين
وامر بحراستهم حتى تأخذ العدالة مجراها
٢٧٩ ـ عندما رأى ثيري أن مبارزة التحدي ستقوم
ناول شارلمان قفاز يده اليمنى كميثاق
وقبل الامبراطور التعهد وأعطاه بدوره ميثاقه
ثم امرهم بجلب أربعة قضاة الى المكان
وجلس المتبارزان هناك وانتظرا
كل واحد اعتقد ان هذه المبارزة ستعد
ووضعت الاجراءات من قبل اللورد أوغيير الداني
ونفذ هذا ، وتم اعداد الخيول والسلاح فورا
٢٨٠ ـ عندما استعدا للمبارزة وتسلحا (٣٨٥٨ ـ ٣٨٨٢)
قاما بالاعتراف ، وتحللا وصليا
واستمعا الى القداس وتناولا القربان من خبز المسيح
وقدما ولاءهما للكنيسة مع مزيد من الاحترام
ثم عادا الى شارلمان جنبا الى جنب
وربطا على عقبيهما المهاميز باحكام
ووضعا درعيهما ، وكانا جيدين مناسبين ولونهما أبيض
وشدا فوق رأسيهما بيضتيهما اللامعتين
وعلقا سيفيهما بمقابضهما الذهبية الرائعة
ووضعا حول عنقيهما واقيتان لامعتان
وأمسكا بيمينيهما رمحيهما الحادي السنان
وبرشاقة امتطيا فرسيهما
بكى الرجال لما رأوهما ، وكانوا مائة ألف فارس بالتمام
الذين حزنوا على رولاند شعروا بالخشية على ثيري
الرب وحده يعرف كيف سينتهي هذا القتال
٢٨١ ـ على مقربة من سور اكس امتد سهل فسيح
هناك وقف المتبارزان وجها لوجه
كلاهما نبيل صحيح ، وشجاع عالي المقام
وامتطيا فرسين نشيطين ، يعدوان بشكل جيد

نخساهما بشدة ، وأرخيا أعنتهما على عنقيهما
وعدوا بشدة ليطعنا والتقيا
وعلى منتصف الترس طعنا ، فتقطعت عراه وتحطم
وخرق الدرع وتحطم السر
وترنحا ووقع قربوسا السرجين والمقعدين
وبكاهما ، أولئك المائة الف رجل
٢٨٢ ـ والى الأرض سـ‍ـــــــــــقط كل مـ‍ـــــــــــن
المقاتلين (٣٨٨٣ ـ ٣٩٠٨)
لكن على أقدامهما مالبثا أن وقفا منتصبين
وكان بينابل قويا وسريعا ونشيطا
فرساهما ذهبا ، وعدا كل منهما ليواجه خصمه
الآن بالسيفين اللذين مقابضهما ذهبية لامعة
على البيضتين الفولاذيتين قرعا وضربا
ضرباتهما كانت ثقيلة ، وكثير من الشظايا تطايرت
وسيطرت الدهشة على الفرنسيين وكانوا على درجـة عالية مـن
الاثارة
وصاح شارلمان : وارباه أوضح أنت أين هو الحق
٢٨٣ ـ قال بينابل : أطلب منك ياثيري التخلي
وبالحب والايمان سأكون تابعا لك
وماأردته من الاجر والذهب سأعطيك
فقط أقم سلما بين شارلمان وغانلون
ورد ثيري : هذا لايمكن التفكير به من قبلي
أن أكون دنيئا هذا آخر شيء يمكن أن أفكر به
ليقم الرب العدل هذا اليوم بيني وبينك
٢٨٤ ـ ثم قال ثيري : بينابل أنت شجاع
نشيط وقوي ، وجسمك كامل التكوين
يعرف أترابك ان شجاعتك لاريب فيها
إنني أرجوك ، ان تتخلى الآن ، ونختم النهار
وبسرور سأقيم السلم بينك وبين شارلمان

بالنسبة لغانلون هذه العدالة ستنفذ
وحتى نهاية الزمان ستظل حكايتها تروى
وأجابه بينابل : أقول : أيها الرب امنع ذلك
سأدافع عن شرف قومي
مامن انسان على قيد الحياة سيراني متراجعا
أنا أفضـــــل الموت على أن الحــــق العــــــــار
بنفسي (٣٩٠٩ ـ ٣٩٣٣)
ثم أخذا يتقارعان بسيفيهما من جديد
على بيضتيهما المحلاتان بالذهب والجواهر اللامعة
وتطاير الشرر حتى عنان السماء بشكل محرق
لن ينفصلا ، وحنقهما مامن واحد يمكنه ايقافه
ولايمكن ايقاف هذه المبارزة حتى يموت أحدهما
٢٨٥ ـ بينابل قوي : هو فارس سورنس الشجاع
على بيضة ثيري المصنعة من فولاذ بروفانس ضرب
منها تطاير الشرر وأوقد النيران في العشب
ثم براس سيفه نحو وجهه ثيري سدد
وعلى جبينه وجه ضربة ماحقة
حتى أن السيف حز منه قطعة
تاركا الدم يسيل على وجنتيه
وجرى الدم على الدرع من الأمام والخلف
لكن بعون الرب ، تلك الضربة كلفته حياتة
٢٨٦ ـ عندما رأى ثيري الضربة نفذت خلال الجسد
ورأى الدم الأحمر يجري فوق العشب
عندها وجه ضربة نحو بينابل
فشطر البيضة الفولانية البراقة من عند عرفها
ونفذت ضربته الى الدماغ وألقت به خارج الرأس
وسحب سيفه ثم ألقاه ميتا
بتلك الضربة العظيمة ربح وصنع النهاية
وصاح الفرنسيون : الرب أظهر قدرته

وطلبت العدالة إعداد الحبل لرقبة غانلون
ولرقاب أقربائه الذين رهنوا انفسهم
٢٨٧ ـ انتهت الآن معركة تيري بالنصر (٣٩٣٤ ـ ٣٩٥٩)
ومباشرة جاء الامبراطور شارلمان اليه
وكان يسير بين يديه أربعة من باروناته :
الدوق نايمون الجيد واللورد أوغيير الدانماركي
ووليم أوف بلاي وغودفري الانجيفيني
واحتضن الملك تيري بذراعيه
وبفرائه الثمين نظف وجهه
ثم نزع عنه ثيابه وتولى الآخرون الباسه
ثم انتزعوا سلاح البطل بكل لطف
ومن ثم وضعوه على برذون عربي
وهكذا عادوا بسرور وحبور
ودخلوا الى أكس ، وفي الساحة الكبرى ترجلوا
واعدوا العدة لتنفيذ حكم الاعدام بالآخرين
٢٨٨ ـ وجمع شارلمان الآن كل كونتاته ودوقاته وقال :
كيف تريدونني أن أعالج مسألة هؤلاء الرهائن ؟
جاءوا لمساندة غانلون في هذه القضية
ورهنوا انفسهم لصالح فوز بينابل
ورد الفرنجة : لاتوفر أحدا ، الموت هو مايستحقونه
وعندها أمر ضابطا اسمه باسبورت قائلا :
اذهب واشنقهم على شجرة العدالة
بلحيتي هذه التي لونها لون الفضة
اذا نجا واحد منهم من الموت ، فوا أسفي عليك
ورد الرجل : وماذا تريدني أن أفعل أيضا
وتولى مائة من السيرجنتيه سحب الطاقم كله
وكل واحد من الثلاثين علق بانشوطة
الخيانة تدمر نفسها وتدمر الآخرين ايضا
٢٨٩ ـ الآن البافاريون ورجال المانيا
ورجال بريتاني ، وبواتو ونورماندي

وقبل كل شيء رجال فرنسا ، كلهم وافقوا
وقرروا أن يكون موت غانلون بالتعذيب
ولهذه الغاية أمروا بأربعة من الخيول
وربطوه اليهم من يديه وقدميه
وكانوا أربعة من الخيول الشديدة والمتفوقة السرعة
وقادهم أربعة سيرجنتيه وحرضوهم على السرعة القصوى
نحو مهرة تركوها تعدو في الحلبة
وكان عذاب غانلون مخيفا ومتطرفا
لان كل عروقه تقطعت من رأسه الى عقبيه
وكل طرف منه اقتلع من مكانه تماما
وجرى دمه براقا على العشب الأخضر
مات غانلون وتم افناء جميع ذريته
٢٩٠ ـ استوفى الامبراطور الآن دينه وانتقم
ثم استدعى اساقفته الفرنسيين لعونه
اساقفة بافاريا والاساقفة الالمان وقال :
عندي مقيم هنا سيدة نبيلة اسيرة
اقيموا لها قداسا وقصوا عليها مواعظكم
لتؤمن بالرب وتتبنى المسيحية
ومن ثم عمدوها لعل روحها تصان
قالوا : ندعها بعد ذلك بعهدة أم الرب
(ايتها السيدة الاصيلة المولد ، تناولي تعاليم الايمان)
كان الجمع عظيما حول الحمامات في اكس
هناك عمدوا براميموند ، ملكة اسبانيا
واختاروا لها اسم جوليانا (٣٩٨٦ ـ ٤٠٠٢)
مسيحية هي ، سارت على الطريق القويم
٢٩١ ـ انهى الامبراطور الآن أعمال المحاكمة
ومع تنفيذ العدالة ، انطفأ غضبه العظيم
وبراميموند جلبت الى حظيرة المسيح
ومضى النهار وتحول المساء الى ليل
أوى الملك الى فراشه في الحجرة المقببة العالية

- ٤٢٥٧ -
القديس جبرائيل رسول الرب جاء اليه وقال :
انهض شارلمان واحشد جميع قواك الامبراطورية
وبالقوة والسلاح ازحف ضد البيرا
الحاجة قائمة لأن تتولى انقاذ الملك فيفرين
المقيم في مدينته ايمفي ، فهو محاصر من القبائل المسلمة
هناك يستغيث بالمسيحيين وينشد عونك
قلب شارلمان صغير حتى يتحمل أعباء السفر والقتال
وقال الملك : ياالهي كم هي حياتي متعبة
وبكى ثم ربط لحيته البيضاء المتطايرة
هنا نهاية سجل الأعمال التي سيتلوها توروليس

ملحمة رتشارد قلب الاسد

أه يامولاي يسوع ، ملك المجد
الذي وهب النصر
والشجاعة للملك رتشارد
الذي لم ير جبانا قط
انه لجيد جدا أن تسمع في حكايا المغامرات (٥)
عن بسالته وغزواته
ان الكثير من رجال القصص الخيالية يصنعون الجديد
من الفرسان الشجعان الاقوياء المخلصين
ويقرأ الناس عن أفعالهم في القصص الخيالية ،
في كل من انكلترا وفرنسا : (١٠)
عن رولاند واوليفر
وكل النبلاء المشهورين (الاتراب الاثني عشر في ملحمة رولاند)
للاسكندر وشارلمان
والملك ارثر وغاوين
كم كان لطيفا مآزرة هؤلاء الفرسان (١٥)
من توربين واوغر الدانمركيين
وعن طروادة يقرأ الناس في كثير من الاشعار
ماذا جرى في الازمنة القديمة :
أخيل وهكتور ــ الجدود البارعون
واي ناس قتلوا في ذلك القتال الطويل (٢٠)
في كتب اللغة الفرنسية القديمة كتب هذا الشعر
ولم يعرفه الناس غير المتعلمين
ولم يعرف عنه شيئا غير المتعلمين من الناس الفرنسيين
بين المائة نادرا ماعرفه واحد
ومع ذلك بأذن متلهفه
جهدوا لسماع الافعال الشهيرة
قصص المغامرات النبيلة ، كما أفهم
عن فرسان انكلترا الاقوياء ،
وبناء عليه أخبركم الآن
عن الاعمــــــال الجـــــــريئة العـــــــظيمة ــ للملك

الانكليزي ـ (٣٠)

الملك رتشارد افضل محارب
يمكن أن يجده الناس في أي قصة مغامرات
والآن كل من يسمع القصة النبيلة
عليهم تعم رحمة الرب
سادتي أرجوكم أن تسمعوا بلا ازدراء (٣٥)
كيف أنجب الملك رتشارد الشجاع وولد
كان اسم ابيه الملك هنري ،
وكان في زمانه بالتأكيد
كما وجدته مكتوبا بلا نزاع
أن القديس توماس الطيب قد قتل هناك ، (٤٠)
عند حجر مذبح كنتر بري
حيث غالبا ماتظهر المعجزات وترى
وعندما أصبح عمره عشرين شتاء
كان هذا الملك بحق بالغ الجرأة ،
ولم يكن ليتخذ زوجة ، كما فهمت (٤٥)
مالم تمتلك ثروة عظيمة في يدها
وعندما حثة باروناته على الزواج
اتفق الملك معهم فيما قالوه
وأرسل على الفور عصبا من رجاله
الى كثير من الأراضي البعيدة المختلفة (٥٠)
وأجمل امرأة كانت في الوجود
على رجاله أن يحضروها له ليتزوجها
وأرسل بالرسل في حركة سريعة
ومضوا الى السفن تلك الليلة بالذات
وشرعان ماذشرت الاشرعة (٥٥)
وهبت الريح قوية خلال الليل وفي الفجر
واذا ما أصبحت السفن وسط طريق المحيط
رأوا الاشرعة تتدلى متراخية مترنحة

وبينما جلس هؤلاء الفرسان الطيبون وقد استبد بهم الخوف
ظهرت سفينة أخرى ، قريبة تماما
ولم يكونوا قد رأوا مثل هذه السفينة أبدا : (٦٠)
كانت بيضاء ناصعة ذات لمعان متلألىء
وكل مسمار فيها كان من الذهب المحفور
والضلع من أنقى الذهب المطروق
والصاري مرصع بالعاج (٦٥)
والأشرعة من الحرير بادية للجميع
وكانت الحبال أيضا مجدولة من الحرير
وهي في بياض اصفى من الحليب
وكانت الاسطح مفروشة بأقمشة ذهبية
مركب نبيل انتبهوا واصغوا (٧٠)
وكذلك الشرف ومرفاع المرساة أيضا
كانت مطلية بلون أزرق سماوي صاف
وكان بالامكان أن يرى هناك على السطوح
مجموعة من العذارى الجليلات ،
مشرقات كضوء الشمس عبر الزجاج (٧٥)
ولم يكن ممكنا أبدا تخطي سيئة منهن
ونادى فرسانها على جماعة هنري
طالبين منهم أن يصعدوا الى السطح
للراحة والاسترخاء وألا يبالوا بشيء
وأن يخبروها عن ماذا يبحثون (٨٠)
ذهبنا الى كثير من الأراضي الشاسعة الغريبة
لأن ملكنا هنري قد أرسلنا
لنجد له ملكة نبيلة
اجمل مايمكن أن يشاهد على الأرض
ونهض ملك من على كرسي ملكي (٨٥)
عندما سمع ماقالوه هناك
وكان الكرسي من حجر العقيق الاحمر
ولم يكونوا قد رأوا أبدا عرشا مساويا

ووقف دوقان الآن بجانب الملك
رجلان نبيلان في أبهة ملكية (٩٠)
ورحبا بكل واحد من الرسل
على ظهر السفينة حيثما ذهبوا
وأمكن للرجال أن يروا ثلاثين فارسا
يحيونهم مع هذه الصحبة
وعندما صعدوا الى ظهر السفينة الذهبي
الفاخر (٩٥)

كرسل لشهرة هنري
كان المزيد من الفرسان والسيدات حاضرين
سبع مجموعات وأكثر ، كما فهمت
ليرحبوا بكل واحد منهمَ على ظهر السفينة
وأعدوا مائدة موائمة لهم (١٠٠)
مد فوقها غطاء من حرير
وأمر الملك عندئذ وصيفة شابة
بأن تحضر ابنته التي ليس لها شبيه
لتجلس أمامه على كرسي
وبدأت الابواق الذهبية تدوي (١٠٥)
وهي تصعد الى كرسيها ،
وكان يصحبها عشرون فارسا
وكان هناك أيضا وصيفات في الانتظار
وانحنى الرسل عند قدميها
وسألوها ماذا تريد أن يفعلوا (١١٠)
وأكل الجميع وشربوا وجعلوهم مسرورين
وفق ماأمر صاحب الجلالة الملك نفسه
وبينما هم ينعشون أنفسهم بالطعام
وكانوا يتحدثون في تلك الفترة الفاصلة
أعلن الملك قراره (١١٥)
فقد جاءه في الرؤيا

في الارض التي جاء منها
ان يذهب الى انكلترا فهذا مقصده
وان ابنته العزيزة جدا عليه
يجب أن تذهب معه كما بين تماما : (١٢٠)
« وبهذه الطريقة ابحرنا
نحو الارض التي اتيتم منها »
عندئذ أجاب أحد الرسل بوضوح
وكان اسمه برناغر
« لن نبحث اذا عن أي شيء بعد الآن (١٢٥)
حيث سنأخذها الى سيدي
وعندما سيراها بأم عينه
سيكون قد جوزي تماما »
ثم هبت ريح شمالية شرقية نحو انكلترا
وطارت سفينة الملك عبر الزبد الى الأرض (١٣٠)
وخلال ساعات كان الرسل
قد اقتربوا من الملك في أعلى البرج
وأخبروه بأمر تلك السيدة الجميلة
اجمل سيدة في اي مكان
وأمر الملك بتهيئة الامور (١٣٥)
ومع البارونات والايرلات والفرسان
اسرع نحو سفينة الملك الغريبة ،
لانه كان اصيلا واديبا
وتم اصطحاب الآنسة الى اليابسة
التي فرشت امامها بالاقمشة الذهبية (١٤٠)
وانتصب أبوها في وقفة ملكية ، واقدام
وقد زين جبينه بتاج من ذهب ،
وبينما أحاط بها الرسل من كل جانب
كان المغنون ايضا ، يشيعون الدفء والأبهة
وركب الملك هنري فرسه الذي راح يعدو (١٤٥)
ليحيي بحرارة ، الملك الذي لايعرفه

وابنية الجميلة في لهفة ،
مرحبا بكم جميعا عندي
ثم مضى الجميع الى وستمنستر
واتجه اللوردات والسيدات الى القاعة (١٥٠)
وسرعان مابدأت الابواق تدوي
لتعلن عن المائدة التي أجيد اعدادها هناك
وخدمت الحاشية بشكل جيد جدا
ولاحاجة لذكر ما أكلوه
ونهض الملك بعد الوليمة (١٥٥)
واتجه الى الزوار في ملابس ذهبية
وتوجه هنري الى الملك الغريب مخاطبا :
سيدي الطيب اخبرنا أتوسل اليك ما اسمكم ؟
فقال : اسمي هو كوربازنغ ،
وأنا ملك انطاكية (١٦٠)
وأبلغهم بقراره
بأن يبحر الى انكلترا بسبب رؤياه
وانحنى هنري السيدة الجميلة
وأنت يا آنسة يامن لا شبيه لها ؟
فقالت :« كاسودوريون » (١٦٥)
وحنت رأسها في تواضع وخجل
فقال : يا آنسة « طاهرة ومشرقة
هل تعيشين هنا وتصبحين ملكتي »؟
فأجابته بصوت لطيف :
« سيدي سأفعل بخيار أبي » (١٧٠)
فأجابها أبوها مسرعا بالحال
بأنه يمنح الملك هنري بركته :
ويجب أن يتزوجا بسرعة
وأن تشاطر هنري فراشه كملكة
وناشده بلطف الموافقة (١٧٥)
على أن يتم ذلك بأكبر خصوصية

وتم الزواج في تلك الليلة والذات
ورقص البلاط طويلا حتى أضاء الفجر
وجعل سرورهم الليل يمضي سريعا
وأنشد قسيس القداس في الغداة (١٨٠)
وعند رفع القربان المقدس
سقطت الملكة في اغماءة كالشبح
وكان الناس مدهوشون في خوف مؤلم
واذ سجيت في غرفة نوم
قالت :« علمت » بالمصادفة (١٨٥)
لن أنظر أبدا الى القربان المقدس
وغادر أبوها مع المد في الصباح
اذ لم يعد بامكانه ان يبقى هناك
وعاش الملك في سعادة مع ملكته
وكان بينهما أولاد لهما (١٩٠)
ولدان صغيران وعذراء فاتنة
وصحيح جدا كما نقل الى كتابي
كان الأول رتشارد ، وهذا ماعلمت ،
وبه تتعلق هذه القصة الشعرية
وكان الآخر جون كما سمعت ، (١٩٥)
وكانت أختهم توبياس الثالثة
وعاشوا في سعادة غامرة جدا
حتى السنة الخامسة عشرة
وذات يوم قبل أن يركب الملك هنري
ليسرع الخطى الى القداس في بهجة (٢٠٠)
حضر الى هناك ايرل ذو جلال
وقال :« ياسيدي » كيف يمكن أن يكون هذا
ان الملكة زوجتكم وسيدتكم
لاتجرؤ على رؤية القربان المقدس ؟
اعطونا اذنكم لنجعلها تمعن النظر فترة (٢٠٥) من البداية
بالانجيل

وحتى يتم انشاد وتلاوة القداس
ويجب ان لاتقلقوا
ووقف الملك هادئا ، وقال أخيرا :
أمسكوها باحكام بقوة فيها عناية (٢١٠)
لامن أجل السراء والضراء
دعوها تخرج من هذا القداس
وهكذا عندما بدأ الناقوس يقرع
في الوقت المخصص
تخرج ماضية من الكنيسة (٢١٥)
ثم قال الايرل : ابق من أجل الرب
ياسيدتي ، ستبقين هنا ،
ولسوف تمسكين عند ترك الكنيسة
وامسكت بابنتها بيدها ،
ثم احتضنت بسرعة جون (٢٢٠)
علنا وأمام ابصارهم
وسقط جون بينما كانت متجهة الى الاعلى
وكسر فخذه فوق الأرض
وهكذا انطلقت هاربة بابنتها[1]. (٢٢٥)
وتركت ملكها في فزع حزين
وكان الملك حزينا جدا بسبب هذا الحادث
ومن الطريقة التي غادرت بها وماعنتها
حتى أنه لم يعد يذهب الى القداس أبدا
ولن يزول حبه لها أبدا (٢٣)
ولعل من المعروف أنه بعد موته
يجب أن يرتقي رتشارد العرش
وطالب الملك هاري بتتويجه بعد الوفاة
وكان رتشارد بن هنري بالتأكيد
قد أتم الخامسة عشرة من عمره (٢٣٥)
وكان هذا الشاب عظيم القوة جدا
وسلك سبيل العمل بالسلاح

كما ينبغي أن يفعل الملوك والفرسان النبلاء
وأصبح شجاعا جدا وقويا ايضا
ولم يكن أحد يستطيع أن يصمد طويلا امامه (٢٤٠)
وأحرز الشرف في كل ميدان
كما يفعل ملك وفاتح
وأمر بعد أن أصبح ملكا
في ساليسبوري بمقارعة رائعة بالسيف
وأوكل رجل بالحضور
مسلحا بالدرع والسيف والحربة (١) (٢٤٥)
بما في ذلك الايرلات والبارونات وكل انسان
وأن لايبقى أحد في بيته
تحت طائلة فقد الحياة والأرض
لأن الملك لا يمكن أن يمنعه شيء عنهم (٢٥٠)
وقد نودي بذلك كما فهمت
في كل انحاء انكلترا بكاملها
وفي كل مكان يمكن للمرء أن يراه
وجاء الفرسان كما أمر
راكبين فوق التلال والمستنقعات (٢٥٥)
ولينفذوا أمره الملكي
سوف يقف كل الفرسان أمام بعضهم بعضا
كما كانوا يلتقون في الميدان
وتنكر الملك تماما بصورة جيدة
في ثياب غريبة لاتكشف عنه لأحد (٢٦٠)
وركب منطلقا من واد كثيف
ليشهد كل حيل من يشتركون في المباراة
وكفارس مغامر
كان لباسه منذرا بالسوء
فكله كان أسود كسواد الليل (٢٦٥)
وكذلك كان المهر الذي ركبه منتصبا
ووقف غراب أسود فوق خوذته

ومنقاره فاغر على سعته كما لو كان مستحوذا عليه
وحول عنق هذا الغراب جرس
وسأذكر السبب في ذلك الآن (٢٧٠)
فالغراب الأسود يرمز
لمن يكدح كدحا طويلا بلا كلل
ودلالة الناقوس المجلجل :
ان الكنيسة مستقر للجميع
وهي تدمر كل من يجلب لهم الحزن ، (٢٧٥)
ولايشاطرهم هذا الاعتقاد
وحمل الملك عمودا كبيرا وقويا
وكان طوله أربعة عشر قدما
وكان صلبا وغليظا ايضا
محيطه حوالي احدى وعشرين بوصة (٢٨٠)
وأول فارس قابله الملك هناك
انقض عليه متلهفا
وضربه محدثا شقا غائرا في وسط درعه
وساق حصانه نازلا الى الميدان ،
سقط هذا الفارس الابله على الارض (٢٨٥)
وجده الموت تقريبا في النزع الاخير
...س الشجاع التالي الذي لقيه هناك ،
جعا . يتلقى ضربة قوية ،
على هامته وطوقه ايضا
وكسر رتشارد عنقه الى قسمين (٢٩٠)
سقط هو وحصانه على الأرض
ومات الاثنان فوق هذه الرابية الدامية
وتحدى رتشارد على كل جانب
اذا كان هناك من مزيد يركب اليه
وعندما بدأت الابواق تدوي (٢٩٥)
جاء فارس من آخر الصف الطويل
فارس جريء تماما وشجاع وطيب

وكان يمتطي فرسا احمر بلون الدم
وقد تسلح بكل قوته
بكل عدة فارس قوي شجاع (٣٠٠)
وأمسك بعامود كبير وقوي ،
وكان ثقيلا بقدر ماكان طويلا
وقال إنه سيركب ضده
اذا كان سيبقى هكذا في الميدان
وبدأت الابواق تدوي (٣٠٥)
لتعلن لكل الذين اجتمعوا هناك
بأنهم مرة أخرى يجب أن يصنفوا
لأن لديهم خصما حقيقيا
وقد رأى الملك هذا الفارس يركب هناك
وبرمحه اتجه نحوه (٣١٠)
وجابهه في وسط الميدان
وأحدث بدرعه ثقبا وانتزع نصفه
ونهب غطاء عنقه بعد ذلك ايضا
وعظم كتفه الايمن ايضا
ثم قناع خوذته وحلقه (٣١٥)
فتأسف بمرارة لانه جاء الى هناك
والتفت رتشارد منذرا الباقين
وسألهم جميعا إن
كان هناك رجل اخر أو فارس
يرغب أن يركب ضده أو يقاتل (٣٢٠)
ولما رأى أن أحدا لن يأتي ذلك اليوم
ركب هكذا ماضيا في طريقه
متوغلا في غابة مبتعدا عن عيونهم
وهناك بدل ثيابه في تنكر جديد .
واختار مهرا أحمر بلون الدم (٣٢٥)
مع كل الجل الأحمر الذي فوق ظهره
وكذلك الحصان والدرع والسلاح ايضا

يجب أن لايعرف أحد من يكون هو هذا الفارس الجديد
وفوق خوذته كلب أحمر ـ دموي
بذيل أحمر يتدلى نحو الارض (٣٣٠)
وكان ذلك دليلا على قصد الفارس
ان يحضر للوثنيين قدرهم
وعزمه على قتلهم جميعا باسم الرب العزيز
والمطالبة برد اسرى المسيحيين
وفي وسط الميدان أوقف مهره (٣٣٥)
وتلفت حوله ليبدأ عمله
وساق نحو الفرسان مستعرضا اياهم
وطاف حولهم واستعرضهم من الداخل والخارج
فرأى بارونا انتحى الى أحد الجوانب
وفي اتجاهه بدأ يسوق (٣٤٠)
وأعطى رمحه الى تابعه
لأنه لم يرد حمله نحو هذا الرجل
نحوه انطلق حاملا صولجانه من الصلب
وفكر في أن يعطيه ضربة محكمة
على خوذته السميكة القوية (٣٤٥)
وتطاير الشرر من تلك الخوذة الصماء القاسية
وأدار البارون وجهه جانبا
وقال :« ايها الفلاح الفظ تقدم واركب
ومع أندادك انهب والعب لعبتك
ولكن لاتأت إلي بعد الآن اقول لك (٣٥٠)
لأنه حقا اذا جئت إلي
سأعطيك ضربتين قويتين
وبهش الملك من قول هذا الرجل
الذي هكذا لم تؤثر به ضربة الملك
وعاد الملك من طريق آخر (٣٣٥)
وفكر في القيام بلعبة أفضل
ووقف واضعا قدمه في ركابه

ليضربة بقوة أعنف وبمزاج غاضب
ووجه ضربته الى الخونة المعدنية
ولكن الفارس بقي جالسا فوق سرجه (٣٦٠)
وبسرعة ودون مزيد من القول
أخرج الفارس صولجانه ليلقنه درسا
وكانت هذه العصا مصنوعة من نحاس مطروق
وحث الرجل الآخر على المرور
وبضربة متميزة وفى بالاثنتين (٣٦٥)
فأطار قدم الملك من الركاب
وسحقت مابين الصفيحة والسترة الداخلية الواقية
ومابين الدرع وعبر الزرد
ولم يكن قد شعر بمثل هذه الضربات من قبل
التي جعلته نصف مسجج ومرضوض ونصف مقروح (٣٧٠)
وبسرعة بدأ يركب ويسوق
خارج الجماعة المحيطة بالميدان
وهمهم صارخا ولكن صوته كان خافتا
لايمكنني أن أتلقى مثل هذه الضربات وأمضي
ثم ركب مرتدا الى بئره (٣٧٥)
وبوساطة خونته شرب كفايته
وشرب جواده هناك ايضا
في حين أعد عدته الثالثة
وكانت كل ملابسه بيضاء كالحليب
وحزام الفرس والاشرطة التي تمسكه من أجمل الحرير (٣٨٠)
وفوق كتفه صليب أحمر لامع
كرمز لخسارة ربنا العزيز
الذي ضد أعدائه سيقاتل
ليربح من اجل الصليب اذا أمكنه ذلك

وفوق خوذته حمامة في بياض الثلج (٣٨٥)
وهي تظهر محبتها الروح القدس
وهكذا كان جريئا حر الروح
ليدمر أعداء الرب
ومرة أخرى شرع الملك يسوق
نحو نبيل ، بخطى سريعة (٣٩٠)
وكان اسم هذا النبيل فولك دويلي
وكان الملك يحب هذا النبيل لسمعته
والى فولك وجه ضربة قوية
ليظهر قوته ومزاجه
ضربه بقوة فوق خوذته البراقة (٣٩٥)
وشقها بكل قوته
حتى أنها انشقت حتى عظم وجنتيه
ورجاه السير فولك ان يذهب
وانه يجب أن لايبقى بقربه
والا فانه سيشعر بألم شديد (٤٠٠)
ورأى الملك أنه لم يذق طعم الالم ،
ففكر في ان يضربه مرة أخرى
والقى عصاه الحديدية فوق رأسه
ووجه هذه الضربة بكل قوته (٤٠٥)
ولكن البارون مع أن هذه الضربة ازعجته
فانه قد وجه بعصاه الثقيلة التي من الصلب
ضربة الى الملك ليجعله يحس
وانشقت خوذة الملك
ولم يعد يستطيع البقاء جالسا على سرجه (٤١٠)
وخرجت قدماه من الركاب
فهو لم يشعر مطلقا بمثل هذه الضربة القوية
وأدهشته هذه الضربة
فلم يحدث أبدا ان القي به هكذا
من أجل هذه الضربة التي تلقاها (٤١٥)

لم يعد يعرف اذا كان الوقت نهارا أم مساء
ولكنه سرعان ماا سترد وعيه من الدوخة
واتخذ طريقه الى قصره
ثم أمر وهو في قاعته
بأن يذهب المنادون ليدعوا (٤٢٠)
كل فارس لأن يتابع طريقه
ويعود الى أهله وأصدقائه
ثم بعث الملك رسوله
وأرسله الى هناك سرا
الى السير توماس مولتون الشجاع (٤٢٥)
الذي كان بارونا وسيما ضخما
وايضا الى السيد فولك دويلي
كي يحضرا على الفور ليراهما
وأن لايتأخرا لحظة واحدة (٤٣٠)
حتى يقفا أمامه ليسمعا منه السبب
ومضى الرسول في طريقه
واخبر الرجلين اللذين أرسل اليهما
بأنهما يجب أن يصحباه
راسا الى الملك كي يراهما
وهكذا حث الفارسان الشجاعان الخطى (٤٣٥)
ومضيا الى الملك مسرعين
وأديا له التحية في اكبار واجلال
ولاحظا أن وجهه لم يبد متجهما
وهو يوجه اليهما الكلام بطلاقة :
« مرحبا بكما عندي »
وقاد الاثنين بيديه (٤٤٠)
الى غرفة بعيدا عن العيون
ثم قال لهما الملك : « ياصديقي العزيزين »
« قولا لي الصدق ، أتوسل الآن اليكما
في كل اختبارات المقارعات المرهقة جدا (٤٤٥)

من الفارس الذي كان أفضل من ركب ؟
وأي فارس عرف هناك ببراعته أنه الأفضل
في الاستعمال الجيد للعمود الضخم القوي
وفي الاختراق الذي اسقط عن الخيل أعداءه ؟
وأي فارس شجاع اظهر ذلك العيان هناك (٤٥٠)
واظهر معرفته بالهجوم بالرمح » ؟
واجاب ملتون ، « فارس يلبس السواد
جاء راكبا الى المقارعة ذلك اليوم
وكل من رآه هناك يقول
كيف ركب في مزاج غاضب (٤٥٥)
فوق جواد قوي وقارع الكل
وفوق خوذته كان غراب أبنوسي أسود
وبينما ركب داخلا ليختبر قوته
كان العمود الذي يحمله قويا غليظا
وكان طول عموده هذا أربعة عشر قدما (٤٦٠)
ومحيطه احدى وعشرين بوصة
وسأل اذا كان هناك من يريد اختيار جدارته
وبتقدمهم ليثبتوا شهرتهم
بقتاله في هذه اللعبة الجريئة »
وجاء فارس شاب ، أعزب (٤٦٥)
انطلق راكبا واقسم أن يقوم بتحد قوي
وأمسك عموده وركز جواده
وركب ضد هذا العدو في الواقع
وقابله الفارس الأسود في الميدان
ووجه ضربة قوية الى درعه (٤٧٠)
والقى بالرجل والحصان لما بهما
وجرى هذا الفعل من قبل الفارس المجهول
ونفخت الأبواق وصاح المنادون
ولكن احداً لم يكن حينئذ ليركب ضده
أو يتبارز معه بالصولجان او بالرمح

فقد شعروا أن مثـــل هــــذا الخصـــم لم يعــــطهم أي
فرصة (٤٧٥)
وذلك الفارس الضخم الجريء النادر
قد استخدم عموده ببراعة وترفع وبرود
وقال الجميع : « لقد ربح هذا الميدان اليوم »
ولن ينطق أحد الآن بالمديح (٤٨٠)
حيث أنه فعل ذلك بكل استخفاف
الا اذا قابل ضرباتنا مرة أخرى
لكنه قبل ان يوجه ضربة مرة أخرى »!
وكز حصانه خارجا من بين الناس المسلحين
وقد أمسك بعمـــوده الضـــخم في حـــالة اســـتعداد
تام (٤٨٥)
والتقى الاثنان بعدئذ وسط الميدان
ورمى المغامر نفسه بالترس جانبا
وكان العجيب أن فارسنا وقع
ولم يقمع الغضب الأحمر الذي كان الفارس يحمله
فاسقطته الضربة وكسرت عنقه (٤٩٠)
وبدأ ثالث الفرسان الكلام :
« ان هذا شيطان وليس رجلا حقيقيا
الذي يضرب رجالنا هكذا ويقتلهم
لن أهدأ حتى
أقابله في الميدان اليوم !» (ـ٤٩٥))
وتقدم الفارس المغامر دون ابطاء
واتجه مباشرة بحصانه الى هذا الفارس الجريء
ثم الى قسمين شق درعه ،
وبعموده كسر كتفه
وألقى به فوق ظهر الفرس (٥٠٠)
وهكذا سقط بقوة وكسر ذراعه
ولكنه لم يتلق أي أذى أكثر من ذلك

ثم التفت الفارس الجسور مرة أخرى
وتحدى بزئير قوي
من يقارعه (٥٠٥)
ونظر اليه الجميع بوجوه متجهمة
فلا احد يريد أن يقارعه مرة أخرى
خوفا من أن يسلبهم حياتهم
وهكذا عندما رأى مامن أحد أتى
وكز فرسه تاركا هذه اللعبة الجسورة (٥١٠)
« ثم خرج هذا الفارس راكبا من عمق الغابة
غطى كله بلباس أحمر في مظهر مرعب
وكان حصانه ودرعه كلاهما احمر
واوقع في نفوس الجميع الهلع والخوف
وكان كلب احمر يقبع فوق رأس خوذته (٥١٥)
وقد جاء للتحدي والاختبار
اذا كان هناك من يجرؤ على المبارزة
وعندما لم يجبه أحد أدرك
أن عليه أن يجبر واحدا على القتال
وركب في الميدان باحثا عن فارس (٥٢٠)
يكون الشيطان قد احتجزه حيث يكون !
ولاأعرف لماذا اختارني بالذات
بيد أنه هز وصيفي برمحه
وحملق في بنظرة متعالية
ثم ضربني بقوة بعموده الحديدي الغليظ (٥٢٥)
ومالم يكن من خلال رحمة عزيزنا يسوع
اقول لانكسر عنقي الى قطعتين

وعزمت عليه أن يركب ويمضي في طريه
ويلعب مع أولاد من طبقته الخاصة
وجاء ثانية ليقوم بجولة ثانية (٥٣٠)
ووجه لي ضربة أسوأ من تلك بكثير وأشد

ولكني جلست فوق فرسي بهدوء
ثم صحت كثير من ابن ام
« واأسفاه ياسير توماس مولتون
لقد ضرب وجلس هناك ساكنا !» (٥٣٥)
ولوحت بعمودي بمهارة قوية
وضربته بقوة كما عرف الجميع هناك
وطوحت به عن فرسه طائرا تقريبا
عندما أوقعت به هذه الضربة
ومثل تلك الضربة لن ينساها أبدا (٥٤٠)
ولم يبق لمزيد من الضربات
لأنه سرعان مابدأ يسوق »
وعندماروى مولتون قصته هكذا
السير فولك دويلي البارون الشجاع
وجه الكلام عندئذ للملك رتشارد (٥٤٥)
« والفارس الثالث الذي جاء بعد ذلك
كان بسابغة بيضاء كما الثلج
ونظر الكل اليه من أعلى الى أسفل
وكان على ترسه صليب أحمر بلون الدم
ووقفت على خوذته حمامة بيضاء (٥٥٠)
وساق أمام الجميع ثم بطريقة باردة
نادى أي فارس جريء جدا
يكون رجلا قوي البنية شديد الاحتمال
ليبارزه في تلك اللعبة العنيفة
ولم يبـــــد أن رجـــــلا هناك بهـــــذه الجـــــرأة
والضراوة (٥٥٥)
ليجرأ على القتال هناك بالذات معه
وساق راكبا فرسه مسرعا مستعرضا الفرسان
ثم جاء إلي اخيرا وفي النهاية »
واستأنف السير فولك الكلام : في الحقيقة سيدي الملك

لقد كان هذا الفارس شيئا غريبا (٥٦٠)
وواجه عموده خونتي وهي من الصلب السميك
ومالن وجه بيده الضربة
بتلك القوة العظيمة بشدة وعنف
حتى كاد دماغي كله أن يسحق
ولكني سخرت منه ببضع كلمات باردة : (٥٦٥)
أرجوك أن تذهب أيتها الزبابة الخشبية الصغيرة
والعب مع طفل يكون ندا لك !
واذا عدت بهذه الطريقة فاني
ساعلمك كي أجعلك عاقلا
ولكنه عاد إلي مرة أخرى (٥٧٠)
وأعطاني هناك ضربة أثقل
وبعمودي ضربته بقوة
فخرجت قدماه عن ركابه
ومثل الدائخ خرج راكبا من بين الحشد
ومضى متوغلا في عمق الغابة (٥٧٥)
وجلس الملك رتشارد هنا ساكنا خافض الرأس
وقال ياأصدقائي ارجوكم لاتتنهدوا
ولاتركنوا للحزن ، لقد كنت انا
الذي عندما احتشدتم بعدتكم
ركبت اليكم ، وكنت منكم قريبا ودانيا (٥٨٠)
وكان أقواكم في الاختبار
هو الذي أمكنه هناك أن يرد ضرباتي بصورة أفضل
وقال : « سادتي إني اعرفكم انه يحسن
أن تعرفوا مايجول بذهني الآن ؟
إني أود أن نذهب الى الأرض المقدسة (٥٨٥)
نحن الثلاثة ودون اي مزيد لغر من الفرسان
وسوف نذهب في زي حجاج مسعفين
لكي نستطلع الأرض والقوات التي هناك
وأريد أن تقسموا لي الآن

ان لايعرف أحد بما أدليت به لكم الآن (٥٩٠)
لالغيرنا ولالوليلنا
حتى نمضي في رحلتنا »
هذان الاثنان وافقا مسلمين لرغبته عندئذ
لأن أيا من الرجلين لم يرد أن يقول لا
وأقسما على أن يعيشا أو يموتا معه (٥٩٥)
وغفرا له ضرباته العنيفة
ووضعا أيديهما فوق الكتاب
وأقسما على أن يكونا مستقيمين في هذه المغامرة
ثم قبل الثلاثة وجنات بعضهم بعضا
وأقسما على أن يكونا فارسيه المخلصين (٦٠٠)
ودعتهم الابواق الى المأدبة
وبعد أن أبرما هذا الاتفاق
وفي اليوم العشرين أخيرا
كان الجميع مستعدين للانطلاق
بعباءات الحجاج والعكازات في الايدي (٦٠٥)
كحجاج الى الأرض المقدسة

في الابيات ٦٠٧ ـ ٦٥٠ : أبحر هؤلاء كحجاج الى الارض المقدسة ليستطلعوها من أجل حملة عسكرية ستتلو ، ثم بدأوا في حينه رحلتهم للعودة الى انكلترا

بعدما مروا ببحر اليونان العميق (٦٥١)
في المانيا توقف هؤلاء الحجاج الثلاثة برهة قبل أن يمضوا قدما
وقد جلب لهم هذا كثيرا من الاسف المضني القلب
ولسوف أعيد من جديد رواية ماجرى هناك (٦٥٥)
اصغ عندما أخبرك الآن !
في الحانة حيث التمسوا الراحة ونهب الملك رتشارد الى المدفأة
حيث انحنى السير توماس فوق النار (٦٦٠)
وبينما كان فولك يحرك صلصة المرق
واشتروا في حينه تلك الاوزة غاليا !

وعندما تم شواء أوزتهم جيدا
في النزل كان يتمشى هزيل
وقال لهم : أرجوكم اسمعوا دعواي (٦٦٥)
كي تسمعوا غنائي !
وعندما أمر رتشارد هذا الرجل أن يذهب
ردت له كلماته كثيرا من الأسى
وبعدما ردد أفكارا غاضبة في الذهن
قال : انتم الثلاثة غير طيبين أبدا ! (٦٧٠)
واذا ماأتيح لي سـأهزمكم فـانتم لم تقـدموا الي لا اللحـم ولا الشراب !

حيث يجب على الرجال الأماجد ان يشتركوا في طعامهم
مع المغنيين المتجولين ولايبعدوهم
عن لحمهم الطيب والنبيذ والجعة
بـل ان يشـاطروا المغنين المتجـولين وليمتهـم الجميلة (٦٧٥)
وكان هذا الرجل انكليزيا وهكذا عرف تماما
من ثيابهم وكلامهم أين كانوا يقيمون
ومضى قدما في تلك الليلة المظلمة
الى قلعة على مرتفع القرية (٦٨٠)
وأخبر الملك وبعضهم والكل
ان ثلاثة رجال قد جاءوا الى المدينة
وهم رجال أقوياء جسورين غير هيابين
في كل الدنيا ليس لهم نظير
وكان الملك رتشارد أحد هؤلاء الثلاثة (٦٨٥)
وثم كان فولك دويلي الآخر
وكان السير توماس مولتون هو الثالث
فرسان نبلاء سمع عنهم الجميع
وكان تنكرهم في ثياب حجاج خشنة
لذلك لم يكن أحد ليعرفهم (٦٩٠)

واليه تحدث الملك عندئذ :« ياصديقي
اذا كان على كلمتك يمكنني أن أعتمد
ستكون لك مكافأة سخية
وسأمنحك الهدايا »
ثم أمر الملك كل فرسانه (٦٩٥)
بأن يتسلحوا بكل قوتهم
ليقبضوا على هؤلاء الحجاج الثلاثة :
« واجلبوهم بسرعة وعودوا بهم الي »
وركب الفرسان منطلقين في كوكبة مرعبة
واعتقلوا الحجاج الشجعان الكبار (٧٠٠)
وجيء بهؤلاء الثلاثة الى حضرة الملك
وسألهم ماهذه البلاهة
التي جاءت بهم الى بلاده الواسعة
من انكلترا قالوا له هكذا جئنا
ماأسمك ؟ عندئذ سأل الملك (٧٠٥)
وقال رتشارد دون كذب
وأنت ؟ سأل فارسا آخر
فولك دويلي كان الجواب الصحيح
وانت ياسير ياذا الشعر الرمادي الطويل جدا ؟
توماس مولتون أجيب الملك (٧١٠)
وسأل الملك الثلاثة كلهم
لماذا تسللوا الى داخل بلاده
اني اتهمكم أنتم الثلاثة بالتنكر
لكي تأتوا الينا هنا كجواسيس أشرار !
وقد تجسستم في اراضي أعلاها وأدناها (٧١٥)
وأعتقد انكم تخططون لخيانة كريهة لي
وأما بالنسبة لك ياملكي الشاب الشجاع
ولباروناتك الاثنين ، دون كذب
فانتم لم تتصرفوا تجاهي بصدق صحيح
لذلك فانكم بالقانون وبالقوة (٧٢٠)

ستوضعون في سجن شديد
لانكم تتآزرون علي أن تخطئوا معي
فاجاب الملك رتشارد اعتقد انك
بهذا الفعل تصبح غير وفي
ان كل الحجاج الذين يسلكون الطريق (٧٢٥)
احرار في الذهاب ليلا ونهارا
أيها الملك مودرد من لطفك وفضلك
لاتوقع بنا نحن الحجاج شيئا خسيسا
فمحبة به قد سعينا نلتمس الحج
فدعنا نذهب ولاتحجزنا أبدا (٧٣٠)
ولكن دعنا نواجه مايمكن ان يقع لنا
في اي أرض يمكن أن نركب فيها
ولكن الملك الشرير أمر بسرعة
بان يلقى بهم في السجن
وكما فهمت أن البواب (٧٣٥)
أمسك بيد الملك رتشارد
وأخذ رفيقيه هناك كليهما؟
وهكذا تخلوا عن دورهم كحجاج
وفي الصباح عند الساعة التاسعة تماما
جاء ابن الملك في وقت مشؤوم (٧٤٠)
وكان اسم هذا الأمير أردر؟
وكان فارسا ذا شهرة كبيرة جدا
وكان قويا غير هياب
ولم يكن له صنو في كل تلك الارض
فقال « أيها البواب » أرجوك أن (٧٤٥)
تدعني الآن أرى سجناءك!
فقال السجان : سيدي ، كما تريد
سأنفذ كل رغبة لك
عندئذ أخرج السجناء الثلاثة
وجاء رتشارد ، الاول في المجموعة (٧٥٠)

عندئذ تكلم أردر مع الملك
الست رتشارد بلاكذب
الذي يتحدث عنه الناس في كل أرض ؟
هل تجرؤ أن تأخذ معي ضربة باليد ؟
في الصباح سأمنحك الأذن بالمغادرة (٧٥٥)
تلك الضربة باليد مني سوف تتذكرها
وعلى الفور تكلم الملك رتشارد الشجاع
فوافق على أن يتبادل معه الضربة
وكان ابن الملك الشاب معتدا جدا وضخما
وضرب الملك بيده ضربة قوية (٧٦٠)
تطاير معها الشرر من عينيه الغائمتين
وبينما كان رتشارد يرى أنه قد أخطأ في حقه
أقسم قسما بالقديس مارتن قائلا
غدا سأرد هذه الاساءة !
وعندئذ أمر أردر بارادة متغطرسة (٧٦٥)
بأن يأخذوا كفايتهم
من كل الشراب واللحم أيضا
ولهم أن يأكلوا أفضل ما لديه
حتى لا يمكن أن يضطر للانتظار (٧٧٠)
ويستبق ضربة رتشارد ويتعجلها
وعلى الاستقرار في الفراش طلبا للراحة
وهكذا كان ابن الملك يأمل أن يسر
ووضع الملك الانكليزي في وضع سهل
وفي الصباح عندما أهل النهار (٧٧٥)
نهض رتشارد كما أقول لكم وأخذ شمعا صافيا لامعا
ثم اقترب من ناره
وشمع يديه بشمع النحل الصافي
مرة وأخرى حتي يمكن أن يتأكد انه (٧٨٠)
قد أصبح بسمك القشة وأقل منها بكثير
لانه صمم ان يضربه ضربا مؤلما

بتلك اليد التي جعلها مشدودة جدا
ليرد الضربة بأقصى قوة
وجاء ابن الملك حسب الخطة (٧٨٥)
ليحصل على أجره كرجل حق
ووقف أمام الملك رتشارد بجرأة وشجاعة
ووبخه بكل ازدراء وعجرفة
وقال له : « اضرب بكل قوتك »
بما أنك تسمى القوي الشجاع! (٧٩٠)
وإذا أنا جفلت أو ابتعدت
سوف لن أحمل أبدا درعا في شجار »
وضربت قبضة الملك وجنة أردر
وكل من رأى سوء حظ ذلك الصبي
قال إن اللحم والجلد قد أنتزعا (٧٩٥)
وهكذا سقط آردر وقد أشرف على الموت
وانكسر عظم خده الغليظ نصفين
ووقع على الأرض ميتا كالحجر
وأسرع السجان الى حضرة الملك
وأخبره بهذا الامر السيء
الذي فعله رتشارد بابنه
فصاح واسفاه لم يعد لي أحد!
وبهذا النواح سقط على الأرض
وكرجل تملكته كارثة مميتة
أغمي عليه في أسى عند أطراف العرش (٨٠٥)
وساعده فرسانه حتى بلغ مقعده المرتفع
وصاح أحدهم سيدي « لندع هذه الفكرة
الآن لقد وقع الامر وحزنكم لن يجدي شيئا »
ونهض مودرد وقال متنهدا
لكل الفرسان الذين وقفوا على مقربة منه (٨١٠)
حول هذا الأمر الحزين أرجو ان تشرحوا لي
وأن تقصوا على كيف قتل ابني الشاب

ووقفوا هناك جامدين كلهم
وفي أساهم لم يستطيعوا قول أي كلمة
وبسبب الصخب الشديد اندفعت الملكة داخلة (٨١٥)
وقالت:« وأسفاه ما الذي سبب هذه الضجة ؟
لماذا تبكي بصوت كله اسى ونحيب
ما الذي جلب لكم كل هذا الهم »؟
قال الملك : ياعزيزتي . أنت لا تعرفين
أن ابنك الجميل قد حل به الموت ! (٨٢٠)
منذ أن ولدت
لم يحل بي مثل هذا الاسى !
لقد تحول كل سروري الى كرب
والآن للموت أمضي بكل سرور !
وعندما فهمت الملكة ذلك (٨٢٥)
اقترب مزاجها من حافة الجنون
وناحت قائلة واسفاه « ماذا أفعل » !
وخمشت وجهها ودمعها ينهمر
وكما تفعل النساء في أعمق الكروب
غطى وجهها الدم الكثيف (٨٣٠)
ومزقت الثوب الذي كانت تقف فيه
وندبت اليوم الذي ولدت فيه
بأي طريقة لقي ابني حتفه ؟
وأجاب الملك « يجب علي أن اخبرك
كما أخبرني هذا الفارس الحزين (٨٣٥)
هكذا أخبر ملكتك أيها الرجل المنتحب
بأي طريقة بدأ هذا الفعل ؟
مالم تكن تعرف الحقيقة الكاملة لتخبربها
اليوم يبعث بك الموت الى الجحيم »
وطلب الملك مودرد من السجان أن يقترب (٨٤٠)
وقال له إنه يجب أن يوضح تماما
ما الذي رآه — ويجب أن يشرح

باي طريقة قتل ولده !
فقال السجان في الفجر الماضي ومع انبلاج الصباح
جاء ابنك في وقت منحوس (٨٤٥)
الى عند باب السجن الي
وأراد أن يرى الحجاج النبلاء
فأحضرت اليه أولئك الاشرار
وعندئذ جاء الملك رتشارد أولا
فسال الامير اردر بصـــوت خـــافت وكلمـــات معتـــدة
(٨٥٠)
اذا كان الملك رتشارد يمكن أن يبادله ضربة
بأن يتلقى ضربة منه له ويرد له بأخرى
ضربتان لن يرفضهما الفارسان بازدراء
فقال رتشارد مع ضوء هذا الفجر
اضرب ايها السيد الشاب بكل قوتك ! (٨٥٥)
وهكذا ضرب اردر الملك رتشارد
بشدة لدرجة انه كان بامكانه أن يتباهى ويشعر بالارتياح
وقال الآن يا رتشارد أعزم عليك
غدا سوف تعطيني ضربتك
وافترق الاثنان على ذلك
ونهض رتشارد عند بزوغ النهار
ثم اليه جاء اردر في الحال
ونادى رتشارد باسمه
وبالقسم بين الاثنين ذلك اليوم
ضربه رتشارد ضربة في الحقيقة أن تقول (٨٦٥)
هشمت عظم خده السميك الى نصفين
فسقط أرضا ميتا كأي حجر
وكما اقسمت أن أخدمك هنا
هكذا جرى بهذه الطريقة !
وقال الملك مودرد في غضب كئيب (٨٧٠)
في السجن سرعان ما يصبحون ضعافا

وسوف تقفل السلاسل بسرعة عليهم
من أجل أفعالهم الكريهة الجارية تجاهنا
وهذا الذي أردى ابني قتيلا
إن قوانين بلادي ستقضي عليه بالموت ! (٨٧٥)
وغادر البواب الى حيث قد صرف
لينفذ أمر سيده
وذلك اليوم لم يقدم لهم طعاما يأكلونه
ولا شرابا يطفئون به ظمأهم
وكانت ابنة موردرد في منتجعها الريفي (٨٨٠)
تهجع مع وصيفاتها من ذوات الشرف الرفيع
وكان اسم هذه العذراء مارغري
وكانت قد أحبت رتشارد بقلبها الملتهب
وعندما ارتقى الصباح ومال نحو الظهيرة
مضت الى رطوبة السجن بسرعة تامة (٨٨٥)
واصطحبت معها ثلاثة من الوصيفات
وقالت : يا أيها السجان دعني الآن أرى
السجناء الذين لهم مثل هذه الشهرة الكبيرة
فصاح : على الفور ياسيدتي
وجاء بالملك على مرأى منها
فحياها بلطف وكياسة حقا
وقال لها بقلب شجاع حر :
ما هي رغبتك ياسيدتي مني ؟
وعندما رأته واقفا بهذه الشجاعة
انطوى قلبها عليه تماما
وقالت :« ياسير رتشارد بالله الاعلى
اني احبك أكثر من كل شيء هنا »
فقال:واأسفاه في هذه الحالة
المزيد من البؤس قد بعث إلي
مالذي يمكن أن يعطيه حبي لك هكذا ؟ (٩٠٠)
اني سجين مسكين كما ترين الآن

وهذا ثالث يوم يمضي
وليس لدينا طعام ولاشراب»!
وغمر قلب هذه السيدة شفقة عظيمة
فقالت،لن يدوم جوعه أكثر من هذا (٩٠٥)
وأمرت عندئذ السجان الصارم قائلة،
«أحضر لهم كل من اللحم والشراب
وارفع عنهم أغلال الحديد الآن
أمرك من أجل خاطري العزيز
بعد العشاء في المساء المظلم (٩١٠)
أحضره الى غرفة نومي
ومن أجل لباس هذا الرجل النبيل
عليك أن تلبسه كتابع فارس
لهذا ، وباسم يسوع ، مولانا العزيز
سوف تحصل على مكافأة سخية » (٩١٥)
وفي تلك الليلة لم ينسها البواب
عندما جاء برتشارد الى غرفتها
ومع تلك السيدة الجميلة المعتنة الأنيقة
لعب كل الليل بكل نزواته
وحتى اليوم السابع (٩٢٠)
كان يمضي كل ليلة هكذا سرا
ثم تجسس عليه فارس هناك
فهرول مسرعا ليخبر الملك
عن أعمال رتشارد كل مساء
فسأل الملك بسرعة تامة (٩٢٥)
كيف تسنى لأسيري هذا الماكر الكريه ؟
فقال،الفارس بسرعة الملك رتشارد
هو الذي قام بهذا الفعل الشرير
سيدي بالنصرانية العزيزة لقد
راقبته وهو يجيء اليها (٩٣٠)
وازداد قلب مودرد الغاضب ألما

ولم يعد أحد يستطيع أن يكلمه !
وبسرعة كي يريح فكره
استدعى مودرد مجلسه الاستشاري الحكيم
الايرلات والبارونات والكهنة العالمين (٩٣٥)
ليخبرهم بهذه الأعمال المكربة
فركب الرسل خارجين من البلاط
ليستدعوا حكماء الرجال من كل مكان
وبحلول مساء اليوم الرابع عشر
جاءوا جميعا دون ابطاء (٩٤٠)
وتوجه الملك بالخطاب الى هؤلاء العلماء
واليهم جميعا توجه بالطلب
وقال: سادتي « أرحب بكم جميعا »
وبينما هم يتمشون معتدين في القاعة
جلس الملك في وسطهم جميعا (٩٤٥)
وقال لهم: بتاجي الجليل
أقول لكم لماذا بعثت في طلبكم
عن خائن أريدكم أن تعطوني قراركم الحكيم
خائن هنا قد اساء الي
وهو يجلس الآن في زنزانة محصنة (٩٥٠)
وشرح الأمر للجميع
كيف اردى رتشارد ابنه قتيلا
وكيف استبيحت ابنته :
« واسوف يريح موته كدمات قلبي الحزين
ولكن القوانين قضت كما أعرف
لايمكن أن أقتل هذا الملك كما أعرف » (٩٥٥)
عندئذ توجه اليه بالكلام بارون شجاع :
« كيف حدث انكم احتجزتم هذا الملك الشجاع ؟
هال له كملك نبيل جدا
وتجاهه لم يجرؤ أحد من الناس أن يحاول شيئا شريرا »
وتحدث مودرد عن درته الثمينة

وكيف وجد في تنكر خشن
وكان معه بارونان اثنان
نبيلان صاحبا عمل جريء
« اسرتهم ولم افعل شيئا خطأ (٩٦٥)
واحتفظت بهم في زنزانتي الحصينة »
ومع هذه الملاحظات استأنن خارجا
ورجاهم ان يقضوا بلا إرجاء
كيف يمكن له هكذا أن يشفي غليله بحكمه
وبأي وسيلة يصل الى هذه الغاية (٩٧٠)
وامضى النبلاء ثلاثة أيام وهم يزنون هذا الأمر
ليقروا ماطلبه الملك
وبينما هم يعملون ثار غضبهم وهم
يلتمسون طريقا لمجازاة هؤلاء الاعداء
وقال بعضهم إن مودرد يجب أن يسحل
الملك (٩٧٥)
وقال لخرون : إن القانون يحظر مثل هذا الشيء
وتجادلوا ولكنهم لم يتمكنوا من الاتفاق
على ماذا يجب أن تكون عاقبة رتشارد
وقال الاحكم هناك عندئذ: الصحيح أننا
لايمكن أن نصدر عليه حكما » (٩٨٠)
وبعثوا بهذا الجواب الى الملك
وبه لم يعطوه اي تشجيع
ثم تكلم فارس بارع فقال :
« لاتحزن بعد هذه الليلة سيدي
لاني أعلم حقا أن الاسير الدريز (٩٨٥)
يمكنه تماما أن يبدع وسيلة مرعبة
لانه رجل ذو نفس كريه
وسبب الموت لأعداد كبيرة
فأمر مودرد بهذا الرجل الضاري جدا

ان يجلب اليه في الحال (٩٩٠)
وجيء به الى حضرة الملك
الذي ساله حينئذ بقوله:
هل يمكنك ان تبتكر لي طريقة
« يمكن أن أجازي بها هذا الفعل الكريه»؟
فاجاب السير الدريز بمكر: (٩٩٥)
« يمكنني أن أذكر لك هذا بسهولة
انك تعرف تماما المرء لايمكن أن يفعل ذلك بالقانون
ان يقطع رأس ملك أو يشنقه أو يسحله
لهذا يجب أن تعمل وفق منطقي
انتق بسرعة سبعا ضاريا (١٠٠٠)
وامنع عنه لحمه اليومي
ولمدة ثلاثة أيام لاتعطه شيئا يأكله
ورتشارد أيضا يجب أن لا يغذى
وليقاد الاسد الى زنزانته
وبهذه الطريقة يقتل (١٠٠٥)
ويتحقق انتقامك منه
إن السبع يقتل بمخلب وحشي
وهكذا انك لن تخرق القانون »
وعلمت مارغري بهذه الحيلة (١٠١٠)
وعليه بعثت وراءه بسرعة
لتحذره من نية الملك
وعندما جاء بسرعة الى غرفتها
« مرحبا » قالت تلك السيدة المولهة في الحب
« لقد تعلم أبي من قاض ماكر (١٠١٥)
طريقة لايذائك بحقده
فخلال ثلاثة ايام سيدفع الى زنزانتك
بسبع جائع جدا سريع ومتوحش
وسيقضي هذا السبع على حياتك
ومعك يموت سروري الصادر من القلب »! (١٠٢٠)

ثم قالت هكذا: « يامحبوبي العزيز
سنهرب الليلة من هذه الارض
مع ذهب وفضة بكميات هائلة
وكل ماسوف نحتاج اليه في المستقبل ! (١٠٢٥)
واجاب رتشارد: اني أفهم
ان الهرب سوف يخرق قانون الارض
والهرب أن نذهب من هنا دون اذنه
وابوك سوف لايمنحني اي الرجاء
وانا لااخاف السبع الآن
وأول مايدور بخلدي هو كيف اقتله » (١٠٣٠)
وفي الساعة التاسعة من اليوم الثالث النحوس
سيكون معي قلبه الضخم
اقول لك هذا :
« احضري لي مناديل من أصفر الحرير
اربعين في بياض أصفى حليب
الى زنزانتي ستحضرينهم (١٠٣٥)
قبل المساء بقليل »
ووجدت وسيلة لتاخذ طريقها في حينه الى زنزانته
صحبت معها فارسا نبيلا
عمل طعاما ساخنا من أجل تقوية رتشارد (١٠٤٠)
وامر رتشارد ان يشاطره طعامه صديقاه الامينان العزيزان
« وانت ايها البواب الصديق ، اعمل على تنفيذ كل ماتأمرك بــه سيدتك »

وتلك الليلة جدا حبهما (١٠٤٥)
حيث سحبا الى زنزانته فراشا
رتشارد وتلك الآنسة الفتية
واسترسلا كل الليل في نغم الحب
وفي الفجر عندما بزغت الشمس مبتهجة جدا
رجاها رتشارد أن تأخذ طريقها عائدة (١٠٥٠)

لا ، صاحت،من أجل الرب في الأعلى
ساكون بجانبك من أجل حبك
وسأبقى هنا معك »
واواجه موتي بجانبك ايها الشجاع
ولن انهب من زنزانتك القاسية (١٠٥٥)
وسأخذ ماياتي به الرب !
وقال رتشارد : ياسيدتي الحرة العزيزة
مالم تتركيني سريعا
سوف تحزني قلبي بألم شديد
لأني لن أتمكن من حبك أكثر أبدا »
وعلى هذا أجابت العذراء، « لا » !
فالرب العزيز الذي مات فوق الشجرة
سينقذ حياتك اذا كانت هذه مشيئته ،
ثم أخذ المناديل في يده (١٠٦٥)
وصنع حول ذراعه رباطا
واعتقد انه في برهة قليلة
سوف يقتل السبع بالقوة والحيلة
ووقف قويا في سترته القصيرة
منتظرا السبع في بسالة وجرأة (١٠٧٠)
وسرعان ماأخذ السجان طريقه اليه
وكان معه في ذلك اليوم فارسان
ومعهما سبع قوي
وكانت مخالبه ضارية وحادة وطويلة
ودفعا بباب الزنزانة لينفتح على مصراعية (١٠٧٥)
وأطلقا السبع الهائج في الداخل
وصاح رتشارد :« الهي العزيز احفظني »!
واذ قام السبع بقفزة قوية
كان يمكن أن يمزقه طرفا عن طرف
راغ الملك رتشارد بوجهه العابس المتجهم (١٠٨٠)
وضربه ضربة على صدره

ضربة قوية ماهرة محظوظة
فقبع السبع وعضلاته مشدودة
ولوح بنيله في ألم مجنون
وفغر فكية الرهيبين على سعتهما (١٠٨٥)
وزار حيث جعله الجوع يتوقف
وأحس السجان ورجاله باغماء وشيك
بينما زار السبع بدون توقف
واعتقد رتشارد أن هذا الوقت كان الافضل
وقفز ودفع بشدة بذراعة الملفوف (١٠٩٠)
في حلقه بتصميم قوي ،
ومزق قلبه مخرجا اياه وكل شيء لخر وجده
وسقط الوحش ميتا فوق الارض
ولكن رتشارد لم يكن به جرح ولاخدش
وظل راكعا في ذلك المكان الدامي (١٠٩٥)
وشكر رتشارد يسوع على انعامه
الذي حفظه هناك من الأذى المؤلم
وأخذ القلب الذي كان مايزال داميا حارا
وحمله الى القاعة
أمام الملك ورجاله جميعا (١١٠٠)
وكان الملك مودرد جالسا أمام الطعام مرتفعا
والدوقات والايرلات والفرسان بقربه
والى حيث كان وعاء الملح موضوعا على المائدة
سار الملك رتشارد وعصر الدم (١١٠٥)
وغمس القلب في الملح
بينما وقف كل واحد وتراجع الى الخلف
وأكل هذا القلب نيئا وهو يقطر دما
ومودرد وحدة منذهول ويائس
يهمهم : « حقيقة اني أفهم
هذه ليست يد انسان فان بل يد شيطان (١١١٠)
التي أردت سبعي القوي قتيلا

- ٤٢٩٧ -
وانتزعت قلبه بأقصى قوة بدنية
وهو منه الآن يأكل كفايته
انه يسمى بحق من أجل هذه المهارة الضارية
ملكا عمد بشهرة عظيمة (١١١٥)
رتشارد القوي قلب الاسد»

في الابيات ١١١٧ ـ ١٥٧٢ ، دعا الملك مودرد ايرلاته وباروناته ، وأخبرهم بوفاة ابنه ، واغواء ابنته ، وبمساعدتها الملك رتشارد على قتل السبع ، وقراره باطلاق سراح رتشارد مقابل فدية ، وقد وضع الفدية عالية عن عمد : كأسا قربان من كل كنيسة من أراضي رتشارد . وجوابا على رسالة رتشارد الى انكلترا ، جمعت الفدية وأحضرت الى مودرد . وحرر رتشارد ، ولكن مودرد طالب منه ان يأخذ مارغري معه ، وأصرت الملكة مع ذلك على أن تبقى مارغري في البلاط حتى يتمكن رتشارد من أن يرسل في طلبها .

وغادر رتشارد الى انكلترا ومكث هناك ستة شهور . ثم أعطى الروائي الرومانسي تاريخا موجزا للأرض المقدسة وللأحداث التي دفعت بالملوك المسيحيين لأن يقرروا المضي في الحرب الصليبية ، وعندما علم رتشارد بالمرسوم البابوي الرسمي (واضح أنه خلط مع الحملة الصليبية الأولى .) الذي أصدره البابا أوربان داعيا الى حرب صليبية ، قرر الذهاب ، وبعث باسطوله المكون من مائتي سفينة الى مرسيليا ، بينما أخذ جيشا من أربعين الف رجل الى المانيا ليسترد الفدية من مودرد : زاحفا بجيشه عبر مقاطعات مودرد دون سلب أو نهب أو تدمير لمحاصيل الفلاحين وأجبر رتشارد الملك الالماني على الاذعان

وعرف مودرد أن عدوه قد جاء
ليطالب باعادة الفدية المرتفعة وليرمي به في زنزانة الى الابد
(١٥٧٥)

ان لم تساعدني ابنتي الآن !
من عرشه الفاخر دعاها الى قربه ،
« ماذا هناك يا سيدي ماالذي تخشاه »؟
« عليك يا عزيزتي ، القيت كثيرا من اللوم
واكن دون مساعدتك سيحل بي العار » (١٥٨٠)
فاجابت ، « يا سيدي ما هي خطتك »؟
ما أنا إلا امرأة سيده »
« واذا أصبحت فقط ذا مزاج معتدل
لن يفعل بك الملك رتشارد إلا خيرا ؟
هبه كل ما يريد بنفس طيبة ، (١٥٨٥)
ويجب ان تحقق له كل ما سيطلبه
فاذا منحته هكذا كل ما يريد
لن يعاملك كوغد كافر لئيم
أنت الذي كنت محنقا مغيظا كريها
وسيكون هذه الاتفاق عادلا لكليكما ، (١٥٩٠)
واذا كانت الملكة أيضا سمحة كيسة
سترى هكذا منه أفعال جيدة »
وقادت اباها في ذلك اليوم
الى الملك رتشارد ، كما يقول كتابي
وكان معه مزيد من الايرلات والبارونات ، (١٥٩٥)
وستون فارسا خارج الباب
وعندما رأى رتشارد كيف جاء مودرد ،
اتجه نحوه ليعرض طلبه
وركع الملك مودرد على ركبتيه
وحيا الملك مع ذرائع واعذار صادرة عن القلب
(١٦٠٠)
« سيدي إني تحت امرك ! »
فقال الملك رتشارد ، طلبي الوحيد
هو أن تعيد الي الآن نهبي ؟
وبعد ذلك سأحبك بوضوح

وأعاملك دائما كصديق لي (١٦٠٥)
وقال مودرد : ليحمينا الرب !
أقسم لك على الكتاب
أن كل ما أخذته منك جاهز لك
كنزك الثمين حاضر
وإذا أمرت فإني أزيده لك (١٦١٠)
وبذلك سأقيم السلام معك !
وغفر له الملك رتشارد خطيئته ،
وقبله على خديه العجوزين
واصبحا صديقين سريعا وبوضوح
وفي اليوم نفسه دعا الملك الالماني (١٦١٥)
الملك رتشارد للعشاء
وبعد الوليمة عندما فرغ الجميع
قال الملك رتشارد بنبرات واضحة صادقة ،
لضيفه الذي كان جالسا بقربه
« أشكرك جدا على هذا الترحيب (١٦٢٠)
ولكني ياسيدي من أجل محبة الرب أرجو
أن تلبي لي الآن رغبتي
في حملتي الصليبية الى الأرض
من أجل خاطر الرب العزيز ، أعطني يدك
وتطوع مودرد بالذهاب (١٦٢٥)
وعرض تقديم كل فرسانه أيضا ،
لمساعدة الملك الانكليزي في القتال :
« ليس صوابا بالنسبة لك أن تذهب ،
فأنت أحسن من أن تخوض مثل هذه الحرب ،
ولكن ابعث بفرسانك الممتازين (١٦٣٠)
مائة مقاتل ، شجاع وقوي
أفضل من ينتمي الى بلاطك
واعطني من التموين ما يكفي ،
من أجل عام كامل من القتال العنيف ،

وابعث ايضا باتباع ليخدموا رجالك (١٦٣٥)
وقال الملك مودرد على ذلك « آمين »
وهدية أخرى سأعطيها لك
يمكن أن تعينك في حياتك : هي
خاتمان سحريان ثمينان من أصفى الذهب
والاحجار فيهما منضدة وكاملة (١٦٤٠)
ومن هنا الى أرض الهند
لا يمكن أن تجد افضل منهما في أي مكان ،
لأن من لديه حجر واحد منهما في يده
سوف لن يغرق في الماء أبدا
والحجر الآخر من يحمله (١٦٤٥)
لن تحرقه النار في أي مكان
قال رتشارد : يا سيدي أقدم لك شكري قالها
وهو خارج لينضم الى قواته المسلحة

الابيات من ١٦٤٩ الى ٢٨٩٠ : من هناك رحل ريتشارد مع جيشه وفرسان مودرد الى مسينا ليقابلوا ملك فرنسا فيليب وكان الملك الفرنسي متلهفا ليؤذي رتشارد من أجل التحكم في أراضي ريتشارد الواسعة ، فكتب الى تانكرد ملك صقلية ، رسالة اتهم فيها ريتشارد بالتآمر بعمل خياني ضد الصقليين ، وكره تانكرد أن يصدق مثل هذا الإتهام ضد الملك النبيل ، وأطلع الملك الانكليزي على الرسالة ، وفي غضب من فيليب لهذا الفعل الظالم ، برأ ريتشارد نفسه من هذه التهمة ، وطلب من الملك الفرنسي تقديم تفسير .

ومع ذلك سخر الصليبيون الفرنسيون والمعسكرين في مسينا من رجال ريتشارد ، وقتلوا كل من وجدوا من الفرسان الانكليز الضالين ، وبذلك أوجدوا حالة من التوتر .

وأصبح رتشارد غاضبا من فيليب ورجاله من هذه المعاملة

الفظة ، فهاجم القوات الفرنسية وهزمها ، واجبر فيليب على توقيع معاهدة عدم اعتداء لبقية الحرب الصليبية .

وأبحر فيليب الى عكا ، بينما أبحر رتشارد لتسوية خلاف مع اسحق ، امبراطور قبرص ، فقد اغرقت ثلاث من سفن كنوز رتشارد خارج مياه قبرص ، وذبح الامبراطور بعض الناجين ، ليدعي بأحقيته في الكنز ، وأبحرت سفينة الكنز الرابعة لتروي الفاجعة لرتشارد وذلك بينما كان باقي الأسطول يقترب من قبرص

لم يستطع رتشارد تحمل هذا العمل ، وهكذا بعث رسولا الى اسحق طالبا اطلاق سراح ألفا وستمائة من الناجين الذين أخذوا أسرى ، واعادة الكنز ، وعندما رفض اسحق ان يرد الكنز أو الاسرى ، أمسك رتشارد ببلطة يزن رأسها عشرين رطلا ، وأمر ألفا من فرسانه أن يعدوا أنفسهم للمعركة ، وركب خارجا ليجابه اسحق المتغطرس .

وفي المعركة التالية ، قتل رتشارد عشرين ألف قبرصي ، واستولى على الكثير من الكنوز ، بما في ذلك جوادين لايمكن مقارنتهما ، هما : فيفل وليارد وعندما رفض الامبراطور القبرصي المهزوم الاستسلام أمر رتشارد بتقييده بالسلاسل الحديدية ووضعه على ظهر سفينة رتشارد القيادية ليصحب الصليبيين الى عكا .

وقابل رتشارد واسطوله المكون من مائتي سفينة على الطريق مركبا شراعيا ضخما سريعا مثقل الحمل ناقلا المؤن الى الحامية المسلمة المحاصرة في عكا ، ومع رفض الاستسلام وجه قائد هذه السفينة الاهانات الى مبعوث رتشارد عندئذ أمر رتشارد شيني بمهاجمة السفينة المعادية ، ودمر الصليبيون المركب بمعونة الرب ، وبعثوا بها وبرجالها الألف والستمائة الى قاع المحيط ، وبعد هذا التأخير الطفيف ، تقدم الصليبيون نحو عكا .

وعندما وجد مدخل ميناء عكا مقفلا بسلسلة ضخمة ، أمر ريتشارد شينية أن تقترب من وسط السلسلة ، وصعد الى قوس سفينة القيادة وضرب السلسلة بعموده الحديدي ضربة قوية مرسلا السلسلة وهي تغرق في اتجاه قاع الميناء ، وجرى ترحيب قلبي بالاسطول الداخل من قبل رجال فيليب ، وبعد أن أخبره رئيس أساقفة بيزا بمحاولات الملك الفرنسي غير الناجحة للاستيلاء على المدينة تولى ريتشارد قيادة القوات وقرر دراسة الوضع .

وقفز ريتشارد فوق جواده (٢٨٩١)
وانطلق مبتعدا بسرعة أثارت الغبار .
وركب حول الخندق المائي للوثنيين
ومضى نحو مجموعة المخيمات العكاوية المسورة
حتى وصل الى مشفى (٢٨٩٥)
القديس يوحنا ، كما رأيت أن أذكر
وهناك نصب سرادقة
وأقام هناك برجه ميت - غريفون
فكان حصنا للرجال الانكليز
... الأمة المشارقة الوثنيين (٢٩٠٠)
وبمساعدته تم الاستيلاء على المدينة وأيضا بمساعدة النحل
وعندما شيد البرج جيدا
ثبت هناك عراداته
وأمر باحضار خلايا النحل بسرعة (٢٩٠٥)
ثم بين كيف توضع
وحين بدأ نفخ الأبواق
انتشروا في الأسفل لمهاجمة المدينة
وكان الملك رتشارد فوق سور عكا المتين
وقذف بالنحل ليسقط في الداخل (٢٩١٠)
وكان الجو حارا في ذروة الصيف
عندما تفجر النحل خارجا من كل جانب

وكان متضايقا ومليئا بالكراهية
فأحدث بين المسلمين كثيرا من الهياج
لأنهم كانوا يلدغون في وجوههم (٢٩١٥)
عندما كان النحل يطير بينهم
واختبأ الوثنيون في زنزانات صماء
حتى لايستطيع النحل أن يجدهم
ولعنوا روح الملك ريتشارد الى الجحيم
لأن « ذبابه » لسعهم بعنف شديد (٢٩٢٠)
ونصب رتشارد آلة أخرى
ودعا هذه الآلة باسم روبنت ،
وهي آلة قوية وقفت بمفردها
وقذفت الى داخل عكا أحجارا ضخمة
ولكي يكون ريتشارد هو الغالب (٢٩٢٥)
استدعى اليه رئيس عمال التلغيم
وعزم عليه يحفر له نفقا متقنا
يصعد في اتجاه البرج المسمى موديت
وأقسم قسما بالقديس سيمون
بأنه اذا هدمه بحلول الظهر (٢٩٣٠)
وكذلك جميع السور الخارجي
فانه وقتها سيحطمه كله ألى قطع متناثرة
وحفر عمال التلغيم نفقهم سريعا
بينما كان ، رجال الآلات يقذفون بقذائف كبيرة
وتسلح المسلمون جميعا (٢٩٣٥)
وركضوا مسرعين مرتقين السور
وكلهم ملفوفون بالملاءات من الرأس الى الركبتين
ليبعدوا عنهم لسع نحلات رتشارد
وصاحوا « إن لهذاالرجل تصاميم كريهة
عندما يهاجم بالنحل وبالتلغيم (٢٩٤)
مامن ملك آخر ابتدأ بهذه الطريقة
ولاشك لدينا أنه سيربح اليوم »!

ووقف الملك رتشارد فوق برج ميت غريفون
ليرتب الاعمال داخل المدينة ،
وكيف هرب الوثنيون في رعب (٢٩٤٥)
بينما كان رماة السهام من برجه
يذبحون بالقسي العقارة وبالسهام مربعة الرؤوس يؤلمون
يطلقونها بين الأرجل والأذرع ونحو الرأس والقلب
وساعد الصليبيون الفرنسيون بتلكؤ
في التلغيم في ذلك اليوم الدموي (٢٩٥٠)
وأسقط السور الخارجي هكذا
وكان العديد من الوثنيين في تلك المدينة قد
قتلوا عندما ركب رتشارد الى داخلها
وعندما بدأ سيطرته هناك
وربح المسيحيون في ذلك اليوم أكثر (٢٩٥٥)
من السنوات السبعة السالفة
وهرب المسلمون في تلك الساعة الدموية
وتسابقوا الى داخل البرج الأعلى
وأشعلوا المشاعل حول السور
وهـــكذا أمـــكنهم أن يروا الصـــليبيين
ضخمين (٢٩٦٠)
وكانت هذه المشاعل تلقى ضوءا غريبا
كان يتراقص خافقا فوق الفارس
الذي وصل للتو من انكلترا ،
والشخص الذي لايمكنهم الصمود أمامه
مالم يأت قائدهم صلاح الدين (٢٩٦٥)
بكل رجاله لينتقم لهم
وكان صلاح الدين على بعد عشرة أميال من هناك
لكنه رأى من هناك المشاعل في الهواء
فاستدعى اليه جميع حشوده
وكانت كثيفة كالمطر فوق ساحل عاصف (٢٩٧٠)

قد تجمعوا فوق سهل
بجوار عكا ، فوق أرض وعرة
ستون ألفا من المشاة كانوا هناك
وقد أعدوا حزما من القش
ليحملوها ، هكذا كتب مؤلفي (٢٩٧٥)
ليملأوا الخندق المائي الخارجي للمسيحيين
وأقسم كل منهم يمينا
أن يقتلوا كل المسيحيين القساة المكروهين
وبعدهم جاء قادة وفرسان
مائة الف أقوياء القتال (٢٩٨٠)
وزحف هذا الحشد قدما فانتصر بنظام
وحمل الأول ألوية من سندس أحمر
وكان على كل لواء ثلاث غريفونات حقيقية
ولكل شريط بلون أزرق سماوي
وخلفهم ركب القادة الشجعان (٢٩٨٥)
بدروع تشع مثل الذهب البراق
ومع أعلامهم المثلثة وألويتهم أيضا
وكانت مصنوعة من سندس لونه لون ريش الطاووس الأخضر
مع تنين ضار على جل واحد
يقاتل سبعا شرسا (٢٩٩٠)
وكانت أعلام الأول حمرا ثم بعد ذلك أصبحت خضرا
ثم أصبحت المجموعة الثالثة مرئية
خمسون أو ستون ألف فارس
مسلحون بكل قوتهم
وجاء بعدهم في بياض الثلج (٢٩٩٥)
خمسون ألفا في صف
وبينهم كان صلاح الدين
وابن أخيه تقي الدين
ولواؤهم الأبيض ـ الثلجي كما في الخرافات
عليه ثلاثة رؤوس سمور كشعار إسلامي (٣٠٠٠)

وكان شكلهم حسن وحجومهم كبيرة جدا
وكان كل هؤلاء الرجال يحملون الترسة والدرق
ومامن واحد كان قادرا على تبين طريقهم
في الخندق المسيحي الذي ركبوا حوله
بينما كان المشاة يلقون بحزم القش فيه (٣٠٠٥)
لكي يعدوا للفرسان طريقا ممهدا
ملأوا الخندق حتى الحافة
حتى يمكن الحشود أن تسوق مباشرة الى الداخل
وقام المسلمون بهذا العمل
عندما قرر الرب القادر وهكذا قضى (٣٠١٠)
أن يطرد المسيحيون الحشد
بينما هم يناشدون روح القدس
« الآن لدينا أفضل عون »
لأن لدينا قديسنا المنقذ »!
وكان معسكر المسيحيين يموج بالرجال (٣٠١٥)
وهم يهرعون الى اسلحتهم بسرعة ،
وتسابقوا نحو حافة الخندق المطمور
الدفاع عنه مع نخبة المسيحيين
وفي هذا القتال الحزين مع ضربات الأخذ والعطاء
سقط عدد كبير من الرؤوس فوق الأجساد (٣٠٢٠)
وانشق الكثير من الدروع نصفين
وسقط الكثير من الخيول أيضا
وفقد العديد من الفرسان أسلحتهم
وسقط كثير من الخيل وقد أصيبت بأضرار كثيرة
والعديد من النفوس الشجاعة بلاشك (٣٠٢٥)
قتلت طوال ذلك اليوم الدامي
وسقط الملك رتشارد مريضا بحمى مرتفعة
وأحس كل رجاله أن أجله بات قريبا

ولم يستطع أن يتحول عن فراشة
حتى لو أن خيمته احترقت (٣٠٣٠)
ومن ثم اتضح أن ملك فرنسا
سيقود المعركة وحده
وأن أحدا يجب أن لايخرج من المعسكر
ولاأن يمر قرب الخندق ليستكشف
بل أن يلزموا داخل المعسكر (٣٠٣٥)
حتى لايكسب الوثنيين منهم كما يجب شيئا
وهم الوثنيون الذين اقتربوا من الخندق
وحاولوا عبور هذا الخط المسيحي
وبفعلهم هذا قطعوا أنفاسهم
وهناك واجهوا بسرعة موتهم (٣٠٤٠)
ورقد الملك رتشارد في فراش مرضه
والسبب في ذلك يجب أن أقول
ناجم من تعب البحر
والهواء الغريب في تلك البلاد البعيدة
والبرد القارس والحر المرير (٣٠٤٥)
واللحم والشراب غير الطيب
وهكذا أعاقت هذه الأشياء جسمه عن الحركة
حيث أنه لم يستطع أن يجد طعاما مجاوبا من انكلترا
وهكذا رجا الملك المريض الفرسان أن يحدثوا
له عن رجل حكيم هكذا قال (٣٠٥٠)
سواء أكان مسيحيا أم وثنيا أسود
ليخبره كيف يعالج حماه
وأعطى كل رجل نصيحة وتوجيهه
ولكن لم يكن هناك أحد بهذه الحكمة
حتى يتمكن من أن يوقف أساه المحموم (٣٠٥٥)
أو يحرره من آلامه
وكان الانكليز الشجعان يشعرون بالأسى
من أجل مولاهم في كربة

وهكذا أيضا كان كل المسيحيين هناك
لان رتشارد لايقود هذه النشاطات (٣٠٦٠)
وفوق ركب مثنية كان الحشد المسيحي راكعا
يصلي للأب والابن والروح القدس ،
في أثناء الليل والنهار بنية طيبة
ربنا هب ملكنا راحة سريعة !
من اجل حب مريم ليسوع العزيز (٣٠٦٥)
فأجابت سريعا صلواتهم القلبية
بفضلها وبركاتها الحلوة ،
وشفي الملك رتشارد من مرضه العضال
والحمهم لم يعد له ميل
ذهب كل النبيذ والماء بدا (٣٠٧٠)
وتاقت نفسه العليلة للحم خنزير مشوي
حتى لو أن رجاله جميعا احترقوا
لم يتمكنوا من ابتياع واحد في هذه الأرض القاسية
بكل الذهب الذي كان تحت إمرتهم
اي قطعة من لحم خنزير غض (٣٠٧٥)
يمكن الملك أن يغمس فيه شوكته
وبهذا علم في حينه فارس قديم السن
وعرف كيف تاق الملك المريض بمرارة
للحم خنزير وهو في بؤسه المحموم
عندها تحدث مع الطاهي على انفراد (٣٠٨٠)
حيث قال: ان ملكنا الطيب يرفض بازدراء لحومنا
ذلك أنه تواق للحم خنزير مشوي طيب
ولايمكننا في أي مكان هنا أن نشتري لحم خنزير مشــوي ليرضى ملكنا المريض !
ومـــــع ذلك اني أعرف مصـــــدرا يمـــــكننا أن نعـــــول عليه (٣٠٨٥)
لكنه لو علم إن رأسي ستسقط

لذا يجب أن لاتبين له كنهه
خذ مسلما شابا خفيف الحركة
ممن يجب أن يفارق حياته البائسة بسرعة
عليك تنظيفه وسلخه وتقطيعه وفركه (٣٠٩٠)
ثم قبل أن يفسد لحمه
ملحه وعدله بتوابل حارة
ثم بالزعفران يطلى هذا الشواء الجيد
وعندما يتذوق ملكنا الطيب هذا الشواء
سيشفى من الحمى المرتفعة التي اعترته
وستضمن لنا عودة قواه
وبعدما يكسر صومه هكذا
ويأكل من هذه الوجبة الغريبة
ومن المرق يرشف طاسا
سيشفيه نوم عميق ويجعله صحيحا سليما (٣١٠٠)
وهكذا ستسود رحمة الرب
وسيصبح ملكنا قويا معافى
هكذا أقول في بضع كلمات حزينة
ذبــــح غلام مســـــلم وشـــــوى وأحضر لحمـــــة الى الملك (٣١٠٥)

من بعيد في الطول والعرض التمسنا هذا الخنزير
أرجو أن ترشف المرق وتأكل هذا اللحم
وببركة الرب ، نتوسل اليك
ووضيع الشواء أمام الملك
واكل من هذه المائدة المثيرة للاشمئزاز (٣١١٠)
فالتهم اللحم وقضم العظم
وشرب مرق هذا اللحم غير المعروف
وعندما أخذ هكذا كفايته
تركه خدمه حسب رغبته
فتمدد في أغطيته الدافئة (٣١١٥)

وغطى حاجبه صورته النائمة
وتفصد عرقه وهو يرقد نائما
ثم أفاق سليما ومرحا
وعندما قام ارتدى لباس الحرب
وتمشى في خطوات سريعة مع مستشاره (٣١٢٠)
وظهر لكل فرسانه هكذا
سليما صحيحا ومعافى من هذه المحنة
وشكر يسوع العزيز والقديسة مريم
لانه شفي من مرضه
وفي هـــــــــــذه الاثناء كان المســـــــــــــلمون يعملون
بقوة (٣١٢٥)
لطم الخندق المسيحي تلك الليلة
ولازالة دفاعات مدخل المعسكر
وهكذا بنوا مرتقى يوصلهم الى اعدائهم
وعندما علم رتشارد بهذا الهجوم
نادى في معسكره (٣١٣٠)
سلحوني جيدا بدرع سميك من اجل محبة يسوع منقذنا العزيز كي
احارب هذا العدو بكل قوتي
كما يجب ان نفعل جميعا في وضح النهار
حيث انني وانا الان في كامل صحتي
سوف اقمع اليوم هؤلاء المسلمين
والان وقد تجددت قوتي
فاننا في وسط هذا الحر بجلد
سوف نقاتل لنكسب هذه الارض المسلمة
وسآخذ معي بلطتي الجيدة القوية (٣١٤٠)
حيث انني سأقاتل غير المسيحيين
وفي وسطهم سأضرب صعودا ونزولا
وابعث بهم الى جانب ربهم
حيث اضربهم ايذما سقت

وكان مسلحا جيدا لقتال هذا العدو (٣١٤٥)
وذهب الفرسان واتباعهم ايضا
وكان جيش المسيحيين قويا جسورا
والمنظر الذي رؤي هناك كان رهيبا
وكان حقيقيا دون شك ،
ان ستهزم حشود المسلمين وتسحق (٣١٥٠)
في المقدمة كان داوية رتشارد
والانجويين ابناء جلدته واسبتاريته
وكان الملك امام ميمنة المسلمين
حيث شعر العديد من الاعداء هناك بقوته
وضرب فارسا واحدا فوق درعه (٣١٥٥)
فسقط راس هذا المسلم في الميدان ،
وحصل آخر على مثل تلك الضربات الجرئية
ولم تفده كل هذه الدروع شيئا
وضرب ثالثا على قربوس سرج حصانه
فسقط على الارض في ويل (٣١٦٠)
وكانت الحشود المسيحية المؤمنة مبتهجة
عندما شاهدت اعمال رتشارد
ولم يصمد اي درع أمام هذه البلطة:
فقد شقت عبر الجميع كسكين خلال الشمع
ورآهم السلطان يحاربون بهذه القوة (٣١٦٥)
وظن ان شيطانا كان يقيم بينهم
وحيث قتل الملك العديد منهم هناك
انسحب العدو بحشوده
بسرعة مع مجموعة قادته
الى مدينة يسميها الناس غزة (٣١٧٠)
ولكن في الحقيقة كل قوات الساقه عنده
قتلوا من قبل ملكنا الطيب رتشارد
وعندها المسلمون فوق سور عكا
شعروا بالخوف واخذوا يستغيثون بالله

بينما كانوا يراقبـــون الســــلطان وهـــو يســـوق
مبتعدا (٣١٧٥)
وريتشارد يقتل رفاقهم المسلمين ويذبح
هكذا كل النهار وفي الليل
خاضوا هم والمسيحيون المعركة
وعندما مالت الشمس للغروب
انسحب كل الفرسان ليستريحوا (٣١٨٠)
القوة المسيحية غنيها وفقيرها
انسحبت الى الوراء وراء خندقها الدفاعي
لتستريح خلال الليل الهادىء
وامر الملك ريتشارد كل فرسانه
ان يحرسوا خندقهم الواسع العميق (٣١٨٥)
بينما يحصل الاخرون على قدر من النوم
وشعر المسلمون خارج الخندق
بالخوف من ان يستولي رتشارد على خنادقهم
لانه كسب معركة ذلك اليوم
وهكذا ارادوا ان يهربوا من هناك (٣١٩٠)
ورغبوا في تلك الليلة ان يركبوا مبتعدين
لانهم لم يعرفوا مكانا امنا للاختباء
ضمن مسافة عرضها عشرة اميال
وعندما ارتاح ريتشارد هناك برهة ،
سرعان ماحل فارس درعه (١٩٥)
كي يريحه ويعطيه مجالا للسكون
واحضرت له قطعة من الخبز المغموس بالنبيذ
فقال :« رأس ذلك الخنزير نفسه
الذي اكلته احضره لي الان ،
لانه اعانني على استرداد عافيتي (٣٢٠٠)
واخشى أن مرضي يمكن ان يعود
والان ، قدم لي الرأس الذي اتوق اليه »! »
فاجاب الطاهي ، لقد ذهب الرأس !

-٤٣١٣-

فاجابه الملك :« مالم ار رأس ذلك الخنزير (٣٢٠٥)
إني صدقا اقول ستفقد انت رأسك! »
عندها رأى الطاهي الشاحب انه يتوجب
عليه ان يحضر الرأس له ليراه
وتوسل وهو راكع على ركبتيه
هذا هو الرأس فأرجو الرحمة ! (٣٢١٠)
وتم احضار رأس مسلم داكن اللون
بلحية ابنوسية ووجه مشوه
وشفاه متصلبة مازالت فاغرة باتساع
اي شيطان هذا » ؟ صاح الملك رتشارد
ولكنه ضحك بعدئذ وقد فهم (٣٢١٥)
« هل لحم المسلم متماسك وطيب هكذا ؟
بموت ربي العزيز وصعوده
لن تذهب حياتنا بسبب الجوع
بينما يمكننا هكذا في هجومنا
ان نقتل المسلمين عندما تتناقص مؤننا (٣٢٢٠)
يمكننا الان ان نأخذ لحمهم طيب المذاق
لنسلق او نشوي او نقلي او نخبز
ونقضم اللحم نزولا الى العظم ،
وهكذا نستبعد التأخير من اجل الطعام
لان رجالي اذا احسوا بألم الجوع (٣٢٢٥)
سوف نأكل كلنا ونحارب مرة اخرى »

في الابيات ٣٢٢٧ ـ ٣٣٩٦ : عرض صلاح الدين عندئذ تسليم عكا ، وبيت المقدس وكل سورية حتى نهر الاردن لرتشارد ، وان يدفع للصليبيين عشرة الاف دينار ذهبي ، وان يتوج كونراد مونتفرات ملكا على سورية ٠

ورفض رتشارد هذا العرض لان كونراد ارتكب اعمالا خيانية ضده قبل ان تبدأ الحملة الصليبية . فقدم صلاح الدين عرضا

مضادا : هو انه سيعيد صليب الصلبوت للمسيحيين ، وسوف يدفع الصليبيين مائة الف دينار ذهبي ، ويعطيهم كل الاسلحة والذخائر التي في عكا ، وسيسلم لهم الستين الف اسير من عكا كرهائن حتى يتسنى تنفيذ الشروط الاخرى في العرض ، ووافق الملك رتشارد على ذلك ، وبعد ذلك مباشرة ، على اي حال أرسل صلاح الدين سفراء الى رتشارد ومعهم تعليمات للتخلص من ابتزازه .

وتكلم الملك ريتشارد بكلمات لطيفة (٣٣٩٧)
« هذا العرض الذهبي ساسحبه
واشجب ظنونكم وتفكيركم الشرير
لاني في البارحة وفي السفينة قد جلبت (٣٤٠٠)
من العملات الذهبية والفضية معي
اكثر مما لدى سيدكم أو اي ثلاثة ؛
لهذا لاحاجة لي بكنوزكم .
ومع ذلك فمن أجل محبة الرب اناشدكم
ان تجتمعوا بي حيث أقيم الآن (٣٤٠٥)
وهناك ساخبركم وليسمع الجميع
اي كلمات ستحملونها لسيدكم
وهي كلمات أعانني مجلسي الاستشاري في اعدادها !
وعندما وافق الجميع على هذا باعتداد،
انتحى الملك ريتشارد بمساعده جانبا (٣٤١٠)
واخبره بما سيفعله بالحال
« هذا هو ماسوف تفعلونه الان :
يجب ان تنزلوا عميقا الى الزنزانة
وتختاروا الاسرى ذوي الشهرة ــ
اولئك الذين جاءوا من أغنى الاقرباء (٣٤١٥)

وتعالجوهم من إثم كفرهم
بقطع رأس كل منهم الكريه
ولكن قبل أن يموت كل منهم

خذوا اسمه واكتبوه بخط واضح ودقيق على ورق ثمين
ثم احملوا بعدئذ هذا اللحم الى الطاهي (٣٤٢٠)
واجعلوه يلقى في مرجل
واعزموا على الطاهي أن يسلقه بسرعة
ومروه بأن ينزع كل الشعر
من الرأس واللحية والشفة أيضا
وهكذا عندما تعد الوليمة الاحتفالية (٣٤٢٥)
تأكدوا من أن خدمكم لم ينسوا
وأعملوا على أن لا يترددوا
في أن يقدموا كل رأس فوق صحن ذهبي
وادخلوا كل واحد وهو ما يزال ساخنا
واجعلوا كل وجه يلبس ابتسامة بشعة (٣٤٣٠)
وتأكدوا من أن كل رأس متجه نحو الأعلى
وضعوا اسم كل واحد فوق جبينه
ويجب أن يذكر على كل بطاقة اسم العائلة
وتأكدوا من تقديم واحد ملتهب لي (٣٤٣٥)
هذه الوجبة يمكن هكذا ان تكافئني جيدا
وانا عندما آكل كفايتي من غير مسيحي
كما لو انه فروج طري
وراقبوا المسلمين عندئذ وقد أصابهم الغثيان
القهرمان كما يقال في حكايات المغامرات
بسرعة فعل ما طلبه الملك (٣٤٤٠)
وعند الظهر بدأت الأبواق تدوي
ولكن السفراء هناك لم يكونوا عندئذ يعرفون
قانون ريتشارد أو عاداته القديمة
وقال الملك لهم:أيها المسلمون البواسل
أرحب بكم في هذا السرادق (٣٤٤٥)
وإذ جلسوا مع بطانتهم
وضع على مائدتهم الملح والخبز
لكن لانبيذ أبيض أو أحمر

وجلس المسلمون وبدأوا يحملقون
وفكروا ، وا أسفاه كيف نأكل ؟ (٣٤٥٠)
وراقب رتشارد من منصة مرتفعة
وقد جلس الدوقات والايرلات بقربه
الخدم وهم يقدمون الوجبة
مع أصوات المزامير والابواق الخشنة
وتولى القهرمان الاشراف بحذر (٣٤٥٥)
ليخدم ملكه وهو على كرسيه
ولئلا يصاب رجاله بعد الوليمة بضرر
إذا لم تقدم هذه الوليمة الاحتفالية الكئيبة حارة
وكان الرأس المعد لريتشارد كاملا وساخنا
واسمه فوق الجبين في لفافة رائعة (٣٤٦٠)
وقدم الطعام للسفراء ايضا
فوضع رأس بين كل اثنين
مع الاسم مكتوبا فوق الجبين العاري
عندها شعر كل رجل هناك بالغضب
وشعروا بالخوف من هذه المكافأة الكريهة (٣٤٦٥)
وانهمرت الدموع من عيونهم المنتفخة
وعندما قرأوا الاسماء كلها
خشي الجميع ان يقتلوا هكذا
وراقب ريتشارد بعينين زرقاوين باردتين
كيف بدل كل هؤلاء الرجال لونهم ومظهرهم (٣٤٧٠)
ومن أجل أصدقائهم انتحبوا وأقسموا
أن الذين فقدوهم لن يعودوا أبدا
لأنهم كانوا من أقرب اليهم
وهكذا في الكرب امكنهم التماسك
لأنهم يجب أن يخشوا كل النصرانية (٣٤٧٥)
وبقدر ما أسفوا لأنهم حضروا
لم يأكلوا من وليمة ريتشارد لقمة واحدة
وجلس هو يستمتع بالمنظر

والتابع الذي خدم الملك
حفر بسكين حادة عندئذ الرأس
وأكل ريتشارد باستمتاع نادر
وجلس المسلمون وحملقوا فقط
ثم وكز كل فارس الآخر
وقال : « إنه أخو الشيطان
الذي يقتـــــل رجـــــالنا ويقـــــطعهم شرائح ســـــميكة »
(٣٤٨٥)
ولم ينس ريتشارد هذه الغمزه
وهو يلقي بنظراته حوله ،
بوجه غاضب وغطرسة
نحو السفراء توجه بالخطاب :
لقد لبيتم دعوتي (٣٤٩٠)
لهذا أطلب منكم أن تكونوا مرتاحين
وأسأل لماذا لم يسركم تقطيع اللحم
ولم تأكلوا كفايتكم كما أفعل ؟
أرجوكم أخبروني لماذا ترتجفون هكذا »؟
وجلسوا جميعا في صمت وحبسوا أيديهم (٣٤٩٥)
وحيث لم يجرؤ أحد على الكلام أو الوقوف ،
كانوا يتمنون أن يزحفوا الى جوف الأرض
لأن موتا أنظف كانوا يقبلون
وعندما لم يجبه أحد بكلمة
قال الملك : « ارفعوا عن المائدة
هذا اللحم الذي وضعته أنا أمامهم (٣٥٠٠)
وأحضروا لهم لحما آخر تشتهيه أذواقهم »!
فاحضر الخدم شواء غضا
وأيضا نبيذا يمكن به شرب الأنخاب
نبيذا أحمر معالجا بالتوابل ، وشرابا آخر (٣٥٠٥)
وعندما قال لهم ريتشارد أن لا يفكروا
لم يأكل أحد كفايته أو جيدا

وعرف رتشارد الى أين ذهبت أفكارهم
فقال : « أرجوكم أن لا تخافوا
هذا هو الأمر الذي أعطيته (٣٥١٠)
أن تخدموا أولا ، كما قدر الرب
برؤوس مسلمين ساخنة تطلق البخار
ولكني عن عاداتكم لا أعرف الكثير
كملك مسيحي وحقا كذلك
وبناء عليه اطلبوا مني وتحققوا (٣٥١٥)
انكم بأمان سوف تذهبون مرة أخرى
واذا رفضت لأي شيء
من اسمي الطيب سوف تنطلق الكلمات السيئة
أن عندي مثل هذه الأخلاق الكريهة
كاساءة معاملة السفراء» (٣٥٢٠)
وعندما أكل الجميع وأخبروا
قام الملك ريتشار ليحذرهم وينبههم
حيث طلب مسلم اذنه بالذهاب
وكانوا جميعا مملوئين رعبا ومرارة
لانهم كمبعوثين قد جاءوا (٣٥٢٥)
ولأن الجميع تمنوا لو أنهم بقوا في بيوتهم
مع زوجاتهم وأصدقائهم وجميع أقاربهم
بدلا من أن يكونوا في بلاط الملك رتشارد!
وتحدث الملك رتشارد عندئذ مع أحد الرجال
عد الى بيتك وأخبر سلطانك المعتد (٣٥٣٠)
أنه عليه أن يخفف من سوداويته
لانه يعتقد انكم تأخرتم جدا
وببطء شديد خمنتم شروط هدنتكم
فقبل أن تحضروا أعد اللحم
لكل الرجال الشجعان الذين يخدمون معي (٣٥٣٥
وكلهم صليبيون ومن حشودي
وأخبره أنه لن يجديه أو ينفعه

حتى لو دمر طعامنا ومؤننا
من اللحم والسمك والخبز والفطائر
أننا لن نموت جوعا أبدا (٣٥٤٠)
بينما نحن قادرون على الركوب والقتال
وقتل فارس مسلم غض العود
ثم نغسل اللحم ونشوي الرأس
بمسلم واحد كهذا يمكن أن نتغذى
أو بثمانية أو تسعة أو حتى عشرة (٣٥٤٥)
برجالي المقاتلين المسيحيين الأقوياء
تابع الملك « أقسم على هذا الشيء :
إنه ليس هناك لحم مغذ هكذا
لرجل انكليزي مسيحي
لاالحجـــل ولاالزقـــزاق ولامـــالك الحـــزين
ولاالبجعة (٣٥٥٠)
ولاالبقرة أو الثور ولا غنم الحظائر
كلحوم المسلمين
انهم سمان ولحمهم جميل وطري
بينما كل رجالي هزيلون نحيلون
وفي حين أي مسلم يمكن أن يكون حيا (٣٥٥٥)
يقاتل في هذه البلاد البعيدة
حول طعام المسيحيين لن أهتم
فلننهي صيامنا ونرتحل نحو الخارج
لنقتل بقدر مانحتاج
حيث نطعم رجالنا كل يوم (٣٥٦٠)
وهكذا لن نهرول الى انكلترا
حتى نكون قد أكلنا الجميع

الأبيات ٣٥٦٣ ـ ٥٤٦٦ : عاد السـفراء الى صـــلاح الدين بتفاصيل رفض **ريتشارد** لعـــرض الســـلطان والوليمـــة

الرهيبة ، وناشدوا صلاح الدين أن يسلم الملك الانكليزي الشرس أي شيء يريده ، لأنهم خافوا على سلامة نسائهم وأطفالهم ، وأرسل صلاح الدين عرضا آخر لرتشارد : اذا تخلى الملك المسيحي عن عيسى وتبع محمدا كسيد له ، فسيجعله السلطان ملكا على سورية ، ومصر وبابل وجزيرة العرب ، وأفريقية وأرض الاسكندر واليونان ، وصور والسلطان لكل الهند حتى مملكة يوحنا الموعود في أقصى المشرق .

وأجاب رتشارد على هذا العرض غاضبا ، إنه إذا عاش فقط بضع سنوات أخرى فانه سيستولي على هذه الأراضي جميعا على أي حال ، وليبدي رتشارد ازدراءه لاقتراح السلطان ، أمر بأن يقاد الستون الف أسير من عكا الى السهل المجاور المدينة وتقطع رؤوسهم هناك « لأعلم صلاح الدين كيف يقترح علي أن أعبد محمدا ! » وأخبر ملاك علي أي حال رتشارد بأن يعفو عن عشرين من الأسرى المهمين ليتخذوا كرهائن ، يحتجزون من أجل الفدية ، وأطاع رتشارد الامر .

وفي وليمة بعد المجزرة بوقت قصير اقتسم رتشارد غنائم الحرب الصليبية مع رجاله ، وطلب من الملك فيليب أن يفعل المثل ، ورفض فيليب متعاليا ، ثم اقترح رتشارد أن يزحفوا خارجين ليكملوا حربهم الصليبية بمحاصرة وتدمير المدن والقلاع على الطريق نحو بيت المقدس ، مقسمين قواتهم الى مجموعتين ، وركب الملكان ومضيا قدما ، ورد فيليب من قبل المدن التي حاصرها جيشه ، وقام رتشارد مع ذلك بعد تقسيم جيشه الى ثلاث مجموعات تحت قيادته هو وفولك دويلي وتوماس مولتون بالاستيلاء على كل المدن التي هاجمتها قواته،وأعطى سكان المدن الخيار في أن يصبحوا مسيحيين أو أن يقتلوا بالسيف ، واختار بعضهم يسوع ، واختار بعضهم البديل المروع .

وتراجع الصليبيون ، وقد وجدوا أنفسهم متعبين جدا من الحرب

الى حيفا ليستريحوا وليجددوا مؤنهم ، وهاجم صلاح الدين عساكر المؤخرة وهم ينتشرون بغير نظام تجاه حيفا ، واندفع رتشارد لمساعدتهم وبالاستعادة المعجزة لأرواح الصليبيين المعنوية وبالقوة المستمدة من ظهور القديس جورج هزمت قوات رتشارد صلاح الدين مرة أخرى وبعد توقف مؤقت لفترة وجيزة زحف الصليبيون الى مدينة عسقلان

وتحداهم صلاح الدين الدخول في مواجهة مفتوحة على السهل خارج أرسوف وقبل رتشارد التحدي ، وهزمت قواته بعنف حشود صلاح الدين ، ثم بينما أكمل الصليبيون زحفهم جمع صلاح الدين قوة ضخمة أخرى لمهاجمة الصليبيين خارج ارسوف واقترب رتشارد من الجيش الاسلامي مموها تحت أعلام اسلامية مستولي عليها وضغطت قواته من أربعة جوانب ، وهزمت السلطان مرة أخرى .

وبعد هذه الهزيمة الثانية بوقت قصير ، تحدى صلاح الدين ثلاثة أبطال مسيحيين أن يلتقوا بثلاثة أبطال مسلمين في الميدان خارج النطرون وقابل رتشارد والسير توماس تورنهام والسير فولك دويلي وقاتلوا الأمير أرسلان والأمير خضر والأمير غالب ، وعندما رأى سكان النطرون أبطالهم يسقطون منهزمين تعمدوا فورا كمسيحيين

وبعد توجيه هذه الضربة لهيبة الاسلام ، ذهب صلاح الدين الى الرملة لاعادة بناء جيش أخر ، وعندما هرع رتشارد الى هناك ليستأنف قتاله فان سرعة هجومه أخذت صلاح الدين على حين غرة ومنعته من استعمال اعظم اسلحته ، سلاح الفرسان ووصل فيليب ليساعد في حصار باب اليون (القاهرة) ولكن عندما رد من قبل صلاح الدين ، اخفق الحصار

ارسل الملك فيليب الى ريتشارد رسالة ملحة (٥٤٦٧)

أنه لم يتمكن من البقاء ، حيث كتب
بسبب الجوع هو ورجاله ايضا
يجب أن يوقفوا الحصـــــار ويســــيروا في اتجــــاه
بلادهم (٥٤٧٠)
وكان ريتشارد غير سعيد بذلك
وقال عنه قبلة خائن
أعطاها ليكسب المجد هنا
لقد لوث اسم يسوع العزيز
عندما أعطى المسلمين مهلة (٥٤٧٥)
والرب سوف يجازي الخيانة »!
ثم انسحب عندئذ فيليب من هذا الحصار
الذي لاقاه المسلمون بكثير من السرور
فقد عم السرور العظيم بينهم جميعا
فانشدوا الأناشيد وغنوا أغنية سعيدة (٥٤٨٠)
وفي اليوم التالي من هذا المعسكر المجاور
جاء الرسل من السلطان العالي
وحيوا ريتشارد ثم قالوا :« سيدي
لأنه معجب بقوتك
أرسل سيدي السلطان اليك (٥٤٨٥)
اذا أنت قبلت هذا العرض
انك قوي بلحمك وعظمك
وهو باسل شجاع حاليا
وأوضح أنك الحقت به ضررا عظيما جدا
ودمرت عظماء بلاده (٥٤٩٠)
وقتلت وأكلت حشوده الباسلة
ان حربك معه خطأ محزن
لقد التمست ارثا في هذه الارض
وقد فهم ذلك جيدا
انه ليس لك مع ذلك حق صحيح ! (٥٤٩٥)
انك تقول ان ربك بالغ القوة

هل توافق ومعك الدرع والحربة
لنقرر الحق على أرض المعركة
بالخوذة والزرد وبالسيف القوي البراق (٥٥٠٠)
فوق خيول قوية جيدا ذات عزم وقوة
اي معبود لنا هو الأعظم قوة
يسوعكم أم الهنا
وقد أرسلني لأسألك هذا
هل تقبل منه جوادا من خيوله ؟
في كل الأراضي التي كنت فيها (٥٥٠٥)
لم تر جوادا مثل هذا أبدا
لانافل ولاليارد من قبرص الحزينة
لهم البتة مثل فعلة
واذا أردت ففي هذا اليوم بالذات
سوف يجلب اليك لتجربه (٥٥١٠)
وأجاب رتشارد « لقد قلت قولا جيدا !!
هذا الجواد بمشيئة القديس ميكائيل
سآخذه لأركبه
لان حصاني مرهق وبائس
ومن أجل محبة سيدي (٥٥١٥)
الذي يجلس عاليا في السموات العليا
أخذ الآن هذا الحصان الجيد جدا
وبرمحي سأسفك دم السلطان
اذا كان سيمنحني هذا الفعل ويحفظه
وبالطريقة التي ذكرتها (٥٥٢٠)

ولو انني لابد ان اسلم روحي للرب
سوف اقابله في الميدان
واطلب منه ان يرسل لي هذا الحصان
وسوف اختبر من اي نوع هو
فاذا كان موضع ثقة اقول لك ٥٥٢٥

فلن اركب غيره في اي نزال !
وانصرف المبعوث من خيمة ريتشارد
عندئذ ليحمل ماقصده بقوله
انه سيواجه السلطان نفسه
اذا استطاع صلاح الدين ان يتحمل الوطأة ٥٥٣٠
ثم بعث السلطان في طلب كاتب
معلم شرير في تحضير الارواح
يمكنه ان يستحضر كما يجب ان اقول
من خلال فنه الشيطاني الذي من الجحيم
عفريتين غريبين شريرين من الهواء ٥٥٣٥
في شكل جوادين مموهين ،
وكانا متماثلين في الشعر واللون
كما قال الناس الذين كانوا هناك في حينه
لم يشاهد من قبل لهما شبيه :
وكان احدهما مهرا قوي البنية ومضمرا ٥٥٤٠
والثاني فتيا ، وجوادا نبيلا
واينما كان هذا الجواد الفتي ، عند الحاجة اليه
لم يفخر بمثله ملك او فارس
وانه عندما مايصهل المهر الكريه بصوت عال
ولايمكن لاي راكب ان يتحكم في ادارته ٥٥٤٥
او يحكمه بكل مهارته ،
سيركع لأمه .. ويرضع
والسلطان سيوزع ضرباته العنيفة
وهكذا سوف يخضع الملك ريتشارد
كل هذا جاء ملاك ليقوله ٥٥٥٠
عندما اتى لريتشارد حوالي نصف الليل
وصاح استيقظ فارس الرب القوي !
يريدك سيدي ان تفهم
ان حصانا سيصل قريبا ليدك .
جميل في شكله وقوته ٥٥٥٥

ليخذلك في قتال السلطان
فلا تخف من ركوبه
لانه سوف يساعدك ولكن بدلا من ذلك
احصل على عمود خشبي كبير وقوي
وتأكد انه بطول اربعين قدما ٥٥٦٠
وادفعه جيدا بعرض معرفته :
فكل مايصادفه سيحس بالم كثير ؛
وبهذا العمود الخشبي ستجعله يصرع
اركبه جيدا باسم الرب العزيز ٥٥٦٥
حتى لايتمكن من ان يلحق بك اي عار
وقال الملك خذ لجاما
وضعه بسرعة على رأسه ؛
واحكم اللجام في فمه
وهكذا يمكنك ان تديره شمالا او جنوبا ٥٥٧٠
وسوف يخدمك حسب ارادتك
عندما يركب السلطان ليقتل ؛
وعلى رمحك استعمل هذا السنان
لانه في درعه سوف ينطمر
وهكذا يخرق درعه القوي ٥٥٧٥
وعندما قال الملاك ذلك
اتخذ طريقه نحو السماء مرة اخرى
وارسل الحصان الفتى عند طلوع النهار ؛
وكان الملك ريتشارد مسرورا بالحصول على الجواد
وامر بوضع سرجه عليه من اجل حاجته ٥٥٨٠
وصنع قربوس سرجه من الصلب
لانه يجب ان يكون قويا وموضوعا باحكام
وبسلسلة قيد بسرعة عمود الخشب الثخين
بينما دفع باللجام على رأس الحصان الفتى ٥٥٨٥
مثلما علمه الملاك
وبخطافين حديدين جيدين ولم ينس شيئا

واستقر فوق السرج دون مخاوف عميقة
وبالشمع سد أذني الحصان الكريه
وقال: بالرسل الاثنى عشر
كن انت رئيس الشياطين نفسه ٥٥٩٠
الان سوف تخدمني عند حاجتي !
والذي نزف فوق الصليب
وعانى بشكل مروع مع كل نفس
ثم قام للحياة من الموت
واشترى الجنس البشري من الجحيم الناري ٥٥٩٥
واخضع قوى الشيطان الكريهة ٥٥٩٥
ثم صعد بعدئذ الى السماء الساطعة
والرب الان بكل قواه القويمة
تلك ذات الرب نفسها في الاشخاص الثلاثة
باسمه العزيز اطلب منك
ان تتولى خدمتي حسب مشيئتي ٥٦٠٠
وهز رأسه ووقف جامدا
وهيأ الملك ريتشارد نفسه تلك الليلة
عند الفجر عندما اهل نور النهار
جاء ست سلاطين بجيوشهم القوية ٥٦٠٥
من المدينة ساقوا مباشرة
وتوقفوا عند شاطيء نهر
واصطفوا في رتل ... بدروعهم العريضة
وكان الميدان في ذلك اليوم واقول الحق ،
مؤلفا من سلاطين وملوك في نظام جريء ، ٥٦١٠
وكان يمكن رؤية مائة واكثر !
وجيء حتى بابنائهم مرتبة الى الساحة
عشرون الفا من المسلمين
في مقابل كل واحد من رجالنا المسيحيين
جاءوا يحملون حشدا من الرماح الضخمة الطويلة ٥٦١٥
كانت هناك تشبه غابة كثيفة ٠

وكان لدى المسلمين حشد ضخم :
امتد عشرة اميال على طول الساحل
وانتشروا للراحة فوق السهول الواسعة الدافئة
بينما بدأ الرسل يركبون ٥٦٢٠
الى الملك فيليب والملك ريتشارد
ليسألوهما اذا مابرحا متمسكين بكلامهما
الذي سلف وقالاه في اليوم المنصرم
وكان المسلمون مستعدين للحرب :
وكان هناك منهم ثلاثمائة الف ٥٦٢٥
والملك ريتشارد يراهم في كل مكان
كما يغطى الثلج المتساقط جانب الجبل
ورآهم الملك ممتدين طويلا وعريضا
بسابغات الزرد اللامع والخوذ البراقة
وبالابواق والطبول ٥٦٣٠
وكان لصخب المسلمين جلبة رهيبة
كما لو ان الدنيا قامت قيامتها في الداخل والخارج
هكذا كان وقع الصوت قويا جبارا
وقد اذهل هذا الضجيج المسيحيين واربكهم
ولكن ملكنا لم يخش شيئا ٥٦٣٥
حيث قال لرجاله حاملي السلاح
ايها الرجال المسيحيون الطيبون لاتخافوا
بل ضعوا ثقتكم في ربنا العزيز
فاذا ربحنا الميدان هذا اليوم
من الوثنيين من المسلمين وهكذا تولينا ذبحهم ٥٦٤٠
فاننا الى الابد سنكسبها
من اجل من خلق الشمس والقمر
كونوا عونا لنا واعطونا القوة !
وانظروا كيف سأقاتل هذا الملك الكريه
بالسيف والرمح وبلطة من الصلب ٥٦٤٥
ومالم اعطي ضربات جيدة اليوم

عليكم من الان فصاعدا والى الابد
ان تعتبروني جبانا ضعيفا !
بل كل رجل مسيحي او وضعيف
عليه ان يستعمل كل قوته من اجل تراثه ٥٦٥٠
اضربوا راس المسلم
ومن خلال معونة الرب العزيز وبمساعدتي ايضا
سوف افعل مثل هذه الاشياء بينهم
بالذين يمكن ان اباغتهم
من الان وحتى يوم الحساب ٥٦٥٥
يجب ان يتكلم الجميع عن لعبتي الشجاعة »!
وتسلح المسيحيون بحماس
بكل من الحديد والصلب
ولبس الفرنسيون ايضا الدروع
واستعدوا لمهاجمة المسلمين
خلف المسلمين ركبوا
مستعدين لهذا الحدث
لقد قطعوا طريق الهروب على المسلمين
وهكذا حتى لايمكن للمسلمين ان يتفادوا الملاحقة
ولالاي مساعدة خارجية ان تصل اليهم ٥٦٦٥
وهكذا يجب ان يذبحوا جميعا وهم احياء
وبدأ الفرنسيون في التباهي والتفاخر
كل منهم سيقتل العدد الاكبر
ولكن في الحكاية كما يقال
لم يكن هناك فرنسيون بنصف هذه الشجاعة ٥٦٧٠
حتى يخترقوا قوة المسلمين
حتى ظهر الملك ريتشارد فوق حصانه
هناك ركب ريتشارد مع كل حشوده ،
وقطع عليهم الطريق على طول الساحل
وحال بينهم وبين مدينتهم الآمنة ٥٦٧٥
حتى لايمكن لاي مسلم كريه ان يهرب

ثم امر ريتشارد ثلاثة من المرافقين
بان يبقى احدهم حرا في المدينة
واخذ الاثنين الاخرين معه
وعزم عليهم ان يحضرا له حصانه ٥٦٨٠
الحصان الذي ارسله صلاح الدين
وقال :« هكذا بهديته هو
سوف احاربه ليلا نهارا
وقفز فوق حصانه وجلس منتصبا
في السرج بقفزة قوية ٥٦٨٥
وقد تسلح بكثير من الاشياء التي تجرح
ولم يفتقدوا الى اي شيء كان عنده
لان رجاله جلبوا له كل ماطلب
وعامود من الخشب للسرج طوله اربعين قدما
امام سرجه وضعه ٥٦٩٠
وتدبر ربطه بصورة محكمة هناك
وبذلك لن يخفق في هذه الاعمال
وهكذا ربطه خدمه باحكام
وثبتوه بخطاطيف من الصلب لامعه
ولم يثبت هذا الخشب بشيء اخر ٥٦٩٥
وتماسكت السلاسل الحديدية بشكل محكم جيدا
لانها جميعا قد سكبت بصورة جيدة تماما
سواء الاطواق او درع صدر الحصان
وعدة حربية خاصة بالملك ريتشارد
هكذا فوق حصانه عرضت ٥٧٠٠
وتدلى من طوق سرجه كل من
بلطته التي من الصلب وعموده
وكان الملك ريتشارد هناك لابسا بثراء
من قدميه حتى عرف خوذته (١)
كان مغطى من رأسه الى كعبيه ٥٧٠٥
بدروع من صفائح قوية من الصلب

خارج سابغة الزرد القوية
وكان رمحه الموثوق غليظا وطويلا
وفوق كتفه درع عريض قوي
مع ثلاثة فهود ضارية على سطحه
وكانت خوذته محلاة بالذهب ٥٧١٠
وكان مقدم الخوذة القوي الموثوق واضحا
وعلى عرفها حمامة ناصعة البياض
لتري الروح القدس في القتال
ووقفت هذه الحمامة البيضاء فوق صليب ٥٧١٥
صليب من الذهب الجيد والثمين
الرب نفسه ، والقديسة مريم والقديس يوحنا
وذلك الذي سمر فوق الصليب :
لتمجيد هؤلاء قاتل الملك ريتشارد
سنان الرمح الذي احضره الملاك ٥٧٢٠
ثبته باحكام فوق قبضته
وكان اسم الرب محفورا على السنان
والان وهم منحنون نحو الارض اقسموا
قبل ان يشقوا طريقهم الى المعركة
اذا حدث وتمكن الملك رتشارد
من ان يقتل السلطان في ميدان القتال ٥٧٢٥
لتوجب عليه هو ورجاله ان يذهبوا
بارادتهم جميعا من اعلى واسفل المراتب
الى مدينة الرملة
ومملكة مقدونيا ٥٧٣٠
يجب ان يمسكها بيده القوية
ولكن اذا قتل سلطان هذه الارض
الملك ريتشارد في الميدان
بالسيف او بالرمح تحت درعه
على كل المسيحيين ان يرحلوا ٥٧٣٥
من هذه الارض الواسعة بالخيل وبالعربات

وسيحكم المسلمون كامل هذه الارض
وقال الملك ريتشارد : « موافق
وهاكم قفازي ، حيث اني فارس !
وكانوا جميعا مسلحين بكل قوتهم ٥٧٤٠
وقفز الملك ريتشارد على سرجه
ولم ينم اي مقاتل تعب
بل راقب كل واحد هذا القتال
و تسابق الجوادان بكل قوتهما
وركب كلاهما هذين الجوادين ليلتقيا ٥٧٤٥
وانطلقت شرارات نارية من ارجلهما
وقرعت الطبول ونفخت الابواق
بينما كان الجميع يرقبون ماسيتلو
وكيف ان الملك ريتشارد الملك النبيل
سيواجه هناك السلطان الاسود ٥٧٥٠
وبينما كان على مهره يركض هكذا في المجال
وضع ثقته في الحصان الشيطان
وكان للمهر كما يذكر كتاب المصدر
مخلاة ثخينة مدلاة ذات اجراس
ومن درع صدر الحصان أيضا كانت
تتدلى الاجراس حوله ٥٧٥٥
ويمكن للمرء سماع اصواتها على بعد ثلاثة اميال
وصهل المهر عندئذ وجلجلت اجراسه
وهكذا بنية سيئة غنى المهر
اعتقد ان به سيحقق فوزه ٥٧٦٠
ويقتل الملك بضربة قوية
عندما يركع فرس ريتشارد ليرضع
ولكن رتشارد هنا لم يكن مضريا
لانه سد الاننين بالشمع
حتى لايستطيع جواده ان يسمع ٥٧٦٥
ولم يشعر ريتشارد القوي باي خوف

وضرب السلطان الشرير بقوة
واعطاه ضربة تحت الواقية
فوق درع السلطان ، اقول الحق
كانت افعى مـــرسومة ، جـــاءت مـــن الجحيم مبـــاشرة
٥٧٧٠
ووجه ريتشارد رمحه نحو ذلك السطح العريض
ليطعنه بعمق تحت درعه
ولم تساعد السلطان اسلحته
حيث تحطم درع الفرس ولجامه في الحال
كذلك فعل الركاب وحزام السرج على سعتهما ٥٧٧٥
وبدأ مهره ينحدر نحو الموت
وعلى الرغم من هذا بدأ هو ينحني
للخلف فوق عجز مهره الكريه
ووصلت قدماه الى الارض الصلبة
وخلفه كان يمكن ان يوجد سنان الرمح ٥٧٨٠
وترك الحصان يرقد فوق الخضار
بينما كان ريتشارد يضرب بضربات حاذقة
باسم الروح القدس
واندفع نحو وسط الحشد المسلم
وبينما كان يركب عبر الارض ٥٧٨٥
مزق حزام السلطان
كل الذين وقفوا امامه
خيل ورجال ضرب بعمود الخشب
على مسافة عشرين قدما في كل جانب
وكل من لقيه في هذا الركوب العنيف ٥٧٩٠
جلب له الكثير من الويل
وركب حيثما امكن لحصانه ان يذهب
مثل النحل يحوم حول الخلية
وناضلت حشوده المسيحية من خلفه
وانكسرت الخوذ وتفجرت الادمغة ٥٧٩٥

ومات العديد في هذا الطراد الحزين
وعندما رأى رجال فرنسا عندئذ
ان التفوق مال لصالح الرجال المسيحيين
ازدادوا جراة وشجاعة
ووكزوا خيولهم وهزوا رماحهم ٥٨٠٠
وبروح مسيحية ، الملك فيليب
حمل نحو امير مسلم ورمحه بيده
وبدأ ايرلات اخرون وبارونات شجعان
وهم رجال اقوياء يلوحون بسيوفهم
ويقتلون المسلمين بلا تحفظ ٥٨٠٥
وحارب كثير من فرسان الانكليز النبلاء
باخلاص هناك في ذلك اليوم الدامى
ومن سالسبورى سقط لو نفسباي
على الارض مع سيفه
وتجرأ الجميع الذي امامه على الوقوف (٥٨١٠)
وكان دائما الى جوار الملك رتشارد
كما كان ثوماس الجريء الشجاع
وروبرت ليشستر وفولك دويلي
ولايمكن للمسيحيين أن يروا فرسانا افضل منهم
عندما كان أي مسلم يركب قرب سيدهم ٥٨١٥
لم يوفروه ولم يوفروا تابعه الشاب
ولكنهم اسقطوا هناك كل مسلم
المسلمون داخل المدينة
كانوا في أسى عظيم هكذا كان هؤلاء من غير المسيحيين
وبينما تساقطت الدموع الغزيرة من عيونهم ٥٨٢٠
تصايحوا طالبين الرحمة
وأمروا بفتح البوابات على اتساعها
ليدعوا الصليبيين يدخلون اليها
وربح المسيحيون هذه المدينة
وبسرعة استقروا ايضا ٥٨٢٥

وارتفع لواؤهم المسيحي فوق السور
لواء رتشارد ملك انكلترا
وعندما بدأ صلاح الدين يفهم
أن المدينة هكذا سقطت
ناح السلطان في كرب قائلا : واأسفاه ٥٨٣٠
ذهبت الآن جائزة الله !
وركبوا مبتعدين بوجوه شاحبة
كل الذين كان مايزال بامكانهم ان يركبوا هاربين
عند ذلك الملك رتشارد ذلك الفارس النبيل
عندما رأى السلطان يهرب (٥٨٣٥)
صاح به « ابق هنا وقاتل »
ولسوف اثبت لك ان عقيدتك خطأ
وكذلك كل الحشد المسلم »
وركب الملك رتشارد خلفهم مسرعا
من هذا كان السلطان مشدوها (٥٨٤٠)
وكان يعرف غابة أمامه هناك
فهرب بسرعة اليها
واقترب الملك رتشارد من الغابة المظلمة
لكن عرف انه لايستطيع أن يعمل هناك
لايستطيع أن يركب في تلك الأرض الخشنة (٥٨٤٥)
هكذا استدار بجواده
ولقي في حينه ملكا مسلما
فأخرج بلطته من حلقتها
وضربه بعنف فوق خوذته
وشقه حتى صدره (٥٨٥٠)
وضرب آخر فوق الدرع
وأسقط رأسه فوق الأرض
وهكذا قتل ستة ملوك مسلمين
أن أقول الحق في كل هذه الأشياء

هكذا قرات في كتاب الاعمال (٥٨٥٥)
اكثر بكثير من ستين الف حصان
عدوا تائهين بسروج خالية
في دم براق ارتفع حتى مافوق حوافرهم
هاموا شاردين في كل جانب
حيث لم يكن هناك مسلمون ليركبوا هذه
الخيول (٥٨٦٠)
واحتدمت المعركة حتى حل الليل ،
لكنهم عندما قتلوا هكذا بشكل مباشر
العدو الذي امكنهم أن يدركوه
بدأ المسيحيون يظهرون كثيرا من البهجة
وركعوا وتغنوا بمحبتهم له
وعلى كلا الجانبين كان مقاتلون أقوياء قتلى
ولكن العديد من الرجال المسيحيين الرئيسين
الذين رقدوا أمواتا فوق أرض الميدان
سلموا هكذا لربهم العزيز أرواحهم (٥٨٧٠)
ثلاثمائة مسيحي عبروا باب الموت
ولكن أعداد المسلمين هناك كانت اكبر
ستون الفا ماتوا في هذا القتال
وهكذا اظهر الرب أن المسيحيين على حق
وركب المسيحيون الى المدينة (٥٨٧٥)
ووجدوا كثيرا من الكنوز فيها باقية
ووجدوا مايكفي دون عناء
لحم وشراب ومؤن
وعند الفجر عندما استيقظ رتشارد
وهو الذي لايمكن لأحد أن يعارضه في
أفعاله (٥٨٨٠)
جاء المسلمون الى حضرته
ورجوا ان يتخذوا الاسم المسيحي

وقبلوا أن يحملوا الصليب
وكان هناك أربعين ألفا
واقاموا كنائس بالقانون المسيحي (٥٨٨٥)
وقرروا أن يتخلوا عن الله
والذين لم يقبلوا بالصليب
ألقى بهم رتشارد في الخندق
وجمع كل الكنوز العظيمة
التي في المدينة بفخر كبير (٥٨٩٠)
والايرل والبارون والفارس والخادم
الملك أعطى لكل منهم ثروات كبيرة
واقاموا هناك أربع عشرة ليلة
واستجمعوا في أحد الأيام قوتهم
وبدأوا يركبون في اتجاه بيت المقدس (٥٨٩٥)
وتكلم الملك فيليب بافتخار
أيها الملك رتشارد أرجوك أن تصغي الي
ان بيت المقدس تلك المدينة الغنية
مع أنك ربحتها ، ستكون لي
قال رتشارد :بالرب والقديس أوغسطين
مع أن الرب سيضع روحي في الجحيم
من كل ماأربحه لن ، نصف قدم
تنال مني من أي أرض
واحثك على أن تفهم ذلك !
ثم قال الملك ، « اذا كنت تريدها (٥٩٠٥)
اذهب وخذها برجالك !»
رتشارد قال أكثر من ذلك : « ان عرضي هنا ،
ولن أقترب من هذه المدينة»
وكالقوس انحنى الملك رتشارد ،
وبفلورين(٣) الى المدينة أرسل (٥٩١٠)
اشارة الى الملك فيليب
أن يسوع قد مجد في هذه الرحلة

ومن الغضب وقع ملك فرنسا مريضا
ولم يستطع العلق أن يشفيه من بربيته
وخشي أنه لن يشفى أبدا (٥٩١٥)
مالم يذهب ليقيم في فرنسا
وأفهم المستشارون هذا الملك
وقالوا إنه الشيء المناسب
استعدت سفنه عندئذ للرحيل
وعبر البحر يوم عيد جميع القديسين (٥٩٢٠)
وقال رتشارد:بعداء
قد ارتكب شرا عظيما
أن يعود الى الوطن من اجل مرضه
وأن يعبر البحر من هذه الأرض
قبل أن ينتهي كل عمل الرب (٥٩٢٥)
الذي بدأه إما بالحياة أو بالموت
لم يمكث ملك فرنسا هناك
بل رحل في جومهين
وبعد أن ذهب أقسم
أنه يحمل لرتشارد كراهية أبدية (٥٩٣٠)
وذهب الملك رتشارد بكل حشوده
الى يافا على ساحل البحر الدافىء ،
وكان سرادق الملك جميلا ونظيفا
وقد أقيم في حديقة هناك
وانتشر بقية الاوردات على مقربة منه (٥٩٣٥)
مع كل سرادقاتهم بفرشها
وقام الملك رتشارد ورجاله جميعا
باعادة بناء سور المدينة
ولم يبن المسلمون أبدا مثل هذا
السور القوي الطويل حسن البناء (٥٩٤٠)
وكانت القلعة هناك قوية وحصينة
ولامثيل آخر لها في كل أنحاء العالم

ويمكن أن يأتي اليها من جانب البحر
كل انماط السلع في وفرة عظيمة
وشكل حرسا من الفرسان النبلاء (٥٩٤٥)
الاقوياء بالتسليح والاقوياء في القتال
وكان هناك كثير من الرجال ليركبوا حولها
ليجعلوها آمنة بلا شك
وسكن الملك رتشارد هناك بفخر
حتى أصبحت هذه المدينة آمنة (٥٩٥٠)
ومن هناك ذهبوا الى مدينة كالوين
ووجدوا كل أسوارها مهدمة
وأحاق بتلك المدينة المدمرة بؤس كثير
وحمل لهم رتشارد شفقة كبيرة ،
وجمع هناك أعيان المدينة (٥٩٥٥)
وأمرهم بإعادة بناء السور
وتعهد هو ببناء نصفه
برجاله خاصة الاقوياء المهرة
ووافق الأعيان هناك ، كلهم

ولم يبن المسلمون أبدا مثل هذا
السور القوي الطويل حسن البناء (٥٩٤٠)
وكانت القلعة هناك قوية وحصينة
ولا مثيل آخر لها في كل أنحاء العالم
ويمكن أن يأتي اليها من جانب البحر
كل أنماط السلع في وفرة عظيمة
وشكل حرسا من الفرسان النبلاء (٥٩٤٥)
الأقوياء بالتسلح والأقوياء في القتال
وكان هناك كثير من الرجال ليركبوا حولها
ليجعلوها آمنة بلا شك
وسكن الملك ريتشارد هناك بفخر
حتى أصبحت هذه المدينة آمنة (٥٩٥٠)

ومن هناك ذهبوا الى مدينة كالوين
ووجدوا كل أسوارها متهدمة
وأحاق بتلك المدينة المدمرة بؤس كثير
وحمل لهم ريتشارد شفقة كبيرة
وجمع هناك كل أعيان المدينة (٥٩٥٥)
وأوهم باعادة بناء السور
وتعهد هو ببناء نصفه
برجاله خاصة الاقوياء المهرة
ووافق الأعيان ـ هناك كلهم
على تنفيذ رغبته (٥٩٦٠)
إلا دوق النمسا
وكانت فكرته أن يخدع الملك
وبدأ الملك رتشارد عمله الشاق
حول الأسوار دون توقف ! (٥٩٦٥)
الاب والابن والعم والأخ
فخلطوا الملاط ورصفوا الأحجار
وعمل كل واحد منهم بكل قوته
وكل ملك أو حاكم هناك
حمل الأحجار في الجـو شـديد الحـرارة والرطـوبة
(٥٩٧٠)
إلا الدوق المليء بالغرور
فلم يكن ليساعد ، بل بقي جانبا
وتصادف أن قابل الملك رتشارد هذا الدوق
وبلطف توقف هذا الدوق ليحييه
وهناك وجه اليه رتشارد مطلبا (٥٩٧٥)
في أن يزيل رايته من على السور
فأجاب الدوق بهذه الطريقة
لم يكن أبي نجارا
ومع أن أسوارك بدأت تهتز

إني لن اساعدهم أبدا في اصلاحها (٥٩٨٠)
وعند هذا بدأ غضب الملك رتشارد يتأجج
وحملق مغضبا بالدوق
ثم ركل الدوق في صدره المتعجرف
واندفع بسرعة تجاه الدوق
فسقط الدوق عن مقعده (٥٩٨٥)
ورقد الدوق على الأرض منبطحا
« تبا لك أيها الشيطان الجبان الكريه !
ارجو أن تعاقب بشدة في الجحيم !
اذهب بسرعة من هذا الحشد الباسل
لأنك ملعون من روح القدس ! (٥٩٩٠)
وبالجانب الدامي من يسوع الجميل
أعتبرك خائنا هنا معنا
خلال أيام العمل الثلاثة التالية
سأقيم حظر عليك
أيها الخائن ، أننا نعمل ليل نهار (٥٩٩٥)
في الحرب ، في اليقظة وفي القتال
بينما تعيش أنت هنا كنهم كريه
وترقد في سرادقك
تشرب نبيذك الطيب القوي
وتنام مرتاحا طوال الليل (٦٠٠٠)
لسوف أدمر رايتك التافهة الحقيرة
ولأرمين بها في النهر الكريه !
وقد شعر في قلبه بكثير من الكراهية (٦٠٠٥)
واقسم أنه سوف يرد له الاهانة
واقسم بيسوع في ثالوثه
انه ماأن يرى رتشارد في وقت ما
سينزل به هناك انتقامة
الذي عنه من الآن فصاعدا سوف يتكلم
العالم (٦٠١٠)

وحمل حقده عميقا في قلبه
ليلق في الجحيم وليغرق مخلدا
من خلال خيانته وغدره
ومن خلال مكر الجاسوس
الحق بالملك رتشارد العار (٦٠١٥)
مما جعل كل انكلترا تلتهب

في الابيات : ٦٠١٦ ـ ٦٧٢٢ بعد أن رحل دوق النمسا مع قواته بدأ رتشارد والصليبيون الباقون السير نحو بيت المقدس وقد خططوا للاستيلاء على المدن الاسلامية على طول الطريق لتجديد مؤنهم وحاصر رتشارد مدينة دارون (داروم) واستولى عليها وفيما هو مرتاح هناك ومعه رجاله وقبل ان يستمروا وفق خطتهم للاستيلاء على بيت المقدس ، تلقى رتشارد خبرا يفيد أن أخاه الامير جون قد اغتصب عرش انكلترا ، وأنه كان يخطط لكي يتوج ملكا في عيد الفصح ، وسخر رتشارد من الفكرة وتابع حملته العسكرية .

وبعد ذلك بوقت قصير نقل جاسوس خبر اقتراب قافلة غنية بشكل خيالي بما تحمله من الذهب والجواهر والمؤن الى صلاح الدين ، وهاجمها رتشارد واستولى على هذه الغنيمة واهتاج صلاح الدين غضبا لهذه الخسارة الكبيرة وقرر مهاجمة يافا لأنه اعتقد أن رتشارد كان في عكا ولن يكون في يافا للدفاع عنها ، وبافتتاح بوابات المدينة ، أجبر صلاح الدين المسيحيين على اللجوء الى البرج ، ولكنه على الرغم من محاولته بكل قوته لم يستطع الاستيلاء عليه ، وفي تلك الأثناء هرب رسول من المدينة المحاصرة وأسرع ليروي الملك رتشارد الخبر في عكا ، وصعد الملك الانكليزي على الفور الى سفينته لينجد رجاله .

والآن انصتوا لسماع قصتي الصادقة
مع أني لاأحلف لكم بأي يمين
لن اقتبس اخبار أعمال خيالية (٦٧٢٥)

لبارتنوب أو ابيو ميدون
أو عن الاسكندر أو عن شارلمان
ولاعن ارثر ولاسير غاوين
ولاعن السير لونسيلوت سيد البحيرة
ولاعن بيفيس ولاغي ولاالسير ريك (٦٧٣٠)
ولاأو ليفر ولاأوكتافيان
ولاعن هيكتور ، الرجل القوي
ولاعن جاسوس الهرقلي
ولاعن انياس ولاأخيل
أقسم أبدا ، اني كما أقول (٦٧٣٥)
أنه في زمن يومهم الشجاع
لم يفعل أي منهم شيئا باسلا
ونجح هكذا في معركة قوية
كما فعل الملك رتشارد دون اخفاق
في يافا في سابغة قوية من السلاسل (٦٧٤٠)
ببلطته وسيفه القوي
ليغفر لروحه من قبل ربنا !
وحدث قبل اكتمال منتصف الليل
أن القمر والنجوم ظهرت كلها مكتملة البهاء
وجاء الملك رتشارد الى المدينة (٦٧٤٥)
ومعه شوانية ، كلها أو بعضها
وحدقوا وتشوفوا نحو القلعة القوية
فلم يسمعوا صوت مزمار ولاناي
وجروا السفن قريبا من اليابسة
ليروا اذا كان بامكانهم الفهم (٦٧٥٠)
ولكنهم هناك لم يستطيعوا رؤية أية فرسان شجعان
أو يسمعوا صوت مغن جوال
أو يروا أي حياة في القلعة هناك
ثم تزايدت في حينه دقة الملك رتشارد التامة
وقال :« واأسفاه » أني ولدت (٦٧٥٥)

إن رجالي الشجعان الطيبين كلهم بائسون !
فقد قتل روبرت ليستر
الذي كان معلمي الكيس
ولم يكن أحد هنا جديرا بهذا الفارس
وروبرت ذورنهام ، الذي كان لامعا جدا (٦٧٦٠)
والسير برترام والسير بيبارد
الذي قاتل بشدة في المعركة
والبارونات الآخرون بجانبه
وهم أفضل كل جيوشي على سعتها
وقد قتلوا أو جرحوا جروحا مؤلمة (٦٧٦٥)
كيف يمكن لي أن أعيش أطول بناء عليه ؟
لو انني هنا في وقت أبكر
ربما أمكنني انقاذهم من هذه الجريمة !
حتى أرد على صلاح الدين
في الحقيقة اني لن أحصل على سروري (٦٧٧٠)
وهكذا تفجع الملك رتشارد هناك
حتى بدا الفجر عاليا في الجو
وجاء خفير الى الشرافات فوق السور
وبنايه أرسل أغنية
ونفخ فقط بضع نفخات واضحة (٦٧٧٥)
حتى جلب لهم بهجة كثيرة
ونظر من مكانه العالي الى اسفل
نحو اسطول رتشارد في ذلك المجال البحري
وعرف السفن الصغيرة والكبيرة هناك
ثم نفخ نغمة مرحة (٦٧٨٠)
وصاح بصوت مرتفع هكذا :« أيها المسلمون
جاء ملكنا المسيحي الينا !
وعندما سمع المسيحيون هذه الصيحة ،
ارتفعت أرواحهم المعنوية عندئذ عاليا
الايرل والبارون والتابع والفارس (٦٧٨٥)

وتسابقوا رأسا الى المتاريس
ورأوا الملك رتشارد سيدهم الشجاع
وحيوه بكلمة لطيفة
« مرحبا ياسيدي ، باسم الرب العزيز !
ذهب الآن ، كربنا والعار كله »
ولم يكن قد عرف أبدا مثل هذه التحية (٦٧٩٠)
وكان حبهم العميق له باديا
وصاح :« الى السلاح ، واستعدوا الآن جيدا »
ودفع هكذا بأولئك الذين كانوا معه
« فليس لنا من الحياة سوى واحدة (٦٧٩٥)
سنبيعها غالية وكل من اللحم والعظم
ولأنه من أجل المطالبة بتراثنا
سوف نقتل الشياطين في هياجهم الشرير !
والذي يخاف هنا هذا الخطر الكريه
سوف لايرى أبدا وجه ربنا العزيز ! (٦٨٠٠)
وسآخذ بلطتي بيدي
تلك التي صنعت في انكلترا الجميلة
وسوف ترى هذا اليوم عملا جيدا
وستكون لعنة على كثير من المسلمين
فلم أعد أخشى دروعهم
وسوف أثابر فوقهم (٦٨٠٥)
من خلال بركة الرب في الثالوث
وسوف يرى كل الناس الحق هذا اليوم »
وكان هو أول من قفز الى الارض
وقتل اثني عشر في كومة واحدة (٦٨١٠)
وصرخ عاليا بصوت قوي واضح
أين هم المسلمون ، فليتباهوا هنا
من الذين طالبوا بهذه المدينة النبيلة ؟
انهم سوف يروضون ببلطتي العريضة
وهذا قسم حلفت ان أفعله (٦٨١٥)

وشرب طاس نخب من الوسيل أيضا !
وراهن على مثل هذا القتال الهائج
وبأن سيقتل كل المسلمين الذين تحت بصره
وهرب المسلمون من كراهية رتشارد
ومن فوق تسابقوا خارجين عبر البوابة (٦٨٢٠)
وفي قلوبهم شعروا بمثل هذا المصير
وهم يتسابقون نحو البوابة في وجوم
وهربوا من المدينة من فوق الأسوار
وقفزوا الى الأسفل من كل جانب
وكسر بعضهم سوقهم وبعضهم أعناقهم (٦٨٢٥)
بينما كانوا يهربون مبتعدين دون توقف
وكان كل واحد يصيح بهذه الطريق
كما سوف تسمع حالا فيما بعد
"Malcan stran nair abru
Lon Permoir toir me moru"
وهذا يعني بانكليزية واضحة
« اذا لقينا سوف نقتل (٦٨٣٠)
على يد هذا الشيطان الانكليزي هذا اليوم
فلنهرب بسرعة بعيدا عن طريقه »
وهرب المسلمون خارجين من المدينة (٦٨٣٥)
ولم يتركوا في خوفهم واحدا حيا
بل أربعمائة أو ربما خمسمائة
من الذين قتلهم رتشارد عندما وصل
ووضع حراسه عند كل بوابة
وأمر بأن تجهر الخيول دون انتظار (٦٨٤٠)
وقفز فوق جواده فاقل
وقد تسلح جيدا بالحديد والصلب
وسلح الناس بأسلحة قوية
بالدروع التي جلبها معه
والعديد ممن خرجوا من حجر القلعة (٦٨٤٥)

عمل على أن يتسلحوا بشكل مكتمل جدا
وركب الملك رتشارد خارجا من البوابة
والتقى في الخارج بملكين مسلمين
مع ستين ألف فارس مسلم
مع ألوية عريضة ودروع لامعة (٦٨٥٠)
وضرب رتشارد فوق خوذة احدهم
ونحو السرج انشق هذا الملك طوليا
وضرب الآخر فوق القلنسوة
وبلل سيفه بدم مسلم
وداويته وباروناته الشجعان (٦٨٥٥)
حاربوا بضراوة كما يفعل سبع هائج
وقتلوا المسلمين في هذا الهجوم
حيث لم يشعروا برحمة نحوهم
ورأى المسلمون أن لاعون وراءهم
فهربوا بعيدا في اضطراب كئيب (٦٨٦٠)
الى حشد صلاح الدين الكبير
على بعد خمسة عشر ميلا تماما فوق الساحل
ثلاثون ألفا على الأقل
في ذلك اليوم تناقصت قوة المسلمين
حيث أن دروعهم ذابت كالشمع (٦٨٦٥)
أمام بلطة الملك رتشارد القوية
وكان العديد من المسلمين وهم يرتجفون
يستسلمون لملكنا النبيل
أخذ من أجل الفدية عشرات عديدة
وقتل ألف رجل أو أكثر (٦٨٧٠)
وطارد المسلمين الهاربين بعيدا
حتى وقت المساء
وركب رتشارد حتى حل الظلام
وحيث أنه ضرب العديد هناك
لم يعد أحد يستطيع هكذا حسابهم (٦٨٧٥)

كل الموتى أو مقدارهم
ركب الملك رتشارد خارجا من المدينة
ونصب هناك سرادقة
وفي تلك الليلة بقلبة اللطيف
أراح البارونات لدورهم الشجاع (٦٨٨٠)
والآن سوف تسمعون كيف جرت الأمور في الغد
كان يوما للأسى لدى المسلمين
المعركة العظمى كما فهمت
التي لم يكن لها مثيل قط في أي أرض
واذا كنت ستسمع عن هذه المعركة (٦٨٨٥)
اسمع الآن واعط أذنا !
بينما جلس رتشارد لوجبة المساء
وأخبر باروناته أنهم يجب أن يشعروا بالشجاعة
ورفههم بكثير من النبيذ الجيد
جاء مبعوثان بخطة كريهة (٦٨٩٠)
ووقفا أمام مقعد الملك رتشارد
بلحى رمادية طويلة وخداع
ودخلا راكبين على بغلتين قويتين
وكانت عباءاتهم من الحرير والذهب مع دبابيس تزيينية
وكل منهما يمسك بيد الآخر (٦٨٩٥)
وقالا : أيها الملك رتشارد افهم الآن
ان سيدنا صلاح الدين ، ملكنا النبيل
ارسلنا اليك متسائلا :
اذا كنت فارسا مجازفا جدا
لتبقى هنا كل هذه الليلة (٦٩٠٠)
حتى الغد عندما يظهر ضوء الفجر في الجو
وعندها ستتخلى عنك السعادة
لأنه من أجل فرسانك الشجعان وباروناتك
لن يعطيك زرين سميكين
وسوف يأخذك بقوة اليدين (٦٠٩٥)

لان لديه رجال من أراض كثيرة
من مصر ومن تركيا البعيدة
ومن اليمن ومن شبه جزيرة العرب
ومن بلبيس والذوبة
وفرسان شجعان جسورين الدفاع عنه (٦٩١٠)
من مصر ومن سورية
ومن الهند وكبدوكيا

ومن فارس ومن خراسان
ومن نابلس ومن القاهرة
مائتا فارس دون وهن
انضموا الى خمسمائة من عند السلطان
والارض المحيطة تحمل بالكاد
الناس الذين جاؤوا الى هنا اذا جرؤت
وبناء على نصيحتنا ارجع واقم على مقربة من قلعة يافا القوية (٦٩٢٠)
فهناك يمكن ان تكون في أمان
حتى تبعث في طلب تعزيزاتك
واذا رأيت أنه ليس في امكانك أن تصمد
عد مرة أخرى الى بلادك
وهكذا يمكنك ان تهرب من هذه الفعال (٦٩٢٥)
عد الى ارضك بالبحر
وفي غضبه امسك ريتشارد برغيف
وبيديه مزق قشرته عنه
وقال لذلك المسلم :
« ليعطيك الرب ضربة مشؤومة ! (٦٩٣٠)
انت وسيدك صلاح الدين
وليشنقك الشيطان بحبل !
على نصيحتك وانبائك
وليجلب الرب لك نهاية كئيبة !

والان اذهب وقل لصلاح الدين (٦٩٣٥)
اني على الرغم من ارادة ربه
ساقيم هنا كل الوقت
مع انه سيأتي هنا صباحا
ارجو ان تخبره اني في الغداة سوف
اخمر له شرابا من الاسى الدموي (٦٩٤٠)
واذا جاء ذلك الكلب الي
ستكون بلطتي القوية هي عقابه المحزن
واخبر سيدك اني اتحداه
هو وكل صحبته اللعينة !
اذهب الان بسرعة واخبره هكذا (٦٩٤٥)
ان عليه اللعنة من يسوع العزيز!
وذهب الرسولان الى صلاح الدين
واخبراه بكل ماجرى حيث كانا
فدهش الامير ثم بدأ يقول :
ان الملك رتشارد ليس رجلا ارضيا : (٦٩٥٠)
فهو اما شيطان او قديس
فقوته كما ارى لاتضعف أبدا
وعلى الفور بدأ يعطي أوامره
ركب تلك الليلة تجاه حرس رتشارد (٦٩٥٥)
ليأسر ملكنا الطيب رتشارد
واخذ هذا من ملكنا قليلا من الاهتمام
ونام كل الليل هناك
حتى تخلى الليل عن مكانه للفجر
عندئذ سمع صرخة حادة تلفت الانتباه (٦٩٦٠)
اذ جاء ملك من السماء برغبة من الرب
وقال له بنصيحة جريئة :
« قم واركب جوادك فاقل
وعد مرة اخرى الى قلعة يافا !
لقد استرحت فترة كافية ! (٦٩٦٥)

ستجد طريقك وعرا !
قبل ان تصل الى تلك المدينة
سوف تهاجم انت وبطانتك
وبعد المعركة اوقف هذه الحرب الصليبية
واعقد صلحك مع السلطان (٦٩٧٠)
ابرم هدنة ودع جماعة باروناتك
يتابعون سيرهم لاداء حجهم
الى الناصرة وبيت لحم
والى الجلجلة وبيت المقدس
ثم دعهم يسافرون بعدئذ نحو أوطانهم (٦٩٧٥)
وعد بعدهم مع رجال بحريتك
لان لك اعداء كما اعرف
هنا وفي ارض موطنك
« قم » قال الملاك ،« وبادر بكل سرعة !
لم يكن لك ابدا حاجة أعظم !»
وعندما سمع رتشارد قول الملاك
قفز فوق فافل حصانه الجيد
وصاح بصوت مرتفع ،« ربي العزيز
الذي استدفرتنا جميعا من اجل يسوع الحبيب! »
ونفخ بوقه وصاح « لاتنتظروا !» (٦٩٨٥)
بيد انه تقريبا بدأ متاخراً جدا
لان صلاح الدين وكل حرسه
كانوا بين يافا والملك رتشارد
وهناك جاء من الظلام
ليتغلب على الملك رتشارد (٦٩٩٠)
وسبب هذا لريتشارد الما شديدا
لانه لم يعد بامكانه ان يرتد الى حشوده :
ولكنه مضى قدما فوق حصانه فافل :
وامسك برمحه جيدا وباحكام
وبذلك قتل وهو على حصانه القوي (٦٩٩٥)

ثلاثة ملوك سمر من قوات السلطان
وكان حصانه قويا وسلاحه جيدا ،
ولم يصمد امامه حصان ولاانسان
وضرب بقوة على رؤوسهم
حتى انهم سقطوا على الارض ميتين كالحجارة (٧٠٠٠)
وكل من رأى هدوءه
سيحتفظ دائما بذكراه
وهاجموه بكثافة البراغيث
كما يفعل سرب نحل الخلية الغاضب
وكنسهم عن ظهور خيولهم الى الارض (٧٠٠٥)
كما يفعل الدب في الغنم
وبدأ الرجال الانكليز والفرنسيون الركوب ملتصقين على ان يكونوا بجانبه ،
وعلى المسلمين تسابقوا بلا توان
بسيوف مكشوفة ورماح قوية (٧٠١٠)
وانزلوا الضربات بكل قوتهم
وقتلوا المسلمين مباشرة
ولكن هذه الوفيات كانت ذات عون ضئيل
لان اعداد كبيرة جدا من المسلمين اصطفوا هناك
وكان الذبح في هذه المعركة (٧٠١٥)
لايمكن ان يرى مثله في اي ليلة اخرى
وكان هناك مستنقع خارج اسوار يافا
بعرض ميل واحد اجمالا
وعلى الرغم من كثرة المسلمين فان سيدنا ريتشارد
دفع بثلاثة الاف منهم الى المستنقع (٧٠٢٠)
وهناك استطاع المسلمون ان يروا رجالهم
كالبجع يقعون في شرك المستنقع
واولئك الذين تحرروا خارجين
اجبرهم ريتشارد غاضبا على الرجوع
فمنهم من غرق ومنهم من قتل (٧٠٢٥)

وفقد السلطان من مملكته
ستين الف رجل وحصان
كما قيل في مصدري الفرنسي
وركب الملك رتشارد حصانه مرة اخرى
ليساعد رجاله بالقوة والعزم (٧٠٣٠)
فمرة هو هنا ومرة هو هناك
ليرشد رجاله بسيفه المشرع اللامع
ولم يحدث قبلا ، كما سمعت يقال
ان قمع رجل واحد مثل هذه الكثرة من المسلمين
وفي وسط الخطر هناك (٧٠٣٥)
راى الملك رتشارد في يأسه
عمه السير هنري الشمباني
يسقط من على فرسه على ارض السهل
وهاجمه المسلمون وهو راقد هناك
ليقتلوه وهو في يأسه العميق (٧٠٤٠)
وكان سيقابل في ذلك اليوم وجه ربنا
مالم يأت الملك رتشارد بصوت مثل الرعد
« ياربي العزيز ان هذا الفعل لن يسرك !
انك هذا اليوم يجب ان تقي عمي (٧٠٤٥)
من هؤلاء المسلمين الكريهين في الميدان »
وصاح :« يافرساني يقع على عاتقكم الان »
أن تجعلوا هؤلاء المسلمين الفاسدين مكروبين
وسوف اقود بنفسي هذه المعركة
اذا عض راس فأسي المسلمين (٧٠٥٠)
راقب الرجال هناك عزمه وقوته
كيف هدر دم المسلم والمخ
فوق هذا الميدان الذي كان اخضر ، في ذلك اليوم
وبعث بالمسلمين على طريق الشيطان
بالضربات التي اشتراها المسلمون (٧٠٥٥)
ويمكن للمرء ، ان يرى اين قاتل رتشارد

وجاء فرسان الداوية ليساعدوه في تحطيمه
وبدأ هناك صدام قوي :
فكالوا ضربات قوية وجيدة
حتى سال الوادي بالدماء (٧٠٦٠)
وكان لونغسباي فارسا صنديدا
ولدى ازدياده غضبا ، بدأ في القتال
وكان فولك دويلي يقاتل ايضا
وكذلك توماس مولتون بشدة
وحيث ركب هؤلاء الصليبيون انفسهم (٧٠٦٥)
شقوا بالذبح ممرا عريضا
حيث يمكن لاربع عربات كبيرة ان تسير متجاورة
وجمعوا عددا كبيرا جدا من المسلمين
ومات على كلا الجانبيين العديد من المقاتلين
الاقوياء الجسورين ، ولم يعد من مزيد للركوب (٧٠٧٠)
واخيرا وبألم شديد
انقذ الملك ريتشارد ايرل شامبين
وساعده على العودة الى ظهر حصانه
الذي كان قريبا منه ليلبي حاجته ،
وجعله يعدو بجانبه (٧٠٧٥)
وان لايبتعد عنه قدما واحدا
وجاء مبعوث بخد متورد
وسأل عما اذا كان رتشارد هناك ليتحدث اليه
وقال : ياسيدي العزيز ، من اجل الاحساز
عد على الفور الى مدينة يافا ! (٧٠٨٠)
ان كلا من الجبل والسهل قد غطيا :
الملك الاسكندر والملك شارلمان
لم يواجها ابدا مثل هؤلاء الاعداء ، يامولاي
كما ان المدينة محاصرة الان
وقد اشتعلت الابواب كلها بالنار (٧٠٨٥)
وتراجع رجالنا من الحرارة

ولاحد يستطيع الركوب داخلا او خارجا
سيدي لقد اصبحوا في شك كبير حولكم
لانه ربما لن يمكنك الركوب الى المدينة
لان عددا كبيرا جدا من الاعداء باقون في الحقول ! ٧٠٩٠
ويجب ان احذر بلاتوقف او انقطاع
من ان حملتك كلها ستكون في خطر كبير
والبطريرك في ايديهم
وجون دي نسل ميت على الارض
ووليم الارسوري والسير جيرارد
وبرترام براندیز ، اللومباردي الطيب
كل هؤلاء قتلوا وعديد اخرون !»
وشعر الملك رتشارد بقلبه يزداد الما
وصاح يجب ان نتسابق الى يافا
كل رجل باسلحته في المكان !» (٧١٠٠)
واحتشد الوف من المسلمين امامه
بسيوف عريضة ورماح قوية :
وبصوارم وأعمدة قوية
ودفعوا الملك رتشارد بينهم وحولهم
فقتلوا فافل من تحته (٧١٠٥)
وعندها تجهم ريتشارد وغضب
وسحب بلطته القوية بيده
وقتل بالحال ذلك المسلم نفسه
الذي قتل جواده النبيل :
وعليه فقد حياته في الواقع (٧١١٠)
فحارب على قدميه في كل جانب
ومات العديد على يديه هناك
كل ماامكن لبلطته القوية ان تضربه
وقتل خيولا ورجالا مباشرة
بعضهم من امامه وبعضهم من خلفه (٧١١٥)

الف واكثر كما وجدت في كتابي
قتلوا هناك وهو على قدميه
ولم يعاونه احد ، وهو يلقى بهذه الضربات
وبدأ ابنا صلاح الدين في الركوب
وركب عشرة الاف مسلم بجانبهما : (٧١٢٠)
وصاح احدهما بصوت عال للملك ريتشارد
« استسلم الان ، ايها اللص والجبان الكريه !
والا سأقتلك في هذا المكان !
وصاح ريتشارد انت تكذب ، بنعمة الرب !
وببلطته ضربه فعلا ، (٧١٢٥)
فشق ذلك الفارس المسلم الى نصفين
وسقط نصف جسده على الارض
وكان النصف الاخر مايزال في حزام السرج
وقال رتشارد :« مذك أنا آمن
وركب الآخر ليستولي على حياة رتشارد (٧١٣٠)
وفوق جواده وباندفاع مخيف
معتقدا انه سيسحق رأس الملك ريتشارد
واصابه بجرح من خلال درعه السميك
وسبب هذا الملك رتشارد كثيرا من الالام بات عليه تحمله
ففوق سنان الرمح سم كريه (٧١٣٥)
واعطاه الملك ضربة قوية جدا
وسقط ذلك الرجل وحصانه قتيلين على الارض
فقال له « ارقد هنا ايها الكلب الكافر !
لن تتمكن ابدا من نقل الاخبار الى صلاح الدين
اذك سببت لي فقدان حياتي ! » (٧١٤٠)
وركب خمسة امراء من المسلمين نحو رتشارد
ومع كل حشدهم ابدوا كراهيتهم
واحاطوا بملكنا النبيل
واعتقدوا انهم جلبوا له موته
والملك ريتشارد في قليل من الوقت (٧١٤٥)

جازى الامراء الخمسة على جريمتهم
ومئات عديدة اكثر بجانبهم
من حشود المسلمين الذين ماتوا حوله
واخيرا مع انه كان متأخرا
حارب الملك ريتشارد نحو بوابة يافا : (٧١٥٠)
وعندها شعر رجالنا المسيحيون بالامان
وانهم امام الاعداء يمكن ان يصمدوا طويلا
واحضر ايرل ليستمر ، وسيرروبارد
لالكنا رتشارد جواده ليارد
وركب رتشارد بقفزة قوية (٧١٥٥)
وطارد المسلمين كما تطارد الذئاب الغنم
طاردهم رتشارد حتى جن الليل
وكل من لحق به ضربه
وكان هناك قتلى من المسلمين
الف الف من الرجال المسلمين (٧١٦٠)
وفي تلك الليلة والحق اقول رتشارد
قفل عائدا الى يافا شاعرا بالسرور
وشكر الحبيب يسوع ، ملك المجد
وامه على هذا النصر :
حيث منذ بدء الخليفة (٧١٦٥)
لم يربح مثل هذه الحرب المجيدة ابدا
وعند الفجر أرسل روبرت سابويل
والسير وليم ويترول
وهيوبرت وروبرت تورنهام
وولتر جيفورد ويوحنا مقدم الاسبتارية (٧١٧٠)
ورجاهم ان يقولوا لصلاح الدين
« انه ضد خمسة وعشرين رجلا
يمكنه ان يقاتل في ارض الميدان
ليحمي حق مولانا العزيز
فاذا ربح ، فانه عندئذ يأخذ الارض (٧١٧٥)

لتبقى الى الابد في ايدي المسيحيين
واذا امكن للمسلمين ان يقتلوه
تحكم الارض بطريقة السلطان
واذا لم يوافق السلطان
قولوا : « لثلاث سنوات ، وثلاثة شهور وثلاثة ايام ٧١٨٠
اطلب هدنة من السلطان
لأسافر إلى الوطن وأعود مرة أخرى
وبدأ الرسل يركبون
وطلبوا من السلطان ان يقرر
هو لم يكن ليقبل بقتال ريتشارد : (٧١٨٥)
فقط خمسة وعشرون ضد قوة رتشارد
قادما وعند الفجر إذا ركب رتشارد
ينبغي ان تبدأ هذه الهدنة بينهما
هكذا اخبر الرسل
واخبروا ملك الصليبيين (٧١٩٠)
وعند الفجر ركب السلطان في المقدمة
ليعقد الهدنة مع الملك رتشارد :
بعد انقضاء ثلاث سنوات من عودتهم الى ديارهم
من عكا كل من سيقدم الى هنالك
ثم بعد ذلك لكل السنوات الثلاثة ٧١٩٥
الرجال المسيحيون من بعيد وقريب
يتخذون طريقهم الى بيت المقدس
الى الضريح والى بيت لحم
والى جبل الزيتون والى الناصرة
والى عمواس بنفس تقي (٧٢٠٠)
ولااحد على طريق الحج
سيعاني من الاذى او الضرر الحزين
ملكنا رتشارد قوي اليد
انعطف عائدا باتجاه بلاده الى انكلترا
وحكم ملكنا الشجاع هنا (٧٢٠٥)

-٤٣٥٨-

ليس اكثر من عشر سنوات ماجدة قصيرة
ثم بطريق الخيانة اطلق عليه سهم
في قلعة غيلارد من خلال مؤامرة شريرة
هكذا انتهى رتشارد ، اشجع ملوكنا (٧٢١٠)
ليمنحنا الرب جميعا نهاية طيبة
ولتستقر روحه هادئة وصادقة
وارواحنا كذلك عندما تأتي الى هناك آمين

المحتوي

٣ ـ توطئة
٧ ـ نشيد رولاند
٩ ـ مدخل الشعر
٣٦ـ الصورة الاقطاعية
٣٨ ـ التابعية الاقطاعية
٣٩ ـ العلاقات والامارات
٣٩ ـ الفروسية
٤١ ـ احكام المعركة
٥٠ ـ نشيد رولاند (النص)
١٨٩ ـ ملحمة رتشارد قلب الاسد

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الروايات الأوربية ـ الاغريقية واللاتينية

(الحملة الرابعة)

١ ـ الاستيلاء على القسطنطينية ـ لفيلهاردين

٢ ـ سقوط القسطنطينية الصليبيين ـ لروبـرت دي كلاري

٣ ـ تاريخ المورة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الجزء العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئه :

يلاحظ المتتبع لتاريخ أوربا وشعوبها طوال عصور التاريخ أن شعوب هذه القارة اتحدت اراديا وأجمعت على هدف واحد ، مرة واحدة ، هي فترة الحروب الصيبية ، ففي أيامنا هذه ، على الرغم من جميع الجهود الاعلامية المبذولة وسواها لم يتوفر الاجماع الشعبي الأوربي للموافقة على الوحدة الأوربية.

إن ظاهرة التوحد لخوض الحروب الصليبية بحماس منقطع النظير فريدة في بابها ، جديرة بالدرس من قبل الذين يرون أن التاريخ هو تاريخ ما تصنعه الشعوب لا تاريخ السلاطين والملوك.

ومما لا شك فيه أن المحرك الأساسي لقيام هذه الظاهرة هو العاطفة الدينية ، وليس الاقتصاد والمنافع المتبادلة والتأثير السياسي والاجتماعي ، إنما قد يرى المتفحص لتاريخ الحروب الصليبية أنها بدأت شعبية لكن مع الأيام أخذت تتحول الى حروب رسمية ،وهكذا انتهت ، وهنا قد يكمن أحد أسباب الاخفاق النهائي للصليبيين.

هذا من الجانب الأوربي ، أما الجانب العربي فقد بدأ التصدي للغزاة الصليبيين رسميا ، ومع الأيام أخذ هذا التصدي يتحول الى عمل شعبي مجمع عليه ، فعدد المتطوعة يوم حطين فاق عدد الجند المحترفين ، والشعب العربي هو الذي جاهد حقا وبشكل جماعي وطوال قرنين لم تتوقف فيهما الحرب لحظة واحدة ، ونحن نواجه في المصادر العربية من تواريخ وكتب تراجم وجهاد وفضائل مدن وبلدان مواد ثمينة جدا جديرة بالتعمق بالدراسة ، ففي عصر الحروب

الصليبية صنف ابن الجوزي أكثر من كتاب عن فضائل القدس ، وفي هذا العصر صنف ابن عساكر تاريخ دمشق وضمن المجلدة الأولى من هذا الكتاب العملاق مواد هامة عن فضائل الشام ، وابن عساكر نفسه صنف بالجهاد ، وحرض نور الدين وشجعه لتوحيد صفوف المسلمين في سبيل تحرير القدس وطرد الغزاة ، وقد خاطبه بعد توحيد مصر وبلاد الشام بقصيدة منها قوله:

وإن بذلت لفتح القدس محتسبا
للأجر جوزيت أجرا غير محتسب

ولست تعذر في ترك الجهاد وقد
أصبحت تملك من مصر الى حلب

وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل
لما تريد فبادر فجأة النوب

وطهر المسجد الأقصى وحوزته
من النجاسات والاشراك والصلب

ومن الملاحظ من الجانب الأوربي أنه منذ ما يعرف باسم الحملة الثانية بدأ الحماس الشعبي يضعف بعض الشيء ويزداد مع الأيام في حين ازداد التورط الرسمي للبارونات والملوك والأباطرة والمؤسسات التجارية البحرية خاصة الايطالية منها ، فقد سعت الدويلات الايطالية الى استثمار الحروب الصليبية وجني الأرباح بأي صورة كانت ، سواء بالتعاون مع الأوربيين أو بالتعامل الخفي أو الظاهري مع المسلمين ثم إن الحماس الديني الذي قاد الى قيام الحروب الصليبية ، وقد ترافق مع التعصب الشديد ، أدى ــ فيما أدى اليه ــ الى تعميق الانفصال بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية ، ومن غرائب الأمور أن هدف الحروب الصليبية الأول كان القضاء على الاسلام والعرب وتحويل بلاد الشام الى وطن لاتيني فيما وراء البحار ، وكذلك كان بين الأهداف توحيد الكنائس المسيحية ، لكن الذي تحقق هو العكس تماما .

كان جل سكان مدن بلاد الشام قبل الحروب الصليبية مسيحيين ، لكن كان من بين نتائج هذه الحروب انقلاب المعادلة بشكل حاسم بحيث صارت الأكثرية الساحقة مسلمة ، والشيء نفسه حدث عندما استولت الكنيسة اللاتينية على القسطنطينية مقر الكنيسة الأرثوذكسية ، وتم هذا الاستيلاء في الحملة الرابعة .

ليس بودي الحديث عن أسباب هذه الحملة ووقائعها ونتائجها ففي مقدمات النصوص التالية فضلا عن محتويات هذه النصوص ما يكفي من شرح وبيان ، ونصوصنا وثائقية المعلومات وهي ثلاثة حوت أكثر التفاصيل وأدقها عن هذه الحملة التي طالت ضربات ساحقة للامبراطورية البيزنطية ، مهدت ـ بلا شك ـ الطريق للقضاء على هذه الامبراطورية فيما بعد لصالح الاسلام والمسلمين ، وتحويل القسطنطينية من مدينة قسطنطين الى « اسلام بول » كرسي الاسلام ، وهنا ايضا واحد من دروس الحروب الصليبية ، خاصة إذا ماشينا الدراسات الحديثة حول أصول الدولة العثمانية الجهادية الشعبية.

والنصوص الأوربية حول الحملة الرابعة هي الأخيرة من نوعها في هذه المرحلة من العمل بموسوعتنا وكلي أمل أن أتمكن في مستقبل الأيام من استكمال هذا المشروع والله المستعان ومنه جل وعلا أستمد التوفيق فله الحمد دائما وأبدا ، والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين .

دمشق غره ذي الحجة ١٤١٣
٢٢ / ٥ / ١٩٩٣.

الاستيلاء على القسطنطينية

فلهاردين

مقدمة

قليل من الاحداث في التاريخ كان أكثر اصطباغا بالخيال الرومانسي من تلك السلسلة من الحملات الى الأرض المقدسة التي تعرف بالحروب الصليبية .إن الرسم بالذات يستحضر صورة فرسان شجعان قد الهموا بالحماس الديني الهدف يتركون بيوتهم وبلادهم ليباشروا حربا شرسة مقدسة ضد أعداء العقيدة المسيحية، والحولية المعروضة هنا هي من تأليف رجل ممن شارك في احدى هذه الحملات وهو يقدم صورة صادقة لمغامرة يظهر فيها الجانب الأكثر ظلاما والجانب الأكثر اشراقا للطبيعة البشرية في اعمال الذين حملوا شارة الصليب،وعلى أي حال طالما أن هذه الحولية تتعامل فقط مع احدى الحملات الصليبية فانه ربما كان من الجيد في هذه المقدمة أن نضعها في اطارها حيث تصور بعضا من الصراع بين المسيحيين والمسلمين لامتلاك الأرض المقدسة الذي استمر لما يقرب من مائتي سنة .

لقد كانت القدس المدينة المقدسة مركز الحج من أزمنة قديمة جدا . وقد ترك المسيحيون بعد فتحها من قبل الخليفة عمر في سنة ٦٣٨ أحرارا في ممارسة دينهم وبقيت الظروف هكذا حتى ١٠٧٦ عندما انتقلت القدس الى ايدي الاتراك السلاجقة ، الذين روي انهم انتهكوا الاماكن المقدسة وعاملوا نصارى المدينة بقسوة فالقوا ببعضهم في السجن وذبحوا آخرين وعاد الحجاج الذين تدبروا أمر شق طريقهم الى الأرض المقدسة بقصص مثيرة للشفقة عن أحوال ابناء دينهم في الشرق وخطرت فكرة الحرب المقدسة للثأر لهذه الأخطاء للبابا غريغوري السابع وخليفته فيكتور الثالث ولكن شعوب النصرانية الغربية التي كانت منشغلة بشؤونها الخاصة في الوطن قد القت بالا قليلا لمناشدتها،ومع ذلك فإن اعمال تبشير الناسك بولس فعلت الكثير في التاثير على الراي العام شيئا فشيئا وعندما في مجمع

كلير مونت في تشرين الثاني ١٠٩٥ دعا البـابا أوربـان الثـاني ـ الفرنسي المولد ـ أهل بلاده أن ينضموا الى حملة دولية لاسـتعادة القدس لقى استجابة حماسية ٠ وفي ١٠٩٦ انطلقت حملتان واخذتا طريقهما نحو الشرق واحدة بقيادة بطرس الناسك وكانت تتكون من الدهماء غير المنظمين وقد أبيدت تقريبا عن بـكرة أبيهـا مـن قبـل الأتراك في تشرين الأول من تلك السنة ، وكانت الاخرى مكونة مـن قوات منظمة بشكل صحيح تحت بـارونات مـن شـمال فـرنسا وفلاندرزوشمال ايطاليا ، وقد وصـلت الى القسـطنطينية في كانون الأول وهنا انضمت الى قوات الامبراطور البيزنطي وبمرورها مـن أسيا الصغرى عاونت الروم في الاستيلاء على نيقية وهزمت الأتراك في دور يليوم وفي النهاية دخلت سورية ٠

وفي أثناء ثورة شعب الاقليم الشمالي من الرهـا ضـد حـاكمهم الارمني وجهوا الدعوة إلى بلدوين دي بـوليون ليحـل محله في آذار ١٠٩٨ ، وفي حزيران مـن تلك السـنة استولى الصـليبيون على انطاكية ، وفي تموز ١٠٩٩ أخذوا القـدس بعـد حصـار دام سـتة أسابيع فقط ، ويأسف المرء أن يقول أن هذا النصر قد اعقبه ذبـح بلا رحمة لجميع السكان داخل المدينة بلا تمييز باللون أو الاصـل أو العقيدة ، وكنتيجة لهذه الحملة الأولى انشئت دول مسيحية ثـلاث : في سورية:امارتا الرها وانطاكية ومملكة القدس ، وشـاعت معـرفة جميع تلك الأراضي المفتوحة باسم « بلاد ما وراء البحار » ٠

وتدبر بارونات ما وراء البحـار لسـنوات بـالاحتفاظ بحـرب هجومية دفاعية ضد العدو المحيط بهم ، أمر الثبات في الاراضي التي كسبوها دون طلب معونة كبيرة مـن الغـرب ، وفي ١١٤٤ مـع ذلك عندما استرد المسلمون اقليم الرهـا ، أرسـلت الملكة الوصـية على عرش القدس وقد خشيت بعد رؤيتها لانكشاف الحـدود الشـمالية لأنطاكية من سقوط هذه الامـارة مـع اقليمهـا ، أرسـلت مسرعة مناشدة ملحة الى البابا يوجينيوس الثالث ليبدأ حملة صليبية جديدة وأحال البابا الأمر الى الملك لويس السابع ملك فرنسا وهـو رجـل

عرف بورعه،وكان قد حمل شارة الصليب ١١٤٦ في اجتمـاع فيزلي حيث دفعت بلاغة القديس برنارد بكثير من الفرنسيين لحـذو حـذو ملكهم وبرحيله الى المانيا حث القديس بـرنارد الامبـراطور كونراد على الانضمام للحملة،وفي ١١٤٧ انطلق جيش بقيادة حاكمي فرنسا والمانيا في الحملة الصليبية الثانية وقـد صـمما على القيام بـأعمال عظيمة.

وفي النهاية مع ذلك قام الصليبيون بدلاً من التقـدم نحـو الرهـا بمحاولة غير ناجحة للاستيلاء على دمشق،ثـم عادوا أدراجهـم دون انجاز اي شيء.

وفي هذه الأثناء كان المسلمون في الشرق يزدادون قوة والمسيحيون يزدادون ضعفا ، وكان الحجاج الذين يأتـون الى الاراضي المقـدسة كثيرا مايصدمون بالترف وبالحياة الفاسقة في مـا وراء البحـار ، وبددت الخلافات الداخلية بين بارونات الأرض الطاقة التي يمكن أن تستخدم في الدفاع عنها وترك موت الملك عموري ملك القدس في ١١٧٤ المملكة دون خليفة جديد ، وبعد قليل تـولى صـلاح الدين السـلطة كرئيس لدولة مسلمة موحدة . وفي ١١٨٧ عانى المسيحيون من أعظم كارثة نزلت بهم عندما هزم صلاح الدين جيشهم ودمـره عند قـرني حطين في ٣ تموز ،ثم استرد طبرية ويافا وعسقلان وغزة وفي النهاية دخل القدس . وكانت معاملة المسلمين الانسانية للسكان المسيحيين في تضاد ملحوظ مع سلوك الصليبيين الذين اسـتولوا على المدينة في ١٠٩٥

ومرة اخرى استثيرت النصرانية الغربية للعمل. وفي ١١٨٩ أعدت حملة صليبية بقيادة ثـلاثة ملوك : فـريدريك بـربروسا ملك المانية وفيليب اغسطس ملك فرنسا ورتشارد الأول ملك انكلترا للمضي الى ماوراء البحار ، وغرق بربروسا الذي انطلق أولا في نهـر صـفير وهو في طريقه عبر آسيا الصغرى في ١٠ حزيران ١١٩٠،وتبدد جيشه وقد ثبطت همته حتى تخلفت عنه فقط فرقة صغيرة ، وفي وقت مبكر

من السنة التالية ابحر فيليب ورتشارد من مسينا ليمضيا الى مساعدة الملك الاسمي للقدس ، الذي كان مع جيش صغير يرثى له يحاصر قوات صلاح الدين في عكا ، وكان جيشهما شركة غير مستقرة منذ البداية ولاختلاف المزاج — كان رتشارد حاد المزاج متهورا وعنيفا وكان فيليب داهية وباردا — وكانت علاقاتهما معقدة اكثر مع ذلك بسبب حقيقة أن الملك الانكليزي كدوق لنورماندي لم يكن تابعا مطيعا جدا ، بينما كان الملك الفرنسي من جانبه يغار من سلطة رتشارد.

ووصل فيليب الى أمام عكا في ٢٠ نيسان ١١٩١ ، أما رتشارد الذي أعاقته عاصفة في البحر ، وصل الى هناك بعد ذلك بسبعة اسابيع ، وعندما استسلمت عكا في ١٢ تموز رفع الملكان اعلامهما على الجدران ووضع ليوبولد ملك النمسا ، وكان الآن يتولى قيادة القوات الالمانية علمه هناك أيضا ، ولكنه فقط ليمزق ويلقي به في الخندق ، وهي إهانة وقع من أجلها انتقام قاس فيما بعد ، ويلقي نبح رتشارد لأسراه من المسلمين بعد استسلام عكا ظلا اكثر سوادا على اسمه .

وفي آب ١١٩١ عاد الملك الفرنسي بعدما تعب من الحرب الصليبية ، وبسبب قلقه على حالة الأمور في مملكته إلى فرنسا ، وتولى رتشارد القيادة على بقية القوات وتابع الحملة . ومع أنه هزم صلاح الدين في أرسوف في أيلول ١١٩١ واستولى بنجاح على يافا في آب من السنة التالية ، وأصبحت القدس في متناول يده ، أغمض عينيه عن رؤيتها ، ولم يجرؤ على محاولة الاستيلاء عليها ، وكان الانجاز الوحيد لهذه الحملة الصليبية عقد هدنة خمس سنوات مع صلاح الدين الذي منح المسيحيين ملكية المدن الساحلية الرئيسة إلى مسافة في الجنوب تصل إلى يافا ، ومنح للحجاج حق حرية الدخول إلى القدس .

وهكذا نأتي إلى الحملة الصليبية الرابعة ، التي روى قصتها

فيلها ردين في كتابه الاستيلاء على القسطنطينية وهو عمل متميز بين أشياء أخرى لحقيقة أنه أول سجل يعتمد عليه عن هذه الحملات ، يكتب بالفرنسية ، وإنه لصحيح أن الحملات الصليبية الاقدم كان لها مؤرخوها ، ولكن هؤلاء الذين قد نلحظ بينهم بشكل خاص وليم رئيس أساقفة صور قد أعطوا رواياتهم باللاتينية.هذا ولم يكن هناك نقص في سيل شعر معين يتعلق بمآثر الصليبيين في بلاد ماوراء البحار ولكن أيا من هذا لم يكن له أي قيمة تاريخية ، ويعطي غرنيدوردي دواي،وكان يكتب في النصف الأول من القرن الثاني عشر رواية مليئة بالحيوية في أنشودة أنطاكية وانشودة القدس عن أخذ هاتين المدينتين في الحملة الصليبية الأولى ، ولكنه من جانب آخر كان لديه تصور صغير وراء الحملة ، ومعرفة منقوصة جدا حول الأحداث الرئيسة ، وما هو أقل أهلية للاعتماد ذلك التقليد للملاحم الفرنسية القديمة من مثل « غودفري دي بوليون » أو « الفارس المقدس » الذي يأخذ فيه الخيال الجامح مكان الحقيقة ، ويعطي النورمندي جونفلير في تاريخه « تاريخ الحرب المقدسة » سجلا دقيقا للحرب الصليبية الثالثة ، ولكن من موقعه كحاج متواضع بين الصفوف ليس لديه أكثر من نظرة خارجية للأحداث التي يؤرخ لها . وبقي للعامل الرئيس من الحملة الصليبية الرابعة أن يقدم التاريخ الأول الجدير والمستكمل للمعلومات عن مثل هذه الحملة بلغته الوطنية ونثرا .

ولد مؤلف «الاستيلاء على القسطنطينية» في وقت مابين ١١٥٠ و ١١٥٤ وكان والده فيلان دي فيلها ردين رجلا نبيلا من شامبين ولديه ممتلكات في الجزء الجنوبي من الأقليم ، غير بعيد عن مدينة ترويس الرئيسة ، ولم يكن جيوفري أكبر أولاد فيلان ولكن بفضل روابطه بالمولد وفيما بعد بالزواج مع كثير من عائلات شامبين النبيلة والأقاليم المجاورة ، وبلا شك أيضا في قوة شخصيته القيادية وأهليته للاقدام أصبح في ١١٨٥ مارشالا لشامبين . وفي تلك الأيام عندما كان القتال بين البارونات المتحاربين احتمالا كان واجب المارشال أن يعمل على أن يكون كل شيء في وضعه الصحيح للمقاومة

أو الهجوم ، فإذا قامت الحرب كان عليه أن يتخذ كل الترتيبات الضرورية للحملة ، وفي غياب الأمير يتولى القيادة ، وإضافة لذلك كان نائبا للأمير في كل ما يتعلق بالادارة في الاقليم ، ولم يكن فيلهاردين على حد ما نعرف في الخدمة الفعالة قبل أن يذهب إلى ماوراء البحار ، ولكن هناك دليل على دوره العام الذي شغله كحكم في المنازعات ضمن الاقليم وكممثل لأميره في المفاوضات مع ملك فرنسا . وفي مجال واجباته أصبح على معرفة مع كثير من تلك الشخصيات البارزة النبيلة التي وردت أسماؤها في حوليته ، ولقى كمارشال للاقليم خبرة هيأته للمهام التي كانت تنتظره في حقل أوسع ، وفي حين أن عمله الذي كان يتبع ترتيبا زمنيا ليس سجلا للأحداث المعروفة من يوم ليوم ، فإنه كان بالأحرى نوعا من التاريخ الرسمي للحملة الصليبية الرابعة ، وقد تم تاليفه بعد بضع سنوات من نهاية الحملة المجهضة من قبل امرىء ممن استطاع أن يردف مذكراته هو عنها بالرجوع إلى الوثائق الموجودة ــ رسائل : معاهدات قوائم الجيش وهكذا ــ التي أمكنه الوصول إليها كمارشال لرومانيا ، وتكلم فيلهاردين كرجل ذي سنوات ناضجة وخبرة واسعة ومن موقع الثقة في الذين نظموا أو تولوا جزءا قياديا في الحملات المختلفة والأحداث الأخرى التي ادخلها وحتى ولو ــ كما بالنسبة لكل التواريخ التي كتبت قبل زمانه قد وضع الأحداث في منظورها الكامل ــ أن تفسيره كان أحيانا متحيزا ، إنه أعطى إجمالا روايات أمينه وجيدة جدا حول عمل بدأ جيد جدا وانتهى بشكل مفجع جدا .

والشيء نفسه لم تنج الدقة والجودة لعرض فيلهاردين لتاريخه من التحدي من نواح معينة فبعض ناقديه مثلا يؤكد أنه في القاء المسؤولية عن انحراف الحملة الصليبية إلى زارا وفيما بعد إلى القسطنطينية على الرجال الذين أخفقوا في تقديم تقاريرهم إلى البندقية لم يأخذ بعين الاعتبار بعض المؤامرات التي كانت تحاك خلف الكواليس ، وادعى آخرون أنه بفعله ذلك قد رتب عن عمد قصته هكذا ليحرر بعض قادة الحملة من اللوم ، ومثل هذا النقد

يمكن الاجابة عليه بسهولة ، فلا شك أن أهل البندقية وجدوا بحالة منحتهم فرصة زيادة نفوذهم في حوض البحر المتوسط ، ولاشك في أن فيليب صاحب سوابيا كان متلهفا على جعل صهره اليكسيوس يستعيد سلطته ، وفي حين أن هذا قد يكون كذلك إنه من الصعب تخيل أن الصليبيين الفرنسيين كان يمكن أن يوافقوا على تأييد مقاصد البندقية وألمانيا لو أنهم في ظروفهم الصعبة والمقيدة رأوا أي طريقة أخرى للنجاح في مغامرتهم ، وأما بالنسبة لفكرة أن فيلهاردين عمل كمدافع رسمي فهذا يمكن استبعاده بسرعة نظرا لروايته الأمينة للأعمال عن الدور نفسه لهؤلاء القادة في تاريخ لاحق . وقد اتهم فيلهاردين أيضا بالقسوة المفرطة في حكمه على الرجال الذين أخفقوا في الانضمام إلى الجيش أوفروا منه ، إنه قاس بالتأكيد ولكننا يجب أن نأخذ الظروف في الاعتبار فلقد قيد البارونات أنفسهم في مجلس مكتمل بالالتزام بأي اتفاق يتوصل إليه مبعوثوهم في البندقية ، وبعادة إقطاعية كان كل من رهنوا أنفسهم بالمضي مع الحملة ملتزمين بالدرجة نفسها ، وكرجل شريف هونفسه ، مع مفهوم عال لواجباته العسكرية وجد فيلهاردين أنه لايتصور أن أي رجل يستحق اسم فارس يمكن أن يحنث بوعده ، أو يمتنع عن المضي إلى حيث يأمر قائده ، لماذا ـ هكذا تعجب ـ تخلف مثل هذا العدد الكبير من الفرسان ؟ وفي سخطه بسبب الضرر الذي سببه هذا الارتداد عن هذه المغامرة ، بدا له أنهم ربما قد اعتقدوا أنه من الأسلم أن يذهبوا إلى سورية حيث كان المسيحيون مايزالون يحتفظون بمدن معينة بدلا من مواجهة مخاطر شن حملات على بلد كان بكامله في ايد مسلمة ، ومع ذلك ومع مراعاة التقلب البشري في رواية مصير الذين ذهبوا إلى سورية أنه لم يكن الشجاعة بل نقص الحكمة هو مالامه فيلهاردين ، والكلام هنا من منطلق الاشفاق بدلا من الغضب إنه قدم التقدير لذكرى الفرسان الجيدين ويأسف فقط لأنهم وقعوا في خيار سيء وتحملوا العقوبة على حمقهم الآثم .

أما بالنسبة للزعم بأن فيلهاردين في روايته حول الخلافات في الجيش أو الفرار بالتالي منه لم يترك مجالا للشكوك الدينية للذين

احتجوا ضد شن الحرب على المسيحيين ، من الصعب في هذه الفسحة من الزمن تقدير إلى أي حد كانت هذه الاحتجاجات مخلصة وإلى أي مدى قدمت كذريعة لحل الجيش ، وفي حالة راعي دير فو هناك بعض الأسباب للشك لأن هذا الاكليركي الذي كان نشيطا جدا في إثارة الخلافات في جيش الصليبيين ، والذي تركه في النهاية بذريعة الشكوك الدينية ، لم يبد مثل هذه الحساسية في ١٢٠٩ عندما شغل دورا قياديا في الحملة الصليبية ضد الألبانيين الذين لم يكونوا أقل نصرانية من الروم .

وفي كل الأمور المدروسة إنه من الصعب الشك بأن فيلها ردين وقد كان مقتنعا بأن الأمل الوحيد في استرداد القدس يكمن في الابقاء على وحدة الجيش ، كان قليل الصبر مع الذين رغبوا في حله ، وقليل التعاطف مع الذين ردوا على الشكوك الدينية ، أو لم يمنح البابا نفسه ـ وقد روع في البداية بالهجوم على المدينة المسيحية زارا ، الغفران للصليبيين على أساس انهم قد تصرفوا تحت الاضطرار والاكراه وحثهم على الابقاء على وحدة الجيش ؟ علاوة على انه في الوقت نفسه الذي كان فيه راعي دير فو يثير المتاعب كان قداسته اعتمادا على وعد اليكسيوس قد عمل على جعل الكنيسة اليونانية تحت سلطة روما ، وأخيرا وبعد بعض التردد أعلم الصليبيين أنه لن يعارض في الحملة على القسطنطينية طالما أنها كانت تدار بطريقة تؤدي إلى إعادة توحيد الكنيستين الرومانية والأرثوذكسية .

ولم يكن لهذا الأمل أن يتحقق مطلقا ، ولم يكن لهذا الجيش أن يبلغ مطلقا المدينة المقدسة ومن الوقت الذي قدم فيه الفرنجة إنذارهم إلى الأمبراطور اليكسيوس الرابع في شباط ١٢٠٤ كانت كل الأفكار حول حملة صليبية قد غابت عن الأنظار في سلسلة من النزاعات بين الفرنجة والروم ، والمتاعب الكثيرة التي أعقبت إنشاء الأمبراطورية اللاتينية لرومانيا بقوة السلاح ، وفي هذا القسم الأخير من الحولية أن انحياز فيلها ردين يجب أن يؤخذ في الاعتبار ، وبرواية الأحداث من وجهة النظر الفرنسية إنه يفسرها إلى حد ما يستطيع مع

الاجحاف بالروم الذين اليهم كانت تعزى المحاولة الباسلة لأمة مهزومة لاكتساب استقلالها المفقود ، وكانت في عينيه برهانا على أنهم كانوا بالطبيعة غير مخلصين وخونة ، وبصرف النظر عن هذا الانحياز تعطي حوليته رواية حية عن الصراع الطويل المأساوي بين مسيحي الشرق والغرب ، وهو صراع يمكن أن نستمد منه استنتاجاتنا .

ومن الحقائق التي يضعها فيلها ردين أمامنا تبين أنه من أول توليهم للسلطة وقع الغزاة في الخطأ المميت بالاقلال من شأن المقاومة التي قد يجدوها ، واثقين من أنه بعد الانهيار المفاجيء للمقاومة في القسطنطينية كان اخضاع بقية الامبراطورية أمرا سهلا ، وعلى مايبدو إنهم كانوا غير مدركين للكراهية المرة التي ثارت في عرق مثقف بفعل بربر متغطرسين برعونة نهبوا مدينتهم الجميلة وحطموها بعدما كانت واحدة من أجمل المراكز الحضارية في العالم ، ثم أن الفرنجة لم يقوموا بأي محاولة لاسترضاء الروم .

وفي البداية بدا كما لو كانت ثقتهم كان لها ما يسوغها وبصرف النظر عن بعض المدن المعزولة التي كانت مازالت صامدة ضد الغزاة ، كانت الأرض على الجانب الشمالي من المضايق قد استسلمت للحكم الأجنبي ، ومع ذلك فكر البارونات كما يقول فيلها ردين نفسه بدلا من حكم الأراضي الخصبة لهم بحق فقط في أي مكسب يمكن أن يحصلوا عليه لأنفسهم ، وكانت هذه الاثارة الأخيرة كثيرة جدا بالنسبة للروم وبقيامهم بالثورة دفعوا بالفرنجة خارج أدرنة وديموتيكا واستولوا على هاتين المدينتين الهامتين ، وفي تلهفهم على طرد الغازي بكل الوسائل الممكنة دخلوا في تحالف مع الملك القوي لوالاشيا وبلغاريا ، وثبت في النهاية أن جوهانيتزا كان حتى أكثر بعدا عن الترحيب من الفرنجة .

ولكن إذا كان للروم من سبب للأسف من مجيئه ، كذلك فعل قاهروهم عندما أخذت قوات جوهانيتزا تجتاح الأمبراطورية ،

وتستولي على المدن الجبلية في رومانيا وتدمرها حتى بقي اثنتان منها فقط بجانب القسطنطينية في أيدي الفرنجة .

وفي الوقت نفسه كان على الجانب الآخر من المضايق في آسيا الصغرى ثيودور لاسكاريس زوج ابنة اليكسيوس الثالث يعمل ما في وسعه لمنع الفرنجة من الاستيلاء على الأراضي المخصصة لهم ، وأخيرا كما يخبرنا فيلها ردين نجح في تحقيق أهدافه ، وبالاعتراف به منذ البداية من قبل الروم في آسيا الصغرى وأولئك الذين اصطفوا إلى جانبه من العدوة الأخرى كحاكم شرعي لهم : توج امبراطورا في ١٢٠٦ وكان لامبراطورية نيقية أن تبقى كمركز قيادة للملكة الرومية حتى مع سقوط الامبراطورية اللاتينية في ١٢٦١ عاد أحد أبناء سلالة الأمبراطور تيودور لحكم القسطنطينية .

وتنتهي حولية فيلهاردين فجأة نوعا ما بموت المركيز دي مونت فرات في ١٢٠٧ وحقيقة أن هنري فالانسيان في كتاب (تاريخ الامبراطور هنري) قد أكمل حكاية رومانيا من النقطة ذاتها التي انقطعت عندها رواية فيلها ردين ، توحي بأن النهاية المفاجئة للاستيلاء على القسطنطينية تعود إلى وفاة المؤلف ، وتاريخ هذا الأمر غير مؤكد ، وهناك أدلة على أن فيلها ردين كان مايزال حيا في ١٢١٢ وكان مايزال في رومانيا حيث يحتمل أنه بقي بقية حياته ، والوثائق المتعلقة بالتبرعات في ذكراه وذكرى زوجته تقدم الدليل .

على أنه قد توفي في وقت ما قبل حزيران ١٢١٨ وفي كل الأحوال فإنه قد عاش بما يكفي لكي يرى الامبراطور هنري أكثر حكمة وبعد نظر من أخيه سيء المصير ، وقد استرضى الروم بإعطائهم حصة جيدة من التمجيد والمناصب وبتحقيق السلام في هذا الجزء من الامبراطورية الذي ما زال باقيا له .

إن الاستيلاء على القسطنطينية هو أحد مصادرنا الرئيسة للمعلومات حول مجرى أحداث الحملة الصليبية الرابعة (١) ولكنه

ايضا تذكاري لائق لواحد ممن كانت ممارستهم المستمرة لفضائل الفروسية من الولاء والشجاعة تعطيهم مكانا بين أنبل الشخصيات في أيامه ، رجل ذو مبادىء دينية ثابتة ، وكان واجب فيلهاردين تجاه الرب كما رآه هو أن يخدمه بالاخلاص الذي يخدم بسه التابع الجيد أميره ، وفوق وبعد كل ذلك الاعتراف بأن كل الاحداث ، سواء كأدلة على رضا الرب أو عدم رضاه هي بمشيئته ، والاخلاص للرب علاوة على ذلك يستتبع الوحدة التامة للسلوك ، وكل خرق للعقيدة ، وكل الأعمال السرية وأفعال الخيانة وكل الاشتهاء والجشع والبحث عن الذات ، ليست فقط مضادة لقوانين الفروسية بل انتهاكات للقانون الالهي ، فإذا كان الرب الذي يخدمه فيلهاردين « هو رب المعارك » وإذا كان يقبل دون سؤال تصديق ممثل البابا على الحرب ضد المسيحيين الروم كحرب عادلة ومقدسة ، مع أننا قد نأسف على المكان الصغير الذي يحتله الحب والرحمة في دينه ، إننا لا يمكننا أن نشك في الاخلاص في عقيدته ٠

وبالقدر نفسه في خدمته للذين يدين لهم بولائه الدنيوي فإن فيلهاردين يفسر واجبه بأنه شيء أكثر من الطاعة العمياء ، رجل ذو أخلاق قوية وحكم راسخ ، إنه لايخشى أن يظهر عدم موافقته على الخلاف بين الامبراطور بلدوين والمركيز دي مونتفرات ، ولكنه يتدخل بشهامة ليرأب الصدع ، وفي هذا كما في أمثلة أخرى في كل الحولية كان همه أن يعمل من أجل الخير المشترك للجميع .

وكانت الشجاعة تلك الصفة الأساسية الأخرى للفارس كما فهمها هي نشاط منظم ، انها لم تتكون من اغماض المرء عينيه أمام المخاطر ، وهناك الكثير من التلميحات في عمله إلى المخاطر التي تعرض لها هو وزملاؤه الصليبيون ، وهي لا تختلط وتتشوش مع الجفاف ، الذي كما كان في حالة القتال المفجع في أدرنة يقود الرجال للمجازفة ليس فقط بحياتهم بل بالمغامرة التي التزموا بها ، انها في الواقع المقدرة على القيام بتقويم هادىء ومتوازن للخطر دون الاستسلام للخوف ، ومثل هذه الشجاعة هي شجاعة فيلهادرين ،

ومع ذلك هي ثابتة بشكل طبيعي حتـــى انه كان يأخـذها على أنهـا ليست شيئا يتباهى به ، وقد روى كل مغامرة كانت تتعلق به كواحدة كان لرفاقه البواسل حصة كاملة فيها .

وكان رجلا ذو حكم واضح متوازن صارم متزمت صموت أو كتـوم بطبيعته ، لقد تميز فليها ردين بالبساطة ووضـوح الفـكر في عمله لا اقحام لشخصيته ولا تحليق في الخيال ولا أوصاف طويلة تصـويرية كتلك التي كان يسر معاصره روبرت دي كلاري بها وتتدخل لتقـطع خط القصة الواضح الذي يفرض اهتمامنا بعرضه البارع للحقائق ، وكرجل دولة في فهمه لتحولات حملة بـدأت كحملة صـليبية وانتهـت كحرب ضد المسيحيين واضح وظاهر بـاختياره الماهـر ومعـالجته لمادته ، والمضمون السياسي لكل تحـول في الأحـداث لكي يؤدي إلى فعل آخر ، وهذا دون حاجة لتعليق اكثر مما يلزم ليجعله واضـحا ، لقد كان جنديا كما كان رجل دولة وهذا الشعور بـالترتيب والنظـام كان جزءا ملازما لرجال مهنته ، وهـو يبـدو بـوضوح وبسـاطة في روايته الصريحة والدقيقة عن الخلافات ضـمن الجيش وأيضـا عن الانشغال الكثير في النزاع الطويل بين الفرنجة والروم .

ومع ذلك من أجل الرصانة العامة في شرحه للمجرى غير الثـابت للحملة الصليبية الرابعة ، لا ينقص عمله بأي حال الحيوية ، وعندما على سبيل المثال تنتقل قصـته مـن المؤتمـرات والأمـور الروتينية الأخرى إلى ذكريات الجيش في الحملة إن التضاد بين تصويره الحي الدراماتيكي لأقدارها وعرضه الأكثر هـدوءا للأحـداث الأخـرى في عمله ، يعطي الضوء والظل لحولية لا تختلف مطلقا في بساطتها بـل تغير نغمتها وايقاعها كما تتـطلب المناسـبة ، وبـالنظر إلى هـذه الحولية ككل مع تذكر أن فيلها ردين كرائد بين المؤرخين الفرنسيين لم يكن لديه دليل آخر فيما عدا نزعته المحلية الأصيلة يمكننا فقط أن نعجب مـن مهـارة ذلك الجندي ورجـل الدولة الذي ينظـم وينشر الوقائع مثلما يفعل القائد الخبير بقواته ليضـع هـذه القصـة ذات الآمال العالية الخائبة بمثل هذه الحيوية أمام أعيننا .

وبعد اخفاق الحملة الصـليبية الرابعـة في بلوغ هـدفها الأول ، انقضى بعض الوقت قبل القيام بمحاولة أخرى لكسر قوة المسلمين ، ثم في ١٢١٨ عبر جين دي بريين الملك الاسـمي للقـدس والحـاكم الفعلي لملكة عكا الصغيرة البحر إلى مصر ، وبعد حصـار طـويل استولى على دمياط في تشرين الثاني من السنة التالية ، وبعـد ذلك بعامين،وكان قد حقق القليل في ذلك الوقت،أحضر جيشـه إلى الخليج حيث غمر سلطان مصر الأراضي المنخفضة في حوض النيل فـاضطر إلى الاستسلام واعادة دمياط إلى المسـلمين ، ولم يعـط أي بـابا بركته للحملة الصـليبية السـادسة ولم تبـاشر بناء على أي بـاعث ديني ، وكان قائدها الامبراطور فريدريك امبراطور المانيا الذي كان محكوما عليه بالحرمان الكنسي في ذلك الوقت قـد أبحـر إلى عكا في أيلول ١٢٢٨ ليطالب بمملكة القدس لنفسه بحـق زواجـه مـن ابنة ووريثة جين دي بريين . لقد كان جيشـه صـغيرا ، وقـد اسـتقبل استقبالا فاترا من قبل بارونات بلاد ما وراء البحـار ، ولكن مـا لم يستطع أخذه بقوة السلاح تـدبر أمـر تـأمينه بـالدبلوماسية . وفي شباط ١٢٢٩ بعد مفاوضات طويلة نوعا ما مـع السـلطان وقعـت اتفاقية يافا ، التي أعطت فريدريك ملكية كل القدس باستثناء مسجد عمر واستعادة المسيحيين ليافـا وبيت لحـم والناصرة إلى جـانب السيادة على تيرون وصيدا .

وهز هذا التسليم الاعتباطي لمدنهم المسلمين وصـدمهم ولم يكن المسيحيون من جانبهم اقل غضبا من الشروط التي مكنت الكفار من الوصول إلى القدس مع تـركها غير محصـنة ، وبقـي العـداء بين المسلمين والفرنجة ، وفي ١٢٤٢ سقطت المدينة مرة أخـرى في أيدي المسلمين .

وبعد أن بلغت أخبار هذه الكارثة إلى أوربا بوقت قصير ، سقط الملك لويس التـاسع ملك فـرنسا مـريضا بشكل ميئوس منه وعلى فراش مرضه نذر أنه إذا استرد عافيته بمعونة الرب فسيمضي بنفسه في حملة صليبية لاستعادة القـدس . وكانت هناك شـؤون ضـاغطة

يجب تسويتها في الوطن أولا ، وهكذا انقضت أربع سنوات قبل أن يترك باريس في آب ١٢٤٨ في المرحلة الأولى من رحلته إلى الشرق ٠

ولم تصل هذه الحملة الصليبية السابعة مثل معظم الحملات التي تقدمتها إلى القدس ، فعلى الرغم من شجاعته الشخصية وقدرته على إلهام شجاعة مماثلة للاخرين ثبت أن مهمة اخضاع المسلمين في مصر كبيرة جدا على رجل كان قديسا اكثر منه عسكريا حقيقيا ، ومرة أخرى غرقت آمال الصليبيين في النيل ، ووصلت حملة الملك التالية الى الاراضي المقدسة إلى نهاية مفاجئة ، بالمتاعب في مملكته التي حتمت عودته إلى فرنسا ، حتى لو أنه بقي هل كان محتملا أن يتمكن من تحقيق شيء . إن بارونات ما وراء البحار المتعجرفين والمستغلين لم يتقبلوا قط بشكل طبيعي التدخل من الغرب . وبعد أن أفادوا من مساعدة الملك الفرنسي في استعادة بعض مدنهم واعادة تحصينها ، أصبحوا فقط مستعدين جدا ليؤكدوا له بأنهم ليسوا في حاجة لمزيد من مساعدته ، علاوة على أن النبلاء الفرنسيين وقد تعبوا من الحرب التي لم يروا فيها أي نفع مأمول لانفسهم ، كانوا لزمان طويل يحثون الملك على العودة إلى فرنسا وبعضهم وبينهم اخوة الملك كانوا قد تركوا الشرق من قبل .

وبعد سنوات عديدة جعل استرداد انطاكية ١٢٦٨ الملك لويس يفكر في حملة صليبية جديدة ، وكان أخوه شارل وقد أصبح الآن ملك صقلية ، لديه مطامع في أن يصبح هو نفسه حاكما لامبراطورية متوسطية فحرض الملك الساذج غير النزاع إلى الشك بدرجة كبيرة على أن يبدأ بهجوم على المسلمين من شمال أفريقيا . وكان هذا في الحقيقة أمرا شريرا أن يشجع رجلا في مثل هذه الحالة من الضعف الصحي على القيام بأي حملة .

وفي تموز ١٢٧٠ نزل الملك لويس وهو مريض إلى الشاطيء في قرطاج ولكنه سرعان ما سقط ضحية الطاعون ومات في تونس في ٢٥ آب ، ورجع شارل وعاد إلى صقلية ، وكان الأمير ادوارد

أمير انكلترا (الذي أصبح فيما بعد ادوارد الأول) قد وعد بالانضمام إلى الملك لويس في تونس وقد وصل بالفعل إليها بينما كان الفرنسيون يغادرونها ، وبعد ذلك بقليل ابحر إلى عكا ولكنه وجد حالة الأمور في بلاد ما وراء البحار سيئة جدا بدرجة لا تسمح له بأن يقوم بأي شيء هناك سوى المساعدة على تنظيم هدنة مدتها عشر سنوات مع المسلمين ، ومن ذلك الوقت وما بعد استمر القتال بين المسلمين والمسيحيين في الشرق ، ولكنه لم يجذب سوى القليل من الاهتمام في الغرب وحدد سقوط عكا في ١٢٩١ نهاية الحكم المسيحي في بلاد ما وراء البحار .

وفي السنوات التي أعقبت موت الملك لويس ظهر اكثر من تقرير حول حكمه الخير وحياته القدسية ، وكتب اثنان من التواريخ من قبل كاهن اعتراف الملك وليم دي بوليو الذي كتب باللاتينية ورواية بالفرنسية تم تاليفها بعد بضع سنوات نقلاً عن الروايات الأخرى من قبل واحد اسمه غوليوم دي نانجيس وقد بقيت نصف منسية على رفوف المكتبات العلمية ، وهناك ثالثة مازالت معروفة على نطاق واسع ومقروءة ، وترجمت من قبل عدة مرات إلى الانكليزية وهي المقدمة هنا في نص جديد بعنوان « حياة القديس لويس » ، وكان مؤلف هذه الحولية مثل فيلهار دين مواطنا من شامبين والابن الثاني لسيمون أمير جوانفيل ، وهو رجل نبيل ذو منزلة رفيعة كوكيل أمير الاقليم ، ولد في حصن امارة والده فوق مدينة جوانفيل الصغيرة على المارن ولم يكن الأول في أسرته الذي يذهب في حملة صليبية ،فقد كان جده جيوفردي ضمن الجيش الذي حاصر عكا في ١١٨٩ ومات هناك قبل أن يستولي الصليبيون على المدينة . وانضم اثنان من أعمامه جيوفروي وروبرت إلى الحملة الصليبية الرابعة وصحب روبرت وهو الذي التقى به فيلهاردين وهو في طريقه عائدا من البندقية غوتييردي بريين الى أبوليا ، ويقال إنه مات هناك ، وذهب جيوفري إلى سورية وقتل في ١٢٠٣ في معركة قلعة القرن . ويثني شعر من تأليف غي دي بروفنس على شجاعته الرائعة . وحافظ الصبي الذي استمع إلى قصص مآثر اقربائه في

حياته التالية على تمجيد ذكراهم . وفي عودته من حملته في بلاد ما وراء البحار أحضر درع عمه جيوفري ليعلقه في كنيسة سانت لوران في جوانفيل ووضع لوحة هناك نقش عليها بكلماته اطراء للأعمال الجيدة للرجال من أسرته في الوطن وفي الحروب الصليبية .

وسيمون والد مؤلفنا الذي خلف أخاه جيوفري أميرا على جوانفيل قد شارك في الحملة الصليبية ضد الألبان وحارب فيما بعد مع جيش جين دي بريين في مصر ، وكان هناك عندما سقطت دمياط ويذكر ابنه قصص أبيه حول ذلك الحصار الصعب ويقارنه بالاستيلاء السهل على دمياط من قبل الملك لويس ، وبين ذكريات أخرى حول طفولته في ليلة معينة في ١٢٣٠ عندما ترك سيمون الحصن وأسرع لاغاثة ترويس ، وكان الصبي في أوائل العقد الثاني عندما توفي أبوه وكان ابن سيمون الأكبر قد توفي من قبل ، وهكذا أصبح جين أميرا على جوانفيل وأدارت أرملة سيمون التي يبدو أنها كانت امرأة ذات شخصية قوية الأملاك خلال فترة حداثة ولدها ، وأعدته للوقت الذي سيصبح فيه كبيرا بدرجة تكفي لمزاولة واجبات أمير شامبين وهو منصب كان يشغله أمراء جوانفيل لأجيال عديدة . وفي هذا التاريخ بالذات لم تكن مثل هذه الواجبات مرهقة ، ولم يعد يدعى لادارة العدل ضمن الاقليم أو للتحكم في الترتيبات الداخلية في قصر أميره ، وكانت وظيفة نائب الأمير الرئيسة هي أن يقف على خدمة أميره في مناسبات الاحتفالات الخاصة ، بالاضافة إلى أن يعرف كيف تدار مثل هذه الشؤون مع انتباه متوجب للأمور ذات الأولوية ، وللطرق الصحيحة للسلوك ، والطراز المناسب للباس .

وكان الفتى وهو بعد أصغر من أن يصبح فارسا يقوم بقطع اللحم للكونت دي شامبين في الوليمة في القاعة الكبرى في سومور في ١٢٤٧ ، وكان على معرفة جيدة سالفة بواجبات منصبه ، وفي السنوات التالية سيظهر تاثير تدريبه المبكر كنائب للأمير في تسجيله لكثير من الأمور الغريبة التي رآها وسمع بها خلال مدة اقامته في الشرق .

وعلى مايبدو انه كان في سومور أن حصل جوانفيل على النظرة الأولى الى الرجل الذي كان له أن يحدث مثل هذا الأثر في حياته ، ولكنه حتى الآن الى حد مانعتقد لم يكن قد أصبح في تماس شخصي وثيق مع الملك لويس حتى أصبحا معا في الحملة الصليبية ، وعندما قرر الانضمام الى الحملة الصليبية ، في ١٢٤٨ كان هناك شك صغير في أن رغبته في اتباع المثل الذي وضعه الأمراء السالفون لجوانفيل كان العامل المحدد في خياره . وفي هذا الوقت كان مايزال يعتبر نفسه تابعا للكونت دي شامبين . ورفضه الخروج على العادة الاقطاعية بأداء قسم الولاء للحاكم الذي على رأس أميره دلالة واضحة على علاقته مع الملك لويس قبل أن يلتقيا في قبرص . وكان ارتباطه الوثيق بالملك مقدرا له أن يأتي وأن يوحي بكتابة تاريخه .

وتختلف حياة سانت لويس كثيرا في خصائلها وتركيبها ومحتواها عن رواية فيلها ردين المرتبة المتسمة بالحكمة عن الحملة الصليبية الرابعة ، وبصرف النظر عن القسم الذي يتعامل مع الأحداث الأولى في حكم الملك فإن تفاصيل قليلة مثل الأوامر الموجهة لحكومة مملكته وكلماته الأخيرة لابنه ، وحفنة من الحكايات قد استعارها جوانفيل جميعا من الحوليات الأقد م وهي بالأحرى مجموعة من الذكريات والخبرات الشخصية الماضية أكثر منها تاريخا بالمعنى الصحيح للكلمة . وترتيب جوانفيل لعمله علاوة على ذلك في القسم الأول مليء بصور لورع الملك ولادارته العادلة ، ويتبعها تغطية ثانية مفصلة تقريبا ، لقصة حكم الملك لويس ولاجازته الأخيرة كقديس وهي قصة لامفر من أن تؤدي الى تكرار كثير .

وبعض الخلاف بين هاتين الحوليتين يمكن بلا شك أن يعزى الى حقيقة أن الأقدم منهما هي من عمل رجل في ربيع الحياة والأخيرة من عمل رجل يزيد كثيرا عن الثمانين . وباعتراف الجميع كان جوانفيل كثيرا مايكون ثرثارا كما هم المسنون ويميل كالعجائز الى تكرار نفسه ومع ذلك كما ينظر المحارب المحنك الى الوراء عبر نصف قرن وأكثر الى الأيام حيث حارب وعانى الى جانب ملكه المحبوب

فإن جدة وحيوية سجله للخبرات الماضـية يجعلنا ننسى عمـره ، انه مايزال في الواقع ذلك الفارس الفتى العنيف المتلهف الذي خـرج منذ زمان طويل في رحلة الى ماوراء البحار ، ومايميز عمله بشكل خاص في الواقع عن عمل فيلهاردين هو في الحقيقة خلاف في المزاج ووجهـة النظر بين هذين المؤلفين أكثر منه هو فارق بين سنواتهما .

وخلافا للمؤرخ الاقـدم ، الذي كان عمله مصـمما لبيان الاهمية السياسية للاحداث ، وقد بذل إهتماما فقط للاعمال التي شغلت واجهة المسرح واهتمام جوانفيل الأكثر في تأثير الأحداث على الناس الذين كانوا يشاركون فيهـا يمـلأ خلفية تـركها فيلهـاردين غامضة ، وهكذا في تصوير معركة ، بدلا من أن يعـطى كمـا فعـل فيلهاردين نظرة عامة عن تقدمها ، يأخذنا جوانفيل الى قلب الصراع ليبين في سلسلة من الحوادث الصغيرة التي تـؤثر على الأفـراد أو جمـاعات الناس ردود الفعـل المختلفـة للناس الذين قـاتلوا في تلك الحملة الشرقية المريرة ، واذا حدث في احدى المناسبات أن تحـدث عن مؤتمر فانه لايقنع بتسجيل القرار النهائي ، بـل يوسـع مـاقد يورده فلهاردين في جملة موجزة الى رواية تفيض بالحيوية للتبادل في الرأي بين الناس ذوي العلاقة ، وفي الحقيقة نجـده يلح في سـائر مواد حوليته على الجـانب الانسـاني في قصـته ولكونه المراقـب الفضولي من الجنس البشري في أي شكل أو صورة وجد جـوانفيل بجد متسعا في عمله لمثل تلك الأشياء كالعادات الغريبة وملابس العدو وعلوم الدين لدى الانسان القديم الجبلي ، وتدريب حرس السلطان أو عادات الدفـن البـدائية للكومـان ، ولم يقتصر اهتمـامه على الكائنات البشرية اذا لفت اي شيء انتباهه عرضيا اهتم به وتحـدث عنه وليكن ذلك سمكة مستحاثة أو منابع النيل الاسطورية أو قـوس ونشاب عتيق الطراز ، فقد كان هذا الرجل وهو نصـف صـليبي ، نصف رحالة باحث .

وللمنهج الوقتي الذي يتبعه في كل حوليته مساوئه ولكن هذا يمكن

أن يعوض بالصورة المليئة بالحيوية التي يعطيها لزمانه ولطرق الحياة في الشرق .

ومن الحوليات التي تختلف في طرق كثيرة جدا فان من المعقول ان يتوقع المرء أن تظهر صورة مختلفة نوعا ما لكل مؤلف . وهذه هي الحالة الى الحد الذي يقدم فيه فيلهاردين الشخصية المثالية لفارس في سلاحه الكامل في حين يكشف جوانفيل عن الرجل الطبيعي في داخله . ان الطريقة الصريحة والبسيطة التي يتكلم بها عن حزنه عند رحيله عن قصره وأطفاله وعن الشكوك والمخاوف التي ساورته في مجرى القتال وتراجعه عن الموت بأيدي المسلمين ، يضع في دائرة الضوء انفعالات شائعة ولكن لايعترف بها الناس بأمانة ، الناس ذوي المشاعر من الذين عانوا من محنة الحرب الصعبة ، وفي روايته المتواضعة عن دورة في مختلف العمليات في الشرق واطراء الشجاعة التي أبداها رفاقه برهان على أنه كان بالطبيعة شجاعا وكريما بقدر ماكان حساسا ومخلصا ، واذا أخذنا في الاعتبار أيضا ولاء جوانفيل الذي لم يفتر للملك الذي كان يخدمه ، وقوة الشخصية التي اظهرها في أكثر من مناسبة ، والعناية المفرطة التي تندر في رجل من طبقته نحو الصليبيين الأكثر تواضعا الذين بقوا في الأسر ، واحساسه بالمسؤولية من أجل رخاء الناس في ممتلكاته الخاصة فيه برهان أن هذا المؤرخ العجوز المختلف جدا عن فيلهاردين في طريقته في معالجة مادته ، كان رجلا متماسكا بكمال ومع أنه انساني أكثر حرارة لم يكن فارسا أقل شهامة .

وتحوي حياة القديس لويس عند النظر اليها ككل ، الكثير مما ليس له ارتباط ، أو كان قليل الارتباط بالموضوع الذي قدمه جوانفيل في تكريسه المبدأي ، ومع ذلك ومع كل تلوينه حقق العمل اهدافه في اعطاء الشرف الكامل لذكرى ذلك الملك الصالح ، وفي الحقيقة ان شدة تلهف هذا الصديق والحواري للقديس لويس على اضفاء التقدير الموائم على أميره المتوفى ، والذي يصبه في حوليته صورة بعد صورة عن فضائله الكثيرة ـ كان نصفها ـ أكثر من

كاف ، وهذه الزيادة في الحماس أكثر ظهورا في الاجزاء من العمل التي يتعامل مع حياة الملك في الوطن والتي يظهر فيها ورعه الدائم وعبادته الله في السر والعلن ، واحسانه وسخاء يده وحبه لشعبه ، المجال الواسع الذي يمنحه للعدل في مفهومه لواجبات الحاكم ، وقد سجل لها بتطويل أكثر من اللازم ، وفي القسم الذي يتعامل مع الأحداث في بلاد ماوراء البحار تظهر شخصية الملك بشكل اكثر درامية من الاحداث التي تصور ، بين اشياء أخرى ، شجاعته المقدامة في المعركة ، وتحمله الصابر للمرض وثباته في وجه الهزيمة ، ومحاكمات الاسر القاسية وهو هنا في الحقيقة كما يصوره جوانفيل قائد يضع مثاله الشجاعة في القلوب الواهنة ويلهم حبه لرجاله ويبعث فيهم اخلاصا مشابها ، وهو ايضا ملك لايستند على هيبته بل هو رجل يمكن التحدث معه لابل حتى المزاح كصديق •

هكذا كان الملك الذي أحبه جوانفيل وبجله ولكن ليس بشكل أعمى ، ولكونه دائما الخادم الوفي لسيده احتفظ بحقه في الحكم على اعمال سيده وهكذا في حين وافق بشكل عام على سمات شخصية ملكه المستقلة كما بدت مثلا في رفضه أن يدع ضميره لحكم الاكليروس ، لم يكن جوانفيل متأكد تماما من أنها كانت حكمة من اميره أن يتجاهل النصيحة من الذين الحوا عليه في أن يتبع « العادات الطيبة للأراضي المقدسة » في توزيع الغنائم في دمياطه ومع امتلائه بالاعجاب بورع ملكه كما كان ، مع ذلك اعتبر أنه غير لائق به البقاء متعبدا في كنيسته عندما كانت الطيبة والكياسة تتطلب منه أن يذهب للقاء زوجته عند وصولها الى صيدا بعد وقت قصير من وضعها مولودا ، وبالمناسبة فإنه لم يتردد حتما في التحدث بصراحة مع ملكه كما على سبيل المثال عندما وافق على البقاء فترة أطول في خدمته شريطة ان يتحكم الملك من جانبه في مزاجه في تلك الفترة نفسها،وهكذا أيضا عندما أهدى راعي دير كلوني الملك مهرين جميلين ثم جاءه في اليوم التالي ليعرض أمامه قضيته ويسأل جوانفيل اميره عما اذا كان حكمه قد تأثر بتلك الهدية ، وعندما سمع انه قد تأثر اغتنم جوانفيل فرصته بأن نصح الملك بأن يمنع كل

من له علاقة بادارة العدل في مملكته من قبول هدايا من أشخاص ممن يمثلون أمامهم للتقاضي لئلا يتأثروا بالطريقة نفسها .

وفي حين تساعدنا هذه الأمثلة على أن نرى في بطل جوانفيل كائنا بشريا أكثر منه قديسا مهيبا انها ليست موجهة ولايجب ان تفسر هكذا ـ للقدح في ذكرى أمير مبجل وصديق ، وتقف قصة جوانفيل حياة القديس لويس كوفاء وتقدير جدير بملك ، ومايجب ان يحمل الفارس نفسه عليه ، وكيف يحكم رجل في السلطة الشعب الموكل اليه ، ولم يكن كل حبه واحترامه لهذا الملك اقل من حزنه على فقد مثل هذا الصديق العزيز الذي يجد تعبيرا ساميا في حلم جوانفيل بالقديس لويس والذي يأتي كخاتمة مناسبة لهذا الكتاب .

ويأخذنا كتابا فيلهاردين وجوانفيل وفق ماقاله السير فرانك مارزيالس الى الوراء مسرورين الى وسط أمور قديمة منسية قد مضى زمانها ومع ذلك فلن أمضي بعيدا جدا الى حد التمسك مع ذلك المترجم الأقدم بأن الاهتمام بالنسبة لنا اليوم يكمن كليا تقريبا في اشارته الحية للماضي،ولا أنا اتفق معه في الاعتقاد بأن النص « يتبع الاسلوب الفرنسي بشكل اقرب مايمكن باستعمال اسلوب ادارة الكلام ومجموعة المفردات القديمة أو التي توحي بالقدم » بل هو محسوب بالشكل الأفضل ليعطي القارىء الحديث انطباعا كاملا وحقيقيا عن كتابيهما .

وبالنسبة لفكري انه بصرف النظر عن أهميتهما التاريخية الحقيقية جدا ، لهاتين الحوليتين القديمتين قيمة دائمة كوثائق بشرية ، نجد فيها كم هو قليل التغيير الذي ألم على مر العصور بروح الانسان وطرازه السلوكي في أزمنة الطوارىء ، وصحيح أن لهما سمات معينة تميزهما عن المؤلفات التي تكتب اليوم ، ولكن كم هو في الواقع مقدار هذه الفروق ؟ إنها قليلة بدرجة كافية في أعمال فيلهاردين ، حيث أن طريقته الصريحة الواضحة في الرواية عن الحملات القديمة والطرز العتيقة للحرب وثيقة القرابة مع الطريقة

المتبعة من قبل قائد جيش يكتب مذكراته عن الحرب العالمية الثانية ، حتى أن حاجزا رقيقا فقط يبدو أنه يفصل بين فرسان ذلك القرن البعيد وبين رجال العلمين ، ولم تعد نظرة الاستغراب من حين لآخر لدى جوانفيل في اطلالته على العالم من حوله ، وقبوله الساذج للأفكار شائعة في عصرنا الأكثر تعقيدا والأكثر علمية في تفكيره ، وهي باقرار الجميع اصداء لماضي بعيد ، وبالنسبة لبقية حوليته مع ذلك ان مثل تلك الاضواء الجانبية الهامة كما تسلطها على المواقف الفكرية في القرن الثالث عشر تقع في مكان بشكل تفصيلات الخلفية ، وفي الواجهة لدينا قصة مثل قصة فيلهاردين تضع امامنا الفكرة النموذجية لخدمة الفروسية التي عليها تأسست مفاهيمنا عن الانسان المتحضر ، وايضا في روايته المثيرة عن جيش سيق الى الهزيمة والأسر ؛ إنها تصور مخاطر الحرب بألوان حية واضحة لم يستطيع مرور الزمان أن يفقدها بريقها ·

والكثير بالنسبة لمحتوى هاتين الحوليتين أي صورة هي الأفضل لنقل معناها الى القارىء الحديث ؟

في رأيي إن الرواية التي تحاول تقليد اسلوبها العتيق الذي فيه بين اشياء اخرى مجموعة الالفاظ محدودة جدا حتى ان الكلمات نفسها تعاد بتواتر رتيب والعبارات كثيرا ماتكون غير محكمة البناء وتربط ببعضها بما لايحصى من — و — بعيدة جدا عن ان تعطي انطباعا عن قيمتها الثابته ، ويمكن فقط ان تؤكد بافراط الفروق العرضية بين عصرهم وعصرنا ، وبالتالي ، وبتشجيع من المثل الذي قدمه المترجم الخبير السيد تويل كوغيل في روايته المعصرنة من قصص كونتربري صنفت على النمط نفسه ترجمتي بلغة اليوم محتفظا فقط ببعض الاصطلاحات العتيقة حيث لايوجد مكافىء لها في الانكليزية الراهنة ، ومنوعا مجموعة الالفاظ باستعمال حر للمترادفات ، وعندما تدعو الحاجة معطيا للعبارة تحولا اكثر حداثة ، وحاولت مع تغيير طفيف في الصياغة الاصلية بقدر

الامكان ، ومع انتباه دقيق لحفظ النبرة الصحيحة والمعنى ، تقديم هاتين الحوليتين القديمتين بالاسلوب الدارج في الحياة اليومية .

وأقول دارجة لأن كلا من هذين العملين قد أملي (١) وبالتالي يحمل سمة لغة التكلم وكان المؤلفان كلاهما رجلان من ذوي النشأة المهذبة ، ولكن كلاهما يختلف في نغمته تبعا للمزاج والحالة لكل متكلم ، وهكذا نجد في عمل فيلهاردين الطراز الوقور الموزون ، وأحيانا الطراز الرسمي للكلام الذي يناسب رجل له شخصيته الصارمة في المنصب الرفيع ، في حين جوانفيل المتحرر من هذه الاهتمامات الأمر الذي لم يكن غالبا هو الحال بالنسبة لمارشال رومانيا ، يعطي تعبيرا عن طبيعته الأكثر اعتدالا في اسلوب سهل اكثر الفة مشابها للحديث الودي بين رجال حول مائدة عشاء ، أو قرب المدفأة والى أي مدى نجحت في المهمة الدقيقة في التوفيق بين الصور والخلافات في هذه الترجمة ، ان هذا يجب ان يترك للقارىء للحكم عليه .

وفي الختام أحب أن أقول كم أنا مدين للدكتور ي . ف . ريو محقق كلاسيكيات بنغوين الفصيحة الحكيمة ، حول المبادىء العامة والمساعدة الطيبة التي قدمها لي في صعوبات خاصة قامت في مسار عملي

م . س . ى . س

الفصل الاول

الاحتشاد للحملة الصليبية الرابعة

١١٩٩ ـ ١٢٠١

في سنة ١١٩٨ لتجسيد ربنا ، عندما كان انوسنت بابا في روما ، وكان فيليب ملكا لفرنسا ورتشارد ملكا على انكلترا كان يعيش في فرنسا رجل ذو شخصية قديسة يدعى فولك وكان في المراتب المقدسة وكاهنا في ابرشية نويلي وهي مدينة صغيرة تقع بين باريس ولاغني على المارن ، وبدأ فولك هذا نفسه في الوعظ بكلمة الرب في كل انحاء الجزيرة الفرنسية وفي الاقاليم الاخرى المحيطة واخرج الرب معجزات عديدة من اجله •

ان الروايات عن مواعظ ذلك الرجل الطيب كانت متداولة على نطاق واسع ، حتى ان اخبارها وصلت الى البابا انوسنت الذي ارسل بناء عليه رسالة الى فرنسا يامر فيها الكاهن الفاضل ان يدعو الى حملة صليبية باسمه ، وبعد ذلك بقليل ارسل البابا واحدا من كرادلته ، هو المونسنيور بيترو داكابوا الذي كان قد حمل شارة الصليب من قبل ليعلن نيابة عن قداسته تعهدا صنع على الشكل التالي : كل الذين يحملون الصليب ويبقون في خدمة الرب في الجيش سنة واحدة سوف ينالون الغفران عن اي خطيئة ارتكبوها ، طالما انهم اعترفوا بها ، وقد تاثرت قلوب الناس بدرجة عظيمة بالتعابير الكريمة لهذا الغفران ، واندفع عدد كبير منهم بناء على ذلك للانضمام للحملة ، وفي بداية حلول السنة التي اعقبت تلك السنة التي بلغ فيها فولك الفاضل رسالة الرب نظمت مباراة للفرسان قرب قلعة اكرى في مقاطعة شامبين.وفي تلك المناسبة حدث بفضل الرب ان ثيبوت كونت شامبين وبري انضم إلى الحملة الصليبية بصحبة

الكونت لويس دي بلوا،وكان الكونت ثيبوت شابا في الثانية والعشرين من عمره ، في حين كان الكونت لويس في السابعة والعشرين تماما ، وكان الكونتان كلاهما احفاد وابناء ملك فرنسا واحفاد ملك انكلترا ايضا ، وقد اتبع مثلهما سيمون دي مونتفرات .

ورينو دي مونت ميرال وهما نبيلان من ارقى طبقة ، وكان الناس من كل انحاء البلاد متأثرين جدا عندما انضم للحملة رجال لهم مثل هذه المنزلة .

وكان الذين من مقاطعات الكونت ثيبوت واتبعوه هم : غارنير اسقف ترويس والكونت غوتيير ديبريين وجيوفري دي جوانفيل ونائب امير شامبين واخوه روبرت وغوتير دي فينوري وغوتييه دي مونتبليا رد ويوستاش دي كونفلاس واخوه غي دي بليزيير وهنري دي ارز بليير واوغيير دي سانت شيرون وجيوفري دي فيلهاردين ووليم دي نللي ، وغوتير دي فولغني وايفرارد دي مونتغي ، ومانسيير دي ليل وما كائيردي سانت مينهولد ، وملبون لوبر بانت وغي دي شاب وابن اخيه كليرمبود ، ورينودي دامبير وجين فواستون وكثير من الشجعان الاخرين واصحاب الجدارة الذين لم تسجل اسماؤهم هنا .

وكان الذين انضموا للحملة مع الكونت لويس جير فيه دي شاتيل وابنه هيرفيه وجين دي فيرسين واوليفين دي روشفورت ، وهنري دي مونتري ، وبسائين دي اورليانز ، وبير دي براسيو ، واخوه هوغز ووليم دي سانز ، وجين دي فرييز ، وغوتيير دي غوبنفيل وهوغ دي كورميري ، واخوه جيوفري ، وهيرفيه دي بوفوار وروبرت دي فروفيل واخوه بيير ، واورى دي ليل ، وروبت دي كارتيير وكثيرون اخرون لم يذكروا هنا بالاسم .

وانضم للحملة في جزيرة فرنسا نيفلون اسقف سواسون بصحبة

مـــاثيودي مـــونتمورنسي وابـــن اخيه غي ، وشـــاتلان دي كوسي ، وروبرت دي رونسوا ، وفيري دي بيير ، واخوه جين ، وغوتيير دي ســانت دينيس ، واخــوه هنري ووليم دي اونوا ودريه دي كريســو نساك ، وبرناردي موريل ، وانفراند دي بوف ، واخوه روبـــرت ، وعدد من الناس الطيبين والشجعان الذين لم ترد اسماؤهم هنا .

وفي يوم اربعاء الرماد لحظة بداية الصـــوم الكبير التـــالي في مـــدينة بروغ انضم الكونت بولدوين دي فـــلاندر ، ودي هينوت الى الحملة مع زوجته الكونتسه ماري وهي اخت الكونت دي شامبين ، واتبع مثالهم اخو الكونت بلدوين هنري وابـــن اخيه تييري وابـــن الكونت فيليب دي فلاندرز ، وكذلك ايضـــا وليم ومحـــامي بيثـــوم واخـــوه كونون ، وجين دي نسليس ، وحاكم بروغ ورنيير دي تريت ، وابنه رينيه ومـــا تيودي والنكورث ، وجـــاك دي فيســـنس ، وبلدوين دي بوفوار ، وهوغ دي بوميتز وجيرارد دي ما نسيكورت وبوردي هـــام ووليم دي كومنفيس ، ودريزدي بيوتران وروجيرده مارك ويوستاش دوسوبرويك وفرانسوا دي كوليمـــي وغوتييردي بـــوسي وارنيير دي موذس وغويتير دي تومب وبرناردي سوبربخيان ، وعدد كبير جـــدا من الوجهاء ممن لم يذكروا هنا بالاسم .

وبعد ذلك بقليل انضم للحملة الكونت هوغ دي سانت بول ومعه ابـــن اخيه بيير دي اميانس ، ويوســـــتاش دي كانتلو ، ونيكولاس دي مـــاميلي ، وانســـو دي كايو ، وغي دي هـــودان وغوتيير دي نيل واخوه بيير وعدد من الرجال الاخرين ممن لااعرف اسماءهم .

وبعد ذلك ايضا انضم للحملة الكونت جيوفري دي بـــرش مـــع اخيه اتين ، وروترودي مونتفرات وايف دي لاجايل وايمـــري دي فيلروا وجيو فري دي بومونت واخرون عديدون لااعرفهم بالاسم .

وبعد ذلك عقد البارونات مؤتمراً في سواسون ليقرروا متـــى يشرعون بالحملة وفي اي اتجاه يسيرون ، وفي ذلك الوقـــت مـــع ذلك لم يكونوا

قادرين على الوصول الى قرار لانه لم يكن بـدا لهـم انه حتـى تلك الحين قد انضم عدد كاف من الناس الى الحملة ، وقبل شهرين من انقضاء تلك السنة نفسها اجتمعـوا مـرة اخـرى في مـؤتمر في شامبين ، وكان كل الكونتات والبـارونات الذين انضـموا للحملة حاضرين في هذا الاجتماع الذي عرضت خـلاله عدة وجهـات نظـر مختلفة ودرست ، وفي النهاية تم الاتفاق على انهم سيرسلون افضل مايمكنهم ايجاده من المبعوثين ليقوموا بـكل التـرتيبات لهـم مـع تفويض تام باقرار مـايجب فعله ، تمـاما كمـا لو كان امـراؤهم موجودين باشخاصهم ، وكان من المبعوثين المختارين اثنان عينهما ثيبوت كونت دي شامبين ودي بري ، واثنان عينهما الكونت بلدوين دي فـلاندرز ودي هينوت واثنان عينهمـا الكونت لويس دي بلوا ، وكان مبعـوثا الكونت بلدوين همـاكونون دي بيتـون والاردمـاكير ومبعوثا الكونت لويس هما : جين دي فرييز وغوتير دي غود نفيل .

ووضع البـارونات ادارة الامـر كله كلية في ايدي هؤلاء المبعـوثين الست ، وتاكيدا لذلك اعطوهم صكوكا مرتبة كما ينبغي مع اضافة الاختام ، ولضمان التزام كل البارونات بدقة بأيما اتفاق قد يدخل فيه مبعوثوهم في اي من الموانىء البحرية او الامـاكن الاخـرى قـد يحدث ان يذهبوا اليه .

وهكذا انطلق المبعوثون الست في مهمتهم ، وبعد مناقشة الامر بين انفسهم وافقوا بالاجماع على انهم سيجدون عددا اكبر من السفن في البندقية مما في اي ميناء اخر ، وعليه امتطوا خيولهم وركبوا يومـا بعد يوم حتى بلغوا غايتهم في الاسبوع الاول من الصوم الكبير .

الفصل الثاني

معاهدة مع البنادقة

نيسان ١٢٠١

كان دوج البندقية رجلا قديرا بالغ الحكمة يدعى انتكيو داندولو وقد منح المبعوثين الفرنسيين شرفا عظيما ورحب هو والناس في مقره بهم ترحيبا قلبيا ، ومع ذلك عندما سلمت الرسائل التي كانت معهم في حينه كان فضول أهل البندقية شديدا لمعرفة ما هو العمل الذي جاء بهؤلاء المبعوثين إلى بلادهم اذ ان الوثائق التي قدموها كانت مجرد كتب اعتماد تذكر فقط ان حامليها يجب أن يعتبروا كما لو كانوا الكونتات باشخاصهم ، وأن هؤلاء سيقبلون بأي اتفاقات يرى مبعوثوهم الست أنها يصح اتخاذها ، وطبقا لذلك قال الدوج للمبعوثين : أيها السادة لقد قرأت رسائلكم ونحن نعترف تماما بأن امراءكم هم أعلى طبقات الرجال باستثناء الملوك فقط ، وهم يطلبون منا أن نثق بكل ما تقولونه وأن نعتقد بأنهم سيؤكدون أي ترتيبات تتخذونها معنا . لذا يرجى أن تتحدثوا بحرية وتعلمونا بما تريدون .

أجاب المبعوثون : سيدي اننا بتواضع كبير نرجوك أن تدعو مجلسكم حتى نضع رسالة أمرائنا أمامه ولتكن الدعوة غدا اذا ناسبكم ذلك ، وأجاب الدوج بأنه يحتاج إلى اربعة أيام ليفعل ذلك ورجاهم أن ينتظروا تلك الفترة الطويلة حتى يتسنى لمجلسه الاجتماع ، وعندها يمكنهم أن يقولوا ما يشاؤون .

وانتظر المبعوثون حتى اليوم الرابع كما حدد الدوج ، ثم عادوا إلى القصر الذي كان بناء فائق الجمال وفاخر الأثاث ، وهناك

وجدوا الدوج ومجلسه مجتمعون في قاعة ، وقدموا رسائلهم لهـذه الغاية وقالوا : سادتنا لقد جئنا اليكم نيابـة عن بـارونات فـرنسا العظام ، الذين حملوا شارة الصليب للثـأر للاعتـداء الذي عاناه ربنا واذا أراد الرب لنسترد القدس ، وطالما أن أمـراءنا يعـرفون أنه ليس هناك شعب يمكن أن يساعدهم بشكل جيد جدا مثل شعبكم فانهم يتوسلون إليكم باسم الرب أن تشفقوا على الأرض التـي فيما وراء البحار للعدوان الذي عاناه ربنا وان تتكرموا ببذل مـا في وسعكم لتزويدنا باسطول من السفن الحربية ، ووسائط النقل ، وسأل الدوج:«وكيف يمكن أن يتم ذلك »؟ فأجاب المبعوثون« بـأي طريقة يمكنم النصح بها أو اقتراحها طالما أن أمـراءنا يمـكنهم أن يقبلوا شروطكم ويتحملوا التكاليف » ، وقال الدوج : « حقا ان أمراءكم يطلبـون منا الكثير ، ويبـدو لي أن امـامهم مشروع كبير للغاية » وأننا سنعطيكم جوابنا خلال أسبوع ، ولا تندهشوا مـن مثل هذا التأخير الطويل حيث أن مثل هـذا الأمـر الهـام يتـطلب دراستنا الكاملة » .

وفي نهاية الزمن المحدد من قبل الدوج عاد المبعوثون مرة أخرى إلى القصر .

ولا أستطيع ان أخبركم هنا بالكثير من الأشياء التـي قيلت في تلك المناسبة ، ولكن الحصيلة النهائية للاجتماع كانت كما يلي : قـال الدوج : « أيها السادة سـنخبركم بمـا اتفقنا على فعله طـالما اننا بالطبع نستطيع أن نحث مجلسنا الكبير وعامة هـذه الدولة على أن يعطوا موافقتهم ، وفي هذه الاثناء ، انكم مـن جـانبكم يجـب أن تتشاوروا معا لتـروا اذا كان بـامكانكم قبـول شروطنا وتحمـل التكاليف .

• اننا سنبني وسائط لنقل ٥٠٠ ر٤ حصانا ، و ٩٠٠٠ من حاملي الدروع وسفنا أخرى لايواء ٥٠٠ ر٤ فـارسا و ٠٠٠ ر٢٠ مـن السرجندية المشاة ، وسنضمن عقدنا تمـوينا لتسـعة شـهور مـن

المقننات الغذائية لكل هؤلاء الرجال والعلف لكل الخيول ، هـذا مـا سنفعله لكم ، وليس أقل ، شريطة أن تدفعوا لنا خمس مـاركات عن كل حصان وماركين عن كل رجل .

وعلاوة على ذلك سوف نلتـزم بشروط الميثـاق الذي نضـعه الآن امامكم على مدى سنة واحدة مـن اليوم الذي نبحـر فيه مـن ميناء البندقية لنعمل في خـدمة الرب والنصرانية أينمـا كان ، والتـكاليف الاجمالية لكل ما أجملناه تبلغ ٠٠٠ ٨٥ مارك .

وسنفعل اكثر من هذا سوف نعد محبة للرب وفي سبيله خمسـين من الشواني المسلحة شريطة أن يكون لنا طيلة دوام تحالفنا النصف ولكم النصف الآخر من كل ما نكسبه سواء في البحـر أو في البـر ، والآن يبقى لكم أن تفكروا اذا ما كنتم من جانبكم تستطيعون القبول والوفاء بشروطنا » .

واستأذن المبعوثون قائلين أنهم سيتشاورن معا وسيعطون جوابهم في اليوم التالي ، ودرسوا الأمر مـطولا تلك الليلة ، واتفقـوا في النهاية على قبول شروط أهل البندقية ، وهكذا مثلوا في الصباح بين يدي الدوج ، وقالوا : سيدي اننا مستعدون لعقد هـذه الاتفـاقية وبناء على ذلك أخبرهم الدوج بأنه سيستشير شعبه ، وطبقا لقراره سيدعهم يعرفون كيف انتهت الأمور :

وفي اليوم التالي أي بعد ثلاثة أيام من ايجاز الدوج لاقتـراحاته ، استدعى رجل الدولة الحكيم والقـدير مجلسـه الاسـتشاري الكبير الذي كان يتألف من أربعين رجلا من بين الأحـكم والأقـدر في دولة البندقية ، وبممارسة حسه الطيب وذكائه الحاذق وهـي مـؤهلات كان يمتلك أعلى درجة منها جعلهم يوافقون ويتفقـون على الميثـاق المقترح وفعل هذا تدريجيا ، حيث حث بعضهم أولا ثم المزيد ثم أكثر من ذلك حتى عبر كل أعضـاء مجلسـه في النهـاية عن مـوافقتهم ورضاهم ، وبعد ذلك جمع مـا ينوف على عشرة آلاف مـن عامـة

الشعب في كنيسة سان ماركو وهي أجمل كنيسة في العالم ــ حيث دعاهم للاستماع إلى قداس للروح القدس ، وأن يصلوا للرب من اجل الهداية فيما يتعلق بالطلب الذي تقدم به المبعوثون اليهم ، وفعل كل الناس هذا عن طيب خاطر .

وحالما انتهى القداس استدعى الدوج المبعوثين ، وطلب منهم أن يطلبوا من الناس بكل تواضع موافقتهم على ابرام الاتفاقية ، ودخل المبعوثون الكنيسة فاجتنبوا الحملقة الفضولية لكثير من الناس الذين لم يروهم من قبل ، وبالرغبة والموافقة من رفاقه شرح جيوفري فيلهاردين مهمتهم فقال : أيها السادة ان أنبل وأقوى البارونات في فرنسا قد أرسلونا اليكم ، وهم يناشدونكم بلهفة أن تشفقوا على القدس وهي الآن تحت نير عبودية الترك ، ويلتمسون منكم باسم الرب أن تكونوا من الطيبة بحيث تنضمون اليهم في الثأر للاهانة التي وجهت إلى ربنا .

ولقد اختاروا أن يلجأوا اليكم لانهم يعرفون أنه مامن شعب آخر لديه مثل هذه القوة التي لديكم على البحر ، ولقد امرونا على أي حال أن نركع عند اقدامكم وأن لاننهض حتى توافقوا على أن تشفقوا على الأرض المقدسة فيما وراء البحار ، وعليه ركع المبعوثون الست وهم في فيض من الدموع عنداقدام الناس المحتشدين وانفجر الدوج وكل اهل البندقية الحاضرين أيضا في البكاء وهم يرفعون أيديهم نحو السماء وصرحوا في الموافقة في صوت واحد : نوافق نوافق . وكان هناك مثل الزئير وجلبة يمكن معها أن نظن ان العالم كله قد تقوض إلى قطع ، وما أن سكنت الجلبة العظيمة وموجة الاشفاق وكان هذا أعظم مما أمكن لأي انسان أن يشهده ــ اخيرا صعد دوج البندقية الرجل الحكيم الفاضل حسبما كان ، صعد درجات المنبر وتحدث إلى الناس وقال : أيها السادة انظروا الشرف الذي اضفاه الله عليكم بأن الهم أروع أمة في العالم ان يدعوا كل الناس الأخرين وأن يختاروا للانضمام إليهم في ذلك العمل الرفيع وهو تحرير ربنا .

واستطيع ان اقول لكم هنا كل الكلمات الطيبة والنبيلة التي تفوه بها الدوج في تلك المناسبة ، وكان زبدتها أن أهل البندقية قد وافقوا على ان شروط ومواد الميثاق يجب أن تبرم في اليوم التالي ، وقد تم هذا طبقا لذلك ، وأعدت الوثائق في خطوطها الأولى ، وبعد اختتام هذا العمل ، بقيت حقيقة أن الحملة كانت ذاهبة إلى القاهرة ، لأن هناك يمكن سحق الأتراك بسهولة أكثر من اي جزء آخر من أراضيهم ، سرا محفوظا بدقة ، وبالنسبة للشعب العريض اكتفى بمجرد الاعلان ، اننا ذاهبون إلى ما وراء البحار ، وكنا الآن في الصوم الكبير ، وبحلول يوم القديس يوحنا في السنة التالية — أي في عام ١٢٠٢ — كان على البارونات وبقية الصليبيين أن يجتمعوا في البندقية ، حيث ستكون السفن جاهزة تنتظر استقبالهم عند وصولهم .

وحالما ابرمت الصكوك ووقعت وختمت احضرت إلى الدوج في قصره العظيم ، حيث اجتمع المجلس الكبير والخاص كليهما ، وما ان سلم هذه الوثائق للمبعوثين ركع الدوج على ركبتيه ، وبينما كانت الدموع على وجهه أقسم بالانجيل المقدس أن ينفذوا كل الشروط المدرجة فيها ، وهكذا فعل كل أعضاء المجلس ، وعددهم ست وأربعون ، وأقسم المبعوثون بدورهم بأن يفوا بميثاقهم وأن يحافظوا بكل اخلاص على الايمان الذي أقسموها عن انفسهم ونيابة عن أمرائهم،وأهرق الكثير من دموع الاشفاق في هذا اللقاء الذي بعده فورا أرسل كل من الطرفين المعنيين رسلا إلى البابا أنوسنت في روما حتى يصادق على الميثاق ، وقد فعل ذلك عن طيب خاطر ورغبة كبيرة جدا .

واقترض المبعوثون ٥٠٠٠ مارك فضي من اهل المدينة وسلموها للدوج حتى يمكن البدء ببناء الاسطول ، وبعد ذلك استأذنوا في العودة الى الوطن ، ثم ركبوا عدة ايام حتى بلغوا بياشنزا في لومبارديا ، وهنا ترك جيوفري مارشال شامبين والارد ماكرو

الاخرين وذهبا رأسا الى فرنسا ، في حين اخذ رفاقهم طريقهم نحو جنوا وبيزا ليقفوا على نوع المساعدة التي يمكن ان يقــدمها الناس هناك لهم من اجل الارض فيما وراء البحار .

الفصل الثالث

الجيش يبحث عن قائد

(ايار ـ ايلول ١٢٠1)

عندما كان غودفري دي فيلهاردين يعبر فوق جبل سينيس ، حدث ان التقى بغوتيير دي بريين ، الذي كان في طريقه الى ابوليا ، لاسترداد بعض الاراضي العائدة لزوجته . ابنة الملك تانكرد التي تزوج منها بعدما حمل الصليب ، وكان معه عددا من الصليبيين ، من بينهم غوتيير دي مونتبليارد ، يوستاش دي كونفلانس ، وروبرت دي جوانفيل ، واعدادا أخرى كبيرة من الرجال ذوي المكانة العالية في شامبين

ولدى سماعهم من المارشال اخبار ماقام به الرسل ، اعترى السرور المسافرين ، وعبروا عن كثير من الامتنان بشأن سير الامور ، وقالوا: نحن الآن ماضون في سبيلنا ، وعندما ستأتون الى البندقية ستجدوننا جاهزين تماما ، ومهما يكن الحال ، فقد سارت الأمور وفق مشيئة الرب ، وفي النهاية وجدوا من غير الممكن الالتحاق ، بالجيش ، وهذا محزن جدا ، لأنهم جميعا كانوا رجالا جيدين وشجعان.

وهكذا افترقوا ، وذهب كل منهم في سبيله ، فقد سافر فيلهاردين لعدة ايام حتى وصل الى ترويس في شامبين ، حيث وجد مولاه الكونت مريضا وفي حالة متردية ، ومع ذلك فقد سر الكونت سرورا عظيما بسبب وصوله ، وحالما اخبره غودفري بما انجزه ، غلبه السرور الى حد انه قال بأنه مستعد للسفر وسيقوم بذلك ، الامر

الذي لم يقم به منذ زمن طويل ،وواأسفاه كم هو محزن انه باستثناء هذه المناسبة الوحيدة لم يتمكن من امتطاء صهوة حصانه ثانية.

وازداد وضعه سوءا ، واشتد مرضه حتى انه قام بصنع وصيته النهائية مع الاعتراف ، ومن ثم قسم المال الذي كان سيأخذه معه الى الحج بين اتباعه واصحابه ، وكان له بالواقع العديد من الاصدقاء الصدوقين بينهم ، الى حد انه ما من واحد من معاصريه امتلك مثلما امتلكه ، وامر بوصيته ان كل منتفع عليه اثر استلامه لحصته من المال ، ان يقسم على الانجيل المقدس ، بأنه سيلتحق بالجيش في البندقية ، مثلما وعد هو نفسه ان يفعل ، وعلى كل حال هناك عدد كبير اخفق مؤخرا بالوفاء بوعده ، وتحمل لوما كثيرا لهذا الحنث ، وامر الكونت ايضا بوضع شطر من ماله جانبا لارساله الى الجيش ، حيث يصرف وفق الوجه الذي يرى هو الافضل.

وهكذا مات الكونت ثيبوت ، وقليل هم الرجال في هذا العالم الذي صنعوا نهاية افضل ، ولقد فارق هذه الحياة وحوله حشد كبير من اقربائه ومواليه ، وفيما يتعلق بالنحيب بسبب موته واثناء دفنه ، انني لاأجرؤ على المغامرة بوصف ذلك ، لأنه ما من انسان بجل مثلما تم تبجيله ، وقدفن الى جانب والده في كنيسة القديس ايتين في ترويس ، وخلف من بعده زوجته الأميرة بلانشي ، التي كانت سيدة جميلة وجيدة ، وهي كانت بالوقت نفسه ابنة ملك نافار ، وقد ولدت له ابنة صغيرة وكانت على وشك ان تحمل له ابنا.

وبعد وفاة الكونت اقبل ماثيو دي مونتمورنسي ، وسيمون دي مونتفورت ، وغودفري دي جوانفيل مقدم شامبين ، وغودفري المارشال ، على الدوق يودس دي بورغوندن وقالوا له: يمكنك يا مولانا باسم الرب ، ان تحمل الصليب وتقدم لمساعدة تلك الأرض في مكانه ، وسندفع اليك جميع امواله وسنقسم لك على الانجيل المقدس ، ونجعل الآخرين يفعلون الشيء نفسه ، في اننا سنخدمك باخلاص ، مثلما توجب علينا ان نخدمه.

وعلى كل حال لم يكن الدوق راغبا في قبـول عرضـهم(وفي رأيي لعله اراد اظهار المزيد من الحكمة) ، وبناء عليه صـدرت التعليمـات الى غودفري دي جوانفيل في ان يقدم عرضا ممـاثلا الى الكونت دي بارلي دوك ، الذي كان ابن عم الكونت ثيبوت المتوفى ، ورفض هـذا ايضا.

وسببت وفاة الكونت ثيبوت انخفاضا في معنويات الحجاج والذين اقسموا على القتال في خدمة الرب ، والتقوا في بداية الشهر في مؤتمر في سواسون لاتخاذ قرار حول ماينبغي عليهم القيام به ، وكان مـن بين الحضور الكونت بلدوين دي فلاندرز وهيذوت ، والكونت لويس بليوس ودي كارترين والكونت غودفري دوبيرش ، والكونت هوغس دي سينت بول ، وعدد كبير آخر مـن الرجـال ذوي المكانة الرفيعـة والاحترام.

وتولى غودفري دي فيلهاردين شرح الموقف ، واخبرهم بالعرض الذي قدم الى كل من دوق دي بـورغونون والدوق دي بـارلي دوك ، وكيف قام كل واحد منهما بدوره برفضه ، ثم قـال:« ايهـا السـادة اصغوا الي وسوف اقترح سبيلا للعمل ، اذا ماوافقتم على الاخـذ به ، إن المركيز بونيفيس دي مونتفرات رجل فهيم وقادر ، وهو مـن اعظم الرجال الأحياء مكانة ، واذا مـا طلبتـم منه القـدوم الى هنا وحمل الصليب ، ووضع نفسه في محل كونت دي شامبين المتوفى مـع منحه من قبلكم اشرافا تاما على الجيش ، انا متأكد من انه سـيقبل عرضكم فورا.

وكان هناك انقسام كبير في المواقف تجاه هذا الاقتراح ، إنمـا في النهاية وافقوا على الاخذ به ، وذلك بعد نقـاش طـويل شـارك فيه الناس من اعلى المراتب الى ادناها ، وتمت كتابة الرسالة الضرورية وجرى اختيار السفراء للذهاب وجلب المركيز ، ولقد وصـل في اليوم

الحدد عبر طريق شامبين وجـزيرة فـرنسا ، وقـدم له الكثير مـن الناس ، وخاصة ملك فرنسا ، ابن عمه ، الترحيب الكبير.

وتوجه المركيز للمشاركة في مؤتمر عقد في سوا سون ، حضره عدد كبير من الكونتات والبارونات والصليبيين ، وما ان سمع الحضـور بقدومه حتى خرجوا لاستقباله ، ورحبوا به تـرحيبا كبيرا ، وعقـد المؤتمـر في اليوم التـالي في حـديقة عائدة الى دير نوتـردام دي سوا سون ، وتـوسل كل واحـد في هـذا الاجتمـاع الى المركيز للاستجابة لطلبهم ، ورجوه ، من اجـل الرب ان يحمـل الصليب ويتولى قيادة الجيش ، حتى يمكنه احتلال مـكان كونت ثيبـوت دي شامبين المتوفى ، وان يتولى أيضا الاشراف على امـواله ورجـاله ، وسقطوا على قدميه والدموع تنهمر من اعينهم ، وركع هـو بـدوره امامهم وقال انه سيفعل ماطلبوه منه بكل سرور.

وهكذا استجاب المركيز لتوسلاتهم ، وتولى قيادة الجيش ، واثر ذلك مباشرة قام اسقف سوا سون يرافقه واحد من الاتقياء مع اثنين من الرهبان من اقطاعيته بمرافقة المركيز الى كنيسة نوتـردام ، حيث ربطوا الصليب على كتفه وبهـذا انتهـى المؤتمـر ، وفي اليوم التالي استأذن البارونات قبل عودتـه الى اقـطاعيته ليتـولى حـل مشاكله ، ونصح كل منهم بالقيام بتنظيم امـوره وتـرتيب نفسـه ، وقال انه سيلتقي بهم في البندقية.

ومضى المركيز من سوا سون لحضور قداس يعقد في سيتوكس كل عام في يوم الصليب المقدس في شهر ايلول ، ووجـد هناك عددا كبيرا من رعاة الديرة والبارونات واناس اخـرين مـن بـورغندي ، وكان هناك ايضا فولكس اوف نويلي للتبشير بالحروب الصليبية ، وحمل في تلك المناسبة العديد من الحضور الصـليب بمـا فيهـم يودس دي شامبين دي شامبليت مع اخيه غليوم ، وردتشـارد دي دامبـري مـع اخيه يودس ، وغي دي بسمس مـع اخيه ايمـون وغي كونفـلانس

- ٤٤٠٧ -

وعدد من البيرغنديين الاخرين ، من ذوي المكانة العالية ، الذين لم تذكر أسماءهم هنا ، وجاء آثرهم اسقف اوتون ، وكونت غوفنز دوفورز والهوغان صاحبا بيرغي ، الاب والابن ، وهوغزدي كولوني ، وجاء بالوقت ذفسه من الجنوب من بروفانس بيير دي برومونت مع آخرين كثر لم اعرف اسماءهم ، فهم ايضا حملوا الصليب.

وهكذا بات الناس في جميع ارجاء البلاد يتجهزون للمضي الى الحج ، واأسفاه من سوء الحظ الذي توجب أن يعانوا منه في السنة التالية ، قبل موعد الانطلاق ، فقد وقع الكونت غودفري دوبيرش مريضا وحمل الى فراشه ، تاركا تعليماته في وصية اوجبت على اخيه ايتين القيام باخذ امواله ومن ثم تولي قيادة رجاله في الجيش (ولا شك ان الحجاج كانوا اعظم سرورا بعدم وقوع هذا التغيير ، لو ان الرب لم يقض به) وهكذا وصل الكونت الى نهايته ، وكان هذا في الحقيقة خسارة عظيمة ، ولانه كان نبيلا ، وله منزلة رفيعة ، ونظر اليه بتقدير كبير بحكم كونه فارسا شجاعا وجيدا ، فقد بكاه الناس في جميع بلاده بحزن وحرقة.

الفصل الرابع

تأخيرات وخيبة الامل

حزيران – ايلول ١٢٠٢

وبعد عيد الفصح ونحو اسبوع العنصرة ، بدأ الصليبيون يتركون اقاليمهم المختلفة ، وسالت دموع كثير كما يمكنك ان تتخيل اسفا على الرحيل عن اراضيهم ، وشعبهم واصدقائهم ، وفي رحلتهم نحو الجنوب ركبوا عبر بيرغندي ، فوق الالب ومونت سنيس ثم تابعوا عبر لومبارديا ، وبدأوا يتجمعون في البندقية حيث اخذوا مراكزهم فوق جزيرة سان نيكولودي ليدو

وفي نحو ذلك الوقت ابحر اسطول من السفن التي كانت تحمل فرقة كبيرة من الرجال المسلحين من فلاندرز لتدور بمحاذاة الساحل وحوله ، وكان الرجال المسؤولين عن هذا الاسطول هم جين دي نسلس ، حاكم بروج وثيري ابن الكونت فيليب دي فلاندرز ونيكولاس دي مايلي . وقد وعدوا جميعا الكونت بلدوين ، والزموا انفسهم بالقسم على الانجيل المقدس بان يبحروا عبر مضايق المغرب، وان ينضموا الى الكونت والجيش الذي كان يتجمع في حينه في البندقية في اي مكان قد يسمعون انه ذهب اليه ، وعلى هذا الاساس عهد اليهم الكونت بلدوين واخوه هنري ببعض سفنهم المحملة بالثياب ، والطعام ومواد التموين الاخرى .

وكان هذا الاسطول جيد جدا وحسن التجهيز ، وكان الكونت دي فلاندرز وزملاؤه الصليبيون يعتمدون عليه بدرجة عظيمة ، لانه كان يحمل معظم افضل رجالهم من السرجندية . ولكن الرجال المسؤولين وكل الناس الذين معهم حنثوا بالوعد الذي قطعوه لانهم مثل عدد

كبير اخرين من نوعهم ، كانوا خائفين من مواجهة الاخطار العظيمة للمغامرة التي تعهد بها الجيش في البندقية .

وحدث كثيرا انه بمثل هذه الطريقة قد اخفق اسقف اوتون في الحفاظ على عهده والبقاء معنا ، ومثله فعل الكونت جونييس دي فورز ، وبيير برومونت وعدد كبير اخر ، وقد وجه لوم شديد لهؤلاء على عملهم ، ولم ينجزوا سوى القليل في المكان الذي ذهبوا اليه وكان من بين هؤلاء من الجزيرة الفرنسية ممن خذلنا : برنارد دي موريل ، وهوغ دي شامونت ، وهنري دي ارينز ، وجين دي فيلرز ، وغوتيير دي سانت دنس واخوه هوغ ، ومعهم عدد كبير آخر تجنبوا جميعا القدوم الى البندقية بسبب المخاطرة العظيمة التي ينطوي عليها ذلك،وأبحروا بدلا من ذلك من ميناء مرسيليا . وكانوا موضع ازدراء كبير ولوم عظيم بسبب هذا ونتيجة لسلوكهم السيء لقيهم كثير من الحظ السيء فيما بعد .

وسأترك الكلام الآن عن هؤلاء الرجال لاخبركم بشيء حول الحجاج ، الذين كان قسم عظيم منهم قد سلف ووصل الى البندقية ، وكان الكونت بلدوين دي فلانديرز هناك ، وعدد كبير آخر ، وعندما وصلتهم الاخبار بان عددا كبيرا من رفاقهم كانوا يسافرون على طرق مختلفة الى موانيء اخرى ، وقد اقلق هذا البارونات بشكل خطير ، لانه كان يعني انهم لن يستطيعون الوفاء بوعودهم لاهل البندقية ، ولن يدفعوا الاموال المترتبة .

وبعد الاجتماع معا قرروا ارسال مبعوثين يمكن الاعتماد عليهم لمقابلة الكونت لويس دي بلوا والصليبيين الاخرين الذين لم يصلوا بعد من اجل ان يرجوهم ان يستجمعوا شجاعتهم وان يتوسلوا اليهم ان يشفقوا على الأرض فيما وراء البحار وان يبينوا في الوقت نفسه انه ليس من طريق اخر سوى طريق البندقية يمكن أن يكون فيه اي نفع لهم .

وكان الرجال الذين اختيروا لهذه المهمة هم الكونت هوغ دي سانت بول ، وجيوفري دي فيلها ردين ، فركبوا نحو الشمال حتى وصلا الى بافيا ، في لومبارديا ، حيث وجد الكونت لويس مع مجموعة عظيمة من الفرسان الاكفاء والرجال الاخرين من ذوي المنزلةالطيبة ، وبفضل التشجيع والتوسل حثوا عددا جيدا من هؤلاء ـ ممن كانوا بغير ذلك سيتخذون طريقا مختلفا ويذهبون الى انحاء اخرى ـ ليركبوا الى البندقية .

ومع ذلك ، عند الوصول الى بياسنزا ، انحرف عدد كبير من الرجال الجيدين جانبا ليسافروا بمفردهم الى ابوليا ، وكان بينهم فيلين دي نويلي ، وهو واحد من اوائل الفرسان في العالم ، وهنري دي ارز يلبير ، ورينودي دامبيير ، وهنري دي لونغشامب ، وجيل دي تراسيئيير ، واخر هؤلاء كان قد اقسم يمين الولاء للكونت بلدوين الذي كان قد اعطاه من جيبه الخاص خمسمائة قطعة من النقود لكي يصحبه في هذه الرحلة ، ومع هؤلاء الرجال ذهبت جمهره كبيرة من الفرسان والمشاة لم تسجل اسماؤهم في هذا الكتاب .

وكان معنى هذا كله نقص خطير في عدد الذين كان يجب ان يحضروا للانضمام الى القوات في البندقية ، ونتيجة لذلك ، كان الجيش في مأزق بالغ التعاسة كما ستسمعون قريبا .

واخذ الكونت لويس والبارونات الاخرون معه طريقهم الى البندقية .وهناك استقبلوا ببهجة كبيرة وبالولائم بينما كانوا يتخذون مراكزهم على جزيرة سان نيكولو الى جانب الصليبيين الاخرين . لقد كان جيشا عظيما حقا ، مشكل من رجال مدربين شديدي البراعة ، ولم يسبق لاحد مطلقا ان رأى مثل هذه القوات المقاتلة ولاواحدة بهذه الهيبة ايضا ، ونصب اهل البندقية سوقا من اجلهم زود بوفرة بكل مايمكن ان يرغب فيه المرء من كل شيء يلزم لاستعمال الرجال والخيل ، وكان الاسطول الذي اعدوه ممتازا جدا ، وحسن

التجهيز بشكل لم يسلف في كل ارض النصرانية ان شـوهد مــطلقا واحدا يفوقه ، وكان يتألف من عدد عظيم جدا من السفن الحــربية والشواني ووسائط نقل كان يمكنها ان تؤدي بسهولة ثلاثة اضعاف الرجال الذين كانوا في كل الجيش . ولكن اه اي ضرر ممــا لايمــكن قياسه سببه الذين رحلوا الى موانيء اخــرى في حين كان يجــب ان يأتوا الى البندقية ! ولو انهم فعلوا ذلك لتعززت النصرانية وتضاءلت اراضي الترك ، وقد وفى اهل البندقية باخلاص بكل تعهداتهم ، فوق واعلى مما هو ضروري ، وحيث انهم كانوا الان مستعدين للبدء فقد دعوا الكونتات والبارونات ليفوا بتعهداتهم بدفع المال المترتب .

ودعي كل رجل في الجيش ليدفع تكاليف رحلته ، وقــال عدد كبير جدا بانهم غير قادرين على دفع كامل الحساب ، وهكذا اخذ منهــم البارونات ما امكنهم تحصيله . من مال ، وبناءعليه دفعه كل رجــل ماامكنه دفعه ، ومع ذلك بعد ان طلب البــارونات تــكاليف رحلة كل رجل واسهم كل واحــد بشيء لم يبلغ المال المجمــوع الا الي مــادون النصف بكثير من اجمالي المبلغ المطلوب .

واجتمع البارونات لمناقشة الحالة . وقال اهل البندقية بانهم قــد التزموا باخلاص بشروط اتفاقيتهم معنا ، وبسخاء ايضــا ، ولكن ليس هنا مايكفي منا ليتدبر الامر بدفع تكاليف عبــورنا ، والوفــاء بعقدنا معهم ، وهذا خطأ الذين ذهبوا الى موانيء اخــرى ، ومــن اجل الرب عليه لندع كل واحد منا يسهم ببعض من ماله الخــاص ، حتى نفي بالوعود الذي قطعناه .

وسيكون في الواقع افضل لنا ان يعطي كل واحد مــامعه مــن ان نتخلف عن الوفاء ونفقد كل ماسلف ان دفعناه فضلا عن اخفاقنا من الوفاء باتفاقاتنا لان حملتنا اذا لم تنفذ ، فان خطتنا لتحرير الارض فيما وراء البحار ستنتهي الى لاشيء .

وقد قوبل هذا الاقتراح برفض مفعم بالحيوية والحماس من قبــل

الاغلبية العظمى من البارونات والحضور الاخـرين وقـالوا :« لقـد دفعنا من اجـل رحلتنا ، واذا كان اهـل البندقية راغبين في اخـذنا فنحن على استعداد للذهـاب ، واذا لم يكن الامـر كذلك فسنتدبر الامر بانفسنا ونذهب بطريقة اخرى ما ».(لقد قالوا هذا كامر واقع ، لانهم كانوا يحبون أن ينحل الجيش ويصـبح كل رجـل حـرا في العودة إلى الوطن).

ومن جانب اخر اعلنت اقلية قائلة : حري بنا أكثر أن نعـطي كل مالدينا ونمضي مع الجيش كالناس الفقراء بدلا من ان نراه محـطما وان تكون عمليتنا مخفقة . لان الرب بلا شك سيجزينا ويعـوضنا في وقت طيب سيختاره .

وفور انتهاء هذا الاجتماع بدأ كونت دي فلاندرز يدفع كل مـاكان لديه او كان قادرا على اقتراضه . وفعل الكونت لويس الشيء نفسه ، وهكذا فعل المركيز دي مونتفرات ، وكذلك فعل ايضـا الكونت هـوغ دي سانت بول ، واولئك الذين كانوا في حزبه ، وكان مدهشا ان نرى الكثير من ادوات المائدة الذهبية الدقيقة الصنع من الذهب والفضـة تحمل الى قصر الدوج لتشكل القيمة المستحقة . ومع ذلك بعد ان ادى كل واحد حصته التي اسـهم بهـا كانت الكمية مـاتزال اقـل بـ ٣٤ر٠٠٠ مارك مـن القيمـة المطلوبـة . وكان الذين امسـكوا ممتلكاتهم في غاية الابتهاج ورفضوا ان يضيفوا شيئا مما يخصهم ، حيث كانوا الان على ثقة تامة بـان الجيش سـيتحطم وان القـوات ستتشتت ، ولكن الربَ الذي يعطى الناس الامل من اعمـاق اليأس لم يكن يريد لهذا ان يحدث .

وعند هذه النقطة تحدث الدوج الى شعبه قائلا « ايها السادة ان هؤلاء الرجال ليس بامكانهم ان يدفعـوا لنا اي شيء فـوق هـذا ، وحيث انهم عاجزون عن الوفـاء بـالاتفاق الذي عقـدوه معنا فـانه بامكاننا ان نحتفظ بما دفعوه لنا بالفعل . وان حقنا في ذلك مع هـذا

لن يعترف به في كل جزء من العالم ، واذا مارسناه فاننا ودولتنا سنكون موضع لوم كبير ، لذا دعونا نعرض عليهم بعض الشروط .

لقد اخذ منا ملك هنغاريا مدينتنا زارا في سكلافونيا وهي احدى اقوى الاماكن في العالم ولن نتمكن مطلقا من استردادها حتى بكل القوات التي تحت تصرفنا ، الا بمساعدة الفرنسيين ، لذا دعونا نطلب منهم مساعدتنا على اعادة احتلالها وسنسمح لهم بان يؤجلوا دفع الـ ٣٤٠٠٠ ، مارك فضي التي يدينون بها لنا حتى ذلك الحين الذي يسمح به الرب فيه لقواتنا المشتركة بان تربح هذا المال بالغزو » وبناء عليه طرح هذا الاقتراح على البارونات فاثار الذين كانوا يريدون للجيش ان يتحمل كثيرا من الاعتراضات ومع ذلك تم التوصل الى الاتفاق وتصديقه في النهاية .

وبعد ذلك بوقت قصير اجتمع حشد كبير من الناس في يوم احد في كنيسة سان ماركو ، وكان كل واحد في دولة البندقية حاضرا ، وهكذا كان معظم البارونات والصليبيين الاخرين ، وقبل البدء بالصلاة الكبرى ارتقى انريكو داندولو دوج البندقية درجات المنبر ووجه خطابا الى جموع المصلين وقال : «ايها السادة انكم تلتقون بافضل واشجع الناس في العالم في أروع مهمة تولاها اي انسان ، وانا الان رجل مسن ، وضعيف وفي حاجة الى الراحة وصحتي تضعف ، واني أدرك مع ذلك ان احدا لايستطيع ادارتكم وتوجيهكم افضل من نفسي ، انا اميركم ، فاذا وافقتم على انضمامي للحملة الصليبية حتى اتمكن من حمايتكم وتوجيهكم وسمحتم لابني ان يبقى هنا في مكاني لحراسة هذه الدولة فاني ساذهب لاحيا او اموت معكم ومع الحجاج» .

وعند سماع كلمات الدوج صرخ كل اهل البندقية بموافقة واحدة « اننا نرجوك باسم الرب ان تاخذ شارة الصليب وان تذهب معنا » وعند هذه اللحظة كانت قلوب كل الحاضرين من الفرنسيين واهل البندقية على السواء متاثرة بعمق ، وانهمرت دموع كثيرة تعاطفا مع

هذا الرجل الطيب الفاضل الذي كان لديه مثل تلك الاسباب الكثيرة للتخلف والقعود ، ومع كبر سنه جداً ومع ان عينيه كانتا تبدوان لامعتين وصافيتين فانه مع ذلك كان اعمى تماما ، وكان قد فقد بصره بسبب جرح في الراس ، وكان رجلا شهما كبير القلب ، اه كم كانوا صغارا امامه اولئك الذين ذهبوا الى موانىء اخرى للفرار من الخطر !

ونزل الدوج عن المنبر ، واتجه الى المذبح وركع امامه وهو يبكي بمرارة وخاطوا الصليب على مقدمة قبعته الكبيرة القطنية لانه اراد ان يراه الجميع وبدا الان اعداد من اهل البندقية يفدون في جموع كبيرة للانضمام للحملة .

وحتى ذلك التاريخ كان القليل منهم قد فعل ذلك ، واما بالنسبة لرجال حملتنا فقد شاهدوا انضمام الدوج الى الحملة بحبور وعاطفة عميقة ، وقد تاثروا بدرجة عظيمة بالحكمة والشجاعة اللتان ظهرتا من هذا الرجل المسن .

وباسرع ما يمكن بعد ذلك بدا اهل البندقية يسلمون السفن الحربية والشواني ووسائط النقل للبارونات حتى يمكنهم ان يبدأوا اخذ طريقهم ، ولكن الان كان وقت كبير قد انقضى بالفعل ، وكان قد مضى شطر كبير من ايلول .

وهنا دعوني اخبركم عن واحدة من اروع الاحداث التي سمعتم بها مطلقا ، ففي القسطنطينية قبيل الوقت الذي كنت اتحدث عنه ، كان هناك امبراطور يدعى اسحق ، وكان له اخ يدعى اليكسيوس من ، كان قد افتداه من الاسر لدى الاتراك ، وفيما بعد القى اليكسيوس هذا القبض على اخيه والقاه في السجن وسمل عينيه ، وبمثل هذه الخيانة جعل من نفسه امبراطورا في مكان اسحق ، وقد ابقى اخاه زمانا طويلا في الحجز الشديد مع ابنه الذي كان ايضا يدعى اليكسيوس ، وفر الامير الشاب من السجن وهرب في سفينة

الى مدينة على الساحل تـدعى انكونا ومـن هناك انطلق الى المانيا لزيارة الملك فيليب ، الذي كان اخو زوجته ، وفي رحلته عبر ايطـاليا توقف في فيرونا ، حيث مكث لبعض الوقت والتقى بعدد من الحجـاج والناس الاخرين الذين كانوا في طريقهم للانضمام للجيش .

وكان اولئك الذين ساعدوه على الهرب مايزالون معه وقـد قـالوا له :

« سيدي : ان هناك جيشا على مقربة منا جـدا في البندقية وهـو مشكل من اناس من ارفع طبقة ومن اشجع الفـرسان في العـالم ، وهم على وشك السفر الى بلاد ما وراء البحار ، فلماذا لا نناشدهم ان يشفقوا عليك وعلى ابيك ، الذي طرد ظلما ؟ انه من الممكن جـدا ان يتأثروا بحالتك » فاجاب الامير الشاب انه سيفعل بسرور كمـا قالوا ، طالما ان نصيحتهم جيدة .

وهكذا عين مبعوثين وارسلهم الى كل من الماركيز دي مونتفرات الذي كان يتولى قيادة الجيش ، والى البارونات الاخرين ، وبعد ان قابل الامراء الفرنسيون هؤلاء المبعوثين ملئوا دهشة مـن قصـتهم وقالوا لهم : «اننا نفهم الحالة تماما ، وطالما ان الامير اليكسـيوس في طريقه لرؤية الملك فيليب فسنرسل بمبعوثينا معـه ، فـاذا وافـق اميركم الشاب على مساعدتنا على استرداد القدس ، فاننا بـدورنا سنساعده على استعادة امبراطوريته ، التي كما نعرف قد اخذت منه ومن والده ظلما » وهكذا جرى ارسال مبعوثين الى المانيا ولكل مـن امير القسطنطينة ، والملك فيليب .

وقبل الاحداث التي رويتهما لتوى بقليل كان البارونات وكل بقية الجيش كانوا قد حزنوا من اخبار وفـاة فـولك الطيب الورع ، الذي كان اول من دعا للحملة وبشر بها ، ولكن بعد ان ارسل اليكسـيوس مبعوثيه الى البندقية بوقت قصير انتعشت ارواحهم بوصول رفـاق من المانيا بينهم رجال عديدون من الطبقة والمنزلة الراقية مـن مثـل

- ٤٤١٦ -

اسقف هلبيرستاوت وغراف برتولد فون كاتز يلنبوعن وغارينير فون بور لاند ، وديتريش فون لوس ،وهنريش فـونألمن ، وروجيرفـون سوستيرن ، والكسندر فون فيلرز ،واوري فون دون .

الفصل الخامس

حصار زارا

تشرين اول ـ تشرين الثاني ١٢٠٢

والان جاء الوقت كي يعين البارونات السفن الحربية ووسائط النقل لقادتهم المختلفين ، ياالهي ، أي خيول قتريبة جميلة وقوية كانت هناك تحت ظهر السفن ، وما ان حملت السفن تماما بالاسلحة والمؤن وصعد الفرسان والمشاة الى ظهر السفن ، حتى علقت الدروع على جوانب السفن وحول المعاقل ، في المقدمة والخلف ، في حين ان الاعلام الكثيرة الجميلة قد ارتفعت عاليا .

ويمكن ان اؤكد لكم ان السفن الحربية قد حملت اكثر من ٣٠٠ من المنجنيقات والعرادات اضافة الى مؤونة وافرة من جميع انواع هذه الاجهزة الالية اللازمة للاستيلاء على مدينة ، ولم يكن هناك اسطولا اروع من هذا الاسطول من السفن قد ابحر مطلقا من اي ميناء ، ووقع وقت رحيلهم من البندقية ضمن اليوم الثامن بعد عيد سانت ريميغوس في السنة الميلادية ١٢٠٢ لتجسيد الرب .

ووصل جيشنا الى زارا في سكلافونيا عشية عيد سانت مارتن ، وراى المدينة محاطة باسوار عالية وابراج مرتفعة . وانك لتبحث عبثا عن مكان اكثر جمالا ، او مكان محمي بقوة اكثر من ذلك ، او اكثر رخاء ، وما ان وقعت انظار الحجاج عليها حتى ملأتهم الدهشة وقالوا لبعضهم : كيف يمكن لمثل هذه المدينة ان تؤخذ بالقوة ، الا بمساعدة الرب نفسه ؟

وكانت اول سفينة وصلت الى زارا قد القت مرساتها وانتظرت

الاخريات وفي صباح اليوم التالي بزغ الفجر ساطعا وصافيا ، ووصلت الشواني ووسائط النقل مع السفن الاخرى التي كانت متخلفة ، واقتحم كامل الاسطول الذي كان يتقدم معا السلسلة الغليظة جيدة الصنع التي تقع امام الميناء ، وتم اقتحام الميناء والاستيلاء عليه بالقوة ، ثم نزل الجيش الى البر بطريقة استهدفت ابقاء الميناء بينه وبين المدينة ، وما اعقب ذلك كان منظرا بالغ الروعة ، حيث اندفع الفرسان والسرجندية كالاسراب من السفن الحربية ، واخرج العديد من الخيول الحربية القوية من وسائط النقل ، وكانت خيام جميلة وسرادقات لاحصر لها قد انزلت واصبحت جاهزة لتنصب ، وهكذا عسكرت قواتنا امام زارا ، التي بداوا يحاصرونها في يوم القديس مارتن .

(١١ تشرين الثاني)

وحتى الان مع ذلك لم يكن كل البارونات قد وصلوا ، فكان المركيز مونتفرات مثلا غائبا ، حيث تخلف ليشرف على بعض اعماله ، وترك اتين دي بيرش وماتيو دي مونتمو رنسي مريضين في البندقية ، وحالما عوفيا عاد الاخير للانضمام الى قوات زارا ، ولم يكن سلوك دي بيرش جيدا لانه فر من الجيش وذهب ليمضي بعض الوقت في ابوليا ، ومعه ذهب روترو دي مونتفورت ، وايف دي لاجايل الى جانب اخرين عددهم كبير ، وقد وجه اليهم لوم كثير من اجل نلوصهم وابحر هؤلاء الرجال في الربيع التالي يريدون سورية .

وفي الصباح التالي ليوم سانت مارتن خرج عدد معين من اهالي زارا من المدينة وذهبوا للتحدث مع دوج البندقية في فسطاطة ، وقالوا له انهم مستعدون لان يضعوا المدينة وكل ممتلكاتهم تحت تصرفه طالما حفظت ارواحهم ، واجاب الدوج بانه لايستطيع ان يوافق على مثل هذه الشروط وفي الواقع ولاعلى غيرها ، دون مشاورة البارونات اولا ، وانه سيبحث الامر معهم على الفور .

وبينما كان في طريقه للاجتماع بالبارونات جاءت تلك المجموعة

من الرجال التي ذكرتها من قبـل ، والذين كانوا يريدون ان ينحـل الجيش وتكلموا مع موفدي زارا وسالوهم قائلين : « لماذا تـريدون تسليم مدينتكم ان الفرنسيين على اي حال لن يهـاجموكم ، ولاشيء تخشونه منهم ، واذا امكنكم فقط ان تدافعوا عن انفسكم ضد اهـل البندقية ، فانه لن يكون لديكم سبب للقلق » ٠

والتقط بعض صانعي المتاعب واحدامن حزبهم يدعى روبـرت دي بوفيس حيث صعد الى اسوار المدينة وكرر كلمـاتهم وبناء عليه عاد الموفدون الى زارا وتـركوا امـر وضـع الشروط معلقـا ، وفي تلك الاثناء قابل الدوج البارونات وتحدث معهم قائلا : سـادتي ان اهـل هذه المدينة على استعداد لوضعها تحت تصرفي شريطة الحفـاظ على ارواحهم ، ومع ذلك لن اصنع سلاما معهم على هذه الشروط او اي شروط اخرى دون موافقتكم ، واجـابه البـارونات : سـيدنا اننا ننصح ، لابل حتى نرجوك بقبول الشروط الي يعرضونها ، وقـال : الدوج انه سيفعل كما اشاروا ، وهـكذا عادوا معـا الى فسـطاط الدوج لانجاز الاتفاق ، لكن فقط ليجدوا ان الموفدين قد ذهبـوا بناء على نصيحة الذين ارادوا حل الجيش وعند هذه النقطة نهض راعي ديرفو من رتبة الرهبان البندكتيين ، نهض واقفا على قدميه وقال :

سادتي باسم البابا في روما أمنعكم من مهاجمة هـذه المدينة لأن الناس فيها مسيحيون وانت تلبسون شارة الصليب ، وتحول الدوج وهو منزعج جدا ومغيظ من هذا الاحتجاج الى الكونتات والبارونات وقال : سادتي لقد اعطيت سلطة لاصنع اي شروط احب مـع هـذه المدينة ، والان اخذها شعبكم مني ومـع ذلك انكم قـد اعطيتمـوني وعدكم بمسـاعدتي على الاسـتيلاء عليهـا ، وانا الان ادعوكم للمحافظة على كلمتكم ، وبناء عليه انسحب الكونتات والبـارونات مع الذين يؤيدونهم للاجتماع معا ، وقالوا : ان الرجال المسـؤولين عن تحطيم المفاوضات قد تصرفوا بشكل مشين ، انهـم لم يتـركوا يوما يمر دون ان يحاولواتحطيم جيشنا ، والان يمـكننا ان نعتبـر انفسنا مجللين بالعار ان لم نساعد في الاستيلاء على المدينة ، وبناء

عليه ذهبوا الى الدوج وقالوا : سيدنا اننا سنساعدك على اخذ زارا رغما عن اولئك الذين حاولوا منعنا من ذلك .

هكذا كان قرارهم ، وفي الصباح التالي عسكرت القوات امام ابواب المدينة ونصبوا عراداتهم ومنجنيقاتهم والات الحرب الاخرى التي كان لديهم منها تموين وافر ، وخلال ذلك من الجانب المواجه للبحر ورفعت السلالم المعدة لتسلق الاسوار من كل السفن التي في الميناء ، وبدأت المنجنيقات الان في قذف الاسوار والابراج في زارا ، واستمر هذا الهجوم نحو خمسة ايام ، ثم بدأ المهندسون العسكريون بالعمل في احد الابراج ، وبدأوا في لغم السور ، ومان رأى الناس داخل المدينة ماكان يجري حتى بادروا بعرض الاستسلام وفق الشروط ذاتها التي رفضوها من قبل وبناء على نصيحة اولئك الذين ارادوا حل الجيش

وهكذا اصبحت زارا بين يدي الدوج على شرط المحافظة على حياة كل الاهالي وبعد ذلك اتجه الدوج الى البارونات وقال : بفضل الرب وبمعونتكم اخذنا هذه المدينة ، وقد حل الشتاء بالفعل ولايمكننا ان نتحرك من هنا حتى عيد الفصح ، لانه لن تتوفر لنا الفرصة للحصول على المؤن في اي مكان اخر ، في حين ان هذه المدينة من جانب اخر غنية جدا ، ومموّنة جدا بكل مايمكن ان نحتاج اليه ، وبناء عليه اننا سننقسم الى قسمين ، وسنحتل نصفا من المدينة بينما تأخذون انتم النصف الاخر ، ومضى كل شيء حسب الخطة ، واحتل اهل البندقية نصف المدينة المواجه للميناء ، حيث كانت ترسو سفنهم ، واخذ الفرنسيون النصف الاخر ، ووزعت المنازل الجميلة في كل نصف من زارا حسب ماكان يبدو مناسبا ونصب الجيش خيامه واتخذ مراكز له بداخل المدينة . وبعد ثلاثة ايام ، وعندما اوى كل واحد كما ينبغي ، حدث بصورة غير مباشرة وقت صلاة العشاء ان واجهت قواتنا متاعب خطيرة حيث اشتبك بعض الفرنسيين واهل البندقية في مشادة بالايدي ضارية ومريرة ، وهرع الرجال من كل جزء من المدينة الى السلاح ، وتزايد الشجار

الى حد انه سرعان ماصبحت شوارع قليلة جدا لم يكن بها صـــدام شرس بالسيوف والرماح والسهام والحراب وقتل كثيرمن الناس او جرحوا . .

وعلى كل حال لم يصمد اهل البندقية للقتال ، وبدأوا يعانون من خسائر خطيرة ، وعندما بلغت الامور هذا المستوى جـاء الرجـال الرئيسيين في الجيش ، الذين لم يكونوا يريدون حـدوث اي ضرر ، جاءوا بكامل سلاحهم الى وسط الشجار ، وبـدأوا في الفصـل بين المتعاركين ، ولكنهم كانوا مان يوقفوا القتال في مكان حتى ينفجـر في مكان اخر .

واستمر الصراع هكذا شطرا كبيرا من الليل لكن مـع ذلك وبعـد جهود كثيرة وقدر كبير من المتاعب توقف اخيرا. ان مثل هذا النزاع يمكنني ان اقول كان اعظم سوء حظ حدث قـط لاي جيش ، وكان لجيشنا في الواقع منفذ ضيق جدا نجا بوساطته من الفناء الكامل ، لكن الرب لم يكن ليسمح بمثل هذه الكارثة ، وعاني كلا الجانبين من خسـائر ثقيلة ، وكان بين الذين قتلوا جيلزدي لانداس وهـو نبيل فلمنكي من الطبقة الرفيعة وكان قد ضرب في عينيه ومات من جـرحه في مجرى الشجار ، وكانت هناك خسائر اخرى كثيرة ، ولكن هذه اثارت انتباها قليلا ، وبذل الدوج والبارونات قصارى جهدهم خلال ماتبقى من الاسبوع لتهدئة المشاعر المريرة التي اثـارها القتـال وعملوا بشكل فعال حتى استعيد السـلام ، وكل الشـكر للرب على ذلك .

الفصل السادس

نزاع في الجيش

كانون اول ١٢٠٢ ـ كانون ثاني ١٢٠٣

وبعد اسبوعين وصل المركيز دي مونتفرات ، الذي لم يكن بعد قد عاد للانضمام للجيش الى زارا وصل بصحبة ماثيو دي مونتمورنسي وبيير دي براسيو وعدد كبير من الرجال الطيبين ، وبعد اسبوعين من ارسال المبعوثين من المانيا من قبل الملك فيليب ، وولي عهد القسطنطينية وصلوا بدورهم ، واجتمع البارونات في قصر كان دوج البندقية يسكنه في حينه وهنا سلم المبعوثون رسالتهم وقالوا : سادتنا لقد ارسلنا اليكم من قبل الملك فيليب واخي زوجته نجل امبراطور القسطنطينية ، ويقول جلالته في خطابه اليكم:

سادتي اني مرسل اليكم أخا زوجتي الذي اضعه بين يدي الرب فليحفظه من الموت كما اضعه بين ايديكم ، وحيث انكم على الطريق لخدمة الرب ومن اجل الحق والعدل من واجبكم الى الحد الذي تستطيعونه ان تعيدوا الملكية لمن جردوا منها ظلما ، وسيعرض الامير اليكسيوس عليكم افضل الشروط التي قدمت على الاطلاق لاي شعب ، وسيعطيكم اقوى دعم في فتح بلاد ماوراء البحار :

اولا اذا اراد الرب لكم ان تستردوا ميراثه له فانه سيضع كامل امبراطويته تحت سلطة روما التي أقصيت عنها زمانا طويلا

ثانيا ، طالما انه يعرف انكم قد انفقتم كل اموالكم ، وليس لديكم شيء منها الان انه سيعطيكم ٣٠٠٠٠ مارك فضي ، ومؤنا لكل رجل في جيشكم من القادة والرجال على السواء ، علاوة على أنه هو نفسه سيذهب في صحبتكم الى مصر ، مع عشرة الاف رجل ، او

اذا فضلتم ان يرسل العدد نفسه من الرجال معكم ، وعلاوة على ذلك فإنه طيلة حياته سيحتفظ على نفقته بخمسمائة من الفرسان للمرابطة في اراضي ماوراء البحار .

ثم استطرد المبعوثون قائلين : سادتنا ان لدينا السلطة العامة لابرام هذه الاتفاقية اذا كنتم من جانبكم تريدون قبول شروطها ، ويمكننا أن نبين ان مثل هذه الشروط المواتية لم تقدم من قبل لاحد ، والانسان الذي يمكنه رفض قبولها تكون رغبته قليلة في الاستيلاء على اي شيء بالمرة ، واجاب البارونات انهم سيبحثون في الامر ، ورتب لعقد مؤتمر في اليوم التالي ، وحين حضر الناس جميعا للاجتماع طرحت امامهم الشروط ، وكان هناك تشتت كبير في الرأي في الاجتماع ، وكان لدى راعي الدير البندكتي في فو شيء ليقوله بشكل مشترك مع الذين كانوا متلهفين على حل الجيش ، وأعلن الجميع بانهم لن يعطوا مطلقا موافقتهم ، طالما انها تعني الزحف ضد المسيحيين ، وانهم لم يتركوا أوطانهم ليفعلوا مثل هذا الشيء ، وبالنسبة لهم انهم يريدون الذهاب الى سورية.واجاب الطرف الاخر : ايها السادة الطيبون ، لايمكنكم ان تحققوا شيئا في سورية كما يمكنكم أن تروا بسهولة اذا فكرتم في مصير اولئك الذين تخلوا عنا ليبحروا من موانيء اخرى ، ويجب ان نصر انه فقط عن طريق مصر واليونان يمكننا ان نأمل في استعادةالارض فيما وراء البحار ، اذا حدث هذا قط بالمرة ، واذا رفضنا هذه الاتفاقية سيكون ذلك عارا ابديا لنا .

وهكذا حدث نزاع في الجيش ، ولايمكننا ان نعجب اذا كان عامة الناس في نزاع ، وعندما كان الرهبان البندكتيون الذين صحبوا القوات بشكل مساو في خلاف مع بعضهم بعضا ، ووعظ راعي دير لوس الذي كان مقدرا لطيبته وحكمته القوات كما فعل رعاة الاديرة الاخرون من حزبهم ، واخذوا كلهم يحضونهم بحماس باسم الرب أن يبقوا على اجتماع شمل الجيش مع قبول الاتفاقية المتقدمة لانها ـ هكذا الحوا ـ كانت تقدم افضل فرصة لاسترداد الارض

فيما وراء البحار . ومن جانب اخـر خـاطب راعي دير فـو مـع الاكليوس الذين كانوا يؤيدونه الجيش في مناسبات عديدة معلنين ان خطط الطرف الاخر لم تكن جيدة بالمرة وانه احرى بهم ان يتجهـوا الى سورية ، وان يفعلوا هناك ما بامكانهم ان يفعلوه .

وعند هذه النقطة تدخل المركيز دي مونتفرات والكونت بلدوين دي فـلاندرودي هينوت ، والكونت لويس دي بلوا ودي كارنان ، والكونت هوغ دي سانت بول ، الى جانب اخرين ممن وقفـوا في جانبهم تدخلوا في النزاع ليعلنوا من جانبهم أنهم قد عقـدوا العـزم على قبول الاتفاقية ، ذلك انهم يخجلون من رفضها وهـكذا ذهبـوا الى قصر الدوج ، وبعد استدعاء المبعوثين تـم تـأكيد الميثـاق على الشروط نفسها التي سلف ذكرها بعقود تم توقيعها بالشكل المناسب وختمها .

ويجب ان اخبركم هنا ان اثني عشر شخصا فقط في المجموع قـد اقسموا نيابة عن الفرنسيين ، ولم يكن بـالامكان حـث المزيد على اتباعهم ، وكان اول من اقسم هو المركيز دي مـونتفرات ، وبعـده الكونت بلدوين دي فـلاندرز والكونت لويس دي بلوا ، والكونت دي سانت بول ثم الثمانية الاخرون من حزبهم ، وهكذا جرى التصديق على الميثاق وابرمت العقـود ، وحـدد بعـد ذلك يوم لوصـول امير القسطنطينية ، وكان قد قرر لذلك بعد عيد الفصح بـاسبوعين مـن السنة التالية .

وامضى الجيش كامـل ذلك الشـتاء في زارا مسـتنفرا ضـد ملك هنغاريا ، ويمكنني ان اوكد لكم أن قلوب شعبنا لم تكن في سلام ، لان احد الطرفين كان يعمل باستمرار على حل الجيش ، والاخرعلى الابقاء على اجتماع شمله .

وخلال ذلك الوقت فر رجال كثيرون من المراتب الدنيا من الجيش،

وهربوا على سفن تجارية ، ورحل نحو خمسمائة منهم على سفينة واحدة .

ولكنهم جميعا ماتوا غرقا ، وهربت مجموعة اخرى عن طريق البر معتقدين انهم سيسافرون بامان عبر سكلافونيا ، ولكن اهالي تلك البلاد هاجموهم وقتلوا عددا كبيرا منهم ، واما الذين نجوا فغادروا مسرعين الى الجيش نفسه ، وهكذا كانت قواتنا تتضاءل من يوم الى يوم ، وفي الوقت نفسه احتال غارنيير فون بورلاند الذي جاء الينا من المانيا وشغل مرتبة عالية في جيشنا ليحصل على حق السفر على ظهر سفينة تجارية ، ومن ثم هرب وقد وجه إليه لوم شديد على هذا السلوك ، وبعد ذلك بوقت غير طويل توسل احد بارونات فرنسا الكبار ويدعى ريذو دي مونتميرال بالحاح شديد حتى امكنه برغم من الكونت لويس ان يرسل في مهمة الى سورية على احدى سفن الاسطول ، وكان هو وكل الفرسان الذين قد اقسموا على الانجيل المقدس على انهم سيعودن للانضمام الى الجيش بعد وصولهم الى سورية وتسليم رسالتهم ، وذلك بما لايتجاوز اسبوعين وعلى هذا الشرط سمح لريذو بالذهاب فأخذ معه ابن اخيه هرفيه دي شاتيل ووليم موثق العقود وجيوفري دي بومونت ، وجين دي فردفيل ، واخاه بيير وعدد كبير اخر ، لكنهم لم يحافظوا على قسمهم ايضا ، لانهم لم يعودوا مطلقا الى الجيش ، وبعد قليل سرت قواتنا كثيرا بسماع انباء بان الاسطول من فلاندرز والذي سلف وتكلمت عنه قد وصل الى مرسيليا ، وبعث جين دي نسلس حاكم بروغ الذي كان يتولى قيادة هذا الجيش مع ابن الكونت فيليب دي فلاندرز ابنه تيري ونيكولاس دي ميلين برسالة يخبرون بها اميرهم الكونت بلدوين دي فلاندرز انهم كانوا يشتون في ذلك الميناء ، وطلبوا منه ان يخبرهم بما لديه من اوامر لهم ، مؤكدين له في الوقت نفسه بانهم سيفعلون كل ما يأمرهم به أيا كان ، وبعد التشاور مع دوج البندقية والبارونات الفرنسيين طلبوا اليهم ان يبحروا عند اخر اذار وان يأتوا لمقابلتهم في ميناء مثيون في رومانيا ، وللاسف اساءوا التصرف جدا ، لانهم حنثوا بكلامهم وأبحروا بدلا من ذلك الى

سورية ، حيث لابد انهم لم يكونوا قادرين على فعل شيء يستحق الذكر ، ويمكنني ان اؤكد لكم ايها السادة بان الرب لو لم يكن يحب جيشنا ، لما تماسك عندما اراد به كل هؤلاء الناس السوء .

وخلال الشتاء اجتمع البارونات معا وقرروا ارسال نواب عنهم لرؤية البابا ، الذي كان مستاء لدرجة كبيرة بسبب استيلائهم على زارا ، وقد اختاروا المبعوثين فارسين ورجلين من ذوي المراتب المقدسة ممن عرفوا فيهم الصلاحية لمثل هذه المهنة ، وكان احد رجلي الاكليروس نيفلون اسقف سوا سون والثاني جين دي نويون مستشار الكونت بلدوين دي فلاندرز ، وكان الفارسان هما جين دي فرييز وروبرت دي بوف ، واقسم هؤلاء الرجال الاربعة على الانجيل المقدس بانهم سينفذون مهمتهم بوفاء واخلاص ، ثم يعودون للانضمام للجيش .

والتزم ثلاثة منهم بكل دقة بقسمهم ، وبرهن الرابع روبرت دي بوف على انه غير اهل الثقة ، وفي الواقع انه لم يكن لينفذ مهمته باسوأ مما فعل ، لانه حنث بقوله ومضى الى سورية ، كما فعل اخرون قبله ، وادى الثلاثة الباقون واجبهم بضمير ، وسلموا رسالتهم للبابا ، كما وجه البارونات ـ قائلين :« ياصاحب القداسة ان امراءنا يرجونكم ان تنظروا نظرة رحيمة لاستيلائهم على زارا ، وان تروا انهم قد تصرفوا كأناس لم يكن لديهم خيار أفضل ، سواء من خلال خطأ الذين ذهبوا الى موانيء اخرى أو لانه لم تكن لديهم طريقة اخرى للابقاء على وحدة الجيشين ، وهم بناء على ذلك يطلبون منكم باعتباركم اباهم الطيب ان تعلموهم مايسركم ان تأمروا به ، وسيطيعون بكل سرور » واخبر البابا المبعوثين بانه كان مدركا تماما بانهم قد اضطروا بالتصرف بهذه الطريقة بسبب خطأ شعبهم ، وانه قد شعر بعطف كبير عليهم ، وهكذا ارسل رسالة جوابية يحيي فيها البارونات والصليبيين الاخرين ويمنحهم بركاته ، ويبلغهم انه قد منحهم الغفران كأبناء له ، ورجاهم وأمرهم ان يحافظوا على وحدة الجيش وتماسكه اذ انه كان يعرف جيدا انه

بدون مثل هذه القوات لن تتحقق خدمة الرب ، وفي الوقت نفسه أعطى سلطة كاملة لاسقف سواسون وجين دي نويون لربط الحجاج وتسريحهم حتى يأتي الوقت الذي يصل فيه كارد ينااله ليزور الجيش.

وفي ذلك الحين كان قدر كبير من الوقت قد انقضى ، حتى انه قد حل الصوم الكبير بالفعل ، وكان الصليبيون قد بدؤوا بوضع اسطولهم في حالة تاهب للابحار في عيد الفصح ، وفي يوم الاثنين من عيد الفصح بعد ان حملت السفن عسكرت قواتنا بقرب الميناء ، في حين ازال اهل البندقية المدينة ، عن وجه الارض ، ومع كل الاسوار والابراج ، وعند هذه النقطة وقع حدث كان له شأن خطير للجيش هو أن سيمون دي مونتفورت احد البارونات العظام في قيادة الجيش كان قد ابرم اتفاقية سرية خاصة مع عدونا ملك هنغاريا ، فانتقل الان الى صفه ، وتخلى عنا وذهب معه اخوه غي دي مونتفورت وسيمون دي نوفل ، وروبرت موفوازان ، ودرو دي كرسناك ، وراعي الدير البندكتي في فو ، وعدد كبير اخر ، ولم يمض وقت طويل حتى تركنا نبيل آخر من المراتب العالية في الجيش يدعى انفراند دي بوف ، واخذ معه اخاه هوغ واكبر عدد استطاع تحريضه من ولايته على اصطحابهم .

وكان مثل هذا الارتداد خطأ سيئا للجيش وعارا عظيما للذين تركوه ، وكانت السفن الحربية ووسائط النقل جاهزة للتحرك ، وقد تمت الموافقة على وجوب لجوئها الى ميناء كورفو ، وهي جزيرة ضمن امبراطورية القسطنطينية حيث تنتظر اول المراكب وصولا المتاخر منها حتى تتجمع عليها ، وحدث هذا حسب الخطة .

وقبل ان ينطلق الدوج والمركيز دي مونتفرات من زارا مع الشواني وصل الى المدينة الكيسوس ابن الامبراطور اسحق امبراطور القسطنطينية الذي ارسله الى هناك الملك فيليب ملك المانيا ، وقد استقبل بحبور عظيم وتشريف ، واعطاه الدوج من الشواني والمراكب الاخرى بقدر ما كان يحتاج ، وهكذا غادروا

ميناء زارا تحملهم ريح مواتيه الى الامام حتى ابحروا بعد زمان طويل الى داخل ميناء دورازو ، وحالما رأى اهل هذا المكان اميرهم الشاب يصل سلموا عن طواعية مدينتهم ووضعوها بين يديه واقسموا يمين الولاء له .

وبمغادرة دورازو ابحر الامير الكسيوس وجماعته الى كورفو وعند وصولهم وجدوا الجيش مخيما امام المدينة ، وكانت الخيام والسرادقات قد نصبت بالفعل واخرجت الخيول من سفن النقل لتهويتها ، وفي اللحظة التي سمعت فيها قواتنا ان ابن امبراطور القسطنطينية قد وصل الى الميناء شوهد حشد كبير ، واضفوا عليه تشريفا عظيما وامر الامير بان تنصب خيمته في وسط القوات تماما في حين امر المركيز دي مونتفرات ، الذي كان الملك فيليب قد وضع اخا زوجته الشاب في عهدته بخيمته فنصبت على مقربة منها ، ومكث الجيش ثلاثة اسابيع في كورفو التي كانت جزيرة خصبة جدا ، ووافرة التموين بالغذاء ، وخلال هذا الوقت وقعت حادثة بالغة التعاسة والالم حيث ان عددا كبيرا من الذين كانوا يسعون لحل الجيش ، والذين عملوا في مناسبات سالفة ضد مصالحه تجمعوا الان معا واعلنوا أن المغامرة التي باشروها بدت لهم غير محتملة الطول والخطورة الشديدة ، وانهم بناء عليه سيبقون على الجزيرة ويتركون بقية القوات تذهب بدونهم ، ثم انهم حالما يغادر الجيش سيعملون بمساعدة اهل كورفو على ان يبعثوا برسالة الى الكونت غوثيير دي بريين الذي كان في ذلك الوقت يحتل برنديزي يطلبون منه ان يرسل اليهم سفنا لتعيدهم الى مدينته ، ولايمكنني ان اذكر لكم اسماء الذين كان لهم يد في هذا الامر ، ولكنني ساذكر عددا من الذين شغلوا دورا رئيسا فيه ، وهؤلاء كانوا يودس دي شامبليت ، وجاك دي افنس وبيير دي اميان ، وغي شاتلان دي كوسي ، واوغيير دي سانت شيرون ، وغي دي شاب ، وابن اخيه كليرمبود ، ووليم دي اونوا ، وبيير كواسو ، وغي دي برذس ، واخوه ايمون ، وغي دي كونفلانس ، وريتشارد دي دامبيير ، واخوه يودس ، وغير هؤلاء ، كان هناك عدد كبير اخر ممن اتفقوا سرا بالانضمام الى

حزبهم ، ولكنهم لم يجرؤوا على الاقرار بذلك علنا ، لانه امر مخجل جدا . وفي الحقيقة انه لصحيح القول ان اكثر من نصف الرجال في الجيش كانوا بالعقلية نفسها ، وحالما ادرك المركيز دي مونتفرات والكونت بلدوين دي فلاندرز والكونت لويس والكونت دي سانت بول ، والبارونات الذين اتفقوا معه ، الحالة اضطربوا بشكل خطير وقالوا : « سادتنا ، اننا في موقف يائس جدا ، واذا تركنا هؤلاء الناس كما فعل عدد كبير جدا من قبل في مناسبات مختلفة ، سيكون الجيش قد هلك ، ولن ننتصر على شيء ، فلماذا لا نذهب ونرجوهم للرب ليظهروا بعض الاهتمام بانفسهم وبنا ، ولايشينوا انفسهم ولايحرمونا من الفرصة لتحرير الارض فيما وراء البحار » .

وقرروا ان يفعلوا ذلك ، وذهبوا جميعا في مجموعة الى واد حيث اجتمع الطرف الاخر في مؤتمر ، واخذوا معهم امير القسطنطينية الشاب وكل الاساقفة الذين كانوا مع القوات ، وحالما وصلوا الى هناك ترجلوا عن خيولهم ، في حين ترجل الاخرون وقد رأوهم يحضرون عن احصنتهم أيضا ، وجاءوا للقائهم ، وخر المركيز والذين معه على اقدام الطرف الآخر وهم يبكون بمرارة ، وقالوا انهم لن ينهضوا ثانية حتى يعد اولئك الرجال ان لايذهبوا ويتركوهم .

وعندها تأثر الذين كانوا يعتزمون الفرار بعمق وتفجرت دموعهم بمرأى امرائهم ، واقاربهم واصدقائهم وهم راكعين امامهم ، وهكذا قالوا انهم سيتشاورون معا ، وانسحبوا الى مسافة قصيرة ليتناقشوا في الامر ، وكانت نتيجة دراستهم انهم قرروا البقاء مع الجيش حتى عيد القديس ميكائيل كبير الملائكة شريطة ان يؤدي الاخرون القسم في حينه على الانجيل المقدس انه من ذلك الوقت فصاعدا في اي لحظة يطلب منهم سيزودونهم بكل اخلاص وبدون نفاق بالسفن الكافية ليذهبوا فيها الى سورية ، وذلك خلال اسبوعين من تقديم مثل هذا الطلب .

- ٤٤٣٠ -

وبالتالي جرى الاتفاق ووثق بالقسم وعم على الفور فرح عظيم في كل الجيش ، وصعد كل الناس الى ظهور السفن ووضعت الخيول في داخل سفن النقل .

الفصل السابع

رحلة الى سكوتاري

أيار ـ حزيران ١٢٠٣

أبحر الجيش من ميناء كورفو عشية عيد الحصاد في سنة ١٢٠٣ لتجسيد ربنا ، وكان كل الأسطول مجتمعا هناك : الشواني وسفن النقل والسفن العربية وأيضا عدد كبير جدا من السفن التجارية التي كانت تصاحب القوات ، وكان اليوم جميلا ومشمسا ، والرياح لطيفة ومواتيه ، وكانت السفن قد نشرت أشرعتها للنسيم .

ويشهد جيوفري دي فيلهاردين ، مارشال شامبين ومؤلف هذا العمل ـ الذي لم يضع شيئا قط حسب معرفته بشكل يعارض الحقيقة ، والذي كان علاوة على ذلك حاضرا كل المؤتمرات التي سجلت في صفحاته ـ هنا أن مثل هذا المنظر الجميل لم يشاهد من قبل ، وبدا حقا أنه يوجد هنا أسطول يمكن أن يفتح البلدان لأنه على المدى الذي يمكن أن تصل اليه العين لم يكن هناك شيء يرى سوى الأشرعة المنشورة على كل هذا العدد الكبير من السفن حتى أن قلب كل رجل كان مليئا بالبهجة لهذا المنظر ، وابحرت السفن عبر امتداد واسع من الماء ، حتى وصلت الى رأس ماليا عند الطرف البعيد للمضايق بين امتدادين من عرض البحر ، هنا حدث أن لقيت سفننا سفينتين وهما في طريقهما عائدتين من سورية وهما مليئتان بالفرسان والسرجندية والحجاج الذين كانوا جزءا من المجموعة التي ذهبت الى تلك البلاد عن طريق مرسيليا ، وبرؤيتهم لأسطولنا بهذه الروعة وحسن التجهيز غلب على هؤلاء الرجال العار حتى أنهم لم يجرؤوا على اظهار وجوههم ، وأرسل الكونت بلدوين دي فلاندرز قارسا من سفينته ليستعلم عن عملهم وليخبر بمن كانوا ، وانزلق

الحد السرجندية من واحدة تلك السفن على جانبها ، والقى بنفسه في قارب الكونت ، وصاح في الذين تركهم على السطح : بامكانكم أيها الرجال أن تفعلوا ما تحبون بكل شيء تركته خلفي ، فأنا ذاهب مع هؤلاء الناس ، لأنه يبدو لي بالتأكيد أنهم سيربحون بعض الأرض لأنفسهم ، وقد أعطى هذا الرجل ترحيبا جميلا جدا من قبل القوات ، وقد اعتقد الجميع أنه رجل جيد جدا ، وفوق كل شيء وكما كان الناس ينزعون للقول إنه لا يهم كم يخطيء المرء لأنه يستطيع دائما أن يعود الى طريق الصواب في النهاية ، وأبحر الأسطول مكملا برنامجه حتى بلغ الى خليج نغروبونت الذي تطل عليه مدينة جميلة جدا تحمل الاسم نفسه ، وهنا عقد البارونات مؤتمرا ، أبحر بعده الماركيز بونيفيس دي مونتفرات والكونت بلدوين دي فلاندرز متجهين نحو الجنوب مع قسم كبير من الشواني ، وسفن النقل حتى بلغوا جزيرة أندروس حيث رسوا ، وسلح الفرسان أنفسهم واجتاحوا المنطقة حتى ناشد أهل أندروس أخيرا ابن الامبراطور أن يشفق عليهم وأعطوه الكثير من أموالهم وسلعهم حتى تدبروا أمر السلام معه ، ثم عاود الفرسان ضم سفنهم وأبحروا متابعين طريقهم ، ولكن خلال الرحلة عانوا من محنة كبيرة لأن غي امر قلعة كونسي ، وهو رجل نبيل رفيع المنزلة جدا في الجيش مات وألقي به في البحر ودفن فيه .

وفي تلك الاثناء دخلت السفن التي لم تتبع المسار المتجه جنوبا ، دخلت قنال ابيدوس حيث تلتقي مضايق سان جورج بعرض البحر ، وأبحروا في المضايق صعودا حتى أبيدوس ، وهي مدينة جميلة جدا حسنة الموقع الى جوار الماء الأقرب لتركيا ، وهنا تركت القوات سفنها في الميناء ونزلت الى البر ، وخرج شعب أبيدوس للقائهم وسلموا المدينة لهم فورا كرجال لا تتوفر لديهم الشجاعة الكافية للدفاع عن أنفسهم ، وعلى أي حال فقد نظم الجيش حراسة جيدة على المدينة حتى أن الناس في المدينة لم يفقدوا ما يساوي أصغر قطعة نقد متداولة بينهم ، وبقيت القوات هناك مدة أسبوع في انتظار تلك السفن الحربية والشواني وسفن النقل التي لم تكن قد وصلت

بعد لتنضم اليهم ، وخلال هذا الوقت استولوا على القمح بينما كان يحصد لانه كان موسم الحصاد ، وكانوا في حاجة ماسة لمثل هذه المؤن حيث لم يبق لديهم سوى القليل من المخزون ، وبحلول نهاية الاسبوع ، وحيث منحهم الرب طقسا جميلا فإن كل المراكب الباقية وبقية البارونات وصلوا الى أبيدوس ، وأبحر كل الاسطول بعد ذلك معا من الميناء ، وفي لحظة الرحيل بدت مضايق (البوسفور) سانت جورج في اتجاه الشرق مع الحشد الكامل من السفن الحربية والشواني ومراكب النقل كما لو كانت مزهرة ، لقد كانت حقا تجربة رائعة رؤية مثل هذا المنظر الجميل ، وأبحرت السفن متجهة الى أعلى المضايق حتى وصلت عشية يوم القديس يوحنا المعمدان الى حذاء دير القديس ستيفن ، وهو دير كان يقع على بعد أربعة أو خمسة أميال من القسطنطينية ، ومن تلك النقطة كان أمام جميع الذين كانوا على ظهر السفن كامل منظر المدينة ، وهنا دخل الاسطول الميناء ، وألقت السفن مراسيها ، ويمكنني أن أؤكد لكم أن كل من لم يسلف له أن رأى القسطنطينية مطلقا من قبل كان يحملق بتركيز الى المدينة ، وهم لا يتخيلون مطلقا أنه يمكن أن يكون هناك مثل هذا المكان الجميل في كل الدنيا ، ولاحظوا الاسوار العالية والأبراج الباذخة التي تحيط بها ، وقصورها الفخمة ، وكنائسها الشاهقة التي كان يوجد فيها كثير جدا ، حتى أن أحدا كان لا يمكنه أن يصدق أن هذا حقيقي لو لم يره بأم عينيه ، ويرى طول المدينة وعرضها التي يحكم بسمو فوق كل المدن الأخرى ، وفي الحقيقة لم يكن هناك رجل مهما بلغت به الشجاعة والجرأة لم يرتجف جسده رعبا من هذا المنظر ، ولا كان هذا مما يثير العجب لانه لم يسلف مطلقا أن نفذ مثل هذا العمل الكبير من قبل أي شعب منذ خلق الدنيا ، وبعد أن نزل البارونات ودوج البندقية الى الشاطىء عقدوا مؤتمرا في دير القديس ستيفن ، ظهرت خلاله كثير من الخلافات في الرأي ، ولا أقترح أن أخبركم هنا بكل الخطب التي ألقيت في تلك المناسبة ، ولكن أعتقد أنه من المناسب أن أروي كيف أنه في حوالي انتهاء المفاوضات نهض الدوج على قدميه ، وخاطب الاجتماع قائلا : « سادتي إني أعرف عن الاحوال في هذه الاجزاء اكثر مما

تعرفون ، حيث أني كنت هنا من قبل ، إنكم الآن منشغلون بأعظم وأخطر مغامرة تولاها أي شعب لخر حتى يومنا هذا على الاطلاق ، وبناء عليه إنه من الاهمية البالغة لنا أن نتصرف بحكمة وحذر ، ودعوني أبين أنه اذا ذهبنا بطريق البر فإن هناك اصقاعا هائلة من الريف علينا قطعها ، في حين أن جماعتنا في عجز مالي وليس لديهم سوى القليل للأكل ، وبالتالي إنهم سيتبعثرون في كل الاتجاهات بحثا عن الغذاء ، والآن إن كل هذه المنطقة كثيفة السكان وليس بامكاننا أن نضع رقابة صارمة على رجالنا حتى لا نفقد بعضهم على الطريق وهذا ما لا نقدر عليه ، لأنه ليس لدينا سوى القليل جدا من الرجال لهذا المشروع الذي بين أيدينا .

إن هناك جزرا قريبة ـ ويمكنكم رؤيتها من هنا ـ يسكنها أناس تنتج مزارعهم القمح واللحم وسلع أخرى من مثل ذلك ، واقترح أن ندخل سفننا الى الميناء هناك لنجمع ما يمكن أن تمدنا به تلك الجزر من القمح والمؤن الاخرى ، وعندما نكون مخزوننا كافيا من الطعام نتخذ موقفنا تجاه المدينة ونبلي ما قدر الرب لنا من بلاء ، لأن الرجل الذي يجد شيئا يأكله يقاتل بحرص أكبر للفوز من ذلك الذي لا شيء في معدته ، ووافق البارونات على فعل ما أشار به الدوج ، ثم تفرق الجمع للعودة الى سفنهم .

واستراح الجيش تلك الليلة ، وفي الصباح الذي كان يوم يوحنا المعمدان رفعت الاعلام والرايات البحرية على صواري السفن ، ونزعت الأغطية عن الدروع وعلقت حول كل جوانب السفن ، واهتم كل رجل بأن يتأكد من أن كل الاسلحة والتجهيزات التي سيستعملها في حالة صالحة ، لأن كل منهم كان يدرك جيدا بأنها ستكون لازمة له قبل مضي وقت طويل .

ورفع البحارة المراسي ونشروا قلوعهم في وجه الريح ، وأعطاهم الرب نسيما طيبا فيما بعد كما كانوا يحتاجون ، ومر الاسطول أمام القسطنطينية قريبا جدا من أسوارها وأبراجها حتى أنه كان بامكان

الرجال أن يقصفوا الكثير من السفن الرومية ، واحتشد كثير من الناس على شرفات الاسوار حتى بدا كما لو أنه لم يعد هنا المزيد في بقية العالم من يمكن جمعهم معا ، وهكذا حدث بمشيئة الرب أن تخلى البارونات مضطرين عن الخطة المتفق عليها في اليوم السالف في الابحار في اتجاه الجزر ، حتى أنه بتأثير ذلك بدا الامر كما لو أن أحدا في الواقع لم يسمع مطلقا بذكر مثل هذا المشروع ، وكانوا الآن يتجهون نحو الأرض الرئيسة بأقصى ما يمكن أن تسمح به سفنهم من حركة باتجاه مستقيم ، وأمر الاسطول بالرسو تجاه قصر كان يعود للامبراطور الكسيوس في مكان يدعى تشالسيدون ، كان يقع مباشرة مقابل القسطنطينية على جانب المضيق الاقرب الى تركيا ، وكان هذا القصر واحدا من أجمل ما يمكن أن تراه العين وأكثره سحرا على الاطلاق ، وفيه من المباهج كل ما يمكن أن يتمناه الانسان ، أو ما يجب أن يكون في بيت أمير .

وبعد النزول الى البر أخذ البارونات مراكزهم في القصر ، أو في المدينة حوله ، ونصب القسم الاكبر منهم سرادقهم ، وعندما أصبح الجميع مستعدين أخرجت الخيول من مراكب النقل ، في حين نزل الفرسان والمشاة بتجهيزاتهم الكاملة من الاسلحة ، حتى لم يبق أحد في السفن سوى البحارة ، وكان الريف حول تشالسيدون جميلا وخصبا وزاخرا بوفرة ، وبمؤن جيدة من كل الانواع والاصناف ، وكان القمح الذي جرى جنيه للتو مكوما ومخزنا في الحقول في العراء ، حتى أن كل من كان في حاجة ماسة اليه يمكنه أن يأخذ كل ما يحتاجه .

وأمضى البارونات اليوم التالي في تخوم القصر ، وبعد يومين وعندما أرسل الرب لهم ريحا مواتيه رفع البحارة المراسي ، ونشروا القلوع لتتلقى النسيم وعبروا المضيق حتى أكثر من بضعة فراسخ فوق القسطنطينية الى حيث كان يوجد قصر آخر كان يعود الى الامبراطور اليكسيوس في مكان كان يدعى سكوتاري ، وهنا ألقت جميع السفن بما فيها الشواني ومراكب النقل مراسيها ، وفي الوقت

نفسه كان الفرسان جميعا قد تمـركزوا في القصر وحـوله وشـقوا طريقهم سيرا على طول الشاطىء ، وهكذا عسكر الجيش الفـرنسي على مضائق سانت جورج في كل مكان من سـكوتاري وعلى مسـافة أبعد على الشاطىء ، وما أن علم الامبراطور اليكسيوس بتحـركاته حتى أحضر جيشه الى خارج القسـطنطينية ، واتخـذ مـوقعه على الجانب الآخر من المضـيق في مـواجهة معسـكر الجيش الفـرنسي مباشرة ، وهناك نصب خيامه كي يكون مستعدا لمقاومة اي محـاولة من جانبنا ، للنزول العاصف الى البر ، وبقيت القـوات الفـرنسية حيث كانت للأيام التسع التالية ، وحصل كل من كان في حاجة للمؤن عليها بأنفسهم ، وكان هذا يعني كل رجل في الجيش ٠

الفصل الثامن

الاستعداد للهجوم

٢٦ حزيران ـ ٤ تموز ١٢٠٣

وبينما كانت القوات في سكوتاري خرجت مجموعة من الرجال الجيدين الموثوقين الذين كان واجبهم البقاء خارج المعسكر لحراسة الجيش ضد أي هجوم مفاجيء ، وحماية الكشافة الذين خرجوا في يوم ما لاستكشاف الريف حولهم ، وكان بين هذه المجموعة يودس دي شامبليت وأخوه وليم وأوغيير دي سانت خيرون ومانسيير دي أيل ، والكونت جيرارد ، وهو نبيل من لومبارديا كان تابعا للمركيز دي مونتفرات ، وكان معهم حوالي ثمانين من الفرسان الجيدين الشجعان .

وخلال فترة استطلاعهم لمحوا بعض السرادقات المنصوبة عند سطح جبل على بعد بضعة فراسخ من المعسكر ، وكانت هذه تعود الى أمير البحر التابع لامبراطور القسطنطينية ، الذي كان معه حوالي خمسمائة فارس رومي ، وحالما لمح أصحابنا هذا المعسكر وزعوا رجالهم الى أربع مجموعات بقصد مهاجمته ، وعندها سحب الروم بدورهم قواتهم ، واتخذوا تشكيلا قتاليا ووزعوهم أمام السرادق في انتظار الهجوم ، وتقدم رجالنا وهاجموهم بقوة .

وبعون الرب لم تدم هذه المعركة طويلا ، لأن الروم بعد فترة قصيرة أداروا ظهورهم وهربوا ، لقد هزموا من أول مواجهة ، ولاحقهم رجالنا لما يزيد عن فرسخ وفي هذه المصادفة كسب المنتصرون عددا جيدا من الخيول الحربية ، والخيول القوية ، والخيول الصغيرة والبغال وغنائم أخرى مما هو معتاد في

مثل هذه الأمور ، وبعد ذلك عادوا الى المعسكر وجرى لهم ترحيب حار من قبل رفاقهم الذين اقتسموا معهم غنائمهم بطريقة موائمة وصحيحة ، وفي اليوم التالي ارسل الامبراطور رجلا موثوقا هنو نيكولاس رو ، وكان من اهل لومبارديا ، ارسله كمبعوث لمعسكرنا مع خطاب موجه للكونتات والبارونات ، فوجدهم في مؤتمر في قصر سكوتاري الجميل ، وبعد ان حياهم نيابة عن الامبراطور الكسيوس إمبراطور القسطنطينية ، سلم رسالته الى المركيز دي مونتفرات ، فأخذها المركيز وقرأها بصوت مرتفع في حضور كل البارونات ، وكانت تحوي كثيرا من الأشياء المختلفة لن يرويها هذا الكتاب ، ملاحظا فقط بأنها كانت متبوعة بتصريح يشهد بامكانية الاعتماد على الحامل نيكولاس رو ، مع طلب إعطاء الثقة والاعتماد لما يقوله. وخاطبه المركيز قائلا :

سيدي الطيب لقد لاحظنا محتويات رسالتك ، وهي تطلب منا أن نعطي المصداقية لما تقول ، وأن نعتمده وهذا ما سنفعله بالتأكيد ، لهذا تكلم بحرية ودعنا نعرف مالذي في فكرك .

وأجاب المبعوث الواقف أمام البارونات هكذا : سادتي لقد أرسلني الامبراطور ألكسيوس لأقول أنه مدرك تماما أنكم بعد الملوك ، انتم انبل الرجال الأحياء ، وأنكم أنتم من افضل بلاد العالم ، وهو بناء عليه يتعجب بشكل جدي لماذا ولأي سبب دخلتم هذه البلاد التي يحكمها ، لأنكم مسيحيون تماما مثله ، وهو يعرف جيد جدا أنكم تركتم بلادكم لتحرير الأرض المقدسة ، فيما وراء البحار ، وصليب الصلبوت المقدس ، والضريح المقدس ، فاذا كنتم فقراء وفي حاجة الى المؤن فانه سيعطيكم حصة من مؤنه وأمواله طالما أنكم ستنسحبون من أرضه ، واذا رفضتم المغادرة فانه سيكون مكرها لايقاع الأذى بكم ، ذلك أنه بإمكانه أن يفعل ذلك لأنكم لو كنتم عشرين ضعف ماأنتم عليه ، فإنكم لن – بفرض أنه اختار ايذاءكم – تستطيعوا ترك هذه البلاد دون فقد الكثير من رجالكم الى جانب معاناة الهزيمة .

وبإرادة وموافقة البارونات الآخرين ، ودوج البندقية ، نهض فارس حكيم فاضل ومتحدث بليغ لاجابة المبعوث ، فقال :« سيدي الطيب لقد أخبرتنا أن أميركم يتعجب كثيرا من أن أمراءنا وباروناتنا قد دخلوا ولايته ، وجوابنا هو اننا لم نكن لندخل ولاياته لولا أنه قد تملك ظلما هذه الارض ، ودفاعا عن الرب ، والحق والعدل ، انها تعود لابن أخيه الذي يجلس هنا على عرش بيننا ـ انه ابن أخيه ـ الامبراطور اسحق ، وعلى أي حال انا وافق أميركم على أن يضع نفسه تحت رحمة ابن أخيه ، وأن يعيد اليه تاجه وامبراطوريته ، فاننا سنرجو الأمير أن يمنحه مالا كافيا ليعيش بأسلوب ثري ، ولكن مالم تعودوا لاعطائنا مثل هذه الرسالة المطلوبة ، أدعوا الرب الا تغامروا بالمجيء الى هنا مرة أخرى » ، وهكذا غادر المبعوث ، وعاد الى القسطنطينية ليرى الامبراطور اليكسيوس .

وفي اليوم التالي اجتمع البارونات معا واتفقوا على أن يظهروا الكسيوس الشاب الامبراطور صاحب الحق في القسطنطينية لشعب المدينة ، ولهذا أصدروا الأوامر لكل الشواني بالتسليح ، وصعد دوج البندقية ، والمركيز دي مونتفرات الى ظهر احداها ، وأخذوا معهم الأمير الكسيوس ، بينما دخل أكبر عدد ممن رغب من الفرسان والبارونات في مصاحبتهم الى السفن الأخرى .

ومروا على طول محاذاة أسوار القسطنطينية وعلى مقربة منها ، وأظهروا الأمير الشاب للروم ، وقالوا : هذا هو اميركم الطبيعي ، ونطلب منكم أن تصدقوا أننا لم نحضر لايذائكم ، بل على العكس لحمايتكم والدفاع عنكم ، طالما تتصرفون كما يجب ، ان الذي تطيعونه الآن كملك يحكم بينكم دون حق عادل مشروع ، ليكون امبراطورا لكم يدافع عن الرب والحق ، وأنتم تعرفون جيدا كيف تصرف بشكل خياني تجاه الرجل الذي هو أميره وأخوه ، وسمل عينيه ، وبشكل فظيع وظالم أخذ منه الامبراطورية ، هذا هو أميركم الحقيقي وسيدكم ، فاذا وقفتم في

جانبه فانكم تفعلون مايجب فعله لكن اذا أحجمتم اننا سنفعل أسوأ مايمكننا فعله ، ومع ذلك فمن مطلق الخوف والرعب من الامبراطور الكسيوس لم يجرؤ رجل واحد من تلك الأرض أو في المدينة أن يظهر أنه في جـــانب الأمير الشـــاب ، وهـــكذا عاد البـــارونات الى المعسكر ، وذهب كل رجل الي موقعه .

وفي اليوم التالي بعـد حضـور القـــداس اجتمعـــوا في مجلس اســتشاري معـــا ، وكان الجميع على ظهــور الخيل في العــراء في الحقول ، كانت تشاهد هناك أعداد كبيرة من الخيول الحربية القوية والعديد من الفرسان الجيدين فوق ظهورها وكان هـدف الاجتمـاع ترتيب وتنظيم الفرق وإعداد تشكيلاتها وكانت هناك مناقشات كثيرة في أمور مختلفة بالتفصيل ، ولكن في النهاية تمت التســوية على أنه طالما أن الكونت بلدوين دي مونتفرات لديه وتحت إمرته العدد الأكبر من الرجال ذوي الخبرة ورماة السهام وحملة القوس والنشاب مـن أي أمير آخر في الجيش فانه يجب أن يولى على المقدمة .

وبعد ذلك تم ترتيب أن يشكل أخو الكونت هنري مـع مـاثيو دي والنكورت ، وبلدوين دي بـوثوار ، وكثير مـن الفـرسان الجيدين الذين جاءوا معهم من ولايتهم الفرقةالثانية ووضعت الثالثة بإمرة الكونت هوغ دي سانت بول الذي كان معه ابـن أخيه بيير دي أميان ويوســتاش دي كانتلون وأنســو دي كايو وكثير مـــن الفـــرسان الجيدين من الاقليم نفسه .

وجعل الكونت لويس دي بلوا مسؤولا عن الفرقة الرابعة ، وهذه كانت فرقة كبيرة جدا وقوية ومهيبة لأنها كانت تضم عددا كبيرا جدا من الفرسان الشجعان ومن رجال آخرين ذوي كفاءة قتالية جيدة .

وشكل رجال شامبين تحت قيادة ماثيو دي مونتموريني الفرقة الخامسة ، وكان جيوفري مارشال شـامبين في هـذه الفـرقة مـع أوغيير دي ســـانت خيرون ، ومـــــانسيير دي أيل ، وميلون لى

برابارنت . وماكير دي سانت مينوهولد . وجين فواستون وغي دي شاب ، وابن أخيه كلير مبود ، وروبرت دي رتسوا ، وقد ضمت كما يمكن القول عددا كبيرا من الفرسان الجيدين ، وكون البيرغنديون الفرقة السادسة وبينهم كان يودس دي شامبليت ، وأخوه وليم ورتشارد دي دامبيير ، وأخوه يودس وغي دي بزم وأخوه ايمون وأوتو دي لاروش ، وغي دي كونفلانس الى جانب رجال من الاقليم نفسه ومن مقاطعاتهم العديدة ، والفرقة السابعة وكانت كبيرة جدا وكان يقودها المركيز دي مونتفرات ، وكان فيها اللومبارديين والتوسكانيين والالمان والرجال من كل الأراضي الممتدة من مونت سنيس الى ليون على الرون ، وقد رتب أن تكون هذه الفرقة في الساقة .

وقد حدد الآن اليوم الذي تحمل فيه القوات على سفنها وتمضي لاخذ الأرض بالقوة وتعيش أو تموت ، وكانت هذه ويمكنني أؤكد لكم ، إحدى أكثر المغامرات التي تم توليها من قبل هؤلاء على الاطلاق ، وخاطب الأساقفة ورجال الاكليروس الآخرين مبينين الحاجة الى أن يقوم كل رجل بالاعتراف وكتابة وصيته بما أن مامن أحد يمكنه أن يعرف هدف الرب المختص به ، وقد نفذت هذه التعليمات طواعية وبورع من قبل كل رجل في الجيش .

الفصل التاسع

الحصار الأول للقسطنطينية

٥ – ١٧ تموز ١٢٠٣

وحل اليوم المحدد وكان جميع الفرسان وخيولهم الحربية على ظهر الناقلات ، وكان كل رجل كامل التسليح وخوذته مربوطة ، وفرسه مسرجة بالشكل المناسب ، وسرجه مكسو بغطاء مزركش ، وكان الناس من المراتب الأدنى كرجال من النسق التالي في المعركة متمركزين فوق السفن الحربية ، وكانت كل واحدة من الشواني مسلحة ومتأهبة .

وكان الصباح الباكر فور شروق الشمس جميلا صافيا ، وعلى الجانب الآخر من المضيق وقف الامبراطور الكسيوس ينتظر الهجوم ، وقد وزع جيشه الى فرق عديدة ومزودة بكل التجهيزات اللازمة للمعركة ، وصدحت الأبواق ، وكانت كل سفينة نقل مربوطة بحبل جر الى شيني حتى تصل الى الجانب الآخر بسهولة اكثر ، ولم يسأل أحد أي سفينة تذهب أو لابل اي سفينة يمكنها أن تقلع أسرع ، وتصل الى البر قبل البقية .

ونزل الفرسان من سفن النقل وقفزوا في البحر وخاضوه حتى خصورهم ، وهم بكامل سلاحهم وخوذهم مشدودة ورماحهم في أيديهم ، وبطريقة مشابهة نزل رماة سهامنا والسير جندية وحاملي القوس والنشاب كل في جماعته نزلوا الى البر حالما لمست سفينتهم الأرض .

وبدا الروم وهم مستعدون ليقوموا بعرض جيد للمقاومة ، ولكن

ما أن خفض الفرسان رماحهم حتى استداروا جميعا وفروا وتخلوا عن الشاطيء لرجالنا ، ويمكنني أن أقول أن أي ميناء لم يؤخذ بأكثر من هذا الفخار ، وبدأ البحارة الآن يفتحون الابواب في جوانب سفن النقل ، ويقودون الخيول الى خارجها وامتطاها الفرسان بسرعة ، بينما بدأت الفرق في التقدم وفق النظام المعين .

وتقدم الكونت بلدوين دي فلاندرز ودي هينو الذي كان يقود المقدمة على رأس قواته بينما تبعتهم الفرق الأخرى حسب النظام المعين لها ، حتى وصلت جميعا الى المكان الذي كان يعسكر فيه الامبراطور الكسيوس ، وكان على أي حال قد تراجع باتجاه القسطنطينية تاركا خيامه وسرادقاته منصوبة ، وحصل رجالنا على كمية كبيرة من الأسلاب هناك .

وقرر باروناتنا أن يعسكروا على طول الميناء تجاه برج غلاطية الذي كان عند أحد طرفي السلسلة التي كانت تمتد من القسطنطينية عبر مدخل الميناء ، والآن أصبحت كل سفينة تريد دخول الميناء يمكنها أن تفعل ذلك فقط باجتياز هذه السلسلة .

وأدرك باروناتنا بوضوح أنهم إن لم يأخذوا ذلك البرج ويحطموا تلك السلسلة فإنهم سيكونون في وضع رهيب ، وكأنهم أموات ، لذلك أمضوا تلك الليلة أمام البرج في حي يدعى استانور ، وكان في الواقع مدينة صغيرة وجميلة وغنية .

وبقي الجيش متيقظا جدا تلك الليلة ، وفي الصباح في حوالي الساعة التاسعة شن الروم في برج غلاطية بدعم من آخرين ممن جاءوا في مراكب من القسطنطينية هجوما علينا ، وهرولت قواتنا الى أسلحتها ، وكان جاك دي افنسس ورجاله وكلهم من المشاة أول من اشتبك مع العدو ، ولقي كما يمكنني القول مقاومة ضارية وجرح في وجهه بطعنة رمح ، وكان في وضع خطير قريب من القتل المباشر ، عندما قفز أحد فرسانه ويدعى نيكولاس دي جنليان الى

ظهر حصان ونجح في انقاذ اميره من الخطر ، وقد أبلى هذا الفارس نفسه بلاء حسنا في المواجهة حتى أنه كسب مديحا عظيما من أجل سلوكه المقدام .

وأطلقت الدعوة الى السلاح في المعسكر واصطف رجالنا على كل الجوانب ودفعوا بالعدو الى الوراء بقوة ، حتى أن العديد منه قتل أو أخذ أسيرا ، وركض عدد من الروم بدلا من التراجع نحو البرج ، ونزلوا الى المراكب التي جاءوا بها وغرق كثير منهم ، ولكن بعضهم تمكن من النجاة بنفسه ، أما بالنسبة للذين عادوا باتجاه البرج مضت قواتنا في أعقابهم مسرعة حتى أنهم لم يتمكنوا من اغلاق الباب ، وجرى مزيد من القتال العنيف عند المدخل ، بيد أن رجالنا سيطروا على الموقف بالقوة وجعلوا من الذين كانوا بداخل البرج سجناء ، وقتل كثير من الروم أو أخذوا أسرى في مجرى هذه الأحداث .

وهكذا تم الاستيلاء على حصن غلاطية ، وتم كسب المدخل الى ميناء القسطنطينية بقوة السلاح ، وابتهجت قواتنا بدرجة كبيرة بهذا النجاح ، وشكروا الرب بقلوب ممتنة ، وكان أهل المدينة من جانب آخر في غاية الكآبة ، وفي اليوم التالي أحضر كامل اسطولنا من السفن الحربية والشواني ومراكب النقل الى الميناء ، وعند هذه النقطة اجتمع قادة الجيش في مؤتمر لدراسة أي خطة للعمل يجب أن يتبعوها فيما اذا كانوا سيهاجمون من البحر أو من البر ، وكان أهل البندقية متمسكين بقوة بالرأي القائل بأن سلالم تسلق الأسوار يجب أن تمد فوق السفن ، وأن يتم الهجوم من البحر ، واحتج الفرنسيون من جانبهم بأنه لايمكنهم أن يعتمدوا على البحر كما يفعل أهل البندقية ، ولكنهم ماأن يصلوا الى الأرض مع خيولهم وتجهيزاتهم المناسبة بإمكانهم أن يقدموا خدمات أفضل ، وهكذا تقرر في النهاية أن يشن أهل البندقية هجومهم من البحر في حين يقاتل البارونات وجيشهم العدو في البر .

وبقيت القوات في المعسكر للأيام الأربعة التالية ، وفي اليوم الخامس استعد كل الجيش وتقدمت الفرق على ظهور الخيل كل في ترتيبها المعين على طول الجانب الشمالي الشرقي من الميناء حتى أصبحوا أمام قصر بلاشيرين ، وفي الوقت نفسه أبحرت السفن في الميناء الى اقصى طرف بالضبط في مقابل المكان حيث تمركزت القوات الفرنسية وهنا يصب نهر في البحر ويمكن عبوره فقط بجسر حجري ، وقد حطم الروم هذا الجسر ، وعليه أمر البارونات الجيش بالعمل كل ذلك اليوم والليلة التالية في اصلاحه .

وفي صباح اليوم التالي وحالما أصبح الجسر في حالة صالحة ، سلحت الفرق وركبت وفق النظام المحدد الواحدة خلف الاخرى لتأخذ مواقعها أمام المدينة .

ولم تخرج نفس واحدة لمهاجمتها ، وكان هذا مدهشا حقا ، حيث انه مقابل كل رجل كان لدينا في الجيش كان هناك على الاقل مائتين في القسطنطينية .

وقرر البارونات أن يعسكروا بين قصر بلاشرين وقلعة بوهموند التي كانت في الواقع ديرا محاطا بأسوار عالية ، وهنا نصبوا خيامهم وسرادقاتهم ، لقد كان منظرا يملأ القلب بالفخر والرهبة ، لان مدينة القسطنطينية كان لها واجهة تمتد في الارض نحو ستة أو سبعة أميال ونيف ، وكان جيشنا كله كبيرا فقط بما يكفي لمحاصرة إحدى بواباتها ، وكان في الوقت نفسه أهل البندقية وهم في سفنهم على الماء ، قد رفعوا سلالمهم ونصبوا عراداتهم ومنجنيقاتهم ، ووضعوا كل شيء في نظام رائع للهجوم ، وأعد البارونات من جانبهم عراداتهم ومنجنيقاتهم واستعدوا للهجوم من البر .

وخلال كل هذا الوقت ربما أقول ، إن جيشنا لم يكن بأي حال متروكا في هدوء وسلام ، ولم يكن هناك في الواقع ساعة واحدة من

النهار والليل لم يكن فيها على واحدة من فرقنا أن تقف وهي كاملة التسليح أمام بوابة بلا شرين ، لتقوم بالحراسة على الآلات وترد غارات المحاصرين من داخل المدينة ، وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات ، لم يتقاعس الروم عن القيام بهجمات متكررة من المدينة ، من هذه البوابة أو البوابات الاخرى ، وأعطوا قواتنا القليل جدا من الراحة حتى أن كامل المعسكر كان يدعى للسلاح حوالي ست أو سبع مرات في اليوم ، ولم يكن أحد فضلا عن ذلك قادرا على الحركة للبحث عن الطعام لمسافة أبعد من أربع غلوات سهم عن المعسكر وكنا في عجز شديد في المؤن ، سوى بالنسبة للدقيق ولحم الخنزير وكان هذان في الواقع قليلين جدا .

ولم يكن لدى القوات لحم طازج بالمرة ، سوى ما كانوا يحصلون عليه من الخيول التي تقتل وكان هناك في الواقع في كل معسكر طعام كاف فقط للاسابيع الثلاثة التالية ، وهكذا كان جيشنا في حالة بائسة للغاية حيث أنه لم يحدث مطلقا في أي مدينة أن حوصرت مثل هذه الكثرة بمثل هذه القلة .

وعند هذه النقطة وضع البارونات خطة رائعة للدفاع ، فحصنوا المعسكر باحاطته بسياج قوي من الألواح الخشبية الجيدة السميكة مع أعمدة متعارضة وبذلك جعلوا أنفسهم أقوى بكثير ، وأمن من قبل ، واستمر الروم مع ذلك في القيام بمثل تلك الهجمات المتكررة حتى أنهم لم يعطوا القوات أي راحة ، وكان رجالنا في المعسكر يصدونهم بقوة ، وفي كل مناسبة كان الروم يعانون خسائر فادحة .

وفي أحد الأيام بينما كان البيرغنديون في الحراسة قامت مجموعة من أفضل القوات في الجيش الرومي ، باغارة مفاجئة من داخل المدينة وانقضت عليهم ، وطار رجالنا بدورهم تجاه العدو وهاجموهم بضراوة شديدة حتى صدوهم الى الوراء ، وفي ملاحقتهم للروم تبعوهم حتى قرب البوابة حتى أن الرجال فوق الاسوار ألقوا أحجارا ثقيلة وكبيرة فوقهم ، وفي هذا الأمر أسر أحد رجال الروم في

المدينة ، وكان يدعى كونستنتين لاسكارس وهو ما يزال فوق حصانه على يد غوتيير دي ذويلي ، واثناء القتال كسر ذراع وليم دي شامبليت بحجر ، وكان هذا مما يدعو للأسف الشديد ، لأنه كان فارسا شهما وجيدا ، وأنا لا أقترح أن أخبركم بكل الضربات التي وجهت ووقعت في هذه المواجهة ، ولا بعدد القتلى والجرحى ، وسأذكر على كل حال انه قبل أن ينتهي القتال ، جاء فارس كان في خدمة هنري أخي الكونت بلدوين للانضمام الى القتال ، ولم يكن لديه ما يقيه سوى سترة مبطنه ، وخوذة من الصلب ، ودرع معلق في العنق ، ومع ذلك فقد أبلي بلاء حسنا حتى أنه كسب شرفا عظيما .

وكان هناك من الايام القليل مما لم ترو عن وقائعه الحكايات ، ولكني لا أستطيع أن أسجلها ويكفي القول بأن الروم استمروا في الضغط بقوة على رجالنا حتى أنهم لم يستطيعوا النوم أو الاكل أو الراحة ، سوى وهم مسلحون بالكامل ، وربما يمكنني أن أذكر اغارة واحدة من احدى البوابات التي على طول الجدران التي خسر فيها العدو مرة أخرى بشكل فادح ، وقتل أحد فرساننا ويدعى وليم دي جي في هذه المواجهة ، وفي المناسبة نفسها تميز ماثيودي والذكورت ولكنه فقد حصانه ، الذي قتل فوق الجسر المتحرك أمام البوابة . وقد أبلى فرسان آخرون عديدون أيضا بلاء حسنا . وعلى البوابة من الجانب الآخر قصر بلاشرين التي أغار الروم منها كثير جدا ، كسب بييردي براسيو لنفسه شرفا أكبر من أي واحد آخر وبشكل رئيسي لأن مراكزه كانت الأقرب منها حتى أنه أمكن له أكثر أن يساهم في القتال .

وقد تعرض جيشنا لهذه المخاطر ولمحن اختبار القوة لنحو عشرة أيام ، حتى يوم خميس عندما بات كل شيء مع سلالم تسلق الأسوار معدا للهجوم الرئيسي ، ففي هذه الأثناء كان أهل البندقية قد أتموا استعدادهم فوق الماء ونظم أمر الهجوم بحيث يترك ثلاث فرق للحراسة خارج المعسكر ، في حين تتقدم أربع فرق أخرى للهجوم على المدينة ، وبقيت قوات المركيز دي مونتفرات الاخرى للحراسة في

المخيم في الجانب المواجه للريف الواسع ، تدعمها الفرقة البير غنتية ورجال شامبين بقيادة ماثيودي ونتمـورنسي ، وقـاد الكونت بلدوين دي فلاندرز ودي هينوت فرقته في الهجوم بـرفقة الذين كانوا تحـت قيادة أخيه هنري ، والكونت لويس دي بلوا ودي كارتـران والكونت هوغ دي سانت ـ بول .

ونصب الفرنسيون سلمين على شرفات جدار الحصـن الأمـامي المتاخم للبحر ، وكان الجدار في هذا الجانب يتحكم فيه بقوة الانكليز والدانمـركيون ، وكان الصراع الذي أعقـب ذلك شـديدا وقـاسيا وضاريا وبعد بذل المزيد من الجهود العنيفة والقوية تـدبر فـارسان واثنان من السرجندية صعود السلالم وسيطروا على الجدار وصـعد مايندوف على خمسة عشر رجلا الى أعلى ، وسرعان ما اشـتبكوا في عراك بـالسيوف والبلط ، واسـتجمع الروم في داخـل الحصـن شجاعتهم ودافعوا بضراوة حتى دفعوا برجالنا الى الخارج بينمـا احتجزوا اثنين كأسرى ، واقتيد هؤلاء الى الامبراطور اليكسـيوس الذي كان مفرط السرور برؤيتهم ، وهكذا كانت حصيلة الهجوم فيما يتعلق بالفرنسيين وجرح العديد وترك العديد بأطراف مكسورة ، وقد انزعج البارونات بدرجة كبيرة بسبب هذا الوضـع والوقـائع ، وفي هذه الأثناء لم يتوقف دوج البندقية عن اداء دوره ذلك أنه شكل جميع سفنه في وضع القتال في خط يمتد بطول ثلاث رميات سهام ، وبعـد ذلك بدأ أهل البندقية في الاقتراب من الشاطيء من القسـم الذي كان يقع تحت الاسوار والابـراج ، وبعـدها كان بـامكانك أن تـرى منجنيقاتهم تقذف بالأحجار من فوق ظهور المراكب الحربية ومراكب النقل مع رشقات السهام من أقواسهم وهي تطير عبـر الماء ، وكان رماة السهام يرسلون رشقة بعد رشقة من السهام ، وكان الروم من جانبهم يدافعون بضراوة عن المدينة من أعلى شرفات الاسـوار مـع اقتراب سلالم التسلق التي على ظهـور السـفن حتـى أنه في بعض الأماكن كانت السيوف والرماح تتصادم الواحد مع الآخر .

وكانت الجلبة هائلة حتى بدا كما لو أن كلا من البر والبحـر كان

يتفتتان قطعا ، وكانت الشواني على أي حال لا تجرؤ على الاقتراب من الشاطىء .

ودعني اخبرك هنا بعمل رائع من أعمال البسالة : وقف دوج البندقية مع أنه كان رجلا مسنا وأعمى بالمرة تحت قوس سفينته ، وعلم القديس مارك (مرقص) منشور أمامه وصاح في رجاله لينزلوه الى الشاطىء وإلا فإنه سيتعامل معهم كما يستحقون واطاعوه على الفور حيث مست السفينة الأرض وقفز الرجال منها الى الشاطىء وهم يحملون علم القديس مارك الى الشاطىء ، أمام الدوج وحالما رأى أهل البندقية الآخرون العلم فوق البر وأن سفينة أميرهم تمس الأرض أمامهم شعر كل رجل منهم بالخزي ونزل الجميع الى الشاطىء،وقفز الرجال من مراكب النقل وخاضوا في الماء ، في حين نزل الذين كانوا في سفن أكبر الى القوارب وكان كل واحد منهم يتنافس مع الآخر مسرعين للوصول الى البر ، ثم بدأ هجوم رائع كبير على المدينة ، ويؤكد جيوفري دي فيلهاردين مؤلف هذا التاريخ ، هنا أن أكثر من أربعين شخصا قد أكدوا له بشكل لا ريب فيه أنهم قد رأوا علم القديس مارك يخفق فوق أحد الأبراج ، ولكن أحدا منهم لم يعرف من غرسه هناك ، والآن دعوني أخبركم بحدث رائع جدا حتى أنه يمكن أن يسمى معجزة ، لقد هرب الناس الموجودون في المدينة وتخلوا عن الاسوار لأهل البندقية ، واندفع هؤلاء جميعا من خلال البوابات وكل واحد منهم يحاول أن يسبق الآخرين واستولوا على خمس وعشرين برجا كانت مشحونة برجالهم ، وطلب الدوج احضار قارب لارسال رسل بأسرع ما يمكن ليخبروا البارونات بأنه قد تم الاستيلاء على خمس وعشرين برجا وليؤكدوا لهم أنه لا يمكن استعادتها مطلقا ، وكان البارونات من جانبهم في بهجة مفرطة حتى أنهم لم يستطيعوا التصديق أن الاخبار كانت صحيحة ، وفي هذه الأثناء بدأ أهل البندقية بارسال القوارب الى المعسكر الفرنسي محملة ببعض الخيول والدواب التي أخذوها كغنائم في القسطنطينية .

وعندما رأى الامبراطور اليكسيوس أن أهل البندقية قد تمكنوا من دخول المدينة ، بدأ يرسل القوات ضدهم بأعداد كبيرة حتى وجدوا أنه من المستحيل أن يصمدوا أمام العدو ، وبناء عليه أشعلوا النار في الأبنية التي بينهم وبين الروم ، وحيث أن الريح في ذلك الوقت كانت تهب من الجانب البندقي أصبحت النار تدريجيا كبيرة حتى أن الروم لم يعودوا يستطيعون رؤية خصومهم ، وهكذا أصبح هؤلاء قادرين على الانسحاب بسلام الى الابراج التي استولوا عليها وغزوها من قبل .

وعند هذه النقطة أخرج الامبراطور اليكسيوس كل قواته الموجودة خارج المدينة عن طريق بوابات على بعد فرسخ من معسكرنا ، وجاء عدد هائل جدا منهم يتدفقون حتى ليخيل اليك أن العالم كله قد احتشد هناك ، وبعد أن نظم فرقه فوق السهل ، ركب الامبراطور وزحف معهم نحو المعسكر الفرنسي ، وفي ذلك اليوم كان هنري أخو الكونت بلدوين دي فلاندرز واقفا في نوبة حراسة على الآليات ، برفقة ماثيودي والنكورت وبلدوين دي بوفوار والرجال الذين في فرقتهم ، ووضع الامبراطور اليكسيوس في مقابلهم فرقة كبيرة من قواته ومعهما أوامر بأن يخرج رجالها من خلال ثلاث بوابات ويشنوا هجوما على المعسكر من جانب آخر .

وزحفت فرقنا الست الأخرى الآن خارجة من المعسكر حسب الخطة واصطفت في صفوف أمام الطوق ، وكان السرجندية وحملة الدروع على أقدامهم.ووقفت خلفهم خيولهم مباشرة ، بينما كان حملة الاقواس ورماة السهام في الامام ، وكان يرافقهم أيضا جماعة من الفرسان على أقدامهم ، لأن مائتين منهم على الاقل قد فقدوا خيولهم ، ووقف الجميع في هدوء أمام الطوق وبحكمة أيضا لأنهم لو تقدموا لمهاجمة العدو في السهل لأغرقهم الروم في وسطهم ، ذلك أنهم كانوا أعدادا كبيرة جدا ، وبدا كما لو أن السهل كله كان مغطى بالقوات التي كانت تتقدم ببطء وبنظام جيد ، وكان يبدو أننا في حالة يائسة جدا حيث أنه لم يكن لدينا أكثر من ست فرق ، في حين

كان لدى الروم ما يقرب من ستين فرقة ، وكانت كل واحدة أكثر من فرقنا ، ومع ذلك كانت قواتنا موزعة بطريقة تجعل من غير الممكن مهاجمتها إلا من الامام ، واخرج الامبراطور أليكسيوس الآن رجاله متقدما بحيث يمكن لكل جانب أن يرمي في اتجاه الجانب الآخر ، وبسماع هذا بعث دوج البندقية بأوامر الى رجاله قضت بأن ينزلوا من الابراج التي استولوا عليها ، وأعلن أنه سيحيا أو يموت في صحبة الحجاج ، وهكذا جاء مبحرا نحو المعسكر بأكبر عدد من الرجال أمكنه أن يحضرهم معه ، وكان أول من وضع قدمه على الشاطىء ولفترة طويلة نوعا ما وقفت جيوش الصليبيين والروم تواجه بعضها بعضا ، لأن الروم لم يجرؤوا على الاندفاع نحو صفوفنا ، ولم يكن رجالنا يبتعدون عن طوقهم ، وعندما أدرك الامبراطور الحالة بدأ بسحب قواته ، وحالما جمعهم أدارهم باتجاه المدينة ، واذ رأى ذلك جيش الصليبيين أخذ يزحف ببطء نحوهم وأخذ الروم يبتعدون ، وفي النهاية تراجعوا الى قصر فيلوباتريون .

ويمكنني أن أؤكد أن الرب لم ينقذ قط شعبا من خطر عظيم كان حقا أعظم من الخطر الذي أنقذ منه شعبا ذلك اليوم ، ولم يكن هنالك أي رجل في الجيش مهما كان مقداما أو شجاعا لم يمتلىء قلبه بالسرور وهكذا توقفت المعركة ذلك اليوم وبمشيئة الرب لم يحدث شيء آخر ، لقد عاد الامبراطور اليكسيوس الى المدينة وعاد رجالنا الى المعسكر مرهقين ومنهكين كليا ، حيث خلعوا دروعهم ووضعوا سلاحهم وأكلوا وشربوا قليلا بسبب العجز الشديد في التموين .

ودعوني الآن أطلب منكم التأمل في معجزات ربنا وكم هي رائعة عندما يسره أن يقوم بها ، وفي تلك الليلة بالذات جمع الامبراطور اليكسيوس من الاموال والأشياء الثمينة ما أمكنه أن يحمله معه ، وأخذ معه من الناس من رغب في الذهاب معه وهرب تاركا المدينة ، وكان أهل القسطنطينية مذهولين تماما ، وذهبوا الى السجن حيث كان الامبراطور اسحق الذي كانت عيناه مسمولتين محتجزا ،

والبسوه ثيابه الامبراطورية ، وحملوه الى القصر الكبير في بلاشرين حيث اجلسوه على عرش مرتفع وادوا له قسم الولاء كأمير لهم ، ثم بموافقة الامبراطور اسحق أرسل الرسل ليخبروا الامير اليكسيوس والبارونات بأن مغتصب العرش قد هرب ، وان شعب القسطنطينية قد أعاد تنصيب أخيه بمثابة امبراطور شرعي لهم .

وحالما سمع الامير الشاب الاخبار أرسل للمركيز دي مونتفرات الذي استدعى على الفور البارونات جميعا من كل المعسكر ، وحالما اجتمعوا جميعا في فسطاط ابن الامبراطور اسحق ، وأخبرهم الامير بالانباء كان سرورهم بسماعها بالغا لدرجة لا يمكن وصفها ، لا بل إن سرورا أعظم من ذلك لم يشعر بمثله أحد قط في هذا العالم ، وانضمت الجماعة كلها في أداء شكر جليل وخاشع للرب لتحريرهم في هذا الوقت القصير جدا ، ورفعهم الى هذه الدرجة من ذلك الوضع المتدني ، وبناء عليه يمكن للمرء أن يقول بحق : « من أراد الرب مساعدته لا يمكن لأي رجل اضر الحاق الاذى به » .

الفصل العاشر

ميثاق الامبراطور

تموز ـ تشرين الثاني ١٢٠٣

ومع اقتراب فجر ذلك اليوم بدأ رجالنا في ارتداء دروعهم وتحضير أسلحتهم وكان كل واحد في المعسكر يفعل ذلك ، لأن أحدا لم يكن يثق في الروم ، وبدأت الرسل تخرج من المدينة وكلهم مع القصة نفسها التي تحكى . وقرر البارونات بالاشتراك مع دوج البندقية أن يرسلوا مبعوثيهم الخاصين الى القسطنطينية ليروا كيف كانت الأمور حقيقة ، فإذا كان ما قيل لهم صحيحا فإنهما سيطلبون من الأب تصديق الميثاق الذي أبرمه ابنه ، وإلا فإنهم لن يسمحوا للابن بدخول المدينة ، وكان المبعوثون المختارون لهذه المهمة هم ماثيودي مونتمورنسي ، وجيوفري دي فيلهاردين مع اثنين من أهل البندقية عينهما الدوج .

واقتيد هؤلاء الرجال الأربعة الى قصر بلاشيرين وحالما فتحت البوابة نزلوا عن خيولهم ، وكان الروم قد وضعوا حراسا من الرجال الانكليز والدانمركيين مزودين بالفؤوس الحربية (البلط) عند البوابة وعلى طول الطريق حتى الباب الرئيسي للقصر ، وعند دخولهم المبنى وجدوا الامبراطور اسحق مكتسيا بأردية غالية ، حتى لكان المرء يبحث عبثا ليجد رجلا في أي مكان يلبس بمثل هذا الغنى ، والى جانبه جلست الامبراطورة زوجته ، وهي امرأة جميلة جدا ، وكانت أخت ملك هنغاريا ، وكان هناك أيضا الكثير جدا من اللوردات والسيدات العظام حتى لقد كان هناك بالكاد مكان للتلفت ، وكانت السيدات بشكل خاص مكتسيات ومتزينات بثراء حتى أنه لم يكن يمكن أن يكون هناك من هن أجمل ، وكل الذين

كانوا في اليوم السالف ضد الامبراطور كانوا الآن شديدي الرغبة أن يضعوا أنفسهم تحت تصرفه ، وجـاء المبعـوثون ووقفـوا بين يدي الامبراطور في حين أضفى هـو وبقية الحـاشية عليهـم شرفـا كبيرا ، وقالوا للامبراطور إنهم يرغبون في التحدث معه بشكل خاص نيابة عن ابنه وبارونات الجيش ، فنهض ومضى الى غرفة أخرى ولم يأخذ معه أحد سوى الامبراطورة ومستشاره ومترجمه والمبعـوثين الأربعة ، وبموافقة مشتركة من رفاقه عمـل جيوفـري فيلهـاردين مارشال شامبين بمثابة ناطق باسمهم فخاطبه :«ياصاحب الجـلالة الامبراطورية إنك تعرف أي خدمات قـدمنا لابنك ، وتـدرك أننا قـد التزمنا بشروط اتفاقنا معه ، وأننا مع ذلك لا يمـكننا أن نسـمح له بالمجيء الى هنا ما لم يعطنا ضمانة للاتفاق الذي أبرمه معنا وهـو بناء على ذلك كابن لك يطلب منكم أن تصدقوا على هذا الميثـاق كمـا فعل هو نفسه ، وسأل الامبراطور : ما هي شروط هـذا الميثـاق ؟ فأجاب المبعوث : سأخبركم إن الشروط كمـا يلي : « أول كل شيء أن تضعوا كامل هذه الامبراطورية تحت سلطة روما التي انفصـلت عنها منذ زمان طويل ، ثـانيا أن تعـطوا ٢٠٠ر٠٠٠ مـارك فضي للجيش مع تموين لمدة سنة من المؤن للرجال مـن كل المراتـب ، وأن تنقلوا ١٠ر٠٠٠ رجل في سفنه الى مصر ، وأن تبقوهم هناك تحت تصرفه لمدة عام ، وأن تحتفظوا طيلة حياته وتحت تصرفه بمجموعة من ٥٠٠ فارس في أراضي ما وراء البحار لحراستها ، إن هذا هـو الميثاق الذي أبرمه ابنكم معنا ، وقد تـم تـأكيده بـالقسم وبعقـود مختومة ، وضمن علاوة على ذلك ومن قبل صـهركم الملك فيليب ملك المانيا ، ونرغب الآن أن تؤكدوه أنتم

ورد عليه الامبراطور كما يلي : إن هذه شروط قـاسية جـدا ولا أرى حقا كيف يمكننا أن نضعها موضع التنفيذ وفي الوقت نفسه إنكم قدمتم لابني ولي تلك الخدمات الرائعة ، وحتى لو أننا قـدمنا لكم كل امبراطوريتنا فلن تكون أكثر مما تستحقون ، وتم ابداء آراء مختلفة من كلا الجانبين خلال المقابلة ، ولكن في النهاية صـدق الامبـراطور على الاتفاق بدقة كما أبرمه ابنه وأكده بالقسم وبالعقود مع الأختـام

الذهبية المضافة ، واعطيت إحدى تلك الوثائق للمبعوثين ، الذين بعد أن استأذنوا من الامبراطور اسحق عادوا الى المعسكر ليخبروا البارونات بأنهم قد أنجزوا المهمة.

وبناء عليه امتطى البارونات خيولهم ، وأعادوا الشاب بابتهاج عظيم الى والده في القسطنطينية ، وعند وصوله فتح الروم له أبواب المدينة ، واحتفلوا بعودته بابتهاج عظيم ، وكثير من الولائم ، وكان السرور المشترك للأب والابن عظيما لانهما لم يريا بعضهما منذ زمن طويل ، ولانهما بعون الرب ، وبدعم الصليبيين قد انقذا من تلك الحالة من الفقر والبؤس ، ورفعا الى ذلك المستوى من القوة ، وهكذا كان هناك سرور في القسطنطينية ، ولم يكن السرور أقل في معسكر الصليبيين في الخارج ، بسبب الشرف والنصر الذي منحه الرب لقواتهم .

وفي اليوم التالي رجا الامبراطور وابنه البارونات باسم الرب أن يذهبوا ويعسكروا في الطرف الابعد في اتجاه استاذور ، حيث أنهم إذا أخذوا مراكزهم في القسطنطينية هناك مخاطرة بتفجر منازعات ستقوم بينهم وبين الروم ، ربما تدمر المدينة بسببها ، وأجاب البارونات بأنهم قد خدموا الأمير ووالده من قبل بطرق مختلفة جدا ، وهم اليوم لن يرفضوا أي طلب يمكن أن يطلباه ، وبناء عليه نصبوا خيامهم على الجانب الآخر من الميناء حيث عاشوا في هدوء وسلام مع تموين جيد ووفرة من الطعام .

ويمكنني أن أقول أن كثيرا من رجالنا ذهبوا لزيارة القسطنطينية لمشاهدة الكثير من القصور الفخمة والكنائس الشاهقة ، وليروا كل الثراء الرائع للمدينة ، التي كانت أفخم من أي مدينة أخرى منذ بداية الزمان ، أما بالنسبة للآثار فإن هذه كانت تفوق كل وصف ، لأنه كان هناك في ذلك الوقت من الكثرة في القسطنطينية بقدر ما كان في بقية العالم منها ، وهكذا أصبح الروم والفرنسيون

على وفاق مع بعضهم بعضا في كل النواحي بما في ذلك التجارة والامور الأخرى .

وبموافقة مشتركة من الفرنسيين والبنادقة والروم تقرر أن يتوج الامبراطور الجديد في يوم القديس بطرس في بداية شهر آب ، هكذا تقرر وهكذا كان ، وتم الاحتفال بتتويج ابن الامبراطور اسحق بالجلال نفسه والتشريف كما كانت عادة أباطرة الروم في تلك الأيام ، وبعد ذلك بوقت قصير بدأ الامبراطور يدفع بعض المال المترتب ووزع هذا بين القوات بطريقة خصص فيها لكل رجل المبلغ الذي دفعه لرحلته من البندقية

وكثيرا ما كان الامبراطور الجديد يأتي لزيارة البارونات في معسكرهم ، ويضفي عليهم شرفا عظيما بقدر ما كان يستطيع حقا ، وكان هذا بالطبع موافقا فقط بالنظر للخدمة العظيمة التي قدموها له وجاء يوما الى المعسكر ليجري مقابلة خاصة مع البارونات في مقر الكونت بلدوين دي فلاندرز ، ودعي دوج البندقية والبارونات الكبار سرا لهذا الاجتماع حيث قدم الامبراطور اقتراحا عرضه بقوله :« سادتي إنني امبراطور بفضل الرب وفضلكم ، وقد قدمتم لي أعظم خدمه قدمها أي شعب اخر على الاطلاق لأي رجل مسيحي ، وأحب أن تعرفوا أن عددا من شعبي لا يحبني مع أنهم يتظاهرون جيدا بذلك ، والروم ككل مليئون بالاستياء لأنه بمساعدتكم استعدت امبراطوريتي

إن تحالفكم مع أهل البندقية سيستمر فقط حتى عيد القديس ميكائيل ، وأنتم على وشك الرحيل قريبا ، ولا يمكنني أن آمل في تنفيذ كل ما وعدت بعمله من أجلكم في خلال هذه الفترة القصيرة ، ويجب أن أخبركم بأن الروم يكرهونني بسببكم وإذا تركتموني سأفقد امبراطوريتي وسيقتلونني ، ولهذا أطلب منكم هذا : إذا بقيتم هنا حتى آذار ، سأبقي اسطولكم في خدمتي لسنة أخرى ، تبدأ من عيد القديس ميكائيل ، ولن أتحمل فقط تكاليف

ابقاء أهل البندقية هنا ، بل سأعطيكم أيضا مثل تلك الاشياء التي تكونون في حاجة إليها حتى عيد الفصح ، وبحلول هذا الوقت أكون قد وطدت الامور في امبراطوريتي بحيث لاأفقدها مرة أخرى ، وهكذا أكون قادرا على المحافظة على معاهدتي معكم ، لانني سأكون قد تلقيت الاموال التي سترد الي من كل اراضي ، وسأتزود أيضا بالسفن حتى اتمكن من أن أذهب معكم بنفسي ، أو أرسلها مع جيشكم تماما كما وعدت .

وهكذا يكون لديكم كامل الصيف الذي يمكنكم فيه شن الحرب ضد العرب المسلمين وأجاب البارونات أنهم يحبون أن يتباحثوا في الأمر بشكل منفرد ، وكانوا يعرفون بوضوح تام بأن الامبراطور قد اعطاهم صورة حقيقية الحالة ، وكانوا مدركين تماما بأن مثل هذا المنهاج كما اقترحه كان أفضل سواء بالنسبة له أو لهم ، وقالوا له إنهم مع ذلك لا يمكنهم أن يوافقوا عليه إلا بالموافقة العامة الجيش ، وهم بناء عليه سيتحرون رأي الجيش في هذا الأمر ، وسيحيطونه علما بما يحدث ، وهكذا ذهب الامبراطور وعاد الى القسطنطينية ، وبقي البارونات في المعسكر وعقدوا في اليوم التالي مؤتمرا دعوا إليه الأمراء الكبار وقادة الجيش إلى جانب معظم الفرسان ، ونقل إليهم هنا طلب الامبراطور بالضبط كما طرحه .

وأدى هذا الاقتراح إلى الكثير من الخلاف في الاجتماع ، بالكثرة نفسها التي حدثت في مناسبات كثيرة أخرى أثارها الذين كانوا يريدون حل الجيش ، حيث أن الأمر كله بدا لهم أنه قد استمر طويلا ، وذكر الطرف الذي أثار الخلاف في كورفو والآخرين الآن بقسمهم ، وقالوا :« أعطونا السفن كما أقسمتم ان تفعلوا لأننا نريد أن نذهب الى سورية .

ورجاهم آخرون أن يصبروا وقالوا : « سادتنا لاجل الرب لا تدعو الشرف الذي منحنا إياه يصبح بلا جدوى ، فإذا ذهبنا الى

سورية الآن فإننا سنصل الى هناك في بداية الشتاء حيث يكون من المتعذر شن الحرب ، وهكذا فإن عمل الرب سيبقى دون تنفيذ ، ولكن إذا انتظرنا الى آذار فسنترك هذا الامبراطور راسخا بسلام ، ونمضي ونحن مزودين جيدا بالمال والمؤن ، وعندئذ يمكننا أن نذهب الى سورية ، ومن هناك نمضي في حملتنا على مصر ، وسيبقى اسطولنا على أي حال هنا معنا حتى عيد القديس ميكائيل وفي الواقع من عيد القديس ميكائيل ، الى عيد الفصح حيث أن البنادقة لا يمكنهم تركنا طالما كان الشتاء مستمرا ، وهذه هي الطريقة التي يمكننا بها الاستيلاء على أراضي ما وراء البحار ، ولم يبال الذين يريدون حل الجيش بأدنى شيء سواء أكانت هناك أسباب جيدة أو سيئة لفعل ذلك طالما أنه سيحدث ، ولكن الذين كانوا يريدون الابقاء على وحدة الجيش عملوا بفعالية كبيرة حتى انه في النهاية بعون الرب عقد البنادقة اتفاقا جديدا وثق بالقسم ليبقي الاسطول في خدمتنا سنة أخرى ، مقدرة من عيد القديس ميكائيل ، ويجب أن اضيف أن الامبراطور اليكسيوس قد دفع لهم ما يكفي ويستحق عناءهم ، واقسم الصليبيون من جانبهم قسما مغلظا أن يبقوا في تحالف مع البنادقة كما كانوا من قبل وللوقت نفسه ، وهكذا ترسخ السلام والوفاق في الجيش.

وبعد ذلك بوقت قصير عانينا من الحظ السيء ، فقد وقع ماثيو دي مونتمورنسي ، وهو أحد أفضل الفرسان في كل المملكة الفرنسية وواحدا من الذين كانوا يتمتعون بالحب والاحترام العميق فريسة المرض ، وتوفي وكان هناك حداد كبير على وفاته ، لأنها كانت خسارة كبيرة للجيش ، وكانت من أعظم الكوارث التي عانى منها حتى الآن بسبب موت أي رجل ، ودفن في كنيسة القديس يوحنا صاحب مشفى القدس .

وبعد ذلك بقليل وبناء على نصيحة الروم والفرنسيين غادر الامبراطور اليكسيوس مع حاشية كبيرة القسطنطينية بهدف توطيد السلام في كل أنحاء امبراطوريته ، وجعلها تحت سلطته ، وكان عدد

كبير من البارونات معه ، في حين تخلف الباقون لحراسة المعسكر ، وكان بين من صحبوا الامبراطور المركيز دي مونتفرات ، والكونت دي سانت بول ، واخو الكونت بلدوين ، هنري دي فلاندرز ، وجاك دي افنس ووليم دي شامبليت وهوغ دي كولني ، وعدد جيد من الآخرين الذين لم يذكروا هنا بالاسم ، وبقي الكونت بلدوين دي فلاندرز ودي هينوت في المعسكر مع الكونت لويس دي بلوا ودي شاتران والقسم الأعظم من الصليبيين .

وفي أثناء رحلة الامبراطور في مقاطعاته جاء كل الروم على كلا جانبي المضيق ليضعوا انفسهم تحت سلطته ويقسموا قسم الولاء له ، وأن يؤدوا له البيعة كسيد وأمير عليهم ، ولقد فعل الجميع هذا باستثناء جوهانيتزا ملك والاشيا وهنغاريا

وكان هذا الملك من اهل والاشيا ، وثار ضد أبيه وعمه وحار بهما عشرين عاما ، وفي النهاية كسب الكثير من أراضيهما منهما ، حتى أصبح ملكا قويا جدا ، وقد غزا في الواقع كثيرا من الاراضي على الجانب الشمالي والغربي من المضيق الذي كان يملك الان نصفه تقريبا ، ولم يحضر جوهانيتزا الى حيث كان الامبراطور ليضع نفسه تحت تصرفه ، ولم يعترف بسلطته •

وبينما كان الامبراطور الكسيوس غائبا في رحلته وقعت حادثة كانت لها نتائج مفجعة جدا في القسطنطينية ، فقد تورط الروم واللاتين الذين كانوا يعيشون في المدينة ــ وكان هناك الكثير جدا من الآخرين ــ في نزاع واشتبكوا في شجار، وقام أشخاص معينون لايمكنني أن أقول من كانوا ــ باشعال النار في المدينة حقدا وتعمدا للأذى ، وامتدت النار واصبحت مريعة جدا لدرجة أن أحدا لم يتمكن من إطفائها أو التحكم فيها ، وعندما رأى البارونات من معسكرهم على الجانب البعيد من الميناء المدينة وهي تلتهب ، غلبهم الأسى والاشفاق وهم يرقبون الكنائس الكبيرة والقصور الاميرية تتقوض وتتحول الى خرائب ، والشوارع الواسعة حيث كانت حوانيت

التجار واللهب يبتلعها ، ولكن لم يكن هناك ما يمكن عمله أمام هـذا وتقدمت النار فوق الميناء وهي تقتحم الأجزاء المكتظة بالسكان مـن المدينة ، وتمتد نحو البحر على الجانب الآخر على مقربة كبيرة مـن كنيسة سانت صوفيا القديمة ، واستمرت في هياجها اسبوعا كامـلا ولم يتمكن أحد من إطفائها ، وبرؤيتها من الأمـام وهـي تتـدحرج متقدمة بلهب كان عرضها يتجاوز فـرسخا ، وأي أضرار وقعـت أو أي ثروات وممتلكات دمرت في اللهب كان يفوق قـدرة الانسـان على الحساب ، وكان لايمـكن للمـرء أن يذكر عدد الرجـال والنسـاء والأطفال الذين هلكوا في ذلك الوقت لأن العـديدين احتـرقوا حتـى الموت .

وبعد الكارثة لم يتجرأ أحد من اللاتين المقيمين في القسـطنطينية بصرف النظر عن البلد الذي جاء منه على البقاء في المدينة بعد ذلك ، بل حاولوا مع زوجاتهم وأطفالهم وبعض ممتلكاتهم النجاة من النار فاتجهوا الى الميناء للاتجاه الى معسكر الصليبيين ، ولم يكن عددهم صغيرا بأي حال ، فلقد كان هناك في الواقع نحو خمسة عشرة ألفا ، منهم من كل مراتب الحياة ، وفيما بعد ثبت أن وصولهم كان له مزية كبيرة لنا ، وفي ذلك الوقت على أي حال قد أوجـد شرخـا بين الروم والفرنجة الذين لم يعودوا مطلقا مرة أخرى الى مثل علاقاتهم الودية التي كانت من قبل ، ولم يعرف أي جانب منهما مـن يلوم على هـذا البرود ، وقد كان ذلك عبئا ثقيلا على عقول كلا الطرفين .

وحول هذا الوقـت كان البـارونات وبقية الجيش في شـدة الاسى بسبب حادث حزين هو موت راعي دير لوس ، وهو راهـب حـكيم قدسي من مرتبة الرهبان البندكتيين الذين كانت لم دائما اهتمـامات قلبية بالجيش .

الفصل الحادي عشر

الدعوة للاسلاح

تشرين الثاني ١٢٠٣ ـ شباط ١٢٠٤

وغاب الامبراطور الكسيوس زمانا طويلا في رحلته في أنحاء الامبراطورية ، ولم يعد في الواقع الى القسطنطينية حتى عيد سانت مارتن ، وكان هناك سرور عظيم لدى وصوله ، وركب أمراء الروم وسيداتهم منطلقين من المدينة في مواكب طويلة لتحية أصدقائهم ، وجاءت جماعتنا أيضا للقاء رفاقهم الصليبيين ورحبوا بهم بحبور عظيم ، وبعد دخول القسطنطينية ، عاد الامبراطور الى قصر بلاشرين وعاد المركيز دي مونتفرات والبارونات الآخرون الى المعسكر .

وسريعا جدا شعر الامبراطور الشاب الذي تدبر أموره بشكل جيد جدا بالثقة في أنه قد كسب الآن اليد العليا مما ملأه عجبا ، واتخذ موقفا متعجرفا مع البارونات والذين قدموا له تلك الخدمة العظيمة ، ولم يعد يأتي لزيارتهم في المعسكر كما كان يفعل من قبل . وكانوا يرسلون اليه باستمرار يرجونه أن يدفع لهم باقي المال المستحق ، واستمر من جانبه في تسويفهم ومن آن لآخر كان يرسل اليهم مبالغ تافهة محددة ، ولكنه في النهاية انقطع عن دفع أي شيء لهم بالمرة .

وذهب المركيز دي مونتفرات الذي فعل الكثير من أجل الامبراطور وكان على علاقات ودية به أفضل من بقية البارونات الآخرين مرارا لرؤيته ، وكثيرا ما لامه في تلك المناسبات على الخطأ الذي كان يقع فيه تجاههم ، ولم يتوقف مطلقا عن بيان أنهم قدموا له من

الخدمات أعظم مما قدم لاي رجل آخر، ولكن الامبراطور كان دائما يطلب مهلة جديدة، ولم يحافظ مطلقا على أي من وعوده ، حتى أن البارونات اضطروا في النهاية الى الادراك بأنه أيا كانت مقاصده تجاههم فإنها كانت أي شيء آخر الا أن تكون طيبة .

وعند هذه النقطة عقدوا اجتماعا مع دوج البندقية ، قالوا فيه إنهم قد توصلوا الآن الى ادراك أن الامبراطور ليس في نيته الوفاء بأي اتفاق أبرمه معهم ، وأنه لم يخبرهم بالحقيقة ، وبناء عليه قرروا أن يرسلوا مبعوثين موثوقين ، لمواجهته وتذكرته بالخدمات التي قدموها له وطالبوه بالوفاء بعهده فاذا عرض أن يفعل مايطلبونه فان مبعوثيهم سيقبلون ذلك ، وان لم يفعل فانهم سيضطرون لتحديه وسيدعونه يعرف أن البارونات سيفعلون كل مافي مقدرتهم لاسترداد المال المستحق .

وكان المبعوثون المختارون لهذه المهمة بموافقة عامة هم راهب دي بيثون وجيوفري دي فيلهاردين ، ومارشال دي شامبين ، وميلون لوبربانت دي بروفان الى جانب ثلاثة من مستشاري دوج البندقية الرئيسيين الذين عينهم للذهاب مع المجموعة وركبوا جميعهم خيولهم معا والسيوف على جنوبهم الى قصر بلاشرين ، ولاحاجة للقول بالنسبة للطبيعة الخيانية للروم . فقد وجدوهم قد شرعوا في تنفيذ مهمة صعبة وخطرة .

وترجلوا عند البوابة ودخلوا القصر حيث وجدوا الامبراطور الكسيوس ووالده الامبراطور اسحق يجلسان على عرشين جنبا الى جنب ، وعلى مقربة منهما تجلس الامبراطورة زوجة الاب وخالة الامبراطور الابن ، وهي سيدة طيبة وجميلة وكانت اخت ملك هنغاريا ، وكان عدد كبير من المرتبة الراقية حاضرين معطية الاجتماع كل السمات الموحية ببلاط قوي .

وبموافقة مشتركة من المبعوثين الآخرين عمل راهب دي بيثون ، وهو رجل عالي الذكاء زلق اللسان ، كناطق رسمي لهم ، وشرع

يقول : ياصاحب الجلالة الامبراطورية لقد جئناكم نيابة عن بارونات الجيش ودوج البندقية ، وهم يريدون منا أن نذكركم بالخدمات التى قدموها لكم وهي معروفة للجميع ، ومعترف بهـا مـن الجميع وقـد اقسمتم انتم ووالدكم على الوفاء بميثاقكم معهم ولديهم عقودكم التي تثبت ذلك ، وانكم مع ذلك ، لم تنفذوا هذا الاتفاق كما تـوجب عليكم ان تفعلوا .

وقد دعاكم ياسولانا أمراؤنا مرات عديدة كي تفعلوا ذلك ، ونحـن الآن ندعوكم باسمهم وبحضور كل نبلائكم أن تنفذوا العقـد المبـرم بيننا وبينكم فإذا فعلتـم ذلك سـيكونون في غاية السرور ، وان لم تفعلوا فانهم لن يعودوا يعتبـرونكم اميرا وصـديقا لهـم بـل سيستخدمون كل وسيلة في وسعهم للحصول على استحقاقهم ، وقد طلبوا منا أن نخبركم انهم لن يفعلوا شـيئا يصـيبكم أو يضر بـأي شخص لغر بدون إنذار مشروع بنواياهم في بدء الخصومة ، لأنهـم لم يتصرفوا مطلقا بشكل خياني ، فهذه ليست العادة في بلادهم ، لقد سمعتم الآن ماعلينا أن نقوله والأمر لكم لتقرير اي إجراء تـريدون اتخاذه .

وكان الروم في غاية الدهشة وصـدموا بعمـق بهـذه الرسـالة الصريحة في تحديها ، واعلنوا انه مامن احد حتـى الان بلغـت بـه الجرأة حد القيام بمثل هذا لامبـراطور في القسـطنطينية في قـاعته وعبس الامبراطور الكسيوس نفسه الذي كثيرا جدا مـا حياهـم في الماضي بوجه باسم ، لقد قطب الان وحدق بضراوة في المبعوثين وكذلك فعل كل الروم الاخرين .

وملأ ضجيج الاصوات الغـاضبة القـاعة ـ وتحـول المبعـوثون للانصراف ، واخذوا طريقهم نحو البوابة وامتطوا خيولهم ولم يكن احد بينهم الا بالغ السرور إذ وجد نفسـه في الخـارج ولم يكن هـذا مدهشا بالمرة اذ انهم بالكاد قد نجوا من خطر كبير جدا سواء بالقتل او السجن ، وفي عودتهم الى المعسكر اخبروا البارونات كيف نفذوا مهمتهم .

و هكذا بدأت الحرب وبذل كل جانب قصارى جهده لايذاء الاخـر سواء في البر أو البحر ، وحارب الجيشان ضد بعضهما بعضا في أماكن عديدة مختلفة ولكن ـ ولله الحمد ـ إنهم لم يلتقوا مـطلقا في معركة بدون خسائر اكبر من الجانب الرومـي منهـا مـن الجـانب الفرنسي ، واستمرت الحرب زمانا طويلا جـدا ، في وسـط الشـتاء بالضبط ٠

وأخيرا فكر الروم في وضع خطة مـرعبة جـدا مـوضع التنفيذ ، فأخذوا سبع عشرة سفينة عظيمة ومـلأوها تمـاما بـكتل الخشـب والنشارة والقار وخيوط الكتان والبراميل الخشبية ، ثـم انتـظروا حتى أخذت الريح تهب من جانب الماء الذي هـم فيه ، وفي السـاعة الثانية عشرة من إحدى الليالي اشـعلوا النار في السـفن وتـركوها تنساب وجميع أشرعتها منشورة للرياح ، وارتفع اللهب منهـا عاليا جدا حتى بدا كما لو أن الدنيا كلها كانت مشتعلة ٠

واتجهت السفن مبحرة في اتجاه اسطول الصليبيين ، وصـدحت أبواق الانذار وقفز الرجال من كل مكان في المعسكر الى السـلاح ، وأسرع البنادقة والاخرون الذين كانت لديهم سـفن الى ظهـورها ، وكافحوا بكل قوتهم البدنية لاخراجها مـن مجـال الخـطر . ويؤكد جيوفري دي فيلهاردين الذي صنف هذا التاريخ ، وكان شاهد عيان لهذه الحادثة ، أنه لم يدافع أي رجال عن أنفسهم مـطلقا في البحـر بشهامة أكثر مما فعل البنادقة في تلك الليلة ، لقد وثبوا الى الشواني والى المراكب الطويلة وفي وجه العدو ، أمسكوا بسفن النار وكلهـا متأججة باللهب بكلابات حديدية وأخذوا يجرونها بقـوة الى خـارج الميناء في التيار الرئيس للمضيق ، وتركوها لتنجـرف محتـرقة الى البحر ٠

وجاء كثير من الروم الى حافة الماء حتـى بـدا أنهـم بـلا نهاية ، وكانت الجلبة التي صدرت عنهم عظيمة حتى لتـظن أن كلا من الارض والبحر ابتلعـا ، وتسـاءلوا أي قـارب أمـكنهم أن

يجدوه ، وأخذوا يطلقون سلاحهم نحو رجالنا كما لو كانوا يحاربون اللهب ، حتى أن كثيرا منهم قد جرح .

وحالما سمعوا الدعوة الى حمل السلاح ، تأهب كل الفرسان في المعسكر وانتظمت كتائبنا الآن في نظام عشوائي نوعا ما ، تبعا للمسافة التي كانت تفصلهم عن مراكزهم ، وكانوا يخشون أن يتقدم الروم من ذلك الاتجاه لمهاجمتهم .

وتحمل رجالنا كل هذا الكدح والكرب حتى ظهر الضوء ، ولكننا بعون الرب لم نفقد شيئا سوى سفينة تجارية محملة ببضائع من بيزا اشتعلت فيها النيران وغرقت ، لقد كنا جميعا في خطر محدق تلك الليلة ، لانه لو احترق اسطولنا لضاع كل شيء منا ولما تمكنا من النجاة سواء بطريق البحر او البر ، وهكذا كان الجزاء الذي أراده الامبراطور الكسيوس لنا عن الخدمات التي قدمناها له .

والآن وقد أبدى الروم مثل هذا الموقف العدائي للفرنجة ادرك بعضهم انه لاأمل هناك في السلام ، لهذا تآمروا معا سرا على خيانة أميرهم ، وكان بينهم واحد كان موضع اعتبار الامبراطور ، وكان قد فعل الكثير ليوقع بينه وبين الفرنجة أكثر من أي واحد آخر ، وكان اسم ذلك الرجل مرزوفلوس .

وبالعمل بنصيحة وموافقة الآخرين ، وفي احدى الليالي وفي نحو الساعة الثانية عشرة ، وبينما كان الامبراطور الكسيوس نائما في غرفته انتزع مرزوفلوس ولخرون ممن كان يفترض أنهم يحرسونه ، انتزعوا الامبراطور من فراشه واقتادوه الى السجن والقوا به في برج محصن ، ثم بمساعدة وموافقة الروم الآخرين ارتدى مرزوفلوس الاحذية القرمزية ، وجعل من نفسه امبراطورا ، وتوج فيما بعد في سانت صوفيا ، وهل سمعت أبدا بشعب ارتكب مثل هذه الخيانة الشنيعة !

وعند سماع أن ابنه قد أخذ سجينا وأن مرزوفلوس قد توج بدلا

عنه ، غلب على الامبراطور اسحق الخوف حتى وقع في المرض وتوفي في برهة قصيرة من الزمن ، أما بالنسبة لابن اسحق الذي وضعه مرزو فلوس في السجن ، فانه قد أمر باعطائه السم مرتين أو ثلاثة ولكن لم تكن مشيئة الرب أن يموت بهذه الطريقة ، وفيما بعد ذهب مرزو فلوس الى الشاب وخنقه ، ثم أطلقت بالتالي رواية في كل مكان بأن وفاته كانت لاسباب طبيعية ، وأمر مرزوفلوس بدفنه باحتفال وأبهة كما يليق بامبراطور وأقام عرضا عظيما من الحداد على وفاته ولكن القتل لا يمكن اخفاؤه ، وسرعان ما علم كل من الروم والفرنسيين بأن مثل هذه الجريمة قد ارتكبت ، وبالطريقة التي ذكرتها ، وعقد بارونات الجيش ودوج البندقية مؤتمرا حضره أيضا الاساقفة والاكليروس .

واتفق كل الاكليروس ولاسيما الذين كان لديهم تفويض خاص من البابا على أن يبينوا للبارونات والصليبيين الآخرين أن كل من حمل إثم مثل هذا القتل لاحق له في امتلاك الاراضي ، في حين أن الذين وافقوا على مثل هذا الشيء كانوا شركاء في هذه الجريمة ، وفوق كل شيء إن الروم كشعب قد انسحب من كنيسة روما ، ونحن بناء على ذلك نخبركم ، هكذا قال رجال الاكليروس ، بأن هذه الحرب عادلة ومشروعة ، واذا حاربتهم بالاستيلاء على هذه الارض بالنية السليمة لوضعها تحت سلطة روما ، فان كل من يموت منكم بعد الاعتراف سيفيد من الغفران الذي منحه البابا ، وقد ارتاح البارونات وكل الصليبيين الاخرين وتشجعوا كثيرا بهذا التأكيد .

واحتدمت الحرب بضراوة بين الفرنجة والروم واستمرت بلا هوادة وهي تزداد عنفا ، حتى انه كان لايمضي يوم دون اشتباك سواء في البر او البحر ، وعند احدى المراحل ركب اخو كونت فلاندرز هنري في عملية استطلاع ، واخذ معه قسما كبيرا من افضل الرجال في المعسكر وكان بينهم جاك دي أفنسس وبلدوين دي بوفوا ويودس دي شامبليت وأخيه غوليوم ، وأخرين من قسمهم نفسه من البلد ، وغادروا المعسكر حوالي الساعة السادسة من احدى الامسيات ،

وركبوا طول الليل ، وفي وقت متاخر من صباح اليوم التالي ، وصلوا الى مدينة فيليا الجميلة ، التي استولوا عليها ٠

وغنموا هناك كثيرا من الاسلاب في صورة ماشية وملابس اضافة الى عدد كبير من الاسرى ، ووضعوا هؤلاء في قوارب وارسلوهم عبر المضيق الى المعسكر ، لان تلك المدينة كانت تقع على شواطيء بحر يوكسين ، وأمضوا يومين في فيليا ، يتمتعون بالوفير من طلب الغذاء ، لأن المدينة كانت وفيرة الامداد بالطعام ، وفي اليوم الثالث غادروها مع الماشية والغنائم الاخرى وبدأوا عائدين الى المعسكر ، وكان الامبراطور مرزو فلوس قد سمع تلك الاثناء انباء تحركاتهم ، وهكذا غادر القسطنطينية ليلا مع جيش كبير من القوات ، ونصبوا كمينا على الطريق الذي كان على رجالنا أن يسيروا فيه في رحلة عودتهم ، وراقبهم وركبهم يمر مع حيواناتهم وأسلابهم ، جماعة بعد أخرى حتى وصلت المؤخرة التي كانت تحت قيادة هنري دي فلاندرز ، وكانت مشكلة من شعبه ممن جاء الى مسرح الاحداث ، ثم اندفع مرزوفلوس من الكمين ليهاجمهم بينما كانوا يدخلون في غابة ، واستدار الفرنسيون لمواجهتهم ووقعت معركة شرسة ، وبمعونة الرب هزم مرزوفلوس وتمكن بصعوبة بالغة من النجاة من الاسر ، وفقد علمه الامبراطوري وأيقونة كان يحملها دائما أمامه ، وكانت أيقونة وضع فيها هو والروم الاخرون ثقة كبيرة لأنها كانت تحمل صورة سيدتنا العذراء ، والى جانب هذا قتل نحو عشرين من فرسانه .

ومع أن مرزوفلوس عانى من الهزيمة استمرت الحرب بين قواته والفرنجة في الاندلاع بضرواة ، وفي هذا الوقت كان قد مضي قسم كبير من الشتاء ، وكان الوقت الان قريبا من عيد تطهير مريم العذراء وكان الصوم الكبير وشيكا ٠

الفصل الثاني عشر

الحصار الثاني للقسطنطينية

شباط نيسان ١٢٠٤

ولهذه اللحظة سأتحول من الجيش المخيم أمام القسطنطينية ، لأتحدث عن الرجال الذين ذهبوا الى موانيء أخرى ، وأولئك الذين كانوا في الاسطول الفلمنكي الذي أمضى الشتاء في مرسيليا ، فقد أبحر كل هؤلاء الى سورية حالما حل طقس أدفأ ، وقد فاق عددهم عدد الذين اشتبكوا في القتال مع الروم ، ودعني أقول وا أسفاه إنهم لم يأتوا للانضمام الى جيشنا ولو أنهم فقط فعلوا ذلك لكسبت قضية المسيحية منافع دائمة ، ولكن بسبب آثامهم لم يسمح الرب بها ، وأثبت مناخ سورية أنه مهلك لبعضهم وعاد آخرون الى بلادهم ، ولم يفعل واحد منهم شيئا مفيدا أو ذا قيمة في الأرض التي ذهبوا اليها .

وانطلقت مجموعة واحدة منهم وكلها من الرجال الجيدين جدا الى أنطاكية ، للانضمام الى بوهمند أمير أنطاكية وكونت طرابلس الذي كان في حرب مع الملك ليون ملك أرمينيا ، وقد أرادوا أن يخدموا الأمير كجنود مرتزقة ، وما أن سمع أتراك تلك البلاد بمجيئهم حتى نصبوا كمينا عند النقطة التي سيمرون بها ، وحالما جاءوا اليها هاجموهم وكان نصيب الفرنسيين هو الاسوأ في هذا القتال ، حتى أنه لم ينج منهم أحد ، وجميعهم إما قتل أو أسر .

وكان بين القتلى في تلك المواجهة فيلين دي نالي ، وكان واحدا من أفضل الفرسان في العالم ، واجليز دي ترا سيغني وعدد كبير آخر ، وكان بين الأسرى والسجناء برنارد دي موريل ، وريذود دي دامبير ، وجين دي فيللير ، وغوليوم دي نيللي أحد النفوس الحية والأكثر براعة ، وفي الحقيقة إنه من بين الثمانين فارسا الذين كونوا

هذه المجموعة لم ينج أحد كما قلت ، ويعطي هذا الكتاب في الواقع براهين وفيرة على أنه من بين أولئك الذين تـواذوا عن الانضمام للجيش في البندقية لم يكن هناك واحد لم يعان ضررا أو جلب لنفسه العار ، وهذا هو السبب في أن المرء يمكن أن يقول إن الرجل حكيما عندما يختار اتباع المسار الافضل ويلتزم به .

وسأترك هذا الموضوع الآن وأعود الى القوات التي كانت أمام القسطنطينية ، لقد وضع هؤلاء كل آلاتهم في وضع العمل ونصبوا عرادعتهم ومنجنيقاتهم وكل جهاز اخر نا فائدة للاستيلاء على المدينة ، وكل سفنهم الحربية وسفن النقل ، ورفعوا سلالم تسلق الأسوار عالية على عوارض السفن ذات الاشرعة مثلثة الشكل ، حتى لقد كان المنظر مثيرا العجب .

أما الروم من جانبهم وقد رأوا هذه الاستعدادات الجارية ، فقد بدأوا في تقوية دفاعات المدينة التي كانت بالفعل جيدة التحصين خلف الأسوار العالية والأبراج ، ومع ذلك لم يكن هناك برج عال جدا لم يضيفوا اليه طابقين خشبيين أو ثلاثة اليه لتعليته أكثر ، وفي الواقع ما من مدينة حصنت قط بشكل جيد مثلها ، وبهذه الطريقة استنفد كل من الروم والفرنجة وقتهم وهم يعملون باستمرار أثناء القسم الأعظم من الصوم الكبير .

وعقد البارونات الآن مؤتمرا لمناقشة أي خطة عمل يمكن تبنيها ، وقدمت اقتراحات مختلفة عديدة ، ولكن في النهاية اتخذت القرارات التالية : اذا تمكنوا بفضل الرب من شق طريقهم بالقوة الى داخل المدينة فانهم سيجمعون الغنائم في مكان واحد ، ويقسمونها بشكل صحيح وعادل بين القوات ، واذا أحرزوا بالاضافة الى ذلك سيطرة تامة على المدينة فانهم سيختارون ستة رجال من الجيش الفرنسي وستة من بين البنادقة ، وسيطلب من كل منهم أن يقسم على الانجيل المقدس بأنهم سينتخبون كامبراطور لهم الرجل الذي يعدونه أكثر صلاحا للحكم لافضل مصالح الدولة ، وأيا كان من سينتخب

هكذا امبراطورا ستكون حصته ربع الغنائم سواء مع المدينة أو بدونها ، وسيملك أيضا قصر بوكليون وبلاشرين ، أما الارباع الثلاثة الباقية من الغنيمة فستقسم الى قسمين متساويين يخصص أحدهما للبنادقة والثاني للفرنسيين ، وبعد ذلك سينتخبون اثني عشر من أحكم وأقدر الرجال في الجيش الفرنسي ، واثني عشر بالقدر نفسه والمكانة والاهلية من البنادقة ، ليكونوا مسؤولين عن تخصيص الاقطاعات والمناصب ، وتحديد أي خدمات يجب أن تقدم للامبراطور من أجل هذه الامتيازات والتشريفات ، وقد تأكد هذا الاتفاق بالقسم من جانب الفرنسيين والبنادقة على السواء ، مع اشتراط أنه عند نهاية آذار من السنة التالية إن كل من يريد أن يترك يكون حرا في أن يذهب الى حيث يحب ، وسيصبح الذين يبقون تحت سلطة الامبراطور ليؤدوا له من الخدمات ما يتطلب .

ولانهاء الميثاق أضيفت عبارة ختامية تنص على أن أي شخص يخفق في الالتزام بشروطه يقع تحت طائلة الحرمان من الكنيسة .

وكان الاسطول الآن حسن التجهيز والتسلح ، وتم تحميل كل المؤن التي قد يحتاج اليها الصليبيون ، وفي يوم الخميس الذي تلا أحد منتصف الصوم الكبير صعدت جميع القوات الى السفن الحربية ، ووضعت الخيول في سفن النقل ، وكان لكل فرقة سفنها الخاصة ، وقد صفت الواحدة بجانب الأخرى ، وكانت السفن الحربية تتناوب مع الشواني وسفن النقل ، وأؤكد لكم لقد كان منظرا رائعا :

أن نرى الاسطول وقد وضع في تشكيل القتال في خط ممتد الى ما يزيد عن فرسخ فرنسي بكثير ، وفي صباح الجمعة اقتربت السفن الحربية والشواني والمراكب الاخرى من المدينة في النظام المحدد وبدأت بشن هجوم ضار مصمم ، ونزل الصليبيون في أماكن عديدة الى البر وتقدموا رأسا نحو الاسوار وفي مواضع كثيرة أخرى أصبحت سلالم التسلق التي كانت على السفن قريبة جدا من شرافات الاسوار ، حتى أن الذين كانوا على الاسوار والابراج

تشابكت حرابهم يدا بيد مع مهاجمتهم ، واستمر الهجـوم سريعـا وضاريا وقويا في أكثر من مائة مكان حتى نحو الساعة الثالثة بعـد الظهر ، ولكن بسبب ذنوبنا صدت قواتنا في هـذا الهجـوم ، وتـم ارغام أولئك الذين نزلوا من الشواني وسفن النقل على التراجع الى ظهور السفن ويجب أن أقر أنه في ذلك اليوم فقد جيشنا من الرجال أكثر مما فقد الروم ، وأن الاخرين كانوا مبتهجين جـدا واذسـحب بعض رجالنا من الهجوم وخرجوا بسفنهم من المعركة وترك آخرون سفنهم راسية بمراسيها قريبا جدا من أسـوار المدينة حتـى أن كل جانب كان بامكانه أن يقذف بـالاحجار مـن عراداتـه ومنجنيقـاته الطرف الآخر .

وذلك المساء في نحو الساعة السادسة اجتمـع البـارونات ودوج البندقية في مؤتمر في كنيسة في الطرف الاقصى في الميناء ، قريب مـن حيث كانوا يعسكرون ، وتم تبادل الكثير من وجهات النظر المختلفـة وفي ذلك الاجتماع كان الفرنسيون بشكل خاص مكتئبين جدا بسـبب التراجع الذي عانوا معه ذلك اليوم ، ونصح عدد كبير من الحاضرين بالقيام بهجوم على المدينة من جانب اخـر ، مـن مـكان تـكون فيه الدفاعات أضعف ، وبين البنادقـة الذين كانت لديهـم خبـرة أكثـر بالبحر أنهم إذا ذهبـوا الى ذلك الجـانب فإن التيار سـيجرفهم في المضيق وسيعجزون عن ايقاف سفنهم ، وكان هناك كمـا يجـب أن اقول أناس معينون في الجماعة كان يمكن أن يكونوا مسرورين جـدا فقط لو أن التيار جرفهم في المضيق ، أو أن الريح فعلت ذلك ، لانهم لم يكونوا يبالون أين ينهبون ، طالما أنهـم سـيتركون تلك الأرض وراءهم ، ويمضون في سبيلهم ، ولم يكن هذا مثار العجب لأننا كنا في خطر شديد في ذلك الوقت .

وبعد كثير من النقاش ، تـم اتخـاذ القـرار بتمضـية اليوم التالي ، وكان يوم أحد ، كله في اصلاح الأضرار التي لحقت بالسفن والتجهيزات ، وتجديد الهجـوم يوم الاثنين . وفي هـذه المرة كانوا سيربطون السفن التي تحمل سلالم التسلق كل اثنتين معا ، حتـى

إن كل زوج يمكنه أن يقوم بهجوم مشترك على برج واحد . وتم تبنى هذه الخطة ، لأنهم في اشتباك ذلك اليوم لاحظوا أنه عندما تهاجم سفينة واحدة فقط كل برج ، كان عدد الرجال على البرج أكبر من عدد الرجال على السلم ، وهذا ما كان يجعل تلك المهمة أثقل من أن تتولاها سفينة وحدها ، وبناء على ذلك كان من المعقول الافتراض بأن سفينتين معا ستكونان أقدر على احداث ضرر أكثر مما تحدثه واحدة ، ونفذت هذه الخطة لربط السفن في أزواج بينما كانت القوات تتأهب يومي السبت والأحد .

وفي هذه الأثناء جاء الامبراطور مرزوفلوس ليعسكر بكل قواته في العراء في مواجهة خطوطنا مباشرة ، ونصب خيامه القرمزية هناك ، وهكذا بقيت الأمور حتى صباح الاثنين ، حيث أعد كل الرجال على مختلف السفن أسلحتهم ومعداتهم ، وكان أهالي القسطنطينية الآن أقل خوفا بكثير من قواتنا منهم في وقت هجومنا الأول ، وكانوا في الواقع في مزاج ينطوي على الثقة حتى أنه على طول الأسوار والأبراج لم يكن يرى سوى الناس ، ثم بدأ الهجوم ، هجوم ضار عظيم ، بينما كانت كل سفينة توجه في مسار مستقيم نحو الأمام ، وقد أوجدت الصيحات المنبعثة من المعركة ضجيجا بدا معه كما لو أن الأرض جميعها قد تقوضت الى قطع .

وقد استمر الهجوم زمانا طويلا حتى هيأ الرب لنا ريحا تدعى البورياس دفعت بالسفن الى مسافة أبعد نحو الشاطيء واقتربت سفينتان من السفن المربوطة معا واحدة تدعى الحج والثانية الفردوس الى درجة كبيرة من أحد الابراج واحدة ، من جانب والثانية من الجانب الآخر ، وبينما كان الرب والريح يدفعان بهما الى الأمام اتصل سلم الحج بالبرج ، وعلى الفور شق أحد البنادقة طريقه برفقة أحد الفرسان الفرنسيين ويدعى اندريه ديربواز نحو الداخل وبدأ الرجال الآخرون يتبعونهما ، وفي النهاية تمت هزيمة المدافعين واخراجهم وفي اللحظة التي رأى فيها الفرسان الذين كانوا

على ظهر سفن النقل هذا يحدث نزلوا ، وبرفع سلالمهم على الجدار صعدوا الى القمة واخذوا برجين آخرين ثم بدات بقية القوات تقفز من السفن الحربية والشواني وسفن النقل باندفاع كل باسرع ما يستطيع ، وحطموا نحو ثلاثة من الابواب ودخلوا المدينة ، ثم اخرجت الخيول من سفن النقل وركب الفرسان وساروا مباشرة نحو المكان حيث كان معسكر الامبراطور مرزوفلوس ، وكان قد صف كتائبه امام الخيام ، ولكنهم ما أن راوا الرجال يحملون عليهم على ظهور الخيل حتى تراجعوا في فوضى وهرب الامبراطور نفسه عبر شوارع المدينة الى قصر بوكليون ، وتبع ذلك مشهد مذبحة ونهب وفي كل مجال كان الروم عاجزين ، واخذت خيولهم وأمهارهم وبغالهم وممتلكاتهم الأخرى كغنائم ، وكان عدد القتلى والجرحى عظيما حتى المرء ليعجز عن احصائهم ، وهرب قسم كبير من النبلاء الروم باتجاه بوابة بلاشرين ولكن بحلول هذا الوقت كانت الساعة بعد السادسة مساء وكان رجالنا قد أصبحوا منهكين من القتال والذبح ، وبدأت القوات تتجمع في ساحة كبيرة بداخل القسطنطينية ، ثم اقتناعا بانه يلزمهم على الأقل شهر لاخضاع كل المدينة بكل كنائسها الكبيرة وقصورها والناس بداخلها ، قرروا أن يستقروا قرب الأسوار التي استولوا عليها من قبل .

وتم كل شيء حسب الخطة ، وعسكر القسم الرئيسي من الجيش على مقربة من السفن خارج شرافات الاسوار ، واقام الكونت بلدوين دي فلاندرز في الخيام القرمزية التي تركها الامبراطور مرزوفلوس منصوبة ، وتمركز أخوه هنري أمام قصر بلاشرين ، في حين بقي المركيز دي مونتفرات ورجاله قرب الأجزاء الأكثر ازدحاما بالسكان في المدينة . وهكذا تمركز كامل الجيش داخل وحول القسطنطينية التي أخذتها قواتنا يوم الاثنين قبل أحد سعف النخيل ، ويجب أن أضيف أن الكونت لويس دي بلوا كان يعاني كل الشتاء من حمى الربع (الملاريا أو البرداء) ولم يكن معافى بدرجة كافية ليتسلح كالباقين ، وكان هذا سوء حظ كبير للجيش ، حيث

أنه كان فارسا جيد جدا وباسلا ، وقد لزم الفراش في احدى سفن النقل .

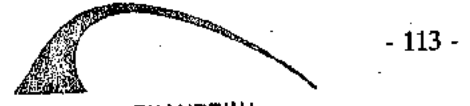
واستراحت قواتنا المجهدة بل المنهكة تماما في هدوء تلك الليلة ، ولكن الامبراطور مرزوفلوس لم يسترح ، وبدلا من ذلك جمع قواته وقال إنه سيهاجم الفرنجة ، ولكنه على أي حال لم يفعل ذلك كما أعلن ، ولكنه ركب على طول شوارع معنية أبعد ما يمكن من تلك التي كان جيشنا يحتلها حتى وصل الى باب يدعى الباب الذهبي حيث هرب عبره ، وهكذا غادر المدينة ، وتبعه في هروبه كل الروم الذين أمكنهم تدبر ذلك ، ولكن جيشنا لم يعلم شيئا مطلقا عن كل هذا .

وخلال تلك الليلة ، وقرب المكان الذي عسكر فيه المركيز دي مونتفرات أشعل بعض الناس المجهولين ، وقد خشوا من أن يداهمهم العدو النار في الأبنية ، الواقعة بينهم وبين الروم .

وبدأت النار تمسك بالمدينة ، التي سرعان ما أصبحت تلتهب بضراوة وراحت تحترق كل تلك الليلة وطيلة اليوم التالي حتى المساء وكان هذا هو الحريق الثالث للاسطنطينية منذ أن وصل الفرنسيون والبنادقة الى الأرض ، وقد احترق من البيوت في تلك المدينة أكثر من عدد البيوت الموجودة في أي ثلاثة من أكبر المدن في مملكة فرنسا

ومضت تلك الليلة وجاء اليوم التالي ، وكان يوم خميس وفي الصباح الباكر من هذا اليوم تسلحت كل القوات من فرسان ومشاة على السواء ومضى كل رجل للانضمام إلى فرقته ، وتركوا مراكزهم وهم يعتقدون بأنهم سيلاقون مقاومة أقوى من تلك التي واجهوها في اليوم السالف ، إذ أنهم لم يعلموا أن الامبراطور قد هرب خلال الليل ، ولكنهم لم يجدوا أحدا يقاومهم .

وركب المركيز دي مونتفرات مباشرة على طول الشاطىء الى قصر بوكوليون ، وحالما وصل الى هناك سلم له المكان ، شريطة



الايقـاء على حياة الناس الموجـودين فيه ، وبين هؤلاء كانت أعداد كبيرة جدا من السـيدات مـن أعلى المراتـب الذين التجـأوا هناك ، وبينهم الامبراطورة أغنس أخت ملك فرنسا ، والامبراطورة ماري أخـت ملك هنغـاريا ، وعدد مـن السـيدات النبيلات الأخريات ، وتعوزني الكلمات عندما أتي الى وصـف الكنوز التـي وجدت في ذلك القصر ، لأنه كان هناك مخزون من الأشياء الثمينة لا يمكن للمرء أن يحصيه ، وفي الطريقة نفسها التي سـلم فيهـا قصر بوكليون للمركيز مونتفرات سلم قصر بلاشرين لهنري أخـي الكونت دي فلاندرز ووفق الشروط نفسها ، وهناك أيضا وجد مخزون كبير من الكنوز لا يقل عما كان في قصر بـوكوليون وقـد وضـع كل مـن المركيز دي مـونتفرات وهنري دي فـلاندرز حـاميه في القصر الذي استسلم له ووضع حرسا على الكنوز .

وانتشرت بقية الجيش في انحاء المدينة وغنموا الكثير حقـا مـن الاسلاب ، حتى أن احدا لم يتمكن من تقـدير مقـدارها أو قيمتهـا وشملت الذهب والفضة وأدوات المائدة والاحجـار الثمينة والحـرير والساتين ، وعباءات فراء السنجاب والقـاقم والفـراء الأبيض أو المنقط بالبياض وكل شيء منقـى يمـكن أن يوجـد على هـذه الأرض ، ويعلن جيوفري دي فيلهـاردين هنا أنه حسـب علمـه لم تجمع مطلقا غنائم بهذه الكثرة من أي مدينة منذ خلق العالم ، واتخذ كل واحـد مـركزا حيث يريد ولم يكن هناك أي نقص في المسـاكن الجميلة في تلك المدينة ، لذا نزلت قـوات الصـليبيين والبنادقـة في مساكن مناسبة وابتهجوا جميعـا واتجهـوا بـالشكر للرب للشرف والنصر الذي منحه لهم ، حتى أن الذين كانوا فقراء باتوا يعيشـون الآن في غنى وترف وهكذا احتفلوا بأحد السعف ويوم الفصـح الذي تلاه بقلوب عامرة بالسرور للمنافـع التـي وهبهـا ربنا ومخلصـنا لهم ، لأنهم يجب أن يحمدوه جيدا ، إذ أن جيشهم الذي كان لا يعد أكثر مـن عشرين الف رجـل قـد انتصر على اربعمـائة الف أو أكثر ، وذلك في أعظم وأقوى وأكثر مدينة تحصينا في العالم .

الفصل الثالث عشر

انتخاب الامبراطور

نيسان ـ أيار ـ ١٢٠٤

أصدر المركيز مونتفرات القائد الاعلى للجيش الآن نيابة عن البارونات ودوج البندقية أمرا عاما للقوات أن يجمعوا وأن يحضروا كل الغنائم كما تم الاتفاق المؤكد بالقسم وتحت طائلة الحرمان من الكنيسة ، وخصصت ثلاث كنائس لاستقبال الغنائم وعين بعض أبرز الموثوقين من الرجال بين الفرنسيين ، والبنادقة في كل منها العمل كحراس وبدأ كل رجل في احضار الغنائم كما اخذها ، وأدى بعضهم هذا الواجب بضمير وآخرون بدافع الشهرة وهي مصدر الشر الذي لا يخيب أبدا واثبتوا أنهم أقل أمانة ، ومنذ البداية الأولى بدأ الذين كانوا ميالين لهذا الاثم في حجب بعض الأشياء وأصبحوا بالتالي أقل ارضاء للرب ، آه أيها الرب كم كانوا مخلصين في تصرفهم حتى الآن ، وحتى الآن في كل ما تعهدوا به أظهر الرب عنايته الكريمة لهم ، ورفعهم فوق كل الشعوب الاخرى ، ولكن كل من يفعلون الصواب عليهم أن يعانوا كثيرا بسبب سوء أعمال الخاطئين .

وفي هذه الحالة عندما تجمع مكاسب الجيش من مال وعين ، كان يحدث أن لا تسلم كل الكمية ، وكان هناك الكثير في الواقع ممن كانوا يغلون دون رادع من الحرمان الكنسي من قبل البابا ، وكان كل ما يجلب الى الكنيسة يوضع مع بعضه ، ويقسم الى أجزاء متساوية بين الفرنسيين والبنادقة حسب الاتفاق المدعم بالقسم ، وبعد أن تلقى الصليبيون نصيبهم سلموا أولا ٥٠ر٠٠٠ ماركا فضيا البنادقة ، ثم قسموا ١٠٠ر٠٠٠ أخرى بين شعبهم ، وخصصت

الاموال على النحو التالي : تلقى كل واحد من السرجنديين الخيالة ضعف ما أخذ السرجندي من الرجال ، ولكل فارس ضعف السرجندي الخيال ، ولم يعط أي رجل أيا كانت مرتبته أو أهليته الشخصية قدر الأكبر ، الا بناء على ترتيب خاص - إن لم يكن قد سرقه .

وفي حالات السرقة كان الجزاء الصارم يقع على من ثبت ادانتهم وكان العديد من هؤلاء يشنق وشنق الكونت دي سانت - بول واحدا من فرسانه ودرعه معلق بعنقه بسبب حجبه غنائم معينة ، وكان هناك مع ذلك كثير من الرجال من كل المراتب ممن غلوا دون أن يكشف أمرهم ، ومع ذلك فإن القيمة الاجمالية للغنائم كانت عظيمة لأنه بصرف النظر عما سرق وعما دفع للبنادقة ، كان ما بقي من أجل التوزيع قد بلغ نحو اربعمائة ألف ماركا فضيا إضافة الى عشرة الاف حصان من مختلف السلالات وبهذه الطريقة وزعت غنائم القسطنطينية بين المنتصرين ، وبعد انجاز هذه المهمة دعي كل الجيش الى مؤتمر حيث أعلنت كل القوات التي لها رأي واحد أنه يجب انتخاب امبراطور ، كما تم الاتفاق عليه من قبل واستمرت المناقشات ربما طويلا حتى ، أن أمر اختيار اثني عشر شخصا يكونون مسؤولين عن انتخاب امبراطور اجل الى يوم اخر ، وطبيعي حيث يتعلق الأمر بمثل هذا المنصب الرفيع فإنه لا يمكن أن يكون هناك قلة من الرجال الذين يطمحون اليه ، أو يطمعون في نيل هذا الشرف ومع ذلك فإن الخلاف الأعظم في الاجتماع كان حول مسألة عما اذا كان الكونت بلدوين دي فلاندرز أو المركيز دي مونتفرات هو الذي سيختار لأن كل واحد كان يقول ينبغي اختيار واحد أو الآخر منهما ، وعندما رأى الرجال الكبار في الجيش كيف كان الناس منقسمين حول هذه النقطة ، بعضهم يؤيد الكونت وآخرون يؤيدون المركيز ، اجتمعوا معا وقالوا : « اذا انتخبنا واحدا من هذين الرجلين العظيمين فإن الآخر سيترك الجيش ويأخذ جماعته معه » ، وعندها سنفقد هذه الارض ، تماما كما فقدت القدس منذ وقت قريب ، بعد الاستيلاء عليها وانتخاب غودفري دي بوليون ملكا ،

ففي هذا الوقت امتلأ الكونت صنجيل بالحقد والحسد حتى انه حرض البارونات الاخرين وكل من استطاع تحريضه ، على الانسحاب من الجيش ، وتحرك كثير من الناس وبقي القليل جدا ، حتى انه لو لم يأخذهم الرب تحت حمايته لضاعت أرض القدس ، وعليه يجب أن نحتاط في أن نرى مثل هذا الحظ السيء لن يصيبنا .

والأحرى بنا أن نجد طريقة لكي نبقي كلا من هذين الأميرين في الجيش ، لهذا دعوا أيا منهما ينتخب بمشيئة الرب امبراطورا يفعل كل ما في استطاعته ليكون الآخر راضيا ، ولندعه على سبيل المثال يكسب ولاء الآخر بمنحه كل الأراضي عبر المضيق في اتجاه تركيا ، وأيضا جزيرة اليونان على هذا الجانب ، وبمثل هذه الوسيلة سنبقيهما معا ، وقوبل هذا الاقتراح بالتأكيد من الجميع وأعطى كلا من الرجلين المعنيين موافقته الطوعية عليه .

وحل اليوم المعين للمؤتمر النهائي ، وحضر الكل واختير اثني عشر ناخبا ، ستة منهم فرنسيون والستة الآخرون من البنادقة ، واقسم هؤلاء جميعا على الكتاب المقدس أن ينتخبوا بضمير واخلاص الرجل الذي سيخدم بشكل أفضل مصالح الدولة ويحكم الامبراطورية بأكبر جدارة .

وبعد اختيار المنتخبين حدد يوم لانتخاب الامبراطور وفي هذا اليوم اجتمع الاثنا عشر رجلا في قصر جميل جدا ، واحد من أجمل قصور العالم ، حيث كان دوج البندقية ينزل فيه في حينه ، وتجمع حشد مدهش من الناس هناك ، لأن كل انسان كان يريد أن يرى من الذي سينتخب ، واستدعي الناخبون الاثني عشرة وأدخلوا في كنيسة فاخرة التأسيس جدا بداخل القصر ، وأقفل الباب حتى يبقوا وحدهم ، وفي هذه الأثناء كان البارونات والفرسان ينتظرون في قصر عظيم على مسافة صغيرة من الكنيسة ، واستمر المجلس حتى اتفق جميع الناخبين ، ثم بموافقة مشتركة عينوا واحدا من بينهم هو نيفلون أسقف سواسون ليعمل كناطق ، وخرجوا جميعا من الكنيسة

وذهبوا الى حيث كان يجتمع البارونات ودوج البندقية ، وتحول من العيون بقدر ما تتخيل نحو الاثني عشر ، لان كل واحد كان متلهفا لسماع نتيجة الانتخاب ، وبلغ الأسقف رسالته فقال : « سادتي بفضل الرب اتفقنا على اختيار امبراطور ، وقد أقسمتم جميعا على أن الرجل الذي سننتخبه سيقبل من قبلكم وأنكم ستقفون الى جانبه ضد كل من يجرؤ على تحدي انتخابه ، ونحن نسميه الآن في الساعة نفسها التي ولد فيها ربنا ، إنه الكونت بلدوين دي فلاندرز ودي هينوت .

وترددت هتافات البهجة في القصر ، واصطحب الكونت الى خارج المبنى وحمل الى الكنيسة ، وكان المركيز دي مونتفرات من جانبه أول ، من بايعه وقدم له كل التقدير والتشريف الذي أمكنه ، وهكذا انتخب الكونت بلدوين دي فلاندرز ودي هينوت امبراطورا وحدد يوم تتويجه بعد ثلاثة أسابيع من عيد الفصح ، وصنع رداء فاخر جدا يمكن أن أقول خصيصا لهذه المناسبة ، ولم يكن هناك نقص في الاموال من أجل الانفاق على صنعه .

وقبل اليوم المحدد للتتويج تزوج المركيز بونيفيس دي مونتفرات السيدة التي كانت زوجة للامبراطور اسحق ، وكانت أخت ملك هنغاريا . وفي نحو ذلك الوقت سقط يودس دي شامبليت وهو أحد أنبل البارونات في الجيش مريضا وتوفي ، وأعلن أخوه وليم وأصدقاؤه الحداد عليه وبكوه بشدة ومرارة ، ودفن بتشريف كبير في كنيسة الرسل المقدسين .

وجاء يوم التتويج وتوج الامبراطور بلدوين ببهجة كبيرة ومهابة عظيمة في كنيسة سانت صوفيا في العام ١٢٠٤ لتجسيد ربنا ، ولا حاجة بي للحديث عن الابتهاج والولائم التي جرت مع هذا الحدث سوى القول بأن البارونات والفرسان قد فعلوا كل ما بوسعهم لتمجيد تلك المناسبة ، وأعطى المركيز بونيفيس دي مونتفرات والكونت لويس دي بلوا ودي كارتران البيعة للامبراطور الجديد

كامير لهم بعد تتويجه البهيج ، واصطحب الامبراطور في أبهة عظيمة وفي موكب كبير الى قصر بوكوليون الاميري ، وهو بناء أكثر فخامة من اي بناء سلفت رؤيته على الاطلاق ، وهنا حالما انتهت الولائم جلس ليشرف على الاعمال .

وزار المركيز دي مونتفرات الآن الامبراطور ليطالبه بالوفاء بالعهد الذي قطعه وان يعطيه كما التزم بأن يفصل ملكية الارض الواقعة عبر المضيق في اتجاه تركيا وجزيرة اليونان ، واعترف الامبراطور بالتزامه وقال بانه سيفي به بكل سرور ، وأما المركيز وقد رآه مستعداً وراضيا بالمحافظة على كلامه ، فقد سأله عما اذا كان في مقابل تلك الاراضي يمكن ان يعطيه مملكة سالونيك لأنها تقع على مقربة من أراضي ملك هنغاريا الذي تزوج أخته .

وبعد كثير من المناقشات الجادة ، وبين لعل وعسى ، منح الامبراطور في النهاية أرض سالونيك للمركيز الذي بايعه بناء على ذلك ومقابلها كامير عليه ، وعند ذاك جرى احتفال عظيم في الجيش لان المركيز كان أحد أعلى الفرسان قدرا في العالم ، وكان واحدا ممن أحبه رفاقه الفرسان جدا ، لان أحدا لم يكن سخي اليد وكريما أكثر منه ، وهكذا جرى اقناع المركيز على أن يبقى في الامبراطورية .

الفصل الرابع عشر

حالة علاقات متوترة

أيار ــ أيلول ١٢٠٤

ولم يكن الامبراطور مرزوفلوس قد مضى بعد الى أبعد من مسيرة أربعة أيام من القسطنطينية . وأخذ معه زوجته وابنة الكسيوس أخي الامبراطور أسحق وكانتا قد هربتا من المدينة قبل ذلك بزمان طويل ، وكان الآن يعيش في موزينوبولس مع الذين هربوا معه ، ومايزال يحتفظ بقسم كبير من الارض .

وفي هذا الوقت ترك نبلاء معينين من الروم من أعلى مرتبة القسطنطينية وعبر عدد كبير منهم المضيق الى ذلك الجزء من الامبراطورية الواقع على حدود تركيا . واستولى كل منهم على الارض بقدر مايحب لاستخدامها لمصلحته الخاصة . وكان الشيء نفسه يحدث في أجزاء مختلفة أخرى من الامبراطورية .

ولم ينتظر الامبراطور مرزوفلوس طويلا قبل أخذ مدينة تكرلو التي سلمت من قبل للامبراطور بلدوين وقد أخذها في هجوم مباغت عاصف ونهبها واستولى على كل شيء وجده هناك ، وعندما وصلت أخبار ذلك إلى الامبراطور بلدوين استشار البارونات ودوج البندقية فاتفقوا بالاجماع على نصحه بالسير خارج القسطنطينية بكل القوات التي لديه ، ليخضع الأرض تاركا فقط حامية كافية في المدينة لتأمين سلامتها حيث أنها كانت مأخوذة حديثا وكانت كثيفة السكان من الروم .

وتم تبني هذه الخطة ، وبعد تجمع القوات أعطيت الاوامر للذين كان عليهم حراسة القسطنطينية بالبقاء ، وكان بين الذين

تخلفوا الكونت لويس دي بلوا الذي لم يكن حتى ذلك الحين قد أبل من مرضه والدوج المسن للبندقية، وترك راهب دي بيثوم ليتولى شؤون قصري بلاشرين وبوكليون ولحراسة المدينة مع جيوفري دي فيلهاردين وميلون دي برابانت ومانا سيير دي ليل وكل رجالهم ، واستعد الباقون للذهاب في جيش الامبراطور .

وقبل أن يشرع الامبراطور بلدوين بمغادرة القسطنطينية أعطى أخاه هنري أوامر بأن يمضي قدماً مع مائة من أجود الفرسان ، فركب مع جماعته من مدينة الى مدينة وفي كل مكان جاءه ، اقسم السكان بالولاء للامبراطور ، ومضى حتى وصل الى أدرنة وهي مدينة جميلة جدا وغنية حيث قدم الناس له ترحيبا قلبيا جدا ، وبدورهم اعترفوا بالامبراطور أميرا عليهم ، وبقي في المدينة حتى وصل الامبراطور بلدوين ، وبسماع أن الجيش كان يتقدم لم يجرؤ الامبراطور مرزوفلوس على انتظار وصوله بل عمل على أن يبقى دائما على مسيرة يومين أو ثلاثة أمامه ، واستمر على هذه الطريقة حتى اصبح قريبا من موزنيوبولس حيث كان الامبراطور ألكسيوس يقيم ، ثم أرسل الرسل أمامه ليخبروا ألكسيوس بأنه سيساعده وبأنه سيفعل كل مايطلبه ، وأجاب الكسيوس بأنه سيرحب بمرزوفلوس كما لو كان ابنا له وانه سيزوجه ابنته ليصبح ابنا له حقا ، وعليه فقد عسكر مرزوفلوس خارج موزينوبولس بكل خيامه وسرادقاته ، في حين بقي ألكسيوس في المدينة ثم تقابلا واجتمعا معا وبعد هذا زوج الكسيوس ابنته لمرزوفلوس ، ودخلا في تحالف مع بعضهما معلنين انهما سيكونان كواحد .

وبقي الامبراطوران حيث كانا وقتا غير محدود ، واحدا في معسكره والثاني في المدينة حتى دعا الكسيوس في أحد الأيام مرزوفلوس ليأتي للعشاء معه ، ثم يذهب معه بعد ذلك الى الحمامات ، وقبلت الدعوة ووصل مرزوفلوس دون موكب ومع قليل جدا من الحاشية كما طلب منه ، وحالما وصل الى المنزل سحبه الكسيوس الى غرفة خاصة حيث طرح أرضا وأمر بعينية فسملتا من

راسه . واحكموا بانفسكم بعد سماع هذه الخيانة اذا ماكان الناس الذين يمكنهم أن يعاملوا بعضهم بمثل هذه القسوة الوحشية يكونون صالحين لامتلاك الاراضي أو فقدها ؟ وعندما سمعت القوات التابعة للامبراطور مرزوفلوس تفرق معظمهم في كل اتجاه:بعضهم الى هنا وبعضهم الى هناك ، ومضى بعضهم على أي حال الى الامبراطور الكسيوس وبقوا معه واطاعوه كأمير عليهم .

وفي هذه الاثناء كان الامبراطور بلدوين قد ترك القسطنطينية مع جيشه وركب حتى بلغ أدرنة حيث التقى باخيه هنري ورفاقه من الفرسان ، وخرج كل الناس من الاماكن التي مربها للقائه ووضعوا انفسهم تحت تصرفه والاعتراف بسلطانه ، وبينما كانت القوات في أدرنة سمعوا كيف أن الامبراطور الكسيوس قد سمل عيني الامبراطور الآخر ، وجرى حديث كثير حول الحادثة ، واعلن الجميع بصراحة بأن كل من يخونون بعضهم بعضا هذه الخيانة لاحق لهم في امتلاك الاراضي ، واعتزم الامبراطور بلدوين أن يركب رأسا الى موزينوبولس حيث كان الامبراطور الكسيوس يعيش ، ورجاه الروم في أدرنة كأمير لهم أن يترك حامية في مدينتهم لأن جوهانيتزا ملك والاشيا وبلغاريا قد اخضعهم لهجمات متكررة ، وترك الامبراطور معهم يوستاس دي سوبرويك ، وهو فارس فلمنكي شجاع جدا وجدير ، مع أربعين من أجود الفرسان ومائة من السرجندية الخيالة ، ثم ترك الامبراطور المدينة ، وركب نحو موزينوبولس حيث توقعا أن يجدا الامبراطور الكسيوس ، وجاءه كل الناس من المناطق التي عبرها للاعتراف بسلطانه وليضعوا أنفسهم تحت حكمه ، وبسماع ذلك سحب الامبراطور الكسيوس كل قواته من موزينوبولس وهرب ، وركب الامبراطور بلدوين وسار حتى وصل الى المدينة وخرج أهل هذا المكان للقائه وسلموه له كأمير لهم ، وأعلن الامبراطور بلدوين الآن عزمه على البقاء في موزينوبولس في انتظار المركيز مونتفرات ، الذي لم يكن قد وصل بعد الى المعسكر ، وكان هذا بسبب أنه كان يحضر زوجته معه ، ولم يكن بناء عليه قادرا على السفر بالمعدل نفسه

للامبراطور ، ومع ذلك فقد ركب هو وجماعته بصورة مستمرة حتى بلغوا موزينوبولس ، التي تقع على نهر ، ونصبوا خيامهم وسرادقاتهم بجانب الجدول ، وفي اليوم التالي ذهب المركيز لرؤية الامبراطور ، والتحدث معه وتذكيره بوعده قائلا : « ياصاحب الجلالة ان لدي أنباء من سالونيك تخبرني ان أهل مملكتي مستعدون وراغبون في استقبالي كامير لهم ، وكتابع لكم وأني اذ أتسلم هذه الارض منكم ارجوكم الاذن لي بالذهاب الى هناك ، وحالما أضع يدي على أرضي فاني ساعود لكم بكل المؤن التي تحتاجونها ، وأجيء وأنا مستعد للقيام بكل ماترغبون ، ولكن لاتنهبوا وتخربوا مملكتي لي بل اذا ماكان الامر التالي يلقى موافقتكم ، فسيروا معي ضد جوهانيتزا ملك والاشيا وبلغاريا والذي وضع يده ظلما على جزء من أراضي .

ولاأدري بناء على نصيحة من عمل الامبراطور عندما أجاب بأنه كان مصمما على الرغم من كل شيء على أن يسير الى سالونيك ثم يقف بعد ذلك على شؤونه الأخرى ، فقال المركيز : « ياصاحب الجلالة اني أرجوكم بحرارة طالما أني قادر على وضع يدي على أرض دون مساعدتكم ان لاتدخلوها ، فإن فعلتم لن أشعر بأنكم تعملون لخيري ، وساخبركم بوضوح أني لن اذهب معكم ، بل سأنفصل عنكم وعن جيشكم ».

واأسفاه أي نصيحة سيئة لكليهما ، وكم كان الخطأ شديدا من جانب الذين سببوا هذا الانشقاق بينهما ! ولانه لولا رحمة الرب بكليهما ، لفقدا كل الاراضي التي غنماها ، ولتعرضت النصرانية نفسها للخطر ، وهكذا بسبب فرصة غير محظوظة ومشورة غير حكيمة دفع الامبراطور والمركيز الى فك صحبتهما والافتراق .

وركب الامبراطور بلدوين نحو سالونيك كما خطط مع كل حاشيته وقواته ، في حين عاد المركيز دي مونتفرات في اتجاه آخر ، آخذا معه عددا كبيرا من الرجال الطيبين ، وكان بين الذين مضوا

معــه جــاك دي أفنس ووليم دي شــامبليت ، وهــوغ دي كوليني ، وغراف برتولد فون كاتزينلبوغن ، مع القسم الأعظم مـن الرجال من امبراطورية المانيا ، وكانوا جميعـا في جـانب المركيز ، وركب المركيز حتى بلغ حصن ديموتيكا وهـو بناء جميل جـدا وآسر ومحصن بقوة ، وبعد ان سلم احد الروم في المدينة المهاجمة الحصن له دخله ووضع حامية هناك ثم لأن زوجتـه الامبـراطورة السـالفة كانت معروفة لهم ، بدأ الروم يفدون في صدفه ويجيئون من كل الريف المحيط على مسيرة يوم أو يومين من ديموتيكا ليعترفوا به كأمير لهم.

وفي هذه الاثناء بينمـا كان الامبـراطور بلدوين مـاضيا نحـو سالونيك وصل الى حصن كريستوبولس ، وهو واحـد مـن أقـوى القلاع في العالم ، وقد تسلم هذا الحصـن وأقسـم كل أهـالي المدن المتاخمة قسم الولاء له وفيما بعد وصل الى مكان آخر يدعى لابلانش وهي مدينة مزدهرة جيدة التحصين وسـلمت هـذه ايضـا وبـايعه الناس ، ومن هناك ركب الى سيرس وهي مدينة على الدرجة نفسها من الازدهار وجيدة التحصين ، وهنا أيضا اعترف الناس بسـلطته واقسموا على طاعته كأمير لهـم ، ووصـل في النهـاية الى مـدينة سالونيك وبقي ثلاثة ايام معسكرا خارجها ، وسلم أهل المدينة التي كانت في ذلك الوقت واحدة مـن أجمـل وأغنى المدن في كل النصرانية المكان له شريطة أن يحكمهم وفق العادات والأعراف المرعية من قبل كل أباطرة الروم .

حتـى ذلك اليوم . وبينمـا كان الامبـراطور بلدوين في جــوار سالونيك والناس من كل الناحية يضعون انفسهم في خدمته ويقبلون به كأمير عليهم ، كان المركيز دي مونتفرات مع كل رجاله وعدد كبير مـن الروم الذين ناصروه يسـير الى ادرنة حيث نصـب خيامــه وسرادقاته حول المدينة وبدأ في إحـكام الحصـار حـولها ، وبــدأ يوستاس دي سوبرويك الذي كان بداخلها مع الرجال الذين تـركهم الامبراطور هناك على الفور في توزيع الرجال على الاسوار والأبراج واستعد للدفاع عن المدينة .

وبعد ذلك استدعى رسولين وأرسلهما الى القسطنطينية وهما يركبان ليل نهار، لقد ذهبا لرؤية دوج البندقية والكونت لويس والبارونات الآخرين الذين امرهم الامبراطور بالبقاء في المدينة ، فأخبرا هؤلاء الامراء أن يوستاس دي سوبرويك أراد أن يعلمهم بأن الامبراطور والمركيز قد تحاربا ، وأن المركيزقد استولى على ديموتيكا التي كانت واحدة من أجمل واقوى حصون الامبراطورية ، وانه قد بدأ الآن في محاصرة رجال الامبراطور في أدرنة ، وعندما سمع أولئك الذين في القسطينطينية هذا اضطربوا لدرجة معتقدين بشكل مؤكد بأن كل ماكسبوه سيضيع .

وبناء عليه اجتمع دوج البندقية والكونت لويس وبقية البارونات في القسطنطينية في قصر بلاشرين وهم في غاية القلق والاهتياج من الاخبار التي تلقوها ، ونددوا بأشد المرارة بالذين أثاروا المشاعر السيئة بين الامبراطور والمركيز ، وبناء على طلب دوج البندقية والكونت لويس ، ذوشد جيوفري دي فيلهاردين مارشال شامبين الذي كان على علاقات ودية مع المركيز ، وسيكون له كما اعتقدوا التأثير الاكبر عليه من أي شخص آخر ، أن يمضي الى الحصار المضروب حول أدرنة وينهي اذا امكن هذا النزاع ، ومن جانبه قد تأثر بتوسلاتهم وادراكهم للحاجة الملحة الى تسوية للنزاع ، أجاب بأنه كان راغبا جدا في الذهاب ، وأخذ معه ماناسيير دي ليل الذي كان واحدا من افضل فرسان الجيش وأكثرهم رفعة في المقام .

وانطلقوا من القسطنطينية حيث ركبوا عدة أيام حتى بلغوا المدينة المحاصرة ، وحالما سمع المركيز بأنهم يقتربون خرج من المعسكر ومضى للقائهم مصحوبا بمستشاريه الرئيسيين . جاك دي افنيس وغوليوم دي شامبليت ، وهوغ دي كولني وأوثون دي لاروش وعند رؤية المبعوثين حياهم المركيز بلطف شديد ودماثة .

وتحدث المارشال جيوفري كصديق مقرب ذي حظوه مؤنبا المركيز بصراحة كبيرة على الطريقة التي احتل بها أراضي الامبراطور ،

وعلى محاصرة شعبه في أدرنة ، وذلك دون شرح الحالة لأصدقائه في القسطنطينية الذين كانوا سيساعدونه بالتأكيد في الحصول على التعويض اذا كان الامبراطور قد الحق به أي غبن ، وفصل المركيز على أي حال كل مالي وسعه ليبرىء نفسه ، وعلى أنه عمل فقط بهذه الطريقة بسبب الخطأ الذي الحقه الامبراطور به ومع ذلك عمل المارشال جاهدا لاقناعه أنه بعون الرب وبمساعدة أولئك البارونات الذين كانوا موضع ثقة أميرهم وأخلصوا له ، فتلقى التأكيدات بأن المركيز سيضع القضية بين يدي دوج البندقية ، والكونت لويس وراهب دي بيثون والمارشال نفسه ، ونتيجة لذلك عقدت هدنة بين الجيش في المعسكر والرجال في المدينة .

وعند رحيلهم وجه شكر حار لجيوفري دي فيلهاردين ومانسيير دي ليل من قبل كل من رجال المعسكر ، والذين كانوا يحاصرونهم لأن كلتا الجماعتين كانتا متفقتين في رغبتهما في السلام ، ولكن اذا كان الفرنسيون مبتهجين فإن الروم كانوا بالقدر نفسه محزونين وخائبي الأمل لأنهم كانوا سيبتهجون كثيرا عندما يرون قواتنا في خلاف ويحارب بعضهم بعضا . وهكذا رفع الحصار عن أدرنة وعاد المركيز بكل رجاله الى حصن ديموتيكا حيث ترك زوجته .

وعاد المبعوثون الى القسطنطينية ليرووا مافعلوا وكان دوج البندقية . والكونت لويس والآخرون كلهم مبتهجين بسماع أن المركيز قد وكلهم بالتفاوض على السلام ، وهكذا كتبوا رسالة وأرسلوها بواسطة رسول يمكن الاعتماد عليه الى الامبراطور بلدوين ليعلموه بأن المركيز قد احال المسألة موضوع الخلاف اليهم ، مع التأكيد بأنه سيلتزم بقرارهم ، وأضافوا أنه في رأيهم أن الامبراطور كان حتى أكثر ارتباطا بالالتزام بفعل الشيء نفسه وحيث أنهم من جانبهم لن يقروا بحرب من هذا النوع تحت أي ذريعة أيا كانت فقد رجوه أن يفعل كما طلبوا ، وأن يعد بقبول تحكيمهم كما فعل المركيز .

وبينما كان هذا كله يجري كان الامبراطور بلدوين يسوي الأمور كما يجب في سالونيك ، وغادر المدينة بعد أن وضع حاميته هناك تحت أمرة رينييه دي مونز وهو فارس جيد جدا وشجاع ، وبلغته الاخبار بأن المركيز قد أخذ ديموتيكا ، وإضافة الى توطيد مركزه هناك غزا قسما عظيما من الاراضي المحيطة بها ، وكان يحاصر شعب الامبراطور نفسه في ادرنة وبسماع ذلك .

استشاط الامبراطور غضبا وصمم على الفور ان يذهب لاغاثة ادرنة وفك الحصار عنها ، وان يلحق بالماركيز كل مايمكن من اذى ، أه أي ضرر كان يمكن ان ينجم عن هذا الخلافه ولو لم يتدخل الرب لتصحيح الامور لكان هذا يعني خراب النصرانية .

وانطلق الامبراطور بلدوين قاصدا ادرنة وهو يركب يوما بعد يوم ، وفي حين كان الجيش معسكرا امام سالونيك ، ومع امر بالغ التعاسة وقد تفشى المرض المفاجيء في الصفوف واضطر العديدون التزام الفراش ، وخلال الرحلة بلغ المرض بعدد كبير الى حد لم يسمح لهم بالتقدم ، فتركوا في الحصون على طول طريق الامبراطور ، وحمل اخرون وهم في شدة الالم والتعب في محفات ، وتوفي عدد كبير في سيريس وبينهم مستشار الامبراطور جين دي نويون وكان كاهنا عالما وقديسا وكان وعظه البليغ بكلمة الرب يريح ويعزز قواتنا وكان كبار رجال الجيش في غايه الاسى لموته ...

ولم يمض وقت طويل قبل ان يعاني الجيش من تعاسة اكبر وفوق كل شيء بوفاة بيير دي أمين وهو نبيل عظيم وقوي وفارس جيد باسل ، وحزن عليه الكونت هوغ دي سانت بول بشدة وكان ابن عم له وكان كل رجل في الجيش صادق الاسى عندما توفي ، وبعد ذلك بوقت قصير جاء موت جيراردي مانسيكو ، وكان هذا حزنا عظيما اخر للقوات اذ انه كان فارسا يحبه الجميع ويقدرونه ، ومات ايضا جيل دي انسو وعدد كبير من الرجال الجيدين خلال تلك الرحلة وفقدنا في الواقع نحو اربعين فارسا في المجموع ، وضعف الجيش

بدرجة كبيرة لموتهم ، وكان الامبراطور بلدوين الذي كان يقطع عدة مراحل يومية قد غطى حتى الان مسافة لقي عندها الرسل الذين بعثوا اليه من القسطنطينية وهم قادمون لملاقاته ، وكان احدهم فارسا يدعى بيغ دي فرانسور جاء من الاراضي التابعة للكونت لويس دي بلوا ، وكان تابعا له ، وكان رجلا ثاقب الفكر ذلق اللسان ، فسلم الرسالة الواردة من سيده والبارونات الاخرين بحيوية كبيرة وشجاعة قائلا :

« ياصاحب الجلالة ان دوج البندقية وسيدي الكونت لويس والبارونات الاخرون الموجودون الان في القسطنطينية يرسلون اليكم بتحياتهم كأمير لهم ، وهم يرغبون ان يشكوا الى الرب واليكم اولئك المسؤولين عن اشارة النزاع بينكم وبين المركيز الذي كاد ان يجلب الخراب للنصرانية ، وقد طلبوا مني ايضا أن اقول انكم تصرفتم دون حكمه جدا باستماعكم لمثل تلك النصيحة ، وهم يريدون منكم الان ان تعرفوا ان : المركيز قد أحال هذا النزاع بينكم وبينه إليهم ، وهم يرجونكم كأمير لهم ان تفعلوا الشيء نفسه بدوركم وان تعدوا بالالتزام بحكمهم ، وهم يريدون منكم ان تفهموا انهم لن يوافقوا مطلقا على مضيكما الى الحرب ضد بعضكما بعضا على اي اساس كان »، وقال الامبراطور : إنه سيعطي جوابه للمبعوثين قريبا ومضى ليدعو مجلسه الاستشاري وبين هذه الجماعة كان هناك عديدون ممن ساعدوا على اثارة النزاع ، وقال الذين اعتبروا الان الرسالة من القسطنطينية قطعه مذهلة من الوقاحة : « ياصاحب الجلالة سمعت مااعلنه هؤلاء الناس : من انهم في الواقع لن يسمحوا لكم بمعاقبة عدو اخطأ معك ، ويبدو انكم اذا رفضتم ان تفعلوا كما قالوا لكم سينقلبون ضدكم»، وجرى التعبير عن كثير من الاراء المتغطرسة في مجرى المؤتمر ولكن في النهاية وحيث ان الامبراطور لم يكن يرغب في فقد صداقة دوج البندقية والكونت لويس والناس المهمين الاخرين في القسطنطينية ، وافق المجلس على اعطاء الجواب التالي للمبعوثين : « اني لااضمن احالة النزاع الى اولئك الذين ارسلوكم ،

ولكني سأذهب الى القسطنطينية بدون ان افعل شيئا للاضرار بالمركيز ».

وهكذا ذهب الامبراطور الى القسطنطينية وخرج البارونات وكل الناس الاخرين للقائه ورجعوا به بتشريف كبير كأمير لهم .

وخلال اربعة ايام من وصوله توصل الامبراطور لان يفهم بوضوح بانه قد اسيء نصحه للمنازعة مع المركيز ، وعند هذه النقطة جاء دوج البندقية والكونت لويس لرؤيته حيث قالا : ياصاحب الجلالة اننا نرجوكم ان تحيلوا هذا الامر الينا كما فعل الماركيز ، واجاب الامبراطور بانه سيكون مسرورا جدا اذ يفعل هذا ، واختير المبعوثين عندئذ لاحضار الماركيز الى القسطنطينية ، وكان احد هؤلاء المبعوثون هو جيريه دي شاتل ، والثاني رنيير دي تري ، والثالث جيوفري دي فيلهاردين وارسل دوج البندقية اثنين من شعبه معهم ، وركب المبعوثون يوما بعد يوم حتى وصلوا اخيرا الى ديموتيكا وهناك وجدوا المركيز مع زوجته وعدد كبير من الناس ذوي المنزلة الطيبة ، وبعد ان اخبروه انهم قد جاءوا للعودة به رجاه جيوفري دي فيلهاردين ان يحضر الى القسطنطينية كما وعد ، وان يسوى نزاعة مع الامبراطور بالطريقة التي يقررها الذين احيل إليهم هذا النزاع ، وان المبعوثين يضمنون له مواكبته ووصولا امنا له ، وكذلك ايضا لكل من قد يذهب معه .

وسأل المركيز بماذا يشيرون ووافق بعضهم على ان يذهب ، ونصحه بعضهم بعدم الذهاب ، ومع ذلك وبعد بعض النقاش ذهب الى القسطنطينية مع المبعوثين مصحوبا بنحو مائة من فرسانه ، وركبوا عدة ايام حتى بلغوا المدينة حيث تم الترحيب بهم بحرارة ، وخرج الكونت لويس دي بلوا ودوج البندقية للقاء المركيز ومعهما عدد كبير من الناس الاخرين من المراتب الراقية في الجيش ، والذين كانوا جميعا من اصدقائه المخلصين .

وبعد ذلك عقد مؤتمر نوقشت فيه الاتفاقية المبرمة من قبل الامبراطور والمركيز . وكنتيجة اعيدت مدينة ومملكة سالونيك للمركيز شريطة ان يعيد ديموتيكا . التي استولى عليها ، الى جيوفري دي فيلها ردين الذي وعد ان يحتفظ بها حتى يسمع سواء من رسول معتمد أو برسائل مسجلة ، بان المركيز قد وضع بالفعل يده على مملكته ، وعندها يعيد المارشال ديموتيكا الى الامبراطور ويضعها تحت سلطته ، وهكذا تحقق السلام بين الامبراطور والمركيز ، وكان هناك ابتهاج عظيم في كل الجيش بهذه التسوية السعيدة ، لان ضررا عظيما ربما كان سينتج عن هذا النزاع .

واستأذن المركيز من اصدقائه وركب بصحبة مبعوثي الامبراطور نحو سالونيك مع زوجته وشعبه . ومع مرورهم من حصن الى حصن كان كل بدوره وبكل مقاطعاته يسلم للمركيز باسم الامبراطور .

وعندما وصل الى مدينة سالونيك سلم له كل الذين كانوا يسيطرون على المكان لصالح الامبراطور بالطريقة نفسها ، وكان حاكم المكان واسمه رينير دي مونزا قد توفي حديثا ، وكان رجلا طيبا جدا وكانت وفاته خسارة حزينة .

وبالتدريج بدأ الرجال في كل المملكة خطوة خطوة بوضع اراضيهم وانفسهم تحت سلطة المركيز ، حتى اعترف عدد كبير جدا من الناس في النهاية به كأمير عليهم . وكان الاستثناء الوحيد رومي معين من المرتبة الراقية جدا ، وكان اسمه ليون سفور وكان هذا الرجل وقد كسب ملكية كورنث ونوبليا وهما مدينتان على الساحل وكانتا من بين الاقوى تحت السماء ، قد رفض ان يقسم قسم الولاء للمركيز ، وعلى العكس بدأ في شن الحرب ضده ، ووقف عدد كبير جدا من الروم في جانبه ، وكان هناك رومي اخر يدعى ميكا نيلس وكان قد جاء من القسطنطينية مع الماركيز واعتقد الاخير بانه صديق له ، ولكنه رحل فجأة دون ان يقول كلمة ، الى مدينة ارتا حيث تزوج ابنة

رومي ثري حصل على ارضه من الامبراطور ، وبعد ان استولى على هذه الارض لنفسه بدأ بشن الحرب على المركيز .

وفي هذا الوقت كانت كل الارض من القسطنطينية حتى سالونيك في سلام والطريق من المدينة للاخرى سالما ، حتى مع انه كان يلزم اثني عشر يوما كاملة لقطع المسافة بينهما ، كان الناس يستطيعون المجيء والذهاب كما يحلو لهم وقد مضى وقت طويل الان حتى اصبحنا في نهاية ايلول ، وحكم الامبراطور في القسطنطينية ، وكانت الارض هادئة تحت حكمه ولم يحدث شيء ذو أهمية في المدينة سوى وفاة اثنين من اجود الفرسان هما يوستاش كانتلو وايمري دي فيلروا وكان هذا موضع اسى عظيم لاصدقائهما .

الفصل الخامس عشر

حرب ضد الروم

تشرين أول ١٢٠٤ ــ أذار ١٢٠٥

وبدا الان تقسيم الاراضي ضمن الامبراطورية ، واخذ البنادقة حصتهم المستحقة ، وتسلم الفرنسيون حصتهم . ولكن ما ان حاز كل رجل على ارضه حتى بدأت الشهوة للتملك التي كانت السبب في كثير من الشرور في العالم ومنعت الناس من ان يعيشوا في سلام ، وبدا الكل بدرجة اكبر او اصغر ، في ادارة مقاطعاتهم بقليل من الاهتمام بحقوق الاخرين ، حتى بدا الروم يكرهونهم ويضمرون الاستياء والسخط ضدهم في قلوبهم .

واعطى الامبراطور بلدوين للكونت لويس دوقية نيقية التي كانت تقع على جانب المضيق المواجة لتركيا ، وكانت احد اهم اقطاعات الامبراطورية ، ولم تكن الارض على جانب المضيق على اي حال قد وضعت بعد تحت ادارة الامبراطورية بل كانت مناهضة له . وبعد ذلك بوقت قصير اعطى الامبراطور دوقية فيليبو بولس لرنييزدى تريت

وارسل الكونت لويس نحو مائة وعشرة من فرسانه للاستيلاء على اراضيه له ، مع بيير دي براسيو ومع بايين دي اور ليانز كقائد فتركوا القسطنطينية يوم عيد جميع القديسين وابحروا عبر (البوسفور) مضيق سان جورج الى ابيدوس ثم مضوا الى سبيقا وهي مدينة على الساحل يسكنها اللاتين ومن هناك بدأوا في شن الحرب ضد الروم .

وفي نحو هذا الوقت هرب الامبراطور مرزوفلوس الذي سملت

عيناه ـ وهو نفسه الذي قتل ابن الامبراطور اسـحق اليكسـيوس والذي كان الصليبيون قد احضروه معهم ـ الى القسطنطينية سرا عبر المضيق مع عدد قليل من البطانة مـن الرجـال ، ولكن تتيريش فون لويس ، وقد سمع بهروبه من بعض مـن بلغ عنه ضـده ، أمـر باعتقاله واعادتـه الى الامبـراطور بلدوين في القسـطنطينية ، وسر الامبراطور باعتقاله وسأل شعبه ماذا يفعل برجل قتـل اميره بمثـل هذه الخيانة .

وتم اقرار ايقاع العقاب التالي : في اتجاه مـركز القسـطنطينية كان يقوم عمود رخامي من اعلى الاعمدة واجملها ، حيث لم تر عين انسان أجمل على الاطلاق وكان على مرزوفلوس ان يؤخذ الى قمـة هذا العمود ويدفع الى القفز منه على مرأى كل الناس ، لان مثل هذا العمل من القصاص الموائم يجب ان يشـاهد مـن قبـل كل الناس ، واقتيد مرز وفلوس الى العامود واخذ الى القمة ، في حين تحشد كل الناس في المدينة ليروا هذا المنظر المدهش ، ثم القى به الى الاسـفل وسقط من مثل هذا الارتفاع حتى ان كل عظم في جسمه قـد تحـطم حالما وصل الى الارض .

والان دعوني اخبركم بمصادفة مدهشة فعلى ذلك العـامود الذي سـقط منه مـرز وفلوس كانت هناك رسـوم مـن مختلف الانواع محفورة في الرخام وبينها كان رسم يمثل امبراطور يسقط ناكسـا ، فقد كانت هناك نبوءة تحدثت قبل وقت طويل بان امبراطورا سـيلقى به من فوق العامود نفسه ، وهكذا تحققت النبوءة التي صـورت على الرخام تماما .

وحدث في نحو هذا الوقت ان الماركيز دي مونتفرات فيمـا كان في جوار سالونيك انقض على الامبراطور اليكيسوس وهو نفسـه الذي سمل عيني اخيه ، وسجنه مع زوجة الامبراطور ، وارسـل المركيز الحذاء القرمزي والاردية الامبراطورية الخـاصة بـاليكسيوس الى أميره الامبراطور بلدوين في القسطنطينية ، وهـي مجـاملة لطيفـة

اكسبته عرفان الامير وامتنانه ، وفيما بعد ارسل الماركيز الامبراطور اليكسيوس الى مونتفرات ليودع السجن هناك ، وبعد ذلك بوقت غير بعيد يوم عيد القديس مارتن ترك هنري أخو الامبراطور القسطنطينية ومعه نحو مائة وعشرين من اجود الفرسان وسار بمحاذاه الضيق الى قناة ابيدوس ومن هناك ابحر عبر الماء الى مدينة ابيدوس التي وجدها جيدة التموين الوفير من الاشياء الجيدة مثل القمح واللحم وكل شيء اخر يمكن للانسان ان يحتاج اليه ، وبعد أخذ المدينة مركز رجاله هناك ثم بدا هو ايضا في شن الحرب ضد الروم من حوله ، وبدأ الارمن من تلك المناطق ، وكانوا اكثر الناس هناك بالانضواء تحت لوائه لانهم كانوا يمقتون الروم.

وفي نحو هذا الوقت نفسه غادر رنيير دي تريت القسطنطينية مع فرقة اخرى من مائة وعشرين فارسا وذهب صوب فيلبو بوليس التي اعطاها له الامبراطور ، فركب لعدة ايام حتى نقطة في مكان ما وراء ادرنة حيث بلغ غايته ، ورحب به اهل فيلبو بوليس كامير لهم وسروا برؤيته وكانوا في ذلك الوقت في أمس الحاجة للمساعدة لان الملك جوها نيتزا ملك والاشيا كان يشن هجمات وحشية عليهم ، وجاء رينيه دي تريت لمساعدتهم بفعالية جعلت منه سيدا على قسم كبير من الارض ، وتحول عدد كبير ممن كانوا يقفون من قبل جانب جوها نيتزا اليه ، وفي ذلك القسم من الامبراطورية ايضا كان القتال ضاريا جدا ، وفي هذه الاثناء كان الامبراطور قد ارسل نحو مائة فارس عبر مضيق سان جورج الى القسم من الامبراطورية المقابل للقسطنطينية ، وكان يتولى القيادة ماكير ــ دي سانت ــ مينهول يساعده ماثيو ــ دي النكورت وروبرت دي ردنسوا وبعد نزولهم الى البر ركبوا في اتجاه نيقو ميديا التي تقع على شواطىء الخليج وهي على مسيرة يومين بالبحر من القسطنطينية ، وحالما سمع الروم انهم يتقدمون اخلوا نيقوميديا وهربوا وهكذا اخذ رجالنا مراكزهم في المدينة واقاموا حامية فيها ، واصلحوا التحصينات ومن هذه المنطقة بدأوا في شن الحرب على الروم كما كان الاخرون يفعلون

في كل مكان وكان على الارض الواقعه عبر المضيق رومي يدعى تيودور لاسكارس كامير عليها ، وكان متزوجا من ابنة ذلك الامبراطور اليكسيوس الذي سمل عيني اخاه ، والذي فر من الفرنجة فيما بعد من القسطنطينية ، وترك لاسكارس الارض في عهدة زوجته وتابع الحرب ضد الفرنسيين على الجانب البعيد من المضيق حيثما كانوا .

وبقي الامبراطور بلدوين نفسه في القسطنطينية مع الكونت لويس وفرقة صغيرة كما كان ايضا الكونت هوغ دي سانت بول الذي كان يعاني من هجمة شديدة من النقرس (داء المفاصل) اصابت ركبته وقدميه ، ودوج البندقية الذي كان اعمى تماما ولم يمض وقت طويل على اي حال قبل ان يأتي جيش كبير جدا من الرجال بينهم الذين تركوا الجيش وابحروا من موانئ أخرى عبر البندقية بطريق البحر عائدين من سورية وكان بينهم اتين دي برش ورنيو دي مونتميريل .

وكان كلاهما ابنا عم للكونت لويس الذي رحب بهما بلطف كبير وعبر عن سروره بوصولهما ورحب بمجيئهما ايضا الامبراطور بلدوين وبقية الناس في القسطنطينية ، لان كليهما كان من رجال الطبقة الراقية جدا ، ومن ذوي النفوذ الكبير ، وكانا قد احضرا معهما اعداد كبيرة جدا من الناس الجيدين الاخرين ، وبين هؤلاء هوغ صاحب طبرية وتيير دي تنبر موند الى جانب عدد كبير من القوات السورية ، فرسان ، وخيالة سريعة ومشاة ، وبعد وصولهم بوقت قصير منح الامبراطور دوقية فيلاد لفيا لايتين دي برش

وسبب موضوع واحد بين الاخبار التي بلغت في ذلك الوقت للامبراطور بلدوين كآبه عظيمة ، ذلك ان زوجته الكونتيسة مارى وكانت عاجزة عن الذهاب معه في الحملة الصليبية لانها كانت حاملا تخلفت في فلاندرز حيث ولدت له ابنة ، وحالما استردت عافيتها من الولادة انطلقت للحاق بزوجها في بلاد ماوراء البحار ، وابحرت من

ميناء مرسيليا ، وكانت قد نزلت لتوها في عكا عندما جلب لها المرسل من القسطنطينية الخبر بان المدينة قد تـم الاستيلاء عليهـا ، وان اميرها قد انتخب امبراطورا ، مما كان مبعث سرور لكل الناس من المسيحيين ، وبسماع هذه الاخبار قررت السيدة ان تلحق بـزوجها على الفور ، ولكنها وقعت فريسة للمـرض وتـوفيت ، واصـيب كل النصرانية بالحزن على وفاتها لانها كانت سيدة طيبـة حقـا وكانت موضع تقدير كبير من الجميع .

ونقلت انباء هذا الحدث المحزن الى القسطنطينية من قبل الناس الذين وصلوا لتوهم بطريق البحر فكانت شجنا عظيما للامبـراطور بلدوين كما كان لكل البارونات في الامبراطورية لانهم كانوا يتطلعون بشوق لتكون امبراطورة عليهم .

وفي هذه الاثناء حصن الرجـال الذين ذهبـوا الى سـيفا بـامرة بييردي براسيكو دي اورليانز قلعـة بـانورموس وتـركوا حـامية لحراستها ثم ركبوا متجهين للاستيلاء على الارض ، وجمع تيودور لاسكارس من جانبه اكبر قوة ممكنة ، وفي يوم عيد سانت نيكولاس الذي يتقدم عيد حمل العذراء المباركة التقى الجيشان في سهل تحـت قلعة بومانيوس وبدات معركة كان رجالنا فيهـا في وضـع سيء غير موات لدرجة كبيرة لانه كان لدى الروم عدد مذهل حقا من الرجال ، في حين انه من جانبنا بصرف النظر عن عدد مـن السرجندية الخيالة لم يكن لدينا اكثر من مائة واربعين فارسا ، ولكن الله يسير الامـور كما يشاء ، وبارادته الطيبة تغلب الفـرنسيون على الروم والحقـوا بقواتهم الهزيمة ، واوقعوا بهم خسائر فـادحة وخـلال الاسـبوع سلموا قسما كبيرا من الاراضي لجيشنا ، وسلموا قلعة بـومانيوس القوية التحصين ، ومدينة لوباديوم التي كانت واحدة من اجمل مدن تلك الارض وابولونيا التي كانت تسـتقر على شـاطيء بحيرة المياه العذبة ، وكانت واحدة من اقوى الحصون واكثرها جاذبية مما يمكن ان يوجد في اي مكان ، وباختصـار تحول كل شيء لصـالح جمـاعتنا وبمعونة الرب نجحوا في اخضاع الارمن لارادتهم ، وبعد ذلك بـوقت

قصير وبناء على نصيحة الارمن خرج هنري اخو الامبرطور بلدوين من ابيدوس ، بعد ان ترك حامية في المدينة وركب متجها الى ادراميتيوم ،وهي مدينة على الساحل على مسيرة يومين ، واستسلم له هذا المكان وكذلك الكثير من المنطقة المحيطة ، فمركزقواته في ادراميتيوم لانها كانت جيدة التموين بالقمح واللحم والمؤن الاخرى ، ومن تلك القاعدة شن الحرب على الروم في الريف في تلك الاحواز .

وبعد هزيمته في بومانيذوس حشد تيودور لاسكارس من الناس بقدر ما يستطيع حتى جمع جيشا عظيما . ووضعه تحت قيادة اخيه كونستانتين ، وكان واحدا من اقدر رجال الروم في الامبراطورية ، الذي ركب بعد ذلك راسا في اتجاه ادراميتيوم ، وما ان سمع هنري اخو الامبراطور من الارمن بان قوة عظيمة كانت تسير ضده تأهب لملاقاة العدو ، ونظم قواته في تشكيل قتالي وكان معه بعض الرجال الجيدين جدا منهم على سبيل المثال بلدوين دي بوفوار ونيكولاس دي ميلي وانسودي كايو وبيتر يشفون لوس وتيبرى دي تيرموند

وفي عشية منتصف الصوم الكبير وصل كونستانين لاسكارس وجيشه الكبير الى امام ادراميتيوم ، وحالما سمع هنري انه قد جاء دعا قادة جيشه معا واخبرهم انه لن يسمح بأي حال بأن يحاصر في المدينة ، ولكنه سيذهب لملاقاة العدو ، وتقدم الروم بكل قوتهم في مجموعات كبيرة من الخيالة والمشاة ، وسار رجالنا نحو خارج المدينة وبداوا في مهاجمتهم ، وجرى قتال ضار كبير مع مواجهة يدا بيد ولكن بمعونة الرب هزم الفرنسيون الروم وردوهم في فوضى ، وقتل واسر العديد واخذت غنائم كثيرة .

وبعد ذلك عاش الفرنسيون في سلام وراحة مع مؤونة وافرة من الطعام لان اهل الارض انحازوا الى جانبهم ، وبدأوا يجلبون لهم بعض المنتجات من مقاطعاتهم .

ولندع للحظة الكلام عن الناس من القسطنطينية ولنعد الى المركيز دي مونتفرات ، لقد ذهب كما تعرفون الى سالونيك ثم سار ضد ليون سغور الذي كان يحتفظ بنوبليا وكورنث وهما من اقوى المدن في العالم ، وبدأ رجاله في فرض الحصار على كلا المكانين في الوقت نفسه ، وبقي جاك افاسنس مع كثير اخرون من الرجال امام كورنث ، وعسكر الباقون امام نوبليا وحاصروها .

دعوني اخبركم الان بشيء وقع في تلك المنطقة حوالي الوقت نفسه غادر جيوفري فيلهاردين الشاب وهو ابن اخي جيوفري الاخر الذي كان الان مارشال رومانيا وشامبين سورية في صحبة الذين وصلوا حديثا الى القسطنطينية ، وحدث بالصدفة ان حملت الريح سفينته الى ميناء ميثون حيث اصيب باضرار كبيرة حتى انه اضطر الى قضاء الشتاء في تلك الاجزاء ، وما ان سمع رومي معين كان نبيلا كبيرا في تلك البلاد بوصوله ، حتى جاء لرؤيته وحياه بلطف كبير جدا ، وقال سيدي لقد غزا الفرنجة القسطنطينية وانتخبوا امبراطورا فاذا انضممت الي فاني اعد ان اكون صديقا مخلصا لك وسنستولي على كثير من هذه الاراضي معا ، وهكذا عقدا حلفا وثيق بالقسم واستوليا معا على قسم كبير من البلاد ، ووجد جيوفري دي فيلهاردين دائما في هذا الرومي حليفا مخلصا جدا ٠

ولكن الاحداث تتحول حسب مشيئة الرب ، فقد مرض الرومي وتوفي وثار ابنه ضد جيوفري فيلهاردين وخرق العهد معه ، وتحولت معظم الحصون التي وضع بها جيوفري حاميات ضده ، ووصلت الانباء الى الشاب بان المركيز دي مونتفرات كان يحاصر نوبليا ، فذهب الى هناك للانضمام اليه باكبر عدد من الرجال امكنه جمعه ، وبعد ان ركب عبر الارض ستة ايام في خطر عظيم وصل الى معسكر المركيز ، حيث رحب به ترحيبا حارا وعومل بأكبر لطف من قبل المركيز ، وكل من كانوا معه ، وكان هذا صحيحا ومناسبا فقط بسبب انه كان فارسا شجاعا وشريفا جدا .

وكان يمكن للمركيز ان يمنحه منحة كريمة من الاراضي والاموال ليبقيه في خدمته ، ولكن لم يكن ليقبل شيئا ، وبدلا من ذلك ذهب الى غوليوم دي شامبليت الذي كان صديقا حميما له وقال له : « لقد جئت لتوي ياسيدي من ارض مزدهرة جدا تدعى المورة فاجمع من الرجال بقدر ما تستطيع واترك هذا الجيش وبمعونة الرب سنذهب لغزوها وعندما تستولي عليها سأخذ منك اي جزء يسرك ان تعطيه لي وسأخدمك كتابع لك »

وذهب وليم دي شامبليت الذي كان له ثقة عظيمة في جيوفرى وكان معجبا به إلى المركيز ليخبره بما اقترح ، وسمح المركيز لكليهما بالذهاب إلى المورة وهكذا غادر وليم دي شامبليت وصديقه الشاب معسكر المركيز ، وأخذا معهما حوالي مائة فارس إضافة إلى عدد جيد من الخيالة ودخلا أرض المورة وركبا متابعين مسيرهما حتى وصلا إلى ميثون ، وسمع ميكاليس بأنهما وصلا إلى المورة مع مجموعة صغيرة من الرجال فقط ، وهكذا جمع عددا مدهشا من شعبه وركب وراءهما معتقدا انهما قد أصبحا بحكم الأسرى بالفعل وفي يديه .

وعندما سمع رجالنا بأنه قادم أصلحوا الاسوار بسرعة حول ميثون ، وكانت خربة لزمان طويل مضى ، وتركوا أمتعتهم في المدينة مع الخدم لحراستها ، ثم ركبوا مسيرة يوم عن المدينة ، واتخذوا وضع الاستعداد للمعركة بأكبر قدر من الرجال لديهم ، وبدا كما لو أن الارجحية كانت ضدهم ، لأنه لم يكن لديهم أكثر من خمسمائة من الخيالة في حين أن خصومهم كان لديهم فوق خمسة آلاف بكثير ، ومع ذلك حيث أن سير الحوادث يجري بأمر الرب ومشيئته ، فإن رجالنا عندما قاتلوا الروم ردوهم وهزموهم وقد خسر العدو كثيرا في هذه المواجهة ، في حين أننا من جانبنا ربحنا عددا عظيما من الخيول والأسلحة والدروع ، إضافة إلى كمية كبيرة من الغنائم الاخرى . وهكذا عاد شعبنا إلى ميثون وهو مبتهج جدا وراض تماما .

- ١٠٥٤ -

وركبوا فيما بعد إلى كورون وهي مدينة صغيرة على الساحل ، وأحكموا الحصار حولها ، ولم يكونوا قد حاصروها طويلا قبل أن يستسلم المكان ، وأعطاها وليم لجيوفري فيلهاردين الذي أصبح هكذا تابعا له ، ووضع جيوفري حامية فيها . وذهبوا بعد ذلك إلى حصن كلاماتا وكان جميلا جدا وجيد التحصين وكان أخذه عملا طويلا شاقا ، ولكنهم مكثوا أمامه حتى استسلم لهم ، وبعد ذلك بدأ الروم في المورة يستسلمون بأعداد أكبر مما حدث من قبل مطلقا .

وكان المركيز دي مونتفرات مايزال يحاصر نوبليا ، ولكن دون أدنى نجاح لأن المكان كان محصنا بقوة جدا ، وفي جهودهم لأخذه أنهك كثير من رجاله تماما واستمر جاك دي افسنس من جانبه في محاصرة كورنث حيث نزل مع المركيز . ولاحظ سغور الذي بقي في المدينة وكان رجلا داهية جدا ومخادعا أن لدى جاك جيش صغير فقط من الرجال ، ولم يكن لديه حراسة جيدة ، وهكذا خرج في فجر ذات صباح من المدينة بكل قوته ، ومضى بعيدا إلى حيث الخيام وقتل عددا كبيرا من رجالنا قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى سلاحهم .

وبين أولئك الذين قتلوا كان درو دي استرون وكان فارسا جيد جدا وباسلا وقد كان الحداد على وفاته عظيما ، وجرح جاك دي افسنس الذي كان يتولى القيادة جرحا بليغا في الساق ولكن الذين كانوا معه في تلك المناسبة أكدوا أنهم جميعا مدينون بنجاتهم لسلوكه الشهم ، لقد كانوا في الواقع قد أصبحوا قريبين جدا من فقد أرواحهم ، ولكنهم بعون الرب أجبروا العدو على التراجع إلى القلعة .

والآن كان الذين بطبيعتهم كانوا قادرين مايزالون يضمرون افكارا خيانية في قلوبهم وكانوا يعتقدون في ذلك الوقت أن الفرنسيين كانوا مبعثرين جدا في الأرض ومشغولين بانهماك شديد عن الاهتمام بأي شيء خارج شؤونهم الخاصة ، واعتقدوا أنه يمكنهم بسهولة أن يتمكنوا منهم بشكل أفضل بوسائل المكر

والخداع ، لهذا اختاروا سرا مبعوثين من كل المدن الامبراطورية وأرسلوهم إلى الملك جوهانيتزا ، بصرف النظر عن انه كان لزمان طويل عدوا لهم ، وكان مايزال في حرب معهم ، وأخبر هؤلاء المبعوثون جوهانيتزا أن الروم يقترحون جعله امبراطورا وانهم سيضعون أنفسهم كلية بين يديه ، وسيقتلون كل الفرنسيين والبنادقة في الامبراطورية ، واقسموا نيابة عن الروم أن يطيعوه كأمير لهم ، طالما انه من جانبه سيلتزم بالدفاع عنهم وحمايتهم كما يحمي رعاياه ، وصدق هذا الميثاق من قبل كلا الطرفين ، وفي نحو هذا الوقت كان شعبنا في القسطنطينية يعاني من خسارة عظيمة فالكونت هوغ الذي كان مصابا بشدة بالنقرس كان ملتزما للفراش منذ زمان طويل ، وزاد مرضه جدا حتى توفي ، وسبب هذا الحدث المؤسف فراغا عظيما ، وكان في الواقع كارثة شديدة ، وبكى أصدقاؤه ورجاله بحرارة موته ودفن في كنيسة سانت جورج في مانغانا .

وكان الكونت خلال فترة حياته أميرا على معقل ديموتيكا الجميل جدا ، والجيد التحصين وكان قد وضع كحامية فيه بعضا من فرسانه ومشاته ، بعد وفاته بوقت قصير قام الروم في مواصلة التزامهم بقسمهم لملك والاشيا بهجوم غادر على الرجال في هذا الحصن وقتلوا العديد وأخذوا أعداد كبيرة أسرى ، ونجا القليل ، وهرب الذين نجوا بحياتهم إلى أدرنة التي كان البنادقة يحتفظون بها في ذلك الوقت .

وبعد ذلك بوقت غير طويل هب الروم في أدرنة في ثورة مسلحة ، وفر الرجال الذين كانوا متمركزين هناك لحراسة المدينة منها بسبب الخطر العظيم على حياتهم ، وبلغت أنباء ذلك الامبراطور بلدوين الذي كان في القسطنطينية مع الكونت لويس وحفنة صغيرة من الرجال ، وتركتهم مضطربين جدا وفزعين ، ومن ذلك الوقت وماتلاه بدأت أخبار بالقدر نفسه من الكراهة تصل يوميا بأن الروم كانوا يثورون في كل مكان ، وحيثما كانوا يجدون الفرنسيين والبنادقة الذين يحتلون الأرض كانوا يقتلونهم .

وذهب الرجال الذين هربوا من أدرنة من كل من البنادقة والآخرين ممن كانوا معهم إلى تكرلو وهي مدينة كانت ماتزال في يد الامبراطور بلدوين وهناك وجدوا وليم دي بلانفيل ، الذي كان يحرس المكان لاميره ، وبفضل المساعدة والتشجيع اللذين قدمهما لهم ، ولأنه وافق أيضا على أن يصحبهم مع أكبر عدد من الرجال امكنه تأمينة عادوا إلى مدينة كانت تبعد نحو اثنى عشر فرسخا وتدعى أركاديوبولس ، وكانت تابعة للبنادقة ، وإذ وجدوها خالية دخلوها واحتلوها .

وخلال ثلاثة أيام تجمع روم تلك المنطقة معا . ومن كل مكان ضمن نطاق مسيرة يوم من أركادويوبولس ، وتحشدوا لمحاصرة المدينة ، ثم بدأوا بهجوم ضار مرعب من كل الجوانب . ودافع رجالنا عن أنفسهم بشكل رائع ، وفتحوا البوابات واندفعوا خارجين منها بكل قوة لمهاجمة العدو ، وبمشيئة الرب هزم الروم وبدأ رجالنا يصرعونهم ويقتلونهم ثم مع هروب العدو ، لاحقوه مسافة فرسخ كامل وهم يقتلون أعدادا إضافية أيضا ويستولون على عدد عظيم من الخيول وكثير من الغنائم الاخرى •

وهكذا عادوا والسرور يملأهم إلى أركاديوبولس وأرسلوا أنباء انتصارهم إلى الامبراطور بلدوين في القسطنطينية الذي ابتهج كثيرا بسماعها ، ومع ذلك لم يتجرأ رجالنا على احتلال المدينة بل تابعوا مسيرتهم في اليوم التالي وتركوها مهجورة ، وعادوا إلى تكرلو وهناك بقوا في حالة كبيرة من الخوف ، وهم يخشون من الروم الذين في المدينة بقدر ماكانوا يخشون الذين خارجها ، حيث أن هؤلاء الناس قد اشتركوا في القسم الذي أدي للملك والاشيا ، والتزموا بخيانة كل الفرنجة ، والواقع أن عددا غير قليل من شعبنا لم يجرؤ على البقاء في تكرلو ، بل أخذوا طريقهم عائدين إلى القسطنطينية .

وعند هذه النقطة التقى الامبراطور بلدوين والكونت لويس ودوج البندقية ، وقد أدركوا انهم يفقدون تدريجيا كل الامبراطورية لمناقشة

الامور ، وكنتيجة اتفقوا على أن على الامبـراطور أن يأمـر أخـاه هنري الذي كان في حينه في ادراميتيوم بأن يتخلى عن كل ما استولى عليه ، وأن يأتي لمعاونتهم ، وأرسل الكونت لويس من جانبه رسالة إلى بابين دي أورليانز وبيير دي برا سيو ، وكل الرجال الذين كانوا معهم وأخبـروهم أن يتخلوا عن كل مـا استولوا عليه سـوى المدينة الساحلية سيغا ، وكان عليهم أن يتركوا فيها حامية مـن أقـل عدد ممكن من الرجال في حين يأتـي البقية لتعـزيز القـوات التـي على الجانب الآخر من المضيق .

وبعد ذلك أصدر الامبراطور تعليماته إلى ماكيردي سانت مينهولد ومـاثيودي والنكورت ، وروبـرت دي رونسـوا ، الذين كانوا في نيقوميديا مع نحو مائة فارس بأن يتركوا ويحضروا لمساعدتهم .

وبناء على أوامر الامبراطور ترك جيوفري ديفيلها ردين مارشال رومانيا وشامبين ترك القسطنطينية مع مـانسيير دي أيل ، واكبـر عدد أمكنهما جمعه من الرجال ، وكانوا قلة إذا أخذنا بـالاعتبار أن كامل الامبراطورية كانت في طريق الضياع ، وركبوا إلى تكرلو وهي على مسيرة نحو ثلاثة أيام من القسـطنطينية ، فـوجدوا هناك وليم دي بلانفيل وكل الناس الذين معهم في حالة عظيمة من الخوف ، مـع أنهم اطمأنوا كثيرا بوصول المارشال ورفاقه ، وأمضى الزوار أربعة أيام في تكرلو ، وبينما كانوا هناك أرسـل الامبـراطور بلدوين مـن التعزيزات بقدر مايستطيع مـن القـوات التـي قـدمت الآن إلى القسـطنطينية ، حتـى أنه بحلول اليوم الرابـع كان هناك ثمـانين فارسا في المدينة .

ثم انطلق جيوفري فيلهاردين مرة أخـرى مـع مـانسيير دي آيل ورجالهما ، وركبوا حتى وصلوا إلى أركاد يوبولس ، حيث تـوقفوا تلك الليلة ، وأمضوا يوما هناك قبـل أن يتحـركوا نحـو بـورغار فيفون، وكان الروم قد أخلوا هـذه المدينة ، وهـكذا أمضـوا الليلة هناك ، وفي اليوم التالي تابعوا الركوب إلى نيكيتزا ، وهـي مـدينة

جميلة جدا وجيدة التحصين ومزودة بوفرة بكل مايمكن أن يحتـاجه المرء ، فوجدوا أن كل الروم قد تـركوا المكان وذهبـوا إلى أدرنة ، ولكن حيث أن نيكيتزا كانت على بعد تسعة فراسخ فقط مـن المدينة التي تجمع فيها عدد عظيم من أفراد العدو ، قـرروا الانتـظار حيث كانوا حتى يصل الأمبراطور بلدوين ٠

ودعوني اخبركم الآن بحادثة اسـتثنائية ، إن رينيردي تـريت ، الذي كان في فيلبوبولس على مسـيرة تسـعة أيام تمـاما مـن القسطنطينية ، مع نحو مائة من الفرسان هجره ابنه رنيير واخـوه جيلز وابن أخيه جاك دي بونديز وصهره أكاريدي فيردون وأخـذوا معهم نحو ثلاثين من فرسانه وتركوه كما يمكنك أن تتخيل في خـطر عظيم ، وكان هؤلاء الرجال قد اعتقـدوا أنه بإمـكانهم أن يصـلوا سالمين إلى القسطنطينية ، ولكنهم وجدوا أهل البلاد في ثورة ضدهم وهزموا في المعركة وأخذهم الروم أسرى وسلموهم فيما بعد الى ملك والاشيا حيث أمر بقطع رؤوسهم ، وقد شعر شعبنا كما يمـكنني أن أؤكد لكم بشفقة قليلة على هؤلاء الرجال الذين تفـرقوا بمثـل هـذه الطريقة المشينة بالنسبة لرجل كانوا ملتزمين بواجب معاملته بطريقة أخرى تماما ٠

وعندما رأى بعض فرسان رنيير الآخـرون تخلي الآخـرين عنه هـكذا ، وهم الذين كانوا مرتبطين به بروابط أوثق من روابطهم هـم به ، شعروا بخشية اقل من الخجل ، وفر نحو ثمانون منهم جمـاعة ومضوا من طريق آخر ، وهكذا ترك رنيير دي تريت محاصرا من قبل الروم مع القليل جدا من رجاله ، لأنه لم يكن معه في الواقع أكثر من خمسة عشر فارسا في المجموع في فيليبو بولس وفي سـتينماكا وهـو حصن قوي جدا كان تحت يده ، حيث بقي محاصرا فيما بعد زمـانا طويلا جدا.

الفصل السادس عشر

حصار أدرنه

آذار ـ نيسان ١٢٠٥

وسنتحول الآن من رنبيردي تـريت لنتحـدث مـرة أخـرى عن الامبراطور بلدوين الذي تركناه في القسطنطينية مضطربا جدا وقلقا مع فرقته من الرجال القلائل جدا ، وكان هناك ينتـظر أخـاه هنري وكل القوات من الجانب الآخر من المضيق ، وكان أول القادمين مـن نيقوميديا : مـاكير دي سـانت مينهـولد ومـاتيو دي والنكورت ، وروبرت دي رونسوا مع جماعتهم وكانوا يعدون في الاجمـال نحـو مائة فارس.

وكان الامبراطور بالغ السرور لرؤيتهـم وبـالتشاور مـع الكونت لويس دي بلوا اسـتقر الرأي على أنهـم يجـب أن يغـادروا القسطنطينية مع أكبر عدد ممكن مـن الرجـال المتـوفرين ليتبعـوا جيوفري دي فيلها ردين ، الذي كان غادر قبل ذلك ببعض الوقت ، والأسفاه أي أمر مؤسف إنهم لم ينتـظروا حتـى ينضـم اليهـم كل الرجال الذين جاؤوا من الجانب الآخر من المضيق ، وقد رأوا مـدى صغر القوه التي كان عليها أن تتغلب على مخاطر هذه الحملة.

وغادروا القسطنطينية مع نحو مائة وأربعين فـارسا ، وركبـوا يوما بعد يوم حتى بلغوا حصن نيكيتزا حيث كان المارشال جيوفري قد اتخذ مـواقفه ، واجتمعـوا تلك الليلة في مـؤتمر واجمعـوا على الذهاب واقامة معسـكر لهـم في مـواجهة أدرنة في اليوم التـالي وتطويقها ، وهكذا رتبوا لتشكيل كتائبهم ، وفعلوا ما وسعهم بأولئك الناس الذين كانوا معهم.

وفي صباح اليوم التالي وحالما اكتمل ارتفاع الشمس ركبوا حسب ترتيبهم نحو ادرنه ، واخذوا مواقعهم أمام المدينة ووجدوها محمية بشكل جيد جدا ، ورأوا أعلام جوهانيتزا ملك والا شيا وبلغاريا ترفرف على اسوارها وابراجها ، وكانت في الحقيقة مدينة قوية مزدهرة ومكتظة بالناس ، وبدأ رجالنا بشن الهجوم بجيشهم الصغير على اثنتين من بواباتها ، وكان هذا يوم الثلاثاء قبل أحد السعف ، ومكثوا ثلاثة أيام أمام المدينة في قلق عظيم وفي وضع سيء جدا من ناحية نقص الرجال.

وفي هذه الآونة جاء أنريكو داندولو دوج البندقية ، الذي لم يمنعه سنه وفقد بصره ، للانضمام اليهم ، وأحضر معه من الرجال بقدر ما كان عنده ، وعسكر البنادقة أمام احدى البوابات ، وفي اليوم التالي انضم اليهم ، وكانت قواتنا في حالة عجز في المؤن ، لأن الذين كانوا عادة يبيعونهم المؤن لم يكونوا قادرين على المجيء معهم ، ولم يكونوا قادرين على الرعي والتماس المؤن بأنفسهم لوجود عدد كبير جدا من الروم في الريف حولهم ، حتى أن أحدا لم يكن يجرؤ على ترك المعسكر ، وفي هذه الاثناء كان الملك جوهانيتزا يتقدم لاغاثة أدرنه معه جيش عظيم ، ذلك أنه لم يكن قد أحضر معه الوالاشيين والبلغار فقط بل ايضا نحو أربعة عشر ألفا من الكومان الراكبين الذين لم يعمدوا مطلقا.

وفي النهاية وبسبب العجز الشديد في الغذاء ذهب الكونت لويس للرعي والتماس المؤن في يوم أحد السعف ، وأخذ معه أخا الكونت دي برش أتيين ورينارد دي مونتميراريل الذي كان أخا للكونت هنري دي نيفير وجيرفيه دي شاتيل ، وأكثر من نصف رجال المعسكر ، وذهبوا الى حصن بوتزا الذي وجدوه محميا تماما من قبل الروم ، وبذلوا جهدا يائسا لاخذه بهجوم مباغت عاصف ، ولكنهم لم يلقوا نجاحا ، وكان عليهم أن يعودوا من حملتهم صفر اليدين ، وخلال الاسبوع المقدس بقيت القوات ساكنه تبني آلات من مختلف الانواع من ألواح الخشب ، ويقدمون الملغمين الذين

كانوا لديهم للقيام بالحفر تحت الأرض لزعزعة الاسوار ، واحتفلوا وهم في مثل هذه الظروف بعيد الفصح ، وقد عسكروا أمام أدرنة مع عدد قليل جدا من الرجال للعمل الذي بين أيديهم وأقل مما يكفي لاطعامهم .

ثم جاءت الأخبار بأن الملك جوهانيتزا كان يسير نحوهم لتحرير المدينة ، لهذا قاموا بالاستعدادات الضرورية لمواجهته ، ورتبوا حتى يبقي جيوفري دي فيلهاردين ومانا سيردي أيل لحراسة المعسكر في حين يخرج الامبراطور بلدوين وبقية القوات لمواجهة جوهانيتزا إذا هدد بمهاجمتهم ، وبقي الجيش متيقظا في حذر حتى يوم الاربعاء من أسبوع الفصح ، وبحلول هذا الوقت اقترب جوهانيتزا جدا حتى أن معسكره كان بالكاد على بعد خمسة فراسخ ، ثم أرسل الكومان ليهاجموا معسكرنا ، وصدرت الدعوة الى السلاح ، واندفع رجالنا في اضطراب ، ولاحقوا الكومان فرسخا كاملا أو أكثر وكان هذا عملا أحمقا من جانبهم ، لانهم عندما أرادوا الاستدارة للعودة أطلق الكومان عاصفة حقيقية من السهام عليهم ، وجرحوا الكثير من خيولهم.

وعندما عادوا أخيرا الى المعسكر دعا الامبراطور بلدوين البارونات الى مركزه ، وناقشوا الحادثة وأقر كل المعنيين بها بأنهم قد تصرفوا بدون حكمه لمتابعتهم لمثل هذه المسافة جيشا من القوات بهذا التسليح الخفيف ، وفي النهاية تقرر أنه إذا هاجم جوهانيتزا مرة أخرى فإنهم سيخرجون ويصطفون أمام المعسكر في انتظار مجيئه ، ولن يتحركوا من هذا الموقع ، ثم صدرت تعليمات عامة للقوات تمنع أي أحد من أن يتهور بالتغافل عن هذا الامر أيا كان أمر الدعوة للسلاح ، أواي صخب من أي نوع قد يسمعه.

ومرت تلك الليلة وفي الصباح ، وكان يوم خميس في اسبوع الفصح حضرت كل القوات القداس ، ثم تناولوا وجبة الغذاء وجاء الكومان مغيرين على خيامهم ، وارتفعت صيحة وهرول كل واحد

الى سلاحه وخرجوا من المعسكر وكل الكتائب في الترتيب الصحيح حسب الخطة.

وخرج الكونت لويس بكتيبته أولا ، وأرسل رسالة للأمبراطور يحث على اتباعه وبدا على الفور في ملاحقة الكومان واأسفاه كم كان قليلا ما احتفظ به جيشنا من منهج العمل الذي أمر به في الليلة السالفة.

وبدلا من البقاء قرب المعسكر لاحق رجالنا الكومان نحو فرسخين ، وهاجموهم على مقربة من مراكزهم ، واستمروا في المطاردة زمانا طويلا ، وفي النهاية استدار الكومان وهاجموهم وهم يطلقون صيحات نافذه ويرشقونهم بسهامهم.

وكان في جيشنا مجموعات من الرجال دون رتبه الفرسان ، كانت لديهم خبره قليلة في القتال ، فبدأ الآن يتملكهم الذعر والانهيار ، وكان الكونت لويس الذي كان البادىء بالهجوم قد جرح جرحا بليغا في مكانيين ، وكان الكومان والوالاشيون قد بدأوا في الضغط على قواتنا بشده ، وسقط الكونت لويس عن حصانه ، ولكن أحد فرسانه نزل وعاونه على الاستقرار فوق سرجه.وقال كثير من رجال الكونت له : أميرنا عد الى المعسكر إنك مصاب بجرح بليغ، ولكنه كان يجيب دائما إن الرب لا يسمع ، إنني سأعير دائما بالهرب من الميدان والتخلي عن امبراطوري.

أما الامبراطور الذي وصل بصعوبة بالغة اليه للوقوف الى جانبه ، فقد جمع رجاله حوله ، وأخبرهم بأنه من جانبه لن يوافق على الهرب وأنه كان عليهم أن يبقوا معه ، وكل الذين كانوا موجودين في حينه يمكنهم أن يشهدوا أن أي فارس لم يدافع عن نفسه ببسالة أكثر منه.

واستمرت هذه المعركة زمانا طويلا جدا ، وصمد بعضهم

بشجاعة في المواجهة ، وعمد بعضهم للفرار ، وفي النهـاية طـالما أن الرب يسمح بحدوث مثل هذه الكوارث ، فقد هزم الفرنسيون ، وأما الامبراطور بلدوين فلم يكن ليوافق مـطلقا على الهـرب ، وبقـي في الميدان كما فعل الكونت لويس ، وأخذ الواحد حيا وكان الثاني بين الموتى.

وا أسفاه أي خسـارة عانيناهـا في ذلك اليوم ، وكان بين الذين سـقطوا بيير أسـقف بيت لحـــم ، وايتين دي بيرش ، وريندودي مونتميرال أخو الكونت دي دفر ومـاثيو دي والنكورت وروبـرت دي رنسـوا ، وجين فـرييز ، وغونيير دي نويلي ، وتيري دي بيرس ، واخوه جين ويوستاس دي هيومـونت وأخـوه جين ، وبلدوين دي نيوفيل ، وعدد كبير آخـر لم تسـجل اسـماؤهم هنا ، وأمـا الذين تدبروا أمر الهرب فقد طاروا عائدين الى المعسكر.

وحالما سمع جيوفري دي فيلهاردين الذي كان يقـوم بـالحراسة عند إحدى بوابات المدينة بهذه الكارثة ترك المعسكر بأسرع ما يمكن مع كل الرجال الذين كانوا معه ، وأرسل رسـالة الى مـاناسيردي ايل ، الذي كان يقوم بالحراسة عند بوابة أخرى يطلب منه أن يتبعه وركب المارشال بكل سرعته على رأس كتيبـة ليواجـه الهـاربين ، الذين تحشدوا حوله عندما رأوه ، وجاء ماناسيردي ايل بأسرع مـا استطاع للانضمام اليهم حيث انهم شكلا معا جيشا أقوى بـكثير ، حيث أن كل الذين خرجوا هاربين مـن الميدان والذين تمـكنوا مـن ايقافهم أعيدوا الى الصفوف.

وفيما بين الساعة الثالثة والسادسة كان الاضطراب قد سـكن ، ولكن معظم الهاربين كانوا في ذعر لدرجة أنهم هربوا مارين بقـوات فيلهاردين ليجدوا ملاذا بين الخيام والسرادقات ، وهكذا كانت نهاية التراجع وتوقف الوالاشيون والروم أمام كتـائبنا التـي ارهقـوها بشكل مستمر بالغارات ، وبعرض مستمر مـن الرشـق بـالاقواس والسهام ، وعلى أي حال وقف رجالنا بلا حراك ووجوههم متجهـة

نحو العدو ، وبقي الجانبان كذلك حتى سقط الليل حيث بدأ الكومان والوالاشيون في الاستراحة.

وارسل جيوفري دي فيلهاردين مارشال شامبين ورومانيا رسالة الى المعسكر يطلب من الدوج ، الذي رغم سنه وعماه كان حكيما جدا وشجاعا ومليئا بالطاقة ، ان يأتي الى السهل حيث كان هو نفسه يتمركز مع كتيبته ، وفعل الدوج كما طلب منه وحالما رآه المارشال اخذه جانبا ليتشاور معه على انفراد.

وقال له :« سيدي انك ترى أي كارثة عانيناها ، لقد فقدنا لامبراطور بلدوين والكونت لويس اضافة الى اغلب رجالنا وبعضا من افضلهم أيضا ويجب ان نفكر الآن كيف ننقذ من بقي لأن الرب ان لم يرحمهم فاننا سنكون في حكم المفقودين ».

وفي النهاية قررا ان يعود الدوج الى المعسكر لانعاش قلوب القوات ، واعطاء كل رجل الاوامر بان يرتدي درعه وان يبقى هادئا في خيمته أو سرادقه ، وفي هذه الاثناء يبقى المارشال خارج المعسكر مع قواته في نظام القتال حتى يحل الظلام حتى لايراهم العدو وهم يغادرون ، ثم عندما يكتمل الظلام يتحرك الجيش كله من موقعه امام المدينة ويذهب دوج البندقية أولا ، ويشكل المارشال مع رجاله قوات المؤخرة .

وانتظر الجيش حتى حل الليل حيث غادر دوج البندقية المعسكر كما سبق ترتيبه في حين اخرج جيوفري دي فيلهاردين المؤخرة ، وانطلقوا في خطوة السير مع كل القوات بالنسبة للمشاة وللخيل ، ومعهم الجرحى الى جانب من لم يصب . ولم يترك منهم احدا ، واخذوا طريقهم نحو رود ستو، وهي مدينة على الساحل على مسيرة ثلاثة ايام من ادرنة وهكذا خلفوا تلك المدينة خلفهم ومضوا في طريقهم ، وحدث كل هذا في السنة ١٢٠٥ لتجسيد ربنا .

وخلال الليلة التي غادر فيها الجيش ادرنة حدث ان احدى

الكتائب انفصلت عن البقية ، على امل الوصول الى القسطنطينية في وقت ابكر بأخذ طريق اكثر استقامة ، ويمكنني القول بان مثل هذا السلوك لقي رفضا عاما وكان في هذه الكتيبة احد كونتات لومبارديا الذي جاء من مقاطعات المركيز دي مونتفرات ، وذهب معه يودس دي هام .الذي كان اميرا لحصن بهذا الاسم في فيرماندواز ونحو خمسة وعشرين فارسا لم تعط اسماؤهم هنا ٠

ومضوا بسرعة كبيرة بعد هزيمة قواتنا ، التي حدثت مساء الخميس ، حتى أنهم بحلول ليلة السبت التالي وصلوا الى القسطنطينية ، مع أنه في الظروف العادية كانت الرحلة تتم في خمسة ايام كاملة واخبروا بانباءهم كاردينال بيترو كابوا الذي كان هناك كموفد رسمي من البابا في روما ، وكذلك راهب دي بيتوم الذي كان يحرس المدينه ، وميلون لوبر يبانت والرجال القادة الاخرين ، وفزع الجميع فزعا عظيما بسماع انباء الكارثة واعتقدوا يقينا ان كل الاخرين الذين تركهم هؤلاء الرجال امام ادرنة قد فقدوا ، اذ انهم لم يتلقوا اي انباء عنهم

وفي الوقت الراهن لن نتحدث اكثر عن الناس في القسطنطينية الذين كانوا الان في كرب عظيم ، بل نعود الى دوج البندقية والمارشال جيوفري ، فقد ركب هؤلاء خلال الليلة التي غادروا فيها ادرنة حتى فجر اليوم التالي ، حتى وصلوا الى مدينة بسامفيل ، والان انصتوا وستسمعون كيف ان الاحداث كلها تترتب بمشيئة الرب ، ففي تلك المدينة بالذات امضى بيير دي براسيو وباين دى اورليانز الليلة مع كل الرجال من مقاطعات الكونت لويس ، وكانوا نحو مائة من الفرسان الجيدين الاقوياء ، ومائة واربعين من السرجندية الخيالة ، وكانوا قد وصلوا من الجانب الاخر من المضيق في طريقهم للانضمام الى الجيش في ادرنة ، وفي اللحظة التي شاهدوا فيها قواتنا تتقدم اسرعوا الى السلاح ، إذ ظنوا أننا من الروم ، وحالما تسلح القادمون الجدد ارسلوا الكشافين ليعرفوا من نكون ، واكتشف هؤلاء اننا من شعبهم ، واننا نتراجع بعد

الهزيمة ، وهكذا عاد المستطلعون ليخبروا اصدقاءنا بان الامبراطور بلدوين قد فقد وان الكونت لويس الذي جاءوا من اراضيه والذي كان قائدهم قد قتل في المعركة .

ولايمكن ان تكون قد وصلتهم مطلقا انباء اكثر حـزنا،وانهمـرت دمـوع كثيرة ، والتـوت اياد كثيرة في حـزن وكرب ، وركبـت كل المجموعة منطلقة وكلها مسلحة حتى وصلوا الى حيث كان المارشال جيوفري يقوم بحـراسة المؤخـرة ، وكان القلق قـد غلبـه لان الملك جوهانيتزا قد وصل عند الفجر امام ادرنة مع كل جيشـه ، وعندمـا وجد أننا رحلنا ركب وراءنا ، ولحسن الحظ جدا انه لم يكتشف أين كنا ولو انه لحق بنا لما كان هناك مفر من ضياعنا .

وخاطب بييردي براسيو وباين دي اورليانز المارشـال قـائلين : سيدي المارشال قل ماذا تريد أن نفعـل وسـنقوم بـه ، واجـابهما المارشال قائلا يمكنكما ان تريا في اي حالة نحن ، انكمـا مـرتاحان وكذلك خيولكما ، لذا يمكنكما حراسة المؤخـرة ، بينمـا أمضي لكي ابقى مسيطرا على الرجال ، انهم فزعون وقد فقدوا صـوابهم مـن الخوف ، وهم في حاجة ماسة لكلمـة تشـجيع ، ووافـق الرجـلان بسرعة على فعل ماطلب ، وهكذا مضيا الى المؤخرة ، ولكونهما ومن معهما فرسانا جيدين وشرفاء ادوا واجباتهم بكفاءة وضمير عاليين جدا كرجال عرفوا جيدا ان مثل هذه الامور يجب فعلها .

وركب المارشال جيوفري في الامـام ، وقـاد الجيش الى مـدينة تدعى كاريوبولس ، وعندما رأى ان الخيول منهـكة بعد السير طول الليل دخل المدينة ووضع الخيول في الاسطبل حتى الظهـر ، وعمـل الرجال في إطعام خيولهم ، ثم أعدوا وجبة لأنفسهم مما وجدوه مـن طعام وكان قليلا جداً ومكثوا في كاريوبولس كامـل ذلك اليوم حتـى حلول الليل ، ثم بما ان جوهانيتزا كان يتبعهم طول النهار على طول الطريق الذي سلكوه ، وكان الان معسكرا على بعد فرسخين منهم ، تسلحت كل القوات وغادروها عندما حل الظلام ، وقـاد المارشـال

جيوفري طليعة الجيش ، في حين ان اولئك الذي عملوا كحرس للمؤخرة اثناء النهار تشكلوا خلف الجيش ، وركبوا طوال الليل وكامل اليوم التالي ، وقد أزعجهم الخوف وأنهكهم المجهود الذي بذلوه حتى وصلوا في النهاية الى رودوستو ، وهي مدينة مزدهرة قوية التحصين يسكنها الروم ، وعلى اي حال لم يحاول هؤلاء الناس الدفاع عن انفسهم وهكذا دخلت قواتنا واخذت مراكز هناك ، وأخيرا اصبحت في امان وبهروبهم هكذا بعد هزيمتهم في ادرنة اجتمع قادة الجيش في مؤتمر في رودوستو وكان الرأي العام في الاجتماع انه كان لديهم سبب اكبر للخوف على اصدقائهم في القسطنطينية منه على انفسهم ، وعليه فقد اختاروا رسلا يمكن الاعتماد عليهم وارسلوهم بطريق البحر مع اوامر بالسفر ليلا ونهارا دون توقف ليخبروا جماعتهم في المدينة بان لايقلقوا عليهم إذ أنهم هربوا ، وليؤكدوا لهم بأن القوات الموجودة الان في رودوستو ستعود لتنضم اليهم في القسطنطينية باسرع مايمكنهم .

وفي الوقت نفسه الذي وصل فيه هؤلاء الرسل الى القسطنطينية كان هناك خمس سفن جميلة عظيمة من اسطول البندقية في الميناء هناك مع حشد من الحجاج والسرجندية على ظهورها ، وكانوا يغادرون تلك الارض للعودة الى بلادهم .

وكان هناك على الاقل سبعة الاف رجل مسلح في هذه السفن وكان غوليوم المحامي عن بيتوم هناك مع بلدوين دي اوبني وجين دى فيرسان الذي جاء من مقاطعات الكونت لويس وكان تابعا له والى جانب هؤلاء كانماينوف على مائة فارس لن اذكرهم بالاسم .

وذهب نيافة الكاردينال ممثل البابا انوسنت بيترودي كابوا وراهب دي بيتوم الذي كان يتولى امر القسطنطينية وميلون دى بريبانت مع عدد من الرجال الاخرين من ذوي المنزلة في وفد الى السفن الخمسة وبالدموع في عيونهم توسلوا للرجال على ظهورها ان يشفقوا على رفاقهم المسيحيين وعلى امرائهم ايضا الذين ماتوا في

المعركة وان يبقوا هناك على حسب الرب ، ومع ذلك فقد اعارهم الرجال الذين على ظهور السفن اذانا صماء لتوسلاتهم ، وغادروا الميناء ونشرت السفن أشرعتها ومضى هؤلاء الرجال في طريقهم ليصلوا كما قدر الرب حيث حملتهم الرياح الى ميناء رودوستو وحدث هذا في اليوم التالي لذلك اليوم الذي وصل فيه الرجال الذين نجوا من هزيمتهم في ادرنة الى هذا المكان .

ووجهت التوسلات نفسها التي رافقتها الدموع التي وجهت الى هؤلاء الرجال في القسطنطينية ، وحياهم الان في رودوستو المارشال جيوفري ، وتوسل اليهم اولئك الذين كانوا معه ان يشفقوا على الامبراطورية ، وان يبقوا هناك لانهم لن يستطيعوا مطلقا تقديم المساعدة الى اي ارض تحتاج اليها بالحاح اكثر من ارضنا ، وأجاب الرجال بانهم سيفكرون في الامر وان يعطوا الاخرين جوابهم في اليوم التالي .

وهنا دعوني اخبركم بحادثة جرت في رودوستو خلال الليل ، لقد كان في مجموعتنا فارس من مقاطعات الكونت لويس يدعى بيير دى فروفيل ، الذي حظي بشرف انه رجل جيد الشخصية والسمعة ، ومع ذلك فقد تسلل هربا في الليل تاركا امتعته وراءه ، وصعد الى ظهر السفينة التي كان يقودها جين دي فيرسان الذي كان ايضا تابعا للكونت لويس ، ونشر اولئك الرجال الذين كانوا على ظهر السفن ، والذين كان يفترض أنهم سيعطون جوابهم لجيوفري دي فيلهاردين ودوج البندقية في الصباح،اشرعتهم حالما رأوا ان فجر اليوم بدأ يبزغ ، ومضوا دون كلمة لأي انسان ، وقد انتقدوا بشدة لسلوكهم هذا سواء في الارض التي ذهبوا اليها ، أو الارض التي غادروها ، واكثر النقد كان لبييردي فروفيل ، حيث انه كما يقول عقلاء الناس : ان الرجل يأتي بشيء احمق عندما يرتكب من خلال خوفه من الموت عملا يكون عارا يلام عليه الى الابد .

الفصل السابع عشر

قيام وصاية على العرش

نيسان ـ حزيران ـ ١٢٠٥

عند هذه النقطة سأحول انتباهي إلى مكان آخر ، وبترك الجيش في رودوستو سأخبركم بشيء أكثر عن هنري أخي الامبراطور بلدوين ، وكان في هذا الوقت قد غادر ادراميتيوم مسرعا نحو أدرنه ليذهب لمعاونة أخيه الامبراطور ، وعبر المضيق مع مجموعة كبيرة من أولئك الأرمن الذين ساعدوه ضد الروم . وكانوا في مجموعهم حوالي عشرين ألفا بما في ذلك زوجاتهم وأطفالهم . الذين لم يجرؤوا على البقاء بعدهم .

وفي طريقه إلى أدرنه علم من بعض الروم الموثوقين ممن هربوا من المعركة التي هزم فيها جيشنا ان أخاه الامبراطور بلدوين مفقود ، وأن الكونت لويس وكثير من البارونات الآخرين قد قتلوا ، وفيما بعد تلقى أخبارا من أولئك الذين هربوا وكانوا في رودوستو ، مع طلب بأن يسرع بالانضمام اليهم بأسرع ما يستطيع ، وحيث انه كان متلهفا على أن يصل اليهم بأسرع ما يمكن ترك الأرمن والذين كانوا يسافرون على الأقدام مع أمتعتهم وعرباتهم وزوجاتهم واطفالهم ليتابعوا سيرهم خلفه ، وحيث انهم لم يستطيعوا مواكبة رجاله ، ولأنه اعتقد أنه يمكن أن يسافروا في أمان ودون خوف من أي خطر ، مضى قبلهم وعسكر في قرية تدعى كورتوكوبولس .

وفي ذلك اليوم نفسه انضم اليه انسودي كورسل أحد أبناء أخي جيوفري دي فيلهاردين الذين استدعاهم المارشال من ذلك الجزء من الامبراطورية الذي تقع فيه ماكري اترجانوبولس ودير بيرا والذي

- ٤٥١٧ -
أعطي لانسوا كممتلكات خاصة ، وجاء معهم عدد من الرجال من فيليبوبولس ممن تخلوا عن رينييه دي تريت

وضمت المجموعة حوالي مائة من الفرسان الجيدين وخمسمائه من السرجندية الخيالة ، وكانوا جميعا في طريقهم إلى أدرنه لمساعدة الامبراطور بلدوين ، ولكن الأنباء وقد ، بلغتهم كما بلغت الآخرين عن هزيمة الامبراطور ، فانهم تحولوا في اتجاه رودوستو ، وهكذا جاءوا ليعسكروا في كورتوكوبولس القرية نفسها حيث نصب هنري أخو الامبراطور خيامه .

وعندما رآهم هنري ورجاله يقتربون هبوا إلى أسلحتهم ظنا منهم بأنهم من الروم ، وظن الآخرون من جانبهم الشيء نفسه فيهم ، وتقدم كلا الطرفين حتى أصبحوا قريبين بدرجة كافية ليعرفوا بعضهم بعضا ، ثم تبادلوا التحيات بسرور وشعر كل منهم بالاطمئنان أكثر ، وعليه فإنهم عسكروا معا في القرية تلك الليلة ، وفي اليوم التالي انطلق الجميع مرة أخرى ، وركبوا مباشرة نحو رودوستو التي وصلوها في ذلك المساء ، وهناك وجدوا دوج البندقية مع المارشال جيوفري ، وكل الآخرين الذين هربوا من الكارثة الأخيرة ، وحيا هؤلاء القادمين الجدد بحرارة كبيرة ، ولكن دموعا كثيرة انهمرت حزنا على موت أصدقائهم ، واأسفاه وأي أسى ، إن عودة اتحاد القوات لم يتم في أدرنه عندما كان الامبراطور بلدوين فيها ، لأنه في تلك الحالة لم يكن ليضيع شيء ، ولكن هذا لم يكن ما يريده الرب .

وامضت المجموعة كلها اليومين التاليين معا في رودوستو ، وخلال هذا الوقت رأوا الحالة ، وقرروا ما يجب عمله ، وبين أشياء أخرى قبلوا بأن يكون هنري أخو الامبراطور بلدوين أميرا عليهم ، وجعلوه وصيا على عرش الامبرطورية ليتابع تسيير الأمور في مكان أخيه ، وفي الوقت نفسه لحقت بالأرمن الذين كانوا يتبعون هنري دي فلاندز بهم كارثة فقد تجمع الناس في تلك الأجزاء معا وتغلبوا عليهم

حتى أنهم جميعا كانوا إما أسرى أو قتلوا مباشرة ، وفي هذه الأثناء تمكن الملك جوهانيتزا الذي كان في الأرض مع كل قواته من احتلال هذه الأرض بالكامل تقريبا وجاء إليه الناس من كل مكان في الريف والمدن والحصون ، واجتاح رجاله من الكومان كل الأراضي حتى أبواب القسطنطينية واجتمع الوصي على العرش ودوج البندقية والمارشال الذين كانوا ما يزالون في رودوستو التي تقع على مسيرة ثلاثة أيام من العاصمة في مؤتمر .

وكنتيجة أقام دوج البندقية حامية من رجاله في رودوستو ، التي كانت تابعة للبنادقة ، وفي اليوم التالي اجتمعت كل القوات في كتائبها وركبوا على مراحل تدريجية إلى القسطنطينية .

وعندما وصلوا إلى سيلمبريا وهي مدينة كانت على مسيرة يومين من العاصمة ، وكانت تابعة للامبراطور بلدوين أقام هنري دي فلاندرز فيها حامية من قواته ، ثم ركب مع بقية الرجال إلى القسطنطينية وهناك تم الترحيب بهم بحرارة لأن الناس في المدينة كان يشلهم الخوف ، ولكن مايثير العجب أننا فقدنا هذا القدر من الامبراطورية حتى أنه خارج القسطنطينية فإن رودوستو وسيلمبريا ، فقط هما اللتان بقيتا تحت أيدينا ، وكانت بقية الأرض في يدي الملك جوها نيتزا ، وعلاوة على ذلك كان عبر المضيق حصن سبيقا فقط هو الذي تحت سيطرتنا ، وبصرف النظر عن هذا فإن كامل الأراضي كانت تحت يد تيودور لاسكاريس ، وقرر البارونات الآن أن يرسلوا في طلب المساعدة من البابا أنوسنت في روما وفي فرنسا وفلاندرز ومن بلاد أخرى ، وكان المبعوثون المختارون لهذه المهمة هم نيفلون وأسقف سواسون خونيكولاس دي ميلي وجين بليو وبقي الباقون في القسطنطينية في كآبة ذهنية كرجال يخشون أنهم على وشك فقد أراضيهم ، وبقوا في هذه الحالة التعسة حتى أسبوع العنصرة ، وأثناء تلك الفترة كانوا في خسارة عظيمة من خلال موت أنريكو داندولو بسبب المرض ودفن بتشريف كبير في كنيسة سانت صوفيا ، وبحلول عيد العنصرة فعل الملك جوها نيتزا

تقريبا كل ما كان يريد فعله في الأرض ، ولكنه لم يتمكن بعد ذلك من جمع شمل الكومان فقد وجدوا استحالة في متابعة الحرب أثناء الجو الحار ، وعليه فقد عادوا إلى بلادهم ، وسار جوها نيتزا بجيشه المكون من روم وبلغار لمهاجمة المركيز دي مونتفرات في سالونيك ، وكان المركيز الذي سمع في هذا الوقت بهزيمة الامبراطور بلدوين فراودته فكرة رفع الحصار عن نوبليا وأخذ معه أكبر عدد أمكنه جمعه من الرجال ، وأسرع إلى سالونيك وأدارها بقوته . وسار هنري دي فلاندرز من جانبه بعد أن جمع من القوة بقدر ما استطاع أن يدبر لمهاجمة الروم في تكورلو ، التي كانت على مسيرة ثلاثة أيام من القسطنطينية ، واستسلمت المدينة ، وأقسم الروم قسم الولاء لهنري الوصي على العرش ، ولكن مثل هذا القسم في تلك الأيام كثيرا ما كان يساء الوفاء به ، وسار بعد ذلك إلى أركاد يوبولس ، التي وجدها مهجورة ، لأن الروم لم يجرؤوا على انتظار مجيئه ، وأكمل طريقه حتى وصل إلى بيرو ، وهي مدينة قوية كان فيها حامية جيدة ، واستسلم هذا المكان أيضا ، وركب بعد ذلك إلى أبروس ، وكان فيها أيضا حامية مساوية في القوة للدفاع عنها ، وبينما كانت المفاوضات تتقدم حقق رجالنا خرقا إلى داخل المدينة من جانب آخر ، وتم هذا دون علم الوصي على العرش والآخرون المعنيون في المفاوضات ، وجعلهم في غاية الضيق ، وبدأ الفرنسيون يذبحون الروم ويستولون على كل ماله قيمة في المدينة ويخطفون كل ما تصل إليه أيديهم ، وقتل العديد من الروم وأسر العديد ، وهكذا أخذت ابروس ، وبعد ذلك قضى الجيش ثلاثة أيام في المدينة ، وكان الروم اجمالا فزعين من هذه المذبحة التي لحقت بأبناء جلدتهم حتى أنهم هجروا كل المدن والحصون في الأرض وهربوا بحثا عن ملاذ في أدرنه وديموتيكا ، وكل منهما مدينة جميلة جدا ، وقوية التحصين .

وفي نحو هذا الوقت وصل ملك والاشيا وبلغاريا الذي كان يسير لمهاجمة المركيز دي مونتفرات بكل قواته إلى أمام مدينة سيريس ، وكان المركيز قد وضع حاميه قوية في تلك المدينة حيث كان هوغ دي كولين ، وهو فارس قدير وشجاع جدا من الطبقة الرفيعة ، يتولى

القيادة هناك يدعمـــه غوليوم دي أرلر ، ومـــارشال الماركيز ، وعدد كبير من أفضل رجاله ، وحاصرهم الملك جوهـا نيتزا في تلك المدينة ، ولم يمض عليه،وقت طويل جدا قبل أن يأخذ المدينة بهجوم عاصف . وخلال الاستيلاء عليها كان المدافعون عنها سيئي الحظ فقدوا هوغ دي كولين الذي لقي مصرعه بسبب جرح في العين .

وعندما قتل هذا الرجل الذي كان أفضلهم جميعا أنهـارت معنويات باقي الجماعة ، ولجأوا إلى القلعة التي كانت قوية التحصين ، وأعد جوهـا نيتزا آلاته لمهاجمة هذا الحصن وحـاصرهم هناك ولم يفعـل ذلك زمانا طويلا حتى بدأ الرجال بداخله يطلبون الشروط للتسليم ، وهو عمل كان له أن يلقي وصـمة عار على سـمعتهم فيمـا بعـد ، ووافقوا على تسليم القلعة لجوهـانيتزا ، وقام هو من جانبه بجعـل خمسة وعشرين رجلا من أعلى طبقة في جيشه يقسمون لهـم بـأنهم سيعطون مرافقة آمنة مع خيولهم ، وكل معـداتهم إلى سـالونيك أو القسطنطينية أوهنغاريا ــ أيا من الثلاثة كانوا يفضلون .

وبهذه الشروط سلمت سيريس وأمر جـوهـا نيتـزا كل المدافعين عنها بالخروج والعسكرة بجانب الجيش في الحقول ، وفي البداية قدم عرضا من الصداقة تجاههم ، وحتى أرسل لهم الهدايا ولكن بعـد معاملتهم بهذه الطريقة مدة ثلاثة أيام تصرف بشكل مخـادع وأخـل بكل وعوده وأمر باعتقالهم وتجريدهم من كل ممتلكاتهم واقتـادوهم إلى والاشيا عراة حفاة سيرا على الأقدام ، وأما أولئك الذين كانوا فقراء أو من مولد منحط ، وعليه كانوا من غير ذوي الشأن ، فقـد أرسلوهم إلى هنغاريا ، أما بالنسبة للبقية فقد أمر بقطع أيديهـم ، وهكذا كانت خيانة الملك جوهـانيتزا الشائنة التي أمـكنه ارتـكابها وعانى الجيش في تلك المناسبة واحدة من أعظم الكرب التي حلت بـه مطلقا ، وأمر جوهـا نيتزا بهدم كلتا المدينتين والقلعـة إلى الأرض ، وبعد هذا مضى في طريقه ليتعامل مع المركيز .

وركب هنري الوصي على عرش الامبـراطورية مـع كل قـواته إلى

أدرنه وحاصرها ، وبفعل ذلك وضع نفسه وجيشه في خطر عظيم لأن كثيرا جدا من الناس سواء ضمن المدينة أو خارجها طوقوه من كل الجوانب ، حتى أن رجاله كانوا نادرا ما يستطيعون مغادرة المعسكر لشراء المؤن أو يتمكنون من القيام سوى برعي قليل ، أو التزود بقليل من المؤن ، ولكنهم لكي يجعلوا أنفسهم أكثر أمنا أحاطوا معسكرهم بسياج وبوابات محصنة بقوة ، وأمروا قسما من رجالهم بالحراسة في الداخل ، في حين خرج الباقون لمهاجمة المدينة وبنوا أيضا آلات من مختلف الأنواع ، وأعدوا سلالم التسلق والأشياء الأخرى التي تفيد في الهجوم ، وباختصار وضعوا أنفسهم في قدر عظيم من المتاعب من أجل الاستيلاء على المدينة ولكنهم لم يستطيعوا أخذها لأن المكان كان قويا جدا ، ومحميا بوفرة بقوات للدفاع عنه ، وعلى العكس كان كل شيء ضدهم وجرح الكثير من رجالهم ، وضرب واحد من أفضل فرسانهم ، وهو بيير دي براسيو على جبهته بحجر من منجنيق ، وكاد يقتل على الفور ، ومع ذلك وبمشيئة الرب أفاق وحمل بعيدا على محفة .

وعندما رأى في النهاية أن كل جهودهم للاستيلاء على المدينة كانت غير مثمرة ، سحب الوصي على العرش قواته وغادرها ، وخلال تراجعهم كانوا يضايقون باستمرار من قبل الروم وأهل الأرض التي كانوا يمرون عبرها ، وركبوا يوما بعد يوم حتى وصلوا إلى بامفيل حيث وجدوا مراكز لهم ومكثوا مدة شهرين ، ومن هناك قاموا بغزوات كثيرة في اتجاه ديموتيكا والأماكن المحيطة الأخرى ، وحازوا بهذه الوسيلة على عدد عظيم من الماشية ومخزون جيد من الغنائم الأخرى ومكثوا في هذه الأجزاء حتى بداية الشتاء في حين كانت المؤن ترسل إليهم من رودوستو والأماكن الأخرى ، عبر الساحل .

الفصل الثامن عشر

الملك جوهانيتزا يخرب الامبراطورية

حزيران ١٢٠٥ ــ حزيران ١٢٠٦

وسأتحول للحظة من هنري الوصي على عرش الامبراطورية للكلام بشكل أكثر خصوصية عن جوهانيتزا ملك والاشيا وبلغاريا الذي كما تعرفون قد استولى على سيريس ، ونقل بالخيانة أولئك الذين استسلموا له . وسار بعد ذلك إلى سالونيك وأمضى وقتا طويلا في ذلك الجوار مخربا قسما كبيرا من الارض ، وفي هذه الأثناء بقي المركيز دي مونتفرات في مدينته العاصمة وقد ملأه الأسى بسبب خسارة سيده الأمبراطور بلدوين والبارونات الذين ماتوا في أدرنة ، وكان في كآبة مريرة بسبب الاستيلاء على حصنه في سيريس وأسر رجاله .

وعندما رأى جوهانيتزا أنه قد فعل كل ما بإمكانه في سالونيك عاد أدراجه نحو بلاده آخذا جيشه معه ــ وسمع الروم في فيليبوبولس التي أعطاها الامبراطور لرنييردي تريت ــ كيف فقد الامبراطور بلدوين العديد من باروناته وكيف أخذ جوهانيتزا سيريس من المركيز ، وعرفوا أيضا أن أقارب رنيير دي ترتيت بما فيهم ابنه وابن أخيه قد تخلوا عنه وأنه لم يبق له سوى القليل من الناس ، وبالاعتقاد بناء عليه أن الفرنسيين لن تكون لديهم مرة أخرى اليد العليا ، ذهب عدد من الأهالي الذين كانوا ينتمون للطائفة البوليسية الى جوهانيتزا ليستسلموا له وقالوا : ياصاحب الجلالة • اركب الى فيليبوبولس أو ابعث جيشك وسنضع كامل المدينة بين يديك »•

وعندما سمع رنيير دي تريت ، الذي كان في فيليبوبولس بهذا العرض ، كان خائفا جدا من أن يفعل هؤلاء الرجال كما قالوا ، وعليه ففي ذات صباح عند الفجر غادر منزله ، ومع أكبر عدد من شعبه توفر له ، ذهب إلى ضاحية للمدينة يسكنها البوليسيين الذين استسلموا لجوهانيتزا ، وأشعل فيها النار حتى لقد احترق الكثير من هذا الحي ، ثم غادر فيليبوبولس وذهب إلى حصن ستينيماكا الذي كان على بعد ثلاثة فراسخ عن المدينة ، وكانت فيه حامية من رجاله ، وبقي هو وجماعته هناك زمانا طويلا جدا ، نحو ثلاثة عشر شهرا على وجه الاجمال في التخوم القريبة ، تحت ظروف بائسة وفي كرب نفسي عظيم . وفي عجز شديد في الطعام ، حتى أنه كان عليهم أن يأكلوا خيولهم ، وكان علاوة على ذلك على بعد تسعة فراسخ من القسطنطينية ، حتى أن أي تبادل في الأخبار بين الحصن والمدينة كان خارج الموضوع ، وبينما كان رنيير ورجاله في ستينيماكا جاء الملك جوهانيتزا مع جيشه ليحاصر فيليبوبولس ولم يمكث هناك طويلا جدا قبل أن استسلم الناس في المدينة له ، بعد أن وعد بأن يعفو عن أرواحهم ، ولكن على الرغم من هذا الضمان أعدم رئيس أساقفة المدينة أولا ، ثم أعطى الأوامر بسلخ أناس معينين من ذوي المنزلة وهم أحياء ، وبقطع رأس آخرين واقتيد باقي أهل المدينة بالسلاسل ، وبعد ذلك أمر بهدم كل أسوار وأبراج المدينة إلى الأرض ، وبحرق قصورها العظيمة ومنازلها الجميلة حتى أصبحت رمادا ، وهكذا دمرت مدينة فيليبوبولس النبيلة ، وكانت هي واحدة من أجمل ثلاث مدن في كل إمبراطورية القسطنطينية تماما .

بهذا انهي قصة فيليبوبولس واذا اترك بلايري تريت سجينا في ستينيماكا ، أعود الى هنري أخي الامبراطور بلدوين الذي بقي في بافيل حتى بداية الشتاء وحالما حل الطقس البارد استشار رجاله وباروناته ، الذين نصحوه بأن يضع حامية في مدينة روسيون التي تقع في ناحية خصيبة جدا ، وكانت تشغل موقعا مركزيا في الأرض ، وكان الرجال الذين كلفوا بهذه المهمة ، ديتريش فون لوس الذي عمل كحاكم المدينة ، وتييري دي تيرموند الذي اعطى قيادة

القوات . واعطاهم الوصي على العرش نحو مائة وأربعين فارسا وكثيرا من الخيالة ، وأمرهم بمتابعة الحرب ضد الروم وأن يقيموا الحراسة على النواحي النائية.

وذهب هو نفسه مع بقية رجاله الى بيرو وترك حامية من نحو مائة وعشرين وعددا جيدا من الخيالة في تلك المدينة ، مع انسودي كايو في القيادة ، ووضعت حامية أخرى من البنادقة في مدينة أخرى هياركانيوبولس ، وفي الوقت نفسه اعاد الوصي على العرش ابروس لثيو دور براناس وهو رومي كان متزوجا من اخت ملك فرنسا وكان في الواقع الوحيد من مواطنيه الذي بقي في جانبنا ، واستمرت القوات في كل هذه المدن في شن الحرب ضد الروم ، وقاموا بغارات عديدة في اراضيهم وقام الروم من جانبهم بهجمات مفاجئة عليهم بالكثرة نفسها ، وكان هنري نفسه في هذا الوقت قد عاد الى القسطنطينية مع بقية رجاله.

وفي هذه الاثناء لم يبق الملك جوهانيترا مع انه الآن قوي جدا وسيدا على ممتلكات عظيمة كسولا بل اقام جيشا كبيرا من الكومان والوالا شيين وبعد عيد الميلاد بثلاثة اسابيع ارسل هؤلاء الرجال الى امبراطورية القسطنطينية لمساعدة الروم في ادرنة وديموتيكا وبعد وصول هذه التعزيزات ازدادت جرأة اعدائنا وشنوا غارات على قواتنا بثقة اكبر.

وقبل عيد قداس الشموع (في الثاني من شباط) بأربعة ايام خرج تييري دي موند قائد القوات في روسيون في غارة استطلاع وذهب وركب طول الليل وأخذ معه نحو مائة وعشرين فارسا وترك قليلا من الرجال لحراسة المدينة وبحلول الفجر وصلوا الى قرية حيث كانت تعسكر فرقة من الكومان والوالا شيين.

واخذوهم تماما بالمفاجأة حتى أن احدا من القوات التي في المكان لم يكن لديه أي فكرة عن مجيئهم ، وقتل الفرنسيون عددا كبيرا من

رجال جوهانيتزا ، واستولوا على نحو أربعين من خيولهم ، وبعد أن ألحقوا بالعدو مثل هذا الضرر تحولوا عائدين إلى روسيون .

وفي الليلة ذاتها التي خرج فيها جماعتنا في تلك الحملة زحف جيش كبير من الكومان والوالاشيين فيه نحو سبعة آلاف فرد خارجا بهدف الحاق بعض الأضرار بنا ، وفي الصباح وصل إلى أمام روسيون ومكث هناك وقتا طويلا ، واقفلت الفرقة الصغيرة جدا من الرجال التي تركت لحراسة المدينة البوابات واعتلى أفرادها الأسوار ، وعندها استدار الكومان والوالاشيون وبدأوا في الانسحاب إنما لم يبتعدوا أكثر من فرسخ ونصف الفرسخ عن المدينة عندما قابلوا القوات الفرنسية التي بقيادة تيير دي تيرموند ، وحالما راى هؤلاء فرق العدو تتقدم شكلوا أنفسهم في أربع فرق وقرروا الانسحاب نحو روسيون ولكن بأبطأ خطوة ممكنة مدركين انه إذا أمكنهم بفضل الرب أن يصلوا إلى المدينة سيكونون في أمان ، وأقبل الكومان والوالاشيون مع الروم من أهل المنطقة نحوهم وهاجموهم بكل قوتهم وانقضوا على قوات المؤخرة وبدأوا هجومهم بوحشية شديدة ، وكانت هذه الفرقة مكونة من رجال يتبعون الحاكم ديريش فون لوس وكان قد عاد إلى القسطنطينية ، لهذا كان أخاه فيلان الآن يتولى القيادة وضغط عليهم العدو بشدة وجرح كثيرا من خيولهم . وانطلقت صيحات عالية وازدادت الجلبة عنفا ، حتى أن قوات المؤخرة في النهاية انهكت وغلبت على أمرها بالتفوق العددي واكرهت على الارتداد إلى الفرقة التي كان يقودها أندريه دي يوربواز وجين دي كوازي وهكذا تراجع الفرنسيون وهم يحاولون الحفاظ على مقاومة ثابتة ضد العدو لوقت طويل .

ثم جدد العدو هجومه بضراوة حتى أنهم دفعوا بالفرق التي سلف لها الاشتباك لترتد إلى الفرقة التي يقودها تييري دي تيرموند . ولم يمض وقت طويل أيضا قبل أن يدفعوا بهذه الفرقة حتى إلى مسافة أبعد لترتد إلى الفرقة التي يقودها شارل دي فرين ، أما الفرنسيون الذين كانوا مايزالون يقاتلون بعناد فإنهم تراجعوا الآن إلى حد أنه

بات بإمكانهم أن يروا أسوار روسيون التي تبعد فقط نصف فرسخ ، وضغط عليهم الأعداء أكثر فأكثر حتى أن الأرجحية كانت بدرجة كبيرة ضدهم ، وجرح العديد من الرجال وكذلك من خيولهم ، وفي النهاية ، حيث أنها كانت مشيئة الرب بأن تحدث مثل هذه الكوارث ، لم يعد بإمكانهم أن يقاوموا أكثر وهزموا ، وبشكل رئيس لأن تسليحهم كان ثقيلا وتسليح خصومهم خفيفا ، ثم بدأ العدو بذبحهم

وا أسفاه أي يوم حزين للنصرانية ، فمن المائة وعشرين فارسا في المعركة لم ينسج سوى عشرة من أن يقتلوا أو يؤسروا ، أما القلائل الذين هربوا فقد عادوا مسرعين للانضمام من جديد إلى أصدقائهم في روسيون ، وكان بين القتلى تييري دي تيرموند وذلك الفارس الجيد أوري دي أيل الذي كان كل واحد قدره ، وكذلك أيضا جين دي بومبون ، وأندريه دي أوبيوس وجين دي كويزي ، وغي دي كونفلانس ، وشارل دي فرين ، وفيلان أخو ديتريس فون لوس حاكم المدينة ، وليس هناك متسع في هذا الكتاب لاعطائكم أسماء كل من قتلوا أو أسروا ، وفي ذلك اليوم البالغ الحزن منينا بأقسى الخسائر وعانينا من إحدى أسوأ الكوارث التي عاناها شعب الأمبراطورية المسيحي على الاطلاق ، وكانت أكثرها جدارة بالرثاء أيضا ، أما الكومان والوالاشيون وقد الحقوا مثل هذا الضرر البالغ بأرضنا كما أرادوا أن يفعلوا ، فإنهم قد انسحبوا الآن كل واحد إلى بلده ، وقد حدثت هذه الكارثة لجيشنا في اليوم الذي سلف على ليلة قداس الشموع ، وتسلل الرجال الذين فروا بعد هزيمتهم مع الذين كانوا في روسيون خارجين من المدينة حالما حل الظلام ، وهربوا خلال الليل ليصلوا في صباح اليوم التالي إلى رودستو .

وبلغت الأخبار الحزينة لهذه الهزيمة هنري الوصي على عرش الأمبراطورية وهو خارج في موكب إلى ضريح سيدة بلاشرين في عيد قداس الشموع ، وقد سببت جزعا عظيما في المدينة التي كانت مقتنعة الآن بأن امبراطورية القسطنطينية قد ضاعت .

ووجد الوصي أن من الحكمة أن يضع حامية في سيلمبريا وهي على مسيرة يومين من القسطنطينية ، لذلك أرسل ماكاثيردي سانت مينهولد مع مجموعة من خمسين فارسا ليقوموا على حراسة المدينة .

وكان الملك جوهانيتزا من جانبه مبتهجا عندما سمع أخبار كيف أن جماعته قد نجحوا ، واكثر لأنهم قتلوا قسما عظيما جدا من افضل الرجال في الجيش الفرنسي ، لهذا أرسل الدعوات في كل أرضه تدعو أكبر عدد من الرجال يمكن جمعه معا ، وبعد أن أنشأ جيشا عظيما من الكومان والروم والوالاشيين غزا الأمبراطورية ، وانحاز معظم الناس في المدن والحصون إلى صفه ، حتى أنه في النهاية أصبح يملك من القوة بحيث فاق كل اعتقاد .

وعندما سمع البنادقة أنه قادم بقوة كبيرة هجروا اركاديوبولس ، وتقدم جوهانيتزا بكل قواته حتى بلغ ابروس ، التي كانت محمية من قبل الروم واللاتين ، وكانت تابعة لبراناس الذي كما تعرفون قد تزوج أخت ملك فرنسا ، وكان الرجل الرئيس بين اللاتين هوبيغ دي فرانسور وهو فارس من بلاد بوفيزيز .

وشن ملك والاشيا هجوما عاصفا على المدينة واجتاحها ، وكان عدد السكان الذين ذبحوا عظيما جدا ، حتى أنه يجل عن الوصف ، واحضر بيغ فرانسور أمام جوهانيتزا الذي أمر بقتله على الفور مع كل الروم واللاتين ، الذين كانوا من ذوي المكانة أيا كانت ، أما كل الناس الذين من أصل وضيع وكانوا لاشأن لهم مع كل النساء ، والأطفال فقد أخذوا بناء على أوامره إلى والاشيا ، وبعد ذلك أمر بالمدينة بكاملها – وهي مدينة جميلة جدا ومزدهرة وفي جزء خصب جدا من البلاد – أن تدمر حتى الأرض ، وهكذا تم تنفيذ خراب أبروس .

وعلى بعد إثني عشر فرسخا على الساحل تقع رودستو وهي

مدينة كبيرة جدا وغنية وقوية التحصين ومحمية بشكل جيد من قبل البنادقة ، وإلى جانب كل هذا كان جيشا من السرجندية مؤلفا من نحو ألفي خيال ، قد وصل حديثا للمساعدة في حراسة المدينة ، وعندما سمع هؤلاء الرجال بأن أبروس قد أخذت بالقوة وأن جوهانيتزا قد قتل كل أهل المدينة غلبهم الخوف ، حتى انهم تخلوا عن القتال قبل أن يبدأ ، وبما أن الرب يسمح بأن تنزل مثل هذه البلية بالرجال اندفع البنادقة شذرا مذرا إلى ظهور سفنهم وكل منهم يحاول أن يسبق الآخرين ، وبفوضى حتى كادوا أن يغرق الواحد منهم الآخر ، وهرب السرجندية الخيالة الذين جاءوا من فرنسا وفلاندرز والبلاد الأخرى بطريق البر .

أي كارثة في الواقع إنها واحدة لم يكن هناك حاجة مطلقا لأن تحدث ، لقد كانت المدينة قوية التحصين ومحاطة تماما بأسوار قوية وأبراج لم يكن لأحد على الاطلاق أن يغامر بمهاجمتها ، ولم يكن جوهانيتزا قد فكر مطلقا في أن يوجه جيشه في هذا الطريق ، ولكن حالما سمع هذا الملك الذي كان في حينه على بعد مسيرة نصف يوم من رودوستو ، أن حاميتها قد هربت تقدم نحو المدينة ، وسلم الروم الذين بقوا هناك : المكان له فأمر بأسرهم على الفور أيا كانت منزلتهم ، واقتادهم الى والاشيا ، إلا القليل الذي هرب ، ثم أمر بتدمير المدينة حتى الارض ، آه أي مأساة مروعة لأن رودستو كانت واحدة من أجمل المدن وأفضلها عمرانا في الامبراطورية .

وكانت هناك مدينة أخرى ليست بعيدة عن رودستو تدعى بيندور وقد سلمت هذه أيضا لجوهانيتزا ، وقد أمر بتدميرها نهائيا واقتيد سكانها أسرى الى والاشيا مثل مدينة رودستو ومن هناك ركب الى هيركليا وهي مدينة على الساحل كانت تابعة للبنادقة وكان لها ميناء جيد جدا ومع ذلك كان البنادقة قد تركوها مع حامية ضعيفة جدا فقط ، وعلى هذا أخذها جوهانيتزا بالقوة ، وهناك أيضا أعقب مذبحة عامة ، وأخذ الذين نجوا بحياتهم الى والاشيا في حين دمرت المدينة كما حدث للأخريات .

ومن هناك سار جوهانيتزا الى دالأونيوم وكانت هذه مدينة جميلة جدا وجيدة التحصين ، ولكن أهلها لم يجرؤوا على الدفاع عنهـا ، وهكذا دمرت بعد أن استسلمت ، حتى الأرض ، ثم مضى الى تـكرلو التي سلمت له من قبل ، وأمر رجاله بتحويل المدينة الى خرائب وأخذ الناس أسرى ، وكان كلما سلمت له حصون أو مـدن تعـامل معهـا بالطريقة نفسها ، حتى ولو كان قد وعد أهلها بـالأمان وأمـر بـكل واحد من هذه الامـكنة فـدمر ، واقتيد كل الرجـال والنســاء الى الأسر ، وباختصار لم يحافظ على أي ميثاق أبرمه .

وقبل مضي وقت طويل اجتاح الكومان والوالاشيون الأرض حتى أبواب القسطنطينية ، حيث كان الوصي على العرش مع أكبر عدد من الرجال الذين كانوا تحت قيادته يقيمون في حينه ، وكان يشعر بحزن شديد وقلق بالغ لكونه غير قادر على تـأمين عدد كاف مـن الرجـال للدفاع عن أرضه ، وبسـبب ذلك كان الكومـان يسـتولون على كل الماشية في الريف ، ويأخـذون الرجـال والنسـاء والأطفـال حيث يجدونهم ، ويدمرون الحصون والمدن التي يمرون بها وهم يحـدثون مثل هذا الخراب في كل مكان ، الخراب الذي لم يسمع أن أحدا أخبر بشيء يفوقه .

وفي النهاية وحتى نصف قطر يعـادل مسـيرة خمسـة أيام مـن القسطنطينية لم يبق شيء لم يدمر ، سوى مـدينتي بيزو وسـلمبريا التي كانت محمية من قبل الفرنسيين وكان انسو دي كايو في بيزو مع مائة وعشرين فارسا ، وكان ماكاثير دي سانت مينهولد مع خمسين فـارسا في سـيلمبريا ، وكان هنري أخـو الامبـراطور بلدوين في القسطنطينية مع باقي القوات مع مدينتين فقط خارج القسـطنطينية بقيتا في أيديهم ، وأكاد ألا أكون محتاجا لأن أقول لكم بأن حـظوظ الفرنسيين كانت في أدنى أحوالها .

وفي مناسبة واحدة اجتمعوا أمام أثيرا وهي مدينة تبعد نحو اثني عشر فرسخا عن القسطنطينية ، وكان هنري قد أعطاها لبـايين دي

أوليانز ، وكان هذا المكان يضم عددا كبيرا جدا من الناس لأن أهل الريف من المناطق المحيطة قد لجأوا اليها ، وهاجمها الكومان وأخذوها بالقوة وهنا كانت المذبحة كبيرة حتى إنه لم يوجد ما يفوقها في المدن التي تقدم حدوثها فيها ، وخلال هذا الوقت كما قلت قبلا دمر كل حصن أو مدينة سلمت لجوهانيتزا بوعد الأمان حتى الأرض واقتيد أهله أسرى الى والاشيا .

وعندما رأى الروم الذين كانوا في جيش جوهانيتزا ـ أو كما يقال الذين استسلموا له وثاروا ضد الفرنجة ـ كيف دمر مدنهم وقلاعهم وخرق كل وعد قطعه لهم ، شعروا بأنهم كانوا ضحية الخيانة وأنهم استسلموا للضياع ، وبعد مناقشة الأمور فيما بينهم توصلوا الى نتيجة أنه حالما يعود جوهانيتزا الى أدرنة وديموتيكا فانه سيتعامل معهم كما تعامل مع الأماكن الأخرى ، واذا أزيلت هاتان المدينتان فان الامبراطورية ستكون بالنسبة لهم قد فقدت الى الابد . وهكذا اختاروا رسلا سرا ، وأرسلوهم الى ابن جلدتهم براناس في القسطنطينية يتوسلون اليه ان يدافع عن قضيتهم عند هنري أخي الامبراطور ، ومع البنادقة حتى يساعدوهم وهم بدورهم سيعيدون أدرنه وديموتيكا للفرنجة وسيعطون دعمهم الكامل للوصي على العرش حتى يمكن للروم والفرنجة أن يعيشوا معا كأصدقاء .

وبالتالي جرى عقد مؤتمر في القسطنطينية وجرى فيه جدل كثير سواء مع الاقتراح أو ضده ، ولكن في النهاية تمت التسوية على أن أدرنة وديموتيكا مع كل الأراضي التابعة لهما يجب أن تمنح لبراناس وزوجته ، وأن براناس يجب أن يخدمهم لصالح الامبراطور والامبراطورية ، ووضع مشروع اتفاقية بهذا المعنى وقعها كلا الطرفين وهكذا عاد توطيد السلام بين الروم والفرنجة .

أما الملك جوهانيتزا الذي أمضى وقتا طويلا في الامبراطورية مخربا البلاد خلال كامل فترة الصوم الكبير ، ولفترة طويلة بعد عيد

الفصح فقد تحول الآن نحو أدرنة وديموتيكا ، وهو ينوي التعامل مع هاتين المدينتين كما فعل مع المدن الاخرى في البلاد ، وحالما راى الروم الذين كانوا معه أنه كان يتحرك نحو أدرنة بدأوا يتسللون هاربين في الليل والنهار في عشرين أو ثلاثين واربعين أو مائة في كل مرة ٠

وعندما وصل جوهانيتزا أمام أدرنة دعا الناس ليدعوه يدخل كما فعل في كل مكان اخر ، فأخبروه بأنهم لن يدعوه يفعل ذلك ووجهوا له القول التالي : سيدي عندما وضعنا أنفسنا بين يديك أقسمت أن تحمينا باخلاص وأن تحافظ على سلامتنا ، ومع ذلك لم تفعل هذا بل ضربت امبراطوريتنا ، ونحن نعرف جيدا أنك ستتعامل معنا كما فعلت مع أبناء جلدتنا ، وعندما سمع جوهانيتزا هذا مضى فأحكم الحصار على ديموتيكا ونصب ست عشرة عرادة كبيرة حول المدينة وبدأ في بناء آلات من كل نوع لاستعمالها في الهجوم ، ثم بدأ في تخريب كل الريف المحيط ، وأرسل أهل أدرنة وديموتيكا رسلا الى القسطنطينية مع تعليمات بالتوسل للوصي على العرش وبراناس باسم الرب ليأتوا لاغاثة ديموتيكا التي حوصرت ، وعند استلام هذه الرسالة عقد جماعتنا في القسطنطينية مؤتمرا لتقرير أي عمل يقومون به لاغاثة المدينة ، ولم يجرؤ كثير من الحاضرين على النصح بارسال أي قوات خارج القسطنطينية ، وبذلك يعرضون أرواح المسيحيين القلائل الباقين للخطر ، ومهما يكن من أمر تقرر في النهاية أن يسير الجيش الى خارج القسطنطينية ويمضي الى سيلمبريا ، ووعظ الكاردينال الذي عينه البابا كممثل له في القسطنطينية القوات ووعد بغفران كامل لكل من يذهب في فترة هذه الحملة ويواجه الموت في المعركة ، وهكذا سار هنري خارج المدينة بكل الرجال الذين تحت تصرفه وركب معهم الى سيلمبريا حيث عسكر خارج المدينة وبقي هناك مدة أسبوع ، وكانت الرسل تأتيه من أدرنه كل يوم تتوسل اليه أن يشفق على شعبها وأن يأتي لاغاثتهم لأنه اذا أخفق في ذلك فانهم ومدينتهم سيضيعون .

وبعد استشارة بارونانه قرر هنري بناء على نصيحتهم أن يتحرك الى بيزو التي كانت مدينة جميلة جدا وجيدة التحصين ، ووفق هذه الخطة سار الجيش الى هناك ونصب خيامه خارج الأسوار عشية عيد القديس يوحنا المعمدان في حزيران ، وفي اليوم نفسه الذي عسكروا فيه وصل الرسل من أدرنة ليتحدثوا مع الوصي على العرش قائلين : سيدي هكذا لقد جئنا لنخبرك بأنك إن لم تسعف ديموتيكا فإنها لا يمكن أن تصمد أكثر من أسبوع لأن عرادات جوهانيتزا قد خرقت دفاعاتنا في أربعة أماكن ، وقد وصل رجاله مرتين الى الاسوار ، وسأل هنري رجاله ماذا يجب أن يفعل ، وجرى قدر كبير من الجدل حول الموضوع ولكنهم في النهاية قالوا : حيث أننا جئنا الى هذا المدى يا سيدي فإنه سيكون عارا أبديا لنا أن لا نذهب ونغيث ديموتيكا لهذا فاننا نطلب من كل واحد أن يقوم بالاعتراف وأن يأخذ المناولة ، وعند ذلك نضع القوات في ترتيب التعبئة ، وحسبوا أن لديهم في الاجمال نحو أربعمائة فارس وليس أكثر ، وعليه فقط أرسلوا في طلب الرسل القادمين من أدرنة واستعلموا منهم عن عدد الرجال الذين كانوا في جيش جوهانيتزا ، وأجاب الرسل بأن لديه نحو أربعين ألف رجل مسلح دون احصاء المشاة الذين كان عددهم غير معروف ، لقد كانت في الحقيقة معركة خطرة أن يتولاها مثل هذا العدد القليل ضد مثل هذا العدد الكبير جدا .

وفي صباح عيد القديس يوحنا المعمدان قدم كل واحد اعترافه وتلقى المناولة ، وساروا قدما في اليوم التالي ، وقاد جيوفري دي فيلهاردين مارشال رومانيا وشامبين طليعة الجيش مع ماكاتيردي سانت مينهولد وراهب دي بيثوم ، وميلون لوبرابانت في قيادة الجيش الثاني ، وكان الثالث تحت قيادة باين دي اورليانزوبيير دي براسيو ، والرابع بقيادة دي كايو ، والخامس تحت قيادة بلدوين دي بوفيير والسادس بقيادة هوغ دي بوميتز ، وكان هنري الوصي على عرش الامبراطورية يقود الجيش السابع ، وكان الجيش الثامن يتألف من قوات فلمنكية وكان تحت قيادة غوتيير دي اسكورناي وكان وكيل الامير ديزيتر فون لوس يتولى قيادة قوات المؤخرة .

وهكذا ركبوا مدة ثلاثة أيام في نظام الزحف المحدد ، ولم يتقدم جيش مطلقا يسعى الى معركة في ظروف أكثر خطورة ، وكانوا في خطر من ناحيتين أولا لانهم كانوا على هذه القلة وكان هؤلاء هم الذين كانوا على وشك مهاجمتهم في مثل هذه الكثرة ، وثانيا لانهم لم يكونوا يصدقون بأن الروم الذين توصلوا مؤخرا جدا الى السلام معهم سيعطونهم دعما من أعماق القلب ، وعلى العكس فانهم كانوا يخشون من أن الجيش اذا تعرض للمصاعب فان الروم سينضمون الى جوهانيتزا ، الذي كان الآن قريبا جدا من الاستيلاء على ديموتيكا ٠

ومع ذلك عندما سمع جوهانيتزا بأن الفرنسيين قادمون لم يجرؤ على انتظار وصولهم ، بل أشعل النار في آلاته ونقض خيامه وهكذا انسحب من ديموتيكا ، واعتقد الجميع بأنها كانت معجزة عظيمة ، وفي اليوم الرابع بعد خروج الجيش وصل هنري الوصي على عرش الامبراطورية الى أدرنة ، ونصب معسكره بجانب النهر في بعض أجمل المروج في العالم ، وحالما رأى الناس في المدينة الفرنسيين يصلون خرجوا في مواكب يحملون كل صلبانهم ، وأظهروا من السرور ما لم يشاهد من قبل مطلقا وحق لهم أن يبتهجوا ، حيث أنه حتى ذلك الحين كانوا في وضع أبعد ما يكون عن أن يكون مريحا ٠

الفصل التاسع عشر

هجوم وهجوم مضاد

٢٩ حزيران ١٢٠٦ ـ ٤ شباط ١٢٠٧

وفي اليوم التالي لتحرير أدرنه سمع الفرنسيون بأن الملك جوهانيتزا قد اتخذ مراكز له في حصن قريب يدعى رودستوك، وعليه خرجت القوات في الصباح وركبت الى هناك لملاقاته.

وعلى أي حال قوض جوهانيتزا معسكره وبدأ السير عائدا الى بلاده، وسار الفرنسيون في أعقابه حوالي أيام خمسة ولكنه حرص دائما على أن يبقى متقدما امامهم، وفي اليوم الخامس عسكروا في بقعة جميلة جدا بجانب حصن يحمل اسم فرايم وأمضوا الايام الثلاث التالية هناك، وبينما كانوا هناك انفصل عدد من الرجال ممن قدموا خدمة جيدة في الجيش عن البقية بسبب بعض الخلاف بينهم وبين الوصي على العرش، وكان قائد هذه الجماعة هو بلدوين دي بوثوار وفرقته، وهوغ ـ دي بوميتز معه، وكذلك فعل غوليوم دي كومينيز ودور دي بورين، وعلى وجه الاجمال فقد غادر نحو خمسين فارسا في هذه المجموعة، ولم يفكروا مطلقا في أن البقية ستجرؤ على البقاء في هذا الجزء من البلاد وتحدي العدو.

ومع ذلك فقد استشار هنري البارونات المتبقين معه فنصحوه بأن يمضي قدما، وعلية فقد ركبوا متقدمين لمدة يومين، ثم نصبوا معسكراتهم في واد جميل جدا قرب قلعة تدعى مونياك التي استسلمت لهم، وبعد أن مكثوا هناك نحو خمسة أيام، قرروا المتابعة واسعاف رنييه دي تريت، الذي كان ما

يزال تحت الحصار في ستينماكا حيث ظل محصورا مدة ثلاثة عشر شهرا ، ومكث الوصي على العرش في المعسكر مع قسم كبير من القوات في حين مضى الباقون إلى ستيتنماكا كالنجدة لانقاذ رنيية دي تريت .

وبالكاد احتاج الى القول بأن الرجال الذين ذهبوا في هذه الحملة قاموا بذلك في مخاطرة عظيمة بأنفسهم في الواقع ، حيث انه كان عليهم أن يركبوا أياما ثلاثة كاملة عبر بلاد يحتلها العدو ، وكانت نجاة قليلة الاحتمال ممكن حدوثها في مثل هذه المخاطر ، وكان الذين شاركوا في هذه المهمة راهب دي بيثوم وجيوفري دي فيلهاردين وفليون اوبريبانت وبيير دي براسيو وباين دي اورليانز وانسو دي كايو وغوليوم دي براسو ، وجيش من البنادقة بقيادة اندريا فاليرا ، وركب الجميع باصرار قدما باتجاه قلعة ستينمياكا ولم يتوانوا في اطلاق العنان حتى اصبحوا على مرأى منها ولمح رنييه دي تريت الذي كان على السور الخارجي للقلعة قوات المقدمة التي يقودها المارشال جيوفري والفرق الاخرى تتابع من خلفه في ترتيب جيد جدا ، ولكنه في البداية لم يستطع أن يعرف من يكونون ، وفي الحقيقة حيث أنه لم يكن يدري بأخبارنا منذ زمان طويل فقد كان مندهشا بالكاد انه شعر ببعض الشك حولنا وتساءل فيما لوكنا من الروم نتقدم لحصاره ، واستدعى جيوفري دي فلهاردين واحدا من فرسان التوركبلي مع رماة القوس والنشاب من الصفوف وارسلهم في المقدمة ليتفقدوا اوضاع الحصن لانه طالما ان الجيش لم يكن لديه معرفة بشاغلية منذ زمان طويل مضى فان احدا من لم يكن يدري ما اذا كانوا احياء او اموات ، وفي اللحظة التي وصل فيها هؤلاء الناس الى امام الحصن عرف رنييه ورجاله انهم كانوا رجالنا ويمكنك ان تتخيل جيدا كم كانوا مبتهجين ، لقد اندفعوا خارجين من البوابات واسرعوا القاء أصدقائهم وتم تبادل تحيات من القلب بين الطرفين وتمركز البارونات في مدينة جميلة تقع اسفل القلعة وكانت تستخدم

كقاعدة لمهاجمتها ، وفي مجرى المحادثات قالوا انهم سمعوا رواية متواترة بأن الامبراطور بلدوين قد مات في احد سجون جوهانيتزا ولكنهم تخلوا عنها على انها مجرد شائعة واخبرهم رنييه بان خبر وفاته كان صحيحا وصدقوه ، وكان العديد منهم في حزن شديد وتمنوا من كل قلوبهم ان لاتكون هذه الخسارة مما لايمكن تداركه ٠

ونامت القوات تلك الليلة في المدينة ، وفي الصباح خرجت المجموعة كلها وتركوا حصن ستيميناكا مهجورا ، وركبوا يومين كاملين وفي الثالث وصلوا الى معسكر تحت حصن مونياك ، والذي يقع على نهر ارتا حيث كان هنري اخو الامبراطور ينتظرهم ، وابتهج كل الناس في المعسكر عندما علم أن رنييه دي تريت قد حرر في احتجازه القسري ، وكان الامتنان الذين بمخاطرتهم الكبيرة بأنفسهم اعادوا له الأمن والسلامة ، وقرر البارونات الان الذهاب الى القسطنطينية واتخاذ الترتيبات لتتويج هنري دي فلاندرز كامبراطور ، وفي مكان اخيه ، وتركوا في الوقت نفسه براناس لحراسة الأرض بمساعدة الروم في هذا الجزء من الامبراطورية مع اربعين فارسا يقدمهم الوصي على العرش ، وهكذا غادر هنري الوصي على العرش الامبراطوري مصحوبا بالبارونات الاخرين الى القسطنطينية ، وركبوا عدة أيام حتى بلغوا العاصمة حيث رحب بهم كل الناس بحبور ، وفي آب يوم الجمعة بعد عيد رفع مريم العذراء توج أخو الملك المتوفى امبراطورا بتشريف كبير ووسط بهجة عظيمة في كنيسة سانت صوفيا ، وكان هذا في السنة ١٢٠٦ لتجسيد ربنا ٠

وعندما سمع الملك جوهانيتزا أن امبراطورا جديدا قد توج في القسطنطينية وبأن براناس قد ترك في هذا الجزء من الامبراطورية حول أدرنه وديموتيكا ، جمع أكبر قوة أمكنه جمعها ، ولم يكن براناس قد أعاد بناء أسوار ديموتيكا في الاماكن التي تم

اختراقها بواسطة عرادات جوهانيتزا ومنجنيقاته ، كما أنه قد ترك حامية غير مناسبة جدا ، وعليه فقد سار جوهانيتزا نحو ديموتيكا ، وأخذها ودمرها وهدم أسوارها الى الأرض ، وبعد ذلك اجتاح كامل المنطقة وأخذ الرجال والنساء والأطفال من بيوتهم والماشية من الحقول ، وباختصار انهمك في تخريب بالجملة حيث ذهب ، وعليه فإن أهل أدرنة وقد رأوا الطريقة التي خربت فيها ديموتيكا توسلوا الى الامبراطور هنري بأن يأتي لانقاذهم ٠

وبعد أن دعا الامبراطور من الرجال بقدر ماكان تحت تصرفه ، غادر العاصمة وركب باصرار ماضيا في اتجاه أدرنة وكل قواته في تعبئة الترتيب القتالي ، وعندما سمع الملك جوهانيتزا الذي كان ما يزال جوار أدرنة بأن الامبراطور كان يتقدم استدار عائدا الى بلاده ، وتابع الامبراطور هنري ركوبه حتى بلغ أدرنة حيث نصب معسكره في مرج خارج المدينة ٠

وجاء الروم في تلك الناحية وأخبروه كيف كان جوهانيتزا يأخذ الرجال والنساء والأطفال ، وبأنه قد دمر ديموتيكا ، وخرب كل الريف المحيط ، وأضافوا أنه كان مايزال على مسيرة يوم واحد فقط ، وقرر الامبراطور أن يمضي في أثره وإذا وجده ينتظر فإنه سيشتبك في قتال معه ، وينقذ الرجال والنساء الذين أسرهم وأخذهم معه ، وعليه فقد ركب في أثر جوهانيتزا الذي تراجع بقدر ماتقدم الامبراطور ، وبعد انقضاء أربعة أيام في ملاحقته وصلت قواتنا الى مدينة تدعى بيرو ٠

وعندما رأى الناس في تلك المدينة جيش الامبراطور هنري يقترب هربوا جميعا الى الجبال تاركين المكان مهجورا ، وجاء الامبراطور وعسكر مع كل قواته خارج المدينة التي وجدوها جيدة التموين بالقمح واللحم وكل المؤن السارة ، ومكثوا هناك مدة يومين حتى أرسل الامبراطور رجاله ليطوفوا بالريف

المحيط ، فتدبروا أمر تأمين عدد كبير من الثيران والابقار والجاموس والماشية الاخرى ، ثم ترك الامبراطور بيرو مع كل الغنائم التي جمعها رجاله ، وركب الى مدينة أخرى تدعى بيلزم التي كانت على مسافة مسيرة يوم واحد فقط ، وتماما كما هجر الروم من أهل بيرو مدينتهم ، هكذا هجر أهل بيلزم مدينتهم وإذ وجد الامبراطور المكان ممونا بشكل جيد بكل شيء يمكن أن يحتاج اليه رجاله عسكر خارجها ٠

وبينما كانوا هناك جاءتهم الاخبار بأن الرجال والنساء الذين اخذهم جوهانيتزا كانوا جميعا في واد على بعد ثلاثة فراسخ من المعسكر مع ماشيتهم وعرباتهم ، وعليه فقد رتب الامبراطور أن يمضي الروم من أدرنة وديموتيكا مع مجموعتين من الفرسان سيؤمنهم هو نفسه في أثر الأسرى لاعادتهم ، ونفذت هذه الخطة في اليوم التالي ، ونصب أخو الامبراطور يوستاس قائدا لاحدى مجموعتي الفرسان ، وتولى ماكائير دي سانت مينهولد قيادة الاخرى ٠

وخرج الجميع من فرنسيين وروم معا وركبوا حتى وصلوا الى الوادي الذي أخبروا به ، وهناك وجدوا الاسرى واشتبكت قوات جوهانيتزا مع قوات الامبراطور ، وتبع ذلك صراع قتل فيه رجال وخيول او جرحوا من كلا الجانبين ، ولكن بقدرة الرب القوية كسب رجالنا اليد العليا وانقذوا الناس الذين أخذهم جوهانيتزا ثم استداروا عائدين نحو المعسكر ، وأعادوا الرجال والنساء الذين حرروهم في صف طويل أمامهم ، وفي تنفيذ هذا الانقاذ يمكنني أن أوكد أن جماعتنا لم ينجزوا عملا عاديا ، لقد كان الأسرى يعدون بما يفوق على عشرين ألف رجل وامرأة وطفل معا ، وكان هناك الى جانب ذلك نحو ثلاثة آلاف عربة محملة بالملابس والمقتنيات الاخرى ، ولا تقول شيئا عن العدد الكبير من الماشية ، وبينما كانوا ينتقلون من الوادي للمعسكر كان رتل الناس والعربات والماشية يغطي نحو فرسخين ٠

وكان الوقت ليلا عندما وصلوا الى المعسكر ، وكان الامبراطور هنري مسرورا برؤيتهم وكذلك كان كل البارونات ، وأعطى هؤلاء الناس مراكز بعيدة عن مراكز القوات ، ووضعت عليهم وعلى امتعتهم حراسة مشددة حتى انهم لم يفقدوا مايساوي بنسا واحدا مما كانوا يملكون ، وفي اليوم التالي مكث الامبراطور في المعسكر في هدوء من أجل الذين حررهم ، وفي اليوم الذي تلاه ترك الناحية وتابع السير عدة أيام حتى وصل اخيرا الى أدرنة •

وعند وصولهم الى هناك أعطى الناس الذين حررهم الاذن بالذهاب الى حيث يريدون ، وعليه فقد ذهبوا في طرقهم المتعددة سواء الى المكان الذي ولدوا فيه أو أي مكان آخر ، ووزع مخزون الغنائم الوفيرة بالشكل المناسب كما ينبغي بين القوات ، وبعد تمضية خمسة أيام في أدرنة ركب الامبراطور هنري الى ديموتيكا لرؤية مدى الضرر الحادث وليتبين ما اذا كان بالامكان اصلاح التحصينات ، وعسكر خارج المدينة وأدرك هو وباروناته أن أسوارها كانت في حالة سيئة حتى انه كان لافائدة من محاولة اعادة تحصينها •

وبينما كان الامبراطور هناك ، وصل احد بارونات المركيز دي مونتفرات ويدعى أوتون دي لاروش ليراه ومعه رسالة من سيده ، لقد جاء ليتحدث عن موضوع زواج كان قيد البحث بين ابنه المركيز والامبراطور هنري ، وجاء بأخبار بأن السيدة قد حضرت من لومبارديا بعد أن أرسل أبوها في طلبها ، وبأنها كانت الان في سالونيك واتفق على أن يوثق الزواج من قبل الطرفين ، وبناء عيه عاد مبعوث المركيز الى سالونيك •

وعاد الامبراطور الذي كان رجاله مشغولون في تخزين الغنائم التي أخذوها في بيرو في مكان امين من المعسكر الآن إلى تجميع جيشه ، وغادر أدرنة وبعد السير عدة أيام دخل

مقاطعات جوهانيتزا بقواته ، ووصلوا الى مدينة تدعى ثيرمي واستولوا عليها ودخلوا المكان وجمعوا قدرا كبيرا من الاسلاب ، وامضوا ثلاثة ايام في ثيرمي اجتاحوا خلالها الريف المحيط ، وبالاضافة الى الحصول على قدر عظيم من الغنائم دمروا مدينة أخرى تدعى أكيلو ·

وبعد ذلك بأربعة ايام تركوا ثيرمي وكانت مدينة جميلة جدا في موقع جيد جدا ، وفيها أجمل الينابيع الحارة التي يمكن أن توجد في العالم ، وبعدما جمع رجاله كميات هائلة من الغنائم في صورة ماشية وأشياء أخرى ذات قيمة يمكنهم أخذها معهم ، وامرهم الامبراطور بطرح النار في المدينة وتدميرها ، ثم غادر الجيش وبعد بضعة أيام من المسير وصل عائدا الى ادرنة وبقيت قواتنا في الناحية حتى عيد جميع القديسين عندما جعل اقتراب الشتاء ومتابعة الحرب مستحيلة وعليه استدار الامبراطور هنري وكل باروناته الذين كانوا متعبين تماما من شن الحملات استداروا عائدين الى العاصمة تاركا واحدا من رجاله ويدعى بير دي راديدنفيم وبين الروم في ادرنة ومعه عشرة من الفرسان وكانت هناك في تلك الفترة هدنة بين الامبراطور هنري وتيودور لاسكارس الذي كان يسيطر على الارض الواقعة على الجانب الجنوبي من المضيق ، ولكن هذا الرومي بدلا من أن يرعى شروط الهدنة اخل بوعده وانتهكها ، وعليه ارسل الامبراطور بعد استشارة باروناته فرقة من القوات عبر المضيق الى سبيغا ، وكان قائد الحملة بيردي براسيو الذي عين له جزءا من الارض هناك . وذهب معه باين دي اورليانز وانسودي كايو ويوستاش راخو الامبراطور ، وصحبهم قسم كبير من افضل الرجال في جيش الامبراطور حتى بلغوا مائة واربعين فارسا . وبدأ هؤلاء الحرب بجد صارم ضد تيودور لاسكارس واوقعوا بارضه ضررا عظيما .

وركبوا الى سيزيكوس وهو مكان محاط بالبحر من كل

الجوانب فيما عدا واحد ، وكان الوصول اليه لزمان طويل مضى محميا بسلسلة من التحصينات تشمل الاسوار والابراج والخنادق المائية ، ولكن هذه قد لحقها البلى تقريبا ، واحتلتها القوات الفرنسية ، وبدأ بييردي براسيو الذي أعطي هذا الجزء من الأرض في تجديد الدفاعات وبنى قلعتين لكل منهما بوابة ذات قضبان قوية ، ومن هناك اجتاحت القوات الاراضي التي يسيطر عليها لاسكارس حيث جمعت كثيرا من الاسلاب والعديد من رؤوس الماشية التي جلبوها معهم وهم عائدون الى مأواهم في الجزيرة ، وقام لاسكاس من جانبه بغزوات متكررة على سيزيكس حتى أن الجيشين كثيرا ما التقيا وحارب بعضهما بعضا ، وكانت هناك خسائر من الجانب الواحد والآخر وكانت الحرب في تلك الاجزاء ضارية ومليئة بالمخاطر .

وهنا سأترك رجال سيزيكوس لاتكلم لحظة عن نائب الأمير ديتريس فون لوس الذي كان يجب أن تتبعه نيقوميديا ، وكانت هذه المدينة على مسافة مسيرة يوم واحد من نيقية المدينة العاصمة لأرض ثيودور لاسكارس ، وقام ديتريس بحملة على المكان مع عدد عظيم من رجال الامبراطور ، ووجد أن الحصن قد هدم ، فقام بتسوير وتحصين كنيسة سانت صوفيا التي كانت بناء عاليا جميلا جدا ، واستخدمها كقاعدة لمتابعة الحرب في المناطق المجاورة لنيقوميديا .

وفي الوقت نفسه غادر المركيز دي مونتفرات سالونيك الى سيريس التي كان جوهانيتزا قد دمرها ، فأعاد بناء الدفاعات فيها ، ثم ذهب لتحصين قلعة دراما في وادي فيليبي ، وسلمت له كل البلاد المحيطة وقبله الناس كأمير لهم .

وفي هذه الاثناء كان قد مضى وقت طويل حتى أن عيد الميلاد قد انقضى ، وجاء الآن رسل من المركيز ، إلى الامبراطور ليخبروه نيابة عن أميرهم بأنه قد أرسل ابنته في سفينة كبيرة الى

ايذوس ، وعليه فقد اناب الامبراطور جيوفيري دي فيلهاردين وميلون لي برابانت ، ليذهبا لاحضار السيدة ، وركب الاثنان خارجان من المدينة ووصلا خلال بضعة ايام الى ايذوس ، ومن هناك ذهبا لرؤية ابنة المركيز ، وكانت سيدة طيبة جدا وجميلة وحيياها نيابة عن سيدهما الامبراطور هنري ، ثم عادا بها بعد ذلك بتشريف كبير الى القسطنطينية ، واحتفل بزواجها من الامبراطور هنري في ابهة عظيمة وبهجة كبيرة في كنيسة سانت صوفيا ، في يوم الاحد الذي يلي قداس الشموع ، وارتدى كل من العريس والعروس تاجا وتبعت الاحتفال ولائم زواج فاخرة في قصر بوكليون حضرها كل نبلاء تلك الارض ، وبهذه الطريقة احتفلت القسطنطينية بزواج الامبراطور هنري وابنة المركيز التي أصبحت الان الامبراطورة أغنس ٠

الفصل العشرون

الحرب على جبهتين

آذار ـ أيار ١٢٠٧

وفي مجرى حرب تيودور لاسكارس مع الامبراطور هنري أرسل الأول رسلا الى الملك جوهانيتزا ليخبروه بأن كل رجال الامبراطور كانوا مشتبكين في قتال الروم في جانب المضيق المواجه لتركيا ، وبأن الامبراطور نفسه بقي في القسطنطينية مع قليل جدا من الناس ، وفي مثل هذه الظروف كما قال لاسكارس تكون لدى جوهانيتزا فرصة جيدة للثأر ، وأنه هو نفسه ، هكذا أضاف ، سيهاجم الفرنسيين على جانب واحد من المضيق فإذا هاجمهم جوهانيتزا من الجانب الآخر لن يكون الامبراطور قادرا على الدفاع عن نفسه ضدهما معا ، وكما حدث كان الملك جوهانيتزا قد انشغل من قبل في اعداد جيش عظيم من الكومان كان في طريقه للانضمام اليه وقد جمع الآن قوة عظيمة من الوالاشيين والبلغار بقدر ما أمكنه ، وكان قد مضى الآن وقت طويل حتى أننا أصبحنا في بداية الصوم الكبير وكان ماكائير دي سانت مينهولد قد بدأ في تحصين قلعة في كاراكي تقع على شاطىء خليج على بعد نحو ستة فراسخ من نيقوميديا وتواجه القسطنطينية ، وبدأ غوليوم دي سانز في تحصين قلعة أخرى في كيبوتوس على الجانب الأبعد من خليج نيقوميديا في اتجاه نيقية وكان لدى الامبراطور هنري من الأعمال الكثير بقدر ما يمكنه عمله في الريف المحيط بالقسطنطينية ، وهكذا كان كل البارونات على ذلك الجانب من المضيق ، ولم يتردد جيوفري دي فيلهاردين مارشال رومانيا وشامبين مؤلف هذا التاريخ في تأكيد أنه لم يكن لأي شعب في أي لحظة من تاريخه أن يحمل مثل هذا العبء الثقيل من الحرب بسبب أن قواتهم كانت مبعثرة في أماكن عديدة مختلفة ، وغادر

جوهانيتزا الآن والاشيا بكل قـواته ، وبينهـا الجيش الكبير مـن الكومان الذي جاء للانضمام اليه وبدأ في غزو الامبراطورية واجتاح الكومان البلاد حتى أبواب القسطنطينية في حين أحـكم الملك نفسـه الحصار على أدرنة ، ونصب ثلاثين مـن العـرادات الكبيرة حـول المدينة كانت تقذف أسوارها وأبراجها بـالحجارة ، وبـداخل أدرنه كان هناك الروم فقط ومعهم بيير دي ادينفام الذي بقـي هناك بناء على أوامر الامبراطور ومعه عشرة من الفرسان ، وعليه أرسـل كل من الروم والفـرنسيين معـا الى الامبـراطور ليخبـروه كيف أن جوهانيتزا قد حاصرهم وتوسلوا اليه أن يحضر لنجدتهم .

وعندما تلقى رسالتهم كان الامبراطور ذاهلا تمـاما فجنوده على الجانب الآخر كانوا مشتتين على نطاق واسع ، وكانوا في كل مكان منشغلين بشده حتى أنه لا يمكنهم أن يفعلوا أكثر مما كانوا يفعلونه بالفعل ، في حين أنه هـو نفسه كان لديه جيش صغير جدا من القوات في القسطنطينية ، ومع ذلك فقد أنطلق زاحفا خارجا من المدينة مـع أكبر عدد من الرجال أمكنه جمعه خلال الاربعة عشر يوما التـي تلت عيد الفصح ، ومع ما خطط له أرسل الى سيزيكس حيث كان معظم شعبه يخبر الرجال هناك أن يحضروا للانضمام اليه ، وانطلق أخوه يوستاس مع انسو دي كايو والقسم الرئيسي من رجالهما على الفور عبر الماء حتى أن بيير دي براسيو ، وبـاين دي أوليانز فقـط مـع القليل من القوات هما اللذان بقيا في سيزيكس .

وعندما سـمع تيودور لاسـكارس بـأن أدرنه محـاصره وأن الامبراطور هنري من منطلق الحاجة الملحة ، كان يدعو رجاله وكان علاوة على ذلك مثقلا بشدة الحرب على كل الجوانب حتى أنه لم يكن يعرف في أي طريق يتجه ، دعا هذا الرومي أكبر عدد ،أمكنه جمعـه من شعبه لتعزيز جيشه ، ثم جاء ونصب خيامه وسرادقـاته أمـام بوابات سيزيكس واشتبك الفرنسيون والروم في كثير من المناوشات خـارج المدينة ، مـع تحقيق مـكاسب وخسـائر على كلا الجانبين ، وحالما رأى لاسـكارس بـأن هناك قليل مـن الرجـال

المتبقين في سيزيكس ، وضع جزءا كبيرا من جيشه في اكبر عدد من المراكب التي توفرت له في البحر ، وارسلهم الى قلعة كيبوتس التي كان غوليوم دي سانز يحصنها ، وحاصرت هذه القوات القلعة من البر والبحر في يوم السبت الذي سالف أحد منتصف الصوم الكبير .

وكان بداخل القلعة اربعين فارسا كلهم من أحسن الرجال وعلى رأسهم ماكاثير دي سانت مينهولد ، وكان المكان نفسه على أي حال لم يستكمل بعد تحصينه القوي ، وعليه كان بامكان العدو أن يصل الى الدفاعات ويهاجمهم بالرماح والسيوف ، وهاجم الروم القلعة بعنف وضراوة شديدين من كل من البحر والبر ، واستمر هذا الهجوم الضاري كامل يوم الأحد ودافع رجالنا عن أنفسهم بشكل رائع ، وفي الواقع إن مؤلف هذا الكتاب قد أكد بأنه ما من فرقة من أربعين فارسا قد قاومت قط هجوما بصورة أكثر بسالة ووقفت في وجه نزاع مماثل ، وأن هذا هو الحال واضح من حقيقة أنه من أربعين فارسا كان هناك خمسة تقريبا فقط جرحوا وقتل واحد ، وكان هذا هو ابن أخ ميلون لوبريبانت وكان اسمه جيلز .

وفي صباح السبت قبل بدء هذا الهجوم جاء رسول بأقصى سرعة إلى القسطنطينية ووجد الامبراطور هنري على العشاء في قصر بلا شرين فخاطبه قائلا : ياصاحب الجلالة إن رجالك في كيبوتوس محاصرين من البر والبحر فإذا لم ترسل لهم مساعدة على الفور يؤخذون جميعا ويقتلون .

وكان مع الامبراطور راهب دي بيثوم وجيوفري دي فيلهاردين وميلون لوبريبانت وقليل آخرون ، واجتمعوا معا فترة قصيرة ثم نزل الامبراطور إلى الأرض المحاذية للرصيف في الميناء وصعد الى ظهر شيني كبيرة في حين أخذ كل من الآخرين أول سفينة أمكنه أن يجدها ، وبعد ذلك أعلن في أنحاء المدينة أن كل رجل هناك عليه أن يتبع الامبراطور في حاجة ملحة وأن يمضي معه لانقاذ رجاله الذين سيفقدون بغير ذلك ، وعلى الفور كانت مدينة القسطنطينية مستعدة

تعج بالنبادقة والبيازنة ورجال البحر الآخرين من ذوي الخبرة وكلهم يتعثر في الآخر من عجلتهم للوصول إلى سفنهم .

وصعد الفرسان معهم وهم في كامل تسليحهم إلى السفن وكل من أصبح جاهزاً أولا كان الأسرع في الخروج من الميناء في أعقاب الامبراطور ، وجذف المجذفون ما وسعهم الجهد كل المساء بقدر ما بقي الضوء ، وتابعوا خلال الليل حتى فجر اليوم التالي وكان الامبراطور هنري نفسه شجعهم على مجهودهم حتى أنهم وصلوا بعد شروق الشمس بقليل الى مرمى البصر من كيبوتوس ورأوا العدو يطوقها من البر والبحر ، ولم ينم الرجال داخل القلعة تلك الليلة بل داوموا على الحراسة كل الوقت فيما كانوا مرضى أو جرحى بلا أمل كرجال لا يتوقعون شيئاً سوى الموت .

ورأى الامبراطور أن الروم قد اقتربوا جدا من الأسوار وكانوا على وشك تجديد هجومهم ، في حين أنه حتى ذلك الحين كان لديه القليل فقط من شعبه معه ، بينهم كان المارشال جيوفري الذي كان في سفينة أخرى وميلون لوبريبانت وبعض أهل بيزا وعدد من الفرسان ، وفي الاجمال كان لدينا نحو سبع عشرة سفينة من أحجام مختلفة وبعضها صغير ، في حين كان لدى العدو نحو الستين .

ومع ذلك أدرك رجالنا أنهم إذا انتظروا البقية حتى يصلوا وتركوا الروم يهاجمون كيبوتوس فإن أصدقاءهم بالداخل سيقتلون جميعا أو يؤخذون أسرى ، لهذا قرروا أن يشاغلوا العدو في الماء .

وأبحروا نحو سفن الروم وكل سفنهم تسير جنبا الى جنب وكان كل رجل فوق سطح السفن كامل التسليح والخوذ مربوطة ، وحالما رآنا الروم الذين كانوا عند نقطة الهجوم على القلعة قادمين عرفوا بسرعة باننا كنا جماعة منقذة وقادوا سفنهم مبتعدين عن القلعة ليأتوا لملاقاتنا وفي الوقت نفسه تشكل الجيش الكبير من الخيالة والمشاة الذي نظموه على البر في صف على طول الشاطىء .وعندما

رأى الذين كانوا على ظهور سفن الاعداء أن الامبراطور وجماعته كانوا بالتصميم نفسه على مهاجمتهم انسحبوا باتجاه قواتهم التي على البر حتى تعطيهم هذه دعما بسهامها ومنجنيقاتها .

وشغلهم الامبراطور هكذا في الخليج بسفنه السبعة عشر حتى بدات صيحات القادمين من قسطنطينية تصله ، وقبل سقوط الليل وصل عدد كبير جدا من هذه السفن حتى أن الفرنجة في كل مكان أصبحوا بقوة أعظم من قوة العدو في البحر ، وبعد القاء المراسي ، رقد الرجال الذين على ظهورها بكامل سلاحهم كل الليل ، وقرروا أنه حالما يحل الضوء سيندفعون الى الشاطيء للاشتباك مع العدو والاستيلاء على سفنه أيضا ، ومع ذلك سحب الروم في منتصف الليل كل سفنهم الى البر وأشعلوا النار فيها وأحرقوها جميعا ثم قوضوا مخيمهم وهربوا .

وكان الامبراطور هنري ورجاله مسرورين جدا لأن الرب قد منحهم هذا النصر ، وسعداء لشعورهم بأنهم قد انقذوا أصدقاءهم ، وعندما طلع الصباح ذهبوا جميعا الى قلعة كيبوتوس ، حيث وجدوا شاغليها في غاية المرض ، والقسم الأعظم جرحى بجروح خطيرة ، وتفحصوا حالة القلعة ورأوا أنها كانت من الضعف بحيث لا تستحق الاحتفاظ بها ، وعليه فقد أخذوا كل رجالهم الى ظهور السفن وتركوا المكان مهجورا .

وكان الملك جوهانيتزا في هذه الاثناء يحاصر أدرنه ولا يعطي السكان فيها ولا يعطي نفسه أي راحة ، وكانت عراداته تعمل ليلا ونهارا ، وكان لديه منها الكثير ، كانت مستمرة في إمطار أسوار المدينة وأبراجها بوابل من الحجارة وقد الحقت بها ضررا كبيرا ، وأطلق نقابيه للغم الاسوار وضايقوا المدافعين بهجمات متكررة وقاوم الرجال بداخل ادرنه سواء من الروم أو اللاتين بشجاعة ، ولكنهم كذلك أرسلوا رسائل متكررة للامبراطور هنري يتوسلون اليه أن يأتي لاغاثتهم ، ويحذرونه من أنه إذا لم يفعل ذلك

فإنهم سيضيعون تماما كلهم . وقد أقلقت هذه الرسائل الامبراطور للغاية حيث كلما كان على وشك الذهاب لمساعدة رجاله على أحد جوانب المضيق ، كان تيودور لاسكاريس يشغل معظم رجاله بشدة على الجانب الآخر حتى يضطر للتراجع بحكم الضرورة .

وخلال كامل شهر نيسان بقي جوهانيتزا أمام أدرنه ، وكان قريبا جدا من أخذها حتى أنه خرق التحصينات في مكانين وهدمها الى الارض الى حد أن رجاله كانوا قادرين على القتال بالايدي بالسيوف والرماح ضد الموجودين بداخل المدينة ، ومره بعد أخرى كان يخضع أدرنه للهجوم ولكن المدافعين كانوا يصدونهم بشجاعه ، وكانت هناك اصابات كبيرة على كلا الجانبين ، وعلى أي حال طالما أن الاحداث تجري بأمر الرب ومشيئته فقد حدث أن الكومسان الذين ارسلهم جوهانيتزا لاجتياح الارض ، اعلنوا عند عودتهم للمعسكر مع كل اسلابهم أنهم لم يكونوا ينوون البقاء طويلا في الجيش ، بل انهم سيعودون الى بلادهم ، وعليه فقد انفصلوا عن جوهانيتزا ، وحيث انه دون مساعدتهم لم يكن يجرؤ على البقاء أمام ادرنه فقد سحب قواته وغادر ، وان ملكا بهذه القوة يتخلى عن مدينة كانت وشيكة السقوط بدا وكأنه ليس بعيدا عن المعجزة للمحاصرين ، ولكن ما يريده الرب محتم الحدوث ، ومع ذلك فإن أهل ادرنه لم يضيعوا وقتا في التوسل للامبراطور في محبة الرب أن يأتي اليهم حالما يمكنه على الاطلاق ، لانهم كما بينوا له لو أنه حدث أن جوهانيتزا عاد لقتلوا جميعا أو وقعوا في الأسر .

وكان الامبراطور يستعد للذهاب الى ادرنه باكبر عدد من الرجال توفر له ، عندما تلقى الاخبار المزعجة جدا أن جون سيتريون ، والذي كان أمير البحر الرئيس في اسطول لاسكارس ، قد دخل الى قناة ابيدوس في مضيق سانت جورج مع سبع عشرة سفيني كبيرة ووصل الى أمام سيزيكس التي كان يسيطر عليها بيير دي براسيو وباين دي اورليانز ، وكان الآن يحاصر المكان من البحر في حين كان لاسكارس يهاجمه من البر ، وعلاوة على ذلك ثار أهل تلك المنطقة

ضد بيير دي براسيو كما فعل أهل مرمره التي كانت ايضا تابعة له ، وقد الحقوا به ضررا كبيرا وقتلوا عدد كبيرا من رجاله .

وعندما وصلت هذه الاخبار الى القسطنطينية سببت الكثير من الفزع ، واستشار الامبراطور هنري رجاله الرئيسيين وباروناته والبنادقة ايضا ، واتفق الجميع على انهم ان لم يذهبوا لمساعدة بيير دي براسيو وباين دي اورليانز فان كليهما سيقتل وستضيع الارض التي يسيطران عليها ، وعليه فقد جرى تسليح اربع عشرة شيني كبيرة على الفور ، وصعد الى ظهورها الرجال من ذوي الطبقة العليا من البنادقة ، ومعهم بارونات الامبراطور .

وكان راهب دي بيثوم ورجاله في سفينة واحدة ، وجيوفري دي فيلهاردين ورجاله في اخرى ، وما كاثيردي سانت مينهولد ورجاله في ثالثة ، وميلون لوبر يبانت في الرابعة ، وانسودي كايو في خامسة ، ونائب الامير بيترس فون لوس في سادسة ، وغوليوم دي بيرشوا في سابعة ، واخو الامبراطور ، يوستاس في ثامنة ، وهكذا دواليك ، وهكذا وزع الامبراطور هنري بين هذه الشواني افضل الرجال الذين كانوا لديه ، وعندما ابحروا الى خارج ميناء القسطنطينية قال الجميع بانهم لم يروا مطلقا سفنا افضل تسليحا ، او تدار من قبل رجال اكثر مهارة ، وعليه بدا السير الى ادرنة مرة اخرى بمغادرة الميناء .

وأبحرت السفن وجميع الرجال على ظهورها في المضيق ، متجهة الى سيزيكس ، لكن كيف علم ستيريون اميرال سفن لاسكارس بذلك ، لاادري ، ولكنه سحب سفنه من امام سيزيكس ، وهرب بها الى مكان ابعد في المضيق ، وتابعته سفننا ليومين وليلتين ، عبر قناة ابيدوس وماوراءها باربعين ميلا ، وعندما رأوا انهم لن يتمكنوا من اللحاق به ، استدار رجالنا وذهبوا الى سيزيكس ، حيث وجدوا بيير دي براسيو ، وباين دي اورليانز ، وكان تيو دور لاسكارس قد سحب من قبل قواته من امام المدينة وعاد الى اراضيه ، وهكذا

تحررت سيزيكس ، وعاد رجال الامبـراطور الى القسـطنطينية في سفنهم واعدوا مرة اخرى للسير الى ادرنة .

وارسل تيودور لاسكارس الان القسم الرئيسي من قـواته الى ارض نيقوميديا وارسل رجال بيتـريس فـون لوس الذين حصـنوا كنيسة سانت صوفيا ، وكانوا في تلك اللحظة يحتلونها الى سـيدهم الامبراطور يتـوسلون اليه ان يسـاعدهم ، اذ انه اذا لم يات احـد لاغاثتهم فانهم لن يستطيعوا الصمود ، سـيما وانه ليسـت لديهـم مؤن ، ومن منطلق الضرورة الملحة اضطر الامبراطور ورجاله مرة اخرى للتخلي عن خطتهم بالتخلي عن ادرنة والصعود الى الجـانب الجنوبي من مضيق سانت جورج لاغاثة اصدقائهم في نيقوميديا .

وعندما سمعت قوات لاسكاريس ان الامبراطور قادم انسـحبت من هذا القسم من البلاد وتـراجعت نحـو نيقـيـة ، ومـا ان علم الامبراطور بذلك دعا باروناته معا لاستشارتهم ، فقرروا ان يتركوا بيتريس فون لوس في نيقوميديا مع كل فـرسانه وخيالتـه لحـراسة المدينة والريف المحيط بهـا ، في حين يتمـركز مـاكاثيردي سـانت مينهولد في كاراكس وغليوم دي بيرشوا في سـتريكس ليحـرس كل منهم الارض في جواره المباشر .

وبعد ذلك عاد الامبراطور هنري وبقية جيشه الى القسـطنطينية للتحضير مرة اخرى للسير الى ادرنة ، وبينما كان كل منهما هـكذا ترك بيترس فون لوس نيقوميديا وذهب مع غوليوم دي بيرشوا وكل رجالهما يوما في حملة للرعي والتماس المؤن ، وانتهز رجـال تيودور لاسكارس هذه الفرصة وقـاموا بهجـوم مبـاغت وكان الروم الآن كثيرون جدا ، ورجالنا قليلون جـدا وبـدات معـركة واشـتبك كلا الجانبين في قتال بالايدي ، ولكن قبل مضي وقت طـويل لم تعـد القلة قادرة على الصمود امام الكثرة .

وقاتل بيترس فون لوس بشجاعة كبيرة وهكذا فعل كل رجـاله ،

واسقط مرتين عن جواده وفي كل مرة كان رجاله يجدون صعوبة في اعادته الى ظهره واسقط غوليوم دي بيرس ايضا عن جواده ، ولكنه ايضا سوعد على العودة الى مكانه وانقذ من قبل رجاله ، وفي النهاية اثبت ضغط التفوق العددي انه اقوى من طاقة الفرنسيين وهزموا وجرح نيتريس فون لوس جرحا بليغا في وجهه حتى اقترب من الموت ، واخذ هو وأكبر قسم من رجاله أسرى في هذه المواجهة ، وهرب القليل وهرب غوليوم دي بيرشوا وهو مجروح في يده من الميدان على كوب وهو جواد قوي قصير القوائم ، ولجا الذين هربوا بعد هزيمتهم الى كنيسة سانت صوفيا ، وسمع مؤلف هذه الحولية لوما على هذه الكارثة يرتبط ــ سواء بحق او بغير حق لايمكن القول ــ بفارس معين يدعى انسودي ريمي الذي مع انه كان واحدا من اتباع دتيرس فون لوس ويتولى قيادة رجاله تخلى عن سيده في القتال ، واما الذين تدبروا امر العودة الى كنيسة سانت صوفيا في نيقوميديا ــ اي غوليوم دي بيرشوا ــ وانسودي ريمي فقد ارسلوا رسولا باقصى سرعة الى الامبراطور هنري في القسطنطينية يحمل التفاصيل الكاملة عن المعركة ، واخبروه كيف ان نائب الامير دتيرس فون لوس قد اخذ هو ورجاله وكيف حوصروا هم انفسهم في كنيسة سانت صوفيا في نيقوميديا ، واضافوا بانه كان لديهم من الطعام مايكفيهم خمسة ايام ، وبانه اذا لم يات لنجدتهم فانهم سيقتلون جميعا بلا شك او يؤخذون اسرى ، وجوابا لهذه الصيحة المكروبة عبر الامبراطور ورجاله مضيق سانت جورج في عجلة يائسة وكل واحد يحاول ان يصل الى هناك باسرع ما يمكنه لانقاذ الرجال في نيقوميديا ، وهكذا اجلت حملة ادرنة مرة اخرى .

- وحالما عبر الامبراطور المضيق ، نظم قواته ثم ساروا قدما حتى وصلوا بعد مسيرة عدة ايام الى نيقوميديا ، ولم يكد تيوذور لاسكارس واخوته الذين كانوا يديرون الحصار يسمع بوصوله حتى انسحبوا الى الجانب الابعد من الجبل الواقع خارج نيقوميديا في اتجاه نيقية ، وعسكر الامبراطور بجانب المدينة في مرج جميل بجوار نهر ، وبعد ان نصبت خيامه وسرادقاته عند سفح المنحدرات الاقرب

من الجبل ، ارسل قواته ليطوفوا بالريف المحيط بنيقوميديا ، لان الناس في تلك المنطقة قد ثاروا ضد الفرنسيين حالما سمعوا ان بيترس فون لوس قد اخذ أسيرا ، وجمع رجال الامبراطور عددا كبيرا من الماشية واخذوا العديد من الاسرى .

ومكث الامبراطور خمسة ايام في المرج المجاور لنيقوميديا ، وبينما كان هناك ارسل تيودور لاسكارس مبعوثين لرؤيته مع عرض لعقد هدنة معه لمدة عامين ، على شرط ان يسمح الروم بتدمير سيزيكس وكنيسة سانت صوفيا المحصنة في نيقوميديا ، ويتعهد لاسكارس من جانبه باعادة الاسرى الذين اخذهم في الهزيمة الاخيرة لرجال الامبراطور ، او في مناسبات اخرى ، وكان لديه عدد عظيم منهم .

واستشار الامبراطور جماعته ، الذين قالوا له أنهم لايستطيعون الاشتغال بالحرب على جبهتين في الوقت نفسه وانه من الافضل قبول فقدان هذين المكانين بدلا من المخاطرة بفقدان ادرنة ، والقسم الرئيس من الامبراطورية ، الى جانب انه بالموافقة على هذه الهدنة فانهم سيمزقون التحالف بين عدويهم كليهما ، الملك جوهانيتزا وتيودور لاسكارس اللذان كانا في تلك اللحظة صديقين يدعم كل منهما الاخر في الحرب .

وهكذا سوي الامر وتأكدت الهدنة ، وبعد هذا استدعى الامبراطور هنري بيير دي براسيو من سيزيكس ، وعند وصوله ، تدبر الامبراطور ، مع ان ذلك لم يكن بدون بعض المتاعب ، ان يحرضه على ان يضع سيزيكس بين يديه ، وكان الامبراطور نفسه قد سلم هذه المدينة ، وكذلك كنيسة سانت صوفيا في نيقوميديا لتيودور لاسكارس ، ليدمرهما ، وهكذا تأكدت الهدنة ، وهدم الحصنان الى الارض ، وحرر ديتريس فون لوس وكل الاسرى الاخرين .

الفصل الحادي والعشرون

رحلات خارج الامبراطورية

تموز ـ ايلول ١٢٠٧

وبعد ابـــرام اتفـــاق الهـــدنة عاد الامبـــراطور هنري الى القسطنطينية ، واعلن على الفور مشروعه بـالذهاب الى ادرنة مـع اكبر قوة كبيرة توفرت له ، وتحـت قيادتـه ، وجمـع جيشـه في سيلمبريا ، ولكن وقتا طويلا جدا مضى الى حد ان هـذا لم يحـدث حتى بداية تموز ، بعد اسبوع او نحوه مـن عيد يوحنا المعمـدان ، وانطلق الامبراطور وبعد مسيرة عدة ايام وصلوا الى ادرنة ـ حيث نصب مخيمه في المروج خارج المدينة .

وخرج اهل ادرنة الذين طال شوقهم لجيشه ، للقائه في مـواكب ، ورحبوا به بحمـاس عظيم ، وتجمـع الروم مـن كل الريف المحيط ايضا هناك لتحيته .

وبقي الامبراطور يوما واحدا فقط معسكرا خـارج ادرنة وهـو الوقت الكافي بالضبط ليرى اي ضرر احـدثته عرادات جـوهانيتزا ونقابوه في اسوار المدينة وابوابها ، وتبين ان هذه كانت بالغة جدا . وخرج مرة اخرى في اليوم التالي وسار نحـو بـلاد جـوهانيتزا ، واستغرقه الطريق اربعة ايام ، وفي اليوم الخامس وصل الى سـفح الجبال الوالاشية ، حيث كانت تـوجد مـدينة تـدعى بولوي ، كان جوهانيتزا قد اعاد إسكانها حديثا . وحـالما رأى السـكان الجيش الفرنسي قادما هربوا من المدينة ولجأوا الى الجبال .

وعسكر الامبراطور وجيشه امام المدينة ، وانطلقت مجمـوعات

البحث عن المؤن والعلف تتجول في الارض ، وامدنوا عددا كبيرا من الثيران ، والابقار ، والجاموس ، اضافة الى الحيوانات الاخرى ، وكان بعض الناس من ادرنة قد احضروا عرباتهم معهم ، حيث انهم كانوا فقراء وفي حاجة للطعام حملوا هذه المركبات بالقمح والحبوب الاخرى ، ومكث الجيش هناك ثلاثة ايام ، وكانت مجموعات البحث عن المؤن تطوف بالريف للبحث عن الغنائم ، ولكن الارض في تلك الاجزاء كانت جبلية وعرة جدا ، وكانت هناك شعاب عميقة كثيرة ، حتى ان الجيش فقد عددا من رجال التموين لانهم كانوا مغامرين اكثر مما يجب ولم ينظروا اين يذهبون .

وفي النهاية وضع الامبراطور هنري اخاه يوستاس وابن اخيه تيري دي فلاندرز ، وغوتيير دي اسكورتاي ، وجين بلايود كلا في قيادة مجموعة ، وارسلهم تحت قيادة انسودي كايو ليحرسوا رجال التموين ، وفي احد الايام دخلت هذه المجموعات الاربعة خلال تأديتها لمهمتها ، في منطقة ريفية جبلية ووعرة جدا ، وعندما انهى رجال التموين طوافهم في الارض ، وارادوا العودة الى المخيم وجدوا الشعاب محروسة جيدا بقوة من قبل الوالاشيين في تلك المنطقة ، الذين تجمعوا هناك ، وهاجم هؤلاء الفرنسيين محدثين اضرارا كثيرة سواء في الرجال او الخيل ، وتمكن رجالنا بمشقة من النجاة ومن الهزيمة الى حد انه في الواقع ان الفرسان اضطروا النزول عن خيولهم ، والقتال على اقدامهم ، ومع ذلك فبفضل الرب تدبروا امر العودة الى المعسكر وان لم يكن ذلك بدون معاناة خسائر كبيرة .

وفي اليوم التالي ترك الامبراطور هنري وجيشه يولوي وعادوا بالطريق الذي جاءوا منه ، حتى انه بعد مسير عدة ايام وصلوا الى ادرنة ، حيث خزنوا القمح والمؤن الاخرى التي جلبوها معهم ، وامضى الامبراطور الاسبوعين التاليين في المروج خارج المدينة .

وفي حوالي هذا الوقت شن المركيز دي مونتفرات ، الذي كان في

سيريس التي اعاد بناءها وتحصينها غارات على كل الريف المحيط حتى ميزونوبولس ، وجعل تدريجيا كل الارض تحت حكمه ، وعندما تم ذلك بعث بالرسل الى الامبراطور هنري ليقول بأنه يرغب في التحدث معه ، وانه سيقابله بجانب النهر الذي يجري تحت ابسالا ، ولم يكن لدى الرجلين فرصة الكلام وجها لوجه ، منذ الغزو الفرنسي للامبراطورية ، لان كثيرا من الخصوم كانوا بينهما حتى انه كان من المستحيل عليهما ان يلتقيا ، وعليه عندما سمع الامبراطور ومستشاروه بان المركيز كان في ميزونوبولس ابتهجوا ، وأرسل الامبراطور مع الرسل بأنه سيأتي لمقابلة المركيز في اليوم الذي حدده .

وانطلق الامبراطور هنري في طريقه ، تاركا راهب دي بيثوم مع مائة فارس في ادرنة ليحمي الريف المحيط ، وفي اليوم المحدد وصل هو ورجاله الى مكان الاجتماع الذي كان في مرج قرب مدينة ابسالا ، واقترب الامبراطور من المكان من جانب واحد ، والمركيز من الاخر ، وعبر كلاهما عن اعظم السرور باللقاء . ولم يكن هذا مدهشا ، حيث انهما لم يريا احدهما الاخر طيلة هذا الوقت الطويل .

وسال المركيز عن اخبار ابنته الامبراطورة اغنس ، وسر عندما اخبره الامبراطور بانها تنتظر طفلا ، وعليه اعطى المركيز البيعة للامبراطور (هنري) واصبح رجله وعليه ان يحصل على اراضيه منه ، كما حصل عليها من الامبراطور المتوفى اخيه ، وعرض المركيز بالتالي على جيوفري فيلها ردين مارشال رومانيا وشامبين الخيار بين مدينتين ، موزونوبولس ، مع كل توابعها او سيريس ، ايهما يفضل - لتكون ملكا خاصا له ، وهكذا اصبح المارشال تابعا للمركيز ، ولكن بدون اضرار بالولاء الذي كان يدين به لامبراطور القسطنطينية .

وامضى المركيز والامبراطور يومين سعيدين جدا معا في الميدان

الواقع تحت ابسالا ، وقالا لبعضهما انه كما سمح الرب لهما باللقاء معا ، فقد يواجهان معا اعداءهما ويضايقانهما مرة اخرى ، واتفقا على اللقاء في نهاية الصيف ، في شهر تشرين اول مع كل قواتهما ، في المرج الواقع خارج ادرنة وان يشنا الحرب على ملك والاشيا وهكذا افترقا ، وكلاهما سعيد جدا ، وفي افضل مزاج.
وعاد المركيز الى موزنوبولس وعاد الامبراطور هنري الى القسطنطينية .

ولم يمض على المركيز خمسة ايام في مدينته ، قبل ان يركب خارجا منها بناء على نصيحة الروم في تلك الاحواز بالقيام بحملة الى جبل موزونوبولس ، الذي كان على مسيرة يوم واحد ، وبعد ان ركب عبر الاراضي ، وكان يأخذ طريق العودة الى مقره ، تجمع البلغار وبملاحظة ان لديه قوتين صغيرتين فقط ، جاءوا من كل الريف المحيط ، وهاجموا قوات المؤخرة وفي اللحظة التي سمع فيها رجاله يطلقون صيحة التحذير ، قفز على حصانه وكان غير مسلح بالمرة ومعه فقط رمح في يده ، وعندما وصل الى المكان الذي كان البلغار فيه على بعد قاب قوسين من قوات المؤخرة اندفع رأسا بينهم وردهم مسافة بعيدة .

وبينما كان مندفعا خلفهم ، جرح المركيز جرحا مميتا في سمك الذراع تحت الكتف ، وبدأ ينزف دما ، وعندما رأى رجاله ماحدث ، بدأت شجاعتهم تتحسر ، وتدهورت معنوياتهم وبدأوا ينهارون . وامسك الاقريبون من المركيز به ورفعوه ، وكان قد فقد دماء كثيرة حتى بدأ في الاغماء ، وبادراك انهم لايمكن ان يتوقعوا مزيدا من المساعدة من قائدهم ، استسلم رجاله للفزع وبدأوا يتخلون عنه ، وعليه نتيجة لمصادفة منحوسة هزموا واما الذين بقوا مع المركيز ـ وكانوا قليلين جدا ـ فقتلوا ، وقطع البلغار رأس المركيز وارسلوه الى جوهانيتزا ، وكان هذا واحدا من اعظم المسرات التي استمتع بها ملك والاشيا على الاطلاق .

- ٤٥٥٧ -

واأسفا ، اي كارثة مأساوية للامبراطور هنري ، ولكل الرجال في الامبراطورية من الفرنسيين والبنادقة على السواء ، بفقد مثل هذا الرجل في مثل هذه الحادثة المشؤومة ، لقد كان رجلا من انبل البارونات واكبرهم جميعا قلبا ، وواحدا من اشجع الفرسان في كل الدنيا ! وحدثت هذه الواقعة الحزينة في السنة ١٢٠٧ لتجسيد ربنا ٠

سقوط القسطنطينية للصليبيين

صنفه بالفرنسية القديمة

روبرت دي كلاري

سقوط القسطنطينية

١ـ هنا بداية أخبار الذين استولوا على القسطنطينية ، وسنحدثك فيما يلي عنهم وعن الاسباب التي حدتهم للزحف ضدها ، فقد حدث في الأيام التي كان فيها البابا أنوسنت (الثالث) يشغل الكرسي الرسولي في روما ، ويتولى فيه الملك فيليب عرش فرنسا ، كان هناك فيليب آخر هو (أمير سوابيا) امبراطور ألمانيا ، وكانت السنة سنة ألف ومائتين وثلاث أو أربع (الصحيح ١٢٠٢) لتجسيد يسوع المسيح التي ظهر فيها راهب اسمه فولك وكان من سكان نيللي ، وهي أسقفية تابعة لرئاسة أساقفة باريس ، وكان هذا الراهب رجلا تقيا ورجل دين مستقيم يتحلى بالكرم والطيبة ، وقد أخذ يطوف في مختلف البلدان يدعو الى حمل الصليب ، وقد تبعه أعداد كبيرة من الناس ، ذلك أنه بلغ من التقوى حدا تجلى له فيه الرب بآيات باهرة ، وقد جمع هذا الراهب كميات كبيرة من المال ليأخذها معه الى الأراضي المقدسة فيما وراء البحار .

وارتدى في هذه الآونة شارة الصليب كل من ثيبوت كونت شامبين ، وبلدوين كونت فلاندرز ، وأخوه هنري ، ولويس كونت بلوا ، وهيو كونت سانت بول ، وسيمون كونت مونتفرات ، وأخوه غي .

وسأخبرك الآن بأسماء الأساقفة الذين أسهموا في الحملة ، فقد كان منهم نيفلون أسقف سواسون ، وكان رجلا ماهرا قادرا على انجاز أي مهمة تعهد اليه ، يهب الى مساعدة كل من يطلب منه ذلك ، وكان هناك أيضا فارنية أسقف تروي ، و (كونراد) أسقف هاليرشتات في ألمانيا ، ويوحنا دي نويون ، الذي اختير فيما بعد أسقفا لمدينة عكا ، وكان هناك أيضا راعي دير لوس في

فلاندرز ، وهو واحد من أديرة الرهبان الفرنسيسكان ، وكان هـذا الراعي رجلا مدبراً عظيم التدين والاستقامة والفضل والطيب ، كما وكان هناك أعداد كبيرة أخـرى مـن رعاة الأديرة ورجـالات الاكليروس ، من الصعب تذكر أسماءهم جميعا ، لهذا اكتفينا بذكر بعض الأسماء منهم ، وفي الوقت نفسة من غير الممكن بـالنسبة لنا تعـداد اسـماء جميع البـارونات الذين حملوا شـارة الصليب ، وسأكتفي بتسمية بعضهم فقط ، ومن هؤلاء السيد بيتـر الدمياني من أمينوا ، وكان فـارسا شـجاعا يتمتـع بـاللطف والاستقامة ، والسيد أنجـردي بـوفيز ، وكان أحـد أخـوة أربعة (ثانيهم روبرت وثالثهم هيو وكان رابعهم راهبا) واشـترك أيضا بلدوين دي بوفو ، وماثيودي والنكوت المحامي عن دير بيثـون واخوه كونون ، ويوستاس دي كانتلبيه ، وأنسـودي كايو ، ورينو دي ترتيت ، وويلزدي فريز ، وجيرالد دي مانشيكورت ، ونقولا دي ميللي ، وبلدوين كافاروم ، وهيو دي بوفيه ، وعدد كبير آخـر مـن الفـرسان والرجـالات الكبـار مـن بين الفلمنكيين والبلدان والأخرى ، ممن لايمكنني ذكر اسمائهم جميعا .

واسهم في حمـل شـارة الصليب جيمس دي أفين ، وأوتـودي شامبليت وهو من برغنديا ، وأخـوه وليم الذي حـوى الجيش عددا كبيرا من رجـاله ، وكان هناك أعداد أخـرى مـن بـرغنديا ليس بامكاني تعداد أسمائهم جميعا ، واشـترك أيضـا مـن شـامبين مـارشالها (المؤرخ فلهـاردين) وأوجيه دي سـانت شيرون ، وماكيردي سانت ماينهولد ، وكلارمبو دي شاب ، وميئر البربنتي ، وهؤلاء جميعا قدموا من شامبين .

وكان هناك أيضـا محـافظ كوربي ، وروبـرت دي رونسوي ، ومـاثيو دي مـونتمورنسي ، وكان رجـلا فـاضلا مستقيما ، وراؤول النوي ، وابنه ولتـر ، وجيل أولنوي ، وبيتـر دي براشو ، وكان فارسا شجاعا بـاسلا مسـتقيما وأخـوه هيو ، وهؤلاء جميعا كانوا من فرنسا ومن بـوفيزي . وشـارك في

الحملة من شارتران : جرفيه دي شاتل وابنه هـرفيه ، وأولفـردي روشفورت ، وبيتـر دي الوسـت ، وبـابين الأرلياني ، وبيتـر الدمياني ، وكان فارسا قويا شجاعا ، وأظهر كثيرا مـن المقـدرة والكفاءة ، وأخـوه تـوماس وكان راهبـا ، وكاهـن أميين ، ومناسيس مـن أهـل ليل في فـلاندرز ، ومـاثيو دي مونتمورنسي ، ومحافظ كوربي .

ومع هؤلاء وجد عدد كبير من الفـرسان مـن فـرنسا وفـلاندرز وشامبين ، وبرغنديا ، ومن بلدان أخرى كثيرة ليس بـالامكان ذكر أسمائهم جميعا ، بيد انهم كانوا بأجمعهم من الفرسان الشـجعان المهرة ، وكان الذين عددناهـم لك مـن أثـرياء الناس وأعلاهـم مكانة ، وكانوا يحملون الرايات بأيديهم ، هذا ولم نذكر جميع الذين كانوا يحملون الرايات ، وأمـا الذين قـاموا بجليل الانجـازات والبطولات الخارقة من الفقراء والأغنياء فكان منهم ممن نسـتطيع ذكرهم : بيتر دي براشو ، وكان من الاثرياء وقد قام بأعظم أعمال البطولة ، وكذلك أخـوه غي ، واندريه دي ديربـواز واللورد بيتـر الدمياني العـظيم ، ومـاثيو دي مـونتمورنسي ، ومـاثيو وارلنكورت ، وبلدوين دي بـورفوار ، وهنري أخـو كونت فلاندرز ، وجيمس دي أفين ، وكان هؤلاء من الأثرياء الذين قاموا بأعظم انجازات القتال .

ونذكر مـن الفقـراء : بـرنارد دي أير ، وبـرنارد دي سوبرنجيان ، ويوستاس دي هيمونت وأخوه ، وجلبرت دي فيسم ، وويلز دي فريز ، وهيو دي بوفيه ، وروبرت دي رونسـوي ، والارد ماكيرو ، ونقـولا دي ميللي ، وغي دي مـانشيكورت ، وبلدوين دي هـاملينكورت ، ووليم دي ير فيل ، والليوم دي كلاري ، كاهـن أمينوا ، وكان رجلا فاضلا ، أنجـز أعمـالا كثيرة مـن المهـارة والقوة ، والليوم دي سين وويلرام دي فونتين .

ان الذين أتينا على تعداد أسمائهم هم من قـام بـأعظم أعمـال

الشجاعة والمقدرة في القتال ، ومثلهم فعل آخرون كثر كانوا من القوم الصالحين ، من فرسان ورجالة ، إنهم آلاف مؤلفة أعجز عن احصائهم .

٢ـ وتقاطر للاجتماع كل الذين حملوا شارة الصليب من الأمراء وكبار البارونات ، وبعثوا يطلبون جميع أعيان الناس الذين حملوا شارة الصليب ، حتى اذا التأموا وعقد اجتماعهم أخذوا يتداولون فيما بينهم بحثا عمن يقدمونه لرئاستهم وقيادتهم ، وأخيرا عقد اجماعهم على انتخاب الكونت ثيبوت دي شامبين ، فعينوه قائدا لهم ، وبعدما فرغوا من تعيينه انفصل كل واحد منهم عن الآخر وكر راجعا الى بلده ، غير أنه مابرح كونت ثيبوت أن طالته يد المنية بعد اختياره بأمد وجيز ، وحين مات خلف للصليبيين ولمن ستؤول اليه قيادتهم من بعده وتقدمتهم خمسين ألف قطعة نقدية (ذهبية) ، وأوصى أن ينفق الصليبيون هذا المبلغ وفق أهوائهم .

٣ـ كما ومات السيد فولك ، فشكل موته خسارة كبيرة وفاجعة عظيمة نزلت بحملة الصليب ، وبعدما عرف حملة الصليب أن مقدمهم كونت شامبين قد توفي وكذلك السيد فولك شعروا بحزن شديد ، وقلقوا وتشربت قلوبهم الحزن والأسى ، فاجتمعوا في سواسون في يوم اتفقوا عليه ، وتداولوا فيما بينهم حول ماينبغي عليهم القيام به ، والى من سيسوقون زعامتهم ويقدمونه قائدا عليهم ، وأخيرا قر رأيهم على أن يبعثوا الى لومبارديا يطلبون الماركيز دي مونتفرات ، ومن ثم بادروا فبعثوا اليه بعدد من السفراء المناسبين ، ومضى هؤلاء الى لومبارديا بعدما أكملوا استعداداتهم ، والتقوا هناك بالماركيز وأبلغوه أن بارونات فرنسا يبعثون اليه رسالة ، ويتوسلون اليه باسم الرب ليقدم عليهم في يوم بينوه له للتحدث اليهم ، ولدى سماع الماركيز هذه الرسالة تولاه العجب واستبدت به الدهشة ، وتساءل لماذا اختصة بارونات فرنسا دون سواه فبعثوا اليه برسلهم ؟ ثم اخبرهم أنه سيفكر بالموضوع

وسيخبرهم غدا بما يراه ويقرره ، هذا وأكرم الماركيز الرسل إكراما عظيما .

٤ـ وأخبرهم الماركيز في اليوم التالي أنه سيذهب في اليوم المحدد الى سواسون للتداول معهم ، وبناء عليه ودعه الرسل وانصرفوا عائدين ، وقد عرض الماركيز تزويدهم ببعض الخيول ومنحهم بعض المجوهرات ، فشكروه واعتذروا عن أخذ شيء منه .

وبعدما عاد الرسل الى البارونات أعلموهم بالذي فعلوه ، وفي الوقت نفسه حمل الماركيز سلاحه واجتاز جبل مونت جو ، وتابع سفره في فرنسا حتى وصل الى سواسون ، وكان قد أرسل أمامه من يخبر البارونات بمقدمه ، وخف هؤلاء للترحيب به ، وقد أكرموا وفادته غاية الاكرام .

٥ـ وبعدما وصل الماركيز الى سواسون سأل البارونات عما دفعهم الى طلبه ، وفيما اذا كان صدر عن رأي جماعي منهم ، فأخبروه بالايجاب وقالوا :« لقد بعثنا برسلنا اليك يامولانا ، لأن كونت شامبين قد توفي ، وهو الذي كان قائدنا ، وفعلنا ذلك على أساس أنك أعظم رجل مستقيم نعرفه ، وأنت النبيل الوحيد الذي يمكنه ـ بمشيئة الرب ـ أن يمحضنا الرأي الصائب فيما يتعلق بخططنا ، ونحن نتوسل اليك جميعا باسم الرب أن تقبل التقدم علينا وتتراسنا ، وان تحمل شارة الصليب محبة بالرب » ، وتفوه البارونات بهذه الكلمات وهم جاثون أمامه ، وأعلموه أن عليه عدم الاهتمام والخوف من القيام بأعباء هذه المهمة لأنهم سيقدمون له الشطر الأكبر من المال الذي تركه كونت شامبين للصليبيين .

فأعلمهم الماركيز أنه سيفكر بالأمر ويقلب وجوه الراي حوله ، وبعدما فعل ذلك أخبرهم أنه سيحمل شارة الصليب في سبيل الرب ومحبة به ، ولانقاذ الأراضي الواقعة فيما وراء البحار ، وهنا بادر أسقف سواسون الى مباركة الماركيز ومسحه وناوله

الصليب ، وماأن حمله حتى أعطوه خمسة وعشرين الف مارك مـن الأموال التي تركها كونت شامبين للصليبيين .

وبعدما تناول الماركيز الصليب توجه بـالخطاب الى البـارونات قائلا :« أيها السادة الى أي مـن بـلاد مـا وراء البحـر ستقصدون ، وأي بلد من بلاد المسلمين تستهدفون؟ » فاجابوه بأنه ليس بودهم التوجه الى سورية لأنهم لن يكونوا هناك قـادرين على انجاز شيء نافع ، وهم يفكرون بالتوجه الى مصر وقصد الاسكندرية أو القاهرة قلب الأحـداث ، وحيث يأملون أن يكونوا قـادرين على انجاز أعمال أعظم خطورة ، وأنه لهذه الغاية قد خـططوا لاكتـراء اسطول يكون بامكانه نقلهم جميعا الى مقصـدهم ، وأثنى الماركيز على خطتهم الحكيمة هذه ، وأعلمهـم بمـوافقته عليهـا تمـام الموافقة ، وأنه بات عليهم ارسال رسـل مـن خيرة فـرسانهم الى بيزا ، أو جنوى ، أو البندقية ، فوافق البارونات جميعا على هـذا الاقتراح .

٦ـ واثر هذا انتخبوا رسلهم ، ووقع اختيارهم بـالاجماع على أن تتكون هذه السفارة مـن المحـامي عن بيثـون ومـارشال شامبين ، وبعدما تم هذا الاختيار تفرق جمعهم ، فعاد الماركيز الى بلده ، وحذا الآخرون حذوه ، وذلك بعدما كلفوا الرسل بالعمل على استئجار اسطول فيه من السفن مايكفي لنقل أربعة آلاف فارس مع عتادهم وكذلك مائة ألف راجل ، وهيأ الرسل أنفسهم ، وانطلقـوا بدون تأخير فوصلوا أولا الى جنوى ، وهناك شرعوا بالتفاوض مع الجنوية ، وذلك بعدما أعلموهم بما أرسـلوا مـن أجله ، فـأجابهم الجنوية أن ليس بامكانهم المساهمة في مشروعهم الذي قـدموا مـن أجله ، وبناء عليه توجهوا الى بيزا ، وتباحثوا مـع البيازنة حـول المسألة ، فاعتذروا اليهم لعدم توفر السفن الكافية لديهـم ، ولهـذا أعلموهم أن ليس بامكانهم المساهمة ، وحينذاك قصد الرسل مـدينة البندقية ، فأخبروا دوجها بما جاءوا بسببه ، وأعلموه أنهم يريدون اكتراء اسطول يمكنه نقل أربعة آلاف فارس مع كامل عتادهم ومائة

الف من الرجالة ، وبعدما اصغى الدوج الى هذا المطلب أعلمهم أنه سيفكر بالمسألة ، لأن ماجاءوا يطلبونه يحتاج الى إمعان وتفكير عميق ، ثم دعا اليه كبار أركان المدينة ورجالاتها ، وتحدث معهم وأطلعهم على مطلب الرسل منه ، وبعدما تداول وأعوانه حول هذا الامر منفردين ، أرسل وراء الرسل وأخبرهم قائلا :« أيها السادة نحن مستعدين للاستجابة الى مطلبكم ، وسنعد عمارة بحرية كبيرة اذا رضيتم بدفع مائة ألف قطعة (مارك) نقدية ذهبية لنا ، وليكن معلوما من طرفكم انني سأمضي معكم برفقة نصف القادرين على حمل السلاح من سكان البندقية ، على أن يكون نصيبنا النصف من جميع الغنائم التي ستقع في أيدينا هناك ، وسنضيف الى هذه العمارة خمسين شينيا نتولى نحن البنادقة الانفاق عليها ، وسننقلكم في مدى عام من اليوم الذي نتفق عليه الى أي بلد شئتم ، سواء أكان هذا البلد الاسكندرية أم القاهرة .

٧- وعندما سمع الرسل هذا أجابوه : إن مبلغ المائة الف مبلغ كبير جدا ، ثم تداولوا وتساوموا حتى تمت الموافقة على دفع مبلغ سبعة وثمانين ألف مارك ، وإثر ذلك اقسم الدوج ورجالات البندقية والرسل على الوفاء بهذا الاتفاق وتنفيذه ، وبناء عليه أعلمهم الدوج أنه يود الحصول على مبلغ خمسة وعشرين ألف مارك كدفعة معجلة ليشرع في أعمال بناء السفن ، فأجابه الرسل بالايجاب ، وطلبوا منه أن يرسل معهم الى فرنسا من يفوضه لاستلام هذا المبلغ وهو خمسة وعشرين ألف مارك ، ثم استأذن الرسل في العودة فبعث معهم الدوج واحدا من أعيان شخصيات البندقية ليقبض المبلغ المتفق عليه .

ثم أمر الدوج أن يعلن في جميع أطراف البندقية الا يشغل أي بندقي نفسه بشاغل غير التفرغ للاسهام في بناء السفن ، ففعلوا ونفذوا الذي أمروا به ، واخذوا يعملون بشكل جد في بناء الاسطول ، الذي جاء أعظم اسطول يمكن للعين أن تراه ، وما أن وصل الرسل الى فرنسا حتى عمموا خبر عودتهم ، وهكذا وجهت

الدعوة الى كل البارونات الذين حملوا شارة الصليب للقدوم الى كوربي بكل سرعة للاطلاع على ماتم .

٨- وبعدما تكامل قدوم البارونات أخبرهم الرسل بالذي تم الاتفاق عليه ، وسر البارونات لدى سماعهم الخبر سرورا عظيما ، فأقروا الاتفاق وأكرموا رسل دوج البندقية وأعطوهم بعضا من المال الذي خلفه كونت شامبين ، مع بعض ماكان السيد فولك قد جمعه ، زد على هذا دفع كونت فلاندرز بعضا من ماله لاكمال المبلغ المدفوع الى خمسة وعشرين ألف مارك ، وبعدما تسلم دوج البندقية المبلغ زودهم البارونات بتصريح مرور يضمن سلامة الوصول عائدين الى البندقية .

٩- وأرسلت بعد هذا رسائل الى الصليبيين جميعا في كل مكان بوجوب الانطلاق في عيد الفصح نحو البندقية ، على أن يكونوا في البندقية فيما بين عيد العنصره وشهر آب ، والا يتخلف أحد عن القدوم ، فانصاع الجميع للأوامر ، وهكذا لم يمض عيد الفصح حتى تحركوا جميعا ، وخرج العديد من الآباء والأمهات والأخوة والأخوات والزوجات والأطفال وهم ينتحبون على فراق أحبائهم الأعزاء عليهم .

١٠ - وبعدما تقاطرت جموع الحجاج على البندقية ، واجتمعوا هناك ، وشهدوا سفن الاسطول الكبيرة ، وتأملوا منظر الشواني وسفن الحمولة التي أعدت لنقل الخيول ، والبطسات ، سروا كثيرا وعجبوا لما حوته البندقية ودهشوا لثرواتها الهائلة ، وعندما عرفوا أن المدينة لن تستوعبهم جميعا ، اتفقوا فيما بينهم على التحرك للاقامة في جزيرة سانت نقولا التي كان البحر يحيط بها من كل جانب ، وهي واقعة على مسافة فرسخ واحد من البندقية ، وبناء عليه انتقل الحجاج إلى هناك ونصبوا خيامهم ، واقاموا عل أفضل حال توفر لهم.

١١ـ وبعدما عرف دوج البندقية بوصول جماعات الحجاج جميعا ارسل وراء رجال مدينة البندقية ، وعندما اجتمعوا أمامه أمرهم بأن يستعد نصفهم ويتهيأوا للسفر في رفقة الحجاج في الاسطول ، وعندما سمع البنادقة هذا الأمر سر بعضهم سرورا كبيرا ، غير أن بعضهم الآخر أعلنوا أنه لايمكنهم السفر ، وتناقشوا بشأن الطريقة التي يمكن فيها اختيار النصف الذي سيرافق الحملة ، وصنعوا أخيرا قرعة على الشكل التالي : وضعوا كرات من الشمع كل اثنتين معا ، وجعلوا في احداهما قطعة من الورق ، ثم ذهبوا الى الشماس وأعطوه الكرات ، فرسم على الأوراق علامة الصليب ، وكان يعطي كل اثنين من البنادقة كرتين لاعلى التعيين ، فمن كان يصيبه الكره التي تحتوي على الورقة المكتوبة توجب عليه الرحيل ومرافقة الاسطول وبهذه الوساطة انشطروا الى قسمين .

١٢ـ وبعدما قر قرار الحجاج في جزيرة سانت نقولا توجه دوج البندقية وأعيانها اليهم للتداول معهم ، وطالبوهم بسداد بقية ثمن السفن التي أعدوها لنقلهم ، وأخبرهم الدوج أنهم لم يحسنوا صنعا حين بعثوا رسلهم يطلبون بناء اسطول قدرته نقل أربعة آلاف فارس مع عتادهم ومائة الف راجل بينما لم يحضر من هؤلاء الالاف الأربعة أكثر من ألف فقط ، بسبب سفر الاخرين من مراسي أخرى غير مرسى البندقية ، ثم أنه لم يحضر من المائة ألف من الرجالة أكثر من خمسين أيضا أو ستين ، وبناء عليه قال الدوج :« أننا نطلب منكم دفع المبلغ المتفق عليه فيما بيننا » ولدى سماع الصليبيين هذا الطلب اخذوا يتشاورون فيما بينهم ، ثم قر رأيهم على ان يدفع كل فارس اربعة ماركات عن نفسه واربعة اخرى عن حصانة ، وان يدفع كل واحد من السيرجانتيه ماركين ، والا يقل مايدفعه كل واحد من البقية عن مارك واحد ، وبعدما دفعوا الى البنادقة ماجمعوه من المال ، تبين لهم أنهم مايزالون مدينين للبنادقة بخمسين الف مارك توجب عليهم سدادها .

وغضب الدوج والبنادقة غضبا عظيما عندما شهدوا أن الحجاج لم يدفعوا لهم سوى هذا المبلغ ، ولهذا السبب قال لهم الدوج :

« أيها السادة ، لقد الحقتم بنا الضرر ، لانه منذ أن غادر رسلكم الذين عقدوا معي هذه الاتفاقية ، أصدرت أوامري الى جميع سكان بلادي أن يتخلى كل حرفي عن حرفته وتجارته وأن ينخرط الجميع في العمل لاعداد سفن الاسطول الراسية أمامكم ، ولقد ظل الجميع يعملون بصورة متواصلة مدة عام ونصف العام ، فكانت خسائرهم كبيرة ، ولهذا أطالبكم انا وأتباعي بدفع المال الذي مازلتم مدينين به لنا ، واذا لم تسددوا هذه المبالغ ليكن بمعلومكم أنه لن يكون بإمكانكم مغادرة هذه الجزيرة ، فقبل سداد ماهو متوجب عليكم لن تجدوا أحدا يأتيكم بالمؤن والمياه »

ومع هذا فإن الدوج الذي كان رجلا مستقيما وفاضلا لم يتوقف عن تزويدهم بما يكفيهم من ماء وطعام .

١٣ـ وعندما سمع البارونات والحجاج ما قاله الدوج عظم أساهم ، وتضاعف حزنهم ، وعاودوا مرة أخرى الجمع واستدانوا ما أمكنهم استدانته ممن خيل اليهم أن معهم بعضا من مال ، وسددوا ما جمعوه الى البنادقة ، ومع هذا وجدوا أن ما بقي عليهم سداده مبلغ ستة وثلاثين ألف مارك ، وهنا أخبروا البنادقة أنه قد ضاقت بهم الحال ، وافتقروا وتأزمت أحوال الجيش بسبب ما جمعوه منه من مال وأعلموهم أنه ماعاد بالامكان جمع المزيد فالذي تبقى يكفي بالكاد لاعالة الجيش .

وعندما أدرك الدوج أنهم بالفعل باتوا عاجزين عن سداد بقية المبلغ ، وانهم بالواقع بدأوا يعانون من الفقر تكلم الى رجالات قومه وخاطبهم قائلا :« أيها السادة ، اذا تركنا هؤلاء الناس يعودون الى بلدانهم وصمنا الناس الى أبد الآبدين بالخبث والاحتيال ، وأنه لجدير بنا ومفيد أن نذهب اليهم ونخبرهم أننا موافقون على نقلهم بحرا شريطة القبول بتسديد المبلغ المتبقي وهو ستة وثلاثين ألف

مارك من أول الغنائم التي سيحصلون عليها ، ووافق البنادقــة على اقتراح الدوج هذا ورحبوا به وتوجه الدوج وصحبه في اليوم التــالي الى حيث اقام الحجاج ، وتوجه اليهــم بــالخطاب قــائلا :« أيهــا السادة ، لقد تداولت أنا وشعبي حول مسألة المبلغ المتبقــي واتفقنا على ان نتولى نقلكم على ظهر سفننا اذا أبديتم الاستعداد لدفع مبلغ ستة وثلاثين ألف مارك المتبقي لنا بذمتكم من أول غنائم تحصــلون عليها في المستقبل ، ووعدتمونا وعدا مؤكدا بــذلك » وعندمــا فهــم الصليبيون اقتـــراح الدوج وخــــطابه ، انفـــرجت أســــاريرهم واستبشروا ، وانكبوا أمام قــدمية مسرورين ، ووعدوه وعدا أكيدا لارجعة فيه أنهم سيفعلون كل ماأشار به واقترحه عليهم ، وأمضوا ليلتهم في غبطة تامة ، ولم يبــق أي واحــد فقير أو غيره الا واقــام اضاءة كبيرة امام مقره ، ثم حملوا مشــاعل عظيمــة شــدوها الى أطراف رماحهم وركزوها داخل معسكرهم وخارجه ، حتــى بــات يخيل للرائي أن المعسكر قد استحال الى شعلة من نار .

١٤ــ وبعد هذا جــاء الدوج وتــوجه بــالخطاب الى البــارونات قائلا : « ايها السادة ، لقد بتنا الآن على ابواب الشــتاء ، ولهــذا لايمكننا ركوب البحر ، ولايمكن لأحد أن يلومني على ذلك ، فقد كان بودي نقلكم منذ أمد طويل ، لكن أنتم سببتم التــأخير ، والآن أرى أن نستفيد ممــــا نحـــن فيه ، فعلى مقـــربة منا مـــدينة اسمها زارا » لقينا من أهلها الضرر العظيم ، وبودي أنا وشــعبي أن نثأر منهم ، لو وجدنا الى ذلك سبيلا ، فاذا وثقتم بي توجهنا اليها ، وأمضينا بها الشتاء حتى حلول عيد الفصح ، واثر ذلك نعد الاسطول ونقلع به الى مــاوراء البحــار في ســـبيل خـــدمة الرب ، واعلمــوا أن زارا بلدة جميلة جــدا ، وحــافلة بــالخيرات والذخائر .

ووافق البارونات ورجالات الصليبيين على اقتــراح الدوج ، غير أن الجيش بمجمله لم يعرف شيئا عما دار ، ولم يقف على خبر هذه الخطة سوى أعلى رجالاته مرتبه ، وبناء عليه أعدوا عدتهــم وهيأوا

سفنهم وانزلوها الى الماء واستقل كل واحد من علية القوم مع اتباعه سفينة خاصة ، كما أخذ سفينة حمولة لنقل خيوله ، أما الدوج فكان معه خمسون شينيا كلهـا أعدهـا على حسـابه الخـاص ، وطليت السفينة التي ركبها بـاللون الارجـواني ونشرت فـوقها قلوع مـن القماش الأرجواني الفاخر ، وكان على ظهرها أربعة أبواق فضـية كانت تصدح أمامه وعدة طبول تقرع بأصوات عالية شديدة ، وعندما حان وقت الاقلاع أبدى رجـال الحملة جميعـا ورجـال الاكليروس والعلمـانيون - صـغيرهم وكبيرهـم - سرورا عظيمـا لم يشاهدمثله قط ، وكان الاسطول فخمـا لم تـر عين مثله قـط ، ولم تسمع بمثله أذن ، وطلب الحجاج من الرهبـان ورجـال الاكليروس الارتقاء الى أعالي مؤخرات السفن وترتيل الأناشيد في مـديح روح القدس ، وأجهش الجميع كبارا وصغارا بـالبكاء لشـدة انفعـالهم وسرورهم من الاعماق ٠

١٥ـ وعندما اقلع هذا الاسطول من مـرسى البندقية ، واندفعت الشواني والسفن العملاقة وسواها من المراكب الكثيرة،كان المنظـر ابهى ماراته عين منذ أن أبدع الله الكون ، فقد كان هناك مـائة زوج من الأبواق الفضية والنحـاسية كلهـا كانت تصـدح وقـت الاقلاع ، وكان هناك أيضـا عددا كبيرا مـن الطبـول والكوسـات وغيرها من الآلات ، مما شكل اعجوبة رائعة ، حتى اذا صاروا في عرض البحر ، ونشرت السفن قلوعها ورفعت الرايات على مـؤخرة كل سفينة ، وعرضوا رنوكهـم خيل للمشـاهدين أن البحـر بـات يضطرب بأجمعه متجاوبا مع فرحة القوم ، وأنه استحال الى شعلة براقة بسبب السفن التي كانت تمخر عبابه ، .

وظلوا سائرين تدفعهم ريح طيبـة حتـى مـدينة اسـمها بولا ، فتوقفوا عندها لنيل قسط من الراحة وللتزود بالماء ومـا لزم من مؤن وذخـائر ، وبعـدما حملوا مـاحصلوا عليه ، أبحـروا ثانية ، ولئن كان سرورهم في المرة الماضية واحتفالهم عظيمـا فـان احتفالهم هـذه المرة كان مضـاعفا ، وسرورهـم كان يفـوق

الوصف ، حتى انه استبدت الدهشة بأهل المدينة لما رأوه من فرح ، ولمشهد ذلك الاسطول الجبار ومنظره الرائع ، وقالوا محقين : انهم لم يشهدوا قط اسطولا أروع أو اغنى من هذا الاسطول الواقف امامهم ولم يحدث قط أن تجمع مثله في أي بلد من البلدان

١٦ــ وتابع الحجاج والبنادقة ابحارهم حتى وصلوا الى مدينة زارا ، ليلة عيد القديس سانت مارتن ، وأصيب سكان المدينة بالهلع لدى رؤيتهم لهذا الاسطول العملاق الذي أخذ يقترب منهم ، فبادروا الى اغلاق أبواب مدينتهم وحملوا سلاحهم للدفاع عن انفسهم بقدر مايمكنهم ، وبعدما عرف الدوج ذلك واقترب الاسطول من المدينة خاطب الدوج بارونات الجيش بقوله :« أيها السادة لقد ألحقت هذه المدينة بي وبشعبي مضار عظيمة واذى كبيرا ، وانه لمن دواعي سروري الانتقام منها ، لهذا أرجو مساعدتكم » ، ورحب البارونات ورجالات الجيش بطلبه ووعدوه باسداء العون عن طيب خاطر ٠

١٧ــ وبما أن أهل زارا كانوا يعرفون معرفة يقينية درجة كراهية البنادقة لهم ، فقد حصلوا على منشور من روما فيه قرار بحرمان كل من تحدثه نفسه بمهاجمتهم أو الحاق الضرر بهم ، وبناء عليه بعثوا بنسخة من هذا المنشور الى الدوج والى الحجاج الذين أرسوا سفنهم أمام المدينة ، وبعدما وصل الرسل الى المعسكر قاموا بتلاوة المنشور أمام الدوج والحجاج ، وبعدما فرغوا من تلاوته واستوعبه الدوج أعلن أنه لن يتراجع عن أخذ ثأره من مدينة زارا ، وأن مامن قوة يمكن أن تثنيه عن عزمه ، حتى وإن

تمثلث بقرار الحرمان البابوي ، وعند ذلك انصرف الرسل ، ورجع الدوج الى مخاطبة البارونات فقال لهم : « أيها السادة ، أرجو أن تتيقنوا تماما أنني لن اتخلى مهما كانت الضغوط عن الانتقام من أهل زارا ، حتى مع وجود قرار البابا بالحرمان » ، ثم طلب من البارونات تقديم العون له ، فاستجابوا جميعا لمطلبه ، ووعدوه بالمساعدة بكل طيبة خاطر ، وذلك باستثناء كل من سيمون

كونت مونتفورت ، والسيد انجيراند دي بوفيز ، حيث أعلنا أنهما لن يقترفا عملا فيه ما يخالف أوامر البابا والكرسي الرسولي ، وأنهما لهذا لن يرضيهما صدور قرار ضدهما بالحرمان ، وما لبثا أن أعدا عدتهما للرحيل ، فتوجها الى بلاد المجر لقضاء فصل الشتاء هناك .

١٨ ــ وعندما عرف الدوج أن البارونات على استعداد تام للاسهام معه ، أمر بنصب معداته للهجوم على المدينة ، وقاتلها وشدد عليها الخناق حتى أدرك أهلها أنه لم تبق لديهم قدرة على المقاومة ، وهنا التمسوا الرحمة من الصليبيين وسلموا المدينة للغزاة ، فدخلها الحجاج والبنادقة ، واقتسموها فيما بينهم نصف للحجاج والنصف الآخر للبنادقة .

١٩ ــ وحدث بعد هذا أن نشب قتال عنيف بين البنادقة وجماعة كبيرة من الحجاج ، دام طوال الليل ثم الى منتصف النهار التالي ، وبلغ القتال شدة عظمى حتى لم يعد بامكان الفرسان الفصل بين المتحاربين إلا بعد طول معاناة ، وبعدما فصلوا بينهم أبرموا صلحا مشرفا بين الطرفين ، أزال رواسب سوء النوايا من نفوس الفريقين .

وإثر هذا شرع بارونات ورجالات الصليبيين والبنادقة يتداولون بشأن قضية الحرمان البابوي الذي صدر ضدهم ، بسبب مهاجمة مدينة زارا والاستيلاء عليها ، وأخيرا أجمعت الأراء على ارسال وفد الى روما يلتمس صدور قرار بالغفران ، وبالفعل بعثوا الى روما أسقف سواسون والسيد روبرت دي بوفيز ، فحصل هذان المبعوثان من البابا صاحب الكرسي الرسولي على منشور يتضمن الغفران لجميع الحجاج والبنادقة ، وبعد حصولهما على هذا المنشور بادر الأسقف بالعودة بالسرعة الممكنة ، ولم يعد معه السيد روبرت دي بوفيز لأنه توجه من روما الى بلاد ما وراء البحار مباشرة .

٣٠ ـ وخلال فترة الشتاء التي أمضاها الصليبيون والبنادقة في زارا راجعوا أوضاعهم ، فوجدوا أنهم أنفقوا انفاقا هائلا ، وأن ما بقي معهم من أموال لن يمكنهم من المضي الى القاهرة أو الاسكندرية أو سورية وأن ما لديهم من مؤن وعتاد غير كاف البته لدى الذهاب الى هذه البلدان ، فهم قد بددوا تقريبا كل ما ملكوه بسبب طول تأخرهم وبسبب ما سددوه من مبالغ مرتفعة اجرة للسفن ، وبناء عليه قالوا : إنهم لن يكون بمقدورهم الذهاب الى هناك ولو ذهبوا فلن يكونوا قادرين على انجاز شيء لعدم توفر المال والعتاد والمؤن للجيش والأعلاف للدواب .

٣١ ـ وبعدما اطلع الدوج على سوء أوضاع الحجاج تحدث اليهم قائلا : « إن في بلاد البيزنطيين أراضي عظيمة الخصب ، تنتج كل ما هو طيب ، وعندي إن أفضل خطة يمكن أن نعتمدها هي أن نبحث عن ذريعة تسوغ زحفنا الى تلك البلاد لنتزود مما بها من مؤن وأعلاف وغير ذلك مما نحتاجه ، وعند ذلك نمتلك القدرة على استئناف السفر الى ما وراء البحار .

وهنا نهض الماركيز قائلا : « أيها السادة ، كنت في عيد الميلاد الفائت في بلاد مولاي الامبراطور في ألمانيا ، وهناك رأيت شابا ، وهو أخو زوجة امبراطور ألمانيا ، وهذا الشاب هو ألكس بن اسحق » امبراطور القسطنطينية ، الذي سلب منه أخوه امبراطورية القسطنطينية غدرا وخيانة ، فمن استطاع الاستحواذ على هذا الشاب يمكنه بيسر الذهاب الى القسطنطينية ، ومن ثم الحصول على المال والعتاد وغير ذلك ، لأنه الوريث الشرعي .

٣٢ ـ وسنتخلى الآن مؤقتا عن الكلام عن الحجاج والأسطول لنحدثك عن هذا الشاب ثم عن أبيه الامبراطور اسحق وعن ظهورهما :

وجد من قبل في القسطنطينية امبراطور فاضل مستقيم اسمه

مانويل ، وكان يعد في وقته أكثر المسيحيين مالا وأكرمهم قاطبة ، حيث لم يحدث أن سأله احد قط مما امتلكه إلا ووصله بمائة مارك ، لا سيما اذا كان السائل من اللاتين من اتباع كنيسة روما ، واتيحت أمامه السبل للحديث معه ، فهذا ما سمعناه يروى عنه .

٢٣ ـ وأحب هذا الامبراطور الفرنجة حبا جما ووثق بهم ، وقال في أحد الأيام لقومه ، بعدما بالغوا في تشديد نقده ـ حسبما اعتادوا ـ لكرمه العظيم تجاه الفرنجة : اثنان يحق لهما العطاء : مولانا الرب وأنا ، واذا كنتم تبتغون مني القيام بطرد جميع الفرنجة الذين في خدمتي مع من حولي من اللاتين فاني على استعداد لفعل ذلك ، فسر الأغريق سرورا عظيما وقالوا له : اذا فعلت ذلك تكون يا مولانا قد أنجزت انجازا عظيما ، وسنمحضك الاخلاص في خدمتك ، وبناء عليه أصدر الامبراطور تعليماته الى الفرنجة بالرحيل ، وابتهج الفرنجة لهذا أكثر من أي وقت مضى .

٢٤ ـ غير أن الامبراطور أعلم الفرنجة خفية هم والذين أبعدهم من خدمته بضرورة الاجتماع به ومحادثته على انفراد ، فاستجابوا لما أمرهم به ، حتى اذا مثلوا في حضرته خاطبهم بقوله : « أيها السادة ، إن قومي لم يدعوني في استقرار وهدوء ، فقد ضغطوا علي حتى أتوقف عن اعطائكم أي شيء ، وأن أخرجكم من بلادي ، وأتمنى أن تصغوا إلي الآن وتفعلوا الذي آمركم به : اخرجوا جميعا ـ الى مكان سماه لهم ـ وسأقوم أنا وأتباعي من قومي باللحاق بكم الى المكان المذكور ، وعند ذلك سأرسل اليكم رسلي آمركم بالرحيل عن الديار ، وعندها تردون علي بالرفض ، وأنكم لن تخرجوا لا من أجلي ولا من أجل شعبي كله ، وزيدوا على ذلك بالتظاهر بالزحف ضدي ، ووقتها سأرى كيف سيكون سلوك قومي » فاستجابوا له ونفذوا كل ما أوصاهم به .

٢٥ ـ وبعدما مضوا من عنده ، أرسل الامبراطور وراء رجاله جميعا ، ثم قادهم حيث ساروا وراء الفرنجة ، حتى اذا باتوا على

مقربة منهم خاطبهم الامبـراطور بضرورة الرحيل ومغـادرة بـلاده كليا ، فابتهج الذين أشاروا على الملك بنفيهم ابتهاجا عظيما وقالوا له : « إن لم يغادروا يا مولانا البلاد فأذن لنا بالفتك بهم جميعـا » فأجابهم الامبراطور : « رائع افعلوا ما شئتم » .

ولما وصل رسل الامبراطور الى الفرنجة سلموهم الرسالة بعجـرفة ورعونة كبيرة ، وأنذروهم بضرورة مغادرة البلاد بالحال فرد عليهم الفرنجة بالرفض وأعلموهم أنهـم لن يرحلوا لا مـن أجـل خـاطر الامبراطور ولا من أجل خـاطر شـعبه ، فـانفتل الرسـل وعادوا يحملون رد الفرنجة ، وبناء عليه أمر الامبـراطور رجـاله بتسـليح انفسهم للاسهام معه في الهجوم على الفـرنجة ، فحملوا أسـلحتهم وزحفوا نحو الفرنجة الذين كانوا قد زحفوا من جانبهم ضده بعـدما رتبوا صفوفهم خير ترتيب ، وعندما رآهم الامبراطور زاحفين ضده لقتاله قال لجماعته : « أيها السادة ، ينبغي عليكم الآن أن تتـدبروا اموركم بشكل مناسب ، فقد حانت الفرصة أمامكم للانتقام منهم » .

٢٦ ـ وما أن سمع الأغريق كلام الامبراطور هـذا حتـى تملكهـم الخوف ورعبوا مـن اللاتين حين رأوهـم زاحفين ضـدهـم ، وكان الأغريق يطلقون اسم اللاتين على جميع أتباع كنيسة روما ، وأظهر اللاتين أفضل الاسـتعدادات لصـد الأغريق ، ولكن عندمـا شـاهد الأغريق اللاتين وقد انقلبوا ضدهم وزحفوا لقتالهم لاذوا بـالفرار ، وتخلوا عن الامبراطور وتركوه لوحده ، ووقتهـا قـال الامبـراطور للفرنجة : « أيها السادة ارجعوا معي وسيكون حبائي لكم أكثر مما حبيتكم من قبل » .

٢٧ ـ وبعد هذا كر الامبراطور عائدا وبـرفقته الفـرنجة ، وبعـد عودته دعا رجاله الأغريق اليه ، وخاطبهم بقوله : « أيها السادة لقد وضح أمامكم بكل جلاء من الذي يمـكن لي الاعتمـاد عليه ، فلقـد فررتم وتخليتم عني ، وتركتموني وحيدا في وقـت تـوجب عليكم فيه حمايتي ومساعدتي ، ولو أراد اللاتين وقتهـا قتلي لمزقـوني إربـا

إربا ، لهذا أوصيكم بالكف والا تبلغ القحة والجراة بأحد منكم حـدا يوصـله الى السرف الذي وصـلتم اليه حين وجهتـم اللوم لي على كرمي نحو الفرنجة وايثاري لهم ، فهذا الايثار الآن لا ريب فيه ، ثم إن ثقتي بهم الآن أعظم مـن ذي قبـل وكذلك اعتمـادي عليهـم ، وسأخصهم بالعطايا أكثر مـن ذي قبـل ، ولم يتجـرأ الاغريق على مفاتحته بهذا الموضوع بعد هذا التاريخ .

٢٨ ـ ورزق الامبراطور من زوجته ولدا رائعا جدا ، لهذا خطط له في قرارة نفسه ان يزوجه خير زوجة يمـكنه اختيارهـا والحصـول عليها ، واشار عليه الفرنجة حول ذلك برأي ، فاخذ به بأن كتب الى فيليب (أغسطس) ملك فرنسا ورجـاه أن يزوج أختـه الى ابنه ، وبعث الامبراطور مانويل بسفارة رفيعـة المسـتوى الى فـرنسا ، وضمت السفارة علية القوم ، الذين خـرجوا في أجمـل زي ، وأروع مركب ، حتى أن العين لم تر قط من هم أكثر غنى منهـم ولا أكثـر فخامة أو ابهة ، حتى لقد دهش ملك فرنسا واعوانه وتملكهم العجب لمشهد السفراء الفخم ولروعة موكبهم حين مثلوا في حضرته للافضاء برسالة الامبراطور ورغبته ، وأخبرهـم الملك أنه سيتداول حول الامر مع باروناته ، ولما تداول معهـم حـول ذلك الشـأن أشـاروا عليه بالاستجابة وأن يرسل أخته الى رجـل عالي المكانة ، عظيم الثـروة كالامبراطور ، وبناء على ذلك أخبر الملك الرسل أنه يرحب بـارسال أخته الى الامبراطور .

٢٩ ـ وإثر هذا جهز الملك أخته بأرفع جهاز ، وبعـث بهـا رفقـه الرسل الى القسطنطينية ، وسار في ركابها عدد كبير مـن رجـاله ، وقد ساروا جميعا بلا توقف حتى وصلوا الى القسطنطينية ، وعندما حلوا بها رحب الامبراطور ترحيبا عظيما بمقدم العروس الشـابة ، وفرح بها ، وسر بالذين جاءوا معها .

٣٠ ـ وفي الوقت الذي بعث فيه الامبراطور رسله لطلب العروس ، بعث بواحد من أقـربائه الذين كان يؤثـرهم بحبـه الكبير واسـمه

أندرونيكوس ، الى الطرف الآخر من بلاد ما وراء البحار ، الى أخته ثيودورا ملكة مملكة القدس ، يدعوها للقدوم لحضور حفل زواج ابنه وتتويجه ، واستجابت الملكة وركبت احدى السفن برفقة أندرونيكوس ، وعندما باتت السفينة في عرض البحر ، افتتن بالملكة قريبته وهام بها ، فأغواها ، ثم غصبها نفسها ، وبعدما اقترف ذنبه هذا لم يعد يجرؤ على العودة الى القسطنطينية ، بل أخذ الملكة وتوجه الى قونية ، وهي معه على الرغم من ارادتها ، وهناك عاش بين المسلمين .

٣١ ــ وعندما عرف الامبراطور مانويل بخيانة أندرونيكوس ، وأنه اختطف اخته الملكة حزن حزنا عظيما ، غير أن حزنه لم يوصله الى حد يمنعه عن اقامة حفل عظيم لتتويج ابنه وعروسه الشابة ، غير أن الأجل لم يكن بعيدا جدا عن الامبراطور مانويل ، حيث لم يلبث طويلا حتى قضى نحبه ، وبعدما بلغ نبأ وفاته الى الخائن أندرونيكوس ، أرسل ابنه الذي حل محله ليلتمس منه باسم الرب أن يعفو عنه ، وخادعه حتى أدخل في روعه ويقينه بطلان التهمة التي اتهم بها ، وما لبث الامبراطور الجديد ــ وكان ما يزال شابا ــ أن غفر له وعفا عنه وبعث اليه يستقدمه ، وهكذا عاد أندرونيكوس ، ولازم الامبراطور الشاب الذي اتخذه نائبا له في جميع أراضيه ، فتعالى كثيرا واستبد وتعجرف نتيجة لهذا المنصب الذي تسلمه .

٣٢ ــ ولم يلبث أندرونيكوس سوى أمد قصير حتى بادر الى مباغتة الامبراطور ليلا فاغتاله ومعه أمه أيضا ، وبعدما اقترف ذلك أخذ حجرين كبيرين وربطهما الى رقبتيهما ، ثم رمى بهما في البحر ، ثم بادر فورا فتوج نفسه امبراطورا بالقوة ، وبعدما فعل ذلك أمر بالقاء القبض على جميع الذين كان يعرف انهم ينكرون صحة ولايته ، فسمل عيونهم جميعا ثم قتلهم بعدما مثل بهم أقبح تمثيل ، واستولى ايضا على جميع النساء الجميلات اللائي وجدهن وغصبهن أنفسهن ، وتزوج أيضا الامبراطورة التي كانت أخت ملك

فرنسا ، واقترف عددا كبيرا من الآثام والرذائل لم يقترف مثلها قط خائن أو سفاح .

وبعدما اقترف هذه الآثام جميعا سأل واحدا من أعوانه المقربين ـ وكان معينه على اقتراف جميع هذه الموبقات ـ عما اذا كان يعرف أحدا ما زال على قيد الحياة يعده مغتصبا للعرش الامبراطوري ، فأجابه أنه لا يعرف أحدا سوى ما يحكى عن وجود ثلاثة شبان بالمدينة من أبناء أسرة أسمها « أنجيلوس » هم من علية القوم ، غير أنهم لا مال لديهم بل فقراء معدمون لا حول لهم ولا طول .

٣٣ ـ وبعدما تيقن الامبراطور من صحة نسب هؤلاء الشبان الثلاثة ، أوعز الى معاونه هذا ـ وكان لا يقل عنه غدرا وسوءا ـ أن يمضي اليهم ويلقي القبض عليهم ، ويشنقهم أو يميتهم ميتة أخرى بشعة ، ومضى هذا الرجل لتنفيذ المهمة التي أوكلت اليه ، غير أنه لم يلق القبض إلا على واحد منهم ونجا الآخران ، فسمل عيني الذي ألقى القبض عليه ، وما لبث هذا أن ترهبن ، أما الأخوان فقد نجيا هربا ، فذهب أحدهما ، واسمه اسحق ، الى اقليم اسمه والاشيا وقصد الآخر انطاكية حيث وقع في أسر المسلمين أثناء احدى غاراتهم على المسيحيين .

٣٤ ـ وكان الشاب الذي قصد والاشيا ، قد بلغ به العوز حدا عجز فيه عن اعالة نفسه ، فحمله عوزه وإملاقه على العودة الى القسطنطينية ، فاستخفى في بيت أرملة في المدينة ، ولم يكن لديه من متاع الدنيا سوى بغل وخادم واحد ، وكان هذا الخادم يكسب قوته من وراء استخدام بغله في تحميله بالشراب وغيره ، وبذلك استطاع هو ومولاه أن يقيما أودهما ، لكن ما لبث خبرهما أن ترامى الى مسامع الامبراطور أندرونيكوس الخائن ، ولدى تيقنه من عودة الشاب الى المدينة ، أوعز مجددا الى معاونه ـ الذي كان ممقوتا

أشد المقت من قبل الناس جميعا بسبب الآثام التي كان يقترفها كل يوم — أن يمضي فيلقي القبض على اسحق ويشنقه .

وفي أحد الأيام امتطى هذا الرجل ظهر فرسه ، واصطحب معه عددا كبيرا من الأعوان ، وقصد بيت السيدة الفاضلة حيث كان يقيم اسحق ، ولدى وصوله الى البيت ، طلب من الذين كانوا برفقته المناداة على المرأة الصالحة ، وجاءت هذه السيدة الفاضلة وهي مبدية لدهشتها تتساءل عما يريده ، فأمرها باحضار الشاب المتخفي في دارها ، فأجابته هذه السيدة الفاضلة قائلة : « مولاي ، وحق الرب ورحمته ليس بداخل بيتي أحد مختبىء » فأنذرها ثانية بضرورة اظهاره وتهددها إن لم تفعل سيلقي القبض عليهما معا .

٣٥ — ولدى سماع هذه السيدة الصالحة لهذا التهديد من هذا الشيطان الآثم الذي اقترف كثيرا من الآثام ، استبد بها الخوف وعادت نحو الدار ، وجاءت الى الشاب وخاطبته بقولها : « مولاي اسحق المفضال ، أنت ميت لا محالة ، فقد وقف بالباب نائب الامبراطور ، ومعه الكثير من الأعوان الذين قدموا للبحث عنك لالقاء القبض عليك وقتلك » فاشتد خوف هذا الشاب وتولاه اليأس لدى سماعه هذه الأنباء ، ومع هذا برز لهم ، لانه لم يكن أمامه من سبيل آخر ينجيه من المضي الى لقاء معاون الامبراطور ، ولدى خروجه أخذ معه سيفه وأخفاه تحت سترته ، وخرج من البيت وتوجه نحو النائب وخاطبه بقوله : « ما الذي تبتغيه مني ياسيدي » ؟ فبادر الى الرد عليه بفجاجة ورعونة قائلا : « أيها النذل الدنس ، انظر فهؤلاء ماضون لشنقك » .

٣٦ — وهنا أدرك اسحق أنه لا مفر أمامه من المضي معهم شاء أم أبى ، لهذا رغب في أن ينتقم لنفسه من أي واحد منهم ، ولذلك اقترب من نائب الامبراطور حتى التصق به ، ثم علاه بسيفه وضربه على رأسه ففلقه ، ووصلت الضربة حتى أسنانه .

٣٧ — وعندما أبصر أعوان النائب ما حل به حيث فتك به الشاب

اسحق فروا هاربين ، واذ ذاك أخذ الشاب بمقود فرس النائب الذي قتله ، وامتطاه وسيفه ما زال بيده يقطر دما ، وانطلق مبادرا نحو كنيسة آيا صوفيا ، وقام اثناء سوقه نحو الكنيسة بالهتاف بين الناس معلنا ما فعله ، واكتظت الشوارع بالناس ودهشوا للضجة التي تصاعدت أصواتها ، وأخذ الشاب يستنجدهم قائلا : « أيها السادة ، أستحلفكم بحق الرب ورحمته ألا تقتلوني ، فقد قتلت الشيطان الآثم الذي جلل بالعار المشين أهل هذه المدينة وسواهم » وما أن دخل كنيسة ايا صوفيا حتى ارتقى المذبح واحتضن الصليب رغبة منه في صون حياته ، وتعالت الجلبة والضوضاء في المدينة ، وانتشر في أرجائها شرقا وغربا بأن اسحق قد قتل الشيطان الاثم ، ولدى سماع أهل المدينة بذلك ، استبشروا وعلت وجوههم الفرحة وتقاطروا سعيا من كل مكان نحو كنيسة آيا صوفيا لرؤية الشاب الذي قام بهذا العمل الشجاع ، وبعدما تكامل الحشد في الكنيسة شرع كل واحد يقول للآخر : « ما أروع هذا الشاب الذي أمكنه القيام بهذا الانجاز الهائل ، ونفذ هذا العمل العظيم » وما لبث الأغريق أن أخذوا يتحدثون فيما بينهم ويقولون : « تعالوا بنا نسلك السلوك الأقوم ، فنتوج هذا الشاب امبراطورا » ، وانعقد اجماعهم أخيرا على هذا التتويج ، ومن ثم بعثوا وراء البطريرك ، وكان في قصره ، وطلبوا منه الحضور لتتويج امبراطور جديد اختاروه بأنفسهم .

وعندما سمع البطريرك طلبهم ، بين لهم أنه لن يفعل شيئا من هذا القبيل ، وأخذ يقول لهم : « أيها السادة ، إنكم تقترفون منكرا عظيما ، الأفضل لكم الاقلاع عنه والسكون ، فأنتم بعملكم هذا تنأون بأنفسكم عن جادة الصواب ، فأنا اذا ما توجته قتلني الامبراطور أندرونيكوس وجعلني أشلاء » ، فأجابه رجال الأغريق انه لا بد من تتويجه واذا لم يفعل ما أمر به فسيقتلونه ، وانصاع البطريرك ، وغادر قصره رغما عنه ، ومضى الى الكنيسة مذعورا ، وهناك كان اسحق في رداء رث وثياب بالية ، وارتدى البطريرك ثيابه الكهنوتية وتوج اسحق رغبة منه أو رهبة ، لقد توج اسحق هذا الذي

كان الامبراطور أندرونيكوس قد بعث بنائبه وأعوانه في هذا اليوم للقبض عليه وقتله .

وبعدما فرغ البطريرك من تتويج اسحق انتشر الخبر في أرجاء المدينة حتى وصل الى مسامع الامبراطور أندرنيكوس وعلم هذا الامبراطور أيضا بمقتل معاونه ، فأنكر أولا ما حكي له ، فبعث برسل الى المدينة يستجلون له حقيقة الأمر ، وعندما وصل هؤلاء الى المدينة تأكدوا من صحة الخبر ، فعادوا الى الامبراطور وقالوا له : « مولانا إن كل ما قيل لك وحكي صحيح » .

وعندما تيقن الامبراطور أندرونيكوس من حقيقة ماحدث ، انبعث وبادر بالتوجه نحو كنيسة أيا صوفيا ومعه حشد من أعوانه ، ودخل الى الكنيسة من دهليز خاص كان يصل بين الكنيسة وقصره ، وبعدما دخل الى قلبها صعد الى شرفاتها ، فرأى الرجل الذي توجوه ، وما أن رآه حتى اشتد غضبه ، فطلب من واحد من رجاله قوسا ونشابا ، وأخذ أندرونيكوس القوس ، ووضع السهم في كبده وفوقه باتجاه اسحق لرميه وقتله، ولكن وتر القوس انقطع ، فشعر بالاحباط ـ وتولاه الرعب واليأس فعاد الى قصره حيث أمر رجاله بالمبادرة الى اغلاق الأبواب وتسليح أنفسهم والدفاع عن القصر ففعلوا ماأمروا به .

٣٩ـ لقد أمر بذلك لكنه قام بالوقت نفسه بالتوجه الى باب سري خلفي ، وهرب من القصر ، واستقل هو وعدد من أعوانه مركبا كبيرا ، وتوجه الى عرض البحر ، فقد كان يخشى من الوقوع بأسر أهالي المدينة ، وفي الوقت نفسه اصطحب سكان المدينة الامبراطور الجديد ، وتوجهوا نحو القصر ، فاستولوا عليه بالقوة ، وادخلوا اليه الامبراطور اسحق ، واجلسوه على عرش القسطنطينية ، وبعدما جلس أدوا له يمين الولاء باعتباره الامبراطور المقدس .

٤٠- وسر الامبراطور اسحق سرورا عظيما ، لما حظي بـه مـن شرف وظفر بعون من الرب في ذلك اليوم ، وهنا قال للناس :« أيهـا السـادة تـأملوا مـاأضفاه علي الرب مـن شرف عظيم ، اذ هيأ لي السبل لاتـوج امبـراطورا في اليوم نفسـه الذي كانوا مـاضين فيه لقتلي ، ولهذا أنا متنازل لكم عن جميع الثروات والذخائر الموجـودة في هذا القصر اعترافا مني بالجميل والفضل الذي طوقتم به عنقي »

وعندما سـمع الناس خـطاب الامبـراطور سروا كثيرا بـالمنحة العظيمة التي أعطاهم الامبـراطور إياهـا ، وتـوجهوا نحـو الخزانة ، فوجدوا فيها كميات عجيبة من الذهب والفضة فتقـاسموا ذلك فيما بينهم .

٤١- وحدث في الليلة نفسها التي هـرب فيهـا أندرونيكوس ، أن ثار البحر وماج بفعل عاصفة هـوجاء ، وريح عاتية ، وكثـر الرعد والبرق حتى ضل اندرونيكوس وأصحابه ولم يعودوا يعرفون الى أين يتجهون ، وردتهم العـاصفة والرياح الى القسـطنطينية ، دون أن يدركوا أنهم قد عادوا اليها ، وعندما رأوا أن مـركبهم قـد جنح الى الشاطيء ، وأنه ماعاد بامكانهم الابحار بأي اتجـاه ، وهنا قـال اندرونيكوس لرجاله :« أيها السادة بـودي لو تخبـروني أين نحـن الآن » فنظروا وتمعنوا فيما حولهم فعرفوا لتوهم أنهم قد آبـوا الى القسطنطينية ، فلما سمع أندرونيكوس ماأخبروه بـه سـيطر عليه الأسى والحيرة وبات لايعرف ماذا يفعل ، وقـال لرجـاله :« أيهـا السادة أستحلفكم بـاسم الرب ، أن تـذهبوا بـي الى مـكان قصي ، بعيد عن هنا » فردوا عليه أنهـم غير قـادرين على متـابعة السفر ولو قطعت أعناقهم .

وبعـدما ادركوا عجـزهم عن مغـادرة ذلك المكان ، أخـذوا الامبراطور أندرونيكوس وحملوه معهم الى نزل كان هناك وأخفـوه خلف جرار الخمرة ، ونظر الى رجاله صاحب الخان ومعـه زوجتـه وحدقا بهم ، وبعد طول تمعن أيقنا تماما أنهـم رجـال الامبـراطور اندرونيكوس ، وبعد وقت قصير حدث أن ذهبت زوجة صاحب النزل

لتدفق جرار الخمـرة ، فـرأت أندرونيكوس قـابعا وراءهــا في زية الامبراطوري ، فعرفته على الفور ، فأسرعت بـالعودة الى زوجهــا وقالت :« مولاي أن أندرونيكوس الامبراطور قابع هناك » ، وماأن سمع صاحب النزل خبرها حتى بادر فأرسل رسـولا مـن عنده الى واحد من علية القوم كان يسكن على مقربة منه في قصر كبير ، وكان أندرونيكوس ــ قد قتل والده ، واغتصب زوجته ، وعندمـا وصـل الرسول الى القصر قال لصاحبه : إن أندرونيكوس موجود في النزل القريب ، وحده له ، وعندما سمع هذا الرجل بوجود أندرنيكوس في النزل ، اعتلاه البشر وسر سرورا عظيما ، وبادر نحو النزل ومعــه فئة من أعوانه ، فاعتقل أندرونيكوس وحمله الى قصره .

٤٢ــ وفي صباح اليوم التـالي ، حمـل الرجـل الامبــراطور أندرونيكوس الى القصر الامبــراطوري ، وقـدمه الى الامبــراطور اسحق ، الذي بادر الى سؤاله : لماذا غدرت ياأندرونيكوس بمولاك الامبراطور مانويل ، ثـم لماذا قتلت زوجتــه واغتلت ابنه ، ومـاهو السبب الذي جعلك تتلذذ في اقتراف الكثير من الآثـام في حـق الذين رأوا الشر في اغتصابك للعرش الامبراطوري ، وماالذي دفعـك الى اعتقـالي ؟ فـرد عليه أندرونيكوس :« اسـكت ، فلن أتنازل للرد عليك ، وعندما سمع الامبراطور اسحق هذا وعرف أن أندرونيكوس يتــرفع عن الرد عليه ، أرســل وراء عدد كبير مــن رجــالات المدينة ، وعندما مثلوا أمامه توجه بالخطاب اليهـم قـائلا :« أيهـا السادة ، هوذا أندرونيكوس الذي اقتـرف عددا كبيرا مـن الآثـام بحقكم وحق غيركم ، ويخيل لي أنني أحقق العدل فيه وفق رغبـاتكم جميعا بتسليمه اليكم لتفعلوا به الذي تريدوه .

٤٣ــ ولدى سماع رجال المدينة ذلك شـعروا بـالفرح ، واخـذوا أندرونيكوس ، فاقترح بعضهم حرقه حيا ، ورأى آخـرون رميه في قدر كبير به ماء يغلي ليتألم كثيرا ، وفضل بعضهم الآخر سـحله في الطرقات ، وهكذا اختلفوا ولم تتحد أفكارهم حول نوعية الموت الذي سينهون به حياة أندرونيكوس ، وأخيرا وقف رجل حـكيم بينهـم

وقال :« أيها السادة اصغوا الي فانا ساقترح عليكم افضل وسيلة للانتقام منه ، في داري اتان من أخس الحيوانات وأبغضها للنفس ، دعونا نأخذ أندرونيكوس ، ونجرده من ثيابه ، ونربطه على ظهر الدابة بالمقلوب حيث يمسك بيديه ذنبها ، ثم نطوف به في أطراف المدينة قاصيها ودانيها ، ووقتها سيكون بامكان كل من اذاه أندرونيكوس من الرجال والنساء الانتقام منه أبشع انتقام .

٤٤- ووافق الجميع على هذا الاقتراح ، وأخذوا اندرونيكوس وشدوه وأركبوه وفق اقتراح ذلك الرجل ، وفيما هم يطوفون به في المدينة ، أخذ كل من اقترف بحقه إثما من الاثام يقذفونه ويلطخونه ويضربونه : منهم من صفعه ومنهم طعنه بخنجر أو مدية ومنهم من تناوله بضربة من سيفه ، وكلهم مابين قائل له :« لقد شنقت أبي » ولآخر « لقد اغتصبت زوجتي قهرا » وأما النساء اللواتي اغتصب بناتهن وفجر بهم ، فقد شددنه من لحيته نتفا وضربا وشتما وتقريعا ، وحتى اذا وصلوا به الى الطرف الآخر من المدينة لم يكن قد بقي منه اثر من اثار الحياة ، واثر ذلك القوا بعظامه بين القاذورات ، وبهذه الوسيلة المحكمة ثأروا لانفسهم من هذا الفاسق .

٤٥- وبعدما صار اسحق امبراطورا رسم فوق مداخل الكنائس كيف جعلت منه احدى المعجزات امبراطورا ، وقد وقفت سيدتنا العذراء على طرفه ووقف على الطرف الآخر مولانا يسوع المسيح ، وهما يضعان التاج على رأسه وصوروا ايضا ملاكا يقطع وتر القوس الذي استهدف اندرونيكوس رميه به لقتله ، هذا وعرف بيت الامبراطور اسحق باسم « أنجيلوس »

٤٦- وبعد هذا اشتاق الامبراطور اسحق شوقا شديدا الى أخيه الذي كان أسيرا عند المسلمين وأراد رؤيته ، فوقع اختياره على عدد من الرجال بعثهم يبحثون عنه ، وفتشوا عنه وتقصوا حتى عرفوا مكان سجنه ، فذهبوا الى هناك ، وسالوا المسلمين عنه ، وكان قد

ترامى الى اسماعهم أن سجينهم أخو الامبراطور الجديد في القسطنطينية ، فاشتطوا في مفاداته ، وطالبوا بمبلغ جسيم فتمت الاستجابه لمطالبهم بالذهب والفضة ، فحصلوا عليه فحملوه معهم عائدين الى القسطنطينية .

وسر الامبراطور اسحق كثيرا برؤية أخيه حرا طليقا ، فأكرمه وحباه ، وبدوره فرح هذا الاخ كثيرا حين عرف أن أخاه قد بات الامبراطور ، وأنه استحوذ على العرش بقدرته وشجاعته .

٤٧ـ وكان اسم هذا الشاب الكسيوس ، ولم تمض غير فترة قصيرة حتى رسمه أخوه الامبراطور نائبا له ، وفوض اليه التصرف بجميع أراضيه ، فامتلأ كبرياء بهذه النيابة ، حتى عمت هيبته الامبراطورية بأكملها ، وصار الناس يخافونه لحب الامبراطور له ولقرابته منه .

وحدث بعد بعض الوقت أن توجه الامبراطور في أحد الايام الى الصيد في احدى الغابات ، فما كان من أخيه الكسيوس ، الا أن قصد هو الآخر الغابة حيث كان أخوه الامبراطور ، وانقض عليه غدرا فاقتلع عينيه ، وبعد مافرغ من خيانته القاه في السجن بطريقة خفي خبرها على الناس جميعا ، ثم رجع الى القسطنطينية وموه على الناس أن أخاه الامبراطور قد توفي ، ومن ثم توج نفسه امبراطورا .

وعندما رأى المكلف بحراسة ابن الامبراطور اسحق ، أن عمه الكسيوس قد غدر بالامبراطور أبي الطفل وخانه خشي أن يلحق الطفل بأبيه ، فلم يكن منه الا أن حمله بعيدا ، وبعث به الى أخته في ألمانيا ، فقد كانت زوجة امبراطور ألمانيا (فيليب أمير سوابيا) وكان هذا الطفل هو الوريث الشرعي للعرش الامبراطوري وأحق من عمه به .

٤٨ـ والآن وقد سمعت كيف قام اسحق وصار امبراطورا ، ثـم كيف ذهب ابنه الى المانيا ، وهذا الابن هو الذي سيرسل الصليبيون والبنادقة في طلبه استجابة لرأي مقدمهم الماركيز دي مونتفرات .

٤٩ـ وســأتفرغ الآن لاقص عليكم حــديث هــذا الشــاب والصليبيين ، وكيف بعث الصليبيون في طلبه ، ومن ثم كيف قصدوا القسطنطينية لغزوها ، فبعدما أفهم الماركيز الحجاج والبنادقـة أن من يكون هـذا الشـاب ـ الذي تحـدثنا عنه الآن ـ لديه فسيجد مايسوغ نهايه الى القسطنطينية والاستيلاء عليها والحصـول على مابها من ذخائر ، بعد هذا بعـث الصـليبيون بـاثنين مـن خيرة فرسانهم الى المانيا وذلك بعدما جهزوا خير جهاز ، وكلفاهم بجلب الامير الشاب ، وحملوهما اليه خطابا أخبروه به انهم سيساعدونه على استرداد حقوقه .

ولما وصل الفـارسان الى بـلاط امبـراطور المانيا ، حيث كان الشاب ، اجتمعا به وأبلغاه بالرسالة التي بعـث بهـا الصـليبيون اليه ، وبعدما سمع الشاب نص الرسالة وفهـم محتـوى العـرض المرسل اليه مـن بـارونات الصـليبيين ، اســتبشر وسر سرورا عظيما ، ورحب بالعرض كثيرا ، وأكرم وفادة الفارسين واخبرهما أنه سيتداول حول الأمر مع زوج أخته الامبراطور ، واثر هذا قال له الامبراطور ـ بعدما اطلع على فحـوى العـرض ـ هـذه فـرصة مواتية ، وشجعه وأيد فكرة التحاقه بالصليبيين ، وأوضح له انه لن يكون بمكنته أبدا اســترداد شيء مــن ميراثــه بغير معــونة الرب ، ومساعدة الصليبيين ، وماأن اقتنع الشاب أن الامبـراطور قد محضه النصح حتى جهز نفسه حسب الامكان ، وانطلق بـرفقة الفارسين .

٥٠ـ وقبل عودة الفارسين الى زارا وبـرفقتهما الشـاب ، كان الاسطول قد قصد جـزيرة كورفــو ، وذلك بعــد انقضــاء عيد الفصح ، وخلف في زارا مركبين في انتظار الفارسين والشاب ، وفي

كورفو مكث الحجاج حتى يوم وصول الشاب والفارسين ذلك انه عندما وصل هؤلاء الى زارا وجدوا المركبين اللذين تركهما الصليبيون ، فصعدوا اليهما ، واقلعوا منطلقين حتى جزيرة كورفو حيث كان الاسطول راسيا ، ولدى مشاهدة علية القوم الشاب قادما بادروا الى استقباله بكل حفاوة وحيوه وبجلوه الى أبعد الحدود ، وعندما رأى الشاب ترحاب علية القوم به ورعايتهم وتبجيلهم له ، وشهد ايضا العمارة البحرية العملاقة تولاه السرور بشكل مفرط ، ثم قصده الماركيز وقاده الى خيمته .

٥١ ــ وماان استقر الشاب في سرادق الماركيز حتى توافد عليه كبار البارونات مع دوج البندقية ، وتحدثوا معه حول عدة امور ، واخيرا افضى بهم الحديث الى ان سألوه عما سيقدمه لهم ان هم نصبوه امبراطورا على القسطنطينية ، وتوجوه بها ، فاعلمهم انه سيلبي كل مطلب من مطالبهم ، واثر ذلك اعلموه بما يريدون وتداولوا معه حتى اتفقوا على انه سيدفع للجيش مائتي الف مارك ، وسيزود الاسطول على حسابه الخاص بما يكفيه من مؤن لمدة عام كامل ، وسيمضي برفقتهم على رأس جميع قواته الى بلاد وراء البحار ، وسيودع في بلاد ماوراء البحار عشرة الاف مقاتل ينفق عليهم من ماله الخاص طوال حياته ، كما انه سيتكفل بتموين جميع من سيغادرون القسطنطينية الى بلاد ماوراء البحار .

٥٢ــ واثر ذلك تم استدعاء بارونات الحملة جميعا مع البنادقة الى اجتماع عام ، وبعدما اكتمل الحضور نهض دوج البندقية وخاطبهم قائلا :« أيها السادة لقد توفر لنا أفضل مسوغ للتوجه الى القسطنطينية ــ اذا وافقتم ــ فوريث عرشها الشرعي معنا » .

ووجدت جماعة لم توافق مطلقا على التوجه الى القسطنطينية وقال أفرادها :« عجبا ، ومالذي سنفعله في القسطنطينية ؟ نحن علينا أداء حجنا ، وقد وضعنا خططنا للمضي الى الاسكندرية او

القاهرة ، فضلا عن هذا لقد اتفقنا أن يبقى الاسطول معنا عام واحد فقط وهاهو ذا قد انقضى من السنة نصفها» .

فحاججهم الآخرون بقولهم : وماجدوى سفرنا الى الاسكندرية أو القاهرة ونحن لانملك مايكفينا ويكفي رحلتنا من مال وعتاد ومؤن ؟ وإنه لخير لنا وأنفع - قبل السفر الى هناك - أن نبحث عن ذريعة مسوغة توفر لنا العون والمال ، فذلك أجدى لنا وأرفع من أن نمضي الآن الى هناك لنموت جوعا ، فها نحن قد عثرنا على وسيلة تمكننا من انجاز الكثير ، سيما وأن - الشاب - يعرض علينا مرافقتنا هو وقواته مع تمويل اسطولنا لمدة سنة أخرى ، كل ذلك على نفقته الخاصة .

وكان الماركيز مونتفرات أعظم البارونات حماسا في حمل القوم على قصد القسطنطينية ، فقد أراد الثأر لنفسه لاهانة قد ألحقها به الامبراطور المتربع على العرش الامبراطوري في القسطنطينية .

٥٣ - وسندع الآن جانبا الحديث عن الاسطول وسأروي لك حكاية الاهانة التي كان الماركيز حاقدا بسببها على القسطنطينية :

كان الماركيز كونراد أخو الماركيز مونتفرات قد حمل شارة الصليب ، ثم قدم الى القسطنطينية على نية التوجه الى بلاد ماوراء البحار ، وكان برفقته مركبين ، وفي القسطنطينية التقى بالامبراطور وتحدث اليه ، ورحب به الامبراطور وحباه ، وحدث آنذاك أن كان هناك واحدا من أعيان عاصمة الامبراطورية قد تمرد على الامبراطور وحاصره في مدينة القسطنطينية ومنعه من مغادرتها ، وعندما تعرف الماركيز كونراد الى هذا الوضع سأل الامبراطور : كيف حدث أن تمكن هذا الرجل من محاصرته ، وكيف لم يتجرأ هو ذاته على الخروج من المدينة لحربه ، فأعلمه الامبراطور انه ليس لدى شعبه بأس أو قدرة ، وهذا هو السبب الذي جعله لايرغب في النهوض الى حربه .

٥٤ـ وعندما سمع الماركيز هذا البيان أعلمه انه على استعداد لمد يد العون له اذا مارغب بذلك ، فأخبره الامبراطور أنه بحاجة ماسة للعون ، وانه سيظل دوما شاكرا للماركيز ، وهنا طلب منه الماركيز جمع كل اللاتين في القسطنطينية ، بغية قيادتهم في طليعة جيش يسير به الامبراطور مع رجاله من بعده ، وبناء عليه جمع الامبراطور اللاتين جميعا ، ثم أمرهم بالتجهز وحمل أسلحتهم ، وجهز الماركيز بالوقت نفسه رجاله ، وعندما اكتمل تسليح اللاتين ، قاد الماركيز هؤلاء مع رجاله في صفوف منتظمة ، وسار الامبراطور ورجاله من خلفهم وزحفوا جميعا وفق الخطة المرسومة ٠

٥٥ ـ وما ان اصبح الماركيز ورجاله خارج ابواب المدينة حتى عرف براناس الذي كان يحاصر الامبراطور بذلك ، وهنا زحف مع اعوانه بهدف صد الماركيز الباسل وقتاله ، وعندما بات على غلوة من جيش الماركيز اندفع مهاجما إياه ، وهنا ماكاد يلمحه مقبلا نحوه حتى بادره فاندفع نحوه وضربه بين عينيه ضربة أردته قتيلا ، ثم راح هو وأعوانه يعملون الضرب ذات اليمين وذات الشمال في صفوف عدوهم حتى صرعوا عددا كبيرا منهم ، هذا وماكاد رجال براناس يرون مصرع قائدهم ، حتى اداروا ظهورهم ولاذوا بالفرار ٠

٥٦ ـ وعمد الامبراطور إلى خيانة الماركيز ، واغلق الباب خلفه ، لكنه عندما شاهد الاعداء يلوذون بالفرار فتح الابواب ، وانطلق على رأس قواته جميعا لمطاردة الهاربين ، وحصل الماركيز والذين معه على غنائم كبيرة من الخيول وسواها ، وبهذه الصورة انتقم الماركيز من عدو الامبراطور الذي كان يحاصره ، وبعد نيل هذا النصر عاد المنتصرون إلى القسطنطينية ، ودخلوها وعلى راسهم الامبراطور والماركيز ، وبعدما استقروا بها وضعوا أسلحتهم ، وهنا قدم الامبراطور شكره العظيم الصادق للماركيز الذي انتقم له من عدوه وفرج عنه ، وهناك سأل الماركيز الامبراطور

عن السبب الذي دعاه إلى اغلاق الابواب خلفه ، فقال له الامبراطور : أتسأل عن هذا الآن ؟ فأجابه المركيز : نعم بحق الرب ! ...

٥٧ - ولم يلبث الامبراطور طويل وقت حتى حاك خيانة مؤامرة كبرى ، أراد من خلالها التخلص من الماركيز بقتله ، وعلم شيخ كبير بتفاصيل المؤامرة ، فأشفق على الماركيز ، لهذا اتصل به وقال له : سيدي الماركيز يجب بحق الرب ان ترحل عن هذه المدينة فلو مكثت فيها ثلاثة أيام أخرى بعد يومناهذا لأمكن الفتك بك من قبل الامبراطور ورجاله الخونة ، حيث حاكوا مؤامرة كبيرة للتخلص منك ، وعندما سمع الماركيز هذا الخبر اعتراه الحزن حزنا شديدا ، ثم غادر المدينة فورا في تلك الليلة نفسها ، فقد جهز مركبين للرحيل وأقلع بهما قبل فجر اليوم الجديد ، وتابع سفره حتى صور .

٥٨- وكانت بلاد مملكة القدس قد ضاعت قبل هذه الأحداث ولم يبق منها غير مدينتي صور وعسقلان ، وكان قبل ضياع الناحية كلها قد مات (عموري) ملك القدس ، وكان لهذا الملك ابنتان تزوجت كبراهما من الفارس غي دي لورنغنان دي بواتو ، وهي التي آلت اليها مملكة القدس ، وتزوجت الثانية من اللورد همفري ، صاحب شقيف أرذون .

٥٩- وكان قد حدث في واحد من الأيام الخالية أن اجتمع جميع بارونات الأرض ومعهم (ريموند الثالث) كونت طرابلس ومقدما الفرسان الداوية والاسبتارية ، اجتمعوا في الهيكل في القدس وتداولوا حول ضرورة فصل اللورد غي عن زوجته بسبب صيرورة تاج المملكة اليها ، واستهدفوا تزويجها من رجل آخر مناسب أكثر من غي ليتولى الملك معها ، ونجحوا في التفريق بينهما ، غير أنهم اختلفوا حول الشخص الذي سيزوجوها منه ، واتفقوا أخيرا على ترك حرية الاختيار لها ، وهكذا ناولوها التاج لتمنحه بدورها للذي

تريده شريكا لها بالملك ، ثم اجتمع البارونات والفرسان الداوية والاسبتارية ثانية ، وفي يوم آخر ، وحضر الاجتماع (ريموند الثالث) كونت طرابلس ، والذي كان أفضل فرسان المملكة ، وكان يخيل اليه أن الملكة سيقع اختيارها عليه ليتزوجها ومن ثم تعطيه التاج ، وكان اللورد غي بين الحضور ايضا ، وهو الذي كان زوج الملكة من قبل .

وبعدما التأم جمعهم تناولت الملكة التاج بين يديها ، ثم أخذت تمر بنظرها على جميع الحضور حتى أبصرت غي الذي كان زوجها ، فخطت نحوه ووضعت التاج على رأسه وبذلك أصبح اللورد غي ملكا ، وعندما راى كونت طرابلس ما احدث حنق عليهما بشدة ، وغادر المكان فورا وتوجه الى امارته في طرابلس وهو يتقد غضبا .

٦٠ـ وبعد هذا الحادث بأمد قصير تمكن المسلمون من أسر غي في حرب خاضها ضدهم وهزم فيها مع جميع رجاله ، وضاعت الارض باستثناء صيدا وعسقلان ، وبعدما صارت الارض كلها بيدي صلاح الدين استدعى اليه ملك القدس المأسور لديه ووعده أنه سيطلق سراحه وسراح مجموعة كبيرة من رجاله اذا تمكن من اقناع القائمين على الدفاع عن عسقلان على تسليمه اياها ، واستجاب الملك وطلب منه أخذه الى عسقلان للعمل على تسليمها له ، وتوجه صلاح الدين وبعدما أوضح لهم أنه راغب بذلك استجاب أهلوها وسلموها له .

٦١ـ وبعدما آلت المدينة الى صلاح الدين اطلق سراح الملك غي مع جماعة من قومه ، ثم رحله الى الاراضي المسيحية ، وبعد هذا بوقت قصير توجه الملك غي ومن معه الى صور .

وقبل ان يتخلص الملك غي من أسره ويقوم بما قام به ، كان الماركيز قد استولى على مدينة صور ، ووقف الى جانبه الجنوية

وغيرهم من الناس وأدوا له يمين الولاء ، وأقسموا له على الآثار المقدسة أن يخولوا اليه جميع السلطات مع اعتباره سيدهم مقابل تقديم العون لهم في الدفاع عن المدينة ، ووجد الماركيز أن مدينة صور تعاني من الغلاء الفاحش ، الى درجة أن مكيال القمح قد بيع بمائة بيزنته ، مع أنه كان لايساوي في أمبين أكثر ستيه ونصف .

٦٢ـ وعندما رحل الملك (غي) الى صور ، نادى جنده على من كان بها قائلين :« افتحوا الابواب ، افتحوها ، وانظروا فها هو الملك قد جاء » ، فمنعهم من كان بها من الدخول اليها ، فقال الملك مندهشا : كيف هذا أوليست ملك هذه البلاد وصاحبها » ؟ ورد عليه الماركيز :« لاوحق الرب انت لم تعد ملكها ولاصاحبها ولن تستطيع الدخول اليها لأنك لطخت كل شيء بالعار ، وأضعت الارض كلها ، زد على هذا إن الغلاء شديد جدا ، ولو دخلت أنت ورجالك لمات الناس جميعا جوعا ، وانه لاقل خسارة ان تموت أنت ورجالك ، فهذا لايهم كثيرا ، لكن المهم الا نهلك نحن الذين في المدينة وتهلك المدينة معنا .

٦٣ ـ وعندما وجد الملك غي نفسه أنه لن يستطيع الدخول الى صور ، ارتحل ويمم ومن معه شطر مدينة عكا حيث اتخذوا لأنفسهم معسكرا أمامها وحصنوه وظلوا فيه حتى قدم ملكا فرنسا وانكلترا حيث وجداه هناك.

وفي أثناء مرابطة الماركيز في صور وعيشه وسط الغلاء الشديد ، فرج الرب عنه وعن رجاله ، حيث قدم تاجر ومعه مركب مشحون بالقمح ، وقد باعهم المكيال الواحد بعشرة بيزنتات بعدما كان بمائة ، وقد فرح الماركيز كثيرا وشعر بالراحة هو ومن معه بالمدينة ، فقد توفر القمح وبات معروضا بالأسواق للبيع.

٦٤ ـ وبعد هذا بوقت قصير جاء صلاح الدين وشرع بحصار صور برا وبحرا ، وهكذا لم يعد بامكان أحد جلب شيء من المؤن أو

غير ذلك الى صور ، وأطال السلطان صلاح الدين أيام الحصار وشدده ، لهذا عاد الغلاء الى سالف فداحته.

٦٥ ـ وبعدما تمعن الماركيز في حالة الغلاء الفادح داخل المدينة ، ورأى أن المسالك البرية والبحرية موصدة والا أمل بوصول نجدات ، استدعى اليه من كان بالمدينة من الجنوية وسواهم ، وخاطبهم قائلا : أيها السادة ، نحن نعيش الآن في مأزق خطير ، إن لم يتداركنا الرب برحمته ، لقد عم الغلاء واشتد كثيرا في أرجاء المملكة ، وندرت الأقوات ، وانعدمت الحبوب التي يمكن بها ان نقيم أود حياتنا ، وهاهي منافذ البر والبحر مسدودة في وجهنا ، ولا أمل بوصول نجدة الينا ، وإنني أتوسل اليكم باسم الرب في ايجاد خطة تنجينا من هذا المأزق.

وبعد لأي نهض أحد الجنوية وخاطبه قائلا : إذا تجاوبت معي فلدي خطة مناسبة ، وسأله الماركيز : ما هي خطتك؟ فأجابه : اليك تفاصيلها ، تعلم انه لدينا في المدينة عددا من أنواع السفن ، دعني أجهز أربعة من الشواني وأشحنها بخيرة من هنا من الرجال ، ثم نقلع مبحرين قبل انبلاج الفجر ، ووقتها سيخيل لمن يرانا أننا نحاول الهرب ، وما أن يرانا المسلمون حتى سيبادروا الى حمل اسلحتهم والسعي للحاق بنا ، ومطاردتنا ، وطبعا لعجلتهم لن يسلحوا أنفسهم تماما ويتدبروا شؤون احتياطهم ، وفي الوقت نفسه تكونوا أنتم قد صعدتم الى ظهور بقية الشواني والمراكب بأفضل المقاتلة ، فإذا شاهدتم المسلمين قد نشروا قلوعهم وبادروا الى مطاردتنا وصاروا بعيدين عن المدينة ، أقلعوا بسفنكم وسيروا خلفهم وآنذاك سننعطف نحن ونعود نحوهم فنقاتلهم جميعا ، ووقتها سيأتي الفرج من عند الرب ، فأقر الجميع هذه الخطة وساروا وفق مقترحاتها ونفذوه.

٦٦ ـ وقبيل حلول فجر اليوم التالي ، كان هذا الجنوي قد أعد شوانيه الأربع تماما وشحنها وبالمقاتلة ، وفي الوقت نفسه شحنت

بقية السفن والمراكب ، وقبيل اشراق شمس الصباح أقلع هذا الرجل ، وكان مرسى مدينة صور الذي تدخل السفن إليه وتخرج منه واقعا وراء اسوار المدينة ، وهكذا تسلل وخرج بهدوء تام ، حتى إذا ابتعد بعض الشيء عن المرسى رآه المسلمون ، فبادروا سراعا لملاحقته ، لكن بدون اتخاذ الاستعدادات الكاملة ، وقد أقلعوا بسفنهم المائة وشرعوا بمطاردته.

وعندما ابتعدوا عن المدينة ، وصاروا في عرض البحر ، بادر من بها الى الخروج منها ، وأبحروا في آثارهم ، وعند ذلك انعطف الجنوية ، واشتبكوا وأهالي صور بالمسلمين الذين لم يكونوا مستعدين تماما ، فقتلوا عددا كبيرا منهم ، والحقوا بهم الهزيمة ، ونجا من مراكب المسلمين مركبان فقط من بين المائة سفينة ، ولم يقعا بأيدي أهل صور ، وكان صلاح الدين قد وقف يرقب ما حدث ويبكي بمرارة ، ويشد شعره ويمسك بلحيته وهو يتألم لرؤية رجاله في محنتهم وهم يفتك بهم أمام ناظريه دون أن يتمكن من نجدتهم ، وبعدما فقد اسطوله ، قوض خيمه وأزال معسكره ورفع الحصار عن المدينة وارتحل ، وهكذا نجت صور على يدي الماركيز الذي طبق هذه الخدعة .

وفي هذه الآونة كان الملك غي مقيما في معسكره المحصن قرب عكا ، فهناك وجده ملكا فرنسا وانكلترا عندما قدما فيما بعد.

٦٧ ــ ولم يلبث الملك غي بعد هذا الحادث حتى ماتت زوجته ، وبذلك آلت المملكة الى أختها زوجة همفري ، صاحب شقيف تيرون ، وبعد ذلك قام الناس وفصلوا زوجة همفري عنه وزوجوها من الماركيز ، فصار بذلك ملكا ، وقد أنجبت له ابنة ، ثم إن هذا الماركيز لاقى حتفه غيلة على أيدي طائفة الحشيشية ، فأخذ القوم ارملته وزوجوها من الكونت هنري دي شامبين ، ثم جدوا بعد هذا في حصار عكا حتى استولوا عليها.

٦٨ ـ والآن بعدما فرغت من الحديث عن الأثم الذي اقترفه الامبراطور ، ومن أجله أبغض الماركيز مونتفرات هذا الامبراطور ، وبسببه أيضا كان أكثر من غيره حماسا لخطة التوجه الى القسطنطينية ، أعود الى سياق الحديث الذي كنا فيه من قبل.

فبعدما قال دوج البندقية للبارونات أنه قد توفر لهم أفضل مسوغ يمكنهم التذرع به في التوجه الى القسطنطينية ، وأنه يحض بكل حرارة على التوجه الى هناك ، وافق البارونات جميعا على طلبه هذا ، وهنا عرضت القضية على الأساقفة حيث سألوهم عما إذا كان قصد القسطنطينية يعد خطيئة؟فأجابهم الأساقفة أن ذلك لن يكون خطيئة بل عملا جيدا ، فمن المتوجب على البارونات تقديم العون لصديقهم الوريث الشرعي للعرش الذي سلبه ، وتمكينه من استرداد حقوقه ، والانتقام من عدوه.

وطلبوا بعد هذا من الشاب أن يقسم على الآثار المقدسة ويتعهد بالحفاظ على العهود التي ابرمها معهم من قبل .

٦٩ ـ واجمع بعد هذا الحجاج والبنادقة على قصد القسطنطينية ، فأعدوا شونهم وسفائنهم ، وأقلعوا وساروا فوق ظهر البحر حتى وصلوا الى ميناء أبيدوس ، وهي مدينة تبعد عن القسطنطينية مسافة مائة فرسخ ، وكان هذا المرسى هو المكان الذي اقام فيها تروي الكبير عند مدخل مضيق البوسفور ، وبعد هذا أقلعوا من هناك ، واتجهوا نحو القسطنطينية ، حتى إذا باتوا على قرابة فرسخ واحد منها توقفوا بقصد تجمع سفن الاسطول كلها ، وبعدما تكامل مجيء سائر السفن على اختلافها ، أعدوا سفائنهم وزينوها ، حتى بان مرآها أبدع ما وقعت عليه العين من المناظر.

وعندما رأى أهالي القسطنطينية هذا الاسطول العملاق ، القوي التجهيز ، شرعوا ينظرون اليه بامعان ودهشة وحيرة ، وقد

استبدت بهم الدهشة والخشية ، فصعدوا الى أعلى الاسوار وظهور البيوت ينظرون الى هذه الاعجوبة ، وفي الوقت نفسه شرع الذين كانوا على ظهر الاسطول بتفحص المدينة ، التي كانت عظيمة الطول والاتساع ، وقد أعجبوا لها ودهشوا لمرآها ، ثم عبروا من أمامها وقصدوا خلقدونية في العدوة الأخرى من مضيق البوسفور.

٧٠ ـ وعندما علم الامبراطور (الكسيوس الثالث) بخبر الصليبيين ، أرسل اليهم وفدا من كبار رجالاته ليسألوهم عما يريدون وما الذي جاء بهم ، وبعث اليهم يخبرهم أنه على استعداد لمنحهم عن طيب خاطر كل ما يريدون مما لديه من ذهب وفضة ، إن كانوا جاؤوا لذلك ، وبعدما سمع البارونات هذه الرسالة أعلموا الرسل أنهم لا يريدون شيئا من ذهبه أو فضته ، وكل الذي يريدوه التنحي عن عرش الامبراطورية لأنه لم ينله بالوسائل المشروعة بل بالاغتصاب ، وبعثوا الى الامبرطور برسالة أعلموه فيها بوجود الكسيوس ابن الامبراطور اسحق بينهم ، فهو الوريث الشرعي للعرش ، وآنذاك أجابهم الرسل بأن الامبراطور لن يستجيب لأي من مطالبهم ، ثم ودعوهم عائدين.

٧١ ـ وإثر هذا خاطب دوج البندقية البارونات قائلا : « أيها السادة ، أرى أن نأخذ عشر شواني ، ونركب على سفينة منها هذا الشاب ومعه بعض الرجال ، وأن تقصد هذه السفن شاطىء القسطنطينية وهي ترفع راية الأمان ، وذلك بهدف سؤال أهل المدينة عما اذا كانوا على استعداد للاعتراف بسيادة هذا الشاب عليهم ».

فرد عليه رجالات الحملة بقولهم : إن هذا رأي وجيه ينبغي الأخذ به ، وبناء عليه جهزوا السفن المطلوبة واعتلى على ظهر احداها الشاب مع عدد كبير من الرجال المسلحين ، وجذفوا حتى وصلوا إلى أسوار المدينة ، ثم أخرجوا هذا الشاب واسمه الكسيوس وعرضوه أمام أهلها ، وسألوهم عما إذا كانوا يعدونه سيدهم ، فرد عليهم أهل المدينة بكل صراحة قائلين بأنهم لا

يعترفون به سيدا عليهم ولا يعرفون من أمره شيئا فبين لهم الرجال الذين كانوا بالسفن أنه ابن اسحق الامبراطور السالف ، فأجابهم اهل المدينة مجددا قائلين إنهم لا يعرفونه ولا يعرفون عنه شيئا ، وبناء عليه عادوا جميعا الى الجيش وأخبروا قادته بخبر القوم وأجوبتهم لهم ، وعند ذلك صدرت الأوامر الى جميع أفراد الجيش صغارا وكبارا بحمل السلاح والاستعداد للمعركة ، وبعدما حمل الجميع أسلحتهم بدأوا يقدمون اعترافاتهم وتناولوا القربان المقدس ، ذلك أنهم كانوا خائفين ويخشون من الزحف على القسطنطينية ، ورتبوا كتائبهم وأعدوا سفنهم وشوانيهم ومراكب حمولتهم ، ودخل الفرسان الى مراكب النقل مع جيادهم ، وأقلع الاسطول ، وزعقت الأبواق الفضية والنحاسية وكان منها مائتا زوج ، وقرعت الطبول ودقت الكوسات فقد كان هناك منها الكثير.

وعندما أبصر أهل القسطنطينية هذه العمارة البحرية العملاقة وهذه القوات الهائلة وسمعوا أصوات الأبواق والطبول التي أحدث قرعها ضجة كبيرة ، حملوا أسلحتهم جميعا ، وصعدوا فوق البيوت في المدينة والأسوار ، وبات المشهد وكأن البحر والبر قد ثاروا فقد غطت السفن وجه الماء ، وفي الوقت نفسه أمر الامبراطور رجاله بحمل أسلحتهم والتوجه الى الساحل للدفاع عنه.

٧٢ ـ وعند ابصر الصليبيون والبنادقة الاغريق يتقدمون نحو الشاطىء وهم يحملون أسلحتهم ، بهدف صدهم تشاوروا فيما بينهم وتداولوا حتى قال لهم دوج البندقية إنه سيزحف أمام الجميع على رأس جميع قواته وسيستولي على الشاطىء بمعونة الرب ، ثم اخذ شوانية وسفائنه ومراكب حمولته ، واتخذ موقعه في المقدمة على رأس الجيش ، ثم أمر برماة السهام ووضعهم أمام المراكب لتطهير الشاطىء من الاغريق ، وبعدما تم توزيعهم حسب هذه الخطة تقدموا نحو الشاطىء ، وما أن رأى الاغريق ، وبعدما تم توزيعهم حسب هذه الخطة تقدموا نحو الشاطىء ، وما أن رأى الاغريق أن

الحجاج مقبلون وكلهم تصميم ، غير خــائفين أو وجلين ، ارتــدوا على أعقابهم ، وفقدوا الجرأة على الصمود أمامهم ، وهكذا شــق الاسطول الصليبي طريقه ، وما كانت السفن تلامس طرف الساحل حتى وثب الفرسان من مراكب الحمـولة وقــد امتــطوا ظهـــور خيولهم ، وكان لمراكب الحمولة هذه أبواب يمكن فتحها حيث تمتــد بما يشبه الجسر يمكن للفرسان العبور عليه الى اليابسة وهــم على ظهور خيولهم.

وعندما رسا الاسطول بمحاذاة الشــاطىء ، ســيطر الرعب على الاغريق المسيحيين ، خــاصة عندمــا شــاهدوا المقــاتلين يخرجون ، وكان هؤلاء الاغريق هم الأناس أنفســهم الذين قــدموا للدفاع عن الشاطىء ، والذين كانوا يتشــدقون أمــام الامبــراطور ويتحججون أن اللاتين لن يتمكنوا من الرسو والنزول الى اليابســة ماداموا مرابطين هناك ، لكن عندمــا نزل الفــرسان مــن مــراكب الحمولة شرعوا في طرد هؤلاء الاغريق وتعقبــوهم حتــى جسر كان على مقربة من رأس المدينة ، عليه باب اجتازه الاغريق في هــروبهم الى داخل القسطنطينية.

٧٣ ــ ولما آب الفرسان من مطاردة الاغريق تــدارسوا الوضــع الجديد ، فقال لهــم البنادقـــة إن ســـفنهم لن تــكون آمنة على نفسها ، إلا إذا رست داخــل الميناء ، ولهــذا عقــدوا العــزم على ارسائها فيه ، وكان مــرسى القســطنطينية آمنا كل الأمــن لوجــود سلسلة معدنية عملاقة ممتدة عند مدخله قد ربــط طــرفها الأول عند برج غلاطية وشد الطرف الآخر الى المدينة ، وكان برج غلاطية شديد الحصانة منيعا لا يمكن اقتحــامه بســهولة لأنه شــحن بــالمدافعين المجهزين أفضل جهاز.

وبناء عليه أخذ القوم بهــذا الرأي فحــاصروا البــرج وشــددوا الحصار عليهم حتى تم الاستيلاء عليه عنوة ، وكان هناك عدد كبير من المراكب الاغريقية منتشرة على طول الســلسلة ، ودخلت ســفن

الاسطول الى المرسى فباتت آمنة فيه ، وتم في تلك الاثناء الاستيلاء على عدد من المراكب الاغريقية التي كانت راسية بالمرسى.

٧٤ ـ وبعدما أصبحت السفن والمراكب آمنة داخل المرسى ، احتشد الحجاج جميعا هناك ومعهم البنادقة للتداول حول كيفية الاغارة على المدينة ، وخلصوا الى الاتفاق على أن يقوم الفرنجة بمهاجمة القسطنطينية برا والبنادقة بحرا ، وأعطى دوج البندقية أوامره لأتباعه بنصب ما لديهم من المعدات والسلالم على ظهر السفن حتى يستطيعوا بوساطتها مهاجمة الأسوار.

وفي الوقت نفسه تجهز الفرسان والحجاج جميعا وحملوا أسلحتهم وقصدوا واحدا من الجسور وقع على قرابة مرحلتين منهم ، وأرادوا الاستيلاء عليه والعبور منه الى داخل القسطنطينية ، لعدم توفر طريق آخر يمكن عبوره وطوله أقل من أربعة فراسخ ، غير هذا الطريق الممتد من الجسر ، وعندما وصلوه بادر الاغريق الى صدهم وللحيلولة دون عبورهم له ، لكنهم أخفقوا وتمكن الحجاج بعد جهد من اجلائهم بقوة السلاح ، وهكذا عبره الحجاج ، وعندما وصلوا الى أطراف المدينة نصب سادة القوم خيمهم أمام قصر بلاشرين الخاص بالامبراطور والقائم عند رأس المدينة.

٧٥ ـ وكان بحوزة دوج البندقية معدات هائلة على درجة عالية من الدقة ، فقد أخذ صواري مثل التي تحمل قلوع السفن طول كل منها مائة وثمانين قدما أو أكثر ، وشدها الى بعضها شدا محكما ثم ربطها الى صواري السفن بحبال متينة ثم أمر بمد جسور فوقها تكون قوية متوازنة ، جاءت من خشب الصنوبر ، ووضع أعمدة على امتداد الحبال ، وجاءت الجسور واسعة جدا بحيث يمكن لثلاثة من الفرسان السير عليها معا ، وصنع الدوج سواتر واقية لجوانب هذه الجسور غطاها بالجلود المدبوغة واللبد ، وبذلك بات الذين يسيرون عليها لا يخشون الأذى من رمايات النشاب وغير ذلك من المقذوفات

ومدت الجسور من أطراف السفن حتى الأرض ، حتى كان ما بين كل جسر والأرض قرابة مائتان واربعون قدما أو أكثر ، يضاف الى هذا وضع الدوج على كل مركب من مراكب الحمولة منجنيقا تبلغ رماياته الاسوار وداخل المدينة أيضا .

وفي الوقت الذي هيأ فيه البنادقة اسطولهم للهجوم حسب الشكل الذي اتينا على وصفه ، قام الحجاج من جانبهم بنصب عراداتهم ومجانيقهم ، بشكل تجعل رماياتها تصل الى قصر الامبراطور ، نصبوها على الأرض ، لأن هجومهم كان بريا ، هذا وكان الذين في داخل المدينة يرمون من جهتهم فتبلغ رماياتهم معسكر الحجاج .

٧٦ ـ وبعد استكمال الاستعدادات اتفق الصليبيون والبنادقة على ان يشرعوا في الهجوم العام في اليوم التالي برا وبحرا ، وعندما اطل الصباح ، شرع البنادقة الذين أعدوا أنفسهم تماما ، بالاقتراب من الاسوار بقدر الامكان استعدادا للهجوم ، وكذلك فعل الحجاج الذين تمركزت قواتهم على الجانب الآخر ، وهنا رأوا الكسيوس امبراطور القسطنطينية يخرج من المدينة عبر باب اسمه الباب الروماني ، وخرج ومعه جميع رجاله وهم شاكوا السلاح ، ونظم الامبراطور قواته خارج الباب وجعلها سبعة عشر فيلقا تعدادهم قرابة المائة الف فارس يمتطون الخيول ، وارسل الامبراطور جل هذه الفيالق لتطويق معسكر الفرنجة ، وترك بعض الفيالق معه ، وكان قد أجبر جميع القادرين على حمل السلاح من سكان المدينة على الخروج ووزعهم حول الأسوار كلها ، وبهذا وقفوا بينها وبين معسكر الفرنجة ، وعندما راى الفرنجة ما حدث وانهم باتوا مطوقين من هذه الفيالق خافوا حتى حد اليأس ، واشتد اساهم ، لكنهم أخذوا يعدون فيالقهم للقتال وكان قد بلغ عددها سبعا فقط ، تكونت من سبعمائة فارس حيث لم يكن لديهم اكثر من هذا العدد ، ولم يكن من هؤلاء السبعمائة سوى خمسين فقط من الرجالة.

وبعدما عبأوا قواتهم حسبما وصفنا ، طلب كونت فلاندرز أن يتولى قيادة الفيلق الأول فأجيب الى طلبه ، وطلب كونت سانت بول ومولاي بيتر الداميانى قيادة الفيلق الثاني وتولى اللورد هنري أخو كونت فلاندر قيادة بقية القوات من الفرنجة والألمان معا ، ثم اتفقوا على ان يزحف الفرسان أولا وأن يسير خلف كل فيلق من فيالق الفرسان عدد من الرجالة من أبناء جلدة الفرسان.

٧٧ ـ وبعدما تم انتقاء ثلاثة فيالق لتتولى الهجوم على جيش الامبراطور ، عهد بقيادة أحد الفيالق الأربعة المتبقية لحراسة المعسكر الى الماركيز بونيفيس دي مونتفرات ، وكان هو القائد العام للجيش وقد وقف في الساقة وتولى أمور الدفاع عن المعسكر من الخلف ، وقاد الفيلق الثاني الكونت لويس ، وتكون الفيلق الثالث من أهل شامبين ، والرابع من البرغنديين ، وكان ـ كما قلنا ـ الماركيز هو القائد الأعلى لهذه الفيالق بوصفه القائد العام للقوات.

٧٨ ـ ثم جاءوا الى الفتيان الذين يتولون العناية بالخيول والى الطباخين القادرين على حمل السلاح ، وجهزوهم بالاغطية والستر وجلوس الدواب والاواني النحاسية وايدي المهاريس والعصي ، وكان منظرهم منظرا بشعا لاتألفه النفس ويخشاه القلب ، ولهذا خاف جمهور رجالة الامبراطور الذين وقفوا امام الاسوار منهم خوفا شديدا ، واستبدبهم الرعب ساعة رؤيتهم لهم .

وتولت الفيالق الاربعة التي ذكرتها لك حراسة المعسكر بدون تباطؤ ، وذلك خوفا من ان تتقدم فيالق الامبراطور التي تطوقهم فتسعى لاقتحام المعسكر والدخول الى الخيم ، وتلحق بها الضار والاذى ، وتمركز الفتيان الذين يسوسون الخيول مع الطباخين في الناحية المواجهة لشطر المدينة حيث وقفت رجالة الامبراطور الذين انتشروا امام الاسوار .

وبعدما راى رجالة الامبراطور رجال العامة منا وقد تعبأوا خير تعبئة ، اعتراهم الخوف الشديد ، واستبد بهم الرعب المميت ، فلم يمتلكوا الجرأة على مبارحة اماكنهم والزحف ضدهم ، وهكذا اطمان معسكرنا من وفود اي خطر عليه من هذا الجانب .

٧٩ ـ ثم صدرت الاوامر ان يقوم كونت فلاندرز وكونت دي سانت بول واللورد هنري ، وهم الذين كانوا يتولون قيادة الفيالق الثلاثة ، بمهاجمة الامبراطور ، وصدرت الاوامر ايضا الى الفيالق الاربعة الاخرى بألا تتحرك من اماكنها مهما كانت حاجة الاخرين اليها ، اللهم الا اذا رات ان وقوفها حيث هي سيؤدي الى هلاكها ، وقد صدرت هذه الاوامر اليها خشية من ان يحال بينها وبين العودة ، او ان تهاجمها الفيالق التي احاطت بالمعسكر .

٨٠ ـ وفي الوقت نفسه عندما كان الفرنجة يتعبأون على هذه الصورة لخوض المعركة لم ينس البنادقة دورهم ، وبما انهم كانوا على سطح البحر فقد اقتربوا من اسوار المدينة حتى التصقت مراكبهم بها ، او كادت ، وهكذا بات بامكانهم الارتقاء اليها بوساطة السلالم والجسور التي اقاموها على سفنهم ، ثم راحوا يرمون ويقذفون القذائف بوساطة المجانيق والعرادات ، وانقضوا على المدينة بهجوم عنيف عاصف حتى انهم توصلوا في النهاية الى طرح النار في المدينة واتى الحريق على شطر كبير منها يعادل في حجمه مدينة اراس ، غير انهم لم يمتلكوا الجراة على التجول بالمدينة والزحف بداخلها ، لانهم كانوا حفنة من الرجال لايمكنهم المقاومة ، ولهذا انسحبوا وعادوا الى سفنهم .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر تمت تعبئة الرجال الذين توجب عليهم القتال إلى جانب الأمبراطور ، بحيث حددت أماكن تمركز ومهام كل واحد من الفيالق ، وجرى اختيار اثنين من أكثر الرجال حنكة ودربة وعهد إليهما بالقيادة والزموا الجنود بطاعتهما تماما فإذا قالا لهم: ازحفوا، زحفوا وإذا قالا: اركضوا، ركضوا .

٨١ ــ ووقف كونت فلاندرز على رأس مقـدمة القـوات ، أي في الطليعة ، وهكذا ركب مسرعا وانقض بكل عنف على الامبـراطور ، الذي كان على بعد ربع فرسخ منه ، والذي أصـدر أوامـره لقـواته بالزحف للتصدي لهجوم كونت فلاندرز .

وزحف كونت دي سانت بول واللورد بيتر الداميانى اللذان قـادا الفيلقين الآخرين بعد كونت فـلاندرز مبـاشرة ، وزحـف بعـدهما مباشرة هنري دي هينولت والالمان الذين كانوا قوام الفيلق الثالث ، والبسـت الخيول الدروع الواقية ثـم غطيت هـذه الدروع بـأقمشة حريرية زاهية ، وسار وراء كل فيلق من الفيالق مبـاشرة ثـلاث أو أربع أو خمس فرق من السير جانتيه والرجالة ، وقـد زحفـوا على شكل ارتال طويلة في صفوف جاور كل مقاتل آخـر ولم يتجـاوزه أو يتجرأ بالتقدم عليه .

وزحف الامبراطور ومعه فيالقه التسـعة كلهـا للتصـدي إلينا ، وكان في كل فيلق مالا يقل عن ثلاثة آلاف فارس ، لابل تألف بعضها من أربعة آلاف ، وبعضها الآخر من خمسة آلاف .

٨٢ ــ وبعدما بات كونت فلاندرز على بعـد قـرابة غلوتين مـن معسكره نبهه مستشاراه إلى ضرورة التمهل وقالا له : لايحسن بـك أن تبتعد كثيرا عن معسكرك لقتال الامبراطور ، إذ لن يكون بمقدور القائمين على حماية المعسكر المبـادرة إلى نجـدتك ، إذا كنت بعيدا جدا عنهم ، واحتجت إلى مساعدتهم ، ونرى أن تصغي لنصـيحتنا وتعود إلى مواقفك ، وتلبث هناك في انتظار الامبراطور وأنت مطمئن إلى اوضاعك إذا أراد قتالك .

وأصغى كونت فلاندرز إلى هذا الرأي وأخذ به فعاد إلى مواقفه ، وكذلك فعل فيلق مولاي هنري ، وأما كونت سانت بول ومعـه بيتـر الداميانى فقد رفضا النكوص ، ومع هذا فقد وقفا مـع قـواتهما في وسط ميدان المعركة .

٨٣ ـ وعندما رأى كونت سانت بول وبيتر الداميانى نكوص كونت فلاندرز قال بعضهم لبعض : لقد اقترف كونت فلاندرز إثما كبيرا بنكوصه وجلله العار ، لأنه هو الذي تعهد بقيادة المقدمة وأن يكون على راس الطلائع ، ثم قالوا : ايها السادة إن كونت فلاندرز قد انتكص وهو بعمله هذا قد تخلى لكم عن مقدمة الجيش ، فلنأخذ مكانه باسم الرب ، وهكذا اتفق هؤلاء البارونات على أن يتولوا قيادة المقدمة والوقوف بالطليعة .

٨٤ ـ ولما رأى كونت فلاندرز رفض كونت سانت بول والكونت الداميانى التقهقر بعث إليهما برسالة مع واحد من رجاله ، وحثهما على التقهقر ، فرد عليه مولاي بيتر الداميانى بالرفض وقال إنه لن يتراجع ، ومجددا بعث إليه كونت فلاندرز برسولين للغرض ذاته والتمس منه باسم الرب التراجع والا يجللهم العار ، فقد عاد هو نزولا على النصائح التي اسديت إليه ، وعليه ان يكون مثله ، فرد الداميانى مجددا ومعه كونت سانت بول بالرفض ، وتشبثا بموقفهما.

٨٥ ـ ثم التفت مولاي بيتر الداميانى ومولاي يوستاس دي كانتلو نحو قوات فيلقهما وقالا : أيها السادة اركبوا الآن ، وتقدموا باسم الرب ، ولنسرع جميعا ، وشرعا بالتقدم بكل سرعة ، وعند ذلك أخذ الذين بقيوا من الجيش وقوفا بالصياح والصراخ : انظروا ، انظروا ، هاهو كونت سانت بول وبيتر الداميانى متوجهان لمهاجمة الامبراطور ، ولهذا شرعوا في البكاء والانتحاب والصراخ قائلين : « مولانا الرب احفظهما اليوم ومن معهما جميعا . انظروا لقد توليا الطليعة التي كانت قيادتها إلى كونت فلاندرز ، فرد الجميع يامولانا سالمين » .

٨٦ ـ ومن داخل القصر الامبراطوري وقفت سيدات القصر وفتياته أمام النوافذ يرقبن المعركة التي تدور رحاها أمامهن ، وكذلك اعتلت نساء وفتيات أهل المدينة الأسوار وفعلن الشيء نفسه ، وبينما رأين الامبراطور من جانب المدينة ، أبدين إعجابهن برجالنا

وكن يقلن بعضهن لبعض : هؤلاء الرجال يشبهون الملائكة ، لهم جمال وبهاء وأسلحة بديعة وجياد مجهزة خير جهاز .

٨٧ – وحين رأى فرسان فيلق كونت فلاندرز إصرار كونت سانت بول وبيتر الداميانى على عدم العودة وتشبثهما بموقفهما مهما كانت العواقب توجهوا نحو مقدمهم كونت فلاندرز وخاطبوه قائلين : يامولانا لقد اقترفت ذنبا عظيما بعدم تقدمك ، وإننا نعلمك أننا لم نعد أنفسنا نرتبط بك ، وسنهجرك إن لم تبادر إلى الهجوم الآن .

ولدى سماع الكونت لهذا التهديد لوى عنق فرسه وتحرك مسرعا ، وقلده الباقون وزحفوا مسرعين حتى أدركوا قوات كونت سانت بول وبيتر الداميانى ، وعندما وصلوا إليهم اتحدوا وساروا جبهة واحدة ، وسار وراءهم اللورد هنري ومعه قواته .

وما لبثت قوات الأمبراطور وقواتنا أن باتت قريبة بعضها من بعض حتى درجة التلاحم ، إلى حد أن رماة السهام في جيش الأمبراطور كانوا يرمون وهم في وسط رجالنا وكذلك فعل رماتنا حيث كانوا يرمون وهم قيام وسط رجال الأمبراطور .

٨٨ – وكان هناك تل صغير فصل بين قوات الأمبراطور وقواتنا ، وعندما شرعت قوات الأمبراطور في ارتقاء هذا التل من الجهة التي واجهتهم ، صعدت قواتنا بدورها الجهة المقابلة لهم ، وعندما رآهم الأمبراطور توقف هو وجميع رجاله ، فقد ضربهم الهلع وسيطر عليهم الغم وشعروا بالاحباط لرؤيتهم قواتنا زاحفة من أعلى التل نحوهم ، وحاروا ولم يعودوا يعرفون مايفعلون ، وفيما هم لحيرتهم وخوفهم ، قامت بقية قوات الأمبراطور التي كانت قد أرسلت لتطويق المعسكر بالانسحاب من مواقعها لتنضم إلى قوات الأمبراطور التي وقفت عند سفح التل .

٨٩ – ولدى مشاهدة الفرنجة لتجمع قوات الأمبراطور

واحتشادها في مكان واحد ، تريثوا عند القمة وهم يتساءلون عما سيفعله الامبراطور ، وتراسل قادة الفيالق الثلاثة ومقدموا التشكيلات وتشاوروا حول ماينبغي عليهم القيام به : هل يتقدمون لمقاتلة جيش الامبراطور أم يمتنعون عن ذلك ؟ واتفقوا أخيرا على عدم التقدم لانهم باتوا بعيدين جدا عن معسكرهم ، وإذا ما هاجموا الامبراطور حيث هو لم يعد بمقدور المتولون لحراسة المعسكر رؤيتهم وإنجادهم إذا اقتضى الحال ذلك ، زد على هذا قام بينهم وبين الامبراطور مجرى ماء كان عبارة عن قناة كبيرة جرى فيها الماء الذي كان يغذي القسطنطينية ، وقد وجدوا أنفسهم أنهم إذا ماغامروا بعبور هذه القناة فسيتكبدون خسائر كبيرة في قواتهم ، ولهذا كله عزموا على عدم متابعة الزحف .

وفيما كان الفرنجة يتداولون فيما بينهم حول هذه الشؤون ، إذا بهم يرون الامبراطور وقد انسحب وقواته عائدا إلى القسطنطينية حيث تلقته نساء المدينة وفتياتها بأقذع السباب والشتائم ، وسخر منه الجميع ووجهوا إليه اللوم لتقاعسه عن الالتحام بجيش الفرنجة الصغير لاسيما وتحت تصرفه هذا الجيش العملاق .

٩٠ ـ وبعدما انكفأ الأمبراطور وتراجع على هذه الصورة ، عاد الحجاج نحو معسكرهم ، ووضعوا أسلحتهم جانبا ، وعند ذلك وصل إليهم البنادقة في سفنهم ومراكبهم ليستوضحوا منهم جلية الحال وقالوا لهم : في الحقيقة سمعنا أنكم كنتم تقاتلون الاغريق ، وكنا نحن في خوف شديد عليكم ، لهذا جئنا لتقديم العون إليكم .

فأجابهم الفرنجة : لقد قمنا بما توجب علينا ، ونحمد الرب أن وفقنا بالنهوض لحرب الأمبراطور ، غير أنه تقاعس وجبن عن الالتحام معنا ، ثم سألهم الفرنجة بدورهم عن آخر أخبارهم فأعلموهم قائلين : في الحقيقة شننا هجوما عنيفا جدا على المدينة واقتحمناها من فوق أسوارها واضرمنا النيران فيها ، وقد أكلت النيران شطرا كبيرا منها .

وفيما كان الفرنجة والبنادقة يتبادلون أحاديثهم هذه إذا بهم يسمعون أصوات ضجة هائلة صدرت من داخل المدينة ، ومرد ذلك أن سكان المدينة طالبوا الامبراطور ببذل جهده بدون تقاعس لتخليصهم من الفرنجة الذين شددوا عليهم الخناق ، وتهددوه — إن هو أحجم أو تقاعس عن قتالهم — بأن يرسلوا وراء الشاب الذي جاء به الفرنجة ويتوجوه إمبراطورا عليهم ويوكلون إليه شؤون حكمهم .

وبعدما أصغى الامبراطور إلى مطالبهم ، تعهد لهم بأنه سوف يقاتل الفرنجة في الغد ، لكن الذي حدث هو انه عندما أوشك الليل على الانتصاف هرب من المدينة واصطحب معه من قدر على اصطحابه من حاشيته .

٩١ — ومع حلول صباح اليوم التالي ، عرف أهل المدينة بأن الامبراطور قد هرب ، وهنا لم يجدوا أمامهم من مخرج سوى التوجه إلى أبوابها وفتحها ، ثم قصدوا معسكر الفرنجة بحثا عن الكسيوس بن اسحق للاجتماع به ، فعرفوا من أهل المعسكر أنه موجود في سرادق الماركيز ، ولدى وصولهم إليه وجدوه هناك ، فسلموا عليه ورحبوا به غاية الترحيب وأبدوا سرورهم بوجوده وقدموا الشكر للبارونات ، وعبروا لهم عن امتنانهم تجاه ماقاموا به وما تجشموه من مشاق ، وبينوا لهم أنهم انجزوا عملا جليلا جديرا بالثناء والتشريف ، ثم أعلموهم بفرار الأمبراطور ، وأن بإمكان الصليبيين الدخول إلى المدينة والقصور والتصرف بها كما لو كانت ملكا لهم .

٩٢ — وبناء عليه احتشد بارونات الجيش وقادته ، وحملوا الكسيوس بن اسحق وتوجهوا به إلى القصر وسط موكب رائع وسرور هائل ، وبعد الوصول إلى القصر أخرجوا والده اسحق من السجن وأخرجوا أيضا زوجته ، واسحق هذا هو الامبراطور الذي اعتقله أخوه وصار إمبراطورا مكانه .

وبعدما أفرج اسحق من السجن فرح كثيرا بابنه ، وشعر بالغبطة والسعادة ، وراح يقبله ويعانقه ، وأشاد بجهود البارونات وشكرهم عظيم الشكر ، وخص بذلك الذين كانوا حضورا انذاك ، وقال إن الفضل في إطلاق سراحه يعود إلى الرب أولا ثم إليهم ثانيا ، ثم تم إحضار عرشين مذهبين جلس اسحق على واحد منهما وجلس ابنه الكسيوس إلى جواره على الثاني ، وقد احتل اسحق العرش الاساس .

وبعدما عاد إلى عرشه الامبراطور قيل لاسحق : يوجد بالسجن هنا رجل كبير اسمه مرزوفلوس ، هو في هذا السجن منذ سبع سنوات كاملة ، وإذا تفضلت فمننت عليه بإطلاق سراحه ، واستجاب الامبراطور اسحق ، وامر بإخراج مرزوفلوس من السجن واصطنعه لنفسه بجعله كبير نوابه ، غير أن الامبراطور اسحق لقي منه أسوأ الجزاء ، وبادره بالشر لقاء كرمه نحوه كما سنحكي ونروي لك فيما يلي .

٩٣ ـ بعدما فرغ الفرنجة من هذه الاعمال وانجزوا ما أنجزوه سمع سلطان قونية بما صنعه الفرنجة ، ولهذا قدم إلى محادثتهم ، وهم مايزالون في معسكرهم خارج القسطنطينية وقال لهم : أيها السادة ، لقد انجزتم في الحقيقة إنجازا رائعا ، وقمتم بالفعل بعمل من أعمال البطولة الباهرة ، حين تمكنتم من الاستيلاء على القسطنطينية ، وهي مدينة منيعة جدا لاترام ، ثم هي حاضرة الدنيا ، وأيضا حين ارجعتم العرش إلى صاحبه الشرعي ، وتوجتم وريث القسطنطينية امبراطورا ، هذا واعتاد الناس هناك على القول ان القسطنطينية هي حاضرة الدنيا .

ثم استطرد سلطان قونية يقول : « ايها السادة ، ان لديَّ قضية اريد طرحها عليكم ، وخلاصة الامر ان اخا لي صغير تسلح بالخيانة وغدر بي فانتزع مني بلادي وامارتي في قونية التي كنت احكمها وكنت صاحبها الشرعي ، فاذا قدمتم لي العون على استردادها ،

وتمكنت من العودة الى سلطاني وامارتي بمساعدتكم وهبتكم الكثير من الثروات ، وعمدت نفسي مسيحيا ، وكذلك الذين حولي جميعا .

واجابه البارونات انهم سيتداولون الامر فيما بينهم ، ثم استدعوا دوج البندقية والماركيز وسائر كبار البارونات ، وعقدوا اجتماعا موسعا ، وبعد مداولات توصلوا اخيرا الى الاتفاق باجماع على عدم تلبية طلب السلطان ، وهكذا اعلموه بعد خروجهم من الاجتماع انهم غير قادرين على تلبية طلبه والذهاب معه ، فهم مازالوا ينتظرون تسلم المكافاة من الامبراطور ، ثم من غير الحكمة مغادرة القسطنطينية الان ، لان الامور فيها لم تستقر بعد ، ومادامت الحالة على هذا المنوال لن يتحركوا من مكانهم ولن يغادروا القسطنطينية ، وانزعج السلطان لدى سماعه هذا الجواب وغضب منهم غضبا شديدا ثم غادر معسكرهم .

٩٤ ـ وكان عندما حمل البارونات الكسيوس الى القصر ، سالوا عما اذا كانت اخت ملك فرنسا ، التي كانت زوجة الامبراطور الفرنسية ، ماتزال على قيد الحياة ، وجاءهم الجواب بالايجاب ، وانها تزوجت من رجل من كبار اعيان المدينة اسمه براناس ، وتعيش في قصر يقع على مقربة منهم ، فتوجه البارونات نحوها للاجتماع بها وتقديم التحيات والولاء ، غير انها لاقتهم بفتور شديد ، وكانت حانقة عليهم حنقا شديدا ، لانهم قاموا بتتويج هذا المدعو الكسيوس ، وابدت عدم رغبة بالحديث اليهم ، وكلمتهم من وراء حجاب بواسطة رجل كان ينقل كلامها اليهم ، وقال المتحدث عنها انها لاتعرف احدا من الفرنسيين على الاطلاق ، ولكن ابن عمها الكونت لويس عرفها بنفسه .

٩٥ ـ وفي احد الايام قصد البارونات القصر الامبراطوري للتسلية ورؤية اسحق وابنه الامبراطور ، وفيما هم جلوس في القصر جاء احد الملوك ، وكان اسود البشرة قد وشم جبينه بشارة الصليب بوساطة الحديد المحمي ، وكان هذا الملك يعيش في دير داخل المدينة

كان عظيم الثراء ، كان الامبراطور السالف الكيسوس قد اسكنه فيه ، وخوله التصرف بهذا الدير وبتملكه مادام يمتلك الرغبة بالاقامة به ، وعندما سمع الامبراطور انه مقبل نحوه ، بادر لتلقيه والترحيب به بكل حرارة ، ثم التفت الامبراطور نحو البارونات وسالهم : هل تعرفون هذا الرجل ؟ فاجابوه بالنفي كلا لانعرفه يامولانا ، فقال الامبراطور : انه ملك النوبة ، وقد قدم الى هذه المدينة للحج .

ثم جيء بمترجم ليترجم بينهم وبينه : فسالوه عن موقع بلاده ، فاجابهم بانها تبعد عن مدينة القدس مسيرة مسافة يوم ، وانه غادر بلاده متوجها نحو القدس بقصد الحج ، وبين انه كان برفقته وقت مغادرته لبلاده ستونا من ابناء قومه ، لم يبق منهم على قيد الحياة إلا اثنان فقط ، واعلمهم ان بنيته السفر الى روما بقصد الحج وانه سيذهب منها الى مزار القديس جيمس ، ومن ثم سيعود - ان ظل حيا - الى القدس ليقيم هناك حتى توافيه المنية .

٩٦ - وتحدث هذا الملك ايضا ان سائر سكان بلده نصارى ، وان من عاداتهم اذا ولد لاحدهم طفل ، يأتون بعد تعميده بكي من الحديد المحمي بالنار ويرسمون على جبهته شارة الصليب كالتي يرونها على جبهته ، وحدق البارونات بهذا الملك وقد عرتهم الدهشة واستولى عليهم العجب .

٩٧ - وكان البارونات بعدما قاموا بتتويج الكسيوس امبراطورا - حسبما اوضحت من قبل - اتفقوا على ان يقيم معه بالقصر بيتر دي براشو مع رجاله ، واتفق البارونات ايضا على عدم الاقامة في المدينة خوفا من غدر الاغريق ووقع اختيارهم على جعل معسكرهم عبر الميناء وراء برج غلاطية ، وقد وجدوا في تلك الناحية ما يكفيهم من مساكن في بيوت خاصة ، ووضعوا سفنهم على الشاطيء امامهم ، وكانوا يذهبون الى المدينة في الوقت الذي يريدون ، اما بحرا بوساطة القوارب ، او برا على ظهور الخيل عبر الجسر .

٩٨ ـ وبعدما شعر الفرنجة بالاستقرار ، قرروا فيما بينهم هدم ثلاثمائة قدم من اسوار القسطنطينية خوفا من انقلاب سكانها ضدهم .

٩٩ ـ ثم عقد البارونات اجتماعا بالقصر الامبراطوري ، وبعد ذلك طالبوا الامبراطور بدفع اجورهم ، فاجابهم انه سيفعل ذلك ، لكنه يريد اولا ان يتوج بشكل رسمي ، ولذلك تم تحديد يوم التتويج ، وجرى التتويج في اليوم المحدد وسط احتفال رسمي عظيم ، ونصبوه امبراطورا ، وكان ذلك بموافقة ابيه ورضاه التام ، وبعد الفراغ من عملية التتويج عاد البارونات اليه للمطالبة باجورهم ، فاجابهم انه على استعداد لدفع كل ما هو متوفر له ، وبالفعل اعطاهم مائة الف مارك ، اخذ البنادقة نصفها وذلك جريا على قاعدة الاتفاق بشان اقتسام الغنائم ، ثم اقتطعوا من الخمسين الف الاخرى مبلغ ستة وثلاثين الف دفعها لهم الصليبيون لانهم كانوا مدانين بهذا المبلغ لقاء نقلهم بحرا ، وقام الحجاج بعد ذلك بسداد ما عليهم من ديون فردية للذين اسلفوهم لدفع اجور النقل ، وذلك من مبلغ الاربعة عشر الف مارك التي بقيت لهم .

١٠٠ ـ ثم طلب الامبراطور من البارونات الاجتماع به واعلمهم انه لايملك بالفعل غير القسطنطينية ، ومردود هذه المدينة ليس بالكبير ، وهي ليست هامة جدا بالنسبة له » •

لان عمه كان مسيطرا على جميع المدن الأخرى والقلاع التي من المتوجب أن تكون في يده هو بالذات ، وبناء عليه طلب منهم مساعدته في الاستيلاء على بعض المناطق القريبة ، وأعلمهم أنه سيدفع لهم من الثروات أكثر مما هو مقرر لهم ، ورحبوا بهذا العرض ترحيبا كبيرا ، وأعلنوا وسط الجيش من أراد الربح فليستعد للزحف ، وبالفعل زحف مع الكسيوس أكثر من نصف الجيش ، ومكث البقية بالقسطنطينية لاستلام الأجور ، وبقي اسحق بالقصر ليدفع للبارونات أجورهم المستحقة •

وفرج الكسيوس وبرفقته جيشه كله ، فاستطاع الاستيلاء على عشرين بلدة واكثر من اربعين قلعة ، وفر عمه الكسيوس الامبراطور الآخر من امامه ، واستغرقت هذه الأعمال ثلاثة أشهر ظلت قوات الفرنجة خلالها مع الامبراطور الكسيوس .

وفي أثناء هذه الفترة ، وبينما الكسيوس خارج القسطنطينية أعاد اهل المدينة بناء ما هدمه الفرنجة من سورها وزادوه حتى مناعة وارتفاعا ، وكنا قد ذكرنا أن الفرنجة قد هدموا ثلاثمائة قدم من سور المدينة حتى الأرض خوفا من غدر الاغريق بهم .

١٠١ ـ وعندما رأى البارونات الذين مكثوا بالمدينة لتسلم الاجور ، أن اسحق يرفض أن يدفع اليهم شيئا من استحقاقاتهم ، بعثوا الى بقية البارونات الذين صحبوا الكسيوس يطلبون منهم العودة لأن اسحق لم يدفع لهم شيئا من الأجور ، وأوصوهم أن يجعلوا عودتهم قبل عيد جميع القديسين ، وبعدما سمع البارونات بهذه الأخبار اعلموا الامبراطور أنهم آيبون الى القسطنطينية ، وعندما اطلع على ذلك منهم ، أعلمهم أنه سيعود معهم إن عادوا ، لأنه لا يستطيع الوثوق برجاله الأغريق ، وهكذا عاد الجميع الى القسطنطينية ، فتوجه الامبراطور الى قصره ، وقصد الحجاج مقر سكناهم حيث معسكرهم عبر الميناء .

وبعد هذا اجتمع البارونات وكبار القادة والدوج مع الامبراطور ، وطالبه الفرنجة بأجورهم فأجابهم بأنه انفق كثيرا من الأموال أثناء استرداد مدنه وعلى رجاله ، وأنه بات لا يمتلك شيئا حتى يدفعه لهم ، غير أنهم إن أمهلوه بعض الوقت فسوف يتدبر الأمور ويجد الوسائل التي تمكنه من دفع ما خصصهم من أموال ، فاستجابوا لطلبه ، ومع هذا مر الوقت دون أن يدفع شيئا فطالبه البارونات مجددا بأجورهم ، فرجاهم امهاله مجددا ففعلوا وأمهلوه من جديد .

١٠٢ ـ وجاءه في تلك الأثناء رجال حاشيته وأعوانه بما فيهم

مرزوفلوس ـ الذي كان قد أخرجه من السجن ، وقالوا له : يا مولانا لقد دفعت لهم حتى الآن مبالغ كبيرة من الاموال ، وان الأوان للامساك ، فضخامة ما دفعته قد حملتك على رهن كل شيء ، ونرجو أن تأمرهم الآن بالرحيل والخروج من أرضك ، وأخذ ألكسيوس بهذه المشورة وبات غير راغب بدفع المزيد من المال الذي سبق ودفعه لهم .

وكان الفرنجة قد أعطوه مهلة نهائية للدفع ، وعندما رأوه لا يريد أن يدفع لهم المزيد من المال ، تداعى البارونات وكبار القادة للاجتماع والتداول ، وإثر هذا ذهبوا الى الامبراطور في قصره وطالبوه مجددا بدفع أجورهم ، فأجابهم بالرفض وبين أن ليس بامكانه أن يدفع لهم شيئا ، كما أنه ليس بنيته دفع المزيد ، فتهدده البارونات أنه اذا استمر في سياسته هذه بعدم الدفع ولم يقض دينه نحوهم فسيستولون على قسم من ممتلكاته مقابل الوفاء بأجورهم .

١٠٤ ـ وبعدما وجه البارونات هذا الانذار الى الامبراطور غادروا القصر وعادوا الى معسكرهم ، وإثر ذلك تدارسوا تفاصيل خطة رأوا اتخاذها ، لكنهم آثروا توجيه انذار أخير الى الامبراطور ، فأرسلوا له فارسين ليطالباه مجددا بدفع أجورهم ، فكان جواب الامبراطور أنه لن يدفع لهم شيئا أبدا ، وعليهم الرحيل فورا ومغادرة بلده بدون تقاعس ، واذا لم يفعلوا ذلك فسيرغمهم على فعله .

١٠٥ ـ وعاد الفارسان الرسولان الى المعسكر وأطلعا البارونات والقادة على جواب الامبراطور ، ومن جديد شرعوا بعد سماع هذا الجواب بالتداول حول الخطوة التالية ، وهنا انبعث دوج البندقية وأعلمهم أنه سيذهب للحديث معه ، وبناء عليه بعث الى الامبراطور رسالة وطلب منه الحضور الى قرب الميناء والتحدث اليه ، وجاء الامبراطور ممتطيا صهوة جواده ، وكان الدوج قد هيأ أربعة مراكب شحنها بالرجال ، ركب هو في واحد منها وكلف الثلاثة

بحراسته ثم تقدم نحو الساحل لمخاطبة ألكسيوس ، وقد ناداه وقال له : يا ألكسيوس ما الذي قصدته بكلامك ، هلا تذكرت كيف نشلناك من الشقاء المقيم ، وكيف جعلناك سيدا وحاكما ، وتوجناك امبراطورا ، فهلا تمسكت بوعودك ووفيت بعهودك وتابعت تنفيذ المتبقي عليك ؟

فأجابه الامبراطور ، ما فعلته فيه الكفاية ولن أفعل المزيد ولن أدفع شيئا .

فرد عليه الدوج : و تقول أنت هذا أيها الفتى الغرير التعس ، تقول لنا نحن الذين انتشلناك من هاوية التعاسة ، تأكد أننا سنردك اليها ثانية ، وانني متحديك ومنذرك بالوقت نفسه ، واعلم علم اليقين أنني سألحق بك من هذه الساعة فصاعدا كل ما بامكاني من الأذى .

١٠٦ ـ وبعدما فرغ الدوج من مخاطبته هكذا ، تركه وعاد الى حيث اجتمع مع البارونات وكبار قادة الجيش ورجالات البنادقة للتداول فيما بينهم والاتفاق حول ما سيقومون به ، وتبين للبنادقة أن برودة الطقس تحول بينهم وبين نصب سلالمهم وجسورهم ومجانيقهم فوق السفن ، فقد كان الموسم ما بين عيد جميع القديسين وعيد الميلاد .

وفيما هم في أزمتهم الخانقة هذه قام الامبراطور ورجاله الغدارون بحبك عمل خياني كبير ، حيث سحبوا عددا من المراكب الى المدينة أثناء الليل ، ثم شحنوها بالأخشاب الجافة تماما وصبوا عليها الزيوت ثم أنزلوها الى الماء وأوقدوا فيها النيران ، ومع منتصف الليل ـ وكانت هناك ريح عاصفة ـ سرح الأغريق السفن الملتهبة ودفعوها باتجاه الأسطول الفرنجي ، وبالفعل ساقت الريح هذه المراكب بشدة نحو هذا الأسطول .

ولاحظ البنادقة ما يجري بالوقت المناسب ، فبادروا فورا الى

تحريك سفنهم جميعا ، وابتعدوا بها فكان أن حققوا بذلك نجاحا باهرا ، ونجا الأسطول الفرنجي ، وبرحمة من الرب لم يصب بأدنى أذى .

١٠٧ ـ وعاود الأغريق عملهم هذا بعد اسبوعين ، ومجددا ما أن شاهدهم البنادقة حتى بادروا للدفاع عن أسطولهم ، وحالوا دون امتداد النيران اليه ، وبرحمة من الرب لم يصب البنادقة بخسارة تعتبر سوى أن النيران أصابت سفينة تجارية كانت راسية هناك فأحرقتها تماما .

١٠٨ ـ وتفشى في هذا الوقت الغلاء وانتشر في المعسكر حتى بات سعر زجاجة الخمر الواحدة اثنتي عشرة سوسية ، وبيعت البيضة ببنسين والدجاجة بعشرين سوسية ، ومع هذا لم يكن هناك شح بالخبز ، بل توفر بما كفى حاجة الجيش لفترة من الزمن .

١٠٩ ـ وفي أثناء ذلك الشتاء قام أهل القسطنطينية بتقوية دفاعات المدينة وبذلوا كل امكاناتهم في هذا السبيل ، فزادوا من ارتفاع أسوارهم وأبراجهم عما كانت عليه ، وشيدوا أبراجا من الخشب أقاموها فوق هذه الأبراج الحجرية ، وغطوها بألواح متينة وباللبد والجلود المدبوغة ، وبذلك لم يعودوا يخشون من سلالم سفن البنادقة ، فقد بات ارتفاع الأسوار ستين قدما ، وتجاوز ارتفاع الأبراج المائة ، ونشروا على الأسوار الفصيلة داخل البلد أربعين عرادة ومنجنيق ، وأقاموها في النقاط التي توقعوا أن تتعرض للهجوم ، وليس مدهشا انجازهم لهذا كله فقد امتلكوا ما يكفي من الوقت للقيام به .

١١٠ ـ وفيما هذه الاجراءات والاستعدادات تجري بدون تلكؤ ، اجتمع مرزوفلوس ـ وهو الذي كان الامبراطور قد حرره من السجن ـ بجماعات الأغريق الذين كانوا يبغضون الامبراطور ، وراحوا يحيكون مؤامرة للاطاحة به والتخلص منه وإقامة امبراطور

جديد مكانه يخلصهم من الفرنجة الذين جاء بهـم ، ورأى هؤلاء أن الامبراطور الكسيوس هـو سـبب البلاء وأنه ليس بقـادر على دفعه ، وقال لهم مرزوفلوس : لو عهدتم بـالامر الي ونصـبتموني امبراطورا فلسوف أخلصكم من الفـرنجة ومـن هـذا الامبـراطور وأنهى معاناتكم ، فأجابوه بأنهم سوف يتوجوه امبـراطورا بعـدما يخلصهم من الفرنجة والامبراطور ، وبناء عليه تعهد لهم مرزوفلوس أنه سوف يخرج بهم من هذه الضائقة خلال اسـبوع واحـد ، وبناء عليه تعهدوا بتتويجه امبراطورا .

١١١ـ ولم يضع مرزوفلوس الوقت ، بـل قـاد مجمـوعة مـن الجند ، واقتحم بهم ليلا جناح الامبراطور ، مولاه الامبراطور الذي حرره من السجن ، فاعتقله وأمر بوضع حبل حول عنقـه وعنق ابيه اسحق وشنقهما معا ، وبعدما مـافرغ مـن عمله هـذا ذهـب الى شركائه بالمؤامرة فأخبرهم بما أنجـز ، فقـاموا معـه وتـوجوه امبراطورا عليهم .

١١٢ـ وماأن توج مرزوفلوس امبراطورا حتى دوت صرخة عالية في المدينة :« انظروا ماذا حدث ، اغتال مرزوفلوس مولاه ، وتـوج نفسه امبراطورا » ثم ربط أحدهم رسالة الى نشابه ورماها بقوسه الى داخل معسكر الحجاج فيها خبر مافعله مرزوفلوس ، وعندمـا وقف البارونات على الخبر وتيقنوا من صحته قال بعضهم : لتحـل لعنة الرب على الذي يبالي بما حدث لالكسيوس أو يهتم بـه حيا أو ميتا ، وطبعا قالوا هذا لأن الكسيوس لم يف بعهده للحجاج ، هذا وقال بعضهم الآخر : ان مسؤولية ماحدث لالكسـيوس تقـع على عاتقهم .

١١٣ـ ومالبث مرزوفلوس أن بعث بـرسالة الى كونت فـلاندرز وكونت لويس والى الماركيز وبقية البارونات وكبار القادة ، أمـرهم فيها بالرحيل فورا ومغادرة أرض بلاده ، وأعلمهم أنه قد بات هو الامبراطور ، وأنذرهم بأنه سوف يفتك بهم ويقتلهـم جميعـا إن لم

يرحلوا خلال اسبوع من يومهم ذاك ، وعندما وقف البارونات على رسالة مرزوفلوس هذه دهشوا وقالوا : عجبا كيف يتجرأ هذا الذي غدر بمولاه وقتله خيانة تحت جنح الظلام أن يرسل الينا مثل هذه الرسالة ؟! فما كان منهم الا أن كتبوا اليه رسالة أنبوه فيها وأعلموه أنهم يتحدونه ، وتهددوه أنهم لن يرحلوا ، وسيشددون الحصار على المدينة ، وسيثأرون لاغتيال ألكسيوس ممن غدر به ، وأنهم سيستولون على القسطنطينية مجددا وعندها سيحصلون على أجورهم كاملة غير ناقصة حسب الاتفاق مع الكسيوس .

١١٤ـ وبعدما قرأ مرزوفلوس هذه الرسالة ، وجه أوامره الى أهل المدينة بضرورة زيادة تحصينات الأسوار والأبراج قوة بتجهيزها بالمجانيق والعرادات حتى يمكن صد هجوم الفرنجة اذا قام ، فنفذوا ماأمرهم به ، وبذلك غدت الأسوار والأبراج أقوى مما كانت عليه من قبل وأشد منعة .

١١٥ـ وفي تلك الآونة التي تسلم فيها مرزوفلوس عرش الامبراطورية ، ازداد ضيق حال الفرنجة ، وكما ذكرت من قبل تعاظم شح المواد ، ومع هذا كانوا يعدون سفنهم ومعداتهم وأنفسهم للهجوم ، وفيما هم كذلك وصلتهم رسالة من يوحنا صاحب والاشيا ، طلب فيها من البارونات تتويجه ملكا على والاشيا ، ووعدهم أنهم اذا فعلوا ذلك سيضع مملكته واراضيه تحت تصرفهم ، وأنه سيأتي لنجدتهم والوقوف الى جانبهم على راس مائة ألف جندي ، وسيعمل معهم في سبيل الاستيلاء على القسطنطينية .

١١٦ـ وكانت والاشيا من الأراضي التابعة للامبراطور ، وكان يوحنا بالأصل جنديا من جنود الامبراطور ثم تولى رعاية واحد من مراعي الخيول الامبراطورية ، بحيث كان اذا طلب منه الامبراطور ستين فرسا أو مائة بعث بها اليه ، واعتاد على أن يزور البلاط كل سنة مرة وذلك حتى ساعت علاقته به ، ونجم ذلك عن اهانة كبيرة تلقاها في القصر ، فقد حدث في أيام زيارته الأخيرة أن اقترف أحد

خصيان الامبراطور بحقه جرما كبيرا حين ضربة بالسوط على وجهه ، ولهذا غضب يوحنا غضبا شديدا ، وشعر بالمرارة لذلك ترك القصر وتخلى عن خدمة الامبراطور ، غضبا لنفسه للاهانة التي لحقته ، وعاد الى والاشيا وهي بلاد حصينة تحيط بها الجبال من كل جانب الى حد أنه لايستطيع أحد الدخول اليها أو الخروج منها الا عبر ممر ضيق .

١١٧- وعندما حل يوحنا في بلاد والاشيا سعى الى ضم كبار رجالاتها اليه ، وسلك مسلك الزعيم القوي فكان يتألف الناس ويمنحهم الأعطيات ، لذلك سرعان مادانت له تلك البلاد وخضع له سكانها واعترفوا به سيدا عليهم ، فلما تحقق له ذلك ذهب الى جماعات الكومان وسواهم فتحالف معهم فانضموا الى صفوفه ودانوا له بالطاعة .

١١٨- وتقع بلاد الكومان على حدود والاشيا وسأحدثك عن هؤلاء الكومان وأروي لك أخبارهم :

الكومان شعب بدائي الحياة لايعرف الزراعة والفلاحة والحصاد ، ولايقطن أفراده في البيوت أو الأكواخ بل في خيم من اللباد ، وعماد غذائهم اللبن والجبن واللحوم ، ويكثر الذباب والبعوض في معسكراتهم أثناء الصيف كثرة ترغمهم على ملازمة خيمهم فلا يخرجون منها قبل حلول موسم البرد والشتاء ، وفي ذلك الموسم يخرجون من بلادهم للقيام بأعمال الغارة على سواهم .

١١٩- وأنا مخبرك الآن عن أعمالهم :

وامتلك كل واحد من الكومان عددا من الخيول تصل الى عشرة رؤوس أو اثني عشر رأسا ، وهم يحسنون تدريبها ، ويأخذونها معهم في حلهم وترحالهم وفي أوقات غزواتهم ، وأثناء السفر لايتوقفون عن الركض ليلا ونهارا ، ويسرعون حتى أنهم يقطعون في

يوم واحد وليلة واحدة مايعادل مسيرة ستة أيام وأحيانا مسافة سبعة أيام أو حتى ثمانية ، ولايحملون شيئا مما يستولون عليه أثناء زحفهم ، غير أنهم يقومون في مرحلة الاياب بحمل الغنائم وأخذ الاسرى وكل مايجدونه أو يستولون عليه ، ولايحملون السيوف او الأسلحة الأخرى بل يحملون القسي والنشاب والبستهم من جلود الأغنام ، وهم لايعبدون ربا ، بل يكتفون بتقديس أول حيوان يراه أحدهم في الصباح أو يصدفه ، فيعكف على تقديسة طوال يومه أيا كان نوع هذا الحيوان .

.١٢- هؤلاء هم الكومان الذين تحالف معهم يوحنا الوالاشي ، واعتاد أن يغير بهم كل سنة على أراضي الامبراطور ، وكان يتوغل في بعض الأحيان حتى أطراف القسطنطينية ، هذا ولم يمتلك الامبراطور القوة الكافية للتصدي له وكف أذاه .

١٢١- وبعدما استمع البارونات الى عرض يوحنا الوالاشي قالوا لرسله بأنهم سيدرسون طلبة وسيفكرون به ، وبعدما استعرضوه وتدارسوه اتخذوا قرارا خاطئا ، حيث بعثوا اليه انهم لايكترثون به ولاتهمهم مساعدته مطلقا ، وقد سددوا ثمن هذا الخطأ غاليا ، فانتكبوا نكبة مفجعة وعانوا من مأساة مريعة ، وقام يوحنا - وقد أخفق في التعاون معهم - فراسل روما من أجل التتويج فبعث اليه البابا بواحد من الكرادلة توجه ملكا على والاشيا .

.١٢٢- وسأحدثك الآن عن المحنة الشديدةالتي تعرض لها مولاي الكونت هنري - أخي كونت فلاندرز - ففي غمرة تلك الأحداث ، وفيما الفرنجة يشددون الحصار على القسطنطينية ، وجد الكونت هنري أنه وأتباعه باتوا يعانون من الفقر الشديد وأنهم بحاجة ماسة الى المؤن وعدد كبير من الحاجيات ، وقد عرفوا بوجود مدينة اسمها فيليا ، تقع على مقدار عشرة فراسخ من المعسكر ، وكانت مدينة ذات ثراء عظيم وخصب كبير ، وخطط الكونت هنري للاغارة

عليها ، فأعد الاته ، وخرج بالليل متسللا من المعسكر ومعه ثلاثين فارسا مع عدد كبير من الخيالة ، ولم يعلم أحد من أهل المعسكر بخبر خروجهم.

١٢٣ ـ ولما جاء الى هذه المدينة نجح في مهمته وأمضى فيها يوما ، ثم بادر للعودة ، وكان بعض الناس قد رآه وهو في طريقه اليها ، فرفع خبره الى مرزوفلوس ، وما كاد هذا يسمع بهذا الخبر حتى جمع قوة من حوالي ألف رجل مسلح من الخيالة ، وحمل معه أيقونة ثمينة جدا عليها صورة « سيدتنا » ـ والاغريق يدعونها بهذا الاسم أيضا ـ وقد اعتاد الأباطرة على حملها أثناء خروجهم للقتال ، وكانوا يؤمنون بقدرات هذه الايقونة ايمانا عظيما ويعتقدون بكل يقين أن حاملها لا يمكن أن يهزم في القتال أبدا ، ونحن أيضا نؤمن بذلك ، ولكن لأن مرزوفلوس لم يكن له الحق في حملها فقد هزم وخسرها.

وكان الفرنجة قد عجلوا بارسال الغنائم أمامهم الى المعسكر ، وساروا خلفها ، هذا من جانب ومن جانب آخر نصب مرزوفلوس لهم كمينا على طريق عودتهم ، ووضعه على مسافة فرسخ من رجالنا حيث أخفى رجاله وخبأهم فلم يعرف عنهم رجالنا شيئا ، وعندما كانوا عائدين لا يدرون ما هو مبيت لهم خرج عليهم الكمين وأخذ الاغريق يصرخون عليهم لدى مشاهدتهم لهم ، وفوجىء رجالنا ونظروا حولهم فرأوا قوة الاغريق ففزعوا فزعا شديدا ، واخذوا يدعون للرب ولسيدتنا بحرارة ، وتولتهم الحيرة ، وأدهشهم الخوف فما عادوا يدرون ما يفعلون ، وأخيرا قال بعضهم لبعض: نحن إن فررنا لا شك هالكون ، وطالما انه ما من الموت بد ، تعالوا نقاتل فنموت بشرف فهذا أجدر بنا وأفضل من الفرار.

وهكذا توقفوا ورتبوا صفوفهم بسرعة،فأوقفوا ثمانيةمن الرماة الذين كانوا معهم بالصف الأمامي،وفي الوقت نفسه زحف الامبراطور

مرزوفلوس ومعـــه جمـــاعته مـــن الاغريق نحـــوهم وانقض عليهم ، وعندما التحم أخفقوا في الحاق الضرر بهم ولم يتمكنوا مـن ترجيل واحد من الفرنجة ، وعندما التحم الاغريق بهم تخلى الفرنجة عن رماحهم واستلوا سيوفهم وحملوا فؤوسهم وقـاتلوا دفـاعا عن أنفسهم فقتلوا عددا كبيرا منهم .

١٢٥ ـ ولما رأى الاغريق أنهم لم يحققوا شيئا ، بل رجحت كفة الفرنجة عليهـــم ، استـــولى عليهـــم الرعب فنكصـــوا ولاذوا بالفرار ، وطاردهم رجـالنا فقتلوا عددا كبيرا منهـم وأسروا فـئة معتبرة ، وحصلوا على مغانم واسعة ، وظلوا يطاردون الامبراطور مسافة نصف فـرسخ وقـدروا أن يتمـكنوا مـن أسره ، ولما كان مرزوفلوس وأصحابه قد تعجلوا بفـرارهم فقـد وقعـت الايقـونة منهم ، كما ووقعت خوذة الامبراطور وسقط صـولجانه وأيقـونته الشخصية وكانت من الذهب الخالص مرصعة بالجواهر ، لذلك بدت جميلة جدا وثمينة لم تر العين قط مايساويها .

١٢٦ ـ وعندما رأى الفرنجة كل هذا الذي حـدث ، تـوقفوا عن متابعة المطاردة ، وامتـلأت قلوبهـم بـالفرحة ، وحملوا الايقـونة وقدموا بها ونفوسهم كلها بهجة وسرور ، وفيما القتـال كان دائرا وصل خبر الى المعسكر أن بعض الفرنجة قد اشتبكوا مـع الاغريق بالمعركة ، فهب رجال المعسكر الى نجدتهم ، فقد حملوا أسـلحتهم وبادروا مسرعين للوصول الى الكونت هنري ومساعدته ، غير أنهم عندما وصلوا الى هناك وجدوا الاغريق قد لاذوا بالفرار ، ورجـالنا الفرنجة عائدون يحملون الغنائم بما في ذلك الايقونة الثمينة والجميلة كما ذكرت.

١٢٧ ـ وعندما دنا موكبهم من المعسكر خرج من به من الاساقفة ورجـال الاكليروس في مـــوكب مهيب لاســـتقبالهم والتـــرحيب بهم ، واستقبلوا الايقونة بسرور ظاهر ، وبهجة عارمة ، وعهد بها الى أسقف تروي ، حيث كانت هناك كنيســة قـد رممـوها وأدى ،

الأسقف القداس وهلل المصلون للأيقونة تهليلا عظيما ، وقرر البارونات إثر الاستيلاء على الأيقونة تقديمها الى سيتو وإليها حملت فيما بعد .

١٢٨ ـ وبعدما عاد مرزوفلوس الى القسطنطينية حاول خداع أهلها أنه قد انتصر والحق هزيمة كبيرة بالكونت هنري ورجاله ، وبادر بعض الاغريق الى سؤاله : وأين الأيقونة والصولجان ؟ فأجابهم اخرون : كل شيء افرد عن سواه ليخزن في مكان امين ، ويحافظ عليه ، وسرى الخبر بين الناس حتى أنه وصل الى الفرنجة : أن مرزوفلوس قد خدع قومه وأوهمهم أنه انتصر على الفرنجة ، فما كان من الفرنجة إلا أن أعدوا مركبا شحنوه بالرجال ، وحملوا الأيقونة ورفعوها عاليا على ظهر المركب ، ورفعوا الى جوارها الصولجان الامبراطوري ، وجدفوا بهذا المركب جيئة وذهابا عارضين ما فيه أمام الأسوار ، فرأى ذلك من وقف فوق الأسوار وعدد كبير من أهل المدينة حيث أيقنوا أن ما رأوه لم يتعد الصولجان الامبراطوري والأيقونة .

١٢٩ ـ وعندما رأى الاغريق هذا العرض قصدوا مرزوفلوس ، وشرعوا بالنيل منه والاستهزاء به لخداعه وكذبه أنه هزم الفرنجة مع أنه فقد الأيقونة والصولجان الامبراطوري ، وبعدما سمع الامبراطور منهم التقريع حاول أن يلتمس لنفسه المعاذير وقال لهم : لا تحزنوا ولا تيأسوا فلسوف أجعلهم يدفعون الثمن غاليا ، وسأنتقم منهم لذاتي .

١٣٠ ـ ثم عقد بارونات الفرنجة مع البنادقة اجتماعا تداولوا فيه بشأن مصير العرش الامبراطوري بعد الاستيلاء على المدينة ، وبعد مشاورات مطولة توصلوا أخيرا الى الاتفاق على اختيار عشرة من خيرة رجالات جيش الفرنجة وعشرة من أفضل البنادقة ، وأن يعهد لهؤلاء الرجال العشرين بمسألة اختيار الامبراطور المقبل ، وقرروا أن يلتزم الجميع بالقرار الذي سيتخذ

بهذا الصدد ، كما وقرروا بالاجماع أنه إذا جرى اختيار الامبراطور من بين الفرنجة فسيكون البطريرك من البنادقة ، واتفقوا أيضا أن تكون حصة الامبراطور المقبل ربع المدينة ، على أن يتم تقسيم الثلاثة أرباع المتبقية مناصفة بين البنادقة والحجاج ، وأن يعتبر كل شيء بمثابة اقطاع من الامبراطور .

١٣١ ـ وبعدما أبرموا هذه الاتفاقات ، حشدوا جميع أفراد الجيش وجعلوهم يقسمون على الآثار المقدسة وأن يتعهدوا بحمل كل ما سيقع في أيديهم من الأسلاب والمغانم الى المعسكر وذلك من الفضة والذهب والاقمشة وكل ما زاد ثمنه عن خمس سوسيات ، ولم يستثنوا من ذلك سوى الادوات والأطعمة ، كما وتعهدوا بعدم استعمال العنف او القسوة مع أية امرأة والا تجرد من ثيابها ، ومن امسك وهو يفعل ذلك سيكون عقابه القتل ، كما وجعلوهم يتعهدون أيضا بعدم اقتحام اي دير أو كنيسة أو التعرض لأي من رجال الاكليروس بسوء إلا إذا كان ذلك دفاعا عن النفس.

١٣٢ ـ وعندما أنجزوا هذا كله كان عيد الميلاد قد انقضى واقترب موعد الصيام الكبير ، وخلال ذلك كله كان الفرنجة والبنادقة قد أعدوا أنفسهم من جديد وجهزوا أنفسهم ، ومد البنادقة الجسور ثانية على سفنهم ، وصنع الفرنجة بعض الأكباش والآلات المختلفة لدك الأسوار.

١٣٣ ـ وانتزع البنادقة أخشاب البيوت ، وصنعوا منها سواتر لسفنهم فقد ربطوا الالواح الخشبية وضموها الى بعضها ثم غطوها بفروع الكرمة حتى لا تتأثر أو تتحطم بحجارة العرادات والمجانيق .

١٣٤ ـ وقام الاغريق من جانبهم في الداخل بزيادة تحصين مدينتهم أفضل تحصين ، وجللوا الأبراج الخشبية التي أقاموها على قمة الأبراج الحجرية ، باللبد والجلود المدبوغة ، وقد تكون كل برج خشبي مما لا يقل عن خمسة طوابق واحيانا ستة أو سبعة .

١٣٥ ـ وفي واحد من أيام الجمعة ، قبل أحد السعف بقرابة العشرة أيام ، أعد البنادقة والفرنجة سفن الأسطول وحملوها بالمعدات ، وصفوها إلى جانب بعضها وتأهبوا للهجوم العام ، وامتد صف السفن أمام المدينة مقدار فرسخ ، وحمل البنادقة والفرنجة أسلحتهم على خير مايرام .

١٣٦ ـ وكان في داخل المدينة مواجهة حيث قرر الفرنجة الهجوم على المدينة ، رابية ، وكان متيسرا رؤية هذه الرابية من السفن لأنها كانت أعلى من الأسوار ، وعسكر الامبراطور مرزوفلوس الخائن مع رجاله فوق هذه الرابية وعليها نصب خيمته الأرجوانية ، وأحدث زعيق أبواقه وضرب طبوله أصواتا عالية وضجة شديدة ، وكان من غير الصعب بالنسبة للحجاج رؤية الامبراطور مثلما تيسر له رؤية سفن الأسطول .

وعندما اقتربت السفن من الأسوار وأوشكت على القاء مراسيها ، أخذ الحجاج والبنادقة حبالا غليظة وقوية فسحبوا بها سفنهم إلى أقرب ما يمكن من الأسوار ونصب الفرنجة أكباشهم والاتهم المختلفة لدك الأسوار ، وصعد البنادقة فوق جسور سفنهم وهاجموا الأسوار بكل شجاعة ، وكذلك هاجمها الفرنجة بآلاتهم .

١٣٧ ـ وعندما رأى الأغريق الفرنجة يهاجمونهم بهذه الشدة أخذوا يدحرجون كتلا ضخمة من الحجارة ـ أكبر مما يتصوره المرء ـ على آلات الفرنجة فأمكنهم بذلك تحطيمها وتدميرها جميعا وبذلك لم يتجرأ أحد على البقاء داخلها أو تحتها .

١٣٨ ـ ولم يستطع البنادقة من جانبهم أن يصلوا إلى الأسوار ـ أو إلى الأبراج لارتفاعها الشاهق ، وعلى هذا لم يتمكنوا لاهم ولا الفرنجة من إنجاز شيء ضد الأسوار أو داخل المدينة ، وعندما ايقنوا أنهم لن يستطيعوا تحقيق غاياتهم قرروا الانسحاب وقلوبهم قد امتلأت غما ، ولما رآهم الأغريق ينسحبون

ارتفعت أصواتهم بالصراخ والصفير عليهم ، وتسلقوا الأسوار ودلوا سراويلهم وولوهم ظهورهم .

وعندما رأى مرزوفلوس عملية الانسحاب أخذ يقرع طبوله ويزعق بأبواقه مما أحدث جلبة عظيمة ، وبعث يطلب علية قومه وخاطبهم قائلا : انظروا أيها السادة أولست أمبراطورا صالحا ؟ لاشك أنكم لم تعرفوا مثلي أمبراطو را صالحا ، أولم أنجح بعملي ؟ إننا ماعدنا نخشاهم ولسوف أفتك بهم جميعا وأمرغ سمعتهم بالوحل .

وعندما انتهى هذا إلى الحجاج بلغ بهم الغضب غايته والأسى منتهاه ، وارتدوا إلى معسكرهم في الجانب الآخر من الميناء .

وبعدما عاد البارونات ، ونزلوا من السفن تداعوا إلى اجتماع عام ، وهم يشعرون بالاضطراب العظيم ، وأقروا أن مااقترفوه من آثام كان السبب في عدم انتصارهم على المدينة ، ثم تداول الأساقفة ورجال الأكليروس حول ماكان فأجمعت آراؤهم على أن المعركة كانت معركة عادلة ، وأنهم كانوا على حق في مهاجمة المدينة ، لأن أهلها كانوا فيما مضى يتبعون عقيدة كنيسة روما أما الآن فهم هراطقة يستخفون بهذه الكنيسة ولايقيمون أدنى اعتبار لعقيدتها ، ويرون أن جميع أتباعها والمؤمنين بها في منزلة الكلاب ، وبناء عليه قال الأساقفة : إن الفرنجة على حق في حربهم للأغريق وأن الهجوم على القسطنطينية لم يكن إثما بل عملا مشروعا .

١٤٠ ـ ثم اعلن في كافة أطراف المعسكر بوجوب مشاركة الجميع بما فيهم البنادقة بصلاة قداس صباح الأحد ، ونفذ الأمر وشرع الأساقفة بأعمال الوعظ في المعسكر ، وتولى الوعظ أسقف سواسون ، وأسقف تروي ، وأسقف هلبر شتات ، والسيد جون فيسيت ، وراعي دير لوس ، وأوضحوا جميعا للحجاج أن معركتهم معركة محقة وقتالهم لالبس حول شرعيته ، لأن الأغريق خونة سفكوا ظلما وغدرا دم إمبراطورهم وسيدهم الشرعي ، وأنهم أسوأ

من اليهود ، وأنهم حين سيهاجمونهم سيهاجمونهم باسم الرب وبتفويض من البابا صاحب الكرسي الرسولي .

١٤١ ـــ ثم طلب الأساقفة من الحجاج جميعا القيام بالاعتراف وتناول القربان ، وطلبوا منهم ألا يكونوا خائفين لقتالهم الاغريق لأنهم أعداء الرب ، وصدرت أيضا الأوامر بالبحث عن جميع النساء الخواطي في المعسكر وإخراجهن منه ونفيهن بعيدا ، ولهذا وضعوهن جميعا على ظهر إحدى السفن وأرسلوا بهن بعيدا عن المعسكر .

١٤٢ ـ وبعدما فرغ الأساقفة من وعظ الحجاج وايضاح أن حربهم هذه المرة ضد الاغريق حرب مشروعة ، باشر الجميع بالاعتراف وتناول القربان .

١٤٣ ـ ومع حلول صباح يوم الاثنين تهيأ الحجاج جميعا ، وحملوا أسلحتهم ، ومثلهم فعل البنادقة ، ثم شرعوا في ترميم الجسور على السفن ، وأعدوا مراكب الحمولة والشواني وصفوها إلى جانب بعضها استعدادا للهجوم ، وامتد الأسطول وغطى جبهة طولها قرابة الفرسخ ، وزحفوا نحو الشاطيء ، وعندما اقتربوا من الأسوار غاية الاقتراب ألقوا مراسيهم ، ثم بدأ هجومهم العنيف فأطلقوا الرمايات وقذفوا الأحجار ، وألقوا بالنار الأغريقية والمواد المشتعلة على الأبراج وأعالي الأسوار ، غير أنها لم تلتصق بها ، بل تدحرجت وذلك بفضل الجلود المدبوغة التي غطت الأسوار والأبراج .

١٤٤ ـ ودافع الذين كانوا بالمدينة عن أنفسهم بكل بسالة ، وكانوا يمتلكون ستين عرادة ومنجنيق لرمي القذائف ، وكانوا يصيبون في كل ضربة إحدى السفن ، لكن بما أنها كانت مغطاة بالألواح التي فوقها قضبان عرائش الكرمة ، لم تتأثر السفن بالرمايات مع أن الأحجار التي قذف بها الأغريق كانت ضخمة جدا بحيث لايستطيع انسان بمفرده رفع إحداها عن الأرض .

١٤٥ ـ وكان مرزوفلوس واقفا على الرابية تزعق أبواقه

وتقرع طبوله بأصوات مدوية ، وكان يشجع رجاله قائلا : بادروا من هنا ، توجهوا إلى هناك ، فقد كان يوجههم إلى حيث وجد الحاجة ماسة لوقوفهم .

١٤٦ ـ ولم تتمكن سوى أربع سفن أو خمسة من بين جميع سفن الأسطول من الوصول إلى الأبراج الشاهقة ، وكانت الأبراج الخشبية التي نصبت على ظهر الأبراج الحجرية ، والتي تألف كل منها من خمسة طوابق أو ستة أو سبعة ، مشحونة بأجمعها بالمقاتلين للدفاع عنها ، وثابر هؤلاء المقاتلون على التصدي للهجوم حتى سهل الرب وقوع معجزة ، فقد حمل البحر المضطرب سفينة أسقف سواسون ، فارتطمت بواحد من هذه الأبراج ، وكان على جسر هذه السفينة أحد البنادقة مع اثنين من الفرسان المسلحين ، وعندما ارتطمت بالبرج ، تعلق البندقي بيديه وثبت قدميه ثم تمكن بعد جهد شاق من الدخول إلى البرج ، وهناك تلقفه جنود الطابق الذي دخل إليه ، وكانوا من الانكليز والدانيين والأغريق ، واندفعوا نحوه فمزقوه بسيوفهم وبلطهم .

١٤٧ ـ ومرة ثانية حملت الأمواج المضطربة السفينة نفسها نحو الأمام فارتطمت مجددا بهذا البرج نفسه ، واستطاع أحد الفارسين واسمه أندرو دوربواز أن يتعلق بأعلى البرج بيديه وقدميه ودخل إليه وهو يزحف على ركبتيه ، وما أن دخل إليه حتى انقض عليه المدافعون بسيوفهم وبلطهم وضربوه بكل عنف ، لكن رحمة الرب تداركته ولم تمكنهم من قتله بفضل الدرع الذي كان يرتديه ، ولم يشأ الرب أن تطول محنة هذا الفارس أو أن يموت ، بل أراد سقوط هذه المدينة بأيدينا ، وأن يضرب المثلة على أهليها جزاء على غدرهم وعدم وفائهم ، وللاغتيال الذي اقترفه مرزوفلوس ، وهكذا أتيح لهذا الفارس الانتصاب واقفا حيث شهر سيفه ، وعندما رأوا هذا المنظر المخيف تملكتهم الدهشة واستبد بهم الرعب الشديد فلاذوا بالفرار نحو الطابق الذي يليهم ، وحين شاهد الذين كانوا في هذا الطابق فرار أصحاب الطابق العلوي خافوا أيضا وفروا بدورهم

واندفع الفارس في أعقابهم ، وفي الوقت نفسه تمكن آخرون من اقتحام هذا الطابق ثم تناولوا حبالا قوية ، وشدوا بها السفينة فألصقوها بالبرج ثم شدوها إليه ، وهنا اقتحم البرج عدد كبير من الناس .

١٤٨ ـ وحرك الموج هذه السفينة بعنف وأراد ابعادها عن البرج من جديد ، لكن لأنها كانت مشدودة الى البرج فقد اهتز هذا البرج بكل عنف ، حتى خيل للناس أن السفينة ستسحبه وتلقيه أرضا ، لذلك أرغم رجال السفينة على فك الحبال التي تربط السفينة بالبرج .

١٤٩ ـ وعندما عرف الجنود الذين كانوا في الطوابق الدنيا أن الفرنجة قد استولوا على أعلى البرج أصيبوا بالهلع وخارت عزائمهم ، فلم يحتملوا البقاء في البرج وتخلوا عنه ، وكان مرزوفلوس يرقب عن كثب ما يجري ، ولم يتوقف عن تشجيع رجاله وحضهم على القتال ، وارسالهم نحو هذا المكان الذي وقع عليه الهجوم الكبير

١٥٠ ـ وفيما أحداث الاستيلاء على هذا البرج جارية كما وصفنا بصورة اعجازية ، ارتطمت سفينة بييردي براشو ببرج آخر ، وتمكن الواقفون على جسرها من الانقضاض على البرج والاستيلاء عليه بمعجزة ربانية أخرى .

وماأن تم لنا الاستيلاء على هذين البرجين حتى شحناهما برجالنا ، ولم يتجرأ هؤلاء على مغادرتهما ، وظلوا في داخلهما ، بعدما شاهدوا حشود الناس الكثيفة على الأسوار على مقربة منهم ، فقد خافوهم ، وخافوا من الذين كانوا في الأبراج الأخرى الموجودة عند طرف الأسوار ، فقد كانوا من الكثرة بمكان يبعث على الدهشة

١٥١ ـ وعندما رأى اللورد بيتر الدمياني عدم مبارحة الذين كانوا

بالابراج لها لكثافة حشود الأغريق ، نزل الى اليابسة وسار عليها هو ومن معه ، فبلغا ممرا ضيقا قام بين البحر والأسوار ، وعندما وقفوا هناك تفحصوا السور ، فرأوا علامات باب سرداب سري ، كان قد نزع ثم أغلق ثانية ، وتقدم نحوه اللورد بيتر الدمياني ومعه عشرة فرسان وستين من الرجالة .

١٥٢ وكان هناك راهب اسمه الليوم دي كلا ري ، وكان مقداما له فعاليته في الملمات ، فهو الأول وعلى راس كل هجوم يكون حاضره ، وقد قام هذا الراهب بأعمال باهرة أثناء الاستيلاء على برج غلاطية ، لأنه امتلك طاقة جثمانية تفوق بها على غيره ممن كان بالجيش ، اللهم باستثناء اللورد بطرس دي براشو ، فهذا كان متفوقا على الجميع كبيرهم وصغيرهم ، بحيث لم يباريه انسان في استخدام السلاح او امكاناته الجسدية .

ولدى وصولهم الى باب هذا السرداب هاجموه بكل شجاعة واستخدموا المعاول لفتحه ، وكانت رشقات النشاب تتطاير حولهم ونحوهم وذلك مع قذائف كبيرة من الحجارة ألقيت عليهم من فوق الأسوار ، حتى كادوا يدفنون هناك لكثرة ماألقي عليهم ٠ .

١٥٣ ـ وكان جنودنا يحملون التـرسة ويلبسون الدروع ، وبالترسة غطوا الذين كانوا يعملون على فتح السرداب ، ولم يكتف الأغريق بقذفهم بالحجارة الضخمة بل رموهم بالآنية المملوءة بالقار المغلي والنار الاغريقية ، ولهذا كان عدم هلاكهم معجزة من معجزات الرب ، وتحمل مولاي بيتر الدمياني ورجاله المشاق الهائلة والمصاعب الجمة حتى تمكنوا من فتح السرداب بالفؤوس والسيوف القوية ، كما واستخدموا في ذلك الكتل الخشبية والأعمدة والمطارق ، حتى نجحوا أخيرا في احداث ثغرة كبيرة ، لكن عندما جاءوا ليدخلوا من السرداب نظروا فرأوا من الجانب الآخر عددا هائلا من كبار القوم وصغارهم في انتظارهم ، حتى خيل أليهم أن نصف العالم قد اجتمع هناك ، لذلك لم يقدموا على دخوله .

١٥٤ ــ وعندمـا رأى الراهــب الليوم عدم اقـدام أحــد على الدخول ، تقدم هو وقال بأنه سيدخله ، وكان هناك أنذاك فارس آخر هو أخوه واســمه روبـرت دي كلاري ، فنهـاه ولم يشـــجعه على الدخول ، فأصر الراهب على موقفه بالدخول ، ثم دخل الى السرداب وزحف على يديه وركبتيه ، وعندما شاهده اخوه تعلق به وحاول جره من قدميه وجذبه اليه جذبا شديدا ، فلم يفلح ، ودخل الراهــب على الرغم من تعلق أخيه به ، وعندما صار بداخله اندفع نحوه عدد كبير من الأغريق ، وتابع الذين على الأسوار قذفه بالحجارة الضـــخمة ، ومع هذا شهر سيفه وانقض على الاغريق وحمل عليهم بشدة ففروا من أمامه وتبعثروا تبعثر الشياه ، فنادى على الذين ظلوا بالخارج ، أي اللورد بيتر وجماعته قـائلا : « أيهـا الســادة ادخلوا واحملوا بشدة ، فانني أراهم ينســحبون بيأس ، وهـا هـــم قـــد شرعوا بالفرار » .

وما أن سمع مولاي بيير وأصحابه الذين وقفوا معه بالخارج كلامه هذا حتى بادروا الى الدخول ، ومع أن عددهــم لم يتجــاوز العشرة فرسان مع ستين من الرجالة ، فقد اشتد خوف الأغريق الذين كانوا فوق الأسوار ، والذين كانوا في تلك المنطقة ، وما أن رأوهــم داخـل السرداب حتى تخلوا عن جزء كبير مــن الأســوار وهــربوا ، وكان الامبراطور مرزوفلوس الخائن واقفا على مقربة منهم ، لا يبعد عنهم أكثر من غلوة سهم ، وهو يأمر بقرع طبوله والنفخ بأبواقه الفضية ، محدثا بذلك جلبة عالية .

١٥٥ ــ وما أن ابصر الامبراطور مولاي بيتر ورجـاله في داخـل المدينة حتى ساق ضدهم وانقض عليهم بكل سرعة وشدة ، وهنا أخذ مولاي بيتر يشجع رجاله على الصمود قـائلا : « عليكم الآن أيهـا السادة ، أن تظهروا شجاعتكم في قتالهم ، وها هو الامبراطور مقبل نحوكم ، فلنلتحم معهم ولنقاتلهم بكل شدة وحـذار أن يتـزحزح أيا منكم عن مكانه ، فالواجب هو اثبات شجاعتكم وقدراتكم .

١٥٦ ـ وحين ساق مزروفلوس ضد رجالنا ظن أنهم سيفرون ، لكنه عندما راهم ثـابتون ، لوى رأس حصـانه وارتـد عائدا نحـو خيمه ، وهنا عندما رأى مـولاي بيتـر الامبـراطور قـد نكص على عقبيه ، أنفذ مجموعة من رجـاله الى بـاب كان على مقـربة منهـم ليحطموا أغلاقه ويفتحوه ، وبالفعل ضربـوه بـالفؤوس والسـيوف حتى حطموا مزاليجه وقضبانه المعدنية الضخمة ، وفتحوه ، وعندما شاهد من كان بالخارج هذا الأمر أحضروا مراكبهم وصعدوا اليهـا مع خيولهم ثم نزلوا من عليها واقتحموا المدينة مـن هـذا البـاب باندفاع هائل .

١٥٧ ـ وحين بات الفرنجة في داخل المدينة وهـم على صـهوات خيولهم ، سـيطر الرعب على الامبـراطور الخـائن مـزروفلوس ، فتخلى عن معسكره وخلفه وراءه ، وترك بـه أمـواله وعاد الى قلب المدينة التي كانت كبيرة جدا متسعة طولا وعرضـا ، حيث يقـال إن طول أسوارها الملتفة حولها تسعة فـراسخ كاملة ، كمـا أن طـول المدينة من الداخل فرسخين ومثـل ذلك عرضـها ، وبعـدما هـرب الامبراطور استولى مولاي اللورد بيتـر على معسـكر مـزروفلوس واستحوذ على ما خلفه من خزائن وأمتعة .

١٥٨ ـ ولم يمتلك المدافعون عن الأسوار والابـراج الشـجاعة والثبات حتى يبقوا حيث هـم بعـدما رأوا الفـرنجة يدخلون المدينة والامبراطور ينجو بنفسه ، فهربوا بدورهم ولم يتوقفوا بـل أسرعوا كثيرا ، وهكذا سقطت المدينة .

١٥٩ ـ وبعدما تم الاستيلاء على المدينة على هذه الشاكلة ، توقف الفرنجة ولم يتابعوا الزحف الى داخلها ، وإثـر ذلك اجتمـع كبـار البارونات للتشاور حول الخطوة التالية ، ثم نودي في كافـة أرجـاء الجيش الا يتوغل أحد الى داخل المدينة فيورد نفسه موارد التهلكة ، فالتوغل ينطوي على مخاطر جسام ، فقد يرميهم الناس بـالحجارة من القصور الكبيرة والعالية ، أو يفتكوا بهـم في الأزقـة الشـديدة

الضيق حيث لا يستطيعون وقتها الدفاع عن أنفسهم ، أو أن تشتعل النار في المدينة خلفهم فيموتون حرقا .

وخوفا من هذه المخاطر والشدائد لم يتجرأ الجنود على الدخول الى أحياء المدينة والتوزع في داخلها ، وآثروا الاقامة حيث هم .

١٦٠ واتفق البارونات بشأن الخطوة التالية وقرروا أن يتسلح الفرنجة ويستعدوا للقتال صباح اليوم التالي ويصفوا قواتهم ويعبئوها بانتظار الاغريق إذا كان بنيتهم الهجوم عليهم ، ورتبوا الامور أن يكون القتال في مكان مكشوف بعيد عن العمران ومقدرين أن تعدادهم بالنسبة للاغريق واحد إلى مائة ، لكن اذا تقاعس الاغريق عن القتال ورفضوا تسليم المدينة ، عندها يتوجب على الفرنجة مراقبة اتجاه هبوب الرياح ثم يلقون النار في المدينة من جهة مهب الرياح وبذلك يحرقون المدينة ويدمرون الاغريق ويقهروهم بالقوة .

ووافق البارونات على هذه الخطة بالاجماع ، وبعد صلاة العتمة نزع الصليبيون ما عليهم من سلاح واستراحوا واكلوا وناموا ليلتهم تلك داخل الأسوار لكن أمام أسطولهم .

١٦١ ـ وعند منتصف الليل ، عندما ادرك مرزوفلوس الامبراطور الخائن ، أن الفرنجة باتوا جميعا داخل المدينة تزايد فزعه ، ولم يعد يمتلك الشجاعة للبقاء ، ففر في منتصف الليل حتى لا يعرف أحد خبر فراره ، لكن عندما عرف الاغريق أخبار فرار الامبراطور ، عمدوا في الليلة نفسها الى واحد من كبار رجالات المدينة واسمه لاسكاريس وتوجوه امبراطورا ، وهذا بدوره لم يمتلك الصبر والشجاعة ليمكث حيث هو ، فقام قبل بلوغ الفجر بركوب ظهر احدى السفن ، وعبر مضيق البوسفور ، وتوجه الى مدينة نيقية الكبرى ، التي كانت مدينة رائعة ، فتملكها وهناك اقام حيث أصبح امبراطورها .

١٦٢ ـ ومع اشراقة شمس صباح اليوم التالي جاء موكب مـن الرهبان ورجال الاكليروس في ثيابهـم الدينية وتبـع هؤلاء الانكليز والدانيون وغيرهم من اهالي البلاد الاخرى ، الى معسكر الفرنجة ، حيث التمسوا الرحمة لأنفسهم ، وأعلموهم بالذي صنعه الأغريق ، وأخبروهم أن جميع الأغريق من سكان المدينة قد هربوا منهـا ، ولم يبق منهم فيها غير الفقـراء والضـعفاء والمرضى ، وعندمـا سـمع الفرنجة هذه الأخبار علاهم السرور وعظمـت فـرحتهم ، وأمـروا بالنداء في أوساط الجيش الا يحتل أحد بيتا حتى تتقـرر الصـورة التي سيتم بمقتضاها توزيع الممتلكات .

١٦٣ ـ واجتمع بعد هذا كبار القادة والأثرياء من البارونات معا واتفقوا على أن يتوازعوا فيما بينهم أفضل مساكن المدينة ، دون أن يدري بذلك سواد الحجاج وفقراء الفـرسان ، وهـكذا شرع كبـار البارونات والقادة من تلك الساعة في خديعة العـامة والكذب عليهـم واساءة عشرتهم ، وسيدفعون ثمن ذلك بـاهظا فيمـا بعـد ـ كمـا سنخبركم ـ ، فقـد اغتصـبوا أفضـل بيوت المدينة وأغناهـا ، واستحوذوا عليها قبل أن يعرف الفرسان الفقراء والعامة بذلك .

وعندما علم صغار الفرسان والفقراء بتفاصيل ما جرى ، تـوجه كل واحد منهم باتجاه واسـتولى على كل مـا اسـتطاع الاسـتيلاء عليه ، وعثروا على أشياء كثيرة وأخذوا ما لا يمكن عده أو حصره ، وتركوا أيضا شيئا كثيرا ، فقد كانت القسـطنطينية مـدينة عظيمـة الاتساع آهلة بالسكان .

١٦٤ ـ واستولى الماركيز(بونيفيس دي مونتفرات) على قصر بوكليون وعلى كنيسة آيا صـوفيا وقصر البـطريرك ، واسـتولى في الوقت نفسه كبار البارونات والقادة على كل ما صادفوه من أجمـل القصور وأغناها وأهم الأديرة وأكثرها ثراء ، وبعدما تـم للفـرنجة الاستيلاءعلى المدينة لم يتعرضوا لأحد ممن بقي بالمدينة سواء أكان

فقيرا أو غنيا بسوء ، وكان قد نزح عن المدينة من أراد النزوح وبقي فيها من أراد البقاء ، مع أن أكثر أهلها ثراء هم الذين غادروها .

١٦٥ــ وبعد هذا صدرت الأوامر بجمع الغنائم في احـدى كنائس المدينة ، وبعدما اكتمل التجميع جرى اختيار عشرة من كبار فرسان الحجاج وعشرة من البنادقة ممن اتسم بـالأمانة ، وأوكلوا اليهـم حراسة هذه الثروات ، وكان حجم هذه الثروات هائلا ، وكان فيها كثير من الأواني الذهبية والفضية الغالية الثمن ، والملابس المطرزة بالذهب والمرصعة بالمجوهرات الثمينة ، وكان منظـر مـاجمع هناك منظرا عجيبا مثيرا للدهشـة ، ولم يحـدث قـط ــ منذ بـداية الخليقة ــ أن رأت عين أو غنم قوم مثـل هـذه الغنيمـة الغـالية الهائلة ، لابل لم يحدث مثـل ذلك منذ ايام الاسـكندر أو شـارلمان ولاقبلهما ولابعدهما ، ويخيل لي شـخصيا أنه لم يتـوفر في جميع مدن العالم الأربعين الأكثـر ثـراء مـاتوفر بـالقسطنطينية ، وكان ماعثروا عليه هائلا لأنه فعلا كما يقول الاغريق : ان ثلثـي ثـروات العالم موجودة بالفعل في القسطنطينية ، وأما الثلث المتبقي فمـوزع على بقية انحاء الدنيا .

وأخذ الأشخاص أنفسهم الذين عهد اليهم بالحراسة كل ماطمعوا به من الحلي الذهبية ، فقد امتدت ايديهم بالسرقة الى هذه الثروات والى ماوجدوه ، وأخذ أيضا كل رجل ثري مـا اشتهته نفسـه مـن الحلي الذهبية والأقمشـة الحـريرية والمذهبـة وغير ذلك وانطلق به ، وهكذا سرق الأعيان الغنائم واستولوا عليها حتى لم يبـق شيء ليتقاسمونه مع عامة أفراد الجيش من الحجاج والفرسان الفقـراء والجند الذين أسهموا في الحصول على هذه الغنائم :

نعم لم يبق شيء لاقتسامه مع هؤلاء سوى أوعية الفضة التي كان من عادة نساء المدينة حملها معهن الى الحمـامات ، أمـا المغـانم الأخرى التي توجب قسمتها فقد اختفت ــ كما حدثتك ــ ومع هـذا أخذ البنادقة النصف المقرر لهم ، أما الجـواهر والثـروات الكبيرة

التي تركت لتقسم فقد سرقت ايضا بأساليب مختلفة ، كما سأقص عليكم فيما يلي .

١٦٦ـ بعدما كمل احتلال المدينة ، أسكن الحجاج فيها ، وبعد الاستيلاء على القصور عثر رجالنا فيها على ثروات هائلة أكثر مما كانوا يتوقعون ، وكان قصر بوكليون قصرا غنيا جدا ، بني على شكل سأصفه لكم فيما يلي .

١٦٧ـ وكان في هذا القصر الذي استولى عليه الماركيز خمسمائة قاعة اتصل بعضها ببعض وزينت جميعها بالفسيفساء الذهبية ، وكان فيه ثلاثون بيعة مابين صغيرة وكبيرة ، عرفت احداها باسم البيعة المقدسة ، وكانت غنية جدا ورائعة الجمال ، حتى أنه لم يكن بها صائر باب أو مزلاج مما يصنع عادة من الحديد الا وكان مصنوعا من الفضة ، ولم يكن بها عمود الا وصنع من أفضل أنواع الرخام ذات الألوان الجميلة التي حليت بالأحجار الكريمة ، وكانت أرض البيعة مرصوفة بالمرمر الأبيض الناعم نعومة البلور والصافي مثل صفائه ، وفي الحقيقة بلغت هذه البيعة من الثراء والجمال درجة لانظير لها لذلك من الصعب توفيتها حقها بالوصف ، وقد حوت كثيرا من الآثار المقدسة الرائعة ، فقد عثر أحدهم على قطعتين من الصليب المقدس بحجم ساق الرجل ويبلغ طولهما ثلاثة أقدام ، كذلك عثر فيها على الحربة الحديدية ، التي طعن بها جنب مولانا ، وكما كان هناك مساران من المسامير التي دقت بها كفاه وقدماه ، وعثر أحدهم على قارورة زجاجية فيها بعض من دمه ، ووجد هناك أيضا القميص الذي كان يرتديه ، ثم نزعوه عنه حينما ساقوه الى جبل الجلجلة ، وعثر ايضا على تاج الشوك المبارك الذي توجوه به وقد صنع من عيدان ذات شوك قاطع كأنه أسنة الرماح .

ووجد أحدهم قطعة من ثوب مولاتنا العذراء مع رأس سيدنا

القديس يوحنا المعمدان ، وكثيرا غير هذا من البقايا والآثار المقدسة الرائعة التي أنا عاجز عن تعدادها أو وصفها لك بصدق تام .

١٦٨ـ وكان بهذه البيعة اثر مقدس آخر سهوت عن ذكره ، وهو عبارة عن وعائين ثمينين علقا من وسطيهما بسلسلتين من الفضة الثقيلة ، وكان في أحد هذين الوعائين قطعة من الآجر وفي الأخرى قطعة من القماش ، وسأحدثكم من أين جاءت هذه الآثار المقدسة :

كان فيما مضى في القسطنطينية رجل يعمل بصناعة القرميد ، وفيما هو يعمل في قرمدة سقف احدى الأرامل ، محبة بالرب ، متدثرا بقطعة من القماش تجلى له مولانا وقال له : أعطني هذه القطعة من القماش ، فناوله الرجل اياها ، فوضعها مولانا على وجهه فانطبعت ملامحه عليها ، ثم أعادها الى الرجل ، وطلب منه أن يحملها معه ، وأن يمسح بها المرضى ، فكل من آمن بها تعافى من مرضه ، وأخذها عامل القرميد ليحملها معه ، لكن حدث أن حان وقت صلاة العتمة ، فأخذها هذا الرجل بعدما ردها اليه الرب ، وأخفاها تحت قطعة من الآجر ، وبعد أداء الصلاة ، عاد ليأخذها ويمضي بها في حال سبيله ، وعندما رفع القرميدة شاهد أن صورة مولانا قد طبعت عليها ايضا ، فحمل القرميدة وقطعة القماش معا ، وشفى بهما ـ فيما بعد ـ عددا كبيرا من المرضى .

١٦٩ـ وكما أخبرتك كان هذان الأثران المقدسان معلقين في وسط البيعة ، وكان في هذه البيعة اثر مقدس آخر ايقونه عليها صورة القديس ديمتري ، وكانت هذه الأيقونة تنضح بالزيت الكثير الى حد أنه كان من غير الممكن مسحه بسرعة مساوية لسرعة تدفق الزيت منها .

١٧٠ـ وضم قصر بلا شرين عشرين بيعة ، ومالا يقل عن مائتين أو ثلاثمائة قاعة ، اتصل بعضها ببعض ، وزينت جدرانها بالفسيفساء المذهبة ، وبلغ هذا القصر من الأبهة والفخامة درجة

يعجز كل انسان عن وصفه لك أو يتحدث عن ثرائه وروعته ، ولقد وجدوا في هذا القصر ثروات هائلة جدا كان من بينها تيجان الأباطرة المتقدمين ، وهي غالية جدا ، مع حلي ذهبية ثمينة وأقمشة حريرية غالية ، وعثروا ايضا على الملابس الامبراطورية الثمينة والجواهر النفيسة ، وعلى عدد كبير من الكنوز الهائلة ، ولايمكن لانسان أن يقدر كميات الذهب والفضة الكبيرة جدا ، التي عثروا عليها في هذه القصور وفي اماكن أخرى كثيرة من المدينة .

١٧١ـ ثم أخذ الحجاج يطوفون بالمدينة لمشاهدة مباهجها وضخامة حجمها وقصورها وأديرتها وكنائسها الرائعة مع ماحوته من ذخائر وكنوز ، وأكثر ما أعجبوا برؤية كنيسة أياصوفيا فقد أدهشهم جمالها أيما ادهاش وكذلك ماحوته من كنوز .

١٧٢ـ وسأحدثك الآن عن كنيسة أياصوفيا وكيف أقيمت ، واسم ايا صوفيا بالاغريق يقابله الثالوث المقدس بالفرنسية ، وهي كنيسة مستديرة البناء وسقفها عبارة عن قباب دائرة حولها محمولة على أعمدة ضخمة ورائعة جدا ، وليس بها عمود الا وهو مصنوع من افخر أنواع الرخام أو المرمر أو غير ذلك من الحجارة الثمينة وليس بها عمود الا وله قدرة على شفاء نوع معين من الأمراض ، فواحد منها يزيل أمراض الكليتين اذا حكتا به ، ويشفي آخر من ذات الجنب ، ويشفي آخرون من عدد آخر من الأمراض .

وليس بهذه الكنيسة مزلاج باب أو صائر أو شريط أو أي شيء آخر مما يصنع عادة من الحديد ، الا وهو مصنوع من الفضة .

١٧٣ـ ومذبح الكنيسة الرئيس ثمين جدا لايمكن تقديره بأي مبلغ مهما كان كبيرا ، لأن مائدته ـ التي كان قد أمر احد الأباطرة بصنعها ـ كانت من الذهب والجواهر الثمينة المتمازجة ويبلغ طول هذه المائدة أربعة عشر قدما .

وقام حول المذبح أعمدة فضية سندت عرشا قام على الهيكل وكان أشبه ببرج كنيسة دقيق الأطراف ، قد صب كله من الفضة الخالصة ، مما يعجز أي فرد عن تقدير المال الذي يثمن به ، وكان المكان المعد لترتيل الانجيل فيه بديعا جدا ، بالغ الجمال ، ليس بامكاننا وصف كيفية صناعته .

١٧٤ـ وبالكنيسة من الداخل مائة شمعدان ـ كل واحد منها معلق بسلسلة فضية ضخمة تبلغ قطر ذراع الرجل ، ولكل شمعدان خمسة وعشرين مصباحا أو أكثر ، ولايقل ثمن الشمعدان الواحد عن مائتي مارك فضي .

١٧٥ـ وكان باب الكنيسة الرئيسي مصنوع كله من الفضة ، وقد علق الى حلقته أنبوب لايعرف أحد كنه المواد التي صنع منها ، وهو في حجم قصبة الناي الذي يعزف به الرعاة ، ولهذه القصبة فضائل جمة سأحكي خبرها واقصها عليك فهي ان وضعت كلها أو جزء منها بفم مريض ـ يشكو من علة في جسده مثل انتفاخ في البطن ـ امتصت هذه القصبة كل مابه من مرض وسحبت السموم وألقت من فمه وشفته سريعا ، انها تلتصق بفمه ، فترى عينية تدوران في محجريهما ، ولايستطيع التخلص منها حتى تمتص مابه من أسقامه ، وكلما كانت علته شديدة كلما اشتد التصاق القصبة به ، لكن اذا وضعها سليم في فمه لاتثبت به قليلا أو كثيرا .

١٧٦ ـ وقام أمام كنيسة آيا صوفيا عمود هائل الحجم لايستطيع ثلاثة رجال الاحاطة بقطره ، وارتفاعه ثلاثمائة قدم ، وهو من الرخام المكفت بالنحاس الأصفر ، والمشدود بأطواق حديدية قوية ، ووضع على راس هذا العمود لوح منبسط وكبير من الحجر ، طوله خمسة عشر قدما ، ولايقل عرضه عن ذلك ، وثبت عليه تمثال امبراطور صنع من البرونز وهو يمتطي حصانا برونزيا كبيرا ، ومد هذا الأمبراطور يده باتجاه بلاد الوثنيين ، وكان على هذا التمثال كتابة فحواها أن هذا الأمبراطور قد أقسم الا يهادن المسلمين أبدا ،

وأمسك بيده الأخرى كرة من الذهب عليها صليب ، ويقول الأغريق : هذا تمثال الأمبراطور هرقل .

ووجد على كفل الحصان ورأسه وأطـرافه مـالا يقـل عن عشرة أعشاش من أعشاش مالك الحزين يبيض بها كل عام .

١٧٧ ــ وفي ناحية أخرى مـن المدينة وجـدت كنيسـة غير هـذه اسمها كنيسة الرسل السبعة ، يقال إنها أعظم وأجمل مـن كنيسـة أيا صوفيا ، ولايمكن لانسان أن يصـف لك ثـراء هـذه الكنيسـة وروعتها ، وهي تضم بين جوانبها جثث سبعة رسل ، وبهـا أيضـا العمود الرخامي الذي شدوا إليه مولانا قبل رفعـه على الصـليب ، ويحكى أنه في هـذا المكان يرقـد الأمبـراطور قسـطنطين (الكبير وأمه) هيلانة ، وعددا آخر من الأباطرة سواهما .

١٧٨ ــ ويوجد في ناحية أخرى من المدينة بـوابة تسـمى بـوابة العباءة الذهبية ، وضع عليها كرة كبيرة مـن الذهـب كتـب عليهـا رصد ، ويقول الأغريق : لن تقع بالمدينة صاعقة طالما هي قـائمة في مكانها ، وعلى هذه الكرة أيقونة من النحاس قد ارتدت عبـاءة مـن الذهب وقد مدت كماها إلى الأمام وقد كتب عليها : « من يعش عاما في القسطنطينية سينال عباءة ذهبية كالتي أرتديها » .

١٧٩ ــ وهناك في ناحية أخرى من المدينة بوابة أخـرى اسـمها البوابة الذهبية ، وقد وضع عليها فيلين من النحاس حجمهمـا كبير ومنظرهما عجيب ، ولاتفتح هذه البـوابة أبـدا إلا حين عودة أحـد الأباطرة من حملة يكون قـد اسـتولى فيهـا على أرض عدوة ، فإذا حدث مثل هذا خرج من المدينة موكب مهيب ضـم رجـال الأكليروس لاستقباله ، وتفتح البوابة ثم يؤتى بمركبة من الذهب على شكل عربة ذات أربع عجلات كالتي نسميها كوري ــ وفي وسط هـذه المركبـة مقعد مرتفع عليه عرش حوله أربعة أعمدة تحمل مظلة تظل العـرش الذي يبدو وكأنه قد صيغ كله من الذهب ، وحين يجلس الأمبـراطور

على هذا العرش يضع على رأسه تاجه ، ويدخل من تلك البوابة ، ثم يحمل بهذه المركبة إلى قصره في سرور وبهجة عظيمة .

١٨٠ ـ وفي ناحية أخرى من المدينة مكان رائع آخر ، حيث قام على مقربة من قصر بوكليون ساحة شاسعة تدعى الملعب الامبراطوري ، ومساحته غلوة سهم ونصف الغلوة طولا وغلوة واحدة عرضا ، وأقيم حول هذا المكان ثلاثين أو أربعين صنفا من المقاعد ، كان الأغريق يجلسون عليها لمشاهدة الألعاب ، وعلاه أيضا مقصورة كبيرة عظيمة الجمال والأناقة ، ففيها كان يجلس الامبراطور والأمبراطورة وعلية القوم ونساؤهم أثناء الاحتفالات والألعاب .

وإذا وجد أثناء اللعب اثنان يتباريان ، تراهن الأمبراطور والأمبراطورة على أن الرابح سيكون هذا الطرف أو ذاك ، ومثلهما كان يفعل المشاهدون للألعاب .

١٨١ ـ وكان يوجد على طول هذه الساحة المكشوفة جدار يبلغ ارتفاعه خمسة عشر قدما وعرضه عشرة أقدام ، وعليه تصاوير رجال ونساء وخيول وثيران وجمال ودببة ، وأسود ، ومختلف انواع الحيوانات الأخرى ، وكلها مصنوعة من النحاس الأحمر ، وقد أبدعتها يد صانع ماهر حتى أن الناظر إليها لايكاد يميزها عن نظائرها الحية ، ولاشك أن مهرة الصناع في بلاد المسيحية أو الوثنية عاجزين ـ مهما بلغوا من براعة ـ عن صناعة مايماثلها في الدقة ، وكانت هذه التماثيل فيما مضى ذات قوة سحرية ؛ ولكن بطل الآن ذلك السحر ، وقد أصيب الفرنجة بالدهشة حينما راوا الملعب الامبراطوري هذا .

١٨٢ ـ وفي ناحية أخرى من المدينة منظر عجيب آخر ـ فقد انتصب هناك تمثالان من البرونز لامرأتين تفنن صانعهما بهما حتى شابها الطبيعة ، وبلغا من الجمال مبلغا فوق التقدير ، وكان لايقل

ارتفاع أي منهما عن عشرين قدما ، وكان أحد هذين التمثالين يمد يده باتجاه الغرب وعليه نقشت عبارات فحواها : سيأتي قوم من الغرب فيستولون على القسطنطينية أما يد التمثال الآخر فكانت ممدودة باتجاه مكروه ، وقد كتب عليها : « إن ذاك هو المكان الذي سيقذفونهم فيه » .

١٨٣ ـ واقيم هذان التمثالان أمام سوق الصيارفة ، وكان فيما مضى سوقا شديد الازدحام ، لأن أغنياء الصيارفة اعتادوا على الجلوس في هذه البقعة وأمامهم اكوام ضخمة من النقود والأحجار الكريمة ، وذلك قبل احتلال المدينة ، أما الآن بعد الاستيلاء عليها فلم يبق بها منهم كثيرون ٠

١٨٤ ـ وفي جانب آخر من المدينة منظر عجيب آخر ، فقد قام هناك صومعتان شاهقتان عريضتان لايمكن لثلاثة رجال تطويق أي منهما ، وتجاوز ارتفاع كل منهما ثلاثمائة قدم ، وقد اعتاد النساك على التعبد فوق قمة هاتين الصومعتين في حجر صغيرة توفر لها وللصومعتين أبواب تفضي إلى سلالم يمكن للمرء الصعود عليها .

١٨٥ ـ ونقشت على جدران هاتين الصومعتين صور ورسوم كل الأحداث التي ألمت بالقسطنطينية ونبوءة كل ماكان مقدرا له أن يقع بها ، لكن لم يوجد أي انسان كان بإمكانه فهم واحدة من النبوءات .

حتى تترجم الى الواقع ، فبعد حدوث حادث من الاحداث كان الناس يهرعون الى هناك ويمعنون النظر فيما امامهم من رسوم ، وعندها يفهمون لاول مرة خبر ماجرى ، حتى ان استيلاء الفرنجة على المدينة كان مدونا ومرسوما على جدران هاتين الصومعتين ، وكذلك رسوم السفن التي استخدموها في الانقضاض على المدينة والاستيلاء عليها ، لكن الاغريق لم يدركوا سر هذه الرسوم قبل وقوع الواقعة ، لكن بعدما وقعت قصدوا مكان الصومعتين وتأملوا ماعليهما من رسوم وكتابة وصور وسفن فاذا بها تقول : « ان شعبا

من ذوي الشعور القصيرة والسيوف الفولاذية سيتقدمون من الغرب لغزو القسطنطينية ».

١٨٦ ــ لقد وجد الفرنجة بعد الاستيلاء على القسطنطينية كل هذه العجائب منتشرة في ارجائها ، لابل هناك اكثر بكثير مما حكيت لك عنه ، ويخيل لي انه مامن واحد على وجه البسيطة يمكنه ان يحصي عدد جميع اديرة المدينة لكثرتها وكثرة من بها من الرهبان والراهبات ، الى جانب الكنائس الاخرى التي قامت في خارجها ، فقد قدر من كان بها من رجال الاكليروس والرهبان وسواهم بثلاثين الفا .

١٨٧ ــ لذلك سادع جانبا الحديث عن بقية الاغريق رفيعهم وفقيرهم وعاليهم ودانيهم ، كما انني لن احكي المزيد عن حجم المدينة ومابها من قصور وعجائب اخرى ، ذلك انه لايستطيع احد ، مهما كان شانه ، ومهما طال مقامه بالمدينة ان يصفها كلها ويعد مابها ، حتى انه اذا ذكر لك واحدا من مائة مما في كنائسها وقصورها من ذخائر وثروات وجمال رابهة وترف ، بدا لك وكأنه يحكي لك اسطورة ، ولن تصدقه اذناك .

١٨٨ ــ وكانت كنيسة مريم قديسة بلا شرين من بين روائع المدينة ، فهي التي تحتفظ بالحنوط الذي وضع في كفن مولانا ، وهو يتصبب كل يوم جمعة حتى يسهل على المشاهد رؤية ملامح وجه مولانا ، ولايعرف احد من الاغريق او الفرنجة ماذا جرى لهذا الحنوط بعد الاستيلاء على المدينة .

١٨٩ ــ وكان هناك دير سجي فيه جثمان الامبراطور الصالح مانويل ، ولم يحدث قط ان سجي انسان سواء اكان قديسا او قديسة تسجيه بهية مثل تسجية هذا الامبراطور .

١٩٠ ــ وفي هذا الدير اللوح الرخامي الذي سجي عليه مولانا

بعدما انزلوه من على الصليب ، ومايزال حتى الان من الممكن رؤية الدموع التي ذرفتها سيدتنا عليه .

١٩١ ــ وبعدما حدث هذا كله ، اجتمع في احد الايام جميع البارونات وكبار القادة في قصر بوكليون ، الذي استولى عليه الماركيز ، وشرعوا يتداولون فيما بينهم حول الحاجة لتنصيب امبراطور ، ووجوب انتقاء عشرة نقباء من بينهم ، ثم طلبوا من دوج البندقية اختيار عشرة نقباء من عنده .

١٩٢ ــ وعندما سمع الماركيز هذا الاقتراح أراد أن يكون هؤلاء النقباء من أتباعه ، ممن يعتقد أنهم سيقدمون على اختياره امبراطورا دون سواه ، ذلك أنه تطلع لأن يكون هو نفسه الامبراطور المقبل ، ولم يوافق البارونات على ماأراده ، ورفضوا أن يكون النقباء المختارون من أتباعه ، لكنهم لم يعترضوا على أن يكون بعض النقباء من رجاله .

١٩٣ ــ وعندما وقف دوج البندقية على فحوى المناقشات ــ وكان رجلا محنكا مستقيما ــ قال على مسمع من الجميع: «اصغوا الي ايها السادة ، اقترح عليكم وضع القصور تحت الحراسة العامة للجيش قبل القيام باختيار الامبراطور ، فلو وقع الاختيار علي سيكون بامكاني الذهاب مباشرة لاحتلال القصور بدون معارضة ، وكذلك الحال اذا اختاروا كونت فلاندرز ، عليه وقتها المضي لتوه الى القصور لاحتلالها دون معارضة ، وهذا هو الحال اذا اختاروا الماركيز ، او كونت لويس ، او كونت سانت بول ، او حتى لو اختاروا فارسا فقيرا ، فالذي سيكون الامبراطور لابد له من تملك القصور دون معارضة من الماركيز او من كونت فلاندرز او من سواهما .

١٩٤ ــ وبعدما سمع الماركيز هذا الاقتراح ، لم يكن بامكانه معارضته ــ فأخلى القصر الذي كان يشغله ، وذهب القوم فوضعوا في القصور حراسا من سواد الجيش للمحافظة عليها .

١٩٥ ـ وكان دوج البندقية ، بعدما فرغ من خطابة قد اقترح على البارونات القيام باختيار نقبائه العشرة ، واعلن انه سيبادر بدوره الى تسمية نقبائه العشرة . وبعدما سمع البارونات اقتراح الدوج اراد كل واحد منهم ان يكون النقباء من رجاله ، فهذا ماأراده كونت فلاندرز ، وكذلك استهدفه كونت لويس ، وكونت سانت بول وغيرهم من اعيان البارونات ، وهكذا لم يمكنهم ابدا الاتفاق على تسمية النقباء واختيارهم .

١٩٦ ـ ولهذا اتفقوا على تأجيل الموضوع الى يوم اخر ، ومع هذا اخفقوا في التوصل الى اجماع حول اختيار هؤلاء العشرة ، ذلك ان الماركيز كان دوما يريد تسمية من كان يظن انهم لابد ان يختاروه امبراطورا ، فقد اراد ان يكون الامبراطور المقبل مهما كلف الامر .

١٩٧ ـ واستمر الخلاف مدة اسبوعين دون ان يتمكنوا من الوصول الى اي اتفاق فيما بينهم ، ولم يكن ليمر يوم الا ويجتمعون للتداول حول هذا الموضوع ، الى ان اتفقوا اخيرا على ان يكون النقباء العشرة من بين رجال الاكليروس في الحملة ومن الاساقفة ورعاة الاديرة .

١٩٨ ـ وبعدما اتفق البارونات على هذا الترتيب قام دوج البندقية باختيار رجاله العشرة وفق الطريقة التالية : استدعى اليه اربعة ممن اعتقدوا انهم اعظم رجال بلده كفاءة وجعلهم يقسمون على الاثار المقدسة انهم سيتولون اختيار عشرة نقباء يعتقدون اعتقادا جازما انهم افضل من في الحملة من ابناء مدينتهم ، فنفذوا ماطلبه منهم ، وكانوا اذا مانادوا واحدا من رجالهم تقدم ، وتوقف عن الكلام او التشاور مع احد ، ونقلوه فورا الى احدى الكنائس ، وفعلوا الشيء نفسه مع البقية حتى تم للدوج انتقاء نقبائه العشرة ، وبعدما صار النقباء جميعا في تلك الكنيسة ، قام البنادقة العشرة والاساقفة بترتيل قداس روح القدس ، والتمسوا منه تسديد خطاهم في سبيل اختيار الرجل الذي يصلح لمنصب الامبراطور .

١٩٩ ــ وبعد الفراغ من الصلاة اجتمعوا وراحوا يتشاورون ويستعرضون اسماء الرجال واحدا واحدا ، حتى استقر قرارهم جميعا بنادقة واساقفة ورعاة ابيرة على ان يكون الامبراطور هو كونت فلاندرز ، ووافقوا على ذلك دون معارضة احد .

٢٠٠ ــ وعندما فرغوا من عملية الاختيار ، واوشكت مهمتهم على الانتهاء ، اوكلوا الى اسقف سواسون مهمة الاعلان باسمهم ، وبعد هذا اجتمع رجال الجيش جميعا لسماع قرار النقباء ولمعرفة اسم الذي سيتولى الامبراطورية ، وبعدما ساد الهدوء وانصت الجميع ، وخشي غالبيتهم لابل فزعوا من اعلان الماركيز امبراطورا ، وذلك على عكس الذين ايدوه فهؤلاء عاشوا في خوف شديد من تسمية واحد سواه .

٢٠١ ــ وفيما هم وقوف ينتظرون في هدوء شامل اعلان القرار ، وثب اسقف سواسون واقفا على قدميه واعلن قائلا : « ايها السادة ، لقد وقع اختياركم علينا بالاجماع للقيام بهذا الانتخاب ، وقمنا بالفعل بانتخاب واحد عرفنا نحن انفسنا انه رجل مناسب وكفء لهذه المرتبة ، وانه وحده الذي بامكانه تحمل اعباء الحكومة اذا عهدت اليه ، لانه خير من قدر على تنفيذ القانون ، فضلا عن انه من اصل نبيل وسمعة طيبة ، وهاكم اسمه : انه الكونت بلدوين كونت فلاندرز .

وعندما سمع الفرنجة اسمه عمهم السرور وابتهجوا ، ومع هذا وجد من حزن كثيرا ، وشعر بالاحباط وهم انصار الماركيز .

٢٠٢ ــ واثر اتمام عملية الانتخاب وتسمية بلدوين امبراطورا ، انطلق به البارونات وقادة الفرنجة الذين فرحوا بانتخابه فرحا شديدا ، وقصدوا قصر بوكليون وهم في اقصى حالات البهجة ، وعندما التأم شمل جميع القادة والبارونات حددوا يوما لتتويج الامبراطور ، ولدى حلول اليوم المقرر امتطى الاساقفة ورعاة

الاديرة والبارونات وزعماء البنادقة وكبار القادة من الفرنجة صهوات جيادهم ، وتوجهوا يؤمون قصر بوكليون ، ومن هناك حملوا الامبراطور الى كنيسة اياصوفيا ، وهناك قادوه جانبا وادخلوه حجرة خاصة حيث خلعوا عنه ملابسه الخارجية ، ثم البسوه حذاء فاخرا لونه ارجواني وقد غطي بالاحجار الكريمة ، ثم البسوه سترة ثمينة جدا لها ازرار ذهبية من الامام والخلف امتدت من الذراعين حتى موضع النطاق ، ثم طرحوا عليه الرداء الامبراطوري ، وهو نوع من العباءة تتدلى الى اعلى الحذاءين ، هذا من الامام ، لكنها طويلة جدا من الخلف يمكنه ان يلفها عند وسطه ثم يلقي طرفها على ذراعه اليسرى وكانها سبحة راهب ، وكان هذا الرداء ثمينا ورائعا جدا ، وقد غطي كله بالاحجار الكريمة .

ثم القوا على اكتافه عباءة اخرى ثمينة جدا ، كانت ايضا مغطاة كلها بالاحجار الكريمة ، رسم عليها نسور جميلة ايضا من المجوهرات التي بلغ شدة بريقها حدا يخيل لرائيها ان العباءة كلها تتقد .

٢٠٣ ـ وبعدما البسوه على هذه الشاكلة قادوه الى المذبح ، وكان في تلك الاثناء الكونت لويس يحمل علمه الامبراطوري ، بينما حمل كونت سانت بول سيفه ، وحمل الماركيز تاجه ، وكان هناك اسقفان حملا سلاح الماركيز لحمله التاج ، واسقفان اخران سارا على جانبي الامبراطور .

وكان البارونات جميعا قد ارتدوا اثمن مالديهم من ثياب ، ولم يكن هناك واحد من الفرنجة او البنادقة الا وكان مرتديا ثوبا من السندس او الحرير .

٢٠٤ ـ ولدى وقوف الامبراطور امام المذبح جثا على ركبتيه ، وهنا خلعوا عنه اولا العباءة ثم فكوا الازرار الذهبية للسترة من الامام ومن الخلف حتى بات وسطه الاعلى عريانا ، فمسحوه

بالزيت ، حتى اذا فرغوا من ذلك البسوه السترة ذات الازرار الذهبية ثانية ، ثم قلدوه رنكة وبعد ذلك شدوا العباءة على كتفيه .

٢٠٥ ـ وبعدما فرغوا من الباسه ، حمل الاسقفان التاج ووضعاه على المذبح ، ومضى جميع الاساقفة ورسموا عليه علامة الصليب ، ثم وضعوه على راسه ، وعلقوا على رقبته جوهرة ثمينة جدا ، لتكون قلادة ، وكان الامبراطور مانويل قد ابتاعها من قبل باثنين وستين الف مارك .

وبعد الفراغ من التتويج اجلس الامبراطور على عرش مرتفع ظل جالسا عليه طوال وقت ترتيل القداس ، وهو ممسك الصولجان باحدى يديه وفي اليد الاخرى كرة ذهبية عليها صليب وكانت الجواهر التي يحملها اثمن من اية نخائر يمكن لملك امتلاكها .

٢٠٦ ـ وبعد الفراغ من تلاوة القداس جلبوا له فرسا ابيض فامتطاه ، ورجع اثر ذلك الى قصر بوكليون ، وهو القصر الامبراطوري ، وهناك اجلسوه على عرش القسطنطينية ، ثم قدموا له الولاء على اعتبار انه الامبراطور ، وانحنى امامه جميع الاغريق الذين كانوا هناك على اعتبار انه الامبراطور المقدس ، ثم مدت الموائد بالقصر ، وجلس الامبراطور والبارونات لتناول الطعام ، وبعد مافرغوا من تناول الطعام انصرف البارونات جميعا ، وعادوا الى بيوتهم ، اما الامبراطور فقد بقي في قصره .

٢٠٧ ـ وبعد هذا بأيام اجتمع البارونات ، وقرروا فيما بينهم وجوب توزيع الذخائر المستولى عليها ، ولم يكن قد وزع منها شيء سوى الاواني الفضية العادية مثل الاباريق الفضية التي اعتاد نساء المدينة على حملها معهن الى الحمامات ، فنال كل فارس وخيال وجندي ، بل حتى النساء والاطفال نصيبه منها .

٢٠٨ ـ واعلن في ذلك اليوم الليوم دي كلاري ، الراهب الذي

سبق لي ان ذكرته ، والذي كان عظيما جدا في بابه ، وقام بكثير من اعمال البطولة الخارقة ، حسبما تحدثنا من قبل ، اعلن انه يريد ان ياخذ نصيبه مثل نصيب احد الفرسان ، واعترض بعضهم على طلبه وقال : ليس من الحكمة ان يكون نصيب الراهب مثل نصيب الفارس ، لكن الليوم اصر على موقفه ، فهو يمتلك فرسا ولديه درعا ، شانه بذلك شان بقية الفرسان ، ثم لانه قام بكثير من اعمال البطولات الحربية ، لاتقل عن اعمال اي فارس بالجيش ان لم تزد عليها ، وبعد شيء من الجدل قضى كونت سانت بول ان ينال الليوم مثل نصيب فارس ، لانه قام باعمال بطولة وفروسية ارفع مما قام به اي واحد من الفرسان الثلاثمائة ، فهذا ما شهد به كونت سانت بول ، ولهذا هو يستحق ان يكون سهمه مثل سهم اي واحد من الفرسان .

٢٠٩ ــ وبذلك برهن هذا الراهب وقدم الدليل على ان الرهبان يجب ان تكون حصصهم مثل حصص الفرسان ، وبناء على ذلك جرى توزيع الاواني الفضية العادية كما سبق لي وتحدثت ، اما بقية انواع الغنائم ــ وكان هناك الكثير منها ، مما يخلب الالباب ــ فقد بقيت بلا قسمة ، وقد عهد بحراستها الى عامة الجيش ، بقيادة فئة من الناس خيل اليهم انهم امناء في الاشراف عليها .

٢١٠ ــ وبعد فترة وجيزة بعث الامبراطور في طلب كبار البارونات ودوج البندقية ، وكونت لويس وكونت سانت بول واعيان القادة الاخرين ، واعلمهم انه يرغب بالخروج على راس حملة يستولي بها على بعض البلدان ، فاتفقوا على تعيين الذين سيذهبون معه والذين سيبقون في المدينة لحراستها ، وكان هؤلاء دوج البندقية والكونت لويس ومعهما بعض رجالهما .

٢١١ ــ وكذلك بقي الماركيز ، وكان قد تزوج من ارملة الامبراطور اسحق السالف الذكر ، وهي كانت اخت ملك الهنغار ، وعندما راى الماركيز الامبراطور على نية الخروج والاستيلاء على

البلاد ، جاء اليه وطلب منه اقطاعه مملكة سالونيك ، وهي مملكة تبعد عن القسطنطينية مسافة خمسة عشر يوما ، ولم يستجب الامبراطور ، ورفض تلبية طلبه قائلا : انه ليس من حقه القيام بذلك ، لان بارونات الجيش والبنادقة يمتلكون الشطر الاكبر من هذه المملكة ، واوضح له انها لو كانت ملك يمينه لمنحها له عن طيب خاطر وبكل سرور ، ولكن ليس بامكانه اقطاعه ما تعود ملكيته لبارونات الجيش والبنادقة .

٢١٢ ـ وعندما راى الماركيز ان ليس بامكانه اقتطاع هذه المملكة غضب غضبا شديدا ، وخرج الامبراطور بعد هذا ، وتوجه الى الناحية التي كان على نية قصدها ، واصطحب معه جميع رجاله ، واستسلمت له جميع القلاع والمدن التي وصل اليها بدون مقاومة وتسلم مفاتيحها وقدمت مواكب الرهبان ورجال الاكليروس وهي في البستها الدينية وقدمت له الولاء ورحبت به ، وسجد له الاغريق على اعتبار انه الامبراطور المقدس ، وابقى الامبراطور حاميات في المدن والحصون التي دانت له ، وفي الحقيقة استولى على البلاد التي تمتد الى مسافة خمسة عشر يوما من القسطنطينية، اي انه بات على مسيرة يوم واحد من سالونيك .

٢١٣ ـ وبينما كان الامبراطور مشغولا بالاستيلاء على البلاد خرج الماركيز من القسطنطينية واصطحب معه زوجته وجميع رجاله ، ووصل حتى اقترب من معسكر الامبراطور قبل توجهه الى سالونيك ، فلقد عسكر على مسافة تقرب من فرسخ منها ، واثر ذلك انفذ رسلا من قبله الى الامبراطور حملوا اليه رسالة قال فيها : انه يعد ارض سالونيك ارضا له ، هو ملكها ، وعليه ان يعلم علم اليقين انه ان دخلها لن يكون بعد اليوم صديقا له ، ولاطاعة له عليه ابدا ، ولهذا الافضل له ان يعود الى القسطنطينية لينظر الى ما فيه فلاحة .

٢١٤ ـ وعندما سمع البارونات الذين كانوا مع الامبراطور بفحوى الرسالة التي بعث بها الماركيز سخطوا عليه اشد السخط ، وغضبوا وتألموا غاية الالم ، وبعثوا الى الماركيز برسالة جوابية بينوا فيها انهم سيذهبون الى سالونيك بكل تأكيد ، ليس بسبب رسالته ، بل بسبب اخر هو ان البلد ليس بلده ٠

٢١٥ ـ وبعدما سمع الماركيز هذا الجواب ، انعطف عائدا ، فاستولى على احدى المدن التي كان الامبراطور قد شحنها بحامية صغيرة ، واستولى عليها غدرا ، وترك بها حامية من قبله ، ثم قصد مدينة ادرنة التي كان الامبراطور قد ترك بها حامية من رجاله ، وحاصرها واعد مجانيقه لقذفها ، لكن اهلها قاوموه .

٢١٦ ـ وعندما أدرك أنه غير قادر على الاستيلاء عليها بقوة السلاح ، خاطب المدافعين عنها والواقفين على أسوارها قائلا :« مارأيكم ايها السادة ، الا ترون ان هذه السيدة كانت زوجة الامبراطور اسحق » وقدم زوجته التي خاطبتهم بقولها :« انظروا الي وتمعنوا جيدا ، الا تعرفون انني الامبراطورة ، ثم لعلكم تذكرون ولدي اللذين انجبتهما من الامبراطور اسحق ،؟ثم عرضت امامهم ولديها ، فرد عليها واحد من عقلاء المدينة بقوله :« نعم نحن نعرف حق المعرفة انك كنت زوجة الامبراطور اسحق ، وان هذين ولداه » فقال الماركيز : حسنا ، فلماذا لن لاتعينون واحدا من هذين الغلامين سيدا عليكم ؟ فرد عليه الرجل : سأبين لك السبيل ، ينبغي عليكم الذهاب الى القسطنطينية ، وتتويجه فيها ، حتى اذا قعد على عرش القسطنطينية ، وعرفنا ذلك ، وقتها نتصرف حسبما يحتم علينا الواجب ان نفعل .

٢١٧ ـ وفيما الماركيز مشغولا بهذا العمل كان الامبراطور قد ذهب الى سالونيك والقى عليها الحصار ، وكان الجيش يعاني من شح بالخبز ليس لديه مايكفي اكثر من مائة رجل منه ، لكن وجدت وفرة باللحم والنبيذ ، ومهما يك من امر ، لم يطل حصار

الامبراطور للمدينة ، اذ مالبثت ان استسلمت له ، فتوفر لديه ماكان الجيش بحاجة اليه من طعام وشراب ولحوم ، ثم خلف بها حامية مناسبة ، وقرر عدم متابعة اعمال توسعه بل أن يعود الى القسطنطينية .

٢١٨ ـ ونزلت بالجيش مصيبة كبيرة حزن لها حزنا عظيما ، فقد مات مولاي الكونت بيتر الدمياني ، وكان رجلا طيبا ، وقد وافاه اجله وهو على طريق العودة في مدينة اسمها لابلانش ، وهي مجاورة لمدينة فيلبه التي ولد فيها الاسكندر ، هذا ومات ايضا في هذه الرحلة خمسون فارسا .

٢١٩ ـ وبينما كان الامبراطور عائدا ، عرف بما قام به الماركيز ، بالاستيلاء على احدى مدنه غدرا ومركزته حامية من رجاله فيها ثم حصاره لمدينة ادرنة ، وبعدما عرف الامبراطور بهذا ومعه بارونات الجيش غضبوا جميعا اشد الغضب وتألموا كثيرا فوجهوا انذارا الى الماركيز واتباعه ، انهم سيبيدونهم عن بكرة ابيهم ، ولن يتركوهم احياء مالم يرعووا وينضموا اليهم بعدما يثوبوا الى رشدهم .

٢٢٠ ـ وعندما عرف الماركيز ان الامبراطور هو على طريق العودة ، خاف خوفا عظيما واضطرب وتولاه القلق ، وشعر بمغبة مااقترفه ، والتبست عليه الامور ، واقدم اخيرا على مراسلة دوج البندقية والكونت لويس وبقية البارونات الذين مكثوا في البندقية ، يخبرهم انه يضع نفسه تحت حمايتهم ، وانه على استعداد ـ بوساطتهم ـ لاصلاح ماأحدثه من اضرار ، فهذه كانت الوسيلة المجدية امامه .

٢٢١ ـ وبعدما سمع الدوج والبارونات في القسطنطينية ، ان الماركيز يريد جادا اصلاح ذات البين بينه وبين الامبراطور بوساطتهم ، بعثوا اربعة من الرسل الى الامبراطور ، واعلموه ان

الماركيز قد التجأ اليهم راغبا بوساطتهم ، وتمنوا عليه الا يلحق بـه او برجاله اية اضرار .

٢٢٢ ـ وعندما اطلع بارونات الجيش وفرسانه على محتوى هذه الرسالة ، اجابوا أن مامن أحد يمكنه الحيلولة بينهـم وبين الحـاق السوء بالماركيز وفضح ماقام به هو ورجاله ، والفتك بهم إذا أتيحت لهم الفرصة ، ولم يقبلوا بمهادنة الماركيز إلا بعد وقـت ووسـاطات صعبة .

٢٢٣ ـ ثم عاد البارونات إلى الرسل فسألوهم عن الاحـوال في القسطنطينية وعن احداثها ، فأعلموهم أن كل شيء فيها يسـير على مايرام ، وأخبروهم ايضا انهم قد تقاسموا المدينة ومابقي فيها مـن ذخائر ، وهنا انبرى نحوهم الفرسان وفقراء أفراد الجيش قائلين : كيف فعلتم ذلك ، ومن الذي سمح لكم بتوزيع غنائمنا التي قـاسينا حتى حصلنا عليها ؟ فقد تحملنا المتاعب التي لاحصر لهـا وشـقينا كثيرا ، وبردنا وعطشنا وكابدنا من الحر والقر ، لقد استوليتم على حصصنا ، لقد غدرتم بنا وخنتونا ، لاشك أنكم خونة ، واندفع بعض القوم نحوهم وكلهم رغبة بالفتك بهم .

٢٢٤ ـ وأخيرا تداول الأمبراطور مع قادة الجيش حـول هـذه المسألة ، وتناقشوا معهـم وحـاولوا إصـلاح ذات البين بقـدر المستطاع ، ثم عاد الجميع ادراجهم إلى القسـطنطينية ، حتـى إذا حلوا بها ، لم يتمكن أي واحد منهم النزول ببيته ، فقد انتزعت هـذه البيوت منهم اثناء غيابهم لأن المدينة أعيد تقسيمها ، واتخذ أخوانهم منازل لهم في أماكن جديدة ، وهكذا توجب عليهم إيجاد بيوت جديدة لهم في أماكن نائية بعد فرسخ أو فرسخين من الأماكن التي سكنوها قبل سفرهم .

٢٢٥ ـ وفاتني أن أقص عليكم خبر المحنة التـي تعـرض لهـا مولاي اللورد بطرس دي بـراشو ، فقد حـدث أنه عندمـا كان

الامبراطور هنري في إحدى حملاته ، أغار يوحنا الوالاشي والكومان على الأراضي الأمبراطورية ، وعسكروا على مسافة فرسخين او أقل من معسكر الامبراطور ، وكانوا قد سمعوا الكثير عن مولاي بطرس دي براشو وعن فروسيته وقوته ، فبعثوا إليه في أحد الأيام رسالة مع مجموعة من الرسل استزاروه فيها فقد أعلموه أن لديهم رغبة جامحة في التعرف إليه ومحادثته لبعض الوقت ، وأعطوه عهدا بالامان ، وأجابهم مولاي اللورد بأنه يرحب بالالتقاء بهم في معسكرهم ومحادثتهم إن هم منحوه الامان على حياته .

٢٢٦ ـ وبناء عليه بعث الوالاشيون والكومان رهائن معتبرة إلى معسكر الامبراطور لضمان سلامة عودة مولاي اللورد بطرس ، وامتطى اللورد بطرس جوادا مطهما ، وانطلق وفي صحبته ثلاثة فرسان ، ولدى دنوه من معسكر الولاشيون عرف يوحنا الوالاشي بخبر قدومه فخف للترحيب به وسار معه عدد من كبار رجالات والاشيا ، وقد استقبلوه بحفاوة كبيرة ، وراحوا ينظرون اليه بتمعن ، فقد كان طويلا ممشوق القامة ، ثم اخذوا يتبادلون معه اطراف الحديث حول مختلف الامور حتى قالوا له في نهاية المطاف : ايها اللورد اننا معجبون بفروسيتك ايما اعجاب ، غير اننا نتساءل كثيرا عن الذي دفعكم الى القدوم الى هذه البلاد وغزوها مع انكم من بلاد بعيدة ، فهل ياترى ضاقت بكم ارضكم في بلادكم ولم تعد قادرة على استيعابكم وتأمين سبل العيش لكم ؟

٢٢٧ ـ فأجابهم مولاي اللورد بطرس : كيف تتساءلون عن هذا ، او لم تسمعوا عن الاستيلاء على طروادة العظيمة ، والحيلة التي اعتمدوها للاستيلاء عليها ؟ فأجابه الوالاشيون : نعم سمعنا بذلك ، ولكن هذا حدث منذ زمن بعيد ! فقال بطرس : لابأس ، لقد كانت طروادة ملكا لاجدادنا ، وكانوا الذين نجوا منهاقد مضوا الى بلادنا حيث نعيش ، ومن هذه البلاد قدمنا الان لنسترد ملك اجدادنا ، وبعد هذا استأذنهم بالانصراف وعاد الى المعسكر .

٢٢٨ ــ وعاد الامبراطور الى القسطنطينية ومعه البارونات ، وذلك بعد السيطرة على بلاد واسعة فيها قرابة ستين مدينة مع عدد كبير من القلاع والقرى ، وبعد العودة شرع القوم في تقسيم القسطنطينية ، فاختص الامبراطور بربع منها ثم تم تقسيم الثلاثة ارباع المتبقية مناصفة بين الحجاج والبنادقة .

٢٢٩ ــ ثم استقر الراي على تقسيم البلاد التي تم الاستيلاء عليها ، فنال كبار البارونات حصصهم اولا ، ثم تلاهم كبار القادة وهكذا ، ونال النصيب الاكبر من الارض اكبرهم ثروة ، فارفعهم مكانة ، واكثرهم اتباعا في الجيش ، وهكذا كانت حصة بعضهم اقطاع مائتي فارس ، وبعضهم الاخر مائة ، وفئة ثالثة سبعين ، فستين فاربعين فعشرين فعشرة اقطاعات ، ونال بعض ذوي المراتب الدنيا سبعة اقطاعات او ستة ، وساوت قيمة الاقطاع الواحد ثلاثمائة دينار من دنانير انجسو ، وقيل اثناء التوزيع لكل واحد من اصحاب المراتب : انت قد خصصت بكذا وكذا من الاقطاعات وانت سهمك كذا وكذا ، وستوزع انت الاقطاعات على رجالك وعلى غيرهم ممن يرغب في استقطاعها منك ، واما انت فستتملك هذه المدينة وانت تلك المدينة ، وانت تلك ، وكذلك البلدان التابعة لها .

وبعد ماعرف كل واحد من البارونات والقادة نصيبه ، انطلق كل منهم نحو ماآل اليه لتفقد اراضيه ومدنه ومشاهدتها ، وكل اقام نوابه وقواته حتى اقتضى الحال .

٢٣٠ ــ وصدف في احد الايام ان مولاي اللورد ثيري اخو الكونت دي لوس كان مسافرا لتفقد ارضه ، فالتقى صدفة ، في احدى الممرات بمرزوفلوس الخائن ، ولاادري الى اين كان متوجها، وكان في موكبه عدد كبير من السيدات والفتيات وسواهن وكان راكبا في ابهة كبيرة وفخامة عظيمة وكأنه احد الاباطرة محاط بحاشية كبيرة من الاتباع ، فما كان من مولاي اللورد ثيري الا ان

قصد نحوه ، ونجح في اعتقاله بالقوة ، وبعدما بات اسيره حمله الى القسطنطينية ، وسلمه الى الامبراطور بلدوين الذي بادر فامر بالقائه بالسجن وتشديد الحراسة عليه .

٢٣١ ــ وبعد ما ألقي مرزوفلوس بالسجن بعث الامبراطور بلدوين بطلب جميع باروناته واعيان الناس الذين كانوا في القسطنطينية ، للقدوم الى القصر والاجتماع به ، وفي احد الايام جاءه دوج البندقية والكونت لويس ، وكونت سانت بول وسواهم ، وبعدما مثلوا بحضرته حدثهم الامبراطور عن مرزو فلوس ووصف لهم كيف تم القاء القبض عليه ، وانه الان موجود في سجنه ، وسألهم ماذا يرون بشأن تقرير مصيره ، فاشار بعضهم بشنقه ، واشار اخرون بسحله في الطرقات ، ثم تكلم دوج البندقية وقال : ان مرزو فلوس اعظم من ان يموت شنقا ، ولابد ان يتناسب قرار الاعدام مع مكانة الرجل ، وبناء عليه اقترح عليكم ان يكون اعدامه وفق مايلي : في المدينة صومعتان عاليتان يبلغ ارتفاع كل منهن ثلاثمائة قدم او ثلاثمائة وستين ، وماعلينا الا ان نحمله الى قمة احداهن ومن ثم نقذفه الى الارض .

٢٣٢ ــ وكنت قد حدثتك من قبل عن هاتين الصومعتين ، حيث اعتاد الرهبان النساك الاقامة على قمتيهما ، وانه قد كتب على جدرانهما احداث القسطنطينية .

ووافق البارونات على اقتراح الدوج ، وحملوا مرزوفلوس الى واحدة من الصومعتين ، وارغموه على تسلقها بوساطة السلم الذي بداخلها ، حتى اذا وصل الى القمة قذفوا به نحو الارض فتحطم كليا ، وبهذه الصورة جرى الانتقام من مرزوفلوس الخائن .

٢٣٣ ــ وبعدما تم توزيع الاقطاعات حسبما حدثتك ، اخذوا يعملون على اصلاح ذات البين بين الامبراطور والماركيز ، واحلال السلام بينهما ، وقد اشتد لوم بعضهم للامبراطور لعدم دعوته كبار

البارونات لمساعدته في حل المشكلة التي تفجرت بينهما ، ومجددا طلب الماركيز مملكة سالونيك ، فمنحه الامبراطور اياها ، وبعد مانالها مضى اليها واصطحب معه زوجته وجميع رجاله ، وتسلمها من حاميتها وصار ملكا عليها .

٢٣٤ ـ ثم طلب مولاي الكونت هنري ـ اخو الامبراطور ـ لنفسه مملكة اندرميت ، الواقعة وراء مضيق البوسفور ، وذلك في حال تمكنه من الاستيلاء عليها ، فاستجاب الامبراطور لطلبه وبناء عليه قصدها مولاي الكونت هنري ومعه جميع رجاله ، وتمكن من الاستيلاء على جزء كبير من تلك المنطقة .

ثم طلب مولاي الكونت لويس مملكة لنفسه ، فاستجيب لطلبه ، وكذلك فعل مولاي كونت سانت بول .

٢٣٥ ـ وبعد هذا طلب مولاي الكونت بطرس دي براشو اقطاعه مملكة كانت اراضيها في ايدي المسلمين ، ووقعت قرب قونية ، وذلك في حال تمكنه من الاستيلاء عليها ، فاجيب مطلبه ، وهكذا توجه اليها ومعه جميع رجاله واستولى عليها واصبح ملكا عليها .

٢٣٦ ـ وهكذا طلب اغنياء البارونات وكبار القادة ـ اسوة بغيرهم ـ ممالك لانفسهم من الاراضي التي لم يكن قد تم الاستيلاء عليها بعد ، واستولى دوج البندقية والبنادقة على جزر كريت وكورفو ومودون وذلك بالاضافة الى مارغبوا بحيازته وتملكه ، ثم مالبث ان اصيب الجيش بفاجعة وخسارة كبيرة جدا وذلك بموت كونت سانت بول .

٢٣٧ ـ وبعد امد تمردت مدينة ادرنة على الامبراطور ، وكانت ادرنة احدى المدن التي استولى عليها الامبراطور ، وبعدما وقف على اخبار تمردها راسل دوج البندقية وطلب منه ومن كونت لويس وبقية البارونات تقديم العون له في استردادها ، واعلمهم انه عازم

على الزحف ضدها ومحاصرتها ، ورد عليه البارونات بالايجاب وابدوا استعدادهم عن طيب خاطر لمساعدته ، وهكذا تأهب هو وهم ومن ثم زحفوا ضدها ، وعندما وصلوا اليها القوا عليها الحصار ، وفيما هم معسكرون امامها اذا بهم يفاجئون في احد الايام برؤية يوحنا الوالاشي والكومان في جيش جرار ، قد زحفوا باتجاه القسطنطينية مثلما كانوا قد فعلوا من قبل ، وقد وجد هؤلاء الامبراطور وجيشه معسكرين امام ادرنة .

٢٣٨ ـ وعندما راى رجال الجيش الكومان وقد تدثروا بجلود مواشيهم ـ لم يعبأوا بهم واستخفوا بهم ، ولم يخافوا منهم ، ولم يقيموا لهم اعتبار اكبر مما يعطى لفرقة من الصبيان غير أن الذي حدث هو ان هؤلاء الكومان ،أو بالحري هذا القطيع ، انقضوا بسرعة خاطفة على الفرنجة ، فقتلوا عددا كبيرا منهم وهزموهم جميعا في هذه المعركة ، وفي تلك الاثناء بحث القوم عن الامبراطور فلم يقفوا له على اثر ، ولم يعرف احد المصير الذي آل اليه ، كما وفقد ايضا الكونت لويس وكثيرون غيره من اعيان الرجال ومعهم حشد كبير لانعرف عدده ، علما ان عدد الفرسان الذين هلكوا كان ثلاثمائة .

٢٣٩ ـ وفر الذين نجوا من القتل الى القسطنطينية ، وفر ايضا دوج البندقية وفر معه كثيرون تخلوا عن معسكرهم واسلحتهم ، وتركوها كما هي امام المدينة ، لانهم لم يتجرأوا على الفرار عبر الطريق المار امام المدينة .

وكان عدد الذين هلكوا كبيرا ، وهكذا انتقم الرب من البارونات والقادة لسوء نواياهم ولتجبرهم ، وللمعاملة الخيانية التي عاملوا بها فقراء الجيش ، وللاثام المدمرة التي اقترفوها في المدينة بعد الاستيلاء عليها .

٢٤٠ ـ وبعدما فقد الامبراطور في هذه المعركة ، استولى

اليأس على البارونات ثم انهـم اجتمعـوا بعـد ذلك في احـد الايام وتشاوروا حول اختيار امبراطور جديد ، ثـم بعثـوا خلف مـولاي الكونت هنري اخي الامبراطور ، لتنصيبه امبراطورا خليفة لاخيه ، وكان الكونت هنري موجودا في ارضه التي استولى عليها فيما وراء مضيق البوسفور .

٢٤١ ـ وحين اطلع دوج البندقية ومن معه من البنادقة على رغبة البارونات بتتويج مولاي الكونت هنري امبراطورا ، تحفظوا تجـاه العملية ، ولم يعلنوا عن موافقتهم حتى شري رضاهم فحصلوا على ايقونة رفيعة لمولاتنا العذراء ، وكانت هذه الايقونة ثمينة وفـوق كل تقدير ، وكانت كلها محلاة بالجواهر الثمينة ، ويقول الاغريق انها اول ايقونة صنعت لمولاتنا ، وكان لهم اعتقاد هـائل بقـداستها ، ولذلك كانوا لايعدلون بها شيئا مهما كان ، واعتادوا على اخراجها والسير بها في موكب كل يوم احد من كل اسبوع ، فكانوا يتعبدونها ويقدمون اليها المنح الغالية .

٢٤٢ ـ اذن لم يوافق البنادقة على تتويج مـولاي الكونت هنري امبراطورا الا اذا نالوا هذه الايقونة ، ورضـخ القـوم واعطـوهم اياها ، وهكذا امكن تتويج مولاي الكونت هنري امبراطورا ، وبعد هذا تذاكر هو والماركيز ملك سالونيك واتفقا على ان يزوجه الماركيز ابنته ، وبالفعل تزوج منها ، غير ان هـذه الامبـراطورة لم تعمـر طويلا ، بل توفيت بعد امد قصير .

٢٤٣ ـ وعاث يوحنا الوالاشي واصـحابه الكومـان فسـادا في اراضي مملكة سالونيك التي كانت تابعة للماركيز ، وحـاول الماركيز التصدي لهم وحاربهم ، فقتل في المعركة وهزم رجـاله ، ومـن ثـم زحف الكومان ومعهـم يوحنا الوالاشي ضـد سـالونيك وحـاولوا الاستيلاء عليها ، ونصبوا الاتهم ضدها ، لكن ارملة الماركيز تولت الدفاع عن المدينة ومعها الفرسان وبقية الناس .

٢٤٤ ــ وكان في هذه المدينة جثمان مولاي القديس ديمتري ، وكان حاميا للمدينة لم يسمح قط بالاستيلاء عليها قسرا ، وهكذا طفح جسده بكميات كبيرة من الزيت ، وكان ذلك معجزه كبرى ، ثم انه فيما كان يوحنا الوالاشي نائما ذات صباح في خيمته جاء القديس ديمتري وطعنه في جسمه بحربة فقتله ، وعندما علم اتباعه والكومان بخبر مقتله قوضوا خيمهم وازالوا معسكرهم وكروا راجعين الى بلادهم ، والت المملكة بعده الى ابن اخيه واسمه بوريس ، فجرى تتويجه ملكا على والاشيا ، وكان لهذا الملك ابنة جميلة .

٢٤٥ ــ ولقد كان الامبراطور هنري امبراطورا صالحا طيبا ، لهذا شرع بالتشاور مع البارونات حول افضل السبل للتعامل مع الوالاشيين والكومان ، فقد ثابروا على شن الغارات على امبراطورية القسطنطينية ، فضلا عن انهم هم الذين قتلوا اخاه الامبراطور بلدوين ، واشار عليه البارونات ان يراسل بوريس ملك والاشيا الجديد ، ويخطب اليه ابنته للزواج منها ، ورفض الامبراطور هذا الاقتراح ، وبين انه لن يتزوج من فتاة لها مثل هذا الاصل الوضيع ، وتمسك البارونات باقتراحهم وقالوا : المصلحة تقضي ان تقوم بهذا يامولانا ، واننا نلح عليك أن تعقد السلم معهم فهم اقوى الشعوب واعنف اعداء الامبراطور وبلادها .

٢٤٦ ــ وطالت المداولات والمناقشات مع البارونات حول هذا الموضوع ، واخيرا استجاب الامبراطور وبعث بفارسين من اعيان رجالاته الى الوالاشيين بعدما البسهما افخم الثياب ، وعندما وصلوا الى هناك اراد القوم الفتك بهما ، غير انهما تمكنا من الاجتماع بالملك بوريس ، وتحدثا اليه ، فاستجاب واخبرهما انه سيرسل ابنته الى الامبراطور بكل سرور .

٢٤٧ ــ ثم جهز الملك بوريس ابنته افضل جهاز ، وزودها بأجمل الملابس ، وانفذ معها حاشية كبيرة ، ثم بعث بها الى الامبراطور ، وامر ان يسير بركابها ستين فرسا حملت بالكنوز

الفاخرة من الذهب والفضة والحرير والجواهر الثمينة ، وجلل كل واحد من الخيول بالسندس الارجواني الطويل الذي ينسحب مسافة سبعة اقدام او ثمانية وراءه ، ولم يحدث قط ان سارت الخيول في طرق موحلة وصعبة كالتي ساروا عليها نحو القسطنطينية ، ومع ذلك لم يتمزق اي ثوب من ثياب السندس ، بل وصلت كلها رائعة وبهية .

٢٤٨ ـ وعندما علم الامبراطور ان العروس باتت على مشارف القسطنطينية خرج لاستقبالها ومعه البارونات ، وقد رحبوا بها وبمن قدم معها اجمل ترحيب ، ثم تزوج الامبراطور منها .

وبعد امد قصير تسلم الامبراطور دعوة للسفر الى سالونيك للقيام بتتويج ابن الماركيز ملكا عليها ، واستجاب للدعوة وذهب الى سالونيك ، لكن بعدما فرغ من اعمال التتويج نزل به المرض ، فمات هناك مما احدث خسارة فادحة جدا ، واثار حزنا كبيرا

٢٤٩ ـ لقد اسمعتكم الصدق حول كل ماتعلق بالاستيلاء على القسطنطينية ، وحول اختيار بلدوين كونت فلاندرز امبراطورا لها ، ثم تتويجه عليها ، ومن بعده اخوه مولاي هنري .

ولقد شهد ذلك كله ، وسمع بكل ماجرى ، الفارس روبرت دي كلاري ، فهو كان حاضرا انذاك ، وقد املى الصدق حول الاستيلاء عليها .

٢٥٠ ـ ومع ان روبرت لم يتفنن في رواية احداث هذا الاستيلاء ، مثلما يفعل الراوي البارع ، غير انه تمسك بقول الصدق ولم يحد عن ذلك ابدا ، علما ان هناك كثيرا من التفاصيل والوقائع التي غابت عن ذهنه ولم يعد يتذكرها جميعا .

تاريخ المورة

الصليبيون كغزاة

رواميز

هـ = (نص كوبنهاغن من الحولية اليونانية)
ك = ب. كالونارس (النص المحقق من الحولية اليونانية)
ل = الترجمة الفرنسية للحولية تحقيق جين لوغنيون
ل.ف= الترجمة الارغوانية للحولية تحقيق ـ الفريد موريل
-ل.غ = ج . لوغنيون «الامبـــــــــــراطورية اللاتينية في القسطنطينية »
م = . ميلك اللاتين في المشرق
ب = (نص باريس من الحولية اليونانية)
س .=ج .شميت حولية موريا (النص المتحقق من الحــولية اليونانية)
ز = د .ز اكيسنيوس
أنظر ثبت المصادر من أجل التفاصيل الكاملة حول هذه الكتب

مدخل

مختصر تاريخي

في صباح ١٣ نيسان ١٢٠٤ وجد فرسان الحملة الصليبية الرابعة أنفسهم وقد استولوا على مدينة القسطنطينية وللمرة الثانية خلال عام انحنت هذه الدرة العظمى للنصرانية لغزاتها الأول ، ولثلاثة أيام نهبت المدينة دون رحمة ، ولكن في يوم أحد عيد الفصح ٢٥ نيسان تمت استعادة بعض مظاهر النظام ، وحتى بينما كان صدى الأناشيد الدينية المهيبة ما يزال يحلق فوق الكنائس الرومية ، يعلن للجماهير المذهولة نظاما جديدا وكنيسة أعيد توحيدها ، تحول قادة الحملة الصليبية الى المشكلة المعقدة ، مشكلة تنظيم امبراطوريتهم الجديدة.

ففي آذار كان قد اجتمع قادة الحملة الصليبية: بونيفيس ماركيز مونتفرات وبلدوين كونت فلاندرز وكونتابلوا وسانت بول مع حلفائهم البنادقة ، لتحديد استراتيجية الهجوم وتقسيم الغنائم. وتقرر أن تعطي الامبراطورية التي تم كسبها مجددا لامبراطور ينتخب من بين مرشحين مقترحين من قبل الصليبيين والبنادقة ، وأن تعطى البطركية وكل ممتلكاتها للخاسر ، وكان من المقرر أن توزع الأسلاب بالعدل حسب المنزلة ، وأن ربع الامبراطورية يعطي للامبراطور ، وان تقسم البقية بالتساوي بين البنادقة والصليبيين ، وإن تعين الاقطاعات : نصف من الأراضي التي سلف أخذها ونصف من الأراضي التي سيتم الاستيلاء عليها. وقدمت هذه المعاهدة للبابا انوسنت الثالث للموافقة ، وقد وافق عليها وقبل شروطها على مضض.

وحالما اجتمعت اللجنة لانتخاب الامبراطور ظهرت الشرذمة

والأهواء المتضاربة التي سببت النزاع بين جيوش الحملات الأولى ، وبعد جدال نشط ، انتخب بلدوين كونت فلاندرز امبراطورا لتسكين الحساسيات الثائرة ، وللمحافظة على السلام بين الصليبيين ، وكما خطط ، آلت البطركية وكل ممتلكاتها للبنادقة ، الذين عهدوا بها الى أحد ارستقراطيهم واسمه توماسو موروزيني ، دون أي استشارة للبابا ، الذي شعر برعدة فورية من الخوف ، وفي الاستهلال الأول لها رسخت امبراطورية القسطنطينية اللاتينية في حينهنمط الخلاف ، والطموحات المتنافسة التي كان لها أن تشكل ضعفها الدائم ، ولكن أي نذر كانت سرعان ماضاعت في الاثارة العامة عند تقسيم الاكوام المذهلة من الغنائم • وقد وزعها الامبراطور بالعدل ، ثم قام بمسح دقيق لأراضي الامبراطورية من أجل اجراء توزيع عادل للاقطاعات •

وفي هذه الأثناء تزوج بونيفيس من ماري أخت ملك هنغاريا ، وكانت ارملة شابة للامبراطور البيزنطي المتوفي اسحق انجيلوس وقد طلب من الامبراطور أن يستبدل أراضيه التي لم تكن أخذت بعد في الأناضول بمملكة سالونيك ، سواء لأنه كان يرغب في أن يكون أقرب الى أخي زوجته ، الذي قد يحتاج لمساعدته ، أم لأنه كانت لديه طموحات خاصة في إقامة مملكة البلقان. وكان بلدوين متشككا ولكنه أجرى الاستبدال ، وقسمت بقية الامبراطورية بشكل عادل ، وخصصت الاقطاعات ، وبناء عليه اندفع الجميع للاستيلاء على أراضيهم الجديدة وسار المركيز نحو الغرب مع عدد كبير من الاتباع من أفضل قوات الجيش.

وبالاضافة لاتباعه من جنوب ايطاليا ، اجتذبت منزلته وسمعته في الشجاعة الألمان مثل الكونت بيرتولد كانزينولبوغن والبورغانديين مثل غوليوم دي شامبليت ، واثون دي لاروش ، والبروفنساليين ، وحتى من الفلمنك ، والفرنسيين مثل جاك دي أفنس ، وتوماس دي اوترمنكورت ، واضافة لذلك كان له اتباع من الروم البيزنطيين بينهم ابن عم للبيت البيزنطي المالك القديم ، ميكائيل كومينوس

دوكاس ويبدو أن المركيز كان معجبا تمـاما بـه ويضـع فيه ثقـة عظيمة ، ولكن بأسرع ما أمـكنه فـر ميكائيل وشـق مـع أخيه ثيودوروس طريقه الى ابيروس حيث نظم الاغريق المحليين والالبان والفلاش مركزا للمقاومة الأغريقية في الغرب ٠

ووصل المركيز الى سالونيك بلا أي متـاعب ، وفي الواقـع لقـي تحية وترحيب وفرح في كل مكان من قبل الاغريق ، وقد ترك زوجتـه تتولى الدفاع عن المدينة وأخذ معه ابنها من زواجها السـابق الأمير الشاب مانويل وبدأ رحلة منتصرة نحو الجنوب ، وهو يبرز الشـاب في كل مكان ، وجرت له تحية حماسية في مقدونية ، وتيسلي ، كبطل عائد تقريبا وقد بايعته مـدن فيل أوف تـامب ، ولاريسـا ومـدن أخرى ، ولم يلق مقاومة حتى بلغ تيرموبيلي ، ويكمن تفسير هـذا التنقل الرائع لحقيقة انه حتى قبل أن تسقط الحـكومة البيزنطية في أيدي اللاتين كانت قـد فقـدت الى حـد كبير سـيطرتها على اليونان ، وقد استولى الأمراء الصغار ، والقـراصنة ، والحـكام المحليون ، وبعض العـائلات الاقـطاعية الكبيرة على البـلاد واحتجزوها لأنفسهم وسـحقوا أهـل المدن والمزارع تحـت عبء لا يطاق من الابتزاز ، وكان سقوط المدينة الاشارة لتدافع مجنون بين هؤلاء القادة الصغار ، ولا عجب أنه لم تكن هناك ارادة لمقاومة غاز آخر ، وفي الواقـع أن أهـل الأرض رأوا في اللاتين تحـولا ممـكنا للأفضل ، وكان أحد القادة الطغـاة الصـغار الذين اسـتولوا على السلطة اسمه ليون سغوروس ، وكانت ممتلكاته الاسـاسية حـول مدينة نوبليا ولكنه توسع في اتجاه الشـمال حتـى أرغوس وكورنث فيما وراء اثينا حيث أبدى المطران ميكائيل كونياتيس مقاومة عنيدة جدا حتى طيبه ولاريسا ، ومع تقـدم بونيفيس انسـحب ليون الى الجبال حول تيرموبيلي ليسد المدخل الى وسـط اليونان ، وعندمـا انهارت معنوياته هرب الى كورنث ليحمي المدخل الى البلوبونيز. أما المركيز الذي تتبعه بروية فقد لقي ترحيبا من طيبه وبـوويتيا ، ولم تكن اثينا كريمة جدا ولكنها لم تبـد مقـاومة ، وسـقطت يوبيا دون ضربة واحدة ، وفي النهاية وصل الى كورنث وحاصر سـغوروس في

معقل اكروكورنث ، حيث بنى قلعة صغيرة تدعى مونت اسكوفيه للتحكم في العملية ، وبترك جاك دي افنس مسؤولا عنها تقدم عندئذ جنوبا واحكم الحصار على نوبليا ، وكان حدث في هذا الوقت أن تلقى زيارة غير متوقعة كان لها أن تقرر تاريخ اليونان للقرنين التاليين.

وذهب جيوفري دي فيلهاردين ، ابن أخي مارشال شامبين ومؤرخ هذه الحملة الصليبية مباشرة الى سورية ولم يشترك في الهجوم على القسطنطينية ، ومثل الآخرين ممن فعلوا الشيء نفسه ، حالما سمع بتأسيس الامبراطورية اللاتينية أبحر الى القسطنطينية ، آملا أن يجد حظه. ودفعت الرياح المضادة بسفينته نحو الغرب وكان عليه أن يجد ملجأ في ميناء مودون في جنوب البلبونيز حيث تم الاتصال به وبرفاقه من قبل حاكم محلي اغريقي رغب في استخدام هذه القوة غير المتوقعة في توسيع اراضيه وأدت الفائدة المأمولة بجيوفري الى الانضمام الى الاغريقي ، حيث غزوا معا كل غرب البلبونيز حتى باتراس في الشمال ، ويجب ملاحظة أن تلك الأراضي كانت قد خصصت من قبل للبندقية ، وعند هذه المرحلة توفي الاغريقي ، واغلق ابنه — القليل الثقة باللاتين — كل المدن في وجوههم وحرض الاغريق ضدهم ، وإذ وجد نفسه في أراضي معادية ، ولسماعه بوصول بونيفيس الى البلبونيز ركب جيوفري في مخاطرة عظيمة عبر شبه الجزيرة الى نوبليا لالتماس المعونة وسر المركيز برؤيته ودعاه لينضم الى جيشه ، ولكن جيوفري وجد صديقا قديما ، هوغوليوم دي شامبليت في الجيش فاقنعه بالحاح بالعودة الى الغرب لغزو المورة ووعده بان يكون الرجل التابع له في أي أرض قد يخصصها غوليوم له.

وبناء عليه ، وبينما كان جاك دي افنس في كورنث والمركيز في نوبليا ، بدأ الرفيقان مع نحو من مائتي فارس وأربعمائة من المشاة مغامرة مدهشة في غرب البلبونيز وبدون أي أزعاج استوليا على اقليم بعد اقليم ومدينة بعد مدينة ، حتى وجدا نفسيهما في أقصى

الجنوب في مودون ، فحصنا المدينة وشقا طريقهما في المناطق الجبلية لسينيا ، وآركاديا ، ولاقونيا .

وباختصار سقطت في أيديهما كل شبه الجزيرة تلقائيا وقاما بتقسيم كبير للأرض.

واوجدا أثنتي عشرة اقطاعية كبيرة ، عينت للبارونات ، وخصص لكل واحد من هؤلاء التابعين ، والفرسان ، والمشاة ، وأعطي لكل منهم اقطاعية. وأعطيت المراتب الدينية : الاستباريه والداوية والاساقفة أراضي ، ومن اجلها كانوا مدينين بالخدمة العسكرية ، ولكن ليس بمهمة الحاميات ، وفي الواقع كانت الأرض كلها على قدم الاستعداد للحرب ، وكان ينتظر من الاتباع أن يؤدوا الخدمة العسكرية على مدار السنة ، اربعة شهور في الميدان ، واربعة شهور في مهام الحاميات ، واربعة شهور في بيوتهم تحت الطلب ، حيث أنه لم يكن بمقدور أحد أن يترك الأرض دون أذن ، وحتى أصحاب المقام الرفيع من الاغريق كان لهم مكان في النظام الاقطاعي والذين خضعوا احتفظوا بأراضيهم وكان لهم مثل الفرنجة الحقوق والواجبات نفسها ، وبقيت الترتيبات مع الفلاحين في الأرض دون تغيير ، ولكن في الواقع تحسنت الظروف بالنسبة لهم مع استعادة السلام والنظام وتوقف الابتزاز الساحق لحكام الاغريق وصفاتهم . وضمن اعتدال وتسامح الأمراء الفرنجة الجدد تأييد الاغريق ، مما جعل الاستيلاء أسهل وحقق الرخاء العام ، وحمل الحاكم الجديد للأرض كلقب رسمي له اللقب المميز ، أمير آخيا ، ولكنه شعبيا كان يسمى أمير المورة ، حيث كان لقب أمير غير عادي في العصور الوسطى ، وفريد في الامبراطورية اللاتينية ، وملك الأمير وباروناته اراضيهم بحق الاستيلاء ، ولكن من الناحية الفنية ، طلب غوليوم دي شامبليت الاذن من المركيز دي مونتفرات ليمضي في مغامرته ، ويبدو أن الأذن قد رسخ نوعا من السيادة على المورة •

وكان المركيز في هذه الاثناء يقيم النوع نفسه من النظام في كل اليونان . فأعطى اثينا لاوثون دي لاروش الذي أخذ لقب دوق اثينا . ولكن كان الشائع تسميته من قبل الاغريق بالسيد العظيم . وأعطيت طيبه في البداية لايطالي يدعى البرتينو دي كانوسا مع أنها سرعان ما نقلت الى اوثون . الذي اضافها الى اقطاعيته ولقبه ، وذهبت تيرموبيلي الى نبيل ايطالي آخر هو المركيز غويدو بيلافسينو واصبحت مركيزية بودونيتزا الشهيرة. وأعطيت الأراضي حول دلفي ، الممتدة الى خليج كورنث ، إلى توماس دي اوترمنيكورث الذي أسس إمارة سالونا هناك ، واكمل تخصيص يوبوا أولا لجاك دي افنس ، ثم لرافان دال كارسيري وهو نبيل من فيرونا وبهذا اكملت الترتيبات بالنسبة لليونان المركزية ، وقسم شمال اليونان مثل ذلك بين الاتباع الكثيرين للمركيز ، مع أن كثيرا من المدن بقيت له كقلاع ملكية ، ومن الغريب انه لم يأخذ لقب ملك ، وكان يدعى أمير مملكة سالونيك أو ببساطة ماركيز مونتفرات.

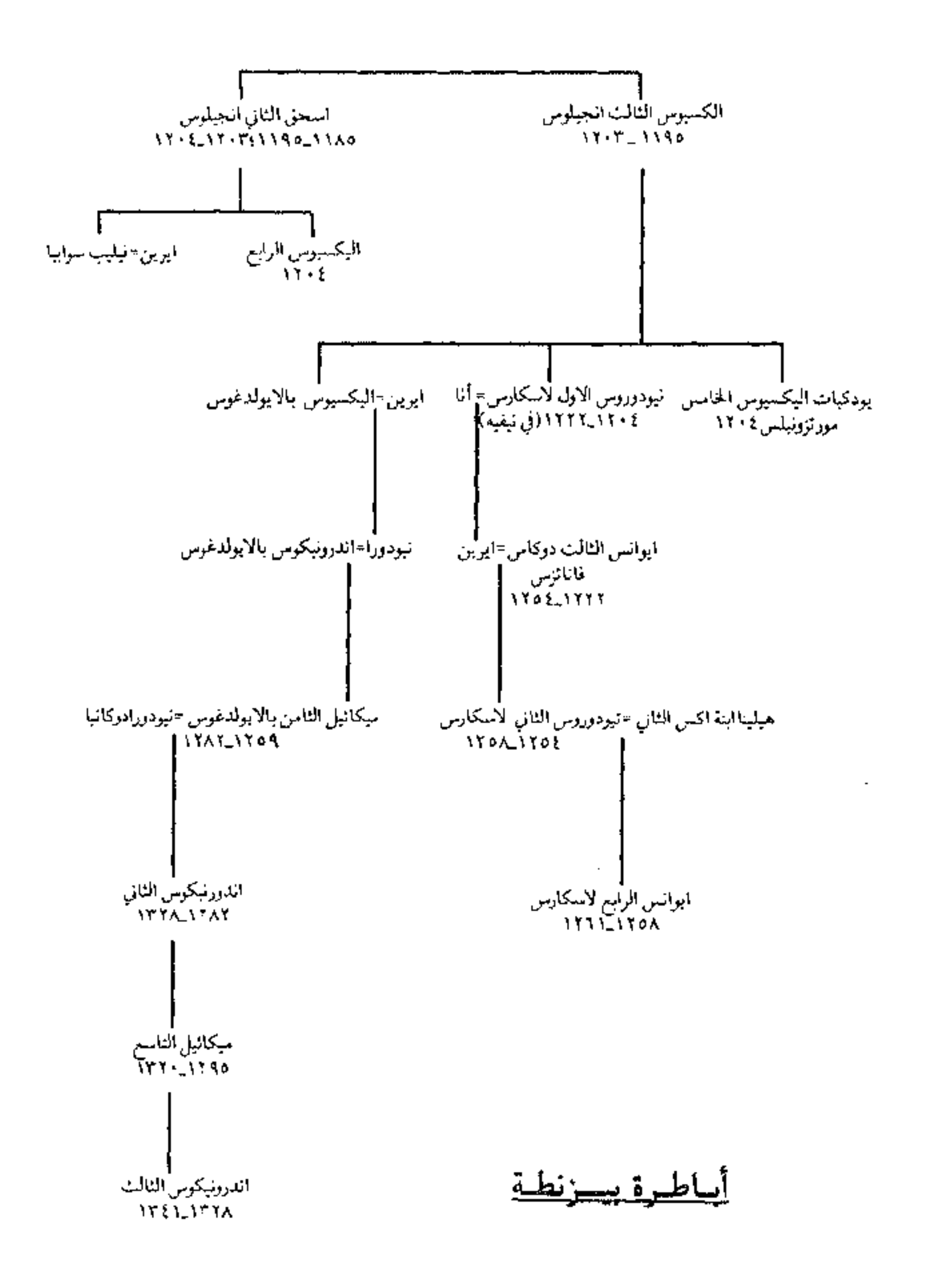
وبينما تم تنظيم القسم الغربي من الامبراطورية ، بدأت البندقية باحتلال النقاط التي اختارتها لنفسها على طول سواحل اليونان وعلى جزر البحر بين الايوني والايجي واما ما حدث لبلدوين فإنه ما أن توج في ابهة في كنيسة الحكمة المقدسة (أيا صوفيا) حتى قاد حشدا من الصليبيين الى الاناضول. وكانت مقاومة الامارات الاغريقية الصغيرة في المنطقة قد ذابت امام التكتيكات المتفوقة والتصميم للفرسان الغربيين. وبدأ مركز رئيسي للمقاومة الرومية على أي حال يتشكل حول تيودور لاسكارس ، وهو صهر الامبراطور الكسيوس الثالث وبطل الدفاع عن القسطنطينية ، وقد اقيم قرب نيقية وشرع المطارنة الاغريق وأصحاب المقامات الرفيعة في الانضمام إليه هناك .

وما أن قسمت الارض بين اللاتين حتى قامت مشكلة التنظيم ، ولو أن مثال الفرنجة في المورة في تعاملهم مع الاغريق قد اتبع لسار كل شيء بشكل جيد ، ولكن لسوء الحظ أن الامبراطور بلدوين قد

أخفق تماما في تطوير سـياسة قـابلة للتـطبيق على رعاياه مـن الأغريق . وقد أدى تعاليه الطبيعي وترفعه به إلى رفض كل عروض المسـاعدة مـن نبـلاء الأغريق ، وإلى رفض إشراكهـم في البيئة الاقطاعية اللاتينية للدولة . وقد أصبح هؤلاء النبلاء الساخطون نواة المقاومة الأغريقية ، وبحثوا عن المساعدة مـن المركزين الأغريقيين الحرين في ابيروس ونيقية ، لابل إنهم حتـى تـطلعوا إلى أعدائهـم القدامى البلغار من أجل التحرير .

أما بالنسبة للسواد الأعظم من الناس فقـد اتخـذوا في البـداية موقفا أكثر مودة نحو اللاتين .

ومعهم أبدى بلدوين تفهما أكثر ذكاء وسماحة بجعل الأحـوال في الأراضي تستمر دون تغيير هام ، ولكن هنا أيضا ثارت روح المقاومة الاغريقية في أعقاب محاولات النظـام الجـديد فـرض اتحـاد بين الكنيستين . وكان الأغريق قد حددوا مـن قبـل حـرياتهم الفـردية والدينية مع طقوس كنيستهم ، ومع أن الأساقفة والمطارنة قد هربوا من مراكزهم في وقت الغزو فإن أعضاء المراتب الدنيا في الأكليروس بقوا ، وحاول اللاتين وضـع هؤلاء تحـت السـيطرة الرومـانية ، واعترف البابا بحساسية المشكلة ، وكان الامبراطور أحيانا يفعـل ذلك ، ولكن الاغريق قاوموا بشكل متزايد كل العـروض المقتـرحة . وتمسكوا بكنيستهم بحمـاس عنيد وتـطلعوا بشـوق إلى مصـادر التحرير نفسها التي اجتذبت زعماءهم . وتفـاقمت الحـالة بسـبب نقص البراعة الشخصية والتكتيك من جـانب كثير مـن الصـليبيين ولاسيما البنادقة ، الذين اخـذوا أدرنة كجـزء مـن حصـتهم من الامبراطورية وقد قامت هناك ثورة في شباط ١٢١٥ ، وبسرعة سقط معظم تـراقية في أيدي المتمـردين الأغريق . ومـع تقـدم الأمبراطور باتجاه الغرب مع جيش ضعيف بشكل قاتل كان مكونا في غالبيته من أتباعه الذين دعوا من أراضيهم في آسية الصغرى ناشـد الاغريق كالوجان قيصر البلغار وطلبوا منه المساعدة .



أباطرة بيزنطة

وكان هذا الزعيم البلغاري قد سعى قبل الحملة الصليبية الرابعة للتخلي عن الولاء للأمبراطور البيزنطي واتجه نحو البابا من أجل المساعدة ، وبعد اتصالات مطولة مع انوسنت الثالث الذي كان يأمل في اختراق البلقان وفتح طريق جديد إلى سورية من أجل الحركة الصليبية ، تم التوصل إلى اتفاقية في ١٢٠٣ وبنصوصها جعل رئيس أساقفة لاتيني ، كبير أساقفة لبلغاريا في أيلول ١٢٠٣ وفي شباط ١٢٠٤ اعترف البابا بكالوجان ملكا للبلغار والولش وبروح هذا التفاهم عرض كالوجان خدماته فيما بعد على الصليبيين في غزوهم للامبراطورية ، ورفضوا عرضه بطريقة متعالية بشكل مميز وقاسية وبمعاملته كتابع ، طالبوه بالبيعة للأمبراطور عن أراضيه ، وفي ثورة الغضب تخلى كالوجان عن صداقته للاتين وأصبح عدوهم الحاقد ، وكان هذا الرجل هو الذي جاء الآن لمساعدة الروم مع جيش كبير ضم بين قواته مايزيد عن ١٤٫٠٠٠ من المرتزقة الكومان .

والتقى الجيشان قرب أدرنة ، وغلب اللاتين ، وأسر الأمبراطور وتوفي مؤخرا بشكل غامض في السجن . وتسللت بقايا القوات عائدة نحو العاصمة ، حيث تولى رئاسة الدولة أخو بلدوين هنري دي هينوت .

وكان حكم هنري / ١٢٠٦ ـ ١٢١٦ / حرجا بالنسبة لبقاء الامبراطورية ، حيث دمرت تراقية كلها بشكل متكرر من قبل البلغار ، وهجر الاناضول أمراؤها اللاتين لتسقط قطعة وراء قطعة في يد لاسكاريس،وكان موقف هنري يائسا ، ففي الشرق تحالف مع الأغريق الذين وطدوا أنفسهم في بافلاغونيا وطرابزون تحت قيادة اثنين من أبناء الأمبراطور السالف أندرونيكوس وحتى مع الأتراك مشكلين قضية مشتركة قلقة ضد العدو المشترك / لاسكاريس / وكان مركزه في الغرب يتحسن نوعا ما بفعل البنادقة ، الذين بدأوا الآن يضطلعون بالسلطة على أراضيهم بجد ، وقد خففوا من مراكز المقاومة بلا هوادة على طول الساحل الأغريقي ، وتابعوا قتالهم ضد

الاغريق ، والقراصنة ، وشملوا شامبليت نفسه في هذه العملية ، وأرسلوا الأساطيل والجيوش إلى الجزر الأيونية ، وحشود من البنادقة لتهدئة كل الجزر الأيجية ، وقدم رافان دال كارسيري البيعة للبندقية عن جزيرته يوبوا ، وتم غزو كريت التي اشترتها البندقية من بونيفيس دي مونتفرات . وفي اليونان شق بارونات المورة ببطء طريقهم في اتجاه الشرق ، وفي الشمال عزز المركيز ممتلكاته بعد الغزوات البلغارية المأساوية ، وهكذا جعل الغرب أكثر استقرارا ومكن المركيز وهنري معاهدة الصداقة بالزواج بين هنري وأغنس ابنة المركيز ، وولدت ماري زوجة المركيز في هذا الوقت وريثا ، وقد أطلق عليه اسم ذو دلالة هو : ديميتروييس على اسم القديس الراعي لسالونيك وفوق كل شيء عمل هنري على تهدئة رعاياه الاغريق الذين شعروا هم انفسهم الآن بالبد الثقيلة للبلغار وتحولوا إلى إمبراطورهم الجديد طلبا للمساعدة ، وكان مفتاح الحالة المسألة الدينية . وتتابعت المفاوضات الصعبة الطويلة بين الاكليروس الاغريقي واللاتيني بقيادة المطارنة الاغريق من جنوب إيطاليا الذين قبلوا سيادة البابا الروماني في أراضي المركيز وفي كل أنحاء الامبراطورية . وفي كل مكان كان اللاتين يستخدمون نبرة معتدلة للتهدئة ، ويبدو أنه تحقق تقدم حقيقي ، وكان حجر العثرة على أي حال هو مسألة السيادة الرومانية ، وعلى هذه الصخرة تحطمت كل المفاوضات .

واصبح كل الأمر اكاديميا بعد آذار / ١٢٠٨ / لأنه في ذلك الوقت عمل لاسكارس على انتخاب بطريرك إغريقي في نيقية ، توج على الفور لاسكارس كأمبراطور بيزنطي شرعي .

ونبذ الأغريق جميعا في الامبراطورية اللاتينية على الفور أية أفكار للتسوية والوحدة بين الكنيستين ، ومن حينه فصاعدا تطلعوا إلى نيقية للتحرير وإعادة بطركهم .

وتحركت الأحداث في هذه الأثناء بسرعة ووقع بونيفيس في شراك

البلغار في ١٢٠٧ ، وقتل وفصل رأسه عن جسده الذي كان مايزال حيا ليرسل إلى عدوه كالوجان ، ولكن ايام القيصر كانت معدودة أيضا ، وتوفي أثناء نومه عشية عيد القديس ديميتريوس / ٨ تشرين أول ١٢٠٧ / وحلت الفوضى في مملكة البلغار وقامت حرب أهلية ، وأعيد تنظيمها فيما بعد ببطء تحت حكم جون آشن ، وهكذا بدا أن الأزمة قد انحسرت . وتم طرد لاسكارس وانتهى التهديد البلغاري وقت تهدئة الأراضي في العالم الاغريقي . ولكن كانت هناك مشكلات كثيرة ، فقد كان بإمكان رعايا هنري من الاغريق أن يطلقوا العنان لسخطهم ضد الغزاة ، مع أنهم كانوا معجبين دائما بالأمبراطور شخصيا لأنه رعاهم ، فأعاد فتح الكنائس الأغريقية ، وكان باروناته واساقفته يناضلون من أجل المشكلة القديمة جدا للحصانة الاكليروسية ، ووضع نهاية لها بفرض تسوية . وفي مقابل استقلالهم وافق المطارنة على دفع ضريبة الأرض البيزنطية التقليدية للبارونات ، وكانت مشكلة الدفاع همه الأكثر إلحاحا ، وتم جذب فرسان جدد من غرب أوروبا ، ولكنهم لم يكونوا كافين مطلقا ، وفي النهاية كانت هناك توترات في القسم الغربي من الأمبراطورية وكان إغريق إيبروس يشكلون تهديدا ، وكان بارونات سالونيك قلقين في عهد ملكهم القاهر ديميتريوس .

ودعا هنري برلمانا في اليونان في رافنكا في ١٢٠٩ لتسوية مشكلته ، وكانت النتيجة سيطرة أشد إحكاما على اليونان ، ولكن السمة الأكثر أهمية هي وصول أمير أثينا في ابهة عظيمة مع أوتون دي لاروش وجيوفري دي فيلهاردين ممثل المورة .

وقد وقع تتابع غريب للأحداث في المورة خلال هذه الفترة ، فقد ترك غوليوم شامبليت ابن أخيه هوغ يتولى أمر المورة وغادر إلى فرنسا في عام ١٢٠٨ ربما ليطالب بميراثه من أخيه لويس ، الذي توفي هناك في ذلك الوقت ، وتوفي هو نفسه أثناء وجوده في فرنسا تاركا وريثه ابن أخيه في المورة ، ولكنه توفي هو ايضا بعد فترة قصيرة وبقيت المورقيون أمير شرعي ، وعند هذه النقطة ظهر

جيوفري دي فيلهاردين الشريك في الغزو الأصلي كأمير للمورة ، ومن الصعب القول فيما اذا كان هذا بسبب ، أن غوليوم قد عبر عن الرغبة في أن يخلفه جيوفري في النهاية ، أو لأن البارونات قد فضلوه على هوغ ، وعلى أي حال ظهر جيوفري في مفاوضاته مع البنادقة ، الذين أعطوا المورة كجزء من حصتهم من التجزئة الأصلية للأمبراطورية ، والذي كان قد بدأ قتالا من أجلها كما رأينا في ١٢٠٦ وأما الحرب البندقية - المورية فقد تم تسويتها في مؤتمر في حزيران ١٢٠٩ .

وفي المفاوضات التي جرت وفي المعاهدة التي ابرمت ، لم يستعمل جيوفري على مايبدو لقب أمير آخيا . وأول مرة وردت هذه الاشارة إليه جاءت في رسائل من أنوسنت الثالث ، مؤرخة في ٢٢ ، ٢٤ آذار ١٢١٠ ويبدو أنه قد انتظر .

الاجل المعتاد وهو سنة واحدة ويوم واحد وسنتان ويومان ،بدأت من رحيل غوليوم أو من وفاة هوغ قبل المطالبة باللقب. وعلى إي حال بحلول ١٢١٠ كان جيوفري يدعو نفسه امير اخيا ونائب أمير كل رومانيا ومن هذه النقطة ومابعدها رسخ جذوره في ارض اليونان ، وأرسل الى فرنسا من أجل زوجته وابنه جيوفري وأسكنهما في قصره في كلاماتا ، حيث ولد ابنه الثاني غوليوم اشهر عضو في كل العائلة في ١١٢١.

وكان حكم جيوفري الاول ذو أهمية دائمة للمورة ، وكانت أكروكورنت ماتزال في أيدي ليون سغورس عندما تولى جيوفري السلطة وقد سقطت في يده بعد وفاة سغورس في ١٢٠٨ . وتمت تهدئة الوديان الجبلية لاكونيا وأركاريا ، وتم بناء الحصون للدفاع عن الجبهة وإجمالا كانت الامارة آمنة ، وأرسى جيوفري الأساس لحكومة مستقرة أيضا ، وقد شجع هجرة تيار ثابت من البورغانديين والشامبونيين لزيادة السكان من الفرنجة ، وهناك تطورت في المورة ثقافة كانت شهيرة حتى في فرنسا بسبب صفائها

ورقتها ، وبسبب نقاء تقاليدها الفرنسية في الفروسية ، وفـوق كل شيء كانت الثقافة ازدراعا حقيقيا وغرسا.

وبالتدريج أصبح فرنجة المورة موريين حقيقيين يتكلمون كل مـن الفرنسية واليونانية ويتبعون كلا من العادات الفرنسية والاغريقية.

وبينما كان جيوفري يبني امـارة المورة كان أوثـون دي لاروش يفعل الشيء نفسه في دوقية أثينا ، ودفع بالتدريج بحدوده في اتجـاه الجنوب لتضم أركوليس وفي اتجاه الشمال حتى تجـاوزت طيبـة ، مرسيا الاستقرار في الجبهـــة ومقيمـــا علاقـــات ودية مــــع الجيران ، وأقام عاصمته في طيبه ، وأصبح البـارثينون على جبـل الأكروبوليس في أثينا ، والذي كان لزمان طـويل كنيسـة مطارنه الاغريق ، كاتدرائية سانت مـاري اللاتينية ، وأسس أوثـون أديرة وأدخل الراتب الغربية في بيوت الرهبنة الاغريقية الأقـدم ، والمثـال البارز يتجلى في دعوته للرهبان البندكتيين لتولي أمور الدير العـظيم في دافني وكان يقع على مسافة بضـعة أميال خارج أثينا ، وهناك ديرا منعزلا ورواقا على نمط فرنسي أصيل ، وانشأ أيضا مجتمعـا فرنسيا في أثينا ، كان يتسكون في معـظمه مـن أقـاربه الكثيرين وأصدقائه الذين شجعهم على المجـيء إلى اليونان مـن أراضـيهم البورغاندية ، وهاجرت العائلة إلى اليونان خـلال القـرن الثـالث عشر ، وجاء ابن أخ له يدعى غي على سبيل المثال ومنح جـزءا مـن طيبة من قبل جيوفري دي فيلهاردين وكان نيكولاس دي سانت أومر وافدا جديدا آخر وصل إلى اليونان بعـد (١٢٠٨) وتـوطن هـو وعائلته حول طيبة ، وأصبحت لهذه العائلة شـهرة أسرة دي لاروش نفسها وتزاوجت معها كما تزاوجت مع الخط الملكي الهنغاري .

وبينما كان هؤلاء الأمراء الأقرباء يعززون ويدعمون ممتلكاتهـم ، كان الامبراطور هنري يحارب خلافات يصعب التغلب عليها .

وضاعت السنوات الأخيرة من حـكمه في غمـوض ، حتـى وفـاته

المفاجئة في عمـــر لم يتجـــاوز التـــاسعة والثـــلاثين في ١١ حزيران ١٢١٦ ، وكان قد جهد للحصول على مسـاعدة مـن رومـا وهنغاريا ومن بلغاريا ولكن جهوده كلها اخفقت ، ولم يتـرك حتـى وريثا مباشرا من نسلة ليخلفه • وعرض بـاروناته التـاج على بيير دي كورتناي زوج اخت هنري يولاند بأمل أن يحضر جيوشا معه من فرنسا ، وقبل ولكنه لم ير امبراطوريته ابدا ، لانه قتل وهو في طريقه نحو الشرق بعد أسره من قبل تيودورس الذي خلف أخاه ميكائيل في أبيروس ، وذهبت امبراطورته مباشرة بطريق البحر إلى العـاصمة ووصلت بسلام، وفي طريقها توقفت في المورة وزوجـت ابنهـا أغنس إلى الابن الاكبر لجيوفري الأول ، جيوفري الثاني المنتـظر ، وبعـد وصولها إلى القسطنطينية بوقت قصـير ولدت ابنا هـو امبـراطور المستقبل بلدوين الثاني . وقبل نهـاية السـنة تـوفيت ، وكان على البارونات مرة أخرى أن ينتقوا امبراطورا ، وفي هذه المرة اختـاروا أكبر أبناء يولاند فيليب مـــركيز نامــور ولكنه أرســل ابنهــا الأصغر (روبرت) بديلا منه ، وهـكذا في ١٢٢١ أصـبح روبـرت الضعيف والمعتوه تقريبا امبراطورا وبعد ذلك بـوقت قصـير تـوفي تيودورس كالاسكارس العدو المراوغ وهو في الثامنة والأربعين من عمره في ١٢٢٢ ولكن خلفه صهره لواندس الثـالث دوكاس فـاتاتس الذي بقي عدوا حتى أكثر خطرا لمدة اثنتين وثلاثين سنة والذي بـه أمكن للامبراطورية اللاتينية ان تنصب فقط أضعف الاباطرة .

لقد فقد الامبراطور الجديد كل أراضيه في الأناضـول ، وحلت الآن كارثة أسوأ حتى في الغرب ، فقد هـاجمه تيودور كوفينوس دوكاس بمساعدة البلغـار والعـائلات الاغريقية في الامبـراطورية اللاتينية واستولوا على مدينة سالونيك وكل المملكة في ١٢٢٤ ، وسحقت قواته في شمال اليونان ونجت بوبو نيتزا وامـارة أثينا والمورة فقـط مـن الكارثة .

وكان ديمتريوس في ايطاليا يحـاول تجنيد بعض القـوات في ذلك لوقت وتوفي هناك في النهاية في ١٢٢٧ تاركا كل حقوقه لفـريديرك

الثاني ، وكان نصر ثيودوروس قصير العمر لأنه بدوره أسر بعد ذلك بخمس سنوات من قبل جون أسن ، قيصر البلغار وسملت عيناه وجرد من كل ممتلكاته.وفي الوقت نفسه عزز جيوفري الأول في المورة ودوق أثينا أراضيهما في وجه الخطر المشترك ، وضغط جيوفري على الاكليروس بشدة من أجل التمويل لبناء حصن كلير مونت لحماية سهل ابليس ، حيث أنشأ عاصمته ، وأدى هذا إلى الحرمان من البابا هونوريوس الثالث الذي رفع في ١٢٢٣ ، وبعد ذلك بوقت قصير عاد أوثون دي لاروش إلى فرنسا ، تاركا ابن أخيه غي يتولى الدوقية وتوفي في ١٢٣٤ وتوفي جيوفري رفيقه القديم بعد رحيله بوقت قصير احتمالا بين ١٢٢٨ و ١٢٣٠ .

وميزت هذه السنوات نقطة تحول في تاريخ الامبراطورية . وتوفي الغزاة القدامى جميعهم ، وكانت الولايات التي أصبحت الآن قليلة العدد في أيدي رجال أكثر شبابا . وظهرت المورة في اليونان كبؤرة للقوة ، في حين دمر روبرت في القسطنطينية امبراطورية هنري وفقد صلاته بالوقائع السياسية وانسحب إلى قصره مع امرأة فرنسية شابة كان قد تزوجها سرا ، ولم يترك مطلقا الجناح الذي اسكنها فيه مع أمها ، وبكراهية ومقت اقتحمه البارونات في احدى الليالي وأغرقوا المرأة العجوز وشوهوا الزوجة الشابة بقطع أنفها وشفتيها ، وهرب روبرت في فزع من مملكته ومضى إلى روما ليشكو للبابا غريغوري التاسع وحرص على العودة إلى امبراطوريته ، ولكنه توقف وهو في طريقه في المورة لزيارة أخته أغنس وهناك وقع فريسة المرض وتوفي في ١٢٢٨ ولم يحزن عليه سوى أخته التي بنت على ما يبدو ديرا في المورة تخليدا لذكراه .

وعرض البارونات في يأسهم التاج على البطل المسن جين دي برين الذي ابحر إلى الشرق مع جيش كبير ووصل إلى القسطنطينية في ١٢٣١ وقد خدع البارونات مع ذلك في آمالهم ، لأن الامبراطور الجديد على الرغم من مساعدة هنغاريا والمورة كان قادرا على

القليل فقط ، وعندما توفي في ١٢٣٧ ، كانت المملكة أسوأ ممـا كانت على الاطلاق .

واذا كانت الامبراطورية تعيش في حالة أزمة ، فإن اليونان كانت تتمتع بفترة من الازدهار لا مثيل لها ، وتحت جيوفري الثاني وهـو أمير عطوف وانساني النشأة ، توسعت الامـارة في كل الاتجـاهات وزال تهديد الاغريق في الشمال لان أسر تيودورس مـن قبـل جـون أسن عجل بحدوث حروب أهلية مشوشة في أبيروس ، وأصـبح أمير المورة وقد تلقى بيعة أمراء سفالونيا ناكسوس ويوبوا أقوى قـوة في الشرق اللاتيني ، وفي وقـت وفـاته ، في ١٢٤٦ كانت المورة دولة حضارية غنية قادرة على تمويل الدفاع عن الامبـراطورية المنهـارة بالمال والأساطيل ، وكانت ما تسمى بدوقية أثينا في الفتـرة نفسـها بالدرجة نفسها من الازدهار ، وحصـل غي دي لاروش على أربـاح عظيمة من صناعة الحرير في طيبة ، واجتذب إلى عاله البنادقة وأهل جنوا والتجار الآخـرين ، الذين تنافسـوا مـع بعضـهم على شراء المزايا التجارية مـن الدوق ، وفي هـذا الوقـت تـزوج بيلادي سانت ــ أومر ابن نيكولاس ذاك الذي استوطن طيبـة منذ بضـع سنين خلت ، تزوج من بونة أخت غي وأسس أسرة من أقوى الأسر الاغريقية الفرنجية .

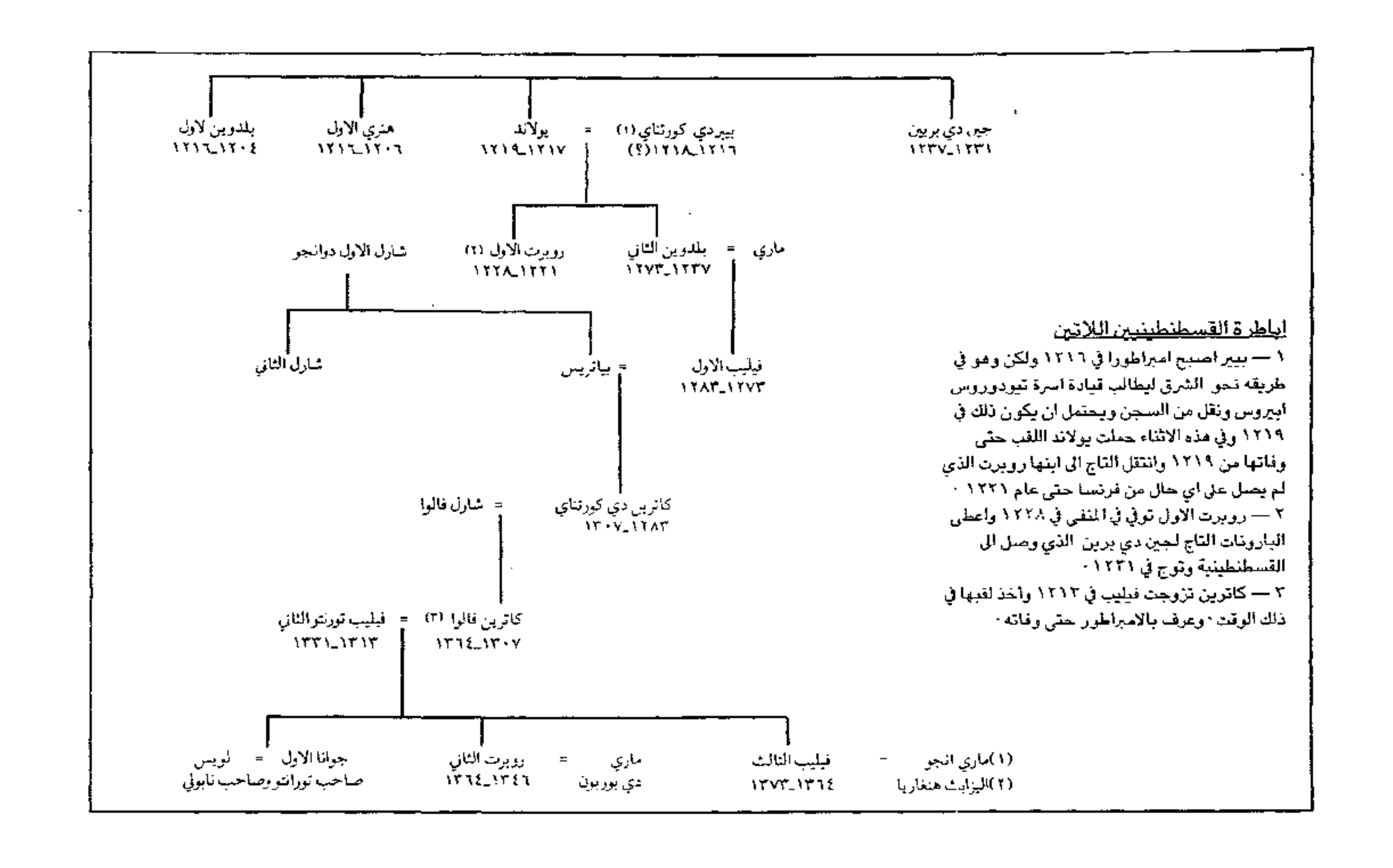
وعندما توفي جين دي برين ، كان الامبراطور الجديد بلدوين فقط في التاسعة عشرة من عمـره ، ولأنه ولد في المشرق ، وتـرعرع في جـو بيزنطي ، وتكلم اليونانية ، فانه كان يحتمـل أن يكون حـاكما جيدا للامبـراطورية ولسـوء الحـظ انه لم يكن ذا ذكاء ملحـوظ أو مقـدرة ، علاوة على ذلك ورث حـالة يائسـة تسـتعصي على العلاج ، وبـدا حـكمه في فـرنسا حيث ذهـب ليلتمس المال والقوات ، ومضى بهم جيئة وذهابا بين ايطاليا وإقطاعاته الفرنسية لمدة أربع سنوات يستجدي القروض من البـابا والملك لويس ، وكان يأمل في ضمانها بارتهان أراضـيه ، وارسـل جيشـا بـاتجاه المشرق ، ولكن فقط ليمزق من قبـل عدو حميه المميت ــ فـريديرك

الثاني . وفي النهاية ، بعد رحيل الحملة الصليبية الخامسة استجمع جيشا يحظى بشيء من الاحترام وقاده عبر المانيا وهنغاريا ، وبلغاريا ليصل الى عاصمته في ١٢٤٠ ، وكان حكمه حكما باعثا على اليأس ، ووجد في البداية فترة راحة في التنافس بين فاتاس وميكائيل الثاني في ابيروس الذي أعاد توحيد الامارات ، ثم وجد مساعدة في تحالفه مع الكومان والأتراك الآخرين ، ولكنه أمضى معظم حكمه في فرنسا وإيطاليا يلتمس المال ليعيش فيه . وفي النهاية نزل الى حد بيع الرصاص الذي يكسو سقوف قصوره ، وانتظرت القسطنطينية بكل بساطة حتى تمكن الاغريق من استعادتها في ١٢٦١ .

وكانت السنوات التي ميزت الانهيار الذي أصاب الامبراطورية اللاتينية هي سنوات أعظم الانجازات لامارة المورة ، ومن عاصمته في اندرا فيدا في إيليس القديمة حكم غوليوم الثاني أخو جيوفري ، والأمير من عام ١٢٤٦ الى ١٢٧٨ ، دولة ضمت كل وسط وجنوب اليونان ، وفي كل الوديان الجبلية وعند كل النقاط الاستراتيجية على طول الساحل وجه بعناية وصيانة القلاع القوية ، وكانت كل منها مركزا للحياة القانونية والدينية للمنطقة المحيطة بها ، وفي هذه الحصون طورت المورة حضارة اشتهرت في كل دنيا القرن الثالث عشر ، وطار ذكرها الى القرن الرابع عشر أيضا ، وكان الأمير نموذجا للسيد الاقطاعي لكونه الأول ، ولكن الناس من عائلة فيلهاردين كانوا متميزين كأفراد حتى أن قواهم الفعلية ، وسلطاتهم كانت مطلقة تقريبا ، وكان غوليوم الثاني ابرز مثال لهؤلاء الأمراء ، ولكونه ولد في اليونان فقد حظي بأفضل تعليم أمكن للمورة تقديمه ، وتم تدريبه من قبل الخبراء على الأسلحة ، ومع ذلك كان أيضا مغنيا ضليعا وكاتبا للأغاني ، ولكونه كان يتقن اللغتين تماما فقد كان مطمئنا بين النبالة الفرنسية ومع الرعايا الاغريق . وكأمير آخيا كان تابعا للامبراطور اللاتيني ، ولكنه كان سيدا إقطاعيا أعلى للمورة ، وكانت سلطته مع ذلك بعيدة عن أن تكون مطلقة ، لأن أتباعه في المورة كانوا دائما يتطلبون من أميرهم عهدا

بالمحافظة على المزايا والأعراف في الامارة قبل أن يقسموا على الولاء له ، وحتى عندها كان مقيدا باستشارة باروناته ومن جانب آخر كانت له حقوق قطعية ومزايا ، مثل حق تحرير العبيد أو منح صكوك الاجازات للمدن.

وكان يساعد الأمير بعض الموظفين ، منهم الكافل والمشاور والحاجب والقباطنة وشحنة القلعة ، ولكن المورة كانت في المقام الأول دولة عسكرية ، وكان الأمير يعتمد في الأكثر على التبعية الاقطاعية للذين يمتلكون الاقطاعات التي يمنحها لهم ، وكان هناك نمطان من الاتباع ، أولئك المرتبطون بعهد الولاء ، وأولئك المبايعون البسطاء ، وكان كلاهما مدين بالتزام على كامل السنة في الحامية والميدان ويبقى مستنفرا في موطنه ، ولكن الأول منهما أعلى وله مزايا أكثر بما في ذلك أن يكون له بلاطه الخاص ، وكان الأخير يعتبر الأدنى ، ولم يكن يسمح له بحاشية خاصة ، وكان عليه أن يدفع ضرائب معينة ويلقى عادة مقاضاة مشتركة ، وكان ذوو المكانة من الاغريق في الأراضي يقبلون في المراتب الاقطاعية كأتباع بسطاء (مثلما كان السرجندية وقادة الفرسان) وكان الأعضاء الرئيسون في الهرم الاكليروسي وكذلك فرسان الداوية والاسبتارية يملكون جميعا أراضي في الاماره توجب على هؤلاء فقط الخدمات الميدانية كما كانت مرتبة على كل الاقطاعات الاكليروسية . وكان هناك إضافة الى ذلك كثير من المدن التي شغلت دورا في حياة الامارة بتزويد الأمير بالمال والقوات في زمن الحرب ، ومن حين للآخر كان الممثلون يدعون للاجتماعات الهامة لمجلس الأمير الاستشاري ، وكانت الأرض في معظمها ريفا ، مع انه كان يوجد بعض المدن وبعض الصناعات الخاصة ، كتربية دود الحرير مثلا . ومع ذلك فإن أغلب الناس كانوا يعملون في الأرض ، وكانوا إما فلاحين أحرارا يعيشون فرادى أو في جماعات ، وكانوا يملكون أرضهم صراحة ، أو عبيدا يقعون ضمن الأنماط المألوفة في القرى ، ولم يكن باستطاعتهم ترك المزرعة ، وكانت زوجاتهم



جير، دي برين ١٢٣٧_١٢٣١
بيير دي كورتناي (١) ١٢١٨_١٢١٦ (؟)
=
يولاند ١٢١٩_١٢١٧
هنري الاول ١٢١٦_١٢٠٦
بلدوين لاول ١٢١٦_١٢٠٤
ماري
=
بلدوين الثاني ١٢٧٣_١٢٣٧
روبرت الاول (٢) ١٢٢٨_١٢٢١
شارل الاول دوانجو
فيليب الاول ١٢٨٣_١٢٧٣
= بياتريس
شارل الثاني
كاترين دي كورتناي ١٣٠٧_١٢٨٣
= شارل فالوا
كاترين فالوا (٣) ١٣٦٤_١٣٠٧
=
فيليب تورنتو الثاني ١٣٣١_١٣١٣
(١)ماري انجو
(٢)اليزابث هنغاريا
فيليب الثالث ١٣٧٣_١٣٦٤
ماري دي بوربون
=
روبرت الثاني ١٣٦٤_١٣٤٦
جوانا الاول
=
لويس صاحب تورانتو وصاحب نابولي
اباطرة القسطنطينين اللاتين
١ — بيير اصبح امبراطورا في ١٢١٦ ولكن وهو في طريقه نحو الشرق ليطالب قيادة اسرة تيودوروس ابيروس ونقل من السجن ويحتمل ان يكون ذلك في ١٢١٩ وفي هذه الاثناء حملت يولاند اللقب حتى وفاتها من ١٢١٩ وانتقل التاج الى ابنها روبرت الذي لم يصل على اي حال من فرنسا حتى عام ١٢٢١ ·
٢ — روبرت الاول توفي في المنفى في ١٢٢٨ واعطى البارونات التاج لجين دي برين الذي وصل الى القسطنطينية وتوج في ١٢٣١ ·
٣ — كاترين تزوجت فيليب في ١٢١٣ وأخذ لقبها في ذلك الوقت · وعرف بالامبراطور حتى وفاته ·

يصبحن عبدات للسيد الخ..وإجمالا على أي حال تحسنت أحوالهم في ظل الفرنجة.

هكذا كانت في حينه الأرض التي حكمها / غوليوم / وفي سنواته الأولى شغل نفسه بالاستيلاء على الثغور الأمامية الاغريقية على الساحل الجنوبي الشرقي وتهدئة القبائل السلافية في الداخل، وكان ناجحا واستخدم الكبح الحكيم في انتصاره . وذهب في حملة لويس التاسع الصليبية الى دمياط في ١٢٥٠ ، وفي عودته الى المورة قاتل في حرب مريرة مع الايطاليين في يوبوا ، وبتحالفه مع ميكائيل الثاني في أبيروس كان قادرا على كسب هذا الصراع ووطد سلطانه على تلك الجزيرة ووسط اليونان أيضا.

وفي هذه الأثناء كانت الدولتان الاغريقيتان تندفعان الى شفا حرب جديدة ، وفي نيقية توفي ايوانس فيتاتيزس تاركا عرشه لابنه تيودورس الثاني الاسكاريسي ، الذي توفي بعد ذلك بوقت قصير تاركا ابنا في عمر ثمان سنوات تحت وصاية ميكائيل بالايولوغوس الذي سرعان ما اغتصب العرش لنفسه ، وكامبراطور ميكائيل الثامن اصبح بطلا للثأر الاغريقي واسترداد الأرض ، وإذ رأى ميكائيل الثاني هذه التطورات ، قوى موقفه بتزويج إحدى بناته هيلين الى مانفرد صاحب صقلية ، والأخرى آن لغوليوم صاحب المورة . وهكذا جاءت آن الجميلة التي أخذت اسم اغنس عند زواجها الى المورة وولدت في حينه ابنتين ايزابوا ومرغريت ، ثم اندلعت الحرب أخيرا وقاد غوليوم قواته نحو الشمال الذين ارسلهم الامبراطور ومانفرد ، وأجرى الجيش المزدوج عرضا شجاعا في شمال اليونان ، والتقى في النهاية بقوات نيقية في سهل بلاغونيا في أيلول ١٢٥٩ وكانت النتيجة اسر غوليوم وكثير من بارونات المورة ، وبعد ذلك بعامين في ٢٥ تموز ١٢٦١ أعيد احتلال مدينة القسطنطينية من قبل جيش إغريقي ، وهرب بلدوين وأتباعه مبحرين الى اليونان ، وفيها أخذ الامبراطور المخلوع طريقه بكل دعة وأبهة الى ايطاليا والمنفى وبقي غوليوم في سجن ميكائيل الثامن

حتى ١٢٦١ ووقع معاهدة مع امبراطور الاغريق سلم فيهـا للاغريق الحصن الرئيسي في كل من مونمفاسيا وميســتر ، ومــاين ، وحـالما حصل على حريته أقام حلفا جديدا مع البندقية والأمراء الايطـاليين للجزر واستعد لتجـديد الحــرب. وأرســـل ميكائيل جيشـــه الى اليونان ، ولكنه انسحب بعد هــزيمتين شــديدتين وبعــد أن أوقــع أضرار شديدة في لاكونيا وأركاديا ، وفي هذا الوقت غلب على شؤون المورة جيشان الاحداث في إيطـاليا ، ودعي شـارل دي أنجـو الى إيطاليا من قبل أوربان الرابع ليقود حملة صليبية ضد مــانفرد حيث هزمه في المعركة في بينفتو في ٢٦ شباط ١٢٦٦ ، حيث مــاتت آمــال مانفرد والهو هنشــتافن في الميدان . وفي هــذه الاثناء عاني ميكائيل الثامن من هزيمة بحرية قاسية ، وحتى حينه كان غوليوم ما يزال في حاجة لحلف قوي في الغرب.

وكان شارل دي أنجو قد بدأ يلقـي بنظــرات جــائعة نحــو الشرق ، وبأمل من البابا كليمنت الرابع في السيطرة على كل هذه التيارات ، دعا سائر الأمراء الى مجلس شــورى في فيتــربو وتــم الاجتماع في شباط ١٢٦٧ واستمر خمسة أو ســتة أشــهر . وكانت الموضوعات الأكثر الحاحا هي توحيد الكنيســتين وعقــد حلف بين غوليوم وشارل ، ولم تصل مناقشة الموضوع الأول الى حل دائم مع أن المفاوضات أعطت ميكائيل الثــامن فتــرة راحــة قيمــة ، بيد أن معاهدة فيتربو الهامة ٢٤ أيار أبرمت بين شارل وغوليوم ووفقا لها كان لابن شارل أن يتزوج ايزابو دي فيلهــاردين ، ومــع أن غوليوم سيحكم طيلة حياته فإنه عند وفاته سينتقل التــاج الى الانجيفينيين لانه إذا لم ينجب الزوجان ابنا ، فإن شــارل نفســه كان له أن يرث التاج ، وبقي أمير المورة في إيطاليا ليســاعد شــارل على مــواجهة هجوم كونرادين آخر سلالة هوهنشتافن ، الذي كان يغزو إيطـاليا طلبا لأراضيه ، وتمت مواجهته في تغليا كوزو وكسب شارل ، بعدما تلقى معونة غير قليلة مــن بــارونات المورة ، كســب نصرا تــاما ونهائيا .

وبعودته إلى المورة استعد الأمير لتنفيذ شروط المعاهدة . وفي أيار ١٢٧١ أبحرت ايزابو إلى ايطاليا ، وتزوجت من فيليب الشاب في ٢٨ أيار ١٢٧١ . وفي هذا الوقت بدأت خطط شارل تتكشف ، وارسل قواته إلى البانيا لتعمل للسيطرة على اليونان كخطوة لازمة نحو السيطرة على كامل البحر المتوسط ، وكانت المورة قطعة صغيرة فقط في مشروعه الكبير ، واندلعت حرب مريرة كانت بالقوة نفسها في المناورات الدبلوماسية كما في التكتيكات البحرية والبرية عبر كل اليونان .

وكانت النتائج حاسمة ولكن اليونان الفرنجية اهتزت بشدة ، وواحدة فواحدة بدأت المقاطعات الخارجية تتفتت وتنفصل ، وأدى الفرار والخيانة والهزائم إلى انهيار معنويات الفرنجة والابيروت على السواء لوقوعهم وسط حرب بين عمالقة . ولو أن (غوليوم) رأى في السنوات الأخيرة من حكمة المورة تنجو من رعب الغزو الكامل فقد رأى أفضل البواسل من المدافعين عنها يموتون واحدا تلو الآخر . وقد أمكنه من قبل أن يتنبأ بالمصير غير السعيدلأرضه ، وتحت ضغط من شارل ، بدأ يعد البلاد لارتقاء فيليب الأنجفينى ، ولكن في شباط ١٢٧٧ توفي هذا الأمير الشاب بصورة غير متوقعة بالمرة ، وكان في الحادية والعشرين من عمره ، ولا بد أن هذه الضربة قد أضعفت (غوليوم) لدرجة مميتة ، حيث بعد عام في أول أيار ١٢٧٨ توفي أشهر أمير في تاريخ المورة بعد حكم دام اثنتان وثلاثون سنة .

وفقدت المورة الآن تقريبا هويتها كامارة مستقلة وأصبحت ملحقة بمملكة صقلية ، وبقيت ايزابو مع الأسرة الملكية الأنجيفينية في ايطاليا ، وهناك جمع شارل البارونات الرئيسيين للمورة والامبراطورية اللاتينية ، وقد خدمه هؤلاء البارونات جيدا ، ولكن ليس دائما في شؤون أراضيهم ، فلادارة المورة على سبيل المثال ، أرسل شارل كنائب نائب امارة صقلية غاليران دي ايفري الذي لم يكن موريا ، وامر كل اقطاعيي اليونان الاوربية والجزر ، الذين

تناقصوا الآن بدرجة كبيرة في العدد بأداء قسم الولاء لذلك الرجل ولكن من المهم ملاحظة بأنهم رفضوا تأدية قسم الولاء للملك ، لأن هذا يتم فقط حضوريا ، ووافقوا على أن يقسموا فقط بالبيعة ببساطة لممثليه .

وحولت الحرب مع الاغريق بالتدريج الكثير من المورة الى أرض موبوءة لاصاحب لها . وكانت الجيوش الانجيفينية تتألف من تشكيلة ممزقة من المرتزقة من الصقليين غير المقيدين وقطاع الطرق ، الذين كانوا اكثر اهتماما بالسلب والنهب منهم بسلامة المملكة ، وقد أحدثوا من الاضرار بالبلاد أكثر مما فعل العدو ، وحل شارل محل دي ايفري في آب ١٢٨٠ وكان فيليب دولا غونيس مارشالا لصقلية وتحسنت الظروف ولكن المصالح المورية كان يضحي بها دائما للمشاريع الضخمة للملك في صراعه مع ميكائيل بالا يولوغوس .

وبدأت القوات الانجيفينيه والامدادات والأموال تنصب في أبيروس وبعد مفاوضات دقيقة مع القوى في الشمال ، شن هجوم على بيرات كمقدمة لتقدم نحو الشرق الى سالونيك ، وتحول الهجوم الى اخفاق مأساوي لشارل الذي سحب قواته ليركزها في اخماد الثورة التي بدأت مع مذبحة العشاء الصقلية في نهاية آذار ١٢٨٢ ، وتركت المورة كثيرا لمواردها . وتزوجت أغنس أرملة الأمير غوليوم الثاني نيكولاس الثاني دي سانت أومر من دوقية أثينا ، وأصبح الآن نائبا على المورة ، واحتفظت النبالة المورية بأفضل ما استطاعت بتقاليد أرضها ، وكانت ماتزال معروفة في أوربا ببسالتها .

ومن حين لآخر كان شارل يحول اهتمامه الى المورة ليمكن من تملكه لها ، أو لمكافأة تابع مخلص ، ولكن على وجه الاجمال كان للانجيفينيين مشكلات أكثر ضغطا في غرب البحر المتوسط ، وتوفي شارل في ١٢٨٥ وكان رجلا منهكا خائب الآمال بمرارة ، وخلفه ابنه الذي كان غير كفء في الواقع وهو شارل الثاني ، الذي قوبل

بمعارضة مدبرة من قوى اخرى في حوض البحر المتوسط خاصة أراغون،ومع افتقاره الى المقدرة السياسية ، كان رجلا رقيق المشاعر وقد أشفق على إيزابو المترملة ، التي كانت في البلاط الصقلي لمدة اثني عشر عاما واهداها إقطاعات مورية واسعة من مقاطعاته الخاصة . وفيما بعد وفي مناسبة زواجها من فلورنت دي هينوت حول إمارة المورة إليها ولسلالتها من بعدها ، وعكست عودة الامارة الى وريثه فيلهاردين طموحات بيت هينوت أفنس ، بل وماهو أكثر توق البارونات الى حكومة مستقرة خاصة بهم تنهي شرور الوصاية على العرش .

ومـا أن نصب فلورنت أميرا على المورة وتلقى يمين الولاء والبيعة من أتباعه ، مع أن الذين من دوقية أثينا ووسط اليونان رفضوا قبوله ، حتى شرع في العمل ، ولم يكن محاربا في المقام الأول ، ولكنه كان رجل دولة ، وكان يأمل في إعادة المورة الى حالة الرخاء بالتفاهم مع أعدائه . وقام بإجراء تمهيد للامبراطور البيزنطي اندرونيكوس الثاني الذي خلف الان والده على العرش لتسوية الحرب المزعجة باستمرار مع الامبراطورية والتي جلبت الخراب الكثير جدا لجنوب اليونان ، وكانت بيزنطة تحت ضغط عظيم من الأتراك والبلغار واليونانيين في أسقفية أبيروس في ذلك الوقت ، لهذا لم يكن من الصعب ترتيب سلم جديد ، وبدأ الاغريق والفرنجة بالامتزاج بحرية وكلّ منهم يتبع شؤونه ، وازدهرت المورة وقامت صعوبات مع ذلك ، فمن اتصالات الأمير مع اسقف أبيروس نيكفوروس الذي كان عم إيزابو وباستغلال السلام في الجنوب غزا أندرونيكوس الأسقفية بجيش كبير بدأ نهبا منظما لكل المنطقة ، وناشد نيكفوروس ابن أخيه الفون وانضم اليه فلورنت بقوة ملموسة ، وهزمت القوات البيزنطية وأجبرت على التراجع نحو الشرق ولكن الأرض تعرضت لمزيد من الخراب والنهب وضعفت بذلك كل اليونان .

ووقعت حادثتان في هذا الوقت منذرتان بالسوء لمستقبل

اليونان . فقد ظهر أسطول آراغوني في المياه اليونانية ، وهاجم موانىء وجزرا معينة ، وبعد القيام بزيارة ودية لايزابو وبلاطها أبحر عائدا الى الغرب ، وثار أيضا السلاف في أواسط البيلبونيز واستولوا على بعض قلاع الفرنجة ، ولكنهم اكرهوا على اعادتها بأمر من الحكومة البيزنطية ، ولكن طغى على هذه الأمور المشؤومة في ذلك الوقت حلف كان لابد أن يؤثر على كل دول اليونان الحرة ، فقد رتب شارل الثاني زواجا بين ابنه فيليب أمير ترانتو وتاماز ابنة ووريثة أسقف أبيروس .

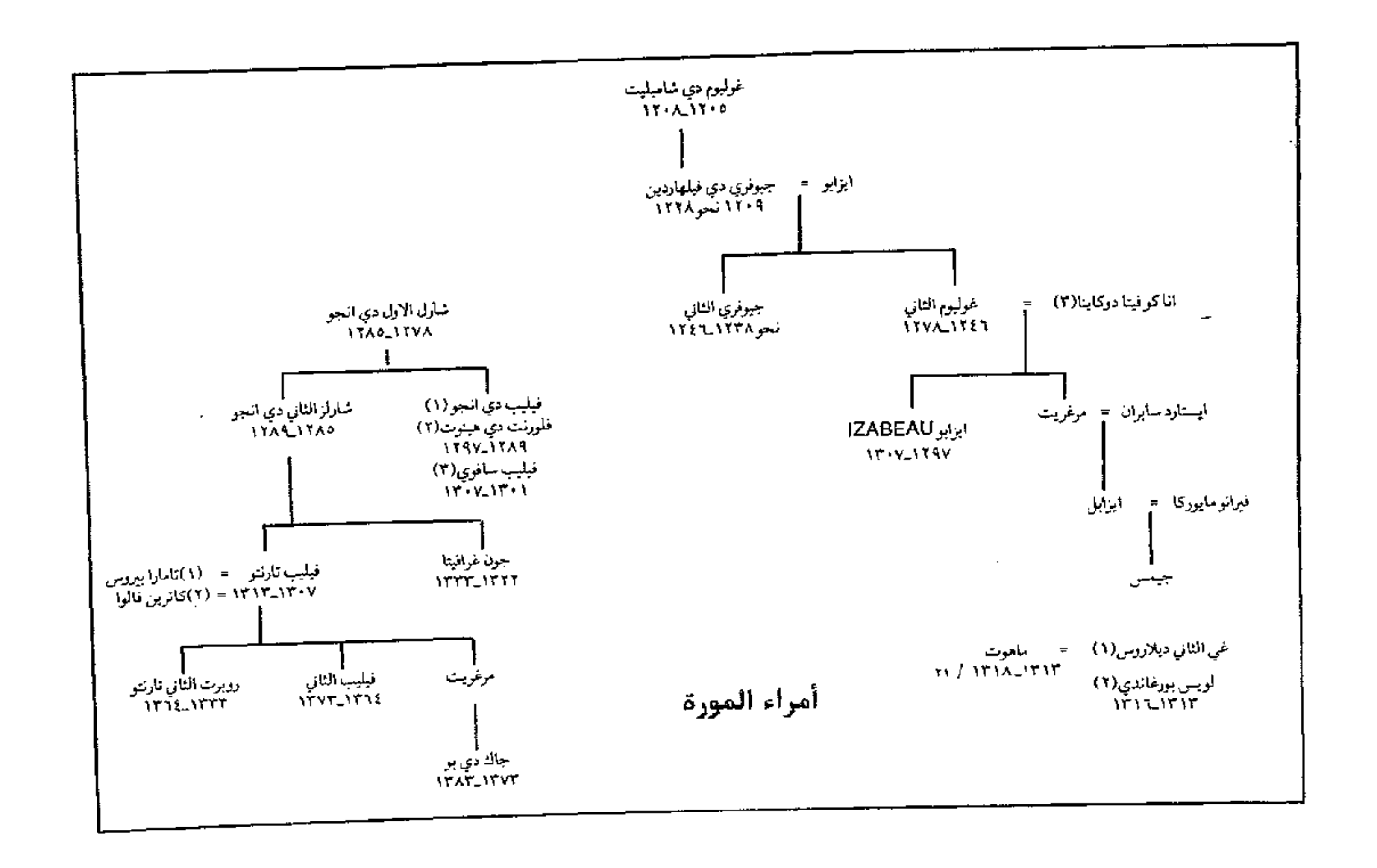
وأخذت مهرا لها الاماكن الرئيسية في أكارنانيا ، في حين نجد أن شارل منح ابنه كل حقوقه في الشرق ، وهكذا اصبحت كل اليونان الفرنجية تحت سلطة فيليب ، مع أن شارل الثاني بقي سيده الأعلى خلال فترة حياته . ومن الواضح أن شارل قصد تبسيط وزيادة كفاءة الهرم الاداري في اليونان ، ولكن في الواقع بجعله كل الدول الفرنجية تحت رئاسة واحدة جعل الأمور أكثر صعوبة ، لأن خصاما مريرا قد تفجر حول العلاقات الاقطاعية بين مختلف الأمراء والدوقات ، وكان على شارل مرارا أن يحكم في تلك النزاعات ، ومع أنه في النهاية اسس الهرم الاقطاعي كما كان يريد ، مع ذلك بقيت هناك المرارة والمشاعر الجريحة .

وكان هذا أكثر خطورة حيث أن عددا متزايدا من الحوادث كان يؤدي نحو استئناف الحرب مع بيزنطة ، وقبل ان يحدث هذا توفي فلورنت ، وكان الحزن عليه حقيقيا من قبل شعبه ، في كانون الثاني ١٢٩٧ ، وكان وريثه الوحيد ابنته ماهوت وكان عمرها ثلاث سنوات وحكمت ايزابو وحدها للسنوات الثلاثة التالية ، يساعدها مجلس من البارونات القياديين في المملكة .

وكانت مشغولة خلال هذا الوقت بترتيب زيجات لابنتها ولأختها مرغريت ، والأهم لنفسها ، وأعطيت ماهوت الشابة بعد نقاش مطول ، للوريث الشاب لدوقية أثينا واسمه غي أوغوبوت كما كانت

تشيع تسميته في الدوريات . وترملت مرغريت في ١٢٩٧ مع ابنة عمرها ثلاث سنوات واسمها ايزابيل ، وبعد سنتين رتب لزواجها من ريتشارد سيفا لوينا النائب المسن في المورة ، وذهبت ازابو نفسها الى روما للاحتفال باليوبيل بدعوة من بونيفيس الثامن في ١٣٠٠ وهناك لم تحز فقط على الكثير من البركات والمغفرة بنتيجة الحج ، بل على زوج جديد ايضا هو فيليب كونت بيد مونت وابن اخ كونت سافوى ، وكانت فوق الأربعين في ذلك الوقت وكان هو في الثامنة والعشرين ، وحدث الزواج في ١٢ شباط ١٣٠١ ، وفي الثالث والعشرين منح امارة المورة أو آخيا كما كان يفضل ان يسميها، وخرج الى ارضه الجديدة بحاشية من السافويين والبيدمونيين من البارونات الجدد المتلهفين للبحث عن حظهم من المشرق، الذي كان سهلا في الواقع ، لكن فقط على حساب الاقطاعيين الأقدم ، وكان الأمير نفسه قد أنفق مبالغ كبيرة في خطب ود وكسب يد ايزابو وانقض على المورة بجشع قائد مرتزقة ايطالي ، وثار البارونات في احتجاج ، كما فعل الاتباع من الاغريق ، ووجدت المورة الآن أنها يمكن أن تجر الى حرب من قبل اقطاعيها لأن دوقية اثينا عند هذه النقطة مضت الى الحرب مع الأسقفية ، وكان على النبلاء الموريين أن يذهبوا اليها ، ودخل شارل الثاني الحرب ضد ابيروس لصالح ابنه فيليب صاحب تارنتو ، وقبل امير آخيا الذي كان مايزال جائعا للأموال رشوة من أمارة أبيروس كي لايقاتل ، وكانت حصيلة هذه النزاعات الصغيرة شاملة سوى ، بقدر ماصورت أكثر ، ان شؤون الاغريق كانت الآن هامشية بالنسبة للسياسة الايطالية ،وتصادم الانجيفينيين وأمير سافوي حول أراضيهم في شمال ايطاليا ، وحدث هناك أن خسر الامير أمام شارل الثاني وكان عليه أن يتخلى عن القابه في اليونان ، ورفضت إيزابو أن تقبل خسارة المورة برباطة الجأش نفسها التي تصرف بها زوجها ، والتمست الانصاف في الدوائر الفرنسية في كل سنواتها المتبقية ، ولكن حياتها الساحرة انتهت بعد ١٣١١ في نقص وخيبة امل مرير

بيد أنها بقيت حية من خلال ابنتها ماهوت دي هينولت ، والتي



أمراء المورة

تزوجت غي الثاني دوق اثينا ، كذلك ابنة أخـرى ولدتهـا لفيليب في ١٣٠٣

وبدات الآن المرحلة النهـائية في تـاريخ المورة ، قصـة حـزينة لطالبين متنافسين حول الاقطاعات المختلفة ، ضحوا بما بقي مـن القوة الفرنكو ـ اغريقية في اليونان لأجل طموحاتهم ، وسـمي غي الثاني نائب أمير للمورة من قبل فيليب تارنتو في ١٣٠٧ ولكنه تـوفي في ١٣٠٨ ، ومعه ماتت سلالة دي لاروش نفسها .

ومن الآن ومابعد أرسل الانجيفينيون رجالا فرنسيين أو ايطاليين كحكام ، رجالا كانوا غير قـادرين على وقـف أعمـال الاسترداد التدريجي الذي تولته القـوات الاغريقية لكامـل شـبه الجـزيرة اليونانية ، وكان في هذا الوقت قد قرر شارل دي فـالوا اخـو فيليب الرابـع ملك فـرنسا دعم ادعاءات زوجتـه كاتـرين دي كورتناي الامبراطورة الرسمية للقسطنطينية •

وفكر في ان يدخل في خدمته المجموعة الكاتالانية الكبيرة ، وهـذه كانت مجموعة من المغـامرين ممـن حـاربوا في الحـروب الاراغونية ـ الأنجيفينية في صقلية ، بالقتال في خدمة أندرونيكوس الثاني ضد الأتراك في آسـيا الصـغرى ، وبعـد الانفصـال عن البلايولوجويين تحصنوا في غاليبولي ، حيث شكلوا تهديدا خـطيرا لبيزنطة ، واسميا كانت الجماعة تدين بالولاء لفريدريك الثـاني ملك صقلية ، ولكنه كان قد أرسل ابن عمـه فـراند ابـن ملك مـايوركا لقيادتهم ، ومن أجل مصالح اراغونية أخرى في الشرق ، ولكونهـم غير منظمين ، وشموسين فقد رفضوه واختاروا قـائدا لهـم ، وفي النهاية اسر فراند من قبل ثيبوت دي شيبوا وهو ضابط فرنسي كان في خدمة شارل دي فـالوا ، وأمضى سـنة في سـجن انجفيني وكان شارل قد أرسل ثيبوت لاسـتئجار الجمـاعة ، ولكن هـذا الرجـل التعس وجد نفسه محاطا بعصـابة مـن قـطعة الرقـاب قبلوا نقوده ، ومع ذلك كانوا اكثر شرها في سلب ونهـب اليونان منهـم في

القتال من أجل الفرنسيين ، وكانوا قد خربوا مقدونيا وتساليا لشهور عدة . وإذ لم يكن أمامهم في حينه مكان آخر يذهبون إليه تحولوا نحو الجنوب وبدأوا يتحركون نحو وسط اليونان ، ونفض ثيبوت خلال ذلك يديه منهم وتسلل مبتعدا عنهم وعاد الى الغرب ، واستؤجرت الجماعة بعد ذلك من قبل غوتيير دي بريين دوق أثينا ، الذي كان يأمل في توسيع سلطانه بين الامارات المختلفة في اليونان ، ورغم أن الكتاليين أثبتوا مرة أخرى جدارتهم كقوة محاربة فإن غوتيير سرعان ماأراد أن ينتهي منهم ، وعندما تأخر عن الدفع لهم مدة أربعة أشهر تخلوا عن ولائهم له وقرروا أن يوطنوا أنفسهم في اليونان ، وتوحد الفرنجة لطرد الدخلاء ووقعت المعركة المصيرية في ١٥ آذار ١٣١١ على غير بعيد من مدينة كيرونيا القديمة ، حيث تقرر مرة من قبل مصير اليونان في المعركة ، وكان اليوم كارثة تستعصي على الاصلاح لليونان الفرنجيه ، فقد قتل دوق أثينا ودمرت معظم قوى الفروسية الفرنجية ، وفقد وسط اليونان إذ تحرك الكتاليون نحو داخل أثينا وطيبة ، وأصبحوا سادة كل الأرض ، وطلبوا من ملك صقلية أن يصبح سيدهم فقبل مسرورا وأرسل بيرنغر استانيول ليكون نائبا له ٠

لقد غير توطن الكاتلان في دوقية أثينا بعمق توازن القوى في اليونان ، وابتهج الأغريق الذين ملكوا سالونيك وأبيروس ، لرؤية منافسيهم الفرنجة الأقوياء يبعدون ، وعلاوة على ذلك نجد أن إمارة المورة التي اختزلت إلى نحو ثلثي البلبونيز قد تضررت من هذه القوة الجديدة ، وكانت البندقية والأنجيفينيين أيضا متخوفين حول مصير ممتلكاتهم اليونانية ، وبدت التطورات للبابا والأنصار الغربيين للحملة الصليبية نكسة لآمالهم في تأسيس إمبراطورية لاتينية في القسطنطينية ، ومن الواضح أنه كانت هناك حاجة لرجل قوي لتنظيم دفاع الفرنجة ودفع المصالح الغربية في اليونان ، وكان فيليب تارنتو قد طلق زوجته الزانية تاهار والقى بها في السجن حيث ماتت . ثم رتب شارل دي فالوا بعد ذلك زواجا بين ابنته كاترين دي فالوا التي ورثت المطالبة بالأمبراطورية عن أمها كاترين دي

كورتناي ، وفيليب ، والتي كانت ممثلة في الوحـــدة بين كل الدعاوى الفرنجية والألقاب في اليونان ، وتدعمها القوى البابوية والفرنسية ، وفي الوقت نفسه أصبحت المورة في يد ماهوت هينولت وزوجها الثاني لويس برغاندي وهو استرداد عملت في سبيله أم ماهوت ايزابو خلال جميع سنوات نفيهـا ، وعادت المورة إلي بيت فيلهـاردين ، رغم أن الامير الجديد قد استولى عليهـا مـن فيليب ، الذي أصـبح الان امبراطورا لاتينيا اسميا مع أخيه الملك روبرت ملك نابـولي كسـيد أعلى • وانطلقت ماهوت على الفـور إلى المورة ولكن لويس تـأخر لبعض الوقت في بورغاندي ووصل وهـو في طـريقه إلى اليونان الى البندقية في تشرين الثاني ١٣١٥ •

وأوجدت إعادة الترتيب هذه الحـاجة إلى قـدر عظيم مـن خلط الألقاب والممتلكات البـورغاندية والفـرنسية . وبشـكل عام تنازل الأمراء الذين اتجهوا شرقا عن مطالبهم في الغرب لأعضـاء آخـرين من عائلاتهم وعوضو بممتلكات أقوى في اليونان الفرنجي . وبدا أن كل شيء قد نفذ جيدا عندما تفجر فجأة أعنف صراع في تـاريخ المورة المضطرب ، وذلك عندما توفيت إيزابـو دي فيلهـا ردين في ١٣١١ ، حيث قامت أختها مرغريت بالمطالبة بجزء مـن المورة ، ولم يعتـرف شارل الثاني بهذا الادعاء وكذلك خليفته روبـرت ، وعليه التمسـت مرغريت المساعدة من فيراند صاحب مايوركا ، الذي كانت له بعض الصلات مع الشرق عن طـريق الفـرقة الكبيرة ، وقـد تـزوج ابنة مـرغريت ايزابيل في شـباط ١٣١٤ ، وأعطـت مـرغريت الزوجين مهرا / دوطة / للعروس حقوقها في المورة ، وعادت هي نفسـها إلى المورة حيث اعتقلها نائب ماهوت . وألقى بها في السجن ، وصـادر أراضيها ، وماتت السيدة التعيسة بعد ذلك بـوقت قصـير ، وبـدأ فيراند على الفور استعداداته لغزو المورة ، وولدت إيزابيل ابنا ، هو جيمس في ٥ نيسان ١٣١٥ ، وتـوفيت بعـد ذلك ببضـع أسـابيع ، وتركت لابنها الطفل كل ماكانت تـدعي ملكيتـه في الامـارة ، وكان فيراند مؤيدا من قبل فريدريك ملك صقلية ، والكاتـالانيين في أثينا ، ونزل في اليونان في حزيران مع قـوة كبيرة ، واسـتولى بسرعة على

ميناء كلارنيتسا وقلعة بوفوار (بونديكوس) وبسرعة أصبحت كل إيليس في يديه ، وبدأ يتحرك نحو الجنوب ، ووصلت ماهوت وقواتها البورغاندية ، واندلعت حرب دموية قتل فيها مئات الفرسان وانتهت الحرب ، لكن مالبث لويس نفسه أن توفي بصورة غامضة نوعا ما بعد ذلك بوقت قصير ، وتركت ماهوت لتحكم المورة وهي حتى أضعف مما كانت .

وسعت كل الدول المحيطة الآن إلى استغلال ضعف المورة لتوسيع ممتلكاتها وبدأ الكتالانيون بغزو يوبوا التي كانت تحت سلطان ماهوت ، ثم حاول روبرت نابولي أن يرتب زواجا بين ماهوت وأخيه جون صاحب غرافينا ليتأكد من أن المورة ستصبح في أيدي أسرته ، ورفضت ماهوت واحتجت لدى البابا يوحنا الثاني والعشرين وطلبت المساعدة من البندقية ، ولكن روبرت أقام جون غرافينا في المورة واعترف بالأخ الثالث فيليب كأمبراطور لاتيني اسمي ، وألقيت ماهوت في السجن وأمضت بقية أيامها هناك ، ولكن السد كان قد تفجر فبدأ الكاتالانيون في عبور إيزموس ، واستولى إغريق ميستوا على قلعة بعد الأخرى في الجنوب ، موقعين أضرارا وهزائم بالمدافعين الانجيفيين والموريين ، وكان السبب الوحيد في أن المورة مازالت باقية هو أن النهابين بدأوا يتقاتلون فيما بينهم .

وكافحت الامارة قرنا آخر ، ولكن مورة فيلهارذين القديمة اختفت ، ومن البارونيات الاثنتي عشرة الأصلية بقيت أصغرها فقط ، وذهبت أغلب الأسر الفرنجية الغازية ، وأصبحت دفاعات البلاد مثلما كانت بقدر كبير في أيدي المرتزقة ، واستوطنت أسر جديدة إيطالية في معظمها في الأرض ، لاكأرستقراطية إقطاعية مقاتلة بل كطبقة سياسية مالكة للأراضي تدفع الضرائب للأمير عن إقطاعاتها الواسعة ، ثم تحولت عن الأمير إلى قادة يمكنهم حمايتهم ومصالحهم بصورة أفضل عند الضرورة وحتى لو كانوا من البيزنطيين ، وسكنت العداوات اللاتينية الاغريقية التي كانت في

الازمنة السالفة . وتعلم الفرنجة والاغريق أن يعيشوا معا ، وبدأت تظهر ثقافة مشتركة .

واستدان جون صاحب غرافينا بكثرة من أصحاب البنوك الايطاليين ولاسيما من اكسيا أولي ، وتولى بعض المشاريع ضد الأغريق ، ولكنه لم يحصل منها على شيء هام ، وغزا غوتيير الثاني دي بريين ، الذي كان قد تزوج بياتريس ، وهي من بنات فيليب تارانتو وتامار ، اليونان لمطالبة الكاتالانيين بأثينا دوقية أبيه ودمرت الآن القلعة الشهيرة / السانت أومر / في طيبة ، وكانت حملة غوتيير مخفقة ، وعاد إلى إيطاليا في أواخر صيف ١٣٣٢ .

وتوفي فيليب صاحب تارنتو في كانون أول ١٣٣١ وترك ألقابه لابنه روبرت واجبرت أرملته كاترين دي فالوا ، جون غرافينا أن يحيل المورة إليها كوصية على ابنها في مقابل أموال وأراض في إيطاليا ، وربطت نفسها بنيكولو اكسيا أولي وكان أصغر منها بتسع سنوات ، وهو عضو جميل الطلعة ومثقف في البيت المصرفي ، وأحالت إليه أمور عائلتها في اليونان ، وفي ١٣٣٨ قام نيكولو وكاترين برحلة إلى المورة ، ومكثا هناك أكثر من سنتين ، وحاولت أن تكيف نفسها مع الظروف هناك في المقام الأول وأن توقف التدهور الثابت للامارة ، ولكن عبثا ، وعندما عادت كاترين إلى نابولي شعر بارونات المورة حتى أكثر بعدم مواءمة الحكم الانجيفيني وعرضوا الامارة على جيمس الثاني لمايوركا ابن فيراند وإيزابيل ، وقبل اللقب ولكنه توفي قبل أن يتمكن من زيارة المورة .

وتمسك روبرت صاحب تارنتو بكل الألقاب والأراضي التي ورثها ، ولكن الحروب في فرنسا وإيطاليا منعته من أن يذهب بشخصه إلى الشرق وتركت المورة لوسائلها الخاصة ، ومن حين لآخر كان يأتي حاكم من الغرب ولكن الاكثر أن البارونات كانوا ينتخبون واحدا منهم ، وكان الاتراك ينهبون سواحل البلاد ، ولم يبد أن هناك إمكانية للدفاع ، وكان أقوى رجل في اليونان الآن

نيكولو اكسيا أولي ، الذي منحه روبرت في ١٣٥٨ إمارة قلعة كورنث الغنية وتوابعها ، وتـوفي روبـرت في ١٣٦٤ وطـالب أخـوه فيليب بالامارة ، وبدأ حربا غير مجدية مع خصوم منافسين امتـدت حتـى قبل وفاته بوقت قصير في ١٣٧٣ . وخلفه ابن أخ له هو جاك دي بو .

وتفجرت حرب مروعة اخرى . وفي ١٣٧٦ أجرت جـوانا إمـارة المورة لمدة خمس سنوات للاسبتارية ، الذين يبدو أنهم احتفظوا بها مدة العقد .

وحدث تطور اهم عندما تـدخلت الجمـاعة النافـارية في شـؤون اليونان ، وكانت لأحد قادتهم ، وكان في الظاهر في خـدمة جـاك دي بو (توفي في ١٣٨٣) الذي سيطر على الامارة ، كما وا ستولى اخر ، يحتمـل أنه كان في خـدمة نيريو اكسـيا أولي ، وكان ابنا بـالتبني لنيكولو الكبير ، على طيبة في ربيع ١٣٧٩ ، وبعد عقد من الزمـان في ١٣٨٨ استولى نيريو على اكروبول أثينا بعد حصار طويل ، وبـذلك وصل تاريخ الدوقية الكاتالانية إلى نهايته .

واستمرت الامارة اللاتينية في تاريخها الضـعيف جيلين أخـرين حتى ١٤٣٠ ولكن معظم المورة كانت قد أصبحت تحت حكم الأساقفة الباليلو جوا ، أساقفة ميسترا ، الذين قامت في أيامهم نهضة يونانية تقريبية ، ولكن مرور كل عقد كان يزيد من قوة الأتـراك العثمـانيين الذين استولوا على القسطنطينية في ١٤٥٣ وفي ١٤٦٠ وضعوا نهاية لأسقفية ميسترا .

وعليه هـكذا كان تـاريخ الأمبـراطورية اللاتينية للقسـطنطينية وإمارة المورة بخطوطه العامة ، وقد رويت القصة في القـرن الرابـع عشر من قبل مؤرخين للمورة ، ومـن ثـم غدت مـوضوع الفضـول والتأمل لعدة سنوات .

مخطوطات ومطبوعات تواريخ المورة

إن تواريخ المورة ، كما أصبحت تعرف بسبب عدم وجود اسم افضل ، هي سلسلة من الحوليات تم حفظها في ثمان مخطوطات كتبت باليونانية ، والفرنسية والاراغونية والايطالية ، والنسخة اليونانية كتبت شعرا والباقية نثرا ·

١ ـ يحتوي مجموع هافنسيس ٥٧ على خمس من المخطوطات اليونانية ، لا شك أن الاقدم فيها والاكثر مصداقية هي المخطوطة الموجودة في مجموعة فابريكوس في مكتبة جامعة كوبنهاغن ويضم هذا المخطوط ٩٢١٩ بيتا من الشعر السياسي ، كتب بدقة ، كتابة يدوية مقروءة بشكل ملحوظ في التهجيه ، والنص مكتوب في اعمدة صغيرة مع هوامش عريضة معلمة بحروف كبيرة بالحبر الاحمر ، وقد فقدت الاوراق الثلاث الأولى ، ويبدأ المخطوط بالبيت ١٠٥ من المجموع الباريسي .

والاوراق مرقمة بكل من الأرقام الاغريقية من ٤ إلى ١٤٥ وبالارقام العربية من ٤ الى ٢٣٧ ، واضافة الى ذلك فان بداية كل كراس من عشر ورقات معلمة ، وكل فجوة من صفحتين مشار اليها بالترقيم الكراسي ، ولكن في فجوات أخرى ليست هناك مثل هذه الاشارات مما يظهر ان المخطوط لم يكن كاملا عندما نسخ ، ومن الملاحظات على الغلاف يعرف بأن المخطوط قد انتقل من توماس برثولين الذي اهداه الى يوهانس غراميوس (١٦٨٥ ـ ١٧٤٨) الذي اهداه الى يوهانس فابريكوس في ١٧٣٦ والمخطوط مع بقية تاريخه قد حازت عليه جامعة كوبنهاغن في ١٧٧٥ .

٤ ـ مجموع بيرنسيس الاغريقي وهي نسخة أخرى من المجموع الباريسي ، مع أن الخط سيء ، وهناك أخطاء عديدة في النقـل ، ولم ترد في وصف بوشون وعليه يبدو أنها كانت غير معروفة من قبله.

٥ ـ مجموع تورنسيس ب ٢ / ١ وهذا المخطوط قـد عرف لأول مرة بواسطة جون شمت الذي درسـه بـدقة ، وفي رأيه أنه مشـابه لمجموع هافنس ، ولكنه سيء التنفيذ. لكنه لاحظ الاهتمام الخـاص للحواشي الهامشية غير المقروءة تقريبا والرسوم التي تعـطي الدليل ليس فقط على المالكين العديدين للمخطوط ، بل على ما هـو أكثـر اهمية ، عن نمط اليونانية التي كان كل منهم يتكلمها ، وهي تقـدم في الواقع تحديد للهجة اليونانية الحديثة.

الترجمة الفرنسية.

بقيت الترجمة الفرنسية للتاريخ في مخطوط واحد في المكتبة الملكية برقم ٢٠٧ ١٥ ، وقد اكتشفه بـوشون ونشره في ١٨٤٥ ، وأعطـاه عنوانا مطولا عبر عن محتـوياته في الاسـتيلاء على القسـطنطينية وإقامة إمارة المورة ، ونشاط البـارونات وسـواهم ، وكان هـذا المخطوط في حينه اختصارا لآخر كان يملكه بـارثلميو غينزي قبـل ١٣٣١ • ويقول الكاتب نفسه : أنه سيروي قصة تـاريخية لاكمـا وجدها مكتوبة بأقصر صورة لها • وظهرت أقدم طبعة لها كمجلد من كتاب برشون (انظر أعلاه) والاحداث هي تلك التي وضـعها جين لوغينون بعنوان « كتـاب الاسـتيلاء على امـارة المورة (١٢٠٤ ـ ١٣٠٥) (باريس ١٩١١) •

النسخة الأرغوانية :

إن النسخة الاراغونية من التاريخ هي وحيدة في كثير من الطرق: فهي أولا ليست اعادة رواية لتاريخ أقدم كمـا هـي التـراجم

إن أول طبعة حديثة للمخطوط قام بهـا ج ٠ ١ ٠ بـوكون الذي قدم النص بدون ترجمة كمجلد ٢ من كتابه :
« بحث في تاريخ امارة المورة الفرنجية وأعمال باروناتها » (باريس ١٨٤٥) ٠

وتبع ذلك الطبعة الرائعة لجون شـمت بعنوان « تـاريخ المورة » (لندن ١٩٠٤) ، التي تحوي بشكل متوازي النصـين الهـافنيني والباريسي ، وفي الملاحظات الاختلافات في التوريني ، وأحدث طبعـة هي لبطرس كالوناروس(اثينا ١٩٤٠) ٠

٢ ـ المجموعة الباريسية اليونانية ٢٨٩٨ ، وكان هذا المخطوط في الأصل في مـكتبة فـرانسيس الاول في فـونتنبلو وكانت معـروفة لدوكاج ، الذي وصفها بشكل صـحيح والذي اسـتخدمها في جمـع معجمه . ويتألف المخـطوط مـن جـزئين : تـرجمة يونانية لبـوكاكسيوتيزيد ، وفي الأوراق مـن ١١١ ـ ٢٣٣ تـاريخ المورة الاغريقي ، وهناك ٨١٩١ بيتـا تقـابل بـكشل دقيق المجمـوعة الهافنيانية ، مع أن محاولة صغيرة قد بذلت للمحافظة على صفاتها العروضية ، ونهاية المخطوط مفقودة ، والنص بعـد صـفحة ٢١٨ مكتوب بخط مختلف : وكانت أول طبعة حديثة هـي طبعـة بـوشون بعنوان « تاريخ الاستيلاء على القسـطنطينية وتـأسيس الامـارة الفرنجية في المورة» (بـاريس ١٨٢٥) وهـذه تحـوي تـرجمة النص ، والمقدمة فقط هي الموضوعة باليونانية ، ونشر بوشون بعد ذلك النص اليوناني مع ترجمة فرنسية في كتابه :
تاريخ العلاقات الخارجية والحملات الفرنجية حتى القـرن الثـالث عشر (باريس ١٨٤٠) والطبعة الأحدث هي طبعة شـمت المذكورة أعلاه.

٣ ـ المجموع الباريسي اليوناني ٢٧٥٣ وهذا ببساطة نسخة من المذكورة أعلاه وهي سيئة التنفيذ وعديمة القيمة

الاخرى ، بل هي بـــالاحرى مـحــاولة جــدية للكتــابة التاريخية ، مستخدمة كمصدر رئيسي تاريخ المورة ، ولكنها دمجـت أعمال مؤرخين اخرين أيضا ، وثانيا هــي المخـطوط الوحيد الذي يمكن تأريخه بالضبط ويحمل عنوان :« كتاب الاستيلاء على إمــارة المورة » ٠

وقد اخبرنا أنه تم تصنيفه بـأمر مـن الســيد الأخ جــوهان فيراندزدي دي هيريديا ـ مقدم مشفى القديس يوحنا بالقدس. وقد أكمل في ٢٤ تشرين أول ١٣٩٣ واكتشف المخطوط الكونت بـول ريانت في مكتبة الدوق دي أوزوما في ١٨٨٠ ، وتم تحقيقه ونشر بعد ذلك بخمس سنوات من قبل الفرد مــوريل فــاتيو (جنيف ١٨٨٥٠) النسخة الايطالية.

إن النسخة الايطالية للتاريخ ترجمة سـيئة التنفيذ عن النســخة اليونانية وتبدو كملحق لكتاب ماريذو ساند وتورسيلو « تاريخ المملكة الرومية » والتي حققها ونشرها كارل هوبف في كتــابه « التــواريخ الاغريقية الرومانية » (برلين ١٨٧٣)

تأريخ الحوليات

إن المسالة ذات الاهمية الاساسية في دراسة تاريخ المورة هي تأريخ النصــوص المختلفــة. فــالنص الأراغوني كمــا ذكرت أعلاه ، يحمل تاريخه الخاص ، وبهذا لا توجد أية مشكلة ومثله حال النص الايطالي ، وطالما أن ترجمة مغلوطة مــن الاغريقية يمكن استبعادها من هذا النقاش ، وأما النصــوص الفــرنسية واليونانية على أي حال فإنها طالما تقوم على مصنف أقدم مفقود تسبب بعض الصعوبة.

النص الفرنسي

لقد ذكر بوضوح في عنوانها أن هذا النص قائم على مخطوط كان مرة في حوزة بارشلميو غيزي ، كان في قلعته في طيبـه. ونعـرف أن غيزي كان آمر قلعة طيبة مـن ١٣٢٧ ـ ١٣٣١ ـ وعليه فإن النص الذي لدينا يمكن الافتراض بأنه قد كتب بعد ١٣٣٢ ، علاوة على أن جدول الترتيب الزمني الملحق به يذكر أحداثا من ١٣٠٤ وهي السنة التي ينقطع فيها توالي الاحـداث في التـاريخ الى عام ١٣٣٣ ومـن جانب آخر إن كاترين دي فالوا مذكورة بشكل خاص على أنها كانت ما تزال حية عندما كتـب النص الفـرنسي ، وحيث أنهـا تـوفيت ١٣٤٦ ، فإن الحولية الفرنسية لا بـد أن تـكون قـد كتبـت بين ١٣٣٣ ـ ١٣٤٦ ، ويحتمل كما يقترح لوغنيون ، (الامبـراطورية اللاتينية ص ٣٢٥) بأنها قد كتبت بناء على طلبها أثناء إقـامتها في اليونان من تشرين الثاني ١٣٣٨ حتى حزيران ١٣٤١.

النص الاغريقي

تحتفظ الحولية اليونانية برواية تمتـد حتـى عام ١٢٩٢ ، حيث تنقـطع فجـأة ، وحيث أن الاوراق الأخيرة مفقـودة في نص كوبنهاغن ، وقد نفترض أن الرواية امتدت حتى سنة ١٣٠٤ كما في النص الفرنسي ، وكما في الأخيرة ، على أي حال إن أحداثا وقعـت في تاريخ متأخر جدا قد سجلت في النص الاغريقي ، من ذلك نجد أن رواية مدير قلعة سانت أومر في طيبة وكل ذكر للكاتالانين استيفاءات أقحمت من قبل الكاتب عندما تم وضع النص الاغريقي ، وفي الابيات ٨٤٥٩ وما بعدها من الحولية تـذكر فقـرة تتعلق بـالانساب إيرارد الثالث لومور أمير أركاديا ، وأسلافه ولم تـكن العـائلة ذات اهمية رئيسة في الشؤون المورية ، ويشعر المرء أن المؤرخ لا بد أنه كان لديه بعض الاهتمام بتسجيل الاسم في حـوليته ، وفي البيت ٨٤٦٩ هناك اشارة خاصة لا يرارد الثالث تعطي الانطباع بأنه كان مايزال حيا في

الوقت الذي كتبت فيه الحـولية ، وحيث أن ايرارد تـوفي في ١٣٨٨ يبدو محتملا أن النص اليوناني قد كتـب قبـل ذلك التـاريخ ، وأن الحولية ذوعا من الارتباط به ، والنص الباريسي من جانب أخر يذكر بشكل خاص جدا وفاة ايرارد ويقدم له التقدير والاجلال ، وعليه إن نص كوبنهاغن إذا يحتمل أنه قد كتب قبل ١٣٨٨ بـوقت غير طـويل جدا ، إذا قبلنا الدليل الوارد في البيت : ٨٤٦٩ المذكور أعلاه (وهـو ليس حاسما تماما) ، أو على أي حـال بعـد ذلك بـوقت قصـــير جدا ، وكتب النص الباريسي حتما بعد ذلك التاريخ.

أصل الحولية

إن الناحية المميزة أكثر في الحولية هي أصلها ، وفيما عدا إشارة في قوانين رومانيا والمامات في حولية دوروثيوس صاحب مونمفازيا لتي هي نفسها ، لصد معين مستمدة من حولية المورة ، فإن لصادر للفترة التي أنتجت الحولية صامتة تماما علاوة على أنه يوجد بيانات قليلة في الحولية لتدورنا، والبينة بناء عليه يجب أن تستمد بقدر كبير من لغة النصوص نفسها ، وهي وسيلة بطبيعتها لخاصة غير قادرة على تقديم برهان كامل وتسمح بمجال واسع لتفسيرات ممكنة.

المشكلة.

إن المشكلة مذكورة ببساطة في هذه الاسئلة :

١ ـ هل النص الفرنسي هو الحولية الاصلية؟

٢ ـ هل الحولية اليونانية ترجمة لها أو مشتقة منها ؟

٣ ـ هل الحولية اليونانية هي الأصل؟

٤ ـ هل الفرنسية ترجمة وتكثيف لها؟

٥ ـ هل كلا الترجمتين مشتقتين من عمل أقدم ، فقد الآن ، كتب باليونانية ، أو بالفرنسية أو الايطالية؟ إن المتمسكين بكل واحدة أن هذه الاحتمالات ليست مفقودة بين دارسي الحولية.

وكان بوشون أول من حاول حل المشكلة ، ولسوء الحظ ، إن عمله الرائع حقا حول الفرنجة في المورة قد تميز بتحيز وطني زائد . وهدفه الرئيسي كان تمجيد الاعمال الفرنسية في الماضي .وعلاوة على ذلك كانت أهدافه تاريخية حصرا ، وكان لديه اهتماما قليلا بفقه اللغة ، وقام بعمل فعلي صغير في النصوص اليونانية نفسها .

وطبعته على سبيل المثال من مجموع هـاقنسيس غير مـأخوذة مـن المخطوط ، بل من مقارنة قام بها أصـدقاء يونانيون له ، وطبعـاته بناء عليه ذات ذفع قليل لدراسـة لغـة النصـوص اليونانية ، وليس مدهشا أنه بوشون قد افترض أن التـرجمة الفـرنسية كانت هـي الأصل وأن اليونانية كانت ترجمة لها.

ومال هويف للموافقة على هذه الفكرة ولاحـظ أن الفـرنسية كانت اللغة العـامة الاسـتعمال في ذلك الوقـت في المورة (تـاريخ الاغريق ٢٠٢) وعلى أي حال كان في كتابه (التـواريخ الاغريقية الرومانية ص ٤٢) من الواضح قلق حـول هـذه الفـكرة ووعد أن يناقشها أكثر مع أنه لم يفعل.

إنه من السهل جدا رفض فكرة أن النص الفرنسي الذي لدينا هـو الحولية الأصلية. أولا وقبل كل شيء بالبيان الوارد فيها يستبعد هذا الاحتمال ، وأنه من الواضح جـدا أنهـا اختصـار لحـولية أقدم ، وعلاوة على ذلك اختبر شـميت الاحتمـال بتفصـيل كبير في كتـابه : (تـاريخ المورة) ص ٤١ ـ ٧٥ ووصـل الى نتيجـة أن الرواية الفرنسية يمكن احتمال أنها الأصلية.

ومن السهولة بمكان أيضا استبعاد الحـولية اليونانية كأصـل . أولا لأن تاريخ تأليفها يجعل ذلك مسـتحيلا ، وإذا كانت كمـا ذكر أعلاه قد كتبت في وقت ما نحو ١٣٨٨ ، فإنه لا يمكن احتمـال أنهـا الاصل الذي يمكن أن تستمد منه الرواية الفرنسية قبل ١٣٣٢ ، ولا بالنسبة لهذا الامر ، تلك التي أرخت ١٢٠٢ ويفتـرض أنه استمر حتى ١٣٠٤ وأن أحداثا في وقت متـأخر أكثـر قـد أدخلت وهـي خارجة على الترتيب الزمني ، تبين بوضوح أن الحـولية مبنية على مصنف يمضي حتى ١٣٠٤ . وستقدم أخرى على هذا الأمـر فيمـا يلي : ويبدو واضحا بشكل جيد إذا أن أيا من الحوليتين ليس نصـا أصليا ، ومن المؤكد أيضا أن النص الفرنسي ليس مستمدا من النص اليوناني ، الذي يعود الى تاريخ أحـدث . وليس مـؤكدا تمـاما أن

النص اليوناني ليس ترجمة موسعة للترجمة الفرنسية. وعلى أي حال فإن أراء شمت في كتابه / تاريخ المورة / وانا مانتيوس في كتابه / حولية المورة / ولوغنون في مقدمة كتابه / الاستيلاء على امارة المورة / وفي صفحة ٣٢٧ من كتابه / الامبراطورية اللاتينية /وكالوماروس في مقدمة وملاحظات كتابه / حولية المورة / وكل الكتاب اللاحقين حاسمة في أن الرواية اليونانية ليست ترجمة للفرنسية التي مع كونها مختصرة هي أكثر بكثير دقة ، وتحوي كثيرا من الحقائق المفقودة من الاخرى ، والاثنتان مستمدتان بالأحرى من مصدر مشترك •

والادلة على هذا المصدر المشترك مستمدة ايضا من اشارة غريبة في الابيات ٩١ ـ ٩٢ من الحولية وهنا يذكر : كما وجدنا مكتوبا بالتفصيل في كتاب/ الاستيلاء / وفي الواقع ان هذا يشير الى كتاب تاريخ وليم الصوري الذي لم يكن يسمى كتاب الاستيلاء .

ومن جانب اخر فان المادة من القوانين الرومانية ، التي تتكلم عن بلدوين الثاني ، تقول : كما ذكر بوضوح في كتاب الاستيلاء وتروي القوانين القصة المشكوك في صحتها عن زواج بلدوين من ابنة الامبراطور/ روبرت / وتعطي بالتفاصيل المماثلة بالكلمات نفسها الموجودة في حولية المورة تقريبا ، والاشارة اذا واضحة للحولية ، ولكن اية واحدة ؟ واضح انها ليست الرواية اليونانية لانها كتبت في وقت متاخر عن القوانين ، وليست الرواية الفرنسية ايضا ، لانه يحتمل ان القوانين مؤرخة بتاريخ متقدم عليها ، ولان القوانين تقوم على مختصر مصنف متوفر ، ولابد ان الالماع يجب ان يكون الى نمودج اصلي سمي بالعنوان المعطي للرواية الفرنسية (كتاب الاستيلاء) الخ ...

فالالماع في الحولية اليونانية اذا يفسر بافتراض نمط اصلي له هذا الاسم ، صنع على منوال تاريخ وليم الصوري ، دافعا بكاتب الحولية اليونانية آليا الى اطلاق اسم الكتاب الاخير على الكتاب

الاقدم الذي صيغ على منواله ومشكله ، لغة هذا النموذج الاصـــل ، مع ذلك ماتزال تواجهنا .

آراء جون شمت ونمط اصلي يوناني :

ويتبع جون شمت المركيز تـــريير دي لوراي في الرفض بحمـــاس لاحتمال وجود نمط اصلي فرنسي ، وهو ربما يقدم في اقوى تعابيره الممكنة نظرية ان الاصل قد كتـب في اليونانية ، ويضـطر المرء مـــع ذلك ، لان يبقى في ذهنه ان اهتمـــامات شـــمت فقهية كلية وحمـــاسه المعترف به لتطوير اللغة اليونانية الحديثة وجماليات ادبهـــا ادى بـــه الى وضع اهمية محورية لمجموع هافنسيس كمعلم في هذا التطور ، وكما يقول هو نفسه : ان المصداقية التي يعطيها لهذا النص ستهتز بشدة اذا كان ترجمة للرواية الفرنسية ، او قد يضيف المرء اي نمط اصلي فرنسي ، وتدل اقوال اخرى له ، انه ربما لم يبد اي تحفظات في وجهة نظره ، إنه كان قلقـــا نوعا مـــا ، وعلى ســـبيل المثـــال في الصفحة ٣٠ من مقـــدمته لحـــولية المورة ، يقـــول : ان (النمـــط الاصلي) قد يكون مكتوبا بالفرنسية ، ولكن كحولية فرنسية اكثـــر تفصيلا لم ينقل ، فهو اما فقد أو أنه لم يوجد مطلقا ، ولايمـــكننا ان نثبت الواحد او الاخر .

ثم يتابع فيقول : ان الكاتب الذي كتب الرواية الفرنسية ، اما ان يكون قد اختصر حولية فرنسية او ترجم مع الحذف حولية يونانية . ويجب مع ذلك ملاحظة ان الكاتب ، الذي يذكر كل هـــذا لايقـــول انه يترجم كتابا اقدم ، وفي مكان اخر (في ص ٣١) ، يذكر ان الرواية الاغريقية في كل النواحـــــي وفي كل الروايات اكمـــــل مـــــــن الفرنسية (وهذا صحيح فقـــط مـــع التحفـــظات) ويمضي شـــمث ليقول : ان الرواية الفرنسية يمكن ان تشرح بسهولة على انها مجرد خلاصة للرواية اليونانية ، ويذكر الكاتب بوضوح انهـــا خـــلاصته ، وهذا كما بينا اعلاه ليس ممكنا بالمرة ، وشمث نفسه لم يعتقد هـــذا

حقا ، لانه قال اخيرا انه كان هناك نمـط اصـلي لكلا الروايتين ، ولكنه كان مكتوبا باليونانية .

ودليله على هذا لغوي بشكل رئيسي ، وبين ان الاسماء الصحيحة في كلتا الدوليتين قد اعطيت بشكل صحيح في صورة اللغة التي وردت فيها ، فـالاسماء اليونانية مهجـاة بشـكل صـحيح في الرواية اليونانية ، والاسماء الفـرنسية في الرواية الفـرنسية ، وايضـا ان الاسماء الفرنسية في الرواية الاغريقية ليست مشـوهة بشـدة ، في حين ان الاسماء اليونانية في الرواية الفرنسية قد تحولت الى اسماء فرنسية .

وهكذا يمـكننا ان نتـوقع أن نجـد (١) كل الاسـماء اليونانية والفرنسية مكتوبة في النصوص المتعلقة بها (٢) الاسماء الاجنبية في النصوص تعالج بدقة تقريبا ، وهذا صحيح بالتاكيد بـالنسبة النص اليوناني ولاسيما نص هـافنسيس وهـو ايضـا صـحيح في النص الفرنسي ولكن مع استثناءات معينة ، وهذه هي النقطة الرئيسـية في نظرية شمث . والحقيقة انه كان يعتقد ان بعض الاسماء الفـرنسية محرفة في الرواية الفرنسية ، مما يظهر ان الكاتـب لم يكن يألفهـا وانه كان عليه ان يعيد بناءهـا مـن النص اليوناني الذي كان يترجمه ، وهكذا ان عددا من الاسماء الفرنسية الصحيحة الموجودة في الرواية الفرنسية يمكن ان تفسر اذا اقررنا انها قـد مـرت عبـر وسيط يوناني .

ومرة اخرى فانه اخذ مـأخذ دي لوراي فـأعطى بعض الامثلة : اللغوية وعرض بعض الاسماء المحرفة ليصل الى القول ان الكاتـب قد ترجم اليا الاسم الذي رآه امامه كاسم فرنسي وكتبـه تبعـا لذلك تماما

والضعف الواضح لهذا الخط من التفسير ، هو بالطبع ، مشكلة من اين جاءت الاسماء في النص اليوناني فاصحابها بالتاكيد ليسوا

يونانيين ، ولابد أنها تحريف لاسماء فرنسية ، اما سمعها المؤلف او صادفها عندما كان يكتب .

ويبدو انه اكثر قابلية للتصديق ان هذه الصيغ للاسماء كانت هي التي استعملها المؤرخ الاصلي ، وان كلا الكاتبين المتأخرين قد تبنياها ببساطة ، ومثل هذه الادلة بلا شك لاتؤكد القول : « وهكذا ان فرضية ان صيغة تامة كاملة للحولية بالفرنسية هي بلا اساس » .

وتكفي بضع امثلة اخرى من تفسيرات شمث لبيان ضعفها المتاصل . وهو يشير مع دي لوراي الى حقيقة ان خمسة نصوص يونانية قد بقيت في حين ان واحدة فقط من كل الروايات الاخرى قد وجدت ، ويميل للدلالة على افضلية المخطوط اليوناني ، وهذا لايدل على شيء من هذا النوع .

وفي الواقع لقد بينت اعلاه ان هذا ليس صحيحا ، ثم يسال شمث لماذا يكون لدى اليونان اي سبب كي يترجموا الى اليونانية مثل هذه الوثيقة العنيفة موقفها المعادي لليونانية ، وهو يعلل انهم بالطبع ليس لديهم سبب لفعل هذا .

ولكن المرء قد يسأل لماذا اذا كتبت باليونانية في المقام الاول ؟ وسوف نعالج هذا السؤال بتفصيل اكثر فيمايلي ، والخط الاخير في تفسير شمث والذي ربما كان الاكثر اقناعا يتعامل مع الالقاب الفخرية للمخاطبة التي تظهر خلال كلا النصين . وكان الفرنسيون في القرن الثالث عشر في العادة يخاطبون ملكهم بكلمة سيدي و« السيد الملك » وكلتا الصيغتين تظهران في الراوية الفرنسية • ولكن بالتأكيد ان تعابير مثل « الامبراطور المقدس « المتوج بالتاج المقدس » التي تظهر ايضا انها ليست فرنسية نموذجية ، بل بالاحرى تراجم لالقاب بيزنطية ، ولكن هل يدل هذا بالضرورة على ان النمط الاصلي قد كتب باليونانية ؟ الا يدل وجود مثل هذه

التعابير على ان الامبراطورية اللاتينية وتوابعها قد ثبتت مراسم البلاط للقصور الملكية اليونانية وان هذه التعابير كانت شائعة الاستعمال في الشرق ؟ وقد تبنى البلاط اللاتيني الاجراءات اليونانية في تتويج الامبراطور ، مع شارة السلطة الامبراطورية الخ ....

(انظر : ٢ / ٩٨٤ من الحولية) وقد يفترض المرء انهم قد ثبتوا تعابير المخاطبة التي كانت شائعة الاستعمال وكلمات المخاطبة الاكثر تعقيدا للامبراطور يحتمل اكثر انها بقيت ، حيث انهما كانت اكثر رسمية ، وهذا كله تخميني واذا قامت وحدها وصحت فانها ستكون حاسمة ولكن مع ارتباطها بالادلة المعروضة اثناء انها تجيب بشكل واف على جدل / شمث / .

وهكذا نجد ان جدل / شمث / شامل ويؤدي الى اسئلة مربكة ، والاحتمالات الوحيدة الباقية هي ان النمط الاصل قد كتب اما بالفرنسية او الايطالية .

احتمال وجود نمط اصلي فرنسي

عندما يقرا المرء الحولية باليونانية يبقى باستمرار مدركا لعدم الكفاية الواضحة لمفردات اللغة اليونانية . وهناك تكرار يكاد يبلغ حد السخف للكلمة نفسها مرات ومرات لاسيما عندما تكون واحدة مما يلمس هوى لدى المؤلف .

والى جانب هذا هناك نقص واضح في المرادفات ، وبصورة متكررة يستعمل المؤلف الكلمة نفسها مرتين او ثلاثة في الجملة في حين ان الميل الطبيعي هو ايجاد مرادف ، وهذا واضح بشكل خاص في محاولته الاحتفاظ بالوزن الشعري للعمل فكان أن تكررت عبارات كاملة وعكست جملا ، واقحمت كلمات لاضرورة لها ، فقط لمجرد

مله الابيات ، وهذه الخصـائص بـالتاكيد تفضـل في التـرجمة او التكيف على اكثر منها القطعة الاصلية المكتوبة .

وربما كانت اوضح طريقة لرؤية هـذا هـي مقـارنة مجمـوع هافنسيس (التي تسمى بعد ذلك ـ هـ) مع البـاريزية (ب ـ ا) والتـورينية (ت ـ ا) حيث يبـدو على الفـور ان التحيز العنيف المضاد لليونانية ل . هـ ، هو بين الاشد مرارة في اي نص تـاريخي يختفـي في ب ـ وت . وان تحـامل الفقـــرات في الابيات ٧٦٦ ـ ٨٨٠ـ ١٧٤٩ ـ ٥٥ ـ ٣٩٣٤ ـ ٣٩ ـ ٤٧٦٦ ـ ٨٣ ـ ٤٨٤١ ـ ٤٣ الخ محذوف تمـاما في ب ، والبيان في الابيات ٣٩٩٥ و ٥٧٢٢ ملطـــف وذلك الذي في الابيات ٧١٣٣ و ٧١٥٧ معدل وفي البيت ١٥٠١ اختـزل عدد الجيش اليوناني الى ١٠٠٠ ، وفي الابيات ٥٣٧٩ ، ٥٣٩١ تختـرع ب ـ مـذبحة للفـرنجة ، وفي البيت ٧٢١٩ تقول هـ . (حدث اسى عظيما) وتقـول ب : « واسى للفرنجة » وتأتي ت لتكون حتى اكثر شدة في اسـتبعاد هـذا التحيز المضاد اليونان (الابيات ٣٧٢٣ ، ٣٩٨٣ ، ٤٧٧٢ ، ٦٧٤١ الخ ...

وهـذه الامثلة قليلة وغيرهـا كثير ، تـزيل اي شـك كان في ان ب و ت قد كتبا من قبل اليونانيين ويحتمل ان ذلك كان بعد اكثر من قرن من هـ وبلا شك كان للقـراء اليونانيين ، وحيث ان هـذه هـي الحالة فانه من المهم ملاحظة التبدلات اللغوية التي قام بها مؤلف ب في النص الذي كان ينسخه ، والتغيير الأول هو استبعاد كثير مـن الكلمات الاجنبية التي من الواضح ان مـؤلف ب ـ كان يشـعر ان قراءه لن يفهموها .

ومن استعراض قائمة موجزة فيها بعض النماذج الموضحة يبـدو لنا أن الكاتب لم يكن حريصا على صفاء اللغة والاسلوب .

ولم يحاول ببساطة الاحتفاظ بيونانية صرفة يعبـر عنهـا ، لان النحو والمفردات اللغوية في نصه اصطلاحية تماما ، وهو ببساطة قد

حاول جعل النص مفهوما وحيث ان هذه هي الحالة ، يتبع هـذا ان هـ لابد انها قد اوجدت صعوبات للقارىء اليوناني ، ولكن اذا كانت هـ ممثلة ليوناني الفترة وانها كتبت للقراء اليونانيين كما يتمسك شمث ، فان هذا لن يكون كذلك .

والتغيير الاخر الذي يمكن ملاحظته هو ترجمة الكلمات الاجنبية الى اليونانية .٠

الانطباع العام المستخلص من بعض أعمال المقارنة اللغوية والكتابية هو أن مؤلف هـ ، كان يترجم وثيقة فرنسية ، والاستنتاج الاخر الوحيد هو انه كان يعمل من وثيقة يونانية ، التي بدورها كانت تقوم على وثيقة فرنسية — وبالتأكيد لاحاجة للتعقيد — ان مؤلف ب من جانب اخر لايستعبد بأي حال الكلمات الاجنبية بشكل جوهري من النص ، ولاهو كان يقصد استعمال اليونانية الكلاسيكية ، وقد حاول استبدال الكلمة الفرنسية التي هلينتها هـ ، مما كان يسبب المتاعب للقراء اليونانيين ، وقد حاول ايضا ان يعطي تراجم صحيحة لكلمات وجد فيها مؤلف هـ صعوبة ، وهذا يدل بوضوح ان كل هذه الكلمات في هـ ، لم تكن جزءا من لغة الحياة اليونانية في تلك الفترة ، بل انها كانت كلمات مهلينة بينما كان المؤلف يترجم نصا من لغة اخرى ٠

ويصبح هذا حتى اكثر وضوحا عندما ننظر بدقة اكثر الى هـ اننا نلاحظ على الفور ان النص مليء بكلمات اجنبية . والعدد الفعلي لهذه الكلمات لايعطي دلالة على تأثيرها في النص ، حيث تكرر مرات ومرات . ومعظمها يعطي مترجما مع نهايات يونانية ، وقليل جدا من هذه الكلمات الاجنبية كتب بلغة اجنبية لان المؤلف كان في حينه يشعر بانها قد لاتفهم من قبل قرائه ، واحيانا ببساطة لملء البيت ويعقبها على الفور الكلمات اليونانية المتعلقة .

واضافة الى هذه الممارسات كان المؤلف يحب ان يبتكر كلمات

يونانية قائمة على اصول فرنسية وكل هذه الكلمات المبتكرة لهـا رنين يوناني وهي تذكارية لكلمات اخرى في اللغة .

وعادة اخرى للمؤلف هي اخذ تعابير فرنسية صرفـة وتـرجمتها مباشرة الى اليونانية ، وكثيرا مايكون هذا بنتائج عكسية فـكهة .
وتنساب اللغة بشكل جيد في بعض الفقرات ، ولاسيما تلك التـي يقطع فيها المؤرخ روايته ليخاطب القراء مباشرة ، وهو خطاب مـن الواضح انه مفترض ، وهـذا ايضـا مقـروء بشـكل جيد ، ولكن الرواية هكذا ليست مقروءة بشكل جيد واللغة مفتعلة وملتوية ، وقد عكست العبارات لتحقق الوزن وترتيب الكلمات نفسه ليس طبيعيا ، وكثيرا جدا ماتكون فرنسية واضحة ، وهذا ظاهر عندمـا يقـارنها المرء بحولية فرنسية من القرن الثاني عشر او الثالث عشر والتشابه مدهش ، وربما مأثور وواحدة تصورا ستعمال كلمة يونانية في عطف على كلمة فرنسية وتعرض واحدة الفرق الطفيف بين النصين ، بـل ايضا اصلهما المشترك وتحوي الاخيرة عبـارة طـريفة لابـد انهـا مشتقة •

وتبقى نقطة واحدة للدراسة في هذه المناقشة للغة النموذج •
وقد اقترح لوغنون ان تكون اللغـة الاصـلية ايطـالية . (انظـر مقدمته لكتاب (الاستيلاء) ، حيث يطور هذه النظرية ، وفي كتـابه الامبراطورية اللاتينية ص ٣١٧ ، حيث ذكرها كحقيقـة) . ونذكر باختصار ان اعتقاده هو لان احد البنادقة في حاشية بارثلميو غيزي او حتى غيزي نفســه ، كتــب الحــولية بــالايطالية بين (١٣٢٧ و ١٣٣١). وهـذه كمـا يبين كانت الفتـرة التـي كان الايطاليون يكتبون فيها تـواريخهم ، وكانت حـولية المورة واحـدة منها . ويبين ايضا ان حرب البندقية مع فريدريك الثاني غير مذكورة في الحولية ، ولم يقبل احد بنظرية لوغنون هذه وقد رفضت حالا من قبل ادامانيتوس . واعتقد ان الصعوبة الرئيسة فيها هـي انه لاشيء مطلقا حول الحولية يزيد على الاشارة الى بـارثلميو غيزي في عنوان الترجمة الفرنسية ، يوحي باصل ايطـالي ، علاوة على ان لوغنون

قد قرأ كثيرا ، هذا البيان ، وهو يفترض انه يعني ان شخصا ما من حاشية غيزي قد كتبه ، هذا البيان يقول : مجرد ان الحولية قد وجدت في كتاب كان ذات مرة في حوزة غيزي ، ويستحيل قراءة اكثر من هذا فيها ، حيث انه لغياب الاشارة الى حرب البندقية مع فريدريك ، يمكن فقط للمرء ان يقول : ان هناك احداثا كثيرة اكثر اهمية بكثير من تاريخ المورة تركت ايضا (سقوط الامبراطورية اللاتينية مثلا) ولا نربط اهمية خاصة بهذه الحادثة المنعزلة .

وتظهر المقارنات اللغوية أن الكلمات التي ربما قد اشتقت ايضا من كلمات فرنسية ، هي ضعف الايطالية علاوة على ان كثيرا من تلك الكلمات الايطالية ولاسيما التي تتعامل مع الشحن بالسفن والتجارة كانت في الاستعمال من قبل الشرق الأدنى قبل كتابة الحولية بوقت طويل .

وتجعل المقارنة من الواضح بشكل تام ، أن الفرنسية دون شك هي لغة النموذج الأصلي ، ليس فقط لوجود كلمات فرنسية بضعف عدد الكلمات الايطالية ، بل لأن كثيرا من الكلمات اللاتينية يمكن أن تعد بشكل صحيح فرنسية ، وكل بقية الكلمات اللاتينية هي كلمات دخلت اللغة اليونانية قبل وقت طويل من كتابة الحولية ، خاصة التعابير التي تعالج موضوع الحكومة ، والدين والتجارة ، والاعمال الحربية ، وباختصار ، يمكن للمرء اذا أن يقول يقينا ان كلا من الروايتين الفرنسية واليونانية استمدت من نمط أصلي كتب بالفرنسية والأولى مختصرة ومباشرة وكتبت نثرا ، وربما من قبل رجل دين فرنسي أو فارس فرنسي ، يمكن تصور أنه كان في حاشية كاترين دي فالوا بين ١٣٣٣ و ١٣٤٦ ، والأكثر احتمالا بين ١٣٣٨ و ١٣٤١ والأخيرة مترجمة موسعه ومزوقة بدرجة عالية وكتبت بالشعر السياسي ، احتمالا من قبل شخص ما كان في بلاط إيرارد الثالث لى مور ، قبل بضعة سنوات من سنة ١٣٨٨ أو بعدها مباشرة .

النمط الأصلي الفرنسي

لاجدل حول صحة النمط الفرنسي الأصلي الموجود الآن ، ولكن مناقشته بدقة مهمة صعبة ، لأن المرء يجب أن يعتمد على الدليل الذي اكتشف في فرعية الاثنين ، ومع ذلك من الممكن التمييز ببعض الدقة بين المصنف الأقدم والتعديلات التالية ، وهكذا يعاد بناء الأصل المفقود ، ومن الواضح أن هذه الطريقة يجب أن تعتمد بقدر كبير على التخمين ولكن استنتاجات معينة يمكن الاعتماد عليها ، ربما يمكن الوصول اليها .

تأريخ النمط الأصلي :

أن مؤرخا كمؤرخنا ، رجل له قدرات عقلية محدودة نوعا ما وخلفية تعليمية يمكن أن يصف بدقة ، فقط مايراه هو نفسه أو ما يعلمه من شاهد مباشر ، ومالم يعتمد على مصادر مكتوبة دقيقة في ذاتها فإن دقته يجب أن تتناقص بحكم الظروف كلما تراجعت الأحداث التي يصفها أكثر الى الماضي ، ومن الواضح مباشرة أن مؤرخنا لم يستخدم مصادر مكتوبة ، وربما كان قد قرأ وليم الصوري كما توحي الفقرات الافتتاحية من الصولية ، ولكن وصفه للحملة الصليبية الأولى غير دقيق بالمرة ، حتى في الخطوط العريضة ، ولاروايته حول المسار الابتدائي ، بيد أن حديثه عن نتائج الحملة الصليبية الرابعة جاء قريبا من الحقيقة ، ومن الواضح – مع أنه أمر غريب ، أنه لم يستعمل رواية فيلهاردين ، وتفسيره لتاريخ الأحداث في الولايات اليونانية لتلك الفترة يكشف أكثر جهله التام بالمؤرخين البيزنطيين ، ويمكننا أن نخمن بأمانة بناء على ذلك بأن مصادره الوحيدة للمعلومات كانت عيناه وأقوال الشهود التي جاءه بعضها مباشرة ، وكان يمكن الاعتماد عليها ، وأخرى منها جاءته كإشاعات وتقاليد ، وهناك استثناء واحد – بعض الوثائق – التي ستناقش أدناه ، وحيث أن

الأمر كذلك ، فان الحولية بالتالي لا يمكن ابعادها عن الأحداث التي تسجلها ، وواضح من الحولية الفرنسية ان الرواية الرئيسية تغطي السنوات ١٢.٤ ــ ١٣.٤ مــع النصــف الأخير للفتــرة مــوصوفا بالتفصيل ، ولنقل ان المؤرخ في حينه لم يتمكن من تسجيل اي حدث بأي دقة لو أنه كتب بعد أكثر من جيل من وقوع الحدث . وقد تمــت معالجة حكم غوليوم الثاني ١٢٤٦ ــ ١٢٧٨ بتوسع كبير مــع كثير من التفاصيل الحية ، ويمكننا أن نفترض أن المؤرخ تكلم مع الناس الذين شهدوا هذه الأحداث ، وهــذا ايضــا يفسر لماذا عولج حــكما جيوفــري الأول وغيوليوم الأول بهــذا الاختصــار ، وعدم الدقــة ، والاستنتاج هو أن الحولية كتبت بعد وقت قصير جــدا مــن ١٣.٤ (ويجب أن يبقى في الذهن انه بحلول ١٣٢. يبدو أن الحولية كانت متداولة ، وكانت بلا ريب قد أصبحت في حوزة بارثلميوغيزي) .

وهناك بيانات معينة في الحولية تــؤكد هــذا التــأريخ ففــي البيت ٥٧٣٨ يقال لنا إن أطفال الأتراك الذين تزوجوا وتــوطنوا في المورة في ١٢٦٥ كانوا مايزالون احياء عندما كتبت الحولية ، وهذا قد يكون صحيحا بالنسبة لوقت يلي بوقت قصير ١٣.. ، ولكن ليس بعد ذلك بكثير بالنظر للنسبة العالية المروعة لمعــدل الوفيات في المورة التي مزقتها الحــرب في تلك الفتــرة وفي الأبيات ٧٤٢١ ، ٨٠٧١ ، ٨١١. ، ٨٦١٦ ، يدعى نيكولاس الثاني دي سانت أومــر بــالرجل العجوز ، ولكن المؤرخ قد أخطأ بــذكر الأب مــكان الابــن نيكولاس الثالث الذي توفي في ١٣١٤ ، وهــذا يدل على أن نيكولاس الثــالث كان رجلا مسنا ومازال حيا عندما كان المؤرخ يكتب ، وهكذا يبــدو ان الدورية الأصلية قد كتبت بين ١٣.٤ و ١٣١٤ .

المؤلف وعمله :

أن لمدهش ولكنه صحيح أنه لايوجد بيان واحد في الحــولية يتعلق بالمؤلف نفسه ، ومع ذلك فان شخصيته تظهر ، مع انها غير واضحة

فقط بالاستدلال من صفحات حوليته ، وقد أثار هذا التعدد من النظريات بين العلماء ، حتى بالنسبة لجنسيته ، واعتقد لوغنون بان ايطاليا كتب الأصل / هوغاسمول / الذي كتب الترجمة اليونانية الأخيرة ، واعتقد بوشون وهوبف أن الأصل قد كتبه فرنجي ، وأن النسخة الأخيرة كتبها يوناني ، أما كالوناروس فليس متأكدا من الأصل ، مع انه يعتقد أنه كتب بالفرنسية ، وأن النسخة الأخيرة كتبت من قبل غاسمول . ويعتقد شميت أن الأصل قد كتب باليونانية من قبل فرنجي ، وأن النسخة الأخيرة دقيقة وان كانت موسعة الخ ....

وفي رأيي ليس هناك من شك في أن المؤلف هو فرنجي فلماذا يكتب يوناني وثيقة مضادة بشدة للاغريق بالفرنسية ؟ ولماذاكان علينا أن نفترض أن غاسمول كتبها ؟ وقبل كل شيء ان الذين اقترحوا أن يكون غاسمول هو المؤلف ، غير واضحين تماما في تمييزهم بين النمط الأصلي والنسخة اليونانية المتأخرة ، وثانيا أن كل مانعرفه عن آل غاسمول وهم من نتاج زواج فرنسي يوناني ، في هذه الفترة ، يدل على أن مشاعر غاسمول لابد أن كانت موالية لليونانية ، وقد رحب بآل غاسمول من قبل اليونانيين ، وأعطوا مناصب عليا في البلاط والجيش اليوناني ، ومن جانب آخر إنهم رفضوا تقريبا من قبل الفرنجة ، ومن الصعب في الواقع أن نجد سببا مقبولا لماذا كتب أحد افراد عائلة غاسمول حولية هدفها الكامل تمجيد مفاخر الفرنجة القدماء واثاره التنافس بين أبنائهم الذين تحدروا منهم .

ولأن الحولية تفعل هذا بالضبط كما هو واضح على الفور لكل من يحاول أن يعلق بالحواشي على الحولية ، بل لانتاج رواية متألقة عن أعمال الفرنجة الماضين ، وأن يحث مستمعيه على العمل في أيام الانحطاط الفرنجي في المورة ، لقد أراد أن يضرم من جديد العنف الشبيه بالحرب لحكم غوليوم الثاني . وبالتأكيد إن مثل هذا الهدف والحنين الى الماضي يدل على أن فرنجيا هو المؤلف,وعلى أي حال

كان المؤلف فرنسيا تماما في مواقفه وتحيزه ، فالفرنجة دائما يقعون في الضوء المواتي ، وترد البيانات تلو البيانات حول تفوق الفرنجة في الاسلحة والخلق والشجاعة . وفي الحقيقة إن هذه كلها كانت توضع في أفواه أعدائهم من الاغريق ، وتظهر المشاعر النمونجية المضادة للاغريق لدى الصليبيين من الفرنسيين ، مع أن النقد الساخر والعنيف الوارد في هـ والذي لايمكن التفوق عليه في العنف قد أقحم من قبل المترجم ، حيث نجد على سبيل المثال أن الأبيات ٧٥١ ـ ٧٥٥ ـ ٨١٦ ـ ٨١٩ ـ ٨٢٧ ـ ٨٤١ و ١٢٤٩ ـ ١٢٥٥ . مفقوده في الترجمة الفرنسية . ومن الواضح أن المؤلف كان كاثوليكيا متشددا ، مع أنه كان على معرفة بالكنيسة اليونانية الأرثوذكسية وطقوسها ، ومع ذلك فهو لم يتحيز الى جانب الأكليروس في كفاحهم ضد الأمير في المورة (٢ ، ٢٦٢٦ ....) ولم يكن رجلا ذا منزلة رفيعة ، لانه على مايبدو لم يأخذ دورا فاعلا في أي من الاجراءات التي وصفها ، وعلاوة على ذلك يبدو وكانه كان يخاف من الألقاب الرفيعة ولايضيع مطلقا فرصة لتسجيلها .

وحتما لم يكن شاعرا ، اذ أنه لايوجد تقريبا أية إلماعات شعرية . وبالأحرى إنه رجل نثر قوي ويعبر عن الفكرة تماما ، وهناك على أي حال نوعية درامية لكثير من الفقرات ، لاسيما تلك التي تعالج إجراءات البلاط ، وتصادم الشخصيات .

وفي هذه فإن الأحاديث ، مع أنها خيالية ، لها رنة الصدق وتدل على شخصية المتكلم ، ويشعر المرء بأن الشخص لابد أنه تحدث بهذه الطريقة . والناحية الأكثر إثارة للدهشة في شخصية المؤلف هي اهتمامه الشديد بالعادات الاقطاعية ، في دعاوى القضاء الأعلى ، وصحيح أنه وصف المعارك والتطورات السياسية ، ولكن دائما فعل ذلك بطريقة سطحية خاطفة ، ولديه ميل لاختصار مثل هذا الوصف ، وسروره الرئيس مع ذلك هو في القضاء الأعلى الذي يملأ جزءا غير عادل النسبة في سعته من الحولية ، وهو هنا على

أساس وطيد . ووصفه للدعاوى والقانون مضبوط بدقة ولديه معرفة دقيقة بـالقانون ، ويذكر كثيرا مـن المواد في قـوانين المورة ومـن الواضح أنه قد درسها .

علاوة على أنه على مـايبدو قـد درس سـجلات الاقـطاعات في المورة ، وأنه قد استخدم هذا المصدر لبياناته حول مختلف القصـور ومؤسيسها وانتقال ملكيتها وهذا ظـاهر مـن ميله للخلط بين الاب والابن عندما يحملان الاسم نفسـه ، ولايظهـر التمييز بينهمـا في معظم الأعمال مالم يوقع الأب والابن الوثيقة نفسـها ، وعليه فـان الاستدلال هـو أنه كان كاتبـا ديوانيا أو كاتبـا بـالعدل في المحكمة ، وهناك نقـطة أخـرى ، ولو أنهـا غير مبـاشرة نوعا ما ، تميل الى تأكيد ذلك ، فهـو يكشـف عن ولع غريب بـالغموض والمكر طالما أنها في جانب الفرنجة ، وهـو على سـبيل المثـال يعيد السرد بتلذذ واضح للطريقة التي سلب بهـا روبـرت مـن ميراثـه الحق (انظر فيمـا يلي ص ١٣٥ ـ ١٤٢) وفي الزمـرة نفسـها خطف وزواج ابنة الامبـراطور / روبـرت / مـن قبـل الأمير / جيوفري / وخرق / غوليوم / الثاني لمعاهدته مـع ميكائيل بالايولوغوس الخ ....

وهكذا تظهر صورة مؤلف الحولية الأصـلية ببـطء ، وبـانذاره بتراجع وانهيار بيت آل فيلهاردين بسـبب السـلسلة الطـويلة مـن الكوارث التي دمرت رخاء المورة ، في الحروب التي دمرت المقـاتلين فيها ، وبسبب التدخل الأجنبي الذي كان يهدد وجودها ذاته ، تولى هذا الكاتب بالعدل الفرنجي ، ذو المنبت الوضيع ، والذي كان مـع ذلك متوافقا مع عرقه وكنيسته تولي مهمة هز اقرانه من الفرنجة من فتورهم ، والهامهم بأن يعيدوا في قرنهم الأعمال المجيدة التـي أدت الى الاستيلاء على اليونان بهذه السهولة قبل ذلك بقرن كما في تقاليد أناشيد الأعمال ، وأنتج هو أيضا أغنية ليست بالخيالية حول أبـطال الأساطير والتنين ، بل واقعية عن الفرنجة وأعدائهم ، وحـوليته حقيقية وان تكن مزينة بشكل مقبـول ومفهـوم تتـراوح بين القـوة

والاعتدال ، وهي معقولة مفهومة معترف بهـا ، سـمحة التفـكير كالفرنجة الذين تصفهم ، وتضـم مـع كراهيتهـا بعض الاحتـرام والتسامح تجاه اعدائهم .

الحولية اليونانية

ان هذه الخصائص مـع ذلك فقـط بـالنسبة للرواية الفـرنسية الحولية والحولية اليونانية أمرا آخر تماما ، ومع أن الأصل قد يبقى ممـكن التمييز في صـفاتها فـان الانحياز العنيف المضـاد للاغريق وللارثوذكس للمترجم يغير النغمة تماما ، ومـن الواضـح جـدا أن نمطا مختلفا من الشخصية قام بالعمل

المؤلف وعمله .

لاشيء معروف بالمرة عن المترجم اليوناني أكثر من حقيقة أنه كان على صلة وثيقة بالكنيسة الكاثوليكية وكان على درجة مساوية مـن الكراهية الشـديدة للاغريق ، والقليل جـدا فيمـا عدا ذلك يمـكن الاستدلال عليه من اضافاته سوى انه كما ذكر أعلاه ، أنه ربما كان عضوا في بلاط إيرارد الثالث ويفترض عادة بأنه كان من الغاسميول لمجرد أنه كان يكتب باليونانية . وأسبابي للشك بأن الكاتب الأصلي كان من الغاسميول هي أكثر إمكانية حتى للتطبيق في هذه الحـالة ، وبالتأكيد حوالي نهاية القرن الرابع عشر ، عندما كان واضـحا أن العصيان الاغريقي لايمكن تفاديه وكان دائما واضحا بالقدر نفسـه ان أيام حكم الفرنجة في المورة معدودة ، فإن أحد آل غاسميول الذي تم الترحيب بهم بحرارة من قبل الاغريق صعب أن يقـف في جـانب الخصوم من الفرنجة في ذلك الحين ، مع أن المرء بالطبع قـد يفعـل ذلك .

وان تفسيرا يعرض نفسه يكمن في فحص اسباب ترجمة الحولية

الى اليونانية في المقام الأول ، وقد تساءل شميت لماذا تترجم مثل هذه الحولية الى اليونانية ؟ والسؤال الأصح يجب ان يكون لماذا لاتترجم ؟ أن التمثل الثقافي للفرنجة من قبل المقهورين الاغريق كان سريعا بشكل يثير الدهشة وفي زمن غوليوم الثاني الذي كان من أول جيل ولد في اليونان ، وكان يتكلم اليونانية بطلاقة ، أن قسما كبيرا من الفرنجة كانوا يتحدثون بلا شك بلغتين ، ويذكر غوليوم بشكل خاص على انه كان يتكلم اليونانية (١ ، ٤١٣٠) ومن المهم أن الحولية تذكر هذا على أنه شيء من الانجاز ، ويذكر اليونان هذا ببساطة كحقيقة ، علاوة على أن الاغريق كثيرا ماكانوا يحتاجون كمترجمين ، وكان الجيل التالي يتكلم كله اللغتين ، وبقيت اللغة الفرنسية مع ذلك لغة ضرورية وفعالة ، للقادمين الجدد الذين لم يكونوا يعرفون اليونانية ، وكانوا يفدون باستمرار الى المورة (انظر ١ ، ٨٣٢٠) وعندما كان على الوافد الجديد جيوفري دي بروبير أن يستخدم إغريقيا ليكتب رسائله . وكانت الروابط مع أوروبا الغربية ماتزال قوية وكانت هناك رحلات جيئة وذهابا .

وهكذا إن الحولية قد كتب أصلها على نحو صحيح بالفرنسية . وفي مجرى المئة سنة التالية ، على أي حال تبدلت الحالة بقوة وجعلها تردي المورة أقل بكثير من موطن اسطوري .

والآن أصبح القليل يأتي الى المورة بحثا عن حظه ، وتضاعف الزواج الداخلي المتبادل أضعافا كثيرة ، واستمر التمثل الثقافي الطبيعي حتى يمكن القول بأمان أن اليونانية كانت اللغة الطبيعية للفرنجة في المورة بحلول نهاية القرن الرابع عشر . وفي الحولية ثلاثة إلماعات الى جيوش مكونة من الفرنجة والاغريق على اعتبار أنهم يتكلمون لغة واحدة (٢ ـ ٣٨٠٤ ـ ٣٩٨٦ ـ ٤٧٢١) واذا كانت هذه البينات جزءا من الحولية الأصلية ويعود تاريخها الى نحو ١٣١٠ ، فيحتمل أنها فقط أدلة أكثر على انحياز المؤلف الموالي للفرنجة ، وهو ببساطة أغفل حقيقة أن الاغريق كانوا

موجودين من أجل المحافظة على الالحاح على الفرنجة (انظر أدناه رقم ٦٦ ص ١٨٤) .

واذا اقحمت هذه البيانات مع ذلك من قبل الكاتب الأخير حـوالي ١٣٨٨ ، إن تفسيرا جديدا مختلفا تماما قد يقوم عليها ، وفي هـذه الحالة طالما أنه صحيح أن لسـانا واحـدا ـ أعني اليوناني ـ كان لغة الاغريق والفرنجة في ذلك الوقت طبـق المؤرخ ببسـاطة المقـارنة التاريخية على زمن مضى ، وهي حالة كانت صحيحة في زمانه ، وفي كلتا الحالتين تبقى حقيقة أنه بنهاية القـرن الرابـع كان هناك مـن الفرنجة من يتكلمون اليونانية كلية أكثر من ذوي اللغتين ، وفي مثـل هذه الحالة اذا أراد المرء أن يقدم حولية فرنسية للفـرنجة كان عليه أن يترجمها الى اليونانية وهذا بالضبط مافعله كاتبنا .

والسبب في أنه قرر أن يوفر حولية المورة لمعـاصريه ليس صـعب التخمين جدا ، وهي بالضبط الأسباب نفسها التي حثـت مـؤلفها الأصلي على كتابتها قبل جيلين ـ مع فـرق واحـد هـو شـدتها ونغمتها ، والتطورات التي أرعبته أصبحت حقـائق وبعضـها مضى عليه زمان طويل ، وقد اختفى الفرنجة تقـريبا مـن المورة كشـعب بالتمثل وكأمـة ، بـالغزو والامتصـاص . ورغب الكاتـب الأخير بالأهداف نفسها كسلفه ، ولكن كان فيها نغمة إضافية من اليأس ، ولاحظ الاقحـام في السـطور ١٥٨٧ حيث ينذر بمجـيء السـيطرة الانجفينية إلى المورة . وحيث أنه يرى أمـامه النتـائج الواضـحة لتراجع قوى الفرنجة ، فتصويره لخصائص مجدهم الماضي يصـطبغ بالاحباط المتطرف ، وكي يرفع تأثيره على الشعور المعتدل نوعا مـا المضاد لليونانيين في الأصـل ، إلى شـجب يكاد يكون هسـتيريا ، ويقابل الفـرنجة الفـاضلون الذين لايقهـرون بـاليونانيين الجبناء المخادعين العاجزين . فإن الحقائق التي قدمها ولم تتوافق دائما مع هذا التصوير كانت لاتينية ، ونجد على سبيل المثـال أن الحـولية في احد المواضع (١ ٤٢٠٧) تقول عن ميكائيل باليولوغوس : « مثل هذا الرجل الحكيم النبيل كمـا كان » وفي مـوضع آخـر : (١ ـ

١٢٤٥) « انتبه للظلم والاثم الذين ارتكبهما هذا الخسيس» .
وماحدث واضح ، بينما سعى الكاتب الأول إلى إحياء القوى الفرنجية مع بعض التأكيد بأنها يمكن أن تعود ، تخلى الكاتب التالي عن مثل هذا الأمل ، وهو يعلم أن الوقت قد فات .

وهو يعرف أيضا أن الأغريق مطمئنون إلى النصر النهائي ، ومن هنا كراهيته التي خرجت عن السيطرة والسخرية فيها أنه قد تراجع إلى استخدام لغة هؤلاء اليونانيين ذاتهم حتى يتسنى للفرنجة أن يفهموه .

وهكذا يبدو لي أنه لشرح الطبيعة المزدوجة للحولية وتضاربها الداخلي يجب أن نفترض أن كلا المؤلفين كانت لهما اهداف متماثلة من الكتابة ولكن مضى مايزيد على جيلين من الأحداث المضطربة وحتى المفجعة في المورة قد أحدث إحباطا ويأسا لدى المؤلف الثاني ، أدى إلى تحريف الحولية الأصلية .

القيمة التاريخية

وعلى الرغم من هذه الطبيعة المزدوجة ، فإنه مازال يجب أن تعد الحولية اليونانية مصدرا تاريخيا هاما ، طالما أن الرواية الفرنسية هي ملخص فقط . والرواية الاغريقية هي الوثيقة الوحيدة التي لدينا ، والتي تعطي رواية قائمة جديرة بالثقة لتأسيس النظام الاقطاعي في اليونان في القرن الثالث عشر ، وهي علاوة على ذلك المصدر الفرنجي الرئيسي للتاريخ الفرنجي - اليوناني . هذا مع حقيقة أنها قد كتبت بعد وقت قصير جدا من وقوع الأحداث التي تصفها يجعلها عالية القيمة ، حتى مع أنها كعمل تاريخي قد تخطيت بكثير بعمل سانودو وأعمال المؤرخين اليونانيين المعاصرين ، وإنها مع ذلك يجب أن لاتدرس من أجل الرواية فيها في المقام الأول ، مع أن هذه هي مصدرنا الوحيد من أي نوع لكثير من الأحداث ، بل للتبصر الذي توفره لنا في مؤسسات العصور الوسطى والعادات

الاجتماعية ، وبدلا من المناقشة بالتفصيل في جدارة الحولية كرواية تاريخية ، أحيل القارىء إلى الصورة التاريخية المقدمة أعلاه وإلى التعليق في الحواشي ، وهذه مع النص تتحدث عن نفسها ، ويكفي هنا القول أن الرواية هي من نوعية متفاوتة الجودة . فأجزاء منها زائفة تماما ، وأجزاء مشوشة بشكل يبعث على اليأس ، وأجزاء أخرى نوعا ما لايمكن الاعتماد عليها ، في حين أن أقساما معينة هي بالكامل هكذا ، وهذا يعكس حقيقة أن الحولية تعتمد على مصادر من نوعية غير مستوية . وكوثيقة اجتماعية ، مع ذلك إن الحولية رائعة ، وتكاد تكون فريدة ، وفي صفحاتها يصور النظام الاقطاعي في يونان القرن الثالث عشر بطريقة تنبض بالحياة ، ونرى خطوة بخطوة تقريبا كيف أدخل النظام الاقطاعي إلى اليونان ، وكيف وزعت الأراضي بين الغزاة ، وكيف بنيت القصور والقلاع ، والعلاقات المعقدة بين الاقطاعيين وأتباعهم وأمرائهم ، قد تم القاء الضوء عليها في كل أجزاء الحولية ، ونحصل على صورة واضحة عن العلاقة بين الكنيسة والدولة في المورة ، والأهم عن العلاقة بين الفرنجة والاغريق ، والاندماج الناتج بين المؤسسات الغربية والشرقية ، والناحية المبهرة في الحولية هي النظرة المفصلة التي تعطيها للادارة في النظام الاقطاعي وهي قيد العمل ، وهكذا نكون حاضرين في كثير من تفصيلات القضاء الأعلى ، ونستطيع أن نتتبع من خلال كل تقنياته أهم المناقشات القانونية التي شكلت التاريخ المورى ، ونقف كشهود عيان لمجالس الحرب ونشهد مقارعة الفرسان وحفلات الفروسية والمعارك ، والحصار ، ومفاوضات الصلح ، ونرقب استئجار تابع لاقطاعية من الاقطاعيات وتجريد آخر منها ، وباختصار إن الحولية اليونانية هي نسيج مزخرف غني يصور بكل الحيوية الحياة الاجتماعية للعصور الوسطى .

خلاصة

وبإيجاز يمكن إذا للمرء أن يقول إن الأدلة تسمح لنا أن نذكر بالتحديد أن أنشودة تاريخ أعمال فرنسية تدعى غزو القسطنطينية

والامبراطورية البيزنطية وأراضي إمارة المورة قد تم نظمها بين ١٣٠٤ و يحتمل حوالي ١٣١٠ وقد تم تداول هذه الحولية في ترجمات مختلفة كل منها أعدت من قبل شخص مختلف ، يعكس في معالجته للأصل شخصيته الخاصة وميوله ويضيف إليها حوادث تالية ليصل بالرواية إلى زمانه ، وأول تلك التي نعرفها قد تم تأليفها بين ١٣٣٣ و ١٣٤٦ ويحتمل أكثر في وقت ما بين ١٣٢٨ و ١٣٤١ ، إنها باختصار دقيق واقعي ومباشر يلتزم بدقة باللغة الأصلية النص ، ويقدم نوعا من خلاصة الوقائع في تاريخ المورة في القرن الثالث عشر ، ربما لمنفعة كاترين دي فالوا واستخدامها وبالتأكيد لبعض مثل هذه الشخصيات ، فالرواية لم تعد للاستعمال العام ، بل من أجل المعلومات الخاصة لرجل الادارة .

والرواية التالية من العمل قد تم نظمها في حوالي ١٣٨٨ من قبل كاتب فرنسي كان يتكلم اليونانية ، ترجم الأصل إلى العبارات الاصطلاحية والأسلوب المميز لمنفعة الفرنجة المتكلمين باليونانية ، وقد كتبت شعرا ، حتى يمكن أن تقرأ أو تسمع عند تلاوتها ، كما ذكر بوضوح في الحولية نفسها ، وقد أخذ الكاتب حريات واضحة واسعة في الفصل الأصلي ، وتتميز روايته بكثير من الاضافات وأعمال الحذف وتسير إضافاته بالرواية حتى عام ١٣٨٨

وكتبت رواية أخرى في ١٣٩٣ . وهذه المرة اراغونية ترجمت عن الرواية الثانية ، وهي مختلفة تماما عن كل الاخريات في أنها محاولة جدية للتاريخ مستخدمة مختلف المصادر الأخرى لاصلاح الحولية نفسها وتعديلها .

وظهرت رواية خامسة متأخرة نوعا ما عن ١٣٨٨ ، ويحتمل أن يكون بقرن أو أكثر ، كما أعتقد شميت. وكان ذلك من قبل كاتب إغريقي ضليع ، كتب للمستمعين اليونانيين . ويحتمل أنه في ذلك الوقت كانت الترجمة اليونانية للحولية على الرغم من تفنيدها تعتبر كمثال هام لرومانسيات الأغريق في العصور الوسطى ، كتبت بلهجة

شعبية ، وكان تطورها بلا شك تحت تأثير الأدب الغربي ، وهذه الرواية هي مراجعة للرواية اليونانية ، وبالنسبة لمستمعيها هي عملية طمس عنيفة للانحياز القوي المضاد للأغريق في الرواية المتقدمة ، وليست هناك محاولة لمتابعة الرواية التاريخية ، ووجهة النظر هي مجرد أدبية ، وتلا هذه الرواية في أوقات مختلفة أربع أخرى على الأقل على حد مانعرف ، واحدة بالايطالية وثلاثة باليونانية ، ولكن بما أن هذه مجرد نسخ مترجمة وهي جميعا سيئة التنفيذ فإنها قليلة الأهمية .

الترجمة الراهنة

عن الطبعات الحديثة المحققة للحولية اليونانية ، وتميز تلك التي نشرت من قبل شميت في ١٩٠٤ نقطة عالية ، ليس فقط في حولية المورة بل في تحقيق جميع حوليات العصور الوسطى اليونانية ، ومكنته دراسته المتسمة بالمثابرة لكل المخطوطات المتوفرة الحولية ومعرفته العميقة لتطور يونانية العصور الوسطى من إعطاء التفسير الموضح للنص في مجموع هافنسيس ، وطبعته هي الأكثر نفعا لأنها تنطوي على تحقيقه الرائع النصوص الباريسية والتورانينية أيضا ، ومع ذلك فان الفهارس في نهاية المجلد ليست لسوء الحظ بالكفاءة نفسها . إن التعريف التاريخي بالناس والاماكن قد قام على ثقافة القرن التاسع عشر ، وكنتيجة هي بحاجة لمراجعة كثيرة في ضوء ثقافة أكثر حداثة ، والأكثر أهمية مع ذلك هي محدودية مسرده اللغوي من الكلمات اليونانية ، وهذا المسرد غريب بدرجة كافية بالنظر لمعارف شميت العميقة التي لا شك فيها باليونانية إلا أنه يحوي الكثير من سوء الترجمة ، والترجمة الخاطئة التعابير اليونانية العصور الوسطى ، وعلى العموم استند شميت بقوة على معرفته باللهجة التقليدية العتيقة وبدرجة أقل بكثير على اللهجات في العصور الوسطى والحديثة ، والظاهر أن معرفته هذه كانت محدودة بدرجة اكبر .

وبالنظر لهذه العيوب وبناء عليه فان طبعة جديدة من الحولية كانت مطلوبة منذ بعض الوقت ، مع أن النص كما قدم من قبل شميت يقر بعدم وجود أي تحسين تقريبا .

وطبعة كالوناروس التي ظهرت في عام ١٩٤٠ كان يقصد بها تلبية هذه الحاجة ، وقد ظهر نقد كثير لهذا العمل ، بعضه مسوغ ومعظمه لا مسوغ له ، وقد استخدم كالوناروس مع تبديل صغير النص كما قدمه شميت ، الأمر الذي كان طبيعيا حيث ان عمل شميت في النص كان موثوقا ، والاسهام الهام العمل الجديد هو تصحيحه لسرد ألفاظ شميت وفهارسه ذلك أن عملا مكثفا في لغة الحولية قد تم منذ أواخر القرن التاسع عشر ، لاسيما من قبل العلماء اليونانيين مثل داراغونيس وأدامانتيوس وفوريكيس وهاتزيداكس وجمهرة من الرجال الأقل شهرة ، الذين ظهرت أعمالهم في الصحف اليونانية وهي دائما مألوفة للعلماء الامريكان ، وهذا العمل على اكبر درجة من الأهمية في دراسة النصوص اليونانية للفترة الفرنكو ـ يونانية ، وقد أدى كالوناروس الذي قرأ بتوسع هذا الأدب خدمة عظيمة بإخراج طبعة من الحولية تضم هذه المعلومات الجديدة في حواشٍ ذيلية موسعة ، وتعزيفه بأسماء الأماكن مهم بشكل خاص ، ومع ذلك إن بالطبعة خصائص معينة سيئة الحظ تحد من نفعها نوعا ما ، أولا بالنسبة لوقائعه التاريخية ، اعتمد كالوناروس بدرجة كبيرة على أعمال أقدم بينها أعمال لامبروس وباباريغولوس ، ومستنده الأحدث هو زكيثيذوس ، وأكثر مايدعو للأسف أنه لم يدخل أعمال لوغنون اللازمة ، الذي راجع بشكل كامل الترتيب الزمني لكامل الفترة ، وثانيا ان الطبعة قد شوهت بفرط الأخطاء المطبعية ، التي ألمت بالتواريخ وبأرقام الصفحات الخ والتي تسبب التشويش ، ثالثا هناك ثبت مصادر يعج بالأغاليط ، وتحوي قائمة المراجع الأعمال ذات القيمة المعترف بها فقط ، وهي لاتضم الأعمال الأحدث التي تذكر في الحواشي ، وهذا الذكر كثيرا جدا مايحذف تاريخ ومكان النشر والصفحة الصحيحة للمرجع وأحيانا حتى العناوين .

ومن أجل قراءة الحولية مع الفهم بلغتها الأصلية ، وبالنظر لحدودية الطبعتين إن على المرء أن يستعملهما معا مع المراجع الدائمة المعترضة ، وحيث ان طبعة جديدة من العمل تبدو غير محتملة فان هذا الاجراء المربك سيبقى في كل الاحتمالات غير ضروري وهو الاسلوب نفسه الذي كان علي اتباعه في القيام بهذه الترجمة وخلالها استخدمت كلا النصين مع إشارة دائمة الى الروايات الأخرى للحولية ايضا ، وحيث أني شعرت أن ملاحظات كالوناروس كانت عظيمة الأهمية ، وحيث أنها غير متوفرة بشكل جاهز للقارىء الذي لامعرفة لديه باليونانية الحديثة ، ادخلت منها في ملاحظاتي كل ماأمكنني تحقيقه ، وفي معظم الحالات لم أشر الى هذا بالطريقة المعتادة ، لأني شعرت بأنها ستثقل الحواشي التي كانت بالفعل موسعة ، والاستثناء لهذه القاعدة كان بالطبع تلك الأماكن التي كنت أشعر بأن التصحيح فيها كان ضروريا .

ولابد من قول بعض كلمات أخيرة حول الترجمة نفسها : تظهر هذه الحولية خاصة كثيرا من الصعوبات المترجم ، وهذا صحيح حتى بالنسبة لأسلوب النقد اليوناني البسيط للقرن الرابع عشر ، ولكنه صحيح بشكل خاص بالنسبة لهذا النص ، الذي تتكون لغته من مزيج من الالفاظ اليونانية التقليدية ، واللهجة اليونانية للعصور الوسطى ، وفرنسية العصور الوسطى ، علاوة على انها مكتوبة بالشعر (ومن أجل تحليل موثوق النظم ، يحال القارىء الى مقدمة جون شميت حولية المورة ، حيث يتم تحري الأمر بشكل شامل) وفوق كل شيء إن النص فرنسي تماما في الروح والصورة الأدبية ، وهو يوناني كما يقول شميت ص ٤٣ في اللغة فقط .

وفي مواجهة مثل هذا النص ، يجب أن يكون هدف المترجم واضحا منذ البداية الأولى ، حيث يمكنه المحافظة على الترابط خلالها ، وكان هدفي المتحكم هو تزويد القارىء الناطق بالانكليزية ، الذي لايعرف اليونانية بترجمة أقرب مايمكن من النص

الأصلي ، وهذا كما شعرت ذو أهمية عالمية ، أولا لأن الحولية مصدر تاريخي هام لم يترجم مطلقا من قبل باستثناء محاولات بوشون غير الوافية وثانيا لأنه مثل باهر للأدب الفرنكو - اليوناني في القرون الوسطى ، وثالثا لأن لغتها بالقدر نفسه الحياة الاجتماعية التي تصفها تلقى الضوء على ثقافة العصور الوسطى .

وبناء عليه حاولت ان أعيد الاخراج بالانكليزية بأعظم ماأستطيع من الدقة وهذا يعني أن ترجمتي هي بأكبر تأكيد ليست مايجب أن أعتبره حولية انكليزية جيدة الكتابة بالشعر ، ولسوء الحظ أني است شوسر ولم يكن مؤرخي هو ميروس ونصه مليء بالتكرار ، وتقريبا بالافراط الممل ، وقواعد اللغة مروعة بالنسبة لأية متابعة يونانية ، ولقد تقوض تركيب الجمل ، والأسماء الموصولة قد اختفت تقريبا ، والترادف من النوع الأكثر اثارة الدهشة ، يجري خلال النص كما يفعل السحر ، وأصبح التنقيط التغيير الدائم للفواصل ، والفواصل المنقوطة مع فترات دورية معترضة ، ولكن هذه هي خصائص النص ، ولقد شعرت أنه لتغييرها وتصحيح أخطاء القواعد ، واستبعاد التكرار واستبدال المرادفات وباختصار تحويل هذا النص السيء الكتابة ، وان يكن نابضا بالحيوية الى أدب مصقول سيكون اساءة لعرضه تماما ، وحتى قد يقول المرء ، تدميره بدلا من ترجمته وسيجد القارىء ان علامات التنقيط في هذه الترجمة لاتتوافق مع أفضل استعمال اللغة الانكليزية ، ولاحتى الأسلوب ، وكثير من الفقرات تتميز بترادف مدهش وأحيانا مربك في أية لحظة ، وأنا مدرك تماما لهذه الخصائص ، ولكني شعرت أنه بهذه الطريقة فقط تظهر نكهة للأصل ، ولهذه الغاية وزنت كل كلمة وحاولت استبدالها بكلمة انكليزية بالشدة نفسها والدلالة ، وترجمت الكلمات الفنية بأفضل مقابل لها بالانكليزية وأعطيت الكلمات الاجنبية بأصولها .

والأهم ان الكلمات البسيطة الاكثر تعدادا قد أعطيت بإنكليزية بسيطة وهنا ان الاغراء بتغيير الاصل ربما كان الأقوى ، وسيجد

الكاتب ايضا أن العلامة المتسادة للمترجم وإضافاته بين قوسين ، قد أبقيت في حدها الأدنى ، وكان قصدي في كل هذا أن أجعل من الممكن للقارىء غير القادر على قراءة الأصل باليونانية أن يقرأ المقابل الانكليزي بأقرب ماأمكنني فعله ، وأرجو أن أكون قد نجحت ببعض المقاييس ، لأن السرور بقراءة هذه الحولية اليونانية فريد وجزيل الجزاء .

تاريخ الدورة

مجموع هافنسيس ٥٧

(١-٢٣) سأخبركم بقصة عظيمة ، فإذا أصغيتم إلي ، أرجو أن تسركم ، عندما كانت السنة (٦٦١٢) منذ خلق العالم [٢] بهذه الكثرة ولا أكثر (وقعت الأحداث التالية) : خلال التعاون والحماس ، والجهد العظيم وتعب الأخ بطرس الناسك ذو الذاكرة المباركة [٣] ، الذي انطلق إلى بلاد الشام للتعبد في القدس عند قبر المسيح ، ووجد أن المسيحيين ، وحتى البطريرك الذي كان يخدم هناك عند القبر المقدس قد أهينوا من قبل غير المعمد ، أولئك السراسنة الذين كانوا سادتها ! وعندما كان البطريرك يحتفل بالقداس ويرفع عاليا الأشياء المقدسة ، كانوا يمسكون به بعنف ويلقون به أرضا ، وإذا كان شجاعا جدا ليواجههم بالكلام كانوا يطرحونه فورا على الأرض ، ويضربونه بشدة ٠

وبرؤية هذا [٤] كان الناسك القديس مضطربا بدرجة كبيرة ، فبكى وحزن وقال للمسيحيين والبطريرك كمسيحي أورثوذكسي أقسم لكم وأقول : إذا كان الرب يسمح أن أعود إلى الغرب ، فإني سأذهب شخصيا إلى البابا بالغ القدسية ، وإلى كل الملوك لأنبئهم بما رأيت ، وآمل برحمة المسيح أن أحركهم للقدوم مع (٢٤ - ٥٩) جيوشهم إلى هذا المكان لطرد السراسنة من قبر المسيح . وعاد وهو يندب بشدة وذهب إلى روما ، وروى للبابا ما سمع ورأى ، وبكى البابا [٥] عند سماعه لما روى ، بكى طويلا وبشدة ، وكان عميق الحزن ، ثم أمر على الفور بكتابة رسائل إلى سائر الممالك ، وأرسل الكرادلة والمطارنة والأساقفة إلى مملكة فرنسا ، وأيضا إلى الأراضي الأخرى حيث يوجد مسيحيون وحيثما كانوا يحكمون ويسيطرون يباركهم ، وهذه هي الدعوة التي أرسلها إليهم : كل من يذهب إلى الشام إلى قبر المسيح سينال العفو الفوري عن آثامه مهما كان قدر ما اقترفه منذ ولادته وحتى الآن .

وحالما سمع كل قادة الغرب هذا هبوا لطرد عرق البرابرة وكان تحشد المسيحيين عظيما ٨٨٫٠٠٠ فارس تجمعوا وتجهزوا و ٨١٨٫٠٠٠ من المشاة التابعين لهم ، وعبروا إلى هناك عن طريق

القسطنطينية إلى بلاد الاناضول (٦) التي كان يملكها الاتراك والتي هي الآن قاعدة للاغريق ، وإذ رأى اليكسيوس فاتاتزس (٧) حشد الفرنسيين ، عقد اتفاقا موثقا بالقسم وأبرم معاهدات مع القادة : اذا وهب الرب وطردوا الاتراك من أراضي الاناضول التي كانت الولاية (٨) المورونثة بالملكية ، واذا سلموا له الأرض والحصون فإنه سيذهب معهم إلى سورية بشخصه وأنه سيأخذ معه ٠٠٠ ر ١٢٠ فارس ، والآن والفرنجة كرجال صادقين في كل شيء صدقوا كلمات الملك وأعطوه قسمهم . وقد حافظ الفرنجة الذين أقسموا على أيمانهم وبعبورهم إلى آسيا الصغرى غزوا الارض (٩) وسلموها على الفور لاليكسيوس فاتاتزس الذي كان في هذا الوقت ملكا (٩٠ - ٩١) لكل رومانيا (١٠)

والآن عندما تسلم القلاع والمدن عقد مجلسا استشاريا سريا مع أركانه (١١) من النبلاء حول أية ذريعة يمكن أن يجدوها للانسحاب من الحملة الشامية ، وعدم القيام بأي مخاطرة . ثم اجتمع الملك مع الأمراء والنقباء والقادة في جيش الفرنج وتكلم بهذا معهم ، وهذا ما قاله لهم : « أولا أشكر الرب ، وأشكركم ثانيا أيضا لانكم ساعدتموني وقد استعدت ولا ياتي المورونثة ، ثم التمس منكم ، أن يكون بمشيئتكم أن تعطوني شهر زمان أتخلف فيه لأمون القلاع التي ربحتموها ، وحتى أعد جيوشي للذهاب معي ، وسأكون مستعدا بسرعة لامضي إلى هناك لأجدكم » والفرنجةكمسيحيين لم يكن لديهم شك في وجود خدعة ، قد صدقوا قوله واستأذنوا منه واجتازوا أرمينيا ، وذهبوا إلى انطاكية وتخلف الملك ، لقد خدع الفرنجة وأخل بيمينه الذي أقسمه وأخفق في الالتزام به ولم يذهب معهم كما تعهد لهم . انظر هذه الجريمة التي ارتكبها هذا الملك ، لقد لامه واستهجن فعله رجال العالم كلهم ، وعندما ذهب الفرنجة إلى انطاكية ، تعرضوا لكثير من الصعاب قبل الاستيلاء عليها (١٢)
والآن وقد أخذوا مدينة انطاكية أمضوا الشتاء هناك حتى شهر آذار ، ومن هناك خرجوا إلى الأماكن السورية وهم ينهبون ويستولون على المدن والقلاع . وخاضوا معارك كثيرة مع العرق

البربري ، كما وجدناه مكتوبا بالتفصيل في كتاب الاستيلاء (١٣) الذي وضع في ذلك الوقت في سورية ، وإني أكتب هذه الأشياء في الحقيقة حتى تعلموا (٩٢ ـ ١١٥) ولكن بشكل ملخص ، لأني أحاول العودة إلى قصتي .

والآن وقد توغلوا بعيدا في سورية ذهبوا مباشرة إلى القدس وحاصروا المدينة ودخلوها ، وعندما وصلوا إلى قبر المسيح قدموا الشكر وأنشدوا الأناشيد للصانع والخالق ، وتشاور القادة حول من يجعلوه ملكا ، وكان هناك متنافسون كثيرون (حول هذا المنصب) لأنه كان لهم مجدا عظيما ، ولكن الأكثر حكمة والعموم منهم اختاروا غودفري دي بوليون (١٤) ملكا ، لأنه كان الأحكم والأكثر فضيلة بينهم جميعا ، وجعلوه أميرا وملكا على سورية (١٥) والآن إنه كرجل حكيم قبل الحكم ولكنه لم يتنازل بأي حال عن رفض أن يضع التاج الذهبي فوق رأسه قائلا أنه لم يكون جديرا به كما أنه ليس مناسبا أن يتوج رجل خطاء هناك حيث توج المسيح بتاج من شوك .

والآن بعدما بدأ سادة حكم الاقطاع الفرنجي في الانتشار في مملكة سورية ، كما أخبركم ، لم تمض خمس سنوات أو عشر حتى شرعت حشود هائلة من مملكة فرنسا (١١٦ ـ ١٣٨) وانكلترا ومن مختلف الممالك الأخرى في الغرب مع كل الذين يحبون المسيح وكانوا يلتمسون التقوى ، وأعداد كبيرة من الفقراء والأغنياء (بكثافة عظيمة) مع القوات التي لم تتمكن من العبور (بسبب نقص السفن) شرعت بالذهاب إلى سورية حيث قبر المسيح ، وكانوا يذهبون إلى هناك مع عائلاتهم ويستوطنون ، بعضهم للعبادة وآخرون سعيا وراء المجد .

والآن وقد مرت مئة سنة كاملة منذ جرى ذلك العبور كما أخبركم كانت السنة في حينه ٦٧١٦ . منذ خلق العالم (١٦) هكذا كان رقم السنة ، والتقى أولئك الكونتات الذين سميتهم هنا مع بعضهم

بعضا ، ومع رجال أعظم منهم من الغرب ، أو أدوا معــا القســم ، وانضموا إلى الحملة ليقدموا بهــا معــا إلى أرض ســورية ، وإلى القــدس إلى قبــر ربنا (١٧) (١٣٢ ــ ١٦٤) وكان الأول هــو بلدوين كونت فلاندرز ، وكان الثــاني يدعى كونت شــامبين ، وكان الثالث كونت طــواوز (١٨) والآن فإن العــديد مــن القــوات والاعلام (١٩) التــي كانت في هــذا الاجتمــاع وتلك الحملة ، لا يمكنني أن أعدها بسبب الكتابة الكثيرة (التي تتطلبها) وتشــاور كل القادة معــا حــول مــن يكون قــائدا على الجيوش ، وبناء عليه اختاروا الكونت الشامباني لأنه كان أكثرهم دماثة في الخلق ومهارة في استعمال السلاح ، وكان شــابا في الخــامسة والعشرين ، وبناء على دعوة القادة جميعا قبل المنصب ، واخذه متلهفــا ، ثــم قــرروا بالتشاور ان يذهبوإكل الى اراضيه للاستعداد للحملة ، وفي الســنة التالية في بداية نيسان يجتمعون معا للذهاب الى سورية .

وعندما تفرقوا ، ذهبوا الى أراضيهم ، ولم يكن قد انقضى شهر أو شــــهران بخــــطاياهم كان أن تــــوفي الكونت ، ذلك الرجــــل الرائع ، الكونت الشــامباني وتفجــر الحـــزن والنواح بين جميع الحجاج وبسبب شدة أســاهم كانوا على وشــك التخلي عن الحملة والعبور ، تمعن في الشر الذي حل بموت الكونت . ثم حيث أن الرب أراد أن تسير الحملة ، وحتى لا يتردد هذا العدد الكبير من الرجــال العظام بسبب الشك ويتخلفوا ويتخلوا عن هذه الرحلة الطيبة ، ظهر من بينهم فارس صالح ، وكان رجلا نبيلا وحــكيما فــوق التصــور يدعى جيوفري وكنيته فيلهاردين (٢٠)

وكان مارشالا كبيرا لشامبين (٢١) . وكان الناصح (٢٢) والمستشار الأول (١٦٥ ــ ٢٠٩) لكونت شــامبين طيب الذكر ، الذي نصــحه بالقيام بالحملة. وعندما رأى حكم القضاء ، بموت الكونت ، تــولى امر تلك الحملة. وقد افتى كرجل حكيم بأنه ســيكون آثمــا اذا تــم التخلي عن الحملة وتحرير المسيحيين بسبب مــوت رجــل واحــد ، وسيكون موضوعا للوم والاستهجان.

وأخذ اثنان من فرسانه من المجلس وترك شامبين وذهب الى فلاندرز حيث وجد الكونت بولدوين شديد الأسى للموت الذي قضى على كونت شامبين ، وعندما ندبه الاثنان معا ، واجهه السيرجيوفري كرجل حكيم الكونت ، وكان يعرف الكثير مما يقال والكثير مما يشير به حتى انهما صمما من جديد على أن تنفذ الحملة ، وبعد أن قرر أن ينفذاها ، أعطاه كونت فلاندرز فارسا ليصحبه الى كونت طولوز ، وأخذا الطريق على الفور وذهبا الى بروفانس ووجدا الكونت محزونا ، وكان بالغ الأسى من جانب على وفاة كونت شامبين ومن الجانب الآخر كما قال بسبب الحملة التي تم التعهد بها ، وكان قد تأذى تماما ثم ان السير جيوفري الرجل الحكيم بدأ في تهدئته ، وأعلمه بأن الكونت بلدوين أمير فلاندرز رغب وعزم من جديد على تنفيذ الحملة ! ولهذا السبب أرسل الى هنا هذا الفارس معي أيضا ، وإني معه لاعلمكم (برغبته) بأنه إذا كنت تريد أن تجتمعا في أي مكان تقررانه ، وان تكتب للآخرين من المرتبطين بالقسم نفسه حتى يحضروا هم أيضا معكما لتجتمعوا معا لتحددوا وما عليكم أن تفعلوه.

والآن إن كونت طولوز كرجل حكيم ، وقد سمع كلمات واقتراحات السير جيوفري ، أذعن ودخل في خطته ، ثم قررا أن يلتقيا ، لماذا يجب أن أخبركم بالتفصيلات الكثيرة إذ ربما تملون؟ لقد التقى الكونتان في بيرغندي ، وتشاورا معي ومع الحجاج حول من سيكون قائدا للجيوش وبناء عليه أعلن أحكم الحجاج . واتفقوا على تعيين بونيفيس وكان مركيز مونتفرات (٣٣) وكان أميرا عظيما ، وجنديا شهيرا في الحقيقة ، والأول في كل ايطاليا ، وكانت لديه سلطات هائلة وجيوش كبيرة (٢١٠ ـ ٢٤٦) وحدث أن أخته كانت ملكة فرنسا .

وبناء عليه طلب الكونتان مع الآخرين أيضا على اختلافهم ، وقادة الحجاج من السير جيوفري أن يذهب الى المركيز ليحدثه ، ولمطالبته بالموافقة على تولي القيادة ، وأن يمضي معهم الى

سورية ، ليكون الاول بينهـم جميعـــا كرئيس وقـــائد لســـائر الجيوش ، واعطاه الكونتان فارسا عن كل واحد منهمـا ، واعطياه وعدا انه ايما يتخذ من الترتيبات فإنهما سيصدقان عليه ولن يبطلاه مطلقا.

وبناء عليه ودعهم السيرجيوفري واخذ فارسيي الكونتين وذهـب مباشرة الى حيث كان بونيفيس ، فوجدوه في لاتسا (٢٤) وهي مدينة كبيرة ، وعندما نزلوا وألقـوا عصـــا التـــرحال ، وذهبـــوا الى المركيز ، وحيوه بلطف نيابة عن هذين الكونتين النبيلين ، وكل مـن بقي من الحجاج تكلم معه ، وبدأ يخبره بذلك ، وبأنهم ســموا أولا كونت فلاندرز وثانيا كونت طولوز ثم النبلاء ، قـادة الحملة ، وطلب منه الجميع الموافقة على أن يصـــبح قـائدا لهـــم ، وقـــائدا لكل الجيوش ، واختاره الجميع كرجـل حـكيم ونبيل وأملوا في حـكمته وبأنه لن يخدعهم . واجابهم المركيز كرجل حكيم هكذا : إني أشـكر النبلاء وكل الكونتات ، على أنهم تفضلوا بإعطـائي المنصـب ، ولا يمكنني الآن ان اجيب بدون استشارة ومـوافقة مـولاي الملك وهـو ملكي وابن عمي زوج أختي ملك فرنسا ، والملكة كذلك وهي أختـي (٢٥) وبناء عليه لحبي له كحبي لشرفي ، فلندعهم يتحملون معـي قليلا حتى يمكنني الذهاب اليهـم طلبـا للنصـيحة والجـواب الذي سيوجهونني بـه لاعطـائه (٢٤٧ ـ ٢٨٥) بعـد ذلك سـوف أعود وأعطيهم جوابا .

واستعد المركيز على الفور ، وغادر لاتسا وعبـر الجبـال التـي تفصل فرنسا عن لومبارديا وسافر حتى دخل فرنسا ، ووجد الملك في باريس وكذلك الملكة وحياهما معا ، حيث دخل فرنسا ، ووجد الملك في بـــاريس وكذلك الملكة وحياهمـــا معـــا ، حيث أنهمـــا كانا هناك ، وكانا سعيدين جدا عندما رأيا المركيز . وسألته الملكة : ماذا تريد هنا يااخي؟ إني مندهشة جدا من أنك جئت الى هنا ، فلم أرك تحضر الى مملكة فرنسا لترانا عندما كنت أشعر بـالوحدة أكثـر في حياتي.

فروى لكليهما بتفصيل كبير ، وأخبرهما بالسبب مع مشكلة لماذا قدم اليهما وهو أن الكونتات النبلاء الذين اقسموا بالمسيح على الذهاب الى سورية ، طلبوا مني أن أذهب معهم الى قبر الرب كقائد للجيوش وإني لن أعطي بأية طريقة جوابي بدون نصيحة وموافقة منكم ، فأنتم سادتي ، لهذا السبب جئت لأراكم ، ولأعرف رغبتكم مع أي جواب تأمروني بإعطائه ، وأجابه ملك فرنسا على الفور وهكذا خاطبه : أشكرك يا أخي ، مركيز مونتفرات على القرار الذي اتخذته بالمجيء وطلب النصيحة منا نحن الذين نحظى بمحبتك ومن أقربائك ، والآن يبدو لي أن شرفك عظيم عندما يعينك مثل هؤلاء الرجال العظام ويطلبون منك أن تكون أميرا وقائدا وحاكما ، وعليك أن تشكر الرب وأن تشكر حظك الطيب ، وبالنسبة لي إنه يسرني جدا وأشير عليك بالقيام به وأن تفعله بشجاعة وإقبال عظيم ، لأني أعتقد جيدا وأعرف وأقر أنهم بسببي يفعلون هذا ، حتى يتسنى لك الحصول مني على مساعدة وعلى جيش (٢٦) (٢٨٦ ـ ٣٢٨)

وبناء عليه أقول ، يا أخي إني آمر وأحب ان تفتح خزانتي وأن تأخذ بقدر ما تريد ، وكل من يريد ويتوق من كل المملكة ، له أن يذهب معك الى سورية ، هذا ما أريده وما يسرني ، لأن هذا شرف ومجد لكل أقاربك.

والآن وقد سمع هذا أومأ المركيز ، كرجل حكيم برأسه وأعطى علامة الموافقة للملك ، وشكر الله أولا وثانيا له ، وأخذ كل ما أعطاه له من الأموال والقوات ، وأستأذنه (للرحيل) وودعه وعانق الملكة وقال لها ، سيدتي باركيني ، دعيني أمضي ومعي تبريكاتك ، وبناء عليه استأذن وعاد الى حيث إمارته وأراضيه في مونتفرات ، التي اشتاق اليها كثيرا ، وعلى الفور كتب الرسائل وأرسل الرُسل الى كونت فلاندرز ، وكونت طولوز (يعلن) أنه قد عاد من فرنسا ، حيث كان مع الملك ، وأنه كانت لديه الارادة والهفة لفعل ما طلب منه ، وأن يذهب في صحبتهم الى القبر المقدس حيث صلب المسيح من أجل الجنس البشري ، وبناء عليه أعلم بعضهم بعضا

أين يجب أن يجتمعوا للتشاور حول النقطة التي يجب أن يقوموا بالعبور منها : واجتمعوا في سافوى حيث تشاوروا ، وبعد أن تدارسوا توصلوا إلى اتفاق فيما بينهم على أن يقوموا بالعبور من البندقية.

ومن ثم طلب الكونتان كلاهما والآخرون جميعا من قادة الحملة من السير جيوفري رئيس مجاسهم كرجل جدير ، وأحكم وأعقل من في الجيوش جميعا أن يذهب الى البندقية الترتيب للعبور ، واصدروا اوامر كتابية موشحة بالأختام اليه ، واعطوه تفويضا بسلطاتهم (٢٧) وأعطوه وعدا بالتصديق وتنفيذ كل ما ينجز ، وأعطاه الكونتان فارسا ممثلا لكل واحد منهما ، وأعطاه المركيز واحدا آخر ، وكان لدى السير جيوفري اثنان آخران ايضا من أتباعه وأخذهم (جميعا) وانطلق ، وعبر الجبال ووصل الى بيدمونت ثم الى مونتفرات وعبر الى لومبارديا ، ووصل الى البندقية وحيا الدوج نيابة عن المركيز والكونتين وعن الآخرين جميعا ، والأول هو الأفضل والأشهر.

وأعطاه السير جيوفري نفسه الرسائل ، وبعد ذلك تحدث اليه ، وقال له شفاها بأنهم قد طلبوا منه كصديق وأخ لهم بأن يرتب لهم (٣٢٩ - ٣٩٥) أمر الحصول على مراكب لينتقلوا بها الى القبر المقدس المسيح هناك في سورية وانهم يطلبون أن يعبر ٨٠٠٠ مع خيولهم و٨٠,٠٠٠ آخر من مشاتهم ، والآن كان دوج البندقية ، سير أنريكو يدعي داندولو وهي كنيته وهكذا كان يلقب (٢٨) .

لقد كان رجلا ساحرا جدا وحكيما واستقبل السير جيوفري بتشريف ، وسر جدا بسماع الرسالة لانه توقع وخامره شعور بأن البندقية ستلقى تشريفا وفائدة كبيرة من الحملة ، وأمر بأن يجتمع سائر الأشراف والنبلاء كما فعل العامة جميعا في مدينة البندقية ، ودخلوا كنيسة القديس مرقص وبدأ يتحدث اليهم ، أيها

النبلاء ، الأصدقاء والأخوة ، رفاقي وأقربائي انظروا كيف يحبنا الملك المجيد ، لقد بعث الينا بالشرف والمجد والمنافع (ووضعها بين أيدينا) عندما جاءنا زهرة فرنسا ، أمراؤها العظام ، يلتمسون منا في مدينتنا ، أن يقدموا المال ونقدم السفن - وعندما سمع النبلاء وزعماء البندقية وايضا كل العامة ، الذين كانوا هناك معهم الكلمات والمعلومات التي أخبرهم إياها الدوج ، غمرهم السرور وشكروا الدوج على النصيحة والتوجيه الذي أدلى بهما اليهم ، وهللوا له جميعا وأقروا وصدقوا (على توجيهه) وقالوا إنه يجب أن ينفذ دون تاخير

وعندما اقروا وصدقوا سياستهم ، ودعوا السير جيوفري والفرسان الذين كانوا هناك معه كفريق تابع له ، واعطاهم السير انريكو داندولو ، دوج البندقية جوابا ، وهكذا اجابهم : ان الشيء الذي التمسوه كان مدعاة لسرور البندقية ، ووضعوا الشروط ودونوها كتابة ومهروها بالاختام ، واكدوها بمعاهدات عظيمة في هذا المجال ، بانه اذا انقلب الامر (٣٦٦ - ٤٠٠) ولم يصل عدد كاف من الفرنجة لشغل وسائط النقل الكبيرة (٢٩) التي سيجهزها البنادقة لهم ، فانهم سيدفعون تكاليف السفن التي ستبقى دون تاخير او مماطلة .

وعندما اتموا هذه الاتفاقيات استاذن فرسان الفرنجة وودعوا الدوج وكل البنادقة ، وتركوا البندقية ، وسافروا عبر لومبارديا ووصلوا الى مونتفرات ووجدوا المركيز ، ووصفوا له بالتفصيل الامر والحالة ، وكل مارتبوه مع البنادقة . وعند سماعه دلك ، كان المركيز مونتفرات راضيا جدا عما انجزوه . وبناء عليه ودع الفرسان بونيفيس هذا المركيز الذي اخبرتكم عنه ، وعبروا جبال لومبارديا العالية ووصلوا الى فلاندرز ، حيث كان الكونت بولدوين الحكيم ، هكذا اخبركم : استفسر منهم مفصلا عما انجزوه في مدينة البندقية ، وعما اذا كانوا راضين عنه وعندما اعلموه بما انجزوا وحققوا ، بداله جيدا للغاية ، وكان بالغ السعادة ، وامر بكتابة

رسالة على الفور الى سائر الممالك حيث كان يوجد كل هؤلاء الحجاج الذين انضموا الى الحملة الصليبية للذهاب الى سورية ، والتي رتبوها مع البنادقة ليعدوا السفن ، حتى يمكن ان يقوموا بالعبور في السنة التالية خلال شهر آذار .

وعندها لسوء الحظ ظهرت عقبة في وجه الفرنجة ، ولم ينطلق الجميع من البندقية ، وتشاور البروفنساليون مع الكونت الذي حدثتكم عنه كونت طولوز ، لانها على الساحل وكانت لديهم سفنهم الخاصة لينطلقوا من هناك لانهم اعتبروا هذا مناسبا (٣٠) .

وعندما جاء الربيع ، كما اخبركم الان تماما ذهب كونت (٤٠١ ـ ٤٣٧) فلاندرز وجميع الرجال من كل انحاء فرنسا وبونيفيس مركيز مونتفرات الى البندقية للقيام بالعبور ، وعندما رأوا ان كونت طولوز مع رجاله وغيرهم من تلك الاراضي كانوا غائبين ، وانه لم يكن هناك عدد كاف من الرجال لملء المراكب ، هنا قام نزاع كبير مع البنادقة ، لانهم سيمنعون الفرنجة من العبور حتى يفوا باتفاقهم ، اي ان (يدفعوا) تكاليف السفن المتبقية ، والان رفض دوج البندقية كرجل حكيم بقوة هذا النزاع واسرع بحساب كيفية تهدئته (٣١) وفي الوقت الذي اتحدث فيه لكم حول مدينة زارا،وكانت في سكلافونيا،حدث انها ثارت ضد البندقية . فدعا (الدوج) الفرنجة وقال لهم ولبو نيفيس مركيز مونتفرات اولا ثم لكل القادة ، وكان مونتفرات القائد الاعلى للجيش ، ويليه في القيادة بولدوين كونت فلاندرز ، الذي كان الاول بين الجميع : ايها النبلاء اقول لكم اذا اردتم وضع نهاية للنزاع والخلاف الواقع في الجيش ، اذا اردتم ذلك ووعدتم بان تحاصروا بقواتكم زارا في سكلافونيا ، والتي هي الان في حالة ثورة ضدنا ، وان تسلموها لايدي واهل البندقية ، فاننا عندئذ سنجعل تكاليف تلك المراكب التي نطلبها منكم هدية لكم .

وبعد ذلك وافق الفرنجة وصدقوا على ذلك وابرموا المعاهدات

والاتفاقات ، والان صعد دوج البندقية مع جماعته الى السفن التي بقيت ، ورفعوا المراسي وابحـروا مـن البندقية ، وذهبـوا الى زارا واسـتولوا على الميناء ، وعندئذ نزل الفـرنجة بلهفـة عظيمـة وفي حملة(٤٣٨ ـ ٤٥٣) كبيرة مـن الشـواني الكبيرة ، وهـاجموا المدينة واستولوا عليهـا بـالسيف واعطـوها للبندقية وتحللوا مـن قسمهم وتعهدهم (٣٢) .

والان بدءا من هذه النقطة ساتحول عما كنت اكرر روايته لاقـوم بشيء اخر : كيف قـامت عقبـة امـام اولئك الحجـاج ، وتخلوا عن رحلتهم الى سورية ومضوا الى حيث غزوا مدينة قسطنطين .

وفي هذا الوقت الذي اتحدث لكم عنه في تلك الايام كان ملك مـدينة قسطنطين ملك الاغريق كيراسحق فاتاتزس (٣٣) وكان له أخ مليء بـالشر كانوا يدعونه اليكسـيوس (٣٤) وسـمل هـذا عيون الملك واستولى على الامبراطورية ، وكان للملك كيراسحق فاتاتزس مـن اخت ملك المانيا ابن رائع يدعى اليكسيوس (٣٥) عندمـا رأى ان اباه قد عمي (٤٥٤ ـ ٤٨٤) انطلق من هناك الى المانيا ، وعندما وصل الى خاله الملك ، اخبره بالتفصيل بالامر والحالة ، وبأن عمه الكافر قد استولى على الامبراطورية ، وعندما سمع الملك الان بهـذا اسف له اسفا شديدا ، وكرجل حكيم قرر مساعدته ، وبناء عليه قال له : يابني وابن اختي ، ليس لدي ماأخدمك به فيما اخبـرتني عنه ، ولكني سمعت تقارير ـ احضرت منذ وقت قصير جدا ـ بان جيش الفرنجة ، الذي كان في طريقه الى سورية الى قبر المسيح ، قد وصل الى البندقية ، ويبدو لي جيدا انكم اذا كنتـم راغبين في القيام بـذلك وقادرين على الوعد بهذه (الحصيلة) بابا روما ، اذا امر القـوات واولئك الحجاج بان يتخلوا عن حملتهم تلك الموجهـة الى سـورية ، والذهـاب الى القسـطنطينة لاعادتهـا اليكم ، وان يسـتعيدوا امبراطوريتكم حتى يتسـنى لكم ان تحصـلوا على ولاياتـكم : ان تجبروا كل اليونانيين على احتـرام البـابا ، وفي الحقيقـة للتقيد في كنيسة روما وان يتوحدوا معنا في الايمان بالمسيح ، وبهذه الطـريقة

امل واثق بانكم ستحظون بجلالكم . وبسماع هذه الاشياء التي رؤيتها ، وعدهم الكسيوس فاتاتزس الشاب واقسم بان يفعل ذلك . وعندما سمع الملك انه كان يتلهف لان ياخذ عهدا على نفسه ، امر بكتابة رسائل الى البابا ، ووجه الرسل وارسلهم اليه ، واوضح له بتفصيل كبير كل ماذكرته هنا (٣٦)

لماذا اخبركم بكل هذا ، اذ ربما مللتم ؟ وعندما سمع البابا هذا غلبه السرور وامر بكتابة رسائل على الفور الى الحجاج وارسل احد الكرادلة (٤٨٥ ـ ٥٤٧) وجعل منه ممثلا له وارسل بركاته للجميع ودعوة بانهم اذا تخلوا عن الحملة الى سورية للذهاب الى القسطنطينية ليعيدوا الكسيوس الابن في الحقيقة للملك اي كيراسحق على عرش الجلالة وتتويجه ، فان كل من يموت في هذه الحملة سينال العفو وتوضع عنهم خطاياهم كما لو كانوا قد ماتوا عند قبر المسيح (٣٧)

واخذ الكاردينال الذي تكلم عنه ذلك المندوب اخذ الاوامر من البابا المقدس وسافر من لومبارديا ، ووصل الى البندقية وصعد الى ظهر احدى الشواني ومضى الى زارا ، ومن الاتجاه الاخر وصل الكسيوس فاتاتزس لقد ارسله الملك من المانيا ، وعندما وصلوا الى زارا ، كان هناك اعلان الى جميع الحجاج للتجمع والاستماع الى امر البابا ، وبناء عليه تكلم المندوب اليهم ، وامر بتلاوة وصايا البابا .

وبتفصيل كبير بين لهم الحملة ضد المدينة (٣٨) التي كانت مختلفة تماما عن الحملة ضد سورية ، لانه كان افضل بكثير جمع المسيحيين على الاتفاق وتماثل الافكار وكذلك الفرنجة واليونان بدلا من الذهاب الى سورية بدون أمل (في النجاح) وبوغت تماما رجال الجيش ممن كانوا يريدون الذهاب الى القبر المقدس ، ولأن افاضلهم وافقوا على التخلي عن الحملة الى سورية للذهاب الى المدينة فان عددا كبيرا معينا من رجال الاكليروس عادوا الى

بسا ، وبسبب تعليمات المندوب وبركات البابا ، تطورت عند
خرين الرغبة في الذهاب الى المدينة .

وعندما راى دوج البندقية هذه اللهفة (الى القيام بمغامرة
يدة) وفعل مثله كل رجالات البندقية ، اخبروا ونصحوا بعضهم
ضا بان يذهبوا ايضا الى المدينة ، طالما ان لديهم هذه المراكب
فائضة ، لانه اذا كان لهم ان يعودوا الى البندقية ، فان هذا
سيكون عارا ولوما للبندقية ، وبناء عليه توصلوا الى اتفاق ،
رروا انه من اجل مغفرة البابا بالغ القدسية ، وثانيا من اجل مجد
بندقية فانهم ايضا سيمضون الى هناك في صحبة الحجاج ،
ندما اتفق جميع اعضاء الجيش (٥٢٨ ـ ٥٥١) غادروا زارا ،
ستعدوا للانطلاق ، وذهبوا راسا عبر رومانيا ووصلوا الى
ينة ، ونزل الفرنجة بسرعة الى البر وبقي البنادقة على ظهر سفن
قل (٣٩) .

ودعوني الان اخبركم كيف تقع مدينة القسطنطينية : يمكنني ان
بهها بشراع سفينة ، لانها مثلثية ، ويواجه ضلعان منها البحر
واجه الثالث البر : ولان المياه الشاطئية التي تحيط بالمدينة كما
برتكم عميقة وعظيمة ومتحدرة وتتساوى في عمقها على طول
بناء مع مياه المحيط المحازي ، اقتربت الشواني والمناقير وسفن
قل من الشاطىء كما لو كانت قوارب تجديف (٤٠) وبنى البنادقة
عتبارهم حرفيون بحريون مهرة ، ذوو مكر وحكمة ، وبراعة كبيرة
سورا فوق سفن النقل وبمهارة وحكمة القوا بها فوق اسوار
ينة .اما الفرنجة فكانت معركتهم الان فوق الارض ، ولكنهم لم
ذوا باي حال قادرين على ايذاء المدينة ، لماذا يجب ان اكثر من
حديث فربما تملون ؟ ودخل البنادقة المدينة اولا ، واخذت المدينة
سيف تماما بالطريقة نفسها التي اخبركم بها ، وهرب الكسيوس
رير ، الملك الغادر كيفما امكن له ، وعبر الى سكوترس وترك
ينة وذهب الى اسيا الصغرى (٥٥٢ ـ ٥٨٦) .

وبناء عليه هرع النبلاء الصغار في المدينة وقد راوا الاعداد العظيمة للفرنجة الذين يدخلونها ، هرعوا مسرعين الى السجن حيث كان الملك كيرا سحق فاتا تزس وفكوا اغلاله وذهبوا به الى القصر واجلسوه على العرش (٤١)

وعندما سمع الفرنجة بامر الملك ، دعوا السيرجيوفري ، مستشارهم الاول ، وفيما بعد نبلاء اخرين ، وذوي النبالة من الرجال واوعزوا اليهم بالتفصيل بان يذهبوا الى الملك وان يحضروا معهم في الحقيقية ابنه الكسيوس ليناقشوا معه بتمعن الحالة والامور ، والترتيبات التي اجراها ابنه مع البابا واذا ما كان قد وجدها مرضية ان يصدق عليها .

وذهب المبعوثون اليه بسرعة ووجدوا الملك جالسا على العرش فحيوه باحترام نيابة عن قادتهم ، واخبروه بالتفصيل والاتفاقيات التي ابرمها ابنه مع البابا في روما (وسألوا) عما اذا كان قد رضيها ويريد توكيدها .

والان بعد هذا اجاب الملك كيرا سحق فاتاتزس بحكمة الملك : « ايها النبلاء والاصدقاء والاخوة ، ايما اتخذ ابني من ترتيبات ومعه اخي ملك المانيا ، اني اريدها واجدها مرضية ، واصدقها معهم ، وسأصدرالاوامر بوضع اختامي عليها ».

والان بعد ابرام هذه الاتفاقيات قرر قادة الجيش الفرنجي ، لانه كان بداية الفصل ومجيء الشتاء ان يشتوا هناك في مدينة القسطنطينية ، وانهم في السنة التالية في بداية اذار سيعودون للانطلاق مع الملك نحو سورية طبقا لاتفاقيتهم (٤٢) .

(٥٨٧ – ٦١٧) وطبقا لارادة وامر كيرا سحق فاتاتزس توجوا ابنه باعتباره الملك الكسيوس ، وفي هذا تشاوروا مع الملك ، والآن بعد ان توجوا ابنه الكسيوس اميرا وملكا لكل بيزنطة ، ولم يكد

يمضي حتى شهرا كاملا ـ تماما كما اعتاد العرق الاغريقي (٤٣) منذ بداية (الزمان) وكما وصف دوما بالخداع الكثير وعدم الاخلاص العظيم ـ فانه عندما ذهب بعض النبلاء من قادة المدينة الى الملك الكسيوس فاتاتزس وخاطبوه قائلين : ايها الملك الحاكم بما ان الرب شاء ان تستردوا سلطانكم فما الذي يدعوكم يامولانا الذهاب الى سورية ؟

ان المسافة طويلة جدا من هنا الى سورية والنفقات والسفن ستكلف مبلغا كبيرا ، بل حتى اكثر اهمية ، اننا قد نضيع في بحار المحيط ، او حتى في البر ، ان هؤلاء الفرنجة الذين تراهم غير منظمين وطائشين ايضا ، وكل ما يطرأ على بالهم يفعلونه ، فلندعهم يذهبون في لعنة الرب ولنبق هنا في ديارنا واملاكنا .

ولما كان الملك شابا وعديم الخبرة في طرق العالم سقط في هذه المشورة بسرعة وقال :« وكيف يمكن ان يتم التخلص فقالوا : لنتركهم وحدهم شهرا او شهرين حتى يستنفدوا المؤن التي لديهم وهكذا نقوم بثورة حتى يمكن ان نبيدهم » وعملوا كما اشاروا ، وعندما انقضى من الوقت فترة شهرين قاموا وهم واثقون من فلاح خطتهم الحمقاء ـ فاغلقوا ابواب المدينة ووزعوا الحراس ، وقتل الفرنجة الذين تصادف وجودهم بداخل المدينة في تلك اللحظة بالسيوف جميعهم (٦١٨ ـ ٦٥٤) تأمل بالعمل الاجرامي الذي اقترفه الروم ، العاقون تجاه المسيحيين الارثوذكس والرجال الصادقين الذين جهدوا ليضعوا ذلك الملك على عرش الامبراطورية الذي فقده ، ولكن الرب الرحيم العادل في كل شيء ، كان فضله يرضى بان لا يتصادف وجود اي من نبلاء الفرنجة الاغنياء بداخل المدينة في تلك المذبحة حيث لم يكن هناك الا فقراء الناس ، واصحاب الحرف اليدوية .

والان فان رجالات جيوش الفرنجة الذين بقوا خارج المدينة واخبركم بالضبط ، اخبركم به بما حدث لدى سماعهم ورؤيتهم

الانذار ، والقتل والذبـح وصـياح وصرخـات الذين يقتلون ، عملوا مسرعين الى تسليح انفسهم المشاة من الجنود والفرسان وامسكوا بعدد من الروم وسألوهم عن السبب ، وعن سبب قيام الثورة التـي قام بها الروم ، وهـذه الخيانة التـي كانوا يرتـكبونها الان ضـد قواتنا . وكل الذين عرفوا اعلموهم بالسبب والمسوغ ، والغاية التي من اجلها قاموا بها ، وترك قادة الجيش الفرنجي البنادقة ليحرسوا البحر ، وقوات كبيرة كثيرة اخرى من جانب اخر ، في مواجهة البـر (٤٤) وذفخـت البقية الاخـرى مـن عداد الجيش ابـواقها ونشرت اعلامها وفرقت سراياها (٤٥) من كل من المشاة والفرسان ، وخـرج الجميع من المدينة وبدأوا ينهبون الاراضي وكل القـرى والامـاكن في رومانيا ، ووصلوا في نهبهم حتى ادرنة (٤٦) وقاموا برحلة مسـافة خمسة ايام عن المدينة ، وعندما اكتفوا من النهب وحصلوا على كمية كبيرة من الغنائم ، واخذوا ما وجدوه من اشياء ادركوا انهم ربحوا اكثر مما كان في الشـواني وفي كل سـفنهم ، وهنا عادوا اثـر ذلك وذهبوا الى المدينة .

وعندما سمع الملك كيرا سحق فـاتاتزس بهـذه الاشـياء لعنهـم بشدة ، وكان شديد الحزن ، ولم يكن يعـرف (٦٥٥ ــ ٧٠٠) أي شيء عن تلك النصيحة التي أعطاها اولئك الذين لعنهم الرب ، أولئك الثوار المتمردين على القانون لابنه اليكسيوس فـاتاتزس ، وأمـر باستدعاء ابنه وأهانه إهانة عظيمة ، وكان غضبه منه عنيفا وقـال والدموع تفيض من عينيه الكلمات التالية : قل لي أيها الملعـون مـن الرب ألست ابني ؟ كيف يتبـادر الى ذهنك أيهـا الكافـر بـالرب وبالقديسين ، هذه الخيانة والثورة التي ارتكبتها تجاه الذين مكنوك من أن تصبح ملكا ؟ إنك تستحق من الآن فصاعدا أن تعتبر من قبل الجميع مثل ذلك يهوذا الاسخريوطي الخائن الذي ارتكب خيانة بحق الرب له المجد ، واني آمرك أن تخبرني على الفور مـن الذي أشـار عليك بأن تقترف ما فعلته ، لقد جلبـت الخـزي والعـار على الامبراطورية وعلى الشعب الرومي . ومن الآن فصاعدا مـن الذي سيصدق أي رومي .

ولم يجد اليكسيوس من خوفه وارتباكه طريقة لانكار ذلك ، وتكلم وكشف كل أولئك الخونة الذين أشاروا عليه . وأصدر الملك أوامره على الفور فأحضروا أمامه ، فسمل عيونهم ووضعهم في السجن ، ثم استدعى اثنين من النبلاء الكبار في القصر ، وأمر بتسطير رسائل الى المركيز ومثلها الى الكونتات والقادة الآخرين وكمسوغ له أعلمهم ، مع القسم أنه لم يعلم مطلقا بتلك الخيانة التي اقترفها ابنه وقال : أرجوكم أيها النبلاء أن يسوى هذا الأمر ، ولتنتهي هذه المشاحنات ولنمنع حدوث شيء آخر منها •

لقد وضعت الخونة في السجن وسملت عيونهم ، خذوهم ومروا بمحاكمتهم كمتمردين كافرين بالرب والقديسين ، وأني أعتبر الشروط المتفق عليها بيننا في المعاهدات والاتفاقيات مؤكدة ، وأؤكد اننا سنفي بها بدون أي خداع ، وليكن السلب الذي قمتم به والأسرى الذين أخذتموهم تعويضا عن القتلى من قواتكم ، وأما بالنسبة لابني كشاب عديم الخبرة في أمور الدنيا ، فاني أرجوكم أيها النبلاء كأخوة وأصدقاء ، أن تصفحوا عنه ودعوه يموت معكم ، وأن يكون كأخ لكم من الآن فصاعدا ، وليكن هناك سلام بيننا وحب وانسجام وامضوا شتاءكم معنا في المدينة ، وفي الربيع اذهبوا الى سورية ، وسيذهب ابني معكم طبقا لاتفاقياتنا •

(٧٠١ ـ ٧٣٩) وبسماع هذه الكلمات ، تشاور النبلاء في جيش الفرنجة وتوصلوا الى هذا الاتفاق : أن يكون هناك سلام بينهم كما كان من قبل ، وبناء عليه أمضوا الشتاء وجاء شهر آذار ، واستعد الفرنجة للذهاب في رحلتهم الى قبر المسيح . ثم ذهب الملك اليكسيوس اليهم وقال لهم وهو يتوسل اليهم : أيها النبلاء ، والأصدقاء ، والأخوة ورفاقي الاحباء ، إنكم تعرفون جيدا الشيطان ، الذي سبب لي كل هذه المتاعب في زمان شبابي ، حسنا إني أعتبر نفسي مبتدئا في كل أموري وليس لدي الاشياء التي احتاجها بالطريقة التي أرى أنها موائمة لهذه الحملة ، وعلاوة على هذا أخبركم بشيء آخر كنصيحة لكم ، بسبب

النزاع الذي جرى ، إن الروم لم يستعدوا للانضمام الى الفرنجة ولهذا أقول لكم ، إني أتوسل اليكم بحرارة ، أن أحصل منكم على خمسة عشر يوما ، منحة لتحضير جيشي واللحاق بكم » . وأقر الفرنجة هذا ، وبداوا انطلاقهم : ومروا بهرقلية (٤٧) وهم يتوقعون دائما وصول الملك اليكسيوس فاتاتزس في وقت قريب .

اسمعوا جميعا ، فرنجة وروم ، وكل من يؤمن بالمسيح وعمد ، تعالوا واسمعوا هذا الموضوع الكبير ، عن الروم وعدم إخلاصهم من الذي سيضع فيهم الثقة ، ويثق في قسمهم ، طالما أنهم لايحترمون الرب ولايحبون حاكمهم ؟ أنهم لايحبون بعضهم بعضا سوى نفاقا .

عندما رحل الفرنجة من المدينة فان رجلا ثريا نبيلا معروفا من المدينة كانوا يدعونه مورتزوفلوس (٤٨) وهذا كان لقبه ، رأى أن الملك قد عمي وأن ابنه اليكسيوس صغير السن فخطط ليستولي على العرش بالحيلة ، فدعا بعض الأقارب والأصدقاء والجيران والبائسين والجشعين وتشاور معهم ، ثم اعتقلوا اليكسيوس ، الملك وقتلوه ، حيث وجدوه وحده ، فذبحوه وتوجوا مورتزوفلوس ووضعوا التاج على رأسه ولقبوه بالملك ، وهكذا أعلنوه امبراطورا ، وحدث الآن بعد ذلك أن بعض رجال المدينة وقد رأوا هذا وسمعوا مقتل الملك الرائع جهزوا بارجة ذات اثنين وخمسين مجدافا وثلاثة أشرعة ، وأبحروا مجدين حتى أدركوا الفرنجة الذين كانوا في طريقهم الى المواقع السورية ، وأخبروهم بالتفصيل بقصة موت الملك ، الذي قتل وبأن الخائن مورتزوفلوس قد استولى على العرش ، وبسماع الفرنجة لهذا اكتأبوا كثيرا ثم تشاوروا معا حول مايجب عمله ، لماذا أخبركم بهذا كله وأزوقة ؟ وبسماع هذه الأشياء دهش نبلاء جيش الفرنجة دهشة كبيرة وحزنوا حزنا عميقا ، وبدأ أكثرهم حكمة يتكلم ويعلن أن الروم مع تقديرهم لذواتهم مجردون من الشرف (٤٩) من الذي يثق برومي سواء بالكلام أو القسم ؟ إنهم يقولون بأنهم مسيحيون

يؤمنون بالرب ، ويلمزوننا نحن الفرنجة ويوجهون لنا اللوم ويدعوننا كلابا ، ولأنفسهم وحدهم يوجهون فقط الثناء وهم يجالسون الأتراك ويؤاكلونهم ويشاربونهم ولايقولون شيئا (ضدهم) ولايلومونهم ، واذا كان عليهم أن يأكلوا معنا فإنهم يتأففون كمن يتجرع الغصص (٥٠) ، واذا حدث أن ذهب أحد الفرنجة الى كنيستهم من اجل القداس (٥١) ، فإن كنيستهم تبقى أربعين يوما دون أن ينشد فيها قداس ، استمع الى الهرطقة التي يتمسك بها الروم ، إنهم هم أنفسهم ، وهم فقط من يستحق الحمد وهم يوبخوننا نحن الفرنجة (٧٧٢ ـ ٨١٧) ويلوموننا نحن الذين نتمسك بالعقيدة وبشريعة المسيح تماما كما علمنا ، لأن الحواري الأول كان القديس بطرس الذي توجه المسيح قائدا لكل الدنيا ، وأعطاه هو نفسه مفاتيح الفردوس ، وأعطاه سلطة للربط والحل في كل مايفعل على الأرض ، وسوف يؤكده في السماء .

والآن ان هذا الحواري كرجل حكيم ـ ولديه تأييد المسيح وأمره أيضا ـ ولأنه في تلك السنوات كانت روما تحكم العالم ، كل العالم (٥٢) حقا ، ولنبذ الأوثان والكفر لدى السلالات ولتوسيع كنيسة المسيح وتقويتها ذهب الى هناك وأقام عرش الكنيسة ، وهناك صلبوه لاعتقاده بالمسيح . وتلاه بعد ذلك عدد كبير من البابوات ، الذين حافظوا على كرسي كنيسة روما . والآن يتمسك الفرنجة والروم بعقيدة واحدة ، فأساقفة الدنيا كلها من الفرنجة والروم والبطاركة والاساقفة وزعماء العالم (المسيحي) كل منهم يرسم من قبل ذلك الذي هو البابا الاسقف لكرسي روما ، والآن وبعد سنوات عديدة فإن أولئك الروم الذين يدعون الهيلينيين ، وهكذا كانوا يسمونهم ـ كانوا متباهين ومايزالون يحتفظون بهذا ـ وأخذوا من روما اسم الروم بسبب هذا التباهي والتعاطي والتعالي ، وقد تخلوا عن شريعة كنيسة روما ووقفوا منشقين ويتفاخرون فقط بأنهم كذلك ، انظروا أيها النبلاء الطيبون الى غدرهم ، إنهم يقولون أنهم مسيحيون وهم لايتمسكون بالصدق ، ولايحافظون على قسمهم . إنهم لايخافون الرب ، وكل

ماليهم هو التعميد بالمسيحية ، انظروا بماذا توحي كتبهم وكتاباتهم ، لقد شوهوا وحرفوا التعاليم التي لقنها الحواريون الاثني عشر ، والانجيليون الاربعة ، الذين ذورونا ، والأعمال التي أنجزوها في ذلك الوقت في العالم عندما كان المسيح حيا يسير فوق الارض ، فضلا عن التعاليم التي لقنت لنا بأن علينا أن نحافظ على شريعة الكنيسة ، كل هذا شوهوه عندما انفصلوا عن كنيسة روما ، وهي كنيستنا الكاثوليكية وتخلوا عن الترسيم من قبل البابا الاقدس ، وهم يرسمون الآن بأنفسهم بطريركهم ، حسنا بما أنهم لايحترمون كنيسة روما لماذا نذهب الى سورية ولماذا لانعود لنأخذ من الكفار ولاياتهم طالما أنهم خنقوا مولاهم وسيدهم الملك ؟ (٨١٨ ـ ٨٥٥) وأيضا انظر عدم إيمانهم ، ان الملك الذي كان سيدا طبيعيا لهم ، بالحسد والتحريض على الفتنة والعصيان ، ذبحوه وقتلوه ، من الذي يصدقهم ويثق بقسمهم أو بكلامهم ، من الذي سيعتبرهم مسيحيين كما يقولون ويتمسكون ؟ إنهم مسيحيون بالقول وينقصهم العمل ، العذوا المسيحيين الذين يصدقونهم ، والآن وقد نعى الفرنجة الملك وعبروا عن شكاويهم وعن أفعال الروم بدأوا يتشاورون كيف يتصرفون ، وقال بعضهم إنهم يجب أن يتوجهوا الى سورية ، وآخرون أكثر حكمة قالوا ونصحوا هذا المجلس كما اخبركم قائلين : طالما أن الروم الكفار أولئك العصاة المتمردين قتلوا ملكهم ، السيد الشرعي لهم ، الذي كان يجب عليهم أن يعتبروه الثاني بعد الرب فقط ، وأن لايتركوا لغيره حقا مشروعا في حكمهم ، بدلا من الذهاب الى سورية التي لم نتملكها (٥٣) دعونا نعود الى المدينة ونقاتل بأسلحتنا ، واذا شاء الرب واستولينا على مدينة القسطنطينية فلنحتفظ بإمبراطورية الروم كلها .

وبناء عليه توصل جميع القادة الى اتفاق ومعهم العامة وكذلك الجيش الفرنجي ، وقد أعدوا السفن وعكسوا الاشرعة ، لماذا اخبركم بكل هذا ؟ حتى لقد انهكت نفسي جدا ، لقد عاد فرنجتناالى المدينة ، وعندما وصلوا الى الميناء ، طوقوا المدينة من البر

والبحر ، ولقد خطط الفرنجة استراتيجيتهم كما فعل البنادقة ، ومعهم كان البروفنساليون واللومبارديون مع مونتفرات . وأعدوا كل المنجنيقات (٥٤) على طول الجانب الأرضي من المدينة ، ووزعوا الفرق وبدأوا الهجوم ، وبسبب العدد العظيم من القسي العقارة والنشاب (٥٥) لم يعد أحد يمكنه أن يقف فوق أسوار مدينة القسطنطينية (٨٥٦ ـ ٨٨٧) وكانت لديهم أيضا سلالم خشبية مقواة جيداً بالحديد ، وقد وضعوا هذه السلالم على الاسوار ليصعدوا عليها، وترجل الفرسان عن خيولهم وماأن رأوا السلالم حتى هرعوا اليها وتسلقوها . وكما أقول لكم بالضبط أخذت المدينة في هذا الوقت ، ودخل الفرنجة أولا من البر ، ثم دخل البنادقة من سفن النقل من حيث طوقوا المدينة من البحر ، وليكن معلوما لديكم اذا أن المدينة أخذت عندما أخذت لأول مرة من قبل البنادقة في اليوم الرابع من تشرين الثاني والاستيلاء الأخير والثاني على المدينة حدث بدوره في الرابع من نيسان . (٥٦) .

وبسبب كثرة القوات وشدة الهجوم لم يتمكن أحد من الهرب بأي وسيلة من المدينة ، والآن أسروا الكافر الغادر مرتزوفلوس (٥٧) وأحضروه إلى قادتهم لمحاكمته ، وكان الكونتات النبلاء سعداء بهذا ، وثار الهرج والمرج والمنازعات حول أية عقوبة عليه معاناتها ، وحدث أن كان في المدينة رجل مسن موثوق ، وكان رجلا حكيما وعالما جدا ، وعندما سمع أن الفرنجة يريدون معاقبة ذلك الكافر مورتزوفلوس ، الذي أحدثكم عنه ، هرع الى القادة ، الذين كانت لهم السيطرة على الجيوش (٥٨) . وبدأ يخبرهم ويعلمهم بأن ملكا معينا يدعى كيرليو (٥٩) ، وكان فيلسوفا مهولا وكانت له نبوءات ـ وقد بنى أشياء كثيرة في المدينة . وتحققت له بعض الأشياء في أزمنة متوقعة ، وكانت أشياء أخرى ماتزال تنتظر أن يأتي زمانها (٦٠) وقرب واجهة كنيسة •

(٨٨٨ ـ ٩١٦) سانت صوفيا نصب عمودا رائعا ثخينا وعاليا : ونقش عليه حروفا تقول ، كما أقول لكم : من فوق هذا

العمود سيشنق الملك الكافر لمدينة القسطنطينية (٦١) . وهكذا يبدو أيها النبلاء أن النبوءة ستتحقق ، طالما أن لديكم العمود والعاصي ، فلننفذ نبوءة الفيلسوف . وعندما سمع النبلاء هذا ، دهشوا جداً ، وأخذوا الرجل العجوز ليريهم العمود ، وعندما وصلوا إليه وتفحصوه دهشوا وسروا أيضا لأنهم وجدوا طريقة مواثمة لتنفيذ الحكم العادل في الخائن ، وعليه أمروا بإحضاره وهناك رفع إلى الأعلى ، وألقوا به إلى الأسفل من فوق قمة العمود وظهرت الشياطين التي أخذت روحه (٦٢) .

والآن بعد اعدام العاصي ، فإن كل النبلاء العظام من قادة الجيش ذهبوا إلى قصر الملك وتشاوروا معا صغيرهم وكبيرهم في كيفية التعامل بصورة واقعية مع ولايات الأمبراطورية (٦٣) وكان هناك كلام كثير قبل ان يتخذوا قرارا في المشكلات ، وفي النهاية قالوا واكدوا مايلي : منذ أن كانوا في طريقهم إلى سورية ، أمرهم البابا الاقدس بأمر رسمي عظيم بالتخلي عن تلك الحملة وبأن يذهبوا لاجلاس الكسيوس فاتاتزس على عرش الامبراطورية ، وأنهم قد وضعوه ، وحيث أنه بعد ذلك قد ذبح وقتل من قبل شعبه ، العرق الرومي وأنه لم يكن هناك أحد غيره بينهم جديرا بالحكم إذا لنحتفظ به لانفسنا ولنبق هنا ، بالحق أخذناه بحد السيف ، (٩١٧ ـ ٩٥٧) والآن بعد أن وصلوا إلى هذا القرار ، كما أخبركم تماما ، عقدوا عندئذ مجلسا لانتخاب أمبراطور (٦٤) واختاروا اثني عشر نبيلا من أصحاب الجدارة والأهلية ، والأكثر حكمة ، ستة منهم كانوا أساقفة ، وستة من قادة الفرسان ، واتفقوا تحت القسم على انتخاب أمبراطور دون نية شريرة أو خداع .

وتشاحنوا مع بعضهم بكلام كثير ، لانهم لم يكونوا متفقين فيما بينهم على اختيار امبراطور ، لان بعضهم تكلم عن دوج البندقية واثنى عليه عاليا كرجل حكيم بارع وأعلنوا أنه كان جديرا بأن يكون أمبراطورا ، وبسبب المشاحنات الكثيرة التي جرت بينهم ، ذهب

أحدهم وأخير دوج البندقية ، ولبالغ حكمته وبراعته في كل شيء أسرع إلى هؤلاء الاثني عشر من الرجال الحكماء ، وطرق الباب حتى يسمعوه وقال لهم مايلي : « أيها النبلاء انصتوا ، نقل أحدهم إلي تقريرا جاء به أن بعضكم من فضلهم كنبلاء وحكماء عبروا عن رأيهم : وقالوا في أني الرجل المناسب لمنصب الامبراطور ، وبأني جدير بأن أصبح امبراطور المدينة ، حسنا إني أشكركم شكرا عميقا كأصدقاء وعقلاء وأخوة لي ، وليرد الرب عليهم ماقالوه في حقي أنا أخوهم ، وإني مع ذلك بنعمة من الرب ومجده لاأجد في نفسي ، وهذا ما أقوله في نفسي نقصا كبيرا في المحاكمة حتى لاأعرف أنه قد قام في سكان البندقية أناس من ذوي المعرفة العظيمة والخبرة العسكرية كما في أماكن أخرى ، ولكن مامن أحد منهم وصل إلى مثل هذا المجد في ان يتوج بتاج امبراطور ، وبناء عليه أتوسل إليكم كأصدقاء وإخوة أن تتركوا الخلافات والمشاحنات ، لقد انتهى الكلام ، وبالنسبة لمن تكلموا عن جعلي أمبراطورا ، إني آخذ كلامهم وهتافهم الذي نطقوا به وأضيف إليه قولي : ولننضم إلى الآخرين ولنوجه الاثني عشر منا معا ، والاقتراع (٩٥٨ ـ ٩٩٣) لانهاء الأمر ولننتخب الكونت بلدوين أمبراطورا فهو أمير عادل ، وأمير فلاندرز لأنه جدير ونبيل وخبير في كل شيء وهو بين كل الموجودين في الجيش الجدير بأن يكون أمبراطورا ، وبسماع هذا الكلام وبناء عليه توصل الاثني عشر الذين حدثتكم عنهم ، والذين اختيروا جميعا لانتخاب امبراطور إلى اتفاق وصادقوا عليه وخرجوا من حيث كانوا مجتمعين وذهبوا إلى قصر الملك ، ودعوا الجيش كله للاجتماع لسماع الحل الذي تكلموا فيه وأعدوه : انتخاب الامبراطور الذي كان له أن يحكم .

وعندما اجتمع كامل الجيش في القصور الفاخرة للملك خاطبهم أبلغ وأحكم الاثني عشر وشرح الأمر ، بأنه بخوف من الرب وبدقة عظيمة اختاروا كونت فلاندرز ليكون أمبراطورا وملكا على المدينة وكل امبراطورية الروم .

وعندما سمعوا هذه الأشياء كانوا جميعا الصغير والعظيم الغني والنبيل ، العامة والجيش في سرور عظيم وصادقوا وأكدوا أن يكون الكونت بلدوين الامبراطور . وأحضرت العباءة والتاج للامبـراطور وألبس وتـــوج كملك وهلل له وعظـــم بـــالطريقة الصـــــحيحة المناسبة (٦٥) . ،

وعندما توجوه وأصـبح أمبـراطورا نشـب شـجار ونزاع بين اللومبارديين وبين الفـرنسيين ، الذين كانوا يرغبـون ويريدون أن يصبح المركيز أمبراطورا ، والحقيقة أن مركيز مونتفرات كان قـائد الجيش والقوات (٦٦) ، كما اخبرتكم وبناء عليه حاول السير انريكو دوج البندقية البالغ الحكمة(٩٩٤ ـ ١٠٢٦) الملقـب بـداندولو مـع الآخرين من فئات مختلفة أن يضعوا حدا للمشاحنات ، وأخـذ معـه كونت فلاوز (٦٧) وكان يعرف الكثير مما يقال لتهـدئتهم ، وتـكلم وشرح كرجل حكيم قائلا : أيها الأصدقاء والأخوة النبـلاء بمـا أن انتخاب الامبراطور قد جرى وأنه قد توج وانتهى الأمر وأبرم ، فإن شيئا قبيحا وغير لائق وعارا عظيما أن يقال ويسـمع في كل أنحـاء الدنيا من كل الناس أنه بعد انتخاب الامبـرا طور الذي تـم بـكلمة واختيار مثل هؤلاء الرجال العظام ، وبعد تتويج الأمبراطور غيرتم فكركم ، وكما يبدو بسبب الحسد ، وعليه أقـول لكم ، إني أتـوسل إليكم أن يختفـــي النزاع ، إنه ليس لصــــالحنا ، وحيث أن كونت فلاندرز قد أصبح أمبراطورا فليكن مركيز مونتفرات ملكا وسيدا ذا لقب وممتلكات موروثة لمدينة سالونيك ، وأن يحكم في كل مـايختص بذلك وبما يستحق له . وبسماع هذه الكلمات صاح أفـراد القـوات الصغار والعظام والاغنياء والعوام في الجيش الفرنسي بصوت عال : إننا جميعا موافقون على ذلك .

وعندما صدقوا على ذلك وتوجوا بونيفيس المركيز ملكا ، تـوقفت المشاحنات وأعقبها سلام ، وبعد هذا وجهـوا أولئك الاثني عشرة ، الذين انتخبوا الامبراطور ليقوموا بتوزيع أراضي آسيا الصغرى وكل بلاد الروم ، وكل مـايخص أمبـراطورية المدينة ، حسـب المرتبـة

والجدارة لكل واحد ، وتبعا لعدد القوات التي كانت تتبـع كل واحـد عند الغزو ، وبالحصص مع الانتباه جرى التوزيع ، وحدث أن كانت حصة البندقية الربع مضافا إليه نصف الربع أو الثمـن كمـا يدعوه بعضهم من مدينة القسطنطينية وكل بلاد الروم (١٠٢٧ ـ ١٠٣٨) تماما كما سجلها دوج البندقية في الوثائق وفي تقدير ماتحت سـلطانه (٦٨) .

وفي الوقـت الذي أتحـدث عنه إليكم ، في تلك الايام كان سـيد فالاشيا وكل هيلاس في أرتا ويانينا وكل الديسـبوتات ، كان رجـلا يدعى كيريوادس ، وكان لقبه فاتاتزس (٦٩) وعندما سـمع وعلم وأخبر أن الفرنجة قـد اسـتولوا على الحـكم في المدينة ، وتـوجوا أمبراطورا ، وأخذوا القلاع ووزعوا مـدن كل بـلاد الروم ، أرسـل بسرعة رسالة إلى كومانيا (٧٠) (١٠٣٩ ـ ١٠٧٨) وجاء عشرة الاف كل النخبة من الكومان مع كل نخبـة التـركمان (٧١) الجميع على ظهور الخيل ، وكانت لديهم أسلحة جيدة أيضـا ، لقـد حملوا الرماح (٧٢) وحمل بعضهم الحـراب ، وحمل آخـرون منهـم الهراوات ، وحشد أيضا القوات في ولايته كلهـا ، وحشـد جيوشـا كبيرة وشجاعة وشن هجوما عنيفا لبدء الحرب على الفرنجة ، ولكن لايقاتل في الميدان وجها لوجه ، بل بالمكر كما هـي عادة الأتـراك ، والآن بعد أن مر فصل واحد وحـل الآخـر (٧٣) بـالمكر أرسـل جواسيسه حتى يحاط علما في كل الأوقات بمـا يفعـل الفـرنجة ، وعندما عرف بمكان بونيفيس ملك سالونيك ، وهكذا كانوا يسمونه ، سار بالليل حتى وصل إلى هناك (٧٤) وخبأ قواته في كمين في أماكن مناسبة ، وحالما بزغ الفجر وبدأ النهـار ينبلج ، وجـه مـئتين مـن فرسانه الحقيقيين للاندفاع ولينهبوا ماحول القلعة ، فجمعوا الغنائم وأخذوها وهـربوا . وإذ رأى اللومبـارديون الذين كانوا مـع الملك هذا ، أخذوا أسلحتهم بسرعة وقفزوا إلى سروجهم ، وخـرج الملك نفسه معهم ، كرجـال غير خبيرين بـالأعمال الحـربية عند الروم ، وأخذ حوالي خمسين رجلا يمضـون جيئة ونهـابا ، وهـرب الذين نهبوا الغنائم بها من أجل وضـعها في الكمـائن ، وعليه قفـز الذين

كانوا يرقدون في مخابئهم من الكمائن في كل الجوانب وبدأوا يطلقون السهام على اللومبارديين والتف الكومان الذين تظاهروا بالهرب وهم يمتطون خيولهم ، حولهم وأطلقوا السهام على الفرسان المقاتلين ، وعندما رأى اللومبارديون وبونيفيس أميرهم ، وملك سالونيك أنهم قد طوقوهم وانهم يطلقون عليهم السهام ، جمعوا انفسهم ليعيشوا أو يموتوا معا ، ولكن الكوما ن والروم لم يقتربوا منهم ، وكانوا يطلقون السهام عليهم من بعيد ، وبهذه الطريقة قتلوهم وقضوا عليهم ، منذ ذلك الوقت خاض الروم بالخداع والحيلة كما هي طريقتهم معارك مع الفرنجة نالوا منهم ونيل منهم في كر وفر(١٠٧٩ ـ ١١٢٧) كما هو شأن المعارك والحملات في كل مكان حتى انقضت ثلاث سنوات ، والآن ، وبعد مرور ثلاث سنوات واكثر ، أراد الامبراطور بلدوين أن يذهب الى أدرنة ، التي كانت ما تزال مدينة كبيرة ، وحالما ذهب الى هناك ، كما أروي لكم ، أخبر احدهم بذلك كالوجان حسبما أخبركم سيد والاشيا الذي حالما سمع بهذا ،وعلم به جمع على وجه السرعة ، والاستعجال وبلهفة كبيرة جيوشه جميعا من كل مكان ، ووصل مسرعا الى أدرنة ، وكي لا أطيل عليكم وأبعث فيكم الملل لانني مثلكم أيضا مللت الكتابة في هذا الا بكلمات قليلة وأكثر اختصارا ، وأنا أخبركم وأعرفكم أني أكتب اليكم بصدق ، فإنه كما جرى تماما للمركيز ، ملك سالونيك كما أخبرتكم ، فقد حدث أيضا لبلدوين امبراطور المدينة ، بالكمائن والمؤامرات خدعوا وكسروا وسط الهياج والاضطراب والصياح ، وهم يصرخون ويقولون ان جيوش كالوجان آتية ، وأرسل كالوجان خمسين رجلا اندفعوا ونهبوا الحقول والأراضي حول أدرنه ، حيث كان الامبراطور ، وأعطى الامبراطور أوامره لمارشال له وصدحت الابواق وقفزوا الى سروجهم ، وكان لدية ستمئة من الفلمنكيين ، وثلاثمئة من الفرنجة ، الذين كانوا جميعا من الخيالة المنتقين ومعهم أسلحة ممتازة كما هي العادة بين الفرنجة :وللأسف إن الدمار وقع في ذلك اليوم بين مثل هؤلاء الرجال النبلاء من زهرة فرنسا ، حتى إنهم قتلوا وماتوا بلا حق ، لانهم لم يكونوا بالمرة على معرفة بالاعمال الحربية لدى

الروم ، وجاء الآن نبلاء ادرنة وقالوا للامبراطور: « سيدنا الامبراطور ، امنع جيوشك من الخروج ، لان الذين تراهم ، ممن جاؤوا ينهبون قد جاؤوا كطعم ، بطريقة ماكرة بالخروج ، وجيوشهم مختفية في كمين وهي تنتظر أن نستدرج اليها ، إنهم الآن لا يقاتلون كما تقاتلون أيها الفرنجة ، تنتظرون في الميدان لترموا رماحكم ، كلا إنهم يقاتلون بالقوس والنشاب وهم يهربون وأحذروا ياسيدنا الطيب أن تخرجوا في آثرهم ، وإذا كانوا قد أخذوا منا الغنم والخيل والماشية ، فلندعهم يأخذوهما بمثابة قرض قد نسترده في فرصة مواتيه » .

(١١٢٨ ـ ١١٦٩) وعند سماع ذلك وبخهم الامبراطور على هذا ، وبغضب أمرهم أن لايزيدوا على ذلك ، لانهم كانوا يقترحون شيئا معيبا جدا ، وقال : بالنسبة لي أن أرى بعيني هنا أمامي أعدائي يتلفون ويدمرون وينهبون أراضي ، واقف أنا كالجثة ، واعاني من هذا ، إني أرى أنه من الافضل ، أن أموت اليوم من أن ينالني اللوم في كل مكان.

وأمر أن تصدح الابواق ، ووزع الفرنجة في ثلاث سرايا ، والروم في ثلاث أخرى وخرجوا الى الميدان ، وعندما رأى الكومان الذين كانوا ينهبون أنهم قد خرجوا اليهم ، غمرهم السرور وتظاهروا بالفرار من القتال بالغنائم التي أخذوها ، وبدأ الفرنجة وهم عديموا الخبرة في هذا النوع من القتال في ملاحقتهم ليلحقوا بهم ، وكانوا ثانية وهم يهربون يرشقون بسهامهم الخيول التي يمتطيها الفرسان.

وهكذا استدرجوهم بالخدعة حتى أضلوهم وأوقعوهم في الكمين ، حيث خرج الأتراك والكومان مسرعين وهم يطلقون السهام على خيول الفرنجة .والآن توقع الفرنجة أن يخوضوا معهم معركة بالحراب والسيوف كما اعتادوا ، ولكن الكومان هربوا ولم يقتربوا منهم ، وكانوا فقط يصلونهم بالسهام من أقواسهم وأوقعوا

بينهم خسائر كبيرة من القتلى ، لأن الخيول هلكت وسقط عنها الفرسان . وكان معهم هراوات وسااليف تركي (٧٥) وكانوا يضربونهم بها على خونهم ، وقتلوا الامبراطور وكل جيوشه ، انظر الدمار الذي حدث في ذلك اليوم ، إن المرء ليأسى على كل جندي نبيل ، لأنهم ماتوا بغير حق ، وبدون حتى فرصة للقتال ، وأصيب الروم الذين كانوا مع الامبراطور قرب أدرنة بجراح قليلة ، لأنهم عندما رأوا أن الامبراطور قد قتل ، هربوا وعادوا فدخلوا المدينة ، وبعثوا بالرسائل الى مدينة قسطنطين بأن الاتراك قد قضوا على الامبراطور ، وتصادف في حينه أن كان دوج البندقية هناك (٧٦) فحشد الجيوش بسرعة (١١٧٠ ــ ١١٩٦) ومضى الى ادرنة لمساعدة القوات على حماية المدينة ، وفي الوقت نفسه أرسل بسرعة مبعوثا الى السير روبرت أخي الامبراطور بلدوين (٧٧) وكان له سلطان على المدن والقلاع في نيمفوس (٧٨) ولديه جيوش قوية وقادة الفرسان معه ، وحالما سمع وعلم بأن الاتراك قد قضوا على الامبراطور زود قلاعه بالامدادات ومضى الى المدينة ، وكان دوج البندقية قد عاد الآن من كل القطاعات ، وبعث برسالة الى كل مكان للفرسان القادة الذين كانوا حينئذ يحكمون في أرض الروم ، وعندما تجمعوا والتقوا معا توجوا روبرت أخا الامبراطور بلدوين امبراطورا ، وفي حينه كان للامبراطور السير روبروت ابن سموه بلدوين أيضا (٧٩) أصبح امبراطورا وفقد الامبراطورية وأرسل ابنته بعد ذلك ببضع سنوات الى ملك آراغون (٨٠) لتكون زوجة له ، ورست الشواني في يونديكوس (٨١) التي توجد في المورة (٨٢) وهي قلعة ضخمة.

وتصادف أن السير جيوفري أمير المورة هناك ، وكان الاخ الاكبر للأمير غوليوم (٨٣) وبالحيلة والمكر أسر وتزوج ابنة الامبراطور روبرت ، وكان الامبراطور شديد الاضطراب عندما سمع بهذا ولكن فيما بعد توصلوا (١١٩٧ ــ ١٢٢٠) الى اتفاق كما ستعرفون هنا في هذا الكتاب فيما بعد في فقرة أخرى .

وأقف الآن عند هذه النقطة ، وأريد أن انهي ما كنت أتكلم عنه من أجل أن أتناول شيئا آخر ، أن أخبركم بقصة ، قصة عظيمة حول ما فعله الروم عندما سقطوا ، وفقدوا امبراطورية مدينة القسطنطينية . وعليه سأبدأ عند هذه النقطة : اسمعوا حتى يمكنكم أن تعلموا ، والآن في الوقت والفصل الذي استولى فيه الفرنجة على القسطنطينية كما رويت ، وإذ رأى نبلاء الروم هذا وهم زهرة بلاد الروم هناك في آسيا الصغرى ، حيث كانت هيبتهم ، انتخبوا لهم أميرا توجوه ملكا عليهم الامبراطور كيرثيودورس لاسكارس وكان صهرا للملك كير اسحق فاتاتزس ، حيث كان قد تزوج من ابنته (٨٤) . وعندما توج ونصب ملكا ، زود قلاعه بالامدادات واستأجر الجيوش من الترك والكومان ، واللان ، والزيخوي (٨٥) وحتى البلغار وبدأ بلهفة كبيرة ، في شن الحرب على الفرنجة الذين كانوا في أرض بيثينية .(٨٦) هناك في آسيا الصغرى حيث توجد فيلادلفيا ، حيث كان يحكم السير روبرت فلاندرز ، ودامت حربهم ثلاث سنوات (١٢٢١ ــ ١٢٦٠) وأكثر ، حتى الوقت الذي قتل فيه الامبراطور بلدوين وتوجوا روبرت امبراطورا ، وعاش الملك لاسكارس ما شاء من السنين والفصول ملكا صاحب مجد وفخار ، وعندما جاء اليه الأجل العام لهذا العالم ليموت ، مات عن ابن صبي يافع قاصر ، وكان قد أمر باستدعاء كير ميكائيل بالايولوغوس الرجل الأول بين الروم ، حيث كان رجلا شريفا ، والرجل الأحكم بين الروم ، وأسلم اليه ابنه أولا ، ثم حكم كل الامبراطورية ، وتحت القسم تسلم ، سلم له أبا حقيقيا للملك ، وهكذا كانت الأوامر بأن يسمى ، وحالما توفي الملك أعطى بالايولوغوس الأوامر بتموين القلاع ، ووضع حراسا جيدين ، أقسموا قسم الولاء لاسمه ، وتقبل قسم القادة جميعا والعموم في كل الامبراطورية أيضا ، وعندما حاز على كامل السلطة مجد جميع نبلاء الامبراطورية ، ومنح بعضهم هدايا ، وأعطى لآخرين مدنا ، وحالما حقق رغباتهم كلها ، خنق وقتل سيده الصغير الابن الحقيقي للملك لاسكارس . انظر الاثم والشر الذي ارتكبه ذلك الحقير ، بقتل سيده والاستيلاء على سلطاته ، من يسمع بهذا ويقول ، بأن الناس الذين

لا يلتزمون بالصدق ولا بالقسم يؤمنون بالرب؟ لماذا يقسم لك أولئك الذين من السلالات غير المعمدة ، وهم حسب عاداتهم وشريعتهم التي يتبعونها يقبلون بالموت ولا يرضون بالحنث بالقسم ولكن الروم الذين يقولون إنهم يؤمنون بالمسيح ، كلما زادوا من قسمهم لك واكدوا أيمانهم ، كلما كان تآمرهم هناك ضدك أكثر لخداعك ليحصلوا على ممتلكاتك أو ليذبحوك (٨٧) وللأسف ماذا يكسبون بالخطأ في حق الرب ؟ وكيف بهرهم تماما الاثم الذي ارتكبوه ، حتى أنه جردهم من ولاياتهم ، وأصبحوا عبيدا لكل العالم (١٢٦١ ـ ١٢٨٨) أي شعوب أخرى توجد في العالم اليوم تباع كعبيد غير الروم ؟ ولكن كما يفعل كل رجل فإنه يلقى.

غير أن القصة التي بدأت أرويها واكتبها ، ساتابعها حتى أنتهي منها! بعد أن قتل كير ميكائيل باليولوغوس ، سيده الصغير ، الابن الحقيقي للملك لاسكارس ، واستولى على السلطة على كل الامبراطورية ، جمع الجيوش من الاتراك والامم الأخرى ، وتعهد بحرب يقاتل فيها الفرنجة في آسيا الصغرى ، حيث كان له الامتياز.

والآن لم يكن الامبراطور السير روبرت حيا في الوقت الذي أحدثكم عنه لأنه قتل قبل ذلك ببضع سنوات ، وكان ابنه بلدوين هو الذي يحكم والذي فقد الامبراطورية بسوء إدارته.

وبناء عليه توصل باليولوغوس الى اتفاق مع الهيئة الحاكمة في جنوا وأعطاها غالاتا ، وهي قريبة من المدينة ، عبر الميناء فبنت حيا هناك ومؤسسة كبيرة (٨٨) وأقسم الجنويون قسما ووقعوا معاهدات مع الملك ، بأنهم سيعفون من دفع العشور (كوميرسيوم) (٨٩) في كل أرض الروم ، فإنهم سيساعدونه بالشواني في كل المعارك وبأنهم سيحصلون على أجورهم كمرتزقة وعلى هدايا إضافية لأنهم كانوا يساعدون بلدوين ، وكانوا

يسيطرون على المداخل الى البحر وعلى الطرق البحرية حتى لا تجلب (١٢٨٩ ـ ١٣٢٤) المؤن الى المدينة من اي مكان ٠

وعبر مرة أخرى إلى جوار المدينة باكبر عدد امكنه ان يحشده من الجيوش (٩٠) وطوق المدينة من البر والبحر ، واذ راى الروم في المدينة ذلك توصلوا الى تفاهم بسرعة مع بالايوغوس ، واقسموا قسما ، ووقعوا معاهدات وساعدوه على الدخول.

وعندما راى الامبراطور بلدوين ، أن الشعب الرومي قد خانه هرب إلى القصور القديمة (٩١) مع كل الفرنجة الذين كانوا معه ، وهناك هاجمه الاتراك والروم ، والآن وقد رأى الامبراطور بلدوين أنهم قد عزلوه في القصور القديمة وكان لديه سفينة شحن منقطعة النظير ، وكانت كبيرة وفاخرة فصعد إلى ظهرها ومعه ثلاثة آلاف آخرين وغادروا المدينة مبحرين عبر البحر حتى وصلوا إلى مونمفاسيا وأرسوا السفينة هناك ، ونزلوا منها ووصلوا إلى اليس ، وكان الأمير غليوم هناك في ذلك الوقت ولما سمع بقدوم الامبراطور ، ذهب للقائه ، ومجده عاليا كامبراطور (٩٢) واسرع الامبراطور في الذهاب إلى الغرب بأمل وتوقع بأن البابا مع الكنيسة ، وملك فرنسا يساعدونه ، ويقدمون له الجيوش ومعونة كبيرة حتى يتمكن من العودة مرة أخرى إلى المدينة ، وعليه فقد بقي الكثير من قواته هناك مع الامير غليوم متوقعين أن الامبراطور سيجدهم هناك عند عودته التي كان يأمل بها من هناك ، وبقي الذين أسميهم الآن : وكان أولهم السير انسلان ، وكان لقبه توسي ، الذي كان أخا القيصر المدينة انذاك والذي تزوج أم السير جيوفري دي توروناي وبقي في الارض (٩٣) وبعده كان هناك (١٣٢٥ ـ ١٣٥٤) السير فيلان وكان لقبه دي أونوي . وكان في ذلك الوقت مارشال رومانيا ، وأعطاه الأمير أركادياهبة (٩٤) وبقي دي بلانكنيس برايسر وكان الامير وأربعة أخوة ، والاغنيس اثنان آخران ، وكان الاسبيناس آخرين ، وبقي هناك مرشحان لرتبة

فارس (٩٥) بالاضافة إلى نبلاء روم لا أسميهم لكم حتى لا أطيل الكتابة . ومن هذه النقطة وما بعدها سأتوقف عندما أخبرتكم به ، حول الأعمال التي قام بها الامبراطور باليالوغوس وبلدوين لأني أحاول العودة إلى موضوعي ، كما توليته في بداية مقالتي ، وبناء عليه انتهي من بداية التمهيد (٩٦)

كيف ربح الفرنجة أرض المورة

إذا كنت متعلماً وتفهم ما أكتب لك ، وضليعا في الكتب لتلتقط معنى ما أقول فلا بد أنك قد فهمت المقدمة التي نطقت بها في بداية كتابي ، وأخبرتكم فيها بدقة ـ كبداية للأساسيات ، لقد أخبرتكم بقصة سورية ، وقصة آسيا الصغرى وقصة المدينة ، وكيف غزا الفرنجة هذه الأماكن ، وايضا إني سأتي الآن وأنا احملكم معي لأخبركم بدقة ، أن الفرنجة غزوا المورة أيضا .

وإذا كانت لديك رغبة في سماع أعمال الجنود الجيدين وأن تعرف وتتعلم ربما تبلغ مرادك إذا كنت تعرف الحروف ، وتبدأ بالقراءة ، وإذا كنت من الجانب الآخر غير متعلم فاجلس بجانبي واسمع ، وأمل إذا كنت حكيما أن تستفيد لأن الكثير ممن جاء بعدهم بلغوا تقدما أكثر بسبب (١٣٨٣ ـ ١٣٥٥) روايات الزمن القديم (٩٧) .

وعليه سأبدأ عند هذه النقطة واستمع لما أقول : اختير كونت شامبين الرائع ـ الذي حدثتكم عنه في بداية الكتاب ، والذي بدأ ذلك العبور والحملة مع مختلف النبلاء الآخرين ليذهب إلى سورية إلى قبر المسيح ـ زعيما وقائدا وكبيرا على الجيوش التي كانت لدى الحجاج في ذلك الوقت وسقط ومات كما أخبرتكم (٩٨) وكان له أخوان آخران أصغر منه . وعندما سمعا وعرفا أن أولئك الفرنجة الذين كانوا ذاهبين إلى سورية

ببركات البابا ، قد تخلوا عن رحلاتهم ، وذهبوا إلى المدينة وغزوا بلاد الروم وأصبحوا أمراء تشاور الأخوان معا على أن يبقى أحدهما في أراضيه الموروثة وأن يذهب الآخر إلى بلاد الروم ليكسب أرضا .

حسنا وكما أن جمال الحظوظ الانسانية والأخوة لا يشبه بعضها بعضا لا في المظهر ولا في السحر فإن أصغر الأخوين كان الأكثر مهارة وحكمة بين الاثنين ، ووافق الأخوان على أن يبقى الأكبر في بلاده ، وهي شامبين ، وأصغر الاثنين الذي يدعى السير غوليوم ، وكان له لقب خاص به ، فكانوا يطلقون عليه الساليوث ، سيجد من الجيوش بقدر ما يمكنه أن يأخذ معه ، وأنه سيذهب إلى بلاد الروم ليغزو بعض القلاع والمدن ليجعل منها ملكا له (٩٩) والآن (١٣٨٤ ـ ١٣٩٩) سلمه الكونت كل ما كان لديه من مال وقال له : بما أني باق هنا كأمير في قلاعنا وأملاكنا الموروثة ، خذ مالنا وممتلكاتنا المشتركة واذهب ببركاتي العزيزة وبركات أبينا أيضا ، وآمل أيضا أنه برحمة الرب سيكون حظك طيبا (١) .

وبناء عليه جمع واستأجر القوات ، التي أرسلها إلى بورغاندي وذهب عدد كبير من هناك معه ، وحصل بعضهم على أجر كمرتزقة ليأتوا اليه ، وآخرون ممن كانوا قادة الفرسان وكانوا من الناس الأثرياء ، ذهبوا معه ليغزو كل منهم ما يمكنه لنفسه ، وأرسل رسالة إلى البندقية بأن يجهزوا السفن ، وأعد بقدر ما يريد ويحتاج بسرعة ، وفي شهر آذار ذهبوا إلى هناك وعبروا ليصلوا إلى المورة في أول أيار ، ورسوا على الرصيف في مكان يدعى (١٤٠٠ ـ ١٤٢٩) آخيا ، وهي على نحو خمسة عشر ميلا من هذا الجانب من باتراس (٢) وبنى على الفور قلعة كلها من القرميد . والآن في الوقت الذي أتكلم عنه وفي هذا الفصل ، إن كل أرض المورة التي تضم ما يسمونه البلبونيز ، وهكذا يدعونها تحوي على كل اتساعها اثنتي عشرة قلعة فقط .

حسنا وعندما نزلوا إلى البر في آخيا وأخرجوا الخيول من سفن النقل ، ومكثوا هناك يومين حتى يريحوها ، ثم ركبوا خارجين وذهبوا إلى باتراس وطوقوا القلعة والمدينة أيضا ، ونصبوا المنجنيقات حول كل الجوانب [٣] ، وأعدوا الأقواس وبدأوا المعركة ، ومن خلال القوات العديدة والشجاعة في القتال في الهجوم الأول اخترقوا المدينة الخارجية ، وبعد أن استولوا على المدينة توصل الذين كانوا في القلعة بسرعة إلى اتفاق أيضا وسلموا الحصن على شروط الاحتفاظ بممتلكاتهم ، كل واحد بيته وما كان له .

وعندما استولوا على باتراس ، وضعوا الحراس وزودوا القلعة وكذلك المدينة بالقوات والأسلحة وبما هو صحيح ومواثم ، ومن هناك عادوا إلى آخيا وتشاوروا مع الروم المحليين الذين كانوا يعرفون الأماكن وأحوال كل واحد منها ، وتحدث هؤلاء ونصحوهم بأن أندرافيدا كانت أفخم مدينة في سهل المورة [٤] وهي تقع في السهل ، كمدينة مفتوحة وليس فيها أبراج ولا أسوار (١٤٣٠ ـ ١٤٥٢) من أي نوع حولها مطلقا ، وعليه انطلقوا إلى هناك رأسا ونشروا ألوية كل واحد من الجيوش ، وعندما اقتربوا من اندرافيدا واندرافيزاوا [٥] ، وعلم أهلها أن الفرنجة قادمون ، خرج النبلاء والعامة مع الصلبان والأيقونات وذهبوا لتقديم الولاء لكونت شامبين [٦] الذي استقبلهم كرجل حكيم جيد ووعدهم بأنه لن يوقع بهم ظلما ، ولن تتعرض أملاكهم لأي ضرر ، بل انهم سيحصلون على المجد والهدايا ومنافع كثيرة ، وأقسم الجميع له بأنهم سيموتون وهم عبيد له [٧] وعندما أرضى مدينة أندرافيدا تشاور معهم حول الاتجاه الذي يجب أن يسير فيه .

وعليه أعطيت له المشورة بأن يذهب إلى كورنث ، لأنها كانت قلعة حصينة قوية وأجمل ما في بلاد الروم ، وكانت العاصمة التي حكمت بلاد البلبونيز بأجمعها والتي تضمها المورة ، حيث

انه إذا كان الرب ان يأذن بخضــوع كورنث فإن كل قــلاع أرض المورة ستؤدي الطاعة بلا معركة أو أعمال بالسيف .

وبعد هذه المشاورة التي تمت كما أخبرتكم عن القوات التــي كانت ســـــتترك في أندرافيدا ، وتلك التــــي ســــــتنزل في لغيا (١٤٥٣ ـ ١٤٨٢) ومجموعة ثــالثة لبــاتراس ، وأمــر السفن أن تخرج إلى البحر ، وخرج هو وبقية قــوات جيش مــن فوستيقسا (٨) ومضوا الى كورنث. وبعد وصولهم الى المدينة نصبوا الخيام حولها وعسكروا.

والآن إن قلعة كورنث تقع فوق جرف شديد الانحدار (إنه تــل صنعة الرب فكيف سيحمده الانســـان ؟) بينمــا تقــع المدينة في الأسفل بالوادي ، وهي محاطة جيدا بالأبراج والأسوار ، وحدث أن كان هناك في الوقت الذي أكتب عنه رجل عظيم وجندي مهــول وكان يسيطر على كورنث وأرغوس كحاكم وســـيد شرعي ، وكان يحكمهم باسم ملك الروم ـ وكان يدعى سغوروس (٩) وكان هذا لقبه ، وعندما أخبر بأن الفرنجة قادمون قاد النســـاء والأطفــال إلى خارج المدينة وكذلك الناس الذين يحملون أسلحة صغيرة ، وقادهم إلى قلعة كورنث : وبقي في المدينة مع كل الذين يحملون السلاح الدفاع عن أنفسهم .

والآن بعد وصول كونت شامبين (١٠) إلى مدينة كورنث كما أخبرتكم ، ركز قواته وأحاط بها ، وسمح لهم بــالاستراحة ذلك اليوم ، ولكن في الصباح التالي حالما بزغ النهار نفخوا أبــواقهم وبدأوا المعركة ، وأطلقوا منجنيقــاتهم مــن كل الجــوانب على الأبراج ، ولم تكن الأقواس قاذفة السهام تسمح لأحد بأن يرتكز على فرج الأسوار ليرى من الذي يقذف (١٤٨٣ ـ ١٥١٠) .

ووضعوا سلالمهم على الجدران ودخلوا على الفور واستولوا على المدينة ، ووجــد أولئك الذين اســـتسلموا رحمــه ، والذين

- ٤٧٧١ -
استمروا في القتال قتلوا بالسيف ، وهرب سيفوروس الذي كان في الواقع رجلا شجاعا مدبرا (١١) ومضى الى القلعة .

وبعد ان استولى الفرنجة على مدينة كورنث أمر كونت شامبنين باصدار إعلان يقول ، بأن الذين من المدن المجاورة لكورنث ممن يقدمون الطاعة ويقبلون به أميرا لهم سيكون لهم حظوة ومنافع .

ولكن الذين يلجأون الحرب لن يلقوا رحمة ، وبسماع ذلك بدأ النبلاء والعامة ايضا يتجهون صغيرهم وعظيمهم من مدينة نامالا ومن مدن بعيدة بعد هاجيون أوروس (١٢) وكلهم في لهفة كبيرة واقسموا وتعهدوا أنهم سيموتون وهم عبيد له ، وتلقاهم بسرور عظيم وانتشرت الرواية طولا وعرضا بعد ذلك بأن الفرنجة قد استولوا على حصن كورنث ، وأن لهم أميرا رائعا كانوا يدعونه كونت شامبنين وفي ذلك الفصل من السنة عندما ذهب كونت شامبنين ، ونزل في آخيا كما أخبرتكم من قبل (يبدو لي أني كتبت لكم في مقدمة الكتاب ، أنه بعد عام واحد فقط في الواقع بعد الاستيلاء على القسطنطينية ذهب كونت شامبنين ليغزوا المورة ، كما أخبرتكم) ، وما أن ذاعت (١٥١١ ـ ١٥٤٨) الرواية وسمعت تصادف أن كان بونيفيس ملك سالونيك في والاشيا مع جيوشه ، وكان معه هناك ذلك الرجل الجدير بالثناء الذي كان يدعى سيرجيوفري ولقبه فيلهاردين (١٣) وبناء عليه اتفقوا عندما سمعوا الرواية على الذهاب الى كورنث لرؤية كونت شامبنين كما قرروا ذلك في المجلس وهكذا نفذوا ومضوا الى كورنث ووجدوا كونت شامبنين ، واقاموا احتفالا كبيرا عندما التقوا هناك لأنهم كانوا متلهفين جدا التجمع مع بعضهم بعضا .

وبعد هذا قرروا بالتشاور ان يذهبوا الى أرغوس ، فأخذوا جيوشهم وساروا الى هنالك ، وتقع القلعة على تل ، وهي

محصنة جيدا في حين ان مدينة أرغوس (١٤) الكبيرة تقع في سهل يشبه خيمة مفتوحة ، وبوصولهم الى هناك اشتبكوا في معركة ودخلوها .

وحدث الآن أن سغوروس الجندي الجدير بالثناء الذي كان في حصن كورنث وقد رأى أن جيوش الفرنجة قد رحلت جاء خلال الليل ودخل المدينة بأكبر عدد من الرجال أمكنه أن يحضر معه وأحدث دمارا وفوضى عظيمة ، ومذبحة بين الفرنجة ، الذين تصادف أنهم وملؤهم الثقة ، كانوا في المدينة ، وفي الواقع إن الذين كانوا في صحة جسدية وكان لديهم الوقت ليتسلحوا قد قاتلوا ، أما المرضى وكانوا يرقدون منفعلين فقد ذبحوا على الفور ، ولم ينج منهم أحد ، وفي تلك الليلة نفسها أسرع الخبر الى كونت شامبنين ، وقد أخبرتكم أنه كان هناك في أرغوس ، وكان شديد الأسى والحزن من أجل المرضى الذين ذبحوا في فرشهم ، وغادر مدينة أرغوس وقد تمون جيداً ، وبقي الجنود الجيدون لحراستها ، وعاد الى كورنث وبعد أن عاد الى هناك توقف مع ملك سالونيك السير بونيفيس حوالي ستة أيام أو ثمانية ، في الواقع أقاموا هناك ، ثم التمس الملك (١٥٤٩ ـ ١٥٧٤) الاذن بالانصراف ، وعندها طلب منه كونت شامبنين خدمة ، هي أن يوفر له المساعدة والتموين ، وأن يساعده بطريقة ما من مملكته وكملك نبيل حقا وهبه وأعطاه ولاء أمير أثينا ، وكان يدعى السيد العظيم هكذا لقبوه وكان عندئذ أمير أثينا ، وقد أخذوا بالواقع هذا الاسم عن الهلينيين (١٥) وأعطاه أيضا الولاءات الثلاثة لأمراء يوريبوس وأيضا ولاء أمير بودونيستا ، التي كان المركيز يعتقد أنهم يمكن أن يحصلوا عليها منه ، وأن يعتبروه أميرهم (١٦) ولما كان أمير أثينا من بورغاندي فان أمراء يوريبوس الثلاثة الذين أتحدث عنهم كانوا من فيرو ومن لومبارديا (١٧) وأمر الملك أن يكتب لهم بالذهاب الى كونت شامبنين ، وعندما ذهبوا الى حيث كان كونت شامبنين ، فان

الملك نفسه سرحهم في سبيل أن يكون كونت شامبنين أميرهم ثم ودعهم ومضى في طريقه .

والآن عندما كان السير جيوفري ، الذي جاء مع ملك سالونيك على وشك الرحيل تكلم معه والتمس إذنه بأن يبقى هناك مع أميره الذي كان يعتبره أميره الشرعي ، وان كونت شامبنين أنا أخبركم كان يتلهف لرؤيته والاجتماع به والبقاء معه (١٨) (١٥١٥ ـ ١٦١٥) .

وهكذا بعد أن رحل ملك سالونيك وبقي السيرجيوفري ، طلب كرجل داهية من النبلاء الروم المحليين ، والذين عرفوا الأماكن والقلاع والمدن في جميع أرجاء البلبونيز الموجودة في المورة ، أن يشرحوا له ظروف وأحوال كل واحدة ، وحالما استلم تماما وعرف ، دعا كونت شامبنين وقال له : أيها الامير اني كغريب حقا عن هذه الأرض قد استجوبت النبلاء الذين معك ، وبما أني حصلت منهم على المعلومات الصحيحة ، رأيت بعيني قلاع كورنث في أرغوس ونوبليون والقوى التي تمتلكها ، واذا كان لك أن تبقى لمحاصرتها فانك ستخسر ما تعهدت به وستدمر ، لأن الحصون قوية وجيدة التموين ولن تتمكن بأي حال من أن تستولي عليها بالهجوم ولكن كما أخبرت من أناس جيدين من باتراس وعلى مسافة تصل الى كورون (١٩) ان المدن أكثر توزعا ، وهناك حقولا وأماكن مشجرة ، حيث يمكنك أن تمر بحرية مع كل جيوشك ، وعندما تستولي على المدن وتحصل على ولائها ، هل تبقى القلاع والى متى تصمد ؟ وعليه مر السفن أن تذهب في البحر ، ودعنا نذهب جميعا بطريق البر ، وبعد أن نصل الى هناك حيث توجد قواتك في الأراضي التي استوليت عليها ، أمل أن يقدر لك برحمة الرب أن تحصل على ربح كبير .

وبسماع هذا شكر النبيل كونت شامبنين مارشاله كثيرا وأمر بأن تمون كورنث ، وترك جيوشا جيدة لحراسة الأرض ، كما

قال السيرجيوفري تماما واشار ، هكذا نفذ وذهبوا الى المورة ، وخرجوا من باتراس ووصلوا الى أندرافيدا حيث كان نبلاء سهل المورة ، وعندئذ جمع السيرجيوفري كرجل حكيم النبلاء وقال لهم : أيها النبلاء والاصدقاء والاخوة والرفاق من الآن فصاعدا ، انظروا وحدقوا في هذا الأمير الذي جاء هنا الى اراضيكم ليستولي (١٦١٦ ــ ١٦٤٨) عليها ، لاتعتقدوا أيها النبلاء جاء من أجل الأسلاب أو ليأخذ الملابس والحيوانات ويرحل بعد ذلك من هنا ، اني أخبركم بهذه الحقائق لانني أرى أنكم رجال حكماء ، انظروا جيوشه وطلعته النبيلة ، إنه أمير وامبراطور وقد جاء ليستولي وليس لديكم أمير يحميكم ، واذا كان لجيوشنا أن تتقدم لتنهب أراضيكم وتستولي على مدنكم وتذبح رجالكم فماذا تفعلون بعد ذلك عندما تندمون ؟ وعليه يبدو لي أنه من الافضل أن نقيم علاقات ودية ، بحيث لن يحدث القتل والسلب وأخذ الأسرى في أراضيكم وممتلكاتكم ، وعلى العقلاء منكم ممن يعرفون الاخرين من أقاربكم وأصدقائكم ورفاقكم أن يؤثروا عليهم ليقدموا الولاءات (٢٠)

وعندما سمع النبلاء ذلك قدم الجميع الطاعة له وأرسلوا مبعوثيهم الى كل الاماكن التي يعرفون أن فيها أصدقاء وأقرباء لهم ، وبينوا لهم الأمر واعلموهم به ، وأرسلوا لهم قولا رقيقا (٢١) ليأمن كونت شامبنين بأن كل من سيمضي ليقدم له الولاء سيحتفظون بميراثهم وسيعطيهم المزيد وكل من يستحق وثبت أنه نافع سيكرم جدا .

وعندما سمع النبلاء والعامة هذا بدأوا يدخلون وقدموا الطاعة جميعا ، وعندما اجتمعوا في أندرافيدا عقد نبلاء اليس وكل ميزاريا (٢٢) اتفاقا مع كونت شامبنين بأن كل النبلاء الادنى الذين يملكون اقطاعات على كل منهم الالتزام بالبيعة وبالخدمة العسكرية المتفقة مع مراتبهم ، وبذلك سوف يبقى له

من الاراضي والباقي وهو القسم الأعظم سيقتسمه الفرنجة بينهم ، وسيبقى الفلاحون في القرى كما وجدوهم (١٦٤٩ ـ ١٦٧٦) وعينوا ستة من النبلاء وستة آخرين من الفرنجة ليوزعوا الأراضي والاقطاعات (٢٣) .

وعندما انجزوا ماأخبرتكم به جاء المارشال السيرجيوفري الى المجلس وقال لكونت شامبنين ، ياأمير يجب أن تدركوا وتفهموا أنكم بعيدون جدا عن أملاككم الموروثة ولديكم هنا جيوش كثيرة مأجورة ، والسفن تكلف أكثر من القوات ، ولهذا السبب أقول لكم وأنصحكم أن لاتضيعوا وقتكم وقواتكم ، لقد علمت من نبلائكم أنه قريب منا تقع قلعة بونديكوس (٢٤) وهي على الساحل ، فلنذهب الى هناك ، ووراء هذه أركاديا (٢٥) وبعدها كورون (٢٦) وعلى بعد قليل فقط منها كالاماتا (٢٧) وتقع هذه القلاع الاربع التي سميتها على الساحل ، وأقول هذا لكم ، ياأمير طالما أن لدينا السفن ، دعونا نذهب الى هناك لنستولي على هذه القلاع ، التي لها موانىء في أماكن مناسبة لنا ونجدها قريبة التناول (٢٨) .

وعندما سمع النبيل كونت شامبنين وبقية القادة الآخرين في المجلس هذه الأشياء شكروا السيرجيوفري ، وأقروا قوله وأعدوا أسلحتهم وكذلك سفنهم ، ووصلوا الى بنديكوس وهاجموها ، وكانت القلعة منخفضة الاسوار فأخذوها بالسيف ووضعوا بداخلها قوات جيدة كحرس (١٦٧٧ ـ ١٧٠٢) وعندما تم تموين قلعة بونديكوس ، أبحرت سفنه ومضت في البحر في حين وصل الى أركاديا ويابرا ، ووجدوا البحر هائجا ولم يجدوا مرسى للسفن .

وعليه قرروا بالتشاور أن لايهاجموا القلعة في حينه ، لقد ذهبوا الى هناك وقتها ولكن حيث أنه كانت لديهم السفن الذهاب الى القلاع التي كانت على الشاطىء ولها موانىء فان بعض مشاتهم

على أي حال اندفع وشق طريقه بالقتال الى داخل القرية (٢٩) وقتلوا كل من أسروا بالسيف في مكانه على الفور ودخل كل من تمكن من الفرار الى القلعة .

وبناء عليه زودوا السفن ومضوا حالا الى ميثون (٣٠) فوجدوا القلعة مهجورة ، وكانت مدمرة تماما ، وكان البنادقة قد دمروها في وقت سالف ، ثم انطلقوا ومضوا الى قلعة كورون ووجدوا القلعة منخفضة الأسوار والأبراج وكانت تقع على جرف شديد الانحدار (٣١) ومحصنة ، وبوصولهم الى هناك أحاطت السفن بها من كل جانب وبدأ الفرسان والمشاة في القتال ، ونصبوا المنجنيقات وضربوا بصورة متكررة على المحصورين في الداخل ، ولم يكن في الواقع لدى أولئك الكورنيين الذين كانوا بداخل القلعة أية إمكانية للصمود فوق الأسوار (١٧٠٣ ـ ١٧١٦) وهم يرون كثرة القوات وجرأة الهجوم ، فرضخوا طالبين العفو اذا سلموا لهم الحصن مع شرط ان يقسموا لهم بأن تكون لهم بيوتهم وممتلكاتهم ، واذ سمع السيرجيوفري ذلك وعدهم مسرعا ، وسكنت المعركة ودخل الفرنجة وتسملوا القلعة ونقلوا المؤن الى قواتهم وخرجوا في اليوم التالي ومضوا الى كالاماتا . فوجدوا القلعة متهدمة ، وكانت تستعمل كدير ، وعندما وصلوا أمامها هاجموها وأخذوها بالسيف ، وسلمها المدافعون عنها بالشروط نفسها مثل الآخرين (٣٢) .

والآن حالما سمع الروم في نيكلي (٣٣) وفي فيليفوستي (٣٤) (١٧١٧ ـ ١٧٣٤) وليكديمونيا (٣٥) تجمعوا معا وجاء الفرسان والمشاة من قرى ميلنغر (٣٦) وقرى لاكوس (٣٧) الى كريزوريا ، حيث علموا أن الفرنجة قد بلغوها وبدأوا يخرجون من القرى للنهب ، واعلنوا وخططوا لهزيمتهم واقتيدوا الى مكان يدعى كابكيانوس ، ونقطة تحمل اسم (بستان زيتون كونتورا)وكان هناك ٤٠٠ر٤ منهم بين فرسان ومشاة ، والآن

عندما عرف الفرنجة ذلك أيضا من الروم الذين كانوا معهم ، والذين كانوا يعرفون الارض ، وقادوهم الى هناك ، ذهبوا ووجدوهم واشتبكوا بالقتال ، الفرنجة والروم (٣٨) وكان عدد مشاة الفرنجة وفرسانهم ٧٠٠ فقط ، فهذا كان تعدادهم وحجمهم ، وبدأ الروم المعركة بلهفة لأنهم رأوهم قلائل جدا ، وندموا فيما بعد لماذا أخبركم بكل هذه التفاصيل (١٧٣٥ ــ ١٧٦٣) وما هو كسبي ؟ لقد كسب الفرنجة المعركة في ذلك الوقت ، وقتلوهم جميعا ، وفر القليل منهم ، وكانت هذه هي المعركة الوحيدة التي خاضها الروم خلال الوقت الذي غزا فيه الفرنجة المورة .

وبعد أن أخذ الفرنجة كالاماتا وجدوا الأرض خصبة ، رحبة وبهيجة بحقولها ووفرة مياها ومراعيها ، وأعطى كونت شامبنين الاوامر لكل سفنه بأن تأتي كل واحدة منها الى حيث كان ، لأن نبلاء الروم أخبروه بأنه لن يحتاج اليها بعد ذلك ، وعليه أمر بأن تنزل المؤن والاسلحة الكثيرة والمنجنيقات من سفن الشحن ، وبينما كانوا يعبرون ارض كالاماتا ، وبينما كان يريح خيوله وقواته ايضا ، تشاور حول الى حيث يركبون ويتجهون ، وبناء عليه قال الروم والقادة في مجلسه بأنهم يجب أن يذهبوا الى فيلوغوستي ومن هناك الى نيكلي ، لأن تلك كانت الأماكن الرئيسة في كل المورة ، وتقع كل منهما في السهل وأنهم سيأخذونهما بسرعة ، ومن هناك علاوة على ذلك عليهم أن يذهبوا الى ليكيمونيا . ثم قال المارشال السيرجيوفري وأشار بأن يذهبوا الى أركاديا ويستولوا على القلعة حتى تتوسع الأرض ، وأن يرسلوا القوات ضد اركلوفون الذي يقود الدورونغوس ، الذين يسمون سكورتا (٣٩) وكانت قلعة صغيرة ولكنها تقع فوق تل صخري ، وكانت جيدة التحصين ، وقيل أن أحد الفوتساراداز كان يسيطر عليها ، وكان اسمه دوكا باتريس (٤٠) وكان جنديا عظيما ، وبعد أن نأخذ هذا المكان وتتسع اراضينا (١٧٦٤ ــ ١٨٠٣) دعونا نذهب الى تلك الاماكن الاخرى ، كما أشار السيرجيوفري هكذا فعل كونت شامبنين

نفسه ، وقرر أن يكون ، وأمر بأن تصدح الأبواق وركبوا مباشرة وانطلقوا مغادرين ، ووصلوا الى أركاديا ساعة الظهر ونصبوا معسكرهم وأعدوا خيامهم في الميدان ، وطلبوا القلعة ، ولكنهم لم يتخلوا عنها لأن القلعة تقع على قمة صخرة ، وكان لها برج قوي يعود تاريخه حتى الى زمن الهيلينيين ، وكانت لديهم مؤن وفيرة وكانوا يأملون في الصمود في المعركة أمام الهجوم ولايستسلموا (٤١) ومر اليوم وبزغ فجر اليوم التالي وأمر الشامبني بأن تنصب المنجنيقات وبدأوا القتال حول القلعة ، ومن أحد الجوانب هاجموا بالمنجنيقات ، في حين كانت الاقواس والنشاب في الخلف والامام ، وعندما رأى الاركاديون الذين كانوا في القلعة أنهم لن يصمدوا أمام الهجوم القوي ، ارسلوا صيحة مدوية تطلب وقف الهجوم ، واتفقوا على تسليم القلعة ، وأمر المارشال السيرجيوفري على الفور الجنرالات بوقف الهجوم ، وطلب الاركاديون بأن يعفى عنهم وأن يعطوا هم وأتباعهم الامان ، وبسرعة أقسموا قسمهم وسلموا القلعة .

وبعد أن تسلم الشامبنيين القلعة مكثوا هناك يومين فقط ، ثم وصل مبعوثون موثوقون الى هناك ، وكانوا يحملون رسائل أحضروها من فرنسا وأعطوها للشامبني وانحنوا أمامه ورجوه شفاها (أن يعلن الرسائل) وبحزن والدموع في عيونهم قالوا : « اعلم ياأميرنا أن أخاك قد توفي ، ذلك الذي كان أخاك الكبير كونت شامبنين (٤٢) ويلح نبلاء ولايتكم وكل الفرسان وعامة الناس ايضا وهم عبيدك ويتوسلون اليك أن تذهب بسرعة الى هناك لانه ليس لديهم أمير شرعي أخر سواك ، وملك فرنسا الذي اخذت منه اقطاعاتك راغب جدا ونافد الصبر في انتظار (١٨٠٤ ــ ١٨٤٣) وصولك فورا ، وقد كتب لك أقاربك وكل نبلاء الغرب يتوسلون اليك أن تذهب بسرعة الى هناك .

وعندما سمع الشامبني النبيل تلك الكلمات ، أسف جدا كرجل حكيم شاب وبكى طويلا ، ودخل في حزن عميق ، ثم أمر باستدعاء

قائد جيشه ومستشاره الاول السير جيوفري ، وتكلم معهم كرجل حكيم وقال : ايها النبلاء والاصدقاء والاخوة والرفاق والجنود ، ان الرب شهيد على الاسى الذي اشعر به لموت سيدي وأخي وعلاوة على ذلك ، فإني حزين ايضا وأشعر بقلق عظيم لذلك الذي تعهدت به ، وتابعته الى النهاية ، فلقد ضيعت أمالي وقد ألقيت على الارض ، وحدث لي العكس في كل مقاصدي ، ومع ذلك كما سمعت دائما من الرجال المسنين [٤٣] الذين أخبرونا وأعلمونا ـ نحن الذين عانينا من سوء الحظ ، أن نصبر وبهذا سنكسب ، وعليه أقول لكم ، أتوسل اليكم جميعا أن تشيروا كما يجب ويناسب حتى يمكن أن أقوم بالشيء الصحيح كما يليق بشرفكم حتى لايجد احد عيبا فيكم وانهم اتباعي .

وبناء عليه فان هذا هو المجلس ، الذي انعقد وفيه قام السيرجيوفري ، كونه المارشال ومعه اسقفان وفارسان وخمسة نبلاء آخرين بتقسيم الأراضي معطين لكل رجل حسب منزلته ورتبته والأسلحة والقوات التي لديه في الجيش [٤٤] وعليه جلس هؤلاء الرجال العشرة معا وحدهم وأعدوا قائمة بالقوات وقادة الجيش ، وبعد أن ادرجوا الاراضي في قوائم ووزعوها ، أحضر العشرة الذين تكلمت عنهم كما فعل الشاميني نفسه ولانه لم يكتب في التوزيع شيئا للسيرجيوفري ، مارشاله لقد دهش كثيرا وأعلن شكره له على ترتيباته (١٨٤٤ ـ ١٨٧٨) وحكمته وكرمه ، وبناء عليه تكلم معه : سيرجيوفري قال له ـ أمام الجميع حيث دعاه وتحدث اليه بصوت مرتفع : « لقد علمت وأقول لكم بصدق ، انكم أعطيتم المبادرة المحرضة الاولى والنصيحة في ذلك الوقت لأميري وأخي من أجل الحملة السورية ، وكان قد جعل قائدا [٤٥] وعندما حدث لسوء الحظ الكبير أن توفي أخي ، فانكم لم تعانوا بأي حال من ان الحملة قد تم التخلي عنها وذهبتم جميعا الى رومانيا واستوليتم على المدينة ، وفي الواقع ان كل الانجازات والاعمال العظيمة قد اشرتم بها ورتبتموها وعندما سمعتم بأني جئت الى هنا الى المورة ، تركتم الحصة التي كانت

مستحقة لكم من الاستيلاء ومن الامبراطور بلدوين ومن كل رفاقكم وراءكم وجئتم الي ، وسيكون اثما ولوما كبيرا أن لا أكافئكم بشكل موائم ولائق .

وبناء عليه اريد ان أعطيكم ملكا لكم أراضي كالامساتا وأركاديا والأراضي المحيطة بهما (٤٦) ومنحه فورا خاتما ذهبيا ، وعندما تم منحه وقدم له الولاء ، دعاه مرة أخرى وقال له : سيرجيوفري ، من الآن فصاعدا ستكون تابعا لي ، لأنك تملك الاراضي بسلطاني ويتعين عليك أن تكون مخلصا لي في كل شيء ، ومن جانب اخر اني أخولكم بكل شؤوني ، وحيث أن علي أن أذهب الى فرنسا ، فأني امرك وأطلب اليك اخلاصا لي ان تتسلم وتملك الاراضي التي ربحتها هنا في المورة وأن تحميها من أجلي ، وستكون نائبا لي بالطريقة والهدف الذي يعطيك السلطة التي لي ، واذا ماراق لي من جانب وحدث (١٨٧٩ ــ ١٩١١) أن أرسلت أحدا من رجالي من بين اقاربي ، في غضون عام واحد ، فعليك أن تسلمه الارض والسلطة ، وأن تبعد يدك عنه ، واذا من جانب اخر مر الزمن ، زمن السنة الواحدة المحدد ، ولم يات أحد ليتولى السلطة فانها أرادتي ورغبتي ، وبذلك أعطيك كلمتي بأنك ستبقى سيدا وأميرا بعدي ، سيدا وأميرا بالوراثة (٤٧) .

وبناء عليه انحنى السيرجيوفري الرجل الحكيم أمامه وتكلم شاكرا أباه للثناء والتشريف الذي شهده ، وثانيا للهدايا التي أعطاه إياها ، وهكذا ان النيابة على المورة والسلطة على الأرض التي تلقاها طبقا للشروط الموضوعة من قبل الشامبني ، والتي أمر بأن تدون الوثائق المتضمنة لها ، قد أبرمت مع القسم ، ثم وضع الفرسان والأساقفة وقادة الجيش اختامهم عليها .

وحالما انجزت هذه الاتفاقات تجهز الشامبني ، وانطلق مغادرا ، وقام بالانطلاق والمغادرة واصطحب معه فارسين اثنين واثني عشر سيدا رفيقا ، وقام بالعبور في أحدى الشواني ، ومضى

الى البندقية وعبر مباشرة الى فرنسا والى شامبين ، وبقي السـيد جيوفري في الارض سيدا لها .

والان بعد ان بقي السـيرجيوفري كنائب للملك واميرا على المورة ، كما اخبرتكم امر بان تتجمع قواته في اندرا فيا التي كانت في ذلك الوقت تحت سلطة الادارة وحالما اجتمع الكبار والصغار فيها ، دعا بالسجل الذي دونت فيه حصة كل رجل ومـاخصص له التصرف والادارة من قبل الشامبني (٤٨) . وفيه ادرج كل المستفيدين (١٩١٢ ـ ١٩٣٨) .

وكان اول من ادرج في القائمة هو السيرغوتييردي روزيير ، وهكذا كان لقبه وكان يدعى ، وقد تملك حصة اربعة وعشرين فارسا من الارض ، واعطي امـلاكا في ميزاريا ، وبنى قلعـة هناك واسماها ، أكوفا ومازالت تسمى هكذا .

وكذلك اعطي مثله للسيرهوغ دي بروبير ، وهذا لقبه ، واعطي املاكه في درنغوس في سكورتا ، وخصص له حصـة اثنين وعشرين فارسا من الاراضي .

وعندما تسلم اقطاعاته بنى قلعة هناك سـميت كاريتـانيا كمـا ماتزال تدعى ، وكان له ابن ، هو السير جيوفري امير كارتيانيا ، وهكذا كان اسمه ، وكان جنديا شهيرا في رومانيا (٤٩) ثم جـاء بعده في القائمة بـارون ثـالث ، السـير غوليوم ، وهـكذا كان يدعى ، وكان لقبه المان وسجلت له باترا س للتملك والتصرف مع كل توابعها .

ثم خصصت له بعد ذلك بارونية السير ماثيو ، وكان لقبه موذس وهكذا عرف وملك قلعة فيليغوستي ، وحصة اقطاع اربعة فـرسان وكان له ان يحمل علما (٥٠) .

ثم جاء بعده في القائمة سير غوليوم اخر لينال قلعة نيكلي مع ست حصص من الارض (٥١) .

ثم جاء بعده اخر في السجل وهو السيرغي ، وكان يدعى بلقبه دي نيفليت ، واعطي ست حصص ليتملكها في شاكونيا وقد بني قلعة هناك اسماها غيراكي (٥٢) (١٩٣٩ ـ ١٩٥٤) .

واقطع السيراوتون دي ذورناي ايضا ملكية كالافريتا مع حصة اثني عشر فارسا .

وتلاه في القائمة السير هوغ دي ليلي ، ليأخذ حصة ثمانية ، فرسان في فوستيتزا وقد تخلى عن لقبه ودعي باسم كاريغني (٥٣) . وبالنسبة للسيرلوك ، فقد اعطي فقط حصص اربعة فرسان ، تجاور غريتسينا ووادي لاكوس (٥٤) واعطي السيرجان دي نويلي ، باسافا ،أربع حصص وكان له ان يحمل علما ، وان يكون مارشالا وان يبقى هذا المنصب وراثيا (٥٥) واعطي السير روبرت تريمولاي اربع حصص ، وقد بني كالا ندرتيزا ولقب بالامير (٥٦) واعطي للاسبتارية اربع حصص ، واعطي للداوية أربع اخرى ، وكان لها ان ترفع علما وكذلك اعطي الالمان اربع حصص يملكونها في اراضي كالاماتا (٥٧) واعطي مطران باتراس (١٩٥٥ ـ ١٩٧٤) وكهنته ملكية حصص ثمانية فرسان ، واعطى اسقف اولينا اربع حصص واساقفة ميثون وكورون مع كهنتهم اعطى كل منهم اربعا ، وكذلك اساقفة فيليفوستي ونيكلي ، حيث لكل منهم اربع حصص ومثلهم اسقف ليكديمونيا (٥٨) .

وكل اولئك الذين تسمعني اذكرهم بالاسم كانوا في ايام الشامبني قد ادرجوا في سجله ومنحوا الاقطاعات ، والفرسان الذين كانت لهم حصة ، وكذلك حاملوا الدروع (٥٩) الذين اقطعوا لم اسمهم بسبب مايتطلبه ذلك من كتابه مطولة ، وبعد تلاوة السجل طلب السيرجيوفري مشورة القادة ، ورؤساء الاساقفة والاساقفة حول

كيفية وضع وترتيب التعليمات التي تتعلق بكيفية تأدية المقطعين بالاقطاعات لخدماتهم ، حتى يحافظوا على سلاحهم والاغارة بالسلاح فانها ستفقد مرة اخرى .

وبناء عليه تمت في مجلس عام بحكمة كبيرة مناقشة وترتيب ووضع ان الذين حصلوا على اربع حصص لهم ان يملكوا اعلاما وان يكونوا من قادة الفرسان ، وان كلا من هؤلاء سيكون له الى جانب علمه فارس يسير معه واثني عشرة من حملة الدروع ، وان الذين ملكوا وكان لهم اكثر من اربع حصص لهم في مقابل كل حصة ان يعطوا ويجهزوا اثنين من حملة الدروع الراكبين او فارس واحد ، والفرسان الذين يملكون حصة ، يلتزم كل واحد منهم ، ويطلب منه ان يخدم شخصيا كالتزام : ومثل هذا الذين يسمون (سرجندية الاستيلاء) على كل منهم ان يقدم الخدمة بنفسه .

واعلنوا ورتبوا انه بما انهم كانوا في حرب فان قسما منهم عليه ان يحمي الأراضي التي غنموها ، وأن يغزو الآخر ، تلك التي لم يحصلوا عليها ، وأن الخدمة الالزامية لكامل السنة ، يجب أن تجدول على الترتيب والنحو الذي أدرجه فيما يلي : أنه من بين الشهور الاثني عشر في السنة يمضي كل رجل اربعة شهور في الخدمة العامة في الحاميات (٦٠) حيثما يريد الأمير ، وأنه في الشهور الأربعة التالية نذهب في جيش الى حيث يحتاج ويريد أمير التابع ، وفي الشهور الأربعة التالية يمكن للاقطاعي أن يكون حيث يشاء (٦١) وبالنسبة لما اعلنوا بأن هناك خدمة على مدار السنة ، فانه يعود الى تفضيل الأمير ايا كان أن يأخذ (٢٠٠٢ ـ ٢٠٢٣) من الشهور الاثني عشر ما يشاء ، ولم تكن الكنيسة والاساقفة والداوية والاسبتارية ملزمين بأداء واجب الحاميات ، ولكنهم كانوا ملتزمين بأن يكونوا مستعدين بكل الطرق مثل الاقطاعيين للمساعدة ، في الغارات والمعارك حيثما يحتاج الأمير وعندما تتطلب حاجة البلد.

ومثل هذا تقرر هذا المبدأ لرؤساء الاساقفة في كل الكنائس أن

يحملوا اعلاما في حالة الحرب ، وفي المجالس الاستشارية علاوة على مجالس الامارة ، وفي المحاكمات المتعلقة بالأراضي فانهم يتساوون مع قادة الفرسان ان لايحكم فيها الاساقفة تحت اي ظرف .

وبعد تسوية كل هذه الامور التي حدثتكم عنها ، امر السيرجيوفرى بان يستعد الجميع الكبار منهم والصغار للمسير ، وانهم يجب ان يخضعوا الاراضي التي اقطعوا اياها حتى يفتحوا مالم يضعوا ايديهم عليه منها ، وحالما ساروا اخذوا طريقهم ومضوا راسا الى فيلو غوستي بمشورة الروم ، الذين كانوا يعرفون الارض والذين اوصلوهم الى هناك ، وكانت القلعة في ذلك الوقت تقع فوق تل منخفض ، واخذوها بالانقضاض وقدم القليل الطاعة .

وبعد ذلك عبروا راسا الى نيكلي التي تقع في سهل ، والان برؤية جيوش الفرنجة والروم الذين كانوا معهم ، حصن نبلاء نيكلي الابراج بأي قوات ، وبأي اسلحة كانت معهم ، وكانت الاسوار عالية وكلها محكمة الرصف والملاط ، وقد تلقوا الهجوم بلهفة وصمدوا مدة ثلاثة ايام في وجه الهجوم على القلعة ولم يسلموا بأي حال ، وعندما ادرك جيوفري ذلك امر باحضار خشب لصنع خنازير (مثاقب لزعزعة الاسوار) (٦٢) ، ومنجنيقات (٢٠٣٨ ــ ٢٠٧٢) واقسم بانه لن يغادر المكان قبل الاستيلاء على حصن نيكلي بالسيف ، وانه اذا اخذه بالسيف فلن يرحم نفسا واحدة . وعندما سمع الروم ممن كانوا مع الفرنجة ، ولهم اقارب بداخل القلعة هذه ، نادوهم واعلموهم بذلك ، وبانهم ان لم يذعنوا ويسلموا القلعة واخذت بالسيف فسيقتل الجميع . وحالما سمع كل النكليون هذا تشاوروا معا وسلموا القلعة ، وسلموها باتفاقات بان يحتفظوا باملاكهم .

وحالما تسلم السير جيوفري نيكلي امر بتموينها كما يجب ويليق ، ثم انطلق من هناك ورحل راسا الى ليكد يمونيا التي كانت بلدة كبيرة بابراج واسوار جيدة وكلها جيدة الملاط ، وكانوا في

الحقيقة مصممين جدا على عدم الاستسلام واحاط الفرنجة بالمدينة خمسة ايام مع هجمات لاتتوقف ليلا ولانهار ونصبوا المنجنيقات التي احضروها معهم من نيكلي ·

وحالما بدأوا يعانون من الخسائر وتضررت الابراج ، استسلموا بسرعة ، بشروط ومع القسم بان يحتفظوا ببيوتهم والاقطاعات التي يمتلكونها .

وبعد ان استسلم الليكديمنيون اتخذ السير جيوفري مراكز هناك ، واعطى اوامر لجيوشه بان يبدأوا الطواف لجمع الاسلاب في ارض تساكونيا حتى هليوس وفي فانيكا وفي مونمفاسيا (٦٣) .

وبناء عليه جاء نبلاء ليكد يمونيا ، ونبلاء نيكلي ايضا ، الذين يملكون اقطاعاتهم في تساكونيا وفي الاماكن الاخرى ، حيث كانت تلك الجيوش تغير ، جاؤواوتكلموا مع السير جيوفري ، وطلبوا منه ان يامر جيوشه بان توقف الاغارة ، وان القرى ستؤدي الطاعة وان يجعلوه اميرا عليهم ، ولانه كان عقلانيا (٢٠٧٣ ـ ٢١٠٧) في كل شيء ، نبه النبلاء ، وامر جيشه بالعودة .

وبناء عليه امر ان ياتي قادة مجلسه ليمثلوا امامه ، اولئك الجنود الذين اقطعوا (٦٤) البلدان ، ومن ثم امر ان يدون كتابة في السجلات كل ما تم كسبه ، وما تم غزوه منذ رحيل الشامبني . ودعا النبلاء وقادة المورة وطلب منهم ان يعلموه بالتمام اية قلعة بقيت دون ان تقدم الولاء ، واجابوه واعطوه هذه المعلومات مازال ينقصك اربع قلاع ياسيدي : الاولى في كورنث ، والثانية نوبليون ، والثالثة مونمفاسيا ، والرابعة ارغوس . وهذه القلاع قوية جدا وحسنة التموين ، ولايمكنك مطلقا اخذها بالهجوم ، واذا كان اميرنا يرغب في الاستيلاء على هذه القلاع فاننا نحن العرق الرومي سنموت عبيدا لك وهذا ما نطلبه ونرجوه ، فامنحها لنا تحت القسم كتابة حتى تكون لنا ولاولادنا ، ومن الان فصاعدا لن يجبرنا احد من الفرنجة

على تغيير عقيدتنا الى العقيدة الفرنجية ، ولاحتى عاداتنا وقوانيننا الرومية .

وتلقى السيد جيوفري هذه الكلمات بقبول حسن واقرها لهم مع القسم ودونت كتابة (٦٥) وبعد ان سوى السيد جيوفري كل الامور للفرنجة والروم ، وحقق لكل رغباته ، وعالج المشكلات في اقطاعاتهم ، احبه الجميع كثيرا صغيرهم وعظيمهم ،

لانه كان جديرا بالتقدير وعادلا بالنسبة للجميع ، حتى ان اكثرهم حكمه تشاوروا حول كيفية الابقاء على ملك اراضي الموره في يديه ، لانه كان رجلا طيبا وعاقلا في كل الامور ، بدلا من ان ياتي من فرنسا بعض النهابين عديمي الخبرة الطائشين ليوقعونا في الفوضى ، وبناء عليه (٢١٠٨ ـ ٢١١٣) ذهبوا اليه ، واحاطوه علما بجديتهم فاقشعر بدنه من الافعال الشريرة التي لايسمح بها تحت اي ظروف .

وتحدثوا معه مطولا وحثوه كثيرا حتى اخرجوه عن حكمته ، وقبل بالخطة التي ستنفذ والامور التي ستحقق (٦٦) وبناء عليه دبروا ليعوقوا بخطة وضيعة كل من يتصادف مجيئه من فرنسا وان يمنعوه ببعض الوسائل من الوصول قبل حدود نهاية الوقت الذي حدده الشامبني .

وبناء عليه ارسل السيد جيوفري كرجل واع فارسا كان لديه ويثق فيه ، وذهب الى البندقية وراسا الى الدوج ، وكانت هناك صداقة وحب وصلة بينهما ، وارسل اليه هدايا وتوسل اليه بحرارة ان يفعل شيئا ليؤخر مجيء من يتصادف ان يرسله الشامبني ؟ وقد ارسل الان فارسا اخر الى فرنسا للاصدقاء والاقارب الذين له من شامبين .

والان عند هذه النقطة ، ساتوقف عما كنت اكتبه واخبركم حول

السير جيوفري وحتى اخبـركم بـدقة عن هـذا النبيل كونت شامبين (٦٧) وكيف اصاب نجاحا جيدا عندما وصل الى هناك بعد ان سافر الى فرنسا مـن اجـل ممتلكاتـه . والان بعـد ان انطلق الشامبني من ارض المورة وسافر الى فرنسا ، وحمل الى شامبين ، التي كان يحبها كثيرا (٦٨) واستقبله اقـاربه اسـتقبالا حسـنا ، وانطلق مسافرا الى ملك فرنسا ، ووجده في بـاريس مـع نبـلائه ، وكانوا يحتفلون بعيد الحصاد بالطريقة المعتادة لدى الفـرنجة (٦٩) وكان الملك سعيدا جـدا بـالكونت ، لانه راى انه عاد مـن رومـانيا وهكذا ايضا كان الدوقات النبلاء والكونتـات ، الذين كانوا رفـاقه واقاربه.

وحالما تبادلوا الهدايا مـع بعضـهم بعضـا قـدم ولاءه للملك عن الاقطاعية وطلب منه الاذن بالسفر ، وعاد الى شامبين ، وحالما عاد الى ارضه(٢١٤٩ ـ ٢١٩٠) واصـبح اميرا وبينمـا كان ينظـم ارضه وشؤونه مضى ثمانية شهور كانت كثيرة في عددها ، ثم تـذكر الاتفاقات التي ابرمها مع السير جيوفري فيما يتعلق بارض المورة ، وكان لديه امل قوي وثقة عظيمة فيه ، حتى انه لو ارسـل اليه احـد اقاربه ، فانه سـيستقبله كامير له وسـيسلمه الارض ، وبناء عليه اجرى مشاورة مع اقاربه حول من الذي يجب ان يرسـله الى المورة كنائب له وامير ، وكان لديه ابن عم مـوثوق يدعى روبـرت : وكان بابا لانظير له في كل شيء . واستدعاه كونت شامبين وقلده منصـبا واعطاه سلطة على ارض المورة ، وامـر بـان تـدون على الورق كل المزايا وتسليم الملكية التي عليه ان ياخذها معه ، واعطاه مالا كثيرا وحاشيته من اربعة فرسان و٢٢ من حملة الدروع ، وغادر شـامبين في مطلع تشرين الثاني ، (٧٠) وعندمـا جـاء الى سـافوى لعبـور الجبال ، وجد الثلوج كثيفة وسميكة على القمم التي تفصل فـرنسا عن لومبارديا ، ولم يتمكن باي طريقة من ان يمر عبـرها وكان عليه ان يتاخر هناك شهرا او اكثر ، وحـالما اصـبح قـادرا على اجتياز الجبال خرج من لومبارديا وسافر الى البندقية ، حيث وصل في بداية كانون الثاني ، بامل ان يجد سفينة ليقوم بالعبور .

وعندما ابلغ الدوج بان روبرت ابن عم الكونت قد جاء ـ وكان قادما من شامبين ليذهب الى المورة ـ دعا اميرا له واخبره سرا بالامر وبخطة اعاقته وانه عليه ان لايعطيه سفينة ليذهب الى المورة وعندها استدعى الدوج روبرت واظهر له تشريفا كبيرا وتشجيعا وأدبا حتى يثق به وحتى يخدعه ، واستبقاه كثيرا بكلماته الجميلة ، وتذرعاته وخدعه واعذاره الزائفة حتى أنه تأخر في البندقية نحو شهرين وأكثر ، ولكنه في النهاية أعطاه سفينة مسلحة حدث أنها كانت متجهة إلى كريت وأمر الكوميتاس (٧١) قائد السفينة (٢١٩١ ـ ٢٢٢٥) أن يتركه عندما يعبر كورفو ،لقد مضت الامور كما اخبرتكم تماما ، وحالما وصلت السفينة الى قلعة كورفو ، استدعى الكوميتاس روبرت وقال له : « إن هناك اضرارا أسفل السفينة ويجب أن نقيم لاصلاحها ، وعليه يا أخي الطيب دعنا نأخذ أمتعتك منها حتى تخف ، حتى يمكن اصلاحها » .

واذ صدق الآخر امر بنقل أمتعته إلى القلعة ، بينما نزل في الفندق وعندما مر معظم الليل وعلا صياح الديك نفخ طاقم السفينة صفاراتهم ورحلوا مبتعدين ، وعندما حل الصباح وأفاق روبرت واستيقظ ، اخبر بأن السفينة قد غادرت . وحالما أخبر بذلك بدأ يتألم ، ثم ادرك تماما الخيانة التي اقترفت ضده ، وعندما فهم الخدعة سعى حتى لايجاد سفينة يستأجرها ، وحيث أن قائد كورفو (٧٢) ارسل الى الخارج من قبل امير المورة السير جيوفري فانه امر باستدعاء صاحب السفينة وامره وحذره تحت طائلة الايذاء الجسدي من ان يأخذ السير روبرت ويعبر به تحت اي ظرف.

وفي هذه الاثناءانزلت السفينة التي كانت في طريقها إلى كريت رجلا في سانت زكارياس ، النقطة التي توجد عندها مدينة كلارنتسا (٧٣) اليوم ، وكان يحمل رسائل من دوج البندقية للسير جيوفري ، امير المورة يعلمه فيها خطيا بأمر روبرت ، عندما وصل الى البندقية وكيف جرى تأخيره شهرين وأكثر وأيضا كيف أن سفينة البنادقة

التي كانت في طريقها إلى كريت قد انزلته في جزيرة كورفو . (٢٢٢٦ ـ ٢٢٧١) .

وكان السير جيوفري في اندرافيدا في ذلك الوقت ، وعندما أحضر له البنادقة تلك الرسائل ، مجدهم وأعطاهم هدايا واستدعى آمر قلعة اندرافيدا وأعطاه تعليمات مفصلة حول كيفية التصرف عندما يعبر روبرت ويصل إلى هناك ، ثم ترك أندرافيدا وذهب إلى فليزيري لينتظر حتى يسمع بعض الأخبار حول روبرت .

وعندما أدرك روبرت أسلوب الخداع ، الذي كان البنادقة يخدعونه به كما أخبرتكم أسرع يتعجل لايجاد مركب ليعبر للوصول إلى المورة ضمن الوقت المحدد ، حيث تصادف وجود مركب ذاهب إليها من أبوليا ، وتدبر أمر الصعود إلى المركب الذي أخذه حتى سانت زكارياس ، وسأل أن يدلوه على مكان نائب الأمير وأخبره بعضهم أنه كان في أندرافيدا . وأرسل سرجنديا ليحضر له الخيول ، وقد سافر الأخير على طريق المشاة حتى وصل إلى هناك ، ولم يجد السير جيوفري ، الذي كان قد ذهب إلى مكان آخر ، بل وجد آمر قلعة مدينة اندرافيدا . وعليه تكلم معه وأبلغه رسالته ، أن روبرت كان في سانت زكارياس ، وكان ابن عم وقريب لكونت شامبين ، « الذي جاء ليكون أميرا لكم ، أيها الموريون أرسلوا له الخيول حتى يأتي اليكم هنا » .

وفور سماع آمر القلعة للرسالة ، أخذ معه كل القوات التي كانت تحت قيادته والنبلاء والمواطنين (٧٤) من كل أندرافيدا واخذ معه كل الخيول التي يحتاج اليها وذهب راسا إلى سانت زكارياس ، وأظهروا سرورا عظيما برؤية روبرت واظهروا علامات الاحترام المتوجب وأنهم كانوا مسرورين جدا من أنه يجب أن يأتي ليكون أميرا عليهم وأنهم سيعيشون في خدمته . وبناء عليه تلقوه بسرور عظيم ، وذهبوا إلى أندرافيدا واسكنوه هناك ، وأبدي ابتهاجا عظيما وملاطفة حسنة ، واستقبل الجميع وخاطبهم بعبارات

جميلة ، مفترضا مقتنعا بأنه قد اتخـذهم اتبـاعا وأنهـم بـدورهم اعتبروه سيدهم وأميرهم .

وبناء عليه ظهر أحدهم وأخبره بالتفاهم والاتفاقيات التي أبـرمها الشامبيني مع السـير جيوفـري ، نائب أمير المورة وأنه اذا انقضى أمد العام الواحد الذي كان عليه خلاله أن يلتقي فيه بالسير جيوفري ويتولى السلطة ، فإن جهوده ستذهب عبثا ويكون قد فقد كل ما جاء يبحث عنه(٧٥). وعندما سمع روبرت النبيل هذا سـأل آمـر قلعـة المدينة ان يعطيه الخيول ، حتى يمكنه ان يمضي على الفور الى نائب الملك ، وان يحصل على مرشد يقـوده على ان يكون القـائد ملتـزما بتنفيذ مشيئته. ووجد له قدر ما شاء من الخيول والمرافقين ، وذهب معه هـو نفسه حتـى فليزيري(٧٦) ، على امـل ان يجـد نائب الملك هناك ، والآن عندما سمع السير جيوفري تقريرا بـأن روبـرت قـد وصـــــــــــــل الى ســـــــــــــــــانت زاكارياس ، غادر المكان بسرعة وذهب إلى كالاماتا ، ومرة أخـرى عندما سمع أن روبرت قادم ، غادر من هناك وذهــب مـع حـاشيته رأسا إلى فيليغوستي ، حيث وصلوا ظهرا . والآن جاء الذين كانوا مع روبرت به راسـا إلى كالامـاتا ، ومـن هناك أخـذوا الخيول وعادوا . وعليه بقي روبرت وحده تماما ، فاستدعى آمـر كالامـاتا وتكلم معه وطلب منه أن يعطيه خيولا حتـى يمـكنه أن يذهـب إلى السير جيوفري نائب الملك في المورة .

فأعطاه من الخيول بقدر ما أمكنه وأعطاه أدلاء أيضا ليرشدوه ، فمضى إلى فيليغوستي ولم يجد نائب الملك هناك ولكنهم أخبـروه أنه ذهب إلى نيكلي . وعاد أهل كالاماتا وذهبوا إلى بيوتهم فيها . وبقي روبرت هناك في ضياع لأنه لم يجد خيولا ليأخذها معه وعلى أي حال فقد وجد له آمر القلعة خيولا بأفضل ما أمكنه وأعطاه اياهـا فمضى إلى نيكلي .

وبعد وصول روبرت إلى نيكلي ذهـب الرسـل إلى ليكديمـونيا ،

حيث كان السير جيوفري ، وأعلموه أن ابن عم كونت شامبين المدعو روبرت قد وصل الى نيكلي (٧٧) وبسماع السير جيوفري التقرير اخذ معه الرجال وعظماءهم ، وفي الحقيقة كل من كان في حاشيته ومضى مسرعا ليقابل روبرت ، وقابله بتشريف وبعلامات حقيقية للاحترام وابدى سرورا عظيما به في حضور الجميع وعندما وصل الى ليكيمونيا امر بأن ينزل في قصور الامارة (٧٨) .

والآن كان ابن عم كونت شامبين يتوقع احراز السلطة ، في الصباح التالي وبينما كان النهار ينبلج ، أمر بأن يستدعى نائب الملك السير جيوفري وقال له انه كان برفقته القادة وأصحاب الجدارة وقد جاءوا ليروا تنفيذ أوامر كونت شامبين ، وهي الأوامر التي جاء بها معه . وعليه ،اعطى السيرجيوفري امره ، وحالما تجمع الجميع وجلسوا لاستماع ما كتبه الكونت ، نهض كاتب ممن جاء معه (٧٩) وامره بقراءة الامتيازات التي جاء بها ، فقرأها وشرح الكلمات التي تبين أن الكونت قد أعطاه السلطة على الأرض وعلى كل البلبونيز الموجودة في المورة ، ثم عرض بعد ذلك وقرا ايضا الأوامر والوصايا لكل القادة بأن يستقبلوا روبرت كأمير لهم .

وحالما تليت جميع هذه الوثائق ، نهض السير جيوفري في حضور الجميع وانحنى بتواضع لسلطان أوامر الكونت ، وأمر بسرعة باحضار الامتيازات التي كانت لديه والاتفاقات والوثائق التي أعطيت له من الكونت والتي تقضي بأن تسلم اليه أرض المورة ليحكمها ويحميها وأن يكون نائبا له ، انه اذا جاء خلال فترة عام ويوم الكونت أوعضوا اخر من عائلته ، فإن عليه أن يسلم له الأرض والسلطة ولكن اذا انقضت فترة السنة ولم يصل أحد منهم (٢٣٤٩ ــ ٢٣٧٧) كما اخبرتكم فإن الأرض والسلطة ستبقى حتما في يد السير جيوفري كوريث (٨٠) وبعد قراءة هذه الوثائق ، والاتفاقات التي أبرمها كونت شامبين ، نهض السير جيوفري وقال للأساقفة وقادة الفرسان : « أيها النبلاء لقد سمعتم الاتفاقات والوصايا التي أصدرها سيدي الكونت ، والتي تركها عندي . وعليه

أقول لكم ، اني أتوسل اليكم وآمـركم ، (٨١) بـاسم القسـم الذي أقسمتموه للكونت ولي ، كمسـيحيين تخـافون الرب ، وتحتـرمون الصدق أن تفكروا وتحكموا بالحق في هذا الأمر ، وأتـوسل أيضـا لروبرت كنبيل وأمير لي أن نقف في جانب الحـق ونحـكم بـالحق ، بالشكل الموائم والموافق . إن سيدي لن يفعل شـيئا جـائرا ، (٨٢) وعليه فبالخوف من الرب ، احكموا بيننا » .

وعندما سمع النبيل روبـرت هـذا وافـق على الاقتـراح بسرعة ورجاهم التفكير في الأمر ، وأن أي مـا يقـررون ويعلنون بخشـية الرب ، فإنه سيقبله حقا ويذعن له . وعندمـا سـمع الأسـاقفة وكل الفرسان تلك الكلمات ، أخذوا الوثائق وقرأوها مـن البـداية بـدقة وعناية عظيمة ، ثم حسبوا فترة السنة ووجدوا أن الحد كان متأخرا ١٥ يوما عندما وصل روبـرت ليقـدم وثـائق كونت شـامبين إلى نائبه (٢٣٧٨ ـ ٢٤١٥) السـير جيوفـري ، كي يعـطيه الأرض (٨٣) وبناء عليه استدعوا الاثنين وقالوا لهما : أيها النبلاء ، لقـد درسنا هذه الوثائق الخاصة بالكونت ، الذي وضـع هـذه المواثيق ، التي فحصناها والتي تحمل أختامه وبموجبها فاننا جميعـا نرى أنه بالقصد والهدف والمواثيق المستوفية للشروط القانونية ترك السـير جيوفري كممثل له في الأرض ، وحيث أنه بموجب المواثيق التي ترك له الأرض بها فإن الأمد الأخير قد انقضى ، فليس لك حق لأنه حيثما يوجد مسـيحيون في كل الدنيا فإن المواثيق تقيد القـانون والدعاوى القضائية » .

واذ ذاك ، وعندما سمع روبـرت هـذا ، لم يحـر بسـبب الأسى والمرارة في قلبه جوابا مـن أي نوع . ولكن السـير جيوفـري نهض واقفا وشكرهم جميعا في تواضع وبدقة كما هـي العـادة في بـلاط الأمراء ، حيث يوجه الشكر للذين يحكمون بالعدل .

وبعد الحكم وصـدور القـرار بـأن السـلطة على الأرض في كل البلبونيز ، التي تدعى المورة ، يجب أن تبقى للسير جيوفري ، مجد

روبرت كثيراً وقال له : « سيدي وأخي ، حاول أن لا تحزن بسبب ما نجم عن هذا الحكم ، إن العدالة تتطلبه وهذه هي الطريق في الدنيا ، فاذا شئت ورغبت في البقاء معي هنا في أرض المورة ، فإني سأعتبرك أخا لي ومن كل ما نكسبه معا تأخذ ما هو حق لك » . ولكنه بسبب من حزنه لم يقبل .

وعليه بعث السير جيوفري بدعوة عامة ودعا الجميع الصغير والعظيم وأقام كاموتسوكن (٨٤) ، كما يسميها الروم ، وأكلوا ومرحوا وتصارعوا ، ونظموا الرقصات والألعاب التي تفوق الحصر .

والآن استدعى هذا الذي ادعوه روبرت شامبين . السير جيوفري وقال له : « حيث أني رأيت انه ليس لي السلطة ، أعطني خيولا ومرافقة حتى أبرح » .

ومثل هذا طلب من كل القادة (٢٤١٦ ـ ٢٤٥٢) والأساقفة والرجال الحاذقين الذين كانوا في المجلس والذين أصدروا الحكم والقرار أن يحرروا له وثيقة ويضعوا أختامهم عليها ، يبينون فيها كيف قرروا وأعلنوا الحكم الذي أصدروه ، وتضم صورة عن الميثاق الذي أبرم بين كونت شامبين والسير جيوفري بالغ النبل حتى يأخذها معه إلى فرنسا ويطلع الملك وكل القادة الذين كانوا في حينه في فرنسا وكونت شامبين ، حتى لا يعتبروه غبيا أحمقا في هذا الأمر . وقد نظموها بكل سرور ووضع الجميع أختامهم عليها . (٨٥) .

ثم أعطاهم السير جيوفري كثيرا من الهدايا المتعددة والتقدمات وأعطاه بكل لباقة وتواضع وعودا بأن يكون تحت أمره وبأنه سيبقى رجله دائما (٨٦) وأرشده بعد ذلك ورافقه ، ومضى بنفسه معه حتى أندرافيدا ومن هناك صعد إلى ظهر سفينة وسافر إلى فرنسا .

وبعد أن انطلق روبرت من المورة ، وبقي السير جيوفري أميرا ، أمر بأن يدعى أمير المورة . وبالنسبة للأراضي والأمور التي كان عليه تنظيمها ، فقد وضعت على أساس مختلف الآن حيث أنه أصبح الأمير الشرعي ، وكان دائما يبذل جهدا عظيما ويناضل ليزيدها ، وكما أنه طبيعي أن الكل يجب أن يموتوا ، فقد جاءه أيضا الوقت ليرحل عن هذه الدنيا ، فدعا قادته وكل الأساقفة وحرر وصية جبارة ، ولكونه رجلا حكيما حدد ممتلكاته كلها وسجلها كتابة ووضع اختامه عليها.

وكان له الآن ولدان ، وكان الأول يسمى السير جيوفري كما كان هو نفسه يدعى ، وهو اسم والده وسمى الثاني غوليوم ، وكان لقب السير غوليوم دي كالاماتا ، وتركه وهو أمير لقلعة كالاماتا مع بقية أراضي القلعة ، لأن هذه كانت ممتلكاته الخاصة من أرض الاستيلاء الموروثة . (٨٧) (٢٤٥٣ ـ ٢٤٧١)

ووجه مع مناشدة حلوة توسلا للقادة والأساقفة وجميع الفرسان أن يقبلوا السير جيوفري كأمير بالوراثة وأن يذكروا دائما مبادئه في الحكم ، والجهد الذي بذله لكسب المورة ، والعطف والمحبة لجنسه من بني الانسان الذي كان يشعر به تجاه الجميع ، وحالما سوى هذه الأمور وكثيرا غيرها ، توفي كمسيحي ، ليمنحه الرب العفو (٨٨)

وحالما توفي كما أخبرتكم حدث حزن عظيم عليه في كل المورة ، لأنهم كانوا يعتبرونه عظيم الجدارة وأجلوه بعمق لحكمه الخير وحكمته ، وبعد تنظيم جنازته وسكون الحزن عليه نوعا ما ، تشاور الجميع الصغار والكبار وتوجوا كأمير لهم السير جيوفري الأصغر ، وحالما تسلم سلطان الحكم بدأ يتقدم كجندي حكيم ، وكان مخلصا وخيرا تجاه الجميع وناضل بقوة لزيادة مجده ، (٢٤٧٢ ـ ٢٥٠٦) .

وبناء عليه بعد ذلك بوقت قصير ، حدث وانتبهوا لما سأذكره لكم ،

أن روبرت امبراطور مدينة قسطنطين ، والذي كان في حينه أمير وامبراطور رومانيا قام وعينيه على زواج تحالف ، بابرام معاهدات واتفاقات مع ملك ارغون ، وملك كاتالونيا حيث أنه تزوج ابنة الامبراطور. ونقلها في اثنتين من الشواني بتشريف عظيم (٨٩) مع حاشية من الفرسان والنبيلات الذين صحبوها . ومضوا إلى قلعة بونديكوس في المورة (٩٠) ، قرب اندرافيدا وتوقفوا هناك ، وكما شاء القدر ، تصادف ان كان امير المورة في الجوار في المدينة المسماة فليزيري ، وبسرعة جاءت التقارير اليه في القلعة من بونديكوس •

كما تدعى لان هذا مايزال اسمها ، ان اثنتين من الشواني كبيرتين رستا في ميناء بنديكوس ، كما قلت ، وهما اللتان كانتا تحملان ابنة الامبراطور روبرت وكانت في طريقهما الى ملك كاتالونيا ، وبسماع هذا ، ذهب السيرجيوفري الى هناك بكل السرعة ، ونزل عن حصانه ، وصعد الى ظهر السفينة وحيا ابنة الامبراطور ، ودعاها وحثها على النزول الى الشاطىء والدخول الى قصره للترويح عن نفسها بأن تستريح هناك يومين ثم تتابع بعد ذلك طريقها ، ونزلت السيدة النبيلة بسرور الى الشاطىء مع حاشيتها ودخلت القصر ، ومر ذاك اليوم وبزغ فجر اليوم التالي وتكلم بعض اتباعه ومستشاريه مع السيرجيوفري ونصحوه قائلين : أيها الأمير انك هنا في رومانيا وتملك أرض المورة التي انت اميرها واذا لم تنجب ابنا يرثها فما نفع هذه الأشياء لك ولماذا تهتم بها ؟ وليست هناك في أي مكان امرأة جديرة بك ، وحيث أن الرب هكذا رسم وأرسلها اليك (٢٥٠٧ ـ ٢٥٤٠) تلك التي تصادف انها ابنة الامبراطور، خذها واتخذها زوجة لك واجعلها سيدة لنا واذا تصادف ان الامبراطور أميرها غضب نوعا ما وحزن فانه سيقبل بذلك » •

وهكذا الحوا عليه وضغطوا حتى انه استدعى أحكم اتباعه وسألهم جميعا أن يقدموا له المشورة ، واعلنوا جميعا مشورتهم له ، ان هذا مبعث سرور لنا فافعله بحرية .

وتحادث أسقف أوليناً(٩١) مع ابنة الامبراطور واقترح عليها ان تتخذ من السيرجيوفري رجلا لها وزوجا ، وابدى لهـا اسـبابا حـكيمة مرضية وكيف أن هذه العلاقة بـالزواج (٩٢) سـتتحول لتكون أكثر نفعـا لأميرهـم منهـا الملك الذي كانوا يأخـذونها له في كتالونيا ، لماذا أخبركم بهذه التفاصيل الكثيرة فتملوا ، لقـد قـالوا لها أشياء كثيرة والحوا عليها كثيرا حتى وافقت وتم الزواج ، وبعد زواجهما والاحتفال بعرسهما عادت سفينة الامبـراطور الى المدينة واخبره الفرسان الذين كانوا على ظهرها وفصلا بما جرى ، وتـألم الامبراطور جدا عندما سمع به ، ولو كانت لديه القدرة ولو كان هذا ممكنا بالمرة ، لبين للسيرجيوفري بوضوح انه قـد ارتـكب عمـلا قبيحا ، وشرا عظيما بالزواج من ابنته بدون موافقته لان هـذا قلب خططه لاقامة روابط الزواج واتفاقاته مع ملك ارغون حتـى يكون له بدوره قوات وجيوش ومساعدات منه في حربه مع الروم ، وقد أعاقه الآن ووجد نفسه مخدوعا (٢٥٤٩ ـ ٢٥٨٩) .

والآن لم يقف السيرجيوفري أمير المورة الحاذق اللين ذو الخبرة في مكانه مضيعا للوقت ، لقد كتب بسرعة رسائل وبعث بالرسل الى الامبراطور الذي كان في المدينة يطلب منه ويتوسل اليه أن يصفح عنه لما فعله وانه أصبح ابنا له ، وأنه لم يفعل هذا بنية الشر ولاعن قبح بل ميلا للمقاصد السليمة لرجل يجـد نفسـه في رومـانيا بعيدا عن اقاربه وأملاكه الموروثة ولم يجد بأي وسيلة امرأة يتزوجها ، تناسبه وتستحق المنزلة التي لديه ، وأنه يجب أن يأخذ بالاعتبار ويدرك أنه كان هـو أيضا في رومانيا وخاض حروبا كثيرة مع الروم ، كما فعـل الامبراطور ، ولم يكن له سيد أعظم يقوده ، وبسيفه كسب الأرض التي يملكهـا وعليه اذا كان الامبـراطور يرغب فإنه سـيفعل هـذا كاصلاح لما فعله بأخذ ابنته زوجة شرعية وسيلزم نفسه كتابع موال له وسـيستمد منه الأرض والسـلطة على المورة ، واذا احتـاج الى جيوشه والى شخصه ايضا عندما يأمر ويجد حاجة فـانه سـيكون تحت امرته ، ويقف الى جانبه ، وانهما سـيقومان بـالحرب معـا ويغزوان الروم بجيوشهما .

وبسماع هذا لم يكن الامبراطور روبرت ليجيب بأي حال قبل أن يتشاور مع اتباعه ، فاستدعى القادة الرئيسيين في مجلسه ، وأخبرهم بالتفصيل بالقصة واطلعهم على الرسائل ، وعلى كل ما أعلمه به السيرجيوفري الموراني ، وتناقش القادة والامبراطور زمنا طويلا وتدبروا في الامر ، وبناء عليه تكلم أحكمهم وأشار بأنه طالما أن امبراطور المورة قد وعد وجاهر بأنه سيصبح الرجل التابع لامبراطور المدينة وأن يتصرف في ارضه حسب تبعيته للامبراطور وأنه والامبراطور سيضمان القوات ليحاربا معا كل خصومهما حيثما يجدانهما ، وان هذا كان كافيا ليكون هناك سلام وصداقة بين الأميرين في رومانيا ، لأن هذه العلاقة بالزواج كانت اكثر فائدة من تلك العلاقة التي مع ملك ارغون الذي كان بعيدا جدا ، ومادام قد الزم نفسه بخدمة الامبراطور وبأن يحصل منه على الأرض التي ربحها ، وبناء عليها اعطى الجواب السيرجيوفري بأنهما يجب أن يلتقيا في والاشيا ليعقدا مجلسا وأن يسويا هناك (٢٥٩٠ ـ ٢٦٠٦) بشكل نهائي كل أمورهما التي يجب تسويتها .

وبناء عليه ذهب الامبراطور الى قلعة لاريسوس وسافر السيرجيوفري أمير المورة الى هناك عن طريق طيبة وأخذ معه الرجل الذي كان في حينه يحكم أثينا ، والذي كان يدعى الأمير العظيم والذي منه في الحقيقة حصل على الارض والسلطة التي كانت له في رومانيا وكل قادة الفرسان الذين كانوا في المورة ، وسافر الجميع معه الى والاشيا وانضموا الى الامبراطور في لاريسوس (٩٣) وأقاما احتفالات عظيمة بعد لقائهما وخلالها تناقشا معا وتجادلا وحلا تلك النقاط التي أدرجها الآن لكم : أولا ـ أعطاه الامبراطور كهدية ودوطة كل الدوديكانيز ليتملكها عطية منه ، ثانيا ـ شرفه بتسميته أميرا ، ثالثا ـ جعله دمستق كبير لكل رومانيا (٢٦٠٧ ـ ٢٦٣٥) ورابعا ـ كان له في الاراضي التي تملكها حق ضرب العملة التورنو والديناريا (٩٤) وأصبح

فيما بعد الرجل التابع للامبراطور ومنه يحصل على الأرض التي يحكمها .

وفيما بعد أعطاه كتابة القوانين والاعراف التي كان الامبراطور يحتفظ بها في ذلك الوقت في كل الامبراطورية مع ان أخاه الامبراطور بلدوين قد حصل عليها من القدس (٩٥) وعندما سويت هذه الامور التي اخبرتكم عنها استأذن كل منهما الآخر للسفر ، وسار الامبراطور راسا الى المدينة ، وعاد السيرجيوفري الى المورة بالشكر والبهجة ، لانه حقق السلام الذي أراده ورغب فيه وكان متلهفا للحصول عليه ، وبعد أن عاد الأمير جيوفري الى المورة وعرفت زوجته الجليلة أميرة لخيا وابنة الامبراطور أن الأمير قد توصلَ الى تفاهم مع الامبراطور ، حمدت الرب وكانت سعيدة .

ثم دعا الامير السيرجيوفري قادته للمشورة حول مايجب عمله ومالذي يجب تدفينة حول القلاع التي كان الروم مايزالون يحتفظون بها في الامارة : كورنث ، ومونمفاسيا ، وأرغوس ، وذوبليون (٩٦) وبناء عليه أجابه قادة الجلسة : انك تعرف ياأميرنا ، أن الكنائس تملك مايقرب من ثلث المورة ، في كل الامارة يجلسون مرتاحين ولايلقون بالا الى الحرب التي نشنها على الروم . وبناء عليه (٢٦٣٦ ـ ٢٦٦٦) ياأميرنا ، اننا نعلن ونعطيك هذه النصيحة ، أن ترجوهم أن يحضروا أسلحتهم لمعاونتنا حتى نأخذ القلاع التي تقف في وجوهنا ، وإن لم يفعلوا أمسك عنهم اقطاعاتهم .

وعندما سمع الامير هذا أقره تماما ، وأمر باستدعائهم ، وحضر اليه الجميع فطلب منهم المساعدة وأن يساعده الجميع بالقوات والجيوش والاسلحة ، حتى يحمي الأرض ويهاجم قلعة مونتفاسيا واجابوه بأنهم مدينون له بالشرف والولاء فقط ، كامير واعلنوا أن كل ماليهم ومايملكونه قد حصلوا عليه من البابا ، فغضب الامير وأمر بأن تحجب عنهم الاراضي والاقطاعات

التي كانت بملكهم ، وأنه لن يأخذ شيئا بالمرة من دخل الاقطاعات والكنائس ولكنه أمر بالشروع في انشاء قلعة كلوموتسي ، وحرم الاساقفة بدورهم الامير الى الأبد (٩٧)

والآن حجب الامير أراضي كل الكنائس في كل الامارة ، حتى أنهى بناء قلعة كلوموتسي وحرموا بدورهم الامير وكل بارونات الامارة ، وعندما انتهت كما اراد ورغب ، أرسل ميذوريتس وفارسين الى البابا بالغ القدسية في روما معلنا ومجاهرا بأنه كان في حرب وكان يقاتل الروم في رومانيا ، ولهذا السبب طلب من الاساقفة الذين كانوا مطارنة وأساقفة ومن الداوية والاسبتارية أن يساعدوه بأي طريقة في الحرب التي كان يشنها ، وانهم لم يساعدوه بالمرة ، وقد حجب عنهم (٢٦٦٧ ــ ٢٧٠٤) الاراضي والاقطاعات التي كانوا يملكونها في الامارة وأنه لم يكن يريد أن يأخذ شيئا من الضرائب مهما قل وأن (سخرة) كل الكنائس ، لم تؤد الا الى بناء قلعة قوية سوف تحمي الساحل وميناء المورة (٩٨) واذا حدث بالصدفة وفقد الفرنجة المورة فانهم سيستعيدونها بهذه القلعة ، ولهذا السبب يرجوكم كبابا بالغ القدسية ، ان ينال حبكم وان تعفوا عنه ، لأنه اذا أخذ الروم أرض المورة ، فإنهم لن يسمحوا بأي حال ببقاء كنائس الفرنجة » .

وحالما علم البابا المقدس بذلك ، أرسل على الفور بالعفو الى الأمير جيوفري ، وعندما رأى الامير عفو البابا ، كان سعيدا جدا ومجد الرب ، ثم بعث برسالة الى المطران الذي كانوا يدعونه مطران باترا س القديمة ليأتي وكذلك للأساقفة الذين كانوا في مقره وقادة فرسان الداوية والاسبتارية وأطلعهم على المرسوم البابوي ، عفو البابا ، ثم أمر بإعادة الأراضي التي امسكها بناء على ذلك وتوسل اليهم بحكمة وبمسالمة : « أيها الآباء فيما فعلته عندما أخذت اقطاعاتكم لم أخطىء معكم ، لابالمسيح لقد كنتم أنتم المخطئين لأنه كان يجب أن تعرفوا ، بل أنكم قد سمعتم بأن الروم اذا استولوا ــ لاسمح الرب ــ على الأراضي التي لنا هنا في رومانيا فانهم لن

يسمحوا لكم ، لأنكم من الكنيسة ، بأن تحتفظوا باقطاعاتكم هنا ولا أن يكون هناك أوقاف كنسية بل إنهم سيقتلونكم ويحرمونكم من الامتيازات كما يفعلون بنا ، وبالعامة من الجنود ، اني لاأطلب منكم ولاهو مطلوب منكم أن تقوموا بواجب الحماية مثل مالكي الاقطاعات ولكن في الامور الأخرى ، كحراسة الارض أو تحرير قلعة يحاصرها الأعداء ، ان عليكم أن تساعدونا ، واذا ذهبنا في غارة للسلب (٢٧٠٥ ـ ٢٧٤٩) وفي أمور أخرى من أجل الدفاع عن الأرض ، يجب أن نقف معا لحماية أرضنا ، لأنكم بدوننا لا شيء ، واذا كنت قد حجبت أراضي الكنائس فاني لم آخذ ربحا خاصا منها ، وقد بنيت كما ستلاحظون قلعة لتحرير الأرض من أجلنا ومن أجلكم ، لقد بنيتها لكي تكون مفتاح الارض ، فاذا تصادف أن فقدنا أرض الدورة فاننا سنستعيدها بواسطة قلعة كالوموتسي . وعليه اتوسل اليكم كآباء للكنيسة أن أنال عفوكم كما حصلت عليه من البابا ، ومن الآن فصاعدا ليكن بيننا انسجام ، وتعاونوا معي في السلاح كما هو مناسب وملائم ،وأنا بالمقابل سأساعدكم بأي طريقة ضرورية ، وبناء عليه عفوا عنه وأقاموا السلام ووعدوا بأنهم من الآن فصاعدا سيكونون تحت أمره .

والآن بعد أن حدث ماأخبرتكم به ، لم يكن للأمير جيوفري الحظ الطيب أن ينجب ابنا يتركه كوريث ، وكما هي طبيعة العرق البشري ان كل من يولد يجب أن يموت بطريقة ما ، سقط الامير في هنيان الموت ، وعندما رأى وفهم أنه سيموت دعا أخاه غوليوم وقال له مايلي وهو يتوسل اليه في حب : أخي الاحب والاحلى ، لقد أكملت سنوات حياتي وستبقى بعدي كأمير بالوراثة على كل مافتحه أبونا وسيدنا بصعوبة وجهد شديد كما يعرف الناس جميعا ، حسنا ياأخي المحبوب ، لقد كان في ذهني أن أقيم كنيسة وأشيد ديرا حتى أضع فيه البقايا المقدسة لسيدنا وأبينا ، وبسبب خطاياي لم أنجز هنا ، وعليه أطلب منك ، وأكلفك طالما أني لم أكن قادرا على انجازه ان تفعل ذلك ، ولتحل عليك مباركتي ياأخي الاصغر وبركات أبينا

وربنا الموثوق جدا ، ولتحفظ بقاياه في الضريح ، ثم دعني بدوري أرقد إلى جانبها ، واعمل ياأخي الطيب على أن يكون للدير كاهن وجوقة ترتيل ، وأن تؤمن معيشتهم حتى يخلدوا ذكرانا دهرا بعد دهر (٩٩) وبعد هذا ياأخي أنصح وأقول أن تتخذ لنفسك زوجة حتى (٢٧٥٠ ـ ٢٧٨٨) تنجب لك أطفالا يكونون ورثة حتى يرثوا أرض أبينا » والآن بعدما رتب السيرجيوفري كل الأمور كما كان عليه كرجل حكيم أن يفعل أسلم الروح وحملتها الملائكة بعيدا ، فقولوا أنتم يامن تسمعوني لتبقى روحه في سلام (١)

وبناء عليه توج الأساقفة وقادة الفرسان أخاه غوليوم كأمير ، وقد تحول فيما بعد الى رجل بارع حكيم ومجد بين كل الرجال الذين ولدوا على أرض رومانيا ، وأحب رفاقه من البشر وأحبه الجميع ، وبعد أن تسلم السلطة على الأرض وجد أن الروم كانوا مايزالون يسيطرون على قلعة مونمفاسيا ، وقلعة كورنث وأيضا قلعة نوبليون التي بقرب أرغوس ، وكان لهذه القلاع أفضل الموانىء التي كانت تصل اليها سفن ملوك الروم وهي تحمل المؤن والرجال المسلحين (٢) واذ رأى ذلك اضطرب الأمير وقال انه طالما لم يستول على هذه القلاع لن يحق له أن يدعي أمير المورة ، وعليه توصل بنفسه الى نتيجة تشاور حولها مع آخرين ، فكان أن وافقوا معه أنه اذا لم يكن لديه سفن للسيطرة على البحر حتى لاتصل المؤن الى القلاع المذكورة اعلاه فانه لن يكسبها ولن يسيطر عليها ، وأرسل رسلا إلى دوج البندقية وعرض ان يصل الى تفاهم مع الجمهورية وفق الشروط التالية : أن تدعمه تلك الجمهورية حتى يستولي على القلاع في مونفاسيا ونوبليون ، بأربع من الشواني مع تجهيزاتها الكاملة ، على ان يعطي الجمهورية قلعة كورون مع قراها والأرض التي حولها ، ومثل هذه تكون ميثون ملكا موروثا للبندقية ، وايضا من الآن فصاعدا والى أن يتم الاستيلاء على القلاع تقدم البندقية دائما من أجل حماية الارض اثنتين من الشواني فقط مع طاقميها الكاملين (٢٧٨٩ ـ ٢٨٠٦) على أن يدفع الامير نفقاتها التي كانت تدعى باناتيكا باستثناء الاجور ،

(٣) وبطريقة مماثلة ، بينما كان الامير يرقب ذلك ، رتب ايضا للقيام بحصار كورنث ، وفي هذا امر بأن يكتب الى أمير أثينا ، وكانوا يسمونه الامير العظيم - ليأتي للمعاونة على حصار - كورنث •

ثم ارسل بعد ذلك رسالة الى دوق ناكسوس والى أمراء يوريبوس الثلاث ، ولكل مَن على الجزيرة ليأتي مع قوة وسلاح وجيش ، وبعد أن انضموا الى جيشه رتب الاميرالحصار (٤)

وحيث أن تل قلعة كورنث كان عريضا وعاليا وهائلا ولكون القلعة كانت تقوم على قمته ، وأنه كان يوجد الى الجنوب من القلعة تل صغير معين ، وهو جرف صخري منحدر ، أمر الامير ببناء قلعة على قمته دعيت مونت اسكوفية (٥) ولازالت تحمل هذا الاسم ، وعلى الجانب الآخر وهو الجانب الجنوبي بنى الأمير العظيم قلعة له ، ووضعوا في هذه القلعة المؤن والدروع الحاملة للعرادات وحاصروا أهل كورنث بأحكام حتى أن الواحد منهم لم يكن يستطيع أن يغادرها ليجلب قطعة خشب ، ولايمكن للمؤن أن تدخل اليهم من أي مكان ، وفقط مياه الينابيع والآبار التي على قمة التل وبداخل القلعة هي التي كانت وافرة ، فمن الذي يستطيع أخذها منهم ؟ حسنا ماذا اردت أن أكتب اليكم بالتفصيل كل ماحدث في حصار كورنث فان الملل سيحل بمن يسمع ، ولكن عندما رأى الذين كانوا بالداخل انه لايمكنهم الحصول على المساعدة من أي ناحية بسبب شدة الحصار ، أذعنوا وتخلوا عن الحصن ولكن تحت القسم والمعاهدات بأنهم سيحتفظون بأقطاعاتهم حتى مثل بقية الروم في كل الامارة .

والآن بعد أن ربح الأمير غوليوم القلعة الملكية لكورنث ، أمر بأن يوضع عدد كبير من الرجال والسلاح فيها على النحو المناسب والملائم .

ثم دعا قبل كل شيء الأمير العظيم ثم جميع القادة وقال لهم

بحكمة بالغة : « ايها الرفاق والاصدقاء والاخوة يجب أن نشكر أولا مجد الرب ثم الثيوتوكوس للتأييد الذي منحوه لنا ، وقد كسبنا اجمل مكان في المورة ، والآن لاينقصنا الا القليل : قلعتا نوبليون ، ومونمفاسيا ، وأقول إنه لو أنكم كنتم متماثلون في التفكير بما أننا نجد أنفسنا معا ، دعونا نتنافس ونتشاور معا في الكيفية والحملة التي سنتقاتل بها لنكسبهما ايضا » .

وعليه أعلن أكثرهم حكمة وأكد انه طالما أن كلتا القلعتين تقعان على أرض ساحلية ولهما موانيء ، يجب أن نحاصرهما كليهما من البر والبحر »

(٢٨٤٤ ـ ٢٨٨٣) وبينما كانوا مايزالون مجتمعين في المجلس وردت الرسائل الى الامير غوليوم من قبل المبعوثين الذين جاؤا من البندقية وأحضروا معهم المعاهدات وقد أبرمت تماما كما سعى لها الامير وكما رغب وأراد : لقد جاءت السفن الاربعة الى كورون °

وعندما سمع الامير هذا غلبه السرور ووافق عليه كل القادة ودعا الامير ومجلسه ورحبوا بالبنادقة الذين جلبوا المعاهدات ، وارسل فارسا الى كورون ، وسلم القلعة التي للبنادقة ان يملكوها مع كل التوابع الموجودة في ميثون ، ولدوج البندقية ان يملك ويحكم القرى التي كانت هناك والتي كانت ملكا للبلاط في ذلك الوقت ، باستثناء الاراضي والاقطاعات التي يمكلها المقطعون (٦) وبعد ان تسلم البنادقة في ذلك الوقت القلعة ، والاراضي المحيطة بها وقرى كورون ذهبت السفن رأسا الى نوبليون واقامت الحصار حول القلعة من البحر في حين احاط بها الامير مع كل جيوشه من البر ، وانقضى الصيف وجاء الشتاء فأمضوه هناك في البر والبحر ، وعندما حل الموسم الثاني وجاء الصيف ولدى رؤية الذين كانوا من قلعة نوبليون انه ليس امامهم اي نوع من المساعدة ابرموا معاهدة وسلموا القلعة ، وكانت نوبليون قلعة تقوم فوق جرفين وعليه فقد دافعوا

على ان تسلم الاولى ، والثانية الاضعف يتحفظ بها الروم وابـرموا المعاهدات المؤكدة بالاقسم والعهود ٠

وبعد أن تسلم الأمير نوبليون قدمها على الفـور للامير العـظيم ليملكها مـع ارغون كاقـطاعيات مـوروثة (٧) ، وهـــدية نوبليون وارغوس اللتان قدمها الامير في ذلك الوقـت للامير العـظيم كانت في مقابل المساعدة التي قدمها الامير العظيم كما اخبـرتكم للاسـتيلاء على كورنث ، وايضـا لأن الامير كان يتـوقع منه ان يســاعده في الاستيلاء على مونمفاسيا ايضا (٢٨٨٤ ـ ٢٩٢٤)

وبعد أن أخذوا حصن نوبليون بدأ الامير رحلة مع الامير العظيم ثم انفصلا فمضى الامير العظيم راسا الى مدينته التي تـدعى طيبـة وذهب الامير الى ارض المورة ، وعندما مضى فصـل الشـتاء بعـث الامير غوليوم بـالرسل وكتـب أولا ودعا الامير الكبير وامــــراء بوربيوس الثلاث ودوق ناكسون وايضا كل الامراء الاخرين للجزر ، وكونت سـيفالونيا (٨) وكل القـادة في امــــارة المورةصـــغيرهم وكبيرهم ، أن يأتوا مع اسـلحتهم ومـؤونة كبيرة ، لقـد كان يريد الذهاب الى قلعة مـونمفاسيا وبمـا انهـا كانت منيعــة ، رغب في محاصرتها برا وبحرا وفي ان يقيم حصارا وقـوة محـاصرة حتـى يأخذها .

وعندما بدأ الموسم في شهر اذار جاءت الجيوش من كل مـكان ، الى مروج نيكلي وهناك في الحقول تـم حشـد الجيش ، ومـن هناك ذهبوا راسا الى مونمفاسيا ، وذهبت الشـواني الاربعـة ورسـت خارج الشاطىء وسيطرت على البحر ، ورتـب الامير حصـاره ، وكانت مونمفاسيا في حينه مـطوقة بـالطريقة نفسـها كالعندليب في القفص ، ولما عرف الذين كانوا في مـــونمفاسيا بمجــيء الامير لمحاصرتهم ، جمعوا مؤنهم بوسائلهم ولم يكن رايهـم ان الجيوش الفرنجية ، ولديها توقعات محدودة للنجـاح ، سـتمكث طـويلا في الحصار الذي فرضته عليهم ، واذ راى الامير مثـل هـذا التبجـح

اقسم على سيفه في غضب وثورة ان لايبرح حتى يأخذ القلعة ، وامر بالمنجنيقيات وقد نصب نحو ثلاثة منها فاخذت تقذف بلا انقطاع ليلا ونهارا ،فدمروا البيوت وقتلوا الناس ، لماذا اخبركم بهذه التفاصيل ومن اين لي بالوقت لاكتب كل مافعله الامير في مونمفاسيا (٢٩٢٥ ـ ٢٩٤٨) وكيف تصرف المونمفاسيون ؟ (٩) ولكن من اجل مزيد من الايجاز ولاختصار الامر عليكم ، تصرف الامير حسب قسمه انهم لن ينالوا مونمفاسيا حتى تؤخذ القلعة والتل ايضا (١٠) ، ولهذه الغاية مكثوا هناك ثلاث سنوات اخرى ، ولم يكن لدى اهل مونمفاسيا ماياكلونه فأكلوا القطط والفئران ولم يعد لديهم شيء اخر لياكلوه سوى جثثهم ، وعندما رأوا بلواهم وان الموت يقف في مواجهتهم تشاوروا معا في الاستسلام .

وطلبوا عقد معاهدة مع الامير غوليوم على ان يبقوا جميعا هناك مع املاكهم الموروثة ومع بضائعهم كالفرنجة في مزاياهم ولايدينون باي (سخرة) سوى استخدام مراكبهم وان يكون لهم رواتبهم وهباتهم (١١) .

ودون الامير وختم المعاهدات والوعود التي طلبوها منه وحالما تسلموا نسخهم والقسم اخذ ثلاثة من نبلائهم مفاتيح قلعة مونمفاسيا واحضروها للامير وكان احدهم يدعى ماموناس . والثاني ديموذوجيانس والثالث سوفيانوس (١٢) .

وهذه كانت انبل الاسر (٢٩٤٩ ـ ٢٩٨٩) التي كانت في مونمفاسيا والتي ماتزال هناك ، وقد قدمت الولاء للامير ، واستقبلهم جيدا كرجل حكيم مميز في انه لكل الناس ، ورحب بهم ترحيبا حلوا وخلع عليهم العطاءات وهبات من الخيول والدواب واثوابا مذهبة كلها قرمزية ايضا ، واقطعهم علاوة على ذلك في ناحية فاتيكا . (١٣) وبعد ان تسلم الامير غوليوم قلعة مونمفاسيا الشهيرة وضع فيها مؤنا وفيرة ، ورجالا مسلحين ، واسلحة ومقننات غذائية كانت في حاجة اليها .

وعندما سمعت نواحي الاحواز من اراضي فاتيكا وتزاكونيا التي كانت في ثورة بانها قد استسلمت للامير غوليوم بداوا يهرعون لاداء الولاء له ، وحياهم الامير الحكيم جميعا واستقبلهم استقبالا حلوا حسب المرتبة التي يحملها كل منهم .

وحالما نظم الامير غوليوم القلعة ، قلعة مونمفاسيا والنواحي التي محيطة بها امر بصرف كل جيوشه وكذلك السفن التابعة للبندقية وعاد الى ليكيمونيا ، ودعا قواده للمشورة واجابوا ونصحوه بانه نظرا لما بذلوه من جهود عظيمة في البر والبحر خلال السنوات الثلاثة التي مكثوها في مونمفاسيا ، يجب ان يحصلوا على اجازة الكبير منهم والصغير ليذهبوا الى بلادهم في عطلة ، وان الامير مع اهل بيته عليهم ان يبقوا في ليكيمونيا حيث يمضوا الشتاء ، وعليه رحل الجميع صغارا وكبارا وبقي الامير كما اخبرتكم ، ثم ذهب مع حاشيته يركب ويتنزه بين القرى في جوار مونمفاسيا والى هيلوس (١٤) ، والى باسافا والى الاراضي التي في هذا الاتجاه ومضى يتجول في سرور وامضى وقته (١٥) .

وعندما كان يتجول في كل هذه الاماكن وجد تلة رائعة مقتطعة من سلسلة الجبال كقمة ، على بعد ميل امر اكثر فوق ليكيمونيا ، ولانه كان متلهفا لبناء حصن ، امر بناء قلعة فوق التل واسموها ميسترا (٢٩٩٠ ـ ٣٠٠٧) حسب اسم المكان ، وجعلوا منها قلعة فاخرة (١٦) لان اهل المكان اخبروه ان زيغوس الميلنغز كان درنغوسا عظيما وقد حصن الممرات والمدن بقوة وكان شعبه متغطرسا لايحترم اميرا ، وفكر كثيرا كيف يمكنه ان يسيطر عليهم ، ولهذه الغاية قال له مستشاره:اما وقد قامت الان قلعة ميسترا فوق زيغوس العائد للدرونغوس ميلنغز يتوجب عليه ان يقيم اخرى في مكان ما حول هذه الجبال حتى يسيطروا على المنطقة ، وعليه قام الامير بنفسه بجولة على الحصان وهو يتبع اتجاهات اهل الارض ، وتجاوز باسافا وسافر الى مين وهناك وجد جرفا رهيبا فوق نتوء

جبلي . ولانه وجده مناسبا جدا بنى هناك قلعة واسماها مين كما لاتزال تسمى (١٧) .

وحالما راى نبلاء وقادة الدرنغوس ان الفرنجة بنوا هاتين القلعتين ، تشاوروا فيما بينهم حول ما سيفعلون ، وعليه قال القادة والذين كانوا ايضا يملكون الثروة انهم يجب ان يقفوا بثبات بدلا من ان يذعنوا للتبعية ، ومع ذلك فان حشود القوات وكل العامة قالوا واعطوا المشورة بانهم يجب ان يقدموا الولاء ، ولكن يجب ان يكون لهم تشريف فلا يؤدوا السخرة كما فعلت القرى التي في السهول ، ولانه ما ان ظهرت القلعتان إلى الوجود لم نحصل على اجازة فقد حجبتانا عن أن ننزل إلى السهول لنقل البضائع و المعيشة و ليس لدينا القدرة على العيش في الجبال .

والآن و قد رأى النبلاء وقادة الدرنغوس أن العامة يرغبون في تأدية الطاعة ، لم يروا بدا من أن يسيروا معهم ، و أرسلوا الرسل إلى الأمير غوليوم يطلبون عقد معاهدة ينالون بها الاعفاء ،أي أنهم في كل حياتهم لا يؤدون السخرة و لا يدفعون المكوس ، و أنهم سيقدمون الولاء والخدمة تحت السلاح كما فعلوا مع الملك (١٨) ، واكد غوليوم ، الاتفاقات ووضعها كتابة ، ووشحها بالأختام.

و بعد أن أدى الدرنغوس الولاء ، قال بعضهم للأمير غوليوم إنه اذا رغب في أن يكون كل الزيغوس تحت ارادته ، عليه أن يبني قلعة على الساحل قرب غيسترنا ، وصدق الأمير الذي قال له ذلك وأمر ببنائها وسميت ليفترو(١٩) وبعد ان بنو القلاع التي سميتها لكم ، ليفترو (٣٠٣ - ٣٠٦٣) وميسترا ومين القديمة (٢٠) اخضع أراضي السلاف وجعلهم رهن مشيئته ، وسار خلال الامارة واستمتع بها جميعا كما لو كان قد غزاها ، وأصبح سيدا لها جميعا (٢١)

ومن هذه النقطة وما بعدها ، سأتوقف عن الكلام عن الأمير غوليوم

آخيا ، وسـأخبركم عن الملك كيرتيودروس ملك الروم الذي كان في الاناضول خلال تلك السنوات ، لانه كان في المدينة امبراطور فرنجي يدعى بلدوين ، ولقد سمعتم أعلاه في الكتاب حول الوقت الذي كان فيه كيرتيودروس لاسـكارس ملكا على الروم (٢٢) وكيف جـاءه الموت ، فترك ابنه ، الذي كان طفلا قاصرا ليربى مـن قبـل الرجـل الذي يدعى كير ميكائيل ، الباليولوغوس الكبير الذي كان اول نبلاء رومانيا الذي اقتـرف اثمـا ، حيث خنق سـيده الصـغير وقتله ، واغتصب امبراطورية رومانيا كلها. وعندما سمع انجلوس كالوانس كوترولاس امبـراطور هيلاس كيف تصرف بـالولوغيوس ومـا فعله وقتله الملك (٣٠٦٤ ــ ٣٠٧٧) واسـتيلائه على الامبـراطورية ، غضب وثار وحزن جدا لذلك ، واقسم قسـما مغلظـا أن لا يعتـرف بباليولوغوس ملكا ولا أن يعتبره سيدا له ، طـالما أنه اسـتولى على الامبراطورية الرومية بمؤامرة وتمرد ، ولن يعتبره أميرا ولا صديقا ولا حتى قريب له في الواقع (٢٣) ، وعندما سمع الملك بـالولوغوس هذه الأشياء ، ثار سخطه جدا وغضب واهتـاج وقـال انه لو وجـد طريقا للعبور إلى الغرب ، فإنه بأمد قصير سيذكبه بـدرجة كبيرة ، ولكن لانه تصادف ان كان بلدوين امبراطور المدينة في ذلك الوقـت ، ويملك السـلطة ، لم تـكن لديه القـدرة (٣٠٧٨ ــ ٣١١٠) على العبور إلى الغرب ، ولكن بعد أن غزا مدينة قسـطنطين وعبـر إلى غلاطة وملك الامبراطورية ، بدأ العمل ، وشـن الحـرب مـن البـر والبحر واندفع في هـجوم رهيب ضد امبراطور آرتا ، ولأنه كان حكيما وأعد نفسه جيدا ، اشترك الفرنجة كمرتزقة ، والأمير غوليوم وأمير أثينا واليوربيوتين أيضا ، فساعدوه وانطلق إلى المعركة (٢٤) .

وتوفي كيريوانس الامبـراطور وتـرك كوريث له كير نقفـور ، ابنه وورثه كل امبراطوريته (٢٥) ، وكان له ابن آخر أيضـا ولكنه غير شرعي ، ترك له قسما كبيرا من والاشيا ، ومـدنا وقـلاعا قـديمة ليحكمها ، وكانوا يدعونه كير ثيودروس وكان لقبه دوكاس ، وأصبح دوكاس رجلا شجاعا في حمل السلاح وكان جنديا رائعا ، وحـكيما وماهرا وعندما رأى كالوانوس أن اباه قد توفي وأن آخاه قـد بقـي

وهو نقفور الذي لم يكن بحكمة أخيه ، رغب وأراد أن يستولي على والاشيا وأن يستولي في الواقع على نصف الامبراطورية ، وبنى قلعة قوية سميت باتراس الجديدة وبدأ صراعا ضاريا مع أخيه كير نقفور الامبراطور ، ولأن الفرنجة كانوا يساعدون الامبراطور وذهب كير تيودوس إلى الملك إلى كير ميكائيل الباليولوغوس العظيم ، فوعد بأن يفعل له أشياء كثيرة ووعد أن يسلمه أخاه ، الامبراطور مقيدا كخائن ليقدم له الولاء ، وجعل منه حاكما لكل رومانيا [٢٦] وأعطاه جيوشه لتكون تحت قيادته ليحارب ولكي يحضر أمام العدالة أخاه ، وشرفه كثيرا وأعطاه هبات [٢٧] (٣١١١ ـ ٣١٣٧).

وعندما سمع الامبراطور في ذلك الوقت الأخبار بأن أخاه كير تيودروس قد هب في ثورة ضده وبأنه قد ذهب إلى الملك ، الذي كان عدوا له ، حزن جدا وفقد شجاعته تماما ، ودعا نبلاءه للمشورة ونصحه الجميع بأن يعطي أخته كزوجة للأمير غوليوم لأنه اذا كسب الامير كحليف وأخ فإنه سيتحدى حرب الملك مهما كانت وحيثما تقع ، وبعدما تشاور مع نبلائه بعث بالرسل إلى الأمير غوليوم .

وكانوا دهاة وسرعان ما تقربوا منه ، ووضعوا الاتفاقيات مع المهر وترتيبات الزواج . وعادوا بسرعة إلى الامبراطور ، وأخبروه بكل شيء ، وقدموا له تقريرا شفويا ، وشرحوا له كيف رتبوا الزواج . وكان المهر ٦٠٠٠ هيبر بيرا [٢٨] ، وقد أعطاها الامبراطور في حينه للأمير من أجل أخته الرائعة ، وهذا عدا عن أثوابها والهدايا .

ولم يتأخروا في عقد الزواج الذي جرى في باتراس القديمة ، وحيث أن الأمير والامبراطور وقد اجتمعا متصاهرين فقد أحبا بعضهما بعضا كثيرا وكانا كشخص واحد ، واذا حدث أن احتاج الامبراطور للجيوش أو الرجال المسلحين من الأمير فإن العدد الذي يحتاجه يكون تحت إمرته [٢٩] (٣١٣٨ ـ ٣١٧٢) .

وعند هذه النقطة ، سأتوقف للحظة عن الكتابة والكلام حول

امبراطور أرتا ، لاخبركم ولاحكي لكم عن امير المورة السير غوليوم ، فالان بعد ان استولى الامير غوليوم على قلعة مونمفاسيا ، توسعت ولاياته ، وفي الواقع لم يكن لديه سبب للقتال ضد اي رجل في الدنيا ، وبدأ قادة فرسان المورة مع الفرسان في بناء القلاع والحصون في كل اراضيه ، وبنى هو قلعة خاصة به ، وحالما اقاموا هذه الحصون تخلوا عن القابهم ، التي حملوا عليها من فرنسا ، واتخذوا اسماء الاراضي التي اخذوها .

وعليه كان اول من بدأ القائد العظيم الامير السير جيوفري ، وكان لقبه دي برويير ، وكان امير اسكورتا – كلا من الدرنغوس والارض – وبنى قلعة محصنة ، وحصنا جميلا ، سماه كاريتاينا ، وهكذا بات يعرف بلقب امير كاريتاينا ، الجندي الشهير ، وسمي الثاني السير غوتيير دي روزيير وكان هذا لقبه ، فقد بنى قلعة رهيبة في موزاريا ، وسماها اكوفا ، فغدا اميرها. ولقب اخر بالسير جين دي نويلي ، وكان ايضا مارشال امارة المورة ، ولقد احتفظ بالمارشالية كمنصب وراثي ، وبنت امارته قلعة دعتها بساسافا ، وحمل اخر لقب دي نيفليت ، وكان اسمه السيرجين ، وبنت امارته قلعة اسمتها جيراكي ، وتوجد في تزاكونيا في هذا الجانب من هيلوس ، ومثله مثل الآخرين ممن حملوا القابا اقطاعية قام الفرسان والاساقفة وكل قادة الفرسان ، فبنى كل منهم حصنا في ارضه ، وكانوا يرغبون ويريدون مسرات العالم ، وابتهجوا جميعا خلال الوقت الذي توفر لهم.(٣١٧٣ – ٣١٩٩).

وعند هذه النقطة سأتوقف عن الكلام عنهم وأعود فأخبركم كيف

بدأت الحرب بين أمير المورة وأثينا ، السير غوليوم ولقبه دي لاروش وهكذا كان يسمى ، ويسمى وقد سمعتموني أخبركم في وقت سلف من كتابي حول الزمن والفصل والايام وتلك الايام عندما جاء ، بونيفيس ماركيز مونتفرات وملك سالونيك إلى كورنث إلى

أمير المورة ، الشامبني ، وبسبب الحب الكبير الذي كان يكنه كل منهما للآخر طلب الشامبني المساعدة من المركيز . ومنحه الولاء والتبعية ، أولا لأمير أثينا وللترزيري الثلاثة في يوريبوس وبالاضافة رابعا (كذا) ، للمركيز بودونتسا (٣١) ، وخلال الحرب التي شنها الأمير غوليوم وأبوه أيضا ، السير جيوفري ومثلهما السير جيوفري أخوه ، أمضوا جميعا وقتهم بلطف ، وحالما أصبح الأمير غوليوم سيدا لامارة آخيا وأصبحت تحت سلطانه طلب من الأمير العظيم أن يؤدي له الولاء ، وأيضا من أمراء جزيرة يوربيوس ومثل ذلك من المركيز ، أمير بودونتسا ، والتقى الخمسة معا وتشاوروا مع بعضهم وأجابوه بأنهم يعترفون به فقط كندلهم (٣٢٠٠ ـ ٣٢٤٤) وأما بالنسبة للولاء الذي ذكره فانهم غير مدينين له بشيء ولن ينزلوا مطلقا إلى مستوى تقديم الولاء له .

وغضب الأمير عندما سمع هذا الكلام الذي بدا له غير مناسب . فعقد جلسة استشارية وأشار عليه المجلس بشن حملة وبأن يسير ضدهم ليحاربهم كمتمردين وخونة ضده .

ولهذه الغاية أمر بتسجيل كل واحد في الامارة : قادة الفرسان . الفرسان ، كل الأساقفة ، فرسان الداوية والاسبتارية وكل ممثلي البرلمان ، وكلفهم بالاجتماع في نيكلي في ١٢ أيار ولا عذر لأحد ، وعندما سمع السيد العظيم وعرف أن أمير المورة كان يعد للزحف اليه ليحارب جميع جيوشه ، أرسل الدعوات إلى كل مكان حيث يوجد له صديق ، يطلب ويلتمس منهم أن يأتوا لمعاونته ضد الأمير ، الذي جاء ليحاربه ، وكان أفضل صديق وقريب له في ذلك الوقت هو الأمير الباسل سيد كاريتاينا (٣٢) الذي كانوا يرتجفون أمامه في كل رومانيا ، فتزوج من اخته . وكتب السيد العظيم يعلمه ويتوسل اليه كأخ مخلص له أن لا يخذله في تلك المناسبة ، التي يحتاج فيها اليه لأن امله وثقته كلها فيه .

وعندما سمع ما طلبه منه أخوه ، فإن أمير كاريتاينا الباسل الشهير فكر وتأمل بعيدا كيف يجب أن يعمل ، لمن يذهب أولا للمساعدة . إلى الأمير الذي كان تابعا له والذي تربطه به قرابة الدم — فقد كان عما له — أو الأمير العظيم أخو زوجته . وبقدر ما تأمل فقد كان خياره هو الأسوأ ، والذي لم يكن ليشرفه ، وقال إنه اعتبر إنه من الأفضل أن يفقد شرفه من أن يخذل أخا زوجته . وهذا هو الآن التعليل الذي كان في ذهنه في ذلك الوقت — فإذا خذل الأمير — فإنه كان . قبل كل شيء عمه — وقد ينال عفوه ، وأنه سيأخذ الأمر على هون ، وعليه جمع الجيوش القوية وسمع هذا في كل مكان ودهش له الجميع ، وعندما سمع الأمير بذلك غمرته البهجة ، معتقدا بأنه سيأتي إلى جانبه . ولكنه أسرع بالذهاب إلى الأمير العظيم (٣٢٤٥ — ٣٢٨١) وأخذ جيوشه وذهب إلى طيبة حيث وجد الأمير العظيم يجمع جيشا ، وعندما وجد أن ابن حمية قد جاء إلى هناك ، بدا له أنه قد كسب نصف الدنيا ، وكان سعيدا جدا ، وندم فيما بعد . وعندما سمع الأمير بالفعل وبالأعمال الشريرة لابن أخيه أمير كاريتاينا ، بدا له الأمر مدعاة للأسف الشديد وقد حزن بعمق ، أولا بسبب السمعة التي كانت له في العالم كأفضل الجنود الذين كانوا في رومانيا في تلك السنوات ، ومرة أخرى لأنه كان قريبا له ، وكان ابن أخيه وخان أميره وذهب إلى عدوه ، ومع ذلك ولأنه كان حكيما فقد واسى نفسه وأمر جيوشه وذهبوا إلى كورنث وشقوا طريقهم بالقوة إلى دهليز ميغارا وكسب هذا الممر في المعركة ، (٣٣) وسمع الأمير العظيم بهذا واضطرب جدا لأنه علم أن الأمير قد اجتاز الشعب ودخل اراضيه وخرج يبحث عنه ، فأخذ جيوشه وخرج للقائه وتقابلوا عند موقف كاريدي ، وبدأوا المعركة على قمة الجبل ، وحيث أن الرب حاكم ويحكم بالعدل وقف مع الأمير فربح المعركة.

وكان قائد الفرسان الذي قتل هناك في المعركة يدعى السير غويبرت دي كورس وهذا لقبه وكانت زوجته ابنة السير جين دي باسافا ، وتزوجت بعده السير جين وكان لقبه سانت ـ أومر ، وأنجبا ابنا رائعا هو السير نيكولاس دي سانت أومر أمير طيبة والمارشال العظيم لامارة آخيا (٣٤) . وقتل ايضا في هذه المعركة سرجندية وفرسان بلا عدد (٣٢٨٢ ـ ٣٣١٢) .

وهرب الأمير العظيم إلى طيبة بأكبر عدد من أتباعه ممن ذهبوا معه . وذهب أمير كاريتاينا إلى هناك معه ، والآن بعد أن هزم الامير غوليوم الأمير العظيم في المعركة التي وقعت في كاريدي ، هرب الامير العظيم ، وذهب إلى طيبة وكان أمير كاريتاينا هناك معه وكذلك السير نيكولاس دي سانت أومر مع أخوته ، السير جين دي سانت أومر ، والسير أوتون (٣٥) ، وايضا أخوة الأمير العظيم الثلاثة الذين كانوا جميعا جندا جديرين بالثناء ، وفرسان يحمل كل منهم علمه ، وأمير سالونا السير توماس (٣٦) وأمراء يوريبوس الثلاثة والمركيز وقد حملوا جميعا الأعلام ، ولكن الفرسان الآخرين الذين كانوا في المعركة مع الأمير العظيم ولاادرجهم هنا لما يتطلبه ذلك من كتابة مطولة جدا.

وإذ رأى الأمير أنه قد ربح المعركة وقتل وقضى على أعدائه ، تتبعهم بحكمه مع جيوشه الى طيبة وحاصرهم ، وأمر أن تنصب الجيوش الخيام حولهم ، ونهبوا الضواحي واستولوا عليها ، والآن عندما رأى الكبراء في الجيش أن أقاربهم الذين أحبوهم هناك وأن الأمير العظيم مع الآخرين الذين معه ، كانوا يفقدون قراهم ، ذهب مطران طيبه وآخرون من الموثوقين هناك ليتوسطوا الوصول الى تفاهم مع الأمير العظيم والذين (٣٣١٣ ـ ٣٣٤٩) معه. واقسم الامير العظيم للأمير في ذلك الوقت أن يضع نهاية لاغارته وتدميره ، وبناء على قسمه سيذهب الى كورنث ، وفي مدينة نيكلي سيقدم له الولاء وانه سيرجع ويعوض

عن أي خطأ فعله في حقه ، وعن أي جـريمة ارتـكبها ضـده ، وعن الاسلحة التي شهرها في وجه الامير ، كما يقضي العـدل ، وتـدخل قادة الفرسان كضامنين وضمنوا أن يذهب الامير العظيم الى نيكلي خلال مهلة حددوها في حينه . وحالما قرروا ما أخبـرتكم بـه انطلق الامير وذهب الى كورنث وسافر من هناك رأسا الى نيكلي واستعد الامير العظيم على الفور وأخذ معه النبلاء مـن قـادة فـرسانه وكل الفرسان الذين تبعوه ، وبشرف ونبل ، انطلق بعد ذلك وذهب رأسا الى مدينة نيكلي حيث كان ينتظره الامير غوليوم.

وحالما وصل الامير العظيم الى نيكلي وانضم الى كل النبـلاء في الامارة . ذهبوا معه جميعا الى حضرة الامير ، وركع أمامه وتوسل اليه الجميع أن يصفح عما فعله الامير العظيم برفعه السلاح ضده في المعركة ، ولكونه رجلا حكيما ونبيلا فقد صـفح في حينه عن الامير العظيم بـدماثة . وبناء عليه أدى الولاء الذي دان له ، وقبله في فمـه وتصالحا (٣٧) ، وبعد هذا وفي حضور القادة أمـره كتعـويض عن الجريمة التي ارتكبها واشهاره السلاح ضده في المعـركة أن يذهـب الى ملك فرنسا ليحاكم من قبله . ووعده الامير العـظيم على الفـور انه سينفذ ما أمر به الامير (٣٨)

وبعد أن انتهوا من هذا الامر الذي أخبركم به. أخذ الاساقفة مع الاخرين كلهم (٣٣٥٠ ـ ٣٣٧٧) بما فيهم الامير العظيم ، السير جيوفـري أمير كارتيانيا والقيد في عنقـه وذهبـــوا الى الامير ، وتوسلوا اليه وهم راكعون وصلوا لكي يكون رحيما ويصفح عنه ولم يقبل الامير وعارضهم بقوة ، وبين لهم السـبب وكان محقـا وهـو الخطأ الذي ارتكبه بذهابه الى صـف عدوه ، لقـد تخلى عنه وهـو اميره الشرعي (٣٩) . ومـع ذلك الحـوا عليه وتـوسلوا اليه كثيرا الاساقفة منهم والنبلاء والقادة حتى ربحوا الامير في صفهم وأشفق على أمير كاريتـانيا ابـن أخيه ، فعفـا عنه بناء على ذلك وأعاد له أرضه ليتملكها من حينه ملكا قـابلا للتـوريث للورثـة المبـاشرين له ، وانه لو كان لديه أكثر لمنحه ملكيتـه مـن حينه فصـاعدا (٤٠)

والآن بعد هذه الاتفاقات ، أقام الفرسان الشبان احتفالا وعقدوا حلقات المبارزة وكسروا الرماح وأمضوا وقتا جميلا. وبعد أن احتفلوا جيدا انطلقوا من هناك واستأذن الامير العظيم وأمراء بوريبوس من الأمير ورحلوا.

ولأن موسم الشتاء كان يقترب بقي الامير العظيم ليمضي الشتاء ، وعند ما حل الموسم الجديد ، وفي شهر آذار جهز سفينتين كبيرتين وركب وعبر الى برنديزي ونزل هناك (٤١) (٣٣٧٨ ـ ٣٤٠٧) واشترى خيولا بسرجين للسفر (٤٢) ، وأخذ الطريق وسافر شوطا بعيدا حتى وصل الى باريس.

ووجد الملك هناك ، و كانت هناك عطلة كبيرة تدعى عيد الحصاد وكان الملك يحتفل(٤٣) ، وانحنى الامير العظيم في خضوع بين يدي الملك الذي لقيه بتشريف كبير لأنه كان قد علم انه كان قادما من رومانيا ، وكان الأمير قد أرسل رسالة مكتوبة مع أحد فرسانه حول الحالة التي سببها الأمير العظيم ، وقام الفارس بانحناءة للملك وأعطاه رسالة الامير غوليوم وتسلمها الملك وأمر بتلاوتها ، وبعد أن فهم تماما الفعل الذي ارتكبه الامير العظيم في ذلك الوقت ضد الامير ادرك بدهائه في حينه أن أمير المورة قد أرسل الامير العظيم إليه نظرا لشرفه تجاه العالم ،(٤٤) ولهذا السبب ، أمر بناء عليه بدعوة القادة الذين كانوا في باريس في إجازة في حينه بأن يمثلوا بين يديه ، وطلب منهم أن يشيروا عليه بمشورة جيدة ، فناقشوا بشكل مطول جدا وبالتفصيل الجريمة التي ارتكبها الامير العظيم ضد الامير غوليوم ، وعندما تكلموا اخيرا ووجدوا الحقيقة ، استدعوا الامير العظيم وكذلك الفارس ، واعطوا جوابهم لكليهما ، وأعلنوه شفاها لهم وقدموه اليهم كتابة أيضا . ووقف الامير العظيم واستمع للكلمات ونطق أحد البارونات بقرار المحكمة ، ودعا الفارس وقال له : اسمع يا صديقي وأخي وافهم الكلام الذي يجيبك به القضاء الفرنسي ، إذا كان الأمير العظيم قد قدم الولاء هنا لأميره الأمير غوليوم وبعد ذلك حمل السلاح ضده وحاربه وجها لوجه في

الميدان ، فإن القانون يامر والعدالة تتطلب ان يحرم هو وسلالته من اي ارض واي سلطة يستمدها منه ، ومع ذلك طالما آن الوثيقة التي جئتم بها الى هنا تعلن ، كما اخبرتمونا بـافواهكم الشيء نفسه في حضرة المحكمة ، ان الامير العظيم لم يقدم الولاء لاميركم ، أمير المورة فإن الجريمة لاتضح الامر عند نقطة الحرمان ، ومع ذلك حيث أن الامير العظيم عرف واعترف هو نفسه ، وكانت هذه أيضا وصية أميره المتقدم ملك سالونيك ، انه كان يجب عليه أن يقدم الولاء له ، لم يكن له باي حال ان يحمل السلاح او يشن حربا على أميره ، وعليه ، وحيث أن الامير غوليوم أرسل الامير العظيم ، وأنه جاء هنا الى محكمة سيدنا ، وانه جاء بنفسه وهو متلهف على التعويض وجاء متكلفا نفقة عظيمة وتعبا ومشقة وكانت رحلته رحلة طويلة ، وكان الصدق فقط دافعه لان ياتي من رومانيا إلى هنا في فرنسا ، زد على ذلك تمجيدا لسيد عظيم مقام سيدنا ، ملك فرنسا ، إن هذا في حد ذاته تعويض مناسب يكفي كي يعفى عنه . وعندما أنهى البارون هذا الخطاب الذي سجلته لكم ، وقف الامير العظيم أمام المحكمة ، ورفع قبعته واجاب بحكمه (٤٥) ، فشكر الملك وبعده المحكمة ، وبعد هذا طلب بتوسل من الملك ان يكتب الى الامير ما توصلت اليه المحكمة ، والحكم الذي أصدرته ، وقرارها ، وبهذا أمر الملك النبيل وقد نفذ.

وبعد كتابة الاوراق وانتهاء المهمة ، دعا الملك بنفسه الأمير العظيم وقال له بلطف وكياسة : « لقد جئت من أرضك رومانيا ، متحملا المتاعب والنفقات الى هنا الى مملكتي ، ولن يكون من اللائق بالنسبة لك أن تعود دون أن تحصل مني على هبة تعويضية ، ولهذا السبب أقول لك أطلب مني (٣٤٥٠ ــ ٣٤٧٣) أي شيء تحبه ، وسأمنحه لك ».

وعندما سمع الأمير العظيم الداهية ذلك انحنى للملك وشكره عشرات الألوف من المرات وفكر قليلا ثم أجاب : « أشكر تاجك وجلالتك (٤٦) ، يا سيدي لأن لديك الرغبة في أن تمنحني

هبة ، وعليه اقول ياسيدي لجلالتكم المقدسةان اقطاعية اثينا التي عندي واملكها ، كان كل من يملكها في الازمنة القديمة يلقب بالدوق ، فليكن بكلمة منك وامرك في ان اسمى من الآن فصاعدا بالدوق ». وعندما سمع الملك ذلك ، وافق عليه بترحيب ، وامر بأن يقلد اللقب وهو في القصر (٤٧) .

والآن ، ومن هذه النقطة وما بعد ، ساتوقف عن الكلام عن ملك فرنسا ودوق اثينا وساخبركم واقص عليكم من جديد كيف ان امير المورة غوليوم اسر في معركة بلاغونيا هو وقواته .

وكما سمعتم هنا أعلاه في هذا الكتاب ، ابرم الامبراطور كوقرولس معاهدة مع الامير غوليوم ، أمير المورة واعطاه اخته زوجة له . (٤٨) ومن هذه المصاهرة تقوى الحب (٣٤٧٤ ـ ٣٥١١) بين الامير والامبراطور ، وفي الواقع انهما وقواتهما قد احبا بعضهما بعضا كما لو كانا اخوين من أم واحدة ، وعندما اشتدت الحرب التي خاضها ثيودروس دوكاكس باستمرار مع الملك في ذلك الوقت ضد الامبراطور ، خطط الامبراطور لتوجيه ضربة للملك وتحطيمه.

وعندما سمع الامير بهذا وعلم به أخذ فرسانه وقادتهم وسافر راسا الى باتراس القديمة ، وفي الوقت نفسه وصل الامبراطور الى ايباكتوس (٤٩) وعبر من ناريانون ومضى الى باتراس والتقى بابن حميه الامير ، واقاما مع قواتهما احتفالا رائعا ، وبعد أن احتفلا كما يريدان جلسا معا ومع قادتهما وكل المستشارين الحكماء الذين كانوا معهما ، وعليه بدأ الامبراطور الكلام ، واعلن شكواه من الاضرار التي عاناها من نائبه واخيه ، وعندما انتهى من ذلك وجد له الحكماء والاساقفة نصيحة ماكره وندموا بعد ذلك هي أن يسير الاخوان : الامبراطور والامير بجيوشهما عبر والاشيا (٥٠) ويدخلان الى رومانيا ويجتاحان وينهبان كل رومانيا ، فإذا صادفا

جيوش الملك أو التقوا بنائبه فإنهما سيقاتلانهما في الميدان وينتصران عليهما.

وبعد أن جمعا المجلس ، عاد الامبراطور الى اترا ، وارسل الى كل مكان لجمع (٥١) الجيوش(٣٥١٢–٣٥٤١) وعاد الأمير الى مدينة اندرافيدا ، وبعث بالرسائل الى كل مكان حتى يجهز الجميع انفسهم بالسلاح الصغير منهم والكبير ، المشاة والفرسان ، وفي ربيع السنة ، بعد مضي الشتاء ، وبعد أن يمضوا مواعيد الفصح ، في شهر نيسان عليهم أن ياتوا جميعا رأسا الى اندرافيدا ليعبروا ويغزوا أرض رومانيا ، وأخذ الامبراطور الآن في انفاق المال لاستئجار المرتزقة ، فاستأجروا من الجيوش بقدر ما أمكنهم جلبه (٥٢) .

وعند هذه النقطة أتحول عما أرويه لأتولى ذكر امور اخرى لكم ولأخبركم بامر الملك . وما أن حدث اللقاء ، الذي أخبرتكم به والذي عقده الأمير والامبراطور في باتراس حيث اجتمعا وتشاورا في أن يغزوا معا أرض الملك ،وأن يخوضا المعركة ضده ، لينهبا أرضه ويجتاحا والاشيا التي يحكمها النائب ، وعليه فإن النائب أيضا عندما بلغته هذه الأنباء ، شحن قلاعه ، وحصنها بقوة بالعساكر وبالأغذية ، حتى يقيموا فيها ويحرسوها وامر ووجه أن يدخل الجنود العاديون الذين كانوا في القرى هذه القلاع بالقدر الذي تتسع له وأن يحملوا السلاح ، وأن يمضي الباقون الى الجبال مع حيواناتهم ليحموا انفسهم هناك.

والآن فإن كيرثيودورس ، الذي أخبرتكم به ، وكان له ثلاثة أبناء رائعين يحملون السلاح ، وكان الأول يسمى كوميذوس والثاني دوكاس والثالث انجيلوس (٥٣) وكان قد رتب ليصبح الأول كومنيذوس اميرا وحاكما في أرض والاشيا (٣٥٤٢ – ٣٥٧٩) وأمر أن يوقف الصغير والكبير نفسيهما له ، وحالما انهى استعداداته أخذ كل من رغب في الذهاب معه وذهب الى الملك الذي

كان في المدينة وشرح له بالتفصيل حالة استعداد الجيوش التي اعدوها ، وبين أن أمير المورة وامبراطور أرتبا كانا يستأجران المرتزقة في كل مكان ، ويسرعان بجمع الجيوش ليأتيا مع الفصل الجديد لغزو رومانيا ، وهما يريدان كما أعلنا أن يستوليا على امبراطوريتكم ويحرماكم وإيانا من الاتباع ، وبسماع هذه الأشياء غمر الملك المسن ميكائيل (٥٤) مع حكمته الكبيرة وشجاعته ، الخوف مع ذلك ، وانهارت معنوياته بشكل كامل تقريبا ، لقد كان خائفا من الامير لأن الفرنجة كانوا معه ، وعليه فقد أمر بدعوة الحكماء ، والقادة النبلاء الذين كانوا في مملكته ، وبدأ يخبرهم ويقص عليهم أن أمير المورة وامبراطور هيلياس قد اتجها الى الميدان وانهما قادمان مباشرة الى رومانيا ، وعليه اريد وأتوسل أن يتشاور الجميع حول ما يجب عمله بعد هذا وكيف نتصرف ، وتكلموا وقالوا الكثير ولكنهم في النهاية اتفقوا وأعطوا مشورة واحدة:

وكان أول من تكلم وخاطب الملك النائب كيرثيودروس وقال الملك والقادة : « أيها الملك الامبراطور المقدس يا صاحب الجلالة والرحمة ، إذا توقعتم حماية رومانيا بالقوات التي تملكونها وحدها ، اني أعلمكم أنكم بهذا سيقضى عليكم وستفقدون امبراطوريتكم وستحرموننا أملاكنا ، مروا أن تفتح خزائنكم وانفقوا أموالكم وأستأجروا الالمان ، وابعثوا بكلمة الى ملك هنغاريا ليمدكم بالقوات وأيضا الى ملك الصرب ، وهو جار لكم ، ليأتي بنفسه إذا استطاع(٣٥٨٠ ـ ٣٦٢٧) أو أن يرسل ليأتوا . وبعد أن يأتي هؤلاء الذين ذكرتهم وأسميتهم ، فإن أملنا بالرب أولا ثم في مباركتك بأننا سنحمي أرضكم من العدو واننا سندمر أولئك الذين يهددوننا» .

وعندما سمع الملك المسن كير ميكائيل هذا القول ومشورة النائب شكره بعمق وأطراه بحرارة لأنه بدا له حسنا أنه بهذه الطريقة ستحمي أرضه ، وأنه سيدمر أعداءه ، وعليه فقد أمر أن تكتب

الرسائل الى كل الاراضي التي ذكرها كيرتيودروس دوكاس وتشاور حولها ، وذهبت الرسل الى المانيا ، واستأجروا ثلاثمائة كلهم من الفرسان المختارين والمنتقين ، وجاء من هنغاريا خمس عشرة مائة ، كانوا كلهم من رماة السهام الراكبين المختارين ، وأرسل كرال ملك صربيا ستمائة من الخيالة وكلهم من رماة السهام الجيدين ، وجاءه عدد لاحصر له من الاناضول وجاءوا معهم بخمسمائة من الاتراك ، وعندما حل الفصل الجديد في شهر اذار تجمعت الجيوش في الميدان الواسع في جوار ادرنة وكان الملك الحكيم مايزال قلقا وأرسل في طلب الفين من الكومان ، من رماة السهام الراكبين الرشيقين في القتال فجاءوا ، وبعد أن تجمعت جيوشه كلها ، دعا نائبه كيرشيودروس وجعله قائدا للجيوش كلها وسلمها جميعا اليه وأمرهم جميعا أن يقبلوا به قائدا لهم وممثلا للملك وان ينفذوا امره كما لو كان هو يقودهم بنفسه ، وعند هذه النقطة سأتحول عما اقوله وأرويه لاعود فأخبركم بأمر الامبراطور وأمير المورة غوليوم ، وما الذي فعلاه وكيف تصرفا في المعركة التي بدأها .

وعندما انقضى فصل الشتاء وبدأ الفصل الجديد في شهر اذار وبدأت طيور العندليب في التغريد وابتهجت كل الكائنات في الدنيا وجددت نشاطها ، أرسل امير المورة غوليوم الذي كان بعيدا عن الامبراطور الى يوريبوس وكل الجزر وجمع جيوشه من كل مكان ، وعبر بحر باكتوس عند بيرغوس (٥٥) وسافر راسا الى حيث كان الامبراطور-وفي أرتا (٣٦٢٨ ـ ٣٦٦٤) التقت الجيوش وتجمعت القوات ولم تمكث أكثر من يوم واحد فقط ، وفي اليوم التالي انطلقت لتذهب عن طريق يانينا ودخلت والاشيا وانتظرت هناك فترة قصيرة حتى تصل قوات يوريبوس ، والجزر وطيبة وأثينا وأمير سالونا. ومروا راسا عبر السايدربوتا وجاءوا أمير والاشيا ، وانضموا معا على سهل تالاسينوس (٥٦) وبعد أن تجمعت كل الجيوش تشاور الأمراء الكبار معا حول كيفية تحقيق تقدمهم ومن أين يبدأون ، وقال بعضهم إنهم يجب أن يجهزوا

جيوشهم لمحاصرة باترا س وزيتوني [٥٧] ومهاجمة القلاع الاضعف ، ولكن الاحكم والمتمرسين في طرق الحرب لم يوافقوا على هذه المشورة ، لانه اذا أعدت القوات نفسها لمهاجمة القلعة فانها ستخفق في تحقيق أي شيء ، والشيء الافضل والاكثر فائدة لنا هو أن نذهب من هنا الى رومانيا ننهب وندمر الاراضي التي للملك ، وإذا الفينا الملك وهو ينتظرنا في الميدان فاننا بقوة الرب سنقاتله ، واذا كان مما يرضي الرب أن يعطينا النصر سنستولي بسهولة على أراضي سالونيك ، وعند عودتنا سنأخذ كل الاشيا وسنمضي الشتاء هنا ثم سنرى أنه عندما تسمع القوات التي في قلاع الاشيا أننا حاربنا وانتصرنا فان كل القلاع ستسلم لنا بسرعة » .

وتوصل قادة الجيوش الى اتفاق على هذه الخطة ، وعليه فصلوا الف خيال وثلاثة آلاف من الجنود المشاة ليصحبوهم في تقدمهم لنهب الاراضي ونظموهم في ثلاثة مجموعات واعطوهم التعليمات فكان عليهم أن يتجمعوا معا في (٣٦٦٥ ـ ٣٦٩٥) نقطة واحدة جميعا ، وبعد ذلك تفرقت جميع فرقهم واتخذوا طريقهم وبدأوا السير وهم ينهبون ويدمرون أرض والاشيا ، وكان مغيروهم يسيرون دائما على مسافة مسيرة يوم أمامهم ، وهكذا كانوا يتقدمون بهذه المسافة [٥٨] وعندما نهبوا الاماكن في والاشيا عبروا الحدود التي تفصل أرض الملك عن والاشيا عند مكان يسمى كتاكالون [٥٩] ودخلوا أراضي الملك للنهب ووجدوا هناك قلعة تدعى سيرفيا [٦٠] وأسروا بعض القوات من هذه القلعة ، وطلبوا منهم أن يخبروهم بالمعلومات التي عرفوها فأجابوهم واعلموهم بأن « نائب الملك مع كل جيوش كيرميكائيل الملك تنتظركم قرب أدرنة في الحقول الواسعة وهم في طريقهم الى هنا للبحث عنكم ونتوقع أن يكونوا قد عبروا الى مكان ماقرب سالونيك » [٦١] وبسماع هذا اظهر الامير وكذلك الامبراطور بوضوح سرورهم العظيم لقواتهما وانهما رغبا وارادا القتال ، وتشاوروا على الفور حول مايجب عليهم فعله ونصحهما مجلسهما أن يذهبا مباشرة الى حيث كانت تلك الجيوش لقتالها وأملا في النصر ، واذا حالفهما الحظ وربحا

المعركة ، فانهما كانا يأملان في أن يستمرا سادة رومانيا وركبا حتى وصلا الى ناحية بيلاغونيا كما تسمى (٦٢) (٣٦٩٦ ـ ٣٧٢٨) .

وكان كيرفيودروس دوكاس، ووالاشـــيا حـــاكما لكل رومانيا ، وشهيرا في الاعمال الحـربية ومقـدرا في كل الاشـياء ، وعندما سمع أن الأمير والامبراطور قادمان ، جهز جيشه وفصـل السرايا وشرح لكل مـن قـادته اسـتراتيجية الحملة التـي ينوي اتباعها ، وكان يتبعه الفان من الكوما ن ولانهـم كانوا أرشـق كل الجيوش كان لهم أن يركبـوا في المقـدمة ليسـتطلعوا المكان ، وكان ياتي بعدهم الالمان الثلاثمائة ثـم أعد الهنغـاريين وكان عليهـم أن يشكلوا الفرقة التالية ، ويأتي بعدهم الصربيون والبلغار ثـم يأتـي هو ومعه الروم والترك . وعندما فصل كل سراياه كان هناك سـبع وعشرون فرقة راكبة .

ولكونه داهية بعيد النظر في كل الامـور أرسـل الاوامـر الى كل القرى ليأتي الفلاحون مع خيولهم وثيرانهـم وأبقـارهم وأي حمير ركوب لديهم ، فاحضروها وركبوها فوق الجبال وعلى البعد ظهـروا كالفرسان ، وكان كل واحد منهم يشعل لنفسه نارا في المساء وبـدت جميع الجبال والحقول كما لو كانت تحترق ، ثم أمر بعد ذلك الكبار والصغار في جيوشه وبين الفلاحين أن يطلقوا في صوت واحـد زئيرا صارخا ، حتى ليبدو ذلك أن هزيم الرعد يهـز الأرض ، وبعـد ذلك أيضا وجه بعض رجاله ليأخذوا ثيابهم وخيولهم ويتسللوا خـارجين ليذهبوا الى الامير أمير المورة والى الامبراطور وأن يرووا له أمورا كاذبة لم يشاهدوها ولم يسمعوها ، فامتدحوا جيوش الملك في مغالاة وبالغوا في اعدادها (٣٧٢٢ ـ ٣٧٧٠) وادعوا أن كل منها يضـم ٥٠٠ رجل وسربوا روايات زائفة كثيرة حتى أصـبح جميع أتبـاع الامبراطور في خوف شديد (٦٣) .

وبعد ذلك اسـتدعى رجـلا مـن مجلسـه وعرض عليه ووعده بالاقطاعات ومـالا كثيرا ليتـظاهر بـأنه تخلى عنه ويذهـب الى

الامبراطور وأعطاه وثيقة ليعطيها سرا للامبراطور قائلا أنه سيصدق ماقد يخبره به شفويا ، فأخذ رسائله وأخذ طريقة وسار بسرعة حتى وصل الى الامبراطور وذهب اليه سرا وطلب أن يختلي به وكان المتسلل بارعا وماكرا ، فاختلق الدموع وبدأ كلامه مع الامبراطور :« أيها الأمير سيدي ، لقد أرسلني أخوك هنا لأخبرك بسره ، ونصيحته لك إنه الصدق ياسيدي وهو يشهد به ، انك أيضا وقعت في النزاع والخصومة بسبب خبث الناس وحسدهم والدوافع التي لاتقاوم لأنك تريد والاشيا وهو يريد الامبراطورية ومن هذا السبب قام النزاع بينكما وانتما أخوان ، ومما كان سبب لوم كبير ، أن يحارب أحدكما الآخر ، وعليه حسنا ياسيدي الطيب عندما هاجمته لتأخذوا والاشيا لم يكن لديه شيء ، ليقوم ويحاربك فالتمس الملجأ عند الملك وهو خصم لكم ، ثم عرف الملك أنكم تعدون الجيوش وانكم صاهرتم أمير المورة ليكون أخا لكم ، باعطائه أختك زوجة ، وانكم حالفتموه وهو وكل جيوشه (٦٤) لقد تلقيتم المشورة السيئة ، التي اعطيت لكم لتتركوا أراضيكم وتستسهلوا الذهاب الى رومانيا الى أراضي الملك ؟ من أنتم ياأمبراطوري لتشنوا حربا على الملك ؟ كم لديه من أمثالكم تحت قيادته ؟ حسنا ياسيدي الطيب ، اسمع وصدقني أن جيوشا كثيرة قد جاءت الى هنا لملاقاتكم ولديه ٥٠٠ من نخبة الالمان وثلاثة عشر ألفا من الهنغاريين وكلهم مزودون بالقسي ، ولديه نحو أربعة آلاف من البلغار والصرب ، ولديه هناك كل الروم من أهل رومانيا ومن تركيا والاناضول مما يفوق الحصر ، وبالنسبة لما لديكم ولدى الأمير (٣٧٧١ ـ ٣٨٠٨) هناك مائتان مع الأمير مقابل كل واحد لديكم . ولهذا السبب ياامبراطوري وسيدي أن أخاكم يقول ، مع أنكم كنتم تقاتلون بسبب شرور الشيطان ليس لديه صديق أفضل منكم في كل الدنيا ، وأنه كما يحبكم كثيرا يشفق عليكم كثيرا جدا ، ولتعرف شيئا آخر ، ياسيدي ، كم هو عدو لكم ملك رومانيا باليولوغوس ، واذا دخلتم في معركة ضد مثل هذه الجيوش الكثيرة ، فإنه بالامكان بسوء الحظ أن تفقدوا حياتكم وثانيا وماهو أكثر سوءا اذا سقطتم في يد الملك باليولوغوس وهو يحمل لكم هذا

العدا ء ، انكم عندئذ لن تروا مرة أخـرى أرقـا ولا الامبـراطورية، وعليه ياسيدي ان سيدي أخوكم يقول هذا لكم : أعدوا خطة الهـرب مع مجلسكم لتنقذوا انفسكم أنتم والنبلاء الشبان في الامبـراطورية واذهبوا الى أراضيكم واحموا قلاعكم . والى جانب أنكم انا فقدتم جنودكم المشـاة ، سـتبقى لكم السـلطة وسـتبقون في الامبـراطورية ، وان تنقصـكم الجيوش وسـيكون لكم ماتريدون (٦٥) » والآن ان هذا الرجل الكافر الذي كان يقول هذه الاشياء قالها وهو يبكي أثناء ذلك ، لقد روى قصـته وهـو يبـكي وينتحب ، وحالما انتهى من تلك الكلمات وأخرى غيرهـا كثير ورأى بوضوح وعرف أن الامبراطور قـد أنهـارت معنوياتـه ، طلب الاذن لينسحب ، ولكن الامبراطور استبقاه حتى يتحدث مع الأمير ويطلعه على الرسائل ، واستدعى اثنين من غلمانه وانتحى بهما جانبا حيث تحدث اليهما : اذهبا الى الامير وأخبراه عني ان يأتي الى هنا على الفور ، وانني احتاج اليه في الحـال » فـأسرعا خـارجين ومضـيا مسرعين الى الامير ليخبراه بما كان عليهم قوله نقـلا عن سـيدهما الامبراطور ، فأسرع الى حيث كان الملحد في خيمة الامبراطور وتكلم هنا مرة أخرى الى الأمير بالتفصيل ، وروى كل شيء له كما فعل مع الامبراطور ، وبعد أن قص على الامير ماكان عليه أن يخبـره فيـه أعطياه الاذن بـالمغادرة فعـاد مـن حيث أتـى (٣٨٠٩ ـ ٣٨٤٥) حيث روى للحاكم (سيفاستوكراتوب) ماأنجزه مع الامبراطور وأنه قد وعده بالرحيل في تلك الليلة بالذات .

وعندما سمع كيرتيودروس هذا كان سـعيدا واسـتدعى أحـكم مستشاريه ممن كانوا في جيشه وأخبرهم بالقصة كلهـا فـابتهجوا كثيرا ، ولكن امبـراطور هيلاس لم يكن سـعيدا وقـد غمـره أسى شديد ، واستدعى الامير ، وتشاور الاثنان حول ماعليهما فعله معا وكيف يتصرفان ، واستدعيا قوادهما الاوائل في الجيش وجعـلاهم يقسمون على المحافظة على سر المشـاورة ، والآن بعـد أن أقسـم القادة على المحـافظة على سرية كل مـا سيخبرهم بـه امبـراطور

ارتا ، بدأ الامبراطور يتكلم ويروي لهم بالتفصيل الرسائل التي افضي بها اليه من قبل الخائن ، الذي ارسله كيرثيودروس دوكاكس ، أخو الامبراطور ، وكلها شريرة .

وعندما سمع النبلاء الكبار في الجيش هذه الاشياء صدقها بعضهم رأسا وقال انها صحيحية ، وقال اخرون ان الخائن قد روى اكاذيب وخجل الأمير الشهير أمير كاريتانيا عندما سمع بالهرب المقترح وكان يقظا جدا وقال : « ان الشرير الذي جاء يروي هذه الاشياء للامبراطور قد روى اكاذيب كلها مختلقة في الوقت المناسب متباهيا بالروم المتبجحين الذين ينتقدون اعداءهم ، ولكن دعونا نتوقف هنا في هذه الحقول واذا جاءوا ضدنا دعونا نتلقاهم بمعركة لاتخافوا بالمرة لانهم اكثر منا فأي قوات غير متجانسة من جنسيات مختلفة لايمكن ان يكون بينها اتفاق جيد ، والآن مع أننا قليلو العدد بالمقارنة معهم فاننا جميعا كالاخوة ونتكلم بلسان واحد ، وبعد قليل سنظهر فيما اذا كنا جنودا او لم نكن (٦٦) (٣٨٤٦ ـ ٣٨٧٢) .

ولم يصغ معظمهم من الخوف لأمير كاريتانيا بالمرة ، والواقع انهم في النهاية أعلنوا انهم قرروا أنه مع حلول الليل وطلوع القمر ، وبينما تكون عامة القوات نائمة ، بحيث لايمكنها أن تدرك مايفعلون سيندفعون بأكبر مايمكنهم من الهدوء والتخفي سيندفعون للخروج والهرب الى أبعد مايمكنهم للنجاة من الخطر ، وحالما قرر المجلس الهرب ذهب كل واحد الى قطاعه .

وعليه شعر أمير كاريتانيا بالغ الشجاعة ، ذلك الجندي الرائع الجدير بالثناء بالأسى وامتلأ قلبه حزنا ، لقد خجل من الهرب المقترح وحزن أيضا على قواته وفكر كرجل حكيم كيف يمكن أن يساعدهم حتى لايضيع هؤلاء كأبرياء بلا ملامة ويكون هو مذنبا صاحب خطيئة عظيمة ، ثم وقف في خيمته وهو يمسك في يده عصا وراح يقول لها : « ياعصاي أمسكي بالخيمة التي تغطيني بقوة واخبريها

عني انها يجب ان لاتفكر اني احبها جدا ولااريد لها أن تتعرض للخطر ، لقد تشاورنا : الامبراطور والأمير وكبار رجال الجيش ، حول الهرب هذا المساء وأن نترك عامة القوات لمصيرها . ولهذا السبب ، أقول لك ياخيمتي الحبيبة لاتفكري بأي حال بأن الامر بخلاف ذلك ، وفكري كيف يمكنك أن تهربي من الخطر » (٣٨٧٣ _ ٣٩١٧) .

وعندما سمعت القوات التي كانت معه هذه القصة غير المألوفة التي لم يروا مثلها في حياتهم كلها روعوا واهتزوا بعمق وانتشر الامر من رجل لآخر ، وعندما سمع به الامير غضب جدا وأمر على الفور باستدعاء أمير كاريتانيا وقال له بغضب : « هل كان مايفعله شيئا جيدا ، أن تخون القسم الذين أقسمناه والمشورة ايضا وأن تتخلى عنا ؟ إنك لم تتصرف بحكمة لقد كان هذا سلوكا سيئا منك » .

وأجاب أمير كاريتانيا الامير قائلا : انني لست مذنبا بأي سلوك خاطيء وكل من يلومني أنا مستعد للدفاع عن نفسي امامه وسأقاتل كل من يقول بأني اخطأت باستثناء سموكم فانتم حليفي وسيدي ولن أقاومكم ، ان الذين قالوا بأننا يجب ان نهرب ونتخلى عن قواتنا ، اعتبرهم حمقى منحوسين ، لايحق لهم أن يكونوا سادة ولاأن يحملوا سلاحا ولا أن يسموا جنودا » .

وعندما سمع الأمير هذا فهمه وخجل وندم بعمق على كل ماحدث ، واستدعى المارشال واصدر اليه الاوامر بأن يجعل المنادي يعلن بأن لايبالي أحد ولا أن يخشى أنني خشية من الاشاعات التي انتشرت بين الجيوش ، وأن لايصدقها أحد فهي اكاذيب كبيرة ، ولكن ليعرفوا أن هذا هو الصدق ، فعلى كل من لايصدق هذه الاكاذيب أن يعلم أننا بمشيئة الله سندخل المعركة غدا .

وعندما سمع المورييون جميعا هذه الرواية وقد ذاعت ، وأكدت أن

الشـــائعات كانت كاذبـــة وان هناك معـــركة في صــــباح اليوم التالي ، ابتهــج الجميع وايدوا ذلك كثيرا. وعندمــا سـمع نبــلاء الامبراطورية بذلك اضطربوا الغاية وذهب كل النبلاء الى الامبراطور وقالوا له سرا وفي خلوته : « سيدنا ماذا تفعل ؟ هــل تـريد منا أن نموت هنا ظلما معك ؟ لاتصغ الى فرنجة الدورة المنحوسين ، الذين لم يخافوا من الأعداد الكبيرة من جيوش الملك التي تواجههم والذين بدلا من ذلك يتسللون لقتالهم » وأجابهم الامبــراطور قــائلا « اني أتمسك بما قلت وبــالمشورة التــي أعطيت فليقــل الدوريون وليفعلوا مايريدون ليذهــــب أحــــدكم الى جيش الامبــــراطورية ليوجــــه نداء ، وعندما يأتي المساء (٢٩١٨ ــ ٢٩٤٩) وحالما يبزغ القمر ليبدأ الجميع على الفور وفي هــدوء شــديد ولنذهــــب جميعــــا الى مقاطعاتنا رأسا ، وكل من لديه إرادة القتال ويرغب فيه فليبــق هنا غدا وسيجد ما يبحث عنه » (٦٧) .

وهكذا فعل أولئك الرومان من الامبراطورية ، فعندما حــل الليل تسللوا من الجيش ، انظــر هــذا الفعــــل الشرير الذي ارتــــكبه الامبراطور في ذلك الوقت ، ان يأتي ويخرج من الدورة الأمير غوليوم مع زهرة النبالة في الدورة الذين كانوا يتمتعــون بــالسلام والراحــة والقوة التي لاتنازع ليذهبوا لمساعدته في حربه ، ثم يتركهم في أيدي أعدائه ويهرب هكذا رجل تصحبه لعنة الرب ، من الذي يسمع بهــذا ويصدق روميا على الاطلاق ســواء في الحــب أو الصــداقة أو في أي علاقة ؟ لاتصدق روميا وان أقســم لك بــأي قســم ، فعندمــا يريد خيانتك إنه يجعلك عرابا لطفله أو اخا بالتبني أو صهرا حتى يمــكنه أن يبيدك (٦٨) .

والآن انها العادة الطبيعية في الدنيا أن أحــدا لايبقــي الأخبــار السيئة سرا ، ان ذلك الكافر ، الخــائن الكبير الذي طبــخ كل هــذه الامور التي أخبرتكم بهــا ، عندمــا رأى أن الامبــراطور يهـــرب مسرعا ، هــــــــــــــــــــرول مسرعا الى جيش الملك ، روى للحاكم « السيفاستوكراتور » أن الامبراطور قد هــرب بــالجيوش

التي أحضرها من الامبراطورية وان الأمير قد بقي وحده وعندما سمع الحاكم ذلك سعد جدا قاعد السرايا بسرعة وبدأوا في التحرك وأسرعوا رأسا الى بيلاغونيا (٢٩٥٠ ـ ٢٩٩٢)

وتحركوا يوم السبت وتقدموا تجاه الامير ، وفي يوم الأحد صباحا اصطفوا للشروع بالقتال ، وعندما راى الأمير أن الامبراطور قد هرب وعرف الفعل الذي ارتكبه تجاهه وانه قد بقي في بيلاغونيا مهجورا هكذا الا من جيوشه التي جلبها معه من المورة وعرف أن قوات الملك قائمة مع الحاكم نائب الملك لقتاله ، وكجندي حكيم ونبيل دعا قواده ، الكبار في الجيش ، وكل الفرسان من الفرنجة واليونانيين على السواء وبدأ يتكلم فيهم ويوجه اليهم الخطاب ، وحضهم بلطف وطلاوة وواساهم:« أيها الرفاق والأخوة والاصدقاء ، انتم يامن عندي كأولادي إن الرب في مجده يعرف مدى صدقي بما فعله أخي الامبراطور بنا ، فتخلى عني كطفل واوصلني الى هذا وأنا لاجل محبتي له ، مرة أخرى لشرفي وأنا أرى الموت والحرمان الذي هدد به من قبل نائب الملك ، وكان اخوه الذي أخذ منه والاشيا يسعى وراء الامبراطورية ، أخذت جيوشي انتم يارجالي وجئت كحليف له لمساعدته ، وحالما جاء بي الى هنا الى رومانيا سلمنا لاخيه تماما كما فعل يهوذا عندما سلم المسيح لليهود ، وعليه أقول لكم ، وأتوسل اليكم جميعا الآن وقد أسلمتنا هذه الخطيئة لأعدائنا ، وانتم تعلمون أننا بعيدون جدا عن المورة واذا كان لنا أن نهرب فاننا لن نحقق شيئا ، وسيكون شيئا بشعا أن يروى ذلك عنا في كل الدنيا أنه مع أننا جنود هربنا كالنساء والأحرى بنا أن نقف كرجال وجنود ذوي خبرة ، قبل كل شيء لحماية أرواحنا وهو أمر لازم ، وثانيا وبعد هذا أن نحافظ على ثناء العالم ، الذي يحبه كل من يحمل السلاح وان الذين جاءا لقتالنا قد التقطوا من كل مكان من أمم عدة (٦٩) وأريدكم أن تعرفوا ، ولاتدعوا أحدا يصدق أن القوات المسلحة المتنافرة المجموعة من أماكن عديدة يمكن أن يكون هناك أدنى اتفاق وتام فيما بينها ، ونحن من الجانب الآخر مع أننا قلة في العدد بالمقارنة

معها ، أننا جميعا معارف ورجال لنا روح واحدة ويجب أن يحب الواحد الآخر كأخوة (٣٩٩٣ ـ ٤٠١٧) لاننا اذا أحببنا بعضنا كما يجب فان كل واحد منا سيتحدى مائتين من هؤلاء الذين جاءوا هنا لقتالنا اني لست قلقا من أحد ، سوى من الالمان ، أنهم ثلاثمائة فقط ، ولهم أمير يدعى دوق كارنثيا (٧٠) وقد أبلغت أن الالمان سيشكلون أول سرية لهم تدخل المعركة ، فاذا قمنا بهجوم كجنود عقلاء بمقابلة زخم الهجوم الالماني واذا منحنا الرب والحظ ومباركة الأهل القدرة على تشتيتهم وهزيمتهم تماما سيكون لدينا الآخرون مثل الصقور والعجل ، وعليه أقول لكم فلتكن أول فرقة لدينا هي الأفضل وكلها من الرجال المختارين الذين يعرفون كيف يقاتلون وواعين للرأي العالمي ، وليكن قائدا عليهم وأميرا ابن أخي أمير كاريتانيا ، وأمل في الرب أولا ثم في شجاعته وبراعته الحربية أن يتصرف بحكمة وكجندي جيد » .

وكما قال الامير جرى ، فقد فصلوا سراياهم وأفواجهم لدى تجميع سراياهم وأفواجهم التي أعدوها ، وأخذ الأمير غوليوم وملك الروم ميدان بيلاغونيا (٧١) وكانت فرقتهم الأولى من الالمان (٤٠١٨ ـ ٤٠٥٧) وعندما رآهم أمير كاريتانيا المشهور ، انطلق رأسا نحوهم فوضعوا رماحهم في مواضعها ، وكان أول المواجهين الذي طعن أول طعنة رمح هو الذي كان يدعى دوق كارنثيا ، فضربه في الصدر فوق درعه وبجوادة صدمة فوقع ميتا على الأرض ، ثم ضرب اثنين آخرين ممن كانوا من أقاربه وانكسر الرمح الذي كان يحمله ثلاث قطع ، وعلى الفور وضع يده على سيفه وبدأ يقاتل الالمان ، كل من جاءوا ضده ليقاتلوه ، وأطاح بكل هؤلاء فانطرحوا كالعشب فوق المرعى (٧٢) وعندما رأى الآخرون الذين كانوا معه ذلك ، احتشد الجميع بشجاعة حوله وذبحوا الالمان وقتلوهم .

وعندما رأى الحاكم نائب الملك من حيث كان يراقب أن الألمان قد تشتتوا واستولى عليهم الذعر هرول مسرعا الى حيث كان

الهنغاريون وأمرهم بأن يطلقوا سهامهم على السرية التي اختلطت بالألمان وقال لهم بجرأة : « لاتبالوا أبدا بالألمان مطلقا لأنهم رجالنا لأني كما أرى والاحظ أن هذا التنين أمير كاريتانيا يضغط عليهم بشدة ، واذا كان لكم ان تقذفوا الفرنجة فقط فانكم لن تنجحوا مطلقا في كسر هجومهم والاحرى أن تقذفوهم جميعا معا عند قتالهم لتقتلوا الخيول التي يركبوها حتى يسقط الفرسان عن خيولهم ، وحتى نقتلهم قبل أن يقتلونا ، واذا كان للألمان أن يموتوا معهم فان من الأفضل أن يضيعوا وحدهم بدلا من أن تضيع كل الجيوش ، وليكن الاثم علي ، فافعلوا كما آمركم » .

وفعل الهنغاريون كما أمروا ، وبداوا يطلقون سهامهم نحو الفرنجة والألمان ، ومن الجانب الآخر جاء الكوما ن ، وأطلقوا معا سهامهم على شعب الفرنجة لماذا أخبركم بكل هذه التفاصيل وكيف لي أن أذكرها بكل دقة ؟ وذبحت كل خيول ومطايا (٤.٥٨ ـ ٤.٧٨) الفرنجة والألمان ، وسقط الفرسان ، سقط أيضا الفارس الرائع فخر الجند وعزتهم أمير كاريتانيا مع مهره ، وعندما رآه نائب الملك وعرفه أطلق صرخة قصيرة وركض نحوه ، لئلا يطلق أي شخص آخر سهما نحوه ليخترق جسده ، وقال له :« سيرجيوفري أمير كاريتانيا ، قبل أن يقتلوك ياأخي استسلم لي ، الي ياعزيزي ولن تجد خداعا » وأقسم له على سيفه فاستسلم ، وبعد أن استسلم أمير كاريتانيا الجندي الشهير سقط علمه حيث تسلموه ، والتقطه نائب الملك نفسه وأخذه وسلمه لشخص من حاشيته ليحتفظ به بعناية وليحرسه له .

وعندما رأى الأمير الشر الذي ارتكبه نائب الملك في بداية المعركة ، عندما اختلط أمير كاريتانيا والألمان وأخذوا يذبحون بعضهم بعضا جعل الهنغاريين والكوما ن أيضا يطلقون سهامهم نحوهم ليذبحوا خيولهم فأخذ معه سرية وركب نحوه ليساعده اذا امكنه حتى لايتغلبوا عليه ، ولكن الاعداد الكبيرة من الروم وحشود رماة السهام (٧٣) ذبحت الخيول ، وسقط الفرسان ، وعندما

وجدوا انفسهم جنودا رجاله وسط الجيوش ، لم يستطيعوا فعل شيء ارادوا او لم يريدوا ، وقبل ان يموتوا بدون حق في هذه الدنيا ، استسلموا جميعا كما فعل الأمير نفسه (٧٤) ولم ينقذ منهم سوى حشد الفقراء حيث هرب منهم كل من استطاع عن طريق والاشيا وتمكن بعض المشاة (٤٠٨٨ - ٤١٣٠) من الجنود من النجاة ونهبوا الى المورة وأسر الوالاشيون لخرين في والاشيا علاوة على الباقين الذين قتلوهم ونهبوهم ، وحالما انتهت المعركة وهزم الفرنجة أمر نائب الملك بنصب الخيام ، وكانت خيمة مقره ذات أربعة أعمدة وبعد نصبها ودخوله اليها أمر بحضور جميع نبلائه وقادته ثم أمر بإدخال الأمير غوليوم أمير كاريتانيا وكل الفرسان وأخذ بيد الأمير باحترام وحياه بلطف وأجلسه بجانبه ، ثم قال « مرحبا ياأخي مرحبا يابن عمي ، كم كنت مشتاقا لرؤيتك كما أراك الآن تماما وباليد الأخرى أخذ أمير كاريتانيا وجعله يجلس الى جواره وعندما جلسا معا مع حشد الفرسان وملأ النبلاء الخيمة بدأ نائب الملك يخاطب الأمير : والآن بالمسيح أيها الأخ الطيب الأمير ويابن العم لابد انكم شكرتم الرب والقديسين شكرا جزيلا عندما منحكم الرب أنتم وسلالتكم ان تكونوا سادة المورة وأن يكون لكم مثل هذا المجد وكان يجب أن تبقوا مستريحين في ولاياتكم وأن لاتسعوا الى حرمان الآخرين ، أخبروني بماذا أخطأت معكم وماهو الشر الذي أوقعته بكم حتى جئتم ضدي للاستيلاء على أملاكي ؟ زد على هذا لم يكفكم أن تزحفوا ضدي أنا جاركم وقد أعطيتكم أختي ، بل جئتم ضد أميري الملك المقدس لتستولوا على مملكته وتصبحوا ملوكا ، وفي هذا الامر لابد أنكم سمعتم وفهمتم أنه رجل أفضل بكثير منكم وأنه مسيحي حق ، والرب العادل الذي يحكم بالعدل قد أوقعكم في يديه وأصبحتم تحت سلطته ، وحيث أنكم سعيتم لتجريده من أملاكه ، فانه سيخرجكم من المورة التي ليس لكم حق فيها ، انه السيد الشرعي لرومانيا ، وعندما تخرجون من السجن اذهبوا الى فرنسا حيث أملاككم الشرعية ، وبعد أن انتهى مما أخبرتكم به أجابه الأمير كرجل حكيم باللسان الرومي: (٧٥) « سيدي نائب الملك وأخو زوجتي ان لك أفضلية أكبر مني في الكلام

والعمل بدرجة كبيرة ، لأني في سـجنك وحتـى لوحـدث أن مـت في مكاني ، فاني مع ذلك لن امتنع عن ان اقول ولو جزءا من الحقيقة ، أن الرجل النبيل يجب أن لايتفاخر ولاأن يلوم عدوه الذي شاء القدر أن يكون في سجنه كما تحتفظ بي وشيء اخر اسوأ هو أن يجـد المرء عيبا في حالة يتحمل هو نفسه مسؤوليتها ويلام عليها ، اذا حـاولت ياأخي ان أزيد فخري وثروتي ومجدي يجب عليك ان تمدحني ، لأن الرجل الذي يحمل سلاحا يجب عليه أن يزيد ثراءه وشرفه طـالمًا أنه لايتصرف بغير حق ، يأخذ مـن أقـاربه ويحـرم اهله وأصـدقاء أهله ، وعلى أي حال انا أمير وجندي صغير ، ولم تـرني أهـاجم قريبا لي ، ولاجارا مسكينا لي لآخذ ماهو له ، بل هاجمت ملكا وهو أمير عظيم لديه القوة والسلطان العظيم في العالم ويشتهر بشجاعته على كل الجنود ، وإنه اشرف لي وفخر أن اشتبك معه لأنه ملك وانا جندي صغير ، وعلاوة على ذلك إنه من عرق الشعب الرومـي وليس بيني وبينه أية قرابة أشاطره إياهـا ، والآن أنت وانت الذي أخـو الامبراطور وبالطريقة والوسيلة التي تعرفها انت نفسك لم يكفك أنه أعطاك من أملاكه ما تملكه من أرض امارة والاشـيا وهـي أفضـل قسم من مملكته ولكنك اردت أن تحرمه بالمرة وأن تأخذ منه مـايملك وكل الامبـراطورية ليصـــبح بـائسا تعسـا (٧٦) وحيدا في الدنيا ، وارتكبت حتى ماهو أكثر ، وهو عمل شرير لأنك لم تـكتف بقتاله كجار وقريب وبالطريقة المقبولة في العالم كله ، بل هرعت الى الملك السـيد العـظيم ـ وذهبـت اليه لأنه عدو له وهناك خصـومه معه ـ حتى يساعدك ويعطيك القوة والجيوش حتى تدمره وتحـرمه تماما ، ولم يكن لائقا بك ياأخي ولابشرفك لأن الخطيئة والحـظ في الحرب قـد جعـلاني اقـع بين يديك وانا الآن في سـجنك كي (٤١٧٣ ـ ٤٢١٢) تؤنبني بهذه الطريقة البشعة بلا حق وبلا سبب على اشياء ومشاريع لا شأن لي بهـا ، وهنا في حضـور مثـل هؤلاء الناس النبلاء ، وتتملص من الامور ومن مسؤولياتك وتضعها على راسي ، وهي امور لا شأن لي بها ».

وعندما سمع نائب الملك كلام الامير وانه قد اجابه بـكبرياء عظيم

ولم يبال بحقيقة أنه كان محتجزا لديه ، اكتاب جدا وحزن حزنا عميقا ، والواقع انه أصبح غاضبا جدا من الامير غوليوم (٧٧) ولولا مشاعر الخجل عنده أمام النبلاء الذين كانوا حضورا من فرنجة وروم لتكلم وتصرف تجاه الامير بصورة قبيحة ، والآن وعندما رأى النبلاء الذين كانوا معهم مظاهر الغضب على سحنة نائب الملك عملوا بالكلمات والطرق اللطيفة على تخفيف وقع كلماتهم وأوجدوا سلاما بينهما .

وبعد أن ارتاح نائب الملك وجيوشه في بيلاغونيا ـ وامضوا يومين في دفن القتلى والعناية بالذين جرحوا بمداواة جراحهم ـ أعد جيوشه وانطلقوا رأسا الى القسطنطينية حيث كان الملك (٧٨) وأحضر الامير معه بطريقة تنطوي على الاحترام ، وركب الى جواره وناما في المكان نفسه وتابعا السفر حتى بلغا المدينة.وبعد أن نزلا واتخذا مراكزهما ، أخذ نائب الملك الأمير غوليوم وهو ممسك بيده الى القصر ، وكان الملك جالسا على عرشه يحف به النبلاء الأقل قدرا ، وحيا الأمير وهو جاث على ركبتيه الملك كرجل نبيل وحكيم وأخذ الملك بيده وأنهضه ، مرحبا أيها الأمير بك وبحاشيتك . ورجاه أن يبقى معه برهة صغيرة ، ثم أمر الملك بأن يؤخذ من هناك ويوضع في السجن مع تشريفه ، ووضع أمير كاريتانيا (٤٢١٣ ـ ٤٢٦.) وقادة الفرسان الآخرين مع الأمير في سجنه حتى يشاطروه محنته ويواسونه ، مع القدر نفسه من التشريف الذي فرضه لهم جلالة الملك ، وبعد أن أمضوا اسبوعا في السجن أمر الملك باحضار الامير وكل الفرسان الذين كانوا معه الى حيث كان الملك في القصر ، وقال الملك بنفسه : « انك أنت نفسك ايها الأمير رأيت ولاحظت أنك في السجن وإني وضعتك تحت سلطاني وإن شئت تركتك حرا أو شئت أوردتك حتفك ، وسأقدم لك هذه المعلومة فلا تكذبها ، لو كنت في المورة حيث كنت سيدا وكان لك أن تحاربني كما فعلت فانك لن تكون قادرا على الصمود طويلا جدا أمامي ، وسألقي بك خارجها سواء بالبر او البحر وسأغزو أرضك وهي ولايتي بالوراثة ، حسنا الآن انت هنا في سجني ومعك كل

قـواتك ، لو أني ارسـلت جيوشي الى هناك الآن ليعبـروا البحـر بالسفن ثم مرة أخرى عن طريق البـر عن طـريق الجـزء القـاري الرئيسي ، وحيث أن ارضك مجردة من جيوشها فإنهم سـيأخذونها بسهولة وسـتخسرها وعليه أقـول لك ياأمير ، واقـدم لك هـذه النصيحة ، طالما أهلك قد ناضلوا وانفقوا أموالا كثيرة للاسـتيلاء على المورة وقد فعلت أنت الشيء نفسه ، بعدهم وبدلا من فقد ماتملكه وبقائك محروما ، خذ من مـالي ـ سـأقدم لك هـدية عظيمـة القيمة ـ أنت وفرسانك الحضور هنا معـك ، وسـأطلق سراحـكم واتركـكم أحرارا تذهبون لشراء المدن في فرنسا لتكون لكم ولأولادكم دائما واتركوا لي المورة فهي من ممتلكاتي لاني اذا أطلقت سراحكم من سجني ، وبقيتم في المورة كما كنت من قبـل فـانكم وأولادكم لن يتحقق لكم السلام مطلقا ولا الراحة التي تأكلون فيها خبزكم » .

وسمع الامير كلمات الملك وفـكر كيف يجيب حتـى لايقـع في أي خطأ ، وطالما تكلم الملك وانتهى من قوله بـدأ الأمير بـدوره الكلام معه « ايها الامبراطور الملك المقدس ، اني استعطف قـوتك ، وانا الرجل الغريب غير المجرب ، أن أحصل على اذنك في الاجابة وحيث أن سلطة جلالتك أيها الامبراطور تتطلب مني أن أسلم اليك الأرض مـع السـلطان الذي أملكه في المورة ياسـيدي في مقـابل ما (٤٢٦١ ـ ٤٣٠٧) تعطيه لي ولرفاقي من مـال ، لنمضي الى فرنسا التي نملكها ، ونشتري الأرض ونبقى فيها وتبقى لكم المورة وهي من ممتلكاتكم ، ان من سلطتي وقـدرتي على الرد أن أعطيكم فقط الجـواب الذي سـأقوله فتقبله كحقيقـة ، لأنك لو ابقيتني في السجن خمسة وخمسين عاما فلن تحصـل مني على غير هـذا الذي يمكنني أن أخبر به جلالتك : إن أرض المورة هـذه الآن ياسـيدي ليست من ممتلكاتي ولاهي ورث لي من أجدادي لاملكها ، مع سلطة التخلي عنها وجعلها هبة لك ، لقد أخذت هذه الأرض من قبل أولئك النبلاء الذين جاءوا الى هنا الى رومانيا من فرنسا مع أبي كأصدقاء ورفاق ، لقد أخذوا أرض المورة بالسيف وقسموها بينهـم بـالوزن والميزان ، وأخذ كل منها حسب مـرتبته وبعـد ذلك انتخبـوا أبـي

باعتباره الاحكم والاكثـــر امـــانة بينهـــم وجعلوه قـــائدا على الجميع ، وبالاتفاقات المكتوبة ومـاضمنواهـن الشروط لم يكن لديه سلطة الحكم وحده ، او ان يفعل شيئا الشعب دون مشـورة المجلس وارادة كل رفاقه وعليه ياسيدي الملك ليس لدي سلطة التخلي عن ذرة واحدة من الارض التي أملكها لان اسلافي كسبوها بـالسيف طبقـا لعاداتنا التي اشترطوها فيما بينهم ، ومع ذلك كما هي العادة التي يتبعها الجنود الذين يأسروهم في المعركة ويبقونهم في السجن فـانهم يفتدونهم بالمال والهيبربيرا فدعوا سلطة جلالتكم تقرر حسـب منزلة كل منا نحن الذين هنا مـايجب على كل ان يعـطي ليفتـدي نفسـه ويخرج من سجنكم واذا أيدت سلطة جلالتكم هذا فإن كلا منا أيهـا الامبراطور سيبذل مايمكنه من جهد ويقدر على دفعه ليفتدي نفسـه ويخرج من سجنكم ، واذا بدا لكم انه من الافضل لكم ياسـيدي ان لاتتصرفوا معنا بهذا الاسـلوب فنحـن هنا في سـجنكم ، ولتـكن مشيئتكم » .

وبسماع هذه الكلمات ، غضـب الملك جـدا وقـال للأمير بغضـب شديد : « يا أمير واضح جدا أنك فـرنجي لأن فيك الرعونة نفسـها التي لدى الفرنجة ، إن غطرسة الفرنجة تؤدي بهم دائما إلى الضلال وإلى ضياع آمالهم ، تمـاما مثلمـا جعلتـك (٤٣٠٨ ـ ٤٣٣١) رعونتك أنت أيضا تقع بين يدي وهنا في سجني ، وأنت تقول وتتوقع بغطرستك أن تخرج من بين يدي ومن سـجني ، أقسـم لك بـالرب وكمالك ، وخذ ذلك كحقيقة ، أنك لن تبرح مـن هنا مـطلقا في حياتـي مقابل الديناري ولن تشتري نفسـك بـالمال ، ولن تبـرح مقـابل الثروة » .

وأعطى الملك أوامره على الفور بالامساك به واعادته إلى السـجن حيث كان ، تماما كما سمعتموني أقول وأخبركم ، وعندما سمع كل الفـارنجيون والروم الذين كانوا في حضرة الملك كلامـه ، أمسـك الحرس بالأمير بعجرفة وألقـوا بـه في السـجن حيث كان ، وأمضى

هناك مع جميع رجاله ثلاث سنوات بذل خلالها جهودا عظيمة لافتداء نفسه بمبالغ من الهيبر بيرا (٧٩) .

وعندما رأى وعرف هو ورجاله أنه لا بالهيبربيرا ولا بالثروة سيتحرر ويخرج من سجنه ، وبالمشورة ورغبة أمير كاريتاينا وقادة الفرسان الآخرين ابرم هذا الاتفاق : أن يعطي الملك من أجل حريتهم قلعة مونمفاسيا وقلعة مين الكبيرة . وثالثة وهي الأجمل (٤٣٣٢ - ٤٣٧٦) قلعة ميستراً دقصد وفهم أن يطلق سراحه مع رجاله ، مع كل من كانوا معه صغيرهم وكبيرهم ، وحالما تقررت هذه الاتفاقيات دونت وعززت بالقسم .

وكان الملك ابن صفير ينتظر العماد ، فطلب من الأمير أن يصبحا أقارب بهذا العماد . وفي الاتفاقيات التي أبرمها ضمن هذا أيضا : أنه لن يكون هناك حرب بينهما بل سيحافظان على السلام ، وإذا هاجم أحد أيا من الاثنين أو شن عليه حربا أو سلبه ، فإن الآخر سيساعده بكل قوته .

وعندما وطدا هذه الأمور التي أخبركم بها وجه الأمير والآخرون ممن كانوا معه أمير وأمروه أن يذهب إلى المورة لتسليم الحصون التي كتبتها هنا ، إلى وكلاء الملك ، الذين سيأخذهم معه ، وقد أبرمت سرا المعاهدة التي أرويها لكم من قبل الأمير ومشاوريه في ذلك الوقت بنية وقصد وهدف : أنهم حالما يتحررون من سجنهم سيفعلون شيئا ببراعة ومهارة ليستعيدوا مرة أخرى القلاع التي سلمها ، وحيث أنهم لم يكونوا يصلحون لأي غرض آخر غير هذا ، خرج هو ورجاله من السجن ، وذلك القسم الذي أقسمه في السجن حيث كان لم يلزمه بأن يكون محسوبا كما كانت باليمين ، طبقا لما تشترطه الكنيسة وما يقوله الحكماء .

وترك أمير كاريتانيا ، الرجل الشهير المبينة مع ممثلي الملك الذين أرسلوا لتسلم القلاع ، ورحلوا عن رومانيا بطريق البر وساروا عبر

والاشيا ونهبوا إلى طيبة ، وهناك وجدوا أن الأمير العظيم قد وصل في ذلك الوقت من مملكة فرنسا – حيث أرسله الأمير غوليوم كما سمعتم هنا – مع التشريف والمرتبة التي أعطيت له من الملك وأن يخاطب ويذكر كدوق أثينا ، وعندما رأى الدوق أن ابن حميه أمير كاريتانيا (٨٠) قد وصل ، وهو ما كان يتوق اليه ، كان سعيدا جدا كأخ له ، وعندما سأل وأخبر من قبله بأن الأمير غوليوم وافق لكي يخرج من سجن الملك على تسليم حصن مونمفاسيا (٤٣٧٧ – ٤٤٠٥) وحصن مين الكبير وحصن ميسترا للامبراطور ليملكهم – رفض هذا بشدة وحزن حزنا شديدا ، وبكى بصوت عال ، وأخبره بوضوح أنه لا يرضيه بأي طريقة بالمرة أن يأخذ الامبراطور القلاع الثلاثة ، لأن الملك عندئذ سيكون عظيم القوة وسيرسل جيوشه برا وبحرا ليخرجنا من المورة ويأخذها لنفسه ، وبقي أمير كاريتانيا مع الدوق ، وأمضى أسبوعا هناك في طيبة ، حيث تناقشا واحتفلا كرجال طال اشتياقهما واشتد ليرى كل منهما الآخر ، وليحتفلا معا ، وبعد ذلك انطلقا سوية وعبرا من كورنث وذهبا إلى نيكلي ، وهناك وجدا الأميرة مع كل السيدات من كل البلبونيز التي تدعى المورة ، اللائي اجتمعن معا للتشاور ، (٨١) حول الروايات التي سمعتها حول تلك القلاع الثلاثة التي اعطاها الأمير للامبراطور ، ليخرج من السجن هو وكل قواته ، ومعهم كل رجال المورة وكل قادة الفرسان والفرسان الذين كانوا هناك في المدينة ، ولهذا السبب كانت النبيلات من زوجاتهم منع الاميرة في قلعة نيكلي يعقدون برلمانا ويتشاورون ، ولم يكن معهن من الرجال سوى السير ليوناردو الذي كان اللوغويثت والرجل الحكيم والسير بييريفو الذي كان احكم رجل في كل الامارة(٤٤٠٦–٤٤٤٠) وكان هذان الاثنان حاضرين هذا البرلمان (٨٢) .

وعندما وصل الاميران ، دوق أثينا وأمير كارتيناينا ، اتخذا على الفور مراكزها من مدينة نيكلي ، ثم ذهبا رأسا ليريا السيدات اللاتي كن جميعا من القصر مع الأميرة ، وعند رؤيتهما حيتهما

الأميرة بلطف ، وبدأت تستجوب أمير كاريتاينا حول صحة الأمير وأتباعه من سجن الامبراطور وعن الفعل الذي ارتكبوه ليخرجوا من السجن ويعودوا الى بيوتهم ، وبدأ امير كاريتاينا يعيد رواية كيف ان الأمير وقادة فرسانه قد بذلوا جهودا عظيمة للخروج من السجن باعطاء المال ، وأن الملك قد أقسم لهم بروحه بأنهم لن يخرجوا من هناك بالهدايا والمال ، وأنهم مع لهفتهم الخروج من سجنه توصلوا الى اتفاقية اعطوه القلاع الثلاثة وهذه فقط : قلعة مونمفاسيا ، وقلعة مين الكبيرة وأيضا قلعة ميسترا ، التي تملكها ملكا خاصا ، وصنعوا سلاما قويا وعلاقة قرابة بالتعميد ، مع القسم الذي أكد بانهم لن يدخلوا حربا أبدا وعليه اجاب الأمير العظيم نفسه وقال للأميرة وكل الأساقفة الذين كانوا في ذلك البرلمان الذي أخبرتكم به : إن الحقيقة التي يعرفها الصغير والكبير ، هي أني خضت الصعاب مع سيدي الأمير لأني قلت إنه كان يطلب مني بصورة غير قانونية أن أصبح تابعا له وأن أحصل منه على الأرض والامارة التي هي ملك خاص لي ، ولقد حملت السلاح لخوض الحرب معه ، ولكني عرفت بعد ذلك أني ارتكبت جريمة ضده وقمت بالتعويض كما اشترط هو نفسه •

ولهذا السبب ربما يعتقد بعضكم أني خصم لسيدي الأمير فيما أخبركم به (٤٤٤١ ـ ٤٤٩١) ولكني أقول الصدق فخذوه مني ، اذا أخذ الملك هذه القلاع الثلاثة فإنه لن يتمسك بالقسم الذي أقسمه ، وسيرسل هنا ضدنا جيوشا وقوات كثيرة تخرجنا من هنا ، وتحرمنا أملاكنا . وعليه ، ربما تدركون اخلاصي الطيب ، إني أقول وأؤكد بأني سأفعل هذا : سأدخل السجن وليخرج الأمير ، أو اذا كان الامر أمر افتداء له مقابل مبالغ من الهيربيرا فاني سأرتهن أرضي مقابل الديناري ، ولتدفع هكذا فدية سيدي الأمير .

ثم نهض أمير كاريتانيا وقال للأميرة أمام الأمير العظيم : إن كل ما يقوله الأمير العظيم هنا ، قلناه هناك في سجننا ، والمخاطر والمخاطرات التي يمكن أن تتبع . ولكن لأننا رأينا أن عناد

الامبراطور كان تصميما ، فقد تـكلمنا عن ذلك بين أنفسـنا واتفقنا عليه : وقلعة مونمفاسيا كما يعرف الجميع كان سـيدنا الامير هـو نفسه قد كسبها وهو الذي بنى مين وميسترا ، وسيكون اثما وعارا أن يموت هو واتباعه في السجن من أجل القلاع التي كسبها وبناهـا هو نفسه ، فقط لنجعله ينجو من عذاب السجن الذي هو فيه وبعـد ذلك سيساعدنا الرب في الاستيلاء على قلاعه لتعود اليه ، وعليه أقول لكم وخذوا هذا عني ، ليس لأي رجـل في الدنيا لاالكلمـات والاعذار التي قد يتفوه بها أحد ، أن تجعلني أترك سـيدي وأميري يمـوت في السجن ، وسأنفذ الامر الذي أعطاه لي بتسليم قلاعه حتـى يتحـرر من عذابه ، وعندما يخرج من السـجن ، فليسـاعده الرب ». ثم تكلم الأمير العظيم نفسه مرة اخرى مع أمير كاريتانيا واجـابه هـكذا : « بالمسيح ياأخي الطيب ، أقـول لك الصـدق ، لو علم الامبـراطور واخبر بأننا لن نسلم له القلاع التي يطلبهـا ، فـانه لن يرش الأمير بالملح ويأكله ، بل سيأخذ الهيربيرا ليطلق سراحه ، وعلاوة على ذلك أقول لك وخذ هذا كما تشاء أنه اذا فكر الأمير فيما يمـكن أن يتبـع لكان من الافضل له أن يموت بنفسه كرجل واحد بدلا من يفقـد بقية فرنجة المورة أملاكهم التي كسبها أهلهم بالمشقة مثلما فعل المسيح ، الذي ذاق الموت ليخلص أرواح الجنس البشري من اللعنة الابـدية ، حيث كان على الجميع أن يذهبوا ، من الافضل أن يموت واحد بـدلا من أن يموت الألوف مـن أجله إني أفـرغ مـا بـذهني (٤٤٩٢-٤٥١٥) وأقول الصدق وافعـل أنت ياأخـي مـا أمـرت بفعله » .

والآن بعد (٨٣) أن انتهى البرلمان ، انطلق أمير كاريتـانيا الذي كان يحمل المذكرات (٨٤) التي اعطاه الأمير اياها ليقدمها الى امار القلاع ، انطلق من نيكلي واخذ معه ممثلي الملك ، الذي أرسل معـه ليعطيه القلاع نيابة عن الملك ، وذهب إلى ميسترا التي سـلمها اليه أولا ، ثم مونمفاسيا وثالثا إلى مين . وحـالما سـلم القـلاع التـي ذكرتها عمد إلى أخذ رهينة ليسلمها إلى الامبراطور تكونت من ابنة أمير باسفا ، الذي كان مارشالا لكل الامـارة ، وكان يدعى السـير

جين دي نويلي وهذا لقبه ومعها أخت خو نيرون الذي كان المفـوض الأكبر للامارة كلها ، ونهبت الاثنتان إلى المدينة رهينة وأطلق سراح الأمير والفرسان ، وكل قادة الفرسان الصـغير والكبير ، ونهبـوا إلى المورة بسرور كبير (٨٥) .

وعندما نهب الأمير إلى المورة في ذلك الوقـت ، اسـتقبله الجميع استقبالا (٨٦) حسنا ، وحيث أنه كان نافد الصبر في انتـظار رؤية وتفتيش (٤٥١٦ ـ ٤٥٥٣) قلاعه ومدنه التي كان مغرما بهـا لم يرد اضاعة أي وقت هناك بالمرة ، فأخذ الفرسان الذين كانوا برفقته وسافروا معه يفتشون القلاع والمدن ونهب مباشرة إلى ليكيمونيا ، وطالما كانت له الرغبـة والميل لرؤية المورة ، فإنه لم يسـافر وحـده كجندي مسكين ، بل نهب كأمير مع مرافقة جيدة الى تلك الأمـاكن التي أحبته وافتقدته ، وأسرع الجميع للسفر في معيته وحمل بعضهم السلاح وكان بعضهم بلا سـلاح ، وعندمـا رأهـم الروم ، ممثلوا الامبراطور من أعلى قلعة ميسـترا ظنوا واسـتنتجوا أن الفـرنجة كانوا يسعون لقتالهم ، أي لقتـال الرومـان ، فـأخبروا قـادة الدرونغوز ، من الميلنغز وتوصلوا إلى اتفاق واقسموا أن يقفوا مـع الامبـراطور وأن يتذكروا الفـرنجة ، وأرسـلت الرسـل إلى الكانتاكوزينوس (٨٧) ، وهـو قـائدهم ، حيث كتبـوا له وأكدوا وأبلغوه أن الأمير قد جاء مع كل جيوشه وأنه قد أعلن الحرب ضـد الامبراطور ، وصدق هذا وجهز سفينته ، وبعث بالرسل فذهبوا إلى المدينة حيث الامبراطور وأبلغـوه أن أمير المورة غوليوم ، قـد حنث بقسمه وبدأ الحرب من ليكيمونيا بكل جيوشه ، وبدأ ينهـب أراضي الامبراطور (٨٨) .

والآن عندما سمع الامبراطور الباليولوغوس العظيم صدق هـذه الاشياء التي أخبرتكم بها ، التـي رواهـا له حـاكمه (٨٩) مـن مونمفاسيا ، ونهش بدرجة عظيمة وسيطر عليه أن الأمير غوليوم قد حنث بهذه السرعة بقسمه الذي أعطـاه له وبـدأ حـربا سـاخنة في المورة . وعليه نهب إلى تـركيا واسـتأجر الأتـراك كمـرتزقة ،

واستأجر ١٥٠٠ من القوات المنتخبة (٤٥٥٤ ـ ٤٥٧٧) وذهب حوالي ٢٠٠٠ من الاناضوليين معهم .

وعين ابن عم له كقائد على كل أولئك الذين سمعتموني اذكرهم ، وكان يدعى ماكريذوس (٩٠) واستدعاه وأمره أن يأخذ الجيوش التي وضعها تحت أمرته ويذهب إلى المورة لتابعة الحرب والقتال لقريبه بالتعميد ، ذلك الذي يدعى الأمير غوليوم .

وأصدر اليه أوامره وطلب منه أن يخبره بكل ما يحتاجه من أموال لاستئجار القوات ولمكافأة أي من رجاله ، وعليه أن لا يكون متردداً أو بخيلاً أو مهملاً بأي شكل ، بل أن يهرع في لهفة لغزو الارض . « لأنه ما دام الامير قد بدأ الحرب في حين أننا معاً قد أقسمنا على المحافظة على السلام ، إن عليه الاثم وعليه اللوم » . لقد ختم له بخاتمه الذهبي بعض الأوراق البيضاء وقال له : يا ماكريذوس خذ هذه معك واذا وجدت ضرورة منح اقطاعات أو هبات فافعل حسب الجدارة . التي تتوسمها من كل رجل ومر بأن يدون هذا على هذه الأوراق » .

وأحضر إلى كبراء الدرنغوس وزعماء الفاردا ليفوس (٩١) ، وأيضاً إلى كبراء تساكونيا وعداً بأنهم سيمنحون خرز بول يؤكد منح المزايا للجميع اذا (٩٢) ما حملوا السلاح وأنهم لن يكلفوا بالسخرة ، لقد صعدوا إلى ظهور الشواني والناقلات والقوارب ، وذهبوا (٤٥٧٨ ـ ٤٥٩٣) بحراً إلى مونمفاسيا بطريق البحر (٩٣) ، وبهذه الطريقة كما أقول لكم وكما أكرر عليكم بدأت الحرب في المورة حيث تحارب هذان الاثنان ، الامبراطور والأمير ، اللذان كانا مع ذلك أقارب بالتعميد .

وعندما وصل ماكريذوس الى مونمفاسيا نزل مع قواته من السفن . وذهب رأساً الى ليكيمونيا مع الجيوش ، وسأل عن أسماء أمار القلاع ورؤساء الجماعات في درنغوس الميلنغز والتساكونيا وبعث

بالوثائق اليهم باسم الامبراطور وجعل بعضهم سيفاسذوا والقادة حتى تزادستيدز (٩٤) واستسلمت فاتيكا كما فعلت تزاكونيا ودرانغوس الميلنغز وأراضي غيبيسترا وفي الحقيقة ثارت لصالح الامبراطور (٩٥) .

وعندما عرف الأمير الأخبار وأن ماكريذوس وصل وبدأ الحرب وكان ينهب ويخرب المدن بشدة ، بعث بالرسل الى الأمير العظيم الى يوريبوس والى الجزر ، ليأتي قادة الفرسان مع جيوشهم لمساعدته فعصوه ولم يذهبوا الى هناك (٩٦) ، وغضب الأمير منهم ، وأخذ ماتوفر له من الجيوش في المورة وذهب الى قلعة نيكلي بالقوات التي معه ، وعندما سمع وعرف أن تساكونيا وفاتيكا ودرنغوس السلاف قد ثاروا نصح بأن لايهاجمهم لأنهم كانوا قوات كثيرة وكان ماليه منها قليل .

ولكنه نصح بحماية القلعة ، وبأن يمونها ويحصنها جيدا ، وأن يذهب هو بنفسه الى كورنث ليجبر الأمير العظيم هو وأمراء يوريبيوس الثلاثة وماركيز بودونيتزا وأمراء الجزر على الحضور بسرعة ، وحالما أعطي هذه المشورة ، ذهب الى كورنث ، وكان أمل الامير الموثوق وتوقعاته أن يدخل في معركة مع قائد الامبراطور ماكريذوس هذا إن وجده في الميدان .

وعندما رأى ماكريذوس هذا ، أنه عند الضربة الأولى استسلمت الاماكن التي أدرجتها لكم ، له جلس وكتب الرسائل وبعث بالرسل الى الامبراطور الذي كان في المدينة ، يروي له أنه ذهب الى المورة بجيوشه وأن الرب ومباركة الامبراطور قد منت عليه يكسب ثلث المورة بدون ضربة سيف ، وعليه ، إذا أرسل اليه الملك عددا كبيرا من الجيوش أكثر مما سلف إعطاؤه له ، فإنه برجائه في المسيح وبمباركة الامبراطور سيربح كل أرض المورة له / (٩٧)
(٤٦٢٩ ـ ٤٦٦٥)

وبسماع هذا ، كان الامبراطور سعيدا جدا ، وعليه دعا الدمستق الكبير الذي كان أخا له وقال له : أخي » أريدك أن تذهب من هنا الى المورة وأن تأخذ معك ألف رجل من الخيالة تنتقيهم ، وصبوا الاجور للمرتزقة والهيربيرا ، وأعطوهم ما يريدون ودع كاتا كونزيذوس أيضا يذهب معك لأنه جندي جبير وشهير ، وانهبوا بأسرع ما يمكنكم لمساعدة ماكريذوس الذي أرسلته من قبل للاستيلاء على المورة .

واذ سمع الدمستق الكبير الامر الذي أعطاه له أخوه الامبراطور بنفسه أسرع لتجنيد زهرة رومانيا ، وصعدوا الى ظهر الشواني والناقلات ووصلوا الى مونمفاسيا في خمسة عشر يوما . والآن بعدما نزل الدمستق الكبير أخو الملك في مونمفاسيا سأل عن المكان الذي يمكن أن يجد فيه ماكريذوس فأخبر بأنه متمركز في ميسترا مع جيوشه ، ومنها كان يحاصر ليكيمونيا ، »وهو ينتظر جلالتكم يوما بعد يوم ، يا سيدي » . وعند سماع ذلك أسرع بالذهاب الى ليكويمونيا وانضم الى ماكريذوس وتشاورا معا حول كيفية التقدم ، وعلما بأن الأمير كان في كورنث وشكا في أن تكون قواته معه ، وعليه أعطيت المشورة بأن يذهبا الى المورة حيث سيجدون الأرض غير محمية فيأخذونها وقسموا السرايا في الجيش ، وكان لديهم ٦,٠٠ فارس شكلوا منها ثمان عشرة سرية كانت كل ثلاث منها تضم ألف رجل . وكان لديهم من الجنود المشاة ما يفوق الحصر ، لأنه كان لديهم قوات غارد ليفوس الى جانب تلك التي من تساكونيا من الدرنغوس الملنغز وقوات من حين الكبيرة (٩٨) وثار الاسكورتدو وانضموا اليهم .

وانطلقوا خارجين ومروا عبر منطقة (جبل) هلموس (٩٩) ووصلوا الى فيلغوستي أقاموا معسكراتهم ، وأحرقوا الربض (١) وتركوا القلعة فقط ، وفي اليوم (٤٦٦٦ ـ ٤٦٨٧) التالي دخلوا سهل كاتيانيا ، وامضوا الليل بجانب الغدير (٢) ، وانطلقوا صباح اليوم التالي وذهبوا الى ليودورا وذهبوا رأسا في اتجاه انحدار نهر

الفيوس ، ونهبت سرية مــن الاتــراك الى ايزوفــا (٣) وحــرقت الدير ، انظر أي عمل شرير جــرى ومــن هناك ذهبــوا رأســا الى برينتسا وعســكروا هناك ونصــبوا خيامهــم ، والآن وقــد رأى الاسكورتنو العدد الكبير من الجيش استسلموا بسرعة وارتــكبوا بذلك خطأ كبيرا ـ وعملوا لهم كمرشدين وصحبوهم .

والآن عند هذه النقطة أترك الكلام هنا واتكلم عن الدمستق الكبير وجيوشه وسأخبركم ، وبدقة عن المعركة التي جرت في ذلك الوقت في برينتسا (٤) لقد هزم ٣٠٠ من الفرنجة هذه الجيوش ، كمــا أنوي أن أقص فيما بعد في كتابي ، وعندما ذهب الأمير الى كورنث في ذلك الوقت من أجل الترتيب لمجيء دوق أثينا والأمراء الآخرين من الجزر مع جيوشهم (٤٦٨٨ ـ ٤٧٢٥) لمســاعدة الأمير حتــى يقــاتلوا الدمستق الكبير مع جيوشه ، وبقي في المورة كنائب شرعي له السير جين دي كاتافاس وهو أحــد فــرسانه ، وكان رجــلا حــكيما عالي الخبرة ، وجنديا شجاعا ومحترفا للسلاح ، وكان ذا بلية مــروعا لاصابته بالروماتزم ، ولم يكن يتمكن من الامساك بسيف أو رمــح (٥) وعندما علم بالمعلومات بــأن جيوش الملك التــي كان الدمســتق الكبير يقودها ، كانت قادمة ، بذل جهودا عظيمة ، وجمع من سهل المورة أكبر عدد ممن استطاع جمعه ، وحالما جمعهم قدر العدد الذي كان به وكان الموجودون ٣١٢ فقــط فــأخذهم وذهــب الى جــوار كرستينا ، وهو يبحث ويستعلم عن مكان وجود جيوش الامبراطور التي كانت تغزو سهل المورة . وعندما علم بــأنهم قــد وصــلوا الى بيرنتزا دخل وادي رافــد الالفيوس ليسير بجــانبه . وعندهــا وجــد علامات مسامير (الاحذية) لذلك الجيش فتتبعها ، وعندما وصــل الى دهليز ضيق يدعى عند الفريدي لكوتوبيتسا (٦) ، ورأى الحقول مليئة بالجيوش ـ وكان الوقت مــا يزال مبــكرا نوعامــا ، ســاعة الفجر ـ هــاجموا تلك الجيوش فجــأة ، ولم يفقــد الســـير جين ديكاتافاس الجندي المهول شجاعته في الجيش الذي كان من الممــكن أسره ، وأصبح متهللا ودعا رفاقه وبلهفة كبيرة تحدث اليهــم بهــذا القول الحكيم : « أيها الســادة والأصــدقاء والاخــوة والرفـــاق

المحبون ، إنكم جميعا يجب أن تبتهجوا وتحمدوا الرب حيث أتى بنا الى مثل هذه النقطة الذاتية ، بهذه الجيوش العديدة التي تفوق الحصر حتى نهزمهم .انتبهوا أيها الأخوة الطيبون ويجب ألا يخشاهم أحد منكم لأن هناك العد من القوات ، وللسبب الذي ساقوله لكم ، إن الأفضل لنا أن نقاتل هؤلاء ، من أن يكونوا أقل ولكن من عرق واحد ، إن هؤلاء أجانب كليا ومن أراض مختلفة (٤٧٢٦ ـ ٤٧٧٦) وبلا خبرة في قتال رجال الفرنجة ، ودعونا لا نتردد لحظة لئلا يكتشفونا وبانقضاض مفاجيء دعونا نهاجمهم برماحنا ، إن خيولهم كلها أفراس هرمة وإن واحدا من خيولنا يسقط ١٥ منها في كل مرة . وعلاوة على ذلك أقول هذا أيها الأخوة اني اذكركم بالجهد الذي يبذله أمراؤنا وأهلونا من أجل احتلال الاراض التي نملكها . وإذا لم نستعمل ارادتنا هذا اليوم ليدافع كل منا عنها بحياته ولنريهم بالسلاح أننا جنود مسلحون فلن ننقذ في الوقت نفسه أملاكنا ، إذا لم نتصرف بهذه الطريقة التي اخبركم بها (٧)

يجب أن لا نعتبر من رجال السلاح ، أو أن نملك اقطاعات ، ولا أن نشرف في العالم . وفي العام الثاني فكروا أيها السادة والرفاق أنه إذا منحنا الرب وحظلنا أن نهزم هنا أخا الملك وتلك الجيوش بالقتال وبالسيف فإنه طالما بقي الفلك على جبل ارارات سيبقى طويلا اطراء هذا اليوم ، الذي سيضفيه علينا كل من سمع به . والآن فإني كما تعرفون وترون غير قادر على حمل السيف أو الرمح أو الوقوف في المعركة التي أخوضها ولكني قد أبدي الحماس نفسه مثلكم ، وساحمل راية الأمير وستربطوها في يدي حتى احملها بثبات ، إن بامكاني أن أرى خيمة الدمستق من هنا وأقسم لكم بالمسيح أني سامضي اليها رأسا . وكل من يراني أتردد أو أبدي أي خوف فاني اعتبره عدوا للمسيح أن لم يمزقني على الفور .

وكان الدمستق الكبير جالسا في خيمته فوق رابية صغيرة في قرية بريندتزا ، (٨) وحالما ظهر الفرنجة فجاة ، قال هذا

القول ـ وقاله هو بنفسه : « أرى فطورا صغيرا حقيقا قد جاء نحونا » ، وأمر ثلاثة سرايا فقط بالركوب والخروج ، ألفا من القوات الراكبة لمواجهة الفرنجة ، وركبوا بسرعة وهاجموا الفرنجة وقابلوهم بصدمة الكل برماحهم ، وفي هجمتهم الأولى سقط ثلث الفرنجة عن خيولهم لأنه كان مقابل كل واحد من الفرنجة عشرة رماح رومية اسمعوا (٩) وبتأييد المسيح ، إن أحدا من الفرنجة (٤٧٦٨ ـ ٤٨٠٩) لم يتلق طعنة من رمح ولم يجرح أحدا ، وأولئك الذين سقطوا عن خيولهم عادوا اليها بسرعة وامتشقوا سيوفهم وبدأوا يقتلون الروم ، ومضى وقت طويل ضاع الفرنجة فيه عن النظر ولم يعد يمكن تمييزهم من بين الروم ، ومعهم كان السير جين دي كاتافاس واخبركم أنه عندما نهض الفرنجة من حيث سقطوا وحيث ألقى بهم العدد العظيم من الروم أرضا أخرجوا سيوفهم الصغيرة من أغمادها وبدأوا القتال ، وذبحوا الروم كما يحصد المنجل من المروج ، وضاع الفرنجة بين الأعداد العظيمة ولم يعد الدمستق الكبير يراهم بالمرة من حيث كان يجلس في خيمته ، ولكن السيرجين كاتافاس ذا الذاكرة المباركة لم ينتظرهم حتى يقاتلوا الفرنجة ورأسا جهد مرة بعد أخرى ليصل الى الخيمة التي رأى من بعيد أنها كانت خيمة الدمستق ورأى بعض من اشترك في هذه المعركة وشهدوا أنهم رأوا فارسا يمتطي حصانا ويحمل سيفا مجردا ويشق الطريق دائما حيثما كان الفرنجة . وقالوا واكدوا أنه كان القديس جورج وأنه أرشد الفرنجة وأعطاهم الشجاعة في القتال ، وقال آخرون إنه الثيوتوكس المقدس الذي كان في ايزوفا ، الدير في احرقة الروم في رحلتهم ، فكان غاضبا ، وما يزال بعضهم يقول إنه بسبب الحنث باليمين الذي أقدم عليه لمهاجمته الأمير بسبب كلمات غير صادقة وروايات لا أساس لها ـ فإن الرب والثيوتوكوس المقدس قد غضبا وأعطيا النصر للفرنجة وكانا غاضبين من الروم .

وبدأت المعركة في الساعة الأولى ووصل الفرنجة في ساعة

الظهر الى الخيمة حيث كان الدمستق الكبير يجلس وعينه بلا انقطاع على الجيش ليرى ما يجري لفرنجة الورة ، ولم ير فرنجيا واحدا بل الروم فقط فرفع يديه (٤٨١٠ ـ ٤٨٤٧) يحمد الرب ويفسر هذا بأن الفرنجة قد فقدوا . وهكذا بينما كان يقف وهو يحملق في الجيوش ظهرت أمامه فجأة أعلام الفرنجة وعرف أعلام جيش الفرنجة ، وكانوا يتقدمون نحو الخيمة التي راوا أمامها صولجان أخي الملك الدمستق الكبير فأرسل صرخة صغيرة ثاقبة بأعلى ما أمكنه ، في الغلمان الذين كانوا يتولون خدمته : « أنهم هناك احضروا حصاني يا أغبياء (١٠) أيها التركمان ، أنظروا الى أعلام الفرنجة الذين تغلبوا علينا ».

ولكنهم عندما رأوا السيوف المجردة التي كانت تتقدم نحوهم ـ وكان يحملها الفرنجة وهي مضرجة بدماء الروم ـ سعى كل منهم لينجو بنفسه ، وعمدوا الهرب الى أي مكان استطاعوا بلوغه . وركض واحد كان حصيفا وصحبا لشرفه ليحضر حصانا كان واقفا وهو مسروج بالفعل ، وكان أفضل ما لدى الدمستق ، وساعد سيده الذي ركبه بقفزة ، ووجد أحد سكان هذه الأرض ممن كان يعرف ويألف أرض بريندتزا . فأرشده وصحبه ، فذهبا من ليفتزا الى كابيل (١١) مسافرين عبر أماكن وعرة برية حتى لا يكتشفا ، وشقا طريقهما بحذر وبراعة حتى وصلا الى ميسترا ، وهي التي كان متلهفا لبلوغها.

وعندما رأت جيوش الرومان التي كانت في بحرنيتزا أن الفرنجة وصلوا الى خيمة الدمستق وأسقطوا صولجان الملك ، استدار الجميع الهرب ، ولم ينتظر أحد ليرى الآخر يذهب . لماذا أخبركم بكل هذا التفاصيل ومن الذي يكتبها كلها؟ وكف الفرنجة عن ذبح الروم ، ووجدوا عائقا مخيفا في غابة برنيتزا ، تلك المنطقة الصعبة والكثيفة الاشجار ، وفيها دخل كل الروم الذين هربوا فنجوا ، إذ أنه لولا وجود هذه الأماكن الصعبة التي اخبرتكم عنها هناك ، وقد توصلت الى هذا

الاستنتاج من معلوماتي ، (٤٨٤٨ ـ ٤٨٧٣) لما نجا أحد منهم ولاستطاع الفرنجة ابادة العرق الرومي كله وتوقف الفرنجة عن قتل أعدائهم ، عندما رأوا أيضا انهم هربوا الى الجبال وأنهم هربوا الى الغابات في اتجاه الجيش (١٢) ، فتخلوا عن بعضهم وعادوا. واستولى الفرنجة على ٠٠٠ ر١ حصان في هذه المناسبة.

وعندما عرف أهل القرى في تلك الأجزاء بهذا ، اندفع الكبار والصغار ليحصلوا على بعض المكاسب من سلع الروم . ثم بقي الفرنجة في سيرفيا . (١٣) لأنهم كانوا مثقلين بالقدر الكبير من الغنائم التي استولوا عليها ، ونهبوا في اليوم التالى رأسا الى فليزيرى

وأمر السير جين دي كاتافاس ذلك الجندي المصاب بالنقرس بكتابة الرسائل وبعث بالرسل الى الامير في قلعة كورنث ، ووصف له بتفصيل كبير الامر وما جرى ، وكيف سارت معركة برنيتزا والعمل الذي قام به ، والنصر الذي تحقق لهم ، وعندما سمع هذا رفع الأمير يديه وحمد الرب ، والثيوتوك بالغ الطهر ، وابتهج من جانب وأسف من جانب ، ابتهج لان قواته انتصرت ومن جانب اخر (٤٨٧٤ ـ ٤٩١٣) حزن لانه لم يظهر ٠٠٠٠ وكلما عذبه أكثر كلما كان عليه أن يكون أكثر حيطة تجاهه ، (١٤) ولو أن الأمير وقتها قد أخذ الأمير الاعظم والجيوش من الجزر وجيوش اليوروبس ونهب مسرعا رأسا الى نيكلى ، ودخل تساكونيا ونهب كل المنطقة لتوجب على الدمستق الكبير تبديد وقت طويل في تحضير حملته ، ولكن بقدر ما يعمل المرء سيجد عمله أمامه (١٥) والآن أترك الكلام عن الامير وسأروي لكم أخبار الاعمال التي ارتكبها الدمستق الكبير في ميسترا حيث كان .

لقد وصفت لكم من قبل أعلاه في كتابي العمل الذي قام به

الدمستق الكبير في برنيتزا مع جيوشه ، وعندما تمكن من الوصول الى قلعة ميسترا ، أقام حزينا ليلا ونهارا وبكى ، أولا بسبب خجله أمام عيون الرجال ، وثانيا بسبب الامبراطور الذي كان يخشى منه كثيرا لئلا يمسك به ويسمل عينيه ويلقي به في السجن ، وأن يلقى الموت ظلما ويفقد حياته ، لقد أرسله الامبراطور مع جيوشه ليغزو كل أرض المورة ، وإذا علم أن الفرنجة ربحوا المعركة وأنهم كانوا مجرد ٣٠٠ مقابل ٢٠,٠٠٠ كيف يمكن أن يستقبله وكيف يحييه ، بل إنه سيقول إنه خائن ويعدمه ، وأراحه نبيل فرنجي ، وكان رجلا خبيرا محنكا ، جاء من المدينة كمبعوث من الملك اليه فخاطبه قائلا : يا امبراطوري باسم المسيح ، لماذا تحزن هكذا؟ألا تعرف أن الحملة تعتمد على الحظ؟ وذلك الذي يعرف المكر ويتصرف بخبث يغوي الشجاع ويسلبه شجاعته ، فالمكر والخبث يغلبان الشجاعة. لقد رأيت المكر الذي استعمله نائب الملك في بلاغونيا فكسب المعركة ، ولم يفكر بالقول بأنه كانت لديه جيوش كثيرة ، ولكن طبق المكر وترك الشجاعة جانبا . إن كل الرجال في كل الدنيا يعرفون أن الفرنجة شجعان في استعمال الرمح والسيف ولهذا السبب فإن نائب الملك (٤٩١٤ ــ ٤٩٦٠) الداهية أطلق الالمان لمواجهة الفرنجة ولمواجهة فورة غضب رماح الفرنجة ثم كان هناك لديه الهنغار والترك ، والكومان يطلقون السهام عليهم جميعا ، فرنجة وألمان فذبحوا خيولهم وربحوا المعركة ، ولولا رماة السهام الذين قتلوا الخيول ، لما ربحوا المعركة .

وترى ايها النائب ياسيدي كيف اخطات في هذا ، هناك عندما قاتلك الفرنجة في برينتزا ، ونقلا عن ما قاله قادة الجيش ، الذين كانوا معك في المعركة لقد وثقت امارتكم في كثرة الجيش التي كانت مع سموكم وازدريتم الفرنجة لانكم رايتموهم قليلا ولم تبالوا بالمرة كيف يمكنكم ان تقاتلوهم وهو امر لايفعله الجنود الحكماء ، إذ لاتهم كثرة عدد رجال الجنود ولاشجاعتهم ، بل ينبغي على الانسان الاخذ بجانب المكر والحيلة لدى القتال بحرص ضد عدوه ، لان الحكماء

يقولون – وقولهم حق – ان المهارة والحيلة تغلب الشجاعة ، وكان يجب عليك ايها الامبراطور ان تعد رماة سهامك عندما رأيت الفرنجة يزحفون قادمين نحوكم وان تذبحوا الخيول التي كانوا يركبونها ولو فعلتم ذلك لهزمتموهم على الفور ، ولتغلبتم عليهم ، ولكنكم امرتم الف من حملة الرماح بمواجهتهم قاصدين ومتوقعين انهم سيهزموهم ، وفعلتم هذا بارادتكم ، ياسيدي إني اعيد ثانية ما قلته قبلا وهو الصدق حقا ان فرنجيا واحدا على الحصان يعادل عشرين روسيا . ولقد رايتم ياسيدي ماحققه الفرنجة في برينتزا ، وكم كانوا عقلاء وذوي خبرة وقد راوا الاعداد الكبيرة من القوات والجيوش التي لديكم ، فركبوا بسرعة الى وسطهم والقوا رماحهم وسحبوا سيوفهم الصغيرة وذبحوا قواتكم ولم يكن رجالكم قادرين على الانتشار والتباعد ، لقد تصرفوا بالطريقة نفسها التي يتصرف بها الذئاب عندما يدخلون الحظيرة ويبعثرون الغنم ، حسنا لانحزن على ما حدث لان هذا كما ترى هو دائما طريقة الاغارة ، التي تربح احيانا واحيانا اخرى تخسر ، سري عن نفسك ياسيدي وخذ طريقا اخر ، ومر كل جيوشك بالتجمع وفكر كيف تربح الشرف والمنفعة كي تصلح الشيء الذي حدث ، لقد علمت بان الامير قد عاد الى اندرافيدا وان الجيوش التي جاء بها قد عادت الى بلادها فلنذهب (٤٩٦١ – ٥٠٠٦) رأسا اليه هناك في اندرافيدا واذا تجمع لديه من سوء الحظ ما يجعله يخرج للقتال فلاتخرجوا لقتاله بغطرسة ، بل قاتلوه فقط بالبراعة والمكر ، لاتدخلوا المعركة معه بالرماح بالمرة بل مر وا الاتراك الذين يحملون الاقواس ان يطلقوا سهامهم على الخيول حتى يسقط عنها الفرسان ، واذا حالفكم الحظ واسرتم الامير ، استبقوه وستربحون ارضه أيضا .

وصدق الدمستق الكبير الفرنجي ، واستدعى النبلاء والقادة الذين كانوا معه وروى لهم بالتفصيل ما اخبره الفرنجي به : فامتدحه الجميع وقالوا انها نصيحة جيدة وامر بدعوة كبار القادة في الجيش وقال لهم : « ايها النبلاء القادة اسرعوا فورا حتى نمضي الى مدينة اندرافيدا حيث يوجد الامير » واستدعى كانتاكوزينوس

وماكرينوس ايضا وقص عليهم كل ما قاله الفرنجي ومشورة النبلاء والقادة ايضا . فاجابوه قائلين « لماذا تتردد ايها النائب والدمستق الكبير ، الايصدمك هذا العار الذي جلبه الفرنجة لنا والذي لحقنا كما لحق سموكم ، وسنفعل اي شيء من اجل شرفنا حتى لايدعونا الملك كفارا وخونة ؟ ولكننا نفكر في الفصل ، الاكثر عدم ملاءمة لنا في السنة اذ يجب ان نتصرف كجنود عقلاء ، وحتى الان لانعرف ايهم قتل وايهم هرب حيا وايهم احتفظ بخيوله ، لقد انتهى الصيف الان ورحل ، وقد جاء الشتاء وتوقفت الجيوش عن الاغارة ، فلنتطلع لتلك الفترة ، لنفتش قواتنا لنعرف ما بقي لنا منها واذا وهبنا الرب وحظنا ان نعيش حتى اذار ، من ربيع السنة وهو الفصل المناسب للجيوش فليجهزوا انفسهم بالاسلحة ويتقدموا للمعركة في ذلك الوقت ، ياسيدي لنجهز انفسنا وحيثما نجد الامير ، دعونا نهاجمه ولنمت معا أو نثار» وعليه اجاب الدمستق الكبير : « الرب يعلم يا اصدقائي ورفاقي واخوتي انه ليدمر عقلي وياكل قلبي ان الذي قضى علينا لاقيمة له . ولو اننا قاتلنا وحاربنا الامير وهو رجل عظيم ومشهور في العالم ، وهزمني في المعركة لاعتبرت ذلك تعزية ، (٥٠٠٧ ــ ٥٠٤٣) ولكن ان يقال ان مريضا بالروماتزم وعالة قد هزم اخا الامبراطور في الميدان ، زد على هذا ما هو اسوا من السوء انه بثلاثمائة هزم ١٥ ٠٠٠ » وحسبما قرر هؤلاء النبلاء في المجلس : الدمستق الكبير مع ماركينوس ومعهم كانتاكوزنيوس الجندي الشهير هكذا عقدوا العزم ورتبوا الامور ، ومر الفصل ، ومضى الشتاء ثم جاء شهر اذار وربيع السنة ، وعندها خرج جميع الرجال باسلحتهم للمعركة وساروا برا وبحرا . وامر اخو الملك ، الدمستق الكبير ان تتجمع الجيوش معا ، وتم الحشد في حقول سابيكوس في المروج الواسعة ، بين الينابيع العذبة .(١٦) لقد جمع جيوشا كثيرة من اراضي مختلفة ، ومشاة من تساكونيا ومن درنغوس الميلنغر ، وحتى من بعيد من مونمفاسيا ودرنغوس سكوريا ووزعوا سراياهم واستعدوا وانطلقوا ، وامضوا الليل في كاريتانيا ومضوا رأسا الى رافد الالفيوس ، واجتازوا برينتزا وحملقوا في تلك البقعة وتذكروا ما مربهم فيها ، ثم تابعوا

طريقهم ، وهم يفكرون في تهديد الفرنجة وفي أن الشيء الذي دمرهم يجب ان لايحدث لهم مرة اخرى اذا خاضوا المعركة ليهاجموا بالرماح فانهم هذه المرة سيقتلونهم بالسهام . وكانوا يسألون في كل مكان اين يمكن ان يجدوا الامير غوليوم وعرفوا انه ينتظرهم في اندرافيدا ، المدينة التي طوقها تماما بالخنادق ، وكان ينتظر هناك ليلقاهم بكل جيوشه .

ودعا الدمستق الكبير قادته ، وطلب مشورتهم حول كيفية التقدم ، واعطاه المشورة التالية سكان الارض ممن يعرفون الارض والممرات الجبلية ، وطلبوا منه (٥٠٤٤ ـ ٥٠٧٥) ان لايعمد الى الذهاب الى اندرافيدا لان الممرات كانت صغيرة جدا بالنسبة لقواعد اطلاق العرادات وطواقمها (١٧) لقد اخذوه رأسا الى قرى سيرجيانا وجعلوه يتمركز فوق هذا المكان ، نحو الشرق حيث كانت هناك كنيسة تدعى سانت نيكولاس في نيسيكلي وهو اسم البقعة ، وهناك نصبوا خيمته وعسكروا (١٨) وكانت سفوح التلال والحقول غاصة بالجيوش ، التي عسكرت تلك الليلة وامضت ليلتها هناك .

وعندما بزغ فجر اليوم التالي وعند ساعة الشروق جاء الامير الى هناك مع جيوشه ، وجاء الفرسان ومشاة القوات كلهم معه فوزعهم في سرايا ركون ثلاثة فيالق ، وخرج من سيرجيانا لمواجهة الروم ووقفت الفيالق مستعدة للمعركة (١٩) .

وكانت طلائع الروم وفيالقهم تحت قيادة كانتاكوزينوس ذلك الجندي الجدير بالثناء الذي ركب منطلقا من سريته على ظهر جواد وكان يحمل كنانته ويمسك برمحه واندفع بسرعة الى الامام والى الخلف بين الفرنجة وبين سراياه مظهرا خيلاء كبيرة ، وبعدما مضى جيئة وذهابا ثلاث مرات بهذا الجواد نزل وابدل الحصان وركب غيره ، وبدا يعرض نفسه امام الفرنجة هذا ما فعله كانتاكوزينوس وهو يركب جيئة وذهابا وينخس بمهازه جواده مزدريا بالفرنجة

لانهم كانوا قلة ، وبتعال وغطرسة لان الروم كانوا جمعا غفيرا من القوات ، واكثر بكثير مما كان الفرنجة ، حسنا لقد مضى جيئة وذهابا ، راكبا جواده وجمح الحصان وحمل الفارس الى كوم من العليق قريب من الامير وتعثر الحصان فسقطا معا (٥٠٧٦ ـ ٥٠٩٩)

واذ رات قوات الأمير هذا ، هرعت الى البقعة حيث قتلوا الفارس وأسروا الحصان .

وعندما راى الدمستق الكبير وماركينوس ايضا أن قائد جيوشهم قد فقد ، بدا لهما كما لوانهما قد ماتا أيضا ، جميعا ، فركضا وحملاه ميتا بعيدا ، ونفخا الأبواق وسكنا (٢٠) دون حركة .

وأراد الأمير أن يذهب في اثر الروم فأخرج الجميع المشروع من ذهنه وأوقفوه قائلين.انه اذا تحشد الروم وأحاطو ا بالخيل برماة السهام ، فانهم سيقتلون خيولهم بسهولة جدا ، وعندما تموت الخيول ويسقط الفرسان سيهزموهم كالنساء والأطفال ، وسيفقد الأمير شخصه اولا ثم ارضه وكل قواته ، وعليه ما أن سمع الأمير هذا حتى مال نحو أفكارهم وعاد الى بيته في اندرافيدا (٢١) .

وسافر الدمستق الكبير مع جيوشه مباشرة الى حقول نيكلي ووصل الى هناك ، وأحاط بالقلعة وطوقها ، وهناك غلبه قدره ، وهو قدر لم يكن يتوقع ان يحيق به (٢٢)فالأتراك الذين تحت قيادته والذين (٥١٠٠ ـ ٥١٢٨) كان تعدادهم ألفا ، طالبوا بأجورهم باعتبارهم من المرتزقة مدعين اجور ستة أشهر (متأخرة) ، غير أن الدمستق الذي كان مكتئبا لانه وقد ذهب ليحرز النصر والفخر على الفرنجة تلقى فقط كارثة وعاد مجللا بالعار ، أعطى الأتراك جوابا متغطرسا وقال لهم بغضب : « ألا تشعرون بالخجل ، أيها الرجال او لا ترعوون من مطالبتي بالدفع وقد أصبحتم أغنياء في أرض الامبراطور بسلع الفرنجة وسلع الامبراطور ؟ لقد كنتم حفاة عراة

عندمـا جـئتم الى هنا الى المورة (٢٣) » ، وكنتـم كلكم معـوزين ، وبعدما جئتم هنا الى ارض الامبراطور ، وبمباركة الامبراطور ومن حكمه ومن الغارات الكثيرة التي قمنا بها ضد الفـرنجة ، اصـبحتم أغنياء ـ وما الذي حصل عليه الامبراطور ؟ أخبروني ما هو كسبه وماأخذه من أجركم ، والا فاني من جـانبي لن أعطيكم في حياتـكم أجرا مطلقا ».

وعندما سمع الأتراك ذلك أطلقوا صرخة عالية : « مـا هـذا الذي تقوله لنا ، أيها الأمير لماذا تهيننا ؟ في أي معركة وضـعتنا ولم نأت بمأثرة ما ؟ لقد ذهبنا الى برينتزا ، هناك حيث جـاء الفـرنجة ولم تدعنا نقاتل ولكن أرسلت نبلاءك الرومـان الذين حـاربوا الفـرنجة بالرماح ، أنظر ما الذي كسبوه لك وأي شرف قدموه لك . أي رومي سمعت به قاتل فرنجيا وهزمه بالرمح أو السيف ؟ والكل يعرف هذه الحقيقة ، في اسـتعمال الرمـح والسـيف الفـرنجة جنود ، ولكننا (٥١٢٩ ـ ٥١٧٤) خجلنا في ذلك اليوم بسبب الروم وهربنا من المعركة لا بسبب خطأ من جانبنا لقد فعلنا ذلك لنبقى في صحبتكم ولم نكن بأي حال مذنبين ، ومرة أخـرى قـدمتمونا الى اندرافيدا ، وهددتم بالقضاء على الأمير وعندمـا وصـلنا الى هناك واصـطف الفرنجة في مواجهتنا على مـرمى سـهم منا ، وكلهـم مسـتعدون للقتال ، وبسبب مقتل رجل واحد فقد بخطأ منه أعطيت الأوامر بـأن نستدير ونهرب كالنساء ، هل أمرتنا قط بالقتال وتراجعنا قـدما أو عصيناك ؟ من الذي يمسك أجر خدامه وأجره يسمح له بان يذهـب على الفور الى حيث يريد وبالنسبة لنا ايها الامير من هـذه اللحـظة اعطنا هذا الاذن طالما انك تحجب عنا اجرنا وسنحييك ونمضي لنجد في مكان اخر الوسائل للعيش كجند » .

وذهبوا الى المعسكر وتشاوروا على الفور ، ثم هدموا معسـكرهم وقفزوا الى سروجهم وخرجوا من نيكلي واخذوا طريقهم ، ثم عادوا مرة أخرى ، وذهبوا الى كاريتاينا ، وعسكروا هناك ذلك المساء .

وعندما سمع الدمستق الكبير بذلك ، وعلم أن الأتراك انطلقوا من هناك وغادروا ، وقد كانوا خيرة كل الجيش ، وأنهم ذهبوا الى الأمير ، الذي كان عدوه ، لعن بقوة هذا العمل وكان من الممكن أن يذهب في أثرهم ولكن أحكم من كان في رفقته قال له وأشار عليه بأنه ليس مما يشرفه أن يذهب وراء الأتراك ، وهو أخو الامبراطور ، لأن الأتراك كانوا مهتاجين جدا من الغضب ، « واذا حدث أن جدوا وقاتلوك ، او اذا تصادف أن دخلوا في معركة معك ، وهزموك بالصدفة في المعركة فان هذا سيكون شيئا غير لائق ويستدعي اللوم ، ولكن لماذا لا توجه النبلاء والرجال الحصيفين ليلحقوا بهم ويتوددوا اليهم بالكلمات ، ويخبروهم بأنك قد وعدتهم بأنهم سيحصلون على اجرهم وهبات اضافية كما يستحقون » وعين اثنين من النبلاء ، الذين كانوا من المدينة وأعطاهم مرافقة ، وخرجوا بعد ذلك ، ووصلوا الى كاريتانيا ذلك المساء ، وهناك وجدوا الأتراك الذين كانوا معسكرين ، وذهبوا الى ملك الذي كان قائدهم ، ونزلوا عن خيولهم . ودخلوا مباشرة الى الخيمة وحيوه نيابة عن الدمستق اخي الامبراطور وعن النبلاء وقالوا له : « إن النبلاء مندهشون (٥١٧٥ ـ ٥٢٠٦) مما حدث ، ومن أنكم انفصلتم عنا بسبب كلمات فقط ، وتخليتم عن قسمكم وخدمتكم العسكرية وانتم مدينون بها للامبراطور وذهبتم لهذا السبب ، عودوا أيها القادة الى قسمكم وسندفع لكم على الفور كل أجوركم ».

وعليه أجابه ملك نفسه وكذلك قادة الجيش التركي بتلك الكلمات : « إنه لا يليق أن يرجع أخو الملك عن الكلمة التي أعطاها ووعد بها رجلا معرضا للموت ، وعليه نعلن أيها القادة والرفاق أن الدمستق الكبير بنفسه قد أخبرنا وأكد لنا كلمته بأنه لن يدفع لنا مطلقا ، عودوا وأخبروه عنا أننا لن نعود مطلقا ولن نخدمه ابدا يوما واحدا في حياته ، لأننا لم نجد في مدة حياته أي صدق عنده ، وقد سمعنا أن الفرنجة يتمسكون بالصدق ونحن في طريقنا لنجدهم ونعيش معهم » .

وكان النبلاء قد هموا بالعودة عندما أخبرهم صديق تركي ، وأشار عليهم بالبقاء هناك معهم تلك الليلة فقد يغير الأتراك فكرهم حول العودة .

ولكن الأتراك كانوا متلهفين للذهاب الى الأمير ليخدموه ونفخوا الأبواق في الصباح الباكر جدا ، وأخذ« الأتراك البوكسيني » وكان هناك الكثير جدا منهم ، وأخذوا خيامهم وانطلقوا على الطريق رأسا ، على طول رافد نهر الفيوس ، وذهبوا الى بيرغاردي ، في اتجاه فليزيري . والآن بعد أن وصلوا الى سيرفيا (٢٤) . دعا ملك اثنين من أتراكه ، وهما أحكمهم (٥٢٠٧ ـ ٥٢٣٧) وكانا يتقنان لسان الروم ، وأعطاهما مرافقة أيضا مؤلفة من اثني عشر آخرين من الأتراك ، وأرسلهم الى الأمير في اندرافيدا ليخبروه بسبب مجيئهم اليه . وعندما جاءوا الأمير غوليوم ، استقبلهم بتشريف عظيم ، وعليه أخبروه لماذا تركوا أخا الامبراطور ، وأنهم كانوا قادمين اليه بسبب حكمه الجيد وسمعته الطيبة ، في الحرب التي كان يشنها على الامبراطور ، وأنهم سيساعدونه بقدر ما يستطيعون وحسب مايقدرون ، لأن لديهم معلومات جيدة وأنهم يعرفون بحق أن الامبراطور كان يقاتله بقصد غير مشروع ، في حين أن كل رجل يحمل السلاح عليه أن يقاتل عدوه بحق الرب ، وعليه أيها السيد الأمير إذا كنت في حاجة لخدماتنا فإننا سنخدمكم مدة سنة كاملة واحدة ، وإذا كنت من جهة اخرى في غير حاجة الينا كأمير لنا وسيد فاننا نستعطفك ونتوسل اليك ان تأمر بان نعطى طريقا حتى نذهب الى مكان يمكننا منه العبور للذهاب الى ارض الاناضول حتى نعود الى مقاطعاتنا » .

واستدعى الأمير الحكيم والجيد انسلين دي توسي وهذا لقبه ـ كان أخا القيصر المسمى سير فيليب ، والذي كان في ذلك الوقت في سجن المدينة ـ لأن السير انسلين كان رجلا خبيرا ، وكان يعرف بدقة عادات ولغات الرومان ، وامره ان يذهب لمقابلة الأتراك (٢٥) . فأخذ فرسانا وسرجندية معه (٥٢٣٨ ـ ٥٢٧٤) بلغ عددهم ٣٠٠

وذهب الى فلزيري ، وهناك وجد قادة الجيش التركي ، وكان ملك سعيدا جدا ، وعليه خاطبه قائلا : « لقد كنت متلهفا جدا لرؤيتك ، يا سيدي وأخي ، لأنك رجل خبير من رومانيا ، وتعرف كيف نتكلم وتعرف كيف تتكلم معنا بالتركية » ، وبناء عليه بدأ يتحدث ويخبره عن القصد والغاية التي جاء من اجلها الى هناك . وأجابه الآخر بتعاطف عظيم : « مرحبا يا صديقي ، مرحبا يا أخي ، لقد كنت متلهفا جدا لكي أراكم هنا في صحبتي » . وبعدما احتفلوا هناك في فلزيري ، ذهبوا ذلك المساء الى اندرافيدا .

وخرج الأمير للقاء الأتراك وكان كل قادته معه ، والتقوا عند نهر الياكوس (٢٦) وترجل الأتراك عن خيولهم الآن ، كما هي عادتهم وانحنوا أمام الأمير الصغار منهم والكبار باستثناء ملك وسالك اللذين كانا قادتهم ، واللذان استبقاهما السير انسلين ، فلم يترجلا عن جواديهما كما فعل الأتراك الآخرون .

وحياهما الأمير بنفسه باحترام ، وأخذ بأيديهما وبدأوا السفر ، ولم ينتظر الأتراك حتى يعسكروا ، بل بدأوا الكلام وهم راكبون ليقصوا على الأمير شكاواهم والقصد والهدف من ذهابهم الى هناك ، وكيف أمسك الدمستق الكبير أجورهم ومكاسبهم التي كسبوها وهم لم يعملوا شيئا خادعا تجاهه ، ولم يظهروا أي عدم احترام للامبراطور ، « لقد استأذننا منه كجنود في وضح النهار وذهبنا علنا وجئنا الى هنا ياسيدي ، لنخدمك بالسلاح وبصدق كما هي طريقة الجند (٢٧) ، وعندما نخدم تحت امرتك ، نطلب منك كمكافأة وانتفاع ان تأذن لنا لنمضي في سبيلنا. ونحن بصدق (٥٢٧٥ ــ ٥٣١٥) يا سيدي لم نأت الى هذه الأجزاء لنبقى طويلا ، أو لنقضي وقتنا كله

أعد جيشك كله اليوم يا سيدي وفي الغد دعنا ننطلق ضد الروم ، وضد الأخ غير مؤمن للامبراطور ، فلم نجد في هذا المرء صدقا مرة واحدة . لقد حجزنا بالقول واخذ أجورنا منا ، ان هذا يا سيدي ما

نريد وهذا ما نطلبه منك اذهب معنا الى هذا المدى وقف في مأمن وسنقاتل الشعب الرومي ، واذ سمع الامير هذه الكلمات سر جدا ، كما سر كل قادة الفرسان والفرسان ، ودعا السير انسلين مستشاره الأول وطلب منه وامره أن يعد الجيوش لينطلق من الغد متبعين طريقهم ليذهبوا رأسا الى حيث الروم والدمستق الكبير في ليكديمونيا ، وكما امر الأمير جرى ، وفي الغد انطلقوا من اندرافيدا ، وأخبر الاتراك الأمير بصدق بأنهم علموا من سحرتهم الذين يعرفونهم أنهم في أول معركة سيخوضونها مع الدمستق الكبير سيهزمونه (٢٨) ، حسنا وحالما خرجوا من اندرافيدا ، ركب الاتراك منذ ذلك الحين وما بعده في جند المقدمة ، وكان لديهم مرشدون أهليون ، كانوا يرشدونهم وسافروا حتى وصلوا بعد أربعة أيام الى كوبرونيتزا ، قرب أركاديا ، ووصل الاتراك وعسكروا في بقعة تدعى مونترا ، وهي ذات ربيع جميل (٢٩) وبعد أن أقاموا معسكرهم عمدوا الى مشعوذيهم ووجدوا كما كشفوا لهم ، وكان صدقا أنهم في اليوم التالي السبت سيقاتلون عند الجبال التي يمكنهم رؤيتها من هناك واستدعوا الفرنجة الذين اتخذوهم كأدلاء معهم وقالوا : « أيها النبلاء : قودونا الى حيث يوجد الأمير ، اذ يجب أن نتحدث معه حول المنافع والشرف التي سيحصل عليهما » . وعندما سمع الأدلاء هذا قفزوا الى سروجهم ، واخذوا قادة الجيش التركي ، ملك وسالك ، وخمسة (٥٣١٦ ـ ٥٣٥٢) عشر رجلا وذهبوا الى الأمير في كوبرونيتزا .

واذ رآهم الأمير وقف تشريفا لهم وقال « مرحبا أيها الأتراك ، مرحبا يا أخوتي » وقدموا بدورهم الاحترام بين يديه وقالوا له : « لتعلم يا سيدي الملك ، وخذها منا (٣٠) أننا من الغد السبت سنمضي لخوض المعركة ، وعليه فقد جئنا الى هنا لنخبرك بهذا » . وعليه ودعوه وعادوا .

وعندما سمع الأمير ذلك تحدث مع قادته وطلب منهم المشورة حول ما الذي عليهم فعله ، وعليه أشار عليه السير انسلين وقال

للأمير : « اعلم أني عرفت من جاسوس من رجالي بأن أخا الملك ، الدمستق الكبير قد ذهب الى فيلوغوستي بكل جيوشه ، لأنه علم بأننا في الطريق الى هناك ، وأنه قد أخذ الممرات وكل الشعاب في القمم المرتفعة المعروفة باسم ماكري ـ راجي (٣١) وعليه فان رغبتي ، يا سيدي ، أن يركب الأتراك الذين يركبون في مقدمة جيوشنا ، في الوسط ، لئلا يأخذهم الخوف ويعمدون الى الهرب ونفقد المعركة وآمالنا معها . وعليه اقترح يا سيدي اذا أمرتم أن تكون لي السرية الأولى في كل الجيوش ، وليكن الأتراك في الوسط وتكون أنت في جند المؤخرة ، وأن أمضي قبل كل السرايا ، وآمل برحمة المسيح أن أحقق مأثرة كما يرضى الرب ، تنظرون اليها بترحيب ».

وعندما سمع الأمير هذا وافق عليه جدا وقال:« يسرني يا سير انسلين أن يجري هذا كما قلت ، وزع السرايا وليكن الأتراك في الوسط » . وعليه ذهب السير انسلين الى الاتراك وتكلم معهم متملقا ومطريا كرجل داهية وقال : « أيها الأصدقاء والأخوة أمر الأمير طالما أنكم أجانب ولا تعرفون الأرض أن تكون لي السرية الأولى وأمضي في المقدمة وتأتون أنتم بعدي والأمير خلفكم ، وحيثما تدعو الحاجة تقدمون (٥٣٥٣ ـ ٥٣٨٠) المساعدة »واعتبر الأتراك هذا عندما سمعوه مجاملة .

وعليه ركبوا وبدأوا الرحيل ، وتحرك انسلين خارجا بسريته ومر بكلامي وذهب الى ماكري ـ بلاجي (٣٢) ووقف هناك برهة صغيرة فقط وقال لرجاله : أيها القادة الأصدقاء والأخوة اعلموا صدقا أن أخا الملك ينتظرنا هنا بجيوشه ، الآن في هذه الجبال وتلك الشعاب التي نمضي اليها ، ولهذا السبب أتوسل اليكم أن تبقوا في أذهانكم ، أن لا يفاجئونا أو أن تؤخذوا بالخوف ولكن كحكماء ، وجنود عليكم أن تقفوا بثبات في المعركة كرجال شجعان . لتحصلوا على ثناء الجيش كله ، لأنهم ـ ليمنع الرب ذلك ـ اذا دفعونا للهرب سنخسر المعركة وكل الامارة » .

والآن عندما سمعوا هذا وعدوه أنهم جميعا سيموتون معا من أجل شرفه .

ونفخوا ابواقهم وبدأوا يتسلقون منحدر ماكري ـ بلاجي ووصلوا الى فونيمين (٣٣) .

وبينما هم منحنون الى الامام في تسلقهم التلال ، قفز الروم المختبئون عليهم وهاجموهم في صخب ولهفة لأنهم كانوا اكثر عددا ، وشتتوا الفرنجة الذين تراجعوا مسافة رمية سهم على المنحدر

وكانت سرية الروم تقتلهم وتقضي عليهم (٣٤) واطلق الأسير انسلين صرخة عظيمة قائلا :(٥٣٨١ ـ ٥٤١٣) يا شباب ويارفاق هبوا نحوهم لاتدعوهم يلحقون العار بنا ، واحتشد الفرنجة واستداروا نحو الروم بالرماح والسيوف ، واندفعوا نحوهم ودفعوهم نحو قمة تل فونيمين ، ومن الصخب الكثير الذي أطلقه الروم سمعت سراياهم الزئير ، وهرعت فرقة أخرى لمساعدتهم ، وبسبب أعداد الروم الكبيرة التي هاجمت الفرنجة استولى عليهم الذعر مرة أخرى واستداروا يهبطون المنحدر الى مسافة رميه سهم ، وأنا أحدثكم بصدق ، وهكذا سحقوا كما تسحق الصقور الغربان ، وعليه زأر الأسير انسلين بقوة وقال لرفاقه :« أيها القادة ما هذا؟ الا تخجلون بالمرة من أننا نلعب كالأطفال ، أن هذا يبدو كما لو كنا نلعب لعبة قاعدة السجن (٣٥) لنمت اليوم بدلا من العار ، هبوا معي جميعا ولنندفع نحو أعدائنا » فخجل الفرنجة من هذه الكلمات وتشجعوا جميعا واندفعوا نحو الروم وبدأو يصرعونهم بالسيوف ، وإذا رأى الروم هذا ذعروا الروم وهربوا متسلقين نحو قمة التل فوق الشعب.

وعندما سمع الاتراك الذين كانوا قادمين في السرية الثانية الزئير الذي كان الروم يطلقونه ، ركضوا بسرعة صاعدين المنحدر الى مسرح الاحداث :وعندما راوا أن الروم قد تملكهم الذعر هاجموهم

بنشاط وقتلوهـــم وأبـــادوهم ، وعندمـــا ســـمعت زئير وذعر الجيش ، انطلقت سرايا الروم الاخرى التـي كانت في كمين هـاربة كل الى اي مكان تصل اليه .

ثم دعا السير انسلين رجاله ــ وكان له أخ يسـمى قيصر ، كان محتجزا في سـجن المدينة ــ (٥٤١٤ ــ ٥٤٣٩) وقـال « مـاهذا الفعل الشرير الذي أحاق بـي لم (٣٦) لم يؤخـذ هـذا النبيل أو الاثنين من القادة حتى يمكن مبـادلتهما بـأخي ، الذي هـو قيصر رومانيا والذي هو محتجـز في سـجن المدينة في القصـور القـديمة؟ (٣٧)

وعليه بسماع هذا قـال أحـد السرجندية ويدعى بيرين كيومين ، كذا كان اسمه (٣٨) :ماذا أنال يا سيدي منك إذا دللتـك عليهـم ؟ فقال السير انسـلين كل مـا تتمنى الحصـول عليه سـوى حياتي ، وشرفي أو شيء ينعكس عليهما ».

وبسماع العرض الذي قدمه السير انسلين له ووعده له ، قـال له هذا السرجند :« تعال معي لأريك أين هـم » ، وأخـذه وذهبـا الى جـرف بين الجبلين ، في جـرف حيث تقـف اليوم قلعـة غاريكي (٣٩) يا سيدي في الاسفل هنا في الجرف يوجـد الدمسـتق الكبير وكافالاريتس ، والى جانبهما ما كريتوس من الجانب الآخـر مـن الجرف (٤٠) ، ويحتجزهم ثمانية من الاتـراك ويتـكلمون معهـم ويهينونهم ويؤنبونهم كثيرا ، لقد امسكوا اجـورهم وجعلوا منهـم أعداء لهم » وعندما صعد السير انسلين الى الجرف ونظر فيه عرف هؤلاء القادة ــ عرفهـم جيدا مـن الأسـلحة التـي كانوا يحملونها ــ أطلق صرخة عظيمة وقال للاتـراك : ومـا هـذا الذي تفعلونه ، يا رفـاقي (٥٤٤٠ ــ ٥٤٧٥) واخـوتي؟ انتبهـوا ولا ترتكبوا خيانة ، وأحضروهم هنا على الفور تحت حراسة مشددة ».

وعندما عرفه الاتراك من الاسلحة التـي كان يحملهـا قـالوا : انه

السير انسلين الذي يدعونا وبسرعة جردوهم من الاسلحة وقادوهم اليه وأحضرهم الاتراك اليه . فرفع يديه وحمد الرب ، لانه أخبر وصدق أنه سيفتدي أخاه بهم ، وأمر بأن ينفخ بوقه واخذهم ونهب بسرور كبير الى فيليفوستي حيث اعطاهم للأمير الذي اعطاه هدية كبيرة وشكره بحرارة.

والآن عندما تجمع الجيش الفرنجي في فيليفوستي ، اجروا احصاء ليروا ويعرفوا أي قوات أسروا ، وبناء عليه قاموا بالعد ووجدوا الحقيقة : أن لديهم في المعتقل الدمستق الكبير وماكرينوس ، وأنهم قد أمسكوا أيضا بكافاليرتسس ، واحتجزوا ٣٥٤ قائدا وسيفا ستادز ، وكان هؤلاء جميعا يحملون لقب نبيل ، ووجدوا معهم نبلاء أقل شأنا وقوات أخرى تبلغ خمسة أضعاف ، ألف واحد وثلاثين وأكثر (٤١) .

والآن أمر الأمير أن ترتاح كل جيوشه في مدينة فيليفوستي ، ثم بعد أن استراحوا ذلك اليوم ، وفي الغد ، جاء الى هناك كل قادة اسكورتا ، الذين كانوا جميعا في ثورة ، وطلبوا منه الرأفة والعفو عنهم ، وعليه توسل اليه كل فرسانه أن يعفو عنهم وأن يظهر لهم الرأفة ، وعفا عنهم الأمير الرجل الحكيم والسيد الطبيب الدمث الهادىء الطيب المعشر في كل الأمور ، وأمر بأن يقسموا له بأن يكفوا عن طرقهم الشريرة وأن يخلصوا له ، وفي الصباح التالي امر الامير غوليوم أن يحضر أمامه الروم مع أخي الامبراطور وكل القادة حتى يراهم بعينيه ويتكلم معهم . وعليه احضروا له أولا الدمستق الكبير ، أخو الامبراطور الذي كان يتلهف لرؤيته والذي أصبح الآن في سجنه ، وعندما جاء نهض للقائه وحياه بلطف ، وأمسك بيده وأجلسه الى جانبه . وبعد ذلك جلس كل القادة أيضا ، ثم بدأ يتكلم وقال موجها كلامه للدمستق أنه قد أقسم قسما للامبراطور بأنهما سيقفان معا دائما وأنهما سيحافظان على السلام وإن لا يزيفا قرابة التعميد التي دخلا ها ، ولكن أخل بها وتخلى عن قسمه وشن حربا وأرسل جيوشا ، وخرب أرضه بالنهب والاعمال

الحربية ، التي ارتكب بهـا الامبـراطور جـريمة ، وعليه إن الرب المنتقم لكل شيء وقد رأى العمل الشرير الذي ارتكبه والقتل ، غضب عليه ، أنظر مـا الذي حـدث إن العمـل الشرير الملك انعـكس عليكم ، أنظر ياأخي وسيدي كم من القـوات حـولك ٠٠٠ ر١٨ في الواقع من الفرسان والمشاة في برينتزا حيث جـئت بثقـة في النفس عظيمة مع التأكد والتوقع أن تستولي على الدورة ، وتحـول الأمـر حتى أن ٣٠٠ من الفرنجة من مؤيدي كسـبوا المعـركة وذبحـوكم .

ومرة أخرى يا أخي في ماكري بلاجي ، أنظر فقط ما حل بـكم مـع جيوشكم ، والآن اني لا أتباهى ولا أمتدح نفسي ولكني أحمـد الرب العادل على كل شيء لأنه انتقم لي كما رأيتـم بـأنفسكم ، وبعـد أن انتهى الامير غوليوم من كل مارواه وخاطب به الدمستق [٤٢] ، بـدأ الدمستق الكبير بدوره يتكلم وقدم هذا الجواب للأمير : « ليس لدينا أيها الأخ أمير الدورة تكافؤ حتى أستطيع الكلام كما ينبغي في هـذا الأمر ، لأني وللأسف في السجن وقد وضعتني في القيود . وحتـى لو قطعت رأسي (٥٥١٨ ـ ٥٥٥٧) هنا على الفور فإني مع ذلك أمتنع عن الكلام والاجابة على كل ما قلته لأنه كان أتهاما لي ، في الحقيقة إنه لا يليق برجل نبيل التفاخر عندما يعطيه الحظ النصر في المعـركة ويضع في يديه وتحت سلطانه من كان يقـاتله ، وكان عدوا له ، ذلك أن حظوظ الحرب شـائعة بين الجميع ، وفيمـا قلتـه عن سـيدي امبراطور الروم ، أنت مخطىء جدا ، لأن كل الناس تعرف ، وهـذا هو الصحيح أن أرض الدورة ليست لك بالارث الشرعي وأنك حصلت عليها بالقوة الاستبدادية ولكنها ملك امبـراطور الروم ، وبـالثورة الخاطئة جاء اسلافك واسـتولوا على الأرض التـابعة للامبـراطور وتملكتموها ، أنظر كيف أن فعلكم وذنوبكم قد جاءت بكم الى أراضي سيدي المقدس الامبراطور ، ولو أنه أراد كامبراطور فإنه كانت لديه القدرة لفعل كل ما يريد بكم في ذلك الوقـت ، ولكنه رحيم ومسـيحي مع كل الناس ، وبشرف حرركم من السجن ، وبناء على اتفاق أطلق سراحكم ، واقسمتم له قسما بأنكم لن تهاجموه أبـدا هـو وقـواته بالاسلحة ، وجعل منكم قريبا بـالتعميد حتـى تقـوى صـداقتكم

(٤٣) ، وبعد أن تحررتم من هناك مـن سـجنه وجـئتم هنا الى المورة لم تتوقفوا دقيقـة ، فجمعتـم بسرعة جيوشـكم وحملت أنت نفسك السلاح وذهبتم الى ليكيمـونيا حتـى تتبـاهوا أمـام العالم ، وأظهرتم نصرا فـارغا يتبـدى على نمـو بـاهر في امارتكم ، ولم تكونوا مخلصين للامبراطور وتخطيتم القسم وفعلتم به العكس في كل ما وعدتم بـه ، واندفعتـم للحـرب بعـدما تسلحتم ، وبهذه الطريقة اندفعتم لارتـكاب جـريمة متغـاضين عن قسمكم ، ولوا نكم تـذكرتم فقـط مـا حـدث لكم في بيرغونيا ، لن تتباهوا مطلقا ولن تقللوا مـن شـأن الآخـرين ، لأن محـن الحياة والاغارة ايضا لا تأتي كلها معا ولا هي تستتبع اي تباه ، وعلى كل حال أن عفو اللحظة والاسف على سجني قد جعلاني أقول أكثر مما يجب (٥٥٥٨ ــ ٥٥٩٧) أن أقول ، ولهذا هـل لكم أن تعـذروني أنتم والقادة الحضور »

وأجابه الأمير بحكمه بهذه الطريقة :« أنت يا أخي الدمستق قـد قلت أشياء كبيرة بسبب مرارتك ، وكرجل نبيل أتحملها منك لأنك في معتقلي ، ولكن لو أن هذا حدث في مكان آخر وكنت حرا وقلت بـأني حنثت بـالقسم الذي أعطيتـه بنفسي ، لو كنت الامبـراطور نفسـه لقاتلتك حتى الموت ، ولكن لأنك في السجن فإني أسامحك ، إن الكل يعلم أني لم ارتكب جريمة ، وبسبب الاكاذيب التـي أرسـلها الروم الخونة اليه من هنا ، صدق الامبراطور كلامهم ، وأرسـل الجيوش وبدأ يشن الحرب ووقع في الخطيئة وليغفـر له الرب الغفـور ، لأني أبلغت أن الآخرين قد خدعوه وصدق كلامهـم وأرسـل الجيوش الى هنا وبدأ حربنا وحدثت لنا الاضرار ».

وبعد هذا صمت الجانبان والقوا اللوم على المونمفاسين . وبعـد هذه الاحداث حدد الأمير بعد التشاور في ذلك المساء السجون التـي سيوضع فيها كل واحد حسب مرتبته وأرسـل الدمسـتق الكبير الى كلومونس وفي رفقته كفالاريتس أيضا ، وبعث بالآخرين الى قـلاعه الاخرى . وحالما أرسلهم كما أخبرتكم ، أمر بـاستدعاء كل قـادته

وكذلك أحكم من في جيشه كله ، وتشاور معهم حول كيفية التصرف ومن اين يبدأون واين يذهبون ، وأين يركبون ، وقال بعضهم إنهم يجب أن يذهب كل منهم الى بيته ليستريح برهة ، لأنهم كانوا متعبين ، ووافق الآخرون الاكثر حكمة ، والذين جرحوا على أن يذهبوا الى ليكيمونيا ، لأنها كانت مدينة ملائمة جدا لراحة الجيش ، وكانت لديهم سلع وافرة لاعاشتهم/ (٤٤) وليتولوا حصار ميسترا . وإذا وجدوا مصادفة وسيلة للاستيلاء على القلعة فإنهم سيكونون بذلك قادرين على الاستيلاء على الأرض ، وعلى الفور تحدث الأمير مع السير انسلين الذي كان قائدا عاما لكل الجيوش ومع جين دي كاتافاس (٤٥) مارشاله ، وأمرهما باعداد الجيش ليتحركوا للذهاب الى ليكيمونيا كما كانت المشورة .

واستعدوا بلهفة وانطلقوا ، وفي الصباح التالي وصلوا الى هناك ، وعندما وصلوا وجدوا التقارير التالية : إن معظم الروم في تلك المدينة قد ذهبوا مع عائلاتهم الى قلعة ميسترا ، وعندما وجد الأمير أن المدينة خالية من القوات المحلية للقلاع ، أسف جدا وبدا له ذلك سيئا ، وعلى الفور خصص وأعطى بيوتهم لغيرهم ليعيشوا فيها وكانوا من فرنجة الارض ، رجال اخلاص وكانت له ثقة فيهم أكثر من غيرهم ، ثم أمر قواته أن تذهب لنهب المدن والضواحي الثائرة . وزود مدينة ليكيمونيا بالمؤن ، ووضع فيها قوات وامر باعمارها وتقويتها بكل طريقة تلزم.

واجتاحت جيوشه فاتيكا وهيلوس ونهبت الأرض حتى مونمفاسيا ، ثم اغارت على دراغاليوس ودمرتها مع كل تساكونيا ، وعاثت فسادا في الاراضي. وموّنوا المدينة وازدهر الناس الذين وطنهم الأمير في المدينة ، وهكذا قرر أن يمضي الشتاء هناك.

ولكن كما هي حظوظ ومصائر الرجال توقعوا شيئا وغلبهم شيء آخر ، والخطر الذي يحل لا يعرقل ولو قليلا ، ولم يمض شهر كامل حتى جاءت التقارير الى الأمير غوليوم بأن السكوتيذو قد ثاروا وانضموا الى الروم وأقاموا حصارا على قلعة أراكلوفون ووضعوا

قواتا من كاريتانيا بنية الاستيلاء عليها لصالح الامبراطور ، وبسماع هذا ومعرفته به مون الأمير مدينة ليكيمونيا بالقوات والسلع لاعاشتهم وأخذ جيوشه وذهب الى فيلوغوستي ، واستدعى قادة كل جيشه ، وتشاوروا معا حول من اين يجب أن يدخلوا درونفوس سكورتا ، (٤٦)

٥٦٤٢ ـ ٥٦٨٠) لأن الأرض كانت وعرة مع جبال وممرات ومع شعاب قاسية جدا ، واستدعى الأمير الجندي الداهية ، السير انسلين وتحدث معه بفكر نزيه قائلا : إنك أيها الأخ والرفيق قد فعلت الكثير من أجلي ، وبالمشورة والحكمة التي حصلت عليها منكم ، حققت انجازات عظيمة ومآثر عسكرية أفدت منها كما يعرف الجميع في الحرب التي كانت بيننا وبين الملك ، ولهذا السبب ، يا أخي وصديقي وقريبي اتوسل اليك مرة خرى وأصلي كي تفعل هذا لي بسبب الأذى والاساءة التي ارتكبت ضدي من قبل ابن أختي أمير كارتيانيا الخائن الكبير الذي تخلى عن أرضه وعني أنا خاله ومني أخذ ملكيته وذهب يستعرضن نفسه في مملكة أبوليا ،

(٤٧) وأيضا بسبب الشر وخيانة الاسكو ريتنو الغادرين ، أولئك الخونة الذين خانوني أكثر من مرتين الآن ، وجهوا الاتراك الذين أصبحوا معنا مجددا ليدخلو الدرنغوس في سكورتا ويدمروا ويحرقوا البيوت والقرى وليذبحوا على الفور أي رجل يأسرونه ويستبقون لانفسهم كل ما يحوزونه منهم ».

وعليه لاحظ السير انسلين كرجل حكيم أن الأمير كان مكتئبا وقال ووعده بأنه سينفذ ما أمر فأجابه بلطف : « لا تغضب أيها الأمير ، وسأفعل ما تريد وما يرضيك » ودعا القادة : ملك أولا ، وروى له بالتفصيل أمر الأمير ، وانه امرهم بأن يدخلوا درنغوس اسكورتا وأن اي غنيمة أو أسلاب يغنمونها هو وأتراكه هي لهم يحتفظوا بها ملكا لهم ، وعندما سمع ملك هذا ، ابتهج وأعطاه الجواب وهو أنه سيفعل ذلك بشوق ، وابتهج الجميع الصغير والكبير . ووزعهم الى ثلاث سرايا ، وأعطاه انسلين مرشدين محليين (٥٦٨١ ـ ٥٧٢٧) وغزا الاتراك سكورتا

وهيمذوا وأحـرقوا ودمـروا الارض والمدن ، وكل مـن أسروه مـع سلاحه قضوا عليه ، وكل من فر على أقدامه رجمـوه وأحضروه الى الأمير وسلموه له ، وعندما رأى قادة سكوتا هذا هربوا الى الجبال والقمم العالية ، وتشاوروا معا حول كيفية التقدم ، وأرسلوا رسولا الى الأمير وطلبوا منه الرأفة ، واذكروا أنهم ثاروا ، وكان كل مـا فعلوه بسبب مختلف ، وتشاوروا معا حـول مـا يجـب فعله حـول الحرب مع الروم ومع الامبراطور ، لأن أميرهـم ، أمير كاريتـانيا كان غائبا.

وعندما سمع الأمير هذا لم يستقبلهم وتوسل الرجال العظام وكل القادة الذين تعاطفوا مع أمير كارتيانيا وصادقوه وهم راكعـون اليه ورجوه أن يعفو عن القوات طالما أنهم يطلبون الرحمة ، وفعل الأمير ذلك وهو الرجل الداهية بسرور ، وأرسل على الفور رسولا الى ملك ليوقف غارته وأن يمثل أمامه ، وعندمـا سـمع هـذا ذهـب الى فيليفوستى وحيا الأمير ، الذي اسـتقبله جيدا . ثـم صرف الأمير قواته ومضى كل منهـم الى راحتـه وذهـب الى الدورة (٤٨) مـع حاشيته ، ورحل معه كل من كان من الدورة وأيضا ذهب معه الأتراك وعندما وصلوا الى هناك طلبوا من الأمير تسريحهم طبقـا للاتفـاق الذي ابرموه عندما جاءوا للمرة الأولى الى أندرافيدا وبدأ رحيلهم له محزنا جدا وأمر بأن يوفـوا أجـورهم كاملة وأعطـى ملك هـدايا وأحسن اكرامه ، وسأله أن يبقي معه ستة أشهر أخرى فقـط ثـم يترك ، فأجابه الآخر وهو يقول له يقول له في تـواضع :« ياسـيدي ومليكي ، ارجوا أن تكون خدمتي قـد حققـت الفـائدة والكسـب لك ، عندما أبرمت الاتفاق مع عدو الرب الدمسـتق وهناك في المدينة وعدت أن أخـدمه عامـا واحـدا والآن مضى عامـان وأنا بعيد عن اراضي ، وكل من معي وهم رفاقي ، لن يسمحوا لي بالبقاء هنا في هـذه الأرض ، وأتـوسل اليك ياسـيدي أن

لا (٥٧٢٨ ــ ٥٧٥٨) تضـغط علي لأن علي قسـما أن أعود الى املاكي » .

وبرؤية هــذا لم يزد الامير في الضــغط عليه ، وأعطــاه الهــدايا وعطايا الصداقة وأعاده مع المرشــدين وذهــب إلى والاشـيا ، وفي الحقيقة حدث أن بقي بعضهم عن رغبة في المورة ، وأمــر الامير أن يعمد الجميع وجعل من اثنين منهم فرسانا وأعطاهم الاقطاعات بــل انه حتى زوجهما وانجبا أطفالا مازالوا في المورة ، في فونارفي ورنتا (٤٩) .

وعند هذه النقطة سأتحول عما كنت أخبركم به ، وسأخبركم عن هذا الجندي ، أمير كاريتانيا وماذا كان يفعل وأين كان خلال فترة حرب الأمير ، ولم يكن في المورة خلال الحرب مــع الروم في الوقــت الذي أتحدث عنه فاستمعوا لما أقول : ! خلال الحرب التي كانت بين الأمير غوليوم والامبراطور مع أخيه ، وقع أمير كاريتــانيا (الذي كان يعد أحد الفــرسان القــادة في الدنيا وكان جنديا شــهيرا في كل المملكة) بالخطايا الشيطانية وحبه لامــرأة ـ التــي حلت بــكثير الدهاء الآخرين والجنود ـ لقد وقع في حــب زوجــة واحـــد مـــن فرسانه ، السيرجين كانافاس ° وهكذا كان اسمه ، وأخذها مــن المورة وذهبوا الى أبوليا ، قائلين انهما سيحجان إلى الأديرة وإلى كنيسة القديس نيكولاس في باري ، وانهمــا ســينهبان الى رومــا وأيضا الى كنيسة رئيس الملائكة العليا والدير العظيم الذي على قمة الجبل قرب مانفرينيا (٥٠) ، وفي ذلك الوقت(٥٧٥٩ ـ ٥٧٩٦) كان الملك مانفرد ملكا في ابوليا واميرا لصقلية وكل المملكة (٥١) ، وعندما علموا من أناس معينين جاءوا وأخبروه بان آمير كاريتانيا قد جــاء الى أبوليا وهو ذلك الرجل الشهير بالسلاح في كل رومــانيا ، وقــد دهش جدا واستعلم ليعــرف هــدفه وقصــده ومــا الذي كان يريده هناك ، وأخبره بعض من سمع بهذا من حاشيته بأنه جاء للحج الى الأديرة المقدسة التي كانت في مملكته ، ولينهب الى رومــا ، وتــكلم شخص آخر ، وكان رجلا داهية ،(وكان خبيرا وسأل قــريبا معينا له ممن كانوا في حــاشيته أمير كاريتــانيا ، الذي أخبــره بــالسبب والهدف الحقيقيين) مــع الملك سرا وأخبــره بــالسبب والهـــدف الحقيقيين وبكل الحقيقة ، أن أمير كاريتانيا الجندي الشهير قد وقع

في حب زوجة أحد فرسانه وأحضرها من الدورة وجاء هنا الى أبوليا (لأجل) أن تكون عشيقة له وليستمتع معها .

وبسماع هذا ، اضطرب الملك مانفرد جدا وأسف للعار الذي حاق بالجندي النبيل ، وأرسل فارسا مع مرافقة جيدة ، الى السيرجيوفري ، أمير كاريتانيا ، وتكلم معه نيابة عن الملك وطلب منه ان يذهب الى هناك لرؤيته ، لأنه كان بحاجة لأن يتكلم معه ، وبسماع هذا قفز الى حصانه وذهب مع كل حاشيته الى الملك .

ونهض الملك مانفرد عند رؤيته لتحيته وأخذ بيده وأجلسه بجانبه وبدأ يسأله لماذا جاء الى هناك ، وأجاب الآخر ، أنه قد جاء ليحج الى الأميرة التي ندر بزيارتها في ذلك الوقت في المدينة ، وهو في سجن الامبراطور في مدينة قسطنطين .

وأجابه الملك قائلا :« اني مندهش بشعوركم الطيب وبالثناء عليك ، ومن أنك كجندي شهير بالسلاح ، تخليت عن أميرك السيد غوليوم أثناء مثل هذه (٥٧٩٧ ـ ٥٨٤٤) الحرب العنيفة والحاجة الى الجيش ، والتي كان يتابعها مع امبراطور القسطنطينية .

ان النبيل يجب أن لايكون كذابا ، ولايحسن هذا بجندي مشهور مثلك ، وكل رجل نبيل يزعجه هذا ويحزن عندما يسمع بأنه مخطىء يا أمير كاريتانيا أريدك أن تعلم أني أعرف الحقيقة والسبب والهدف من مجيئك وهذا يحزنني بحق الرب ، بسبب شهرتك ، أن الأمر بشع وانا أكره أن أتحدث فيه ، ومع ذلك فإني حبا لك سوف أشجبه ، حتى تفهم بوضوح الخطأ الذي فعلته ، لقد تخليت عن الامير ، السيد الذي تتبعه ، والذي يتحمل عبء حرب عنيفة مع الامبراطور وحنثت بقسمك بأن تكون مخلصا ، والذي أقسمته من قبل ، علاوة على شيء قبيح آخر وخيانة عظيمة ، اذ أنك أخذت

زوجة الفارس التابع لك وانت تهيم معهـا ، في حين أن هناك قسـم بينك وبينه ، وعليه وحيث أن الثناء عليك مشهور فـاني أعطيك مهلة طويلة ، خمسة عشر يوما لتخرج مـن أرضي وأن تـذهب الى الدورة لتساعد سيدك الأمير في الحرب التي يشنها على امبـراطور الروم ، فاذا وجدت في أرضي بعد مرور الأسبوعين فـاني أقسـم لك بتـاجي وبنفسي بأني سآمر بقطع رأسك على الفور »

وعندما سمع السيرجيوفري أمير كاريتانيا ان الملك قـد كشـفه بنفسه وأخبره بالجريمة وبـالخطأ الذي ارتـكبه ، ومـن الخجـل والشعور بالعار اللذان أحس بهما أمام الملك ، تلعثـم في قـوله ولم يجد مايقوله ، ولكنه اجاب الملك بـأفضل مـا استطاع :« سـيدي الملك ، أتوسل اليك وأقع بين يديك انك في كل ماقلته لي كنت تتـكلم كالرب لاني أعرف بنفسي الجريمة التـي ارتـكبتها ، واني أبجـل جلالتكم وأشكرها على هذا ، وعليه فاني سأرحل وأنطلق مـن هنا وسأذهب الى سيدي الأمير غوليوم » ·

وطلب الأذن بالرحيل فأذن له الملك ، وعاد الى معسـكره وأخـذ حاشيته ورحل مسرعا من هناك ، ووصل الى برنديزي خلال ستة أيام ، حيث وجد سفينة مستعدة فصـعد الى ظهـرها ووصـل الى كلارنتزا خلال ثلاثة أيام وسأل اين يمكن أن يجد الأمير وأخبره بـه مـن يعـرف (٥٨٤٥ ـ ٥٨٩٠) أن الأمير غوليوم كان في أندرافيدا ، وكان يعقد اجتماعا عالي المستوى ، يحضره كل القادة والأساقفة والنواب والفرسان وكانوا يتشاورون معا حول الرسائل التي تلقـوها ، وكانت الرسـائل التـي احضرت ليسـت جيدة جدا (٥٢) فقد نزلت قوة كبيرة مـن الجيش في مـونفماسيا وكان الامبراطور قد أرسلها لتعزيز قواته الأرضـية التـي أحـاق بهـا الخطر .

وعندما سمع أمير كاريتانيا ماأخبرتكم بـه ، وأن الأمير كان في اندرافيدا مع كل قـادته وفـرسانه ابتهـج كثيرا على هـذا

الأمل ، ولأنهم كانوا يحبونه فانهم سيضعون جميعا ضغطهم على أمير آخيا ليعفو عنه ، وأعاره أصدقاؤه هناك جيادا ، فركب بسرعة وذهب الى أندرافيدا ، واستقبله الجميع بسرور عظيم ، وطلب منهم جميعا كأخوة وأصدقاء قائلا : « لنرى الآن من منكم ياأقاربي وأصدقائي وأخواني يحبني حقا ، فلتساعدوني في الجريمة التي ارتكبتها ، لأنكم تعرفون جيدا أني أخطأت خطأ خطيرا في حق سيدي الأمير غوليوم ».

ووعده الجميع الصغير والكبير بمساعدته بكل قوتهم ، وأخذوه وذهبوا رأسا الى الأمير غوليوم وكان الامير غاضبا منه وأبدى له سخطا عميقا ، وكان له حق كبير ، لأن أمله كان فيه وكانت له أيضا ثقة في أن يحصل منه على مساعدة في كل مايحتاج اليه ، وقد تخلى عنه في وسط الجريمة التي ارتكبها ، فخلع نطاقه ووضعه حول عنقه ، وسقط بسرعة فوق البلاط طالبا الرحمة وقال للأمير في وجود الجميع :« إني ياسيدي قد ارتكبت جريمة وجئت لكي تحاكموني ،» وقال له هذه الكلمات وهو جاث على ركبتيه ، وخر الاساقفة وكل القادة والفرسان والآخرين بسرعة على ركبهم معه ، وهم يقولون للأمير في توسل : باسم المسيح أعف عن سيدنا ، واذا سقط في جرم مرة أخرى أقطع رأسه إنك تعرف يا سيدنا أننا في الحرب التي (٥٨٩١ ـ ٥٩٢١) نشنها نحتاج الى الأخرين ليساعدونا ، وأجابهم الأمير الحصيف والرحيم كما كان دائما قائلا :« أيها النبلاء اعرفوا هذا وافهموه جيدا ، ان أمير كاريتانيا هو ابن أختي وتابع لي وفي المقام الأول ، كلما أخطأ ، كلما كان حزني أكبر كثيرا لذلك ، ولنسامحه هذه المرة أيضا ،» وانحنى الجميع أمامه وشكروه ، وأعاد له أرضه وقلاعه ثم تكلم الأمير في حضور قواته :

« أيها القادة تعرفون جميعا الجريمة التي ارتكبها أثناء تجواله مع الأمير العظيم لقد حارب بالسلاح ضدي في الميدان ، وقد عفوت عنه كما تعرفون جميعا ، وأعدت له أرضه وأعطيتها له كمنحة جديدة

أبدية له ولأطفاله ، لأنه جـرد نفسـه بجـريمته ، وأريده الآن أن يملكها الان فصاعدا بالطريقة نفسها (٥٣) وطالما أنه قـد عفـي عنه ، فان أمير كاريتانيا جلس في المجلس مع القادة ، والأمير الذي كلمتكم عنه وكل الفرسان وطلب الأمير منهم النصيحة حـول قـوات الملك التي علم بقدومها » حيث أنهـا مشـيئة الرب والتيوتـوكوس المقدس وأن أمير كاريتانيا قد عاد الينا ، اعطوه الجيوش والقـوات حتى يمضي الى نيكلي ليتخذ موقعا للقتال هناك وليدافـع عن الأرض، و فيما بعد وعندما تـدعو الحـاجة سـوف نسـاعده جميعا (٥٩٢٢ ـ ٥٩٦١)

عند هذه النقطة ، اتخلى عن الكلام والرواية حول الأمير غوليوم وقواته وسأخبركم لاعرفكم كيف أن أخا ملك فرنسا الذي كان يدعى السيد شارل ، أمير بروفانس جاء (توجه البابا في الحقيقـة ملكا لصقلية) وكيف تصـاهر ودخـل في اتفـاقية مـع أمير المورة ، غوليوم ، واتخـذ ابـن الملك زوجـة شرعية له ابنة الأمير ، السيدة ايزابو ، مع معـاهدات واتفـاقيات أبـرماها مـع بعضهما بعضا والنتيجة أن ابـن الملك يرث الامـارة ويأخـذ الأمير أرضه من الملك .

وفي الوقت الذي اتحـدث عنه رزق الكونت الذي كان يدعى كونت دي انجو أمير بروفانس (٥٤) من زوجته الكونتيسه ثـلاث بنات جميلات تزوجت الكبـرى (وهـي الوريثـة) الأخ الأصـغر لملك فرنسا ، وكان يدعى السيد شارل الجندي الشهير ، الذي ورث مـع زوجته مقاطعة الكونت دي انجـو وكل ممتلكاتـه ، والآن أخـذ ملك فرنسا الأخت الثانية ابنه الكونت زوجة شرعية ، وبعـد ذلك بـوقت قصير أخذ ملك انكلترا الأخت الثـالثة للاثنتين اللتين ذكرتهمـا لكم كزوجة ، وجعل منها ملكة متوجة ، وبعد أن زوج كونت بـروفانس بناته الثلاثة كما أخبرتكم ، بوقت قصير ، تـوفي الكونت وبقـي في أرضه أميرا وارثا السير شارل أخو ملك فرنسا لانه تـزوج كبـرى الأخوات الثلاثة .

وفي تلك الوقت وفي تلك السنوات حكم الامبراطور فريدريك امبراطور المانيا مملكة صقلية والى جانبها امتلك ابوليا ، وأظهر العنف للبابا وأخذ منه كامبانيا اضافة الى روماغنا والسيادة على روما ونفي البابا الذي غادر روما (٥٩٦٢ ـ ٥٩٩٧) وهرب الى البندقية لئلا يقتله ، ومن هناك حرمة البابا والكنائس وكذلك حرموا أراضيه وأتباعه ، ولم تعد التراتيل تنشر ولايحتفل بالقداس ولايعمد الأطفال وكذلك لم تعد تتلى الصلوات على الموتى ولايزوج الناس ، وحرم الى الابد في كل الكنائس في كل الممالك في كل العالم النصراني ، وفي الأديرة ومن قبل الأساقفة في العالم كله (٥٥) .

وكان للامبراطور فريدريك ابن ذكي ، ويدعى مانفرد ، أمير سالرنو وكان له السيادة على كابوا وكل ماضمنها (٥٦) وتوفي الامبراطور فريدريك وتوج الملك مانفرد ملكا على صقلية وأصبح حاكما على ماكان والده يملكه ، وملك هو ايضا الاراضي والسلطة (٥٧) وكان طاغية دنس الكنيسة ، وعندما مر بعض الوقت كما أعتقد دعمت قضية البابا وعاد الى روما ، والآن عرف وفهم أن السيرشارل (كان يدعى الكونت دي انجو ، أمير بروفانس ، وكان أخا لملك فرنسا) كان جنديا مهيبا شهيرا في كل الدنيا ، وبالتشاور مع الأساقفة والكرادلة أرسل له رسالة ومثلها الى أخيه مع المباركة والتوسل والوعود الكبيرة بأنه اذا ذهب نيابة عنه ليحارب ضد الملك مانفرد (ذلك الطاغية الذي ملك الأراضي وممتلكات الكنيسة) وليخوض معه قتالا ويدمره ، ويستولي على أموال القديس بطرس كلها ويضعها تحت تصرفه لاستئجار الجيوش ، فان كل من يعتقدون بالمسيح وكل من عمدوا سوف يحملون شارة الصليب ويمضون معه وسوف يسلم له صولجان الكنيسة له ولأولاده بالوراثة وسوف يحيي الملك وسيوضع التاج على رأسه ، وسيكون ملكا على (٥٩٩٨ ـ ٦٠٢٤) صقلية ومملكة أبوليا (٥٨)

وعندما سمع السير شارل كونت بروفانس الشجاع ماوعد به

البابا بالغ التقديس وكتب له ، ولم يكن بأي حال ليقبل بـأن يتـولى هذه المهمة ، قائلا ومسوغا بأنه اذا تولاها فانه سيضطر ملك فرنسا وهو أخوه الى التنازع والدخول في حرب كبيرة مع الألمان وايضا مع الغيبلليين (٥٩) وسيتحمل خطيئة المذابح التـي ستحدث في الحرب وابادة الشعب المسيحي ، وعند هذه النقطة حدث هذا الأمر الذي أسـجله لكم الآن (٦٠) وأراد ملك فـرنسا أن يقيم احتفـالا واستقبالا رائعا لأقربائه ، وأبلغ ابن حميه ملك انكلترا ، وكتـب له حوله بطريقة ودية وسأله أن يحضر هو والملكة أخته ليجتمعوا معا في باريس لحضور هذا الاحتفال ، وقبل بمحبة خالصة وبدا له اجمـل مايمكن ، أن يلتقوا ويمرحوا ، وعليه صحب الملكة مع حاشية جيدة وذهبوا الى بـاريس وحـظيت الملكتـان بسرور عظيم بـاجتماعهما معا ، وفي أحد الأيام وكان يوم أحد ، كانوا ينظمون احتفالا عظيما والتقت الأختان الملكتان معـا الثـانية ملكة فـرنسا والثـالثة ملكة انكلترا (٦١) (٦٠٢٥ ـ ٦٠٨٦) وبينما كن يجلسن في غرفـة نوم الملك وصلت الأخت الأولى ايضا كونتيسة بروفانس التـي كانت تحتفظ بأملاك أبيها واذ علمتا أنها قادمة نهضتا لتحيتها ، وهـكذا معا كما هي طريقة النساء وحالما جلسن معـا قـالت ملكة فـرنسا وكانت الوسطى للأخت الأولى وهي الكونتيسة : « انه ليس مناسبا لك ايتها الأخت الطيبـة أن تجلسي معنا كمـا لو كنت مثلنا حيث أننا نحـن الأثنتين ملكتين ، اي أننا مـن فـئة متميزة ومنزلة مختلفـة عنك » وعندما سمعت الكونتيسة النبيلة هذا ، نهضت مـن الخجـل والمرارة وتركتهما على الفور وذهبت الى بيتهـا ودخلت غرفتهـا في فيض من الدموع ، وفيما بعد ظهـر كونت بـروفانس وسـأل مـن الخارج أين كانت الكونتيسة ، وأجابه أحدهم وقال له « سيدي انها هناك في غرفتها وأعتقد أنها نائمة » فـدخل الكونت عليهـا بهـدوء وعندما أدركت السـيدة النبيلة أن الكونت قـادم مسحت عينيهـا بمنديلها (٦٢) وعرف الكونت بأن عيني الكونتيسة كانتا منتفختان من كثرة الدموع فقال لهـا في غضـب مـا الذي يبـكيك ياكونتيسة ؟ وأرادت أن تنكر السبب ولاتبديه فـأقسم على الفـور

قسما رهيبا ، وقال « ان لم تخبريني بصدق على الفور لماذا تبكين فإني سأضربك حتى اجعلك تبكين حقا » .

وفي خوفها أخبرته بالحقيقة ، وهي أنها ذهبت لترى أختيها وجلست معهما للحديث : « ولأني جلست معهما كما لو كنا من المنزلة نفسها ، ولم أبد لهما فرقا لأنهما كانتا ملكتين ، بدأت أختي ملكة فرنسا في الكلام معي وقالت لي : « ليس صوابا يا أختي الطيبة أن تجلسي معنا كند من المنزلة نفسها أو الجدارة عينها ونحن ذوات جلالة وجدارة أكثر من كونتيسة أو دوقة أو أي سيدة أخرى » . وأنا بسماعي هذا حزنت على الفور بصورة موجعة حتى أني من شدة حزني تركت المكان وجئت هنا إلى غرفتي وبكيت كثيرا ». (٦٠٦٩ ـ ٦١١٦)

وعندما سمع الكونت هذا نذر نذرا رهيبا ، وقال لزوجته الكونتيسة : أقول لك هذا بالمسيح وأمه ، إني لن أستريح مطلقا ولن أرضى حتى تصبحي ملكة متوجة » .

وغادر على الفور وذهب إلى الملك ، أخيه ، ملك فرنسا وكان هناك يتحادث مع ابن حميه ، ملك انكلترا ، وانتحى جانبا وبدأ يتكلم معه : سيدي وأخي الملك ، يجب أن تعلم جيدا أن أبانا المقدس ، بابا روما قد أرسل لي بركات مرات عديدة جدا مع الطلب أن أذهب الى روما واني اذا أمسكت بالملك مانفرد في الحرب وقاتلته في الميدان بالسلاح فانه سيتوجني ملكا على صقلية ويعطيني الصولجان ، وسأكون حامي كنيسة روما . ولم أرغب مطلقا في تولي هذه المهمة ، والله يعلم ، بسببك أنت ، لئلا أدفع بك الى الحرب والمتاعب ، والقتال مع ملك ألمانيا وحزبه ، أي مع كل الفيبلليين حسنا يا سيدي ان العزم على فعل هذا قد جاءني لتوه ، لهذا أرجوك ، وانحنى أمامك كسيد وأخ لي ، أن أحصل أولا على أمر من جلالتك ، ثم المساعدة ، بالمال والجيوش ، حتى أمضي بشرف يوائم شرفك .

وعندما سمع الملك هذا وافق بحرارة وقال لأخيه : « أقدم شكري للملك الذي خلق الكون لأنه أعطاك الرغبة لفعل ذلك لانه أمر مشرف وتحرير للعالم ، وفي هذا الشأن فاني أجعل شاهدا مجد الرب الذي تمنيت أن يوحي لك بهذا الأمر بارادته وتتولى تلك المهمة . ولكني مرة أخرى خشيت أن يتصادف أن تعتقد بأني أريدك أن تبتعد عن صحبتي ، حسنا وحيث أن الرب قد أعطاك الارادة وأنك تريد بقرار منك أن تقوم بها ، فخذ من مالنا وأيضا من قواتنا واستأجر جيوشا جيدة لتكون من ورائك ، وليكن الرب وبركات أبينا بالغ القدسية وبركاتي ايضا أنا أخوك عونا لك أينما ذهبت ، لأن أملي بالرب وفي البابوية المقدسة ، وفي الحكمة وفي الشجاعة والمهارة الحربية التي لديك بأنك ستقوم بفعل لشرف الكنيسة أولا ولي ثانيا ، ولك ولكل اقاربنا » (٦١١٧ ـ ٦١٥٩)

والآن شكر الكونت الحكيم البارع الملك كسيد له وأخ ، ثم استعد ، وأخذ مالا واستأجر جيوشا كثيرة من الرجال ذوي الخبرة من الفرسان والمشاة من الجنود الشجعان كلهم ، وودع الملك وذهب الى بروفانس وجهز سفنه وصعد اليها ووصل الى روما خلال شهر . (٦٣)

ويقع البحر على مسافة اثني عشر ميلا من روما ، وبعد أن نزل ونزلت قواته الى البر أمر بأن تحمل الخيول والجياد والدروع ومواد الطعام والمؤن على عربات الشحن وبغال الحمل ثم انطلق ذاهبا رأسا الى روما (٦٤) .

وعندما سمع البابا بالغ القدسية بأن السير شارل كونت بروفانس كان قادما بجيوش هائلة ، من زهرة فرنسا ، رفع يديه وحمد الرب ، والقديس بطرس وبولص اللذان قويا من عزيمته ليذهب لعون الكنيسة بالغة القدسية ضد الطغاة ، ولأنه قد ابلغ لقوه (٦٥) وكان رجاؤه في الرب ان يختفي الطغاة واعداء الكنيسة ، وبأنه سيبقى على عرش روما. ركب البابا بناء عليه من السعادة التي شعر بها

الكونت ، ولكي يشجعه بالشكل المناسب هو بنفسه خارجا مع الكرادلة ومع نبلاء روما ، ومضى لاستقبال كونت بروفانس ، (٦٦) وقدم له تشريفا عظيما في هذا الاستقبال .

وبعد أن وصلوا الى روما نزل كل منهم في منطقة تمركزه ، وحالما أسكنوا كما اخبرتكم أرسل البابا خمسة كرادلة ، وأربعة مطارنة ، واثني عشر أسقفا الى الكونت ، أرسلهم ليطلبوا منه أن يأتي لمقابلته والتحدث معه وعليه فقد صحبوه بتشريف كبير ، والآن نهض البابا بالغ التقديس لتحيته ، وأخذ بيده واجلسه بجانبه .

مرحبا بالرجل النبيل ، ذو الدم الفرنسي حامي المسيحيين ، ابن الكنيسة » .

وبدأ يسأله عن الرسائل من أخيه الملك ، ملك فرنسا كما اخبرتكم (٦١٦٠ ـ ٦٢٠١) وبعد أن تلا عليه رسائل الملك شكره واثنى عليه آلاف المرات لأنه جاء واجهد نفسه لحاجة الكنيسة وهو أمر يشكل نبعا للفخار والكسب له والراحة للمسيحيين ولكل الكنيسة ، وبعد أن تحادثا وقالا كل ما يريدان ، عاد الكونت الى مقر اقامته ، ثم أمر البابا بالغ التقديس باستدعاء الجميع كبيرهم وصغيرهم ، وعقد اجتماعا رهيبا ومجلسا أعلى للبلاط ودعا كل من جاء وقتها مع الكونت وكذلك نبلاء روما ، وأقام البابا قداسا احتفاليا في كنيسة القديس بطرس ، وبعد تلاوة القداس وخروجه من المذبح المقدس ، توج البابا بنفسه السير شارل ملكا على صقلية بتاجه المذهب ، وحياه كل الحضور صغارا وكبارا (٦٧) .

وبعد أن توج كونت دي انجو ملكا على صقلية ، لم يرد بأي طريقة أن يضيع وقته ، وذهب الى البابا وقال له : « سيدي الأب المقدس ، اني لم ات الى هنا لاجلس كامرأة ، والآن وقد توليت أمر الحرب مع الملك مانفرد والغيبلليين ، وهم أعداء الكنيسة ومجرمون فيها ، فاني

لا أريد لنفسي ، ولا اقـدر بنفسي على محـاربة الطغـاة . وأعداء كل الكنيسـة ، ولكن حيث أنك تجلس على عرش رومـا ، وجعلت مني مدافعا عن الكنيسة ، فمر وابعث الى كل مكان والى كل الممالك بـأن على كل من يؤمن بالمسيح ويخضع لامرتك ، ان يساعدوك بجيوشهم كي تحارب أولئك الذين يعادون الكنيسة . وعندما سمع بـابا رومـا المقدس ذلك الذي قاله الملك بدا مغريا له . وأمر على الفـور بـكتابة الرسائل وارسـال الرسـل الى الممـالك وايضـا الى كل ايطاليا (يحملون) المباركة والدعوة كي يأتوا لعونه وليطردوا مـن مقاطعات وأراضي الكنيسة الطغاة العاقين الذين يدنسونها ، وجاءت جيوش هائلة من كل الممـالك وجـاء الى ايطـاليا كل الغـويلف (٦٢٠٢ ـ ٦٢٤٠) .

وبعد أن تجمعوا جميعـا في رومـا ، قسـم الملك سرية كل رجـل وأمرهم بأن يخرجوا من مدينة روما وتسلح هو بما هـو مناسـب له كملك ، ومضى الى البابا وسأله مبـاركته وهـو راكع على ركبتيه ، وباركه البابا وصلب فوقه ، وأمر بأن توضع طبعة الصليب المقـدس على الجانب الأيسر من صدره حتى تبقى معه ، وبارك جيوشه أيضا صغيرهم وكبيرهم ، وصلى من أجلهم جميعا وقال :كل مـن يمـوت بالسيف في هذه الحملة سينال عفو المسـيح والبـابا أيضـا عن كل الخطايا التي ارتكبها أيا كانت في حياته تماما كما لو انهم مـاتوا في أرض الشام لانتزاع قبر المسيح مـن أيدي غير المسـيحيين ، عرق البرابرة ». وبعد أن تلقى الأمير البركة من البابا ـ كما أعطاها لكل الجيوش ـ انطلقوا رأسا الى أبوليا .

وعندما سمع الملك مانفرد التقارير بأن الملك شارل بنفسه كان قادما لحربه أرسل في طلب جيوش من المانيا ، وجاءته منهـا جيوش جيدة كثيرة ، وكلها من الرجال الشجعان ، ومثل هذا جاءته من لومبارديا ومن توسكانيا ايضا ، فمن هناك جاء الذين كانوا من حزبه ، وجاء كل الغيبلليين من صقلية وكذلك رجال كالابريا ، وهكذا جمع جيوشا كثيرة جدا فاقت الحصر .

واتخذ لنفسه موقعا في بينفنتو وانتظر الملك ، وبقي في انتظارِه حتى وصل .

وتحاربا هناك بكل جيوشهما ، وحيث أن مشيئة الرب قضت بأن يعطي لصاحب الحق الحظ الحسن وينيله النصر ، كسب الملك شارل المعركة (٦٨) وقتل الملك مانفرد وخسر المعركة ، وكل من بقي بعده ، أعني قواته ، قدم الطاعة للملك شارل العظيم ، وهكذا تركوه في راحة وسلام ، ملكا وسيدا لصقلية ولمملكة ابوليا . (٦٢٤١ ـ ٦٢٦٥)

وعند هذه النقطة سأتوقف عما كنت أرويه ، وسأعود مرة أخرى للأمير غوليوم ، لأقص وأروي الأعمال التي قام بها ، وهنا سأبدأ بالكلام واخبركم عن أمير المورة ، غوليوم وماذا فعل وكيف تصرف في ذلك الوقت عندما عاد النبيل سيد كاريتانيا من مملكة صقلية هناك في أبوليا . وكما أخبرتكم أعلاه في كتابي ، عفا عنه الأمير غوليوم بنفسه ،(٦٩) وأعاد له أرضه ، التي كان قد ملكه اياها بمثل تلك الطريقة والاتفاقية التي رسماها ، وكان له أن يورثها فقط لابنه ، تماما كما أعادها له من قبل في نيكلي ، عندما كان الأمير يقاتل مع الأمير العظيم ، وكما هي العادة في الأعمال الحربية أينما كانت ، يتم كسب بعض المعارك ، وبعضها الآخر يجلب الكوارث ، وهي حقيقة تجلب لي متاعب عظيمة لوأني كتبتها كلها لكم في هذا الكتاب .

لكن كي أجعل الأمر أخف بالنسبة لي وأنا الذي أكتبها لكم وأنتم تسمعون وتقرأون ، بذلت جهودا عظيمة لانتقاء الأفضل وكتبت وتلوت الأعمال والمهام التي كانت مثمرة .

وعليه سأبدأ من هذه النقطة ، فاستمعوا فقد تتعلموا ! (٧٠)

عندما سمع الأمير وعرف أنه في ذلك الوقت ، هزم الملك شارل الملك (٦٢٦٦ ـ ٦٢٦٨) مانفرد في المعركة وقطع رأسه واستولى

على السلطة في كل مملكته .كان سعيدا جـدا (٦٢٦٩ ـ ٦٣٠٠) واقر له هذا السمو لان العرق الفرنجي الذي ينتمي اليه هو ايضا قد اقترب أكثر من المورة والى ارضه ، وكنتيجة تـروى في فـكره كثيرا وتكلم محللا بهذه الطريقة التي أذكرها هنا ٠ وحيث أن امبـراطور مـــــــــــــــدينة قســــــــطنطين قد تجذر في المورة وكانت سيادته تنتشر ، فانه لن يتمكن مطلقا مــن طرده من الأرض وحـده ، بنفســه ، وبـالقوات التـي لديه ، إن لم يحصل على القوة من دولة مـا أخـرى ، وحيث أن الرب قـد أمـر وأصبحت دولة الملك شارل قريبة الى ابوليا . (ان الرب لم يمنحـه ابنا يكون وريثا له ليتركه سيدا على الأرض ، عندمـا يأتيه الموت في ساعة منيته ، كان لديه فقط أطفال اناث كورثة) . ولئن استطاع أن يعقد مصاهرة مع ذلك الملك القوي شارل ، بحيث يأخذ الملك شـارل كما أخبـر كم ابنة الأمير غوليوم كنة له (٧١) وسـتوفر له القـوة والجيوش الشجاعة ليطرد الامبراطور من الامارة .

وبعد أن تأمل الأمير جيدا في نفسه ، أمـر بـدعوة كل القـادة ، وأولئك الاكثر حـكمة والأوائل بين مسـتشاريه . وتحـدث اليهـم واخبرهم بما اعتزم عليه . وحالما سمعوه ، تناقشوا معا ، وبينوا له واقترحوا طرقا كثيرة ووسـائل يمـكنه بهـا تحقيق هـذا الشيء وانجازه ، لأنه كان نبيلا وقويا فـوق الطبيعـي ، في حين أن الأمير كان فقيرا في الوسائل فقد لا يقبـل بهـا وربمـا لن يعبـأ بها (٦٣٠١ ـ ٦٣٤٥) وعند هذه النقطة ، تكلم الاحكم مـن بين الموجـودين في مجلس الأمير في ذلك الوقـت ، والذي كان يدعى نيكولاس دي سانت أومر وكان أمير طيبة ، وكانت له معرفة واسعة وتكلم مع الأمير معطياً إياه هـذه المشـورة : « اذا شئت ياسيدي تحقق ذلك أنا اتعهد بالقيام بذلك بنفسي إذا أخذت بنصيحتي واتدبر الأمر بشكل قانوني مع الملك شارل ، وصـحيح كمـا يعـرف الناس جميعا أن أميرنا أبوك مع أهلينا هم الذين غزوا المورة ، التي تدعى الامارة ، وربحوا بالسيف كل ما نملك من اقطاعات ، وابوك وسيدك

لم يأخذ ارض المورة من أحد ، وقد حصل على السيادة من الرب وحده وبالسيف . وحالما توفي أبوه وأميره ، فان أميرك وأخاك السير جيوفري اصبح سيدا وتزوج ابنة الامبراطور روبرت ، وكان قد أرسلها الى ملك أراغون زوجة له ، وعليه فقد تزوجها السير جيوفري كما يعرف كل الناس ، وكتعويض للملك عن الجريمة التي ارتكبها ضده ، وليحل السلام بينهما وتستقر الأمور ، عقدت معه معاهدة وأصبح رجله ، وله أن يحصل على أرضه من الامبراطور ، حسنا وطبقا للطريقة التي سوى بها أخوك الأمر في ذلك الوقت ، واصبح تابعا للامبراطور ، ولم يتمكن من خدمة أحد آخر وله وحده كان يقدم خدماته كلها ، وتماما كما فعل هذا لمصلحته الخاصة وليرضي رغبته وليحقق ربحا ، افعل الشيء نفسه وعلى الفور مع الملك شارل لتحقق رغبة ولتربح . واذا فعلت كما أقول فاني آخذ على عهدتي أن يصبح الملك قريبا لك وهو متلهف الى ذلك » .

وعندما سمع الأمير واولئك الذين كانوا في مجلسه ذلك ، سر الجميع وحمدوه جدا ، وبعد اعطاء المشورة كما أخبرتكم ، تقرر الأمر وصمم عليه .

واختير أسقف أولينا مع السير بيير ، (وكان لقبه دي فو، وكان يعتبر في كل الامارة رجلا حكيما (٧٢) ، ليذهبا كمبعوثين الى الملك ، واستعدا وعبرا مباشرة الى برنديزي ، وبعد ان نزلا الى البر ، اشتريا خيولا وأخذا الطريق المؤدي الى حيث كان الملك فوجداه (٦٣٤٦ ـ ٦٣٨٧) في نابولي ، وانحنيا أمامه ، وكانا يحملان له رسائل فقدماها له ، وكانت تحوي وتعلن أن له أن يصدق هذين الرجلين في كل شيء يقولانه وينطقان به .

وبعد ان تسلم الملك الرسائل وفهم التصريحات بأن يصدق هذين الرجلين امر بأن يستدعيا الى مكان جانبي وبدأ يستجوبهما حول ما كانا يريدان قوله ، وحيث انهما كانا حصيفين بدأا يتكلمان معه : وأخبراه بالتفصيل ما الذي كانا يريدانه وهو أن رغبة الأمير

ومشيئة الرب وارادة الملك أن يدخلا في مصاهرة ويصبحان كواحد ، وبعد أن استمع الملك جيدا لما أخبراه به ، اجابهم بانه سيجري مشاورة ثم يعطيهم الجواب ، كما هو صحيح ومناسب .

وعليه أمر الملك بدعوة القادة ، الأوائل منهم والأفضل في مجلسه ، وأخبرهم مفصلا بأمر أمير المورة واقتراحه وما كتبه وأراد تنفيذه معه ، ثم بداوا يتكلمون ويتشاورون ، وبعد أن تناقشوا قالوا ما يلي أيضا : « أنهم يريدون استدعاء المبعوثين واستجوابهما ليسمعوا ويعرفوا خصائصهما . وعليه فقد استدعوهما وبدأوا يستجوبونهما : كيف يملك غوليوم أمير المورة أرضه ، ومن هو سيده الأعظم ، وأي نوع من الأرض المورة وما هي ثرواتها ؟ ثم أعطى السير بيير الذي عرف وفهم كل شيء عن المورة الجواب ، وقال كل شيء من البداية الى النهاية (٧٣) .

وعندما سمع الملك وكذلك مجلسه ماتضمنه امارة المورة وثرواتها وقيمتها ، اشار عليه الجميع باتمام الامر ، لانهم رأوا وتحققوا انه كان لصالحه ، وصمم الملك على تنفيذ مشورتهم ، وبعد ان صمم الملك على تنفيذ المصاهرة مع امير المورة ، غوليوم اعطى توجيهه لاحد الاساقفة واثنين من قادة الفرسان ، وفارسين اخرين ممن كانوا معه بان يذهبوا كمبعوثين الى الامير غوليوم لحمل الجواب اليه مع رجاله ، والارادة والجواب اللذان اعلنهما الملك له (٦٣٨٨ ـ ٦٤٣٢).

وانطلقوا بناء على ذلك وذهبوا الى برنديزي ، حيث وجدوا السفن التي كانت مستعدة للابحار ، وصعدوا الى ظهورها معا وذهبوا الى كلارنتسا ووجدوا الامير غوليوم في اندرافيدا . وتكلم اسقف اولينا والسيربيير مع الامير واخبراه في خلوة ماحققاه ونفذاه مع الملك ، وبعد هذا استدعوا ايضا الرسل الذين جاءوا معهم من عند الملك شارل ، ثم رددا ماكان عليهم نقله من الملك شارل الى أمير المورة ؛ مما يسر الملك ، فرغب واراد قانونيا تحقيق

المصاهرة حسب الاتفاقات التي اعلنت للملك من قبل المبعوثين الذين ارسلهم الامير الى الملك ، والتي اشترطت ان يأخذ الامير ابنته ، التي كانت وريثته والتي كانت تسمى ايزابو وان يذهبوا الى نابولي للانضمام الى الملك وان يتزوج الاولاد ، فيأخذ ابن الملك ابنة الامير غوليوم ، وبعد ذلك يؤدي الامير الولاء ليأخذ ارضه من الملك شارل .

وعندما سمع الامير هذا اقره بحرارة ، ومنح تشريفا عاليا وهدايا للذين اوفدوا وجاءوا اليه كمبعوثين ووجههم بالعودة الى الملك وحمل جوابه اليه وابلاغه ان امير المورة كان راضيا على الاتفاقيات وكان يستعد للمجيء لاتمام الامر ، وأرسل الامير على الفور الى يوريبوس ، حيث احضرت له احدى الشواني كبيرة وجيدة التجهيز ، وفي كلارنتسا امر بتجهيز سفينة اخرى له ، واستعد كما ينبغي لمثل هذا الرجل العظيم ، وصعد الى السفن مع ابنته ، التي كانت تسمى ايزابو وحاشيته ، واخذ معه من الفرسان العدد الذي يحتاجه ، وانطلقوا الى كلارنتسا ووصلوا الى برنديزي.
وبعد ان نزلوا في برنديزي احضروا الخيول بسرعة وانطلقوا على الطريق ، وهكذا ركبوا الى نابولي حيث كان مقر اقامته ، ووصلوا قبل الملك (٧٤) .

والان عندما سمع الملك وابلغ بان الامير كان يقترب من المدينة ، ركب بنفسه خارجا ومضى للقائه ، وحياه هناك حيث استقبله ، بلطف واخذ بيده وركبا جنبا الى جنب وقدم له تشريفا كبيرا ، دهش له الجميع .(٦٤٣٣ ـ ٦٤٧٩).

وبعد ذلك نزلا عند بيت الملك ؛ ثم امر بان يسكن بتشريف كبير في المدينة ، ودعاه للعشاء في اليوم التالي ، وعلى شرف الامير دعا كل النبلاء الذين كانوا في المدينة ، وعقد المجلس الاعلى للبلاد ، وكان هناك احتفال كبير ، وبعد ان احتفلوا جيدا ذلك اليوم ، ذهب كل الى مقره .

وفي الصباح التالي ذهب الامير الى حضرة الملك ليتحدث معه وامر الملك كل فرسانه بالمجيء ، وجلسوا للتشاور وبدأوا في الحديث ، ثم جاء المبعوثون الذين ذهبوا الى امير المورة وبدأوا الحديث وهم يريدون رواية كيف ذهبوا الى المورة الى الامير غوليوم مع امر الملك فيما يتعلق بالمصاهرة ومالنجزوا والى اي نقطة تقدم الامر في هذا الشأن الذي ارسلوا فيه . وحيث ان جلالة الملك قد امر وان الامير قد جاء عند جلالتكم ، فان الامر متروك لسموكما لتنفيذه وتحقيقه بحكمتكما لما فيه تشريف لسموكما ولمجدكما ورخائكما انتما وقواتكما .

وحالما انتهى المبعوثون مما كان عليهم قوله حول المصاهرة ، بدأ الامير عندئذ الكلام حول الامر وبدايته ، والطريقة التي بدأ بها ، وبناء على امر وتوصية الملك جاء الى هنا واحضر معه ابنته ، وانه على استعداد لان يفعل كل مابحثه مبعوثو الملك معه في المورة وان ينفذ الاتفاقيات التي ابرمت وكل مايخصها (٧٥) .

ثم اجاب الملك بنفسه بان كل ماقاله الامير صحيح ، وانه رغب واراد ان ينفذ الامر كما اتفقا وشرعا ، وبعد ان انتهيا واعلنا التفاصيل امرا باحضار ابنائهما ومن ثم خطب رئيس اساقفة نابولي ، وكان مطرانا الابناء وبعد ان اعلن خطبتهما وعقد لواحد الزواج بمراسمه ، ادى الامير الولاء ، وبناء على ذلك قلد الملك (٦٤٨٠ ـ ٦٥٢٦)ابنه السيرلويس الامارة ، فاعادها مرة اخرى الى حميه ليملكها ويديرها مدى حياته في هذه الدنيا .

وبعدما انجز هذه الاشياء التي اخبركم بها مكث الامير هناك خمسة عشر يوما مع الملك شارل ونظما احتفالات كبيرة ، ثم جاءت التقارير من المورة للامير بان احد ابناء اخيه قد جاء من عند الامبراطور الى مونمفاسيا ، واحضر معه الجيوش ؛ والكومان والترك والروم من منطقة نيقية والذين في المورة ، وكان اهل الارض خائفين وطلبوا من الامير العودة الى هناك . وعند سماع ذلك ذهب

الامير الى الملك واطلعه على هذه التقارير مفصلا ، وطلب منه الاذن للذهاب الى المورة لاسعاف وتقوية ارضه وقواته ، وللذهاب الى قلاعه لتموينها . وعندما سمع الملك هذا قال انه حسن ان يذهب الى ارضه لنجدتها وحمايتها من اعدائه ، وعليه استأذن الامير من الملك ، وركب بسرعة ووصل الى برنديزي ، حيث وجدا السفن جاهزة فصعد اليها ووصل خلال يومين الى كلارنتسا وركب من هناك ذاهبا الى اندرافيدا .

وعندما سمع كل اهل المورة بمجيء الامير ، كانوا سعداء جدا وشعروا بثقة قوية تجاه اعدائهم . وبعث باوامر مكتوبة الى امراء القلاع بان يحتفظ كل منهم بحراسة قوية من قواته لانه كان في طريقه لمساعدتهم وانهم يجب ان يمونوا قلاعهم وان يحشدوا القوات ليقفوا بثبات ويحموا الارض والحدود ، وبعد ان استراح نحو اربعة ايام ، كتب الى القادة والفرسان فجاءوا اليه وخرجوا راكبين على الفور ، واخذهم وجال على القلاع ، وامر بنشر الحراسة في كل الارض حتى يحتموا من اعدائهم .(٧٦)

وسأتوقف عند هذه النقطة لحظة عن الكتابة والكلام عن الامير غوليوم أمير المورة وسأخبركم بنبأ الملك شارل والفعل الذي قام به والعطف الذي اظهره في ذلك الوقت لامير المورة .

ومن عطف الملك الحكيم ، الملك شارل والعاطفة التي شعر بها تجاه نسيبه الامير غوليوم (٥٦٢٧ ـ ٦٥٤٥) ولانه ايضا كان خبيرا في الاعمال الحربية للجيوش ، (٧٧) فانه بعد ان تركه الامير ومضى مبتعدا عنه فكر ومحص انه طالما ان الامبراطور قد ارسل جيوشه الى المورة لمحاربة الامير الذي كان نسيبا له ، فان الامير سيكون بحاجة لعون بالجيوش والقوات ليحمي ارضه ، وعليه امر بدعوة احد فرسانه وكان جنديا خبيرا في الامور الحربية ، وكان يدعى السير غاليران ، وكان لقبه دي ايفرى ، (٧٨) وقال له اريدك ان تذهب الى المورة لمساعدة نسيبي الامير مع مائة من المرتزقة

بخيولهم وايضا مائتين من الجنود المشاة على ان يكونوا كلهم من النخبة ايضا وعلى ان يكون مائة منهم من حملة الاقواس العقارة والاخرين من حملة الدروع ، (٧٩) وان تدفع للجميع اجور ستة شهور وتكون عليهم كقائد ونائب لي ، استعد على الفور واذهب بسرعة ، ان السفن (٦٥٤٦ ـ ٦٥٨٨) جاهزة في برنديزي فاركبوا واذهبوا سريعا الى المورة لمساعدة الامير واهدائه تحياتنا الكثيرة عني،واخبره نيابة عني انه اذا احتاج لجيوش اكثر ، فليشعرني برسالة موجزة وسارسلها له على الفور .»

واعد الفارس الحكيم نفسه على الفور كما امر الملك ، وترك نابولى وذهب الى برنديزي وهناك وجد السفن مستعدة فصعد اليها ووصل خلال ثلاثة ايام الى كلارنتسا ، وحدث ان كان الامير في ذلك الوقت في فليزيري ، وارسل له السير غاليران ستة رسل ، وكان اربعة منهم سرجندية واثنان من الفرسان ، وابلغه بالتفصيل انه جاء من ابوليا بناء على امر الملك بالجيش الذي معه لتقديم العون للامير وتنفيذ جميع اوامره .

وعندما علم الامير بوصول نائب الملك هذا ، السير غاليران ، الذي جاء من عند الملك وجلب معه الجيش الرائع ، من الفرسان والمشاة كما اخبرتكم ، بدا له الامر بالغ الروعة وابتهج به . ولتشريف نائب الملك من اجل الملك ، وركب خارجا على الفور مع القوات التي لديه وذهب راسا اليه في كلارنتسا ، ومن جانب اخر سمع الرجل الحكيم السيرغاليران وعرف ان الامير قادم اليه ، فركب لتلقيه بسرعة خارجا مع حاشيته بالدروع وعلى خيولهم ومنهم المشاة والفرسان وقابلوا الامير غوليوم عند نهر الياكوس عند نقطة تدعى كريفسا(٨٠) ، وهناك التقيا وابتهجا معا وحيا السير غاليران الامير نيابة عن الملك وقال له: لقد ارسلني الملك الى هنا ، وهو يبعث اليك بتحياته ، وقد ارسل لك معي كل هذه القوات لمساعدة ارضك ، وكمعونة في الحرب التي بينك وبين امبراطور ا ولذك الروم.

واذا احتجت للمزيد ايضا فاعلمه حتى يرسل اليك (٨١) وشكر الامير الملك بحكمة على المساعدة التي ارسلها وعلى المعونة أيضا .

والان بعد ان وصل الاثنان الى كلارنتسا ، امر الامير بايجاد خيول (من النوع) الذي يدعى خيول الحمل ، للمرتزقة ، واحد لكل رجل لاعطائهم الراحة بحمل ملابسهم (٦٥٨٩ ــ ٦٦٣٣) ودروعهم.

وبعد ان جهز الامير الفرنجة الذين جاءوا لمعاونته والذين ارسلهم الملك ، تشاور مع الذين كانوا في مجلسه حول الطريق الذي يجب ان يسلكوه ، وفي اي مكان يهاجموا اعداءهم العرق الرومي ، وعندما تشاوروا انطلقوا من هناك ووصلوا الى رافد الالفيوس عند مكان يدعى ايزوفا (٨٢) وجاء حكام القلاع مع قواتهم كما فعل قادة الفرسان ، واعطيت لهم الاوامر بان يستعدوا بمؤن من الخبز تكفي لشهرين ، وهناك تشاوروا حول مكان الاغارة ، وعليه فقد اشير عليهم بان يذهبوا الى نيكلي ، بفكرة وهدف ان هذا المكان كان متسعا بدرجة كافية تتيح لجيوشهم الاقامة والراحة ويمكنهم الاقتراب من جيوش الروم اذا رغبوا في الاغارة ، واذا توصلوا الى قرار القتال ، وكان الامير واثقا من جيوشه وفي ان الرب سيكون في عونه ليحرز النصر على الروم ، واذا سر الرب ان يمنحه النصر فانه سيستولي بسهولة على كل الامارة .

ثم ركبوا ووزعوا السرايا ، وغادروا ايزوفا ووصلوا في المساء الى كاريتانيا الى القلعة الرائعة ، وعندما علم امير كاريتانيا بان الامير قادم بجيوشه وانه كان قادما على طول الرافد في اتجاهه (٨٣) ، ركب بسرعة خارجا مع رجاله وذهب لمقابلة أمير المورة ، ومن جانب اخر جاء من اكوفا السير غوتيير سيد تلك القلعة مع الجيوش التي لديه (٨٤) ، وتجمعوا معا في كاريتانيا واستعرض كل منهما الجيوش التي لدى كل واحد منهما ووجدوا ان هذين الفارسين القائدين امير كاريتانيا وامير اكوفا كان لديهما مائة وخمسين خيالا ، كلهم من النخبة ومن الجنود ذوي الخبرة ، وكان لديهم مائتين من المشاة ، وكلهم مسلحون .

وبعد ان عسكروا في سهل كاريتانيا على شواطىء الرافـد . في تلك
المروج بالغة الجمال امر الامير بدعوة القادة : امير كاريتـانيا ،
وامير اكوفا والاخرين ايضا (٦٦٣٤ ــ ٦٦٧٩) من قادة الجيش
وطلب من الجميع المشورة حول المكان الذي ينصحون جيوشه بشن
الهجوم منه على اعدائه ، وبناء عليه تكلم امير كاريتانيا اولا ، ثم
تكلم بعده امير اكوفا وتكلموا ونصحوه بان يذهبوا الى نيكلي كمـا
نصحوا ، في المقام الاول . واخبر امير كاريتـانيا القـادة انه عرف
القائد الذي وضعه الامبراطور على قواته ، وانه كان متغطرسا وذا
مجد ، وفخر عظيم بقواته التي كانت معه (٨٥) وهو يريد أن يأتي
بسرعة كبيرة للقتال حيثما ندعوه ، في السهول أو الجبال واذا وهب
الرب والقدر ورسم أن نحارب معا وأن نحـرز النصر ، سـنأخذ كل
المورة من ايدي الروم »

وعليه استعدوا ووزعوا السرايا واعطوا التـوجيهات لجيوشـهم
أولا لعناصر الاغارة ، الذين توغلوا في غاردالبقـوس، واغاروا على
تساكونيا ، لأن هؤلاء كانوا في ثـورة لصـالح الامبـراطور ، وقـد
جمعوا كثيرا من الغنائم وكانت تفوق الحصر ، ولخمسة أيام أغارت
تلك الجيوش ثم عادوا الى نيكلي وكان قائد الامبراطور مع جيوشـه
في ليكيمونيا ، ولم يخرج من هناك مرة ، ولو أن احدا سـألني لاي
سبب تصرف بهذه الطريقة ، سأجيبه أنه كان بسـبب الامـر الذي
تلقاه ، لأن الامبراطور نفسه ، السيد ميكائيل اعطاه أوامر بأنه بعد
معركة برينتزا ومرة اخرى بعد المعـركة الثـانية وهـي معـركة
ماكري ــ بلاجي ، لم يكن للروم مطلقا أن يلتقوا في الميدان للقتـال
مع الفرنجة في المورة لأي سبب في العالم ، وأقسم الامبراطور وهكذا
أمر : في منطقة المورة لأي سـبب في العـالم الروم لن يلتقـوا مـطلقا
الفرنجة في الميدان للقتال بالرماح لأن ثلاثمائة من الفرنجة فقط قـد
هزموا أخا الملك الذي لديه ستة آلاف من القوات الراكبة الجياد الى
جانب المشاة (٦٦٧٢ ــ ٦٧١٨) واذا كان لفرنجة آخـرين اكثـر
عددا ان يجدوا رومانيين في الميدان فان الامبراطور لن يحتفظ بعـد
ذلك بالمورة ، وأمر الروم أن يتخذوا موقعا في الجبال وان يحـرسوا

الأرض ، وكلهم مسلحون بأقواسهم وكلما وجدوا الفرصة وكانت لهم مصلحة ، فبالحيلة والاستراتيجية عليهم أن يقاتلوا الفرنجة .

وبعدما سمع الأمير بهذا دعا قادته ليشيروا عليه وتكلم بعض هؤلاء وقدموا له النصح بأن يأخذ جيوشه ويذهب رأسا الى حيث يكون قائد الامبراطور في ليكديمونيا لقتاله وهزيمته كلية .

ولكن الآخرين الأكثر حكمة والذين يفهمون الاستراتيجية لم يقروا عملهم بهذه الطريقة قائلين:ان امتداد الأرض من نيكلي الى ليكديمونيا كان منطقة مشجرة ، جبلية وذات شعاب وجروف تناسب رماة السهام ، حيث يمكنهم اتخاذ مواقع تمكنهم من اطلاق سهامهم علينا وعلى خيولنا في حين لانستطيع اصابتهم .

وعليه دعا الأمير السير غاليران وأمير كاريتانيا وأمير اكوفا اضافة الى كل القادة الآخرين ، وطلب منهم اسداء المشورة له حول كيفية العمل الواجبة ، وفي هذا قال بعضهم انهم يجب أن يبقوا في نيكلي وأن يحاصروا الروم في الأرض المحيطة بميسترا ، حتى لاتكون لديهم وسيلة للخروج والاضرار بالاراضي وانهم يجب أن يتحكموا في الممرات ويحرسوا الأرض حتى لايمر قائد الملك لايقاع أي ضرر بأرض سكورتا أو أرغوس أو ميزاريا ، لأنه اذا كان لهم ان ينطلقوا من هناك ويتركوا الأرض مكشوفة وغير محروسة ، فان الرومان سيأتون ويهاجمون وينهبون وسيخربون الأرض ، والآن في النهاية لم يوافق الأمير والأكثر حكمة على العمل بهذه الطريقة ، قائلين مع الاحترام لسير غاليران والمرتزقة لأنهم لم يجدوا طعاما لهم ولخيولهم عليهم أن يجدوا بعضه ليشتروه كما هي طريقة الجيوش .

وعليه أمر الأمير بأن تمون نيكلي بكل الأشياء التي تحتاجها القلعة ، وترك السير جين دي نيفليت آمرا لها ومعه مائة من الخيالة مع مائة من حملة الأقواس ومائة من حملة الدروع وثلاثمائة من

رماة السهام ليبقوا معه ايضا وليقوموا بأعمال الدورية في القرى ، وحقول نيكلي ، حتى فيليفوستي وأماكن في ميلموس (٦٧١٩ ـ ٦٧٦٢) حتى لايمكن لاي من الروم أن يمر للاغارة أو القتال أو ايقاع أي ضرر بأراضي الفرنجة

وبعد أن نهض الأمير غوليوم بأعباء مهام حماية وحراسة اراضي نيكلي ، أخذ جيوشه وذهب الى كاريتانيا حيث صرف كل جيوشه ، ورحل الكلامانيانوا وأهل أرغوس ، وأمير ميزاريا وأمير أكوفا ، وكذلك فعل السكورتينوا ، والجنود من المشاة والفرسان ، وذهب أمير كاريتانيا مع حاشيته مع الأمير ومعهم السير غاليران الذي كان نائبا للملك ، وذهبوا عبر المورة الى كلارنتسا (٨٦) وبعد أن وصلوا وعسكروا أمر الأمير بدعوة الحاجب اللوغوثيت (٨٧) والسير ليوناردو الذي كان من أبوليا ، وأمير كاريتانيا وقال لهم :« لقد رأيتم العطف والتشريف اللذان ابداهما الملك نحوي وارساله السيرغاليران ومعه مرتزقة لمساعدة الامارة كلها . وعليه أقول أعطوني مشورتكم حول أي تشريف ونفع يجب أن نمنحه له ، لانكم رأيتم بأعينكم انه فقط بواسطة قواته ذهبنا نلتمس القتال مع قوات الامبراطور وقائده » ٠

وبعد أن اشاروا على الأمير غوليوم بالتشريف والمنفعة الواجب منحها له (كان يفكر على الاغلب في تشريف الملك) استدعى للمثول أمامه السير غاليران وقال له بصوت مرتفع في حضور الجميع :« أنت ياسيدي ، قد أرسلك الملك الى هنا مع القوات التي جئت بها لمساعدة الأرض ، وهو الأمر الذي اعتبرته تمجيدا عظيما لي وفائدة لي ولقواتي ، وعليه أرغب ياصديقي وأتوسل اليك ردا للجميل مقابل التشريف الذي قدمه الملك لي ، أن تقبل مني منصب النيابة وان تكون نائب الأمير الحاكم على الامارة ، نيابة عن الملك أولا وعني ثانيا لحكم اراضي في كل الامارة من أجل شرفنا وتقدمنا نحن وانتم ايضا »

وعند سماع هذه الكلمات كان السير غاليران ميالاً أن يعطي ذلك النوع من الجواب للأمير : انه ليس بامكانه أن يفعل هــذا حيث انه كان (٦٧٦٣ ــ ٦٨.٥) يخطط ويتوقع ان يعود الى أبــوليا ولكنه من جانب آخر فكّر قليلا وقال لنفسه طالما أن الأمير قد عينه نائبا له على أرضه من أجــل الملك ، فــانه شرفـا كبيرا له ، فقــال للأمير :« بأمرك ياسيدي سأقوم بكل ماتقوله لي بكل قوتي » وعليه أخذ الأمير على الفـور قفــازه وقلد الســير غاليران نائبــا على كل الامارة ، وأصبح نائبا للأمير لبقيه فترة حياة الأمير غوليوم .

ولي وقفة عند هذه النقطة عما كنت اخبركم به ، وسأتحدث اليكم عن الملك شارل والحرب التــي شسنها على كونرادين ابن أخـــي الامبراطور فريدريك ، وأيضا ابن عم الملك مــانفرد (٨٨) والآن بعد أن غزا الملك شارل مملكة أبوليا وصقلية وقتــل الملك مـانفرد في المعركة أبقى ممالكه في راحة وسلام ، وعندما سمع وعلم أحد النبلاء العظام من ألمانيا وكان يدعى كونرادين ، وحيث أنه كان ابن أخــي الامبراطور فــريدريك وابــن عم الملك مــانفرد الذين اخبــرتكم عنهم ، بأن الملك شارل قد قاتل بجيوشه في الميدان ابن عمه ، وهزم الملك مانفرد واستولى على الولايات التي ارادها طلب بــالحاح مــن قريبه أن يخرج في حملة الى أبوليا لقتال الملك شــارل ، ولو أراد له الرب ربما أمكنه أن يثأر لابن عمه الملك مانفرد ، وعليه سافر عبــر ألمانيا وطلب من كل القادة والامــراء الذين كانوا في حينه يحــكمون ألمانيا أن يســـــــــــــــــــــــــــــــــــــاعدوه وأن يذهبوا معه الى أبوليا للقتال ضد الملك شارل وليثأروا معا للملك مانفرد ، والآن وعده الجميع بأنهم سيساعدونه ، وأعطاه بعضــهم قوات وذهب آخرون معه ، وجمع قــوات كثيرة مــن الجنود المشــاة والفرسان وخرج من أرضه هناك في ألمانيا وذهب الى لومبارديا حيث وجد الغيبلليين المســتبدين بــالكنيسة ، والذين كانوا أعداء البــابا ودعاهم جميعا فذهبوا معــه (٦٨٠٦ ــ ٦٨٥٢) راغبين متلهفين للموت معه اذ كانوا يفضلون الألمان على الفرنجة ، وجمع جيوشــا كبيرة فاقت الحصر ، وبعد أن تجمعت جيوشه كلها ، قســمها الى

سرايا بشكل مستقل عن مشاته ، وخرج من لومبارديا ذاهبا الى ابوليا .

وهنا عند هذه النقطة ، سأتوقف عن الكتابة واتحدث عن الالمان ، والجندي الشهير كونرادين الذي كان كما أخبرتكم ابن أخ للامبراطور فريدريك عدو الكنيسة ، وبدلا من ذلك سأعود لأخبركم بالفعل الذي قام به الملك العظيم شارل عندما سمع وعرف بالتقارير التي كانت تتحدث عن أن كونرادين كان قادما ليقاتله .

وعندما سمع الملك الشهير شارل أن كونرادين كان يحشد الجيوش ليأتي ليشن الحرب ضده ، وحيث أنه كان جنديا من الدهاة في كل شيء فانه لم يكن مهملا لدرجة أن يقدره بأقل من قدره ، فأرسل بسرعة الى أخيه الذي كان ملك فرنسا ليساعده بالجيوش من أرضه ، من الجنود ذوي الخبرة ، الذين يمكن أن يساعدوه في حربه ، وعندما سمع الملك بذلك ، دعا أخاه الكونت أرتوا (٨٩) وأخبره بتلك الرسائل وأمره بأن يأخذ على الفور ألفين من الفرسان الراكبين من زهرة فرنسا وأن يذهب الى أبوليا لمساعدة أخيهما الملك شارل الشهير .

والى جانب هذا أرسل الى أرضه هو في بروفانس ست شواني (ملأى) وسفن شحن وسفن تجارية ، تنقل القوات مع خيولها والمؤن والطعام لهذا الجيش وعلاوة على هذا أيضا استدعى بابا روما بالغ القدسية ، عندما سمع وعلم بالروايات التي تقول بأن كونرادين كان آتيا بالعديد من الجيوش ضد أراضي ومدن الكنيسة استدعى الملك شارل وقال له : « يابني الآن وقد علمنا وعرفنا أن كونرادين قادم حقا لحرب الكنيسة ، فاني أعطيك السلطة لتأخذ من خزانة القديس بطرس حواري كنيسة روما بقدر ماترغب وتأمر انها كلها تحت أمرك ، واستأجر الجيوش لنفسك بقدر مايمكنك أن تجد واحم ممتلكات وأرض الكنيسة (٦٨٥٣ ـ ٦٨٩٠) »

وشكر الملك بالغ الحكمة البابا ، وانحنى بشدة أمامه وباركه البابا، وبعد هذا ، أمر بابا بالغ القدسية بأن تحرر الرسائل الى كل الممالك وأن يرسل الكرادلة والأساقفة مع بركاته مع طلب أن يقدم له الجميع المعونة ، وأن يرسلوا اليه الجيوش والقوات لتذهب في معية الملك شارل الذي كان يحمل لواء وصولجان الكنيسة ، لمساعدته وليحموا معا ارض وممتلكات كنيسة روما ، ولهم المباركة والعفو عن اي خطايا ارتكبوها من يوم ميلادهم كما لو أنهم قد ذهبوا حقا الى قبر المسيح لقتال الاعداء ، عروق البرابرة ، وأرسل له الجميع من كل الممالك الجيوش والعديد من المشاة ، والخيالة العديدين .

وأرسل الملك العظيم شارل علاوة على ذلك رسالة الى امارة المورة ، الى الأمير غوليوم يسأله بطريقة ودية أن يساعده بالقوات من أرضه وبالجيوش التي لديه (٩٠) وعندما سمع الأمير هذا اضطرب للرسالة ، لأنه كان خائفا جدا من كونرادين لأنه سمع بقوته وبأنه كان لديه جيوش كثيرة ، وقد يحدث بفعل الحظ السيء أن يكون النصر في جانبه ، ويفقد الملك شارل السيادة على أبوليا وعلى أي حال فانه ماأن سمع بهذه الرسالة بعث الأمير برسالة الى القائد الذي كان تابعا للامبراطور في المورة ، وكان ممثلا له ، وعقد معه هدنة وقف للحرب لمدة عام واحد ، على أن تبقى أرضه في راحة وسلام ، ثم استعد بعد ذلك ليأخذ معه أفضل وأحسن لابل زهرة المورة ، لقد أخذ معه أولا أمير كاريتانيا وأخذ أيضا معه أمير أكوفا الحاكم العظيم لشدرون ، والسيرجيوفري دي تورناي والفرسان الآخرين ويعدون ٤٠٠ وكلهم بخيولهم ، ولم يتأخروا (٦٨٩١ ـ ٦٩٣٦) وعبروا من الامبراطورية وذهبوا رأسا الى برنديزي ، ووجدوا كل مايذقصهم من الخيل فاشتروه ، ثم ركبوا وخرجوا مسافرين حتى بلغوا بيذفينتسو ، ووجد الملك هناك (٩١)

وعندما سمع الملك وابلغ بأن الأمير قادم ، خرج لاستقباله ، وحياه بلطف ، وتعانقا وأمسك الملك بيد

الأمير ، وعندما رأى القوات الرائعة التي جاء بها معه ، شكره بحرارة وابتهجا ببعضهما بعضا ، ثم تكلم معه وابلغه أن كونرادين قد جاء ودخل ابوليا بقوة من وحدات عديدة ، كانت مساعدة له ، وراح يسأل في كل مكان وهو يبحث عن الملك ، والتمسه حتى وصل اليه وعندما اقترب الجيشان من بعضهما دعا الأمير (الذي كان خبيرا بأمور الحرب في رومانيا وبالكيد والمكر اللذان مارسهما الروم والأتراك واللذان علماه بكل مايتعلق بشؤون الاعمال الحربية) كل من أرادهم وفكر ليسيروا وراءه ، وركبوا جميعا وذهبوا معه ، وسافروا وأخذوا طريقهم صعودا الى تل ليعرفوا ويلاحظوا ويستطلعوا قوات كونرادين والجيوش التي معه وبعد ان احصى عددها دهش جدا ودعا الفرسان الذين كانوا معه وقال لهم :« يارفاق تعالوا وألقوا نظرة اني أرى جيوشا رهيبة عديدة وشجاعة ، واقدر أنها ضعف مالدي الملك » .

وعليه أخذهم وعاد الى الجيش وبعد أن وصلوا ، انتحى الأمير غوليوم بالملك جانبا وقال له :« أعلم ياسيدي الطيب وأبلغك بأني قد ذهبت الى مكان راقبت منه الجيوش وقوة القوات التي لدى كونرادين ولكي أحصيهم وأرى (٦٩٢٧ ـ ٦٩٦٦) أي جيوش عنده ، ولم أذهب وحدي حتى لاتؤنبني لقد كان معي جنود من الرجال ذوي الخبرة ومن الشواهد التي رأيناها وطبقا للاحصاء الذي أجريناه ، أقدر أن لدى كونرادين من الجيوش التي رأيتها ضعف مالدينا ، وبدت لي قواته رائعة واقول الآن ياسيدي وهذا ليس سرا بالنسبة لك إن الالمان الآن في كل الدنيا لديهم قوات من الحمقى غير الجديرة بالثقة (٩٢) كلهم ، وعندما يذهبون للقتال في معركة ، لايتوفر فيهم الحماس ولاسلوك الجنود الجيدين ، وهكذا يدخلون المعركة كالمجانين ، حسنا وأقول لك ياسيدي اذا شئتم جلالتكم ، اننا يجب أن لانقاتلهم بالطريقة التي يقاتل بها الفرنجة ونخسر المعركة ، لانهم أكثر منا بل لنقاتلهم بالمكر والحصافة كما يقاتل الترك والروم في رومانيا فاذا فعلنا كما

أقول ، وبأملي من الرب والحق الذي في جانبنا أن النصر سيكون لنا » .

وتكلم الملك كجندي بالغ الحكمة وأجاب الأمير قائلا : « أعلم أيها الأخ الأمير ، ياصديقي وقريبي أنه لايوجد شيء في عالمنا القائم اليوم من مكر أو حيلة أو مهارة مالم أمارسه ضد عدوي ، طالما أن ذلك يجعلني أهزمه واستولي على ولاياته ، وعليه حسنا ياقريبي الداهية ، طالما أنك قد اكتسبت الخبرة من حربك للرومان وتعرف ايضا الحيل التي يستعملها الأتراك هاك جيوشنا اليك بها وجهها كما تشاء » .

وعليه أجابه الأمير غوليوم : « ياسيدي طالما انك تريد وتأمر أن أفعل هذا ، وأن نتصرف بالمكر والحيلة ، اسمع أولا الخطة التي أقترحها ، فإذا بدت لك حسنة فاني سأرتب الأمر هكذا » .

وعليه بدأ في الكلام وراح يخبره أن الاتراك والروم ليسوا جنودا يقاتلون وجها لوجه كما نفعل نحن الفرنجة ، لأنهم ماكرون ويقاتلون بالخدع الحربية ، وحيث أنك تأمر بأن تعمل كما اقترح دعني أخبرك كيف سنعمل (٦٩٦٧ - ٧٠٠٧) إن هذه البلاد التي نحن فيها أرض غير مستقرة ، وليست سهلا مستويا للأعمال الحربية كما تجري في فرنسا وكل الممالك ولهذا السبب دعونا نفصل بعض القوات الخفيفة عن كل سرايانا ، ولتكن من الجنود الدهاة ذوي الخبرة ولنزودهم بخيول خفيفة حتى يضربوا ويهربوا ولنوزعهم في ثلاث سرايا ، أو أربع ، ونوجههم لمهاجمة الألمان واعطاء الانطباع بأنهم سيقاتلون ، وهؤلاء بما أنهم متلهفون جدا في عملهم الحربي ، فإنهم سيواجهونهم بلهفة ، وعندها دعونا نسمح لهم بالمجيء ، وعندما يقتربون جدا دعوهم يعطوهم الانطباع بأنهم يهربون ، ويذهبون رأسا نحو المعسكر وعندما يقتربون منه لا يدخلوه ، بل يتابعون ركضهم ويندفعون مارين الى الجانب الآخر ، وليكونوا دائما في صفوف متراصة حتى لا يتشتتوا ، إني

اعرف بوضوح كبير الالمان واللومبارديين كما اعرف ايضا المرتزقة ، إنهم حالما يرون خيامنا والملابس والاردية والاشياء الفاخرة التي تضمها معسكراتنا فإنهم سيكفون عن تعقب قواتنا وسيدخلون المعسكرات ليستولوا على ملابسنا . ولننفصل نحن الاثنان ياسيدي في فرقتين مع جيوشنا ولنوزع السرايا ولنضع الكمائن في أماكن مناسبة وإني لا أحتاج إلا الى قواتي التي جئت بها من المورة لتبقى معي ، لأني أعرفهم ، وعندما يرى مراقبونا من على قمم التلال أن الالمان قد دخلوا المعسكرات ، وتشتت سراياهم في النهب ، لندعهم يطلقون البوكسيني حتى تفهم قواتنا ، ونخرج من مخابئنا ونهاجمهم ، فتأتي انت من جانب وأنا أيضا من الآخر مع الجيوش والقوات التي معنا ، وتلك السرايا الأربعة الخفيفة التي لنا ، وعند سماع البوكسيني سنحيطهم جميعا بنشاط وقوة وعندما نطردهم وتشتت سراياهم سيكونون بسهولة شديدة وبسرعة في خطر شديد » (٩٣) • (٧٠٠٨ ــ ٧٠٥٣)

وعندما انتهى الأمير غوليوم مما كان يشرحه ويخبر به الملك ، استمع له الملك ثم امتدحه جدا لأن ما أخبره له بدا مرضيا له ، والتفت الى الأمير وقال له : « أتوسل إليك يا أخي أن توجه بأن يجري الأمر تماما كما أوجز لي ، لأنه يسرني كثيرا جدا • وعندما سمع الامير هذا دعا القادة وأمار القلاع والقواد الذي كانوا يتولون قيادة السرايا ، ووجه هو الملك بأن توزع السرايا التي أخبركم عنها ، وانتحوا بالقادة والمقدمين جانبا وشرحوا لهم كيف سيتصرفون ، وأخذ هؤلاء القوات والسرايا الباقية واخفوها في كمين ، وأخفي هؤلاء في النقاط الضرورية والمناسبة ، وكانوا من البارعين المهرة ، ثم انطلقت السرايا الأربعة ومضت رأسا لمهاجمة كونرادين .

وعندما علم كونرادين أن الملك كان قادما نحو معسكره لقتاله ، أمر بأن توزع سراياه ولتقاتل كل جنسية بنفسها ، وانطلقوا ومضوا لملاقاة الملك ، حسنا لو أني كتبت لكم

بالتفصيل عن كل الافعال التي جرت في تلك المعركة ربما مللتم من كثرة الكتابة ، كما اني سأمل من كتابتها لكم مرتين ، ولكن كما سمعتموني أصفها بدقة لتوكم فإنه تماما كما شرحها الامير غوليوم دفنها وحققها . والآن ، لقد جرت هذه المعركة في بينفنيتسو حيث الأرض غير المستقرة ، بمنحدراتها ووهادها التي بسببها كان الالمان مرتبكين ، لأنهم لم يكونوا يرون قوات شارل بوضوح ، فجأة انقضت عليهم السرايا الأربعة التي خرجت لخداعهم ، وظنوا أن الآخرين كانوا قادمين أيضا ولهذا السبب انطلقوا على الفور في مهاجمتهم بسرعة ولهفة كما هي طريقة الجيوش ، وحالما أصبحوا على وشك الالتحام وتبادل رمي الرماح استدارت السرايا الأربعة للهرب ، وأعدوا أنفسهم للمضي رأسا الى المعسكر ، وعندما رأى الالمان أن الفرنجة كانوا يهربون اعتزموا القتال وبدأوا في ملاحقتهم ، ولاحقوهم حتى وصلوا الى المعسكر ، وتحلق الفرنجة حولهم (٩٤) ودفادوا المساكن (٧٠٥٤ ـ ٧٠٨٤) وأخذوا طريقا جانبيا ومضوا الى ما وراءها ، وعندما رأى الالمان الخيام التي وقفت على أذرع فاخرة ، والملابس والمال ، تخلوا عن ملاحقة الفرنجة الذين كانوا يهربون ، وانقضوا على المساكن فدخلوها وبدأوا يتبعثرون للاستيلاء على الملابس والصناديق التي تحتوي على المال ويكسرونها ليأخذوا كل ما وجدوه فيها ، وبدأوا يتعاركون فيما بينهم ويتدافعون بأسيافهم.

وإذ رأى مراقبوا الفرنجة ، ما كان يفعله التيديشي ٩٥ اطلقوا البوكسيني ، وفهم أولئك الذين كانوا مختبئين الاشارة وخرجوا من مخابئهم ، والأمير من جانب والملك من الآخر ، وأولئك الذين كانوا يهربون ، وقامت السرايا الاربعة بكرة راجعة نحو المعسكرات واحاطوا بكل الالمان من كل الجوانب ، ووصل الجنود المشاة ومع أقوا سهم القاذفة وسهامهم ، وذبحوهم كما لو كانوا من الخنازير البرية ، ولم ينج في الواقع سوى القليل من الألمان ، ولكن نجا الكثير من التوسكان ومن اللومبارديين أيضا لانهم كانوا يعرفون البلاد ، وكان لآخرين أصدقاء أرشدوهم ، وأسر كونرادين وقطع

رأسه من قبل بعض الرجال من نابولي ممن كانوا خصوما له ، لأنهم كانوا مسرورين بحكم الملك ، وحملوا رأسه على طرف رمح وأحضروه الى الملك وقدموه له (٩٦) ولعن الملك مع أنه كان نبيلا وعاقلا بعنف وأسف بشدة وغضب من أولئك الذين قاموا بهذا الفعل ، وأعلن صراحة وسمعه الجميع إنه كان يريد ويفضل أن يفقد إحدى مدنه من الأفضل بينها من أن يقتلوا كونرادين لأنهم لو أخذوه حيا وهو يقاتل لاضفى عليه تشريفا عظيما ، لأنه (٧٠٨٥ ـ ٧١٣١) كان قبل كل شيء رجلا نبيلا وجنديا ، وقد جاء كجندي ليثأر لموت الملك مانفرد ، الذي كان ابن عم له ، ولم يكن يستحق أن يقطع رأسه ، والآن بعد أن انتهت المعركة ، أمر الملك أن يقسم أولئك الذين أسروا أحياء ويرسلوا الى القلاع ، ومن الغنائم التي كسبوها ، أمر ايضا أن يأخذ كل واحد ما كسبه أي كان ، واحتفظ الملك لنفسه بخيمة كونرادين وكان لها عشرة أعمدة والأسلحة الفاخرة ، والثياب والمال الذي كان في خيمته كحصة له ولم يكن في حاجة لما هو اكثر ، وامر باعطاء سكن دوق كارنثيا (٩٧) وما كان لديه في خيامه من الاسلحة والاموال للأمير غوليوم كربح وحصة له من المعركة.

وبعد أن منح الفوائد لكل جنوده وقسم غنائمه والاسلاب التي ربحها ، أمر بصرف جيوشه ونهب كل رجل الى حيث جاء واستبقى الأمير وأخذه معه ونهب الاثنان الى نابولي رأسا ، وقال الأمير غوليوم أنه سيرى الملكة ، وايضا ابنته إيزابو ، التي تزوجها ابن الملك ، وبعد وصول الأمير والملك الى نابولي كلاهما ، بدأ الملك يتحدث مع الملكة وطلب منها أن تمتدح الأمير وتمجده ، لأنه بحكمته واستراتيجيته ربح المعركة وانتصر على اعدائه الالمان ، وشكرت الملكة النبيلة الأمير واضفت عليه تشريفا كبيرا وقدمت له الهدايا ، ومجد الملك بدوره الامير مثل هذا التمجيد وقدم له الهبات مما أدهش الجميع واستبقاه معه وسط احتفالات عظيمة لنحو ثمانية عشر يوما أو إذا شئت اثنان وعشرون يوما ، وكانت لديه

رغبة كبيرة ليبقيه نحو شهر أو اثنين إذا شئت حتى يفرحا ببعضهما بعضا (٧١٣٢ ـ ٧١٨١) ٠

وبعدها جاءت الرسائل الى الأمير من الدورة بأن خصومه الروم المتمردين قد حنثوا بقسمهم ، واستأنفوا الحرب وتخلوا عن شروط (الهدنة) التي عقدوها معه وبسماع هذا ذهب الأمير الى الملك وطلب الأذن بالذهاب الى الدورة حتى لا تتعرض أرضه للخطر وتعانى من الضرر ، وعندما سمع الملك بهذا لعن وشتم بعنف ولأنه عرف وعلم كما هي الحقيقة فعلا أنه كان بناء على توجيه أمير الدورة كسب المعركة مع كونرادين مع بقاء سلطته على مملكة أبوليا (التي أراد أولئك الالمان ، والغيبلليين ومعهم التوسكان واللومبارديين الاستيلاء عليها) ولأنه أدرك أن الأمير قد انفق كثيرا جدا على القوات التي جاء بها في ذلك الوقت من الدورة للمساعدة والخدمة ولمعونته ، أمر بأن يعطى من الخزينة قدرا كبيرا من الثروة ، من المال والذهب والفضة ، وأعطاه مائة من أفضل الجياد. ومع ذلك أعطاه أيضا خمسين رجلا مسلحا مع جيادهم وكلهم من نخبة الجند ومائتين من حملة الأقواس والسهام وكانوا كلهم مأجورين بأجر ستة أشهر ، اضافة الى الجند والفرسان ، ليأخذهم الى الدورة ليقفوا معه ليساعدوه على حرب الروم المتمردين ، الذين لم يتمسكوا في حياتهم مطلقا بالصدق أو القسم ، وعليه بعد أن نظم أمير الدورة كل الأشياء التي أعطاها الملك له : القوات والأسلحة والخيول ، والخيام والاموال ، غادر نابولي وذهب الى برنديزي حيث وجد السفن مستعدة ، كما أمر الملك ، فصعد الى ظهورها مع قواته ووصل الى كلارنتسا في اليوم التالي.

وعندما سمع كل الدوريون أن الامير قد وصل الى كلارنتسا مع الجيوش والقوات التي كانت معه صحيحا معافى ولا ينقص منها أحد بسبب الغنائم وثروة مرعبة كسبوها في المعركة التي خاضوها مع كونرادين ، أثنى الجميع على الامير وعلى البابا المقدس ، وأقام كل الناس في الدورة احتفالا كبيرا وأظهروا اخلاصهم للأمير وقادة

الفرسان وابتهج كل واحد بصديقه أو قريبه ، وحمد الجميع الرب عندما رأوا أنهم عادوا.

وطلب الامير أن يعرف الحقيقة حول كيف توفرت الذريعة التي أدت الى خرق السلام ، وأخبره أولئك الذين كانوا يعرفون أنهم قد بدأوا الحرب وأصبحوا حانثين بالقسم الآن ، وكان بعض الناس قد أخبروهم وهم يتمنون أن يكون هذا صدقا ، بأن الأمير قد قتل في المعركة التي خاضها الملك ضد الالمان (٧١٨٢ ـ ٧٢١٧) وعليه أجاب الأمير قائلا إن الذرائع لا تنقص أبدا الرومان الكفار ولانهم مذنبون بالحنث بالقسم فإنهم مذنبون بنوايا شريرة أخرى ، وعليه استدعى الأمير ، أمير كارتيانيا وقال له : يا بن أخي الطيب ، خذ معك الفرنجة الذين احضرناهم معنا من أبوليا والذين كافأنا وساعدنا بهم الملك حتى يساعدونا ويحاربوا الرومان معنا وليكونوا معك في سكورتا على طول الجبهة ليحرسوا أرضنا وليربكوا الرومان.

وعند سماع ذلك وافق السير جيوفري أمير كاريتانيا عليه بحرارة ، وبدا له الأمر مغريا لأنه فكر ورجا أنه بهذه القوات سيلحق الدمار بالروم ويحمي أرضه (٩٨) وأخذهم وذهبوا الى أرض سكورتا ، وهناك وجههم أن يستقروا ويتخذوا مواقع لهم في القرية التي تدعى أراكوفا العظيمة (٩٩) والتي تمر عبرها جبهة سكورتا ضد الروم ، ليقاتلوهم ويحموا الارض. وعليه حدث ربما بسبب الخطيئة أنه قبل مرور شهر أو شهرين وربما بسبب المياه الباردة في تلك البقعة اصيبوا جميعا باضطرابات معدية وتوفي معظم الفرنجة الذين كانوا في مدينة أراكوفا ، ولم يجد أمير كارتيانيا راحة ، حيث أنه أخذ كثيرا ممن بقوا ممن كانوا أصحاء بدرجة كافية لحمل السلاح والركوب ومضوا الى المعركة ومرة تلو الأخرى كانوا يواجهون الروم ويلحقون بهم قدرا كبيرا من الدمار.

وعليه بسبب خطيئة الأرض حاق بفرنجة المورة في ذلك الوقت

النحس وسقط أمير كاريتاينا الشهير صريع مرض رهيب وخطير وانتصرت طبيعة الانسان وأخذه الموت ، أنظروا الضرر العظيم ، الذي حل (٧٢١٨ - ٧٢٥٣) بالمورة في ذلك الوقت ومتابعه من حزن عظيم ، وحزن الأمير أيضا عليه وبكاه الجميع صغيرهم وكبيرهم ، وا أسفاه على المصاب الفادح الذي ألم بالمورة في ذلك اليوم ، ومن الذي لم يحزن؟ لقد كان للايتام أبا ، وللأرامل زوجا وكان اميرا وحاميا لجموع الفقراء ، لقد حمى كل الناس من الظلم ولم يدع فقيرا يعاني من صعوبات سوء الحظ ، ولا رجلا جديرا أن يحيق به الفقر ، انظر سوء الحظ الذي وقع في ذلك اليوم ، أن يذهب مثل هذا الرجل والجندي الشهير وييتم كل من أحبوه ، حسنا كما حدث لسوء الحظ ، أنه لم يكن له وريث ، فلم ينجب ولدا من صلبه ، ليتركه ليرث القلاع والمقاطعات التي كان يملكهما في المورة ، وفي شعاب سكورتا والأماكن الأخرى قسمت الأرض قسمين ، أخذ الأمير واحدا لأنه كان صاحب السلطة وأخذت الآخر زوجته كمهر وكان مستحقا لها (١) ، والآن كانت هذه النبيلة أخت السير غوليوم ، دوق أثينا ، وكان يدعي الامير العظيم ، وكان اسمي من الهيلنيين (٢) والآن بعد أن مر بعض الوقت ، الشهور والأيام ، أرسل الأمير العظيم الى مملكة أبوليا مبعوثين حصيفين الى كونت بريين ، وكان يدعى السير هوغ وكان كونت ليكس وعقدوا اتفاقا أن يأخذ (أخت الأمير العظيم) السيدة كارتيانيا زوجة ، وبعد أن توصلوا الى هذا الاتفاق قام الكونت بالعبور وذهب الى المورة ، الى مدينة اندرافيدا وذهب الأمير العظيم أيضا اليها من مدينة طيبة ، وعندما التقيا توصلوا الى تفاهم مع بعضهما بعضا ، وأرسل الى سيدة كارتيانيا ، فجاءت ، وهناك (٧٢٥٤ - ٧٢٨٤) تزوجها الكونت هوغ بريين ، وبعد أن انصرف الى القلاع والمدن التي كانت له في المورة من النبيلة ، أخذها وقاما بالعبور وذهبا الى أبوليا ، ولم يمر وقت طويل كما أراد الأمير قبل أن تحمل النبيلة من الكونت هوغ وتلد ابنا رائعا ، سمي غوتير ، أصبح مولعا بالسلاح والغزوات وشهيرا ومحمودا من كل ممالك الغرب (٣) ، وبعد فترة من الوقت توفي السيرغي دي

لاروش ، الملقب بالامير العظيم ، ودوق أثينا وانتقلت أرضه وسلطته الى الكونت غوتيير ، ابن الكونت هوغ ، الجندي الجديد بالثناء الذي أتحدث لكم عنه ، وكان ابن عم للسير جيوفري ، وهكذا جاء وتسلم الميغالومريت ، وأصبح دوق أثينا وأميرا بالوراثة وهكذا وجد في ذلك الوقت أن الكاتالان الذين كانوا يعرفون في ذلك الوقت الصحبة (العظام) (٤) قد جاءوا الى هاليروس ، حيث جاء بهم دوق أثينا السيرغي بتوقع وبالاتفاق على أنهم سيذهبون الى المورة ، ويغزون الأرض ويستولون على الامارة من أجل زوجته ، التي كانت الوريثة والتي كانت تدعى ماهوت ـ وكان أمير تارنتو يمسك املاكها ، امارة أخيا بطريقة غير مشروعة (٥) وعندما وجد الدوق السير غوتيير أن الصحبة قد جاءت وكانت تصحب معها ألفا أو أكثر من الترك (٧٢٨٥ ـ ٧٣٠٩) توصل الى اتفاق معهم مع معاهدات عظيمة لشن الحرب على رومانيا والاستيلاء على ولاشيا ، وحالما استولوا على قلعة دوموكس ، حل بينهم النزاع والقتال العنيف ، واعتذر الكاتالانيون في خنوع للدوق ، ولكنه بالغطرسة التي من شيم الفرنجة وبناء على المشورة الفاسدة التي اعطاها الآخرون له تولى حربهم وخسر المعركة ، وأسر خلالها وقطعوا رأسه وأخذوا أرضه وما زال الميغالوكريت ، والصحبة اليوم أمراء فيها ، ووقعت المعركة في يوم الاثنين الخامس عشر من آذار من السنة الجارية من السنوات ٦٨١٧ منذ خلق الكون وفي الخمس عشرية الثامنه (٦) .

وسأتوقف هنا عند هذه النقطة عن الكلام والكتابة حول كونت بيرين ، الذي كان دوق أثينا ، وسأخبركم بقصة أخرى ، حول ما حدث خلال الوقت الذي كان فيه الأمير غوليوم في السجن في القسطنطنية ، واطلاق سراحه بناء على الاتفاقات التي ابرمها في ذلك الوقت والتي سمعتم بها في الحقيقة في هذا الكتاب ، والآن في ذلك الوقت ، اعطى كرهينة لدى الامبراطور أخت خودرون (٧٣١٠ ـ ٧٣٢٦) وابنة أمير باسافا ، الذي كان مارشالا عاما للامارة كلها (٧) .

حسنا وبينما كانت هذه الشخصيات النبيلة رهينة مقـابل الأمير هناك في القسطنطينية حدث أن توفي أمير اكوفا (٨) ، السير غوتيير روربير ، ولم يكن له وريث من صلبه سوى ابنه المارشـال جيين دي باسافا ، الذي كان قد اتخذ أخته زوجـة شرعية له ، وانجبـا ابنة كانت تسمى مدام مرغريت (٩) ولأنها كانت رهينة في ذلك الوقت في المدينة (وضعها الامير هناك في مكانه) ، ولم يتصادف وجودها في المورة ، ضمن الشروط بأن تذهب الى الأمير لتتسلم منه اقـطاعية اكوفا التي كانت وريثة لها .

واحتفظ الأمير بالاقطاعية لنفسة ، وعندمـا عادت النبيلة مـدام مرغريت مـن حيث (٧٣٢٧ ـ ٧٣٦٣) كانت رهينة مقـابل الامير غوليوم وراحت تطالب باقطاعية اكوفـا اجـابها الأمير بهـذا الجواب : إنه بعد مرور السنة ويوم مـن وقـت امتـلاكها لهـذه الاقطاعية ولم تأت الى محكمته للمطالبة بها ، كما تشـترط اعراف الأرض وعاداتها ، فإنها تفقد مـا ملكتـه أيا كان وانه لن يعـطيها شيئا (١٠)

وعندما سمعت النبيلة هذا دهشت ، لأنها لم تتوقع مطلقا ان تجد لدى الأمير مثل هذا الجواب الذي اعطاه لها ، لأنها كانت في السجن كرهينة من أجله ، وفي الحقيقة انه هـو نفسـه ، قـد وضـعها هناك ، وهي لم ترتكب عملا شريرا ، لانها لو كانت في المورةمرتاحة لما وقعت مطلقا في ارتكاب خرق للعادات ، ولكن حيث أن الأمير قـد وضعها كرهينة وسجينة من أجله ، فانها لم تتوقع أن يقدم على مثل هذا الخداع وتلك الذرائع وذلك الجواب ، ومـع ذلك عندمـا أدركت السيدة مرغريت وأولئك الذين كانوا مؤيدين لها ومشاورين ان أمير المورة لن يعيد حقا اليها ، غادرت وعادت حزينة الى بيتهـا ، والآن وبعد مرور وقت قصير ، شهر وأكثـر ، عادت النبيلة فـذهبت الى الأمير مع المشورة والرفاق الذين كانوا معها وطالبت بقلعـة أكوفـا وجوارها وكل البارونية وقـامت في الحقيقـة بـالمطالبة الثـانية

والثالثة ، وكان الأمير يعطيها الجواب نفسه واتبع خط السلوك نفسه كما في المناسبة الأولى .

وعندما سمعت السيدة مرغريت جيدا أنها لن تجد مطلقا حقا لدى الأمير طلبت من كل أصدقائها وأقاربها أن يشيروا عليها كيف تتصرف حتى لا تفقد حقها وتحرم ، وهؤلاء الا حكم الذين كانوا يحبونها أشاروا عليها بالزواج من رجل عظيم (٧٣٦٤ ــ ٧٤٠٩) داهية وذي نسب رفيع ، وهو بحكمته ومع أقاربه سيمكنونك من حق الانتفاع بممتلكاتك ، ، ووافقت البارونة الحكيمة في الحقيقة وقبلت الزواج ،وعليه عمل القادة في عائلتها معا فتزوجت زوجا نبيلا ذا نسب رفيع وهو أخو النبيل السير نيكولاس دي سانت أومر وأمير طيبة، وكان السير جين ايضا يحمل اللقب نفسه دي سانت أومر وكان لها أخ ثالث يدعى السير أوثون ، وعندما تزوجها حصل على لقب مارشال قابل للتوريث ، وكان هذا في الحقيقة من توابع تلك المرأة ، وكان آل سانت أومر من ذوي النبالة الرفيعة ، وكانت أمهم الأخت الشرعية لملك هنغاريا وأباهم السير بيلا وكانت هي الزوجة الشرعية ، وأنجب هذان الاثنان معا هؤلاء الأمراء الثلاثة وكان لدوق أثينا الأمير العظيم ثلاثة أخوة آخرون ، وكانوا أبناء عمومة مباشرين لآل سانت أومر اي ان قرابتهم كانت من الدرجة الأولى (١١) ، وبعد أن تزوج السير جين من السيدة النبيلة مرغريت ، لم يرغب بأي طريقة أن تتأخر مسألة أكوفا وأن لا يطالب بها في محكمة أمير المورة ورجا أخوته وذهبوا معا ، ووصلوا الى المورة ، وذهبوا مباشرة الى كلارنتسا ، وهناك وجدوا الأمير مع قادته ، وقد عقدوا برلمانا لمعالجة قضايا معينة كانت لديه وأمضوا يومين دون أن يتقدموا بأي طلب ، ولعبوا واحتفلوا مع الموريين (١٢) . حسنا ومضى يومان وجاء السير جين مع أخويه ، من آل سانت أومر ومع زوجته التي كانت الوريثة ، وذهبوا الى حضرة الأمير ، وقدمت نفسها كوريثة لكل املاكهم ثم قدمت زوجها كوكيل وزوج ، كما تفترض العادات ، (١٣) وفي هذه اللحظة قال السير جين له على الفور : أيها الأمير سيد المورة ، أطلب وأتوسل اليكم وأنتم أميرنا ، وأنا

وريث ، أن تأمر بجمع قادتك ، وقادة فرسان المورة والفرسان التابعين ، ليسمعوا معك ما سأطلب به وأن تحكم (٧٤١٠ ـ ٧٤٥٢) لي بالعدل لأحصل على القرار الذي أريد بموجبه أن أنال الحق طبق أعراف المورة وأنا لا أطلب أي محاباة ، بل أطلب حقي.

وعليه أجابه الأمير بنفسه وقال له :« بكل سرور ، وطالما أنك تطلب الحق فاني مستعد أنا ومحكمتي كي نمن به عليك » .

وأمر الأمير على الفور قادة الفرسان وأيضا التابعين من الامارة بالمجيء ،وجلسوا معا جميعا في سانت صوفيا ، حيث كان الأمير يقيم في اندرافيدا ، وبناء عليه نهض الأمير المسن السيد نيكولاس دي سانت أومر وأمسك بيده اليمنى أخته ، وزوجة أخيه ، السيدة مرغريت وقال للأمير :« ياسيد المورة ، إنه الحق الذي يعرفه كل واحد في الامارة ، أن أختي التي تقف هنا في حضرة سيادتكم ، هي ابنة أخ أمير أكوفا ، السيد غوتيير ولقبه دي روزيير ، وأختي هذه هي ابنة أخته ، وحيث أنه توفي دون ولد يكون وريثا له من بعده ، فان الأرض وقلعة أكوفا آلت الى أختي ، وهي الوريثة ، وكما تعرف ياسيدي ، انها كانت رهينة عنكم في القسطنطينية ـ وأنت الذي وضعتها هناك بنفسك ولم تكن هنا خلال فترة السنة التي تلت وفاة أمير أكوفا ، حتى تأتي وتقدم نفسها الى حضرتك ، كما هو مشروط في أعرافنا في كل الامارة ، خلال الأربعين يوما وخلال العام ، وهي حقيقة لم تخطئك ، ولم تخطىء هي أيضا بأي شكل ، حيث أنها كانت في السجن ، حيث وضعتها وقد وضعتها رهينة وخرجت أنت من هناك .

وعندما أطلقت سراحها وجاءت الى الأرض هنا ، فهمت في الواقع على الفور وجاءت الى حضرتكم (١٤) كوريثة شرعية لأكوفا ، وقدمت نفسها اليكم وطلبت الحق منكم ، وأجبتموها بأنه لاحق لها ، واستمرت في الرجوع اليكم مرات عديدة وهي تطلب

الحق منكم ، ولم تعقدوا لها مطلقا محكمة ، ولكنكم بنفسكم فقط كنتم تقولون بأنه لاحق لها وهي كامرأة بدون من يشر عليها وبلا أصدقاء عادت الى بيتها يائسة ، وانتظرت أن يأتيها العون (٧٤٥٣ ـ ٧٤٩٥) من الرب واليوم برضى الرب ، تزوجت رجلا نبيلا ذا نسب عظيم ، يمكنه هكذا أن يحمي حقها ، كما يليق بأي رجل نبيل أن يفعل ، ولهذا السبب مثلا أمام سيادتكم وجئت أنا ، أخوهم ، لأقدمهما كليهما لكم ، الواحد كوريث والثاني كوكيل عنها وهما يلتمسان حقهما ، وأنا أطلب منكم وأتوسل اليكم ، أن تمنحوهما الحق المتوجب لهما وتعطوهما حق المنفعة في القلاع والولايات في أراضي أكوفا . وهم مستعدون كي يقدموا لكم ما هم مدينون به من خدمات وولاء وتحالف » (١٥)

وعليه أجاب الأمير بنفسه وقال السير نيكولاس دي سانت أومر :« لقد استمعنا بدقة كما فعلت محكمتنا ، للكلمات التي نطقتم بها ولقضيتكم ونشهد ونعلن بأن ماقلتموه حق وأنه في ملاحقتي وفي قضيتي ، فقدت أختكم النبيلة وحرمت من أملاكها واقطاعتها ، أرض أكوفا.وعليه اجيبكم ، وأسألكم اذا ماكنتم ، تطلبون منا أن نعطيكم الحق حسب القانون أو أن تطلبوا منا منحة أمير او حكمته ، لأنها أعيقت بسبب قضيتنا حتى لم تكن معنا في امارتنا وهي مرتاحة خلال المهلة المشروطة في أعرافنا لتجعل طلبها صحيحا وتلتمس الحق »

وعليه أجاب السير نيكولاس وتوجه الى الأمير بهذا الجواب :« سيدي امير المورة اتوجه لسيادتكم اذا كان لي الحق أن أعرف أن أختي التي هنا لم تطلب بحق ، القلعة والولايات ، وأرض أكوفا ، ثم أنه مما يناسبنا أن نطلب منة ، ولكن في هذه الحالة إن طلب الحق صحيح ، كما تعرفون أنتم لأن أختي كانت محتجزة في السجن بدلا منكم ولم تكن قادرة بأي وسيلة على أن تخرج من هناك لتأتي وتتقدم للمطالبة بأملاكها في أكوفا . وعليه فاني لااطلب منكم منة بل حقا فقط كما يتطلب القانون ويقضي (٧٤٩٦ ـ ٧٣٥٢) .

وبناء عليه أجابه امير المورة ، وقال للسير نيكولاس دي سانت أومر :« طالما أنه لاحاجة لمنة مني ، وتريد المطالبة بالحق أمام محكمتي ، فأني أعلن وأشهد لك ، وأؤكد صدقا أن الشر سيحيق بي من الرب كما سيلحقني لوم كل الناس اذا حرمتك من هذا ، وعليه أريد تسوية الأمر باهتمام وتفريق وطبقا لأعراف الأرض حتى لاأرتكب خطأ يلومني عليه الرب والقديسون وكل الناس ، وأريد من قادة الفرسان والأساقفة والفرسان الأتباع في كل الامارة أن يجتمعوا حتى أقدم لهم القضية حتى يحكموا فيها بخوف من الرب طبقا لأعراف المورة ، التي أعطاها الامبراطور روبرت لأخي المبارك الأمير جيوفري عندما عقدا اتفاقا وجعل منه صهرا .

وعليه أمر الأمير بكتابة الرسائل لكل قادة الفرسان في كل الامارة وللأساقفة أيضا والفرسان وجاءوا وتجمعوا في كلارنتسا ، ودخلوا كنيسة سانت فرانسس في (دير) المينوريت وجلسوا للحكم ، كما هو العرف ثم قال الأمير للسير نيكولاس :« أريد أن أعرف منك من هو المحامي الذي يلزم أن يتحدث عن أختك ، ويقدم الدعوى ويخاطب المحكمة » (١٦) وأجابه أنه هو نفسه الذي سيتكلم ويجيب على كل مايخص المحاكمة حول مسألة قلعة أكوفا ، وأجاب الأمير على هذا قائلا : طالما أنك تتعهد بأن تكون المحامي في هذه المسألة المتعلقة بالسيدة مرغريت فحبا لك ولصحبتك ، سأصحبك وسأعين نفسي محاميا للدفاع والمحافظة على حقوق المحكمة (١٧))(٧٥٣٣ ـ ٧٥٧٨) .

وعليه استدعى الأمير المحكم وكان اسمه السير ليونارد وكان من أبوليا (١٨) وكان رجلا حكيما جيد الثقافة والعلم ، وكان يتخذ منه صديقا مؤتمنا وعنصرا رئيسا في مجلسه وأعطي الصولجان والعصا اللذان كان يحملهما في يده كما هي العادة بين القادة والأمراء في كل أنحاء الدنيا ، وقال له :« إني أسلمك السلطة التي املكها حتى تقف في المحكمة لتحكم وتحافظ على الحق بالقانون

وبالمشورة والرفعة الموجودة هنا في هذه المحكمة ، واني أضعك امام قسمك بالمسيح وأمام نفسك أنك انت وكل الذين يجلسون معك هنا في المحكمة سيحافظون جيدا على حق النبيلة السيدة مرغريت وكذلك على حق المحكمة»

ثم تولى السير نيكولاس وصف وتلخيص مسألة أكوفا ، وكيف أن السلطة على هذه الممتلكات انتقلت الى المارشالة السيدة مرغريت كما سمعتم هنا أعلاه في كتابي مما لاأميل للكتابة عنه لكم مرة أخرى لأنه سيكون مزعجا وسيتعبكم جميعا .

وعندما انتهى مما كان عليه قوله ، بدأ عندئذ الامير بدوره ، الكلام ليقدم الأسباب والأعذار والدفاعات والبينات ضد ماأعلنه وقاله السير نيكولاس كما هو معروف في الدعاوى القانونية وفي كل المحاكم حيث يعلن كل انسان مايعرفه أنه معالجة ، وبعد أن قالا الكثير وكثر الكلام أمر الامير بأن يقدم الكتاب الذي دونت فيه أعراف الأرض فوجدوا فيه مكتوبا الفصل الذي يشرح بالتفصيل ويفسر أن التابع ملزم بأن يفعل مايلي : اذا حدث أن أسر أميره من قبل عدوه واحتجزه في سجنه مقيدا بالأغلال ، فان السيد (الأمير) قد يتطلب منه (التابع) ويطالبه أن يدخل السجن كرهينة عنه ليحرر سيده من الأسر ، ويطلب منه بموجب الأعراف وطبقا لما يفرضه القانون أن يذهب بنفسه الى السجن بشخصه ، وعليه فان أميره ملزم بدوره بأن يعمل على اطلاق سراح (٧٥٧٩ ـ ٧٦٢٢) تابعه من السجن الذي دخله بدلا منه (١٩)

وكان كل من كانوا في المحكمة في ذلك الوقت ميالين للرأي التالي وقالوا بحكمة كبيرة بأن المارشالة كانت مخولة بأن تحصل على الأملاك ، واراضي قلعة أكوفا ، طالما أن الأمير بنفسه قد أرسلها وكانت رهينة في سجن المدينة بدلا عنه ، وعندما قدم الأمير كتاب القانون توقفوا وتمسكوا حصرا بهذا الفصل ، فقد بين

بالكتاب ، وبأعراف الأرض انه بالحق الملزم كانت مرغريت ملزمة بهذا الفعل ، وأنه لم يخطىء بأي شكل معها ، لأنها في الحقيقة لم تظهر لتطالب بحقها في الأملاك ضمن المدد المشروطة بموجب الأعراف .

فالتزموا مرة أخرى وعادوا فقالوا حيث انها كانت ملزمة بهذا العمل بدخول السجن لأن سيدها الذي تتبعه قد طالبها بذلك وهو ماتقضي به الأعراف ، ولم يتصادف وجودها في المورة ضمن المدد المحددة للظهور في حضرة الأمير لمطالبته بالحق وانقضت تلك المدد ، فقد فقدت حقها ، وأعطوا القرار بأنها قد سعت بدون طائل .

ودعوا الأمير والسيد نيكولاس ومثل الاثنان أمام المحكمة وتكلم المحكم وهو من رجال الأمير موجها الكلام اليهما والقى الخطبة ، حول كيفية اتخاذ المحكمة للقرار وماانتهت اليه طبقا للقانون ، وبين لهما بالتفصيل الحق والأسباب التي أدت الى ربح البلاط لقلعة أكوفا مع ولائها والمقاطعات المحيطة بها، حسب أعراف المورة وكما يقضي القانون .

وبسماع هذا شكر الأمير كما هي العادة في المحاكم ، المحكمة لربحة القرار ، ولكن المارشال السير جين لم يكن ليقدم شكره بأي طريقة ، وبعد ذلك طلب النبلاء وقادة الفرسان من الأتباع الأذن بالرحيل وأعطاهم الأمير الأذن بذلك ، وغادر كل منهم الى حيث يريد ويرغب وهكذا تفرقت المحكمة وذهب كل منهم الى حيث يحتاج ان يذهب .

وبعد ذلك استدعى الأمير المحكم وقال له سرا بحكمة كبيرة « اقسم لك أيها المحكم (٧٦٢٣ - ٧٦٧١) بحضوركم ياسيدي بدا لي هذا الحكم الذي صدر محزنا ، وأن النبيلة السيدة مرغريت قد جردت من القلعة والاقطاعية وتوابع أكوفا كما وأخشى حقا

وأعرف أنه صحيح لأني وضعتها في السـجن حيث كانت ، ولهـذا السبب لم تجد الفرصة لتكون هنا خلال المدد والفتـرات التـي كان يفترض أن تأتي خلالها وتمثل في بلاطي للمطالبة بـأقطاعية أكوفـا التي كانت من أملاكها ، وسأخبرك كيف حدثت هذه الخطيئة ، ففي الوقت الذي أتوا الي فيه وأخبـروني بـأن أمير أكوفـا كان يمـوت (ولأن السيدة مرغريت كانت في السجن وهي التي كانت سـتؤول اليها الأملاك لأنهـا كانت وريثتـه وابنة أختـه) دفعتني نزوة الى تناول الكتاب ، ذلك الذي دونت فيه أعراف الأرض ، وتصادف أن وجدت الفصل الذي يبين ويثبت ، ويذكر ويفسر بأن الانسان التابع أيا كان هو ملزم بدخول السجن ، اذا طلب منه سيده ويفسر ذلك من أجل أن يتحرر هو نفسه من السجن ، وبعد ذلك يكون هـذا السـيد ملزم بتحريرة من أسره في هذا السجن ، وكما افترضت وكما وجدنا في القانون ، حيث ان المارشالة كانت في سجن المدينة رهينة عني ولم تكن قادرة على الظهور في محكمتي ضمن الفترات المشروطة بموجب القانون ، فانه كان حقا أن تحرم وأن تفقـد أمـلاكها ، ثـم ادركت وقلت في ذهني أنها طالما أنها كانت في السجن بدلا مني وأنها فقـدت الأملاك التي آلت اليها فان الذنب واللوم يقعان علي مع ذلك ، ولهذا السبب وصلت الى قرار وفيه أن أترك لهـا نصـف البـارونية وأن أعطي النصف الثاني لمرغريت ، ابنتي الاصغر لتكون ملكا لها ، وقد رأيت أن آل سانت أومر قد جاءوا الى هنا في تبجح وتعال وغطـرسة كبيرة ، وبدا هذا مؤسفا لي ، وغضب قلبي ولهذا السـبب سـألت السير نيكولاس في ذلك الوقت مالذي كان يلتمسه في بلاطي ؟ هل هو المنحة أم الحـق ؟ فـأجابني بغـطرسـة كبيرة بـأنه لايريد ان يتلقى مني أي منحة بل الحق فقط ، الذي يخص السـيدة مرغريت ، ولهذا السبب أمرت بأن يؤتى بالكتاب الذي يحوي قانون المورة والذي دونت فيه الأعراف حتى نحاكم بها ، فقد تذهب بـذلك غطـرستهم لذا أحلت الأمـر الى (٧٦٧٢ ــ ٧٧.٤) حـكم القضاء »

حسنا والآن وقد حكم اتباعي بموجب القانون بتجريد السيدة مرغريت ، أريد أن أنعم عليها بمنحة ، تعرف لدى كل من يسمع بها وللذين لديهم الحكمة والمعرفة وفي هذا المجال لدى معرفة بما هو مكتوب في السجل (٢٠) ان بارونية أكوفا بكل توابعها تعادل استحقاق أربع وعشرين فارسا ، وعليه أريد منك اذا كنت تحبني أن تدعو كولنيت وهو المسؤول عن تسجيل المنح الاقطاعية لكل الامارة ، ودع الشيوخ في بارونية اكوفا يحضرون وليجلبوا معهم المحاضر التي يملكونها (٢١) وقم بهذا التقسيم لكل البارونية : اقسم ثلثا واختر الأفضل له ، وعندما تصبح الحصص ثمانية أريد خمسة منها كلها من الأفضل ثمنا من الأرض ، وافصل الثلاثة الاخرى عن الأولى بالعائدات واجعل لي مزية فرنجية مكتوبة تخولني منح هذه الحصص من أكوفا وهي في الحقيقة ثلث البارونية للسيدة مرغريت كمنحة وهدية جديدة لها ولأولادها (٢٢) .

ونفذ المحكم على الفور وبلهفة كبيرة أمر الأمير ، ووضع المحكم بنفسه الخاتم على هذا الامتياز واحضره الى الأمير وقدمه له ، وقرأه الأمير وبدا له سليما ورفع ملاءة سريره ووضعه تحتها وقال للمحكم : « اذهب بنفسك وأحضر السيدة مرغريت هنا وقل لها انني في حاجة اليها وأود أن اتحدث معها » وذهب المحكم اللوغوثيت على الفور وأحضرها ، وعندما جاءت المارشالة قال لها الأمير :« انني استحضر الرب كشاهد (٧٧٠٥ ـ ٧٧٤٩) علي ياابنتي الطيبة على الرغبة والنية اللتان شعرت بهما نحوك ، وانا أقدم لك عملا على سبيل المجاملة والمنحة بالنسبة للأملاك التي كانت ستنتقل اليك بارونية أكوفا ولهذا سألت الشيخ السير المسن نيكولاس ذلك الوقت عندما جئتم الى المحكم : ماذا كان يفضل ويريد مني الحق أو المنحة ؟ وأي الاثنين يريد ، وهو بفطرسته وتعاليه قال انه ليس في حاجة لان يقبل مني أي منحة ، بل يريد الحق من المحكمة ولهذا السبب أحضرت كتاب القانون : وقدمته للمحكمة وبعد ذلك حكمت بيننا ، وحيث ان المحكمة قد أعطت حكمها فليس على أن أقدم لك شيئا ولكني بفعل الانعام ، وانا أعلم حقا أنه

كان لأجلي أنك وجدت نفسك رهينة في المدينة عندما آلت اليك بارونية أكوفا ، ولأن لدي شعور عميق بـالعطف نحـوك فقـد فصـلت ثلث البارونية أعطيها لك كهـدية جـديدة قـابلة التـوريث لك ولأولادك ، أرفعي أغطيـة السرير وهذا اللحاف وستجدين امتيازك فخذيه مـع مباركتي » ٠

وتقـدم المحـكم وأحضر الامتياز وأعطـاه للأمير ووضـعه بين يديه ، وخاطب الأمير السيدة مرغريت : « تعالي ياابنتي حتى أنعم عليك » واقتربت منه فأعطاها الوثيقة ، وخلع قفازه ، وبه قلدهـا الانعام ، وهي كامرأة حكيمة تلقته بسرور وبانحناءة خفيفة وشـكر عميق ، ثم ودعته وذهبت الى بيتها ووجدت هناك السيد جين زوجها فأظهرت له سرورا عظيما وأخبرته بالتفصيل بما فعلتـه هناك حيث جاءت وبأمر الهدية التي تسلمتها والمنحـة التـي نالتهـا مـن امير المورة ، وهي ثلث اكوفا ، وعند سـماع هـذا رفـع السير جين يديه ، وكان سعيدا جدا وحمـد الرب لأنه لم يكن يأمـل مـطلقا ولم يتوقع ان يحصل على جزء من السيادة على بارونية أكوفـا ، والآن بعد أن فعل الأمير هذه الأشياء التي اكتبها لكم ، استدعى المحـكم وأمره أن يكتب امتيازا آخر بأحد الأجزاء الباقية من القلعـة وأرض بارونية اكوفا ، قائلا انه قد أعطاه ملكا لابنته مـرغريت وكنت قـد اخبرتكم ان هذا كان اسمها (٢٣) (٧٧٥٠ ـ ٧٧٨٠)

فكتب وختم ودعاها وأعطاه لها ، وقلدهـا الانعـام على الفـور وأدخلها في حق الانتفاع ومنحها صلاته ، ودعواتـه بـأن تملكهـا وترثها ، ومع كل ماأخبرتكم به ، من كتابة ووصف وأخرى ايضـا كثيرة ومتعددة ، لايمكنني أن اكتبها لكم مما انجـزه للأمير غوليوم ورتبه وأقامه ، وكما هي الحقيقة الطبيعية في الجنس البشري ان كل من يولدون يذوقون الموت ويموتون ، وجـاء الوقـت ليمـوت الأمير ليذهب الى الجنة ويغادر الدنيا ، فسافر الى كالامـاتا التـي أحس نحوها بحنين عظيم لأنه ولد هناك وكانت مـن أمـلاكه ملكا خـاصا مشروعا ، أعطـاها الشـامبني له ملكا مـوروثا عن أبيه السـير

جيوفري العجوز من ال فيلهاردين ، وهذا لقبه وبعث برسائل الى كل مكان ، لقادة الفرسان والاساقفة واصحاب الحكمة في كل الامـارة ليمثلوا امامه ثم سقط في نزاع الموت الوشيك ، وتوسل اليهم جميعا أن يشيروا عليه بما هو الشيء اللائق الذي يمكن أن يفعله في النهاية الوشيكة لحياته.

وكتب وصيته بدقة عظيمة ، فعين خودرون حاكما عامـا وتـركه نائبا على الامارة (٢٤) وكتب للملك شارل وتوسل اليه بـأن يتـولى نقل بناته أولا ثم كل من في الامــارة ، ســفيرا وكبيرا الى حفـظه وحمــايته وأن يحـــكمهم جميعــــا بــــالعدل وبالنسبة الى اديرة الفرنجة وأديرة الروم ايضـا ، التـي أسسـها وأقــامها حتـــى تتـــوسط لدى ملك الســماء لكل النصرانية (٧٧٨٨ ــ ٧٨١١) باهداء صلواتها التي تنظمها بذلك الامتياز الذي منحه لكل منها ومثل ذلك يجب أن لايتدخل أحد فيها أو يثير أي متاعب في اي جزء مما أعطاه لها ، ومثله ليس لأي انسـان حي على الاطلاق ان يسيء الى الهـدايا التـي قـدمها للناس الذين خدموه باخلاص وتفان ، وأوصى بأنه بعد موته ولكن ليس قبل مرور سنة كاملة أن توضع عظامه فقط في تابوت في كنيسة القديس يعقـوب المورة في اندرافيدا ، هذه الكنيسة التي بناهـا وقـدمها للهيكل وفي القبر الذي بناه والذي يرقد فيه أبوه وأخوه على أن يكون أخـوه الى يمينه ويكون هو عن يساره وأبوه في الوسط (٢٥) بينهمـا وقضى بايقاف مـال يصرف على اربعـة قسس يدعوهـم كل الرومـان هيريز (٢٦) ليتابعوا دون تـوقف فتـرة بعـد فتـرة الانشاد ، والاحتفال بالصلاة الدائمة على أرواحهـم وأمـر بهـذا كوصية تحت طائلة التأثيم والحرمان الكنسي ، ودونت كتابة حتـى لايتدخل فيها اي رجل في الدنيا .

وعندما رتب كل هذه الأمور التي اخبرتكم بهـا وأمـورا اخـرى أيضا (لاأستطيع ادراجها لكم لأني تعبت من الكتابة بسبب الكتابة الكثيرة التي تتطلبها) أسلم روحه وأخـذتها الملائكة وحملتهـا الى

حيث يوجد الصالحون : خلدوا ذكراه كلكم فقد كان اميرا طيبا ، انظر الشر الذي حل والذي يجب ان يحزن له الصغير والكبير في المورة لأنه لم يترك ذكرا ، ابنا من صلبه ليرث الأرض التي كسبها أبوه بهذا العناء (٢٧) بل على العكس أنجب بنات وذهبت جهوده هباء لأنه لم يوجد أنه قد شرع أن الابنة الأنثى ترث تركة أمير ، لأنه من البداية الأولى كانت اللعنة تلقى على المراة ، ولم يكن مطلقا في حياته لأمير ينجب بنات يخلفنه أن يبتهج ، لأن كل مجده وسلطانة اللذان اعطاهما الرب له سيأخذهما الأصهار اذا وهبه الرب اصهار (٢٨)

والآن بعد أن توفي الأمير غوليوم كتب السيد جين دي خودرون الحاكم العام (وهكذا كان يسمى في كل الامارة ، قد بقي في الواقع نائبا لأمير المورة) على الفور رسائل وبعث بالرسل الى نابولي حيث كان الملك شارل ، وأبلغه بتفصيل دقيق بموت الأمير وحالته (٢٩) وعندما سمع الأمير ذلك حزن على نحو موجع ، وامر بدعوة قادة مجلسة ، وسألهم المشورة حول أرض المورة وكيف يحكمها ، وأشار عليه مجلسه ان يرسل رجلا بالغ الحكمة ، وجنديا خبيرا ليكون نائبا وحاكما في كل الامارة وان يعطي الأذن والسلطة وأن يحكم طبقا لرغبات وخير أهل الأرض ، وعليه عين فارسا موثوقا واسمه روسو ولقبه دي سللي ، وكان رجلا نبيلا وجنديا خبيرا (٣٠) وأعطاه خمسين من المرتزقة (٧٨٤٠ ـ ٧٨٧٩) بخيولهم ، و ٢٠٠ من حملة الأقواس قاذفة السهام وكلهم من أرفع الدرجات ومن الجنود الرائعين الذين أمره الملك بأن يضعهم نيابة عنه في حماية قلاع المورة : واصدر اليه الأوامر ، التي أخذها معه ، والى الأساقفة ، وقادة الفرسان والفرسان والزعماء الذين كانوا في المورة في حينه ، حيث حمل رسائل من جانب الملك ، وترك نابولي مع هذه القوات ووصل الى كلارنتسا في أوائل ايار ، والآن عندما وصل أرسل رسائل خطية الى اساقفة الأرض ، ولكل قادة الفرسان وللفرسان تضم كتبا من الملك كان قد حملها معه ، وفي الوقت نفسه كتب لهم من جانبه ان يجتمعوا

في كلارنتسا ليروا الأوامر التي أحضرها من الملك ، وجاءوا عند استلامهم الرسائل ، وحالما تجمعوا كبيرهم وصغيرهم ، فتحوا الأوامر وقرأوها ، لقد أمر الملك كل الناس في المورة بأن يقبلوا روسو دي سللي كنائب للملك ، وكل من كانوا من الاتباع ودانوا بالولاء عليهم أن يؤدوا ذلك لروسو عن املاكهم تماما كما لو كان هو الملك نفسه .

وحالما انتهوا من قراءة هذه الأوامر تشاور قادة الفرسان والأساقفة والفرسان ايضا حول كيفية تحرير انفسهم ، واغلقوا مطرانية باتراس ، وتولى السير بنوا الكلام عن الجمع وعليه تعهد بأن يخبر نائب الملك بأن كل رجال المورة صغيرهم وعظيمهم ، قد احترموا جميعا الأوامر والوصايا التي جاء بها من الملك وقبلوا به وتمسكوا به واحترموه كما لو كان الملك بنفسه ، ولكن الولاء وفعل التحالف اللذان امرهم ، بأدائهما للنائب دي سللي لن يفعلوه مطلقا لأنهم بفعل ذلك انما يشردون عن الأعراف ، التي اشترطها قانون المورة والتي حصلوا عليها منذ زمن الاستيلاء والتي جرى اداء القسم عليها وكتبها الذين غزوا امارة المورة وملكوها (٧٨٨٠ ــ ٧٩٢٦) بالسيف ، (٣١) لأن قانون المورة وأعراف الأرض يشترطان أن الأمير ، السيد الحقيقي ، أيا كان عندما يتولى السلطة ، يجب أن يأتي بشخصه الى الامارة ليقسم قبل كل شيء للقوات التي في المورة وهو يضع يده على انجيل المسيح ، بأن يحميهم ويعدل بينهم ، وفق الأعراف التي تسود بينهم ، وأن لايزعجهم في الاعفاءات التي يملكونها ، وعندما يقسم الأمير بالطريقة التي اخبرتكم بها ، يبدأ عندئذ كل التابعين في الامارة بأداء الولاء للأمير لأن فعل التبعية الذي جرى عندما يتبادلون القبلة في الفم ، أمر مشترك بين اثنين ، وهكذا فان الأمير مدين بولاء طيب للتابع كما هي الحالة بين التابع وبينه ، وليس هناك فرق بصرف النظر عن المجد والتشريف الذي يلقاه كل امير ، ولكن اذا كان الأمير في أرض أخرى ويرغب في تعيين بعض الممثلين الآخرين ليتقبلوا الولاء الذي يدين التابع به،ان الاتباع في

المورة غير ملزمين بأداء الولاء والاخـلاص لأي انسـان آخـر غير الأمير بنفسه ، وضمن حدود الامارة ، وعلية ان الاتبـاع في المورة يطلبون منك أن لاتاخذ هـذا انعـكاسا عليك ، لانهـم يفضـلون أن يمـــوتوا ويجـــردوا من ممتلكاتهم على أن ينحرفوا عن اعرافهم، وعلى اي حـال فليتـم مايلي من اجل جلالة الملك ولاتدعوه يعتقد باي حـال بـانهم يفعلون هذا تحديا بل بما ان سلطة الامير قد تبدلت ، إننا يمـكن ان نصـبح تحت سـلطة سـيدنا الملك ، إذا كانت لدينا السـلطة على تقـديم الولاء ، إننا نحن الموجودين هنا في حضرة سموكم ليس لدينا هـذه السلطة ما لم يكن الآخرون هنا : الأمير العظيم قبل كل شيء ، دوق اثينا ، وأمراء يوربيوس الثلاثة ، ودوق ناكسوس وأيضا مـاركيز بودونيتزا . وعلى أي حال لتفادي المناقشة الطويلة ، إذا كانت هذه رغبتكم ، بينما انتم اليوم نائب الملك ، ولديكم تلك السلطة ، ولستم اميرا شرعيا حتى يقدموا لك الولاء ، وحتى تكون لديك ثقة في اهـل الأرض ، وهـم بدورهم تكون لهم الثقـة فيك ، وفي انك سـتحكمهم بالعدل ، فلتكن هناك تسوية بخوف الرب ، وهي أن تقسم لهم على انجيل المسيح بأن تحكم وفق أعراف الأرض ، ثم بعدك يقسم هؤلاء لك بـأن يكونوا مخلصـين للملك ولك ، كممثـل للملك (٧٩٢٧ _ ٧٩٥٩)

وعندما سمع روسودي سللي بأن قسـما لابـد أن يكون ، أذعن على الفور للاقتراح وقبل بـه . وبناء عليه أمـر بـاحضار الانجيل المقدس واقسم نائب الملك أولا ثم الرجال من الاتباع ، بـأن يكونوا اتباعا مخلصين أولا للملك شارل وبعده لورثته ، كما هو العرف.

وبهذا تسلم روسو النيابـة وشرع في مبـاشرة مهـام منصـبه التنفيذية فأخذ يغير الموظفين ويضع آخرين جددا بدلا منهـم ، فغير المسؤول عن تسجيل المنح الاقطاعية وأمين الخزينة ايضـا ومتعهـد المؤن للقلاع وكل امار القلاع ، ووزع حملة الأقواس بين القلاع ثـم عين العمال المأجورين (٣٣) .

وهكذا بعد أن بدأت سيادة الملك في الانتشار تحت اسم الأمير السير لويس الذي كان ابن الملك وزوج ايزابو ، ابنة الأمير غوليوم لم يكد يمضي وقت طويل عندما لذنوب الموريين الكثيرة ولأنه لم يكن لهم الحظ ليكون لهم أمير طيب توفي السير لويس أمير المورة ٣٣ . انظر الشر الذي حل بموته لأنه وعد وبدا أنه أمير طيب وكان الأخ الأصغر للملك شارل ، وهو ذلك الأعرج ، والد الملك روبرت ، وبعد أن توفي السير لويس آلت السيادة على المورة الخاطئة الى يد وسلطة الملك شارل (٣٤) •

وعند هذه النقطة إنني سأتوقف عن الكلام ، للحديث عن الملك شارل واخيه الذي كان يسمى السير لويس أمير المورة ولسوف أحكي عن الأمير العظيم السير غوليوم دي لاروش الذي كان دوق أثينا وكان أميرا طيبا أيضا ، وسأحدثكم أيضا (٧٩٦٠ ـ ٧٩٩٥) عن كونت بيريين ، وكان اسمه السير هوغ ، وكان كونت ليكس التي حصل عليها من ابوليا من الملك شارل (٣٥) ، وفي تلك السنة وذلك الوقت الذي اخبرتكم عنه اعلاه في هذا الكتاب الذي تقرأونه ، عندما عاد دوق أثينا من فرنسا وجد أن الأمير غوليوم قد اسر في بيلاغونيا ، وكان في المدينة حيث كان الامبراطور يحتجزه في سجنه.

ولم يكن دوق أثينا في ذلك الوقت متزوجا وبعد ذلك توصل الى اتفاق مع السير تيودورس أمير والاشيا وأخذ ابنته زوجة له ، وأنجب هذان الزوجان ابنا هو الذي كان يدعى السيرغي دي لاروش ، والذي عاش في الواقع بعد وفاة أبيه وأصبح دوق أثينا ، وكان يسمى الأمير العظيم لرومانيا ، وعندما ارتقى وأصبح فارسا عقد اتفاقا مع الأميرة السيدة ايزابو ، وحيث أنه حصل على أرضه منها فقد أصبحت سيدته ، واتخذ ابنتها زوجة له ، وكانت تدعى ماهوت وكانت في الحقيقة ابنة الأمير فلورنت . والآن عاش غوليوم دوق اثينا أباه ، سنوات عده بعد موت غوليوم أمير المورة . وعندما آلت المورة للملك شارل كان أول نائب أرسله الملك الى المورة

هو روسو دي سللي ، وبعده أصبح دوق أثينا غوليوم نائبا للملك ، ووكيلا عاما على كل الامارة (٣٦) ، أرسل الملك أمره إليه من أبوليا أو البراءة كما كان الفرنجة يدعونها ومن ثم تسلم منصب النيابة وأصبح نائب الملك لبقية حياته ، وفي هذا الوقت في أيامه (٧٩٩٦ ـ ٨٠٢٣) بنى قلعة ديماترا التي كانت في سكورتا ، والتي دمرها الرومان ، (٣٧) ، واتخذ الأمير العظيم نفسه مركزه هناك حتى اكتملت قلعة ديماترا . وبعد فترة قصيرة توفيت الكونتيسة زوجة كونت بيريين والتي كانت أخت دوق أثينا السير غوليوم ، وكانت أولا زوجة الجندي الرهيب أمير كارتيانيا كما أخبرتكم ، والآن أنجبت هذه الكونتيسة من الكونت ابنا رائعا أسموه غوتيير الذي عاش وأصبح فارسا جديرا ، جنديا شهيرا حقا في كل الممالك وقتل في هليمروس من قبل الصحبة (٣٨) .

والآن بعد أن ماتت هذه الكونتيسة بوقت قصير وتوفي أيضا ، غوليوم ، دوق أثينا ، أعقب موته فوضى عظيمة ودمارا لأنه كان أميرا حكيما وانسانيا مع الجميع ، وحدث حزن عميق في كل الامارة .

وحدث بعد ذلك ما يلي : اسمع ما حدث / (٣٩) : كان الكونت هوغ دي بيريين مسرورا بالعبور من أبوليا حيث ذهب الى الموره ومن هناك سافر بدوره رأسا الى طيبة قائلا إنه يريد الدوقة ليعزيها ، لأنها قد أصبحت حديثاأرملة للسير غوليوم دوق أثينا أخي زوجته ، وبعد وصوله الى هناك ، رآها وتحدث معها وبقي أياما عديدة قائلا إنه يواسيها ، واختلوا معا كثيرا حتى أصبح كل منهما يرغب في الآخر ، وباتفاق طيب تزوج الكونت عندهما دوقته القانونية ، واتخذ زوجة الزوجة التي كانت زوجة أخيه ، وبعد اقتران الاثنين كما حكم الحظ ، حملت النبيلة ووضعت ابنة اسموها جانيت ، وحالما بلغت السن القانوني وأصبحت امرأة زوجوها الى السير نيكولاس وكان لقبه سانودو (٨٠٣٤ ـ ٨٠٧٣) وكان دوق ناكسوس ، ولم يكن بين هذين

الاثنين اتفاق مطلقا ولسوء الحظ أنهما لم ينجبا طفلا كوريث يرث القلاع والاراضي التي كان يملكها السير نيكولاس.

وآلت المقاطعة الى الكونت هوغ دي بيريين بعد أن تزوج دوقة أثينا وملك السيادة على كل أراضي الامارة العظيمة ، وكان تحت وصايته غي دي لاروش طيلة فترة حياة والدته الدوقة ، والآن بعد مضي سنتين أو نحوهما ، توفيت الكونتيسة وذهب الكونت هوغ الى أرضه في ابوليا ، وعندما بلغ غوييوت سن الرشد تسلم ولاياته : الامارة العظيمة واصبح فارسا وكان اميرا طيبا ، وكان يسمى الامير العظيم وهو لقب هيليني ، وكان دوق اثينا ، وكان له اسم عظيم ولكن بسبب الاثام ، حيث انه امضى عمره في الشر ، لم يأذن الرب ان ينجب وريثا من صلبه ليحكم الارض والمقاطعة التي كان والداه يملكانها (٤٠) .

وساتوقف هنا عند هذه النقطة ، عن الكلام عن السيرغي دي لاروش ، الامير العظيم وساتكلم عن السير نيكولاس دي سانت اومر وكيف تزوج واتخذ زوجة له اميرة المورة ، التي كانت زوجة الامير غوليوم . والان بعد ان توفي الامير غوليوم فان الاميرة زوجته (وكانت اخت الامبراطور كيرنقفور صاحب ارتا) بقيت ارملة ، وكانت في المورة وتملك عددا كبيرا من المدن ، وكانت تملكها وتديرها من سهل المورة ، وايضا في مقاطعة كالاماتا كانت تملك مدن نياتوكوري ، وبلاتانوس وغليكي ومدنا اخرى اضافة الى جانب هذه التي كانت لها السيادة عليها (٤١) .

وبعد ذلك حدث ان السيد نيكولاس دي سانت اومر العجوز ، وكان رجلا نبيلا وعظيما لديه قدرا كبيرا من المال ، حيث توفيت زوجته الاولى التي كانت في الحقيقة اميرة مدينة انطاكية) ومنها حظي بثروة شهيرة ومال ، حدث كرجل نبيل ثابت الفكر ان توصل الى تفاهم مع اميرة المورة وتزوجها ، ولهذا السبب ذهب الى المورة وبقي معها (٤٢) وبثروته العظيمة ومقاطعاته التي كان يملكها

شيد قلعة سانت اومر التي كانت في طيبة ، وبنى هذه القلعة لتكون قوية للغاية ، وبنى ضمنها مساكن تصلح للملك حقا ، وأنشأها وبناها وكسا جدرانها من الداخل بلوحات جدارية زيتية تصور كيفية غزو الفرنجة لسورية ، ودمر الصحبة بعد ذلك هذه القلعة بسبب خوفهم من الامير العظيم ، دوق اثينا ، الذي كان يسمى غوتيير (الثاني) لئلا يستولي عليها ويحيط نفسه بالخنادق هناك ويتخذ منها موقعا دفاعيا قويا ، وبمساعدتها يغزو الميغالو كيريت ، انظر الشر الذي ارتكبه الكاتالانيون الخداعون ، لتدمير مثل هذه القلعة ومثل هذا الحصن !

وبنى السير نيكولاس ايضا في مدينة مافيا تخوري قلعة صغيرة لتحمي ارضه ضد البنادقة ، وبعد ذلك بنى قلعة افارينو مع نية وتوقع ان يهيمن على الملك ليعطيها له كاقطاعية قابلة للتوريث له ولابن اخيه المارشال الكبير وكان اسمه السير نيكولاس .

ثم مر الوقت بعد ذلك وتوفي الامير العظيم الذي كان نائبا للملك في المورة وعين بعده السيرغي الذي كان يدعى تريمولاي امير كالندريتسا نائبا للملك وحاكما عاما ، وبعدذلك توفي تريمولاي ايضا ، وبعث الملك باوامر من ابوليا الى السير نيكولاس دي سانت اومر ليكون نائبا للملك

وبعد ذلك تسلم منصب النيابة وبدا يتصرف ، ويحق الحق وينشر السلام في الارض (٨١٠٨ ـ ٨١٤٥) كرجل نبيل وحكيم تجاه كل الناس (٤٢) وخلال زمن حكم السيرنيكولاس دي سانت اومر العجوز ، امير طيبة ، الذي كان نائبا للملك في المورة خلال تلك الايام ، كان هناك فرنجي نبيل من شامبنين ، وكان يدعى السيرجيوفري دي برويير ، وكان ابن عم الامير كاريتانيا ، وعندما سمع وعرف بأن امير كاريتانيا الذي كان ابن عم له قد توفي ، وانه لم يعقب ولدا كوريث له فتحت شهيته وراودته فكرة الذهاب الى المورة ، باعتباره في الواقع اقرب الاقرباء لامير كاريتاينا ، لينال

تركته (٤٤) فرهن اراضيه واقترض هيبربورا واستاجر ثمانية من السرجندية ذهبوا معه ، وجلب معه من الاساقفة والفرسان شهادات خطية مختومة تشهد بانه كان ابن عم امير كاريتانيا ، السير جيوفري دي بروبير ، وقام بتحضيرات نبيلة ، واخذ السرجندية ، وغادر الارض وبدا رحلته ، ووصل الى نابولي ووجد الملك شارل ، وابرز له الشهادات التي يحملها والتي تقول بانه ابن عم امير كاريتانيا وانه جاء حسب الاعراف الفرنجية كوريث لتركه الاملاك ، وقريب ليطالب بحقه الموروث *

وقدم ولاءه كما هو العرف . وامر الملك عندما سمع وراى الشهادات ان يكتب للعجوز السير نيكولاس دي سانت اومر وكان في الواقع نائب الملك في المورة بان يستدعي كل الاتباع في المورة والاساقفة والحكماء من كل الامارة ليحضروا لعقد محكمة عليا لفحص الشهادات التي اتى بها السير جيوفري من فرنسا ، واذا وجدوا انه قد التمس بحق قلعة كاريتانيا وتوابعها ، فانه سيعطيه حق الانتفاع وسينعم عليه بها (٨١٤٦ ـ ٨١٩٠)

والان نظرت المحكمة التي انعقدت في كلارنتسا الامر الذي ارسله الملك وقرات الشهادات التي احضرها معه ، وبعد ان تناقشوا مطولا وتكلموا ودعوا الناس للشهادة نوهوا بالعمل الذي قام به امير كاريتانيا في الوقت الذي ثار فيه وذهب الى طيبة ، وقاتل وركب الى جانب الامير العظيم ضد الامير غوليوم ، الذي كان اميره الشرعي ، الذي حصل منه على قلعة كاريتانيا وكل اراضيه . واخل بالثقة مع سيده واصبح متمردا ، ونتيجة لذلك حرم هو وسلالته وعندئذ توسل كل رجال الامارة لدى الامير ليعيد له ارضه شريطة ان يعطيها له كمنحة جديدة تورث فقط لاولاده من صلبه اذا انجب ، وعليه فقد استدعوا هذا الفارس ، السير جيوفري فمثل امام القضاء ، والقى اسقف اولينا خطابا واخبره بتفصيل كبير بقرار المحكمة ، وعن الفعل الذي ارتكبه امير كاريتانيا وكيف حرم وكل سلالته بموجب الاعراف السائدة في كل الممالك : وكل من تبين انه ملحد وخائن

يحرم هؤلاء ومن بعده سلالته ، من اي ارض او مقـاطعات يملكهـا ويحكمها » وعليه ياصديقنا الطيب نقول الحق ، ان الحق ليس معك فيما تطالب به »

وبسماع انه تلقى قرارا مخالفا لتوقعاته عاد السير جيوفري دي بروييز هذا الى معسكره وجلس وحده يبكي وينوح كمـا لو انه فقـد مملكة فـرنسا ، لو انهـا كانت له ، والان بعـد يومين اسـتغرق في التفكير وبعدما ثارت في ذهنه افكار حول ما يمـكنه فعله لانه لو عاد الى فرنسا ولم يتدبر بطريقة ما البقاء في رومانيا ليبني ثروة ، فـان كل الناس وسيضحكون منه وسـيوبخونه يسـبونه لأنه عاد دون أن يحقق شيئا ودون أي كسب ولهذا السبب قال لنفسه أنه من الأفضل ان يموت من أن يبقى دون أي انجاز أو كسب.

ووجد رجلاً من الأرض تصادق معه ، وطلب منه أن يعلمه بـدقة عن القلاع التي كانت في سـكورتا ، وعن أراكلوفـون (٤٥) وكيف قامت وأيضا عن (٨١٩١ ــ ٨٢٢٧) كارتيانيا وكيف بنيت ، وأي الاثنتين كانت أقوى وأي قوات فيهـا ، ووصـفهما له الآخـر الذي عرف حالة القلعتين بالتفصيل وأعلمه بالنواحي التي تقشومان فيهـا وبالقوات التي كانت فيهما ، وعندما سمع هذه الأشياء وضع خطته وخرج من المورة وذهب الى زينوخوري (٤٦) ، وحـالما وصـل الى هناك ، قال إنه يشعر بالدوار وأن علة في معدته قد تملكته وتكلم مـع الناس وسأل أين يمكن أن يجد مياه بئر ، لأن مثل هذه المياه قابضة وتوقف الزحار وأخبره شخص كان هناك وهو من أهل المكان بـأن هناك ابارا جيدة في أراكلوفون وتركه يرسل لهم ليعطوه بعضـا مـن هذا الماء حتى يشفي من الدوخة . وعليه استدعى أحـد السرجندية من اتباعه ، ممن كان لديه فكرة حسنه عنه ، وكان يثق بـه جـدا في خطته السرية وقال له : « خذ قوارير واذهب الى القلعة القريبة مـن أراكلوفون وأخبر آمر القلعة اني اطلب منه أن يوجه بأن تعطى مـاء من البئر ، إذ أني احتاجه لعلاجي ، لأن الطبيب قد وصفه لي وقال انه مفيد لي ، وخذ ملاحظات دقيقة عندما تدخل القلعـة ، عن كيفية

بنائها وكم عدد حراسها حتى يمكنك أن تخبرني بها عند عودتك وأن تشرحها كلها لي ، وإياك أن تجرؤ على أن تخبر أي شخص حي بذلك ».

وعليه ذهب السرجندي الى القلعة ، فوجد آمرها ، وحياه بلطف وسأله نيابة عن أميره ، أن يأمر بأن يعطى ماء من البئر ، وأعطى آمر القلعة على الفور الأذن له فدخل هو نفسه القلعة واستطلعها وعاد الى السير جيوفري واخبره بكل ما رأى ، واستمر نحو عشرة أيام على القول بأنه يشعر بالدوار وكان سرجنديه يذهب بشكل متكرر الى القلعة ويحضر له الماء بشكل متكرر ، ليشربه ، ثم طلب من آمر القلعة متوسلا بالحاح أن يأتي (٨٢٢٨ ـ ٨٢٧٧) إليه بغية أن يتكلم معه ، وجاء آمر القلعة الى الفارس على الفور.

وعندما رآه السير جيوفري استقبله بلطف وتحدث اليه عن مرضه وطلب منه أن يستقبله في قلعته مع واحد من حجبته وان يعطيه غرفة واحدة يرقد فيها حتى يستطيع شرب الماء المفيد من البئر وستكون بقية حاشيته في المدينة.

وقال له آمر القلعة على الفور وهو لايتوقع منه اي خداع واكد له انه سيستقبله في القلعة ، وبعد ذلك وفي اليوم التالي اخذ السير جيوفري خيمته وذهب الى القلعة ودخل القلعة واعطي غرفة ؟ وكان فراشه معدا فرقد عليه وكان معه سرجندي واحد فقط وبقيت بقية حاشيته في المدينة وامر باحضار ثيابه الى القلعة وكان بينها ايضا اسلحة وكان يرقد على الفراش كل الوقت ؛ وطلب آمر القلعة وتناول العشاء معه وكان يبدي الاحترام والانس نحوه حتى يثق به ويمكنه خداعه وحالما حاز على ثقته ووجد الفرصة ، استدعى سرجنديته الذين كانوا بمثابة تابعين له وقال انه سيكتب وصيته لان كان يخشى أن يموت من المرض الذي يعانيه ، وجعلهم يقسمون له سرا من غرفته بان يبقوا كل ما سيقوله لهم سرا وان يتعاونوا معه اذا فعل ماخطط له واراد تنفيذه ، وعندما اقسموا بدأ يقول لهم : يارفاقي واصدقائي

واخوتي يامن جئتم معي الى اراضي رومانيا ، انتم تعرفون السبب الذي جعلني اسرع برهن ارضي لآتي بشرف بأمل وتوقع اخذ كاريتاينا مع الاراضي المحيطة بها التي اقامها اقاربي وبنوها والتي استولى عليها اقاربي بالسيف ، ولقد سمعتم ورايتم كيف حرمني الجلادون الموريون وابعدوني عنها وانا حزين وخجل واشعر بمرارة عظيمة وعليه فقد وضعت خطة بناء على ثقتي فيكم لو انكم ساعدتموني ، ولدي آمال بأنكم ستفعلون امورا عجيبة سنسمع بها انكم ترون هذه القلعة والقوة التي فيها ان عددا قليلا من الرجال يلزم لحمايتها طالما ان المؤن متوفرة فيها وهي محصنة وتقع في ارض سكورتا ونتحكم فيها فلنملكها لانفسنا لنتحكم فيها ولنقل باننا سنبيعها الى قائد امبراطور الروم ، واتوقع انه عندما يسمع نائب الملك (٨٢٧٨ ـ ٨٣٢٢) في المورة ذلك سيكون سعيدا جدا عندما يتوصل الى تفاهم معنا وسوف يعطني قلعة كاريتانيا مع ارض سكورتا وسيفضل ان احصل عليها من الملك بدلا من ان اعطي قلعة اراكلوفون للروم لانه اذا اخذ الروم هذه القلعة الصغيرة ، فانهم سيربحون كلا من سكورتا وكل الامارة » .

وعندما سمع سرجنديته هذا اتفقوا مع بعضهم بعضا وبدأو يفكرون كيف يمكن تنفيذ ذلك وتحقيقه ؟ ثم رتب السير جيوفري الامر وقال لهم : « لقد سمعت أن هنا في الخارج حانة يباع فيها النبيذ وان آمر القلعة يخرج ويجلس هناك عدة مرات ليشرب مع الاخرين ويبدو لي اننا يجب ان نفعل كما سأقول لكم :

وحيث أن لدينا خبز وبسكويت ونبيذ وماء واسلحة هنا بقدر مانحتاج ، فاخرجوا للحديث معه هناك في الحانة ، اثنان أو ثلاثة منكم كما تفضلون وليكونوا من امهركم وادعوا آمر القلعة وحاكمها والسرجندية معهم وكل العناصر القيادية ولديكم ديناري كثيرة فاعطوها لصاحب الحانة واشتروا كمية من النبيذ واشربوا معهم واعطوهم كثيرا جدا ليشربوا حتى يثملوا ولكن احرصوا على ان لاتشربوا كثيرا من النبيذ معهم حتى لايسكركم فنخسر مانأمل في

إعداده ، وعندما تتأكدون من انهــم مخمــورون دعوا واحـــدا منكم قائدكم يتسلل بسرعة من هناك ويأتي مسرعا الى القلعـــة وبعـــد ذلك دعوا آخر يأتي أيضا ويمسكوا بحارس الباب ويلقــوا بـــه خــارجا ويأخذوا مفاتيحه ويغلقوا الباب ثم يصـــعدون بسرعة فـــوق اســـوار الباب ليحرسوا الباب ، لئلا يشعلوا فيه النار ويحرقوه ويقتحمـــونه ويأسروننا ونخسر ما نأمل وما نخطط لتنفيذه.

وفعلت الحاشية والفرنجة تماما كمـــا أمـــر الســـير جيوفـــري ولخص ، وقام الفرنجة واستولوا على القلعـــة ، ثـــم اطلق الســـير جيوفري سراح المساجين (مـــن الحجـــز) ، وكان هناك اثنا عشر رجلا فيه ، من الفلاحين والروم. ودعا اثنين من الروم وأمر بـــكتابة الرسائل لهم ، وكان واحد أو اثنان ممن يعرفون الكتـــابة يقـــومون بذلك ، وأرسلها معهما الى قائد الامبراطور وكتـــب فيهـــا معلنا أنه يجب أن يأتي مسرعا الى القلعة التي استولى عليها والتـــي تســـمى أراكلوفون (٨٣٢٣ ـ ٨٣٦١) وأنه قد يبيعها بالهيربورا ويسلمها له . وعندما سمع بهذا ابتهج : وجمع جيوشه كلهـــا بسرعة وانطلق بأسرع ما يمكنه ، وسافر حتى وصل الى مخاضة في نهـــر الألفيوس عند نقطة من وادي الألفيوس تدعى أوميلوس (٤٧) ، وهناك نصبوا خيامهم وأوى الجيش الى الفراش.

والآن بعد الاستيلاء على اراكلوفون بعث آمر القلعـــة فيلوكالوس (٤٨) ، وكان هذا اسمه بمبعوثين على الفور الى الســـير ســـيمون وهذا اسمه وكان لقبه دي فيدوني (٤٩) وكان في اراكوافـــا يســـمى العظيم ، وكان مع قواته في ســـكورتا حيث كانوا يقـــومون بـــواجب الحماية في ذلك الوقت وشرحوا له الامر والخيانة التي ارتكبها السير جيوفري دي بروبير ، والتي استولى فيها في الواقع على اراكلوفون وكان سيبيعها لقائد الامبراطور ، الذي بعث له برسالة لياتي ويعطيه الهيربورا وياخذ القلعة •

وعند سماع هذا ركب السير سيمون خارجا مع كل الرجال الذين

- ٤٩٢٦ -

تصادف وجودهم معه هناك في ذلك الوقت . وبعث برسالة في كل مكان الى قواته لتاتي ووصل بسرعة الى قلعة اراكلوفون ، واحاط بها كلها بالقوات التي معه واستولى على كل الممرات والطرق والشعاب حتى لايتمكن احد من الدخول او الخروج من القلعة ليحمل اي رسالة من او الى الروم ، والان عندما وصل السير سيمون الى اراكلوفون مع القوات التي معه ، ارسل الرسل على الفور الى نائب الملك الى السير نيكولاس دي سانت اومر ، الذي كان في كلارنتسا ، وابلغه واعلمه بالحدث ، الذي جرى من ان السير جيوفري دي بروييز قد استولى على قلعة اراكلوفون وبعث برسالة الى قائد الامبراطور الرومي ليحضر له الهيربورا ليعطيه القلعة ، وانه جاء مسرعا مع كل جيوشه للمساعدة لئلا يعقدوا القلعة ، وقبل ان ياتي الروم ويحتلوها .(٨٣٦٢ ـ ٨٤٠٢) .

والان عندما سمع نائب الملك بهذا ، انطلق على الفور باي قوات تصادف وجودها معه ، وبعث برسالة الى كل مكان لتأتي الجيوش ، وعندما جاء الى اراكلوفون ووجد الشحنة السير سيمون (يحاصر بقواته ويستولى على الطرق حتى لاياتي احد من الروم ويدخل اراكلوفون ويحضر لها رسالة) شكر نائب الملك الشحنة بحرارة .

وبدات جيوش الفرنجة في الدخول من كل الجوانب واستولوا على كل درنغوس سكورتا وكانوا يحرسونها ، وجاءت رسائل جديرة بالثقة الى نائب الملك بان جيوش الروم وصلت الى رافد الالفيوس عند نقطة تسمى اومبلوسي .

وعليه امر باستدعاء السيرسيمون شحنة سكورتا وامره بان ياخذ قواته وقوات درنغوس سكورتا وقوات كلماتا وبيرغاردى وكالنكريتزا وايضا قوات فوستيتزا وان يذهب الى ايزوفا الى مخاضه بيتر على رافد الالفيوس ليتخذ موقعا ويحميها حتى لايمر الروم الى درنغوس سكورتا (٥٠)

ثم تولى السير سيمون ، كنائب للملك القيادة ، واخذ جيوشه وذهب الى هناك ووقف وجها لوجه مع الروم ، والآن فان نائب الملك الرجل الحصيف استجابة للمشورة التي تلقاها استدعى فارسين وأمرهما بأن يذهبا الى أراكلوفون ليطلب القلعة من السير جيوفري وأن يعيدها الى سلطة الملك كما وجدها ، وسيعفى عنه لما فعله . « ولكنه اذا خطط بأي طريقة ليستولي على القلعة ليتملكها أو ليعطيها لأي شخص آخر ، فأبلغه لعلمه أنه يجب أن يأخذ بصدق بأني سألقى الموت أولا وأنتم جميعا معي ولا أبرح هنا مع الجيوش التي معي قبل أن أدمر أسوار قلعة أراكلوفون وسأحاصره بداخلها وأقتله » .

وعليه ذهب الفارسان واقتربا من القلعة وطلبا هدنة وناديا من مكان بعيد حتى لا يطلق عليهما السهام (٨٤٠٣ ـ ٨٤٤٧) بأن نائب الملك قد أرسلهما كرسولين لمناقشة أمر مع السير جيوفري من اجل خيره وشرفه لو فعله .

وبسماع هذا بات السير جيوفري بالغ السرور ووقف فوق الأسوار وسألهما ماذا يريدان فقالا له : « ان نائب الملك يبلغك ، وهو يحييك كصديق أنه قد صدم لأنك في وجه المجاملة والعناية البالغة التي لقيتها والتشريف الذي وجدته في قلعة الملك استوليت عليها وتمسكت بها وستبيعها لقائد الروم كما أبلغته ، وعليه فانه يتوسل اليك ونحن جميعا منضمون اليه أن لا تنخدع بتوقعات الشهرة العالمية الواسعة ، لأن الكل دهش مما فعلتم ، ولا ينبغي لك كرجل نبيل لهدف خياني أن تفكر في هذا أو تضعه موضع التنفيذ ، لأننا نحن الفرنجة فوق كل شيء قد خجلنا بسببك وأسفنا ، ونحن نعرف مع ذلك أنك فعلت هذا بدافع المرارة ، لأنك كنت تأمل وتتوقع الحصول على بارونية كاريتاينا في سكورتا وخاب أملك ، ونعلم حقا بأنك قد ندمت على ما فعلت ، وعليه نقول لك ونشير عليك بطيبة وشوق أن تعيد القلعة ، وستنال هبة وتشريفا عفوا ولكن اذا كنت تخطط بشيء على سبيل التحدي فاحترس لأنك لا تستطيع الوقوف ضد الكثير

جدا ، لأن نائب الملك قد أرسل للنجارين ليحضروا ، والحرفيين البنادقة ، وستحاصرون جميعا وتقتلون » .

وعليه بدأ السير جيوفري يتحدث اليهما « أيها النبلاء لقد أخطأتم في حقي بمنعي ممتلكاتي وحرماني من ميراثي بذرائع وأعذار جوفاء ، أيها الموريون ، وأنا من الأسى والأسف اللذان أشعر بهما وقد فعلتم ما ترون ، ومن المرارة التي عندي فعلت ما فعلت ، وأنا أعرف أن هذا لا يشرفني .

ومع ذلك طالما أنكم تخبروني وتنصحوني فاني سأعيد القلعة مع التفاهم والاشتراط بأن توضع قضيتي أمام محكمة الملك وأيا كان قرارها فاني أوافق على قبول سلطتها ، والآن طالما اني جئت الى أرض المورة ، فاني أصبحت أحبها وأريد أن أبقى معكم هنا ، فأعطوني أرضا أملكها ولأجد فيها معيشتي ، لأني أشعر بالحزن والعار أن أذهب الى فرنسا لأقاربي وأصدقائي وجيراني ليضحكوا مني لأني ذهبت الى (٨٤٤٨ ـ ٨٤٧٠) رومانيا وتصرفت كولد » .

حصنا ولو أني كتبت ما قال هذان الفارسان للسير جيوفري وما قاله لهما (٥١) ، فمن الذي سيقرأه؟ ولكني سأوضح لكم بأني سأكتب هذا لكم وأرويه بايجاز ، فقد توصل السير جيوفري الى تفاهم
وسلم القلعة وأعطوه كملك لا يورث اقطاعة مورايينا وهي موجودة في سكورتا مع المدن الأخرى ـ كما زوجوه السيدة مرغريت ، التي كانت ابنة عم أمير أكوفا وكانت تملك ملكا قابلا للتوريث اقطاعه ليساريا (٥٢) . وبعد زواجهما واجتماعهما معا ، أعطاها الرب ابنة أسموها هيلين ، تزوجت فيما بعد السير فيلان دي أدفوي أمير أركاديا (٥٣) ، وكان لهما بدورهما ولد وبنت ، وكان اسم الابن ايرارد ، والابنة أغنسس ، وقد تزوجها السير اتيين ولقبه مور فوضعت بدورها أبناء وبنات ، وبقي منهم وريث واحد وهو ايرارد

أمير أركانيا(٥٤) واغتنى الايتام وسعدت الأرامل واقتنى الفقــراء والمعوزون مالا كثيرا (٨٤٧٩ ــ ٨٥٠٧) في الزمـــن الذي اتحـــدث عنه وهو زمن أمير أركارديا .

فخلدوا ذكراه جميعا ، لأنه كان أميرا طيبـــا ، وعند هـــذه النقـــطة سأتوقف بعد ذلك لأتحدث عن السير جيوفري وميراثه وسأخبركم ، بأني سأتكلم وأكتب عن ايزابو المبـــاركة (التـــي كانت ابنة الأمير غوليوم ، والتي كانت تخاطب وتســـمى في تلك الأيام أميرة المورة) وكيف جاء بها الرب وعادت الى أملاكها وأصبحت أميرة آخيا .
في الوقت الذي أخبركم عنه ، كانت الأميرة ايزابو في نابـــولي مـــع الملك شارل .

وكان الملك في الواقـــع يملك الســـيادة على المورة ، بفضـــــل تلك الاتفاقات التي ابرمها الأمير غوليوم مـــع الملك شـــارل ، الأكبـــر ، والده ، وأيضا من خلال أخيه الامير ، السير لويس ، زوج ايزابو . حسنا وفي حين أن الملك كان يملك السيادة على المورة ، كان هناك في ذلك الوقت فارسان من القادة . كان أحدهما يدعى خودرون ، وكان الحاكم الكبير لامـــارة المورة وكان الآخـــر الســـير جيوفـــري ، دي تورناي (٥٥) وكان الملك يحبهما ويقدرهما عاليا ، وكان الحـــاكم في الحقيقة أميرالا عظيمـــا لكل المملكة وبينمـــا كان هـــذان الفـــارسان يمضيان جيئة وذهابا من والي بلاط ملك نابولي ، كان أخو الكونت دي هينوت هناك ، وهـــــو الذي يدعي الســـــير فلورنت دي هينوت (٥٦) .

وكان حاكما عاما على كل الامارة ، وكما هي العادة العامة للجنس البشري ، توصلا الى اتفاقات مع بعضهما بعضا وعقدا صـــداقات ، وكان السير فلورنت (٨٥٠٨ ــ ٨٥٥٤) سعيدا بهذين الفـــارسين المورييين ، السير جان دي خـــوردون ، وســـير جيوفـــري وفي هـــذه الصداقة التي كانت بينهما قـــال الســـير فلورنت الرجـــل الحـــكيم لهما : أيها النبـــلاء الاخـــوة والاصـــدقاء اذا كان لي أن أكون لكم

صديقا ورفيقا في المورة فان علي أن أقسم لكم بـأننا لن ننفصـل ، وسنكون كالاخوة ونعيش معا . اني أرى بعيني بـأن الملك يحبـكما وأنه يعتمد عليكما كمرشدين وقادة في مجلسه ، حسـنا فـاذا كنتـم تكنون لي الحب كما آمل ، كلموه حول أخذي للسيدة ايزابو ، زوجة وبينوا له الأسباب الحقيقية التي تجعل أرض المورة تجد نفسـها في حرب وفي خطر الضياع بفعـل رجـاله ، الذواب الذين يرسـلهم إلى هناك ، أنهم مأجورون ويسـعون دائمـا وراء مـكاسبهم الخـاصة والارض تتسرب دائما من بين أيدينا ، وتضيع وهي في خطر ويتحمل الملك كل التكاليف ويأخذ الآخرون الربح ، وأنه حقـا لامـر شـديد بالنسبة له أن يبقي الوريثة هنا ، انها تعيش كسجينة تقريبا وهـذا ما يدهش العالم وسيفعل شيئا لتحرير روحـه ولجسده بـأن يزوج السيدة ايزابو من فارس ، من رجل نبيل من منزلتها ، سوف يشعر بأرض المورة ويحميها قبـل أن تفلت تمـاما مـن أيدينا ويفقـدها الفرنجة ، ولماذا اذكر كل التفاصيل واشرحها لكم نقطة نقـطة لهـذا عجلوا ايها الحـكماء وكلمـوا الملك لانكم تـؤثرون عليه ليسـتجيب لرغبتـكم ، لان عقلي يقـول لي وفـكري يدلني على انكم اذا كنتـم تريدون ذلك ، وانتم الرجال اصحاب الحكمة ، فان الامر سـيتحقق وستكتسبون الامارة لانفسكم وسأكون رجلكم . وسالقب بـالأمير وستكونون أمراء . وبسماع هذه الأشـياء سر خـودرون والسـير جيوفري جدا ، ووعداه بأنهما سيحققان رغبته في انجاز هذا الأمـر ورجوا من الرب أن يحققا نجاحا طيبا ،وعليه التمسا فرصة ليجـدا الملك في لحظة مزاج طيب ليكلماه . وعندمـا وجـدا اللحـظة كلمـه الاثنان ، فوجداه في مزاج حسن في غرفته ، وذكرا له الأسباب وبينا له أسباب ان أرض المورة وامارة أخيا كانتا تتسربان ضائعتين وفي خطر ، بسـبب أن الأمير ، الذي كان دائمـا سـيدا عليهـا لم يكن موجودا . « انكم تبعثـون الى المورة (٨٥٥٥ ـ ٨٥٩٤) ذوابـا ومرتزقة يستعبدون الفقراء ، ويؤذون الاغنياء ويسعون فقـط وراء مكاسبهم ، والارض تنزلق مـن بين ايدينا ، فـاذا لم تعينوا رجـلا يكون وريثا ليبقى بشكل دائم وليحكم الجميع ويضع في فكره وهـدفه ان يقدم مصالح الارض فانكم ستفقدون الامارة ، حسنا يا سـيدي

الامبـراطور (٥٧) ، انكم تحتجـزون ذلك الوريث ، وهـو السـيدة ايزابو ابنة الأمير ، فزوجوها من رجـل عظيم ونبيل يأخـذ بـزمام الامارة من جلالتكم ، وبذلك تفعلون شيئا لتحرير نفسـكم ولنفعـكم العظيم وسيثنى عليكم كل من يسمع به » .

لماذا اروي لكم كل التفاصيل ولماذا علي أن أكتبها ؟ لقد قـال هؤلاء الفرسان للملك أشياء كثيرة جـدا كلمـا أمـكنهم التحـدث اليه ، واستحثوه كثيرا حتى رتـب لاجـراء الزواج ، وأن يتخـذ السـير فلورنت السيدة ايزابو زوجة له ، وأن يملك الآمارة وأن تصـبح ملكا موروثا له ، وكتبت الاتفـاقيات والمواد بـالتفصيل ، ومـا كان على الأمير ليقدمه الملك تجاه الأمير ، كل منهما نحو الآخر ، وكتبت مادة واحدة في هذا الامتياز ، كانت عملا خاطئا وخطأ عظيما ، وهـي أنه اذا وصلت الامارة الى وريثة انثى ، الى امرأة تحرز السلطة ، فانها ليس لها أن تقدم على الزواج من أي رجل في العالم بدون علم وأمـر من الملك أيا كان ، ولكن اذا تصادف أن فعلت ذلك ، فانها تحرم من أملاكها ومن السيادة على المورة وكل الامارة ، انظر الشر الذي وقع بسبب هذه الفقرة ، وجرت الاميرة ايزابو لأنها في الحقيقة تزوجت فيليب دي سافوا عندما ذهبت الى اليوبيل الفضي في الواقع ، وقتهـا في روما (٥٨)

والآن بعد كتابة هذه الاتفـاقات ، أمـر الملك على الفـور بعقـد الزواج ، وبناء عليه تزوج السيد فلورنت السيدة ايزابـو ابنة الأمير غوليوم (٨٥٩٥ ـ ٨٦٤٣) وتم الزواج في ابهة كبيرة ، وفي بهجـة واحتفالات ، تكلف نفقات طائلة وهناك في الكنيسـة حيث زوجهمـا مطران نابولي بنفسه ، منح الملك الأميرة مـرغريت الامـارة ، كملك شرعي موروث ، واستدعى بعد ذلك السـير فلورنت بـدوره ومنحـه الوكالة وجعله وريثا ايضا وتوجه كأمير ليسمى أميرا .

وبعد انتهاء مراسم الزواج وزفاف الأمير ، بدأ يتخـذ تـرتيبات

الرحيل من أبوليا ليذهب الى المورة في تشريف وابهة ، وانحنى أمام الملك واستأذن في الانصراف وودعا الكونتات والفرسان وزاد من مكانته واستأجر آخرين أيضا ، وحصل على مزيد من الفرسان الراكبة والمشاة من السرجندية في الحقيقة أكثر من مائة ، وثلاثمائة من حملة الأقواس القاذفة . ووصل الى برنديزي فوجد سفنه وصعد اليها وذهب الى كلارنستا .

وكان نائب الملك في المورة في ذلك الوقت السير نيكولاس العجوز مصادفة في أندرافيدا وبسماعه للرواية ركب على الفور وذهب الى كلارنتسا وقدم الولاء للأمير ومثله فعل كل من كانوا معه وأقام له الأمير استقبالا حسنا ، وحالما وصلت قواته الى الكنيسة حيث كان المينوريت معه ، أمر بأن يجتمع الكبير والصغير ، وعرض الأوامر والوثائق التي كان يحملها وقدم الى نائب الملك أمر الملك.: لقد أمره الملك وكلفه كتابة أن يقدم الامارة ، امارة المورة ، والقلاع والولايات في كل الامارة . وبعد هذا سحب أمرا كلف به الملك في اعلان مكتوب الى الموريين ، والأساقفة وقادة الفرسان والفرسان ، والسرجندية وجميع البرجوازية سكان المدن وكل من هناك كبيرا وصغيرا أن يقبل السير فلورنت كأمير وسيد ، أما الولاء في الحقيقة والاخلاص التي كان يدين به كل الاقطاعات والأملاك التي ملكوها فليؤدوه له باستثناء القسم والاخلاص والولاء الذي يدينون به للملك . وعليه أمروا باحضار الأنجيل المقدس ثم قالوا للأمير : « عليك أن تقسم لنا أولا أن تحمينا وأن تحكم بيننا بأعراف الأرض وأن لا تزعجنا في الاعفاءات التي لدينا من التكاليف ، وبعد ذلك فاننا بدورنا سنقدم لك الولاء ، لأن هذه هي العادة التي ورثناها عن آبائنا » (٨٦٤٤ ــ ٨٦٨٨) .

واقسم الأمير على الأنجيل المقدس بأن يحكم كل أهل المورة وفق أعرافهم وأن يبقي على اعفاءاتهم وبعد ذلك تقدم قادة الفرسان أولا ثم الفرسان والآخرون فقدموا الاخلاص والولاء الذي يدين به كل منهم لقاء الاقطاعية التي يملكها طبعا باستثناء أداء قسم الملك

(٥٩) وبناء عليه سلمه نائب الملك الاقطاعية والقلاع والسيادة ، ليأخذها عن الملك .

وبعد أن تقبل الأمير الولاءات ، غير جميع المناصب ، أولا أمار القلاع وكل السرجندية في القلاع وعين جماعته . فعين مسؤولا عن تسجيل المنح الاقطاعية ، وخازنا ايضا ومسؤولا عن المؤن للقلاع وكل أصحاب السلطة ، وهكذا بدأ بمشورة من السير نيكولاس العجوز والسير جين دي خوردون الحاكم الكبير والسير جيوفري دي تورناي وباقي الاتباع كبيرهم وصغيرهم ، في ترتيب الأمور والمشكلات المتعلقة بالأرض ، والآن وجد الأمير الأرض في الامارة مخربة من قبل المرتزقة وسلطات الامبراطور التي عاثت فيها فسادا ، وطلب مشورة الجميع حول كيفية العمل المتوجب ، وقال كل الاكثر حكمة وأشاروا أنه اذا شن حربا مع امبراطور الروم فان الأرض ستذوب وتتبدد بشكل أسوأ حتى ، ولكنه اذا كان يريد أن يحيي الأرض فلندعه يجري تسوية معه ، سلمية وقوية ، وأن يقسم مع الامبراطور بأن السلم سيدوم كل الوقت ..

وبهذه الطريقة أعطيت المشورة وأيدها الجميع وبعث الأمير برسولين الى القائد الأعلى للامبراطور الذي كان عندئذ في المورة في تلك الأيام ، فقلنا انه جاء الى هنا كأمير سيد على المورة ، وعلى كل ما يملك الفرنجة ، ووجد أن الأرض قد دمرت تماما ، وأنه علم وأخبر بأن الأمر كان كذلك بسبب الحرب التي كان الامبراطور يتابعها مع الامارة ، لأن أعمال الحرب تعطي مثل هذه النتائج وحتى في أفضل الأراضي التي في العالم ، إن الحرب في الحقيقة تخرب وتدمر تماما ، وعليه اذا أراد وسره أن تعقد هدنة فليرسل اليه بجواب ليعرف رغبته .

وعندما سمع القائد هذا بدا له مقبولا ، وأثنى على الأمير كسيد حكيم (٨٦٨٩ ، ٨٧٢٨) وكنبيل جدا . وحصيف بعث بجواب للأمير : بأن الفترة كانت قصيرة حتى يمكن استبداله ، وأن يأتي

قائد آخر ، وأن يذهب هو كما هي عادة الامبــراطور ، الذي يغير في كل عام قائد المورة ، ولكن طالما أن الأمير كان يسره أن يعقد هــدنة تكون ثابتة ومخلصة لأكبر عدد يلزم من السنوات ، فانه حبا له ومن أجل رخاء الأرض فانه سيعلنه لسيده الامبراطور لأن رجاءه في الرب أنه هذا سيرضيه كثيرا . وهكذا أرسل القــائد في حينه مبعــوثا الى الامبراطور في القسطنطينية ، وبتفصيل كبير شرح له شفويا وكتابيا أن الأمير فلورنت الذي جاء الى المورة سعى لعمل هدنة معه ، حتــى ينال رجاله من الفرنجة والروم فترة راحة ويعيشون في سلام .

وما أن سمع الملك هذا أقره بحماس وأكده أمام القائد الذي أرسله في حينه إلى المورة (٦٠) وكان رجلا عظيما موثوقا من القصر ، كان يدعى فيلانثــروبينوس والذي كان مــن البيوت الاثني عشر (٦١) ، وأعطى له في الواقع الأوامر بأن يجيب الســير فلورنت الأمير ســيد المورة ، وعندما جاء فيلانثروبينوس هذا الى المورة ، أرسل مبعــوثا للأمير وبعث اليه بجواب من الملك ، بأنه جاء في هذا الوقــت كقــائد للمورة وكان رهن الأوامر للقاء معه ليفاوض من أجل الهــدنة التــي كان الأمير يطلب ابــرامها ، وأرســل له الأمير رســالة بــواسطة الفارسين ، كتبت في صورة قسم (٦٢) . بأن يأتي الى أندرافيدا .

وبناء عليه أخذ القائد معه بعض أحكم النبلاء الذي كانوا عنده ، ومع رفقة مشرفة ذهــب الى اندرافيدا ، حيث كان هناك الأمير مــع قادته الذين كانوا في المورة في ذلك الوقت ، ومن أحكمهم ، والآن بعد أن التقى هو والأمير ، تفاوضا وابرما هــدنة كمــا أرادا كتــابة في الحقيقة ، ووضعا مــواد الهــدنة وأقســـما عليهـــا الأمير أولا (٨٧٢٩ ــ ٨٧٦٩) ثم قــائد الامبــراطور ، ثــم قــال الأمير للقائد : « أتوسل اليك يا صــديقي أن لا تعــكس على نفســك مــا سأخبرك به وأكاشفه لك ، إنك ترى أني سيد وأمير في المورة ، افعــل ما اريد وسيكون ثابتا لايهتز على كل السنين والأزمنة التي سأملكها ولا احتاج لأحد ، ولكنْ أنت ، ونبالتك يا أخي لك السلطة لفتــرة ولا يمكنك ولا تقدر على التوصل الى اتفاق يمكن أن يستمر أكثــر مــن

زمانك ، حسنا ومثلي وانا أمير وسيد في أرضي قد أقسمت على هذا ، وهكذا ان على الامبراطور شخصيا أن يقسم ، وان نتوصل الى ميثاق يمكن أن أحفظه وأن أحافظ على هذه الأشياء كضمانات للهدنة ، تماما كما تعتبر رسالتي ، وهي تحمل خاتمي » .

وبناء عليه تكلم القائد وأجاب الأمير : « انه صحيح هكذا قال : « يا أميري يا صاحب السمو ، اني أقر وأشهد ، بأن ما قلته حق ، حسنا اذا شئت أن يحدث شيئا ما مثل ما أمرت ، وجه باثنين من فرسانك ليذهبا معي وسأجعل اثنين من النبلاء الشبان يذهبان معهما ، وسأكتب للامبراطور الى سيدي المقدس ، بالأمر والاقتراح كما عبرت عنه نبالتك ، بأن يأمر بأن تكتب اتفاقات الهدنة وتختم بخاتمه الذهبي وبأن يقسم الامبراطور هذا القسم المكتوب في حضور الفرسان ، مبعوثيك •

وعندما سمع الأمير هذا بدا له جيد جدا ، ووجه خوبرون الحاكم الكبير والسير جيوفري دي انوي ، امير اركاديا بأن يذهب الاثنان الى الامبراطور هناك في بيزنطة ، في مدينة قسطنطين ، وذهب فيلانثروبينوس أيضا معهما وعند رؤيتهم ، استقبلهم الامبراطور جيدا ، وبدت تلك الهدنة(٦٣) وذلك السلام الذي سيكون له مع امير المورة مقبولا بسبب نفقاته الباهظة على الجيوش التي كان يبعث بها الى المورة ، والتي شن بها الحرب على الفرنجة ، وأمر على الفور بأن تكتب شروط المعاهدة وأقسم قسما ، وختمها بخاتمه الذهبي (٨٧٧٠ ـ ٨٨١٠) وأقسم الامبراطور نفسه على هذا في حضور الفرسان ثم قدمها لهما ، فأقسما وذهبا الى المورة وسلماها للأمير وقدماها له ، فتسلمها الأمير وبدت له جيدة .

وبعد ترسيخ السلام والهدنة بين الامبراطور وأمير المورة ، بدأ الأمير كأمير حصيف يحكم أرضه ويزيد من الخدمات ، وتعامل بهدوء مع قوات الملك ، واغتنى كل الناس من الروم والفرنجة .

وعندما رأى الامبراطور ذلك وحالما اخبر بأنه قد حصل على هدنة

طيبة مع الأمير رغب وأراد تجديد الحرب مع امبراطور أرتا السير نقفور (٦٤) فاستأجر ستين من الشواني تعود للجنويين ووجهها بالابحار ، وعبور البحر ، عن طريق مياه المورة لدخول الخليج ، وفي زيرو ميرون ، هناك قرب أرتا (القوات التي حملوها) لاجتياح ونهب كل المنطقة (٦٥) ومثل هذا أمر الجيوش (بأن تذهب) عن طريق البر : ٠٠٠ ر١٤ على خيولهم ، و٠٠٠ ر٣٠ من الجنود المشاة وأحصى الكثير ، وذهبوا من رومانيا عبر والاشيا ، ووصلوا الى يانينا ، وأمام القلعة الرائعة عسكروا هناك في حصار حولها •

وكانت القلعة رائعة وتقع في بحيرة لأن أوزيروس العظيمة تحيط كلها بالقلعة ، (٦٦) ويدخل السكان الى القلعة بوساطة جسر ويدخلون المؤن الى القلعة بمراكب شراعية صغيرة . وتعتبر الدنيا كلها قلعة يانينا لايمكن أن تؤخذ بالهجوم ، طالما أنها تستطيع الحصول على التموين .

وهنا اقفل المناقشة عند هذه النقطة حول الملك وسأخبركم بتصرفات الامبراطور ، فحالما سمع امبراطور أرتا وعرف أن الامبراطور باليو لوغوس ، كان يستعد بالجيوش ليأتي لمواجهته برا وبحرا ، استدعى قادته وأخذ مشورتهم وطلب منهم بأن يشيروا عليه بدقة بأي طريقة يمكنه أن يحمي أرضه (٨٨١١ ـ ٨٨٦٠) وعليه نصحه أحكمهم هكذا ، أن يتوصل الى تفاهم مع أمير المورة ، مع فلورنت ، هذا بهدف أن يأتي بجيوشه ليحارب في جانبه وعليه عندما أعطيت هذه النصيحة أرسل مبعوثيه ، اثنين من النبلاء الحصيين من الطليعة في مجلسه ، وأصدر لهما الأوامر وأعطاهما تفويضه كتابة ، مزودا إياهما بسلطة إبرام كل ما يمكنهما ، واستطاعا مع فلورنت أمير المورة الذي تزوج من ابنة أخته وكانت تدعى ايزابو .

وخرج المبعوثان بعد ذلك من أرتا وعبرا الى المورة وذهبا الى اندرافيدا ووجدا الأمير قد عقد مجلسا مع قادته للنظر في بعض

الشؤون التي لديه . فقدما الكتابات التي كانت معهما . وأعطياها للأمير وحيياه نيابة عن سيدهما الامبراطور وتحدثا اليه مفصلا ، شفاها حول السبب والهدف الذي جاءا من أجله ، حسن سوف استبعد التفاصيل حتى نصل الى الهدف ، لقد توصلا الى هذا الاتفاق : يعطي الامبراطور للأمير كرهينة يحتفظ بها فقط ابنه السيد توماس ، حتى يتمكن الأمير من العودة الى أرض المورة بجيوشه ، بلا خديعة أو احتيال ويأتي الأمير بأكبر ما يمكنه من الجيوش التي يمكنه جمعها ويتلقى الأجر من الامبراطور .

وبعد أن رتبا كل اتفاقاتهم عاد المبعوثان الى الامبراطور وأخبراه بأنهما قد رتبا ليحضر الأمير فلورنت مع خمسمائة من الطليعة والافضل في كل الامارة ، لمساعدة ونجدة عمه الامبراطور ، وعليه جهزوا السير توماس ابن الامبراطور من أجل رحلته بتشريف عظيم وأرسلوه الى المورة والى اندرافيدا ، وأعطوه للأمير ليفعل مايريد به ، وارسله الأمير الى قلعة خاوموتسي ليبقى رهينته بشرف في القلعة حتى يعود الأمير الى المورة ، واحضروا أيضا للامير أجور قواته ، ودفع لهم ثلاثة شهور فقط ، وخلال تلك السنوات والأزمنة وفي تلك الأيام ، عندما بدأ الملك باليولوغوس العظيم تلك الحرب الساخنة مع امبراطور أرتا ، انطلق ليدمره في كل من البر والبحر ، وعليه صمم بدوره عندما سمع (٨٨٦١ ـ ٨٩٠٢) الامبراطور بهذا ، وقرر بإرادة عظيمة أن يحمي نفسه منه بكل طريقة ووسيلة (٦٧) .

وتماما كما توصل الى تفاهم مع فلورنت ، أمير المورة الذي تزوج ابنة أخته ، فقد فعل مثله مع الكونت ريتشارد ، الذي كان أميرا وكونتا لسيفالونيا في ذلك الوقت ، وأعطاه كرهينة ابنته الاولى ليحتجزها كضمان وكان عليه هو نفسه أن يأتي شخصيا بالفعل هو وكل جيشه الى الامبراطورية ليساعده في الحرب التي بداها الامبراطور معه ، وسيحصل أيضا على أجره هو وقواته عن الوقت الذي سيمضيه في الحرب ، (٦٨) وبعد أن توصلوا الى التفاهم ،

قام الكونت بالعبور مع مائة من الخيالة ، من الجنود الحقيقيين ، كلهم من خيرة الرجال والجنود المسلحين (٦٩) وبطريقة مماثلة عبر أمير المورة من باتراس ومضى الى أرتا ، وعندما علم الامبراطور في حينه وسمع أن الأمير قادم ، خرج للقائه وتقابلا في لسيانا (٧٠) وأقاما احتفالا كبيرا خاطبه به : « مرحبا أيها الأمير مرحبا يابن أخي ، إني أرى الآن وأدرك مدى تعاطف الأقارب » وعندما شبعوا من القبل الرومية ، انطلقوا وذهبوا رأسا الى أرتا وجاء كونت سيفالونيا من الاتجاه الآخر .

من الذي يمكن أن يكتب لكم بالتفصيل حول السرور الذي شعر به ؟ عندما رأى الامبراطور الفرنجة الذين جاءوا في ذلك الوقت ، وبدا له انه قد قهر كل رومانيا ، واتخذ الأمير مراكز في منازل الامبراطور ، الذي ذهب في الواقع الى القلعة ثم أعطى القادة أولا مراكز مشرفة تليق بكل منهم ، ثم الفرسان والسرجندية من النبلاء ، وبعد أن استراحوا ذلك اليوم ، ذهب الامبراطور في الصباح التالي مع قادته وكل النبلاء رأسا الى الأمير ، حيث كان يسكن ، فوجده جالسا مع الكونت ريتشارد ، والمارشال دي سانت اومر وأيضا مع قادة الفرسان وكل الفرسان وكانوا يتناقشون فيما بينهم ويتشاورون حول أي تصرف يمكن أن يقوموا به فيما يتعلق (٨٩٠٣ ـ ٨٩٥١) بالحرب التي جاءوا لمساعدة الامبراطور فيها ، وعندما رأوا الامبراطور نفسه قد جاء ، قاموا على الفور لتحيته وأجلسوا بعضهم بعضا ، وبدا جيد جدا للامبراطور في ذلك الوقت عندما وجد الأمير مع مجلسه يجلس للتشاور حول كيفية التصرف في الحرب التي جاءوا لمساعدته فيها . والآن بعد أن أجلسوا بعضهم بعضا كما سمعت بدأ الامبراطور بنفسه في الكلام وقال للأمير ثم للكونت وأيضا لمارشال المورة ثم لقادة الفرسان وللفرسان أيضا أنه يشكرهم كأصدقاء وأخوة ، للتعاطف الذي أبدوه والمحبة الخالصة فقد جاءوا بلهفة لمساعدته في الحرب التي يشنها الملك ضده . وعليه طلب منهم وتوسل اليهم كجنود وكرجال

نبلاء وحكماء أن يشيروا عليه ، حتى يقوموا بعمل حكيم ويتصرفوا كجنود ويحصلون على الحمد ، كما يحصلون على المجد « حيث أنه إذا شاء الرب أن ننتصر فلا يفكر أحد منكم أو يتصور أن الحمد سيكون لي من قبل الفرنجة أو الرومان ، لأن المهمة لي ، وهذه الحرب حرب الامبراطور ، لا إن الشرف والثناء سيكون لكم لأن كل الناس في رومانيا يعرفون أنه ليس أفضل في كل الطرق الحربية من فرنجة المورة ، كما تعرف كل الدنيا ، لأن لديكم الحكمة والمؤهلات العسكرية من أعلى نموذج »

والآن بعد أن أتم الامبراطور ماكان يقوله ، بدأ الأمير يجيبه هكذا :« ياسيدي وامبراطوري وعمي الحبيب ، أشكرك على كلماتك وعلى الثناء الذي عبرت عنه لهؤلاء الجنود النبلاء الذين معي اليوم هنا في صحبتي ، فلتعلم هذا ولتأخذه كحقيقة ، أنه حبا لك وتلبية لدعوتك ، جاء هؤلاء الرجال الى هنا من أجل شرفهم ، ولاتفكر لدقيقة أنهم قد جاءوا كمرتزقة لخدمتك من أجل الحاجة الى الأجر حتى ترسلهم الى المورة ، لأن الأجر الذي تلقوه كان يكفيهم فقط ليدفعوا من أجل الأسلحة والخيول التي اشتروها ليأتوا هنا بشرف عند حاجتك ، لأني أتكلم عن نفسي وأخذه كحقيقة ، أنه من منطلق محبتكم ولقرابتنا ، ولأننا جيران ، وينبغي علينا أن يساعد أحدنا الآخر في كل مايحتاج اليه ، وأيضا (٨٩٥٢ ـ ٨٩٩٦) وبسبب عادة الفرنجة دائما ، أن يهرعوا بالسلاح الى حيثما يسمعون أن هناك حاجة للحرب أو القتال ، لأنهم جنود وعليهم أن يبينوا ويظهروا أنهم جنود ، وهم يفضلون أن يكون لهم الشرف وثناء الدنيا ، على أن يعطوا الغنائم أو الاموال أو الأجر ، وبهذا التسويغ بالواقع جئنا اليكم وصدقوا ياعمي العزيز ، وأنا أقول لكم الصدق : لو أن هؤلاء كانوا قادرين ، إن معظم هؤلاء الذين جاءوا الى هنا كما رأيتم ، هؤلاء المحاربين النبلاء كانوا سيدفعون كل نفقاتهم من أموالهم ، ولم يكونوا ليأخذوا حتى إبرة منكم ، فقد جاءوا كأصدقاء لكم ومحاربين نبلاء ليخدموكم فيما تحتاجون اليه وعليه أننا نعدكم هم وأنا معهم أننا لن نرحل من هنا ، من

الامبراطورية ، قبل أن نحارب تلك الجيوش التي جاءت ، وتقف في أراضيكم ، جنود الامبراطور سواء ذقنا الموت أو أن يموتوا هم بدلا منا »

وعليه أجاب الامبراطور الامير ، فشكره بحرارة هو ونبلاءه ، على كل ماقاله كرجل نبيل ، ثم تشاوروا حول كيف يجب أن يتصرفوا ، وكانت الكلمات كثيرة تلك التي قالوها ، ولكنهم في النهاية أعلنوا بأنهم سيعدون الجيوش ، ويغادرون أرتا في وقت مبكر جدا في الصباح التالي ، وأن يذهبوا رأسا الى يانينا ، لأنهم علموا أن الجيوش كانت هناك ، (٧١) فاذا بقي الرومان من جماعة الامبراطور فانهم سيقاتلون ولتكن مشيئة الرب .

واعطى مارشال المورة الأوامر ، وأعلنت على الفور باسم الامبراطور ، والأمير باسمه وباسم مارشالة ، أن تكون السرايا على استعداد ، فرنجة وروم ليتبعوا طلائع سانت أومر مارشال المورة ، حيثما تذهب ، ثم في الصباح التالي انطلقت سرايا الجيش وذهبت الى يانينا

والآن ذهب الدمستق الكبير ، الذي كان القائد الأعلى على جيوش الامبراطور ، ذهب وأبلغه أن أمير المورة وكونت سيفالونيا قد جاءا بكل جيوشهما وقد وصلا الى أرتا بأجر من الامبراطور وانهما كانا قادمين رأسا لملاقاته ومحاربته فدعا قادته والصفوة من مجلسه (٨٩٩٧ ـ ٩٠٤١) وتشاوروا معا حول كيف يتصرفون ، وكان الكلام الذي تبادلوه كثيرا ، وفي النهاية على أي حال قرروا وأعلنوا وأكدوا أنهم لو انطلقوا من القلعة التي كانوا يحاصرونها ، بسبب الشائعات والروايات ، فأنهم يفعلون شيئا يستحق اللوم الكبير ، والأحرى بهم أن يبقوا هناك حتى يعرفوا الحقيقة ،

وفيما بعد وصلتهم تقارير صحيحة بأن الفرنجة قد وصلوا الى

أرتا ، وانطلقوا منها قادمين رأسا الى يانينا ، وعندما سمع الدمستق الكبير وكل جيوشه هذا ، وأن الفرنجة قد وصلوا وكانوا في أرتا (٧٢) لم يتوانوا ولو قليلا في التشاور وقال المقدمون في الجيش أن الامبراطور نفسه لو كان معهم فلن يجرؤ على البقاء لمقابلة الفرنجة وأنه كان أشرف لهم أن يتركوا ، بدلا من أن يؤخذوا بالغلبة ويقتلون ، وحالما سمعوا أن الفرنجة قد جاءوا الى أرتا لم ينتظروا لحظة للتشاور بأي شكل وقوضوا خيامهم على الفور وهدموا المعسكر وبمثل لمح البصر انطلقوا مغادرين ولم يرفعوا علما أو يشكلوا سرايا ولكن كما لو أن الفرنجة كانوا يطاردونهم برماحهم ، هكذا وأسوأ عمدوا للفرار من الطريق نفسه الذي جاءوا منه من والاشيا .

وعندما رآهم الذين كانوا في القلعة من داخل يانينا ، عرفوا وفهموا أن الروم كانوا يهربون ، وبعثوا بالرسل على الفور الى الامبراطور :« اعلم ياسيدي الامبراطور ، أن الرومان هربوا » وعندما سمع الامبراطور وعرف أن الروم قد خرجوا من قلعة يانينا ، غمره السرور ، وبسرعة ذهب بنفسه الى حيث كان الامير وأبلغه بالأخبار ، وبسماع هذا قال له الأمير :« لماذا تنتظر ؟ » فدعا مارشال سانت أومر وامره :« لتصدح كل أبواقنا ولتوزع السرايا حتى تذهب بسرعة مباشرة الى يانينا ، حتى نجتاح الروم قبل أن يبتعدوا كثيرا عنا ونقع في مزيد من المتاعب » وانطلقوا مسافرين ووصلوا ذلك المساء الى يانينا الى معسكر الذين هربوا أي جيوش الملك ، وأمر مارشال المورة بأن (٩٠٤٢ ــ ٩٠٨٥) يوزعوا ، وفي معسكرات الروم اتخذ الرومان مواقعهم ومضى الامبراطور وقادة الفرسان ايضا وقادة الجيش الى خيمة الأمير وتشاوروا معا حول ماعليهم أن يفعلوا ، وفي النهاية اتفقوا على أن يلاحقوا الذين هربوا ، على أمل أن يلحقوا بهم ويقاتلوهم وينتصروا وحتى لو لم يلحقوا بهم فانهم سينهبون أرض الامبراطور هناك في رومانيا .

وعليه في الصباح التالي ، انطلقوا وذهبوا وسافروا راسا في أثر أعدائهم ودعا الأمير وجاء الامبراطور ، وقال له إن عليه أن يوجه بعض قواته على أفراس خفيفة ليلحقوا بالروم وليخبروا الدمستق ، قائد الجيش نيابة عن الأمير ، وباسمه والامبراطور أيضا ، ويدعوهم لانتظارهم ليمضوا بعض الوقت معا في الميدان : لأنه لم يكن يوائم مثل هذا الجندي أن يأتي باحثا عن الاغارة بهدف القتال ، وبعد أن وجد المعركة مهيأة ، أن يهرب .

وعجل الذين أمروا بالذهاب الى الروم ولحقوا بهم في وقت قصير ، بينما كانوا يجتازون أرض والاشيا ، ونادوا عليهم من بعيد بأنهم كانوا رسلا وأن عليهم أن يستقبلوهم ليخبروهم بما أمروا به ، وأمر الدمستق الكبير بإعطائهم الامان فاقتربوا معه وقالوا له :« إن سيدي أمير المورة والامبراطور أيضا يبعثان بتحياتهما الى نبالتكم كصديق لهما وأخ ، لقد جئت من عند الامبراطور بالجيوش التي معك تسعى لشن الحرب والقتال مع الآخرين ، والآن وقد وجدت ماتسعى اليه ، وماتبحث عنه فانهما يطلبان منك أن تبقى في المكان المناسب حتى يأتيا بجيوشهما ، لخوض المعركة ، وكرجل ونبيل ، انتبهوا لشرفكم لئلا يسود عليكم غيركم فتتخلوا عن شرفكم وتسقطوا في اللوم ويغضب الامبراطور ».

فأجاب وقال لهم :« اني أبعث بتحيات كثيرة الى أمير المورة ، والى الامبراطور أيضا كأخوة وأصدقاء لي ، وأخبرهما باسمي انه اذا كانت قوات الملك التي عندي تحت تصرفي ، فسأفعل مايريدان ، ولكن هنا يوجد أتراك وكومان لهم قادتهم (٩٠٨٦ ـ ٩١٢٩) وهم لايلقون الي بالا »

وعند سماع الجواب انطلقوا عائدين ، وخلال عودتهم وجدوا رجالا كثيرين خيولهم منهكة وآخرين شردت خيولهم ، وأسلحة وخيام كثيرة اخرى تخلى عنها أصحابها وهم يهربون ، فأخذوا كل

ماأمكنهم ومضــــوا الى الجيش وســــلموا جــــواب الدمســــتق الكبير ، وعندما سمع الأمير والامبراطور أنهــم ذاهبــون ، وهــم يولون الأدبار بقدر مايمكنهم أعطوا الأوامر لجيوشهم ، وانطلقــوا ينهبون وخربوا ودمروا أرض الامبراطور وغنموا كثيرا من الأسلاب وأسروا كثيرا من الرجال ، وكانت الأرض آمنة وتشــجع الرجــال بوجود الجيوش التي كانت تقف أمام قلعة يانينا ، وانقضوا عليهــم انقضاضا وألحقوا بهم ضررا عظيما .

والآن أن الغزوة والنهب الذي أتحدث لكم عنهما لم يدوما طــويلا ولاحتى يومين لأن التقارير وردت الى الامبراطور في ذلك الوقــت أنه قد وصل الى خليج أرتا ستين من الشواني الجنوية (والقوات التي تحملها) قد نزلت في بريفيسا (٧٣) ، وكانت تنهــب المدن ، وكانت تستعد للذهاب رأسا الى أرتــا ، وبســماع ومعــرفة هـــذا كان الامبراطور خائفا جدا وأسف كثيرا ، لأنه شك مبــاشرة أن تــكون الشواني هي نفسها التــي اســتأجرها الامبــراطور أي شــــواني الجنوية ، لتأتي لقتاله وتــدميره ، وعليه ســأل على الفــور :« أين الأمير ؟ وانطلق من سريته وذهــب اليه وأخبــره وروى له الروايات التي تقول بأن الشواني الجنوية ، قد جاءت ونزلت منها القــوات في بريفيسا ، وكانوا ينهبون المدن ، وكانوا يستعدون للذهـــاب رأســا الى أرتا ، وخوفي يفوق التقدير من أنهم قد يستولون على المدينة »

وعليه أجــــــابه الأمير وقـــــــال :« اعلم أيهـــــــــــــــا العم ، ويالمبراطوري ، حقا اقول لك اني جئت لهذا السبب وتركت المورة ، لأساعدك في الحرب التي تخوضها حسنا ، وطــالما أني هنا في الامبراطورية فمر بما تحتاجه مني وسأفعله »

وعليه شكره الامبراطور بحرارة ، وأمــر الأمير مــارشاله على الفور ، فصدحت الأبواق (٩١٣٠ ــ ٩١٧٠) باشارة أن عليهــم أن يعودوا (٧٤) وبســماع هــذا ، عادت سراياهــم وهناك حيث كانوا يعسكرون توزعوا في ثلاث سرايا فيها ألف خيال ، وأمروا بأن

يذهبوا سريعا لنجدة أرتا » قبل وصول أسطول الشواني ، لأننا قادمون رأسا خلفكم » وعليه فقد انطلقوا وسافروا بلا توقف ولكن قوات الامبراطور التي كانت في السفن والشواني مع الجنويين نزلت الى الأرض وأسرت بعض الرجال وطلبوا منهم أن يخبروهم عن مكان وجود الامبراطور وعما اذا كانت معه اي قوات ، أي قوات أجنبية ، وأخبروهم وأعلموهم بأن الأمير ، أمير المورة قد جاء ومعه كونت سيفالونيا ، مع كل جيوشهما ، وعلى الفور عند وصولهما الى هنا وسماعهما بالروايات بأن الدمستق الكبير قدم بجيوشه وقد ألقى الحصار على قلعة يانينا ، وأنهم استعدوا وتوجهوا رأسا اليهم ، واذ سمع الدمستق الكبير بذلك انطلق هاربا ، فذهبوا يلاحقونه ليدركوه ، والآن بالضبط ان بعض الناس قد خبرونا بأنهم قد قضوا عليه وعلى قواته وبأنهم عائدون مبتهجين وسيصلون قريبا »

وبسماع هذا عاد قادة الشواني بسرعة مرة أخرى الى سفنهم وأعادوا المنجنيقات والسلالم التي افرغوها ليذهبوا لمهاجمة أرتا ، وعليه جاءتهم ايضا الروايات بأن الجيوش الفرنجية قد وصلت ، فأرسلوا من أجل القوات التي أرسلوها للنهب وكانت هذه قد اجتاحت المدن واحرقت الأرض والأماكن في فاجينتيا التي كانت قريبة من البحر (٧٥) لقد وقع بالأسر جميع الذين ذهبوا للنهب ، وقعوا بالحال بعد وصول اتباع الامبراطور ، اعني أولئك الرجال الألف من الخيالة ممن كانوا قد أرسلوا ، وكل من امكنهم أسره على الأرض ، من الروم والجنويين ، قضوا عليه كما وأسروا أعدادا سواهم .

وعليه فكر أولئك الذين في الشواني وتشاوروا حول كيفية الاضرار بالامبراطور بطريقة ما ، وقال ذوو الخبرة البالغة والاكثر حكمة :« انكم تعرفون (٩١٧١ ـ ٩٢١٦) جيدا ويجب أن تتذكروا أمر الامبراطور بأنه قد وجه الدمستق الكبير ليذهب مع جيوشه ويغزو الامبراطورية من البر ونذهب نحن عن طريق البحر

(للفزو) لنساعدهم ويساعدونا ، طالما أن الوضع في البر موات ، حسنا وطالما أنه قد هرب دون قتال وأخذ جيوشه ، التي كان أملنا فيها – وترون أن الأمير والكونت معه قد جاءا بجيوشهما وهما مع الامبراطور – فكيف يمكننا نحن الجنود المشاة أن نلحق اي ضرر بالأرض ؟ لقد رأيت أننا قد فقدنا الجنود المشاة الذي اجتاحتهم قوات الامبراطور التي هي من الفرسان وعلى أي حال دعونا ننتظر حتى يأتي الامبراطور حتى يمكن أيضا أن نرى الأمير وأي جيوش لديه لأخذ هذه المعلومات الى الامبراطور المقدس »

وبينما كانوا يجرون هذه المشاورات وصل الامبراطور والأمير بجيوشهما ، وعندما سمعا وعلما أن الجنويين لم يدخلوا قلعة أرتا بالمرة ، اعتبر الامبراطور نفسه ذلك جيد جدا ولم يلق بالا الى نهب المدن بالمرة عندما سمع أن الشواني بقيت في الميناء وعند سماع ذلك قال الأمير للامبراطور « طالما أن الشواني ماتزال راسية في الميناء علينا بعدم الترجل ، بل دعونا نذهب الى هناك معا بجيوشنا ، وبالجنود المشاة والفرسان ولننصب خيامنا هناك قبالة الشواني لنحمي الارض خشية أن ينزلوا الى البر ويلحقوا بعض الاضرار فيكون ذلك عارا علينا »

وكما وجه الأمير جرى ، فنفخوا أبواقهم وانطلق الجيش وذهب رأسا الى حيث كان الميناء ، حيث كانت ترسوا الشواني شواني الجنويين ، وهناك نصبوا خيامهم واتخذوا مراكزهم ، واذ رأى الجنويون هذا ابتعدت الشواني وسحبت مراسيها وانطلقت الى المياه العميقة ،

والآن طلب الامبراطور المشورة من الأمير حول ماكان يعتقد انه سيحدث وماذا يفعلون ، وقال الأمير وهو الرجل الداهية للامبراطور :« يبدو لي ياعمي الطيب اننا يجب ان نتخذ مواقعنا هنا حيث تمركزنا لئلا يلجأوا الى البر سواء للحصول على الماء أو لايقاع الضرر ، ولنرسل الجيوش الى الأحواز لنحمي هذه الأرض

أيضا لئلا يوقعـــوا بهــــا ضررا » وكمـــا أمــــر الأمير جرى (٩٢١٧ ـ ٩٢٣٥) .

وعندما رأى الروم والجنويون الذين كانوا في شواني الامبراطور هذا تحيروا بدرجة عظيمة من اين وجد الامبراطور مثل هذه القوات الرائعة والجيوش التي كانت لديه ، واثنوا على الأمير بدورهم جدا وقالوا : ان الرجل الذي ضمن السند العسكري وسلوك الجيش كان رجلا متمرسا في تدريب الفرنجة ومؤهلات الغرب ، وعليه فقد تشاور الذين كانوا على ظهور الشواني أنه من حينه فصاعدا لن يمكنهم ايقاع أي ضرر هناك حيث اتخذ الأمير والامبراطور مواقعهم ، ولكن دعونا نتحول عن هنا ولنذهب إلى مكان آخر إلى خارج رومانيا ، حيث ربما يمكننا بدون خوف ان نحدث بعض الاضرار لأرض الامبراطور ونربح شيئا ما .

وبعدما اجتمعوا للتشاور نفذوا ، فرفعوا المراسي ، وحركوا المجانيف ووصلوا في وقت قصير إلى أراضي فونوتزيا (٧٦) .

الهوامش والحواشي

حواشي تاريخ المورة

١ ـ تبدأ هـ مع ١ / ١٠٥ من ب ، الاوراق الثلاث الاولى من المخطوطة مفقودة .
وهذه وثغرات اخرى في النص قد ملئت بالسطور المتعلقة من ب . من أجل المحافظة على استمرار الرواية ـ وكل من هذه الاضافات مذكورة . والارقام بين حاصرتين عند رأس كل صفحة تدل على سطور النص المترجم فيما يلي .

٢ ـ إن خلق العالم حدث في ٥٥٠٨ قبل المسيح طبقا للترتيب الزمني البيزنطي وعليه فإن التاريخ المبين في النص سيكون بناء عليه ١١٠٤ للميلاد ، وقد حدثت الحملة الصليبية الاولى خلال اعوام ١٠٩٦ ـ ١٠٩٩ ، ومثل هذه الاخطاء ، تقع في ل .

٣ ـ زعم بطرس الناسك (١٠٥٠ ـ ١١١٥) انه قد زار الاماكن المقدسة في ١٠٩٢او ١٠٩٣ ـ ١٠٩٤ وهام بعد مجمع كلير مونت ١٠٩٥ عبر شمال شرق فرنسا يبشر بالحروب الصليبية ويدعو لها .

٤ ـ إن تفاصيل الحملة الصليبية الاولى كما هي معطاة في ٢ / ١٨ / ١٠٤ مأخوذة من رواية وليم الصوري .

٥ ـ اوربان الثاني الذي اقلع بالحملة الصليبية الاولى في مجمع كلير مونت .

٦ ـ العبارة في النص لاتعني الاناضول الحديثة بل اسيا اليونانية الصغرى . انظر فهرس س . للاسماء الجغرافية ص ٦٣١ .

٧ ـ اليكسيوس الاول كومينوس . كانت الرسم الهجائي لاسماء الاشخاص والاماكن المذكورة في الحولية مشكلة مستمرة ، خاصة حيث ان هناك نقصا في الترابط في كل عمل رجعت إليه . وقد اتبعت هذه القاعدة العامة :
إن الاسماء اليونانية ترجمتها عن اليونانية ، والاسماء الفرنسية معطاة بالفرنسية ، والايطالية الخ ..
وكلمة بازيليوس بالطبع هي الكلمة اليونانية المقابلة لكلمة ملك .

٨ ـ يعطي فهرس ك هذه الكلمة معنى ميراث ويترجمها شمت على أنها (ممتلكات اسرة إقطاعية) .

٩ ـ استولى الفرنجة على نيقية في ٢٠ حزيران ١٠٩٧ وسلموها لاليكسيوس .

١٠ ـ تشير رومانيا للامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) في اوربا في مقابل الاناضول التي تعني امبراطورية آسيا الصغرى .

١١ ـ هذا لفظ قديم مفرد للقب رجل نبيل او موظف في البلاط ، والتعبير يستخدم كثيرا في الحولية للدلالة على النبالة اليونانية في المورة ولكنه يعطي أيضا معنى عاما وقد فضلت صيغة ارخون على ارخونت من اجل العذوبة .

☆ المقصود بارمينية هنا ليس جغرافيا بل دولة ارمينية الصغرى التي قامت في كليكية ايام الحروب الصليبية .

١٢ ـ سقطت انطاكية في ايدي الفرنجة بعد حصار طويل في ٣ حزيران ١٠٩٨ ، وحوصر المنتصرون انفسهم بعدئذ في المدينة من قبل أمير الموصل كربوقا .

١٣ ـ يعتقد بوشون في كتابه (ابحاث تاريخية) ٢ / ٥ حاشية ـ ان هذا يشير إلى كتاب وليم الصوري (تاريخ اعمال انجزت فيما وراء البحار) وهو يوحي اكثر بان حولية المورة قد صيغت على غرار التاريخ الاقدم كنوع من السرد الموازي لمآثر الفرنجة ، وإذا كان الأمر كذلك فمن المهم أن

يشار إلى كتاب وليم الصوري على انه كتاب الاستيلاء ، وهو نفسه لم يسمه هكذا . والاستدلال هو أن مؤلف الرواية اليونانية للحولية ، ولديه علم بكتاب الغزو ، الذي وضع كموازٍ لكتاب وليم الصوري ، وقد نقل العنوان مميزا إياه إلى العمل الاقدم .

وتبدأ الترجمة الفرنسية بالقول : جاء في كتاب الاستيلاء على القسطنطينية ، وهنا يوحي بالاشارة نفسها إلى كتاب الاستيلاء وإنني ارى أن الرواية اليونانية والفرنسية أيضا قد استمدتا من هذا المجلد الاقدم . إن قانون رومانيا (مادة ٣) يلمح إلى بلدوين الثاني ويقول (كما روي بوضوح في كتاب الاستيلاء) . ثم يمضي ليكرر القصة المختلقة لزواج جيوفري الثاني دي فيلهاردين من ابنة الامبراطور روبرت ، التفاصيل هي نفسها بالضبط المعطاة في الحولية في الاسباب التالية للبيت ٢٤٧٢ ، وكثيرا ما تكون الكلمات هي نفسها ولامجال للتساؤل أن كتاب الاستيلاء المشار إليه في القانون هو إشارة إلى حولية المورة ، مع أن هذه الحولية غير معروفة بهذا الاسم وبناء عليه يبدو انه لامفر من أن كتاب الاستيلاء ليس الرواية اليونانية ، ولا الفرنسية ، مع أنه يستعمل التعبير في عنوانه بل متأثرا بلا شك بتاريخ وليم الصوري .

١٤ ـ غود فري دي بوليون (١٠٥٨ ـ ١١٠٠) انتخب دوقا للورين الادنى حاميا للضريح المقدس في ٢٥ تموز ١٠٩٩ .

١٥ ـ تبدأ هـ عند هذه النقطة .

١٦ ـ ١٢٠٨ م هذا التاريخ غير صحيح ، حيث أن التحضير القديم للحملة الصليبية الرابعة قد بدأ في ١١٩٩ .

١٧ ـ إن روايات الاستعدادات للحملة الصليبية الرابعة كما وردت في الحولية مشوشة والأكثر أنها غير صحيحة ، والمجلس الذي تتحدث عنه الحولية يحتمل انه يشير إلى الدورة التي نظمها ثيبود الثالث الشامبيني ١١٩٧ ـ ١٢٠١ في أكمي سور . على نهر الايسن في ٢٨ تشرين الثاني ١١٩٩ وفي تلك المناسبة انتهز كاهن نويلي على نهر المارن لينفذ المهمة التي خوله بها أنوسنت الثالث ووعظ بحملة صليبية ضد الكفار ، وبين الذين انضموا إلى الحملة في هذا الوقت ثيبول الشامبيني وجيوفري دي فيلها ردين ، ابن أخيه ، مارشال شامبين وفيما بعد امير المورة ، ولويس ، كونت بلوا ، وفيما بعد في ٢٣ شباط ، ١٢٠٠ ، انضم بولدوين التاسع (١١٩٦ ـ ١٢٠٥) كونت فلاندرز الى الصليبيين . وعقد اجتماع لمناقشة الحملة في سواسون ، ولكن حيث لم يتقرر شيء ، عقد اجتماع ثان في شامبيين ، حيث عينت لجنة لوضع الخطط الضرورية ، وبين الذين عينوا كان جيوفري دي فيلها ردين العم . واختارت المجموعة البندقية على اعتبارها افضل نقطة تمركز ووصلت إلى هناك في شباط ١٢٠١ لوضع الترتيبات مع الدوج . ووقعت معاهدة كان بمقتضاها على البندقية أن تعد بحلول نهاية حزيران ١٢٠٢ ، مراكب كافية لنقل ٤٥٠٠ فارس مع خيولهم و ٩٠٠٠ من حملة الدروع و ٠٠٠ ر ٢٠ من المشاة وإمدادات لاعالتهم لمدة عام كامل ، وفي مقابل هذا كان على الصليبيين أن يدفعوا ٠٠٠ ر ٨٥ ماركا فضيا ، وقرروا أن تكون مصر غاية الحملة ، ولكن هذا أبقي سرا ، وعند عودتهم وجد المبعوثون كونت شامبين مريضا جدا ، وتوفي في ٢٤ أيار ١٢٠١ وكان قد اعتبر من قبل الجميع قائدا طبيعيا للحملة من جهة بسبب نسبه ، ومن جهة بسبب علاقات الصداقة بينه وبين الملك فيليب ملك فرنسا ، وكان موته تهديدا خطرا للانطلاق الناجح للحملة ، وعندما التقى الصليبيون في سواسون لانتخاب قائد ، رشح جيوفري فيلها ردين بونيفيس مونتفرات وبعد نقاش مطول أضفي عليه هذا الشرف .

١٨ ـ كان تصرف كونت طولوز في الواقع منافيا تماما للذوق بغيابه ، وكان في هذا الوقت منشغلا بالكاثاري ، وكان الكونت الثالث هولويس بلوا .

اشتقت هذه الكلمة من واحدة اقدم تعني العلم او الراية .

١٩ ـ منزلة اعلام الفرسان دون منزلة علم الكونت ولكن فوق منزلة أعلام الفرسان الآخرين .

٢٠ ـ جيوفري فيلها ردين (١١٦٤ ـ نحو ١٢١٦) وهو المؤلف الرئيسي للنص الأدبي عن الحملة الصليبية الرابعة (الاستيلاء على القسطنطينية) .

٢١ ـ وكان المارشال الوراثي ، الذي قاد في الدورة قوات الأمير وكان الحاكم العسكري الأعلى . انظر المؤسسات الاقطاعية ص ١٢٣ .

٢٢ ـ كذا بالأصل .

٢٣ ـ كان بونيفيس الأول مركيز مونتفرات من (١١٩٢ إلى ١٢٠٧) وملك سالونيك من (١٢٠٤ إلى ١٢٠٧) في نحو الخمسين من عمره عندما أصبح قائدا للحملة .

٢٤ ـ خلص ليوبولدو أوسيفليو بعد تفكيرجاد في المشكلة بشكل مقنع أن هذا يشير إلى كاستانيول بيلا لانز وهي قلعة في جوار آشي في بيدمونت ٠ انظر كتابه مركيز مونتفرات الأول : ٢ / ١٧٩ .

٢٥ ـ تقع جميع روايات الحولية في هذا الخطأ نفسه ، وربما كان هذا نتيجة لتشوش بين بونيفيس وشارل دي أنجو الذي كان أخا وأيضا عديلا للويس التاسع ملك فرنسا حيث تزوج الاثنان من ابنتين لكونت بروفانس . وقد قام شارل بزيارة لأخيه طلبا للنصح والموافقة قبل القيام بحملته إلى إيطاليا بناء على أمر من البابا كليمنت الرابع .

٢٦ ـ هذه الفترة غامضة نوعا ما ويبدو أن المعنى هو أن الملك يفترض أن القيادة عرضت على بونيفيس كقريب لملك فرنسا القوي ، وبناء عليه فإن الحملة ستلقى مساعدة كبيرة من الملك ، وهذه الحادثة كلها بالطبع مختلقة .

٢٧ ـ سلطة التحدث باسمهم أو العمل من اجلهم .

٢٨ ـ انريكو داندولو (١١٢٠ ـ ١٢٠٥) انتخب دوقا للبندقية في ١١٩٢ وحسب الاساطير ، بينما كان في بعثته سملت عيناه بناء على أمر من الامبراطور ، إما بأشعة الشمس المكثفة بمرايا خاصة أو بالنحاس الساخن . وبسبب ذلك كان يضمر كراهية مريرة للاغريق ، وفي الواقع أن عماه كان نتيجة لمرض ، وباعثه في حرف الحملة الصليبية عن غايتها الاصلية وهي مصر إلى زارا والقسطنطينية لم يكن بدرجة كبيرة لكراهيته للاغريق بقدر ما كان لتوسيع ممتلكات البندقية وتجارتها .

٢٩ ـ ترجم شمت هذه الكلمة بأنها السفن الجيرة بالبحر علما ان هناك اراء أخرى مغايرة .

٣٠ ـ انطلق اسطول تحت قيادة جين دي نسل من فلاندرز بقصد الانضمام إلى الآخرين في البندقية ، ولكنه لم يصل مطلقا إليها . وأبحر آخرون من مرسيليا بينما ترك آخرون أيضا الطريق نحو البندقية عند بياسنزا ليذهبوا إلى أبوليا مع فوتير دي برين وليبحروا من برنديزي ، وذهب جيوفري دي فيليها رفين ابن الأخ مع المجموعة الأخيرة . مع أن الحولية لا تذكر هذه الموافقة ، وليس هذا مدهشا إذ أن الحولية تلوم الذين لم يذهبوا إلى البندقية وبالكاد أمكنها أن تدرج واحدا من أبطالها في هذه المجموعة ، ويدعي ك . ص .٢ حاشية حول : ١ / ٢٩٥ ، أن كثيرا من الصليبيين .رفضوا الابحار من البندقية لأن سادتها قد حرفوا الحملة عن هدفها الحقيقي من أجل غاياتهم . وهذا يبدو غير محتمل ، حيث أن الهدف من حرف الحملة قد أصبح ظاهرا فقط عندما ظهر بالقدر نفسه أن ليس جميع الصليبيين سيصلون إلى البندقية .

٣١ ـ تتميز الرواية التالية للاحداث التي أدت إلى انحراف الحملة الصليبية إلى زارا والقسطنطينية بتميز قوي وعدم دقة . وكان الدوق بعيدا عن عدم الرضى عن النزاع ، وكان فقط سعيدا جدا أن يتمسك به كفرصة ليؤدب مدينة زارا المسيحية بسبب طريقتها الوقحة تجاه البندقية .

٣٢ ـ ابحر الاسطول من البندقية في تشرين أول ١٢٠٢ وبعد اخضاع تريستا وموفيا في الطريق وصلو امام زارا في ١٠ تشرين الثاني . وسقطت المدينة في خمسة أيام .

٣٣ ـ اسحق الثاني انجيلوس امبراطورا من (١١٨٥ إلى ١١٩٥) ومرة أخرى في ١٢٠٣ ـ ١٢٠٤ مع ابنه الكسيوس الرابع .

٣٤ ـ اليكسيوس الثالث انجيلوس حكم من (١١٩٥ ـ ١٢٠٣) وكان الأخ الأصغر لاسحق .

٣٥ ـ تزوج فيليب سوابيا ايرين ابنة اسحق وكان الابن اليكسيوس ابن حمي وليس ابن اخ فيليب . وقد اعتقل اليكسيوس الثالث اسحق وابنه اليكسيوس في ١١٩٥ والقي بهما في السجن ، وهرب الابن وفر إلى المانيا في أواخر ١٢٠١ أو أوائل ١٢٠٢ وعليه كان في بلاط فيليب في الوقت الذي كانت فيه الترتيبات النهائية للحملة تتخذ . ومن الممكن جدا أن وجوده والظروف قد أثرت عليهم .

ومن المعروف على سبيل المثال ان بونيفيس مونتفرات قد زار فيليب قبل الذهاب إلى البندقية ، والامر غامض ، ولكن من المؤكد ان مصالح الكسيوس ومصالح فيليب الذي كان معجبا به والذي ربما كان أيضا لديه طموحات في الشرق ومصالح البندقية التي كانت بالتاكيد تأمل في التوسع هناك ، كلها بالتساوي ، قد افادت جيدا من انحراف الحملة الصليبية . وكان الكسيوس في الواقع سبق له ان بدأ المفاوضات مع الصليبيين عندما كانوا لايزالون في البندقية بينما كانوا بدورهم قد ارسلوا الرسل إلى بلاط فيليب للوقوف على مزيد من التفاصيل . وتعقد الامر أكثر بسبب موقف البابا ، الذي بصرف النظر عن كونه عارض بشدة نهب الاراضي المسيحية فإنه نظريا وعمليا مع ذلك قد امكنه بالكاد ان يعارض بصلابة كبيرة فرصة رأب الصدع بين الكنيسة الشرقية والغربية ، وعنصرا لغز في الحالة كان طبيعة الحملة الصليبية نفسها .

وقد انطلقت كمباراة مشتركة ، المباراة من أجل الرب ، وكان لها نكهة الرومانسية الفروسية من البداية ، وكانت صورة أمير مطرود ، أخرج من ميراثه الشرعي ، يناشد الامراء الفرسان في الغرب المعونة لاسترداد ما هو حق شرعي له ، وطرد طاغية مغتصب بكل تأكيد تروق اصحاب المراتب والالقاب في الجيش ، ومن المحتمل أن التفاصيل الكاملة لانحراف الحملة الصليبية لن تعرف مطلقا ، لكن على اي حال في أيار ١٢٠٣ لحق الكسيوس بالحجاج ووقع معاهدة معهم ، وفي مقابل مساعدتهم على أخذ القسطنطينية وعد بدفع الاموال المستحقة للبندقية ، وأن يقدم المال والمؤن اللازمة لحملة غزو مصر ، وأن يرسل ١٠٫٠٠٠ رجلا ليساعدوا في هذه المهمة ، وأن يحتفظ بخمسمائة فارس لحراسة الارض المقدسة . وفي النهاية بأن يحقق الوحدة الدينية مع روما ، ولاحاجة للقول بأن رواية هذا الامر محرفة تماما في الحولية .

٣٦ ـ يضيف ل (فقرة ٣٠) تفاصيل ان الملك انتزع قسما من الكسيوس ، وتذكر ل ف ف (فقرة ٣٢) ان الكسيوس نفسه ذهب إلى روما .

٣٧ ـ هذه الرواية زائفة تماما فقد حرم أنوسنت الثالث في الواقع الصليبيين لاستيلائهم على زارا .

٣٨ ـ يشار إلى القسطنطينية بمدينة قسطنطين او القسطنطينية أو بمجرد كلمة المدينة .

٣٩ ـ ترك الصليبيون كورفو بالمراكب في ٢٤ أيار ووصلوا أمام القسطنطينية في ٢٣ حزيران ١٢٠٣ . مندهشين من أن الناس لم يهللوا لولي العهد الشرعي الذي أعيد معهم الى الوطن ، وقرر الفرنجة الاستيلاء على المدينة بحصار نموذجي للقرون الوسطى يليه هجوم . وطهروا الضواحي بسرعة وشنوا هجوما عاصفا على برج غاستالا ، وعسكروا في سكوتاري ، في حين اقتحم البنادقة السلسلة الممتدة عبر الميناء . وهجمت القوات المشتركة من البر والبحر في ١٧ تموز ١٢٠٣ وإنهارت بسرعة معنويات مغتصب العرش اليكسيوس الثالث الذي لم يكن أبدا واثقا من موقفه وهرب ، وأعيد أسحق إلى العرش وفي الاول من آب توج ابنه كامبراطور مساعد .

٤٠ ـ هذه فقرة غامضة جدا . والاسماء المستخدمة في الحولية لمختلف السفن في تلك الفترة تشكل مشكلة دائمة .

٤١ ـ وكان العمى قد جرد بحكم العادة اسحق من الاهلية لان الامبراطور البيزنطي كان عليه أن يكون بلا شائبة . وكنتيجة كانت إزالة عينية أو لسانه أشد الطرق فعالية للتخلص من منافس أو مدع للعرش .

٤٢ ـ وبناء على الحاح البنادقة ، قرر الصليبيون تمضية الشتاء في ضواحي المدينة ولم يكن الكسيوس قادرا على مواجهة مطالبهم ، التي كانت تتزايد دائما ، ولا كان قادرا على إرضاء حزب

وطني برز في المدينة . وخلال الشتاء كان هناك توتر بين الاغريق والفـرنجة ، مـع أحـداث عديدة ملتهبة ، لم يكن أقلها حريق أشعله اثنان مـن النهـابين الفلمنك ، الذين ثـاروا دون ضـابط لمدة يومين ، وبداخل المدينة أدى الشغب وقتال الشوارع في النهاية في شـباط ١٢٠٤ إلى ثـورة بقيادة البطل الشعبي الكسيوس (دوكاس مورتزفولوس صهر الكسيوس الثالث). وخنق الكسـيوس في السجن واستولى مورتزفولوس على العرش وقرر الفرنجة أنه فقط بالاستيلاء على المدينة نفسـها يمكنهم أن يحققوا امالهم العظيمة ، وفي نيسان بدأ الهجوم .

٤٣ ـ تعني هذه الكلمة نفسها (رومانيا) ولكن الكتاب البيزنطيون قد استخدموها للدلالة على الرعايا الروم الشرقيين أو الامبراطورية البيزنطية التي كانت تابعة الكنيسة الارثـوذكسية وكانوا يتكلمون الرومية وهكذا .

٤٤ ـ ولحماية جناحهم المواجه للضواحي الاوربية المدينة .

٤٥ ـ تدل الكلمة على تجريدة عسكرية صغيرة ولكن معناها وأصلها غامض . إن مناورة فصل السرايا هي المقدمة لكل معركة موصوفة في الحولية .

٤٦ ـ تقع ادرنة على نهر مارتيسا في تراقية وهي على أقل من ١٥٠ ميلا مـن القسـطنطينية ، وكان ألكسيوس الثالث في هذا الوقت قد حشد قوة ما ، واستولى على أدرنة .

٤٧ ـ يشبه شمت هذه بهرقلية بونتيكا في بيثينيا التي يحدد مكانها على ساحل البحـر الاسـود حوالي ٢٠٠ ميلا عن القسطنطينية ، مع انه يبدى اكثر احتمالا أنه يشير الى هرقلية التي تقع على الساحل الشمالي لبحر مرمرة ، وهي على طريقهم نحو مصر ، ولا يمكنني ان افهم لماذا ابحروا في البحر الاسود للوصول لمصر .

٤٨ ـ ألكسيوس ف . دوكاس صهر ألكسيوس الثالث الموثوق ولقب مورتزوفلوس فيه إشـارة إلى حاجبيه السوداوين الكثيفين .

٤٩ ـ من الغريب أن أخبار هذه الانفجارات المضـادة للروم لم تـرد في ب . ل : ٢٠ / ٧٦٦ ، ٨٨١ ، ١٢٤٥ ؛ ٣٩٣٢ الخ ...

ومثلت ها بثغرة في المجموعة الاخرى ، وحذفت سطور فـرنية حـول العداء للروم والطبيعـة المناهضة للأرثوذكس أيضا . علاوة على أن هذه المحذوفات كلها تبدأ في وسط خطبة مسهبة عنيفـة أو حتى جملة ، وهذا يبين أن ب . هـ من عمل كاتب متأخر رغب في أن يخفـف مـن التحيز العنيف المناهض للروم في الحولية وأن هـ . من جانب اخر ، من الواضح أنها من عمل كاتب إما أن يكون من الفرنجة كما يفترض كالوماروسي (ك ص ٣٤ حاشية ٧٥٤) أو فرانكو فيل . ويجـب أن نبين أن الترجمة الفرنسية من الحولية تحوي قليلا من المشاعر المناهضة للروم في هـ .

٥٠ ـ يمكن أن يعني هذا السطر : انهم يقولون بأنهم وحدهم يؤمنون بالمسيح .

٥١ ـ فقرة مشوهة والقراءة البديلة ، انهم يجلسون كما لو كانوا يسـيرون على الشـوك ، أو انهم يجلسون كأنما على الشوك ، أو انهم يجلسون كما لو كانوا في المراحيض .

٥٢ ـ كذا بالأصل .

٥٣ ـ هذا غامض وربما تقرأ: لنبحث عما ليس لدينا .

٥٤ ـ المنجنيق آلة لقذف الاحجار على المدينة المحاصرة .

٥٥ ـ القوس والنشاب كان قوسا معقدا كثيرا ما يصنع من الصلب ويزود بذراع أو وسيلة آلية اخرى اليد ويقوم الرامي عادة بتشغيل الآلية وهو مستلق على ظهره ويطلق السلاح وهو في هذا الوضع ومع أن لسهمه قوة اختراق عظيمة فإن عوائقه الواضحة كانت ثقله وبطء معدل إطلاقه .

٥٦ ـ حدث الاستيلاء الاول على المدينة في ١٧ تموز ١٢٠٣ وليس في ٤ تشرين الثـاني وحـدث الثاني في ١٣ نيسان ١٢٠٤ والحولية بشكل ذي معنى لاتاتي على ذكر أي من المشاهد البربرية التي صاحبت الاستيلاء الثاني على المدينة ولا الاسلاب الهائلة التي جمعت .

٥٧ ـ هرب مورتزو فلوس في البداية نحو الشمال إلى تراقية ، ثم بعد ذلك وبسـبب خيانة حميه الكسيوس الثالث وبسبب المضايقة من قبل القوات الفرنجية هرب إلى آسيا الصـغرى حيث هـام

مهجورا يائسا مع حاشية صغيرة حتى أسر في النهاية من قبل الفرنجة في وقت ما من تشرين الثاني ١٢٠٤ .

٥٨ ـ إن ب . توجز في هذه النقطة .

٥٩ ـ إشارة إلى ليو السادس الحكيم (٨٨٠ ـ ٩١٢) .

٦٠ ـ فقرة مشوشة . ومن الواضح أن المؤلف أراد أن يذكر شيئين في وقت واحد : إن ليو كانت له نبوءات كثيرة ـ تحقق بعضها في وقتها في حين لم تتحقق الأخرى بعد وإنه قد أنشأ أيضا كثيرا من النصب التذكارية في المدينة ، وكان أحدها العمود موضوع الكلام .

٦١ ـ ل . ع . ص ٦٩ يعرف هذا بأنه عمود (ثيوديزيوس في ساحة ثيوديزيوس الثاني ـ ساحة ثوري) .

٦٢ ـ يبدو أن هذه هي الطريقة التي لقي بها مور تزوفولس مصرعه فعلا ، حيث أن كل المصادر تصف المشهد . وانظر ما جاء عند روبرت كلاري حوله .

٦٣ ـ إن حسم مسألة الامبراطورية ، كان قد تم من قبل في معاهدة وقعت من قبل الصليبيين ورجال البندقية أن يتقاسموا الغنائم بالتساوي ، وكان على لجنة مشكلة من ستة من البنادقة وستة من الفرنسيين أن ينتخبوا الامبراطور والطرف الذي لاينتخب الامبراطور منه يقدم البطريرك الذي سيشغل كنيسة سانت صوفيا . وكان للامبراطور أن يحصل على ربع الاراضي المستولى عليها . ومن الباقي يذهب نصف إلى البندقية ونصف للصليبيين . واشترطت البندقية علاوة على ذلك المحافظة على كل ترتيباتها التجارية في الشرق وأن تحصل على حصة الاسد من الغنائم بتأمين ما زال مستحقا لها مقابل مصاريفها في الحملة الصليبية .

٦٤ ـ هذا هو التعبير المستعمل للامبراطور في كل الحولية ، ولكن استخدمت كلمة امبراطور للدلالة على الفرنجة وابقيت كلمة « بازليوس » لليونانيين وقد انتخب بلدوين في ٩ أيار ١٢٠٤ وتوج باحتفال بيزنطي كامل في ١٦ أيار في سانت صوفيا وأن رواية الحولية مفعمة بالحيوية ولكنها مختلفة .

٦٥ ـ هذه محاولة لوصف المراسم البيزنطية لتتويج امبراطور جديد وكانت العباءة رمزا للملكية وكان الهتاف والتهليل والتعظيم في المراسم بينما كانت الجماهير ترجو لامبراطورها الصحة وطول العمر .

٦٦ ـ بعد الاحتفال بعيد الفصح الذي تصادف في ٢٥ نيسان ، اجتمع الصليبيون معا لاختيار الناخبين الستة . وبدا بسرعة أن بونيفيس وبلدوين المتنافسان الرئيسيان على المنصب وأشياعهما قسما الجيش إلى فئتين ، وتم التوصل إلى تسوية بهما كان للذي لم ينتخب أن يعوض بأراض مناسبة في آسيا الصغرى أو المورة ، واجتمع الناخبون أخيرا في ٩ أيار ١٢٠٤ .

ووصل التشاور الى طريق مسدود لبعض الوقت حتى ألقى البنادقة أخيرا بدعمهم وراء بلدوين ، ربما لأنهم لم يكونوا يريدون أن يزيدوا من قوة جارهم المخيف من قبل مركيز مونتفرات ، وفي اليوم التالي للتتويج طلب بونيفيس ، أن يعطى مملكة سالونيك ، التي فضلها على أراضي في آسيا الصغرى .

وكان لتوه قد تزوج أرملة اسحق انجلوس الثاني ، ماري او مارغريت أخت ملك هنغاريا ، واضطر بلدوين الى الاذعان في النهاية .

٦٧ ـ لم يكن هناك كونت طولوز في ذلك الوقت ، وهذه هي المرة الثانية التي تدرج فيها الحولية كونت طولوز بين الصليبيين ، ويحتمل أن المقصود هو كونت بلوا .

٦٨ ـ في خريف ١٢٠٤ عينت لجنة من ٢٤ عضوا ، ١٢ من البنادقة و١٢ من الصليبيين لتوزيع أراضي الامبراطورية بعد استبعاد تلك التي أعطيت من قبل بونيفيس حسب المخطوط التي وضعت في اتفاقية آذار واعتبرت الامبراطورية بكل مكوناتها المختلفة ، تلك التي غزيت من قبل ، وتلك التي تنتظر الغزو وقسم كل جزء كما اشترطوا ، وعملت البندقية بالطبع على أن تحصل على الاراضي التي ستقوي مصالحها التجارية . وبالنتيجة ربحت أهم حصة إن لم يكن أكبرها في المنطقة بالفعل ،

واستخدمت أيضا حقها في انتخاب البطريرك وحافظت من خلاله على نفوذ قوي في شؤون المملكة اللاتينية ، وحصل الدوج على لقب رفيع احتفظ حتى ١٣٦١ .

٦٩ ـ والاشيا كانت ومازالت منطقة بلا حدود دقيقة في شمال وسط اليونان ، تضم معظم سيسالي وتمتد في اتجاه الشمال في اراضي غير يونانية وارتا في الجنوب ويانينا وهي الاسم الشعبي لهوانينا في الشمال كانتا المدينين الرئيسيتين في أبيروس وكانت في ذلك الوقت أكبر بدرجة طفيفة منها الآن .

وكان هيلاس هو اسم منطقة وسط اليونان البيزنطي القديم الذي يضم بواتيا واتيكا وبوبا وأجزاء من أتبوليا ، ووضع في القرن الثالث عشر كثيرا من هذه المنطقة تحت سيطرة ميكائيل كومنيوس دو كاس وخلفائه ولقد كان ميكائيل ابن سبيقا سبتوكراتور يوانس دوكاس ، الذي كان مرة حاكما مهيبا للمنطقة ، وتخلط الحولية بين اسمه الذي تورد مصحفا يوانس فاتاتزس وبين جوها نيتزا الذي لقب نفسه قيصر اللاشيين والبلغار والذي يعرف باسم مختلف هو كالوجون ، أوروما يوكتونوس ، أو جون الأول ليس الخ . . وقد حكم بلغاريا المستقلة من ١١٩٧ إلى ١٢٠٧ . وكان في البداية محبا للامبراطورية اللاتينية الجديدة ، وسرعان ما وجد اللاتين خصوما له ، وشن هجوما بربريا على المناطق المحيطة بسالونيك وهزم اللاتين في معركة أدرنة (١٤ نيسان ١٢٠٥) واسر بلدوين ، الذي اختفى بعد ذلك ، واغتيل جوها نيتزا اخيرا امام اسوار سالونيك من قبل القديس الراعي للمدينة ، القديس ديمتريوس نفسه طبقا للقول الشعبي في ذلك الوقت .

٧٠ ـ أرض الكومان ، وهم شعب شرس محارب كان يسكن المنطقة الواقعة شمال البحر الأسود .

٧١ ـ شعب آسيوي من جيران الكومان كثيرا ما كانوا يتخذون كمرتزقة من قبل الاباطرة البيزنطيين .

٧٢ ـ (الجريد) هو الرمح وهو عصا بطول ٢٦٠ سم ذات رأس حديدي وكانت تستخدم من قبل العرب والفرس .

٧٣ ـ عندما جاء الربيع .

٧٤ ـ إن الترتيب الزمني للحولية غير صحيح هنا ، وفي الواقع قتل بونيفيس من قبل البلغار في ٤ أيلول ١٢٠٧ بعد أكثر من عامين بعد معركة أدرنة .

٧٥ ـ نوع من السلاح التركي ، وربما كانت الكلمة تعني قضيبا شائكا ، وهي مشتقة من كلمة يونانية معناها يهز .

٧٦ ـ كان الدوج داند لو في الواقع مايزال حيا ، في القسطنطينية في ذلك الوقت ، وتوفي بعد المعركة بأيام قلائل ودفن في سانت صوفيا ، وبقي قبره هناك حتى (١٤٥٧) حيث خربه الاتراك .

٧٧ ـ كان أخو بلدوين وخليفته هو هنري دعي هنبوت (١٢٠٦ ـ ١٢١٦) الذي لم يرد ذكره في الحولية ، وتزوجت أخته يولاند ببير دي كورتناي ورزقت منه بابنه دعيت أيضا يولاند ، تزوجت من أندرو الهنغاري ، وعندما توفي هنري لم يترك وريثا مباشرا وتحولت الخلافة إلى اخته ، رغم التفكير في أندرو للمنصب ، ولكنه عرض على يولاند حتى القسطنطينية وتولت الحكم لصالح زوجها المختفي ، وبعد عامين مات . وفي ١٢١٩ عرض التاج على أكبر أولاد يولاند فيليب الذي تنازل لصالح أخيه الاصغر روبرت دي كورتناي ، وهو روبرت المذكور في الحولية .

٧٨ ـ نيمفيوم قرب ازمير سيمرنا في اسيا الصغرى .

٧٩ ـ بلدوين الثاني ١٢٢٨ ـ ٦١) كان اخا لروبرت ، وقد وصل الى العرش في سن الحادية عشرة ، وكان جون بريين وصيا عليه حتى ١٢٣٧ .

٨٠ ـ الملك جيمس الثاني .

٨١ ـ انظر أدناه ص ١١٧ الحاشية ٢٤ .

٨٢ ـ إن هذه الكلمة مستعملة في النص لتدل على إمارة البلبونيز بكاملها وناحية اليس المقصود هنا هو إيليس .

٨٣ ــ جيوفري الثاني دي فيلها ردين ١٢٢٨ أو (٣٠ ــ ٤٦) كان الاخ الاكبر لخليفته غوليوم (١٢٤٦ ــ ١٢٧٨) ومن أجل التفاصيل حول الزواج أنظر ادناه ص (٢٦ / ٢٤٧٦) حاشية ٨٩ .

٨٤ ــ تبدأ الحولية عند هذه النقطة في البحث حول حكام امبراطورية نيقية ، تزو · تيودور الاول لاسكارس (١٢٠٦ ــ ١٢٢٢) من أنا ابنة اليكسوس الثالث وليس اسحق انجيلوس . وكانت زوجته الثالثة ابنة الامبراطورة يولاند ماريا كورتناي وخلفه ابن من زوجته الثانية وهي اميرة ارمنية ، هو يوانس الثالث دوكاس فاتاتزس (١٢٢٢ ــ ١٢٥٤) وخلفه بدوره ابنه تيودورس الثاني لاسكارس وهو تيودورس الذي يشار إليه في الحولية ، وقد توفي في ١٢٥٨ مصابا في عقله وبدنه وكان في السادسة والثلاثين من عمره تاركا ابنه ايوانس الرابع لاسكارس وكان بالكاد قد بلغ الثامنة من عمره ، وتحت عناية وهي لم يقبل به النبلاء واستبدلوه بميكائيل باالايولوغوى ، وهو سليل مباشر لانجيلي ، وسمي ميكائيل وصيا ثم اميرا واخيرا امبراطورا شريكا في ١٢٥٩ وبقي ايوانس في الخلفية ، وعندما دخل ميكائيل القسطنطينية تحت اسم ميكائيل الثامن سملت عيناه والقي به في السجن .

٨٥ ــ كان اللان شعبا بدويا رحالا يعيش في منطقة القوقاز وكان الزيخوي أو اليوزز يعيشون على شواطيء البحر الأسود .

٨٦ ــ وعندما قسمت الامبراطورية من قبل اللاتين بعد الاستيلاء على القسطنطينية ، خصصت نسب كبيرة من آسيا الصغرى للامبرطور بلدوين الاول الذي وهب بدوره إقطاعات كبيرة في هذه الاراضي لاتباعه ، وبين هذه كانت دوقية نيقية ، التي خصصت للكونت لويس بلوا ، ودوقية فيلادلفيا ، التي خصصت للكونت ستيفن بيرس ، ولم يضع أي من هؤلاء الدوقات يده مطلقا على هذه الاراضي ، وبعد محاولات متكررة من قبل الفرنجة لفرض سلطانهم على آسيا الصغرى ،وسقطت الاراضي في يد الامبراطور الرومي لنيقية ، ولم يحكم روبرت فلاندرز في فيلادلفيا ، مع أن هذا قد يكون اشارة لهنري ، اخو الامبرطور بلدوين ، الذي كان قاد حملة الى آسيا الصغرى في ١٢٠٤ ــ ١٢٠٥ وقد خلط بين روبرت وهنري في كل الحولية كما في ١ / ١٢٢١ اعلاه .

٨٧ ــ هذه الفقرة ٢ / ١٢٤٩ ــ ١٢٥٥ مفقودة في ب .

٨٨ ــ يشتق شميث معنى هذه الكلمة من كلمة لاتينية معناها يسكن أو يتخذ مراكز ، والكلمة مستعملة في الحولية في مكان آخر بمعنى (٢ / ٥٠٤٧ ، ٦٤٣٥) حيث تعني ليمون الاحباء ، وهنا تستخدم الكلمة إضافة أو عطفا على كلمة معناها مدينة صغيرة أو كما هنا حي ومع ذلك فإنها تعني احيانا (النزول إلى البر أو يرسي السفينة) وكثيرا ما كانت تعني النزول إلى البر في لاتينية القرن الرابع عشر . انظر انتونينو ما نغو (العلاقات بين فريدريك الثالث صاحب صقلية وجيوفاني الاول صاحب نابولي باليرمو ١٩١٥ ل ص ١٦ و س .) والميناء المشار إليه في هذه الفقرة هو القرن الذهبي .

٨٩ ــ هذه الكلمة مع مكافئها اللاتيني دالت على ضريبة تجارية مفروضة كضريبة على المبيعات ، وكرسم جمركي ، ووقعت المعاهدة في نيمفيوم في ١٣ اذار ١٢٦١ وبموجبها تنتقل السيادة التجارية في الشرق من البندقية لجنوا .

٩٠ ــ يبدو أن معنى هذه الكلمة بشكل دقيق أجر الجندي والفعل منها استئجار مرتزقة .

٩١ ــ لجأ بلدوين أولا الى قصر بلاشيرين ثم عندما راى المدينة تلتهب ، هرب من المدينة إلى القصر الكبير البوكوليون ، ومن مينائه الصغير ابحر في النهاية من المدينة .

٩٢ ــ نزل الفارون أولا في يوبوا ثم ذهبوا بعد ذلك إلى اثينا ثم أبحروا من بيرابوس ، ومونمفاسيا ، ثم غادروا اخيرا إلى ابوليا . وكان الامير غوليوم خلال تلك الفترة سجينا في أراضي ميكائيل الثامن .

٩٣ ــ كان انسلان توسي أخا لفيليب وتوسي ، بابللي ، أي نائب الامبراطور بلدوين وكان لقب

قيصر عادة محفوظا من قبل البيزنطيين للامراء الذين يحملون الدم الملكي ولكن يبدو أنه قد استعمل من قبل اللاتين لذواب القسطنطينية . واسر انسلان في بلاغوينا ، ولكن ميكائيل ، أطلق سراحه ، بأمل أن يستخدمه في هجومه على القسطنطينية ، ومن أجل مناقشة مطولة حول أسره ، انظر ديئوجينا كوبلوس أوراق دمبارتون أوكز . رقم ٧ (كمبردج ١٩٥٣ الملحق ب ص ١٣٧ ـ ١٤١ .

٩٤ ـ كان فيلان دي أودوي ابن عم غوليوم دي فيلها ردين وتلقى منه إقطاع اركاديا ، التي اقتطعت من مقاطعة الامير ، واركاديا هو اسم من العصور الوسطى أطلق على كيبارسيا القديمة والحديثة ، وهي مدينة هامة على خليج بهذا الاسم .

٩٥ ـ انظر أدناه .

٩٦ ـ في طبعة بوذشون تنتهي المقدمة ب ١ / ٣٣٢ ، ولكن شميت يضيف ستة أبيات كي ينهيها بالعبارة الدالة على النهاية ، والبيت ١٣٣٩ استخدم كعنوان للاسم الثاني والرئيسي من الحولية .

٩٧ ـ إن هذه الفقرة بكاملها غامضة ، ولايمكنني على أي حال ان أفهم تفسير شمت (س ٣٧) . من أجل بيان ان مؤلف الحولية كان على صلة بالناس الذين كانوا احياء خلال الفترة ، التي تغطيها الحولية ويعلن شمت أن ١ / ١٣٤٤ (لايشير كثيرا الى روايات الغزاة القدامى بقدر ما يشير إلى روايات المسنين من الناس الذين جاؤا معهم) ، الامر الذي يمكن أيضا أن يفسر بيونانية العصور الوسطى نقلا عنهم ... وقد يكون هذا صحيحا جدا ، ولكن بصرف النظر عن كيف يلوى المرء الجملة ، إنه لمن المستحيل إلى حد ما أرى أن استمد منها الاهمية التي وجدها شمت هناك . إن العبارة موضوع البحث تقرأ بسهولة فهي ليست معقدة كما وجدها .

٩٨ ـ ثيبود الثالث انظر أعلاه . لم يكن غوليوم أخاه بل قريبا بعيدا .

٩٩ ـ كان يودس لي شامبنوس دي شامبليت وأخاه غوليوم ابنان ليودس ابن هـوغ صاحب شامبين واليزابيت بورغاندي ، وقد حصلا على اسم شاميذوس من اهلهما واسم شامبلين من المكان الذي هربت إليه اليزابيت عندما تبرأ منها زوجها ، والاسم سالون نقلا عن شمت هو تصحيف لشامبليين وورد في سائر روايات الحولية . ويجادل شمت بأن الترجمة الفرنسية يجب بناء عليه أن تكون مستمدة من اليونانية ، لأنه لو أن فرنسيا هو الذي كتب الحولية الاصلية لكان على معرفة وألفة باسم شامبليين بينما يمكن أن لايعرفه في صورته المصحفة ولكن هل يمكن أن نتأكد من أن سالوت وسالوس وسالوت هي حقا صور مصحفة من شامبليين ألم يكن هناك ربما اسم مثل ذلك كان يعرف به فقد بالنسبة لنا ؟ .

١ – كان وصول شامبليين إلى المورة تحت ظروف مختلفة تماما . وكان غوليوم في الواقع قد ذهب الى الشرق مع الحملة الصليبية الرابعة . وكان مع بونيفيس ملك سالونيكا ، عندما ذهب الى اليونان ليطالب بمملكته ويخضع شبه الجزيرة .

وفي خريف ١٢٠٤ ، وصلت فرقة من القوات الى الشرق قادمة من الغرب ، ويحتمل أن المؤلف قد خلط بين هذا الوصول ووصول جيوفري دي فيلها ردين ابن أخي المؤرخ الذي وصل مصادفة الى المورة في الوقت نفسه من وصول شامبليين وبونيفيس إلى أتيكا . وأصبح جيوفري منغمسا في الشؤون المورية المحلية في خريف وشتاء ١٢٠٤ ، ورؤية فرصة عظيمة في الحالة غير المستقرة في المنطقة ، ركب للقاء شامبليين ، الذي كان مشتركا في حصار نوبليا في ذلك الوقت ، وليقنعه بالعودة معه ويقود غزو المورة ورافق شامبليين ، وعاد مع جيوفري .

٢ – إن هذه الكلمة مشتقة من اللاتينية بمعنى سلم ، ويعطيها شمث أيضا معاني محطة وممر جبلي . .

٣ – إن لغيا المشار إليها هنا هي كاتو – لغيا الحديثة التي تقع الى الغرب من باتراس .

٤ – كانت أندرا فيدا المدينة الرئيسية لايليس وتقع في سهل المورة المنطقة التي يجري عبرها نهر بينويس في المرحلة الادنى من رحلته ، وأصبحت المدينة الأثيرة لدى أمراء المورة وعاصمتهم .

٥ – مازال أهل اندرا فيدا يدعون بهذا الاسم ويؤكد لونغنيون في كتابه / الاستيلاء على إمارة المورة – تاريخ المورة – ١٢٠٤ – ١٣٠٥ باريس ١٩١١ . من اسم أندرا فيدا سلافي ويعني مكان القاعات (مقالب الماء) ويجادل درا غوميس في هذا في كتابه / تاريخ المورة / (أثينا ١٩٢١ ص ٦ الحاشية) .

٦ – لقد كانت هذه هي الطريقة البيزنطية المعتادة لتحية السيد الأكبر ، ورحسب شعب اليونان الذين كانوا مضطهدين من قبل السادة المحليين ومتعبين من حروبهم الصغيرة المستمرة بالفرنجة كمنقذين وكانت حالة الامور في أتيكا في وقت وصول بونيفاس قد وصفت خطيا من قبل ميكائيل كونيايس اكوميناتوس في مذكرة إلى الكسيوس الثالث .تحقيق سب لامبروس اثينا ١٨٧٩ – ١٨٨٠ . وأخيه نيستوس كونياتس (اكومينا توس) مؤرخ الفترة ، ولاحظ بمرارة بان بونيفيس استقبل من قبل الروم المحليين (الشخص يعود الى وطنه بعد غياب طويل) .

٧ – ترجمة هذه الكلمة بعيد أقوى من اللازم ، ويبدو أن الفعل منها في تلك الفترة كان الطريقة اليونانية للتعبير عن الخدمة الاقطاعية ووضع الرجل المرتبط بعهد الولاء للسيد الاقطاعي في حينه ، وربما تترجم بشكل أفضل (كأتباع) .

٨ – فوستيزا ميناء على خليج كورنث شرق باتراس .

٩ – كان ليون سغورس طاغية صغير وكان يزعج المدن في اليونان خلال الاضطرابات التي صاحبت الحملة الصليبية الرابعة وكان أبوه نوعا من أنواع السادة القليلي الشأن وحاكما نظريا باسم الملك في مدينة نوبافتوس ، وعندما خلفه ليون في السلطة .

استغل سقوط أثينا العاصمة فسعى إلى مد سلطانه إلى كورنث وأرغوس ، وصد ميكائيل أكوميناتوس ، حاكم أثينا الاوي هجماته على أثينا ، ثم تحرك ليستولي على طيبة .

وعندما بدأ بونيفيس سيرته في اليونان في ١٢٠٤ قرر ليون سغورس مقاومته في ترموبيلي ، ولكن كما يقول نكستاس ساخرا بنظرة واحدة الى الفرنجة استدار وركض . وتراجع الى قلعة كورنث حيث صمد حتى (١٢٠٨) عندما انتحر في يأس بأن قفز بحصانه من فوق أسوار القلعة .

١٠ – بدأ الهجوم على كورنث من قبل بونيفيس نفسه ، الذي بنى حصنا صغيرا أسماه مونت أسكوفيه ، وكان أن وصل جيوفري دي فيلها ردين في الأيام الاولى من الحصار ليجلب مساعدة شامبليين .

١١ – تعني الكلمة في اليونانية القديمة (دنس) أو ملطخ بالجريمة ، والأخير منهما هو المعنى

الذي يعطيه شمت ، وهذا الانعكاس المفاجىء والتام في الراي حول سفورس الذي كان يدعى الرجل العظيم في ل ١٤٤٦ والامير الشرعي في ل ١٤٦٦ ، والذي يفكر في النساء .

١٢ ـ كانت ناماتا وهي طروانة القديمة ، قرب شبه جزيرة أغوليبسب مقر أسسقفيا هاما في العصور الوسطى وكانت هاغيون أوروس وتدعى الآن أجيوفوريون تقع الى الجنوب من كورنث حوالي منتصف الطريق إلى أرغوس .

١٣ ـ إن هذه الرواية كما نبه القارىء اكثر من مرة خليط من عدم الدقة .

١٤ ـ تستعمل هذه الكلمة خلال الحولية لتعني مدينة كبيرة أو مدينة صغيرة .

١٥ ـ هذا اللقب يعود تماما الى أصل من القرون الوسطى وليس له إشارة من أي نوع الى اليونان القديم ، والاصل التقليدي المفترض للقب كان على أي حال مفترضا من كل من دانتي وبوكاكسيو الذي أطلقه على تيسوس البطل الاسطوري لاتيكا القديمة .

١٦ ـ إن رواية « ثي » غير صحيحة . ولم يمنح بونيفيس اية اراضي شامبليت ، وفيما بعد في (١٢١٠ ـ ١٢١٢) فإن اوتـون دي لاروش أمير اثينا (١٢٠٤ ـ ١٢٢٥) عاون جيوفـري دي فيلها ردين في حملته لاخضاع منطقـة كورنث ـ أرغوس ومنح في المقـابل حـكم ارغوس ونوبليون وبهذا يصبح تابعا لجيوفري ، واصبحت بودونيستا وبوبيا تحت سلطة جيوفـري الثـاني بعـد ذلك بوقت طويل في ١٢٣٦ .

١٧ ـ مع تقدم بونيفيس خـلال اليونان في ١٢٠٤ ، وزع اراضي وقـلاع على اتبـاعه واعطيت المنطقة حول ممر تيرمو بيلي للمركيز غويدو بالافيسني ، الذي احتفظ خلفاؤه بلقب مـركيز بـودو نتيزا واعطيت أثينا وطيبة مع الاراضي المحيطة للنبيل البورغاندي اوتون دي لاروش الذي أخذ لقب ميغا سكير ومرتبة دوق . وقسمت أرض يوبيا (يوريبوس ونيغروبونت) .

قسمت من قبل بونيفيس بين ثلاثة نبلاء من فيرونا .

١٨ ـ تخلط الحولية هنا بين جيوفري المؤرخ وابن اخيه ، ويبدو ايضا ان هناك الماع في عبـارة (يعتبر أميره الشرعي) الى شامبليت كمطالب بمقاطعة شامبنين ، كما تـدعوه الحـولية خـطأ في ٢ / ١٣٧٩ ـ ١٣٨٠ .

١٩ ـ تقع كورون عند مدخل خليج مسين على الساحل الجنوبي للبلبونيز .

٢٠ ـ وبكلمات أخرى في مقابل ان يحافظوا على أوقافهم على نبـلاء اليس في أن يؤثـروا على نبلاء البلبونيز كي يقدموا البيعة للفرنجة .

٢١ ـ كذا بالاصل .

٢٢ ـ لاحظ أن الحولية تضع تحديدا بين نبلاء اليس ونبلاء وسط البلبونيز ، وميزاريا اسم من العصور الوسطى لاركاديا .

٢٣ ـ تذكر ل أن التخمين والتوزيع قد عهد به لجيوفـري دي فيلهـا ردين والكثير مـن النبـلاء الاخرين وايضا لحكماء الروم ونبلائهم .

٢٤ ـ تدعى هذه القلعة المدمرة والتي تقع خارج ميناء كاتاكولن الحديث اليوم بونيكو كاسترو او قلعة موز ، ويعطي المؤرخون الحديثون لتلك الفتـرة الاسـم مقتبسـا تفعـل ل . دي ، ف ، (فقرة ١١) ويضيف هذا العمل الاخير معلومات بان القلعة كانت قلعة قديمة مستصلحة من قبـل الفرنجة واعيد تسميتها بالفير او بيوفوار وتدعوها ل . بيدفوار . (فقرة ٧٥ ، ١٧٨) .

٢٥ ـ انظر أعلاه .

٢٦ ـ انظر اعلاه .

٢٧ ـ تقع كالاماتا عند راس خليج مسين ، ومازالت احدى المدن الرئيسية في البلبونيز .

٢٨ ـ إن علامات الترقيم في هذه الفقرة كما هي لدى شمث ، وكالونا روس تجعلها غامضة وقد ترجمت المفرد على انه امكنه ، ومع ذلك فإن المعنى قد يكون لاخذ تلك القلاع التي لها موانىء في اي

وقت يناسبنا ونجده ملائما .

٢٩ ـ كذا بالاصل .

٣٠ ـ تقع بوثون وكثيرا ما تدعى مودون في نقطة جنوبية غربية من مسينا ، ويذكر فيلها ردين في تاريخه أنه عندما ترك شامبليت فيلها ردين الاصغر جيش بونيفيس تقدما حتى ميثون التي وجداها في حالة خراب . فقاما باصلاحات فورية مرتجلة للأسوار ، لأن ميكائيل دوكاس الحاكم الاول لأرتا قد جهد في الايقاع بهم ، وكان يحضر للهجوم ، والتقى الفرنجة بالروم بعد مسيره يوم واحد وهزموهم وجلبوا غنائم وفيرة معهم إلى ميثون ، ثم استولوا بعد ذلك على كورون بمساعدة ، واخيرا على كالاماتا (الاستيلاء على القسطنطينية فقرة ٣٢٨ ـ ٣٣٠) .

٣١ ـ هذا التعبير غامض ، والكلمة على ما يبدو لاتحمل معناها المعتاد وهو كهف لاحناولا في ٢ / ١٧٧٠ ، ١٧٧٣ ، ٢٨٠٤ و ٣٠٠٥ ، إنما تعني صخرة أو صخرة منحدرة السطح ، ولايعلق شمث على هذا في فهرسه ، ٣٢ ـ يذكر فيلها ردين في (الاستيلاء على القسطنطينية فقرة ٣٣٠) ان قلعة كالاماتا كانت قوية وفاخرة ، وانه قد تم الاستيلاء عليها من قبل الفرنجة فقط بعد حصار صعب وطويل وكتبت كلمة كالاماتا كاليمنت من قبل فيلها ردين ، وكاليمين في ل . وبشكل مختلف كالوماتا .

٣٣ ـ نيكلي او اميكوليون وتقع في أركاديا في سهل تيجيا القديمة ، وتبين هذه الفقرة أن المدينة تسبق الغزو الفرنجي في التاريخ ومع ذلك فإن دراغو نهب ميست في تحليل معقد إلى انها مدينة بناها غوليوم الثاني فيلها ردين في (١٢٤٨ ـ ١٢٥٠) ويوحي بأنها كانت تقع قرب المدينة الحالية ستينو شمال تريبولست ، ودمرت في ١٢٩٦ (انظر ل دى في فقرة ٢٦٧ ، ٤٨٥) من قبل البيزنطيين واستبدلت بقلعتين في التلال إلى موكلر وسبيانا ، ويحدد دراغوس هذه بانها تسبيانا غرب جبل أرتمريوس وبالايو ـ موكلي على السفح الشمالي لجبل بارتينوس . ويحدد لونيون موقع موكلي في بالايو ـ أبيسكوبي ـ الحديثة ، ويحدد كالوناروس موقعها في بيالي ، وعلى أي حال ففي المناقشة المتعمقة جدا لدرا غوبيس مع ذلك ، يمكن تحديد موقع المدينة على نحو أفضل قرب تيجيا أو تريبوليس الحديثة .

٣٤ ـ فيليفوستى بالفرنسية طبقا لبحث بوشون (جزيرة المورة الاغريقية) باريس ١٨٤٣ ص ٤٨٠ تقع فيليفوستي إلى الغرب من ليونداري وقرب مدينة سمار التي دعيت في الحقيقة فيليفوستي منذ ١٢١٨ ، وقد تحرى درا غوميس هذا التحديد .

٣٥ ـ ليكديمونيا هي سبارطة العصور الوسطى .

٣٦ ـ إن المعنى الاصلي للكلمة هو (نير) ولكنها هنا تعني منحدر أو متن أو سلسلة . وكانت الميلنقز ، إحدى اهم قبائل السلاف في البلبونيز ، وقد ذكروا في وقت مبكر يعود إلى القران العاشر من قبل قسطنطينية السابع بورفير جينتوس (إدارة الامبراطورية ٣ / ٢٢٠) عندما كان يصف أحداثا من القرنين الثامن والتاسع . وتمتد الارض التي سكنوها عبر النصف الشمالي من لاكونيا وأسفل جبال تايجيتوس من ميسترا الى باسافا ، ويبدو أن الحولية تتناول شبه جزيرة مين في أرضهم . ويخلط دوروثيوس ـ ومذفاسيا (بـ ـزيدود دوروثيوس) ب (مين) (البندقية ١٨١٤ ـ ص ٤٧٦) وبلا شك أن مين تشمل كامل شبه الجزيرة جنوب ميسترا في ذلك الوقت .

٣٧ ـ يقتبس شمث في فهرسه من بوشون ، الذي يعرف لاكوس بأنها إما واد في مسينا يمتد من ماكرى ـ بلاجي إلى كالاماتا أوسهل واسع قرب ماكري بلاجي . ومن السياق هنا يبدو أن التعريف الأخير هو الصحيح ، ولم أكن قادرا على التعرف على كريزوريا ، مع أن الحولية ، تذكر هنا بأنها تقع في مكان ما بين قرى لاكوس وكابسكيا ذوس ، وبيستان زيتونها القريب يصعب تحديدها بالضبط .

مع أنها طبقا للحولية ، تقع ضمن مسيرة يوم عن كالاماتا .

٣٨ ـ هذه كانت المعركة الضارية الوحيدة في الغزو الفرنجي ، وقد قررت مصير المورة اليونانية ، وهزم الموريون اليونان بمساعدة حليفهم ميكائيل الاول حاكم ارتا بشكل حاسم .

وذكر فيلها ردين (انظر اعلاه) أن المعركة وقعت قبل الاستيلاء على كوروف وكالاماتا ويحتمل أن الحولية محقة في وضع المعركة بعد هذه الاحداث .

٣٩ ـ الا كلوفون أو اوراكلوفون (قفص الجبل) تقع شمال كارتيانيا ناحية سكورتا في بلاد جبلية تقع بشكل رئيسي في غرب أركاديا وتقع ضمنها قلعتا كارتيانيا ، واكوفا .

عسكرية (٢) كومة أو مجموعة (باللاتينية) من الكلمة الجرمانية

٤٠ ـ كانت الفوتساراذز إحدى العائلات الكبيرة في المورة وكان من ممتلكاتها اراكلوفون قبل الغزو . واصبح دوكسا باتريس أحد أبطال المقاومة اليونانية ويذكر ل دي ف ، إنه كان الاقوى ويحمل أقوى الاسلحة ، والدروع وهراوة مريعه (فقرة ١١١) .

٤١ ـ وتجنب الفرنجة قلعة اركاديا في مسيرتهم على طول الساحل (انظر ٢ / ١٢٧٩) وتذهب ل إلى أن اسوارها (عمل العمالقة) (فقرة ١١٥)

٤٢ ـ توفي لويس دي شامبليت الاخ الاكبر لغوليوم في ١٢٠٩ ، ولم يكن كونت شامبنين بل أمير شامبليت في بور غاندي .

٤٣ ـ القدماء ؟

٤٤ ـ تبدو الحولية هنا مشوشة نوعا ما ، لانها ذكرت من قبل ان الاراضي قد قسمت من قبل لجنة مكونة من ستة من الروم وستة من الفرنجة تحت توجيه فيلهاردين (انظر اعلاه : ١ / ١٦٤٩) .

٤٥ ـ هنا مرة أخرى التشويش في الحولية بين فيلها ردين المؤرخ والآخر وبين تيبولت كونت شامبنين ، واخ اكبر لغوليوم دي شامبليت .

٤٦ ـ يدعي فيلها ردين في تاريخه أن ابن أخيه قد أعطي كورون (فقرة ٣٣٠) ، ولكن كما يبين لوغنون (ل غ ص ٧٣ حاشية ٢) كانت كالاماتا واحدة بين الاثنتين من الاقطاعيات الاكثر ملاءمة والتي يمكن بها مكافأة جيوفري على دوره الهام في الاستيلاء وهو يبين أيضا بأنه إذا ما كان قول فيلها ردين مقبولا فإن علينا أن نفترض انه بعد أن استولى البنادقة على كورون في حملة (١٢٠٦ ـ ١٢٠٧) أعطي إلى فيلها ردين كالاماتا ، لانهم بقوا سادة تلك الاقطاعية خلال الاحتلال الفرنجي (ل . غ ص ٧٣ ، ٩٠)

٤٧ ـ غادر غوليوم الى فرنسا في وقت ما حوالي ١٢٠٨ ، وتوفي بعد ذلك بوقت قصير وقبل مغادرته عين كنائب له وسمى ابن أخيه هوغ دي شامبليت ، وليس فيلها ردين ، وعلى أي حال فقد توفي هوغ بعد ذلك بوقت قصير واصبح جيوفري نائبا ، ويحتمل أنه قد انتخب من قبل البارونات المحليين ، ولم يعين من قبل شامبليت ، كما تجعلنا الحولية نعتقد .

وقد أصبح نائبا في وقت ما قبل أيار ١٢٠٩ ، لانه ظهر في مجلس رافينكا كممثل عن المورة ، وهناك أكد الامبراطور هنري منصبه وإقطاعيته (انظر ل . غ ص ١١١)

٤٨ ـ ويتبع هنا سجل البارونات الكبيرة الاربع للمورة الذي كثيرا ما يدعى سجل أراضي المورة ، وهناك اختلاف كبير بين الروايات المختلفة للحولية حول عدد الفرسان والاراضي المخصصة لكل إقطاعية .

٤٩ ـ أكوفا وكارتيانيا كانتا القلعتين الرئيسيتين في سكورتا أو أركاديا والاخيرة لم يبنها هوغ ولكن كما يروى بشكل صحيح في ١ / ٣١٥٥ ابناه بناها ابن جيوفري ، وأطلق على اكوفا اسم ميتفريفين (أي أوقف أو اقتل يونانيا) من قبل الفرنجة ، وتقع على نهر صغير اسمه لادون ومازال بالامكان رؤية بقاياها قرب قرية غالاتس الحالية ، وتوجد دراسة عامة للقلاع الفرنجية في اليونان في كتاب ك . أندروز (قلاع المورة ـ بريزنستون ١٩٥٣) . وفي كتاب أ . بون (قلاع العصور الوسطى ـ دورية الدراسات الهيلينية : ٦١ ـ ١٩٣٧) ١٣٦ ـ ٢٠٨ . وفي كتاب ر .

تراكوبير (قلاع العصور الوسطى) وفي حـــولية المدرســـة البـــريطانية في اثينا العـــدد ١٢ (١٩٠٥ ــ ١٩٠٦) ص ٢٥٨ ــ ٢٧٦ والمكملة في العـــــدد ١٣ (١٩٠٦ ــ ١٩٠٧) ص ٢٦٨ ــ ٢٨١ .

٥٠ ــ ماثيو دي د الذكورت دي مونس اسمه الكامل .

٥١ ــ وكان هذا هو غوليوم دي مور لاي .

٥٢ ــ بنيت غير الي لامن قبل غي ، بل من قبل ابنه جان (انظر ١ / ٣٣٦٥ أدناه) ومـــازالت خرائبها باقية وتحوي بعض الفروسكات البيزنطية الجملية وكانت تاسكونيا في حينه أكبر اتســـاعا بكثير من المنطقة في أركادي التي تسمى بهذا الاسم اليوم ، وكانت تمتــد مــن جبـــال بـــارفون في أركاديا باتجاه الجنوب الى فاتيكا ، وهكذا تضم غيراكي ومونمفاسيا ، وكثيرا مـــا كان (اســـم) تاسكونيا يستخدم كاسم للاكونيا في العصور الوسطى ، وكان التساكونيون انفسهم شـــعبا محبـــا للحرب من أصل مختلف عليه ، يظهر في المصادر من زمن قسطنطين بـــورفيرو جينيتس ، وقـــد هلك تدريجيا وتعتبر ، وهم ممثلون اليوم بمجموعة صغيرة مازالت تشكلهم بلهجة تختلف عن كل لهجات اليونان ، وهم لم يكونوا من السلاف بالتأكيد ، وكانت لغتهم تسمى (الدوريك الجـــديدة) (انظـــر م . ص ٤) .

٥٣ ــ فوستينا في آخيا على خليج كورنت شرق باتراس ، وتقع كالافـــرينا في شرق آخيا جنوب فوستيتزا ، وأصبح مألوفا من قبل البارونات الكبار أن يسقطوا ألقـــابهم الفـــرنسية ويســـتبدلوها بألقاب ترتبط بأملاكهم الجديدة في المورة .

٥٤ ــ من أجل وادي لاكوس انظر أعلاه ، وكانت غرتيسينا مدينة في مكان ما من الوادي ، ربما على المنحدرات الجنوبية من جبل تايغيتس ويدعى السير لون خطأ كوكا في الترجمة الايطـــالية مـــن الحولية لوكادي سيربي .

٥٥ ــ باسافا أو باسا فانت كانت قلعة رائعة مبنية على ساحل خليج لاكونيا ، نحـــو منتصـــف الطريق بين مين وهيلوس . واسم باسافانت يفترض أنه مشتق من كلمة تعارف قوات شامبين .

٥٦ ــ يعطي شمث اسمه أندبرت دي تريمو لاي . وكانت كالاندريتـــزا مـــدينة صـــغيرة جنوب باتراس مباشرة .

٥٧ ــ وكانت هذه بالطبع هي المنظمات الدينية الكبيرة للفرسان ، منظمة فرسان ســـانت جـــون الاسبتارية (فيما بعد مالطة) منظمة فرسان المعبد والمنظمة التيوتونيه للفرسان .

٥٨ ــ كان هناك أربعة أقاليم كهنوتية في اليونان الفرنجية : بـــاتراس وكورنت في المورة واثينا وطيبة في اليونان القارية ، وكان لرئيس أساقفة باتراس ، ورئيس أساقفة المورة أربعـــة أســـاقفة مساعدين ، هم أساقفة أولينا الذين كانت مقـــراتهم في اندرا فيدا كورون ، ميثـــون ، وكفـــالونيا ، وكان لرئيس أساقفة كورنت كمساعدين أساقفة ارغوس ، ليكيمونيا ، ومـــونمفاسيا التـــي كانت تحت سلطة الفرنجة .

وكان تحت رئاسة رئيس أساقفة اثينا ، أساقفة نيرموبيلي ، الذين كانت مقراتهم في بودنتيزا ، وسالونا ، وداقليا ، ونفرد بونت ، وإيجنيا واندرس . وتحت رئاســـة أســـقفية طيبـــة ، كان هناك أسقفان مساعدان فقط ، هما أسقفا كاستوريا وزاراكوريا .

وبين الأربعة ، كان رئيس أساقفة باتراس بلا جدال الأقوى . وفي الحقيقة في وقت مـــا حـــوالي منتصف القرن الثالث عشر حصل من غوليوم الالمان على بارونية باتراس ، الذي أضيفت حصصـــه الأربع والعشرون الى الثمانية التي حصل عليها من قبل ، وقد جعلت هـــذه منه الســـيد الاقـــطاعي الرئيسي لكل المورة ، وهذه الحقيقة ظاهرة من كثرة ظهور اسمه في الوثائق في رأس قـــوائم النبـــالة المورية أو كممثل لها وناطق باسمها (انظر لغ ص ٢٠٥ وز : ٢ / ٢٧٠ ــ ٢٠٩) .

٥٩ ــ تعني كلمة سيرجند . شخصا ما يلي مباشرة الفارس في المراتب الاقطاعية ، وقد ترجمنا الكلمة على أنهـــــا حـــــــامل الدرع في كل الكتـــــــاب ســـــــوي ي : ١ / ١٩٨٨ حيث حافظت على عبـــارة سرجندية الاســـتيلاء حيث يبـــدو أن لهـــا بعض الدلالة

كفنوان للحولية (ل : ١ / ١٩٨٥ ـ ١٩٩٠) وفقرتان ٦٧ و ٨٩ من قوانين رومانيا (طبعة ريكورا ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ـ ٢١٩ . تبين أن اثنين من حملة الدروع يعادلون فارسا في تخمين الرسوم الاقطاعية ، وتبين صياغة الفقرة أعلاه (١ / ١٩٦٥) أن لكل من الفرسان إقطاعية عامة من حصة واحدة ، ولكن بعض السرجندية فقط طانوا يعطون ، والفقرات من القوانين المذكورة أعلاه تتحدث عن إقطاعات السرجندية المدنيين بالخدمة كسرجندية من المشاة أو حامل درع .

٦٠ ـ كذا بالاصل .

٦١ ـ إن هذا القسم من السنة يتعلق بالمادة ٧٠ من قوانين رومانيا ، حيث فيها يتعلق بالشهور الاربعة الثالثة تذكر : وسيبقى لاربعة شهور في منزله أو في اي مكان يبدو له أنه أكثر ضرورة من أجل الوفاء بخدماته في الامارة السابق ذكرها ، وتذكر ل . ف . إنه يمكن للتابع أن يترك الامارة للحج ، ولكنه مع ذلك يبقى عليه أن يعود خلال سنة ويوم واحد وإلا فقد نخل سنة واحدة أو خلال عامين ويومين أو يفقد الاقطاعية تماما (الفقرة ١٤٠) والقانون واضح تماما حول غياب التابع (مقاطع ٣٦ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ١٠١ ، ١١١) وبشكل عام إذا غادر التابع بدون إذن ، وقدم وريثه في الاقطاعية نفسه للأمير خلال سنة ويوم واحد ، قد يستخدم الامير الوريث ومع ذلك فالتابعة له الحق في أن يطلب التغيب ، وينتظر عموما من الامير أن يعطي الاذن ، وتحت هذه الظروف يكون لدى التابع عادة سنتان ويومان ليعود إلى إقطاعيته . ويجب أن يلاحظ ان التراجم المختلفة للحولية لاتتفق في تعداد الاقطاعات وواجبات الاقطاعيين . ل . ف . تعطي تفاصيل أكثر خاصة فيما يتعلق بوضع الهرم الكهنوتي والتنظيم الاقطاعي في الامارة (فقرات ١١٧ ـ ١٤٠) .

٦٢ ـ مشتقة من الكلمة الايطالية (خنزيرة) وهو اسم شائع للمثقب وغلافه الخشبي ، الذي كان يستخدم لزعزعة الاسوار خلال الحصار انظر كتاب شارل أومان (تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى) نيويورك ١٩٢٣ / ١ / ١٣٣ .

٦٣ ـ هيلوس ناحية في لاكونيا حوالي مصب نهر اليوروتاس وتحف بخليج لاكونيا وفاتيكسا هي قمة الجبل التي تمتد في رأس ماليا ، وتقع مونمفاسيا على الساحل الشرقي لهذه القمة ، نحو الشمال قليلا ، وكانت مونمفاسيا إحدى أهم مدن المورة خلال العصور الوسطى ، ولم تبن قلعتها فقط فوق صخرة ضخمة في البحر ، وتتصل بالبر ببرزخ ضيق فقط اعتبر منيعا ، بل إن ميناءها كان رائعا ، وكان الميناء الرئيس للدخول للتجارة البيزنطية في البلبونيز ومونمفاسيا وهي من كل المدن المورية قد بذلت أكثر المقاومات بطولة وجاءت حتى خضعت فقط بعد حصار مدته ثلاث سنوات (انظر أدناه ٢ / ٢٩٣٠ .

٦٤ ـ المعنى هنا أولئك الذين أقطعوا المدن بوساطة الجنود أو المدن للجنود .

٦٥ ـ موقف متساهل من الفرنجة تجاه روم المورة ميز الغزو ، وقد سمح للاقطاعيين من اليونانيين بالاحتفاظ باقطاعاتهم (٢ / ١٤٤٢ ـ ١٦٤٧) ومزاياهم ، وهنا أعلاه نعرف أنهم لم يزعجوا في عقيدتهم وعاداتهم وقوانينهم ، وينعكس هذا الموقف في مجموعة القوانين الرومانية (فقرات ٧١ ، ١٣٨ ، ١٧٨ ، ١٩٤) حيث يتساوى الروم والفرنجة تقريبا في ظل القانون ، وإلى جانب هذا بالطبع كانت هناك التزامات متساوية ونجد اشارات مستمرة في الحولية إلى القوات اليونانية والنبلاء المغيرين مع الجيوش الفرنجية .

٦٦ ـ وهنا تتبع قصة رومانسية وإن كانت مسلية ، ترمي إلى الاحاطة بترفيع جيوفري إلى رتبة أمير مع تعليق مناسب ، ومن وجهة نظر الحقيقة كما وضحت أعلاه ترك غوليوم دي شامبليت ابن أخيه كنائب له وليس جيوفري وتوفي هوغ بعد ذلك بوقت قصير ربما خلال ثلاثة أو أربعة شهور ، وأصبحت الامارة بلا أمير ، وهذه الحقيقة معروفة من رسائل انوسنت الثالث .

(١٣ / ١٧٠ . ب . ل : ٣ / ٣٤٢) ، مع أن الامر غير واضح ، وعلى ما يبدو أصبح جيوفري نائبا لورثة شامبليت بعد وفاة غوليوم وهوغ ، ومن المؤكد أنه كان يعمل كاقطاعي رئيس في المورة بحلول أيار (١٢٠٩) ، لانه في تلك السنة ظهر في رافيشنيكا بهذه الصفة ، وهناك صدق الامبراطور منزلته الجديدة واعترف هنري بملكية جيوفري الشرعية الاقطاعية المورة وأضاف إليها

منصب نائب أمير رومانيا ، وبذلك اصبح جيوفري التابع المباشر للامبراطور ، علاوة على انه في الشهر التالي حزيران (١٢٠٩) دخل جيوفري في معاهدة مع البندقية أوقفت التوتر الذي كان قائما بين الجمهورية والمورة منذ (١٢٠٤) ، وبشروط هذه المعاهدة اعترف جيوفري نظريا بأنه تسلم كل المورة كاقطاعية من البندقية ، وبكلمات أخرى أصبح تابعا للبندقية بالنسبة للاراضي نفسها ، التي تسلمها من قبل من الامبراطور ، وحتى هذه النقطة لم يكن قد أخذ رسميا لقب أمير لخيا ، ولهذا قد يفترض أنه كان مايزال يعمل كممثل لورثة شامبليت وفي وقت ما من خريف (١٢٠٩) في ايلول (١٢٠٩) طبقا ل . لوغنون . (ص ١١٣) أو في وقت مبكر من (١٢١٠) أصبح أميرا بالاسم والواقع ، لأن الرسائل من انوسنت الثالث المرسلة بين ٢٢ ايار و٢٤ ايار (١٢١٠) موجهة إليه كأمير لخيا (الرسائل ١٣ / ٢٣٠٦ ، ٢٤ ، ٢٥ ب . ل : ٣ / ٢٠١ ، ٢٢١ ، ٢٢٢) ورسالة ٢٢ ايار معطاة ايضا في بوتسات وريجيستا (برلين ١٨٧٤ ـ ١٨٧٥) حيث أعطيت رقم ٣٩٣٩ وهو نفسه يستعمل اللقب لاول مرة في وثيقة مؤرخة في (١٢١٠) (مقتبسة من لوغنون ص ١١٥) وعلى ما يبدو جيوفري قد انتظر المهلة القانونية وهي سنة ويوم وعندما لم يظهر وريث ليطالب بالاقطاعية ، فإنه إما تملكها او انه انتخب من قبل البارونات كأمير ، وليس محتملا بالمرة أن الامبراطور قد صدق مثل هذه الحيلة المفضوحة ، كما تصفها الحولية ، ولا كان للبندقية أن تدخل في معاهدة مع رجل كانت مطالبته باللقب تقوم على مثل هذا الفعل غير الشرعي الواضح ، ومع ذلك فإن جزءا من الحقيقة يلوح في القصة ويعلق فيليب دي ايلين في قوانين القدس على الاجراءات التي يمكن النصح باتباعها خلال سن قصور الورثة ، بسبب الخطر الذي قد يحيق بهم (مجموعة راشيت لتاريخ الحروب الصليبية ، تحقيق بيغونت ، لويس : ٢ / ٤٠١) .

كما وقع فعلا في المورة لاطفال الشامبني من السيرجيوفري دي فيلهار ، التي بقيت في يديه ، وقد يدل هذا على أن وريثا خاصا قد طرد ، او ربما يكون ببساطة تعليقا على حقيقة أن ورثة غوليوم كانوا صغارا جدا على تسلم الممتلكات في وقت وفاته ، وإن جيوفري أخذ اللقب واحتفظ به (من اجل مناقشة كاملة انظر لغ : ص ١١١ ـ ١١٥) ٦٧ ـ إن كونت شامبين هنا بالطبع هو غوليوم دي شامبليت .

٦٨ ـ هناك نصف سطر مفقود في ها . عند هذه النقطة ، وإن عبارة التي الحبها كثيرا مأخوذة من ت .

٦٩ ـ عيد الحصاد او اسبوع العنصرة وهو يوم الأحد السابع بعد عيد الفصح وكان عندما اعتاد الملك على جمع أتباعه في كور بلييز .

٧٠ ـ ك (صفحة ٩٢ حاشية على : ١ / ٢١٥٨) توحي بان غوليوم قد توفي في رحلته نحو الوطن أو بعد وصوله بوقت قصير ، وأرسلت ارملته احدهم كممثل عنها في المورة وربما كان روبرت دي بونتايير ومن ثم كان ظهور اسم روبرت في الحولية .

٧١ ـ ويترجم شمث هذه في فهرسه مالك سفينة ، ومع ذلك انها تعني ببساطة قبطان سفينة ومقابلاتها .

٧٢ ـ كذا بالاصل .

٧٣ ـ كانت كليرنتسا وغلارنتسا الميناء البحري لاندرافيدا ، وتقع على الساحل الايلي ناحية كيلين القديمة ، وقد بناها جيوفري الاول فيلها ردين ، واصبحت الميناء الرئيسي للتجارة مع أوربا ، وربما يقصد بسانت رخارياس كنيسة مهجورة أو دير كان يقع على الشاطىء على مقربة من المكان حيث كانت تقوم المدينة .

٧٤ ـ كذا بالاصل .

٧٥ ـ ل . ف تضيف أن احد أصدقاء الشامبني قد نصحوا روبرت في حينه سرا أن يتقدم الى امر قلعة اندرا فيدا في حضور كثير من الشهود ليسجل علنا وكتابه حقيقة وصوله الى المورة قبل انتهاء الاجل المشترط وهو بالفعل ما نفذه روبرت (فقرتا ١٦٦ ـ ١٦٧) .

٧٦ ـ كانت فليزيري طبقا ل (١ / ٥٢٤٨) على مسافة أقل من مسيرة يوم من أندرافيدا ،

وتقع في الجنوب الشرقي وكانت على مسافة قصيرة من الشمال الشرقي لبنيكوس . انظر (ابناه ١ / ٢٤٨٤) وتقول لنا ل إنها اصبحت المنتجع الصيفي المفضل ومكان الاستجمام لامراء لفيا (الفقرات : ٨٣٦ ـ ٨٣٧ ، ٩٥٧) .

٧٧ ـ وتلتقي ل مع الروم في طريق أنه يفترض أن روبرت جاء بعدهم وعلى اي حال تختلف ل ٠ ف نوعا . وتذكر مدنا اخرى توقف فيها ، وتذكر انهما تلاقيا في ليكيدونيا بعد ثمانية ايام من لعبة القط والفار (ل ، ف الفقرات : ١٦٨ ـ ١٧١)

٧٨ ـ كذا بالأصل .

٧٩ ـ كذا بالاصل .

٨٠ ـ هذه هي أولى المناسبات الكثيرة التي ينتهزها المؤرخ ليعطي تفاصيل مطولة للاجراءات القضائية ، وليظهر إعجابه الكبيرة ببلاغة قاعات المحاكم ومعرفته الرقيقة بالاعراف القانونية وتوحي بأنه هو نفسه كان متمرسا في القانون أو أنه على الاقل قد اكتسب معرفة وثيقة به ككاتب قضائي ، وقد تبين أيضا عند هذه النقطة أن اسلوبه يتحسن بدرجة كبيرة في هذه الفقرات ، وخاصة في الاحاديث التي يقدمها كاقتباسات مباشرة وفي كل الحوليه في الواقع يجد المرء ان كل الاحاديث فيها حيوية دراماتيكية مفقودة تماما في الفقرات الوصفية الصرفة التي تتعلق بالاماكن والاحداث ويبدو أن المؤرخ كان لديه اهتمام شديد بالشخصيات بصرف النظر عن الاجراء القانوني ،لانه من المؤكد أنه كان لديه ميل أكبر بكثير لوصف الشخصية منه بالتاريخ ٠

٨١ ـ تقرأ طبعتا كل من شمت وكالوناروس عند هذه النقطة (اتوسل واقسم) ولكن هنا لامعنى له ، واعتقد انها يجب ان تقرا : (أتوسل وآمر) وهي معقولة ، وسواء شمت (لانه بشكل عام فإن كالوناروس اتبع طبعة شمت بالضبط) أو كانت أقدم منه قد أخطا باخذ الواحدة بدل الاخرى .

٨٢ ـ ان هذه العبارة الاخيرة مفقودة في ها ٠ ومأخوذة من ب .

٨٣ ـ تذكر ل ؤ ان روبرت وصل متأخرا ما يزيد على اسبوع ، ولكن بعضهم كان يعتقد انه قد وصل في الوقت المناسب لاستلام السلطة ومع ذلك فإن اللجنة حكمت ضده لان الاتفاقات تاخذ بالاجراءات قبل القانون انظر : ل . فقرة ١٦٧ وتضيف ل . ف تفصيلات اكثر ، تشمل الرواية المشهورة لوصوله والتي رسمها روبرت لامر قلعة اندرافيدا (ل د ي ف فقرة ١٧٠ و ١٧٧ ـ ١٨١) انظر أعلاه ص ١٣٨ حاشية ٧٥ .

٨٤ ـ حفلة في الهواء الطلق ، حيث كان يجري تناول المشروبات ، أو ندوة .

٨٥ ـ إن هذا لحق في بيان مكتوب ومختوم لقرار المحكمة مع نسخة من الادلة المقدمة أثناء عرض الدعوى ـ مذكور بوضوح في المواد ١٦٨ و ١٩١ من قوانين رومانيا .

٨٦ ـ غامضة نوعا ما ، ولكن يحتمل انها مجرد عبارات مهذبة للانصراف .

٨٧ ـ كانت الاقطاعات الاصلية التي وزعت فورا بعد الاستيلاء دائما في زمرة خاصة وكان المالكون على سبيل المثال قادرين على أن يورثوها كما يريدون ، في حين ان الاقطاعات الاخيرة ، كانت خاضعة لشروط المنح الفردي ، وبعد ان أصبح جيوفري أميرا بوقت قصير ، أرسل في طلب زوجته ايزابو وابنه المراهق جيوفري ، الذي كان بقي في فرنسا ، ووصلا في وقت ما في اوائل (١٢١٠) لانها مذكورة في وثيقة في تلك السنة (لغ . ص ١١٥) ويذكر ل . فان الابن الثاني (غوليوم) ولد في كالاماتا (فقرتا ١٨٧ ـ ١٨٨) وتقوم ب في : ١ / ٢٤٤٩ بإعطاء التاكيد نفسه ، وقد ولد في (١٢١١)

٨٨ ـ إن التاريخ التقليدي المعطى لموت جيوفري هو / ١٢١٨ / ومع ذلك يتمسك لوغنون بان جيوفري الذي تورط في الصراع مع الكنيسة خلال اعوام / ١٢١٩ ـ ١٢٢٣ / انظر ابناه (٢ / ٢٦٥٦ ـ ٢٦٨٠) كان جيوفري الاول وليس ابنه ، جيوفري الثاني ، وهو يلخص كثيرا ، حتى أنه يقول في كتابه :

« مشاكل تاريخية لامارة المورة » مجلة دي سوانت (١٩٤٦) ص (١٥٧ ـ ١٥٩) ولاجدال

أن هناك تشويش كبير في الحولية ، جيوفري الثاني فعلا ، يذكر انه حضر الاجتماع الثاني في رافينكا في حين ان من الواضح ان هذا كان جيوفري الاول وانه توفي في نحو الوقت نفسه مع غي ، أمير أثينا العظيم ، وكانت هذه الرواية دائما تعتبر زائفة على اساس : أولا أن الامير العظيم ـ موضوع البحث ـ لم يكن غي ، بل عمه أوثون ، وثانيا ان أوثون توفي في فرنسا في / ١٢٣٤ / بينما توفي جيوفري في / ١٢١٨ / فإذا كان لوثيون مع ذلك مصيبا ، فان الرواية ليست بعيدة الاحتمال ، كما كان يدعى بشكل عام ، وقد غادر أوثون أثينا في وقت ما خلال / ١٢٢٥ /سوتوفي في / ١٢٣٤ /

وإذا كان جيوفري قد توفي بين / ١٢٢٨ و ١٢٣٠ / فإنهما يكونان قد توفيا في نحو الوقت نفسه ، والخطأ الخطير الوحيد في الرواية هو الخلط بين اسمي غي و أوثون .

٨٩ ـ لاصحة هذه القصة الغريبة التي سلف الالماح إليها في ٢ / ١١٨٦ من أي نوع تقريبا ، والسيدة موضوع البحث غير المسماة في الحولية هي أغنس دي كورتناي ، ابنة بيير دي كورتناي والخت روبرت الذي لم تكن لديه ابنة ، وحول رحلتهم النهائية من برنديزي الى القسطنطينية في / ١٢١٧ / ، توقفت اغنس وامها يولاند ، في مونريكوي ، حيث تم تكريمهما بلباقة وذوق حسن ، من قبل جيوفري الاول ، وإذ تاثرت يولاند تماما بما رات ، وافقت على طلب جيوفري يد ابنتها لابنه ، وتزوج الاثنان قبل ان تغادر الام القسطنطينية ، وكان ملك اراغون في ذلك الوقت جيمس الثاني الذي كان في / ١٢١٧ / في التاسعة من عمره ، وتشير ل . ف إلى اغنس أحيانا على انها أخت واحيانا على انها ابنة الامبراطور ، ولكنها لاتسمي الامبراطور (الفقرات ١٩٣ ـ ٢٠٠) مائة ٣ من القوانين الرومانية تحوي القصة نفسها مع تفاصيل مماثلة .

٩٠ ـ المقصود هو اليس .

٩١ ـ انظر أعلاه وربما كان مقر هذه الاسقفية في الاصل في اولفيا وهي مدينة في شمال شرق بيرثوس في إيليس ، ولكن في زمن الفرنجة انتقلت الى اندرافيدا ، التي كان اسقفها يحتفظ بالاسم في لقبه .

٩٢ ـ ان هذا النمط من العلاقة كان له دائما أهمية اكثر جلالا في الشرق منه في الغرب ، وبموجب الميثاق فإن كل أعضاء أسرة العريس يصبحون مرتبطين مع كل أعضاء اسرة العروس ، ويمتد هذا بعيدا فيتعدى الاسرة المباشرة الى الاعمام وابناء الاعمام ومن في حكمهم ، من أقارب الدرجة الثانية ....الخ . وعلاقة أخرى مماثلة كانت تدعى في الحولية ، وهي بالضبط النوع نفسه من الرابطة بين اسرتين ، إلا انها تقوم على تعميد الطفل ، وهي علاقة اقوى بكثير من قرابتنا عن طريق الام بالتعميد .

٩٣ ـ لاشك في أن هذا الاجتماع اشارة الى البرلمانات المعقودة في رافينكا من قبل الامبراطور هنري في / ١٢٠٩ و ١٢١٠ / وقد سار هنري متوغلا في شمال اليونان ليعزز النفوذ الامبراطوري على النبلاء الثائرين ، وبدجة كبيرة لومبارد سيالي وتراقية ، وقد وجد أن حملة واسعة النطاق كانت تتكون ، فدعا لمعاونته نبلاء وسط وشمال اليونان ، وكان جيوفري دي فيلهاردين واوثون دي لاروش مشتبكين في حصار كورنث عندما تلقيا الاستدعاء ، الذي استجابا له على الفور ، وكان في مقابل ولائه ان هنري اعترف بجيوفري كامير على المورة ، وعينه نائبا للامبراطورية .

وكانت الاجتماعات ذات أهمية رئيسة للامبراطور لانه كان قادرا على تأكيد النفوذ الامبراطوري على بارونات اليونان ، وكانت مهمة لجيوفري في أن ادعاءه في المورة كان معترفا به رسميا وانه قد عين في احد أعلى المناصب الامبراطورية ، ومن الاجتماعات خرج ميثاق وقع عليه علاوة على ذلك في أيار / ١٢١٠ / وكان قد رتب لحماية مصالح الكنيسة في الامبراطورية ، وبشروطه كان على البارونات أن يعيدوا الى الكنيسة اية ممتلكات كنسية استولوا عليها بصورة غير مشروعة ، ووافق الكهنة بدورهم على ان يحتفظوا بتلك الممتلكات كاقطاعات خاضعة للضرائب ، وان يرفعوا عنها ضريبة الارض ....الخ .

ولم تقرر السلطة على سيكلاوس (وتسمى في الحولية الدوديكاينز : في هذه الاجتماعات ،

ولكنها أعطيت لجيوفري الثاني في وقت متاخر جدا في / ١٢٣٦ / من قبل بلدوين الثاني في مقابل تقديم خدمات محددة .

وحق ضرب العملة منح أيضا في وقت متاخر جدا في / ١٢٥٠ من قبل اويس التاسع ملك فرنسا لغوليوم الثاني في المورة ولم اكن قادرا على تحديد موقع قلعة لاريسوس ، وقد احتل هنري القلعة في لاميا (زيوتون) والتي كانت تابعة لفرسان المعبد ، وكان في وقت سالف قد هاجم حصن لاريسا ، وعلى ما يبدو أن المؤرخ قد خلط بين هذه الاسماء .

واعتقد ان لارسا كانت الاولى في ذهنه لانه كلما استعملت الكلمة في الحولية فإن لاريسوس التي تنتهي بنهاية تدل على المذكر تظهر دائما باداة تانيث .

٩٤ ــ تعني هذه الكلمة ضابطا حربيا في البلاط الامبراطوري وهي في الحولية تعادل نائب أمير وكان لتورنوا النموذج الذي صاغ عليه غوليوم عمله ووضع دار السكة في قلعة كلومتسو والتي اصبحت فيما بعد تعرف بقلعة كوريتز الاسم الايطالي للتورنوا وعلى ما يبدو ان الميز الفرنسي هو مرادف للتورنوا .

٩٥ ــ الاعراف المشار اليها هنا هي القوانين الرومانية ، في حين ان اعراف القدس تشير الى قوانين القدس ، وتدعي المادة الثانية من القوانين الرومانية ان بلدوين ومستشاريه ارسلو الى الملك وبطرك القدس من أجل أعرافهم وقوانينهم لتساعدهم في حكم الامبراطورية الجديدة ، امبراطورية رومانيا ، وهذه القصة مشكوك فيها جدا .

٩٦ ــ إن جيوفري الاول كوريث واغوس ، ونوبليون قد أخذها خلال السنوات / ١٢١٠ ــ ١٢١٢ / كانت مونفاسيا القلعة الوحيدة الباقية في ايدي اليونانيين عندما اصبح جيوفري الثاني أميرا .

٩٨ ــ المقصود بالمورة هنا إليس وتقع كلوموتسي أو كليرمونت على الساحل جنوب كلارينتسا .

(ويذكر شمث بشكل غير صحيح انها قد بنيت من قبل جيوفري الثاني انظر الفهرس) لقد بنيت دون شك كحصن ضد قوات الامبرطور البيزنطي في ابيروس مباشرة عبر الخليج من المورة ، وكانت اجمل حصن في الامارة ، واصبحت مقر إقامة الامير ، ومن أجل كلوموتسي انظر ابوشون

٩٩ ــ لغة هذه الفقرة من بقايا طقوس الروم الارثوذكس ، وقد يفترض المرء تقريبا أن المؤرخ كان في ذهنه الكهنة والمرتلين .

\

١ ـ تولى جيوفري الثاني في / ١٢٤٦ / وكان غوليوم في نحو الخامسة والثلاثين من عمره عندما اصبح اميرا ، والكنيسة والدير موضوع البحث هي كنيسة سانت جاكوب (سانت جيمس) في اندرافيدا التي دفن في سردابها آل فيلهاردين الثلاثة فعلا ، واعطت حفريات المنطقة في ١٨٩٠ آثارا طفيفة للكنيسة وبضع عظمات وانظر ل . ص ٢١٥ الحاشية على ١ / ٧٧٩٠ .

٢ ـ ومرة أخرى يجب ملاحظة أنه في هذا الوقت بقيت مودفاسيا فقط في أيدي اليونانيين ، ويناقش المؤرخ احداث حكم جيوفري الاول ، وينسبها الى فترة تالية .

٣ ـ معنى هذه الكلمة المؤن التي كانت تقدم للقوات لاعالتها أثناء الحملة ، ويبدو ان المعنى هنا أن عليه اطعام الرجال ، ولكنه لن يدفع لهم أي أجور نقدية وكانت كورون وفيشون في أيدي البنادقة ، من / ١٢٠٦ ـ ١٢٠٩ / ، وخلال تلك السنوات طرد البنادقة حامية الفرنجة الصغيرة التي تركت هناك منذ الغزو الاول لشبه الجزيرة ويحتمل ان الرواية التي في الحولية تدل على أن غوليوم قد تخلى عن كل مطالبه في هذه الاماكن واعترف من جديد بمطالب البندقية في مقابل الشواني .

٤ ـ تحت شروط التقسيم الاصلية للامبراطورية اليونانية ، تلقت البندقية لقبا عن كل الجزر الايجية ، ومع ذلك لعدم الرغبة في جلب نفقة احتلالها تركت الجمهورية هذه المهمة لمواطنيها المغامرين الخاصين ، وطبقا لذلك فإن مجموعة بقيادة ماركوساندو ابحرت بين الجزر وبحلول / ١٢٠٧ / اخضعت على الاقل سبع عشرة منها واحتفظ ماركو بناكسوس لنفسه ، ووزع البقية بين اقاربه والاتباع الاخرين ، اما يوبوا التي أخذت في الاصل من قبل جاك دي افنس في / ١٢٠٥ / فقد قسمت بعد موته الى ثلاث ، إقطاعيات ، ومنحها بونيفاس ـ دي مونتفرات لثلاثة نبلاء من فيرونا ، الترزيري أو الترياركس ، وبعد ذلك بوقت قصير مع ذلك بقي واحد من الثلاثة هو رافانو دال كار سيدي الامير الوحيد وعلاوة على ذلك في / ١٢٠٩ / اعترف بسيادة البندقية على اقطاعاته ، وبعد موته في / ١٢١٦ / اصبحت البندقية حاكمة للجزيرة نظريا ان لم يكن في الواقع ، وحصار كورنث الموصوف في هذه الفقرة هو بالطبع حصار / ١٢١٠ / الذي قام به جيوفري الاول .

٥ ـ عند لونغنون (ص ٧١) تسمى هذه القلعة مونت اسكو فيه مونت ديذوديه ويعطي شمث (فهرس ص ٦٣٨) الصورة اليونانية ويقول ان الاسم متصل بالاسم المجرد مونت اسكيو او اسكيوه وهو ايضا يقترح ان هناك صلة بين الاسم والكلمة الغربية (الغطرسة) التي تظهر في ٧٩٠٧ من الحولية ويسمى أو . ميللر (ص ٣٦٠) القلعة مونتسكيو ، وبحث دراغوميس . في فقرة طويلة شأن هذه القلعة مطولا .

وقال اشتق الاسم من كلمة فرنسية قديمة كانت تعني الغطرسة والازدراء والاسم الحديث بنتسكوف او بنتو سكوفيا وهو متأثر تحريف للاسم الفرنسي ، وهوبكلمة متأثر بكلمة ايطالية وتعني القلانس الخمسة •

٦ ـ كورون وميثون غير متباعدتين جغرافيا ، عادة معا في الوثائق وفي هذه الفقرة يبدو انهما عوملتا كاقطاعية واحدة .

٧ ـ تم الاستيلاء على ذوبليوم وأرغوس في / ١٢١٠ ـ ١٢١٢ / من قبل جيوفري الاول ولم يقدم فقط هاتين الاقطاعيتين لاوتوندي لاروش بل ايضا جعالة سنوية فوق مكوس كورنث (انظر م . ص ٦٢)

٨ ـ كانت سيفالونيا قد فقدت من اليونانيين سابقا قبل عشرين سنة من الاستيلاء الغربي أو عندما غزا النورمانديون شبه الجزيرة من صقلية احتل أميرا لهم مرغريتون ، صاحب برنديزي سيفالونيا وزانت وايتاكا وفي أيام الحملة الصليبية الرابعة كانت هذه في حوزة ما ثيو (ماتيو) أورسيني وهو عضو في الاسرة الرومانية ، ولكن هو نفسه يحتمل أن يكون من أبوليا ، وقد حكم هو وابنه روبرت الذي خلف والده الجزر الايونية خلال القرن الثالث عشر .

٩ ـ تتفق كل المصادر على ما يبدو على أن الحصار دام ثلاث سنوات وان القلعة سقطت في / ١٢٤٨ / ومع ذلك فان زكيشينوس في كتابه (ص ٢١) يعطي السنوات (١٢٤٥ ـ ١٢٤٨ /

ولوغذون (ص ٢١٧) يقول : إن غوليوم بدأ الحصار بعد ان اصبح أميرا في / ١٢٤٦ / واستولى على القلعة في / ١٢٤٨ / ويلاحظ (ص ١٢٢ ـ الحاشية على ١ / ٢٩٢٣) ويعطى التاريخ على انه / ١٢٤٨ ـ ١٢٥٠ / وتاريخ كمبردج للعصور الوسطى (المجلد الرابع ٤٤٠) ويعطي التاريخ على انه مجرد ثلاث سنوات بعد أن أصبح غوليوم أميرا . وهناك ادبيات واسعة حول مونمفاسيا وسقوطها .

واضافة الى البحوث التي سلف ذكرها انظر اداماينتوس وكالوناروس . (اثينا ، ١٩٣٦) ص . ٥ ـ ٥٧ .

١٠ ـ هناك ثغرة في ل . تتعلق بالابيات ٢٠ / ٢٩٣٢ ـ ٣٠٢٣ من الحولية اليونانية (فقرة ٢٠٥ .

١١ ـ هذه الكلمة مشتقة من كلمة لاتينية ويناقش شمث في فهرسه (ص ٦٠٥) الكلمة مطولا ويعطى معناها على انه إعفاء ، أو تمتع بالحصانة أو حقوق خاصة معينة تمنح كمزايا . وكان الوخنا سون مدينين فقط بالخدمة بمراكبهم ومن اجل هذه الخدمة علاوة على ذلك كان لهم أن يأخذوا اجرا وهبات كما او انهم كانوا مستاجرين كمرتزقة ، ومن اجل الاجور والهبات انظر أعلاه .

١٢ ـ كانت هذه العائلات الكبيرة الثلاثة بارزة في الشؤون المورية في كل الفترة الفرنجية وما بعدها ـ وعائلة ماموناس في الواقع ماتزال باقية في اليونان ، واسم سوفيانوس اسم عائلة شائع نوعا ما . وتاريخ عائلة ماموناس من / ١٢٤٨ / إلى حوالي / ١٩٠٠ / كتبه انتوني ميليا راكس في كتاب نشره في (اثينا ١٩٠٢)

١٣ ـ انظر اعلاه ص ١٣١ حاشية ٦٣ .

١٤ ـ المصدر نفسه .

١٥ ـ انظر اعلاه ، وكانت هذه جولات طويلة لأن المدن كانت مبعثرة من عشرين الى اربعين ميلا عن نياليكوديمونيا . .

١٦ ـ بنيت سيزثيسراس او ميستra كما تسمى عادة فوق نتوء تايجتيوس ، على بعد نحو ثلاثة اميال من اسبارطة ، وكان الهدف منها السيطرة على الممرات الى شعاب الميلنغز ، وضرواتهم موصوفة بشكل غريب في حولية دور يثوس موغناسيا (ص ٤٧٦)

واشتقاق الاسم كان موضع اهتمام الدارسين ، فاعتبره من اصل سلافي (مقتبس من م . ص ١٠٠) ، مع ان اي دارس يوناني لم يتفق معه ، والتفسير المعتاد للكلمة انها مشتقة من صلمة اغريقية معناها صنف من اجبن مايزال رائجا بين اليونانيين ، ويميل شمث (فهرس ص ٦٣٨) ولوغذون (ص ٢٩٨) وميلر (ص ١٠٠) الى الاتفاق مع هذا التفسير ، ويعطون إشارات الى الادبيات التي حول الموضوع ، ويوافق كالورناروس ايضا ويضيف الراي ، بان الاسم قد اطلق على الناحية حتى قبل بناء القلعة (ص ١٢٥، الحاشية على / ٢٩٩٠)

وفي هذه الحاشية الذيلية يضيف مراجع ثلاثة اخرى من المراجع المطولة حول ميسترا .

١٧ ـ من الصعب تماما تعيين موقع قلعة مين بالضبط ومع انه يحتمل انها انشئت في وقت مبكر يعود الى زمن جستينان واول ظهور للحصن البيزنطي في المصادر كان في كتاب كونستانتين بورفير وجنتوس (إدارة الامبراطورية) تحقيق غي مورا فتسك مع ترجمة انكليزية من قبل ر . ج . هـا جنكنز . (بودابست ١٩٤٩) ص ٢٣٦ ـ ٧) حيث يعطي بعض اشارات غامضة الى مواقع القلعة ، والطبيعة الشرسة للسكان ، وهي سمعة احتفظوا بها باستمرار حتى اليوم الراهن .

ويقوم على هذه الفقرة مقال ل . ب . أ فوركيس وهو يضعها على شبه جزيرة تيغني (هكذا سميت لشكلها الذي يشبه المقلاة) ، قرب ميناء ميقابون والى الحد الذي يمكنني تاكيده ، ان هذا يضعها غير بعيد الى الشمال من راس ماتابان وعلى الساحل الغربي من شبه الجزيرة (ويحددها شمث في فهرسه ايضا في الزاوية الجنوبية الغربية من مين) .

ومع ذلك فإن لوغذون وميلر يضعانها في خرائطهما على الساحل الشرقي ، انظر زاكثيسنوس ص

٢٢ ـ ٢٣ ، وحاشيته نيابة طويلة جدا في كالوناروس ص ١٢٦ ، حاشية على ١ / ٣٠٠٤ وانظر ايضا ميلر ص ١٠٠ ورقم ٢ .

١٨ ـ تحدث كونستانتينس بورفيرو جنتوس (إدارة الامبراطورية ٢ / ٢٢٤ عن سكان الدرونغوس من المبلنغز . وعليه فان أهل مين كانوا ايطاليين لهم باستمرار عاداتهم المألوفة تحت الادارة البيزنطية .

١٩ ـ قام شمث باتباع بوشون وفيليبسون بتعيين موقع غيسترنا خطأ قرب راس ماتابان (انظر فهرسه تحت غيسترنا وليفترو ص ٦٣٤ و ٦٣٧) . ويقتبس كالوناروس ، في حاشية نيابة طويلة (ص ١٢٨) من كل المصادر ، ويعطي الموقع الصحيح ويبين كيف نشأ الخطأ في الاصل ، وغيسترنا (الكيدسترنا البيزنطية) كانت تقع في شمال غرب لاكونيا ، حدودها الغربية على طول ساحل شبه الجزيرة ، جنوب كالامات ليفترو (كانت تسمى بوفرت بالفرنسية) كانت تقع على الساحل قرب كيفكرو جنوب كالاماتا . وهي محددة بشكل صحيح على خريطة لوغنون . (ص ٢٠٠ ـ ٢٠١) مع الغموض حول موقعها في نصه (ص ٢١٨) وتذكر « ل » أن ليفترو تقع على الساحل بين كالاماتا وغراند ما غن (فقرة ٢٠٧) وعليه فان ليفترو تقع على الساحل الغربي ، شمال غراندمين ، التي كانت بدورها شمال ماتابان .

٢٠ ـ إن اصطلاحات « مين القديمة » وغراندمين كلاهما مستعمل في الحولية ويبين كالوناروس (ص ١٢٩ ، حاشية) ان الاصطلاحان مترادفين ولايدلان كما اعتقد بعض الدارسين على مدينتين منفصلتين وتستعمل « ل » اصطلاحا واحدا فقط باستمرار هو غراند مين وورد اصطلاحا « غراندمين » وه مين « القديمة » لتمييز مين ليس عن مدينة أخرى بالاسم ذاته بل عن مدينة ميكرومين في ميسينيا (انظر أدناه ٢ / ٨٠٦٩ و ٨٠٩٤) .

٢١ ـ هذا المقطع غامض ... ربما ينبغي ان يقرأ : « سار وفق العواطف الطيبة لجميع الامارة ، كما لو .....

٢٢ ـ وضعت هذه الاحداث في نهاية الفصل الثاني ١٢١٠ ـ ١٢٤٤ . انظر ما تقدم حاشية ٨٤ وذلك من أجل التاريخ الصحيح والاسماء .

٢٣ ـ إن انجيلوس كالوانس كوتروانس شخصية خيالية ، لان ايا من حكام ايبروس لم يحمل ايا من هذه الاسماء ، ويبدو ان المؤرخ يخلط مرة اخرى بين كالوانوس البلغار وامبر ابيروس (انظر أعلاه ص ٩٧ : ٢ / ١٠٢٠ وحاشية ٦٩)

إن انشاء خط كومينوس دوكاس في ابيريش هو موضوع مقاله ل : اوسن سيترنون . في دورية الدراسات البيزنطية ، ١٧ (١٩٥٩) ص ٩٠ ـ ١٢٦ بعنوان « أصل إمارة أبيروس » حيث يبين ان الحكام الاوائل كانوا امراء ، ولكن ليسوا اباطرة ، وتوبعت اعمال ميكائيل الاول بعد موته في / ١٢١٤ / من قبل اخيه ثيودروس الاول وبقسوة وسع ولاياته على حساب البلغار والفرنجة ، وفي النهاية وضع نهاية لملكة سالونيك في / ١٢٢٤ / واذ شعر ان دولته تضم الان تقريبا كل اليونان القارية واجزاء من بلغاريا ، ووالاشيا وتراقية . وكانت تعادل في حجمها وقوتها امبراطورية ، قرر ان يدعى لقب امبراطور ، وقد عجل هذا في قيام منافسة فورية مرة مع امبراطور نيقية . ومع انه كان حقا في موقف قوي ، فان ثيودروس كان مدفوعا بالطموح لمهاجمة قيصر بلغاريا جون آسن / ١٢٣٠ / وفي المعركة التي تلت هزم واخذ اسيرا ، واستولى اخوه مانويل على الامبراطورية ، ولكن في / ١٢٤٠ / قاد تيودروس وقد تحرر من الاسر ثورة ضد اخيه واجلس ابنه ايوانس على العرش وكان هذا الابن الضعيف مكرسا ليكون راهبا ، ولكنه مع ذلك لم يكن يجاري القوة الهائجة لامبراطور نيقية ، وفي / ١٢٤٦ / سقطت سالونيك في يد ايوانس فاتاترس الملك الثاني لنيقية ، وفي هذه الاثناء ثار في ابيروس ميكائيل الثاني ، الابن غير الشرعي لكن الوحيد لميكائيل الاول في / ١٢٣٧ / ضد عمه في سالونيك واقام امارة مستقلة ضمت ابيروس وكورفو وتساليا ، وتزوج تيودور بترا ليفالس الرائعة التي مجدت واعترف بها وانجب منها ابنة نقفور وابنتين : هيلين التي

زوجت مانفريد صاحب صقلية وانا التي تزوجت غوليوم الثاني دي فيلها ردين في / ١٢٥٩ / وادخل
هذا التحالف المورة على الفور في خصومات يونانية ، عندما تفجرت الحرب في الشمال بين ميكائيل
الثاني وميكائيل باليو لوغوس ، وقاد غوليوم قوة مورية ليساعد جمعه الجديد ، وكانت *

نتائج المعركة التي وقعت في بيلا غونيا في / ١٢٥٩ / مفجعة للمورة ، فقد حددت هزيمته غوليوم مع اسره نقطة التحول في تاريخ المورة ، وهي السبب الرئيسي لكل الفواجع التالية التي لحقت بالفرنجة في البلبونيز .

٢٤ ـ إن الترتيب الزمني هنا مشوش بالطبع ، لقد سقطت القسطنطينية في / ١٢٦١ / وشن باليولوغوس حملته في / ١٢٥٨ / وكما تبين في الملاحظة المتقدمة نصب غوليوم كحليف وليس كمرتزق .

٢٥ ـ كيرايوانيس هذا هو في الحقيقة ميكائيل الثاني الذي توفي في / ١٢٧١ / وخلفه ابنه الشرعي نقفور ، وحكم في / ١٢٩٦ / وابنه غير الشرعي جون (ايوانيس) والذي يدعى ثيودروس في الحولية حصل على لقب شياستوكراتور وحكم والاشيا ونيوباترا من / ١٢٧١ / الى / ١٢٩٥ / .

وخلط الفرنجة باسمة كوفينوس دوكاس واشاروا اليه على انه دون نيوباتراس ، وقصة هذه الحرب بين الاخوة وتدخل باليولوغوس خرافية تماما .

٢٦ ـ تقع باتراس الجديدة (نيوباتراس ، هايبات الحديثة) في تساليا على مسافة قصيرة الى الغرب من لاميا .

٢٧ ـ يبدو ان سوفا ستوكرافور كان لقبا تشريفيا صيغ من الكلمات اغسطس و (امبراطور) . كتاب جيبون (الانحدار والسقوط) (طبعة مود ، ليب) ٢ / ٨٥٤ ـ ٨٥٥ اقتباسا من انا كومينا التي ادعت ان اليكسيوس كومينوس ، قد احدث اللقب ، واحتفظ به للامراء من السلالة ، ولم يكن اللقب يستتبع واجبات خاصة في البلاط ، وإنما كان يمنح كتشريف عظيم للنبالة الرفيعة .

٢٨ ـ كانت كلمة تعني العملة الذهبية المعيارية لبيزنطة ، وكانت سابقا تدعى البيزنط ، والسوليدوس ، وكان لها قيمة تعادل وزنها المجرد من الذهب ويعادل تقريبا باوندا انكليزيا .

٢٩ ـ سمى ميكائيل باليولوغوس في الواقع لتجنب الصراع مع ميكائيل الثاني ولكن الاخير بتشجيع من احلافه الاخيرة مع مانفرد وغوليوم حيث لم يكن اشتهاؤه للتاج في إطار التسوية التي في الفكر ، ودخل غوليوم هذا الحلف ليرضي رعاياه من اليونانيين ويحتمل ان يكون بسبب الطموح الى احياء مملكة سالونيك ، وكانت لنا في كلمات الحولية دوروثيوس مونمفاسيا ، وبدون ان تكتسي باثواب سلف ان زانت جمالها وفتنتها ، لانها رائعة الجمال وساحرة في الرأس والجسم وكهيلين ثانية لمينيلاس وقد اقترح أنها كانت مثال هيلين في فاوست غوته ، كما كان غوليوم افاوست في الجزء الثاني على الاقل .

وان اسبارطة مينيلاس في الفصل الثالث هو وصف للامارة الفرنجية في العصور الوسطى ، في المورة ، ومن اجل اراء مختلفة ، انظر شمث المقدمة ص ٥٨ ـ ٦٦ . كتاب بارون تيان دي غوابذكرون حيث كان اول شرح لفاوست ، وكتابه غ ، موراقسكي .

٣٠ ـ والان نتبع تكرار للمعلومات من السجل المعطى في ٢ / ١٩١١ ـ ١٩٥٠ . انظر اعلاه والسبب .

٣١ ـ اعطيت التفاصيل المشكوك في صحتها في الصراع بين غوليوم وغي دي لاروش وليس غوايوم دي لاروش كما هو مذكور في : ١ / ٣١٧٧ ، والاميرين الاخيرين في وسط اليونان ، يمكن ان يوجد بسبب نزاع حول ميراث ، وكانت الزوجة الثانية لغوليوم هي كارنتانا دال كارسيري التي كانت تنتسب الى العائلة الكبيرة ليوروبوس ، والبارونات على الثلث الشمالي من الجزيرة ، بحكم لقبها عندما توفيت في / ١٢٥٥ / وقد طالب غوليوم ببارونيتها كوريث ، وعارض البارونات

المحليون والبنادقة طلبه واعلنوا الحرب ، واتخذ غوليوم خطوات قوية ، ناجحة لهزيمتهم عندما انتشر الصراع الى الارض الرئيسية ، وضم غوليوم دي لاروش أخو غوي الامير العظيم لاثينا مع انه تابع لامير اخيا ، قواته الى اليوروبيين ، وهيمن على أخيه في رفض طلب فيلهار دين ، للمساعدة ولكونه تابعا له من أجل ارغوس ونوبليون اضطر للاستجابة لدعوة سيده وشكل رفضه جريمة ، واصبح الصراع ثورة بارونية ضد مطامع امير اخيا ، وسويت القضية في / ١٢٥٨ / في معركة مونت كاريدي ، التي انتصر فيها غوليوم فيلهار دين ، واسر غي دي لاروش ، واجبره على العودة الى فرنسا ، ليحاكم امام ملك فرنسا ، وبينما كان غي في فرنسا اسر غوليوم خلال معركة بيلاغونيا / ١٢٥٩ / وتغيرت الحالة في كل اليونان الفرنجية ، انظر م ص (١٠٢) .

٣٢ ـ تزوج جيوفري دي بروييرس من ايزابو دي لاروش ، وهي ابنة (وليست أخت) غي دي لاروش ، وكانت امه اخت غوليوم دي فيلها ردين .

٣٣ ـ الطريق الذي يعبر البرزخ ويسير على طول ساحل خليج سالونيك ليؤ دي الى ميغارا ومازال يدعى « طريق الشر » بسبب طبيعته الضيقة الصخرية ويقع ممر مونت كاربري (جبل الجوز) في نحو منتصف الطريق على الطريق من ميغوا الى طيبة .

٣٤ ـ العبارة الافتتاحية في هذه الجملة قد تقرا : وقتل هناك في المعركة قائد فرسان جديد يدعى .... وكانت مرغريت باسافا ابنة جين الثاني دي نويلي ، من ابنته غوتيير الاول دي روزيير اكوفا وكان زوجها الثالث هو جين دي سانت أومر وكان والدهر غريت مارشال المورة بالوراثة ، وانتقل اللقب عن طريق ابنته الى زوجها ، ثم الى ابنها نيكولاس الثالث دي سانت اومر امير طيبة .

٣٥ ـ في وقت ما بين / ١٢٣٠ و ١٢٤٠ / تزوج بيلا دي سانت ـ اومر من بون ، أخت غي الاول دي لاروش . واحضرت كمهر لها نصف اقطاعية طيبة ، وبقي النصف الاخر في يد اخيها وكان ابناؤهما نيكولاس الثاني ، الشريك في إقطاعية طيبة ، ونائب امير المورة / ١٢٨٧ ـ ١٢٨٠ / وكان أوتون الشريك الاخر فيها مع جين الذي اصبح مارشال المورة بزواجه من مرغريت باسافا .

٣٦ ـ اقيمت بارونية سالونا من قبل بونيفيس دي مونتفرات في / ١٢٠٠ / عند غزوة الاول لليونان ، ومنحها لاحد اتباعه ، توماس دي سترومونكورت ، الذي بنى في سالونا ، الامفيز القديمة ، التي تقع عند السفح الغربي لبرناسوس القلعة العظيمة التي مازالت بقاياها المؤثرة باقية ، وامتدت البارونية وقت عظمتها تقريبا من سالونا في اتجاه الجنوب حتى ساحل خليج كورنث بين اتيا وغالاكسيدي في الشرق ونوباكتوس . في الغرب ، وتخبرنا حولية غالاكسيدي الغربية التي وضعت في / ١٧٠٣ / ان الاسم امفيسا قد غير الى سالونا على شرف ابو نيفيس ملك سالونيك والمؤسس الثاني للمدينة (حولية غلا كسين طبعة ساثاس (اثينا ١٩١٤) ص ٢٠٧) وتدعوه حولية المورة ببساطة امير في حين ان حولية غلاكسيدي كثيرا ما تدعوه كونت .

٣٧ ـ إن هذا الوصف من اداء الولاء يتفق مع الصورة الموصوفة في مجموعة القوانين الرومانية ، الفصل ٣ (ريكورا ص ١٥١ ـ ١٥٣)

٣٨ ـ كانت بالفعل المحكمة البارونية لغوليوم هي اتخذت هذا القرار ، واتخذ البارونات هذا القرار ،ربما تحت تأثير حاشية غوليوم وربما لادراكهم الشك والرفض الذي دعاهم لمقاومة عدوانية غوليوم فقد أعلنوا بما انهم لم يكونوا معا دلين له فهم بذلك كانوا غير قادرين على محاكمة غي وبناء عليه توجب ان يمثل في المحكمة امام لويس التاسع للمحاكمة ، وكان على غوليوم قبول هذا القرار انظر م . ص ١٠٦ .

٣٩ ـ تقول المادة ١٦٧ من القانون الروماني انه « عندما يتخلى شخص عن اميره في المعركة ويهرب قبل فقدان المعركة ، فإنه يستحق ان يحرم من أرضه بحكم قضاء أميره . (ريكورا ص ١٦٥)

٤٠ ـ منحت الاقطاعيات التي وزعت في المورة في وقت الاستيلاء للمالكين الاول ، امراء

الاستيلاء ، مع كامل الحق في التوريث ، اعني انها يمكن ان تورث لاي وريث يسميه الامير في وصيته ، ومع ذلك فان الاقطاعيات التالية منحت بحقوق محدودة في التوريث ، اعني انها يمكن ان تورث فقط لوريث الدم ، وإن لم يكن هناك مثل هذا الوريث تعاد الاقطاعات الى الامير الذي منحها أو إلى وريثه ، وهكذا في هذه الحالة انتزع غوليوم اقطاعية جيوفري بسبب جريمته ثم اعادها اليه كاقطاعية جديدة يتملكها مدى حياته مع حق توريثها فقط لابن أو ابنة .

٤١ ـ تقول ل : انه ما أن جاء الربيع حتى انطلق الامير العظيم بسفينتين كبيرتين من ريفا دسترون ثم ذهب الى برنديزي (٢٤٤) ل . ف تعلمنا انه ترك اخاه (أوتون) كنائب له في تيبسيس (فقرة ٢٧٤٥) وكانت ريفا دسترون ميناء طيبة خلال هذه الفترة ، واسمها الحديث ليفا دسترو وتقع عند الطرف الشرقي لخليج كورنت على خليج ليفا دسترو ، والاكثر شيوعا هو انه يعرف ببحر الكيونيون .

٤٢ ـ حسب شمث (انظر فهرسه) فإن الكلمة مشتقة من الكلمة التركية داغ التي تعني جبل .

٤٣ ـ انظر اعلاه ص ١٣٤ الحاشية ٦٩ .

٤٤ ـ لم يكن لويس التاسع السيد الاعظم لا لغوليوم دي فيلها رديه ولا للامير العظيم ، بالنسبة لاقطاعياتهما في اليونان ، وكان قرار إرسال الاخير إليه بناء على ذلك عملا من أعمال المجاملة ، وتعبيرا عن الاقدام لسمعة لويس كمحقق عظيم للعدل ، وجرى اجتماع للمحكمة العامة الفرنسية في ذلك الوقت(ربيع ١٢٥٩) ومع ان السبب الرئيسي هو تسوية الشؤون الشرقية بشكل عام ، ويحتمل ان امور الامير العظيم قد سويت في هذه الجلسة ، ومن المعروف ايضا ان غي كان في فرنسا في هذه الاونة ، انظر بوشون ـ ابحاث تاريخية : ١ / ١١١٥ حاشية ١ و م : ١٠٦ ـ ١٠٧ .

٤٥ ـ كانت هذه القبعة غطاء راس يلبسه الجندسان ، وكان الاصطلاح يستعمل بشكل خاص الغطاء الذي يلبسه فارس بلباسه الكامل .

٤٦ ـ إن هذه التعابير ، بيزنطية نموذجية موصوفة في الاجراءات القضائية ، ويظهر هذان الاثنان في ل .

ويعلن شمث انه حيث ان الاصطلاح الشائع لمخاطبة الملك بين الفرنجة ببساطة : مولاي فان وجود مثل هذه الالقاب الطنانة المقدرة الكثيرة الشيوع في اللغة اليونانية ، في تلك الايام في النص الفرنسي تدل على ان الفرنسية لابد ان تكون ترجمة لنص يوناني اصلي ، ومع ذلك ففي رايي ان هذا ليس نتيجة بالضرورة ويكفي الاستنتاج ان مثل هذه الاصطلاحات قد اصبحت قيد الاستعمال العام بين الفرنجة الموريين من خلال تماسهم المباشر مع اليونانيين المحليين كما كان بالنسبة لكلمات اخرى عديدة وانظر مقدمة شمث ص ٣٣ وباماننتيوس ص ٦١٠ .

٤٧ ـ إن الالماح اسابقة قديمة حول اللقب زائف فالكلمة اللاتينية هنا كثيرا ما كانت تستعمل من قبل البيزنطيين كمقابل لكلمة (جنرال) ولكن لم يكن هناك مطلقا في اثينا موظف يحمل هذا اللقب (انظر م . ص ١٠٧) وليس من المحتمل ان غي منح لقب دوق في تلك الجلسة من القضاء بل بعد عودته من فرنسا ، وربما يكون قد خوطب بلقب (سير) وربما انه استعمل بشكل غير رسمي لقب دوق (انظر بوشون ـ ابحاث تاريخية ١ / ١١٩ حاشية ١ و ٢ / ٣٨٥ ـ ٣٨٧) .

٤٨ ـ ل : ١ / ٣٠٥٠ ـ ٣١٣٧ اعلاه ، إن الامبراطور كوتروليس وتيودور دوكاس هما ميكائيل الثاني وابنه الطبيعي ايوانس ، امير والاشيا ويلاحظ مرة اخرى ان هذه الرواية من الخيال بين ابيروس وولاشيا زائفة تماما ، انظر حولية غلاكسيري ص : ١٤٢ ـ ٥٢ من المقدمة وص ٢٠٩ ـ ١٠ من النص .

٤٩ ـ ايباكتوس اسم من العصور الوسطى لنوباكتوس وهي مدينة تقع على الشاطيء

الشمالي من خليج كورنث مقابل رأس دراباذون وهذه الكلمة هي الصيغة العائدة للقرون الوسطى ادرامانون .

المضيق بين النقطتين ، وكل خليج كورنث اصبح يعرف ببحر باكتوس من الاسم (ايباكتوس (انظر ما يلي ١ / ٣٦٢٦) وهو اليوم معدية عاملة تربط بين النقطتين .

٥٠ ـ تعني والاشيا هنا أراضي ايوانس دوكاس (المدعو ثيودروس) والمعروفة ايضا باسم دوقية باتراس الجديدة .

٥١ ـ تذكر ل . (فقرة ٢٦٠) ان الامبراطور طلب ٤٠٠ فارسا راكبا من ابوليا ومن المؤكد ان ابن اخيه ما نفرد قد ارسل هذا العدد من الفرسان وهناك حتى ايحاء من المؤرخ غريغوراس بأن مانفرد نفسه جاء معه . انظر م ديزياص : « الملك مانفرد صاحب صقلية ومعركة بيلا غنيا » في ذكرى شارل ديهل (باريس ١٩٣٠) ١ / ٥٥ ـ ٦٠ وكتاب رنسمان « المشاه الصقلي » (كمبردج ١٩٥٨) ص ٢٩٩ حاشية ص ٤٧ حيث حذف هذا وقدم اشارات للمعركة .

٥٢ ـ يضيف ل . أن غوليوم وجه أوشون دي لاروس ، نائب واخا غي الذي كان لايزال في فرنسا ، واقطاعيه الاخرين ان يكونوا مستعدين لحملة الربيع (فقرة ٢٦٢) .

٥٣ ـ ترتبط هذه الاسماء بالاسر الحاكمة للاباطرة البيزنطيين للقرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر ، ووصلت اسرة أمير ابيروس اثنين منها ، إن حملة ميكائيل باليولوغوس ضد ميكائيل الثاني في ابيروس لم تكن بقيادة ايوانيس ابن الاخير . بل ايوانيس باليولوغوس اخو الملك .

٥٤ ـ كان ميكائيل الثامن في / ١٢٣٤ / على هذا فقط في الخامسة والعشرين من عمره ، وقت معركة بيلاغونيا ، وفي الواقع ان إحدى النواحي النبيلة في ولايته هو السن المبكر الذي حقق فيه نجاحه ، ووصفه بانه يمكن ان يعني فقط ان المؤرخ كان حيا خلال السنوات الختامية من حكمه ، وعليه فقد عرفه « كميكائيل المسن » أو ان مخبريه عرفوه هكذا ، ويناقش شمث في مقدمته للحولية مثل هذا التعبير والالماعات (ص ٣٩ ـ ٣٨) ولكن يبدو انه قد تجاوز عن هذا بشكل خاص .

٥٥ ـ تشير كلمة بيرغوس هذه الى ثباذوبيرغوس وهي مدينة قرب راس دريباذون .

٥٦ ـ سايدروبورت (البوابة الحديدية) ، او هرقلية القديمة ، وهي نقطة محصنة تقع في الجبال التي تفصل دوقيات أثينا ونيوباتراس ، قرب قرية الفيثروكوربون الحالية على الطريق العام اثينا ـ لاميا ، في إقليم فيثوتس وماتزال بقايا قلعة (سايدروكاسترو) • التي كانت تحمي البقعة ظاهرة للعيان ويحتمل ان سهل سالاثينوس يقع قرب ليانو كلادي الحالية ، وهي قرية قرب نهر هيلاس (سير جنيوس) بين لاميا . زيتوني) وهيبات (نيوباتراس) انظر ل . ص ١٥٦ حاشية ١ / ٣٦٣٤

٥٧ ـ بلا شك ان نيوباتراس هي المعنية هنا ، وكانت زيتوني (بالفرنسية غريبتون او غيتون) اسما من العصور الوسطى للاميا . ومن أجل زيتوني ونيوباتراس راجع فهرس م .

٥٨ ـ من الواضح ان هذه الفقرة بكاملها زائفة ، إذ ان أمير المورة جاء إلى والاشيا كصديق وقريب وحليف .

٥٩ ـ كانت كاتا كولون نقطة محصنة ، وربما ممرا على الحدود بين تساليا ومقدونيا ، ويحتمل انها لم تكن بعيدة عن مدينة سارانتو بوروس الحالية ، ويدين الاسم باصله الى أرض مجاورة كانت مملوكة لاحد اعضاء الاسرة البيزنطية العظيمة كاتا كالوا ويحتمل أيضا أن هذا أصل كاتا كالون ايليس وانظر ك . ص ١٥٨ الحاشية على ١ / ٣٦٧٤ .

٦٠ ـ ماتزال خرائب هذه القلعة من الممكن مشاهدتها في سرفيا التي تقع الى الغرب والى الشمال قليلا من أوليمبوس .

٦١ ـ هذه فقرة غامضة بشكل خاص ، ولكن هذه القراءة يبدو انها معقولة أكثر .

٦٢ ـ بيلا غونيا ناحية في الشمال الغربي من مقدونيا ، والمدينة الرئيسية فيها هي مونا ستير وهي في الاصل حوض تملؤه بحيرة مثل أوكريدا وبرسبا وقد انصرفت مياهها في أعالي غابة شيرنا

تاركة منطقة من الحقول الواسعة ، وفي هذه الحقول عند نقطة قرب مونا ستير وتدعى حاليا فوريلا . حدثت معركة بيلاغونيا في تشرين اول / ١٢٥٩ / وكانت مونا ستير في العصور الوسطى مقرا للمطران الذي يحمل لقب بيلا غونيا ويبدو أن هذا اللقب قد اطلق فيما بعد على المنطقة ككل (انظر ك . ص ٥٩ الحاشية على ١ / ٣٦٩٤) . وقد تمت تغطية المعركة نفسها من قبل مؤرخين يونانيين معاصرين ومتاخرين ، بينهم اكروبوليت . وباكيميروس وغريغوراس واسفرانتزس انظر ايضا م . ص ١١١ ـ ١١٢ ، ز ص ١٥ ، ١٩ ، ٤٢ ودراسة دنديا س (الملك مانفريد) وافضل الاعمال الحديثة عن الموضوع هي اعمال بيفرح ، جينا كوبلوس ولاسيما كتابه الامبراطور ميكائيل باليولوغوس والغرب (كمبردج ١٩٥٩) ص ٥٩ ويعطي رنسمان صورة للمعركة في كتابه ، العشاء الصقلي) ص ٣٩

٦٣ ـ قدم هذه الطرائق الاستراتيجية جورج اكروبوليتس في تاريخه (تاريخ ١٠ الاوبرا) طبعة هايزنبرغ (لايبزغ ١٩٠٣) الفصول ١٦٥ ـ ١٧٠ .

٦٣ ـ هذه العبارة الاخيرة ماخوذة من ب .

٦٥ ـ تظهر هذه الرواية ايضا في ل . (الفقرات ٢٨٧ ـ ٢٨٤) وفي ل . ف (الفقرات ٢٦٣ ـ ٢٦٤) وتوجد القصة أيضا في كتاب غريغوراس (تاريخ بيزنطة ب ك ٣ ـ فصل ٥ ـ ٣٦) حيث تختلف التفاصيل تماما • وطبقا له هيمن الجاسوس على ميكائيل حتى يترك حلفاءه في منتصف الليل ، بان اخبره بانه كان في خطر من هؤلاء الحلفاء أنفسهم •

٦٦ ـ إن القول إنهم كانوا اصحاب لسان واحد قول غريب ، لان الحولية نفسها تبين انه كان هناك يونان موريون في صفوف الفرنجة ولاتقول شيئا عن القوات اليونانية من الامبراطورية ، وقد اقترح كالوناروس ان الرواية مفارقة تاريخية من جانب المؤرخ ، ومن الواضح أن هناك ادلة وافرة على هذه ، ففي الزمن الذي كتبت فيه حولية المورة اصبح الفرنجة ناطقين باليونانية ، وقد اسقط المؤرخ على الماضي ببساطة حالة كانت حقيقية في زمانه . إن هذا التفسير مقبول على ما اعتقد اكثر من اقتراح أنه في وقت مبكر يعود الى ١٢٥٩ كان يمكن القول إن الفرنجة واليونانيين كانوا يتكلمون بلسان واحد وهو أمر واضح السخف ولو كان كالوناروس مصيبا فإن الرواية مع ذلك تدل على تمثل سريع مدهش لدى الفرنجة ، ويمضي خطوة اخرى ايضا ليذكر ان حولية المورة التي كتبت في الاصل بالفرنسية ، كان لابد أن تترجم الى اليونانية حتى يتسنى للفرنجة فهمها إن كل هذا البيت من الحولية تضمنه حقيقة أنه في الفقرات التي تبدا م٢ / ٣٩٨٦ و ٤٧٢١ ، فإن أعداءهم يوصفون بانهم متعددو الالسن وغير متجانسين ، في حين انهم يقولون عن أنفسهم بأنهم من عرق واحد وواضح أن هذا لايشمل اليونانيين والفرنجة ، بصرف النظر عن مقدار التزواج الكثير المتبادل الذي وقع ، وهذا يوحي بامكانية أن هذه الاقوال راجعة الى انحياز المؤرخ الشديد للفرنجة البادي في كل حولية ، وقد يعني المؤرخ أنهم كانوا جميعا يتكلمون الفرنسية متغاضيا عن الفرق اليونانية في رغبة منه لتأكيد الاعمال الفرنجية . انظر ك . ص ١٦٥ الملاحظة على ١ / ٣٨٤٠ .

٦٧ ـ إن اسباب الارتداد المفاجيء لميكائيل عشية المعركة غامضة ، حيث أن المصادر ليست متفقة دائما والتفسير الاكمل والاكثر احتمالا يعطيه باخيميرس الذي يتمسك بأن المتاعب نجمت عن نزاع بين ايوانيس الابن غير الشرعي لميكائيل وفيلهاردين وشكاايوانيس من أن زوجته قد اهينت من قبل بعض فرسان الفرنجة وعندما تعرض لتلميحات مهينة حول مولده لجأ الى الاعداء ، وقد حذر أبوه مما كان يخطط ابنه ، وهرب الى اراضيه (باخيميرس ١ / ٨٣) ويقبل ميلر (ص ١١١) هذا التفسير .

٦٨ ـ كالعادة إن هذا النقد الساخر للروم قد حذف من ب . حيث إن / ٣٩٣١ و ٣٩٣٤ ٣٩٣٩ مفقودين ، ومن أجل اخوة الدم أو الاخوة بالتبني انظر س . كيرياكيدس في دائرة المعارف اليونانية الكبيرة ١ / ٥٦٩ ـ ٥٧٠ .

٦٩ ـ انظر ل (فقرة ٢٩٤) حيث قراءة مختلفة .

٧٠ ـ اشير الى دوق كارنثيا ثلاث مرات في الحولية : هنا كقائد للالمان ، وفي ٢ / ٤٠٢١ حيث

توصف وفاته وفي ١ / ٧١٠٣ حيث يصور كواحد من رفاق كونرادين في معركة تاجليا كوز . ويفترض شمت ان كل هذه الابيات تشير إلى الرجل نفسه مع أنه لايفسر ظهورة في تاجليا كوزو بعد موته بتسع سنوات في بيلاغونيا . ويعرفه بوشون في (أبحاث تاريخية : ١ / ١٣٥ حاشية ٣) على انه أولريش الثالث صاحب كارنثيا ، ولكن كما يبين كالوناروس (ب١٧ حاشية ١ / ٤٠٢١) من المعروف أن هذا الرجل كان حيا حتى ١٢٦٩ . ويضع كالوناروس في الحاشية نفسها تفسيره القب « دوق كارنثيا » ويدعي ان دوق كارنثيا الذي حضر معركة بيلاغونيا لم يكن شخصا حقيقيا بالمرة ، بل شخصية زائفة ، اصطنعها المؤلف كرمز الشجاعة الاستثنائية . ويبين ان اسم اورد كارتيانيا في ل . هو « سيد كارتيانيا » وفي الفقرة المتعلقة بالشخص موضوع البحث هنا (الفصل ٢٠٧ ومايليه) ، يوجد تشوش بين أمير كارتيانيا الذي يدعى سيد كارينا ، وهذا الدوق دوق كارنثيا ، الذي يدعى « دوق كارتيانيا . إن دوق كارنثيا في نظره شخص خيالي ، وقد أعطي هذا اللقب تحت تأثير الاسم المألوف أكثر كارتيانيا .

٧١ ـ هناك فاصل في ها . عقب ١ / ٤٠١٥ ، وهذه العبارة ماخوذة من ب . حيث تحل محل ٢ / ٤٠١٦ ـ ٤٠١٨ ، وبعد الفاصل مباشرة في ها . عبارة منفصلة مع انها لامعنى لها في ذاتها ، ويبدو انها توازي المعنى في السطر المقابل من ب .

وقد حذفت هذه العبارة . وقد يلاحظ القارىء مع ذلك ان معنى العبارة يدل على أن المؤرخ يقدم نفسه إلى إلى مستمعين من الفرنجة ، وليس من اليونانيين .

٧٢ ـ تظهر هذه العبارة التصويرية ايضا في ل . (فقرة ٢٩٧) ول دي ف (فقرة ٢٧٦) .

٧٣ ـ يفسر شمت (فهرس ، ص ٦١٧) هذه الكلمة « زخة من السهام » ويبين كالوناروس مع ذلك (ص ٢١٢ حاشية ١ / ٥٠٨٧) ان هذا غير صحيح .

٧٤ ـ تعطي المصادر اليونانية الرئيسية الثلاثة حول المعركة : اكروبوليت (ص ١٧٠) باخميريس (١ / ٨٦) وغريغوراس (١ / ٧٥) رواية أكثر تفصيلا عن استسلام غوليوم . وعندما راى ان المعركة خاسرة عمل على انقاذ نفسه بالاختفاء في كومة قش او في بعض الادغال الكثيفة ولكنه اكتشف واسر من قبل بعض القوات اليونانية التي عرفته من سنه الامامية البارزة وكانت هذه سمة مميزة مشهورة له حتى إنه كان يسمى بذي « السن الطويلة » . واسر اخرون من خيالة الفرنجة من منطقة بعيدة تصل الى بلاتامون واماكن أخرى ، نقرا : « وتحدث الامير غوليوم بكل شجاعة وطلاقة وحكمة ... (فقرة ٣٠٨)

٧٦ ـ يستمد ساثاس هذه الكلمة من جاكتاريوس « جندي من المشاة يحمل رمحا » وتأخذ الكلمة معنى بائس او تعس .

٧٧ ـ إن ل ١ / ٤١٨٣ ماخوذة من ب .

٧٨ ـ من الواضح أنه خطا من جانب المؤرخ لان القسطنطينية في ذلك الوقت ١٢٥٩ كانت ماتزال في أيدي الفرنجة . ويعرض اكروبوليتس معلومات أن الجرحى قد عولجوا في لاميا سكوس على الدرنفيل بحضور الملك .

٧٩ ـ بسبب التثبيط بفعل حياة سنوات السجن الثلاثة وسقوط القسطنطينية في ١٢٦١ صمم غوليوم في نهاية ١٢٦٢ ان يحصل على حريته باي ثمن . وفي هذا الوقت كان موقف ميكائيل قد لان نوعا ما على هذا أبرمت في تلك السنة معاهدة بينهما ، وكان تاثير المعاهدة الدائم على تاريخ المورة التالي موضع نقاش مفصل من قبل زاكيثينوس (ص ١٥٠ ـ ٢٥) وطبقا لشروطها سلم غوليوم مايلي : القلاع الثلاثة في مونمفاسيا ، ومين الكبرى ، وميسترا ، وكما تذكر كل المصادر ، فإن كورنث التي تذكرها ل . ف قد وعد بها ، ولكنها لم تسلم (فقرة ٣٠٧) ، وغيراكي « وجميع مناطق البند حول كنستزيا أضيف الى القائمة من قبل باخيميرس وعلاوة على ذلك اصبح غوليوم تابعا للامبراطور ، وكان عليه ان يحمل لقبا يدل على تبعيته . وفي مقابل كل هذا منح غوليوم حريته ومرتبة دمستق او « المارشال العظيم » كما ذكر في ل دي ف (فقرة ٣٠٥) . ويبدو ان اتفاقية أخرى قد أبرمت لتنظيم مستقبل العلاقات بين المورة والامبراطورية ، ومع الغموض نوعا ما يبدو

ان شروطها قد وطدت سلطة الامبراطور على غوليوم والمورة ، وعززت المعاهدات بتوكيد الصداقة الابدية ، وجعل ميكائيل من غوليوم عرابا لابنه ، وهكذا حصل ميكائيل على موطىء قدم في المورة لاعادة الغزو في النهاية لشبه الجزيرة من قبل اليونانيين . ملاحظة في ١ , ٤٣١٩ ذكر الحرس الفارنجي الذي يحتمل انه قد اعيد تأسيسه في نيقيا بعد ١٢٠٤ . انظر جينا كوبولوس (امبراطورية ميكائيل باليولوغوس ص ٤٣ وحاشية ٥٧)

٨٠ – لقد كان في الواقع ابن عمه ، انظر أعلاه ص ١٦٧ حاشية ٣٢ .

٨١ – وطبقا للوغذون (ص ٢٢٩) ترك غي دي لاروش لدى سماعه عن كارثة بيلا غونيا فرنسا على عجل ووصل الى اليونان في ربيع ١٢٦٠ وعاون الأميرة في المجلس الذي جمعته والذي كان « نوعا من انواع مجالس الحرب » ، وشخص ميلر مع ذلك الحالة بصورة مختلفة (ص ١١٤ – ١١٧) وبعد بيلاغونيا ، كتبت الاميرة اناكومينا دو كابنا الى غي وكان لايزال في فرنسا وعرضت عليه منصب نائب اخيا الذي قبله ، وعندما سمع باخبار اتفاقية غوليوم مع ميكائيل جمع برلمانا ، كما كان واجبه لمناقشة الامر . وفي كلتا الحالتين عقد برلمان في ١٢٦٢ على ما يبدو برئاسة الاميرة (ز . ص ٣٠) وكان مؤلفا مع استثناءين كله من النساء إن هذه الحقيقة الاخيرة مثال مذهل على غياب القانون السالي في المورة لأن السيدات كن هناك كوريثات أو ممثلات للامراء الذين قتلوا أو أسروا في بيلاغونيا ، ونوقشت أهمية البرلمان النسائي في كل التواريخ حول تلك الفترة وبشكل أكثر تسلية في كتاب المركيز تيريردي اوراي « برلمان السيدات في القرن الثالث عشر » اكاديمية العلوم والاداب والفنون الجميلة في بيسانكون (بيسانكون ١٨٨١) ص ٢٠٥ – ٢١١

٨٢ – كان ليوناردو اوف فيرولي مستشارا في المورة وخادما مجتهدا للاميرة . مثل غوليوم في مجلس فيتربو في ١٢٦٧ وشهد المعاهدة ، وأخذ دورا فعالا في القضية المشهورة لمرغريت باسافا ونظم معاهدة اورفيتو في ١٢٨١ ، وجمع ثروة كبيرة خلال فترة عمله في مهنته ، ومكتبة صغيرة ، مخزونها ليس قليل الاهمية (انظر م . ص ١٥٣) وكان بييردكاتو (الذي سماه تجتيون فسانت في فهرس طبعته من الحولية) رجلا محترما من الحاشية في المورة وحليفا وثيقا للامير . ويشار اليه دائما في الحولية بعبارة « الرجل الحكيم » او الاكثر حكمة .

٨٣ – اخفق المؤرخ في ذكر السبب الحقيقي في أن شروط الفدية قبلت ، مما أقلق النساء على ازواجهن ، وتذكر ل دي ف أن النساء عندما سمعن انه اذا لم تسلم القلاع فإن الامير ورجاله لن يطلق سراحهم أبدا » ، وبدأت الاميرة وزوجات البارونات اللاتي كان أزواجهن في السجن بالصياح بصوت عال « قائلات انهن يردن عودة أزواجهن ، وانهن يردن تسليم القلاع موضوع البحث للامبراطور » (فقرات ٢٩٨ – ٣٠٤) . ويدعي سانودو من جانب اخر ان غي ناضل لاقناع السيدات بان الأمير سيفتدى بأي ثمن (انظر ز)

٨٤ – على مايظهر ان هذه كانت نوعا من المذكرة التي كان عليه أن يبرزها لآمري القلاع ، والتي تعطيه سلطة تسليم القلاع باسم الامير ، وبعد هذه الكلمة في م . يوجد انقطاع في المخطوط . وهناك صفحة مفقودة بكاملها ل ١ , ٤٤٦٩ – ٤٥٣٥ ماخوذة مسن ب . انظر اثناه ص ٢١٣ حاشية ١٢ .

ها

٨٥ – كانت مرغريت باسافا ابنة جان الثاني دي نويلي المارشال بالوراثة وبارون باسافا الذي تزوج ابنة لفوتيير الأول دي روزييراكوفا ، وكانت متورطة في القضية الشهيرة الموصوفة في ٧٣٠١ – ٧٧٥٢ . وكان جان دي خودرون ايضا ابن أخ الامير غوليوم .

٨٦ – تضيف ل دي ف . انه ذهب أولا إلى يوربيوس ، حيث استقبل بتشريف ثم الى طيبة حيث قدم له الأمير حسن الوفادة وصحبة الى نيكلي (فقرة ٣٠٩) ، وبينما كان في طيبة وقع معاهدة مع البندقية (انظر م . ص ١١٧) .

٨٧ – هذا الكانتاكوزينوس كان ميكائيل كانتا كوزينوس وكثيرا ما يكتب « كانتا كوزين » وهو عضو في أسرة بيزنطية قديمة وهامة استوطنت في ميسينا في زمن الغزو الفرنجي ، والاكثر احتمالا

أنه جد الامبراطور فيما بعد جون كانتا كوزين (١٣٧٤ ـ ١٣٥٥) ويشار الى ميكائيل في هذه الفقرة على أنه الحاكم الامبراطوري لميسترا ويحتمل لونمفاسيا في ١ / ٤٥٤٨ بينما في ١ / ٤٦٣٥، يذكر أنه أرسل إلى المورة مع قوات بعد تفجر المشكلات . انظر ابناه ، ١ / ٤٦٢٩ والملاحظة في الحاشية .

٨٨ ـ بالنسبة للبواعث التي قادت غوليوم الى خرق معاهدته مع ميكائيل بسبب ردود فعل الامبراطور . انظر المناقشة الرائعة في ز . ص٢٧ ـ حيث ربط موضوع الحرب بالحالة الدولية لتلك الفترة .

٨٩ ـ إن هذا هو الاسم المعطى للقائد العسكري أوكابتن وايضا للحاكم البيزنطي الامبراطوري في المورة .

٩٠ ـ تذكر ل . والحولية اليونانية انه قد أرسلت حملتان واحدة بقيادة ماكرينوس والثانية تحت قيادة كوستانيتوس باليولوغوس . ويذكر باخيميرس (١ / ٢٠٥ ـ ٢٠٦) أن الامبراطور قد أرسل على الفور حملة بقيادة أخيه كونستانتيوس بصحبة البارا كو مومنيوس ماكرنيوس والكسيوس فايليس ، ويقترح ملر (ص ١٢٢) ربما تحت تاثير جاء في الحولية من روايات أن تعزيزات قد أرسلت في حملة ثانية تحت قيادة ميكائيل كانتا كوزنيوس ، ويتبع زاكيثيوس ، باجيميريس الذي يجد أن معلوماته ، اكثر احتمالا ، ويذكر فقط حملة واحدة ويضع كانتاكوزنيوس حاكما في مونمفاسيا كل فترة تفجر الحرب (ص ٣٢ ـ ٣٣ وحاشية ٣ ص ٣٣) وطبقا لزاكيثيذوس (المصدر نفسه حاشية ٢) ، احتلت عائلة ماركينوس مركزا ذا اهمية كبيرة تحت اباطرة الباليولوغوس . ومع انه كان الباراكوا مومنيوس أو (الحاجب الكبير في البلاط) ، ويبدو انه ليس هناك صدقفي رواية ان ماكرنيوس كان ابن عم الامبراطور .

٩١ ـ درنغوس عرق كبير قد يشير إما إلى درنغوس سكورتا أو إلى درنغوس الميلنغز ، وفي هذه الحالة في رايي إنها تشير إلى الأخيرة وعن موقع غادر اليفوس من قبل شمث (فهرس ص ٦٢٤) علل انه مكان في لاكونيا شمال فاتيكا ومونمفاسيا وهيلوس ويذكر كالونارس (ص ١٩١ حاشية ١/ ٤٥٧٦) أن الاسم مستمد من الدرا غاليفوس الحالية وهي مدينة في جوار تساكونيا وقرب هاغيوس بتروس .

٩٢ ـ انظر اعلاه ص ١٥٧ حاشية ١١ .

٩٣ ـ كانت التاريت نوعا من المراكب التجارية ، مراكب البضائع وتظهر الكلمة في اللاتينية تاريدا أو تاريتا في كتاب دوكانج التي يستمدها من الكلمة العربية طريدة . ويصفها بوجين بيرن في كتابه ، ملاحة الجنوية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (كمبردج ١٩٣٠) ص ٥ على انها سفن اثقل وأبطأ من الشواني مزودة بمجاديف وطاقم كامل من الاشرعة على صاريين ، ونقل الجيش في سفن جنوية ووصل الي مونمفاسيا على التوالي مستهل ١٢٦٣ . وفي الوقت نفسه احتل الاسطول البيزنطي تحت قيادة فيلانثروبينوس بعد نهب السيكلاد السواحل الجنوبية للاكونيا انظر ز . ص ٣٣ والملاحظات .

٩٤ ـ كانت هذه من القاب البلاط . والاخير ربما مستمد من الكلمة التركية ، شاويش ، ، وذلك طبقا لكالوناروس .

٩٥ ـ تقدم ل دى ف . عند هذه النقطة قصة غريبة لاتظهر في الروايات الاخرى ، وتذكر ان يونانيي كاريتاينا بقوا مواليين لاميرهم الفرنجي وساعدوه في ايقاع شديد بالقوات الامبراطورية ، وكي يتمكن القائد اليوناني من إجبارهم على التخلي عن الفرنجة حرر بعض الرسائل المحرجة على صورة أجوبة على مراسلات متقدمة من يونانيي كارتيانيا واسقط هذه الرسائل في غرفة قصر امير فرنجي ، كما لو كانت قد سقطت بالصدفة وكان الامير جيوفري على اي حال داهية جواد شديد الثقة في ولاء تابعيه حتى لاينخدع بهذه الحيلة الفجة ، واستدعى اليونانيين واطلعهم على الرسائل ، فبدأوا بالبكاء واخرجوا مناديلهم التي اعتادوا مسح وجوههم بها ، ووضعوها حول أعناقهم واقسموا على براءتهم ونصبوا معاقفا . وتظاهر الاتباع اليونانيون بالتفاوض مع القوات

الامبراطورية وفي النهاية قادوهم الى كمين حيث قتل كثير منهم (فقرات ٣١٢ - ٣٣٠) ثم تتابع الحولية فتذكر ان جيوفري دي بروبير وقع في حب زوجة تابعه جان دي كانا فاس وهرب معهـا الى ايطاليا (فقرات ٣٣٢ - ٣٣٤) ، وبلا شك ان غيابه في تلك اللحظة الحرجة ، والثـورة الناجحـة للسلاف لصالح اليونانيين كانت ضربة خطيرة لامير المورة (انظر ابناه ٢ ، ٥٦٥٣ و ٥٧٢٩) .

٩٦ - يدعي سانودو (ص ١١٦) ان فرقة أثينية قد وصلت .

٩٧ - وكما ذكر اعلاه في كل الاحتمالات أرسلت حملة واحـدة ، وهــذه كانت تحــت قيادة كونستانتيوس وتذكر دي ف . أن اليونانيين طلبوا المساعدة وأن الامبراطور أرسل أخـاه وكانتـا كوزينوس الذي كان « صهر الامبراطور كانتا كوزينوس الذي يحكم اليوم (فقرة ٣٣٥) .

وكان كانتاكوزينوس امبراطورا من ١٣٤٧ الى ١٣٥٥ .

٩٨ - عند هذه النقطة هناك انقطاع خطير في ل . حيث تختفي ســت صـفحات تتـوافق مـع ٢ ، ٤٦٦٤ - ٥٠٤٥ من النص اليوناني .

٩٩ . إن هذا ليس جبل هلموس في اسيابل قمة اكثر انخفاضا في الجبال الواقعة بين

ليكيمونيا واركاديا وتقع قرب فيليفوستي . وهي في اعالي نهر اليوروتاس حوالي منتصـف الطريق على الطريق ما بين ليكيمونيا وكاريتانيا .

١ ـ تميز الحولية هنا بين القلعة والمدينة المحيطة أو القرية (الربض) انظر أعلاه : ١ / ١٦٨٧ والحاشية .

٢ ـ إن هذه إشارة إلى رافد نهر الفيوس . ويذكر كالوناروس في حاشية مطولة ومفصلة جداً (حاشية ١ / ٤٦٦٧ ص ١٩٦) أنه بفضل نظام الصرف المعقد في المنطقة ، كان المؤرخ والسكان على ما يبدو في المنطقة أيضاً ، عاجزين عن التمييز بين المجرى الرئيسي والروافد العديدة ، وكنتيجة كان المجرى الرئيسي يسمى خطأ بالرافد كما هنا في ١ / ٤٦٦٨ في حين أن أكبر الروافد وهو اللادون كان يظن أنه المجرى الرئيسي ، واللادون هو ذلك الجزء من الاليفوس الذي تحت موضع الاتصال وكان يدعى الروفياس في اليونانية العامية ، وهو تحريف لالفيوس في حين أن اسمه الفرنسي كان شاربون وبكلمات أخرى كان اليونانيين يتبعون المجرى الرئيسي للالفيوس ، بينما يذكر المؤلف أنهم اتبعوا رافداً من كاريتانيا الى ليودورا (١ / ٤٦٦٩) النقطة التي يلتقي عندها اللادون بالالفيوس . واسم ليودورا مستمد من لادون ويدل على بلدة ، والمنطقة المحيطة بها وهي تقع قرب ناحية هيرايا القديمة .

٣ ـ إن خرائب الدير اللاتيني لسيدة ايزوفا ماتزال باقية ، وتشرف على الالفيوس قرب مدينة ميزمباردي الحالية .

٤ ـ إن هزيمة بيزنطة والتي وقعت في برنيذسا ليست موضع شك ، لأن كل روايات الحولية تذكرها ، وهي مؤيدة من قبل سانودو (ص ١١٨) ، ومع ذلك فإن التفاصيل كما هي واردة في الحولية اليونانية واضحة الاختلاف ، ولاتتفق الحوليات نفسها حول ما حدث بالضبط ، ويبقى بلا تفسير حتى اليوم كيف هزمت مثل هذه القوة المتفوقة المهيمنة على يد ٣٠٠ أو ٣١٢ فارساً .

٥ ـ لقد كان مرضه بلا شك السبب في هرب زوجته مع أمير كاريتانيا (انظر أعلاه ص ٢٠٥ الحاشية ٩٥) .

٦ ـ يحدد ليك (بلوبونيز ياركا ص ١٤٤ ، ١٥٥) هنا بأنه ممر ضيق في حوض نهر الالفيوس بين كريستينا وبرنيذسا . ولا يضيف بار غوميس (ص ١٣٣ حاشية ١) شيئاً أكثر تحديداً بالنسبة لموقعها .

٧ ـ يدخل كالونارس هذا البيت من ب . في هـ . ويعطيه رقم ٧٣٧ ب . ولايعطي تفسيراً ولايشير شمت إلى أي فراغ مع أنه يشعر أنه من الضروري من أجل اكتمال معنى العبارة التي تليه .

٨ ـ قرية برنيتزا لم تعد موجودة ، وكانت تقع قرب مدينة فيليزا الحالية قرب أوليمبيا .

٩ ـ إن شمت كما أعتقد محق في بيان دلالة هذه العبارة . وهي تستعمل دائماً مرتبطة مع اسم قريب أو شخص معروف جيداً ممن ماتوا في فترة حياة المتكلم أو قبله بوقت غير طويل . انظر مقدمة ص ٣٨ .

١٠ ـ هذه الكلمة لقب يوناني للسباب تعني أحمق في متى ٥ / ٢٢ ، يحظر المسيح على أتباعه استعماله .

١١ ـ يدعي دراغوميس الذي يحدد برينتزا قرب مدينة بيرى الحالية (ص ١٣٦) إن ليفتزا تتعلق بمدينة فيرفيتزا قرب غورتيميا في اليس وكابيل ناحية مشجرة في المنطقة نفسها .

١٢ ـ هذه عبارة مزعجة وقد فسرتها لتعني أنهم هربوا تجاه معسكر ذلك الجزء من الجيش ، الذي كان يحتفظ به كاحتياطي ، ولم يشترك في المعركة ، وهذه النقطة تعلم فراغاً كبيراً لخرا في ها . ل ١ / ٤٨٥٤ ـ ٤٨٧٤ ، مأخوذ من ب ومع ذلك فإن فراغاً يتبع ٩ / ٤٨٧٤ في ب . أيضاً . وكنتيجة مع أن السطر الأول في هل . بعد انقطاع قد أعطي الرقم ٤٨٧٥ للابقاء على توالي السطور فإن هناك شيئاً ناقصاً بعد السطر الاخير من ب قبل الفراغ الذي هناك ، والبيت الأول في ها ، بعد متابعة النص . ويفسر شمت في حاشية بإن هذه الثغرات (ص ٣٢٠) تدل على أن صفحتين كاملتين ناقصتان من المخطوط ، وهو يقترح أن هذا قد يدل على أن اليوناني الوطني ، وقد غلبه الغضب من الملاحظات المحطة بالقدر حول اليونانيين في هذه الفقرات ، مزق الصفحتين في

غضب ، ومع ذلك يبين كالوناروس بجفاف نقاطه (ص ٢٠٤ حاشية ١ / ٤٨٥٣) انه إذا كانت هذه هي الحالة فإن كل الروايات الموجودة للحولية باليونانية إما مدمرة او مشوهة . ومن المهم ان الثغرات تظهر في وصف معركة برنيتزاليس فقط في النصوص الثلاث للرواية اليونانية بل في الروايات الفرنسية والايطالية ايضا .

١٣ ـ مدينة في مكان ما بين برينتزا واندرفيدا (انظر أدناه ص ٢٢٢) ومن اجل فليزيري انظر أعلاه ص ١٣٨ حاشية ٧٦ .

١٤ ـ إن هنا يعلم نهاية الفقرة المأخوذة من ب . واستئناف هـ . ومعنى العبارة الاخيرة غامض ، لأن بداية الجملة ناقصة وعلى ما يظهر أن ما احزن الأمير ان الدمستق قد هرب ، وأنه عندما هزم ، كان حتما أكثر خطرا من قبل .

١٥ ـ يحتمل انها معادلة ل « كل ما يزرعه الانسان ، يحصده ايضا » .

١٦ ـ إن سهل سبيكوس هو سهل آسيا القديم ، وهناك كلمات طبلها الشمت (فهرس ص ٦٣٩) وتدل على منطقة مرزغية ، وهنا يشير إلى الارض المرزغية المسماة فرانكو فريزيز اليوم والتي تقع في وسط السهل الذي يدعى الان سابوليقا دو المراعي الفتنة ومنابع الالفيوس في هذا المستنقع (انظر ز . ص ٣٦ والحاشية . ك : ص ٢٠٩ حاشية ١ / ٥٠٢٢ درا غوميس ص ٦٨) .

١٧ ـ إن الاشارة هنا يبدو انها الى آلة حربية او قوس كبيرة ، او عرادة وطاقمها لان القوس كان مثل هذه الالة .

١٨ ـ من اجل سيرجيانا انظر أدناه ص ٢٢٢ حاشية ٢٤ .

١٩ ـ يجب تذكر ان كلمات مثل سرايا وفيالق يقصد بها تقريب الاصطلاحات اليونانية الصعبة الترجمة بدقة . ومن أجل مناقشة هامة للجيش البيزنطي انظر كتاب اومان « تاريخ فن الحرب » وهو عمل موثوق في تنظيم الجيش البيزنطي .

٢٠ ـ تفسر ل دي ف . موت كالفتا كوزينوس بصورة مختلفة فتذكر (فقرة ٣٤٢) انه كان يقود قوات المقدمة وركب في الامام ليقوم بالاستطلاع ، وفي طريق عودته تعثر حصانه في حفرة وسقط ، فقفز الفرنجة عليه وقتلوه قبل أن يتم إنقاذه . وهذه الرواية للحادثة اكثر تمشيا مع طبيعة شخصيته من القصة الواردة في الرواية اليونانية والفرنسية للحولية . ويجب ايضا ملاحظة أن ل دي ف تضع الحادثة في سرجيانا قبل معركة برينتزا . وتبرز (ص ٣٩ حاشية ٢) أن الترتيب الزمني في ل دي ف مشوش وأن الحادثة دون شك وقعت بعد معركة برنيتزا كما تذكر الحوليات الاخرى .

٢١ ـ تذكر ل دي ف ان الامير تعقب اليونانيين حتى هربوا في الجبال (فقرة ٣٤٤) . وتذكر ايضا انه بعد هذا الانتصار بنى الامير كنيسة سانت نيكولاس في ميسيكي والكنائس الاخرى في اندرافيدا (فقرة ٣٤٦) .

٢٢ ـ لاتتفق الحوليات فيما يتعلق بثورة الترك الموصوفة في الفقرة التالية ، وتضع ل دي ف المواجهة في ميسيكلي قبل معركة برينتزا ، وتذكر انه قبل معركة برينتزا تخلى ملك ومعه ١٥٠٠ من الاتراك عن اليونانيين وذهبوا الى غوليوم وتوطن هؤلاء بشكل رائع في المورة مع قادتهم الذي تزوج السيدة بالفيدسا (فقرات ٣٥٩ ـ ٣٦٣) ويعطي سانودوا (ص ١١٨) الرواية نفسها للاحداث ، بما في ذلك القول بانها وقعت قبل معركة برينتزا ، وكما حدث من قبل إن المعلومات المعطاة من قبل ل دي ف قد تكون صحيحة ولكن الترتيب الزمني خاطىء ، ومن المؤكد تماما على اي حال انه بعد أن انشق عنه الاتراك ، ترك كونستانتينوس قيادته بين ديدي فيليس وماركيفوس وعاد الى القسطنطينية ، وصحيح إذا انه لم يؤسر في معركة ماكرس ـ بلاجي التي تلت ، لا لانه هرب كما تقول ل دي ف (فقرة ٣٧٢) بل لانه لم يكن موجودا (انظر ز . ص ٣٩ ـ ٤٠ ، وم . ص ١٢٢ ـ ١٢٥) .

٢٣ ـ كذا بالاصل .

٢٤ - يبدو أن الطريق الذي اتبعه الاتراك كان واضحا نوعا ما ، ولكن الاماكن المسماة في هذه الفقرة صعبة التحديد بدقة ، وغادر الاتراك نيكلي وعبروا الى كاريتانيا . ثم سايروا الاطفيوس احتمالا حتى مصب الاريمانثوس ، ثم اتجهوا شمالا عابرين بطريق فليزيري في اتجاه اندرافيدع ، ويبدو أن بيريفاردي كانت تقع بين الفيوس وفليزيري ° وعلى اي حال يقترح ، شمت ، (الفهرس ص ٦٩٩) أن بيرفاردس وبوذنيكوس هما الشيء نفسه ولكن اقتباسا من بوشون نجده قد وضع بريفاردي قرب ناحية اليس القديمة على نهر البينوس ، واعتقد أن ٢٠ / ٥٢٠٤ ... في النص أعلاه يوضح أنه لاشيء من هذه التعاريف صحيح ، وواضح أيضا أن سيرفيا تقع بين فليزيري واندرافيدا ، مع أن موقعها الدقيق يصعب ايجاده . ويدعي شمت أنها قرب برنيتزا ، وأن سيرجيانا هو اسم آخر للمدينة نفسها وهذا لايمكن أن يكون لان المدينة كانت تقع على مسافة أقل كثيرا من ركوب يوم من اندرافيدا . ويحتمل انها تقع قرب بالايوبوليس ناحية اليس القديمة على البينيوس ، في المنطقة التي تسمى سيرجيانا في الحولية وكانت سرجيانا في الواقع هي المنطقة التي تقع في الشرق والجنوب الشرقي من اندرافيدا ، وتنصرف مياهها الى البينوس . ويذكر النص (١ / ٥٠٤٦) أن اليونانيين ذهبوا الى ميسيكلي التي كانت تماما شرق سيرجيانا . وتذكر ل دي ف (فقرة ٣٣٩) أنهم ذهبوا الى بالايوبوليس التي كانت على الابينوس ، قرب ناحية إليس القديمة ولامجال للتساؤل إذا أن ميسيكلي وبالايوبوليس كانتا كلتاهما قرب سيرجيانا والاولى منهما إلى الشرق . وسيرفيا ايضا لابد أنها كانت قريبة ، ويتبع إذا أن سيرجيانا ، وسرفيانا ، وسيرفيا لايمكن أن تكون المكان نفسه كما يؤكد شمث لانه يدعي أن ميسيكلي كانت مكانا قرب سيرفيانا (وليست بعيدة عن اندرافيدا ، بينما يقول إن سيرجيانا وسيرفيا كانتا قرب بيرنتزا ، ومن الواضح انه قد ضلل بإصراره على أن سيرفيانا وسيرجيانا هما الكلمة نفسها) .

٢٥ - من أجل شؤون دخول دي توسي الى قضايا المورة انظر ٢ / ١٢٠٨ أعلاه وتقول ملاحظة ل . (فقرة ٣٥٧) إنه قد اختير لانه ربي في القسطنطينية ، وكان يعرف عادات ولغة اليونانيين ، وحقيقة انه كان يعرف التركية (انظر أدناه ١ / ٥٢٤٢) يحتمل انها كانت عاملا مهما تقول ل دي ف أن ملك قد تصادف أنه عرف دي توسي في القسطنطينية وانهما قد توصلا إلى تفاهم في سلسلة من الرسائل (فقرتا ٣٦٠ ـ ٣٦١) .

٢٦ - إن نهر بنيذوس يدعى الياكوس لانه يتدفق على إليس . ويحتمل انهما التقيا في بالايوبولس . وتسمي النهر « نهر اندرافيدا » (فقرة ٣٥٩) .

٢٧ - ومن هذه النقطة وما بعدها إن الفقرة التالية ٢ / ٥٢٧٢ ـ ٥٢٨٠ غير مقروءة تقريبا في هـ . وأي كلمات غير محذوفة تتماشى مع ذلك باحكام تام في ب . وعليه فقد استعملت ب ، وحذفت الكلمات المستبعدة والعبارات من تلك الفقرة في هـ .

٢٨ - يذكر ل دي ف أنهم بعد أن عسكروا تلك الليلة أخذ ملك القائد التركي سهمين وأدى بهما بعض فنون السحر التي عرف منها أنه ستكون هناك معركة ينتصرون فيها (فقرة ٣٦٥) .

٢٩ - تتعلق كوبرونتيزا بمدينة كوبانتيزا الحالية ، قرب خرائب فيغالا القديمة وفي الغرب والجنوب قليلا تقع مدينة مونترا أو موذدرا التي ما تزال تحمل اسمها الذي يعود الى القرون الوسطى ، وتقع كلتا المدينتان على مسافة قصيرة في الشمال الشرقي من سيدروكاسترو .

٣٠ - عند هذه النقطة يبدأ فراغ طويل في هـ . حيث أن صفحة كاملة مفقودة : ١ / ٥٣٢١ ـ ٥٣٥٤ مأخوذة ، بناء عليه من ب .

٣١ - كما هو مبين أعلاه ، ترك كونستانيذوس المورة قبل معركة ماكرس بلاجي . وكل ما جاءت روايته في الحولية بناء عليه حول وجوده في المعركة إلى الخ .... يجب أن يفهم بانه يرتبط بفيليس ، وماكريذوس أو كان لاريوس ، ساو كافالارتيسيس

٣٢ - إن كالامي أووا دي كالامي (وا دي كلامي طبقا ل ل . فقرة ٣٦٧ ، ٧٣٦ ، ٧٤٣ ، ٨٣٠) كان اسم القسم الشمالي من سهل ميسين في العصور الوسطى . وكانت في هذه المنطقة

قرية لاكوس المذكورة في : ١ / ١٧١٩ (انظر اعلاه ص ١٢٠ ، وحاشية ٣٧ (ويبدو ان هذه كانت تحلقت حول مدينة لوترو (باللاتينية لوترا فقرة ٧٣٦) . ولاتشير كالامي بالقطع الى مدينة بونا الاسم قرب كالاماتا .

٣٣ ـ ماكري بلاجي (سفح تل عريض) هو الممر الاهم بين وسط البليونيز ومسنا ويقع الشعب الضيق على مسيرة ساعة من مدينة كورتاغا ، قرب ميغالوبوليس . ويبدأ الممر نفسه عند شاني ماكر يبلاخيو وينتهي عند شاني تسكونا على بعد ساعة واحدة ، وفي الجوار توجد بالايوكاسترو ، نوكلا أو نوكالا قرب مدينة ليريني الحالية ، وهذه تعتبر ناحية أوفيا القديمة ، وأيضا قلعة القرون الوسطى غاربيكي ، وبين الخرائب الكثيرة في الجوار بعض الكنائس البيزنطية .

٣٤ ـ ل ، ٥٣٧٩ وهو ناقص في هـ . وقد أدخلت البيت المتعلق عن ب .

٣٥ ـ كذا بالاصل .

٣٦ ـ ل ١ / ٥٤١٢ ـ ٥٤١٤ منب .

٣٧ ـ كان فيليب دي توس نائبا للامبراطور في كثير من المناسبات بعد ١٢٤١ ، وكان لقبه قيصر (انظر اعلاه ص ١٠٥ حاشية ٩٣) . والمصدر الوحيد حول أسرته في القسطنطينية في زمن ماكري ـ بلاجي هو الحولية . ولكن إذا كان هذا صحيحا يبدو انه قد استبدل بماكرينوس . ١٢٧١ عين فيليب اميرا عظيما من قبل شارل انجو وهو منصب تولاه حتى وفاته في ١٢٧٧ (انظر لغ ص ١٨٢ ـ ١٨٣ ، ١٨٥ ، ٢٢٤ ، ٢٥٣ ، ز . ص ٤٢) .

٣٨ ـ لم أتمكن من العثور على ذكر لهذا الرجل خارج هذه الاشارة إليه كنبر جند أو تابع فارس لانسين دي توس .

٣٩ ـ من اجل قلعة غاربيكي (غاربيخي ل فقرة ٣٧٥ ، ٨٣٠ وغاربيسكو ، ل دي ف . فقرة ٧١٤ ـ ٧٢٢) انظر براغميس ص ٢٢٧ رقم ٣٣ (ص ١٨٦ ـ ١٨٨ و ١٩٠ ـ ١٩٦) ويناقش مطولا الناحية المحتملة لغاربيكي في علاقتها بالجون والمذكورين في النص .

٤٠ ـ من المهم أن اسم نيلس مفقود هنا كما هو في هذه الفقرة . ويميل هذا إلى تأكيد حقيقة أن نستانتينوس . لم يكن في المعركة ، بل عاد الى القسطنطينية وانه ترك فيلبس دمستقا كبيرا وقائدا للجيش ل ١ / ٥٤٣٠ ـ ١٢ / ٥٤ التي تروي قصة أسر القادة اليونانيين ناقصة في ب . وهنا يبين مرة أخرى أنها قد نقلت في وقت ما من قبل كاتب موال لليونانيين .

٤١ ـ وكان الاسرى هم : فيلبس الدمستق الكبير ، الذي توفي بعد ذلك في قلعة كلوموتي ، حيث سجن (١ / ٥٥٨١) واليكسيوس كذا لاروس (ويدعى ايضا كذا لاريدس) الذي اطلق سراحه في وقت ما لانه قاد فيما بعد الجيش البيزنطي (باخيميرس ١ / ٣٢٤) وباراكيمومنيوس ماكرينوس الذي يحتمل انه قد استبدل فيليب دي توس والذي اتهم بالخيانة وسملت عيناه عند عودته الى القسطنطينية ، وكل الاشارات إلى كونستانتيوس في هذا المجال زائفة ، بما في ذلك قصة انه رشا أسريه ، المروية في ل دي ف . (فقرة ٣٧٧) والاعداد الفعلية كما أعطيت في الحولية هي بالطبع زائفة . ولكن أن خسائر البيزنطيين كانت كبيرة لايمكن إنكارها ، والمشكلة المعقدة للترتيب الزمني والحوادث الواقعية في معركة ماكري بلاجي نوقشت مطولا في ز . من ٤٠ ـ ٤٣ .

٤٢ ـ ل ٥٥١١ من ها .. يقرأ : إن هذه الامور التي رواها أو قالها للدمستق والبيت التالي مفقود وعليه استعملت ٢ / ٥٥١١ و ٥٥١٢ من ب لملء الفراغ .

٤٣ ـ حدث هذا الاحتفال في ١٢٦٢ بعد تحرر غوليوم من السجن . انظر جيانوكوبولوس ، ميكائيل باليولوغوس ص ١٥٥ والحاشية ٧٥ » .

٤٤ ـ ل : ١ / ٥٥٩٥ ـ ٥٦٣٥ ماخوذين من ب . حيث انهم غير موجودين في ها .

والترقيم الاصلي للاوراق مع ذلك لايدل على اي ثغرة وقد ادى هذا بشمت . (ص ٣٦٤) إلى اقتراح ان ها . لم تكن كاملة عندما رقمت ، أو انها لم تحو مطلقا الرواية الكاملة التي في المخطوطات الاصلية .

٤٥ ـ تذكر ل . خطأ ان جين دي سانت أومر قد كلف بحصار ميسترا (فقرة ٣٨٦) .
إن هذه مفارقة تاريخية لانه لم يدخل في الشؤون المورية من زواجه من مرغريت دي تـوريلي (باسافا) أنظر ٢ / ٧٣٧٠ وز ص ٤١ ـ ادناه .

٤٦ ـ من أجل سكورتا انظر اعلاه / ص ١٢١ حاشية ٣٩ ، لقد كانت القلعة الرئيسة هي كاريتانيا وكانت هناك قلاع اقل شانا وهي اكوفا واراكلاوفون (بيوسيليت) ومن أجل يونانيي كارتيانيا أنظر أعلاه ص ٢٠٥ حاشية ٩٥ .

٤٧ ـ من أجل مغامرة الامير الجاهل لكاريتانيا أنظر ادناه .

٤٨ ـ المعني بالمورة هنا ايليس .

٤٩ ـ يقترح كالوناروس إن هذه المدن تتعلق بالمدن الحالية فونارغون قرب ليتـرينا ورتنتـو قرب اوليا وكلاهما في إيليس . ويوحي أيضا إنه إذا كانت ل . ف . صحيحة في ذكر ان ملك بقي في المورة (فقرة ٣٦٣) . ويحتمل أن مدينة ماليكي قد سميت باسمه وافرا د اسرة ملك هم سلالته (انظر ل . ص ٢٣٦ حاشية ١ / ٥٧٣٨) . وفي مواجهة ص ٢٠٩ من ك . صـورة فـوتوغرافية لحجر الاساس لجسر كان في العصور الوسطى فوق الالفيوس قرب كاريتانيا . وفي الاهـداء هناك إشارة الى مانويل ملك على انه المؤسس أو مالك جديد للاقطاعة ، ربما إشارة الى ملك الحولية او واحد من سلالته .

٥٠ ـ كانت كنائس سانت نيكولاس في بـاري والتـي كانت تضـم جسـد ذاك القديس بعد ١٠٨٧ وكنيسة كبير الملائكة ميكائيل على جبل غارغانو كانتا بعد تلك التي كانت في روما اهم غايات الحج في إيطاليا العصور الوسطى ، وقد أسس مـانفرد مـانفريدونيا في ١٢٦٣ التي تقع إلى الجنوب من جبل غارغانو على الخليج الذي يحمل الاسم نفسه .

٥١ ـ كان مانفرد (١٢٣٢ و ١٢٣٣) الابن الطبيعي للامبراطور فريدريك الثـاني وحسـب شروط وصية ابيه كان ممثلا في إيطاليا لاخيه غير الشقيق كونرا د الرابع . وبعـد ١٢٥٤ أصـبح وصيا على العرش لكونرا دين ابن كونرا د الطفل . وفي ١٠ اب ١٢٥٨ وبناء على إشاعة كاذبة بان كونرا دين قد مات ، توج ملكا للصقليين . وبعد ذلك رفض التنازل عن العـرش وبقـي ملكا حتـى وفاته في معركة بينفنتو في شباط ١٢٦٦ ، انظر اعلاه ص ١٧٥ ـ الحاشية ٥١ من أجـل علاقـاته السالفة مع قضايا المورة .

٥٢ ـ ل . ١ / ٥٨٥١ ـ ٥٩٣٤ مفقودة من ب .

٥٣ ـ حول الجريمة السالفة لاميج كارتيانيا إنظر أعلاه ٢ / ٣٢٢٠ و ٣٣٤٨ ومن أجل « الهبة الجديدة » انظر اعلاه ص ١٣١ حاشية ٤٠ ، وفي مناسبة محاكمته القديمة ، لبس حبـل مشـنقة حول عنقه ، وهنا لبس نطاقه . وأيضا إنظـر اعلاه ص ٢٠٥ حـاشية ٩٥ حيث وصـف بـونانيو كاريتانيا وهم يعلقون مناديلهم حول أعناقهم ، إن تعليق حبل أو نير حول العنق كان بلا شك علامة على الخضوع والمذلة ، ومن المهم ملاحظة انه في مين وهي منطقة في اليونان كانت لها سمعة شبيهة بسمعة تلال كنتكي ، كانت هذه العلامة على الخضوع تستعمل حتى وقت قريب نوعا ما مـن قبـل الاعداء المهزومين في الضغائن الدموية التي سامت سمعة المنطقة بسببها ، وعندما جـاءوا في طلب الرحمة (انظر ك ص ٢٤٢ حاشية ١ / ٨٩٢ وا دامانتيوس (ص ٦٣٠ ، ٦٥٦ ـ ٦٥٧) وهناك أثر قديم في عادة المانويت هو استعمال كلمة مشابهة من أجل الهدنة أو توقف الحزازات الدمـوية وفي كل الحولية تستعمل هذه الكلمة مع المعنى نفسه كما في ١١ / ٦٨٨٢ .

٥٤ ـ كان ريموند ـ بيرنغار الرابع (١١٩٨ ـ ١٢٤٥) كونت بـروفانس والفـور كالكيير وليس أنجو كما تذكر الحولية خطأ ، وكان له أربعة بنات من زوجته بياتريس سافوي مرغريت التي تزوجت لويس التاسع ملك فرنسا في ١٢٣٤ ، واليانور التي تزوجت هنري الثالث ملك انكلترا في

وسكاكنا التي تزوجت ريتشارد ، ايرل كورونوول في ١٢٣٤ ، وبياتريس الصـغرى ، وعينت هذه الاخيرة وريثة له من قبل أبيها والقب كونتيسة وفي كانون الثـاني ١٢٤٦ تـزوجت اخا لويس التاسع شارل دي انجو وهكذا جعلت منه كونت بروفانس.

٥٥ ـ هناك مصادر موسعة حول حكم فريدريك الثاني (انظر تاريخ كمبردج العصور الوسطى : ٦ ٨٦٩ ـ ٨٧٤) إن التفاصيل كما هي في الحولية كالعادة غير صحيحة ولكن فيها بعض الحقيقة . وجرى حرمان فريدريك من قبل غريغوري التاسع في ٢٩ أيلول ١٢٢٧ للحنث بقسمه بالذهاب في الحملة الصليبية . وروجع الحرمان في يوم الخميس المقدس ٢٣ آذار ١٢٣٩ ووعظ غريغوري يوم اثنين عيد الفصح ضد فريدريك ولكن الرومان الغاضبين طردوه من كنيسة القديس بطرس . وكان عليه أن يغادر روما لمدة عامين .

٥٦ ـ من أجل مانفرد إنظر أعلاه ص ٢٣٨ حاشية ٥١ .

٥٧ ـ ل : ١ ٥٩٧٧ . ٥٩٧٩ . ٥٩٨٠ مفقودة في ه . وقد أدخلت الابيات المتعلقة من ب .

٥٨ ـ جرت محاولات متكررة من البابوات لاقحام شارل في الشؤون الايطالية وتلك المحاولات جرت في ١٢٤٠ ـ ١٢٤١ من قبل غريغوري التاسع . وفي ١٥٢٣ من قبل انوسنت الرابع كانت غير ناجحة بسبب معارضة لويس التاسع . وفي ١٢٦٣ ـ ١٢٦٤ كسب البابا الفرنسي اوربان الرابع تأييد لويس التاسع واتفاقية مع شارل كانت مكتملة تقريبا عند وفاة البابا . وانجز خليفته وهو فرنسي أخر كليمنت الرابع المعاهدة في النهاية مع شارل في نيسان ويمكن ايجاز شروط المعاهدة في تاريخ كمبردج العصور الوسطى : ٦ ١٨٣ ـ ١٨٤ .

٥٩ ـ بحلول منتصف القرن الثالث عشر اصبحت الاسماء التسكانية مثل غولف وغيبالين داخلة في الاستعمال الشائع الدالة على البابوية والامبراطورية في إيطاليا .

٦٠ ـ توجد هذه الحادثة في حوليات أخرى تغطي الفترة نفسها . على سبيل المثال في الفصل ٣٢ من تاريخ مونتانيز (الترجمة الانكليزية من قبل الليدي هنريتا مرغريت غودنوغ مجلدان . لندن ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ وفي الكتاب ٦ فصل ٩٠ من كتاب فيلاني تاريخ فلورنسة (تحقيق موراتوري المطبوعات الملكية الايطالية : ١٣ ـ ميلان ١٧٢٨) والتفاصيل متماثلة تماما . وقد يكون هناك القليل من الحقيقة في القصة وعليه حتى مع أن شخصية شارل كانت بحيث لايتوقع أن يجد أنه بشكل خاص متأثر بزوجته ولاسيما هذا الامر .

٦١ ـ انظر اعلاه ص ٢٤٢ حاشية ٥٤ .

٦٢ ـ تعني الكلمة بالاصل (شيء يطفو اوله اجنحة) منديل او كم طويل ؟

٦٣ ـ ابحر شارل في ١٥ ايار ١٢٦٥ ونزل إلى البر في ٢١ ودخل روما في ٢٤ .

٦٤ ـ كليمنت الرابع الذي كان بابا من (١٢٦٥ ـ ١٢٦٨) .

٦٥ ـ في حلم ؟

٦٦ ـ ل : ١ ٦١٤٣ ـ ٦١٤٥ غير موجودة في ل . ويقترح شمث (ص ٢٩٨ الحاشية) بأنها استيفاء في ب .

٦٧ ـ تو ج شارل اولا في اللاتيران في ٢٨ تموز ١٢٦٥ من قبل كردينالين ثم توج مرة أخرى مع زوجته في ٦ كانون الثاني ١٢٦٦ قبل بضعة ايام من معركة بينفنتو .

٦٨ ـ جرت معركة بنيفنتو في يوم الجمعة ٢٦ شباط ١٢٦٦ . وكنتيجة لانتصاره الكاسح بقي شارل سيدا بلا منازع في إيطاليا واقام في نابولي كملك . واعطي اسم بينفنتو في الحولية بصيغة ترجمة مختلفة للاسم كما يلفظ بالفرنسية على هذا دلالة أخرى على ان الحولية اليونانية قد كتبت من قبل رجل فرنسي .

٦٩ ـ إن ل : ٦٢٥٠ . مأخوذ من ب .

٧٠ ـ إن الرواية التالية حول دخول الانجوفيين الشؤون المورية . وعن معركة تاجليا كوز وعن زواج ابن شارل من ابنة غوليوم وعن معاهدة فيتربو . مشوشة تماما وغير دقيقة . ولاسيما في ترتيبها الزمني . فعندما هزم شارل مانفرد في بينفنتو اصبح وريثا ليس فقط لاراضي هوهنستوفن في ايطاليا . بل ايضا لمصالح مانفرد في الشرق . وكانت خطوته الاولى هي المطالبة بجزر الايونيون

التي جعلتها هيلين لبيروس مهرا لها . وبحلول أوائل ١٢٦٧ كانت هذه من ممتلكاته ، ويبدو أن مشروعه كان استعمال هذه لكل اليونان ، ثم الى امبراطورية انجيفينة فخمة في الشرق وطبقا لذلك وفي وقت متأخر من ١٢٦٦ بدأ مفاوضات طويلة مع الامبراطور المخلوع بلدوين الثاني امبراطور القسطنطينية وغوليوم دي فيلهاردين . وفي ١٧ شباط ١٢٦٧ أصدر جواز مرور لغوليوم الذي انطلق الى روما بعد ذلك التاريخ بوقت قصير وعندما وصل وجد البلاط الروماني في اضطراب بشأن المسألة الشرقية ، وكان اسقف نيغروبونت والاسقف المنتخب لليكيمونيا قد وصلا لتوهما الى روما وجاءا بمشكلتهما معهما ، وكان مبعوثون من ميكائيل باليولوغوس يتفاوضون على توحيد الكنيستين . ووصل بلدوين الثاني ليقابل شارل بعد محاولة غير ناجحة لتجنيد الدعم الغربي لاعادة غزو القسطنطينية .

ويعتقد زاكيثوس (ص ٤٦) أن غوليوم لم يشترك في تلك المناقشات وأنه لم يكن موجودا عندما وقعت اتفاقية فيتربو ويبين أنه لو كان هناك لوقعها وما كان ليجعل ليوناردو دي فيرولي يوقعها كممثل عنه ، ومن جانب آخر ، يعجب المرء كيف أنه قد تمكن من المغادرة وسط مثل هذه المفاوضات الهامة التي كانت حيوية في الحقيقة بالنسبة لمستقبل المورة . ويذكر بوشون (أبحاث ومسائل : ١ / ١٩٣ ، وأبحاث جديدة : ١ / ٢٠١) أنه بقي وأنه كان حاضرا عندما وقعت الاتفاقية مع أنه لايفسر لماذا لم يوقع هو بنفسه ، وقد أعطى لونغنون أفضل تفسير للاحداث (إنظر الحاق إمارة المورة بمملكة صقلية في ٢٦٧) مجلة دي سوانت (١٩٤٢) ول . غ ص ٢٣٦) .

وطبقا له وصل غوليوم الى روما في حوالي نهاية شباط ، ووصل شارل في نحو آخر نيسان . وكانت المفاوضات طويلة ومريرة ، وكان شارل مدركا تماما أن كلا من بلدوين وغوليوم كانا في حاجة لمساعدته وكان مصمما على أن يحصل على أكثر ما يمكن في المقابل ، وتحققت النتيجة الاولى في ١٨ أيار ففي ذلك اليوم تم انجاز معاهدة كان بموجبها على فيليب دي كورتناي الابن الاكبر لبلدوين أن يتزوج بياتريس ابنة شارل ، ثم في ٢٤ أيار تم ابرام معاهدة بين شارل وغوليوم وكانت بنودها غريبة ففي مقابل وعد بالمساعدة من شارل يتخلى غوليوم بموافقة من سيده الاكبر بلدوين عن إمارة المورة وتوابعها لشارل على هذه الشروط : أن يتزوج أحد أبناء الملك من إيزابو ابنة غوليوم ، ويبقى غوليوم أميرا طيلة حياته ، وعندما وفاته تنتقل المورة الى يد زوج ايزابو أو إذا توفي قبل غوليوم الى شارل نفسه ، وإذا ولد لغوليوم ابن ـ وكان في نحو الخامسة والخمسين وقت توقيع الاتفاقية ـ فإن للابن أن يرث السطاعية تصل فقط الى خمس ممتلكات أبيه وإذا توفيت ايزابو دون عقب ، فإن آل فيلهاردين يجردون تماما لصالح شارل أو وريثه .

وبعد ذلك بثلاثة أيام في ٢٧ أيار ١٢٦٧ ، تم إبرام معاهدة ثانية بين بلدوين وشارل تخلى بموجبها بلدوين عن كل ممتلكاته تقريبا بما فيها المورة لشارل الذي كان عليه أن يتعهد باعادة الاستيلاء على الامبراطورية اللاتينية خلال ست أو سبع سنوات وأن يمنح بلدوين ثلث كل ما سيسترد ، وكان رباط المعاهدة هو زواج أولادهما .

ولم يكن زاكيثوس وميلر عارفين بالمعاهدة المبرمة في ١٢٦٧ بين شارل وغوليوم ، ولقد تكلما عن معاهدة الزواج ويذكران أنها قد ابرمت مباشرة بعد معركة تاغليا كوز (ز . ص ٤٧ ، م . ص ١٢٩) وتضع الحولية الزواج نفسه قبل المعركة ، وهذا غير دقيق بالمرة .

وبعد توقيع المعاهدات عاد غوليوم الى المورة . ويذكر زاكيثوس أن مبعوثين جاءوا إليه في أوائل ١٢٦٨ من شارل ليتعامل مع الامير وأن يحصل على موافقة الاميرة والبارونات على ما يتم الاتفاق عليه (ص ٤٦ ـ ٤٧) . وقد أخطأ في هذا التاريخ ومع ذلك فإن لونغنون يضع هذه البعثة في حزيران ١٢٧٠ (ل غ ص ٢٤٠) . وفي آذار ١٢٦٨ عاد غوليوم الى ايطاليا ، واشترك في معركة تاغليا كوزو (٢٣ آب ١٢٦٨) وعليه يبدو أنه بقي في خدمة شارل على الاقل حتى آذار ١٢٦٩ . وخلال ما تبقى من ١٢٦٩ انشغل شارل بالثورة في جنوب ايطاليا ، ولكنه تدبر أمر إرسال بعض المساعدة الى المورة وفي حزيران ١٢٧٠ وصلت البعثة التي تحدثنا عنها الى المورة . وضغط المبعوثون أيضا على غوليوم في أمر زواج ايزابو وبموجب شروط المعاهدة المبرمة قبل ذلك بثلاث

سنوات كان لابد من ان ترسل الى البلاط النيابوليتاني على الفور ، ولكن بعد ذلك بثلاث سنوات كانت ماتزال في المورة . وتم الزواج في ٢٨ ايار ١٢٧١ .

٧١ ـ ل : ١ / ٦٢٨٧ ـ ٦٢٨٨ ماخوذة من ب .

٧٢ ـ إنظر اعلاه ص ٢٠٠ حاشية ٨٢ .

٧٣ ـ البيت ٦٣٧٥ من ب .

٧٤ ـ ل ٦٤٢٤ مفقود في هـ . وللمحافظة على الاستمرار استخدمت ٢ / ٦٤٢٤ ـ ٦٤٢٧ من ب .

٧٥ ـ كذا بالاصل (المحول ، والنقاط الرئيسية ، والتفاصيل) .

٧٦ ـ ل : ٦٥١٩ من ب .

٧٧ ـ ل : ١ / ٦٥٢٥ ـ ٦٥٢٨ هم من ب .

٧٨ ـ يبدو ان زاكينيوس قد شوش الترتيب الزمني لهذه الاحداث . وهو يقبل رواية الحولية في ان غاليران دي ايفري قد أرسل ولكنه يدعي انه ارسل كنائب الملك وان هذا جرى في ١٢٦٨ (ص ٤٨ ـ ٤٩) . ويمضي في القول انه قد استبدل بفليب دي لاغونيز في السنة نفسها ، ثم يذكر (ص ٥١) أنه في ١٢٧٢ جاء دروغون دي بلمونت الى المورة كنائب للملك على رأس القوات الخ . ويتبع كالوناروس بالطبع هذا التفسير (ص ٢٦٧) . ولوغنون مع ذلك يمكن الاعتماد عليه أكثر ، وطبقا له فإن أول نائب للملك أرسل الى المورة من قبل شارل كان غاليران دي ايفري نائب أمير صقلية . وجرى التعيين في ٢٦ آب ١٢٧٨ بعد وفاة غوليوم دي فيلها ردين (ص ٢٥٤) وهذا هو فقط التفسير الممكن لانه لم يكن لديه حق في إرسال نائب ملك حتى أصبح اميرا على المورة .

٧٩ ـ هناك صفحة ناقصة في ل . عند هذه النقطة ويقابل السقط ٢ / ٦٥٤٣ ـ ٦٦٠٤ من الحولية . ومع ذلك في ١٢٧١ والسنوات التالية ارسل شارل قائدا عاما الى المورة ، وكان أول هؤلاء دروغون دي بلمونت (انظر اعلاه) الذي جاء مع قوات في ١٢٧١ ، ولكنه لم يكن نائبا للملك ، وقد خلطت الحولية بين دروغون والنائب الاول ، ل : ١ / ٦٩٣٥ ثم تعاملت مع دروغون دي بلمونت وليس مع غاليران دي ايفري . (انظر ايضا م ، ص ١٣٠ حاشية) وهويف ، . تاريخ بلاد الاغريق ، (لايبزغ ، ١٨٦٧ ـ ١٨٦٨) ١ / ٢٩٢) •إن التهجية اليونانية لاسم غاليران دي فري ، ويدعي شمث (ص ٦٢٤) بان هذا برهان على ان الحولية الفرنسية تعتمد على اليونانية أولا لان اسقاط حرف من هذا النوع (أعني بين ايفري وفري) شائع في اليونانية ،ولكنه بالكاد ممكن في الفرنسية •

٨٠ ـ كريفة أو كريسايفا كما يظهر في ب .) ، لم يعد لها وجود . ويحتمل انها كانت تقع جنوب اندرافيدا على نهر بينيوس في مكان ما بين كفاسيلا وبالايوبولس .

٨١ ـ ل : ١ / ٦٥٨٣ و ٦٥٨٥ من ب .

٨٢ ـ من أجل ايزوفا إنظر اعلاه ص ٢٠٣ حاشية ٣ .

٨٣ ـ من اجل الرافد إنظر اعلاه ص ٢٠٣ الحاشية ٢ .

٨٤ ـ فونتيير الثاني دي روزيير .

٨٥ ـ يقترح زاكينيذوس (ص ٥٢) إن ابن الاخ هذا الميكائيل الثامن ، كان اليكسيوس فيلا ـ نتروبينوس ، ووصلت القوات الامبراطورية الى المورة في وقت ما في ١٢٧٠ ولكنهم تعلموا درسهم في معارك اقيم مع الفرنجة ورفضوا القتال . وقوات الفرنجة من جانب آخر لم تكن قوية بدرجة كافية ، للمحافظة على حصار ميسترا . وقد دام هذا الموقف الحر ،حتى شتاء ١٢٧١ عندما وصل دروغون وهذا القسم أحد أكثر الفقرات تشويشا واقلها قابلية للفهم في الحولية ، كما هو مبين في حاشية مطولة من قبل زاكينيفوس (ص ٥٣ حاشية ٤)

٨٦ ـ مورما هنا تعني اليس .

٨٧ ـ كان حامل هذا اللقب أحد ارفع الوزراء الاربع في البيروقراطية البيزنطية ، وتستعمل

الكلمة دائما في الحولية للدلالة على الحاجب ، من أجل ليوناردو إنظر أعلاه ص ٢٠٠ حاشية ٨٢ .

٨٨ - ل : ١ / ٦٧٧٤ - ٦٧٧٩ من ب . وهناك فراغ في ل يقابل ٢ / ٦٧٨٣ - ٦٩٠٤ من الحولية (فقرة ٤٧٥) وكان كونرادين بن كونراد وريث فريدريك الثاني وابن اخ مانفرد . وعندما جاء كونرادين الى ايطاليا كان في نحو السادسة عشرة من عمره ولكنه كان يلقى تأييدا حماسيا من طرف الهيلينيين ، وقد التقت قواته بقوات شارل دي انجو فرنا جاسيا كوزو في ٢٣ اب ١٢٦٨ واسر كونرادين بعد المعركة وقطعت رأسه .

٨٩ - روبرت الثاني كونت أرتوا ، الذي كان حقا ابن اخ لويس التاسع وشارل وليس أخوهما .

٩٠ - لم يستدع غوليوم لانه كان صديقا بقدر ما استدعي لانه كان واجبه الاقطاعي أن ينهب طالما انه قد أصبح تابعا لشارل بحكم شروط معاهدة فيتربو وقد صحبه جيوفري دي بروبير ، أمير كاريتاينا ، وغوتيير دي روزيير أمير اكوفا وجان شودرون ، ابن أخيه والامير العظيم ، وجيوفري دي توروناي ، أمير كالا فريتي .

وكان في أبوليا بحلول اذار ١٢٦٨ بناء على رسالة من كليمنت الرابع الى ممثلة كتبت في هذا الشهر توصي بأن يوكل الى غوليوم القوات المتجمعة في فوغيا (إ . جوردان . رسائل كليمنت الرابع - رقم ١٦٣٦ ص ٤٢٧) .

٩١ - التقى الاثنان في تغليا كوزو وليس في بينفنتو . والوصف الذي يتبسع لدور غوليوم في المعركة شديد التحيز . إن ما تعزوه الحولية اليه ينسب الى ايرارد دي فاليري من قبل دانتي .

٩٢ - كذا بالاصل .

٩٣ - يصف أومان معركة تاغليا كوزو في كتابه تاريخ فن الحرب : ١ / ٤٨٨ - ٤٩٨ وانظر ايضا ملاحظات « . بيلبس ، التكتيك في القرن الثالث عشر » : ١ / ٤٥٤ - ٤٥٦ .

٩٤ - كذا بالاصل .

٩٥ - إن هذا أول ظهور لهذه الكلمة من الحولية للدلالة على أن اسم الالمان ومن الواضح انه مشتق من الكلمة الايطالية « تدشي » .

٩٦ - حاول كونرادين من البداية الاولى للمعركة ان يهرب مع صديقه فريدريك صاحب النمسا . وعرف الاثنان واسرا بعد ذلك بوقت قصير وأحيلا إلى شارل لقاء مكافاة (ل دي ف فقرات ٤٠٦ - ٤٠٩) . وقدمهما شارل للمحاكمة في نابولي وحكم عليهما بالاعدام . .

وقطع رأساهما معا في ٢٩ تشرين أول ١٢٦٨ ، وهو إعدام (بسبب شبابهما ونسبهما) . صدم أوروبا كلها .

٩٧ - إن هذا يشير بلا شك الى فريدريك صاحب النمسا صديق كونراد وحليفه ، وهو ليس دوق كارنثيا المذكور في : ٢ / ٤٠٢١ .

٩٨ - في أعقاب الحملة غير الحاسمة في ١٢٧١ (انظر اعلاه) استمرت الحرب مع اليونانيين بطريقة منقطعة . وتسللت قوات ميكائيل ببطء الى اراضي الفرنجة تستولي عليها إقطاعية بعد اقطاعية وحدثت هذه الواقعة الموصوفة اعلاه في ٢ / ٧١٩٥ في ١٢٧٥ . وبعد فقدان الامير كاريتانيا المهيب أصبحت الاقطاعية بلا حول وسقطت في أيدي اليونانيين في ١٢٧٧ .

٩٩ - أركوفا العظيمة (ل فقرة ٤٩٥) هي مدينة أراكوفا التي تقع تقريبا على الحدود بين اركاديا ولاكونيا على طريق تريبوليس - سبارطة . وكانت تدعى العظمى تمييزا لها عن خمسة أركوفات أخرى على الاقل في المورة في ذلك الوقت .

١ - ومما يذكر انه بعد خيانة جيوفري دي برويير لغوليوم خلال الحرب في يوبوا اعيدت إقطاعته له كمنحة جديدة مقصورة على ورثته من صلبه (انظر اعلاه ٢ / ٣٣٦٣ ، ٥٩٠٤) وعند وفاته وحيث انه لم يكن له ورثة مباشرون آلت الاقطاعية الى امير المورة ، الذي احتفظ بنصفها لنفسه واعطى النصف الاخر للارملة ايزابلا دي لاروش ، ابنة غي الاول امير اثينا . ومن أجل نصيب الارملة الاقطاعي في المورة انظر كتاب توبنغ المؤسسات الاقطاعية ص ١٥٠ - ١٥٢ ، والعبارة الاخيرة في : ١ / ٧٢٣٩ اعلاه « وكان مستحقا لها ، وربما كان الافضل ان تقرأ هكذا « الذي كان لها » .

٢ - في وقت موت جيوفري كان جين الأول دوق اثينا (١٢٦٣ - ١٢٨٠) وخلفه اخوه غوليوم (١٢٨٠ - ١٢٨٧) . وكانت ايزابيل اختا لهما وكانت عمة لغي الثاني (١٢٨٧ - ١٣٠٨) ابن غوليوم .

٣ - تزوجت ايزابيل هوغ دي بريين كونت ليكس في ١٢٧٧ ، وكان مقدرا لابنهما غوتيير دي بريين أن يخلف ابن عمه غي الثاني ويصبح آخر دوق فرنسي لاثينا (١٣٠٨ - ١٣١١) وتوفيت ايزابيل بعد مولده بوقت قصير .

٤ - قبل ميلر (ص ٢٢٨) من جانب التفسير كما هو معطى في الحولية في ٢ / ٧٢٧٠ حول دخول صحبة الكاتالان المعظم في شؤون اليونان الفرنجية . ومن أجل فترة الكاتالانيين انظر ك . م . سيتون ، هيمنة الكاتالانيين على اثينا (١٣١١ - ١٣٨٨) ، واعمال روبسي دي اوس وهي أساسية في هذه المرحلة من تاريخ اليونان ، و س . س . بيرنز صحبة الكاتالانيين والقوى الاوروبية ١٣٠٥ - ١٣١١ - سبكليوم ٢٩ (١٩٥٤) ٧٥١ - ٧٧١ .

٥ - ماهوت دي هينون (١٢٩٣ - ١٣٢٥) ، كانت ابنة يزابودي فيلها ردين من زوجها الثاني فلورنت دي هينوت ، وادعت ماهوت بحقها في الامارة بعد وفاة والدتها ولكنها آلت الى فيليب تارنتو بن شارل الثاني صاحب انجو انظر ادناه ٢ / ٨٥٠٠) وتزوجت ماهوت أولا غي الثاني دي لاروش ثم لويس دي بورغوني ، ثم هوغ دي لاباليس ، واخيرا تزوجت جون غرافينا .

٦ - بعد بداية دخول الكاتالانيين إلى اليونان وجدوا انفسهم في وضع غير مستقر . وهم مطوقون تقريبا بشكل كامل باليونانيين المعادين ، نشقوا طريقهم نحو دوقية اثينا .

وفي (١٣٠٦ - ١٣٠٩) قاموا ببعض المناوشات ، وخاضوا معركة ضارية واحدة على الاقل .

وفي تلك الاثناء اصبح غوتيير اميرا على اثينا وبدأ حملة قوية ضد اليونانيين ، في ١٣١٠ استأجر الكاتالانيين كمرتزقة لفترة ستة أشهر . وبدأوا على الفور في نهب تساليا ، واستولوا على اكثر من ثلاثين قلعة بما فيها دوموكوس . وفي نهاية الشهور الست قرر غوتيير التخلص منهم وطالب بمجرفة بالقلاع وحاول طرد معظمهم . وعندما رفضوا الذهاب قرر استعمال القوة . فاستجار بكل حلفائه ، وجمع جيشا ضخما وفي آذار ١٣١١ تقدم نحو الكاتالانيين ، والتقوا في جوار سكريبو (اوركوميذوس) قرب مكان دخول نهر الكيفيزوس بحيرة كوبايس . وكانت المعركة التي تلت في السباخ كارثة بالنسبة للفرنجة . والتاريخ الدقيق للمعركة كان موضع تساؤل ، وتحدده الحولية (٢ / ٧٢٩٦ - ٧٣٠٠) بالاثنين ١٥ آذار ١٣٠٩ وتحدد ل (فقرة ٥٠٠) السنة على انها ١٣١٠ . وعلى كل فإن الوصية التي كتبها غوتيير قبل المعركة بالضبط مؤرخة في ١٥ آذار ١٣١١ وحيث أن اليوم الخامس عشر كان يوم الاثنين في ١٣١١ فإن هذا يبدو انه التاريخ (إنظر م . ص ٢٢٩ حاشية٣) وتحدد كل الحوليات المكان على أنه هلميروس . ولكن هذا يجب أن يدل بوساطة على مستنقع ملحي قرب كوبايس وليس على مدينة بهذا الاسم في تساليا .

٧ - إنظر اعلاه ٢ / ٤٥٠٢ - ٤٥١٢ .

٨ - يبدو أن هناك شيئا مشوشا حول تاريخ وفاته والمعركة المشروحة التي تلت . في ٢ / ٦٦٢١ اعلاه يذكر انه اشترك في الاحداث التي حدثت في ١٢٧٠ أو بعدها ويضع لونغنون (ص ٢٤٧) تاريخ وفاته (بعد قليل) من وفاة جيوفري دي بروييير ١٢٧٥ . وتوفي غوليوم نفسه

في ١٢٧٨ ، وعليه فإن المحاكمة لابد أن تكون قد جرت في وقت مابين التاريخين ويحتمل في ١٢٧٦ . وهذا يعني أن مرغريت كانت رهينة من ١٢٦٢ إلى ١٢٧٦ ، وهو بالتأكيد وقت طويل ، علاوة على أنه من المعروف أن زوجها الاول غويبرت دي كورس توفي في ١٢٥٨ في معركة كاريدي (انظر اعلاه ١ / ٣٢٧١) ومن المعروف أنها ايضا تزوجت بعد ذلك غوغليلمو الثاني دال كارسيري فيرونا تزارل (حاكم) نيغروبونت الذي قتل في المعركة البحرية في ديمبترياس في ١٢٧٥ . ومن الواضح إذا أنها قد تزوجت غوغليلمو في وقت ما بين ١٢٥٨ و ١٢٦٢ وذهبت كرهينة ولم يتزوجها بعد ذلك . وهناك تعقيدا آخر هو أنه يجب أن نفترض من التاريخ أن غوليوم قد حقق إطلاق سراحها تقريبا مباشرة بعد وفاة عمها ، وهو بالكاد يبدو معقولا بالنظر لحقيقة أنه بعد أن توفرله أربع عشرة سنة ليفعل ذلك ، فانه قد فعله في النهاية فقط عندما كان قادرا على أن يأخذ أملاكها لنفسه ، وباختصار إن كامل الترتيب الزمني يبدو خاطئا وتضع ل دي ف . (فقرة ٢٨٤ ـ ٣٩٦) الحادثة بكاملها بعد هرب امير كارتيانيا وقبل دخول شارل دي انجو في الشؤون الايطالية . ولكن هذا مخالف للاشارة في الحولية إلى أن غوتيير روزيير كان حيا بعد ١٢٧٠ . ويبدو إلزاميا تقريبا افتراض زمن أكثر بين وفاته والجلسة النهائية للمحاكمة ولكن أيا من المصادر والوثائق التي عدت إليها لايلقي مزيدا من الضوء على الامر .

٩ ـ كانت مرغريت باسافا ابنة جين الثاني دي نويلي المارشال الوريث وبارون باسافا الذي تزوج اختا لغوتيير الثاني دي روزيير بارون أكوفا وحيث أن قانون سالك لم يسد ، وحيث أن الاقطاعية كانت قابلة للنقل لكل الورثة . في حال غياب الوريث المباشر ، كانت مرغريت وريثة للاقطاعية كابنة أخ •

١٠ ـ في المادة ٣٦ من مجموعة القوانين الرومية (ريكورا ص ١٨٤) تذكر أن الوريث يجب أن يطالب بالاقطاعية خلال أربعين يوما أو يفقد حق الانتفاع لمدة سنة واحدة ؛ ويجب أن يطالب بالاقطاعية خلال سنة واحدة ويوم أو انه يفقدها ، حتى لو أن بعض العوائق حالت بينه وبين ذلك ولو كانت مشروعة . وإذا كان الوريث خارج الامارة فأمامه سنتان ويومان للمطالبة بالاقطاعية . وقضية باسافا بشكل خاص مذكورة في هذه المادة . وكما بين تونبغ ، (ص ٣٨ ـ الحاشية) أن فترة عامين ويومين ربما تكون قد أضيفت كنتيجة لهذه القضية بالذات . وأيضا فإن العبارة المقتبسة أعلاه تبدو كما لو كانت تشير بشكل خاص لما حدث لمرغريت .

١١ ـ للتفاصيل حول آل دي سانت أومر ، إنظر أعلاه ص ١٦٩ حاشية ٣٥ .

١٢ ـ ل ٧٣٩٧ مأخوذ من ب . فهل أسقط عن عمد من هـ .

١٣ ـ تبحث المادة ٧٥ من مجموعة القوانين الرومانية (ريكورا ص ٢١٢) مذكور أن كل أمرأة تملك اقطاعية عليها أن تقدم على الفور زوجها إلى أميرها كوصي . مادة ١٠٢٩ المصدر نفسه ص ٢٤٢) تذكر أن الزوج الذي يتزوج امرأة تابعة يصبح تابعا . بحكم أرضها .

١٤ ـ قد تعني هذه الفقرة : وفي الحقيقة ، فور الوصول ، جاءت إلى حضرتكم .

١٥ ـ تقوم هذه القضية حصرا على المادة ٧٥ ، ١٢٩ من مجموعة القوانين الرومانية وأيضا المادة ٣٨ على أساس العائق المشروع .

١٦ ـ إنه يفترض أن مرغريت كانت غير قادرة على مواجهة المتطلبات التي تحتاج إلى براعة في متابعة إجراءات المحاكمة وأنها يجب أن تزود بمستشار هو المحامي : المادتان ١٤٥ و ١٤٦ من مجموعة القوانين الرومانية (ريكورا ص ٢٥١ ـ ٢٥٢) تعالج موضوع المحامي .

١٧ ـ المادة ٨ من مجموعة القوانين الرومانية (ريكورا ص ١٦٢ ؛ تونبغ ص ٢٦ ـ ٢٧) تذكر بوضوح بأنه للأمير أن يوفد أحد تابعيه مكانه عندما يكون متورطا في عمل قضائي مع أحد تابعيه . « ويطلب من الأمير أن ينهض ليعطي لوفده العصا وأن يترك المجلس طبقا للعرف » .

١٨ ـ من أجل ليونار دو دي فيرولي انظر أعلاه ص ٢٠٠ حاشية ٨٢ وص ٢٥٠ حاشية ٧٠ .

١٩ ـ مادة ٣ و ١٥ من القوانين الرومانية (ريكورا ص ١٥٥ ـ ١٥٩ ، ١٦٧ ـ ١٦٨) .

٢٠ ـ إنظر أعلاه ص ١٧٥ والحواشي ٤٨ ـ ٥٩ .

٢١ ـ هكذا أشير إلى الأمير شامبرلان كولينيت في ل . (فقره ٥٢٦) ، ولكني كنت غير قادر على التعريف به أكثر ، وهو يسأل عن شيوخ أكوفا ليحضروا لأنهم يعرفون تاريخ البارونية والحدود ، والمحاضر المذكورة هي محاضر المحاكم البارونية وهي اللازمة لبيان الحالة الحقيقية للاقطاعات .

٢٢ ـ هذه التفاصيل واردة ايضا في ل . (فقرات ٥٢٥ ـ ٥٢٧) ومن اجل تحديد مكان الحصص الثمانية إنظر برا غوفيس ص ٢٣٣ ـ ٢٤٣ ، ومن اجل الهدية الجديدة إنظر اعلاه .

٢٣ ـ مرغريت دي فيلها ردين ، (١٢٦٥ ـ ١٣١٥) واختها الاكبر ايزابو وكانتا من بنات غوليوم من انا انجيلا كومينا ، ابنة امبراطور ابيروس ، إنظر اعلاه ، وتزوجت مرغريت في أيلول ١٢٩٤ اسناردي سابران .

وفي ١٢٩٩ تزوجت ريتشارد سيفالونيا ، ومن زوجها الاول انجبت ايزابو التي تزوجت فريناند امير مايوركا ، ويذكر كالوناروس بدون اصرار (ص ٣١٣ ـ حاشية ١ / ٧٧٤٩) إن زوج مرغريت الاول كان برترانردي بو .

٢٤ ـ هنا يشير إلى جين دي خودرون الامير العظيم السابق .جيوفري دي جودرون وأخو السيدة التي ذهبت كرهينة ثانية مع مرغريت باسافا ، وكحقيقة واقعة ، لم يكن نائبا ، ولكن فقط ليشرف على امور الامارة حتى وصل نائب الملك شارل ملك نابولي . وتذكر ل دي ف . (فقرة ٤١٨) أنه كان جيوفري الأب ولكن ل (فقرة ٥٣٣) تذكر انه كان جين الابن .

٢٥ ـ إنظر اعلاه ٢ / ٢٤٦١ و ٢٧٥٥ من اجل كنيسة القديس يعقوب والقبر .

٢٦ ـ هذه كلمة يونانية تعني مقدس او تعني رجلا مقدسا .وهي الكلمة التي تستعمل بشكل عام لتعني قسيسا ويمكن أن تعني كاهنا .

٢٧ ـ كذا بالأصل *

٢٨ ـ تتعارض الاراء في هذه السطور مباشرة مع كل ما نعرفه عن قانون المورة . وهي بشكل واضح تعكس رأي الكاتب اليوناني الذي كتب ب .

٢٩ ـ يجب تذكر أنه بموجب اتفاقية ٢٤ ايار ١٢٦٧ كانت المورة لابد أن تنتقل إلى ايزابو وزوجها ثم إلى وريثها ، وإذا لم يكن لها وريث أو إذا مات زوجها قبل غوليوم ، فإن المورة تذهب إلى شارل دي انجو . وتوفي فيليب دي انجو في الواقع قبل غوليوم في (١٢٧٧) في نابولي .

٣٠ ـ عين هوغ درو دي سللي في اب ١٢٧٩ وكيلا عاما في البانيا ولم يكن مطلقا نائبا في المورة ، وكان نواب الامارة خلال الفترة ١٢٧٨ ـ ١٢٨٩ هم :

غارلان دي ايفري عين في ٢٦ اب ١٢٧٨ .

فيليب دي لاغونيس عين في اب ١٢٨٠ .

نارجوت دي توسي عين في تشرين أول ١٢٨٢ .

غي دي تريمولاي عين في تشرين أول ١٢٨٢ .

غوليوم دي لاروس عين في ١٢٨٥ .

نيكولاس الثاني دي سانت أوم عين في ١٢٨٧ .

وتخطىء كل من ل . (ص ١٧ الحاشية) وز . (ص ٤٩) حول غارلان دي ايفري : حيث تضعان بداية نيابته في ١٢٦٨ . ومن أجل القائمة أعلاه انظر ل غ ص ٢٥٤ ـ ١٢٦٢ وفي أماكن كثيرة .

٣١ ـ يظهر هنا البيان الواضح عن الحقوق التي ادعاها البارونات الموريون في كل الحوليات . (ل . فقرات ٥٤٠ ، ٨٦١ ـ ٨٦٢ . و ل دي ف : فقرة ٥١١ وانظر ايضا أدناه في ٢ / ٨٦٣٩ من الحولية .) إنظر المواد : ، ١ ، ٣ ، ١٣٦ الخ في مجموعة القوانين الرومانية ، وتوبنغ ، المؤسسات الاقطاعية ، ص ١٠٥ ..

ـ ٣٢

٣٣ ـ المقصود بلويس في الحولية لويس فيليب دي انجو الذي توفي قبل غوليوم بعام وليس بعده ، ومن المفارقة أن فيليب قد دفن في الكنيسة نفسها اي كاتدرائية قراني ، حيث جرى زواجه ، قبل ذلك بست سنوات فقط . وتركت أيزابو ارملة شابة في الرابعة عشر من عمرها (م . ص ١٤٧) . أو السادسة عشر في (ل . ص ٢٢١ حاشية ١ / ٢٩٤٧) أو الثامنة عشر (ل . غ ص ٢٤٩) .

٣٤ ـ كان الانجـويين شـارل الاول ملك نابـولي (١٢٦٦ ـ ١٢٨٥) ، امير المورة (١٢٧٨ ـ ١٢٨٥) وابناؤه ، شـارل الثـاني ملك نابـولي (١٢٨٥ ـ ١٣٠٩) ، امير المورة (١٢٨٥ ـ ١٢٨٩) وفيليب (ت : ١٢٧٧) . وكان ابناء شارل الثـاني : روبـرت ملك نابـولي (١٣٠٩ ـ ١٣٤٣) وفيليب الثاني تارنتو أمير المورة (١٣٠٧ ـ ١٣١٣) .

٣٥ ـ من أجل دوقات اثينا ، وهوغ دي بيرين ، إنظر أعلاه ص ٢٧٥ حاشية ، وكان امير آثينا الذي ذهـب إلى فـرنسا في ١٢٦٠ غي الاول دي لاروش (١٢٢٥ ـ ١٢٦٣) (إنظـر أعلاه ٢ / ١٥٥٣ ، ١٥٥٥ ، ٣٣٠٢ ، ٣٣٧٥ ، ٣٣٩٢ و ٣٤٥٥) وترك ابنين أصبحا بدورهما دوقـان لاثينا : جين الاول (١٢٦٣ ـ ١٢٨٠) وغوليوم (١٢٨٠ ـ ١٢٨٧) وتخلط الحـولية بين جين الاول وابنه غوليوم (٢ / ٧٩٦٤) . وكان غوليوم قد تـزوج هيلين ابنة جـون أمير ولاشـيا الذي يخلط بينه في الحولية وبين ثيودروس ، الابن غير الشرعي لميكائيل الثاني امبراطور ارتـا (انظـر ٢ / ٣٤٦٩ ، ٣٥٠٤ ، الحواشي) وكان ابن غوليوم من هيلين هوغي الثاني دي لاروش الذي تزوج ماهوتي ابنة ايزابودي فيلهاردين والامير فلورنت دي هينوت .

٣٦ ـ إنظر أعلاه ص ٢٩١ ـ الحاشية ٣٠ من أجل نواب الملك ، وتسمى ل ١ دي ف . بشـكل صحيح (فقرة ٤٣٠ ـ ٤٢٣) غوليوم نائبا أولا للمورة وبيلا لجيوفري خودرون .

٣٧ ـ ل . (ص ٣٢٤ حاشية ١ / ٧٩٩٧) تكشف مناقشة طويلة لدروغوميس تعرف بـديمترا (فقرة ٥٤٧) على انها مدينة ديما قتر الحالية من ناحية دوربون اقليم تريفيليا .

٣٨ ـ (إنظر أعلاه ص ٢٧٦ حاشية ٣ و ص ٢٧٧ حاشية ٦ (ت : ١٢٨٧)

٣٩ ـ فقد هوغ دي بيريين زوجته الاولى ايزابودي لاروش ، وتزوج أرملة غوليوم دي لاروش ، هيلين ابنة جون لورد والاشيا وتزوجت منهما جين (ل فقرة : ٥٥) فيمـا بعـد ، نيكولاس الاول سانودو دوق ناكسوس .

٤٠ ـ وتظهر هذه المعلومات أيضا في ل دي ف (فقرة ٤٥٢) ولكنها تـروى بعد قصـة زواج ايزابو دي فيلها ردين وفلورنت دي هينوت .

٤١ ـ من أجل زواج غوليوم من آنا ابنة ميكائيل الثاني امبراطور ارتا ، وأخت كيرنافور انظر أعلاه : ٢ / ٣١١١ والحواشي ، والمدن المذكورة التي كانت جزءا من مهرها تقـع في شـبه جـزيرة بيلوس جنوب غرب كالاماتا ، والوحيدة من الثلاثة التي لاتزال باقية هي بسلاتاذون ، وتقـع قـرب مدينة بيلا وهي في الشمال الشرقي قليلا من بيلوس ومانيا توخوري مذكورة في وثائق بندقية متاخرة على أنها مدينة رائعة في الجوار .

٤٢ ـ أنشا نيكولاس الثاني دي سانت أومر من الاموال التي اخذها مـن زواجـه مـن مـاريا صاحبة أنطاكية على الكادميا في طيبة قلعة سانت أومر الشهيرة التي دمرت فيمـا بعـد مـن قبـل الكاتالانيين وعندما تزوج نيكولاس الثاني . لنادي فيلها ردين في ١٢٨٠ حصـل على مهـرها مـن كليرمونت ، وكالاماتا التي بادلها شارل دي انجو ببعض الاقطاعات مـن المورة وصـقلية لليوناردو ودي فيرولي الذي توفي في ١٢٨١ ، وبعد أن أصبح نائبـا للملك في المورة ، تـابع نيكولاس أعمـال التحصين التي بدأها سلفه وبنى قلعة صغيرة في ماينا تـوفوري والقلعـة الشـهيرة في نافـارينو القديمة . وبنى ابن أخيه نيكولاس الثالث أيضا قلعة مازالت بقاياها ظاهرة في مدينة سانتا ميري ، شمال شرق اندا ميدا . وبعد استيطان الكاتالانيين في وسط اليونان ، انتقـل آل سـانت أومـر إلى أراضيهم في البلبونيز .

٤٣ ـ إن الفقرة التي تضم ٢ / ٨١١٠ ـ ٨٤٧٣ في ب . كانت في وقت ما مأخوذة مـن مـكانها الصحيح في الحولية وموضوعة في النهاية بعد ١ / ٩١٣٠ . ويبـدو انه ليس هناك تفسير لهـذا ،

واعادها شمت إلى مكانها الصحيح في هذه الطبعة (انظر س . ص ٥٢٧) .

٤٤ ـ حدثت هذه الواقعة في وقت مبكر من عام ١٢٧٥ ، خلال نيابة غاليران دي ايفري والت كاريثانيا إلى أمير كاريثانيا ، الذي كان يملك اقطاعاته ، كمنحة جديدة ، وقد تولى دون وريث مباشر . انظر ل . غ ص ٢٢٥ وحاشية ٢ ، حيث يقتبس لونغنون من وثيقة دمرت الآن من الارشيف النيوبولتاني .

٤٥ ـ إنظر أعلاه ص ١٢٥ حاشية ٣٩ ، من اجل أراكلوفون . ويناقش دراغومس ناحية هذه القلعة مطولا ويحدد مكانها شمال غرب مدينة بلاتيانا واليفيرا واوليمبيا الحالية .

٤٦ ـ اكزنيوكورس (ساليكور . ل فقرة ٥٦٣) تتوضع قرب مدينة كزينوخورس الحالية قرب اندريتسينا .

٤٧ ـ كانت لومبلوس على الالفيوس قرب مدينة اومبرا الحالية بجوار كرستانيا .

٤٨ ـ فيلوكلانوس ، الأمر اليوناني لأراكلوفون (فيلو كالو ، ل فقرة ٥٦٤) دراغوميس عائلته واتصالاته مع عائلة الفوتساراد ص ٢٦ و ٢٧ إنظر أعلاه من ١٢١ ـ حاشية ٤٠ .

٤٩ ـ كذا بالاصل

٥٠ ـ من أجل بير غاربي إنظر أعلاه ص ٢٢٢ حاشية ٧٤ ومن أجل كالندريتزا إنظر أعلاه ص ١٢٧ والحاشية ٥٦ وايضا درا غوميس ص ٨٨ ، واباما نتيوس ص ٥٨٨ . إن فوستينا هي الميناء الحالي لايجيون شرق باتراس على خليج كورنث . ومخاضة بتير كانت مخاضة عبر الالفيوس ، في مكان ما قرب ايزوفا ٥١ ـ ل ٨٤٥٠ هو من ب .

٥٢ ـ تزوج جيوفري من مرغريت دي كورس وريثة إقطاعة ابيها في ليساريا قرب كلاندرينا وأرملة باين دو ستيناي ، وكانت اقطاعته مورابنا قرب اندرتسينا وقد جلبتها لزوجها الجديد ، ول د . ي . ف . (فقرات ٤٢٨ ـ ٤٤٦) يعطي تفاصيل هذه القصة بصورة مختلفة تماما .

٥٣ ـ تزوج فيلين الثاني دي الوذوب أمير أركاديا (كيباريسيا) هيلين دي بيروبير سيدة مورانيا ، وكان أبناؤهما : ايرارد الثاني الذي كان أمير أركاديا والذي توفي قبل ١٣٨٨ ، وأغنس التي تزوجت ايتين لومور أمير سانت سافير (فقرة ٥٨٥) .

٥٤ ـ إن هذا البيان الأخير والفراغ الذي يليه قد أثار خلافا كبيرا ومناقشات حول التاريخ الذي كتبت فيه الحولية . ويظهر أن الملاحظات المتعلقة بالنسب حول ايرارد الثالث أضيفت عندما نسخت هـ . او ترجمت او على الاقل استمدت من نص أقدم .

ولم تكن أسرته لها مثل هذه الاهمية حتى تسوغ مثل هذه التفاصيل ما لم يكن لدى المؤلف سبب خاص لتأدية هذا التقدير والاجلال له ، ويميل هذا إلى التدليل على أن ايرارد كان حيا عندما كتبت ها . وفي ١ / ٨٤٦٩ هناك دلالة (في رايي طفيفة جدا) أن هذا كان كذلك لمن المعروف أن ايرارد الثالث توفي في ١٣٨٨ ، وهذا يعني ان هـ . يعود تاريخها الى ما قبل هذه السنة بعد ١ / ٨٤٦٩ هناك فراغ من أربعة ابيات ها ملاته بالابيات المتعلقة من ب . وتبين هذه الابيات بشكل تأكيد أن ايرارد كان متوفيا عندما كتبت مما يثبت أن ب . كتبت بعد ١٣٨٨ . انظر ل . ٢٥٢ حاشية ١ / ٨٤٦٨ وادا ما نيتوس ص ٥٢١ ، طبعة لونغنون من ل . المقدمة ص ٥٣ ـ ٥٦ و س . ص ٦٢٤ ، تحت ايرارد الثالث .

٥٥ ـ كان هناك هما جين دي خوبرن ، الامير الكبير ، وجيوفري دي تورناي ابن لوثون الاول دي تورناي ، أمير كريستاينا ، والرواية التي تلي تعطي بصورة مختلفة تماما في ل دي ف . (فقرات ٤٤٧ ـ ٤٤٩) . وطبقا لهذه الراوية عندما تحرر شارل الثاني من أسره ١٢٨٩ ، رغب عند عودته في مكافأة الوصي على عرشه روبرت دي اوتوا من أجل خدماته . ورفض الاخير اي مكافأة شخصيته ، ولكنه قدم نسيبه البعيد بالزواج فلورنت دي هينوت كفارس ليس لديه أرض ولا مال ولكنه يستحق ان يكون فارسا وطلب من شارل أن يعطيه يد ايزابو ، وفي الواقع إن الروايتين ليستا بالضرورة متقاربتين ، وانهما معا قد ترويان كامل القصة .

٥٦ ــ كان فلورنت الأخ الأصغر لجين دي افنس ، كونت هينوت ١٢٨٠ ــ ١٣٠٤ .
ولعدم رضى فلورنت ، بممتلكاته الصغيرة لجأ إلى المحكمة النيوبوليتانية ليطالب بثروته وكانت مكافاته الأولى جعله حاكما عاما لمملكة صقلية .
٥٧ ــ بالأصل استعمال غير واع لاصطلاح بيزنطي في الخطاب .
٥٨ ــ يحتمل أن فلورنت قد توفي في ٢٣ كانون الثاني ١٢٩٧ . وكانت ايزابو في حينه فوق الاربعين واتخذت زوجا ثالثا لها فيليب دي سافوا وكان في الثانية والعشرين في وقتها ، وتم الزواج في اربعاء الرماد ، ١٢ شباط ١٣٠١ في روما . (أربعاء الرماد أول أيام الصوم الكبير) .
٥٩ ــ تذكر ل (فقرة ٥٩٥) رواية أخرى .
٦٠ ــ تتوقف ب عند هذه النقطة بعبارة ساخرة . ولكنهما لم يحققا شيئا لهذه الهدنة كما ساخبركم فيما بعد وستسمعون ، ول ١ ، ٨٧١٠ ــ ٨٨٠٤ مقاربة من ب .
٦١ ــ انظر أعلاه ص ٣٦١ حاشية ٨٥ البيوت الاثني عشرة كانت عائلات قديمة بيزنطية نبيلة . وفيلانثروبينوس على ما يبدو هو الشخص نفسه الذي ثار فيما بعد وأعلن نفسه امبراطورا (م ، ص ١٧٨) . وكان الامبراطور في ذلك الوقت بالطبع أندرونيكوس الثاني .
٦٢ ــ يبدو أن هذه العبارة الفجة تعني « أمان » أو « عهد أمان » .
٦٣ ــ انظر ما تقدم حاشية ٥٣ في المجموعة المقدمة على هذه
٦٤ ــ إن هذا في الواقع كان السبب الرئيس لرغبة أندرونيكوس في الهدنة في المورة وجرت الحملة في ١٢٩١ أو ١٢٩٢ .
٦٥ ــ إن هذه الفقرة غامضة نوعا ما ، والخليج بلا شك هو خليج أرتا على الساحل الغربي من ايتوليا ــ اكارنانيا . وزيرويدون أو زيرويدا ، هي المنطقة حول هذا الخليج وتحمل أرتا بالطبع الاسم نفسه اليوم .
٦٦ ــ كان اسم اوريزوس العظيمة اسما من القرون الوسطى لبحيرة يوانيا (باميوتيس) .
٦٧ ــ من أجل تفاصيل الحرب انظر م ، ص ١٧٨ و ل غ ص ٢٦٨ .
٦٨ ــ بعد الحرب أعيد الابن ولكن الابنة لم تعد . فقد زوجها ريتشارد لابنة جون ، مما أغضب أباها (ل فقرات : ٦١٨ ــ ٦١٩ ، ٦٥٢ ــ ٦٥٥) .
٦٩ ــ هذه العبارة الأخيرة (١ ، ٨٨٧٦) مأخوذة من ب .
٧٠ ــ لاتشير لسيانا إلى أي من المدن الأربعة التي تحمل الآن هذا الاسم ولكني غير قادر على تحديدها أكثر .
٧٢ ــ هذه العبارة (١ ، ٨٩٧٩) هي من ب .
٧٣ ــ تقع بريفيا عند مدخل خليج أرتا .
٧٤ ــ بعد ١ ، ٩٠١٠ تصبح ب ، مجزأة نوعا حتى تتوقف في ١ ، ١٩٣٠ عن الرواية كليا لتسجيل قصة جيوفري دي بريير (٥ ٢ ، ٨١١٠ ــ ٨٤٧٣)
٧٥ ــ تقع فاجنيتا قرب أرتا في جنوب ابيروس (ل : فقرات ٦٤٢ ــ ٦٥٨)
٧٦ ــ فونوتزيا هي في أيامنا فونتا ، وهي ميناء في خليج أرتا ، وقد توقف المؤرخ فجأة هنا ولم يتابع .

اهم المصادر والمراجع

THE ITALIAN CHRONICLE

Istoria della Morea, ed. Charles Hopf. In his *Chroniques gréco-romanes inédites ou peu connues.* Berlin, 1873.

Byzantine Sources

Acropolites, Georges. *Historia*. In *Opera*, vol. I, ed. A. Heisenberg. Leipzig, 1903.

Chronicle of Galaxidi ; *Χρονικὸν ἀνέκδοτον Γαλαξειδίου*, ed. K. N. Sathas. Athens, 1865.

Dorotheos of Monemvasia. *Βιβλίον ἱστορικὸν περιέχον ἐν συνόψει διαφόρους καὶ ἐξόχους ἱστορίας*. Venice, 1814.

Gregoras, Nikephoros. *Byzantina historia*, ed. L. Schopen. 3 vols. Bonn, 1830-45.

Michael Choniates. *Τὰ Σωζόμενα*, ed. S. Lampros. 2 vols. Athens, 1879-80.

Niketas Choniates. *Historia*, ed. I. Bekker. Bonn, 1835.

Pachymeres, George. *De Michaele et Andronico Palaeologis*, ed. I. Bekker. 2 vols. Bonn, 1835.

Sphrantzes, George. *Chronicon minus*, in Migne, *PG*, vol. 156, 1025-80. Bonn, 1838. On the longer version of this work, by the "Pseudo-Sphrantzes," see R. J. Loenertz, "Autour du Chronicon Maius attribué à Georges Phrantzes," *Studi e Testi*, CXXIII (Miscellanea G. Mercati, III), Città del Vaticano (1946), 273-311.

Western Sources

Assises de Jérusalem, ed. Comte de Beugnot. (*Recueil des historiens des croisades: Lois, I-II*). 2 vols. Paris, 1841-43.

Buchon, J. A., ed. *Chroniques étrangères relatives aux expéditions françaises pendant le XIII^e siècle*. Paris, 1875. Contains: 1. Anonyme grec; 2. Ramon Muntaner; 3. Bernard d'Esclot; 4. Anonyme sicilien.

—— *Collection des chroniques nationales françaises*. 47 vols. Paris 1824-29. Vols. I and II are Ducange's *History of the Latin Empire of Constantinople*. Vol. IV is 1st edition of Codex Parisinus.

—— *Recherches historiques sur la principauté française de Morée et ses hautes baronnies*. 2 vols. Paris, 1845. Vol. I is *Livre de la Conqueste*; Vol. II is 1st edition of Codex Havniensis.

Hopf, Charles. *Chroniques gréco-romanes inédites ou peu connues.* Berlin, 1873.

Contains: 1. Sanudo's *Istoria del Regno di Romania*; 2. Italian Chronicle of Morea.

Innocent III. *Epistolae.* In Migne, *PL*, vols. 214-17.

Jordan, E. *Les registres de Clément IV.* Paris, 1893-1945.

Muntaner, Ramon. *Chronik des edlen en Ramon Muntaner*, ed. K. Lanz. Stuttgart, 1844.

Potthast, A., ed. *Regesta pontificum romanorum (1198-1304).* 2 vols. Berlin, 1874-75.

Recoura, G. *Les Assises de Romanie.* Paris, 1930. For translation, see Topping, *Feudal Institutions.*

Robert of Clari, *Conquest of Constantinople*, tr. E. H. McNeal. New York, 1936.

Villani, Giovanni. *Historia universalis...*, ed. A. Muratori. In *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. XIII, cols. 9-1002. Milan, 1728.

Villehardouin, Geoffroy de. *La Conquête de Constantinople avec la continuation de Henri de Valenciennes*, ed. Natalis de Wailly. Paris, 1882.

William, Archbishop of Tyre. *History of Deeds Done beyond the Sea*, trans. E. Babcock and A. C. Krey. New York, 1943.

Secondary Works

Adamantiou, Ad. "*Τὰ Χρονικὰ τοῦ Μορέως*," *Δελτίον τῆς Ἱστορικῆς καὶ Ἐθνολογικῆς Ἑταιρείας τῆς Ἑλλάδος*, VI (1906), 453-675.

Alexopoulos, N. K. *Μοραΐτου Ἱστορία τῆς Τεγέας.* Athéns, 1896.

Amantos, C. "*Τσακονία*-Sclavonia," *Ἀφιέρωμα εἰς Γ. Χατζιδάκιν.* Athens, 1921.

—— "*Σαλωνα-Τσάκωνες*," *Ἑλληνικά*, X (1938), 210-12.

Andrews, Kevin. *Castles of the Morea.* Princeton, 1953.

Bees, Nikos A. "Zur Chronik von Morea," *Archiv für Kulturgeschichte*, XIII (1916), 122-24.

Bon, A. "Forteresses médiévales de la grèce centrale," *Bulletin de correspondance Hellénique*, LXI (1937), 136-208.

—— *Le Péloponnèse byzantine jusqu'en 1204.* Paris, 1951.

Buchon, J. *La Grèce continentale et la Morée.* Paris, 1843.

—— *Histoire des conquêtes et de l'établissement des français dans les états de l'ancienne Grèce ...* Paris, 1846.

—— *Nouvelles recherches historiques sur la principauté française de Morée et ses hautes baronnies....* 2 vols. Paris, 1843-45.

—— *Recherches et matériaux pour servir à une histoire de la domination française aux 13e, 14e, et 15e siècles dans les provinces démembrées de l'Empire grec à la suite de la quatrième croisade.* 2 vols. Paris, 1840.

Burns, R. I. "The Catalan Company and the European Powers, 1305-1311," *Speculum*, XXIX (1954), 751-71.

Byrne, Eugene H. *Genoese Shipping in the Twelfth and Thirteenth Centuries.* Cambridge, 1930.

Cambridge Medieval History, ed. J. R. Tanner, C. W. Previté-Orton, and Z. N. Brooke. Vol. IV: Eastern Roman Empire, 217-1453. Cambridge, 1936. Chapter XV, "Greece and the Aegean under Frank and Venetian Domination, 1204-1571" (pp. 432-77), was written by William Miller. See also extensive bibliography, pp. 852-66. (A completely new edition of this volume is now in press.)

Cerone, Francesco. "La sovranità napoletana sulla Morea e sulle isole vicine." *Archivio storico per le province Napoletano*, XLI (Naples, 1916), 5-64, 193-266; XLII (1917), 5-67.

Chapman, Conrad. *Michel Paléologue, restaurateur de l'empire byzantin* (1261-1282). Paris, 1926.

Delpech, H. *La Tactique du XIIIe siècle.* 2 vols. Montpellier, 1855.

Dendias, M. "Ἑλένη Ἀγγελίνα Δούκαινα Βασίλισσα Σικελίας καὶ Νεαπόλεως." *Ἠπειρωτικὰ Χρονικά*, I (1926), 219-94.

—— "Le roi Manfred de Sicile et la bataille de Pélagonie," *Mélanges Charles Diehl*, I, 55-60. Paris, 1930.

Dölger, F. "Chronologisches und Prosopographisches zur byzantinischen Geschichte des 13. Jahrhunderts," *Byzantinische Zeitschrift*, XXVII (1927), 291 ff.

—— "Die neuentdeckte Quelle zur Helenaszene in Goethes Faust. Die Prophyläen," *Beilage zur Münchner Zeitung*, XXVIII (1931), 289-90.

Dragoumis, S. N. "Χρονικοῦ τοῦ Μορέως λέξεις," *Ἀθηνᾶ*, XXIII, 73-87; XXIII, 363-71; XXVI, 26-32, 223-28.

—— *Χρονικῶν τοῦ Μορέως : Τοπονυμικά, Τοπογραφικά, Ἱστορικά.* Athens, 1921.

Gay, J. *L'Italie méridionale et l'empire byzantin* (867-1071). Paris, 1904.

Geanakoplos, Deno J. *Emperor Michael Palaeologus and the West.* Cambridge, 1959.

Gregorovius, F. A. *Geschichte der Stadt Athen im Mittelalter.* 2 vols.

Stuttgart, 1889. *Ἱστορία τῆς Πόλεως Ἀθηνῶν* is a modern Greek trans. and enlarged ed. by S. Lampros in 3 vols., the 3d consisting of new documents. Athens, 1904-6.

Guilland, R. "Contributions à l'histoire administrative de l'empire byzantin: Le dragonaire et le grand dragonaire de la ville," *Byzantinische Zeitschrift*, XLIII (1950), 340-65.

—— "Études de titulature et de Prosopographie Byzantines, Les Chefs de la Marine: Drongaire de la Flotte, Grand Drongaire de la Flotte, Duc de la Flotte, Megaduc," *Byzantinische Zeitschrift*, XLIV (1951), 212-40.

Guldencrone, D. *L'Achaie féodale*. Paris, 1886.

Hatzidakis, G. *Einleitung in die neugriechische Grammatik*. Leipzig, 1892.

—— *Γλωσσικαὶ Μελέται*. 3 vols. Cairo, 1904-06.

—— *Μεσαιωνικὰ καὶ Νέα Ἑλληνικά*. 2 vols. Athens, 1905-07.

—— "*Περὶ τοῦ ἐτύμου τῆς λέξεως Μεσαρέας*," *Ἀθηνᾶ*, VI, 3-64.

—— "*The Chronicle of Morea* by John Schmitt, 1904," *Ἀθηνᾶ*, XVI, 253-54.

Hopf, Charles. *Geschichte Griechenlands vom Beginn des Mittelalters bis auf unsere Zeit*. 2 vols. Leipzig, 1867-68. Published as vols. 85-86 of Ersch and Gruber, *Allgemeine Enzyklopädie der Wissenschaften und Kunste*.

Iliopoulos, K. *Τὸ Τοπωνυμικὸν τῆς Ἠλείας*. Athens, 1948.

Iorga, N. *Histoire de la vie byzantine*, 3 vols. Bucharest, 1934.

—— *Notes et extraits pour servir à l'histoire des croisades au XV^e siècle*. Bucharest, 1915.

Jal, A. *Archéologie navale*. Paris, 1840.

Kalomenopoulos, S. N. *Ἡ Στρατιωτικὴ Ὀργάνωσις τῆς Ἑλληνικῆς Αὐτοκρατορίας τοῦ Βυζαντίου*. Athens, 1937.

Kalonaros, P. *Ἐθνογραφικὰ Μάνης*. Athens, 1935.

—— *Λουλούδια τῆς Μονεμβασιᾶς καὶ τοῦ Ταϋγέτου* (*Εἰκόνες ἀπὸ τὴν Πατρίδα μας*). Athens, 1936.

Kandeloros, T. *Ἱστορία τῆς Γορτυνίας*. Athens, 1931.

Kolias, C. *Ἱστορικὴ Γεωγραφία τοῦ Ἑλληνικοῦ Χώρου*. Athens, 1948.

—— "*Σιδηροκάστρο*," *Ἐπετηρὶς Ἑταιρείας Βυζαντινῶν Σπουδῶν*, X, 72-82.

Kontoglos, Ph. *Ταξείδια*. Athens, 1938.

Koukoules, Ph. *Βυζαντινῶν βίος καὶ Πολιτισμός*. 5 vols. in 8. Athens, 1948-52.

Krumbacher, K. *Geschichte der byzantinischen Litteratur*. Munich, 1897.

Lampros, Sp. "*Ἔκφρασις τῶν ξυλοκονταρίων τοῦ κραταίου ἡμῶν αὐθέντου καὶ βασιλέως*," *Νέος Ἑλληνομνήμον*, V, 3-18.

—— *Ἱστορία τῆς Ἑλλάδος*. 6 vols. Athens, 1886-1908. Volume VI deals with Frankish period.

—— "John Schmitt, *The Chronicle of Morea*," *Νέος Ἑλλήνομνῆμων*, I, 245-50.

Lane, F. C. *Venetian Ships and Shipbuilders of the Renaissance*. Baltimore, 1934.

Laurent, V., "La croisade et la question d'orient sous le pontificat de Grégoire X," *Revue historique du sud-est européen*, XXII (1945), 106-37.

—— "Grégoire X et le projet d'une ligue antiturque," *Échos d'Orient*, XXXVII (1938) 257-73.

Lehman-Haupt, C. "*Τζακωνες*," *Εἰς μνήμην Σπυρίδωνος Λάμπρου* (Athens, 1935), pp. 353 ff.

Lekos, M. *Περὶ Τσακώνων καὶ τῆς Τσακωνικῆς Διαλέκτου*. Athens, 1920.

Longnon, Jean. *L'Empire latin de Constantinople et la principauté de Morée*. Paris, 1949.

—— *Les Français d'Outre-mer au moyen âge. Essai sur l'expansion française dans le bassin de la Méditerranée*. Paris, 1929.

—— "Problèmes de l'histoire de la principauté de Morée," *Journal des Savants*, (1946) 77-93; 147-61.

—— "Le rattachement de la principauté de Morée au royaume de Sicile en 1267," *Journal des Savants* (1942) 134 ff.

—— *Recherches sur la vie de Geoffroy de Villehardouin suivies du catalogue des actes des Villehardouin*. Paris, 1939.

Loray, Terrier de. "Un parlement de dames au XIIIe siècle," *Académie des Sciences, Belles-Lettres et Arts de Besançon*, 1880 (Besançon, 1881), pp. 205-11.

D. Loukopoulos. *Ποιὰ Παιγνίδια Παίζουν τὰ Ἑλληνόπουλα* . . . Athens, 1926.

Meliarakes, A. "*Μεσαρέα*," *Ἱστορικαὶ ἔρευναι περὶ τοῦ Ὀνόματος τούτου ὡς Γεωγραφικοῦ*. Athens, 1893.

—— *Οἰκογένεια Μαμωνᾶ*. Athens, 1902.

—— *Ἱστορία τοῦ Βασιλείου τῆς Νικαίας καὶ τοῦ Δεσποτάτου τῆς Ἠπείρου* (1204-61). Athens, 1898.

Meyer, Ernst. *Peloponnesische Wanderungen; Reisen und Forschungen zur antiken und mittelalterlichen Topographie von Arkadien und Achaia*. Zurich and Leipzig, 1939.

Miller, William. *Essays on the Latin Orient*. Cambridge, 1921.

—— *The Latins in the Levant: A History of Frankish Greece* (1204-1566). London, 1908.

Millet, Gabriel. *Le monastère de Daphni.* Paris, 1899.

Moravcsik, G. "Zur Quellenfrage der Helenaepisode in Goethes Faust." *Byzantinische-neugriechische Jahrbücher*, VIII (1931), 41-56.

Nicol, D. "The Date of the Battle of Pelagonia," *Byzantinische Zeitschrift*, XLIX (1956), 68-71.

—— *The Despotate of Epiros.* Oxford, 1957.

Nouchakes, I. E. *Ἑλληνικὴ Χωρογραφία.* Athens, 1901.

Oman, C. *A History of the Art of War in the Middle Ages.* 2 vols. New York, 1923.

Orlandos, A. K. *Ἀρχεῖον τῶν Βυζαντινῶν Μνημείων τῆς Ἑλλάδος.* 4 vols. Athens, 1936-38.

Ostrogorsky, G. "Agrarian Conditions in the Byzantine Empire in the Middle Ages," *Cambridge Economic History*, I (1941) 194-223.

—— "Le système de la Pronoia à Byzance et en Serbie médiévale," *Comité français des études byzantines. Acts du VI^e Congrès International. École des Hautes Études*, Sorbonne, I (1950), 181 ff.

—— *Pour l'histoire de la féodalité byzantine*, tr. H. Grégoire. Brussels, 1954.

Paparregopoulos, K. *Ἱστορία τοῦ Ἑλληνικοῦ Ἔθνους.* New ed. in 8 vols. Athens, 1932.

Petit, E. *Histoire des ducs de Bourgogne de la race Capétienne.* 9 vols. Dijon, 1885-1905.

Phourikis, P. A. "*Παρατηρήσεις εἰς τὰ τοπωνύμια τῶν Χρονικῶν τοῦ Μορέως . . .,*" *Ἀθηνᾶ*, XL (1928), 26-59.

Polites, N. G. *Λαογραφικὰ Σύμμεικτα.* Athens, 1920.

Rodd, Ren. *The Princes of Achaia and the Chronicles of Morea: a Study of Greece in the Middle Ages.* 2 vols. London, 1907.

Romanos, I. A. *Περὶ τοῦ Δεσποτάτου τῆς Ἠπείρου.* Corfu, 1895.

Sarres, I. "*Τὰ τοπονυμικὰ τῆς Ἀττικῆς,*" *Ἀθηνᾶ*, XL (1929), 129.

Schlumberger, G. *L'expédition des "Almugavares,"....* Paris, 1902.

—— *Récits de Byzance et des Croisades.* Paris, 1916.

Schmitt, John. "La 'Théséide' de Boccace et la 'Théséide' Grecque," *Études de Philologie Néo-Grecque* (*Bibliothèque de l'École des Hautes Études*, XCII). Paris, 1892.

Setton, K. M. *Catalan Domination of Athens*, 1311-1388. Cambridge, Mass., 1948.

Soyter, G. *Byzantinische Dichtung.* Heidelberg, 1929.

—— *Byzantinische Geschichtschreiber und Chronisten.* Heidelberg, 1929. See especially pp. 18-28, 51.

Stiernon, L. "Les origines du despotat d'Épire," *Revue des Études Byzantines*, XVII (1959), 90-126.

Tarsoulis, A. *Κάστρα καὶ Πολιτεῖες τοῦ Μωριᾶ.* Athens, 1934.

Topping, P. *Feudal Institutions.* Philadelphia, 1949. Includes a translation of Recoura's *Les Assises de Romanie.*

Trauquair, R. "Medieval Fortresses," *The Annual of the British School of Athens*, XII (1905-6), 258-76; XIII (1906-7), 268-81.

Usseglio, L. *I Marchesi di Monferrato in Italia ed in Oriente durante i Secoli XII e XIII.* Turin, 1926.

Wolff, R. L. "The Organization of the Latin Patriarchate of Constantinople, 1204-1261. Social and Administrative Consequences of the Latin Conquest," *Traditio*, VI (1948), 33-60.

—— "Politics in the Latin Patriarchate of Constantinople, 1204-1261," *Dumbarton Oaks Papers*, No. 8 (1954), pp. 223-303.

Xanthoudides, S. "*Διορθώσεις εἰς Χρονικὸν Μορέως . . .*," *'Αθηνᾶ*, XXXII, 205 ff.

Zakythinos, D. *Le Chrysobulle d'Alexis III Comnène.* Paris, 1932.

—— *Le Despotat grec de Morée.* 2 vols. Paris, 1932-53.

—— *Οἱ Σλάβοι ἐν 'Ελλάδι.* Athens, 1945.

Zerlentis, P. *Μηλιγγοὶ καὶ 'Εζερῖται, Σλάβοι ἐν Πελοποννήσῳ.* Hermoupolis, 1922.

—— *Τάξις ἱεραρχικὴ τῶν ἐν Πελοποννήσῳ ἁγίων τῶν θέων 'Εκκλησιῶν.* Hermoupolis, 1922.

المحتوى

٥ . . توطئة

٦ ـ الاستيلاء على القسطنطينية ـ فلهاردين

٩ ـ مقدمة

٣٣ ـ الفصل الأول ـ الاحتشاد للحملة الصليبية الرابعة

٣٩ ـ الفصل الثاني ـ معاهدة مع البنادقة

٤٢ ـ الفصل الثالث ـ الجيش يبحث عن قائد

٤٧ ـ الفصل الرابع ـ تأخيرات وخيبة امل

٥٩ ـ الفصل الخامس ـ حصار زارا

٦١ ـ الفصل السادس ـ نزاع في الجيش

٧٠ ـ الفصل السابع ـ رحلة الى سكوتاري

٧٩ ـ الفصل الثامن ـ الاستعداد للهجوم

٨١ ـ الفصل التاسع ـ الحصار الأول للقسطنطينية

٩٧ ـ الفصل العاشر ـ الحصار الاول للاسطنطينية

٩٧ ـ الفصل العاشر ـ ميثاق الامبراطور

١٠٠ ـ الفصل الحادي عشر ـ الدعوة الى السلاح

١٠٧ ـ الفصل الثاني عشر ـ الحصار الثاني للقسطنطينية

١١٥ ـ الفصل الثالث عشر ـ انتخاب الامبراطور

١٧٠ ـ الفصل الرابع عشر ـ حالة علاقات متوترة

١٣٢ ـ الفصل الخامس عشر ـ حرب ضد الروم

١٤٥ ـ الفصل السادس عشر ـ حصار ادرنة

١٥٥ ـ الفصل السابع عشر ـ قيام وصاية على العرش

١٦١ ـ الفصل الثامن عشر ـ الملك جوهنا نيقزا يضرب الامبراطورية

١٧٣ ـ الفصل التاسع عشر ـ هجوم وهجوم مضاد

١٨٢ ـ الفصل العشرون ـ الحرب على جبهتين

١٩٢ ـ الفصل الحادي والعشرون ـ رحلات خارج الامبراطورية

١٩٨ ـ سقوط القسطنطينية لروبرت دي كلاري

٢٠٠ ـ سقوط القسطنطينية

٢٠٤ ـ الاعداد للحملة الرابعة

٢٠٦ ـ المفاوضات مع البندقية

٢٠٨ ـ الاحتشاد في البندقية

٢١١ ـ اقلاع الحملة نحو زارا

٢١٥ ـ الامبراطور مانويل والفرنجة ونتائج ذلك

٢٢٩ ـ ماركيز مونتفرات والقسطنطينية وذهابه الى صور

٢٢٣ ـ صلاح الدين يحاصر صور

٢٢٥ ـ الملك غي يحاصر عكا

٢٣٦ ـ الحملة الرابعة تقصد القسطنطينية

٢٤٤ ـ الاستيلاء الاول على القسطنطينية

٢٤٩ ـ سلطان قونية يتصل بالفرنجة
٢٥١ ـ العلاقات مع الامبراطور الجديد
٢٥٤ ـ اغتيال الامبراطور الكسيوس
٢٥٩ ـ العلاقات مع الكومان
٢٦١ ـ الحصار الثاني للاسطنطينية ووصف الغنائم
٢٨٤ ـ اختيار امبراطور فرنجي للاسطنطينية
٢٩٠ ـ الامبراطور الجديد والماركيز
٢٩٧ ـ الحرب ضد الكومان وفقدان الامبراطور
٣٠٢ ـ تاريخ المورة
٣٠٥ ـ رواميز
٣٠٩ ـ مدخل ـ مختصر تاريخي
٣٢٩ ـ مخطوطات ومطبوعات تواريخ المورة
٣٤٥ ـ اصل الحولية
٣٥٧ ـ المؤلف وعمله
٣٦٤ ـ القيمة التاريخية
٣٦٥ ـ خلاصة
٣٦٧ ـ الترجمة الراهنة
٣٧٢ ـ تاريخ المورة ـ مجمرع هافنسيس
٣٧٥ ـ بطرس الناسك والحملة الاولى
٣٨٧ ـ الحملة الرابعة
٣٨٧ ـ حصار القسطنطينية والاستيلاء عليها
٣٩٩ ـ الحرب ضد الكومان
٤٠٦ ـ كيف ربح الفرنجة ارض المورة
٤١٧ ـ صراعات في المورة وحولها
٤٢٩ ـ مشاكل الحكم والاقطاعات
٤٤٠ ـ غليوم يلي المورة
٤٨٢ ـ حروب ضد جيوش بيزنطة
٤٩٧ ـ مرتزقة اتراك في المورة
٥١١ ـ تتويج شارل ملكا على صقلية
٥١٥ ـ اوربا والمورة
٥٧١ ـ اوضاع المورة الفرنجية النهائية
٥٨٧ ـ حواشي تاريخ المورة
٦٣٤ ـ اهم المصادر والحواشي